أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمى

تفسير البيضاوي

تأليف
القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه
محمد صبحي حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش

المجلد الأول

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عليه وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ

مُحَمَّد صُبْحِي بن حَسَن حَلَّاق و الدكتور مَحْمُود أَحْمَد الأَطْرَش

المجلّد الأول

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينهُ ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل، فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فإن أجل العلوم وأشرفها هو ما كان لخدمة كتاب الله تبارك وتعالى، وقد بذل العلماء كثيراً من الجهود لخدمة كتاب الله تعالى وبيان مراميه وتوضيح معانيه، وكان من أجل هذه الكتب تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وقد عكف عليه العلماء وطلاب العلم بالدرس والشرح.

لذلك كانت خدمة هذا الكتاب من أجل الأعمال التي نسأل الله تعالى أن يجعله في صحائف أعمالنا، وخاصة أن عبارة البيضاوي تدق أحياناً وتخفى إلا على ذي بصيرة ثاقبة، وضبط عبارته قد يزيل كثيراً من الإشكال والغموض.

أولاً ـ التعريف بمؤلف هذا التفسير:

١ ـ اسمه ونسبه:

هو الإمام عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، أبو سعيد، البيضاوي، الشيرازي، الفارسي الشافعي القاضي، المفتي، العالم بالفقه، وأصول الفقه، والتفسير، وأصول الدين والمنطق، والعربية، والنحو، والتاريخ والهيئة.

والبيضاوي: نسبة إلى البيضاء من بلاد فارس، وهي مدينة كبيرة من أعمال شيراز، وأكبر مدينة بإصطخر، وينتسب إليها جماعة من العلماء، وهذه النسبة للبيضاء أشهر النسب، وبها

يعرف[1].

والشيرازي: نسبة إلى شيراز، وهي بلدة عظيمة مشهورة في وسط بلاد فارس ونسب البيضاوي إليها لأن البيضاء تابعة لها، ولأنه تولى قضاء شيراز مدة.

والفارسي: نسبة إلى بلاد فارس التي ولد فيها، ونشأ في ربوعها، وتربى في أحضانها، وتعلم لغتها، كتب فيها، وألف بعض كتبه باللغة الفارسية، ويعتبر البيضاوي من أعلام الأدب الفارسي.

والشافعي: نسبة إلى مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه الإسلامي، وينسب البيضاوي إليه لأنه تفقه على هذا المذهب، وتولى القضاء للحكم بأحكامه، وصنف بعض الكتب الفقهية في المذهب الشافعي، وقدم فيه خدمات جُلّى.

ويعرف البيضاوي بالقاضي، وقاضي القضاة، لأنه تولى هذين المنصبين فترة من الزمن.

٢ ـ ولادته ونشأته:

ولد البيضاوي في مدينة «البيضاء» باتفاق، ولم يذكر مرجع واحد تاريخ ولادته، كما أغفلت جميع المصادر التي اطلعت عليها سنَّهُ عند الوفاة، مما يستحيل علينا تقدير ولادته، لكن يفهم من كتب التراجم أن البيضاوي رحمه الله كان من المعمَّرين، وعاش طويلاً.

وأما نشأة البيضاوي، فيظهر أنه نشأ في البيضاء، وتربى فيها على يد والده، وبدأ التعلم وتحصيل الفقه وغيره في البيضاء، وقد اقتصرت كتب التراجم على أنه تفقه بوالده، وهو ما صرح به القاضي البيضاوي نفسه.

قال اليافعي في «مرآة الجنان»[2]: «تفقه بأبيه، وتفقه والده بالعلامة مجير الدين محمود بن المبارك البغدادي، الشافعي، وتفقه مجير الدين بالإمام زين الدين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمهم الله تعالى» هـ.

ويحتمل أن البيضاوي رحل إلى شيراز وتبريز وسائر بلاد فارس يطلب العلم، ويكتسب المعارف، ودليلنا على ذلك نتاج البيضاوي ومعارفه وثقافته واختلاف العلوم التي صنف فيها. . وكذلك انتقال والده إلى شيراز وكان مقرَّباً للأتابك أبي بكر بن سعد بن زنكي الذي حكم فارس سنة (٦٢٣ ـ ٦٥٨ هـ) وولاه قاضي القضاة[3] فاستقر في شيراز والغالب أن يكون الوالد قد صحب ابنه معه إلى شيراز.

كما ثبت في ترجمة البيضاوي أنه رحل إلى تبريز والتقى بالشيخ (محمد الكتحتائي) ويظهر أن هذه الرحلة كانت بعد أن تولى القضاء بشيراز، كما ثبت أن البيضاوي استقر بعد ذلك في تبريز ومات فيها.

---

(١) انظر «الأنساب» للسمعاني (١/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) ومراصد الاطلاع (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).

(٢) (٤/ ٢٢٠) الطبعة الأولى ـ حيدر آباد الدكن ـ سنة (١٣٣٩ هـ).

(٣) «دائرة المعارف الإسلامية» (٩/ ٣٢) ط: الشعب.

٣ ـ شيوخه وتلامذته:

أ) شيوخه:

قضى البيضاوي معظم حياته في شيراز المشهورة بالعلم، وأخذ العلوم المختلفة عن كبار العلماء فيها.

لكن كتب التراجم والتاريخ لم تحفظ لنا أسماء العلماء والشيوخ الذين أخذ عنهم، وسكتت عن رخلاته في طلب العلم. ولم يصل إلينا إلا ما صرح به البيضاوي نفسه من تفقهه على والده عمر بن محمد بن علي البيضاوي الذي كان قاضي الممالك عند الدولة السلفرية في بلاد فارس[١].

وأشارت بعض المراجع إلى أن القاضي البيضاوي كان متأثراً بالشيخ (محمد بن محمد الكتحتائي) الذي ساعده في تولي القضاء.

ب) تلامذته:

لم يكن حظ البيضاوي في معرفة تلامذته أحسن حالاً من معرفة شيوخه، فلم يذكر المؤرخون أحداً من تلامذة البيضاوي إلا ما جاء في ثنايا الكتب وأسماء المؤلفين. وهم:

١ ـ أحمد بن الحسن، الشيخ فخر الدين، الإمام الجارَ بَرْدِيُّ، العالم الفاضل، الدَّيِّن الوقور الذي كان مواظباً على العلم وإفادة الطلبة[٢].

٢ ـ الشيخ زين الدين الهنكي، تلميذ البيضاوي، الذي صار شيخاً لعضد الدين الإيجي، صاحب التصانيف المشهورة، وقال طاش كبرى زاده: «الهَنْكى»[٣].

٣ ـ الشيخ كمال الدين المراغي، وهو عمر بن إلياس بن يونس، أبو القاسم، الصوفي الذي ولد بأذربيجان سنة (٦٤٣ هـ)[٤].

٤ ـ الشيخ عبد الرحمن الأصبهاني[٥].

٤ ـ أقوال العلماء فيه:

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»[٦]: «هو القاضي الإمام العلاّمة، ناصر الدين، عبد الله بن عمر الشيرازي، قاضيها وعالمها وعالم أذربيجان وتلك النواحي»هـ.

وقال ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[٧]: «كان إماماً مبرِّزاً، نظَّاراً، صالحاً متعبداً، زاهداً» هـ.

---

(١) انظر «مرآة الجنان» (٤/ ٢٢٠) و«التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان» (ص١١٦) ط: شركة التجارة ـ بغداد سنة ١٣٧٦ هـ.

(٢) انظر ترجمته في «البدر الطالع» (١/ ٤٧) و«الدرر الكامنة» (١/ ١٣٢).

(٣) انظر ترجمته في «البدر الطالع» (١/ ٣٢٦) و«الدرر الكامنة» (٢/ ٤٢٩).

(٤) انظر «الدرر الكامنة» (٣/ ٢٣٢).

(٥) انظر «الغاية القصوى» ـ المقدمة (١/ ٦٧) ـ والمراجع المشار إليها في الهامش ـ ط: دار النصر بمصر سنة ١٩٨٢ م.

(٦) (١٣/ ٣٠٩) تصوير عن الطبعة الأولى عام ١٩٦٦ م.

(٧) (٨/ ١٥٧).

وقال الإسنوي في «طبقات الشافعية»[1]: «كان المذكور عالماً بعلوم كثيرة، صالحاً خيِّراً» هـ.

وقال اليافعي في «مرآة الجنان»[2]: «الإمام، أعلم العلماء الأعلام، ذو التصانيف المفيدة المحققه والمباحث الحميدة المدقّقه» هـ.

٥ ـ مؤلفاته[3].

١ ـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ويسمى «تفسير البيضاوي» وهو كتابنا هذا.

٢ ـ «تحفة الأبرار» في شرح مصابيح السنة للبغوي في الحديث الشريف.

٣ ـ «الغاية القصوى في دراية الفتوى» في فروع الفقه الشافعي.

٤ ـ «شرح التنبيه للشيرازي» في الفقه الشافعي. ذكره ابن كثير.

٥ ـ «منهاج الوصول إلى علم الأصول».

٦ ـ «شرح منهاج الوصول».

٧ ـ «شرح المنتخب» في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي.

٨ ـ «شرح المحصول» في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي. أيضاً ذكره ابن كثير.

٩ ـ «مرصاد الأفهام إلى مبادىء الأحكام» وهو شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه.

١٠ ـ «طوالع الأنوار في أصول الدين».

١١ ـ «مصباح الأرواح» اختصر فيه طوالع الأنوار في أصول الدين.

١٢ ـ «الإيضاح في أصول الدين» وهو شرح على كتاب المصباح.

١٣ ـ «شرح الكافية» في النحو لابن الحاجب.

١٤ ـ «لب الألباب في علم الإعراب» اختصر فيه الكافية لابن الحاجب.

١٥ ـ «شرح المطالع» وهو مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين الأرموي.

١٦ ـ «متن في علم الهيئة» وهو مختصر ذكره الخفاجي.

١٧ ـ «نظام التواريخ» باللغة الفارسية، من ابتداء الخلق حتى سنة (٦٧٤ هـ).

١٨ ـ «التهذيب والأخلاق» في التصوف، ذكره محب الدين الخطيب في مقدمة نهاية السول.

١٩ ـ «رسالة في موضوعات العلم وتعارفها» ذكرها البغدادي والزركلي.

٢٠ ـ «شرح الفصول» لنصير الدين الطوسي، ذكره البغدادي والخوانساري.

٢١ ـ «منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى» ذكره البغدادي.

---

(١) (١/ ٢٨٣) مطبعة الإرشاد ـ بغداد سنة ١٣٩٠ هـ. تحقيق الجبوري.

(٢) (٤/ ٢٢٠).

(٣) انظر «بغية الوعاة» (٢/ ٥٠ ـ ٥١). ومعجم المؤلفين (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ رقم ٨١٣٩) وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٢٤٨ رقم ٢٣٠). والوافي بالوفيات للصفدي (١٧/ ٣٧٩). وكتاب «القاضي البيضاوي» للدكتور محمد الزحيلي. وكتاب «القاضي ناصر الدين البيضاوي وأثره في أصول الفقه» للدكتور: جلال الدين عبد الرحمن. وشذرات الذهب (٥/ ٣٩٢) ومعجم المفسرين لنويهض (١/ ٣١٨) وطبقات المفسرين للسبكي (٨/ ١٥٧) وطبقات الشافعية للقاضي ابن شهبة (٢/ ١٧٢) والأعلام للزركلي (٤/ ١١٠) والتفسير والمفسرون (١/ ٢٨٢).

٦ ـ وفاته:

مات البيضاوي رحمه الله سنة خمس وثمانين وستمائة بتبريز، كذا ذكره الصفدي وقال السبكي: سنة إحدى وتسعين. والله أعلم.

ثانياً ـ التعريف بتفسير العلامة البيضاوي وطريقته في تأليفه:

تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.

وقد اختصر البيضاوي تفسيره من الكشاف للزمخشري، ولكنه ترك ما فيه من اعتزالات، وإن كان أحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف، ومن ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ وجدناه يقول: «إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع».. ثم يفسر المس بالجنون ويقول: «وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجني يمس الرجل فيخلط عقله»[١].

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجز عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث فقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغتر بها البيضاوي فرواها وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ماله من مكانة علمية، وسيأتي اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكفي لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوي له قيمته ومكانته.

وكذلك استمد البيضاوي تفسيره من التفسير الكبير المسمى بـ «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي، ومن تفسير الراغب الأصفهاني، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع موجز؛ وعبارة تدق أحياناً وتخفى إلا على ذي بصيرة ثاقبة، وفطنة نيرة. وهو يهتم أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه في ذلك، وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالباً لتأييد مذهبه وترويجه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾. يقول ما نصه: «وقروء جمع قرء، وهو يطلق للحيض كقوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك»[٢]. والطهر الفاصل بين الحيضتين، كقول الأعشى:

---

(١) (٢٦٧/١) دار الكتب العربية ١٣٣٠هـ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٨/١ رقم ٢٩٧) والترمذي (٢٢٠/١ رقم ١٢٦) وابن ماجه (٢٠٤/١ رقم ٦٢٥) إسناده ضعيف من حديث عدي بن ثابت عن أبيه عن جده وله شواهد من حديث عائشة وأم سلمة وسودة بنت زمعة فهو

مــورثــة مــالاً وفــي الحــي رفعــة لمــا ضــاع فيهــا مــن قــروء نســائكــا

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد في الآية؛ لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية، لقوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ [الطلاق: ١] أي وقت عدتهن، والطلاق المشروع لا يكون في الحيض، وأما قوله: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان»(١) فلا يقاوم ما رواه الشيخان(٢) في قصة ابن عمر: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء»(٣).

كذلك نجد البيضاوي كثيراً ما يقرر مذهب أهل السنة، ومذهب المعتزلة عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢و٣) من سورة البقرة: ﴿هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ نراه يعرض لبيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج، بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السنة(٤).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة البقرة أيضاً: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ نراه يتعرض للخلاف الذي بين أهل السنة والمعتزلة فيما يطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق، مع ترجيحه لمذهب أهل السنة(٥).

والبيضاوي رحمه الله مقل جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يصدر الرواية بقوله: روى أو قيل، إشعاراً منه بضعفها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية(٢٢) من سورة النمل: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ يقول بعد فراغه من تفسيرها: روى أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز، للحج... إلى آخر القصة التي يقف البيضاوي بعد روايتها موقف المجوز لها، غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه: «ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها من يعرفها، ويستنكرها من ينكرها»(٦).

= بها صحيح انظر نصب الراية للزيلعي (١/ ٢٠٢).

(١) أخرجه الترمذي (٣/ ٤٨٨ رقم ١١٨٢) وأبو داود (٢/ ٦٣٩ رقم ٢١٨٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠، ٤٢٦) وابن ماجه (١/ ٦٧٢ رقم ٢٠٨٠) والحاكم (٢/ ٢٠٥) من حديث عائشة قال الترمذي: «حديث عائشة غريب، لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر لا نعرفُ له في العلم غير هذا الحديث» هـ، وقال أبو داود: وهو حديث مجهول، وقال الألباني: في الإرواء (٧/ ١٤٨ رقم ٢٠٦٦): ضعيف.

(٢) البخاري (٩/ ٦٥٣ رقم ٤٩٠٨) ومسلم (٢/ ١٠٩٣ رقم ١٤٧١).

(٣) (١/ ٢٤٠).

(٤) (١/ ٥٣ ـ ٥٦).

(٥) (١/ ٥٨ ـ ٥٩).

(٦) (٤/ ١١٥).

ثم إن البيضاوي إذا عرض للآيات الكونية، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازي، الذي استمد منه كما قلنا، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠) من سورة الصافات: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ نراه يعرض لحقيقة الشهاب ذلك فيقول: «وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين، إن صح لم يناف ذلك» إلى آخر كلامه في هذا الموضع[١].

هذا وأرى أن أسوق لك بعض العبارات الشارحة لنهج البيضاوي في تفسيره، والمبينة لمصادره التي رجع إليها واختصره منها، كشاهد على بعض ما ذكرناه من ناحية، وتتميماً للفائدة من ناحية أخرى.

قال البيضاوي نفسه في مقدمة تفسيره هذا ـ بعد الديباجة ـ ما نصه:

«ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن ـ يعني التفسير ـ كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين، إلا أن قصور بضاعتي يثبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»[٢].

ويقول في آخر الكتاب ما نصه: «وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فرائد ذوي الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز، الخالي عن الإخلال والتلخيص العاري عن الإضلال، الموسوم بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»[٣].

وكأني به في هذه الجملة الأخيرة، يشير إلى أنه اختصره من تفسير الكشاف ولخص منه، ضمن ما اختصره ولخصه من كتب التفسير الأخرى، غير أنه ترك ما فيه من نزعات الضلال وشطحات الاعتزال.

ويقول الجلال السيوطي رحمه الله في حاشيته على هذا التفسير المسمى بـ «نواهد الأبكار وشوارد الأفكار» ما نصه: «وإن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخص هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مستجاد، وميز ما فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرر مهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نضار واشتهر اشتهار الشمس في رابعة النهار، عكف عليه العاكفون، ونهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكب عليه العلماء تدريساً ومطالعةً، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة»[٤].

---

(١) (٥/ ٣).

(٢) (١/ ٦).

(٣) (٥/ ٢٠٤).

(٤) المدخل المنير لشيخ مخلوف ص٤١، مطبعة المعاهد سنة ١٣٥١ هـ.

ويقول صاحب «كشف الظنون» (١/ ١٢٧ ـ ١٢٨) ما نصه: «وتفسيره هذا ـ يريد تفسير البيضاوي ـ كتاب عظيم الشأن، غني عن البيان، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات وضم إليه ما روى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال المنشي:

أولو الألباب لم يأتوا بكشف قناع ما يتلى
ولكن كان للقاضي يد بيضاء لا تبلى

ولكونه متبحراً جال في ميدان فرسان الكلام، فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام، كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، وملح الاستعارة، وهتك الأستار الأخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها، وترجمان المناطقة وميزانها، فحل ما أشكل على الأنام، وذلل لهم صعاب المرام، وأورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة، وأوضح لهم مناهج الأدلة، والذي ذكره من وجوه التفسير ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً بلفظ قيل، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

وأما الوجه الذي تفرد فيه، وظن بعضهم أنه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية، كقوله: وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز، عن حفظهم وتدبيرهم له[1] ونحوه، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه، ولا يبلغ علمه إلى الإحاطة بما فيه فمن اعترض بمثله على كلامه كأنه ينصب الحبالة للعنقاء، ويروم أن يقبض نسر السماء؛ لأنه مالك زمام العلوم الدينية، والفنون اليقينية، على مذهب أهل السنة والجماعة، وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق، وسلموا إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوي فنوناً من العلم وعرة المسالك، وأنواعاً من القواعد المختلفة الطرائق، وقل من برز، في فن إلا وصده عن سواه وشغله، والمرء عدو لما جهله، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأعمى عين هواه، واستبعد نفسه في طاعة مولاه، حتى يسلم من الغلط والزلل، ويقتدر على رد السفسطة والجدل.

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلى بغرور.

ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق تعليقة على سورة منه، ومنهم من حشى تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه» هـ.

ثم عد من هذه الحواشي ما يزيد عدده على الأربعين، ولا أطيل بذكرها، ومن شاء الاطلاع على

---

(١) انظر تفسير البيضاوي لقوله تعالى في الآية (٧) من سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الآية (٥/ ٣٤).

ذلك فليرجع إليه في موضعه الذي أشرت إليه، وحسبي أن أقول: ـ والقائل الذهبي ـ إن أشهر هذه الحواشي وأكثرها تداولاً ونفعاً: حاشية قاضي زاده، وحاشية الشهاب الخفاجي، وحاشية القونوي.

وجملة القول، فالكتاب من أمهات كتب التفسير، التي لا يستغني عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى، ويقف على أسراره ومعانيه، وهو مطبوع عدة طبعات ومتوسط في حجمه[1].

ولما كان لهذا الكتاب تلك المكانة الرفيعة بين كتب التفسير، كان ينبغي أن يتوفر الكتاب في المكتبات بشكل أنيق، وأن يكون محققاً فهو من أجدر الكتب التي ينبغي تحقيقها، ولكن للأسف لا توجد في المكتبات سوى نسخ قديمة، منها نسخة قديمة مكتوبة بخط اليد، وقد قامت دار الفكر بتصويرها، ومنها نسخ مطبوعة قديمة وبهامشها حاشية الكازورني، ثم قامت دار الكتب العلمية في بيروت بطباعة هذا الكتاب طباعة حديثة وهو ـ مع الأسف ـ مليء بالأخطاء، ولا تكاد صفحة تخلو من خطأ، فأحياناً تترك كلمات وأحياناً تترك أسطر، وكثيراً ما غيّر شكل الكلمة الإملائية.

لذلك وقع في قلبنا خدمة هذا الكتاب الجليل، بشكل يتفق مع مكانته وشهرته العلمية، وكذلك طمعاً في ثواب الله، وخدمة للإسلام، والمسلمين فالله نسأل أن يجعل ما قدمناه في ميزان حسناتنا يوم العرض عليه.

ثالثاً ـ مقارنة مختصرة بين تفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود:

نظراً لاشتهار تفسير البيضاوي في أرجاء العالم الإسلامي وقد عكف عليه طلاب العلم والعلماء بالدرس والشرح، فقد عكف العلامة أبو السعود ومنذ مطلع حياته على تفسيري: الكشاف، والبيضاوي، وكان يدور في خلده أثناء عكوفه على المدارسة فيهما أن ينظم درر فوائدهما في سمط دقيق، ويرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق، ويضيف إليهما ما ألفاه في تضاعيف الكتب من جواهر الحقائق على نسق أنيق وأسلوب بديع، وتحقيقات رصينة وتدقيقات متينة، ويبرز، من دقائق سر الكتاب ما تطمئن إليه النفوس وتقر به العيون، ورغم كثرة مشاغله وضيق وقته انتهز، بعض الفرص ما دوّن به تفسيره الذي سماه «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم».

وقد كان تفسير أبي السعود بحق من أجود التفاسير وأجلها حيث كشف فيه عن أسرار البلاغة القرآنية ولطائف العبارات والإشارات بما لم يسبقه إليه أحد في بابه، ولذلك ذاعت شهرته في الأقطار والأمصار وعكف عليه العلماء بالدرس.

ومن خلال المتابعة بين تفسيري البيضاوي وأبي السعود نجد أن أبا السعود اعتمد اعتماداً أساسياً على تفسير البيضاوي فكان في الغالب ينقل عبارة البيضاوي نفسها أو يكتبها بأسلوبه البليغ الرصين بعبارة قد تكون أوضح أو أكثر غموضاً من عبارة البيضاوي، وبإمكاننا إثبات هذه المقارنة بين التفسيرين:

---

(١) التفسير والمفسرون، تأليف: د. «محمد حسين الذهبي» رحمه الله تعالى (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٨).

١ ـ قد يختصر أبو السعود ما ورد في البيضاوي، فقد يترك بعض الروايات أو الأقوال التي ذكرها البيضاوي فيذكر قولاً واحداً، بينما يكون البيضاوي قد ذكر أكثر من قول.

٢ ـ كثيراً ما يردّ أبو السعود على البيضاوي من خلال شرحه على البيضاوي إن اختار رأياً مخالفاً، فيقول: وأما ما قيل كذا وكذا، فيرده.

٣ ـ قد تجد تفصيلاً عند أبي السعود دون البيضاوي وقد تجد تفصيلاً عند البيضاوي أعرض عنه أبو السعود.

٤ ـ قد تجد البيضاوي أكثر غوصاً وتعرضاً للصرف وبيان أصول الكلمات واشتقاقها.

٥ ـ البيضاوي يشير للنكات البلاغية ولطائف الإشارات ولا يكررها في بقية الآيات وقد يذكر أنه وردت الإشارة إليها عند آية كذا وكذا، بينما أبو السعود يشير لكل نكتة بلاغية كلما وردت.

٦ ـ أبو السعود اعتمد على القراءة المشتهرة قراءة حفص عن عاصم، بينما اعتمد البيضاوي على غير قراءة حفص ولعلها قراءة نافع أو ابن كثير.

٧ ـ أبو السعود يذكر القراءات المتواترة وغير المتواترة، وقد يذكر قراءات لم يذكرها البيضاوي إلا أن أبا السعود يذكر المتواتر وغيره وبلفظ قرىء كذا وقرىء كذا فهو لا يفرّق بين القراءة المتواترة وغيرها.

أما البيضاوي فيذكر القراءات المتواترة ويشير لأصحابها أما القراءات غير المتواترة فيذكرها بلفظ قرىء.

٨ ـ البيضاوي يضعّف بعض القراءات المتواترة من جهة اللغة اعتماداً على مذهب نحوي كما ضعف قراءة حمزة في أول النساء «والأرحام».

٩ ـ أبو السعود والبيضاوي قد يذكران حديثاً صحيحاً بلفظ روي المنبىء بضعفه عند المحدثين وقد يكون في الصحيحين.

١٠ ـ أبو السعود والبيضاوي يذكران أحاديث في فضائل كل سورة في نهايتها، وهي أحاديث موضوعة في غالبها باتفاق المحدثين.

١١ ـ أبو السعود يتبع البيضاوي في ما وقع فيه من هفوات اعتزالية تسربت إليه من الكشاف.

وعليه فلكل تفسير من التفسيرين ميزة خاصة

---

(١) وقد قام المحقق «محمد صبحي حسن الحلاق» بتحقيق وتخريج تفسير أبي السعود ولله الحمد والمنة.

رابعاً ـ وصف المخطوط الذي اعتمدنا عليه:

المخطوطة «أ»: أول المخطوط: الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً...

آخر المخطوط: من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى.

الخط: نسخي معتاد.

خ: ٥ ذو الحجة/١٠٥٦ هـ.

ق: ٣٨٧ م: ٣٣س: ٣٠×٢١

ملاحظات: نص القرآن بالمداد الأحمر، يبدأ من الفاتحة إلى الناس من وقف الإمام يحيى.

خامساً ـ منهجنا في تحقيق الكتاب وتخريجه:

١ ـ نسخ المخطوط.

٢ ـ مقدمة وتحتوي على:

١ ـ التعريف بمؤلف هذا التفسير.

٢ ـ التعريف بتفسير البيضاوي وطريقته في تأليفه.

٣ ـ مقارنة مختصرة بين تفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود.

٤ ـ وصف المخطوط.

٣ ـ منهجنا في تحقيق الكتاب وتخريجه.

٤ ـ تحقيق نص التفسير وضبطه بالشكل، ليزيل كثيراً من غموض العبارة.

٥ ـ تخريج الآيات الواردة في التفسير بذكر رقمها وسورها.

٦ ـ ضبط القراءات ـ المتواترة وغيرها ـ بالرجوع إلى كتب القراءات.

٧ ـ تخريج الأحاديث من مصادرها.

٨ ـ بيان مرتبة كل حديث من الصحة أو الضعف.

٩ ـ ترجمة الأعلام المذكورة في التفسير غالباً.

١٠ ـ تعريف بالفروق الواردة في التفسير.

١١ ـ ووضع اسم السورة ورقم الآيات المفسرة في أعلى الصفحة.

١٢ ـ شرح الكلمات الغريبة، والتعليق على بعض المسائل التي تدعو الحاجة إليها.

١٣ ـ إضافة النكات البلاغية التي أضافها أبو السعود على البيضاوي لتزداد فائدة الكتاب العلمية.

١٤ ـ التعليق على ما وقع فيه البيضاوي:

أ ـ تضعيف بعض القراءات المتواترة استناداً لمذهب نحوي، كما ضعف قراءة حمزة في أول النساء «والأرحام» بالكسر، رغم أنها صحيحة من حيث ثبوت القراءة بها ومن حيث اللغة كما ذكر أبو حيان، وقد تسرب إليه هذا التضعيف من الكشاف دون الانتباه إليه، وقد ورد ذلك في أكثر من موطن.

ب ـ تسربت إليه بعض الاعتزاليات من الكشاف، وقد ورد ذلك في أكثر من موطن فنبهت عليها مبيناً

أقوال أهل السنة في ذلك.

ج - أورد في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وهي في جملتها موضوعة باتفاق أهل الحديث.

د - أورد أحاديث في البخاري ومسلم أو في أحدهما، ويصدرها بكلمة «روي» وهذه الصيغة من صيغ التمريض التي يُصدر بها الحديث الضعيف دون الحسن والصحيح فتنبه.

هـ - البيضاوي شافعي المذهب، وقد ينسب للحنفية أقوالاً غير محررة، كما في مسألة بيع دور مكة وأجارتها حيث نقل عنهم عدم جواز بيع دور مكة وأجارتها والفتوى عندهم بخلافه.

١٥ ـ كثيراً ما يحيل البيضاوي على مواطن سابقة، فيذكر أنه قد مرّ تحقيقه في سورة كذا ولم يذكر الآية التي بحث فيها ذلك المبحث، فنعود للموطن الذي حقق عنده البحث ونشير إليه.

١٦ ـ التعليق على تأويلات البيضاوي وإثبات قول السلف رضي الله عنهم.

اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة...
واجعلها لوجهك خالصة...
ولا تجعل لأحد فيها شيئاً.

تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت : ٧٩١ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق و الدكتور محمود أحمد الأطرش

تنبيه

ـ تم ضبط الآيات القرآنية في صلب التفسير بما يتفق مع التفسير، وقد اعتمد البيضاوي على غير قراءة حفص عن عاصم.

ـ إتماماً لفائدة الكتاب العلمية تمت إضافة النكات البلاغية التي أضافها أبو السعود على البيضاوي، وقد تم ذكرها في الهامش، وقد ذكرناها في الغالب بعبارة تكون أوضح من عبارة أبي السعود وقد تمت الإشارة في الهامش إلى تفسير أبي السعود بالحرف «س» أي أن ما ذكره في الهامش «س» يعني أنه مأخوذ من أبي السعود.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
«قرآن كريم»(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، فتحدى بأقصر سورة من سوره مصاقع الخطباء من العرب العَرْباء فلم يجد به قديراً، وأفحم من تصدى لمعارضته من فصحاء عدنان وبُلَغَاء قحطان حتى حَسِبوا أنهم سُحِّروا تسحيراً، ثم بين للناس ما نزل إليهم حسبما عنّ لهم من مصالحهم ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب تذكيراً، فكشف لهم قناع الانغلاق عن آيات محكمات هُنَّ أم الكتاب وأُخر متشابهات هن رموز الخطاب تأويلاً وتفسيراً، وأبرز غوامض الحقائق ولطائف الدقائق ليتجلى لهم خفايا الملك والملكوت وخبايا قدس الجبروت ليتفكروا فيها تفكيراً، ومهد لهم قواعد الأحكام وأوضاعها من نصوص الآيات وأَلْمَاعَها ليذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً، فمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فهو في الدارين حميد وسعيد، ومن لم يرفع إليه رأسه وأطفأ نبراسه يعش ذميماً ويصل سعيراً. فيا واجب الوجود ويا فائض الجود ويا غاية كل مقصود صل عليه صلاة توازي غناءه وتجازي عناءه وعلى من أعانه وقرر تبيانه تقريراً، وأَفِضْ علينا من بركاتهم واسلك بنا مسالك كراماتهم، وسلم عليهم وعلينا تسليماً كثيراً.

(وبعدُ) فإن أعظم العلوم مقداراً وأرفعها شرفاً ومناراً علمُ التفسير الذي هو رئيس العلوم الدّينية ورأسها ومبنى قواعد الشرع وأساسها، لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها(٢). ولطالما أحدث

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) بين العلماء أنواع العلوم التي يجب توفرها في المفسر وهي: علم اللغة والنحو والصرف، وعلم البلاغة، وعلم أصول الفقه، وعلم التوحيد، ومعرفة أسباب النزول، والقصص، والناسخ والمنسوخ، والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم، وعلم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ولا يناله من في قلبه بدعة أو كبر أو حب دنيا أو ميل إلى المعاصي، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. وقال الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

وهذه العلوم إنما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير ومعرفة دقائق أسراره وتأويل المتشابهات بالمحكمات ونحوها، أما تدبر آياته بحيث يستشعر المرء عظمة ربه سبحانه وتعالى والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ

نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نُكَتٍ بارعة ولطائفَ رائعة استنبطتُها أنا ومَنْ قبلي من أفاضل المتأخرين وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية[1] إلى الأئمة الثمانية المشهورين والشواذّ المروية عن القراء المعتبرين، إلا أن قصور بضاعتي يثبطني عن الإقدام ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صَمَّمَ به عزمي على الشروع فيما أردته والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميَه بعد أن أتممه «بأنوار التنزيل وأسرار التأويل». فها أنا الآن أشرع وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير ومعطي كل مسؤول.

* * *

= فهذا قدر مشترك بين عامة الناس وهو المأمور به للتدبر والتذكر لأنه سبحانه سهله ويسره، وذلك أدنى مراتب التفسير. انظر مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني (١/٥١٩) الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١) المشهور «المعزوّة» بالواو، ويجوز أن تكون بالياء وهي لغة (المصباح المنير مادة «عزو») ويريد بقوله: القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، وهم السبع المشهورون إضافة إلى يعقوب البصري.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ ١
وَآيَاتُهَا سَبْعٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

وتسمى أم القرآن، لأنها مُفْتتحه ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه؛ ولذلك تسمى أساساً، أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده، أو على جملة معانيه من الحِكَم النظريّة والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطّلاعُ على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء. وسورة الكنز والوافية والكافية لذلك. وسورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسألة، لاشتمالها عليها. والصلاة، لوجوب قراءتها أو استحبابها فيها. والشافية والشفاء، لقوله عليه الصلاة والسلام: «هي شفاء من كل داء»[(١)]. والسبع المثاني، لأنها سبع آيات بالاتفاق، إلا أن منهم من عدّ التسمية دون «أنعمت عليهم»، ومنهم من عكس، وتثنى في الصلاة. أو الإنزالِ، إن صح أنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة وبالمدينة حين حولت القبلة[(٢)]، وقد صح أنها مكية لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾[(٣)]، وهو مكي بالنص[(٤)].

---

(١) وهو حديث ضعيف: أخرجه الدارمي (٢/ ٤٤٥) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٥٠ رقم ٢٣٧٠) وقال هذا منقطع وأورده التبريزي في «مشكاة المصابيح» (١/ ٦٦٧ رقم ٢١٧٠) وعزاه إلى الدارمي والبيهقي في شعب الإيمان. وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» رقم: ٥٨٢٧» وعزاه للبيهقي أيضاً من حديث عبدالملك بن عمير مرسلاً ورمز السيوطي لضعفه وضعفه الألباني أيضاً في «ضعيف الجامع» (٤/ ٨٨ رقم ٣٩٥٥).

(٢) اختار النسفي القول بأن الفاتحة مكية ومدنية، فقال: (والأصح أنها مكية ومدنية، نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة حين حولت القبلة إلى الكعبة) تفسير النسفي (١/ ٣).

(٣) الحجر «٨٧».

(٤) استدل البيضاوي على مكية سورة الفاتحة بآية سورة الحجر، لأنه عبر بالماضي «آتيناك» وسورة الحجر مكية.. لكنه لا يلزم من ذلك كون الفاتحة مكية، لأنه كثيراً ما يرد الماضي بمعنى المستقبل كما في قوله تعالى: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» ـ الفتح «١» ـ وقوله: «إنا أعطيناك الكوثر» ـ الكوثر «١» ـ. والأقوى من ذلك هو الاستدلالُ=

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من الفاتحة ومن كل سورة[١]، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك[٢] رحمه الله تعالى والشافعي[٣]. وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها ومالك[٤] والأوزاعي[٥]، ولم ينص أبو حنيفة[٦] رحمه الله تعالى فيه بشيء فَظُنّ أنها ليست من السورة عنده، وسئل محمد بن الحسن[٧] عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله تعالى. ولنا أحاديث كثيرة: منها ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «فاتحة الكتاب سبع آيات، أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم»[٨]. وقول أم سلمة رضي الله عنها: قرأ رسول الله ﷺ الفاتحة وعدّ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية[٩]. ومن أجلهما اختلف

= بالنقل عن الصحابة الذي شاهدوا الوحي والتنزيل. (روح المعاني ١/ ٣٣).

(١) ذهب البيضاوي إلى أن البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة، وهذا مذهبه ـ مذهب الشافعية ـ وهي مسألة ذات خلاف شديد بين العلماء، ولكل فريق أدلته، وقد اتفقوا على أنها بعض آية من سورة النمل.
ولعل أوفق الآراء في ذلك أنها آية مستقلة في بداية كل سورة ذكرت فيها، وإنما كتبت للفصل والتبرك، ويدل عليه ما ورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم. رواه أبو داود بإسناد صحيح، كما ذكر الشوكاني في فتح القدير (١/ ١٧). وانظر أهم أدلة كل فريق في تفسير آيات الأحكام للصابوني (١/ ٤٧).

(٢) عبدالله بن المبارك، ولد (١١٨)هـ وتوفي (١٨١)هـ، الحافظ، شيخ الإسلام، المجاهد، التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً، كان من سكان خراسان، ومات بهيت على الفرات (الأعلام ٤/ ١١٥).

(٣) الشافعي هو محمد بن إدريس.. أحد أئمة المذاهب الأربعة، ولد بغزة في فلسطين (١٥٠)هـ وتوفي بمصر عام (٢٠٤)هـ، كان أشعر الناس وأعرفهم بالفقه (الأعلام ٦/ ٢٦).

(٤) مالك بن أنس، أبو عبدالله، إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة ولد عام (٩٣)هـ بالمدينة وتوفي فيها عام (١٧٩)هـ من أشهر كتبه «الموطأ» (الأعلام ٥/ ٢٥٧).

(٥) هو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ولد في بعلبك في لبنان عام (٨٨)هـ. وتوفي في بيروت عام (١٥٧)هـ (الأعلام ٣/ ٣٢٠).

(٦) هو النعمان بن ثابت الكوفي، أحد أئمة المذاهب الأربعة، ولد بالكوفة عام (٨٠)هـ ونشأ بها امتنع عن القضاء ورعاً، وكان قوي الحجة، كريماً في أخلاقه، جواداً، حسن المنطق والصورة قال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة (الأعلام ٨/ ٣٦).

(٧) محمد بن الحسن الشيباني، إمام بالفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة، ولد بواسط عام (١٣١)هـ ونشأ بالكوفة وتوفي بالري عام (١٨٩)هـ، وكان قوي البيان فصيحاً (الأعلام ٦/ ٨٠).

(٨) حديث أبي هريرة ضعيف.
أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٢ رقم ٣٦) عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قرأتم الحمد لله فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحداها». قال أبو بكر الحنفي: ثم لقيت نوحاً فحدثني عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة بمثله، ولم يرفعه.
وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٧٦) وفي الشعب (٢/ ٤٣٠ رقم ٢٣٢٤).

(٩) حديث أم سلمة ضعيف روى الشافعي عن مسلم عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أنها قالت «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب فعدَّ بسم الله الرحمن الرحيم آية...» الحديث كما في «التفسير الكبير» (١/ ١٩٦) للفخر الرازي وتعقبه الألوسي بقوله (١/ ٤٢): «أما ما ذكره ـ الفخر الرازي ـ في الحجة الأولى

في أنها آية برأسها أم بما بعدها، والإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله سبحانه وتعالى، والوفاق على إثباتها في المصاحف مع المبالغة في تجريد القرآن حتى لم تكتب آمين. والباءُ متعلقة بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأُ، لأن الذي يتلوه مقروء، وكذلك يضمر كل فاعل ما يَجْعَل التسمية مبدأً له، وذلك أَوْلى من أن يضمر أبدأُ لعدم ما يطابقه ويدل عليه؛ أو ابتدائي لزيادة إضمار فيه، وتقديمُ المعمول ههنا أوقعُ كما في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا﴾[(١)] وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[(٢)] لأنه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فإن اسمه سبحانه وتعالى مُقَدَّم على القراءة، كيف لا وقد جُعِل آلة لها من حيث إن الفعل لا يتم ولا يعتد به شرعاً مالم يصدر باسمه تعالى لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر»[(٣)]. وقيل الباء للمصاحبة، والمعنى متبركاً باسم الله تعالى أقرأ، وهذا وما بعده إلى آخر السورة مقولٌ على ألسنة العباد ليعلموا كيف يُتبركُ باسمه ويُحْمَدُ على نعمه ويُسأل من فضله. وإنما كسرت ومن حق الحروف المفرَدَة أن تفتَح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر[(٤)]، كما كسرت لامُ الأمر ولامُ الإضافة داخلةً على المُظْهَر للفصل بينهما وبين لامِ الابتداء. والاسمُ عند أصحابنا البصريين من الأسماء التي حُذفت أعجازُها لكثرة الاستعمال وبُنيتَ أوائلها على السكون وأُدخِل عليها ـ مُبتدأً بها ـ همزةُ الوصل، لأن من دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن، ويشهد له تصريفه على أسماء وأسامي وسُمِيّ وسُمِيت ومجيءُ سمًى كهدًى لغةٌ فيه قال:

والله أسمــــاكَ سُمَـــىً مُبـــارَكـــاً	آثـــرك الله بـــــهِ إيثَـــاركـــا

والقلبُ بعيد غير مطرد. واشتقاقُه من السموّ لأنه رفعة للمسمى وشعار له، ومن السمة عند

= من حديث أم سلمة بالوجه الذي رواه مخالفاً لما في البيضاوي ـ ص٢ ـ المخالف ـ اعتراض على البيضاوي ـ لما في الكتب الحديثية. فيجاب عنه بأن أبا مليكة لم يثبت سماعه عن أم سلمة. وبتقديره للمعاصرة يقال إن هذا اللفظ لم يوجد في المشهور ولعله نقل بالمعنى لبعض الروايات على حسب ما يلوح له» هـ.

قلت من هذه الروايات ما أخرجه الدارقطني في سننه (١/ ٣١٢ ـ ٣١٣ رقم ٣٧): من طريق ابن جريج عن عبدالله بن أبي مليكة، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ يقطع قراءته آية آية: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، واللفظ لعبدالله بن محمد، إسناده صحيح وكلهم ثقات، قال لنا عبدالله بن محمد: ورواه عمر بن هارون عن ابن جريج، فزاد فيه كلاماً.

(١) هود: «٤١».

(٢) الفاتحة: «٥».

(٣) يشير المؤلف رحمه الله تعالى إلى الحديث الذي أخرجه السبكي في طبقاته (١/ ١٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبْدَأُ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» وهو حديث ضعيف جداً قلت في سنده «ابن عمران» ويُعرف بابن الجندي، ترجمه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٧٧) وقال: كان يضعف في روايته، ويطعن عليه في مذهبه ـ «يعنى التشيع» ـ وقال ابن حجر في «اللسان» (١/ ٢٨٨ رقم ٨٥٢): «روى عنه خلق يروي عن البغوي. وقال العتيقي: كان يرمى بالتشيع. وأورد ابن الجوزي في الموضوعات في فضل عليّ حديثاً بسند رجاله ثقات إلا الجندي فقال: هذا موضوع ولا يتعدي الجندي» هـ.

(٤) أي بنيت الباء على الكسر لأنها تلازم الحرفية والجرّ، فكسرت لتشابه حركتُها عَمَلَها.

الكوفيين، وأصلُه وَسَمٌ حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليَقِلَّ إعلالُه. ورُدّ بأن الهمزة لم تُعهد داخلةً على ما حذف صدره في كلامهم[١]، ومن لغاته سِمٌ وسُمٌ قال:

بِسْمِ الذي في كُلِّ سُورةٍ سِمُهْ

والاسمُ إنْ أريد به اللفظ فغيرُ المسمّى، لأنه يتألف من أصوات متقطعة غير قارّة، ويختلف باختلاف الأمم والأعصار، ويتعدد تارة ويتحد أخرى، والمسمّى لا يكون كذلك. وإن أريد به ذاتُ الشيء فهو المسمّى لكنه لم يشتهر بهذا المعنى، وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾[٢] و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾[٣] المراد به اللفظ لأنه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى وصفاته عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الأدب. أو الاسمُ فيه مُقْحَم كما في قول الشاعر:

إلى الحولِ ثُم اسمُ السلامِ عليكُما

وإن أريد به الصفة ـ كما هو رأي الشيخ أبي الحسن الأشعري[٤] ـ انقسم انقسامَ الصفة عنده: إلى ما هو نفس المسمّى وإلى ما هو غيره وإلى ما ليس هو ولا غيره. وإنما قال بسم الله ولم يقل بالله، لأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه[٥]، أو للفرق بين اليمين والتيمّن. ولم تكتب الألف على ما هو وضع الخط لكثرة الاستعمال، وطُوِّلت الباءُ عوضاً عنها. (والله) أصله إله، فحذفت الهمزة وعُوِّض عنها الألفُ واللامُ ولذلك قيل: يا الله ـ بالقطع ـ إلا أنه مختص بالمعبود بالحق. والإله في الأصل لكل معبود، ثم غلب على المعبود بالحق. واشتقاقه من أَلِه إلهة وألوهة وألوهية بمعنى عَبَد ومنه تألّه واستأله، وقيل من أَلِه إذا تحير لأن العقول تتحير في معرفته، أو من أَلَهْتُ إلى فلان أي سكنت إليه لأن القلوب تطمئن بذكره والأرواح تسكن إلى معرفته، أو من أَلِه إذا فزع من أمر نزل عليه. وآلَهَهُ غيرُه أجاره إذ العائذُ يَفْزَعُ إليه وهو يجيره حقيقة أو بزعمه، أو من أَلِه الفصيل إذا ولع بأمه إذ العباد يولَعون بالتضرع إليه في الشدائد، أو من وَلِه إذا تحير وتخبط عقله وكان أصله وِلاه فقلبت الواو همزة لاستثقال الكسرة عليها استثقالُ الضمة في وجوه فقيل إله كإعاء وإشاح، ويردُّه الجمع على آلهة دون أَوْلِهة، وقيل أصله لاهٍ مصدرُ لاهَ يليه ليْهاً ولاهاً إذا احتجب وارتفع لأنه سبحانه وتعالى محجوب عن إدراك الأبصار ومرتفع على كل شيء وعما لا يليق به ويشهد له قول الشاعر:

كحِلفةٍ من أبي رباحٍ يُشهِدُها لاهُهُ الكِبَارُ

---

(١) رجح أبو حيان أن أصله (سَمَو). البحر المحيط (١/ ١٤).

(٢) الرحمٰن: «٧٨».

(٣) الأعلى: «١».

(٤) أبو الحسن الأشعري: هو علي بن إسماعيل بن إسحاق.. من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري. ولد بالبصرة عام (٢٦٠)هـ وتوفي ببغداد عام (٣٢٤)هـ. وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم، ومصنفاته كثيرة (الأعلام ٤/ ٢٦٣).

(٥) الاستعانة تارة تكون بذاته تعالى، وحقيقتُها طلبُ المعونة على إيقاع الفعل، أي إفاضة القدرة بما يتمكن به العبد من أداء ما يلزمه. وتارة أخرى باسمه جل وعلا، وحقيقتها طلبُ المعونة في كون الفعل معتداً به شرعاً، فإنه مالم يصدّر باسمه تعالى فإنه يكون بمنزلة المعدوم (أبو السعود ١/ ١٠).

وقيل علمٌ لذاته المخصوصة لأنه يوصف ولا يوصف به[١]، ولأنه لا بد له من اسم تجرى عليه صفاتُه ولا يصلح له مما يطلق عليه سواه، ولأنه لو كان وصفاً لم يكن قول: لا إله إلا الله توحيداً مثل: لا إله إلا الرحمن فإنه لا يمنع الشركة. والأظهرُ أنه وصف في أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره وصار له كالعَلَم مثل: الثريّا والصعق أُجريَ مجراه في إجراء الأوصاف عليه وامتناع الوصف به وعدم تطرق احتمال الشركة إليه، لأن ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمر آخر حقيقي أو غيره غير معقول للبشر فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ، ولأنه لو دل على مجرد ذاته المخصوصة لما أفاد ظاهر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٢] معنى صحيحاً، ولأن معنى الاشتقاق هو كون أحد اللفظين مشاركاً للآخر في المعنى والتركيب وهو حاصل بينه وبين الأصول المذكورة، وقيل أصله لاها بالسريانية فعرّب بحذف الألف الأخيرة وإدخال اللام عليه. وتفخيمُ لامه إذا انفتح ما قبله أو انضم سُنَّة، وقيل مطلقاً. وحذفُ أَلِفِه لحْنٌ تفسُدُ به الصلاة ولا ينعقد به صريح اليمين، وقد جاء لضرورة الشعر:

ألاَ لا بـــاركَ الله فـــي سُهيـــلٍ إذا مـــا الله بـــاركَ فـــي الـــرِّجـــالِ

والرحمن الرحيم: اسمان بنيا للمبالغة من رحِم، كالغضبان من غضب والعليم من علم. والرحمةُ في اللغة: رقة القلب وانعطافٌ يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرَّحِم لانعطافها على ما فيها. وأسماءُ الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعالٌ دون المبادي التي تكون انفعالات. والرحمنُ أبلغ من الرحيم، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما في قَطَّعَ وقَطَعَ وكُبَّار وكِبَار، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكمية وأخرى باعتبار الكيفية، فعلى الأول قيل: يا رحمٰن الدنيا ـ لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة ـ لأنه يخص المؤمن، وعلى الثاني قيل: يا رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا لأن النعم الأخروية كلها جسام وأما النعم الدنيوية فجليلة[٣] وحقيرة. وإنما قُدِّم[٤] والقياسُ يقتضي الترقي من الأدنى إلى الأعلى لتقدم رحمة الدنيا ولأنه صار كالعَلَم من حيث إنه لا يوصف به غيرُه لأن معناه المنعم الحقيقي البالغُ في الرحمة غايتَها، وذلك لا يَصْدُق على غيره لأن من عداه فهو مستعيض بلطفه وإنعامه يريد به جزيل ثوابٍ أو جميل ثناء أو مزيح رقة الجنسية أو حب المال عن القلب، ثم إنه كالواسطة في ذلك لأن ذات النعم ووجودها والقدرة على إيصالها والداعية الباعثة عليه والتمكن من الانتفاع بها والقوى التي بها يحصل الانتفاع إلى غير ذلك مِنْ خَلْقِه لا يقدر عليها أحد غيره، أو لأن الرحمٰن لما دل على جلائل النعم وأُوْصَلِها ذَكَرَ الرحيم ليتناول ما خرج منها فيكون كالتتمة والرديف له، أو للمحافظة على رؤوس الآي.

والأظهرُ أنه غير مصروف وإن حُظِر اختصاصه بالله تعالى أن يكون له مؤنث على فَعْلى أو فعلانة

---

(١) أي يقال: إله واحد حكيم عليم ولا يقال شيء إله، كما يقال كتاب مرقوم ولا يقال شيء كتاب.
(٢) الأنعام: «٣».
(٣) جليلة أي حقيرة لا قيمة لها، وهو من أسماء الأضداد.
(٤) أي قُدّم لفظ الرحمن على الرحيم، والقياس يقتضي تقديم الرحيم على الرحمن..

إلحاقاً له بما هو الغالب في بابه. وإنما خص التسمية بهذه الأسماء ليعلم العارف أن المستحق لأن يستعان به في مجامع الأمور هو المعبود الحقيقي الذي هو مولي النعم كلها عاجلها وآجلها جليلها وحقيرها، فيتوجه بشَرِّ أشَرِّهِ إلى جناب القُدُس ويتمسك بحبل التوفيق ويشغل سره بذكره والاستعداد به عن غيره(١).

(٢) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: هو الثناءُ على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها، والمدحُ: هو الثناء على الجميل مطلقاً. تقول حمدت زيداً على علمه وكرمه، ولا تقول حمدته على حسنه، بل مدحْته. وقيل هما أَخَوان(٢) والشكر: مقابلةُ النعمة قولاً وعملاً واعتقاداً قال:

أفـادَتْكُـمُ النُعْمَـاءُ منـي ثـلاثـةً   يـدي ولسـانـي والضَّميـرَ المُحجَّبـا

فهو أعم منهما من وجه وأخص من آخر(٣). ولما كان الحمد من شعبِ الشكر أشيع للنعمة وأدل على مكانها لخفاء الاعتقاد وما في آداب الجوارح من الاحتمال جُعل رأسَ الشكر والعمدةَ، فيه فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله من لم يحمده»(٤).

والذمُّ نقيض الحمد والكفران نقيضُ الشكر. ورفعه بالابتداء وخبرُه لله. وأصله النصب وقد قرىء به(٥). وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته له دون تجدده وحدوثه(٦) وهو من

---

(١) ولتحريك صفة الرحمة بالعباد فيتراحمون فيما بينهم، ويلتمسون رحمته جل شأنه.

(٢) المدح أعم من الحمد، وهو بمعنى وسَّعْتُ شكره (المصباح المنير للفيومي مادة مدح) وقد أنكر الألوسي على الزمخشري قوله بترادف المدح والحمد (روح المعاني ١/ ٧٠).

(٣) الحمد أعم من الشكر لأنه يفيد الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها، أما الشكر فهو ثناء على النعمة فقط، فلا يقال شكرته على قوته، ولكن يقال شكرته على إحسانه وكرمه. والحمد أخص من الشكر لأنه يكون باللسان فقط، أما الشكر فباللسان والقلب والجوارح.

(٤) وهو حديث ضعيف أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١٠/ ٤٢٤ رقم ١٩٥٧٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٩٦ رقم ٤٣٩٥) من حديث عبدالله بن عمرو وفيه انقطاع، وأورده السيوطي في (الجامع الصغير) (٣/ ٤١٨ رقم ٣٨٣٥ مع الفيض) وعزاه إلى عبدالرزاق في الجامع، وإلى البيهقي في شعب الإيمان. ورمز السيوطي لحسنه، وقال المناوي «قال المصنف في شرح التقريب: رواه الخطابي في غريبه ـ (١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦) ـ والديلمي في الفردوس ـ (٢/ ١٥٥ رقم ٢٧٨٤) ـ بسند رجاله ثقات، لكنه منقطع، وفي حاشية القاضي: منقطع بين قتادة وابن عمرو» هـ.
ورواه البغوي في تفسير (سبحان) من حديث ابن عباس، وفيه: نصر بن حماد ـ وهو ضعيف ـ كما في «الكافي الشاف» لابن حجر ـ (٤/ ٢رقم ٤) ـ وضعف الألباني حديث ابن عمرو في ضعيف الجامع (٣/ ١١٣ رقم ٢٧٨٩).

(٥) قال أبو السعود: (وأصله النصب، كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرة التي لا تكاد تستعمل معها، نحو: شكراً وعجباً، كأنه قيل: نحمد الله حمداً ـ بنونِ الحكاية ـ ليوافق ما في قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» لاتحاد الفاعل في الكل) تفسير أبو السعود ١/ ١٢..

(٦) الجملة الاسمية والجملة الفعلية
الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات والاستقرار، وذلك أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً فشيئاً، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء، فإذا

المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها. . والتعريفُ فيه للجنس ومعناه: الإشارةُ إلى ما يَعْرِف كل أحد أن الحمد ما هو، أو للاستغراق إذ الحمد في الحقيقة كله له، إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[١] وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم، إذ الحمد لا يستحقه إلا مَنْ كان هذا شأنه. وقرىء الحمدِ لله بإتباع الدال اللام وبالعكس تنزيلاً لهما من حيث إنهما يستعملان معاً منزلة كلمة واحدة[٢].

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الربّ في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغُ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وُصفَ به للمبالغة كالصوم والعدل. وقيل: هو نعتٌ من رَبَّهُ يَرُبُّه فهو رب، كقولك نَمّ يَنُمُّ فهو نَمٌّ، ثم سُمِّيَ به المالِكُ لأنه يحفظ ما يملكه ويُرَبِّيه. ولا يُطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[٣]. والعالَمُ اسمٌ لما يُعْلَمُ به، كالخاتَم والقالَب، غلب فيما يُعْلم به الصانع تعالى، وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثِّرٍ واجبٍ لذاته تدل على وجوده. وإنما جَمَعَه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغَلَّبَ العقلاءَ منهم فجَمَعَهُ بالياء والنون كسائر أوصافهم. وقيل: اسمٌ وُضِع لذوي العِلْم من الملائكة والثقلين، وتناوُلُه لغيرهم على سبيل الاستتباع. وقيل: عنى به الناس ههنا فإن كل واحد منهم عالَم من حيث إنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعْراض يُعْلَمُ بها الصانع كما يُعلمُ بما أبدعه في العالَم الكبير، ولذلك سوى بين النظر فيهما، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٤]. وقرىء ربَّ العالمين بالنصب على المدح، أو النداء، أو بالفعل الذي دل عليه الحمد، وفيه دليل على أن الممكنات كما هي مفتقرة إلى المحدِث حال حدوثهافهي مفتقرة إلى المبقي حال بقائها.

(٣) ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كَرَّره للتعليل على ما سنذكره.

= قلت: زيد منطلق فقد أثبت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: زيد طويل وعمرو قصير، فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول والقصر يتجدد ويحدث بل توجبهما وتثبتهما فقط وتقضي بوجودهما على الإطلاق كذلك لا يتعرض في قولك زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل فإنك تقصد فيه إلى ذلك، فإن قلت: زيد ينطلق فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً وجعلته يزاوله ويوجبه (انظر روح المعاني ١/ ٧٥ «الهامش»).

ثم إن الفعل يدل على زمن محدد، ماض أو حاضر أو مستقبل، فتكون الجملة الفعلية محصورة زمنياً بزمن الفعل، أما الاسم فلا يفيد ذلك.

ولذلك كانت الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات والاستقرار. ولذلك كان الحمد ـ بالرفع ـ أبلغ لأن التقدير الحمد ثابت لله أو مستقر، أما التقدير في حال النصب: نحمد الله الحمدَ أو حمداً ولذلك لما دخلت الملائكة على إبراهيم عليه السلام وحيوْه رد عليهم بأبلغ من سلامهم «. . فقالوا سلاماً قال سلامٌ. .» ـ الذاريات «٢٥» ـ والتقدير: نسلم عليك سلاماً، فقال: سلامٌ عليكم أي سلام ثابت مستقر عليكم. . .

(١) النحل: «٥٣».

(٢) أي قرىء بكسر الدال في الحمد لإتباعها اللام.

(٣) يوسف: «٥٠».

(٤) الذاريات: «٢١».

(٤) ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قراءة عاصم[١] والكسائي[٢] ويعقوب[٣] ويعضده قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾[٤]، وقرأ الباقون: مَلِكِ. وهو المختار لأنه قراءة أهل الحرمين[٥] ولقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ؟﴾[٦]، ولما فيه من التعظيم. والمالكُ هو المتصرف في الأعيان المملوكَة كيف يشاء من المِلْكِ. والمَلِكُ هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين مِنَ المُلْكِ. وقُرىء مَلْكِ بالتخفيف، ومَلَكَ بلفظ العمل، ومالكاً بالنصب على المدح أو الحال، ومالكٌ بالرفع منوناً، ومضافاً على أنه خبر مبتدأ محذوف، ومَلِكٌ مضافاً بالرفع والنصب. ويومُ الدين يوم الجزاء، ومنه «كما تدين تدان» وبيت الحماسة:

ولـــم يَبْـــقَ سِـــوَى العـــدوا ن دِنَّـــاهُـــمْ كمـــا دَانُـــوا

أضاف اسم الفاعل إلى الظرف إجراءً له مجرى المفعول به على الاتساع كقولهم: يا سارقَ الليلةَ أهلَ الدار، ومعناه: مَلَكَ الأمور يوم الدين على طريقة: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾[٧]، أَوْلَهُ الملك في هذا اليوم، على وجه الاستمرار لتكون الإضافة حقيقية معدة لوقوعه صفة للمعرفة. وقيل الدين: الشريعة،

---

(١) هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، كان قارئاً متقناً، آية في التحرير والإتقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن، توفي بالكوفة أو بالسماوة سنة (١٢٧)هـ، روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة، وهو أحد القراء السبعة.

(٢) الكسائي: هو علي بن حمزة الكسائي النحوي، كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب وأوحد الناس بالقرآن، وهو أحد القراء السبعة، روى عنه الدوري وأبو الحارث، توفي سنة (١٨٩)هـ.

(٣) يعقوب بن إسحاق الحضرمي أبو محمد، قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل وقرأ سلاّم على عاصم وعلى أبي عمرو، اشتهر بالرواية عنه روْح بن عبدالمؤمن ورويس، وهو من القراء العشرة، توفي عام (٢٠٥)هـ.

(٤) الانفطار: «١٩».

(٥) القراءات في «مالك يوم الدين» وما أثبته البيضاوي من أن الكسائي قرأ «مالك» ـ بإثبات الألف ـ ليس بإطلاقه، فقد قرأ أيضاً «مَلِك» بحذف الألف (المبسوط لابن مهران ص٨٣)

ثم إن البيضاوي اختار قراءة «مَلِك» على «مالك» والاختيار غير مسلّم به، لأن القراءتين صحيحتان سنداً، وقد قرأ بالقراءتين جمع كبير من القراء. ولا يصح اختيار قراءة متواترة على أخرى، ولكن يمكن القول بأن قراءة أكثر شمولاً من قراءة أخرى.. ولعل ما يمكن قوله: إن القراءتين صحيحتان حسنتان، غير أن القراءة بدون ألف «ملك» أشمل وأقوى في المعنى، ولكن جمعاً بين القراءتين نقول: تعددت القراءات لتفيد تعدد الوصف فالله تعالى مِلِكٌ ومالك، وقد ورد في القرآن وصفه بهما كقوله تعالى «الملكِ القدوس» ـ الحشر «٢٣» ـ وقوله «ملك الناس» ـ الناس «٢» ـ وقوله تعالى: «قل اللهم مالك الملك» ـ آل عمران «٢٦» ـ.

(انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ١/٢٩، تحقيق محي الدين رمضان)

قال الشوكاني: (والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر، فالمالك يقدر على مالا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها، والملك يقدر على مالا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور. والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله) فتح القدير للشوكاني ١/٢٢.

(٦) غافر: «١٦».

(٧) الأعراف: «٤٤» أي نادوا أصحاب النار تبجحاً وتبكيتاً عليهم.

وقيل: الطاعة، والمعنى يوم جزاء الدين، وتخصيص اليوم بالإضافة: إما لتعظيمه، أو لتفرده تعالى بنفوذ الأمر فيه[١]. وإجراءُ هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه موجِداً للعالَمين رباً لهم منعِماً عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها مالكاً لأمورهم يوم الثواب والعقاب للدلالة على أنه الحقيق بالحمد لا أحدَ أحق به منه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه؛ فإنّ تَرَتُّبَ الحكم على الوصف يُشْعر بعلّيّته له[٢]، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يَستأهِل لأن يُحمد فضلاً عن أن يُعبد، فيكون دليلاً على ما بعده، فالوصفُ الأول لبيان ما هو الموجب للحمد ـ وهو الإيجاد والتربية ـ والثاني والثالث للدلالة على أنه متفضل بذلك مختار فيه ليس يصدر منه لإيجاب بالذات أو وجوب عليه قضية لسوابق الأعمال حتى يستحق به الحمد، والرابع لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجه ما، وتضمينِ الوعد للحامدين والوعيد للمعرضين.

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثم إنه لما ذُكِر الحقيق بالحمد، ووُصِف بصفات عظام تَمَيَّز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا مَنْ هذا شأنُه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدلَّ على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العِيَان والانتقالِ من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلومَ صار عِيَاناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً، بَنَى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكْر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفّى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عِياناً ويناجيه شفاهاً[٣].

اللهم اجعلنا من الواصِلين للعَيْن دون السامعين للأثر. ومن عادة العربِ التفنُّنُ في الكلام والعدولُ من أسلوب إلى آخر تطريةً له وتنشيطاً للسامع، فيُعْدَل من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيْبة إلى التكلم وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾[٤] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾[٥] وقول امرىء . . . .

---

(١) وتخصيص يوم الدين من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والحشر والحساب، لكونه أدخل في الترغيب والترهيب.

(٢) أي أن ما وصف به تعالى نفسه من صفات الربوبية والرحمة ومُلك ذلك اليوم الرهيب هو العلة الباعثة على الحمد.

(٣) قال أبو السعود: (لما أجري عليه من النعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكمل تميز وأتمَّ ظهور، بحيث تبدل خفاءُ الغيبة بجلاء الحضور، فاستدعى استعمال صيغة الخطاب والإيذانُ بأن حق التالي ـ بعدما تأمل فيما سلف، من تفرده تعالى بذاته الأقدس المستوجب للمعبودية وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية. . . وافتقار الكل إليه. . . ـ أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان وينتقل من عالم الغيبة إلى عالم الشهود. . . كأنه واقف لدى مولاه ماثل بين يديه وهو يدعو بالخضوع والإخبات ويقرع بالضراعة باب المناجاة، قائلاً: يا من هذه شئون ذاته وصفاته نخصك بالعبادة والاستعانة. . . ولعل هذا هو السرّ في اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعة من الصلاة التي هي مناجاة العبد لمولاه. .) تفسير أبو السعود ١/١٦.

(٤) يونس: «٢٢».

(٥) فاطر: «٩».

القيس[(١)].

تطـــاوَلَ ليلُـــكَ بـــالإثمِـــدِ ونـــامَ الخلـــيُّ ولـــم تَـــرْقُـــدِ
وبـــاتَ وبـــاتَـــتْ لـــه ليلـــة كَلَيْلَـــةِ ذي العـــائـــرِ الأرْمَـــدِ
وَذلِـــكَ مـــنْ نَبَـــأ جـــاءنـــي وخبـــرْتـــهُ عَـــن أبـــي الأسْـــودِ

وإيّا ضميرٌ منصوب منفصل، وما يلحقه من الياء والكاف والهاء حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الإعراب، كالتاء في أنتَ والكاف في أرأيتَكَ. وقال الخليل[(٢)]: إيّا مضاف إليها، واحتج بما حكاه عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشوابّ، وهو شاذّ لا يُعتمد عليه. وقيل: هي الضمائر، وإيّا عمدة فإنها لمّا فُصِلت عن العوامل تعذر النطق بها مفردة فضُم إليها إيا لتستقل به، وقيل: الضمير هو المجموع. وقرىء أَيّاك بفتح الهمزة، وهَيّاك بقلبها هاء.

والعبادةُ: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق معبد أي مذلل وثوب ذو عَبَدة إذا كان في غاية الصفاقة، ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى.

والاستعانة: طلب المعونة، وهي إما ضرورية أو غير ضرورية، والضرورية مالا يتأتى الفعلُ دونَه كاقتدارِ الفاعلِ وتصوره وحصول آلةٍ ومادةٍ يُفعل بها فيها وعند استجماعها يوصَفُ الرجل بالاستطاعة ويصح أن يُكلَّفَ بالفعل. وغيرُ الضرورية تحصيلُ ما يتيسر به الفعل ويسهل كالراحلة في السفر للقادر على المشي، أو يُقرِّب الفاعلَ إلى الفعل ويحثُّه عليه، وهذا القِسْم لا يتوقف عليه صحة التكليف. والمرادُ طلب المعونة في المهمات كلها أو في أداء العبادات، والضميرُ المستكنُّ في الفعلين للقارىء ومن معه من الحَفَظة وحاضري صلاة الجماعة. أوْلَهُ ولسائر الموحدين، أدرج عبادتَه في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقبَل ببركتها ويجاب إليها، ولهذا شرعت الجماعة. وقدم المفعول للتعظيم، والاهتمام به، والدلالةِ على الحصر ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه نعبدك ولا نعبد غيرك، وتقديم ما هو مقدَّمٌ في الوجود، والتنبيهِ على أن العابد ينبغي أن يكون نظرُه إلى المعبود أولاً وبالذات؛ ومنه إلى العبادة لا من حَيث إنها عبادة صدرت عنه بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووُصلة سَنِيَّة بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يحقُّ وصولُه إذا استغرق في ملاحظة جناب القدُس وغاب عما عداه، حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالا من أحوالها إلا من حيث إنها ملاحظة له ومنتسبة إليه، ولذلك فضل ما حكى الله عن حبيبه حين قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[(٣)]. على ما حكاه عن كليمه حين قال: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[(٤)]. وكرَّر الضميرَ للتنصيص على أنه المستعان به

---

(١) امرؤ القيس: هو امرؤ القيس بن حُجُر بن الحارث بن عمر بن حجر وقال بعض الرواة: هو امرؤ القيس بن الصمت توفي سنة ٨٠ قبل الهجرة المعلقة الأولى من المعلقات العشر ص٥ ـ ١٨.

(٢) الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي، من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي ولد عام (١٠٠)هـ بالبصرة وتوفي بها عام (١٧٠)هـ.

(٣) التوبة «٤٠».

(٤) الشعراء: «٦٢».

لا غير[١]. وقُدِّمتِ العبادةُ على الاستعانةِ ليتوافق رؤوس الآي، ويُعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة.

وأقول: لما نَسَبَ المتكلمُ العبادة إلى نفسه أوْهَم ذلك تبجُّحاً واعتداداً منه بما يَصْدر عنه، فعقَّبه بقوله: «وإياك نستعين» ليدل على أن العبادة أيضاً مما لا يَتِمُّ ولا يَستتبُّ له إلا بمعونة منه وتوفيق[٢]، وقيل: الواو للحال والمعنى نعبدك مستعينين بك. وقُرِىء بكسر النون فيهما وهي لغةُ بني تميم فإنهم يَكْسِرون حروف المضارعة سوى الياء إذا لم ينضم ما بعدها.

(٦) ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بيانٌ للمعونة المطلوبة فكأنه قال: كيف أُعينكم؟ فقالوا اهدنا، أو إفرادٌ لما هو المقصود الأعظم. والهدايةُ دلالةٌ بلطف ولذلك تستعمل في الخير، وقوله تعالى: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[٣] واردٌ على التهكم، ومنه الهداية وهوادي الوحش لمقدماتها، والفعل منه هدى، وأصله أن يُعدى باللام أو إلى، فعومل معاملة اختار في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾[٤]. وهدايةُ الله تعالى تتنوع أنواعاً لا يُحصيها عَدٌّ كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[٥] ولكنها تنحصر في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القُوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

والثاني: نصبُ الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد وإليه أشار حيث قال: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[٦] وقال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[٧].

والثالث: الهدايةُ بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عنى بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[٨] وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[٩].

والرابع: أن يكشف على قلوبهم السرائر ويريَهم الأشياء كما هي بالوحي أو الإلهام والمنامات الصادقة، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياءُ والأولياءُ وإياه عنى بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ

---

(١) قال أبو السعود: (وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب) تفسير أبو السعود ١/ ١٧.

(٢) تقديم العبادة على الاستعانة، لأن العبادة من مقتضيات مدلول الاسم الجليل، أما الاستعانة فمن الأحكام المبنية على الصفات المذكورة، ولأن العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المستعين، ولأن العبادة واجبة حتماً والاستعانة تابعة للمستعان فيه في الوجوب وعدمه (انظر: أبو السعود ١/ ١٧).

(٣) الصافات: «٢٣».

(٤) الأعراف: «١٥٥».

(٥) إبراهيم: «٣٤».

(٦) البلد: «١٠».

(٧) فصلت: «١٧».

(٨) الأنبياء «٧٣».

(٩) الإسراء: «٩».

اقْتَدِهْ﴾ . وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢]. فالمطلوبُ: إما زيادة ما مُنِحُوه من الهُدى أو الثبات عليه أو حصولُ المراتب المرتبة عليه، فإذا قالَه العارفُ بالله الواصلُ عنى: أَرْشِدْنا طريق السير فيك لتمحوَ عنا ظلمات أحوالنا وتُميط غواشيَ أبداننا لنستضيء بنور قُدُسك فنراك بنورك. والأمرُ والدعاءُ يتشاركان لفظاً ومعنىً ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفُّل[٣]، وقيل: بالرتبة.

والسراط: من سَرَطَ الطعام إذا ابتلعه فكأنه يَسْرَطُ السابلةَ، ولذلك سُمِّي لَقَماً لأنه يلْتقمُهم. والصراط من قَلْبِ السين صاداً ليطابق الطاء في الإطباق، وقد يُشَمُّ الصادُ صوت الزاي ليكون أقربَ إلى المبدل منه. وقرأ ابن كثير[٤] برواية قنبل[٥] عنه ورويس[٦] عن يعقوب[٧] بالأصل، وحمزة[٨] بالإشمام، والباقون بالصاد وهو لغة قريش. والثابت في الإمام[٩]، وجمعه سُرُطٌ ككتب وهو كالطريق في التذكير والتأنيث.

والمستقيم: المستوي. والمراد به طريق الحق، وقيل: هو ملة الإسلام.

(٧) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الأول بدلَ الكل، وهو في حكم تكرير العاملِ من حيث إنه المقصود بالنِّسبة، وفائدتُه التوكيدُ والتنصيصُ على أن طريقَ المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكَدِ وجْهٍ وأبلغِهِ، لأنه جُعِل كالتفسير والبيان له فكأنه من البَيِّنِ الذي لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم ما يكون طريق المؤمنين. وقيل الذين أنعمت عليهم: الأنبياء، وقيل: النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابُه، وقيل: أصحاب موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام قبل التحريف والنسخ[١٠]. وقرئ صراط مَنْ أنعمت عليهم. والإنعامُ: إيصال النعمة، وهي في الأصل الحالة التي

---

(١) الأنعام «٩٠».

(٢) العنكبوت: «٦٩».

(٣) أي الأمر والدعاء يتشاركان لفظاً، فكلاهما يفيد الطلب، ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفُّل، فهو من الأعلى إلى الأدنى أمر ومن الأدنى إلى الأعلى دعاء.

(٤) ابن كثير: هو عبدالله بن كثير الداري، أحد القراء السبعة، وكان إمام الناس في القراءة بمكة، لقي من الصحابة عبدالله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري وأنس بن مالك، واشتهر بالرواية عنه ـ بواسطة أصحابه ـ البزي وقنبل، توفي عام (١٢٠)هـ بمكة.

(٥) قنبل هو محمد بن عبدالرحمن بن خالد بن محمد المخزومي المكي، يكنى أبا عمر ويلقب بقُنبل لشدته كان إماماً في القراءة ضابطاً ثقة يؤمه الناس من أقطار الأرض، أخذ القراءة عن أبي الحسن أحمد القواس عن وهب عن القسط عن شبل ومعروف، وكلاهما قرأ على ابن كثير، توفي (٢٩١)هـ.

(٦) رويس هو أبو عبدالله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري، ويعرف برويس اشتهر بالرواية عن يعقوب ويعقوب من القراء العشرة، وكان رويس من أحذق أصحاب يعقوب، توفي بالبصرة سنة (٢٣٨)هـ.

(٧) يعقوب سبقت ترجمته عند الآية «٤» من الفاتحة.

(٨) حمزة هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي، مولى عكرمة بن ربيع التيمي وكان حمزة ورعاً عالماً بكتاب الله مجوداً له، عارفاً بالفرائض والعربية، حافظاً للحديث، وهو أحد القراء السبعة، توفي بحلوان مصر عام (١٥٦)هـ.

(٩) الثابت في الإمام، أي المصحف الإمام وهو مصحف عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

(١٠) ولعل الأظهر أنهم المذكورون في قوله تعالى «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء=

يستلذها الإنسان فأطلقت لما يستلذه من النعمة وهي اللِّين، ونِعَمُ الله وإن كانت لا تحصى كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(١) تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي.

والأول قسمان: وَهْبِيّ وكَسْبِيّ، والوهبي قسمان: رُوحاني كنفخ الروح فيه وإشراقهِ بالعقل وما يتبعه من القُوى كالفهم والفكر والنظر، وجِسْماني كتخليق البدن والقُوى الحالّة فيه والهيئات العارضةِ له من الصحة وكمال الأعضاء، والكَسْبيُّ: تزكية النفس عن الرذائل وتحليتُها بالأخلاق السَّنِيَّة والمَلَكَاتِ الفاضلة. وتزيينُ البدن بالهيئات المطبوعة والحُلى المستحسنة وحصولُ الجاه والمال.

والثاني: أن يغفر له ما فَرَط منه ويرضى عنه ويبوِّئَه في أعلى عليين مع الملائكة المقربين أَبَد الآبدين. والمرادُ هو القسمُ الأخير وما يكون وُصْلةً إلى نَيْله من الآخرة فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بدلٌ من الذين، على معنى أن المنعَمَ عليهم هم الذين سلِموا من الغضب والضلال، أو صفةٌ له مُبَيِّنة أو مُقَيِّدَة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة ـ وهي نعمة الإيمان ـ وبين السلامة من الغضب والضلال، وذلك إنما يصح بأحد تأويلَين(٢): إجراءِ الموصول مجرى النكِرة إذا لم يُقْصَدُ به معهودٌ كالمُحَلَّى في قوله:

ولَقَد أمرُّ على اللئيمِ يَسُبُّني

وقولهم: إني لأَمُرُّ على الرجل مِثْلِك فيكرمني. أو جَعْلِ (غير) معْرفةً بالإضافةِ، لأنه أُضِيف إلى مالَهُ ضدٌّ واحدٌ وهو المنعَم عليهم، فيتعين تعين الحركة من غير السكون.

وعن ابن كثير نَصْبُه على الحال من الضمير المجرور، والعاملُ أنعمت أو بإضمار أعني أو بالاستثناء إن فسر النعم بما يعم القبيلين. والغضبُ: ثَوَرَانُ النفس إرادة الانتقام، فإذا أُسْنِد إلى الله تعالى أُريد به المنتهى والغايةُ على ما مر(٣). وعليهم في محل الرفع لأنه نائب مناب الفاعل بخلاف الأول. ولا مزيدةٌ لتأكيد ما في (غير) مِنْ معنى النفي(٤)، فكأنه قال: لا المغضوب عليهم ولا الضالين،

= والصالحين» النساء «٦٩» فالقرآن يفسر بعضه بعضاً.

(١) إبراهيم: «٣٤».

(٢) أي يصح اعتبار (غير) صفة للذين، والاسم الموصول معرفة، و(غير) لا يتعرف بالإضافة بأحد اعتبارين: الأول: إجراء الاسم الموصول مجرى النكرة لأنه لم يُقصد به معهود أو أن (غير) جاز اعتباره معرفة لوقوعه بين متضادين وهما معرفتان فجاز تعريفه بالإضافة (انظر توضيح ذلك في تفسير النسفي ١/٨).

(٣) أي يراد به الانتقام دون غيره من ثوران النفس لأنه لا يجوز على الله تعالى.

(٤) يذهب البيضاوي إلى القول بأن «لا» في قوله: «ولا الضالين» مزيدة، وقد جيء بها لتأكيد معنى النفي في (غير) عند قوله «غير المغضوب عليهم» ـ الفاتحة ـ.

و(لا) عند البصريين زائدة تفيد التوكيد، وعند الكوفيين بمعنى غير (النسفي ١/٨) وهذا يتطلب منا وقفة عند هذه القضية، وهي

قضية الزوائد في كتاب الله تعالى(١)

ظهرت قضية الزوائد بعد وجود المذاهب النحوية وبعد أن كثر التراشق والتشاد المذهبي بين الكوفيين =

ولذلك جاز أنا زيداً غيرُ ضارب، كما جاز أنا زيداً لا ضاربٌ، وإن امتنع أنا زيداً مثل ضارب. وقرىء وغير الضالين. والضلالُ: العدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأ، وله عرض عريض والتفاوت ما بين أدناه وأقصاه كثير.

قيل: المغضوب عليهم اليهود لقوله تعالى فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[(1)]، والضالين: النصارى لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾[(2)]، وقد روي مرفوعاً. ويتجه أن يُقال: المغضوب عليهم العصاة والضالين الجاهلون بالله[(3)]، لأن المنعَمَ عليه من وُفِّق للجمع بين معرفة

= والبصريين.. إلا أن علماء التفسير الذين لم تهيمن عليهم المذاهب النحوية وقفوا من قضية الزيادة موقفاً صريحاً وشددوا النكير على القائلين بالزيادة.

فابن جرير الطبري لا يترك فرصة تسمح له إلا وينبه على خطر هذا القول وبطلانه فعند قوله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة» ـ البقرة (٣٠) ـ. يرد على من قال بزيادة «إذ» وعند قوله تعالى: «فقليلاً ما يؤمنون» ـ البقرة «٨٨» ـ يرد على من قال بزيادة «ما».

وكذلك فعل الزمخشري حينما رد القول بزيادة «لا» عند قوله تعالى: «لا أقسم بيوم القيامة» ـ القيامة «١» ـ وإن كان يقول بالزيادة في بعض الأحيان.

وفي العصر الحديث وجد من حمل لواء الرد على القائلين بالزيادة في كتاب الله تعالى، فهذا محمد عبده يرد القول بالزيادة عند قوله تعالى: «فقليلاً ما يؤمنون» ـ البقرة «٨٨» ـ يرد على من قال بزيادة «ما»... وهذا مصطفى صادق الرافعي يعرض لقضية الزوائد في كتابه «إعجاز القرآن» ويخلص إلى القول بأن ما يسمى زائداً من حيث الإعراب له من جمال الإيقاع. وروعة النظم والزيادة في المعنى مالا يتم حسن الكلام ورونق اللفظ إلا به[(2)]. وهذا الشيخ محمد عبدالله دراز ينافح بكل حجة وبرهان مثبتاً أن كل حرف في كتاب الله إنما جاء لهدف راداً القول بالزيادة[(3)].

وهكذا وقف كثير من العلماء من قضية الزوائد موقف المعارض، مبينين أن كل حرف أو كلمة أو نحو ذلك إنما جاء لمعنى ولا تتم حقيقة المعنى إلا به.

لكنّ البيضاوي رغم قوله بالزيادة وتكراره لها في كثير من المواطن لا يقصد منها أنها لا قيمة لها بل جيء بها لتفيد التوكيد فقال: (ولا نعني بالمزيد اللغو الضائع، فإن القرآن كله هدىً وبيان، بل مالم يوضع لمعنى يراد منه، وإنما وضعت لأن تذكر مع غيرها فتفيد له وثاقة وقوة، وهو زيادة مع الهدى غير قادح فيه)[(4)].

(١) المائدة: «٦٠».

(٢) المائدة: «٧٧».

(٣) لم يلتزم البيضاوي بما ورد من أحاديث في تعيين المغضوب عليهم والضالين، وأورد تعيين المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى بلفظ قيل المنبىء بضعفه، لكنه ورد ذلك مرفوعاً وبحديث حسن أو صحيح عند أحمد (٣٧٨/٤) والترمذي وحسنه (٢٩٥٤) وابن حبان في صحيحه (١٧١٥) ص٤٢٤ من موارد الظمآن. وقد أورد ابن كثير روايات كثيرة في ذلك (تفسير ابن كثير ٢٨/١) حتى ورد عن ابن أبي حاتم قوله: (لا أعلم فيه خلافاً بين المفسرين) روح المعاني (٩٦/١).

(١) هذا بحث مختصر من بحث مخطوط بعنوان «قضية الزوائد في كتاب الله» لفضل حسن عباس.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي ص٢٣١، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص١٣٣، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، دار القلم، الكويت.

(٤) تفسير البيضاوي (٧٤/١). =

الحق لذاته والخيرِ للعمل به، وكان المقابل له من اختل إحدى قوتيه العاقلة والعاملة، والمخلُّ بالعمل فاسقٌ مغضوب عليه لقوله تعالى في القاتل عمداً: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾[١]، والمخلُّ بالعقل جاهل ضالّ لقوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[٢]. وقرىء ولا الضألين بالهمزة على لغة من جَدَّ في الهرب من ٱلتقاء الساكنين.

﴿آمين﴾ اسمُ الفِعْل الذي هو اسْتَجِبْ. وعن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ عن معناه فقال: افعل[٣]، بني على الفتح كأين لالتقاء الساكنين، وجاء مدُّ ألفِهِ وقصْرُها قال:

ويرحَمُ الله عبداً قالَ آمِينا

وقال:

أمينَ فزادَ الله ما بيننا بُعدا

وليس من القرآن وفاقاً، لكن يُسَنّ خَتْمُ السورة به لقوله عليه الصلاة والسلام «علمني جبريل آمين عند فراغي من قراءة الفاتحة» وقال: «إنه كالختم على الكتاب»[٤]. وفي معناه قول علي رضي الله

= لكن البيضاوي لم يردّ ما ورد من أحاديث مرفوعة، إلا أنه عمم لفظ المغضوب عليهم مستنداً إلى نصوص القرآن الكريم فكان المراد به العصاة، وعمم لفظ الضالين مستنداً لنصوص القرآن الكريم فكان المراد به الجاهلون بالله، ويدخل فيهم دخولاً أولياً اليهود والنصارى فإن أخص أوصاف اليهود أنهم فقدوا العمل مع علمهم بالحقيقة فاستوجب ذلك غضب الله عليهم، وأخص أوصاف النصارى أنهم فقدوا العلم فاستوجب ذلك وصفهم بالضلال، وإلا فكل من عدل عنِ الحق يوصف بالغضب عليه وبالضلال.

(١) النساء: «٩٣».

(٢) يونس: «٣٢».

(٣) وهو حديث ضعيف جداً.
أورده ابن حجر في «الكافي الشافِ» (٤/٣ رقم ٧) وقال: «أخرجه الثعلبي من رواية أبي صالح عنه بإسناد واهٍ».
قلت: علته «الكلبي» و«أبو صالح».
أما الكلبي: فهو محمد بن السائب بن بشير أبو النضر الكوفي، نسابة عالم بالتفسير والأخبار والأيام، متروك، قال الحافظ: متهم بالكذب، رمي بالرفض.
وقد كفره بعض العلماء لأنه كان يؤمن بالرجعة ـ رجعة عليّ رضي الله عنه ـ وكان يقول: كان جبريل يوحي إلى النبي ﷺ فقام النبي ﷺ لحاجته وجلس علي، فأوحى إلى علي، وكان يقول:
أنا سَبَئي. مات سنة (١٤٦هـ).
[المجروحين (٢/٢٥٣) وتهذيب التهذيب (٩/١٥٧)]
وأما أبو صالح: فهو باذام ـ ويقال: باذان ـ مولى أم هانىء، ضعيف مدلس وقال ابن حبان: كان يحدث عن ابن عباس ولم يسمع منه.
[المجروحين (١/ ١٨٥) والتقريب (١/ ٩٣)].
قلت: وساق ابن كثير الحديث في تفسيره (١/ ٣٣) من رواية جويبر، عن الضحاك عنه بلفظ: ما معنى «آمين»؟ قال: رب افعل. وجويبر بن سعيد الأزدي البلخي، نزيل الكوفة راوي التفسير ضعيف جداً. مات بعد (١٤٠هـ) [التقريب (١/ ١٣٦)].

(٤) وهو حديث ضعيف قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (٤/٣ رقم٨): لم أجده هكذا. وفي «الدعاء» =

عنه: آمين خاتم رب العالمين، ختم به دعاء عبده. يقوله الإمام ويجهر به في الجهرية لما روي عن وائل بن حجر[١] «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته»[٢].

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لا يقوله، والمشهورُ عنه أنه يُخْفِيه كما رواه عبدالله بن مغفل[٣] وأنس. والمأموم يُؤَمِّن معه لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِر له ما تقدم من ذنبه»[٤]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبيّ «ألا أخبرك بسورة لم يُنَزَّل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها. قال: قلت بلى يا رسول الله. قال: فاتحة الكتاب إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ أتاه مَلَك فقال: أَبْشِر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أُعطيتَه»[٦].

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فيسمعه الله تعالى

لابن أبي شيبة من رواة أبي ميسرة أحد كبار التابعين قال: «أقرأ جبريل عليه السلام النبي ﷺ فاتحة الكتاب، فلما قال ولا الضالين قال له قل: آمين فقال: آمين» ـ قلت: وهو مرسل ضعيف ـ. وأخرج أبو داود (١/ ٥٧٧ رقم ٩٣٨) عن أبي زُهير النميري، وكان من الصحابة، فيتحدث أحسن الحديث فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال: اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة».

وأخرجه الطبراني في كتاب الدعاء (٢/ ٨٨٨ رقم٢١٨) وفي إسناده «صُبيْحُ بن مُحْرَز الحمصي» مقبول [التقريب ١/ ٣٦٤ رقم٦٨] ولم أقف على متابع له. وقال ابن عبدالبر: إسناده ليس بالقائم [عون المعبود: (٣/ ٢١٥)]

وروى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: «آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين».

وأخرجه الطبراني في الدعاء (٢/ ٨٨٩ رقم٢١٩) وفي إسناده: المؤمل بن عبدالرحمن، وهو ضعيف [التقريب (٢/ ٢٩٠)]. وإسماعيل بن يعلى الثقفي، ضعيف جداً[الكامل: (١/ ٣٠٩ ـ ٣١١)].

وخلاصة القول إن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) وائل بن حُجْر الحضرمي القحطاني، وفد على النبي عليه السلام فرحب به وبسط له رداءه وأجلسه عليه، وشارك في الفتوح واستقر في الكوفة، وله أحاديث عن النبي ﷺ توفي (٥٠)هـ (الأعلام ٨/ ١٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٥٧٤ رقم ٩٣٣ عنه: أنه صلى خلف رسول الله ﷺ فجهر بآمين...» وسنده حسن.

وأخرجه الترمذي (٢/ ٢٧ رقم ٢٤٨) عنه: قال: سمعت النبي ﷺ قرأ: «غير المغضوب علهم ولا الضالين» فقال: آمين، ومَدَّ بها صَوْتَهُ» وقال الترمذي: حديث حسن...

وأخرجه ابن ماجة (١/ ٢٧٨ رقم ٨٥٥) عنه: قال: «صليتُ مع النبي ﷺ فلما قال «ولا الضالين» قال: آمين. فسمعناهَا» وخلاصة القول إن الحديث حسن والله أعلم.

(٣) عبدالله بن مغفل المزني، صحابي، سكن المدينة، وكان أحد العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا الناس بالبصرة، وتوفي فيها عام (٥٧)هـ وقيل غيره، وله (٤٣) ثلاثة وأربعون حديثاً (الأعلام ٤/ ١٤٠).

(٤) رواه البخاري (٧٨٢، ٤٤٧٥).

(٥) أخرجه الترمذي (٥/ ١٥٥ رقم ٢٨٧٥) وقال حديث حسن صحيح، وهو كما قال وقد تقدم.

(٦) رواه مسلم (٢٥٤).

فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة»[١] .

* * *

(١) وهو حديث موضوع:
أورده ابن حجر في «الكافي الشافِ» (٤/ ٣ رقم١٢) وقال: أخرجه الثعلبي من رواية أبي معاوية عن أبي مالك الأشجعي عن ربعي عنه. قلت: إلا أن دون أبي معاوية من لا يحتج به وله شاهد في «مسند الدارمي» ـ(٢/ ٤٣٨) ـ عن ثابت بن عجلان قال: «كان يقال إنَّ الله ليريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم الصبيان بالحكمة صرف ذلك عنهم» يعنى بالحكمة: القرآن» هـ.

سورة البقرة ٢
وآياتها ست وثمانون ومائتان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

(١) ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ وسائرُ الألفاظ التي يُتهجى بها أسماءٌ، مسمياتُها الحروف التي رُكبت منها الكَلِمُ، لدخولها في حدِّ الاسم واعتوارِ ما يُخَصُّ به من التعريف والتنكير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها، وبه صرح الخليل وأبو علي[١]. وما روى ابنُ مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنةٌ والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أقول الٓم حرف، بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[٢] . . . .

---

(١) هو الحسن بن أحمد بن عبدالغفار، أبو علي الفارسي النحوي، واحد زمانه في علم العربية، أخذ عن الزجاج وابن السراج ومبرمان وطوّق بلاد الشام وقال كثير من تلامذته إنه أعلم من المبرد. وبرع من طلبته جماعة كابن جنّي، وعلي بن عيسى الرَّبَعي، وكان متهماً بالاعتزال.
وسكن طرابلس مدة ثم حلب، واتصل بسيف الدولة.
ومصنفاته كثيرة نافعة، عاش تسعاً وثمانين سنة، مات ببغداد وفي ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلاثمئة.
[بغية الوعاة ـ (١/ ٤٩٦ ـ ٤٩٨ رقم ١٠٣٠) ـ وتاريخ بغداد (٧/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦)].

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٥ رقم ٢٩١٠) وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، وقال: يروى هذا الحديث من غير وجه عن ابن مسعود ورواه أبو الأحوص عن ابن مسعود، رفعه بعضهم، ووقفه بعضهم عن ابن مسعود.
وأخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢١٦ رقم ٦٧٩) من طريقه عنه ثم قال: لا أدري حفظه أم لا؟.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٥، ٥٦٦) من طريقين عن أبي الأحوص عنه مرفوعاً كما أخرجه موقوفاً (١/ ٥٦٦).
قال في طريق إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص: صحيح الإسناد ولم يخرجاه لصالح بن عمر. وقال الذهبي: صالح ثقة خرَّج لهُ مسلم. لكن إبراهيم بن مسلم ـ الهجري ـ ضعيف. =

فالمراد به غيرُ المعنى الذي اصطُلِحَ عليه، فإن تخصيصه به عُرْفٌ مجدَّد بل المعنى اللغوي، ولعله سماه باسم مدلوله.

ولما كانت مسمياتُها حروفاً وُحداناً وهي مركبة، صُدِّرت بها لتكون تأديتُها بالمسمّى أولَ ما يقرع السمع، واستعيرتْ الهمزة مكان الألف لِتعذُّر الابتداء بها وهي مالم تلِها العوامل موقوفةً خالية عن الإعراب لفَقْد موجبه ومقتضيه، لكنها قابلةٌ إياه ومعرضة له إذ لم تناسب مبنى الأصل ولذلك قيل: ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ مجموعاً فيهما بين الساكنين، ولم تعاملْ معاملة أَيْنَ وهؤلاء. ثم إن مسمياتِها لما كانت عنصرَ الكلام وبسائطَه التي يتركب منها افتُتِحت السورة بطائفة منها إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن وتنبيهاً على أن أصل المتلوِّ عليهم كلامٌ منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عَجَزُوا عن آخرهم مع تظاهُرِهم وقوة فصاحتهم عن الإتيان بما يُدانيه، وليكون أولُ ما يقرع الأسماع مستقلاً بنوعٍ من الإعجاز، فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خَطَّ ودرس، فأما مِنَ الأميِّ الذي لم يخالطْ الكتاب فمستَبْعَد مستغرَب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة، سِيَما وقد راعى في ذلك ما يعجِزُ عنه الأديبُ الأريب الفائقُ في فنِّه، وهو أنه أورد في هذا الفواتح أربعةَ عشرَ اسماً هي نصفُ أسامي حروف المعجم ـ إن لم يُعدّ فيها الألف حرفاً برأسها ـ في تسع وعشرين سورةً بعددها إذا عُدَّ فيها الألفُ الأصلية مشتملةً على أنصاف أنواعها، فذكر من المهمُوسة ـ وهي ما يضْعُف الاعتمادُ على مخرجه ويجمعها «ستشحثك خصفه» ـ نِصْفَها: الحاءُ والهاء والصاد والسين والكاف، ومن البواقي المجهورةِ نصفَها يجمعه «لن يقطع أمر»، ومن الشديدة الثمانيةِ المجموعة في (أجدت طبقك) أربعةً يجمعُها (أقطك)، ومن البواقي الرخوةِ عشرةً يجمعُها «حَمِسَ على نَصْرِه» ومن المطبَقَةِ التي هي الصّاد والضاد والطاء والظاء نصفَها، ومن البواقي المنْفَتحة نصفَها، ومن القلقلة ـ وهي: حروفٌ تضْطرب عند خروجها، ويجمعُها (قد طبج) ـ نصفَها الأقلَّ لقلتها، ومن اللِّينتيْن الياءَ لأنها أقل ثِقَلاً، ومن المستَعْلِيَة ـ وهي: التي يتصعّد الصوتُ بها في الحنك الأعلى، وهي سبعة القاف والصاد والطاء والخاء والغين والضاد والظاء ـ نصفَها الأقل، ومن البواقي المنخفضة نصفَها، ومن حروف البدل ـ وهي أحدَ عشرَ على ما ذكره سيبويه[1]، واختاره ابن جني[2] ويجمعُها «أحد طويت» ـ منها الستةَ .

= وقال في طريق عاصم بن أبي النَّجُود عنه: صحيح الإسناد، وسكت الذهبي عنه.
وأخرجه الدارمي (٢/٤٢٩) من طريق أبي الأحوص عنه موقوفاً عليه. ووصله الخطيب في تاريخ بغداد (١/ ٢٨٥) بهذا الطريق وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص٢٧٩ رقم ٨٠٨) من طريق شريك عن أبي أسحاق عن أبي الأحوص عنه موقوفاً عليه.
وشريك سيء الحفظ، وأورد الألباني الحديث في «الصحيحة» رقم (٦٦٠) وصححه في تخريج «المشكاة» (١/ ٦٥٩ رقم ٢١٣٧).

(١) سيبويه هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، إمام النحاة وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز عام (١٤٨)هـ وقدم البصرة ولزم الخليل بن أحمد ففاقه، ورحل إلى بغداد وناظر الكسائي، وتوفي بالأهواز عام (١٨٠)هـ (الأعلام ٥/ ٨١).

(٢) هو عثمان بن جنِّي أبو الفتح النحوي.
من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف. قال في دمية القصر: وليس لأحد من أئمة الأدب في فتح =

الشائعةَ المشهورة التي يجمعها «أهطمين» وقد زاد بعضهم سبعةً أخرى وهي اللام في (أصيلال) والصاد والزاي في (صراط وزراط) والفاء في (أجداف) والعين في (أعن) والثاء في (ثروغ الدلو) والباء في «باسمك» حتى صارت ثمانيةَ عشرَ، وقد ذَكَرَ منها تسعةً: الستةُ المذكورة واللام والصاد والعين. ومما يُدْغَم في مثله ولا يدغم في المقارِبِ ـ وهي خمسةَ عشرَ: الهمزة والهاء والعين والصاد والطاء والميم والياء والخاء والغين والضاد والفاء والظاء والشين والزَاي والواو ـ نصفَها الأقل. ومما يدغم فيهما ـ وهي الثلاثة عشر الباقية ـ نصفَها الأكثر: الحاء والقاف والكاف والراء والسين واللام والنون، لِمَا في الإدغام من الخِفَّة والفصاحة، ومن الأربعةِ التي لا تُدْغَمُ فيما يقاربُها ويُدْغَم فيها مُقَارِبُها ـ وهي: الميم والزاي والسين والفاء ـ نصفَها.

ولما كانت الحروفُ الذَّلْقيَّةُ التي يُعْتَمدُ عليها بذِلْقِ اللسان ـ وهي ستةٌ يجمعُها (ربّ مُنْفل) ـ والحَلْقِيَّةُ التي هي الحاء والخاء والعين والغين والهاء والهمزة كثيرةَ الوقوع في الكلام ذكر ثُلُثَيْهما. ولما كانت أبنيةُ المزيد لاَ تتجاوزُ عن السُّباعية ذكر من الزوائدِ العشَرَة التي يجمعُها (اليوم تنساه) سبعةَ أحرف منها تنبيهاً على ذلك، ولو استقرَيْت الكَلِمَ وتراكيبَها وجدتَ الحروف المتروكة من كل جنس مَكْثُورةً بالمذكورة، ثم إنه ذكرها مفردةً وثنائيةً وثلاثيةً ورُباعيةً وخُماسيّة إيذاناً بأن المتحدى به مُركَّب من كلماتهم التي أصولُها كلماتٌ مفردة، ومركبة من حرفين فصاعداً إلى الخمسة، وذَكَرَ ثلاثَ مفردات في ثلاث سور لأنها توجَدُ في الأقسام الثلاثة: الاسمَ والفعل والحرفَ، وأربعَ ثنائياتٍ لأنها تكون في الحرف بلا حذف كـ «بل»، وفي الفعل بحذف ثقل كـ «قل» وفي الاسم بغير حذف كـ «من»، وبه كـ «دم» في تسع سور لوقوعها في كل واحد من الأقسام الثلاثة على ثلاثة أوجه: ففي الأسماء من وإذ وذو، وفي الأفعال قل وبع وخف، وفي الحروف مِنْ وإن ومُذْ ـ على لغة من جَرَّبهَا ـ وثلاثُ ثلاثيات لمجيئها في الأقسام الثلاثة في ثلاثَ عشْرَة سورةً تنبيهاً على أن أصول الأبنية المستعملةَ ثلاثةَ عشَرَ عَشْرةٌ منها للأسماء وثلاثة للأفعال ورباعيتين وخماسيتين تنبيهاً على أن لكل منهما أصلاً، كجعفر وسفرجل، ومُلحقاً: كقِرْدَد وجَحَنْفَل، ولعلها فُرِّقت على السور ولم تعد بأجمعها في أول القرآن لهذه الفائدة مع ما فيه من إعادة التحدي وتكريرِ التنبيه والمبالغةِ فيه.

والمعنى: أن هذا المتحدَّى به مؤلفٌ من جنس هذه الحروف، أو المؤلفُ منها، كذا وقيل: هي أسماء للسور، وعليه إطباق الأكثر، سُمِّيت بها إشعاراً بأنها كلماتٌ معروفةُ التركيب، فلو لم تكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتُهم دون معارضتها. واستُدِلّ عليه بأنها لو لم تكن مُفْهِمَةً كان الخطابُ بها كالخطاب بالمهْمَل والتكلم بالزنجيّ مع العربي، ولم يكن القرآن بأسره بياناً وهدىً، ولما أمكن التحدي به. وإن كانت مُفْهِمَة، فإما أن يُرادَ بها السورُ التي هي مستهلُّها على أنها ألقابُها أو

= المقفلات، وشرح المشكلات ماله، سيما في علم الإعراب.

صنف: الخصائص في النحو، سر الصناعة، شرح تعريف المازني، شرح مستغلق الحماسة، شرح المقصور والممدود، شرحان على ديوان المتنبي، اللمع في النحو، وغير ذلك.

مولده قبل الثلاثين وثلاثمائة، ومات لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. [بغية الوعاة (٢/ ١٣٢ رقم ١٦٢٥)].

غير ذلك، والثاني باطل، لأنه إما أن يكون المرادُ ما وضعت له في لغة العرب فظاهرٌ أنه ليس كذلك، أو غيرُه، وهو باطل، لأن القرآن نزل على لغتهم لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1] فلا يُحْمَلْ على ما ليس في لغتهم.

لا يقال: لم لا يجوز أن تكون مزيدةً للتنبيهِ والدلالةِ على انقطاع كلام واستئناف آخر ـ كما قاله قطرب؟ ـ أو إشارةٌ إلى كلمات هي منها اقتُصِرت عليها اقتصارَ الشاعرِ في قولَه:

قلتُ لها قفي فقالتْ قَافْ

كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: الألفُ آلاء الله واللام لفظه والميم مُلْكُه، وعنه أن ألرآ وحمٓ ونٓ مجموعها الرحمن، وعنه أن آلٓم معناه: أنا الله أعلم، ونحو ذلك في سائر الفواتح، وعنه أن الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد، أي: القرآن منزَّلٌ من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام. أو[2] إلى مُدَدِ أقوام وآجالٍ بحساب الجُمَّل، كما قال أبو العالية[3] متمسكاً بما روى: «أنه عليه الصلاة والسلام لَمَّا أتاه اليهودُ تَلا عليهم آلٓم البقرة. فحَسَبُوه وقالوا: كيف نَدْخُل في دينٍ مُدَّته إحدى وسبعون سنة. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا: فهل غيره؟ فقال: المصٓ والرٓ والمٓر. فقالوا: خلطْتَ علينا فلا ندري بأيها نأخذ»[4]. فإنّ تلاوتَه إياها بهذا الترتيب عليهم وتَقْريرُهم على استنباطهم دليلٌ على ذلك. وهذه الدَّلالةُ وإن لم تكن عربيةً لكنّها لاشتهارها فيما بين الناس حتى العربُ تُلْحِقُها بالمُعْرَبات كالمشكاةِ والسجيل والقسطاس، أو دلالةٌ على الحروف المبسوطة مُقْسَماً بها لشرفها من حيث إنها بَسَائطُ أسماء الله تعالى ومادةُ خطابه.

هذا وإن القول بأنها أسماءُ السور يخرجها إلى ما ليس في لغة العرب، لأن التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستكْرَه عندهم ويؤدي إلى اتحاد الاسم والمسمى، ويستدعي تأخرَ الجزء عن الكل من حيث إن الاسم متأخرٌ عن المسمى بالرتبة، لأنا نقول: إن هذه الألفاظ لم تُعْهَد مزيدةً للتنبيهِ والدَّلالة على الانقطاع، والاستئنافُ يلزمُها وغيرَها من حيث إنها فواتحُ السور، ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لها معنى في حيزها ولم تستعمل للاختصار من كلمات معينة في لغتهم، أما الشعرُ فشاذّ، وأما قول ابن عباس فتنبيهٌ على أن هذه الحروف منبع الأسماء ومبادىء الخطاب وتمثيل بأمثلة حسنة، ألا ترى أنه عدّ كل حرف من كلمات متباينَة لا تفسير، وتخصيصٌ بهذه المعاني دون غيرها إذ لا مخصِّص لفظاً ومعنىً ولا بحساب الجُمَّل فتُلْحَق بالمعْرَبات، والحديثُ لا دليلَ فيه، لجواز أنه عليه الصلاة والسلام تبسم تعجباً من جهلهم، وجَعْلِها مُقْسَماً بها وإن كان غير ممتنع لكنه يُحْوِج إلى إضمار أشياءَ لا دليل عليها، والتسميةُ بثلاثة أسماء إنما تمتنع إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً على طريقة بَعْلَبَكّ فأما إذا

---

(١) الشعراء: «١٩٥».

(٢) عطف على قوله (إشارة إلى كلمات...).

(٣) أبو العالية هو: رفيع بن مهران الرياحي البصري، من كبار التابعين، ثقة، كثير الإرسال في رواية الأحاديث، توفي (١٠٦)هـ. انظر تقريب التهذيب (١/ ٢٥٢).

(٤) رواه البخاري في تاريخه (٢/ ٢٠٨) في ترجمة جابر بن عبدالله بن رئاب، ورواه ابن جرير (١/ ٩٢ ـ ٩٣) من طريق ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وإسناده ضعيف لضعف الكلبي.

نُثِرت نثرَ أسماء العدد فلا، وناهيك بتسويةِ سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وطائفة من أسماء حروف المعجم، والمسمى هو مجموع السورة والاسمُ جزؤها فلا اتحاد، وهو مقدَّم من حيث ذاته مؤخر باعتبار كونه اسماً، فلا دور لاختلاف الجهتين. والوجه الأول[١] أقرب إلى التحقيق وأوفقُ لِلَطائفِ التنزيل وأسلمُ من لزوم النقل ووقوعِ الاشتراك في الأعْلام من واضع واحد فإنه يعود بالنقض على ما هو مقصود بالعَلَمِيّة. وقيل: إنها أسماءَ القرآن ولذلكَ أُخبِر عنها بالكتاب والقرآن.

وقيل: إنها أسماء الله تعالى، ويدل عليه أن علياً كرم الله وجهه كان يقول: يا كهيعصَ، ويا حمعسقَ، ولعله أراد يا منزلَهما.

وقيل الألف: من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج، واللام: من طرف اللسان وهو أوسطها، والميم: من الشفة وهو آخرها جمع بينها إيماءً إلى أن العبد ينبغي أن يكون أولُ كلامه وأوسطه وآخره ذكرَ الله تعالى.

وقيل: إنه سرٌّ استأثره الله بعلْمِه وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلهم أرادوا أنها أسرارٌ بيْنَ الله تعالى ورسوله ورموزٌ لم يُقصد بها إفهام غيره إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد. فإن جعلتَها أسماءَ الله تعالى أو القرآنَ أو السورَ كان لها حظٌّ من الإعراب إما الرفعُ على الابتداء، أو الخبرُ، أو النصبُ بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلنّ بالنصب أو غيرُه كما ذُكِرَ، أو الجرُّ على إضمار حرف القسَم، ويتأتى الإعراب لفظاً والحكايةُ فيما كانت مفردة أو موازنة لمفرد كحمَ فإنها كهابيلَ، والحكايةُ ليست إلا فيما عدا ذلك، وسيعود إليك ذكْرُه مفصلاً إن شاء الله تعالى، وإن أبقيتَها على معانيها فإن قَدَّرْتَ بالمؤلَّفِ من هذه الحروف كان في حيِّزِ الرفع بالابتداء أو الخبر على ما مر، وإن جَعَلْتَها مُقْسَماً بها يكونُ كلُّ كلمة منها منصوباً أو مجروراً على اللغتين في الله لأفعلنّ، وتكون جملةً قَسَمِيَّةً بالفعل المقدَّر له، وإن جعلتها أبعاضَ كلماتٍ أو أصواتاً مُنَزَّلةً منزلةَ حروف التنبيه لم يكن لها محلٌّ من الإعراب كالجُمَلِ المبتدأة والمفردات المعدودة ويوقَفُ عليها وَقْفَ التَّمامِ إذا قدِّرت بحيث لا تحتاج إلى ما بعدها، وليس شيءٌ منها آيةً عند غير الكوفيين. وأما عندَهم فالَم في مواضعها، والمصَ وكهيعصَ وطه وطسمَ وطسَ ويسَ وحمَ آيةٌ، وحمعسقَ آيتان، والبواقي ليست

---

(١) وهو أن هذه الحروف افتتحت بها السورة إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن، وتنبيهاً على أن أصل المتلوّ عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن الإتيان بما يدانيه.

ولعل هذا القول هو أكثر الآراء شيوعاً بين المفسرين. ولا شك أن في ذلك سرٌّ من أسرار علم الكتاب، ولم يرد في تفسير ذلك شيء عن رسول الله ﷺ يمكن الاعتماد عليه.. وقد ناقش الشوكاني الآراء المذكورة في ذلك وخلص إلى القول بأن الأسلم أن لا يتكلم فيه المرء بشيء، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفهامنا. (فتح القدير ١/ ٣٢).

ويذهب الألوسي ـ بعد استعراض الأقوال في ذلك ـ إلى أن ذلك علم مستور وسر محجوب عَجَزت العلماء عن إدراكه... ثم يبين الفائدة في ذلك فيقول: (إن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وَقْعُه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود منه ـ مع القطع بأن المتكلم به حكيم ـ فإنه يبقى قلبه منقلباً إليه أبداً ومتلفتاً نحوه سرمداً...) (روح المعاني ١/ ١٠١).

بآيات، وهذا توقيفٌ لا مجال للقياس فيه.

(٢) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ذلك إشارة إلى آلم إن أُوِّل بالمؤلَّفِ من هذه الحروف أو فُسر بالسورة أو القرآن، فإنه لما تُكلِّم به وتَقَضَّى أو وصل من المرسِلِ إلى المرسَل إليه صار متباعداً أشير إليه بما يُشار به إلى البعيد[١]، وتذكيرُه ـ متى أريد بآلم السورة ـ لتذكير الكتاب فإنه خبره أو صفته الذي هو هو، أو إلى الكتاب فيكون صفتَه، والمرادُ به الكتابُ الموعود إنزالُه بنحو قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٢]، أو في الكتب المتقدمة. وهو مصدر سمي به المفعول للمبالغة.

وقيل فِعال بمعنى المفعول كاللباس، ثم أطلق على المنظوم عبارةً قبْل أن يُكتَب لأنه مما يكتب. وأصل الكَتْبِ الجمعُ ومنه الكتيبة.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معناه: أنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتابُ العاقلُ بعد النظر الصحيح في كونه وحياً بالغاً حد الإعجاز لا أن أحداً لا يرتاب فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[٣] الآية. فإنه ما أَبْعَد عنهم الريْبَ بل عرَّفَهم الطريق المُريح له، وهو أن يجتهدوا في معارضة نجْم من نُجومه[٤] ويبذُلوا فيها غاية جَهْدهم حتى إذا عجَزوا عنها تحقق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

وقيل: معناه لا ريب فيه للمتقين. وهدىً حال من الضمير المجرور، والعاملُ فيه الظرفُ الواقع صفةً للمنفيِّ. والريْب في الأصل مصدر رابَني الشيءُ إذا حصل فيك الريبة، وهي قلقُ النفس واضطرابُها، سُمِّي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة. وفي الحديث «دع ما يَريبك إلى مالا يَريبك، فإن الشك رِيبة والصدقَ طمأنينة»[٥] ومنه رِيَبُ الزمان لنوائبه.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يهديهم إلى الحق. والهدى في الأصل كالسُّرى والتقى ومعناه الدَّلالة.

وقيل: الدلالة الموصلة إلى البُغْية لأنه جُعل مقابل الضلالة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ

(١) أشير إلى الكتاب باسم الإشارة البعيد «ذلك» بسبب علوّ شأنه وكونه في الغاية القصوى من الفضل والشرف، فالبعد فيه بُعْدٌ معنوي وليس مكانياً. وسماه كتاباً لأن مآله الكتابة.. ويراد به جميع القرآن وإن لم يتم نزوله، إما باعتبار تحققه في علم الله عز وجل، أو باعتبار ثبوته في اللوح المحفوظ أو باعتبار نزوله جملة للسماء الدنيا. (أبو السعود ١/ ٢٣).

(٢) المزمل: «٥».

(٣) البقرة: «٢٣».

(٤) أي جزء من أجزائه.

(٥) وهو حديث صحيح:
أخرجه الحاكم (٢/ ١٣) والطبراني في الكبير (٣/ ٧٥، ٧٦ رقم ٢٧٠٨، ٢٧١١) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٥٢ رقم ٥٧٤٧) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٦٤) والترمذي (٤/ ٦٦٨ رقم ٢٥١٨) والنسائي (٨/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨ رقم ٥٧١١) والطيالسي (ص١٦٣ رقم ١١٧٨) وأحمد (١/ ٢٠٠). قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وهو كما قالا، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ١٥٥ ـ ١٥٦ رقم ٢٠٧٤).

مُّبِينٍ﴾[١] ولأنه لا يقال مَهْديّ إلا لمن اهتدى إلى المطلوب. واختصاصُه بالمتقين لأنهم المهتدون به والمنتفعون بنصه وإن كانت دَلالتُه عامة لكل ناظر من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٢]، أو لأنه لا ينتفع بالتأمل فيه إلا من صَقَل العقل واستعمله في تدبر الآيات والنظر في المعجزات وَتَعرَّف النبوات، لأنه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة فإنه لا يجلب نفعاً مالم تكن الصحة حاصلة، وإليه أشار بقوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٣]. ولا يقدح ما فيه من المجمل والمتشابه في كونه هدى لما لم ينفكَّ عن بيانٍ يعيِّنُ المرادَ منه.

والمتقي: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى. والوقاية: فَرْط الصيانة. وهو في عرف الشرع اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلَّد بالتبرّي من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٤].

والثانية: التجنبُ عن كل ما يؤثم، من فعلٍ أو ترك، حتى الصغائرُ عند قوم، وهو المتعارَف باسم التقوى في الشرع، وهو المعني بقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾[٥].

والثالثة: أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشرِّ أشرَّه، وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[٦] وقد فُسِّر قوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ههنا على الأوجه الثلاثة[٧].

واعلم أن الآية تحتمل أوْجهاً من الإعراب: أن يكون الٓمٓ مبتدأ على أنه اسم للقرآن أو السورة أو مُقدَّرٌ بالمؤلَّف منها، وذلك خبرُه ـ وإن كان أخصَّ من المؤلَّف مطلقاً ـ، والأصلُ أن الأخص لا يُحمَل على الأعمّ لأنَّ المرادَ به المؤلَّفُ الكامل في تأليفه البالغُ أقصى درجات الفصاحة ومراتبِ البلاغة، والكتابُ صفةُ ذلكَ.

وأن يكون الٓمٓ خبرُ مبتدإٍ محذوف وذلك خبراً ثانياً، أو بدلاً والكتابُ صفتُه. ولا ريْبَ في المشهورة مبنيٌّ، لتضمُّنِه معنى مِنْ، منصوبُ المحلِّ على أنه اسم لا النافية للجنس العاملَةِ عمل إنَّ،

---

(١) سبأ: «٢٤».
(٢) البقرة: «١٨٥».
(٣) الإسراء: «٨٢».
(٤) الفتح: «٢٦».
(٥) الأعراف: «٩٦».
(٦) آل عمران: «١٠٢».
(٧) وحقيقة التقوى هي تجنب الشبهات، وهو الورع، فيبتعد عن كثير من الحلال خشية الوقوع في الحرام، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس». رواه الترمذي (٢٤٥١) وقال: حديث غريب. وله شواهد.

لأنها تقتضيها ولازمةٌ للأسماء لزومَها. وفي قراءة أبي الشعثاء(١) مرفوعٌ بِلا التي بمعنى ليْس، وفيه خبرُه، ولم يُقَدَّمْ كما قُدِّم في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾(٢) لأنه لم يُقصد تخصيصُ نفيِ الريبِ به من بين سائر الكتب كما قُصد ثَمَّةَ(٣)، أو صفتُه وللمتقين خبرُه. وهدىً نُصِبَ على الحال، أو الخبرُ محذوفٌ كما في لا ضير. فلذلك وقف على لا ريب، على أن فيه خبر هدى قُدِّم عليه لتنكيره، والتقديرُ: لا ريب فيه، فيه هدى، وأن يكون ذلك مبتدأ والكتاب خبرُه على معنى: أنه الكتاب الكامل الذي يستأهل أن يُسمى كتاباً، أو صفتُه وما بعده خبره والجملة خبرُ آلم.

والأوْلى أن يُقال: إنها جُمَل متناسقة تقرر اللاحقةُ منها السابقةَ ولذلك لم يُدخِل العاطفَ بينهما، فآلم جملة دلت على أن المتحدى به هو المؤلَّفُ من جنس ما يُرَكِّبون منه كلامَهم، وذلك الكتاب جملةٌ ثانية مقرِّرة لجهة التحدي، ولا ريب فيه جملة ثالثة تَشْهد على كماله بأن الكتاب المنعوتَ بغاية الكمال، إذ لا كمال أعلى مما للحق واليقين، وهدىً للمتقين بما يُقدَّر له مبتدأ جملةٌ رابعةٌ تؤكِّد كونَه حقاً لا يحوم الشك حولَه بأنه هدى للمتقين؛ أو تَسْتَتْبع السابقةُ منها اللاحقةَ استتباعَ الدليل للمدلول، وبيانُه أنه لما نبَّه أولاً على إعجاز المتحدى به من حيث إنه من جنس كلامهم وقد عَجَزوا عن معارضته استُنتج منه أنه الكتاب البالغُ حدَّ الكمال واستلزم ذلك أن لا يتشبث الريب بأطرافه إذ لا أنقص مما يعتريه الشك والشبهة، وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين. وفي كل واحدة منها نكتة ذات جزالة، ففي الأولى الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل، وفي الثانية فخامة التعريف، وفي الثالثة تأخير الظرف حذراً عن إيهام الباطل، وفي الرابعة الحذف والتوصيف بالمصدر للمبالغة. وإيرادُه منكَّراً للتعظيم. وتخصيصُ الهدى بالمتقين باعتبار الغاية وتسميةَ المشارِفِ للتقوى متقياً إيجازاً وتفخيماً لشأنه.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إما موصولٌ بالمتقين على أنه صفةٌ مجرورة مقيِّدة له ـ إنْ فسر التقوى بترك مالا ينبغي ـ مترتِّبةٌ عليه ترتبَ التَّحْلية على التخلية والتصويرِ على التصقيل، أو موضِّحةٌ ـ إن فُسِّر بما يعم فِعْلَ الحسناتِ وتركَ السيئات ـ لاشتماله على ما هو أصلُ الأعمالِ وأساسُ الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر الطاعات والتجنب عن المعاصي غالباً، ألا ترى إلى قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(٤). وقوله عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين» و«الزكاة قنطرة الإسلام»(٥). أو

---

(١) أبو الشعثاء لم أجده.

(٢) الصافات: «٤٧».

(٣) بمعنى أنه لم يَقْصد نفي الريب عن الكتاب وإثباته لبقية الكتب، أي أنه اختص من بين الكتب ومنها السماوية بأنه لا ريب فيه، وقد ارتاب فيه منافقون ونحوهم، ولهذا قدم الريب وأخر الظرف لأنه لم يقصد التخصيص. ويريد القول: بأنه لا يحق لأحد أن يرتاب فيه.
أما في قوله تعالى: «لا فيها غوْل» ـ الصافات «٤٧» ـ فقد قصد التخصيص أي أن خمر الآخرة يخالف خمر الدنيا، بحيث أن خمر الدنيا يُذهب العقل أما خمر الآخرة فخصصه بأنه لا يذهب العقل، ولذلك قدم الظرف (فيها) في هذا الموطن.

(٤) العنكبوت: «٤٥».

(٥) قوله عليه السلام «الصلاة عماد الدين. والزكاة قنطرة الإسلام» يوهم أن ذلك حديث واحد، وليس كذلك، بل=

مسوقةٌ للمدح بما تضمنه المتقين. وتخصيصُ الإيمان بالغيب وإقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة بالذِّكْر إظهارٌ لفضلها على سائر ما يدخل تحت اسم التقوى. أو على أنه مدح منصوب، أو مرفوع بتقدير أعني أو هم الذين. وإما مفصولٌ عنه مرفوع بالابتداء وخبرُه أولئك على هدى، فيكونُ الوقفُ على المتقين تاماً.

= هما حديثان:

الأول: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩ رقم ٢٨٠٧) عن عمر قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله أيُّ شيءٍ أحبُّ عند الله في الإسلام. قال: «الصلاة لوقتها ومن ترك الصلاة فلا دين له، والصلاة عماد الدين». قال أبو عبدالله ـ أي الحاكم ـ عكرمة لم يسمع من عمر، وأظنُّ أراد عن ابن عمر ـ يعني رواه عن ابن عمر فإنه لقيه وسمع منه ـ.

انظر «المراسيل» لابن أبي حاتم: ص١٥٨ رقم ٥٨٦).

فالحديث ضعيف. وقد رمز لضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» ص٣١٩ رقم ١٥٨٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٥٦٨).

● وله شاهد من حديث علي بن أبي طالب بلفظ «الصلاةُ عماد الدين والجهاد سنامُ العَمَل، والزكاة بين ذلك» أخرجه الديلمي في مسند الفردوس والأصبهاني في الترغيب ـ كما في فيض القدير (٤/ ٢٤٨) ـ.

وقال المناوي: فيه الحارث ضعيف جداً، وذَهِل ابنُ الصلاح في مشكل الوسيط قال هذا غير صحيح ولا معروف فكأنه لم يظفر به. وهو حديث ضعيف. رمز السيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٥١٨٧) لضعفه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٥٦٧) وانظر «تلخيص الحبير» (١/ ١٧٣).

● وله شاهد آخر من حديث معاذ بلفظ «رأس هذا الأمر الإسلام، ومن أسلم سَلِم، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، لا يناله إلاّ أفضلُهم» أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٥٥ رقم ٩٦) وفيه «علي بن يزيد الألهاني» متروك الحديث قال النسائي في الضعفاء والمتروكين رقم (٤٥٥).

● وحديث معاذ هذا روي من طرق أخرى بسياق طويل ورد فيه «عمود الصلاة».

أخرجه الترمذي (٥/ ١١ رقم ٢٦١٦) وابن ماجة (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣) وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٧) وعبد بن حميد، رقم (١١٢) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ١٩٦ و١٩٧) وهناد في الزهد (رقم: ١٠٩٠، ١٠٩١) والحاكم (٢/ ٧٦) و(٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣).

والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٤٣، ١٤٤ رقم ٢٩٢ و٢٩٣ و٢٩٤) و(٢٠/ ١٤٧، ١٤٨ رقم ٣٠٤ و٣٠٥) كلهم من طرق عن معاذ بن جبل، وبعضهم مطولاً، وبعضهم مُقتصراً على قوله «رأس هذا الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي والبيهقي.

وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٤٠٣ ـ ٤٠٤) رقم (٢٩) بضعف الحديث ومال الألباني في الإرواء (رقم: ٤١٣) إلى ضعف الحديث.

(وأما الحديث الثاني): فقد أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي الدرداء. كما في مجمع الزوائد (٣/ ٦٢) وقال الهيثمي: «رجاله موثقون إلا أن (بقيّة) مدلس وهو ثقة» وكذلك أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٩٥ رقم ٣٣١٠) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٨٣ رقم ٢٧٠) وابن عدي في الكامل (٤/ ١٤١٧) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٤٩٣ رقم ٨١٤) وقال: لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (٤/ ٤ رقم ٢١) رواه إسحاق في مسنده من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه به سواء وفيه الضحاك بن حُمره. وهو ضعيف.

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣/ ٢٠١ رقم ٣١٩١).

والإيمانُ في اللغة عبارة عن التصديق مأخوذٌ من الأَمْن، كأن المصدِّق أَمِنَ المصدَّق من التكذيب والمخالفة. وتعديتُه بالباء لتضمنه معنى الاعتراف. وقد يُطلَق بمعنى الوثوق من حيثُ إن الواثق بالشيء صارَ ذا أمنٍ منه، ومنه ما أمنْتُ أن أجد صحابةً، وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب.

وأما في الشرع: فالتصديقُ بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيدِ والنبوة والبعث والجزاء، ومجموعُ ثلاثةِ أمورٍ: اعتقادُ الحق والإقرار به والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة[١] والخوارج[٢] فمن أخلّ بالاعتقاد وحدَه فهو منافق[٣]، ومن أخل بالإقرار فكافر[٤]، ومن أخل بالعمل ففاسق وِفاقاً، وكافر عند الخوارج، وخارج عن الإيمان غيرَ داخل في الكفر عند المعتزلة. والذي يدل على أنه التصديقُ وحده: أنه سبحانه وتعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[٥]، ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٦]، ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[٧]، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٨]، وعطف عليه العمل الصالح في مواضعَ لا تحصى، وقرنه بالمعاصي

---

(١) المعتزلة: تنفي الصفات عن الله تعالى خوفاً من التشبيه كما يزعمون، ولذا تأولوا جميع الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وأثبتها رسول الله ﷺ ومن ذلك صفة الكلام لله تعالى فجعلوا القرآن الذي هو كلام الله متصلاً بباب العدل الذي هو أحد أصول التوحيد الخمسة عندهم ووجه اتصاله أن القرآن فعل من أفعال الله وباب العدل كلام في أفعاله وعلى هذا فهم يقولون: القرآن كلام الله ووحيه، وهو مخلوق محدث، ونعرف هذا بأحد طريقين:
(أ) أن يكون واقعاً على وجه لا يصح وقوعه على ذلك الوجه من القادرين بالقدرة كأنه يوجد في حصاة أو شجرة أو حجر أو غير ذلك.
(ب) أن يخبرنا نبي صادق.
انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص٥٢٧ ـ ٥٣٩) وقد فصل الأشعري كلام المعتزلة في كتابه المقالات (١/ ٢٦٧) «ولا شك أن هذا مخالف لما عليه سلف الأمة الذين أثبتوا صفات الكمال لله سبحانه وتعالى حسب ما جاء في القرآن والسنة ومن ذلك صفة الكلام فالله يتكلم متى شاء وإذا شاء، وهي من صفات الأفعال، وقد كفَّر السلف من تأول تلك الصفة على نحو تأويل المعتزلة وغيرهم، وقد حكى بعض تلك الأقوال البخاري في كتابه «خلق أفعال العباد» (ص٢٩ ـ ٤٦) تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة والإمام أحمد في كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة» (ص١٣٠ ـ ١٣٤) تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة.

(٢) الخوارج: سموا بهذا الاسم، لخروجهم على الإمام علي رضي الله عنه ونزلوا بأرض يقال لها حروراء فسموا بالحرورية وهم الذين يكفرون أصحاب الكبائر ويقولون بأنهم مخلدون في النار. كما يقولون بالخروج على أئمة الجور وأن الإمامة جائزة في غير قريش وهم يكفرون عثمان وعلياً وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، ويعظمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما [الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١١٤ ـ ١١٥) ومقالات الإسلاميين ص٨٦].

(٣) يريد بالنفاق نفاق الاعتقاد وهو إبطان الكفر وإظهار الإسلام.

(٤) الإخلال بالإقرار هو: أن ينطق بما يخالف الإيمان، كأن يتلفظ بالكفر ونحوه مع عدم ما يبرره من خوف حقيقي ونحوه «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان».

(٥) المجادلة: «٢٢».

(٦) النحل: «١٠٦».

(٧) المائدة: «٤١».

(٨) الحجرات: «١٤».

فقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾[٢]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[٣] مع ما فيه من قلة التغيير فإنه أقربُ إلى الأصل وهو مُتعَيِّن الإرادة في الآية، إذْ المعدّى بالباء هو التصديقُ وفاقاً. ثم اختُلف في أن مجردَ التصديق بالقلب هل هو كاف ـ لأنه المقصود ـ أم لابد من انضمام الإقرار به للمتمكن منه؟ ولعل الحقَّ هو الثاني، لأنه تعالى ذم المعانِدَ أكثر من ذمِّ الجاهلِ المقصر، وللمانع أن يجعلَ الذمَّ للإنكار لا لعدم الإقرار للمتمكن منه[٤].

والغيبُ مصدرٌ وُصف به للمبالغة، كالشهادة في قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾[٥] والعربُ تسمي المطمئنّ من الأرض والخمْصة التي تلي الكلية غَيْباً، أو فَيْعَل خففَ كقيل، والمرادُ به الخفيّ الذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهة العقل. وهو قسمان: قسم لا دليل عليه وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٦] وقسم نُصِبَ عليه دليلٌ كالصانعِ وصفاتِهِ واليوم الآخر وأحواله وهو المراد به في هذه الآية، هذا إذا جعلته صلةً للإيمان وأوقعته موقعَ المفعول به، وإن جعلتَه حالاً على تقدير ملتبسين بالغيب كان بمعنى الغَيْبة والخفاء. والمعنى أنهم يؤمنون غائبين عنكم لا كالمنافقين الذين إذا لقُوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. أو عن المؤمن به لما روي أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية[٧]. وقيل المراد بالغيب: القلب لأنه

---

(١) الحجرات: «٩».

(٢) البقرة: «١٧٨».

(٣) الأنعام: «٨٢».

(٤) قضية تعريف الإيمان وهل يدخل فيه العمل؟ وهل يكفي مجرد التصديق؟... الأولى أن يكون فيه أن الإيمان في أصله يفيد التصديق، والتصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، والقلب هو مقرّ التصديق وأساس الإيمان، واللسان يصدق ما وقر في القلب أو يكذبه فإن ظهر لنا تصديق اللسان أقررنا بذلك، وما كان في القلب فأمره إلى الله لأنه وجده هو الذي يطلع على السرائر، فإن خالف اللسانُ فنحكم بالظاهر. وكذا تصديق الجوارح فإن صدقت الجوارحُ الإيمان حكمنا به، وإن وقع من الجوارح ما يناقض الإيمان فنحكم بالظاهر، فمن أهان القرآن حكمنا بكفره.

وهكذا فإن التصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، وعليه فالعمل ليس داخلاً في أصل الإيمان بل دليل عليه ومصدق له، فإن ظهر من العمل ما يناقض الإيمان حكمنا به.

أما هل يكفي مجرد التصديق؟ أقول: مجرد التصديق القلبي كاف عند الله تعالى للنجاة من الخلود في النار وإن لم يعمل بأي عمل صالح بشرط أن لا يظهر منه ما يناقض الإيمان، وغير كاف عند العبد لأن العبد لا يطلع على القلوب إنما يحكم بالظاهر فيحكم على القول والعمل.

(٥) التوبة: «٩٤».

(٦) الأنعام: «٥٩».

(٧) وهو حديث صحيح.

أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

مستور، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كمن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. فالباء على الأول للتعدية. وعلى الثاني للمصاحبة. وعلى الثالث للآلة.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يُعدِّلون أركانها ويحفظونَها من أن يقع زَيْغ في أفعالها مِنْ أقام العُود إذا قوَّمَه، أو يواظبون عليها من قامَت السوقُ إذا نفقت وأقمتَها إذا جعلتَها نافقة قال:

أقَـــامـــتْ غـــزالـــةُ سُـــوقَ الضِّـــرابِ لأهْـــلِ العِـــرَاقيـــنِ حَـــولاً قَمِيطـــا

فإنه إذا حوفِظ عليها كانت كالنافق الذي يُرغَبُ فيه وإذا ضُيِّعت كانت كالكاسد المرغوب عنه، أو يتشمرون لأدائها من غير فتور ولا توانٍ من قولهم قام بالأمر وأَقَامَه إذا جدّ فيه وتجلّد، وضدُّه قعد عن الأمر وتقاعد، أو يؤدونها، عَبَّر عن الأداء بالإقامة لاشتمالها على القيام كما عبَّر عنها بالقنوتِ والركوع والسجود والتسبيح. والأولُ أظهر، لأنه أَشْهَرُ وإلى الحقيقة أقربُ وأفْيَدُ، لتضمُّنه التنبيه على أن الحقيقَ بالمدح مَنْ راعى حدودها الظاهرةَ من الفرائض والسُّنن وحقوقَها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى، لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، ولذلك ذَكَر في سياقِ المدح والمقيمين الصلاة وفي معرض الذم فويل للمصلين. والصلاةُ فعلة من صلّى إذا دَعَا كالزكاة من زكى، كُتبتا بالواو على لفظ المفَخَّم، وإنما سُمي الفعل المخصوصُ بها لاشتماله على الدعاء.

وقيل: أصل صلَى حَرَّك الصِّلْوَيْن، لأن المصلي يفعله في ركوعه وسجوده، واشتهارُ هذا اللفظ في المعنى الثاني مع عدم اشتهاره في الأول لا يقدح في نقله عنه، وإنما سمي الداعي مُصَلِّياً تشبيهاً له في تخشعه بالراكع الساجد.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرزق في اللغة: الحظ قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[(١)]. والعرف خصصه بتخصيص الشيء بالحيوان للانتفاع به وتمكينه منه.

وأما المعتزلةُ لما استحالوا على الله تعالى أن يُمَكِّنَ من الحرام لأنه مَنَعَ من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا: الحرامُ ليس برزق، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق ههنا إلى نفسه إيذاناً بأنهم ينفقون الحلال المطلق فإن إنفاق الحرام لا يوجب المدح، وذمَّ المشركين على تحريم بعض ما رزقهُم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا﴾[(٢)]. وأصحابُنا جعلوا الإسناد للتعظيم والتحريضِ على الإنفاق، والذمَّ لتحريم ما لم يَحْرم. واختصاصُ ما رزقناهم بالحلال للقرينة. وتمسَّكوا لشمولِ الرزقِ لهُ بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث عمرو بن قرة[(٣)]. «لقد رزقك الله طيِّباً، فاخترتَ ما حرم الله عليك من رزقه مكانَ ما أحل الله لك من حلاله»[(٤)]. وبأنه لو لم يكن رزقاً

---

(١) الواقعة: «٨٢».

(٢) يونس: «٥٩».

(٣) عمرو بنَ قُرَّة: لقي النبي ﷺ كما في أسد الغابة (٤/ ٢٦٢ رقم ٤٠٠٢).

(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن ماجة (٢/ ٨٧١ رقم ٢٦١٣).
قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٨٠ رقم ٩٢٧): «هذا إسناد ضعيف بشر بن نمير البصري قال فيه =

لم يكن المتغذي به طولَ عمرِهِ مرزوقاً، وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[(١)].

وأنفق الشيءَ وأنفده أخوان، ولو استقريت الألفاظ وجدت كل ما فاؤهُ نونٌ وعينَه فاءٌ دالاً على معنى الذهاب والخروج[(٢)]، والظاهرُ من هذا الإنفاق صرفُ المال في سبيل الخير من الفرض والنفل. ومن فَسَّره بالزكاة ذَكَرَ أفضل أنواعه والأصلَ فيه، أو خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها. وتقديمُ المفعول للاهتمام به وللمحافظة على رؤوس الآي. وإدخالُ مِنْ التبعيضية عليه لمنع المكلَّفِ عن الإسراف المنهيِّ عنه. ويُحتمل أن يُراد به الإنفاق من جميع المعاوِن التي آتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إن علماً لا يُقال به ككنزٍ لا يُنْفَقُ منه»[(٣)] وإليه ذهب من قال: ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة يُفيضون.

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبدالله بن سلام[(٤)]

= يحيى بن سعيد القطان كان ركناً من أركان الكذب، وقال أحمد: ترك الناس حديثه، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: متروك، وقال النسائي غير ثقة، ويحيى بن العلاء قال فيه أحمد كان يضع الحديث، وقال ابن عدي أحاديثه لا يتابع عليها وكلها غير محفوظة والضعيف على رواياته وحديثه بيّن وأحاديثه موضوعات» هـ.

(١) هود: «٦».

(٢) مثل نفد ونفذ ونفر ونفس ونحوه. . . ولعل هذا في جميع الكلام، فكل كلمة اتفقت في الحرفين الأولين مع غيرها واختلفت في الأخير كانت بمعنى متقارب مثل: اللام والزاي في لزب ولزج ولزّ ولزِق ولزِم. . فهذه الكلمات تفيد الملازمة واللصوق.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٦٤) ـ كما في مجمع الزوائد ـ عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدِّث به كمثل الذي يكنِزُ الكنز فلا يُنفِق) قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة وهو ضعيف.
وأخرجه أبو خيثمة في «العلم» (رقم: ١٦٢) وابن عبدالبر في «الجامع» (١/ ١٢٢).
● وله شاهد من حديث ابن عمر: وابن عبدالبر في (الجامع) (١/ ١٢٢) وابن عساكر في تاريخه (٦/ ٢٠٧) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٠٢٣).
● وله شاهد آخر من حديث ابن عباس: أخرجه البيهقي في «المدخل» رقم: (٥٧٨) وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٢٢) وفيه موسى بن عبيدة الرَّبَذي وهو ضعيف.
● وله شاهد ثالث من قول أبي هريرة: أخرجه الخطيب في «إقتضاء العلم العمل» رقم (١٢) وفيه: إبراهيم الهجري ضعيف. ولعله هو الذي رفعه فقد أخرج أحمد (٢/ ٤٩٩) والبزار (١/ ١٠٠ رقم ١٧٦ ـ كشف الأستار) مرفوعاً وقال الهيثمي في المجمع «١/ ١٨٤»: «رجاله مُوَثقون».
● وله شاهد رابع من حديث عبدالله بن مسعود: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٨٠ رقم ٢٦٣) وفيه أيضاً إبراهيم الهجري ضعيف.
● وله شاهد خامس من قول سلمان الفارسي: أخرجه أبو خيثمة في العلم رقم (١٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٣٣٤) والدارمي (١/ ١٣٨) والبيهقي في «المدخل» رقم (٥٧٦) ورجاله ثقات إلا حصين بن عقبة فهو صدوق والخلاصة أن حديث أبي هريرة المرفوع صحيح. وحديث ابن عمر صحيح وحديث عبدالله بن مسعود حسن والله أعلم.

(٤) عبدالله بن سَلام بن الحارث، صحابي، أسلم عند قدوم النبي عليه السلام المدينة، شهد مع عمر فتح بيت =

رضي الله تعالى عنه وأضرابهِ، معطوفون على الذين يؤمنون بالغيب، داخلون معهم في جملة المتقين دخول أَخَصَّيْن تحت أعمّ، إذ المراد بأولئك الذين آمنوا عن شرك وإنكار وبهؤلاء مقابلوهم، فكانت الآيتان تفصيلاً للمتقين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. أو على المتقين وكأنه قال هدى للمتقين عن الشرك والذين آمنوا من أهل الملل. ويحتمل أن يراد بهم الأولون بأعيانهم(١)، وَوُسِّط العاطف كما وسط في قوله:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهمامِ ولَيْثِ الكتيبةِ في المزْدَحمْ

وقوله:

يا لهفَ ذؤابةَ للحارثِ الصَّـ ـائحِ فالغَانمِ فالآيِبِ

على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جُملةً والإتيانِ بما يصدِّقه من العبادات البدنية والمالية، وبين الإيمان بما لا طريق إليه عبر السمع. وكرر الموصولَ تنبيهاً على تغايُر القبيلين وتبايُن السبيلين. أو طائفة منهم وهم مؤمنو أهل الكتاب، ذكرهم مخصصين عن الجملة كذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة تعظيماً لشأنهم وترغيباً لأمثالهم.

والإنزال: نقلُ الشيء من الأعلى إلى الأسفل، وهو إنما يلحق المعاني بتوسط لحوقه الذوات الحاملةَ لها، ولعل نزول الكتبِ الإلٰهية على الرسل بأن يلتقفه المَلَكُ من الله تعالى تلقُّفاً روحانياً، أو يحفظَه من اللوح المحفوظ فينزلُ به فيبلغُه إلى الرسول. والمراد ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآنُ بأسره والشريعةُ عن آخرها. وإنما عَبَّر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقَّباً تغليباً للموجود على مالم يوجد، أو تنزيلاً للمنتظَر منزلة الواقع، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾(٢)، فإن الجنَّ لم يسمعوا جميعه ولم يكن الكتاب كله مُنَزَّلاً حينئذ. وبما ﴿أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ التوراة والإنجيل وسائر الكتب السابقة، والإيمانُ بها جملةً فرضُ عَيْن، وبالأول دون الثاني تفصيلاً من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض، ولكن على الكفاية. لأن وجوبَه على كل أحدٍ يوجبُ الحرج وفسادَ المعاش(٣).

﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يوقنون إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أن الجَنَّة لا يدخلها إلا من كان هُوداً أو نصارى وأن النار لم تمسهم إلا أياماً معدودة، واختلافُهم في نعيم الجنة: أهو من جنس نعيم

= المقدس والجابية، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزلها وأقام بالمدينة إلى أن مات فيها عام (٤٣)هـ (الأعلام ٤/ ٩٠).

(١) وقد رجح الشوكاني أن هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها. وتوسيط العاطف هنا ليس لأجل المغايرة بين الذوات إنما لأجل اختلاف الصفات. (انظر فتح القدير ١/ ٣٧ وأبو السعود ١/ ٣٢).

(٢) الأحقاف: «٣٠».

(٣) ورد بناء الفعلين «أنزل» على المفعول أي مبني للمجهول للجري على سنن الكبرياء (أبو السعود ١/ ٣٣).

﴿وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ كرر فيه اسمَ الإشارة تنبيهاً على أنّ اتصافَهم بتلك الصفات يقتضي كلَّ واحدة من الأثرتين وأن كلاً منهما كاف في تمييزهم بها عن غيرهم[١]، ووُسِّط العاطفُ لاختلاف مفهوم الجملتين ههنا بخلاف قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[٢]، فإن التسجيل بالغفْلة والتشبيهَ بالبهائم شيء واحد فكانت الجملةُ الثانية مقررةً للأولى فلا تناسب العطف. وهم: فصْلٌ يَفْصِل الخبرَ عن الصفة ويؤكِّد النِّسبَة ويُفيد اختصاص المسنَدِ بالمسنَد إليه، أو مبتدأ والمفلحون خبرُه والجملةُ خبر أولئك. والمفلح بالحاء والجيم: الفائز بالمطلوب، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظَّفَر، وهذا التركيبُ وما يشاركه في الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلي يدل على الشَّقِّ والفَتْح. وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة، أو الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصوصياتهم.

تنبيه: تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيْل مالا ينالُه كلُّ أحد من وجوه شتى، وبناءُ الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز، وتكريرُه وتعريفُ الخبرِ وتوسيطُ الفَصْل لإظهار قَدْرهم والترغيبِ في اقتفاء أثرهم. وقد تشبث به الوَعِيديةُ في خلود الفُسَّاق من أهل القبلة في العذاب[٣]، ورُدّ بأن المراد بالمفلحين: الكاملون في الفلاح، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم لا عدم الفلاح له رأساً.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لما ذكر خاصَّةَ عبادهِ وخلاصةَ أوليائه بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح عقَّبهم بأضدَادهم العتاةِ المردةِ الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآياتُ والنذر. ولم يعطفْ قصتهم على قصة المؤمنين كما عطف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾[٤] لتباينهما في الغرض، فإن الأُولى سيقت لذكر الكتاب وبيان شأنه والأخرى مسوقةٌ لشرح تمردهم وانهماكهم في الضلال. و«إنّ» من الحروف التي تشابهُ الفعل في عدد الحروف والبناءِ على الفتح ولزومِ الأسماء وإعطاءِ معانيه[٥]، والمتعدي خاصةً في دخولها على اسمين، ولذلك أُعمِلت عملَه الفرعيَّ، وهو نصبُ الجزء الأول ورفع الثاني إيذاناً بأنه فرع في العمل دخيلٌ فيه، وقال الكوفيون: الخبرُ قبل دخولها كان مرفوعاً بالخبرية، وهي بعدُ باقيةٌ مقتضية للرفع قضيةً للاستصحابِ فلا يرفعه الحرفُ. وأجيب بأن اقتضاءَ الخبرية الرفعَ مشروطٌ بالتجرد لتخلفه عنها في خبر كان، وقد زال بدخولها فتعين إعمالُ الحرف. وفائدتُها تأكيدُ النسبة وتحقيقُها، ولذلك يُتَلَقَّى

---

(١) ويفيد تكرير اسم الإشارة إظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم (أبو السعود ١/ ٣٤).

(٢) الأعراف: «١٧٩».

(٣) يريد بالوعيدية المعتزلة والخوارج، حيث قالوا بأن تارك الواجب مخلد في العذاب، لأنّ قَصْر جنس الفلاح على الموصوفين يقتضي انتفاء الفلاح عن تارك الواجبات... وقد رُدّ عليهم بأن المراد بالمفلحين: الكاملون في الفلاح... (انظر روح المعاني ١/ ١٢٥).

(٤) الانفطار: «١٣».

(٥) الضمير في «معانيه» يعود على الفعل، أي أن «إن» تعطي معاني الفعل. وكذلك تشبه «إنّ» الفعل في دخول نون الوقاية عليها، مثل: إنني ولعلني..

بها القَسَم ويُصدَّرُ بها الأجوبة وتُذكَرُ في معرض الشك، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١)، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٢) قال المبرد(٣): قولُك عبدُالله قائم إخبار عن قيامه، وإنّ عبدالله قائم جواب سائل عن قيامه، وإن عبدالله لقائم جواب مُنكِر لقيامه. وتعريفُ الموصول: إما مُعْهَدٌ والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأحبار اليهود، أو للجنس متناولاً من صمَّم على الكفر وغيرهم، فخصّ منهم غيرَ المصرين بما أسند إليه. والكفر لغةً: سَتْر النعمة، وأصله الكَفْر ـ بالفتح ـ وهو الستر، ومنه قيل للزارع وللّيل كافر ولِكِمَام الثمرة كافور. وفي الشرع: إنكارُ ما علم بالضرورة مجيءُ الرسول ﷺ به، وإنما عُدَّ لُبسُ الغيار وشدُّ الزنار ونحوُهما كفراً لأنها تدُل على التكذيب، فإن من صدق الرسول ﷺ لا يجترىء عليها ظاهراً لا أنها كفر في أنفسها.

واحتجت المعتزلة بما جاء في القرآن بلفظ الماضي على حدوثه لاستدعائه سابقةَ المُخْبَر عنه، وأجيب بأنه: مقتضى التعلق وحدوثُه لا يستلزم حدوث الكلام كما في العلم(٤).

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ خبر إن، وسواء اسمٌ بمعنى الاستواء نُعِتَ به كما نُعِتَ بالمصادر قال الله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(٥) رُفِعَ بأنه خبرُ إنّ وما بعده مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل: إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه، أو بأنه خبر لما بعده بمعنى: إنذارُك وعدمه سيان عليهم، والفعلُ إنما يُمْتَنَعُ الإخبار عنه إذا أريد به تمامُ ما وضع له، أما لو أطلق وأريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمناً على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة، والإسنادُ إليه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾(٦) وقوله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾(٧) وقولِهم: تَسْمَعُ بِالْمعِيديِّ خيرٌ مِنْ أَنْ تَرَاه.

وإنما عُدِل ههنا عن المصدر إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد، وحَسُن دخول الهمزة وأم عليه لتقرير معنى الاستواء وتأكيده، فإنهما جُرِّدتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء كما جُرِّدت حروف

---

(١) الكهف «٨٤».

(٢) الأعراف: «١٠٤».

(٣) المبرِّد هو محمد بن يزيد الأزدي، إمام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار، ولد بالبصرة (٢١٠)هـ وتوفي ببغداد (٢٨٦)هـ، واسمه بفتح الراء المشددة عند الأكثر، وبعضهم يكسرها. (الأعلام ٧/ ١٤٤).

(٤) التعبير بلفظ الماضي لا يستدعي حدوثه، وذلك أن الفعل الماضي يدل على زمن ماض وحدث متحقق، والقرآنُ الكريم قد يستخدم الفعل الماضي ليدل على مجرد تحقق وقوع الحدث دون زمنه، كما في قوله تعالى: «وقال الذين استكبروا للذين استُضعفوا» ـ سبأ «٣٢» ـ فعبر بالفعل «قال» وهو فعل ماض من حيث إعرابُه، ولكن القول المذكور يكون يوم القيامة ولم يَحدث بعد. . لذلك قيل فيه بأنه عبر بالفعل الماضي ليدل على تحقق وقوعه.
وهو كالعِلْم من حيث إن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعي حدوث العلم وفي قوله تعالى: «إن الذين كفروا» عبر بالماضي ليدل على تحقق الكفر منهم وتمكنه في نفوسهم.

(٥) آل عمران: «٦٤».

(٦) البقرة: «١٣».

(٧) المائدة: «١١٩».

النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة.

والإنذارُ: التخويف(١) أريد به التخويف من عذاب الله، وإنما اقتُصر عليه دون البشارة لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيراً في النفس من حيثُ إن دفع الضر أهم من جلب النفع، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى. وقرىء أأنذرتهم بتحقيق الهمزتين وتخفيف الثانية بيْن بيْن، وقلبها ألفاً وهو لحن لأن المتحركة لا تُقلب ولأنه يؤدي إلى جمع الساكنين على غير حده، وبتوسيطِ ألف بينهما محققتين، وبتوسيطِها والثانيةُ بين بين، وبحذفِ الاستفهامية، وبحذفِها وإلقاءِ حركتها على الساكن قبلَها.

٦ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مفسِّرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها، أو حال مؤكدة، أو بدل عنه، أو خبر إن، والجملة قبلها اعتراضٌ بما هو علةُ الحكم.

والآية مما احتج به من جَوَّز تكليف مالا يُطاق، فإنه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون وأمرهم بالإيمان، فلو آمنوا انقلب خبرُه كذباً وشَمِل إيمانهم الإيمان بأنهم لا يؤمنون فيجتمعُ الضِـدان. والحقُّ أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلاً من حيثُ إن الأحكام لا تستدعي غرضاً سيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء، والإخبارُ بوقوع الشيء أو عدمِه لا ينفي القدرة عليه كإخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره. وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا ينجع إلزامُ الحجة، وحيازةُ الرسول فضل الإبلاغ، ولذلك قال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل سواء عليك، كما قال لعَبَدَة الأصنام: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾(٢). وفي الآية إخبارٌ بالغيب على ما هو به إنْ أُريد بالموصول أشخاصٌ بأعيانهم فهي من المعجزات.

(٧) ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ تعليل للحكم السابق وبيانٌ لما يقتضيه. والخَتْم الكَتْمُ، سمِّي به الاستيثاقُ من الشيء بضربِ الخاتَم عليه لأنه كتْم له، والبلوغُ آخرَه نظراً إلى أنه آخرُ فعل يُفعل في إحرازه. والغِشاوة: فِعَالة من غشاه إذا غطاه، بُنيت لما يشتمل على الشيء، كالعصابة والعمامة. ولا ختمَ ولا تغشية على الحقيقة، وإنما المراد بهما أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباحِ الإيمان والطاعات بسبب غيهم، وانهماكِهم في التقليد، وإعراضِهم عن النظر الصحيح، فتجعلُ قلوبَهم بحيث لا يَنفُذُ فيها الحقُّ، وأسماعَهم تعاف استماعَه فتصير كأنها مستوثَقٌ منها بالختم، وأبصارَهم لا تجتلي الآياتِ المنصوبةَ لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصيرُ كأنها غُطي عليها وحيل بينها وبين الإبصار. وسماه على الاستعارة خَتْماً وتغشية، أوْ مَثَّلَ قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها بأشياءَ ضُرِبَ حجابٌ بينها وبين الاستنفاع بها خَتْماً وتغطية، وقد عبَّر عن إحداث هذه الهيئة بالطَّبْع في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾(٣)، وبالإغفال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن

---

(١) قال الراغب: الإنذار: إخبار فيه تخويف (المفردات مادة «نذر»).

(٢) الأعراف: «١٩٣».

(٣) النحل: ١٠٨.

ذِكۡرِنَا﴾[١]، وبالإقساء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾[٢] وهي من حيث إن الممكنات بأسرها مستندةٌ إلى الله تعالى واقعةٌ بقدرته أسندت إليه، ومن حيث إنها مسبَّبة مما اقترفوه بدليل قوله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[٤] وَرَدَت الآيةُ ناعيةً عليهم شناعةَ صفتهم ووخامة عاقبتهم. واضطربت المعتزلة فيه فذكروا وجوهاً من التأويل:

الأول: أن القومَ لما أعرضوا عن الحق وتمكَّن ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم، شُبِّه بالوصْف الخَلْقيّ المجبول عليه.

الثاني: أن المراد به تمثيلُ حال قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفِطَن. أو قلوبٌ مقدَّرٌ ختم الله عليها، ونظيره سال به الوادي إذا هلكَ وطارت به العنقاء إذا طالت غيبته.

الثالث: أن ذلك في الحقيقة فعلُ الشيطان أو الكافر، لكن لما كان صدوره عنه بإقداره تعالى إياه أُسنِد إليه إسنادَ الفعل إلى المسبِّب.

الرابع: أن أعراقهم لما رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبقَ طريق إلى تحصيل إيمانهم سوى الإلجاء والقسر، ثم لم يقسرْهم إبقاءً على غرض التكليف، عَبَّر عن تركه بالختم فإنه سدٌّ لإيمانهم. وفيه إشعار على تمادي أمرهم في الغي وتناهي انهماكهم في الضلال والبغي.

الخامس: أن يكون حكايةً لما كان الكفرة يقولون مثل: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾[٥] تهكماً واستهزاءً بهم كقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[٦] الآية.

السادس: أن ذلك في الآخرة، وإنما أخبر عنه بالماضي لتحققه وتيقن وقوعه ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾[٧].

السابع: أن المراد بالخَتْم وَسْمُ قُلوبِهم بسِمَةٍ تعرِفُها الملائكة، فيُبْغضونهم وينفُرون عنهم، وعلى هذا المنهاج كلامنا وكلامهم فيما يضاف إلى الله تعالى من طبع وإضلال ونحوهما.

و﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ معطوف على قلوبهم لقوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾[٨] وللوفاق على الوقف عليه، ولأنهما لما اشتركا في الإدراك من جميع الجوانب جَعَل ما يمنعُهما من خاصّ فِعْلهما الخَتْم الذي يَمْنَعُ من جميع الجهات، وإدراكُ الأبصار لما اخْتَصَّ بجهة المقابلة جُعِلَ المانعُ لها عن فعلها

---

(١) الكهف: ٢٨.
(٢) المائدة: ١٣.
(٣) النساء: ١٥٥.
(٤) المنافقون: ٣.
(٥) فصلت: ٥.
(٦) البينة: ١.
(٧) الإسراء: ٩٧.
(٨) الجاثية: ٢٣.

الغشاوة المختصة بتلك الجهة. وكرر الجارّ ليكونَ أدلَّ على شدة الختم في الموضعين، واستقلالِ كل منهما بالحكم. ووَحَّد السمع للأمن من اللَّبْس واعتبار الأصل، فإنه مصدر في أصله والمصادر لا تُجمع. أو على تقديرِ مضافٍ مثل: وعلى حواسِّ سمعهم[(١)]

والأبصارُ جمعُ بصر وهو: إدراكُ العين، وقد يطلق مجازاً على القوة الباصرة وعلى العضو، وكذا السمعُ، ولعلّ المراد بهما في الآية العضوُ لأنه أشد مناسبة للختم والتغطية، وبالقلب ما هو محلُّ العلم، وقد يطلقُ ويراد به العقلُ والمعرفة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[(٢)]. وإنما جاز إمالتُها مع الصاد لأن الراء المكسورة تَغْلب المستعلية لما فيها من التكرير. وغشاوة رُفِعَ بالابتداء عند سيبويه، وبالجارِّ والمجرور عند الأخفش[(٣)]، ويؤيده العطفُ على الجملة الفعلية. وقرىء بالنصب على تقديرِ وجَعَل على أبصارهم غشاوةً، أو على حذف الجار وإيصال الختم بنفسه إليه والمعنى: وختم على أبصارهم بغشاوة، وقرىء بالضم والرفع، وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها. وغِشوة بالكسر مرفوعة، وبالفتح مرفوعة ومنصوبة وعشاوة بالعين الغير المعجمة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيدٌ وبيان لما يستحقونه. والعذابُ كالنكال بناءً ومعنىً، تقول: عَذَبَ عن الشيء ونكل عنه إذا أمْسَك، ومنه الماء العذب لأنه يقمع العطش ويردعه ولذلك سمي نُقَاخاً وفُراتاً، ثم اتسع فأُطْلِق على كل ألم قادح وإن لم يكن نكالاً، أي: عقاباً يردعُ الجاني عن المعاودة فهو أعمّ منهما. وقيل اشتقاقه من التعذيب الذي هو إزالة العذب كالتقْذِية والتمريض. والعظيمُ نقيض الحقيرِ،

---

(١) وقدم ختم القلوب على ختم السمع والأبصار للإيذان بأنها الأصل في عدم إيمانهم، وللإشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية لختم السمع والأبصار باعتبار أنهما الطريق إليها، بل هي مختومة على حدة.
وقدم السمع على البصر للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال، أو لأن جنايتهم من حيث السمع ـ الذي به يتلقى الأحكام الشرعية وبه يتحقق الإنذار ـ أعظم منها من حيث البصر الذي به يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد (أبو السعود ١/ ٣٨).
وأكثر ما يرد السمع في القرآن الكريم مقدماً على البصر، لما للسمع من أهمية عظمى ـ في تلقي العلوم إذ يمتد عمله ليصل إلى ما وراء المحسوس فيتناول ما شاهده المرسلون وما أطلعهم الله عليه من غيب. . .
وفي سورة الكهف قدم البصر على السمع فقال: «أبصِر به وأسمِع. .» ـ الكهف «٢٦» ـ وذلك لأنّ المتحدثَ عنه من قبيل المبصرات، كما أفاده أبو السعود (٥/ ٢١٨).

(٢) ق: «٣٧».

(٣) الأخفش: هو سعيدُ بن مَسْعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط، أحد الأخافش الثلاثة المشهورين، ورابع الأخافش المذكورين في هذا الكتاب ـ بغية الوعاة ـ كان مولى بني مُجاشِع بن دارم من أهل بلْخ. سكن البصرة، وكان أجلع لا تنطبق شفتاه على لسانه. قرأ النحو على سيبويه، وكان أسنّ منه، ولم يأخذ عن الخليل، وكان معتزلياً، حدث عن الكلبي، والنَّخَعيّ وهشام بن عروة، وروى عنه أبو حاتم السِّجِستانيّ، ودخل بغداد وأقام بها مدة، وروى وصنف بها.
ومن مصنفاته: الأوساط في النحو، ومعاني القرآن، والمقاييس في النحو، والاشتقاق، والمسائل، والعروض، والقوافي وغير ذلك. .
ومات سنة عشر ـ وقيل سنة خمس عشرة، وقيل إحدى وعشرين ـ ومائتين: [بغية الوعاة للسيوطي (١/ ٥٩٠ ـ ٥٩١ رقم ١٢٤٤)].

والكبيرُ نقيضُ الصغير، فكما أنّ الحقيرَ دون الصغير، فالعظيمُ فوق الكبيرِ، ومعنى التوصيفِ به أنه إذا قيس بسائر ما يجانِسُه قَصُر عنه جميعُه وحقُر بالإضافة إليه. ومعنى التنكير في الآية أن على أبصارهم نوعَ غشاوة ليس مما يتعارفه الناس، وهو التعامي عن الآيات، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

(٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ لما افتتح سبحانه وتعالى بشرح حال الكتاب وساق لبيانه ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله تعالى وواطأت فيه قلوبُهم ألسنَتَهم، وثنّى بأضدادهم الذين مَحَّضُوا الكفر ظاهراً وباطناً ولم يلتفتوا لفتة رأساً، ثَلَّث بالقِسم الثالث المذبذب بين القِسْمين وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للقسم، وهم أخبثُ الكفرة وأبغضُهم إلى الله لأنهم مَوَّهوا الكفر وخَلَطُوا به خداعاً واستهزاءً، ولذلك طَوَّلَ في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم وتهكم بأفعالهم وسجل على عَمَهِهم وطغيانهم وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] وقصتُهم عن آخرها معطوفة على قصة المصِرِّين.

والناسُ أصله أُناس لقولهم: إنسانٌ وأُنْس وأَنَاسيّ، فحُذفت الهمزة حَذْفَها في لوقة وعُوِّض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يُجْمَع بينهما. وقوله:

إنَّ المنايا يَطَّلِعْنَ على الإناسِ الآمِنِينَا

شاذ. وهو اسمُ جمع كرجال، إذ لم يثبت فِعال في أبنية الجمع، مأخوذ من أَنِسَ لأنهم يَسْتأنِسون بأمثالهم، أو آنَسَ لأنهم ظاهرون مُبْصَرون، ولذلك سُمّوا بشراً كما سمي الجن جنّاً لاجتنانهم. واللامُ فيه للجنس، ومِنْ موصوفة إذ لا عهد فكأنه قال: ومن الناسِ ناسٌ يقولون، أو للعهد والمعهودُ: هم الذين كفروا، ومِنْ موصولة مرادٌ بها ابن أبيّ وأصحابُه ونظراؤه، فإنهم من حيث إنهم صمَّموا على النفاق دخلوا في عداد الكفار المختومِ على قلوبهم، واختصاصُهم بزياداتٍ زادوها على الكفر لا يأبى دخولَهم تحت هذا الجنس، فإن الأجناس إنما تتنوعُ بزياداتٍ يختلف فيها أبعاضُها فعلى هذا تكون الآية تَقْسيماً للقِسم الثاني.

واختصاصُ الإيمان بالله وباليوم الآخر بالذكر تخصيصٌ لما هو المقصود الأعظم من الإيمان وادعاءٌ بأنهم احتازوا الإيمان من جانبَيْه وأحاطوا بقُطْريه، وإيذانٌ بأنهم منافقون فيما يظنون أنهم مخلصون فيه، فكيف بما يَقْصدون به النفاق؟! لأن القوم كانوا يهوداً وكانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر إيماناً كَلاَ إيمان، لاعتقادِهم التشبيهَ واتخاذَ الولد وأن الجنة لا يدخلُها غيرُهم وأن النار لا تمسُّهم إلا أياماً معدودة وغيرَها، ويرون المؤمنين أنهم آمنوا مِثْل إيمانهم، وبيانٌ لتضاعف خبثهم وإفراطهم في كفرهم؛ لأن ما قالوه لو صَدَر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتُهم عقيدتُهم لم يكن إيماناً، فكيف وقد قالوه تمويهاً على المسلمين وتهكماً بهم؟! وفي تَكْرار الباءِ ادعاءُ الإيمان بكل واحدٍ على الأصالةِ والاستحكام.

---

(١) النساء: ١٤٥.

والقولُ: هو التلفُّظ بما يفيد، ويُقال بمعنى المقول، وللمعنى المتصوَّر في النفس المعبَّر عنه باللفظ، وللرأي والمذهب مجازاً.

والمرادُ باليوم الآخر من وقت الحشر إلى مالا ينتهي، أو إلى أن يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ. وأهلُ النارِ النارَ لأنه آخرُ الأوقات المحدودة[١].

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ إنكارُ ما ادعوْه ونفيُ ما انتحلوا إثباته، وكان أصلُه وما آمنوا ليطابقَ قولَهم في التصريح بشأن الفعل دون الفاعل لكنه عُكِسَ تأكيداً أو مبالغةً في التكذيب، لأنّ إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغُ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان[٢]، ولذلك أكّد النفيَ بالباء. وأطلقَ الإيمانَ على معنى أنهم ليسوا من الإيمان في شيء، ويُحتَمل أن يُقيَّد بما قيّدوا به لأنه جوابُه.

والآيةُ تدل على أن من ادّعى الإيمان وخالف قلبُه لسانَه بالاعتقاد لم يكن مؤمناً، لأن من تفوه بالشهادتين فارغَ القلب عما يوافقُه أو ينافيه لم يكن مؤمناً. والخلاف مع الكرّامية[٣] في الثاني فلا ينهضُ حجة عليهم[٤].

(٩) ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الخَدْع: أن تُوهِم غيرَك خلاف ما تُخفيه من المكروه لتُنْزِله عما هو

---

(١) وفي الآية ورد لفظ يقول بالإفراد وذلك باعتبار لفظةِ «مِنْ». . أما جَمْعُهُ في قوله «آمنّا بالله» وما بعده فباعتبار معناها (أبو السعود ١/ ٤٠).

(٢) أي أنه آثر الجملة الاسمية في إنكار دعواهم، فقال: «وما هم بمؤمنين» ولم يقل: وما آمنوا، وذلك للمبالغة في الرد بإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة لا في الماضي فقط كما تفيده الجملة الفعلية (أبو السعود ١/ ٤٠).

(٣) الكرامية: وهم أتباع أبي عبدالله محمد بن كرام السجستاني طرد من سجستان بسبب بدعته، ومن بدعهم أنهم يغالون في إثبات الصفات لله إلى حد التشبيه، وقولهم إن الإيمان هو قول باللسان فقط دون المعرفة والعمل، وموافقتهم المعتزلة في الحسن والقبح، توفي ابن كرام سنة (٢٥٥هـ).
انظر «الفرق بين الفرق ٢١٥ وما بعدها. ولسان الميزان (٥/ ٣٥٣) وما بعدها.

(٤) لعل اللبْس في قضية الإيمان ومخالفة اللسان لما وقر في القلب هو عدم التفريق بين الإيمان المقبول عند الله تعالى والإيمان المقبول عند الناس.
فالإيمانُ المقبول عند الله تعالى مرجعه إلى القلب، والله وحده يعلم ما في القلوب ويحاسب عليها، ولا عبرة لمن نطق بالكفر مُكرهاً، كما دل عليه قوله تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان. .» ـ النحل «١٠٦» ـ أما من شُرح صدره بالكفر فهو الكافر.
أما المقبول عند الناس فمرجعه إلى الظاهر: اللسان والجوارح، والله تعالى يتولى السرائر. فمن نطق بالشهادة ولا يوجد من فعله ما يناقضها فإيمانه مقبول عند العباد ولا دخل لهم في ما وقر في قلبه، فلذلك عاملَ النبيُّ ﷺ المنافقين على أنهم مسلمين رغم علمه عليه السلام بنفاقهم ورغم إقرار القرآن بعدم إيمانهم وشهادة الله عليهم بأنهم كاذبون حينما قالوا: «نشهد إنك لرسول الله».
وعليه فمن أظهر الإيمان واعتقادُه مخالف لذلك فليس بمؤمن عند الله تعالى، وهو منافق، إلا أنه مقبول بظاهره للعباد.
أما من نطق بلسانه بالشهادتين ولم يكن في قلبه ما يوافقه أو ينافيه، لعل الأصل فيه هو الإيمان لأن كل مولود يولد على الفطرة، ولعله غير موجود في الواقع. =

فيه وعما هو بصدده، من قولهم خَدَعَ الضبُّ إذا توارى في جحره، وضبٌّ خادِع وخَدِعٌ إذا أوهم الحارس إقباله عليه ثم خرج من باب آخر، وأصله الإخفاء ومنه المخْدَع للخزانة، والأخْدَعان لعِرْقين خفيين في العُنُق، والمخادعة تكون بين اثنين. وخداعهم مع الله ليس على ظاهره، لأنه لا تَخفَى عليه خافيةٌ ولأنهم لم يقصدوا خديعته، بل المراد إما مخادعةُ رسولِهِ على حذف المضاف، أو على أن معاملةَ الرسول معاملةُ الله من حيثُ إنه خليفتُه كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[2]، وإمّا أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطانِ الكفر، وصُنْعِ الله معهم بإجراءِ أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده أخبثُ الكفار وأهل الدَّرْك الأسفل من النار، استدراجاً لهم وامتثالِ الرسول ﷺ والمؤمنين أمرَ الله في إخفاءِ حالهم، وإجراءِ حكم الإسلام عليهم مجازاةً لهم بمثل صنيعهم، صورةَ صنيعِ المتخادعَيْن. ويحتمل أن يُراد بيخادعون يخدعون لأنه بيان ليقول، أو استئناف بذكر ما هو الغرضُ منه، إلا أنه أخرج في زنة فَاعَلَ للمبالغة، فإن الزِّنَة لما كانت للمبالغة والفعلُ متى غولِبَ فيه، كان أبلغَ منه إذا جاء بلا مقابلةِ معارضٍ ومُبَارٍ استصْحَبَت ذلك، ويعضِّده قراءةُ من قرأ يَخْدَعون. وكان غرضُهم في ذلك أن يدفعوا عن أنفسهم ما يَطْرُق به مَنْ سواهم من الكفرة، وأن يفعلَ بهم ما يفعلُ بالمؤمنين من الإكرام والإعطاء، وأن يختلطوا بالمسلمين فيطَّلعوا على أسرارهم ويذيعوها إلى منابِذِيهم إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد.

﴿وَمَا يُخَٰدِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾[3] قراءةُ نافع وابن كثير وأبي عمرو[4] والمعنى: أن دائرة الخداع راجعة إليهم وضررُها يُحيق بهم، أو أنهم في ذلك خدعوا أنفسهم لَمَّا غرُّوها بذلك وخدعتهم أنفسُهم حيث حدثتهم بالأمانيِّ الفارغةِ وحملتهم على مخادعة من لا تَخْفَى عليه خافية. وقرأ الباقون وما يَخْدَعون، لأن المخادعة لا تُتَصوَّر إلا بين اثنين، وقرىء ويُخَدِّعون من خَدَّع ويَخَدِّعُون بمعنى يختدعون ويُخْدَعون ويُخَادَعُون على البناء للمفعول، ونصبُ أنفسهم بنزع الخافض. والنفسُ ذات الشيء وحقيقتُه، ثم قيل للرُّوح لأن نفسَ الحي به، وللقلب لأنه محل الرُّوح أو متعلَّقُهُ، وللدّمِ لأن قَوامها به، وللماء لفَرْط حاجتها إليه، وللرأي في قولهم فلان يؤامِر نفسه لأنه ينبعث عنها أو يشبه ذاتاً تأمُرُه وتشير عليه. والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم ويحتمل حملها على أرواحهم وآرائهم.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ لا يحسون لذلك لتمادي غفْلتهم. جَعَلَ لُحوقَ وَبَالِ الخِداع ورجوعَ ضرره إليهم في الظهور كالمحسوس الذي لا يخفى إلا على مؤوف الحواس. والشعورُ: الإحساس، ومشاعرُ الإنسان

---

(١) النساء: «٨٠».
(٢) الفتح: «١٠».
(٣) أثبتت القراءة هنا بخلاف قراءة حفص عن عاصم لتوافق كلام المفسر، إذ قراءة حفص «وما يخدعون»..
(٤) أبو عمرو هو: زبان بن العلا بن عمار البصري، كان أعلم الناس بالقراءة مع صدق وأمانة وثقة في الدين، روى عن مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ وهو أحد القراء السبعة، اشتهر بالرواية عنه الدوري والسوسي ولكن بواسطة اليزيدي وتوفي أبو عمرو (١٥٤)هـ.

﴿أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ
إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ
ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ
شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾

حواسُّه، وأصله الشِّعْر ومنه الشِّعار.

(١٠) ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ المرضُ حقيقةٌ فيما يَعرِضُ للبدن فيُخرِجُه عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل في أفعاله، ومجازٌ في الأعْراض النفسانية التي تُخلُّ بكمالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد والضغينة وحب المعاصي، لأنها مانعةٌ من نيل الفضائل أو مؤديةٌ إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية. والآيةُ الكريمة تحتملُهُما فإن قلوبهم كانت متألمة تحرُّقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحَسَداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، وزاد الله غمهم بما زاد في إعلاء أمره وإشادة ذكره، ونفوسُهُم كانت موصوفةً بالكفر وسوء الاعتقاد ومعاداة النبي ﷺ ونحوها، فزاد الله سبحانه وتعالى ذلك بالطَّبْع أو بازدياد التكاليفِ وتكرير الوحي وتضاعُفِ النصر، وكان إسنادُ الزيادة إلى الله تعالى من حيث إنه مُسَبِّبٌ من فعله، وإسنادُها إلى السورة في قولَه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا﴾[1] لكونها سبباً.

ويحتمل أن يراد بالمرض ما تداخَلَ قلوبَهُم من الجُبْن والخَوَرِ حين شاهدوا شوكة المسلمين وإمدادَ الله تعالى لهم بالملائكة وقذفِ الرعب في قلوبهم، وبزيادتهِ تَضْعيفَه بما زاد لرسول الله ﷺ نصرةً على الأعداء وتَبَسُّطاً في البلاد.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ أي: مؤلم يقال: أَلِمٌ فهو أليم كوَجِعٌ فهو وجيع، وُصف به العذاب للمبالغة كقوله:

تحيةُ بينِهمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

على طريقة قولهم: جدّ جده.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ قرأها عاصمٌ وحمزة والكسائيّ، والمعنى بسبب كذبهم، أو ببَدَلِه جزاءً لَهُم وهو قولهم آمنّا. وقرأ الباقون يُكَذِّبون، من كذَّبَه لأنهم كانوا يُكذِّبون الرسول عليه الصلاة والسلام بقلوبهم وإذا خلوْا إلى شياطينهم، أو مِنْ كَذَّب الذي هو للمبالغة أو للتكثير مثل بين الشيء ومُوِّتَت البهائمُ، أو من كذَّبَ الوحشي إذا جرى شوطاً وقف لينظر ما وراءه فإن المنافق متحيِّر متردد. والكذب: هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به، وهو حرام كلُّه لأنه عُلِّل به استحقاقُ العذابِ حيثُ رُتِّبَ عليه[2]. وما روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كَذَبَ ثلاث كَذِبات، فالمراد التعريض،

---

(١) التوبة: «١٢٥».

(٢) قوله عن الكذب: وهو حرام كله غير مسلّم به لما ذكره العلماء ودلت عليه النصوص من جواز الكذب في بعض =

ولكن لما شابه الكَذِبَ في صورته سُمِّيَ به[(١)].

(١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عطفٌ على يُكذِّبون أو يقول. وما روي عن سلمان رضي الله عنه أن أهل هذه الآية لم يأتوا بعدُ، فلعلّه أراد به أن أهلها ليس الذين كانوا فقط بل وسيكون من بعدُ مَنْ حالُه حالُهم لأن الآية متصلة بما قبلها بالضمير الذي فيها. والفسادُ: خروج الشيء عن الاعتدال. والصلاحُ ضدُّه، وكلاهما يَعُمّان كل ضارٍّ ونافع.

وكان من فسادهم في الأرض هَيْجُ الحُروب والفِتَن بمخادعة المسلمين وممالأةِ الكفار عليهم بإفشاء الأسرار إليهم، فإن ذلك يؤدي إلى فساد ما في الأرض من الناس والدواب والحَرْث.

ومنه إظهارُ المعاصي والإهانةُ بالدِّين فإن الإخلال بالشرائع والإعراضَ عنها مما يوجب الهَرجَ والمَرجَ ويُخِلُّ بنظام العالم. والقائلُ هو الله تعالى، أو الرسول ﷺ، أو بعضُ المؤمنين. وقرأ الكسائي وهشام[(٢)] «قيل» بإشمام الضمِّ الأوّلَ.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ جوابٌ لإذا ردٌّ للناصح على سبيل المبالغة، والمعنى أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك فإن شأننا ليس إلا الإصلاح وإنّ حالَنا متمحضة عن شوائب الفساد، لأن «إنما» تفيد قصر ما دخلت عليه على ما بعده، مثل إنما زيد منطلق وإنما ينطلق زيد، وإنما قالوا ذلك: لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[(٣)].

(١٢) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ردٌّ لما ادّعوه أبلغَ ردّ للاستئنافِ به وتصديرِه بحرفيْ التأكيد: ألاَ المنبهة على تحقيقِ ما بعدها، فإنّ همزة الاستفهام التي للإنكار إذا دخلت على النفي أفادت تحقيقاً، ونظيرُه أليس ذلك بقادر، ولذلك لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدَّرة بما يلتقي به

= المواطن. قال النووي: (إن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمودٍ يمكن تحصيله بغير الكذب يَحرم الكذب فيه، وإن لم يكن تحصيله إلا بالكذب، جاز الكذب.

ثم إن كان ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً، وإن كان واجباً، كان الكذب واجباً، فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله، أو أخذَ مالِه، وأخفى مالَه، وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه... واستدل العلماء لجواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينْمي خيراً أو يقول خيراً». قالت أم كلثوم: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث. تعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها. رواه مسلم «٢٦٠٥») رياض الصالحين للنووي ص٥٨٦.

ولعل المراد من حديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها بما فيه صلاح حياتهما كأن يقول لها بأنه يحبها وتقول له ذلك وإن كانا غير صادقيْن.

(١) ما أورده البيضاوي حديث أن إبراهيم كذب... بلفظ روي المفيد للتمريض عند المحدثين هو خلاف اصطلاح أهل الحديث، فالحديث وارد في الصحيحين عند البخاري (٣٣٥٨، ٥٠٨٤) وعند مسلم (٤/١٨٤٠).

(٢) هشام: وقد أخذ القراءة عن عراك بن خالد المزي عن يحيى بن الحارث الذماري عن ابن عامر واشتهر بالرواية عن ابن عامر أحد القراء السبعة، وكان هشام قاضياً فقيهاً محدثاً ثقة ضابطاً وتوفي بدمشق عام (٢٤٥)هـ.

(٣) فاطر: «٨».

القَسَمُ، وأُختُها أمَا التي هي من طلائع القَسَم وإنْ المقررة للنسبة. وتعريفُ الخبر وتوسيط الفصل لردِّ ما في قولهم إنما نحن مصلحون من التعريض للمؤمنين، والاستدراك بلا يشعرون.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾ من تمام النصح والإرشاد فإنّ كمالُ الإيمان بمجموع الأمرين: الإعراضُ عما لا ينبغي وهو المقصود بقوله: ﴿لَا تُفْسِدُواْ﴾، والإتيانُ بما ينبغي وهو المطلوب بقوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾.

﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ في حيز النصب على المصدر، وما مصدريةٌ أو كافَّة مثلها في رُبما. واللام في الناس للجنس، والمرادُ به الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل، فإن اسم الجنس كما يُستعمل لمسماه مطلقاً يستعمل لما يَسْتجمع المعاني المخصوصةَ به والمقصودةَ منه، ولذلك يُسْلَب عن غيره فيقال: زيد ليس بإنسان، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[1] ونحوه وقد جمعهما الشاعر في قوله:

إذِ الناسُ ناسٌ والزمانُ زمان

أو للعهدِ، والمراد به الرسول ﷺ ومَنْ معه. أَوْ مَنْ آمن من أهل جلدتهم كابن سلاّم وأصحابه، والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص متمحضاً عن شوائب النفاق مماثلاً لإيمانهم. واستُدِل به على قبول توبة الزنديق وأن الإقرار باللسان إيمان وإن لم يُفِدِ التقييد.

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الهمزةُ فيه للإنكار، واللام مشارٌ بها إلى الناس، أو الجنس بأسره وهم مندرجون فيه على زعمهم، وإنما سَفَّهُوهُم لاعتقادهم فسادَ رأيهم أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي: كصهيب وبلال، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم إن فُسِّر الناسُ بعبدالله بن سلام وأشياعه. والسَّفَه: خِفّةٌ وسخافةُ رأيٍ يقتضيهما نُقصان العقل، والحُلُم يقابله.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ رد ومبالغة في تجهيلهم، فإن الجاهلَ بجهله الجازمِ على خلاف ما هو الواقعُ أعظمُ ضلالةً وأتمُّ جهالةً من المتوقِّفِ المعْترِف بجهله، فإنه ربما يُعْذَرُ وتنفعُه الآياتُ والنُّذُر. وإنما فُصلت الآية بلا يعلمون والتي قبلها بلا يشعرون لأنه أكثرُ طباقاً لذِكرِ السَّفَهِ، ولأن الوقوف على أمر الدين والتمييز بين الحق والباطل مما يَفْتقر إلى نظر وفكر، وأما النفاق وما فيه من الفتن والفساد فإنما يُدْرك بأدنى تفطُّن وتأمل فيما يُشاهَد من أقوالهم وأفعالهم.

(١٤) ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بيانٌ لمعاملتهم المؤمنينَ والكفارَ، وما صُدِّرت به القصةُ فمَسَاقُه لبيان مذهبهم وتمهيدِ نفاقهم فليس بتكرير. روي أن ابن أبيّ وأصحابَه استقبلهم نفر من الصحابة، فقال لقومه: انظروا كيف أرد هؤلاءِ السفهاءَ عنكم، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحباً بالصِدِّيق سيد بني تيم وشيخِ الإسلام وثاني رسولِ الله في الغار الباذلِ نفْسَه ومالَه لرسول الله ﷺ، ثم أَخذ بيد عمر رضيَ الله عنه فقال: مرحباً بسيد بني عَدِيّ الفاروقِ القوي في دينه الباذلِ نفسَه ومالَه لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: مرحباً بابن عم رسول الله ﷺ

---

(١) البقرة: «١٨».

وخَتَنِهِ سيد بني هاشم، ما خلا رسولَ الله ﷺ. فنزلت[(١)]. واللقاء المصادفة يقال: لقِيته ولاقيْته إذا صادفته واستقبلته، ومنه ألقيْتُه إذا طرحتُه فإنك بطرحه جعلتَه بحيث يَلْقى.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ من خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، أو من خلاك ذَمٌّ أي عدَّاك ومضى عنك، ومنه القرون الخالية، أو من خلوت به إذا سخرت منه. وعدِّي بإلى لتضمُّن معنى الإنهاء. والمرادُ بشياطينهم: الذين ماثلوا الشيطان في تمردهم، وهم المظهِرونَ كفرَهم، وإضافتُهم إليهم للمشاركة في الكفر، أو كبارُ المنافقين والقائلون صغارُهم. وجعل سيبويه نونه تارة أصلية على أنه من شَطَنَ إذا بعدُ فإنه بعيد عن الصلاح، ويشهد له قولهم: تشيطن، وأخرى زائدة على أنه من شاط إذا بَطَل، ومن أسمائه الباطل.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي في الدين والاعتقاد، خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية والشياطينَ بالجملة الاسمية المؤكَّدةِ بإنّ، لأنهم قصدوا بالأُولى دعوى إحداث الإيمان وبالثانية تحقيقَ ثباتهم على ما كانوا عليه، ولأنه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدقِ رغبة فيما خاطبوا به المؤمنين، ولا تَوَقُّعُ رواجِ ادعاءِ الكمالِ في الإيمان على المؤمنين من المهاجرين والأنصار بخلاف ما قالوه مع الكفار[(٢)].

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تأكيد لما قبله لأن المستهزىء بالشيء المستخفَّ به مُصِرٌّ على خلافه، أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظّم الكفر، أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لمّا قالوا إنا معكم: إن صح ذلك فما بالُكم توافقون المؤمنين وتَدَّعون الإيمان فأجابوا بذلك. والاستهزاءُ السخرية والاستخفاف يقال: هزئت واستهزأت بمعنى، كأجبت واستجبت، وأصله الخفّة من الهُزْء وهو القتل السريع يقال: هَزَأَ فلان إذا مات على مكانه، وناقتُه تَهْزَأُ به أي تسرع وتخف.

(١٥) ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم على استهزائهم، سُمِّي جزاءُ الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة، إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القَدْر، أو يَرْجِعُ وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستَهْزَىء بهم، أو يُنزِل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازمُ الاستهزاء أو الغرضُ منه، أو يعاملُهم معاملَةَ المستهزىء: أما في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأما في الآخرة: فبأن يَفْتَحَ لهم ـ وهم في النار ـ باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سَدَّ عليهم الباب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾[(٣)]. وإنما استُؤنف به ولم يَعْطِف ليدل على أن الله تعالى تولى مجازاتهم، ولم يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم، وأنَّ استهزاءهم لا يؤبه به في مقابلة ما يفعلُ الله تعالى بهم. ولعلّه لم

---

(١) أورده الواحدي في «أسباب النزول» ص١٩ تحت الآية (وإذا لقُوا الذينَ آمَنُوا) [البقرة: ١٤]، قال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبيّ وأصحابه...» الحديث وذكره ابن حجر في «الكافي الشافِ» (٥/٤ رقم ٣٠) وقال «محمد بن مروان متروك متهم بوضع الحديث، وسياقه في غاية النكارة» ١هـ، قلت: وأبو صالح ضعيف مدلس. والحديث موضوع والله أعلم.

(٢) قيل خاطبوا شياطينهم بالجملة الإسمية لدفع ما توهم أن شياطينهم شكوا في إيمانهم لقولهم مع المؤمنين: آمنّا (حاشية الكازروني على البيضاوي (١/ ٨٧)).

(٣) المطففين: «٣٤».

يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا
يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ

يقل: الله مستهزىء بهم ليطابق قولَهم، إيماءً بأن الاستهزاء يَحْدُث حالاً فحالاً ويتجدد حيناً بعد حين، وهكذا كانت نكايات الله فيهم كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾[1].

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ من مدَّ الجيشَ وأمدَّه إذا زاده وقوّاه، ومنه مددتُ السراجَ والأرضَ إذا استصلحتهما بالزيت والسماد، لا من المد في العُمُر فإنه يُعَدّى باللام كأملى له. ويدل عليه قراءة ابن كثير ويُمِدُّهم. والمعتزلةُ لما تعذر عليهم إجراءُ الكلام على ظاهره قالوا: لما منعهم الله تعالى ألطافَه التي يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم وسدَّهم طرقَ التوفيق على أنفسهم فتزايدت بسببه قلوبُهم رَيْناً وظُلْمة تزايدَ قلوبِ المؤمنين انشراحاً ونوراً، وأمكن الشيطان من إغوائهم فزادهم طغياناً. أُسْنِدَ ذلك إلى الله تعالى إسناد الفعلِ إلى المسبِّب مجازاً، وأضاف الطغيان إليهم لئلا يُتوهم أن إسنادَ الفعل إليه على الحقيقة، ومصداقُ ذلك: أنه لما أَسْنَدَ المدَّ إلى الشياطين أَطْلق الغي وقال: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾[2]، أو أصلُه يمدّ لهم بمعنى يملي لهم ويمدّ في أعمارهم كي يتنبهوا ويطيعوا فما زادوا إلا طغياناً وعمهاً، فحذفت اللام وعدِّي الفعل بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾[3]. أو التقدير يمدهم استصلاحاً، وهم مع ذلك يعمهون في طغيانهم. والطُّغيانُ ـ بالضمّ والكسر ـ كلُقْيان، والطغيانُ: تجاوزُ الحد في العتو والغلو في الكفر، وأصله تجاوز الشيء عن مكانه قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ ﴾[4]. والعمه في البصيرة كالعمى في البصر، وهو: التحير في الأمر يقال رجل عامِهٌ وعَمِهٌ وأرض عمْهاءُ لا منار بها، قال:

أعْمَى الهُدَى بالجاهِلين العمهْ

(١٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ اختاروها عليه واستبدلوها به، وأصله بذل الثمن لتحصيل ما يُطلَب من الأعيان، فإن كان أحد العِوَضَيْن ناضاً[5] تعين من حيث إنه لا يُطلب لعَيْنه أن يكون ثمناً وبذلُه اشتراءً، وإلا فأي العِوَضَيْن تصورتَه بصورة الثمن فباذِلُه مشترٍ وآخذه بائع، ولذلك عُدَّت الكلمتان من الأضداد، ثم استعير للإعراض عما في يده محصلاً به غيره، سواء كان من المعاني

(١) التوبة: «١٢٦».
(٢) الأعراف: «٢٠٢».
(٣) الأعراف: «١٥٥».
(٤) الحاقة: «١١».
(٥) النضّ والناضّ هي الدراهم والدنانير كما يسميها الحجازيون (المصباح المنير، مادة نضّ).

أو الأعيان، ومنه قول الشاعر:

أَخَذْتُ بالجُمْلَةِ رأساً أَزْعَرا ... وبالثَّنايا الواضِحَاتِ الدُّرَرا
وبالطَّويلِ العُمرِ عمراً جيذراً ... كما اشْتَرَى المُسْلمُ إذ تَنَصَّرا

ثم اتسع فيه فاستُعمل للرغبة عن الشيء طمعاً في غيره، والمعنى: أنهم أخلُّوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فُطِرَ الناسُ عليها محصِّلين الضلالة التي ذهبوا إليها؛ أو اختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾.

ترشيحٌ للمجاز[1]، لَمَّا استعمَل الاشتراء في معاملتهم أتبعه ما يشاكِلُه تمثيلاً لخسارتِهم، ونحوه:

وَلمَّا رأيتُ النسرَ عزَّ ابنَ دأيةٍ ... وعَشَّشَ في وَكْرَيْهِ جَاشَ لَهُ صَدْري

والتجارةُ: طلب الربح بالبيع والشراء. والربحُ: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي شَفًا، وإسنادُهُ إلى التجارة وهو لأربابها على الاتساع لتلبُّسها بالفاعل، أو لمشابهتها إياه من حيثُ إنها سببُ الربح والخُسران.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ لطرق التجارة، فإن المقصود منها سلامةُ رأس المال والربحُ، وهؤلاء قد أضاعوا الطَّلبَتَيْن لأن رأس مَالِهم كان الفطرةَ السليمةَ والعقلَ الصرف، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بَطَل استعدادُهم واختل عقلهم ولم يبقَ لهم رأسُ مال يتوسلون به إلى دَرْك الحق ونيل الكمال، فبقُوا خاسرين آيسين من الربح فاقدين للأصل.

(١٧) ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ لما جاء بحقيقة حالهم عقَّبها بضرب المثل زيادةً في التوضيح والتقرير، فإنه أوقعُ في القلب وأقمعُ للخصم الألد، لأنه يريك المتخيَّلَ محققاً والمعقولَ محسوساً، ولأمر ما أكْثَرَ الله في كتبه الأمثال، وفشت في كلام الأنبياء والحكماء. والمَثَلُ في الأصل بمعنى النظير يقال: مَثَلٌ ومِثْلٌ ومَثِيلٌ كشَبَهٌ وشِبْهٌ وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثَّل مَضْرِبُه بمَوْرِدِهِ، ولا يُضرب إلا ما فيه غرابةٌ، ولذلك حوفظ عليه من التغيير، ثم استُعير لكل حال أو قصة أو صفة لها شأن وفيها غرابة مثل قوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[3].

والمعنى: حالُهم العجيبة الشأن كحال من استوقد ناراً. والذي: بمعنى الذين كما في قوله تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾[4] إن جُعل مرجعُ الضمير في «بنورهم»، وإنما جاز ذلك ولم يَجُزْ وضعُ القائم موضعَ القائمين لأنه غير مقصود بالوصف، بل الجملةُ التي هي صلته وهو وُصْلَة إلى وصف

---

(١) الترشيح هو: ذكر شيء يلائم المستعار منه، فإن الربح ـ وكذا التجارة ـ يلائم المستعار منه الذي هو معنى الشراء الحقيقي. وأصل معنى الترشيح: تربية الأم ولدها بجعل اللبن في فيه شيئاً بعد شيء إلى أن يقوى على المصّ، ولما كان في ذكر ما يلائم المستعار منه تقوية للاستعارة وتربية لها سمي ترشيحاً. (حاشية الكازروني ١/ ٨٩).

(٢) الرعد: «٣٥».

(٣) النحل: «٦٠».

(٤) التوبة: «٦٩».

المعرفة بها لأنه ليس باسم تامٍّ بل هو كالجزء منه، فحقه أنه لا يُجْمَع كما لا نَجْمَع أخواتِها، ويستوي فيه الواحد والجمع، وليس الذين جَمْعُه المصحَّح، بل ذو زيادة زيدت لزيادة المعنى ولذلك جاء بالياء أبداً على اللغة الفصيحة التي عليها التنزيل، ولكونه مستطالاً بصلته استَحقّ التخفيف، ولذلك بولغ فيه فحُذِفَ ياؤه ثم كَسْرَته ثم اقتُصِر على اللام في أسماء الفاعِلِين والمفعولين، أو قُصِد به جنسُ المستوقدين، أو الفوج الذي استوْقَدَ. والاستيقاد: طلب الوقود والسعيُ في تحصيله، وهو سطوع النار وارتفاع لهبها. واشتقاق النار من: نار يَنُور نَوْراً إذا نفر لأن فيها حركةً واضطراباً.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: النارُ ما حول المُسْتَوْقِدِ إن جعلتَها متعدية، وإلا أمكن أن تكون مُسْنَدة إلى ما، والتأنيثُ لأن ما حولَه أشياءُ وأماكنُ أو إلى ضمير النار، وما: موصولة في معنى الأمكنة نُصِبَ على الظرف، أو مزيدةٌ وحولَه ظرفٌ، وتأليف الحوْل للدوران، وقيل للعامِ حَوْلٌ لأنه يدور.

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ جوابُ لمّا، والضمير للذي، وجمعُه للحمل على المعنى، وعلى هذا إنما قال: ﴿بِنُورِهِمۡ﴾ ولم يقل: بنارهم لأنه المراد من إيقادها. أو استئنافٌ أجيب به اعتراض سائلٍ يقول: ما بالُهم شُبِّهت حالهم بحال مستوقد انطفأت ناره؟ أو بدلٌ من جملة التمثيلِ على سبيل البيان. والضميرُ على الوجهيْن للمنافقين، والجوابُ محذوف كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾[1] للإيجاز وأَمْنِ الالتباس. وإسنادُ الذهاب إلى الله تعالى: إما لأن الكل بفعله، أو لأن الإطفاء حصل بسببٍ خفيٍّ أو أمرٍ سماوي كريح أو مطر، أو للمبالغة ولذلك عُدِّي الفعلُ بالباء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك، يقال: ذهب السلطان بمالِهِ إذا أخذه، وما أخذه الله وأمسكه فلا مرسلَ له، ولذلك عَدَلَ عن الضَّوْء الذي هو مقتضى اللفظ إلى النُّور، فإنه لو قيل: ذهب الله بضَوْئهم احتَمَلَ ذهابُه بما في الضوء من الزيادة وبقاءِ ما يسمى نوراً، والغرضُ إزالة النور عنهم رأساً، ألا ترى كيف قرر ذلك وأكده بقوله: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ فذكر الظُّلمة التي هي عدمُ النور وانطماسُهُ بالكلية، وجمعَها ونكَّرها ووصفَها بأنها ظلمة خالصة لا يَتَراءى فيها شبحان. وَتَرَكَ في الأصل بمعنى طرح وخلَّى، وله مفعول واحد فضُمِّن معنى صير، فجرى مجرى أفعال القلوب كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾[2].

وقول الشاعر:

فتــركْتُــه جَــزَرَ السِّبــاع يَنُشْنَــهُ   يقضُمْــنَ حُســنَ بنــانِــهِ والمِعْصَــمِ

والظلمةُ مأخوذة من قولهم: ما ظلمك أن تفعلَ كذا؟ أي ما منعك، لأنها تسُدُّ البصر وتمنع الرؤية. وظلماتُهم: ظلمةُ الكفر وظلمةُ النفاق وظلمةُ يوم القيامة ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾[3]، أو ظلمةُ الضلال وظلمة سَخَطِ الله. وظلمة العقاب السرمديِّ، أو ظلمةٌ شديدةٌ كأنها ظلمة متراكمة، ومفعول ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ من قبيل المطروح المتروك فكأن الفعل غير متعدٍّ.

---

(١) يوسف: «١٥».
(٢) البقرة: «١٧».
(٣) الحديد: «١٢».

والآية مَثَلٌ ضربه الله لمن آتاه ضَرْباً من الهُدَى فأضاعه ولم يتوصل به إلى نعيم الأبد فبقي متحيِّراً متحسِّراً، تقريراً وتوضيحاً لما تضمنته الآيةُ الأولى. ويدخُلُ تحت عمومه هؤلاء المنافقون، فإنهم أضاعوا ما نطقت به ألسنتهم من الحق باستبطان الكفر وإظهارِهِ حين خلوْا إلى شياطينهم، وَمَنْ آثر الضلالةَ على الهدى المجعولِ له بالفطرة أو ارتدّ عن دينه بعدما آمن، ومَنْ صحَّ له أحوالُ الإرادة فادعى أحوالَ المحبة فأذهب الله عنه ما أشرق عليه من أنوار الإرادة. أو مَثَّل لإيمانهم من حيثُ إنه يعود عليهم بحقن الدماءِ وسلامة الأموال والأولاد ومشاركةِ المسلمين في المغانم والأحكام بالنار الموقدة للاستضاءة، ولذهاب أثره وانطماس نوره، بإهلاكِهم وإفشاءِ حالهم بإطفاء الله تعالى إياها وإذهاب نورِها.

(١٨) ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ لما سَدُّوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق وأبوْا أن يُنْطِقُوا به ألسنتَهم ويَتبصَّرُوا الآياتِ بأبصارهم، جُعِلُوا كأنما أُيِفت مشاعرُهم وانتفت قُواهم كقوله:

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ وإنْ ذُكِرْتُ بسوءٍ عندَهُمْ أذِنوا

وكقوله:

أَصَمُّ عن الشي الَّذي لا أُرِيدُهُ وأَسْمَعُ خَلْقِ الله حينَ أُرِيدُ

وإطلاقُها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يُطوى ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لولا القرينةُ كقول زهير[١]:

لَدَى أسدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أظفارُه لم تُقَلَّمِ

ومن ثَمّ ترى المُفَلِّقِين السَّحَرَة يُضْربون عن توهم التشبيه صفحاً كما قال أبو تمام الطائي[٢]:

وَيصعَدُ حتى يَظُنَّ الجَهولُ بأنَّ لَهُ حَاجةً في السَّماءِ

وههنا وإن طُوِيَ ذِكْرُه بحذف المبتدأ لكنّه في حكم المنطوق به، ونظيرُه:

أَسَدٌ عليَّ وفي الحُرُوبِ نَعَامةٌ فتْخَاءُ تنفر مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

---

(١) زهير بن أبي سلمى: ربيعة بن رباح المزني من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة. قال ابن الأعرابي: كان لزهير في الشعر مالم يكن لغيره كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين وأخته الخنساء شاعرة ولد في بلاد «مُزَيْنة» بنواحي المدينة وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد) واستمر بنوه فيه بعد الإسلام، وكانت قصائده تسمى «الحوليّات» أشهر شعره معلقته التي مطلعها «أمِن أمّ أوفى دمنة لم تكلم» وهي من الطويل، مات سنة (١٣ ق.هـ) [الأعلام للزركلي (٣/ ٥٢)].

٢) أبو تمام الطائي: هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام، الشاعر، الأديب، أحد أمراء البيان، ولد في جاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته في العراق، ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها سنة (٢٣١هـ) في شعره قوة وجزالة، وله تصانيف منها: (فحول الشعراء ـ خ) و«ديوان الحماسة ـ ط» وغيرها.
[الأعلام للزركلي (٢/ ١٦٥)].

هذا إذا جَعَلْتَ الضمير للمنافقين على أن الآية فَذْلَكَةُ التمثيلِ ونتيجتُه، وإنْ جعلتَه للمستوقِدين، فهي على حقيقتها. والمعنى: أنهم لما أوقدوا ناراً فذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات هائلة أدهشتهم بحيث اختلت حواسُّهم وانتقصت قُواهم. وثلاثتُها قرنت بالنصب على الحال من مفعول تركهم. والصَّمَم: أصلُه صلابةٌ من اكتناز الأجزاء، ومنه قيل حجر أصمّ وقناة صماء وصمام القارورة، سُمِّي به فُقْدان حاسة السمع لأن سببَه أن يكون باطن الصِّماخ مُكْتَنِزاً لا تجويف فيه فيشتمل على هواء يَسْمع الصوت بتموُّجه. والبَكْمُ الخَرَس. والعمى: عدم البصر عما من شأنه أن يُبْصَر وقد يقال لعدم البصيرة.

﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه، أو عن الضلالة التي اشتروها، أو فَهُم متحيرون لا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون وإلى حيث ابتدؤوا منه كيف يرجعون. والفاء للدلالة على أن اتصافهم بالأحكام السابقة سبب لتحيرهم واحتباسهم.

(١٩) ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ عطف على الذي استوقد أي كمَثَل ذوي صيِّب لقَوله: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾ و«أو» في الأصل للتساوي في الشك، ثم اتسع فيها فأطلقت للتساوي من غير شكّ مِثْل: جالس الحسن أو ابن سيرين، وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾[1] فإنها تفيد التساوي في حسن المجالسة ووجوب العِصْيان ومن ذلك قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾. ومعناه أن قصة المنافقين مُشَبَّهة بهاتين القصتين، وأنهما سواء في صحة التشبيه بهما، وأنت مخيَّر في التمثيل بهما أو بأيهما شئت. والصيِّب: فَيْعَل من الصَّوْب وهو النزول، يقال للمطر وللسحاب.

قال الشماخ[2]:

وأسْحَمَ دانٍ صادقِ الرعْدِ صَيِّبِ

وفي الآية يحتملُهما، وتنكيرُه: لأنه أريد به نوع من المطر شديد. وتعريفُ السماء للدَّلالة على أن الغَمام مُطْبِقٌ آخذٌ بآفاق السماء كلِّها فإن كل أُفُق منها يسمى سماءً كما أن كل طبقة منها سماءٌ، وقال:

وَمِنْ بَعْدِ أرضٍ بينَنَا وسماءِ

أمِدَّ به ما في الصيب من المبالغة من جهة الأصل والبناء والتنكير، وقيل المراد بالسماء السحابُ فاللام لتعريف الماهية.

﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ إنْ أريد بالصيّب المطر فظُلُماتُه ظلمةُ تكاثُفِه بتتابُع القَطْر وظلمةُ غَمَامه مع ظلمة الليل، وجَعْلُهُ مكاناً للرعد والبرق لأنهما في أعلاه ومنحَدَرِه ملتبسين به. وإن أريد به السحاب،

---

(١) الإنسان: «٢٤».

(٢) الشماخ: هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام وهو من طبقة لبيد والنابغة. كان شديد متون الشعر، ولبيد أسهل منه منطقاً، وكان أرجز الناس على البديهة. جمع بعض شعره في «ديوان ـ ط» شهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان. وأخباره كثيرة، قال البغدادي وآخرون: اسمه معقل بن ضرار. والشماخ لقبه ومات سنة (٢٢هـ) [الأعلام للزركلي (٣/ ١٧٥)].

كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ
أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ
شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا

فظلماته سُحمته وتطبيقُه مع ظلمة الليل. وارتفاعُها بالظرف وِفاقاً لأنه معْتَمِد على موصوف. والرعد: صوت يسمع من السحاب، والمشهور أن سببَه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا حَدَّتها الريح من الارتعاد. والبرقُ ما يَلمع من السحاب، من بَرِقَ الشيءُ بريقاً، وكلاهما مصدر في الأصل ولذلك لم يُجمعا.

﴿ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم ﴾ الضمير لأصحاب الصيّب، وهو وإن حُذِفَ لفظُه وأقيم الصيبُ مقامَه لكنّ معناه باق، فيجوز أن يُعوَّل عليه كما عَوَّل حسانُ في قوله:

يسْقُــون مَــنْ وَرَدَ البَـريــصَ عَليهــمُ ... بَــرَدَى يصفِّــقُ بــالــرَّحِيــقِ السَّلْسَــلِ

حيث ذكر الضمير لأن المعنى ماءُ بَرَدى، والجملةُ استئنافٌ فكأنه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهوْل قيل: فكيف حالهم مع مثل ذلك؟ فأجيبَ بها، وإنما أطلق الأصابع موضع الأنامل للمبالغة.

﴿ مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ ﴾ متعلق بيجعلون أي من أجلها يجعلون، كقولهم سقاه من الغيمة. والصاعقةُ قصفةُ رعدٍ هائل معها نارٌ لا تمر بشيء إلا أتت عليه، من الصعق وهو شدة الصوت، وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهَد، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو شدة الصوت. وقرىء من الصواقع وهو ليس بقلب من الصواعق لاستواء كِلا البناءيْن في التصرف يقال: صقع الديك وخطيب مصقع وصقعتْه الصاقعة، وهي في الأصل إما صفة لقصفةِ الرعدِ أو للرعد. والتاء للمبالغة كما في الراوية أو مصدر كالعافية والكاذبة.

﴿ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ ﴾ نُصِبَ على العلّة كقوله:

وأَغْفِــرُ عَــوراءَ الكَــريــمِ ادِّخَــارَهُ ... وأَصْفَــحُ عــنْ شتــمِ اللئيــمِ تَكَــرُّمَــا

والموت: زوال الحياة، وقيل عَرَضٌ يَضادُّها لقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ ﴾(١)، وَرُدَّ بأن الخلق بمعنى التقدير، والأعدام مقدرة.

﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاطَ به المحيطُ، لا يخلصهم الخداع والحيل، والجملة اعتراضية لا محل لها.

(٢٠) ﴿ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ ﴾ استئناف ثان كأنه جواب لمن يقول: ما حالهم مع تلك

---

(١) الملك: «٢».

الصواعق؟. وكادَ من أفعال المقاربة، وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لعُرُوض سببه لكنه لم يوجد، إما لفَقْد شرط أو لوجود مانع، وعسى موضوعة لرجائه، فهي خبر محض ولذلك جاءت متصرفةً بخلافِ عسى، وخبرُها مشروط فيه أن يكون فعلاً مضارعاً تنبيهاً على أنه المقصودُ بالقرب من غير أن، لتوكيدِ القرب بالدلالة على الحال، وقد تدخل عليه حَمْلاً لها على عسى، كما تُحْمَلُ عليها بالحذف من خبرها لمشاركتهما في أصل معنى المقاربة. والخَطْف الأخذ بسرعة وقرىء يَخْطِف ـ بكسر الطاء ـ ويَخَطِّفُ على أنه يختطفُ فنقلت فتحة التاء إلى الخاء ثم أدغمت في الطاء، ويَخِطِّفُ بكسر الخاء لالتقاء الساكنين وإتباع الياء لها، ويُخَطِّفُ ويتخطف.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ﴾ استئناف ثالث كأنه قيل: ما يفعلون في تارتَيْ خفوقِ البرق وخُفْيَتِهِ؟ فأجيب بذلك. وأضاء إما متعدٍّ والمفعول محذوف بمعنى كلما نور لهم ممشى أخذوه، أو لازم بمعنى كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره، وكذلك أظلم فإنه جاء متعدياً منقولاً من ظَلَم الليلُ، ويشهد له قراءة أُظْلِمَ على البناء للمفعول، وقول أبي تمام:

هُمَا أظلَمَا حالَي ثُمَّتَ أجْلَيَا ظَلامَيْهِما عن وَجْهِ أَمْرَدَ أشيبِ

فإنه وإن كان من المحدَثين لكنه من علماء العربية، فلا يبعُدُ أن يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. وإنما قال مع الإضاءة ﴿كُلَّمَآ﴾ ومع الإظلام ﴿إِذَآ﴾ لأنهم حُرَّاص على المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف. ومعنى قاموا وقفوا، ومنه قامت السوق إذا ركدت، وقام الماء إذا جَمَدَ. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾ أي ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد وأبصارِهم بوميض البرق لذهب بهما. فحذف المفعول لدلالة الجواب عليه، ولقد تكاثر حذفُه في شاء وأراد حتى لا يكاد يُذْكر إلا في الشيء المستغرب كقوله:

فَلَوْ شِئْتُ أن أبكي دَمَاً لَبَكَيْتُهُ

ولو: من حروف الشرط، وظاهرُها الدَّلالةُ على انتفاء الأول لانتفاء الثاني، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازِمه. وقرىء: لأذْهَبَ بأسماعهم، بزيادة الباء كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ﴾[١].

وفائدة هذه الشرطية إبداءُ المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم مع قيام ما يقتضيه، والتنبيه على أن تأثير الأسباب في مسبباتها مشروط بمشيئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته، وقولُه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ كالتصريح به والتقرير له. والشيءُ يختصّ بالموجود، لأنه في الأصلِ مصدرُ شاءَ أُطْلِقَ بمعنى شاء تارة، وحينئذ يتناولُ الباريءَ تعالى كما قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ﴾[٢] وبمعنى مَشِيءٍ أخرى، أي مشيءٌ وجوده وما شاء الله وجودَه فهو موجود في الجملة وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾[٣]. ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖۖ﴾[٤] فهما على عمومهما بلا مثْنَوية.

---

(١) البقرة: «١٩٥».
(٢) الأنعام: «١٩».
(٣) البقرة: «٢٠».
(٤) الزمر: «٦٢».

والمعتزلة لما قالوا الشيءُ ما يصحُ أن يوجد وهو يعم الواجب والممكن، أو ما يصح أن يُعْلم ويُخْبَرَ عنه فيعمّ الممتنع أيضاً، لزمهم التخصيص بالممكن في الموضعين بدليل العقل.

والقدرة: هو التمكن من إيجاد الشيء. وقيل صفة تقتضي التمكُّن، وقيل قدرة الإنسان هيئة بها يتمكن من الفعل وقدرة الله تعالى عبارة عن نفي العجز عنه، والقادرُ هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، والقدير الفعال لما يشاء على ما يشاء ولذلك قلما يوصفُ به غيرُ الباري تعالى، واشتقاق القدرة من القَدْرِ لأن القادر يوقع الفعل على مقدار قوته أو على مقدار ما تقتضيه مشيئته. وفيه دليل على أن الحادث حالَ حدوثه والمُمْكن حال بقائه مقدوران وأن مقدورَ العبد مقدورٌ لله تعالى، لأنه شيءٌ وكل شيء مقدور لله تعالى. والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلَّفة، وهو أن يُشَبَّه كَيفيةً منتزعةً من مجموع تضامَّتْ أجزاؤه وتلاصقتْ حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾[1] الآية، فإنه تشبيهُ حال اليهود في جهلهم بما معهم من التوراة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة. والغرضُ منهما تمثيلُ حال المنافقين من الحِيرة والشدة بما يكابِد من انطفأت نارُه بعد إيقادها في ظلمة، أو بحال من أخذَتْه السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصِف وبرق خاطف وخوف من الصواعق. ويمكن جعلُهُما من قَبيل التمثيلِ المفرد، وهو أن تأخذ أشياء فرادى فتشبِّهُها بأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾[2] وقول امرىء القيس[3]:

كـأنَّ قلـوبَ الطيـر رَطْبـاً ويـابِسـاً   لـدَى وكـرِهـا العنَّـابُ والحشـفُ البـالـي

بأن يشبِّه في الأول: ذواتِ المنافقين بالمستوقِدِين، وإظهارَهمُ الإيمانَ باستيقادِ النار، وما انتَفَعوا به من حَقْن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغيرِ ذلك بإضاءة النار ما حول المستوقِدِين، وزوالِ ذلك عنهم على القرب بإهلاكهم وبإفشاء حالهم وإبقائهم في الخَسَار الدائم والعذابِ السرمد بإطفاءِ نارِهم والذهاب بنورها. وفي الثاني: أنفسَهم بأصحاب الصيِّب وإيمانَهم المخالَطَ بالكفر والخداع بصيِّب فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إنه وإن كان نافعاً في نفسه لكنه لما وُجِدَ في هذه الصورة عاد نفعُه ضُراً ونفاقُهم حذراً عن نكايات المؤمنين، وما يطرقون به من سواهم من الكفرة بجعلِ الأصابع في الآذان من الصواعق حذر الموت، من حيث إنه لا يَرُدُّ من قَدَرِ الله تعالى شيئاً، ولا يَخلُص مما يُريد بهم من المضار وتحيُّرِهم لشدة الأمر وجهلهم بما يأتون ويذرون، بأنهم كلما صادفوا من البرق خَفْقة انتهزوها فرصة مع خوف أن تُخْطَفَ أبصارُهم فَخَطُوا خُطاً يسيرة، ثم إذا خفي وَفَتَر لمَعانُهُ بقُوا متقيدين لا حِرَاك بهم. وقيل: شبه الإيمان والقرآن وسائر ما أوتي الإنسانُ من المعارف التي هي سبب الحياة الأبدية بالصَّيِّب الذي به حياة الأرض، وما ارتُكِبت بها من الشُّبَهِ المبطلة واعتُرِضَت دونها من الاعتراضات المشككة بالظلمات، وشَبَّه ما فيها من الوعد والوعيد بالرعد، وما فيها من الآيات الباهرة

---

(١) الجمعة: «٥».

(٢) فاطر: «٢١».

(٣) سبقت ترجمته في سورة الفاتحة آية (٥).

بالبرق، وتصامَّهم عما يسمعون من الوعيد بحال من يهوله الرعد فيخاف صواعقه فيسد أذنيه عنها مع أنه لا خلاص لهم منها وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١)، واهتزازَهم لما يلمع لهم من رَشَدٍ يدركونه أو رَفَدٍ تطمح إليه أبصارهم بمشيهم في مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم، وتحيرهم وتوقفَهم في الأمر حين تَعْرِض لهم شبهة أو تعن لهم مصيبة بتوقفهم إذا أظلم عليهم.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾(٢) على أنه تعالى جعل لهم السمع والأبصار ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح، ثم إنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة وسدُّوها عن الفوائد الآجلة، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم، فإنه على ما يشاء قدير.

(٢١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ لما عدد فِرقَ المكلفين وذكر خواصهم ومصارفَ أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هَزّاً للسامع وتنشيطاً له واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة. ويا: حرف وضع لنداء البعيد وقد يُنادى به القريب تنزيلاً له منزلة البعيد، إما لعظمته كقول الداعي: يا رب ويا الله هو أقرب إليه من حبل الوريد، أو لغفلته وسوء فهمه، أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه. وهو مع المنادَى جملة مفيدة، لأنه نائب مناب فعل. وأيُّ: جُعِل وُصْلةً إلى نداء المعرَّف باللام، فإن إدخال «يا» عليه متعذر لتعذّرِ الجمع بين حرفي التعريف فإنهما كَمِثْلَيْن وأُعْطِي حكم المنادى وأجري عليه المقصودُ بالنداء وصفاً موضِّحاً له، والتزامُ رفعه إشعاراً بأنه المقصود، وأُقحمت بينهما هاء التنبيه تأكيداً وتعويضاً عما يستحقه ـ أي من المضاف إليه ـ. وإنما كثُر النداء على هذه الطريقة في القرآن لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وكلُّ ما نادى اللهُ له عبادَه ـ من حيث إنها أمورٌ عِظَام من حقها أن يتفطنوا إليها ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون ـ حقيق(٣) بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ. والجُموعُ وأسماؤها المحلاة باللام للعموم حيث لا عهد، ويدلُّ عليه صحةُ الاستثناء منها، أو التأكيدُ بما يفيد العموم كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾(٤) واستدلالُ الصحابة بعمومها شائعاً وذائعاً، فالناسُ يعمُّ الموجودين وقتَ النزول لفظاً ومَنْ سيوجد، لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شاملٌ للقَبيلَيْن ثابت إلى قيام الساعة إلا ما خصه الدليل. وما روي عن علقمة(٥) والحسن(٦) أنّ كل شيء نزل فيه

(١) البقرة: «١٩».
(٢) البقرة: «٢٠».
(٣) حقيقٌ: خبر كلُّ ما نادى.
(٤) الحجر: «٣٠».
(٥) علقمة هو: علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك النّخَعي الكوفي، ولد في حياة رسول الله ﷺ وهو من أشهر رواه عبدالله بن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه. قال أبو المثنى: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبدالله، أشبه الناس به سمتاً وهدياً. وقال داود بن أبي هند: قلت: لشعبة: أخبرني عن أصحاب عبدالله، قال: كان علقمة أنظر القوم به، وكان رحمه الله ثقة مأموناً. على جانب عظيم من الورع والصلاح، قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير، وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال مرة الهمداني: كان علقمة من الربانيين، قال أبو نعيم: مات سنة (٦١هـ) وعمره تسعون سنة [تهذيب التهذيب (٧/ ٢٤٤ رقم ٤٨٥)].
(٦) الحسن البصري: هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاريّ، ويقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمكيّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فمدني[(١)]، إن صح رفعُه فلا يوجِب تخصيصَه بالكفار ولا أمْرَهم بالعبادة، فإن المأمورَ به هو القدْرُ المشتركُ بين بدء العبادة والزيادة فيها والمواظبة عليها، فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها بعد الإتيان بما يجبُ تقديمُه من المعرفة والإقرار بالصانع، فإنّ من لوازم وجوب الشيء وجوبُ مالا يتمُّ إلا به، وكما أن الحدث لا يَمْنع وجوب الصلاة فالكفر لا يمنع وجوب العبادة، بل يجب رفعه والاشتغالُ بها عقيبه. ومن المؤمنين[(٢)] ازديادُهم وثباتهم عليها، وإنما قال ﴿رَبَّكُمُ﴾ تنبيهاً على أن الموجب للعبادة هي الربوبيةُ.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة جَرَتْ عليه تعالى للتعظيم والتعليل، ويُحتملُ التقييدُ والتوضيحُ إن خصَّ الخطابَ بالمشركين، وأريدَ بالرَّب أعمُّ من الرب الحقيقي والآلهةِ التي يسمونها أرباباً. والخلقُ إيجاد الشيء على تقدير واستواء، وأصلُه التقدير يقال: خَلَقَ النَّعلَ إذا قدَّرها وسوّاها بالمقياس.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ متناولٌ كل ما يَتقدَّم الإنسان بالذات أو بالزمان. منصوبٌ معطوفٌ على الضمير المنصوب في ﴿خَلَقَكُمْ﴾. والجملة أُخرِجَتْ مَخْرَجَ المقرَّر عندهم، إما لاعترافهم به كما قالَ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[(٣)] أو لتمكُّنهم من العِلْم به بأدنى نظر. وقرىء «مَنْ قَبْلَكم» على إقحام الموصول الثاني بين الأول وصِلَتِهِ تأكيداً، كما أَقْحَم جريرُ في قوله:

يا تيم تيمَ عُدَيٍّ لا أبا لَكمُو

تيماً الثاني بين الأول وما أضيف إليه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾ كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سِلْك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين جوار الله تعالى. نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى إلى الله، وأنّ العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته، ويكونَ ذا خوفٍ ورجاء قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[(٤)] ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ

= مولى جميل بن قُطْبَة، وأمه خيرة مولاة أم سلمة، نشأ بالمدينة وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان وسمعه يخطب مرات، وكان يوم الدار ابن أربع عشرة سنة ثم كبر ولازم الجهاد ولازم العلم والعمل، وقال عنه ابن سعد «كان جامعاً عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً. . . وما أرسله فليس هو بحجة» وقال الذهبي «هو مدلس فلا يحتج بقوله عمن لم يدركه، وقد يدلس عمن لقيه ويسقط من بينه وبينه، ولكنه حافظ علامة من بحور العلم فقيه النفس، كبير الشأن عديم النظير، مليح التذكير، بليغ الموعظة، رأس في أنواع الخير» مات سنة عشرة ومئة وله ثمان وثمانون سنة [تذكرة الحفاظ (١/ ٧١ ـ ٧٢ رقم ٦٦) وأخبار القضاة (٢/ ٣ ـ ١٥)].

(١) صحح ابن حجر هذه الرواية عن علقمة، لكنه قال بأن هذا محمول على أن المراد بالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، لأن الغالب على أهل مكة كان الكفر فخوطبوا «يا أيها الناس» والغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا «يا أيها الذين آمنوا» (انظر الكافي الشافِ ص٥ وهذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥٢٢) في فضائل القرآن.

(٢) أي والمطلوب من المؤمنين، فهي عطف على قوله: فالمطلوب من الكفار.

(٣) الزخرف: «٨٧».

(٤) السجدة: «١٦».

عَذَابَهُۥٓ﴾[(١)]. أو من مفعولِ[(٢)] ﴿خَلَقَكُمْ﴾ والمعطوفِ عليه على معنى أنه خلقكم ومَنْ قبلَكم في صورة مَنْ يُرجى منه التقوى لترجُّح أمره باجتماع أسبابه وكثرة الدواعي إليه. وغَلَّبَ المخاطَبين على الغائبين في اللفظ، والمعنى على إرادتهم جميعاً. وقيل تعليلٌ للخلق، أي خلقكم لكي تتقوا كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(٣)]. وهو ضعيفٌ إذ لم يثبُتْ في اللغة مثلُه[(٤)].

والآية تدل على أن الطريقَ إلى معرفة الله تعالى والعلمَ بوَحدانيته واستحقاقَه للعبادة النظرُ في صنعه والاستدلالُ بأفعاله، وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه ثواباً، فإنها لما وجبت عليه شُكراً لِمَا عدّده عليه من النعم السابقة فهو كأجيرٍ أَخَذَ الأجر قبل العمل.

(٢٢) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ صفة ثانية، أو مدح منصوب، أو مرفوع، أو مبتدأ خبره فلا تجعلوا. وجَعَلَ من الأفعال العامّة يجيء على ثلاثة أوجهٍ: بمعنى صار، وطفِقَ فلا يتعدى كقوله:

فقَـدْ جعلـتْ قلـوصَ بنـي سُهَيْـلٍ مِـنَ الأكْـوارِ مـرتعُهـا قَـريـبُ

وبمعنى أَوْجَد فيتعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[(٥)] وبمعنى صير، ويتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[(٦)] والتَّصييرُ يكون بالفعل تارة، وبالقول أو العقد أخرى. ومعنى جَعَلَها فراشاً أن جَعَل بعض جوانبها بارزاً ظاهراً عن الماء ـ مع ما في طبعه من الإحاطة بها ـ وصيَّرها متوسطةً بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهيَّأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة، لأن كُرَيَّة شكلها مع عِظَمِ حجمها واتساع جرمها لا تأبى الافتراش عليها.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ قُبَّة مضروبةً عليكم. والسماءُ اسم جنس يقع على الواحد والمتعدِّد كالدينار

---

(١) الإسراء: «٥٧».
(٢) عطف على قوله: حال من الضمير، بمعنى: حالٌ من الضمير أو من مفعول خلقكم والمعطوف عليه.
(٣) الذاريات: «٥٦».
(٤) يدل المعنى الوضعي لكلمة «لعل» على إنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول. وهو إما محبوب فيسمى ترجياً أو مكروه فيسمى إشفاقاً. وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل، وهو إما من جهة المتكلم كقولك: لعل الله يرحمني، أو من جهة المخاطب كقوله تعالى: «فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى» ـ طه: ٤٤ ـ تنزيلاً له منزلة المتكلم.. وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز إيذاناً بأن هذا الأمر حقيق بالوقوع من غير أن يعتبر أن هناك توقع الفعل من متوقع أصلاً.
وهذا المعنى إن روعي في الآية في قوله «لعلكم تتقون» فيستحيل إرادته لامتناع التوقع من علام الغيوب فيصار للاستعارة بتشبيه طلبه تعالى من عباده التقوى برجاء الراجي من المرجو منه أمراً هيِّن الحصول في كون متعلق كل منهما متردداً بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للمبالغة في الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع، أو يصار إلى التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى إياهم مستعدين للتقوى وطلبه إياها منهم وهم متمكنون منها، وينتزع من ذلك هيئة متشبه بهيئة منتزعة من الراجي ورجائه منه شيئاً سهل المنال.. (أبو السعود ١/ ٥٩).
(٥) الأنعام: «١».
(٦) البقرة: «٢٢».

والدرهم، وقيل: جمع سماءة. والبناء مصدر، سُمِّي به المبنى بيتاً كان أو قبة أو خِبَاء، ومنه بنى على امرأته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباءً جديداً.

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ عطفٌ على جَعَل، وخروج الثمار بقدرة الله تعالى ومشيئته، ولكنْ جعل الماء الممزوجَ بالتراب سبباً في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان، بأن أجرى عادته بإفاضة صورِها وكيفياتها على المادة الممتزجة منهما، أو أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواعُ الثمار، وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب وموادَّ كما أبدع نفوس الأسباب والمواد، ولكنْ له في إنشائها مدرجاً من حال إلى حال صنائع وحِكَم يجدد فيها لأُولي الأبصار عِبَراً، وسكوناً إلى عظيم قدرته ليس في إيجادها دفعة، و﴿ مِن﴾ الأولى للابتداء سواء أريد بالسماء السحابُ فإن ما عَلاَكَ سماءٌ، أو الفَلَكُ فإن المطر يبتدىء من السماء إلى السحاب ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه الظواهر، أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرَّطْبة من أعماق الأرض إلى جو الهواء فتنعقد سحاباً ماطراً. و﴿ مِنَ﴾ الثانية للتبعيض بدليل قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ ﴾(١) واكتنافِ المنكرين له، أعني ماءً ورزقاً، كأنه قال: وأنزلنا من السماء بعضِ الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعضَ رزقكم، وهكذا الواقعُ إذ لم ينزل من السماء الماءُ كلُّه، ولا أُخرِج بالمطر كلُّ الثمرات، ولا جُعِلَ كلُّ المرزوق ثماراً. أو للتبيين. ورزقاً مفعول بمعنى المرزوق كقولك أنفقت من الدراهم ألفاً. وإنما ساغ الثَّمَرات والموضعُ موضعُ الكثرة، لأنه أراد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك أدركت ثمرة بستانه ويؤيده قراءة من قرأ: «من الثمرة» على التوحيد، أو لأن الجموع يتعاور بعضُها موقع بعض كقوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾(٢) وقوله: ﴿ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾(٣)، أو لأنها لما كانت محلاةً باللام خرجت عن حد القلة. و﴿ لَّكُمْ﴾ صفةُ رزقاً إن أريد به المرزوق ومفعولِه إن أريد به المصدر كأنه قال: رزقاً إياكم.

﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ متعلقٌ باعبدوا على أنه نهيٌ معطوفٌ عليه، أو نفيٌ منصوبٌ بإضمارِ أنْ جوابٌ له أو بلعل على أنّ نَصْبَ تَجْعلوا نصبَ فاطَّلِع في قوله تعالى: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ ﴾(٤) إلحاقاً لها بالأشياء الستة لاشتراكها في أنها غير موجِبَة(٥)، والمعنى: إن تتقوا لا تجعلوا لله أنداداً، أو بالذي جعل إن استَأْنَفْتَ به على أنه نهيٌ وقَعَ خبراً على تأويل مقولٍ فيه: لا تجعلوا، والفاءُ للسببية أدخلت عليه لتَضَمُّن المبتدأ معنى الشرط، والمعنى: أنّ من خصكم بهذه النعم الجسام والآياتِ العظام ينبغي أن لا يُشْرَكَ به. والندُّ: المِثْل المناوىء، قال جرير:

---

(١) فاطر: «٢٧».

(٢) الدخان: «٢٥».

(٣) البقرة: «٢٢٨».

(٤) غافر: «٣٧».

(٥) الأشياء الستة هي: الأمر والنهي والاستفهام والعرض والتمني والنفي، والمراد بكونها غير موجِبة: عدم استفادة شيء لشيء من تلك الأمور. وفي العبارة تسامح والأولى أن يقال: لاشتراكها في عدم الإيجاب (حاشية الكازروني ١/ ١١٠).

أتيمـــاً تَجْعلـــونَ إلَـــيَّ نـــدّاً وَمـــا تيـــمٌ لِـــذي حَسَـــبٍ نَـــدِيـــدُ

مِنْ نَدَّ يَنِدُّ ندوداً: إذا نفر، ونادَدْتُ الرَّجُلَ خالفتُه، خُصَّ بالمخالف المماثل في الذات كما خُصّ المساوي بالمماثل في القَدْر. وتسميةُ ما يعبده المشركون من دون الله أنداداً وما زعموا أنها تُساويه في ذاته وصفاته ولا أنها تخالفُه في أفعاله، لأنهم لما تركوا عبادته إلى عبادتها وسمُّوها آلهة شابهت حالُهم حالَ من يعتَقِد أنها ذواتٌ واجبةٌ بالذات قادرةٌ على أن تدفع عنهم بأس الله وتمنحَهم ما لم يُرِدِ الله بهم من خير، فتهكَّم بهم وشنَّع عليهم بأن جَعَلوا أنداداً لمن يُمْتَنَعُ أن يكون له ندّ[1]. ولهذا قال مُوَحِّد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل[2]:

أَرَبّـــاً واحِـــداً أَمْ أَلْـــفُ رَبٍّ أَدِيـــنُ إذا تقسَّمـــتِ الأمـــورُ

تـــركْـــت الـــلاتَ والعـــزّى جميعـــاً كـــذلـــكَ يَفْعَـــلُ الـــرجُـــلُ البصِيـــرُ

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حالٌ من ضمير فلا تجعلوا، ومفعولُ تعلمون مطروحٌ، أي: وحالُكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأي، فلو تأملتم أدنى تأمل اضطر عقلكم إلى إثبات موجدٍ للممكنات منفردٍ بوجوب الذات متعالٍ عن مشابهة المخلوقات أو مَنْوِيٍّ وهو أنها لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله كقوله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾[3] وعلى هذا فالمقصود منه التوبيخ والتثريب، لا تقييد الحكم وقصره عليه، فإن العالِمَ والجاهل المتمكِّن من العلم سواء في التكليف.

واعلم أَن مضمون الآيتين هو الأمرُ بعبادة الله سبحانه وتعالى، والنهيُ عن الإشراك به تعالى، والإشارةُ إلى ما هو العلةُ والمقتضى. وبيانُه أنه رَتَّب الأمرَ بالعبادة على صفة الربوبية إشعاراً بأنها العلةُ لوجوبها، ثم بَيّن ربوبيتَه بأنه تعالى خالقُهم وخالقُ أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من المَقَلَّة والمَظَلَّة والمطاعِم والملابِس، فإن الثمرة أعمُّ من المطعوم، والرزقَ أعمُّ من المأكول والمشروب. ثم لما كانت هذه الأمور التي لا يقدر عليها غيره شاهدةً على وحدانيته تعالى رتب تعالى عليها النهيَ عن

---

(١) في الآية لفتات بيانية أوردها أبو السعود حيث جاء في تفسيره: أنه قيل: أنداداً ـ بلفظ الجمع ـ وذلك باعتبار الواقع فكانوا يعبدون أنداداً لا باعتبار أن النهي عن الجمع دون الإفراد وأوقع الاسم الجليل موقع الضمير فقال «الله» ولم يقل: فلا تجعلوا له وذلك لتعيين المعبود بالذات إثر تعيينه بالصفات وتعليلِ الحكم بوصف الألوهية التي عليها يدور أمر الوحدانية واستحالة الشركة والإيذانِ باستتباعها لسائر الصفات.
والفاء للإشعار بعلية ما قبلها من الصفات المجراة عليه تعالى للنهي أو الانتهاء أو لأن مآل النهي هو الأمر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها. . (أبو السعود ١/ ٦٢).

(٢) زيد بن عمرو بن نفيل: هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، أحد الحكماء، لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها، ورحل إلى الشام باحثاً عن عبادات أهلها، فلم تستمِلْه اليهودية ولا النصرانية، فعاد إلى مكة يعبد الله على دين إبراهيم وجاهر بعداء الأوثان، فتألب عليه جمع من قريش، فأخرجوه من مكة، فانصرف إلى حراء» وكان لا يدخل مكة إلاّ سراً.
رآه النبي ﷺ قبل النبوة وتوفي قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين. وله شعر قليل.
[الأعلام للزركلي (٣/ ٦٠)].

(٣) الروم: «٤٠».

الإشراك به، ولعله سبحانه أراد من الآية الأخيرة ـ مع ما دل عليه الظاهرُ وسيق فيه الكلام ـ الإشارةَ إلى تفصيل خلق الإنسان وما أفاض عليه من المعاني والصفات على طريقة التمثيل، فَمَثَّل البدنَ بالأرض، والنفسَ بالسماء، والعقلَ بالماء، وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصَّلة بواسطة استعمال العقل للحواس وازدواجَ القوى النفسانية والبدنية بالثمَرات المتولِّدة من ازدواج القِوى السماوية الفاعلة والأرضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار، فإن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حد مطلعاً.

(٢٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ لما قرَّر وَحدانيته تعالى وبيّن الطريق الموصل إلى العلم بها، ذكر عقيبه ما هو الحجة على نبوة محمد ﷺ، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذَّت فصاحةَ كلِّ مُنْطِق، وإفحامُهُ مَنْ طولب بمعارضته من مصاقعِ الخطباء من العرب العَرْباء مع كَثْرتهم وإفراطِهم في المضادة والمضارة، وتهالكهم على المعازَّة والمعارَّة، وعُرِف ما يَتَعرف به إعجازه ويُتَيقّن أنه من عند الله كما يدعيه. وإنما قال ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ لأن نزوله نَجْماً منجَّماً بحسب الوقائع على ما ترى عليه أهلِ الشعر والخطابة مما يُريبهم، كما حكى الله عنهم فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(١). فكان الواجبُ تحديهم على هذا الوجه إزاحةً للشبهة وإلزاماً للحجة. وأضافَ العبد إلى نفسه تعالى تنويهاً بذكره وتنبيهاً على أنه مختص به مُنْقادٌ لحُكْمِهِ تعالى. وقرىء عبادِنا: يريد محمداً ﷺ وأمته. والسورةُ: الطائفةُ من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات، وهي إن جُعِلت واوها أصلية منقولةٌ من سُورِ المدينة لأنها محيطة بطائفة من القرآن مُفرزَة محوزَة على حيالها أو محتوية على أنواعِ من العلم احتواءَ سور المدينة على ما فيها، أو من السورة التي هي الرتبة، قال النابغة:

ولـــرهْـــطِ حـــرابٍ وَقَـــدٌ سُـــورةٌ   فـــي المجْـــدِ ليـــسَ غـــرابُهـــا بمطَـــارِ

لأن السُورَ كالمنازل والمراتب يترقى فيها القارىء، أَوَلَها مراتب في الطول والقِصَر والفَضْل والشرف وثواب القراءة. وإن جعلت مُبْدَلة من الهمزة فمن السورة التي هي البقيّة والقطعةُ من الشيء. والحكمةُ في تقطيعِ القرآن سوراً: إفرادُ الأنواع، وتلاحق الأشكال، وتجاوب النظم، وتنشيط القارىء، وتسهيل الحفظ، والترغيب فيه، فإنه إذا ختَمَ سورةً نَفَّسَ ذلك عنه، كالمسافر إذا عَلِم أنه قطع ميلاً أو طوى بريداً، والحافظُ متى حذِقَها اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها، فَعَظُم ذلك عنده وابتهج به إلى غير ذلك من الفوائد(٢).

﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ صفةُ سورة أي: بسورة كائنة من مثله، والضميرُ لما نزلنا، ومِنْ للتبعيض أو للتبيين. وزائدة عند الأخفش أي بسورة مماثلة للقرآن العظيم في البلاغة وحُسْن النظم. أو لعبدنا، ومن

---

(١) الفرقان: «٣٢».

(٢) صدّر الآية بقوله: «وإن كنتم» ولم يقل: وإن ارتبتم... للمبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه، حسبما نطق به في قوله تعالى: «لا ريب فيه» ـ البقرة «٢» ـ وللإشعار بأن ذلك الريب إن وقع فمن جهتهم لا من جهته العالية (أبو السعود ١/ ٦٣).... وفي ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وانقياده لأوامره تعالى مالا يخفى. (أبو السعود ١/ ٦٤).

للابتداء أي: بسورة كائنة ممن هو على حاله عليه الصلاة والسلام من كونه بشراً أمياً لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم. أو صلةُ فائتوا، والضمير للعبد صلى الله عليه وسلم، والردُّ إلى المُنَزَّلِ أَوْجَهُ لأنه المطابق لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[1] ولسائر آيات التحدي، ولأن الكلامَ فيه لا في المنزَّلِ عليه فَحَقُّه أن لا ينفكَ عنه ليتَّسق الترتيبُ والنَّظْم، ولأن مخاطبة الجمِّ الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحدٌ من أبناء جلدتهم أبلغُ في التحدي من أن يقال لهم: ليأت بنحو ما أوتي به هذا آخَرُ مِثْلُهُ، ولأنه معجز في نفسه لا بالنسبة إليه لقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾[2]، ولأن رده إلى عبدنا يوهم إمكانَ صدوره ممن لم يكن على صفته، ولا يلائمه قوله تعالى.

﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه أمر بأن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم. والشهداءُ جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر، أو الإمام. وكأنه سمي به لأنه يَحْضُر النوادي وتُبْرَمُ بمَحْضَرِه الأمور، إذ التركيب للحضور، إما بالذات أو بالتصور، ومنه قيل: للمقتول في سبيل الله شهيد لأنه حضر ما كان يرجوه، أو الملائكة حضروه. ومعنى ﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء ومنه تدوين الكتب، لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا أي: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للرُّتَب فقيل: زيد دون عمرو أي: في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتسع فيه فاستُعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي أمر إلى آخر، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. قال أمية[4]:

يا نفسُ مالَكِ دونَ اللهِ منْ واقِ

أي إذا تجاوزتِ وقاية الله فلا يقيك غيرُه، و﴿مِّن﴾ متعلقةٌ بادعوا. والمعنى وادعوا للمعارضة من حضركم، أو رجوتم معونتَه من إِنْسكم وجنِّكم وآلهتكم غيرَ الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر على أن يأتيَ بمثله إلا الله. أو: وادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله، ولا تستشهدوا بالله فإنه من دَيْدَن المبهوت العاجز عن إقامة الحجة. أو بشهدائكم أي الذين اتخذتموهم من دون الله أولياءَ وآلهةً، وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة. أو الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى على زعمكم من قول الأعشى[5]:

---

(١) البقرة: «٢٣».

(٢) الإسراء: «٨٨».

(٣) آل عمران: «٢٨».

(٤) أميّة: واسمه: عبدالله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، وقد صدقه النبي ﷺ في بعض شعره.
وقال ابن قتيبة في طبقات الشعراء ـ ٣٢٩ ـ وكان أمية يُخبر أن نبياً يخرُج قد أظلّ زمانه، وكان يؤمل أن يكون ذلك النبيّ فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً.
ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً في التاسعة وقيل: إنه مات سنة تسع من الهجرة في الطائف كافراً قبل أن يسلم الثقفيون. [«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٣)].

(٥) الأعشى هو: ميمون بن قيس بن جندل. من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، كان=

ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ
مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ
أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا

تريكَ القَذَى مِنْ دونِها وهي دُونَهُ

ليعينوكم وفي أمْرِهم أن يستظْهروا بالجماد في معارضة القرآن العزيز غايةُ التبكيت والتهكمُ بهم. وقيل: من دون الله أي من دون أوليائه، يعني فصحاء العرب ووجوه المشاهد ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثلُه، فإنّ العاقل لا يرضى لنفسه أن يشهد بصحة ما اتضح فسادُه وبان اختِلالُه.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه من كلام البشر، وجوابُه محذوف دل عليه ما قبله. والصدقُ: الإخبار المطابِقُ، وقيل: مع اعتقاد المُخْبر أنه كذلك عن دَلالةٍ أو أمارة، لأنه تعالى كذَّب المنافقين في قولهم: إنك لرسول الله، لما لم يعتقدوا مطابقَتَه، ورُدَّ بصَرْف التكذيب إلى قولهم نشهد، لأن الشهادة إخبارٌ عما عَلِمَهُ وهم ما كانوا عالمين به.

(٢٤) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ لما بين لهم ما يتعرفون به أمرَ الرسول ﷺ وما جاء به وميز لهم الحق عن الباطل، رتب عليه ما هو كالفذْلكة له(١)، وهو أنكم إذا اجتهدتم في معارضته وعجَزْتم جميعاً عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، ظهر أنه معجز والتصديق به واجب، فآمنوا به واتقوا العذاب المُعَدَّ لمن كذَّب، فعبَّر عن الإتيان المكيَّف بالفعل الذي يعم الإتيان وغيره إيجازاً، ونزَّل لازمَ الجزاءِ منزلَته على سبيل الكناية تقريراً للمُكنىٰ عنه وتهويلاً لشأن العناد وتصريحاً بالوعيد مع الإيجاز، وصدَّر الشرطية بإنْ التي للشكِّ والحالُ يقتضي إذا الذي للوجوب، فإن القائلَ سبحانه وتعالى لم يكن شاكاً في عجزهم، ولذلك نفىٰ إتيانهم مُعْتَرَضاً بين الشرط والجزاء تهكماً بهم وخطاباً معهم على حَسَب ظَنهم، فإن العجز قبل التأمل لم يكن مُحَقَّقاً عندهم. وتفعلوا: جَزْم بِلَمْ لأنها واجبةُ الإعمال مختصةٌ بالمضارع متصلة بالمعمول، ولأنها لما صيَّرتْه ماضياً صارت

= كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، وليس أحد ممن عرف قبله أكثر شعراً منه وكان يغني بشعره فسمي «صنَّاجة العرب»، قال البغدادي كان يفد على الملوك ولا سيما الملوك الفرس ولذلك كثرت الألفاظ الفارسية في شعره، عاش عمراً طويلاً وأدرك الإسلام ولم يسلم ولقب بالأعشى لضعف بصره وعَمِيَ في أواخر عمره. مولده ووفاته في قرية «منفوحة» باليمامة قرب مدينة «الرياض» وفيها داره وبها قبره، أخباره كثيرة توفي عام سبعة هجرية.
[الأعلام للزركلي (٧/ ٣٤١)].

(١) الفذْلكة تعني التعليل والاستنتاج، بمعنى أنه إذا ثبت عجزكم فذلك لأنه معجز فآمنوا به.

كالجزء منه، وحرفُ الشرط كالداخل على المجموع فكأنه قال: فإن تَرَكْتُم الفعل، ولذلك ساغَ اجتماعُهُما. ولَنْ كَلاَ في نفي المستقبل غيرَ أنه أبلغُ وهو حرف مقتَضَبٌ عند سيبويه والخليل في إحدى الروايتين عنه، وفي الرواية الأخرى أصلُه لا أنْ، وعند الفرّاء[١] لا فأبدلت ألِفُها نوناً. والوَقود ـ بالفتح ـ ما توقَد به النار، وبالضمِّ المصْدَر وقد جاء المصدر بالفتحِ قال سيبويهِ: وسمعنا من يقول وَقَدْت النار وقوداً عالياً، واسمٌ بالضمِّ ولعله مصدر سُمِّي به كما قيل: فلان فَخَر قومه وزيَّن بلده، وقد قرىء به والظاهر أن المراد به الاسم، وإن أريد به المصدر فعلى حذف مضاف أي: وقودها احتراق الناس. والحجارة: وهي جمع حجر، كَجِمَالة جمع جمل وهو قليل غير منقاس، والمراد بها الأصنام التي نَحَتُوها وقرنوا بها أنفسهم وعبدوها طمعاً في شفاعتها والانتفاع بها واستدفاع المَضَارِّ لمكانتهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٢]. عُذِّبوا بما هو منشأ جُرْمهم كما عذب الكافرون بما كنزوه، أو بنقيض ما كانوا يتوقعون زيادةً في تحسرهم. وقيل: الذهب والفضة التي كانوا يكنزونها ويغترون بها، وعلى هذا لم يكن لتخصيص إعداد هذا النوع من العذاب بالكفار وجهٌ، وقيل: حجارة الكبريت وهو تخصيص بغير دليل وإبطالٌ للمقصود، إذ الغرض تهويل شأنها وتفاقُمُ لَهَبِها بحيث تتقد بما لا يتقد به غيرها، والكبريت تتقد به كل نار وإن ضَعُفت، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلعله عنىٰ به أن الأحجار كلها لتلك النار كحجارة الكبريت لسائر النيران. ولما كانت الآية مدنيةً نزلت بعد ما نزل بمكة قوله تعالى في سورة التحريم ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[٣] وسمعوه، صح تعريفُ النار ووقوعُ الجملة صلةً بإزائها، فإنها يجب أن تكون قصةً معلومة.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هيئت لهم وجعلت عِدَّة لعذابهم. وقرىء: أعتدت من العتاد بمعنى العدة، والجملة استئناف، أو حال بإضمار قد من النار لا الضمير الذي في وقودها، وإن جعلته مصدراً للفصل بينهما بالخبر. وفي الآيتين ما يدل على النبوة من وجوه:

الأول: ما فيهما من التحدي والتحريض على الجدِّ وبذل الوُسع في المعارضة بالتقريع والتهديد وتعليقِ الوعيد على عدم الإتيان بما يعارضُ أقصرَ سورة من سور القرآن، ثم إنهم مع كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوْا لمعارضته، التجؤوا إلى جَلاء الوطن وبَذْل المُهَج.

والثاني: أنهما يتضمنان الإخبار عن الغيب على ما هو به، فإنهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة سيما والطاعنون فيه أكثر من الذابِّين عنه في كل عصر.

---

(١) الفرّاء هو يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، ولد بالكوفة (١٤٤)هـ وتوفي في طريق مكة عام (٢٠٧)هـ، وكان مع تقدمه في اللغة فقيهاً متكلماً . ويميل للاعتزال وله تفسير «معاني القرآن» (الأعلام ٨/ ١٤٦).

(٢) الأنبياء: «٩٨».

(٣) التحريم: «٦».

والثالث: أنه صلى الله عليه وسلم لو شك في أمره لما دعاهم إلى المعارضة بهذه المبالغة، مخافةَ أن يُعَارَضَ فتُدْحَضَ حجتُهُ. وقوله تعالى ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ دل على أن النار مخلوقة مُعَدَّةٌ الآن لهم(١).

(٢٥) ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾(٢) عطف على الجملة السابقة، والمقصودُ عطفُ حالِ من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه، على حال من كفر به وكيفية عقابه، على ما جرت به العادة الإلهية من أن يُشْفَعَ الترغيبُ بالترهيب، تنشيطاً لاكتساب ما ينجي وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي، لا عطف الفعل نفسه حتى يجب أن يطلب له ما يشاكله من أمر أو نهي فيعطف عليه أو على فاتقوا، لأنهم إذا لم يأتوا بما يعارضه بعد التحدي ظهر إعجازُه، وإذا ظهر ذلك فمن كفر به استوجب العقابَ، ومن آمن به استحق الثوابَ، وذلك يستدعي أن يخوِّفَ هؤلاء ويبشرَ هؤلاء، وإنما أُمِرَ الرسولُ ﷺ، أو عالمُ كل عصر، أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم. ولم يخاطبْهم بالبشارة كما خاطب الكفرة، تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهنأوا بما أعد لهم.

وقرىء وبُشِّرَ ـ على البناء للمفعول ـ عطفاً على أُعدَّت فيكونُ استئنافاً. والبشارة: الخبرُ السارُّ فإنه يُظْهِر أثرَ السرور في البَشَرَة، ولذلك قال الفقهاء البِشارةُ: هي الخبر الأول، حتى لو قال الرجل لعبيده: من بشرني بقدوم ولدي فهو حر، فأخبروه فرادى عُتِقَ أَوَّلُهُم، ولو قال: من أخبرني، عُتقوا جميعاً، وأما قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣) فعلى التهكم أو على طريقة قوله: تَحِيَّةُ بينِهمْ ضَرْبٌ وَجيعُ.

والصالحاتُ جمعُ صالحة وهي من الصفات الغالبة التي تجري مجرىٰ الأسماء كالحسنة، قال الحطيئة(٤):

كيْـفَ الهِجَـاءُ ومـا تَنْفَـكُّ صـالحـةٌ مِـنْ آل لامٍ بظُهْـرِ الغَيْـبِ تَـأْتينـي

وهي من الأعمال ما سوَّغه الشرع وحسنه، وتأنيثها على تأويل الخِصْلة أو الخُلَّة، واللام فيها للجنس، وعطفُ العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليهما إشعاراً بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموعُ الأمرين والجمعُ بين الوصفين، فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق أُسٌّ، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غَنَاءَ بأسٍّ لا بِناءَ عليه، ولذلك قلما ذُكِرا منفردين. وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان، إذ الأصل أن الشيء لا يُعْطَفُ على نفسه ولا على ما هو داخل فيه.

---

(١) أظهر اسم الكافرين ولم يقل: أعدت لمن لم يؤمن ولم يتق النار أو أعدت لهم لأجل أن يذمهم ويعلل الحكم بكفرهم (أبو السعود ١/ ٦٨).

(٢) لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين للجمع بين الترغيب والترهيب وتنشيط المؤمنين للطاعة (فتح القدير ١/ ٥٤).

(٣) آل عمران: «٢١».

(٤) الحطيئة: هو جَرْوَل بن أوس وكنيتهُ أبو مُليكة واختلف في تلقيبه بالحطيئة فقيل لقب بذلك لقصره، وهو أحد فحول الشعراء، مُتصرِّف في فنون الشعر: من المديح، والهجاء، والفخر، وكان سفيهاً شرِّيراً، ينتسب إلى القبائل وكان إذا غضب على قبيلة انتمى إلى أخرى.
[خزانة الأدب للبغدادي (٢/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧)].

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ منصوبٌ بنزع الخافض وإفضاءُ الفعل إليه، أو مجرور بإضمارِه مثل: اللهِ لأفعلنَّ. والجَنَّةُ: المَرَّةُ من الجَنِّ وهو مصدر جَنَّهُ إذا ستره، ومدار التركيب على الستر، سمي بها الشجرُ المظلِّلُ لالتفافِ أغصانه للمبالغةِ كأنه يَسْتُر ما تحته سَتْرة واحدة قال زهير[١]:

كــأنَّ عَينــي فــي غَــربــي مقتلَــة		مــن النــواضِــحِ تَسْقــي جَنَّــةً سُحُقــا

أي نخلاً طوالاً، ثم البستانُ لما فيه من الأشجار المتكاثفة المظللة، ثم دارُ الثواب لما فيها من الجنان، وقيل: سميت بذلك لأنه ستر في الدنيا ما أُعِدَّ فيها للبشر من أفنان النعم كما قال سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢] وجمعُها وتنكيرُها لأنَّ الجنان على ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما سبع: جنةُ الفردوس، وجنة عدْن، وجنة النعيم، ودارُ الخلد، وجنةُ المأوى، ودارُ السلام، وَعِلِّيُون، وفي كل واحدة منها مراتبٌ ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمَّال. واللامُ في ﴿لَهُمْ﴾ تدل على استحقاقهم إياها، لأجل ما ترتب عليه من الإيمان والعمل الصالح، لا لذاته فإنه لا يكافىءُ النعمَ السابقة فضلاً عن أن يقتضيَ ثواباً وجزاء فيما يُسْتَقْبل، بل بجعل الشارع ومقتضى وعدِه تعالى، لا علىٰ الإطلاق، بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموتَ وهو مؤمنٌ لقوله تعالى ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[٣] وقولِهِ تعالى لنبيه ﷺ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٤] وأشباهِ ذلك. ولعله سبحانه وتعالى لم يقيِّدْ ههنا استغناءً بها[٥].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت أشجارها، كما تراها جاريةً تحت الأشجار النابتةِ على شواطئها، وعن مسروق[٦] أنهارُ الجنة تجري في غير أخدود. واللامُ في الأنهار للجنس كما في قولك لفلان: بستانٌ في الماء الجاري، أو للعهد، والمعهود: هي الأنهار المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[٧] الآية. والنَّهْرُ ـ بالفتح والسكون ـ المجرىٰ الواسع فوق الجدْوَل ودون البحر كالنيل والفرات، والتركيبُ للسعَة، والمرادُ بها ماؤها على الإضمار أو المجاز أو المجاري أنفسها.

---

(١) زهير بن أبي سلمى: تقدم ترجمتهُ في سورة البقرة الآية (١٨).
(٢) السجدة: «١٧».
(٣) البقرة: «٢١٧».
(٤) الزمر: «٦٥».
(٥) أي لم يقيد البشارة بالجنة لمن آمن واستمر إيمانه حتى وفاته للاستغناء عنها.
(٦) مسروق: هو أبو عائشة، مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي العابد، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبيّ بن كعب، وغيرهم. وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته، وكان شُريح القاضي يستشيرهُ في معضلات المسائل. وقال علي بن المديني ما أقدّم على مسروق من أصحاب عبدالله أحداً.
وقال ابن معين: ثقة، لا يسأل عن مثله. وله أحاديث صالحة وقد أخرج له الستة. هذا وقد روى عن شعبة عن أبي إسحاق أنه قال: حج مسروق فلم ينم إلاّ ساجداً. وكانت وفاته سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأشهر. [تهذيب التهذيب (١٠/ ١٠٠ رقم ٢٠٦)].
(٧) محمد: «١٥».

وإسنادُ الجريِ إليها مجازٌ كما في قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[(١)] الآية.

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ صفة ثانية لجنات، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة. كأنه لما قيل: إن لهم جناتٍ. وقع في خَلَد السامع أثمارها مثْل ثمار الدنيا، أو أجناسٍ أُخَرَ فأزيح بذلك. و﴿كُلَّمَا﴾ نصب على الظرف، و﴿رِّزْقًا﴾ مفعول به، ومِنْ الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال، وأصل الكلام ومعناه: كلَّ حين رزِقوا مرزوقاً مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة، قيَّدَ الرزق بكونه مبتدَأ من الجنات، وابتداؤه منها بابتدائه من ثَمَرة، فصاحبُ الحال الأولى رزقاً وصاحب الحال الثانية ضميرُه المستكنّ في الحال، ويحتمل أن يكون من ثمرة بياناً تقدم كما في قولك: رأيت منك أسداً، وهذا إشارة إلى نوعِ ما رزقوا كقولك مشيراً إلى نهر جار: هذا الماء لا ينقطع، فإنك لا تعني به العَيْنَ المشاهدَةَ منه بل النوع المعلوم المستمر بتعاقب جريانه وإن كانت الإشارة إلى عينه، فالمعنى هذا مِثْلُ الذي رزقنا، ولكن لما استَحْكَم الشبهُ بينهما جُعِل ذاتَه ذاتَه كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ هذا في الدنيا، جَعَلَ ثمرَ الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس إليه أول ما يُرىٰ، فإن الطباع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غيره، ويتبين لها مزيته وكُنْهَ النعمة فيه، إذ لو كان جنساً لم يُعْهَد ظنَّ أنه لا يكون إلا كذلك، أو في الجنة لأن طعامها متشابهٌ في الصورة، كما حكىٰ ابن كثير[(٢)] عن الحسن رضي الله عنهما: أن أحدهم يؤتى بالصَّحْفَة فيأكلُ منها، ثم يؤتىٰ بأخرى فيراها مثلَ الأولى فيقول ذلك، فيقول المَلَكُ: كُلْ فاللوْن واحد والطعم مختلف[(٣)]. أو كما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «والذي نفس محمد بيده، إن الرجل من أهل الجنة ليتناولُ الثمرة ليأكلَها فما هي بواصلة إلى فيه، حتى يُبْدِل الله تعالى مكانها مثلها»[(٤)]. فلعلهم إذ رأوْها على الهيئة الأولى قالوا

---

(١) الزلزلة: «٢».

(٢) ابن كثير: هو يحيى بن أبي كثير الطائي، ثقة ثبت، من الطبقة الخامسة، توفي (١٣٢هـ) (انظر التقريب ٢/ ٣٥٦).

(٣) أخرجه ابن جرير (١/ ١٧١) عن يحيى بن أبي كثير. وفيه شيخ من المصيصة-لم يسمَّ وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٩٦).
● ويحيى بن أبي كثير الطائي، أو نصر اليمامي، ثقة ثبتٌ، من الطبقة الخامسة توفي سنة (١٣٢هـ) [التقريب (٢/ ٣٥٦)].

(٤) أخرج الطبراني في الكبير (٢/ ١٠٢ رقم ١٤٤٩) والبزار (٤/ ٢٠٠) رقم (٣٥٣٠) كلاهما من طريق ريحان بن سعد، عن عباد بن منصور، عن أيوب عن أبي قلابة، عن أبي أسماء عن ثوبان قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ الرجُل إذا نزع من الجنة عادتْ مكانها أخرى» وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤١٤) وقال: رجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات قلت: وفيه عباد بن منصور: صدوق يدلس وتغير بآخره [التقريب ١/ ٣٩٣]، وأخرجه البزار (٤/ ٢٠٠ رقم ٣٥٣٠) من طريق إسحاق بن إدريس، ثنا أبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي أسماء عن ثوبان عن النبي ﷺ قال بنحوه وفيه إسحاق بن إدريس: ضعيف [انظر المجروحين (١/ ١٣٥) والجرح والتعديل (٢/ ٢١٣)].
والخلاصة أن الأثر يرتقي إلى درجة الحسن لغيره بمتابعة أحد الوجهين للآخر.

ذلك، والأول أظهر لمحافظته على عموم ﴿كُلَّمَا﴾ فإنه يدل على ترديدهم هذا القول كل مرة رزقوا، والداعي لهم إلى ذلك فَرْطُ استغرابهم وتبجُّحهم بما وَجَدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابُهِ البليغِ في الصورة.

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ اعتراض يقرر ذلك، والضميرُ على الأول راجع إلى ما رزقوا في الدارين فإنه مدلول عليه بقوله عز من قائل ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ ونظيره قوله عز وجل ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾(١) أي بجنسي الغني والفقير، وعلى الثاني إلى الرزق. فإن قيل: التشابهُ هو التماثل في الصفة، وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس في الجنة من أطعمة إلا الأسماء(٢). قلت: التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناطُ الاسم دون المقدار والطعم، وهو كاف في إطلاق التشابه. هذا: وإن للآية الكريمة مَحْمَلاً آخر، وهو أن مستلذاتِ أهل الجنة في مقابلة ما رُزقوا في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها، فيُحتمل أن يكون المراد من ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ أنه ثوابه، ومن تشابُهِهما تماثُلُهما في الشرف والمزية وعلوُّ الطبقة، فيكونُ هذا في الوعد نظير قوله ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣) في الوعيد.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يُستَقذر من النساء ويُذمُّ من أحوالهن كالحيض والدَّرن ودَنَسِ الطبْع وسوء الخُلُق، فإن التطهيرَ يُستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال. وقرىء: مُطَهَّراتٌ وهما لغتان فصيحتان يقال: النساءُ فعلت وفعلن، وهُنّ فاعلةٌ وفواعل، قال:

وإذَا العَـذَارى بـالـدُّخَـانِ تقنَّعَـتْ   واسْتَعجلـتْ نَصْـبَ القُـدورِ فملَّـتِ

فالجمعُ على اللفظ، والإفرادُ على تأويل الجماعة، ومُطَّهِّرَة ـ بتشديد الطاء وكسر الهاء ـ بمعنى مُتَطهِّرة، ومُطَهَّرة أبلغ من طاهِرَةٍ ومُطَهَّرة للإشعار بأن مطهِّراً طهَّرهن وليس هو إلا الله عز وجل. والزوجُ يقال للذكر والأنثى، وهو في الأصل لما له قرين من جنسه كزوج الخُفِّ، فإن قيل: فائدةُ المطعوم هو التغذي ودفع ضرر الجوع، وفائدةُ المنكوح التوالدُ وحفظ النوع، وهي مستغنى عنها في الجنة. قلتُ: مطاعم الجنة ومناكحُها وسائر أحوالها إنما تشارِكُ نظائرها الدنيوية في بعض الصفات والاعتبارات، وتسمى بأسمائها على سبيل الاستعارة والتمثيل، ولا تشاركُها في تمام حقيقتها حتى تستلزِمَ جميع ما يلزمُها وتفيدَ عينَ فائدها.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون. والخُلْد والخلود في الأصل الثباتُ المديدُ دام أَمْ لَمْ يَدُم، ولذلك قيل للأثافي والأحجار خوالِدٌ، وللجزء الذي يبقى من الإنسان على حاله ما دام حياً خُلْدٌ، ولو كان

---

(١) النساء: «١٣٥».

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» رقم (٣) و(٨) وابن جرير في التفسير (١/ ١٧٤) ووكيع في «الزهد» رقم (١) ومسدد في مسنده، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (١/ ٩٦) ـ وأورد الأثر الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٥٣ رقم ٥٤١٠) وعزاه للضياء في المختارة، وأبي نعيم وصححهُ.

(٣) العنكبوت: «٥٥».

وضعُهُ للدوامِ كانَ التقييدُ بالتأبيدِ في قوله تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[1] لغواً، واستعمالُهُ حيث لا دوامَ كقولهم وَقْفٌ مُخَلَّد يوجِبُ اشتراكاً أوْ مجازاً. والأصلُ ينفيهما بخلاف ما لو وُضِع للأعم منه فاستُعمل فيه بذلك الاعتبار، كإطلاق الجسم على الإنسان مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[2] لكنَّ المرادَ به ههنا الدوام عند الجمهور لما يشهد له من الآيات والسُّنن.

فإن قيل: الأبدانُ مركبة من أجزاء متضادَّةِ الكيفيةِ، معرَّضةٌ للاستحلالاتِ المؤديةِ إلى الانفكاك والانحلال فكيف يُعْقَل خلودُها في الجنان؟ قلت: إنه تعالى يُعيدُها بحيثُ لا يَعْتورها الاستحالةُ بأن يجعلَ أجزاءها مَثَلاً متقاومةً في الكيفية، متساويةً في القوة لا يقوىٰ شيء منها على إحالة الآخر، متعانقةً متلازمةً لا ينفك بعضُها عن بعض كما يُشاهَدُ في بعض المعادن.

هذا وإنّ قياس ذلك العالَمِ وأحوالَه على ما نجدُه ونشاهدُه من نقصِ العقل وضَعْف البصيرة. واعلم أنه لما كان معظمُ اللذات الحسية مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكحِ ـ على ما دل عليه الاستقراءُ ـ كان ملاكُ ذلك كله الدوامَ والثباتَ، فإن كل نعمة جليلةٍ إذا قارنها خوفُ الزوالِ كانت منغَّصة غير صافية من شوائب الألم، بشرَ المؤمنين بها ومثلَ ما أعد لهم في الآخرة بأبهى ما يُستَلَذُّ به منها، وأزالَ عنهم خوفَ الفوات بوعد الخلود ليدلَّ على كمالهم في التنعم والسرور.

(٢٦) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ لما كانت الآيات السابقةُ متضمنةً لأنواعِ من التمثيل، عقَّبَ ذلك ببيان حُسْنه وما هو الحق له والشرط فيه، وهو أن يكون على وِفق الممثَّل له من الجهة التي تعلَّق بها التمثيلُ في العِظَم والصغر والخسة والشرف دون الممثَّل، فإن التمثيل إنما يُصار إليه لكشفِ المعنى الممثَّل له ورفعِ الحجاب عنه وإبرازِهِ في صورة المشاهَدِ المحسوس، ليساعدَ فيه الوهْمُ العقلَ ويصالِحَه عليه، فإن المعنى الصِّرْف إنما يدركُه العقلُ مع منازَعَةٍ من الوهم، لأن مِنْ طبعِهِ الميلَ إلى الحس وحبَّ المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثالُ في الكتب الإلهية وفَشَت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء، فيُمثَّلُ الحقيرُ بالحقير كما يمثَّلُ العظيمُ بالعظيم، وإن كان المِثْلُ أعظمَ من كل عظيم، كما مُثّل في الإنجيل غلُّ الصدور بالنُّخالة، والقلوبُ القاسية بالحصاة، ومخاطبةُ السفهاء بإثارة الزنابير. وجاء في كلام العرب: أسْمَعَ من قِراد وأطْيَشَ من فراشة وأعزَّ من مُخِّ البَعُوض. لا ما قالت الجَهَلَةُ من الكفار: لِمَا مثل الله حالَ المنافقين بحال المستوقِدين؟ وأصحابَ الصيِّب وعبادةَ الأصنام في الوَهْن والضَّعْف ببيت العنكبوت؟ وجَعَلَها أقلَّ من الذباب وأخسَّ قدراً منه؟ [ف] اللهُ سبحانه وتعالى أعلىٰ وأجلُّ من أن يَضْرب الأمثالَ ويذكر الذباب والعنكبوت. وأيضاً: لَمَّا أرشدهم إلى ما يدل على أن المتحدّىٰ به وحيٌ مُنَزَّلٌ ورتب عليه وعيد مَنْ كفر به ووعد من آمن به ـ بعد ظهور أمره ـ شَرَعَ في جوابِ ما طَعَنُوا به فيه فقال تعالى ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ أي لا يترك ضرب المَثَل بالبعوضة ترك من يستحْيِي أن يُمَثِّل بها لحقارتها. والحياءُ: انقباضُ النفس عن القبيح مخافةَ الذم، وهو الوَسَط بين الوقاحةِ: التي هي الجَراءةُ علَى القبائح وعدمُ المبالاة بها، والخجلِ: الذي هو انحصارُ النفس عن

(١) النساء: «١٦٩».
(٢) الأنبياء: «٣٤».

الفعل مطلقاً. واشتقاقُهُ من الحياة، فإنه انكسارٌ يعتري القوة الحيوانية فيردُّها عن أفعالها، فقيل: حَيِيَ الرجلُ، كما يقال نَسِيَ وحَشِيَ إذا اعْتَلت نَسَاهُ وحَشَاهُ. وإذا وصف به الباري تعالى كما جاء في الحديث «إن الله يستحْيِي من ذي الشيْبة المسلم أن يعذبَه»(١) «إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع العبدُ يديه أن يردَّهما صفراً حتى يضعَ فيهما خيراً»(٢) فالمرادُ به التركُ اللازمُ ....

(١) وهو حديث ضعيف جداً:
أخرج ابن حبان في «المجروحين»(١/١٦٨) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ، يعني: عن الله عز وجل: «إني لأستحي من عبدي وأَمَتي تشيبَ رأسَ أَمتي وعبدي في الإسلام، ثم أعذبهما في النار بعد ذلك، ولأنا أعظم عفواً من أن أستر على عبدي، ثم أفضحه، ولا أزال أغفر لعبدي ما استغفرني».
وأخرج ابن حبان في «المجروحين» (٢/٢٦٧) عن أنس بن مالك، قال قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل عن الله تبارك وتعالى أنه قال جل وعلا: وعزّتي وجلالي، ووحدانيتي وارتفاع مكاني وفاقةِ خَلْقي إليَّ واستوائي على عرشي إني لأستحيي من عبدي وأَمَتي يشيبان في الإسلام ثم أعذبهما... فرأيتُ رسول الله ﷺ يبكي عند ذلك فقلت: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: بكيت على من يستحي الله منه ولا يستحي من الله».
قال ابن حبان: باطل لا أصل له، وسويد بن عبدالعزيز ضعفه ابن معين، ونوح بن ذكوان منكر الحديث، وأيوب بن ذكوان لا يتابع على حديثه. ومحمد بن عبدالله الأنصاري، يقال له ابن زياد يروي عن الثقات ماليس من حديثهم.
وتعقبه السيوطي في «اللآلىء المصنوعة» (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤): بقوله: الحديث الأول: أخرجه العقيلي، والحديث الثاني أخرجه البيهقي في الزهد ثم قال: وقد روى من غير هذا الوجه بغير هذا اللفظ، بسند أصلح من هذا، وللحديث طرق أخرى عند ابن النجار في تاريخه، وأبي الشيخ وابن أبي الفرات في جزئه، والشيرازي في الألقاب وكلها ضعيفة وفي بعضها من أُتهم بالوضع.
وجاء من حديث جرير أخرجه الخطيب بسند ضعيف.
ومن حديث أبي هريرة بمعناه أخرجه الديلمي.
ومن حديث حذيفة بن اليمان، وعبدالله بن عمر، أخرجهما زاهر بن طاهر الشحامي في الإلهيات.
ومن حديث سلمان أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العمر.
والخلاصة: أن الحديث ضعيف جداً.
[أُنظر «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)].

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داوود (٢/ ١٦٥ رقم ١٤٨٨) والترمذي (٥/٥٥٦ ـ ٥٥٧ رقم ٣٥٥٦) والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٦) وابن ماجة (٢/ ١٢٧١ رقم ٣٨٦٥) وأحمد في المسند (٥/ ٤٣٨) وابن حبان في الإحسان (٢/ ١٧٩ رقم ٨٧٣). كلهم من طريق جعفر بن ميمون صاحب الأنماط عن أبي عثمان النهدي عن سلمان مرفوعاً.
وجعفر بن ميمون صدوق يخطىء ـ التقريب ـ (١/ ١٣٣).
لكن تابعه سليمان التيمي بهذا الإسناد عند الحاكم (١/ ٥٣٥) وابن حبان في الإحسان (٢/ ١٢٠ رقم ٨٧٧).
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وكذا صححهُ الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٨) وقد روى الحديث موقوفاً: أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٨) والحاكم (١/ ٤٩٧) من طريق سليمان التيمي، ووكيع في زهده (رقم ٥٠٤) وعنه هنَّاد في زهده رقم (١٣٦١) من طريق يزيد بن أبي صالح. كلهم عن سلمان موقوفاً عليه. وله شواهد:
١ ـ من حديث أنس أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨) وصححه، وتعقبه الذهبي، فقال: عامر بن يساف ذو =

للانقباض[(١)]، كما أن المرادَ من رحمتِه وغضبِه إصابةُ المعروفِ والمكروهِ اللازمَيْن لمعنييهما، ونظيرُه قول من يَصِف إبلاً:

إذا ما اسْتَحيْنَ الماءَ يعْرِضُ نَفْسَهُ كرَعْنَ بسَبْتٍ في إِناءٍ من الوَرْدِ

وإنما عُدِل به عن الترك لما فيه من التمثيل والمبالغة، وتحتملُ الآيةُ خاصةً أن يكون مجيئُه على المقابلةِ لِمَا وَقَعَ في كلام الكفرة. وضربُ المَثَل اعتمالُه، من ضربِ الخاتَم، وأصلُه وَقْعُ شيء على آخر. وأَنْ بِصِلَتِها مخفوضُ المحَلِّ عند الخليل بإضمار مِنْ، منصوبٌ بإفضاء الفِعْل إليه بعد حذفها عند سيبويه. وما إبهاميةٌ تزيدُ النكرةَ إبهاماً وشَيَاعاً وتسدُّ عنها طرقَ التقييد، كقولك أعطني كتاباً ما، أيْ: أيَّ كتابٍ كان. أو مزيدةٌ للتأكيدِ كالتي في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[(٢)] ولا نعْني بالمزيد اللغوَ الضائعَ، فإنّ القرآن كلَّه هدًى وبيانٌ، بل ما لم يوضعْ لمعنىً يُراد مِنْه، وإنما وضعت لأن تُذْكَرَ مع غيرها فتفيدَ له وَثَاقةً وقوة، وهو زيادةٌ في الهدَىٰ غيرُ قادحٍ فيه. وبعوضةً عطفُ بيانٍ لمَثَلاً أو مفعول ليضرب، ومَثَلاً حالٌ تقدمت عليه لأنه نكرة، أو هما مفعولاه لتضمُّنه معنىٰ الجَعْل. وقرئت بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وعلى هذا يَحْتمل ﴿ مَّا ﴾ وجوهاً أخر: أن تكون موصولةً حُذِفَ صدرُ صِلَتِها كما حذف في قوله ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾[(٣)] وموصوفةً بصفةٍ كذلك ومحلُّها النصب بالبدلِيَّة على الوجهين، واستفهاميةً هي المبتدأُ، كأنه لما رد استبعادهم ضرب الله الأمثال، قال بعده:

= مناكير. [انظر الكامل لابن عدي (٥/ ١٧٣٩)] والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٢).
وحديث أنس أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣١) من طريق أبان عنه، وأبان كذاب.
٢ ـ من حديث جابر: أخرجه أبو يعلى في المسند (٣/ ٣٩١ رقم ١٠٠/ ١٨٦٧) وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وهو ضعيف. وذكر الهيثمي الحديث في «المجمع» (١٠/ ١٤٩) وقال «رواة أبو يعلى، والطبراني في الأوسط وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وقد وثق على ضعفه، وبقية رجالهما رجال الصحيح».
والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) بمعنى أن انقباض النفس من أمرٍ ما يستدعي تركَه، وكما في الحديث المذكور «إن الله يستحيي من ذي الشيبة المسلم أن يعذبه» بمعنى أن ذلك يستدعي ترك تعذيبه.
والمراد به في الآية «إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما..» سَلْبُ ذلك الترك، ونفيُ النفي إثباتٌ، بمعنى: أن الله يضرب بذلك مثلاً... وقد ورد التعبير بهذا الأسلوب للمبالغة.
قال أبو السعود: (فالمراد ههنا: عدم ترك ضرب المَثَل المُمَاثِلِ لترك من يستحيي من ضربه، وفيه رمزٌ إلى تعاضد الدواعي إلى ضربه..) أبو السعود ١/ ٧٢.
أما وصف الله تعالى بالحياء أو في أي وصف يفيد المشابهة بالمخلوقات فلا يكون على حقيقته الكائنة في العباد، فاللغة وضعت لتدل في المخلوق على هيئة معينة، ولا يعني وصف الخالق بتلك الهيئة على حقيقتها، إنما تدل في الخالق على هيئة يعلمها الله وحده. والله تعالى خاطبهم بهذه العبارات لأنهم يفهمونها، إذ لا يمكن للّغة أيّاً كانت أن تحيط بوصف الله على حقيقته. فأصل الدلالة اللغوية مفهومة للعباد أما كيفية قيامها بذات الله فهي غير معقولة والله أعلم بحقيقتها. ولذلك ورد عن الإمام مالك قوله عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب...

(٢) آل عمران: «١٥٩».
(٣) الأنعام: «١٥٤».

ما البعوضة فما فوقها حتى لا يضرب به المثل؟! بل له أن يُمَثِّل بما هو أحقرُ من ذلك، ونظيرُه فلان لا يبالي مما يَهَبُ مَا دينارٌ وديناران. والبعوضُ: فعولٌ من البُعْض، وهو القَطْعُ كالبِضْع العَضَب، غلب على هذا النوع كالخُموش.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ عطفٌ على بعوضة، أو «ما» إنْ جُعِل اسماً، ومعناه ما زاد عليها في الجثة كالذباب والعنكبوت، كأنه قَصَدَ به ردَّ ما استنكروه. والمعنى: أنه لا يستحيي ضربَ المثل بالبعوض فضْلاً عما هو أكبرُ منه، أو في المعنى الذي جُعِلت فيه مثلاً، وهو الصِّغر والحقارة كجَنَاحِها فإنه عليه الصلاة والسلام ضَرَبَه مثلاً للدنيا، ونظيرُه في الاحتمالين ما روي أن رجلاً بمنىً خَرَّ على طُنُبِ فُسطاط[(١)] فقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ قال «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة»[(٢)]. فإنه يُحْتَمَلُ ما تجاوَزَ الشوكةَ في الألم كالخرور وما زاد عليها في القِلَّة كنَخْبَةِ النملة[(٣)]، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة»[(٤)].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أمّا حرف تفصيل يُفصِّل ما أُجْمِل ويؤكد ما به صُدِّر ويتضمن معنى الشرط، ولذلك يجابُ بالفاء. قال سيبويه: أما زيد فذاهب، معناه: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، أي هو ذاهب لا محالةَ وأنه منه عزيمة، وكان الأصلُ دخول الفاء على الجملة لأنها الجزاء، لكن كرهوا إيلاءَها حرف الشرط فأدخلوها على الخبر وعوَّضوا المبتدأ عن الشرط لفظاً، وفي تصديره الجملتيْن به إخمادٌ لأمر المؤمنين واعتدادٌ بعلمهم وذم بليغ للكافرين على قولهم، والضميرُ في ﴿أَنَّهُ﴾ للمَثَل، أو لأن يضرب. و﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يَسوغُ إنكارُه، يعمّ الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة، من قولهم حق الأمر إذا ثبت، ومنه: ثوب محقق أي محكم النسج.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ﴾ كان من حقِّه: وأما الذين كفروا فلا يعلمون، ليطابق قرينَه ويقابِلَ قَسِيمهُ، لكنْ لما كان قولُهم هذا دليلاً واضحاً على كمال جهلهم عَدَلَ إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه.

---

(١) طنب الفسطاط: الحبل الذي يُشدُّ به بيت الشعر.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ١٠٣ رقم ٥٦٤٠) من حديث عائشة بلفظ «ما من مصيبة تُصيب المسلم إلاَّ كفَّر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها» وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٩١ رقم ٤٦/ ٢٥٧٢) عنها بلفظ الكتاب.

(٣) نُخْبة النملة: أي لدغتها.

(٤) قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (ص١١٧): لم أجده.
قلت: انظر الحديث السابق. وأخرج مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ رقم ٥٢/ ٢٥٧٣) عن أبي سعيد وأبي هريرة، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يُصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن، حتى الهَمَّ يُهِمُّه إلاّ كُفِّر به من سيئاته» وأخرج مسلم (٤/ ١٩٩٣ رقم ٢٥٧٤) عن أبي هريرة قال: لما نزلت «من يعملْ سُوءاً يُجزَ بِهِ [النساء: ١٢٣] بَلَغَتْ من المسلمين مَبْلَغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدِّدُوا ففي كل ما يصابُ به المسلم كفارةٌ. حتى النَّكْبة يُنْكَبُها، أو الشوكة يُشاكها». =

وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً

﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ يَحتَمِلُ وجهين: أن تكون ﴿ مَا ﴾ استفهامية و﴿ذا﴾ بمعنى الذي وما بعدَه صلتُه، والمجموعُ خبر ما. وأن تكون ﴿ما﴾ مع ﴿ذا﴾ اسماً واحداً بمعنى: أيُّ شيء، منصوبَ المحل على المفعولية مثل ما أراد الله، والأحسنُ في جوابه الرفعُ على الأول، والنصبُ على الثاني، ليطابق الجوابُ السؤالَ. والإرادة: نزوعُ النفس وميْلُها إلى الفعل بحيث يحمِلُها عليه، وتقال للقوة التي هي مبدأُ النزوع، والأول مع الفعل والثاني قبله، وكلا المعنيين غيرُ متصوَّرٍ اتصافُ الباري تعالى به، ولذلك اختُلف في معنى إرادته فقيل: إرادتُه لأفعالِهِ أنَّهُ غيرُ ساهٍ ولا مُكرَهٍ، ولأفعالِ غيرِه أمْرَه بها. فعلى هذا لم تكن المعاصي بإرادته، وقيل: علمُه باشتمال الأمر على النظام الأكمل، والوجه الأصلح، فإنه يدعو القادر إلى تحصيله، والحقُّ: أنه ترجيحُ أحد مقدورَيْه على الآخر وتخصيصُه بوجه دون وجه، أو معنى يوجب هذا الترجيح، وهي أعم من الاختيار فإنه ميْل مع تفضيلٍ وفي هذا استحقارٌ واسترذال. و﴿ مَثَلًا ﴾ نصبٌ على التمييز، أو الحال كقوله تعالى ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾(١).

﴿ مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ ﴾(٢) جوابُ ماذا، أي: إضلالٌ كثير وإهداء كثير، وَضَعَ الفعل موضِعَ المصدر للإشعار بالحدوث والتجدد، أو بيانٌ للجملتين المصدرتين بإمّا، وتسجيل بأن العِلْم بكونه حقاً هدى وبيان، وأن الجهل ـ بوجه إيراده والإنكارَ لحسن مورده ـ ضلالٌ وفسوق، وكثرةُ كل واحد من القبيلتين بالنظر إلى أنفسهم لا بالقياس إلى مقابليهم، فإن المَهْديين قليلون بالإضافة إلى أهل الضلال كما قال تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ ﴾(٣)، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾(٤) ويُحْتَمَل أن يكون كثرةُ الضالين من حيث العدد، وكثرةُ المهديين باعتبار الفضل والشرف كما قال:

قليلٌ إذا عُدُّوا كَثيرٌ إذا شَدُّوا

وقال:

---

(١) الأعراف: «٧٣».

(٢) قدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيعاً يسوؤهم ويفتّ في أعضادهم، وهو السرّ في تخصيص هذه الفائدة بالذكر (أبو السعود ١/ ٧٤).

(٣) ص: «٢٤».

(٤) سبأ: «١٣».

إنَّ الكِرامَ كثيرٌ في البلادِ وإنْ قلُّوا كما غيرَهُم قلٌّ وإنْ كَثُرُوا

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن حد الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(١) من قولهم: فَسَقَت الرُّطَبَة عن قشرها إذا خرجت. وأصلُ الفسق: الخروج عن القصد قال رؤبة(٢):

فواسِقاً عَنْ قَصْدِهَا جَوائراً

والفاسقُ في الشرع: الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبَها أحياناً مستقبحاً إياها.

والثانية: الانهماكُ وهو أن يعتاد ارتكابها غيرَ مبالٍ بها.

والثالثة: الجُحُودُ وهو أن يرتكبها مُستصوِباً إياها، فإذا شارف هذا المقام وتخطىٰ خططَه خلع رِبْقة الإيمان من عنقه ولابس الكفر. وما دام هو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يُسلبُ عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمىٰ الإيمان، ولقوله تعالى ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾(٣) والمعتزلةُ لما قالوا: الإيمانُ عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعملِ والكفرُ تكذيبُ الحق وجحودُه جَعَلوه قسماً ثالثاً نازلاً بين منزلتي المؤمن والكافر لمشاركته كلَّ واحد منهما في بعض الأحكام. وتخصيصُ الإضلال بهم مُرَتَّباً على صفة الفِسق يدل على أنه الذي أعدّهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال، وذلك لأن كفرَهم وعدولَهم عن الحق وإصرارَهم بالباطل صرَفَتْ وجوهَ أفكارهم عن حِكْمة المَثَل إلى حقارة الممثَّل به، حتى رسخت به جهالتُهم وازدادت ضلالتُهم فأنكروه واستهزؤوا به. وقرىء يُضَلُّ بالبناء للمفعول والفاسقون بالرفع.

(٢٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ صفة للفاسقين للذم وتقرير الفسق. والنقضُ: فسخ التركيب، وأصلُه في طاقات الحبل، واستعمالُه في إبطال العهْد من حيثُ إن العهد يُستعار له الحبل لما فيه من ربط أحد المتعاهِدَين بالآخر، فإن أُطلق مع لفظ الحبل كان ترشيحاً للمجاز، وإن ذُكر مع العهد كان رمزاً إلى ما هو من روادفه وهو أن العهد حبلٌ في ثبات الوُصلة بين المتعاهدين، كقولك شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس، فإن فيه تنبيهاً على أنه أسد في شجاعته بحْرٌ بالنظر إلى إفادته. والعهدُ: الموْثِق ووضعه لما من شأنه أن يراعىٰ ويُتَعهَّد كالوصية واليمين، ويقال للدار من حيث إنها تراعىٰ بالرجوع إليها. والتاريخ لأنه يُحفَظُ، وهذا العهد: إما العهد المأخود بالعقل، وهو الحجة القائمة على عباده الدالةُ على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسوله، وعليه أُوِّلَ قوله تعالى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ

---

(١) التوبة: «٦٧».

(٢) رؤبة: هو رؤبة بن عبدالله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي، أبو الحجاف، أو أبو محمد، راجزة من العظماء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كان أكثر مقامه في البصرة فأخذ عنه أعيان أهل اللغة وكان يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة، مات في البادية، وقد أسن وله «ديوان رجز ـ ط» وفي الوفيات: لما مات رؤبة قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة، توفي سنة ١٤٥هـ [الأعلام للزركلي (٣/ ٣٤)].

(٣) الحجرات: «٩».

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[١]. أو المأخوذَ بالرسل على الأمم، بأنهم إذا بُعث إليهم رسول مصدِّق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه، وإليه أشار بقوله ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[٢] ونظائرُه. وقيل: عهود الله تعالى ثلاثة: عهد أخذه على جميع ذرية آدم بأن يُقِرّوا بربوبيته، وعهد أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وعهد أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الضميرُ للعهد، والميثاقُ: اسم لما يقع به الوثاقة وهي الاستحكام، والمرادُ به ما وَثَّق الله به عهده من الآيات والكتب، أو ما وَثَّقوه به من الالتزام والقَبول، ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر. و﴿مِنۢ﴾ للابتداء فإن ابتداء النقض بعد الميثاق.

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يَحتَمِل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم والإعراض عن موالاة المؤمنين والتفرقةُ بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والكتبِ في التصديق وتركُ الجماعات المفروضة وسائرُ ما فيه رفضُ خير أو تعاطي شر، فإنه يقطع الوُصلة بين الله وبين العبد المقصودةِ بالذات من كل وصْل وفَصْل. والأمرُ هو للقولِ الطالبِ للفعل، وقيل: مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء، وبه سُمي الأمرُ ـ الذي هو واحد الأمور ـ تسميةً للمفعول به بالمصدر، فإنه مما يؤمَرُ به، كما قيل له: شأنٌ وهو الطلبُ والقصدُ، يقال: شأَنْت شأنه، إذا قصدتُ قصدَه. و﴿أَن يُوصَلَ﴾ يَحْتَمل النصبَ والخفضَ، على أنه بدلٌ من ما، أو ضميرِه. والثاني أحسنُ لفظاً ومعنىً.

﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق وقطع الوُصَلِ التي بها نظام العالم وصلاحه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الذين خَسِروا بإهمال العقلِ عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياةَ الأبدية، واستبدالِ الإنكار والطعنِ في الآيات بالإيمان بها، والنظرِ في حقائقها والاقتباسِ من أنوارها، واشتراءِ النقض بالوفاء، والفسادِ بالصلاح، والعقابِ بالثواب.

(٢٨) ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ استخبارٌ فيه إنكار وتعجيبٌ لكفرهم بإنكار الحال التي يقع عليها على الطريقِ البرهاني، فإن صدورَه لا ينفك عن حالٍ وصِفَةٍ، فإذا أُنكِر أن يكون لكفرهم حالٌ يوجد عليها استلزمَ ذلك إنكارَ وجودِه، فهو أبلغُ وأقوى في إنكار الكفر من أتكفرون وأوفَقُ لما بعده من الحال. والخطابُ مع الذين كفروا، لَمّا وصفَهم بالكفر وسوء المقال وخبْثِ الفِعال خاطبهم على طريقة الالتفات ووبَّخهم على كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضيةِ خلاف ذلك، والمعنى أخبروني على أي حال تكفرون.

﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ أي أجساماً لا حياة لها، عناصرَ وأغذية وأخلاطاً ونطفاً ومضَغاً مخلقة وغير مخلقة.

---

(١) الأعراف: «١٧٢».

(٢) آل عمران: «١٨٧».

﴿ فَأَحْيَـٰكُمْ ﴾ بخلق الأرواح ونفخِها فيكم، وإنما عطَفَه بالفاء لأنه متصل بما عطف عليه غيرَ متراخٍ عنه بخلاف البواقي.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندما تُقضى آجالُكم. ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالنشور يوم ينفخ في الصور أو للسؤال في القبور ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الحشر فيجازيَكم بأعمالكم، أو تُنشَرون إليه من قبوركم للحساب، فما أعْجبَ كفرَكُم مع علمكم بحالكم هذه! فإن قيل: إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون، قلت: تمكُّنُهم من العلم بهما، لِمَا نَصَبَ لهم من الدلائل مُنَزَّلٌ منزلةَ علمهم في إزاحة العذر، سيما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما، وهو أنه تعالى لَمَّا قَدِرَ على إحيائهم أولاً قَدِر على أن يحييَهم ثانياً، فإن بدءَ الخلق ليس بأهونَ عليه من إعادته. أو الخطابُ مع القبيلين، فإنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة ووعدهم على الإيمان وأوعدهم على الكفر، أكّدَ ذلك بأنْ عدّد عليهم النعم العامة والخاصة واستَقْبَحَ صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة، فإن عِظَم النعم يوجب عظمَ معصيةِ النعم، فإن قيل: كيف تعد الإماتة من النعم المقتضية للشكر؟ قلت: لما كانت وُصلةً إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية كما قال الله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾(١) كانت من النعم العظيمة مع أن المعدودَ عليهم نعمة هو المعنى المنتزعُ من القصة بأسرها، كما أن الواقع حالاً هو العلم بها لا كل واحد من الجُمل، فإن بعضها ماضٍ وبعضَها مستقبَل وكلاهما لا يصح أن يقع حالا. أو مع المؤمنين خاصة، لتقرير المِنّة عليهم وتبعيد الكفر عنهم، على معنى كيف يُتصوَّر منكم الكفرُ وكنتم أمواتاً جهالاً فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان ثم يميتكم الموت المعروف ثم يحييكم الحياة الحقيقية ثم إليه ترجعون، فيثيبكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والحياةُ حقيقيةٌ في القوة الحساسة أو ما يقتضيها، وبها سمي الحيوان حيواناً مجازاً في القوة النامية، لأنها من طلائعها ومقدماتها، وفيما يَخُصُّ الإنسان من الفضائل كالعقل والعلم والإيمان، من حيث إنها كمالها وغايتها، والموتُ بإزائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة قال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾(٢) وقال ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾(٣) وقال: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾(٤). وإذا وُصف به الباري تعالى أريد بها صحةُ اتصافِه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا، أو معنىً قائمٌ بذاته يقتضي ذلك على الاستعارة. وقرأ يعقوبُ تَرْجِعُون ـ بفتح التاء ـ في جميع القرآن.

(٢٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بيانُ نعمة أخرى مرتَّبةٌ على الأولى، فإنها خَلْقُهم أحياءً قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلقُ ما يَتَوقَّف عليه بقاؤُهم وتمَّ به معاشهم. ومعنى ﴿ لَكُم﴾ لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم باستنفاعكم بها في مصالحِ أبدانكم ـ بوَسَط أو بغير وسَط ـ ودينِكم بالاستدلال والاعتبار والتعرُّف لما يلائمها من لذاتِ الآخرةَ وآلامها لا على وجه الغرض، فإن الفاعل

(١) العنكبوت: «٦٤».
(٢) الجاثية: «٢٦».
(٣) الحديد: «١٧».
(٤) الأنعام: «١٢٢».

لغَرَض مستكمِل به، بل على أنه كالغرض من حيثُ إنه عاقبة الفعل ومؤداه وهو يقتضي إباحة الأشياء النافعة، ولا يمنعُ اختصاصَ بعضها ببعض لأسباب عارضة، فإنه يدل على أن الكل للكل لا أن كل واحد لكل واحد، وما يعمُّ كلَّ ما في الأرض، إلا إذا أريد بها جهةُ السَّفْل كما يراد بالسماء جهة العلو. وجميعاً: حال من الموصول الثاني(١).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قصْدٌ إليها بإرادته، من قولهم استوى إليه كالسهم المرسَل إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء. وأصلُ الاستواء طلب السَّواء، وإطلاقُه على الاعتدال لما فيه من تسوية وَضْع الأجزاء، ولا يمكن حمله عليه لأنه من خواص الأجسام وقيل استوى أي: استولى وَمَلَكَ، قال:

قــدِ اسْتَــوَى بِشْــرٌ علــى العِــرَاقِ   مــــنْ غَيـــر سَيْـــفٍ وَدَمٍ مُهْـــرَاقِ

والأولُ أوفقُ للأصل والصلةِ المعدَّىٰ بها والتسويةِ المترتبة عليه بالفاء. والمرادُ بالسماء هذه الأجرامُ العلوية أو جهات العلو، و﴿ثُمَّ﴾ لعله لتفاوُت ما بين الخَلْقين، وفضلُ خلْقِ السماء على خلق الأرض كقوله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٢) لا للتراخي في الوقت، فإنه يخالف ظاهر قوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾(٣) فإنه يدل على تأخُّر دحْوِ الأرض المتقدِّم على خلق ما فيها عن خلق السماء وتسويتها، إلا أن تَسْتأنِف بدحاها مقدَّراً لنصب الأرض فعلاً آخر دلَّ عليه ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾(٤) مثلُ تعرف الأرض وتدبرُ أمرها بعد ذلك، لكنّه خلافُ الظاهر.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ عدَّلهن وخَلَقَهن مصونةً من العِوَج والفُطور. و﴿هن﴾ ضميرُ السماء إن فُسِّرت بالأجرام لأنه جمع، أو هو في معنى الجمع، وإلا فمبْهم يفسرُه ما بعدَه كقولهم: ربه رجلاً.

﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ بدلٌ أو تفسير. فإن قيل: أليس إن أصحاب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك؟ قلت: فيما ذكروه شكوك، وإن صح فليس في الآية نفيُ الزائد مع أنه إنْ ضَمَّ إليها العرش والكرسي لم يبقَ خلاف.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تعليلٌ، كأنه قال: ولكونه عالماً بكنْه الأشياء كلها خَلَقَ ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، واستدلالٌ بأنّ من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليماً، فإن إتقان الأفعال وإحكامَها وتخصيصَها بالوجه الأحسن الأنفع لا يُتصور إلا من عالم حكيم رحيم، وإزاحةٌ لما يَخْتَلِج في صدورهم من أن الأبدان بعدما تبددت وتفتتت أجزاؤها واتصلت

---

(١) غير سبكه عن سبك ما قبله ـ مع اتحادهما في المقصود ـ إبانة لما بينهما من التفاوت، فإن ما يتعلق بذواتهم من الإحياء والإماتة والحشر أدخل في الحث على الإيمان والكف عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم وما يجري مجراها. وقدم الظرف «لكم» على المفعول الصريح لتعجيل المسرّة ببيان كونه نافعاً للمخاطبين وللتشويق إليه. (أبو السعود ١/ ٧٨).

(٢) البلد: «١٧».

(٣) النازعات: «٣٠».

(٤) النازعات: «٢٧».

بما يشاكِلُها كيف تُجمَع أجزاءُ كل بدن مرة ثانية بحيث لا يَشِذُّ شيء منها ولا ينضم إليها ما لم يكن معها فيعاد منها كما كان، ونظيرُه قوله تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

واعلم أن صحة الحشر مبنية على ثلاث مقدمات، وقد برهن عليها في هاتين الآيتين: أما الأولى فهي: أن مواد الأبدان قابلةٌ للجمع والحياةِ وأشارَ إلى البرهان عليها بقوله ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فإنَّ تعاقُبَ الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها، وما بالذات يأبى أن يزول ويتغير. وأما الثانية والثالثة: فإنه عز وجل عالم بها وبمواقعها، قادر على جمعها وإحيائها، وأشار إلى وجه إثباتهما بأنه تعالى قادر على إبدائها وإبداء ما هو أعظم خَلْقاً وأعجبُ صُنْعاً فكان أَقْدَر على إعادتهم وإحيائهم، وأنه تعالى خلق ما خلق خَلْقاً مستوياً مُحْكَماً من غير تفاوت واختلال مراعٍ فيه مصالِحهم وسدُّ حاجاتهم. وذلك دليل على تناهي علمه وكمال حكمته جلت قدرته ودقت حكمته. وقد سَكَّنَ نافع وأبو عمرو والكِسائي: الهاء من نحو فهو وهْو تشبيهاً له بعضد.

(٣٠) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامَه وتفضيلَه على ملائكته بأنْ أمَرَهم بالسجود له إنعام يعمُّ ذريته. وإذْ: ظرف وُضِع لزمانِ نسبة ماضيةٍ وَقَع فيه أخرى، كما وُضِع إذا لِزَمان نسبةٍ مستَقْبَلة يقع فيه أخرى[2]، ولذلك يجب إضافتُهما إلى الجُمَل كحيثُ في المكان، وبُنِيتا تشبيهاً لهما بالموصولات، واستُعملتا للتعليل والمجازاة، ومحلُّهما النصب أبداً بالظرفية فإنهما من الظروف الغير المتصرِّفة لما ذكرناه، وأما قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾[3] ونحوه، فعلى تأويل: اذكر الحادث إذا كان كذا، فَحُذِف الحادثُ وأُقيم الظرفُ مقامه، وعاملُه في الآية: قالوا أو اذكُر على التأويل المذكور، لأنه جاء معمولاً له صريحاً في القرآن كثيراً، أو مُضْمَرٌ دل عليه مضمون الآية المتقدمة، مثلُ وبدأ خلْقَكم إذْ قال، وعلى هذا فالجملةُ معطوفة على خَلَقَ لكم داخلةٌ في حكم الصلة. وعن معمر[4] أنه مزيد. والملائكةُ جمع ملأك على الأصل كالشمائل جمع شَمْأل، والتاء لتأنيث الجمع، وهو مقلوبُ مألك من الألوكة وهي: الرسالة، لأنهم وسائطُ بين الله تعالى وبين الناس، فهم رسل الله أو كالرسل إليهم. واختَلَفَ

(١) تلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبي ﷺ خاصة للإيذان بأن فحوى الكلام ليس مما يُهتدى إليه بأدلة العقل، كالأمور المشاهدة التي نبه عليها الكفرة بطريق الخطاب، بل إنما طريقه الوحي الخاص به عليه السلام.
وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من الإنباء عن تشريفه عليه السلام مالا يخفى. (أبو السعود ١/ ٧٩).

(٢) وقد توضع إحداهما موضع الأخرى (فتح القدير ١/ ٦٢).

(٣) الأحقاف: «٢١».

(٤) مَعْمَر: هو مَعْمَر بن المثنى اللغوي البصري أبو عبيدة مولى بنى تيم، تيم قريش، رهط أبي بكر الصديق، أخذ عن يونس وأبي عمرو وهو أول من صنف في غريب الحديث وكان أعلم من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب والأيام، وكان شعوبياً وقيل كان يرى رأي الخوارج الإباضيّة. صنف المجاز في غريب القرآن، الأمثال في غريب الحديث، أيام العرب، معاني القرآن، وغيرها. . .، ولد سنة اثنتي عشرة ومائة، ومات سنة تسع، وقيل ثمان، وقيل عشر، وقيل إحدى عشرة ـ ومائتين. [بغية الوعاة (٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٦ رقم ٢٠١٠)].

العقلاءُ في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذواتٌ موجودة قائمة بأنفسها، فذهب أكثرُ المسلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك. وقالت طائفة من النصارى: هي النفوسُ الفاضلة البشرية المفارقةُ للأبدان. وزعم الحكماء أنهم جواهرُ مجردة مخالفةٌ للنفوس الناطقةِ في الحقيقة، منقسمةٌ إلى قسمين: قسم شأنهم الاستغراقُ في معرفة الحق جل جلاله والتنزه عن الاشتغال بغيره، كما وصفهم في محكم تنزيله فقال تعالى ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[1] وهم العِلِّيُّون والملائكةُ المقربون. وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاءُ وجرى به القلم الإلهي ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[2] وهم المدبراتُ أمراً، فمنهم سماوية، ومنهم أرضية، على تفصيل أثبته في كتاب الطوالع.

والمقولُ لهم: الملائكةُ كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصِّص، وقيل ملائكةُ الأرض، وقيل إبليس ومن كان معه في محاربة الجن، فإنه تعالى أسكنهم في الأرض أولاً فأفسدوا فيها، فبعث إليهم إبليسَ في جُنْد من الملائكة فدمّرهم وفرقهم في الجزائر والجبال. وجاعلٌ: مِنْ جَعَل الذي له مفعولان وهما ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ أُعمِل فيهما، لأنه بمعنى المستقبَل ومعتمِدٌ على مسندٍ إليه، ويجوز أن يكون بمعنى خالق. والخليفةُ مَنْ يخلُفُ غيرَه وينوب منابه، والهاءُ فيه للمبالغة، والمرادُ به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عِمَارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجةٍ به تعالى إلى من ينوبُه. بل لقُصُور المستَخلَفِ عليه عن قَبول فيضه وتلقي أمره بغير وسط، ولذلك لم يستنبىء مَلَكاً كما قال الله تعالى ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾[3] الا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتُهم واشتعلت قريحتُهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلىٰ رتبةً كلَّمهُ بلا واسطة كما كَلَّمَ موسى عليه السلام في الميقات ومحمداً ﷺ ليلة المعراج، ونظيرُ ذلك في الطبيعة أن العَظْم لما عَجَز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروفَ المناسبَ لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك. أو خليفةً مَنْ سَكَنَ الأرض قبلَه، أو هو وذريتُه لأنهم يَخْلُفُون مَنْ قبلهم، أو يخلف بعضهم بعضاً. وإفرادُ اللفظ: إما للاستغناء بذِكْره عن ذكر بنيه كما استُغني بذكر أبي القبيلة في قولهم: مُضَر وهاشم، أو على تأويلِ مَنْ يخلُفُكم أو خَلَفاً يخلُفكم. وفائدةُ قوله تعالى هذا للملائكة تعليمُ المشاوَرَة وتعظيمُ شأن المجعول، بأن بَشَّرَ عز وجل بوجود سكان ملكُوته ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهارُ فضله الراجح على ما فيه من المفاسدِ بسؤالهم، وجوابُه وبيانُ أن الحكمة تقتضي إيجادَ ما يغلِب خيرُه، فإنَّ تركَ الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك.

---

(١) الأنبياء: «٢٠».
(٢) التحريم: «٦».
(٣) الأنعام: «٩».

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ تعجبٌ من أن يستخلف لعِمارة الأرض وإصلاحِهَا من يفسد فيها، أو يستخلفَ مكان أهلِ الطاعة أهلَ المعصية، واستكشافٌ عما خفِيَ عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها، واستخبارٌ عما يرشدُهم ويزيحُ شبهتهم كسؤال المتعلم معلِّمَه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلت قدرته ولا طعنٌ في بني آدم على وجه الغيْبة، فإنهم أعلى من أن يُظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾[1] وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى أو تلقٍّ من اللوح أو استنباطٌ عما رَكَزَ في عقولهم أن العصمة من خواصهم أو قياسٌ لأحد الثقلين على الآخر. والسَّفْكُ والسَّبْكُ والسَّفْحُ والشَّنُّ أنواعٌ من الصبّ، فالسفك يقال في الدم والدمع، والسبكُ في الجواهر المذابة، والسفحُ في الصب من أعلى، والشنّ في الصب من فم القربة ونحوها، وكذلك السَّنُّ. وقرىء يُسْفَكُ ـ على البناء للمفعول ـ فيكون الراجع إلىٰ مَنْ، سواء جعل موصولاً أو موصوفاً محذوفاً، أي: يسفك الدماء فيهم.

﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ حالٌ مقرِّرة لجهة الإشكال كقولك: أتُحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم؟! والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك؟ والمقصود منه الاستفسارُ عما رجَّحهم ـ مع ما هو متوَقع منهم ـ على الملائكة المعصومين في الاستخلاف، لا العجب والتفاخر. وكأنهم عَلِموا أن المجعول خليفةً ذو ثلاث قُوى عليها مدار أمره: شهْوية وغضبيّة تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه؟ وهو باعتبارِ تينْك القوتين لا تقتضي الحكمةُ إيجادَه فضلاً عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نُقيم ما يتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاسد. وغَفَلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطواعة للعقل متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف، ولم يعلموا أن التركيب يفيد ما يقصر عنه الآحاد كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ والتسبيح تَبْعيدُ الله تعالى عن السوء وكذلك التقديس، من سَبَح في الأرض والماء، وقدَّس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد، ويقال قَدُسَ إذا طهُر لأن مطهر الشيء مبْعِدٌ له عن الأقذار. و﴿بِحَمۡدِكَ﴾ في موضع الحال، أي: متلبسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتَك ووفقتنا

---

(١) الأنبياء: «٢٦، ٢٧».

لتسبيحك، تداركوا به ما أوهم إسنادَ التسبيح إلى أنفسهم، ونقدس لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابَلوا الفسادَ ـ المفسَّر بالشرك عند قوم ـ بالتسبيح، وسفكَ الدماء ـ الذي هو أعظم الأفعال الذميمة ـ بتطهير النفوس عن الآثام، وقيل: نقدسك واللامُ مزيدة.

(٣١) ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ إما بخلْق علم ضروري بها فيه أو إلقاءٍ في روعه، ولا يفتقر إلى سابقة اصطلاح ليتسلسل. والتعليمُ فعلٌ يترتب عليه العلمِ غالباً، ولذلك يقال علمته فلم يتعلم. وآدم اسم أعجمي كآزر وشالخ؛ واشتقاقُه من الأُدْمة أو الأَدْمة ـ بالفتح ـ بمعنى الأسوة، أو من أديم الأرض، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام «أنه تعالى قبض قبضة من جميعِ الأرض سهلها وحَزْنِها فخلق منها آدم»[١] فلذلك يأتي بنوه أخيافاً[٢]، أو من الأَدَم أو الأَدَمة بمعنى الأُلفة، تعسفٌ[٣] كاشتقاق إدريس من الدَّرْس، ويعقوب من العقب، وإبليس من الإبلاس. والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامةً للشيء ودليلاً يرفعه إلى الذهن مع الألفاظ والصفات والأفعال، واستعمالُه عرفاً في اللفظ الموضوع لمعنى سواءٌ كان مركباً أو مفرداً مخبَراً عنه أو خبراً أو رابطة بينهما. واصطلاحاً: في المفرد الدال على معنىً في نفسه غيرَ مقترِن بأحدِ الأزمنة الثلاثة. والمرادُ في الآية إما الأول أو الثاني وهو يستلزم الأول، لأن العلم بألفاظٍ من حيثُ الدَّلالة متوقِّفٌ على العلم بالمعاني، والمعنى: أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوًى متباينة، مستعداً لإدراك أنواع المدرَكات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات، وألهمه معرفةَ ذواتِ الأشياء وخواصِّها وأسمائها وأصولِ العلوم وقوانينِ الصناعات وكيفيةِ آلاتها[٤].

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ الضميرُ فيه للمسميات المدلولِ عليها ضمناً، إذ التقديرُ أسماءَ المسميات فحذف المضاف إليه لدلالة المضاف عليه وعوَّض عنه اللام كقوله تعالى: ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[٥]

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (٥/ ٦٧ رقم ٤٦٩٣) والترمذي (٥/ ٢٠٤ رقم ٢٩٥٥) وأحمد في المسند (٤/ ٤٠٠ ـ ٤٠٦) وابن جرير في التفسير (١/ ٢١٤) وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٦) وابن خزيمة في التوحيد (ص٦٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٤) و(٨/ ١٣٥) كلهم من حديث أبي موسى الأشعري. قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى خلقَ آدم من قبضَةٍ قبضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض، فجاء منهمُ الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وبين ذلِكَ، والسَّهْل والحزْن والخبيثُ والطيِّبُ».
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ١٠٩) و«الصحيحة» (رقم: ١٦٣٠).

(٢) أخيافاً: أي متفرقون.

(٣) قوله تعسف خبر للمبتدأ (واشتقاقه..).

(٤) أورد لفظ آدم ـ عليه السلام ـ باسمه العَلَميّ لزيادة تعيين المراد بالخليفة، ولأن ذكره بعنوان الخلافة لا يلائم مقام تمهيد مباديها...
والتعليم عبارة عن فعل يترتب عليه العلم.. ويتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته...
وهو السرّ في إيثاره على الإعلام والإنباء (أبو السعود ١/ ٨٤).

(٥) مريم: «٤».

وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ
وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا
وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ
وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ

لأن العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفسَ الأشياء سيما إن أريد به الألفاظ، والمرادُ به ذوات الأشياء أو مدلولات الألفاظ. وتذكيرُه ليُغَلِّب ما اشتمل عليه من العقلاء. وقرىء عرضهنّ وعرضها، على معنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها.

﴿ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تبكيتٌ لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة، فإن التصرف والتدبير إقامةُ المَعْدلة قبل تحقق المعرفة، والوقوفُ على مراتب الاستعدادات وقَدَر الحقوق محالٌ، وليس بتكليف ليكون من باب التكليف بالمحال. والإنباءُ: إخبار فيه إعلام، ولذلك يجري مجرى كل واحد منهما.

﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم، أو أن خلقهم واستخلافهم وهذه صفتهم لا يليق بالحكيم، وهو وإن لم يصرحوا به لكنه لازمُ مقالِهم. والتصديقُ كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه بفرض ما يلزم مدلوله من الأخبار، وبهذا الاعتبار يعتري الإنشاءات.

(٣٢) ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ ﴾ اعترافٌ بالعجز والقصور، وإشعارٌ بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، وأنه قد بان لهم ما خَفِي عليهم من فَضْل الإنسان والحكمة في خلقه، وإظهارٌ لشكر نعمته بما عرّفهم وكشف لهم ما اعتقل عليهم، ومراعاةٌ للأدب بتفويض العلم كله إليه. وسبحان: مصدرٌ كغُفْران، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمارِ فِعْله كـ«معاذَ الله». وقد أُجْرِيَ عَلَماً للتسبيح بمعنى التنزيه على الشذوذ في قوله: سبحان من علقمة الفاخر. وتصديرُ الكلام به اعتذارٌ عن الاستفسار والجهلِ بحقيقة الحال، ولذلك جُعِل مفتاحَ التوبة فقال موسى عليه السلام: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾[1] وقال يونس: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية. ﴿ ٱلۡحَكِيمُ﴾ المُحْكِم لمبدَعاته الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة. وأنت فصلٌ، وقيل: تأكيدٌ للكاف كما في قولك: مررت بك أنت، وإن لم يجز: مررت بأنت، إذ التابع يسوغ فيه مالا يسوغ في المتبوع، ولذلك جاز: يا هذا الرجل، ولم يجز: يا الرجل، وقيل: مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر إن.

(٣٣) ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ ﴾ أي: أَعْلِمْهم، وقرىء بقلْب الهمزة ياءً، وحذفِها بكسر الهاء فيهما.

﴿ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ استحضارٌ

---

(١) الأعراف: «١٤٣».
(٢) الأنبياء: «٨٧».

لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١] لكنه جاء به على وجه أبسط ليكون كالحجة عليه، فإنه تعالى لما علم ما خفي عليهم من أمور السماوات والأرض وما ظهر لهم من أحوالهم الظاهرة والباطنة علم مالا يعلمون، وفيه تعريضٌ بمعاتبتهم على ترك الأَوْلى، وهو أن يتوقفوا مترصِّدين لأن يبين لهم. وقيل ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ قولُهم: أتجعل فيها من يفسد فيها. وما ﴿تَكۡتُمُونَ﴾ استبطانُهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم. وقيل: ما أظهروا من الطاعة، وأسرَّ إبليسُ منهم من المعصية[٢]. والهمزة للإنكار دخلت حرف الجَحْد فأفادت الإثبات والتقرير[٣].

واعلم أن هذه الآيات تدل على شَرَف الإنسان ومزيةِ العلم وفضلِه على العبادة وأنه شرطٌ في الخلافة بل العمدةُ فيها، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلِّم عليه لاختصاصه بمن يَحْترف به، وأن اللغات توقيفية، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم، وتعليمُها ظاهر في إلقائها على المتعلِّم مبيِّناً له معانيها، وذلك يستدعي سابقَةَ وضعٍ، والأصلُ ينفي أن يكون ذلك الوضعُ ممن كان قبلَ آدم فيكونَ من الله سبحانه وتعالى، وأن مفهومَ الحكمة زائد على مفهومِ العلم وإلا لتكرَّر قولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة، والحكماءُ مَنَعُوا ذلكَ في الطبقة العليا منهم وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾[٤] وأن آدم أفضلُ من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾[٥] وأنه تعالى يَعْلَم الأشياء قبل حدوثها[٦].

(٣٤) ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ لما أنبأهم بأسمائهم وعلَّمهم مالم يعلموا أمرَهم بالسجود له اعترافاً بفضله وأداء لحقه واعتذاراً عما قالوا فيه، وقيل: أمَرَهم به قبل أن يسوِّي خَلْقَه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٧] امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله. والعاطفُ عَطَفَ الظرفَ على الظرف السابق إن نصبته بمضمر، وإلا عَطَفَه بما يقدَّر عاملاً فيه على الجملة المتقدمة، بل القصة بأسرها على القصة الأخرى، وهي نعمة رابعة عدها عليهم. والسجودُ في الأصل تذلُّل مع تَطَامُنٍ قال

---

(١) البقرة: «٣٠».

(٢) الأولى عدم تخصيص (تبدون وتكتمون) فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٣) أي أن همزة الإنكار في قوله (ألم) دخلت على لم وهي تفيد النفي فأفادت الإثبات والتقرير، وذلك أن نفيَ النفي إثبات.

(٤) الصافات: «١٦٤».

(٥) الزمر: «٩».

(٦) وفي الآية لفتات بيانية أشار إليها أبو السعود وهي:
الفاء في قوله «فلما أنبأهم..» فصيحة دلت على محذوف يقتضيه المقام وذلك للإيذان بتقرره وغناه عن الذكر وللإشعار بتحققه في أسرع ما يكون.
وأظهر الأسماء في موقع الإضمار فقال «أنبأهم بأسمائهم» ولم يقل أنبأهم بهم، وذلك لإظهار كمال العناية بشأنها والإيذان بأنه ـ عليه السلام ـ أنبأهم بها على وجه التفصيل لا الإجمال وغير الأسلوب في قوله: «وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» عن سابقه للإيذان باستمرار كتمهم... (أبو السعود ١/ ٨٦).

(٧) ص: «٧٢».

الشاعر:

تَرَى الأُكمَ فِيها سُجَّداً للحَوافِرِ

وقال آخر:

وقُلْنَ له اسْجُدْ لِلَيلى فَاسْجَدَا

يعني: البعيرُ إذا طأطأ رأسه. وفي الشرع: وَضْعُ الجبهة على قصد العبادة. والمأمور به إما المعنى الشرعي، فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى وجَعَلَ آدمَ قِبْلةً لسجودهم تفخيماً لشأنه، أو سبباً لوجوبه، فكأنه تعالى لمّا خلقه بحيث يكون نموذجاً للمبدعات كلها بل الموجودات بأسرها ونسخةً لما في العالم الروحاني والجسماني وذريعةً للملائكة إلى استيفاء ما قُدِّر لهم من الكمالات ووُصلة إلى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات، أمَرَهم[١] بالسجود تذللاً لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته وشكراً لما أنعم عليهم بواسطته، فاللام فيه كاللام في قول حسان رضي الله تعالى عنه:

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لقبلتِكُم[٢] وأَعْرَفَ النَاسِ بالقرآنِ والسُّنَنِ

أو في قوله تعالى ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ[٢] ٱلشَّمۡسِ﴾[٣].

وأما المعنى اللغوي وهو التواضُعُ لآدم تحية وتعظيماً له، كسجود إخوة يوسف له، أو التذلل والانقياد بالسعي في تحصيل ما ينوط به معاشهم ويتم به كمالهم. والكلام في أن المأمورين بالسجود الملائكةُ كلُّهم أو طائفةٌ منهم ما سبق[٤].

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ امتنع عما أمر به، استكباراً من أن يتخذه وصلة في عبادة ربه، أو

---

(١) قوله أمَرَهم هي جواب لمّا خلقه بحيث...

(٢) اللام في قول حسان «لقبلتكم» بمعنى إلى، وفي قوله تعالى «الدلوك» للسببية.

(٣) الإسراء: «٧٨».

(٤) قضية سجود الملائكة لآدم عليه السلام واختلافهم في معناها، هل هي على حقيقتها الشرعية كالسجود في الصلاة أم على تأويل آخر؟

لعل الأظهر في ذلك أن المراد به هو المعنى الشرعي وهو وضع الجبهة على الأرض، إكراماً وإعظاماً واحتراماً لآدم، وهو طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره. وقد اختار هذا القول ابن كثير ١/ ٧٥ والشوكاني في فتح القدير ١/ ٦٦. وقواه الرازي وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبلة، إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر وهو أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال. وقوله تعالى في إخوة يوسف «وخرّوا له سجداً» ـ يوسف «١٠٠» ـ يؤيد ذلك فكانت تحية الناس يومئذ السجود (التفسير الكبير ٢/ ٢١٣) وقال الألوسي: (ألا ترى أن الكعبة ليست بأشرف ممن سجد إليها) روح المعاني ١/ ٢٢٨.

فسجود الملائكة لآدم يحمل على معناه الشرعي. إذ لا يعني تعظيم الكعبة والسجود إليها عبادتها...

وفي قوله تعالى «وإذ قلنا..» تغيير للأسلوب عن سابقه، ففي الأول كان الحديث عن خلق آدم واستخلافه فناسب ذكر الربوبية مضافاً إلى أحب خلفائه إليه، فقال: «وإذ قال ربك». أما هنا فالمقام مقام إيراد أمر يناسب العظمة، ففي السجود تعظيم ولما أمر بفعله لغيره أشار إلى كبريائه الغنية عن التعظيم، فقال: «وإذ قلنا» بضمير العظمة. (روح المعاني ١/ ٢٢٩).

يعظمه ويتلقاه بالتحية، أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه. والإباء: امتناع باختيار. والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره. والاستكبار طلب ذلك بالتشبع.

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي في علم الله تعالى، أو صار منهم باستقباحه أمرَ الله تعالى إياه بالسجود لآدم اعتقاداً بأنه أفضل منه، والأفضل لا يَحْسُنُ أن يؤمر بالتخضُّع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[(١)] جواباً لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[(٢)]. لا بترك الواجب وحده. والآيةُ تدل على أن آدم عليه السلام أفضلُ من الملائكة المأمورين بالسجود له، ولو من وجه، وأن إبليس كان من الملائكة وإلا لم يتناوله أمرُهم ولا يصح استثناؤه منهم، ولا يُرَدُّ على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[(٣)] لجواز أن يقال إنه كان من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً، ولأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما روى: أن من الملائكة ضرباً يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم إبليس[(٤)]. ولِمَنْ زعم أنه لم يكن من الملائكة أن يقول: إنه كان جنياً نشأ بين أظهر الملائكة وكان مغموراً بالألوف منهم فغلبوا عليه، أو الجنُّ أيضاً كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم، فإنه إذا علم أن الأكابرَ مأمورون بالتذلل لأحد والتوسل به علم أن الأصاغر أيضاً مأمورون به. والضمير في فسجدوا راجع إلى القبيلين، كأنه قال فسجد المأمورون بالسجود إلا إبليس، وأن من الملائكة من ليس بمعصوم وإن كان الغالب فيهم العصمة[(٥)]، كما أن من الإنس معصومين والغالبُ فيهم عدمُ العصمة، ولعل ضرباً من الملائكة لا يخالف الشياطين بالذات، وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات كالبررة والفسقة من الإنس والجن يشملهما، وكان إبليس من هذا الصنف كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلذلك صح عليه التغير عن حاله والهبوط من محله، كما أشار إليه بقوله عز وعلا: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[(٦)] لا يقال: كيف يصح ذلك والملائكة خلقت من نور والجن من نار؟ لِمَا روت عائشةُ رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلقت الملائكة من النور، وخلق الجن من مارج من نار»[(٧)] لأنه كالتمثيل لما ذكرنا فإن المراد بالنور الجوهر المضيء والنار كذلك غيرَ أن ضوءَها مكدَّر مغمور بالدخان محذور عنه بسبب ما يصحبه من فَرْط الحرارة والإحراق فإذا صارت مهذبة مصفّاة كانت محض نور ومتى نكصت عادت الحالة الأولى جذِعة ولا تزال تتزايد حتى ينطفىء نورها ويبقى الدخان الصرف، وهذا أشبه بالصواب وأوفق للجمع بين النصوص، والعلم عند الله سبحانه وتعالى[(٨)].

---

(١) الأعراف: «١٢».

(٢) ص: «٧٥».

(٣) الكهف: «٥٠».

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لعل هذا القول يخالف عموم الآية «لا يعصون الله ما أمرهم. . .» ـ التحريم «٦» ـ.

(٦) الكهف: «٥٠».

(٧) مسلم (٢٩٩٦) وأحمد (٦/ ١٥٣، ١٦٨).

(٨) لا تنافي بين أن يكون إبليس كان من الجن وأنه من الملائكة، فلعل الله أن يكون سلبه الصفات الملكية وألبسه الصفات الشيطانية فعصى عند ذلك، والملَك ما دام ملَكاً لا يعصي (روح المعاني ١/ ٢٣٠).

ومن فوائد الآية استقباح الاستكبار وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر، والحث على الائتمار لأمره وترك الخوض في سره، وأن الأمر للوجوب، وأن الذي علم الله تعالى من حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة، إذ العبرة بالخواتم وإن كان بحكم الحال مؤمناً وهو الموافاة المنسوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

(٣٥) ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ السكنى من السكون لأنها استقرار ولَبْث، و﴿أَنتَ﴾ تأكيد أكِّد به المستكنّ ليصح العطفُ عليه، وإنما لم يخاطبهما أولاً تنبيهاً على أنه المقصود بالحكم والمعطوف عليه تَبَعٌ له. والجنة دار الثواب، لأن اللام للعهد ولا معهود غيرها. ومن زعم أنها لم تُخلَق بعدُ قال: إنه بستان كان بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خَلَقَه الله تعالى امتحاناً لآدم، وحَمَلَ الإهباط على الانتقال منه إلى أرض الهند[١] كما في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾[٢] ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعاً رافهاً، صفة مصدر محذوف.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أيَّ مكان من الجنة شئتما، وسع الأمر عليهما إزاحةً للعُملة، والعذر في التناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها الفائتة للحصر.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه مبالغاتٌ، تعليقُ النهي بالقرب الذي هو من مقدمات التناول مبالغةً في تحريمه، ووجوبُ الاجتناب عنه، وتنبيهاً على أن القرب من الشيء يورِّث داعية، وميلاً يأخذُ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع، كما روي «حبك الشيء يعمي ويصم»[٣] فينبغي أن لا يحوما حول ما حرم الله عليهما مخافةَ أن يقعا فيه، وجعله سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، أو بنقصِ حظهما بالإتيان بما يُخِلِ بالكرامة والنعيم، فإن الفاء تفيد السببية سواء جُعِلَتِ للعطف على النهي أو الجواب له. والشجرة هي الحنطة أو الكَرْمة أو التينة أو شجرةٌ من أكل منها أحدث، والأَوْلى أن لا تُعَيَّن من غير قاطع كما لم تعين في الآية، لعدم توقف ما هو المقصود عليه. وقرىء بكسر الشين، وتِقْرَبا بكسر التاء، وهذي بالياء.

(٣٦) ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ حين أصدر زلتَهما عن الشجرة وحملهما على الزَّلة بسببها، ونظير «عن» هذه في قوله تعالى ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[٤]. أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما، ويعضده قراءة حمزة فَأَزَالهما وهما متقاربان في المعنى، غير أن أزلّ يقتضي عَثْرة مع الزوال، وإزلاله قوله: ﴿هَلْ

---

(١) هذا القول للمعتزلة، وقد قال عنه الألوسي: (وكون حَمْلها على ما ذُكِرَ يجري مجرى الملاعبة بالدين والمراغمة لإجماع المسلمين غير مسلَّم) روح المعاني ١/ ٢٣٣.

(٢) البقرة: «٦١».

(٣) أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء مرفوعاً (٥١٣٠) وأخرجه أحمد (٥/ ١٩٤، ٦/ ٤٥٠) وابن عدي (٢/ ٤٧٢) في ترجمة أبي بكر بن أبي مريم. والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ١٧٢) ترجمة خالد بن محمد الثقفي.

والحديث ضعيف لأن فيه أبي بكر بن أبي مريم وهو ضعيف جداً كما في التقريب (٢/ ٣٩٨).

(٤) الكهف: «٨٢».

أدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾(١) وقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾(٢) ومقاسمته إياها بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾(٣). واختُلف في أنه تَمَثَّل لهما فقاوَلَهما بذلك(٤)، أو ألقاه إليهما على طريق الوسوسة، وأنه كيف توصل إلى إزلالهما بعدما قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾(٥) فقيل: إنه منع من الدخول على جهة التَّكْرمة كما كان يدخل مع الملائكة، ولم يمنع أن يدخل للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وقيل: قام عند الباب فناداهما. وقيل: تمثل بصورة دابة فدخل ولم تعرفه الخَزَنَة. وقيل: دخل في فم الحيّة حتى دخلت به. وقيل: أرسل بعض أتباعه فأزلهما، والعلم عند الله سبحانه وتعالى.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من الكرامة والنعيم.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ خطاب لآدم عليه الصلاة والسلام وحواء لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قال اهبطا منها جميعاً﴾(٦). وجمعُ الضمير لأنهما أصلا الجِنْس فكأنهما الإنس كلهم. أو هما وإبليس أُخرج منها ثانياً بعدما كان يدخلها للوسوسة، أو دخلها مسارقة أو من السماء.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال استغني فيها عن الواو بالضمير، والمعنى متعادِين يبغي بعضكم على بعض بتضليله.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار، أو استقرارٍ.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تمتع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد به وقت الموت أو القيامة.

(٣٧) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرأ ابن كثير بنصب آدم ورفع الكلمات على أنها استقبلته وبلَغته وهي قوله تعالى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾(٧) الآية، وقيل: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: يا رب ألم تنفخ في الروح من روحك؟ قال: بلى، قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم(٨). وأصل الكلمة: الكَلْم، وهو التأثير المدْرَك بإحدى الحاستين السمع والبصر

---

(١) طه: «١٢٠».

(٢) الأعراف: «٢٠».

(٣) الأعراف: «٢١».

(٤) وهذا ما ذهب إليه الجمهور كما ذكر الشوكاني في فتح القدير ١/٦٨.

(٥) ص: «٧٧».

(٦) طه: «١٢٣».

(٧) الأعراف: «٢٣».

(٨) وهو أثر موقوف على ابن عباس، بسند حسن.
أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٤٥) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/١٤٢) إلى الغريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التوبة وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، =

كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ
بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ

كالكلام والجراحة والحركة[١].

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة، وإنما رتبه بالفاء على تلقِّي الكلمات لتضمُّنه معنى التوبة: وهو الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه. واكتفي بذكر آدم لأن حواء كانت تبعاً له في الحكم ولذلك طوي ذِكْرُ النساء في أكثر القرآن والسنن.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع على عباده بالمغفرة، أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة، وأصل التوبة: الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان رجوعاً عن المعصية، وإذا وصف بها الباري تعالى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، وفي الجمع بين الوصفين، وَعْدٌ للتائب بالإحسان مع العفو.

(٣٨) ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ كرِّر للتأكيد، أو لاختلاف المقصود فإن الأول دل على أن هبوطَهم إلى دارِ بليَّة يتعادون فيها ولا يخلدون، والثاني أشعر بأنهم أُهْبِطوا للتكليف، فمن اهتدى الهدى نجا ومن ضلَّه هلك، والتنبيه على أن مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين وحدها كافية للحازم أن تعوقه عن مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى، فكيف بالمقترن بهما؟ ولكنه نسي ولم نجد له عزماً، وأن كل واحد منهما كفى به نكالاً لمن أراد أن يذَّكر. وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض وهو كما ترى. وجميعاً حالٌ في اللفظ تأكيدٌ في المعنى كأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعُهم على الهبوط في زمان واحد كقولك: جاؤوا جميعاً ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ الشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، وما مزيدة أُكِّدتْ به إنْ ولذلك حَسُن تأكيدُ الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معنى الطلب، والمعنى: إن يأتينكم مني هدىً بإنزال أو إرسال فمن تبعه منكم نجا وفاز. وإنما جيء بحرف الشك، وإتيانُ الهدى كائنٌ لا محالة لأنه محتمَلٌ في نفسه غيرَ واجب عقلاً. وكرر لفظَ الهدى ولم يُضمر لأنه أراد بالثاني أعمَّ من الأول، وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل، أي: فمن تبع ما أتاه مراعياً فيه ما يشهد به العقل فلا خوف عليهم فضلاً عن أن يَحِلَّ بهم مكروه، ولا هُمْ يفوتُ عنهم محبوب فيحزنوا عليه، فالخوف

= وابن مردويه.

(١) قوله تعالى: «فتلقى آدم من ربه..» تعرضٌ لعنوان الربوبية مع الإضافة إليه ـ عليه السلام ـ للتشريف والإيذان بعلِّيته لإلقاء الكلمات المدلول عليه بتلقيها. (أبو السعود ١/ ٩٢).
وإظهار الهدى مضافاً إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيد وجوب اتباعه (أبو السعود ١/ ٩٣).

على المتوقَّع والحزنُ على الواقع، نفَى عنهم العقاب وأثبت لهم الثواب على آكدِ وجهٍ وأبلغِه. وقرىء هُدَيَّ على لغة هذيل ولا خوفَ بالفتح.

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ عطفٌ على فمن تَبع إلى آخره قسيم له كأنه قال: ومن لم يتبع بل كفروا بالله وكذبوا بآياته، أو كفروا بالآيات جَنَاناً وكذبوا بها لساناً، فيكون الفعلان متوجهين إلى الجارّ والمجرور. والآيَةُ في الأصل العلامةُ الظاهرة، ويقال للمصنوعات من حيثُ إنها تَدُل على وجود الصانع وعلمه وقدرته، ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل، واشتقاقُها من آي لأنها تبيِّن آياً من أي أو من أوى إليه، وأصلها أَأْية أو أوْية كتَمْرة فأُبدلت عينُها ألفاً على غير قياس أو أَيَيَة أو أَوَية كَرَمَكَة[١] فأعلت أو آئِيَة كقائِلة فحذفت الهمزة تخفيفاً. والمراد بآياتنا الآياتُ المنزلة أو ما يعمها والمعقولةُ. وقد تمسكت الحَشَوِية[٢] بهذه القصة على عدم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من وجوه:

الأول: أن آدم صلوات الله عليه كان نبياً، وارتكب المنهيَّ عنه والمرتكبُ له عاص.

والثاني: أنه جُعِل بارتكابه من الظالمين والظالمُ ملعون لقوله تعالى: ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٣].

والثالث: أنه تعالى أَسْنَد إليه العصيان والغيّ فقال ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[٤].

والرابع: أنه تعالى لقنَّه التوبة، وهي الرجوع عن الذنب والندم عليه.

والخامس: اعترافُه بأنه خاسر لولا مغفرةُ الله تعالى إياه بقوله: ﴿ وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ﴾ والخاسر من يكون ذا كبيرة.

والسادس: أنه لو لم يذنب لم يجرِ عليه ما جرى. والجواب من وجوه:

الأول: أنه لم يكن نبياً حينئذ، والمدعي مطالَبٌ بالبيان.

والثاني: أن النهي للتنزيه، وإنما سُمِّي ظالماً وخاسراً لأنه ظلم نفسه وخسِر حظَّه بترك الأوْلى له. وأما إسناد الغي والعصيان إليه فسيأتي الجواب عنه في موضعه إن شاء الله تعالى[٥]. وإنما أُمر بالتوبة تلافياً لما فات عنه، وجرى عليه ما جرى معاتبة له على ترك الأوْلى ووفاء بما قاله للملائكة قبل خلقه.

---

(١) الرَّمكة هي: الأنثى من البراذين (المصباح المنير مادة رمك).

(٢) الحشوية: هم قوم تمسكوا بالظواهر فذهبوا إلى التجسيم وغيره وهي من الفرق الضالة. قال السبكي في «شرح أصول ابن الحاجب» الحشوية طائفة ضلُّوا عن سواء السبيل، يجرون آيات الله على ظاهرها ويعتقدون أنه المراد، سموا بذلك لأنهم كانوا في حلقة الحسن البصري، فوجدهم يتكلمون كلاماً. فقال: ردُّوا هؤلاء إلى حشاء القلعة فنسبوا إلى حشاء فهم حشوية وقيل غير ذلك. انظر «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٢/ ٥٢٠).

(٣) هود: «١٨».

(٤) طه: «١٢١».

(٥) قوله: «وعصى آدم ربه فغوى» ـ طه: «١٢١» ـ غوى: أي ضلّ عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة، أو ضل عن الرشد حيث اغتر بقول العدو ـ (تفسير البيضاوي ٢/ ٦٠) ـ.

والثالث: أنه فَعَلَه ناسياً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[(١)] ولكنه عوتب بترك التحفُّظ عن أسباب النسيان، ولعله وإن حُطَّ عن الأمة لم يُحَطّ عن الأنبياء لعِظَم قدرهم كما قال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل»[(٢)]. أو أدى فعلُه إلى ما جرى عليه على طريق السببية المقدَّرة دون المؤاخَذَة على تناوله، كتناول السم على الجاهل بشأنه. لا يقال إنه باطل لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا﴾[(٣)]، و﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾[(٤)] الآيتين، لأنه ليس فيهما ما يدل على أن تناولَه حين ما قال له إبليس، فلعل مقاله أوْرَث فيه ميلاً طبيعياً، ثم إنه كف نفسَه عنه مراعاة لحكم الله تعالى إلى أن نسي ذلك، وزال المانع فحَمَلهُ الطبْع عليه.

والرابع: أنه عليه السلام أقدم عليه بسبب اجتهادٍ أخطأ فيه، فإنه ظن أن النهي للتنزيه، أو الإشارةِ إلى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المرادُ بها الإشارة إلى النوع، كما روي أنه عليه الصلاة والسلام «أخذ حريراً وذهباً بيده وقال: «هذان حرام على ذكور أمتي حل لإناثها»[(٥)]. وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً لشأن الخطيئة ليجتنبها أولادُه. وفيها دَلالة على أن الجنة مخلوقةٌ وأنها في جهة عالية، وأن التوبةَ مقبولةٌ، وأن متبعَ الهدى مأمونُ العاقبة، وأن عذاب النار دائم، وأن الكافر فيه مخلَّد، وأن غيره لا يخلَّدُ فيه بمفهوم قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوةَ والمعاد، وعقَّبها تعداد النعم العامة تقريراً لها وتأكيداً، فإنها من حيث إنها حوادثُ محكمةٌ تَدُل على مُحْدِثٍ حكيم له الخلق والأمر وحده لا شريك له، ومن حيثُ إن الإخبار بها على ما هو مثبَت في الكتب السابقة ممن لم يتعلمْها ولم يمارس شيئاً منها إخبارٌ بالغيب معجِز يدل على نبوة المُخْبِر عنها، ومن حيثُ اشتمالُها على خلق الإنسان وأصولِه وما هو أعظم من ذلك تدلُّ على أنه قادر على الإعادة كما كان قادراً على الإبداء، خاطب أهلَ العلم والكتابِ منهم وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم ويُوفوا بعهده في اتباع الحق واقتفاء الحجج ليكونوا أول من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه فقال:

(٤٠) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أولادُ يعقوب، والابن من البِناء لأنه مَبْنى أبيه، ولذلك يُنسب المصنوع

---

(١) طه: «١١٥».

(٢) أخرجه بدون قوله «ثم الأولياء» الترمذي (٢٣٩٨) وقال حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجة (٤٠٢٣) وأحمد (١/ ١٧٢) والحاكم (١/ ٤١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) الأعراف: «٢٠».

(٤) الأعراف: «٢١».

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١١٥) وأبو داود (٢/ ٣٣٠ رقم ٤٠٥٧) والنسائي (٨/ ١٦٠ رقم ٥١٤٥) وابن ماجة (٢/ ١١٨٩ رقم ٣٥٩٥) وابن حبان في الموارد رقم (١٤٦٥) من حديث علي.
ورجال إسناده ثقات غير أبي أفلح الهمدَاني، وثقه ابن حبان وقال ابن القطان مجهول.
لكن للحديث شاهد من حديث أبي موسى، وشاهد آخر من حديث ابن عباس، وشاهد ثالث من حديث ابن عمر انظر تخريجها غاية المرام للألباني (رقم ٧٧).
وخلاصة القول أن الحديث صحيح بشواهده والله أعلم.

إلى صانعه فيقال: أبو الحرب وبنت الفكر. وإسرائيلُ لقبُ يعقوبَ عليه السلام ومعناه بالعبرية: صفوة الله، وقيل: عبدالله، وقرىء إسرائِلَ بحذف الياء وإسرالَ بحذفهما وإسراييل بقلب الهمزة ياء.

﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي بالتفكر فيها والقيام بشكرها، وتقييدُ النعمة بهم لأن الإنسان غيورٌ حسود بالطبْع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حَمَلَه الغَيْرةُ والحسد على الكُفْران والسَّخَط، وإن نظر إلى ما أنعم الله به عليه حَمَلَه حب النعمة على الرضى والشكر. وقيل أراد بها ما أنعم الله به على آبائهم من الإنجاء من فرعون والغرق ومن العفو عن اتخاذ العجل وعليهم من إدراك زمن محمد صلى الله عليه وسلم. وقرىء ادَّكِرُوا[١] والأصل إذ تكروا. ونعمتي بإسكان الياء وَقْفاً وإسقاطِها دَرْجاً هو مذهب من لا يحرِّكُ الياء المكسورَ ما قبلها.

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ ﴾ بالإيمان والطاعة.

﴿ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ بحسن الإثابة والعهد يضاف إلى المُعَاهِدِ والمُعَاهَدِ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول، فإنه تعالى عَهِد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإنزال الكتب، ووَعَدَ لهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتب الوفاء منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومِنَ[٢] الله تعالى حَقْنُ الدم والمال، وآخرُها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفُل عن نفسه فضلاً عن غيره، ومن الله تعالى: الفوز باللقاء الدائم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوفوا بعهدي في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، أوف بعهدكم في رفع الآصار والأغلال[٣]. وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أُوفِ بالمغفرة والثواب. أو أوْفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم، فبالنظر إلى الوسائط. وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول والمعنى: أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة. وتفصيلُ العهدين في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[٤] إلى قوله: ﴿ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ﴾[٥]. وقرىء أُوَفِّ بالتشديد للمبالغة.

﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ فيما تأتون وتذرون وخصوصاً في نقض العهد، وهو آكَدُ في إفادة التخصيص من إياك نعبد لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاءِ الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط، كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً فارهبون. والرهبة: خوف مع تحرّز. والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى[٦].

(٤١) ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ ﴾ إفرادٌ للإيمان بالأمر به والحث عليه لأنه المقصودُ

---

(١) قرىء بالدال المهملة المشددة على وزن افتعلوا (روح المعاني ١/ ٢٤٢).

(٢) قوله ومن الله تعالى، أي والعهد من الله تعالى...

(٣) أخرج ابن جرير في التفسير (١/ ٢٥٠) نحوه بسند ضعيف، لضعف محمد بن حميد الرازي. [انظر الجرح والتعديل (٧/ ٢٣٢) والمجروحين (٢/ ٣٠٣) والتقريب (٢/ ١٥٦)].

(٤) المائدة: ١٢.

(٥) المائدة: ١٢.

(٦) خصص بني إسرائيل بالذكر والتذكير لأنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفراً بها (أبو السعود ١/ ٩٤).

بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ
ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ

والعمدةُ للوفاء بالعهود، وتقييدُ المُنَزَّل بأنه مصدِّقٌ لما معهم من الكتب الإلهية من حيث إنه نازلٌ حسبما نعت فيها، أو مطابقٌ لها في القَصص والمواعيد والدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، وفيما يخالفها من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح من حيث إن كل واحدة منها حقّ بالإضافة إلى زمانها، مُرَاعى فيها صلاح من خوطب بها، حتى لو نزل المتقدم في أيام المتأخر لنزل على وِفْقه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي»(١) تنبيه على أن اتباعها لا ينافي الإيمان به، بل يوجبه ولذلك عرض بقوله:

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به، ولأنهم كانوا أهلَ النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشِّرين بزمانه. و﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ وقع خبراً عن ضمير الجمع بتقدير: أول فريق أو فوج، أوْ بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به، كقولك كسانا حُلّةً. فإن قيل: كيف نُهوا عن التقدم في الكفر وقد سبقهم مشركو العرب؟. قلت: المراد به التعريض لا الدَّلالة على ما نَطَق به الظاهر، كقولك: أما أنا فلست بجاهل، أو ولا تكونوا أول كافر به من أهل الكتاب، أو ممن كفر بما معه فإنَّ من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه، أو مثل من كفر من مشركي مكة. وأَوَّلَ: أفعَلَ لا فِعَّلَ له، وقيل: أصله أَوْأَل من وَأَل، فأُبدلت همزته واواً تخفيفاً غير قياسي أو أَأْوَل من آلَ فقُلِبت همزته واواً وأدغمت.

. ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا، فإنها وإن جَلَّت قليلة مسترْذَلةٌ بالإضافة إلى ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كان لهم رياسة في قومهم ورسوم وهدايا منهم فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختاروها عليه. وقيل:

---

(١) وهو حديث حسن.
أخرجه أحمد في المسند (٣/٣٨٧) من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبدالله، أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ، فغضب، فقال: أمتهوِّكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسىٰ صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» ومتهوِّكون: متحيِّرون.
وكذا أخرجه الدارمي (١/ ١١١٥) وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٤٢) وفيه مجالد بن سعيد الهمداني: ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره. ولكن للحديث شواهد.
انظرها في إرواء الغليل للألباني (٦/ ٣٤ ـ ٣٨) فهو بها حسن.

كانوا يأخذون الرِّشَى فيحرِفون الحق ويكتمونه[١].

﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا. ولما كانت الآية السابقة مشتملةً على ما هو كالمبادي لما في الآية الثانية فُصِّلت بالرهْبة التي هي مقدمة التقوى، ولأن الخطاب بها عمّ العالِمَ والمقلِّد أمرهم بالرهبة التي هي مبدأ السلوك، والخطابُ بالثانية لما خصَّ أهلِ العلم أمرهم بالتقوى التي هي منتهاه.

(٤٢) ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ عطف على ما قبله. واللَّبْس الخلْط وقد يلزمه جعْلُ الشيء مشْتَبِهاً بغيره، والمعنى لا تخلُطوا الحق المنزل عليكم بالباطل الذي تخترعونه وتكتمونه حتى لا يميز بينهما، أو ولا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله أو تذكرونه في تأويله.

﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ﴾ جَزْم داخل تحت حكم النهي، كأنهم أُمروا بالإيمان وترك الضلال ونُهوا عن الإضلال بالتلبيسِ على من سمع الحق والإخفاءِ على من لم يسمعه. أو نصبٌ بإضمار أنْ على أنّ الواو للجمع بمعنى مع، أي لا تجمعوا لَبْس الحق بالباطل وكِتْمانه، ويعضده أنه في مصحف ابن مسعود وتكتمون أي وأنتم تكتمون بمعنى كاتمين، وفيه إشعار بأن استقباحَ اللبْس لما يصحبه من كتمان الحق.

﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عالمين بأنكم لابِسون كاتمون، فإنه أقبح، إذ الجاهل قد يُعذر.

(٤٣) ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني صلاة المسلمين وزكاتَهم فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة. أمَرَهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله، وفيه دليل على أن الكفار مخاطَبون بها. والزكاة: من زكا الزرع، إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلةَ الكَرَم. أو من الزكاء بمعنى: الطهارة، فإنها تطهِّر المال من الخبث والنفس من البخل.

﴿ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي في جماعتهم، فإن صلاة الجماعة تفضُل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس. وعبَّر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود. وقيل الركوع: الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع، قال الأضبط السعدي[٢]:

لا تُــذلَّ الضَّعِيــفَ عَلَّــكَ أَنْ تَــرْ كَــعَ يَــوْمــاً والــدهْــرُ قَــدْ رَفَعَــهْ

(٤٤) ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب. والبرُّ: التوسع في الخير، من البَر وهو

---

(١) عبّر عن المشترى ـ الذي هو العمدة في عقود المعاوضة ـ بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة فيها، وقرنت الآيات ـ التي حقها أن يتنافس فيها المتنافسون ـ بالباء التي تصحب الوسائل إيذاناً بتعكيسهم، حيث جعلوا ما هو المقصد الأصلي وسيلةً والوسيلةَ مقصِداً (أبو السعود ١/ ٩٦).

(٢) هو الأضبط بن مَريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي، شاعر جاهلي قديم أساء إليه قومه، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأولين، فقال: بكل وادٍ بنو سعدا يعني قوم وهو صاحب الأبيات التي منها:

واقنَــعْ مِــن الــدهــر مــا أتــاك بــه مَــن قَــرَّ عينــاً بعيشــه نفعَــهْ
وصِــلْ حبــالَ البعيــد إن وَصَــلَ الــ ـحبــل واقــصِ القــريــب إن قطعَــهْ

[الأعلام للزركلي (١/ ٣٣٤)]. والأبيات من المنسرح. =

الفضاء الواسع يتناول كل خير، ولذلك قيل البر ثلاثة: بر في عبادة الله تعالى، وبر في مراعاة الأقارب. وبر في معاملة الأجانب.

﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرون سراً من نصحوه باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه[١]. وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تبكيت كقوله ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢] أي تتلون التوراة، وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح صنيعكم فيصدُّكم عنه، أو أفلا عقْل لكم يمنعكم عما تعلمون وخامة عاقبته. والعقل في الأصل الحبس، سمي به الإدراك الإنساني لأنه يحبسه عما يُقبح ويعْقِله على ما يحسن، ثم القوة التي بها النفس تدرك هذا الإدراك. والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه سوءَ صنيعه وخبثَ نفسه، وأن فعله فعلَ الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالي عن العقل، فإن الجامع بينهما تأبى عنه شَكِيمته، والمراد بها حث الواعظ على تزكية النفس والإقبالُ عليها بالتكميل لتقوم فيُقِيم غيره، لا منعَ الفاسق عن الوعظ فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر.

(٤٥) ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ متصل بما قبله، كأنهم لما أُمِرُوا بما يشُق عليهم لما فيه من الكُلفة وترك الرياسة والإعراضِ عن المال عولجوا بذلك، والمعنى: استعينوا على حوائجكم بانتظار النُّجْح والفرج توكلاً على الله، أو بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس. والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية، من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الحق، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين حتى تُجَابُوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[٣]. ويجوز أن يراد بها الدعاء:

﴿وَإِنَّهَا﴾: أي وإن الاستعانة بهما أو الصلاة. وتخصيصُها بردِّ الضمير إليها لعظم شأنها واستجماعها ضروباً من الصبر. أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها.

---

(١) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص٢١ وفيه قال: ابن عباس في رواية الكلبي، عن أبي حاتم، بالإسناد الذي ذكر: نزلت في يهود المدينة كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينهم وبينه رَضاعٌ من المسلمين: اثبتْ على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فإن أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه». والكلبي متروك كما تقدم في غير مرة.

(٢) البقرة: «٢٢».

(٣) وهو حديث ضعيف:
أخرجه أحمد في المسند (٥/٣٨٨) وأبو داود في السنن (٢/٧٨ رقم ١٣١٩) والمروزي في تعظيم الصلاة (رقم: ٢١٢) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٢٧٤) من حديث حذيفة.
وقال الألباني في تخريج المشكاة رقم (١٣٢٥): «إسناده ضعيف فيه محمد بن عبدالله الدؤلي، عن عبدالعزيز أخي حذيفة، وهما مجهولان، والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لثقيلة شاقة كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[(١)].

﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي المخبتين، والخشوعُ الإخباتُ ومنه الخَشْعة للرملة المتطامنة. والخضوع اللين والانقياد، ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب.

(٤٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي يتوقعون لقاء الله تعالى ونيْلَ ما عنده، أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله فيجازيَهم[(٢)]، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود ﴿يعلمون﴾ وكأن الظنّ لمّا شابَهَ العلم في الرُّجحان أُطلق عليه لتضمُّن معنى التوقع[(٣)]، قال أوس بن حجر[(٤)]:

فأرسَلْتُهُ مُسْتَيْقِنَ الظنِّ أنَّهُ مخالِطُ ما بينَ الشَّراسِيفِ جائِفُ

وإنما لم تثقُل عليهم ثقلها على غيرهم فإن نفوسهم مرتاضَة بأمثالها متوقِّعة في مقابلتها ما يُستحقر لأجله مشاقُّها ويُستلذ بسببه متاعبها، ومن ثمة قال عليه الصلاة والسلام «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[(٥)].

(٤٧) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كرره للتأكيد وتذكير التفضيل الذي هو أجل النعم خصوصاً، وربَطَه بالوعيد الشديد تخويفاً لمن غفل عنها وأخل بحقوقها.

﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ﴾ عطف على نعمتي.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم، يريد به تفضيلَ آبائهم الذين كانوا في عصر موسى عليه الصلاة

---

(١) الشورى: «١٣».

(٢) قال الراغب الأصفهاني في بيان معنى الظن: (الظنّ اسم لما يحصل عن أمارة ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعُفت جداً لم يتجاوز حدّ التوهم) المفردات مادة ظن.

(٣) قوله: «ملاقوا ربهم» فيه تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم، للإيذان بفيضان إحسانه إليهم (أبو السعود ١/ ٩٨).

(٤) أوس بن حجَر بن مالك التميمي أبو شُريح. شاعر تميم في الجاهلية أو من كبار شعرائها. في نسبه اختلاف بعد أبيه حجر وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى، كان كثير الأسفار... ولم يدرك الإسلام، في شعره حكمة ورقة، وله ديوان شعر. [الأعلام للزركلي (٢/ ٣١)].

(٥) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو يعلى في المسند (٦/ ١٩٩ رقم ٧٢٧/ ٣٤٨٢) من حديث أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ النِّساءُ، والطِّيبُ، وجُعِلَ قُرَّة عَيْنِي في الصلاة».
وأخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائي (٧/ ٦١ ـ ٦٢ رقم ٣٩٣٩ و٣٩٤٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٣١٢٤).

والسلام وبعده، قبل إن يَضُروا بما منحهم الله تعالى من العلم والإيمان والعمل الصالح، وجعْلهم أنبياء وملوكاً مقسطين. واستدل به على تفضيل البشر على المَلَك وهو ضعيف.

(٤٨) ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي ما فيه من الحساب والعذاب.

﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق، أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدر، وقرىء لا تُجْزِىءُ من أجزأ عنه إذا أغنى وعلى هذا تعيَّن أن يكون مصدراً، وإيراده مُنكَّراً مع تنكير النفسيْن للتعميم والإقناط الكلي، والجملة صفة ليوماً، والعائد فيها محذوف تقديره لا تَجْزي فيه، ومن لم يجوّز حذف العائد المجرور قال: اتُّسع فيه فحُذِف عنه الجارّ وأُجريَ مجرى المفعول به ثم حُذف كما حذف من قوله: أم مال أصابوا.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي من النفس الثانية العاصية، أو من الأولى، وكأنه أريد بالآية نفيُ أن يَدْفَع العذابَ أحدٌ عن أحد من كل وجه مُحْتَمَل، فإنه إما أن يكون قهراً أو غيره، والأول النصرة، والثاني إما أن يكون مجاناً أو غيره. والأول أن يشفع له والثاني إما بأداء ما كان عليه وهو أن يجزى عنه، أو بغيره وهو أن يعطى عنه عدلاً. والشفاعةُ من الشَّفْع كأن المشفوع له كان فرداً فجَعَلَه الشفيعُ شفْعاً بضم نفسه إليه، والعدل الفدية. وقيل: البَدل وأصله التسوية سمّى به الفدية لأنها سميت بالمفدى، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا تُقْبل بالتاء.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمْنَعون من عذاب الله، والضميرُ لما دلت عليه النفسُ الثانية المنكَّرة الواقعة في سياق النفس من النفوس الكثيرة، وتذكيره بمعنى العباد أو الأناسيّ. والنصر أخص من المعونة لاختصاصه بدفع الضر. وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها خصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة، ويؤيده أن الخطاب معهم، والآية نزلت رداً لما كانت اليهود تزْعُم أن آباءهم تشفعُ لهم.

(٤٩) ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تفصيل لما أَجْمَلَه في قوله ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[1] وعطفٌ على نعمتي عطفَ جبريل وميكائيل على الملائكة، وقرىء أنجيْتكم. وأصلُ آل أهلَ لأن تصغيرَه أُهَيْل، وخُصّ بالإضافة إلى أولي الخطر كالأنبياء والملوك. وفرعون لقب لمن مَلَكَ العمالقة ككسرى وقيصر لملكي الفرس والروم. ولعُتُوِّهم اشتُقَّ منه تَفَرْعن الرجلُ إذا عتا وتجبر، وكان فرعونُ موسى مصعبُ بن ريان، وقيل ابنُه وليد من بقايا عاد. وفرعون يوسف عليه السلام ريان وكان بينهما أكثر من أربعمائة سنة..

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يبغونكم، من سامَهُ خَسْفاً إذا أوْلاه ظلماً، وأصل السوْم الذهاب في طلب الشيء.

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أفظَعَه فإنه قبيح بالإضافة إلى سائره، والسُّوءُ مصدر ساء يسوء ونصبُه على المفعول ليسومونكم، والجملةُ حال من الضمير في نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما جميعاً لأن فيها ضمير كل واحد منهما.

---

(١) البقرة: ٤٠.

﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ بيان ليسومونكم ولذلك لم يُعطف، وقرىء يَذْبَحُون بالتخفيف. وإنما فعلوا بهم ذلك لأن فرعون رأى في المنام، أو قال له الكهنة: سيولد منهم من يذهب بملكه، فلم يرُدَّ اجتهادُهم من قَدَرِ الله شيئاً.

﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ محنةٌ، إن أشير بذلكم إلى صنيعهم، ونعمة إن أشيرَ به إلى الإنجاء، وأصلُه الاختبار لكن لما كان اختبارُ الله تعالى عبادَه تارة بالمحنة وتارة بالمِنْحَة أُطْلِق عليهما، ويجوز أنْ يُشارَ بذلكم إلى الجملة ويراد به الامتحان الشائع بينهما.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بتسليطهم عليكم، أو ببعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم، أو بهما. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة بلاء. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر اختبارٌ من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مسارِّه ويصبر على مضارِّه ليكون من خير المختَبَرين.

(٥٠) ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ فَلَقْناه وفَصَلْنا بين بعضه وبعض حتى حصلت فيه مسالكُ بسلوككم فيه. أو بسبب إنجائكم، أو ملتبساً بكم كقوله:

تدُوسُ بِنَا الجَماجِم والتَّرِيبا

وقرىء فَرَّقْنا على بناء التكثير لأن المسالك كانت اثني عشر بعدد الأسباط.

﴿ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أراد به فرعونَ وقومه، واقتُصِر على ذكرهم للعلم بأنه كان أوْلى به، وقيل شخصه كما روي أن الحسن رضي الله تعالى عنه كان يقول: اللهم صل على آل محمد، أي شخصه واستُغني بذكره عن ذكر أتباعه.

﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ذلك، أي غَرَقَهم وإطباقَ البحر عليهم، أو انفلاقَ البحر عن طرق يابسة مذلَّلة، أو جُثَثَهم التي قذفها البحر إلى الساحل، أو ينظر بعضكم بعضاً. روي أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل، فخرج بهم فصبَّحهم فرعونُ وجنوده، وصادفوهم على شاطىء البحر، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فظهر فيه اثنا عشر طريقاً يابساً فسلكوها فقالوا: يا موسى نخاف أن يَغرَق بعضُنا ولا نعلمُ، ففتح الله فيها كُوًى فتراءَوْا وتسامَعُوا حتى عَبَروا البحر، ثم لما وصل إليهِ فرعون ورآه منفلِقاً اقتحم فيه هو وجنوده فالتطم عليهم وأَغرقهم أجمعين.

واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بني إسرائيل، ومن الآيات الملْجِئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى عليه الصلاة والسلام، ثم إنهم بعد ذلك اتخذوا العجل وقالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[(١)] ونحو ذلك، فهم بمعزِل في الفطنة والذكاءِ وسلامة النفس وحسنِ الاتباع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، مع أن ما تواتر من معجزاته أمورٌ نظرية مثلُ: القرآنُ والتحدي به والفضائلُ المجتمعة فيه الشاهِدَةُ على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم دقيقة تدركها الأذكياء، وإخباره عليه الصلاة والسلام عنها من جملة معجزاته على ما مر تقريره.

---

(١) البقرة: «٥٥».

نَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى

(٥١) ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسى أن يعطيه التوراة، وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة[١] وعبر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر[٢] وحمزة والكسائي واعدنا لأنه تعالى وعَدَه الوحيَ. ووعده موسى عليه السلام المجيءَ للميقات إلى الطور.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً أو معبوداً.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد موسى عليه السلام، أو مضيه.

﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بإشراككم.

(٥٢) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ حين تبتم، والعفوُ محو الجريمة، من عفا إذا دَرَس. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي الاتخاذ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا عفوه.

(٥٣) ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني التوراةَ الجامعَ بين كونه كتاباً منزلاً وحجة تُفَرِّق بين الحق والباطل. وقيل أراد بالفرقان معجزاتهِ الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوى أو بين الكفر والإيمان. وقيل الشرعَ الفارق بين الحلال والحرام، أو النصرَ الذي فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[٣] يريد به يوم بدر.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا بتدبر الكتاب والتفكر في الآيات.

(٥٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ فاعزِموا على التوبة والرجوعِ إلى مَنْ خلقكم برآءَ من التفاوت ومميزاً بعضكم عن بعض بصُور وهيئات مختلفة، وأصل التركيبِ لخلوصِ الشيء عن غيره، إما على سبيل التقصي كقولهم برىءَ المريض من مرضه والمديون من دينْه أو الإنشاءِ كقولهم برأ الله آدم من الطين أو فتوبوا.

﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ إتماماً لتوبتكم بالبخْع أو قَطْع الشهوات، كما قيل من لم يعذب نفسه لم يُنَعِّمها

---

(١) تعيين الأربعين بأنها ذو القعدة وعشر من ذي الحجة رواه ابن جرير عن أبي العالية وذكره ابن كثير بلفظ. قيل (١/ ٨٨) وقيل في تعيينها غير ذلك. انظر روح المعاني (١/ ٢٥٧).

(٢) ابن عامر هو: عبدالله اليحصبي، وهو تابعي جليل لقي واثلة بن الأسقع والنعمان بن بشير، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ، وقيل إنه قرأ على عثمان نفسه، وهو أحد القراء السبعة، واشتهر بالرواية عنه هشام وابن ذكوان، وتوفي بدمشق (١١٨)هـ.

(٣) الأنفال: «٤١».

ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾
وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ
سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ

ومن لم يَقْتلها لم يُحْيِها. وقيل أُمروا أن يقتل بعضهم بعضاً. وقيل أُمر من لم يعبدِ العجل أن يقتل العَبَدَة. روي أن الرجل كان يرى بعضه وقريبه فلم يقدر على المضيّ لأمر الله، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون، فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشي حتى دعا موسى وهارون فكشفت السحابة ونزلت التوبة، وكانت القتلى سبعين ألفاً[1]. والفاءُ الأولى للتسبب، والثانيةُ للتعقيب.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ من حيث إنه طُهرة من الشرك ووُصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ متعلقٌ بمحذوف إنْ جعلْتَه من كلام موسى عليه السلام لهم تقديره: إنْ فعلتم ما أُمرتم به فقد تاب عليكم، أو عطفٌ على محذوف إن جعَلْتَه خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات، كأنه قال: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم بارئُكم. وذكرُ البارىء وترتيبُ الأمر عليه إشعارٌ بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة، حتى تركوا عبادة خالِقِهم الحكيم إلى عبادة البقر التي هي مَثَلٌ في الغباوة، وأن من لم يعرف حق مُنْعمه حقيق بأن لا يسترد منه، ولذلك أُمروا بالقتل وفك التركيب.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ للذي يُكثر توفيقَ التوبة، أو قبولَها من المذنبين، ويبالغ في الإنعام عليهم.

(٥٥) ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ أي لأجل قولك، أو لن نقر لك.

﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ عَياناً وهي في الأصل مصدر قولُك: جهرت بالقراءة، استعيرت للمعاينة، ونصبُها على المصدر لأنها نوع من الرؤية، أو الحال من الفاعل أو المفعول. وقرىء جَهَرَة بالفتح على أنها مصدر كالغَلَبَة، أو جمعُ جاهر كالكَتَبَة فيكون حالاً من الفاعل قطعاً، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام للميقات. وقيل عشرة آلاف من قومه. والمؤمَنُ به: إن الله الذي أعطاك التوراة وكلمك، أو إنك نبي.

﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ لفرْط العناد والتعنُّت وطلب المستحيل، فإنهم ظنوا أنه تعالى يُشبه الأجسام فطلبوا رؤيته رؤيةَ الأجسام في الجهات والأحياز المقابلة للرائي، وهي محال، بل الممكن أن يُرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة ولأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا. قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم. وقيل صيحة. وقيل جنود سمِعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة.

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس بسند صحيح (١/ ٢٨٦) في التفسير.

﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ما أصابكم بنفسه أو أثره.

(٥٦) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بسبب الصاعقة، وقيد للبعث لأنه قد يكون عن إغماء أو نوم كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾[١].

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمةَ البعث، أو ما كفرتموه لِمَا رأيتم بأس الله بالصاعقة.

(٥٧) ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ سخر الله لهم السحاب يظلُّهم من الشمس حين كانوا في التيه.

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ الترنجبين والسُّمَّاني. قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع، وتَبْعَث الجنوبُ عليهم السمانيّ، وينزل بالليل عمودُ نار يسيرون في ضوئه، وكانت ثيابهم لا تتسخ ولا تَبلى.

﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ على إرادة القول.

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه اختصار، وأصله فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا.

﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفران لأنه لا يتخطاهم ضرره.

(٥٨) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ يعني بيتَ المقدس، وقيل أريحا أمروا به بعد التيه.

﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعاً، ونصبُه على المصدر، أو الحال من الواو.

﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ أي باب القرية، أو القبة التي كانوا يصلون إليها، فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿ سُجَّدًا﴾ متطامنين مخبتين، أو ساجدين لله شكراً على إخراجهم من التيه.

﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي مسألتُنا، أو أمرك حطة وهي فعلة من الحَطِّ كالجِلسة، وقرىء بالنصب على الأصل بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة، أو على أنه مفعول قولوا أي قولوا هذه الكلمة. وقيل معناه أمرنا حطة أي: أن نحط في هذه القرية ونقيم بها.

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ بسجودكم ودعائكم. وقرأ نافع بالياء وابن عامر بالتاء على البناء للمفعول. وخطايا أصلُهُ خطايىء كخطايع، فعند سيبويه أنه أبدلت الياءُ الزائدة همزةً لوقوعها بعد الألف، واجتمعت همزتان فأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفاً، وكانت الهمزة بين الألفين فأبدلت ياء. وعند الخليل قُدِّمت الهمزة على الياء ثم فعل بهما ما ذكر.

﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثواباً، جعل الامتثال توبةً للمُسيء وسببَ زيادةِ الثواب للمحسن، وأخرجه عن صورة الجواب إلى الوعد إيهاماً بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله، فكيف إذا فعله؟! وأنه تعالى يفعل لا محالة.

(٥٩) ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ بدلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار بطلب

---

(١) الكهف: ١٢.

ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ
طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ

ما يشتهون من أعراض الدنيا[١].

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كرره مبالغة في تقبيح أمرهم وإشعاراً بأن الإنزال عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به موضعَه، أو على أنفسهم بأن تركوا ما يوجب نجاتها إلى ما يوجب هلاكها.

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم، والرجزُ في الأصل: ما يُعَاف عنه، وكذلك الرجس. وقرىء بالضم وهو لغة فيه. والمرادُ به الطاعون. روي أنه مات في ساعة أربعة وعشرون ألفاً.

(٦٠) ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ لما عطِشوا في التيه.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ اللامُ فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طورياً حَمَلَه معه، وكانت تنبُع من كل وجه ثلاث أعين، تسيل كل عين في جدول إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، أو حجراً أهبطه آدم من الجنة، ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه لموسى مع العصا، أو الحجر الذي فرّ بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله به عما رموه به من الأُدْرَة[٢]، فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله، أو للجنس وهذا أظهرُ في الحجة. قيل لم يأمره بأن يضرب حجراً بعينه، ولكن لما قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها؟ حَمَل حجراً في مخلاته وكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر ويضربه بها إذا ارتحل فييبس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه مِتْنا عطشاً، فأوحى الله إليه لا تقرع الحجر وكلمْه يطعك لعلهم يعتبرون. وقيل كان الحجر من رخام وكان ذراعاً في ذراع، والعصا عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان في الظلمة[٣].

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: فإن ضُربَت فقد انفجرت، أو فَضَرب فانفجرت[٤]، كما مر في قوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[٥]. وقرىء عَشِرة بكسر الشين وفتحها وهما لغتان فيه.

---

(١) ورد في تبديلهم أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة (ابن كثير ١/ ٩٥).
(٢) الأدرة هي انتفاخ الخصية (المصباح المنير مادة أدِر).
(٣) تعيين كيفية الحجر وشكله وكيفية ضربه من الإسرائيليات التي لم نؤمر بتصديقها ولا تكذيبها.
(٤) قال أبو السعود: («فانفجرت» عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام، قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار، كأنه حصل عقيب الأمر بالضرب) ١/ ١٠٦.
(٥) البقرة: «٥٤».

أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط.

﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ عينهم التي يشربون منها.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ على تقدير القول:

﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ يريد به ما رزقهم الله من المن والسلوى وماء العيون. وقيل الماءُ وحده لأنه يشرب ويؤكل مما ينبت به[١]. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تعتدوا حالَ إفسادكم[٢]، وإنما قيَّده لأنه وإن غلَبَ في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً كقَتْلِ الخضرِ عليه السلام الغلامَ وخرقِهِ السفينة، ويَقْرُبُ منه العَيْث غير أنه يغلب فيما يُدْرَك حساً. ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جَهْلِهِ بالله وقلّة تدبره في عجائب صنعه، فإنه لمّا أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلِق الشعر وينفُر عن الخلّ ويجذِب الحديد، لم يَمْتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذْب الماء من تحت الأرض، أو لجذب الهواء من الجوانب ويصيِّره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ يريدون به ما رُزقوا في التيه من المن والسلوى، وبوَحدته[٣] أنه لا يختلف ولا يتبدل، كقولهم طعامُ مائدة الأمير واحدٌ يريدون أنه لا تتغير ألوانُه وبذلك أجمعوا، أو ضربٌ واحد، لأنهما طعام أهلِ التلذذ وهم كانوا فلاَّحةً فنزَعوا إلى عَكَرهم[٤] واشتهوا ما ألفوه. ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[٥] سله لنا بدعائك إياه ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يظهر ويوجد، وجزمه بأنه جواب فادع فإن دعوته سبب الإجابة. ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من الإسناد المجازي، وإقامةِ القابِلِ مقام الفاعِلِ، ومِنْ للتبعيض. ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ﴾ تفسير وبيان وقع موقع الحال، وقيلَ بدل بإعادة

---

(١) قولهم أن المراد بالرزق هو الماء وحده يأباه أن المأمور به أكل النعمة لا ما سيطلبونه وإضافة الرزق إليه تعالى مع أن الكلّ إليه خلقاً وملكاً: إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عادي.
ولم يقل: من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى «فقلنا» للإيذان بأن الأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام (أبو السعود ١/١٠٦).

(٢) العثيّ أشد أنواع الفساد (أبو السعود ١/١٠٦).

(٣) أي ويريدون بوحدته.

(٤) العَكَر هو ما رسب من الزيت ونحوه.

(٥) التعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادىء الإجابة (أبو السعود ١/١٠٦).

الجارّ. والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التي تؤكل، والفوم الحنطة ويقال للخبز ومنه فَوِّموا لنا، وقيل الثوم وقرىء قُثَّائِها بالضم، وهو لغة فيه. ﴿قَالَ﴾ أي الله، أو موسى عليه السلام. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أقرب منزلة وأدْوَن قدراً. وأصلُ الدنو القرب في المكان فاستُعير للخسة كما استُعير البعد للشرف والرِّفعة، فقيل بعيد المحل بعيد الهمة، وقرىء أدنأُ من الدناءة. ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ يريد به المن والسلوى فإنه خيرٌ في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعي. ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ انحدروا إليه من التيه، يقال هَبَط الوادي إذا نزل به، وهبط منه إذا خرج منه، وقرىء بالضم. والمصرُ البلدُ العظيم وأصلُه الحدّ بين الشيئين، وقيل أراد به العلم، وإنما صرَّفه لسكون وسطه أو على تأويل البلد، ويؤيده أنه غير منون في مصحف ابن مسعود. وقيل أصلُه مصرائيم فعُرِّب. ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضُربت عليه، أو ألصقت بهم، من ضَرَبَ الطين على الحائط مجازاةً لهم على كفران النعمة. واليهودُ في غالب الأمر أذلاءُ مساكينٌ، إما على الحقيقة أو على التكلُّف مخافةَ أن تضاعف جزيتهم. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ رجعوا به، أو صاروا أحقاء بغضبه، مِنْ باء فلان بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، وأصل البَوْء المساواة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوْء بالغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات، التي من جملتها ما عُدَّ عليهم من فَلْق البحر، وإظلال الغمام، وإنزال المن والسلوَى، وانفجار العيون من الحجر. أو بالكتب المنزلة: كالإنجيل، والفرقان، وآيةِ الرجم والتي فيها نَعْتُ محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة، وقتلِهم الأنبياء فإنهم قَتَلوا شعياء وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروْا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم، وإنما حَمَلَهم على ذلك اتباعُ الهوى وحب الدنيا كما أشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي: جَرَّهم العصيانُ والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين. فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارِها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارِها. وقيل كرر الإشارة للدلالة على أن ما لحِقهم كما هو بسبب الكفرِ والقتلِ فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى. وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل، والباءُ بمعنى مع وإنما جُوِّزت الإشارة بالمفرد إلى شيئين فصاعداً على تأويل ما ذُكر، أو تقدم للاختصار، ونظيره في الضمير قول رؤبة يصف بقرة:

فيها خُطُوطٌ مِنْ سَوادٍ وبَلَقْ كأنهُ في الجِلدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ

والذي حسَّن ذلك أن تثنية المضمَرات والمبهَمات وجمعَها وتأنيثَها ليست على الحقيقة، ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع.

(٦٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بألسنتهم، يريد به المتديِّنين بدين محمد صلى الله عليه وسلم المخلصين منهم والمنافقين، وقيل المنافقين لانخراطهم في سلك الكفَرة[1] ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ تهودوا، يقال هادَ

---

(١) تأتي هذه الآية في هذا السياق ـ سياق الحديث عن بني إسرائيل ـ لتدل على أن العبرة بحقيقة القصيدة، لا بعصبية جنس أو قوم. . =

مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ
ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ

وتهوّد إذا دخل في اليهودية، ويهود: إما عربي من هاد إذا تاب، سموا بذلك لمّا تابوا من عبادة العجل، وإما مُعَرَّب يهوذا وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمع نَصْرانٍ كندامى وندمان، والياءُ في نصراني للمبالغة كما في أحمَرِي، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها، أو من اسمها. ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ قوم بين النصارى والمجوس. وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام. وقيل هم عَبَدة الملائكة. وقيل عبدة الكواكب(١)، وهو إن كان عربياً فَمِنْ صبأ إذا خرج. وقرأ نافع وحده بالياء إما لأنه خفف الهمزة وأبدلها ياء، أو لأنه من صبأ إذا مال لأنهم مالوا عن سائر الأديان إلى دينهم أو من الحق إلى الباطل.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من كان منهم في دينه قبل أن يُنْسخ ـ مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه ـ. وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل في الإسلام دخولاً صادقاً: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي وَعَدَ لهم على إيمانهم وعملهم. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب. و﴿مَنْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والجملة خبر إنّ، أو بدل من اسم إنّ وخبرُها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والفاءُ لتضمن المسند إليه معنى الشرط، وقد مَنَع سيبويه دخولها في خبر إن من حيث إنها لا تتدخل الشرطية، ورُدَّ بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾(٢).

(٦٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ باتباع موسى والعمل بالتوراة. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ حتى أعطيتم الميثاق، روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة فرأوْا ما فيها من التكاليف الشاقة كَبُرت عليهم وأبوْا قَبُولها، فأمِر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله فوقهم حتى قَبِلوا. ﴿خُذُوا۟﴾ على إرادة القول: ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ ادرسوه ولا تنسوه، أو تفكروا فيه فإنه ذِكْرٌ بالقلب، أو اعملوا به. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا المعاصي، أو

= وعليه فالمراد بالذين آمنوا هم المؤمنون بالإسلام، لا المنافقون، وذلك لأنه رتب على ذلك عدم الخوف والحزن وهو لا يكون للمنافقين.
وإدراجهم في سلك الكافرين لما سبقت الإشارة إليه من أن العبرة بالعقيدة لا بالجنسية.

(١) رجح ابن كثير أن المراد بالصابئين قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، إنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه (ابن كثير ١/ ١٠٠).

(٢) البروج: «١٠».

رجاءَ منكم أن تكونوا متقين. ويجوز عند المعتزلة أن يتعلق بالقول المحذوف، أي: قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا.

(٦٤) ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أعْرَضتم عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه. ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بتوفيقكم للتوبة، أو بمحمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه. ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ المغبونين بالانهماك في المعاصي، أو بالخبط والضلال في فترة من الرسل. ولو في الأصل لامتناع الشيء لامتناعِ غيره، فإذا دخل على لاَ أفاد إثباتاً وهو امتناعُ الشيء لثبوت غيره، والاسمُ الواقعُ بعدَه عند سيبويه مبتدأٌ خبرُهُ واجبُ الحذْفِ لدلالة الكلام عليه وسدِّ الجواب مَسدَّه، وعند الكوفيين فاعلُ فعلٍ محذوف.

(٦٥) ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ اللام موطِّئة للقسم. والسبتُ مصدرُ قولك سَبَتَت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وأصلُه القطع أُمِروا بأن يجردوه للعبادة فاعتدى فيه ناس منهم في زمن داود عليه السلام. واشتغلوا بالصيد، وذلك أنهم كانوا يسكنون قرية على ساحل يقال لها أَيْلة، وإذا كان يوم السبت لم يبقَ حوت في البحر إلا حضر هناك وأخرج خُرْطومه، فإذا مضى تفرقت فحفروا حِيَاضاً وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد. ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ جامعين بين صورة القِرَدة والخُسُوء: وهو الصَّغار والطرد، وقال مجاهد ما مُسِخت صورهم ولكن قلوبُهم[١]، فمُثِّلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾[٢] وقوله ﴿ كُونُوا۟ ﴾ ليس بأمر إذ لا قدرة لهم عليه، وإنما المرادُ به سرعة التكوين، وأنهم صاروا كذلك كما أراد بهم، وقرىء قَرِدة بفتح القاف وكسر الراء، وخاسين بغير همزة.

(٦٦) ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا ﴾ أي المسخة، أو العقوبة. ﴿ نَكَٰلًا ﴾ عبرة تَنْكُل المعتبِر بها، أي تمنعه. ومنه النكْل للقيد. ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذُكِرت حالُهم في زبر الأولين واشتهرت قصتهم في الآخرين، أو لمعاصريهم ومَنْ بعدهم، أو لما بحَضْرتها من القرى وما تباعَدَ عنها، أو لأهل تلك القرية وما حواليها، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها. ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ من قومهم، أو لكل متق سمعها.

(٦٧) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ أول هذه القصة قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ﴾[٣] وإنما فُكَّت عنه وقُدِّمت عليه لاستقلالها بنوعٍ آخرَ من مساويهم، وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء في السؤال وترك المسارعة إلى الامتثال. وقصته: أنه كان فيهم شيخ موسر فقتل ابنَه بنو أخيه طمَعاً في ميراثه، وطرحوه على باب المدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيُخْبِر بقاتله. ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أي مكان هزؤ، أو أهله ومهزوءاً بنا، أو الهزؤ نفسه لفَرْط الاستهزاء استبعاداً لما قاله واستخفافاً به، وقرأ حمزة

---

(١) رجح ابن كثير أن المسخ كان صورياً ومضوياً، وردّ قول مجاهد (ابن كثير ١/ ١٠٢).

(٢) الجمعة: «٥».

(٣) المرسلات: «٣٣».

﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ﴾

وإسماعيلُ[(١)] عن نافع بالسكون، وحفصٌ[(٢)] عن عاصم بالضم وقلب الهمزة واواً. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ لأن الهزؤ في مثل ذلك جهل وسفه، نفى عن نفسه ما رمي به على طريقة البرهان، وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعاً له.

(٦٨) ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي ما حالُها وصفتُها، وكان حقُّهم أن يقولوا: أيّ بقرة هي؟ أو كيف هي؟ لأن ﴿مَا﴾ يُسألُ به عن الجنس غالباً، لكنهم لما رأوا ما أُمروا به على حالٍ لم يوجد بها شيء من جنسه أجْرَوْه مجرى مالم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا مسنة ولا فتية، يقال فَرَضَت البقَرة فروضاً من الفَرْض وهو القطع، كأنها فرضَتْ سنها، وتركيب البِكْر للأولية ومن البُكْرة والباكورة.

﴿عَوَانٌۢ﴾ نصَفٌ. قال: نواعِمُ بينَ أبْكارٍ وَعُونُ.

﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بيْن، فإنه لا يضاف إلا إلى متعدد، وعَوْدُ هذه الكنايات وإجراءُ تلك الصفات على بقرة يدل على أن المراد بها معينةٌ، ويلزمه تأخير البيان عن وقت الخطاب، ومَنْ أنكر ذلك زعم أن المراد بها بقرة مِنْ شِقِّ البقر غيرَ مخصوصةٍ ثم انقلبت مخصوصةً بسؤالهم، ويلزمه النسخ قبل الفعل، فإن التخصيص إبطال للتخيير الثابت بالنص، والحقُّ جوازُهما، ويؤيد الرأي الثاني ظاهر اللفظ والمروي عنه عليه الصلاة والسلام «لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»[(٣)]. وتقريعُهم بالتمادي

---

(١) هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان، مولى الخليفة عبدالملك بن مروان، أبو علي البغدادي، المعروف: بالقالي نسبه إلى قالي قلى، بلد من أعمال أرمينية.
قال الزُّبيديّ: كان أعلم الناس بنحو البصريين، وأحفظ أهلِ زمانه للغة وأرواهم للشعر الجاهلي، وأحفظهم له.
ولد سنة (٢٨٨هـ) بديار بَكْرٍ، وقدم بغداد سنة (٣٠٣هـ) فقرأ النحو والعربية والأدب، وسمع الحديث. وخرج من بغداد سنة (٣٢٨هـ) فدخل قُرطبة سنة (٣٣٠هـ) وقرأ عليه الناس كتب اللغة والأخبار. وصنّف بها الأمالي، النوادر، المقصور، الممدود، شرح المعلقات. . . وغير ذلك.
مات بقرطبة ليلة السبت لسبع خَلون من جُمادي الأولى ـ وقيل الآخرة ـ سنة (٣٥٦هـ) [«بغية الوعاة» للسيوطي (٤٥٣/١ رقم ٩٢٥)].

(٢) هو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز، اشتهر بالرواية عن عاصم الذي هو أحد القراء السبعة، وكان ربيب عاصم تربى في حجره وقرأ عليه وتعلم منه كما يتعلم الصبي من معلمه، فلذلك كان أدق من شعبة الذي اشتهر بالرواية أيضاً عن عاصم، توفي حفص (١٨٠)هـ.

(٣) أخرجه ابن مردويه وابن أبي حاتم والبزار، كلهم من طريق الحسن عن أبي هريرة. وفي سنده عباد بن منصور وفيه ضعف (الكافي الشاف ص٨ رقم ٥٣).

إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ
فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا
ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

وزجرهم على المراجعة بقوله ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي ما تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به من قولهم: أمرتُك الخير فافعل ما أُمرت به، أو أمركم بمعنى مأموركم.

(٦٩) ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ الفُقُوع نُصوعُ الصفرة ولذلك تؤكَّدُ به، فيقال: أصفرُ فاقعٌ كما يقال أسودُ حالِكٌ، وفي إسناده إلى اللون وهو صفة صفراء لملابستِهِ بها فَضْل تأكيدٍ كأنه قيل: صفراء شديدة الصفرة صفرتُها، وعن الحسن سوداءُ شديدةُ السواد، وبه فسر قوله تعالى: ﴿جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ﴾[١]. قال الأعشى:

تلْـكَ خَيلـي مِنْـهُ وتلـكَ رِكَـابـي هُـنَّ صُفْـرٌ أَولادُهـا كـالـزَّبيـبِ

ولعله عبَّر بالصفرة عن السواد لأنها من مقدماته، أو لأن سواد الإبل تعلُوه صفرة وفيه نَظَر، لأن الصفرة بهذا المعنى لا تؤكَّد بالفُقوع ﴿تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي تعجبُهم، والسرور أصله لذة في القلب عند حصول نفع، أو توقُّعه من السر.

(٧٠) ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ تكرير للسؤال الأول واستكشاف زائد. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ اعتذارٌ عنه، أي إن البقر الموصوفَ بالتعوِين والصُّفرة كثير فاشتَبه علينا، وقرىء إن الباقر وهو اسم لجماعة البقر والأباقر والبواقر، ويتشابه وتتشابه بالياء والتاء، وتُشَابه ويُشَابه ويَتَشَابه بطرح التاء وإدغامها في الشين على التذكير والتأنيث، وتشابَهت وتشابَّهت مخففاً ومشدداً، وتَشَبَّهُ بمعنى تتشبه وتُشْبِه بالتذكير ومتشابه ومتشابهَة ومتشبِّه ومتشبهة. ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى المراد ذبحها، أو إلى القاتل، وفي الحديث «لو لم يستثنوا لما بُيِّنَتْ لهم آخر الأبد»[٢]. واحتج به أصحابنا على أن الحوادث بإرادة الله سبحانه وتعالى، وأن الأمر قد ينفك عن الإرادة وإلا لم يكن للشرط بعد الأمر معنى. والمعتزلة والكرامية على حدوث الإرادة، وأجيب بأن التعليق باعتبار التعلُّق.

(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي لم تذلل لِكرابِ الأرض وسَقْي الحرث، و﴿لَا ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة بمعنى غير ذلول، ولا الثانية مزيدة لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذَلول كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية، وقرىء لا ذلولَ بالفتح أي حيث هي، كقولك مررت برجل لا بخيل

---

(١) المرسلات: «٣٣».

(٢) أخرجه ابن جرير (١/٣٤٧ ـ ٣٤٨) مرفوعاً مفصلاً، وأخرجه بنحوه سعيد بن منصور عن عكرمة مرفوعاً مرسلاً، وأخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موصولاً، وفي إسناده «سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور» وكلاهما ضعيف.

ولا جبان، أي حيث هو، وتسقي من أسقى. ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ سلمها الله تعالى من العيوب، أو أهلَها من العمل، أو أخلَصَ لونها من سلم له كذا إذا خلص له ﴿ لَّا شِيَةَ ﴾ لا لَوْن فيها يخالف لون جلدها، وهي في الأصل مصدر، وَشَاهُ وَشْياً وشِيَة إذا خلط بلونه لوناً آخر. ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بحقيقة وصف البقرة وحقَّقتها لنا، وقرىء آلآن بالمد على الاستفهام، ولاَن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ فيه اختصار، والتقدير: فحصَّلوا البقرة المنعوتة فذبحوها. ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ لتطويلهم وكثرة مراجعاتهم، أو لخوف الفضيحة في ظهور القاتل، أو لغلاء ثمنها. إذ روي (أن شيخاً صالحاً منهم كان له عِجلة، فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إني استودعتُكها لابني حتى يكبُر، فشبت وكانت وحيدة بتلك الصفات، فساوموها من اليتيم وأمّه حتى اشتروْها بملء مَسْكِها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير). وكاد من أفعال المقاربة وُضِع لدُنوِّ الخبر حصولاً، فإذا دخل عليه النفيُ قيل معناه الإثبات مطلقاً وقيل ماضياً، والصحيح أنه كسائر الأفعال ولا ينافي قولُه ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ قولَه فذبحوها لاختلاف وقتَيْهما، إذ المعنى أنهم ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتُهم وانقطعت تعلُّلاتُهم، ففعلوا كالمضطر المُلْجَأ إلى الفعل.

(٧٢) ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ خطاباً للجمع لوجود القتل فيهم ﴿ فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ﴾ اختصمتم في شأنها، إذ المتخاصمان يدفع بعضهما بعضاً، أو تدافعتم بأن طرح كلٌّ قتْلَها عن نفسه إلى صاحبه، وأصلُه تدارأتم فأُدغمت التاء في الدال واجتُلبت لها همزة الوصل ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ مظهرهُ لا محالةَ، وأُعمِلَ مخرجٌ لأنه حكايةُ مستقبلٍ كما أُعْمِلَ ﴿ بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾[1] لأنه حكايةُ حالٍ ماضية.

(٧٣) ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ ﴾ عطفٌ على ادارأتم وما بينها اعتراضٌ، والضمير للنفس، والتذكيرُ على تأويل الشخص أو القتيل ﴿ بِبَعْضِهَا ﴾ أي بعضٍ كان وقيل: بأصغريها. وقيل بلسانها. وقيل بفخِذها اليمنى وقيل بالأذن. وقيل بالعجب ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ يدل على ما حذف وهو فضربوه فَحَيِيَ، والخطابُ مع مَنْ حَضَرَ حياةَ القتيل، أو نزولَ الآية ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ دلائلَه على كمال قدرته. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي يَكْمُلَ عقلُكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها، أو تعملوا على قضيته. ولعلّه تعالى إنما لم يحيه ابتداءً وشَرَطَ فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل والشفقة على الأولاد، وأن من حق الطالب أن يقدم قُرْبة، والمُتَقَرِّب أن يتحرى الأحسنَ ويغالي بثمنه، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلاثمائة دينار[2]. وأن المؤثر في الحقيقة هو اللهُ تعالى، والأسبابُ أماراتٌ لا أَثَر لها، وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي فطريقه أن يذبح بقَرَةَ نَفْسِه التي هي القوةُ الشهوية حين زال عنها شَرَه الصبا، ولم يلْحَقْها ضعف الكِبَر، وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة

---

(١) الكهف: «١٨».

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٥٦) من رواية الجهم بن الجارود عن سالم... وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٢٣١) وقال: لا نعرف لجهم سماعاً من سالم، وقال الذهبي في الميزان (١/ ٤٢٦) فيه جهالة، وقال ابن حجر: مقبول (التقريب ١/ ١٢٥).

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.

يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞أَفَتَطْمَعُونَ
أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ
ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

في طلب الدنيا، مسلمة عن دنسها لا سِمَة بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه فتحيا حياة طيباً وتعربُ عما به ينكشف الحال، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع.

(٧٤) ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ القساوة عبارة عن الغِلْظِ مع الصَّلابة، كما في الحجر. وقساوة القلب مَثَلٌ في نَبْوِه عن الاعتبار، وثم لاستبعاد القسوة ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ يعني إحياء القتيل، أو جميع ما عُدِّد من الآيات فإنها مما توجب لِين القلب. ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ في قسوتها ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ منها، والمعنى أنها في القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها، أو أنها مثلُها أو مثلُ ما هو أشدُّ منها قسوةً كالحديد، فحُذِف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويعضده قراءة الحسن بالجر عطفاً على الحجارة، وإنما لم يَقُل أقسى لما في أشدّ من المبالغة والدلالةِ على اشتداد القسوتين واشتمالِ المُفَضَّل على زيادة و﴿ أَوْ ﴾ للتخيير، أو للترديد بمعنى: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى منها[(١)].

﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ تعليل للتفضيل، والمعنى: أن الحجارة تتأثرُ وتنفعل، فإنّ منها ما يتشقق فينبع منه الماء وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به. وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى. والتفجُّر التفتّح بسَعَةٍ وكثْرة، والخشية مجازٌ عن الانقياد. وقرىء إنْ، على أنها المخففة من الثقيلة وتلزمُها اللام الفارقة بينها وبين إنْ النافية، ويَهْبُط بالضمّ.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد على ذلك، وقرأ ابن كثير ونافع ويعقوب وخلف[(٢)] وأبو بكر[(٣)] بالياء ضمّاً إلى ما بعده، والباقون بالتاء.

(٧٥) ﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾ أن يصدِّقوكم، أو يؤمنوا لأجل دعوتكم، يعني اليهود. ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ طائفة من أسلافهم ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ يعني التوراة. ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ كنعت محمد صلى الله عليه وسلم، وآية الرجم.

---

(١) قوله: «فهي كالحجارة أو أشد قسوة» أوردها بالجملة الاسمية مع كون ما سبق جملة فعلية للدلالة على استمرار قساوة قلوبهم. (أبو السعود ١/ ١١٥).

(٢) خلف: هو أبو محمد خلف بن هشام بن طالب بن البزار، وكان زاهداً عابداً اشتهر بالرواية عن حمزة أحد القراء السبعة وتوفي عام (٢٢٩)هـ.

(٣) أبو بكر: هو شعبة بن عياش بن سالم الأسدي، ويكنى أبا بكر لأن شعبة اسم مشترك بينه وبين شعبة بن الحجاج البصري، وكان شعبة إماماً عالماً كبيراً، اشتهر بالرواية عن عاصم الذي هو أحد القراء السبعة، وقد توفي بالكوفة عام (١٩٣)هـ.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا
يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ
أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون. وقيل هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور، ثم قالوا سمعنا اللهَ تعالى يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهموه بعقولهم ولم يبقَ لهم فيه رِيبة. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون مبطلون، ومعنى الآية: أن أحبار هؤلاء ومقدميهم كانوا على هذه الحالة، فما ظنك بسَفَلَتِهم وجهّالهم، وأنهم إن كفروا وحرفوا فلهم سابقة في ذلك.

(٧٦) ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني منافقيهم. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وإن رسولكم هو المبشَّر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟﴾ أي الذين لم ينافقوا منهم عاتبين على من نافق. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[1] بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين نافقوا لأعقابهم إظهاراً للتصلب في اليهودية، ومنعاً لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فينافقون الفريقين. فالاستفهام على الأول تقريع وعلى الثاني إنكار ونهي ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجَّتهم بكتاب الله وحُكْمه محاجةً عنده كما يقال عند الله كذا، ويراد به أنه جاء في كتابه وحُكْمه. وقيل عند ذكر ربكم، أو بين يدي رسول ربكم.

وقيل عند ربكم في القيامة وفيه نظر إذْ الإخفاءُ لا يدفعه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إما من تمام كلام اللائمين وتقديرُه: أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم به فيحجونكم، أو خطاب من الله تعالى للمؤمنين متصل بقوله ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ﴾، والمعنى: أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم.

(٧٧) ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني هؤلاء المنافقين، أو اللائمين، أو كليهما، أو إياهم والمحرفين. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ومن جملتهما إسرارُهم الكفر وإعلانُهم الإيمان، وإخفاء ما فتح الله عليهم، وإظهار غيره، وتحريف الكلم عن مواضعه ومعانيه[2].

(٧٨) ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جَهَلَة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة، ويتحققوا ما فيها. أو التوراة ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناء منقطع. والأماني: جمع أمنية، وهي في الأصل ما يُقدِّره الإنسانُ في نفسه من مَنَى إذا قدَّر، ولذلك تطلق على الكذب وعلى ما يتمنى وما يقرأ، والمعنى:

---

(١) عبر عنه بالفتح للإيذان بأنه سر مكنون وباب مغلق لا يقف عليه أحد (أبو السعود ١/ ١١٧).

(٢) قدم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات، كأنّ علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السوية (أبو السعود ١/ ١١٨).

ولكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المُحَرِّفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلُها إلا من كان هوداً، وأن النار لن تمسَّهم إلا أياماً معدودة. وقيل إلا ما يقرؤون قراءة عارية عن معرفة المعنى وتدبره من قوله:

تَمَنَّى كِتَابَ الله أَوَّلَ لَيْلِهِ تمني دَاودَ الزبُورَ على رِسْلِ

وهو لا يناسب وصفهم بأنهم أميون. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هم إلا قوم يظنون لا عِلْم لهم، وقد يُطلق الظن بإزاءِ العلم على كل رأيٍ واعتقادٍ من غير قاطع، وإن جَزَمَ به صاحبهُ: كاعتقاد المقلد والزائغ عن الحق لشبهة.

(٧٩) ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي تحسر وهَلَكٌ. ومن قال إنه وادٍ أو جبلٌ في جهنم فمعناه: أن فيها موضعاً يتبوأ فيه من جعل له الويل، ولعله سماه بذلك مجازاً. وهو في الأصل مصدر لا فعل له وإنما ساغ الابتداء به نكرةً لأنه دعاء. ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني المحرِّفين، ولعله أراد به ما كتبوه من التأويلات الزائغة. ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدٌ كقولك: كتبتُه بيميني ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كي يُحَصِّلوا به عرضاً من أعراضِ الدنيا، فإنه وإن جُعِل قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العقاب الدائم. ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني المحرَّف. ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يريد به الرُّشى.

(٨٠) ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ المس اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسةُ به، واللمس كالطلب له ولذلك يقال ألمسُه فلا أجده. ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ محصورة قليلة، روي أن بعضهم قالوا نعذَّب بعدد أيام عبادة العجل أربعين يوماً، وبعضهم قالوا مدةُ الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نُعذَّب مكان كل ألف سنة يوماً ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ خبراً أو وعد بما تزعمون. وقرأ ابن كثير وحفص بإظهار الذال. والباقون بإدغامه ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، وفيه دليل على أن الخُلْف في خبرِهِ محال.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم معادِلةٌ لهمزة الاستفهام بمعنى أيُّ الأمرين كائن، على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدِهما، أو منقطعةٌ بمعنى: بل أتقولون، على التقرير والتقريع.

(٨١) ﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما نفَوْه من مَساس النار لهم زماناً مديداً ودهراً طويلاً على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم، وتختص بجواب النفي ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ قبيحة، والفرق بينها وبين الخطيئة أنها قد تقال فيما يُقصد بالذات، والخطيئة تغْلِب فيما يُقصد بالعَرَضِ لأنه من الخطأ، والكسب: استجلاب النفع. وتعليقه بالسيئة على طريق قوله ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي استولت عليه، وشمِلَت جملةَ أحوالِه حتى صار كالمُحَاطِ بها لا يخلو عنها شيءٌ من جوانبه، وهذا إنما يصح في شأن الكافر لأن غيره وإن لم يكن له سوى تصديقِ قلبه وإقرارِ لسانه فلمْ تُحَطَّ الخطيئة به، ولذلك فسرها السلف بالكفر. وتحقيق ذلك: أن من أذنب ذنباً ولم يقلع عنه استجرَّه إلى معاودة مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستوليَ عليه الذنوبُ

---

(١) آل عمران: «٢١».

ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي
ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ
دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾

وتأخذ بمجامع قلبه فيصيرَ بطبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسناً إياها معتقِداً أن لا لذة سواها، مبغِضاً لمن يمنعُه عنها مكذِّباً لمن ينصحه فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾(١). وقرأ نافع خطيئاته. وقرىء خطيَّتُه وخطيّاتُه على القلب والإدغام فيهما. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾(٢) ملازموها في الآخرة كما أنهم ملازمون أسبابها في الدنيا ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون، أو لابثون لبثاً طويلاً. والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة وكذا التي قبلها.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يُشْفِع وعده بوعيده، لتُرجى رحمته ويُخشى عذابُه، وعطفُ العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مُسَماه.

(٨٣) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إخبارٌ في معنى النهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهيَّ سارعٌ إلى الانتهاء فهو يخبر عنه، ويعضده قراءة: لا تعبدوا وعطْفُ قولوا عليه، فيكون على إرادة القول. وقيل: تقديره أن لا يعبدوا فلما حَذَفَ أَنْ رُفِعَ كقوله:

ألا أيّهذا الزاجِري أَحضُرَ الوَغَى وأَنْ أشهَدَ اللذاتِ هَلْ أنتَ مُخلِدي

·ويدل عليه قراءة: ألا تعبدوا، فيكون بدلاً عن الميثاق، أو معمولاً له بحذف الجار. وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قال: وحَلَّفْناهم لا يعبدون. وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتاء حكاية لما خوطبوا به، والباقون بالياء لأنهم غيبٌ ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ تَعلَّق بمضمر تقديره: وتحسنون أو أحسنوا ﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ عطف على الوالدين. واليتامى جمع يتيم كنديم وندامى وهو قليل. ومسكين مِفْعيل من السكون، كأن الفقر أسكنه ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ أي قولاً حسناً، وسماه حَسَنَاً للمبالغة. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب حسناً بفتحتين. وقرىء حُسُناً بضمتين وهو لغة أهل الحجاز، وحُسْنى على المصدر كبُشرى، والمرادُ به ما فيه تخلُّق وإرشاد

(١) الروم: «١٠».
(٢) إيراد اسم الإشارة المنبىء عن استحضار المشار إليه بما له من الأوصاف للإشعار بعليتها لصاحبية النار. وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بُعد منزلتهم في الكفر والخطايا (أبو السعود ١/ ١٢٢).

ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يريد بهما ما فُرِض عليهم في ملتهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ على طريقة الالتفات، ولعل الخطاب مع الموجودين منهم في عهد رسول الله ﷺ ومَنْ قبلهم على التغليب، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ يريد به من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ، ومن أسلم منهم ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ قوم عاداتهم الإعراض عن الوفاء والطاعة. وأصل الإعراض الذهابُ عن المواجهة إلى جهة العَرْض.

(٨٤) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ على نحو ما سبق، والمرادُ به أن لا يتعرَّض بعضهم بعضاً بالقتل والإجلاء عن الوطن. وإنما جُعل قتل الرجل غيرَه قتلَ نفسِهِ لاتصاله به نسباً أو ديناً، أو لأنه يوجبه قصاصاً. وقيل معناه لا ترتكبوا ما يبيح سفك دمائكم وإخراجَكم من دياركم، أو لا تفعلوا ما يُرْديكم ويصرفُكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة، ولا تقترفوا ما تُمْنَعون به عن الجنة التي هي دارُكم، فإنه الجلاء الحقيقي ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق واعترفتم بلزومه ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ توكيدٌ كقولك: أقر فلان شاهداً على نفسه. وقيل وأنتم أيها الموجودون تشهدون على إقرار أسلافكم، فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازاً.

(٨٥) ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ استبعادٌ لما ارتكبوه بعد الميثاق والإقرارِ به والشهادةِ عليه. وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبرُهُ على معنى أنتم بعد ذلك هؤلاء الناقضون، كقولك أنت ذلك الرجل الذي فعل كذا، نَزَّلَ تغيُّرَ الصفة منزلَةَ تغيُّرِ الذات، وعدَّهم باعتبار ما أَسْنَدَ إليهم حُضُوراً وباعتبار ما سيحكي عنهم غَيْباً. وقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ إما حال والعامل فيها معنى الإشارة، أو بيان لهذه الجملة. وقيل: هؤلاء تأكيد، والخبر هو الجملة. وقيل بمعنى الذين والجملة صلته والمجموع هو الخبر، وقرىء تُقَتِّلُونَ على التكثير. ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ حال من فاعل تُخْرِجون، أو من مفعوله، أو كليهما. والتظاهر التعاون من الظَّهْر. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بحذف إحدى التاءين. وقرىء بإظهارها، وتَظَّهَّرون بمعنى تتظهرون ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ روي أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فإذا اقتتلا عاون كلُّ فريق حلفاءَه في القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها، وإذا أُسِر أحد من الفريقين جَمَعُوا له حتى يُفْدُوه. وقيل معناه إن يأتوكم أسارى في أيدي الشياطين تتصدوْا لإنقاذهم بالإرشاد والوعظ مع تضييعكم أنفسَكم كقوله

يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟

تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[١] . وقرأ حمزة أَسْرَى وهو جمع أسير كجريح وجَرحى، وأُسارى جمعه كسكرى وسُكارى. وقيل هو أيضاً جمع أسير، وكأنه شُبِّه بالكسلان وجمع جمعه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وابن عامر تفدوهم ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ﴾ متعلق بقوله وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، وما بينهما اعتراض، والضمير للشأن، أو مُبْهَم ويفسره إخراجهم، أو راجع إلى ما دل عليه تخرجون من المصدر. وإخراجهم بدل أو بيان ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني الفداء.

﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ يعني حَرْمَةُ المقاتلة والإجلاء. ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ كقتل قريظة وسَبْيهم. وإجلاء بني النضير، وضَرْبِ الجزية على غيرهم. وأصلُ الخزيِ ذُلٌّ يُستحيا منه، ولذلك يُستعمل في كل منهما. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ لأن عصيانهم أشد. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد للوعيد، أي الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لا يغفُل عن أفعالهم. وقرأ عاصم في رواية المفضّل، تردون على الخطاب لقوله ﴿مِّنكُمْ﴾. وابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر، وخلف ويعقوب يعملون على أن الضمير لمَنْ.

(٨٦) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بنقض الجزية في الدنيا، والتعذيب في الآخرة. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفعهما عنهم.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله سبحانه وتعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ﴾[٢] . يقال قَفّاه إذا تبعه، وقَفّاهُ به إذا أتبعه إياه من القَفَا، نحو ذَنَبَه من الذنب ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمَه والأبرص والإخبار بالمغيبات، أو الإنجيل. وعيسى بالعبرية أيشوع. ومريم بمعنى الخادم، وهو بالعربية من النساء كالزِّير من الرجال، قال رؤبة: قُلْتُ لِزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيَمه. ووزنه مفْعَل إذ لم يثبت فعيل ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ وقويناه، وقرىء آيدناه بالمدِّ ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ بالرُّوح المقدسة كقولك: حاتِم الجود ورجلُ صدقٍ، وأراد به جبريل، وقيل: روح عيسى عليه الصلاة والسلام، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان، أو لكرامته على الله سبحانه وتعالى ولذلك أضافه إلى نفسه تعالى، أو لأنه لم تضمَّه الأصلابُ والأرحام الطوامثُ. أو . . . .

---

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) المؤمنون: ٤٤.

كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن
قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ

الإنجيلُ[١]، أو اسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى. وقرأ ابن كثير القُدْس بالإسكان في جميع القرآن ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ﴾ بما لا تحبه. يقال هوِيَ بالكسر هَوىً إذا أحب، وهَوى بالفتح هُوِياً بالضم إذا سقط. ووُسِّطت الهمزة بين الفاء وما تعلقت به توبيخاً لهم على تعقيبهم ذاك بهذا وتعجيباً من شأنهم، ويُحْتَمَل أن يكون استئنافاً والفاء للعطف على مقدَّر، ﴿ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان واتباع الرسل. ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام، والفاء للسببية أو للتفصيل ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام، وإنما ذُكِر بلفظ المضارع على حكاية الحالِ الماضيةِ استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فظيع. أو مراعاةً للفواصل، أو للدلالة على أنكم بعدُ فيه، فإنكم تتحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة[٢].

(٨٨) ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾[٣] مغشَّاة بأغطية خَلْقِية لا يصل إليها ما جئتَ به ولا تفقهُه، مستعارٌ من الأَغْلَف الذي لم يُختَن وقيل أصله غُلُف جمع غلاف فَخُفِّف، والمعنى أنها أوعية للعلم لا تَسْمعُ علماً إلا وَعَتْه، ولا تعي ما تقولُ. أو نحن مستغنون بما فيها عن غيره. ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ رد لما قالوه، والمعنى أنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، ولكن الله خَذَلَهم بكفرهم فأبطل استعدادهم، أو أنها لم تأبَ قبول ما تقولُه لخللٍ فيه، بل لأن الله تعالى خذلهم بكفرهم كما قال تعالى ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[٤]، أو هم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك؟

---

(١) قوله أو الإنجيل عطف على قوله: وأراد به جبريل.

(٢) خصّ عيسى عليه السلام بالذكر من بين الرسل الذين بعثوا بعد موسى ووصِف بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثتهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها، أما عيسى عليه السلام فقد نُسخ بشرعه كثير من أحكامها، ولحسم مادة اعتقادهم الباطل في حقه عليه السلام ببيان حقيته وإظهاره كما قبح ما فعلوا به عليه السلام.

وعبر بقوله «بما لا تهوى أنفسكم» للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفةُ، لأهواءِ أنفسهم والموافقة لها لا لشيءٍ آخر. (أبو السعود ١/١٢٧).

(٣) قوله: «وقالوا قلوبُنا غلْف» بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب، لما فُصِّل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم (أبو السعود ١/١٢٧).

(٤) محمد: «٢٣».

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإيماناً قليلاً يؤمنون، وما مزيدة للمبالغة في التقليل، وهو إيمانهم ببعض الكتاب. وقيل: أراد بالقلة العدم.

(٨٩) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم، وقرىء بالنصب على الحال من كتاب لتخصُّصه بالوصف، وجواب لمّا محذوف دل عليه جواب لِمَا الثانية. ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يستنصرون على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بنبيِّ آخرِ الزمان المنعوت في التوراة. أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم وقد قرب زمانه، والسين للمبالغة والإشعارِ أن الفاعل يسأل ذلك عن نفسه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾[(١)] من الحق. ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ حسداً وخوفاً على الرياسة. ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي عليهم، وأتى بالمُظْهَر للدلالة على أنهم لُعِنوا لكفرهم، فتكونَ اللام للعهد، ويجوز أن تكونَ للجنس ويدخلون فيه دخولاً أولياً لأن الكلام فيهم.

(٩٠) ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ ما نكرة بمعنى شيء مميِّزَة لفاعلِ بئس المستكنّ، واشترَوْا صفته ومعناه باعوا، أو اشتروا بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلَّصوا أنفسهم من العقاب بما فعلوا. ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هو المخصوص بالذم ﴿بَغْيًا﴾ طلباً لما ليس لهم وحسداً، وهو علةُ ﴿أَن يَكْفُرُوا۟﴾ دون ﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ للفصل. ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ لأن ينزل، أي حسدوه على أن ينزل الله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسهل[(٢)] ويعقوب بالتخفيف. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني الوحي. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ على من اختاره للرسالة ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق. وقيل: لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد عيسى عليه السلام، أو بعد قولهم عزيرٌ ابنُ الله ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يراد به إذلالُهم، بخلاف عذاب العاصي فإنه طُهْره لذنوبه.

(٩١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعم الكتب المنزلة بأسرها. ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي بالتوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ حال من الضمير في قالوا، ووراء في الأصل مصدرٌ جُعل ظرفاً، ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدّامُه، ولذلك عُدَّ من الأضداد. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الضمير لما وراءه، والمراد به القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ حال مؤكدة تتضمن رد مقالهم، فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة والتوراةُ لا تسوِّغه، وإنما أَسْنَدَه إليهم لأنه فِعْلُ آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه. وقرأ نافع وحده أَنْبِئاء الله مهموزاً في جميع القرآن.

---

(١) أورد الاسم الموصول «ما» لبيان كمال مكابرتهم، فإن معرفة ما جاءهم من مبادىء الإيمان به ودواعيه لا محالة. والفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له (أبو السعود ١/١٢٨).

(٢) سهل: هو سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسى بن عبدالله بن رَفيع التسْتَريُّ وكنيته أبو محمد، وكان من الزهاد وله كلام حسن، صحب خاله محمد بن سوَّار، وشاهد ذا النُّون المِصريّ سنة خروجه للحج بمكة توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين [المنتظم (٥/١٦٣) وطبقات الصوفية (ص٣٠٦ رقم ١٠)].

بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ
ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ
بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ
لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[1] ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي إلهاً ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد مجيء موسى، أو ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ حال، بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته، أو بالإخلال بآيات الله تعالى، أو اعتراض بمعنى وأنتم قوم عادتكم الظلم.

ومساقُ الآية أيضاً لإبطال قولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾[2] والتنبيهِ على أن طريقتَهم مع الرسول طريقةَ أسلافهم مع موسى عليهما الصلاة والسلام، لا لتكرير القصة وكذا ما بعده.

(٩٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي قلنا لهم: خذوا ما أمرتم به في التوراة بجدٍّ واسمعوا سماع طاعة. ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ تداخلَهم حبُّه ورسخ في قلوبهم صورتُه لفرط شغفهم به، كما يتداخل الصبغُ الثوبَ والشرابُ أعماقَ البدن. وفي قلوبهم: بيان لمكان الإشراب كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[3] ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم وذلك لأنهم كانوا مُجَسِّمة أو حلولية ولم يروا جسماً أعجبَ منه، فتمكّن في قلوبهم ما سوّل لهم السامري ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أي بالتوراة، والمخصوصُ بالذم محذوف، نحو هذا الأمر أو ما يعمه وغيره من قبائحهم المعدودة في الآيات الثلاث إلزاماً عليهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تقرير للقدح في دعواهم الإيمان بالتوراة، وتقديره: إن كنتم مؤمنين بها لم يأمرْكم بهذه القبائح ولا يرخِّص لكم فيها إيمانكم بها، أو إن كنتم مؤمنين بها فبئسما يأمركم به إيمانكم بها، لأن المؤمن ينبغي أن لا يتعاطى إلا ما يقتضيه إيمانُه، لكن الإيمان بها لا يأمر به، فإذاً لستم بمؤمنين.

(٩٤) ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ خاصة بكم كما قلتم: لن يدخلَ الجنة إلا من كان هوداً، ونصبها على الحال من الدار. ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ سائرهم، واللام للجنس، أو المسلمين واللام للعهد ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحب التخلص إليها من الدار ذات الشوائب، كما قال علي رضي الله تعالى عنه: لا أبالي سقطت على الموت، أو سقط الموت علي. وقال عمار رضي الله تعالى عنه بصفِّين: الآن ألاقي الأحبة محمداً

---

(١) الإسراء: «١٠١».

(٢) البقرة: «٩١».

(٣) النساء: «١٠».

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ

وحزبه. وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتُضِر: جاء حبيب على فاقة لا أفلح من ندم أي: على التمني، سيما إذا علم أنها سالمة له لا يشاركه فيها غيره.

(٩٥) ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من موجبات النار، كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، والقرآنِ، وتحريفِ التوراة. ولما كانت اليد العاملة مختصةً بالإنسان آلةً لقدرته بها عامةُ صنائعهِ ومنها أكثرُ منافعه عبّر بها عن النفس تارة والقدرة أخرى، وهذه الجملة إخبار بالغيب وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا لنُقِل واشتُهِر، فإن التمني ليس من عمل القلب ليخفى، بل هو أن يقول: ليتَ لي كذا، ولو كان بالقلب لقالوا: تمنينا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بِرِيقه فمات مكانَه، وما بقي على وجه الأرض يهودي»[1] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم، ونفيُه عمن هُوَ لهم.

(٩٦) ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ مِنْ وَجَدَ بعقله الجاري مجرى عَلِمَ، ومفعولاه هم وأحرص الناس، وتنكير حياة لأنه أريد بها فردٌ من أفرادها وهي: الحياة المتطاولة، وقرىء باللام. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ محمول على المعنى وكأنه قال: أحرص من الناس على الحياة ومن الذين أشركوا. وإفرادُه بالذكر للمبالغة، فإن حرصَهم شديدٌ إذ لم يعرفوا إلا الحياة العاجلة، والزيادة في التوبيخ والتقريع، فإنهم لما زاد حرصهم ـ وهم مقرون بالجزاء على حرص المنكرين ـ دل ذلك على علمهم بأنهم صائرون إلى النار، ويجوز أن يُراد وأحرص من الذين أشركوا، فحَذَف أحرص لدلالة الأول عليه، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف صفته ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ على أنه أريد بالذين أشركوا اليهود لأنهم قالوا: عزير ابنُ الله، أي: ومنهم ناس يود أحدهم، وهو على الأولين بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف.

---

(١) أخرج البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٤) من طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كنتم في مقالتكم صادقين فقولوا: اللهم أمتنا. فو الذي نفسي في يده لا يقولها رجل منكم إلا غَصَّ بريقه فمات مكانه...».
والكلبي متروك، وأبو صالح ضعيف مدلس.
● وأخرج أحمد في المسند (١/ ٢٤٨) عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينّه حتى أطأ عنقهُ، قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً. ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار...».
قلت: أخرج البخاري (٨/ ٧٢٤ رقم ٤٩٥٨) والترمذي (٥/ ٤٤٣ رقم ٣٣٤٨) الشطر الأول فقط.
وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٧٢٤): وأما بهذه الزيادة «ولو أن اليهود تمنوا لماتوا» فهي عند الإسماعيلي.
كما أخرجه ابن جرير في التفسير (١/ ٤٢٤) مرفوعاً وموقوفاً بدون الشطر الأول.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ حكاية لودادتهم، ولو بمعنى ليت وكان أصله: لو أعمر، فأُجريَ على الغيبة لقوله: يود، كقولك حلف بالله ليفعلن ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ الضمير لأحدهم، وأن يعمر فاعل مزحزحه، أي وما أحدهم بمن يزحزحه من العذاب تعميره، أو لما دل عليه يعمر. وأن يعمر بدل منه. أو منهم، وأن يعمَّر موضحه. وأصل سنة سَنْوة لقولهم سنوات. وقيل سَنْهَة كجبهة لقولهم سانهته وتسنَّهَتِ النخلةُ إذا أتت عليها السنون، والزحزحة التبعيد ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم.

(٩٧) ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ نزل في عبد الله بن صوريا[١]، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمَّن ينزلُ عليه بالوحي؟ فقال: جبريل، فقال: ذاك عدوُّنا عادانا مراراً، وأشَدُّها أنه أنزل على نبينا أنّ بيت المقدس سيَخْرُبه بختنصر، فبعثنا من يقتله فرآه ببابلَ فدفع عنه جبريل. وقال: إن كان ربكم أمَرَه بهلاكِكم فلا يسلِّطكم عليه وإلا فَبِمَ تقتلونه؟[٢]. وقيل: دخل عمر رضي الله تعالى عنه مِدْراس اليهود يوماً، فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يُطْلع محمداً على أسرارنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحبُ الخصب والسلام، فقال: وما مَنْزلتُهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة، فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوَّيْن ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبَقَه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام «لقد وافقك ربك يا عمر»[٣]. وفي جبريل ثمان لغات قرىء بهن أربع في: المشهور جَبْرَئِيل كسلسبيل قراءة حمزة والكسائي، وجَبْريل بكسر الراء وحذف الهمزة قراءة ابن كثير، وجَبْرَئِل كجحمرش قراءة عاصم برواية أبي بكر، وجِبْرِيل كقنديل قراءة الباقين. وأربع في الشواذ: جَبْرائل وجَبْرائيل كجبراعيل، وجَبْرَئلّ وجَبْرين[٤] ومنع صرفه للعجمة والتعريف، ومعناه عبدالله. ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ البارزُ الأول لجبريل والثاني للقرآن، وإضمارُه غير مذكور يدل على فخامة شأنه كأنه لتعينه وفَرْط شهرته لم يحتج إلى سبق ذكره. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فإنه القابل الأول للوحي، ومحل الفهم والحفظ، وكان حقُّه على قلبي لكنه جاء على حكاية كلام الله تعالى كأنه قال: قل ما تكلمت به. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره، أو تيسيره حال من فاعل نَزَّله. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أحوالٌ من مفعوله، والظاهر أن جواب الشرط ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾، والمعنى من عادى منهم جبريل فقد خلع رِبْقة الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي، لأنه نزل كتاباً مصدقاً للكتب المتقدمة، فحذف الجواب وأقيم علَّته مقامَه، أو مَنْ عاداه فالسبب في عداوته أنه نزله عليك. وقيل محذوف مثل: فليَمُت غيظاً، أو فهو عدو لي وأنا عدو له.

---

(١) عبدالله بن صوريا: يهودي من أحبار «فَدَك».

(٢) أورده البغوي في تفسيره (١/ ٩٦) بلا سند. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٤ ـ ٢٥ من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٢٥ ـ ٢٦) من طريق علي بن مسهر، عن داود، عن الشعبي، عنه. وأخرجه ابن جرير في التفسير (١/ ٤٣٣) من طريق داود عن الشعبي، كما رواه من طريق مجاهد عن الشعبي نحوه (١/ ٤٣٥) وعن قتادة قوله.

(٤) قال الألوسي: (أفصحها وأشهرها جِبرئِل كقِنديل وهي قراءة أبي عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم) (روح المعاني ١/ ٣٣٢).

لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟
عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

كما قال:

(٩٨) ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أراد بعداوة الله مخالَفَتَه عِناداً، أو معاداةُ المقربين من عباده، وصدَّر الكلام بذكره تفخيماً لشأنهم كقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[١]. وأفرد المَلَكَيْن بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواءٌ في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدَهم فكأنه عادى الجميعَ، إذ الموجبُ لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد، ولأن المحاجة كانت فيهما. ووضعُ الظاهر[٢] موضع المضمر للدلالة على أنه تعالى عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر. وقرأ نافع ميكائل كميكاعل، وأبو عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص ميكَال كميعاد، والباقون ميكائيل بالهمزة والياء بعدها. وقرىء ميكَئِل كميكعل، وميكئيل كميكعيل، وميكايل.

(٩٩) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي المتمردون من الكَفَرة. والفسقُ إذا استعمل في نوع من المعاصي دل على عِظَمه كأنه ستجاوز عن حده. نزل في ابن صوريا حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فنتبعك.

(١٠٠) ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره أكَفروا بالآيات وكلما عاهدوا، وقرىء بسكون الواو على أن التقدير إلا الذين فسقوا، أو كلما عاهدوا، وقرىء عوهِدوا وعَهِدوا. ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ نقضه، وأصل النبْذ الطرح، لكنه يغلِب فيما يُنسى، وإنما قال فريقٌ لأن بعضهم لم يَنقُض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ رد لما يُتوهم من أن الفريق هم الأقلون، أو أن من لم ينبُذ جِهاراً فهم مؤمنون به خفاءً.

(١٠١) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ[٣] عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ﴾ يعني التوراة[٤]، لأن كفرهم بالرسولِ المصَدِّق لها كفر بها فيما يصدِّقه ونبذ لما فيها من وجوب الإيمان بالرسل المؤيَّدين بالآيات. وقيل ما مع الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن.

---

(١) التوبة: «٦٢».

(٢) أي قال: «عدوّ للكافرين» ولم يقل عدو لهم، فأظهر لفظ الكافرين ولم يُشِر إليهم بالإضمار رغم العلم بهم ودلالة السياق عليهم.

(٣) التنكير في رسول للتفخيم، ووصف الرسول بأنه من عند الله لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية الإضافية (أبو السعود ١/١٣٦).

(٤) وصف التوراة على هذا المعنى بأنه كتاب الله تشريف لها وتعظيم لحقها عليهم وتهويل لما اجترؤوا عليه من الكفر بها (أبو السعود ١/١٣٦).

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَثَلٌ لإعراضهم عنه رأساً، بالإعراض عما يُرمى به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه. ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله، يعني أن علمهم به رصين ولكن يتجاهلون عناداً. واعلم أنه تعالى دل بالآيتين على أن جيل اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)]. وفرقة جاهَرُوا بنبذ عهودها وتخطي حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾[(٢)]. وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نَبَذوا لجهلهم بها وهم الأكثرون. وفرقة تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها خفية عالمين بالحال، بغياً وعناداً وهم المتجاهلون.

(١٠٢) ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عطف على نَبَذ، أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها أو تتبعها الشياطين من الجن أو الإنس أو منهما. ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي عهده، وتتلو حكايةُ حالٍ ماضِية. قيل: كانوا يسترقون السمع ويضمُّون إلى ما سمعوا أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة وهم يدوِّنونها ويعلِّمون الناس، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل: إن الجن يَعْلَمُون الغيب، وأن مُلْكَ سليمان تَمَّ بهذا العلم، وأنه تُسَخَّرُ به الجن والإنس والريح له. ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ تكذيب لمن زعم ذلك، وعبَّر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبياً كان معصوماً منه. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ باستعماله، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ولكنْ بالتخفيف ورفعِ الشياطين. ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ إغواءً وإضلالاً، والجملةُ حال من الضمير. والمرادُ بالسحر ما يُستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقِل به الإنسان، وذلك لا يستتبّ إلا لمن يناسبُه في الشَّرارة وخُبْث النفس، فإن التناسب شرط في التضامّ والتعاون، وبهذا تَمَيَّزَ الساحرُ عن النبي والولي، وأما ما يُتعجبُ منه كما يفعله أصحاب الحِيَل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحبُ خفة اليد فغير مذموم، وتسميته سحراً عمل التجوّز، أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفيَ سببه. ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ عطف على السحر والمراد بهما واحد، والعطف لتغاير الاعتبار، أو المراد به نوع أقوى منه، أو على ما تتلو. وهما ملَكَان أُنزلا لتعليم السحر ابتلاءً من الله للناس وتمييزاً بينه وبين المعجزة. وما روي أنهما مثلا بشرَيْن ورُكِّب فيهما الشهوةُ فتعرَّضا لامرأة يقال

(١) البقرة: «١٠٠».

(٢) البقرة: «١٠٠».

لها زهْرة فحملتهما على المعاصي والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكي عن اليهود، ولعله من رموز الأوائل، وحلُّه لا يخفى على ذوي البصائر. وقيل: رجلان سُميا ملكين باعتبار صلاحِهما، ويؤيده قراءة الملكين بالكسر. وقيل: ما أُنزل نفيٌ معطوف على ما كفر سليمانُ تكذيبٌ لليهود في هذه القصة. ﴿ بِبَابِلَ ﴾ ظرف أو حال من الملكين أو الضمير في أُنزل، والمشهورُ أنه بلد من سوادِ الكوفة. ﴿ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ ﴾ عطفُ بيانٍ للملكين، ومَنْعُ صرفهما للعَلَميّة والعُجمة، ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا. ومَنْ جَعَل ما نافيةً أَبْدَلهما من الشياطين بدلَ البعض، وما بينهما اعتراض. وقرىء بالرفع على هما هاروتُ وماروتُ. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ فمعناه على الأول ما يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله، فمَنْ تعلم مِنَّا وعمل به كَفَر، ومن تعلم وتوقى عَمَلَه ثبت على الإيمان، فلا تكفرْ باعتقادِ جوازه والعمل به. وفيه دليل على أن تعلمَ السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به. وعلى الثاني ما يُعَلمانه حتى يقولا إنما نحن مفتونان فلا تكن مثْلَنا. ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ الضمير لما دل عليه من أحد. ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ أي من السحر ما يكون سببَ تفريقهما. ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ﴾ لأنه وغيرَه من الأسباب غيرُ مؤثِّرةٍ بالذات، بل بأمره تعالى وجَعْله. وقرىء بضاري على الإضافة إلى أحد، وجُعِل الجارّ جزء منه والفصل بالظرف.

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ لأنهم يقصدون به العمل، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْۚ ﴾ إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين. وفيه أن التحرز عنه أولى ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي اليهود. ﴿ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله تعالى، والأظهرُ أن اللام لامُ الابتداء عَلَّقت عَلِموا عن العمل ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ﴾ نصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ﴾ يَحتمل المعنيين على ما مر. ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ يتفكرون فيه، أو يعلمون قبحه على التعيين، أو حقية ما يَتْبَعه من العذاب، والمثْبَت لهم أولاً على التوكيد القَسَميّ العقلُ الغريزي أو العِلْم الإجمالي بقبح الفعل، أو ترتب العقاب من غير تحقيق وقيل: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن
يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ

(١٠٣) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالرسول والكتاب. ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ بترك المعاصي، كنبذ كتاب الله واتباع السحر ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ جواب لو، وأصله لأُثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شَرَوْا به أنفسهم، فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية لتدل على ثبات المثوبة والجزم بخيريتها، وحُذِف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن يُنسَب إليه، وتنكيرُ المثوبة لأن المعنى لشيء من الثواب خير، وقيل: لو للتمني، ولمثوبة كلام مبتدأ. وقرىء لَمَثْوبَة كمشورة، وأنما سمي الجزاء ثواباً ومثوبة لأن المحسِن يثوب إليه ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه، وقد علموا، لكنه جَهَّلَهُم لترك التدبر، أو العمل بالعلم.

(١٠٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ الرعْي حفظ الغير لمصلحته، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام راعِنا أي راقبنا وتأنَّ بنا فيما تلقننا حتى نفهمه، وسمع اليهود فافترصوه وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرَّعْن، أو سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها وهي راعينا، فنُهِيَ المؤمنون عنها وأمروا بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التلبيس، وهو انظرنا بمعنى انظر إلينا، أو انتظرنا من نَظَره إذا انتظره. وقرىء أَنْظِرنا من الإنظار أي أمهلنا لنحفظ. وقرىء راعُونا على لفظ الجمع للتوقير، وراعِناً بالتنوين أي قولاً ذا رعن نسبة إلى الرعن وهو الهوج، لما شابه قولهم راعينا وتُسبِّب للسبّ. ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ﴾ وأحسنوا الاستماع حتى لا تفتقروا إلى طلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول لا كسماع اليهود، أو واسمعوا ما أُمِرتم به بجد حتى لا تعودوا إلى ما نهيتم عنه. ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني الذين تهاونوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وسبوه.

(١٠٥) ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ [١] كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير. والود: محبة الشيء مع تمنيه، ولذلك يستعمل في كل منهما، ومِنْ للتبيين كما في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢] ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ مفعول يود، ومِنْ الأولى مزيدة للاستغراق، والثانية للابتداء، وفُسِّر الخير بالوحي. والمعنى أنهم يحسُدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم شيء منه وبالعلم

---

(١) وضع الموصول موضع الضمير للإشعار بعليّة ما في حيز الصلة لعدم وُدِّهم. (أبو السعود ١/١٤١). أي قال: «ما يود الذين كفروا» ولم يقل: ما يودون. . .

(٢) البينة: «١».

وبالنصرة، ولعل المراد به ما يعم ذلك ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يستنبئه ويعلمه الحكمة وينصره لا يجب عليه شيء، وليس لأحد عليه حق ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ إشعار بأن النبوة من الفضل، وأن حِرْمان بعض عباده ليس لضيق فضله، بل لمشيئته وما عرف فيه من حكمته.

(١٠٦) ﴿۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ نزلت لما قال المشركون أو اليهودُ: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه. والنسخ في اللغة: إزالة الصورة عن الشيء وإثباتُها في غيره كنسخ الظِّلِّ للشمس والنقْل ومنه التناسخ، ثم استُعمل لكل واحد منهما كقولك: نسخَت الريحُ الأثر ونسخْتُ الكتاب، ونسخُ الآية بيانُ انتهاءِ التعبّد بقراءتها أو الحكمِ المستفاد منها أو بهما جميعاً. وإنساؤها إذهابها عن القلوب. وما شرطية جازِمة لننسخ منتصبةً به على المفعولية. وقرأ ابن عامر ما نُنْسِخ منْ أنسخ أي نأمركَ أو جبريلَ بنسخها أو نجدها منسوخة. وابن كثير وأبو عمرو نَنْسَأْها أي نؤخرها من النَّسْء، وقرىء نُنْسِها أي نُنْس أحداً إياها وننسها أي أنت، وتُنْسَها على البناء للمفعول، ونُنْسِكَها بإضمار المفعولين ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٍ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب، أو مثلها في الثواب. وقرأ أبو عمرو بقلب الهمزة ألفاً. ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثْل المنسوخ، أو بما هو خير منه. والآية دلت على جواز النسخ وتأخيرِ الإنزال، إذ الأصلُ اختصاصُ أَنَّ وما يتضمنُها بالأمور المحتمَلة، وذلك لأن الأحكامَ شرعت والآياتِ نزلتْ لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً من الله ورحمة، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص، كأسباب المعاش فإن النافع في عصر قد يَضُرّ في عصرٍ غيره. واحتج بها مَنْ منع النسخ بلا بدلٍ أو ببدل أَثْقلَ ونسخَ الكتاب بالسنة، فإن الناسخ هو المأتي به بدلاً والسنةُ ليست كذلك. والكل ضعيف، إذ قد يكون عدم الحكم أو الأثقل أصلح، والنسخُ قد يُعرَف بغيره، والسنةُ مما أتى به الله تعالى، وليس المراد بالخير والمِثْل ما يكون كذلك في اللفظ. والمعتزلةُ على حدوثِ القرآن، فإن التغيُّر والتفاوت من لوازمه. وأجيب: بأنهما من عوارِض الأمور المتعلقة بالمعنى القائم بالذات القديم[1].

(١٠٧) ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمرادُ هو وأمته لقوله ﴿وَمَا لَكُم﴾. وإنما أَفْرَده لأنه أعلَمُهم ومبدأُ علمهم. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو كالدليل على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أو على جواز النسخ ولذلك تُرِك العاطفُ. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم. والفَرق بين الولي والنصير: أن الولي قد يَضْعُف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور، فيكون بينهما عموم من وجه.

---

(١) لا ضير في القول بالنسخ، رغم وجود الخلاف بين العلماء في وجود النسخ وعدمه. لكنّ الأولى عدم التوسع في استخدامه صيانة لكتاب الله تعالى. والأولى أن يتم استعمال التدرج في التشريع ونحوه، فإنه أظهر للحكمة. والخلاف في وجود النسخ وعدمه لعله لفظي أكثر مما هو حقيقي.

وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ
بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ
كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ

(١٠٨) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أمْ معادِلَة للهمزة في ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أي: ألم تعلموا أنه مالك الأمور قادرٌ على الأشياء كلها يأمر وينهى كما أراد، أم تعلمون وتقترحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام. أو منقطعةٌ والمرادُ أن يوصيَهم بالثقة به وترك الاقتراح عليه. قيل: نزلت في أهلِ الكتاب حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتاباً من السماء. وقيل: في المشركين لما قالوا ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[1] ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ومن تَرَكَ الثقة بالآيات البينات وشكَّ فيها واقترح غيرها، فقد ضل الطريق المستقيم حتى وقع في الكفر بعد الإيمان. ومعنى الآية لا تقترِحوا فَتَضِلُّوا وسط السبيل، ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان. وقرىء يُبْدِل من أبدل.

(١٠٩) ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني أحبارَهم. ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾[2] أَنْ يُردّوكم، فإنّ لوْ تنوب عن أنْ في المعنى دون اللفظ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ مرتدين، وهو حال من ضمير المخاطبين[3] ﴿حَسَدًا﴾ عِلّةُ وَدَّ. ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ يجوز أن يتعلق بوَدّ، أي تمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهِّيهم، لا من قِبَلِ التديُّن والميل مع الحق. أو بحسداً أي حسداً بالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ بالمعجزات والنعوت المذكورة في التوراة. ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك تثريبه. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الذي هو الإذنُ في قتالهم وضربُ الجزية عليهم، أو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف، وفيه نظر إذ الأمرُ غيرُ مطلق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيَقْدر على الانتقام منهم.

(١١٠) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عَطْفٌ على فاعفوا، كأنه أمرهم بالصبر والمخالفة والملجأ إلى الله تعالى بالعبادة والبر ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ كصلاة وصدقة. وقرىء تُقْدِموا من أقدم

---

(١) الإسراء: «٩٣».

(٢) (لوْ) بمعنى التمني.. وقيل هي هنا بمنزلة أنْ الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولاً لِوَدّوا، والتقدير: ودّوا ردّكم. وقيل هي على حقيقتها، وجوابُها محذوف، تقديره: لو يَرُدونكم كفاراً لسُرُّوا بذلك (أبو السعود ١/ ١٤٥).

(٣) والأولى أن يكون (كفاراً) مفعولاً ثانياً على تضمين الرد معنى التعيير، أي يعيِّرونكم وهذا لما فيه من صريح الدلالة على كون الكفر المفروض بطريق القسر.

وإيراد الظرف (من بعد إيمانكم) مع عدم الحاجة إليه ـ بسبب كون المخاطبين مؤمنين ـ مع توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة ما أرادوه وغاية بعده من الوقوع (أبو السعود ١/ ١٤٦).

إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ
أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ
فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ
ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ

﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ أي ثوابه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لا يَضيع عنده عمل. وقرىء بالياء فيكونَ وعيداً.

(١١١) ﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على وَدَّ، والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ لفٌّ بين قولي الفريقين كما في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾[(١)] ثقة بفهم السامع، وهود جمعُ هائِدٍ كعُوذٍ وعائذ، وتوحيدُ الاسم المضمَر في كان وجمعُ الخبر لاعتبار اللفظ والمعنى. ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ إشارة إلى الأماني المذكورة، وهي أن لا يُنزَّل على المؤمنين خيرٌ من ربهم وأن يَرُدوهم كفاراً وأن لا يدخل الجنة غيرُهم، أو إلى ما في الآية على حذفِ المضاف أي أمثالُ تلك الأُمنية أمانيُّهم، والجملة اعتراض، والأمنية أفعولة من التمني كالأُضحوكة والأعجوبة. ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم فإن كل قول لا دليل عليه غير ثابت.

(١١٢) ﴿بَلَىٰ﴾[(٢)] إثبات لما نفَوْه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص له نفسه[(٣)] أو قَصْدَه، وأصلُه العُضْوُ ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في عمله[(٤)] ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ﴾ الذي وُعِد له على عمله ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ثابتاً عن ربه لا يضيع ولا يَنقص، والجملة جواب مَنْ إن كانت شرطيةً وخبرُها إن كانت موصولة. والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله: بلى وحْدَه، ويَحْسُنُ الوقف عليه. ويجوز أن يكون مَنْ أسلم فاعلُ فِعْل مقدّر مِثْل بلى يدخُلُها من أسلم ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ في الآخرة.

(١١٣) ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي على أمر يصح ويُعْتَدّ به. نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا وتقاولوا بذلك. ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ الواو للحال، والكتاب للجنس أي: قالوا ذلك وهم مِنْ أهل العلم والكتاب. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ كعبدة الأصنام

---

(١) البقرة: «١٣٥».

(٢) عدل عن إبطال صريح ما ادعوه وسلك هذا المسلك إبانة لغاية حرمانهم مما علقوا به أطماعهم وإظهاراً لكمال عجزهم عن إثبات مدّعاهم (أبو السعود ١٤٧/١).

(٣) عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر ومظهر آثار الخضوع الذي هو من أخص خصائص الإخلاص (أبو السعود ١١٤٧/١).

(٤) الإحسان هو أن تأتي بالعمل على أحسن وجه سواء كان في العبادة أو المعاملة...

فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

والمُعَطِّلة[(١)]. وَبَّخَهم على المكابرة والتشبه بالجهال. فإن قيل: لِمَ وبخهم وقد صدقوا، فإن كِلا الدِّينين بعد النسخ ليس بشيء؟. قلت: لم يَقصدوا ذلك، وإنما قَصَد به كل فريق إبطال دِين الآخَر من أصلِه والكفرِ بنبيه وكتابِه، مع أن ما لم ينسخ منهما حق واجبُ القَبول والعمل به ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ يَفصِل ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ بين الفريقين ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ بما يَقْسِم لكل فريق ما يليق به من العقاب. وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار.

(١١٤) ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عام لكل من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة، وإن نزل في الروم لما غزوا بيت المقدس وخربوه وقتلوا أهله[(٢)]. أو في المشركين لما منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية[(٣)] ﴿أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ ثاني مفعولي منع ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ بالهدم، أو التعطيل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخشوع فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يَبْطِشوا بهم فضلاً عن أن يمنعوهم منها، أو ما كان لهم في علم الله وقضائه، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصرة واستخلاص المساجد منهم وقد نجَّز وعده. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد، واختلف الأئمة فيه فجوز أبو حنيفة ومنع مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ قتل وسبي، أو ذلة بضرب الجزية ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ بكفرهم وظلمهم.

(١١٥) ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي له الأرض كلها لا يختص به مكان دون مكان، فإن مُنِعتم أن تصلوا في المسجد الحرام، أو الأقصى فقد جَعَلْتُ لكم الأرض مسجداً. ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ أي جهته التي أمر بها، فإن إمكان التولية لا يختص بمسجد أو مكان. أو فثم ذاته: أي هو عالم مطلع بما يفعل فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ بإحاطته بالأشياء، أو برحمته يريد التوسعة على عباده ﴿عَلِيمٞ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها، وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت في صلاة المسافر على الراحلة[(٤)].

---

(١) المعطلة هم الذين عطلوا صفات الله تعالى ولم يصفوه بشيء مما وصف به نفسه وهو مذهب الجهم بن صفوان

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣١. وقال: هذا قول ابن عباس في رواية الكلبي. قلت: والكلبي متروك.

(٣) أخرجه الواحدي عن ابن عباس (أسباب النزول ص٣٩) وإسناده حسن كما في تخريج أسباب النزول تحقيق عصام الحميدان ص٣٦.

(٤) أخرجه مسلم (٤٨٦/١ ـ ٤٨٧ رقم ٣٣، ٣٤/٧٠٠)، والترمذي (٢٠٥/٥ رقم ٢٩٥٨) كلاهما من طريق =

وقيل: في قوم عَمِيت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم[١]، وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمْه التدارك. وقيل: هي توطئة لنسخ القِبلة وتنزيةٌ للمعبود أن يكون في حيز وجهة.

(١١٦) ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾ نزلت لما قال اليهود: عزير ابنُ الله والنصارى: المسيح ابن الله ومشركو العرب: الملائكةُ بناتُ الله، وعطْفُهُ على قالت اليهود أو منعُ أو مفهومُ قوله تعالى ومَنْ أظلم. وقرأ ابن عامر بغير واو ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيهَ والحاجة وسرعةَ الفناء، ألا ترى أن الأجرام الفَلَكِيَّة ـ مع إمكانها وفنائها ـ لما كانت باقية مادام العالم لم تَتخذ ما يكون لها كالولد اتخاذَ الحيوان والنبات اختياراً أو طبعاً. ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ رد لما قالوه واستدلال على فساده، والمعنى أنه تعالى خالقٌ ما في السموات والأرض الذي من جملته الملائكة وعزير والمسيح ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون لا يَمتنعون عن مشيئته وتكوينه، وكل ما كان بهذه الصفة لم يجانِس مُكَوِّنه الواجبَ لذاته فلا يكون له ولد، لأن من حق الولد أن يجانِس والدَه. وإنما جاء بما الذي لغير أولي العلم وقال قانتون على تغليبِ أولي العلم تحقيراً لشأنهم، وتنوينُ كلٌّ عوضٌ عن المضاف إليه، أي كل ما فيهما. ويجوز أن يراد كلُّ مَنْ جعلوه ولداً له مطيعاً مقرونٌ بالعبودية، فيكون

= سعيد بن جُبير عنه. ولفظه «كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته، حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت (فأينما تولوا) وفي رواية عنده: «ثم تلا ابن عمر: فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فثمَّ وجه اللهِ» وقال: في هذا نزلت.

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي (٥/ ٢٠٥ رقم ٢٩٥٧) عن عامر بن ربيعة قال: كنا مع النبي ﷺ في سفره في ليلة مظلمة فلم ندرِ أين القبلة فصلى كل رجل منا على حياله. فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فنزلت (فأينما تولوا فثم وجهُ اللهِ).

وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان عن أبي الربيع عن عاصم بن عبيدالله، وأشعث قال عنه الحافظ في التقريب متروك. وقال ابن كثير وشيخهُ عاصم أيضاً ضعيف.

ولكن للحديث شاهد من حديث جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير أو سَرِيَّة فأصابنا غيمٌ فتحرَّيْنا، واختلفنا في القبلة، فصلى كل رجل منا على حدة، فجعل أحدنا يخطر بين يديه لنعلم أمكنتنا، فلما أصبحنا نظرناه فإذا نحن قد صلينا على غير القبلة، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: قد أجزأت صلاتكم».

أخرجه الدارقطني (١/ ٢٧١ رقم ٤) والحاكم (١/ ٢٠٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١٠) من طريق محمد بن سالم عن عطاء عنه قال الحاكم هذا حديث محتج برواته كُلهم غير محمد بن سالم فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح. وتعقبهُ الذهبي بقوله هو أبو سهل واه.

وقال الألباني في الإرواء (١/ ٣٢٤): وضعفه الدارقطني كما يأتي وقد توبع. فرواه الدارقطني (١/ ٢٧١ رقم ٢) والبيهقي (٢/ ١٠) من طريق أحمد بن عبيدالله بن الحسن العنبري قال: وجدت في كتاب أبي: ثنا عبدالملك بن أبي سليمان العرزمي عن عطاء به نحوه.

ولكن فيه أحمد بن عبيدالله العنبري ليس بالمشهور. . . . وعلة البيهقي بما فيه من الوِجادة وليس بشيء.

وللحديث متابعة أخرى فرواه البيهقي عن محمد بن عبيدالله العرزمي عن عطاء به نحوه وقال: تفرد به محمد بن سالم ومحمد بن عبيدالله العرزمي عن عطاء وهما ضعيفان وكذا قال الدارقطني.

وبالجملة فالحديث بهذا الشاهد مع طرقه الثلاث عن عطاء يرقى إلى درجة الحسن إن شاء الله.

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

إلزاماً بعد إقامة الحجة، والآية مشعِرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه، واحتج بها الفقهاء على أن من مَلَكَ ولَدَه عُتِق عليه، لأنه تعالى نفى الولد بإثبات الملك، وذلك يقتضي تنافيهما.

(١١٧) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مبدعُهما، ونظيره السميع في قوله:

أمِنْ ريحانة الداعي السَّمِيع ... يؤرِّقُني وأصْحَابي هُجُوعُ

أو بديعُ سمواته وأرضه، من بَدِع فهو بديع. وهو حجة رابعة، وتقريرها أن الوالد عُنصرُ الولد المنفعلِ بانفصال مادته عنه، والله سبحانه وتعالى مبدِع الأشياء كلها فاعلٌ على الإطلاق منزَّه عن الانفعال فلا يكون والداً. والإبداع: اختراع الشيء لا عن الشيء دفعة، وهو أَلْيَقُ بهذا الموضوع من الصنع الذي هو: تركيب الصور لا بالعنصر، والتكوينِ الذي يكون بتغييرٍ وفي زمان غالباً[1]. وقرىء بديعِ مجروراً على البدل من الضمير في له. وبديعَ منصوباً على المدح.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ أي أراد شيئاً، وأصل القضاء إتمامُ الشيء قوةً كقوله تعالى ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾[2]، أو فعلاً كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾[3]. وأُطلِق على تعلق الإرادة الإلهية بوجود الشيء من حيث إنه يُوجِبُه. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ مِنْ كان التامة بمعنى أحدث فيحدث. وليس المراد به حقيقة أمرٍ وامتثالٍ بل تمثيلُ حصولِ ما تعلقت به إرادته بلا مُهلة بطاعةِ المأمور [illegible] بلا توقف. وفيه تقرير لمعنى الإبداع، وإيماءٌ إلى حجة خامسة وهي: أن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهْلة، وفِعْله تعالى مستغنٍ عن ذلك. وقرأ ابن عامر فيكونَ بفتح النون. واعلم أن الـ[illegible] في هذه الضلالة: أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يُطلقون الأب على الله تعالى [illegible]عتبار أنه [illegible]ول، حتى قالوا إن الأب هو الربّ الأصغر واللهُ سبحانه وتعالى هو الرب الأكبر، ثم ظنت الـ[illegible]هم أن المراد به معنى الولادة فاعتقدوا ذلك تقليداً، ولذلك كُفِّرَ قائلُه ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد.

(١١٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أيْ جهلة المشركين، أو المتجاهلون من أهل الكتاب[4]. ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة، أو يوحي إلينا بأنك رسوله. ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ حجةٌ

---

(١) معنى البديع إذا استعمل في الله تعالى فإنه يفيد إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلا لله تعالى (المفردات للراغب مادة بدع).

(٢) الإسراء: «٢٣».

(٣) فصلت: «١٢».

(٤) وصف أهل الكتاب بأنهم لا يعلمون لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغي، أو لعدم علمهم بموجب عملهم، أو لأن ما يحكى عنهم لا يصدر عمن له شائبة علم أصلاً (أبو السعود ١/١٥١).

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

على صدقك، والأول استكبارٌ والثاني جحود، لأن ما أتاهم آيات الله استهانة به وعناداً، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من الأمم الماضية ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[(١)]. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[(٢)] ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومَنْ قبلهم في العَمى والعِناد. وقرىء بتشديد الشين. ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يطلبون اليقين، أو يوقنون الحقائق لا يعتريهم شبهة ولا عناد. وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك لخفاء في الآيات أو لطلب مزيد اليقين، وإنما قالوه عتواً وعناداً.

(١١٩) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ متلبساً مؤيداً به. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلا عليك إن أصروا وكابروا. ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بَلَّغت. وقرأ نافع ويعقوب: لا تَسْأَلْ، على أنه نهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه. أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يَقْدِر أن يُخبِر عنها، أو السامعُ لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال. والجحيم: المتأجج من النار[(٣)].

(١٢٠) ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ مبالغة في إقناط الرسول ﷺ من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فكيف يتبعون ملته؟! ولعلهم قالوا مثل ذلك فحكى الله عنهم ولذلك قال ﴿قُلْ﴾ تعليماً للجواب. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى إلى الحق، لا ما تدْعون إليه. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ آراءَهم الزائفة. والملةُ ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه، من أمللت الكتاب إذا أمليته، والهوى: رأيٌ يَتْبَع الشهوة ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي الوحي، أو الدين المعلوم صحتُه. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عقابه وهو جواب لئِن[(٤)].

(١٢١) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به مؤمني أهل الكتاب ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بمراعاة اللفظ عن التحريف والتدبر في معناه والعمل بمقتضاه، وهو حال مقدَّرة والخبر ما بعده، أو خبر على أن المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بكتابهم دون المُحرِّفين. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ بالتحريف

---

(١) النساء: «١٥٣».

(٢) المائدة: «١١٢».

(٣) وفي التعبير عنهم بأنهم أصحاب الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وإيذان بأنهم مطبوع عليهم لا يُرجى منهم الإيمان.. (أبو السعود ١/ ١٥٢).

(٤) (وحيث لم يستلزم نفيُ الولي نفيَ النصير وسَّط «لا» بين المعطوفين لتأكيد النفي، وهذا من باب التهييج والإلهاب) أبو السعود ١/ ١٥٣.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ
عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ
رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

والكفر بما يصدقه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

(١٢٢، ١٢٣) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (١٢٣) ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ لما صدَّر قصتَهم بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم مبالغة في النصح وإيذاناً بأنه فَذْلَكة القضية والمقصود من القصة.

(١٢٤) ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾[١] كلفه بأوامر ونواه، والابتلاءُ في الأصل التكليف بالأمر الشاق من البلاء، لكنه لما استلزَم الاختبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب ظُنَّ ترادفهما، والضمير لإبراهيم، وحَسُن لتقدُّمه لفظاً وإن تأخر رتبة، لأن الشرط أحد التقدمين. والكلمات قد تطلق على المعاني فلذلك فسرت بالخصال الثلاثين المحمودة المذكورة في قوله تعالى ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾[٢] الآية وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾[٣] إلى آخر الآية، وقوله ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[٤] إلى قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾[٥] كما فسرت بها في قوله ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾[٦] وبالعشر التي هي من سُنَنه، وبمناسك الحج؛ وبالكواكب، والقمرين، والختان، وذبح الولد، والنار، والهجرة. على أنه تعالى عامَله بها معامَلَة المختَبر بهن وبما تضمنته الآياتُ التي بعدها. وقرىء إبراهيمُ ربَّه على أنه دعا ربه بكلمات مثل ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[٧]. ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾[٨] ليرى هل يجيبه. وقرأ ابن عامر إبراهام بالألف جميع ما في هذه السورة.

---

(١) كان الحديث فيما مضى عن بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ومن مواثيقهم وعهودهم منذ عهد موسى حتى عهد محمد عليهما السلام وموقفهم من الدعوة الجديدة ومحاولاتهم في تهويد المسلمين وغيرهم.
ومن ثم يرجع السياق إلى عهد إبراهيم عليه السلام حيث يعتزون بنسبتهم إليه، كما تعتز قريش بنسبتها إلى إسماعيل عليه السلام.. فيبين القرآن الكريم قصتهما ويتحدث عن البيت الحرام وبنائه وذلك لتقرير الحقائق في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين وليبين أن قبلتهم كانت الكعبة ليمهد للحديث عن تغيير القبلة، وأن دينهم التوحيد الخالص وأن محمداً عليه السلام على نهج إبراهيم وإسماعيل، فمن كان من ملتهما فليتبع محمداً ﷺ (انظر: في ظلال القرآن ١/ ١١١).

(٢) التوبة: «١١٢».

(٣) الأحزاب: «٣٥».

(٤) المؤمنون: «١».

(٥) المؤمنون: «١٠».

(٦) البقرة: «٣٧».

(٧) البقرة: «٢٦٠».

(٨) إبراهيم: «٣٥».

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فأداهن كُمَّلاً وقام بهن حق القيام، لقوله تعالى ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[1] وفي القراءة الأخيرة الضميرُ لربه، أي أعطاه جميع ما دَعاه. ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ استئنافٌ إن أضمرتَ ناصِبَ إذْ، كأنه قيل: فماذا قال ربه حين أتمهن، فأجيب بذلك. أو بيانٌ لقوله ابتلى فتكونُ الكلماتُ ما ذكَره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده والإسلام. وإن نصبْتَه يقال فالمجموع جملةٌ معطوفة على ما قبلها، أو جاعل من جعل الذي له مفعولان. والإمامُ اسمٌ لمن يُؤتَمُّ به وإمامته عامَّة مؤبَّدة، إذ لم يُبْعثْ بعده نبي إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه. ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ عطف على الكاف أي وبعضِ ذريتي، كما تقول: وزيداً، في جواب: سأكرمك. والذرية نسل الرجل، فُعْلية أو فُعُولة قلبت راؤها الثانية ياءً كما في تقضَّيت، من الذَّرِّ بمعنى التفريق، أو فعولة أو فعيلة قلبت همزتها من الذرء بمعنى الخلق. وقرىء ذِرِّيتي بالكسر وهي لغة. ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إجابة إلى مُلْتَمَسِه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظَلَمة، وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم. وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة. وقرىء الظالمون والمعنى واحد إذ كل ما نالك فقد نلته.

(١٢٥) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي الكعبة، غَلَب عليها كالنجم على الثريا. ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم، أو موضعَ ثواب يثابون بحَجه واعتماره. وقرىء: مثابات أي لأنه مثابةُ كل أحد. ﴿وَأَمْنًا﴾ وموضعَ أمن لا يُتعرضُ لأهله كقوله تعالى ﴿حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[2] أو يأمَنُ حاجُّهُ من عذاب الآخرة من حيث إن الحج يَجُبُّ ما قبلَه، أولا يؤاخَذُ الجاني الملتجىء إليه حتى يَخْرُج، وهو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه. ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ على إرادة القول، أو عطف على المقدَّر عاملاً لإذ، أو اعتراض معطوف على مضمَر تقديره توبوا إليه واتخذوا، على أن الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهو أمر استحباب، ومقامُ إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قَدَمِه، أو الموضعُ الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس إلى الحج، أو رَفْعُ بناء البيت وهو موضعُه اليوم. روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله تعالى عنه وقال: «هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى، فقال: لم أومر بذلك، فلم تغِب الشمس حتى نزلت»[3] وقيل المراد به الأمر

---

(١) النجم: «٣٧».

(٢) العنكبوت: «٦٧».

(٣) أخرجه ابن مردويه من طريق عمر بن ميمون عن عمر ـ كما في الدر المنثور (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩١) ـ. وأخرج الحديث بدون هذه القصة البخاري (١/ ٥٠٤ رقم ٤٠٢) و(٨/ ١٦٨ رقم ٤٤٨٣). وأحمد في مسنده (١/ ٢٤، ٣٦) من طريق حميد عن أنس عن عمر قال: (وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله! لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، فنزلت «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»...). =

بركعتي الطواف، لما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى[١] وللشافعي رحمه الله تعالى في وجوبهما قولان. وقيل: مقام إبراهيم الحرمُ كله. وقيل مواقف الحج واتخاذُها مصلى أن يُدعى فيها ويتقرب إلى الله تعالى[٢] وقرأ نافع وابن عامر واتَّخَذُوا بلفظ الماضي عطفاً على جعلْنا، أي: واتخذ الناسُ مقامَه الموسوم به، يعني الكعبة قبلة يصلون إليها. ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أمرناهما. ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾[٣] ويجوز أن تكون أنْ مفسِّرة لتضمن العهد معنى القول، يريد طهراه من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به، أو أَخْلِصاه. ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله. ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين عنده، أو المعتكفين فيه ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾. أي المصلين، جمع راكع وساجد.

(١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ يريد به البلد، أو المكان. ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾[٤] ذا أمن كقوله تعالى ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٥]. أو آمناً أهله كقولك: ليل نائم ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أَبْدَل مِنْ ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ أهله بَدَلَ البعض للتخصيص ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ عطف على من آمن والمعنى وارزق من كفر، قاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة، فنبه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين. أو مبتدأ متضمن معنى الشرط ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ خبره، والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتيع لكنه سبب لتقليله، بأن يجعله مقصوراً بحظوظ الدنيا غير متوسل به إلى نيل الثواب، ولذلك عَطَف عليه ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي أَلزَّه إليه لزّ المضطر لكفره وتضييعه ما مُتعتُه به من النعم[٦]، وقليلاً نصب على المصدر، أو الظرف. وقرىء بلفظ الأمر فيهما على أنه من دعاء إبراهيم وفي قال ضميره. وقرأ ابن عامر فأُمْتِعُهُ من أَمْتَعَ. وقرىء فنُمتعه ثم نضطره، وإضطره بكسر الهمزة على لغة من يكسر حروف المضارعة، وأضطره بإدغام الضاد وهو ضعيف لأن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يجاورها دون العكس.

= وأخرجه مسلم (٤/ ١٨٦٥ رقم ٢٤/ ٢٣٩٩) عن طريق نافع عن ابن عمر عن عمر قال: (وافقت ربي في ثلاث في مقام إبراهيم...).

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل (٢/ ٨٨٧ رقم ١٤٧/ ١٢١٨).

(٢) وأولى الأقوال هو الأول، وهو أن المراد بمقام إبراهيم الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار. وقد دلت الأحاديث الصحيحة على ذلك كما ذكر الشوكاني (فتح القدير ١/ ١٤٠).

(٣) إضافة البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف (أبو السعود ١/ ١٥٧).

(٤) أورد لفظ البلد هنا منكراً غير معرَّف، بينما ورد في سورة إبراهيم معرّفاً «رب اجعل هذا البلد» إبراهيم «٣٥»، فإن حُمل على تكرر السؤال فأجيب له بأحدهما وتأخر الآخرُ لحكمة.. أو كرره لأن المعتاد في البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن. وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية، فالظاهر أن المسؤول كلا الأمرين (البلدية والأمن) وقد حكى ذلك ههنا واقتصر هناك على سؤال الأمن اكتفاء بحكاية جعل أفئدة الناس تهوي إليهم (أبو السعود ١/ ١٥٨) بمعنى: اجعل هذا بلداً آمنا، أي اجعله بلداً واجعله آمناً. أما اجعل هذا البلد آمناً. أي ارزقه الأمن.

(٥) الحاقة: «٢١».

(٦) تغيير سبكه للإيذان بأن الكفر سبب لاضطرارهم إلى عذاب النار (أبو السعود ١/ ١٥٩).

ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾
رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المخصوص بالذم محذوف، وهو العذاب.

(١٢٧) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ حكاية حال ماضية(١). والقواعدُ جمع قاعدة وهي الأساس صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات، ولعله مَجَاز من المقابل للقيام، ومنه قعَدك الله، ورفعُها: البناءُ عليها، فإنه ينقلها عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، ويُحْتَمَل أن يرادَ بها سافَات البناء فإن كل سافٍ قاعدة ما يوضع فوقه ويرفعها بناؤها. وقيل المراد رفعُ مكانته وإظهار شرفه بتعظيمه ودعاءِ الناس إلى حجه. وفي إبهام القواعد وتبيينها تفخيم لشأنها. ﴿وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ كان يناولُه الحجارةَ، ولكنه لما كان له مدخل في البناء عُطِفَ عليه(٢). وقيل: كانا يبنيان في طرفين، أو على التناوب. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي يقولان ربنا تقبل منا، وقد قرىء به والجملة حال منهما. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتنا(٣).

(١٢٨) ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصين لك من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان أو الثبات عليه. وقرىء مُسْلِمِين على أن المراد أنفسُهما وهاجر. أو أن التثنية من مراتب الجمع. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصَّا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصّا بعضهم لَمَّا أُعلِما أن في ذريتهما ظلمة، وعَلِما أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى، فإنه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا، وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ، ويجوز أن تكون مِنْ للتبيين كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾(٤) قُدِّم على المبيَّن وفُصِل به بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(٥). ﴿وَأَرِنَا﴾ من رأى بمعنى أبصر أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ متعبداتنا في الحج، أو مذابحنا. والنُسُك في الأصلِ غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكُلْفة والبعد عن العادة. وقرأ ابـن كثيـر . . . .

---

(١) صيغة الاستقبال «يرفع» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة (أبو السعود ١/١٥٩).

(٢) ولعل تأخيره عن المفعول للإيذان بأن الأصل في الرفع هو إبراهيم وإسماعيل تبع له (أبو السعود ١/ ١٦٠).

(٣) وقصر نعتي السمع والعلم عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية (أبو السعود ١/١٦١).

(٤) النور: «٥٥».

(٥) الطلاق: «١٢».

والسوسي[١] عن أبي عمرو ويعقوب أرْنا، قياساً على فَخْذ في فَخِذ، وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها[٢]. وقرأ الدوري[٣] عن أبي عمرو بالاختلاس[٤] ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهواً. ولعلهما قالا هضماً لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن تاب.

(١٢٩) ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ، فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي»[٥]. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما توحي إليه من دلائل التوحيد والنبوة. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(١) السوسي هو أبو شعيب صالح بن زياد، مقرىء ضابط محرر ثقة، أخذ القراءة عن اليزيدي عن أبي عمرو، واشتهر بالرواية عن أبي عمرو أحد القراء السبعة، وتوفي عام (٢٦١)هـ.

(٢) قوله: فيه إجحاف. قال عنه الألوسي بأنه (مما لا ينبغي لأن القراءة من المتواترات، ومثلها أيضاً موجود في كلام العرب العرباء) روح المعاني ١/٣٨٦.

(٣) الدوري هو أبو عمر حفص بن عمر المقرىء الضرير، ولقب بالدوري نسبة إلى الدور وهو موضع بالجانب الشرقي من بغداد، وكان الدوري ثقة ضابطاً وهو أول من جمع القراءات، اشتهر بالرواية عن أبي عمرو أحد القراء السبعة وأخذها عنه بواسطة اليزيدي، وتوفي (٢٤٦)هـ.

(٤) أي باختلاس كسرة الراء وعدم إشباعها (انظر: المبسوط في القراءات العشر لابن مهران ص١٢٣).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤/١٢٧) وابن حبان (ص٥١٢ رقم ٢٠٩٣ ـ الموارد) والحاكم في المستدرك (٢/٤١٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» وأقره الذهبي وابن سعد في الطبقات (١/١٤٨)، وابن جرير في تفسيره (١/٥٥٦) والطبراني في الكبير (١٨/٢٥٢، ٢٥٣ رقم ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١) والبيهقي في الدلائل (١/ ٨٠، ٨٣)، و(٢/ ١٣٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٣). عن عرباض بن سارية. وقال: وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح. غير سعيد بن سويد. وقد وثقه ابن حبان وللحديث شواهد منها:
(منها): حديث أبي أمامة: قال: قلت: يا رسول الله! ما كان أول بدء أمرك؟ قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام.
أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) وابن سعد (١/ ١٤٩) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٥٥). وفيه «الفرج بن فضالة» وهو ضعيف (التقريب ٢/١٠٨) وأورده الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٢) وقال رواه أحمد وإسناده حسن وله شواهد تقويه، ورواه الطبراني.
(ومنها): حديث ابن معدان عن أصحاب النبي ﷺ، قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ فقال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى، وبصرى من الشام.
أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٠) وقال: خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديثاً إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
قلت: وأخرج الدارمي (١/٨) قصة شق صدر النبي ﷺ في آخرها: حدثت أمي بالذي لقِيت فلم يَرُعْها، وقالت: إني رأيت حين حملتُ خرج مني، يعني نوراً، أضاءت منه قصور الشام. وأخرج الدارمي أيضاً هذه القصة، من طريق خالد بن معدان، عن عبدالرحمٰن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبدالسلمي عن النبي ﷺ.
وأخرجه الحاكم (٢/ ٦١٦) لكنه سقط عنده «عبدالرحمٰن بن عمرو» من السند، فالسند عنده «خالد» عن عتبة، عن النبي ﷺ. =

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٣١﴾

﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ القرآن. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المحكم له.

(١٣٠) ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ استبعاد وإنكار لأن يكون أحد يَرْغَبُ عن ملته الواضحة الغراء، أي لا يرغب أحد عن ملته. ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ إلا من استمهنها وأذلها واستخف بها. قال المبرِّد[١] وثعلب[٢] سفِه ـ بالكسر ـ متعدّ وبالضم لازم، ويشهد له ما جاء في الحديث «الكبر أن تسفه الحق، وتغمص الناس»[٣]. وقيل: أصله سَفِه نفسُه على الرفع، فنصب على التمييز نحو غَبَن رأيَه وألَم رأسُه، وقول النابغة الذبياني[٤]:

وَنَـأْخُـذُ بَعْـدَهُ بِـذنَـابِ عَيْـشٍ أَجَـبَّ الظَّهْـرِ لَيْـسَ لَـهُ سَنَـامُ

أو سفَهٌ في نفسه، فنُصب بنزع الخافض. والمستثنى في محل الرفع على المختار بدلاً من الضمير في يرغب لأنه في معنى النفي. ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ حجة وبيان لذلك، فإن من كان صفوة العباد في الدنيا مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يومَ القيامة كان حقيقاً بالاتباع له

= وخالد بن معدان سمع عن عتبة بن عبد، فلعله روى الحديث المذكور عن عتبة عن النبي ﷺ.
والخلاصة أن الحديث حسن بشواهده. وانظر «الصحيحة» للمحدث الألباني (رقم ١٥٤٦).

(١) المبرد: سبقت ترجمته ص٢١.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني مولاهم الإمام البغدادي، أبو العباس ثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، ولد سنة (٢٠٠هـ). وابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة سنة ست عشرة، وحفظ كتب الفرَّاء فلم يشذ منها حرف، وعني بالنحو أكثر من غيره، فلما أتقنهُ أكب على الشعر والمعاني والغريب.
صنف: المصون في النحو، اختلاف النحويين، معاني القرآن، معاني الشعر، القراءات، التصفير، الوقف والإبتداء، الهجاء، الأمالي، غريب القرآن وغيرها.
وثقل سمعه بأَخَرَة، ثم صُمّ. وتوفي يوم السبت لعشر خلون من جمادي الأولى سنة إحدى وتسعين ومائتين.
[بغية الوعاة للسيوطي (١/ ٣٩٦ رقم ٧٨٧)].

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٦٩ رقم ١٣١٧) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٣٤). وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار بنحوه وفيه: محمد بن أبي ليلى وهو سيء الحفظ وحديثه حسن بالشواهد التي تقدمت في هذا الباب. ولكن عبدالرحمن لم يسمع ثابت.

(٤) هو زياد بن معاوية بن ضِباب الذُّبياني الغطفاني المُضَري، أبو أُمامة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز. كانت تضرب له قُبة من جلد أحمر بسوق عُكاظ، فتقصد الشعراء فتعرض عليه أشعارها. شعره كثير، جمع بعضه في «ديوان ـ ط» صغير وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولا حشو وعاش عمراً طويلاً. مات سنة (١٨ق.هـ).
[الأعلام للزركلي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥)].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

لا يَرْغب عنه إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر.

(١٣١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ظرف لاصطفيناه، أو تعليل له، أو منصوب بإضمار اذكُر. كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلمَ أنه المصطفى الصالح المستحقُّ للإمامة والتقدم، وأنه نال ما نال بالمبادرة إلى الإذعان وإخلاص السر حين دعاه ربه وأخطَر ببالِهِ دلائله المؤديةَ إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام. روي أنها نزلت لما دعا عبدالله بن سلام ابني أخيه: سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فأسلم سلمةُ وأبى مهاجرٌ.

(١٣٢) ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ التوصية هي التقدم إلى الغير بفعلٍ فيه صلاح وقُرْبة، وأصلها الوَصل يقال: وصاه إذا وصله، وفصّاه: إذا فصله، كأن الموصي يصل فعله بفعل الموصَى. والضمير في «بها» للملّة، أو لقوله أسلمت على تأويل الكلمة أو الجملة. وقرأ نافع وابن عامر وأوصى والأول أبلغ ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ عطف على إبراهيم، أي ووصى هو أيضاً بها بنيه. وقرىء بالنصب على أنه ممن وصاه إبراهيم ﴿يَٰبَنِىَّ﴾. على إضمار القول عند البصريين، متعلق بوصى عند الكوفيين لأنه نوع منه. ونظيره:

رجُـلاَنِ مِـنْ ضَبَّـةَ أخبَـرَانـا أنَّـا رَأَيْنَـا رَجُـلاً عُـرِيَـانـا

بالكسر، وبنو إبراهيم كانوا أربعة: إسماعيل وإسحاق ومذين ومدان. وقيل: ثمانية. وقيل: أربعة عشر: وبنو يعقوب اثنا عشر: روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويشسوخور وبولون وتفتوني ودون وكودا وأوشير وبنيامين ويوسف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان لقوله تعالى ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ظاهرُه النهي عن الموت على خلاف حال الإسلام، والمقصود هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا، والأمر بالثبات على الإسلام كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشع. وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه وأن من حقه أن لا يَحِلّ بهم، ونظيره في الأمر مُتْ وأنت شهيد. وروي أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات فنزلت:

(١٣٣) ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموتُ وقال لبنيه ما قال فلِمَ تدّعون اليهودية عليه، أو متصلة بمحذوف

(١) الالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليه عليه السلام لإظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته.
وإضافة الرب في جوابه عليه السلام إلى العالمين للإيذان بكمال قوة إسلامه، حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به. (أبو السعود ١/١٦٣).

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن

تقديره أكنتم غائبين أم كنتم شاهدين. وقيل: الخطاب للمؤمنين والمعنى ما شاهدتم ذلك وإنما علمتموه بالوحي وقرىء حَضِرَ بالكسر.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ بدل من إذْ حضر. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي: أيُّ شيء تعبدونه؟ أراد به تقريرَهم على التوحيد والإسلام وأخْذَ ميثاقهم على الثبات عليهما، و«ما» يُسألُ به عن كل شيء مالم يُعْرَف، فإذا عُرِف خُصَّ العقلاءُ بِمنْ إذا سُئِل عن تعيينه، وإن سئل عن وصفه قيل: ما زيد أفقيه أم طبيب؟. ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ المتفَق على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته، وعُدَّ إسمعيل من آبائه تغليباً للأب والجد، أو لأنه كالأب لقوله عليه الصلاة والسلام: «عم الرجل صنو أبيه»[(١)]. كما قال عليه الصلاة والسلام في العباس رضي الله عنه: «هذا بقية آبائي»[(٢)]. وقرىء إله أبيك، على أنه جمع بالواو والنون كما قال:

وَلَمَّا تَبَيَّنَّ أَصْوَاتَنَا		بكَيْنَ وَفَدينَنَا بالأَبِينا

أو مفرد وإبراهيم وحدَه عطفُ بيان.

﴿إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالى ﴿بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ﴾[(٣)]. وفائدتُه التصريح بالتوحيد، ونفي التوهم الناشىء من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور والتأكيد، أو نصبٌ على الاختصاص ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد، أو مفعوله، أو منهما. ويحتمل أن يكون اعتراضاً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/٦٧٦ رقم ١١/٩٨٣) وأحمد في المسند (٢/٣٢٢) وأبو داود (٢/٢٧٣ ـ ٢٧٥ رقم ١٦٢٣) كلهم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة كما أخرجه أحمد في المسند (١/٩٤) من حديث علي.
وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠/٨٧ رقم ٩٩٨٥) وابن عدي في الكامل (٦/٢٢٠٦) كلهم من حديث ابن مسعود.
وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠/٣٥٣ رقم ١٠٦٩٨) من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/١٠٩ رقم ١٢٢٦٠) من حديث مجاهد مرسلاً وإسناده صحيح.
وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/٨٠ رقم ١١١٠٧) من حديث ابن عباس وأورده الهيثمي في المجمع (٩/٢٦٩) وفيه عبدالله بن خراش وهو ضعيف ووثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ وبقية رجاله وثقوا.
وأخرجه الطبراني أيضاً في المعجم الصغير (١/٣٤٤ رقم ٥٧٢ ـ الروض الداني) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩/٢٦٩) وقال فيه جماعة لم أعرفهم.
والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١/١٠٧ رقم ٢١٥).

(٣) العلق: «١٦».

(١٣٤) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم ويعقوب وبنيهما، والأمة في الأصل المقصود، وسُمِّي بها الجماعة، لأن الفِرَقَ تؤمها. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ لكلٍّ أجرُ عمله، والمعنى أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعَكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»[١]. ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم.

(١٣٥) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ الضمير الغائب لأهل الكتاب، وأوْ للتنويع، والمعنى مقالتُهم أحد هذين القولين. قالت اليهود كونوا هودا. وقال النصارى كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جواب الأمر. ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي بل نكون ملة إبراهيم، أي أهلَ ملته، أو بل نتبع ملة إبراهيم. وقرىء بالرفع أي مِلّتُه مِلّتُنا، أو عكسه، أو نحن ملته بمعنى نحن أهلُ ملته. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل إلى الحق. حال من المضاف، أو المضاف إليه كقوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٢]. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدعون اتباعه وهم مشركون.

(١٣٦) ﴿قُولُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الخطاب للمؤمنين لقوله تعالى ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾[٣]. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ القرآن، قُدِّم ذكرُه لأنه أوَّل بالإضافة إلينا، أو سبب للإيمان بغيره ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الصحف، وهي وإن نزلت إلى إبراهيم لكنهم لما كانوا مُتعبَّدين بتفاصيلها داخِلين تحت أحكامها فهي أيضاً مُنَزَّلة إليهم، كما أن القرآن منزّل إلينا. والأسباط جمع سبط وهو الحافذ، يريد به حَفَدَة يعقوب، أو أبناءه وذراريهم فإنهم حفدةُ إبراهيم وإسحاق ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ التوراة والإنجيل، أفردهما بالذكر بحُكْم أبلغ لأن أمْرَهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغاير لما سبق، والنزاع وقع فيهما ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ جملة المذكورين منهم وغير المذكورين. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ مُنَزّلاً عليهم من ربهم. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كاليهود، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأحد لوقوعه في سياق النفي عامٌّ فساغ أن يضافَ إليه بَيْن. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي لله. ﴿مُسْلِمُونَ﴾ مذعنون مخلصون.

(١٣٧) ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا﴾ من باب التعجيز والتبكيت، كقوله تعالى ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[٤] إذ لا مِثْلَ لمَا آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام. وقيل: الباء للآلة دون التعدية، والمعنى إن تحروْا الإيمان بطريق يهدي إلى الحق مثلَ طريقكم، فإنّ وحدة المقصد لا تأبى

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشافِ (٤/ ١٢ رقم ٧٩) لم أجده وقد أخرج البخاري (٥/ ٣٨٢ رقم ٢٧٥٣) و(٦/ ٥٥١ رقم ٣٥٢٧) و(٨/ ٥٠١ رقم ٤٧٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال: يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشترُوا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً.
يا بني عبد منافٍ لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمةُ بنتَ محمدٍ سليني ما شئتِ من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً».

(٢) الأعراف: «٤٣».

(٣) البقرة: «١٣٧».

(٤) البقرة: «٢٣».

﴿رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ
ٱهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾
صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

تعدد الطرق، أو مزيدة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾[1]. والمعنى فإن آمنوا بالله إيماناً مثلَ إيمانكم به، أو المثْل مقحم[2] كما في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾[3] أي عليه، ويشهد له قراءة من قرأ بما آمنتم به، أو بالذي آمنتم به ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي إن أعرضوا عن الإيمان، أو عما تقولون لهم فما هم إلا في شقاق الحق، وهو المناوأة والمخالفة، فإن كل واحد من المتخالِفين في شِقٍّ غير شق الآخر[4] ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تسلية وتسكين للمؤمنين، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوأهم[5] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إما من تمام الوعد، بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مُجَازيكم لا محالة، أو وعيد للمعرضين، بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبُهم عليه.

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي صبَغنا اللهُ صبغتَه، وهي فطرةُ الله تعالى التي فطر الناس عليها، فإنها حِلْيةُ الإنسان كما أن الصبغة حليةُ المصبوغ، أو هدانا الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهَّر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسماه صبغة لأنه ظهر أثرُه عليهم ظهورَ الصِّبْغ على المصبوغ وتداخَلَ في قلوبهم تداخُلَ الصِّبغ الثوب، أو للمشاكلة. فإن النصارى كانوا يغمِسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعْمودية ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتُهم. ونصبها على أنه مصدر مؤكد لقوله آمنا، وقيل على الإغراء، وقيل على البدل من ملة إبراهيم عليه السلام[6].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ لا صِبْغةَ أحسنُ من صبغته ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ﴾ تعريض بهم، أي لا نشرك به كشركهم. وهو عطف على آمنا، وذلك يقتضي دخول قوله صبغة الله في مفعول قولوا، ولِمَنْ ينصِبُها على الإغراء أو البدل أن يُضمِر قولوا معطوفاً على الزموا أو اتبعوا ملة إبراهيم وقولوا آمنا

---

(١) يونس: «٢٧».
(٢) قوله: مزيدة للتأكيد وقوله: أو المثْل مقحم.. هذا يقتضي الزيادة ويخالف فصاحة القرآن كما ذهب إليه البعض، وقد سبق الحديث عنه عند قوله «ولا الضالين» في الفاتحة «٧» فارجع إليه.
(٣) الأحقاف: «١٠».
(٤) والتنوين في قوله «شقاق» للتفخيم.
وأوثرت الجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم واستقرارهم في ذلك.
(٥) وفي قوله «فسيكفيكهم الله» تلوين للخطاب بتجريده للنبي عليه السلام لأنه الأصل والعمدة في ذلك وللإيذان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المؤن والمشاق.. من وظائف الرؤساء، فنعمته تعالى في حقه عليه السلام أتم وأكمل (أبو السعود ١/١٦٨).
(٦) إضافة الصبغة إلى الله عز وجل للتشريف والإيذان بأنها عطية منه تعالى لا يستقل العبد بتحصيلها (أبو السعود ١/١٦٨).

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ
أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

بدلَ اتبعوا، حتى لا يلزم فك النظم وسوء الترتيب.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا. ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ في شأنه واصطفائه نبياً من العرب دونكم، روي أن أهل الكتاب قالوا: الأنبياء كلهم منا، لو كنت نبياً لكنت منا. فنزلت: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاصَ له بقوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده. ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ فلا يبعُدُ أن يُكْرِمَنا بأعمالنا، كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه إفحاماً وتبكيتاً، فإن كرامة النبوة إمّا تفضُّلٌ من الله على من يشاء والكل فيه سواء وإما إفاضةُ حقٍّ على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص، وكما أنّ لكم أعمالاً رُبما يعتبرُها الله في إعطائها، فلنا أيضاً أعمال. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ موحدون نخصه بالإيمان والطاعة دونكم.

(١٤٠) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ أم منقطعة والهمزة للإنكار. وعلى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالتاء يحتمل أن تكون معادِلة للهمزة في أتحاجوننا، بمعنى أي الأمرين تأتون المحاجة أو ادعاء اليهودية أو النصرانية على الأنبياء؟! ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ وقد نفى الأمرين عن إبراهيم بقوله ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾[(1)] واحتج عليه بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[(2)]. وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدين وفاقاً. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية والبراءةَ عن اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة. أو مِنّا لو كتمنا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالنبوة في كتبهم وغيرها، ومن للابتداء كما في قوله تعالى ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[(3)]. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم، وقرىء بالياء.

(١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم. وقيل: الخطاب فيما سبق لهم وفي هذه الآية لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم. وقيل: المراد بالأمة في الأول الأنبياء وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى.

---

(١) آل عمران: «٦٧».
(٢) آل عمران: «٦٥».
(٣) التوبة: «١».

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ

(١٤٢) ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الذين خفَّت أحلامُهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر، يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين. وفائدةُ تقديم الإخبار به توطينُ النفس وإعدادُ الجواب وإظهارُ المعجزة. ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ ﴾ ما صرفهم. ﴿ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ يعني بيت المقدس. والقبلةُ في الأصل الحالة التي عليها الإنسان من الاستقبال فصارت عُرْفاً للمكان المتوجَّه نحوَه للصلاة ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيرِه مقامَه، وإنما العبرة بارتسام أمره لا بخصوص المكان ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو ما ترتضيه الحكمة وتقتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة والكعبة أخرى[١].

(١٤٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة[٢]، أي كما جعلناكم مَهديين إلى الصراط المستقيم، أو جعلنا قبلتكم أفضل القِبَل. ﴿ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي خياراً، أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل. وهو في الأصل اسمٌ للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استُعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط كالجود بين الإسراف والبخل والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها، واستُدِل به على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلَمت به عدالتهم ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ علة للجعل، أي لتعلموا بالتأمل فيما نصَبَ لكم من الحُجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخِل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل وأرسل الرسل، فبلغوا ونصحوا. ولكن الذين كفروا حَمَلَهم الشقاءُ على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين مَنْ قبلكم، أو بعدَكم. روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة التبليغ - وهو أعلم بهم - إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم[٣] وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول عليه السلام كالرقيب المهيمن على أمته

---

(١) تخصيص السفهاء بالذكر لا يقتضي تسليم الباقين لتحويل القبلة وارتضاءهم إياه (أبو السعود ١/ ١٧١).

(٢) أشار باسم الإشارة البعيد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل (أبو السعود ١/ ١٧٢).

(٣) تصديره للحديث الصحيح بصيغة التمريض غير سائغة عند أهل الحديث فقد أخرج الحديث البخاري (١٨/ ١٧١ رقم ٤٤٨٧) و(١٣/ ٣١٦ رقم ٣٧٤٩) والترمذي (٥/ ٢٠٧ رقم ٢٩٦١) وقال حديث حسن صحيح.
والنسائي في السنن الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٣/ ٣٤٦) - وغيره عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله ﷺ: يُدعى نوحٌ يوم القيامة فَيَقول: لبّيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول نعم. فيقال =

مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ

عدّى بعلى، وقدمت الصلةُ للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي الجهة التي كنت عليها، وهي الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إليها بمكة، ثم لما هاجر أُمِر بالصلاة إلى الصخرة تألفاً لليهود. أو الصخرة لقول ابن عباس رضي الله عنهما: كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها[1] فالمخبر به على الأول الجعل الناسخ، وعلى الثاني المنسوخ. والمعنى أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة، وما جعلنا قبلتك بيت المقدس.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ إلا لنمتحن به الناسَ ونعلم من يتَّبِعُك في الصلاة إليها، ممن يرتد عن دينك إلفاً لقِبلة آبائه. أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه وما كان لعارض يزول بزواله. وعلى الأول معناه: ما رددناك إلى التي كنت عليها إلا لنعلم الثابتَ على الإسلام ممن ينكُص على عقبيه لقلقِه وضَعْف إيمانه. فإن قيل: كيف يكون علمه تعالى غاية الجعل وهو لم يزل عالماً؟ قلت: هذا وأشباهُه باعتبار التعلق الحالي الذي هو مناط الجزاء، والمعنى ليتعلق علمُنا به موجوداً. وقيل: ليعلم رسولُه والمؤمنون، لكنه أسنده إلى نفسه لأنهم خواصُّه، أو لتميز الثابت من المتزلزل كقوله تعالى ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[2] فَوَضَع العِلْمَ موضع التمييز المسبَّب عنه، ويشهد له قراءة ليُعْلَمَ على البناء للمفعول، والعلم إما بمعنى المعرفة، أو معلق لما في مَنْ من معنى الاستفهام، أو مفعوله الثاني ممن ينقلب، أي لنعلم من يتبع الرسول متميزاً ممن ينقلب. ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفاصلة. وقال الكوفيون هي النافية واللام بمعنى إلا. والضمير لما دل عليه قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾[3] من الجَعْلة، أو الردة، أو التولية، أو التحويلة، أو القبلة. وقرىء لكبيرةٌ بالرفع فتكون كان زائدة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ إلى حِكْمة الأحكام الثابتين على الإيمان والاتباع ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ أي ثباتكم على الإيمان. وقيل:

لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟: فيقول محمدٌ وأمتُه. فيشهدون أنه قد بَلَّغ، ويكون الرسولُ عليكم شهيداً فذلك قوله جلَّ ذِكرهُ (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً). والوسط: «العدل».

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/٣) وأحمد في المسند (١/٣٢٥) وابن سعد في الطبقات (١/٢٤٣) والبزار في كشف الأستار (١/٢١٠ ـ ٢١١ رقم ٤١٨) والطبراني في الكبير (١١/٦٧ رقم ١١٠٦٦) عنه وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/١٢) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) الأنفال: «٣٧».

(٣) البقرة: «١٤٣».

إيمانكم بالقبلة المنسوخة، أو صلاتكم إليها لما روى «أنه عليه السلام لما وجه إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا» فنزلت[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاحهم، ولعله قدم الرؤوف وهو أبلغ محافظةً على الفواصل. وقرأ الحرميان[٢] وابن عامر وحفص لرؤوف بالمد، والباقون بالقصر.

(١٤٤) ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾ ربما نرى ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تردُّد وجهك في جهة السماء تطلعاً للوحي، وكان رسول الله ﷺ يقع في رؤعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم وأقدم القبلتين وأدعى للعرب إلى الإيمان ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ فنمكننك من استقبالها من قولك: وليته كذا إذا صيرته والياً له، أو فلنجعلنك تلي جهتها ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ تحبها وتتشوق إليها، لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ اصرف وجهك[٣]. ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ نحوه. وقيل: الشطر في الأصل لما انفصل عن الشيء من شَطَر إذا انفصل، ودارٌ شَطُور: أي منفصلة عن الدور، ثم استُعمل لجانبه وإن لم ينفصل كالقطر. والحرام المحرم أي محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوه، وإنما ذَكَر المسجد دون الكعبة لأنه عليه الصلاة والسلام كان في المدينة والبعيد يكفيه مراعاة الجهة، فإن استقبال عينها حرج عليه بخلاف القريب. روي أنه عليه الصلاة والسلام قدم المدينة، فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً[٤]، ثم وُجِّه إلى الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين، وقد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر، فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب، وتبادل الرجال والنساء صفوفَهم، فسمي المسجد مسجد القبلتين. ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ خُصَّ الرسولَ بالخطاب تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عُمِّم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيداً لأمر القبلة وتحضيضاً للأمة على المتابعة. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة لعلمهم بأنَّ عادته تعالى تخصيصُ كل شريعة بقبلة، وتفصيلاً لتضمن كتبهم أنه ﷺ يصلي إلى القبلتين، والضمير للتحويل أو التوجه ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعيد للفريقين. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالياء.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٩٥ رقم ٤٠) و(٨/ ١٧١ رقم ٤٤٨٦) من حديث البراء بن عازب.
● وأخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٤٧) والترمذي (٥/ ٢٠٨ رقم ٢٩٦٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦٩) وأبو داود (٥/ ٦٠ رقم ٤٦٨٠) والطبراني في جامع البيان (٢/ ١٧) كلهم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي قلت: رواية سماك عن عكرمة مضطربة لكن الحديث مخرج في البخاري كما تقدم آنفاً.

(٢) الحرميان: نافع وابن كثير.

(٣) الفاء في فولّ وجهك لتفريع الأمر بالتولية على الأمر الكريم.
وتخصيص التولية بالوجه لأنه مدار التوجه ومعياره، وقيل المراد به كل البدن (أبو السعود ١/ ١٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٩٥ رقم ٤٠) و(١/ ٥٠٢ رقم ٣٩٩) و(٨/ ١٧١ رقم ٤٤٨٦) و(١٣/ ٢٣٢ رقم ٧٢٥٢) ومسلم (١/ ٣٧٤ رقم ١٢/ ٥٢٥) وفي جميع المواضع وقع بالشك (ستة عشر أو سبعة عشر شهراً) عنه وأما بدون شك فقد أخرجه مسلم (١/ ٣٧٤ رقم ١١/ ٥٢٥) عنه أيضاً.

مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟
قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ
كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ

(١٤٥) ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ برهان وحجة على أن الكعبة قبلة، واللام موطِّئة للقسم ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَۚ﴾ جواب للقسم المضمر، والقَسَمُ وجوابه سادٌّ مسدّ جواب الشرط، والمعنى ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها بالحجة وإنما خالفوك مكابرة وعناداً. ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾ قَطْع لأطماعهم، فإنهم قالوا: لو ثَبَتَّ على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبَنا الذي ننتظره تغريراً له وطمعاً في رجوعه، وقبلتُهم وإن تعددت لكنها متحدة بالبطلان ومخالفة الحق[١]. ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرةَ، والنصارى مطلعَ الشمس. لا يرجى توافقُهم كما لا يرجى موافقتهم لك، لتصلب كل حزب فيما هو فيه ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ على سبيل الفرض والتقدير، أي: ولئن اتبعتهم مَثَلاً بعدما بانَ لك الحق وجاءك فيه الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأكد تهديده وبالغ فيه من سبعة أوجه: أحدها: الإتيان باللام الموطِّئة للقسم: ثانيها: القَسم المضمَر. ثالثها: حرف التحقيق وهو إن. رابعها: تركيبُه من جملة فعلية وجملة اسمية. وخامسها: الإتيان باللام في الخبر. وسادسها: جَعْله من الظالمين، ولم يقل إنك ظالم لأن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم. وسابعها: التقييد بمجيء العلم تعظيماً للحق المعلوم، وتحريضاً على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذنب عن الأنبياء[٢].

(١٤٦) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني علماءَهم ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ الضمير لرسول الله ﷺ، وإن لم يسبق ذكْرُه لدلالة الكلام عليه. وقيل للعلم، أو القرآن، أو التحويل ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ يشهد للأول: أي يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءَهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم. عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه سأل عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني بابني قال: ولم، قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته قد خانت[٣]. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تخصيص لمن عاند واستثناء لمن آمن.

(١٤٧) ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ﴾ كلام مستأنف، والحق إما مبتدأ خبره من ربك واللام للعهد، والإشارةُ إلى ما عليه الرسول ﷺ، أو الحق الذي يكتمونه، أو للجنس. والمعنى: أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه لا مالم يثبت كالذي عليه أهل الكتاب، وإما خبرُ مبتدإٍ محذوف أي هو الحق

(١) وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره (أبو السعود ١/ ١٧٥).
(٢) وسّط «إذاً» بين اسم إنّ وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة (أبو السعود ١/ ١٧٥).
(٣) ذكره الألوسي في تفسيره (٢/ ١٣) بصيغة التمريض.

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ
ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ

ومن ربك حال، أو خبرٌ بعد خبر. وقرىء بالنصب على أنه بدل من الأول، أو مفعول يعلمون[١] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين في أنه من ربك، أو في كِتمانهم الحقَّ عالمين به، وليس المراد به نهي الرسول ﷺ عن الشك فيه لأنه غير متوقع منه وليس بقصد واختيار بل إما تحقيقُ الأمر وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمرُ الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ.

(١٤٨) ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ ولكل أمة قبلة، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة، والتنوينُ بدلُ الإضافة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أحد المفعولين محذوف، أي هو موليها وجهَه، أو الله تعالى موليها إياه. وقرىء ولكلٍّ وُجهةٍ بالإضافة، والمعنى وكل وجهة الله موليها أهلها، واللام مزيدة للتأكيد جبراً لضعف العامل. وقرأ ابن عامر: مَوْلاها أي هو مولى تلك الجهة أي قد وليها ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ من أمر القبلة وغيره مما يُنال به سعادة الدارين، أو الفاضلات من الجهات وهي المسامِتَةُ للكعبة ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: في أي موضع تكونوا من موافق ومخالف مجتمع الأجزاء ومفترقها يحشركم الله إلى المحشر للجزاء، أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقُلَل الجبال يقبض أرواحكم، أو أينما تكونوا من الجهات المتقابلة يأت بكم الله جميعاً ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع.

(١٤٩) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أي مكان خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإن هذا الأمر ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ أبو عمرو بالياء والباقون بالتاء.

(١٥٠) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ[٢] وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ كرر هذا الحُكم لتعدد عِلَله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيمُ الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجريُ العادة الإلهية على أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين على ما نبينه. وقرن بكل علة معلولها كما يُقرَن المدلولُ بكل واحد من دلائله تقريباً وتقريراً، مع أن القبلة لها شأن. والنسخ من مظان الفتنةِ والشبهةِ فبالحريِّ أن يُؤكَّدَ أمْرُها ويُعادَ ذكرُها مرة بعد أخرى. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ علة لقولهِ فولُوا، والمعنى أن التولية عن الصخرة إلى

---

(١) وقوله «من ربك» فيه تعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لإظهار اللطف به عليه السلام (أبو السعود ١/ ١٧٦).

(٢) كرر قوله «ومن حيث خرجت..» لما أن للقبلة شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فأكد أمرها مرة بعد أخرى مع أنه قد ذكر في كل مرة حكمة مستقلة (أبو السعود ١/ ١٧٨).

إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ
رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ

الكعبة تدفع احتجاج اليهودِ بأن المنعوتَ في التوراة قِبْلَتُهُ الكعبة، وأن محمداً يجحد ديننا ويتبعنا في قبلتنا. والمشركين بأنه يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم بأنهم يقولون: ما تَحوَّلَ إلى الكعبة إلا مَيْلاً إلى دين قومه وحباً لبلده، أو بَدَا لهُ فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وسمَّى هذه حجة كقوله تعالى ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] لأنهم يسوقونها مساقها. وقيل الحجة بمعنى الاحتجاج. وقيل الاستثناء للمبالغة في نفي الحجة رأساً كقوله:

ولاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ

للعلم بأن الظالم لا حجة له، وقرىء: أَلاَ الذين ظلموا منهم. على أنه استئناف بحرف التنبيه. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، فإن مَطَاعِنَهم لا تضركم. ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا ما أمرتُكم به. ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ علةُ محذوفٍ أي وأَمَرْتكم لإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم[2]، أو عطفٌ على علة مقدَّرة مثل: واخشوني لأحفظكم منهم ولأتم نعمتي عليكم، أو لئلا يكون وفي الحديث «تمام النعمة دخول الجنة»[3]. وعن علي رضي الله تعالى عنه «تمام النعمة الموت على الإسلام».

(١٥١) ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ متصل بما قبله، أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، أو في الآخرة كما أتممتها بإرسال رسول منكم، أو بما بعده أي كما ذَكَرْتكم بالإرسال فاذكروني. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يحملكم على ما تصيرون به أزكياء، قدَّمه باعتبار القصد وأخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ بالفكر والنظر، إذ لا طريق إلى معرفته سوى الوحي، وكرّر الفعل ليدل على أنه جنس آخر.

(١٥٢) ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ بالطاعة. ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب. ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ ما أنعمت به عليكم. ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر.

(١٥٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وحظوظ النفس، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي أم

---

١) الشورى: «١٦».
٢) وعبر عن الإرادة بكلمة لعل الموضوعة للترجي على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية
٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٢٥٣ رقم ٧٢٥) والترمذي (٥/ ٥٤١ رقم ٣٥٢٧) وقال: حسن، وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) وعبد بن حميد (ص٦٦ رقم ١٠٧) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٥٥ ـ ٥٦ رقم ٩٧) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٤) والخطيب في تاريخه (٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧) كلهم من حديث معاذ وهو حديث ضعيف.

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾
وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾
ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ

العبادات، ومعراج المؤمنين، ومناجاة رب العالمين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر وإجابة الدعوة.

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ أي هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي بل هم أحياء. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ ما حالهم، وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يُحِسُّ به مِنَ الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي، وعن الحسن إن الشهداء أحياء عند ربهم تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفَرَح، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً فيصل إليهم الألم والوجع. والآية نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت داركة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة.

(١٥٥) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ ولنصيبنكم إصابةَ من يَخْتبِرُ لأحوالكم، هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء؟ ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلَّله بالإضافة إلى ما وَقاهم منه ليخفف عليهم. ويريهم أن رحمته لا تفارقُهم، أو بالنسبةِ إلى ما يُصيبُ به معانديهم في الآخرة، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطِّنوا عليه نفوسَهم ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ عطف على شيء، أو الخوف، وعن الشافعي رضي الله عنه الخوف: خوف الله، والجوع: صوم رمضان، والنقص: من الأموال الصدقات والزكوات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن: الثمرات موت الأولاد[1]. وعن النبي ﷺ «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم روح ولد عبدي؟ فيقولون نعم، فيقول الله: أقبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنو لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»[2] ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(١٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لمن تتأتى منه البِشارة. والمصيبةُ تعمّ ما يصيب الإنسان من مكروه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة»[3]. وليس الصبر بالاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب بأن يتصور ما خُلِقَ لأجله

---

(١) قال ابن كثير: وفي هذا نظر والله أعلم (ابن كثير ١/ ١٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣/ ٣٤١ رقم ١٠٢١) والطيالسي في مسنده (ص٦٩ رقم ٥٠٨) وأحمد (٤/ ٤١٥) وعبد بن حميد (ص١٩٤ ـ ١٩٥ رقم ٥٥١) وابن حبان (ص١٨٥ رقم ٧٢٦ ـ الموارد) من حديث أبي موسى. وقال الترمذي: حسن. وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (١٤٠٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الفراء ـ كما في الدر المنثور (١/ ٣٨٠) ـ من حديث عكرمة مرسلاً بهذا اللفظ.

وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾

وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما بقي عليه أضعافُ ما استرده منه فيهوِّن على نفسه، ويستسلم له. والمبشر به محذوف دل عليه.

(١٥٧) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ﴾[١] الصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة. وجمعُها للتنبيه على كثرتها وتنوعها. والمراد بالرحمة اللطفُ والإحسان. وعن النبي ﷺ «من استرجع عند المصيبة، جبر الله مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»[٢] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ للحق والصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى.

(١٥٨) ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ هما عَلَمَا جبلين بمكة. ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ من أعلام مناسكه، جمع شعيرة وهي العلامة. ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ الحج لغة القصد، والاعتمار الزيارة. فَغَلَبا شرعاً على قصدِ البيت وزيارته على الوجهين المخصوصين. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ كان إساف على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية إذا سعوْا مسحوهما. فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام تحرَّج المسلمون أنِ يطوفوا بينهما لذلك فنزلت. والإجماع على أنه مشروع في الحج والعمرة، وإنما الخلاف في وجوبه: فعن أحمد[٣] أنه سنة، وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهم لقوله ﴿فَلَا جُنَاحَ

= ● وأخرج الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٠ رقم ٧٨٢٤) عن عبيدالله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: انقطع قبال رسول الله ﷺ فاسترجع، فقالوا أمصيبة يا رسول الله؟.
قال: «ما أصاب المؤمن مما يكره فهو مصيبة».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣١) بإسناد ضعيف. وذلك بسبب عبيدالله بن زحر، وعلي بن يزيد.
● وأخرج الطبراني في الكبير أيضاً (٨/ ١٥٥ ـ ١٥٦ رقم ٧٦٠٠) عن مكحول عن أبي أمامة قال خرجنا مع رسول الله ﷺ فانقطع شسع النبي ﷺ فقال «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقال له رجل هذا الشسع؟ فقال رسول الله ﷺ «إنها مصيبة».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣١) وفيه «العلاء بن كثير» وهو متروك.

(١) معنى البعد فيه للإيذان بعلو رتبتهم (أبو السعود ١/ ١٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٥٥ رقم ١٣٠٢٧) والطبري في جامع البيان (٢/ ٤٢ ـ ٣٢) من حديث ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣١) وقال فيه: علي بن أبي طلحة وهو ضعيف.

(٣) هو أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، ولد في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وطلب العلم صغيراً، ورحل لطلبه إلى الشام والحجاز واليمن وغيرها حتى أجمع على إمامته وتقواه وورعِهِ وزهده.
قال أبو زرعة: كانت كتبه اثني عشرَ حملاً، وكان يحفظها عن ظهر قلب، وكان يحفظ ألف ألف حديث. وألف المسند الكبير أعظم المسانيد وأحسنَها وضعاً وانتقاداً، فإنه لم يدخل فيه إلا ما يُحتج به مع كونه انتقاهُ من أكثر من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث. وكانت وفاته سنة إحدى وأربعين ومائتين على الصحيح ببغداد =

عَلَيۡهِ﴾ فإنه يفهم منه التخيير وهو ضعيف ، لأن نفي الجُناح يدل على الجواز الداخل في معنى الوجوب، فلا يدفعه. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أنه واجب، يُجْبَر بالدم. وعن مالك والشافعي رحمهما الله أنه ركن لقوله عليه الصلاة والسلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»(٢). ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾ أي فِعْلَ طاعة فرضاً كان أو نفلاً، أو زاد على ما فَرَض الله عليه من حج أو عمرة، أو طواف أو تطوع بالسعي إن قلنا إنه سنة. وخيراً نُصِبَ على أنه صفة مصدر محذوف، أو بحذف الجار وإيصال الفعل إليه، أو بتعدية الفعل لتضمنه معنى أتى أو فَعَل. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب يَطّوع وأصله يتطوع فأُدغم مثل يَطّوف ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ مثيب على الطاعة لا تخفى عليه.

(١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ كأحبار اليهود. ﴿مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ كالآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ. ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾ وما يهدي إلى وجوب اتباعه والإيمان به. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ لخصناه. ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في التوراة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي الذين يتأتى منهم اللعن عليهم من الملائكة والثقلين.

= مدينة السلام.
[تاريخ بغداد (٢/ ٤١٢ ـ ٤٢٣ رقم ٢٣١٧) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١١٠ رقم ٤٥)].

(١) لأن مفهوم الآية رفع الجناح عمن تطوف بالصفا والمروة لأنهم في الجاهلية كانوا يُهلُّون لمناة الطاغية ويعبدونها فكان البعض من المسلمين يتحرج من ذلك، فنزلت لرفع الحرج. وظاهره عدم الوجوب للسعي إلا أن الوجوب مفهوم من أدلة أخرى.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٢١) والشافعي في ترتيب المسند (١/ ٣٥١ رقم ٣٠٧) من حديث حبيبة بنت أبي تُجْرأة العبدرية أن النبي ﷺ: قال «اسعَوا، فإن الله كتب عليكم السعْيَ» وفي إسناده عبدالله بن المؤمل وهو ضعيف، وله طريق أخرى في صحيح ابن خزيمة (٤/ ٢٣٧ رقم ٢٧٧٣) وإسناده ضعيف، عن ابن عباس. وأخرج أحمد في المسند (٦/ ٤٢١ ـ ٤٢٢) نحوه من حديث صفية بنت شيبة.
وأخرج الدارقطني (٢/ ٢٥٥ رقم ٨٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٩٧) من حديث صفية، قالت: أخبرتني نسوة من بني عبدالدار اللائي أدركن رسول الله ﷺ، قلن: دخلنا دار ابن أبي حسين فاطلعنا من باب مقطع فرأينا رسول الله ﷺ يشتدّ في المسعى، حتى إذا بلغ زقاق بني فلان موضعاً قد سماه من المسعى، استقبل الناس وقال: «يا أيها الناس اسعوا فإن المسعى قد كتب عليكم» وإسناده صحيح.
والخلاصة: أن الحديث صحيح.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾

(١٦٠) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدوا بالتدارك. ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ ما بينه الله في كتابهم لتتم توبتُهم. وقيل ما أحدثوه من التوبة ليمحوا به سمة الكفر عن أنفسهم ويقتدي بهم أضرابُهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾[(١)] بالقبول والمغفرة. ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالِغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة.

(١٦١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ استقر عليهم اللعنِ من الله، ومن يعتد بلعنه من خلقه. وقيل: الأول لَعْنُهم أحياءً وهذا لعنهم أمواتاً. وقرىء والملائكةُ والناسُ أجمعون عطفاً على محل اسم الله لأنه فاعل في المعنى، كقولك أعجبني ضرب زيدٍ وعمرو، أو فاعلاً لفعل مقدر نحو وتلعنهم الملائكة.

(١٦٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة، أو النار. وإضمارُها قبل الذكر تفخيماً لشأنها وتهويلاً، أو اكتفاء بدلالة اللعن عليها. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة[(٢)].

(١٦٣) ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ خطاب عام، أي المستحق منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يُعبَد أو يسمى إلهاً. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً ولكن لا يستحق منهم العبادة. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كالحجة عليها، فإنه لما كان مُولي النعم كلِّها أصولِها وفروعِها وما سواه إما نعمة أو منعَم عليه لم يستحق العبادة أحد غيره، وهما خبران آخران لقوله إلٰهكم، أو لمبتدأ محذوف. قيل لما سمعه المشركون تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فائت بآية نعرف بها صدقك فنزلت.

(١٦٤) ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إنما جَمَع السموات وأفرد الأرض، لأنها طبقات متفاصِلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرَضين. ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تعاقبهما كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾[(٣)]. ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي ينفعهم، أو بالذي ينفعهم، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص الفُلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على

---

(١) فأولئك، إشارة إلى الموصول «الذين» باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وهو قوله «تابوا» للإشعار بعليته للحكم (أبو السعود ١/ ١٨٣).

(٢) قوله: «ولا هم ينظرون» آثر الجملة الاسمية لإفادة النفي واستمراره (أبو السعود ١/ ١٨٣).

(٣) الفرقان: «٦٢».

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

عجائبه، ولذلك قدّمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر، وتأنيث الفُلك لأنه بمعنى السفينة. وقرىء بضمتين على الأصل، أو الجمع وضمة الجمع غير ضمة الواحد عند المحققين. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ من الأولى للإبتداء، والثانية للبيان. والسماء يحتمل الفلك، والسحاب، وجهة العلو. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالنبات ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ عطف على أنزل، كأنه استدل بنزول المطر وتكوين النبات به وبث الحيوانات في الأرض، أو على أحيا فإن الدواب يَنْمُون بالخصب ويعيشون بالحياة. والبث النشر والتفريق. ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ في مهابها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائي على الإفراد. ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا ينزل ولا ينقشع، مع أن الطبع يقتضي أحدَهما حتى يأتي أمر الله تعالى. وقيل: مسخر الرياح تقلُّبه في الجو بمشيئة الله تعالى، واشتقاقُه من السَّحْب لأن بعضه يجر بعضاً. ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم، وعنه ﷺ «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها»[(١)] أي لم يتفكر فيها.

واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً، والكلام المجمل أنها: أمور ممكنة وُجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة وأنحاء مختلفة، إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السموات أو بعضها كالأرض، وأن تتحرك بعكس حركاتها وبحيث تصير المنطقة دائرة مارّة بالقطبينْ وأن لا يكون لها أَوَج وحضيض أصلاً، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها فلا بد لها من موجد قادر حكيم يوجدها على ما تستدعيه حكمتُه وتقتضيه مشيئته متعالياً عن معارضة غيره. إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر، فإن توافقت إرادتهما: فالفعل إن كان لهما لزم اجتماع مؤثّرين على أثر واحد، وإن كان لأحدهما لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح وعجز الآخر المنافي لآلهيته. وإن اختلفت: لزم التمانُع والتطارد، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[(٢)]. وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله وحث على البحث والنظر فيه.

(١٦٥) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ من الأصنام. وقيل من الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾[(٣)] ولعل المراد أعمُّ منهما وهو ما يشغَله

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه وابن المنذر في تفاسيرهم وابن أبي الدنيا في كتاب التفكر (الفتح السماوي ص٢٠٤) وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢/ ١٠ ـ ١١).
ورجاله رجال الحسن (تخريج الفتح السماوي ص٢٠٤).

(٢) الأنبياء: «٢٢».

(٣) البقرة: «١٦٦».

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

عن الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعظِّمونهم ويطيعونهم ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ كتعظيمه والميل إلى طاعته، أي يسوون بينه وبينهم في المحبة والطاعة، والمحبة: ميل القلب من الحُبِّ، استُعير لِحَبَّة القلب، ثم اشتُق منه الحُبُّ لأنه أصابَها ورسخ فيها، ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه، ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعاصي. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأنه لا تنقطع محبتهم لله تعالى، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراضٍ فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يَعْدِلُون عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ولو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ إذ عاينوه يوم القيامة. وأجرى المستقبَل مجرى الماضي لتحققه كقوله تعالى ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[1].

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ سادٌّ مسد مفعولي يرى، وجوابُ لو محذوفٌ. أي لو يعلمون أن القوة لله جميعاً إذا عاينوا العذاب لندموا أشد الندم. وقيل هو متعلق الجواب والمفعولان محذوفان، والتقدير: ولو يرى الذين ظلموا أندادهم لا تنفع لعلموا أن القوة لله كلها لا ينفع ولا يضر غيره. وقرأ ابن عامر ونافع ويعقوب: ولو ترى على أنه خطاب للنبي ﷺ، أي ولو ترى ذلك لرأيتَ أمراً عظيماً، وابن عامر: إذ يُرَوْن على البناء للمفعول، ويعقوب إن بالكسر وكذا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ على الاستئناف، أو إضمارِ القول.

(١٦٦) ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ بدل من إذ يرون، أي إذ تبرأ المتْبوعون من الأتباع. وقرىء بالعكس، أي تبرأ الأتباع من الرؤساء ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي رائين له، والواو للحال، وقد مضمرة. وقيل: عطفٌ على تبرأ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ يحتمل العطف على تبرأ أو رأوا، والواو للحال، والأول أظهر. والأسبابُ: الوُصَلُ التي كانت بينهم من الأتباع والاتفاق على الدين والأغراض الداعية إلى ذلك. وأصل السبب: الحبل الذي يُرتقى به الشجر. وقرىء وتُقُطِّعت على البناء للمفعول.

(١٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ لو للتمني ولذلك أجيب بالفاء، أي ليت لنا كرّة إلى الدنيا فنتبرأ منهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الإراءِ الفظيع. ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات، وهي ثالثُ مفاعيل يُرى إن كان من رؤية القلب وإلا فَحالٌ ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أصله وما يخرجون فَعَدَل به إلى هذه العبارة للمبالغة في الخلود والإقناط عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا.

---

(١) الأعراف: ٤٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾
إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

(١٦٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا﴾ نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيعَ الأطعمة والملابسَ، وحلالاً مفعولُ كلوا أو صفةُ مصدر محذوف أو حال مما في الأرض، ومن للتبعيض إذ لا يؤكل كل ما في الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ يستطيبه الشرع أو الشهوة المستقيمة، إذ الحلال دل على الأول. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرِّموا الحلال وتحللوا الحرام. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والبزي[1] وأبو بكر حيثُ وَقَعَ بتسكين الطاء وهما لغتان في جمع خطوة، وهي ما بين قدمي الخاطي. وقرىء بضمتين وهمزة جُعِلت ضمة الطاء كأنها عليها، وبفتحتين على أنه جمع خطوة وهي المَرَّةُ من الخَطوِ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة وإن كان يُظهِر الموالاة لمن يغويه، ولذلك سماه ولياً في قوله تعالى ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[2].

(١٦٩) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ بيان لعداوته ووجوب التحرز عن متابعته. واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم، والسوءُ والفحشاءُ: ما أنكره العقل واستقبحه الشرع، والعطفُ لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به وفحشاء باستقباحه إياه. وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القُبح من الكبائر. وقيل: الأول مالا حَدَّ فيه، والثاني ما شُرِع فيه الحد ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كاتخاذ الأنداد وتحليل المحرمات وتحريم الطيبات، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأساً. وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظنٌّ مُسْتَنِد إلى مدرَك شرعي فوجوبه قطعي، والظن في طريقه كما بيناه في الكتب الأصولية.

(١٧٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الضمير للناس، وعَدَلَ بالخطاب عنهم للنداء على ضلالهم، كأنه التفت إلى العقلاء وقال لهم: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون. ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ما وجدناهم عليه. نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أَنْزَلَ الله من الحجج والآيات، فجنحوا إلى التقليد. وقيل في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتَّبع ما وجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خيراً منّا وأعلم. وعلى هذا فيعُم ما أنزل الله التوراةَ لأنها أيضاً تدعو إلى الإسلام. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو للحال أو العطف، والهمزة للرد والتعجيب. وجوابُ لو محذوف أي لو كان آباؤُهم جَهَلة لا يتفكرون في أمر الدين ولا يهتدون إلى الحق لاتّبعوهم. وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدِر على النظر والاجتهاد. وأما

(١) البزي هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة، إمام ضابط ثقة، وكان إمام المسجد الحرام ومقرئه ومؤذنه، وإليه انتهت مشيخة الأمراء بمكة، وقد اشتهر بالرواية عن ابن كثير الذي هو من القراء السبعة، توفي عام (٢٥٠) هـ.

(٢) البقرة: «٢٥٧».

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

اتِّباع الغير في الدين إذا عَلِم بدليلٍ ما أنه محِقّ كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام فهو في الحقيقة ليس بتقليد بل اتباع لما أنزل الله.

(١٧١) ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ على حذف مضاف تقديره: ومَثَل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق، أو مثَلُ الذين كفروا كمثل بهائم الذي ينعق. والمعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يُلْقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه وتحس بالنداء ولا تفهم معناه. وقيل هو تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته. أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقه وهو التصويت على البهائم، وهذا يغني الإضمار ولكن لا يساعده قولُه إلا دعاء ونداء، لأن الأصنام لا تَسمَع إلا أن يُجعل ذلك من باب التمثيل المركب[(١)].

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ رفع على الذم. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي بالفعل للإخلال بالنظر.

(١٧٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ لما وَسَّع الأمرَ على الناس كافة وأباح لهم ما في الأرض سوى ما حرم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحرَّوا طيبات ما رُزقوا ويقوموا بحقوقها فقال ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه مولي النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر. فالمعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لإتمامه، وهو عدم عند عدمه. وعن النبي ﷺ «يقول الله تعالى إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري»[(٢)].

---

(١) وضع الموصول موضع الضمير... لذمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلة ما أثبت لهم من الحكم والتقدير (أبو السعود ١/ ١٩٠).

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٣٤ رقم ٤٥٦٣) من حديث أبي الدرداء.
وأورده الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ص٢٢٥)، والديلمي في «الفردوس» (٣/ ١٦٦ رقم ٤٤٣٩).
والسيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٦٠٠٨) ورمز لضعفه.
وقال المناوي: فيه: مُهنى بن يحيى: مجهول، وبقية بن الوليد أورده الذهبي في الضعفاء، وقال: يروي عن الكذابين ويدلسهم؛ وشريح بن عبيد ثقة لكنه مُرسِل وأورده الألباني في «ضعيف الجامع» (٤/ ١١٠ رقم ٤٠٥٢) وضعفه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾

(١٧٣) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أكلها أو الانتفاع بها، وهي التي ماتت من غير ذكاة، والحديث ألحق بها ما أُبِينَ من حي، والسمك والجراد أخرجهما العرف عنها أو استثناه الشرع، والحرمة المضافة إلى العين تفيد عرفاً حرمة التصرف فيها مطلقاً إلا ما خصه الدليل كالتصرف في المدبوغ ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إنما خصّ اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالتابع له. ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي رُفِع به الصوت عند ذبحه للصنم. والإهلال أصله رؤية الهلال، يقال: أهلّ الهلال وأهلَلْته، لكن لما جرت العادة أن يُرفع الصوت بالتكبير إذا رُئي سمي ذلك إهلالاً، ثم قيل لرفع الصوت وإن كان لغيره. ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالاستيثار على مضطر آخر. وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة بكسر النون[1]. ﴿وَلَا عَادٍ﴾ سدّ الرمق أو الجوعة. وقيل: غير باغ على الوالي ولا عاد بقطع الطريق. فعلى هذا لا يُباح للعاصي بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعي وقول أحمد رحمهما الله تعالى. ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تناوله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعل ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالرخصة فيه. فإن قيل: «إنما» تفيدُ قصرَ الحكم على ما ذُكر وكم من حرام لم يذكر، قلت: المراد قَصْر الحُرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقاً، أو قصر حرمته على حال الاختيار كأنه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء مالم تضطروا إليها.

(١٧٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عِوَضاً حقيراً. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا[2] يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ إما في الحال، لأنهم أكلوا ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكَل النار كقوله:

أكَلْــتُ دَمــاً إنْ لَــمْ أَرُعْــكِ بِضــرةٍ		بعِيــدة مَهــوى القِــرطِ طيبــة النَّشــر

يعني الدية. أو في المآل أي لا يأكلون يوم القيامة إلاّ النار. ومعنى في بطونهم: ملء بطونهم. يقال أكل في بطنه وأكل في بعض بطنه كقوله:

كلوا في بَعضِ بَطنِكَمو تُعفُوا

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عبارة عن غضبه عليهم، وتعريض بحرمانهم حال مقابليهم في الكرامة والزلفى من الله. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يثني عليهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

(١٧٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ في الدنيا. ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ في الآخرة، بكتمان الحق للمطامع والأغراض الدنيوية. ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تعجب من حالهم في الالتباس

---

(١) وقرىء بضم النون «فمنُ اضطُر».
(٢) ما فيه من معنى البعد لبيان بُعْد منزلتهم في الشر والفساد (أبو السعود ١/ ١٩١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾

بموجبات النار من غير مبالاة. وما تامّة مرفوعة بالابتداء، وتخصيصها كتخصيص قولهم:

شرٌّ أَهَرَّ ذا نَابٍ

أو استفهامية وما بعدها الخبر، أو موصولة وما بعدها صلة والخبر محذوف.

(١٧٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللام فيه إما للجنس، واختلافُهم إيمانُهم ببعض كتب الله تعالى وكفرهم ببعض، أو للعهد. والإشارة إما إلى التوراة، واختلفوا بمعنى تخلَّفوا عن المنهج المستقيم في تأويلها، أو خلفوا خلال ما أنزل الله تعالى مكانه، أي حرفوا ما فيها. وإما إلى القرآن واختلافُهم فيه قولُهم سحرٌ وَتَقَوُّلٌ وكلام علّمه بَشَر وأساطير الأولين ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ لفي خلاف بعيد عن الحق.

(١٧٧) ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ البِرُّ: كل فعل مرضٍ، والخطابُ لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حُوِّلت وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فردَّ اللهُ تعالى عليهم وقال: ليس البرُّ ما أنتم عليه فإنه منسوخ ولكن البرَّ ما بينه الله واتبعه المؤمنون. وقيل عامٌّ لهم وللمسلمين، أي ليس البر مقصوراً بأمر القبلة، أو ليس البر العظيم الذي يَحْسُن أن تذهلوا بشأنه عن غيره أمرها، وقرأ حمزة وحفص البرَّ بالنصب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي ولكن البر الذي ينبغي أن يُهْتَمّ به برُّ من آمن بالله، أو لكن ذا البر من آمن، ويؤيده قراءة من قرأ ولكن البار، والأول أوفق وأحسن. والمراد بالكتاب الجنس، أو القرآن. وقرأ نافع وابن عامر ولكنْ بالتخفيف ورفع البرّ. ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي على حب المال، قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أي الصدقة أفضلَ قال: «أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش، وتخشى الفقر»[١]. وقيل الضمير لله، أو للمصدر. والجار والمجرور في موضع الحال. ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ يريد المحاويج منهم، ولم يُقيِّد لعدم الالتباس. وقدَّم ذوي القربى لأن إيتاءهم أفضل كما قال عليه الصلاة والسلام «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوي رحمك اثنتان، صدقة وصلة»[٢].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٢) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٤) بعدما نقل كلام الحاكم، قال: وقد رواه وكيع عن الأعمش وسفيان عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود موقوفاً وهو أصح.
وذكره أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٣٨) من طريق مسعر عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود به وقال «مشهور من حديث مسعر رواه عنه الناس».

(٢) أخرجه الترمذي (٦٥٨) وقال: حديث حسن، وأخرجه النسائي (٢٥٨٣) وابن ماجة (١٨٤٤) وابن حبان =

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ جمع المسكين وهو الذي أسكَنَتْه الخلّة، وأصله دائم السكون كالمسْكير للدائم السكر. ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر، سمي به لملازمته السبيلَ كما سُمي القاطع ابن الطريق. وقيل الضيف لأن السبيل يرعف به[١]. ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، وقال عليه السلام «للسائل حق وإن جاء على فرسه»[٢] ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وفي تخليصها بمعاونة المكاتبين، أو فك الأسارى، أو ابتياع الرقاب لعتقها. ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة. ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله: «وآتي المال» الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها. ويحتمل أن يكون المرادُ بالأول نوافل الصدقات أو حقوقاً كانت في المال سوى الزكاة. وفي الحديث (نسخت الزكاةُ كلَّ صدقة). ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ عطف على من آمن. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ نَصْبُه على المدح ولم يُعْطَفْ لفضل الصبر على سائر الأعمال. وعن الأزهري[٣]: البأساء في الأموال كالفقر، والضراء في الأنفس كالمرض. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وقت مجاهدة العدو. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الدين واتباع الحق وطلب البر. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها صريحاً أو ضمناً، فإنها بكثرتها

= (الإحسان ٥/ ١٤٣) والحاكم (١/ ٤٠٧) وقال صحيح ووافقه الذهبي.

(١) أي يقدمه، وأصل الرعاف السبق والتقدم (المصباح المنير مادة رعف).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٠١) وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ١١٣) وأبو داود (٢/ ٣٠٦ رقم ١٦٦٥) والطبراني في الكبير (٣/ ١٤١ رقم ٢٨٩٣) وأبو يعلى في المسند (١٢/ ١٥٤ رقم ١٣/ ٦٧٨٤).
كلهم من طريق يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي.
وفيه يعلى ابن أبي يحيى المدني: مجهول ـ التقريب (٢/ ٣٧٩ رقم ٤١٦) ـ.
● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ رقم ٥٣٥) من حديث الهرماس بن زياد، وفيه عثمان بن قايد، وهو ضعيف ـ التقريب (٢/ ١٣) ـ.
● وقال مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٦) عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: فذكره. وهو مرسل والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) الأزهري هو: محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحةَ الأزهَريّ الهرويُّ اللغويُّ الشافعيّ ارتحل في طلب العلم بعد أن سمعَ ببلده من الحسين بن إدريس، ومحمد بن عبدالرحمن السامي وعِدَّة، وسمعَ ببغداد من أبي القاسم البغوي وابن أبي داود، وإبراهيم بن عرفَة، وابنِ السَّرّاج، وأبي الفضل المنذري، وترك ابنَ دُريد تورُّعاً، فإنه قال: دخلتُ داره فألفيته على كبر سنه سكران.
وكان رأساً في اللغة والفقه، ثقةً، ثبتاً، ديناً. وله كتاب «تهذيب اللغة» المشهور، وكتاب «التفسير» وكتاب «تفسير ألفاظ المُزَني» وغيرها.
مات في ربيع الآخر سنة سبعين وثلاثمائة عن ثمانٍ وثمانين سنة.
[معجم الأدباء (١٧/ ١٦٤ ـ ١٦٧) وطبقات الشافعية للسبكي (٣/ ٦٣ ـ ٦٨)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

وتشعبها منحصرةٌ في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إلى ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. وإلى الثاني بقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ إلى ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخرها، ولذلك وُصِف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق، وإليه أشار بقوله عليه السلام «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان»[(١)] [(٢)].

(١٧٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طولٌ على الآخر، فأقسموا لنقتُلنّ الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وأَمَرهم أن يَتباوَؤُا[(٣)]. ولا تدل على أن لا يُقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى، كما لا تَدُل على عكسه، فإن المفهوم حيثُ لم يَظْهرْ للتخصيص غرضٌ سوى اختصاصِ الحكم، وقد بينا ما كان الغرض. وإنما منع مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما قَتْلَ الحر بالعبد سواء كان عبدَه أو عبدَ غيره، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قتل عبده فجلده الرسول ﷺ ونفاه سنة ولم يقُدَّه به[(٤)] وروي عنه أنه قال من السنة أن لا يقتل

---

(١) أخرجه ابن المنذر في تفسيره ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (١/ ٤١٢) ـ من حديث أبي ميسرة.

(٢) وفي هذه الآية لفتات بيانية يجدر أن نشير إليها:
قوله «ليس البرَّ أن تولوا» فجعل المصدر المسبوك من أنْ وما بعدها هي الاسم وأخره عن الخبر وذلك لأن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به، والأعرف أحق بالاسمية، وكذا لمراعاة النظم.
وقوله: «ذوي القربى واليتامى» فقدم ذوي القربى لأن إيتاءهم صدقة وصلة رحم.
وقوله «وفي الرقاب» عدم عن ذكرهم بما يفيد ملكيتهم إما لعدم الإقرار بملكيتهم أو عدم ثبوته رأساً أو للإشعار برسوخهم في الاستحقاق والحاجة ولهذا استخدم حرف الجر (في) المفيد للإحاطة التامة.
وقوله «والموفون بعهدهم» آثر صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء.
وقوله «والصابرين» غيّر سبكه عما قبله تنبيهاً على فضيلة الصبر.
وقوله «وحين البأس» زاد الحين على خلاف سابقها للإشعار بوقوعه أحياناً وسرعة انقضائه.
وقوله «وأولئك هم المتقون» وسّط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم (أبو السعود ١/ ١٩٤).

(٣) أي أن يَرْجِع كل واحد على الآخر بما عليه من حق.

(٤) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٨٨٨ رقم ٢٦٦٤) والدارقطني في السنن (٣/ ١٤٤ رقم ١٨٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٦ ـ ٣٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٣٠٤) كلهم من طريق إسحاق بن أبي فروة، عن إبراهيم بن عبدالله بن حنين عن أبيه عن علي رضي الله عنه.
ومن طريق ابن أبي فروة أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: كما أخرجه الدارقطني (٣/ ١٤٣ ـ ١٤٤ =

مسلم بذي عهد ولا حر بعبد ولأن أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير نكَير. وللقياس على الأطراف، ومن سلم دلالَتَه فليس له دعوى نسخِهِ بقوله تعالى ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[١] لأنه حكايةُ ما في التوراة فلا يَنْسَخُ ما في القرآن. واحتجت الحنفية به على أن مقتضى العمد القَوَدُ وحدَه، وهو ضعيف إذ الواجب على التخيير يَصْدُق عليه أنه وَجَب وكُتِب، ولذلك قيل التخيير بين الواجب وغيره ليس نسخاً لوجوبه. وقرىء كَتَبَ على البناء للفاعل والقِصَاصَ بالنصب، وكذلك كل فعل جاء في القرآن. ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ أي شيء من العفو، لأنّ عَفَا لازمٌ. وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التامّ في إسقاط القصاص. وقيل عفا بمعنى ترك، وشيء مفعول به وهو ضعيف، إذ لم يثبت عفا الشيءَ بمعنى تركه بل أعفاه. وعفا يُعدَّى بِعَنْ إلى الجاني وإلى الذنب، قال الله تعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾[٢] وقال ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[٣]. فإذا عُدِّي به إلى الذنب عُدِّي إلى الجاني باللام، وعليه ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفي له عن جنايته من جهة أخيه، يعني وليّ الدم. وذِكْرُه بلفظ الأُخوة الثابتة بينهما من الجنسية والإسلام ليرُقّ له ويعطِفَ عليه. ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي فليكن اتباع، أو فالأمر اتّباعٌ: والمرادُ به وصية العافي بأن يطلبَ الدّيةَ بالمعروف فلا يُعنِّفْ، والمعفو عنه بأن يؤديَها بالإحسان: وهو أن لا يمْطُلَ ولا يَبْخَس. وفيه دليل على أن الدية أحدُ مقتضى العمد، وإلا لما رَتَّب الأمرَ بأدائها على مطلق العفو. وللشافعي رضي الله تعالى عنه في المسألة قولان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الحكم المذكور في العفو والدية. ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع، قيل: كُتب على اليهود القصاصُ وحدَه وعلى النصارى العفوُ مطلقاً وخُيِّرت هذه الأمة بينهما وبين الدية تيسيراً عليهم وتقديراً للحكم على حَسَب مراتبهم. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي قَتَل بعد العفو وأخْذِ الديةِ. ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقيل في الدنيا بأن يُقتل لا محالة لقوله عليه السلام «لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية»[٤].

= رقم ١٨٧) والبيهقي (٨/٣٦) من طريق محمد بن عبدالعزيز الرملي، عن إسماعيل بن عياش، عن الأوزاعي، عن عمرو بن شعيب به وإسحاق بن أبي فروة متروك ـ التقريب (٥٩/١) ـ وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٨/٨) عن محمد بن عبدالعزيز الرملي: ليس عندهم بالمحمود وإلى الضعف ما هو، وقال الحافظ: صدوق يَهِم، من رجال البخاري. وقال البيهقي: أسانيد هذه الأحاديث ضعيفة لا تقوم بشيء منها الحجة إلاّ أن أكثر أهل العلم على أن لا يقتل الرجل بعبده (٨/٣٧).
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(١) المائدة: ٤٥.
(٢) التوبة: «٤٣».
(٣) المائدة: «٩٥».
(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٠٧) وأحمد (٣/٣٦٣) وفيه مطر بن طهمان الوراق لم يسمع من الحسن البصري وضعفه أكثر من واحد فالسند ضعيف، وقد ضعفه أحمد شاكر في تخريج الطبري رقم (٢٦٠٣) وضعفه آخرون.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

(١٧٩) ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعلِ الشيء محل ضده، وعَرَّف القصاص ونكَّر الحياة ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيكون سبب حياة نفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتُصَّ من القاتل سَلِم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم، وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ يحتمل أن يكونا خبرين لحياة وأن يكون أحدهما خبراً والآخر صلة له، أو حالاً من الضمير المستكنّ فيه. وقرىء في القصص، أي فيما قُصَّ عليكم من حكم القتل حياة، أو في القرآن حياة للقلوب. ﴿يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾ ذوي العقول الكاملة، ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في المحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو عن القصاص فتكُفُّوا عن القتل.

(١٨٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي حضرت أسبابه وظهرت أماراته[١]. ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالاً. وقيل مالاً كثيراً، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه أن مولًى له أراد أن يوصي وله سبعمائة درهم، فمنعه وقال: قال الله تعالى: «إن ترك خيراً» والخير هو المال الكثير[٢]. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رجلاً أراد أن يوصي فسألَتْه كَمْ مالُك؟ فقال: ثلاثة آلاف، فقالت: كَمْ عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله تعالى «إن ترك خيراً» وأن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك[٣]. ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ مرفوع بكُتِب، وتذكيرُ فعلِها للفصل، أو على تأويل أن يوصي، أو الإيصاء ولذلك ذكر الراجع في قوله ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾. والعامل في إذا مدلول كُتِب لا الوصية لتقدمه عليها. وقيل مبتدأ خبره للوالدين، والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كقوله:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يشكُرُهَا والشَّرُّ بِالشَّرِ عِنْدَ الله مِثْلاَنِ

وَرُدَّ بأنه إن صح فمن ضرورات الشعر. وكان هذا الحكم في بدء الإسلام فنسخ بآية المواريث

---

(١) قوله «إذا حضر أحدَكم الموتُ» قدم المفعول لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها (أبو السعود ١/١٩٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/٢٠٨ رقم ١٠٩٩٢) وعبدالرَّزّاق في المصنف (٩/٦٢)، والحاكم في المستدرك (٢/٢٧٣ ـ ٢٧٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع. وذلك لما قاله أبو حاتم في المراسيل (ص١٤٩)، والعلل (١/٥٤): «عروة عن علي مرسل». قلت: عروة ولد في أوائل خلافة عمر بن الخطاب، واستُخلف عليٌّ رضي الله عنه في سنة (٣٥هـ) فيمكن سماع عروة من علي قبل انتقاله إلى الكوفة.
وأخرجه الدارمي (٢/٤٠٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢٧٠) والطبري في «جامع البيان» (٢/١٢١). كلهم عن هشام بن عروة عن أبيه عنه. . . والأثر رجاله ثقات.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/٢٠٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٧٠) وعبدالرزاق في المصنف (٩/٦٣) وسعيد بن منصور ـ كما في الدر المنثور (١/٤٢٢) ـ عنها. والأثر إسناده صحيح.

فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

وبقوله عليه الصلاة والسلام «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، ألا لا وصية لوارث»[1]. وفيه نظر: لأن آية المواريث لا تعارضه بل تؤكده من حيث إنها تدل على تقديم الوصية مطلقاً، والحديث من الآحاد، وتلقي الأمةِ له بالقبول لا يُلْحقه بالمتواتر. ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين بقوله يوصيكم الله. أو بإيصاء المحتضِر لهم بتوفير ما أوصى به الله عليهم ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ بالعدل فلا يفضل الغنى، ولا يتجاوز الثلث. ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً.

(١٨١) ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ غيره من الأوصياء والشهود. ﴿بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ أي وصل إليه وتحقَّق عنده، ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾ فما إثم الإيصاء المغيَّر أو التبديل إلا على مُبَدِّليه لأنهم الذين حافوا وخالفوا الشرع. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ وعيد للمبدل بغير حق.

(١٨٢) ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ﴾ أي توقع وعلِم، من قولهم أخاف أن ترسل السماء. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر مُوَصٍّ مشدداً. ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً بالخطأ في الوصية. ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ تعمداً للحيف. ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين الموصى لهم بإجرائهم على نهج الشرع. ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وعدٌ للمصلح، وذِكْر المغفرة لمطابقة ذِكْر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم.

(١٨٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[2] يعني الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام، وفيه توكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطييب على النفس. والصوم في اللغة: الإمساك عما تنازع إليه النفس، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات بياض النهار، فإنها معظم ما تشتهيه النفس. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي، فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها كما قال

---

(١) وهو حديث صحيح من حديث عمرو بن خارجة، وأبي أمامة. أما حديث عمرو فقد أخرجه أحمد في المسند (٤/١٨٦ ـ ١٨٧) وابن ماجة في السنن (٢/ ٩٠٥ رقم ٢٧١٢) والنسائي في السنن (٦/ ٢٤٧) والترمذي (٤/ ٤٣٤ رقم ٢١٢١) وقال: حديث حسن صحيح. والدارقطني (٤/ ١٥٢ رقم ١٠) والبيهقي (٦/ ٢٦٤) وأخرجه الطيالسي في المسند (ص١٦٩ رقم ١٢١٧) والدارمي (٢/٤١٩) وهو حديث صحيح بشواهده كثيرة، وإلا فإن شهر بن حوشب ضعيف لسوء حفظه.

● وأما حديث أبي أمامة فأخرجه أحمد في المسند (٥/٢٦٧) وأبو داود (٣/ ٢٩٠ رقم ٢٨٧٠) وابن ماجة (٢/ ٩٠٥ رقم ٢٧١٣) والترمذي (٤/ ٤٣٣ رقم ٢١٢٠) وقال حديث حسن صحيح. والطيالسي في المسند (ص١٥٤ رقم ١١٢٧) والبيهقي (٦/ ٢٦٤) والدولابي في الكنى (١/ ٦٤) وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٢٥ رقم ٤٢٧) وفي إسناده إسماعيل بن عياش وهو قوي في الشاميين وهذا الحديث من روايته عنهم.

(٢) كرر النداء بيا أيها الذين آمنوا لإظهار مزيد الإعتناء (أبو السعود ١/ ١٩٨).

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

عليه الصلاة والسلام «فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»[(١)] أو الإخلال بأدائه لأصالته وقِدَمه.

(١٨٤) ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ مؤقتات بعدد معلوم، أو قلائل، فإن القليل من المال يعد عداً والكثير يُهالُ هيْلاً، ونصبُها ليس بالصيام لوقوع الفصل بينهما بل بإضمار صوموا لدَلالة الصيام عليه، والمراد به رمضان أو ما وَجَب صومه قبل وجوبه ونُسِخ به، وهو عاشوراء أو ثلاثة أيام من كل شهر، أو بِكَمَا كُتِب على الظرفية، أو على أنه مفعول ثان لكُتِب عليكم على السعة. وقيل معناه صومكم كصومهم في عدد الأيام، لما روي: أن رمضان كتب على النصارى، فوقع في برد أو حر شديد فحولوه إلى الربيع وزادوا عليه عشرين كفارةً لتحويله. وقيل زادوا ذلك لموتان أصابهم. ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يضره الصوم أو يعسر معه. ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أو راكبُ سفر، وفيه إيماء إلى أن من سافر أثناء اليوم لم يفطر. ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعليه صوم عدد أيام المرض أو السفر من أيام أخر إن أفطر، فحُذِف الشرط والمضاف والمضاف إليه للعلم بها. وقرىء بالنصب أي فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة. وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضي الله عنه ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا. ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نصف صاع من بُرّ أو صاع من غيره عند فقهاء العُراق، ومُدّ عند فقهاء الحجاز. رُخِّص لهم في ذلك أول الأمر لما أُمِروا بالصوم فاشتد عليهم لأنهم لم يتعودوه ثم نسخ. وقرأ نافع وابن عامر برواية ابن ذكوان[(٢)] بإضافة الفدية إلى الطعام وجمع المساكين، وقرأ ابن عامر برواية هشام[(٣)] مساكين بغير إضافة الفدية إلى الطعام، والباقون بغير إضافة وتوحيد مسكين، وقرِىء يُطَوَّقونه أي يُكَلَّفونه ويُقَلَّدونه من الطوق بمعنى الطاقة أو القِلادة، ويتطوّقونه أي يتكلفونه أو يتقلدونه، ويَطَّوقونه بالإدغام، ويُطَيَّقونه ويَطَّيَّقونه على أن أصلهما يَطْيُوقونه من فيعل وتفيعل بمعنى يطوقونه ويتطوقونه، وعلى هذه القراءات يحتمل معنى ثانياً وهو الرخصة لمن يتعبه الصوم ويجهده ـ وهم الشيوخ والعجائز ـ في الإفطار والفدية، فيكون ثابتاً وقد أول به القراءةُ المشهورة، أي يصومونه جَهْدهم وطاقتهم. ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية. ﴿فَهُوَ﴾ فالتطوع أو

---

(١) أخرجه البخاري (٤/١١٩ رقم ١٩٠٥) ومسلم (٢/١٠١٨ رقم ١٤٠٠) وأخرجه أبو داود (٢/٥٣٨ رقم ٢٠٤٦) والترمذي (٣/٣٩٢ رقم ١٠٨١) والنسائي (٤/١٦٩) و(٦/٥٦ ـ ٥٧) بنحوه وابن ماجة (١/ ٥٩٢ رقم ١٨٤٥) من حديث ابن مسعود.

● الوجاء: بكسر الواو الوَجْء وهو أن يُرَضّ أنثيا الفحل رضاً شديداً يذهب شهوة الجماع، ويتنزل في قطعِهِ منزلة الخصَيّ (لسان العرب: ١٥/ ٢١٤).

(٢) ابن ذكوان هو عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي. أخذ القراءة عن أيوب بن تميم عن يحيى بن الحارث الذماري عن ابن عامر، وابن عامر من القراء السبعة وتوفي ابن ذكوان (٢٤٢)هـ.

(٣) هشام: وكان قاضياً فقيهاً محدثاً ثقة ضابطاً، وأخذ القراءة عن عِراك بن خالد المزي عن يحيى بن الحارث الذماري عن ابن عامر، وتوفي بدمشق عام (٢٤٥)هـ.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

الخير. ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟﴾ أيها المُطِيقون، أو المطوقون وجهدتم طاقتكم، أو المرخصون في الإفطار ليندرج تحته المريض والمسافر. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية أو تطوع الخير أو منهما ومن التأخير للقضاء. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله أي اخترتموه. وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير لكم من ذلك.

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان، أو بدل من الصيام على حذفِ المضاف أي كتب عليكم الصيام صيام شهر رمضان. وقرىء بالنصب على إضمار صوموا، أو على أنه مفعول، وأن تصوموا وفيه ضعف، أو بدل من أيام معدودات. والشهر: من الشُّهرة، ورمضان: مصدر رَمَضَ إذا احترق، فأضيف إليه الشهر وجُعل عَلَماً ومُنِع من الصرف للعَلَمية والألفِ والنون، كما مُنع دَأية في ابن دأية عَلَماً للغُراب للعَلَمية والتأنيث، وقوله عليه الصلاة والسلام «من صام رمضان»[1] فعلى حذف المضاف لأَمْن الالتباس، وإنما سموه بذلك إما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش، أو لارتماض الذنوب فيه، أو لوقوعه أيام رَمَضِ الحرّ حين ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة. ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي ابتدىء فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، أو أنزل فيه جملة إلى سماء الدنيا ثم نزل منجماً إلى الأرض، أو أنزل في شأنه القرآن وهو قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. وعن النبي ﷺ «نزلت صحف إبراهيم عليه السلام أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستٍّ مضيْن، والإنجيلُ لثلاثَ عشرةَ، والقرآن لأربع وعشرين»[2] والموصولُ بصلته خبر المبتدأ أو صفته والخبر فمن شهد، والفاء لوصف المبتدأ بما تضمن معنى الشرط. وفيه إشعار بأن الإنزال فيه سبب اختصاصه بوجوب الصوم. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ حالان من القرآن، أي أنزل وهو هداية للناس بإعجازه وآيات واضحات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٩٢ رقم ٣٨) و(٤/ ١١٥ رقم ١٩٠١) و(٤/ ٢٥٥ رقم ٢٠١٤) ومسلم (١/ ٥٢٣، ٥٢٤ رقم ١٧٥) كلاهما من طرق عن أبي سلمة عن أبي هريرة.
● وتتمة الحديث «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدم من ذنبه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٠٧) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٧٥ رقم ١٨٥) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ١٤٥). كلهم من طريق عمران القطان عن قتادة عن ابن أبي مليح عن واثلة وقال الألباني في الصحيحة: «هذا إسناد حسن رجاله ثقات، وفي القطان كلام يسير وله شاهد من حديث ابن عباس مرفوعاً نحوه.
أخرجه ابن عساكر (٢/ ١٦٧/ ١ و٥/ ٣٥٢/ ١) من طريق علي بن أبي طلحة عنه. وهذا منقطع، لان علياً هذا لم يرَ ابن عباس» هـ.
قلت: وعمران القطان هذا حسن الحديث ـ التقريب (٢/ ٨٣) ـ والجرح والتعديل (٧/ ٢٩٧).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

من الحكم والأحكام. ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصُم فيه، والأصل فمن شهد فيه فليصم فيه، لكن وُضِع المُظْهَر موضع المضمر الأول للتعظيم، ونُصِب على الظرف وحذف الجارّ ونصب الضمير الثاني على الاتساع. وقيل فمن شهد منكم هلال الشهر فليصمه، على أنه مفعول به كقولك: شهدت الجمعة أي صلاتها فيكون ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مخصِّصاً له، لأن المسافر والمريض ممن شهد الشهر ولعل تكريره لذلك، أو لئلا يُتوهم نسخُه كما نُسخ قرينه. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض. ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عَلَّلَ لفعل محذوف دل عليه ما سبق، أي وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر والمرخص بالقضاء ومراعاةِ عِدَّة ما أَفْطر فيه والترخيصِ لتكملوا العدة إلى آخرها على سبيل اللفّ، فإنّ قوله ولتكملوا العدة علةُ الأمر بمراعاة العدة، ولتكبروا الله علةُ الأمر بالقضاء وبيانِ كيفيته، ولعلكم تشكرون علةُ الترخيص والتيسير. أو الأفعال كلٌّ لفعله، أو معطوفةٌ على علة مقدرة مِثْل ليسهِّل عليكم، أو لتعلموا ما تعلمون ولتكملوا العدة، ويجوز أن يُعْطَف على اليسر أي ويريد بكم لتكملوا كقوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾[1]. والمعنيُّ بالتكبير تعظيمُ الله بالحمد والثناء عليه ولذلك عُدِّي بعلى، وقيل تكبير يوم الفطر، وقيل التكبيرُ عند الإهلال وما يحتمل المصدر والخبر، أي الذي هداكم إليه، وعن عاصم برواية أبي بكر ولتكمِّلوا بالتشديد.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي فقل لهم إني قريب، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قُرب مكانه منهم، روي أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ أقريب ربُّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت[2] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ تقرير للقرب، ووعد للداعي بالإجابة. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أمر بالثبات والمداومة عليه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ راجين إصابة الرُّشْد وهو إصابة الحق. وقرىء بفتح الشين وكسرها. واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقّبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه، ثم بين أحكام الصوم فقال:

---

(١) الصف: «٨».

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢/١٥٨) وابن مردويه وأبو الشيخ ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (١/٤٦٩) ـ من طريق جرير عن عبدة السجستاني عن الصلب بن حكيم عن أبيه عن جده.
وقد عَرَّف «الصلب» عن ابن جرير والسيوطي إلى «الصلت» بالمثناة، والصواب بالموحدة وهو مجهول. انظر الإكمال لابن ماكولا (٥/١٩٦) وتبصير المنتبه (٣/٨٣٩).
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٨٧) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ روي أن المسلمين كانوا إذا أمسَوْا حلَّ لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الآخرة أو يرقدوا، ثم: إن عمر رضي الله عنه باشَرَ بعد العشاء فندم وأتى النبي ﷺ واعتذر إليه، فقام رجال واعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت[1] وليلة الصيام: الليلة التي تصبح منها صائماً. والرفث: كناية عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من رَفَث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، وعُدِّي بإلى لتضمنه معنى الإفضاء، وإيثارُه ههنا لتقبيح ما ارتكبوه ولذلك سماه خيانة. وقرىء الرفوث ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابسة، ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه شُبِّه باللباس قال الجعدي:

إذَا مَا الضجِيعُ ثَنَّى عِطفَهَا　　تثَنَّتْ فكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا

أو لأن كل واحد منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب، وتنقيص حظها من الثواب، والاختيان أبلغُ من الخيانة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٦٠) والطبري في جامع البيان (٢/ ١٦٥) كلهم من طريق «موسى بن جبير» مولى بني سلمة، عن كعب بن مالك قال عنه الحافظ: مستور ـ كما في التقريب (٢/ ٢٨١) ـ.
● المستور: من روى عنه أكثر من واحد ولم يوثق، وإليه الإشارة بلفظ مستور أو مجهول الحال.
وأخرج أبو داود (١/ ٣٤٧ رقم ٥٠٦) وأحمد (٥/ ٢٤٦) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ١٦٤) كلهم من طريق ابن أبي ليلى عن معاذ بن جبل نحوه وقد تقدم أن ابن أبي ليلى لم يسمع من معاذ ومع ذلك فقد صححه الألباني في صحيح أبي داود وأخرجه الطبري (٢/ ١٦٥) من حديث ابن عباس، وفي إسناده «عبدالله كاتب الليث» وهو ضعيف. وأخرجه أبو داود أيضاً (٢/ ٧٣٦ رقم ٢٣١٣) من حديث ابن عباس أيضاً وفيه «علي بن الحسين بن واقد» وهو ضعيف ـ كما في المختصر للمنذري (٣/ ٢٠٧) ـ.
وحسن الألباني إسناد الحديث في صحيح أبي داود. قلت: كون الحرمة مخصصة بالنوم قد ورد في حديث البراء عند البخاري (٤/ ١٢٩ رقم ١٩١٥) وأبي داود (٢/ ٧٣٧ رقم ٢٣١١٤) والدارمي (٢/ ٥) عنه قال: «كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطارُ فنام قبل أن يفطِرُ لم يأكل ليلته ولا يَومَهُ حتى يمسي.
وإنَّ قيس بن صِرمة الأنصاري كان صائماً فلما حضر الإفطار أتى امرأتهُ فقال لها أعِندَكِ طعام؟ قالت: لا ولكن أنطلق فأطلُبُ لك وكان يومه يعمَلُ، فغلبتهُ عيناه. فجاءَتهُ امرأتهُ، فلما رأتهُ قالت خيبةً لك، فلما انتصف النهار غشي عليه فذُكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية (أُحِلَ لكم ليلة الصيام الرَّفثُ إلى نسائكم) ففرحوا فرحاً شديداً ونزلت (وكُلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود).

كالاكتساب من الكسب. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لما تبتم مما اقترفتموه. ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ومحا عنكم أثره. ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ لِمَا نسخ عنكم التحريم، وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة: إلزاق البَشَرة بالبشرة كُنِّي به عن الجماع. ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدره لكم وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد، والمعنى: أن المباشِر ينبغي أن يكون غرضه الولدَ فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرع النكاح لإقضاء الوَطَر، وقيل النهي عن العزل، وقيل عن غير المأتى والتقديرُ وابتغوا المحل الذي كَتَب الله لكم. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترِض في الأفق وما يمتد معه من غَبَش الليل بخيطين أبيض وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله من الفجر عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه، وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل.

ويجوز أن تكون من للتبعيض، فإن ما يبدو بعضَ الفجر. وما روي أنها نزلت ولم ينزل من الفجر، فعَمَد رجال إلى خيطين أسود وأبيض ولا يزالون يأكلون ويشربون حتى يتبينا لهم فنزلت[(١)]، إن صح فلعله كان قبل دخول رمضان وتأخيرُ البيان إلى وقت الحاجة جائز، أو اكتفى أولاً باشتهارهما في ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم، وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالةُ على جواز تأخير الغُسْل إليه وصحةُ صوم المصبح جنباً ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ بيان لآخِر وقته وإخراج الليل عنه، فينفي صوم الوصال. ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ معتكفون فيها. والاعتكاف: هي اللبث في المسجد بقصد القُربة. والمراد بالمباشرة: الوطء. وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك[(٢)]. وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد ولا يختص بمسجد دون مسجد، وأن الوطء يحرم فيه ويفسده لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي الأحكام التي ذكرت. ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه. كما قال عليه الصلاة والسلام «إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[(٣)]. وهو أبلغ من قوله فلا تعتدوها، ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه ومناهيه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٣٢ رقم ١٩١٧) و(١٨/ ١٨٢ ـ ١٨٣ رقم ٤٥١١) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ١٢١) ـ ومسلم (٢/ ٧٦٧ رقم ٣٥) كلهم من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد.

● وأخرج البخاري (٤/ ١٣٢ رقم ١٩١٦) و(٨/ ١٨٢ رقم ٤٥٠٩، ٤٥١٠) ومسلم (٢/ ٧٦٦ رقم ٣٣) من حديث عدي بن حاتم أنه هو عمد إلى خيطين أبيض وأسود، فذكر نحو حديث سهل.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١) من طريقين عنه: الأول: عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع عن سعيد عنه.

الثاني: عن الحسن بن يحيى، عن عبدالرزاق، عن معمر عنه. وبشر بن معاذ، والحسن بن يحيى كلاهما صدوق، وباقي رجال الطريقين ثقات، فالأثر صحيح مرسل.

وقد روى الطبري معناه عن ابن عباس، والضحاك، والربيع، والسدي.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٢٦ رقم ٥٢) و(٤/ ٢٩٠ رقم ٢٠٥١) ومسلم (٣/ ١٢١٩ رقم ١٠٧/ ١٥٩٩) كلاهما من رواية الشعبي عن النعمان بن بشير.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي ولا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله تعالى. وبين نصب على الظرف، أو الحال من الأموال. ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ عطف على المنهي، أو نصب بإضمار أن. والإدلاء: الإلقاء، أي ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام. ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ بالتحاكم. ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة. ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثما، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح. روي أن عبدان الحضرمي ادعى على امرىء القيس الكندي قطعة من أرض ولم يكن له بيِّنة، فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس، فهَمَّ به فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1] الآية، فارتدع عن اليمين، وسلم الأرض إلى عبدان، فنزلت[2]. وفيه دليل على أن حكم القاضي لا ينفُذُ باطناً، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي، ولعل بعضَكم يكونُ أَلحَنَ بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له قطعة من نار»[3].

(١٨٩) ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم[4] فقالا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط، ثم يزيد حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا[5] ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ

(١) آل عمران: «٧٧».

(٢) الصحيح أن المخاصمة كانت بين ربيعة بن عبدان وبين امرىء القيس، وامرؤ القيس هذا هو صحابي جليل حفيد امرىء القيس الشاعر الجاهلي المشهور، وقد ثبت على الإسلام حين ارتدت قبيلته حتى قتل عمه المرتد ولعن الأشعث بن قيس على ارتداده. انظر ترجمته في أسد الغابة (١/ ١١١٥) وفي الإصابة (١/ ٦٣).
وهذا الأثر أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٥٥) عن مقاتل بن حيان ولم يذكر سنده وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير وهو لم يسمع منه (تخريج الفتح السماوي ص٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٢٨٨ رقم ٢٦٨٠) و(١٣/ ١٥٧ رقم ٧١٦٩) و(١٢/ ٣٣٩ رقم ٦٩٦٧) ومسلم (٣/ ١٣٣٧ رقم ٤) وأبي داود (٤/ ١٢ رقم ٣٥٨٣) والترمذي (٤/ ٦٢٤ رقم ١٣٣٩).
والنسائي (٢/ ٣٠٤ رقم ٥٤٠٣) و(٢/ ٣٠٨ رقم ٥٤٢٤) وابن ماجة (٢/ ٧٧٧ رقم ٢٣١٧) ومالك (٢/ ٧١٩ رقم ١) وأحمد (٦/ ٢٠٣، ٢٩٠، ٣٠٨، ٣٢٠).
● اللحن: الميل عن جهة الاستقامة (النهاية مادة لحن).

(٤) ثعلبة بن غنم: هكذا في الأصل، والصحيح ثعلبة بن غنمة بن عدي الأنصاري الخزرجي، شهد العقبتين وبدراً، واستشهد يوم الخندق وقيل يوم خيبر. انظر الإصابة (١/ ٢٠١) وأسد الغابة (١/ ٢٤٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم وابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس =

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾

﴿وَٱلۡحَجِّۗ﴾ فإنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمرِه، فأمره الله أن يجيب بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات المؤقَّتة يُعرَف بها أوقاتها، وخصوصاً الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء. والمواقيت: جمع ميقات من الوقت، والفرقُ بينه وبين المدة والزمان: أن المدة المطلقة امتداد حركة الفَلَكِ من مبدئها إلى منتهاها. والزمانُ: مدة مقسومة، والوقتُ: الزمانُ المفروض لأمر. ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وقرأ أبو عمرو وورش[(١)] وحفص بضم الباء، والباقون بالكسر[(٢)]. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف ولكِنْ، ورفع البر. كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون من نُقْب أو فُرْجة وراءه، ويَعُدُّون ذلك بِراً، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر من اتقى المحارم والشهوات[(٣)]. ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين، أو أنه لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضاً من أفعالهم في الحج ذكره للاستطراد، أو أنهم لما سألوا عمّا لا يَعْنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم النبوة عقَّب بذكره جواب ما سألوه تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها، أو أن المراد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال بتمثيل حالهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه. والمعنى: وليس البِرُّ بأن تعكِسوا مسائلكم ولكن البرَّ برُّ من اتقى ذلك ولم يجسر على مثله. ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ إذ ليس في العدول برٌّ فباشِروا الأمور من وجوهها. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لكي تظفروا بالهدى والبر[(٤)].

(١٩٠) ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جاهدوا لإعلاء كلمته وإعزاز دينه. ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ قيل: كان ذلك قبل أن أُمروا بقتال المشركين كافةً المقاتلين منهم والمحاجزين. وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويُتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم فإنهم بصدد قتال المسلمين وعلى قصده. ويؤيد الأول ما روي أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عام

= به ـ كما في أسباب النزول للسيوطي ص٢٨ ـ، قلت: إسناده واه بسبب السدي والكلبي.
وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٢/ ١٨٥) عن قتادة بسند صحيح: سألوا نبي الله ﷺ عن ذلك لِمَ جعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون «هي مواقيتَ للناس» فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم ولعدة نسائهم ومحل دينهم في أشياء والله أعلم بما يصلح خلقه.

(١) ورش هو عثمان بن سعيد المصري، ويلقب بورش لشدة بياضه، رحل إلى المدينة فقرأ على نافع، ثم رجع إلى مصر فانتهت إليه رياسة الإقراء بها، توفي (١٩٧)هـ.

(٢) أي بضم الباء وكسرها.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٠٣، ٤٥١٢).

(٤) أمر بالتقوى صراحة بعد بيان أن البر برّ من اتقى إظهاراً لزيادة الاعتناء بالتقوى وتمهيداً لقوله «لعلكم تفلحون» (أبو السعود ١/ ٢٠٣).

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ
يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا
تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ
قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابلٍ فيُخْلوا له مكة ـ شرفها الله ـ ثلاثة أيام، فرجع لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم. أو الشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت[1] ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهِد، أو المفاجأة به من غير دعوة، أو المُثْلة، أو قتل من نُهيتم عن قتله. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يريد بهم الخير.

(١٩١) ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم في حِلٍّ أو حَرَم. وأصل الثقف: الحِذْق في إدراك الشيء عِلْماً كان أو عملاً. فهو يتضمن معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال:

فـأمّـا تَثْقَفُـونـي فـاقتُلُـونـي ... فمَـنْ أَثْقَـفْ فلَيْـسَ إلـى خُلُـودِ

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي مكة، وقد فُعِل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح. ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يفتتن بها الإنسان كالإخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها. وقيل: معناه شركُهم في الحرم وصدُّهم إياكم عنه أشد من قتلكم إياهم فيه. ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تتفاتحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام. ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فلا تبالوا بقتالهم ثم فإنهم الذين هتكوا حرمته[2]. وقرأ حمزة والكسائي ولا تَقْتلوهم حتى يقتُلوكم فيه فإن قَتَلوكم. والمعنى حتى يقتُلوا بعضكم كقولهم قتلنا بنو أسد. ﴿كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ مثل ذلك جزاؤهم يفعل بهم مثل ما فعلوا.

(١٩٢) (١٩٣) ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً له ليس للشيطان فيه نصيب. ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الشرك. ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي فلا تعتدوا على المنتهين إذ لا يحسُن أن يَظْلِم إلا من ظُلِم، فوَضَعَ العلة موضع الحكم، وسمي جزاء الظلم باسمه للمشاكلة كقوله ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[3]. أو أنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وينعكس الأمر عليكم، والفاءُ الأولى للتعقيب والثانية للجزاء.

(١٩٤) ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجُهم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/١٩٧) عن قتادة في تفسير قوله تعالى: «الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ والحرماتُ قِصاصٌ» الآية (١٩٤).

(٢) قوله: «فإن قاتلوكم فاقتلوهم» عدل عن صيغة المفاعلة في قوله «فاقتلوهم» وقد ورد بها النهي والشرط لما فيها من وعد بالنصر والغلبة على الكافرين (أبو السعود ١/ ٢٠٤).

(٣) البقرة: «١٩٤».

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ
فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن
رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

لعمرة القضاء فيه، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحُرْمته فقيل لهم هذا الشهر بذاك وهَتْكُه بهتكه فلا تبالوا به. ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ احتجاج عليه، أي كل حرمة وهو ما يجب أن يُحافَظَ عليها يجري فيها القصاص، فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله، وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم إن قاتلوكم. كما قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهو فَذْلكة التقرير. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الأنصار ولا تعتدوا إلى مالم يرخص لكم. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

(١٩٥) ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولا تمسكوا كل الإمساك. ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش، أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه، فإن ذلك يقوي العدو ويسلطهم على إهلاككم. ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت[١]، أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدي إلى الهلاك المؤبد، ولذلك سمي البخل هلاكاً وهو في الأصل انتهاء الشيء في الفساد[٢]، والإلقاء: طرح الشيء، وعُدِّي بإلى لتضمن معنى الانتهاء، والباءُ مزيدة والمراد بالأيدي الأنفس، والتهلُكة والهلاك والهَلَك واحد فهي مصدر كالتَّضرَّة والتَّسرَّة، أي لا توقعوا أنفسكم في الهلاك، وقيل: معناه لا تجعلوها آخذةً بأيديكم، أو لا تلقوا بأيديكم أنفُسَكم إليها فحُذِفَ المفعول. ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضلوا على المحاويج. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٩٦) ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي ائتوا بهما تامَّيْن مستجمعي المناسكِ لوجه الله تعالى، وهو على هذا يدل على وجوبهما، ويؤيده قراءة من قرأ وأقيموا الحج والعمرة لله، وما روى جابر رضي الله تعالى عنه «أنه قيل يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج، فقال: لا ولكنْ إن تعتمر خير لك»[٣]

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٣/٨٨) ـ وأبو داود (٣/٢٧ رقم ٢٥١٢) والطيالسي في مسنده (ص٨٢) والطبري في «جامع البيان» (٢/٢٠٤) والحاكم في المستدرك (٢/٢٧٥) و(٢/٨٤) عنه.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وقال الألباني: وقد وهِما فإن الشيخين لم يخرّجا لأسلم هذا، فالحديث صحيح فقط (الصحيحة ١٣).

(٢) قال الشوكاني: (والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا فتح القدير) (١/١٩٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/٣١٦) والترمذي (٣/٢٧٠ رقم ٩٣١) والدارقطني (٢/٢٨٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/٣٤٩) كلهم من طريق حجاج بن أرطأة، عن محمد بن المنكدر عنه. وإسناده ضعيف ومع ذلك قال الترمذي: حسن صحيح. وانظر كلام ابن حجر في التلخيص (٢/٢٢٦) فقد أيد ضعفه. =

فمعارَضٌ بما روي «أن رجلاً قال لعمر رضي الله تعالى عنه، إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليَّ أهللت بهما جميعاً، فقال: هديت لسنة نبيك»(١) ولا يقال إنه فسَّر وَجَد أَنهما مكتوبين بقوله أهللْت بهما فجاز أن يكون الوجوب بسبب إهلاله بهما، لأنه رتب الإهلال على الوَجدان وذلك يدل على أنه سبب الإهلال دون العكس(٢). وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من دُوَيْرة أهلك، أو أن تفرد لكل منهما سفراً، أو أن تجرده لهما لا تشوبهما بغرض دنيوي، أو أن تكون النفقة حلالاً. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنِعتم، يقال حصره العدو وأحصره إذا حبسه ومنعه عن المضي، مثل صده وأصده. والمرادُ حصْرُ العدوِّ عند مالك والشافعي رحمهما الله تعالى لقوله تعالى ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾(٣) ولنزوله في الحديبية، ولقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا حصر إلا حصر العدو(٤) وكلُّ مَنْع من عدوٍّ أو مرض أو غيرهما عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام: «من كسر أو عرج فقد حل فعليه الحج من قابل»(٥) وهو ضعيف(٦) مؤوّل بما إذا شرط الإحلال به لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير(٧): «حجي واشترطي وقولي: اللهم محلي حيث حبستني»(٨) ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ فعليكم ما استيسر، أو فالواجب ما استيسر، أو فاهدوا ما استيسر. والمعنى إن أُحصِر المحرم وأراد أن يتحلل

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/٣٩٣ رقم ١٧٩٨) والنسائي (٥/١٤٦ ـ ١٤٧ رقم ٢٧١٩) وابن ماجة (٢/٩٨٩ رقم ٢٩٧٠) وابن حبان (ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ رقم ٩٨٥، ٩٨٦ ـ الموارد) وأحمد في المسند (١/ ١٤، ٢٥، ٣٤، ٣٧) والبيهقي (٤/ ٣٥٢، ٣٥٤) كلهم من طرق عن أبي وائل عن الصُّبَيّ بن معبد قال: كنت نصرانياً فأسلمت فأهللت بالحج والعمرة، فسمعني سليمان بن ربيعة وزيد بن صرمان فقالا: هذا أضل من بعير فقدمت على عمر فذكرت له فقال: هُدِيتَ لسُنة نبيِّك (مختصراً).
رجال الأثر ثقات والأثر صحيح. صححه الألباني (الإرواء رقم ٩٨٣).

(٢) ما ذهب إليه البيضاوي من وجوب العمرة هو مذهبه ـ مذهب الشافعية ـ ومن جمع بين الأدلة اختار أن العمرة سنة. وأجابوا عن الآية والأحاديث المصرحة بأنها فريضة بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها، وهي بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف.
(انظر فتح القدير للشوكاني ١/ ١٩٥ وروح المعاني ٢/ ٧٩).

(٣) البقرة: «١٩٦».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٢١٤) من طريق ابن جريج عن طاوس عن أبيه به.
كما أخرجه من طريق مجاهد وعطاء عن ابن عباس بلفظ «الحصرُ حصر العدو» ثم ذكر ما يفعل من أُحصِر.

(٥) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٣٣ رقم ١٨٦٢) والترمذي (٣/ ٢٧٧ رقم ٩٤٠ وقال: حسن صحيح. والنسائي (٥/ ١٩٨ ـ ١٩٩ رقم ٢٨٦٠، ٢٨٦١) وابن ماجة (٢/ ١٠٢٨ رقم ٣٠٧٧) وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٠) والدارمي (٢/ ٦١) كلهم من حديث الحجاج بن عمرو.
وهو حديث صحيح وقد صححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٦) لعل قول أبي حنيفة هو الأقوى، إذ الإحصار يكون من كل ما يمنع كالعدوّ ونحوه. وقد استعرض الألوسي الأدلة واختاره (روح المعاني ٢/ ٨١) وانظر ابن كثير ١/ ٢٢٠).

(٧) ضُباعة بنتُ الزبير هي: هي ضُبَاعة بنتُ عمّ رسول الله ﷺ الزبير بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف الهاشمية من المهاجرات، لها أحاديث يسير عن النبي ﷺ. بقيت ضُباعة إلى بعد عام أربعين.
[الإصابة (١٣/ ٢٦) والاستيعاب (١٣/ ٦٩) وتهذيب التهذيب (١٢/ ٤٦٠)].

(٨) أخرجه البخاري (٥٠٨٩) ومسلم (٢/ ٨٦٧) وآخرون.

تحلل بذبح هديٍ تيسر عليه من بَدَنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى يبعث به ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ أي لا تَحِلّوا حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ محِله أي مكانه الذي يجب أن ينحر فيه، وحملَ الأولون بلوغ الهدي محله على ذبحه حيث يحل الذبح فيه حِلاً كان أو حرماً، واقتصاره على الهـدي دليل على عدم القضاء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يجب القضاء، والمحل ـ بالكسر ـ يطلق على المكان والزمان. والهدي: جمع هدية كجَدْي وجدية، وقرىء من الهُدَى جمع هدية كمُطى في مَطِية ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق. ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كجراحة وقمل. ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه فدية إن حلق. ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة(١) «لعلك آذاك هَوامُكَ، قال: نعم يا رسول الله قال: احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفَرَقٍ على ستة مساكين أو انسك شاة»(٢) والفَرَق ثلاثة آصُع ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ الإحصار، أو كنتم في حال سعة وأمن. ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله بالعمرة قبل الانتفاع بتقرّبه بالحج في أشهره. وقيل: فمن استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يُحْرم بالحج. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فعليه دم استيسره بسبب التمتع، فهو دَمُ جُبْرانٍ يذبحُه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى، إنه دم نسك فهو كالأضحية ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي الهدي. ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ في أيام الاشتغال به بعد الإحرام وقبل التحلل. قال أبو حنيفة رحمه الله في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه. ولا يجوز صومُ يوم النحر وأيامِ التشريق عند الأكثرين. ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى أهليكم وهو أحد قولي الشافعي رضي الله تعالى عنه، أو نفرتم وفَرغتم من أعماله وهو قوله الثاني ومذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وقرىء سبعة بالنصب عطفاً على محل ثلاثة أيام. ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ فَذْلكة الحساب، وفائدتُها أن لا يَتوهَّم متوهم أن الواو بمعنى أو، كقولك جالس الحسن وابن سيرين، وأن يُعْلم العددُ جملة كما عُلِم تفصيلاً فإن أكثر العرب لم يحسنوا الحساب، وأن المراد بالسبعة هو العدد دون الكثرة فإنه يطلق لهما ﴿كَامِلَةٌ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة في محافظة العدد، أو مبيِّنة كمالَ العَشَرة فإنه أول عدد كامل إذ به تنتهي الآحاد وتتم مراتبها، أو مقيِّدة تقيد كمالِ بدليتها من الهدي. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الحكم

---

(١) كعب بن عُجرة الأنصاري السالميُّ المدني، من أهل بيعة الرضوان له عدّةُ أحاديث، مات سنة (٥٢هـ). [تهذيب التهذيب (٨/ ٣٩٠) الإصابة (٣/ ٢٩٧ رقم ٧٤١٩)].

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٢ رقم ١٨١٤) و(٤/ ١٦ رقم ١٨١٥) و(٧/ ٤٤٤ رقم ٤١٥٩) و(٧/ ٤٥٧ رقم ٤١٩٠، ٤١٩١) و(١٠/ ١٢٣ رقم ٥٦٦٥) و(١٠/ ١٥٤ رقم ٥٧٠٣) و(١١/ ٥٩٣ رقم ٦٧٠٨) و(٨/ ١٨٦ رقم ٤٥١٧) ومسلم (٢/ ٨٥٩ رقم ٨٠) و(٢/ ٨٦١ رقم ٨٥) و(٢/ ٨٦٢ رقم ٨٦) والترمذي (٥/ ٢١٣ رقم ٢٩٧٣، ٢٩٧٤) والنسائي (٥/ ١٩٥ رقم ٢٨٥٢) وأبو داود (٢/ ٤٣٠، ٤٣١) وابن ماجة (٢/ ١٠٢٨ ـ ١٠٢٩ رقم ٣٠٧٩، ٣٠٨٠) ومالك في الموطأ (٩/ ٤١٧ رقم ٢٣٧، ٢٣٨) وأحمد في المسند (٤/ ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣) والطيالسي في المسند (ص١٤٣). من طرق وبألفاظ مختلفة عنه.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

المذكور عندنا، والتمتع عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، لأنه لا مُتعة ولا قِران لحاضري المسجد الحرام عنده، فمن فعل ذلك أي التمتع منهم فعلَيه دمُ جناية. ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عندنا، فإنّ مَنْ كان على أقل فهو مقيم في الحرم أو في حكمه. ومِنْ مسكنه وراء الميقات عنده وأهل الحِل عند طاوس[1] وغير المكي عند مالك. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصاً في الحج ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2] لمن لم يتقه كي يصدكم للعلم به عن العصيان.

(١٩٧) ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ أي وقته. كقولك البُرْدُ شهران. ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾ معروفات وهي: شوال وذو القعدة وتسعة من ذي الحجة بليلة النحر عندنا، والعشر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وذي الحجة كله عند مالك. وبناء على الخلاف على أن المراد بوقته وقتُ إحرامه، أو وقتُ أعماله ومناسكه، أو مالا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقاً، فإن مالكاً كره العمرة في بقية ذي الحجة. وأبو حنيفة رحمه الله وإن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه. وإنما سمي شهران وبعضُ شهر أشهراً إقامةً للبعض مقام الكل، أو إطلاقاً للجمع على ما فوق الواحد. ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ فمن أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن عندنا، أو بالتلبية أو سوْق الهدي عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وهو دليل على ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى وأن من أحرم بالحج لزمه الإتمام. ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ فلا جماع، أو فلا فُحْش من الكلام. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ ولا خروج عن حدود الشرع بالسيئات وارتكاب المحظورات. ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولا مراء مع الخدم والرفقة. ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾[3] في أيامه، نفى الثلاثة على قصد النهي للمبالغة وللدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون، وما كانت منها مستقبَحة في أنفسها ففي الحج أقبح، كَلُبسِه الحريرَ في الصلاة والتطريبِ بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض العبادة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والأولين بالرفع على معنى: لا يكونن رفث ولا فسوق. والثالث بالفتح على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف في الحج، وذلك أن قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام، فارتفع الخلاف بأن أمروا أن يقعوا أيضاً بعرفة. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ

---

(١) طاوس: هو أبو عبدالرحمن طاوس بن كيسان، اليماني الحميري الجَنَدي، مولى بحير بن ديسان، وقيل مولى همدان، وروى عن العبادلة الأربعة وغيرهم، وروي عنه أنه قال: جالست خمسين من الصحابة. وكان رحمه الله عالماً متقناً، خبيراً بمعاني كتاب الله تعالى. . . .
وكان طاوس على جانب عظيم من الورع والأمانة، حتى شهد له بذلك أستاذه ابن عباس. فقال فيه: إني لأظن طاوساً من أهل الجنة. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة. وقال ابن معين: إنه ثقة. وقال الذهبي: كان طاوس شيخ أهل اليمن. مات بمكة سنة «ست ومائة»[تهذيب التهذيب (٥/ ٨ ـ ٩ رقم ١٤)].

(٢) إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة (أبو السعود ١/ ٢٠٧).

(٣) والإظهار في مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه والإشعار بعلة الحكم (أبو السعود ١/ ٢٠٧).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ حث على الخير عقب به النهي عن الشر ليستدل به ويستعمل مكانه. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ وتزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد، وقيل: نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون فيكونون كَلاً على الناس، فأمروا أن يتزودوا ويتقوا الإبرام في السؤال والتثقيل على الناس[1] ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فإن قضية اللب خشيةَ الله وتقواه، حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل المعرَّى عن شوائب الهوى فلذلك خص أولي الألباب بهذا الخطاب.

(١٩٨) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا﴾ أي في أن تبتغوا أي تطلبوا. ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عطاء ورزقاً منه، يريد الربح بالتجارة، وقيل: كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يقيمونها مواسم الحج، وكانت معايشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا منه فنزلت . ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ دفعتم منها بكثرة، من أفضت الماء إذا صببته بكثرة، وأصله أفضتم أنفسَكم فحُذِف المفعول كما حُذِف في دفعتُ من البصرة. وعرفات: جمع سمي به كأذرعات، وإنما نُوِّن وكُسِر وفيه العَلَميةُ والتأنيثُ لأن تنوين الجمع تنوينُ المقابلة لا تنوينَ التمكين، ولذلك يُجْمعُ مع اللام، وذهاب الكسرة تبعُ ذهاب التنوين من غير عِوَضٍ لعدم الصرف، وهنا ليس كذلك. أو لأن التأنيث إما أن يكون بالتاء المذكورة وهي ليست تاء تأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامةُ جمع المؤنث، أو بتاءٍ مقدرة كما في سعاد ولا يصح تقديرُها لأن المذكورة تمنعه من حيث إنها كالبدل لها لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت، وإنما سمي الموقف عرفة لأنه نعتٌ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فلما أبصره عرفه، أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر فلما أراه إياه قال: قد عرفت، أو لأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا، أو لأن الناس يتعارفون فيه، وعرفات للمبالغة في ذلك وهي من الأسماء المرتَجلة إلا أن يجعل جمع عارف، وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾[3] أو مقدمة للذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب بل مستحب، وعلى تقدير أنه واجب فهو واجب مقيَّد لا واجب مطلق حتى تجب مقدمته والأمر به غير مطلق. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء. وقيل: بصلاة العشاءين. ﴿عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ جَبَل يقف عليه الإمام ويسمى قزح. وقيل: ما بين مأزمي عرفة ووادي مُحسِّر، ويؤيد الأول ما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر - يعني بالمزدلفة - بغَلَس، ركب

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤ رقم ١٥٢٣) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٥٩٣ رقم ١٧٧٠) و(٤/ ٨٨ رقم ٢٠٥٠) و(٤/ ٣٢١ رقم ٢٠٩٨) من طرق عن ابن عباس.

(٣) البقرة: «١٩٩».

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر[(١)] وإنما سمي مشعراً لأنه مَعْلَم العبادة، ووصف بالحرام لحرمته. ومعنى عند المشعر الحرام: مما يليه ويقرب منه فإنه أفضل، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي مُحَسِّر. ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ كما علمكم، أو اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها. وما مصدرية أو كافّة. ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي الهُدى. ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهلين بالإيمان والطاعة، وإنْ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة. وقيل: إنْ نافية واللام بمعنى إلا، كقوله تعالى ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(٢)].

(١٩٩) ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة، والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأُمِروا بأن يساووهم. وثم لتفاوت ما بين الإفاضتين كما في قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم. وقيل: من المزدلفة إلى منىً بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام. وقرىء الناس بالكسر أي الناسي يريد آدم من قوله سبحانه وتعالى ﴿فَنَسِىَ﴾[(٣)] والمعنى أن الإفاضة من عرفة شَرْع قديم فلا تغيروه. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه.

(٢٠٠) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ فإذا قضيتم العبادات الحَجِّية وفرغتم منها. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ فأكثروا ذكره وبالغوا فيه كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخرة. وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنًى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخرَ آبائهم ومحاسن أيامهم. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ إما مجرور معطوف على الذِّكْر يَجعلُ الذِّكْرَ ذاكراً على المجاز، والمعنى: فاذكروا الله ذكراً كذكركم آباءكم أو كذكرٍ أشدَّ منه وأبلغ، أو على ما أُضيف إليه على ضعْف بمعنى أو كذكر قوم أشد منكم ذكراً. وإما منصوب بالعطف على آباءكم وذكراً من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكورية من آبائكم، أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره: أو كونوا أشد ذكراً لله منكم لآبائكم. ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ تفصيل للذاكرين إلى مُقِلٍّ لا يطلب بذكر الله تعالى إلا الدنيا ومُكْثِرٍ يطلب به خير الدارين، والمرادُ الحثُّ على الإكثار والإرشاد إليه. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا ومِنْحتنا في الدنيا ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي نصيب وحظ لأن همه مقصور بالدنيا، أو من طلب خلاق.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٨٩١ رقم ١٤٧) في سياق حديث حجة النبي صلى الله عليه وسلم الطويل.

(٢) الشعراء: «١٨٦».

(٣) طه: «١١٥».

(٢٠١) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ يعني الصحة والكفاف وتوفيق الخير. ﴿ وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ يعني الثواب والرحمة. ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ بالعفو والمغفرة، وقول علي رضي الله تعالى عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة وفي الآخرة الحوْراء وعذاب النار المرأة السوء وقول الحسن: الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقنا عذاب النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار أمثلة للمراد بها.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

(٢٠٢) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الفريق الثاني، وقيل إليهما. ﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ أي من جنسه وهو جزاؤه، أو من أجله كقوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ ﴾[١] أو مما دُعوا به نعطيهم منه ما قدرناه فسمي الدعاء كسباً لأنه من الأعمال. ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم في مقدار لمحة، أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا إلى الطاعات واكتساب الحسنات.

(٢٠٣) ﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ كبروه في أدبار الصلاة وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق. ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ ﴾ فمن استعجل النَّفْر. ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ يوم القرّ والذي بعده[٢]، أي فمن نفر في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار عندنا، وقبل طلوع الفجر عند أبي حنيفة. ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ باستعجاله. ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ومن تأخر في النفر حتى رمى في اليوم الثالث بعد الزوال، وقال أبو حنيفة: يجوز تقديم رميه على الزوال. ومعنى نفي الإثم بالتعجيل والتأخير التخيير بينهما والرد على أهل الجاهلية فإن منهم من أثَّم المتعجل ومنهم من أثَّم المتأخر. ﴿ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ أي الذي ذكر من التخيير، أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به، أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهمه منهما. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في مجامع أموركم ليعبأ بكم. ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للجزاء بعد الإحياء، وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق[٣].

(٢٠٤) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ ﴾ يروقك ويعظم في نفسك، والتعجب: حيرة تعرِض للإنسان لجهله بسبب المتعجَّب منه. ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ متعلق بالقول، أي ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب

---

(١) نوح: «٢٥».

(٢) يوم القرّ هو أول أيام التشريق، وسمي به لأنّ الناس يَقِرُّون في منىً للنحر (المصباح المنير، مادة قرر).

(٣) أكد الأمر بالتقوى بقوله «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فإنه من علم بالحشر والحساب والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعي إلى ملازمة التقوى (أبو السعود ١/ ٢١٠).

المعاش، أو في معنى الدنيا فإنها مراد من ادعاء المحبة وإظهار الإيمان، أو ببُعجِبُك أي يعجبك قوله في الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك في الآخرة لما يعتريه من الدهشة والحبسة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. ﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ ﴾ يحلف ويَستشهد الله على أن ما في قلبه موافق لكلامه. ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ شديد العداوة والجدال للمسلمين. والخصامُ المخاصمة ويجوز أن يكون جمع خَصْم كصعب وصعاب بمعنى أشد الخصوم خصومة. قيل نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي[1] وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله ﷺ ويدَّعي الإسلام[2]. وقيل في للمنافقين كلهم.

وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

(٢٠٥) ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أدبر وانصرف عنك. وقيل: إذا غَلَبَ وصار والياً. ﴿ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيَّتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنعَ الله بشؤمه القَطْرَ فيهلِكَ الحرثُ والنسل. ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ لا يرتضيه فاحذروا غضبه عليه.

(٢٠٦) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ حملته الأنَفة وحَمِية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر بإتقانه لِجَاجاً، من قولك أخذتُه بكذا إذا حملتَهُ عليه وألزمتَه إياه. ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ كَفَتْه جزاءً وعذاباً، وجهنم عَلَم لدار العقاب وهو في الأصل مرادف للنار. وقيل معرَّب. ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ جواب قسم مقدَّر، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ للعلم به، والمهاد الفراش. وقيل ما يوطأ للجنب.

(٢٠٧) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ﴾ يبيعها أي يبذلها في الجهاد، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يُقتَل. ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ طلباً لرضاه. قيل: إنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي، أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال: إني شيخ كبير لا ينفعكم إن كنتُ معكم ولا يضركم إن كنت عليكم فخَلُّوني وما أنا عليه وخذوا مالي فقبِلوه منه وأتى المدينة[3]. ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ حيث

---

(١) الأخنس بن شريق الثقفي، أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة فأظهر له الإسلام فأعجب النبي ﷺ ذلك منه. ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرّ بزرع لقوم وحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر...

(٢) أخرج الطبري في «جامع البيان» (٢/٣١٢) عن السدي قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم إني صادق، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم، وحُمُر، فأحرق الزرع، وعقر الحمر. فأنزل الله: «وإذا تولى سعى في الأرض....».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/٣٢١) وفيه أنها نزلت في صهيب وأبي ذر الغفاري، ثم ذكر قصتهما. وفي إسناده «سنيد» وهو ضعيف.
وأخرج الطبري نحوه عن الربيع لكن لم يسم ذاك الرجل الذي نزلت فيه، وفي إسناده «ابن أبي جعفر عن أبيه» =

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

أرشدهم إلى مثل هذا الشراء وكلفهم بالجهاد فعرضهم لثواب الغزاة والشهداء.

(٢٠٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ السَّلم ـ بالكسر والفتح ـ الاستسلام والطاعة، ولذلك يُطلَق في الصلح والإسلام. فتحه ابن كثير ونافع والكسائي وكسره الباقون. وكافّة اسمٌ للجملة لأنها تكُفُّ الأجزاء من التفرق، حال من الضمير أو السّلم لأنها تؤنث كالحرب قال:

السِّلْـمُ تَـأخُـذُ مِنهَـا مَـا رَضِيـتَ بِـه ... والحَـرْبُ يَكْفِيـك مِـنْ أَنْفَـاسِهَـا جُـرَعُ

والمعنى استسلموا لله وأطيعوه جملة ظاهراً وباطناً، والخطاب للمنافقين، أو ادخلوا في الإسلام بكليتكم ولا تخلطوا به غيره. والخطاب لمؤمني أهل الكتاب، فإنهم بعد إسلامهم عَظَّموا السبت وحرموا الإبل وألبانَها، أو في شرائع الله كلها بالإيمان بالأنبياء والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب، أو في شُعَب الإسلام وأحكامه كلها فلا تخلوا بشيء والخطاب للمسلمين. ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ بالتفرق والتفريق. ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر العداوة.

(٢٠٩) ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم﴾ عن الدخول في السلم. ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق. ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه الانتقام. ﴿ حَكِيمٌ﴾ لا ينتقم إلا بحق.

(٢١٠) ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ استفهام في معنى النفي ولذلك جاء بعده. ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يأتيهم أمره أو بأسه كقوله تعالى. ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾[(١)] ﴿ فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾[(٢)] أو يأتيهم الله ببأسه فحُذِف المأتيُّ به للدلالة عليه[(٣)] بقوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ فِي ظُلَلٖ ﴾ جمع ظلة كقُلّة وقلل وهي ما أظلك، وقرىء ظِلال كقِلال. ﴿ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ السحاب الأبيض وإنما يأتيهم العذاب فيه لأنه مظنة الرحمة، فإذا جاء منه العذاب كان أفظعَ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يُحتَسب كان أصعب فكيف إذا جاء من حيث يُحتسبُ الخير. ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فإنهم الواسطة في إتيان أمره، أو الآتون على الحقيقة

= وكلاهما ضعيف.
ثم ذكر الطبري قولاً ثالثاً أنها نزلت في كل من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، وأسنده عن أبي هريرة، وعمر بن الخطاب، ورجحه.

(١) النحل: «٣٣».

(٢) الأعراف: «٤».

(٣) قوله «إلا أن يأتيهم الله» فيه التفات إلى الغيبة، وذلك للإيذان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم. وإيراد الانتظار بقوله «هل ينظرون» للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها (أبو السعود ١/ ٢١٣). =

بأسه. وقرىء بالجر عطفاً على ظُلل أو الغمام. ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أتم أمرَ إهلاكهم وفَرَغ منه، وُضِع الماضي موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه. وقرىء وقضاءُ الأمر عطفاً على الملائكة. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم على البناء للمفعول على أنه من الراجع، وقرأ الباقون على البناء للفاعل بالتأنيث غير يعقوب على أنه من الرجوع، وقرىء أيضاً بالتذكير وبناء المفعول.

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

(٢١١) ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ أو لكل أحد، والمراد بهذا السؤال تقريعُهم. ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ﴾ معجزة ظاهرة، أو آية في الكتب شاهدة على الحق والصواب على أيدي الأنبياء، وكمْ خبرية أو استفهامية مقرِّرة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذفِ العائد من الخبر إلى المبتدأ. وآيةٌ مَميِّزُها. ومِنْ للفصل. ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي آيات الله فإنها سببُ الهدى الذي هو أجل النعم، بِجَعْلِها سببَ الضلالة وازديادَ الرجس أو بالتحريف والتأويل الزائغ. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ من بعد ما وصلت إليه وتمكن من معرفتها، وفيه تعريض بأنهم بدلوها بعد ما عَقَلوها ولذلك قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة[1].

(٢١٢) ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ حَسُنت في أعينهم وأُشرِبت محبتُها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها، والمزيِّن في الحقيقة هو الله تعالى إذ ما من شيء إلا وهو فاعله، ويدل عليه قراءة زيَّنَ على البناء للفاعل، وكل من الشيطان والقوة الحيوانية وما خلقه الله فيها من الأمور البهية والأشياء الشهية مُزَيِّنٌ بالعَرَض.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب، أي يسترذلونهم ويستهزئون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العُقْبى، ومِنْ للابتداء كأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم[2] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأنهم في عليين وهم في أسفل السافلين، أو لأنهم في كرامة وهم في مَذلّة، أو لأنهم يتطاولون عليهم فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا، وإنما قال والذين اتقوا بعد قوله من الذين آمنوا ليدل على أنهم متقون وأن استعلاءهم للتقوى[3] ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ في

---

(١) إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة (أبو السعود ١/ ٢١٣).

(٢) وإيثار صيغة الاستقبال في قوله «ويسخرون» للدلالة على استمرار السخرية منهم (أبو السعود ١/ ٢١٤).

(٣) وأن إعراضهم عن الدنيا لكونها مخلّة بتبتلهم إلى جناب القدس شاغلة عنه (أبو السعود ١/ ٢١٤).

الدارين. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير فيوسّع في الدنيا استدراجاً تارة وابتلاء أخرى.

(٢١٣) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس أو نوح أو بعد الطوفان، أو متفقين على الجهالة والكفر في فترة إدريس أو نوح[١]. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي فاختلفوا فبعث الله، وإنما حُذِف لدلالة قوله فيما اختلفوا فيه. وعن كعب[٢]: الذي علمتُه من عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر والمذكور في القرآن باسم العَلَم ثمانية وعشرون[٣] ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به الجنس ولا يريد به أنه أنزل مع كل واحد كتاباً يخصه، فإن أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصهم وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من الكتاب، أي ملتبساً بالحق شاهداً به. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي اللهُ، أو النبي المبعوث، أو كتابُه[٤] ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التبس عليهم. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق، أو الكتاب. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الخلاف، أي عكسوا الأمر فجعلوا ما أُنزِل مُزيحاً للاختلاف سبباً لاستحكامه[٥]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا. ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي للحق الذي اختُلف فيه من

---

(١) والأول هو الأنسب بالنظم الكريم (أبو السعود ١/ ٢٠٤، وانظر ابن كثير ١/ ٢٣٧).

(٢) كعب: هو كعب الأحبار، روي عنه ونسب إليه كثير من الإسرائيليات وبعض ما نسب إليه حق واضح وبعضه كذب فاضح الأمر الذي جعل بعض النقاد يعتقد صحة كل ما نسب إليه، فيكيل له التهم جزافاً، ولا يرى كل مروياته الإسرائيلية إلا أكاذيب وأباطيل.

وإذا نحن تتبعنا حياة كعب في الإسلام، ورجعنا إلى مقالات بعض الصحابة فيه، وأحصينا من تحمل منهم عنه وروى له، ومن أخرج له من شيوخ الحديث في مصنفاتهم، لوجدنا فيه ما يدحض ما اتهم به.

فقد أسلم كعب، على المشهور، في خلافة عمر رضي الله عنه وسكن المدينة وصحب عمر، وروى عنه وشارك في غزو الروم في خلافته.

ولقد كان كعب على مبلغ عظيم من العلم والمعرفة الواسعة حتى لهج بعض الصحابة بالثناء عليه، فهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يذكره فيقول «إن عند ابن الحميري لعلماً كثيراً» وجمهور العلماء على توثيق كعب ولذا لا نجد له ذكراً في كتب الضعفاء والمتروكين، حتى إن مسلماً أخرج له في صحيحه وكذلك أبو داود والترمذي والنسائي. وبذلك يتضح تحامل أحمد أمين ومحمد رشيد رضا على كعب الأحبار، كما أننا نعترض عليهما في اتهامهما لعلماء الجرح والتعديل بسبب عدم جرحهما لكعب.

والخلاصة أن كعباً مظلوم من مُتهميه ولا أقول عنه إلا أنه رجل أمين، وعالم استُغلّ اسمُه فنسب إليه روايات معظمها خرافات وأباطيل، لتروج بذلك على العامة ويتقبلها الأغمار من الجهلة. هـ.

[الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور: محمد السيد حسين الذهبي (ص٩٥ ـ ١٠٤)].

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٧٨، ١٧٩) وابن سعد في الطبقات (١/ ٥٤) من حديث أبي ذر وفيه: أبو عمر الشامي الدمشقي ضعيف ـ كما في التقريب (٢/ ٤٥٤) ـ وأخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥ ـ ٢٢٦) والطبراني في الكبير ـ كما في المجمع (١/ ١٥٩) ـ من حديث أبي أمامة، وقال الهيثمي مداره على علي بن يزيد وهو ضعيف.

(٤) وإظهار لفظ الناس لزيادة التعيين (أبو السعود ١/ ٢١٤).

(٥) عبر عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما في تضاعيفه من الحق، فإن الإنزال لا يفيد تلك الفائدة (أبو السعود ١/ ٢١٤).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

اختلف. ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره أو بإرادته ولطفه. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا يُضِل سالكه.

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ خاطب به النبي ﷺ والمؤمنين بعد ما ذكَر اختلافَ الأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفتهم. وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ ولم يأتكم، وأصل لمّا لمْ زيدت عليها ما، وفيها توقّع ولذلك جُعِلت مقابل قد. ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ حالهم التي هي مَثَلٌ في الشدة. ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ بيان له على الاستئناف. ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد. ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ لتناهي الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر. وقرأ نافع يقولُ بالرفع على أنه حكاية حال ماضية كقولك مَرِضَ حتى لا يرجونه. ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ استبطاءً له لتأخره. ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ استئناف على إرادة القول أي فقيل لهم ذلك إسعافاً لهم إلى طَلِبتهم من عاجل النصر[1]، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال عليه الصلاة والسلام «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[2].

(٢١٥) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن عمرو بن الجموح الأنصاري كان شيخاً ذا مال عظيم، فقال يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت[3] ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سئل عن المُنْفَق فأجيب ببيان المَصْرَف لأنه أهم، فإن اعتداد النفقة باعتباره ولأنه كان فى سؤال عمرو وإن لم يكن مذكوراً فى الآية، واقتصر في بيان المنفَق على ما تضمنه قوله ما أنفقتم من خير. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ في معنى الشرط. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جوابه أي إن تفعلوا خيراً فإن الله يعلم كنهه ويوفي ثوابه، وليس في الآية ما ينافيه فرضُ الزكاة ليُنْسَخ به.

---

(١) وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرُها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها وتقريره مالا يخفى (أبو السعود ١/ ٢١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٤ رقم ١/ ٢٨٢٢) من حديث أنس. وأخرج البخاري (١١/ ٣٢٠ رقم ٦٤٨٧) ومسلم (٤/ ٢١٧٤ رقم ٢٨٢٣) وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٣، ٣٥٤، ٣٧٣) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن المنذر ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (١/ ٥٨٥) ـ عن مقاتل بن حيان ونقلهُ الواحدي في «أسباب النزول» (ص٥٤ ـ ٥٥) عن أبي صالح عن ابن عباس تعليقاً.

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ شاق عليكم مكروهٌ طبعاً، وهو مصدرٌ نُعِت به للمبالغة، أو فُعْل بمعنى مفعول كالخُبز. وقرىء بالفتح على أنه لغة فيه كالضُّعف والضَّعْف، أو بمعنى الإكراه على المجاز كأنهم أكرهوا عليه لشدته وعظم مشقته كقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[١] ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما كُلفوا به، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم. ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما نُهوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه وهو يفضي بها إلى الردى، وإنما ذُكِرَ عسى لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم يعرف عينُها.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

(٢١٧) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبدالله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة ـ قبل بدر بشهرين ـ ليترصّد عِيراً لقريش فيها عمرو بن عبدالله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك غُرَّةَ رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة، فقالت قريش: استحل محمدٌ الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ويبذعر فيه الناس إلى معايشهم. وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا، وردَّ رسول الله ﷺ العِير والأسارى[٢] وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة وهي أول غنيمة في الإسلام، والسائلون هم المشركون كتبوا إليه في ذلك تشنيعاً وتعييراً وقيل أصحابُ السرية. ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال من الشهر الحرام. وقرىء عن قتال بتكرير العامل. ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي ذنب كبير، والأكثر أنه منسوخ بقوله تعالى ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[٣] خلافاً لعطاء[٤] وهو نسخ الخاص بالعام وفيه خلاف، والأولى منع دلالة الآية على حرمة القتال في الشهر

---

(١) الأحقاف: «١٥».

(٢) أخرجه أبو يعلى في المسند (٣/١٠٢ ـ ١٠٣ رقم ١٦/١٥٣٤) والطبري في «جامع البيان» (٢/٣٤٩ ـ ٣٥٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١١ ـ ١٢) من طريق معتمر بن سليمان قال: سمعت أبي عن صاحب له، وهو الحضرمي عن أبي السَّوَّار يحدّث عن جندب بن عبدالله البجلي. . . . الحديث وإسناده: حسن.
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٦/١٩٨) وقال: رواه الطبراني ـ في الكبير (٢/١٦٢ رقم ١٦٧٠) ـ ورجاله ثقات.

(٣) التوبة: «٥».

(٤) عطاء بن أبي رباح: هو أبومحمد عطاء بن أبي رباح، المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين، وتوفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة على أرجح الأقوال. =

الحرام مطلقاً فإنّ قتالٌ فيه نكرةٌ في حيّزٍ مُثْبتٍ فلا يَعُمّ[1]. ﴿وَصَدٌّ﴾ صرف ومنع. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام، أو ما يوصل العبد إلى الله سبحانه وتعالى من الطاعات. ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بالله. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ على إرادة المضاف أي وصد المسجد الحرام كقول أبي دؤاد:

أكُـلَّ امـرِىءٍ تَحْسَبِيـنَ امـرأً ونَـار تـوقـدُ بِـاللَّيْـلِ نَـارا

ولا يحسُن عطفه على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن عطف قوله ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ على ﴿وَصَدٌّ﴾ مانع منه إذ لا يتقدم العطف على الموصول على العطف على الصلة ولا على الهاء في به، فإن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة الجار. ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ أهل المسجد الحرام وهم النبي ﷺ والمؤمنون. ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مما فعلته السرية خطأً وبناء على الظن، وهو خبر عن الأشياء الأربعة المعدودة من كبائر قريش. وأفعل مما يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي ما ترتكبونه من الإخراج والشرك أفظعُ مما ارتكبوه من قتلى الحضرميّ. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم وإنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم، وحتى للتعليل كقولك أعبدالله حتى أدخُلَ الجنة. ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم كقول الواثق بقوته: علي قرنه إن ظفرتَ بي فلا تُبْقِ عليّ، وإيذان بأنهم لا يردونهم. ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ قيد الردة بالموت عليها في إحباط الأعمال كما هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، والمراد بها الأعمال النافعة. وقرىء حَبَطت بالفتح وهي لغة فيه. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ لبطلان ما تخيلوه وفوات ما للإسلام من الفوائد الدنيوية. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بسقوط الثواب. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كسائر الكفرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

(٢١٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت أيضاً في أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر. ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع في الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فعلوا خطأً وقلة احتياط. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإجزال الأجر والثواب.

= وحدث عن نفسه: أنه أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث، وانتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إليَّ ياأهل مكة وعندكم عطاء. . . .
[الجرح والتعديل (٦/ ٣٣٠) وغاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٥١٣)].

(١) أوثر تنكير لفظ «قتال» احترازاً عن توهم التعيين، وإيذاناً بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أيَّ قتال كان (أبوالسعود ١/ ٢١٧). =

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾

(٢١٩) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ روي أنه نزل بمكة قوله تعالى ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[(١)] فأخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمرَ ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: أفتنا يا رسول الله في الخمر فإنها مُذْهِبة للعقل مُسْلِبة للمال، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبدالرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا، فأمّ أحدهم فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فنزلت ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[(٢)] فقلَّ مَنْ يشربُها، ثم دعا عتبان بن مالك[(٣)] سعد بن أبي وقاص في نفر فلما سكِروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعدُ شعراً فيه هجاءُ الأنصار، فضربه أنصاري بلِحى بعير فشجّه، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[(٤)] فقال عمر رضي الله عنه انتهينا يا رب[(٥)]. والخمر في الأصل مصدر خَمَرَه إذا ستره، سمي بها عصير العنب والتمر إذا اشتد وغلا كأنه يَخمُر العقل، كما سمي سَكَراً لأنه يسكره أي يحجُزه، وهي حرام مطلقاً وكذا كلُّ ما أسكر عند أكثر العلماء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: نقيع الزبيب والتمر إذا طُبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حَلَّ شُربُه ما دون السُّكَر[(٦)]. والميسر أيضاً مصدر كالموعِد، سمي به القمار لأنه أخذ مال الغير بيُسْر أو سَلَب يساره، والمعنى يسألونك عن تعاطيهما لقوله تعالى ﴿قُلْ فِيهِمَآ﴾ أي في تعاطيهما. ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ من حيث إنه يؤدي إلى الانتكاب عن المأمور وارتكاب المحظور. وقرأ حمزة والكسائي كَثِيرٌ بالثاء. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ من كسب المال والطَّرَب والالتذاذ ومصادقة الفتيان، وفي

(١) النحل: «٦٧».
(٢) النساء: «٤٣».
(٣) عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري الخزرجي السالمي، صحابي من البدريين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين عمر، مات في خلافة معاوية. [الأعلام للزركلي (٤/ ٢٠٠)].
(٤) المائدة: «٩١».
(٥) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٥٣) وأبوداود (٤/ ٧٨ رقم ٣٦٧٠) والترمذي (٥/ ٢٥٣ رقم ٣٠٤٩) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٨) و(٤/ ١٤٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. والنسائي (٨/ ٢٨٦ - ٢٨٧ رقم ٥٥٤٠) كلهم من طرق عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن شرحبيل أبي ميسرة، عن عمر، وهو حديث صحيح.
وأخرجه الحاكم في المستدرك أيضاً (٤/ ١٤٣) من طريق حمزة الزيات عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب عن عمر وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٦١ - ٣٦٣) عن عبدالله بن عمر وسعيد بن جُبير، وزيد بن علي، والسري، وقتادة والربيع بنحو ماعند أبي السعود مختصراً ومطولاً.
(٦) قول أبي حنيفة مخالف لجمهور العلماء وهو قول مرجوح، حتى إن الفتوى في المذهب الحنفي على خلافه (انظر روح المعاني ٢/ ١١٣).

الخمر خصوصاً تشجيعُ الجبان وتوفير المروءة وتقوية الطبيعة[١]. ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ أي المفاسد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة منهما، ولهذا قيل إنها المحرِّمة للخمر لأن المفْسَدَة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل، والأظهرُ أنه ليس كذلك لما مر من إبطال مذهب المعتزلة. ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ قيل سائله أيضاً عمرو بن الجموح سأل أولاً عن المُنْفَق والمَصْرَف، ثم سأل عن كيفية الإنفاق. ﴿قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ العفو نقيض الجُهد ومنه يقال للأرض السهلة، وهو أن ينفق ما تيسر له بذلُه ولا يبلغ منه الجهد. قال:

خـذِي العَفْـوَ مِنِّـي تَسْتَـديمـي مَـوَدَّتـي ... ولاَ تَنْطِقِـي فِـي سَـوْرَتـي حِيْـنَ أغْضَـبُ

وروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مراراً فقال: هاتها مغضباً فأخذها فحذفها حذفاً لو أصابه لشجه ثم قال: «يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى»[٢]. وقرأ أبو عمرو برفع العفو. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي مثل ما بُيّن أن العفو أصلحُ من الجهد، أو ما ذكر من الأحكام، والكاف في موضع النصب صفة لمصدر محذوف أي تبيينا مثل هذا التبيين، وإنما وَحَّد العلامةَ والمخاطبُ به جمعٌ على تأويل القبيل والجمع[٣]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدلائل والأحكام.

---

(١) وفي تقديم إثمه على منافعه ووصفه بالكبَر مايدل على غلبة الأول مالايخفى (أبوالسعود ١/ ٢١٩).

(٢) وهو حديث ضعيف.

أخرجه أبو داود (٢/ ٣١٠ ـ ٣١١ رقم ١٦٧٣ ـ ١٦٧٤)، وابن حبان (ص٢١٤ رقم ٨٣٩ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (١/ ٤١٣) والدارمي (١/ ٣٩١) والطبري في جامع البيان (٢/ ٣٦٦) وابن خزيمة (٤/ ٩٨) وأبويعلى في المسند (٤/ ٦٥ ـ ٦٦ رقم ٣١٩/ ٢٠٨٤).

كلهم من طريق محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد، عن جابر.

قال المنذري في المختصر (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤): في إسناده «محمد بن إسحاق».

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وليس كذلك فإن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم مقروناً بآخر، ثم هو مدلس، وقد عنعنه.

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في الإرواء رقم (٨٩٨).

قلت: وقد ورد في معنى حديث جابر أحاديث صحيحة: (منها): حديث سعد بن أبي وقاص، قال: كان رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتد بي، فقلت: أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال لا. فقلت بالشطر؟ فقال: لا، ثم قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» الحديث.

أخرجه البخاري (٣/ ١٦٤ رقم ١٢٩٥) و(٥/ ٣٦٣ رقم ٢٧٤٢) و(٧/ ٢٦٩ رقم ٣٩٣٦) و(٨/ ١٠٩ رقم ٤٤٠٩) و(٩/ ٤٩٧ رقم ٥٣٥٤) و(١٠/ ١٢٣ رقم ٥٦٦٨) و(١١/ ١٧٩ رقم ٦٣٧٣) و(١٢/ ١٤ رقم ٦٧٣٣) ومسلم (٣/ ١٢٥١، ١٣٥٣ رقم ٥، ٨/ ١٦٢٨).

(ومنها): حديث أبي هريرة مرفوعاً: «خيرُ الصدقة ما كان عن ظهرِ غنيّ وابدَأ بمن تعولُ».

أخرجه البخاري (٣/ ٢٩٤ رقم ١٤٢٦) وأحمد (٢/ ٢٤٥، ٢٧٨، ٤٠٢، ٤٣٤، ٤٧٦، ٤٨٠، ٥٢٤، ٥٢٧).

(ومنها): حديث حكيم بن حزام مرفوعاً: «اليدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى، وابدأ بمن تعول، وخيرُ الصدقةِ عن ظهرِ غنى، ومن يستعففْ يُعِفَّهُ الله ومن يستغنِ يُغنِهِ الله» أخرجه البخاري (٣/ ٢٩٤ رقم ١٤٢٧).

(٣) وصيغة الاستقبال في «يبين» لاستحضار الصورة (أبوالسعود ١/ ٢١٩).

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

(٢٢٠) ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ في أمور الدارين فتأخذون بالأصلح والأنفع فيهما وتجتنبون عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم. ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾ لما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾[(١)] الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتَهم والاهتمامَ بأمرهم فشق ذلك عليهم، فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت[(٢)] ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ أي مداخلتُهم لإصلاحهم، أو إصلاح أموالهم خير من مجانبتِهم. ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾ حث على المخالطة، أي أنهم إخوانكم في الدين ومِنْ حقِّ الأخ أن يخالط الأخ. وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ وعيد ووعد لمن خالطهم لإفساد وإصلاح، أي يعلم أمرَه فيجازيَه عليه. ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾ أي ولو شاء الله إعناتكم لأعنتكم، أي كلفكم ما يشق عليكم من العنت وهي المشقة ولم يجوز لكم مداخلتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يقدر على الإعنات. ﴿حَكِيمٞ﴾ يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ أي ولا تتزوجوهن، وقرىء بالضم أي ولا تُزَوجوهن من المسلمين. والمشركات تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون لقوله تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾[(٣)] إلى قوله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[(٤)] ولكنها خصت عنها بقوله ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[(٥)] روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثداً الغنوي[(٦)] إلى مكة ليخرج منها أناساً من المسلمين، فأتته عناق وكان يهواها في الجاهلية فقالت: ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام حال بيننا، فقالت: هل لك أن تتزوج بي فقال نعم ولكن أَستأمِر رسول الله ﷺ فاستأمره،

---

(١) النساء: «١٠».

(٢) أخرجه أبوداود (٣/٢٩١ ـ ٢٩٢ رقم ٢٨٧١) والنسائي (٦/٢٥٦ رقم ٦٣٦٩) والحاكم (٢/٣٠٣، ٣١٨) والطبري في جامع البيان (٢/٣٦٩ ـ ٣٧٠).
كلهم من طريق جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. قلت: وحسن الألباني الحديث في صحيح أبي داود.

(٣) التوبة: «٣٠».

(٤) التوبة: «٣١».

(٥) المائدة: «٥».

(٦) مرثد الغنوي: صحابي بدري، استُشهد في عهد النبيﷺ، سنة ثلاث أو أربع في غزوة ذات الرجيع. [الإصابة (٣/٣٩٨) والتقريب (٢/٢٣٦)].

فنزلت[1] ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أي وَلَامْرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة، فإن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بحسنها وشمائلها، والواو للحال، ولوْ بمعنى إنْ وهو كثير. ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ ولا تزوجوا منهم المؤمنات حتى يؤمنوا، وهو على عمومه. ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ تعليل للنهي عن مواصلتهم وترغيب في مواصلة المؤمنين. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المشركين والمشركات. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي الكفر المؤدي إلى النار فلا يليق موالاتُهم ومصاهرتهم. ﴿وَاللَّهُ﴾ أي وأولياؤه، يعني المؤمنين حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه تفخيماً لشأنهم. ﴿يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي إلى الاعتقاد والعمل الموصليْن إليهما فهم الأحقاء بالمواصلة. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بتوفيق الله تعالى وتيسيره، أو بقضائه وإرادته. ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لكي يتذكروا، أو ليكونوا بحيث يرجى منهم التذكر لِمَا رَكَزَ في العقول من ميل الخير ومخالفة الهوى.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

(٢٢٢) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ روي أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحُيَّضَ ولا يؤاكلونها، كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح[2] في نفر من الصحابة عن ذلك فنزلت[3]. والمحيض مصدر كالمجيء والمبيت، ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر يسألونك بغير واو

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (١٤٨): نزولها في هذه القصة ليس بصحيح. قلت: بل الصحيح أن آية النور «الزاني لاينكح إلا زانيةً أو مشركةً» هي التي نزلت في قصة مرثد.

(٢) أبو الدحداح هو ثابت بن الدحداح، وهو الذي قال يوم أحد: إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لايموت، فقاتلوا عن دينكم.. فحمل بمن معه من المسلمين فطعنه خالد فأنفذه فوقع ميتاً، وقيل إنه جرح ثم برأ ومات بعد ذلك على فراشه.. (الإصابة ١/ ١٩١).

(٣) أخرج مسلم (١/ ٢٤٦ رقم ١٦) والترمذي (٥/ ٢١٤ رقم ٢٩٧٧) والنسائي (١/ ١٨٧ رقم ٣٦٩) وأبو داود (١/ ١٧٧ رقم ٢٥٨) و(٢/ ٦٢٠ رقم ٢١٦٥) وابن ماجة (١/ ٢١١ رقم ٦٤٣) كلهم من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس، أنَّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنَّ في البيوتِ فسأل أصحابُ النبيّ ﷺ النبيَّ ﷺ. فأنزل الله تعالى: «ويَسْألُونك عن المحيض قُلْ هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض.... إلى آخر الآية (البقرة: ٢٢٢). فقال رسول الله ﷺ «اصْنَعُوا كلَّ شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: مايريدُ هذا الرجل أن يَدَعَ من أمرنا شيئاً إلاَّ خالفنا فيه. فجاء أُسَيْد بنُ حُضيْر وعبَّادُ بن بشر فقالا: يارسول الله! إن اليهود تقول كذا وكذا. فلانُجامعُهُنَّ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننَّا أنْ قد وَجَدَ عليهما. فخرجا فاسْتَقْبَلَهُما هَدِيَّةٌ من لبنٍ إلى النَّبيِّ ﷺ. فأرسل في آثارهما. فسقاهُما فعرفا أن لم يجدْ عليهما.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٨١) عن قتادة نحو ماعند أبي السعود إلا سؤال أبي الدحداح.
وأخرج أيضاً الطبري (٢/ ٣٨١) عن السدي في قوله: «ويسألونك عن المحيض) قال: سأل عن ذلك ثابت بن الدحداح. =

ثلاثاً ثم بها ثلاثاً، لأن السؤالات الأُوَل كانت في أوقات متفرقة والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع. ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي الحيض شيء مستقذر مؤذٍ مَنْ يقربُه نفرة منه. ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوا مجامعتهن لقوله عليه الصلاة والسلام «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم»[(١)]. وهو الاقتصاد بين إفراط اليهود وتفريط النصارى فإنهم كانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض. وإنما وصفه بأنه أذى ورتب الحكم عليه بالفاء إشعاراً بأنه العلة. ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ تأكيد للحكم وبيان لغايته، وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ويدل عليه صريحاً قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية ابن عباس يَطَّهَّرْن أي يتطهرن بمعنى يغتسلن والتزاماً قوله ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فإنه يقتضي تأخير جواز الإتيان عن الغسل. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه إذا طهرت لأكثر الحيض جاز قربانُها قبل الغسل[(٢)]. ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي المأتى الذي أمركم الله به وحلله لكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من الذنوب. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتنزهين عن الفواحش والأقذار، كمجامعة الحائض والإتيان في غير المآتي.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٢٣﴾

(٢٢٣) ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. شبَّههن بها تشبيهاً لما يُلقى في أرحامهن من النطف بالبذور ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي فاتتوهن كما تأتون المحارث، وهو كالبيان لقوله تعالى ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ من أي جهة شئتم، روي أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من دبرها في قبلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت[(٣)]. ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ ما يدخر لكم من

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٩ رقم (١٥٢) لم أجده.

(٢) قول أبي حنيفة مرجوح، وهو خلاف الجمهور، لمادل عليه قوله «فإذا تطهّرن» والقراءة الأخرى «حتى يَطّهّرن». وانظر ترجيح قول غير أبي حنيفة عند الألوسي (روح المعاني ٢/ ١٢٢) والشوكاني في (فتح القدير ١/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١٨٩ رقم ٤٥٢٨) ومسلم (٢/ ١٠٥٨ ـ ١٠٥٩ رقم ١١٧ ـ ١١٩) من حديث جابر.
ولمسلم من رواية النعمان بن راشد عن الزهري قوله: «إن شاء مُجبِّية، وإن شاء غير مُجبيه، غير أن ذلك في صمام واحد».

● مجبية: أي منكبة على وجهها تشبيهاً بهيئة السجود [النهاية: ١/ ٢٣٨].

● غير مجبية: أي مستلقية أو مضطجعة.

● في صمام: قال ابن الأثير: والصمام ماانسد به الفرجة، فسمي به الفرج ويجوز أن يكون «في موضع صمام» على حذف المضاف.
[النهاية: ٣/ ٥٤].

وأخرجه أبو داود (٢/ ٦١٨ رقم ٢١٦٣) والترمذي (٥/ ٢١٥ رقم ٢٩٧٨) والنسائي في عشرة النساء (ص١١٣ رقم٨٨) وابن ماجة (١/ ٦٢٠ رقم ١٩٢٥) والدارمي (٨/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩) و(٢/ ١٤٥ ـ ١٤٦) وليس عند أحد منهم قوله «فذكر ذلك لرسول الله ﷺ».

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

الثواب. وقيل هو طلب الولد. وقيل التسمية عند الوطء. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالاجتناب عن معاصيه. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ فتزودوا مالا تفتضحون به. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الكاملين في الإيمان بالكرامة والنعيم الدائم. أُمِرَ الرسولُ ﷺ أن ينصحَهم ويبشر من صدَّقه وامتثل أمره منهم.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نزلت في الصدّيق رضي الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها، أو في عبدالله بن رواحة حلف أن لا يكلم خَتَنه بشير بن النعمان[(١)] ولا يصلح بينه وبين أخته. والعُرْضة فُعْلة بمعنى المفعول كالقَبضة تُطلق لما يعْرِض دون الشيء وللمُعَرَّض للأمر، ومعنى الآية على الأول ولا تجعلوا الله حاجزاً لما حلفتم عليه من أنواع الخير، فيكون المراد بالإيمان الأمور المحلوف عليها، كقوله عليه الصلاة والسلام لابن سمرة[(٢)] «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك»[(٣)]. وأنْ مع صلتها عطفُ بيانٍ لها، واللامُ صلةُ عُرْضة لما فيها من معنى الاعتراض، ويجوز أن تكون للتعليل ويتعلق أن بالفعل أو بعُرْضة أي ولا تجعلوا الله عرضة لأن تَبَرُّوا لأجل أيمانكم به، وعلى الثاني ولا تجعلوه معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم الحلاّف بقوله ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[(٤)] وأن تبروا علة للنهي أي أنهاكم عنه إرادة بَرِّكم وتقواكم وإصلاحِكم بين الناس، فإن الحلاّفَ مجترىء على الله تعالى، والمجترىء عليه لا يكون براً متقياً ولا موثوقاً به في إصلاح ذات البين ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

(٢٢٥) ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغو الساقط الذي لا يُعتد به من كلام غيره، ولغو اليمين مالا عَقْد معه كما سبق به اللسان أو تكلم به جاهلاً لمعناه كقول العرب: لا والله وبلى والله لمجرد التأكيد لقوله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، والمعنى: لا يؤاخذكم الله بعقوبةٍ ولا كفارة بما لا قصْد معه، ولكن يؤاخذكم بهما أو بأحدهما بما قصدتم من الأيمان وواطَأَت فيها قلوبُكم ألسنتُكم. وقال أبو حنيفة: اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنِّه الكاذب، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من

---

(١) بشير بن النعمان: هو بشير بن سعد بن النعمان بن أكّال، شهد أحداً والخندق مع أبيه والمشاهد كلها، قاله العدوي عن ابن القداح، ذكره ابن الدباغ [أسد الغابة (١/ ٢٣١ رقم ٤٦٠)].

(٢) ابن سمرة هو عبدالرحمن بن سمرة، من مسلمة الفتح، افتتح سجستان، سكن البصرة وتوفي فيها عام (٥٠)هـ (تقريب التهذيب ١/ ٤٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٥١٦ ـ ٥١٧ رقم ٦٦٢٢) و(١٣/ ١٢٣ ـ ١٢٤ رقم ٧١٤٧) ومسلم (٣/ ١٢٧٣ ـ ١٢٧٤ رقم ١٩) وأبو داود (٣/ ٥٨٤ رقم ٣٢٧٧) والترمذي (٤/ ١٠٦ رقم ١٥٢٩) والنسائي (٧/ ١٠) وأحمد (٥/ ٦١، ٦٢، ٦٣) والدارمي (٢/ ١٨٦) كلهم من طريق الحسن عن عبدالرحمن بن سمرة وفي الباب من حديث عدي بن حاتم وأبي هريرة وأبي موسى وغيرهم. انظر تخريجها في «الروضة الندية» بتحقيقنا (٢/ ٣٦٠).

(٤) القلم: «١٠».

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

الأيمان، ولكن يعاقبكم بما تعمَّدتُم الكذب فيه. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيث لم يؤاخذ باللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجّل بالمؤاخذة على يمين الجِدِّ تربصاً للتوبة.

(٢٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي يحلفون على أن لا يجامعوهن. والإيلاء: الحلف، وتعديته بعلى ولكن لما ضمن هذا القِسْم معنى البُعد عُدِّي بمن. ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ مبتدأ وما قبله خبره، أو فاعلُ الظرف على خلافٍ سبق. والتربص: الانتظارُ والتوقف أضيف إلى الظرف على الاتساع، أي للمُولي حقُّ التلبث في هذه المدة فلا يطالَب بفيء ولا طلاق، ولذلك قال الشافعي: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ويؤيده ﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا في اليمين بالحنث، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمُولي إثم حنثه إذا كفّر، أو ما توخّى بالإيلاء من ضِرار المرأة ونحوه بالفيئة التي هي كالتوبة.

(٢٢٧) ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ وإن صمموا قصده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لطلاقهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بغرضهم فيه، وقال أبو حنيفة: الإيلاء في أربعة أشهر فما فوقها، وحكمه أن المُولي إن فاء في المدة بالوطء إن قدر وبالوعد إن عجَز صح الفيء ولزم الواطىءُ أن يكفِّر وإلا بانت بعدها بطلقة. وعندنا يطالب بعد المدة بأحد الأمرين فإن أبى عنهما طلق عليه الحاكم.

(٢٢٨) ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ يريد بها المدخول بهن من ذوات الأَقراء، لما دلت عليه الآياتُ والأخبار أنّ حكم غيرهن خلاف ما ذكر. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبر بمعنى الأمر، وتغييرُ العبارة للتأكيد والإشعار بأنه مما يجب أن يُسارَع إلى امتثاله، وكأن المخاطِب قَصَدَ أن يُمتثل الأمرُ فيخبِر عنه كقولك في الدعاء: رحمك الله، وبناؤه على المبتدأ يزيدُه فَضلُ تأكيد. ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ تهييج وبَعْث لهن على التربص، فإن نفوس النساء طوامحُ إلى الرجال، فأُمِرن بأن يقمعنها ويحملنها على التربص. ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ نصب على الظرف، أو المفعول به. أي يتربصن مُضِيها. وقُرُوء جمع قَرْء وهو يطلق للحيض، كقوله عليه الصلاة والسلام «دعي الصلاة أيام أقرائك»[1] وللطهر الفاصل بين الحيضتين كقول الأعشى:

---

١) أخرجه أبوداود (١/١٩١ رقم ٢٨٠) والنسائي (١/١٢١ رقم ٢١١) من حديث فاطمة بنت أبي حبيش. وهو حديث صحيح.
وأخرجه النسائي (١/١٢١ رقم ٢١٠) من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ: «أن تترك الصلاة قدر أَقْرَائها» وهو حديث صحيح.
قلت: وحديث فاطمة بنت أبي حُبيش مخرّج في الصحيحين لكن ليس عندهما لفظ «أقراء».
البخاري (١/٤٠٩ رقم ٣٠٦) و(١/٤٢٠ رقم ٣٢٠) و(١/٣٢٥ رقم ٣٢٥) و(١/٤٢٨ ـ ٤٢٩ رقم ٣٣١).
ومسلم (١/٢٦٢ رقم ٦٢) كلاهما من حديث عائشة بلفظ «فإذا أقبلت الحَيْضة فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم وصلي». ولفظه في رواية للبخاري «دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها».

مــوَرِّثَــةٌ مَــالاً وَفِــي الحَــيِّ رفْعَــةٌ		لمَــا ضَــاعَ فِيهَــا مِــنْ قُــرُوءِ نِسَــائِكَــا

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد به في الآية لأنه الدالّ على براءة الرحِم لا الحيض، كما قاله الحنفية لقوله تعالى ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] أي وقت عدتهن. والطلاق المشروع لا يكون في الحيض، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان»[2] فلا يقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر «مُرْه فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهُر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعدُ وإن شاء طلّق قبل أن يَمَس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تُطَلَّق لها النساء»[3]. وكان القياس أن يُذكر بصيغة القِلَّة التي هي الأقراء، ولكنهم يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من البناءين مكان الآخر، ولعلّ الحكم لماعمّ المطلقاتِ ذوات الأقراء تضمن معنى الكثرة فحسُن بناؤها. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو الحيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحقّ الرَّجعة، وفيه دليل على أن قولها مقبول في ذلك. ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ليس المراد منه تقييد نفي الحل بإيمانهن، بل التنبيه على أنه ينافي الإيمان وأن المؤمن لايجترِىء عليه ولاينبغي له أن يَفْعل. ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أي أزواج المطلقات. ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ إلى النكاح والرَّجعة إليهن، ولكن إذا كان الطلاق رجعياً للآية التي تتلوها فالضمير أخصّ من المرجوع إليه ولاامتناع فيه، كما لو كرر الظاهر وخصصه. والبُعُولة جمع بعل والتاء لتأنيث الجمع كالعمومة والخؤلة، أو مصدر من قولك بَعُل حَسَنُ البُعولة نعت به، أو أقيم مقام المضاف المحذوف أي وأهل بعولتهن، وأَفْعَلُ ههنا بمعنى الفاعل. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في زمان التربص. ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ بالرجعة لالإضرار المرأة، وليس المراد

---

(١) الطلاق: «١».

(٢) أخرجه أبوداود (٢/ ٦٣٩ رقم ٢١٨٩) والترمذي (٣/ ٤٨٨ رقم ١١٨٢) وابن ماجة (١/ ٦٧٢ رقم ٢٠٨٠) والحاكم (٢/ ٢٠٥) والدارمي (٢/ ١٧٠) والدارقطني (٤/ ٣٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٤٢٦) كلهم من طريق أبي عاصم عن ابن جريج، عن مظاهر بن أسلم، عن قاسم بن محمد عن عائشة بلفظ: «وقرؤها حيضتان».
قال أبو داود: هذا حديث مجهول.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لانعرفه مرفوعاً إلا من حديث مُظاهر بن أسلم.
قال الحاكم: لم يذكرهُ ـ أي مظاهراً ـ أحد من مُتقدّمي مشايخنا بجرح، فالحديث صحيح إذاً ووافقه الذهبي، فقال الألباني: هذا من عجائبه فإنه قد أورده في المغني في الضعفاء (٢/ ٦٦٣ رقم ٦٢٩٥) وقال: قال ابن معين: ليس بشيء (الإرواء: رقم ٢٠٦٦). والخلاصة: أن الحديث ضعيف.
● وله شاهد من حديث ابن عمر: أخرجه ابن ماجة (١/ ٦٧٢ رقم ٢٠٧٩) والدارقطني (٤/ ٣٨) والبيهقي (٧/ ٣٦٩) والذهبي في الميزان (٣/ ٢٠٤) كلهم من طريق عمر بن شبيب بن عبدالله بن عيسى عن عطية العوفي عنه.
وعمر بن شبيب، وعطية العوفي: ضعيفان، قال الدارقطني والبيهقي منكر، غير ثابت من وجهين:
الأول: أن عطية العوفي ضعيف، وسالم ونافعٌ أثبتُ منه وأصح رواية.
الثاني: أن عمر بن شبيب ضعيف الحديث، لا يُحتج بروايته، ثم قالا: والصحيح مارواه سالم ونافع عن ابن عمر موقوفاً وقد روياه ـ الدارقطني والبيهقي ـ موقوفاً.
والصواب أن عِدة الأمة كالحرة، لأن أدلة الكتاب والسنة المشتملة على تفصيل العِدَد غيرُ مختصة بالحرائر.

(٣) البخاري (٨/ ٦٥٣ رقم ٤٩٠٨) ومسلم (٢/ ١٠٩٥ رقم ٤/ ١٤٧١).

منه شرطية قصد الإصلاح للرجعة بل التحريضُ عليه والمنع من قصد الضِّرار. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي ولهن حقوق على الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب واستحقاق المطالبة عليها، لافي الجنس. ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ زيادة في الحق وفضل فيه، لأن حقوقهم في أنفسهم وحقوقهن المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها، أو شرف وفضيلة لأنهم قُوَّام عليهن وحُرَّاص لهن يشاركوهن في غرض الزواج ويُخَصون بفضيلة الرعاية والإنفاق ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام ممن خالف الأحكام. ﴿حَكِيمٌ﴾ يشرعها لحكم ومصالح.

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

(٢٢٩) ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ أي التطليق الرجعي اثنان، لماروي أنه ﷺ سُئِلَ أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أو تسريح بإحسان»(١). وقيل: معناه التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، ولذلك قالت الحنفية الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة. ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ بالمراجعة وحسن المعاشرة، وهو يؤيد المعنى الأول. ﴿أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ بالطلقة الثالثة، أو بأن لايراجعها حتى تَبين، وعلى المعنى الأخير حُكْمٌ مبتدأ وتخييرٌ مُطْلق عَقَّب به تعليمهم كيفية التطليق. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أي من الصدقات. روي أن جميلة بنت عبدالله بن أبيّ بن سلول، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: لاأنا ولاثابت لايجمع رأسي ورأسه شيء، والله ماأُعِيبُه في دين ولاخُلُق ولكني أكره الكفر في الإسلام، وماأطيقه بغضاً إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في جماعة من الرجال، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً. . فنزلت(٢). فاختَلَعَت منه بحديقة كان أَصْدَقَها إياها. والخطاب مع الحكام وإسنادُ الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الآمرون بهما عند الترافع. وقيل إنه خطاب للأزواج ومابعده خطاب للحكام وهو يشوِّش النظم على القراءة المشهورة. ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي الزوجان. وقرىء يَظُنَّا وهو يؤيد تفسير الخوف بالظن. ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بترك إقامة أحكامه من مواجب الزوجية. وقرأ حمزة ويعقوب يُخَافَا على البناء للمفعول،

---

(١) أخرجه أبو داود في مراسيله (ص١٨٩ رقم ٢٢٠) وسعيد بن منصور في سننه (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١ رقم ١٤٥٦ و١٤٥٧) وعبدالرزاق في المصنف (٦/ ٣٣٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٥٩) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٠٥٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٤٠) كلهم من طرق عن إسماعيل بن سميع، من حديث أبي رزين الأسدي به.

ورجاله ثقات، وقد ضعفه الشيخ أحمد شاكر لإرساله (الطبري رقم ٤٧٩٢، ٤٧٩٣).

(٢) قصة اختلاع زوجة ثابت بن قيس منه ثابتة بسند صحيح وفي روايات متعددة، ولكن ليس في شيء من طرق الحديث التصريح بنزول الآية في هذه القصة (الفتح السماوي ص٢٨٠ ـ ٢٨٢) وجميلة هي بنت أبيّ بن سلول أخت عبدالله رأس المنافقين على الأرجح (تخريج الفتح السماوي ص٢٧٨).

وإبدالُ أنْ بصِلَتِهِ من الضمير بدل الاشتمال، وقرىء تخافا وتقيما بتاء الخطاب. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام. ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ على الرجل في أخذ ماافتدت به نفسها واختلعت، وعلى المرأة في إعطائه. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ماحَدَّ من الأحكام. ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلاتتعدوْها بالمخالفة. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تعقيب للنهي بالوعيد مبالغةً في التهديد. واعلم أن ظاهر الآية يدل على أن الخُلع لايجوز من غير كراهة وشِقاق، ولابجميع ماساق الزوج إليها فضلاً عن الزائد، ويؤيد ذلك قولهﷺ «أيُّما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة»[1]. وماروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لجميلة: «أتردين عليه حديقته»؟ فقالت: أردُّها وأزيد عليها، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما الزائد فلا»[2]. والجمهور استكرهوه ولكنْ نَفَّذُوه، فإن المنع عن العقد لايدُل على فساده وأنه يصح بلفظ المفاداة فإنه تعالى سماه افتداء. واختُلف في أنه إذا جرى بغير لفظ الطلاق هل هو فسخ أو طلاق، ومن جعله فسخاً احتج بقوله:

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

(٢٣٠) ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ فإن تعقيبه للخلع بعد ذكر الطلقتين يقتضي أن يكون طلقة رابعة لو كان الخلع طلاقاً. والأظهرُ أنه طلاق لأنه فُرقة باختيار الزوج فهو كالطلاق بالعِوَض، وقوله فإن طلقها متعلق

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧) وأبو داود (٢/ ٦٦٧ رقم ٢٢٢٦) وابن ماجة (١/ ٦٦٢ رقم ٢٠٥٥) والترمذي (٣/ ٤٩٣ رقم ١١٨٧) وقال حديث حسن.
وأخرجه الدارمي (٢/ ١٦٢) وابن حبان في الموارد رقم (١٣٢٠) والبيهقي في سننه (٧/ ٣١٦) والحاكم (٢/ ٢٠٠) وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وقال الألباني في «الإرواء» (٧/ ١٠٠) «وإنما هو على شرط مسلم وحده...» وهو حديث صحيح.

(٢) أخرج الدارقطني (٣/ ٢٥٥) عن أبي الزبير قال: إن ثابت بن قيس كانت عنده زينب بنت عبدالله بن أبي بن سلول، فذكر الحديث. وقال الحافظ: سنده قوي مع إرساله.
وقال ابن حجر في الفتح (٩/ ٣٩٨) فلعل لها إسمين، أو أحدُهما لقَبٌ وإلا «فجميلة» أصح.
وقد وقع في حديث آخرَ أن اسم امرأةِ ثابت «حبيبةُ بنت سهل» لما أخرج مالك (٢/ ٥٦٤) والشافعي في ترتيب (٢/ ٥٠) وأحمد (٦/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤) والدارمي (٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣) وابن سعد في الطبقات (٨/ ٤٤٥) والطبري في جامع البيان (٢/ ٤٦٢) وابن مِنده كما في الإصابة (٤/ ٢٧٠) كلهم من طريق يحيى بن سعيد، عن عمرة بنت عبدالرحمن قالت: إن حبيبة بنت سهل تزوجها ثابت بن قيس وكان رسول الله ﷺ قد همّ أن يتزوجها. وإن ثابتاً ضربها، فأصبحت على باب رسول الله ﷺ في الغَلَس تشكوه، فذكر الحديث.
● وأخرج البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣١٣) عن ابن عباس «أن جميلة بنت ابن سلول أتت النبي ﷺ تريد الخُلع فقال لها: ما أصدقك؟ قالت: حديقة، قال: ردي عليه حديقتهُ.
● وأخرج البخاري (٩/ ٣٩٥ رقم ٥٢٧٤) عن عكرمة «أن أخت عبدالله بن أبي. بهذا. وقال: تردّين حديقته. قالت: نعم، فردّتها وأمره يطلقها....».

بقوله ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ أو تفسير لقوله ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ اعترِض بينهما ذكر الخُلْع دلالة على أن الطلاق يقع مجاناً تارة وبعِوَض أخرى، والمعنى فإن طلقها بعد الثنتين. ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ﴾ من بعد ذلك الطلاق. ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ حتى تتزوج غيره، والنكاحُ يَستنِدُ إلى كل منهما كالتزوج، وتَعَلَّق بظاهره من اقتصر على العقد كابن المسيب[١] واتفق الجمهور على أنه لابد من الإصابة لماروي أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله ﷺ: إن رفاعه طلقني فبَتَّ طلاقي، وإن عبدالرحمن بن الزبير تزوجني وإن مامعه مثل هَدَبَة الثوب. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن ترجعي إلى رِفاعة؟ قالت: نعم، قال: لاحتى تذوقي عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتَك»[٢]، فالآية مطلقة قيدتها السنة، ويحتمل أن يفسر النكاح بالإصابة، ويكون العقد مستفاداً من لفظ الزوج، والحكمة في هذا الحكم الردع عن التسرع إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثاً والرغبة فيها. والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الأكثر، وجوزه أبوحنيفة مع الكراهة، وقد لعن رسول الله ﷺ المحلِّل والمحلَّل له[٣]. ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلى الآخر بالزواج. ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ماحدده الله وشرعه من حقوق الزوجية، وتفسيرُ الظن بالعلم ههنا غير سديد لأن عواقب الأمور غيب تُظَنُّ ولاتعلم، ولأنه لايقال علمت أن يقوم زيد لأن أنْ الناصبة للتوقع وهو ينافي العلم. ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي الأحكام المذكورة. ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يفهمون ويعلمون بمقتضى العلم.

---

(١) سعيد بن المسيَّب، سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع ولد (١٣)هـ وتوفي بالمدينة (٩٤)هـ (الأعلام ٣/ ١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٢٤٩ رقم ٢٦٣٩) ومسلم (٢/ ١٠٥٥ ـ ١٠٥٦ رقم ١١١/ ١٤٣٣) و(١١٢/ ١٤٣٣) وأبو داود (٢/ ٧٣١ رقم ٢٣٠٩)، والترمذي (٣/ ٤٢٦ رقم ١١١٨) والنسائي (٦/ ١٤٨) وابن ماجة (١/ ٦٢١ رقم ١٩٣٢) وأحمد في المسند (٦/ ٤٢، ٢٦). كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٠) والنسائي (٦/ ١٤٩) والترمذي (٣/ ٤٢٨ رقم ١١٢٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحافظ: صححه ابن القطان، وابن دقيق العيد على شرط البخاري وقال الألباني: وهو كما قالا. انظر التلخيص (٣/ ١٧٠ رقم ١٥٣٠).

● وأخرج أحمد في المسند (١/ ٨٧) وأبو داود (٢/ ٥٦٢ رقم ٢٠٧٦) وابن ماجة (١/ ٦٢٢ رقم ١٩٣٥) والترمذي (٣/ ٤٢٧ رقم ١١١٩) من حديث علي مثله. وهو حديث صحيح. صححه الألباني في صحيح ابن ماجة (١/ ٣٢٦ رقم ١٥٧١).

● وأخرج ابن ماجة (١/ ٦٢٣ رقم ١٩٣٦) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٩) من حديث عقبة بن عامر. قال: «قال رسول الله ﷺ: ألا أخبرُكم بالتَّيسِ المُستعار؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: هو المحلِّل لعن الله المحلِّل والمُحَلَّلَ لهُ» وفي إسناده يحيى بن عثمان، وهو ضعيف وقد أعل بالإرسال. وهو حديث حسن. حسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١/ ٣٢٦ رقم ١٥٧٢).

● وأخرج أحمد (٢/ ٣٢٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠٨) والبزار في كشف الأستار (٢/ ١٦٧ رقم ١٤٤٢) وابن أبي حاتم في العلل (١/ ٤١٣) من حديث أبي هريرة نحوه. وحسنه البخاري.

● وأخرج الحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٩) والطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٤/ ٢٦٧) ـ من حديث عمر: «أنهم كانوا يعُدّون التحليل سفاحاً في عهد رسول الله ﷺ» وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

(٢٣١) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي آخر عدتهن، والأجل يطلق للمدة ولمنتهاها فيقال لعمر الإنسان وللموت الذي به ينتهي قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ العُمْرِ وَمَوتٌ إِذَا انْتَهَى أَجَلُه

والبلوغ هو الوصول إلى الشيء، وقد يقال للدنو منه على الاتساع، وهو المراد في الآية ليصح أو يُرتب عليه. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ إذ لاإمساك بعد انقضاء الأجل، والمعنى فراجعوهن من غير ضرار، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل، وهو إعادة للحكم في بعض صوره للاهتمام به. ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ ولاتراجعوهن إرادة الإضرار بهن، كأن المطلق يترك المعتدة حتى تشارف الأجل ثم يراجعها لتطول العدة عليها، فنهي عنه بعد الأمر بضده مبالغة. ونَصْبُ ضراراً على العلة أو الحال بمعنى مضارين. ﴿لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾ لتظلموهن بالتطويل أو الإلجاء إلى الافتداء، واللام متعلقة بضراراً إذ المراد تقييده. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾ بتعريضها للعقاب. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ بالإعراض عنها والتهاون في العمل بمافيها من قولهم لمن لم يجد في الأمر إنما أنت هازىء، كأنه نهى عن الهزؤ وأراد به الأمر بضده. وقيل: كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول: كنت ألعب فنزلت[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ثلاث جدهن جِدّ وهَزْلهن جد، الطلاق والنكاح والعتاق»[2] ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية، وبعثة محمدﷺ بالشكر والقيام

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن عبادة بن الصامت ـ كما في الدر المنثور (١/ ٦٨٣) ـ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٦٦٣ رقم ٢١٩٤) والترمذي (٣/ ٤٩٠ رقم ١١٨٤) وقال: حسن غريب. وابن ماجة (١/ ٦٥٨ رقم ٢٠٣٩) والمستدرك (٢/ ١٩٨) وقال: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: فيه «لين». والدارقطني (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) وابن الجارود في المنتقى (ص٢٣٩ رقم ٧١٢) كلهم من طريق عبدالرحمن بن حبيب بنِ أردك عن عطاء بن أبي رباح، عن يوسف بن ماهك عن أبي هريرة.

● وأخرج الطبراني في المجمع (٤/ ٣٣٥) عن فضالة عن عبيد مرفوعاً: (ثلاث لا يجوز فيهن اللعِبُ: الطلاق والنكاح والعِتْق) وفي إسناده ابن لهيعة.

● وأخرج عبدالرزاق في المصنف (٦/ ١٣٤ رقم ١٠٢٤٩) عن أبي ذر مرفوعاً: «من طلّق وهو لاعب فطلاقُه جائز، ومن أعتق وهو لاعب فعِتقُه جائز ومن نكح وهو لاعب فنكاحه جائز» وفي إسناده انقطاع.

● وأخرج عبدالرزاق في المصنف (٦/ ١٣٤ رقم ١٠٢٤٧) عن علي موقوفاً.

● وأخرج عبدالرزاق في المصنف (٦/ ١٣٤ رقم ١٠٢٤٨) عن عمر مرفوعاً. وقال الألباني في الإرواء (٦/ ٢٢٤ رقم ١٨٢٦): «والذي يتلخص عندي مما سبق أن الحديث حسن بمجموع طريق أبي هريرة الأولى التي حسنها الترمذي، وطريق الحسن البصري المرسلة، وقد يزداد قوة بحديث عبادة بن الصامت، والآثار المذكورة عن الصحابة فإنها ـ ولو لم يتبين لنا ثبوتها عنهم من كل واحد منهم ـ تدل على أن معنى الحديث كان معروفاً عِندَهم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

بحقوقها. ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ القرآن والسنة، أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما. ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ بماأنزل عليكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تأكيد وتهديد.

(٢٣٢) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن، وعن الشافعي رحمه الله تعالى دلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين. ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ المخاطب به الأولياء لماروي أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته جميلاء أن ترجع إلى زوجها الأول بالاستئناف[1] فيكون دليلاً على أن المرأة لاتُزوج نفسها، إذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولي معنى[2]، ولايعارَضُ بإسناد النكاح إليهن لأنه بسبب توقفه على إذنهن. وقيل الأزواج الذين يعضُلون نساءهم بعد مضي العدة ولايتركونهن يتزوجن عدواناً وقسراً، لأنه جواب قوله وإذا طلقتم النساء. وقيل الأولياء والأزواج. وقيل الناس كلهم، والمعنى: لايوجد فيمابينكم هذا الأمر فإنه إذا وجد بينهم وهم راضون به كانوا كالفاعلين له. والعَضْل الحبس والتضييق منه عَضَلت الدجاجةُ إذا نَشِب بيضُها فلم يخرج. ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ﴾ أي الخطاب والنساء وهو ظرف لأن ينكحن أو لاتعضلوهن. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بمايعرفه الشرع وتستحسنه المروءة، حال من الضمير المرفوع أو صفة لمصدر محذوف أو تراضياً كائناً بالمعروف. وفيه دلالة على أن العضل عن التزوج من غير كفؤ غيرُ منهى عنه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مامضى ذكره، والخطاب للجميع على تأويل القبيل أو كل واحد أو أن الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين، أو للرسولﷺ على طريقة قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[3] للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لايكاد يتصوره كلُّ أحد. ﴿يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنه المتعظ به والمنتفع. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي العمل بمقتضى ماذكر. ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أنفع. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ من دنس الآثام. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مافيه النفع والصلاح. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لقصور علمكم.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/١٩٢ رقم ٤٥٢٩) و(٩/١٨٣ رقم ٥١٣٠) و(٩/٤٨٢ رقم ٥٣٣٠، ٥٣٣١) وأبو داود (٢/٥٦٩ ـ ٥٧٠ رقم ٢٠٨٧) والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٨/٤٦١) والترمذي (٥/٢١٦ رقم ٢٩٨١) كلهم من طريق الحسن عنه في سياق أطول من ذلك.

(٢) قال أبو السعود: (وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها، وإلا لما احتيج إلى نهي الأولياء عن الفصل، لما أن النهي لدفع الضرر عنهن، فإنهن وإن قدرن على تزويج أنفسهن لكنهن يحترزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة) أبو السعود ١/٢٢٩.

(٣) الطلاق: «١».

(٢٣٣) ﴿ ۞وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ أمر عبر عنه بالخبر للمبالغة، ومعناه الندب أو الوجوب، فيُخَصّ بماإذا لم يرتضع الصبي إلا من أمه أو لم يوجد له ظئر(١) أو عجز الوالد عن الاستئجار. والوالدات يعم المطلقات وغيرهن، وقيل يختص بهن إذ الكلام فيهن. ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ أكده بصفة الكمال لأنه ممايُتسامح فيه. ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ بيان للمتوجِّه إليه الحكمُ أي ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة، أو متعلق بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة والأم ترضع له. وهو دليل على أن أقصى مدة الإرضاع حولان ولاعبرة به بعدهما وأنه يجوز أن ينقص عنه. ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ أي الذي يولد له يعني الوالد، فإن الولد يولد له ويُنسب إليه. وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضي لوجوب الإرضاع ومُؤَن المرضِعَة عليه. ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ أجرة لهن، واختلف في استئجار الأم فجوزه الشافعي ومنعه أبوحنيفة رحمه الله تعالى مادامت زوجة أو معتدة نكاح. ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ حسب مايراه الحاكم ويفي به وسعه. ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ تعليل لإيجاب المؤن والتقييدِ بالمعروف ودليل على أنه سبحانه وتعالى لايُكَلِّفُ العبدَ بمالايطيقه وذلك لايمنع إمكانه. ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ تفصيل له وتقرير، أي لايكلف كل واحد منهما الآخر ماليس في وسعه ولايضاره بسبب الولد. وقرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب لاتضارُّ بالرفع بدلاً من قوله لاتُكلَّفُ، وأصله على القراءتين تُضَارِر بالكسر على البناء للفاعل أو الفتح على البناء للمفعول، وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضرُّ والباء من صلته أي لايضرَّ الوالدان بالولد فيفرط في تعهده ويقصر فيما ينبغي له. وقرىء لاتضارْ بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضارَه يَضِيرُه. وإضافة الولد إليها تارة وإليه أخرى استعطافٌ لهما عليه وتنبيه على أنه حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق فلا ينبغي أن يَضُرا به أو أن يتضارا بسببه. ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ عطف على قوله وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن، ومابينهما تعليل معترض، والمراد بالوارث وارثُ الأب وهو الصبي، أي مُؤَن المرضعة من ماله إذا مات الأب. وقيل الباقي من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام: «واجعله الوارث منا»(٢)، وكلا القولين يوافق مذهب الشافعي رحمه الله تعالى إذ لانفقة عنده فيماعدا الولادة.

---

(١) الظئر يقال للمرأة الأجنبية التي تحضن ولد غيرها (المصباح المنير مادة ظئر).

(٢) أخرجهُ الترمذي (٥/٥٢٨ رقم ٣٥٠٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٤٠٢) كلاهما من طريق عبيدالله بن زحر، عن خالد بن أبي عمران، عن ابن عمر، بلفظ: قلّما كان رسول الله ﷺ يقومُ من مجلسٍ حتى يدْعُو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم اقسِمْ لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبلِّغُنَا به جنّتك، ومن اليقين ما تُهَوِّن به علينا مصيباتِ الدنيا، ومتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييْتنا، واجعَلْهُ الوارثَ مِنَّا...».

وقال الترمذي: هذا الحديث حسن غريب. وقد روى بعضهم هذا الحديث عن خالد بن أبي عمران عن نافع عن ابن عمر.

وأخرجه من هذا الطريق النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٤٠١) من طريق «عبيدالله بن زحر أيضاً والحاكم (٥٢٨/١) من طريق كاتب الليث، عن الليث عن خالد بن عمران به بلفظ: «بارك لي في سمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني».

وقال صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي. =

وقيل وارث الطفل وإليه ذهب ابن أبي ليلى. وقيل وارثه المحرم منه، وهو مذهب أبي حنيفة. وقيل عصابته وبه قال أبو زيد[(١)] وذلك إشارة إلى ماوجب على الأب من الرزق والكسوة. ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي فصالاً صادراً عن التراضي منهما والتشاور بينهما قبل الحولين، والتشاور والمشاورة والمشُورة والمَشْوَرة استخراج الرأي، من شُرْتُ العسل إذا استخرجته. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك وإنما اعتبر تراضيهما مراعاة لصلاح الطفل وحذراً أن يقدم أحدهما على مايَضُرُّ بِهِ لغرضٍ أو غيره. ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي تسترضعوا المراضع لأولادكم، يقال أرضعت المرأة الطفل واسترضعتها إياه، كقولك أنجح الله حاجتي واستنجحته إياها، فحذف المفعول الأول للاستغناء عنه. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه وإطلاقه يدل على أن للزوج أن يسترضع الولد ويمنع الزوجة من الإرضاع. ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضع. ﴿مَّا آتَيْتُم﴾ ماأردتم إيتاءه كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾[(٢)] وقراءة ابن كثير ما أتيتُم، من أتى إليه إحساناً إذا فعله. وقرىء أُوتيتم أي ماآتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ صلة سلمتم، أي بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً. وجواب الشرط محذوف دل عليه ماقبله، وليس اشتراط التسليم لجواز الاسترضاع بل لسلوك ماهو الأولى والأصلح للطفل. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ مبالغة في المحافظة على ماشرع في أمر الأطفال والمراضع. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ حث وتهديد[(٣)].

قلت: أما إسناد الترمذي والنسائي ففيه: «عبيدالله بن زحر» وهو ضعيف ـ كما في الجرح والتعديل (٥/ ٣١٥) ـ. كما هو منقطع بين خالد بن أبي عمران وابن عمر عند الترمذي. انظر تهذيب الكمال للمزي (٨/ ١٤٢ رقم ١٦٣٩).
وأما إسناد الحاكم ففيه: «عبدالله بن صالح كاتب الليث، وهو ضعيف وللحديث شاهدان:
(الأول): حديث علي بن أبي طالب: أخرجه الطبراني في الصغير (٢/ ٢٢٥) رقم ١٠٧٠ ـ الروض الداني) والحاكم (١/ ٥٢٧) من طريق زين العابدين عنه بلفظ: «اللهم متعني بسمعي وبصري حتى تجعلهما الوارث مني» وقال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، قلت: زين العابدين لم يدرك علي بن أبي طالب ـ كما في المراسيل لابن أبي حاتم (ص١٣٩ وص١٨٦) ـ.
(والثاني): حديث عائشة: أخرجه الترمذي (٥/ ٥١٨ رقم ٣٤٨٠) والحاكم (١/ ٥٣٠) من طريق حبيب بن أبي ثابت عن عروة عنها بلفظ «اللهم عافني في جسدي وعافني في بصري واجعله الوارث مني».
وقال الترمذي: حسن غريب، سمعت محمداً ـ البخاري ـ يقول: حبيب بن أبي ثابت لم يسمع من عروة بن الزبير شيئاً. وقال الحاكم: صحيح الإسناد إن سلِّم سماع حبيب من عروة، وقال الذهبي: فيه «بكر من بكار» قال النسائي: «ليس بثقة» قلت: «تابعه» معاوية بن هشام عند الترمذي، وهو صدوق وخلاصة القول إن حديث ابن عمر حسن والله أعلم.

(١) أبو زيد: هو سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن قيس بن زيد بن النعمان بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج أبو زيد الأنصاري.
الإمام المشهور، كان إماماً نحوياً، صاحب تصانيف أدبية ولغوية، قيل: كان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة، وأبو زيد ثلثي اللغة، والخليل بن أحمد نصف اللغة، وعمرو بن كَركرة الأعرابي يحفظ اللغة كلَّها.
ومن تصانيف أبي زيد: لغاتُ القرآن ـ اللامات، الجمع والتثنية، وغيرها.
توفي سنة (٢٢٥هـ) وقيل غير ذلك، عن ثلاث وتسعين سنة بالبصرة. [بغية الوعاة للسيوطي (١/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣ رقم ١٢٢٢)].

(٢) المائدة: «٦».

(٣) في قوله «واعلموا أن الله...» إظهار للاسم الجليل في موضع الإضمار وذلك لتربية المهابة (أبو السعود :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

(٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي أزواج الذين، أو والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدَهم، كقولهم السَّمْنُ مَنَوَانِ بدرهم(١). وقرىء يَتوفَون بفتح الياء أي يستوفون آجالهم، وتأنيث العشر باعتبار الليالي لأنها غُرر الشهور والأيام، ولذلك لايستعملون التذكير في مثله قط ذهاباً إلى الأيام حتى إنهم يقولون صَمْتَ عشراً ويشهد له قوله تعالى ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾(٢) ثم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾(٣). ولعل المقتضي لهذا التقدير أن الجنين في غالب الأمر يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكراً، ولأربعة إن كان أنثى فاعتُبِر أقصى الأجلين، وزيد عليه العشر استظهاراً إذ ربما تضْعُف حركتُه في المبادي فلايُحَسُّ بها، وعموم اللفظ يقتضي تساوي المسلمة والكتابية فيه، كما قاله الشافعي والحرة والأمة كما قاله الأصم(٤)، والحامل وغيرها، لكن القياس اقتضى تنصيف المدة للأمة، والإجماعُ خصَّ الحامل منه لقوله تعالى ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾(٥). وعن علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهما إنها تعتد بأقصى الأجلين احتياطاً. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة أو المسلمون جميعاً. ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من التعرض للخطاب وسائر ماحرم عليهن للعدة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لاينكره الشرع، ومفهومه أنهن لو فعلن ماينكره فعليهم أن يَكُفُوهن، فإن قصّروا فعليهم الجناح. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ التعريض والتلويح إيهام المقصود بمالم يوضَع له حقيقة ولامجازاً، كقول السائل جئتك لأُسلِّم عليك، والكنايةُ هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، كقولك طويلُ النِّجادِ للطويل وكثيرُ الرماد للمضياف. والخُطْبة بالضم والكسر اسم

١/ ٢٣١).

(١) أي منوان منه بدرهم حيث حذف الضمير الرابط.

(٢) طه: ﴿١٠٣﴾.

(٣) طه: ﴿١٠٤﴾.

(٤) الأصمّ: هو يوسف بن يعقوب الواسطي أبو بكر الأصم، إمام جامع واسط، ومقرئُها، وَمَنْ انتهى إليه عُلُوُّ رواية عاصم.
ولد سنة ثمان عشرة ومئتين، وتوفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة [معرفة القراء الكبار: (١/ ٢٥٠ رقم ١٥٦) وتاريخ بغداد (١٤/ ٣١٩ ـ ٣٢٠)].

(٥) الطلاق: ﴿٤﴾.

الحالة، غير أن المضمومة خُصّت بالموعظة والمكسورة بطلب المرأة، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة، وتعريض خطبتها أن يقول لها إنك جميلة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك. ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحاً ولاتعريضاً. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولاتصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ. ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ استدراك على محذوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لاتواعدوهن نكاحاً أو جماعاً، عبر بالسر عن الوطء لأنه مما يُسَرّ ثم عن العقد لأنه سبب فيه. وقيل معناه لاتواعدوهن في السر على أن المعنى بالمواعدة في السر المواعدة بمايُستهجن. ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ﴾ وهو أن تُعَرِّضوا ولاتُصَرِّحوا، والمستثنى منه محذوف أي: لاتواعدوهن مواعدةً إلا مواعدةً معروفة أو إلا مواعدةً بقولٍ معروف. وقيل إنه استثناء منقطع من سِرّاً وهو ضعيف لأدائه إلى قولك لا تواعدوهن إلا التعريض، وهو غير موعود. وفيه دليل حُرمة تصريح خطبة المعتدة وجواز تعريضها إن كانت معتدة وفاة. واختُلف في معتدّة الفراق البائن والأظهر جوازه. ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي ولاتعزموا عَقْد عقدة النكاح. وقيل معناه ولاتقطعوا عقدة النكاح فإن أصل العزم القطع.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ حتى ينتهي ما كتب من العدة. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوز. ﴿فَٱحْذَرُوهُۚ﴾ ولا تعزموا. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن عزم ولم يفعل خشية من الله سبحانه وتعالى. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

(٢٣٦) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعةَ من مهر. وقيل من وزر لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس. وقيل: كان النبي ﷺ يكثر النهي عن الطلاق فظُنّ أن فيه حرجاً فنفى ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن. وقرأ حمزة والكسائي تُماَسُّوهن بضم التاء ومد الميم في جميع القرآن. ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ﴾ إلا أن تفرضوا، أو حتى تفرضوا أو وتفرضوا. والفَرْض تسمية المهر، وفريضةً نصب على المفعول به بمعنى فَعِيلة بمعنى مفعول. والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية، ويحتمل المصدر. والمعنى: أنه لا تبِعة على المطلّق من مطالبة المهر إذا كانت المطلّقة غيرَ ممسوسة ولم يسم لها مهراً، إذ لو كانت ممسوسة فعليه المُسمّى أو مهر المثل، ولو كانت غير ممسوسة ولكن سمي لها فلها نصف المسمى، فمنطوق الآية ينفي الوجوب في الصورة الأولى، ومفهومها يقتضي الوجوب على الجملة في الآخيرتين. ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ عطف على مقدر أي فطلقوهن ومتعوهن، والحكمة في إيجاب المُتْعة جبْرُ إيحاشِ الطلاق، وتقديرها مفوض إلى رأي الحاكم ويؤيده قوله: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أي على كل من الذي له سَعَة والمُقْتِرِ الضيِّقِ الحال ما يُطيقه ويليق به، ويدل عليه قوله عليه السلام لأنصاري طلق امرأته المفوّضة قبل أن يمسها «متعها

بقلنسوتك»[١]. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: هي دِرع ومَلْحَفة وخمار على حَسَب الحال إلا أن يقل مهر مثلها عن ذلك فلها نصف مهر المثل، ومفهوم الآية يقتضي تخصيص إيجاب المتعة للمفوَّضة التي لم يمسها الزوج، وألحق بها الشافعي رحمه الله تعالى في أحد قوليه الممسوسة المفوضة وغيرها قياساً، وهو مقدم على المفهوم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن ذكوان[٢] بفتح الدال ﴿مَتَٰعًا﴾ تمتيعاً. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة. ﴿حَقًّا﴾ صفة لمتاعاً، أو مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً. ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، أو إلى المطلقات بالتمتيع وسماهم محسنين قبل الفعل للمشارفة ترغيباً وتحريضاً.

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

(٢٣٧) ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ لما ذكر حكم المفوَّضة أتبعه حكم قسيمها. ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهن، أو فالواجب نصف ما فرضتم لهن، وهو دليل على أن الجُناح المنفي ثم تبعة المهر وأن لا متعة مع التشطير لأنه قسيمها ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي المطلقات فلا يأخذن شيئاً، والصيغة تحتمل التذكير والتأنيث، والفرق في الأول أن الواو ضمير والنون علامة الرفع والثاني لام الفعل والنونُ ضمير والفعلُ مبني ولذلك لم يؤثر فيه أن ههنا ونصب المعطوف عليه. ﴿أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي الزوج المالك لعقده وحله عما يعود إليه بالتشطير فيسوق المهر إليها كاملاً، وهو مشعر بأن الطلاق قبل المسيس مخيّر للزوج غير مشطر بنفسه، وإليه ذهب بعض أصحابنا الحنفية. وقيل الولي الذي يلي عقد نكاحهن وذلك إذا كانت المرأة صغيرة، وهو قول قديم للشافعي رحمه الله تعالى. ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يؤيد الوجه الأول وعفو الزوج على وجه التخيير ظاهر وعلى الوجه الآخر عبارة عن الزيادة على الحق، وتسميتُها عفواً إما على المشاكلة وإما لأنهم يسوقون المهر إلى النساء عند التزوج، فمن طلق قبل المسيس استحق استرداد النصف فإذا لم يستردَّه فقد عفا عنه. وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو[٣]. ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) لم أقف عليه؟!!

(٢) ابن ذكوان هو عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي، اشتهر بالرواية عن ابن عامر أحد القراء السبعة، قال عنه أبو زرعة الدمشقي: إنه الحافظ الدمشقي، لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمن ابن ذكوان أقرأ منه» توفي عام (٢٤٢)هـ.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٥١) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٥٤٦) والدارقطني (٣/ ٢٧٩) كلهم من طريق محمد بن عمرو، لكن البيهقي عنه عن أبي سلمه عنه، والطبري عنه عن نافع عنه والدارقطني عنه يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب وأبي سلمة معاً عنه، وعنه عن يحيى وعنه عن أبي سلمة من طريقين عنه وقال =

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿بَصِيرٌ﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم.

(٢٣٨) ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ بالأداء لوقتها والمداومة عليها، ولعل الأمر بها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها. ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي الوسطى بينها، أو الفضلى منها خصوصاً وهي صلاة العصر لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم ناراً»(١). وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها واجتماع الملائكة. وقيل صلاة الظهر لأنها في وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم فكانت أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام «أفضل العبادات أحمزها». وقيل صلاة الفجر لأنها بين صلاتي النهار والليل والواقعة في الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة. وقيل المغرب لأنها المتوسطة بالعدد ووتر النهار. وقيل العشاء لأنها بين جهريتين واقعتين طرفي الليل. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ: والصلاة الوسطى صلاة العصر(٢)، فتكون صلاة من الأربع خصت بالذكر مع العصر لانفرادهما بالفضل. وقرىء بالنصب على الاختصاص والمدح(٣). ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الصلاة. ﴿قَٰنِتِينَ﴾ ذاكرين له في القيام، والقنوت الذكر فيه. وقيل خاشعين، وقال ابن المسيب المراد به القنوت في الصبح.

(٢٣٩) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره. ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فصلوا راجلين أو راكبين ورجالاً جمع راجل أو رَجِل بمعناه كقائم وقيام، وفيه دليل على وجوب الصلاة حال

الآبادي في الطرق الثلاث: رواتهُ ثقات.
وبهذا يتقوى ما عند البيهقي ففي إسناده يحيى بن أبي حاطب وفيه كلام يسير.

(١) أخرجه مسلم ١/٤٣٧ رقم ٢٠٥) عن علي.
وأخرجه مسلم أيضاً رقم ٢٠٣، ٢٠٤ ليس فيهما ذكر العصر، لكن فيهما ما يُشعر بأنها العصر وهو قوله: حتى آبت: حتى غربت الشمس.
وأخرجه البخاري (٦/١٠٥ رقم ٢٩٣١) و(٧/٤٠٥ رقم ٤١١١) و(٨/١٩٥ رقم ٤٥٣٣) و(١١/١٩٤ رقم ٦٣٩٦) وعنده في الرقم الأخير «وهي صلاة العصر». وجزم الكرماني بأنه مُدرج.
وأخرجه أبو داود (١/٢٨٧ رقم ٤٠٩) وعنده أيضاً «صلاة العصر». والترمذي (٥/٢١٧ رقم ٢٩٨٤) والنسائي (١/٢٣٦ رقم ٤٧٣) وعندهما ما يُشعر بأنها صلاة العصر، وهو قوله «حتى غربت الشمس».
● وأخرج مسلم (١/٤٣٧ رقم ٢٠٦) والترمذي (٥/٢١٨ رقم ٢٩٧٥) من حديث ابن مسعود مرفوعاً بلفظ «الصلاة الوسطى صلاة العصر».
● وأخرج الترمذي (٥/٢١٧ رقم ٢٩٨٣) عن سمرة مرفوعاً بلفظ «صلاة الوسطى صلاة العصر».

(٢) وكانت هذه القراءة موجودة وقد صحت الأسانيد بنسخها كما ذكر الشوكاني في فتح القدير (١/٢٥٧).

(٣) وأرجح الأقوال في تعيين الصلاة الوسطى أنها صلاة العصر وهو ما ذهب إليه الجمهور. انظر فتح القدير للشوكاني ١/٢٥٦ حيث عرض الأدلة بإسهاب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾

المسايفة[1] وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلى حال المشي والمسايفةِ مالم يمكن الوقوف. ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وزال خوفكم. ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ صلوا صلاة الأمن[2]، أو اشكروه على الأمن. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ ذكراً مثل ما علمكم من الشرائع وكيفية الصلاة حالتي الخوف والأمن أو شكراً يوازيه، وما مصدرية أو موصولة. ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ مفعول علمكم.

(٢٤٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ قرأها بالنصب أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم على تقدير والذين يتوفون منكم يوصون وصيةً، أو ليوصوا وصيةً، أو كَتَب اللهُ عليهم وصيةً، أو ألزم الذين يتوفون وصيةً. ويؤيد ذلك قراءة كُتِب عليكم الوصيةُ لأزواجكم متاعاً إلى الحول مكانه. وقرأ الباقون بالرفع على تقدير ووصيةُ الذين يتوفون، أو وحكمهم وصيةٌ، أو والذين يتوفون أهل وصيةُ، أو كُتِبَ عليهم وصيةٌ، أو عليهم وصيةٌ وقرىء متاعٌ بَدَلُها. ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ نَصْب بيوصون إنْ أضمرت وإلا فبالوصية وبمتاع على قراءة من قرأ لأنه بمعنى التمتيع. ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ بدل منه، أو مصدر مؤكد كقولك هذا القول غير ما تقول، أو حال من أزواجهم أي غير مُخْرِجات، والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً بالسكنى والنفقة، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وهو وإن كان متقدماً في التلاوة فهو متأخر في النزول، وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن، والسكنى لها بعدُ ثابتةٌ عندنا خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله. ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ عن منزل الأزواج. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة. ﴿فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ كالتطيب وترك الإحداد. ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مما لم ينكره الشرع، وهذا يدل على أنه لم يكن يجب عليها ملازمة مسكن الزوج والحِداد عليه وإنما كانت مخيرة بين الملازمة وأخذ النفقة وبين الخروج وتركها. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ينتقم ممن خالفه منهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي مصالحهم.

(٢٤١) ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أثبت المُتْعَة للمطلقات جميعاً بعدما أوجبها لواحدة منهن، وإفراد بعض العام بالحكم لا يخصصه إلا إذا جوّزنا تخصيص المنطوق بالمفهوم ولذلك أوجبها ابن جبير[3] لكل مطلقة، وأول غيره بما يعم التمتيع الواجب والمستحب. وقال قوم المراد

---

(١) حال المسايفة أي حال التحام القتال.

(٢) عبر عن الصلاة بالذكر لأنه معظم أركانها (أبو السعود ١/ ٢٣٦).

(٣) هو سعيد بن جبير بن هشام، الإمام العَلَم أبو عبدالله الأسَديُّ الوالبيُّ مولاهـم الكـوفي قـرأ على ابن عباس، وقرأ عليه أبو عمرو، والمنهال بن عمرو، وقال ابن عباس لأهل الكوفة: تسألوني وفيكم سعيد بن جُبير: وكان سعيد =

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

بالمَتاع نفقة العدة، ويجوز أن تكون اللام للعهد والتكرير للتأكيد أو لتكرر القضية.

(٢٤٢) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وعد بأنه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشاً ومعاداً. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها.

(٢٤٣) ﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ، وقد يخاطب به من لم يرَ ومن لم يسمع فإنه صار مَثَلاً في التعجب. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ يريد أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيها طاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله تعالى وقدره. أو قوماً من بني إسرائيل دعاهم مَلِكُهم إلى الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم[(١)]. ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أي ألوف كثيرة. قيل عشرة. وقيل ثلاثون. وقيل سبعون وقيل متألفون جمع إِلْف أو آلِف كقاعد وقعود والواو للحال. ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول له. ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أي قال لهم موتوا فماتوا كقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[(٢)] والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة بأمر الله تعالى ومشيئته. وقيل ناداهم به مَلَك، وإنما أُسْنِد إلى الله تعالى تخويفاً وتهويلاً. ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ قيل مر حزقيل عليه السلام على أهل داوردان[(٣)] وقد عَرِيَت عظامهم وتفرقت أوصالهم، فتعجب من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه نادِ فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى، فنادى فقاموا يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت. وفائدة القصة تشجيعُ المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة وحثُّهم على التوكل والاستسلام للقضاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا ويفوزوا وقص عليهم حالهم ليستبصروا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرونه كما ينبغي، ويجوز أن يُراد بالشكر الاعتبار والاستبصار.

(٢٤٤) ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لمّا بيّن أن الفرار من الموت غير مُخَلِّص منه وأن المقدر لا محالة واقع أمرهم بالقتال إذ لو جاء أجلهم في سبيل الله وإلا فالنصر والثواب. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المتخلف والسابق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرانه وهو من وراء الجزاء.

= من سادة التابعين علماً وفضلاً، وصدقاً وعبادة. واستُشهد بواسط في شعبان، سنة خمس وتسعين. [معرفة القراء للذهبي (١/ ٦٨ ـ ٦٩ رقم ٢٥) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢١ ـ ٣٤٢)].

(١) تعدية الرؤية بإلى في قوله «إلى الذين خرجوا» على تقدير كونها بمعنى الإبصار باعتبار معنى النظر، وعلى تقدير كونها إدراكاً قلبياً لتضمين معنى الوصول والانتهاء على معنى ألم ينته علمك إليهم (أبو السعود ١/ ٢٣٧).

(٢) الأنعام: «٧٣».

(٣) داوردان: قرية قبل واسط، وهي من نواحي شرق واسط، وبينهما فرسخ. انظر معجم البلدان (٢/ ٤٣٤).

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِىّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾

(٢٤٥) ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ من استفهامية مرفوعة الموضع بالابتداء، وذا خبره، والذي صفة ذا أو بدله، وإقراض الله سبحانه وتعالى مَثَل لتقديم العمل الذي به يطلب ثوابه. ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾ إقراضاً حسناً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضاً حلالاً طيباً. وقيل: القرض الحسن بالمجاهدة والإنفاق في سبيل الله ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ فيضاعف جزاءه، أخرجه على صورة المغالبة للمبالغة، وقرأ عاصم بالنصب على جواب الاستفهام حملاً على المعنى، فإن من ذا الذي يقرض الله في معنى أيقرض الله أحد. وقرأ ابن كثير فيُضَعِّفه بالرفع والتشديد وابن عامر ويعقوب بالنصب. ﴿أَضۡعَافًا كَثِيرَةًۚ﴾ كثرة لا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى. وقيل الواحد بسبعمائة، وأضعافاً جمع ضعف ونصبه على الحال من الضمير المنصوب، أو المفعول الثاني لتضمن المضاعفة معنى التصيير أو المصدر على أن الضعف اسم مصدر وجمعه للتنويع. ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ يقتِر على بعض ويوسع على بعض حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كيلا يبدل حالكم. وقرأ نافع والكسائي والبزي وأبو بكر بالصاد ومثله في الأعراف في قوله تعالى ﴿وَزَادَكُمۡ فِى ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾[(١)] ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ما قدمتم.

(٢٤٦) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الملأ جماعة يجتمعون للتشاور، ولا واحد له كالقوم ومِنْ للتبعيض. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي من بعد وفاته ومن للابتداء. ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِىّٖ لَّهُمُ﴾ هو يوشع، أو شمعون، أو شمويل عليهم السلام. ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أقم لنا أميراً ننهضْ معه للقتال يدبر أمره ونَصْدُر فيه عن رأيه، وجزْمُ نقاتل على الجواب. وقرىء بالرفع على أنه حال أي ابعثه لنا مقدِّرين القتال، ويقاتل بالياء مجزوماً ومرفوعاً على الجواب والوصف لملِكاً. ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ فصْل بين عسى وخبره بالشرط، والمعنى أتوقع جُبنكم عن القتال إن كتب عليكم، فَأَدْخَل هلْ على فعل التوقُّع مستفهِماً عما هو المتوقع عنده تقريراً وتثبيتاً. وقرأ نافع عَسِيتُم بكسر السين. ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ أي أي غرض لنا في ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجبه ويحث عليه من الإخراج عن الأوطان والإفراد عن الأولاد، وذلك أن جالوت ومن معه من العمالقة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فظهروا على بني إسرائيل فأخذوا ديارهم وسبوْا أولادهم وأسروا من أبناء الملوك أربعمائة وأربعين. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

---

(١) الأعراف: «٦٩».

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

وعيد لهم على ظلمهم في ترك الجهاد.

(٢٤٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾ طالوت عَلَم عِبْرِيّ كدواد وجَعْله فَعَلُوتًا من الطول تعسف يدفعه منع صرفه، روي أن نبيهم ﷺ لما دعا الله أن يَمْلِّكهم أتى بعصا يُقَاسُ بها من يُمَلَّكُ عليهم فلم يساوِها إلا طالوت ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ من أين يكون له ذلك ويستأهل. ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ والحال أنا أحق بالملك منه وراثة ومَكنة وإنه فقير لا مال له يعتضد به، وإنما قالوا ذلك لأن طالوت كان فقيراً رَاعياً أو سقّاء أو دباغاً من أولاد بنيامين ولم تكن فيهم النبوة والملك، وإنما كانت النبوة في أولاد لاوي بن يعقوب والمُلْك في أولاد يهوذا وكان فيهم من السبطيْن خلق. ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك، أولاً بأن العمدة فيه اصطفاه الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، وثانياً بأن الشرط فيه وُفُور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب لا ما ذكرتم وقد زاده الله فيهما وكان الرجل القائم يمد يده فينال رأسه، وثالثاً بأن الله تعالى مالك الملك على الإطلاق فله أن يؤتيه من يشاء، ورابعاً أنه واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره.

(٢٤٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه حُجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملّكه عليهم. ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الصندوق فَعَلُوت من التَّوْب، وهو الرجوع فإنه لا يزال يرجع إلى ما يخرج منه، وليس بفاعُول لقلّة نحو سَلِسَ وقَلِقَ، ومن قرأه بالهاء فلعله أبْدلَه منه كما أبدل من تاء التأنيث لاشتراكهما في الهمس والزيادة، ويريد به صندوق التوراة وكان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين[1]. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الضمير

---

(١) قوله عن التابوت (أنه كان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب. . .) هو من الإسرائيليات والإسرائيليات هي ما كان وارداً من العلم عن طريق بني إسرائيل سواء كان في كتبهم «التوراة والإنجيل» أو عن علمائهم.
والقرآن الكريم لم يبين في سياق القصص إلا ما تتم الحاجة إليه ويتعلق بغرض القصة. فهو يهمل التفصيلات التي لا فائدة في ذكرها في السياق.
وعليه فما ورد من تفصيلات عن الأسماء، وعن تعيين التابوت وطوله وشكل خشبه، وسفينة نوح وكيفيتها وأين استقرت. . . كل ذلك من الإسرائيليات التي أعرض القرآن عن تفصيلها.
=

للإتيان أي في إتيانه سكون لكم وطمأنينة، أو للتابوت أي مودع فيه ما تسكُنون إليه وهو التوراة. وكان موسى عليه الصلاة والسلام إذا قاتل قدِمَه فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفِرون. وقيل صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهرة وذنبها وجناحان فتئنّ فَيُزَفُّ التابوت نحوَ العدو وهم يتبعونه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر. وقيل صورة الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. وقيل التابوت هو القلب والسكينة ما فيه من العلم والإخلاص وإتيانه مصير قلبه مقراً للعلم والوقار بعد أن لم يكن. ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ رُضاض الألواح[1] وعصا موسى وثيابه وعمامة هرون، وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما. والآل مقحم لتفخيم شأنهما، أو أنبياء بني إسرائيل لأنهم أبناء عمهما. ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل رفعه الله بعد موسى فنزلت به الملائكة وهم ينظرون إليه. وقيل كان بعده مع أنبيائهم يستفتحون به حتى أفسدوا فغلبهم الكفار عليه، وكان في أرض جالوت إلى أن ملّك الله طالوت فأصابهم بلاء حتى هلكت خمس مدائن فتشاءموا بالتابوت فوضعوه على ثورين فساقتهما الملائكة إلى طالوت. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام النبي عليه الصلاة والسلام وأن يكون ابتداء خطاب من الله سبحانه وتعالى.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

(٢٤٩) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ انفصل بهم عن بلده لقتال العمالقة، وأصله فَصَل نفسَه عنه ولكن لما كثر حذف مفعوله صار كاللازم. روي: أنه قال لهم لا يخرج معي إلا الشاب النشيط الفارغ، فاجتمع إليه ممن اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيظاً فسلكوا مفازة[2] وسألوا أن يُجري الله لهم نهراً. ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ مُعامُلكم معاملةَ المختبِر بما اقترحتموه. ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ

= ونحن لا يمكننا تصديق ولا تكذيب ما ورد من ذلك، إلا ما كان مخالفاً لصريح القرآن الكريم والسنة المطهرة (وانظر لبيان الإسرائيليات في التفسير الذهبي في التفسير والمفسرون ١/١٦٥) والبيضاوي يتعرض للإسرائيليات إلا أنه كثيراً ما يصدرها بلفظ قيل وروي الذي يدل على عدم الجزم به.

(١) رُضاضُ الألواح أي فتاتُها.

(٢) المفازة هي الموضع المُهْلك، مأخوذ من فَوَّز بتشديد الواو ـ إذا مات ـ. وسميت مفازة لأنها مظنة الموت (المصباح المنير، مادة فوز).

﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس من أشياعي، أو ليس بمُتَّحِد معي. ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من لم يذقه من طَعِم الشيء إذا ذاقه مأكولاً أو مشروباً، قال الشاعر: وَإِن شِئْتُ لَمْ أُطعَم نقاخاً[١] وَلاَ بَرْدا. وإنما علم ذلك بالوحي إن كان نبياً كما قيل، أو بإخبار النبي عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ استثناء من قوله فمن شرب منه، وإنما قُدِّمت عليه الجملة الثانية للعناية بها كما قُدِّم والصائبون على الخبر في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾[٢] والمعنى الرخصة في القليل دون الكثير، وقرأ ابن عامر والكوفيون غُرفة بضم الغين. ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فكَرعوا فيه إذ الأصل في الشرب منه أن لا يكون بوسط، وتعميم الأول ليتصل الاستثناء، أو أفرطوا في الشرب منه إلا قليلاً منهم. وقرىء بالرفع حملاً على المعنى فإن قوله فشربوا منه في معنى فلم يطيعوه والقليل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وقيل ثلاثة آلاف. وقيل: ألفاً، روي أن من اقتصر على الغَرفة كفته لشربه وإداوته[٣]، ومن لم يقتصر غلب عليه واسودت شفته ولم يقدر أن يمضي وهكذا الدنيا لقاصد الآخرة. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي القليل الذين لم يخالفوه. ﴿قَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض. ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لكثرتهم وقوتهم. ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ أي قال الخُلّص منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه، أو علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى. وقيل: هم القليل الذين ثبتوا معه، والضمير في قالوا للكثير المنخذلين عنه اعتذاراً في التخلف وتخذيلاً للقليل، وكأنهم تقاوَلوا به والنهر بينهما. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بحكمه وتيسيره، وكم تحتمل الخبر والاستفهام، ومِنْ مبيِّنة أو مزيدة. والفئة الفرقة من الناس مِنْ فَأَوْتُ رأسه إذا شققته، أو من فاء رجع فوزنُها فَعَة أو فَلَة[٤]. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾. بالنصر والإثابة[٥].

(٢٥٠) ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ظهروا لهم ودنوا منهم. ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٦] التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، وفيه

---

(١) النقاخ هو الماء العذب الذي ينقخ الفؤاد ببرده.

(٢) البقرة: «٦٢».

(٣) الإداوة هي وعاء الماء للتطهير.

(٤) روعي في الجواب نكتة بديعة، حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة ـ حسبما وقع في كلام أصحابهم ـ وهو مبالغة في رد مقالتهم وتسكين قلوبهم. وهو جواب ناشىء من ثقتهم بنصر الله وتأييده، ولا دخل في ذلك لظن لقاء الله تعالى... ولا ريب في أن ما ذكر في حيز الصلة ينبغي أن يكون مداراً للحكم الوارد على الموصول، فلا أقل من أن يكون وصفاً ملائماً له، فلعل المراد بلقائه تعالى لقاء نصره وتأييده، عبر عنه بذلك مبالغة (أبو السعود ١/ ٢٤٣).

(٥) وقال أبو السعود: (فإن المراد بالمعية معية نصره وتوفيقه حتماً، وحملها على المعية بالإثابة يأباه أنهم إنما قالوه تتميماً لجوابهم وتأييداً له بطريق الاعتراض التذييلي تشجيعاً لأصحابهم وتثبيتاً لهم على الصبر المؤدي إلى الغلبة. ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالإثابة قطعاً) أبو السعود ١/ ٢٤٣.

(٦) «قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً» في التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال وإيثار الإفراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة مالا يخفى.

«وانصرنا على القوم الكافرين» وضع الكافرين في موضع الضمير العائد إلى جالوت وجنوده للإشعار بعلة النصر =

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القَدَم في مداحض الحرب المسبَّب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً.

(٢٥١) ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فكسروهم بنصره، أو مصاحبين لنصره إياهم إجابة لدعائهم. ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ قيل: كان إيشا في عسكر طالوت معه ستة من بنيه، وكان داود سابعهم وكان صغيراً يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيهم أنه الذي يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد كلمه في الطريق ثلاثة أحجار وقالت له: إنك بنا تقتل جالوت، فحملها في مخلاته ورماه بها فقتله ثم زوجه طالوتُ بنتَه. ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي ملك بني إسرائيل ولم يجتمعوا قبل داود على مَلِك. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة. ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ كالسَّرد وكلام الدواب والطير. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولولا أنه سبحانه وتعالى يدفع بعض الناس ببعض وينصر المسلمين على الكفار ويكف بهم فسادهم لغلبوا وأفسدوا في الأرض، أو لفسدت الأرض بشؤمهم. وقرأ نافع هنا وفي الحجّ دِفاعُ الله.

(٢٥٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام الجبابرة وقتلِ داودُ جالوتَ ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ. ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لما اختبرت بها من غير تعرف واستماع.

(٢٥٣) ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ إشارة إلى الجماعة المذكورة قصصها في السورة، أو المعلومة للرسول ﷺ، أو جماعة الرسل. واللام للاستغراق. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بأن خصصناه بمَنْقَبة ليست لغيره. ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ تفضيل له، وهو موسى عليه الصلاة والسلام. وقيل: موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، كلم الله موسى ليلةَ الحيرة وفي الطور، ومحمداً عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو أدنى وبينهما بوْن بعيد، وقرىء كلَّمَ اللهَ وكَالَمَ اللهَ بالنصب، فإنه كلمَ اللهَ كما أن اللهَ كلمهُ ولذلك قيل كليم الله بمعنى مكالِمُه[1]. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[2] بأن فضله على غيره من وجوه متعددة أو بمراتب متباعدة، وهو محمد ﷺ فإنه خصه بالدعوة العامة والحُجج

= عليهم (أبو السعود ١/٢٤٤).

(١) إيراد الاسم الجليل «الله» بطريق الالتفات لتربية المهابة (أبو السعود ١/٢٤٦).

(٢) غير الأسلوب عن سابقه لتربية ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشرف (أبو السعود ١/٢٤٦).

المتكاثرة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر. والإبهامُ لتفخيم شأنه كأنه العَلَم المتعيِّن لهذا الوصف المستغني عن التعيين. وقيل: إبراهيم عليه السلام خصصه بالخُلَّة التي هي أعلى المراتب. وقيل: إدريس عليه السلام لقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾(١). وقيل: أولو العزم من الرسل. ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ خصَّه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه، وجَعَل معجزاتِه سببَ تفضيله لأنها آياتٌ واضحة ومعجزات عظيمة لم يستجمعها غيره. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي هدى الناس جميعاً. ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي المعجزات الواضحة لاختلافهم في الدين وتضليل بعضهم بعضاً. ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بتوفيقه التزام دين الأنبياء تفضلاً. ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ لإعراضه عنه بخُذلانه. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ كرره للتأكيد. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيوفق من يشاء فضلاً ويخذل من يشاء عدلاً. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاوتةُ الأقدام، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض، ولكن بقاطع(٢) لأن اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل وأن الحوادث بيد الله سبحانه وتعالى تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً إيماناً أو كفراً.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

(٢٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ ما أوجبتُ عليكم إنفاقه. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فرَّطتم والخلاص من عذابه إذ لا بيع فيه فتحصلون ما تنفقونه، أو تفتدون به من العذاب، ولا خُلَّة حتى يُعينكم عليه أخِلاَّؤكم أو يسامحوكم به. ولا شفاعة ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾(٣) حتى تتكلوا على شفعاء تشفع لكم في حطِّ ما في ذِممكم، وإنما رفعت ثلاثتُها مع قصد التعميم لأنها في التقدير جواب: هل فيه بيع، أو خلة، أو شفاعة؟ وقد فتحها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب على الأصل. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يريد والتاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضعوا المال في غير موضعه وصرفوه على غير وجهه، فوُضِع الكافرون موضعَه تغليظاً لهم وتهديداً كقوله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾(٤) مكان ومن لم يَحُجّ وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار لقوله تعالى ﴿ويل للمشركين الذين لا يؤتون

---

(١) مريم: «٥٧».

(٢) أي بدليل قاطع لا ظنّ فيه.

(٣) طه: «١٠٩».

(٤) آل عمران: «٩٧».

الزكاة﴾[١].

(٢٥٥) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر، والمعنى أنه المستحق للعبادة لا غيره. وللنحاة خلاف في أنه هل يُضمَر للأخير مَثَلٌ في الوجود أو يَصِح أن يوجد[٢]. ﴿ٱلْحَيُّ﴾ الذي يصح أن يَعْلَمَ ويَقْدِر، وكلُّ ما يصح له فهو واجبٌ لا يزول لامتناعه عن القوة والإمكان.. ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحِفْظِه، فَيْعُولُ مِنْ قَام بالأمر إذا حفظه، وقرىء القَيَّام والقَيِّم. ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السِّنَة فتورٌ يتقدم النوم قال ابن الرقاع:

وسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ... فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيسَ بِنَائِمِ

والنومُ حال تَعْرِض للحيوان من استرخاءِ أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً. وتقديم السِّنَةِ عليه ـ وقياسُ المبالغةِ عَكْسُهُ ـ على ترتيب الوجود[٣]. والجملةُ نفي للتشبيه وتأكيد لكونه حياً قيوماً، فإن من أَخَذَه نعاس أو نوم كان مؤفَ[٤] الحياة قاصراً في الحفظ والتدبير، ولذلك ترك العاطف فيه وفي الجمل التي بعده[٥]. ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لقيوميَّته واحتجاجٌ به على تفرده في الألوهية، والمرادُ بما فيهما ما وُجد فيهما داخلاً في حقيقتهما أو خارجاً عنهما متمكناً فيهما فهو أبلغ من قوله: له السمواتُ والأرض وما فيهن. ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ بيان لكبرياء شأنه سبحانه وتعالى، وأنه لا أحد يساويه أو يُدانيه يستقلّ بأن يَدْفع ما يريده شفاعةً واستكانةً فضلاً عن أن يُعَاوِقَه عناداً أو مناصبة أيْ مخاصمة. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس لأنك مستقبلُ المستقبل ومستدبرُ الماضي، أو أمورَ الدنيا وأمورَ الآخرة، أو عكسَه، أو ما يحسُّونه وما يعقلونه، أو ما يدركونه وما لا يدركونه. والضمير لما في السموات والأرض، لأن فيهما العقلاء، أو لما دل عليه مَنْ ذا مِنَ الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ من معلوماته. ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يَعْلموه، وعَطْفُه على ما قبله لأن مجموعَهما يدل على تفرده بالعِلْم الذاتي التام الدالّ على وحدانيته سبحانه وتعالى. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تصوير لعظمته وتمثيل مجرد كقوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ

---

(١) فصلت: «٧٦».

(٢) أي الخلاف في إضمار خبر «لا».

(٣) قوله: (وتقديم السِّنَة عليه ـ وقياس المبالغة عكسه ـ...) أي أنه في صورة الإثبات إذا أريد المبالغة يُقدم الأضعف فتقول: شجاع باسل، وفي صورة النفي بعكس ذلك فَيُقدم الأقوى فتقول: ليس بباسل بل ليس بشجاع، والمقام هنا مقام نفي.
إلا أن تقديم السِّنة على النوم يفيد المبالغة، من حيث إن نفي السِّنَة يدل على نفي النوم فنفيه ثانياً صريحاً يفيد المبالغة (حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي ١/ ٢٥٧).

(٤) قوله (مؤف الحياة) أي أصابته آفة الحياة.

(٥) وتوسيط كلمة «لا» بين السِّنة والنوم للتنصيص على شمول النفي لكل منهما، كما في قوله تعالى: «ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة».
وفي التعبير عن عدم اعتراء النوم بعدم الأخذ لمراعاة الواقع، لأن عروض السنة والنوم إنما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء (أبو السعود ١/ ٢٤٨).

جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[١] ولا كرسي في الحقيقة، ولا قاعد[٢]. وقيل كرسيه مجاز عن عِلْمه أو مُلْكه، مأخوذ من كرسي العالم والمَلِك. وقيل جسم بين يدي العرش ولذلك سمي كرسياً محيط بالسموات السبع، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما السموات السبع والأرضون السبع من الكرسي، إلا كحَلْقة في فلاةٍ، وفضْلُ العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»[٣] ولعله الفَلَكُ المشهور بفَلَك البروج، وهو في الأصل اسم لما يقعد عليه

---

(١) الزمر: «٦٧».

(٢) قدم البيضاوي القول بأن المراد بالكرسي تصوير لعظمته وتمثيل مجرد، وهو يدل على اختياره له، وتصدير بقية الأقوال بلفظ قيل الدال على ضعفها. وهو يفيد نفي حقيقة الكرسي. والذي حملهم على ذلك هو أن الكرسي في أصل اللغة اسم لما يُقعد عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد، ووصفه تعالى بذلك يفيد المشابهة بالمخلوقات.
ونفي الكرسي قاله الزمخشري في الكشاف ١/١٥٣ وتبعه البيضاوي وأبو السعود ١/٢٤٨.
والواقع أنه لا داعي لذلك، وإلا يلزم منه نفي كثير من الصفات، قال الألوسي:
(وأنت تعلم أن ذلك وأمثاله ليس بالداعي القوي لنفي الكرسي بالكلية، فالحق أنه ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة. وتوهُّمُ التجسيم لا يُعبأ به، وإلا للزم نفي الكثير من الصفات، وهو بمعزل عن اتباع الشارع والتسليم له. وأكثر السلف الصالح جعلوا ذلك من المتشابه.. وفوضوا علمه إلى الله تعالى مع القول بغاية التنزيه والتقديس له تعالى شأنه) روح المعاني ٣/١٠.
وعليه فيكون معنى الكرسي أنه الجسم الذي وردت الآثار بوصفه وهو محيط بالسموات والأرض (انظر فتح القدير للشوكاني ١/٢٧٢، وروح المعاني للألوسي ٣/٩.
ويمكن أن يراد به العلم، كما ذهب إليه بعض السلف (فتح القدير ١/٢٧٢) وقد رجح هذا القول ابن جرير الطبري.
والله أعلم بذلك.

(٣) أخرجه ابن مردويه ـ كما في تفسير ابن كثير (١/٣١٧) ـ من طريق محمد بن أبي السري، أخبرنا محمد بن عبدالله التميمي، عن القاسم بن محمد الثقفي، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري.
ـ وفيه ابن السري، قال عنه ابنُ حجر في التقريب (٢/٢٠٤): صدوق كثير الغلط.
ـ ومحمد بن عبدالله التميمي: لم أجد ترجمته.
ـ والقاسم بنُ محمد الثقفي: مجهول.
وللحديث طرق أخرى:
(منها): ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٥٩) وابن حبان (ص٥٣ رقم ٩٤ ـ موارد) و(ص٥٠٨ رقم ٢٠٧٩ ـ موارد) والبيهقي في الأسماء والصفات ص٤٠٥، من طريق إبراهيم بنِ هشامٍ بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده عن أبي إدريس الخولاني عنه.
ـ وفيه: إبراهيم قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل (٢/١٤٣): كذاب.
(ومنها):
ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٠٦) والبيهقي في الأسماء والصفات ص٤٠٤ من طريق يحيى بن سعيد السعدي، عن ابن جُريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير الليثي عنه.
ـ وفيه: يحيى السعيدي. قال عنه العقيلي في الضعفاء (٤/٤٠٤): لا يتابع على حديثه.
وقال ابن حبان في المجروحين (٣/١٢٩): يروي المقلوبات والمُلْزَقات لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد.
(ومنها):
=

ولا يفضل عن مقعد القاعد، وكأنه منسوب إلى الكرسي وهو المِلْبد. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي ولا يثقله، مأخوذ من الأَوَد وهو الاعوجاج. ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حِفظُه السمواتِ والأرضَ، فَحَذَفَ الفاعل وأضاف المصدر إلى المفعول. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ المُسْتَحْقَرُ بالإضافة إليه كُلُّ ما سواه.

وهذه الآية مشتمِلة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في الألوهية، متصفٌ بالحياة، واجبُ الوجود لذاته موجِد لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المُقِيم لغيره، منزّه عن التحيُّز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور، لا يُنَاسِبُ الأشباح ولا يعتريه ما يعتري الأرواح، مالك المُلْك والملَكوت، ومبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفع عنده إلا من أَذِن له عالمُ الأشياء كلّها جليِّها وخفيها كُلِّيِّهَا وجزئيها، واسع الملك والقدرة كلَّ ما يَصح أن يَمْلِكَ ويَقْدِر عليه، لا يؤده شاق، ولا يشغله شأن، متعالٍ عما يدركه، وهو عظيم لا يحيط به فهم، ولذلك قالَ عليه الصلاة والسلام «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي، من قرأها بعث الله ملكاً يكتب من حسناته، ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة»(١). وقال «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة

= ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٢٠) من طريق أصبع بن الفرج عنه. وكذا أورده الذهبي في «العلو» ص٩١ وقال: هذا مرسل وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.
(ومنها):
ما أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش (١/١١٤) ـ كما في الصحيحة (١/ ١٧٤) ـ وفي إسناده: «إسماعيلُ بن مسلم المكيُّ» وهو ضعيف.
والخلاصة أن الحديث حسن لغيره والله أعلم.
● قال الألباني في «الصحيحة» (١/ ١٧٦): والحديث خَرَجَ مَخْرجَ التفسير لقوله تعالى: «وسع كرسيه السموات والأرض» وهو صريح في كون الكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، وأنه جِرْم قائمٌ بنفسه وليس شيئاً معنوياً. ففيه رد على من يتأوله بمعنى المُلك وسعة السلطان، كما جاء في بعض التفاسير. ما روى عن ابن عباس أنه العلم فلا يصح إسناده إليه لأنه من رواية جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبير عنه. رواه بن جرير. قال ابن منده: ابن أبي المغيرة ليس بالقوي في ابن جبير.
واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث، كما في بعض الروايات أنه موضع القدمين، وأن له أطيطاً كأطيط الرَّحْلِ الجديد، وأنه يحمله أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة... إلخ فهذا كله لا يصح مرفوعاً عن النبي ﷺ. وبعضه أشد ضعفاً من بعض، وقد خرَّجْتُ بعضها فيما علقناه على كتاب: «ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان» مُلحقاً بآخره. ط: المكتب الإسلامي.

(١) أخرج هذه الجملة مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٦ رقم ٢٥٨) ولفظه: قال رسول الله ﷺ يا أبا المنذر: أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: «الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم» قال: فضرب صدري، وقال «ليهنِك العلمُ أبا المنذر» من حديث أبي بن كعب.
وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» رقم (١٧٨) وأبو داود (٢/ ١٥١ رقم ١٤٦٠) وأحمد (٥/ ١٤١).
● وأخرج الطبراني في الكبير (١/ ٣٣٤ رقم ٩٩٩) من حديث الأسقع البكري، بلفظ: «سأله إنسانٌ: أيةُ آيةٍ في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» حتى انقضت الآية.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٢١) وقال: فيه راوٍ لم يُسَمّ ـ وهو مولىً للأسقع ـ وقد وُثق، وبقية رجاله =

مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلى صِدِّيق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمَنَه الله على نفسه وجارِه وجارِ جارِه والأبياتِ حوله»[(١)].

= ثقات.

وأخرج ابن مردويه ـ كما في تفسير ابن كثير (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥) ـ ولفظه: «خرج عمر بن الخطاب ذات يوم إلى الناس وهم سُماطات ـ أي جماعات ـ فقال: أيكم يُخبرني بأعظم آية في القرآن؟ فقال ابن مسعود: على الخبير سقطت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظمُ آيةٍ في القرآن: الله لا إله إلا هو الحي القيوم». وفي إسناده: عيسى بن موسى غنجار. قال الحاكم: تتبعت رواياته عن الثقات فوجدتها مستقيمة.

قلت: حديثه هذا مستقيم فإن له شاهداً في الصحيح.

● وأخرج أحمد (٥/ ١٧٨، ١٧٩) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٢) كلاهما من طريق أبي عمرو الدمشقي، عن عبيد بن خشخاش، عنه.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. قلت: أبو عمرو الشامي الدمشقي ضعيف (التقريب: ٢/ ٤٥٤).

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٥٨ رقم ٢٣٩٥) من طريق أبي إسحاق عن حبة العرني، سمعت علي بن أبي طالب يقول، فذكره دون قوله: «لا يواظب عليها إلا صدِّيق أو عابد» وذكر ما بعده.

وفي إسناده: نهشل بن سعيد، وهو متروك ـ الميزان (٤/ ٢٧٥) ـ وكذلك «حبة العرني» ضعفه البخاري وابن معين والنسائي، وقال الحافظ: صدوق له أغلاط وكان غالياً في التشيع ـ الجرح والتعديل (٣/ ٢٥٣) ـ والمجروحين (١/ ٢٦٧) والتقريب (١/ ١٤٨).

● وأخرجه البيهقي في «الشعب» أيضاً (٢/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩ رقم ٢٣٩٦) من حديث أنس بلفظ «من قرأ في دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي حُفِظ إلى الصلاة، ولا يحافظ عليها إلا نبي، أو صدِّيق، أو شهيد» وإسناده ضعيف سالم الخياط ـ الميزان (٢/ ١١١ ـ ١١٢) ـ.

● وصدر الحديث أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (١٠٠) والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٤ رقم ٧٥٣٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (١٢٤) كلهم من طريق محمد بن حِمْيَر، عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي أمامة.

قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد أحدها جيد.

والحديث أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٤) وتعقب عليه السيوطي في اللآلىء (١/ ٢٣٠) وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٢٨٧) ونقلاً عن الحافظ ابن حجر في تخريج المشكاة أنه قال: غفل ابن الجوزي فأورده في الموضوعات وهو من أسمج ما وقع له، وقد تابع أبا أمامة، علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وجابر، وأنس. ثم قال: إذا انضمت هذه الأحاديث بعضها إلى بعض أخذت قوة.

● وله شاهد عن المغيرة بن شعبة عند أبي نعيم في الحلية (٣/ ٢٢١) من رواية محمد بن كعب القرظي عنه.

وغفل ابن الجوزي فأخرجه في الموضوعات.

وقال الألباني في الصحيحة (رقم ٩٧٢): إسناده ثقات إلا عمر بن إبراهيم، قال العقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٥): لا يتابع عليه.

والخلاصة أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

(٢٥٦) ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ إذ الإكراه في الحقيقة إلزامُ الغير فِعْلاً لا يرى فيه خيراً يَحْمِلُه عليه، ولكن ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ تميز الإيمانُ من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رُشْدٌ يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفرَ غيّ يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقلُ متى تبيّن له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يَحْتَجْ إلى الإكراه والإلجاء. وقيل إخبار في معنى النهي، أي لا تُكْرِهُوا في الدين، وهو إما عام منسوخ بقوله ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[(١)]، أو خاص بأهل الكتاب لما روي أن أنصارياً كان له ابنان تنصرا قبل المبعث، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أَدَعُكما حتى تُسلما فأبيا، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقال: الأنصاري يا رسول الله أَيُدْخَلُ بِعَقْبَيّ النار وأنا أنظر إليه فنزلت فخلاهما[(٢)]. ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ بالشيطان، أو الأصنام، أو كل ما عُبِد من دون الله، أو صَدّ عن عبادة الله تعالى. فَعَلُوت من الطغيان قُلِبت عينُه ولامه. ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل[(٣)]. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ طَلَب الإمساك عن نفسه بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق، وهي مستعارة لمتمسك الحق من النظر الصحيح والرأي القويم. ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع لها يقال فصمْتُه فانفصم إذا كسرتُه. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات، ولعله تهديد على النفاق.

(٢٥٧) ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ محبُّهم[(٤)]، أو متولي أمورهم، والمرادُ بهم مَنْ أراد إيمانَه وثبت في علمه أنه يؤمن. ﴿يُخْرِجُهُم﴾ بهدايته وتوفيقه. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الجهل واتباع الهوى وقبول الوساوس والشبه المؤدية إلى الكفر. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الهدى الموصل إلى الإيمان، والجملة خبر بعد خبر، أو حال من المستكنّ في الخبر، أو من الموصول، أو منهما، أو استئناف مبين، أو مقرر للولاية[(٥)]. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي الشياطين، أو المُضِلاَّتُ من الهوى والشيطان وغيرهما. ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من النور الذي منحوه بالفطرة، إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات، أو من نور البينات إلى ظلمات الشكوك

---

(١) التحريم: «٩».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ١٤) وإسناده ضعيف. لضعف محمد بن حميد الرازي شيخ الطبري، وجهالة محمد بن أبي محمد، وعنعنة محمد بن إسحاق.

(٣) قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى لتوقفه عليه، فإن التخلية متقدمة على التحلية (أبو السعود ١/ ٢٥٠) أو مراعاة للترتيب الواقعي أو للاتصال بلفظ الغي (روح المعاني ٣/ ١٣).

(٤) المحبة غير الولاية وإن كان من ثمرات المحبة ولاية الله تعالى.

(٥) وإفراد النور لبيان وحدة الحق، أما جمع الظلمات فلبيان تعدد فنون الضلال (أبو السعود ١/ ٢٥٠).

والشبهات[١]. وقيل: نزلت في قوم ارتدوا عن الإسلام، وإسناد الإخراج إلى الطاغوت باعتبار التسبّب لا يأبى تعلقُ قدرته تعالى وإرادته بها. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وعيد وتحذير، ولعل عدم مقابلته بوعد المؤمنين تعظيم لشأنهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[٢] تعجيبٌ من محاجّة نمروذ[٣] وحماقتِه. ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ لأن آتاه أي أبطره إيتاءُ المُلْك وحَمَلَه على المحاجة، أو حاجّ لأجله شكراً له على طريقة العكس كقولك عاديتني لأني أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه الله الملْك وهو حجة على من منع إيتاءَ الله المُلْك الكافرَ من المعتزلة. ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ظرف لحاجّ، أو بدل من أن آتاه الله الملك على الوجه الثاني. ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بخلق الحياة والموت في الأجساد. وقرأ حمزة ربِّ بحذف الياء. ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بالعفو عن القتل وبالقتل. وقرأ نافع أنا بلا ألف. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أعرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج بما لا يقْدر فيه على نحو هذا التمويه دفعاً للمشاغبة، وهو في الحقيقة عدول عن مثالٍ خَفِيٍّ إلى مثال جليّ من مقدوراته التي يعجِز عن الإتيان بها غيره، لا عن حجة إلى أخرى. ولعل نمروذ زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله فنقضه إبراهيم بذلك، وإنما حَمَله عليه

---

(١) ولعل تغيير النظم في قوله «والذين كفروا...» للاحتراز عن وضع الطاغوت في مقابلة الاسم الجليل، ولقصد المبالغة بتكرير الإسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضاً (أبو السعود ١/ ٢٥١).

(٢) هذه الآية استشهاد على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى: «ألم تر أنهم في كل واد يهيمون» ـ «الشعراء: ٢٢٥» ـ كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها.
وقد بدىء بهذا لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله، ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجتراؤه على المحاجة في الله عز وجل وما أتى بها في آثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته.. (أبو السعود ١/ ٢٥١).

(٣) نمروذ هو ملك بابل، وروي أنه ملك الدنيا مشارقها ومغاربها (ابن كثير ١/ ٢٩٦).

بَطَرُ المُلْك وحماقتُه أو اعتقاد الحلول. وقيل لما كسر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام سجنه أياماً ثم أخرجه ليحرقه، فقال له من ربك الذي تدعو إليه وحاجّه فيه. ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ فصار مبهوتاً. وقرىء فَبَهَتَ أي فغلب إبراهيمُ الكافرَ[1]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية. وقيل لا يهديهم محجة الاحتجاج أو سبيل النجاة، أو طريق الجنة يوم القيامة.

(٢٥٩) ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ تقديره أَوْ أرأيت مثل الذي فحُذِف لدلالة ألم تر عليه، وتخصيصُه بحرف التشبيه لأنَّ المُنكِر للإحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى بخلاف مدعي الربوبية. وقيل الكاف مزيدة وتقديرُ الكلام ألم تر إلى الذي حاجّ أو الذي مرّ. وقيل إنه عطف محمول على المعنى كأنه قيل: ألم تر كالذي حاج، أو كالذي مر. وقيل: إنه من كلام إبراهيم ذكره جواباً لمعارضته وتقديرُه أو إن كنت تحيي فأحيي كإحياء الله تعالى الذي مر على قرية، وهو عزير بن شرحيا، أو الخضر، أو كافرٌ بالبعث، ويؤيده نَظْمُه مع نمروذ. والقرية بيت المقدس حين خرّبه بختنصر. وقيل القرية التي خرج منها الألوف. وقيل غيرهما واشتقاقها من القِرى وهو الجمع. ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ خالية ساقطة حيطانُها على سقوفها. ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء واستعظاماً لقدرة المحيي إن كان القائل مؤمناً، واستبعاداً إن كان كافراً. وأنَّى في موضع نصب على الظرف بمعنى متى أو على الحال بمعنى كيف[2]. ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ فألبثه ميْتاً مائة عام، أو أماته الله فلبث ميتاً مائة عام. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ بالإحياء[3]. ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ القائل هو اللهُ، وساغَ أن يكلمه وإن كان كافراً لأنه آمن بعد البعث أو شارف الإيمان. وقيل مَلَك أو نبي. ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كقول الظانّ. وقيل: إنه مات ضحىً وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوماً ثم التفت فرأى بقية منها فقال أو بعض يوم على الإضراب. ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير بمرور الزمان، واشتقاقه من السَّنة. والهاءُ أصلية إن قَدَّرت لامَ السنة هاءً وهاءُ سكتٍ إن قدرت واواً، وقيل أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فأبدلت النون الثالثة حرف علة كتقضي البازي. وإنما أُفرد الضمير لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد. وقيل كان طعامه تيناً وعنباً وشرابه عصيراً أو لبناً وكان الكل على حاله. وقرأ حمزة والكسائي لم يتسنّ بغير الهاء في الوصل. ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامُه، أو انظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته حفظناه بلا ماء وعلف كما حفظنا الطعام والشراب من التغير، والأول أدل على الحال وأوفق لما بعده. ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي وفعلنا ذلك لنجعلك آية. روي أنه أتى قومه على حماره وقال أنا عزير فكذبوه، فقرأ التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك، وقالوا هو ابن الله. وقيل لما رجع إلى منزله كان شاباً وأولاده شيوخاً فإذا حدثهم بحديث قالوا حديث

---

(١) وإيراد الكفر في حيز الصلة للإشعار بعلة الحكم والتنصيص على كون المحاجة كفراً (أبو السعود ١/ ٢٥٢).

(٢) وتقديم المفعول «هذه» على الفاعل «اللهُ» للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشىء من جهتها لا من جهة الفاعل (أبو السعود ١/ ٢٥٣).

(٣) عبر عن إحيائه بالبعث للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على البارىء تعالى كأنه بعثه من النوم، وللإيذان بأنه أعاده كهيئته يوم موته عاقلاً فاهماً مستعداً للنظر والاستدلال (أبو السعود ١/ ٢٥٣).

مائة سنة. ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ يعني عظام الحمار، أو الأموات الذين تعجب من إحيائهم[١]. ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ كيف نحييها، أو نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه، وكيف منصوب بنُنْشِزُها والجملة حال من العظام أي: انظر إليها محياة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب نُنْشِرُها من أنشر الله الموتى، وقرىء نَنْشُرُها من نَشَرَ بمعنى أنشر. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ فاعلُ تبيَّن مضمر يفسره ما بعده تقديره: فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير[٢]. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحُذِف الأول لدلالة الثاني عليه، أو يفسره ما قبله أي فلما تبين له ما أشكل عليه. وقرأ حمزة والكسائي قال اعْلمْ على الأمر والآمِرُ مخاطِبُه، أو هو نفسه خاطبها به على طريق التبكيت[٣].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

(٢٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إنما سأل ذلك ليصير عِلْمه عياناً، وقيل لما قال نمروذ أنا أحيي وأميت قال له: إن إحياء الله تعالى برد الروح إلى بدنها، فقال نمروذ: هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم. وانتقل إلى تقرير آخر، ثم سأل ربه أن يريه ليطمئن قلبه على الجواب إنْ سُئل عنه مرة أخرى. ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بأني قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة، قال له ذلك ـ وقد علم أنه أغرَقُ الناس في الإيمان ـ ليجيب بما أجاب به فيَعْلَمَ السامعون غرضَه. ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ أي بلى آمنت ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكونَ قلبٍ بمضامّة العيان إلى الوحي أو الاستدلال. ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ قيل طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة، وفيه إيماء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف الذي هو صفة الطاوس، والصولة المشهور بها الديك، وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب، والترفع والمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام. وإنما خَصَّ الطيرَ لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمعُ لخواصِ الحيوان، والطير مصدر سمي به أو جمع كصَحْب. ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فأَمِلْهن واضْمُمهن إليك لتتأملَها وتعرف شَيَّاتِها لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء. وقرأ حمزة ويعقوب فصِرْهن بالكسر وهما لغتان

---

(١) كرر الأمر بالنظر إلى العظام مع أن المراد عظام الحمار أيضاً لأن المأمور به أولاً هو النظر إليها من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد، وثانياً هو النظر إليها من حيث تعتريها الحياة ومباديها، أي وانظر إلى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء في غيرك بعدما شاهدته في نفسك (أبو السعود ١/ ٢٥٤).

(٢) تعرض لكسو العظام باللحم ولم يتعرض لكيفية نفخ الروح لأنها مما لا تقتضي الحكمة بيانه (أبو السعود ١/ ٢٥٤).

(٣) وإيثار صيغة المضارع في قوله «أعلمُ» للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظراً إلى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل، بل إنما تبدل بالعيان وصفه. وفيه إشعار بأنه إنما قال ما قال بناء على الاستبعاد العادي واستعظاماً للأمر (أبو السعود ١/ ٢٥٥).

قال:

وَمَــا صَيَــدُ الأَعْنَــاقِ فِيهِــم حِيلَــةً ... وَلَكِــنْ أَطْـرَافَ الـرِّمَــاحِ تَصُــورُهَــا

وقال:

وفَــرْعٌ يَصِيــرُ الجِيْــدَ وَحْــفٌ كَــأنــهُ ... علــى اللَّيْــثِ قِنْــوانُ الكُــرُومِ الــدَّوالِــح

وقرىء فَصُرَّهن بضم الصاد وكسرها وهما لغتان، مشددة الراء من صرّه يَصِرّه ويَصُرّه إذا جمعه وفَصَرِّهُنّ من التصرية وهي الجمع أيضاً. ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي ثم جَزِّئهن وفرِّق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك. قيل كانت أربعة. وقيل سبعة. وقرأ أبو بكر جُزُؤاً وجُزُوَ[1] بضم الزاي حيث وقع. ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ قل لهن تعالين بإذن الله تعالى. ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً. روي أنه أُمِر بأن يذبحَها وينتف ريشها ويقطعها فيمسك رؤوسها، ويخلطَ سائر أجزائها ويوزعَها على الجبال، ثم يناديهن، ففعل ذلك فجعل كل جزء يطير إلى آخر حتى صارت جثثاً ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن. وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية، فعليه أن يُقْبِل على القُوى البدنية فيقتلَها ويمزُج بعضها ببعض حتى تنكسر سوْرتها، فيطاوعنه مسرعات متى دعاهن بدعاية العقل أو الشرع. وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وَيُمْنُ الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال، إنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه، وأراه عُزَيراً بعد أن أماته مائة عام[2]. ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجِز عما يريده. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة في كل ما يفعله ويذره.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

(٢٦١) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مَثَل نفقتهم كمَثَل حبة، أو مثلهم كمثَل باذرِ حبة على حذف المضاف. ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ أسند الإنبات إلى الحبة لما كانت من الأسباب كما يسند إلى الأرض والماء، والمنبت على الحقيقة هو الله تعالى، والمعنى: أنه يَخْرُج منها ساقٌ يتشعّب لكل منه سبعُ شعب لكل منها سنبلة فيها مائة حبة، وهو تمثيل لا يقتضي وقوعُه وقد يكون في الذُّرَة والدُّخن وفي البُرّ في الأراضي المُغِلّة. ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ تلك المضاعفة.

---

(١) (جزؤ) هكذا مكتوبة في الأصل، ولعل الأصح أنها بطرح الهمزة وتشديد الزاي أي (جُزًا) وهي قراءة أبي جعفر (انظر البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٣٠٠).

(٢) قوله «ثم ادعهن يأتينك سعياً» اقتُصر على حكاية أوامره عزّ وجل من غير تعرض لامتثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى للإيذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلاً (أبو السعود ١/ ٢٥٧).

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ بفضله وعلى حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

(٢٦٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ نزلت في عثمان رضي الله تعالى عنه فإنه جهز جيش العُسْرة بألف بعيرٍ بأَقْتابها وأَحْلاسِها، وعبدالرحمن بن عوف فإنه أتى النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة[١]. والمنّ أن يَعْتدّ بإحسانه على من أحسن إليه. والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم إليه. وثم للتفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى[٢]. ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لعله لم يُدْخل الفاء فيه وقد تضمّن ما أُسْنِد إليه معنى الشرط إيهاماً بأنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا[٣].

۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

(٢٦٣) ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ رد جميل. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز عن السائل والحاجة، أو نيل المغفرة من الله بالرد الجميل، أو عفو من السائل بأن يعذر ويغتفر رده. ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ خبر عنهما، وإنما صح الابتداء بالنكرة لاختصاصها بالصفة. ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاق بمنٍّ وإيذاء. ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلة من يَمُنّ ويؤذي بالعقوبة.

(٢٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ لا تُحبطوا أجرها بكل واحد منهما. ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ كإبطال المنافق الذي يرائي بإنفاقه ولا يريد به رضا الله تعالى ولا ثواب الآخرة، أو مماثلين الذي ينفق رئاءَ الناس، والكاف في محل النصب على المصدر أو الحال، ورئاء نصب على المفعول له أو الحال بمعنى مرائياً أو المصدر أي إنفاقَ رئاءٍ. ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي فمثل المرائي في إنفاقه. ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ كمثل حجر أملس. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر عظيمُ القَطْر. ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أملسَ نقياً من التراب. ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ لا ينتفعون

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٧٢ ـ ٧٣) عن الكلبي بدون إسناد.
(٢) قدم المنّ على الأذى لكثرة وقوعه.
وتوسيط كلمة «لا» بين المن والأذى للدلالة على شمول النفي لاتباع كل واحد منهما (أبو السعود ١/٢٥٨).
(٣) قال أبو السعود: (تخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان بأن ترتب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك إتباع المن والأذى أمرٌ بيِّن لا يحتاج إلى التصريح بالسببية) ١/٢٥٨. أما ما ذكره البيضاوي فيأباه مقام الترغيب في الفعل.

بما فعلوا رئاء ولا يجدون له ثواباً، والضمير للذي ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس، أو الجمع كما في قوله:

إنَّ الَّـذِي حَـانَـتْ بِفَلْـجٍ دِمَـاؤُهُـمْ   هـمُ القَـومُ كُـلُّ القَـومِ يَـا أُمَّ خَـالِـدِ

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى الخير والرشاد، وفيه تعريض بأن الرئاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولابد للمؤمن أن يتجنب عنها.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

(٢٦٥) ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وتثبيتاً بعض أنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق الروح، فمن بذل ماله لوجه الله ثَبَّت بعض نفسه ومَنْ بذل ماله وروحه ثبتها كلها، أو تصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء مبتدأ من أصل أنفسهم. وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال. ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ أي ومَثَل نفقة هؤلاء في الزكاة كمَثَل بستان بموضع مرتفع، فإن شجره يكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً. وقرأ ابن عامر وعاصم ربوة بالفتح وقرىء بالكسر وثلاثتها لغات فيها[(١)]. ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالسكون للتخفيف[(٢)]. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مِثْلَيْ ما كانت تثمر بسبب الوابل. والمراد بالضِّعف المثل كما أريد بالزوج الواحد في قوله تعالى ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[(٣)] وقيل: أربعة أمثاله، ونصبه على الحال أي مضاعفاً. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي فيصيبها، أو فالذي يصيبها طلّ، أو فطل يكفيها لكَرَم منبتها وبرودة هوائها لارتفاع مكانها. وهو المطر الصغير القطر، والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضم إليها من أحواله، ويجوز أن يكون التمثيل لحالهم عند الله تعالى بالجنة على الربوة ونفقاتهم الكثيرة والقليلة الزائدتين في زُلْفاهم بالوابل والطل. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن الرئاء وترغيب في الإخلاص.

(٢٦٦) ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار[(٤)]. ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) أي قرىء بفتح الراء وضمها وكسرها. ولم يذكر قراءة الضم لأنها الأصل عنده.

(٢) أي بسكون الكاف.

(٣) هود: «٤٠».

(٤) الود حبّ الشيء مع تمنيه.

والهمزة لإنكار الوقوع كقوله: أأضرب أبي؟ لا لإنكار الواقع، كقولك: أتضرب أباك؟ على أن مناط الإنكار ليس=

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جَعَلَ الجنة منهما مع ما فيها من سائر الأشجار تغليباً لهما لشرفهما وكثرة منافعهما، ثم ذَكَرَ أن فيها من كل الثمرات ليدل على احتوائها على سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع. ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي كبر السن، فإن الفاقة والعالة في الشيخوخة أصعب، والواو للحال أو للعطف حملاً على المعنى، فكأنه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر. ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ صغار لا قدرة لهم على الكسب. ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ عطف على أصابه، أو تكون باعتبار المعنى. والإعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كعمود، والمعنى تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ويضم إليها ما يُحْبِطها كرياء وإيذاء في الحسرة والأسف، فإذا كان يومُ القيامة واشتدت حاجته إليها وجَدَها مُحْبَطَةً بحال مَنْ هذا شأنه. وأشْبَهُهم به من جال بِسِرِّه في عالم الملكوت وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزُّور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثوراً. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تتفكرون فيها فتعتبرون بها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

(٢٦٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من حلاله أو جِيادِه. ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن، فَحَذَفَ المضاف لتقدم ذكْره. ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ أي ولا تقصدوا الرديء منه أي من المال، أو مما أخرجنا لكم. وتخصيصُه بذلك لأن التفاوت فيه أكثر. وقرىء ولا تؤمموا [1] ولا تُيَمِّمُوا بضم التاء. ﴿تُنفِقُونَ﴾ حال مقدرة من فاعل تيمموا، ويجوز أن يتعلق به منه ويكون الضمير للخبيث والجملة حالاً منه. ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي وحالُكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته. ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ إلا أن تتسامحوا فيه، مجاز من أغمض بصره إذا غضه. وقرىء تُغَمَّضُوا أي تُحْمَلوا على الإغماض، أو توجَدُوا مُغَمَّضين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم. ﴿حَمِيدٌ﴾ بقبوله وإثابته.

(٢٦٨) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ في الإنفاق، والوعد في الأصل شائع في الخير والشر. وقرىء الفقر بالضم والسكون، وبضمتين، وفتحتين [2]. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ويغريكم على البخل،

= جميع ما تعلق به الود بل إنما هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق (أبو السعود ١/ ٢٦٠).

(١) القراءة الواردة بفتح التاء، وعليه فتكتب الهمزة على ألف (ولا تَأَمَّمُوا) وهي قراءة عبدالله بن مسعود. (البحر المحيط ١/ ٣١٨، وروح المعاني ٣/ ٣٩).

(٢) «الشيطان يعدكم الفقر» عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يُضِفْ مجيء الفقر إلى جهته للإيذان بمبالغته في =

والعرب تسمي البخيل فاحشاً. وقيل المعاصي ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي يعدكم في الإنفاق مغفرة لذنوبكم. ﴿وَفَضْلًا﴾ خلفاً أفضل مما أنفقتم في الدنيا أو في الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بإنفاقه.

يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾ تحقيق العلم وإتقان العلم. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مفعول أول أُخّر للاهتمام بالمفعول الثاني ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ بناؤه للمفعول لأنه المقصود. وقرأ يعقوب بالكسر أي ومن يُؤْتِه الله الحكمة[1]. ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: أيُّ خير كثير؟ إذ حيز له خير الدارين. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ بما قص من الآيات أو ما يتفكر، فإن المتفكر كالمتذكر لما أودع الله في قلبه من العلوم بالقوة. ﴿إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوُو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى.

(٢٧٠) ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في حق أو باطل. ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية[2]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فيجازيكم عليه. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها، أو يمنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر. ﴿وَمَا مِنْ أَنصَارٍ﴾ من ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

(٢٧١) ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ فنِعْم شيئاً إبداؤُها. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وكسر العين على الأصل. وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وقالون[3] بكسر النون وسكون العين، وروي عنهم بكسر النون وإخفاء حركة العين وهو أقيس. ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي تعطوها مع الإخفاء. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم، وهذا في التطوع ولمَنْ لم يُعْرَف بالمال، فإن إبداء الغرض لغيره أفضل لنفي التهمة عنه. عن ابن عباس رضي الله عنهما: صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين

= الإخبار بتحقق مجيئه، كأنه نزله في تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب إرادته، أو لوقوعه في مقابلة وعده تعالى على طريق المشاكلة. (أبو السعود ١/ ٢٦٢).

(١) «ومَنْ يُؤتَ الحكمة» أظهر لفظ الحكمة في مقام الإضمار لبيان الاعتناء بشأنها وللإشعار بأنها علة الحكم (أبو السعود ١/ ٢٦٢).

(٢) والنذر هو: أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر (المفردات للراغب مادة نذر).

(٣) قالون: هو أبو موسى عيسى بن مينا النحوي، اشتهر بالرواية عن نافع أحد القراء السبعة، ولقب بقالون لجودة قراءته، توفي سنة (٢٢٠)هـ.

ضعفاً[(١)] ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالياء أي والله يكفر أو الإخفاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش[(٢)] ويعقوبَ بالنون مرفوعاً على أنه جملة فعلية مبتدأة أو اسمية معطوفة على ما بعد الفاء أي: ونحن نكفر، وقرأ نافع وحمزة والكسائي به مجزوماً على محل الفاء وما بعده، وقرىء بالتاء مرفوعاً ومجزوماً والفعل للصدقات. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ ترغيب في الإسرار.

۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

(٢٧٢) ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد والحث على المحاسن والنهي عن المقابح كالمن والأذى وإنفاق الخبيث. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ صريح بأن الهداية من الله تعالى وبمشيئته، وإنها تخص بقوم دون قوم. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ من نفقة معروفة. ﴿فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تَمُنّوا عليه ولا تنفقوا الخبيث. ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ حال، وكأنه قال وما تنفقون من خير فلأنفسكم غير منفقين إلا لابتغاء وجه الله وطلب ثوابه، أو عطف على ما قبله أي وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجهه فما بالكم تمنّون بها وتنفقون الخبيث. وقيل: نفي في معنى النهي. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ ثوابُه أضعافاً مضاعفة، فهو تأكيد للشرطية السابقة، أو ما يخلف للمنفق استجابة لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً»[(٣)] روي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار ورضاع في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم، فكرهوا لَمّا أسلموا أن ينفعوهم فنزلت[(٤)]. وهذا في غير الواجب

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٩٢) من طريق علي بن أبي طلحة عنه. وأورده الترمذي الحكيم في نوادره (ص٣٧٦) عن ابن عباس قال: «جعل الله صدقة التطوع يفضُل سرّها علانيتها سبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها تفضُل سرّها بخمسة وعشرين ضعفاً، وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

(٢) ابن عياش، هو شعبة بن عياش بن سالم الأسدي، ويكنى أبا بكر، وهو إمام عالم اشتهر بالرواية عن عاصم أحد القراء السبعة، وتوفي ابن عياش (١٩٣)هـ بالكوفة.

(٣) أخرج البخاري (٣/ ٣٠٤ رقم ١٤٤٢) ومسلم (٢/ ٧٠٠ رقم ٧٥/ ١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يُصبحُ العِبادُ فيه إلاَّ ملكان ينزلان فيقول أحدهما: «اللهمَّ أعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تلفاً».
وفي الباب أحاديث وآثار. انظر تخريجها في «الزهد» للإمام وكيع (٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٨ رقم ٣٧٩).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٤٠٢) ـ والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٥) و(٤/ ١٥٦) =

أما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكفار. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تُنقصون ثواب نفقاتكم.

(٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ متعلق بمحذوف أي اعمدوا للفقراء، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، أو صدقاتكم للفقراء. ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أحصرهم الجهاد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به. ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ ذهاباً فيها للكسب. وقيل هم أهل الصفة كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة، وكانوا يَخْرُجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ. ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين. ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال، ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ من الضعف ورثاثة الحال، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد. ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحاً. وهو أن يلازم المسؤول حتى يعطيه، من قولهم لَحَفَنِي من فَضْل لَحَافِهِ، أي أعطاني من فضل ما عنده، والمعنى أنهم لا يسألون وإن سألوا عن ضرورة لم يُلِحّوا. وقيل: هو نفي للأمرين كقوله:

على لا حِب لا يهتدي بمناره

فنصبه على المصدر فإنه كنوع من السؤال، أو على الحال. ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء.

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

(٢٧٤) ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي يَعُمُّون الأوقات والأحوال بالخير. نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية. وقيل في أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه: لم يملك إلا أربعة دراهم فتصدّق بدرهم ليلاً ودرهم نهاراً، ودرهم سراً ودرهم علانية. وقيل: في ربط الخيل في سبيل الله والإنفاق عليها[(١)]. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر الذين

= والطبري (٣/ ٩٥) والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٤ رقم ١٢٤٥٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩١) كلهم من طريق سفيان عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الذهبي على شرط البخاري ومسلم. وأخرجه البزار (٣/ ٤٢ ـ كشف) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٢٤) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(١) لعل تقديم الليل على النهار والسرّ على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار (أبو السعود ١/ ٢٦٥).

ينفقون، والفاء للسببية. وقيل للعطف والخبر محذوف أي ومنهم الذين ولذلك جوز الوقف على وعلانية.

(٢٧٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا شائع في المطعومات وهو زيادة في الأجل، بأن يباع مطعوم بمطعوم أو نقد بنقد إلى أجل، أو في العِوَض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه، وإنما كتب بالواو كالصلاة للتفخيم على لغة وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم. ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبُط الإنسان فيصرع، والخبط ضرب على غير اتّساق كخبْط العشواء. ﴿مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ أي الجنون، وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجني يَمَسُّه فيختلطُ عقلُه ولذلك قيل: جَنَّ الرجلُ[١]. وهو متعلق بلا يقومون أي لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكل الربا، أو بيقوم أو بيتخبط فيكون نُهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لاختلال عقولهم ولكن لأن الله أربى في بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ أي ذلك العقاب بسبب أنهم نَظَموا الربا والبيعَ في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلالَه. وكان الأصل إنما الربا مثلُ البيع ولكن عُكِسَ للمبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا به البيع، والفرق بيِّن فإنّ من أعطى درهمين بدرهم ضيع درهماً، ومن اشترى سلعة تساوي درهماً بدرهمين فلعل مساس الحاجة إليها، أو توقع رواجها يجبر هذا الغبن. ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ إنكار لتسويتهم وإبطال القياس بمعارضة النص. ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فمن بلغه وَعْظ من الله تعالى وزجر كالنهي عن الربا[٢]. ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ فاتعظ وتبع النهي. ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ تقدم أخذه التحريم ولا يسترد منه، وما في موضع الرفع بالظرف إن جعلت مَنْ موصولة، وبالابتداء إن جعلت شرطية على رأي سيبويه إذ الظرف غير معتمد على ما قبله. ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان من قبول الموعظة وصدق النية. وقيل يحكم في شأنه ولا اعتراض لكم عليه. ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا، إذ الكلام فيه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم كفروا به.

---

(١) قول البيضاوي: وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع.. وقوله: وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجني يمسه فيختلط عقله...
وهي مسألة اعتزالية خالف فيها المعتزلةُ أهلَ السنة، وهي: هل للشياطين أثر على الإنسان من حيث المسّ والصرع بما يتأثر فيه جسمه وعقله؟
فالمعتزلة ينكرون قدرة الشيطان على المسّ والصرع، وقالوا بأن الآية واردة على ما يزعمه العرب ويعتقدونه من أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع وأن الجنيّ يمسه فيختلط عقله. ونسب الألوسي ذلك إلى القفال من الشافعية... (انظر الكشاف للزمخشري ١/ ١٦٥ وتبعه البيضاوي وكذا أبو السعود ١/ ٢٦٦).
أما أهل السنة فيرون أن للشيطان القدرة على الصرع وللجني القدرة على المسّ. وقد دلت الأحاديث صراحة على ذلك. وتأثيرهم على من يستكين بأوهامه وتخيلاته لسلطانهم، أو يتعرض لتقبل مسهم وتخبطاتهم باستعاذته بهم والتماسه نفعهم، أو استخدامهم للإضرار بأعدائه من إخوانه من الإنس، أو يغفل عن ذكر الله وتلاوة القرآن ويتجافى عن التحصن بالأوراد والاستعاذات المأثورة.
(انظر روح المعاني للألوسي ٣/ ٤٩ والعقيدة الإسلامية لعبدالرحمن حبنكة ص٢٨٩).

(٢) «من ربه» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجيء الموعظة للتربية (أبو السعود ١/ ٢٦٦).

يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

(٢٧٦) ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه. ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه، وعنه عليه الصلاة والسلام «إن الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربي أحدكم مهره»[١]. وعنه عليه الصلاة والسلام «ما نقصت زكاة من مال قط»[٢]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ لا يرضى ولا يحب محبته للتوابين. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مُصرّ على تحليل المحرمات. ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في ارتكابه.

(٢٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم منه. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عَطَفَهُمَا على ما يعمّهما لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من آت. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فائت.

(٢٧٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بقلوبكم فإن دليله امتثال ما أُمرتم به. روي: أنه كان لثقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. فنزلت[٣].

---

(١) أخرج البخاري (٣/٢٧٨ رقم ١٤١٠) و(١٣/٤١٥ رقم ٧٤٣٠) ومسلم (٢/٧٠٢ رقم ٦٣، ٦٤/١٠١٤) والترمذي (٣/٤٩ ـ ٥٠ رقم ٦٦١ و٦٦٢) والنسائي (٥/٥٧ رقم ٢٥٢٥) وابن ماجة (١/٥٩٠ رقم ٨٨٢) والدارمي (١/٣٩٥) ومالك (٢/٩٩٥ رقم ١) وأحمد في المسند (٢/٢٦٨، ٣٣١، ٣٨٢، ٤٠٤، ٤١٨، ٤١٩، ٤٣١، ٤٧١، ٥٣٨، ٥٤١).

كلهم من طرق عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدَّق بعَدْلِ تمرةٍ من كسبٍ طيّبٍ ـ ولا يقبل الله إلاّ الطيِّب ـ فإن الله يتقبّلُها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبهِ كما يربِّي أحدُكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل».

(٢) أخرج أحمد في المسند (١/١٩٣) عن عبدالرحمن بن عوف قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث والذي نفس محمد بيده إن كنت لحالفاً عليهن، لا ينقصُ مالٌ من صدقة فتصدقوا، ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها ـ وقال أبو سعيد مولى بني هاشم ـ إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا يفتح عند باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر».

● وأخرج أحمد أيضاً في المسند (٤/٢٣١) عن أبي كبشة الأنماري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: فأما الثلاث الذي أقسم عليهن فإنه ما نقص مال عبد صدقة، ولا ظلم عبد بمظلمة فيصبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزاً ولا يفتح باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي احدثكم حديثاً فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر. . .» الحديث.

● وأخرج مسلم (٤/٢٠٠١ رقم ٦٩/ ٢٥٨٨) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مالٍ، ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزاً. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/١٠٦) عن السدي وفي إسناده «موسى بن هارون» وقد أخذ التفسير عن كتاب فأرسله عن عمرو بن حماد. =

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

(٢٧٩) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا عَلِم به، وقرأ حمزة وعاصم في رواية ابن عياش فآذنوا أي فأعلموا بها غيركم، من الأَذَن وهو الاستماع فإنه من طرق العلم. وتنكير حرب للتعظيم وذلك يقتضي أن يُقاتَلَ المُرْبي بعد الاستتابة حتى يفيء إلى أمر الله، كالباغي، ولا يقتضي كفره. روي: أنها لما نزلت قالت ثَقيف لا يَدْيَ لنا بحرب الله ورسوله[1]. ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء واعتقاد حِلِّه. ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالمطل والنقصان، ويُفْهم منه أنهم إن لم يتوبوا فليس لهم رأس مالهم وهو سديد على ما قلناه، إذ المصرّ على التحليل مرتدّ وماله فيء.

(٢٨٠) ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم ذو عسرة. وقرىء ذا عسْرة أي وإن كان الغريم ذا عسرة. ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكمُ نظِرة، أو فعليكم نَظِرة، أو فليكن نظرة وهي الإنظار. وقرىء فَنَاظِرُه على الخبر أي فالمستحق ناظِرُه بمعنى منتظره أو صاحب نظرته على طريق النّسب، وفَنَاظِرْهُ على الأمْر أي فسامِحْه بالنظرة. ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار، وقرأ نافع وحمزة بضم السين، وهما لغتان كمَشْرَقة ومَشْرُقة. وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

وأَخلَفُوكَ عَدَ الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ بالإبراء. وقرأ عاصم بتخفيف الصاد. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أكثر ثواباً من الإنظار، أو خير مما تأخذون لمضاعفة ثوابه ودوامه. وقيل: المراد بالتصدق الإنظار لقوله عليه الصلاة والسلام «لا يَحِلُّ دَيْنُ رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»[2] ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما فيه من الذكر

= وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/١٠٧) عن ابن جريج، وفي إسناده «سنيد» وهو ضعيف.
وأخرجه أبو يعلى ـ كما في المجمع (٤/١١٩ ـ ١٢٠) ـ عن ابن عباس في سياق أطول وقال الهيثمي: فيه «محمد بن السائب الكلبي» وهو كذاب.

(١) أي لا قوة ولا قدرة لنا بحرب الله ورسوله.

(٢) أخرج أحمد في المسند (٤/٤٤٣) والطبراني في الكبير (١٨/٢٤٠ رقم ٦٠٣) كلاهما من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش، عن أبي داود ـ الأعمى ـ عن عمران بن حُصين ولفظ أحمد «من كان له على رجل حقٌّ فمن أخّره كان له بكل يوم صدقة».
ولفظ الطبراني «إذا كان للرجل على رجل حق فأخره إلى أجله كان له صدقة، فإن أخره بعد أجله كان له بكل يوم صدقة». وأبو داود الأعمى كذاب.
● وأخرج أحمد في المسند (٥/٣٦٠) والحاكم في المستدرك (٢/٢٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٥/٣٥٧) وأبو نعيم في أخبار أصفهان (٢/٢٨٦).
كلهم من رواية عبدالوارث، عن محمد بن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ =

الجميل والأجر الجزيل.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

(٢٨١) ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه. وقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم[1]. ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما عملت من خير أو شر[2] ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة[3] وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً وقيل أحداً وثمانين يوماً. وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة ساعات.

= يقول: «من أنظر مُعْسِراً فله بكل يوم صدقة قبل أن يحلَّ الدَّيْن فإذا حلَّ الدَّيْنُ فأنْظَره بعد ذلك فله بكل يومٍ مثله صدقه». قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: إنما هو على شرط مسلم وحده، لأن سليمان بن بريدة لم يخرج له البخاري شيئاً، وإنما أخرج هو ومسلم لأخيه «عبدالله بن بريدة».
والحديث صححه الألباني في الإرواء (رقم: ١٤٣٨) والصحيحة (رقم: ٨٦).
● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ١٥١ رقم ١١٣٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من أنظر مُعْسِراً إلى مَيْسَرَته أنظره الله بذنبه إلى توبته».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٣٥) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه الحكم بن الجارود ضعفه الأزدي وشيخ الحكم وشيخ شيخه لم أعرفهما.
● وأخرج البخاري (٤/ ٣٠٧ رقم ٢٠٧٧) و(٥/ ٥٨ رقم ٢٣٩١) و(٦/ ٤٩٤ رقم ٣٤٥١) ومسلم (٣/ ١١٩٤ رقم ٢٦/ ١٥٦٠) كلاهما من حديث حذيفة مرفوعاً «تلقَّت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا: أَعَمِلْت من الخير شيئاً؟ قال: كنت أداين الناس فآمر فتياني أن يُنظروا المُعْسِر، ويتجوَّزوا عن الموسر، قال: قال الله عز وجل: تجوّزوا عنه».

(١) تنكير اليوم للتفخيم والتهويل، وتعليق الاتقاء به للمبالغة في التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال (أبو السعود ١/ ٢٦٨).

(٢) وتعميم التوفية لكل نفس للمبالغة في تهويل اليوم.. (أبو السعود ١/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٣٧) والطبراني ـ كما في «المجمع» (٦/ ٣٢٤) ـ بإسناد رجال أحدهما ثقات وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١١٦) وقال: أخرجه أبو عبيد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه... من طرق عن ابن عباس وهو حديث صحيح. وأخرج ابن أبي شيبة عن السدي وعطية العوفي، مثله. وأخرج ابن الأنباري عن أبي صالح وسعيد بن جبير. مثله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

(٢٨٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي إذا داين بعضكم بعضاً، تقول: داينته إذا عاملتَه نسيئة معطياً أو آخذاً. وفائدة ذِكْرِ الديْن أن لا يُتوهم من التداين المجازاة، ويُعْلم تنوعه إلى المؤجل والحالِّ، وأنه الباعث على الكتبة ويكون مرجع ضمير فاكتبوه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم الأيام والأشهر لا بالحصاد وقدوم الحاج. ﴿فَٱكْتُبُوهُۚ﴾ لأنه أوثق وأدفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلم[١]. ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ مَنْ يكتب السوية لا يزيد ولا ينقص، وهو في الحقيقة أمر للمتداينَيْن باختيار كاتب فقيه ديِّن حتى يجيء مكتوبهُ موثوقاً به معدّلاً بالشرع[٢]. ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع أحد من الكتاب. ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ مثل ما علمه الله من كتبة الوثائق، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها كقوله ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾[٣]. ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة المُعْلَمة. أمَرَ بها بعد النهي عن الإباء عنها تأكيداً، ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر فيكون النهي عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة. ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ وليكن المملي مَنْ عليه الحق لأنه المُقِرُّ المشهودُ عليه، والإملال والإملاء واحد. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي المملي، أو

(١) أخرج الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٠٥ رقم ١٢٩٠٣) والحاكم (٢/ ٢٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٨) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ١١٦ ـ ١١٧).
كلهم من طرق عن قتادة، عن أبي حسان الأعرج أن ابن عباس سئل عن السلف، فقال: أشهد أن الله أحله، وأنزل فيه أطول آية في كتاب الله «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه».
قال الحاكم: صحيح على شرطهما، وقال الذهبي: إبراهيم بن بشار الرمادي، عن ابن عينية.
قلت لم ينفرد به إبراهيم، فله طرق أخرى عند غير الحاكم لكنه ليس من رجال الشيخين.
وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (رقم: ١٣٦٩).

(٢) وحذف المفعول إما لتعينه أو للقصد إلى إيقاع نفس الفعل أي ليفعل الكتابة.
وقوله تعالى «بينكم» للإيذان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفي بكلام أحدهما (أبو السعود ١/ ٢٦٩).

(٣) القصص: «٧٧».

الكاتب[(١)] . ﴿ وَلَا يَبْخَسْ ﴾ ولا ينقص. ﴿ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أي من الحق، أو مما أُملي عليه[(٢)] . ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ ناقص العقل مبذراً. ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ صبياً أو شيخاً مختلاً. ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ أو غير مستطيع للإملال بنفسه لخرس أو جهل باللغة. ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أي الذي يلي أمره ويقوم مقامه من قَيِّم إن كان صبياً أو مختل العقل، أو وكيل أو مترجم إن كان غير مستطيع. وهو دليل جَرَيان النيابة في الإقرار، ولعله مخصوص بما تعاطاه القيِّم أو الوكيل. ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ ﴾ واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان. ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ من رجال المسلمين، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود وإليه ذهب عامة العلماء وقال أبو حنيفة: تقبل شهادة الكفار بعضهم على بعض. ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين. ﴿ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ فليشهد أو فليُستَشهد رجل وامرأتان، وهذا مخصوص بالأموال عندنا وبما عدا الحدود والقصاص عند أبي حنيفة . ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ لعلمكم بعدالتهم[(٣)] . ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ عِلَّةُ اعتبار العدد أي لأجل أنّ إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتها ذكرتها الأخرى، والعلةُ في الحقيقة التذكير ولكن لما كان الضَّلال سبباً له نُزِّل منزلتَه كقولهم: أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه، وكأنه قيل: إرادةَ أن تُذَكِّر إحداهما الأخرى إن ضلت، وفيه إشعار بنُقصان عقلهن وقلة ضبطهن. وقرأ حمزة إن تضلّ على الشرط فتُذَكِّرُ بالرفع. وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب فَتُذْكِرَ من الإذكار[(٤)] . ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ لأداء الشهادة أو التحمل، وسموا شهداء قبل التحمُّل تنزيلاً لما يشارِف منزلة الواقع، وما مزيدةٌ. ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ ﴾ ولا تَمَلُّوا من كثرة مداينا‌تكم أن تكتبوا الدين أو الحق أو الكتاب. وقيل كنّى بالسأم عن الكسل لأنه صفة المنافق، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لا يقول المؤمن كسلت»[(٥)] ﴿ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ﴾ صغيراً كان الحق أو كبيراً، أو مختصراً كان الكتاب أو مُشْبعاً. ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المَدْيون.

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى أن تَكتبوه. ﴿ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أكثر قسطاً. ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ ﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها، وهما مبنيان من أقسط وأقام على غير قياس، أو من قاسَطَ بمعنى ذي قسط وقويم، وإنما صحت الواو في أقوَمُ كما صحت في التعجب لجموده. ﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾ وأقرب في أن لا تشكوا في جنس الدينِ وقَدْرِه وأَجَلِه والشهودِ ونحو ذلك. ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ استثناء من الأمر بالكتابة. والتجارةُ الحاضرة تعمّ المبايعة بدين أو عين، وإدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد أي: إلا أن تتبايعوا يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوا، لبُعده عن التنازع

---

(١) جمع بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة في التحذير (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٢) شدد القرآن في تكليف المملي حيث جمع بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس لما فيه من الدواعي إلى المنهي عنه، فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٣) قوله «ممن ترضون» تخصيصهم بالوصف المذكور مع أن اعتباره ينبغي أن يكون في كل شهيد وذلك لقلة اتصاف النساء به (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٤) ولعل إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى لتأكيد الإبهام والمبالغة في الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال بإحداهما بعينها والتذكير بالأخرى (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٥) لم أقف عليه.

والنسيان. ونصب عاصم تجارة على أنه الخبر والاسم مضمَر تقديره إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كقوله:

بنـي أَسَـدٍ هَـلْ تَعْلَمُـونَ بَـلاَءَنَـا إذَا كَـانَ يَـوْمـاً ذَا كَـوَاكِـبَ أَشْنَعَـا

ورَفَعَها الباقون على أنها الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة. ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ﴾ هذا التبايع، أو مطلقاً لأنه أحوط. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة. وقيل: إنها للوجوب ثم اختُلف في إحكامِها ونسخها. ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ﴾ يحتمل البناءين، ويدل عليه أنه قرىء ولا يضار بالكسر والفتح. وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتحريف والتغيير في الكَتْب والشهادة، أو النهي عن الضرار بهما مثل أن يُعَجَّلا عن مهم ويُكَلَّفا الخروج عما حُدَّ لهما، ولا يُعطى الكاتب جَعْله، والشهيد مؤنة مجيئه حيث كان. ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ الضرار أو ما نهيتم عنه. ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ﴾ خروج عن الطاعة لا حق بكم. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ في مخالفة أمره ونهيه. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ﴾ كرر لفظة «الله» في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه. ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية.

۞وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقْبُوضَةٞۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضٗا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾

(٢٨٣) ﴿۞وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ أي مسافرين. ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقْبُوضَةٞۖ﴾ فالذي يُسْتَوثَقُ به رهان، أو فعليكم رهان، أو فليؤخذ رهان. وليس هذا التعليق لاشتراط السفر في الارتهان كما ظنه مجاهد(١) والضحاك(٢) رحمهما الله تعالى لأنه عليه السلام رَهَنَ درعه في المدينة من يهودي على عشرين صاعاً من شعير أخذه لأهله(٣)، بل لإقامة التوثق للارتهان مقام التوثق بالكتابة في السفر الذي

(١) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي إمام في التفسير، ولد في مكة، وسمع عائشة وأبا هريرة، وعبدالله بن عمرو، وعبدالله بن عباس، وكان أقل أصحابه رواية عنه في التفسير ولكنه أوثقهم. قال: قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، أقف عند كل آية أسأله: فيما نزلت وكيف كانت؟ وهو أحد القائلين بالمذهب العقلي في تفسير القرآن. تنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة. قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبُك به» وقال الذهبي: «أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به» وله تفسير اعتمد عليه الشافعي والبخاري وغيرهما. مات سنة (١٠٤هـ).
[معجم المفسرين لنويهض (٢/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣) والتفسير والمفسرون للذهبي (١/ ١٠٦ ـ ١٠٩)].

(٢) الضحاك: هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم ويقال أبو محمد الخراساني كان معلماً مرموق المكانة، ومفسراً مشهوراً. توفي سنة ١٠٥ وقيل غير ذلك.
[تهذيب التهذيب (٤/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) والميزان (٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦)].

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ٣٠٢ رقم ٢٠٦٨) و(٤/ ٣١٩ رقم ٢٠٩٦) و(٤/ ٣٩٩ رقم ٢٢٠٠) و(٤/ ٤٣٣ رقم ٢٢٥٢) و(٥/ ٥٣ رقم ٢٣٨٦) و(٥/ ١٤٢ رقم ٢٥٠٩) و(٦/ ٩٩ رقم ٢٩١٦) و(٨/ ١٥١ رقم ٤٤٦٧) ومسلم (٣/ ١٢٢٦ =

هو مظنة إعوازها. والجمهور على اعتبار القبض فيه غير مالك. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فَرُهُن كسُقُف وكلاهما جمعُ رهنٍ بمعنى مرهون، وقرىء بإسكان الهاء على التخفيف. ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي بعضُ الدائنين بعضَ المديونين واستغنى بأمانته عن الارتهان. ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أي دينه، سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به. وقرىء الذي ايتُمِن بقلب الهمزة ياء، والذي اتُّمِنَ بإدغام الياء في التاء وهو خطأ لأن المنقلبة عن الهمزة في حكمها فلا تدغم[١]. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في الخيانة وإنكار الحق وفيه مبالغات[٢]. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أيها الشهود، أو المدينون والشهادة شهادتهم على أنفسهم. ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي يأثم قلبه أو قلبه يأثم. والجملة خبر إنّ. وإسنادُ الإثم إلى القلب لأن الكتمان مقْتَرَفُه، ونظيرُه: العين زانية والأذُن زانية، أو للمبالغة فإنه رئيس الأعضاء وأفعالُه أعظم الأفعال، وكأنه قيل: تمكن الإثم في نفسه وأخذ أشرف أجزائه وفاقَ سائر ذنوبه. وقرىء قَلْبَه بالنصب كحسنٌ وجهَه. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تهديد.

لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

(٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني ما فيها من السوء والعزم عليه لترتب المغفرة والعذاب عليه. ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة. وهو حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض[٣]. ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مغفرته. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه، وهو صريح في نفي وجوب التعذيب. وقد رفعَهُما ابن عامر وعاصم ويعقوب على الاستئناف، وجَزَمَهُما الباقون عطفاً على جواب الشرط، ومن جزم بغير فاء جعلهما بدلاً منه بدل البعض من الكلّ أو الاشتمال كقوله:

متَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بنَا في دِيَارِنَا ... تجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا

وإدغام الراء في اللام لحن إذ الراء لا تدغم إلا في مثلها. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإحياء والمحاسبة[٤].

= رقم ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦/١٦٠٣) والنسائي (٧/ ٢٨٨ رقم ٤٦٠٩) من حديث عائشة.

● وأخرجه البخاري (٤/ ٣٠٢ رقم ٢٠٦٨) و(٥/ ١٤٠ رقم ٢٥٠٨) والنسائي (٧/ ٢٨٨ رقم ٢٦١٠) من حديث أنس.

(١) وقد أورد الألوسي قبول البعض لما رده البيضاوي (روح المعاني ٣/ ٦٣).

(٢) وفي الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالا يخفى (أبو السعود ١/ ٢٧٢).

(٣) الروافض: سُمُّوا بالرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر ـ وقيل لرفضهم زيد بن علي رضي الله عنه عندما أنكر عليهم الطعن في أبي بكر وعمر ـ، ومنعهم من ذلك فرفضوه فقال لهم زيد: رفضتموني؟ قالوا: نعم فبقى عليهم هذا الإسم.
وأجمعت الرافضة على إثبات الإمامة عقلاً، وأن إمامة علي وتقديمه ثابت نصاً وأن الأئمة معصومون، وقالوا: إن الأمة ارتدت بتركها إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلى غير ذلك من الأقوال الفاسدة. وهم أربع وعشرون فرقة.

(٤) حصل إشكال كبير في فهم هذه الآية، حتى إنه أشكل على الصحابة أنفسهم. =

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

(٢٨٥) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ شهادة وتنصيص من الله تعالى على صحة إيمانه والاعتداد به، وإنه جازم في أمره غير شاك فيه[١]. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ لا يخلو من أن يُعْطَفَ المؤمنون على الرسول فيكونَ الضمير الذي ينوب عنه التنوين راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أو يُجْعَلَ مبتدأ فيكونَ الضمير للمؤمنين، وباعتباره يَصح وقوعُ كلٌّ بخبره خبرَ المبتدأ، ويكونُ إفرادُ الرسول بالحكم إمّا لتعظيمه أو لأن إيمانه عن مشاهدة وعيان وإيمانهم عن نظر واستدلال. وقرأ حمزة والكسائي: وكتابه يعني القرآن أو الجنس. والفرقُ بينه وبين الجمع أنه شائع في وُحْدان الجنسِ والجمعِ في جموعه، ولذلك قيل: الكتاب أكثر من الكتب[٢]. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ أي يقولون لا نفرق. وقرأ يعقوب لا يُفَرِّقُ بالياء، على أن الفعلَ لكلٌّ، وقرىء لا يُفَرِّقُون حملاً على معناه كقوله تعالى ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾[٣] واحد في معنى الجمع لوقوعه في سياق النفي كقوله تعالى ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾[٤] ولذلك دخل عليه بين، والمراد نفي الفرق بالتصديق والتكذيب ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ أجبنا. ﴿وَأَطَعۡنَاۖ﴾ أمرك. ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ اغفر لنا غفرانك، أو نطلب غفرانك[٥].

= إلا أن نص الآية يفيد أن الله تعالى يحاسب على ما تخفيه وما تظهره النفس، إلا أنه يغفر حديث النفس، ويؤيده قوله عليه السلام: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، مالم تتكلم أو تعمل به».
ورجح الشوكاني في فتح القدير (١/ ٣٠٥) بأن الآية منسوخة.
ولعل الأول أولى وهو اختيار الألوسي فانظر أدلته وسبب اختياره في ذلك (روح المعاني ٣/ ٦٤).
وفي الآية لَفَتات بيانية: حيث قدم الجار والمجرور على الفاعل في قوله «يحاسبكم به الله» وذلك للاعتناء به.
وقدم الإبداء على الإخفاء بخلاف قوله تعالى: «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله» ـ آل عمران: ٢٩ ـ فلما أن المعلق بما في أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصل فيها الأعمال الظاهرة، أما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية. . كما أن مرتبة الإخفاء مقدمة على مرتبة الإبداء (أبو السعود ١/ ٢٧٣).

(١) قوله «من ربه» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وتنبيه على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له عليه السلام (أبو السعود ١/ ٢٧٤).

(٢) وتغيير النظم عن سابقه لبيان التفاوت بين إيمانه عليه السلام وإيمانهم.
وفيه نوع تفصيل لما أجمل في سابقه وذلك لبيان الكفاية في الإيمان الإجمالي إن لم يوجد ما يخالفه (أبو السعود ١/ ٢٧٤).

(٣) النمل: «٨٧».

(٤) الحاقة: «٤٧».

(٥) قدم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لأن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول. =

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع بعد الموت وهو إقرار منهم بالبعث.

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تسعه قدرتُها فضلاً ورحمةً، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوْقها ويتيسر عليها كقوله تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[(١)] وهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمِحَال ولا يدل على امتناعه. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير. ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من شر لا يَنتفع بطاعتها ولا يتَضرر بمعاصيها غيرُها. وتخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشر لأن الاكتساب فيه احتمال والشرّ تشتهيه النفس وتنجذب إليه فكانت أجدَّ في تحصيله وأعْمَلَ بخلاف الخير. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي لا تؤاخذنا بما أدّى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط وقلة مبالاة، أو بأنفسهما إذ لا تَمْتنع المؤاخذة بهما عقلاً فإن الذنوب كالسموم فكما أن تناولها يؤدي إلى الهلاك ـ وإن كان خطأ ـ فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضيَ إلى العقاب وإن لم تكن عزيمة، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمةً وفضلاً فيجوزُ أن يدعوَ الإنسان به استدامةً واعتداداً بالنعمة فيه، ويؤيد ذلك مفهوم قوله عليه الصلاة والسلام «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»[(٢)]. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ

= والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للمبالغة في التضرع والجُوار (أبو السعود ١/ ٢٧٦).

(١) البقرة: «١٨٥».

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٦/ ٢٥٠) ـ لكن بلفظ: «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وقال الألباني في الإرواء (رقم: ٨٢) الحديث بلفظ «رفع عن أمتي...» منكر.

● وله شاهد من حديث ابن عباس:

أخرجه ابن ماجة (١/ ٦٥٩ رقم ٢٠٤٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٥٧) من رواية عطاء بن أبي رباح عنه، بلفظ «إن الله تجاوز عن أمتي...».

قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٥٣): «إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع ـ والظاهر أنه منقطع بين عطاء وابن عباس بدليل زيادة «عبيد بن عمير» في الطريق ـ وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد ابن مسلم، فإنه كان يدلس تدليس التسوية» هـ.

● والطريق التي أشار إليها البوصيري، أخرجه ابن حبان في الموارد رقم (١٤٩٨) والدارقطني (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١) والحاكم (٢/ ١٩٨) وابن حزم في أصول الأحكام (٥/ ١٤٩) كلهم من طريق الأوزاعي، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبيد بن عمير، عنه، بلفظ «تجاوز...».

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وقال الألباني احتج به ابن حزم، وصححه الشيخ أحمد شاكر ـ محقق المُحلّى ـ وصححه الألباني لكن أعله أبو حاتم في العلل (١/ ٤٣١) بدعوى أن الأوزاعي لم يسمعه عن عطاء، إنما سمعه من رجل لم يسمه.

ورده الألباني فقال: إن الأوزاعي ثقة. بل إمام جليل، فلا يجوز تضعيف حديث الثقة لا سيما إذا كان مثل الأوزاعي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٣٣ رقم ١١٢٧٤) من طريق مسلم بن خالد الزنجي عن سعيد العلاف، عنه. ومسلم الزنجي، وسعيد العلاف كلاهما ضعيفان.

● وأخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٩٢١) في ترجمة عبدالرحيم بن زيد العمي، بلفظ «عفا لي، أو غفر لي...» والعمى ضعيف.

● وله شاهد من حديث أبي ذر، وثوبان، وابن عمر، وأبي بكرة كلها فيها كلام تكلم عليها ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» رقم (٣٩). =

عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عبأ ثقيلاً يأصِر صاحبه أي يحبسه في مكانه، يريد به التكاليف الشاقة. وقرىء ولا تُحَمِّل بالتشديد للمبالغة. ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ حَمْلاً مثل حَمْلك إياه على من قبلنا، أو مثل الذي حمّلته إياهم فيكون صفة لإصراً. والمراد به ما كُلف به بنو إسرائيل من قتل الأنفس وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة في اليوم والليلة وصرف ربع المال للزكاة، أو ما أصابهم من الشدائد والمحن. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء والعقوبة، أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية، وهو يدل على جواز التكليف بما لا يُطاق وإلا لما سئل التخلص منه، والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى المفعول الثاني. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة. ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ وتَعَطّف بنا وتفضل علينا. ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيدنا. ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، أو المراد به عامة الكفرة.

روي أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة فعلت(١). وعنه عليه الصلاة والسلام «أنزل الله تعالى آيتين من كنوز الجنة، كتبها الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل»(٢). وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ

= وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة رقم (٥٢٨). وقال: «ومجموع هذه الطرق تُظْهر أن للحديث أصلاً. . . . وقد صحح ابن حبان والحاكم وغيرهما هذا الخبر كما أشرت إليه، وقال النووي في الروضة وفي الأربعين: إنه حسن. . .» هـ.

وخلاصة القول: إن الحديث حسن والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (١/١١٦ رقم ٢٠٠/١٢٦) والطبري في «جامع البيان» (٣/١٤٣ ـ ١٤٤) والترمذي (٥/٢٢١ رقم ٢٩٩٢) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/٣٩٢) ـ والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٢١٠ ـ ٢١١). من حديث ابن عباس. وغفل الحاكم فاستدركه في المستدرك (٢/٢٨٦ ـ ٢٨٧).

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٧/٢٥٤٥) من حديث أبي مسعود الأنصاري وفي إسناده الوليد بن عباد، قال عنه ابن عدي: ليس من المعروفين. وأبان بن أبي سلمة عياش وهو متروك.

● قلت: أخرج الترمذي (٥/١٥٩ ـ ١٦٠ رقم ٢٨٨٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٩٦٧) والدارمي (٢/٤٤٩) وأحمد (٤/٢٧٤) والحاكم في المستدرك (١/٥٦٢).

من حديث النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان.

وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرج الطبراني في الكبير (٧/٣٤٢ رقم ٧١٤٦) من حديث شداد بن أوس مثل حديث النعمان بن بشير المتقدم.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/٣١٢) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١٣٨) وقال: أخرجه الطبراني بسند جيد.

● وأخرج أحمد (٥/٣٨٣) والطبراني في الكبير (٣/١٨٨ رقم ٣٠٢٥) والبيهقي في الشعب (٢/٤٦٠ رقم ٢٣٩٩) وفي دلائل النبوة (٥/٤٧٤ ـ ٤٧٥) كلهم من طريق ربعي بن حراش عن حذيفة عن النبي ﷺ. قال: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/٣١٢، ٣٢٤): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال=

الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[١]. وهو يرد قول من استكْرَه أن يقال سورة البقرة، وقال: ينبغي أن يقال السورة التي تذكر فيها البقرة، كما قال عليه الصلاة والسلام «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة وتركها حسرة، ولن يستطيعها البَطَلَة قيل: يا رسول الله وما البطلة؟ قال: السحرة»[٢].

☆ ☆ ☆

= الصحيح» هـ.

● وأخرج مسلم (١/ ٣٧١ رقم ٤/ ٥٢٢) من هذا الوجه قال: قال النبي ﷺ «فضلنا على الناس بثلاث: جُعِلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتُها لنا طَهوراً إذا لم نجد الماء» وذكر خصلةً أخرى، قلت: هذه الخصلة: «أعطيت خواتيم البقرة من كنز تحت العرش». فقد قال الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٣): أخرج مسلم حديث أبي مالك الأشجعي عن ربعي بن حراش عن حذيفة، فذكره.

● وأخرج ابن الفريس في «فضائل القرآن» رقم (١٧٤) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة، عن علقمة ـ عن أبي مسعود البدري قوله «من قرأ خاتمة سورة البقرة في ليلة أجزأت عنه عن قيام الليل» ـ.

قلت: ولعل هذا هو الأشبه أي الموقوف فجعله أبان بن عياش مرفوعاً.

لكن يشهد له الحديث الآتي في التعليقة التالية.

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٣١٧ رقم ٤٠٠٨) و(٩/ ٥٥ رقم ٥٠٠٨، ٥٠٠٩) و(٩/ ٨٧ رقم ٥٠٤٠) و(٩/ ٩٤ رقم ٥٠٥١) ومسلم (١/ ٥٥٤ رقم ٢٥٥/ ٨٠٧) وأبو داود (٢/ ١١٨ رقم ١٣٩٧) والترمذي (٥/ ١٥٩ رقم ٢٨٨١) والنسائي في «فضائل القرآن» رقم (٤٣، ٤٤، ٤٥) وفي عمل اليوم والليلة رقم (٧١٨ و٧١٩ و٧٢٠ و٧٢١) وابن ماجة (١/ ٤٣٥ رقم ١٣٦٩) والدارمي (٢/ ٤٥٠) كلهم من رواية عبدالرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود. وفي بعض الطرق عن عبدالرحمن بن يزيد، عن علقمة عنه، ثم قال عبدالرحمن: ثم لقيته وهو يطوف بالبيت فحدثنيه».

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد الخدري ـ كما في الجامع الصغير رقم (٤٨٤١). وقال المناوي: فيه إسماعيل بن أبي زياد الشامي. قال الذهبي، قال الدارقطني: يضع الحديث. وأورده الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٢٤٢ رقم ٣٣٦٥) وحكم عليه بالوضع.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥١) وكذلك الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٢/ ٣٤٤ رقم ٣٥٥٩).

● وأخرج الحديث مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٣ رقم ٢٥٢/ ٨٠٤) من حديث أبي أمامة مرفوعاً «اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركةٌ، وتركها حَسْرَةٌ، ولا تستطيعُها البطلَةُ». قال معاوية: بلغني أن البطلةَ السحرةُ.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

ترتيبها ٣ — آياتها ٢٠٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

(١) ﴿الٓمٓ﴾.

(٢) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إنما فَتَحَ الميمَ في المشهور ـ وكان حقها أن يوقف عليها لإلقاء حركة الهمزة عليها ـ ليدلّ على أنها في حكمِ الثابت لأنها أسقطت للتخفيف لا للدّرْج، فإن الميم في حكم الوقف كقولهم واحدٌ اثْنان بإلقاء حركة الهمزة على الدالِ لا لالتقاء الساكنين فإنه غير محذور في باب الوقف، ولذلك لم تحرك الميم في لام. وقرىء بكسرها على توهم التحريك لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو بكر بسكونها والابتداء بما بعدها على الأصل. ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[١] روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور في البقرة الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي آل عمران الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي طه وعنت الوجوه للحي القيوم»[٢].

---

(١) الحيّ: الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، والقيوم: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. ومن ضرورة اختصاص هذين الوصفين به تعالى استحقاق المعبودية به تعالى (س٢/٢).

(٢) أخرج الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٢ رقم ٧٩٢٥) من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ «اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ في ثلاث سُوَر من القرآن في البَقَرةَ وآل عِمْران وطه». وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٦٣). والحاكم (١/ ٥٠٦) كلهم من طريق الوليد بن مسلم، عن عبدالله بن العلاء بن زبر، عن أبي القاسم عنه.

وأخرجه الطبراني في الكبير أيضاً (٨/ ٢١٤ ـ ٢١٥ رقم ٧٧٥٨) وابن ماجة (٢/ ١٢٦٧ رقم ٣٨٥٦) من طريق عمرو بن أبي سلمة عن عيسى بن موسى عن غيلان بن أنس عن القاسم عنه. =

(٣) ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ القرآن نُجُوماً. ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالعدل، أو بالصدق في أخباره، أو بالحجج المحققة أنه من عند الله، وهو في موضع الحال[1]. ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب. ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ جُمْلةً على موسى وعيسى. واشتقاقهما من الوَرى والنَّجْل، ووزنُهما بتَفْعِلَة وإفْعِيل تعسّفٌ لأنهما أعجميان، ويؤيد ذلك أنه قرىء الأنجيل بفتح الهمزة وهو ليس من أبنية العربية، وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي التوراة بالإمالة في جميع القرآن، ونافعٌ وحمزةُ بين اللفظين إلا قالون فإنه قرأ بالفتح كقراءة الباقين.

(٤) ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل تنزيل القرآن. ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ على العموم إن قلنا إنا متعبدون بشرع مَنْ قبلنا، وإلا فالمراد به قومهما. ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ يريد به جنسَ الكتب الإلهية، فإنّها فارقة بين الحق والباطل. ذُكِرَ ذلك بعد ذكر الكتب الثلاثة ليعمّ ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل، أو الزبور أو القرآن. وكُرِّر ذكره بما هو نعت له مدحاً وتعظيماً وإظهاراً لفضله من حيث إنه يشاركهما في كونه وحياً مُنَزّلاً ويتميز بأنه معجز يفرِّق بين المحق والمبطل، أو المعجزات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها. ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بسبب كفرهم[2]. ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب. ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنَّقْمةُ عقوبة المجرم، والفعل منه نَقَمَ بالفتح والكسر، وهو وعيد جيء به بعد تقرير التوحيد والإشارة إلى ما هو العمدة في إثبات النبوة تعظيماً للأمر وزجراً عن الإعراض عنه.

(٥) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أيُّ شيء كائن في العالم كلياً كان أو جزئياً إيماناً أو كفراً، فعبّر عنه بالسماء والأرض إذِ الحِسّ لا يتجاوزُهما. وإنما قَدَّم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها، وهو كالدليل على كونه حياً.

(٦) وقولُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أي من الصور المختلفة، كالدليل على القيومية والاستدلال على أنه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره. وقرىء تَصَوَّرَكم أي صوركم

= ● وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد:
أخرج أبو داود (٢/١٦٨ رقم ١٤٩٦) والترمذي (٥/٥١٧ رقم ٣٤٧٨) وابن ماجة (٢/١٢٦٧ رقم ٣٨٥٥) كلهم من طريق عبيدالله بن أبي زياد، عن شهر بن حوشب، عنها عن النبي ﷺ: قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين «وإلٰهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمٰن الرحيم» [البقرة: ١٦٣] وفاتحة آل عمران «آلَمّ اللهُ لا إله إلا هو الحيُّ القيوم» وأخرجه أحمد(٦ـ٤٦١) من هذا الوجه لكن عنده قال في هاتين الآيتين:(اللّهُ لا إله إلا هو الحي القيوم) و«آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم»: إن فيها اسم الله الأعظم.
قال الترمذي: حسن صحيح. قلت: لعله نظراً إلى شاهده المذكور من حديث أبي أمامة، وإلا ففيه «عبيدالله بن أبي زياد القداح» ليس بالقوي [التقريب: ١/٥٣٣].
وشهر بن حوشب: ليس بالقوي أيضاً [الضعفاء والمتروكين للنساء (رقم: ٣١٠)].
وحسن الألباني حديث أسماء بنت يزيد، وحديث أبي أمامة وانظر «الصحيحة» رقم: (٧٤٦) وصحيح أبي داود.

(١) وصيغة التفعيل في «نَزّل» للدلالة على التنجيم.
وتقديم الظرف «عليك» على المفعول «الكتاب» للاعتناء بالمقدم والتشويق للمؤخر (س ٢/٤).

(٢) التنوين في عذاب للتفخيم.

لنفسه وعبادته. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يَعْلمُ غيرُه جملةَ ما يَعْلمُه ولا يقْدِر على مثل ما يفعله. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إشارة إلى كمال قدرته وتناهي حكمته. قيل: هذا حِجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، فإن وفد نجران لما حاجّوا فيه رسول الله ﷺ نزلت السورة من أولها إلى نَيِّف وثمانين آية تقريراً لما احتَجَّ به عليهم وأجاب عن شبههم.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

(٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أُحكمت عبارتها بأن حُفِظت من الإجمال والاحتمال. ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصْلُهُ يُرد إليها غيرها. والقياسُ أمهاتُ فأُفرد على تأويل كل واحدة، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ محتَمِلات لا يتضح مقصودها ـ لإجمالٍ أو مخالفةِ ظاهرٍ ـ إلا بالفحص والنظر، ليظهر فيها فضلُ العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقِّف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معاليَ الدرجات. وأما قوله تعالى ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[(١)] فمعناه أنها حُفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ، وقوله ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[(٢)] فمعناه أنه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ. وأُخَرُ جمع أخرى، وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر ولا يلزم منه معرفته، لأن معناه أن القياس أن يعرفَ ولم يعرفْ لا أنه في معنى المعرف أو عن أخر من. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عُدول عن الحق كالمبتدِعَة[(٣)]. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ طَلَبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه. ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وطَلَبَ أن يؤولوه على ما يشتهونه، ويُحتمل أن يكون الداعي إلى الاتباع مجموع الطَّلِبتين أو كل واحدة منهما على التعاقب، والأول يناسب المعانِد والثاني يلائم الجاهل. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه. وَمنْ وقف على إلا الله فَسَّرَ المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية، أو بمُبَادِلِ القاطِع على أن ظاهره غير مراد ولم يدل على ما هو المراد. ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ استئناف موضح لحال الراسخين، أو حال منهم، أو خبر إنْ جَعَلْته مبتدأ. ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي كل من المتشابه والمحكم من عنده، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن

---

(١) هود: «١».

(٢) الزمر: «٢٣».

(٣) والزيغ هو الميل عن الاستقامة.

وجعل قلوبهم مقراً للزيغ مبالغة في عُدُولهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد (س ٢/ ٨).

وحسن النظر وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس. واتصالُ الآية بما قبلها من حيث إنها في تصوير الروح بالعلم وتربيته وما قبلَها في تصوير الجسد وتسويته، أو أنها جواب عن تشبث النصارى بنحو قوله تعالى ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(١). كما أنه جواب عن قولهم لا أب له غير الله، فتعين أن يكون هو أباه بأنه تعالى مصوِّر الأجنة كيف يشاء فيصور من نطفةِ أبٍ ومن غيرها، وبأنه صوره في الرحم والمصوِّر لا يكون أبَ المصوَّر.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾

(٨) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ من مقال الراسخين. وقيل: استئناف، والمعنى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويلٍ لا ترتضيه، قال عليه الصلاة والسلام «قلب ابن آدم بين أُصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه»(٢). وقيل: لا تُبلنا ببلايا تَزيغ فيها قلوبُنا. ﴿بَعْدَ

(١) النساء: «١٧١».

(٢) وهو حديث صحيح بمتابعاته وشواهده:

● أخرجه أحمد في المسند (٦/٣٠٢، ٣١٥) والترمذي (٥/٥٣٨ رقم ٣٤٢٢) كلاهما من طريق شهر بن حوشب عن أم سلمة رضي الله عنها.

وقال الترمذي: حديث حسن. فلعله نظراً إلى شاهدة عند مسلم، وإلا شهر بن حوشب ليس بالقوي كما تقدم.

● وأخرجه أحمد في المسند (٦/٢٥١) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/١٠٠ رقم ٢٢٤) والآجري في الشريعة ص٣١٧ من طريق علي بن زيد ـ بن جدعان ـ عن أم محمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمٰن... الحديث.

وفي سنده: علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

وللحديث شواهد:

(منها): حديث عبدالله بن عمرو بن العاص. أخرجه مسلم (٤/٢٠٤٥ رقم ١٧/٢٦٥٤) وأحمد (٢/١٦٨) وابن أبي عاصم (١/١٠٠ رقم ٢٢٢) والآجري في الشريعة ص٣١٦ كلهم من طريق أبي عبدالرحمٰن الجُبُلي عنه.

(منها): حديث أنس بن مالك: أخرجه أحمد (٣/١١٢) وابن أبي عاصم (١/١٠١ رقم ٢٢٥) والآجري في الشريعة ص٣١٦ كلهم من طريق الأعمش عن أبي سفيان ـ طلحة بن نافع ـ عنه.

(ومنها): حديث النواس بن سمعان أخرجه النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٩/٦١) ـ وابن ماجة (١/٧٢ رقم ١٩٩) وأحمد (٤/١٨٢) وابن أبي عاصم: (١/٩٨ رقم ٢١٩) والآجري في الشريعة (ص٣١٧) والحاكم (١/٥٢٥) و(٤/٣٢١) والبغوي في شرح السنة (١/١٦٦) وابن حبان (رقم: ٢٤١٩ ـ موارد) كلهم من طريق عبدالرحمن بن يزيد، عن بسر بن عبيدالله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني عنه.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٦٩ رقم ٦٩): هذا إسناد صحيح.

(ومنها): حديث نعيم بن همار أخرجه ابن أبي عاصم (١/٩٩ رقم ٢٢١) والطبراني في الكبير ـ كما في «المجمع» (٧/٢١١) ـ وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

وقال الألباني: حديث صحيح وإسناده حسن.

﴿إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق والإيمان بالقِسمين من المحكم والمتشابه، وبعدَ نصب على الظرف، وإذ في موضع الجر بإضافته إليه، وقيل إنه بمعنى إن. ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تُزْلِفُنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقاً للثبات على الحق أو مغفرة للذنوب. ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ لكل سؤال، وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله وأنه متفضل بما ينعم على عباده لا يجب عليه شيء.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)﴾

(٩) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ لحساب يوم أو لجزائه(١). ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء، نبهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما يتعلق بالآخرة فإنها المقصد والمآل. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فإن الإلهية تنافيه، وللإشعارِ به وتعظيم الموعودِ لَوّنَ الخطاب. واستدل به الوعيديةُ(٢)، وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو لدلائل منفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقاً(٣).

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عام في الكفرة. وقيل: المراد به وفد نجران، أو اليهود، أو مشركو العرب. ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي من رحمته، أو طاعته على معنى البدلية، أو من عذابه(٤) ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ حطبها. وقرىء بالضم بمعنى أهل وقودها(٥).

(١١) ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ متصل بما قبله أي لن تغني عنهم كما لم تغن عن أولئك أو تُوقَد بهم كما توقد بأولئك، أو استئناف مرفوع المحل تقديره دأبُ هؤلاء كدأبهم في الكفر والعذاب، وهو مصدر دَأَبَ في العمل إذا كدح فيه فنقل إلى معنى الشأن. ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عطف على آل فرعون. وقيل استئناف. ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ حال بإضمار قد، أو استئناف بتفسير حالهم، أو خبر إن ابتدأْتَ بالذين من قبلهم(٦). ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف الكفرة.

---

(١) حُذِف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه تهويلاً له وتفظيعاً لما يقع فيه (س ٢/ ٩).

(٢) الوعيدية هم المعتزلة الذين يقولون بأنه تعالى وعد المؤمنين بالثواب وأوعد العاصين بالعقاب. فيقولون بالوعد والوعيد. أما أهل السنة فيقولون بالعفو نتيجة للتوبة.

(٣) وقوله «إن الله لا يخلف الميعاد» إظهار للاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشىء من ذكر اليوم المهيب وللإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف (س ٢/ ٩).

(٤) وتقديم الأموال على الأولاد مع توسيط حرف النفي إما لعراقة الأولاد في كشف الكروب أو لأن الأموال هي أول ما يفزع إليها عند نزول الخطوب (س ٢/ ١٠).

(٥) وإيثار الجملة الإسمية في قوله «وأولئك هم وقود النار» للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وللدلالة على كمال ملابستهم للنار (س ٢/ ١٠).

(٦) والالتفات إلى التكلم بقوله «كذبوا بآياتنا» للجري على سنن الكبرياء، وإلى الغيبة ثانياً بقوله «فأخذهم الله» =

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾

(١٢) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي قل لمشركي مكة ستغلبون يعني يوم بدر، وقيل لليهود فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع فحذّرهم أن يَنْزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغماراً[1] لا علم لهم بالحرب لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، فنزلت[2]. وقد صَدَّق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من دلائل النبوة. وقرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما على أن الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ تمام ما يقال لهم، أو استئناف وتقديره بئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم.

(١٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الخطاب لقريش أو لليهود، وقيل للمؤمنين. ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يوم بدر. ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين، وكان قريباً من ألف، أو مثلي عدد المسلمين وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وذلك كان بعد ما قَلَّلهم في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غُلِبوا مِدَداً من الله تعالى للمؤمنين، أو يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين وكانوا ثلاثة أمثالهم ليثبتوا لهم ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم الله به في قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[3]. ويؤيده قراءة نافع ويعقوب بالتاء، وقرىء بهما على البناء للمفعول أي يريهم الله أو يريكم ذلك بقدرته. وفئة بالجرّ على البدل من فئتين والنصب على الاختصاص، أو الحال من فاعل التقتا[4]. ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ رؤية ظاهرة معاينة. ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ نصره كما أيد أهل بدر. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي التقليل والتكثير أو غلبة القليل عديم العدة في الكثير شاكي السلاح، وكون الواقعة آية أيضاً يحتملها ويحتمل وقوع الأمر على ما أخبر به الرسول ﷺ. ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لعظة لذوي البصائر. وقيل لمن أبصرهم.

= بإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة (س ٢/ ١١).

(١) أغماراً أي لا تجربة لهم ولا علم.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢٢٩) معلقاً، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (٨١ ـ ٨٢) من طريق ابن إسحاق، وأخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤) والطبري في جامع البيان (٣/ ١٩٢).
وأبو داود في السنن (٣/ ٤٠٢ رقم ٣٠٠١) من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عكرمة عنه ومحمد هذا مجهول والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٣) الأنفال: «٦٦».

(٤) وصف الفئة الأولى «المؤمنة» بالقتال في سبيل الله مدحاً لهم واعتداداً بقتالهم وإيذاناً بأنه المدار في تحقق الآية.
بينما وصف الفئة الثانية بالكفر ولم يصفها بما يقابل صفة الفئة الأولى إسقاطاً لقتالهم عن درجة الاعتبار وإيذاناً بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة (س ٢/ ١٢).

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

(١٤) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي المشتهيات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها كقوله تعالى ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾[١]. والمزيِّن هو الله تعالى لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زينه ابتلاء، أو لأنه يكون وسيلة إلى السعادة الأخروية إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، أو لأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع. وقيل الشيطان فإن الآية في معرض الذم. وفرق الجبائي[٢] بين المباح والمحرم[٣]. ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ بيان للشهوات. والقنطار المال الكثير. وقيل مائةُ ألف دِينار. وقيل ملءِ مَسْك ثور. واختلف في أنه فِعْلال أو فِنْعَال، والمقنطرة مأخوذة منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة. والمسوَّمة المُعْلَمة من السَّوْمة وهي العلامة، أو المرعية من أسام الدابة وسوَّمها، أو المطهمة[٤]. والأنعام الإبل والبقر والغنم[٥] ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إشارة إلى ما ذكر. ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية.

(١٥) ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ يريد به تقرير أن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا[٦]. ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ استئناف لبيان ما هو خير، ويجوز أن يتعلق اللام بخير ويرتفع جنات على هو جنات، ويؤيده قراءة من جرها بدلاً من خير. ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر من النساء. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر في جميع القرآن بضم الراء ما خلا الحرف الثاني في المائدة وهو قوله تعالى ﴿رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[٧] بكسر الراء، وهما لغتان. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، أو بأحوال الذين اتقوا

---

(١) ص: «٣٢».

(٢) الجبائي هو: محمد بن عبدالوهاب الجُبَّائي البصري، ولد سنة (٢٣٥هـ) من أئمة المعتزلة بالبصرة، وإليه تنسب فرقة الجبائية، ونسبته إلى «جبى» من قرى البصرة له تفسير مطول، رد عليه الأشعري. توفي سنة (٣٠٣هـ) ودفن بـ«جبى» [الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٦)].

(٣) وفي قوله تعالى «زين» إيثار صيغة المبني للمفعول جرياً على سنن الكبرياء (س ٢/ ١٤).

(٤) قوله «المطهمة» أي التامة الخلق.

(٥) وفي قوله «من النساء والبنين» فقدم حب النساء لعراقتهن في معنى الشهوة فإنهن حبائل الشيطان. ولم يتعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن (س ٢/ ١٤).

(٦) إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق إليه (س ٢/ ١٥).

(٧) المائدة: «١٦».

فلذلك أعد لهم جنات[١]. وقد نبه بهذه الآية على نعمه فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله تعالى لقوله تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٢] وأوسطها الجنة ونعيمها.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

(١٦) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ صفة للمتقين، أو للعباد، أو مدح منصوب أو مرفوع. وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها.

(١٧) ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما، وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبل الخير، وأما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها. وتوسيطُ الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها، وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروع أجمع سيما للمجتهدين، قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون.

(١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها وإنزالِ الآيات الناطقة بها. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالإقرار. ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ بالإيمان بها والاحتجاج عليها، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل في قسمه وحكمه، وانتصابه على الحال من الله وإنما جاز إفراده بها ولم يَجُز جاء زيد وعمرو راكباً لعدم اللبس كقوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[٣]، أو مِنْ هو والعاملُ فيها معنى الجملة أي تفرّد قائماً أو أَحُقُّه لأنها حال مؤكدة، أو على المدح، أو الصفةِ للمنفي وفيه ضَعْف للفصل وهو مندرج في المشهود به إذا جعلته صفة أو حالاً من الضمير. وقرىء القائمُ بالقسط على البدل عن هو أو الخبر لمحذوف. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحُكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيعلم أنه الموصوف بهما. وقَدّم العزيز لتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته. ورفعُهما على البدل من الضمير أو الصفة لفاعل شهد.

---

(١) قوله «والله بصير بالعباد» إشارة وإشعار إلى أن من ذكر يستحق وصفه بالعبودية الحقة (س ٢/١٦).

(٢) التوبة: «٧٢».

(٣) الأنبياء: «٧٢».

وقد روي في فضلها أنه عليه الصلاة والسلام قال «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفّى بالعهد، أَدْخِلوا عبدي الجنة». وهي دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله.

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ. وقرأ الكسائي بالفتح على أنه بدل من أنه بدل الكل إنْ فُسِّر الإسلام بالإيمان أو بما يتضمنه، وبدل اشتمال إنْ فُسِّر بالشريعة، وقرىء إنّه ـ بالكسر ـ وأنَّ ـ بالفتح ـ على وقوع الفعل على الثاني واعتراضٍ ما بينهما أو إجراءِ شَهِدَ مجرى قال تارة وعلم أخرى لتضمنه معناهما. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى، أو من أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام فقال قوم إنه حق وقال قوم إنه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقاً، أو في التوحيد فثلثت النصارى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾(١). وقيل هم قوم موسى اختلفوا بعده. وقيل هم النصارى اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالآيات والحجج. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرئاسة، لا لشبهة وخفاءٍ في الأمر. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وعيد لمن كفر منهم(٢).

(٢٠) ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ في الدين، أو جادلوك فيه بعدما أقمت الحجج. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ أخلصت نفسي وجملتي له لا أشرك فيها غيره، وهو الدين القويم الذي قامت به الحجج ودعت إليه الآيات والرسل. وإنما عبّر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ عطف على التاء في أسلمت وحسُن للفصل، أو مفعول معه. ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ الذين لا كتاب لهم كمشركي العرب(٣). ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما أسلمت لما وضّحت لكم الحجة، أم أنتم بعدُ على كفركم ونظيره وقوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(٤) وفيه تعيير لهم بالبلادة أو المعاندة. ﴿فَإِنْ

---

(١) التوبة: «٣٠».

(٢) قوله «فإن الله» إظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة.

وفي ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه.. دلالة على كمال شدة عقابهم (س٢/١٨).

(٣) قوله «للذين أوتوا الكتاب» وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفي المتعاطفين (س ٢/١٩).

(٤) المائدة: «٩١».

أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال. ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي فلم يضروك إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ وعد ووعيد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(٢١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هم أهل الكتاب الذين في عصره عليه السلام، قتَل أولهم الأنبياء ومتابعيهم وهم رضُوا به وقصدوا قتل النبي ﷺ والمؤمنين ولكن الله عصمهم، وقد سبق مثله في سورة البقرة. وقرأ حمزة ويقاتِلون الذين. وقد منع سيبويه إدخال الفاء في خبر إنَّ كليت ولعل ولذلك قيل الخبر[١].

(٢٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كقولك زيدٌ فافهَم رجلٌ صالح، والفرق أنه لا يغير معنى الابتداء بخلافهما. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يدفع عنهم العذاب.

(٢٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراة أو جنس الكتب السماوية، ومن للتبعيض أو للبيان. وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير[٢]. ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الداعي محمد عليه الصلاة والسلام وكتاب الله القرآن، أو التوراة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام دخل مدراسهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت. فقال: على دين إبراهيم. فقالا له إن إبراهيم كان يهودياً فقال: هلموا إلى التوراة فإنها بيننا وبينكم. فأبيا فنزلت . وقيل نزلت في الرجم. وقرىء لِيُحْكَمَ على البناء للمفعول فيكون الاختلاف فيما بينهم، وفيه دليل على أن الأدلة السمعية حجة في الأصول. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعاد لتوليهم مع علمهم بأن الرجوع إليه واجب. ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض، والجملة حال من فريق وإنما ساغ لتخصصه بالصفة.

---

(١) تقييد قتل النبيين بغير حق للإيذان بأنه كان عندهم أيضاً بغير حق.
وقوله «ويقتلون الذين يأمرون بالقسط» كرر فعل القتل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما في الوقت (س ٢/ ١٩).

(٢) التعبير عما أوتوه بالنصيب للإشعار باختصاصه بهم وكونه حقاً من حقوقهم التي يجب مراعاتها والعمل بموجبها.
وتنكير النصيب للتفخيم لا للتحقير لأنه لا يساعده مقام المبالغة في تقبيح حالهم (س ٢/ ٢٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢١٧) وفي سنده (محمد بن أبي محمد) مجهول. وأورده السيوطي في «الدر» (٢/ ١٧٠) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من حديث ابن عباس.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التولي والإعراض. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائغ والطمع الفارغ. ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أن النار لن تمسهم إلا أياماً قلائل، أو أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تَحِلّة القَسَم.

(٢٥) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ استعظام لما يحيق بهم في الآخرة وتكذيب لقولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات. روي أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضَحُهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار[(١)]. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت. وفيه دليل على أن العبادة لا تَحْبُط وأن المؤمن لا يخلُد في النار، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها، فإذن هي بعد الخلاص منها[(٢)] ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الضمير لكل نفس على المعنى لأنه في معنى كل إنسان.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ الميم عوض عن يا، ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم كدخول يا عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم. وقيل: أصله يا الله أُمّنا بخير[(٣)]، فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته. ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ يتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرفَ المُلاّك فيما يملكون، وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية. ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ تعطي منه ما تشاء مَنْ تشاء وتسترد، فالملك الأول عام والآخران بعضان منه. وقيل: المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى قوم[(٤)] ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان. ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذَكر الخير وحده لأنه المقضي بالذات والشر مقضي بالعَرَض، إذ لا يوجد شر جزئي مالم يتضمن خيراً كليا، أو لمراعاة الأدب في الخطاب، أو لأن الكلام وقع فيه إذ روي أنه عليه السلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، فظهر فيه صخرة عظيمة لم يعمل فيها المعاوِل، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعتها

---

(١) ذكره الألوسي في تفسيره (٣/ ١١٢) بدون سند. ولم يعزهُ لأحد.

(٢) المراد به جزاء ما كسبت، إلا أنه أقيم المكسوب مقام جزائه إيذاناً بكمال الاتصال والتلازم بينهما حتى كأنهما شيء واحد (س ٢/ ٢١).

(٣) أي دلّنا على خير أو اقصِدنا به.

(٤) وإيثار الإيتاء على التملك لأن ملك غيره بطريق المجاز (س ٢/ ٢١).

وبرق منها برقٌ أضاء منه ما بين لابَتَيْها[1] لكأن بها مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر وكبر معه المسلمون وقال «أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء. وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرةٌ على كلها فأبشِروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يُمَنّيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق فنزلت[2]. فنبه على أن الشر أيضاً بيده بقول ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3].

تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ عَقّب ذلك ببيان قدرته على معاقبة الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة الذلّ والعز وإيتاء الملك ونزعه. والولوج: الدخول في مَضيق، وإيلاج الليل والنهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقص. وإخراج الحي من الميت وبالعكس إنشاء الحيوانات من موادها وإماتتُها، أو إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة منه. وقيل: إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر الميْت

---

(١) اللابة هي الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السوداء (المصباح المنير مادة «لوب»).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج٢١/١٣٣ ـ ١٣٤) والواحدي في أسباب النزول (ص٨٣ ـ ٨٤) والبغوي في تفسيره (٣/ ٥١٠) عن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني قال: ثنى أبي، عن أبيه به.
وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٨٣) في ترجمة سلمان، قال: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي قديك، قال: حدثني كثير بن عبدالله المزني عن أبيه عن جده به.
قلت: وكثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني، المدني، ضعيف، ومنهم من نسبه إلى الكذب [التقريب (٢/ ١٣٢ رقم ١٧)].
والخلاصة أن الحديث ضعيف.
وأخرجه أبو يعلى في المسند (٣/ ٢٤٤ رقم ١٦٨٥/٣٢) وأحمد في المسند (٤/ ٣٠٣) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» رقم (٤٣٠) وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٤٢١ ـ ٤٢٢) والنسائي في السير ـ كما في تحفة الأشراف (٢/ ١٦٥) ـ من طرق كلهم من رواية ميمون أبي عبدالله عن البراء بن عازب مختصراً، وإسناده ضعيف. وتصحفت «عن ميمون» في الدلائل «ابن ميمون».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٣٠ ـ ١٣١) وقال: رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبدالله، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات.
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٣) وقوله «بيدك الخير» قدم الخير فأفاد التخصيص أي بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك. (س ٢/ ٢١).

بالتخفيف.

(٢٨) ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نُهوا عن موالاتهم لقرابة وصداقة جاهلية ونحوهما حتى لا يكون حبهم وبغضهم إلا في الله، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية. ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء[١]. ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي من ولايته في شيء يصح أن يسمى ولاية، فإن موالاة المتعاديين لا يجتمعان قال:

تـوُدُّ عَـدُوي ثُـمَّ تَـزعُـمُ أَنَّنـي صـديقُـكَ لَيْسَ النوك عَنْكَ بِعَازِبِ

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه، أو اتقاء. والفعل معدى بمن لأنه في معنى تحذروا وتخافوا. وقرأ يعقوب تَقِيَّة. منع عن موالاتهم ظاهراً وباطناً في الأوقات كلها إلا وقتَ المخافة، فإن إظهار الموالاة حينئذ جائز كما قال عيسى عليه السلام: كن وسطاً وامش جانباً. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه، وهو تهديد عظيم مُشْعِر بتناهي النهي في القبح. وذِكْرُ النفس ليُعْلَم أن المحذَّرَ منه عقاب يَصْدُر منه تعالى فلا يُؤْبَه دونه بما يُحْذَرُ من الكفرة.

قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي أنه يَعلم ضمائركم من ولاية الكفار وغيرها إن تخفوها أو تبدوها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيعلم سركم وعلنكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نُهيتم عنه. والآية بيان لقوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[٢] وكأنه قال ويحذركم نفسه لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلها وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها، فلا تجسُروا على عصيانه إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها[٣].

(٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ يوم منصوب بتودّ، أي تتمنى كل نفس يوم تجد صحائف أعمالها أو جزاء أعمالها من الخير والشر حاضرة لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً، أو بمضمر نحوُ اذكُر، وتود حال من الضمير في عملت

(١) «ومن يفعل» عبر عنه بالفعل للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره (س ٢/ ٢٣).

(٢) آل عمران: «٢٨».

(٣) وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار في قوله «والله على كل شيء قدير» لتربية المهابة وتهويل الخطب.

أو خبر لما عملت من سوء، وتجد مقصور على ما عملت من خير، ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود. وقرىء وَدّت وعلى هذا يصح أن تكون شرطية ولكن الحمل على الخبر أَوْقعُ معنى لأنه حكاية كائن وأوفق للقراءة المشهورة[1]. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ كرره للتأكيد والتذكير. ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌۢ بِالْعِبَادِ﴾ إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم فترجى رحمته ويخشى عذابه.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

(٣١) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمالٍ أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمالَ الحقيقي ليس إلا لله وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول في عبادته والحرص على مطاوعته. ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ﴾ جواب للأمر أي يرضَ عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئُكم في جوار قدسه، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع نبيه[2] ﷺ. روي: أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه[3]. وقيل: نزلت في وفد نجران لما قالوا: إنما نعبد المسيح حباً لله[4]. وقيل: في أقوام زعموا على عهده ﷺ أنهم يحبون الله فأُمِروا أن يَجْعَلوا لقولهم تصديقاً من العمل[5].

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يحتمل المضي والمضارعة بمعنى فإن تتولوا. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم، وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على أن التولي كفر، وإنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

(٣٣) ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالرسالة والخصائص الروحانية

---

(١) «ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء» ذكر إحضار الخير دون الشر للإشعار بكون الخير مراداً بالذات، وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية (س ٢/ ٢٤).

(٢) وضع الاسم الجليل موضع الإضمار للإشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة (س ٢/ ٢٥).

(٣) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٨٦) من رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢٣٣) عن محمد بن جعفر بن الزبير.
وكذلك الواحدي في «أسباب النزول» (ص٨٧). وفي سنده ضعف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢٣٢) من ثلاثة طرق عن الحسن مرسلاً. وهو ضعيف. وكذا أخرجه عن ابن جريج أيضاً.

والجسمانية، ولذلك قَوُوا على مالم يقوَ عليه غيرهم. لما أوجب طاعة الرسول وبين أنها الجالبة لمحبة الله عقّب ذلك ببيان مناقبهم تحريضاً عليها. وبه استُدِل على فضلهم على الملائكة. وآلُ إبراهيم: إسماعيلُ وإسحق وأولادهما ـ وقد دخل فيهم الرسول ﷺ ـ وآل عمران موسى وهٰرون ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، أو عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان بن العازار بن أبي يوذ بن يوزن بن زربابل بن ساليان بن يوحنا بن أوشيا بن أمون بن منشكن بن حازقا بن أخاز بن يوثام بن عوزيا بن يورام بن سافط بن ايشا بن راجعيم بن سليمان بن داود بن ايشى بن عويد بن سلمون بن ياعز بن نحشون بن عمياد بن رام بن حصروم بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة[١].

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾

(٣٤) ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ حال أو بدل من الآلين أو منهما ومن نوح، أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. وقيل بعضها من بعض في الدين. والذرية الولد يقع على الواحد والجمع فِعْليَّة من الذر أو فَعُولَة من الذرء أبدلت همزتها ياء ثم قلبت الواو ياء وأدغمت. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بأقوال الناس وأعمالهم فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميع بقول امرأة عمران عليم بنيتها.

(٣٥) ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي﴾ فينتصب به إذْ على التنازع. وقيل نصبه بإضمار اذكر، وهذه حنة بنت فاقوذ جدة عيسى، وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهٰرون فظن أن المراد زوجته، ويرده كفالة زكريا فإنه كان معاصراً لابن ماثان وتزوج ابنته ايشاع، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة من الأب روي أنها كانت عاقراً عجوزاً، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يُطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته فقالت: اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خَدَمِه، فحملت بمريم وهلك عمران. وكان هذا النذر مشروعاً في عهدهم للغلمان فلعلها بَنَت الأمر على التقدير أو طلبت ذَكَراً[٢] ﴿مُحَرَّرٗا﴾ معتقاً

---

(١) خص آل عمران بالذكر مع اندراجهم في آل إبراهيم لإظهار مزيد الاعتناء بأمر عيسى بسبب الاختلاف في شأنه.
والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء.
ولم يذكر اصطفاء إبراهيم نفسه لأنه مفهوم من اصطفاء آله، ولم يصرح به لكمال شهرة أمره في الخلة وكونه إمام الأنبياء (س ٢/ ٢٦).

(٢) التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن
إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة.
وتأكيد الجملة لإبراز وفور الرغبة في مضمونها.
وتقديم الجار والمجرور «لك» للاعتناء به (س٢/ ٢٧).

لخدمته لا أشغله بشيء، أو مخلَصاً للعبادة ونصبه على الحال. ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ ما نذرته. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لقولي ونيتي[١].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ الضمير لما في بطنها وتأنيثه لأنه كان أنثى، وجاز انتصاب أنثى حالاً عنه لأن تأنيثها علم منه فإن الحال وصاحبَها بالذات واحداً، أو على تأويل مؤنث كالنفس والحَبَلَةِ. وإنما قالته تحسراً وتحزناً إلى ربها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي بالشيء الذي وضعت. هو استئناف من الله تعالى تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بشأنها. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وَضَعْتُ على أنه من كلامها تسلية لنفسها أي ولعل لله سبحانه وتعالى فيه سراً، أو الأنثى كانت خيراً. وقرىء وَضَعْتِ على أنه خطاب الله تعالى لها. ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ بيان لقوله والله أعلم أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهِبت، واللام فيهما للعهد ويجوز أن يكون من قولها بمعنى وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت فتكون اللام للجنس. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ما قبلها من مقالها وما بينهما اعتراض، وإنما ذكرت ذلك لربها تقرباً إليه وطلباً لأن يعصمها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها فإن مريم في لغتهم بمعنى: العابدة. وفيه دليل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة. ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجيرها بحفظك[٢]. ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة. وعن النبي ﷺ «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسه إلا مريم وابنها»[٣]. ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

(٣٧) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ فرضي بها في النذر مكان الذَّكَر. ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي بوجه حسن يُقبَل به النذائر، وهو إقامتها مقام الذَّكَر، أو تسلمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة. روي أن حنة لما ولدتها لَفَّتْها في خِرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وقالت: دونكم هذه النذيرة،

(١) قصر صفتي السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائـها به تعالى وانقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهال (س٢/٢٨).

(٢) وصيغة المضارعة للدلالة على الاستمرار (س٢/٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦/٤٦٩ رقم ٣٤٣١) و(٨/٢١٢ رقم ٤٥٤٨) ومسلم (٤/١٨٣٨ رقم ١٤٦ و١٤٧/٢٣٦٦) كلاهما من طريق الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.

فتنافسوا فيها لأنها كانت ابنة إمامهم وصاحب قربانهم، فإن بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم فقال زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها فأبوْا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها زكريا. ويجوز أن يكون مصدراً على تقدير مضاف أي بذي قبول حسن، وأن يكون تقبّل بمعنى استقبل كتقضّى وتعجل أي فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن. ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ شدد الفاء حمزة والكسائي وعاصم، وقصروا زكريا غير عاصم في رواية ابن عياش على أن الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول أي جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، وخفف الباقون. ومدّوا زكرياء مرفوعاً. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي الغرفة التي بنيت لها، أو المسجد، أو أشرف مواضعه ومقدمها، سمي به لأنه محل محاربة الشيطان كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس[(١)]. ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ جواب كلما وناصبُه. روي: أنه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس. ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبوابُ مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء. وجعل ذلك معجزة زكريا يدفعه اشتباه الأمر عليه. ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا تستبعده. قيل تكلمت صغيرة كعيسى عليه السلام ولم ترضَع ثدياً قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلاً به. وهو يحتمل أن يكون من كلامهما وأن يكون من كلام الله تعالى. روي أن فاطمة رضي الله تعالى عنها أهدت لرسول الله ﷺ رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها وقال: «هلمي يا بنيّة» فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فقال لها: «أنّى لك هذا؟!» فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل» ثم جمع علياً والحسن والحسين وجمع أهل بيته عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها[(٢)].

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٨) ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ في ذلك المكان أو الوقت، إذ يستعار هنا وثم وحيث للزمان،

---

(١) وتقديم الظرف «عليها» للاعتناء بأمرها (س٢/ ٣٠).

(٢) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٨٦) وعزاه لأبي يعلى من حديث جابر.

وأورده الحافظ في «الكافي الشافِ» رقم (٢١٣) وقال: رواه أبو يعلى من حديث جابر، وهو من رواية ابن طيعة عن ابن المنكدر عنه. والمتن ظاهر النكارة.

● ولم أعثر عليه في مسند أبي يعلى المطبوع والله أعلم.

لِمَا رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى. ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ كما وهبتها لحنَّة العجوز العاقر. وقيل لما رأى الفواكه في غير أَوَانِهَا انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ، فسأل وقال هب لي من لدنك ذرية، لأنه لم يكن على الوجوه المعتادة وبالأسباب المعهودة. ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ مجيبه.

(٣٩) ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ أي من جنسهم كقولهم زيد يركب الخيل. فإن المنادي كان جبريل وحده. وقرأ حمزة والكسائي فناداه بالإمالة والتذكير. ﴿ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ أي قائماً في الصلاة. ويصلي صفة قائم، أو خبر، أو حال آخر، أو حال من الضمير في قائم. ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي بأن الله. وقرأ نافع وابن عامر بالكسر على إرادة القول، أو لأن النداء نوع منه. وقرأ حمزة والكسائي يَبْشُرُكَ[1]، ويحيى اسم أعجمي، وإن جُعل عربياً فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل. ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بعيسى عليه السلام سمي بذلك لأنه وُجِد بأمره تعالى[2] دون أب فشابه البدْعيات التي هي عالم الأمر، أو بكتاب الله سمي كلمة كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته. ﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويفوقهم، وكان فائقاً للناس كلهم في أنه مَا هَمَّ بمعصية قط. ﴿ وَحَصُورًا﴾ مبالغاً في حبس النفس عن الشهوات والملاهي. روي أنه مر في صباه بصبيان فدعُوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقت. ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ناشئاً منهم أو كائناً من عداد من لم يأت كبيرة ولا صغيرة.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾

(٤٠) ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ﴾ استبعاداً من حيث العادة، أو استعظاماً، أو تعجيباً، أو استفهاماً عن كيفية حدوثه. ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن وأثر فيّ، وكان له تسع وتسعون ولامرأته ثمانٍ وتسعون سنة. ﴿ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد، من العَقْر وهو القطع لأنها ذات عقر من الأولاد. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي يفعل ما يشاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر، أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يفعل ما يشاء من خلق الولد، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي الله على مثلِ هذه الصفة، ويفعل ما يشاء بيان له، أو كذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك، والله يفعل ما يشاء بيان له.

(٤١) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ علامة أعرف بها الحَبَلَ لاستقبله بالبشاشة والشكر وتزيح مشقة

---

(١) قال تعالى في سورة مريم «إنا نبشرك بغلام» ـ مريم «٧» ـ بإسناد التبشير إلى نون العظمة. بينما عدل هنا عن إسناد التبشير إلى نون العظمة ـ كما وقع في سورة مريم ـ للجري على سنن الكبرياء كما في قولهم: أمير المؤمنين يأمر لك بكذا، فالمعنى واحد (س٢/ ٣٢).

(٢) أي بقوله كنْ.

الانتظار. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ثلاثاً، وإنما حَبَسَ لسانَه عن مكالمتهم خاصة ليُخْلص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاءً لحق النعمة، وكأنه قال آيتك أن يُحْبَس لسانك إلا عن الشكر، وأحسنُ الجواب ما اشتق من السؤال. ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بنحو يدٍ أو رأس، وأصله التحرك ومنه الراموز للبحر، والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام ما دل على الضمير. وقرىء رَمَزاً بفتحتين ـ كخدم ـ جمع رَامز ورُمُزاً ـ كرُسُل ـ جمع رَموز على أنه حال منه ومن الناس بمعنى مترامزين كقوله:

متَى مَا تَلْقَني فَرْدَيْنِ تَرْجُف رَوَانِفُ أَلْيَتَيْكَ وَتُسْتَطَارَا

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحبسة، وهو مؤكد لما قبله مبين للغرض منه، وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب. وقيل من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر الليل. ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى. وقرىء بفتح الهمزة جمع بِكْرٍ كسِحْر وأسحار.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

(٤٢) ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلموها شفاهاً كرامة لها، ومن أنكر الكرامة زعم أن ذلك كانت معجزة لزكريا أو إرهاصاً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن الإجماع على أنه سبحانه وتعالى لم يستنبىء امرأة لقوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾[1]، وقيل ألهموها. والاصطفاء الأول تقبُّلها من أمها ـ ولم يُقبلْ قبلها أنثى ـ وتفريغُها للعبادة وإغناؤُها برزق الجنة عن الكسب وتطهيرُها عما يُستقذر من النساء، والثاني هدايتُها وإرسال الملائكة إليها وتخصيصُها بالكرامات السنية كالولد من غير أب وتبرئتُها مما قذفتها به اليهود بإنطاق الطفل وجعلها وابنها آية للعالمين[2].

(٤٣) ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها. وقدّم السجود على الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب، أو ليقترن اركعي بالراكعين للإيذان بأن من ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين. وقيل المراد بالقنوت إدامة الطاعة كقوله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾[3]، وبالسجود

---

(١) يوسف: «١٠٩».

(٢) «وإذ قالت الملائكة» أي واذكر إذ قالت... كرر التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الأحكام السابقة، فإنها من أحكام التربية الجسمانية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها (س٢/ ٣٥).

(٣) الزمر: «٩».

الصلاة كقوله تعالى ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[١]، وبالركوع الخشوع والإخبات.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ما ذكرنا من القصص من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ أقداحهم للاقتراع، وقيل اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركاً. والمراد تقرير كونه وحياً على سبيل التهكم بمنكريه، فإن طريق معرفة الوقائع المشاهَدة والسماع وعدم السماع معلوم لا شبهة فيه عندهم فبقي أن يكون الاتهام باحتمال العيان ولا يظن به عاقل. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أي يلقونها ليعلموا، أو يقولوا أيهم يكفل مريم. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تنافساً في كفالتها[٢].

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بدل من إذ قالت الأولى وما بينهما اعتراض، أو مِنْ إذ يختصمون على أنّ وقوع الاختصام والبشارة في زمان متسع كقولك لقِيته سنة كذا. ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح لقبه وهو من الألقاب المشرَّفة كالصِدِّيق، وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه: المبارك، وعيسى معرب ايشوع واشتقاقُهُما من المسح لأنهما مَسَحٌ بالبركة أو بما طهره من الذنوب أو مَسَحَ الأرضَ ولم يَقُم في موضع أو مَسَحه جبريل، ومن العَيَس وهو بياض يعلوه حمرة، تَكَلُّفٌ لا طائل تحته. وابنُ مريم لما كان صفةً تُمَيِّزُ تمييزَ الأسماء نُظِمَت في سلكها، ولا ينافي تعدد الخبر وإفراد المبتدأ فإنه اسم جنس مضافٌ، ويُحتمل أن يراد به أن الذي يُعرف به ويتميز عن غيره هذه الثلاثة فإن الاسم علامة المسمى والمميز له ممن سواه، ويجوز أن يكون عيسى خبر مبتدأ محذوف وابن مريم صفته، وإنما قيل ابن مريم والخطاب لها تنبيهاً على أنه يولد من غير أب إذ الأولاد تنسب إلى الآباء ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب. ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ حال مقدرة من كلمة، وهي وإن كانت نكرة لكنها موصوفة، وتذكيره للمعنى. والوجاهة في الدنيا النبوة وفي الآخرة الشفاعة ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ من الله، وقيل إشارة إلى علو درجته في الجنة أو رَفْعه إلى السماء وصحبة الملائكة.

(٤٦) ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً كلامَ الأنبياء من غير تفاوت. والمهْد مصدر سمي به ما يُمَهّد للصبي في مضجعه. وقيل إنه رُفِع شاباً والمراد وكهلاً بعد

---

(١) ق: «٤٠».

(٢) وتكرير «وما كنت لديهم» مع تحقق المقصود بعطف «إذ يختصمون» على «إذ يقولون»... للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه السلام عند إلقاء الأقلام وعدم حضوره عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته عليه الصلاة والسلام، لا سيما إذا أريد باختصامهم تنازعُهم قبل الاقتراع فإن تغيير الترتيب في الذكر مؤكد له (س٢/٣٦).

نزوله، وذِكْرُ أحواله المختلفة المتنافية إرشاداً إلى أنه بمعزل عن الألوهية ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال ثالث من كلمة أو ضميرُها الذي في يُكَلِّم.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تعجب، أو استبعاد عادي، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ القائل جبريل، أو الله تعالى وجبريل حكى لها قول الله تعالى. ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك.

(٤٨) ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ كلام مبتدأ ذكر تطييباً لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم لما علمت أنها تلد من غير زوج، أو عطف على يبشرك أو وجيهاً. والكتاب الكِتْبَة أو جنس الكتب المنزلة، وخصّ الكتابان لفضلهما. وقرأ نافع وعاصم ويعلمه بالياء[1].

(٤٩) ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ منصوب بمضمر على إرادة القول تقديره: ويقول أُرسِلت رسولاً بأني قد جئتكم، أو بالعطف على الأحوال المتقدمة مضمناً معنى النطق فكأنه قال: وناطقاً بأني قد جئتكم، وتخصيص بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد على من زعم أنه مبعوث إلى غيرهم[2]. ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ نَصْبٌ بدل من أني قد جئتكم، أو جَرّ بدل من آية، أو رفع على هي أني أخلق لكم والمعنى: أقدر لكم وأصور شيئاً مثل صورة الطير، وقرأ نافع إني بالكسر ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف أي في ذلك الشيء المماثل. ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيصير حياً طياراً بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه. وقرأ نافع هنا وفي المائدة طائراً بالألف والهمزة. ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الأكمه الذي ولد أعمى أو الممسوح العين، روي: أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى مَنْ أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداوي إلا بالدعاء[3]. ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرر بإذن الله دفعاً لتوهم الألوهية، فإن

---

(١) وهي قراءة أبو جعفر ويعقوب أي بالياء. وقرأ الباقون بالنون «ونعلمه» (المبسوط ص١٤٣).

(٢) وقوله «من ربكم» تعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامتثال بما سيأتي من الأوامر (س٢/٣٨).

(٣) وتخصيص هذين الداءين لأنهما مما أعيا الأطباء رغم أنهم كانوا في غاية الحذاقة في زمنه عليه السلام (س٢/٣٩).

الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية. ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ موفقين للإيمان فإن غيرهم لا ينتفع بالمعجزات، أو مصدقين للحق غير معاندين.

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

(٥٠) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ عطف على رسولاً على الوجهين، أو منصوب بإضمار فعلٍ دلّ عليه قد جئتكم أي وجئتكم مصدقاً. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ مقدر بإضماره، أو مردود على قوله: أني قد جئتكم بآية، أو معطوف على معنى مصدقاً كقولهم جئتك معتذراً ولأطيّب قلبك. ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام كالشحوم والثُّروب والسمك ولحوم الإبل والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخاً لشرع موسى عليه الصلاة والسلام ولا يُخِلُّ ذلك بكونه مصدقاً للتوراة، كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بتناقض وتكاذب، فإن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الأزمان ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(٥١) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي جئتكم بآية أخرى ألهمنيها ربُّكم وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فإنه دعوة الحق المجمع عليها فيما بين الرسل الفارقة بين النبي والساحر، أو جئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ اعتراض والظاهر أنه تكرير لقوله ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم، والأول لتمهيد الحجة والثاني لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتّب عليه بالفاء قولَه تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي لما جئتكم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعون فيما أدعوكم إليه، ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العلمية فإنه بملازمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن بيّن أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «قل آمنت بالله ثم استقم»[1].

(٥٢) ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ تحقَّق كفرُهم عنده تَحقُّقَ ما يُدركُ بالحواس. ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ملتجئاً إلى الله تعالى أو ذاهباً أو ضاماً إليه، ويجوز أن يتعلق الجارّ بأنصاري مضمناً

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٥ رقم ٦٢/ ٣٨) من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي.
وكذلك أخرجه ابن ماجة (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٢) والترمذي (٤/ ٦٠٧ رقم ٢٤١٠) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٢٠) وأحمد في المسند (٣/ ٤١٣) و(٤/ ٣٨٥).

معنى الإضافة، أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله تعالى في نصري. وقيل (إلى) ههنا بمعنى مع أو في أو اللام. ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حواري الرجل خاصتُه من الحَوَر وهو البياض الخالص، ومنه الحواريات للحضريات لخلوص ألوانهن، سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم، وقيل كانوا ملوكاً يلبسون البيض استنصر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام من اليهود، وقيل قصارين يحُورون الثياب أي يبيضونها. ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم[١].

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدانيتك، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس.

(٥٤) ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي الذين أحس منهم الكفر من اليهود بأن وَكَّلوا عليه من يقتلُه غِيْلة. ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شَبَهَه على من قصد اغتياله حتى قُتل. والمكر من حيث إنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يُسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والازدواج[٢] ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أقواهم مكراً وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب.

(٥٥) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لمَكَر الله أو خير الماكرين أو لمضمر مثل وقع ذلك. ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض من توفيت مالي، أو متوفيك نائماً إذ روي أنه رفع نائماً، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت. وقيل أماته الله سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهبت النصارى[٣]. ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي. ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من سوء جوارهم أو

(١) طلبوا منه عليه السلام الشهادة بذلك يوم القيامة إيذاناً بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية (س٢/ ٤٢).

(٢) المكر هو صرف الغير عما يقصده بحيلة، وهو ضربان محمود ومذموم، ولا يمنع وصفه تعالى بذلك فإن مكره بحق حيث يعاقب الجاحدين والظالمين بما يستحقون، ومن مكره تعالى أنه يملي للظالمين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم يأخذهم بغتة. . .

(٣) الخلاف الذي حصل بين العلماء في وفاة عيسى عليه السلام ورفعه للسماء، لعل أرجح الأقوال فيها أنه تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم. انظر (روح المعاني ٣/ ١٧٩ وفتح القدير ١/ ٣٤٥).
ولعله الأوفق بظاهر الآيات، ولا يوجد ما يمنعه حتى نقول بخلاف الظاهر.

قصدهم ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يعاونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتبعوه من آمن بنبوته من المسلمين والنصارى وإلى الآن لم تسمع غلبة لليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة. ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ الضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام ومن تبعه ومن كَفَر به، وغَلَّب المخاطبين على الغائبين. ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ
وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا
وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

(٥٦) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

(٥٧) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ تفسير للحكم وتفصيل له. وقرأ حفص فيوفيهم بالياء[1]. ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ تقرير لذلك.

(٥٨) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره، وهو مبتدأ خبرُه ﴿ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ وقوله: ﴿ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ حال من الهاء ويجوز أن يكون الخبرَ ونتلوه حالاً على أن العامل معنى الإشارة، وأن يكونا خبرين، وأن ينتصب بمضمر يفسره نتلوه. ﴿ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ المشتمل على الحكم، أو المحكم الممنوع عن تطرق الخلل إليه، يريد به القرآن وقيل اللوح.

(٥٩) ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ إن شأنه الغريب كشأن آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ جملة مفسرة للتمثيل مبينة لما به الشَّبه، وهو أنه خُلِق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم، شُبِّه حالُه بما هو أغرب منه إفحاماً للخصم وقطعاً لمواد الشبهة، والمعنى خلق قالَبه من التراب. ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ أي أنشأه بشراً كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾[2] أو قدّر تكوينه من التراب ثم كوّنه، ويجوز أن يكون ثم لتراخي الخبر لا المخبَر. ﴿ فَيَكُونُ ﴾ حكاية حال ماضية.

(٦٠) ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ خبر محذوف أي هو الحق، وقيل الحق مبتدأ ومن ربك خبره، أي الحق المذكور من الله تعالى. ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات أو لكل سامع.

(٦١) ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ ﴾ من النصارى. ﴿ فِيهِ ﴾ في عيسى. ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي من البينات الموجبة للعلم. ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ هلموا بالرأي والعزم. ﴿ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا

(١) وقرأ الباقون بالنون «فنوفيهم» (المبسوط ص١٤٣).
(٢) المؤمنون: «١٤».

﴿وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يدعُ كل منا ومنكم نفسَه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويَحْمِل عليها، وإنما قدمهم على الأنفس لأن الرجل يخاطر بنفسه لهم ويحارب دونهم. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتباهل بأن نلعن الكاذب منا. والبُهْلة بالضم والفتح اللعنة، وأصله الترك من قولهم بَهَلْت الناقة إذا تركتُها بلا صرار. ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ عطف فيه بيان. روي أنهم لما دُعوا إلى المباهلة قالوا حتى ننظر فلما تخالَوْا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهَلَ قوم نبياً إلا هَلَكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادِعوا الرجل وانصرِفوا فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمةُ تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمِّنوا» فقال أسقُفُهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهِلُوا فتَهْلِكوا. فأذعنوا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية ألفي حُلّة حمراء وثلاثين درعاً من حديد. فقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده لو تَبَاهَلُوا لمُسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصلَ اللهُ نجران وأهلَه حتى الطير على الشجر»[(١)]. وهو دليل على نبوته وفضل من أتى بهم من أهل بيته.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

(٦٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما قُص من نبأ عيسى ومريم. ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ بجملتها خبر إنّ، أو هو فصل يفيد أنّ ما ذكره في شأن عيسى ومريم حق دون ما ذكروه، وما بعدَه خبرٌ واللام دخلت فيه لأنه أقرب إلى المبتدأ من الخبر، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صَرّح فيه بِمَنْ المزيدة للاستغراق تأكيداً للرد على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركه في الألوهية.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢/٤٥٧ ـ ٤٥٨) رقم (٢٤٥): من طريق محمد بن مروان السدي، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس به وليس فيه ذكر ما صالح عليه، أي ألفي حلة.
قلت: فيه ابن مروان: متروك متهم بالكذب.
● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٢٩٩) عن محمد بن حميد، عن جرير، عن المغيرة عن الشعبي، ومحمد بن حميد: ضعيف.
● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٣٠٠) عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير ومحمد بن حميد وسلمة: ضعيفان.
● وأخرج أبو داود (٣/٤٢٩ ـ ٤٣٠ رقم ٣٠٤١) من طريق إسماعيل بن عبدالرحمٰن القرشي ـ وهو المعروف بالسُدِّي ـ عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على أَلْفَيْ حُلَّةٍ، النِّصْفُ في صَفَر والبقيَّةُ في رجب، يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم. . . .» وهو طرف من هذه القصة.
قال المنذري في «المختصر» (٤/٢٥١): «في سماع السُدِّي من عبدالله بن عباس نظر. وإنما قيل: إنه رآهُ، ورأى ابن عمر، وسمع من أنس بن مالك رضي الله عنهم» هـ.
وقال الألباني في «ضعيف أبي داود»: ضعيف الإسناد.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

(٦٣) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم. ووَضَعَ المظهر موضع المضمر ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراضَ عن التوحيد إفسادٌ للدين والاعتقادِ المؤدي إلى فساد النفس بل وإلى فساد العالم.

(٦٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعم أهل الكتابين، وقيل يريد به وفد نجران أو يهود المدينة. ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب ويفسرها ما بعدها. ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن نوحده بالعبادة ونخلص فيها. ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن يعبد. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ولا نقول عزيز بن الله ولا المسيح بن الله ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل، لأن كلاً منهم بعضُنا بشرٌ مثلُنا. روي أنه لما نزلت ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال: «أليس كانوا يُحِلّون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم قال: «هو ذاك»[2]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي لزمتكم الحجة فاعترِفوا بأنا مسلمون دونكم، أو اعترِفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل.

(تنبيه) انظر إلى ما راعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحِجاج، بيّن أولاً أحوال عيسى عليه الصلاة والسلام وما تعاوَرَ عليه من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر ما يَحُل عُقدتهم ويُزيح شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما

---

(١) التوبة: «٣١».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٧٨ رقم ٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث «عبدالسلام بن حرب» و«غطيف بن أعين» ليس بمعروف في الحديث» هـ.
قلت: عبدالسلام هذا ثقة حافظ له مناكير كما ذكره ابن حجر في التقريب (١/ ٥٠٥ رقم ١١٨٦) وأما غطيف هذا ضعفه ابن حجر في التقريب (٢/ ١٠٦ رقم ٢١) والذهبي في الميزان (٣/ ٣٣٦) ووثقه ابن حبان (٧/ ٣١١) وذكره ابن أبي حاتم (٧/ ٥٥ رقم ٣١٥) ولم يتكلم فيه بشيء، وكذلك البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٠٦ رقم ٤٧١) مع إخراجه للحديث، وللحديث شاهدان:
(الأول): من حديث حذيفة بن اليمان أخرجه ابن عبدالبر (٢/ ١٠٩) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١١٦) وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٤) وهو إن كان موقوفاً فله حكم المرفوع كما هو مقرر في مصطلح الحديث.
(والثاني): من حديث أبي العالية عند ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٥).
وبذلك يكون الحديث حسناً إن شاء الله.
وقد حسنهُ الألباني في غاية المرام رقم (٦) وابن تيمية في «الإيمان» ص٦٤.

أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقاً أسهل وألزَمَ بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرض عن ذلك وقال: ﴿ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

(٦٥) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزعم كل فريق أنه منهم وترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. والمعنى أن اليهودية والنصرانية حدثتا بنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وكان إبراهيم قبل موسى بألف سنة وعيسى بألفين فكيف يكون عليهما؟ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فتدّعون المحال.

(٦٦) ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ها حرف تنبيه نُبِّهوا بها على حالهم التي غفلوا عنها، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، وحاججتم جملة أخرى مبينة للأولى، أي أنتم هؤلاء الحمقى، وبيان حماقتكم أنكم جادلتم فيما لكم به علم مما وجدتموه في التوراة والإنجيل عناداً، أو تدّعون وروده فيه فلم تجادلون فيما لا علم لكم به ولا ذِكر له في كتابكم من دين إبراهيم. وقيل هؤلاء بمعنى الذين وحاججتم صلته. وقيل ها أنتم أصله أأنتم على الاستفهام للتعجب من حماقتهم فقُلبت الهمزة هاء. وقرأ نافع وأبو عمرو ها انتُم حيث وقع بالمد من غير همز، وورش أقل مداً، وقنبل بالهمز من غير ألف بعد الهاء، والباقون بالمد والهمز، والبزي بقصر المد على أصله. ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ ما حاججتم فيه. ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وأنتم جاهلون به.

(٦٧) ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان. ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة. ﴿ مُّسْلِمًا ﴾ منقاداً لله وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ تعريض بأنهم مشركون لإشراكهم به عزيراً والمسيحَ وردّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

(٦٨) ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ ﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه، من الوَلْي وهو القرب. ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ من أمته. ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة. وقرىء والنبي بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه، وبالجر عطفاً على إبراهيم. ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى لإيمانهم.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ
وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ
ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ
أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ نزلت في اليهود لما دَعوْا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية. ولو بمعنى أنْ. ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ وما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وبَاله إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم، أو ما يضلون إلا أمثالهم. ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وِزره واختصاص ضرره بهم.

(٧٠) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد ﷺ. ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أنها آيات الله، أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعْتَه في الكتابين، أو تعلمون بالمعجزات أنه حق.

(٧١) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ بالتحريف وإبراز الباطل في صورته، أو بالتقصير في التمييز بينهما. وقرىء تَلَبَّسون بالتشديد وتلْبَسون بفتح الباء أي تلبسون الحق مع الباطل كقوله عليه السلام: «كلابس ثوبيْ زور»[1] ﴿ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ نبوة محمد عليه السلام ونعته. ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ عالمين بما تكتمونه.

(٧٢) ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي أَظْهِروا الإيمان بالقرآن أول النهار. ﴿ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ واكفروا به آخره لعلهم يَشُكُّون في دينهم ظناً بأنكم رجعتم لخللٍ ظهر لكم، والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف[2] ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصَلّوا إليها أول النهار ثم صلّوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيَرْجِعون. وقيل اثنا عشر من أحبار خيبر تقاوَلُوا بأن يدخلوا في الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نَظَرْنا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنعت الذي ورد في التوراة لعل أصحابه يشكّون فيه.

(٧٣) ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ولا تُقِرّوا عن تصديق قلب إلا لأهل دينكم، أو لا تُظهِروا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٦٨١ رقم ١٢٦/ ٢١٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
وأخرج البخاري (٩/ ٣١٧ رقم ٥٢١٩) وأبو داود (٥/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠ رقم ٤٩٩٧) وأحمد في المسند (٦/ ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق مثله.

(٢) كعب بن الأشرف: هو كعب بن الأشرف الطائي، من نبهان: شاعر جاهلي، كانت أمه من بني النضر، فدان باليهودية، أدرك الإسلام ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، والتشبيب بنسائهم. أمر النبي ﷺ بقتله، فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.
[الأعلام للزركلي (٥/ ٢٢٥)].

إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان على دينكم فإن رجوعهم أرجى وأهمّ. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ هو يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبّته عليه. ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ متعلق بمحذوف أي دبَّرْتُمْ ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد، والمعنى أن الحسد حملكم على ذلك، أو بلا تؤمنوا أي ولا تُظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياعكم ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام. وقوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراض يدل على أن كيدهم لا يجدي بطائل، أو خبرُ إنّ على أنّ هدى الله بدل من الهدى. وقراءة ابن كثير أن يؤتى على الاستفهام للتقريع[1] تؤيد الوجه الأول أي إلا أن يؤتى أحد دبّرتم، وقرىء إنْ على أنها نافية فيكونُ من كلام الطائفة أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على أن يؤتى على الوجهين الأولين، وعلى الثالث معناه: حتى يحاجوكم عند ربكم فيُدْحِضوا حجتكم عند ربكم، والواو ضمير أحد لأنه في معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ رد وإبطال لما زعموه بالحجة الواضحة.

(٧٥) ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كعبدالله بن سلام استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقيةٍ ذهباً فأداه إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشي آخر ديناراً فجحده. وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة، والخائنون في القليل اليهود إذ الغالب عليهم الخيانة. وقرأ حمزة وأبو بكر وأبو عمرو يؤدّهْ إليك ولا يؤدّهْ إليك بإسكان الهاء، وقالونِ باختلاس كسرة الهاء وكذا روي عن حفص، والباقون بإشباع الكسرة. ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إلا مدة دوامك قائماً على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة البينة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله لا يؤده. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ بسبب قولهم. ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ أي ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب ـ ولم يكونوا على ديننا ـ عتاب وذم. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة. وقيل عامل اليهودُ رجالاً من قريش فلما أسلموا تقاضوْهم فقالوا سقَط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك في كتابهم. وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر . . . .

(١) أي قراءته «أأن يؤتى. . .».

والفاجر»(١).

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

(٧٦) ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه أي بلى عليهم فيهم سبيل. ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استئناف مقرِّر للجملة التي سدت بلى مسدَّها، والضمير المجرور لمَنْ أو لله، وعموم المتقين ناب عن الراجع من الجزاء إلى مَنْ وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي.

(٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون. ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات. ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يَسُرُّهم أو بشيء أصلاً وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة، أو لا ينتفعون بكلمات الله وآياته، والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم لقوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإن من سَخِط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه. قيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد ﷺ وحُكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة(٢). وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به(٣). وقيل: نزلت في ترافع كان بين الأشعث بن قيس(٤) ويهودي في بئر أو أرض وتوجه الحلف على . . . .

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٣١٨) من طرق عن يعقوب القمي، عن جعفر، عن سعيد بن جبير به مرسلاً بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٣٢١) عن عكرمة، وفي إسناده ضعف. وليس فيه ذكر تبديل نعت النبي ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣١٦ رقم ٢٠٨٨) و(٥/ ٢١٦ رقم ٢٦٧٥) و(٨/ ٢١٣ رقم ٤٥٥١) من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

● وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢١٣) جمعاً بين حديث عبدالله بن أبي أوفى وحديث ابن مسعود: لا منافاة بينهما، ويحمل على أن النزول كان بالسببين جميعاً، ولفظ الآية أعم من ذلك.

(٤) الأشعث بن قيس بن معْدي كَرب بن معاوية بن جَبَلة بن عديٍّ بن ربيعةَ بنِ معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن ثَور بن مُرْتِع بن كندة.

له صحبة، ورواية.

وأصيبت عينُه يوم اليرموك. وكان أكبرَ أمراء عليٍّ يومَ صفِّين. [الإصابة (١/ ٧٩) وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٢)].

اليهودي[١].

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ يعني المحرفين ككعب ومالك وحيي بن أخطب. ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف، أو يعطفونها بشبه الكتاب. وقرىء يلُون على قلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الضمير للمحرف المدلول عليه بقوله يلوون. وقرىء ليحسبوه بالياء والضمير أيضاً للمسلمين. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وتشنيع عليهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً، أي ليس هو نازلاً من عنده. وهذا لا يقتضي أن لا يكون فعلُ العبد فعلَ الله تعالى[٢]. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه.

(٧٩) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تكذيب ورد على عبدة عيسى عليه السلام. وقيل: إن أبا رافع القرظي والسيد النجراني قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله أن نعبد غير الله وأن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني فنزلت[٣]. وقيل: قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٤٥ رقم ٢٥١٥، ٢٥١٦) و(٥/ ٢٧٩ رقم ٢٦٦٧) و(٥/ ٢٨٦ رقم ٢٦٧٦) و(٨/ ٢١٢ ـ ٢١٣ رقم ٤٥٥٠) و(١١/ ٥٤٤ رقم ٦٦٥٩، ٦٦٦٠) و(١١/ ٥٥٨ رقم ٦٦٧٦، ٦٦٧٧) و(١٣/ ١٧٧ رقم ٧١٨٣، ٧١٨٤).

ومسلم (١/ ١٢٢ ـ ١٢٣ رقم ٢٢٠/ ١٣٨).

وأبو داود (٣/ ٥٦٥ رقم ٣٢٤٣) والترمذي (٣/ ٥٦٩ رقم ١٢٦٩).

والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (١/ ٧٧) ـ كلهم من حديث ابن مسعود.

(٢) قوله «وما هو من عند الله» إظهار للاسم الجليل، وكذا قوله «وما هو من الكتاب» إظهار في موقع الإضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول (س٢/ ٥٢).

(٣) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٣٢٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٨٤) من طريق ابن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال حدثنا سعيد بن جبير، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: «اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله عز وجل فيهم «يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بَعْده» إلى قوله «والله وليُّ المؤمنين» [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨]، فقال =

نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرِموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله[١] ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ ولكن يقول كونوا ربانيين، والربانيّ منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللّحياني والرقْباني، وهو الكامل في العلم والعمل. ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له، فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب تَعْلَمُون بمعنى عالمين. وقرىء تُدَرِّسُون من التدريس وتُدْرِسون من أدرس بمعنى دَرَس كأكرم وكرم، ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير وبما كنتم تدرسونه على الناس[٢].

وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

(٨٠) ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ نصبه ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب عطفاً على ثم يقول، وتكون لا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله ما كان أي ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، أو غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أرباباً بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة، ورفعه الباقون على الاستئناف ويحتمل الحال، وقرأ أبو عمرو على أصله برواية الدورى باختلاس الضم. ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ إنكار،

= أبو رافع القرظي حين اجتمع عنده النصارى والأحبار فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام أتُريدُ منَّا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني، يقال له الرِّبِّيسُ: وذلك تُريد يا محمد وإليه تدعو؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «معاذَ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره، وما بذلك بعثني ولا أمرني، فأنزل الله ـ عز وجل ـ في ذلك من قولهما: «ما كان لبشر أن يؤتيهُ اللهُ الكتابَ والحُكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا.

(١) أورده الحافظ في «الكافي الشافِ» رقم (٢٢١): وقال: لم أجد له إسناداً.
ونقله الواحدي في الأسباب ـ ص٩٦ ـ عن الحسن البصري «أن رجلاً، فذكره».
قلت: ومرسل الحسن البصري لا يحتج به.
وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن مرسلاً ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٥٠) ـ.

(٢) قوله تعالى «ما كان لبشر» إشعار بعلة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة إليهم.
وقوله «بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون»:
جعل خبر كان مضارعاً لإفادة الاستمرار التجددي.
وتكرير بما كنتم للإيذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية.
وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها، أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثاني لمن دونهم (س٢/ ٥٣).

والضمير فيه للبشر وقيل لله. ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذِنون لأن يسجدوا له.

(٨١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قيل إنه على ظاهره، وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأمم به أولى. وقيل معناه أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممِهم واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم. وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الفاعل، والمعنى وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثّقه الأنبياء على أممهم. وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو إسرائيل، أو سماهم نبيين تهكماً لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب والنبيون كانوا مِنا. واللام في لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف، وما تحتملُ الشرطية، ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية. وقرأ حمزة لِمَا بالكسر على أنّ ما مصدرية أي لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب ثم مجيءِ رسولٍ مصدق له أخَذَ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه، أو موصولة والمعنى أخذه للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له، وقرىء لَمَّا بمعنى حين آتيتكم أو لِمَنْ أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقالاً، وقرأ نافع آتيناكم بالنون والألف جميعاً. ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي عهدي، سمي به لأنه يُؤْصَرُ أي يُشَدّ. وقرىء بالضم[١] وهو إما لغة فيه كعُبْر وعِبْر أو جمع إصار وهو ما يشد به. ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، وقيل الخطاب فيه للملائكة. ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وأنا أيضاً على إقراركم وتشاهُدِكُم شاهدٌ، وهو توكيد وتحذير عظيم.

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٨٢) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد الميثاق والتوكيدِ بالإقرار والشهادةِ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة.

(٨٣) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ عَطْفٌ على الجملة المتقدمة، والهمزة متوسطة بينهما للإنكار، أو محذوف تقديره أتتولون فغير دين الله تبغون. وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار. والفعْلُ بلفظ الغيبة عند أبي عمرو وعاصم في رواية حفص ويعقوب، وبالتاء عند الباقين على تقدير وقل له. ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجىء إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت، أو مختارين ـ كالملائكة والمؤمنين ـ ومسخَّرين كالكفرة فإنهم لا يقدرون أن يمتنعوا عما قُضِي عليهم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وقرىء بالياء على أن الضمير لمن[٢].

---

(١) أي بضم الهمزة (أُصْري).

(٢) وقرىء بتاء الخطاب «وإليه تُرجعون».

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

(٨٤) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان والقرآن، كما هو منزل عليهم بتوسط تبليغه إليهم، وأيضاً المنسوب إلى واحد من الجمع قد ينسب إليهم، أو بأن يتكلم عن نفسه على طريقة الملوك إجلالاً له. والنزول كما يُعدّى بإلى لأنه ينتهي إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق، وإنما قُدِّم المنزَّلُ عليه السلام على المنزل على سائر الرسل لأنه المعرِّف له والعيار عليه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالتصديق والتكذيب. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون أو مخلصون في عبادته[١].

(٨٥) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله. ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الواقعِين في الخسران، والمعنى أن المُعرِض عن الإسلام والطالبَ لغيره فاقد للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فُطِر الناسُ عليها. واستُدِل به على أن الإيمان هُو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل، والجواب إنه ينفي قبول كل دين يغايره لا قبول كل ما يغايره، ولعل الدين أيضاً للأعمال[٢].

(٨٦) ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ استبعاد لأن يهديهم الله فإن الحائد عن الحق بعد ما وَضَح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد. وقيل نفيٌ وإنكار له وذلك يقتضي أن لا تُقبل توبة المرتد[٣]، وشهِدوا عطفٌ على ما في إيمانهم من معنى الفعل ونظيره فأصّدّق وأكُن، أو حال بإضمار قد مِنْ كفروا وهو على الوجهين دليلٌ على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظرِ وَوَضْعِ الكفرِ موضعَ الإيمان، فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه؟!

---

(١) «الأسباط» جمع سبط وهو الحافد، والمراد بهم حفَدَة يعقوب عليه السلام.
وخص موسى وعيسى من بين النبيين لأن الكلام مع اليهود والنصارى.
وذكر عدم التفريق بين أحد منهم ولم يتعرض لنفي التفريق بين الكتب لأنه ذلك مستلزم له (س٢/ ٥٥).

(٢) الإسلام هنا بمعنى الدين الذي جاء به محمد ﷺ، لا الإسلام الذي هو مرتبة من مراتب الشريعة.

(٣) والقول الأول أولى، فإن توبة المرتد تُقبل. ويدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى: «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا..» ـ آل عمران «٨٩» ـ.

أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ
ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

(٨٧) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه على نفي جواز لعن غيرهم، ولعل الفرق أنهم مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مؤيسون عن الرحمة رأساً بخلاف غيرهم، والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فإن الكافر أيضاً يلعن مُنكِر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه.

(٨٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو العقوبة أو النار، وإن لم يجز ذكرهما لدلالة الكلام عليهما. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد. ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدوا، ويجوز أن لا يقدّر له مفعول، بمعنى ودخلوا في الصلاح. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ يقبل توبته. ﴿رَّحِيمٌ﴾ يتفضل عليه. قيل: إنها نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على رِدّته فأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجُلاّس بالآية فرجع إلى المدينة فتاب[1].

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ كاليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد الإيمان بموسى والتوراة ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، أو كفروا بمحمد بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق، أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفراً بقولهم نتربص بمحمد ريب المنون أو نرجع إليه وننافقُه بإظهاره. ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ لأنهم لا يتوبون، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا على الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة، أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وزيادة كفرهم، ولذلك لم تدخل الفاء فيه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

(٩١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾ لمّا كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية أَدْخَلَ الفاء ههنا للإشعار به. وملءُ الشيء ما يملؤه. وذهباً نصب على

---

(١) أخرجه ابن حبان (رقم ١٧٢٨ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٢٤٢) وابن جرير الطبري (٣/ ٣٤٠) والنسائي (٧/ ١٠٧ رقم ٤٠٦٨).
كلهم من طريق يزيد بن زريع عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
وأخرجه أحمد (١/ ٢٤٧) من طريق علي بن عاصم عن داود به مختصراً، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده.

التمييز. وقرىء بالرفع على البدل من ملء أو الخبر لمحذوف. ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ محمول على المعنى كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تقرب به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة، أو المراد ولو افتدى بمثله قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ﴾[١] والمثل يحذف ويراد كثيراً لأن المثلين في حكم شيء واحد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مبالغة في التحذير وإقناط لأن من لا يقبل منه الفداء ربما يعفى عنه تكرماً ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ في دفع العذاب. ومن مزيدة للاستغراق[٢].

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾

(٩٢) ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ أي لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا بِرّ الله الذي هو الرحمة والرضى والجنة. ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ أي من المال، أو ما يعمه رغيره كبذل الجاه في معاونة الناس، والبَدَن في طاعة الله والمهجة في سبيله. روي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إلي بيرحاء فضعها حيث أراك الله، فقال: بخ بخ ذاك مال رابح أو رائح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين[٣]. وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، فقال: زيد إنما أردت أن أتصدق بها، فقال عليه السلام: «إن الله قد قبلها منك»[٤]. وذلك يدل على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل، وأن الآية تعم الإنفاق الواجب والمستحب. وقرىء بعض ما تحبون وهو يدل على أن مِنْ للتبعيض ويحتمل التبيين. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ﴾ أي من أي شيء محبوب أو غيره ومن لبيان ما. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بحسبه.

(٩٣) ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي المطعومات والمراد أَكْلُها. ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ حلالاً لهم، وهو مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث قال تعالى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾[٥] ﴿إِلَّا

---

(١) المائدة: «٣٦».

(٢) «ناصرين» صيغة الجمع لمراعاة الضمير، أي ليس لواحد منهم ناصر واحد (س٢/٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣/٣٢٥ رقم ١٤٦١) و(٤/٤٩٣ رقم ٢٣١٨) و(٥/٣٩٦ رقم ٢٧٦٩) و(٨/٢٢٣ رقم ٤٥٥٤) و(١٠/٧٤ رقم ٥٦١١) ومسلم (٢/٦٩٣ رقم ٤٢/٩٩٨) ومالك في الموطأ (٢/٩٩٥ رقم ٢) من حديث عن أنس بن مالك.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/٣٤٨) عن عمرو بن دينار مرسلاً. ورجاله ثقات وكذلك أخرجه عن أيوب معضلاً وانظر «الكافي الشاف» رقم (٢٢٤) لابن حجر.

(٥) الممتحنة: «١٠».

مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ يعقوب. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ كلحوم الإبل وألبانها. وقيل كان به عِرق النَّسَا فنذر إن شفي لم يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه[1]. وقيل: فعل ذلك للتداوي بإشارة الأطباء. واحتج به من جوز للنبي أن يجتهد، وللمانع أن يقول ذلك بإذن من الله فيه فهو كتحريمه ابتداء. ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديداً، وذلك رد على اليهود في دعوى البراءة مما نعى عليهم في قوله تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾[2] وقوله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾[3] الآيتين، بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومَنْ بعده حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، وفي منع النسخ والطعن في دعوى الرسول عليه السلام موافقةُ إبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل وألبانها. ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أمر بمحاجتهم بكتابهم وتبكيتهم بما فيه من أنه قد حرم عليهم بسبب ظلمهم ما لم يكن محرماً. روي: أنه عليه السلام لما قاله لهم بُهِتوا ولم يَجْسُروا أن يخرجوا التوراة، وفيه دليل على نبوته.

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

(٩٤) ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ابتدعه على الله بزعمه أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن قبلهم. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين لا ينصفون من أنفسهم ويكابرون الحق بعدما وضح لهم[4].

(٩٥) ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ تعريض بكذبهم، أي ثبت أن الله صادق فيما أَنزل وأنتم الكاذبون. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، أو مثْل ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التي اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة لتسوية الأغراض الدنيوية وألزمتكم تحريم طيبات

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٢) من طريق الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً: أن إسرائيل أخذه عرق النساء فطار ببيت فجعل إن شفاه الله أن لا يأكل لحماً فيه عروق قال فحرمته اليهود فنزلت: «كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» إن هذا كان قبل التوراة.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

● وأخرجه أحمد (١/ ٢٧٨) من طريق عبدالحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب عن ابن عباس مرفوعاً مثله.

وعبدالحميد بن بهرام: صدوق. وشهر بن حوشب ليس بالقوي.

(٢) النساء: «١٦٠».

(٣) الأنعام: «١٤٦».

(٤) «فأولئك» ما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الضلال (س٢/ ٥٩).

أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه[١] ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعريض بشرك اليهود.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

(٩٦) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي وضع للعبادة وجُعل متعبداً لهم، والواضع هو الله تعالى. ويدل عليه أنه قرىء على البناء للفاعل[٢]. ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ للبيت الذي ببكة[٣]، وهي لغة في مكة كالنبيط والنميط وأمرٌ راتبٌ وراتم ولازب ولازم، وقيل هي موضع المسجد. ومكة البلد من بَكّه إذا زحمه، أو من بكه إذا دقه فإنها تبك أعناق الجبابرة روي أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال: المسجد الحرام ثم بيت المقدس. وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة[٤]. وقيل أول من بناه إبراهيم ثم هُدِم، فبناه قوم من جَرْهم، ثم العمالقة، ثم قريش. وقيل هو أول بيت بناه آدم فانطمس في الطوفان، ثم بناه إبراهيم. وقيل: كان في موضعه قبل آدم بيت يقال له الضَّراح يطوف به الملائكة، فلما أهبط آدم أمر بأن يحجه ويطوف حوله ورفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات وهو لا يلائم ظاهر الآية. وقيل المراد إنه أول بيت بالشرف لا بالزمان. ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله، حال من المستكنّ في الظرف ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال:

(٩٧) ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، وأن ضواري السباع تخالط الصيود في الحرم ولا تتعرض لها، وإن كل جبار قصده بسوء قهره الله كأصحاب الفيل. والجملة مفسرة للهدى، أو حال أخرى. ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مبتدأ محذوف خبره أي منها مقام إبراهيم، أو بدل من آيات بدل البعض من الكل. وقيل عطف بيان على أن المراد بالآيات أَثَرُ القدم في الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين وتخصيصُها بهذه الإلانة من بين الصخار وإبقاؤُه دون سائر آثار الأنبياء وحفظُه مع كثرة أعدائه ألوف سنة، ويؤيده أنه قرىء آيةٌ بينة على التوحيد. وسبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة فغاصت فيه قدماه. ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ

---

(١) «فاتبعوا» الفاء للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه (س٢/٥٩).

(٢) أي «وَضَعَ للناس».

(٣) قوله تعالى: «للذي ببكة» خبر إنّ، وأخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين: الإضافة والوصف بالجملة بعدها أي للبيت الذي ببكة (س٢/ ٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٤٠٧ رقم ٣٣٦٦) و(٦/ ٤٥٨ رقم ٣٤٢٥) ومسلم (١/ ٣٧٠ رقم ١/ ٥٢٠) كلاهما من طرق عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر.

ءَامِنًا﴾ جملة ابتدائية، أو شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام لأنه في معنى أَمِنَ مَنْ دخله أي ومنها أَمْنُ من دخله، أو فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأَمْنُ من دخله. اقتَصَر بذكرهما من الآيات الكثيرة وطوى ذِكْر غيرهما كقوله عليه السلام «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة»[١] لأن فيهما غُنْيَةً عن غيرهما في الدارين بقاءَ الأَثَرِ مدى الدهْر والأَمْنَ من العذاب يوم القيامة. قال عليه السلام «من مات في أحد الحرمين، بعث يوم القيامة آمناً»[٢]. وعند أبي حنيفة من لزمه القتل بردَّة أو قصاص أو غيرهما والتجأ إلى الحرم لم يُتعرض له ولكن أُلْجِىء إلى الخروج. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ قصده للزيارة على الوجه المخصوص. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص حِجُّ بالكسر وهو لغة نجد[٣]. ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص له، وقد فسر رسول الله ﷺ الاستطاعة بالزاد والراحلة[٤] وهو يؤيد قول الشافعي رضي الله تعالى عنه إنها بالمال، ولذلك أَوْجَبَ الاستنابة على الزمن إذا وَجَدَ أُجْرة من ينوب عنه. وقال مالك

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٦١) وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) من حديث أنس بن مالك. وإسناده حسن.

(٢) وهو حديث ضعيف.

● أخرجه البيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٩٠ رقم ٤١٥٨) من طريق ابن أبي فديك عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس به وزاد «ومن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة».

وفيه سليمان بن يزيد الكعبي الخزاعي منكر الحديث ليس بقوي، قاله أبو حاتم في الجرح (٣/ ١٤٩).

● وأخرجه الطيالسي في المسند (ص١٢ ـ ١٣) والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٨٨ رقم ٤١٥٣) وفي «السنن الكبرى» (٥/ ٢٤٥) من طريق سوار بن ميمون أبو الجراح العبدي حدثني رجل من آل عمر عن عمر به. وفيه رجل من آل عمر: مجهول.

● وأخرجه الدارقطني في السنن (٢/ ٢٧٨ رقم ١٩٣) من رواية هارون بن أبي قَزعة عن رجل من آل حاطب، عن حاطب به وفيه هارون بن أبي قزعة: ضعيف. ورجل من آل حاطب مجهول.

● وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٩٦ رقم ٤١٨٠) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٠ رقم ٦١٠٤) من حديث عبدالغفور بن سعيد الأنصاري عن أبي هاشم الرماني عن زاذان، عن سلمان عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي وجاء يوم القيامة من الآمنين».

قال البيهقي: عبدالغفور هذا ضعيف. وروي بإسناد آخر أحسن من هذا. ثم ذكر طريق عبدالله بن المؤمل (٣/ ٤٩٧ رقم ٤١٨١).

وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢١٨) من طريق عبدالله بن المؤمل أيضاً.

وتعقبه السيوطي في اللآليء (٢/ ١٢٩) فقال: أفرط المؤلف في إيراد هذين الحديثين في الموضوعات. ثم قال: والذي أستخير الله فيه وأحكم لمتن الحديث بالحسن لكثرة شواهده ثم ذكر الطرق المذكورة، والتي لا تصل بالحديث إلى درجة الحسن لغيره فهو حديث ضعيف بجميع طرقه.

وانظر تنزيه الشريعة لابن عراق (٢/ ١٧٣) والكافي الشافِ لابن حجر رقم (٢٣١).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وعاصم برواية أبي بكر (حَجُّ البيت) بفتح الحاء (المبسوط) (ص١٤٦).

(٤) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٩٦٧ رقم ٢٨٩٧) وإسناده ضعيف لأن فيه «سويد بن سعيد» قال فيه الحافظ في التقريب: (١/ ٣٤٠) صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه، وأفحش فيه ابن معين القول.

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

رحمه الله تعالى إنها بالبدن فيجب على من قَدِر على المشي والكسب في الطريق. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى إنها بمجموع الأمرين[(١)]. والضمير في إليه للبيت أو الحج، وكل ما أتى إلى الشيء فهو سبيله. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وَضَعَ كَفَرَ موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، ولذلك قال عليه السلام «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»[(٢)]. وقد أُكِّدَ أمرُ الحج في هذه الآية من وجوه الدلالة على وجوبه بصيغة الخبر، وإبرازِه في الصورة الاسمية، وإيرادِه على وجهٍ يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أولاً ثم تخصيصِه ثانياً فإنه كإيضاح بعد إيهام وتثنية وتكرير للمراد، وتسميةِ ترك الحج كفراً من حيث إنه فِعْلُ الكفرة، وذكرِ الاستغناء فإنه في هذا الموضع مما يدل على المقت والخذْلان. وقولُه ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدل عليه لما فيه من مبالغة التعميم والدلالة على الاستغناء عنه بالبرهان والإشعار بعِظَمِ السُّخْط، لأنه تكليف شاق جامع بين كسر النفس وإتعاب البدن وصرف المال والتجرد عن الشهوات والإقبال على الله. روي أنه لما نزل صَدْرُ الآية جَمَعَ رسول الله ﷺ أرباب الملل فخطبهم وقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحُجُّوا». فآمنت به ملة واحدة وكفرت به خمسُ ملل، فنزل ومَنْ كَفَرَ[(٣)].

---

(١) ما ذهب إليه أبو حنيفة من تفسير الاستطاعة بمجموع الأمرين أي الاستطاعة البدنية والمالية هو الأوْلى.
وما وقع من بعض الأحاديث في بيان الاستطاعة بأنها الزاد والراحلة فإنه بيان لبعض شروط الاستطاعة، وتؤخذ بقية الشروط من أدلة أخرى. ولم يتعرض لصحة البدن لظهور الأمر. وعليه فتفسر الاستطاعة بعمومها.

(٢) أخرجه الترمذي (٣/١٧٦ رقم ٨١٢) من حديث علي.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال.
وهلال بن عبدالله مجهول، والحارث يُضعَّفُ في الحديث.
وقال ابن حجر في التقريب (٢/ ٣٢٤): عن هلال بن عبدالله هذا بأنه متروك.
وأخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٥٨٠) والعقيلي في الضعفاء (٤/٣٤٨) في ترجمة هلال، ونقلاً عن البخاري أنه منكر الحديث.
وقال ابن عدي: ليس الحديث بمحفوظ.
وله شاهد من حديث أبي أمامة:
أخرجه الدارمي (٢/٢٨) والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٣٠ رقم ٣٩٧٩) وفي السنن الكبرى (٤/ ٣٣٤) عنه مرفوعاً بلفظ «من لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً».
وفيه: شريك القاضي: صدوق يخطىء كثيراً، تغير حفظه منذ ولي القضاء. [التقريب (١/ ٣٥١)].
وليث بن أبي سليم: صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك. [التقريب (٢/١٣٨)].
وعبدالرحمن بن سابط الجمحي المكي: ثقة كثير الإرسال. [التقريب (١/ ٤٨٠)].
والخلاصة أن الحديث ضعيف. انظر «الكافي الشافِ» رقم (٢٣٦)، والموضوعات لابن الجوزي (٢/٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٢٠) من طريق جويبر عن الضحاك وهو معضل ـ لأن الضحاك بينه وبين النبي ﷺ واسطتان ـ وجويبر متروك الحديث ساقط. وانظر «الكافي الشافِ» رقم (٢٣٨).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

(٩٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بآياته السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدّعيه من وجوب الحج وغيره. وتخصيصُ أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، لأن معرفتهم بالآيات أقوى وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما. ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ والحال أنه شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها لا ينفعكم التحريف والاستسرار[١].

(٩٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ كرر الخطاب والاستفهام مبالغةً في التقريع ونفيِ العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مُستَقْبَح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب[٢]. وسبيلُ الله في دينه الحقُّ المأمور بسلوكه وهو الإسلام. قيل كانوا يَفتنون المؤمنين ويُحَرِّشون بينهم حتى أتوْا الأوس والخزرج فذكّروهم ما بينهم في الجاهلية من التعادي والتحارب ليعودوا لمثله ويحتالون لصدهم عنه. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ حال من الواو أي باغين طالبين لها اعوجاجاً بأن تُلْبِسوا على الناسِ وتوهموا أن فيه عوجاً عن الحق بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله ﷺ ونحوهما، أو بأن تحرِّشوا بين المؤمنين لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم. ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ إنها سبيل الله والصدُّ عنها ضلال وإضلال، أو أنتم عُدول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في القضايا. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم. ولما كان المُنكَرُ في الآية الأولى كُفرُهم وهم يجهرون به خَتَمَها بقوله ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ولما كان في هذه الآية صدُّهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يُخْفونه ويحتالون فيه قال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[٣] نزلت في نفر من الأوس والخزرج كانوا جلوساً يتحدثون، فمر بهم شاس بن قيس اليهودي فغاظه تألُّفهم واجتماعهم فأَمَرَ شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكِّرَهم يوم بُعاث ويُنْشِدَهم بعض ما قيل فيه، وكان الظَّفَر في ذلك اليوم للأوس، ففعل، فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاحَ السلاحَ، واجتمع مع القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابُه وقال «أتدعون الجاهلية وأنا بين أَظْهُرِكم

---

(١) قوله تعالى: «والله شهيد..» إظهار الجلالة في مع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب. وصيغة المبالغة في شهيد للتشديد في الوعيد (س٢/ ٦٣).

(٢) ولذلك لم يعطفه على سابقه.

(٣) تلوين الخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين تحذيراً لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم. إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعاً لهم عن ذلك.
وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم.. (س٢/ ٦٤).

بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألَّفَ بين قلوبكم» فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع رسول الله ﷺ[1]. وإنما خاطبهم الله بنفسه بعدما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ
جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا
وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ إنكار وتعجيبٌ لكفرهم في حال اجتمع لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر[2]. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه أو يلتجىء إليه في مجامع أموره. ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقد اهتدى لا مَحالة[3].

(١٠٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حق تقواه وما يجب منها، وهو استفراغُ الوُسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كقوله ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[4] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: هو أن يُطيع فلا يَعصي، ويَشكر فلا يَكفر، ويَذكُر فلا يَنسى، وقيل هو: أن تنزه الطاعةَ عن الالتفات إليها وعن توقع المجازاة عليها، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهلِ الكتاب. وأصل تقاة وُقْية، فقلبت واوها المضمومةُ تاء كما في تُؤَدَة وتخمة والياءُ ألِفاً[5]. ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدركَكم الموت، فإن النهي عن المُقيَّد بحالٍ أو غيرِها قد يَتوجّه بالذات نحو الفعلِ تارةً والقيدِ أخرى وقد يَتوجه نحو المجموع دونهما، وكذلك النفي.

(١٠٣) ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه لقوله عليه السلام: «القرآن حبل الله المتين»[6]. استعار له الحبل من حيث إن التمسك به سبب للنجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٧٨) ـ وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٤/ ٢٣) عن زيد بن أسلم وفي سنده ضعف.

(٢) عدم إسناد التلاوة إلى رسول الله ﷺ للإيذان باستقلال كل منهما في الباب (س٢/ ٦٥).

(٣) وصف الصراط بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبغونها عوجاً (س٢/ ٦٥).

(٤) التغابن: «١٦».

(٥) تكرير الخطاب بيا أيها الذين آمنوا تشريف إثر تشريف لنداءهم بوصف الإيمان (س٢/ ٦٥).

(٦) أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٢ رقم ٢٩٠٦) من حديث علي مطولاً وفيه قصة.
وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول. وفي الحارث مقال.
قلت: قوله وإسناده مجهول: لجهالة أبي المختار الطائي، وابن أخي الحارث الأعور [التقريب: (٢/ ٤٧٠، ٥٣٤)].

=

سبب للسلامة من التردي والوثوقِ به والاعتماد عليه الاعتصام ترشيحاً للمجاز. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين عليه ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب، أو لا تتفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الأُلفة. ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف وزوال الغِلّ. ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً﴾ في الجاهلية متقاتلين. ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام. ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله. وقيل كان الأوس والخزرج أخوين فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بينهم برسوله ﷺ. ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ مشفين على الوقوع في نار جهنم لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم في النار. ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام. والضمير للحفرة، أو للنار، أو للشّفا، وتأنيثه لتأنيث ما أُضيف إليه أو لأنه بمعنى الشَّفة فإن شفا البئر وشفتها طرفُها كالجانب والجانبة، وأصله شَفَوٌ فقلبت الواو ألفاً في المذكر وحذفت في المؤنث. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ دلائله. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى وازديادكم فيه.

= وأخرجه الدارمي (٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥) والبزار في مسنده (٣/ ٧١ رقم ٨٣٦) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٤٨٢).

كلهم من طرق عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث عن الحارث به.

وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى إلا عن علي، ولا نعلم رواه عن علي إلا الحارث.

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

وقال الحافظ في «الكافي الشافِ» (رقم ٢٤٥): «وله شاهد عن معاذ بن جبل، أخرجه الطبراني من رواية عمرو بن واقد، عن يونس بن ميسرة، وعن ابن إدريس بلفظ «ذكر رسول الله ﷺ الفتن فشدّدها. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما المخرج منها؟ قال: كتاب الله ـ فذكر الحديث بطوله ـ».

قلت: فيه عمرو بن واقد الدمشقي مولى قريش متروك [التقريب: (٢/ ١٨)].

وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٥) من حديث ابن مسعود مرفوعاً أيضاً بلفظ: «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.

اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول (آلم) حرف ولكن ألف ولام وميم».

قال الحاكم: «هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر» وقال الذهبي: «صالح ثقة خرج له مسلم. لكن إبراهيم بن مسلم ضعيف».

قلت: هنا متابعان لإبراهيم في رفعه، لكن ليس فيه قوله: القرآن حبل الله....

(الأول): عطاء بن السائب عن أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعاً، عند الخطيب في تاريخه (١/ ٢٨٥).

(الثاني): عاصم بن أبي النجود عن أبي الأحوص عنه، عند الحاكم (١/ ٥٦٦) كلاهما بلفظ: اقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول (آلم) حرف ولكن (ألف) عشر و(لام) عشر و(ميم) عشر».

وحسن المحدث الألباني هذا القدر لمتابعة أحدهما للآخر.

انظر الصحيحة رقم (٦٦٠).

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾

(١٠٤) ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ مِنْ للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يَصْلُحُ له كل أحد إذ للمتصدي له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها. خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً ولكن يسقط بفعلِ بعضهم، وهكذا كل ما هو فرض كفاية. أو للتبيين بمعنى وكونوا أمة يَدْعون وقوله تعالى ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾[(١)]. والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، وعطفُ الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر عليه عطفُ الخاص على العام للإيذان بفضله[(٢)]. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ المخصوصون بكمال الفلاح. روي أنه عليه السلام سئل من خير الناس فقال «آمَرُهُم بالمعروف وأَنهاهُم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلُهم للرحم»[(٣)]. والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يُؤمَر به، والنهي عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. والأظهر أن العاصي يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركُه وإنكارُه فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر.

(١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ﴾ كاليهود والنصارى اختلفوا في التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة على ما عرفت. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه. والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع لقوله عليه السلام «اختلاف أمتي رحمة»[(٤)]. ولقوله عليه الصلاة والسلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد»[(٥)].

---

(١) آل عمران: «١١٠».

(٢) حذف المفعول من الأفعال الثلاثة: يدعون ويأمرون وينهوْن إما للإيذان بظهوره أي يدعون الناس ويأمرونهم وينهونهم، أو للقصد إلى إيجاد نفس الفعل كما في قولك فلان يعطي ويمنع (س٢/ ٦٨).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٣٢) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٥٧ رقم ٦٥٧) كلاهما من رواية سماك عن عبدالله بن عميرة، عن زوج درة، عن درة به.
وأورده الهيثمي في «المجمع» وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات».

(٤) لا أصل له. بل باطل سنداً ومعنى. وقد نقل العلامة المناوي في فيض القدير (١/ ٢١٢) عن السبكي أنه قال: «وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع» هـ.
وانظر تذكرة الموضوعات للفتني ص٩٠، والمقاصد الحسنة للسخاوي ص٦٩ وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/ ٧٦ رقم ٥٧) وغيرها.

(٥) أخرجه البخاري (١٣/ ٣١٨ رقم ٧٣٥٢) ومسلم (٣/ ١٣٤٢ رقم ١٧١٦) وأبو داود (٤/ ٧ رقم ٣٥٧٤) وابن ماجة (٢/ ٧٧٦ رقم ٢٣١٤).
من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».
=

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ وعيد للذين تفرقوا وتهديد على التشبه بهم.

يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ نصب بما في لهم من معنى الفعل، أو بإضمار اذكر. وبياضُ الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه[1]. وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ على إرادة القول أي فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، وهم المرتدون أو أهل الكتاب كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه، أو جميعُ الكفار كفروا بعدما أقروا به حين أشهدهم على أنفسهم أو تمكنوا من الإيمان بالنظر في الدلائل والآيات[2]. ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أمر إهانة. ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو جزاء لكفركم[3].

(١٠٧) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾ يعني الجنة والثواب المخلد، عَبّر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، وكان حقُّ الترتيب أن يُقدَّمَ ذكرهم لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حليةَ المؤمنين وثوابَهم. ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أخرجه مخرج الاستئناف للتأكيد كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال هم فيها خالدون.

(١٠٨) ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردة في وعده ووعيده ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها[4]. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ إذ يستحيل الظلم منه لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق كما قال[5].

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فيجازي كلاً بما وعد له

= وأخرج الترمذي (٣/ ٦١٥ رقم ١٣٢٦) والنسائي (٨/ ٢٢٣ رقم ٥٣٨١) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ، فله أجرٌ واحد».
قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقد صححه الألباني في الإرواء (٨/ ٢٢٣ رقم ٢٥٩٨).

(١) والأولى حمل بياض الوجه وسواده على الظاهر، إذ لا يوجد ما يمنعه.

(٢) قدم قوله «وأما الذين اسودت وجوههم» لأن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم (س٢/ ٦٩).

(٣) جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل «بما كنتم تكفرون» للدلالة على استمرار كفرهم، أو على مضيه في الدنيا (س٢/ ٦٩).

(٤) والالتفات في «نتلوها» لإبراز كمال العناية بالتلاوة (س٢/ ٧٠).

(٥) قوله «وما الله يريد ظلماً للعالمين» تذييلٌ مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وآكده، فإن تنكيرَ الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارع وتعليقَ الحكم بآحاد الجمع المعرف والالتفاتَ إلى الاسم الجليل للإشعارِ بعلة الحكم بيانٌ لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه (س٢/ ٧٠). =

وأوعد[1].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

(١١٠) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ دل على خيريتهم فيما مضى ولم يدل على انقطاع طَرَأَ كقوله تعالى ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ وقيل كنتم في علم الله أو في اللوح المحفوظ أو فيما بين الأمم المتقدمين. ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أظهرت لهم. ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ استئناف بَيَّن به كونَهم خير أمة، أو خبر ثان لكنتم. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، لأن الإيمان به إنما يحق ويُعتدّ به إذا حصل الإيمان بكل ما أُمِرَ أن يؤمن به. وإنما أخره وحقه أن يُقدَّم لأنه قصَدَ بذكْرِه الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيماناً بالله وتصديقاً به وإظهاراً لدينه. واستُدِل بهذه الآية على إن الإجماع حجة لأنها تقتضي كونَهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، إذ اللام فيهما للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك. ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إيماناً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه. ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر، وهذه الجملة والتي بعدها واردتان على سبيل الاستطراد.

(١١١) ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ ضرراً يسيراً كطَعْنٍ وتهديد. ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ ينهزموا ولا يضروكم بقتل وأسر. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم، نفى إضرارَهم سوى ما يكون بقول وقرَّرَ ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدُّبُرةُ عليهم، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان. وقرىء لا يُنْصَرُوا عطفاً على يولّوا على أن ثم للتراخي في الرتبة فيكون عدم النصر مقيداً بقتالهم. وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع إذ كان ذلك حال قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ هدر النفس والمال والأهل، أو ذل التمسك بالباطل والجزية. ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ استثناء من أعم عام الأحوال، أي ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا معتصمين أو ملتبسين بذمة الله أو كتابه الذي آتاهم وذمة المسلمين أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين. ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ رجعوا به مستوجبين له ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

(١) إيراد كلمة «ما» إما لتغليب غير العقلاء على العقلاء أو لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهاراً لحقارتهم في مقام بيان عظمته تعالى (س٢/ ٧٠).

﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، واليهود في غالب الأمر فقراء ومساكين. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبَوْء بالغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء. والتقييدُ بغير حق مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً[1]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الكفر والقتل. ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر والاستمرارُ عليها يؤدي إلى الكفر. وقيل معناه أن ضرب الذلة في الدنيا واستيجاب الغضب في الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث إنهم مخاطبون بالفروع أيضاً.

۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾

(١١٣) ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ في المساوي، والضمير لأهل الكتاب. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ استئناف لبيان نفي الاستواء[2]، والقائمة المستقيمة العادلة من أقمت العود فقام وهم الذين أسلموا منهم. ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يتلون القرآن في تهجدهم. عبر عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح. وقيل المراد صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روي أنه عليه الصلاة والسلام آخرها ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيرُكم»[3].

(١١٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

---

(١) إسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به، كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم (س٢/٧٢).

(٢) وضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين، والإيذان بأن تلك الأمة ممن أوتي نصيباً وافراً من الكتاب (س٢/٧٣).

(٣) وهو حديث حسن.
أخرجه أحمد (١/٣٩٦) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٧/٢٥) ـ وابن حبان (رقم: ٢٧٤ ـ موارد)، والبزار في كشف الأستار (١/١٩٠ ـ ١٩١) من حديث ابن مسعود.
وأورده الهيثمي في المجمع (١/٣١٢) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الكبير.
● وله شاهد من حديث عائشة، أخرجه البخاري (٢/٤٧ رقم ٥٦٦) و(٢/٤٩ رقم ٥٦٩) و(٢/٣٤٩ رقم ٨٦٢) و(٢/٣٤٧ رقم ٨٦٤).
ومسلم (١/٤٤١ رقم ٢١٨/٦٣٨) بلفظ «ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم وذلك قبل أن يفشو الإسلام في الناس».
● وشاهد آخر من حديث ابن عمر، أخرجه البخاري (٢/٥٠ رقم ٥٧٠) ومسلم (١/٤٤٢ رقم ٢٢٠/٦٣٩) وأبو داود (١/١٣٧ رقم ١٩٩) نحوه.

صفات أخر لأمة، وَصَفَهم بخصائصَ ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين في الليل مشركون بالله ملحدون في صفاته واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته مداهنون في الاحتساب متباطئون عن الخيرات [١].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناءه.

وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾

(١١٥) ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾ فلن يَضيع ولا ينقص ثوابُه البتة. سمّي ذلك كفراناً كما سمي توفية الثواب شكراً، وتعديته إلى مفعولين لتضمنه معنى الحرمان. وقرأ حفص وحمزة والكسائي وما يفعلوا من خير فلن يكفروه بالياء والباقون بالتاء. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى [٢].

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ من العذاب، أو من الغَناء فيكون مصدراً. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ﴾ ملازموها. ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(١١٧) ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرةُ قربةً أو مفاخرة وسمعة، أو المنافقون رياء أو خوفاً. ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد، والشائع إطلاقه للريح الباردة كالصرصر، فهو في الأصل مصدر نُعِتَ بِهِ أو نَعْتٌ وُصِف به البرد للمبالغة كقولك برد بارد. ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ عقوبة لهم لأن الإهلاك عن سخط أشد، والمراد تشبيه ما أنفقُوا في ضياعه بحرْثٍ كفار ضربته صِرّ فاستأصلته ولم يبقَ لهم فيه منفعة ما في الدنيا والآخرة، وهو من التشبيه المركّب ولذلك لم يبالِ بإيلاء كلمة التشبيه للريح دون الحرث، ويجوز أن يقدرَ كمَثَل مَهْلِك ريح وهو الحرث. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي ما ظَلَمَ المنفقين بضَياع نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم لما لم ينفقوها بحيث يعتدّ بها، أو ما ظُلِمَ أصحابُ الحرث بإهلاكه ولكنهم ظَلَموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به........

---

(١) قوله «يسارعون في الخيرات» فقال في الخيرات ولم يقل إلى الخيرات كما وقع في قوله تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» ـ آل عمران «» ـ للإيذان بأنهم مستقرون في أصل الخير متقلبون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل، لا أنهم خارجون عنها منتهون إليها.

«وأولئك من الصالحين» آثر اسم الإشارة على الضمير للإشعار بعلة الحكم والمدح (س٢/ ٧٤).

(٢) قوله «فلن يُكفَرُوه» إيثار صيغة البناء للمفعول للجري على سنن الكبرياء (س٢/ ٧٤).

العقوبة[١]. وقرىء ولكنّ أي ولكنّ أنفسَهم يظلمونها، ولا يجوز أن يُقدَّر ضميرُ الشأن لأنه لا يحذف إلا في ضرورة الشعر كقوله:

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَهُ ... وَلَكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَكِ يَعْشَقِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

(١١٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يُعَرِّفُه الرجل أَسراره ثقة به، شُبه ببطانة الثوب كما شُبِّه بالشِّعار قال عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شِعار والناس دثار»[٢]. ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من دون المسلمين، وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف هو صفةُ بِطانة أي بطانة كائنة من دونكم. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد، والألْوُ التقصير وأصله أن يُعدى بالحرف وعدي إلى مفعولين كقولهم: لا آلوك نصحاً على تضمين معنى المنع أو النقص. ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنوْا عنتكم، وهو شدة الضرر والمشقة وما مصدرية. ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي في كلامهم لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفَرْط بغضهم. ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما بدا لأن بُدُوَّه ليس عن رُوِيّة واختيار. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بُيِّن لكم. والجمل الأربع جاءت مستأنفات على التعليل، ويجوز أن تكون الثلاث الأول صفات لبِطانة.

(١١٩) ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة الكفار وتحبونهم ولا يحبونكم، بيان لخطئهم في موالاتهم وهو خبر ثان أو خبر لأولاء، والجملة خبر لأنتم كقولك: أنت زيد تحبه، أو صلته، أو حال والعامل فيها معنى الإشارة، ويجوز أن يُنصبَ أولاء بفعل مضمر يفسره ما بعده وتكون الجملة خبراً. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ بجنس الكتاب كله، وهو حال مِنْ لا يحبونكم والمعنى: إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضاً فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نفاقاً وتغريراً ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفي

---

(١) قوله «ولكن أنفسهم يظلمون» قال أبو السعود: (وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص، إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول... وصيغة المضارع للتجدد والاستمرار) (س٢/٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨/٤٧ رقم ٤٣٣٠) ومسلم (٢/٧٣٨ رقم ١٣٩/١٠٦١) وأحمد (٤/٤٢) من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم في أثناء حديث طويل.

● وأخرجه أحمد عن أبي هريرة (٢/٤١٩) وعن أبي قتادة (٥/٣٠٧) بلفظ: «الناس دثاري والأنصار شعاري».

سبيلاً. ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله حتى يهلِكوا به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيعلم ما في صدورهم من البغضاء والحنَق، وهو يحتمل أن يكون من المقول أي وقل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تُخفونه من عض الأنامل غيظاً، وأن يكون خارجاً عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطْلاعي إياك على أسرارهم فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

(١٢٠) ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حدٍّ حَسَدوا ما نالهم من خير ومنفعة. وشمِتوا بما أصابهم من ضر وشدة، والمسّ مستعار للإصابة[١] ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على عداوتهم، أو على مشاق التكاليف. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ موالاتهم، أو ما حرم الله جل جلاله عليكم. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ بفضل الله عز وجل وحفظِه الموعودِ للصابرين والمتقين ولأن المجِدَّ في الأمر المتدرِّبَ بالاتقاء والصبر يكون قليلَ الانفعال جرياً على الخصم، وضَمَّة الراء للاتباع كضَمَّةِ مُدّ. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب لا يَضِرْكُم من ضارَه يضيرُه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما. ﴿مُحِيطٌ﴾ أي محيط عِلْمُه فيجازيَكم مما أنتم أهله[٢]. وقرىء بالياء أي: بما يعملون في عداوتكم عليم فيعاقبهم عليه.

(١٢١) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أي واذكر إذ غدوت[٣]. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من حجرة عائشة رضي الله عنها. ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تُنَزِّلُهم، أو تسوي وتهيىء لهم ويؤيده القراءة باللام[٤]. ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواقف وأماكن له، وقد يستعمل المَقْعَد والمقام بمعنى المكان على الاتساع كقوله تعالى ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾[٥] وقوله تعالى ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[٦]. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم[٧]. روي أن المشركين نزلوا بأُحُدٍ يوم الأربعاء ـ ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ـ فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه، وقد دعا عبدالله بن أبيّ بن سلول ولم يَدْعُه قبلُ. فقال هو وأكثر الأنصار:

---

(١) أو للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة (س٢/ ٧٧).

(٢) وهذا المعنى الذي ذكره على قراءة من قرأ «بما تعملون».

(٣) أي حين غدوت. وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها (س٢/ ٧٧).

(٤) أي «تبوىء للمؤمنين».

(٥) القمر: «٥٥».

(٦) النمل: «٣٩».

(٧) وعبر عن خروجه عليه السلام بالغدو مع أن خروجه كان بعد صلاة الجمعة ـ والغدو هو الخروج غدوة ـ لأن المقصود بتذكير الوقت هو تذكير مخالفتهم لأمر النبي عليه السلام (س٢/ ٧٨).

أَقِمْ يا رسول الله بالمدينة ولا تَخْرُج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا؟ فَدَعْهم فإن أقاموا أقاموا بِشَرِّ مَحْبَس، وإن دخلوا قاتلهم الرجالُ ورماهم النساءُ والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار بعضهم إلى الخروج فقال عليه الصلاة والسلام: «رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي فأوّلتُها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثَلْماً فأوّلتُه هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتها المدينة. فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعُوهم». فقال رجال فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا إلى أعدائنا، وبالَغُوا حتى دخل ولبِسَ لأمَتَه. فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغَتِهم وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت. فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعَها حتى يقاتل». فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بِشِعْب أُحُد يوم السبت، ونزل في عُدْوَة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد وسوّى صفهم، وأمَّر عبدالله بن جبير على الرماة وقال: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا»[١].

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

(١٢٢) ﴿إِذْ هَمَّت﴾ متعلق بقوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أو بدل من إذ غدوت. ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس وكانا جناحَيْ العسكر. ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أن تجبُنا وتضعفا. روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج في زَهاء ألف رجل ووَعَد لهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخذل ابن أبيّ في ثلاثمائة رجل وقال: علام نَقْتُلُ أنفسَنا وأولادَنا، فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري[٢] وقال: أُنشِدُكم اللهَ والإسلام في نبيكم وأنفسكم. فقال: ابن أبيّ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهَمَّ الحيانِ باتباعه فعصمهم اللهُ فمضوْا مع رسول الله ﷺ: والظاهر أنها ما كانت عزيمة لقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي عاصمُهما من اتباع تلك الخَطْرة، ويجوز أن يراد والله ناصرُهما فما لهما يفشلان ولا يتوكلان على الله! ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره لينصرهم كما نصرهم ببدر[٣].

(١٢٣) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل. وبَدْرٌ ماءٌ بين مكة والمدينة كان

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٧٠ ـ ٧١) من طريق ابن إسحاق.
وأخرجه الطبري أيضاً (٣/ج٤/ ٧٣) من رواية أسباط عن السدي.
وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥/ ٣٦٣ ـ ٣٦٥) عن معمر عن الزهري عن عروة.

(٢) عمرو بن حزم الأنصاري: هو عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري. يكنى أبا الضحاك، شهد الخندق وما بعدها، واستعمله النبي ﷺ على نجران. قال أبو نعيم مات في خلافة عمر وقيل غير ذلك ـ الإصابة (٢/ ٥٣٢) ـ وقال ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (٢/ ٥١٧): ... لم يشهد بدراً فيما يقولون وأول مشاهده الخندق. قلت: والصواب أن الذي تبع المنافقين: عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري كما سيأتي.

(٣) إظهار الاسم الجليل «وعلى الله» للتبرك والتعليل فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته (س٢/ ٧٩).

لرجل يُسمى بدراً فسمي به. ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ حال من الضمير، وإنما قال أذلة ولم يقل ذلائل تنبيهاً على قِلّتهم مع ذلتهم لضَعْف الحال وقلة المراكب والسلاح. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الثبات[١]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصره، أو لعلكم يُنْعِم الله عليكم فتشكرون، فَوَضَع الشكر موضع الإنعام لأنه سببه.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

(١٢٤) ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصَركم. وقيل بدل ثانٍ من إذ غدوت على أنّ قوله لهم يوم أحد وكان مع اشتراط الصبر والتقوى عن المخالفة، فلما لم يصبروا عن الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ لم تنزل الملائكة[٢] ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ إنكارٌ أنْ لا يكفيَهم ذلك وإنما جيء بلَنْ إشعاراً بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضَعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم. قيل أمدهم الله يوم بدر أولاً بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف. وقرأ ابن عامر مُنَزَّلين بالتشديد للتكثير أو للتدريج.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد لن، أي بلى يكفيكم. ثم وَعَدَ لهم الزيادة على الصبر والتقوى حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم﴾ أي المشركون. ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ من ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدرٌ من فارت القِدْرُ إذ غلت، فاستعير للسرعة ثم أطلق للحال التي لا رَيْث فيها ولا تراخي، والمعنى إن يأتوكم في الحال. ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حال إتيانهم بلا تراخ ولا تأخير. ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ مُعَلِّمين من التسويم الذي هو إظهارُ سِيمَا الشيء لقوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «تسوَّمُوا فإن الملائكة قد تسوَّمَت»[٣]، أو مُرْسَلين من التسويم بمعنى الأسامة[٤].

---

(١) اقتصر على الأمر بالتقوى مع كونه مشفوعاً بالصبر فيما سبق وما لحق للإشعار بأصالته وكون الصبر من مباديه اللازمة له، ولذلك قدم عليه في الذكر.
وفي ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم (س٢/ ٧٩).

(٢) وتخصيصه عليه السلام لتشريفه والإيذان بأن وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام وصيغة المضارع «تقول» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها (س٢/ ٨٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٨٢) عن يعقوب عن ابن عليه عن ابن عوف عن عمير بن إسحاق قال: «إن أول ما كان الصوف ليومئذٍ، يعني يوم بدر، قال رسول الله ﷺ. فذكره.
وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٢٦١).
والخلاصة أنه مرسل ضعيف.
● تسوموا: أي اعملوا لها علامة يعرف بها بعضكم بعضاً.
[النهاية: ٢/ ٤٣٩].

(٤) وهذا المعنى على قراءة من قرأ «مسوَّمين» بفتح الواو.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر الواو.

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ
طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ
فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة. ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر[(١)]. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ ولتسكن إليه من الخوف. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من العِدَّة والعُدَدِ، وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم إلى مَدَدٍ وإنما أمدهم ووعد لهم به إشارة لهم وربطاً على قلوبهم، من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر وحثاً على أن لا يُبالوا بمن تأخر عنهم. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغالَب في أقضيته. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يَنصُر ويَخْذُل بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة.

(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ متعلق بنصركم، أو وما النصر إن كان اللام فيه للعهد، والمعنى ليُنْقِص منهم بقتلِ بعضٍ وأَسْر آخرين، وهو ما كان يوم بدر من قتْل سبعين وأسْر سبعين من صناديدهم. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يخزيهم، والكبت شدة الغيظ، أو وَهَنٌ يقع في القلب، وأو للتنويع دون الترديد ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ فينهزموا منقطعي الآمال.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اعتراض[(٢)]. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطف على قوله أو يكبتَهم، والمعنى أن الله مالكُ أمرِهم فإما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوبَ عليهم إن أسلموا أو يعذبَهم إن أصروا وليس لك من أمرهم شيء وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم. ويحتمل أن يكون معطوفاً على الأمر أو شيءٌ بإضمار أنْ، أي ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبةُ عليهم أو تعذيبُهم. وأنْ تكون أوْ بمعنى إلاّ أنْ، أي ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتُسَرَّ به أو يعذبَهم فتتشفَّى منهم. روي أن عتبة بن أبي وقاص شجَّه يوم أُحُد وكَسَر رُباعيَته، فجعل يمسحُ الدم عن وجهه ويقول: «كيف يفلحُ قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم»؟ فنزلت[(٣)]. وقيل هَمَّ أن يدعوَ عليهم فنهاه الله لعلمه بأن فيهم من يؤمن.

---

(١) وهو تلوين للخطاب لتشريف المؤمنين وللإيذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة وأن رسول الله ﷺ غنيّ عنه بمالَه من التأييد الروحاني (س٢/ ٨١).

(٢) وتخصيص النفي به عليه السلام للدلالة على الانتفاء من غيره بطريق أوْلى (س٢/ ٨٢).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٨٨) عن معمر عن قتادة ومن طريق معمر أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٤٥) عن محمد بن حُميد العبدي عن معمر به ولفظهما: «كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم».

● والحديث أخرجه البخاري (٦/ ٩٣ رقم ٢٩٠٣) و(٧/ ٣٧٢ رقم ٤٠٧٥) و(١٠/ ١٧٣ رقم ٥٧٢٢) ومسلم (٣/ ١٤١٦ رقم ١٠١/ ١٧٩٠) كلاهما من رواية أبي حازم عن سهل بن سعد وليس فيه ذكر من أصابه أو شجه. =

﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم.

= ● وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٥٥): «وسيأتي ـ رقم ٢٦٤ ـ أن الذي شجه عبدالله بن قمئة.

وقال الواقدي: المثبت عندنا أن الذي رمى وجه النبي ﷺ عبدالله بن قمئة. والذي رمى شفته وأصاب رباعيته، عتبة بن أبي وقاص. وفي السيرة لابن هشام ـ (٣/ ١١٥) تعليقاً من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذٍ فكسر رباعيته اليمنى السفلى. وجرح شفته السفلى، وأن عبدالله بن شهاب شجه في وجهه، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر، فأخذ عليّ بيده ورفعه طلحة حتى استوى قائماً، ومصّ مالك بن سنان أبو أبي سعد الدم عن وجه النبي ﷺ ثم ازدروه. فقال النبي ﷺ: «من مسّ دمه دمي لم تصبه النار».

● وأخرج الطبراني في الكبير (٨/ ١٥٤ رقم ٧٥٩٦) من حديث أبي أمامة، أن عبدالله بن قمئة رمي رسول الله ﷺ فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال خذها وأنا ابن قمئة، فقال له رسول الله ﷺ: مالك أقمأك الله، فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة.

وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٧) وقال: فيه: حفص بن عمر العدني وهو ضعيف.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١٣٦) عن الزهري وغيره أن الذي أصاب النبي ﷺ عتبة، وأما عبدالله بن قمئة فأصاب مصعب بن عمير فقتله وظن أنه قتل محمداً ﷺ، وصاح أن محمداً قد قتل، فحصل ما حصل بهذه الإشاعة.

● وأخرج الطبري في تاريخه (٢/ ٥٧٧) عن السدي قال: أتى ابن قمئة الحارثي فرمى رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه وشجه في رأسه فأثقله، وتفرق عنه أصحابه... الحديث.

ويمكن الجمع بينهما أن الاثنين اشتركا في مجموع الفعل فنقل كل راوٍ ما رأى.

● وأما سبب النزول:

● فقد أخرج مسلم (٣/ ١٤١٧ رقم ١٠٤/ ١٧٩١) من حديث أنس أنها نزلت بسبب قوله ﷺ في غزوة أحد: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته».

وأخرج البخاري (٧/ ٣٦٥ رقم ٤٠٦٩) و(٨/ ٢٢٥ رقم ٤٥٥٩) من حديث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً وفلاناً، فأنزل الله «ليس لك من الأمر شيء».

وأورد البخاري تسميتهم في صحيحه (٧/ ٣٦٥ رقم ٤٠٧٠) عن سالم بن عبدالله مرسلاً، ووصله أحمد في مسنده (٢/ ٩٣).

● وأخرج البخاري (٨/ ٢٢٦ رقم ٤٥٦٠) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر «اللهم العن فلاناً وفلاناً ـ لأحياء من العرب ـ حتى أنزل الله «ليس لك من الأمر شيء».

وفي رواية مسلم (١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧ رقم ٢٩٤/ ٦٧٥): «اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية» ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل «ليس لك من الأمر شيء».

وقال الحافظ في فتح الباري (٧/ ٣٦٥) توفيقاً بين هذه الأحاديث في سبب نزول هذه الآية: «يحتمل أن تكون نزلت في الأمرين جميعاً، فإنهما كانا في قصة واحدة».

والمقصود بالأمرين قصة شج النبي ﷺ ودعاءه على فلان وفلان.

وانظر الفتح (٧/ ٣٦٦) و(٨/ ٢٢٧) فقد أجاد وأفاد...

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ
أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً فله الأمر كله لا لك. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ صريح في نفي وجوب التعذيب، والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافي له[1]. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعباده فلا تبادر إلى الدعاء عليهم.

(١٣٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ لا تزيدوا زيادات مكررة. ولعل التخصيص بحسب الواقع، إذ كان الرجل منهم يُرْبي إلى أجل ثم يزيد فيه زيادة أخرى حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون[2]. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب مُضَعَّفَة. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما نهيتم عنه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين الفلاح.

(١٣١) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم، وفيه تنبيه على أن النار بالذات مُعَدّة للكافرين وبالعَرَض للعصاة.

(١٣٢) ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أتبع الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة، ولعل وعسى في أمثال ذلك دليلُ عزة التوصل إلى ما جُعل خبراً له.

(١٣٣) ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟﴾ بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة كالإسلام والتوبة والإخلاص. وقرأ نافع وابن عامر سارعوا بلا واو. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي عرضُها كعرضهما، وذكر العَرْض للمبالغة في وصفها بالسَّعة على طريقة التمثيل لأنه دون الطول، وعن ابن عباس كسبع سموات وسبع أرضين لو وُصل بعضها ببعض[3]. ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة وأنها خارجة عن هذا العالم.

(١٣٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، أو مدح منصوب أو مرفوع. ﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أو الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، أي لا يَخْلُون في حالٍ ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير. ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الممسكين عليه الكافِّين عن إمضائه

---

(١) قوله «يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» آثر كلمة مِنْ في الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء.. وتقديم المغفرة على التعذيب للإيذان بسبق رحمته تعالى غضبه (س٢/ ٨٤).

(٢) المراد بأكل الربا أخذه ولكن عُبر عنه بالأكل لأنه معظم ما يقصد بالأخذ، ولشيوعه في المأكولات.. (س٢/ ٨٤).

(٣) قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية (س٢/ ٨٥).

مع القدرة، مِنْ كظمت القُربة إذا ملأتها وشددت رأسها[١] . وعن النبي ﷺ «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»[٢] . ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته، وعن النبي عليه الصلاة والسلام «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت»[٣] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس ويدخل تحته هؤلاء، والعهد فتكون الإشارة إليهم.

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١٣٥) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ فِعلة بالغة في القبح كالزنى. ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أذنبوا أي

(١) قوله «والكاظمين» عدل إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار، أما الإنفاق فحيث كان أمراً متجدداً عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد (س٢/ ٨٥).

(٢) أخرج أبو داود (٥/ ١٣٧ رقم ٤٧٧٧) والترمذي (٤/ ٣٧٢ رقم ٢٠٢١) وابن ماجة (٢/ ١٤٠٠ رقم ٤١٨٦) عن سهل بن معاذ عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفِذَه دعاهُ الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيِّرهُ الله من الحور العين ما يشاء».
قال أبو داود: اسم أبي مرحوم عبدالرحمٰن بن ميمون.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
وقال المنذري (٧/ ١٦٤) وسهل بن معاذ بن أنس الجهني: ضعيف.
والذي روى عنه هذا الحديث: أبو مرحوم عبدالرحيم بن ميمون الليثي، مولاهم المصري، ولا يحتج بحديثه».
وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٥١٨/ ٢٢٢٩) وصحيح ابن ماجة وغيرهما.
● وأخرج أبو داود (٥/ ١٣٨ رقم ٤٧٧٨) عن رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: نحوه، قال: «ملأه الله أمناً وإيماناً».
قال المنذري (٧/ ١٦٤): فيه رواية مجهول.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٨٣٤/ ٩٦٨) وضعيف أبي داود.
● وأخرج العقيلي في الضعفاء (٣/ ١٠٣) والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٢٣) والطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاده ملأه الله أمناً وإيماناً».
قال العقيلي: وقد رُوِي من غير هذا الطريق بأسانيد صالحة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٢٥٧): وعبدالجليل مجهول.
● وأخرج أحمد في المسند (١/ ٣٢٧) من حديث ابن عباس بلفظ: «.... وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبدالله إلا ملأ الله جوفه إيماناً».
وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٤١٤) وقال: «انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتنه حسن» هـ.
والخلاصة أن حديث أبي هريرة حسن لغيره والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٣١٦) ـ.

ذنب كان. وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، ولعل الفاحشة ما يتعدّى وظلم النفس ما ليس كذلك. ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ تذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم. ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالندم والتوبة[(١)]. ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي معترض بين المعطوفين، والمراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين لقوله ﷺ «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[(٢)]. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من يصروا أي ولم يصروا على قبيح فعلهم عالمين به.

أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

(١٣٦) ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خبر للذين إنْ ابتدأت به، وجملة مستأنفة مبينة لما قبلها إن عطفتَه على المتقين أو على الذين ينفقون. ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم إن لا يدخلَها المصِرُّون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرُهم. وتنكير جنات على الأول يدل على أن ما لهم أدْوَن مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة، وكفاك فارقاً بين القبيلين أنه فَصَّل آيتهم بأن بيَّن أنهم محسنون مستوجبون لمحبة الله، وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع وتخطوا إلى التخصص بمكارمه. وفصَّل آية هؤلاء بقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ لأن المتدارِك لتقصيره كالعامِل لتحصيل بعض ما فوّت على نفسه، وكم بين المحسن والمتدارِك والمحبوب والأجير، ولعل تبديل لفظ الجزاء بالأجْر لهذه النكتة، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك يعني المغفَرة والجنات.

---

(١) قدم الاستغفار على عدم الإصرار مع أن الواقع خلافه لبيان العناية بشأن الاستغفار (س٢/٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/١٧٧ رقم ١٥١٤) والترمذي (٥/٥٥٨ رقم ٣٥٥٩) والطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٩٨) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٨٨) والبزار في مسنده (رقم: ٩٣) وأبو يعلى في مسنده (١/ ١٢٤، ١٢٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث أبي نُصيرة، وليس إسناده بالقوي.

وقال البزار: رأيت في هذا الإسناد رجلين مجهولين، فتركت ذكر هذا الحديث.

قلت: الرجلان المجهولان هما: أبو رجاء مولى أبي بكر الصديق [التقريب: ٢/ ٤٢١] وأبو نصيرة مسلم بن عبيد [تهذيب التهذيب: ١٢/ ٢٨١].

وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٦١) «له شاهد أخرجه الطبراني في الدعاء ـ (٣/١٦٠٨ رقم ١٧٩٧) ـ من حديث ابن عباس» اهـ. وقال محقق كتاب الدعاء الدكتور محمد سعيد البخاري: «وفي إسناده: أبو شيبة، وهو سعيد بن عبدالرحمن الأسدي، وهو مقبول. وبقية رجاله ثقات» هـ.

وحكم المحدث الألباني على حديث أبي بكر بالضعف في ضعيف أبي داود، وضعيف الترمذي وضعيف الجامع (٥/ ٨٢ رقم ٥٠٠٦).

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

(١٣٧) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وقائع سنها الله في الأمم المكذبة كقوله تعالى ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾[(١)] وقيل أمم قال:

ما عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِكُمُو ... ولاَ رَأَوْا مِثْلَهُ فِي سَالِفِ السُّنَنِ

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم.

(١٣٨) ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى قوله قد خلت، أو مفهوم قوله فانظروا أي أنه مع كونه بياناً للمكذبين فهو زيادة بصيرة وموعظة للمتقين، أو إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين، وقوله قد خلت جملة معترضة للحث على الإيمان والتوبة وقيل إلى القرآن.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد، والمعنى لا تَضْعُفوا عن الجهاد بما أصابكم ولا تحزنوا على من قتل منكم. ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم شأناً، فإنكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم في الجنة وإنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم في النار، أو لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم، أو وأنتم الأعلون في العاقبة فيكون بشارةً لهم بالنصر والغلبة. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهي أي لا تهنوا إن صح إيمانكم، فإنه يقتضي قوة القلب بالوثوق على الله أو بالأعلون.

(١٤٠) ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم بضم القاف، والباقون بالفتح وهما لغتان كالضَّعف والضُّعف. وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألَمُها، والمعنى إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثلَه، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون. وقيل كِلا المَسَّيْن كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نصرفها بينهم تدليل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقوله:

فَيَوْماً عَلَيْنَا وَيَوْماً لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

والمداولة كالمعاودة يقال داولت الشيء بينهم فتداولوه، والأيامُ تحتمل الوصف والخبر ونداولها يحتمل الخبر والحال والمراد بها: أوقات النصر والغلبة[(٢)]. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عطف على علة

---

(١) الأحزاب: «٦١ ـ ٦٢».

(٢) «نداولها» عبر بصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأنها سنة مسلوكة في جميع الأمم (س٢/٨٩).

محذوفة أي نداولها ليكون كيْت وكيْت وليعلم الله إيذاناً بأن العلة فيه غير واحدة وأن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يُعْلَم، أو الفعلُ المعلَّل به محذوف تقديره وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حَرْفٍ فَعَلْنا ذلك، والقصدُ في أمثاله ونقائضه ليس إلى إثباتُ علمه تعالى ونفيُه بل إلى إثبات المعلوم ونفيه على طريق البرهان. وقيل معناه ليَعْلَمَهم علماً يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشيء موجوداً. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة يريدُ شهداءَ أُحُد، أو يتخذ منكم شهوداً معدلين بما صودف منهم من الثبات والصبر على الشدائد. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين وهو اعتراض، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا يَنْصُر الكافرين على الحقيقة وإنما يُغَلِّبُهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب إن كانت الدُّولة عليهم[١]. ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً.

(١٤٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم ومعناه الإنكار. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ ولما تجاهدوا، وفيه دليل على أن الجهاد فرض كفاية. والفرق بين لمَّا ولَمْ إن فيه توقع الفعل فيما يستقبل. وقرىء يَعْلَمَ بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون[٢] ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع. وقرىء بالرفع على أن الواو للحال كأنه قال: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون[٣].

(١٤٣) ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي الحرب فإنها من أسباب الموت، أو الموت بالشهادة. والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحّوا يوم أحد على الخروج. ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو

---

(١) قوله «وليمحص الله» كرر اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض.
وأظهر الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص (س٢/ ٩١).

(٢) وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم، لما بينهما من اللزوم المبني على لزوم تحقق الأول لتحقق الثاني ضرورة استحالة تحقق شيء بدون علمه تعالى به. وإيثارها على التصريح للمبالغة في تحقيق المعنى المراد فإنها إثبات لعدم جهادهم بالبرهان، وللإيذان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال إنما هو علم الله تعالى (س٢/ ٩١).

(٣) قوله «ويعلم الصابرين» آثر اسم الفاعل على الموصول، أي قال الصابرين ولم يقل الذين صبروا للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة على الفواصل (س٢/ ٩١).

توبيخ لهم على أنهم تمنوْا الحرب وتسببوا لها ثم جَبُنوا وانهزموا عنها، أو على تمني الشهادة فإن في تمنيها تمني غلبة الكفار [(١)].

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

(١٤٤) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فسيخلُو كما خلوْا بالموت أو القتل. ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إنكاراً لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوِّه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به. وقيل الفاء للسببية والهمزة لإنكار أن يجعلوا خُلُوَّ الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد وفاته [(٢)]. روي أنه لما رمى عبدُالله بن قمئة الحارثي رسولَ الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، فذبّ عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحبَ الراية حتى قتله ابنُ قميئة وهو يرى أنه قتل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: قد قتلت محمداً وصرخ صارخٌ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو. إليَّ عبادَ الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموْه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون. وقال بعضهم: ليت ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قُتل ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم إن كان قُتِل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتِلُوا على ما قاتل عليه، ثم قال اللهم إني أعتذر إليك مما يقولون وأبرأ إليك منه وشد بسيفه فقاتل حتى قتل. فنزلت [(٣)] ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتداده بل يضرُّ نفسه. ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنسٍ وأضرابه.

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بمشيئة الله تعالى أو بإذنه لمَلَكِ الموت عليه

---

(١) وفي قوله «فقد رأيتموه» إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة في مشاهدتهم (س٢/ ٩٢).

(٢) قدم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذي ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت في شرف الوقوع فزجر الناس عن الانقلاب عنده وحملهم على التثبت هناك أهمّ ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام هو الخلو بالموت دون القتل (س٢/ ٩٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١١١) عن السدي قال: لما برز رسول الله ﷺ يوم أحد إليهم، يعني إلى المشركين. . . . قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. .» وسنده منقطع.

الصلاة والسلام في قبض روحه، والمعنى أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١) بالإحجام عن القتال والإقدام عليه، وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل. ﴿كِتَٰبًا﴾ مصدر مؤكِّد إذ المعنى كُتِبَ الموت كتاباً. ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ صفة له أي مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم وأخذوا ينهبون، فلما رأى الرماة ذلك أقبلوا على النهب وخَلَّوا مكانهم فانتهز المشركون وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي من ثوابها. ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

(١٤٦) ﴿وَكَأَيِّن﴾ أصله أيْ دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى كَمْ والنونُ تنوينٌ أُثبت في الخط على غير قياس. وقرأ ابن كثير وكائِن ككاعِن، ووجهه أنه قُلِبَ قَلْبَ الكلمة الواحدة كقولهم وعملي في لعمري فصار كأين ثم حذفت الياء الثانية للتخفيف ثم أبدلت الياء الأخرى ألفاً كما أبدلت من طائي ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ بيان له. ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم. وقيل جماعات والرِّبيُّ منسوب إلى الرِّبَّة وهي الجماعة للمبالغة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب قُتِل، وإسناده إلى ربيون أو ضمير النبي، ومعه ربيون حال منه، ويؤيد الأول أنه قرىء بالتشديد وقرىء رَبِّيون بالفتح على الأصل وبالضم وهو من تغييرات النسب كالكسر. ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فما فتروا ولم ينكسر جِدُّهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم. ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ عن العدو أو في الدين. ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ وما خضعوا للعدو، وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يَسْكُن لصاحبه ليفعل به ما يريده، والألف من إشباع الفتحة أو اسْتَكْوَن من الكوْن لأنه يطلب من نفسه أن يكون لمن يخضع له، وهذا تعريف بما أصابهم عند الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فينصرهم ويعظم قدرهم(٢).

(١٤٧) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول، وهو إضافةُ الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها وإضافةً لما أصابهم إلى سوء أعمالها والاستغفار عنها، ثم طَلَبُ التثبيت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة، فيكون أقرب إلى

---

(١) الأعراف: «٣٤».

(٢) أظهر لفظة «الصابرين» في موضع الإضمار للثناء عليهم بالصبر وللإشعار بعلة الحكم (س٢/٩٦).

الإجابة، وإنما جعل قولهم خيراً لأنّ أنْ قالوا أَعْرَفُ لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث.

فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

(١٤٨) ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأتاهم الله بسبب الاستغفار واللجأ إلى الله النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر في الدنيا والجنة والنعيم في الآخرة، وخُصّ ثوابُها بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتد به عند الله[(١)] .

(١٤٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ﴾ أي إلى الكفر. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبياً لما قُتِل. وقيل إن تستكينوا لأبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل عامّ في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فإنه يستجر إلى موافقتهم[(٢)] .

(١٥٠) ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم. وقرىء بالنصب على تقدير بل أطيعوا اللهَ مولاكم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ فاستغْنُوا به عن ولاية غيره ونصره.

(١٥١) ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ يريد ما قُذِف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، ونادى أبو سفيان يا محمد موعدُنا موسمُ بدرٍ القابِلُ إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: «إن شاء الله». وقيل لما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم. وقرأ ابن عامر والكسائي ويعقوب بالضم على الأصل في كل القرآن[(٣)] ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم به. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي آلهة ليس على إشراكها حجة ولم ينزل عليهم به سلطاناً وهو كقوله:

وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلاطة لحِدّة اللسان. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي مثواهم، فوُضِعَ الظاهرُ موضع المضمر للتغليظ

(١) قوله «والله يحب المحسنين» أظهر وصف الإحسان موضع ضمير المعهودين للإشعار بأن ما حكي عنهم من الأقوال والأفعال من باب الإحسان (س٢/ ٩٧).

(٢) صدر الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيزه.
ووصفهم بالإيمان لتذكير حالهم وتثبتهم عليها بإظهار مباينتها لحال أعدائهم (س٢/ ٩٧).

(٣) أي بضم العين (الرُّعُب).

والتعليل [١].

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي وَعْدَه إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماةُ يرشُقونهم بالنبل والباقون يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ تقتلونهم، من حَسَّه إذا أبطل حِسّه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعُف رأيكم، أو مِلْتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف العقل. ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ يعني اختلاف الرماة حين انهزم المشركون فقال بعضهم فما موقفنا ها هنا، وقال آخرون لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانَه أميرُهم في نفر دون العشرة ونفر الباقون للنهب وهو المعني بقوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو، وجواب إذا محذوف وهو امتحنكم، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم التاركون المركز للغنيمة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الثابتون محافظةً على أمر الرسول عليه السلام. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ ثم كفكم عنهم حتى حالت الحالُ فغلبوكم. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ على المصائب ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تفضلاً ولِمَا علم من ندمكم على المخالفة. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتفضل عليهم بالعفو، أو في الأحوال كلها سواء أديل لهم أو عليهم إذ الابتلاءُ أيضاً رحمة.

(١٥٣) ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلقٌ بصَرَفكُم أو ليبتليكم أو بمقدر كاذكروا. والإصعاد الذهاب والإبعاد في الأرض يقال: أَصْعَدْنا من مكة إلى المدينة. ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ كان يقول إليَّ عبادَ الله إليَّ عباد الله أنا رسول الله من يَكُرُّ فله الجنة [٢]. ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ في ساقتكم أو جماعتكم الأخرى ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ عطفٌ على صرفكم، والمعنى فجازاكم الله عن فشلكم وعصيانكم غماً متصلاً بغم، من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول ﷺ، أو فجازاكم غماً بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ

(١) أي أظهر لفظ الظالمين للإشعار بظلمهم في ذلك.
(٢) إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإيذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته سبحانه إشباعاً في توبيخ المنهزمين (س٢/ ١٠٠).

بعصيانكم له. ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ لتتمرنوا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على نفع فائت ولا ضر لاحق. وقيل لا مزيدة والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجرح والهزيمة عقوبة لكم. وقيل الضمير في فأثابكم للرسول ﷺ أي فآساكم في الاغتمام فاغتم بما نزّل عليكم كما اغتممتم بما نزل عليه ولم يُثَرِّبْكم على عصيانكم تسلية لكم كيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر ولا على ما أصابكم من الهزيمة ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ عليم بأعمالكم وبما قصدتم بها.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

(١٥٤) ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ أنزل الله عليكم الأمنَ حتى أخذَكُم النعاسُ، وعن أبي طلحة غَشِيَنَا النعاسُ في المصافّ حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه. والأَمَنَةُ الأمنُ نُصِبَ على المفعول ونُعاساً بدلٌ منها، أو هو المفعولِ وأَمَنَةً حالٌ منه متقدِّمةٌ أو مفعول له أو حال من المخاطبين بمعنى ذوي أَمَنَةٍ، أو على أنه جمع آمِنٍ كبارّ وبَرَرَة. وقرىء أَمْنَة بسكون الميم كأنها المرة من الأمن[1]. ﴿ يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ أي النعاسُ. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء رداً على الأَمَنَة. والطائفةُ المؤمنون حقاً. ﴿ وَطَآئِفَةٌ ﴾ هم المنافقون. ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمهم إلا همُّ أنفسهم وطلبُ خلاصها. ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ صفة أخرى لطائفة أو حال أو استئناف على وجه البيان لما قبله، وغيرَ الحق نُصِبَ على المصدر أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يحق أن يظن به، وظنَّ الجاهلية بدله وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها. ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي لرسول الله ﷺ وهو بدلٌ من يظنون. ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ هل لنا مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط. وقيل: أخبر ابن أبيّ بقتل بني الخزرج فقال ذلك، والمعنى إنا منعنا تدبير أنفسنا وتصريفها باختيارنا، فلم يبقَ لنا من الأمر شيء أو هل يزول عنا هذا القهر فيكون لنا من الأمر شيء ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون، أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو اعتراض. وقرأ أبو عمرو ويعقوب كلُّه بالرفع على الابتداء. ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ حال من الضمير يقولون أي يقولون مُظْهِرين أنهم مسترشدون طالبون النصر مبطنين الإنكار والتكذيب. ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي في أنفسهم وإذا خلا

(١) وتقديم الظرفين «عليكم» و«من بعد الغم» على المفعول «أمنة» للاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر (س٢/١٠١).

بعضهم إلى بعض، وهو بدل من يُخفون أو استئناف على وجه البيان له. ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ﴾ كما وعد محمد أو زعم أن الأمر كله لله ولأوليائه، أو لو كان لنا اختيار وتدبير ولم نبرح كما كان رأي ابن أبيّ وغيره. ﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ لما غلبنا، أو لما قتل من قتل منا في هذه المعركة. ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ أي لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامةُ بالمدينة ولم ينجُ منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقّب لحكمه. ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق وهو علةٌ فعل محذوف أي وفعل ذلك ليبتلي، أو عطفٌ على محذوف أي لبرز لِنَفَاذِ القضاء أو لمصالحَ جمة وللابتلاء، أو على قوله لكيلا تحزنوا. ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ وليكشفه ويميزه أو يُخلِّصه من الوساوس. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفياتها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء وإنما فَعَل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾

(١٥٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ يعني إن الذين انهزموا يوم أحد إنما كان السببُ في انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه واقترفوا ذنوباً لمخالفة النبي ﷺ بترك المركز والحرصِ على الغنيمة أو الحياة، فمُنِعُوا التأييد وقوة القلب. وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بسبب ذنوب تقدمت لهم فإن المعاصي يجرّ بعضها بعضاً كالطاعة. وقيل استزلهم بذكر ذنوب سلَفَت منهم فكرهوا القتال قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة. ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ لتوبتهم واعتذارهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٞ﴾ لا يعاجل بعقوبة الذنب كي يتوب.

(١٥٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني المنافقين. ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ لأجلهم وفيهم، ومعنى أُخوّتِهم اتفاقُهم في النسب أو المذهب ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها، وكان حقُّه إذ لقوله قالوا لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ جمع غازٍ كعافٍ وعُفًّى[١]. ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ مفعول قالوا وهو يدل على أن إخوانهم لم يكونوا مخاطَبين

---

(١) وإفراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب في الأرض لأنه المقصود بيانه في المقام، وذكر الضرب في الأرض توطئة له، وتقديمه لكثرة وقوعه.
وقال «أوكانوا غزاً» ولم يقل أو غزوا للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة، أو بانقضاء ذلك أي كانوا غزاة فيما مضى (س٢/ ١٠٣).

به. ﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ متعلق بقالوا على أن اللام لامُ العاقبة مثلُها في «ليكون لهم عدواً وحزناً»[١]، أوْ لا تكونوا أيْ لا تكونوا مِثلَهم في النطق بذلك القول والاعتقاد ليجعلَه حسرةً في قلوبهم خاصة، فذلك إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد، وقيل إلى ما دل عليه النهي أي لا تكونوا مثلَهم ليجعل الله انتفاءَ كونِكم مِثلَهم حسرة في قلوبهم، فإن مخالفتهم ومضادتهم مما يغمهم. ﴿ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ رداً لقولهم أي هو المؤثر في الحياة والممات لا الإقامةُ والسفرُ فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد. ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على أنه وعيد للذين كفروا[٢].

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٧) ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ أي متم في سبيله وقرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر الميم من مات يَمات. ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ جواب القسم وهو سادّ مسد الجزاء والمعنى: إن السفر والغزوَ ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل وإن وقع ذلك في سبيل الله فما تنالون من المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وقرأ حفص بالياء[٣].

(١٥٨) ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم. ﴿ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ لإلى معبودكم الذي توجهتم إليه وبذلتم مُهَجكم لوجهه لا إلى غيره لا محالة تحشرون، فيوفي جزاءكم ويعظم ثوابكم. وقرأ نافع وحمزة والكسائي مِتُّم بالكسر.

(١٥٩) ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ أي فبرحمة، وما مزيدة للتأكيدِ والتنبيهِ والدلالةِ على أن لِينَه لهم ما كان إلا برحمة من الله وهو ربطه على جأشه وتوفيقُه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه. ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ سيىء الخُلُق جافياً ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ قاسيه ﴿ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك. ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ فيما يختص بك ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ فيما لله ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ أي في أمر الحرب

---

(١) القصص: «٨».

(٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد.
وتعرض لعنوان البصر دون السمع لأن قوله «بما تعملون» أو «بما يعملون» عام يشمل القول والاعتقاد وما ينتج عنه من عمل (س٢/ ١٠٤).

(٣) اقتصر على بيان خيرية القتل والموت في سبيله تعالى دون التعرض للإخبار بحصولهما لهم للإيذان بعدم الحاجة إليه بناء على استحالة التخييب منه تعالى بعد أن أطمعهم فيه.
وقدم القتل في سبيله على الموت للترغيب فيه (س٢/ ١٠٤).
وقرأ الباقون بالتاء «تجمعون» (المبسوط ص١٤٨).

إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يُشاوَرَ فيه استظهاراً برأيهم وتطييباً لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أصلح لك، فإنه لا يعلمه سواه. وقرىء فإذا عَزَمْتُ على التكلم، أي فإذا عزمتُ لك على شيء وعينته لك فتوكل على الله ولا تشاور فيه أحداً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

(١٦٠) ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر. ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبُكم. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خذلانه، أو من بعد الله بمعنى إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم، وهذا تنبيه على المقتضي للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر لهم سواه وآمنوا به[(١)].

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ وما صح لنبي أن يخون في الغنائم فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال غل شيئاً من المغنم يَغُلّ غُلولاً وأغلّ إغلالاً إذا أخذه في خُفية، والمراد منه: إما براءة الرسول عليه السلام عما اتهم به إذ روي أن قطيفة حمراء فُقِدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله ﷺ أخذها، أو ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم. وإما المبالغةُ في النهي للرسول ﷺ على ما روي أنه بعث طلائع، فغنم رسول الله ﷺ فقسم على من معه ولم يقسم للطلائع فنزلت[(٢)]. فيكون تسمية حرمان بعض المستحقين غُلولاً تغليظاً ومبالغة ثانية. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب أن يُغَلّ على البناء للمفعول والمعنى: وما صح له أن يُوجَد غالاً أو أن ينسب إلى الغلول. ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يأت بالذي غلّه يحمله على عنقه كما جاء في الحديث أو بما احتمل من وَبَاله وإثمه. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً، وكان اللائق بما قبله أن يقال ثم يوفى ما كسبت لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله فالغالّ مع عظم جرمه بذلك أولى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزاد في عقاب عاصيهم.

---

(١) تقديم الجارّ والمجرور «وعلى الله» لإفادة قصره عليه تعالى، والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به (س٢/١٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/١٥٦) والواحدي في أسباب النزول ص١٢٧ عن الضحاك مرسلاً. والضحاك لم يسمع من صغار الصحابة فحديثه معضل.

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ
وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَ
لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

(١٦٢) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالطاعة. ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ رجع. ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بسبب المعاصي. ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الفرق بينه وبين المرجع أنّ المصير يجب أنْ يخالِف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع.

(١٦٣) ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ شُبِّهوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت في الثواب والعقاب، أو هم ذوو درجات. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالِمٌ بأعمالهم ودرجاتهم صادرة عنهم فيجازيَهم على حسبها[(١)].

(١٦٤) ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنعم على من آمن مع الرسول ﷺ من قومه. وتخصيصُهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها. وقرىء لِمَنْ مَنِّ اللهِ على أنه خبر مبتدأ محذوف مثل مَنُّه أو بَعْثُه. ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من نَسَبِهم، أو من جنسهم عربياً مثْلَهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به. وقرىء من أَنْفَسِهم أي من أشرفهم لأنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم. ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي القرآن بعدما كانوا جُهّالاً لم يسمعوا الوحي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من دنس الطباع وسوء الاعتقاد والأعمال[(٢)]. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والسنة. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، والمعنى وإنّ الشأن كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر.

(١٦٥) ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ الهمزة للتقريع والتقرير، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أُحُد أو على محذوف مِثْل أفعلتم كذا وقلتم، ولمّا ظرفُه المضاف إلى

---

(١) فسر البيضاوي أن الله بصير أي عالم، وهو يدل على أن كون الله تعالى بصيراً هو نفس كونه عالماً.
وقد تبع في هذا التفسير الزمخشريَّ فنقله عنه (الكشاف ١/ ٢٢٧).
ومذهب الجمهور من أهل السنة بل والمعتزلة أن صفتي السمع والبصر زائدتان على العلم، وإن كان العلم مسبّباً عن البصر إلا أنه يخالفه. فلو علمنا بشيء علماً تاماً ثم أبصرناه لوجدنا فرقاً بين الحالتين مما يدل على مخالفة العلم للبصر.
(انظر حاشية الكازروني على البيضاوي ٢/ ٥١ وانظر روح المعاني ٤/ ١١٢).

(٢) وسّط التزكية بين قوله «يتلو... ويعلمهم» للإيذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة مستقلة بنفسها. لأنه لو روعي نفس الترتيب الموجود بقوله تعالى: «.. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» ـ البقرة «١٢٩» ـ لتبادر للفهم أن الكل نعمة واحدة (س/٢/ ١٠٨).

ما أصابتكم أي أَقُلْتُم حين أصابتكم مصيبة وهي قتل سبعين منكم يومَ أُحُد والحال إنكم نلتم ضعفها يوم بدر مِنْ قَتْل سبعين وأسر سبعين من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي مما اقترفته أنفسُكم من مخالفة الأمر بترك المركز فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطاوعة، أو اختيارِ الخروج من المدينة. وعن علي رضي الله تعالى عنه باختياركم الفداء يوم بدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النصر ومَنْعِه وعلى أن يصيبَ بكم ويصيبَ منكم.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

(١٦٦) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين يريد يوم أحد. ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو كائن بقضائه أو تخليته الكفار، سماها إذناً لأنها من لوازمه. ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١٦٧) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وليتميز المؤمنون والمنافقون فيظْهَر إيمانُ هؤلاء وكفر هؤلاء[1]. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على نافقوا داخلٌ في الصلة أو كلام مبتدأ. ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ تقسيم للأمر عليهم وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال. وقيل معناه قاتلوا الكفرة أو ادفعوهم بتكثيركم سواد المجاهدين، فإن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاءٌ بالأنفس إلى التهلُكة، أو لو نُحْسِن قتالاً لاتبعناكم فيه، وإنما قالوه دَغَلاً واستهزاء. ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لانخذالِهم وكلامِهم هذا، فإنهما أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم. وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرةً منهم لأهل الإيمان، إذ كان انخذالهم ومقالهم تقوية للمشركين وتخذيلاً للمؤمنين. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يُظهرون خلاف ما يضمرون، لا تواطىء قلوبُهم ألسنتهم بالإيمان. وإضافة القول إلى الأفواه تأكيدٌ وتصوير. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق. وما يخلوا به بعضهم إلى بعض فإنه يعلمه مفصلاً بعلمٍ واجب وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات.

(١٦٨) ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ رُفع بدلاً من واو يكتمون، أو نصب على الذم أو الوصف للذين نافقوا، أو جُرَّ بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم كقوله:

---

(١) قوله «وليعلم الذين نافقوا» أعاد الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قرن المنافقين باختلاف حال العلم بحسب التعلق بالفريقين، فإنه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه بالسابق وبالمنافقين على وجه جديد. وهو السرّ في إيراد الأولين بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الاستمرار والآخرين بموصول دال على الحدوث (س٢/١٠٩).

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فِي القَوْمِ حَاتِماً   عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالمَاءِ حَاتِمُ

﴿ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ أي لأجلهم، يريد مَنْ قُتل يوم أحد من أقاربهم أو من جنسهم. ﴿ وَقَعَدُواْ ﴾ حال مقدرة بقد أي قالوا قاعدين عن القتال. ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ في القعود بالمدينة. ﴿ مَا قُتِلُواْ ﴾ كما لم نُقْتل. قرأ هشام ما قُتِّلوا بتشديد التاء. ﴿ قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي إن كنتم صادقين أنكم تقدرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه، فإنه أحرى بكم، والمعنى أن القعود غيرُ مغن عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة كما أن القتال يكون سبباً للهلاك والقعودُ سبباً للنجاة قد يكون الأمر بالعكس.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

(١٦٩) ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾ نزلت في شهداء أُحُد. وقيل في شهداء بدر والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرىء بالياء على إسناده إلى ضمير الرسول، أو من يحسب أو إلى الذين قتلوا. والمفعول الأول محذوف لأنه في الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة. وقرأ ابن عامر قُتِّلوا بالتشديد لكثرة المقتولين. ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ أي بل هم أحياء. وقرىء بالنصب على معنى بل أَحْسَبُهُم أحياءً ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ذوو زلفى منه[١]. ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ من الجنة وهو تأكيد لكونهم أحياء.

(١٧٠) ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله تعالى والتمتع بنعيم الجنة. ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يُسَرُّون بالبشارة. ﴿ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم ﴾ أي بإخوانهم المؤمنين الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم. ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي الذين من خلفهم زماناً أو رتبة. ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بدل من الذين والمعنى: أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحالَ مَنْ تركوا من خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدرها خوفُ وقوعِ محذور وحزنُ فوات محبوب. والآية تدل على أن الإنسان غيرُ الهيكل المحسوس بل هو جوهرٌ مدرِكٌ بذاته لا يفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه، ويؤيد ذلك قوله تعالى في آل فرعون ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾[٢] الآية، وما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال «أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش»[٣]. ومن أنكر ذلك ولم يرَ الروح إلا ريحاً وعَرَضاً قال هم أحياءٌ يوم القيامة، وإنما وصفوا به في الحال لتحققه ودنُوِّه أو أحياء بالذكر أو بالإيمان. وفيها حث على الجهاد وترغيب في

(١) والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد تكرمة لهم (س٢/١١٢).

(٢) غافر: «٤٦».

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/٦٦ رقم ١٢٥) من حديث كعب، وكذلك أخرجه أحمد (٦/٣٨٦).

الشهادة وبعث على ازدياد الطاعة وإحماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أنعِم عليه وبشرى للمؤمنين بالفلاح.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

(١٧١) ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرره للتأكيد وليعلق به ما هو بيان لقوله ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، ويجوز أن يكون الأول بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم. ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾[(١)] وتنكيرهما للتعظيم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من جملة المستبشر به عطف على فضل. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه استئناف معترِض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعرٌ بأن من لا إيمان له أعماله محبَطة وأجوره مضيَّعة.

(١٧٢) ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ﴾ صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح، أو مبتدأ خبره: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بجملته، ومِنْ البيان، والمقصود من ذكر الوصفين المدح والتعليل لا التقييد، لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون. روي أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الرَّوْحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فنَدَب أصحابَه للخروج في طلبه وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج عليه الصلاة والسلام مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد ـ وهي ثمانية أميال من المدينة ـ وكان بأصحابه القَرْح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا. فنزلت[(٢)].

(١٧٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني الركبُ الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي، وأطلق عليه الناسَ لأنه من جنسهم كما يقال فلان يركب الخيل وماله إلا فرس واحد لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه. ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه روي: أنه نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسمُ بدرٍ القابِل إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله تعالى، فلما كان القابِلُ خرج في أهل مكة حتى نزل بمرّ الظهران فأنزل الله

---

(١) يونس: «٢٦».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/١٧٦ ـ ١٧٧) عن عكرمة والسدي وغيرهما.
وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣١٤) عن ابن إسحاق عن شيوخه وهو حديث مرسل بجميع طرقه.
● وقد أخرج البخاري (٧/ ٣٧٣ رقم ٤٠٧٧) ومسلم (٤/ ١٨٨٠ رقم ٥١/ ٥٢/ ٢٤١٨) عن عائشة رضي الله عنها «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهمُ القرحُ للذين أحسنوا منهم واتقَوا أجرٌ عظيم» قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبوك منهم: الزبيرُ، وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحدٍ وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في إثرهم؟ فانتدبَ منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير».

الرعب في قلبه وبَدَا له أن يرجع، فمر به ركبٌ من عبد قيس يريدون المدينة للميرة فَشَرَط لهم حمل بعير من زبيب إن ثَبَّطوا المسلمين. وقيل: لقي نُعَيْمَ بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشراً من الإبل، فخرج نُعَيْمُ فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم أَتَوْكم في دياركم فلم يَفْلِت منكم أحد إلا شريد أَفَترَوْن أن تخرُجوا وقد جمعوا لكم فَفَتَرُوا، فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد» فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون حسبنا الله[1]. ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الضمير المستكنّ للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله أن أريد به نُعَيْم وحدَه، والبارز للمقول لهم، والمعنى: إنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت به يقينهم بالله وازداد إيمانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده، وهو دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ويعضده قول ابن عمر رضي الله عنهما قلنا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يُدْخِلَ صاحبَهُ الجنة ويَنْقُصُ حتى يُدْخِل صاحبَه النارَ»[2] وهذا ظاهر إن جَعَلَ الطاعةَ من جملة الإيمان وكذا إن لم تُجْعَل فإن اليقين يزداد بالألف وكثرة التأمل وتناصر الحُجج[3]. ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ مُحْسِبنا وكافينا، من أَحْسَبَهُ إذا كفاه، ويدلّ على أنه بمعنى المُحْسِب أنه لا يستفيد بالإضافة تعريفاً في قولك هذا رجل حسبك. ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكول إليه هو فيه.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾

(١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ فرجعوا من بدر. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه ﴿وَفَضْلٍ﴾ وربح في التجارة فإنهم لما أتوْا بدراً وافَوْا بها سوقاً فاتّجَرُوا وربحوا. ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٢/ ٥٩ ـ ٦٠) بدون إسناد. كما ليس فيه أنه صلى الله عليه وسلم خرج في سبعين راكباً، بل فيه (هم ألف وخمسمائة وكانت الخيل عشرة أفراس) كما ليس فيه (هم يقولون: حسبنا الله) وهذا في قصة غزوة بدر الصغرى. قد تقدم أن ابن جرير رجح نزول الآية في غزوة حمراء الأسد.

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية علي بن عبدالعزيز، عن حبيب بن عيسى بن فروخ عن إسماعيل بن عبدالرحمن عن مالك عن نافع عنه. كما في «الكافي الشاف» رقم: (٢٨٥).

(٣) قضية زيادة الإيمان ونقصانه من المسائل الخلافية الشهيرة، ولكل فريق أدلته.
وقد نصت نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة على زيادة الإيمان ونقصانه.
إلا أن من أنكر الزيادة والنقصان أوّل النصوص على أن المراد هو زيادة ثمرته وآثاره والواقع أن الخلاف لفظي، فمن أنكر الزيادة والنقصان كان حديثه عن أصل الإيمان الذي يُخرج من الكفر ويُدخِل في الإسلام وقالوا لو قلنا بالزيادة والنقصان وأبقيناه في إطار الإيمان فيكون قد نقص عن الحد المطلوب وهو الذي إذا نقص أدخل في الكفر، وبالتالي فأصل الإيمان وأساسه لا يزيد ولا ينقص.
إلا أن كلمة الإيمان عامة فتشمل التصديق القلبي وما ينتج عنه من قول وعمل، وقد يطلق على القول والعمل إيمانٌ باعتبارهما مسبَّبَيْن عنه.. وإذا زاد عمل المؤمن الصالحُ فهو دليل على زيادة إيمانه وتصديقه وقوة يقينه، لأن لكل عمل أساسه من القلب.
وعليه فالأولى ترك النصوص على ظاهرها.
وذهب الرازي إلى أن المراد بزيادة إيمانهم هو ما حصل في قلوبهم من تأكيد العزم على محاربة الكفار (التفسير الكبير ٩/ ١٠٠).

من جراحة وكيدِ عدوّ. ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجَراءتهم وخروجهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلبِ في الدين وإظهارِ الجراءة على العدو وبالحفظ عن كل ما يسوءهم وإصابةِ النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل، وفيه تحسير للمتخلِّف وتخطئةُ رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به.

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

(١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يريد به المثبِّطَ نُعَيْماً أو أبا سفيان. والشيطانُ خبرُ ذلكم وما بعده بيان لشيطنته، أو صفته وما بعده خبر، ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أي إنما ذلكم قول الشيطان يعني إبليس عليه اللعنة. ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ القاعدين عن الخروج مع الرسول، أو يخوفكم أولياؤه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس الثاني على الأول وإلى الأولياء على الثاني. ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري فجاهدوا مع رسولي. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله تعالى على خوف الناس.

(١٧٦) ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ﴾ يقعون فيه سريعاً حرصاً عليه، وهم المنافقون من المتخلفين، أو قوم ارتدوا عن الإسلام. والمعنى لا يحزنك خَوْفَ أن يضروك ويعينوا عليك لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ أي لن يضروا أولياء الله شيئاً بمسارعتهم في الكفر، وإنما يضرون بها أنفسهم. وشيئاً يحتمل المفعول والمصدر. وقرأ نافع يُحْزِنْك بضم الياء وكسر الزاي حيث وقع ما خلا قوله في الأنبياء ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[1] فإنه فتح الياء وضم الزاي فيه، والباقون كذلك في الكلّ. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ نصيباً من الثواب في الآخرة، وهو يدل على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر، وفي ذكر الإرادة إشعارٌ بأن كفرهم بلغ الغايةَ حتى أراد أرحمُ الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته، وأن مسارعتهم في الكفر لأنه تعالى لم يرد أن يكون لهم حظ في الآخرة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع الحرمان عن الثواب[2].

---

(١) الأنبياء: «١٠٣».

(٢) قوله «يسارعون في الكفر» عدّى الفعل بكلمة «في» التي تفيد الدخول والإحاطة للإشعار باستقرارهم في الكفر ودوام ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، وهو كقوله تعالى: «يسارعون في الخيرات» ـ المؤمنون: «٦١» ـ فإنه مؤذن بملابستهم للخيرات وتقلبهم في فنونها.

وهو بخلاف قوله تعالى «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم. .» ـ آل عمران: «١٣٣» ـ حيث عدى الفعل «سارعوا» بكلمة «إلى» لأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها (س٢/ ١١٥).

وقوله تعالى: «لن يضروا الله» علق نفي الضرر به تعالى لتشريفهم وللإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه (س٢/ ١١٦).

وقوله تعالى «ولهم عذاب عظيم» وصف العذاب بالعظم ليتناسب مع حقارة ما أقدموا عليه وسارعوا فيه =

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن
رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾

(١٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين، أو ارتد من العرب.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾ خطاب للرسول عليه السلام، أو لكل من يَحْسَب. والذين مفعول، وأنما نملي لهم بدلٌ منه. وإنما اقتصر على مفعول واحد لأن التعويل على البدل وهو ينوب عن المفعولين كقوله تعالى ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ﴾[1]، أو المفعولُ الثاني على تقديرِ مضاف مثل: ولا تحسبن الذين كفروا أصحابَ أنَّ الإملاء خيرٌ لأنفسهم، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم، وما مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت متصلة في الإمام فاتُّبع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم والكسائي ويعقوب بالياء على أنّ الذين فاعلٌ، وإنّ مع ما في حيِّزه مفعول، وفَتحَ سينَهُ في جميع القرآن ابنُ عامر وحمزةُ وعاصم. والإملاء الإمهالُ وإطالةُ العمر، وقيل تخليتُهم وشأنَهم، مِنْ أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ استئناف بما هو العلة للحكم قبلها، وما كافّة، واللامُ لام الإرادة، وعند المعتزلة لام العاقبة. وقرىء إنّما بالفتح هنا وبكسر الأولى، ولا يحسبن بالياء على معنى ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءَنا لهم لازدياد الإثم بل للتوبة والدخول في الإيمان، وإنما نملي لهم خيرٌ اعتراضٌ، معناه أن إملاءنا خير لهم إن انتبهوا وتداركوا فيه ما فرط منهم. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ على هذا يجوز أن يكون حالاً من الواو أي ليزدادوا إثماً مُعَدّاً لهم عذاب مهين.

(١٧٩) ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره، والمعنى لا يترككم مختلطين لا يعرفُ مخلِصكم من منافقكم حتَّى يميز المنافق من المخلص بالوحي إلى نبيه بأحوالكم، أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يذعن لها إلا الخُلَّص المخلصون منكم، كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله، ليختبر النبيُّ به بواطنكم ويستدل به على عقائدكم. وقرأ حمزة والكسائي حتى يُمَيِّز هنا وفي الأنفال بضم الياء وفتح الميم وكسر الياء وتشديدها، والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ وما كان الله ليؤتيَ أحَدَكم علمَ الغيب فيطَّلع على ما في القلوب من كفر وإيمان، ولكن الله يجتبي لرسالته من يشاء فيوحيَ إليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ

= (س٢/١١٦).

(١) الفرقان: «٤٤».

وَرُسُلِهِۦ﴾ بصفة الإخلاص، أو بأن تَعلَموه وحدَه مطّلعاً على الغيب وتَعلَموهم عباداً مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يقولون إلا ما أوحي إليهم. روي أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت(١)، وعن السدي أنه عليه السلام قال «عرضت عليَّ أمتي وأُعْلِمتُ من يؤمن بي ومن يكفر». فقال المنافقون إنه يزعم أنه يعرف من يؤمن به ومن يكفر ونحن معه ولا يعرفُنا فنزلت(٢). ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ حق الإيمان. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ النفاق. ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ القراءات فيه على ما سبق. ومن قرأ بالتاء قَدَّر مضافاً ليتطابق مفعولاه أي ولا تحسبن بُخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذا من قرأ بالياء إن جعل الفاعل ضمير الرسول ﷺ، أو مَنْ يحسب وإن جعله الموصول كان المفعول الأول محذوفاً لدلالة يبخلون عليه أي ولا يحسبن البخلاء بخلَهم هو خيراً لهم. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي البخل. ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم(٣). ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بيان لذلك، والمعنى سيُلزَمون وَبَال ما بخِلوا به إلزام الطوق، وعنه عليه الصلاة والسلام «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعله الله شجاعاً في عنقه يوم القيامة»(٤). ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارث، فما لهؤلاء يبخلون عليه بمالِهِ ولا ينفقونه في سبيله، أو أنه يرث منهم ما يُمْسِكونه ولا ينفقونه في سبيله بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المنع والإعطاء. ﴿خَبِيرٌ﴾ فمجازيهم(٥). وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/١٨٨) عن السدي.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص١٣٦) وهو من رواية السدي وبدون سند فهو مرسل، وقال المناوي في الفتح السماوي ص٤٢٤: لم أقف عليه. لم أجده.

(٣) نص على كونه شراً رغم أنه مفهوم من نفي خيريته للمبالغة في ذلك (س٢/ ١٢٠).

(٤) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٣/٢٦٨ رقم ١٤٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاهُ الله مالاً فلم يُؤَدِّ زكاتهُ مُثِّل له يوم القيامة شُجاعاً أقرعَ له زَبيبتان يُطوَّقُه يومَ القيامةِ ثمَّ يأخذُ بِلِهْزِمَتيهِ ـ يعني شِدْقيهِ ـ ثمَّ يقول: أنا مالك، أنا كنزُكَ. ثم تَلا «ولا يحسبنَّ الذين يبخلونَ» [آل عمران: ١٨٠].

وأخرجه النسائي (٥/٣٩ رقم ٢٤٨٢) وأحمد في المسند (٢/٢٧٩، ٣٥٥).

● زَبِيبَتَان: الزبيبتان: هما الزَّبَدَتان في الشِّدْقين. يقال: تكلم فلان حتى زبَّب شدقاه، أي خرج الزَّبد عليهما، ومنها الحية ذو الزبيبتين. وقيل: هما النكتَتَان السَّوداوَان فوق عينيه.

● بلهزمتيهِ: اللِّهزِمتان: عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين. ويقال: هما مضيغتان عَلِّيتان تحتهما.

(٥) قوله «فمجازيهم» هذا المعنى على قراءة من قرأ «يعملون» بالياء، وقرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (المبسوط ص١٥٠).

=

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

(١٨١) ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قالته اليهود لما سمعوا ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[(١)]. وروي أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى يهود بني قينُقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص بن عازوراء: إن الله فقير حتى سأل القرض، فلَطَمه أبو بكر رضي الله عنه على وجهه وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله ﷺ وجحد ما قاله. فنزلت[(٢)]. والمعنى أنه لم يَخْفَ عليه وأنه أعدّ لهم العقاب عليه[(٣)]. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي سنكتبه في صحائف الكتبة، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول، ولذلك نَظَمَه مع قتل الأنبياء، وفيه تنبيه على أنه ليس أولَ جريمة ارتكبوها وأنّ من اجترأ على قتل الأنبياء لم يُستَبْعدْ منه أمثالُ هذا القول. وقرأ حمزة سيُكْتَب بالياءِ وضمِّها وفتحِ التاء وقَتْلُهم بالرفع ويَقُولُ بالياء. ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي وننتقم منهم بأنْ نقولَ لهم ذوقوا العذابَ المُحْرِق، وفيه مبالغات في الوعيد. والذوقُ إدراك الطعوم، وعلى الاتساعُ يُستَعْمَل لإدراك سائر المحسوسات والحالات، وذِكْرُه ههنا لأن العذاب مُرَتَّبٌ على قولهم الناشىءِ عن البخل والتهالك على المال، وغالبُ حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم، ومعظمُ بخله به للخوف من فُقدانه، ولذلك كَثُرَ ذِكْرُ الأكل مع المال.

(١٨٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من قتل الأنبياء وقولهم هذا وسائر معاصيهم. عبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطف على ما قدمت وسببيته للعذاب من حيث إن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء[(٤)].

(١٨٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك وحيي وفنحاص ووهب بن يهوذا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا. ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ بأن لا نؤمن

---

(١) البقرة: «٢٤٥».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١٩٤) عن ابن عباس وفي سنده: محمد بن أبي محمد مجهول.

(٣) والذي قال واحد كما يدل سبب النزول ولكنه اعتبره جمعاً لرضا الباقين به(س٢/ ١٢١).

(٤) عبر عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها (س٢/ ١٢١).

لرسول حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل وهو أن يقرب بقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار سماوية فتأكله، أي تحيله إلى طبعها بالإحراق. وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات شرع في ذلك. ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تكذيب وإلزام بأن رسلاً جاؤوهم قبله كزكريا ويحيى بمعجزاتٍ أخر موجبة للتصديق وبما اقترحوه فقتلوهم، فلو كان الموجب للتصديق هو الإتيان به وكان توقفهم وامتناعهم عن الإيمان لأجله فما لهم لم يؤمنوا بمن جاء به في معجزات أخر واجترؤوا على قتله.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

(١٨٤) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ تسلية للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود، والزبر جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرت الشيء إذا حبسته، والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة القرآن. وقيل الزبر المواعظ والزواجر، من زبرته إذا زجرته. وقرأ ابن عامر وبالزبر، وهشام وبالكتاب بإعادة الجار للدلالة على أنها مغايرة للبينات بالذات.

(١٨٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وعد ووعيد للمصدق والمكذب. وقرىء ذائقةٌ الموتَ بالنصب مع التنوين وعدمه كقوله: وَلاَ ذَاكِرُ الله إلا قَلِيلاً ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم خيراً كان أو شراً تاماً وافياً. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم قيامكم من القبور، ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»[1]. ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ بَعُدَ عنها، والزحزحة في الأصل تكرير الزحّ وهو الجذب بعجلة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠ رقم ٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
قلت: في سنده عطية العوفي وهو ضعيف. انظر التقريب (٢/ ٢٤).
والحديث ضعيف. انظر ضعيف الترمذي (رقم: ٤٣٧/ ٢٥٩١).
وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٢٩١): «. . . وهو ضعيف.
ورواه الطبراني في الأوسط في ترجمة مسعود بن محمد الرملي بإسناده إلى أبي هريرة. وقال: لم يروه عن الأوزاعي إلاَّ أيوب بن سويد. تفرد به ولده محمد ـ بن أيوب ـ عنه. قلت وهو ضعيف» اهـ.
قلت: محمد بن أيوب بن سويد الرملي. قال عنه ابن حبان: يروى عن أبيه عن الأوزاعي الأشياء الموضوعة لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه. وكان أبو زرعة يقول: هذا الشيخ أدخل في كتب أبيه أشياء موضوعة بخط طَرِيّ، وكان يُحَدِّث بها، وضعفه الدارقطني أيضاً. =

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوز الظفر بالبُغية. وعن النبي ﷺ «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»[١]. ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أي لذاتها وزخارفها. ﴿ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ شبهها بالمتاع الذي يُدَلَّسُ به على المُسْتَام ويُغَرُّ حتى يشتريَه، وهذا لِمَنْ آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ. والغرور مصدر أو جمع غار.

۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٨٦) ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ أي والله لتختبرن. ﴿ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ بتكليف الإنفاق وما يصيبها من الآفات. ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ بالجهاد والقتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب. ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ من هجاء الرسول ﷺ والطعن في الدين وإغراء الكفرة على المسلمين، أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال ويستعدوا للقائها حتى لا يرهقهم نزولها. ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ ﴾ على ذلك[٢]. ﴿ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ مخالفة أمر الله. ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ يعني الصبر والتقوى. ﴿ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها، أو مما عزم الله عليه أي أَمَرَ به وبالغ فيه. والعزم في الأصل ثبات الرأي على الشيء نحو إمضائه.

(١٨٧) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ ﴾ أي اذكر وقت أخذه[٣]. ﴿ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يريد به العلماء. ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ حكاية لمخاطبتهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش بالياء لأنهم غيب، واللام جواب القسم الذي ناب عنه قوله ﴿ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ ﴾ والضمير للكتاب. ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ أي الميثاق. ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ فلم يراعوه ولم يتلفتوا إليه. والنَّبْذُ وراء الظهر مَثَلٌ في ترك الاعتداد وعدم الالتفات، ونقيضه جَعْلُه نصب عينيه وإلقاؤه بين عينيه. ﴿ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ﴾. وأخذوا بَدَله. ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من حطام الدنيا ....

= انظر «المجروحين» (٢/ ٢٩٩) والضعفاء للدارقطني رقم (٤٩٣).

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٧٣ رقم ٤٦/ ١٨٤٤) والنسائي (٧/ ١٥٢ رقم ٤١٩١) وابن ماجة (٢/ ١٣٠٦ رقم ٣٩٥٦). من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص في حديث طويل.

(٢) والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقد عبر عنهم بذلك للإشعار بمدار الشقاق والإيذان بأن بعض ما يسمعونه منهم مستند في زعمهم إلى الكتاب (س٢/ ١٢٣).

(٣) توجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه ـ مع أنه المقصود ـ للمبالغة في إيجاب ذكره (س٢/ ١٢٤).

وأعراضها[١]. ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ يختارون لأنفسهم، وعن النبي ﷺ «من كتم علماً عن أهله أُلْجِم بلِجَام من نار»[٢]. وعن علي رضي الله تعالى عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا[٣].

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

(١٨٨) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ومن ضَمَّ الباءَ جعل الخطاب له وللمؤمنين[٤]، والمفعول الأول الذين يفرحون

---

(١) وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة ما يدل على فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الحقير على الشريف وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلي وسيلة والوسيلة مقصداً.
فقد عبر بالاشتراء وهو مؤذن بالرغبة في المأخوذ والإعراض عن المعطى، وعبر عن المشترى بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة، وجَعْل الكتاب ـ الذي حقه التنافس فيه ـ مصحوباً بالباء الداخلة على الآلات والوسائل (س٢/ ١٢٥).

(٢) وهو حديث حسن.
● أخرجه أبو داود (٤/ ٦٧ ـ ٦٨ رقم ٣٦٥٨) وأحمد في المسند (٢/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣) من طريق حماد، عن علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عنْ عِلْمٍ فكتمهُ أَلْجَمَهُ الله بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامة».
● وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٩ ـ ٣٠ رقم ٢٦٤٩) وابن ماجة (١/ ٩٦ رقم ٢٦١) وأبو يعلى في المسند (١١/ ٢٦٨ رقم ٦٣٨٣/٥٤٣) وأحمد (٢/ ٤٩٥) والطيالسي (١/ ٣٧ رقم ٨٩ ـ منحة المعبود) من طريق عِمَارَة بن زَاذان، عن علي بن الحكم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عن عِلْمٍ ثم كتمَهُ أُلْجِمَ يومَ القيامة بلجام من نارٍ».
قال الترمذي: حديث أبي هريرة: حديث حسنٌ وهو كما قال. وقد حسنه الألباني في صحيح ابن ماجة.
قلت: ويشهد له حديث عبدالله بن عمرو، عند الخطيب البغدادي في «التاريخ» (٥/ ٣٩) وصححه الحاكم (١/ ١٠٢) إذ قال: «هذا إسناد صحيح من حديث المصريين، على شرط الشيخين وليس له علة وفي الباب عن جماعة من الصحابة غير أبي هريرة رضي الله عنهم» ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان (١/ ١٥٤ رقم ٩٦).
كما يشهد له حديث جابر عند الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ١٩٨) و(٩/ ٩٢) و(١٢/ ٣٦٩).
وانظر العلل المتناهية لابن الجوزي (١/ ٩٦ ـ ١٠٧) باب إثم من سئل عن علم فكتمهُ.
تنبيه: قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٩٤): «ليس في شيء من طرقه (عن أهله)».

(٣) رواه الثعلبي من طريق الحارث بن أبي أسامة، أخبرنا عبدالوهاب الحقافي، حدثنا الحسن بن عمارة، حدثني الحكم بن عيينه، عن يحيى بن الجزار: سمعت علياً يقول: فذكره. والحسن متروك ـ (الجرح والتعديل (٣/ ٢٨)) ـ كما قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (رقم ٢٩٥).
وقال الحافظ أيضاً: ورُوِّيناه في جزء الذراع، قال: كتب الحارث بن أسامة فذكره، وذكره ابن عبدالبر في العلم. قال ويروي عن عليّ، وذكره صاحب الفردوس عن عليّ. فكأنه وقف عليه مرفوعاً.
قلت: الذراع: هو أبو بكر أحمد بن نصر بن عبدالله بن الفتح الذراع، له جزء في الحديث رواه الحافظ بإسناده.

(٤) أي قرأ «فلا تَحْسَبُنَّهم».

والثاني بمفازة، وقوله فلا تحسبنهم تأكيد والمعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق بمفازة: بمنجاة من العذاب أي فائزين بالنجاة منه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياءِ وفتح الباءِ في الأول وضمِّها في الثاني، على أن الذين فاعلٌ ومفعولاً يحسبن محذوفان يدل عليهما مفعولاً مؤكِّدِه، فكأنه قيل: ولا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا فلا يحسبن أنفسَهم بمفازة، أو المفعول الأول محذوف وقوله فلا تحسبنهم تأكيد للفعل وفاعله ومفعوله الأول. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم وتدليسهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها وأروْه أنهم قد صدقوه وفرحوا بما فعلوا. فنزلت[1]. وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدوا به[2]. وقيل: نزلت في المنافقين فإنهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة[3].

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ فهو يملك أمرهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقابهم. وقيل هو ردّ لقولهم إن الله فقير.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لدلائلُ واضحة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم كما سبق في سورة البقرة، ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغيُّر، وهذه متعرضةٌ لجملة أنواعه فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغير الليل والنهار، أو جزئه كتغير العناصر بتبدل صورها أو الخارج عنه كتغير الأفلاك بتبدل

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٢٣٣ رقم ٤٥٦٨) ومسلم (٤/ ٢١٤٣ رقم ٢٧٧٨/٨) عن ابن أبي مُليكه أنَّ علقمةَ بن وقاص أخبرَهُ: أنَّ مروانَ قال لبوّابه: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس فقل: لئن كان كلُّ امرىءٍ فرحَ بما أوتي وأحبَّ أن يُحْمَد بما لم يعملَ معذَّباً لنعذَّبن أجمعون. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذِه؟ إنما دعا النبيُّ ﷺ يهودَ فسألهم عن شيء. . . .» فذكراه بطوله.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٢٣٣ رقم ٤٥٦٧) ومسلم (٤/ ٢١٤٢ رقم ٢٧٧٧/٧) من حديث أبي سعيد الخدري. أن رجالاً من المنافقين، في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزوِ تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدِهم خلافَ رسول الله ﷺ فإذا قَدِمَ النبي ﷺ اعتذروا إليه. وأحبُّوا أن يُحمدوا بما لم يفعَلوا. فنزلت: «لا تحسَبَنَّ الذين يفرحون بما أَتَوْا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبَنَّهُمْ بمفازة من العذاب» [آل عمران: ١٨٨].
قلت: يحتمل أن تكون الآية نزلت فيهما جميعاً، وإلاّ فحديث أبي سعيد أرجح، لان حديث ابن عباس مما انتقد على الشيخين. انظر «الإلزامات والتتبع» للإمام أبي الحسن، علي بن عمر الدارقطني (ص٤٩٦ ـ ٤٩٩ رقم ١٧٧) تحقيق وتخريج الشيخ مقبل بن هادي الوادعي. وفتح الباري (٨/ ٢٣٤).

(٣) لم أقف عليه.

أوضاعها[١]. وعن النبي ﷺ «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾

(١٩١) ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه عليه الصلاة والسلام «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»[٣]. وقيل معناه يُصَلّون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين[٤]. «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب تومىء إيماء»[٥]. فهو حجة للشافعي رضي الله عنه في أن المريض يصلي مضطجعاً على جنبه الأيمن مستقبلاً بمقاديم بدنه. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات كما قال عليه الصلاة والسلام «لا عبادة . . . .

---

(١) وتقديم الليل على النهار إما لأنه الأصل فإن غرر الشهور تظهر في الليالي، وإما لتقدمه في الخلقية كما في قوله تعالى: «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار» ـ يس «٣٧» ـ أي نزيله منه فيخلفه (س٢/١٢٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/٨ ـ ٩ رقم ٦١٩) من طريق عثمان بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن زكريا، عن إبراهيم ابن سويد النَّخَعي، حدثنا عبدالملك بن أبي سليمان، عن عطاء، قال: دخلتُ أنا وعُبَيْدُ بن عُميرٍ على عائشة، فقالت لعُبيد بن عُمير: قد آن لكَ أن تزورَنا، فقال: أقولُ يا أُمَّهُ كما قال الأولُ: زُر غِبّاً تَزْدَدْ حباً. قال: قالت: دعُونا من رطانَتِكم هذِهِ. قال ابن عُمير: أخبرينا بأعجب شيءٍ رأيتِهِ من رسول الله ﷺ، قال: فسكتَت، ثم قالت: لما كان ليلةٌ من الليالي، قال: «يا عائشة ذريني أتعبّد الليلة لربي» فذكر الحديث.
وقال الشيخ شعيب في تخريجه (٢/٣٨٧): «إسناده قوى على شرط مسلم، وأخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص١٨٦ عن الفريابي، عن عثمان بن أبي شيبة، بهذا الإسناد.
وله طرق أخرى عن عطاء عند أبي الشيخ ص١٩٠ و١٩١ وفيه أبو جناب الكلبي يحيى بن أبي حية، ضعفوه لكثرة تدليسه، لكن صرح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه» هـ.
وأورده السيوطي في الدر المنثور (٢/٤٠٩) وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التفكر، وابن المنذر، وابن مردويه، والأصبهاني في الترغيب، وابن عساكر.
وانظر «الكافي الشافِ» لابن حجر (رقم: ٢٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٣٠٢) والطبراني في الكبير (٢٠/١٥٧ رقم ٣٢٦) قال ابن حجر في الكافي الشافِ (ص٣٦ رقم ٣٠١): وفي إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

(٤) عمران بن الحصين هو: عمران بن حصين بن عبيد بن خلف، القدوة الإمام، صاحب رسول الله ﷺ، أبو نجيد الخزاعي، أسلم هو وأبوه وأبو هريرة في وقت واحد سنة سبع، وله عدة أحاديث.
توفي سنة اثنتين وخمسين.
[الاستيعاب (٩/١٩) وشذرات الذهب (١/٦٢)].

(٥) أخرجه البخاري (٢/٥٨٧ رقم ١١١٧) وأبو داود (١/٥٨٥ رقم ٩٥٢) والترمذي (٢/٢٠٨ رقم ٣٧٢) وابن ماجة (١/٣٨٦ رقم ١٢٢٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/١٥٥).

كالتفكر»[١]. لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق، وعنه عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً: اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له»[٢]. وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على إرادة القول أي يتفكرون قائلين ذلك، وهذا إشارة إلى المتفكَّر فيه أي الخلق على أنه أريد به المخلوق من السموات والأرض، أو إليهما لأنهما في معنى المخلوق، والمعنى ما خلقتَه عبثاً ضائعاً من غير حكمة بل خلقتَه لحكم عظيمة من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلاً يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض. ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للإخلال بالنظر فيه والقيام بما يقتضيه. وفائدة الفاء هي الدلالة على أن علمَهم بما لأجله خُلِقَت السموات والأرض حَمَلَهم على الاستعاذة.

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ غايةَ الإخزاء، وهو نظيرُ قولهم: من أدرك مَرْعى الصَّمَان فقد أدرك[٣]، والمرادُ به تهويل المستعاذِ منه تنبيهاً على شدة خوفهم وطلبهم الوقاية منه، وفيه إشعار بأن العذاب الروحاني أفظع. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أراد بهم المُدْخَلِين، ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن ظلمهم سببٌ لإدخالهم النار وانقطاعِ النصرة عنهم في الخلاص منها، ولا يلزم من نفي النصرة نفيُ الشفاعة لأن النصر دفعٌ بقهر[٤].

(١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ أوقع الفعل على المُسْمِع وحذف المسموع لدلالة وصْفِه عليه، وفيه مبالغة ليست في إيقاعه على نفس المسموع. وفي تنكير المنادي وإطلاقِه ثم تقييده تعظيمٌ لشأنه، والمرادُ به الرسول عليه الصلاة والسلام[٥] وقيل القرآن، والنداء والدعاء ونحوهما يعدى

---

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/٣٠٧) من حديث علي رضي الله عنه وفيه أبو رجاء محمد بن عبدالله الحبطي، قال عنه ابن حبان: «يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات».

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشافِ (ص٣٦ رقم ٣٠٣): رواه الثعلبي من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة، وفي إسناده من لا يعرف.

(٣) أي فقد أدرك غاية المرعى أو المرعى الكامل...

(٤) صدر الآية بالنداء للمبالغة في التضرع والجؤار. وأكدها بإنّ لإظهار كمال التعيين بمضمونها والإيذان لشدة الخوف. وأظهر النار في موضع الإضمار لتهويل أمرها. وذكر الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين غاية فظاعته (س٢/ ١٣١).

(٥) آثر لفظ المنادي على الداعي للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الداني والقاصي لما فيه من =

بإلى واللام لتضمنها معنى الانتهاء والاختصاص. ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ أي بأن آمنوا فامتثلنا. ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا فإنها ذاتُ تبعة. ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ صغائرنا فإنها مستقبحة، ولكن مُكَفَّرة عن مجتنب الكبائر. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين في زمرتهم، وفيه تنبيه على أنهم محبون لقاء الله، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. والأبرار جمع بَرّ أو بارّ كأرباب وأصحاب.

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي ما وعدتَّنا على تصديقِ رسلك من الثواب. لمّا أظهر امتثاله لما أُمِرَ به سأل ما وُعِدَ عليه لا خوفاً من إخلاف الوعد بل مخافة أن لا يكون من الموعودين لسوء عاقبة أو قصور في الامتثال أو تعبداً واستكانة. ويجوز أن يعلق على بمحذوف تقديره: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً عليهم. وقيل معناه على ألسنة رسلك. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأن تعصمَنا عما يقتضيه. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الميعاد البعث بعد الموت. وتكرير ربَّنا للمبالغة في الابتهال والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها. وفي الآثار: من حزبه أمر فقال خمس مرات ربنا أنْجَاه الله مما يخاف[(١)].

(١٩٥) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى طلبتهم، وهو أخص من أَجَاب ويُعدى بنفسه وباللام[(٢)]. ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أي بأني لا أضيع. وقرىء بالكسر على إرادة القول[(٣)]. ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان عامل. ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ لأن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، أو لأنهما من أصل واحد، أو لفرط الاتصال والاتحاد، أو للاجتماع والاتفاق في الدين. وهي جملة معترِضة بيّن بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال. روي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء. فنزلت[(٤)]. ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ إلخ، تفصيل لأعمال العمال وما أعد

= الإيذان برفع الصوت (س٢/ ١٣٢).

(١) هو من قول جعفر الصادق (روح المعاني ٤/ ١٦٧).

(٢) وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الاستجابة (س٢/ ١٣٣).

(٣) والالتفات هنا إلى التكلم والخطاب لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب (س٢/ ١٣٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٣) والطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢١٥) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٩٤ رقم ٦٥٢) وفي سنده رجل من بني سلمة، وقد بينه الحاكم (٢/ ٣٠٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجه ووافقه الذهبي.

قلت: قال الحافظ في «التقريب (١/ ٣١٧ رقم ٣٧١): «سلمة بن عبدالله بن عمر بن أبي سلمة بن عبدالأسد =

لهم من الثواب على سبيل المدح والتعظيم، والمعنى فالذين هاجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين. ﴿ وَأُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ﴾ بسبب إيمانهم بالله ومن أجله ﴿ وَقَـٰتَلُوا ﴾ الكفار. ﴿ وَقُتِلُوا ﴾ في الجهاد. وقرأ حمزة والكسائي بالعكس لأن الواو لا توجب ترتيباً والثاني أفضل أو لأن المراد لمّا قُتِل منهم قوم قاتل الباقون ولم يضعُفوا. وشدد ابن كثير وابن عامر قُتّلوا للتكثير. ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ لأمحونها. ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي أثيبُهم بذلك إثابةً من عند الله تفضلاً منه، فهو مصدر مؤكد. ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ على الطاعات قادر عليه.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

(١٩٦) ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمتُه، أو تثبيته على ما كان عليه كقوله ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾(١) أو لكل أحد، والنهي في المعنى للمخاطب وإنما جعل للتقلب تنزيلاً للسبب منزلة المسبب للمبالغة، والمعنى لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى من تَبَسُّطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم. روي أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء ولينِ عيشٍ فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد. فنزلت(٢).

(١٩٧) ﴿ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك التقلب متاع قليل لقصر مدته في جنب ما أعد الله للمؤمنين. قال عليه الصلاة والسلام «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدُكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»(٣). ﴿ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي ما مهدوا لأنفسهم.

= المخزومي، وربما نسب إلى جد أبيه، وإلى جده، أخرج له الترمذي حديثاً فلم يسمه، قال: عن رجل من ولد أم سلمة، وسماه الحاكم. مقبول، من الثالثة، لم يذكره المزي» هـ.

قلت: ليس كما قال الحاكم فإن سلمة هذا لم يخرج له سوى الترمذي ولم يوثقه غير ابن حبان. وأما يعقوب بن حميد قال عنه الحافظ في التقريب (٢/ ٣٧٥): «صدوق ربما وهم» ومع ذلك فقد توبع.

● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٢) وأحمد (٦/ ٣٢٢) والحاكم (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

وابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٤٦، ٤٧) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨٠ رقم ٦٠٩) كلهم من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: «ولا تتمنّوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» وعند الطبراني زيادة في آخره «ثم أنزلت» (إني لا أُضِيعُ عملَ عاملٍ) الآية.

والخلاصة أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

(١) القلم: «٨».

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٣٩) بدون إسناد.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٣ رقم ٥٥/ ٢٨٥٨) والترمذي (٤/ ٥٦١ رقم ٢٣٢٢) وابن ماجة (٢/ ١٣٧٦ رقم ٤١٠٨) وأحمد (٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) من حديث ابن شداد.

(١٩٨) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ النُّزُل والنُّزُول ما يعد للنازل من طعام وشراب وصلة قال أبو الشعر الضبي[١]:

وكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا جعَلْنَا القَنَا وَالمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزلا

وانتصابه على الحال من جنات والعامل فيها الظرف. وقيل إنه مصدر مؤكد والتقدير أنزلوها نزلاً[٢]. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لكثرته ودوامه. ﴿خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله.

وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

(١٩٩) ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ نزلت في عبدالله بن سلاّم وأصحابه[٣]. وقيل في أربعين من نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا[٤]. وقيل في أصحمة النَّجاشي لما نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ فخرج فصلى عليه فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلي على عِلْجٍ نصراني لم يره قط[٥]. وإنما دخلت اللام على الاسم للفصل بينه وبين إنّ بالظرف.

---

(١) أبو الشعر الضبي هو: يونس بن حبيب أبو عبدالرحمن الضَّبِّيُّ وقيل الليثيُّ بالولاءِ، إمامُ نُحاةِ البصرة في عصره، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات، كانت حَلْقَتُهُ مجمعَ فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب.... وكان يونسُ عالماً بالشعر نافذ البصر في تمييز جيِّدِهِ من رديئهِ، عارفاً بطبقات شعراء العرب حافظاً لأشعارهم يُرْجَعُ إليه في ذلك كلِّهِ. وكان مولده سنة ثمانين، ومات سنة اثنتين وثمانين ومائةٍ.
[معجم الأدباء (٢٠/ ٦٤ ـ ٦٧ رقم ٣٩)].

(٢) إيراد التقوى في حيز الصلة للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى.
وكذا إيراد البر في قوله «للأبرار» (س٢/ ١٣٥).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢١٩) عن ابن جريج.

(٤) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٤/ ١٧٣) عن عطاء بدون سند.

(٥) ● أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٢١٨) وابن عدي في التكامل (٣/ ١١٧١) من طريق أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن جابر بن عبدالله مرفوعاً، دون قوله: «ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي» وزاد فيه: «وكبر أربعاً».
وفيه أبو بكر الهذلي، قيل اسمه (سلمى بن عبدالله) قال الحافظ في التقريب (٢/ ٤٠١) أخباري متروك الحديث.
● وأخرج الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٣/ ٣٨ ـ ٣٩) ـ عن أبي سعيد الخدري، قال لما قدم على النبي ﷺ وفاه النجاشي قال اخرجوا فصلوا على أخ لكم لم تروه قط فخرجنا وتقدم النبي ﷺ وصففنا خلفه فصلى وصلينا فلما انصرفنا قال المنافقون انظروا إلى هذا خرج فصلى على علج نصراني لم يره قط فأنزل الله «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم». إلى آخر الآية.
قال الهيثمي: وفيه عبدالرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف.
● وأخرج الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٣٦ رقم ٣٦١) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٩) عن وحشي بن حرب قال: لما مات النجاشي قال رسول الله ﷺ لأصحابه إن أخاكم النجاشي قد مات قوموا فصلوا عليه فقال رجل =

﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾ من القرآن. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ من الكتابين. ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ حال من فاعل يؤمن وجمعه باعتبار المعنى ﴿ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ ﴾ كما يفعله المحرِّفون من أحبارهم. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ ما خص بهم من الأجر ووعده في قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ ﴾[1] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ لعلمه بالأعمال وما يستوجبه من الجزاء واستغنائه عن التأمل والاحتياط، والمراد أن الأجر الموعود سريع الوصول فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(٢٠٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ ﴾ على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد. ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ وغالبوا أعداء الله بالصبر على شدائد الحرب وأعدى عدوكم في الصبر على مخالفة الهوى، وتخصيصُه بعد الأمر بالصبر مطلقاً لشدته. ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للغزو، وأنفسكم على الطاعة كما قال عليه الصلاة والسلام «من الرباط انتظار الصلاة بعدالصلاة»[2]. وعنه عليه الصلاة والسلام «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه، لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة»[3]. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ فاتقوه بالتبري عما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح، أو واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المرتبة التي هي الصبر على مضض الطاعات ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات، المعبَّر

= يا رسول الله كيف نصلي عليه وقد مات في كفره فقال «ألا تسمعون إلى قول الله: «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم» إلى آخر الآية.

قال الهيثمي: وفيه سليمان بن أبي داود الحراني وهو ضعيف.

● وأما صلاة النبي ﷺ على النجاشي فقد ثبت. أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١١٦ رقم ١٢٤٥) وأطرافه في: (١٣١٨)، (٧، ١٣)، (٨، ١٣)، (١٣٣٣)، (٣٨٨٠)، (٣٨٨١). ومسلم (٢/٦٥٦ ـ ٦٥٧ رقم ٦٢، ٩٥١/٦٣) من حديث أبي هريرة.

(١) القصص: «٥٤».

(٢) أخرج مسلم (١/٢١٩ رقم ٢٥١/٤١) والترمذي (١/٧٢ رقم ٥١).

عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدُلُّكُم على ما يمحو اللهُ به الخطايا ويرفعُ به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغُ الوُضوءِ على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط».

● ولم أجده بلفظ الكتاب.

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (٣/١٥٢٠ رقم ١٩١٣/١٦٣) عن سلمان، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهر وقيامِهِ. وإن ماتَ، جرى عليه عملُهُ الذي كان يعملُهُ، وأُجْرِيَ عليه رزقُهُ، وأَمِنَ الفتَّانَ».

وأخرجه أحمد في المسند (٥/٤٤٠، ٤٤١) وابن شيبة في المصنف (٥/٣٢٧) (٥/٣٣٧) بألفاظ متقاربة.

عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً على جسر جهنم»[١]. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تجب الشمس»[٢]. والله أعلم.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع:
أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٣٩ ـ ٢٤٠) من طريق أبي الخليل بَزِيع بن حسَّان، ومَخْلَد بن عبدالواحد، كلاهما عن علي بن زيد بن جدعان، عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب مرفوعاً: «من قرأ سورة كذا وكذا، فله كذا وكذا، فذكر سورة سورة».
وقال: «وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك، وفي إسناد الطريق الأول (بَزِيع) قال الدارقطني: وهو متروك، وفي الطريق الثاني (مَخْلَد) بن عبدالواحد قال ابن حبان: منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقاة، وقد اتفق (بَزِيع) و(مَخْلَد) على رواية هذا الحديث عن علي بن زيد، وقد قال أحمد ويحيى: علي بن زيد ليس بشيء. وبعد هذا فنفى الحديث يدل على أنه مصنوع فإنه قد استنفذ السور وذكر في كل واحدة ما يناسبها من الثواب بكلام ركيك في نهاية البزودة لا يناسب كلام رسول الله ﷺ» هـ.
قلت: انظر ترجمة أبي الخليل بزيع بن حسان في «الجرح» (٢/٤٢١) والمجروحين ـ (١/١٩٨ ـ ١٩٩) ـ والميزان (١/٣٠٦).
وترجمة مخلد بن عبدالواحد في «الجرح» (٨/٣٤٨) والمجروحين (٣/٤٣) والميزان (٤/٨٣).
● قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» ص٣١٧: «ولا خلاف بين الحفاظ بأن حديث أبي بن كعب هذا موضوع. وقد اغتر به جماعة من المفسرين فذكروه في تفاسيرهم: كالثعلبي، والواحدي، والزمخشري ولا جرم فليسوا من أهل هذا الشأن» هـ.
● وقال ابن قيم الجوزية في «المنار المنيف» (ص١١٣ رقم ٢٢٦): ومنها ـ أي من الأحاديث التي لم تثبت ـ «ذِكْرُ فضائل السور وثواب من قرأ سورة كذا فله أجْرُ كذا» من أول القرآن لآخره، كما ذكر ذلك الثعلبي والواحديُّ في أول كُلِّ سورة، والزمخشري في آخرها. قال عبدالله بن المبارك: أظنُّ الزنادقة وضعوها.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الطبراني في الكبير (١١/٤٨ رقم ١١٠٠٢) وأورده الهيثمي في المجمع (٢/١٦٨) وابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣١١) من حديث ابن عباس.
قال الهيثمي: وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف جداً.
وقال ابن حجر: إسناده ضعيف.
وحكم عليه المحدث الألباني بالوضع في «الضعيفة» رقم (٤١٥).

سُورَةُ النِّسَاءِ

ترتيبها ٤ — آياتها ١٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب يعم بني آدم. ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم[١]. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ عطف على خلقكم أي خلقكم من شخص واحد وخلق منه أمكم حواء من ضِلع من أضلاعه، أو محذوف تقديره من نفس واحدة خلقها وخلق منها زوجها، وهو تقرير لخَلْقهم من نفس واحدة. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ بيان لكيفية تولدهم منهما، والمعنى ونَشَر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة، واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها، إذ الحكمة تقتضي أن يكنّ أكثر، وذَكَر كثيراً حملاً على الجمع، وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليها، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها. وقرىء وخالقٌ وباثٌّ على حذف مبتدأ تقديره وهو خالق وباث. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي يسأل بعضكم بعضاً تقول أسألك بالله، وأصله تتساءلون فأُدغمت التاء الثانية في السين[٢]. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بطرحها. ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالنصب عَطْفٌ على محلِ الجار والمجرور كقولك: مررت بزيد وعمراً، أو على الله أي اتقوا الله واتقوا الأرحام فَصِلُوها ولا تقطعوها. وقرأ حمزة بالجرّ عطفاً

---

(١) قوله «اتقوا ربكم» تعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب (س٢/ ١٣٧).

(٢) وهذا على قراءة من قرأ بتشديد السين «تسَّاءلون» وهي قراءة الجمهور.

على الضمير المجرور وهو ضعيف لأنه كبعض الكلمة[١]. وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ محذوفُ الخبر تقديره والأرحامُ كذلك، أي مما يُتقى أو يُتساءل به. وقد نبه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحامَ باسمه الكريم على أنّ صلتها بمكانٍ منه. وعنه عليه الصلاة والسلام «الرحم معلقة بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»[٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ حافظاً مطلعاً.

(٢) ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ أي إذا بلغوا، واليتامى جمع يتيم وهو الذي مات أبوه، من اليتم وهو الانفراد. ومنه الدرّة اليتيمة، إما على أنه لما جرى مجرى الأسماء كفارس وصاحب جُمع على يتائم، ثم قُلِب فقيل يتامى أو على أنه جمع على يَتْمَى كأسرى لأنه من باب الآفات. ثم جمع يَتْمى على يتامى كأسرى وأسارى، والاشتقاق يقتضي وقوعه على الصغار والكبار، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ. ووروده في الآية إما للبُلّغ على الأصل أو الاتساع لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يُدْفَعَ إليهم أموالهم أولَ بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد، ولذلك أمر بابتلائهم صغاراً. أو لغير البُلّغ والحُكْم مقيّد فكأنه قال: وآتوهم إذا بلغوا. ويؤيد الأول ما روي: أن رجلاً من غَطَفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال منه فمنعه فنزلت[٣]. فلما سمعها العمّ قال: أطعنا الله ورسوله نعوذ بالله من الحوب الكبير. ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم، أو الأمر الخبيث وهو اختزال أموالهم بالأمر الطيب الذي هو حفظها. وقيل ولا تأخذوا الرفيع من أموالهم وتعطوا الخسيس مكانها، وهذا تبديل وليس بتبدل. ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ ولا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم، أي لا تنفقوهما معاً ولا تسوّوا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام وهو فيما زاد على قدر أجره لقوله تعالى ﴿فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾[٤] ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للأكل. ﴿كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ ذنباً عظيماً. وقرىء حَوْباً وهو مصدر حاب حَوْباً وحَاباً كقال قوْلاً وقالاً[٥].

---

(١) ما ذكره البيضاوي من ضعف قراءة حمزة «والأرحامِ» بالجرّ قول غير مقبول منه.
وقد نقله عن الزمخشري في الكشاف ١/ ٢٤١ وهو مذهب البصريين.
أما حمزة فهو من القراء السبعة المشهورين الذين تلقت الأمة قراءتهم بالقبول. ثم إن هذه القراءة قد قرأ بها غير السبعة كابن مسعود وابن عباس والنخعي والحسن البصري وغيرهم.
وأما ما ذكر من أنه غير موافق للعربية فغير صحيح، بل الصحيح جوازه فقد رجح ابن مالك جوازه واستشهد له بالنثر والنظم. (شرح ابن عقيل ٢/ ٢٤٠) وانظر رد أبي حيان في البحر المحيط ٣/ ١٥٩ على الزمخشري وابن عطية في رد قراءة حمزة.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٤١٧ رقم ٥٩٨٩) عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «الرَّحمُ شِجْنة، فمن وصلها وصلتُه، ومن قطعَها قطعتُه».
ـ وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٨١ رقم ١٧/ ٢٥٥٥) عنها بلفظ الكتاب.

(٣) ذكره الثعلبي عن مقاتل والكلبي وسنده إليهما مذكور في أول الكتاب ـ كما في «الكافي الشافِ» لابن حجر رقم (٣١٥) ـ. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٤٢) من قول مقاتل والكلبي.
قلت: مقاتل والكلبي هما كذابان.

(٤) النساء: «٦».

(٥) في الآية قدم أمر اليتامى للاعتناء بأمرهم ولملابستهم للأرحام، إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلما تفوض الوصاية إلى الأجانب.
=

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ۝٤﴾

(٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أي إن خفتم أن لا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن، إذ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها ضناً بها، فربما يجتمع عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن. أو إن خفتم أن لا تعدلوا في حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضاً أن لا تعدلوا بين النساء فانكحوا مقداراً يمكّنكم الوفاءَ بحقه، لأن المتحرِّج من الذنب ينبغي أن يتحرج من الذنوب كلها على ما روي: أنه تعالى لما عَظَّم أمر اليتامى تحرَّجوا من وَلايتهم وما كانوا يتحرجون من تكثير النساء وإضاعتهن فنزلت[1]. وقيل: كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنى، فقيل لهم إن خفتم أن لا تعدلوا في أمر اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حل لكم. وإنما عبر عنهن بما ذهاباً إلى الصفة أو إجراءً لهنّ مجرى غير العقلاء لنقصان عقلهن، ونظيره ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[2]. وقرىء تَقْسطوا بفتح التاء على أنْ لا مزيدة أي إن خفتم أن تجوروا. ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ معدولة عن أعداد مكررة وهي: ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. وهي غير منصرفة للعدل والصفة فإنها بُنِيَت صفاتٍ وإن كانت أصولُها لم تُبْن لها. وقيل لتكرير العدل فإنها معدولة باعتبار الصفة والتكرير منصوبةً على الحال من فاعل طاب، ومعناها: الإذن لكل ناكح يريد الجمع أن ينكح ما شاء من العدد المذكور متفقين فيه ومختلفين كقولك: اقتسموا هذه البدرة درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، ولو أُفْرِدت كان المعنى تجويز الجمع بين هذه الأعداد دون التوزيع، ولو ذكرت بأوْ لذهب تجويز الاختلاف في العدد. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد أيضاً. ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فاختاروا أو فانكحوا واحدة وذروا الجمع. وقرىء بالرفع على أنه فاعل محذوف أو خبره تقديره فتكفيكم واحدة، أو فالمقنع واحدة. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سوى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السراري لخفة مؤَنهن وعدم وجوب القَسْم بينهن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التقليل منهن أو اختيار الواحدة أو التسرِّي. ﴿أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أقرب من أن لا تميلوا، يقال عال الميزان إذا مال وعال الحاكم إذا جار، وعَوْلُ الفريضة الميْلُ عن حدّ السهام المسمَّاة. وفُسِّر بأن لا تكثُر عيالُكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم إذا مانهم، فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤن على الكناية، ويؤيده قراءة أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عيالُه، ولعل المراد بالعيال الأزواج وإن أريد الأولاد فلأن التسري

= والمراد بإيتاء أموالهم أن يقطع المخاطبون أطماعهم الفارغة عنها. وعبر عنه بالإيتاء مجازاً للإيذان بأنه ينبغي أن يكون مرادهم بذلك إيصالها إليهم لا مجرد ترك التعرض لها (س٢/١٣٩).

(١) أخرجه ابن جرير (٤/٢٣٣ ـ ٢٣٤) عن سعيد بن جبير والسدي وقتادة وابن عباس، وفي سنده عن ابن عباس أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف.

(٢) النساء: «٣».

مظنة قلة الولد بالإضافة إلى التزوج لجواز العزل فيه كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع.

(٤) ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾ مهورهن. وقرىء بفتح الصاد وسكون الدال على التخفيف، وبضم الصاد وسكون الدال، جمع صَدُقة كغرفة، وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدَقة كظُلُمة في ظُلْمة. ﴿نِحْلَةً﴾ أي عطية يقال نَحَله كذا نِحْلة ونُحْلاً إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض، ومن فسرها بالفريضة ونحوها نظر إلى مفهوم الآية لا إلى موضوع اللفظ، ونَصْبُها على المصدر لأنها في معنى الإيتاء أو الحال من الواو، أو الصدقات أي آتوهن صدقاتهن ناحلين أو منحولة. وقيل المعنى نِحْلة من الله وتفضلاً منه عليهن فتكون حالاً من الصدقات. وقيل ديانة من قولهم انتحل فلان كذا إذا دان به على أنه مفعول له، أو حال من الصدقات أي ديناً من الله تعالى شَرَعَه، والخطاب للأزواج، وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور مُوَلّياتهم. ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ للصداق حملاً على المعنى، أو جرى مجرى اسم الإشارة كقول رؤبة:

كأَنَّهُ في الجلْدِ تَوَلِيْعُ البُهَق

إذ سئل فقال: أردت كأنّ ذاك، وقيل للإيتاء، ونفساً تمييز لبيان الجنس ولذلك وحّد، والمعنى فإن وَهَبْن لكم شيئاً من الصداق عن طيب نفس، لكن جَعَلَ العمدة طيبَ النفس للمبالغة وعدّاه بعن لتضمن معنى التجافي والتجاوز، وقال: «منه» بَعْثاً لهنّ على تقليل الموهوب ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً بلا تبعة. والهنيء والمريء صفتان من هنأ الطعام ومرأ إذا ساغ من غير غَصَص، أقيمتا مقام مصدريهما أو وصف بهما المصدر أو جُعلتا حالاً من الضمير. وقيل: الهنيء ما يلذه الإنسان، والمريء ما تحمد عاقبته. روي: أن ناساً كانوا يتأثمون أن يَقْبَل أحدهم من زوجته شيئاً مما ساق إليها. فنزلت[1].

وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾

(٥) ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ نهي للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رَشَد لهم أموالَهم فيضيّعوها، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم، وهو الملائم للآيات المتقدمة والمتأخرة. وقيل نهي لكل أحد أن يعمد إلى ما خوّله الله تعالى من المال فيعطي امرأته وأولاده، ثم ينظر إلى أيديهم. وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقولهم واستهجاناً لجعلهم قُوّاماً على أنفسهم وهو أوفق لقوله[2]: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ أي تقومون بها وتنتعشون، وعلى الأول يؤول بأنها التي من

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٢٤٣) عن المعتمر عن أبيه، به.

(٢) أضاف الأموال إلى الأولياء لا لكونها تحت ولايتهم ـ كما ذكر البيضاوي ـ بل تنزيلاً لاختصاصها بأصحابها مَنْزِلَةَ اختصاصها بالأولياء، فكأن أموالهم عين أموالهم كما في قوله تعالى: «ولا تقتلوا أنفسكم» ـ النساء «٢٩» ـ أي لا يقتل بعضكم بعضاً، حيث عبر عن بني نوعهم بأنفسهم مبالغة في زجرهم. (س٢/ ١٤٤).
إلا أنه تعالى أضاف الأموال إلى اليتامى في قوله «وآتوا اليتامى أموالهم» ـ النساء «٢» ـ ولم يضفه للأولياء مع أن =

جنس ما جعل الله لكم قياماً سمي ما به القيام قياماً للمبالغة. وقرأ نافع وابن عامر قِيَماً بمعناه كعِوَذٍ بمعنى عِيَاذ. وقرىء قِوَاماً وهو ما يقام به. ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه. ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ عدة جميلة تطيب بها نفوسهم. والمعروف ما عرفه الشرع أو العقل بالحُسْن، والمنكر ما أنكره أحدُهما لقبحه.

وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿٧﴾

(٦) ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ اختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين والتهدي إلى ضبط المال وحسن التصرف، بأن يَكِل إليه مقدمات العقد. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى بأن يُدفَع إليه ما يتصرف فيه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ حتى إذا بلغوا حد البلوغ بأن يحتلم، أو يستكمل خمس عشرة سنة عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة كُتِب مالَه وما عليه وأقيمت عليه الحدود»[1]. وثماني عشرة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وبلوغُ النكاح كنايةٌ عن البلوغ، لأنه يصلح للنكاح عنده. ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ فإن أبصرتم منهم رشداً. وقرىء أحستم بمعنى أَحْسَسْتُم. ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ، ونَظْمُ الآيةِ أَنّ إنْ الشرطية جواب إذا المتضمنة معنى الشرط، والجملةُ غاية الابتلاء فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقِهم دَفْعَ أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشْد منهم، وهو دليل على أنه لا يُدفعُ إليهم ما لم يُؤنَس منهم الرشدُ. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا زادت على سن البلوغ سبعُ سنين وهي مدة معتبرة في تغير الأحوال، إذ الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة، دُفِعَ إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد. ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ مسرفين ومبادرين كِبَرَهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كِبَرَهم. ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾ من أكلها. ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بقدر حاجته وأجرة سعيه، ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولي له حق في مال الصبي، وعنه عليه الصلاة والسلام «أن رجلاً قال له إن في حجري يتيماً أفآكل من ماله؟ قال: كُلْ بالمعروف غير متأثِّل مالاً ولا واقٍ مالَك بماله»[2] وإيراد

= الأموال في الصورتين لهم، وذلك للإيذان بترتب الحكم على الوصف فيهما، فإن تسميتهم يتامى هناك يناسب قطع الطمع فيفيد المبالغة في ردّ الأموال إليهم فاقتضى أن يقال «أموالهم»، أما الوصف هنا فهو السفاهة فناسب أن لا يختصوا بشيء من المالكية لئلا يتورطوا في الأموال، فلذلك لم يضف أموالهم إليهم بل أضافها للأولياء (روح المعاني ٤/ ٢٠١).

(١) أخرجه البيهقي في الخلافيات من حديث أنس، وقال: إسناده ضعيف (الفتح السماوي ص٤٥٩).

(٢) وهو حديث حسن.
أخرجه الثعلبي من طريق معاوية بن هشام. حدثنا الثوري عن ابن أبي نجيح عن الحسن العرني عن ابن عباس.

هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهي للأولياء أن يأخذوا وينفقوا على أنفسهم أموالَ اليتامى. ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها فإنه أنفى للتُّهمة وابْعَدُ من الخصومة، ووجوبُ الضمان وظاهرُه يدل على أن القَيِّم لا يَصْدُق في دعواه إلا بالبينة وهو المختار عندنا وهو مذهب مالك خلافاً لأبي حنيفة. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً فلا تخالفوا ما أُمِرتم به ولا تتجاوزوا ما حدَّ لكم.

(٧) ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ يريد بهم المتوارثين بالقرابة. ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل مما ترك بإعادة العامل. ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾(١) أو حال إذ المعنى: ثبت لهم مفروضاً نصيبٌ، أو على الاختصاص بمعنى أعني نصيباً مقطوعاً واجباً لهم، وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقُّه. روي أن أوس بن الصامت الأنصاري خلف زوجتَه أم كُحّة وثلاثَ بنات، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة، أو قتادة وعرفجة ميراثَه عنهن على سُنّة الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون: إنما يرثُ من يحارب ويذبّ عن الحَوْزة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيخ فشكت إليه فقال: ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله. فنزلت فبعث إليهما: لا تُفرقا من مال أوسٍ شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين. فنزلت ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾(٢) فأعطى أمَّ كحة الثمن والبناتِ الثلثين والباقي ابني العم(٣). وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب(٤).

= ورواه عبدالرزاق ـ كما في الدر المنثور (٢/٤٣٧) ـ وابن المبارك في البر والصلة ـ رقم ٢٠٩ ـ والطبري ـ (٣/ج٤/ ٢٦٠) ـ عن سفيان بن عيينة، عن ابن دينار، عن الحسن العرني فذكره مرسلاً. ووقع عند الطبري «الحسن البصري» والصواب «الحسن العرني» وقد كان يرسل عن ابن عباس.
وروى أحمد ـ (٢/ ٢٨٦، ٢١٥) ـ وأبو داود ـ (٣/ ٢٩٢ رقم ٢٨٧٢) ـ والنسائي ـ (٦/ ٢٥٦ رقم ٣٦٦٨) ـ وابن ماجة ـ (٢/ ٩٠٧ رقم ٢٧١٨) ـ وغيرهم من رواية عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: «جاء رجل النبي ﷺ. . . . .» الحديث.
وروى ابن حبان ـ (ص٥٠١ رقم ٢٠٤٨ ـ موارد) ـ من رواية صالح بن رستم، عن عمرو بن دينار عن جابر، قال: قال رجل لرسول الله ﷺ. . . . . الحديث.
وأخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٩٠) في ترجمة صالح بن رستم وهو أبو عامر الخزان وضعفه عن ابن معين. وقال: لم أجد له حديثاً منكراً.
ورواه أبو نعيم في الحلية ـ (٣/ ٣٥١) ـ في ترجمة عمرو بن دينار.
وقال: تفرد به الخزان وهو ثقات البصريين.
«الكافي الشافِ» (رقم: ٣٢٣).

(١) النساء: «١١».

(٢) النساء: «١١».

(٣) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب الفرائض ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٤٣٨) ـ، وابن حجر في الإصابة (١/ ٨٠).
والحديث ضعيف بهذا الإسناد لأن الحافظ صرح بأنه من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، والكلبي متروك.
وانظر كلام ابن حجر في الإصابة (١/ ٨٠) و(٤/ ٤٨٧) «والكافي الشافِ» رقم: ٣٢٦ فإنه مفيد في ذكر الاختلاف في ذلك الصحابي ووفاته وورثته، والاختلاف في سبب نزول هذه الآية.

(٤) قوله «وللنساء نصيب» أورد حكم النساء على الاستقلال ولم يقل للرجال وللنساء لبيان أصالتهن باستحقاق =

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾
وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا
سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا ﴿١٠﴾

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ فأعطوهم شيئاً من المقسوم تطييباً لقلوبهم وتصدقاً عليهم. وهو أمر نُدِب للبُلَّغ من الورثة، وقيل أمر وجوب، ثم اختُلف في نسخه. والضمير لما تَرَك أو ما دل عليه القسمة ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنّوا عليهم.

(٩) ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أمرٌ للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يُفْعَل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم، أو للحاضرين المريضَ عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شَفَقَتَهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضرَّ بهم بصرف المال عنهم، أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم، أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزه، جُعِلَ صلة للذين على معنى ولْيخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ذرية ضعافاً خافوا عليهم الضياع. وفي ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه وبَعْثٌ على الترحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاده وتهديد للمخالف بحال أولاده. ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أَمَرَهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعدما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى إذ لا ينفع الأول دون الثاني، ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب، أو للمريض ما يَصُدُّه عن الإسراف في الوصية وتضييع الورثة ويذكِّره التوبة وكلمة الشهادة، أو لحاضري القسمة عذراً جميلاً ووعداً حسناً، أو أن يقولوا في الوصية ما لا يؤدي إلى مجاوزة الثلث وتضييع الورثة.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ ظالمين، أو على وجه الظلم. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. ﴿نَارًا﴾ ما يجرّ إلى النار ويؤول إليها. وعن أبي بردة[١] رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «يبعث الله قوماً من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً». فقيل: من هم؟ فقال: «ألم تر أن الله يقول: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً»[٢]

= الميراث والإشارة لتفاوت نصيب كل من الفريقين ولإبطال حكم الجاهلية (س٢/١٤٦).

(١) أبو بردة هو: أبو بردة بن نِيَار، بكسر النون بعدها تحتانية خفيفة، البَلَوي، حليف الأنصار، صحابي، اسمه هانيء، وقيل الحارث بن عمرو وقيل مالك بن هبيرة، مات سنة إحدى وأربعين، وقيل بعدها.
[التقريب (٢/ ٣٩٤ رقم ٨)].

(٢) أخرجه ابن حبان (ص٦٣٩ رقم ٢٥٨٠ ـ موارد) وابن أبي شيبة في المسند، وأبو يعلى، والطبراني، =

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سيدخلون ناراً وأيَّ نار!. وقرأ ابن عامر وابن عياش عن عاصم بضم الياء مخففاً، وقرىء به مشدداً[1]، يقال صَلَى النار قاسى حرها وصليته شويتُه وأصليته وصَلَّيته ألقيته فيها، والسعير فعيل بمعنى مفعول من سَعَرت النار إذا ألهبتها.

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾

(١١) ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ يأمرُكم ويعهدُ إليكم. ﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ في شأن ميراثهم، وهو إجمالٌ، تفصيلُهُ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أي يعدّ كل ذكر بأنثيين حيث اجتمع الصنفان فيضعف نصيبُه. وتخصيصُ الذَّكَر بالتنصيص على حظه لأن القصد إلى بيان فضله، والتنبيهُ على أن التضعيف كافٍ للتفضيل فلا يُحْرَمنّ بالكلية وقد اشتركا في الجهة، والمعنى للذكر منهم فحذف للعلم به. ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ﴾ أي إن كان الأولاد نساءً خلصاً ليس معهن ذكر، فَأَنَّث الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات. ﴿فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ خبر ثان، أو صفة للنساء أي نساء زائدات على اثنتين. ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾ المتوفى منكم، ويدل عليه المعنى. ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ أي وإن كانت المولودة واحدة. وقرأ نافع بالرفع على كان التامّة. واختلف في الثنتين فقال ابن عباس رضي الله عنهما حكمُهما حكم الواحدة، لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما، وقال الباقون حكمهما حكم ما فوقهما، لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان. ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد ردّ ذلك بقوله ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها فبالحريّ أن تستحقه مع أخت مثلها. وأن البنتين أَمَسُّ رحماً من الأختين وقد فُرض لهما الثلثين بقوله تعالى ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾[2]. ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾ ولأبوي الميت. ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾ بدل منه بتكرير العامل، وفائدته التنصيصُ على استحقاقِ كل واحد منهما السدس والتفصيلُ بعد الإجمال تأكيداً. ﴿ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ﴾ أي للميت. ﴿وَلَدٞ﴾ ذكر أو أنثى، غيرَ أن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة وما بقي من ذوي الفروض أيضاً بالعُصوبة. ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فَحَسْب. ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ مما ترك. وإنما لم يذكر حصّة الأب لأنه لما فرض أن

= وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور (٢/٤٤٣) ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٢) وعزاه لأبي يعلى والطبراني وقال: فيه زياد بن المنذر وهو كذاب.
انظر ترجمته في (المجروحين) (١/٣٠٦) والجرح والتعديل (٣/٥٤٥).
والتاريخ الكبير للبخاري (٣/٣٧١) والتقريب (١/٢٧٠).

(١) أي (سَيُصْلَوْنَ) وقراءة تشديد اللام أي (سَيُصلُّون).
(٢) النساء: «١١».

الوارث أبواه فقط وعين نصيب الأم عُلِم أن الباقي للأب، وكأنه قال: فلهما ما ترك أثلاثاً، وعلى هذا ينبغي أن يكون لها حيث كان معهما أحد الزوجين ثلث ما بقي من فرضه كما قاله الجمهور، لا ثلث المال كما قاله ابن عباس، فإنه يفضي إلى تفضيل الأنثى على الذكر المساوي لها في الجهة والقُرب وهو خلاف وضع الشرع. ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ بإطلاقه يدل على أن الإخوة يَرُدُّونها من الثلث إلى السدس وإن كانوا لا يرثون مع الأب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم يأخذون السدس الذي حجَبُوا عنه الأم، والجمهور على أن المراد بالإخوة عدد ممن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كان من الإخوة أو الأخوات، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا يحجب الأم من الثلث ما دون الثلاثة ولا الأخوات الخلّص أخذا بالظاهر. وقرأ حمزة والكسائي فلإمّه بكسر الهمزة اتباعاً للكسرة التي قبلها. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها أي هذه الأنصباء للورثة من بعد ما كان من وصية أو دين. وإنما قال بأو التي للإباحة دون الواو للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومنفردين، وقدم الوصية على الدّيْن وهي متأخِّرة في الحكم لأنها مشبَّهة بالميراث شاقة على الورثة مندوب إليها الجميع والديْن إنما يكون على الندور. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بفتح الصاد[1]. ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي لا تعلمون من أنفعُ لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم، فتحروا فيهم ما أوصاكم الله به، ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه. روي أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخَر في الجنة سأَلَ أن يُرفعَ إليه فيرفع بشفاعته. أو من مورثيكم منهم، أو مَنْ أوصى منهم فعرّضكم للثواب بإمضاء وصيته، أو مَنْ لم يوص فوفَّر عليكم ماله، فهو اعتراض مؤكد لأمر القسمة أو تنفيذ الوصية. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد، أو مصدر يوصيكم الله لأنه في معنى يأمركم ويفرض عليكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والرتب. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما قضى وقدر.

۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

(١٢) ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ أي ولد وارث من بطنها، أو من صلب بنيها أو بني بنيها، وإن سفُل ذكراً كان أو أنثى منكم أو من غيركم. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن

(١) أي «يوصَى» بالبناء للمفعول.

كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ فرضَ للرجل بحق الزواج ضِعْفَ ما للمرأة كما في النَّسب، وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا في الجهة والقرب، ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتِق والمعتِقة، وتستوي الواحدة والعدد منهم في الربع والثمن. ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ﴾ أي الميت. ﴿يُورَثُ﴾ أي يورث مِنْهُ مِنْ وَرِثَ صفةُ رجلٍ. ﴿كَلَٰلَةً﴾ خبر كان، أو يورث خبره وكلالة حالٌ من الضمير فيه، وهو من لم يُخَلِّف ولداً ولا والداً، أو مفعول له والمراد بها قرابة ليست من جهة الوالد والولد، ويجوز أن يكون الرجلُ الوارث ويُورَثُ من أَوْرَثَ، وكلالة من ليس له بوالد ولا ولد. وقرىء يورِث على البناء للفاعل فالرجل الميِّت، وكلالة تحتمل المعاني الثلاثة، وعلى الأول خبر أو حال وعلى الثاني مفعول له وعلى الثالث مفعول به، وهي في الأصل مصدر بمعنى الكَلاَل قال الأعشى:

فآلَيْتُ لاَ أرْثِي لَهَا مِنْ كَلاَلَةٍ ولاَ مِنْ حَفَا حَتى أُلاَقِي مُحَمَّداً

فاستعيرت لقرابة ليست بالبعضية، لأنها كالة بالإضافة إليها، ثم وصف بها المورِّث والوارث بمعنى ذي كلالة كقولك فلان من قرابتي. ﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ عطف على رجل. ﴿وَلَهُۥٓ﴾ أي وللرجل، واكتفي بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه. ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي من الأم، ويدل عليه قراءة أبيّ[(١)] وسعد بن مالك وله أخ أو أخت من الأم، وأنه ذكر في آخر السورة أن للأختين الثلثين وللأخوة الكل، وهو لا يليق بأولاد الأم وأن ما قدر ههنا فَرْضُ الأم فيناسب أن يكون لأولادها. ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ سوى بين الذكر والأنثى في القسمة لأنّ الإدلاء بمحض الأنوثة، ومفهوم الآية أنهم لا يرثون ذلك مع الأم والجدة كما لا يرثون مع البنت وبنت الابن فخص فيه بالإجماع. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي غير مضارّ لورثته بالزيادة على الثلث، أو قصد المضارة بالوصية دون القربة والإقرار بديْنٍ لا يلزمُه، وهو حال من فاعل يوصى المذكور في هذه القراءة والمدلول عليه بقوله يوصى على البناء للمفعول في قراءة ابن كثير وابن عامر وابن عياش عن عاصم. ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد أو منصوب بغير مضار على المفعول به، ويؤيده أنه قرىء غير مضارِّ وصيةٍ بالإضافة أي لا يضار وصية من الله، وهو الثلث فما دونه بالزيادة، أو وصية منه بالأولاد بالإسراف في الوصية والإقرار الكاذب. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمضار وغيره. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبته.

---

(١) أبيّ: هو أبيّ بن كعب، أبو المنذر، أو أبو الطفيل، شهد العقبة وبدراً، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة، واختلف في وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر أنه مات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان أبيّ بن كعب سيد القراء، وأحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وأعلم الصحابة بكتاب الله تعالى.
[أسد الغابة (١/ ٤٩ ـ ٥١)].

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

(١٣) ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ﴾ شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١٤) ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ توحيد الضمير في يدخله وجَمْعُ خالدين للّفظ والمعنى[١]. وقرأ نافع وابن عامر نُدْخِلْه بالنون. وخالدين حال مقدرة كقولك: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، وكذلك خالداً وليستا صفتين لجنات وناراً وإلا لوجب إبرازُ الضمير لأنهما جرَيَا على غير من هُما لَهُ.

(١٥) ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ أي يفعلنها، يقال: أتى الفاحشة وجاءها وغَشِيَها ورهقها إذا فعلها، والفاحشة الزنى لزيادة قبحها وشناعتها. ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ﴾ فاطلبوا ممن قَذَفهنّ أربعةً من رجال المؤمنين تشهد عليهن. ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجناً عليهن. ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ يستوفي أرواحهن الموتُ، أو يتوفاهن ملائكةُ الموت. قيل: كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام فنُسخ بالحدّ، ويحتمل أن يكون المراد به التوصيةُ بإمساكهنّ بعد أن يُجْلدن كيلا يجري عليهن ما جرى بسبب الخروج والتعرض للرجال، لم يُذْكَرَ الحدُّ استغناءً بقوله تعالى ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾[٢] ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ كتعيين الحدّ المخلص عن الحبس، أو النكاح المغني عن السفاح.

(١٦) ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ يعني الزانية والزاني. وقرأ ابن كثير واللذانّ بتشديد النون وتمكين مد الألف، والباقون بالتخفيف من غير تمكين. ﴿فَـَٔاذُوهُمَا ۖ﴾ بالتوبيخ والتقريع، وقيل بالتعيير والجَلْد. ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ علةُ الأمر بالإعراض وترك المذمة. قيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولاً وكان عقوبة الزنا الأذى ثم الحبس ثم الجلد. وقيل الأُولى في السَّحَاقات، وهذه في اللوّاطين، والزانية والزاني في الزناة.

---

(١) وذلك أن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس فقال: «خالدين» أما الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة، فقال «خالداً» (س٢/ ١٥٤).

(٢) النور: «٢».

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْـَٰٔنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

(١٧) ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إن قبول التوبة كالمحتوم على الله بمقتضى وعده مِنْ تاب عليه إذا قَبِل توبته. ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ متلبسين بها سفهاً فإن ارتكاب الذنب سفهٌ وتجاهل، ولذلك قيل من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، أي قبل حضور الموت لقوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾[١] وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر»[٢] وسماه قريباً لأن أمد الحياة قريب لقوله تعالى ﴿قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٣]. أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبّه فيطبعَ عليها فيتعذر عليهم الرجوع، ومِنْ للتبعيض أي يتوبون في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به وكَتَب على نفسه بقوله ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ والحكيم لا يعاقب التائب.

(١٨) ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْـَٰٔنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ﴾ سوّى بين من سوف يتوب إلى حضور الموت من الفسقة والكفار وبين من مات على الكفر في نفي التوبة للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة، وكأنه قال وتوبة هؤلاء وعدمُ توبة هؤلاء سواء. وقيل المراد بالذين يعملون السوء عُصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات

---

(١) النساء: «١٨».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٣٠١ ـ ٣٠٢) من حديث أبي أيوب واسمه «بشير بن كعب» وهو تابعي. فالحديث مرسل.

● وأخرج الترمذي (٥/٥٤٧ رقم ٣٥٣٧) وابن ماجة (٢/١٤٢٠ رقم ٤٢٥٣) والحاكم (٤/٢٥٧) وأحمد (٢/١٣٢، ١٥٣) كلهم من طريق عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن ابن عمر، وإلا عند ابن ماجة عن (عبدالله بن عمرو بن العاص) وقال المزي: هذا وهم ـ تحفة الأشراف (٥/٣٢٨) ـ.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/٣٤٨ رقم ١٥٢٣): «هذا إسناد ضعيف لتدليس الوليد ومكحول الدمشقي. . .» هـ.

وللحديث شاهدين:

(الأول): أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٣٠١) عن الحسن مرسلاً.

(والثاني): أخرجه أحمد (٥/١٧٤) والحاكم (٤/٢٥٧) من حديث أبي ذر مرفوعاً.

قلت: فبهذين الشاهدين يرتقي حديث ابن عمر إلى درجة الحسن والله أعلم.

(٣) النساء: «٧٧».

المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم، وبالذين يموتون الكفار. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تأكيد لعدم قبول توبتهم وبيانُ أن العذاب أعده لهم لا يعجزه عذابهم متى شاء، والاعتداد التهيئة من العتاد وهو العدة، وقيل أصله أعددنا فأبدلت الدال الأولى تاء[1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾ كان الرجل إذا مات وله عصبة ألقى ثوبه على امرأته وقال: أنا أحق بها ثم إن شاء تزوجها بصَدَاقها الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عَضَلها لتفتدي بما ورثت من زوجها، فنهوا عن ذلك. وقيل: لا يحل لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث فتتزوجوهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه. وقرأ حمزة والكسائي كُرْهاً بالضم في مواضعه وهما لغتان، وقيل بالضمّ المشقة وبالفتح ما يُكره عليه. ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ عطف على أن ترثوا، ولا لتأكيد النفي أي ولا تمنعوهن من التزويج، وأصل العَضْل التضييق يقال عَضَلَت الدجاجةُ ببيضها. وقيل الخطاب مع الأزواج كانوا يحبسون النساء من غير حاجة ورغبة حتى يرثوا منهن أو يختلعن بمهورهن. وقيل تم الكلام بقوله كَرْهاً ثم خاطب الأزواج ونهاهم عن العضل[2]. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف، والاستثناء من أعمِّ عامّ الظرف أو المفعول له تقديره ولا تعضلوهن للافتداء إلا وقت أن يأتين بفاحشة، أو ولا تعضلوهن لعلة إلا أن يأتين بفاحشة. وقرأ ابن كثير وأبو بكر مُبَيَّنة هنا وفي الأحزاب والطلاق بفتح الياء والباقون بكسرها فيهن. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ بالإنصاف في الفعل والإجمال في القول. ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي فلا تفارقوهن لكراهة النفس فإنها قد تكره ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً، وقد تحب ما هو بخلافه. وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير، وعسى في الأصل علة الجزاء فأقيم مقامَه. والمعنى فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

(٢٠) ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ تطليق امرأة وتزوُّج أخرى. ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أي إحدى الزوجات، جَمَع الضمير لأنه أراد بالزوج الجنس. ﴿قِنطَارًا﴾ مالاً كثيراً. ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ

(١) الإشارة بأولئك لبيان بعد منزلتهم في السوء. وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بكون العذاب معداً لهم. وتنكيرُ العذاب ووصفُه للتفخيم الذاتي والوصفي (س٢/١٥٧).

(٢) وعبر عنه بالإذهاب لا بالأخذ للمبالغة في تقبيحه ببيان تضمنه لأمرين كل منهما محظور وهما الأخذ والإذهاب منهن لأنه عبارة عن الذهاب مستَصحباً به (س٢/١٥٨).

شَيْـًٔا﴾ أي من قنطار. ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ استفهام إنكارٍ وتوبيخ، أي أتأخذونه باهتين وآثمين، ويحتمل النصب على العلة كما في قولك: قعدت عن الحرب جبناً، لأن الأخذ بسبب بهتانهم واقترافهم المآثم. قيل لكان الرجل منهم إذا أراد امرأة جديدة بَهَت التي تحته بفاحشة حتى يُلْجِئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليَصْرِفه إلى تزوج الجديدة، فنُهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذي يَبْهَتُ المكذوب عليه، وقد يستعمل في الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

(٢١) ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إنكار لاسترداد المهر، والحالُ أنه وصل إليها بالملامسة ودخل بها وتقرر المهر. ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو حق الصحبة والممازحة، أو ما أوثق الله عليهم في شأنهن بقوله ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾[١] أو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[٢].

(٢٢) ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ ولا تنكحوا التي نكحها آباؤكم، وإنما ذكر «ما» دون «مِنْ» لأنه أريد به الصفة، وقيل ما مصدرية على إرادة المفعول من المصدر. ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان ما نكح على الوجهين. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ﴾ استثناء من المعنى اللازم للنهي وكأنه قيل: وتستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف، أو مِنَ اللفظِ للمبالغة في التحريم والتعميم كقوله:

---

(١) البقرة: «٢٢٩».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٨٨٩ رقم ١٤٧/١٢١٨) في سياق حديث حجة النبي ﷺ، الطويل. من حديث جابر.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ج٤/٣١١) مقتصراً على ما يتعلق بالنساء من حديث جابر أيضاً.
● وأخرجه البزار (٢/ ٣٤ ـ كشف الأستار) أثناء حديث خطبة منى.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٣١١) في سياق طويل.
من رواية موسى بن عبيدة الربذي ـ أحد الضعفاء ـ عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر، رفعه: «أيها الناس إن النساء عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».
وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٦٨) وقال: رواه البزار وفيه عبيدالله بن موسى وهو ضعيف.
ـ العوان: جمع عانية وهي الأسيرة. [النهاية مادة: عنا]
ـ كلمة الله: قيل: معناه قوله تعالى «بإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»، وقيل: المراد بكلمة التوحيد إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم.
وقيل قوله: قوله تعالى «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» وهذا الثالث هو الصحيح. [صحيح مسلم بشرح النووي (٨/ ١٨٣)].

ولاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيرَ أَنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

والمعنى ولا تنكِحوا حَلائلَ آبائكم إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تنكحوهن، وقيل الاستثناء منقطع ومعناه لكن ما قد سلف فإن لا مؤاخذة عليه لأنه مقرر. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ علة للنهي أي إن نكاحَهن كان فاحشة عند الله ما رخَّص فيه لأمةٍ من الأمم، ممقوتاً عند ذوي المروءات ولذلك سمي ولد الرجل من زوجة أبيه المَقْتِيّ ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ سبيلُ من يراه ويفعلُه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

(٢٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن، لأنه معظم ما يُقصد منهن، ولأنه المتبادر إلى الفهم كتحريم الأكل من قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ ولأن ما قبله وما بعده في النكاح. وأمهاتُكم تعمُّ مَنْ ولدَتْكَ أو ولَدتْ من وَلَدكَ وإن عَلَتْ، وبناتُكم تتناول من وَلَدْتَها أو وَلَدتَ مَنْ وَلَدَها وإن سفُلت، وأخواتُكم الأخوات من الأوجهِ الثلاثة، وكذلك الباقيات، والعمةُ كل أنثى وَلَدهَا مَنْ وَلَدَ ذَكَراً وَلَدَكَ، والخالةُ كل أنثى وَلَدهَا مَنْ وَلَدَ أنثى وَلَدَتْكَ قريباً أو بعيداً، وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القُربى والبُعدى. ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ نَزَّلَ اللهُ الرَّضاعة منزلةَ النسب حتى سمّى المرضِعَةَ أمّاً والمُرْضَعَةَ أختاً، وأَمَرُها على قياس النسب باعتبار المُرْضِعَة ووالدِ الطفل الذي دَرَّ عليه اللبن، قال عليه الصلاة والسلام: «يَحْرُم من الرَّضاع ما يحرم من النسب»[1]. واستثناء أخت ابن الرجل وأمِّ أخيه من الرضاع من هذا الأصل ليس بصحيح فإن حُرمتُهما من النسب بالمصاهرة دون النسب. ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ ذَكَر أولاً محرمات النسب، ثم محرمات الرضاعة لأن لها لُحمةً كلُحمة النسب، ثم محرمات المصاهرة فإن تحريمهن عارض لمصلحة الزواج. والربائبُ جمع ربيبة، والربيبُ ولد المرأة من آخَر سمّي به لأنه يَرُبُّه كما يَرُبّ ولدَه في غالب الأمر، فعيل بمعنى مفعول، وإنما لحقه التاء لأنه صار اسماً، ومن نسائكم متعلق بربائبكم، واللاتي بصِلتِها صفةٌ لها مقيِّدة للفظ والحُكم بالإجماع قضية للنظم،

---

(١) أخرجه البخاري (٥/٢٥٣ رقم ٢٦٤٦) و (٦/٢١١رقم ٣١٠٥) و (٩/١٣٩ رقم ٥٠٩٩) ومسلم (٢/١٠٦٨ ـ ١٠٧٠ رقم ١، ٢، ٩/١٤٤٤) من حديث عائشة.

وأخرجه البخاري (٥/٢٥٣رقم ٢٦٤٥) ومسلم (٢/١٠٧١ ـ ١٠٧٢ رقم ١٢، ١٣/١٤٤٧) من حديث ابن عباس.

ولا يجوز تعليقُها بالأمهات أيضاً لأنّ مِنْ إذا علقتَها بالربائب كانت ابتدائيةً وإذا علقتها بالأمهات لم يُجْزَ ذلك بل وجَبَ أن يكون بياناً لنسائكم، والكلمةُ الواحدة لا تُحمَل على معنيين عند جمهور الأدباء اللهم إذا جعلتها للاتصالِ كقوله:

إذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُوراً فَإنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي

على معنى أن أمهاتِ النساء وبناتهن متصلات بهن، لكنّ الرسول ﷺ فرق بينهما فقال في رجل تزوج امرأة وطلقها قبل أن يَدخل بها «إنه لا بأس أن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها»[(١)]، وإليه ذهب عامة العلماء، غير أنه روي عن علي رضي الله تعالى عنه تقييدُ التحريم فيهما. ولا يجوز أن يكون الموصول الثاني صفة للنساءَيْن لأن عاملهما مختلف ـ وفائدة قوله في حجوركم تقويةُ العلة وتكميلها ـ والمعنى أن الربائب إذا دخلتم بأمهاتهن وهن في احتضانكم أو بصدده تقوى الشُّبَهُ بينها وبين أولادكم وصارت أحقاء بأن تُجْروها مجراهم لا تقييد الحرمة، وإليه ذهب جمهور العلماء، وقد روي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه جعله شرطاً، والأمهات والربائب يتناولان القريبة والبعيدة. وقوله دخلتم بهن أي دخلتم معهن الستْر وهي كناية عن الجماع، ويؤثِّرُ في حرمة المصاهرة ما ليس بزنا كالوطء بشبهة أو ملك يمين، وعند أبي حنيفة لمس المنكوحة ونحوه كالدخول. ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس. ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ زوجاتهم، سميت الزوجة حليلة لحِلِّها أو لحلولها مع الزوج. ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ احتراز عن المتبنين لا عن أبناء الولد ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ في موضع الرفع عطفاً على المحرمات، والظاهرُ أن الحرمة غير مقصورة على النكاح فإن المحرمات المعدودة كما هي محرمة في النكاح فهي محرمة في ملك اليمين، ولذلك قال عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما: حرّمتْهما آيةٌ وأحلّتهما آية[(٢)]، يعنيان هذه الآية وقولَه ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، فرجّح علي كرم الله وجهه التحريمَ وعثمانُ رضي

(١) أخرجه أبو قرّة موسى بن طارق الزَّبِيْدي ـ ثقة يغرب (التقريب: ٢/ ٢٨٤) ـ في السنن، قال ذكر المثنى بن الصباح ـ ضعيف اختلط بآخره (التقريب: ٢/ ٢٢٨) ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. رفعه «أيما رجل نكح امرأة فدخل بها فلا يحل له نكاح ابنتها وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها. وأيما رجل نكح امرأة فدخل بها أو لم يدخل فلا يحل له نكاح أمها».
وأخرجه أبو يعلى والبيهقي ـ في السنن الكبرى (٧/ ١٦٠) ـ من طريق ابن المبارك عن المثنى به. والمثنى ضعيف.
لكن رواه الترمذي ـ في السنن (٣/ ٤٢٥ رقم ١١١٧) ـ والبيهقي ـ (٧/ ١٦٠) ـ أيضاً من طريق ابن لهيعة عن عمرو به. وقال: لا يصح، وإنما يرويه المثنى وابن لهيعة وهما ضعيفان.
ويشبه أن يكون ابن لهيعة أخذه عن المثنى لأن أبا حاتم قال ـ في المراسيل ص١١٤ ـ لم يسمع ابن لهيعة بن عمرو بن شعيب شيئاً.
فلهذا لم يرتق هذا الحديث إلى درجة الحسن.
[انظر «الكافي الشاف» (رقم: ٣٣٧)].
(٢) حديث عثمان أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٥٣٨ ج٣٤) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٦٩) والدارقطني في السنن (٣/ ٢٨١). أما حديث علي فرواه البزار (كشف الأستار ٢/ ١٦٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٦٩) =

الله عنه التحليلَ، وقولُ عليٍّ أظهَرُ لأن آية التحليل مخصوصة في غير ذلك ولقوله عليه الصلاة والسلام «ما اجتمع الحلال والحرام إلا غلب الحرام»(١). ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء من لازمِ المعنى، أو منقطعٌ معناه لكن ما قد سلف مغفور لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

(٢٤) ﴿۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ذواتُ الأزواج، أحصنهن التزويج أو الأزواج. وقرأ الكسائي بكسر الصاد في جميع القرآن لأنهن أحْصَنّ فروجَهن. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سُبِين ولهن أزواج كفار فهن حلالٌ للسابين، والنكاحُ مرتفِع بالسبْيِ لقول أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أصبنا سبايا يوم أوطاس(٢) ولهن أزواج كفار، فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ﷺ، فنزلت الآية فاستحللناهنّ(٣). وإياه عنى الفرزدقُ بقوله:

وذَاتِ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ

وقال أبو حنيفة: لو سُبِيَ الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تَحُلّ للسابي. وإطلاق الآية والحديث حجة عليه. ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ مصدر مؤكد، أي كَتَبَ الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً. وقرىء كُتُبُ الله بالجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم، وكَتَبَ اللهُ بلفظ الفعل. ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ عطف على الفعل المضمر الذي نَصَبَ كتاب الله(٤). وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم على البناء للمفعول عطفاً على حرمت. ﴿مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ما سوى المحرمات الثمان المذكورة. وخُصَّ عنه بالسنة ما في معنى المذكورات، كسائر محرمات الرضاع والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها. ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ مفعول له والمعنى أحِل لكم ما وراء ذلكم إرادة أن تبتغوا النساء بأموالكم بالصرف في مهورهن، أو أثمانَهن في حال كونكم محصِنين غير مسافحين، ويجوز أن لا يُقدَّر مفعول تبتغوا وكأنه قيل إرادة أن تصرفوا أموالكم محصنين غير مسافحين، أو بدل مما وراء ذلك بدل الاشتمال. واحتج به الحنفية على أن المهر لا بد وأن يكون مالاً، ولا حُجة فيه. والإحصانُ العفة فإنها تحصين

= وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (المجمع ٤/ ٢٦٩).

(١) قال الولي العراقي: لا أصل لهذا الحديث (الفتح السماوي ص٤٧٤) وكذا قال البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٦٩) وقد رواه عبدالرزاق في المصنف (٧/ ١٩٩ ج١٢٧٧٢) موقوفاً.

(٢) أوطاس هو واد في ديار هوازن جنوبي مكة بنحو ثلاث مراحل، وكان يوم أوطاس في شوال بعد فتح مكة بنحو شهر (المصباح المنير مادة وطس).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص١٠٩ ولباب النقول ص٢٢١.

(٤) وهذا على معنى من قرأ «وأَحَلّ» بالبناء للفاعل وقد قرىء بها (المبسوط ص١٥٦).

للنفس عن اللوم والعقاب، والسفاح الزنا من السَّفْح وهو صبُّ المني فإنه الغرض منه. ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ فمَنْ تمتعتم به من المنكوحات، أو فما استمعتم به منهن من جماع أو عُقِد عليهن. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن فإن المهر في مقابلة الاستمتاع. ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة، أو صفة مصدر محذوف أي إيتاءً مفروضاً، أو مصدرٌ مؤكِّد. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ فيما يزاد على المسمّى أو يحط عنه بالتراضي، أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فِراق. وقيل: نزلت الآية في المُتْعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول: «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة»[١]، وهي النكاح المؤقت بوقت معلوم سمي بها، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة أو تمتيعها بما تعطي. وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٢٥ رقم ٢١/ ١٤٠٦) من رواية الرَّبيع بن سَبْرة الجُهَني عن أبيه.
وزاد «فمن كان عِنْدَهُ منهنَّ شيءٌ فليُخَلِّ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهُنَّ شيئاً».
● وأما قوله: ثم أصبح: لم يُرِد به أنه قال ذلك صبيحة الليلة التي أباحه قبلها بيوم، بل أراد أنه قال ذلك صباحاً («الكافي الشافِ» رقم: ٣٤١).

(٢) أما رجوعه عن المتعة، فحديثه ضعيف.
أخرجه الترمذي (٣/ ٤٣٠ رقم ١١٢٢) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٨٩ رقم ١٠٧٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦) كلهم من طريق موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف.
● وأما قوله: «اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة» فلم أجده. قاله ابن حجر في «الكافي الشافِ» (رقم: ٣٤٤).
● وإليك بعض أدلة تحريم نكاح المتعة:
١ ـ روى سَبْرة الجُهَنِيُّ قال: «أذن لنا رسولُ اللهِ ﷺ في المُتْعَةِ، فلم يخرج من مكة حتى حرَّمَها رسول الله ﷺ» وهو حديث صحيح.
أخرجه مسلم (٢/ ١٠٢٦، ١٠٢٧ رقم ٢٤، ٢٥، ٢٦، ١٤٠٦/٢٨) وأحمد في المسند (٣/ ٤٠٤) والدارمي (٢/ ١٤٠) وأبو داود (٢/ ٥٥٨، ٥٥٩ رقم ٢٠٧٢، ٢٠٧٣) والنسائي (٦/ ١٢٦، ١٢٧) وابن ماجة (١/ ٦٣١ رقم ١٩٦٢) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٦٩٨ ورقم ٦٩٩) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٦٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠٢، ٢٠٣) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٠٥، ١٠٦) من طرق عنه.
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى عن المتعة يوم خيبر» أخرجه البخاري (٧/ ٤٨١ رقم ٤٢١٦) ومسلم (٢/ ١٠٢٧، ١٠٢٨ رقم ٢٩، ٣٢/ ١٤٠٧) والترمذي (٣/ ٤٢٩ رقم ١١٢١) والنسائي (٦/ ١٢٥، ١٢٦) وابن ماجة (١/ ٦٣٠ رقم ١٩٦١) ومالك في الموطأ (٢/ ٥٤٢ رقم ٤١) والطيالسي في المسند (ص١٨ رقم ١١١) وأحمد في المسند (١/ ٧٩) والدارمي (٢/ ١٤٠) وابن الجارود في المنتقى رقم (٦٩٧) والدارقطني في السنن (٣/ ٢٥٧ رقم ٥١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٧٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠١) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٨٠٢) من طرق عنه..
قال ابن الجوزي في «أخبار أهل الرسوخ» بتحقيقنا (رقم ١٥): الأحاديث متفقة على نسخ المتعة، إلاَّ أن الأوائل تدل على وقوع التحريم بمكة. وحديث علي يدل على أن ذلك كان بخيبر وهو متقدم...
«وقال المازري: واختلفت الرواية في صحيح مسلم في النهي عن المتعة ففيه أنه ﷺ نهى عنها يوم خيبر، وفيه أنه نهى عنها يوم فتح مكة فإن تعلق بهذا من أجاز نكاح المتعة وزعم أن الأحاديث تعارضت، وأن هذا الاختلاف=

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرع من الأحكام.

(٢٥) ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ غنًى واعتلاءً، وأصلُه الفضل والزيادة. ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ في موضع النصب بطولاً، أو بفعل مقدَّرٍ صفةً له أي ومن لم يستطع منكم أن يعتلي نكاح المحصنات أو من لم يستطع منكم غنًى يبلُغ به نكاحَ المحصنات يعني الحرائر لقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني الإماء المؤمنات. فظاهرُ الآية حجة للشافعي رضي الله تعالى عنه في تحريم نكاح الأمة على من مَلَكَ ما يجعلُه صداق حرة، ومَنْعُ نكاح الأمة الكتابية مطلقاً، وأوّلَ أبو حنيفة رحمه الله تعالى طَوْلَ المحصَنات بأن يملِكَ فراشهن، على أن النكاح هو الوطء وحَمَل قوله ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾[1] على الأفضل، كما حمل عليه في قوله ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ومِنْ أصحابِنا مَنْ حمله أيضاً على التقييد وجوّز نكاح الأمة لمن قدر على الحرة الكتابية دون المؤمنة حذراً عن مخالطة الكفار وموالاتهم، والمحذور في نكاح الأَمَة رقُّ الولد وما فيه من المهانة ونقصان حق الزوج. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم﴾ فاكتفوا بظاهر الإيمان فإنه العالم بالسرائر وبتفاضل ما بينكم في الإيمان، فربّ أَمَةٍ تفضُل الحرة فيه، ومن حقكم أن تعتبروا فضل الإيمان لا فضل النسب، والمراد

= قادح فيها. قلنا: هذا الزعم خطأ وليس هذا تناقضاً لأنه يصح أن ينهى عنه في زمن ثم ينهى عنه في زمن آخر توكيداً أو ليشتهر النهي ويسمعه من لم يكن سمعه أولاً فسمع بعض الرواة النهي في زمن وسمعه آخرون في زمن آخر فنقل كلاً منهم ما سمعه وأضافه إلى زمان سماعه» اهـ أورده النووي في شرح مسلم (٩/ ١٧٩).

«وأما قول الله عز وجل في سورة النساء (الآية: ٢٤) ـ بعقب ما حرم من النساء ـ فقال: «وأُحِلَّ لكم ما وراءَ ذلِكُمْ أن تبتغُوا بأموالكم محصنينَ غير مسافحين ـ أي عاقدي النكاح الحلال غير زناة ـ فما استمتعتم به منهنَّ فآتوهُنَّ أجُورَهنَّ فريضةً». فإن الزجاج ذكر أنَّ هذه آية غلط فيها قوم غلطاً عظيماً لجهلهم باللغة، وذلك أنهم ذهبوا إلى قوله «فما استمتعتم به منهنَّ» من المتعة التي قد أجمع أهل العلم أنها حرام، وإنما معنى فما استمتعتم به منهنَّ، فما نكحتم منهن على الشريعة التي جرى في الآية أنه الإحصان أن تبتغوا بأموالكم محصنين أي عاقدين التزويج أي فيما استمتعتم به منهـن على عقد التزويج الذي جرى ذكره فآتوهنَّ أجورهنَّ فريضة أي مهورهن، فإن استمتع بالدخول بها أتى المهر تاماً، وإن استمتع بعقد النكاح أتى نصف المهر.

قال الأزهري: المتاع في اللغة كل ما انتفع به فهو متاع، وقوله «ومتعوهُنَّ على الموسِع قَدَرُهُ» ـ [البقرة: ٢٣٦] ـ ليس بمعنى رودوهنَّ المُتَعَ، إنما معناه أعطوهن ما يَسْتمتِعْنَ، وكذلك قوله: «وللمطلقاتِ متاعٌ بالمعروف» ـ [البقرة: ٢٤١] ـ قال: ومن زعم أن قوله فما استمتعتم به منهن التي هي الشرط في التمتع الذي يفعله الرافضة، فقد أخطأ خطأ عظيماً لأن الآية واضحة بينة» اهـ ذكره ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ١٤ ـ ١٥).

(١) النساء: «٢٥».

تأنيسهم بنكاح الإماء ومنعهم عن الاستنكاف منه، ويؤيده: ﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ أنتم وأرقاؤكم متناسبون نَسَبُكم من آدم ودينكم الإسلام. ﴿ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ يريد أربابهن، واعتبارُ إذنهم مطلقاً لا إشعار له على أنّ لهنّ أنْ يباشرْن العقد بأنفسهم حتى يحتج به الحنفية. ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي أدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن، فحُذِف ذلك لتقدم ذكره، أو إلى مواليهن فحُذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لأنه عِوَضُ حقِّه فيجب أن يؤدى إليه، وقال مالك رضي الله عنه: المهر للأمة، ذهاباً إلى الظاهر ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بغير مطل وإضرار ونقصان. ﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾ عفائف. ﴿ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾ غير مجاهرات بالسفاح. ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ أخِلاّء في السرّ ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ ﴾ بالتزويج. قرأ أبو بكر وحمزة بفتح الهمزة والصاد والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد. ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ﴾ زنًى. ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ ﴾ يعني الحرائر. ﴿ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ من الحدّ لقوله تعالى ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] وهو يدل على أن حد العبد نصفُ حدِّ الحر، وأنه لا يُرجم لأن الرجم لا يتنصف. ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي نكاح الإماء. ﴿ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ﴾ لمن خاف الوقوع في الزنى، وهو في الأصل انكسار العَظْم بعد الجَبْر، مستعار لكل مشقة وضرر ولا ضررَ أعظمُ من مواقعة الإثم بأفحش القبائح. وقيل: المراد به الحد وهذا شرط آخر لنكاح الإماء. ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي وصبركم عن نكاح الإماء متعففين خير لكم. قال عليه الصلاة والسلام «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاكه»[٢]. ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن لم يصبر. ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بأن رَخَّص له.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٦)

(٢٦) ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ما تعبدكم به من الحلال والحرام، أو ما خفي عنكم من مصالحكم ومحاسن أعمالكم، وليبين مفعول يريدُ، واللام زيدت لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة كما في قول قيس بن سعد[٣].

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ ... سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ

وقيل المفعول محذوف، وليبينَ مفعول له أي يريد الحق لأجله. ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ مناهج مَنْ تقدمكم من أهل الرشد لتسلكوا طرقهم. ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم، أو يرشدكم إلى ما يمنعكم عن المعاصي ويحثكم على التوبة، أو إلى ما يكون كفارةً لسيئاتكم. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بها ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في وضعها.

---

(١) النور: «٢».

(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير رقم (٣٨١١) للديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، ورمز لضعفه.
وقال المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٣/ ٤١١): قال السخاوي وغيره وفيه متروك.
وحكم الألباني على الحديث بالوضع في «ضعيف الجامع الصغير» (٣/ ١١٠ رقم ٢٧٧٦).

(٣) هو قيس بن سعد بن عبادة، الأمير المجاهد أبو عبدالله سيد الخزرج وابن سيدهم أبي ثابت الأنصاري الخزرجي الساعدي صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه له عدة أحاديث.
وتوفي في آخر خلافة معاوية رضي الله عنه [أسد الغابة (٤/ ٤٢٤) الجرح والتعديل (٧/ ٩٩)].

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ كرره للتأكيد والمبالغة. ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ يعني الفجرة فإن اتباع الشهوات الائتمار لها، وأما المتعاطي لما سوَّغه الشرع منها دون غيره فهو متبع له في الحقيقة لا لها. وقيل: المجوس. وقيل: اليهود فإنهم، يُحِلون الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت. ﴿ أَن تَمِيلُواْ ﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات. ﴿ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾ بالإضافة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندور غير مستحلّ لها[(١)].

(٢٨) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ ﴾ فلذلك شرع لكم الشِّرْعة الحنيفية السمحة السهلة، ورخص لكم في المضايق كإحلال نكاح الأَمَة. ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأُمَّة مما طلعت عليه الشمس وغربت، هذه الثلاث و﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ ﴾[(٢)]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾[(٣)]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ ﴾[(٤)]، ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾[(٥)]، ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ ﴾[(٦)].[(٧)]

(٢٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ بما لم يبحه الشرعُ كالغصب والربا والقمار. ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ﴾ استثناء منقطع أي ولكن كونُ تجارةٍ عن تراض غيرُ منهي عنه، أو اقصدوا كونَ تجارة وعَنْ تراضٍ صفةٌ لتجارةٍ أي تجارة صادرة عن تراضي المتعاقدين، وتخصيصُ التجارة من الوجوه التي بها يَحِل تناول مال الغير لأنها أغلب وأرفق لذوي المروءات، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقاً. وقيل: المراد بالنهي المنعُ عن صرف المال فيما لا يرضاه الله، وبالتجارة صرفهُ فيما يرضاه. وقرأ الكوفيون تجارةً بالنصب على كان الناقصة وإضمار الاسم أي إلا أن تكون التجارةُ أو الجهة تجارةً. ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ بالبخع كما تفعله جَهَلة الهند أو بإلقاء النفس إلى التهلُكة، ويؤيده ما روي: أن عمرو بن العاص تأوَّله التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي

---

(١) غير الأسلوب بين الجملتين «والله يريد»... «ويريد الذين» فالأولى اسمية للدلالة على استمرار الإرادة، والثانية فعلية للدلالة على حدوثها وللمباينة بين الإرادتين (س٢/ ١٦٩).

(٢) النساء: «٣١».

(٣) النساء: «٤٨».

(٤) النساء: «٤٠».

(٥) النساء: «١٢٣».

(٦) النساء: «١٤٧».

(٧) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٤٥) عن ابن عباس وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٦٨ رقم ٢٤٢٥) عن ابن مسعود وفيه «خمس آيات» وفي إسناده رجل لم يسم. =

ﷺ[١]، أو بارتكاب ما يؤدي إلى قتلها، أو باقتراف ما يُذلها ويُرْديها فإنه القتل الحقيقي للنفس. وقيل المراد بالأنفس مَنْ كان من أهل دينهم، فإن المؤمنين كنفس واحدة. جَمَعَ في التوصية بين حفظ النفس والمال الذي هو شقيقُها من حيث إنه سببُ قوامها استبقاء لهم ريثما تُستكمل النفوس وتستوفي فضائلُها رأفة بهم ورحمة[٢]، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أمر ما أمر ونهى عما نهى لفَرْط رحمته عليكم. وقيل: معناه إنه كان بكم يا أمة محمد رحيماً لِمَا أمر بني إسرائيل بقتل الأنفس ونهاكم عنه.

وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾

(٣٠) ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القتل، أو ما سبق من المحرمات. ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق وإتياناً بما لا يستحقه. وقيل أراد بالعدوان التعدي على الغير، وبالظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب. ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾ ندخلُه إياها. وقرىء بالتشديد من صَلَّى، وبفتح النون من صَلاَه يَصْليه ومنه شاة مصلية، ويُصْلِيه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث إنه سبب الصلي. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه.

(٣١) ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، وقرىء كبيرَ على إرادة الجنس. ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ نغفر لكم صغائركم ونمحها عنكم.

واختُلف في الكبائر، والأقربُ أن الكبير كلُّ ذنب رتب الشارع عليه حداً أو صرح بالوعيد فيه،

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (١/ ٢٣٨ رقم ٣٣٤) لفظه قال: احتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعتُ الله يقول «ولا تقتلوا أنفسكم» فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.
وعلقه البخاري في صحيحه (١/ ٤٥٤) باب (٧) فقال: يذكر عن عمرو بن العاص. . . .
وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (رقم: ٣٥١): «وهذا الحديث اختلف فيه على يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أنس عن عبدالرحمن فرواه عنه يحيى بن أيوب هكذا وخالف عمرو بن الحارث سنداً ومتناً، أما السند فزاد بين عبدالرحمن وعمرو أبا قيس مولى عمر، وأما المتن: فقال: بدل التيمم: فتوضأ وغسل مغابنه ـ أي بواطن الأفخاذ عند الحوالب «النهاية: ٣/ ٣٤١» ـ ووافق يحيى بن أيوب ـ الغافقي المصري أبو العباس: صدوق ربما وهم «التقريب: ٢/ ٣٤٣» ـ عليه ابنُ لهيعة عند إسحاق بن راهويه ـ وعند أحمد أيضاً في المسند (٤/ ٢٠٣) ـ وأخرجه بالسند الأول.
وأخرجه ابن حبان ـ في الإحسان (٢/ ٤٣٨) ـ بالسند الثاني، وأخرجه بالسندين الحاكم ـ (١/ ١٧٧) ـ والدارقطني ـ (١/ ١٧٨ رقم ١٢) و(١/ ١٧٩ رقم ١٣) هـ ـ .
(٢) وإيثار النهي عن قتل الأنفس على عدم التعرض لها لأنه أكثر وقوعاً (س٢/ ١٧٠).

وقيل ما عُلِم حرمتُه بقاطِعٍ، وعن النبي ﷺ «أنها سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والربا، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين»(١). وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الكبائر إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع(٢). وقيل أراد به ههنا أنواعَ الشرك لقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾(٣) وقيل صِغَرُ الذنوب وكبرُها بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها، فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديثُ النفس وبينهما وسائط يصْدُق عليها الأمران، فمن عَنّ له أمران منها ودَعَتْ نفسُه إليها بحيث لا يتمالك فكفَّها عن أكبرها كُفِّرَ عنه ما ارتكبَه لما استحق من الثواب على اجتناب الأكبر، ولعل هذا مما يتفاوت باعتبار الأشخاص والأحوال، ألا ترى أنه تعالى عاتب نبيه عليه الصلاة والسلام في كثير من خطواته التي لم تُعَدّ على غيره خطيئة فضلاً عن أن يؤاخذه عليها. ﴿ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ الجنة وما وعد من الثواب، أو إدخالاً مع كرامة. وقرأ نافع هنا وفي الحج بفتح الميم وهو أيضاً يَحتمل المكان والمصدر.

وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾

(٣٢) ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال فلعل عدمه خير، والمقتضي للمنع كونُه ذريعةً إلى التحاسد والتعادي معربةً عن عدم الرضا بما قسم الله له، وأنه تشهٍّ لحصول الشيء له من غير طلب وهو مذموم، لأن تمني مالم يقدّر له معارضَةٌ لحكمة القدر وتمني ما قُدر له بكسْب بَطالَةٌ وتضييع حظ وتمني ما قدر له بغير كسب ضائع ومِحَال(٤). ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ ﴾ بيان لذلك أي لكل من الرجال والنساء فضل ونصيب بسبب ما اكتسب ومن أجله، فاطلبوا الفضل من الله تعالى بالعمل لا بالحسد والتمني، كما قال عليه الصلاة والسلام «ليس الإيمان بالتمني»(٥). وقيل المراد نصيبُ الميراث، وتفضيلُ الورثة بعضهم على بعض فيه، وجَعْلُ ما قُسم لكل منهم على حسب ما عُرِف من حاله الموجبة للزيادة والنقص كالمكتسب له.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/٣٩٣ رقم ٢٧٦٦) و(١٢/١٨١ رقم ٦٨٥٧) ومسلم (١/٩٢ رقم ١٤٥/٨٩) وأبو داود (٣/٢٩٤ رقم ٢٨٧٤) والنسائي (٦/٢٥٧ رقم ٣٦٧١) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «اجتنبوا السبع الموبقات» إلا عندهم «السحر» بدل «عقوق الوالدين».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/٤١) عنه.

(٣) النساء: «٤٨».

(٤) وإيثار الإبهام فيما فضل الله به بعضهم على بعض للتفادي عن المواجهة بما يشق عليهم (س٢/١٧١).

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/٢٢٩٠) عن أبي هريرة في ترجمة محمد بن عبدالرحمن بن مجبر.
وأخرج أحاديث أخرى وقال في آخرها: «وهذه الأحاديث عن مالك بأسانيدها بواطيل وله من البواطيل غير ما ذكر».
وذكره محمد الصفدي اليمني في «النوافح العطرة» (ص٢٨٧ رقم ١٥٩٧) وعزاه لابن النجار من حديث أنس وضعفه.

﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ أي لا تتمنوا ما للناس واسألوا الله مِثْلَه من خزائنه التي لا تنفد، وهو يدل على أن المنهي عنه هو الحسد، أوْ لا تتمنوْا واسألوا الله من فضله بما يقرِّبه ويسوقه إليكم. وقرأ ابن كثير والكسائي وَسَلُوا الله من فضله وَسَلْهم فَسَلْ الذين وَشِبْهَه إذا كان أَمْراً مُواجَهاً به وقبْلَ السين واوٌ أو فاء بغير همز، وحمزةُ في الوقف على أصله، والباقون بالهمز. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان فيفضل عن علم وتبيان. روي أن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو وإنما لنا نصف الميراث ليتنا كنا رجالاً. فنزلت[1].

وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

(٣٣) ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ﴾ أي ولكلٍّ تَرِكة جعلنا ورّاثاً يلُونها ويحرزونها ومما تَرَك بيانٌ لكلٍّ مع الفصلِ بالعامل، أو لكلٍّ ميت جعلنا وراثاً مما ترك على أن مِنْ صلة موالي لأنه في معنى الوراث، وفي ترك ضميرِ كلٍّ والوالدان والأقربون استئنافٌ مفسِّر للموالي، وفيه خروج الأولاد فإنّ الأقربون لا يتناولهم كما لا يتناول الوالدين، أو لكل قوم جعلناهم موالي حظٌّ مما ترك الوالدان والأقربون، على أنَّ جعلنا مواليَ صفةُ كلٍّ والراجعُ إليه محذوف على هذا فالجملةُ من مبتدأ وخبر. ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ موالي الموالاة، كان الحليفُ يُوَرَّث السدس من مال حليفه فنُسِخَ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾[2] وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقد على أن يتعاقلا ويتوارثا صحّ وَوُرِّث. أو الأزواج[3] على أن العقد عقد النكاح،

(١) أخرج الترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٢) والحاكم (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) وأحمد (٦/ ٣٢٢) وابن جرير (٤/ج٥/ ٤٦ ـ ٤٧) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨٠ رقم ٦٠٩) عنها أنها قالت: «يغزو الرِّجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصفُ الميراثِ. فأنزل الله «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضَكُمْ على بعض».....
قال الترمذي: هذا حديث مرسل.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد أم سلمة، ووافقه الذهبي على تصحيحه.
«وقد رد العلامة أحمد شاكر في تعليقه على الطبري قول الترمذي: «حديث مرسل» فقال إنه جزم بلا دليل، ومجاهد أدرك أم سلمة يقيناً وعاصرها، فإنه ولد سنة (٢١هـ) وأم سلمة ماتت بعد سنة (٦٠هـ) على اليقين، والمعاصرة من الراوي الثقة تحمل على الاتصال إلا أن يكون الراوي مدلساً، ولم يزعم أحد أن مجاهداً مدلس، إلا كلمة قالها القطب الحلبي في شرح البخاري، حكاها عنه الحافظ في التهذيب (١٠/ ٤٤) ثم عقب عليها بقوله: ولم أرَ من نسبه إلى التدليس، وقال الحافظ في الفتح أيضاً (٦/ ١٩٤) رداً على من زعم أن مجاهداً لم يسمع من عبدالله بن عمرو، لكن سماع مجاهد من عبدالله بن عمرو ثابت، وليس بمدلس فثبت عندنا اتصال الحديث وصحته والحمد لله» اهـ. ـ كما في حاشية جامع الأصول (٢/ ٨٧ ـ ٨٨) ـ.
● تنبيه: لم أجده بلفظ القاضي المذكور والله أعلم.

(٢) الأنفال: «٥٧».

(٣) قوله أو الأزواج عطف على قوله موالي الموالاة.

وهو مبتدأٌ ضُمِّن معنى الشرط وخَبَرُه: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ أو منصوبٌ بمضمَر يفسره ما بعده كقولك: زيداً فاضربه، أو معطوفٌ على الوالدان، وقوله فآتوهم جملة مسبَّبَة عن الجملة المتقدمة مؤكدة لها، والضمير للموالي[(١)]. وقرأ الكوفيون عَقَدَتْ بمعنى عقدت عهودَهم إيمانُكم فحُذِف العهود وأقيم الضمير المضاف إليه مقامَه ثم حُذِف كما حذف في القراءة الأخرى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ تهديد على منعِ نصيبهم.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾

(٣٤) ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية، وعُلِّل ذلك بأمرين وَهْبيّ وكَسْبي فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خُصُّوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامةِ الشعائر والشهادةِ في مجامع القضايا ووجوبِ الجهاد والجمعة ونحوها والتعصيبِ وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفِرَاق. ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ في نكاحهن كالمهر والنفقة. روي أن سعد بن الربيع[(٢)] أحد نُقَباء الأنصار نشَزَت عليه امرأتُه حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطمها، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ فشكىٰ، فقال رسول الله ﷺ: لتقتص منه، فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير»[(٣)]. ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات لله قائمات

---

(١) وهذا المعنى على قراءة من قرأ «والذين عاقدت أيمانكم» وقد قرأ بها غير الكوفيين وأثبتها في الأصل «عاقدت» وانظر المبسوط ص١٥٦.

(٢) سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي الحارثي البدريُّ النقيب الشهيد الذي آخى النبي ﷺ بينه وبين عبدالرحمن بن عوف، فعزم على أن يُعطى عبدالرحمن شطر ماله، ويطلِّقَ إحدى زوجتيه، ليتزوج بها، فامتنع عبدالرحمن من ذلك، ودعا له.
واستشهد في غزوة أحد وبه سبعون ضربة وهو الذي قال: رداً على رسول رسول الله ﷺ حينما سأله وهو في الرمق الأخير: «جزاك الله عني خير ما جُزي نبياً عن أمته، وأبلغ قومَك مني السلام، وقل لهم: إن سعداً يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم ومنكم عينٌ تطرِف». [انظر الإصابة (٤/ ١٤٤) والاستيعاب (٤/ ١٤٥)].

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٥٣): «كذا ذكره الثعلبي والواحدي ـ ص١٥١ ـ عن مقاتل به.
ولأبي داود في المراسيل ـ رقم: ٢٧٤ ـ وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٢٩٩) ـ والطبري في جامع البيان (٤/ج٥/ ٥٨) ـ عن الحسن أن رجلاً لطم وجه امرأته، فأتت النبي ﷺ فشكت إليه. فقال: القصاص. فنزلت «الرجال قوامون على النساء».
ولابن مردويه عن علي بإسناد واه ـ انظر هذا الإسناد في تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٣) ـ نحوه ولم يقل القصاص، =

بحقوق الأزواج. ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾ لمواجب الغيب أي يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال، وعنه عليه الصلاة والسلام: «خير النساء امرأة إن نَظَرْتَ إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها». وتلا الآية[1]. وقيل لأسرارهم. ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ بحفظ الله إياهن بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو بالذي حَفِظَه الله لهنّ عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن. وقرىء بما حَفِظَ اللهَ بالنصب على أنّ ما موصولةٌ فإنها لو كانت مصدريةً لم يكن لِحَفِظَ فاعلٌ، والمعنى بالأمر الذي حفظ حقَّ اللهِ وطاعتَه وهو التعفف والشفقة على الرجال. ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عِصيانهن وترفُّعهن عن مطاوعة الأزواج من النشز. ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ في المراقد فلا تُدْخِلوهن تحت اللُّحُف أو لا تباشروهن، فيكون كناية عن الجماع. وقيل المضاجع المبايت أي لا تبايتوهن ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ يعني

= وزاد «أردت أمراً وأراد الله غيره» ـ قلت: وأخرج هذه الزيادة الطبري (٤/ج٥/٥٨) والواحدي في أسباب النزول (ص١٥١ ـ ١٥٢) عن الحسن مرسلاً.

والخلاصة: أن الحديث مرسل، وإسناده إلى الحسن صحيح، ولكن مراسيل الحسن لا تقبل.

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٠٥ رقم ١٦٦٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨٣)، وأبو يعلى في المسند (٤/٣٧٨ ـ ٣٧٩ رقم ١٧٢٠/٢٤٩٩) كلهم من طريق غيلان بن جامع عن عثمان أبي اليقظان عن جعفر بن إياس، عن مجاهد عن ابن عباس، إلا أبا داود فأخرجه من طريق غيلان عن جعفر بن إياس به، ورجال الإسناد كلهم ثقات وصحح الحاكم الحديث، وتعقبه الذهبي بقوله: عثمان لا أعرفه والخبر عجيب. بينما ضعف الألباني الحديث، كما في ضعيف الجامع (٣/ ٩٩). وهو الصواب.

● وأخرج النسائي (٦/ ٦٨ رقم ٣٢٣١) والحاكم (٢/ ١٦١، ١٦٢) وأحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٢، ٤٣٨) كلهم من طريق ابن عجلان عن سعيد عن أبي هريرة قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ النساء خيرٌ قال التي تسرُّهُ إذا نظرَ وتطيعُهُ إذا أمرَ ولا تخالفُهُ في نفسها ومالها بما يكرهُ».

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٣٩): «سنده صحيح» وتعقبهم الألباني في الصحيحة (٤/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤): «وكذا قالوا، وليس كذلك، بل هو حسن فقط كما ذكرنا، فإن ابن عجلان متكلم فيه خاصة في روايته عن سعيد عن أبي هريرة، وهو في نفسه صدوق كما في «التقريب» وكذا «الميزان» قال: «وكان من الرفعاء والأئمة أولى الصلاح والتقوى، ومن أهل الفتوى، له حلقة في مسجد رسول الله ﷺ» ثم إنه لم يروِ له مسلم إلا متابعة. قال الحاكم كما في «الميزان»: «أخرج له مسلم في كتابه ثلاثة عشر حديثاً كلها شواهد، وقد تكلم المتأخرون من أئمتنا في سوء حفظه».

قلت: فهو حسن الحديث إن شاء الله تعالى» هـ.

وتابع ابن عجلان أبو معشر السندي عند الطيالسي (ص٣٠٦ رقم ٢٣٢٥).

والطبري (٤/ج٥/ ٦٠) وأبو معشر اسمه: نجيح وهو ضعيف.

وللحديث شواهد (منها) ما أخرجه ابن ماجة (١/ ٥٩٦ رقم ١٨٥٧) من طريق علي بن يزيد الألهاني عن القاسم عن أبي أمامة، وعلي بن يزيد ضعيف جداً.

(ومنها) ما أخرجه الطبراني ـ كما في المجمع (٤/ ٢٧٣) من حديث عبدالله بن سلام ـ. وقال الهيثمي: وفيه زريك بن أبي زريك ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» قلت: زريك: وثقه ابن معين وابن الجنيد كما في الجرح (٣/ ٦٢٤). وانظر «الكافي الشافِ» رقم (٣٥٤) والصحيحة (٤/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥).

وخلاصة القول إن حديث أبي هريرة حسن والله أعلم.

ضرباً غيرَ مبرِّح ولا شائن، والأمور الثلاثة مُرَتَّبَة ينبغي أن يُتَدَرَّج فيها. ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ بالتوبيخ والإيذاء، والمعنى فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأنْ لم يكن فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فاحذروه فإنه أقدر عليكم منكم على مَنْ تحت أيديكم، أو إنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم، أو إنه يتعالى ويتكبر أن يظلمَ أحداً أو يُنقص حقه[١].

وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

(٣٥) ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ خلافاً بين المرأة وزوجها. أَضْمَرَهما وإنْ لم يَجْرِ ذكرُهما لجرى ما يدلُّ عليهما، وإضافةُ الشقاق إلى الظرف إما لإجرائه مجرى المفعول به كقوله: يَا سَارِقُ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ أو الفاعل كقولهم نهارك صائم. ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ فابعثوا أيها الحكام ـ متى اشتبه عليكم حالهما لتبيين الأمر أو إصلاح ذات البين ـ رجلاً وسطاً يصلح للحكومة والإصلاح من أهله وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح، وهذا على وجه الاستحباب فلو نَصَبا من الأجانب جاز. وقيل الخطاب للأزواج والزوجات، واستُدِل به على جواز التحكيم، والأظهرُ أن النصب لإصلاح ذات البين أو لتبيين الأمر ولا يليان الجمع والتفريق إلا بإذن الزوجين، وقال مالك لهما أن يتخالعا إن وَجَدَا الصلاح فيه. ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ الضمير الأول للحَكَمَيْن والثاني للزوجين، أي إن قصدا الإصلاح أوقع الله بحسن سعيهما الموافقة بين الزوجين. وقيل كلاهما للحكمين أي إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما. وقيل للزوجين أي إن أرادا الإصلاح وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه[٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ بالظواهر والبواطن، فيعلم كيف يَرْفع الشقاق ويوقِع الوفاق.

---

(١) قوله تعالى: «الرجال قوامون» أوردها بالجملة الاسمية والخبر بصيغة المبالغة للإيذان بعراقتهم في الاتصاف بما أسند إليهم.
وقوله «بعضهم على بعض» وَضَع البعض موضع الضميرين للإشعار بغاية ظهور الأمر وعدم الحاجة إلى التصريح بالمفضل والمفضل عليه.
وقوله «فإن أطعنكم» تعرض لطاعتهن ولم يتعرض لعدم طاعتهن للإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغي تحققه أو يتوقع منهن ذلك. . (س٢/ ١٧٤).

(٢) تعرض لإرادتهم للإصلاح ولم يتعرض لعدم إرادتهم لذلك لأنه هو الذي ينبغي أن يكون ويليق بشأنهما، وهو مرغب للحكمَيْن في السعي بالإصلاح (س٢/ ١٧٥).

(٣٦) ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ صنماً أو غيره أو شيئاً من الإشراك جلياً أو خفياً[١] ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ وأحسنوا بهما إحساناً. ﴿ وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ وبصاحب القرابة. ﴿ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ أي الذي قرب جواره، وقيل الذي له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين. وقرىء بالنصب على الاختصاص تعظيماً لحقه. ﴿ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ ﴾ البعيد، أو الذي لا قرابة له. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الجيران ثلاثة. فجار له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام. وجار له حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب»[٢]. ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ ﴾ الرفيق في أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر، فإنه صَحِبَك وحصل بجنبك. وقيل المرأة. ﴿ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المسافر أو الضعيف. ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ ﴾ العبيد والإماء. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا ﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم. ﴿ فَخُورًا ﴾ يتفاخر عليهم.

ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾

(٣٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾ بدل من قوله من كان، أو نصب على الذم، أو رفع عليه أي هم الذين، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون بما منحوا به ويأمرون الناس بالبخل به. وقرأ حمزة والكسائي ههنا وفي الحديد بالبَخَل بفتح الحرفين وهي لغة. ﴿ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ الغنى والعلم فهم أحقاء بكل ملامة. ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ وضع الظاهر فيه موضع المضمر إشعاراً بأن مَنْ هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، وما كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء. والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار تنصيحاً: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر[٣]. وقيل في الذين كتموا صفة محمد ﷺ[٤].

---

(١) صدّر الآية بالأمر بعبادته والنهي عن الإشراك به حيث ابتدأ بما يتعلق بحقوقه تعالى، فهي آكد الحقوق. وقرنها بحقوق الوالدين تنبيهاً على عظم شأن حقوقهما (س٢/ ١٧٥).

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه البزار (٢/ ٣٨٠ رقم ١٨٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٠٧) من حديث جابر بن عبدالله.
قال البزار: لا نعلمه عن النبي ﷺ إلاَّ بهذا الإسناد.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٦٤) وقال: رواه البزار عن شيخه عبدالله بن محمد الحارثي وهو وضاع.
قلت: عبدالله هذا تابعه الحسين بن عيسى البسطامي عند أبي نعيم. وهو صدوق.
وقال أبو نعيم: غريب من حديث عطاء عن الحسن لم نكتبه إلا من حديث ابن أبي فديك. قلت: مدار الإسناد عند البزار وأبي نعيم على «عطاء الخراساني» وهو صدوق يهم كثيراً، ويرسل ويدلس [التقريب: ٢/ ٣٢]. وقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف الجامع (٣/ ٨٨).

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير ـ (٤/ ج٥/ ٨٦) ـ وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٥٣٨) ـ وإسناده حسن.

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير ـ (٤/ ج٥/ ٨٥) ـ وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ـ كما في الدر المنثور =

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على الذين يبخلون، أو الكافرين. وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسَّرَف الذي هو الإنفاق لا على من ينبغي من حيث إنهما طرفا إفراط وتفريط سواءٌ في القبح واستجلاب الذم، أو مبتدأ خبرُه محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ليتحروا بالإنفاق مراضيه وثوابه وهم مشركو مكة. وقيل هم المنافقون. ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ تنبيه على أن الشيطان قَرَنَهم فحملهم على ذلك وزيّنه لهم كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[(١)]. والمراد إبليس وأعوانُه الداخلة والخارجة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن يُقرَن بهم الشيطان في النار.

(٣٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي وما الذي عليهم، أو أيُّ تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة، وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً فكيف إذا تضمن المنافع؟!. وإنما قَدَّم الإيمان ههنا وأخره في الآية الأخرى[(٢)] لأن القصد بذكره إلى التخصيص ههنا، والتعليل ثَمَّ[(٣)] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لا يُنقص من الأجر ولا يَزيد في العقاب أصغرَ شيء كالذرة، وهي النملة الصغيرة، ويقال لكل جزء من أجزاء الهَبَاء، والمِثْقالُ مفعال من الثِّقَل، وفي ذكره إيماء إلى أنه وإن صغُر قدْرُه عظُم جزاؤه. ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة، وأنث الضمير لتأنيث الخبر أو لإضافة المثقال إلى مؤنث، وحذف النون من غير قياس تشبيهاً بحروف العلة. وقرأ ابن كثير ونافع حسنةٌ بالرفع على كان التامة. ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ يضاعِفُ ثوابها. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يُضَعِّفْها وكلاهما بمعنى[(٤)]. ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل زائداً على

= (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) ـ وإسناده صحيح.
وأخرج ابن جرير (٤/ج٥/ ٨٥) عن الحضرمي نحو ذلك بإسناد صحيح.

(١) الإسراء: «٢٧».

(٢) أي في الآية السابقة «والذين ينفقون».

(٣) قدم الإيمان هنا لأهميته ولعدم الاعتداد بالإنفاق بدونه. أما تقديم إنفاقهم رئاء الناس على عدم إيمانهم ـ مع كون المؤخر أقبح ـ فلرعاية المناسبة بين إنفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به (س٢/ ١٧٧).

(٤) قول البيضاوي (كلاهما بمعنى) أي أن من قرأ (يضاعفها ويُضعِّفها) بمعنى واحد. وقد ذهب إلى هذا أبو علي الفارسي وهو المختار عند أهل اللغة، كما ذكر الألوسي في روح المعاني ٥/ ٣٣.
لكن أبا حيان ذهب إلى أن كلام العرب يقتضي خلافه وقال: (لأن المضاعفة تقتضي زيادة المثل، فإذا شدّدت =

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ
سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

ما وعد في مقابلة العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عطاء جزيلاً، وإنما سماه أجراً لأنه تابع للأجر مزيد عليه.

(٤١) ﴿فَكَيْفَ﴾ أي فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾؟! يعني نبيُّهم يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم، والعاملُ في الظرف مضمونُ المبتدإِ والخبرِ من هوْل الأمر وتعظيم الشأن. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد. ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ تشهد على صدق هؤلاء الشهداء لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك مجامعَ قواعدهم. وقيل هؤلاء إشارة إلى الكفرة المستفهَم عن حالهم. وقيل إلى المؤمنين كقوله تعالى ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(١)].

(٤٢) ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ بيان لحالهم حينئذ أيْ يود الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الأمر، أو الكفرةُ والعصاةُ في ذلك الوقت أنْ يدفنوا فتسوى بهم الأرضُ كالموتى أو لم يُبْعَثوا أو لم يُخْلَقوا وكانوا هم والأرض سواء[(٢)]. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ولا يقدرون على كتمانه لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال أي يودون أن تسوى بهم الأرض وحالُهم أنهم لا يكتمون من الله حديثاً ولا يكذبونه بقولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[(٣)] إذ روي أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهدُ عليهم جوارحُهم، فيشتد الأمرُ عليهم فيتمنوْن أن تسوى بهم الأرض. وقرأ نافع وابن عامر تَسَّوَّى بهم على أن أصله تتسوى فأدغمت التاء في السين، وقرأ حمزة والكسائي تُسَوّى على حذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى.

(٤٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من نحو نوم أو خمر حتى تنتهوا وتعلموا ما تقولون في صلاتكم. روي أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه صنع مأدبة ودعا نفراً من الصحابة ـ حين كانت الخمر مباحة ـ فأكلوا وشربوا حتى . . . .

= اقتضت البنية التكثير فوق مرتين إلى أقصى ما يزيد من العدد (البحر المحيط ٣/٢٥١).

(١) البقرة: «١٤٣».

(٢) قوله «الذين كفروا» عبر عنهم بالموصول لذمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل.
وقوله «وعصوا الرسول» أورده بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه (س٢/١٧٨).

(٣) الأنعام: «٢٣».

ثَمِلُوا[١]، وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلي بهم فقرأ: أعبد ما تعبدون. فنزلت[٢]. وقيل أراد بالصلاة مواضعَها وهي المساجد وليس المراد منه نهي السكران عن قربان الصلاة، وإنما المراد النهي عن الإفراط في الشرب، والسَّكَرُ من السُّكْر وهو السدّ. وقرىء سَكَارى بالفتح، وسَكْرى على أنه جمعٌ كهَلْكى أو مفردٌ بمعنى وأنتم قوم سَكْرى أو جماعة سَكْرى وسُكْرَى كحُبْلى على أنها صفة للجماعة. ﴿وَلَاجُنُبًا﴾ عطف على قوله وأنتم سُكارى إذ الجملة في موضع النصب على الحال. والجُنُب الذي أصابته الجنابة، يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأنه يجري مجرى المصدر. ﴿إِلَّاعَابِرِي سَبِيلٍ﴾ متعلق بقوله ولا جنباً، استثناءٌ من أعمّ الأحوال أي لا تقربوا الصلاة جنباً في عامة الأحوال إلا في السفر وذلك إذا لم يجد الماء وتيمم، ويشهد له تعقيبُه بذكر التيمم، أو صفةٌ لقوله جنباً أي جنباً غير عابري سبيل، وفيه دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث[٣]. ومَنْ فسر الصلاة بمواضعها فسر عابري سبيل بالمجتازين فيها، وجوّزَ للجنب عبور المسجد، وبه قال الشافعي رضي الله عنه. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: لا يجوز له المرور في المسجد إلا إذا كان فيه الماء أو الطريق. ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ غاية النهي عن القربان حال الجنابة. وفي الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه، ويزكي نفسه عما يجب تطهيرها عنه. ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مَرَضاً يخاف معه من استعمال الماء فإن الواجد كالفاقد، أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه. ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لا تجدونه فيه. ﴿أَوْجَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين، وأصل الغائط المكان المطمئنّ من الأرض. ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أو ما مسَسْتم بَشَرَتهن ببَشَرَتكم، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن[٤]. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي المائدة لَمَسْتُم، واستعماله كناية عن الجماع أقلّ من الملامسة. ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ فلم تتمكنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود. ووجه هذا التقسيم أن المترخص بالتيمم إما محدث أو جنب، والحالة المقتضية له في غالب الأمر مرض أو سفر، والجنُب لما سبق ذكره اقتُصر على بيان حاله، والمُحْدِث لما لم يجرِ ذكره ذُكِر من أسبابه ما يحدث بالذات وما يحدث بالعَرَض واستُغني عن تفصيل أحواله بتفصيل حال الجنب وبيان العذر مجملاً، فكأنه قيل: وإن كنتم جنباً مرضى أو على سفر أو محدثين جئتم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾. أي

---

(١) ثملوا أي فتروا من الشرب.

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (٤/ ٨٠ رقم ٣٦٧١) والنسائي (٧/ ٤٠٧) ـ كما في تحفة الأشراف والترمذي (٥/ ٢٣٨ رقم ٣٠٢٦) والحاكم (٢/ ٣٠٧) و(٤/ ١٤٢) والطبري (٤/ج٥/ ٩٤). من حديث علي بن أبي طالب.
وصححه الحاكم وأقره الذهبي. وصحح الألباني الحديث في صحيح أبي داود وغيره.

(٣) إلا أنه ضعيف والأحاديث الصحيحة تبين أن التيمم يرفع الحدث. انظر فتح القدير للشوكاني ١/ ٤٧٠.

(٤) قوله (وقيل أو جامعتموهن) ليدل على تضعيف رأي من قال: بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء إلا أن الأحاديث الصحيحة تفيد بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء كحديث وضع يد عائشة على قدميه عليه السلام وهو في الصلاة، ورواه مسلم والترمذي وحديث أنه عليه السلام قَبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ.
وانظر مجمل الأدلة في فقه السنة ١/ ٥٠.

فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. ولذلك قالت الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلد ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا لا بد من أن يعلق باليد شيء من التراب لقوله تعالى في المائدة ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[1] أي بعضه، وجَعْلُ مِنْ لابتداء الغاية تعسف إذ لا يفهم من نحو ذلك إلا التبعيض، واليد اسم للعضو إلى المنكب، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام تيمم ومسحَ يديه إلى مرفقيه والقياس على الوضوء دليلٌ على أن المراد ههنا وأيديكم إلى المرافق[2]. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلذلك يسر الأمر عليكم ورخص لكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

(٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾ من رؤية البصر أي ألم تنظر إليهم، أو القلب. وعدي بإلى لتضمن معنى الانتهاء. ﴿نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ حظاً يسيراً من علم التوراة لأن المراد أحبار اليهود. ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ يختارونها على الهدى، أو يستبدلونها به بعد تمكنهم منه، أو حصوله لهم بإنكار نبوة محمد ﷺ. وقيل: يأخذون الرُّشى ويحرفون التوراة. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا﴾ أيها المؤمنون. ﴿السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق[3].

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم. ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وما يريدون بكم فاحذروهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمركم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ يعينكم فثِقوا عليه واكتفوا به عن غيره. والباء تزاد في فاعل كفىٰ لتوكيد الاتصال الإسنادي بالاتصال الإضافي.

(٤٦) ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً فإنه يحتملهم وغيرَهم، وما بينهما اعتراضٌ

---

(١) المائدة: «٦».

(٢) لكن الأحاديث الصحيحة صرحت بمسح الكفين فقط، كحديث عمار في الصحيحين:
أن النبي عليه السلام قال له: «إنما كان يكفيك هكذا». وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه.
أما حديث مسح اليدين إلى المرفقين فليس بصحيح، فقد رواه أبو داود (٣٣٠) عن ابن عمر بلفظ «ضرب بيديه على الحائط مسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه» وهو ضعيف كما في الفتح السماوي (ص٤٩٣).

(٣) وقد عبر عنهم بالموصول للتنبيه على ما في حيز الصلة على كمال شناعتهم.
وعبر عن فعلهم بالاشتراء ـ الذي هو استبدال السلعة بالثمن ـ لبيان كمال رغبتهم في الضلالة والإعراض عن الكتاب وما أوتوه.
وصيغة المضارع بقوله «يشترون» و«يريدون» للدلالة على استمرارهما وتجددهما (س٢/ ١٨٢).

أو بيان لأعدائكم أو صلةٌ لنصيراً. أي ينصركم من الذين هادوا ويحفظكم منهم، أو خبر محذوف صفته يحرفون. ﴿ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم أي يُمِيلُونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها. أو يُؤَوِّلونه على ما يشتهون فيُميلونه عما أنزل الله فيه. وقرىء الكِلْمَ بكسر الكاف وسكون اللام جَمْعُ كِلْمَة تخفيف كلمة. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولَك. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرَك. ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي مدعوّاً عليك بلا سمعت لصمم أو موت، أو اسمع غيرَ مجاب إلى ما تدعو إليه، أو اسمع غير مسمَع كلاماً ترضاه، أو اسمع كلاماً غير مسمَع إياك لأن أذُنك تنبُو عنه فيكون مفعولاً به، أو اسمع غير مسمَع مكروهاً من قولهم أسمعه فلان إذا سبّه، وإنما قالوه نفاقاً. ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أنظِرْنا نكلمْك أو نفهم كلامك. ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فَتْلاً بها وصرفاً للكلام إلى ما يشبه السب، حيث وضعوا راعِنا المشابِه لما يتسابّون به موضعَ انظرنا وغيرَ مسمَعٍ موضعَ لا أسمعت مكروهاً، أو فتلاً بها وضماً لما يظهرون من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرون من السب والتحقير نفاقاً. ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ استهزاء به وسخرية. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ ولو ثبت قولهم هذا مكان ما قالوه. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل، وإنما يجب حذف الفعل بعد لو في مثل ذلك لدلالة أنَّ عـ وقوعه موقعه. ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الهدىٰ بسبب كفرهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يُعبأ به وهو الإيمان ببعض الآيات والرسل، ويحتمل أن يراد بالقِلّة العدم كقوله:

قلِيـــلُ التَشَكِّـــي لِلْمُهِـــمّ يَصِيبُـــهُ   أو إلا قليـلاً منهـم آمنـوا أو سيـؤمنـون

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

(٤٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ من قبل أن نمحوَ تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها، يعني الإقفاء، أو ننكسُها إلى ورائها في الدنيا أو في الآخرة. وأصل الطمْس إزالة الأعْلام المائلة، وقد يطلق بمعنى الطلس في إزالة الصورة، ولمطلق القَلْب والتغيير، ولذلك قيل معناه من قبل أن نغير وجوهاً فنسلب وَجاهتها وإقبالها ونكسُوها الصَّغارَ والإدبار، أو نردها إلى حيث جاءت منه، وهي أذرعات الشام يعني إجلاء بني النضير، ويَقْرُب منه قول من قال إن المراد بالوجوه الرؤساء، أو مِنْ قبل أن نطمس وجوهاً بأن نَعْمِي الأبصار عن الاعتبار ونَصِمَّ الأسماع عن الإصغاء إلى الحق بالطبع ونردَّها عن الهداية إلى الضلالة. ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أو نخزيَهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نمسخَهم مسخاً مثل مسخهم، أو نلعنهم على لسانك كما لعناهم على لسان داود. والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريقة الالتفات، أو للوجوه إن أريد به الوجهاء، وعطفه على الطمس بالمعنى الأول يدل على أن المراد به ليس مسخ الصورة في الدنيا. ومن حمل الوعيد على تغيير الصورة في الدنيا قال إنه بَعْدُ مترقب أو كان وقوعه مشروطاً بعدم إيمانهم وقد آمن منهم طائفة. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه. ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً وكائناً فيقع لا محالة ما أُوعِدْتم به إن لم تؤمنوا.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾
أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ
وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ لأنه بتَّ الحكم على خلود عذابه وأن ذنبه لا ينمحي عنه أثره فلا يستعد للعفو بخلاف غيره. ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً. ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ تفضلاً عليه وإحساناً. والمعتزلة عَلَّقوه بالفعلين على معنى إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء. وهو من لم يتب ويغفر ما دونه لمن يشاء وهو من تاب، وفيه تقييد بلا دليل إذ ليس عموم آيات الوعيد بالمحافظة أولى منه ونقض لمذهبهم فإن تعليق الأمر بالمشيئة ينافي وجوب التعذيب قبل التوبة والصفح بعدها، فالآية كما هي حجة عليهم فهي حجة على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه خالد في النار. ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ ارتكب ما يستحقر دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذلك الاختلاق.

(٤٩) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾ يعني أهل الكتاب قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾[(١)] وقيل: ناس من اليهود جاؤوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: «لا» قالوا: والله ما نحن إلا كهيئتهم ما عَمِلنا بالنهار كُفِّر عنّا بالليل وما عملنا بالليل كُفِّر عنا بالنهار[(٢)]. وفي معناهم من زكى نفسه وأثنى عليها. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتدّ بها دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسن وقبيح، وقد ذمهم وزكّىٰ المرتضين من عباده المؤمنين. وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً. ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ بالذم أو العقاب على تزكيتهم أنفسَهم بغير حق. ﴿فَتِيلًا﴾ أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شَقِّ النَّواة يُضربُ به المثَل في الحقارة.

(٥٠) ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله وأزكياء عنده. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ بزعمهم هذا أو بالافتراء. ﴿ٱللَّهِ إِثۡمًا مُّبِينًا﴾ لا يخفى كونه مأثماً من بين آثامهم.

(٥١) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ نزلت في يهود كانوا يقولون إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعوهم إليه محمد. وقيل في حُيَيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم

---

(١) المائدة: «١٨».
(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٣٦٦): «ذكره الثعلبي عن الكلبي» وذكره الواحدي في أسباب النزول ص١٥٥، والبغوي في تفسيره (٢/ ٢٣٣) عن الكلبي بدون سند. والكلبي متهم.

ففعلوا[١]. والجِبْتُ في الأصل اسمُ صنم فاستُعمل في كل ما عُبِد من دون الله، وقيل أصله الجبس وهو الذي لا خير فيه فقلبت سينه تاء. والطاغوت يطلق لكل باطل من معبود أو غيره. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأجلهم وفيهم. ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ إشارة إليهم. ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً[٢].

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

(٥٢) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يمنع العذاب منه بشفاعة أو غيرها.

(٥٣) ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة إنكارُ أن يكون لهم نصيب من الملك وجَحْدٌ لما زعمت اليهود من أن الملك سيَصير إليهم. ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً ما يوازي نقيراً، وهو النُّقْرة في ظهر النواة. وهذا هو الإغراق في بيان شحّهم فإنهم إن بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء أذلاء متفاقرين، ويجوز أن يكون المعنى إنكار أنهم أوتوا نصيباً من الملك على الكناية، وأنهم لا يؤتون الناس شيئاً. وإذا وقع بعد الواو والفاء «لا» لتشريك مفردٍ جاز فيه الإلغاءُ والإعمال، ولذلك قرئ فإذاً لا يؤتوا الناس على النصب.

(٥٤) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ بل أيحسدون رسول الله ﷺ وأصحابه، أو العرب، أو الناس جميعاً لأن

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٥١ رقم ١١٦٤٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٩٣) عن ابن عباس.
وليس عند أيهما قوله: «وأنتم أقرب إلى محمد...» إلى آخره، بل لفظهما: «أنتم أهل العلم القديم وأهل الكتاب فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: أنتم خير منه وأهدى سبيلاً» فأنزل الله: «ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» إلى آخر الآية.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥ ـ ٦) وقال: «رواه الطبراني وفيه «يونس بن سليمان الجَمَّال» ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.
قلت: عند البيهقي في الدلائل «محمد بن يونس الجمَّال» لعل هذا هو الصواب لأن المزي ذكره في «تهذيب الكمال» (١١/ ١٨٧) في تلاميذ ابن عيينة ولم يذكر من اسمه «يونس بن سليمان الجمال».
ومحمد بن يونس الجمَّال بغدادي ضعيف ـ كما في «التقريب» (٢/ ٢٢٢) ـ. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ١٣٤) عن عكرمة قوله: وهو أقرب لسياق القاضي، وعزاه السيوطي لعبدالرزاق أيضاً في الدر المنثور (٢/ ٥٦٣) وإسناده حسن.
وأخرج الطبري أيضاً في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ١٣٣) عن ابن عباس، ورجاله ثقات.
وأخرج الطبري كذلك (٤/ج٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥) عن عكرمة، وقتادة، وابن زيد بنحوه، وهي مراسيل صحيحة الإسناد.
وبهذا يتقوى حديث ابن عباس فيكون صحيحاً إن شاء الله.

(٢) قوله «من الذين آمنوا» هو من قبل الله لا من القائلين. وأوردهم بوصف الإيمان تعريفاً لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح (س٢/ ١٨٩).

من حسد على النبوة فكأنما حسد الناسَ كلهم كمالهم ورشدهم، وبّخهم وأنكر عليهم الحسد كما ذمهم على البخل وهما شر الرذائل وكأن بينهما تلازماً وتجاذباً. ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يعني النبوة والكتاب والنصرة والإعزاز وجعل النبي الموعود منهم. ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم وأبناء عمه. ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النبوة. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾ فلا يبعد أن يؤتيه الله مثل ما آتاهم[١].

فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿فَمِنۡهُم﴾ من اليهود. ﴿مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بما ذكر من حديث آل إبراهيم. ﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ﴾ أعرض عنه ولم يؤمن به، وقيل معناه فمن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من كفر ولم يكن في ذلك توهين أمره فكذلك لا يوهِنْ كفرُ هؤلاء أمرَك. ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ناراً مسعورة يعذبون بها أي إن لم يُعَجَّلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا﴾ كالبيان والتقرير لذلك. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ بأن يعاد ذلك الجِلْد بعينه على صورة أخرى كقولك: بدلت الخاتم قِرطاً، أو بأن يُزالَ عنه أثر الإحراق ليعود إحساسه للعذاب كما قال: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ أي ليدوم لهم ذوْقه. وقيل يخلق لهم مكانه جلد آخر، والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية المدرِكة لا لآلة إدراكها فلا محذور. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ يعاقب على وفق حكمته[٢].

(٥٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قدَّم ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لأن الكلام فيهم وذكْر المؤمنين بالعَرَض. ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ فَيْناناً لا جَوْب فيه[٣] ودائماً لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة. والظليل صفة مشتقة من الظل لتأكيده كقولهم: شمسٌ شامِسٌ وليل أَلْيَل ويوم أيوم.

---

(١) تكرير الإيتاء لما يقتضيه مقام التفضيل مع الإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة (س٢/ ١٩٠).

(٢) عبر عن إدراك العذاب بالذوق لبيان إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث إنه لا يدخله نقصان لدوام الملابسة، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه، أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث إن القوة الذائقة أشد الحواس تأثراً.
ولعل السر في تبديل الجلود مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب لأن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك بالاحتراق (س٢/ ١٩٢).

(٣) لا جَوْب أي لا انقطاع فيه، من جاب الأرض إذا قطعها (المصباح المنير مادة جوب).

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

(٥٨) ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ خطاب يعم المكلفين والأماناتِ، وإن نزلت يوم الفتح في عثمان بن طلحة بن عبدالدار[(١)] لما أغلق باب الكعبة وأبىٰ أن يدفع المفتاح ليدخل فيها رسول الله وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فلوىٰ علي كرم الله وجهه يدَه وأخذه منه وفتح، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباسُ رضي الله عنه أن يعطيه المفتاحَ ويجمعَ له السقاية والسدانة، فنزلت[(٢)]، فأمره الله أن يرده إليه، فأمر علياً رضي الله عنه أن يرده ويعتذر إليه، وصار ذلك سبباً لإسلامه ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمرُكم، أو يرضى بحكمكم، ولأن الحكم وظيفة الولاة قيل الخطاب لهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ أي نعم شيئاً يعظكم به، أو نعم الشيءُ الذي يعظكم به، فما منصوبةٌ موصوفة بيعَظِكم به أو مرفوعة موصولة به والمخصوص بالمدح محذوف وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكومات. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ بأقوالكم وأحكامكم وما تفعلون في الأمانات

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية. أمر الناس بطاعتهم بعدما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. وقيل علماءُ الشرع لقوله تعالى ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[(٣)]. ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ أنتم وأولو الأمر منكم. ﴿فِي شَيۡءٖ﴾ من أمور الدين، وهو يؤيد الوجه الأول إذ ليس للمقلِّد أن ينازع المجتهد في حكمه بخلاف المرؤوس إلا أن يقال الخطاب لأولي الأمر على طريقة الالتفات. ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فراجعوا فيه. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى كتابه. ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ بالسؤال عنه في زمانه، والمراجعة إلى سنته بعده. واستدل به منكرو القياس وقالوا: إنه تعالى أوجب رد المختلف إلى الكتاب والسنة دون القياس. وأُجيب بأن رد المختلف إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس، ويؤيد ذلك الأمر به بعد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة مُثْبَت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالردّ إليهما على وجه القياس. ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ فإن الإيمان يوجب ذلك. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرد. ﴿خَيۡرٞ﴾ لكم. ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ عاقبة أو أحسن تأويلاً من تأويلكم بلارد[(٤)].

---

(١) عثمان بنُ طلحةَ حاجب البيت الحرام وأحد المهاجرين، له رواية خمسة أحاديث. توفي سنة إحدى وأربعين». [أسد الغابة (٣/ ٥٧٨) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٢٠)].

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٥٧ ـ ١٥٨) وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٦٩): هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي (٢/ ٢٣٨) بغير إسناد». وعزاه في الدر المنثور (٢/ ٥٧٠) لابن مردويه من طريق الكلبي عن ابن عباس.

(٣) النساء: «٨٣».

(٤) قدم خيريته لهم على أحسنيته في نفسه لتعلق أنظارهم بما ينفعهم (س٢/ ١٩٤).

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى
ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ
أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

(٦٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن منافقاً خاصَم يهودياً، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي، فلم يرضَ المنافق بقضائه وقال: نتحاكم إلى عمر، فقال اليهودي لعمر: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرضَ بقضائه وخاصم إليك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للمنافق: أكذلك؟ فقال نعم، فقال: مكانكُما حتى أَخْرج إليكما، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله ورسوله. فنزلت[1]. وقال جبريل إن عمر قد فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق، والطاغوتُ على هذا كعب بن الأشرف وفي معناه مَنْ يحكم بالباطل ويؤثر لأجله، سمي بذلك لفرط طغيانه أو لتشبهه بالشيطان، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث إنه الحامل عليه، كما قال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾. وقرىء أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمعٌ كقوله تعالى: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾[2].

(٦١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ وقرىء تعالُوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل اعتباطاً ثم ضم اللام لواو الضمير. ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ هو مصدر أو اسم للمصدر الذي هو الصدّ، والفرق بينه وبين السدّ أنه غير محسوس والسد محسوس، ويصُدون في موضع الحال[3].

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٧١): «ذكره الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي عاصم عن ابن عباس في هذه الآية: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر وإسناده إلى الكلبي في خطبة كتابه.
وذكره الواحدي ـ في أسباب النزول ص١٦٢ ـ أيضاً، ولابن أبي حاتم. وابن مردويه من رواية وهب عن ابن لهيعة عن أبي الأسود: «اختصم رجلان إلى النبي ﷺ، فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه ردنا إلى عمر، فانطلقنا إليه، فضرب عنق الذي قال: ردنا إلى عمر، فجاء الآخر فأخبره، فقال: ما كنت أظن عمر يجترىء على قتل مؤمن. فأنزل الله تعالى: «فلا وربك لا يؤمنون» الآية. فأهدر دمه».
وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤) عن هذا الأثر بأنه أثر غريب وهو مرسل وابن لهيعة ضعيف.
قلت: هو من رواية أحد العبادلة (ابن وهب) عنه، ورواية العبادلة عنه مقبولة عند المحدثين. لكن بقي كونه مرسلاً ومخالفاً لما جاء في الصحيحين من حديث الزبير الذي سيأتي تخريجه في الآية (٦٥) من هذه السورة.

(٢) البقرة: «٢٥٧».

(٣) قوله «رأيت المنافقين» أظهر لفظ المنافقين في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به والإشعار بعلة الحكم (س/٢/ ١٩٥).

(٦٢) ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم. ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ كقتل عمر المنافقَ أو النقمة من الله تعالى. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك. ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ حين يصابون للاعتذار، عطف على أصابتهم. وقيل على يصدون وما بينهما اعتراض. ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ حال. ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين، ولم نرد مخالفتك. وقيل جاء أصحاب القتيل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يُحْسِن إلى صاحبنا ويوفقَ بينه وبين خصمه.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

(٦٣) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم أو عن قبول معذرتهم. ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك وكفَّهم عما هم عليه. ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في معنى أنفسهم أو خالياً بهم فإن النصح في السر أنجع. ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم. أَمَرَهم بالتجافي عن ذنوبهم والنصح لهم والمبالغة فيه بالترغيب والترهيب، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء عليهم السلام. وتعليقُ الظرف ببليغاً على معنى بليغاً في أنفسهم مؤثراً فيها ضعيفٌ لأن معمول الصفة لا يتقدم على الموصوف، والقول البليغ في الأصل هو الذي يطابق مدلوله المقصود به.

(٦٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ بسبب إذنه في طاعته وأمره المبعوث إليهم بأن يطيعوه، وكأنه احتج بذلك على أن الذي لم يرضَ بحكمه وإن أظهر الإسلام كان كافراً مستوجبَ القتل، وتقريره أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرضَ بحكمه لم يقبل رسالته ومن كان كذلك كان كافراً مستوجب القتل. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت. ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من ذلك وهو خبر أنَّ وإذ متعلق به. ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة والإخلاص. ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبتَ لهم شفيعاً، وإنما عدل عن الخطاب تفخيماً لشأنه وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن مَنْصِبه أن يشفع في كبائر الذنوب. ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة، وإن فسر وجد بصادف كان تواباً حالاً ورحيماً بدلاً منه أو حالاً من الضمير فيه.

(٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوربك، ولا مزيدةٌ لتأكيد القسم لا لِتُظاهِر لا في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنها تُزاد أيضاً في الإثبات كقوله تعالى ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[1]. ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾

---

(١) البلد: «١».

فيما اختلف بينهم واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ ضيقاً مما حكمت به، أو مِنْ حُكْمك أو شكّاً من أجله، فإن الشاك في ضيق من أمره. ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم.

وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ تعرضوا بها للقتل في الجهاد، أو اقتلوها كما قتل بنو إسرائيل، وأنْ مصدرية أو مفسِّرة لأن كتبنا في معنى أمرنا. ﴿أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ خروجهم حين استُتيبوا من عبادة العجل. وقرأ أبو عمرو ويعقوب أَنِ اقتلوا بكسر النون على أصل التحريك، أوُ اخرجوا بضم الواو للاتباع والتشبيه بواو الجمع في نحو قوله تعالى ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ﴾[1] وقرأ حمزة وعاصم بكسرهما على الأصل، والباقون بضمهما إجراءً لهما مجرى الهمزة المتصلة بالفعل. ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ إلا أناس قليل وهم المخلصون. لما بين أن إيمانهم لا يتم إلا بأن يسلموا حق التسليم نبه على قصور أكثرهم ووهْن إسلامهم، والضميرُ للمكتوب ودل عليه كتبنا، أو لأحد مصدري الفعلين وقرأ ابن عامر بالنصب على الاستثناء أو على إلا فعلاً قليلاً. ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من متابعة الرسول ﷺ مطاوعته طوعاً ورغبة. ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ في عاجلهم وآجلهم. ﴿وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ في دينهم لأنه أشد لتحصيل العلم ونفي الشك أو تثبيتاً لثواب أعمالهم، ونصبه على التمييز. والآية أيضاً مما نزلت في شأن المنافق واليهودي. وقيل إنها والتي قبلها نزلتا في حاطب بن أبي بلتعة خاصم زبيراً في شِراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل، فقال عليه الصلاة والسلام: «اسق يا زبير ثم أرسِل الماء إلى جارك، فقال حاطب: لأن كان ابن عمتك. فقال عليه الصلاة والسلام اسق يا زبير ثم احبس الماء إلى الجُدُر واستوف حقك، ثم أرسِلْه إلى جارك»[2].

(٦٧) ﴿وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: وما يكون لهم بعد التثبيت فقال وإذا لو تثبتوا لآتيناهم لأن إذا جواب وجزاء.

(٦٨) ﴿وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ يَصِلون بسلوكه جناب القدس ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبي ﷺ «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم . . . .

---

(١) البقرة: «٢٣٧».

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٣٤ رقم ٢٣٥٩، ٢٣٦٠) ومسلم (٤/ ١٨٢٩ ـ ١٨٣٠ رقم ١٢٩/ ٢٣٥٧) وأبو داود (٤/ ٥١ رقم ٣٦٣٧) والنسائي (٨/ ٢٣٨ رقم ٥٤٠٧) والترمذي (٣/ ٦٤٤ رقم ١٣٦٣) وابن ماجة (٢/ ٨٢٩ رقم ٢٤٨٠) كلهم من طريق عروة عن عبدالله بن الزبير، عن الزبير.

يعلم»[١].

(٦٩) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً. ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ بيان للذين، أو حالٌ منه أو من ضميره. قسمهم أربعةَ أقسام بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم، وهم: الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل، ثم الصدِّيقون الذين صَعِدت نفوسُهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها، ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله تعالى، ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته. ولك أن تقول المنعم عليهم هم العارفون بالله وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان، والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباً وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولاً فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً وهم الصديقون، والآخرون إما أن يكون عرفانُهم بالبراهين القاطعة وهم العلماء الراسخون في العلم الذين هم شهداء الله في أرضه، وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم وهم الصالحون. ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ في معنى التعجب، ورفيقاً نصب على التميز أو الحال، ولم يُجْمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق، أو لأنه أريد وحَسُنَ كلُّ واحد منهم رفيقاً. روي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله فقال: ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتَقْت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرتُ الآخرة فخِفْتُ أن لا أراك هناك لأني عرفت أنك ترتفع مع النبيين وإن أُدخِلتُ الجنة كنتُ في منزل دون منزلك، وإن لم أُدْخَل فذلك حين لا أراك أبداً. فنزلت[٢].

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٥) وقال: ذكره أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.
وقال الألباني في الضعيفة رقم (٤٢٢): موضوع؛ في الطريق إلى أحمد بن حنبل جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه منهم.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٧٤): «ذكره الثعلبي بغير سند، ونقله الواحدي في الأسباب ـ ص١٦٥ ـ عن الكلبي. لكن لم يقل في آخره «فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إلى آخره» حكى ذلك عن جماعة من الصحابة، قال سعيد بن جبير: حدثنا خلف بن خليفة عن عطاء بن السائب، عن الشعبي قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنت أحبَّ إليَّ من نفسي وولدي وأهلي ومالي، ولولا أني آتيتك فأراك لكنت: أي سأموت وبكى الأنصاري. فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت أنك ستموت مع النبيين عليهم الصلاة والسلام، ونحن إن دخلنا الجنة كنا دونك فأنزل الله على رسوله ﷺ «ومن يطع الله ـ الآية» فقال له: أبشر».
ومن طريقه أخرجه البيهقي في الشعب ـ (٢/ ١٣١ رقم ١٨٣٠) ـ ووصله الطبراني ـ في الكبير (١٢/ ٨٦ ـ ٨٧ =

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ
ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

(٧٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ إشارةٌ إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المنعَم عليهم ومزيتهم. ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ صفته. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبرُه أو الفضلُ خبرُه ومِنَ الله حال والعامل فيه معنى الإشارة. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بجزاء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله.

(٧١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء، والحذر والحذر كالأثر والأثر. وقيل ما يحذر به كالحزم والسلاح. ﴿فَٱنفِرُوا۟﴾ فاخرجوا إلى الجهاد. ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة، جمع ثبة من ثَبَّيت على فلان تثْبية إذا ذكرت متفرق محاسنه ويُجمع أيضاً على ثِبين جبراً لما حذف من عجزه. ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين كوكبة واحدة، والآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوبُ المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات.

(٧٢) ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب لعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين. والمبطِّئون منافقوهم تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد من بطّأ بمعنى أبطأ وهو لازم، أو ثبّطوا غيرهم كما ثبط ابن أبيّ ناساً يوم أحد، من بطأ منقولاً من بطُؤ كثقل من ثقل. واللام الأولى للابتداء دخلت اسم إن للفصل بالخبر، والثانية جواب قسم محذوف، والقسم بجوابه صلةُ مَنْ والراجع إليه ما استكن في ليبطئن والتقدير: وإن منكم لمَنْ أقسم بالله ليبطئن. ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ كقتل وهزيمة. ﴿قَالَ﴾ أي المبطىء. ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً فيصيبني ما أصابهم.

(٧٣) ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كفتح وغنيمة. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أكده تنبيهاً على فرْط تحسره. وقرىء بضم اللام إعادةً للضمير إلى معنى من. ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراضٌ بين الفعل ومفعوله

= رقم ١٢٥٥٩) وقال الهيثمي في المجمع (٧/٧): فيه عطاء بن السائب وقد اختلط ـ وعنه ابن مردويه ـ كما في الدر المنثور (٢/٥٨٨) ـ ومن طريق خالد بن عبدالرحمن عن عطاء بن السائب عن الشعبي عن ابن عباس نحوه.
ورواه الطبري ـ (٤/ج٥/١٦٣) ـ من طريق يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير نحوه مرسلاً.
ورواه الطبراني في الصغير ـ (١/٢٦) ـ والواحدي ـ في الأسباب ص١٦٦ رقم٢ ـ موصولاً من طريق عبدالله بن عمران العابدي عن فضيل بن عياض عن منصور بن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله والله إنك لأحبّ إليّ من نفسي ـ الحديث بنحوه ـ.
وأخرجه الواحدي ـ في الأسباب ص١٦٥ رقم١ ـ من طريق أخرى عن مسروق قال: قال: أصحاب محمد ﷺ فذكره مختصراً ـ وأخرجه الواحدي أيضاً ص١٦٦ رقم١ ـ من طريق روح عن قتادة كذلك مرسلاً.

وهو ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ للتنبيه على ضعف عقيدتهم وأن قولهم هذا قولُ مَنْ لا مواصلة بينكم وبينه وإنما يريد أن يكون معكم لمجرد المال، أو حال من الضمير في ليقولن أو داخل في المقول أي يقول المبطىء لمن يبطئه من المنافقين وضعفة المسلمين تضريباً وحسداً، كأن لم يكن بينكم وبين محمد ﷺ مودة حيث لم يستعن بكم فتفوزوا بما فاز يا ليتني كنت معهم. وقيل: إنه متصل بالجملة الأولى وهو ضعيف، إذ لا يفصل أبعاضُ الجملة بما لا يتعلق بها لفظاً ومعنًى. وكأنْ مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب تكن بالتاء لتأنيث لفظ المودة[1]، والمنادى في يا ليتني محذوف أي: يا قوم وقيل يا أُطْلِقُ للتنبيه على الاتساع، فأفوزَ نصب على جواب التمني وقرىء بالرفع على تقدير فأنا أفوز في ذلك الوقت، أو العطف على كنت.

۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي الذين يبيعونها بها، والمعنى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة، أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطئون، والمعنى حثهم على ترك ما حكي عنهم. ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وعد له الأجر العظيم غَلَبَ أو غُلِبَ، ترغيباً في القتال وتكذيباً لقولهم ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ وإنما قال ﴿فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعزّ نفسه بالشهادة أو الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين[2].

(٧٥) ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حال والعامل فيها ما في الظرف من معنى الفعل. ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ عطف على اسم الله تعالى أي وفي سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو، أو على سبيل بحذف المضاف أي وفي خلاص المستضعفين، ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله تعالى يعم أبواب الخير وتخليصُ ضعفة المسلمين من أيدي الكفار أعظمُها وأخصُّها. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين بقُوا بمكة لصد المشركين، أو ضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتحنين، وإنما ذكر الولدان مبالغة في الحث وتنبيهاً على

---

(١) وفي الأصل «كأن لم يكن بينكم. . .» بالياء.

(٢) قوله: «فليقاتل في سبيل الله. . .» قدم الظرف «في سبيل» على الفاعل للاهتمام به. وقوله: «فيقتل أو يغلب» قدم القتل للإيذان بتقدمه في استتباع الأجر (س٢/٢٠١).

تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان، وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استنزال الرحمة واستدفاع البلية. وقيل المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد. ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فاستجاب الله دعاءهم بأن يَسَّر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خيرَ وليٍّ وناصرٍ بفتح مكة على نبيه صلى الله عليه وسلم، فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعزّ أهلها، والقريةُ مكة والظالم صفتُها، وتذكيرُه لتذكير ما أُسند إليه فإن اسم الفاعل أو المفعول إذا جرى على غير من هُوَ لهُ كان كالفعل يذكّر ويؤنث على حسب ما عَمِلَ فيه[1].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

(٧٦) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيما يَصِلون به إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان. ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياءَ الشيطان ثم شجعهم بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين ضعيفٌ لا يؤبه به فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه.

(٧٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي عن القتال. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ واشتغلوا بما أمرتم به. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه، وإذا للمفاجأة جوابُ لمّا، وفريق مبتدأ، منهم صفتُه، ويخشون خبرُه، وكخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول، وقع موقع المصدر أو الحال من فاعل يخشون على معنى يخشون الناس مثل أهل خشية الله منه. ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ عطف عليه إن جعلته حالاً وإن جعلته مصدراً فلا، لأن أفعَل التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الله تعالى أي: وكخشية الله تعالى أو كخشيةٍ أشد خشيةً منه على الفرض، اللهم إلا أن تجعل الخشية ذات خشية كقولهم: جَدّ جِدّه على معنى يخشون الناس خشية مثل خشية الله تعالى، أو خشية أشد خشية من خشية الله. ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ استزادة في مدة الكفّ عن

---

(١) قوله «وما لكم» فيه التفات للمبالغة في التحريض عليه وتأكيد وجوبه.
وقوله «واجعل لنا من لدنك ولياً» قدم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر.
وتقديم اللام على مِنْ للمسارعة إلى إبراز كون المسؤول نافعاً لهم مرغوباً فيه لديهم (س٢/ ٢٠٢).

القتال حذراً عن الموت، ويحتمل أنهم ما تفوهوا به ولكن قالوا في أنفسهم فحكى الله تعالى عنهم. ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ سريع التقضي ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه، أو من آجالكم المقدرة. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ولا يُظلمون لتقدم الغيبة(١).

أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(٧٨) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قرىء بالرفع على حذف الفاء كما في قوله:

مَنْ يَفْعَلِ الحسناتِ اللهُ يَشكُرُها

أو على أنه كلام مبتدأ، وأينما متصل بلا تُظْلمون. ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ في قصور أو حصون مرتفعة، والبروج في الأصل بيوت على أطراف القصور، من تبرجت المرأةُ إذا ظهرت. وقرىء مَشِيدَة بكسر الياء وصفاً لها بوصف فاعلها كقولهم: قصيدة شاعِرة، ومَشِيدَة من شاد القصر إذا رفعه. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ كما تقع الحسنة والسيئة على الطاعة والمعصية يقعان على النعمة والبلية، وهما المراد في الآية أي: وإن تصبهم نعمة كخَصْب نسبوها إلى الله سبحانه وتعالى، وإن تصبهم بلية كقحط ضافوها إليك وقالوا إن هي إلا بشؤمك كما قالت اليهود: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها. ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي يبسط ويقبض حسب إرادته. ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ يوعظون به وهو القرآن فإنهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا أن الكل من عند الله سبحانه وتعالى، أو حديثاً ما كبهائمَ لا أفهام لها، أو حادثاً من صروف الزمان فيفتكرون فيه فيعلمون أن القابض والباسط هو الله سبحانه وتعالى(٢).

(٧٩) ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ يا إنسان. ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة. ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي تفضلاً منه، فإن كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافىء نعمة الوجود، فكيف يقتضي غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى». قيل ولا أنت؟ قال: «ولا أنا»(٣). ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ من

---

(١) قوله: «الذين قيل لهم» ورد بناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبي ﷺ للإيذان بكون ذلك بأمر الله تعالى.
وقوله: «إذا فريق منهم يخشون الناس. . .» ولعل توجيه التعجيب إلى الكل مع صدور الخشية من بعضهم للإيذان بأنه ما كان ينبغي أن يصدر عن أحدهم ما ينافي حالتهم الأولى (س٢/ ٢٠٣).

(٢) قوله: «أينما تكونوا. . .» تلوين للخطاب بصرفه عن رسول الله ﷺ إلى المخاطبين اعتناء بإلزامهم إثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته عليه السلام (س٢/ ٢٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ١٢٧ رقم ٥٦٧٣) و(١١/ ٢٩٤ رقم ٦٤٦٣). ومسلم (٤/ ٢١٧٠ رقم ٧٦/ ٢٨١٦) من حديث أبي هريرة.

=

بلية. ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي، وهو لا ينافي قوله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فإن الكل منه إيجاداً وإيصالاً غير أن الحسنة إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكةُ يشاكُها وحتى انقطاع شَسَع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر»(١). والآيتان كما ترى لا حجة فيهما لنا وللمعتزلة. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ حالٌ قصد بها التأكيدُ إن علق الجارّ بالفعل والتعميمُ إن علّق بها أي رسولاً للناس جميعاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾(٢) ويجوز نصبه على المصدر كقوله: ولا خَارِجاً مِنْ فِيَّ زُور كَلَامِ. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك بنصب المعجزات(٣).

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

(٨٠) ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام في الحقيقة مُبلِّغ، والآمر هو الله سبحانه وتعالى. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله». فقال: المنافقون لقد قارف الشرك وهو ينهى عنه، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً. فنزلت(٤). ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعته. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وهو حال من الكاف(٥).

= وأخرج البخاري (١١/ ٢٩٤ رقم ٦٤٦٧) ومسلم (٤/ ٢١٧١ رقم ٧٨/ ٢٨١٨) من حديث عائشة نحوه.
وأخرج مسلم (٤/ ٢١٧١ رقم ٧٧/ ٢٨١٧) من حديث جابر نحوه أيضاً.

(١) هذان حديثان:
فإن حديث عائشة أخرجه البخاري (١٠/ ١٠٣ رقم ٥٦٤٠) ومسلم (٤/ ١٩٩٢ رقم: ٤٩/ ٢٥٧٢) عنها مرفوعاً بلفظ: «ما من مصيبة، تُصيبُ المسلم إلاَّ كفَّرَ اللهُ بها عنه، حتى الشوكةِ يُشَاكَهَا».
وأخرج البخاري (١٠/ ١٠٣ رقم ٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (٤/ ١٩٩٢ رقم ٥٢/ ٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «ما يُصيبُ المؤمِنَ من وصبٍ، ولا نصبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حزنٍ، حتى الهمِّ يُهَمُّهُ إلاَّ كُفِّرَ به من سيئاته».
وأخرج الترمذي (٥/ ٣٧٨ رقم ٣٢٥٢) من حديث أبي موسى مرفوعاً بلفظ: «لا يصيبُ عبداً نكبَةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفُو اللهُ عنه أكثر، قال: وقرأ «وما أصابكم من مصيبة... الآية». وفي سنده شيخ من بني مرة مجهول.

(٢) سبأ: «٢٨».

(٣) قوله: «ما أصابك» تلوينٌ للخطاب وتوجيهه لكل واحد من الناس والالتفات فيه لمزيد الاعتناء به والاهتمام برد مقالتهم الباطلة والإيذان بأن مضمونه مبني على حكمة دقيقة حقيقة بأن يتولى بيانها علام الغيوب (س٢/ ٢٠٦).

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٧٥): لم أجده.

(٥) قوله: «من يطع الرسول» عبر عنه بالرسول للإيذان بأن مناط كون طاعته عليه السلام طاعة له تعالى ليس =

(٨١) ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ إذا أمرتهم بأمر. ﴿ طَاعَةٌ ﴾ أي أَمْرُنا طاعة أو منّا طاعة، وأصلها النصب على المصدر ورفعها للدلالة على الثبات. ﴿ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾ خرجوا. ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ أي زوّرتْ خلاف ما قلتَ لها، أو ما قالت لك من القبول وضمان الطاعة، والتبييت إما من البيتوتة لأن الأمور تدبر بالليل، أو من بيْت الشعر، أو البيت المبني لأنه يُسوّىٰ ويدبر. وقرأ أبو عمرو وحمزة بَيَّتْ طائفة بالإدغام لقربهما في المخرج. ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ يثبته في صحائفهم للمجازاة، أو في جملة ما يوحىٰ إليك لتطلع على أسرارهم. ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قلل المبالاة بهم أو تجافَ عنهم. ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ في الأمور كلها سيما في شأنهم. ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ
ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ
مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

(٨٢) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه، وأصل التدبر النظر في أدْبار الشيء. ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار. ﴿ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقةُ بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقةُ العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية. ولعل ذِكْره ههنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحُكْم بل لاختلاف الأحوال في الحِكَم والمصالح.

(٨٣) ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ ﴾ مما يوجب الأمن أو الخوف. ﴿ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ أفشوْه كما كان يفعله قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ، أو أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحي إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أذاعوا به لعدم حزمهم فكانت إذاعتهم مفسدة. والباء مزيدة أو لتضمن الإذاعة معنى التحدث. ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ ﴾ أي ولو ردوا ذلك الخبر. ﴿ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ إلى رأيه ورأي كبار أصحابه البصراء بالأمور، أو الأمراء. ﴿ لَعَلِمَهُ ﴾ لَعلم ما أخبروا به على أي وجه يذكر. ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ يستخرجون تدابيره بتجاربهم وأنظارهم. وقيل كانوا يسمعون أراجيف المنافقين فيذيعونها فتعود وبالاً على المسلمين، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم حتى يسمعوه منهم وتعرفوا أنه هل يذاع لعلم ذلك من هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر أي: يستخرجون علمه من جهتهم، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء، يخرج من البئر أول ما يحفر. ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بإرسال الرسول وإنزال الكتاب.

= لخصوصية ذاته بل من حيثية رسالته (س٢/٢٠٦).

﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ والكفر والضلال. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا قليلاً منكم تفضل الله عليه بعقل راجح اهتدى به إلى الحق والصواب وعصمه عن متابعة الشيطان كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل، أو إلا اتباعاً قليلاً على الندور.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَنْ تثبطوا وتركوك وحدك. ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إلا فعل نفسك لا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم، فتقدم إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد فإن الله ناصرك لا الجنود. روي أنه عليه الصلاة والسلام دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، فكرهه بعضهم. فنزلت. فخرج عليه الصلاة والسلام وما معه إلا سبعون لم يَلْوِ على أحد. وقرىء لا تُكَلِّفْ بالجزم ولا نُكَلِّفُ بالنون على بناء الفاعل أي لا نُكلفك إلا فعل نفسك، لا أنّا لا نكلف أحداً إلا نفسك لقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال إذ ما عليك في شأنهم إلا التحريض ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشاً، وقد فعل بأن ألقى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا. ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش. ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تعذيباً منهم، وهو تقريع وتهديد لمن لم يتبعه.

(٨٥) ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ راعىٰ بها حق مسلم ودفع بها عنه ضراً أو جلب إليه نفعاً ابتغاء لوجه الله تعالى، ومنها الدعاء لمسلم قال عليه الصلاة والسلام: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له المَلَك ولك مثلُ ذلك»[1]. ﴿يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها. ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ يريد بها محرماً. ﴿يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب من وزرها مساوٍ لها في القدر. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً من أقات على الشيء إذا قدر قال:

وذِي ضُغْنٍ كَفَفْتُ الضُّغْنَ عَنْهُ وكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتَا

أو شهيداً حافظاً، واشتقاقه من القُوت فإنه يقوي البدن ويحفظه.

(١) أخرج مسلم (٤/ ٢٠٩٤ رقم ٨٦/ ٢٧٣٢) عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ مُسلمٍ يَدْعُو لأخِيه بظهرِ الغيب إلا قال الملكُ، ولك، بمِثْلٍ».
وأخرج مسلم (٤/ ٢٠٩٤ رقم ٨٨/ ٢٧٣٣) والبخاري في الأدب المفرد رقم (٦٢٥) وأحمد في المسند (٥/ ١٩٥).
عن صفوان (وهو ابن عبدالله بنِ صفوان) وكانت تحته الدَّرداءُ. قال: قدمتُ الشام، فأتيتُ أبا الدرداء في منزله فلم أجده. ووجدتُ أم الدرداءِ فقالت: أتريد الحجَّ العامَ؟ فقلت: نعم. قالت: فادعُ الله لنا بخيرٍ. فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوةُ المرءِ المسلمِ لأخيه، بظهر الغيب مستجابةٌ، عِندَ رأسِهِ مَلَكٌ موكَّلٌ. كلما دَعَا لأخيه بخيرٍ، قال الملكُ المُوكَل به: آمين ولك بمثلٍ».

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ﴾ الجمهور على أنه في السلام، ويدل على وجوب الجواب إما بأحسنَ منه وهو أن يزيد عليه ورحمة الله فإن قاله المسلم زاد وبركاته وهي النهاية، وإما برد مثله لما روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليك». فقال الرجل: نقصتني، فأين ما قال الله تعالى، وتلا الآيةَ. فقال صلى الله عليه وسلم: «إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله»[1]. وذلك لاستجماعه أقسام المطالب السالِمَة عن المضار وحصول المنافع وثباتها، ومنه قيل: أوْ للترديد بين أن يحيِّي المسلمُ ببعض التحية وبين أن يحيي بتمامها، وهذا الوجوب على الكفاية، وحيث السلام مشروعٌ فلا يُرَدُّ في الخطبة وقراءة القرآن وفي الحمام وعند قضاء الحاجة ونحوها. والتحيةُ في الأصل مصدر حياك الله على الإخبار من الحياة، ثم استعمل للحكم والدعاء بذلك، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام. وقيل المراد بالتحية العطية وواجب الثواب أو الرد على المتهب، وهو قول قديم للشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسبكم على التحية وغيرها.

(٨٧) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ مبتدأ وخبر، أو الله مبتدأ والخبر: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي اللهُ، واللهُ لَيَحْشرنكم من قبوركم إلى يوم القيامة، أو مفضين إليه، أو في يوم القيامة، ولا إله إلا هو اعتراض. والقيام والقيامة كالطِّلاب والطِّلابة وهي قيام الناس من القبور أو للحساب. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۗ﴾ في اليوم أو في الجمع فهو حال من اليوم، أو صفة للمصدر ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنكارُ أن يكون أحد أكثر صدقاً منه، فإنه لا يتطرق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله محال.

(٨٨) ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين. ﴿فِئَتَيْنِ﴾ أي فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم، وذلك أن ناساً منهم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو لاجتواء المدينة، فلما

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ج٥/ ١٩٠) وابن أبي حاتم وابن مردويه ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٦٠٥) ـ والطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٦ رقم ٦١١٤) من حديث سلمان وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٣) وقال: «رواه الطبراني وفيه هشام بن لاحق قواه النسائي وترك أحمد حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.
وقال السيوطي: سنده حسن.
وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ٣٥٨ رقم ١٢٠٠٧) من حديث ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٣) وقال: «رواه الطبراني في الكبير، والأوسط وفيه نافع بن هرمز وهو ضعيف جداً» هـ.
قلت: حديث سلمان يتقوى بحديث ابن عباس إلى درجة الحسن لغيره.

خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون في إسلامهم[١]. وقيل نزلت في المتخلفين يوم أحد[٢]، أو في قوم هاجروا ثم رجعوا معتلّين باجتواء المدينة والاشتياق إلى الوطن، أو قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة[٣]. وفئتين حال عامِلُها لكم كقولك: ما لك قائماً. وفي المنافقين حال من فئتين أي متفرقتين فيهم، أو من الضمير أي فما لكم تفترقون فيهم، ومعنى الافتراق مستفاد من فئتين. ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ ردهم إلى حكم الكفرة، أو نكَّسهم بأن صيرهم للنار. وأصل الركس ردُّ الشيء مقلوباً. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أن تجعلوه من المهتدين. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى[٤].

وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

(٨٩) ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ تمنَّوْا أن تكفروا ككفرهم. ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ فتكونون معهم سواء في الضلال، وهو عطف على تكفرون ولو نُصِب على جواب التمني لجاز. ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا وتتحققوا إيمانهم بهجرة هي لله ورسوله لا لأغراض الدنيا، وسبيل الله ما أمر بسلوكه. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان الظاهر بالهجرة أو عن إظهار الإيمان. ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كسائر الكفرة. ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي جانبوهم رأساً ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة.

(٩٠) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم أي: إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ويفارقون محاربتكم. والقوم هم خزاعة. وقيل: هم الأسلميون فإنه عليه الصلاة والسلام وادَعَ وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن لجأ إليه فله من الجوار مثل ماله. وقيل بنو بكر بن زيد مناة. ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٩٢) عن أبي سلمة. بلفظ مقارب.
قلت: ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وروايته هذه مخالفة للحديث الذي سيأتي بعد هذا الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٩٦ رقم ١٨٨٤) و(٧/ ٣٥٦ رقم ٤٠٥٠) و(٨/ ٢٥٦ رقم ٤٥٨٩). ومسلم (٤/ ٢١٤٠ رقم ٦/ ٢٧٧٦) من حديث زيد بن ثابت.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٤/ ج٥/ ١٩٣) بسند ضعيف.

(٤) قوله «أتريدون أن تهدوا من أضل الله» وضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر في حيز الصلة.
وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها كأن يقال: أتهدون..؟ للمبالغة في إنكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته فضلاً عن إمكان نفسه (س٢/ ٢١٣).

عطف على الصلة، أي أو الذين جاؤوكم كافّين عن قتالكم وقتال قومهم، استثني من المأمور بأخذهم وقتلهم مَنْ ترك المحاربين فلحق بالمعاهدين، أو أتى الرسول ﷺ وكف عن قتال الفريقين، أو على صفةِ قوم وكأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم كافين عن القتال لكم وعليكم. والأول أظهر لقوله، فإن اعتزلوكم». وقرىء بغير العاطف على أنه صفةٌ بعد صفة، أو بيانٌ ليَصِلون، أو استئناف. ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار قد، ويدل عليه أنه قرىء حَصِرةً صدورُهم وحَصِراتٍ صدُورُهم، أو بيان لجاءوكم، وقيل صفة محذوف أي جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم، وهم بنو مدلج جاؤوا رسول الله ﷺ غير مقاتلين. والحصر الضيق والانقباض. ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْۚ﴾ أي عن أن، أو لأن، أو كراهة أن يقاتلوكم. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن قوّى قلوبهم وبسط صدورهم وأزال الرعب عنهم. ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ﴾ ولم يكفوا عنكم. ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم. ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلام والانقياد. ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ
وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ
عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

(٩١) ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ هم أسد وغطفان، وقيل بنو عبدالدار أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا المسلمين فلما رجعوا كفروا. ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ دُعوا إلى الكفر وإلى قتال المسلمين. ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ عادوا إليها وقُلِبوا فيها أقبح قلب. ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ وينبذوا إليكم العهد. ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم. ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ﴾ حيث تمكنتم منهم فإن مجرد الكف لا يوجب نفي التعرض. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم، أو تسلطاً ظاهراً حيث أَذِنَّا لكم في قتلهم.

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صح له وليس من شأنه. ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق. ﴿إِلَّا خَطَـًٔاۚ﴾ فإنه على عرضته. ونصبُه على الحال أو المفعول له أي: لا يقتلُه في شيء من الأحوال إلا حالَ الخطأ أو لا يقتلُه لعلة إلا للخطأ، أو على أنه صفةُ مصدر محذوف أي إلا قتلاً خطأً. وقيل: «ما كان» نفيٌ في معنى النهي. والاستثناء منقطع أي لكن إنْ قتله خطأ فجزاؤه ما يُذكر. والخطأ ما لا يضامّه القصد إلى الفعل أو الشخص، أو لا يقصد به زهوق الروح غالباً، أو لا يقصد به محظور كرمي مسلم في

صف الكفار مع الجهل بإسلامه، أو يكون فعلُ غير المكلَّف. وقرىء خَطَاءً بالمد وخَطا كعصا بتخفيف الهمزة. والآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الأم، لقي حارث بن زيد في طريق وكان قد أسلم ولم يشعر به عياشٌ فقتله[١]. ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعليه أو فواجبه تحرير رقبة والتحريرُ الإعتاق، والحر كالعتيق للكريم من الشيء ومنه حر الوجه لأكرم موضع منه، سمي به لأن الكَرَم في الأحرار واللؤم في العبيد. والرقبةُ عبر بها عن النَّسَمة كما عبر عنها بالرأس. ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ محكومٍ بإسلامها وإن كانت صغيرة. ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث، لقول ضحاك بن سفيان الكلابي[٢]: كَتَب إليَّ رسول الله ﷺ يأمرني أن أورِّث امرأة أشيم الضبابي من عَقْلِ زوجها. وهي على العاقِلَة، فإن لم تكن فعلىٰ بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله. ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، سمي العفو عنها صدقة حثاً عليه وتنبيهاً على فضله، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «كل معروف صدقة»[٣]. وهو متعلق بعَلَيْه، أو بمُسَلَّمة، أي تجب الدية عليه أو يسلِّمها إلى أهله إلا حالَ تصدقهم عليه، أو زمانُه فهو في محل النصب على الحال من القاتل أو الأهلِ أو الظرفِ. ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي فإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين، أو في تضاعيفهم ولم يُعْلم إيمانُه فعلىٰ قاتله الكفارة دون الدية لأهله إذ لا وراثة بينه وبينهم ولأنهم محارِبون. ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان من قوم كفرة معاهَدين أو أهل الذمة فحكمُه حكمُ المسلمين في وجوب الكفارة والدية، ولعله فيما إذا كان المقتول معاهَداً أو كان له وارث مسلم. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة بأنْ لم يملكها ولا ما يُتَوصلُ به إليها. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعليه أو فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين. ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المفعول له أي شَرَع ذلك توبةً، مِنْ تاب الله عليه إذا قَبِلَ توبته، أو على المصدر أي وتاب الله عليكم توبة، أو الحال بحذف مضاف أي فعليه صيام شهرين ذا توبة. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صِفَتُها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بحاله. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما أمر في شأنه.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» ذكره الثعلبي بغير سند، والواحدي ـ ص١٦٩ ـ ١٧٠ ـ عن الكلبي.
ورواه الطبري ـ في جامع البيان (٤/ج٥/٢٠٤) ـ من طريق أسباط عن السدي بتغيير يسير. ـ قلت: سنده ضعيف ـ ولم يسم الحارث. فقال: ومعه رجل من بني عامر. وقال ابن إسحاق في المغازي: حدثني نافع عن ابن عمر عن أبيه قال: «أبعدت أنا وعياش عن أبي ربيعة هشام بن العاص، لما أردنا الهجرة، فأصبحت أنا وعياش. وحبس عنا هشام وفتى. وخرج أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش بالمدينة فكلماه وقالا له: إنَّ أمك نذرت أن لا تمسّ رأسها بمشط، فذكر القصة بطولها» هـ.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٨٦٦ رقم ٩) والترمذي (٤/٢٧ رقم ١٤١٥) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب أن عمر كان يقول: الدية على العاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً حتى أخبرَهُ الضحاك بن سفيان الكِلابي أن رسول الله... فذكره.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح وهو كما قال.

(٣) أخرجه البخاري (١٠/٤٤٧ رقم ٦٠٢٢) من حديث جابر.
وأخرجه مسلم (٢/٦٩٧ رقم ٥٢/١٠٠٥) من حديث حذيفة.

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ
وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ
إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

(٩٣) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لما فيه من التهديد العظيم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمداً[(١)]، ولعله أراد به التشديد إذ روي عنه خلافه، والجمهور على أنه مخصوص بمن لم يتب لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾[(٢)] ونحوه، وهو عندنا إما مخصوص بالمُستحِلِّ له كما ذكره عكرمة[(٣)] وغيره، ويؤيده أنه نزل في مقيس بن ضبابة[(٤)] وجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار ولم يَظْهَر قاتلُه، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يدفعوا إليه ديتَه، فدفعوا إليه، ثم حمل على مسلم فقتله ورجع إلى مكةمرتداً[(٥)]، أو المرادُ بالخلود المكث الطويل فإن الدلائل متظاهِرَة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سافرتم وذهبتم للغزو. ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ فاطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه. وقرأ حمزة والكسائي فتثبتوا في الموضعين هنا وفي الحجرات، من التثبت. ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ لمن حياكم بتحية الإسلام. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة السَّلَمَ بغير الألف أي الاستسلام والانقياد، وفُسر به السلام أيضاً. ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وإنما فعلتَ ذلك متعوِّذاً. وقرىء مُؤْمَناً بالفتح أي مبذولاً له الأمان. ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاذ، وهو حال من الضمير في تقولوا مُشْعِر بما هو الحامل لهم على العجلة وترك التثبت. ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ﴾ لكم. ﴿كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن قتل أمثاله لمالِه. ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي أول ما دخلتم في الإسلام تفوَّهتم بكلمتي الشهادة فحصُنت بها دماؤكم وأموالكم من غير أن يُعْلَمَ مواطأةُ قلوبكم ألسنتكم. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاشتهار بالإيمان والاستقامة في الدين. ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ وافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فَعَل اللهُ بكم، ولا تبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم دخلوا فيه اتقاء وخوفاً، فإن إبقاء ألْفِ كافر أهون عند الله من قتل امرىء مسلم. وتكريره تأكيدٌ لتعظيم الأمر وترتيبِ الحكم على ما ذُكر من حالهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ عالماً به

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٤٩٣ رقم ٤٧٦٤). ومسلم (٤/ ٢٣١٨ رقم ١٩/ ٣٠٢٣) من رواية سعيد بن جبير عنه.

(٢) طه: «٨٢».

(٣) عكرمة ص١/ ١٤٧ أبي السعود.

(٤) قيس بن ضبابة: استثناه رسول الله ﷺ يوم الفتح ممن أمّنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن جبير (روح المعاني ٥/ ١١٥).

وبالغرض منه فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه. روي أن سرية رسول الله ﷺ غزت أهل فِدْك فهربوا وبقي مرداس ثقةً بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقولٍ من الجبل وصعِد، فلما تلاحقوا به وكبّروا كبّر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم، فقتله أسامة واستاق غنمه(١) وقيل نزلت في المقداد مر برجل في غنيمة فأراد قتله فقال: لا إله إلا الله. فقتله وقال: وَدّ لو فرّ بأهله وماله(٢). وفيه دليل على صحة إيمان المكْرَه(٣) وأن المجتهد قد يخطىء وأن خطأه مغتفر.

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

(٩٥) ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ عن الحرب. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضع الحال من القاعدين، أو من الضمير الذي فيه. ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ بالرفع صفة للقاعدون لأنه لم يُقْصد به قوم بأعيانهم، أو بدل منه. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالنصب على الحال أو الاستثناء، وقرىء بالجرّ على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه. وعن زيد بن ثابت أنها نزلت ولم يكن فيها غير أُولي الضرر فقال ابن أم مكتوم: وكيف وأنا أعمىٰ؟ فغَشِيَ رسولَ الله ﷺ في مجلسه الوحيُ، فوقعت فخِذُه على فخذي حتى خشيت أن ترضّها ثم سري عنه فقال: «اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾»(٤) أي لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة، وفائدتُه تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد في الجهاد رفعاً لرتبته وأَنَفة عن انحطاط منزلته. ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٨٩): أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.
قلت: سنده هالك.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٢٤) من رواية أسباط عن السدي بتغيير يسير.
وقد أخرج البخاري (٧/ ٥١٧ رقم ٤٢٦٩) و(١٢/ ١٩١ رقم ٦٨٧٢) ومسلم (١/ ٩٦ ـ ٩٧ رقم ١٥٨، ١٥٩/ ٩٦) كلاهما من طريق أبي طبيان عن أسامة بن زيد، قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: «لا إله إلا الله فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه» إلى آخر الحديث.
(٢) أخرجه البزار (كشف الأستار ٣/ ٤٥) وقال الهيثمي: إسناده جيد (المجمع ٧/ ٨ ـ٩).
(٣) قوله (وفيه دليل على صحة إيمان المكره) ليس على إطلاقه فهو يعد بظاهره مسلماً وأمره إلى الله تعالى، إذ لا يعرف حقيقة الإيمان إلا الله تعالى.
(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٤٥ رقم ٢٨٣٢) و(٨/ ٢٥٩ رقم ٤٥٩٢) من رواية مروان بن الحكم عن زيد بن ثابت نحوه.
وأخرجه أبو داود (٣/ ٢٤ رقم ٢٥٠٧) والحاكم (٢/ ٨١ ـ ٨٢) من رواية خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت بنحوه أيضاً.
قلت: وقد أخرج البخاري (٦/ ٤٥ رقم ٢٨٣١) ومسلم (٣/ ١٥٠٨ رقم ١٤١/ ١٨٩٨) من حديث البراء بن عازب أيضاً نحوه.
=

﴿وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ جملة موضِّحة لما نُفي الاستواء فيه، والقاعدون على التقييد السابق، ودرجةً نُصِبَ بنزع الخافض أي بدرجة، أو على المصدر لأنه تضمن معنى التفضيل ووقع موقع المَرَّة منه، أو الحال بمعنى ذوي درجة. ﴿وَكُلًّا﴾ من القاعدين والمجاهدين. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب. ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نُصِب على المصدر لأن فَضل بمعنى أجر، أو المفعول الثاني له لتضمنه معنى الإعطاء كأنه قيل: وأعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً.

(٩٦) ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ كل واحد منها بدل من أجراً، ويجوز أن ينتصب درجات على المصدر كقولك: ضربته أسواطاً، وأجراً على الحال عنها تقدمت عليها لأنها نكرة، ومغفرة ورحمة على المصدر بإضمار فعليهما. كرّر تفضيل المجاهدين وبالغ فيه إجمالاً وتفصيلاً تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه وقيل: الأول ما خولهم في الدنيا من الغنيمة والظفر وجميل الذكر، والثاني ما جعل لهم في الآخرة. وقيل المراد بالدرجة الأولى ارتفاع منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى، وبالدرجات منازلهم في الجنة. وقيل القاعدون الأول هم الأضرّاء والقاعدون الثاني هم الذين أُذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم. وقيل المجاهدون الأولون من جاهد الكفار والآخرون من جاهد نفسه وعليه قوله عليه الصلاة والسلام «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[١]. ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما عسىٰ أن يفرط منهم. ﴿رَّحِيمًا﴾ بما وعد لهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

(٩٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يحتمل الماضي والمضارع، وقرىء توفتْهم وتُوَفَّاهم على مضارع وَفيْت بمعنى أن الله يوفي الملائكةَ أنفسَهم فيتوفونها أي يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة فإنها نزلت في أناس من مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة واجبة[٢]. ﴿قَالُوا۟﴾ أي الملائكة توبيخاً لهم. ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اعتذروا مما وُبِّخوا به بضعفهم وعجزهم عن الهجرة، أو عن إظهار الدين وإعلاء كلمة الله. ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الملائكة تكذيباً لهم أو تبكيتاً ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٣/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤) في ترجمة واصل بن حمزة، وأخرجه البيهقي في الزهد (رقم ٣٧٤ ص١٩٨) بلفظ: أنه عليه السلام قال: «قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد هواه». وفي سنده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، وفيه غيره.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٠٥، ٢٧٢) بلفظ «إن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين فكثروا سواد المشركين فيأتي السهم برماية فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله عز وجل فيهم «إن الذين توفَّاهم الملائكة» الآية.

قلت: وقد أخرج هذا الحديث البخاري (٨/ ٢٦٢ رقم ٤٥٩٦) و(١٣/ ٣٧ رقم ٧٠٨٥).

﴿فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ إلى قطر آخر كما فعل المهاجرون إلى المدينة والحبشة. ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار. وهو خبر إنّ، والفاء فيه لتضمن الاسم معنى الشرط، وقالوا فيمَ كنتم حالٌ من الملائكة بإضمار قد، أو الخبر قالوا والعائد محذوف أي قالوا لهم، وهو جملة معطوفة على الجملة التي قبلها مستنتجة منها. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ مصيرهم نار جهنم. وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام»[1].

إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم في الموصول وضميرِه والإشارةُ إليه. وذِكْر الولد إن أريد به المماليك فظاهر، وإن أريد به الصبيان فللمبالغة في الأمر والإشعارِ بأنهم على صدد وجوب الهجرة، فإنهم إذا بَلغوا وقَدِروا على الهجرة فلا محيص لهم عنها وأن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنت. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ صفة للمستضعفين إذ لا توقيت فيه، أو حال منه أو من المستكن فيه. واستطاعة الحيلة وُجدانُ أسباب الهجرة وما تتوقف عليه، واهتداء السبيل معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

(٩٩) ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ذُكِر بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصد الفرصة ويعلق بها قلبه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

(١٠٠) ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾ متحوَّلاً من الرَّغام وهو التراب. وقيل طريق يُرَاغِم قومه بسلوكه أي يفارقُهم على رغم أنوفهم وهو أيضاً من الرَّغام[2]. ﴿وَسَعَةً﴾ في الرزق وإظهار الدين. ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ وقرىء يُدْرِكُه بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ثم هو يدركه، وبالنصب على إضمار أنْ كقوله:

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِي لِبَنِي تَمِيمٍ وأَلْحَقُ بِالحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الوقوع والوجوب متقاربان، والمعنى: ثبت أجره عند الله

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت من رواية عباد بن منصور الناجي عن الحسن مرسلاً ـ كما في الكافي الشافِ رقم (٣٩٢) ـ قلت: مراسيل الحسن لا تقبل.

(٢) قوله «يجد في الأرض مراغماً..» عبر عنه بذلك لما فيه من الإشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجرين الخير والنعمة إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجرهم (س٢/ ٢٢٤).

تعالى ثبوت الأمر الواجب. والآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة[١] حَمَلَه بنوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله فقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعُك على ما بايع عليه رسولُك صلى الله عليه وسلم فمات[٢].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

(١٠١) ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بتنصيف ركَعاتها. ونفيُ الحرج فيه يدل على جوازه دون وجوبه، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام أتمّ في السفر[٣]، وأن عائشة رضي الله تعالى عنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله قَصَرْت وأتممت وصمت وأفطرت. فقال: «أحسنت يا عائشة»[٤]، وأوجبه أبو حنيفة لقول عمر رضي الله تعالى عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم[٥]، ولقول عائشة رضي الله

---

(١) جندب بن ضمرة هو: ولعله ضمرة بن جندب.
رجح ابن حجر أن اسمه جندع بن ضمرة (الإصابة ١/ ٢٥١ رقم ١٢٣٢) الإصابة القسم الأول من حرف الضاد ٢/ ٢١٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٧٢ رقم ١١٧٠٩) وأبو يعلى (٥/ ٨١ رقم ٢٦٧٩/٣٥٢).
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.
وأخرجه الطبري في جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٤٠) عن ابن عباس بإسناد صحيح نحوه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٤٥٢) والبزار (١/ ٣٢٩ رقم ٦٨٢) والدارقطني (٢/ ١٨٩ رقم ٤٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٤١) كلهم عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها.
ونقل البيهقي عن الدارقطني أن هذا إسناد صحيح. وقال: لهذا شاهد من حديث دلهم بن صالح، والمغيرة بن زياد، وطلحة بن عمرو وكلهم ضعيف.
وقال ابن قيم الجوزية في (زاد المعاد): (١/ ٤٦٥): «إن النبي ﷺ كان يقصُر دائماً، فركب بعض الرواة من الحدثين حديثاً، وقال: فكان رسول الله ﷺ يقصُر وتتم هي، فغلط بعضُ الرواة، فقال: كان يقصُرُ ويُتِمُّ، أي: «هو» هـ.

(٤) أخرجه النسائي (٣/ ١٢٢ رقم ١٤٥٦) والدارقطني (٢/ ١٨٨ رقم ٤٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٤٢).
قال البيهقي: الأول متصل وهو إسناد حسن وعبدالرحمن قد أدرك عائشة فدخل عليها وهو مراهق.
وحكم الدارقطني على الحديث بالاتصال. لكن شيخ الإسلام ابن تيمية حكم عليه بالانقطاع، بين عبدالرحمن بن أسود وعائشة. وضَعَّف الحديث بسبب هذا الانقطاع، وبدليل أن النبي ﷺ لم يعتمر في رمضان، كما هو مستفاض، ولم تكن عائشة تخالف النبي ﷺ، وهو يصلي بأصحابه مقصراً [مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٤٤ ـ ١٥٥)].
وحكم الألباني في الإرواء (٣/ ٨ ـ ٩) عليه بالنكارة.
وخلاصة القول أن حديث عائشة منكر والله أعلم.

(٥) أخرجه النسائي (٣/ ١١١ رقم ١٤٢٠) و(٣/ ١١٨ رقم ١٤٤٠) و(٣/ ١٨٣ رقم ١٥٦٦) وابن ماجة (١/ ٣٣٨ رقم ١٠٦٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٠) من طرق عنه.
وهو حديث صحيح. انظر الإرواء (٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

تعالى عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقِرت في السفر وزيدت في الحضر(١). فظاهرهما يخالف الآية الكريمة، فإن صحّا فالأول مؤوّل بأنه كالتامّ في الصحة والإجزاء، والثاني لا ينفي جواز الزيادة فلا حاجة إلى تأويل الآية: بأنهم أَلِفُوا الأربع فكانوا مظنةً لأن يخطر ببالهم أن ركعتي السفر قَصْر ونقصان، فسمي الإتيان بهما قصراً على ظنهم، ونفي الجناح فيه لتطيب به نفوسُهم. وأقل سفر تُقصر فيه أربعة بُرُد عندنا وستة عند أبي حنيفة(٢). قرىء تُقْصِرُوا من أقصر بمعنى قصر. ومِنَ الصلاة صفةُ محذوفٍ أي: شيئاً من الصلاة عند سيبويه ومفعولُ تَقْصُروا بزيادة من عند الأخفش. ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ شريطةٌ باعتبار الغالب في ذلك الوقت، ولذلك لم يُعْتبر مفهومها كما لم يُعتبر في قوله تعالى ﴿فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ وقد تظاهرت السنن على جوازه أيضاً في حال الأمن. وقرىء مِنَ الصلاة أنْ يفتنكم بغير إنْ خِفتم، بمعنى كراهةَ أن يفتنكم وهو القتال والتعرّض بما يُكْرَه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥٦٩ رقم ١٠٩٠) ومسلم (١/ ٤٧٨ رقم ٦٨٥) كلاهما من طريق ابن عيينه عن الزهري عن عروة عنها.
وفيه: قال الزهري: قلت لعروة: فما بال عائشة كانت تتم في السفر؟
قال: تأولت كما تأول عثمان.
وقال الحافظ: والمنقول أن سبب إتمام عثمان أنه كان يرى القصر مختصاً بمن كان شاخصاً سائراً، وأما من أقام في مكان في أثناء سفره، فله حكم المقيم فيتم والحجة فيه ما رواه أحمد (٤/ ٩٤) بإسناد حسن عن عباد بن عبدالله بن الزبير قال: لما قدم علينا معاوية حاجاً. صلى بنا الظهر ركعتين بمكة، ثم انصرف إلى دار الندوة، فدخل عليه مروان وعمرو بن عثمان، فقالا: لقد عبت أمر ابن عمك لأنه كان قد أتم الصلاة، قال: وكان عثمان حين أتم الصلاة إذا قدم مكة صلى بها الظهر والعصر والعشاء أربعاً أربعاً، ثم إذا خرج إلى منى وعرفة قصر الصلاة، فإذا فرغ من الحج وأقام بمنى، أتم الصلاة.

(٢) ما وقع الخلاف فيه في وجوب القصر وعدمه بين الأحناف والشافعية لكل فريق منهم دليله من صحيح السنة.
أما مسافة القصر وهي أربعة بُرُد عند الشافعية وستة عند أبي حنيفة. ـ والبريد مسافة اثني عشر ميلاً ـ فقد صح من السنة والآثار خلافه، وأصح حديث وأصرحه في الباب حديث أنس حيث قال: كان النبي ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو فراسخ يصلي ركعتين. ـ رواه مسلم ـ وغيره.
وقد قال عنه ابن حجر في فتح الباري: (وهو أصح حديث ورد في بيان ذلك وأصرحه).
ولا داعي لرد الحديث باضطرابه، وخاصة إذا أخذنا بالأكثر وهو ثلاثة فراسخ.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ
فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ
وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ
حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

(١٠٢) ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تعلَّقَ بمفهومه من خَصَّ صلاة الخوف بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لفضل الجماعة، وعامةُ الفقهاء على أنه تعالى عَلَّم الرسول صلى الله عليه وسلم كيفيتها ليأتم به الأئمة بعده فإنهم نوّاب عنه فيكون حضورُهم كحضوره. ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين فلْتقُم إحداهما معك يصلون وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو. ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي المصلون حزماً. وقيل الضمير للطائفة الأخرى، وذِكْر الطائفة الأولى يدل عليهم[١]. ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ يعني المصلين. ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾ أي غير المصلين. ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ يحرسونكم يعني النبي صلى الله عليه وسلم ومن يصلي معه، فغَلّب المخاطَب على الغائب. ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ لاشتغالهم بالحراسة. ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ ظاهرُه يدل على أن الإمام يصلي مرتين بكل طائفة مرة كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخل، وإن أريد به أنْ يصلي بكلٍّ ركعةً إن كانت الصلاة ركعتين، فكيفيتُه: أن يصلي بالأولى ركعة وينتظر قائماً حتى يتموا صلاتهم منفردين ويذهبوا إلى وجه العدو، وتأتي الأخرى فيتم بهم الركعة الثانية. ثم ينتظر قاعداً حتى يتموا صلاتهم ويسلموا بهم كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: يصلي بالأولى ركعة ثم تذهب هذه وتقف بإزاء العدو وتأتي الأخرى فتصلي معه ركعة، ويتم صلاته ثم تعود إلى وجه العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة الثانية بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تعود وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها. ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جَعَل الحِذْر آلةً يَتحصّن بها المغازي فجمع بينه وبينَ الأسلحة في وجوب الأخذ، ونظيرُه قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[٢] ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ تمنوْا أن ينالوا منكم غِرّةً في صلاتكم فيشدون عليكم شدة واحدة، وهو بيان ما لأجله أُمِروا بأخذ الحذر والسلاح. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ رخصة لهم في وَضْعها إذا ثقل عليهم أخذها بسبب مطر أو مرض، وهذا مما يؤيد أن الأمر بالأخذ للوجوب دون الاستحباب. ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر كي لا يهجم عليهم العدو. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم لتقوى قلوبُهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة

---

(١) أي لا يضعوها ولا يلقوها، وإنما عبر عن ذلك بالأخذ للإيذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء (س٢/٢٢٧).

(٢) الحشر: «٩».

عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾

(١٠٣) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ أديتم وفرغتم منها. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فداوموا على الذكر في جميع الأحوال، أو إذا أردتم أداء الصلاة واشتد الخوف فأدّوها كيفما أمكن، قياماً مسايفين ومقارعين، وقعوداً مُرامِين وعلى جنوبكم مُثْخَنين. ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ فعدِّلوا واحفظوا أركانها وشرائطها وائتوا بها تامة. ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ فرضاً محدود الأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال. وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة وأنها واجبةُ الأداء حال المسايَفَة والاضطراب في المعركة، وتعليلٌ للأمر بالإيتاء بها كيفما أمكن. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلي المحارب حتى يطمئنّ.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا. ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ في طلب الكفار بالقتال. ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ إلزام لهم وتقريع على التواني فيه، بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختص بهم، وهم يرجون من الله بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثروات ما لا يرجو عدوهم، فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها. وقرىء أن تكونوا بالفتح بمعنى ولا تَهِنوا لأنْ تكونوا تألمون، ويكون قوله فإنهم يألمون علة للنهي عن الوهْن لأجله. والآية نزلت في بدر الصغرى. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وضمائركم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر وينهى.

(١٠٥) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جِرابِ دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه وخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتُمِسَت الدرعُ عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتُهي إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال دفعها إليّ طعمة وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلِقُوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرىء اليهودي، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يفعل[(١)] ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ بما عرّفك الله وأوحى به إليك، وليس من الرؤية بمعنى العلم وإلا لاستدعى ثلاثة مفاعيل. ﴿ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ ﴾ أي لأجلهم والذب عنهم ﴿ خَصِيمٗا ﴾ للبُرَاء.

وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ ﴾ مما هممت به. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ لمن يستغفر.

(١٠٧) ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ يخونونها فإن وبال خيانتهم يعود عليها، أو جَعَل المعصيةَ خيانة لها كما جُعِلت ظلماً عليها، والضمير لطعمةَ وأمثاله أو له ولقومه فإنهم شاركوه في الإثم حيث شهدوا على براءته وخاصموا عنه. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا ﴾ مبالِغاً في الخيانة مصراً عليها. ﴿ أَثِيمٗا ﴾ منهمكاً فيها. روي: أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بها ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله.

(١٠٨) ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يستترون منهم حياء وخوفاً. ﴿ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ولا يستحيون منه وهو أحق بأن يستحيا ويخاف منه. ﴿ وَهُوَ مَعَهُمۡ ﴾ لا يخفي عليه سرهم فلا طريق معه إلا ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه. ﴿ إِذۡ يُبَيِّتُونَ ﴾ يدبرون ويزورون. ﴿ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ ﴾ من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾. لا يفوت عنه شيء.

(١٠٩) ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ مبتدأ وخبر[(٢)]. ﴿ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً أو صلة عند من يجعله موصولاً. ﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ محامياً يحميهم من عذاب الله.

---

(١) ذكره الواحدي في الأسباب (ص١٨١) عن المفسرين.
وأخرجه الطبري (٤/ج٥/٢٦٧) من رواية سعيد عن قتادة، قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في شأن طُعمه بن أُبيرق فذكر القصة.
وأخرج الترمذي (٥/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ رقم ٣٠٣٦) والحاكم (٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨) والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٩ ـ ١٢ رقم ١٥) وفي إسناده لين بسبب عمر بن قتادة [التقريب: ٢/ ٦٢] وأما ابن إسحاق فقد صرح بالتحديث عند الحاكم ويشهد لها:
ما أخرجه الطبري (٤/ج٥/٢٦٨) عن قتادة وابن زيد مرسلاً بمعناه مختصراً وإسناده صحيح.
وظفر: بطن من الأنصار وبطن في بني سليم. ١ .هـ ـ قاموس.

(٢) وفيه تلوين للخطاب وتوجيهه لهم بطريق الالتفات إيذاناً بأن تعديد جنايتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع (س٢/ ٢٣٠).

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا
يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

(١١٠) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ قبيحاً يسوء به غيره. ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بما يختص به ولا يتعداه. وقيل المراد بالسوء ما دون الشرك، وبالظلم الشرك. وقيل: الصغيرة والكبيرة. ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة. ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا﴾ لذنوبه. ﴿رَّحِيمًا﴾ متفضلاً عليه، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار.

(١١١) ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يتعداه وباله كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته.

(١١٢) ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ صغيرة أو مالا عمد فيه. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد. ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ كما رمىٰ طعمة زيداً، ووَحّدَ الضمير لمكان أوْ[2] ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بسبب رمي البريء وتبرئة النفس الخاطئة، ولذلك سوى بينهما وإن كان مُقْتَرَف أحدهما دون مقترف الآخر[3].

(١١٣) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإعلام ما هُمْ عليه بالوحي، والضميرُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من بني ظفر. ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال، والجملة جواب لولا، وليس القصد فيه إلى نفي همِّهم بل إلى نفي تأثيره فيه. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأنه ما أَزَلَّك عن الحق وعاد وَبَالُه عليهم. ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى عصمك، وما خطر ببالك كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر لا ميلاً في الحكم، ومن شيء في موضع النصب على المصدر أي شيء من الضرر ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من خفيات الأمور، أو من أمور الدين والأحكام. ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة.

(١١٤) ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ من متناجيهم كقوله تعالى ﴿وَإِذْ هُمْ

(١) الإسراء: «٧».
(٢) وتذكيره «به» لتغليب الإثم على الخطيئة، كأنه قيل ثم يرم بأحدهما (س٢/ ٢٣٠).
(٣) وقوله «احتمل بهتاناً» آثر الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الإيذان بانعكاس تقديره مع ما فيه من الإشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر.
واكتفى ببيان عظم البهتان بالتنكير التفخيمي، كأنه قيل: بهتاناً لا يقادر قدره (س٢/ ٢٣١).

نجوىٰ﴾[(١)]. أو من تناجيهم فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ على حذف مضاف أي إلا نجوى من أمر، أو على الانقطاع بمعنىٰ ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير. والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل، وفُسِّر ههنا بالقرض وإغاثةِ الملهوف وصدقةِ التطوع وسائر ما فسر به. ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أو إصلاح ذات البين[(٢)]. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ بَنىٰ الكلام على الأمر ورَتَّب الجزاء على الفعل ليدل على أنه لما دخل الآمِر في زمرة الخيِّرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمدة والغرض هو الفعل واعتبارُ الأمر من حيث إنه وُصْلة إليه، وقيّد الفعل بأن يكون لطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى لأن الأعمال بالنيات وأن كل من فعل خيراً رياءً وسمعة لم يستحق به من الله أجراً. ووَصَفَ الأجر بالعِظَم تنبيهاً على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا. وقرأ حمزة وأبو عمرو يؤتيه بالياء.

وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

(١١٥) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ يخالفه، من الشَّق فإن كلا من المتخالفين في شق غير شق الآخر[(٣)]. ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات. ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل. ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، ونُخَلِّ بينه وبين ما اختاره. ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ وندخله فيها. وقرىء بفتح النون من صلاهُ. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم. والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك إما لحرمة كل واحد منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد، وكذا الثالث لأن المشاقة محرمة ضمّ إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً كان اتباع سبيلهم واجباً، لأن ترك اتباع سبيلهم ممن عرف سبيلَهم اتباعُ غير سبيلهم، وقد استقصيت الكلام فيه في (مرصاد الأفهام إلى مبادىء الأحكام).

(١١٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ كرره للتأكيد، أو لقصة طعمة. وقيل جاء شيخ إلى رسول الله ﷺ وقال: إني شيخ منهك في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ

---

(١) الإسراء: «٤٧».

(٢) وآثر هذه الثلاثة «الصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس» لأنه رأس عمل الخير المتعدي للناس ولأنه يحتاج للإسرار في أكثر الأحيان.

(٣) التعرض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعتهم فيما اجترأوا عليه من المشاقة والمخالفة، وتعليل الحكم الآتي بذلك (س٢/ ٢٣٢).

عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه ولياً ولم أوقِع المعاصي جرأة وما توهمت طرفة عين أني أُعْجِز الله هرباً، وإني لنادم تائب، فما ترى حالي عند الله سبحانه وتعالى؟. فنزلت[1] ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة، وإنما ذكر في الآية الأولى فقد افترىٰ لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب ومنشأ شركهم كان نوع افتراء وهو دعوى التبني على الله سبحانه وتعالى.

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾

(١١٧) ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ يعني اللات والعزى ومناة ونحوها، كان لكل حي صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان وذلك إما لتأنيث أسمائها كما قال:

وَمَـا ذَكَـرٌ فَـإِنْ يَسْمَـنْ فَـأُنْثَـى ... شَـدِيـدُ الأزمِ لَيْـسَ لَـهُ ضُـرُوسٌ

فإنه عَنىٰ القِراد وهو ما كان صغيراً سمي قراداً فإذا كَبُر سمي حَلَمَة، أو لأنها كانت جمادات والجمادات تؤنث من حيث إنها ضاهت الإناث لا نفعاً لها، ولعله سبحانه وتعالى ذكرها بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون ما يسمونه إناثاً لأنه ينفعل ولا يَفْعل، ومن حق المعبود أن يكون فاعلاً غيرَ منفعل ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفَرط حماقتهم. وقيل المراد الملائكة لقولهم: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى، وهو جمع أنثى كرباب ورُبىٰ. وقرىء أنثى على التوحيد، وأُنُثًا على أنه جمع أَنِيث كخُبُث وخبيث، ووُثنًا بالتخفيف وَوُثُناً بالتثقيل وهو جمع وَثَن كأسد وأُسْد وأُسُد وأُنْثًا وأُنُثًا بهما على قلب الواو لضمها همزة. ﴿ وَإِن يَدْعُونَ﴾ وإن يعبدون بعبادتها. ﴿ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها، فكأن طاعته في ذلك عبادة له. والمارد والمريد الذي لا يعلق بخير، وأصل التركيب للملابسة، ومنه صرح ممرّد وغلام أمرد وشجرة مرداء للتي تناثر ورقها.

(١١٨) ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ صفة ثانية للشيطان. ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ عطف عليه أي شيطاناً مَرِيداً جامعاً بين لعنة الله، وهذا القول الدال على فرط عداوته للناس.

وقد برهن سبحانه وتعالى أولاً على أن الشرك ضلال في الغاية على سبيل التعليل بأن ما يشركون به ينفعل ولا يفعل فعلاً اختيارياً، وذلك ينافي الألوهية غاية المنافاة، فإن الإله ينبغي أن يكون فاعلاً غير منفعل، ثم استدل عليه بأنه عبادةُ الشيطان وهي أفظع الضلال لثلاثة أوجه: الأول: أنه مَرِيد منهمك في الضلال لا يعلق بشيء من الخير والهدى، فتكون طاعته ضلالاً بعيداً عن الهدى. والثاني: أنه ملعون لضلاله فلا تَسْتَجْلِبُ مطاوعته سوى الضلال واللعن. والثالث: أنه في غاية العداوة والسعي

(١) ذكره الثعلبي من رواية الضحاك عن ابن عباس (الفتح السماوي ص٥٢٦) وقال ابن حجر: وهو منقطع (الكافي الشافِ ص٤٩ رقم ٤٠٣) وذلك أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

في إهلاكهم، وموالاةُ مَنْ هذا شأنه غاية الضلال فضلاً عن عبادته. والمفروض المقطوع أي نصيباً قُدِّر لي وفُرِض، مِنْ قولهم فرض له في العطاء.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

(١١٩) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق. ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأمانيَّ الباطلة كطول الحياة وأَنْ لا بعث ولا عقاب. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يَشُقُّونها لتحريم ما أحل الله، وهي عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسوائب، وإشارة إلى تحريم ما أَحَلّ ونَقْصِ كل ما خُلِقَ كاملاً بالفعل أو القوة. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ عن وجهه وصورته أو صفته، ويندرجُ فيه ما قيل من فَقْءِ عين الحامي[1] وخِصاء العبيد والوشم والوشْر[2] واللواط والسَّحْق ونحو ذلك وعبادةِ الشمس والقمرِ وتغييرِ فطرة الله تعالى التي هي الإسلام واستعمال الجوارح والقُوى فيما لا يعود على النفس كمالاً ولا يوجِب لها من الله سبحانه وتعالى زُلفى، وعموم اللفظ يمنع الخِصاء مطلقاً لكن الفقهاءَ خَصُّوا في خصاء البهائم للحاجة. والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقاً أو أتاه فعلاً. ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على ما أَمَر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالىٰ إلى طاعته. ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ إذا ضيع رأس ماله وبدل مكانه من الجنة بمكان من النار.

(١٢٠) ﴿يَعِدُهُمْ﴾ ما لا ينجزه. ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة أو بلسان أوليائه.

(١٢١) ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدِلاً ومهرباً من حاص يحيص إذا عدل. وعنها حالٌ منه، وليس صلةً له لأنه اسم مكان، وإن جُعِلَ مصدراً فلا يَعْمل أيضاً فيما قبله.

(١٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾. أي وَعَدَه وعداً وحَقَّ ذلك حقاً، فالأول مؤكِّد لنفسه لأن مضمون الجملة الإسمية التي قبله

(١) الحامي هو الفحل الذي حمى ظهره عن أن يُرْكَب، وقيل فيه أنه إذا لُقح ولد ولده فيقولون حمى ظهره فيهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى، وقيل: الذي يولد من ظهره عشرة أبطن... (روح المعاني ٧/٤٣).

(٢) الوشم هو: غرز الإبرة في الجلد ثم يذر فوقها ما يجعلها تخضرّ. والوشر هو: أن تحدِّد المرأة أنيابها وترققها (المصباح المنير مادة وشم ووشر).

وَعْد، والثاني مؤكِّد لغيره. ويجوز أن يُنصب الموصول بفعل يفسره ما بعده، ووعْدُ الله بقوله سندخلهم، لأنه بمعنى نعِدُهم إدخالهم، وحقاً على أنه حال من المصدر. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ جملة مؤكدة بليغة. والمقصود من الآية معارضةُ المواعيد الشيطانية الكاذبة لقُرَنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، والمبالغةُ في توكيده ترغيباً للعباد في تحصيله.

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

(١٢٣) ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب يُنال بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما يُنال بالإيمان والعمل الصالح. وقيل: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. روي أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهلُ الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أوْلىٰ بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة. فنزلت[(١)]. وقيل[(٢)]: الخطاب مع المشركين ويدل عليه تقدُّم ذكرهم، أي: ليس الأمر بأماني المشركين، وهو قولهم: لا جنة ولا نار وقولُهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسنَ حالاً، ولا أماني أهل الكتاب وهو قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وقولُهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. ثم قرر ذلك وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ عاجلاً أو آجلاً، لما روي أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فمن ينجو مع هذا يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أما تحزنُ» أما تمرضُ، أما يصيبك ا للأواء؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: «هو ذاك»[(٣)]. ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا يجد لنفسه إذا جاوز

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٥/٢٨٨) من طرق عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق مرسلاً، ورجاله ثقات.
وأخرج نحوه عن قتادة، بسند رجاله ثقات.

(٢) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٢٩٠) من طرق عن مجاهد قال في قوله «ليس بأمانيكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب» قال: قالت قريش: لن نُبعث ولن نُعذب. ورجال إحدى الطرق ثقات.
وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: جاء حُيي بن أخطب إلى المشركين فقالوا: يا حيي إنكم أصحاب كتب فنحن خير أم محمد وأصحابه؟ فقال: أنتم خير منه فذلك قوله: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» إلى قوله: «ومن يلعنِ اللهُ فلن تجدَ له نصيراً». ثم قال للمشركين «ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب»...

(٣) وهو حديث حسن بشواهده.
أخرجه أحمد (١١/١) وابن حبان (ص٤٢٩ رقم ١٧٣٤ و١٧٣٥) موارد. والحاكم (٣/ ٧٤ - ٧٥) وأبو يعلى (٩٧/١ رقم ٩٨) والطبري في جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٩٤).
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. قلت: ضعيف لانقطاعه، فإن أبا بكر بن أبي زهير لم يدرك أبا بكر الصديق (انظر المراسيل لابن أبي حاتم ص٢٥٨ رقم ٩٦٠).
وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه مسلم (١٩٩٣/٤ رقم ٢٥٧٤) والترمذي (٥/ ٢٤٧ رقم ٣٠٣٨) عن =

موالاة الله ونصرته من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

(١٢٤) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعضها أو شيئاً منها فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها. ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ في موضع الحال من المستكن في يعمل، ومِنْ للبيان، أو من الصالحات أيْ كائنةً من ذكر أو أنثى، ومِنْ للابتداء. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حالٌ، شَرْط اقترانِ العمل بها في استدعاء الثواب المذكور وتنبيهاً على أنه لا اعتداد به دونه فيه. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بنقص شيء من الثواب، وإذا لم يُنْقَص ثوابُ المطيع فبالحريّ أن لا يُزَاد عقاب العاصي، لأن المُجَازي أرحمُ الراحمين، ولذلك اقتصر على ذكره عقيب الثواب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر يدخلون الجنة هنا، وفي غافر ومريم بضم الياء وفتح الخاء، والباقون بفتح الياء وضم الخاء.

(١٢٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله لا يعرف لها رباً سواه. وقيل بَذَل وجهه له في السجود. وفي هذا الاستفهام تنبيه على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ آت بالحسنات تارك للسيئات. ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الموافِقَة لدين الإسلام المتفقِ على صحتها ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن سائر الأديان. وهو حالٌ من المتبع أو من الملة أو إبراهيم. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكْرَه ولم يُضْمر تفخيماً لشأنه وتنصيصاً على أنه الممدوح. والخُلَّة من الخِلال، فإنه وُدٌّ تخلل النفسَ وخالطها. وقيل من الخَلَل فإن كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر، أو من الخل وهو الطريق في الرمل فإنهما يترافقان في الطريقة، أو من الخَلَّة بمعنى الخَصْلة فإنهما يتوافقان في الخصال. والجملة استئناف جيء بها للترغيب في اتباع ملته صلى الله عليه وسلم والإيذانِ بأنه نهاية في الحسن وغايةُ كمال البشر. روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمةٍ أصابت الناس يمتار منه ⁽¹⁾، فقال

ابن عيينة عن ابن محيض عن محمد بن قيس بن مخرمة عنه قال: لما نزل «من يعمل سوءاً يجز به» شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «قاربوا وسددوا، وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها أو النكبة ينكبها».

ورجاله كلهم ثقات إلا ابن محيض وهو عبدالرحمن بن محيض قال الحافظ: مقبول [التقريب ٢/ ٥٩].

لكن قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. قاله نظراً لشواهده.

وله شاهد من حديث عائشة مرفوعاً أخرجه ابن حبان (رقم ١٧٣٦ ـ موارد) ورجاله ثقات وله شاهد من حديث عائشة موقوفاً عليها أخرجه الحاكم (٢/ ٣٠٨) ورجاله رجال الشيخين إلا أبا المهلب فهو من رجال مسلم فقط.

والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(١) يمتار منه: أي يطلب منه الميرة وهي الطعام.

خليله: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لفعلت، ولكن يريد للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس، فاجتاز غلمانُه ببطحاءَ ليِّنة فملؤوا منها الغرائر حياءً من الناس، فلما أخبَروا إبراهيم ساءه الخبر فغلبتْه عيناه فنام، وقامت سارةُ إلى غرارة منها فأخرجت حوارى واختبزت، فاستيقظ إبراهيم عليه السلام فاشتمّ رائحة الخبز فقال: من أين لكم هذا؟ فقالت: من خليلك المِصري، فقال: بل هو من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله خليلاً[(١)].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً يختار منهما من يشاء وما يشاء. وقيل هو متصل بذكْر العمال مقرِّر لوجوب طاعته على أهل السموات والأرض وكمال قدرته على مجازاتهم على الأعمال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدرة فكان عالماً بأعمالهم فيجازيهم على خيرها وشرها.

(١٢٧) ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ في ميراثهن، إذ سبب نزوله أن عيينة بن حصن[(٢)] أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أُخبِرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنا نورِّث مَنْ يشهد القتال ويحوز الغنيمة. فقال عليه الصلاة والسلام: «كذلك أُمِرت»[(٣)] ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن. والإفتاء تبيين المبهَم. ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ عطف على اسم الله تعالى أو ضميرِه المستكنّ في يفتيكم، وساغ للفصل، فيكون الإفتاء مسنَداً إلى الله سبحانه وتعالى وإلى ما في القرآن من قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ ونحوِه، والفِعْلُ الواحد يُنسب إلى فاعلين مختلفين باعتبارَيْن مختلفيـن، ونظيرُه أغنـانـي زيـدٌ وعطـاؤُه، أو..

(١) أخرجه ابن جرير (٥/ ١٩١) وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٥٣٠).
قال ابن كثير: (وفي صحة هذا ووقوعه نظر، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب، وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

(٢) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري من المؤلفة، شهد حنيناً والطائف وكان أحمق مطاعاً دخل على النبي ﷺ بغير إذن وأساء الأدب فصبر النبي ﷺ على جفوته وأعرابيته وقد ارتد وآمن بطليحة ثم أسر فمن عليه الصديق ثم لم يزل مظهراً للإسلام وكان يتبعه عشرة آلاف فتاة، كان من الجرارة واسمه حذيفة ولقبه عيينة لشتر عينه.
انظر (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي (١/ ٤٣٢ رقم ٤٦٧٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٠٨) وابن جرير (٥/ ٢٩٩) وغيرهما، وفي سنده مقال، إلا أن له طرقاً كثيرة مرفوعة ومرسلة (الفتح السماوي ص٥٣١).

استئناف[1] معترض لتعظيم المتلو عليهم على أن ما يُتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبرُه، والمراد به اللوح المحفوظ، ويجوزُ أن يُنصب على معنى ويبينُ لكم ما يُملَى عليكم، أو يُخفَضَ على القَسَم كأنه قيل: وأُقسِم بما يتلى عليكم في الكتاب، ولا يجوز عطفه على المجرور في فيهن لاختلالِه لفظاً ومعنىً ﴿فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ صلة يُتلى إنْ عُطِفَ الموصول على ما قبله، أي يُتلى عليكم في شأنهن، وإلا فبدلٌ مِنْ فيهن، أو صلةٌ أخرى ليفتيكم على معنى اللهُ يفتيكم فيهن بسبب يَتامى النساء كما تقول: كلمْتُك اليوم في زيد، وهذه الإضافة بمعنى مِنْ لأنها إضافة الشيء إلى جنسه. وقرىء ييامىٰ بياءين على أنه أيامىٰ فقُلبت همزته ياء. ﴿ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي فُرِضَ لهنّ من الميراث. ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ في أن تنكحوهن أو عَنْ أن تنكحوهن، فإن أولياء اليتامى كانوا يرغبون فيهن إن كنّ جميلات ويأكلون ما لَهن، وإلا كانوا يعضُلونهن طمعاً في ميراثهن، والواو تحتَمِل الحال والعطف. وليس فيه دليل على جواز تزويج اليتيمة، إذ لا يلزم من الرغبة في نكاحها جَرَيان العقد في صغرها. ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ عطف على يتامىٰ النساء والعرب ما كانوا يورثونهم كما لا يورثون النساء. ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أيضاً عطفٌ عليه أي ويفتيكم، أو ما يُتلى في أن تقوموا، هذا إذا جَعلتَ في يتامى صلةً لأحدهما، فإنْ جعلتَه بدلاً فالوجه نصبُهما عطفاً على موضع فيهن، ويجوز أن يُنصبَ وأن تقوموا بإضمار فعْلٍ أي: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للقُوّام بالنَّصَفة في شأنهم. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ وعد لمن آثر الخير في ذلك.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

(١٢٨) ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا﴾ توقَّعتْ منه لما ظهر لها من المَخَايل. وامرأة فاعل فعل يفسره الظاهر. ﴿نُشُوزًا﴾ تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها. ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ بأن يُقِلّ مجالستَها ومحادثتها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أن يتصالحا بأن تَحُطّ له بعضَ المهر، أو القَسْم، أو تهب له شيئاً تستميلُه به[2]. وقرأ الكوفيون أن يُصْلحا من أصلح بين المتنازعين، وعلى هذا جاز أن ينتصب صُلحاً على المفعول به، وبينهما ظرف أو حال منه، أو على المصدر كما في القراءة الأولى، والمفعول بينهما أو هو محذوف. وقرىء يَصَّلحا من أصلح بمعنى اصطلح. ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفِرقة أو سوءِ العشرة أو من الخصومة، ولا يجوز أن يراد به التفضيل بل بيان أنه من الخيور كما أن الخصومة من الشرور، وهو اعتراض وكذا قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ ولذلك اغتُفر عدم مجانستهما، والأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتمهيد العذر في المماكسة. ومعنى إحضار

---

(١) قوله (أو استئناف) معطوف على قوله: (عطف على اسم الله تعالى)...

(٢) هذا المعنى على قراءة من قرأ «يَصّالحا» وقد كتبت في الأصل كذلك.

الأنفس الشحَّ جعلها حاضرة له مطبوعة عليه، فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها والتقصير في حقها ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي إذا كرهها أو أحب غيرها. ﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾ في العُشْرة. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والخصومة. ﴿خَبِيرًا﴾ عليماً به وبالغرض فيه فيجازيكم عليه، أقام كونه عالماً بأعمالهم مقام إثابته إياهم عليها الذي هو في الحقيقة جواب الشرط إقامةً للسبب مقام المسبّب[1].

وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

(١٢٩) ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل البتة وهو متعذر، فلذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْسم بين نسائه فيعدل ويقول: «هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[2] ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي على تحري ذلك وبالغتم فيه. ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ بترك المستطاع والجور على المرغوب عنها، فإن ما لا يُدْرك كله لا يترك جله. ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذاتَ بعل ولا مطلقة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من كانت له

---

(١) قوله: «فلا جناح عليهما» تعرض لنفي الجناح عنهما ـ مع أنه ليس من جانبها الأخذ الذي هو المظنة للجناح ـ لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطي والآخذ (س٢/ ٢٣٩).
وفي قوله: «وإن تحسنوا وتتقوا..» خطاب للأزواج بطريق الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ولفظ التقوى، وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة مالا يخفى (س٢/ ٢٣٩).

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٤٤) وأبو داود (٢/ ٦٠١ رقم ٢١٣٤) والترمذي (٣/ ٤٤٦ رقم ١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٣ رقم ٣٩٤٣) وابن ماجة (١/ ٦٣٤ رقم ١٩٧١) وابن حبان (ص٣١٧ رقم ١٣٠٥ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٧) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وصححه الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط في جامع الأصول (١١/ ٥١٤) لكن المحققين من الأئمة قد أعلوه. فقال النسائي عقبه: «أرسله حماد بن زيد».
وقال الترمذي: «هكذا رواه غير واحدٍ عن حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبدالله بن يزيد، عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقسِمُ ورواه حماد بن زيد وغير واحدٍ عن أيوب، عن أبي قلابة، مرسلاً، أن النبي ﷺ كان يقسم.
وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة» هـ.
وأورده ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤٢٥) من طريق حماد بن سلمة ثم قال: «فسمعت أبا زرعة يقول: لا أعلم أحداً تابع حماداً على هذا» وأيده ابن أبي حاتم بقوله: «قلت: روى ابن عليّه عن أيوب عن أبي قلابة. قال: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه. الحديث مرسلاً».
وقال الألباني في الإرواء (٧/ ٨٢): «قلت: وصله ابن أبي شيبة. فقد اتفق حماد بن زيد وإسماعيل بن عليه على إرساله. وكل منهما احفظ وأضبط من حماد ابن سلمة، فروايتهما أرجح عند المخالفة، لا سيما إذا اجتمعا عليها. لكن الشطر الأول منه له طريق أخرى عن عائشة بلفظ «كان رسول الله ﷺ: لا يفضل بعضنا على بعض في القسم...» الحديث رقم (٢٠٢٠) وإن إسناده حسن» هـ.

امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»[1]. ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ فيم يستقبل من الزمان. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

(١٣٠) ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ وقرىء وإن يتفارقا أي وإنْ يفارق كل منهما صاحبه. ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ منهما عن الآخر ببدل أو سَلْوة. ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ غناه وقدرته. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ مقتدراً متقناً في أفعاله وأحكامه.

(١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تنبيه على كمال سعته وقدرته. ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ومَنْ قبلهم، والكتاب للجنس، ومِنْ متعلقة بوصينا أو بأوتوا، ومساق الآية لتأكيد الأمر بالإخلاص. ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطف على الذين. ﴿أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ بأن اتقوا الله، ويجوز أن تكون أنْ مفسِّرة لأن التوصية في معنى القول. ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على إرادة القول أي: وقلنا لهم ولكم أن تكفروا فإن الله مالك الملك كله لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم، وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجته، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم. ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته حُمِد وإن لم يُحمد.

(١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكره ثالثاً للدلالة على كونه غنياً حميداً، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ راجع إلى قوله يغن الله كلاً من سعته، فإنَّه توكَّل بكفايتهما، وما بينهما تقرير لذلك.

(١٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يفنكم، ومفعول يشأ محذوف دل عليه الجواب. ﴿وَيَأْتِ

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه أحمد في المسند (٢/٣٤٧، ٤٧١) وأبو داود (٢/ ٦٠٠ رقم ٢١٣٣) والنسائي (٧/٦٣) والترمذي (٣/٤٤٧ رقم ١١٤١) وابن ماجة (١/٦٣٣ رقم ١٩٦٩) والدارمي (٢/١٤٣) وابن حبان (ص٣١٧ رقم ١٣٠٧ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/١٨٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وكذا ابن دقيق العيد، واستغربه الترمذي مع تصحيحه. وقال عبدالحق: هو خبر ثابت، لكن علته أن هماماً تفرد به، وأن هماماً رواه عن قتادة فقال: كان يقول ـ كما في تلخيص الجبير لابن حجر (٣/٢٠١ رقم ١٥٧٩) ـ. قلت: قوله عبدالحق لا يعتبر علة قادحة. وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٧/ ٨٠ ـ ٨١ رقم ٢٠١٧).

﴿بِآخَرِينَ﴾ ويوجد قوماً آخرين أو خلقاً آخرين مكان الإنس. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ من الإعدام والإيجاد. ﴿قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة لا يعجزه مراد، وهذا أيضاً تقرير لغناه وقدرته وتهديد لمن كفر به وخالف أمره. وقيل: هو خطاب لمن عادى رسول الله ﷺ من العرب، ومعناه معنى قوله تعالى ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾(١) لما روي: أنه لما نزلت ضرب رسول الله ﷺ يده على ظهر سلمان وقال: «إنهم قوم هذا»(٢).

مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

(١٣٤) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يجاهد للغنيمة. ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فما له يطلب أَخَسَّهما فَلْيطلبهما كمن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، أو لِيطلب الأشرف منهما، فإن من جاهد خالصاً لله سبحانه وتعالى لم تخطئه الغنيمة وله في الآخرة ما هي في جَنْبه كلا شيء، أو فعند الله ثواب الدارين فيعطي كلاً ما يريده كقوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾(٣) الآية ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ عالماً بالأغراض فيجازي كلاً بحسب قصده.

(١٣٥) ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته. ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ بالحق تقيمون شهاداتكم لوجه الله سبحانه وتعالى. وهو خبر ثان أو حال. ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تُقروا عليها، لأن الشهادة بيان للحق سواء كان عليه أو على غيره.

---

(١) التوبة: «٣٩».

(٢) ذكره الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/٣١٩) تعليقاً فقال: حُدِّثْتُ عن عبدالعزيز بن محمد ـ وهو الدراوردي ـ عن سهيل به.
وقد وصله الطبري في تفسير سورة محمد (١٣/ج٢٦/٦٦ ـ ٦٧) عند قوله تعالى: «وإن تتولَّوا يستبدل قوماً غيركم» [الآية: ٣٨]، لكنه من طريق العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه زيادة: «ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجاله من الفرس».
وقد أخرجه البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٨) من طريق عبدالعزيز الدراوردي أيضاً لكنه عنه عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة، في تفسير قوله تعالى: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» [الجمعة: ٣].
وحديث الدراوردي هذا أخرجه البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧) متابعة بعد حديث سليمانِ بن بلال، عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة بلفظ «لو كان الإيمان عند الثريا لنالَهُ رجال ـ أو رجلٌ ـ من هؤلاء».
وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٧٢ رقم ٢٣١) من طريق الدراوردي عن ثوربه أصولاً دون متابعة.
وقد استوعب أبو نعيم طرقه في أول تاريخ أصبهان.

(٣) الشورى: «٢٠».

﴿ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ﴾ ولو على والديكم وأقاربكم. ﴿ إِن يَكُنۡ ﴾ أي المشهود عليه أو كل واحد منه ومن المشهود له. ﴿ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا ﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، أو لا تجوروا فيها ميلاً أو ترحُّماً. ﴿ فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ ﴾ بالغني والفقير وبالنظر لهما فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما صلاحاً لما شَرَعها، وهو علة الجواب أقيمت مقامه، والضمير في بهما راجع لما دل عليه المذكور، وهو جنسا الغني والفقير لا إليه وإلاَّ لَوُحِّدَ، ويشهد عليه أنه قرىء فالله أولى بهم. ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ ﴾ لأن تعدلوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا مِنْ العدل. ﴿ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ ﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل. قرأه نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو وعاصم والكسائي بإسكان اللام وبعدها واوان الأولى مضمومة والثانية ساكنة، وقرأ حمزة وابن عامر وإن تَلُوا بمعنى وإن وليتم إقامة الشهادة فأديتموها. ﴿ أَوۡ تُعۡرِضُواْ ﴾ عن أدائها. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾

(١٣٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ خطاب للمسلمين، أو للمنافقين، أو لمؤمني أهل الكتاب إذ روي: أن ابن سلام وأصحابه قالوا يا رسول الله: إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه. فنزلت[١]. ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه، أو آمنوا به بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم، أو آمنوا إيماناً عاماً يعم الكتب والرسل، فإن الإيمان بالبعض كَلاَ إيمان. والكتابُ الأول القرآن والثاني الجنس. وقرأ نافع والكوفيون: الذي نَزَّل والذي أَنْزَلَ بفتح النون والهمزة والزاي، والباقون بضم النون والهمزة وكسر الزاي. ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك. ﴿ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه[٢].

(١٣٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يعني اليهود آمنوا بموسىٰ عليه الصلاة والسلام. ﴿ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ حين عبدوا العجل. ﴿ ثُمَّ ءَامَنُواْ ﴾ بعد عوده إليهم. ﴿ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ بعيسىٰ عليه الصلاة والسلام. ﴿ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم، أو قوماً تكرر منهم الارتداد ثم أصروا على الكفر وازدادوا تمادياً في

---

١) أخرجه الثعلبي عن ابن عباس ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٧١٦) ـ بسند هالك وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٨٦) عن الكلبي وهو هالك.

٢) قوله «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» فقد زاد الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لأن بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلاً.
وجمع الكتب والرسل لأن الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل.
وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لأنهم وسائط بين الله عز وجل وبين الرسل في إنزال الكتب (س٢/ ٢٤٣).

الغي. ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبَهم ضربت بالكفر وبصائرَهم عميت عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يُقْبل منهم ولم يغفر لهم. وخبر كان في أمثال ذلك محذوف تعلق به اللام مثل: لم يكن الله مريداً ليغفر لهم.

بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

(١٣٨) ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدل على أن الآية في المنافقين وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين. ووَضْعُ «بَشِّر» مكان أنذر تهكُّم بهم.

(١٣٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل النصب أو الرفع على الذم، بمعنى أريد الذين أو هم الذين. ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أيتعززون بموالاتهم. ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يتعزز إلا من أعزه الله، وقد كتَب العزة لأوليائه فقال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] ولا يُؤْبَهُ بعزة غيرهم بالإضافة إليهم..

(١٤٠) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآن. وقرأ عاصم نزَّل وقرأ الباقون نُزِّلَ على البناء للمفعول والقائم مقام فاعله. ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهي المخففة، والمعنى أنه إذا سمعتم[٢]. ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ حالان من الآيات جيء بهما لتقييد النهي عن المجالسة في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ الذي هو جزاء الشرط بما إذا كان من يجالسه هازئاً معانداً غير مرجو، ويؤيده الغاية. وهذا تذكار لما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[٣] الآية. والضميرُ في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله يُكفَر بها ويُستهزأ بها. ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ في الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو الكفر إن رضيتم بذلك، أو لأن الذين يُقاعِدون الخائضين في القرآن من الأحبار كانوا منافقين، ويدل عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يعني القاعدين والمقعود معهم[٤]. وإذا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يُذْكَر بعدها الفعلُ. وإفراد مثْلَهم لأنه كالمصدر، أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع. وقرىء بالفتح على البناء لإضافته إلى مبني، كقوله تعالى ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٥].

---

(١) المنافقون: «٨».

(٢) إضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتشريفها وإبانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها (س٢/ ٢٤٥).

(٣) الأنعام: «٦٨».

(٤) قدم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين (س٢/ ٢٤٥).

(٥) الذاريات: «٢٣».

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟
أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ
يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ
ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم. وهو بدل من الذين يتخذون، أو صفة للمنافقين والكافرين، أو ذم مرفوع أو منصوب، أو مبتدأ خبره: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مظاهرين لكم فأسهموا لنا ممّا غنمتم. ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الحرب فإنها سِجَال ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا للكفرة: ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأَبْقَينا عليكم. والاستحواذ: الاستيلاء، وكان القياس أن يقال استحاذ يستحيذ استحاذة فجاءت على الأصل. ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبُهم وتوانينا في مظاهرتهم فَأَشْرِكونا فيما أصبتم. وإنما سمي ظفر المسلمين فتحاً وظفر الكافرين نصيباً لخسة حظهم، فإنه مقصور على أمر دنيوي سريع الزوال. ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ حينئذ أو في الدنيا. والمراد بالسبيل الحجة، واحتج به أصحابنا على فساد شراء الكافر المسلم، والحنفيةُ على حصول البينونة بنفس الارتداد، وهو ضعيف لأنه لا ينفي أن يكون إذا عاد إلى الإيمان قبل مضي العدة.

(١٤٢) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ سبق الكلام فيه أول سورة البقرة. ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين كالمكره على الفعل. وقرىء كَسَالَىٰ بالفتح وهما جَمْعَا كسلان. ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ لِيَخالُوهم مؤمنين. والمراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل كَنِعمَ وناعَمَ، أو للمقابلة فإن المرائي يُري مَنْ يرائيه عمله وهو يريه استحسانه. ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه وهو أقل أحواله، أو لأن ذكرهم باللسان قليل بالإضافة إلى الذكر بالقلب. وقيل: المراد بالذكر الصلاة. وقيل الذِّكْر فيها فإنهم لا يذكرون فيها غير التكبير والتسليم.

(١٤٣) ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ حال من واوِ يراؤون كقوله: ولا يذكرون أي يراؤونهم غير ذاكرين مذبذبين أو واوِ يذكرون، أو منصوب على الذم، والمعنى: مرددين بين الإيمان والكفر، مِنَ الذبذبة وهي جعل الشيء مضطرباً، وأصله الذي بمعنى الطرد. وقرىء بكسر الذال بمعنى يُذَبذِبُون قلوبَهم أو دينهم أو يتذبذبون كقولهم: صلصل بمعنى تصلصل، وقرىء بالدال غير المعجمة بمعنى أخذوا تارة في دبّة وتارة في دبّة وهي الطريقة[1]. ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أو لا صائرين إلى أحدِ الفريقين بالكلية. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ إلى الحق والصواب، ونظيره قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2].

---

(١) أي قرىء «مُذَبْذِبِين» وقرىء «مذَبْذبِين».
(٢) النور: «٤٠».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

(١٤٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ فإنه صنيع المنافقين ودَيْدَنهم فلا تتشبهوا بهم. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة بينة فإن موالاتِهم دليل على النفاق، أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه.

(١٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة إذ ضموا إلى الكفر استهزاءً بالإسلام وخداعاً للمسلمين، وأما قوله عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[(١)] ونحوه فمن باب التشبيه والتغليظ. وإنما سميت طبقاتُها السبع دَرَكات لأنها متدارَكة متتابعة بعضها فوق بعض. وقرأ الكوفيون بسكون الراء[(٢)] وهي لغة كالسّطْر والسَّطَر، والتحريكُ أوْجَه لأنه يجمع على أدراك[(٣)]. ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم منه.

(١٤٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن النفاق. ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به أو تمسكوا بدينه. ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يريدون بطاعتهم إلا وجه سبحانه وتعالى. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ ومن عدادهم في الدارين. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيساهمونهم فيه.

(١٤٧) ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ﴾ أيتشفّىٰ به غيظاً أو يدفع به ضرراً أو يستجلب به نفعاً وهو الغني المتعالي عن النفع والضر، وإنما يعاقِبُ المصرَّ بكفره لأن إصراره عليه كسوء مزاج يؤدي إلى مرض فإذا أزاله بالإيمان والشكر ونَقّى نفسَه عنه تخلص من تبعته. وإنما قَدَّم الشكرَ لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتىٰ يعرف المنعم فيؤمن به. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ مثيباً يقبل اليسير ويعطي الجزيل. ﴿عَلِيمًا﴾ بحق شكركم وإيمانكم.

(١٤٨) ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ إلا جَهْر من ظُلِم بالدعاء على الظالم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٧٨ ـ ٧٩ رقم ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠/٥٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) وقرأ الباقون بنصب الراء، أي «الدَّرَك».

(٣) وما ذكره البيضاوي من ترجيح القراءة بفتح الراء غير مسلَّم، فكلاهما صحيح سنداً ولغة أما سنداً فكلاهما من المتواتر، وأما لغة فقد قال أبو حيان: (ولا يلزم ما ذكره من التأنيث، لأن الجنس المميزَ مفرده بهاءِ التأنيث يؤنث في لغة الحجاز ويذكّر في لغة تميم ونجد. فعلى هذا يجوز تذكير الدرك وتأنيثه).

والتظلم منه. روي أن رجلاً ضافَ قوماً فلم يُطعِموه فاشتكاهم فعوتب عليه. فنزلت[١]. وقرىء مَنْ ظَلَمَ على البناء للفاعل، فيكون الاستثناء منقطعاً أي ولكن الظالم يفعل مالا يحبه الله. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لكلام المظلوم. ﴿عَلِيمًا﴾ بالظالم.

إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ
وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا
مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

(١٤٩) ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ طاعةً وبِراً. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أو تفعلوه سراً. ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ لكم المؤاخذة عليه، وهو المقصودُ. وذِكْرُ إبداء الخير وإخفائه تشبيب له[٢]، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام فأنتم أوْلى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو بعدما رَخّص له في الانتظار حملاً على مكارم الأخلاق.

(١٥٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله. ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة: إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلّغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال كما قال الله تعالى ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[٣].

(١٥١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر لا عبرة بإيمانهم هذا. ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره، أو صفة لمصدر الكافرين بمعنى: هم الذين كفروا كفراً حقاً أي يقيناً محققاً. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[٤].

(١٥٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أضدادهم ومقابلوهم. وإنما دَخَل «بَيْن» على «أحد» وهو يقتضي متعدداً لعمومه من حيث إنه وقع في سياق النفي. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ الموعودة لهم. وتصديرُه بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/٢ـ٣) وعبدالرزاق في المصنف (١٤٨/٦٢٩) عن مجاهد مرسلاً، وروي من طريقين الأول فيه سنيد والثاني فيه المثنى بن الصباح وهما ضعيفان، وفيه علة إرسال مجاهد.

(٢) قوله: (تشبيب له) الضمير يعود على العفو. ومعنى ذلك: التمهيد والتوطئة له، ولعله من قولهم: شبّبَ الشاعر بفلانة إذا قال فيها الغزل وعَرَّض بحبها (انظر المصباح المنير مادة شبب).

(٣) يونس: «٣٢».

(٤) قوله «للكافرين» وضع المظهر موضع المضمر ذماً لهم وتذكيراً لوصفهم (س٢/٢٤٩).

وقرأ حفص عن عاصم وقالون عن يعقوب بالياء على تلوين الخطاب[١]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما فرط منهم. ﴿رَّحِيمًا﴾ عليهم بتضعيف حسناتهم.

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ
جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ
وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا
تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

(١٥٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود قالوا: إن كنت صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جُمْلَةً كما أتى به موسى عليه السلام[٢]، وقيل: كتاباً محرراً بخط سماوي على ألواح كما كانت التوراة، أو كتاباً نعاينه حين ينزل، أو كتاباً إلينا بأعياننا بأنك رسول الله. ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن استكبرتَ ما سألوه منك فقد سألوا موسى عليه السلام أكبر منه، وهذا السؤال وإن كان من آبائهم أُسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم، والمعنى أنّ عِرْقهم راسخ في ذلك وأن ما اقترحوه عليك ليس بأول جهالاتهم وخيالاتهم. ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً أي أرناه نره جهرة، أو مجاهرين معاينين له. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ نار جاءت من قبل السماء فأهلكتهم. ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم، وهو تعنتهم وسؤالُهم ما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ هذه الجناية الثانية التي اقترفها أيضاً أوائلُهم، والبينات: المعجزات، ولا يجوز حملها على التوراة إذ لم تأتهم بعد. ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ تسلطاً ظاهراً عليهم حين أمرهم بأن يَقتلوا أنفسهم توبة عن اتخاذهم.

(١٥٤) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليقبلوه. ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ على لسان موسى والطور مطل عليهم. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ على لسان داود عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يراد على لسان موسى حين ظلل الجبل عليهم، فإنه شرع السبت ولكن كان الاعتداء فيه والمسخ به في زمن داود عليه الصلاة والسلام. وقرأ ورش عن نافع لا تَعَدُّوا على أن أصله لا تتعدوا فأدغمت التاء في الدال، وقرأ قالون بإخفاء حركة العين وتشديد الدال والنص عنه بالإسكان. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ على ذلك وهو قولهم سمعنا وأطعنا.

(١) وقرأ الباقون «نؤتيهم» بالنون.
وقد كتب الأصل كذلك، أي بالنون.
(٢) أخرجه ابن جرير (٦/ ٧) عن السدي وأخرج نحوه عن قتادة بسند صحيح ٦/ ٨).

(١٥٥) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي فخالَفوا ونَقَضوا ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم، وما مزيدة للتأكيد، والباء متعلقة بالفعل المحذوف، ويجوز أن تتعلق بحَرَّمنا عليهم طيبات فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطْفٌ عليه إلى قوله فبظلم لا بما دل عليه قوله ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ مِثْلَ لا يؤمنون لأنه رد لقولهم قلوبنا غلف فيكون مِنْ صلة وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل في جارّه. ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالقرآن، أو بما جاء في كتابهم. ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أوعية للعلوم، أو في أكنّة مما تدعونا إليه. ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فجعَلها محجوبة عن العلم، أو خَذَلها ومنعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر في المواعظ. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبدالله بن سلام، أو إيماناً قليلاً إذ لا عبرة به لنقصانه.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾

(١٥٦) ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام، وهو معطوف على «بكفرهم» لأنه من أسباب الطبع، أو على قوله «فبما نقضهم» ويجوز أن يعطف مجموع هذا وما عطف عليه على مجموع ما قبله، ويكون تكرير ذكر الكفر إيذاناً بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ يعني نسبتها إلى الزنا.

(١٥٧) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي بزعمه ويحتمل أنهم قالوه استهزاء، ونظيره «أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون» وأن يكون استئنافاً من الله سبحانه وتعالى بمدحه، أو وضعا للذكْر الحسن مكان ذكرهم القبيح. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ روي أن رهطاً من اليهود سَبُّوه وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه يرفعُه إلى السماء، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يُلقَى عليه شَبَهِي فيُقْتل ويُصْلب ويدخل الجنة؟ فقام رجل منهم فألقى الله عليه شَبَهَه فقُتِل وصُلِب. وقيل: كان رجلاً ينافقه فخرج ليدل عليه، فألقى الله عليه شَبَهَه فأُخِذ وصُلب وقتل. وقيل: دخل طيطانوس اليهودي بيتاً كان هو فيه فلم يجده، وألقى الله عليه شَبَهه فلما خرج ظُنَّ أنه عيسى فأخذ وصلب، وأمثال ذلك من الخوارق التي لا تستبعد في زمان النبوة، وإنما ذمهم الله سبحانه وتعالى بما دل عليه الكلام من جراءتهم على الله سبحانه وتعالى، وقصدهم قتل نبيه المؤيَّد بالمعجزات الباهرة، وتبجحهم به لا بقولهم هذا على حسب حسبانهم. وشُبِّه مُسْنَدٌ إلى الجارّ والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول، أو في الأمر على قول من قال: لم يُقْتل أحد ولكن أُرجِف بقتله فشاع بين الناس، أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على أن ثَمَّ قتيلاً. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام، فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود: إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً، وتردد آخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، وقال من سمع

منه أن الله سبحانه وتعالى يرفعني إلى السماء: أنه رفع إلى السماء، وقال قوم: صُلِبَ الناسوت وصَعَد اللاهوت. ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ لفي تردد، والشك كما يطلق على مالا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد، وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكده بقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ استثناء منقطع أي لكنهم يتبعون الظن، ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره فيتصل الاستثناء. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ قتلاً يقيناً كما زعموه بقولهم إنا قتلنا المسيح، أو متيقنين. وقيل معناه ما علموه يقيناً كقول الشاعر:

كَـذَاكَ تُخْبِـرُ عَنْهَـا العَـالِمَـاتُ بِهَـا ... وقَــدْ قَتَلْـتُ بِعِلْمِـي ذِلِكُـمُ يَقِينـاً[1]

من قولهم قتلت الشيء عِلْماً ونحرته علماً إذا أردت أن تبالغ في علمك.

بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾

(١٥٨) ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب على ما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لعيسى عليه الصلاة والسلام.

(١٥٩) ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، فقوله ليؤمنن به جملة قَسَمِية وقعت صفة لأحد ويعود إليه الضمير الثاني، والأول لعيسى عليه الصلاة والسلام. والمعنى ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت ولو حين أن تُزْهَق روحه ولا ينفعه إيمانه، ويؤيد ذلك أنه قرىء إلا ليُؤْمِنُنّ به قبل موتهم بضم النون لأن أحداً في معنى الجمع، وهذا كالوعيد لهم والتحريض على معاجلة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ولم ينفعهم إيمانهم. وقيل الضميران لعيسى عليه أفضل الصلاة والسلام، والمعنى: أنه إذا نزل من السماء آمن به أهل الملل جميعاً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام، وتقع الأَمَنَةُ حتى ترتع الأُسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يُتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه[2]، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

(١٦٠) ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي فبأي ظلم منهم. ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يعني ما ذكره

---

(١) من البسيط واليقين محركة. اليقين فهو من باب طرب.

(٢) أخرجه ابن حبان (رقم ١٩٠١ و١٩٠٣ ـ موارد) وأبو داود (٤/٤٩٨ رقم ٤٣٢٤) وأحمد في المسند (٢/٤٠٦، ٤٣٧) والحاكم (٢/٥٩٥) والطبري (٤/ج٦/٢٢). عن أبي هريرة.
قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح. قلت وهو حديث صحيح.

في قوله: «وعلى الذين هادوا حرمنا» ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ ناساً كثيراً، أو صداً كثيراً[١].

وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ
وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا
لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

(١٦١) ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا، وفيه دليل على دلالة النهي على التحريم. ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دون من تاب وآمن.

(١٦٢) ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منهم، أو من المهاجرين والأنصار. ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ﴾ خبر المبتدأ ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ نصب على المدح إن جعل يؤمنون الخبر لأولئك، أو عطف على ما أنزل إليك، والمراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي: يؤمنون بالكتب والأنبياء. وقرىء بالرفع عطفاً على الراسخون، أو على الضمير في يؤمنون، أو على أنه مبتدأ والخبرُ أولئك سنؤتيهم. ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ رفعه لأحد الأوجه المذكورة. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على جمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح وقرأ حمزة سيؤتيهم بالياء.

(١٦٣) ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ جواب لأهل الكتاب عن اقتراحهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن أمره في الوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ﴾ خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم وعيسى آخرهم، والباقين أشرف الأنبياء ومشاهيرهم. ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وقرأ حمزة زُبُوراً بالضم وهو جمع زُبُر، بمعنى مزبور.

(١٦٤) ﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمر دل عليه أوحينا إليك كأرسلنا، أو فسّره: ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذه السورة أو اليوم. ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وهو

(١) قوله: «فبظلم من الذين هادوا» لعل ذكرهم بهذا العنوان للإيذان بكمال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعدما هادوا أي تابوا مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخع النفوس (س٢/ ٢٥٣).

منتهى مراتب الوحي خص به موسى من بينهم، وقد فضل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾

(١٦٥) ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا، أو على الحال ويكون رسلاً موطِّئاً لما بعده كقولك مررت بزيد رجلاً صالحاً. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ فيقولوا لولا أرْسَلْت إلينا رسولاً فينبهنا ويعلمنا مالم نكن نعلم، وفيه تنبيه على أن بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الناس ضرورة لقصور الكل عن إدراك جزئيات المصالح والأكثر عن إدراك كلياتها. واللام متعلقة بأرسلنا أو بقوله مبشرين ومنذرين، وحجةٌ اسم كان وخبرُه للناس أو على الله والآخر حال، ولا يجوز تعلقه بحجة لأنه مصدر، وبعدَ ظرف لها أو صفة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب فيما يريد. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من أمر النبوة وخص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز.

(١٦٦) ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ استدراك عن مفهوم ما قبله فكأنه لما تعنتوا عليه بسؤال كتابٍ ينزل عليهم من السماء، واحتج عليهم بقوله إنا أوحينا إليك، قال: إنهم لا يشهدون ولكنْ اللهُ يشهد، أو أنهم أنكروه ولكن الله يُثْبتُه ويقرره. ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن المعجز الدال على نبوتك. روي أنه لما نزل «إنـا أوحينا إليك» قالوا «ما نشهد لك» فنزلت[١]. ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أنزله متلبساً بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نَظْم يعجز عنه كل بليغ، أو بحالِ مَنْ يستعد للنبوة ويستأهل نزول الكتاب عليه، أو بعلمه الذي يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم، فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث حال من المفعول، والجملة كالتفسير لما قبلها ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أيضاً بنبوتك. وفيه تنبيه على أنهم يودون أن يعلموا صحة دعوىٰ النبوة على وجه يستغني عن النظر والتأمل، وهذا النوع من خواص الملك ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك سوى الفكر والنظر، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره.

(١٦٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقلاع عنه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٦/٣١) من طريقين عن ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. ومحمد بن أبي محمد مجهول.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

(١٦٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ محمداً عليه الصلاة والسلام بإنكار نبوته، أو الناسَ بصدهم عما فيه صلاحهم وخلاصهم، أو بأعم من ذلك. والآية تدل على أن الكفار مخاطبون بالفروع إذ المراد بهم الجامعون بين الكفر والظلم. ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

(١٦٩) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ لِجَرْيِ حكمه السابق ووعده المحتوم على أن من مات على كفره فهو خالد في النار. وخالدين حال مقدرة. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه.

(١٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لمّا قرر أمر النبوة وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ووعيد من أنكرها خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد. ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ أي إيماناً خيراً لكم، أو ائتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم عليه. وقيل تقديره يكن الإيمان خيراً لكم، ومَنَعَه البصريون لأن كان لا يحذف مع اسمه إلا فيما لابد منه ولأنه يؤدي إلى الشرط وجوابه. ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يعني وإن تكفروا فهو غني عنكم لا يتضرر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم، ونبه على غناه بقوله ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وهو يعم ما اشتملتا عليه وما رُكِّبتا منه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر لهم[(١)].

(١٧١) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ الخطاب للفريقين، غلت اليهود في حط عيسى عليه الصلاة والسلام حتى رموه بأنه ولد من غير رشدة، والنصارى في رفعه حتى اتخذوه إلهاً. وقيل الخطاب للنصارى خاصة فإنه أوفق لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾ يعني تنزيهه عن الصاحبة والولد. ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها[(٢)]. ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وذو روح صَدَرَ منه لا بتوسُّط ما يجري مجرى الأصل والمادة له. وقيل سمي روحاً لأنه كان يحيي الأموات أو القلوب. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ أي الآلهة ثلاثة الله والمسيح

---

(١) قوله «جاءكم الرسول بالحق من ربكم» إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته.
والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين للإيذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كمالهم اللائق بهم ترغيباً لهم في الامتثال بما بعده (س٢/٢٥٨).

(٢) وقوله «كَلِمَتُه» أي مكون بكلمته وأمره الذي هو كنْ من غير واسطة أب ولا نطفة (س٢/٢٥٩).

ومريم، ويشهد عليه قوله تعالى ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[١] أو الله ثلاثة إن صح أنهم يقولون الله ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس، ويريدون بالأب الذات وبالابن العلم وبروح القدس الحياة. ﴿ٱنتَهُواْ﴾ عن التثليث. ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ نصبه كما سبق. ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي واحد بالذات لا تعدد فيه بوجه ما. ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي أسبِّحه تسبيحاً من أن يكون له ولد فإنه يكون لمن يعادلُه مثل ويتطرق إليه فناء. ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً لا يماثله شيء من ذلك فيتخذه ولداً. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد فإن الحاجة إليه ليكون وكيلاً لأبيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الأشياء كاف في ذلك مستغن عمن يخلفه أو يعينه.

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

(١٧٢) ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ لن يأنف، من نَكَفْتُ الدمع إذا نحَّيته بأصبعك كيلا يُرى أثره عليك. ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له، فإن عبوديته شرف يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره. روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لمَ تَعِيبُ صاحبنَا؟ قال رسول الله ﷺ: ومن صاحبُكم؟ قالوا: عيسى عليه الصلاة والسلام، قال عليه السلام: «وأي شيء أقول»؟ قالوا: تقول إنه عبدالله ورسوله، قال: «إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله» قالوا: بلى. فنزلت[٢] ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله. واحتج به من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقال: مَساقُه لرد قول النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية، وذلك يقتضي أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدمُ استنكافهم كالدليل على عدم استنكافه. وجوابُه: أن الآية للرد على عَبَدة المسيح والملائكة فلا يتجه ذلك، وإن سُلِّم اختصاصُها بالنصارى فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير كقولك: أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس، وإنْ أراد به التكبير فغايته تفضيل المقربين من الملائكة وهم الكروبيون الذين هم حول العرش، أو مَنْ أعلى منهم رتبة من الملائكة على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاعَ فيه ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ومن يرتفع عنها، والاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه وإنما يستعمل من حيث الاستحقاق بخلاف التكبر فإنه قد يكون بالاستحقاق. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم[٣].

---

(١) المائدة: «١١٦».

(٢) عزاه الواحدي في أسباب النزول للكلبي (ص١٩٠) والكلبي ضعيف، وهو بدون إسناد.

(٣) قوله «ومن يستنكف عن عبادته» جعل المستنكَفَ عنه ههنا عبادته تعالى لا ما سبق لتعليق الوعيد بوصف ظاهر الثبوت للكفرة (س٢/٢٦١).

=

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ
فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى
ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن
كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

(١٧٣) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ تفصيل للمجازاة العامة المدلول عليها من فحوى الكلام، وكأنه قال: فسيحشرهم إليه جميعاً يوم يحشر العباد للمجازاة، أو لمجازاتهم فإن إثابة مُقابِليهم والإحسان إليهم تعذيب لهم بالغم والحسرة[١].

(١٧٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ عنىٰ بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن، أي قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبقَ لكم عذر ولا علة، وقيل: البرهان الدين أو رسول الله ﷺ أو القرآن[٢].

(١٧٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ في ثوابٍ قَدَّرَه بإزاء إيمانه وعَمَلِه رحمةً منه، لا قضاءً لحق واجب. ﴿وَفَضْلٍ﴾ إحسان زائد عليه. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ إلى الله سبحانه وتعالى، وقيل إلى الموعود. ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في الآخرة.

(١٧٦) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي في الكلالة، حُذِفت لدلالة الجواب عليه. روي أن جابر بن عبدالله كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كَلَالَة فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت وهي آخر ما نزل من الأحكام[٣].

= وكذلك فإن في اتخاذ عيسى معبوداً استنكاف عن عبادته تعالى.

(١) وقدم الذين آمنوا على الذين استنكفوا لبيان فضلهم. وأوردهم بعنوان الإيمان والعمل الصالح لا بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات (س٢/ ٢٦٢).

(٢) وقوله «برهان من ربكم» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه إليهم لتربيتهم وتكميلهم (س٢/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ١١٤ رقم ٥٦٥١) و(١٢/ ٣ رقم ٦٧٢٣) و(١٣/ ٢٩٠ رقم ٧٣٠٩). ومسلم (٣/ ١٢٣٤ رقم ٥/ ١٦١٦) وأبو داود (٣/ ٣٠٨ رقم ٢٨٨٦) والترمذي (٤/ ٤١٧ رقم ٢٠٩٧) و(٥/ ٢٣٤ رقم ٣٠١٥) والنسائي (١/ ٨٧ رقم ١٣٨) وابن ماجة (١/ ٤٦٢ رقم ١٤٣٦) مختصراً، و(٢/ ٩١١ رقم ٢٧٢٨). =

كلهم من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر ـ به.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ سبق تفسيرُها في أول السورة. ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ارتفع امرُؤ بفعل يفسره الظاهر، وليس له ولد صفةٌ له أو حال من المستكنّ في هلك، والواو في «وله» يحتمل الحال والعطف. والمراد بالأخت الأخت من الأبوين أو الأب لأنه جُعِل أخوها عَصَبة وابن الأم لا يكون عَصَبة، والولدُ على ظاهره فإن الأخت وإن ورثت مع البنت عند عامة العلماء ـ غير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ لكنها لا ترث النصف. ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي والمرء يرث إن كان الأمر بالعكس. ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى إن أريد بيرثها يرث جميع مالها، وإلا فالمراد به الذَّكَر إذ البنت لا تحجب الأخ، والآية كما لم تدلَّ على سقوط الإخوة بغير الولد لم تدل على عدم سقوطهم به، وقد دلت السنة على أنهم لا يرثون مع الأب وكذا مفهوم قوله ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ إن فسرت بالميت. ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الضمير لمن يرث بالأخوة، وتثنيته محمولة على المعنى، وفائدة الإخبار عنه باثنتين التنبيهُ على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغر والكبر وغيرهما. ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أصله وإن كانوا إخوة وأخوات فغُلِّب المذكر. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أي يبين الله لكم ضلالَكم الذي من شأنكم إذا

= وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (٣/ ٣٠٧) والطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٤١) وأبو يعلى (٤/ ١٥ رقم ٢٠١٨) وابن الجارود (رقم: ٩٥٨) والحميدي (رقم: ١٢٢٩) وابن خزيمة (رقم: ١٠٦).
كلهم من طريق ابن عيينة عن ابن المنكدر عن جابر ـ به.
وأخرجه عبد بن حميد (رقم ١٠٦٤ ـ منتخب) وأبو داود (٣/ ٣٠٨ رقم ٢٨٨٧).
والنسائي في الكبرى (تحفة رقم: ٢٩٧٧) والطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٤١) والطيالسي (رقم: ١٧٤٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٣١) والواحدي في أسباب النزول (ص١٨٧ ـ ١٨٨).
من طريق أبي الزبير عن جابر ـ به.
وأخرج البخاري (٨/ ٢٤٣ رقم ٤٥٧٧) ومسلم (٣/ ١٢٣٤ رقم ٦/ ١٦١٦) والنسائي (تحفة رقم: ٣٠٦٠) والطبري في جامع البيان (٣/ج٤/ ٢٧٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢١٢) والواحدي في أسباب النزول (ص١٤٤ ـ ١٤٥) من طريق ابن جريج عن ابن المنكدر عن جابر ـ به.
قلت: قد اختلفت الطرق والروايات في حديث جابر هذا وجاء في بعضها أن الآية التي نزلت في قصة فرضه هي آية «يوصيكم الله في أولادكم..» [النساء: ١١].
وفي بعض الروايات أن الآية هي «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة..» [النساء: ١٧٦].
وفي بعضها فنزلت آية الفرائض وفي البعض الآخر فنزلت آية المواريث. فقال الحافظ بالنسبة لرواية ابن جريج ـ في الفتح (٨/ ٢٤٣) ـ: «وقيل إنه وهم في ذلك وأن الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه الآية الأخيرة من النساء... لأن جابراً يومئذٍ لم يكن له والد ولا ولد، والكلالة من لا ولد له ولا والد..» ١.هـ.
ثم قال الحافظ في الفتح أيضاً (٨/ ٢٤٤): «ولم ينفرد ابن جريج بتعيين الآية المذكورة فقد ذكرها ابن عيينة أيضاً على الاختلاف عنه... فالحاصل أن المحفوظ عن ابن المنكدر أنه قال (آية المواريث أو آية الفرائض)، والظاهر أنها «يوصيكم الله» كما صرح به في رواية ابن جريج ومن تابعه، وأما من قال إنها «يستفتونك» فعمدته أن جابراً لم يكن له حينئذٍ وله، وإنما كان يورث كلالة، فكان المناسب لقصته نزول الآية الأخيرة، لكن ليس بلازم، لأن الكلالة مختلف في تفسيرها: فقيل هم اسم المال الموروث، وقيل اسم الميت، وقيل اسم الإرث، وقيل ما تقدم...» ١.هـ وانظر بقية كلام ابن حجر فإنه مفيد.

خُلُقِكُم وطباعَكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه، أو يبين لكم الحق والصواب كراهة أن تضلوا. وقيل لئلا تضلوا فحذف لا وهو قول الكوفيين. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، ووُرِّث ميراثاً وأُعطي من الأجر كمن اشترى محرراً، وبرىء من الشرك وكان في مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) رواه الثعلبي والواحدي في تفسيرهما، وهو موضوع.
وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) أبواب تتعلق بالقرآن، باب فضائل القرآن.

سُورَةُ المَائِدَة

ترتيبها ٥ — آياتها ١٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ الوفاء هو القيام بمقتضى العهد، وكذلك الإيفاء. والعقد العهد الموثَّق قال الحطيئة:

قَــومٌ إِذَا عَقَــدُوا عَقْــداً لِجَــارِهِــمُ ... شَــدُّوا العِنَــاجَ وَشَــدُّوا فَــوْقَــهُ الكَــرَبَــا

وأصله الجمع بين الشيئين بحيث يعسر الانفصال، ولعل المراد بالعقود ما يعم العقود التي عقدها الله سبحانه وتعالى على عباده وألزمها إياهم من التكاليف، وما يَعْقِدون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به، أو يحسن إن حملنا الأمر على المشترك بين الوجوب والندب. ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ تفصيل للعقود. والبهيمة كل حي لا يميز. وقيل كل ذات أربع، وإضافتها إلى الأنعام للبيان كقولك: ثوب خز، ومعناه البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية وألحق بها الظباء وبقر الوحش. وقيل هما المراد بالبهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام في الاجترار وعدم الأنياب، وإضافتها إلى الأنعام لملابسة الشبه[1]. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلا محرم ما يتلى عليكم كقوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[2] أو إلا ما يتلى عليكم تحريمه. ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير

---

(١) وقدم الجار والمجرور «لكم» على القائم الفاعل «بهيمةُ..» لإظهار العناية بالمقدم من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفسُ مترقبة إلى وروده (س٣/ ٢).

(٢) المائدة: «٣».

في لكم. وقيل من واو ﴿أَوْفُواْ﴾ وقيل استثناء وفيه تعسف، والصيد يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ حال مما استكن في مُحِلي، والحرم جمع حرام وهو المحرم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من تحليل أو تحريم.

(٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ يعني مناسك الحج، جمع شعيرة وهي اسم ما أُشْعِر أي جُعِل شعاراً، سمّى به أعمال الحج ومواقفه لأنها علامات الحج وأعلام النسك. وقيل دين الله لقوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[(١)] أي دينه. وقيل فرائضه التي حدها لعباده. ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه أو بالنسيء. ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ ما أهدي إلى الكعبة، جمع هدية كجَدْي في جمع جدية السّرح. ﴿وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ أي ذوات القلائد من الهدي، وعطفها على الهدي للاختصاص فإنها أشرف الهدي، أو القلائد أنفسها والنهي عن إحلالها مبالغة في النهي عن التعرض للهدي، ونظيرُه قوله تعالى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[(٢)]. والقلائد جمع قلادة وهي ما قُلِّد به الهدي من نعل أو لَحَاء شجر أو غيرهما ليُعْلم به أنه هدي فلا يُتعرض له. ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ قاصدين لزيارته. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ أن يثيبهم ويرضى عنهم، والجملةُ في موضع الحال من المستكن في آ مِّين وليست صفة له، لأنه عامل، والمختار أن اسم الفاعل الموصوف لا يَعْمل، وفائدته استنكار تعرض مَنْ هذا شأنه والتنبيه على المانع له. وقيل معناه يبتغون من الله رزقاً بالتجارة ورضواناً بزعمهم، إذ روي أن الآية نزلت عام القضية في حُجّاج اليمامة لما همّ المسلمون أن يتعرضوا لهم بسبب أنه كان فيهم الحطيم بن شريح بن ضبيعة وكان قد استاق سَرْح المدينة[(٣)]، وعلى هذا فالآية منسوخة. وقرىء تبتغون على خطاب المؤمنين ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ أَذِن في الاصطياد بعد زوال الإحرام، ولا يلزم من إرادة الإباحة ههنا من الأمر دلالة الأمر الآتي بعد الحظر على الإباحة مطلقاً. وقرىء بكسر الفاء على إلقاء حركة الوصل عليها وهو ضعيف جداً[(٤)] وقرىء أَحْلَلْتُم يقال حل المحرم وأحل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم أو لا يكسبنكم. ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ شدة بغضهم وعداوتهم، وهو مصدر أضيف إلى المفعول أو الفاعل. وقرأ ابن عامر وإسماعيل عن نافع وابن عياش عن عاصم بسكون النون، وهو أيضاً مصدر كليان أو نعت بمعنى: بغيض قوم، وفَعْلان في النعت أكثر كعطشان وسكران. ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأن صدوكم عنه عام الحديبية. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة على أنه شرط معترِض أغنى عن جوابه لا يجرمنكم. ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾ بالانتقام، وهو ثاني مفعولي يجرمنكم فإنه يعدّى إلى واحد وإلى اثنين ككسِب. ومن قرأ يُجْرِمنكم بضم الياء جعله منقولاً من المتعدي إلى مفعولٍ بالهمزة إلى مفعولين. ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ

---

(١) الحج: «٣٢».

(٢) النور: «٣١».

(٣) أخرجه ابن جرير عن عكرمة وعن السدي (٦/٥٨، ٥٩) وطريق السدي حسن (تخريج الفتح السماوي ص٥٤٧) والحطيم جاء للنبي عليه السلام وأظهر له الإسلام فلما خرج مرّ بسرح المدينة فاستاق فطلبوه فعجزوا عنه.

(٤) قوله (ضعيف جداً) أي من جهة العربية لأن النقل إلى المتحرك مخالف للقياس. لكن أبا حيان بين أنه لم يُقرأ بكسرٍ محض، بل قرىء بالإمالة المحضة لتوهم وجود كسرة همزة الوصل، كما أمالوا الفاء في فإذا لوجود كسرة إذا (البحر المحيط ٣/٤٢١).

﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ على العفو والإغضاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى. ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ للتشفي والانتقام. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فانتقامه أشد.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

(٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ بيان ما يتلى عليكم، والميتة ما فارقه الروح من غير تذكية. ﴿وَٱلدَّمُ﴾ أي الدم المسفوح لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾[(١)] وكان أهل الجاهلية يصبّونه في الأمعاء ويشوونها. ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي رفع الصوت لغير الله به كقولهم: باسم اللات والعزّى عند ذبحه. ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي التي ماتت بالخنق. ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت، مِنْ وَقَذْتُه إذا ضربته. ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من علوّ أو في بئر فماتت. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح، والتاء فيها للنقل. ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ وما أكل منه السبع فمات، وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكَلَتْ مما اصطادته لم تحل. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع. والذكاة في الشرع لقطع الحلقوم والمريء بمحدَّد. ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ النصب واحدُ الأنصاب، وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويَعدُّون ذلك قربة. وقيل هي الأصنام، وعلى بمعنى اللام، أو على أصلها بتقدير وما ذبح مسمّىً على الأصنام. وقيل هو جمع والواحد نصاب. ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدها: أمرني ربي وعلى الآخر: نهاني ربي والثالث غُفْل، فإن خرج الآمِرُ مَضَوْا على ذلك وإن خرج الناهي تجنبوا عنه وإن خرج الغفل أجلوها ثانياً، فمعنى الاستقسام طلبُ معرفة ما قُسِم لهم دون ما لم يقسم لهم بالأزلام. وقيل: هو استقسام الجُزُور بالأقداح على الأنصباء المعلومة. وواحد الأزلام زَلَم كجَمَل وزُلَم كصُرَد. ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام، وكونه فسقاً لأنه دخول في علم الغيب وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه، وافتراء على الله سبحانه وتعالى إن أريد بربي الله، وجهالة وشِرْك إن أريد به الصنم أو الميسر المحرم أو إلى تناول ما حرم عليهم. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية: وقيل أراد يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر يوم الجمعة في عرفة حجة الوداع. ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ أي من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث وغيرها، أو مِنْ أن يغلبوكم عليه. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم. ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ وأخلصوا الخشية لي. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على

(١) الأنعام: «١٤٥».

أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد. ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالهداية والتوفيق، أو بإكمال الدين، أو بفتح مكة وهدم منار الجاهلية. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ اخترته لكم ديناً من بين الأديان وهو الدين عند الله لا غير. ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراض لما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي، والمعنى: فمن اضطُر إلى تناول شيء من هذه المحرمات. ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير مائل له ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة كقوله ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه بأكله.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

(٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ لما تضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة، وقد سبق الكلام في ماذا، وإنما قال لهم ولم يقل لنا على الحكاية، لأن يسألونك بلفظ الغيبة وكلا الوجهين سائغ في أمثاله، والمسؤول ما أُحِل لهم من المطاعم كأنهم لما تُلي عليهم ما حُرم عليهم سألوا عما أُحِل لهم. ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ مالم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه، ومن مفهومه حَرَّم مستخبثاتِ العرب، أو مالم يدل نص ولا قياس على حرمته. ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ عطف على الطيبات إنْ جُعِلت ما موصولةً على تقدير وصيْدِ ما علمتم، وجملة شرطية إن جُعلت شرطاً وجوابُها فكلوا. والجوارحُ كواسب الصيد على أهلها، من سباعِ ذوات الأربع والطير ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ معلِّمين إياه الصيد، والمكلِّبُ مُؤدِّبُ الجوارح ومُضْريها[1] بالصيد، مشتق من الكَلْب، لأن التأديب يكون أكثر فيه وآثر، أو لأن كل سبع يسمى كلباً لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك»[2]. وانتصابُه على الحال من علَّمتم، وفائدتها المبالغة في التعليم. ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية، أو استئناف. ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله تعالى، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، أو مما علمكم الله أن تُعلِّموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه. ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو مالم تأكل منه، لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم «وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على

---

(١) مضْرِي الجوارح هو الذي اعتادها واجترأ عليها (المصباح المنير مادة ضري).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٣٩) من حديث أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه كان لهب بن أبي لهب يسب النبي عليه السلام، فقال: «اللهم سلط غليه كلبك» فخرج في قافلة يريد الشام فنزلوا منزلاً فقال: إني أخاف دعوة محمد فحطوا متاعه حوله وقعدوا يحرسونه، فجاء الأسد فانتزعه فذهب.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
قلت: فيه العباس بن الفضل الأنصاري، عن الأسود بن شيبان، وذكره المزي في تلاميذ الأسود (العباس بن الفضل الأزرق). أياً كان منهما فكلاهما متروك. انظر التقريب (١/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩). فالحديث موضوع.

نفسه»[١]، وإليه ذهب أكثر الفقهاء، وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر، وقال آخرون: لا يشترط مطلقاً. ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الضمير لما علمتم والمعنى: سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن بمعنى سموا عليه إذا أدركتم ذكاته. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في محرماته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيؤاخذكم بما جلّ ودقّ.

ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

(٥) ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعم الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، واستثنىٰ علي رضي الله تعالى عنه نصارى بني تغلب وقال: ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر[٢]، ولا يُلْحق بهم المجوس في ذلك وإن أُلحقوا بهم في التقرير على الجزية لقوله عليه الصلاة والسلام: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم»[٣] ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلا عليكم أن تُطعِموهم وتبيعوه منهم، ولو حَرُم عليهم لم يجزْ ذلك. ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي الحرائر، أو العفائف. وتخصيصُهن بَعْثٌ على ما هو الأولى. ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وإن كن حربيات، وقال ابن عباس لا تَحِل الحربيات. ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على ما هو الأولى. وقيل

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٦٠٩ رقم ٥٤٨٣) و(٩/ ٦١٢ رقم ٥٤٨٦ ورقم ٥٤٨٧) ومسلم (٣/ ١٥٢٩ رقم ٢، ٣/ ١٩٢٩) من حديث عدي بن حاتم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦/ ٧٢ رقم ١٠٠٣٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٨٤) عن علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٧٨ رقم ٤٢) والشافعي في ترتيب المسند (٢/ ١٣٠ رقم ٤٣٠) وعبدالرزاق في المصنف (٦/ ٦٨ رقم ١٠٠٢٥) و(١٠/ ٣٢٥ رقم ١٩٢٥٣) عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكرَ المجوسَ فقال: ما أدري كيف أصنعُ في أمرهم، فقال عبدالرحمن بن عوفٍ: أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سنوا بهم سُنَّةَ أهلِ الكتاب». وإسناده منقطع. وأخرج عبدالرزاق في المنصف (٦/ ٦٨ رقم ١٠٠٢٤) من طريق ابن جريج قال: أخبرني عمرو بن دينار عن بجالة التميمي، أن عمر بن الخطاب لم يرد أن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر». وإسناده متصل صحيح.

المراد بإيتائها التزامها ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعِفَّاء بالنكاح. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنا. ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾ مسرين به. والخِدْن الصديق، يقع على الذكر والأنثى. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يريد بالإيمان شرائع الإسلام وبالكفر إنكاره والامتناع عنه.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم القيام كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[١] عبّر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة. أو إذا قصدتم الصلاة لأن التوجه إلى الشيء والقيام إليه قصد له. وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً، والإجماع على خلافه لما روي أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: «عمداً فعلته»[٢] فقيل مُطلقٌ أُريد به التقييد، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين. وقيل الأمر فيه للندب. وقيل كان ذلك أول الأمر ثم نُسخ، وهو ضعيف لقوله عليه الصلاة والسلام: «المائدة من آخر القرآن نزولاً فأَحِلُّوا حلالها وحرموا حرامها»[٣] ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أَمِرُّوا الماء عليها. ولا حاجة إلى الدلك خلافاً لمالك. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين في المغسول، ولذلك قيل: «إلى» بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[٤] أو متعلقة بمحذوف تقديره: وأيديكم مضافةً إلى المرافق، ولو كان كذلك لم يبقَ لمعنى التحديد ولا لذكره مزيد فائدة، لأن مطلق اليد يشتمل عليها. وقيل: إلى تفيد الغاية مطلقاً، وأما دخولها في الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وإنما يعلم من خارج ولم يكن في الآية، وكانت الأيدي متناولة لها فحكم بدخولها احتياطاً. وقيل إلى من حيث إنها تفيد الغاية تقتضي خروجها وإلا لم تكن غاية لقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾[٦] لكنْ لمّا لم تتميز الغاية ههنا عن ذي الغاية وجب إدخالها احتياطاً. ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء مزيدة. وقيل للتبعيض، فإنه الفارق بين قولك مسحت المنديل وبالمنديل، ووجهه أن يقال إنها تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق فكأنه قيل: وأَلصِقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب بخلاف ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم فإنه كقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾. واختلف العلماء في قدر الواجب، فأوجب الشافعي رضي الله عنه تعالى أقل ما يقع عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه مَسَحَ ربع الرأس لأنه عليه الصلاة والسلام مسح

---

(١) النحل: «٩٨».

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٢٣٢ رقم ٨٦/ ٢٧٧) وأبو داود (١/ ١٢٠ رقم ١٧٢) والترمذي (١/ ٨٩ رقم ٦١) والنسائي (١/ ٨٦ رقم ١٣٣) وابن ماجة (١/ ١٧٠ رقم ٥١٠) من حديث بريدة.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١١) من طريق جبير بن نفير، قال: «دخلت على عائشة. فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت سورة المائدة... الحديث.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) هود: «٥٢».

(٥) البقرة: «٢٨٠».

(٦) البقرة: «١٨٧».

على ناصيته[١] وهو قريب من الربع، ومالك رضي الله تعالى عنه مسح كله أخذاً بالاحتياط. ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ نصبه نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب عطفاً على وجوهكم، ويؤيده: السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد إذ المسح لم يُحَدّ. وجره الباقون على الجِوار، ونظيره كثيرٌ في القرآن والشعر كقوله تعالى: ﴿عذاب يوم أليم﴾ ﴿وحورٍ عين﴾ بالجر في قراءة حمزة والكسائي، وقولهم: جُحْر ضَب خرب. وللنحاة باب في ذلك، وفائدته التنبيه على أنه ينبغي أن يَقْتَصِد في صب الماء عليها ويغسل غسلاً يقرب من المسح. وفي الفصل بينه وبين أخويه إيماء على وجوب الترتيب. وقرىء بالرفع على وأرجُلكم مغسولة. ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ فاغتسلوا. ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ سبق تفسيره، ولعل تكريرَه ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد الأمر بالطهارة للصلاة أو الأمر بالتيمم تضييقاً عليكم. ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ لينظفكم، أو ليطهركم عن الذنوب فإن الوضوء تكفير للذنوب، أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء، فمفعول يريد في الموضعين محذوف. واللام للعلة، وقيل مزيدة، والمعنى: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج حتى لا يرخص لكم في التيمم، ولكن يريد أن يطهركم وهو ضعيف لأن أنْ لا تقدَّرُ بعد المزيدة. ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ليتم بشرعه ما هو مطهرة لأبدانكم ومكفرة لذنوبكم نعمتَه عليكم في الدين، أو ليتمّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته. والآية مشتملة على سبعة أمور كلها مثنىٰ: طهارتان أصل وبدل، والأصل اثنان مستوعِب وغير مستوعب، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود، وأن آلتهما مائع وجامد، وموجبهما حدث أصغر وأكبر، وأن المبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر، وأن الموعود عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

(٧) ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره. ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، أو ميثاق ليلةِ العقبة أو بيعةِ الرضوان[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ رقم ٨١، ٨٢، ٨٣/ ٢٧٤) من حديث المغيرة بن شعبة في قصة فيها: «ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه». وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٨٠ رقم ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨) من حديثه أيضا: «أن النبي ﷺ توضأ ومسح على ناصيته».
والناصية: مقدم الرأس.

(٢) وفائدة التقييد بقوله «إذ قلتم سمعنا وأطعنا» تأكيد وجوب مراعاته بتذكر قبولهم والتزامهم بالمحافظة عليه (س٣/ ١١).

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في إنساء نعمته ونقض ميثاقه. ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بخفياتها فيجازيكم عليها فضلاً عن جليات أعمالكم[١].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(٨) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ عدّاه بعلىٰ لتضمنه معنى الحمل، والمعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعتدوا عليهم بارتكاب مالا يحل، كمُثْلَة وقَذْف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفِّياً مما في قلوبكم. ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، صرح لهم بالأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجوْر وبين أنه مقتضى الهوىٰ، وإذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين. ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم به. وتكرير هذا الحكم إما لاختلاف السبب كما قيل إن الأولى نزلت في المشركين وهذه في اليهود، أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء ثائرة الغيظ.

(٩) ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ إنما حذف ثاني مفعولي وَعَد استغناء بقوله لهم مغفرة فإنه استئناف يبينه. وقيل الجملة في موضع المفعول فإن الوعد ضرب من القول وكأنه قال: وعدهم هذا القول.

(١٠) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ هذا من عادته تعالى، أن يتبع حال أحد الفريقين حال الآخر وفاء بحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم.

(١١) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ روي أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعَسَفان قاموا إلى الظهر معاً، فلما صلوا ندموا ألا كانوا أكَبُّوا عليهم، وهمّوا أن يُوقِعُوا بهم إذا قاموا إلى العصر، فرد الله عليهم كيدهم بأن أنزل عليهم صلاة الخوف[٢]. والآية إشارة إلى ذلك،

---

(١) وإظهار الاسم الجليل بقوله «إن الله» وهو موقع إضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة (س٣/١٢).

(٢) قال ابن حجر في (الكافي الشافِ) رقم (٤٤٦):
أخرجه «الطبري من رواية النضر بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس بتغيير فيه، ولفظه قال: «خرج رسول الله ﷺ في غزاة. فلقي المشركين بعسقلان. فلما صلى الظهر فرأوه يركع ويسجد قال بعضهم لبعض: كان فرصة لكم لو أغرتم عليهم ما علوا بكم قال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى». والباقي نحوه.. =

وقيل إشارة إلى ما روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى قريظة ومعه الخلفاء الأربعة يستقرضهم لدية مسلمَيْن قتلهما عمرو بن أمية الضمري يحسبُهما مشركيْن، فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك، فأجلسوه وهموا بقتله، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحًى عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده فنزل جبريل فأخبره فخرج[١]. وقيل: نزل رسول الله ﷺ منزلاً وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه، فجاء أعرابي فسلّ سيفه وقال: مَنْ يمنعك مني؟ فقال: الله! فأسقطه جبريل من يده، فأخذه الرسول ﷺ وقال: «مَنْ يمنعك مني»؟ فقال: لا أحد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فنزلت[٢] ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والإهلاك، يقال بسط إليه يده إذا بطش به وبسط إليه لسانه إذا شتمه. ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ منعها أن تمد إليكم ورد مضرتها عنكم. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي لإيصال الخير ودفع الشر[٣].

= وأصله في مسلم (١/ ٥٧٥ رقم ٣٠٨/ ٨٤٠) من رواية أبي الزبير عن جابر «غزونا مع النبي ﷺ قوماً من جهينة فقاتلونا قتالاً شديداً فلما صلينا الظهر قال المشركون: لو ملنا عليهم لاقتطعناهم فقالوا: إنهم سيأتيهم صلاة هي أحبّ إليهم من الأولى فأخبر جبريل النبي ﷺ، وذكر ذلك لنا رسول الله ﷺ فلما حضرت العصر صفَّنا صفين.. الحديث».

وللترمذي (٥/ ٢٤٣ رقم ٣٠٣٥) والنسائي (٣/ ١٧٤ رقم ١٥٤٤) من طريق عبدالله بن شقيق عن أبي هريرة نحوه.

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٨٠) وأبو نعيم في الدلائل (٢/ ٦٢٩) من طريق محمد بن عمرو بن خالد الحراني عن أبيه عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير، قال: خرج رسول الله ﷺ فذكر نحوه..

كما أخرج البيهقي في الدلائل أيضاً (٣/ ٣٥٤) من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان مرسلاً أيضاً.

وعند أبي نعيم في الدلائل (٢/ ٦٢٨) من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ومن طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس. وعند الجميع (أتى بني النضير) دون (بني قريظة) وهو الصواب.

وكذا أخرج الطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ١٤٤) من طريق ابن إسحاق عن عمر بن عاصم وعبدالله بن أبي بكر بن حزم.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٩٦ رقم ٢٩١٠) و(٦/ ٩٧ رقم ٢٩١٣)، (٧/ ٤٢٦ رقم ٤١٣٤ ورقم ٤١٣٥ ورقم ٤١٣٦) ومسلم (٤/ ١٧٨٦ ـ ١٧٨٧ رقم ١٣، ١٤/ ٨٤٣) من طرق عن جابر.

(٣) قوله «أن يبسطوا إليكم أيديهم» قدم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلىٰ بيان رجوع ضرر البسط وغائلته إليهم حملاً لهم من أول الأمر على الاعتداد بنعمة دفعه.

وقوله «فكف أيديهم عنكم» أظهر أيديهم في موقع الإضمار لزيادة التقرير. (س٣/ ١٣).

وقوله «وعلىٰ الله فليتوكل المؤمنون» آثر صيغة أمر الغائب وأسندها للمؤمنين لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهاني، وللإيذان بأن ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان داع إلى ما أمروا به من التوكل والتقوىٰ وازع عن الإخلال بهما (س٣/ ١٤).

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ﴾ شاهداً من كل سبط ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به. روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر، أمرهم الله سبحانه وتعالى بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا مَنْ فيها فإني ناصركم، وأُمِر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ من كل سِبْط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أُمِروا به، فأَخَذ عليهم الميثاق واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار ونهاهم أن يحدِّثوا قومهم، فرأوْا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً فهابوا ورجعوا وحدثوا قومَهم، ونكث الميثاق إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا ويوشع بن نون من سبط أفراييم بن يوسف.
﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾ بالنصرة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم، وأصله الذب، ومنه التعزيز. ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالإنفاق في سبيل الخير، وقرضاً يحتمل المصدر والمفعول. ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ جواب للقسم المدلول عليه باللام في لئن سادّ مسد جواب الشرط. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك الشرط المؤكّد المعلق به الوعد العظيم. ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ضلالاً لا شبهة فيه ولا عذر معه بخلاف من كفر قبل ذلك، إذ قد يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة.

(١٣) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية. ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ﴾ لا تنفعل عن الآيات والنذر. وقرأ حمزة والكسائي قَسِيَّة، وهي إما مبالغة قاسية أو بمعنى رديئة من قولهم درهم قَسِي إذا كان مغشوشاً، وهو أيضاً من القسوة فإن المغشوش فيه يبس وصلابة، وقرىء قِسِيَّةَ بإتباع القاف للسين. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ استئناف لبيان قسوة قلوبهم، فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله سبحانه وتعالى والافتراء عليه، ويجوز أن يكون حالاً من مفعول لعناهم لا من القلوب إذ لا ضمير له فيه[1]. ﴿وَنَسُواْ حَظًّا﴾

(١) قوله «يحرفون» بصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار.

وتركوا نصيباً وافياً. ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ من التوراة، أو من اتباع محمد ﷺ، والمعنى أنهم حرفوا التوراة وتركوا حظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه، وقيل معناه أنهم حرفوها فزَلّت بشؤمه أشياءٌ منها عن حفظهم، لما روي أن ابن مسعود قال: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية[1]. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ خيانة منهم أو فرقة خائنة أو خائن، والتاء للمبالغة، والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم، وقيل استثناء من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزية. وقيل: مطلقٌ نُسِخ بآية السيف. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلاً عن العفو عن غيره.

(١٤) ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم، وقيل تقديره ومن الذين قالوا إنا نصارى قوم أخذنا، وإنما قال: «قالوا إنا نصارى» ليدل على أنهم سَمُّوا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله سبحانه وتعالى. ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا﴾ فألزمنا، من غَرِيَ بالشيء إذا لصق به. ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بين فرق النصارى، وهم نسطورية[2] ويعقوبية[3] ....

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشافِ رقم (٤٤٩).
«أخرجه ابن المبارك في الزهد ـ (ص٢٢٩ رقم ٨٥١) ـ، قال أخبرنا عبدالرحمن المسعودي عن القاسم عن عبدالله بن مسعود قال: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم تعلمه بالخطيئة يعملها» وهذا منقطع.
ـ قلت: القاسم بن عبدالرحمن ثقة، يروي عن أبيه وجده مرسلاً ـ وكذا أخرجه الدارمي ـ (١/ ١٠٥) ـ والطبراني في الكبير (٩/ ٢١٢ رقم ٨٩٣٠) ـ.
قلت: وكذا وكيع في الزهد رقم (٢٦٩) في إحدى طريقيه، وأبو خيثمة في العلم رقم (١٣٢) والخطيب في اقتضاء العلم العمل (رقم: ٩٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣١) وابن عبدالبر في بيان العلم (١/ ٢٣٩) كلهم من طريق المسعودي عن القاسم عن عبد الله بن مسعود.
وأخرجه. وكيع في الزهد (٢٦٩) في إحدى طريقيه) والبيهقي في المدخل (رقم: ٤٨٧) عن المسعودي عن الحسن بن سعد عن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه.
قلت: سماع وكيع من المسعودي قبل الاختلاط. وقد سمع عبدالرحمن بن عبدالله من أبيه انظر الجرح والتعديل (٥/ ٢٤٨) فإسناده صحيح.

(٢) النَّسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة. قال: إن الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو. واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة. وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم.
انظر «الملل والنحل» للشهرستاني (ص٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٣) اليعقوبية: أصحاب يعقوب. قالوا بالأقانيم الثلاثة كما ذكرنا، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح. وهو الظاهر بجسده، بل هو هو. وعنهم أخبرنا القرآن الكريم [لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم (المائدة الآية ٧٢)].

=

وملكانية[١]، أو بينهم وبين اليهود. ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ بالجزاء والعقاب[٢].

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

(١٥) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني اليهود والنصارى، ووحّد الكتاب لأنه للجنس. ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ كنعت محمد ﷺ وآيةِ الرجم في التوراة وبشارةِ عيسى عليه الصلاة والسلام بأحمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل. ﴿ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ مما تخفونه لا يُخبر به إذا لم يَضْطر إليه أمرٌ ديني، أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه. ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح الإعجاز، وقيل يريد بالنور محمد ﷺ[٣].

(١٦) ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ ﴾ وحّد الضمير لأن المراد بهما واحد، أو لأنهما كواحد في الحكم. ﴿ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ من اتبع رضاه بالإيمان منهم. ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله. ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ من أنواع الكفر إلى الإسلام. ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ بإرادته

انظر (الملل والنحل) للشهرستاني (ص٢٢٦ ـ ٢٢٩).

(١) الملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. ومعظم الروم ملكانية. قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته. ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا، بل المسيح مع ما تدرع به ابن، فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.
انظر (الملل والنحل) للشهرستاني (ص٢٢٣ ـ ٢٢٥).

(٢) وعبر عن العمل بالصنع للإيذان برسوخهم في ذلك. وعبر عن المجازاة بالتنبئة للتنبيه على أنهم لا يعلمون حقيقة ما يعملونه من الأعمال السيئة واستتباعها للعذاب (س٣/١٧).

(٣) قوله «يا أهل الكتاب» أوردهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب، وللمبالغة في التشنيع فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون.
وقوله «رسولنا» الإضافة فيه للتشريف والإيذان بوجوب اتباعه (س٣/١٨).

أو توفيقه. ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ طريق هو أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتعالى ومؤدٍّ إليه لا محالة.

(١٧) ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم. وقيل: لم يصرح به أحدٌ منهم، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا لا إله إلا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح، فَنَسَبَ إليهم لازمَ قولهم توضيحاً لجهلهم وتفضيحاً لمعتقدهم. ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ فمن يمنع من قدرته وإرادته شيئاً. ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ﴾ عيسى. ﴿ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ احتج بذلك على فساد عقولهم، وتقريرُه: أن المسيح مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية. ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إزاحة لما عرض لهم من الشبهة في أمره، والمعنىٰ أنه سبحانه وتعالى قادر على الإطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض ومن أصلٍ كخلْقِ ما بينهما، فيُنْشِيء من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ومن أصلٍ يُجَانسه إما مِنْ ذَكَرٍ وحدَه كما خَلَق حواء أو من أنثى وحدها كعيسى أو منهما كسائر الناس[(١)].

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ أشياعُ ابنيه عُزَيْراً والمسيح، كما قيل لأشياع ابن الزبير الخَبيبون أو المقربون عنده قُرْبَ الأولاد من والدهم، وقد سبق لنحو ذلك مزيد بيان في سورة آل عمران. ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ أي فإن صح ما زعمتم فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم فإنَّ مَنْ كان بهذا المنصب لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات. ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ ممن خلقه الله تعالى. ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وهم من آمن به وبرسله. ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ وهم من كفر، والمعنى أنه يعاملُكم معاملةَ سائر الناس لا مزية لكم عنده. ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كلها سواء في كونها خلقاً وملكاً له. ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(١٩) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ أي الدينَ وحُذِفَ لظهوره، أو ما كتمْتُم وحُذِفَ لتقدم ذِكْره، ويجوز أن لا يُقدَّرَ مفعول على معنى يبذل لكم البيان، والجملةُ في موضع الحال أي جاءكم

(١) وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى (س٣/١٩).

رسولنا مبيناً لكم. ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ متعلق بجاءكم أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي، أو «يبين» حالٌ من الضمير فيه. ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ كراهة أن تقولوا ذلك وتعتذروا به. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا بـ ﴿مَا جَآءَنَا﴾ فقد جاءكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام إذْ كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألفُ نبي، وعلى الإرسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كان بينهما ستمائة أو خمسمائة وتسع وستون سنة وأربعةُ أنبياء: ثلاثةٌ من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي[1]، وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكونون إليه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ فأرشدكم وشرفكم بهم، ولم يَبْعث في أمة ما بَعَث في بني إسرائيل من الأنبياء. ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي وجعل منكم أو فيكم، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثُرَ الأنبياء بعد فرعون حتى قتلوا يحيى وهمّوا بقتل عيسى، وقيل: لما كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله وجعلهم مالكين لأنفسهم وأمورِهم سمّاهم ملوكاً. ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من فَلْق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها مما آتاهم الله، وقيل: المراد بالعالَمين عالمي زمانهم.

(٢١) ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ أرضَ بيت المقدس، سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومسكن المؤمنين. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وقيل الشام. ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قَسَمَها لكم، أو كتب في اللوح أنها تكون مسكناً لكم، ولكن إن آمنتم وأطعتم لقوله لهم بعدما عصَوْا: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾[2]. ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا تَرْجِعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، قيل لما سمعوا حالهم من النقباء بَكَوْا وقالوا: ليتنا مِتْنا بمصر، تعالَوْا نجعلُ علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر. أو لا ترتدّوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق على الله

---

(١) خالد بن سنان العبسي تردد فيه البعض، وبعضهم لم يثبته، وبعضهم قال: إنه كان قبل عيسى عليه السلام. إلا أنه مثبت في التاريخ، وله قصة في كتب الآثار مفصلة.
وصحح بعضهم إثبات نبوته وأنه كان قبل عيسى ـ عليهما السلام ـ (انظر روح المعاني ٦/ ١٠٥).

(٢) المائدة: «٢٦».

سبحانه وتعالى. ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ ثوابَ الدارين. ويجوز في فتنقلبوا الجزم على العطف، والنصب على الجواب.

(٢٢) ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ متغلبين لا تتأتىٰ مقاومتُهم، والجبّار فعّال من جَبَرَه على الأمر بمعنىٰ أجبره وهو الذي يُجْبِر الناس على ما يريده. ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ إذ لاَ طَاقَةَ لَنَا بهم.

(٢٣) ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب ويوشع. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله سبحانه وتعالى ويتقونه. وقيل كان رجلان من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فعلىٰ هذا الواو لبني إسرائيل، والراجع إلى الموصول محذوف أي من الذين يخافهم بنو إسرائيل، ويشهد له أنه قرىء الذين يُخَافُون بالضم أي المَخُوفين، وعلى المعنىٰ الأول يكون هذا من الإخافة أي من الذين يُخَوِّفُون من الله عز وجل بالتذكير أو يخوفهم الوعيد. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان والتثبيت وهو صفة ثانية لرجلان، أو اعتراض. ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ بابَ قريتهم أي باغِتُوهم وضاغطوهم في المضيق وامنعوهم من الأصحار. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ﴾ لتعسر الكرّ عليهم في المضايق من عظم أجسامهم ولأنهم أجسام لا قلوب فيها، ويجوز أن يكون عِلْمُهما بذلك من إخبار موسىٰ عليه الصلاة والسلام وقولِهِ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1]. أو مما عَلِما من عادة الله سبحانه وتعالىٰ في نصرة رسله، وما عَهِدا من صنعه لموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مؤمنين به ومصدقين بوعده.

قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾

(٢٤) ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ نفوْا دخولهم على التأكيد والتأبيد. ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ بدل البعض. ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وقيل تقديره اذهب أنت وربك يعينك.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ قاله شكوىٰ بثّه وحزنه إلى الله سبحانه وتعالىٰ لمّا خالفه قومُه وأيس منهم ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام، والرجلان المذكوران وإن كانا يوافقانه لم يَثِق عليهما لِمَا كابد من تلون قومه، ويجوز أن يراد بأخي من يواخيني في الدين فيدخلان فيه. ويحتمل نصبُه عطفاً علىٰ نفسي أو على اسم إن، ورفعُه عطفاً على الضمير في لا أملك أو على محل إن واسمها، وجرُّه عند الكوفيين عطفاً على الضمير في نفسي. ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه، أو بالتبعيد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم.

(١) المائدة: «٢١».

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(٢٦) ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ فإن الأرض المقدسة. ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها بسبب عصيانهم. ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ عامِلُ الظرف إما مُحرَّمَة فيكون التحريم موقتاً غير مؤبد فلا يخالِفُ ظاهرَ قوله: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]، ويؤيد ذلك ما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام سار بعده بمن بقي من بني إسرائيل ففتح أريحاء وأقام بها ما شاء الله ثم قبض، وقيل: إنه قُبِض في التيه ولمّا احتَضَر أخبرهم بأن يوشع بعده نبي وأن الله سبحانه وتعالى أَمَرَه بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع وقتل الجبابرةَ وصار الشامُ كلّه لبني إسرائيل، وإما يتيهون[2] أي يسيرون فيها متحيرين لا يرون طريقاً فيكون التحريم مطلقاً، وقد قيل: لم يَدْخُل الأرض المقدسة أحد ممن قال إنا لن ندخلَها بل هلكوا في التيه وإنما قاتل الجبابرةَ أولادُهم. روي: أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ يسيرون من الصباح إلى المساء فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يُظلهم من الشمس وعمودٌ من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى وماؤُهم من الحجر الذي يحملونه، والأكثرُ علىٰ أن موسى وهارون كانا معهم في التيه إلا أنه كان ذلك رَوْحاً لهما وزيادة في درجتهما، وعقوبة لهم، وأنهما ماتا فيه مات هارون، وموسى بعده بسنة. ثم دخل يوشع أريحاء بعد ثلاثة أشهر، ومات النُّقباء فيه بغتة غير كالب ويوشع. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ خاطب به موسىٰ عليه الصلاة والسلام لما ندم علىٰ الدعاء عليهم وبين أنهم أحقاء بذلك لفسقهم.

(٢٧) ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ قابيل وهابيل، أوحىٰ الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن يزوج كلَّ واحد منهما توأمةَ الآخر، فسخِط منه قابيلُ لأن توأمته كانت أجمل، فقال لهما آدم: قَرِّبا قُرباناً فمِنْ أيُّكما قُبِلَ تزوجها، فَقُبِلَ قربان هابيل بأن نزلت نارٌ فأكلته، فازداد قابيل سخطاً وفعل ما فعل. وقيل لم يُرِدْ بهما ابني آدم لصلبه وأنهما رجلان من بني إسرائيل، ولذلك قال: ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3]. ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفةُ مصدرٍ محذوف أي تلاوة ملتبسة بالحق، أو حالٌ من الضمير في اتْلُ، أو من «نبأ» أي ملتبساً بالصدق موافقاً لما في كُتُب الأولين ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ ظرفٌ لنبأ، أو حال منه، أو بدل على حذف مضاف أي واتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت، والقربان اسم ما يُتَقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من ذبيحة أو غيرها، كما أن الحُلْوَان اسمُ ما يُحَلّىٰ به أي يعطىٰ، وهو في الأصل مصدر ولذلك لم يُثَنَّ، وقيل: تقديرُه إذ قرب كل واحد منهما قرباناً. قيل كان قابيل صاحب زرع وقَرَّب أردأ قمحٍ عنده، وهابيلُ صاحب ضرع وقرب جملاً سميناً. ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ لأنه سخطَ

---

(١) المائدة: «٢١».

(٢) قوله (وإما يتيهون) عطف على قوله: (عامل الظرف إما محرمة. . . وإما يتيهون. .).

(٣) المائدة: «٣٢».

حكم الله سبحانه وتعالىٰ ولم يُخلص النية في قربانه وقصد إلى أخس ما عنده. ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ توعده بالقتل لفَرْط الحسد له على تقبل قربانه ولذلك. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في جوابه أي إنما أُتيت من قِبَلِ نفسك بترك التقوىٰ لا مِنْ قبلي فَلِمَ تقتلُني؟ وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يُرىٰ حرمانه من تقصيره ويَجْتهدَ في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقٍ.

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: كان هابيل أقوى منه ولكن تحرج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله سبحانه وتعالىٰ لأن الدفع لم يُبَح بعدُ، أو تحرياً لما هو الأفضل قال عليه الصلاة والسلام: «كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل»[(١)]. وإنما قال: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ﴾ في جواب ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ للتبري عن هذا الفعل الشنيع رأساً والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه، ولذلك أكد النفي بالباء[(٢)].

(٢٩) ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليل ثان للامتناع عن المعارضة والمقاومة، والمعنى إنما أَستسلم لك إرادة أن تَحْمِلَ إثمي لو بسطتُ إليك يدي وإثمَك ببسطك يدك إليّ، ونحوُه: «المستبّان ما قالا فعلىٰ البادىء ما لم يَعْتدِ المظلوم»[(٣)]. وقيل معنى بإثمي بإثم قتلي، وبإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك، وكلاهما في موضع الحال أي ترجع ملتبساً بالإثمين حاملاً لهما، ولعله لم يُرِد معصية أخيه وشقاوتَه بل قَصْده بهذا الكلام إلى أن ذلك إنْ كان لا محالة واقفاً فأريدُ أن يكون لك لا لي، فالمراد بالذات أن لا يكون له لا أن يكون لأخيه، ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته وإرادةُ عقاب العاصي جائزة.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فسهلته له ووسعته، مِنْ طاع له المرتَعُ إذا اتسع. وقرىء

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١١٠) عن خباب وفي سنده رجل مجهول.
وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٩٢) عن خالد بن عرفطة. وفي إسناده: علي بن زيد بن جدعان: وهو ضعيف.
ومن طريق علي بن زيد أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٢٥ رقم ٤٠٩٩).
والحاكم في المستدرك (٤/ ٥١٧ وقال: تفرد به علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي ولم يحتجبا بعلي، وسكت عنه الذهبي.

(٢) قوله: «لئن بسطت إليّ» صدره باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور علىٰ المفعول الصريح إيذاناً من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه (س ٣/ ٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٠ رقم ٦٨/ ٢٥٨٧) والبخاري في الأدب المفرد رقم (٤٢٣) وأبو داود (٥/ ٢٠٣ رقم ٤٨٩٤) والترمذي (٤/ ٣٥٢ رقم ١٩٨١) وغيرهم، كلهم من حديث أبي هريرة.

فطاوعت على أنه فَاعَلَ بمعنىٰ فَعَلَ، أو على أنّ قَتْل أخيه كأنه دعاها إلى الإقدام عليه فطاوعته، وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد مالَه. ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا، إذ بقي مدة عمره مطروداً محزوناً. قيل قتل هابيل وهو ابن عشرين سنة عند عَقَبة حراء. وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ روي أنه لما قتله تحير في أمره ولم يَدْرِ ما يصنع به إذ كان أولَ ميت من بني آدم، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقَتَل أحدهما الآخر، فحَفَر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة، والضمير في ليُرِيَ لله سبحانه وتعالىٰ، أو للغراب، وكيف حالٌ من الضمير في يواري، والجملة ثاني مفعولي يرى، والمراد بسوأة أخيه جسده الميت فإنه مما يستقبح أن يُرىٰ. ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ كلمة جزع وتحسر، والألفُ فيها بدل من ياء المتكلم. والمعنى يا ويلتي احْضُري فهذا أوانُك، والويل والويلة الهَلَكَة. ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ لا أهتدي إلى مثل ما اهْتَدىٰ إليه، وقوله: فأواري عطف على أكون وليس جواب الاستفهام إذ ليس المعنىٰ ههنا لو عجَزت لَوَاريْت. وقرىء بالسكون على فأنا أواري، أو على تسكين المنصوب تخفيفاً. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على قتله لِمَا كابد فيه من التحير في أمره وحمْله على رقبته سنة أو أكثر على ما قيل، وتلمذِه للغراب واسوداد لونه وتبري أبويه منه. إذ روي أنه لما قتله اسود جسده، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلتَه ولذلك اسود جسدك، وتبرأ منه ومكث بعد ذلك مائة سنة لا يضحك، وعُدِمَ الظَّفر بما فعله من أجله.

(٣٢) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بسببه قضينا عليهم، وأَجْل في الأصل مصدر أَجَلَ شرّاً إذا جناه استُعمل في تعليل الجنايات كقولهم: من جَرَاك فعلته، أي من أن جررته أي جنيته، ثم اتسع فيه فاستُعمل في كل تعليل، ومِنْ ابتدائية متعلقة بكتبنا أي ابتداء الكَتْب ونشوْه من أجل ذلك. ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أو بغير فساد فيها كالشرك أو قطع الطريق. ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ من حيث إنه هتك حرمة الدماء وسن القتل وجرأ الناس عليه، أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها. ﴿وَلَقَدْ

جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ أي بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد كي يتحاموْا عنها وكثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها. والإسراف التباعد عن حد الاعتدال في الأمر[1].

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾

(٣٣) ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جَعَل محاربتهم محاربتهما تعظيماً. وأصل الحرب السلب والمراد به ههنا قطع الطريق، وقيل المكابرة باللصوصية وإن كانت في مِصْر. ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ أي مفسدين، ويجوز نصبه على العلة أو المصدر لأن سعيهم كان فساداً فكأنه قيل: ويفسدون في الأرض فساداً. ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ أي قِصاصاً من غير صلب إن أفردوا القتل. ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ أي يصلبوا مع القتل إن قَتَلوا وأخذوا المال، وللفقهاء خلاف في أنه يقتل ويصلب أو يصلب حياً ويترك أو يطعن حتى يموت. ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ تقطع أيديهم اليمنىٰ وأرجلهم اليسرى إن أخذوا المال ولم يَقتلوا. ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ينفوْا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضع إن اقتصروا على الإخافة، وفسر أبو حنيفة النفي بالحبس، وأو في الآية على هذا للتفصيل، وقيل: إنه للتخيير والإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق. ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ذل وفضيحة. ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم.

(٣٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله سبحانه وتعالى، ويدل عليه قوله تعالى ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أما القتل قصاصاً فإلىٰ الأولياء يسقط بالتوبة وجوبُه لا جوازُه، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة يدل على أنها بعد القدرة لا تُسقط الحد وإن أسقطت العذاب، وأن الآية في قُطاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

---

(١) قوله: «ولقد جاءتهم رسلنا» صدر الآية بحرف التحقيق لكمال العناية بتحقق مضمونها.
وقال «جاءتهم» ولم يقل أرسلنا إليهم. للتصريح بوصول الرسالة إليهم، فإنه أدل علىٰ تناهيهم في العتو والمكابرة.
وقوله «بعد ذلك» وضع اسم الإشارة موضع الضمير للإيذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة. وما فيه من معنىٰ البعد للإيماء إلى علوّ درجته وبعد منزلته في عظم الشأن.
و«ثم» للتراخي في الرتبة والاستبعاد (س ٣/ ٣٠).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ
تُفۡلِحُونَ ۝٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ
عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم
بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ۝٣٧ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا
مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨﴾

(٣٥) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفىٰ منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، مِنْ وَسَل إلى كذا إذا تقرب إليه وفي الحديث «الوسيلة منزلة في الجنة»[1]. ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى والفوز بكرامته.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من صنوف الأموال. ﴿جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ واللام متعلقة بمحذوف تستدعيه لو، إذ التقدير لو ثبت أن لهم ما في الأرض، وتوحيد الضمير في به والمذكورُ شيئان: إما لإجرائه مجرىٰ اسم الإشارة في نحو قوله تعالى: ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾[2]، أو لأن الواو في «ومثله» بمعنى مع. ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ﴾ جواب لو، ولَوْ بما في حيزه خبرُ إن، والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تصريح بالمقصود منه، وكذلك قوله:

(٣٧) ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ وقرىء يُخْرَجُوا من أخرج وإنما قال ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ بدل وما يخرجون للمبالغة.

(٣٨) ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ جملتان عند سيبويه إذ التقدير فيما يتلى عليكم السارق والسارقة أي حكمُهُما وجملة عند المبرِّد، والفاء للسببية دخل الخبر لتضمنهما معنى الشرط إذ المعنى: والذي سرق والتي سرقت. وقرىء بالنصب، وهو المختار في أمثاله لأن الإنشاء لا يقع خبراً إلا بإضمار وتأويل[3]. والسرقةُ: أخذ مال الغير في خفية، وإنما توجب القطع إذا كانت من حِرْزٍ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٢٨٨ رقم ١١/ ٣٨٤).
(٢) البقرة: «٦٨».
(٣) قول البيضاوي (وهو المختار في أمثاله) لا يفيد اختيار قراءة النصب والتي قرأ بها عيسىٰ بن عمر على قراءة عامة القراء بالرفع.
وقد فهم البعضُ من كلام سيبويه أنه يختار قراءة النصب ويرجحها على قراءة عامة القراء بالرفع كما فهم منها الفخر الرازي في التفسير الكبير (١١/ ٢٢٢) وقد رد على سيبويه في ذلك مبيناً أن سيبويه طعن بالتواتر. . . وكذا فهم الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٩).
لكن أبا حيان وغيره دافعوا عن سيبويه مبينين أنه لم يقصد إلى ذلك. وذلك أن جملة الأمر لا يصح أن تكون خبراً إذا جُرِّدت عن الفاء، فلما دخلت الفاء عليها حَسُن ذلك. فسيبويه يقوي قراءة الرفع بسبب دخول الفاء علىٰ =

والمأخوذُ ربعُ دينار أو ما يساويه لقوله عليه الصلاة والسلام: «القطع في ربع دينار فصاعداً»[١] وللعلماء خلاف في ذلك لأحاديثَ وردت فيه، وقد استقصيت الكلام فيه في شرح المصابيح. والمراد بالأيدي الأَيمان، ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أيمانهما، ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[٢] اكتفاءً بتثنية المضاف إليه، واليدُ اسمٌ لتمام العضو ولذلك ذهب الخوارج إلى أن المقطع هو المِنكب، والجمهور على أنه الرسغ لأنه عليه الصلاة والسلام أتي بسارق فأمر بقطع يمينه منه[٣]. ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ منصوبان على المفعول له، أو المصدر ودل على فعلهما فاقطعوا ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

(٣٩) ﴿فَمَن تَابَ﴾ من السراق. ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أي بعد سرقته. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمْرَه بالتقصي عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة. وأما القطع فلا يَسقُطُ بها عند الأكثرين لأن فيه حقَّ المسروق منه.

(٤٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل أحد. ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدَّم التعذيب على المغفرة إيتاء على ترتيب ما سبق، أو لأن استحقاق التعذيب مُقدم، أو لأن المراد به القطع وهو في الدنيا.

(٤١) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي صنيع الذين يقعون في الكفر

= جملة الأمر «فاقطعوا» ولولاه لكان النصب أولىٰ. (انظر البحر المحيط ٣/ ٤٧٦ وروح المعاني ٦/ ١٣٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٩) بلفظ «تقطع يد السارق في ربع دينار» وأخرجه مسلم (٣/ ١٣١٢ ج٢ ـ ٣) بلفظ «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً».

(٢) التحريم: «٤».

(٣) أخرجه البغوي وأبو نعيم في معرفة الصحابة من حديث الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة.

(٤) قوله تعالى «والسارق والسارقة» لما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضاً ـ مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في الأحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة ـ وذلك لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة في الزجر (س ٣/ ٣٤).

سريعاً أي في إظهاره إذا وجدوا منه فرصة[١]. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين، والباء متعلقة بقالوا لا بآمنا، والواو تحتمل الحال والعطف. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ عطف على مِنَ الذين قالوا ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر محذوف أي هم سماعون. والضمير للفريقين، أو للذين يسارعون، ويجوز أن يكون مبتدأ ومِنَ الذين خبره أي ومن اليهود قوم سماعون. واللام في للكذب: إما مزيدة للتأكيد، أو لتضمين السماع معنى القبول، أي: قابلون لما تفتريه الأحْبار، أو للعلة والمفعول محذوف أي: سماعون كلامك ليَكْذِبوا عليك فيه. ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي لجمع آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك وتجافَوْا عنك تكبراً وإفراطاً في البغضاء، والمعنى على الوجهين أي مُصْغون لهم قابلون كلامَهم، أو سماعون منك لأجلهم والإنهاءِ إليهم، ويجوز أن تتعلق اللام بالكذب لأن سماعون الثاني مكرَّر للتأكيد أي: سماعون ليكذبوا لقوم آخرين. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي يُميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها، إما لفظاً: بإهماله أو تغيير وضعه، وإما معنىً: بحمْلِهِ على غير المراد وإجرائه في غير مورده. والجملة صفةٌ أخرى لقوم، أو صفة لسماعون، أو حال من الضمير فيه، أو استئناف لا موضع له، أو في موضع الرفع خبراً لمحذوف أي هم يحرفون، وكذلك ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ أي إن أوتيتم هذا المحرف فاقبلوه واعملوا به. ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم محمد بخلافه ﴿فَٱحْذَرُواْ﴾ أي احذروا قبول ما أفتاكم به. روي أن شريفاً من خيبر زنىٰ بشريفة، وكانا محصنين، فكرهوا رجمهما، فأرسلوهما مع رَهْط منهم إلىٰ بني قريظة ليسألوا رسولَ الله ﷺ عنه وقالوا: إن أَمَرَكم بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا، فَأَمَرَهم بالرجم، فأبوْا عنه، فَجَعَلَ ابنَ صوريا حكماً بينه وبينهم وقال له: «أَنْشِدُكَ الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هلْ تجدون فيه الرجم على من أحصن؟» قال: نعم، فوثبوا عليه، فقال: خِفْت إن كَذَبْتُه أن يَنْزل علينا العذاب، فأمر رسول الله ﷺ بالزانيين فَرُجِما عند باب المسجد[٢]. ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ ضلالته أو فضيحته. ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر، وهو كما ترى نص على فساد قول المعتزلة. ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) قوله تعالىٰ «يا أيها الرسول..» خوطب عليه السلام بعنوان الرسالة للتشريف والإشعار بما يوجب عدم الحزن.
وقوله «يسارعون في الكفر» فآثر كلمة «في» علىٰ كلمة «إلىٰ» كما في قوله تعالىٰ: «وسارعوا إلى مغفرة..» ـ آل عمران «» ـ للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلىٰ بعض آخر (س ٣/ ٣٦).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي، وابن المنذر ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٧٥) ـ وليس فيه ذكر (خيبر) وفيه (إن أحبار اليهود اجتمعوا في بيت المدارس حين قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقد زنى رجل بعد إحصانه بامرأة من اليهود)، فذكر نحوه.
وأخرجه ابن جرير (٤/ج٦/ ٢٣٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) من حديث أبي هريرة. وإسناده ضعيف لجهالة رجل من مزينة.
وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر، فقد أخرجه البخاري (٦/ ٦٣١ رقم ٣٦٣٥) و(١٢/ ١٦٦ رقم ٦٨٤١) و(١٣/ ٥١٦ رقم ٧٥٤٣) ومسلم (٣/ ١٣٢٦ رقم ٢٦/ ١٦٩٩).

خِزۡيٞۖ﴾ هَوَانٌ بالجزية والخوف من المؤمنين. ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ وهو الخلود في النار. والضمير للذين هادوا إن استأنَفْتَ بقوله: «ومن الذين وإلا فللفريقين».

سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

(٤٢) ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ كرره للتأكيد. ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ أي الحرام كالرُّشا، مِنْ سَحَتَهُ إذا استأصَلَه لأنه مسحوت البركة. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب في المواضع الثلاثة بضمتين وهما لغتان كالعُنْق والعُنُق، وقرىء بفتح السين على لفظ المصدر. ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا تحاكموا إليه بين الحُكْم والإعراض، ولهذا قيل: لو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم، وهو قول للشافعي، والأصح وجوبُه إذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً لأنا التزمنا الذبّ عنهم ودفعَ الظلم منهم، والآية ليست في أهل الذمة، وعند أبي حنيفة يجب مطلقاً. ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾ بأن يعادوك لإعراضك عنهم فإن الله سبحانه وتعالى يعصمك من الناس. ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي بالعدل الذي أمر الله به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ فيحفظهم ويعظم شأنهم.

(٤٣) ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ تعجيبٌ من تحكيمهم مَنْ لا يؤمنون به، والحالُ أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيهٌ على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامةَ الشرع. وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم وإن لم يكن حُكْمَ الله تعالى في زعمهم، و﴿فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ حال من التوراة إن رفعتها بالظرف، وإن جَعَلْتَها مبتدأً فمِنْ ضميرها المستكِن فيه، وتأنيثها لكونها نظيرة المؤنث في كلامهم لفظاً كمُوماة ودوداة. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم، وهو عطف على يحكمونك داخِلٌ في حكم التعجيب. ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بكتابهم لإعراضهم عنه أولاً وعما يوافقه ثانياً، أو بك وبه.

(٤٤) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى﴾ يهدي إلى الحق. ﴿وَنُورٞۚ﴾ يكشف عما استُبْهِم من الأحكام. ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، أو موسى ومَنْ بعده إن قلنا شَرْعُ مَنْ قبلَنا شرعٌ لنا ما لم يُنْسَخ، وبهذه الآية تمسك القائل به. ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ صفة أجريت على النبيين مدحاً لهم وتنويهاً بشأن المسلمين، وتعريضاً باليهود وأنهم بمعزل عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتفاءِ هديهم. ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ متعلق بأنزل، أو بيحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم، وهو يدل على أن

النبيين أنبياؤهم[1]. ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ زُهَّادهم وعلماؤهم السالكون طريقةَ أنبيائهم، عطف على النبيون ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف، والراجع إلى «ما» محذوفٌ، ومِنْ للتبيين. ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ رقباء لا يتركون أن يغير، أو شهداء يبينون ما يَخفىٰ منه كما فعل ابنُ صوريا. ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ نهي للحكام أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ويُداهِنوا فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير. ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي﴾ ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتُها. ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ هو الرِّشوة والجاه ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهيناً به منكِراً له. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله: الكافرون والظالمون والفاسقون، فكفرهم لإنكاره، وظلمهم بالحكم على خلافه، وفسقهم بالخروج عنه. ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حالٍ انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمةً لها، أو لطائفة كما قيل هذه في المسلمين لاتصالها بخطابهم، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى.

وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٥) ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ وفرضنا على اليهود. ﴿فِيهَآ﴾ في التوراة. ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ أي أن النفس تُقتل بالنفس. ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ رَفَعَها الكسائي على أنها جمل معطوفةٌ على أنَّ وما في حيزها باعتبار المعنىٰ وكأنه قيل: وكتبنا عليهم النفسُ بالنفسِ، والعينُ بالعين، فإن الكتابة والقراءة تقعان على الجُمَل كالقول، أو مستأنفةٌ ومعناها: وكذلك العينُ مفقوءةٌ بالعين، والأنفُ مجدوعة بالأنف، والأذُنُ مصلومة بالأذن، والسن مقلوعة بالسن أو على أن المرفوع منها معطوف على المستكن في قوله بالنفس وإنما ساغ لأنه في الأصل مفصول عنه بالظرف والجار والمجرور حال مبيِّنة للمعنىٰ، وقرأ نافع والأُذْن بالأُذْن وفي أُذْنيه بإسكان الذال حيث وقع. ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ أي ذات قصاص، وقرأة الكسائي أيضاً بالرفع ووافقه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر على أنه إجمال للحكم بعد التفصيل. ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين[2]. ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص أي فمن عفا عنه. ﴿فَهُوَ﴾ فالتصدق. ﴿كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ للمتصدق يكفِّر الله به ذنوبه. وقيل للجاني يُسقط عنه ما لزمه. وقرىء فهو كفارته له، أي فالمتصدق كفارته التي يستحقها بالتصدق له لا ينقص منها شيء. ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القصاص وغيره. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

(١) قوله «للذين هادوا» وَسَّطهم بين النبيين وبين الربانيين والأحبار للإيذان بأن الأصل في الحكم بها وحمل الناس علىٰ ما فيها هم النبيون، وإنما الربانيون والأحبار خلفاء ونواب لهم في ذلك، كما ينبىء عنه قوله تعالى: «بما استحفظوا..» (س ٣/ ٤١).

(٢) عبر عنه بالتصدق للمبالغة في الترغيب (س ٣/ ٤٣).

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

(٤٦) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي وأتبعناهم على آثارهم، فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه، والضمير للنبيون. ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ مفعولٌ ثان، عدِّي إليه الفعل بالباء. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وقرىء بفتح الهمزة. ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ في موضع النصب بالحال. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عطف عليه وكذا قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] ويجوز نصبهما على المفعول له عطفاً على محذوف، أو تعلقاً به، وعَطَفَ.

(٤٧) ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ عليه في قراءة حمزة[2]، وعلى الأول اللامُ متعلقة بمحذوفٍ أي وآتيناه ليحكم، وقرىء وأنْ لِيَحكم على أنَّ أنْ موصولة بالأمر كقولك: أمرتك بأن قم أي وأمرنا بأن ليحكم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ عن حكمه أو عن الإيمان إن كان مستهيناً به والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع، وحملها على وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خِلافُ الظاهر.

(٤٨) ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من جنس الكتب المنزلة، فاللام الأولى للعهد والثانية للجنس. ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ورقيباً على سائر الكتب يحفظه عن التغيير ويشهد له بالصحة والثبات. وقرىء على بُنْية المفعول أي هُومِنَ عليه وحُوفظ من التحريف والحافظ له هوَ الله سبحانه وتعالى، أو الحفّاظ في كل عصر. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي بما أنزل الله إليك[3]. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه، فعن صلةٌ لِلاَ تَتَّبع لتضمنه معنىٰ لا تنحرف، أو حال من فاعله أي لا تتبع أهواءهم مائلاً عما جاءك. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الناس. ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة وهي الطريق إلى الماء، شُبِّه بها الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية. وقرىء بفتح الشين. ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقاً واضحاً في الدين من نهج الأمرُ إذا وضح. واستدل به على أنا غير متعبدين بالشرائع المتقدمة. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعة

(١) تخصيص كونه هدًى وموعظة بالمتقين لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه (س ٣/ ٤٣).
(٢) قراءة حمزة بكسر اللام «وَلِيَحْكُمَ».
(٣) قدم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم. ووضَع الموصول موضع الضمير للتنبيه علىٰ علية ما في حيز الصلة للحكم. والالتفاف بإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم (س ٣/ ٤٥).

متفقة على دين واحد في جميع الأعصار من غير نسخ وتحويل، ومفعول لو شاء محذوفٌ دل عليه الجواب، وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعَكم على الإسلام لأجبركم عليه. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لكل عصر وقرن، هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى الحكمة الإلهية، أم تزيغون عن الحق وتفرِّطون في العمل. ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَٰتِ﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدم. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ استئناف فيه تعليل الأمر بالاستباق ووعد ووعيد للمبادرين والمقصرين. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل والعامل والمقصر.

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٩) ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ عطف على الكتاب أي أنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأنْ احكم، ويجوز أن يكون جملة بتقدير وأَمَرْنا أن احكم. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أن يضلوك ويصرفوك عنه، وأنْ بصلته بدل من هُمْ بدلُ الاشتمال أي احذر فتنتهم، أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك. روي أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إنْ اتبعناك اتَّبعَنا اليهودُ كلهم، إنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ. فنزلت[1]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني ذنب التولي عن حكم الله سبحانه وتعالى، فعبّر عنه بذلك تنبيهاً على أن لهم ذنوباً كثيرة وهذا مع عظمه واحد منها معدود من جملتها، وفيه دلالة على التعظيم كما في التنكير ونظيره قول لبيد:

أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضُ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ لمتمردون في الكفر معتدون فيه.

(٥٠) ﴿أَفَحُكْمَ الْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الذي هو الميل والمداهنة في الحكم، والمراد بالجاهلية الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوىٰ. وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلىٰ[2]. وقرىء برفع الحكم على أنه مبتدأ ويبغون

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ج٦/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٣٦) وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٩٦ ـ ٩٧) ـ كلهم من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. وفيه محمد بن أبي محمد مجهول.

(٢) أخرج ابن أبي شيبة نحوه عن الشعبي قال: كان بين حيين من العرب قتال... فذكر القصة (الكافي الشاف

خبره، والراجعُ محذوف حَذَفه في الصلة في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[١] واستُضْعف ذلك في غير الشعر، وقرىء أَفَحَكَمَ الجاهلية أي يبغون حاكماً كحكام الجاهلية يحكم بحسب شهيتهم، وقرأ ابن عامر تبغون بالتاء على قُلْ لهم أفحكم الجاهلية تبغون. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي عندهم، واللام للبيان كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[٢] أي هذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم فيعلمون أن لا أحسن حكماً من الله سبحانه وتعالى[٣].

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إيماء إلىٰ علة النهي، أي فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادتكم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتراءى ناراهما»[٤] أو لأن المَوالي لهم كانوا منافقين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، أو المؤمنين بموالاة أعدائهم[٥].

= ص٥٤ رقم ٤٥٥).

(١) الفرقان: «٤١».

(٢) يوسف: «٢٣».

(٣) قوله «أفحكمَ الجاهلية» قدم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولي عن حكمه عليه السلام وطلب حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب (س ٣/ ٤٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥) والترمذي (١٦٠٤) مرفوعاً من حديث جابر، وأخرجه النسائي (٤٧٨٤) عن قيس مرسلاً، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ١٣٤ ج٣٨٣٦) من حديث خالد بن الوليد، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٥/ ٢٥٣) فهو حديث صحيح وصححه الألباني في الإرواء رقم (١٢٠٧) وفي صحيح الجامع (٢/ ١٦).

(٥) قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا» وصفهم بعنوان الإيمان لحملهم من أول الأمر علىٰ الانزجار عما نهوا عنه.
وقوله «بعضهم أولياء بعض» أوثر الإجمال في البيان تعويلاً على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين فريقي اليهود والنصارىٰ.
وقوله «لا يهدي القوم الظالمين» وضع المظهر «الظالمين» موضع ضميرهم تنبيهاً على أن توليهم ظلم =

(٥٢) ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني ابن أبيّ وأضرابه[١]. ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم[٢]. ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. روي أن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال لرسول الله ﷺ: إن لي مواليَ من اليهود كثيراً عددهم، وإني أبرأ إلىٰ الله والىٰ رسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله، فقال ابن أبيّ: إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية موالي. فنزلت[٣]. ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يقطع شأفة اليهود من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم. ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أي هؤلاء المنافقون. ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ على ما استبطنوه من الكفر والشك في أمر الرسول ﷺ، فضلاً عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم.

(٥٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالرفع قراءةُ عاصم وحمزة والكسائي علىٰ أنه كلام مبتدأ، ويؤيده قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعاً بغير واو على أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ، وبالنصب قراءة أبي عمرو ويعقوب عطفاً على أن يأتي باعتبار المعنى، وكأنه قال: عسىٰ أن يأتي الله بالفتح ويقولَ الذين آمنوا، أو يجعله بدلاً من اسم الله تعالى داخلاً في اسم عسىٰ مُغْنياً عن الخبر بما تضمنه من الحدث، أو على الفتح بمعنىٰ عسىٰ الله أن يأتي بالفتح وبقول المؤمنين فإن الإتيان بما يوجبه كالإتيان به. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ﴾ بقول المؤمنين بعضهم لبعض تعجباً من حال المنافقين وتبجحاً بما منَّ الله سبحانه وتعالىٰ عليهم من الإخلاص، أو يقولونه لليهود. فإن المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكىٰ الله تعالى عنهم: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾[٤] وجَهْدُ الأيمان أغلظُها، وهو في الأصل مصدر، ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم، فحُذِف الفعل وأقيم المصدر مقامه ولذلك ساغ كونها معرفة، أو على المصدر لأنه بمعنىٰ أقسموا. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ إما من جملة المقول، أو من قول الله سبحانه وتعالى شهادة لهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم.

(٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ قرأه على الأصل نافع وابن عامر وهو كذلك في الإمام[٥]، والباقون بالإدغام. وهذا من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها، وقد ارتد من

= (س ٣/ ٤٨).

(١) وضع الموصول موضع الضمير للإشارة إلى أن ما ارتكبوه بسبب مرض النفاق (س ٣/ ٤٨).

(٢) وعدىٰ فعل المسارعة بفي للدلالة على استقرارهم في الموالاة. (س ٣/ ٤٨).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ ج٦/ ٢٧٥) وابن أبي شيبة ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٩٩) من رواية عطية بن سعد.
وأخرج ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ ج٦/ ٢٧٥) من طريق ابن إسحاق عن إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت.

(٤) الحشر: «١١».

(٥) أي بدالين «يَرْتَدِدْ».

العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج وكان رئيسهم ذا الخمار الأسود العنسي، تنبأ باليمن واستولى على بلاده ثم قتله فيروزُ الديلمي ليلةَ قُبِضَ رسول الله ﷺ من غدها وأَخبر الرسولُ ﷺ في تلك الليلة فسُرَّ المسلمون وأتى الخبرُ في أواخر ربيع الأول(١). وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة تنبأ وكتبَ إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ﷺ أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجاب: «من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» فحاربه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بجند من المسلمين وقتله وَحْشيٌ قاتلُ حمزة. وبنو أسد قومُ طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسولُ الله ﷺ خالداً فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسُن إسلامه. وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه سبعٌ: فَزَارة قوم عيينة بن حصن، وغَطَفان قوم قرة بن سلمة القشيري، وبنو سُلَيْم قوم الفجاءة بن عبد يا ليل، وبنو يُربوع قوم مالك بن نويرة، وبعضُ تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة زوجة مسيلمة، وكِنْدة قوم

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف (ص٥٥ رقم ٤٦٠): «وفي هذا الكلام من التخليط غير شيء، فإنَّ قوله: استولى على بلاد اليمن وأخرج عمال رسول الله ﷺ، ظاهره يقتضي أن لا يبقى منهم هناك أحد وليس الأمر كذلك، بل بقي منهم على ما كان عليه جماعة منهم من المهاجرين: ابن أبي أمية ومعه جميع السواحل. وكان باليمن أيضاً معاذ بن جبل وغيره من عمال رسول الله ﷺ في سواحل اليمن، وإنما استولى العنسي على صنعاء، وبعض البلاد الجبالية. وقد نقض الزمخشري ـ والقاضي ـ كلامه بقوله: فإنه ﷺ كتب إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. ولكن الجمع بين كلاميه: بأن مراده، إخراج عمال رسول الله ﷺ الذين حاربهم فيكون المراد إخراج بعضهم لا جميعهم» هـ.

وقال ابن حجر أيضاً في الكافي الشاف (رقم: ٤٦١). قوله: في آخر شهر ربيع الأول: ليس بصحيح فإنه ﷺ مات في أول شهر ربيع الأول. وقيل: في ثامنه. وقيل: في ثاني عشر. وسيأتي بيان الاختلاف في وقت المجيء برأس الأسود وقصة الأسود العنسي قد أخرجها مطولة جميع من صنف في الردة كابن إسحاق والواقدي وسيف بن عمر. وسيمة بن الفرات. وأخرجها الحاكم في الإكليل والبيهقي في الدلائل. قال الواقدي: اسم الأسود ذو الخمار. وقال غيره: اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار، لأنه كان يلقي على وجهه قناعاً ويهمهم. وكان له شيطانان أحدهما سحيق والآخر بشقيق، قال الواقدي: وملك الأسود نجران وأقام بها ستة أشهر ثم خرج في ستمائة ممن تبعه إلى صنعاء فحاصر الأساورة منهم باذان، وفيروز ودادويه في آخرين، وكانوا أسلموا وأرسلوا بإسلامهم فردة بن مسك المرادي فاقتتل الفريقان حتى غلب الأسود فقتل منهم طائفة، وخيَّر طائفة بين أن يخرجوا من صنعاء إلى بلد آخر ويقيموا بها ويضرب عليهم الخراج ويصيروا عبيداً له. واصطفى الأسود المرزبانة امرأة باذان لنفسه. وكانت جميلة وكان يشرب الخمر ويقع عليها ولا يغتسل ولا يصلي، فكرهته المرزبانة وأرسلت الأساورة وفيهم فيروز. فواعدتهم البستان في الوقت الذي يسكر فيه الأسود. فدخل عليه فيروز ودادويه وقيس بن مكشوح وهو سكران. فقالت المرزبانة: لفيروز وهو أحدثهم سناً: دونك الرجل. قال فيروز: كنت قد أنسيت سيفي من الدهش فوقعت على الأسود فخنقته حتى حوّلت وجهه إلى قفاه. ثم دخل صاحباه فحرزوا رأسه. واجتمع الأساورة بباب المدينة يقتلون أصحاب العنس. فذكر تمام القصة. إنما اختصرناها.

وروى النسائي من حديث عبدالله بن فيروز الديلمي عن أبيه قال: «أتيت النبي ﷺ برأس الأسود العنسي» قال عبدالحق: لا يصح في هذا الباب شيء. وتعقبه ابن القطان بأن إسناد النسائي صحيح، ولا يعارضه ما جاء أن الخبر بقتله إنما جاء أثر موت النبي ﷺ لأن رواية النسائي ليس فيها التصريح أنه صادف النبي ﷺ. نعم رواية الطبري زيادة تدل على ذلك» هـ. =

الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قومُ الحطم بن زيد، وكفىٰ اللهُ أمرهم على يده، وفي إمرة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه غسانُ قوم جِبلّة بن الأيهم تنصّر وسار إلى الشام. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قيل هم أهل اليمن لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: «هم قوم هذا»[1] وقيلَ الفُرْس لأنه عليه الصلاة والسلام سئل عنهم فضرب يده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه»[2]. وقيل الذين جاهدوا يوم القادسية ألفان من النّخع وخمسة آلاف من كِنْدة وبَجِيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس. والراجع إلىٰ مَنْ محذوف تقديره فسوف يأتي الله بقوم مكانُهم. ومحبةُ الله تعالى للعباد إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، ومحبة العباد له إرادة طاعته والتحرز عن معاصيه[3]. ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم، جمع ذليل لا ذَلُول فإن جمعَه ذُلُل، واستعماله مَعَ «علىٰ» إما لتضمنه معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خاضعون لهم أو للمقابلة. ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ شِداد متغلبين عليهم مِنْ عَزَّهُ إذا غلبه. وقرىء بالنصب على الحال[4]. ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى لقوم، أو حال من الضمير في أعزة. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه. أو حال بمعنى أنهم مجاهدون وحالُهم خلافُ حال المنافقين، فإنهم يَخْرجون في جيش المسلمين خائفين ملامَةَ أوليائهم من اليهود فلا يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم. واللومَةُ المرَّة من اللوم، وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يمنحه ويوفق له ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفضل. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٧١ رقم ١٠١٦) وأورده الهيثمي في المجمع (١٦/٧) وقال: رجاله رجال الصحيح.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٣) من حديث عياض الأشعري وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
وأخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ ٦٩٠/ ٢٨٤) من طرق وفي إحدى طرقه (عن عياض عن أبي موسى نفسه) كما أخرج عن شريح بن عبيدة نحوه، وساق أقوالاً وآثاراً في تفسير هذه الآية ورجح ما روي عن عياض الأشعري.

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٦٤): «هكذا رواه. وهو وهم منه فإن هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة ـ (٣) ـ من طريق أبي الغيث عن أبي هريرة وهو متفق عليه ـ البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧) ومسلم (٤/ ١٩٧٢ رقم ٢٣١) ـ وفي آية القتال ـ يعني سورة محمد الآية ٣٨ ـ رواه الترمذي ـ (٥/ ٣٨٣ رقم ٣٢٦٠) ـ وقال: حديث غريب في إسناده مقال. لأن فيه شيخاً مجهولاً من أهل المدينة ـ من حديث أبي هريرة ـ.
قلت: وانظر تفسير الآية (١٣٣) من سورة النساء.

(٣) انظر التعليق على محبة الله للعباد ومحبة العباد لله وحقيقة ذلك الآية «١٦٥» من سورة البقرة.

(٤) قوله «أذِلَّة.. أعِزَّة» صفتان لقوم وترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما (س٣/ ٥١).

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لما نهىٰ عن موالاة الكفرة ذكر عقبيه من هو حقيق بها، وإنما قال وليكم الله ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالىٰ على الأصالة ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة للذين آمنوا فإنه جرىٰ مجرى الاسم، أو بدل منه، ويجوز نصبه ورفعُه على المدح. ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ متخشعون في صلاتهم وزكاتهم، وقيل هو حال مخصوصة بيُؤْتون، أو يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومسارعةً إليه. وإنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمه[1]، واستدل بها الشيعةُ على إمامته زاعمين أن المراد بالولي المتولّي للأمور والمستحق للتصرف فيها، والظاهرُ ما ذكرناه، مع أن حمل الجمع على الواحد أيضاً خلاف الظاهر، وإن صح أنه نزل فيه فلعله جيء بلفظ الجمع لترغيب الناس في مثل فعله فيندرجوا فيه، وعلىٰ هذا يكون دليلاً على أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها وأن صدقة التطوع تسمى زكاة.

(٥٦) ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومن يتخذهم أولياء. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي فإنهم هم الغالبون، ولكنْ وَضَعَ الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على البرهان عليه فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزبُ الله هم الغالبون وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حَزَبَهم.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلت في رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٦٣): «رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن كهيل قال تصدق علي بخاتمة وهو راكع فنزلت «إنما وليكم الله ورسوله» ولابن مردويه من رواية سفيان الثوري عن ابن سنان عن الضحاك، عن ابن عباس قال كان علي قائماً يصلي، فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمة فنزلت ـ قلت: الضحاك لم يلقَ ابن عباس ـ وروى الحاكم في علوم الحديث ـ ص١٠٢ ـ من رواية عيسى بن عبدالله بن عمر بن علي. حدثنا أبي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب قال: نزلت هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله» الآية. فدخل رسول الله ﷺ المسجد، والناس يصلون بين قائم وراكع وساجد، وإذا سائل فقال له رسول الله ﷺ أعطاك أحد شيئاً، قال: لا. إلاَّ هذا الراكع يعنى علياً أعطاني خاتمه. رواه الطبراني في الأوسط ـ (المجمع: ٧/ ١٧) وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم ـ في ترجمة محمد بن على الصائغ. وعند ابن مردويه من حديث عمار بن ياسر، قال: وقف بعلي سائل وهو واقف في صلاته. الحديث وفي إسناده خالد بن يزيد العمري. وهو متروك ـ المجروحين (١/ ٢٨٤) والميزان (١/ ٦٤٦) ـ ورواه الثعلبي من حديث أبي ذر مطولاً وإسناده ساقط» هـ.
وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٧٤) فقد ساق هذه الآثار وضعفها كلها. وقال: هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت كما تقدم... قلت: وهذا هو الصواب.

يوادُّونهما[١]. وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هزواً ولعباً إيماءً إلى العلة وتنبيهاً على أن مَنْ هذا شأنُه بعيد عن الموالاة جدير بالمعاداة والبغضاء. وفَصَّل المستهزئين بأهل الكتاب والكفارِ على قراءة من جَرّه وهم أبو عمرو والكسائي ويعقوب. والكفارُ وإن عمّ أهل الكتاب يطلق على المشركين خاصة لتضاعف كفرهم، ومَنْ نصبه عطفَه على الذين اتخذوا على أن النهي عن موالاة مَنْ ليس على الحق رأساً سواءٌ مَنْ كان ذا دين تَبِع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك المناهي. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان حقاً يقتضي ذلك. وقيل إن كنتم مؤمنين بوعده ووعيده[٢].

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

(٥٨) ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ﴾ أي اتخذوا الصلاة أو المناداة، وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة. روي: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أَحْرَقَ اللهُ الكاذب، فدخل خادمُه ذات ليلة بنار وأَهْلُه نيام فتطاير شررُها في البيت فأحرقَه وأهلَه[٣]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهزؤ به، والعقل يمنع منه.

(٥٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ هل تُنكرون منا وتُعيبون، يقال نَقَم منه كذا إذا أنكره وانتقَمَ إذا كافأه. وقرىء تَنْقَمُون بفتح القاف وهي لغة. ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ الإيمان بالكتب المنزّلة كلها. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ عطف على أَنْ آمنا وكأن المستثنى لازمُ الأمرين وهو المُخَالفة أي: ما تنكرون منا إلا مخالَفَتَكم حيث دَخَلْنا الإيمان وأنتم خارجون منه، أو كان الأصلُ واعتقاد أَنّ أكثركم فاسقون فَحُذِف المضاف، أو على مَا أَيْ: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أُنزِل وبأن أكثركم فاسقون، أو على علة محذوفة والتقدير: هل تنقمون منا إلا أَنْ آمنا لقلة إنصافكم وفِسْقكم، أو نصب بإضمار فِعْلٍ يدل عليه هل تنقمون أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو رفعٌ على الابتداء والخبرُ محذوفٌ أي: وفسقُكم ثابت معلوم عندَكم ولكنْ حبُّ الرياسة والمال يمنعكم عن

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٩٠) وابن المنذر وابن أبي حاتم، وفي سنده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول (الفتح السماوي وتخريجه ص٥٧٣).

(٢) قوله «من الذين أوتوا الكتاب» تعرض لعنوان إيتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم، لأن إيتاء وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدِّق لكتابهم (س٣/ ٥٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ ج٦/ ٢٩١) عن السدي. وفي إسناده ضعف.

الإنصاف[١]. والآية خطاب ليهود سألوا رسول الله ﷺ عمّن يؤمن به فقال: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾[٢] إلى قوله ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى: لا نعلم ديناً شراً من دينكم[٣].

(٦٠) ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي من ذلك المنقوم. ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ جزاء ثابتاً عند الله سبحانه وتعالى. والمثوبةُ مختصة بالخير كالعقوبة بالشر فوضعت ههنا موضعها على طريقة قوله:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِم ضَرْبٌ وَجِيع

ونصبُها على التمييز عن بِشَرٍّ. ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ بدلٌ مِنْ بِشَرٍّ على حذف مضاف أي بشرٍّ من أهل ذلك مَنْ لعنه الله، أوْ بشر مِنْ ذلك دينُ مَنْ لعنه الله، أو خبرٌ محذوف أي هو من لعنه الله وهم اليهود أبعدهُم الله من رحمته وسَخِط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، ومَسَخَ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام. وقيل كِلا المسخين في أصحاب السبت مُسِخَت شُبّانهم قردة ومشايخُهم خنازير. ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ عطف علىٰ صلة مَنْ، وكذا عُبِدَ الطاغوتُ على البناءِ للمفعول ورفع الطاغوت، وعُبدَ بمعنى صار معبوداً، فيكون الراجعُ محذوفاً أي فيهم أو بينهم، ومن قرأ وعَابِدَ الطاغوت أو عَبِدَ على أنه نعت كفَطِن ويَقِظ أو عَبَدَةَ أو عَبَدَ الطاغوتِ على أنه جمع كخدم أو أن أصله عبدة فحذف التاء للإضافة عطَفَهُ على القردة، ومَنْ قرأ وعَبُدِ الطاغوتِ بالجرّ عطفه على مَنْ. والمراد من الطاغوت العجل، وقيل الكهنة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الملعونون. ﴿شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ جَعَلَ مكانهم شراً ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم، وقيل مكاناً منصرفاً. ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قَصدَ الطريقَ المتوسط بين غلوّ النصارى وقدح اليهود، والمراد من صيغتي التفضيل الزيادة مطلقاً لا بالإضافة إلى المؤمنين في الشرارة والضلالة.

وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾

(٦١) ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نزلت[٤] في يهود نافقوا رسولَ الله ﷺ، أو في عامة المنافقين. ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثّر فيهم ما سمعوا منك. والجملتان حالان من فاعل قالوا، وبالكفر وبه حالان من فاعِلَيْ دخلوا وخرجوا. وقَدْ ـ وإن دخلت لتقريب

(١) وأسند الفسق لأكثرهم لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرد والعناد (س٣/ ٥٤).
(٢) البقرة: «١٣٦».
(٣) أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٩٢) عن ابن عباس، وفي سنده محمد بن أبي محمد وهو مجهول. وأخرجه البيهقي في الدلائل (٦/ ٢٧٥) وفي إسناده الكلبي وهو متروك.
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٢٩٦) وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ـ كما في الدر المنثور (٣/ ١١٠) ـ.

الماضي من الحال ليصحّ أن يقع حالاً ـ أفادت أيضاً ـ لما فيها من التوقع ـ أنّ أمارة النفاق كانت لائحةً عليهم، وكان الرسول ﷺ يظنه ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم.

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ
ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ
مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ
فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ
لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من اليهود، أو من المنافقين. ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ أي الحرام وقيل الكذب لقوله: ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾[1] ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم، أو مجاوزة الحد في المعاصي. وقيل الإثم ما يختص بهم، والعدوان ما يتعدىٰ إلى غيرهم. ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي الحرام خصه بالذكر للمبالغة. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لبئس شيئاً عملوه.

(٦٣) ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أبلغ من قوله لبئس ما كانوا يعملون من حيثُ إن الصنع عملُ الإنسان بعد تدرّب فيه وتروٌّ وتحري إجادة، ولذلك ذَمَّ به خواصَّهم، ولأن ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية، لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها ولا كذلك ترك الإنكار عليها فكان جديراً بأبلغ الذم.

(٦٤) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي هو ممسِك يُقتِّر بالرزق، وغَلُّ اليد وبسطُها مجاز عن البخل والجود، ولا قصد فيه إلى إثباتِ يَدٍ وغلٍّ وبسطٍ، ولذلك يستعمل حيث لا يُتصور ذلك كقوله:

جـادَ الحِمَـى بَسَـطَ اليـديـنِ بِـوَابـلٍ　　شكَـرَتْ نَـداهُ تِـلاعُـهُ وَوِهـادُه

ونظيره من المجازات المركبة: شابت لمّة الليل. وقيل معناه إنه فقير لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[2]. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ دعاء عليهم بالبخل والنكد، أو بالفقر والمسكنة، أو بغَلّ الأيدي حقيقة يُغلُّون أَسارىٰ في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة فتكون المطابقة من حيث اللفظُ وملاحظة الأصل كقولك: سبَّني سبّ اللهُ دابِرَه. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ثَنَّىٰ اليد مبالغةً في الرد ونفي البخل عنه تعالى، وإثباتاً لغاية الجود. فإن غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيَه

(١) المائدة: «٦٣».
(٢) آل عمران: «١٨١».

بيديه، وتنبيهاً على منح الدنيا والآخرة وعلى ما يُعطىٰ للاستدراج وما يُعطىٰ للإكرام. ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تأكيد لذلك أي هو مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته، لا علىٰ تَعَاقُب سَعَةٍ وضيق في ذات يد، ولا يجوز جَعْلُه حالاً من الهاء للفصل بينهما بالخبر ولأنها مضاف إليها، ولا مِنَ اليدين إذ لا ضمير لهما فيه ولا من ضميرهما لذلك. والآيةُ نزلت في فنحاص بن عازوراء فإنه قال ذلك لما كفَّ الله عن اليهود ما بَسَط عليهم من السَّعة بشؤم تكذيبهم محمداً ﷺ، وأُشرِك فيه الآخرون لأنهم رضوا بقوله. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي هم طاغون كافرون ويزدادون طغياناً وكفراً بما يسمعون من القرآن كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء[1]. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فلا تتوافقُ قلوبُهم ولا تتطابق أقوالهم. ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ وإثارة شرٍّ عليه ردهم الله سبحانه وتعالى بأن أوقع بينهم منازعةً كفّ بها عنه شرهم، أو كلما أرادوا حربَ أحدٍ غُلبوا فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله عليهم بَخْتنصر ثم أفسدوا فسلّط عليهم فطرس الرومي ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمين. وللحرب صلةُ أوقدوا أو صفة ناراً. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي للفساد وهو اجتهادهم في الكيد وإثارة الحروب والفتن وهتك المحارم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فلا يجازيهم إلا شراً.

(٦٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به. ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ ما عددنا من معاصيهم ونحوه. ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي فعلوها ولم نؤاخذهم بها. ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وجعلناهم داخلين فيها. وفيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه وإنْ جَلَّ، وأنّ الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يُسْلم[2].

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بإذاعة ما فيهما من نعت محمد عليه الصلاة والسلام والقيام بأحكامها. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني سائر الكتب المنزلة فإنها من حيث إنهم مكلفون بالإيمان بها كالمنزّل إليهم، أو القرآن[3] ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ لوسّع عليهم أرزاقَهم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض، أو يكثر ثمرة الأشجار وغَلة الزروع، أو يرزقهم الجنان اليانعةَ الثمارِ. فيجتنونَها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض. بيَّن بذلك أنّ ما كُفَّ عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا لقُصورِ الفيض، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين. ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ عادلة غير غاليَة ولا مقصّرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، وقيل مقتصدة متوسطة في عداوته. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس ما يعملونه، وفيه معنى التعجب أي ما أَسْوَأَ عَمَلَهم وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراضُ عنه والإفراط في العداوة.

---

(١) قدم المفعول «كثيراً» للاعتناء به. وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لأن بعضهم ليس كذلك (س٣/٥٨).
(٢) وإيرادهم بعنوان أهل الكتاب للتشنيع عليهم لأن أهلية الكتاب توجب إيمانهم به وإقامتهم له (س٣/٥٩).
(٣) وإضافة الرب إلى ضميرهم مزيد لطف بهم في الدعوة إلى الإقامة (س٣/ ٦٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ جميع ما أنزل إليك غيرَ مراقبٍ أحداً ولا خائف مكروهاً. ﴿ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ ﴾ وإن لم تبلغ جميعَه كما أمرتُك. ﴿ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾ فما أديت شيئاً منها، لأن كِتمان بعضها يضيع ما أُدّي منها كترك بعض أركان الصلاة، فإن غرض الدعوة ينتقض به، أو فكأنك ما بلغت شيئاً منها كقوله: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾[1] من حيث إن كِتمان البعض والكل سواءٌ في الشفاعة واستجلاب العقاب. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر رسالاتِه بالجمع وكسر التاء. ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ عِدَةٌ وضمان من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه صلى الله عليه وسلم من تعرض الأعادي وإزاحةٌ لمعاذيره. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لا يمكنهم مما يريدون بك. وعن النبي ﷺ: «بعثني الله برسالاته فضِقْتُ بها ذرعاً، فأوحىٰ الله تعالى إليَّ إن لم تبلغ رسالتي عذبتُك، وضمن لي العصمةَ فقويتُ»[2]. وعن أنس رضي الله تعالى عنه، كان رسول الله ﷺ يُحرَسُ حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبةِ أَدَمٍ فقال: «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس»[3]. وظاهرُ الآية يوجب تبليغ كل ما أُنزِل، ولعلَّ المرادَ به تبليغُ ما يتعلق به مصالح العباد، وقَصَدَ بإنزاله إطلاعهَم عليه فإن من الأسرار الإلهية ما يَحْرُم إفشاؤُه.

(٦٨) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ ﴾ أيْ دينٍ يُعتدُّ به ويصح أن يسمىٰ شيئاً لأنه باطل ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ ﴾ ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ والإذعانُ لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها آمرة بالإيمان بمن صدقه والمعجزةُ ناطقةٌ بوجوب الطاعة له، والمرادُ إقامةُ أصولها وما لم ينسخ من فروعها[4]. ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ

---

(١) المائدة: «٣٢».

(٢) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن. انظر الدر المنثور (٣/١١٦ ـ ١١٧) كذلك ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/٣٩٦) والشوكاني في (فتح القدير) (٢/٦٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٢٥١ رقم ٣٠٤٦) وقال: هذا حديث غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن الجُريري عن عبدالله بن شقيق قال: كان النبي ﷺ يُحرس ولم يذكروا فيه عن عائشة.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣١٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وأخرجه الطبري (٤/ج٦/٣٠٧) كلهم من حديث عائشة.
وقد حسنه ابن حجر في الفتح. وكذلك الألباني في صحيح الترمذي.

(٤) تقديم إقامة الكتابين على ما أُنزل مع أن ما أُنزل هو المقصود لرعاية حق الشهادة واستنزالهم عن رتبة الشقاق. =

ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلِّغُه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم[١].

(٦٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة والصابئون رفعٌ علىٰ الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إنّ، والتقديرُ: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمُهم كذا والصابئون كذلك كقوله:

فإنِّي وقَيَّارٌ بها لَغَرِيبُ

وقوله:

وإلا فَاعْلَمُوا أنَّا وَأَنْتُمْ بغَاةٌ مَا بَقينا في شِقَاق

أَي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، وهو كاعتراضٍ دلّ به على أنه لما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلها يُتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح كان غيرُهم أولىٰ بذلك، ويجوز أن يكون والنصارى معطوفاً عليه ومَنْ آمن خبرُهما وخبرُ إنّ مقدر دل عليه ما بعده كقوله:

نحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

ولا يجوزُ عطفه على محل إنّ واسمِها فإنه مشروط بالفراغ من الخبر، إذ لو عطف عليه قبله كان الخبرُ خبرَ المبتدأ وخبرَ إنّ معاً فيجتمع عليه عاملان، ولا على الضمير في هادوا لعدم التأكيد والفصل، ولأنه يوجب كون الصابئين هوداً. وقيل إنّ بمعنى نعم وما بعدها في موضع الرفع بالابتداء. وقيل الصابئون منصوب بالفتحة وذلك كما جُوِّز بالياء جوز بالواو. ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ في محل الرفع بالابتداء وخبرُه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ والجملةُ خبرُ إنّ أو خبر المبتدأ كما مرّ والراجع محذوف، أي: من آمن منهم، أو النصب على البدل من اسم إن وما عُطف عليه. وقرىء والصابئين وهو الظاهر، والصابيون بقلب الهمزة ياء، والصابون بحذفها من صبأ بإبدال الهمزة ألفاً أو من صبوت لأنهم صَبَوْا إلى اتباع الشهوات ولم يتبعوا شرعاً ولا عقلاً.

(٧٠) ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ﴾ ليُذَكِّروهم وليبينوا لهم أمر دينهم. ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ﴾ بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكاليف. ﴿فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ جواب الشرط، والجملة صفةُ رسلاً، والراجع محذوف أي رسول منهم. وقيل الجواب محذوف دل عليه ذلك وهو استئناف. وإنما جيء بيقتلون موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبيهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً، ومحافظة على رؤوس الآي[٢].

وإيراده بعنوان الإنزال إليهم لأنهم مأمورون بإقامته والإيمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب. وفي إضافة الرب إلى ضميرهم من اللطف في الدعوة (س٣/ ٦١) وهذا على معنى أن ما أنزل هو القرآن الكريم.

(١) وإظهار لفظ الكافرين للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر (س٣/ ٦٢).

(٢) وتقديم فريقاً في الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع إلى ما فعلوا به، لا للقصر (س٣/ ٦٣).

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٧١) ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي وحسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب لا تكونُ بالرفع علىٰ أَنَّ أَنْ هي المخففة من الثقيلة، وأصلُه أنه لا تكون فتنة فَخُفِّفت أن وحُذِف ضمير الشأن فصار: أن لا تكون، وإدخالُ فِعْل الحُسْبان عليها وهي للتحقيق تنزيلٌ له منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم، وأَنَّ أو أَنْ بما في حيزها سادّ مسد مفعوليه. ﴿فَعَمُواْ﴾ عن الدين، أو الدلائل والهدىٰ. ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماع الحق كما فعلوا حين عبدوا العجل. ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي ثم تابوا فتاب الله عليهم. ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ كرة أخرى. وقرىء بالضم فيهما على أن الله تعالى أعماهم وأصمهم أي رماهم بالعَمىٰ والصَّمم، وهو قليل، واللغة الفاشية أعمى وأصم. ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ بدل من الضمير، أو فاعل والواو علامة الجمع كقولهم: أكلوني البراغيث، أو خبر مبتدأ محذوف أي العمى والصم كثير منهم. وقيل مبتدأ والجملةُ قبله خبرُه وهو ضعيف لأن تقديم الخبر في مثله ممتنع. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيهم على وفق أعمالهم[1].

(٧٢) ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ أي إني عبد مربوب مثلُكم فاعبدوا خالقي وخالقكم. ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال. ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يُمنَع من دخولها كما يُمنَع المُحَرَّمُ عليه من المحرم فإنها دار الموحدين[2]. ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ فإنها المعَدة للمشركين. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أي وما لهم أحد ينصرهم من النار، فوضَعَ الظاهر موضع المضمر تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك وعَدَلوا عن طريق الحق، وهو يُحْتَمَل أن يكون من تمام كلام عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأن يكون من كلام الله تعالى نبه به علىٰ أنهم قالوا ذلك تعظيماً لعيسىٰ ﷺ وتقرباً إليه وهو معاديهم بذلك ومخاصمهم فيه، فما ظنّك بغيره؟

(٧٣) ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ أي أَحَدُ ثلاثة، وهو حكاية عمّا قاله النسطورية والملكانية منهم القائلون بالأقانيم الثلاثة وما سبق قول اليعقوبية القائلين بالاتحاد. ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ وما في الوجود ذاتٌ واجب مستحقٌّ للعبادة ـ من حيث إنه مُبدِىء جميع الموجودات ـ إلا إله واحدٌ. موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن قبول الشَّرِكَة. ومِنْ مزيدةٌ للاستغراق. ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ولم يُوَحِّدوا. ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليمسن الذين بَقُوا منهم على

---

١) وصيغة المضارع في «يعملون» لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة (س٣/ ٦٥).

٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة (س٣/ ٦٦).

الكفر، أو ليمسنّ الذين كفروا من النصارى، وضَعَه موضِعَ ليمسنهم تكريراً للشهادة على كفرهم وتنبيهاً على أن العذاب على من دام على الكفر ولم ينقلع عنه فلذلك عقبه بقوله:

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ أي أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائغة ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا. وفي هذا الاستفهام تعجيب من إصرارهم.

(٧٥) ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبْلَه خصه الله سبحانه وتعالى بالآيات كما خصهم بها، فإن إحياءَ الموتىٰ على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعىٰ علىٰ يد موسى عليه السلام وهو أعجب، وإنْ خَلْقَه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب. ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ كسائر النساء اللاتي يُلازمن الصدق، أو يُصَدِّقْن الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ ويفتقران إليه افتقار الحيوانات. بيّن أولاً أقصىٰ ما لهما من الكمال ودل على أنه لا يوجب لهما ألوهيةً لأن كثيراً من الناس يشاركُهما في مثله، ثم نبه على نَقْصِهما وذَكَرَ ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكونا من عِدَاد المركَّبات الكائنة الفاسدة، ثم عَجِبَ لمن يدعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصْرَفون عن استماع الحق وتأمله. وثم لتفاوت ما بين العجبين أي إن بياننا للآيات عَجَبٌ وإعراضهم عنها أعجب[١].

(٧٦) ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو وإن ملك ذلك بتمليك الله سبحانه وتعالى إياه لا يَمْلِكُه من ذاته، ولا يملك مِثْلَ ما يَضُرُّ اللهُ تعالى به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحة والسعة، وإنما قال «ما» نظراً إلى ما هو عليه في ذاته توطئةً لنفي القدرة عنه رأساً وتنبيهاً على أنه مِنْ هذا الجنس ومَنْ كان له حقيقة تَقْبَل المجانسة والمشاركة فبمعزِلٍ عن الألوهية، وإنما قدم الضر لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع. ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بالأقوال والعقائد فيجازي عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

(٧٧) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي غُلُوّاً باطلاً فترفعوا عيسى عليه الصلاة

---

١) وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب (س٣/٦٨).

والسلام إلى أن تدّعوا له الألوهية، أو تضعوه فتزعُموا أنه لغير رشدة. وقيل الخطاب للنصارىٰ خاصة[١]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد ﷺ في شريعتهم. ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم. ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه ﷺ لما كذبوه وبَغَوْا عليه، وقيل الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع.

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ
وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ
يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن
سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا
نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٨) ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ أي لعنهم الله في الزبور والإنجيل على لسانهما. وقيل إن أهل أيلة لما اعتدوْا في السبت لعنهم الله تعالى على لسان داود فمسخهم الله تعالى قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى عليه السلام ولعنهم فأصبحوا خنازيرَ وكانوا خمسة آلاف رجل. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعنُ الشنيعُ المقتضي للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم[٢].

(٧٩) ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيؤوا له، أو لا ينتهون عنه من قولهم تناهىٰ عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع. ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم[٣].

(٨٠) ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ من أهل الكتاب. ﴿يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي لبئس شيئاً قدموه ليَرِدُوا عليه يوم القيامة. ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ هو المخصوص بالذم، والمعنى موجب سخط الله والخلود في العذاب، أو علةُ الذمّ والمخصوص محذوف أي لبئس شيئاً ذلك لأنه كسّبهم السخط

(١) وذكرهم بعنوان أهل الكتاب للتذكير بأن الإنجيل أيضاً ينهاهم عن الغلو (س٣/ ٦٩).

(٢) قوله «لُعِن» بناؤه للمفعول للجري علىٰ سنن الكبرياء.
وقوله «ذلك» أثر اسم الإشارة على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال فظاعته وبعده في الشناعة (س٣/ ٦٩).

(٣) قوله «كانوا لا يتناهون» جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لاستمرار عدم تناهيهم عن المنكر (س٣/ ٦٩).

والخلود.

(٨١) ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ ﴾ يعني نبيَّهم وإن كانت الآية في المنافقين فالمراد نبينا عليه السلام. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ إذ الإيمان يمنع ذلك. ﴿ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ خارجون عن دينهم، أو متمردون في نفاقهم.

(٨٢) ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى ورُكونهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم. ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ لِلِين جانبهم ورقة قلوبهم وقلة حرصهم على الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعملِ والإعراضَ عن الشهوات محمود وإن كانت من كافر[١].

وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

(٨٣) ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ عطف على لا يستكبرون، وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأبِّيهم عنه. والفيضُ انصباب عن امتلاء، فوُضِع موضع الامتلاء للمبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها. ﴿ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ مِنَ الأولى للابتداء، والثانية لتبيين ما عَرَفوا أو للتبعيض بأنه بعض الحق، والمعنى أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف إذا عرفوا كله؟!. ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ بذلك أو بمحمد. ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ مِنَ الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته، أو مِنْ أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة.

(٨٤) ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي وهو الطمعُ في الانخراط مع الصالحين والدخول في مداخلهم، أو جوابُ سائلٍ قال لِمَ آمنتم؟ ولا نؤمنُ حال من الضمير والعامل ما في اللام من معنى

١) وتقديم اليهود على المشركين مع كونهما في قرن واحد للإشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أن في تقديمهم عليهم في قوله تعالى: «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا..». إيذاناً بتقدمهم عليهم في الحرص.
وقوله «الذين قالوا إنا نصارى» عبر عنهم بذلك إشعاراً بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله.
واختلاف التعبير بين اليهود والنصارى لما بينهما من التباين (س٣/ ٧١).

الفعل، أي أيّ شيء حصل لنا غير مؤمنين بالله أي بوحدانيته فإنهم كانوا مُثَلِّثين أو بكتابه ورسوله فإن الإيمان بهما إيمان بـه حقيـقة، وذَكَره توطئة وتعظيماً، ونطمعُ عطف على نؤمن أو خبر محذوف، والواو للحال أي ونحن نطمع والعامل فيها عامل الأولىٰ مقيَّداً بها أو نؤمن.

(٨٥) ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ ﴾ أي عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أي معتقَدُه. ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور. والآيات الأربع روي أنها نزلت في النجاشي وأصحابه بعث إليه الرسول ﷺ بكتابه فقرأه، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين، فأَمَر جعفراً أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكُوا وآمنوا بالقرآن(١) وقيل نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه وفدوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة يٰسٓ فبكوا وآمنوا(٢).

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ عَطَف التكذيب بآيات الله على الكفر وهو ضرب منه لأن القصد إلى بيان حال المكذبين، وذَكَرَهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب.

(٨٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي ما طاب ولذ منه، كأنه لما تضمن ما قبلَه مَدْحَ النصارى على ترهبهم والحث على كسر النفس ورفض الشهوات عَقَّبَه النهيَ عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حد الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً فقال: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) قال الولي العراقي: لم أجده.
وقال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٧٢): «أظن صاحب الكشاف ذكره بالمعنى من قصة جعفر بن أبي طالب مع عمرو بن العاص لما أرسلته قريش بهديتها إلى النجاشي ليدفع إليهم جعفراً ورفقاه فإن معنى ما ذكر موجوداً فيها إلا قراءة (مريم) أخرجه ابن إسحاق في المغازي من طريق ابن هشام من حديث أم سلمة» هـ.
● في الكافي الشاف: (طه) والصواب (مريم) وذكر قراءتها موجود في المغازي. و(ابن حبان) والصواب (ابن هشام) كما في المغازي. انظر المغازي (ص١٩٤ ـ ١٩٧). وأخرج ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٥) عن الزهري أنه قال: ما زلت أسمع علماءنا يقولون: نزلت في النجاشي وأصحابه. وإسناد الأثر حسن.
وأخرج ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٥) عن عروة قال: كانوا يرون أن هذه الآيات نزلت في النجاشي. وإسناد الأثر صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٤) عن سعيد بن جبير.
وأخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٥) عن السدي أنه قال: بعث النجاشي إلى النبي ﷺ اثني عشر رجلاً يسألونه ويأتون بخبره، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن فبكوا فأنزل الله فيهم «وإذا سمعوا» إلى آخر الآية.

﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. ويجوز أن يراد به ولا تعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حَرَّم داعيةً إلى القصد بينهما. روي أن رسول الله ﷺ وصف القيامة لأصحابه يوماً وبالغ في إنذارهم، فرقُّوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودَكَ(١) ولا يقربوا النساء والطيب ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح(٢) ويسيحوا في الأرض ويَجُبّوا مذاكيرهم(٣)، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال لهم: «إني لم أومر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. فنزلت(٤).

(٨٨) ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله، فيكونُ حلالاً مفعولَ كلوا وممّا حال منه تقدمت عليه لأنه نكرة، ويجوز أن تكون مِنْ ابتدائية متعلقة بكلوا، ويجوز أن تكون مفعولاً وحلالاً حال من الموصول، أو العائد المحذوف، أو صفة لمصدر محذوف. وعلى الوجوه لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) الودك: هو دسم اللحم.
(٢) المسح: كساء الشعر، والكثير منه (المسوح) بضم الميم. لسان العرب. مادة: مسح.
(٣) يَجُبّوا مذاكيرهم: ـ أي يقطعوها ـ.
(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٠٥ ـ ٢٠٦ بلفظ المصنف عن المفسرين بغير إسناد.
وقد أخرجه الطبري في جامع البيان (٥/ج٧/٩ ـ ١٠) عن السدي.
وقال ابن حجر في الكافي الشاف (ص٥٨): «وهو منتزع من أحاديث. وأصله في الصحيحين ـ البخاري (٩/ ١٠٤ رقم ٥٠٦٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠ رقم ٥/ ١٤٠١) ـ عن عائشة أن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواجه عن عمله في السر. فقال بعضهم: لا آكل اللحم. وقال بعضهم: لا أتزوج النساء. وقال بعضهم: لا أنام على فراشي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ولكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم. وآكل اللحم وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني.
وفي الصحيحين ـ البخاري (٩/ ١١٧ رقم ٥٠٧٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠ رقم ٦، ٧، ٨/ ١٤٠٢) عن سعد بن أبي وقاص قال: «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا».
وفي الصحيحين ـ البخاري (٣/ ٣٨ رقم ١١٥٣) ومسلم (٢/ ٨١٤ رقم ١٨٦/ ١١٥٩) ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص في قصة مراجعته النبي ﷺ في الصوم والصلاة. فقال: صلى الله عليه وسلم «صم وأفطر، وقم ونم. فإن لنفسك عليك حقاً. . . الحديث».
وروى الطبري (٥/ج٧/ ١٠ ـ ١١) ـ من طريق ابن جريج عن مجاهد قال «أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبدالله بن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح». وفي سنده «سنيد» وهو ضعيف.
ومن طريق ابن جريج عن عكرمة (٥/ج٧/ ١١) «أن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالماً مولى أبي حذيفة، في جماعة من الصحابة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس، وهموا بالاختصاء واجتمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ـ الآية» قال: فبعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: إنّ لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا، وصلوا وناموا. فليس منا من ترك سننا» وفي سنده «سنيد» وهو ضعيف.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الرجل: لا والله وبلىٰ والله، وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل الحلف على ما يَظُنّ أنه كذلك ولم يكن وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وفي أيمانكم صلةُ يؤاخذُكم أو اللغو لأنه مصدر، أو حال منه. ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ بما وثّقتم الأَيمان عليه بالقصد والنية، والمعنىٰ ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم إذا حنثتُم أو ينكث ما عقدتم فحُذِفَ للعلم بهِ. وقرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم عَقَدْتُم بالتخفيف، وابنُ عامر برواية ابن ذكوان عاقَدْتُم وهو من فَاعَلَ بمعنى فَعَل. ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ فكفارة نَكْثه أي الفِعْلة التي تذهب إثمَه وتستره، واستُدل بظاهره على جواز التكفير بالمال قبل الحنث وهو عندنا خلافاً للحنفية لقوله عليه الصلاة والسلام: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأتِ الذي هو خير»[1]. ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ مِنْ أَقْصَدِهِ في النوع أو القدر، وهو مُدٌّ لكل مسكين عندنا ونصفُ صاع عند الحنفية. و«ما» محلّه النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديرُه: أن تطعموا عشرة مساكين طعاماً من أوسط ما تُطعِمون، أو الرفعُ على البدل من إطعام. وأَهْلُون كأَرَضُون. وقرىء أهالِيْكم بسكون الياء على لغة من يسكّنها في الأحوال الثلاث كالألف، وهو جمع أَهْل كالليالي في جمع ليل والأراضي في جمع أرض، وقيل هو جمع أهلاة. ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطفٌ على إطعام، أو من أوسط إنْ جُعِل بدلاً. وهو ثوب يغطي العورة، وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو إزار. وقرىء بضم الكاف وهو لغة كقُدوة في قِدْوة وكأُسوتِهم بمعنى، أَو كمِثْل ما تطعمون أهليكم إسرافاً كان أو تقتيراً تواسون بينهم وبينهم إن لم تُطْعموهم الأوسط، والكافُ في محل الرفع وتقديرُه: أو إطعامُهم كأسوتِهم. ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أو إعتاق إنسان، وشَرَط الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه الإيمان قياساً على كفارة القتل، ومعنى أو إيجابُ إحدى الخصال الثلاث مطلقاً وتخييرُ المكفِّر في التعيين. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي واحداً منها. ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فكفارته صيام ثلاثة أيام، وشَرَط فيه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه التتابع لأنه قرىء ثلاثة أيام متتابعات، والشواذ ليست بحجة عندنا إذا لم تثبتِ كتاباً ولم تُرْوَ سنة. ﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكور. ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم. ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بأن تضنُّوا بها ولا تبذلوها لكل أمر، أو بأن تبرُّوا فيها ما استطعتم ولم يَفُت بها خير، أو بان تكفِّروها إذا حنثتم. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أعلام شرائعه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة التعليم أو نعمَهُ الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧١ ـ ١٢٧٢ رقم ١١، ١٢، ١٣، ١٤/ ١٦٥٠) من حديث أبي هريرة.
كما أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧٢ ـ ١٢٧٣ رقم ١٥، ١٦، ١٧/ ١٦٥١) من حديث عدي بن حاتم.
وأخرج البخاري (١١/ ٥١٧ رقم ٦٦٢٣) ومسلم (٣/ ١٢٦٨ رقم ١٦٤٩) من حديث أبي موسى: «.. وإني والله إن شاء اللهُ لا أحلف على يمين ثم أرى خيراً منها، إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾

(٩٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾ أي الأصنام التي نصبت للعبادة. ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ سبق تفسيرها في أول السورة. ﴿رِجْسٌ﴾ قذر تعاف عنه العقول، وأَفرده لأنه خبر للخمر، وخبرُ المعطوفات محذوفٌ أو لمضاف محذوفٍ كأنه قال: إنما تعاطي الخمر والميسر. ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه. ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير للرجس، أو لما ذكر، أو للتعاطي. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه.

واعلم أنه سبحانه وتعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأنْ صدَّر الجملة بإنما، وقرنهما بالأنصاب والأزلام. وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شرّ بحت أو غالب، وأَمَرَ بالاجتناب عن عينهما، وجعله سبباً يرجىٰ منه الفلاح، ثم قرر ذلك بأن بيّن ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال تعالى:

(٩١) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وإنما خصهما بإعادة الذكر وشَرَح ما فيهما من الوبال تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان، وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن»[1]. وخص الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم والإشعارِ بأن الصادّ عنها كالصادِّ عن الإيمان من حيث إنها عِمادُه والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتَّباً على ما تقدم من أنواع الصوارف فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ إيذاناً بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت.

---

(١) أخرجه البزار (٣/ ٣٥٣ ـ كشف) من حديث مجاهد عن عبدالله بن عمرو بهذا. ورواه الحارث بن أسامة (٢/ ١٠٥ ـ المطالب العالية) وأبو نعيم في الحلية (رقم: ٤٧٧ ـ الكافي الشاف) قلت: وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٥٤) ـ من طريقه من رواية الحسن عن عبدالله بن عمرو به.
وفيه الخليل بن زكريا ـ (متروك: التقريب (١/ ٢٢٨) ـ وفي الذي قبله ثابت بن محمد ـ (صدوق يخطىء في أحاديث: التقريب (١/ ١٧٧) ـ وهو أصلح حالاً من الخليل. ولابن ماجه (٢/ ١١٢٠ رقم ٣٣٧٥) من حديث أبي هريرة، بلفظ «مد من خمر كعابد وثن» وإسناده جيد ـ قلت: وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ـ قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن سليمان الأصبهاني عن سهيل عن أبيه عنه به.
ورواه ابن حبان ـ (ص٣٣٥ رقم ١٣٧٩ ـ موارد) ـ من حديث ابن عباس. بهذا اللفظ وقال: الشبه أن يكون فيمن استحلها. وفي مسند إسحاق ومن رواية عمر بن عبدالعزيز عن بعض أصحابه بلفظ «من شرب الخمر فمات مات كعابد وثن».
وللطبراني في الأوسط ـ (المجمع: ٥/ ٧٥) ـ من حديث أنس بلفظ: «المقيم على الخمر كعابد وثن. وإسناده ضعيف. والخلاصة أن الحديث حسن بمجموع طرقه والله أعلم.
[انظر (الكافي الشاف رقم: ٤٧٧) والصحيحة للمحدث الألباني (رقم: ٦٧٧)].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

(٩٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أمرا به. ﴿وَاحْذَرُوا﴾ ما نَهيا عنه أو مخالفتهما. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فاعلموا أنكم لم تضروا الرسول ﷺ بتوليكم، فإنما عليه البلاغ وقد أدى، وإنما ضررتم به أنفسكم.

(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ مما لم يحرَّم عليهم لقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي اتقوا المحرم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة. ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ ما حرم عليهم بعد كالخمر. ﴿وَّآمَنُوا﴾ بتحريمه. ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي. ﴿وَّأَحْسَنُوا﴾ وتحروا الأعمال الجميلة واشتغلوا بها. روي أنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر. فنزلت[1]. ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث استعمالُ

---

(١) أخرج أحمد في المسند (٢/ ٣٥١) من رواية ابن وهب مولى أبي هريرة قال: حرمت الخمر. . إلى قوله: فنزلت «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر. الآية» فقالوا انتهينا يا رب. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان. فأنزل الله «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ـ الآية». فقال النبي ﷺ «لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم». قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٧٨): إسناده ضعيف فإنه من رواية أبي معشر عن أبي وهب. وأبو معشر ضعيف.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/٣٨) من حديث علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: في قوله تعالى «ليس على الذين آمنوا. . الآية» قالوا يا رسول الله: ما تقول في إخواننا الذين ماتوا كانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر. فأنزل الله الآية.

قلت: في إسناده عبدالله بن صالح وهو أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف [التقريب (١/ ٤٢٣)] ولكن روايته هذه مقبولة نظراً إلى متابعاته.

● وأخرج البخاري (٥/ ١١٢ رقم ٢٤٦٤) ومسلم (٣/ ١٥٧٠ رقم ٣/ ١٩٨٠) عن أنس رضي الله عنه «كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذٍ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: «ألا إن الخمر قد حرمت. قال فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة، فقال بعض القوم قد قتل قوم وهي في بطونهم. فأنزل الله «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» الآية.

● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٥٤ رقم ٣٠٥٠) والطيالسي (ص٩٧ رقم ٧١٥) وابن حبان (ص٤٣٠ رقم ١٧٤٠ ـ موارد) والطبري في جامع البيان (٥/ج٧/ ٣٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مات رجال من أصحاب النبي ﷺ قبل أن تحرّم الخمر. فلما حرمت الخمر قال رجال: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر؟ فنزلت «ليس على الذين آمنوا، وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات» =

الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله تعالى، ولذلك بدّل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة إشارةً إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يُتقىٰ فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات تحرزاً عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ نزلت في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرِمون. والتقليل والتحقير في بشيء للتنبيه على أنه ليس من العظائم التي تدحض الأقدام كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه. ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ليتميز الخائف من عقابه وهو غائب منتظر لقوة إيمانه ممن لا يخافه لضَعف قلبه وقلة إيمانه، فذكَر العلم وأراد وقوع المعلوم وظهوره أو تعلق العلم. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك الابتلاء بالصيد. ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالوعيد لاحقٌ به، فإن من لا يملك جأشه في مثل ذلك ولا يراعي حكم الله فيه فكيف به فيما تكون النفس أميل إليه وأحرص عليه؟!.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

(٩٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي مخرِمون جمع حرام كرداح ورُدُح، ولعله ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم، وأراد بالصيد ما يؤكل لحمه لأنه الغالب فيه عرفاً ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «خمس يقتلن في الحل والحرم: الحدأة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور»[(١)]، وفي رواية أخرى الحيّة بدل العقرب[(٢)]، مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذ واختُلف في أن هذا النهي هل يُلغي حكم الذبح فيُلحق مذبوح المُخرِم بالميتة ومذبوحِ الوثني أو

= [المائدة: ٩٤].
قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني بشواهده.

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٥٥ رقم ٣٣١٤)، ومسلم (٢/ ٨٥٦ رقم ١١٩٨).
والترمذي (٣/ ١٩٧ رقم ٨٣٧) والنسائي (٥/ ١٨٨)، وابن ماجه (٢/ ١٠٣١ رقم ٣٠٨٧)، والطيالسي في المسند (ص٢١٤ رقم ١٥٢١)، وأحمد في المسند (٦/ ٩٧، ٩٨)، والدارمي (٢/ ٣٦، ٣٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ١٦٦)، والبيهقي (٥/ ٢٠٩). من رواية جماعة عن عائشة بألفاظ.

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٨٥٨ رقم ٧٥/ ١٢٠٠).

لا فيكون كالشاة المغصوبة إذا ذبحها الغاصب. ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ ذاكراً لإحرامه عالماً بأنه حرام عليه قبلَ ما يقتله، والأكثرُ على أنّ ذِكْره ليس لتقييد وجوب الجزاء فإن إتلاف العامد والمخطىء واحد في إيجاب الضمان، بل لقوله ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾ والآية نزلت فيمن تعمد إذ روي: أنه عَنّ لهم في عمرة الحديبية حمارُ وحشٍ فطعنه أبو اليسر[1] برمحه فقتله. فنزلت[2]. ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ برفع الجزاء، والمِثْل قراءة الكوفيين ويعقوب بمعنى فعَلَيه أي فواجِبُه جزاءٌ يماثل ما قتل من النعم، وعليه لا يتعلق الجارّ بجزاءٌ للفصل بينهما بالصفة فإن متعلَّق المصدر كالصلة له فلا يوصَفُ ما لم يتم بها، وإنما يكون صفته، وقرأ الباقون على إضافة المصدر إلى المفعول وإقحام مِثْل كما في قولهم مثلي لا يقول كذا[3]، والمعنى فعليه أن يُجزىٰ مثلُ ما قتل، وقرىء فجزاءً مثلَ ما قتل بنصبهما على فليُجْز جزاءً، أو فعليه أن يَجزي جزاءً يماثل ما قتل، وفجزاؤُه مثلُ ما قتل، وهذه المماثلة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما، والقيمةِ عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وقال: يُقوَّم الصيد حيثُ صِيد فإن بلغت القيمةُ ثَمَنَ هديٍ تخير بين أن يهدي ما قيمتَه قيمته وبين أن يشتري بها طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بُر أو صاعاً من غيره وبين أن يصوم عن طعام كلِّ مسكين يوماً، وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم، واللفظُ للأول أوفقُ. ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ صفةُ جزاء، ويحتمل أن يكون حالاً من ضميره في خبره أو منه إذا أضفته أو وصفته ورفعته بخبر مقدر لمن، وكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد يحتاج إلى المماثلة في الخلقة والهيئة إليها، فإن الأنواع تتشابه كثيراً. وقرىء ذو عدل على إرادة الجنس أو الإمام. ﴿هَدْيًا﴾ حال من الهاء في به أو مِنْ جزاء وإنْ نُوِّن لتخصصه بالصفة، أو بدلٌ من مِثْل باعتبار محله أو لفظِهِ فيمن نصبه. ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ وصف به هدياً لأن إضافته لفظية، ومعنى بلوغه الكعبة ذبحُه بالحرم والتصدق به، وقال أبو حنيفة يذبح بالحرم ويتصدق به حيث شاء. ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾ عطف على جزاء إنْ رفعتَه، وإنْ نصبتَه فخبر محذوف. ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ عطف بيان، أو بدل منه، أو خبر محذوف أي هي طعام. وقرأ نافع وابن عامر كفارةُ طعامِ بالإضافة للتبيين كقولك: خاتم فضة، والمعنى عند الشافعي أو أن يكفِّر بإطعام مساكين ما يساوي قيمةَ الهدي من غالب قوت البلد فيعطي كل مسكين مُداً. ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أو ما ساواه من الصوم فيصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وهو في الأصل مصدر أطلق للمفعول. وقرىء بكسر العين وهو ما عدل بالشيء في المقدر كعِدْل الحمل وذلك إشارة إلى الطعام، وصياماً تمييز للعدل. ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ متعلق بمحذوف أي فعليه الجزاءُ أو الطعام أو الصوم ليذوق ثقل فعله وسوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله تعالى. وأصل الوَبْل الثقل ومنه الطعام الوبيل. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾ منْ قتل الصيد مُحرِماً في الجاهلية أو قبل التحريم، أو في هذه المرة. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ مثل هذا. ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾ فهو ينتقم الله منه. وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد كما حكي عن ابن عباس وشريح. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ مما أصر على عصيانه.

---

(١) أبو اليسر هو كعب بن عمرو الأنصاري، صحابي، بدري، توفي بالمدينة ٥٥هـ (التقريب ٢/ ١٣٥).
(٢) البخاري (١٨٢١ ـ ١٨٢٣) ومسلم (٥٦ ـ ٦٤).
(٣) أي قرؤوا «فجزاءُ مِثْلِ..».

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

(٩٦) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ ما صيد منه مما لا يعيش إلا في الماء، وهو حلال كله لقوله عليه الصلاة والسلام في البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[١]، وقال أبو حنيفة لا يحل منه إلا السمك، وقيل يَحِل السمك وما يؤكل نظيره في البَرّ. ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما قذفه أو نَضبَ عنه. وقيل الضمير للصيد وطعامه أَكْلُه. ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ تمتيعاً لكم نصب على الغرض. ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي ولسيارتكم يتزودونه قَديداً. ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ أي ما صيد فيه أو الصيد فيه، فعلى الأول يَحْرُم على المُحْرِم أيضاً ما صاده الحلال وإن لم يكن له فيه مَدْخل، والجمهورُ على حِلِّه لقوله عليه الصلاة والسلام «لحم الصيد حلال لكم، ما لم تصطادوه أو يُصَدْ لكم»[٢] ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي محرمين وقرىء بكسر الدال من دام يَدام. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(٩٧) ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ﴾ صيّرها، وإنما سمي البيت كعبة لتكعُّبه. ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ عطفُ بيان على جهة المدح، أو المفعول الثاني ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ انتعاشاً لهم أي سبب انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار ويتوجه إليه الحجاج والعمار، أو ما يقوم به أَمْرُ دينهم ودنياهم. وقرأ ابن عامر قِيَماً على أنه مصدر على فعل كالشبع أُعِلّ عينه كما أعل في فعله، ونصبه على المصدر أو الحال. ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ سبق تفسيرها، والمراد بالشهر الشهرُ الذي يؤدّىٰ فيه الحج وهو ذو الحجة لأنه المناسب لقرنائه، وقيل الجنس. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر بحفظ حُرمة الإحرام وغيره. ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٢ رقم ١٢) وأبو داود (١/ ٦٤ رقم ٨٣)، والترمذي (١/ ١٠٠ رقم ٦٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٥٠ رقم ٥٩) و(١/ ١٧٦ رقم ٣٣٢)، و(٧/ ٢٠٧ رقم ٤٣٥٠)، وابن ماجة (١/ ١٣٦ رقم ٣٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٣١)، وابن خزيمة (١/ ٥٩ رقم ١١١) والشافعي في الأم (١/ ١٦)، وفي ترتيب المسند (١/ ٢٣ رقم ٤٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٧، ٣٦١، ٣٧٨، ٣٩٢)، والدارمي (١/ ١٨٦)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٤٧٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٧١ رقم ١٢٤٠) و(ص٦٠ رقم ١١٩ ـ موارد)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٤٠)، وفي علوم الحديث ص٨٧، والبيهقي (١/ ٣) وغيرهم.
وهو من رواية مالك عن صفوان بن سُليم، عن سعيد بن سلمة من آل ابن الأزرق، عن المغيرة بن أبي بُرْدَة أنه سمع أبا هريرة يقول: .... الحديث.
وانظر الكلام عليه في تخريجنا لبلوغ المرام الحديث الأول.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٦٢)، وأبو داود (٣/ ٤٢٨ رقم ١٨٥١)، والترمذي (٣/ ٢٠٣ رقم ٨٤٦)، والنسائي (٥/ ١٨٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٨٠ رقم ٢٦٤١)، وابن حبان في الموارد (ص٢٤٣ رقم ٩٨٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٢)، والدارقطني في السنن (٢/ ٢٩٠ رقم ٢٤٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ١٩٠)، وهو حديث ضعيف.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فإنّ شَرْع الأحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها دليلُ حكمة الشارع وكمالِ علمه. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق.

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

(٩٨) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصر عليه ولمن أقلع عنه.

(٩٩) ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أُمِر به أي الرسول، أتى بما أُمِر به من التبليغ ولم يبقَ لكم عذر في التفريط. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

(١٠٠) ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله سبحانه وتعالىٰ بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها، رَغّب به في مصالح العمل وحلال المال. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، والخطاب لكل معتبر ولذلك قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر وآثروا الطيب وإن قلّ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تبلغوا الفلاح. روي: أنها نزلت في حُجّاج اليمامة لما همَّ المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عنه وإن كانوا مشركين[١].

(١٠١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ الشرطيةُ وما عطف عليها صفتان لأشياء والمعنى: لا تسألوا رسول الله ﷺ عن أشياءَ إنْ تَظْهَر لكم تَغُمكم وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تَظْهَر لكم، وهما كمقدمتين تُنْتِجان ما يمنع السؤال وهو أنه مما يغمهم والعاقلُ لا يفعل ما يغمه. وأشياء اسم جمع كطَرْفاء غير أنه قلبت لامه فجعلت لَفْعاء. وقيل أَفْعَلاء حذفت لامُه جمعٌ لشيء على أن أصله شيء كهين، أو شيء كصَدِيق فخفف. وقيل أَفْعَال جمع له من غير تغيير كبيت وأبيات ويرده منع صرفه. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ صفة أخرى أي عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلف بها، إذ روي أنه لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[٢] قال سراقة بن مالك[٣]: أكلَّ عامٍ؟

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/٥٩) عن عكرمة والسدي، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص١٢٥ عن ابن عباس بنحوه.
وهو حسن عن طريق السدي كما في الفتح السماوي ص٥٤٧.

(٢) آل عمران: «٩٧».

(٣) سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي أبو سفيان أسلم بعد الطائف «ب د ع». =

فأعرض عنه رسولُ الله ﷺ حتى أعاد ثلاثاً فقال: «لا، ولو قلت نعم لوَجَبَت، ولو وجبت لما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم». فنزلت[1]. أو استئناف أي عفا الله عما سلف من مسألتكم

= انظر تجريد أسماء الصحابة للذهبي (١/ ٢١٠ رقم ٢١٨٤).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٤٨٠):

«هذا السياق لم أجده لا عن سراقة ولا عن عكاشة. فأما سراقة: فروى مسلم ـ (٢/ ٨٨٦ رقم ١٤٧/ ١٢١٨) ـ من حديث جابر الطويل في صفة الحج: «فقال سراقة بن مالك بن جعشم: يا رسول الله، ألعامنا هذا، أم للأبد؟ قلت: وهو عند البخاري ـ (٣/ ٦٠٦ رقم ١٧٨٥) ـ أيضاً من وجه آخر عن جابر. وللنسائي ـ (٥/ ١٧٨ رقم ٢٨٠٦) ـ وابن ماجه ـ (٢/ ٩٩١ رقم ٢٩٧٧) ـ من حديث سراقة بن مالك نفسه أنه قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله، عمرتنا هذه لعامنا أم للأبد؟ فقال: لا، بل للأبد. دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» ـ قلت حديث سراقة صحيح ـ.

وأما عكاشة بن محصن: فرواه الطبري ـ في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ٨٢) ـ وابن مردويه ـ وأبو الشيخ: كما في الدر المنثور (٣/ ٢٠٦) ـ من طريق محمد بن زياد: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس، كتب عليكم الحج، فقال عكاشة بن محصن الأسدي: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: أما أنا لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عني ما سكت عنكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فأنزل الله «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ـ الآية» وهو أقرب إلى سياق المصنف. دون ما في آخره مما ذكره المصنف فهو في الحديث الآتي.

وأخرج الطبري ـ في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ٨٢) ـ من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري، عن ابن عياض، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج فقال رجل: كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثاً، فقال: من السائل؟ فقيل فلان. فقال «والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما أطقتموه، ولو تركتموه لكفرتم. فأنزل الله تعالى هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء.. الآية».

وأخرج الطبري في جامع البيان (٥/ ج٧/ ٨٢ ـ ٨٣) ـ أيضاً من طريق معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة أنه سمعه يقول: «قام رسول الله ﷺ في الناس، وقال: كتب عليكم الحج فقام رجل من الأعراب ـ فذكر الحديث، وفيه مقال: ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لكفرتم، وأما بقيته ففيما أخرجه مسلم (٢/ ٩٧٥ رقم ٤١٢/ ١٣٣٧) ـ من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

وقد سأل عن الحج الأقرع بن حابس فعند بعض أصحاب السنن ـ (أبو داود ٢/ ٣٤٤ رقم ١٧٢١) والنسائي (٥/ ١١١ رقم ٢٦٢٠) وابن ماجه (٢/ ٩٦٣ رقم ٢٨٨٦) ـ من حديث ابن عباس أن الأقرع بن حابس سأل رسول الله ﷺ: الحج في كل سنة أو مرة واحدة؟ فقال: مرة واحدة، فما زاد فهو تطوع».

وأخرجه الطبري ـ (في جامع البيان ٥/ ج٧/ ٨٣) ـ من هذا الوجه ـ قلت: سنده ضعيف ـ فسمى الرجل محصنا الأسدي، وعند غيره عكاشة بن محصن» اهـ، وأما حديث علي فأخرجه الترمذي (٣/ ١٧٨ رقم ٨١٤) و(٥/ ٢٥٦ رقم ٣٠٥٥) وابن ماجه (٢/ ٩٦٣ رقم ٢٨٨٤) وأحمد (١/ ١١٣) والدارقطني (٢/ ٢٨٠ رقم ٢٠٢) من طريق أبي البختري عنه.

قال الترمذي: حديث علي حديث حسن غريب. وقال ابن حجر في التلخيص (٢/ ٢٢٠ رقم ٩٥٢): عن حديث =

فلا تعودوا لمثلها. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبةِ ما يَفْرُط منكم ويعفو عن كثير، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب ذات يوم وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يَعْنيهم فقال: «لا أُسْأَل عن شيء إلا أجبت» فقال رجل: أين أبي؟ فقال: «في النار» وقال آخر: مَنْ أبي؟ فقال: «حذافة» وكان يدعىٰ لغيره فنزلت[1].

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ الضمير للمسألة التي دل عليها تسألوا ولذلك لم يُعَدَّ بعن، أو لأشياء بحذف الجارّ. ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بسألها وليس صفةً لقوم، فإن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثّة ولا حالاً منها ولا خبراً عنها. ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي بسببها حيث لم يأتمروا بما سألوا جحوداً.

= علي بأنه منقطع. وقد ضعفه الألباني في الإرواء (٤/ ١٥٠).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٨١ ـ ٨٢) من حديث أبي هريرة وفي سنده عبدالعزيز بن أبان الأموي، من ولد سعيد بن العاص، كان كذاباً يضع الأحاديث وذمه يطول. وانظر رقم (١٠٢٩٥ ـ شاكر) لتقف على ترجمته وترجمة (الحارث بن أبي سلمة) و(قيس بن الربيع الأسدي).

● وأخرج البخاري (٢/ ٢١ رقم ٥٤٠) بعضه من حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة، فذكر أن فيها أموراً عِظاماً، ثم قال «من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل، فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ما دمت في مقامي هذا». فأكثر الناس في البكاء، وأكثر أن يقول «سلوني» فقام عبدالله بن حذافة السهمي فقال: من أبي؟ قال: «أبوك حذافة» ثم أكثر أن يقول «سلوني» فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. فسكت. ثم قال «عرضت عليّ الجنة والنار آنفاً في عُرض هذا الحائط، فلم أر كالخير والشر».

● ثم أخرج البخاري (١/ ١٨٧ رقم ٩٢) ومسلم (٤/ ١٨٣٤ رقم ١٣٨/ ٢٣٦٠) من حديث أبي موسى، قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب ثم قال للناس: سلوني عما شئتم قال رجل من أبي؟ قال: أبوك حذافة. فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال أبوك سالم مولى شيبة. فلما رأى عمر ما في وجهه قال: يا رسول الله إنا نتوب إلى الله عز وجل».

● وقد أخرج البخاري (٨/ ٢٨٠ رقم ٤٦٢١) ومسلم (٤/ ١٨٣٢ رقم ١٣٤/ ٢٣٥٩) من حديث أنس قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبي؟ قال أبوك فلان. فنزلت هذه الآية «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»...

● وأخرج البخاري (٨/ ٢٨٠ رقم ٤٦٢٢) وابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» حتى فرغ من الآية كلها.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في سبب نزولها أقوال أخرى، ثم جمع بينها بقوله: «... لا مانع أن يكون الجميع سبب نزولها والله أعلم» هـ. =

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ردٌّ وإنكار لما ابتدعه أهل الجاهلية وهو أنهم إذا نَتَجت الناقة خمسة أبطن آخرُها ذَكَر بَحروا أُذُنها أي شقوها وخلوا سبيلها فلا تُركَب ولا تُحلَب، وكان الرجل منهم يقول: إن شُفيت فناقتي سائبة ويجعلُها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا وَلَدت الشاة أنثىٰ فهي لهم وإن وَلَدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدتهما قالوا: وَصَلت الأنثىٰ أخاها فلا يذبح لها الذَّكَر، وإذا نَتِجت من صلب الفحل عشرةَ أبطن حرموا ظهره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعىٰ وقالوا: قد حُمِيَ ظهره. ومعنىٰ ما جَعَل ما شَرَع ووَضَع، ولذلك تَعدّىٰ إلىٰ مفعول واحد وهو البحيرة، ومِنْ مزيدة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بتحريم ذلك ونسبته إلىٰ الله سبحانه وتعالى. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الحلال من الحرام والمبيح من المحرم، أو الآمر من الناهي ولكنهم يُقَلِّدون كبارهم، وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعُهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

(١٠٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ بيان لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد وأن لا سند لهم سواه. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو للحال، والهمزة دخلت عليها لإنكار الفعل على هذه الحال أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جَهَلَة ضالّين، والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بمن عُلِمَ أنه عالم مهتد وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد.

(١٠٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي احفظوها والزموا إصلاحها، والجارّ مع المجرور جُعِل اسماً لالزَمُوا ولذلك نصب أنفسَكم. وقرىء بالرفع على الابتداء. ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ لا يضركم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن يُنكِر المنكَر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»(١). والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنوْن إيمانهم، وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سَفَّهت آباءك، فنزلت(٢). ولا يضركم يَحْتَمِل الرفعَ على أنه مستأنفٌ ويؤيده أن قرىء لا يضيرُكم، والجزمَ على الجواب أو النهي لكنه ضمت الراءُ اتباعاً لضمة الضاد المنقولةِ إليها من الراء المدغمة وتنصره قراءة من قرأ لا يَضُرَّكم بالفتح، ولا يَضِرَّكم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعيد للفريقين وتنبيهٌ علىٰ أن أحداً لا يؤاخَذُ بذنب غيره.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩/١ رقم ٤٩/٧٨) من حديث أبي سعيد.

(٢) أخرجه الثعلبي عن ابن زيد. انظر الفتح السماوي ص٥٩٦.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾

(١٠٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ أي فيما أُمِرتم شهادةُ بينكم، والمراد بالشهادة الإشهاد في الوصية، وإضافتُها إلى الظرف على الاتساع. وقرىء شهادةً بالنصب والتنوين على لِيَقُم. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ إذا شارفه وظهرت أماراتُه، وهو ظرف للشهادة[1]. ﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ بدلٌ منه، وفي إبداله تنبيه على أن الوصية مما ينبغي أن لا يُتهاون فيه، أو ظرفُ حَضَر. ﴿ٱثۡنَانِ﴾ فاعلُ شهادةُ، ويجوزُ أن يكون خبرُها على حذف المضاف. ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي من أقاربكم، أو من المسلمين، وهما صفتان لاثنان. ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ عطفٌ على اثنان، ومَنْ فسر الغير بأهل الذمة جعَلَه منسوخاً، فإن شهادته على المسلم لا تُسمع إجماعاً. ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سافرتم فيها. ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ أي قاربتم الأجل. ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ تَقِفُونهما وتُصَبِّرونهما، صفةٌ لآخران، والشرط بجوابه المحذوف المدلول عليه بقوله: «أو آخران من غيركم» اعتراضٌ، فائدتُه الدلالةُ على أنه ينبغي أن يشهد اثنان منكم فإن تعذر ـ كما في السفر ـ فمن غيركم، أو استئناف كأنه قيل: كيف نعمل إن ارتبنا بالشاهدين؟ فقال: تحبسونهما. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار. وقيل أي صلاة كانت. ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ إن ارتاب الوارث منكم. ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ مُقسَم عليه، وإن ارتبتم اعتراضٌ يفيد اختصاص القسم بحال الارتياب. والمعنى لا نستبدل بالقسم أو بالله عَرَضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذباً لطمع. ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ ولو كان المقسَم له قريباً منا، وجوابُه أيضاً محذوف أي لا نشتري. ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي الشهادة التي أمرنا الله بإقامتها، وعن الشعبي[2] أنه وَقَفَ على شهادة، ثم ابتدأ الله بالمدّ على حذف

---

(١) وقدم المفعول «أحدكم» على الفاعل لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها، فإنه أدخل في تهوين أمر الموت (س٣/٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (٥/ج٧/١١١) عنه.
والشعبي هو: أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، قاضي الكوفة، سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة. قال ابن عيينة: كان الناس تقول بعد الصحابة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه. وقال ابن معين، وأبو زرعة، وغير واحد: الشعبي ثقة، وقال عاصم ما رأيت أحداً أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز من الشعبي، وقال ابن عطية: كان جلة من السلف كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه، تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم».
[تهذيب التهذيب (٥/٥٧ ـ ٦٠) ومقدمة تفسير القرطبي (١/ ٣٤)].

حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه، وروي عنه بغيره كقولهم اللهِ لأفعلن. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ أي إنْ كتمنا. وقرىء لَمِلأثمين بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام النون فيها.

(١٠٧) ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ فإن اطُّلع. ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أي فعَلا ما أوجب إثماً كتحريفٍ. ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران. ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ من الذين جُنِيَ عليهم وهم الورثة[1]. وقرأ حفص استَحَق علىٰ البناء للفاعل وهو الأوليان. ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ الأحَقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما، وهو خبر محذوف أي: هما الأوليان، أو خبرُ آخَرَان، أو مبتدأ خبرُه آخران، أو بدل منهما أو من الضمير في يقومان. وقرأ حمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم الأوَّلين على أنه صفة للذين، أو بدل منه أي من الأوَّلين الذين استحق عليهم، وقرىء الأوَّلَيْن على التثنية وانتصابه على المدح، والأولان وإعرابه إعراب الأوليان. ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أصدق منها وأولىٰ بأن تقبل. ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ وما تجاوزنا فيها الحق. ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضِعين الباطل موضع الحق، أو الظالمين أنفسَهم إن اعتدينا. ومعنى الآيتين أن المحتضِر إذا أراد الوصية ينبغي أن يُشْهِد عدلين من ذوي نَسَبه أو دينه علىٰ وصيته، أو يوصي إليهما احتياطاً فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فآخرين مِنْ غيرهم، ثم إن وقع نزاعٌ وارتياب أقْسَما علىٰ صدق ما يقولان بالتغليظ في الوقت، فإن اطُّلع على أنهما كَذَبا بأمارة أو مظنَّةٍ حَلَفَ آخران من أولياء الميت، والحكمُ منسوخ إن كان الاثنان شاهديْن فإنه لا يَحْلف الشاهدُ ولا يعارَضُ يمينُه بيمين الوارث وثابتٌ إن كانا وصيين ورَدُّ اليمينُ إلىٰ الورثة إما لظهورِ خيانةِ الوصيين فإن تصديق الوصي باليمين لأمانته أو لتغييرِ الدعوى. إذ روي أن تميماً الداري وعدي بن يزيد[2] خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً، فلما قدموا الشام مرض بديلٌ فدوَّن ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما به وأوصىٰ إليهما بأن يدفعا متاعه إلىٰ أهله ومات، ففتشاه وأخذا منه إناء من فضة فيه ثلثمائة مِثْقالٍ منقوشاً بالذهب فغيَّباه، فأصاب أهلُه الصحيفة فطالبوهما بالإناء، فجحدا، فترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، فَحَلَّفهما رسولُ الله ﷺ بعد صلاة العصر عند المنبر وخلّىٰ سبيلهما، ثم وُجِدَ الإناءُ في أيديهما، فأتاهما بنو سهم في ذلك، فقالا: قد اشتريناه منه ولكن لم يكن لنا عليه بيِّنة فكرهنا أن نُقِرَّ به، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان فحلفا واستحقاه[3]. ولعل تخصيص العدد فيهما لخصوص الواقعة.

---

(١) وهذا على معنى من قرأ بالبناء للمفعول، أي «استُحِقَّ».

(٢) الصحيح أنه عدي بن بدّاء كما في الفتح السماوي ص٥٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٨ رقم ٣٠٥٩) وابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ١١٥) قال الترمذي: «هذا حديث غريب، وليس إسنادُهُ بصحيح، وأبو النَّضرِ الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر وقد تركه أهل الحديث، وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن اسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر، ولا نعرف لسالم أبي النّضر المدني رواية عن أبي صالح مولى أمّ هانىء.

وقد روى عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه» هـ.

قلت: وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، =

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

(١٠٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الحكم الذي تقدم، أو تحليف الشاهد. ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمينِ الكاذبة. وإنما جمع الضمير لأنه حكم يعم الشهود كلهم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما توصون به سمع إجابة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوماً فاسقين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة. فقوله تعالى:

(١٠٩) ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ ظرف له، وقيل بدل من مفعول واتقوا بدلَ الاشتمال، أو مفعول واسمعوا على حذف المضاف أي واسمعوا خبر يوم جَمْعهم، أو منصوب بإضمار اذكر. ﴿فَيَقُولُ﴾ أي للرسل. ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أيَّ إجابة أجبتم؟ علىٰ أن ماذا في موضع المصدر، أو بأي شيء أجبتم؟ فحذف الجار، وهذا السؤال لتوبيخ قومهم كما أن سؤال الموءودة لتوبيخ الوائد ولذلك ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ أي لا علم لنا بما لست تعلمه. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فتعلم ما نعلمه مما أجابونا وأظهروا لنا وما لا نعلم مما أضمروا في قلوبهم، وفيه التشكي منهم ورد الأمر إلى علمه بما كابدوا منهم. وقيل المعنى لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا وإنما الحكم للخاتمة. وقرىء علامَ بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله: إنك أنت، أي إنك أنت الموصوف بصفاتك المعروفة وعلاّمَ منصوبٌ على الاختصاص أو النداء، وقرأ أبو بكر وحمزة الغِيُوب بكسر الغين حيث وقع.

(١١٠) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ بدل من يومَ يجمع وهو على طريقة

وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة.

● وأخرجه البخاري (٤٠٩/٥ رقم ٢٧٨٠) وأبو داود (٣٠/٤ رقم ٣٦٠٦) والترمذي (٢٥٩/٥ رقم ٣٠٦٠) مختصراً من حديث ابن عباس.

وقال ابن كثير في تفسيره (١١٧/٢): «وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين منهم عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك، وهذا يدل على اشتهارها في السلف وصحتها» هـ.

والخلاصة أن الحديث حسن نظراً لما تقدم والله أعلم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾[١] والمعنى أنه سبحانه وتعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وتعديدِ ما أَظْهَر عليهم من الآيات فكذبتْهم طائفة وسموْهم سحرة وغلا آخرون فاتخذوهم آلهةً. أو نصبٌ بإضمار اذكر[٢]. ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك وهو ظرف لنعمتي، أو حال منه. وقرىء آيدتُك. ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ بجبريل عليه الصلاة والسلام، أو بالكلام الذي يحيا به الدينُ أو النفسُ حياةً أبدية ويَطْهَر من الآثام ويؤيده قوله: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ﴾ أي كائناً في المهد وكهلاً، والمعنى تكلمهم في الطفولة والكهولة على سواء، والمعنى إلحاقُ حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل والتكلم، وبه استُدل على أنه سينزل فإنه رفع قبل أن يَكْتهل. ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران. وقرأ نافع ويعقوب طائراً، ويحتمل الإفراد والجمع كالباقر. ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ يعني اليهود حين همّوا بقتله. ﴿إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ظرف لكففت. ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين[٣]. وقرأ حمزة والكسائي إلا ساحر، فالإشارة إلى عيسىٰ عليه الصلاة والسلام.

وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾

(١١١) ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أي أمرتهم على ألسنة رسلي. ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ يجوز أن تكون أن مصدرية، وأن تكون مفسرة. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ مخلصون.

(١١٢) ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ منصوب باذكر، أو ظرف لقالوا فيكونُ تنبيهاً على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم. ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ لم يكن بَعدُ عن تحقيق واستحكامِ معرفة. وقيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة. وقيل المعنى هل يطيع ربكَ أي هل يجيبك، واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب وأجاب. وقرأ الكسائي تَسْتطيعُ ربَّكَ أي سؤالَ ربك، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف. والمائدة الخوان إذا كان عليه الطعام، من مَاد الماءُ يَميد إذا تحرك، أو من مادَهُ إذا أعطاه كأنها تُميد من تقدم إليه، ونظيرُها قولهم شجرة مُطْعِمة. ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، أو صدقتم في ادعائكم الإيمان.

---

(١) الآية في الأعراف «٤٤». وقوله: (على طريقة...) أي أن أصحاب الجنة إنما قالوا ذلك شماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم.

(٢) وقد خص عيسىٰ عليه السلام بالذكر لأن شأنه متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب. وصيغة الماضي في قوله «إذ قال» للدلالة على تحقق الوقوع. (س٣/ ٩٤).

(٣) وقوله «الذين كفروا» حيث وضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما في حيز الصلة (س٣/ ٩٥).

قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا
وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا
مِّنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ
سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

(١١٣) ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عُذْرٍ وبيان لِمَا دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا بالأكل منها. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بانضمام عِلْم المشاهدة إلى تعلم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالىٰ. ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في ادعاء النبوة، أو أن الله يجيب دعوتنا. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ﴾ إذا استشهدتنا، أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

(١١٤) ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لمّا رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، أو أنهم لا يقلعون عنه فأراد إلزامَهم الحجة بكمالها. ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي يكون يومُ نزولها عيداً نعظمه[١]. وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمي يوم العيد عيداً. وقرىء تَكُنْ على جواب الأمر. ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل من لنا بإعادة العامل أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا. روي: أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيداً. وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا. وقرىء لأُولانا وأُخرانا بمعنى الأمة أو الطائفة. ﴿وَءَايَةً﴾ عطف على عيد. ﴿مِّنكَ﴾ صفة لها أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي. ﴿وَارْزُقْنَا﴾ المائدة والشكر عليها. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير من يرزق، لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

(١١٥) ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابة إلى سؤالكم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم مُنَزِّلها بالتشديد[٢]. ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي تعذيباً، ويجوز أن يجعل مفعولاً به على السعة. ﴿لَّا أُعَذِّبُهُ﴾ الضمير للمصدر، أو للعذاب إن أريد ما يُعَذَّبُ به على حذف حرف الجر. ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانهم، أو العالمين مطلقاً فإنهم مُسخوا قردة وخنازير ولم يعذَّبْ بمثل ذلك غيرُهم. روي[٣]: أنها نزلت سفرةٌ حمراء بين غَمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم،

---

(١) قوله: «اللهم ربنا» ناداه مرتين مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية وذلك إظهاراً لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء (س٣/٩٨).

(٢) كأن الأصل عند البيضاوي قراءة التخفيف «مُنْزِلُها» وقد قرأ بها الأكثرون.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٠١٣) عن سلمان مطولاً. وأخرجه ابن أبي حاتم. كما في تفسير ابن كثير (٢/١٢١ ـ ١٢٣) من نفس طريق أبي الشيخ، وقال «هذا أثر غريب جداً...» وقال القرطبي في تفسيره (٦/٣٧٢) «في هذا الحديث مقال ولا يصح من قبل إسناده».
وأورده السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٣٢) وعزاه إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم =

فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مُثْلَةً وعقوبة، ثم قام فتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خيرِ الرازقين، فإذا سمكةٌ مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسةُ أرغفةٍ على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله أمِنْ طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما ولكن اخترَعه الله سبحانه وتعالى بقدرته كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله لو أريتنا مِنْ هذه الآية آيةً أخرى، فقال: يا سمكةُ احيي بإذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنتِ فعادت مشوية ثم طارت المائدة، ثم عصوْا بعدها فمسخوا. وقيل كانت تأتيهم أربعين يوماً غباً يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون، حتى إذا فاء الفيءُ طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس لذلك فمُسِخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً. وقيل لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة استعفَوْا وقالوا: لا نريد فلَمْ تَنْزِل. وعن مجاهد أن هذا مَثَلٌ ضربه الله لمقترحي المعجزات. وعن الصوفية: المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن، وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها، فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه فسألَ لأجل اقتراحهم، فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالاً بعيداً.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد به توبيخ الكفرة وتبكيتهم. ومن دون الله صفة لإلهين، أو صلة اتخذوني. ومعنى «دون» إما المغايرة فيكون فيه تنبيه على أن عبادة الله سبحانه وتعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبده، أو للقصور فإنهم لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة وإنما زعموا أن عبادتهما توصل إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وكأنه قيل: اتخذوني وأمي إلهين متوصلين بنا إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أنزهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك. ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله. ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. وقوله في نفسك للمشاكلة، وقيل المراد بالنفس الذات. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه.

= وأبو الشيخ في العظمة، وأبو بكر الشافعي في فوائده المعروفة بالغيلانيات. =

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

(١١٧) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ تصريح بنفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ عطف بيان للضمير في به، أو بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً ليلزم بقاء الموصول بلا راجع، أو خبر مضمر أو مفعوله مثل هو أو أعني، ولا يجوز إبداله مِنْ ما أمرتني به فإن المصدر لا يكون مفعول القول، ولا أن تكون أَنْ مفسرة لأن الأمر مسند إلى الله سبحانه وتعالى، وهو لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم والقول لا يفسر بل الجملة تحكي بعده إلا أن يؤول القول بالأمر فكأن قيل: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به أن اعبدوا الله. ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهِداً لأحوالهم من كفر وإيمان. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى السماء لقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾[1] والتوفي أخذ الشيء وافياً، والموت نوع منه قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[2]. ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات. ﴿وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع عليه مراقب له.

(١١٨) ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عَبَدوا غيرك. ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلا عجز ولا استقباح فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبتَ فعَدْل وإن غفرتَ ففضل. وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد والتعليق بأن.

(١١٩) ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقرأ نافع يومَ بالنصب على أنه ظرف لقال وخبر هذا محذوف، أو ظرف مستقر وقع خبراً والمعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع. وقيل إنه خبر ولكن بني على الفتح بإضافته إلى الفعل وليس بصحيح، لأن المضاف إليه معرَب. والمراد بالصدق الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بيان للنفع.

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تنبيه على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل ومَنْ فيهن تغليباً للعقلاء وقال وما فيهن اتباعاً لهم غير أولي العقل

(١) آل عمران: «٥٥».
(٢) الزمر: «٤٢».

إعلاماً بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية وإهانة لهم وتنبيهاً على المجانسة المنافية للألوهية، ولأن ما يطلق متناولاً للأجناس كلها فهو أولىٰ بإرادة العموم. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات ومحي عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا»[(١)] .

☆ ☆ ☆

(١) هذا الحديث موضوع. انظر الموضوعات لابن الجوزي (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) أبواب تتعلق بالقرآن ـ باب فضائل القرآن ـ.
وانظر تخريجه مفصلاً في الكافي الشاف ص٣٧ و٦٠ رقم (٣١١ و٤٨٤).

سورة الأنعام

ترتيبها ٦ — آياتها ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ
اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ
مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٥)

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد، ونبه على أنه المستحق له على هذه النعم الجسام حُمِد أو لم يُحمد، ليكون حجة على الذين هم بربهم يعدلون. وجَمْعُ السموات دون الأرض وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدّمها لشرفها وعلو مكانها وتقدم وجودها. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أنشأهما. والفرقُ بين خَلَقَ وجَعَلَ الذي له مفعول واحد: أن الخلق فيه معنى التقدير والجعْلَ فيه معنى التضمن، ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثَّنَوية. وجَمْعُ الظلمات لكثرة أسبابها والأجرامِ الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة الضلال وبالنور الهدى، والهدىٰ واحد والضلال متعدد، وتقديمها لتقدم الإعدام على الملكات. ومن زعم أن الظلمة عَرَضٌ يضاد النور احتج بهذه الآية، ولم يعلم أن عدم الملكة ـ كالعَمَىٰ ـ ليس صرفَ العدم حتى لا يتعلقَ به الجعل. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ عطفٌ على قوله: «الحمد لله» علىٰ معنىٰ: أن الله سبحانه وتعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد. ثم الذين كفروا به يعْدِلون فيكفرون نعمته، ويكون بربهم تنبيهاً على أنه خلق هذه الأشياء أسباباً لتكوُّنهم وتعيشهم، فمِن حقه أن يُحمد عليها ولا يكفَر، أو على قوله «خَلَق» على معنى أنه سبحانه وتعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى «ثم»: استبعاد عدولهم بعد هذا البيان. والباء على الأول متعلقة بكفروا، وصلةُ يعدلون محذوفةٌ أي يعدلون عنه ليقع الإنكار على نفس الفعل، وعلى الثاني متعلقة بيعدلون، والمعنى: أن

الكفار يعدلون بربهم الأوثان أي يسوُّونها به سبحانه وتعالى[١].

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي ابتدأ خَلْقكم منه، فإنه المادة الأولىٰ وأن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه، أو خلق أباكم فحُذِف المضاف. ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجل الموت. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجل القيامة. وقيل الأول ما بين الخلق والموت والثاني ما بين الموت والبعث، فإن الأجل كما يطلق لآخر المدة يطلق لجملتها. وقيل الأول النوم والثاني الموت. وقيل الأول لمن مضى والثاني لمن بقي ولمن يأتي. وأجل نكرة خُصِّصت بالصفة ولذلك استغني عن تقديم الخبر، والاستئنافُ به لتعظيمه ولذلك نُكِّر ووصِف بأنه مسمّى أي مثبت معيّن لا يقبل التغيير، وأُخبِر عنه بأنه عند الله لا مَدْخَلَ لغيره فيه بعلم ولا قدرة ولأنه المقصودُ بيانه. ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن من قَدِر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث. والامتراء الشك، وأصله المَرْي وهو استخراج اللبن من الضرع[٢].

(٣) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ الضمير لله سبحانه وتعالى واللهُ خبره. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق باسم الله، والمعنى: هو المستحق للعبادة فيهما لا غير، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[٣] أو بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ والجملة خبر ثان، أو هي الخبر والله بدل، ويكفي لصحة الظرفية كونُ المعلوم فيهما كقولك رميت الصيد في الحرم إذا كنت خارجَه والصيد فيه، أو ظرف مستقر وقع خبراً، بمعنى أنه سبحانه وتعالى لكمال علمه بما فيهما كأنه فيهما، ويعلم سركم وجهركم بيان وتقرير له، وليس متعلقاً بالمصدر لأن صفته لا تتقدم عليه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير أو شر فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أريد بالسر والجهر ما يَخفى وما يظهر من أحوال الأنفس وبالمكتسب أعمال الجوارح.

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ مِنْ الأولى مزيدة للاستغراق والثانية للتبعيض، أي: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن. ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه[٤].

---

(١) قوله «خلق السموات والأرض» خصهما بالذكر لاشتمالهما على مجمل النعم.
وقوله «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» وضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع عليهم، وتقديم «بربهم» لمزيد الاهتمام والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار. وترْك المفعول لظهوره أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل بتنزيله منزلة اللازم إيذاناً بأنه المدار في الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول (س٣/١٠٥).

(٢) قوله تعالى «خلقكم...» خصص خلقهم بالذكر لأن محل النزاع هو بعثهم ودلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر وهم بشؤون أنفسهم أعرف..
والالتفات إلى الخطاب لمزيد التشنيع والتوبيخ.
وقوله «ثم قضى أجلاً» فأورد كلمة «ثم» للإيذان بتفاوت ما بين خلقهم وبين تقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحكمة البالغة. (س٣/١٠٦).

(٣) الزخرف: «٨٤».

(٤) والالتفات إلى الغيبة للإشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحاً. وصيغة المضارع =

(٥) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني القرآن وهو كاللازم مما قبله كأنه قيل: إنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا به لما جاءهم، أو كدليل عليه على معنى أنهم لما أعرضوا عن القرآن وكذبوا به وهو أعظم الآيات فكيف لا يعرضون عن غيره، ولذلك رتب عليه بالفاء. ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، أو عند ظهور الإسلام وارتفاعِ أمره[1].

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي من أهلِ زمان. والقرن مدة أغلب أعمار الناس وهي سبعون سنة، وقيل ثمانون، وقيل القرن أهل عصر فيه نبي أو فائقٌ في العلم، قلت: المدة وإن كثرت واشتقاقه من قرنت. ﴿ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً وقرَّرناهم فيها وأعطيناهم من القُوىٰ والآلات ما تمكنوا بها من أنواع التصرف فيها. ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ ما لم نجعل لكم من السعة وطول المقام يا أهل مكة، أو ما لم نعطكم من القوة والسعة في المال والاستظهار في العدد والأسباب. ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم ﴾ أي المطر، أو السحاب، أو المظلة فإن مبدأ المطر منها. ﴿ مِّدْرَارًا ﴾ أي مغزاراً. ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار. ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي لم يغن ذلك عنهم شيئاً. ﴿ وَأَنشَأْنَا ﴾ وأحدثنا. ﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ بدلاً منهم، والمعنىٰ أنه سبحانه وتعالى كما قدِر على أن يهلك مَنْ قبلكم كعاد وثمود وينشىء مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده يَقْدِر أن يفعل ذلك بكم.

(٧) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ مكتوباً في ورق. ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ فمسوه، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا، ولأنه يتقدمه الإبصار حيث لا مانع، وتقييده بالأيدي لدفعِ التجوز فإنه قد يُتجوز به للفحص كقوله ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ ﴾[2] ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ

= «تأتيهم» لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على الاستمرار التجددي. وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه (س٣/١٠٩).

(١) قوله «.. أنباء..» أورده بلفظ الإنباء للإيذان بعظم شأنه لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر العظيم الوقع (س٣/ ١١٠).

(٢) الجن: «٨».

﴿هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تعنتاً وعناداً.

(٨) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هلاّ أنزل معه ملك يكلمنا أنه نبي كقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[١]. ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ جواب لقولهم وبيان هو المانع مما اقترحوه والخلل فيه، والمعنى أن المَلَك لو أنزل بحيث عاينوه كما اقترحوا لحق إهلاكهم فإن سنة الله قد جرت بذلك فيمن قبلهم. ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ بعد نزوله طرفة عين[٢].

(٩) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ جواب ثان إن جُعل الهاء للمطلوب، وإن جُعل للرسول فهو جواب اقتراح ثان، فإنهم تارة يقولون لولا أنزل عليه ملك وتارة يقولون لو شاء ربُّنا لأنزل ملائكة، والمعنى ولو جعلنا قريناً لك مَلَكاً يعاينونه أو الرسولَ مَلَكاً لمثَّلْناه رجلاً كما مُثِّل جبريل في صورة دحية الكلبي، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، وإنما رآهم كذلك الأفرادُ من الأنبياءعليهم الصلاة والسلام بقوتهم القُدُسية. ولَلَبسنا جواب محذوف أي ولو جعلناه رجلاً للبسنا أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم فيقولون ما هذا إلا بشر مثلكم. وقرىء لبسنا بلام واحد ولبَّسنا بالتشديد للمبالغة[٣].

(١٠) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما يَرى من قومه. ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فأحاط بهم الذين كانوا يستهزئون به حيث أُهلكوا لأجله، أو فنزل بهم وَبَال استهزائهم[٤].

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

(١١) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال كي تعتبروا، والفرق بينه وبين قوله ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾[٥] أي السير ثَمَّة لأجل النظر

---

(١) الفرقان: «٧».

(٢) بناء الفعل الأول في الجواب للفاعل ـ أي قوله «أنزلنا» ـ مع أنه في السؤال مبنياً للمفعول لتهويل الأمر وتربية المهابة، وبناء الثاني للمفعول ـ أي «قُضي» ـ للجري على سنن الكبرياء.
وكلمة «ثم» في قوله «ثم لا ينظرون» للتنبيه على تفاوت ما بين قضاء الأمر وعدم الإنظار (س٣/١١٣).

(٣) قوله «لجعلناه رجلاً» إيثار كلمة «رجلاً» على بشراً للإيذان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة (س٣/١١٣).

(٤) قدم المفعول «الذين سخروا» على الفاعل للمسارعة إلى بيان لحوق الشرّ بهم (س٣/١١٤).

(٥) النمل: «٦٩».

ولا كذلك ههنا، ولذلك قيل معناه إباحةُ السير للتجارة وغيرها وإيجابُ النظر في آثار الهالكين.

(١٢) ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وهو سؤال تبكيت. ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقريراً لهم وتنبيهاً على أنه المتعين للجواب بالإنفاق، بحيث لا يُمكنهم أن يذكروا غيره. ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ التزمها تفضلاً وإحساناً. والمراد بالرحمة ما يعم الدارين، ومن ذلك الهدايةُ إلى معرفته والعلمُ بتوحيده بنصب الأدلة وإنزالُ الكتب والإمهالُ على الكفر. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ استئناف وَقَسَم للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي: ليجمعنكم في القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم، أو في يوم القيامة، وإلى بمعنى في. وقيل بدلٌ من الرحمة بدلَ البعض فإن من رحمته بعثهُ إياكم وإنعامُه عليكم. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو الجمع. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرةُ الأصلية والعقل السليم. وموضعُ «الذين» نصب على الذم، أو رفع على الخبر أي: وأنتم الذين، أو على الابتداءِ والخبرُ: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبَّب عن خسرانهم، فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدىٰ بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمانِ.

(١٣) ﴿۞ وَلَهُۥ﴾ عطف على لله. ﴿مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ من السُّكنىٰ، وتَعْديتُه بفي. كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾[1] والمعنىٰ ما اشتملا عليه، أو من السكون أي ما سكن فيهما وتحرك فاكْتُفِي بأحد الضدين عن الآخر. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل مسموع. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم فلا يخفىٰ عليه شيء، ويجوز أن يكون وعيداً للمشركين على أقوالهم وأفعالهم.

(١٤) ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ إنكارٌ لاتخاذ غير الله ولياً لا لاتخاذ الولي، فلذلك قُدِّم وأُولي الهمزة، والمراد بالولي المعبود لأنه رد لمن دعاه إلى الشرك. ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفت معنى الفاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها أي ابتدأتُها[2]. وجرُّه على الصفة لله، فإنه بمعنى الماضي، ولذلك قرىء فَطَر. وقرىء بالرفع والنصب على المدح. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق ولا يُرزق، وتخصيص الطعام لشدة الحاجة إليه. وقرىء ولا يَطْعَم بفتح الياء وبعكس الأول على أن الضمير لغير الله، والمعنى كيف أُشرك بمَنْ هو فاطرُ السموات والأرض ما هو نازلٌ عن رتبة الحيوانية وببنائهما للفاعل على أن الثاني من أولهم بمعنى استطعم أو على معنى أنه يُطعِم تارة ولا يُطعِم أخرىٰ كقوله: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾[3]. ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابقُ أمته في الدين. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي ولا تكونن، ويجوز عطفه على قلْ.

---

(١) إبراهيم: «٤٥».

(٢) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث (٤/ ٣٧٣) وفي فضائل القرآن، بإسناد حسن ليس فيه إلاّ (إبراهيم بن مهاجر) ـ كما في (الكافي الشاف) (ص٦١ رقم٣) ـ قلت: إبراهيم بن مهاجر: صدوق لين الحفظ من الخامسة من رجال مسلم.
[التقريب: (١/ ٤٤ رقم ٢٨٤) ورجال صحيح مسلم (١/ ٤٦ رقم ٤٦)].

(٣) البقرة: «٢٤٥».

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مبالغةٌ أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، والشرط معترِض بين الفعل والمفعول به وجوابه محذوف دل عليه الجملة.

(١٦) ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يُصرف العذابُ عنه. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم يَصْرِفْ عَلى أن الضمير فيه لله سبحانه وتعالى، وقد قرىء بإظهاره. والمفعول به محذوف، أو يومئذ بحذف المضاف. ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ﴾ نجاه وأنعم عليه. ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الصرف أو الرحمة.

(١٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ببلية كمرض وفقر. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ فلا قادر على كشفه. ﴿إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ بنعمة كصحة وغنىً. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على دفعه كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾[1].

(١٨) ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم.

(١٩) ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ﴾ نزلت جين قالت قريش: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا مَنْ يشهد لك أنك رسول الله[2]. والشيء يقع على كل موجود، وقد سبق القول فيه في سورة البقرة. ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أي اللهُ أكبر شهادة، ثم ابتدأ ﴿شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ أي هو شهيد بيني وبينكم، ويجوز أن يكون الله شهيد هو الجواب لأنه سبحانه وتعالى إذا كان الشهيد كان أكبر شيء شهادة. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، واكتُفي بذكر الإنذار عن ذكر البشارة. ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ عطف على ضمير المخاطبين، أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن بلغه إلى يوم القيامة، وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومَنْ بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد. ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُۚ﴾ بما تشهدون. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي بل أشهد أن لا إله إلا هو. ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني الأصنام.

---

(١) يونس: «١٠٧».

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص٢١٤ عن الكلبي بدون سند.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعرفون رسول الله ﷺ بحِلْيته المذكورة في التوراة والإنجيل[١]. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بحُلاهم. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركين. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ كأن كذبوا بالقرآن والمعجزات وسموْها سحراً. وإنما ذكر «أو» وهم قد جمعوا بين الأمرين تنبيهاً على أن كلاً منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن[٢]. ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فضلاً عمن لا أحد أظلم منه.

(٢٢) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ منصوب بمضمر تهويلاً للأمر. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله. وقرأ يعقوب يَحْشرهم ويَقُول بالياء. ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان، والمراد من الاستفهام التوبيخ، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لمّا لم ينفعوهم فكأنهم غيب عنهم.

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ أي كفرهم، والمراد عاقبته، وقيل معذرتهم التي يتوهمون أن يتخلصوا بها، مِنْ فَتَنْتُ الذهب إذا خلصته، وقيل جوابهم وإنما سماه فتنة لأنه كذب أو لأنهم قصدوا به الخلاص. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم لم تكن بالتاء وفتنتُهم بالرفع على أنها الاسم، ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عنه بالتاء والنصبِ على أن الاسم أنْ قالوا، والتأنيثُ للخبر كقولهم من كانت أمك، والباقون بالياء والنصب. ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يكذبون ويحلفون عليه مع علمهم بأنه لا ينفعهم من فَرْط الحيرة والدهشة، كما يقولون: «ربنا أخرجنا منها» وقد أيقنوا بالخلود. وقيل معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا وهو لا يوافق قوله:

(٢٤) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بنفي الشرك عنها، وحملُه على كذبهم في الدنيا تعسف يخلّ بالنظم، ونظير ذلك قوله ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[٣]. وقرأ حمزة والكسائي ربنا بالنصب على النداء أو المدح. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الشركاء[٤].

---

(١) وإيرادهم بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بمدار ما أسند إليهم (س٣/١١٨).

(٢) ومدار وضع ضمير الشأن موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره. وفائدة تصدير الجملة به الإيذانُ بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن، فكأنه قيل: إن الشأن الخطير هذا هو.. (س٣/١١٩).

(٣) المجادلة: «١٨».

(٤) وإيقاع الافتراء عليها مع أنه في الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية والشركة والشفاعة ونحوها للمبالغة في=

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(٢٥) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[١] حين تتلو القرآن، والمراد أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابُهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول؟ فقال: والذي جعلها بيتَه ما أدري ما يقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطيرَ الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان إني لأرى حقاً، فقال أبو جهل كلاّ. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كِنَان، وهو ما يستر الشيء. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنع من استماعه، وقد مر تحقيق ذلك في أول البقرة[٢]. ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم جاؤوك يجادلونك. وحتى هي التي تقع بعدها الجمل، لا عمل لها، والجملةُ إذا وجوابه وهو: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فإنَّ جَعْل أصدق الحديث خرافات الأولين غاية التكذيب، ويجادلونك حالٌ لمجيئهم، يجوز أن تكون الجارّةُ وإذا جاؤوك في موضع الجرّ ويجادلونك حال ويقول تفسير له. والأساطيرُ الأباطيلُ جمع أسطورة أو إسطارة أو أسطار جمع سطر، وأصله السّطْر بمعنى الخط[٣].

(٢٦) ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي ينهون الناس عن القرآن، أو الرسول ﷺ والإيمان به. ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ بأنفسهم، أو ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأون عنه فلا يؤمنون به كأبي طالب[٤]. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ وما يهلكون بذلك. ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّ ضرره لا يتعداهم إلى غيرهم.

(٢٧) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ جوابه محذوف أي: لو تراهم حين يوقَفُون على النار حتى يعاينوها أو يطلعون عليها أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها لرأيتَ أمراً شنيعاً. وقرىء وَقَفُوا على البناء للفاعل من وقف عليها وقوفاً. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ تمنياً للرجوع إلى الدنيا. ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ استئنافٌ، كلامٌ منهم على وجه الإثبات كقولهم: دعني ولا أعود، أي وأنا لا أعود تركتَني أوَلَم تتركني، أو عطفٌ على نرد، أو حالٌ من الضمير فيه فيكون في حكم التمني، وقوله ﴿وَإِنَّهُمْ

أمرها كأنها نفس المفترى (س٣/ ١٢٠).

(١) وقد أورد قوله «مَنْ يستمع إليك» بالإفراد مراعاة للفظها، أما قوله: «ومنهم من يستمعون إليك» ـ يونس «٤٢» ـ فقد راعى فيها جانب المعنى (س٣/ ١٢١).

(٢) عند قوله «ختم الله على قلوبهم. . .» ـ البقرة «٧» ـ.

(٣) وقوله «الذين كفروا. .» حيث وضع الموصول موضع ضميرهم ذماً لهم بما في حيز الصلة وإشعاراً بعلة الحكم (س٣/ ١٢١).

(٤) قوله «وينأون عنه» أي يتباعدون عنه إظهاراً لنفورهم عنه وتأكيداً لنهيهم عنه، ولذلك أخر النأي عن النهي، لأن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات النهي (س٣/ ١٢٢).

لَكَٰذِبُونَ﴾[1] راجع إلى ما تضمنه التمني من الوعد. ونصبهما حمزة ويعقوب وحفص على الجواب بإضمار أنْ بعد الواو إجراءً لها مجرى الفاء. وقرأ ابن عامر برفع الأول على العطف ونصب الثاني على الجواب.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ الإضرابُ عن إرادة الإيمان المفهومة من التمني، والمعنى أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم أو قبائح أعمالهم فتمنوْا ذلك ضجراً لا عزماً على أنهم لو رُدُّوا لآمنوا[2]. ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ أي إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور. ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما وُعدوا به من أنفسهم.

(٢٩) ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ عطفٌ على لعادوا أو على إنهم لكاذبون أو على نُهوا، أو استئنافٌ بذكر ما قالوه في الدنيا. ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ الضمير للحياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

(٣٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مجاز عن الحبس للسؤال والتوبيخ، وقيل معناه وُقِفوا على قضاء ربهم أو جزائه، أو عرفوه حق التعريف. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه جواب قائل قال: ماذا قال ربهم حينئذ؟ والهمزةُ للتقريع على التكذيب والإشارةِ إلى البعث وما يتبعه من الثواب والعقاب. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إقرار مؤكَّد باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء. ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو ببدله.

(٣١) ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ إذ فاتهم النعم واستوجبوا العذاب المقيم. ولقاءُ الله البعثُ وما يتبعه[3]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ غاية لكذبوا لا لخسر، لأن خسرانهم لا غايةَ له. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ونصبُها على الحال، أو المصدر فإنها نوع من المجي. ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا﴾ أي تعالَيْ فهذا أوانُك. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قصّرنا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا، أُضمِرت وإن لم يَجْرِ ذِكرها للعلم بها، أو في الساعة، يعني في شأنها والإيمان بها. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام[4]. ﴿أَلَا سَآءَ مَا

---

(١) الأنعام: «٢٨».

(٢) قوله «ما كانوا يُخفون...» آثاره على إبراز صريح التكذيب كما في قوله تعالى: «هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون» ـ الرحمن: ٤٣ ـ وذلك لمراعاة ما في مقابلته من الإبداء (س٣/ ١٢٣).

(٣) قوله «الذين كفروا» وضع الموصول موضع الضمير للإيذان بتسبب خسرانهم بما في حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى (س٣/ ١٢٥).

(٤) قوله: «وهم يحملون...» حال من فاعل قالوا، وفائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصوراً على ما ذكر من =

يَزِرُونَ﴾ بئس شيئاً يَزِرُونه وِزْرُهم.

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ
ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ
فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ
يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

(٣٢) ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي وما أعمالها إلا لعب ولَهْوٌ يلهي الناس ويشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية، وهو جواب لقولهم ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾[١]. ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لِدَوامها وخلوص منافعها ولذاتها. وقوله ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تنبيه على أنّ ما ليس من أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عامر ولَدارُ الآخرة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيَّ الأمرين خير[٢]. وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب بالتاء على خطاب المخاطبين به، أو تغليب الحاضرين على الغائبين.

(٣٣) ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ معنى «قد» زيادة الفعل وكثرتُه كما في قوله:

ولكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهْ

والهاء في إنه للشأن. وقرىء لَيُحْزِنُك من أحزن. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الحقيقة. وقرأ نافع والكسائي لا يُكْذِبُونَكَ، مِنْ أكْذَبَه إذا وجده كاذباً أو نسبه إلى الكذب. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولكنهم يجحدون بآيات الله ويكذبونها، فوضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أنهم ظلموا بجحودهم أو جحدوا لتمرّنهم على الظلم[٣]. والباء لتضمين الجحود معنى التكذيب. روي أن أبا جهل كان يقول: ما نكذبك وإنك عندنا لصادق وإنما نكذب ما جئتنا به. فنزلت[٤].

الحسرة على ما فات بل إنهم يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال، وكذا للإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات، والسرّ فيه أن العذاب الروحاني أشد من الجسماني (س/٣/ ١٢٥).

(١) الأنعام: «٢٩».

(٢) أثبتها في الأصل على من قرأ بالياء «أفلا يعقلون».

(٣) إيراد الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه كما في قوله تعالى: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» ـ النمل: ١٤ ـ (س/٣/ ١٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦١ رقم ٣٠٦٤) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب=

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ، وفيه دليل على أن قوله: لا يكذبونك ليس لنفي تكذيبه مطلقاً. ﴿ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم فتأسَّ بهم واصبر. ﴿ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ فيه إيماء بوعد النصر للصابرين[1]. ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ لمواعيده، من قوله: ﴿ ﴾[2] لآيات[3]. ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي بعض قصصهم وما كابدوا من قومهم.

(٣٥) ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ ﴾ عَظُم وشق. ﴿ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ عنك وعن الإيمان بما جئتَ به. ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى جوف الأرض فتُطْلع لهم آية، أو مصعداً تصعد به إلى السماء فتُنْزِل منها آية. وفي الأرض صفة لنفقاً، وفي السماء صفة لسُلّماً، ويجوز أن يكونا متعلقين بتبتغي، أو حالين من المستكن، وجواب الشرط الثاني محذوف تقديرُه فافعل، والجملةُ جواب الأول. والمقصودُ بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتىٰ بها رجاء إيمانهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا ولكن لم تتعلق به مشيئته، فلا تتهالَكْ عليه. والمعتزلة أوّلوه بأنه لو شاء لجمعهم على الهدىٰ بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة. ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ بالحرص على ما لا يكون والجزعِ في مواطن الصبر، فإن ذلك من دأب الجهلة.

(٣٦) ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ إنما يُجيب الذين يسمعون بفهم وتأمّل، لقوله تعالى: ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[4] وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون. ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ فيُعْلِمهم حين لا ينفعهم الإيمان. ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء.

(٣٧) ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي آية بما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أُنْزِل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عناداً ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى

عن علي به.
وأخرجه الترمذي أيضاً من طريق عبدالرحمٰن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق عن ناجية به، وقال الترمذي «لم يذكر فيه عن علي وهذا أصح».
قلت: وهذا الموقوف على ناجية، أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ١٨٢).
من طريق يحيى بن آدم عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية به.
وأما الموصول فقد أخرجه الحاكم في «المستدرك (٢/ ٣١٥) من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن ناجية عن علي به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: «ما خرجا لناجية شيئاً» ثم تعقّبه الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط في تخريج جامع الأصول (٢/ ١٣٢) التعليقة رقم (٢): بقوله «وهذا صحيح، فإن الشيخين لم يخرجا لناجية بن كعب شيئاً، ولكنه تابعي ثقة، فالحديث صحيح، وإن لم يكن على شرطهما» هـ.

(١) الالتفات إلى نون العظمة لإبراز الاعتناء بشأن النصر (س٣/ ١٢٨).
(٢) الصافات: «٣٧».
(٣) قوله «لكلمات الله» الالتفات فيه إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية من موجبات أن لا يغالبه أحد في فعل ولا يقع منه تعالى خُلف في قول (س٣/ ١٢٨).
(٤) ق: «٣٧».

الإيمان كنتق الجبل، أو آية إن جحدوها هلكوا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على إنزالها[1] وأنَّ إنزالها يستجلب عليهم البلاء وأن لهم فيما أنزل مندوحة عن غيره. وقرأ ابن كثير يُنْزِل بالتخفيف والمعنى واحد.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تدب على وجهها. ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في الهواء، وصفه به قطعاً لمجاز السرعة ونحوها. وقرىء ولا طائرٌ بالرفع على المحل. ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ محفوظةٌ أحوالها مقدَّرة أرزاقها وآجالها، والمقصودُ من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية. وجَمْعُ الأمم للحمل على المعنى. ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ فإنه مشتمِل على ما يجري في العالم من الجَلِيل والدقيق لم يُهمل فيه أمرُ حيوانٍ ولا جماد، أو القرآن فإنه قد دُوِّن فيه ما يُحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً. ومِنْ مزيدة، وشيء في موضع المصدر لا المفعول به، فإنَّ فَرَط لا يتعدى بنفسه وقد عُدِّي بفي إلى الكتاب. وقرىء ما فَرَطْنَا بالتخفيف. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها فيُنْصِفُ بعضَها من بعض، كما روي أنه يأخذ للجمّاء من القرناء[2]. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حشرها موتها[3].

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظم قدرته سماعاً تتأثر به نفوسهم. ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق. ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ خبر ثالث أي خابطون في ظلمات الكفر، أو في ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في الخبر. ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ من يشأ الله إضلاله يُضْلله، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة. ﴿وَمَن

---

(١) وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعناداً (س/٣/ ١٣١).

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧ رقم ٦٠/ ٢٥٨٢).
وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٥، ٣٢٣، ٣٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
أن رسول الله ﷺ قال «لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاةِ الجلْحاءِ من الشاةِ القرناء».
ـ الجلحاء: التي لا قرن لها [النهاية: (١/ ٢٨٤)].
ـ الجماء: كذلك [النهاية: (١/ ٣٠٠)].

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ١٨٨) عن ابن عباس.

﴿يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشدَه إلى الهدى ويحمله عليه.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ استفهامُ تعجيب، والكافُ حرف خطاب أكّد به الضمير للتأكيد لا محل له من الإعراب لأنك تقول: أرأيتك زيداً ما شأنُه؟ فلو جعلْتَ الكاف مفعولاً كما قاله الكوفيون لعدّيتَ الفعل إلى ثلاثة مفاعيل، وللزم في الآية أن يقال: أرأيتموكم بل الفعل معلق أو المفعول محذوف تقديره: أرأيتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها. وقرأ نافع أرأيتكم وأرأيتَ وأرأيتُم وأفرأيتُم وأفرأيتَ وشبهَها إذا كان قبل الراء همزة بتسهيل الهمزة التي بعد الراء، والكسائي يحذفها أصلاً، والباقون يحققونها، وحمزةُ إذا وقف وافق نافعاً. ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ كما أتىٰ مَنْ قبلكم. ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهولُها، ويدل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ وهو تبكيت لهم. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن الأصنام آلهة، وجوابه محذوف أي فادعوه.

(٤١) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصونه بالدعاء كما حكى عنهم في مواضع، وتقديمُ المفعول لإفادة التخصيص. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي ما تدعونه إلى كشفه. ﴿إِن شَآءَ﴾ أي يتفضل عليكم، ولا يشاء في الآخرة. ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت لِمَا رَكَزَ في العقول على أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدة الأمر وهوله[١].

(٤٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي قَبْلَكَ، وَمِن زائدة[٢]. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أي فكفروا وكذبوا المرسلين فأخذناهم. ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالشدة والفقر. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ والضر والآفات، وهما صيغتا تأنيث لا مذكَّر لهما: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتذللون لنا ويتوبون عن ذنوبهم.

فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا
هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ
وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ
يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٣) ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ معناه نفي تضرعهم في ذلك الوقت مع قيام ما يدعوهم أي لم يتضرعوا. ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ استدراك على المعنى وبيانٌ

---

(١) قوله «فيكشف..» توسيط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة (س٣/١٣٣).

(٢) تصدير الجملة بالقسم لإظهار مزيد الاهتمام بمضمونه (س٣/١٣٣).

للصارف لهم عن التضرع وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابُهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

(٤٤) ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا به. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أنواع النعم مراوحةً عليهم بين نوبتي الضراء والسراء وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة، أو مكراً بهم لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مكر بالقوم ورب الكعبة»[١]. وقرأ ابن عامر فَتَّحْنا بالتشديد في جميع القرآن، ووافقه يعقوب فيما عدا هذا والذي في الأعراف[٢]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ أُعجبوا ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من النعم ولم يزيدوا غير البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه سبحانه وتعالى. ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ متحسرون آيسون[٣].

(٤٥) ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ﴾ أي آخرُهم بحيث لم يبقَ منهم أحد، مِنْ دَبَرَه دُبْراً ودُبُوراً إذا تبعه. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على إهلاكهم، فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها.

(٤٦) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أصمكم وأعماكم[٤]. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ بأن يغطي عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم. ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي بذلك، أو بما أخذ وختم عليه، أو بأحد هذه المذكورات. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نكررها تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين. ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يُعرضون عنها، و«ثم» لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

(٤٧) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ من غير مقدمة. ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بتقدمة أمارة تؤذن بحلوله، وقيل ليلاً أو نهاراً. وقرىء بَغَتَة أو جَهَرَة. ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ أي ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب. ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولذلك صح الاستثناء المفرغ منه. وقرىء يَهلك بفتح الياء[٥].

(٤٨) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ المؤمنين بالجنة[٦]. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليُقترَح عليهم ويُتلهى بهم. ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب إصلاحه على ما شرع لهم. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوات الثواب[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٢٧٠) ـ.
(٢) الأعراف: «٩٦».
(٣) قوله «فتحنا» في ترتيب الفتح على النسيان المذكور إشعار بأن التذكر في الجملة غير خال عن النفع (س٣/ ١٣٣).
وقوله «فإذا هم مظلمون» إيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على تلك الحال الفظيعة (س٣/ ١٣٤).
(٤) وتقديم السمع على البصر لأن مورد الآيات في المسموعات (س٣/ ١٣٤).
(٥) وتقديم البغتة على الجهرة لكونها أهول وأفظع (س٣/ ١٣٥).
(٦) قوله «نرسل» بصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الإلهية (س٣/ ١٣٥).
(٧) وتقديم نفي الخوف على نفي الحزن مراعاة للمقام (س٣/ ١٣٥).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

(٤٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماسّاً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستُغنِي بتعريفه عن التوصيف. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

(٥٠) ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ مقدوراته أو خزائنِ رزقه. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ ما لم يُوحَ إلي ولم يُنْصَبْ عليه دليل، وهو من جملة المقول. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي من جنس الملائكة، أو أقدر على ما يقدرون عليه. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ تبرأ عن دعوى الألوهية والمُلْكية وادّعى النبوةَ التي هي من كمالات البشر رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مُدَّعاه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مَثَلٌ للضالّ والمهتدي، أو الجاهل والعالم، أو مدعي المستحيل كالألوهية والمُلْكية ومدعي المستقيم كالنبوة[١]. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتهتدوا أو فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه.

(٥١) ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ الضمير لما يوحىٰ إليّ. ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المؤمنون المُفْرِطُون في العمل، أو المجوِّزون للحشر مؤمناً كان أو كافراً مقرّاً به أو متردداً فيه، فإن الإنذار ينفع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته. ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال مِنْ يُحشروا، فإن المخوف هو الحشر على هذه الحالة. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوا.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ بعدما أَمَرَهُ بإنذار غير المتقين ليتقوا أَمَرَهُ بإكرام المتقين وتقريبِهم وأَنْ لا يطردهم ترضيةً لقريش. روي أنهم قالوا: لو طردْتَ هؤلاء الأَعْبُد ـ يعنون فقراءَ المسلمين، كعمار وصهيب وخباب وسلمان ـ جلسنا إليك وحادثناك، فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا: فأَقِمْهُم عنّا إذا جئناك، قال: «نعم»[٢]. وروي أن عمر رضي الله عنه قال له: لو

---

(١) تكرير الأمر بـ«قُل» لتثنية التبكيت وتأكيد الإلزام (س٣/ ٣٠٢).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٦١ رقم٧): «رواه البيهقي في الشعب في أواخره. والواحدي في «الأسباب» من رواية أبي مشجعة بن ربعي عن سلمان قال: «جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينه بن بدر، والأقرع بن حابس، وذووهم فقالوا يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبا ذر، وسلمان، وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك.

فأنزل الله تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ـ إلى قوله ـ للظالمين ناراً» فقام النبي ﷺ يلتمسهم. الحديث».

=

فعلتَ حتى ننظر إلى ماذا يصيرون، فدعا بالصحيفة وبعلي رضي الله تعالى عنه ليكتب، فنزلت[1]. والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام، وقيل صلاتا الصبح والعصر. وقرأ ابن عامر بالغُدْوَة هنا وفي الكهف[2]. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حال من يَدْعون أي يدعون ربهم مخلصين فيه. قَيّد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر، ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامَهم وينافي إبعادَهم. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ليس عليك حسابُ إيمانهم[3]، فلعل إيمانهم عند الله أعظم من إيمان مَنْ تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا، أوليس عليك اعتبارُ بواطنهم وإخلاصهم لِمَا اتّسموا بسيرة المتقين وإنْ كان لهم باطن غير مرضي كما ذكره المشركون وطعنوا في دينهم فحسابُهم عليهم لا يتعداهم إليك كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم، وقيل ما عليك من حساب رزقهم أي من فقرهم، وقيل الضمير للمشركين والمعنى: لا تؤاخَذُ بحسابهم ولا هم بحسابك حتى يَهُمّك إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعاً فيه. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فتبعدهم وهو جواب النفي ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب النهي، ويجوز عطفه على فتطردهم على وجه التسبب، وفيه نظر.

= ولابن ماجه (٢/ ١٣٨٢ ـ ١٣٨٣ رقم ٤١٢٧)، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير (٤/ ٧٥ ـ ٧٧ رقم ٣٦٩٣) ـ وأبو نعيم في ترجمة خباب ـ الحلية (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧) وإسحاق وأبو يعلى، والبزار، والبيهقي. في الدلائل (١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣) والواحدي ـ في أسباب النزول ص٢١٧ ـ من طريق أبي الكنود عن خباب في قوله تعالى «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء ـ الآية ـ إلى: الظالمين» قال: جاء الأقرع وعيينة فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب، وبلال، وعمار وخباب قاعداً في ناس من ضعفاء المؤمنين. فذكره مطولاً» هـ.

● وأورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣٩) وقال عقبة: ورواه ابن جرير (٥/ ج٧/ ٢٠١) من حديث أسباط به، وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر» هـ.

● وأخرج مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٨ رقم ٤٥، ٤٦/ ٢٤١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نَفَر، فقال المشركون للنبي ﷺ اطرُدْ هؤلاء لا يجترئون علينا.

قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هُذيل، وبلال ورجلان لستُ أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع. فحدَّث نفسه.

فأنزل الله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه».

● وأخرج أحمد (١/ ٤٢٠) وابن جرير (٥/ ج٧/ ٢٠٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٨ رقم ١٠٥٢٠) من حديث عبدالله بن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده أناس من المسلمين وصهيب وخباب، فقالوا يا محمد أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا؟ لو طردت هؤلاء لاتبعناك. فأنزل الله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» إلى قوله «أليس الله بأعلم بالشاكرين» وأورده الهيثمي في «المجتمع» (٧/ ٢١) وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ٢٠٢) والواحدي في «الأسباب» ص٢١٨ في قوله عكرمة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٦١ رقم٨) «هو في حديث خباب المذكور آنفاً دون مشورة عمر واعتذاره» هـ.

(٢) الكهف: «٢٨».

(٣) وتقديم «عليك» في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به ـ عليه السلام ـ إذ هو الداعي إلى تصديه ـ عليه السلام ـ لحسابهم (س٣/ ١٣٩).

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفَتْن، وهو اختلاف أحوال الناس في أمور الدنيا. فتنّا أي ابتلينا بعضهم ببعض في أمر الدين فقدّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش بالسبْق إلى الإيمان. ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي أهؤلاء مَنْ أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا؟ ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء، وهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[١]. واللام للعاقبة أو للتعليل على أنّ فتنا متضمن معنى خذلنا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه وبمن لا يقع منه فيخذُله.

(٥٤) ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الذين يؤمنون هم الذين يَدْعون ربهم، وصَفَهُم بالإيمان بالقرآن واتّباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلامَ الله تعالى إليهم ويبشرَهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله بعد النهي عن طردهم إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقرَّب ولا يطرد ويعزّ ولا يُذَل ويُبَشّر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة. وقيل إن قوماً جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً، فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا، فنزلت[٢]. ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ استئناف بتفسير الرحمة. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح على البدل منها. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ في موضع الحال أي من عمل ذنباً جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، كعمر فيما أشار إليه، أو ملتبساً بفعل الجهالة فإن ارتكاب ما يؤدي إلى الضرر من أفعال أهل السفه والجهل. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعد العمل أو السوء. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والعزم على أن لا يعود إليه. ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتحه من فتح الأول غير نافع على إضمار مبتدأ، أو خبرٌ أي فأمره أو فله غفرانه.

(٥٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين المصرين منهم والأوابين. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قرأ نافع بالتاء ونصب السبيل على معنى ولتستوضح يا محمد سبيلَهم فتعامل كلاً منهم بما يحق له فصّلنا هذا التفصيل،

---

(١) الأحقاف: «١١».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٠٧).

والفريابي وعبد بن حميد، وسدد في مسنده، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان مرسلاً ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٢٧٦) ـ.

قلت: ماهان هو الحنفي أبو صالح الكوفي. قال الحافظ في التقريب (٢/ ٢٢٧) ثقة قتله الحجاج سنة (٨٣هـ).

وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم برفعه على معنى ولِتَبين سبيلُهم، والباقون بالياء والرفع على تذكير السبيل فإنه يذكر ويؤنث، ويجوز أن يعطف على علة مقدرة أي نفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين[(١)].

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ صُرِفت وزُجِرت بما نُصِب لي من الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر التوحيد. ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عن عبادة ما تعبدون من دون الله، أو ما تدّعونها آلهةً أي تسمونها. ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ تأكيد لقطع أطماعهم وإشارةٌ إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم واستجهالٌ لهم، وبيانٌ لمبدأ ضلالهم وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى، وتنبيه لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي اتبعت أهواءكم فقد ضللت. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريض بأنهم كذلك[(٢)].

(٥٧) ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تنبيه على ما يجب اتباعه بعد ما بيّن ما لا يجوز اتباعه. والبينةُ الدلالة الواضحة التي تفصل الحق من الباطل. وقيل المراد بها القرآن والوحي، أو الحجج العقلية، أو ما يعمها. ﴿مِّن رَّبِّي﴾ من معرفته وأنه لا معبود سواه، ويجوز أن يكون صفة لبيّنة. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ الضمير لربي أي كذبتم به حيث أشركتم به غيره، أو للبينة باعتبار المعنى. ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(٣)]. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تعجيل العذاب وتأخيره. ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾[(٤)] أي القضاء الحق، أو يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع إذا صنعها، فيما يقضي من تعجيل وتأخير وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر، وأصل الحكم المنع فكأنه منع الباطل. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم «يَقُصُّ» من قص الأثر، أو من قص الخبر. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ القاضين[(٥)].

---

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالياء، أي «وليستبين» أي على تذكير الفعل.

(٢) قوله «قل لا أتبع» كرر الأمر بالقول اعتناء بشأن المأمور به، أو إيذاناً باختلاف المقولين، من حيث إن الأول حكاية لما من جهته تعالى من النهي والثاني لما من جهته ﷺ من الانتهاء عما ذكر من عبادة ما يعبدونه. وقوله «وما أنا من المهتدين» عدل للجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار (س٣/ ١٤١).

(٣) الأنفال: «٣٢».

(٤) أثبتها البيضاوي في الأصل «يقضي» وقراءة حفص المتداولة «يقص».

(٥) قوله «من ربي» في التعرض فيه لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من التشريف ورفع المنزلة=

(٥٨) ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي في قدرتي ومكنتي. ﴿ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب. ﴿ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، وانقطع ما بيني وبينكم. ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في معنى الاستدراك كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يُمْهل منهم.

(٥٩) ﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه جمع مَفْتح ـ بفتح الميم ـ وهو المخزن، أو ما يتوصل به إلى المغيبات مستعار من المفاتح الذي هو جمع مِفْتح ـ بكسر الميم ـ وهو المفتاح، ويؤيده أنه قرىء مفاتيح، والمعنى أنه المتوصل إلى المغيبات المحيط علمه بها. ﴿ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم فيُظْهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها. ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ عطف للإخبار عن تعلق علمه تعالى بالمشاهَدات على الإخبار عن اختصاص العلم بالمغيبات به. ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات. ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ معطوفات على ورقة، وقوله: ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بدل من الاستثناء الأول بدلَ الكل على أن الكتاب المبين عِلْم الله سبحانه وتعالى، أو بدلُ الاشتمال إن أريد به اللوح. وقرئت بالرفع للعطف على محل ورقة، أو رفعاً على الابتداء والخبر: ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

(٦٠) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ ينيمكم فيه ويراقبكم، استُعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز فإن أصله قبض الشيء بتمامه. ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه خص الليلَ بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد. ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ يوقظكم، أطلق البعث ترشيحاً للتوفي ﴿ فِيهِ﴾ في النهار. ﴿ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمّى له في الدنيا ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بالموت. ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه. وقيل الآية خطاب للكفرة والمعنى أنكم مُلقَوْن كالجِيَف بالليل وكاسبون للآثام بالنهار، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعمارَكم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم، ثم إليه مرجعكم بالحساب، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون بالجزاء.

(٦١) ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون.

= ما لا يخفى (س٣/ ١٤٢).

والحكمةُ فيه أن المكلف إذا عَلِم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشِم منه احتشامه مِنْ خدمِه المطلعين عليه[1]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ مَلَكُ الموت وأعوانُه. وقرأ حمزة توفّاه بالألف ممالة. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتواني والتأخير. وقرىء بالتخفيف، والمعنى: لا يجاوزون ما حدّ لهم بزيادة أو نقصان.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

(٦٢) ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه. ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ الذي يتولّى أمرهم. ﴿ٱلْحَقِّۚ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق. وقرىء بالنصب على المدح. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم لغيره فيه. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حَلْب شاة لا يشغله حساب عن حساب.

(٦٣) ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ من شدائدهما، استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتهما في الهول وإبطالِ الإبصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر. وقرأ يعقوب يُنْجِيكُم بالتخفيف والمعنى واحد. ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ معلنين ومسرين، أو إعلاناً وإسراراً. وقرأ أبو بكر هنا وفي الأعراف[2] وخِفْيَة بالكسر[3]، وقرىء خيفة. ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على إرادة القول أي تقولون لئن أنجيتنا. وقرأ الكوفيون لئن أنجانا، ليوافقَ قولَه تَدْعُونه، وهذه إشارة إلى الظُّلْمة.

(٦٤) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ شدده الكوفيون وهشام، وخففه الباقون. ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ غمّ سواها. ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد، وإنما وضع «تشركون» موضع لا تشكرون تنبيهاً على أن مِن أشرك بعبادة الله سبحانه وتعالى فكأنه لم يعبده رأساً.

(٦٥) ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل[4]. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما أغرَق فرعون وخسَف بقارون. وقيل من فوقكم أكابركم وحكامكم ومن تحت أرجلكم سفَلَتكم وعبيدكم. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم. ﴿شِيَعًا﴾ فِرَقاً متحزّبين على أهواء شتّى، فينشب

---

(١) تقديم «عليكم» على المفعول «حفظة» للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (س٣/ ١٤٤).

(٢) الأعراف: «٥٥».

(٣) أي بكسر الخاء «خِفْيَة».

(٤) وتقديم «عليكم» على المفعول الصريح «عذاباً» للاعتناء به، والمسارعة إلى بيان كون المبعوث مما يضرهم، ولتهويل أمر المؤخر (س٣/ ١٤٦).

القتال بينكم قال:

وكَتِيبَةٌ لَبسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ حتَّى إذا التَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدِي

﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ يقاتل بعضكم بعضاً. ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ بالوعد والوعيد. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾ أي بالعذاب، أو بالقرآن[١]. ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الواقع لا محالة أو الصدق. ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ وكِّل إليّ أمرُكم فأمنعكم من التكذيب أو أجازيكم، إنما أنا منذر والله الحفيظ.

(٦٧) ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ ﴾ خبرٌ يريد به إما بالعذاب أو الإيعاد به. ﴿ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ وقت استقرار ووقوع. ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عند وقوعه في الدنيا والآخرة.

(٦٨) ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها. ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فلا تجالسهم وقُم عنهم. ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ أعاد الضمير على معنى الآيات لأنها القرآن. ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي. وقرأ ابن عامر يُنَسِّينك بالتشديد. ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ بعد أن تذكره. ﴿ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي معهم، فوضع الظاهر موضع المضمر دلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام.

. (٦٩) ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ وما يلزم المتقين من قبائح أعمالهم وأقوالهم الذين يجالسونهم. ﴿ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ شيء مما يحاسبون عليه. ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾ ولكن عليهم أن يذكّروهم ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويُظهِروا كراهتها. وهو يحتمل النصب على المصدر، والرفع على ولكن عليهم ذكرى، ولا يجوز عطفه على محل «من شيء» لأن مِنْ حسابهم يأباه ولا على «شيء» لذلك ولأن مِنْ لا تزاد في الإثبات. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يجتنبون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم، ويحتمل أن يكون الضمير للذين يتقون والمعنى: لعلهم يثبتون على تقواهم ولا تنثلم بمجالستهم. روي: أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزءوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، ونطوف، فنزلت.

---

١) وإيرادهم بلفظ «قومُكَ» لبيان كمال سوء حالهم، فإن تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه ـ عليه السلام ـ مما يقضي بغاية عتوهم ومكابرتهم (س٣/١٤٦).

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

(٧٠) ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ أي بَنَوْا أمر دينهم على التشهي وتديّنوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كُلِّفوه لعباً ولهواً حيث سَخِروا به، أو جعلوا عيدَهم الذي جُعِل ميقاتُ عبادتهم زمانَ لهوٍ ولعب. والمعنى أَعْرِض عنهم ولا تبالِ بأفعالهم وأقوالهم، ويجوز أن يكون تهديداً لهم كقوله تعالى: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾[١] ومَنْ جعله منسوخاً بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم وترك التعرض لهم. ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ حتى أنكروا البعث. ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ ﴾ أي بالقرآن. ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ مخافة أن تُسْلَمَ إلى الهلاك وتُرهن بسوء عملها. وأصل الإبسال والبَسْل المنع، ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تفلت منه، والباسل الشجاع لامتناعه من قِرْنه، وهذا بَسْل عليك أي حرام. ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يدفع عنها العذاب. ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ وإن تَفْدِ كل فداءٍ، والعدلُ الفدية لأنها تعادل المفدي وههنا الفداء. وكل نصب على المصدرية. ﴿ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ الفعل مسند إلى منها لا إلى ضميره بخلاف قوله: ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾[٢] فإنه المفدى به. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي سُلِّموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة. ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ تأكيد وتفصيل لذلك، والمعنى هم بين ماء مغلي يتجرجر في بطونهم ونارٍ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ ﴾ أنعبد. ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ ما لا يقدر على نفعنا وضرنا. ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا ﴾ ونرجع إلى الشرك[٣]. ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ فأنقذنا منه ورزقنا الإسلام. ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ كالذي ذهبت به مردة الجن في المهامه، استفعال من هوى يهوي هوياً إذا ذهب. وقرأ حمزة استهواه بألف ممالة. ومحل الكاف النصب على الحال من فاعل نُرَدّ أي: مُشْبهين الذين استهوته، أو على المصدر أي رداً مثل ردّ الذي استهوته. ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ متحيراً ضالاً عن الطريق. ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ ﴾ لهذا المستهوي رفقة. ﴿ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ﴾ إلى أن يهدوه الطريق المستقيم، أو إلى الطريق المستقيم، وسماه هدى تسمية للمفعول بالمصدر. ﴿ ٱئْتِنَا ﴾ يقولون له ائتنا. ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى

---

(١) المدثر: «١١».

(٢) البقرة: «٤٨».

(٣) وإيثار لفظ «نُرَدّ» على نرتد لتوجيه الإنكار إلى الارتداد برد الغير تصريحاً بمخالفة المضلين وقطعاً لأطماعهم الفارغة وإيذاناً بأن الارتداد من غير راد ليس في حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفيه وإنكاره (س٣/١٤٩).

﴿ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام[١]. ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وحده وما عداه ضلال. ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من جملة المقول، عطفٌ على إن هدى الله، واللام لتعليل الأمر أي أمرنا بذلك لنسلم وقيل هي بمعنى الباء وقيل هي زائدة.

وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

(٧٢) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ عطف على لنسلم أي للإسلام ولإقامة الصلاة، أو على موقعه كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا الصلاة. روي: أن عبدالرحمن بن أبي بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت[٢]. وعلى هذا كان أمر الرسول ﷺ بهذا القول إجابة عن الصديق رضي الله تعالى عنه تعظيماً لشأنه وإظهاراً للاتحاد الذي كان بينهما. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

(٧٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قائماً بالحق والحكمة. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ جملة اسمية قُدِّم فيها الخبر أي قولُه الحق يوم يقول، كقولك: القتال يوم الجمعة، والمعنى أنه الخالق للسموات والأرضين وقوله الحق نافذ في الكائنات. وقيل يومَ منصوب بالعطف على السموات، أو الهاء في واتقوه، أو بمحذوف دل عليه بالحق، وقولُه الحقُّ مبتدأً وخبر أو فاعل يكون على معنى. وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه كن فيكون، والمراد به حين يكوِّن الأشياءَ ويُحْدِثها أو حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشرَ الأموات وإحياءَها. ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٣]. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي هو عالم الغيب. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ كالفذلكة للآية[٤].

(٧٤) ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو عطف بيان لأبيه، وفي كتب التواريخ أن اسمه تارح فقيل هما عَلَمان له كإسرائيل ويعقوب، وقيل العَلَم تارِح وآزرُ وصف معناه الشيخ أو المعوج، ولعل منع صرفه لأنه أعجمي حمل على موازنه أو نعت مشتق من الأزر أو الوزر، والأقرب أنه عَلَم أعجمي على فاعِل كعابِر وشالخ، وقيل اسم صنم يَعْبُدُه فلقِّب به للزوم عبادته، أو أطلق عليه بحذف المضاف.

---

(١) وتكرير الأمر بـ«قل» للاعتناء بشأن المأمور (س٣/ ١٥٠).

(٢) أورده المناوي في الفتح السماوي ص٦١٠ وسكت عنه، وقال ابن همات: لم أقف عليه.

(٣) غافر: «١٦».

(٤) قوله تعالى: «وله الملك يوم ينفخ في الصور» قيد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة في الدنيا المصححة للملكية المجازية في الجملة (س٣/ ١٥١).

وقيل المراد به الصنم ونصبُه بفعل مضمر يفسره ما بعده أي أتعبد آزر ثم قال: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تفسيراً وتقريراً، ويدل عليه أنه قرىء أَأَزْراً تتخذ أصناماً بفتح همزة آزر وكسرها وهو اسم صنم، وقرأ يعقوب بالضم على النداء وهو يدل على أنه علم. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق. ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر الضلالة.

وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(٧٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ومثلُ هذا التبصير نبصره، وهو حكاية حال ماضية. وقرىء تُري بالتاء ورفع الملكوت ومعناه تبصره دلائل الربوبية. ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ربوبيتها وملكها، وقيل عجائبها وبدائعها. والملكوت أعظم الملك، والتاء فيه للمبالغة. ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي ليستدل وليكون، أو وفعلنا ذلك ليكون.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ تفصيل وبيان لذلك، وقيل عطف على قال ابراهيم، وكذلك نُري اعتراضٌ فإن أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال. وجن عليه الليل ستَرَه بظلامه. والكوكب كان الزهرة أو المشتري. وقوله: هذا ربي على سبيل الوضع فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصمُ ثم يَكُرُّ عليه بالإفساد، أو على وجه النظر والاستدلال، وإنما قاله زمانَ مراهقته أَوْ أول أوان بلوغِه. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب. ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ فضلاً عن عبادتهم فإن الانتقال والاحتجاب بالأستار يقتضي الأمان والحدوث وينافي الألوهية.

(٧٧) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ مبتدئاً في الطلوع. ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ استعجز نفسَه واستعان بربه في دَرْك الحق ـ فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه ـ إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً لتغير حاله لا يصلُح للألوهية، وأن من اتخذه إلهاً فهو ضال.

(٧٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ ذَكَّر اسم الإشارة لتذكير الخبر وصيانةً للرب عن شبهة التأنيث. ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ كبّره استدلالاً أو إظهاراً لشبهة الخصم. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدِث يحدثها ومخصص يخصصها بما تختص به، ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

(٧٩) ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإنما احتج بالأفول دون البزوغ مع أنه أيضاً انتقال لتعدد دلالته، ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال.

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ
رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ وخاصموه في التوحيد. ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه وتعالى. وقرأ نافع وابن عامر بخلاف عن هشام بتخفيف النون. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ إلى توحيده. ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ أي لا أخاف معبوداتكم في وقت لأنها لا تضر بنفسها ولا تنفع. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها، ولعله جواب لتخويفهم إياه من آلهتهم وتهديد لهم بعذاب الله. ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ كأنه علة الاستثناء، أي أحاط به علماً فلا يبعُد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها[1]. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز[2].

(٨١) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ ولا يتعلق به ضر. ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ وهو حقيق بأن يُخاف منه كلَّ الخوف، لأنه إشراك للمصنوع بالصانع وتسوية بين المقدور العاجز بالقادر الضار النافع. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ ما لم ينزل بإشراكه كتاباً، أو لم ينصِب عليه دليلاً. ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ أي الموحدون أو المشركون، وإنما لم يقل أيُّنا أنا أم أنتم احترازاً من تزكية نفسه[3]. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحق أن يخاف منه.

(٨٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ استئناف منه أو من الله بالجواب عما استُفهم عنه، والمراد بالظلم ههنا الشرك لما روي أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»[4] وليس الإيمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الإشراك به. وقيل المعصية.

(٨٣) ﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أو من قوله: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ إليه. ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أرشدْناه إليها، أو علمناه

---

(١) وإظهار لفظ «ربي» في موضع الإضمار لتأكيد المعنى المذكور والاستلذاذ بذكره تعالى (س٣/ ١٥٥).

(٢) وفي إيراد لفظ التذكر دون التفكر ونظائره إشارة إلى أن أمر أصنامهم مركوز في العقول لا يتوقف إلا على التذكر (س٣/ ١٥٥).

(٣) وجيء بصيغة التفضيل «أحقّ» المشعرة باستحقاقهم له في الجملة لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الإنصاف (س٣/ ١٥٦).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٨٧ رقم ٣٢) ومسلم (١/ ١١٤ رقم ١٢٤) والترمذي (٥/ ٢٦٢ رقم ٣٠٦٧) وأحمد في المسند (رقم: ٣٥٨٩ ـ شاكر) والطبري (رقم: ١٣٤٧٦ ـ شاكر) كلهم من حديث عبدالله بن مسعود.

إياها. ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق بحجتنا إن جُعِل خبرَ تلك وبمحذوفٍ إنْ جُعِل بدله، أي: آتيناها إبراهيم حجةً على قومه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ في العلم والحكمة. وقرأ الكوفيون ويعقوب بالتنوين[١]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في رفعه وخفضه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه واستعداده له[٢].

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

(٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كلاً منهما. ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم، عدّ هداه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه وشرفُ الوالد يتعدى إلى الولد. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ الكلام فيه، وقيل لنوح عليه السلام لأنه أقرب ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم، فلو كان لإبراهيم اختص البيان بالمعدودين في تلك الآية والتي بعدها، والمذكورون في الآية الثالثة عطف على نوحاً. ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ﴾ أيوب بن أموص من أسباط عيص بن إسحاق. ﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ونجزي المحسنين جزاءً مثل ما جزينا إبراهيم برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ هو ابن مريم، وفي ذِكْره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت. ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ قيل هو إدريس جد نوح فيكون البيان مخصوصاً بمَنْ في الآية الأولى، وقيل هو من أسباط هارون أخي موسى. ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي.

(٨٦) ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ هو اليسع بن أخطوب. وقرأ حمزة والكسائي والليسع، وعلى القراءتين هو عَلَم أعجمي أُدخل عليه اللام كما أدخل على اليزيد في قوله:

رأَيْتُ الوَلِيْدَ بنَ اليَزِيدِ مُبَارَكاً ... شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الخِلافَةِ كَاهِلُهُ

﴿وَيُونُسَ﴾ هو يونس بن متّى. ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم. ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنبوة، وفيه دليل على فضلهم على مَنْ عداهم من الخلق.

(٨٧) ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ عطف على كلاً أو نوحاً أي فضلنا كلاً منهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فإن منهم من لم يكن نبياً ولا مهدياً. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ عطف على فضّلنا أو هدينا. ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تكرير لبيان ما هُدوا إليه.

---

(١) وقرأ آخرون بكسر التاء في درجات دون تنوينها، ولعله الأصل عند البيضاوي.

(٢) وفي وضع الرب موضع نون العظمة بطريق الالتفات في تضاعيف بيان أحوال إبراهيم عليه السلام إظهار لمزيد لطف وعناية به عليه السلام (س٣/ ١٥٧).

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟
ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى
خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

(٨٨) ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ إشارة إلى ما دانوا به. ﴿ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ دليل على أنه متفضل عليهم بالهداية. ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ ﴾ أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فضلهم وعلو شأنهم. ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها.

(٨٩) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يريد به الجنس. ﴿ وَٱلْحُكْمَ ﴾ الحكمة أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق. ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ والرسالة. ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أي بهذه الثلاثة. ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني قريشاً. ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ أي بمراعاتها. ﴿ قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ وهم[١] الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون ومتابعوهم. وقيل هم الأنصار أو أصحاب النبي ﷺ، أو كل من آمن به، أو الفرس. وقيل[٢] الملائكة.

(٩٠) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم. ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ فاختص طريقهم بالاقتداء، والمراد بهداهم ماتوافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلَف فيها فإنها ليست هدًى مضافاً إلى الكل ولا يمكن التأسي بهم جميعاً، فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبِّد بشرع من قبله. والهاء في اقْتَدِهِ للوقف ومَنْ أثبتها في الدَّرْج ساكنة كابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم أجرى الوصل مجرى الوقف، ويحذف الهاء في الوصل خاصة حمزة والكسائي، وأشبَعَها بالكسر ابنُ عامر برواية ابن ذكوان على أنها كناية المصدر، وكسرها بغير إشباع برواية هشام. ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ أو القرآن. ﴿ أَجْرًا ﴾ جَعْلاً من جهتكم كما لم يسأل من قبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أُمر بالاقتداء بهم فيه. ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي التبليغ أو القرآن أو الغرض. ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ إلا تذكير وموعظة لهم.

(٩١) ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد. ﴿ إِذْ قَالُوا۟ مَآ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٦٥) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٦٤) عن أبي رجاء.
وأورده السيوطي في «الدر» (٣/ ٣١٢) ونسبه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام وذلك من عظائم رحمته وجلائل نعمته، أو في السخط على الكفار وشدة البطش بهم حين جَسَرُوا على هذه المقالة، والقائلون هم اليهود قالوا ذلك مبالغةً في إنكار إنزال القرآن بدليل نقض كلامهم وإلزامِهم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾. وقراءةُ الجمهور: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بالتاء، وإنما قرأ بالياء ابنُ كثير وأبو عمرو حملاً على قالوا وما قدروا[١]، وتضمن ذلك توبيخُهم على سوء جهلهم بالتوراة وذمهم على تجزئتها بإبداءِ بعضٍ انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرقة وإخفاءِ بعضٍ لا يشتهونه. وروي أن مالك بن الصيف قاله لما أغضبه الرسولُ ﷺ بقوله: «أُنشدك اللهَ الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله يَبْغُض الحبْر السمين؟» قال: نعم، إن الله يبغُض الحبر السمين، قال عليه الصلاة والسلام: «فأنت الحَبْر السمين»[٢]. وقيل هم المشركون، وإلزامُهم بإنزال التوراة لأنه كان من المشهورات الذائعة عندهم، ولذلك كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾[٣]. ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ على لسان محمد ﷺ. ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ زيادة على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم، ونظيرُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٤]. وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي أنزله اللهُ أو اللهُ أنزله، أمرَه بأن يجيب عنهم إشعاراً بأن الجواب متعين لا يمكن غيره وتنبيهاً على أنهم بُهِتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب. ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ في أباطيلهم فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من هم الأول ـ والظرف صلة ذرهم أو يلعبون ـ، أو حال من مفعوله، أو فاعلِ يلعبون، أو من هم الثاني والظرف متصل بالأول.

(٩٢) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع. ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني التوراة أو الكتب التي قبله. ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ عطف على ما دل عليه مبارك أي للبركات ولِتنذر، أو علةٌ لمحذوف أي ولتنذر أهل أمّ القرى أنزلناه. وإنما سميت مكةُ بذلك لأنها قِبْلةُ أهل القرى ومَحَجُّهم ومجتمعُهم وأعظم القرى شأناً، وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها، أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء أي ولينذر الكتاب. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فإن مَنْ صدَّق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزالُ الخوفُ يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبي والكتاب، والضمير يحتملهما ويحافظ على الطاعة. وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان.

---

(١) قراءتهم بالياء في: تجعلونه.. ويُبدونها... ويُخفون.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/٢٦٧) عن سعيد بن جبير مرسلاً وفي سنده ابن حميد ضعيف.
وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٢٠ بدون سند، عن سعيد بن جبير.
● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/٢٦٧) عن عكرمة نحوه وفي سنده «سنيد» وهو ضعيف.

(٣) الأنعام: «١٥٧».

(٤) النمل: «٧٦».

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

(٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنه بَعَثَه نبياً كمسيلمة[١] والأسود العنسي[٢]، أو اختلق عليه أحكاماً كعمرو بن لحيّ ومُتابعيه[٣]. ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبدالله بن سعد بن أبي سرح[٤] كان يكتب لرسول الله ﷺ، فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[٥] فلما بلغ قولَه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾[٦]، قال عبدالله: فتبارك الله أحسن الخالقين، تعجباً من تفصيل خلق الإنسان فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتبها فكذلك نزلت» فشكّ عبدالله وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال[٧]. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ كالذين قالوا: «لو نشاء لقلنا مثل هذا»[٨]. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ حذف مفعولَه لدلالة الظرف عليه، أي ولو ترى الظالمين. ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ شَدَائده، مِنْ غمره الماءُ إذا غشيه. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو

---

(١) مسيلمة الكذّاب من بني حنيفة، قاتلهم المسلمون بقيادة خالد وهم يومئذٍ أكثر العرب فاستشهد خلق كثير، وهزم الله بني حنيفة وقُتِلَ مسيلمة. قتله وحشي بحربةٍ.
[تاريخ الإسلام للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين ـ ص٣٩، وتاريخ خليفة ص١٠٩].

(٢) الأسود العنسي: هو الذي غلب على صنعاء اليمن وقتل باذان عامل النبي ﷺ واستصفى امرأته المرزبانة لنفسه فتزوجها، وكانت تكرهه لما صنع بقومها. وخططت لقتله وتم لها ذلك.
[المعرفة والتاريخ: للبسوي (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) وتاريخ خليفة ص١١٦ ـ ١١٧].

(٣) هو عمرو بن ربيعة أبو خزاعة، وهو أول من ولى البيت منهم، ثم رحل إلى قومه بالشام ورأى الأصنام تعبد فأعجبته عبادتها، وقدم مكة بهبل، ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقته الحنيفية. . .
وعمرو بن لحي أول من بحر البحيرة، وسيب السائبة، وجعل الوصيلة والحام.
[«الأوائل» لأبي هلال العسكري ص٦٠ ـ ٦٢].

(٤) هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح الأموي هو أخ لعثمان رضي الله عنه من الرضاعة وَلاَّه عثمان على مصر، وقد فتحها مع عمرو بن العاص، وفتح في زمن ولايته على مصر بلاد إفريقية، واغتنم مالاً كثيراً، توفي في حالة الصلاة واختلف في سنة وفاته وصحح ابن كثير سنة ست وثلاثين، وكذا ابن كثير.
[الإصابة (٢/ ٣١٦ رقم ٤٧١١) وأسد الغابة (٣/ ٢٥٩ رقم ٢٩٧٤)].

(٥) المؤمنون: «١٢».

(٦) المؤمنون: «١٤».

(٧) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص٢٢٠ من قول ابن عباس في رواية الكلبي وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ٢٧٣) من رواية أحمد بن المفضل الحفري عن أسباط عن السدي بزيادة في آخره.
قلت: الحفري هذا صدوق شيعي في حفظه شيء: قاله ابن حجر في «التقريب» (١/ ٢٦ رقم ١٢٣).
● واعلم أن عبدالله بن سرح ارتد ثم إنه أسلم وحسن إسلامه.
انظر «عيون الأثر» لابن سيد الناس (٢/ ١٧٥).

(٨) الأنفال: «٣١».

أَيْدِيهِمْ﴾ بقبض أرواحهم كالمتقاضي الملظ[١]، أو بالعذاب. ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أي يقولون لهم أخرجوها إلينا من أجسادكم تغليظاً وتعنيفاً عليهم، أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يريدون وقت الإماتة، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له. ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان يريدون العذاب المتضمن لشدة وإهانة، فإضافته إلى الهُون لعراقته وتمكنه فيه. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ كادعاء الولد والشريك له ودعوى النبوة والوحي كاذباً. ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ
ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

(٩٤) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء. ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه من الدنيا، أو عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم، وهو جمع فَرْد والألف للتأنيث كَكُسالى. وقرىء فُرَاداً كرُخال وفُرَاد كثلاث وفَرْدَى كسكرى. ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بدل منه أي على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد، أو حال ثانية إن جُوِّز التعدد فيها، أو حال من الضمير في فرادى أي مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلاً بهما، أو صفة مصدر جئتمونا أي مجيئاً كما خلقناكم. ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشُغلتم به عن الآخرة. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ما قدمتم منه شيئاً ولم تحتملوا نقيراً. ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي شركاء لله في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم. ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي تقطع وصلُكم وتشتت جمعكم. والبَيْنُ من الأضداد يستعمل للوصل والفصل، وقيل هو الظرف أُسند إليه الفعل اتساعاً والمعنى: وقع التقطُّع بينكم، ويشهد له قراءة نافع والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب على إضمار الفاعل لدلالة ما قبله عليه، أو أقيم مقام موصوفه وأصلُه لقد تقطع ما بينكم وقد قرىء به. ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل. ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم، أو أن لا بعث ولا جزاء.

(٩٥) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ بالنبات والشجر. وقيل المراد به الشِّقاق الذي في الحنطة والنواة. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ يريد به ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله. ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحب. ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ ومخرج ذلك من الحيوان والنبات، ذَكَرَه بلفظ الاسم حملاً على فالق الحب فإن قوله: يخرج الحي واقع موقع البيان له. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي ذلكم المحيي المميت هو الذي يحق له العبادة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون عنه إلى غيره.

(٩٦) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ شاقُّ عمودَ الصبح عن ظلمة الليل أو عن بياض النهار، أو شاقّ ظُلْمَة

(١) الملظّ: أي الملحّ الذي يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة من غير إمهال.

الإصباح وهو الغَبَش الذي يليه. والإصباح في الأصل مصدر أصبح إذا دخل في الصباح سمي به الصبح. وقرىء بفتح الهمزة على الجمع وقرىء فالقَ الإصباح بالنصب على المدح. ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ يسكن إليه التَّعِبُ بالنهار لاستراحته فيه؛ مِنْ سكن إليه إذا اطمأن إليه استئناساً به، أو يَسْكُن فيه الخلق من قوله تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾[1]. ونصبُه بفعل دل عليه «جاعل» لا به[2] فإنه في معنى الماضي، ويدل عليه قراءة الكوفيين وجَعَلَ الليلَ حَمْلاً على معنى المعطوف عليه فإن فالقَ بمعنى فَلَق ولذلك قرىء به، أو به[3] على أن المراد منه جَعْلٌ مستمر في الأزمنة المختلفة وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ عطفاً على محل الليل ويشهد له قراءتهما بالجر، والأحسنُ نصبهما بجَعَلَ مقدراً. وقرىء بالرفع على الابتداء، والخبرُ محذوف أي مجعولان. ﴿حُسۡبَانٗاۚ﴾ أي على أدوار مختلفة يُحْسَبُ بهما الأوقاتُ ويكونان علمَيْ الحسبان، وهو مصدر حَسَبَ ـ بالفتح ـ كما أن الحِسْبان ـ بالكسر ـ مصدر حَسِب، وقيل جمع حساب كشِهَاب وشُهبان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً، أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم. ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص. ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما والأنفع من التداوير الممكنة لهما.

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾

(٩٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ خلقها لكم. ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ في ظلمات الليل في البر والبحر وإضافتُها إليهما للملابسة، أو في مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة، وهو إفراد لبعض منافعها بالذكر بعد ما أجملها بقوله «لكم» ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بيناها فَصْلاً فَصْلاً. ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٩٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ أي فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض، أو موضع استقرار واستيداع[4]. وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر القاف على أنه اسم فاعل. والمستودَع اسم مفعول أي

(١) يونس: ٦٧.

(٢) الضمير يعود على (جاعل).

(٣) أي منصوب به أي بجاعل.

(٤) والتعبير عن كونهم في الأصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعي، كما أن التعبير عن كونهم في الأرحام أو تحت الأرض بالاستيداع لأنهما ليس بمقرهم الطبيعي (س٣/ ١٦٥).

فمنكم قارّ ومنكم مستودَع، لأن الاستقرار منّا دون الاستيداع. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ذَكَرَ مع ذِكْر النجوم «يعلمون» لأن أمرَها ظاهر، ومع ذِكْر تخليق بني آدم «يفقهون» لأن إنشاءَهم من نفس واحدة وتصريفَهم بين أحوالٍ مختلفة دقيقٌ غامض يحتاج إلى استعمالِ فطنة وتدقيق نظر.

(٩٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب، أو من جانب السماء. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على تلوين الخطاب. ﴿بِهِۦ﴾ بالماء. ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نبت كل صنف من النبات. والمعنى: إظهارُ القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المفنَّنة المَسْقية بماء واحد، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾[1]. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات، أو الماء. ﴿خَضِرًا﴾ شيئاً أخضر، يقال أخضر وخَضِر كأعْور وعَوِر، وهو الخارج من الحبة المتشعب. ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخَضِر. ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل. ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان، أو من النخل شيء من طلعها قنوان، ويجوز أن يكون من النخل خبرُ قنوان ومِنْ طلعِها بدلٌ منه، والمعنى: وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو الأعْذاق جمع قِنْوٍ كصِنْوان جمع صِنْوٍ. وقرىء بضم القاف كذئب وذُؤبان، وبفتحها على أنه اسم جمع إذ ليس فَعْلان من أبنية الجمع. ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة من المتناول، أو مُتَلَفة قريب بعضها من بعض. وإنما اقتصر على ذكرها عن مقابلها لدلالتها عليه وزيادة النعمة فيها. ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ عطف على نبات كل شيء. وقرأ نافع بالرفع على الابتداء أي ولكم أو ثم جنات أو من الكرم جناتٌ، ولا يجوز عطفه على قنوان إذ العنب لا يخرج من النخل. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ أيضاً عطفٌ على نبات، أو نصب على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم. ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ حالٌ من الرمان أو من الجميع، أي بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة والقدر واللون والطعم. ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك. وقرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم، وهو جمع ثمرة كخَشَبَة وخَشَب أو ثمار ككتاب وكتب. ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثَمَرَه كيف يُثْمِر ضئيلاً لا يكاد ينتفع به. ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ وإلى حالِ نضجه أو إلى نضيجه كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة، وهو في الأصل مصدر يَنَعَتِ الثمرُ إذا أدركت وقيل جمع يانع كتاجر وتَجْر. وقرىء بالضم وهو لغة فيه، ويانعه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على وجود القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المتفننة من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ندّ يعارضه أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾

(١٠٠) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ أي الملائكةَ بأنْ عبدوهم وقالوا الملائكة بناتُ الله؛ وسماهم جناً لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم، أو الشياطينَ لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشيطانُ خالق الشر وكل ضار كما هو رأي

---

(١) الرعد: «٤». وأثبتها على غير قراءة حفص عن عاصم. وقد قرأ بها قراء. وعند حفص «يُسقى».

الثنوية. ومفعولا جعلوا: لله شركاء؛ والجنَّ بدل من شركاء، أو شركاءَ الجنَّ، ولله متعلق بشركاء أو حالٌ منه. وقرىء الجنُّ بالرفع كأنه قيل مَنْ هم فقيل الجن، والجنِّ بالجر على الإضافة للتبيين. ﴿وَخَلَقَهُمْۖ﴾ حال بتقدير قد، والمعنى وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق. وقرىء وخَلْقَهُم عطفاً على الجن أي وما يخلقونه من الأصنام أو على شركاء أي وجعلوا له اختلافهم للإفك حيث نسبوه إليه. ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ افتعلوا وافتروا له. وقرأ نافع بتشديد الراء للتكثير، وقرىء وحرّفوا أي وزَوّروا. ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ﴾ فقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكةُ بنات الله. ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه ويروا عليه دليلاً، وهو في موضع الحال من الواو أو المصدر أي خرقاً بغير علم. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وهو أن له شريكاً أو ولداً.

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، أو إلى الظرف كقولهم: ثَبت الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما. وقيل معناه المبدع وقد سبق الكلام فيه، ورفعُه على الخبر والمبتدأُ محذوفٌ أو على الابتداء وخبرُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ أي من أين أو كيف يكون له ولد. ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ يكون منها الولد. وقرىء بالياء للفصل، أو لأن الاسم ضمير الله أو ضمير الشأن. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لا تخفى عليه خافية، وإنما لم يقل به لتطرق التخصيص إلى الأول. وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه: الأول: أنه من مبدعَاته السموات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره ولا نظير له فلا ولد. والثاني: أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين والله سبحانه وتعالى منزه عن المجانسة. والثالث: أن الولد كفؤ الوالد ولا كفؤَ له لوجهين: الأول أن كل ما عداه مخلوقُه فلا يكافئه. والثاني أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات ولا كذلك غيره بالإجماع.

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ. ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أخبارٌ مترادفة، ويجوز أن يكون البعض بدلاً أو صفة والبعض خبراً. ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ حكم مسبَّب عن مضمونها فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ أي وهو مع تلك الصفات متولي أموركم فكِلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم ورقيب على أعمالكم فيجازيكم عليها.

(١٠٣) ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ﴾ أي لا تحيط به. ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ جمع بصر، وهي حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث إنها محلها. واستدل به المعتزلة على امتناع الرؤية وهو ضعيف، إذ ليس الإدراك مطلق

الرؤية ولا النفي في الآية عاماً في الأوقات فلعله مخصوص ببعض الحالات ولا في الأشخاص فإنه في قوة قولنا لا كل بصر يدركه مع أن النفي لا يوجب الامتناع. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ يحيط علمه بها. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار كالأبصار، ويجوز أن يكون من باب اللفّ أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكثيف لما لا يدرَك بالحاسة ولا ينطبع فيها.

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن، سميت بها الدلالة لأنها تُجلي لها الحق وتبصرها به. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي أبصر الحق وآمن به. ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أبصر لأن نفعه لها. ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عن الحق وضل. ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وباله. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وإنما أنا منذر والله سبحانه وتعالى هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها، وهذا كلام ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام[١].

(١٠٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ومثلُ ذلك التصريف نصرف، وهو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة من الصرف وهو نقل الشيء من حال إلى حال. ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أي وليقولوا درست صرّفْنا، واللام لام العاقبة، والدَّرْس القراءة والتعلم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو دارستَ أي دارست أهل الكتاب وذاكرتَهم، وابنُ عامر ويعقوب دَرَسَتْ من الدروس أي قَدِمت هذه الآيات وعَفَت كقولهم أساطيرُ الأولين، وقرىء دَرُسَتْ بضم الراء مبالغة في درست، ودُرِسَتْ على البناء للمفعول بمعنى قرئت أو عُفِيت، ودَارَسَتْ بمعنى دَرَسْتَ أو دارستِ اليهودُ محمداً ﷺ، وجاز إضمارهم بلا ذكر لشهرتهم بالدراسة، ودرسَنْ أي عنون ودرس أي درس محمد ﷺ ودارسات أي قديمات أو ذوات درس كقوله تعالى ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٢]. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ اللام على أصله لأن التبيين مقصود التصريف. والضمير للآيات باعتبار المعنى، أو للقرآن وإن لم يذكَر لكونه معلوماً، أو للمصدر. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به[٣].

(١٠٦) ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ بالتدين به. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب الاتباع، أو حال مؤكدة مِنْ ربك بمعنى منفرداً في الألوهية. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت إلى آرائهم، ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمل الإعراض على ما يعم الكف عنهم.

---

(١) قوله «من ربكم» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمال اللطف بهم. وقوله «ومن عمي» عبر عنه بالعمى تقبيحاً له وتنفيراً عنه (س٣/ ١٧٠).

(٢) الحاقة: «٢١».

(٣) ووصفهم بالعلم للإيذان بغاية جهل الأولين وخلوهم عن العلم بالمرة (س٣/ ١٧١).

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٧) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ توحيدَهم وعدمَ إشراكهم. ﴿مَآ أَشْرَكُواْ﴾ وهو دليل على أنه سبحانه وتعالى لا يريد إيمان الكافرين وأن مراده واجب الوقوع. ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيباً. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمورهم.

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ولا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح. ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله سبحانه وتعالى وبما يجب أن يذكر به. وقرأ يعقوب عُدُوّاً يقال عدا فلان عَدْواً وعُدُوّاً وعداء وعدواناً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام كان يطعن في آلهتهم فقالوا لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجُون إلهك، فنزلت[1]. وقيل كان المسلمون يسبونها فنُهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله سبحانه وتعالى[2]، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شر. ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يُمَكِّنهم منه ويحملهم عليه توفيقاً وتخذيلاً، ويجوز تخصيص العمل بالشر وكلِّ أمة بالكفرة لأن الكلام فيهم، والمشبَّه به تزيينُ سبّ الله لهم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة عليه.

(١٠٩) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ مصدر في موقع الحال، والداعي لهم إلى هذا القَسَم والتأكيد فيه التحكُّمُ على الرسول ﷺ في طلب الآيات واستحقار ما رأوْا منها. ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ من مقترحاتهم. ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم، استفهام إنكار. ﴿أَنَّهَآ﴾ أي أن الآية المقترحة. ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا تدرون أنهم لا يؤمنون، أنكر السبب مبالغة في نفي المسبَّب، وفيه تنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وقيل «لا» مزيدة وقيل أنَّ بمعنى لعل إذْ قرىء لعلها، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب إنها بالكسر كأنه قال: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بما علم منهم والخطاب للمؤمنين فإنهم يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم، فنزلت. وقيل للمشركين إذ قرأ ابن عامر وحمزة «لا تؤمنون» بالتاء، وقرىء وما يشعِرهم أنها إذا جاءتهم فيكون إنكاراً لهم على حلفهم أي: وما يشعرهم أن قلوبهم حينئذٍ لم تكن مطبوعة كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات فيؤمنون بها.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/٣٠٩) عن ابن عباس.
وفي سنده «أبو صالح كاتب الليث» ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/٣٠٩) عن قتادة، بإسناده صحيح.

وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا
نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ
وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ عطف على لا يؤمنون أي: وما يشعركم أنا حينئذ نقلب أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه وأبصارهم فلا يبصرونه فلا يؤمنون بها. ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي بما أنزل من الآيات. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وندعهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين. وقرىء وَيُقَلِّبُ ويَذَرُهم على الغيبة، وتُقَلَّبُ على البناء للمفعول والإسناد إلى الأفئدة.

(١١١) ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ كما اقترحوا فقالوا: لولا أُنزِل علينا الملائكة فأتوا بآبائنا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، وقُبُلاً جمع قبيل بمعنى كفيل أي: كفلاء بما بَشروا به وأنذروا به، أو جمع قبيل الذي هو جمع قبيلة بمعنى جماعات، أو مصدر بمعنى مقابلة كقِبَلاً وهو قراءة نافع وابن عامر، وهو على الوجوه حال من كل وإنما جاز ذلك لعمومه. ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ لما سبق عليهم القضاء بالكفر. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي: لا يؤمنون في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله تعالى إيمانَهم، وقيل منقطع وهو حجة واضحة على المعتزلة[١]. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم مع أن مطلق الجهل يعمهم، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم.

(١١٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ أي كما جعلنا لك عدواً جعلنا لكل نبي سبقك عدواً، وهو دليل على أن عداوة الكَفَرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله سبحانه وتعالى وخلقه. ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ مردة الفريقين، وهو بدلٌ من عدواً، أو أول مفعولَيْ جعلنا وعدواً مفعوله الثاني، ولكلٍّ متعلق به أو حال منه. ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعضُ الجن إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض. ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ الأباطيل المموهة منه، مِنْ زخرفه إذازينه. ﴿غُرُورًا﴾ مفعول له، أو مصدر في موقع الحال. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ إيمانَهم[٢]. ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعلوا ذلك يعني معاداة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإيحاءَ الزخارف، ويجوز أن يكون الضمير للإيحاء أو الزخرف أو الغرور، وهو أيضاً دليل على المعتزلة. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وكفرهم.

---

١) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة (س٣/ ١٧٤).

٢) الالتفات فيه والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لكمال اللطف في التسلية (س٣/ ١٧٦).

وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عطف على غروراً إن جُعِل علة، أو متعلق بمحذوف أي وليكون ذلك جَعَلْنا لكل نبيٍ عدواً. والمعتزلةُ لما اضطروا فيه قالوا: اللام لام العاقبة، أو لام القسم كُسِرت لما لم يؤكد الفعل بالنون، أو لام الأمر وضعفه أظهر. والصغو: الميل، والضمير لما له الضمير في فعلوه[١]. ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم. ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ وليكتسبوا. ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

(١١٤) ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ على إرادة القول أي: قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب مَنْ يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل، وغيرَ مفعول أبتغي، وحَكَماً حال منه ويحتمل عكسه. وحَكَماً أبلغ من حاكم ولذلك لا يوصف به غير العادل. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن المعجز. ﴿مُفَصَّلًا﴾ مبيَّناً فيه الحق والباطل بحيث ينفي التخليط والالتباس. وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه وتقريره مغنٍ عن سائر الآيات. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ تأييد لدلالة الإعجاز على أن القرآن حق منزل من عند الله سبحانه وتعالى، يعلم أهلُ الكتاب به لتصديقه ما عندهم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبَهم ولم يخالط علماءهم، وإنما وَصَفَ جميعَهم بالعلم لأن أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن منه بأدنىٰ تأمل. وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب. وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم منزل بالتشديد. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل لجحود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهييج كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢] أو خطاب الرسول ﷺ لخطاب الأمة. وقيل الخطاب لكل أحد على معنى أن الأدلة لما تعاضدت على صحته فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه.

(١١٥) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بلغت الغاية أخبارُه وأحكامه ومواعيده[٣]. ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار والمواعيد. ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأقضية والأحكام. ونصبهما يحتمل التمييز، والحال، والمفعول له. ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل، أو لا أحد يقدر أن يحرفها شائعاً ذائعاً كما فعل بالتوراة على أن المراد بها القرآن، فيكون ضماناً لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٤] أو لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها. وقرأ الكوفيون ويعقوب كلمةُ ربك أي ما تكلم به أو القرآن. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون فلا يهملهم.

---

(١) وخص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة إشعاراً بأنه المدار في إصغاء أفئدتهم لما يلقى إليهم (س٣/١٧٦).
(٢) الأنعام: «١٤».
(٣) أثبت البيضاوي الأصل بالجمع على قراءة من قرأ بها «وتمت كلمات ربك».
(٤) يوسف: «١٢».

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٦) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي أكثر الناس يريد الكفار، أو الجهال، أو اتباع الهوى. وقيل الأرض أرض مكة. ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الطريق الموصل إليه، فإن الضال في غالب الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو جهالاتهم وآراؤهم الفاسدة فإن الظن يطلق على ما يقابل العلم. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون على الله سبحانه وتعالىٰ فيما ينسبون إليه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان وُصلة إليه وتحليل الميتة وتحريم البحائر، أو يُقدِّرون أنهم على شيء وحقيقتُه ما يقال عن ظن وتخمين.

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي أعلم بالفريقين، ومَنْ موصولة أو موصوفة في محل النصب بفعلٍ دل عليه أعلم لا به فإن أفعَلَ لا يُنصَب الظاهر في مثل ذلك، أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبرُ يضل والجملةُ معلقٌ عنها الفعل المقدر. وقرىء مَنْ يُضِل أي يضله الله، فتكون مَنْ منصوبة بالفعل المقدر أو مجرورة بإضافة أعلم إليه أي: أعْلَمُ المضلين من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾[1] أو من أضللته إذا وجدتَه ضالاً، والتفضيل في العلم بكثرته وإحاطته بالوجوه التي يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير.

(١١٨) ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام، والمعنى كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتفَ أنفه. ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحله الله سبحانه وتعالى واجتناب ما حرمه.

(١١٩) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأي غرض لكم في أن تتحرجوا عن أكله وما يمنعكم عنه. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[2]. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر فُصِّل على البناء للمفعول، ونافع ويعقوب وحفص حَرَّم على البناء للفاعل. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة.. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ بتحليل الحرام وتحريم الحلال. قرأ الكوفيون بضم الياء والباقون بالفتح. ﴿بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بتشهيهم من غير تعلق بدليل يفيد العلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين الحق إلى الباطل والحلالَ إلى الحرام.

---

(١) النساء: «٨٨».

(٢) المائدة: «٣».

وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

(١٢٠) ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ ما يُعلن وما يُسر، أو ما بالجوارح وما بالقلب. وقيل الزنا في الحوانيت واتخاذ الأخدان. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ يكتسبون.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ ظاهر في تحريم متروكِ التسمية عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب داود [(١)] وعن أحمد مثله، وقال مالك والشافعي بخلافه لقوله عليه الصلاة والسلام: «ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه» [(٢)] وفرق أبو حنيفة رحمه الله بين العمد والنسيان وأوّلَه بالميتة أو بما ذُكِر غير اسم الله عليه لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ فإن الفسق ما أهل لغير الله به، والضمير لِمَا ويجوز أن يكون للأكل الذي دل عليه لا تأكلوا. ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون. ﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ من الكفار. ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحُكم وتَدَعون ما قتله الله، وهو يؤيد التأويل بالميتة. ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ﴾ في استحلال ما حرم. ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ فإن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك، وإنما حسُن حذف الفاء فيه لأن الشرط بلفظ الماضي.

(١٢٢) ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ مثّل به مَنْ هداه الله سبحانه وتعالىٰ وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل. وقرأ نافع ويعقوب ميّتاً على الأصل. ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ صفتُه وهو مبتدأ خَبَرُه: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وقوله: ﴿لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ حال من المستكنّ في الظرف لا من الهاء في مَثَله للفصل، وهو مَثَل لمن بقي على الضلالة لا يفارقها بحال. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زين للمؤمنين إيمانهم. ﴿زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ والآية نزلت في حمزة وأبي جهل وقيل في عمر أو عمار وأبي جهل.

---

(١) داود: هو الإمام داود بن علي بن خلف الأصبهاني الأصل الكوفي المولد البغدادي الدار الشهير بداود الظاهري، المكنى بأبي سليمان، ولد سنة ٢٠١ وتوفي سنة «٢٧٠هـ».
الجرح والتعديل، القسم الثاني من المجلد الأول ص٤١٠.

(٢) ● أخرج عبد بن حميد، عن راشد بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم حلال سمى أو لم يسمِّ مالم يتعمد، والصيد كذلك» كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٩).
● وأخرج أبو داود في «المراسيل» (ص٢٧٨ رقم ٣٧٨) عن الصلت، قال: قال رسول الله ﷺ «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر، إنه إن ذكرَ لم يذكُر إلاّ اسمَ الله».
والصلت: هو السدوسي، تابعي، لين الحديث، أرسل حديثاً. (التقريب: ١/ ٣٧٠).
● ويعضد هذا المرسل بما رواه الدارقطني [في السنن (٤/ ٢٩٥ رقم ٩٦)] عن ابن عباس قال «إذا ذبح المسلم، فلم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسماً من أسماء الله».
قلت: وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٤ ـ ١٧٨) مذاهب العلماء ـ وأدلتهم في المسألة، والذي يُرجح مذهب أبو حنيفة ومن معه من التفريق بين العمد والنسيان ـ والله أعلم ـ.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ
ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ
فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

(١٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ﴾ أي كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها. وجعلنا بمعنى صيّرنا، ومفعولاه أكابر مجرميها على تقديم المفعول الثاني، أو في كل قرية أكابر، ومجرميها بدلٌ ويجوز أن يكون مضافاً إليه إن فُسر الجعل بالتمكين، وأفعَل التفضيل إذا أضيف جاز فيه الإفراد والمطابقة ولذلك قرىء أكبر مجرميها، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس والمكر بهم. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وباله يحيق بهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ذلك.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ﴾ يعني كفار قريش لما روي أن أبا جهل قال زاحمَنَا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفَرَسيْ رِهان قالوا: منّا نبي يوحى إليه، واللهِ لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزلت: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ استئناف للرد عليهم بأن النبوة ليست بالنَّسب والمال وإنما هي بفضائلَ نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده فيجتبي لرسالاته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم رسالته[١]. ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ﴾ ذل وحقارة بعد كبرهم[٢]. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، وقيل تقديره من عند الله. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم، أو جزاء على مكرهم.

(١٢٥) ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان. ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾ فيتسع له ويفسح فيه مجاله، وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيأة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار عليه أفضل الصلاة والسلام حين سئل عنه فقال: «نور يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» فقالوا: هل لذلك من أمارة يعرف بها؟ فقال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله»[٣]. ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ

---

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالجمع (رسالاته).

(٢) ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن إصابة ما يصيبهم لإجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبائح (س/٣/١٨٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص١٠٦ رقم ٣١٥) ووكيع في «الزهد» (٢٣٨/١ رقم ١٥) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٢١/١٣ رقم ١٦١٦١) والطبري في «جامع البيان» (٥/ج٨/٢٦ ـ ٢٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص١٥٦ بأسانيدهم عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبدالله بن مسور المدائني. =

ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان. وقرأ ابن كثير ضَيْقاً بالتخفيف، ونافع وأبو بكر عن عاصم حَرِجاً بالكسر أي شديد الضيق، والباقون بالفتح وصفاً بالمصدر. ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ شبّهه مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مَثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود. وقيل معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق وتباعداً في الهرب منه. وأصل يصَّعَّد يتصعد وقد قرىء به، وقرأ ابن كثير يَصْعَد، وأبو بكر عن عاصم يَصّاعد بمعنى يتصاعد. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق. ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمر للتعليل.

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

(١٢٦) ﴿وَهَٰذَا﴾ إشارة إلى البيان الذي جاء به القرآن، أو إلى الإسلام، أو ما سبق من التوفيق والخذلان. ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ الطريق الذي ارتضاه، أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه، أو عادلاً مطَّرداً. وهو حال مؤكِّدة كقوله: «وهو الحق مصدقاً» أو مقيِّدة، والعامل فيها معنى الإشارة. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن القادر هو الله سبحانه وتعالى وأن كل

= وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٤) إلى ابن المنذر، والفريابي وابن أبي حاتم وابن مردويه.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٨/ ٢٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص١٥٦ وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٥) عن أبي جعفر عبدالله بن مسور المدائني عن النبي ﷺ. وقال البيهقي: وهذا منقطع.
قلت: أبو جعفر هذا: عبدالله بن مسور بن عبدالله بن عون بن جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي، سكن المدائن، روى عن النبي ﷺ مرسلاً، كان يضع الحديث ويكذب.
[التاريخ الكبير (٥/ ١٩٥) والجرح والتعديل (٥/ ١٦٩)].
وقد روى الحديث موصولاً عن ابن مسعود من طرق، انظر تخريجها في «الزهد» الوكيع (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) وكذلك له شواهد، عن قتادة والحسن والفضيل. انظر تخريجها كذلك المرجع السابق (١/ ٢٤٠).
وقال الشيخ عبدالرحمٰن عبدالجبار الفريوائي في الختام «وهذه الطرق كلها معلولة بالإرسال والانقطاع، هذا وقد ذكر ابن كثير طرق عبدالرزاق، وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي جعفر، وطرق ابن مسعود، وقال: (فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً).
قلت: كذا قال، والراجح أن الحديث من طريق ابن مسعود وهم من الرواة، وطريق أبي جعفر عبدالله بن مسور ضعيف جداً لأجله، والطرق الأخرى كلها معلولة والله أعلم» هـ.
فالخلاصة: أن الحديث ضعيف.

ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه، وأنه عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم.

(١٢٧) ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ دار الله؛ أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره، أو دارٌ تحيتهم فيها سلام. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه، أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ مُواليهم أو ناصرهم. ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزائها فيتولى إيصاله إليهم.

(١٢٨) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ نصب بإضمار اذكر أو نقول، والضمير لمن يُحشَر من الثقلين. وقرأ حفص عن عاصم وروح عن يعقوب يحشرهم بالياء[١]. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ ﴾ يعني الشياطين. ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم، أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحُشِروا معكم كقوله: استكثر الأميرُ من الجنود. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم. ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بالجن بأن دَلُّوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، والجنُّ بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم. وقيل استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاوز وعند المخاوف، واستمتاعهم بالإنس اعترافُهم بأنهم يقدرون على إجارتَهم. ﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي البعث، وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان واتباع الهوى وتكذيب البعث وتحسر على حالهم. ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم، أو ذات مثواكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال، والعاملُ فيها مثواكم إن جُعل مصدراً ومعنى الإضافةِ إن جُعل مكاناً ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من النار إلى الزمهرير، وقيل إلاّ ما شاء الله قبل الدخول كأنه قيل: النار مَثْوَاكُمْ أبداً إلا ما أمهلكم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم.

(١٢٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ نكِل بعضَهم إلى بعض، أو نجعل بعضَهم يتولىٰ بعضاً فيغويَهم، أو أولياءَ بعض وقرناءهم في العذاب كما كانوا في الدنيا. ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

(١٣٠) ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الرسل من الإنس خاصة، لكن لما جُمِعوا مع الجن في الخطاب صح ذلك ونظيرُه: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[٢] والمرجانُ يخرج من المَلِح دون العذب، وتعلق بظاهره قوم وقالوا بُعِث إلى كلٍّ من الثقلين رسل من جنسهم. وقيل الرسل من الجن رسل الرسل إليهم لقوله تعالى: ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[٣]. ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالنون على قراءة من قرأ بها، أي «نحشرهم».
(٢) الرحمن: «٢٢».
(٣) الأحقاف: «٢٩».

﴿يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ يعني يوم القيامة. ﴿قَالُواْ﴾ جواباً. ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ بالجرم والعصيان وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب. ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المُخْدَجة[1] وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا
رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ
بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ
أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ
عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١٣١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إرسال الرسل، وهو خبر مبتدأ محذوف أي الأمرُ ذلك. ﴿أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ تعليل للحكم، وأنْ مصدرية أو مخففة من الثقيلة أي: الأمر لانتفاء كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهلِ القرى بسبب ظلم فعلوه أو ملتبسين بظلم أو ظالماً وهم غافلون لم يُنبَّهوا برسول، أو بدل من ذلك.

(١٣٢) ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من المكلفين. ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ مراتب ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ من أعمالهم أو من جزائها، أو من أجلها. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب. وقرأ ابن عامر بالتاء على تغليب الخطاب على الغيبة.

(١٣٣) ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن العباد والعبادة. ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتأسيسٌ لما بعده وهو قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أي ما به إليكم حاجة ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أيها العصاة. ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق[2]. ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن لكنّه أنبأكم ترحماً عليكم.

(١٣٤) ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله. ﴿لَأٓتٖۖ﴾ لكائن لا محالة[3]. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ طالبكم به.

(١٣٥) ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مَكَنَ مكانة إذا تمكّن

---

(١) المخدَجة أي الناقصة.

(٢) قوله «ما يشاء» آثر «ما» على من لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء (س٣/ ١٨٧).

(٣) إيثار كلمة «الآت» على واقع ونحوه لبيان كمال سرعة وقوعه (س٣/ ١٨٨).

أبلغ التمكن، أو على ناحيتكم وجِهتكم التي أنتم عليها من قولهم مَكَان ومكانة كمَقام ومقامة. وقرأ أبو بكر عن عاصم مكاناتِكم بالجمع في كل القرآن وهو أمر تهديد، والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ما كنت عليه من المصابرة والثبات على الإسلام، والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعاً عليه فيحمله بالأمر على ما يفضي به إليه، وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضي عنه. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ إن جُعِل منْ استفهامية بمعنى أيُّنا تكون له عاقبة الدار الحسنى التي خلق الله لها هذه الدار فمحلها الرفع وفعلُ العلْم معلَّق عنه، وإن جُعِلت خبرية فالنصبُ يتعلمون أي فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة الدار، وفيه مع الإنذار إنصاف في المقال وحسن الأدب وتنبيه على وثوق المنذر بأنه مُحِقٌّ. وقرأ حمزة والكسائي يكون بالياء لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وضع الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٦) ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي مشركو العرب. ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق. ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾ روي: أنهم كانوا يُعَيِّنون شيئاً من حرث ونتاج لله ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين وشيئاً منهما لآلهتهم وينفقونه على سَدَنتها ويذبحونه عندها، ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى بدّلوه بما لآلهتهم وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حباً لآلهتهم. وفي قوله «مما ذرأ» تنبيه على فرط جهالتهم فإنهم أشركوا الخالق في خلقه جماداً لا يَقْدِر على شيء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، وفي قوله «بزعمهم» تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله به. وقرأ الكسائي بالضم[1] في الموضعين وهو لغة فيه، وقد جاء فيه الكسر أيضاً كالوِدّ والوُدّ. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا.

(١٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك للتزيين في قِسْمة القُربان. ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ بالوأد ونحرهم لآلهتهم. ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ من الجن أو من السدنة، وهو فاعل زين. وقرأ ابن عامر زُيِّن على البناء للمفعول الذي هو القتل. ونصْبُ الأولاد وجرُّ الشركاء

(١) أي بضم الزاي «بزُعْمِهِم».

بإضافة القتل إليه مفصولاً بينهما بمفعوله وهو ضعيف في العربية معدود من ضرورات الشعر[(١)] كقوله:

فـزَجَجْتُهَـا بِمَـزَجَّـةٍ زَجَّ القلـوصِ أَبِـي مُـزَادَه

وقرىء بالبناء للمفعول وجرّ أولادِهم ورفع «شركاؤُهم» بإضمار فعل دل عليه زين. ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء. ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به. واللام للتعليلِ إن كان التزيين من الشياطين والعاقبةِ إن كان من السدنة. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم، أو الشركاء التزيينَ، أو الفريقان جميعَ ذلك. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ افتراءهم أو ما يفترونه من الإفك.

وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

(١٣٨) ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ﴾ إشارة إلى ما جعل لآلهتهم. ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ حرام، فِعْلٌ بمعنى مفعول كالذِّبح يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى. وقرىء حُجْر بالضم وحرج أي مضيق. ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء. ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ من غير حجة. ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعني البحائر والسوائب والحوامي. ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح وإنما يذكرون أسماء الأصنام عليها، وقيل لا يَحُجّون على ظهورها. ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ نصب على المصدر لأن ما قالوه تقول على الله سبحانه وتعالى؛ والجارّ متعلق بقالوا أو بمحذوف هو صفة له، أو على الحال، أو على المفعول له والجار متعلق به أو بالمحذوف. ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بسببه أو بدله.

(١٣٩) ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنون أجنَّةَ البحائر والسوائب. ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ حلال للذكور خاصة دون الإناث إن وُلد حياً لقوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ فالذكور والإناث فيه سواء، وتأنيث الخالصة للمعنى فإن ما في معنى الأجنة، ولذلك وافق عاصم في رواية أبي بكر بن عامر في تكن بالتاء، وخالفه هو وابنُ كثير في ميتة فَنَصَبَ كغيرهم، أو التاء فيه للمبالغة كما في رواية الشعر، أو هو مصدر كالعافية وقع موقع الخالص. وقرىء بالنصب على أنه مصدر مؤكِّد والخبرُ لذكورنا، أو حال من الضمير الذي في الظرف لا من الذي في ذكورنا

---

(١) ما ذهب إليه البيضاوي من تضعيف قراءة ابن عامر ـ وهي قراءة متواترة ـ تبع فيه الزمخشري (الكشاف ٢/ ٤٢) وقد رد أبو حيان رداً عنيفاً على الزمخشري مبيناً صحة قراءة ابن عامر وفق العربية الصحيحة، فقال: (وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءةً متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم..) البحر المحيط ٤/ ٢٣٠.

ولا من الذكور لأنها لا تتقدم على العامل المعنوي ولا على صاحبها المجرور. وقرىء خالص بالرفع والنصب وخالصة بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان والمراد به ما كان حياً، والتذكير في فيه لأن المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الذكر. ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي جزاءَ وصفِهم الكذب على الله سبحانه وتعالى في التحريم والتحليل من قوله: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾[١] ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

(١٤٠) ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ ﴾ يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتِهم مخافة السبي والفقر. وقرأ ابن كثير وابن عامر قتّلوا بالتشديد بمعنى التكثير. ﴿ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله سبحانه وتعالى رازق أولادهم لا هم، ويجوز نصبه على الحال أو المصدر. ﴿ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ من البحائر ونحوها. ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ﴾ يحتمل الوجوه المذكورة في مثله[٢]. ﴿ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ إلى الحق والصواب.

(١٤١) ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ ﴾ من الكروم. ﴿ مَّعْرُوشَٰتٍ ﴾ مرفوعات على ما يحملها. ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ ملقيات على وجه الأرض. وقيل المعروشات ما غرسه الناس فعرشوه وغير معروشات ما نبت في البراري والجبال. ﴿ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ ثمرُه الذي يؤكل في الهيئة والكيفية، والضمير للزرع والباقي مقيس عليه، أو النخل والزرعُ داخلٌ في حكمه لكونه معطوفاً عليه، أو للجميع على تقدير أُكُل ذلك أو كل واحد منهما، ومختلفاً حالاً مقدرة لأنه لم يكن ذلك عند الإنشاء. ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم ولا يتشابه بعضها. ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ ﴾ من ثمر كل واحد من ذلك. ﴿ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ وإن لم يدرك ولم يَيْنع بعدُ. وقيل فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى. ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ يريد به ما كان يُتصدق به يوم الحصاد لا الزكاة المقدرة لأنها فُرضت بالمدينة والآية مكية. وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتنقية. وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي حِصَاده بكسر الحاء وهو لغة فيه. ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ في التصدق كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ لا يرتضي فعلهم.

(١) النحل: «٦٢».
(٢) إظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وطغيانهم (س٣/ ١٩١).

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا
ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ
ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

(١٤٢) ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ﴾ عطف على جنات أي وأنشأ من الأنعام ما يَحْمِل الأثقال وما يُفرَش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصوفه ووبره. وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها. ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ كلوا مما أحل لكم منه. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

(١٤٣) ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ﴾ بدلٌ من حمولة وفرشاً، أو مفعولِ كُلوا ولا تتبعوا معترض بينهما أو فعلٍ دلّ عليه، أو حال من «ما» بمعنى مختلفة أو متعددة. والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه، وقد يقال لمجموعهما، والمراد الأول. ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين الكبش والنعجة. وهو بدل من ثمانية. وقرىء اثنان على الابتداء. والضأن اسم جنس كالإبل وجمعه ضئين، أو جمع ضائن كتاجر وتَجْر. وقرىء بفتح الهمزة وهو لغة فيه. ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ التيس والعنز، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالفتح[1] وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس، وقرىء المعزى[2]. ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ ذَكرُ الضأن وذكر المعز. ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أم أنثييهما ونصب الذكرين والانثيين بحرّم ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾ أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ بأمرٍ معلوم يدل على أن الله تعالى حرم شيئاً من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه.

(١٤٤) ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾ كما سبق والمعنى إنكارَ أن الله حرم شيئاً من الأجناس الأربعة ذَكراً كان أو أنثى أو ما تحمل إناثها رداً عليهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثَها تارة أخرى وأولادَها كيف كانت تارة زاعمين أن الله حرمها. ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ بل أكنتم شاهدين حاضرين. ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ﴾ حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه تحريم مالم يحرم، والمراد كبراؤهم المقررون لذلك، أو عمرو بن لحي بن قمعة المؤسس لذلك. ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) أي بفتح العين في المعز، أي «المَعَز».

(٢) وقدم هذه الأصناف الأربعة مع تأخرها في الإجمال السابق «حمولة وفرشاً» لكون هذين النوعين عرضة للأكل الذي هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة، وهو السرّ في الاقتصار على الأمر به في قوله تعالى: «كلوا مما رزقكم الله» من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب ونحوه (س٣/ ١٩٣).

يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)]

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

(١٤٥) ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي في القرآن، أو فيما أوحي إليَّ مطلقاً، وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يُعلم بالوحي لا بالهوى. ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعاماً محرماً. ﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ أن يكون الطعام ميتة. وقرأ ابن كثير وحمزة تكونَ ـ بالتاء ـ لتأنيث الخبر، وقرأ ابن عامر بالياء ورفع الميتة على أن «كان» هي التامة. وقوله: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ عطفٌ على أنْ مع ما في حيزه أي إلا وجودَ ميتة أو دماً مسفوحاً أي مصبوباً كالدم في العروق لا كالكبد والطحال. ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوّده أكل النجاسة أو خبيث مخبث ﴿أَوۡ فِسۡقًا﴾ عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض للتعليل. ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ صفة له موضحة، وإنما سمي ما ذبح على اسم الصنم فسقاً لتوغله في الفسق، ويجوز أن يكون فسقاً مفعولاً له من أُهِلّ وهو عطف على يكون، والمستكنّ فيه راجع إلى ما رجع إليه المستكنُّ في يكون. ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ فمن دعته الضرورة. ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لا يؤاخذه. والآية محكمة لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحي إلى تلك الغاية محرماً غير هذه، وذلك لا ينافي ورود التحريم في شيء آخر، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الأشياء غيرها إلا مع الاستصحاب.

(١٤٦) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ كل ماله أصبع كالإبل والسباع والطيور. وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفراً مجازاً، ولعل المسبب عن الظلم تعميم التحريم. ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ الثروب وشحوم الكِلىٰ، والإضافة لزيادة الربط. ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا ما علقت بظهورهما. ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء، جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حوية كسفينة وسفائن. وقيل هو عطف على شحومهما، وأو بمعنىٰ الواو. ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾ هو شحم الإلية لاتصالها بالعُصعص. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم، أو الجزاء. ﴿جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾ بسبب ظلمهم. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في الإخبار، أو الوعد والوعيد.

---

(١) قوله «بغير علم» وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى إيذاناً بخروجهم في الظلم عن الحدود والنهايات، فإن من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه إذا كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه؟ (س٣/ ١٩٤).

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

(١٤٧) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يُهْمِل. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقام مقامه «ولا يرد بأسه» لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على تأنه لازِب بهم لا يمكن رده عنهم.

(١٤٨) ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ إخبار عن مستقبَل، ووقوعُ مخبَره يدل على إعجازه. ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ أي لو شاء خلاف ذلك مشيئةَ ارتضاء كقوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] لَما فعلنا نحن ولا آباؤنا، أرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله لا الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله إياها منهم حتى ينهض ذمهم به دليلاً للمعتزلة، ويؤيده ذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا التكذيب لك في أن الله تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه كذَّب الذين من قبلهم الرسل، وعَطَفَ «آباؤنا» على الضمير في «أشركنا» من غير تأكيدٍ للفصل بِلاَ. ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم. ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ فتظهروه لنا. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ما تتبعون في ذلك إلا الظن. ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون على الله سبحانه وتعالى، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن سيما في الأصول، ولعل ذلك حيثُ يعارضه قاطع إذ الآية فيه.

(١٤٩) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات، أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه، وهي من الحَجّ بمعنى القصد كأنها تقصد إثبات الحكم وتطلبه. ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها، ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين.

(١٥٠) ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أحضروهم، وهو اسم فعلٍ لا يَتصرف عند أهل الحجاز، وفعلٍ يؤنث ويُجْمع عند بني تميم، وأصلُه عند البصريين: ها لُمَّ مِنْ لَمَّ إذا قصد حُذِفت الألف لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل، وعند الكوفيين هلْ أُمّ فحذفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام، وهو بعيد لأن «هل» لا تدخل الأمر ويكون متعدياً كما في الآية ولازماً كقوله هلُمّ إلينا. ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ يعني قدوتهم فيه، استحضرهم ليلزمهم الحجة ويظهِر بانقطاعهم ضلالَتَهم وأنه لا متمسَّك لهم كمَنْ

---

(١) الأنعام: «١٤٩». النحل: «٩».

يقلدهم، ولذلك قيّد الشهداء بالإضافة ووصفهم بما يقتضي العهدَ بهم. ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فلا تصدقهم فيه وبيّن لهم فساده، فإن تسليمه موافقة لهم في الشهادة الباطلة. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مِنْ وَضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن مكذّب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقاً بها. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كعَبَدَة الأوثان. ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يجعلون له عديلاً.

۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(١٥١) ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ أمرٌ من التعالي، وأصلُه أن يقوله مَنْ كان في علوّ لمن كان في سفل فاتسع فيه بالتعميم. ﴿أَتْلُ﴾ أقرأْ. ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ منصوب بأَتْل و«ما» تحتمل الخبرية والمصدرية، ويجوز أن تكون استفهامية منصوبة بحرّم، والجملة مفعول أَتل لأنه بمعنىٰ أقل، فكأنه قيل أتل أيَّ شيء حرم ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بحرّم أو أتل[١]. ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ﴾ أي لا تشركوا به ليصح عطف الأمر عليه، ولا يمنعه تعليقُ الفعل المفسَّر بما حرّم؛ فإن التحريم باعتبار الأوامر يرجع إلى أضدادها ومَنْ جعل أَنْ ناصبة فمحلُّها النصبُ بعليكم ـ على أنه للإغراء ـ أو بالبدل من «ما» أو من عائده المحذوف ـ على أنّ لا زائدة ـ والجرُّ بتقدير اللام، أو الرفعُ على تقدير المتلو أن لا تشركوا أو المحرم أن تشركوا. ﴿شَيْـًٔا﴾ يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي وأحسنوا بهما إحساناً، وضَعَه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ من أجل فقر ومن خشية كقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[٢] ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ منعٌ لموجبيّة ما كانوا يفعلون لأجله واحتجاجٌ عليه. ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ كبائر الذنوب أو الزنا. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل منه، وهو مثْلُ قوله «ظاهر الإثم وباطنه». ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كالقَوَد وقتل المرتد ورجم المحصن. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر مفصلاً. ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ بحفظه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ترشدون فإن كمال العقل هو الرشد.

(١٥٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالفِعلة التي هي أحسنُ ما يُفعَل بماله كحفْظه وتثميره. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حتى يصير بالغاً، وهو جمع شِدّة كنِعمة وأنْعُم أو شِدٍّ كصِرٍّ وأصُرّ، وقيل

(١) والتعرض لعنوان الربوبية «ربُّكم» مع الإضافة إلى ضميرهم للاعتناء بإيجاب الانتهاء (س٣/١٩٨).

(٢) الإسراء: «٣١».

مفرد كأنك. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والتسوية. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وذكْره عقيب الأمر معناه أن إيفاء الحق عَسِر عليكم فعليكم بما في وُسعكم وما وراءه معفوٌ عنكم. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ في حكومة ونحوها. ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يعني ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون به. وقرأ حمزة وحفص والكسائي تَذَكَّرون بتخفيف الذال حيث وقع إذا كان بالتاء، والباقون بتشديدها.

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾

(١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الإشارة فيه إلى ما ذكر في السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة. وقرأ حمزة والكسائي إن بالكسر على الاستئناف، وابنُ عامر ويعقوب بالفتح والتخفيف، وقرأ الباقون بها مشددة بتقدير اللام على أنه علة لقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ وقرأ ابن عامر صراطيَ بفتح الياء، وقرىء وهذا صراطي، وهذا صراطُ ربكم، وهذا صراط ربك. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ فتفرقكم وتزيلكم. ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع. ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضلال والتفرق عن الحق.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ عطف على وصاكم، وثم للتراخي في الإخبار أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً ثم أعْظَمُ من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب. ﴿تَمَامًا﴾ للكرامة والنعمة. ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ على كل من أحسن القيام به، ويؤيده أن قرىء على الذين أحسنوا أو على الذي أحسن تبليغه وهو موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، أو تماماً على ما أحسنه أي أجاده من العلم والتشريع أي زيادة على علمه إتماماً له. وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي على الذي هو أحسنُ أو على الوجه الذي هو أحسنُ ما يكون عليه الكتب. ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين، وهو عطف على تمام، ونصبهما يحتمل العلة والحال والمصدر. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾ لعل بني إسرائيل. ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بلقائه للجزاء.

(١٥٥) ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن. ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع. ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بواسطة اتّباعه، وهو العمل بما فيه.

(١٥٦) ﴿أَن تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا، علةٌ لأنزلناه. ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى، ولعل الاختصاص في «إنما» لأن الباقي المشهور حينئذ من الكتب السماوية لم يكن غير

كتبهم. ﴿وَإِن كُنَّا﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، ولذلك دخلت اللام الفارقة في خبر كان، أي وإنه كنا. ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم. ﴿لَغَـٰفِلِينَ﴾ لا ندري ما هي، أو لا نعرف مثلها.

أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا
كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ
ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُواْ﴾ عطف على الأول. ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لحدةِ أذهاننا وثقابة أفهامنا ولذلك تلقفْنا فنوناً من العلم كالقصص والأشعار والخطب على أنَّا أميون. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حجة واضحة تعرفونها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لمن تأمل فيه وعمل به[(١)]. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد أن عرف صحتها، أو تمكن من معرفتها. ﴿وَصَدَفَ﴾ أعرض أو صد. ﴿عَنْهَا﴾ فضلّ أو أضل. ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ شدته. ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم أو صدهم.

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون، يعني أهل مكة وهم ما كانوا منتظرين لذلك، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين. ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ملائكة الموت أو العذاب. وقرأ حمزة والكسائي بالياء هنا وفي النحل[(٢)]. ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ أي أَمْرُه بالعذاب، أو كل آية يعني آيات القيامة والهلاك الكلي لقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ يعني أشراط الساعة[(٣)] وعن حذيفة بن اليمان والبراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نتذاكر الساعة، قال: «إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وناراً تخرج من عدن»[(٤)]. ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا﴾

---

(١) عبر عن القرآن الكريم بالبينة إيذاناً بكمال تمكنهم من دراسته، ثم عبر عنه بالهدى والرحمة تنبيهاً على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة (س٣/ ٢٠٢).

(٢) النحل: «٣٣».

(٣) والتعبير عنها بالبعض للتهويل والتفخيم، كما أن إضافة الآيات في الموضعين إلى اسم الرب المنبىء عن المالكية الكلية لذلك وإضافته إلى ضميره عليه السلام للتشريف (س٣/ ٢٠٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٢٥ ـ ٢٢٢٦ رقم ٣٩/ ٢٩٠١).
من حديث حذيفة بن أسيدٍ الغفاري.
وهو من الأحاديث التي تتبعها الدارقطني في «التتبع» (ص٢٥٨ رقم ٥٤) وقد قال «وهذا لم يرفعه غير فرات عن أبي الطفيل من وجه يصح مثله. ورواه عبدالعزيز بن رفيع وعبدالملك بن ميسرة عن أبي الطفيل موقوفاً. . . .» =

كالمحتضر إذ صار الأمر عياناً والإيمان برهاني. وقرىء تنفع بالتاء لإضافة الإيمان إلى ضمير المؤنث. ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ صفة نفساً. ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ عطف على آمنت والمعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدِّمة إيمانَـها أو مقدِّمة إيمانَها غير كاسبة في إيمانها خيراً، وهو دليل لمن لم يعتبر الإيمان المجرد عن العمل، وللمعتبر تخصيص هذا الحكم بذلك اليوم، وحمل الترديد على اشتراط النفع بأحد الأمرين على معنى لا ينفع نفساً خلت عنها إيمانها، والعطف على لم تكن بمعنى لا ينفع نفساً إيمانُها الذي أحدثته حينئذ وإن كسبت فيه خيراً. ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وعيد لهم، أي: انتظروا إتيان أحد الثلاثة فإنا منتظرون له وحينئذ لنا الفوز وعليكم الويل.

(١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بددوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو افترقوا فيه قال عليه الصلاة والسلام: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة»[1]. وقرأ حمزة والكسائي فارَقُوا أي باينوا. ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ فرقاً تشيع كل فرقة إماماً.

= ١هـ.

وقال النووي في شرح مسلم (٢٧/١٨) بعد كلام الدارقطني «وقد ذكر مسلم رواية ابن رفيع موقوفة كما قال، ولا يقدح هذا في الحديث فإن عبدالعزيز بن رفيع ثقة حافظ متفق على توثيقه فزيادته مقبولة» ١هـ.

وتعقبه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في «التتبع» ص٢٦٠: «كذا قال النووي والصواب فإن فراتاً القزاز فهو راوي الرفع لابن رفيع.

وأقول: عبدالعزيز بن رفيع وفرات القزاز كلاهما ثقة كما في التقريب، فيحمل على أن أبا الطفيل كان يحدث به على الوجهين وكلا الوجهين صحيح والله أعلم» هـ.

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) ● أخرج أبو داود (٥/ ٤ رقم ٤٥٩٦) والترمذي (٥/ ٢٥ رقم ٢٦٤٠).

وابن ماجه (١٣٢١/٢ ـ ١٣٢٢ رقم ٣٩٩١) وأحمد في المسند (٣٣٢/٢) والحاكم (١٢٨/١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقتِ اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقتِ النصاري على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وتعقبهما الألباني في «الصحيحة» (٣٥٦/١) بقوله «وفيه نظر فإن محمد بن عمرو، فيه كلام ولذلك لم يحتج به مسلم، وإنما روى له متابعة وهو حسن الحديث. . .» هـ.

● أخرج أبو داود (٥/ ٥ رقم ٤٥٩٧) والدارمي (٢٤١/٢) والحاكم (١٢٨/١) وأحمد (١٠٢/٤) عن معاوية بن أبي سفيان، أنه قام فينا، فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألاَ إنَّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة وإنّ هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

وزاد ابن يحيى وعمرو في حديثيهما «وإنه سيخرج من أمتي أقوام تُجَارَى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه» وقال عمرو «الكلب بصاحبه» لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلاَّ دخله».

وقال الحاكم وقد ساقه عقب حديث أبي هريرة المتقدم «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث» ووافقه الذهبي. =

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي من السؤال عنهم وعن تفرقهم، أو من عقابهم، أو أنت بريء منهم. وقيل هو نهي عن التعرض لهم، وهو منسوخ بآية السيف. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يتولى جزاءهم. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بالعقاب[1].

مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

(١٦٠) ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي عشر حسنات أمثالها فضلاً من الله. وقرأ يعقوب عشْرٌ بالتنوين وأمثالها بالرفع على الوصف. وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر الكثرة دون العدد. ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ قضية للعدل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

(١٦١) ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نَصَبَ من الحجج. ﴿دِينًا﴾ بدل من محل إلى صراط؛ إذ المعنى هداني صراطاً كقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2]، أو مفعول فعل مضمر دل عليه الملفوظ. ﴿قِيَمًا﴾ فيعل من قام كسَيِّد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة والمستقيم باعتبار الصيغة. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي قِيَماً على أنه مصدر نُعِت به وكان قياسه قِوَماً كعِوَض فأُعِل لإعلال فعله كالقيام. ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان لدِيناً. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف عليه.

(١٦٢) (١٦٣) ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ عبادتي كلها، أو قرباني، أو حجي. ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطاعة، أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى

= وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٦٣ رقم ١٧): وإسناده حسن والخلاصة أن الحديث صحيح.

● وأخرج الترمذي (٥/٢٦ رقم ٢٦٤١) والحاكم (١/١٢٨).

عن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: ليأتينّ على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذوَ النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمَّهُ علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين مِلّة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلاّ مِلَّة واحدة قالوا: ومن هي يا رسول الله، قال: ما أنا عليه وأصحابي.

قال الترمذي: هذا حديث مفسر غريب لا نعرفُهُ مثلَ هذا إلا من هذا الوجه.

قلت: في إسناده «عبدالرحمٰن الأفريقي» وهو ضعيف، لكن هذه الزيادة صحيحة انظر «الصحيحة» للألباني (١/٣٥٦ رقم ٢٠٣) و(١/٣٥٨ رقم ٢٠٤).

(١) عبر عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة في أنهما سببان للعلم تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته (س٣/٢٠٦).

(٢) الفتح: «٢».

الممات كالوصية والتدبير، أو الحياة والممات أنفسهما. وقرأ نافع محيايْ بإسكان الياء إجراء للوصل مجرى الوقف. ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ خالصة له لا أشرك فيها غيراً. ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ القول أو الإخلاص. ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝١٦٥

(١٦٤) ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ فأُشركه في عبادتي، وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ حال في موضع العلة للإنكار والدليل له، أي وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية. ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فلا ينفعني في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جواب عن قولهم: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بتبيين الرشد من الغي وتمييز المحق من المبطل.

(١٦٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً، أو خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السالفة على أن الخطاب للمؤمنين. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في الشرف والغنى ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الجاه والمال ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت قريب، أو لأنه يسرع إذا أراده. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ وَصَفَ العقاب ولم يُضِفْه إلى نفسه ووَصَف ذاته بالمغفرة وضمَّ إليه الوصف بالرحمة وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات معاقب بالعَرَض كثير الرحمة مبالِغ فيها كثيرُ العقوبة مسامِح فيها. عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة، يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد»(١)، «فمن قرأ

---

(١) ● أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ٨١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٤٤) وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٤٣) من حديث ابن عمر.

قال الطبراني: لم يروه عن ابن عون إلا يوسف بن عطية تفرد به إسماعيل بن عمرو.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث ابن عون لم نكتبه إلا من حديث إسماعيل عن يوسف.

وقال الحافظ في التقريب (٢/ ٣٨١): يوسف بن عطية: متروك.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢١٥ رقم ١٢٩٣٠) عن ابن عباس وفيه علي بن زيد وفيه كلام وبقية رجاله رجال صحيح.

● وأخرجه الطبراني ـ كما في «المجمع» (٧/ ٢٠) ـ من حديث أنس بلفظ «ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين» وقال الهيثمي «رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبدالله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي. ولم أعرفها وبقية رجاله ثقات».

● وأخرجه الحاكم (٢/ ٣١٥) عن جابر، بلفظ «لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. فإن إسماعيل هذا هو السدي ولم يخرجه البخاري ورد الذهبي عليه بقوله «لا والله لم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعاً». =

الأنعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف مَلَك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة»[(1)].

☆ ☆ ☆

= قلت: وانظر «الدر المنثور» (٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) فقد ساق روايات عن علي وأبي جُحيفة وابن مسعود بدون أسانيد.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٦٣ رقم ١٨): «سبقت طرقه في سورة آل عمران. وله طريق أخرى أخرجها الثعلبي من حديث أبي بن كعب بتمامه وفيه: عصمة. وهو متهم بالكذب».
قلت: أبو عصمة: هو نوح بن أبي مريم المروزي يعرف بالجامع، قال الحافظ كذّبوه في الحديث. وقال ابن المبارك: كان يضع الحديث.
انظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٨/ ٤٨٤) والضعفاء للعقيلي (٤/ ٣٠٤) والمجروحين (٣/ ٤٨)، والتقريب (٢/ ٣٠٩).

سورة الأعراف

ترتيبها ٧ — آياتها ٢٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ
أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن
قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾

سورة الأعراف مكية غير ثمان آيات من قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل﴾[١] محكمة كلها.
وقيل: إلا قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[٢] وآيها مائتان وخمس أو ست آيات.

(١) ﴿الٓمٓصٓ﴾ سبق الكلام في مثله[٣].

(٢) ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف أي هو كتاب، أو خبر المص، والمراد به السورة أو القرآن. ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ صفتُه[٤]. ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ أي شك، فإن الشك حرج الصدر أو ضيق قلب من تبليغه مخافة أن تكذب فيه أو تقصّر في القيام بحقه، وتوجيهُ النهي فيه للمبالغة كقولهم: لا أرينّك ههنا. والفاء تحتمل العطف والجواب فكأنه قيل: إذا أنزل إليك لتنذر به فلا يحرج صدرك. ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ متعلق بأُنزل أو بلا يكن لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخَفْهم أو علم أنه موفق للقيام بتبليغه. ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يحتمل النصب بإضمار فعلها أي لتنذر وتذكر ذكرىٰ فإنها بمعنى التذكير، والجرَّ عطفاً على محل تنذر، والرفعَ عطفاً على كتاب أو خبراً

---

(١) من (١٦٣ ـ ١٧٠).
(٢) (١٩٩).
(٣) في أول سورة البقرة.
(٤) وبناء الفعل للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه (س٣/٢٠٩).

لمحذوف(١).

(٣) ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعم القرآن والسنة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾(٢) ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ يضلونكم من الجن والإنس. وقيل الضمير في من دونه لما أنزل، أي ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء. وقرىء ولا تبتغوا. ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تذكرون حيث تَتْرُكون دين الله وتتبعون غيره. وما مزيدة لتأكيد القلّة، وإن جعلت مصدرية لم ينتصب قليلاً بتذكرون. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم تذكرون بحذف التاء، وابن عامر يتذكرون على أن الخطاب بعد مع النبي ﷺ(٣).

(٤) ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ ﴾ وكثيراً من القرى. ﴿ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أردنا إهلاك أهلها، أو أهلكناها بالخذلان. ﴿ فَجَآءَهَا ﴾ فجاء أهلها. ﴿ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا. ﴿ بَيَٰتًا ﴾ بائتين كقوم لوط، مصدر وقع موقع الحال. ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ عطف عليه أي: قائلين نصف النهار كقوم شعيب، وإنما حذفت واو الحال استثقالاً لاجتماع حرفي العطف، فإنها واو عطف استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير فإنه غير فصيح. وفي التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب، ولذلك خص الوقتين ولأنهما وقت دَعَة واستراحة فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع.

(٥) ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم، أو ما كانوا يدعونه من دينهم. ﴿ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسراً عليهم.

(٦) ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل. ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ عما أجيبوا به، والمراد من هذا السؤال توبيخ للكفرة وتقريعهم، والمعنى في قوله: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(٤) سؤال استعلام. أو الأول في موقف الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة.

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨

(٧) ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم ﴾ على الرسل حين يقولون «لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب»، أو على الرسل والمرسل إليهم ما كانوا عليه. ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم، أو بمعلومنا منهم. ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ عنهم فيخفى علينا شيء من أحوالهم.

(٨) ﴿ وَٱلْوَزْنُ ﴾ أي القضاء، أو وزن الأعمال وهو مقابلتُها بالجزاء. والجمهور على أن صحائف

---

(١) وتخصيص التذكير بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالكفرة. وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام (س٣/ ٢١٠).

(٢) النجم: «٤».

(٣) وتخصيصهم بالذكر لمزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المنكرين (س٣/ ٢١١).

(٤) القصص: «٧٨».

الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمَعْدلة وقطعاً للمعذِرة، كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم، ويؤيده ما روي: أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فيُنْشَر عليه تسعة وتسعون سِجلاً كل سجلٍ مَدُّ البصر، فيخرَج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة[١]. وقيل توزن الأشخاص لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «إنه ليأتي العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[٢]. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الوزن. ﴿الْحَقُّ﴾ صفته، أو خبر محذوف ومعناه العدل السوي. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ حسناته، أو ما يوزن به حسناته فهو جمع موزون أو ميزان وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب.

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي
الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١)

(٩) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها، واقتراف ما عرضها للعذاب. ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فيكذبون بدل التصديق[٣].

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أسباباً تعيشون بها، جمع معيشة. وعن نافع أنه همزه تشبيهاً بما الياء فيه زائدة كصحائف[٤]. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيما صنعت إليكم..

(١١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ[٥] ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صورناه، نزَّل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره، أو ابتدأنا خلقكم ثم تصويرَكم بأن خلقنا آدم ثم صورناه. ﴿ثُمَّ قُلْنَا

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤ ـ ٢٥ رقم ٢٦٣٩) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧ رقم ٤٣٠٠) وابن حبان (ص٦٢٥ رقم ٢٥٢٤) والحاكم (١/ ٦) من طرق عن عبدالله بن عمرو بن العاص.
قال الترمذي: حسن غريب.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم فقد احتج مسلم بأبي عبدالرحمٰن الحبلي عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وعامر بن يحيى مصري ثقة، والليث إمام، ويونس المؤدب ثقة متفق على إخراجه في الصحيحين.
قلت: ـ وكذلك رجال الترمذي وابن ماجه كلهم ثقات ـ.
وصحح الألباني الحديث. انظر «الصحيحة» (رقم: ١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٢٦ رقم ٤٧٢٩) ومسلم (٤/ ٢١٤٧ رقم ١٨/ ٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا (س٣/ ٢١٤).

(٤) وتقديم اللام «لكم» على في «فيها» لما أنه المنبىء عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتم والمسارعة إلى ذكره أهم (س٣/ ٢١٤).

(٥) وتصديرها والتي قبلها بالقسم وحرف التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونهما (س٣/ ٢١٤).

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وقيل ثم لتأخير الإخبار. ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي أن تسجد، و«لا» صلةٌ، مِثْلُها في لئلا يعلم مؤكِّدة معنى الفعل الذي دخلت عليه ومنبهة على أن الموبَّخ عليه ترك السجود. وقيل الممنوع عن الشيء مضطر إلى خلافه فكأنه قيل: ما اضطرك إلى ألا تسجد[١]. ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور. ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جواب من حيث المعنى، استُأنِف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله كأنه قال: المانعُ أني خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف يحسن أن يؤمر به؟! فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً. ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تعليل لفضله عليه، وقد غلط في ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[٢] أي بغير واسطة، وباعتبار الصورة كما نبه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٣] وباعتبار الغاية وهو ملاكُه، ولذلك أمر الملائكة بسجوده لمّا بين لهم أنه أعلم منهم وأن له خواص ليست لغيره. والآية دليل الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة، ولعل إضافة خلق الإنسان إلى الطين والشيطان إلى النار باعتبار الجزء الغالب.

(١٣) ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنة. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح. ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي، فإنها مكان الخاشع والمطيع. وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه. ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ممن أهانه الله لتكبره، قال عليه الصلاة والسلام «من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه الله»[٤].

(١٤) ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم القيامة فلا تُمِتني، أو لا تعجل عقوبتي.

(١٥) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سأله ظاهراً، لكنه محمول على ما جاء مقيداً بقوله تعالى: «إلى يوم الوقت المعلوم» وهو النفخة الأولى، أو وقت يعلم الله انتهاء أجله فيه، وفي إسعافه إليه ابتلاء العباد وتعريضهم للثواب بمخالفته.

---

(١) ولعل الثاني هو الأولى، لأنه ورد «ما منعك أن تسجد..» ـ ص«٧٥» ـ وورد «ما منعك ألا تسجد» ففي الأولى سأله عن المانع من سجوده لآدم، وفي الثانية سأله عن المانع من عدم سجوده له.

(٢) ص: «٧٥».

(٣) الحجر: «٢٩».

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٧٥ رقم ٨١٣٩) عن عمر بن الخطاب موقوفاً بسند صحيح. وأخرجه البيهقي أيضاً (٦/ ٢٧٦ رقم ٨١٤٠) عن عمر بن الخطاب مرفوعاً. بسند صحيح أيضاً.

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ أي بعد أن أمهلتني لاجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني بسبب إغوائك إياي بواسطتهم تسميةً أو حملاً على الغي، أو تكليفاً بما غَوَيت لأجله. والباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بأقعدنّ، فإن اللام تصد عنه، وقيل الباء للقسم ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ ترصداً بهم كما يقعد القطاع للسابلة. ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ طريق الإسلام، ونصبه على الظرف كقوله:

لَـدْنٌ بِهَـزِّ الكَـفِّ يَعْسِـلُ مَتْنُـهُ		فيـهِ كَمَـا عَسَـلَ الطَّـرِيـقَ الثَّعْلَـبُ

وقيل تقديره على صراطك كقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن.

(١٧) ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ أي من جميع الجهات الأربع. مَثَّل قصدَه إياهم بالتسويل والإضلال من أي وجه يمكنه بإتيان العدو من الجهات الأربع، ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وقيل لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه يوحش الناس. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من بين أيديهم من قبل الآخرة، ومن خلفهم من قبل الدنيا، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم. ويحتمل أن يقال من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز عنه، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم. وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما موجه إليهم، وإلى الأخيرين بحرف المجاوزة فإن الآتي منهما كالمنحرف عنهم المار على عرضهم، ونظيره قولهم جلست عن يمينه. ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ مطيعين، وإنما قاله ظناً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾[1] لما رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً ومبدأ الخير واحداً، وقيل سمعه من الملائكة.

(١٨) ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا ﴾ مذموماً من ذأمه إذا ذمه. وقرىء مذوماً كمَسُول في مسؤول أو كمكول في مكيل، من ذامه يذيمه ذيماً. ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً. ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ اللام فيه لتوطئة القسم، وجوابُه: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط. وقرىء لِمَنْ بكسر اللام على أنه خبر لأملأن على معنى: لمن تبعك هذا الوعيد، أو علة لاخرُج ولأَملأن جواب قسم محذوف، ومعنى منكم منك ومنهم فغلَّب المخاطب.

---

(١) سبأ: «٢٠».

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا
ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ
تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا
سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ أي وقلنا يا آدم[(١)]. ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وقرىء هذا وهو الأصل لتصغيره على ذيّا، والهاء بدل من الياء[(٢)]. ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسَهم، وتكونا يحتمل الجزم على العطف والنصب على الجواب.

(٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي فعل الوسوسة لأجلهما، وهي في الأصل الصوت الخفي كالهيمنة والخشخشة ومنه وسوس الحلي. وقد سبق في سورة البقرة كيفية وسوسته. ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا﴾ ليظهر لهما، واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما، ولذلك عبر عنهما بالسوأة. وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع. ﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما غطي عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر، وإنما لم تقلب الواو المضمومة همزة في المشهور كما قلبت في أُوَيْصل تصغير واصل لأن الثانية مدة. وقرىء سوأتهما بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو، وسوأتهما بقلبها واواً وإدغام الواو الساكنة فيها. ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا﴾ إلاَّ كراهة أن تكونا. ﴿مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون في الجنة، واستدل به على فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجوابه: أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تنقلب وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً ما للملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدل على فضلهم مطلقاً.

(٢١) ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي أَقْسَم لهما على ذلك، وأخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة. وقيل أقسما له بالقبول. وقيل أقسما عليه بالله إنه لمن الناصحين فأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة.

(٢٢) ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، نبه به على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل. ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرهما به من القسم فإنهما ظنّا أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، أو ملتبسين بغرور. ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي فلما وجدا طعمها آخذين في الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما. واختلف في أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما، وأن اللباس كان نوراً أو

---

(١) تصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلق المأمور به (س٣/ ٢٢٠).

(٢) وتوجيه الخطاب لهما لتعميم التشريف والإيذان بتساويهما في مباشرة المأمور به (س٣/ ٢٢٠).

حلة أو ظفراً. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة. ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ورق التين، وقرىء يُخْصِفان من أخصف أي يخصفان أنفسهما ويخصفان من خصف ويَخِصّفان وأصله يختصفان. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عتاب على مخالفة النهي، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة. ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دليل على أن الصغائر معاقب عليها إن لم تغفر. وقالت المعتزلة لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر، ولذلك قالوا: إنما قالا ذلك على عادة المقربين في استعظام الصغير من السيئات واستحقار العظيم من الحسنات.

(٢٤) ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو لهما ولإبليس. كرر الأمر له تبعاً ليعلم أنهم قرناء أبداً وأخبر عما قال لهم متفرقاً. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال أي متعادين. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار أي موضع استقرار. ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتمتع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن تقضى آجالكم.

(٢٥) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للجزاء. وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان ومنها تَخْرُجون، وفي الزخرف كذلك تَخْرُجون بفتح التاء وضم الراء.

(٢٦) ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾[١] وقوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[٢]. ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. روي: أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فنزلت[٣]. ولعله ذكر قصة آدم مقدِّمة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم. ﴿وَرِيشًا﴾

---

(١) الزمر: «٦».

(٢) الحديد: «٢٥».

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٣٩).
وأصله في صحيح مسلم (٤/ ٢٣٢٠ رقم ٢٥/ ٣٠٢٨) من حديث ابن عباس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت المرأةُ تطوف بالبيت وهي عُريانَةٌ. فتقول: من يُعيرني تِطْوَافاً تَجْعَلُهُ على فرجها. وتقول:

اليوم يبدو بعضُهُ أو كُلُّهُ ... فما بدا مِنْهُ فلا أحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية «خذوا زينتكم عند كلِّ مسجد» [الأعراف: ٣١].

ولباساً تتجملون به، والريش الجمال. وقيل مالاً ومنه تريش الرجل إذا تمول. وقرىء رياشاً وهو جمع ريش كشعب وشِعاب. ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ خشية الله، وقيل الإيمان، وقيل السمت الحسن، وقيل لباس الحرب. ورفعه بالابتداء وخبرُه: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أو خبر وذلك صفتُه كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ولباسَ التقوى بالنصب عطفاً على لباساً. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي إنزال اللباس. ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدالة على فضله ورحمته. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون نعمته، أو يتعظون فيتورعون عن القبائح.

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ لا يمتحننكم بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم[١]. ﴿ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيهم عن اتباعه والافتتان به. ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ حال من أبويكم أو من فاعل أخرَج، وإسناد النزع إليه للتسبب. ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ تعليل للنهي وتأكيد للتحذير من فتنته. وقبيلُه جنودُه، ورؤيتُهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثّلهم لنا. ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما سوّلوا لهم. والآية مقصود القصة وفذلكة الحكاية.

(٢٨) ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾ فِعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف. ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ اعتذروا واحتجوا بأمرين: تقليدِ الآباء والافتراءِ على الله سبحانه وتعالى، فأَعْرَض عن الأول لظهور فساده ورد الثاني بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، أو الحث على مكارم الخصال. ولا دلالة فيه على أن أقبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه آجلاً عقلي، فإن المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لهم لما فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليها آباءنا، فقيل ومن أين أخذ آباؤكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقاً. ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالى.

(٢٩) ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ بالعدل، وهو الوَسَط من كل أمر المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط. ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، أو أقيموها نحو

---

(١) والتصدير بالنداء للاعتناء بمضمون ما صدر به (س٣/ ٢٢٢).

القبلة. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقت سجود أو مكانه وهو الصلاة، أو في أي مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. ﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الطاعة فإن إليه مصيركم. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ كما أنشأكم ابتداء. ﴿تَعُودُونَ﴾ بإعادته فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة، وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها. وقيل كما بدأكم من التراب تعودون إليه. وقيل كما بدأكم حفاة عراة غرلاً تعودون. وقيل كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

(٣٠) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفقهم للإيمان. ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ بمقتضى القضاء السابق. وانتصابه بفعل يفسره ما بعده أي وخذل فريقاً. ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لخذلانهم، أو تحقيق لضلالهم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يدل على أن الكافر المخطىء والمعاند سواء في استحقاق الذم، وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر.

(٣١) ﴿۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ ثيابكم لمواراة عورتكم. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لطواف أو صلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ما طاب لكم. روي: أن بني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجّهم فهمّ المسلمون به، فنزلت[1]. ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة[2]. وقال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب في نصف آية فقال: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»[3]. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرتضي فعلهم.

(٣٢) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب وسائر ما يتجمل به. ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف، والمعادن كالدروع. ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المستلذات من

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٢٥) بدون سند.
وذكره الواحدي في «الأسباب» ص٢٢٦ من قول الكلبي في أهل الجاهلية...

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٤٠٥) من حديث ابن عباس وعبدالله بن عمرو معاً وأخرجه النسائي (٥/ ٧٩ رقم ٢٥٥٩) وابن ماجه (٢/ ١١٩٢ رقم ٣٦٠٥).
وأحمد في المسند (٢/ ١٨١) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٥) وعبد بن حميد في تفسيره كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٤٣) كلهم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٦٤ رقم ٢٥) لم أجد لها إسناداً.

المآكل والمشارب. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة، لأن الاستفهام في من للإنكار. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالأصالة، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فتَبَعٌ. ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم، وانتصابُها على الحال. وقرأ نافع بالرفع على أنها خبر بعد خبر. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لهم.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا
يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما تزايد قبحه، وقيل ما يتعلق بالفروج. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرها وسرها. ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ وما يوجب الإثم، تعميم بعد تخصيص. وقيل شرب الخمر. ﴿وَٱلْبَغْيَ﴾ الظلم أو الكبر، أفرده بالذكر للمبالغة. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ متعلق بالبغي مؤكد له معنًى. ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تهكم بالمشركين، وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان. ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته سبحانه وتعالى، والافتراء عليه كقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة أو وقت نزول العذاب بهم، وهو وعيد لأهل مكة. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ انقرضت مدتهم، أو حان وقتهم. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت، أو لا يطلبون التأخر والتقدم لشدة الهول[1].

(٣٥) ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ شرط ذكره بحرف الشك للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب كما ظنه أهل التعليم، وضمت إليها «ما» لتأكيد معنى الشرط ولذلك أكد فعلها بالنون، وجوابُه: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والمعنى فمن اتقى التكذيب وأصلح عمله منكم والذين كذبوا بآياتنا منكم، وإدخال الفاء في الخبر الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ ممن تقول على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مما كتب لهم من الأرزاق والآجال. وقيل الكتاب اللوح

(١) صيغة الاستفعال «لا يستأخرون» للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له (س٣/ ٢٢٥).

المحفوظ، أي مما أثبت لهم فيه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ أي يتوفون أرواحهم، وهو حال من الرسل، وحتى غايةٌ لنيلهم وهي التي يبتدأ بعدها الكلام. ﴿قَالُوٓاْ﴾ جواب إذا ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها؟ وما وصلت بأين في خط المصحف وحقُّها الفصل لأنها موصولة. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عنا. ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه.

قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ﴾ أي قال الله تعالى لهم يوم القيامة، أو أحد من الملائكة. ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ أي كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة. ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين. ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ متعلق بادخلوا. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ﴾ أي في النار. ﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ التي ضلت بالاقتداء بها. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ أي تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار. ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع. ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي لأجل أولاهم إذ الخطاب مع الله لا معهم. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ سنُّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم. ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ مضاعفاً لأنهم ضلّوا وأضلوا. ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ ما لكم أو ما لكل فريق. وقرأ عاصم بالياء على الانفصال.

(٣٩) ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ عطفوا كلامهم على جواب الله سبحانه وتعالى لأخراهم ورتبوه عليه، أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب. ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ من قول القادة، أو من قول الفريقين.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ أي عن الإيمان بها. ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأدْعِيتهم وأعمالهم أو لأرواحهم، كما تفتح لأعمال المؤمنين وأرواحهم لتتصل بالملائكة. والتاء في تفتّح لتأنيث الأبواب، والتشديد لكثرتها. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف، وحمزة والكسائي به وبالياء لأن التأنيث غير حقيقي والفعل مقدم، وقرىء على البناء للفاعل ونصب الأبواب بالتاء على أن الفعل للآيات، وبالياء لأن الفعل لله. ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ أي حتى يدخل ما هو مَثَلٌ في عظم الجرْم وهو البعير فيما هو مَثَل في ضيق المسلك وهو ثقبة الإبرة، وذلك مما لا يكون فكذا ما يتوقف عليه. وقرىء الجُمَّل كالقُمَّل، والجُمَل كالنُّغَر، والجُمْل كالقُفْل، والجُمُل كالنُّصُب، والجَمْل كالحبل وهو الحبل الغليظ من القنب، وقيل حبل السفينة. وسُمّ بالضم والكسر وفي سم المخيط وهو والخِياط ما يخاط به كالحِزام والمِحزم. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع. ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ
وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش. ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية، والتنوين فيه للبدل عن الإعلال عند سيبويه، وللصرف عند غيره. وقرىء غواشٌ على إلغاء المحذوف. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الأوصاف الذميمة، وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيهاً على أنه أعظم الإجرام.

(٤٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ على عادته سبحانه وتعالى في أن يشفع الوعيد بالوعد، ولا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراضٌ بين المبتدأ وخبرِه للترغيب في اكتساب النعيم المقيم بما تسعه طاقتهم ويسهل عليهم. وقرىء لا تكلف نفسٌ.

(٤٣) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي نخرج من قلوبهم أسباب الغل، أو نطهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التواد(١). وعن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم(٢). ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ لما جزاؤه هذا. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ لولا هداية الله وتوفيقه، واللام لتوكيد النفي، وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله. وقرأ ابن عامر ما كنا بغير واو على أنها مبينة للأولى. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم. يقولون ذلك اغتباطاً وتبجحاً بأن ما علموه يقيناً في الدنيا صار لهم عين اليقين في الآخرة. ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ إذا رأوها من بعيد، أو بعد دخولها والمنادى له بالذات. ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أعطيتموها بسبب أعمالكم، وهو حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة، أو خبر، والجنة صفة تلكم. وأنْ في المواقع الخمسة هي المخففة، أو المفسِّرة لأن المناداة والتأذين من القول.

(٤٤) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إنما قالوه تبجحاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم، وإنما لم يقل ما وعدكم كما قال «ما وعدنا» لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصاً وعده بهم كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة. ﴿قَالُوا

(١) صيغة الماضي «نزعنا» للإيذان بتحققه وتقرره (س٣/٢٢٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٨/١٨٣) عنه وهو منقطع.
وأخرجه ابن أبي شيبة في رواية ربعي عن علي وهو متصل. قاله الحافظ في «الكافي الشاف».

﴿نَعَمْ﴾ وقرأ الكسائي بكسر العين وهما لغتان. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ قيل هو صاحب الصُّور. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين. ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقرأ ابن كثير في رواية للبزي وابن عامر وحمزة والكسائي أنَّ لعنةَ الله بالتشديد والنصب، وقرىء إنّ بالكسر على إرادة القول أو إجراء أذّن مجرى قال.

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة للظالمين مقررة، أو ذمّ مرفوع أو منصوب. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ زيغاً وميلاً عما هو عليه. والعِوَج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم تكن منتصبة، وبالفتح ما كان في المنتصبة كالحائط والرمح. ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

(٤٦) ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي بين الفريقين لقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾[١] أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداها إلى الأخرى. ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ وعلى أعراف الحجاب أي أعاليه، وهو السور المضروب بينهما، جمع عرف، مستعار من عرف الفرس. وقيل العرف ما ارتفع من الشيء فإنه يكون لظهوره أعرف من غيره. ﴿رِجَالٌ﴾ طائفة من الموحدين قصّروا في العمل فيُحبَسون بين الجنة والنار حتى يقضي الله سبحانه وتعالى فيهم ما يشاء. وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو الشهداء رضي الله تعالى عنهم، أو خيار المؤمنين وعلمائهم، أو ملائكة يُرَون في صورة الرجال. ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة والنار. ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله بها كبياض الوجه وسواده، فِعْلى مِنْ سام إبله إذا أرسلها في المرعى معلمة، أو مِنْ وَسَمَ على القلب كالجاه من الوجه، وإنما يَعْرِفون ذلك بالإلهام أو تعليم الملائكة. ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي إذا نظروا إليهم سلموا عليهم. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال من الواو على الوجه الأول، ومن أصحاب على الوجوه الباقية.

(٤٧) ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ﴾ نعوذ بالله[٢]. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي في النار[٣].

(٤٨) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾ من رؤساء الكفرة. ﴿قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ كثرتكم، أو جمعُكم المال. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحق، أو على الخلق. وقرىء تستكثرون من الكثرة.

---

(١) الحديد: «١٣».

(٢) والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف إشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل الثاني بخلافه (س٣/ ٢٣٠).

(٣) وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال ـ الذي هو الموجب للدعاء ـ إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفي العذاب فقط بل مع ما يوجبه ويؤدي إليه من الظلم (س٣/ ٢٣٠).

أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾
وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾
وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ
يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ
لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾

(٤٩) ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ من تتمة قولهم للرجال، والإشارةُ إلى ضعفاء أهل الجنة الذين كانت الكفَرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون أن الله لا يُدخلهم الجنة. ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي فالتفتوا إلى أصحاب الجنة وقالوا لهم ادخلوا وهو أوفق للوجوه الأخيرة، أو فقيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى بعد أن حُبسوا حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا. وقيل لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله سبحانه وتعالى أو بعض الملائكة أهؤلاء الذين أقسمتم. وقرىء أُدْخِلوا ودَخَلوا على الاستئناف، وتقديرُه دَخَلوا الجنة مقولاً لهم لا خوف عليكم.

(٥٠) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ أي صبوه، وهو دليل على أن الجنة فوق النار. ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة، أو من الطعام كقوله: علفتها تبناً وماء بارداً. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ منعهما عنهم منع المحرَّم من المكلّف.

(٥١) ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ كتحريم البَحيرة والتصدية والمُكاء حول البيت واللهوُ صرف الهمّ بما لا يحسن أن يصرف به واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب بهز ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نفعل بهم فعل الناسين فنتركهم في النار. ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ فلم يخطروه ببالهم ولم يستعدوا له. ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ وكما كانوا منكرين أنها من عند الله.

(٥٢) ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة. ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيماً، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى عالم بعلم، أو مشتملاً على علم فيكون حالاً من المفعول. وقرىء فضلناه أي على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك. ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ حال من الهاء.

(٥٣) ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ إلا ما يؤل إليه أمره مِنْ تبين صدقه بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد. ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ تركوه تركَ الناسي. ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي قد تبين أنهم جاؤوا بالحق. ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ اليوم. ﴿أَوۡ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد

إلى الدنيا. وقرىء بالنصب عطفاً على فيشفعوا، أو لأن أو بمعنى إلى أن، فعلى الأول المسؤول أحد الأمرين الشفاعة أو ردهم إلى الدنيا، وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد وهو الرد. ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ جواب الاستفهام الثاني. وقرىء بالرفع أي فنحن نعمل. ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم في الكفر. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ بطل عنهم فلم ينفعهم.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

(٥٤) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في ستة أوقات كقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾[١] أو في مقدار ستة أيام، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن حينئذ. وفي خلق الأشياء مدرّجاً مع القدرة على إيجادها دفعةً دليل للاختيار واعتبارٌ للنظّار وحثّ على التأني في الأمور. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استوى أمرُه أو استولى، وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف، والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن. والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير المَلِك فإن الأمور والتدابير تنزل منه. وقيل المُلْك. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يغطيه به ولم يُذكَر عكسه للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما، ولذلك قرىء يغشي الليلَ النهارُ بنصب الليل ورفع النهار. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بالتشديد فيه وفي الرعد[٢]، للدلالة على التكرير. ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء. والحثيثُ فعيل من الحث، وهو صفة مصدر محذوف، أو حال من الفاعل بمعنى حاثاً أو المفعول بمعنى محثوثاً. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بقضائه وتصريفه، ونصبُها بالعطف على السموات ونصبُ مسخرات على الحال. وقرأ ابن عامر كلّها بالرفع على الابتداء والخبر. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية. وتحقيق الآية ـ والله سبحانه وتعالى أعلم ـ أَنّ الكفرة كانوا متخذين أرباباً فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[٣] وعَمَد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثارِ والأفعال وأشارَ إليه بقوله: «وخلق الأرض» أي ما في جهة السفل في يومين، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولاً وتصويرها ثانياً كما قال تعالى بعد قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى

---

(١) الأنفال: «١٦».
(٢) الرعد: «٣».
(٣) فصلت: «١٢».

يَوْمَيْنِ﴾(١) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾(٢) أي مع اليومين الأولين لقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(٣) ثم لما تم له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالمَلِكِ الجالس على عرشه لتدبير المملكة، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والأيام، ثم صرح بما هو فَذْلكة التقرير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤) ثم أمرهم بأن يدعوه متذللين مخلصين فقال:

ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا
وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي ذوي تضرع وخفية فإن الإخفاء دليل الإخلاص. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره، نبه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصعود إلى السماء. وقيل هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه. وعن النبي ﷺ، «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ «إنه لا يحب المعتدين»(٥).

(٥٦) ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ ببعث الأنبياء وشرع الأحكام. ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ذوي خوف من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم، وطمع في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ترجيح للطمع وتنبيه على ما يتوسل به للإجابة، وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم، أو لأنه صفة محذوف أي أمر قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول، أو الذي هو مصدر كالنقيض، أو الفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره.

(٥٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح على الوحدة. ﴿بُشْرًا﴾

---

(١) فصلت: «٩».
(٢) فصلت: «١٠».
(٣) السجدة: «٤».
(٤) الأعراف: «٥٤».
(٥) أخرجه أبو يعلى في المسند (٢/ ٧١ رقم ٢٧/ ٧١٥) وأحمد (١/ ١٧٢، ١٨٢٠) من طريق عبدالرحمٰن بن مهدي، وأبي النضر كلاهما عن شعبة بهذا الإسناد. وقد تصحّف فيه «ابن عبادية» إلى أبي عبادية.
وأخرجه أحمد (١/ ١٨٢) وأبو داود (٤/ ١٦١ ـ ١٦٢ رقم ١٤٨٠) من طريقين عن شعبة به، وفيه «ابن لسعد» بدل «مولى لسعد» وعند أحمد عن الاثنين معاً. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣١). =

جمع نشور بمعنى ناشر، وقرأ ابن عامر نُشْراً بالتخفيف حيث وقع، وحمزة والكسائي نَشْراً بفتح النون حيث وقع على أنه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان، وعاصم بُشْراً وهو تخفيف بشر جمع بشير وقد قرىء به، وبَشْراً بفتح الباء مصدر بشره بمعنى باشرات أو للبشارة، وبُشْرى. ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قدّام رحمته، يعني المطر فإن الصَّبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدرّه والدَّبور تفرقه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ أي حملت، واشتقاقه من القِلة فإن المقل للشيء يستقله. ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء، جمعه لأن السحاب جمع بمعنى السحائب. ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي السحاب، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ. ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأجله، أو لإحيائه، أو لسقيه. وقرىء ميت. ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح وكذلك. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ ويحتمل فيه عود الضمير إلى الماء، وإذا كان للبلد فالباء للإلصاق في الأول وللظرفية في الثاني، وإذا كان لغيره فهي للسببية فيهما. ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل أنواعها. ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت، أي كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

(٥٨) ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الأرض الكريمة التربة. ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته وتيسيره، عبّر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لأنه أوقعه في مقابلة: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ أي كالحرة والسبخة. ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قليلاً عديم النفع، ونصبُه على الحال وتقدير الكلام: والبلد الذي خبث لا يخرج نباته إلا نكداً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعاً مستتراً. وقرىء يُخرِج أي يخرجه البلد، فيكون إلا نكداً مفعولاً ونكداً على المصدر أي ذا نكد ونكْداً بالإسكان للتخفيف. ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نرددها ونكررها. ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله فيتفكرون فيها ويعتبرون بها. والآية مَثَل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها.

(٥٩) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ جواب قسم محذوف، ولا تكاد تطلق هذه اللام إلا مع قد لأنها مظنة التوقع، فإن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها. ونوح بن لمك بن متوشلح بن إدريس أول نبي بعده، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين. ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اعبدوه وحده[1] لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وقرأ الكسائي غيرِه بالكسر نعتاً أو بدلاً على اللفظ حيث وقع إذا

(١) وترك التقييد بـ«وحده» للإيذان بأنها العبادة حقيقة، وأما العبادة بالإشراك فليست من العبادة في شيء (س٣/ ٢٣٥). =

كان قبل إله مِنْ التي تخفض، وقرىء بالنصب على الاستثناء. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ إن لم تؤمنوا، وهو وعيد وبيان للداعي إلى عبادته. واليوم يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان[1].

قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

(٦٠) ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي الأشراف فإنهم يملؤون العيون رُواء. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ﴾ زوال عن الحق. ﴿مُّبِينٖ﴾ بين.

(٦١) ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ أي شيء من الضلال، بالغَ في النفي كما بالغوا في الإثبات وعرّض لهم به. ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استدراك باعتبار ما يلزمه، وهو كونه على هدًى كأنه قال: ولكني على هدى في الغاية لأني رسول من الله سبحانه وتعالى.

(٦٢) ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ صفات لرسول أو استئناف، ومساقها على الوجهين لبيان كونه رسولاً. وقرأ أبو عمرو أُبْلِغكم بالتخفيف. وجَمْعُ الرسالات لاختلاف أوقاتها، أو لتنوع معانيها كالعقائد والمواعظ والأحكام، أو لأن المراد بها ما أوحي إليه وإلى الأنبياء قبله كصحف شيث وإدريس. وزيادة اللام في لكم للدلالة على إمحاض النصح لهم. وفي «أعلمُ من الله» تقرير لما أوعدهم به، فإن معناه أعلم من قدرته وشدة بطشه، أو من جهته بالوحي أشياء لا علم لكم بها[2].

(٦٣) ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف أي أكذبتم وعجبتم. ﴿أَن جَآءَكُمۡ﴾ من أن جاءكم. ﴿ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ رسالة أو موعظة. ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ على لسان رجل. ﴿مِّنكُمۡ﴾ من جملتكم أو من جنسكم، فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[3]. ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ عاقبةَ الكفر والمعاصي. ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ منهما بسبب الإنذار. ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بالتقوى. وفائدة حرف الترجي: التنبيه على أن التقوى غير موجب، والترحمُ من الله سبحانه وتعالى تفضل، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله تعالى.

(٦٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ وهم من آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل

---

(١) ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه وتكميل الإنذار (س٣/ ٢٣٥).

(٢) في قوله «رسالات ربي» تخصيص لربوبيته تعالى به عليه السلام ـ بعد بيان عمومها للعالمين ـ للإشعار بعلة الحكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم، فإن ربوبيته تعالى له عليه السلام من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته إليهم.
وقوله «وأنصح» بصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته لهم (س٣/ ٢٣٦).

(٣) المؤمنون: «٢٤».

تسعة بنوه سام وحام ويافث وستة ممن آمن به. ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ متعلق بمعه أو بأنجيناه، أو حال من الموصول أو من الضمير في معه. ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ بالطوفان[1]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عُمْيَ القلوب غير مستبصرين، وأصله عميين فخفف. وقرىء عامين والأول أبلغ لدلالته على الثبات.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٥) ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ عطف على نوحاً إلى قومه. ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لأخاهم والمراد به الواحد منهم، كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم، فإنه هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل هود بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح، ابن عم أبي عاد، وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف بحاله وأرغب في اقتفائه. ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استأنف به ولم يعطِف كأنه جواب سائل قال: فما قال لهم حين أرسل؟ وكذلك جوابُهم. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، وكأن قومه كانوا أقرب من قوم نوح عليه الصلاة والسلام ولذلك قال «أفلا تتقون».

(٦٦) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ إذ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ متمكناً في خفة عقل راسخاً فيها حيث فارقتَ دين قومك. ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

(٦٧) ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

(٦٨) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

(٦٩) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ سبق تفسيره[2]. وفي إجابة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكفرةَ عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراضِ عن مقابلتهم كمالُ النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفي قوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[3]

---

(١) وتقديم ذكر إنجاء نوح عليه السلام على إغراقهم للمسارعة إلى الإخبار به، والإيذان بسبق الرحمة ـ التي هي مقتضى الذات على الغضب ـ الذي يظهر أثره بمقتضى جرائمهم (س٣/ ٢٣٧).

(٢) قوله «وأنا لكم ناصح أمين» جيء بالجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار (س٣/ ٢٣٨).

(٣) الآية: «٦٣».

تنبيه على أنهم عَرَفُوه بالأمرين. وقرأ أبو عمرو أُبْلِغُكم في الموضعين في هذه السورة وفي الأحقاف[1] مخففاً. ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً فإن شداد بن عاد ممن مَلَك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شجر عمان. خوّفهم من عقاب الله ثم ذكّرهم بإنعامه. ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ قامة وقوة. ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ تعميم بعد تخصيص. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح.

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ استبعدوا اختصاصَ الله بالعبادة والإعراضَ عما أشرك به آباؤهم انهماكاً في التقليد وحباً لما أَلِفوه، ومعنى المجيء في أجئتنا إما المجيء من مكان اعتزل به عن قومه أو من السماء على التهكم، أو القصد على المجاز كقولهم ذهب يسبني. ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله «أفلا تتقون» ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه.

(٧١) ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ قد وجب وحق عليكم، أو نَزَل عليكم على أن المتوقّع كالواقع. ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب. ﴿وَغَضَبٌۖ﴾ إرادة انتقام. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ أي في أشياء سميتموها آلهةً وليس فيها معنى الإلهية، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحقت كان استحقاقُها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حُجة، بيّن أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمّى، وإسنادُ الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم، واستُدِل به على أن الاسم هو المسمى وأن اللغات توقيفية إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله بها سلطاناً، وضعفهما ظاهر. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لما وضح الحق وأنتم مصرون على العناد نزول العذاب بكم. ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

(٧٢) ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ في الدين. ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ عليهم. ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ أي استأصلناهم. ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان. روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وازدادوا عتواً فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جَهِدهم، وكان الناس حينئذ مسلمهم ومشركهم إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه قيل بن عنز ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقةُ أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاوية بن بكر، فلما

(١) الأحقاف: «٢٣».

قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنّيهم الجرادتان قَيْنتان له، فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا له أهمه ذلك واستحيا أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم فعلّم القينتين:

أَلاَ يَا قِيلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ	لعَلَّ الله يُسْقِينَا الغَمَامَا
فَيُسْقِي أَرْضَ عَادٍ إن عَاداً	قد امسوا مَا يُبِينُونَ الكَلاَمَا

حتى غنتا به، فأزعجهم ذلك فقال مرثد: والله لا تُسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سبحانه وتعالى سُقيتم، فقالوا لمعاوية: احبسه عنا لا يقدمنّ معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال قيل: اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء يا قيل: اختر لنفسك ولقومك. فقال اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من وادي المغيث فاستبشروا بها وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله سبحانه وتعالى فيها حتى ماتوا[(١)].

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

(٧٣) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ قبيلة أخرى من العرب سُموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل سموا به لقلة مائهم من الثمْد وهو الماء القليل. وقرىء مصروفاً بتأويل الحي أو باعتبار الأصل. وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القُرى. ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي، وقولُه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ استئنافٌ لبيانها، و«آيةً» نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة، و«لكم» بيان لِمَنْ هي له آية، ويجوز أن تكون ناقةُ الله بدلاً أو عطفَ بيان ولكم خبراً عاملاً في آية، وإضافةُ الناقة إلى الله لتعظيمها ولأنها جاءت من عنده بلا وسائط وأسبابٍ معهودة ولذلك كانت آية. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة في الأمر وإزاحة للعذر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جواب للنهي.

---

(١) أورد هذه القصة ابن كثير عن محمد بن إسحاق، وقال: وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة... وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله (تفسير ابن كثير ٢/٢١٦).

(٧٤) ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ الحجر. ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي تبنون في سهولها، أو من سهولة الأرض بما تعملون منها كاللَّبِن والآجرّ. ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وقرىء تَنْحَتون بالفتح وتَنْحَاتُون بالإشباع، وانتصاب بيوتاً على الحال المقدرة أو المفعول على أن التقدير بيوتاً من الجبال، أو تنحتون بمعنى تتخذون ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

(٧٥) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي عن الإيمان. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ أي للذين استضعفوهم واستذلوهم. ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استُضعفوا بدلَ الكل إنْ كان الضمير لقومه وبدلَ البعض إن كان للذين. وقرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو. ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قالوه على الاستهزاء. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نَعَمْ تنبيهاً على أنّ إرساله أظهرُ من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذوي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر فلذلك قال:

(٧٦) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على وجه المقابلة[١]، ووضعوا آمنتم به موضع أُرسل به رداً لما جعلوه معلوماً مُسَلَّماً.

(٧٧) ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ فنحروها. أُسْنِد إلى جميعهم فِعْلُ بعضهم للملابسة، أو لأنه كان برضاهم. ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ واستكبروا عن امتثاله، وهو ما بلّغهم صالح عليه الصلاة والسلام بقوله: فذروها. ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(٧٨) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة. ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ خامدين ميتين. روي: أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا، وعمّروا أعماراً طوالاً لا تفي بها الأبنية، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في خصب وسعة فعتوْا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً من أشرافهم فأنذرهم، فسألوه آية فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وندعو آلهتنا فمن استجيب له اتُّبع، فخرج معهم فدعوْا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها الكاثبة وقال: له أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة

---

(١) أعيد الموصول مع صلته «الذين استكبروا» مع كفاية الضمير إيذاناً بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار (س٣/ ٢٤٣).

جوفاء وَبْراء إن فعلت صدقناك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلتُ ذلك لتؤمنن؟ فقالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النَّتُوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وَبْراء كما وَصَفوا وهم ينظرون، ثم نَتِجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع في جماعة، ومَنَع الباقين من الإيمان ذؤابُ بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صغر كاهنُهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتَرِد الماء غِبّاً[١] فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفحج فيحلِبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامُهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزينت عقْرَها لهم عنيزةُ أم غنم وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، فرقى سَقَبُها[٢] جبلاً اسمه قارة فرَغَا ثلاثاً فقال صالح لهم أدرِكوا الفصيل عسى أن يُرفَع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه إذ انفجرت الصخرة بعد رُغائه فدخلها فقال لهم صالح: تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة، ثم يصبِّحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا[٣].

فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

(٧٩) ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ ظاهرُه أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قَلِيب بدر[٤] وقال «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»[٥]. أو ذُكِر

---

(١) غِبّاً أي يوماً بعد يوم.

(٢) سَقَبُها أي فصيلها وهو فصيل الناقة.

(٣) أورد القصة ابن كثير ولم يعلق عليها (تفسير ابن كثير ٢/٢١٨) ونسبها الألوسي لمحمد بن إسحاق (روح المعاني ٨/١٦٦).

(٤) القليب: يعني قليب بدر. وهو حفرة رميت فيها جيف كفار قريش المقتولين ببدر. وفسر بالبئر العادية القديمة. ولفظه مذكر. ليس كلفظ البئر ولذا قال: وفيه قتلى بدر، والقتلى جمع قتيل.

(٥) أخرج البخاري (٧/٣٠٠ رقم ٣٩٧٦) ومسلم (٤/٢٢٠٤ رقم ٢٨٧٥) عن أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمرَ يومَ بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذِفوا في طوىً من أطواء بدرٍ خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قومٍ أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ. فلما كان ببدر اليوم الثالث أمرَ براحلتهِ فشُدَّ عليها رحلُها، ثم مشى واتبعهُ أصحابه وقالوا ما نرى ينطلِقُ إلاّ لبعض حاجته، حتى قام على شفةِ الرَّكي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدَ ربكم حقاً. قال فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلمُ من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم».
قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه، توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرةً وندماً قلت: ويؤيد تفسير قتادة حديث أخرجه البخاري (٧/٣٠١ رقم ٣٩٨١) ومسلم (٢/٦٤٣ رقم ٩٣٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول. فذكر لعائشة، فقالت: «إنما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنتُ أقول لهم هو الحق. ثم قرأت «إنك =

ذلك على سبيل التحسر عليهم[١].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

(٨٠) ﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وقت قوله لهم، أو واذكُر لوطاً وإذ بدلٌ منه. ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ توبيخ وتقريع على تلك الفعلة المتمادية في القبح. ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ما فعلها قبلكم أحد قط. والباء للتعدية، ومِنْ الأولى لتأكيد النفي والاستغراق، والثانية للتبعيض. والجملة استئناف مقرر للإنكار كأنه وبّخهم أولاً بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ.

(٨١) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ وهو أبلغ في الإنكار والتوبيخ، وقرأ نافع وحفص إنكم على الإخبار المستأنف، و«شهوةً» مفعول له أو مصدر في موقع الحال، وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الوطر. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضرابٌ عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار عليها إلى الذم على جميع معايبهم، أو عن محذوف مثل لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الإسراف.

(٨٢) ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي ما جاؤوا بما يكون جواباً عن كلامه، ولكنهم قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه فيمن معه من المؤمنين من قريتهم والاستهزاء بهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي من الفواحش[٢].

(٨٣) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي مَنْ آمن به. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تُسرّ الكفر. ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الذين بقُوا في ديارهم فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور.

(٨٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي نوعاً من المطر عجيباً وهو مبيّن بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٣]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ روي: أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر مع

= لا تُسمعُ الموتى» حتى قرأت الآية.
وإذا أردت الوقوف على المسألة وأدلتها فارجع إلى الكتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» تأليف نعمان بن المفسر الألوسي. تحقيق وتخريج وتعليق المحدث محمد ناصر الدين الألباني.

(١) قوله «لا تحبون» بصيغة المضارع للدلالة على استمرارهم بذلك (س٣/ ٢٤٤).
(٢) ووصفهم بالتطهير للاستهزاء والسخرية بهم (س٣/ ٢٤٦).
(٣) هود: «٨٢». الحجر: «٧٤».

عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام نزل بالأردن، فأرسله الله إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا. وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

(٨٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله شعيب بن ميكائيل بن يسجر بن مدين، وكان يقال له خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لحسن مراجعته قومه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد المعجزة التي كانت له وليس في القرآن أنها ما هي، وما روي[١] من محاربة عصا موسى عليه الصلاة والسلام التنين وولادة الغنم التي دفعها إليه الدرع خاصة وكانت الموعودة له من أولادها ووقوع عصا آدم على يده في المرات السبع متأخرة عن هذه المقاولة، ويحتمل أن تكون كرامة لموسى عليه السلام أو إرهاصاً لنبوته. ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي آلة الكيل على الإضمار، أو إطلاقُ الكيل على المكيال كالعيش على المعاش لقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ كما قال في سورة هود: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾[٢] أو الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان مصدراً كالميعاد. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير. وقيل كانوا مَكّاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه[٣]. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والحَيْف. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد ما أُصلح أمرُها أو أهلَها الأنبياءُ وأتباعهم بالشرائع، أو أصلحوا فيها والإضافة إليها كالإضافة في «بل مكر الليل والنهار»[٤]. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه، ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقاً أو في الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال.

(٨٦) ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ بكل طريق من طرق الدين كالشيطان، وصراطُ الحق وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام، وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى في شيء منها

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٨/ ١٧٦) بدون راوٍ ولا سند.

(٢) هود: «٨٥».

(٣) المكس هو نقص الثمن، إذ يأخذه بغير حق.

(٤) سبأ: «٣٣». والإضافة فيها على تقدير: بل مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً. . (البيضاوي ٢/ ٢٦٢).

منعوه. وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيباً إنه كذاب فلا يفسك عن دينك ويوعِدون لمن آمن به. وقيل كانوا يقطعون الطريق. ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني الذي قعدوا عليه فوضَع الظاهر موضع المضمر بياناً لكل صراط، ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقبيحاً لما كانوا عليه أو الإيمانِ بالله. ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي بالله، أو بكل صراط على الأول، ومَنْ مفعول تصدون على إعمال الأقرب ولو كان مفعول توعدون لقال وتصدونهم، وتوعِدون بما عطف عليه في موقع الحال من الضمير في تقعدوا. ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً بإلقاء الشبه، أو وصفها للناس بأنها معوجة. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ عَدَدَكُمْ أو عُدَدَكُمْ. ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالبركة في النسل أو المال. ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم قبلكم فاعتبروا بهم.

وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

(٨٧) ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟﴾ فتربصوا. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حَيْف فيه.

(٨٨) ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي لَيكوننّ أحدُ الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غلَّبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أُجري الجواب في قوله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدوننا في حال كراهتنا.

(٨٩) ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قد اختلفنا عليه. ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ شرطٌ جوابه محذوف دليلُه: قد افترينا وهو بمعنى المستقبل لأنه لم يقع لكنه جعل كالواقع للمبالغة، وأدخل عليه «قد» لتقريبه من الحال أي قد افترينا الآن إن هممنا بالعود بعد الخلاص منها حيث نزعم أن لله تعالى نداً، وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه باطل وما أنتم عليه حق. وقيل إنه جواب قسم وتقديره: والله لقد افترينا. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ وما يصح لنا. ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ خذلاننا وارتدادنا، وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله. وقيل أراد به حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون. ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم. ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار. ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ احكم بيننا وبينهم، والفتّاح

القاضي. والفِتاحة الحُكومة. أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل، مِنْ فَتح المُشْكِل إذا بينه. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ على المعنيين.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

(٩٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وتركتم دينكم[١]. ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لاستبدالكم ضلالته بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف، وهو ساد مسد جواب الشرط والقسم الموطأ باللام.

(٩١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة وفي سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾[٢] ولعلها كانت من مباديها. ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي في مدينتهم.

(٩٢) ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾ مبتدأ خبره ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ أي استؤصلوا كأن لم يقيموا بها والمغنى المنزل ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا، فإنهم الرابحون في الدارين. وللتنبيه على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول واستأنف بالجملتين وأتى بهما اسميتين.

(٩٣) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم. والمعنى لقد بالغتُ في الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعي في النصح والإشفاق فلم تصدقوا قولي، فكيف آسى عليكم. وقرىء فكيف أيسي بإمالتين.

(٩٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالبؤس والضر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ حتى يتضرعوا ويتذللوا.

(٩٥) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة ابتلاء لهم بالأمرين. ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كثروا عَدَداً وعُدَداً يقال عفا النبات إذا كثر ومنه إعفاء

---

(١) وتغيير الصلة «الذين كفروا» لأن مدار قولهم هذا هو الكفر، كما أن مناط قولهم السابق هو الاستكبار (س٣/ ٢٥١).

(٢) الحجر: «٨٣».

اللحى. ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كفراناً لنعمة الله ونسياناً لذكره واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءنا منه مثل ما مسنا[١]. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا
كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن
يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ
وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

(٩٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني القرى المدلول عليها بقوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ وقيل مكة وما حولها. ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ مكان كفرهم وعصيانهم. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب، وقيل المراد المطر والنبات. وقرأ ابن عامر لفتّحنا بالتشديد. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الرسل. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

(٩٧) ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عطف على قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وما بينهما اعتراض، والمعنى: أبعد ذلك أَمِن أهل القرى؟! ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ تبييتاً أو وقت بيات أو مبيتاً أو مبيتين، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ويجيء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم. ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بياتاً.

(٩٨) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «أوْ» بالسكون على الترديد. ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ ضحوة النهار، وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يلهون من فرط الغفلة، .أو يشتغلون بما لا ينفعهم.

(٩٩) ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ومكرُ الله استعارة لاستدراج العبد وأخذِه من حيث لا يحتسب. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار.

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي يخلفون مَنْ خلا قبلهم ويرثون ديارهم، وإنما عدي يهْدِ باللام لأنه بمعنى يبيِّن[٢] ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أنّ الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم كما أصبنا مَنْ قبلهم، وهو فاعل يهدِ، ومن قرأه بالنون جعله مفعولاً. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على ما دل عليه، أو لم يهدِ أي يغفلون عن الهداية، أو منقطع عنه بمعنى ونحن

---

(١) ولعل تأخير السراء للإشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها (س٣/ ٢٥٣).
(٢) أو لتنزيل فعل الهداية منزلة اللازم (س٣/ ٢٥٤).

نطبع، ولا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى وطبعنا لأنه في سياقه جواب لو لإفضائه إلى نفي الطبع عنهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واعتبار.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ يعني قرى الأمم المارّ ذكرهم. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ حال إن جُعِل القرى خبراً وتكون إفادته بالتقييد بها، وخبرٌ إن جُعِلتْ صفة، ويجوز أن يكونا خبرين، ومِنْ للتبعيض أي نقصّ بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لا نقصها. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيئهم بها. ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ بما كذبوه من قبل الرسل بل كانوا مستمرين على التكذيب، أو فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة، واللامُ لتأكيد النفي والدلالة على أنهم ما صلحوا للإيمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر.

(١٠٢) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ لأكثر الناس، والآية اعتراض، أو لأكثر الأمم المذكورين. ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ من وفاءِ عهد، فإن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم في الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، أو ما عاهدوا إليه حينٍ كانوا في ضرر مخافة مِثْل: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(١). ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ﴾ أي علِمناهم. ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ مِنْ وجدتُ زيداً إذاً لحافظٌ لدخول إنْ المخففة واللام الفارقة، وذلك لا يسُوغ إلا في المبتدأ والخبر والأفعالِ الداخلة عليهما، وعند الكوفيين إنْ للنفي واللامُ بمعنى إلا.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ الضمير للرسل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾(٢) أو للأمم(٣). ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يعني المعجزات. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ بأن كفروا بها مكان الإيمان الذي هو من حقها لوضوحها، ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا. وفرعونُ لَقَبٌ لمَنْ ملك مصر ككسرى لمَنْ ملك فارس، وكان اسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(٤).

---

(١) يونس: «٢٢».

(٢) الأعراف: «١٠١».

(٣) التعبير بـ«ثم» الدالة على التراخي للإيذان بأن بعثه عليه السلام تجرى على سنن السنة الإلهية من إرسال الرسل تترى. وتقديم «من بعدهم» على المفعول للاعتناء بالمقدم والتشويق للمؤخر (س٣/٢٥٧).

(٤) وتخصيص الملأ بالذكر مع أنهم داخلون في رسالته عليه السلام لأصالتهم في تدبير الأمور واتباع غيرهم لهم في=

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليك، وقوله:

(١٠٥) ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ لعله جواب لتكذيبه إياه في دعوى الرسالة، وإنما لم يُذكر لدلالة قوله: «فظلموا بها» عليه، وكان أصله حقيقٌ عليَّ أَنْ لا أَقُول، كما قرأ نافع فقُلب لأمن الإلباس كقوله: وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر. أو لأن ما لزمك فقد لزمتَه، أو للإغراق في الوصف بالصدق، والمعنى أنه حق واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، أو ضمّن حقيق معنى حريص، أو وضع على مكان الباء لإفادة التمكن كقولهم: رميت على القوس وجئت على حال حسنة، ويؤيده قراءة أبيّ بالباء. وقرىء حقيق أن لا أقول بدون عَلَى. ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فخلهم حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال.

(١٠٦) ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عند من أرسلك. ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدعوى.

(١٠٧) ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ أمرِه لا يشك في أنه ثعبان، وهو الحية العظيمة. روي: أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشْعَرَ فاغراً فاهُ بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذه فعاد عصا[(١)].

(١٠٨) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه. ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة تجتمع عليها النَّظَّارة، أو بيضاء للنظّار لا أنها كانت بيضاء في جِبِلَّتها. روي: أنه عليه السلام كان آدمَ شديدَ الأُدَمَة، فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه ثم نزعها فإذا هي بيضاء نورانية غلب شعاعُها شعاعَ الشمس[(٢)].

= الورود والصدور (س٣/ ٢٥٧).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ١٤) عن السدي.
وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبته لابن أبي حاتم (٣/ ٥١٢).
وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) عن ابن عباس والسدي.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٣) بدون راوٍ ولا سند.
وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (٩/ ٢١).

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾

(١٠٩) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ قيل قاله هو وأشرافُ قومه على سبيل التشاور في أمره، فحُكي عنه في سورة الشعراء[١] وعنهم ههنا.

(١١٠) ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ تشيرون في أن نفعل.

(١١١) ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾.

(١١٢) ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ كأنه اتفقت عليه آراؤهم فأشاروا به على فرعون. والإرجاءُ التأخير أي أَخِّرْ أمره، وأصلُه أَرْجِئْهُ كما قرأ أبو عمرو وأبـو بـكر ويعقوب مِنْ أرجأتُ، وكذلك أرجئهوه[٢] على قراءة ابن كثير على الأصل في الضمير، أو أرجهي من أرجيت كما قرأ نافع في رواية ورش وإسماعيل والكسائي، وأما قراءته في رواية قالون أَرْجِهِ بحذف الياء فللاكتفاء بالكسرة عنها، وأما قراءة حمزة وعاصم وحفص أَرْجِهْ بسكون الهاء فلتشبيه المنفصل بالمتصل وجعل جِهْ كَإِبْل في إسكان وسطه، وأما قراءة ابن عامر برواية ابن ذكوان أَرْجِئْهِ بالهمزة وكسر الهاء فلا يرتضيه النحاة فإن الهاء لا تكسر إلا إذا كان قبلها كسرة أو ياء ساكنة، ووجهُه أن الهمزة لما كانت تقلب ياء أجريت مجراها[٣]. وقرأ حمزة والكسائي بكل سحّار فيه وفي يونس ويؤيده اتفاقهم عليه في الشعراء[٤].

(١١٣) ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم[٥]. ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾[٦] استأنف به كأنه جواب سائل قال: ما قالوا إذ جاؤوا؟ وقرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ على الإخبار وإيجاب الأجر كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر، والتنكيرُ للتعظيم.

(١١٤) ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إن لكم لأجراً. ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عطف على ما سدّ مسدَّه «نعم» وزيادة على الجواب لتحريضهم.

(١١٥) ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ خيّروا موسى مراعاة للأدب أو إظهاراً

---

(١) الشعراء: «٣٤».
(٢) الذي وجدته في كتب القراءات «أرجئهو» بدون هاء في آخر الكلمة.
(٣) ما ذهب إليه البيضاوي من تضعيف قراءة ابن عامر... غير مقبول، فإنها قراءة متواترة وثابتة عن النبي عليه السلام وقد تلقتها الأمة بالقبول ولها توجيه في العربية. انظر في ذلك البحر المحيط (٤/ ٣٦٠).
(٤) الشعراء: «٣٧».
(٥) ولم يصرح بإرسال فرعون في طلب السحرة كما في قوله تعالى: «فأرسل فرعون في المدائن حاشرين» ـ الشعراء «٥٣» ـ للإيذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال (س٣/ ٢٥٩).
(٦) أثبتها في الأصل بالاستفهام على قراءة من قرأ بها، أي «أئن لنا لأجراً».

للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يُلقوا قبله فنبَّهوا عليها بتغيير النظم إلى ما هو أبلغ وتعريفِ الخبر وتوسيطِ الفصل أو تأكيدِ ضميرهم المتصل بالمنفصل فلذلك:

قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

(١١٦) ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ كرماً وتسامحاً، أو ازدراء بهم ووثوقاً على شأنه. ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيلوا إليها ما الحقيقةُ بخلافه. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم طلبوا رهبتهم. ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في فنه. روي أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي وركِبَ بعضها بعضاً.

(١١٧) ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حية. ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يزوّرونه من الإفك، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول. روي: أنها لما تلقفت حبالَهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالُنا وعصينا[1]. وقرأ حفص عن عاصم تَلْقَفُ ههنا وفي طه والشعراء[2].

(١١٨) ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ فثبت لظهور أمره. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من السحر والمعارضة.

(١١٩) ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين، والضمير لفرعون وقومه.

(١٢٠) ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ جعَلَهم ملقين على وجوههم تنبيهاً على أن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبقَ لهم تمالك، أو أن الله ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعونُ بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلبَ الأمر عليه، أو مبالغة في سرعة خرورهم وشدته.

(١٢١) ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أبدلوا الثاني من الأول لئلا يُتوهم أنهم أرادوا به فرعون.

(١٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بالله أو بموسى، والاستفهام فيه للإنكار. وقرأ حمزة والكسائي

---

(١) الفاء في قوله «فإذا هي...» هي الفصيحة، أي فألقاها فصارت حية فإذا.. وحذف ذلك للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب (س٣/ ٢٦٠).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ بالتشديد «تَلَقَّفُ». وقراءة حفص بالتخفيف هنا وفي طه: «٦٩» وفي الشعراء: «٤٥».

وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وهشام بتحقيق الهمزتين على الأصل. وقرأ حفص آمنتم به على الإخبار، وقرأ قُنبل قال فرعون، وآمنتم يُبدل في حال الوصل من همزة الاستفهام واواً مفتوحة ويمدّ بعدها مدة في تقدير أَلِفَيْن، وقرأ في طه على الخبر بهمزة وألف، وقرأ في الشعراء على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة في تقدير أَلِفَيْن، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة الأولى وتليين الثانية. ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أي إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى. ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل أن تخرجوا للميعاد. ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ يعني القبط وتخلص لكم ولبني إسرائيل. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهو تهديد مجمل تفصيله:

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ
أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ
وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

(١٢٤) ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ من كل شق طرفاً. ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم. قيل إنه أول من سن ذلك فشرعه الله للقطّاع تعظيماً لجرمهم ولذلك سماه محاربة لله ورسوله، ولكن على التعاقب لفرط رحمته.

(١٢٥) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بالموت لا محالة فلا نبالي بوعيدك، أو إنا منقلبون إلى ربنا وثوابه إن فعلت بنا ذلك، كأنهم استطابوه شغفاً على لقاء الله، أو مصيرُنا ومصيرك إلى ربنا فيحكم بيننا.

(١٢٦) ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وما تنكر منا. ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضاتك، ثم فزعوا إلى الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أفض علينا صبراً يغمرنا كما يُفرغ الماء، أو صبّ علينا ما يطهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام. قيل إنه فعل بهم ما أوعدهم به. وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

(١٢٧) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بتغيير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك. ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطف على يفسدوا، أو جواب الاستفهام بالواو كقول الحطيئة:

أَلَـمْ أَكُ جَـارَكُـم وَيَكُـونُ بَيْنِـي وبَيْنَكُـمُ المَـوَدَّةُ وَالإِخَـاءُ

على معنى أيكون منك ترك موسى ويكون منه تركه إياك. وقرىء بالرفع على أنه عطف على أتذرُ أو استئناف أو حال. وقرىء بالسكون كأنه قيل: يفسدوا ويذرْك كقوله تعالى ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾[2] ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ معبوداتك. قيل كان يعبد الكواكب، وقيل صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً

(١) القصص: «٣٥».
(٢) المنافقين: «١٠».

إليه ولذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١) وقرىء إلاهتك أي عبادتك. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنا نفعل من قبل ليُعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجّمون والكهنةُ بذهاب ملكنا على يده. وقرأ ابن كثير ونافع سنَقْتُل بالتخفيف. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ
عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

(١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم. ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تسليةٌ لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت في الأمر. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعد لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارَهم وتحقيق له. وقرىء والعاقبةَ بالنصب، عطفٌ على اسم إنّ. واللام في الأرض تحتمل العهد والجنس.

(١٢٩) ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي بنو إسرائيل. ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادته. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تصريحاً بما كنّى عنه أولاً لما رأى أنهم لم يتسلوْا بذلك، ولعله أتى بفعل الطمع لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم. وقد روي أن مصر إنما فُتح لهم في زمن داود عليه السلام(٢). ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ما تعملون من شكر وكفران وطاعة وعصيان فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ بالجدوب لقلة الأمطار والمياه، والسَّنَة غَلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به، ثم اشتق منها فقيل أَسْنَتِ القومُ إذا قحطوا. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بكثرة العاهات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعظوا، أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده(٣).

(١٣١) ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ من الخصب والسعة. ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ لأجلنا ونحن مستحقوها. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء. ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ يتشاءموا بهم ويقولوا: ما أصابتْنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل

---

(١) النازعات: «٢٤».

(٢) مجيء فعل الطمع للجري على سنن الكبرياء (س٣/٢٦٣).

(٣) وتصدير الجملة بالقسم لإظهار الاعتناء بمضمونها (س٣/٢٦٣).

التماسك سيمَا بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغيّ. وإنما عَرّف الحسنة وذَكَرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الإرادةِ بإحداثها بالذات، ونكّر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سبب خيرهم وشرهم عنده وهو حكمته ومشيئته، أو سبب شؤمهم عند الله وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوءهم. وقرىء إنما طَيْرُهم، وهو اسم الجمع وقيل هو جمع[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى أو من شؤم أعمالهم[2].

وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

(١٣٢) ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا﴾ أصلها ما الشرطية ضُمَّت إليها ما المزيدة للتأكيد، ثم قُلبت ألفها هاء استثقالاً للتكرير. وقيل مركبة من مَهْ الذي يصوت به الكاف وما الجزائية، ومحلها الرفع على الابتداء أو النصب بفعل يفسره. ﴿تَأۡتِنَا بِهِۦ﴾ أي أيما شيء تحضرنا تأتنا به. ﴿مِنۡ ءَايَةٖ﴾ بيان لمهما، وإنما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا: ﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا. والضمير في به وبها لمهما، ذَكَّره قبل التبيين باعتبار اللفظ وأنَّثه بعده باعتبار المعنى.

(١٣٣) ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ ماءً طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل، وقيل الجدري، وقيل الموتان، وقيل الطاعون. ﴿وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ﴾ قيل هو كبار القِرْدان، وقيل أولادُ الجراد قبل نبات أجنحتها. ﴿وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ روي[3]: أنهم مُطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماءُ بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها ودام ذلك عليهم أسبوعاً، فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا اللهَ فكشف عنهم ونبت لهم من الكلأ والزرع ما لم يُعهد مثله ولم يؤمنوا. فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب، ففزِعوا إليه ثانياً، فدعا وخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا. فسلط الله عليهم القمّل فأكل ما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصّها، ففزِعوا إليه، فرُفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر. ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشَف ثوب

---

(١) وتصدير الجملة بأداة التنبيه «ألا» لإبراز كمال العناية بمضمونها (س٣/ ٢٦٤).

(٢) ووصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون للإشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر إنما هو من عند الله (س٣/ ٢٦٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٥١٩) ـ.

ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي وأفواهِهم عند التكلم، ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا، فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهود. ثم أرسل عليهم الدم فصارت مياههم دماً حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه، وقيل سلط الله عليهم الرعاف. ﴿ءَايَٰتٖ﴾ نصب على الحال. ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ مبيَّنات لا تُشْكِل على عاقل أنها آياتُ الله ونقمته عليهم، أو مفصلات لامتحان أحوالهم إذ كان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة أسبوعاً. وقيل إن موسى لبث فيهم بعد ما غلب السحرةَ عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل. ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الإيمان. ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ
لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ
يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا
ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ يعني العذاب المفصل، أو الطاعون الذي أرسله الله عليهم بعد ذلك. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ بعهده عندك وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوَه به فيجيبك كما أجابك في آياتك. وهو صلةٌ لادعُ، أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عنك، أو متعلق بفعل محذوف دل عليه التماسهم مثل أَسْعِفْنا إلى ما نطلب منك بحق ما عهد عندك، أو قسم مجاب بقوله: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي أَقْسَمْنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلن.

(١٣٥) ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت. وقيل إلى أجل عينوه لإيمانهم. ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ جوابُ لمّا أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث من غير تأمل وتوقف فيه.

(١٣٦) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ فأردنا الانتقام منهم. ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي البحر الذي لا يدرَك قعره. وقيل لُجَّتُهُ. ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها. وقيل الضمير للنُّقْمة المدلول عليها بقوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾.

(١٣٧) ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ بالاستبعاد وذبح الأبناء من مستضعفيهم. ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني أرض الشام مَلَكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها. ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ بالخصب وسعة العيش. ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ومضت عليهم واتصلت بالإنجاز عِدَتُه إياهم بالنصرة والتمكين وهو قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ إلى قوله ﴿مَّا

كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾[١]. وقرىء كلماتُ ربك لتعدد المواعيد ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بسبب صبرهم على الشدائد. ﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ وخربنا. ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ من القصور والعمارات[٢]. ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان. وقرأ ابن عامر وأبو بكر هنا وفي النحل يَعْرُشون بالضم. وهذا آخر قصة فرعون وقومه.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

(١٣٨) وقوله: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ وَما بعدَه ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مَنَّ الله عليهم بالنعم الجسام وأراهم من الآيات العظام تسلية لرسول الله ﷺ مما رأى منهم، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. روي[٣]: أن موسى عليه الصلاة والسلام عَبَر بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً. ﴿ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ فمروا عليهم. ﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ ﴾ يقيمون على عبادتها، قيل كانت تماثيل بَقَر وذلك أول شأن العجل، والقوم كانوا من العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم، وقيل من لخم. وقرأ حمزة والكسائي يَعْكِفُون بالكسر. ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا ﴾ مثالاً نعبدُه. ﴿ كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ ﴾ يعبدونها، وما كافَّة للكافِ. ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وَصَفَهم بالجهل المطلق وأكَّده لبُعْدِ ما صدر عنهم ـ بعد ما رأوا من الآيات الكبرى ـ عن العقل.

(١٣٩) ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إشارة إلى القوم. ﴿ مُتَبَّرٌ ﴾ مكسر مدمّر. ﴿ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ يعني أن الله يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها رُضاضاً ﴿ وَبَٰطِلٌ ﴾ مضمحلّ. ﴿ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ في هذا الكلام بإيقاع هؤلاء اسم إن والإخبار عما هم فيه بالتَّبار وعما فعلوا بالبطلان، وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لإن للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة وأن الإحباط الكلي لازب لما مضى عنهم تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا.

(١٤٠) ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ أطلب لكم معبوداً. ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من أمثالهم لما لم يستحقوه تفضلاً بأن قصدوا أن يشركوا به أخس شيء من مخلوقاته.

---

(١) القصص: «١ ـ ٢».
(٢) والعدول إلى صيغة المضارع في قوله «يصنع» لاستحضار الصورة (س٣/٢٦٧).
(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/٢٧٣) من قول الكلبي.
وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (٩/٤٠).

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ
فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ
إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ
فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ واذكروا صنيعه معكم في هذا الوقت. وقرأ ابن عامر أنْجاكم. ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ استئناف لبيان ما أنجاهم منه، أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما. ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ بدل منه مبين. ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وفي الإنجاء أو العذاب نعمة أو محنة عظيمة.

(١٤٢) ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ ذا القعدة. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وَوَعدنا. ﴿ وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ من ذي الحجة. ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ بالغاً أربعين. روي: أنه عليه الصلاة والسلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مَهْلك فرعون بكتاب من الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره الله بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خُلُوفَ فِيه فتسوّك، فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحةَ المسك فأفسدتَه بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً. وقيل أمره بأن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها. ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحاً. ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ولا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه.

(١٤٣) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ لوقتنا الذي وقّتناه، واللام للاختصاص أي اختص مجيئه لميقاتنا. ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ من غير وسيط كما يكلم الملائكة، وفيما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المُحْدَثين. ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أرني نفسك بأن تمكنني من رؤيتك، أو تتجلى لي فأنظر إليك وأراك. وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله ولذلك رده بقوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ دون لن أُرَى أو لن أريك أو لن تنظر إليَّ، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على مَعَدّ في الرائي لم يوجد فيه بعد، وجَعَل السؤالَ لتبكيت قومه الذين قالوا: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[١] خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتَهم كما فعل بهم حين قالوا: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا ﴾[٢] ولا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٣].

---

(١) النساء: «١٥٣».
(٢) الأعراف: «١٣٨».
(٣) الأعراف: «١٤٢».

والاستدلالُ بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أن لا يراه أبداً وأن لا يراه غيرُه أصلاً فضلاً عن أن يدل علي استحالتها، ودعوى الضرورة فيه مكابرة أو جهالة بحقيقة الرؤية. ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيقُه، وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن. والجبل قيل هو جبل زبير. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ ظهر له عظمتُه وتصدى له اقتداره وأمرُه. وقيل أعطى له حياة ورؤية حتى رآه. ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ مدكوكاً مفتتاً، والدكّ والدق أخوان كالشك والشق. وقرأ حمزة والكسائي دكاءَ أي أرضاً مستوية، ومنه ناقة دكّاء التي لا سنام لها، وقرىء دُكّاً أي قطعاً جمع دكاء. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى. ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ﴾ تعظيماً لما رأى. ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من الجراءة والإقدام على السؤال من غير إذن. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مر تفسيره. وقيل معناه أنا أول من آمن بأنك لا تُرى في الدنيا.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

(١٤٤) ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ اخترتك. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي الموجودين في زمانك، وهارونُ وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع. ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ يعني أسفار التوراة. وقرأ ابن كثير ونافع برسالتي. ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ وبتكليمي إياك. ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ أعطيتك من الرسالة. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على النعمة فيه. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وإعطاء التوراة كان يوم النحر.

(١٤٥) ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين. ﴿مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ بدل من الجار والمجرور، أي وكتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. واختلف في أن الألواح كانت عشرة أو سبعة، وكانت من زمرد أو زبرجد، أو ياقوت أحمر أو صخرة صماء لينها الله لموسى فقطعها بيده وسقفها بأصابعه وكان فيها التوراة أو غيرها. ﴿فَخُذۡهَا﴾ على إضمار القول عطفاً على كتبنا، أو بدل من قوله: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ والهاء للألواح، أو لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء، أو للرسالات. ﴿بِقُوَّةٖ﴾ بجد وعزيمة. ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ أي بأحسن ما فيها كالصبر والعفو بالإضافة إلى الانتصار، والاقتصاص على طريقة الندب والحث على الأفضل كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾. أو بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره، ويجوز أن يراد بالأحسن البالغ في الحسن مطلقاً لا بالإضافة، وهو المأمور به كقولهم الصيفُ أحر من الشتاء. ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها، أو منازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا، أو دارهم في الآخرة وهي جهنم. وقرىء سأُوْريكم بمعنى سأبين لكم من أوريت الزند، وسأورّثكم، ويؤيده قوله ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ﴾[1].

---

(١) الأعراف: «١٣٧».

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

(١٤٦) ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقيل سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما فعل فرعون فعاد عليه بإعلائها أو بإهلاكهم. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صلة يتكبرون أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل، أو حال من فاعله. ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ منزلَة أو معجزة. ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ لعنادهم واختلال عقولهم بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد، وهو يؤيد الوجه الأول. ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم. وقرأ حمزة والكسائي الرَّشَد بفتحتين، وقرىء الرشاد، وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم للآيات، ويجوز أن ينصب ذلك على المصدر أي سأصرف ذلك الصرف بسببهما.

(١٤٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، أو ما وعد الله في الدار الآخرة. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لا ينتفعون بها. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إلا جزاء أعمالهم.

(١٤٨) ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه للميقات. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروا من القبط حين هموا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم أو ملكوها بعد هلاكهم. وهو جمع حُلْي كثَدْي وثدِيّ. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر بالاتباع كدِلْي، ويعقوب على الإفراد[1]. ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ بدناً ذا لحم ودم، أو جسداً من الذهب خالياً من الروح، ونصبه على البدل. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت البقر. روي أن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فصار حياً، وقيل صاغه بنوع من الحيَل فتدخل الريح جوفه وتصوت. وإنما نسب الاتخاذ إليهم وهو فعلُه إما لأنهم رضوا به أو لأن المراد اتخاذهم إياه إلهاً. وقرىء جؤار أي صياح. ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر، والمعنى ألم يروا حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على إرشاد سبيل كآحاد البشر حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقُدر. ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذوه إلهاً. ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ واضعين الأشياء في غير مواضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم.

---

(١) قراءة حمزة والكسائي «حِلِيِّهم» وقراءة يعقوب «حَلْيِهم».

وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ
رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا
تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾

(١٤٩) ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها. وقرىء سَقَطَ على بناء الفعل للفاعل، بمعنى وقع العض فيها. وقيل معناه سقط الندم في أنفسهم. ﴿وَرَأَوۡاْ﴾ وعلموا. ﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ باتخاذ العجل[١]. ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوراة. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة[٢]. ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ وقرأهما حمزة والكسائي بالتاء وربَّنا على النداء[٣].

(١٥٠) ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ شديد الغضب وقيل حزيناً. ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ فعلتم بعدي حيث عبدتُم العجل والخطاب للعَبَدة، أو أقمتم مقامي فلم تكفّوا العبدة والخطاب لهارون والمؤمنين معه! وما نكرة موصوفة تفسر المستكنّ في بئس، والمخصوص بالذم محذوف تقديرُه بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، ومعنى من بعدي من بعد انطلاقي، أو من بعد ما رأيتم مني من التوحيد والتنزيه والحمل عليه والكف عما ينافيه. ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ أتركتموه غير تام، كأنه ضمَّن عَجِلَ معنى سبق فعُدي تعديتَه، أو أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين وقدَّرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرتِ الأممُ بعد أنبيائهم. ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حميَّة للدين. روي: أن التوراة كانت سبعة أسباع في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها وكان فيها تفصيل كل شيء وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام. ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه. ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ توهماً بأنه قصّر في كفهم، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين وكان حمولاً ليناً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل. ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم ليرققه عليه وكانا من أب وأم. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي طه[٤] يا ابن أمِّ بالكسر، وأصله يا ابن أمي فحذفت الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفاً كالمنادى المضاف إلى الياء، والباقون بالفتح زيادة في التخفيف لطوله أو تشبيهاً بخمسةَ عشرَ. ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه، والمعنى بذلت وسعي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي. ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله. ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة أو نسبة التقصير.

---

(١) وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية ـ مع كونه متأخراً عنها ـ للمسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته، كأنه سابق على الرؤية (س٣/ ٢٧٣).

(٢) وتقديم الرحمة على المغفرة ـ مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية ـ إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم (س٣/ ٢٧٣).

(٣) قراءة حمزة والكسائي «لئن لم ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا».

(٤) طه: «٩٤».

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ
سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ
تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ
ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا
فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

(١٥١) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ بما صنعتُ بأخي. ﴿ وَلِأَخِى ﴾ إن فرّط في كفهم، ضمَّه إلى نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعاً للشماتة عنه. ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ﴾ بمزيد الإنعام علينا. ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا.

(١٥٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم. ﴿ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهي خروجهم من ديارهم، وقيل الجزية. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ على الله، ولا فرية أعظم من فريتهم وهي قولهم هذا إلهكم وإله موسى، ولعله لم يفترِ مثلها أحد قبلهم ولا بعدهم.

(١٥٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ من بعد السيئات. ﴿ وَءَامَنُوٓا۟ ﴾ واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه من الأعمال الصالحة. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ من بعد التوبة. ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وإن عظم الذنب كجريمة عبدة العجل وكثُر كجرائم بني إسرائيل.

(١٥٤) ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ ﴾ سكن، وقد قرىء به. ﴿ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ باعتذار هارون، أو بتوبتهم. وفي هذا الكلام مبالغة وبلاغة من حيث إنه جعلِ الغضب الحامل له على ما فعل كالآمِر به والمغري عليه، حتى عبر عن سكونه بالسكوت. وقرىء سُكِّتَ وأُسْكِتَ، على أن المسكت هو الله أو أخوه أو الذين تابوا. ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها. ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ وفيما نسخ فيها أي كتب، فُعْلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أي من الألواح المنكسرة. ﴿ هُدًى ﴾ بيان للحق. ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير. ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ دخلت اللام على المفعول لضعف الفعل بالتأخير، أو حذف المفعول واللام للتعليل والتقدير يرهبون معاصي الله لربهم.

(١٥٥) ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾ أي من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل إليه ﴿ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ روي أنه تعالى أمره أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان، فقال: ليتخلف منكم رجلان، فتشاجروا، فقال: إن لمَنْ قعد أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجداً، فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة أي الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها. ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ تمنىٰ هلاكهم وهلاكه قبل أن يَرى ما رأى، أو بسبب آخر، أو عنى به أنك قدِرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم وبإغراقهم في البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالإنقاذ

منها فإن ترحمت عليهم مرة أخرى لم يبعد من عميم إحسانك. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، وكان ذلك قاله بعضهم. وقيل المراد بما فعل السفهاء عبادةُ العجل، والسبعون اختارهم موسى لميقات التوبة عنها، فغشيتهم هيبة قلقوا منها ورجفوا حتى كادت تَبِينُ مفاصلُهم وأشرفوا على الهلاك، فخاف عليهم موسى فبكى ودعا فكشفها الله عنهم. ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية، أو أوجدت في العجلِ خواراً فزاغوا به. ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ ضلالَه بالتجاوز عن حده، أو باتباع المخايل. ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ هداه فيقوىٰ بها إيمانه. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ القائم بأمرنا. ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ بمغفرة ما قارفنا. ﴿وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة[1].

۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(١٥٦) ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حُسْن معيشة وتوفيق طاعة. ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الجنة. ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ تبنا إليك، من هاد يهود إذا رجع. وقرىء بالكسر[2] من هادَه يَهيدُه إذا أماله، ويحتمل أن يكون مبنياً للفاعل وللمفعول بمعنى أَمَلْنا أنفسَنا وأُمِلْنا إليك، ويجوز أن يكون المضموم أيضاً مبنياً للمفعول منه على لغة من يقول عُودَ المريض. ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ في الدنيا المؤمن والكافر بل المكلف وغيره[3]. ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فسأثبتها في الآخرة، أو فسأكتبها كَتْبة خاصة منكم يا بني إسرائيل. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصها بالذكر لإنافتها ولأنها كانت أشق عليهم. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكفرون بشيء منها.

(١٥٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ﴾ مبتدأ خبرُه يأمرهم، أو خبرُ مبتدأ تقديره هم الذين، أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل، والمراد من آمن منهم بمحمد ﷺ، وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى

---

(١) وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام (س٣/ ٢٧٧).

(٢) أي بكسر الهاء «هِدْنا».

(٣) وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فبمقتضىٰ معاصي العباد، والمشيئة معتبرة في جانب الرحمة أيضاً وعدم التصريح بها للإشعار بغاية الظهور (س٣/ ٢٧٨).

الله تعالى ونبياً بالإضافة إلى العباد. ﴿ٱلْأُمِّىَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، ووصفه به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته. ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ اسماً وصفة. ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما حرم عليهم كالشحوم. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ كالدم ولحم الخنزير، أو كالربا والرشوة. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة كتعيين القصاص في العمد والخطأ وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة. وأصل الإِصْر الثِّقَل الذي يأصِر صاحبه أي يحبسه من الحراك لثقله. وقرأ ابن عامر آصارَهُم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظموه بالتقوية. وقرىء بالتخفيف[1] وأصله المنع ومنه التعزير. ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ لي. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي مع نبوته يعني القرآن، وإنما سماه نوراً لأنه بإعجازه ظاهرٌ أمرُه مظهِر غيرَه، أو لأنه كاشف الحقائق مظهر لها، ويجوز أن يكون «معه» متعلقاً باتبعوا أي واتبعوا النور المنزل مع اتباع النبي فيكون إشارة إلى اتباع الكتاب والسنة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية، ومضمون الآية جواب دعاء موسى عليه السلام.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾

(١٥٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الخطاب عام، وكان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين، وسائرُ الرسل إلى أقوامهم. ﴿جَمِيعًا﴾ حال مِنْ إليكم. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صفة لله وإن حيل بينهما بما هو متعلق المضاف إليه لأنه كالتقدم عليه، أو مدح منصوب أو مرفوع، أو مبتدأ خبرُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو على الوجوه الأُوَل بيان لما قبله، فإن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره، وفي ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية. ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما أُنزِل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه. وقرىء «وكَلِمَتِهِ» على إرادة الجنس أو القرآن، أو عيسى تعريضاً لليهود وتنبيهاً على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه، وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له[2]. ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيهاً على أن مَنْ صدّقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة.

---

(١) أي بتخفيف الزاي «وعَزَرُوه».

(٢) إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات إلى الغيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال بأمره. ووصفه بالنبي الأمي لمدحه عليه السلام بهما ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين (س٣/ ٢٨١).

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾

(١٥٩) ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني من بني إسرائيل. ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يهدون الناس مُحِقِّين أو بكلمة الحق. ﴿وَبِهِۦ﴾ بالحق. ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم في الحكم، والمراد بها الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه، أَتْبَع ذكرَهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. وقيل مؤمنو أهل الكتاب. وقيل قوم وراء الصين رآهم رسول الله ﷺ ليلة المعراج فآمنوا به[(١)].

(١٦٠) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ وصيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض. ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ مفعول ثان لقطّع فإنه متضمن معنى صيّر، أو حال وتأنيثه للحمل على الأمة أو القِطْعة. ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه ولذلك جُمع، أو تمييز له على أن كل واحد من اثنتي عشرة أسباط فكأنه قيل: اثنتي عشرة قبيلة. وقرىء بكسر الشين وإسكانها. ﴿أُمَمًا﴾ على الأول بدلٌ بعد بدل أو نعت أسباط، وعلى الثاني بدل من أسباط. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ في التيه. ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي فضرب فانبجست، وحذفُه للإيماء على أن موسى عليه السلام لم يتوقف في الامتثال. وأَنّ ضربَه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط. ﴿مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ ليقيهم حر الشمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟﴾ أي وقلنا لهم كلوا. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة[(٢)].

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بإضمار اذكر، والقريةُ بيت المقدس[(٣)]. ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ مثل ما في سورة البقرة معنى، غير أن قوله فكلوا فيها بالفاء أفاد تسبب سكناهم للأكل منها، ولم يتعرض له اكتفاء بذكره ثمة، أو بدلالة الحال عليه. وأما تقديم قوله «قولوا» على «وادخلوا» فلا أثر له في المعنى لأنه لا يوجب الترتيب، وكذا الواو العاطفة بينهما. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالغفران والزيادة عليه بالإثابة، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف للدلالة على أنه تفضل محض ليس في مقابلة ما أُمروا به. وقرأ

---

(١) وصيغة المضارع في «يهدون» و«يعدلون» لحكاية الحال الماضية (س٣/ ٢٨١).

(٢) البقرة: «٥٨».

(٣) إيراد الفعل «قيل» على البناء للمفعول مع استناده إليه تعالى للجري على سنن الكبرياء، والإيذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل. وتغيير النظم بالأمر بالذكر للتشديد في التوبيخ (س٣/ ٢٨٣). =

نافع وابن عامر ويعقوب تُغْفَرْ بالتاء والبناء للمفعول وخطيئاتُكم بالجمع والرفع، غير ابن عامر فإنه وَحَّد، وقرأ أبو عمرو خَطَاياكم.

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

(١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ مضىٰ تفسيره فيها[١].

(١٦٣) ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ للتقرير والتقريع بقديم كفرهم وعصيانهم والإعلام بما هو من علومهم التي لا تُعلم إلا بتعليم أو وحي ليكون لك ذلك معجزة عليهم. ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها وما وقع بأهلها. ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه وهي أيلة قرية بين مدين والطور[٢] على شاطىء البحر، وقيل مدين، وقيل طبرية. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت، وإذ ظرف لكانت أو حاضرةَ أو للمضاف المحذوف أو بدل منه بدل اشتمال. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف ليَعْدون، أو بدل بعد بدل. وقرىء يَعَدُّون وأصله يعتدون، ويُعِدُّون من الإعداد أي يعدون آلات الصيد يوم السبت وقد نهوا أن يشتغلوا فيه بغير العبادة[٣]. ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت، مصدر سَبَتَت اليهود إذا عظمت سبتها بالتجرد للعبادة. وقيل اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه، ويؤيد الأول أن قرىء يوم إسباتهم، وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وقرىء لا يُسبِتون من أسبَتَ، ولا يُسْبَتُون على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت، وشرّعاً حال من الحيتان ومعناه ظاهرة على وجه الماء من شَرَع علينا إذا دنا وأشرف. ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم. وقيل كذلك متصل بما قبله أي لا تأتيهم مثل إتيانهم يوم السبت، والباء متعلق بيَعْدون[٤].

(١٦٤) ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ عطف علىٰ إذ يعدون. ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ جماعة من أهل القرية يعني صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم حتى أيسوا من اتعاظهم. ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ مخترمُهم. ﴿أَوْ

(١) البقرة: «٥٩».
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ٩٠، ٩١) عن ابن عباس.
(٣) وإضافة الحيتان إليهم للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة (س٣/ ٢٨٤).
(٤) وصيغة المضارع بقوله «نبلوهم» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجب منها (س٣/ ٢٨٥).

مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة لتماديهم في العصيان، قالوه مبالغة في أن الوعظ لا ينفع فيهم، أو سؤالاً عن علة الوعظ ونفعه وكأنه تقاول بينهم، أو قول من ارعوى عن الوعظ لمن لم يرعوِ منهم، وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعّاظهم رداً عليهم وتهكماً بهم. ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ جواب للسؤال أي موعظتنا إنهاءَ عذر إلى الله حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر(١). وقرأ حفص معذرة بالنصب على المصدر أو العلة أي اعتذرنا به معذرةً، أو وعظناهم معذرة(٢). ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك.

فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

(١٦٥) ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ تركوا تَرْك الناسي. ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ ما ذكرهم به صلحاؤهم. ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله. ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ شديد، فعيل من بَؤُسَ يَبْؤس بؤساً إذا اشتد. وقرأ أبو بكر بَيْئَس على فَيْعَل كضَيْغَم، وابنُ عامر بِئْس بكسر الباء وسكون الهمز على أنه بَئِس كحَذِر كما قرىء به فخفف عينه بنقل حركتها إلى الفاء ككِبْد في كَبِد، وقرأ نافع بِيسٍ على قلب الهمزة ياء كما قلبت في ذئب أو على أنه فعل الذم وصف به فجعل اسماً، وقرىء بَيِّس كريس على قلب الهمزة ياء ثم إدغامها، وبَيْسٍ بالتخفيف كهين، وبائِسٍ كفاعل(٣). ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ تكبروا عن ترك ما نُهوا عنه كقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾(٤). ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٥) والظاهرُ يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمَسَخَهم، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى. روي: إن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنتُهم، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يوماً ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين فقالوا: إن لهم شأناً فدخلوا عليهم فإذا هم قردة فلم يعرفوا أنسباءهم ولكن القردة تعرفهم، فجعلت تأتي أنسباءَهم وتشم ثيابهم وتدور باكية حولهم ثم ماتوا بعد ثلاث. وعن مجاهد مُسِخت قلوبهم لا أبدانُهم(٦).

---

(١) الأصل عند البيضاوي «معذرة» بالرفع.
(٢) في إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين «ربكم» نوع تعريض بالسائلين (س٣/ ٢٨٥).
(٣) وتنكير العذاب للتفخيم (س٣/ ٢٨٦).
(٤) الأعراف: «٧٧».
(٥) النحل: «٤٠».
(٦) رجح ابن كثير أن المسخ كان صورياً ومعنوياً، وورد قول مجاهد (تفسير ابن كثير ١/ ١٠٢).

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

(١٦٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أَعْلَمَ، تَفَعَّل مِنْ الإيذان بمعناه كالتوعّد والإيعاد، أو عزم لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله فأجري مجرىٰ فعل القسم كعَلِم الله وشهد الله، ولذلك أجيب بجوابه وهو: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ والمعنى وإذ أوجب ربك على نفسه ليسلطنّ على اليهود ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية. بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرّب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث الله محمداً ﷺ ففعل ما فعل ثم ضرب عليهم الجزية، فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ عاقبهم في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن.

(١٦٨) ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ وفرقناهم فيها بحيث لا يكاد يخلو قُطْر منهم تتمة لأدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط، وأمماً مفعول ثان أو حال. ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ تقديره ومنهم أناس دون ذلك، أي منحطون عن الصلاح وهم كَفَرَتُهم وفسقتهم، صفة أو بدل منه، وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم. ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنعم والنقم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتهون فيرجعون عما كانوا عليه.

(١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين. ﴿خَلْفٌ﴾ بدل سوءَ، مصدرٌ نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع، وقيل جمع. وهو شائع في الشر، والخَلَف بالفتح في الخير، والمراد به الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ. ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ حطام هذا الشيء الأدنى يعني الدنيا، وهو من الدنو أو الدناءة وهو ما كانوا يأخذون من الرُّشا في الحكومة وعلى تحريف الكلم، والجملة حال من الواو. ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، وهو يحتمل العطف والحال. والفعل مسند إلى الجار والمجرور، أو مصدر يأخذون. ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ حال من الضمير في لنا، أي يرجون المغفرة مصرين على الذنب عائدين إلى مثله غير تائبين عنه. ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي في الكتاب. ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ عطف بيان للميثاق، أو متعلق به أي بأن يقولوا. والمرادُ توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج عن ميثاق الكتاب. ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فإنه تقرير، أو على ورثوا وهو اعتراض. ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مما يأخذ هؤلاء. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد. وقرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء على التلوين.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

(١٧٠) ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ عطف على الذين يتقون وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ اعتراض أو مبتدأ خبرُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع. وقرأ أبو بكر يُمْسِكون بالتخفيف وإفراد الإقامة لإنافتها على سائر أنواع التمسكات[١].

(١٧١) ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعناه ورفعناه فوقهم، وأصل النتق الجذب. ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ سقيفة، وهي ما أظلك. ﴿وَظَنُّوا﴾ وتيقنوا. ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت في الجوّ ولأنهم كانوا يوعدون به، وإنما أطلق الظن لأنه لم يقع متعلقُه وذلك أنهم أبوْا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله الطور فوقهم وقيل لهم إن قبلتم ما فيها وإلا ليَقعنّ عليكم. ﴿خُذُوا﴾ على إضمار القول، أي وقلنا خذوا أو قائلين خذوا. ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزم على تحمل مشاقه، وهو حال من الواو. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بالعمل به ولا تتركوه كالمنسي. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

(١٧٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن، ومن ظهورهم بدل من بني آدم بدل البعض. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب ذرياتِهم[٢]. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أي ونَصَبَ لهم دلائل ربوبيته وركّب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم ألست بربكم؟ قالوا بلىٰ فنَزّل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل، ويدل عليه قوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ أي كراهة أن تقولوا. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لم ننبه عليه بدليل.

(١٧٣) ﴿أَوْ تَقُولُوٓا﴾ عطف على أن تقولوا. وقرأ أبو عمرو كليهما بالياء لأن أول الكلام على الغيبة. ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم، لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذراً. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك. وقيل لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذرية كالذرّ وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك لحديث

---

(١) قوله «يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة» غير النظم في إقامة الصلاة للدلالة على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر في جميع الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها.
وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات لإنافتها عليها (س٣/ ٢٨٨).

(٢) قوله «وإذ أخذ...» آثر الأخذ على الإخراج للإيذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه الإخبار عن الاصطفاء وهو السبب في إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي (س٣/ ٢٨٩).

رواه عمر[١] رضي الله تعالى عنه، وقد حققتُ الكلام فيه في شرحي لكتاب المصابيح. والمقصودُ من إيراد هذا الكلام إلزامُ اليهود بمقتضى الميثاق العام بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاجُ عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعُهم عن التقليد، وحملُهم على النظر والاستدلال كما قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

(١٧٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن التقليد واتباع الباطل.

(١٧٥) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود. ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ هو أحد علماء بني إسرائيل، أو أمية بن أبي الصلت فإنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسِلٌ رسولاً في ذلك الزمان، ورجا أن يكون هو فلما بعث محمد عليه السلام حسده وكفر به، أو بلعم بن باعوراء من الكنعانيين أوتي علم بعض كتب الله، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها[٢]. ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حتى

---

(١) أخرج مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٨ رقم ٢) وأحمد في المسند (١/ ٤٤، ٤٥) والبخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٩٧) وأبو داود (٥/ ٧٩ ـ ٨٠ رقم ٤٧٠٣ ورقم ٤٧٠٤) والترمذي (٥/ ٢٦٦ رقم ٣٠٧٥) وابن حبان (ص٤٤٧ رقم ١٨٠٤ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) كلهم من طريق مالك، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبدالحميد بن عبدالرحمٰن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار عن عمر. إلا البخاري وأبا داود (رقم: ٤٧٠٤) فقد روياه عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة عن عمر.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً.

قلت: هذا الرجل هو «نعيم بن ربيعة الأزدي» وهو مقبول كما في «التقريب» (٢/ ٣٠٥). وهو حديث صحيح بشواهده.

(منها): حديث عبد الرحمٰن بن قتادة السلمي ولفظه «إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فقال قائل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر».

أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٨٦) والحاكم في المستدرك (١/ ٣١).

وأورده الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٤٨).

(ومنها): حديث أبي الدرداء بنحو حديث عبدالرحمٰن بن قتادة.

أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٤١) والبزار والطبراني ـ كما في «المجمع» (٧/ ١٨٥) ـ.

وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وصححه الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٤٩).

(ومنها) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بنحو حديث عمر في سياق أطول منه. أخرجه أحمد (٢/ ١٦٧) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥ رقم: ٣٤٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٨).

وحسنه الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٨٤٨) وتخريج السنة.

قلت: وانظر روايات أخرى عن جماعة من الصحابة في «الدر المنثور» (٣/ ٥٩٨ ـ ٦٠٧).

(٢) عبر عنه بالانسلاخ المنبىء عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملاقاة بينهما أبداً للإيذان بكمال مباينته =

لحقه وقيل استتبعه. ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ فصار من الضالين. روي أن قومه سألوه أن يدعو على موسى ومَنْ معه فقال: كيف أدعو على مَنْ معه الملائكةُ، فألحوا حتى دعا عليهم فبقُوا في التيه.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

(١٧٦) ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء. ﴿ بِهَا ﴾ بسبب تلك الآيات وملازمتها. ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ مال إلى الدنيا، أو إلى السفالة. ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضىٰ الآيات، وإنما علقَ رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العَبْد تنبيهاً على أن المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وأن عدمه دليل عدمها دلالةَ انتفاء المسبب على انتفاء سببه، وأن السبب الحقيقي هو المشيئة وأن ما نشاهده من الأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث إن المشيئة تعلقت به كذلك، وكان من حقه أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد إلى الأرض واتبع هواه مبالغةً وتنبيهاً على ما حمله عليه وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. ﴿ فَمَثَلُهُۥ ﴾ فصفته التي هي مَثَلٌ في الخسة. ﴿ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ كصفته في أخس أحواله، وهو: ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ أي يلهث دائماً سواء حُمِل عليه بالزجر والطرد أو تُرِك ولم يُتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده. واللهْثُ إدلاع اللسان من التنفس الشديد، والشرطية في موضع الحال والمعنى: لاهثاً في الحالتين، والتمثيل واقع موقعَ لازم التركيب الذي هو نفيُ الرفع ووضعُ المنزلة للمبالغة والبيان. وقيل لما دعا على موسى عليه السلام خرج لسانُه فوقع على صدره وجعل يلهث كالكلب. ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ القصة المذكورة على اليهود فإنها نحو قصصهم. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الاتعاظ.

(١٧٧) ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ﴾ أي مَثَلُ القوم، وقرىء ساء مَثَلُ القوم على حذف المخصوص بالذم. ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم بها. ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ إما أن يكون داخلاً في الصلة معطوفاً على كذبوا بمعنى: الذين جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعاً عنها بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وَباله لا يتخطاها، ولذلك قدم المفعول.

(١٧٨) ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ تصريح بأن الهدىٰ والضلال من الله وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفرادُ في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين،

= للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال (س٣/ ٢٩٢).

والاقتصارُ في الإخبار عمن هداه الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء وتنبيه على أنه في نفسه كمالٌ جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خلقنا. ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني المصرين على الكفر في علمه تعالى. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[1] إذ لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله. ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي لا ينظرون إلى ما خلق الله نظرَ اعتبار. ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر. ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر، أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار، وتجتهد في جلبها ودفعها غاية جهدها، وهم ليسوا كذلك بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيُقْدم على النار. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ وقيل الصفات. ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسموه بتلك الأسماء. ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ واتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو وذروهم وإلحادَهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كاللات من الله، والعزى من العزيز ولا توافقوهم عليه، أو أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم كما قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقرأ حمزة هنا وفي فصلت يَلْحدون بالفتح يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد.

(١٨١) ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ذكر ذلك بعد ما بين أنه خلَقَ للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق عادلين في الأمر، واستُدل به على صحة الإجماع لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله»[2]، إذ لو اختص بعهد الرسول أو

---

(١) حذف مفعول يفقهون للتعميم، أي لهم قلوب لا يفقهون بها أي شيء من شأنه أن يفقه (س٣/ ٢٩٥).

(٢) أخرج البخاري (١٣/ ٢٩٣ رقم ٧٣١١) من حديث المغيرة عن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمرُ الله وهم ظاهرون».
وأخرجه مسلم (٢/ ١٥٢٣ رقم ١٧١/ ١٩٢١) عن المغيرة أيضاً بلفظ «لن يزالَ قوم من أمتي ظاهرين على الناس، حتى يأتيهم أمرُ الله وهم ظاهرون».
● وأخرج مسلم (٢/ ١٥٢٤ رقم ١٧٤/ ١٠٣٧) عن معاوية مرفوعاً بلفظ «لا تزالُ طائفة من أمتي قائمة بأمرِ الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم ظاهرون على الناس». =

غيره لم يكن لذكره فائدة فإنه معلوم(١).

وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

(١٨٢) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سنستدنيهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً، وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة(٢). ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

(١٨٣) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم، عطف على سنستدرجهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعني محمداً ﷺ(٣). ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ من جنون. روي: أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فَخِذاً فخِذاً يحذرهم بأس الله تعالى فقال: قائلهم إنّ صاحبكم لمجنون بات يُهَوِّت إلى الصباح، فنزلت(٤). ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ موضح إنذاره بحيث لا يخفى على ناظر.

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ نظر استدلال. ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه. ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطف على ملكوت، وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وكذا اسم يكون. والمعنى: أولم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل

= ● وأخرج مسلم (٢/ ١٥٢٣ رقم ١٧٠/ ١٩٢٠) عن ثوبان مرفوعاً بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم. حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلك» وليس في حديث قتيبة «وهم كذلك».

● وأخرج مسلم (٢/ ١٥٢٤ رقم ١٧٣/ ١٩٢٣) عن جابر بن عبدالله مرفوعاً بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي يُقابَلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

(١) والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للإيذان بأن اهتداءهم في أنفسهم أمر محقق غني عن التصريح به (س٣/ ٢٩٧).

(٢) وإضافة الآيات إلى نون العظمة لتشريفها واستعظام الإقدام على تكذيبها (س٣/ ٢٩٧).

(٣) والتعبير عنه بصاحبهم للإيذان بأن طول مصاحبتهم له عليه السلام مما يطلعهم على نزاهته عليه السلام عن شائبة ما ذكر، ففيه تأكيد للنكير وتشديد له (س٣/ ٢٩٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٣٦) عن قتادة.

وذكره الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٦٦ رقم ٤٢) ـ أخرجه ـ الطبري بإسناد صحيح إلى قتادة.

مغافصة الموت ونزول العذاب. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي بعد القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر. وقيل هو متعلق بقوله: «عسى أن يكون» كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما بالهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه، فإن لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به، وقوله:

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٨٦) ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ كالتقرير والتعليل له[١]. ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ بالرفع على الاستئناف. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء لقوله «من يضلل الله»، وحمزة والكسائي به وبالجزم عطفاً على محل فلا هادي له، كأنه قيل: لا يهده أحد غيرُه ويذرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال من هم.

(١٨٧) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي عن القيامة، وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقُها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها على طولها عند الله كساعة. ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى إرساؤها أي إثباتُها واستقرارها. ورسوّ الشيء ثباتُه واستقراره، ومنه رسا الجبل وأرسى السفينة. واشتقاقُ أيان من أيّ لأن معناه أيُّ وقتٍ؟ وهو من أويت إليه لأن البعض أوى إلى الكل. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ استأثر به لم يُطلع عليه مَلَكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً[٢]. ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ لا يُظهر أمرها في وقتها. ﴿إِلَّا هُوَ﴾والمعنى أن الخفاء بها مستمر على غيره إلى وقت وقوعها، واللام للتأقيت كاللام في قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾[٣]. ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ إلا فجأة على غفلة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن الساعة تهيج بالناس والرجلُ يُصلح حوضه والرجلُ يَسقي ماشيته والرجل يقوّم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه»[٤]. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ عالم بها، فعيل من حفىٰ عن الشيء إذا سأل عنه،

---

(١) توحيد الضمير في حيز النفي نظراً إلى لفظ مَنْ، وجمْعُه في حيز الإثبات نظراً إلى معناها، وذلك للتنصيص على شمول النفي والإثبات للكل (س٣/ ٣٠٠).

(٢) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأن توفيقه عليه السلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد (س٣/ ٣٠١).

(٣) الإسراء: «٧٨».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٤٠) عن قتادة.
وأخرج البخاري (١١/ ٣٥٢ رقم ٦٥٠٦) و(١٣/ ٨٢ رقم ١٧٢١).
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناسُ آمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً. =

فإن مَنْ بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه استحكم علمه فيه، ولذلك عُدِّي بعن. وقيل هي صلة يسألونك. وقيل هو من الحفاوة بمعنى الشفقة فإن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة، والمعنى يسألونك عنها كأنك حفي تتحفى بهم فتحضّهم لأجل قرابتهم بتعليم وقتها. وقيل معناه كأنك حفي بالسؤال عنها تحبّه، مِنْ حَفِيَ بالشيء إذا فرح أي تكثره لأنه من الغيب الذي استأثر الله بعلمه. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كرره لتكرير يسألونك لما نيط به من هذه الزيادة وللمبالغة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

(١٨٨) ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ جلب نفع ولا دفع ضر، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب[(١)]. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار المنافع واجتناب المضار حتى لا يمسني سوء. ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ما أنا إلا عبد مرسَل للإنذار والبشارة[(٢)]. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بهما، ويجوز أن يكون متعلقاً بالبشير ومتعلق النذير محذوف.

(١٨٩) ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدم[(٣)]. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ من جسدها من ضلع من أضلاعها، أو من جنسها كقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[(٤)]. ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ﴾ ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه، وإنما ذكر الضمير ذهاباً إلى المعنى ليناسبَ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي جامعها. ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خف عليها ولم تلقَ منه ما تلقى منه الحوامل غالباً من الأذى، أو محمولاً خفيفاً وهو النطفة. ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦۖ﴾ فاستمرت به أي قامت

= ولتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبنِ لقحتهِ فلا يطعمهُ. ولتقومنّ الساعة وهو يَليط حوضَهُ فلا يُسقى فيه. ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلتَهُ إلى فيهِ فلا يطعَمُها».

وأخرجه مسلم (٤/ ٢٢٧٠ رقم ١٤١/ ٢٩٥٤) بلفظ «تقوم الساعةُ والرجل يحلبُ اللَّقحةَ، فما يصلُ الإناءُ إلى فيهِ حتى تقوم. والرجُلان يتبايعانِ الثوب فما يتبايعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقوم والرجلُ يَلِطُ في حوضِهِ، فما يصدرُ حتى تقوم».

(١) وإعادة الأمر «قل» لإظهار كمال العناية بشأن الجواب، والتنبيه على استقلاله ومغايرته للأول (س٣/ ٣٠٢).
(٢) وتقديم النذير على البشير لأن المقام مقام الإنذار (س٣/ ٣٠٢).
(٣) إيقاع الموصول خبراً لتفخيم شأن المبتدأ، أي ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم. . . (س٣/ ٣٠٣).
(٤) النحل: «٧٢».

وقعدت. وقرىء فمَرَت بالتخفيف، وفاستَمْرَت به، وفمَارَت من المور وهو المجيء والذهاب أو من المِرْية أي فظنت الحمل وارتابت منه. ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ صارت ذات ثقل بكبر الولد في بطنها. وقرىء على البناء للمفعول أي أثقلها حَمْلُها. ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنُه. ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على هذه النعمة المجددة.

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

(١٩٠) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ جعل أولادهما له شركاء فيما آتىٰ أولادهما فسموه عبدالعزى وعبدمناف على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه(١)، ويدل عليه قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(١٩١) ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني الأصنام. وقيل(٢): لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل فقال لها: ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج، فخافت من ذلك وذكرته لآدم فهما منه ثم عاد إليها وقال: إني من الله بمنزلة فإنْ دعوتِ الله أن يجعله خلقاً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبدالحرث، وكان اسمه حارثاً بين الملائكة فتقبلت، فلما ولدت سمياه عبدالحرث. وأمثال ذلك لا تليق بالأنبياء. ويحتمل أن يكون الخطاب في خلقكم لآل قصي من قريش، فإنهم خلقوا من نفس قصي وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله الولد فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم: عبدمناف، وعبدشمس، وعبدقصي، وعبدالدار. ويكون الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما. وقرأ نافع وأبو بكر شِرْكاً أي شَرِكة بان أشركا فيه غيره أو ذوي شرك وهم الشركاء، وهم ضمير الأصنام جيء به على تسميتهم إياها آلهة(٣).

(١٩٢) ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي لعبَدَتهم. ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها.

---

(١) وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر لأن المساق لبيان إخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح (س٣/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٤٧) عن سعيد بن جبير.
وأخرج الترمذي (٥/ ٢٦٧ رقم ٣٠٧٧) عن سمرة عن النبي ﷺ قال: لما حملتْ حواء طافَ بها إبليسُ وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبدالحارث، فعاش ذلك، وكان ذلك من وحي الشيطانِ وأمرِهِ».
وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ١١) والحاكم (٢/ ٥٤٥) وصححه ووافقه الذهبي والطبري (رقم: ١٥٥١٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبدالصمد بن عبدالوارث، ولم يرفعه.
قلت: الحسن قد عنعن عند الجميع وهو مدلس، وهو لم يسمع من سمرة. فالحديث ضعيف.
وأعلّه الحافظ ابن كثير من ثلاثة وجوه: انظرها في تفسيره (٢/ ٢٨٦).

(٣) إيراد الأصنام بجمع العقلاء بحسب اعتقادهم فيها وإجرائهم لها مجرىٰ العقلاء، وكذا تسميتها آلهة. ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفي الخالقية لإبانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه في حقها وإظهار غاية جهلهم. وعدم التعرض لخالقها للإيذان بتعينه والاستغناء عن ذكره (س٣/ ٣٠٥). =

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ
بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ
ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

(١٩٣) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي المشركين[١]. ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى الإسلام. ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وقرأ نافع بالتخفيفِ وفتحِ الباء، وقيل الخطاب للمشركين وهم ضمير الأصنام أي: إن تدعوهم إلى أن يهدوكم لا يتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ وإنما لم يقل أم صمتم للمبالغة في عدم إفادة الدعاء من حيث إنه مسوىً بالثبات على الصمات، أو لأنهم ما كانوا يدعونها لحوائجهم فكأنه قيل: سواء عليكم إحداثكم دعاءَهم واستمراركم على الصمات عن دعائهم.

(١٩٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة. ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ من حيث إنها مملوكة مسخرة. ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهم آلهة، ويحتمل أنهم لما نحتوها بصور الأناسيّ قال لهم: إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض، ثم عاد عليه بالنقض فقال:

(١٩٥) ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وقرىء إنْ الذين بتخفيف إنْ ونصب عباد على أنها نافية عملت عمل ما الحجازية ولم يثبت مثله، ويَبْطُشون بالضم ههنا وفي القصص والدخان[٢]. ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ فبالغوا فيما تقدرون عليه من مكر، وهي أنتم وشركاؤكم. ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فلا تُمهلون فإني لا أبالي بكم لوثوقي على ولاية الله تعالى وحفظه[٣].

(١٩٦) ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن[٤]. ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه.

(١٩٧) ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم.

(١٩٨) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يُشبِهون الناظرين إليك، لأنهم صوِّروا بصورة مَنْ ينظر إلى من يواجهه.

---

(١) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب لبيان مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت (س٣/٣٠٥).
(٢) القصص: «١٩» والدخان: «١٦».
(٣) وتقديم الأعين على الآذان لأنها أشهر من الآذان وأظهر عيناً وأثراً (س٣/٣٠٧).
(٤) ووصفُه تعالى بإنزال الكتاب للإشعار بدليل الولاية (س٣/٣٠٧).

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾

(١٩٩) ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ أي خذ مَا عفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تطلُب ما يشق عليهم، مِنَ العفو الذي هو ضد الجَهْد، أو خذ العفو عن المذنبين أو الفضل وما يسهل من صدقاتهم، وذلك قبل وجوب الزكاة. ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ المعروف المستحسن من الأفعال. ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فلا تمارِهم ولا تكافئهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق آمرة للرسول باستجماعها.

(٢٠٠) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ ينخسنك منه نخْسٌ أي وسوسة تحملك على خلاف ما أُمِرت به كاعتراء غضب وفكر، والنزغ والنسغ والنخس الغَرْزُ، شَبَّهَ وسوسته للناس إغراءً لهم على المعاصي وإزعاجاً بغرز السائق ما يسوقه. ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك. ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه، أو سميع بأقوال من آذاك عليهم بأفعاله فيجازيه عليها مغنياً إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان.

(٢٠١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لُمَّة منه، وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم، أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً. وقرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب طَيْفٌ على أنه مصدر أو تخفيف طَيِّفْ كليّن وهيّن، والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميرَه. ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ ما أمر الله به ونهىٰ عنه. ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ بسبب التذكر مواقعَ الخطأ ومكايد الشيطان فيتحرزون عنها ولا يتبعونه فيها، والآيةُ تأكيد وتقرير لما قبلها وكذا قوله:

(٢٠٢) ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ﴾ أي وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا يمدهم الشياطين. ﴿فِي ٱلۡغَيِّ﴾ بالتزيين والحمل عليه، وقرىء يُمِدُّونهم من أمدّ، ويُمَادُونهم كأنهم يُعِينونهم بالتسهيل والإغراء وهؤلاء يعينونهم بالاتّباع والامتثال. ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يَرُدّوهم، ويجوز أن يكون الضمير للإخوان أي لا يكفون عن الغي ولا يقصرون كالمتقين، ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجع الضمير إلى الجاهلين فيكون الخبر جارياً على ما هُوَ لَهُ.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ من القرآن أو مما اقترحوه. ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ هلا جمعتها تقوُّلاً من نفسك كسائر ما تقرؤه، أو هلاّ طلبتها من الله. ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ لستُ بمختلق للآيات، أو لست بمقترح لها. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب بها يبصر الحق ويدرك الصواب. ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ سبق تفسيره.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نزلت في الصلاة، كانوا يتكلمون فيها فأُمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له[1]. وظاهرُ اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يُقرأُ القرآن مطلقاً، وعامةُ العلماء على استحبابهما خارج الصلاة. واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف.

(٢٠٥) ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ عامّ في الأذكار من القراءة والدعاء وغيرهما، أو أمر للمأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً. ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً فوق السر ودون الجهر فإنه أَدْخَل في الخشوع والإخلاص. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ بأوقات الغدو والعشيات. وقرىء والإيصال، وهو مصدر آصل إذا دخل في الأصيل، وهو مطابق للغدو. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني ملائكة الملأ الأعلى. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه. ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ ويخصونه بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين ولذلك شرع السجود لقراءته. وعن النبي ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي فيقول: يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرتُ بالسجود فعصيت فلي النار»[2] وعنه ﷺ «من قرأ سورة الأعراف جعل اللهُ يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً وكان آدمُ شفيعاً له يوم القيامة»[3].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول عن قتادة ص٢٣٣.
(٢) أخرجه مسلم (١/ ٨٧ رقم ١٣٢/ ٨١) وابن ماجه (١/ ٣٣٤ رقم ١٠٥٢) من حديث أبي هريرة.
(٣) رواه الثعلبي عن أبيّ، وهو موضوع.

فهرس السور

اسم السورة	رقم الصفحة
خطبة الكتاب	٥
تفسير سورة الفاتحة	٧
تفسير سورة البقرة	٢٤
تفسير سورة آل عمران	٢٤٢
تفسير سورة النساء	٣٢٩
تفسير سورة المائدة	٤١٦
تفسير سورة الأنعام	٤٧٧
تفسير سورة الأعراف	٥٣٣ _ ٥٩١

* * *

فهرس الأجزاء

خطبة الكتاب	٥
سورة الفاتحة جـ/ ١/	٧
سورة البقرة جـ/ ٢/	١٤٥
سور البقرة جـ/ ٣/	٢١٣
سورة آل عمران جـ/ ٤/	٢٧٧
سورة النساء جـ/ ٥/	٣٤٥
سورة النساء جـ/ ٦/	٤٠٤
سورة المائدة جـ/ ٧/	٤٥٥
سورة الأنعام جـ/ ٨/	٥١٢
سورة الأعراف جـ/ ٩/	٥٥٨ _ ٥٩١

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمى

تفسير البيضاوي

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي حسن حلاق و محمود أحمد الأطرش

المجلد الثاني

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ

مُحَمَّد صُبْحِي بن حَسَن حَلَّاق و الدكتور مَحْمُود أَحْمَد الأَطْرَش

المجلّد الثاني

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

دار الرشيد
دمشق - بيروت

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

ترتيبها ٨ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

(١) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أي الغنائم يعني حكمها، وإنما سميت الغنيمة نفلاً لأنها عطية من الله وفضل كما سمي به ما يشرُطه الإمام لمقتحم خطر عطيةً له وزيادة على سهمه. ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي أمرُها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمره الله به. وسبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ومن يقسم المهاجرون منهم أو الأنصار[١]. وقيل شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينفله، فتسارع شبانُهم حتى قَتَلوا سبعين وأَسَروا سبعين ثم طلبوا نفلهم ـ وكان المال قليلاً ـ فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رِدْءاً لكم وفئة تنحازون إلينا، فنزلت، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء[٢]، ولهذا قيل: لا يلزم الإمام أن يفي بما وعد وهو قول الشافعي رضي الله عنه، وعن سعد بن أبي ....

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٢٢) و(٥/ ٣٢٤) وابن حبان (ص٤١٠ رقم ١٦٩٣ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣٥) و(٢/ ٣٢٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٩٢) و(٦/ ٣١٥) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٧٢) من طرق عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت. وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ١٧٥ رقم ٢٧٣٧) وابن حبان (ص٤٣١ رقم ١٧٤٣ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢ ـ ٣٢٦) والنسائي ـ كما في تحفة الأشراف (٥/ ١٣٢) ـ من حديث ابن عباس. وهو حديث صحيح.

وقاص[١] رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيت به رسول الله ﷺ واستوهبته منه فقال: ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته، وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سَلَبي فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فاذهب فخُذه[١]. وقرىء يسألونك عَلَّنفَال بحذف الهمزة والفاء حركتها على اللام وإدغام نون عن فيها، ويسألونك الأنفالَ أي يسألك الشبان ما شرطت لهم. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة. ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله وتسليم أمره إلى الله والرسول. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه[٢]. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

(٢) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله. وقيل هو الرجل يهمّ بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفاً من عقابه. وقرىء وَجَلت بالفتح وهي لغة، وفرَقَت أي خافت. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لزيادة المؤمن به، أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة، أو بالعمل بموجبها وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

(٣) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

(٤) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح التي هي العيار عليها من الصلاة والصدقة، وحقاً صفة مصدر محذوف أو مصدر مؤكد كقوله: هو عبدالله حقاً. ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كرامة وعلو منزلة. وقيل درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أُعِدّ لهم في الجنة لا ينقطعُ عدده ولا ينتهي أمده.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٨٠) وأبو عبيد في الأموال (ص٢٧٩ رقم ٧٥٦) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٧٣) وابن أبي شيبة، وابن مردويه كما في «الدر» (٤/ ٣). عنه.
ورجال إسناده ثقات، إلاّ أن محمد بن عبيدالله لم يدرك سعد بن أبي وقاص (المراسيل لابن أبي حاتم: ص١٨٤ رقم ٦٦٥).
● وأخرجه أبو داود (٣/ ١٧٧ رقم ٢٧٤٠) والترمذي (٥/ ٢٦٨ رقم ٣٠٧٩) والنسائي في تفسيره (١/ ٥١٣ رقم ٢١٦) وابن جرير (٦/ج٩/ ١٧٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٩١) عن سعد نحوه.
● وأخرجه مسلم (٣/ ١٣٦٧ رقم ٣٣/ ١٧٤٨) عن سعد نحوه مختصراً.

(٢) وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة (س٤/ ٣).

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾

(٥) ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال في كراهتهم إياها كحال إخراجك للحرب في كراهتهم له، وهي كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة. أو صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي الأنفال ثبتت لله والرسول ﷺ مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعني المدينة لأنها مهاجره ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في موقع الحال أي أخرجك في حال كراهتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهلَ مكة، فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول، عِيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، وقد رأت قبل ذلك بثلاث عاتكة بنت عبدالمطلب أن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبقَ بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضىٰ بهم إلى بدر وهو ماءٌ كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ بوادي ذفران فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين إما العير وإما قريش، فاستشار فيه أصحابه فقال بعضهم: هلاّ ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنما خرجنا للعير، فردد عليهم وقال إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ فقام أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقالا فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة فقال: انظُر أمرَك فامضِ فيه فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو: امضِ لما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: أشيروا عليَّ أيها الناس وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا عددهم وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم برآء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوّف أن لا يروا نصرته إلا على عدو دَهَمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله، فقال: أجل، قال: آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لَصُبُر عند الحرب صُدُق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسِرْ بنا على بركة الله تعالى، فنشطه قوله ثم قال: سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع ....

(١) المائدة: «٢٤».

القوم[١]. وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بدر قيل له: عليك بالعير فناداه العباس وهو في وَثاقه لا يصلح فقال له لِمَ؟ فقال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله[٢].

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقّي العير عليه. ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنهم يُنصَرون أينما توجهوا بإعلام الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي يَكْرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم إذ روي أنهم كانوا رجالة وما كان فيهم إلا فارسان، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

(٧) ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ على إضمار اذكر[٣]، وإحدى ثاني مفعولي يعدكم وقد أبدل منها. ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ بدل الاشتمال. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ يعني العير فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ، والشوكة الحِدّة مستعارة من واحدة الشوك[٤]. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي يثبته ويعليه. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الموحىٰ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/١٨٥ ـ ١٨٦) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة وعبدالله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبدالله بن عباس وأخرجه أيضاً ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٢٩٥ ـ ٣٠٦) من نفس الطريق.
● أما حديث ندب الرسول أصحابه لملاقاة العير فقد صرح ابن اسحاق بالسماع وسنده صحيح.
● وأما حديث رؤيا عاتكة: فقد صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده منقطع.
● أما مشاورة النبي ﷺ لأصحابه، فقد أخرجه البخاري (٧/ ٢٨٧ رقم ٣٩٥٢) عن ابن مسعود. ومسلم (٣/١٤٠٣ ـ ١٤٠٤ رقم ٨٣/ ١٧٧٩) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٢٩، ٣١٤، ٣٢٦) والترمذي (٥/ ٢٦٩ رقم ٣٠٨٠) والحاكم (٢/ ٣٢٧) من حديث ابن عباس.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وقال الألباني في ضعيف الترمذي ضعيف الإسناد.
قلت: رواية سماك عن عكرمة مضطربة. كما أن العباس كان من الأسارى فكيف عرف كلام الله هذا؟.

(٣) والتنكير بالوقت ـ مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث ـ للمبالغة في إيجاب ذكرها، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها ـ (س٤/ ٦) ـ.

(٤) والتعبير عنهم بذلك للتنبيه على سبب مودتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير (س٤/ ٧).

بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد. وقرىء بكلمتِه. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويستأصلهم، والمعنى: أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تَلقوْا مكروهاً والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين.

لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي فَعَل ما فعل، وليس بتكرير لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مُرَادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

(٩) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من إذ يَعِدكم، أو متعلق بقوله ليحق الحق، أو على إضمار اذكر، واستغاثتُهم أنهم لما علموا أنْ لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي رب انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين، وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه عليه السلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابةُ لا تُعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه، فقال أبو بكر: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربَّك فإنه سينجِزُ لك ما وعدك[١]. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ بأني ممدكم، فحذف الجارّ وسلط عليه الفعل. وقرأ أبو عمرو بالكسر[٢] على إرادة القول أو إجراء استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من القول. ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ مُتْبِعين المؤمنين أو بعضهم بعضاً، مِنْ أردفته أنا إذا جئت بعده، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين، أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه. وقرأ نافع ويعقوب مُرْدَفين ـ بفتح الدال ـ أي متبَعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم، وقرىء مُرُدِّفين بكسر الراء وضمها وأصله مرتدفين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء في الدال فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل أو بالضم على الاتباع، وقرىء بآلاف ليوافق ما في سورة آل عمران[٣]. ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالألف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة، أو وجوههم وأعيانهم، أو من قاتل منهم. واختلف في مقاتلتهم وقد روي أخبار تدل عليها[٤].

(١٠) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤ رقم ٥٨/ ١٧٦٣) والترمذي في السنن (٥/ ٢٦١ رقم ٣٠٨١) وأحمد (١/ ٣٠ ـ ٣٢).

(٢) أي بكسر الهمزة «إني».

(٣) آل عمران: «١٢٥».

(٤) وصيغة الاستقبال في تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة (س٤/ ٧).

فيزول ما بها من الوجل لقلّتكم وذلتكم. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإمدادُ الملائكة وكثرةُ العَدد والأُهَبِ ونحوهما وسائطُ لا تأثير لها فلا تحسبوا النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

(١١) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ بدلٌ ثان من إذ يعدكم لإظهار نعمة ثالثة، أو متعلق بالنصر أو بما في عند الله من معنى الفعل أو بجعل أو بإضمار اذكر. وقرأ نافع بالتخفيف من أغشيته الشيءَ إذا غشيته إياه، والفاعل على القراءتين هو الله تعالى، وقرأ ابن كثير وأبو عمر يَغْشَاكم النعاسُ بالرفع. ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أمْناً من الله، وهو مفعول له باعتبار المعنى فإن قوله يغشيكم النعاس متضمن معنى تنعسون، ويغشاكم بمعناه، والأمنة فعْل لفاعله، ويجوز أن يراد بها الإيمان فيكون فعلَ المغشي، وأن تَجْعَل على القراءة الأخيرة فعلَ النعاس على المجاز لأنها لأصحابه، أو لأنه كان من حقه أن لا يغشاهم لشدة الخوف فلما غشيهم فكأنه حصلت له أمنة من الله لولاها لم يغشَهم كقوله:

يَهَابُ النَّوْمُ أَنْ يَغْشَى عُيُوناً تَهَابُكَ فَهُوَ نَفَّارٌ شَرُودُ

وَقرِىء أَمْنَةً كرَحْمة وهي لغة. ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من الحدث والجنابة. ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني الجنابة لأنها من تخييله، أو وسوسته وتخويفه إياهم من العطش. روي أنهم نزلوا في كثيب أَعْفَرَ تسُوخُ فيه الأقدامُ على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنصَرون، وقد غُلبتم على الماء وأنتم تصلون محدِثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، فأشفقُوا فأنزل الله المطر، فمُطِروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عُدْوته وسَقُوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة[1]. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالوثوق على لطف الله بهم. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾ بدل ثالث، أو متعلق بيثبّت. ﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في إعانتهم وتثبيتهم، وهو مفعول يوحي. وقرىء بالكسر[2] على إرادة القول أو إجراء الوحي مجراه. ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشارة، أو بتكثير سوادهم، أو بمحاربة أعدائهم، فيكون قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ كالتفسير لقوله أني معكم فثبتوا، وفيه دليل على أنهم قاتلوا ومن مَنَعَ ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين إما على تغيير الخطاب أو على أن قوله: ﴿سَأُلْقِى﴾ إلى قوله ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ تلقين

(١) أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج عن ابن عباس (روح المعاني ٩/١٧٦).
(٢) أي بكسر الهمزة «إني».

للملائكة ما يثبتون المؤمنين به كأنه قال: قولوا لهم قولي هذا. ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس. ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أصابع أي جزّوا رقابهم واقطعوا أطرافهم[١].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب أو الأمر به، والخطاب للرسول، أو لكل أحد من المخاطبين قبْل. ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بسبب مشاقّتهم لهما، واشتقاقه من الشّقّ لأن كلاً من المتعاديين في شق خلاف شِق الآخر كالمعاداة من العُدوة والمخاصمةِ من الخصم وهو الجانب. ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

(١٤) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات، ومحله الرفع أي: الأمر ذلكم أو ذلكم واقعٌ، أو نُصب بفعل دل عليه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أو غيره مثل باشروا أو عليكم، فتكون الفاء عاطفة. ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ عطف على ذلكم، أو نصب على المفعول معه، والمعنى ذوقوا ما عُجّل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما. وقرىء وإنّ بالكسر على الاستئناف.

(١٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ كثيراً بحيث يُرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبيُّ إذا دب على مِقْعَده قليلاً قليلاً سمي به وجُمع على زحوف، وانتصابه على الحال. ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ بالانهزام فضلاً أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم، والأظهر أنها محكمة مخصوصة بقوله: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[٢] الآية، ويجوز أن ينتصب «زحفاً» حالاً من الفاعل والمفعول أي: إذا لقيتموهم متزحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم فلا تنهزموا، أو من الفاعل وحده ويكون إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوْا، وهم اثنا عشر ألفاً.

(١٦) ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يريد الكرّ بعد الفر وتغرير العدو، فإنه من مكايد الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم، ومنهم من لم يَعْتبر القرب لما روى ابنُ عمر رضي الله عنهما: أنه كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ ففرّوا إلى المدينة فقلت: يا رسول الله نحن الفرارون فقال: «بل أنتم العكّارون وأنا فئتكم»[٣].

---

(١) وتكرير الأمر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره (س٤/١١).

(٢) الأنفال: «٦٥».

(٣) أخرجه أبو داود (٣/١٠٦ ـ ١٠٧ رقم ٢٦٤٧) والترمذي (٤/٢١٥ رقم ١٧١٦). وأحمد (٢/٧٠، ٨٦، ١١١) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٧٦، ٧٧).

وانتصاب متحرفاً ومتحيزاً على الحال، وإلا لغوٌ لا عمل لها، أو الاستثناءِ من المولين أي إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً، ووزن متحيز مُتَفَيْعِل لا مُتفعّل وإلا لكان متحوزاً لأنه من حاز يحوز. ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضِّعف لقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية، وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

(١٧) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوتكم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاءِ الرعب في قلوبهم. روي: أنه لما طلعت قريش من العقَنْقل قال عليه الصلاة والسلام: «هذه قريش جاءت بخُيَلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني» فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصباء فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبقَ مشرك إلا شُغِل بعينيه، فانهزموا ورَدِفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر فيقول الرجل قتلتُ وأسرت، فنزلت[١]. والفاء جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فلمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم. ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد رمياً توصِله إلى أعينهم ولم تقدر عليه: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي إذ أتيت بصورة الرمي. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أتى بما هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا وتمكنتُم من قطع دابِرهم، وقد عرفتَ أن اللفظ يُطلق على المسمى وعلى ما هو كمالُه والمقصود منه. وقيل معناه ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم. وقيل إنه نزل في طعنة طُعِن بها أُبيّ بن خلف يوم أُحُد ولم يخرج منه دم فجعل يخور حتى مات[٢]. أو رمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كِنانةَ بن أبي الحقيق على ....

= والبخاري في الأدب المفرد (رقم: ٩٧٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلاّ من حديث يزيد بن أبي زياد.
قلت: يزيد هذا ضعيف. انظر ترجمته (٩/ ٢٦٥) والكامل (٧/ ٢٧٢٩) والمجروحين (٣/ ١١٢) والميزان (٤/ ٤٢٣).
والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعّفه الألباني في الإرواء (رقم: ١٢٠٣).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ٢٠٤) عن هشام بن عروة مرسلاً وليس فيه (أمر جبريل له بذلك).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ٢٠٥) عن ابن عباس، (أمر جبريل له بذلك).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) عن حكيم بن حزام ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وابن زيد.
وانظر «الكافي الشافِ» للحافظ ابن حجر (ص٦٨ رقم ٦٤).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٣٦ والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٧) وصححه ووافقه الذهبي. وساقه ابن كثير وبين أن المراد أن الآية تتناوله بعمومها لا أنها نزلت فيه بشكل خاص. (تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٣).

فراشه[١]، والجمهور على الأول. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ولكِنْ بالتخفيف ورفعِ ما بعده في الموضعين[٢]. ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات فَعَل ما فعَل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن أو القتل أو الرمي، ومحله الرفعُ أي المقصود أو الأمر ذلكم، وقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوفٌ عليه أي المقصود إبلاء المؤمنين وتوهينُ كيد الكافرين وإبطالِ حِيَلِهم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو مُوَهِّن بالتشديد، وحفص مُوهِنُ كيدِ بالإضافة والتخفيف[٣].

(١٩) ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرمَ الحزبين. ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين. ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لمحاربته. ﴿نَعُدْ﴾ لنصرته عليكم. ﴿وَلَن تُغْنِىَ﴾ ولن تدفع. ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء أو المضار. ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة. وقرأ نافع وابن عامر وحفص وأَنَّ بالفتح على تقدير ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك[٤]. وقيل: الآية خطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وإن تعودوا إليه نَعُد عليكم بالإنكار أو تهييجِ العدو، ولن تغنيَ حينئذ كثرتُكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فإنه مع الكاملين في إيمانهم، ويؤيد ذلك:

(٢٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي ولا تتولوا عن الرسول، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه، وذَكَرَ طاعةَ الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٥] وقيل: الضمير للجهاد، أو للأمر الذي دل عليه الطاعة. ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق.

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم كما ذكر في الفتح السماوي ص٦٥٣.

(٢) وتجريد فعل الرمي عن المفعول به لأن المقصود الأصلي بيانُ حال الرمي نفياً وإثباتاً (س٤/١٣).

(٣) لعل الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ «موهِنٌ كيدَ» بتنوين الأول وتخفيفه وبنصب الثاني.

(٤) لعل الأصل عند البيضاوي الكسر، أي «إن الله مع المؤمنين».

(٥) النساء: «٨٠».

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(٢١) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ كالكفرة والمنافقين الذين ادّعوْا السماع. ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به فكأنهم لا يسمعون رأساً.

(٢٢) ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ شر ما يدب على الأرض، أو شر البهائم. ﴿ٱلصُّمُّ﴾ عن الحق. ﴿ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إياه، عَدَّهم من البهائم ثم جعلهم شرَّها لإبطالهم ما ميزوا به وفُضِّلوا لأجله[١].

(٢٣) ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ سعادة كتبت لهم، أو انتفاعاً بالآيات. ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم. ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم. ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ ولم ينتفعوا به، أو ارتدوا بعد التصديق والقبول. ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لعنادهم. وقيل[٢] كانوا يقولون للنبي ﷺ: أَحْيِ لنا قصيّاً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يَشْهد لك ونؤمن بك. والمعنى لأسمعهم كلام قصي.

(٢٤) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة[٣]. ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحّد الضمير فيه لما سبق ولأن دعوة الله تُسمع من الرسول. وروي أنه عليه الصلاة والسلام مر على أُبيّ وهو يصلي، فدعاه، فعجّل في صلاته ثم جاء، فقال: «ما منعك عن إجابتي؟» قال: كنت أصلي، قال: «ألم تُخْبَر فيما أوحي إلي: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾[٤]؟». واختُلف فيه، فقيل: هذا لأن إجابته لا تقطع الصلاة فإن الصلاة أيضاً إجابة. وقيل لأن دعاءه كان لأمرٍ لا يحتمل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، وظاهرُ الحديث يناسب الأول. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهلُ موتُه. قال:

---

(١) وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم، فإن السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه (س٤/ ١٥).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٤٤) بدون راوٍ ولا سند.

(٣) كرر النداء مع وصفهم بالإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يَرِدُ بعده من الأوامر (س٤/ ١٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في«جامع البيان»(٦/ج٩/ ٢١٤) والترمذي (٥/ ١٥٥ رقم ٢٨٧٥) بنحوه، وقال هذا حديث حسن صحيح. وأحمد في المسند(٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣) عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ على أبي بن كعب... الحديث.
وأخرجه البخاري(٨/ ١٥٦ رقم ٤٤٧٤) عن أبي سعيد بن المعلى.
وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ١٥٧): «وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبي بن كعب ولأبي سعيد المعلى، ويتعين المصير إلى ذلك لاختلاف مخرج الحديثين، واختلاف سياقهما كما سأبينه» هـ.
وانظر تحفة الأحوذي للمباركفوري (٨/ ١٨٠).

لا تعْجَبَنَّ الجَهُولَ حِلَّتَه ... فذَاكَ مَيتٌ وَثَوْبُهُ كَفَن

أو مما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال، أو من الجهاد فإنه سبب بقائكم إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم، أو الشهادة لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١). ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(٢) وتنبيهٌ على أنه مطلع على مكنونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبُها، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يَحُول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصويرٌ وتخييل لتملّكه على العبد قلبَه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصدَه ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته. وقرىء بين المَرِّ بالتشديد على حذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على الراء وإجراءِ الوصل مجرى الوقف على لغة من يشدد فيه. ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيَكم بأعمالكم.

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ اتقوا ذنباً يعمّكم أثرُه كإقرار المنكَر بين أظهُركم والمداهنةِ في الأمر بالمعروف وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد، على أن قوله لا تصيبن إما جواب الأمر على معنى إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة بل تعمكم، وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهي ساغ فيه كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾(٣) وإما صفة لفتنة، ولا للنفي، وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفي في غير القسم، أو للنهي على إرادة القول كقوله:

حتى إذا جَنَّ الظلامُ واختلط ... جاؤوا بمذق هل رأيت الذئب قط

وَإما جوابُ قسم محذوف كقراءة من قرأ لَتُصيبنّ وإن اختلفا في المعنى، ويُحتمل أن يكون نهياً بعد الأمر باتقاء الذنب عن التعرض للظلم لأن وبالَه يصيب الظالم خاصة ويعود عليه، ومِنْ في منكم على الوجوه الأُوَل للتبعيض وعلى الأخيرين للتبيين، وفائدتُه التنبيه على أن الظلم منكم أقبح من غيركم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(٢٦) ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة يستضعفكم قريش، والخطاب للمهاجرين. وقيل للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس

---

(١) آل عمران: «١٦٩».

(٢) قٓ: «١٦».

(٣) النمل: «١٨».

والروم[1]. ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ كفار قريش، أو من عداهم فإنهم كانوا جميعاً معادين لهم مضادين لهم. ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعاديكم. ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ من الغنائم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن، أو بأن تُضمروا خلاف ما تظهرون، أو بالغلول في المغانم. وروي: أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصلح كما صالح إخوانَهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعاتِ وأريحاء بأرض الشام، فأبىٰ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوْا وقالوا: أرسل إلينا أبا لُبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار إلى حَلْقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت. فشدّ نفسه على سارية في المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه فقيل له: قد تيب عليك فحلّ نفسك فقال: لا والله لا أحِلُّها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُحلني، فجاءه فحله بيده فقال: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال عليه الصلاة والسلام «يجزيك الثلث أن تتصدق به»[2]. وأصل الخَوْن النقص كما أن أصل الوفاء التمام، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه. ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ فيما بينكم وهو مجزوم بالعطف على الأول، أو منصوب على الجواب بالواو. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون، أو أنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

(٢٨) ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب، أو محنةٌ من

---

(١) قوله«وإذ أنتم قليلٌ» آثر الجملة الاسمية للإيذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف (س٤/١٧).

(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند، لكن سنده إليه في أول الكتاب.
وقد روى ابن إسحاق في المغازي: حدثنا إسحاق بن يسار عن عبد بن كعب السلمي: «أن رسول الله ﷺ حاصرهم ـ يعني قريظة ـ خمساً وعشرين ليلة ـ فذكر القصة بطولها ـ إلى أن قال: ابعث إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر فذكر قصة مختصرة.
وأخرجهاالبيهقي في الدلائل من طريق سعيد بن المسيب في قصة طويلة فذكر نحو ما هنا وهكذا ذكرها عبدالرزاق (٥/٤٠٦) عن معمر عن الزهري، قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك، فربط نفسه بسارية المسجد فذكر القصة».
وأخرجه الواقدي عن معمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك مثله كما في «الكافي الشافِ»(ص٦٩ رقم ٦٧).

الله تعالى ليبلوكم فيهم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كأبي لبابة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن آثر رضا الله عليهم وراعىٰ حدوده فيهم، فأنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، أو نصراً يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مَخْرجاً من الشبهات، أو نجاة عما تحذرون في الدارين، أو ظهوراً يُشْهِرُ أمرَكم ويبث صيتكم من قولهم بتُّ أفعل كذا حتى سطع الفرقان أي الصبح[١]. ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ ويسترها. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ بالتجاوز والعفو عنكم. وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر. وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها في أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، وأنه ليس مما يوجب تقواهم عليه، كالسيد إذا وعد عبده إنعاماً على عمل.

(٣٠) ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تذكار لمّا مَكَر قريشٌ به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في خَلاَصِه مِنْ مكرهم واستيلائه عليهم، والمعنى واذكر إذ يمكرون بك. ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ بالوثاق أو الحبس، أو الإثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لا حِراك به ولا براح. وقرىء ليثبّتُوك بالتشديد، وليبيّتُوك من البيات، وليُقَيّدوك. ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ بسيوفهم. ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ من مكة، وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم فَرِقُوا واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا من نجد سمعت اجتماعَكم فأردت أن أحضُركم ولن تُعدَموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت، فقال الشيخ بئس الرأيُ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع، فقال بئس الرأي يُفْسِدُ قوماً غيرَكم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العَقْل عَقَلْناه، فقال صدق هذا الفتى، فتفرقوا على رأيه، فأتى جبريل النبي عليهما السلام وأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فبيّت علياً رضي الله تعالى عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار[٢]. ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ برد مكرهم عليهم، أو بمجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين

---

(١) وتكرير الخطاب والوصف بالإيمان لإظهار كمال العناية بما بعده والإيذان بأن مقتضى الإيمان مراعاته والمحافظة عليه(س٤/١٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي: حدثني من لا أتهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: =

معهم بأن أخرجهم على بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره، وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة[1]، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾ هو قول النضر بن الحارث، وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم فإنه كان قاصَّهم. أو قولُ الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام، وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا، وقد تحداهم وقرَّعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سورة مع أَنَفَتهم وفرط استنكافهم أن يُغْلَبوا خصوصاً في باب البيان. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره الأولون من القصص.

(٣٢) ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أيضاً من كلام ذلك القائل أبلغُ في الجحود. روي أنه لما قال النضر إنْ هذا إلا أساطير الأولين قال له النبي ﷺ: «ويلك إنه كلام الله» فقال ذلك[2]. والمعنى إن كان هذا حقاً منزّلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبةً على إنكاره، أو ائتنا بعذاب أليم سواه، والمرادُ منه التهكمُ وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً. وقرىء الحقُّ بالرفع على أن هو مبتدأ غير فصل، وفائدةُ التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي ﷺ وهو تنزيلُه لا الحق مطلقاً لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل كأساطير الأولين.

(٣٣) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بيان لما كان الموجب

= «لما اجتمعت قريش في دار الندوة وتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ اعترضهم إبليس في هيئة شيخ. فذكره مطولاً».

وأخرجه الطبري ـ في جامع البيان (٦/ج٩/٢٧٧) ـ وأبو نعيم في الدلائل ـ (١/٢٥٨ ـ ٢٦١) ـ من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح. وليس في أوله أن ذلك بسبب الأنصار. وقال عبدالرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة قال «لما كثر المسلمون فذكر معناها ووصلها الواقدي عن معمر بذكر عائشة قال: وعن ابن أبي خيثمة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس نحوه ـ كما في «الكافي الشافِ» ـ للحافظ ابن حجر (ص٦٩ رقم ٨).

قلت: أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/٣٨٩ ـ ٣٩٠) عن معمر عن قتادة دون عروة.

(١) قوله للمزاوجة أي للمشاكلة.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٩/١٩٩) بدون راوٍ ولا سند.

لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم، واللامُ لتأكيد النفي والدلالةِ على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبيُّ ﷺ بين أظهُرِهم خارج عن عادته غير مستقيم في قضائه، والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين، أو قولهم اللهم غفرانك، أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يُعذَّبون. ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وحالهم ذلك، ومِنْ صدهم عنه إلجاءُ رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارُهم عام الحديبية. ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء ونُدْخِل من نشاء. ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره، وقيل الضميران لله. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنْ لا ولاية لهم عليه، كأنه نبه بالأكثر أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي دعاؤهم، أو ما يسمونه صلاة، أو ما يضعون موضعها. ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ صفيراً، فُعَال من مكا يمكو إذا صَفَر. وقرىء بالقصر كالبُكَا. ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقاً، تَفْعِلة من الصَّدَا، أو من الصدّ على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء. وقرىء صلاتَهم بالنصب على أنه الخبر المقدم، ومساقُ الكلام لتقريرِ استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمَنْ هذه صلاتُه. روي: أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجالُ والنساء مشبِّكين بين أصابعهم يُصَفِّرون فيها ويصفقون[2]. وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يُخْلِطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضاً. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني القتل والأسر يوم بدر، وقيل عذاب الآخرة، واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود: ائتنا بعذاب. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقاداً وعملاً.

(٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في المطعِمين يوم بدر[3]، وكانوا

---

(١) هود: «١١٧».

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٤٠ بسند ضعيف لأن فيه عطية بن سعد العوفي وهو صدوق، كان يخطىء كثيراً، وكان شيعياً مدلساً.

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٢٣٦) من قول مقاتل والكلبي بدون سند وكذلك البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٥٥).

● وأخرج ابن جرير (٦/ج٩/ ٢٤٥) من طريق ابن إسحاق عن الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن

اثني عشر رجلاً من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جُزُر. أو في أبي سفيان[1] استأجر ليوم أُحُد ألفين من العرب سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية. أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا. والمرادُ بسبيل الله دينُه واتباع رسوله. ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بتمامها. ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق بدر، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق أُحُد، ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته وإنه لم يقع بعد. ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغماً لفواتها من غير مقصود، جعل ذاتها تصير حسرة وهي عاقبة إنفاقها مبالغةً. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخرَ الأمر وإن كان الحرب بينهم سجالاً قبل ذلك. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين ثبتوا على الكفر منهم إذ أسلم بعضهم. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يساقون.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح. واللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ﷺ مما أنفقه المسلمون في نصرته، واللام متعلقة بقوله ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لِيُمَيِّزَ من التمييز وهو أبلغ من المَيْز. ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضمّ بعضه إلى بعض حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كمال الكانزين. ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنفقين. ﴿هُمُ

= عمر بن قتادة والحصين بن عبدالرحمٰن وعمرو بن سعد بن معاذ قالوا: لما أصابته المسلمون يوم بدر من كفار قريش من أصحاب القليب ورجع فلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبدالله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب، ومن كان له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم» إلى قوله والذين كفروا إلى جهنم يحشرون» وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم ـ كما في فتح القدير (٢/ ٣٠٧) مرسلاً ـ. وهو صحيح الإسناد.

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ج٩/ ٢٤٤) عن سعيد بن جبير.
وأخرجه ابن جرير (٦/ج٩/ ٢٤٥) عن ابن أبزى.
وذكر الواحدي في «الأسباب» (ص٢٣٧) ذلك عنهما بدون سند.

﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسِروا أنفسهم وأموالهم.

(٣٨) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه، والمعنى قل لأجلهم. ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عن معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام. ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذنوبهم. وقرىء بالتاء والكاف على أنه خاطبهم[1]، ويَغْفِرْ على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتاله. ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير كما جرىٰ على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك.

(٣٩) ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ وتضمحل عنهم الأديان الباطلة. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن الكفر. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيَهم على انتهائهم عنه وإسلامهم. وعن يعقوب تَعْمَلون بالتاء، على معنى فإن الله بما تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير فيجازيكم، ويكون تعليقُه بانتهائهم دلالةً على أنه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب.

وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

(٤٠) ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولم ينتهوا. ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصرُكم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم. ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولاه. ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره.

(٤١) ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ أي الذي أخذتموه من الكفار قهراً. . ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مبتدأ خبرُه محذوف أي: فثابتٌ أن لله خمسه. وقرىء فإنّ بالكسر. والجمهورُ على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[2]، وأن المرادَ قَسْمُ الخمس على الخمسة المعطوفين. ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فكأنه قال: فأن لله خُمُسَه يصرفُ إلى هؤلاء الأخصين به، وحكمُهُ بعد باقٍ غير أن سهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه يُصرف إلى ما كان يَصْرفه إليه من مصالح المسلمين كما فعله الشيخان رضي الله تعالى عنهما[3]. وقيل إلى الإمام. وقيل إلى الأصناف الأربعة. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه سقط سهمه وسهم ذوي القربى بوفاته وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية. وعن مالك رضي الله

---

(١) أي قرىء: «إن تَنْتَهوا يُغْفَرْ لكم. . .».

(٢) التوبة: «٦٢».

(٣) الشيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

تعالى عنه الأمر فيه مفوض إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم. وذهب أبو العالية[١] إلى ظاهر الآية فقال يُقسم ستةَ أقسام ويصرف سهم الله إلى الكعبة، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ قبضة منه فيجعلُها للكعبة ثم يقسم ما بقي على خمسة[٢]. وقيل سهم الله لبيت المال. وقيل هو مضموم إلى سهم الرسول ﷺ. وذوو القربى: بنو هاشم وبنو المطلب، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قسم سهم ذوي القربى عليهما فقال له عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلَهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخوانَنا من بني المطلب أعطيتَهم وحرمتَنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام». وشبك بين أصابعه[٣]. وقيل بنو هاشم وحدهم. وقيل جميع قريش الغني والفقير فيه سواء. وقيل هو مخصوص بفقرائهم كسهم ابن السبيل. وقيل الخمس كله لهم والمراد باليتامى والمساكين وابن السبيل من كان منهم والعطف للتخصيص. والآية نزلت ببدر، وقيل الخمس كان في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلِّموه إليهم واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، فإن العلم العملي إذا أمر به لم يُردْ منه العلم المجرد لأنه مقصود بالعَرَض والمقصود بالذات هو العمل. ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ من الآيات والملائكة والنصر. وقرىء عُبُدنا بضمتين أي الرسول ﷺ والمؤمنين. ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ المسلمون والكافرون. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة.

(٤٢) ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدل من يومَ الفرقان، والعُدْوة بالحركات الثلاث شط الوادي وقد قرىء بها، والمشهور الضم، والكسر وهو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ البُعدىٰ من المدينة، تأنيث الأقصى وكان قياسه قلب الواو ياءً كالدنيا والعُليا تفرقةً بين الاسم والصفة فجاء على الأصل كالقَوَد وهو أكثر استعمالاً من القُصْيَا. ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ أي العير، أو قوادها. ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ في مكان أسفل من مكانكم يعني الساحل، وهو منصوب على الظرف واقعٌ موقع الخبر، والجملة حال من الظرف قبلَه، وفائدتُها الدلالةُ على قوة العدو واستظهارُهم بالرَّكْب وحرصُهم على

---

(١) أبو العالية: رفيع بن مهران الرياحي البصري، محدث مقرىء مفسر، من كبار التابعين، أسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين، قيل عنه: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقران منه، توفي ٩٣ هـ (معجم المفسرين ١/ ١٩١).

(٢) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (ص٢٩٩ رقم ٨٣٦) وأبو داود في المراسيل (ص٢٧٥ رقم ٣٧٤) وابن جرير (٦/ ج١٠/ ٣ ـ ٤) عن أبي العالية. بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٨٢ رقم ٢٩٧٨) و(٣/ ٣٨٣ رقم ٢٩٨٠) وابن ماجة (٢/ ٩٦١ رقم ٢٨٨١) من حديث جبير بن مطعم.
وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في الإرواء (رقم: ١٢٤٢).
وأخرج البخاري (٦/ ٢٤٤ رقم ٣١٤٠) و(٦/ ٥٣٣ رقم ٣٠٥٢) و(٧/ ٤٨٤ رقم ٤٢٢٩) كلهم من طرق، عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عنه.
ولفظه مثل لفظ أبي داود (رقم: ٢٩٧٨).

المقاتلة عنها وتوطينِ نفوسهم على أن لا يُخلّوا مراكزهم ويبذلوا منتهىٰ جَهْدهم، وضعفِ شأن المسلمين والْتِياثِ أمرهم واستبعادِ غلبتهم عادة، وكذا ذِكْرُ مراكزِ الفريقين فإن العُدْوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يُمشىٰ فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء بخلاف العدوة القصوى، وكذا قوله: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتالَ ثم علمتم حالَكم وحالَهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هَيْبة منهم ويأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله تعالى خارقاً للعادة فيزدادوا إيماناً وشكراً. ﴿وَلَٰكِن﴾ جُمِعَ بينكم على هذه الحال من غير ميعاد. ﴿ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ حقيقاً بأن يُفعل، وهو نصرُ أوليائه وقهر أعدائه، وقوله: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ بدل منه أو متعلق بقوله مفعولاً، والمعنى: ليموت من يموت عن بينة عاينَها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدَها لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة. أو ليصدر كفرُ من كفر وإيمانُ من آمن عن وضوحِ بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإسلام. والمرادُ بمَنْ هلك ومن حيَّ المشارِفُ للهلاك والحياة، أو مَنْ هذا حالُه في علم الله وقضائه. وقرىء لِيَهْلَكَ بالفتح، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر ويعقوب مَنْ حَيِيَ بفك الإدغام للحمل على المستقبل. ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ بكفر من كفر وعقابه وإيمانِ من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

(٤٣) ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ مقدَّر باذكر، أو بدل ثان من يوم الفرقان، أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم. ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ لجبُنتم. ﴿ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ في أمر القتال وتفرقتْ آراؤكم بين الثبات والفرار. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع. ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ يعلم ما سيكون فيها وما يغير أحوالها.

(٤٤) ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ الضميران مفعولا يُري وقليلاً حال من الثاني، وإنما قللهم في أعين المسلمين ـ حتى قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لمَنْ إلى جنبه أتراهم سبعين؟ فقال أراهم مائة ـ تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل[1]: إن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ جزور، وقللهم في أعينهم قبل الْتحام القتال ليجترئوا[2] عليهم

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٤) بدون سند.
وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٩).
(٢) كتُبت الهمزة على واو، والأصل كتابتها على نَبِرة.

ولا يستعدوا لهم، ثم كثرهم حتى يرونهم مثليهم لتَفْجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة فإن البصر وإن كان قد يَرىٰ الكثير قليلاً والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوي في الشروط. ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كرره لاختلاف الفعل المعلَّل به، أو لأن المراد بالأمر ثَمَّةَ الاكتفاءُ على الوجه المحكي ههنا إعزازُ الإسلام وأهله وإذلالُ الإشراك وحزبه. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

(٤٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ حاربتم جماعة، ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاءُ مما غَلَب في القتال. ﴿فَاثْبُتُوا﴾ للقائهم. ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب داعين له مستظهرين بذكره مترقبين لنصره. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجىء إليه عند الشدائد ويُقْبِل عليه بشراشِره[1] فارغَ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

(٤٦) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء، كما فعلتم ببدر أو أحد. ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ جواب النهي. وقيل عطف عليه ولذلك قرىء: ﴿وَتَذْهَبْ رِيحُكُمْ﴾ بالجزم، والريحُ مستعارة للدَّوْلة[2] من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذِه مُشَبَّهة بها في هبوبها ونفوذها. وقيل المراد بها الحقيقة، فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثُها الله، وفي الحديث: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[3]. ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالكلاءَة والنصرة.

(٤٧) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العِير. ﴿بَطَرًا﴾ فخراً وأشراً. ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسولُ أبي سفيان أَنْ ارْجَعُوا فقد سلِمَتْ عيرُكم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نَقْدُم بدراً ونشربَ فيها الخمور وتعزف علينا القِيانُ ونطعِم بها من حَضَرنا من العرب، فوافوها ولكن سُقُوا كأس المنايا وناحت عليهم النوائح، فنهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بَطِرين مرائين، وأمرَهم بأن

---

(١) أي بكلِّيته.

(٢) الدَّوْلة بفتح الدال وضمها مِنَ التداول. وقيل: الدُّولة ـ بالضم ـ تكون في المال، وبالفتح تكون في الحرب (المصباح المنير مادة دَوَلَ).

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٥٢٠ رقم ١٠٣٥) و(٦/ ٣٠٠ رقم ٣٢٠٥) و(٦/ ٣٧٦ رقم ٣٣٤٣) و(٧/ ٣٩٩ رقم ٤١٠٥). ومسلم (٢/ ٦١٧ رقم ٩٠٠) عن ابن عباس.

يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضده. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معطوف على بَطَراً إنْ جعل مصدراً في موضع الحال، وكذا إن جُعِل مفعولاً له لكن على تأويل المصدر. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيكم عليه.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

(٤٨) ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مقدّر باذكر. ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ في معاداة الرسول ﷺ وغيرها بأن وسوس إليهم. ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ مقالة نفسانية، والمعنى: أنه ألقىٰ في روعهم وخيَّل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعُدَدهم، وأوهمهم أنّ اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجيرٌ لهم حتى قالوا: اللهم انصر أهدىٰ الفئتين وأفضلَ الدينين. ولكم خبرُ لا غالب، أو صفته، وليس صلته وإلا لانتصب كقولك: لا ضارباً زيداً عندنا. ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي تلاقى الفريقان. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ رجع القهقرى أي بطل كيدُه وعاد ما خُيِّل إليهم أنه مجيرُهم سببَ هلاكهم. ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي تبرأ منهم وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة. وقيل: لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحْنة وكاد ذلك يُثنيهم، فتمثّل لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك الكناني وقال لا غالب لكم اليوم وإني مجيرُكم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تَنْزِل نكص وكان يده في يد الحارث بن هشام فقال له: إلى أين أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهزموا، فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناسَ سراقةُ، فبلغه ذلك فقال: والله ما شعَرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتُكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان(١). وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ إني أخافه أن يصيبني بمكروه من الملائكة أو يهلكني ويكون الوقت هو الوقت الموعود إذ رأى فيه ما لم يَرَ قبله، والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر. ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون من كلامه وأن يكون مستأنفاً.

(٤٩) ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة. وقيل هم المشركون. وقيل المنافقون والعطف لتغاير الوصفين. ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون المؤمنين. ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لما لا يدي لهم(٢) به فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٨).
عن ابن عباس بإسناد صحيح.

(٢) أي لا قوة لهم به.

ألف. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ جواب لهم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يَذِلّ من استجار به وإن قلّ ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ ولو رأيت، فإن لو تجعل المضارع ماضياً عكسُ إنْ. ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ببدر، وإذ ظرف ترى، والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو حالَهم حينئذ، والملائكةُ فاعل يتوفى ويدل عليه قراءة ابن عامر بالتاء، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الله عز وجل وهو مبتدأً خبرُه: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾، والجملةُ حال من الذين كفروا، واستُغني فيه بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منهم أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على الضميرين. ﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ ظهورهم أو أستاههم، ولعل المراد تعميم الضرب أي يضربون ما أُقبل منهم وما أدبر. ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ عطف على يضربون بإضمار القول، أي ويقولون ذوقوا بشارةً لهم بعذاب الآخرة. وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضُربوا التهبت النار منها، وجواب لو محذوف لتفظيع الأمر وتهويله.

(٥١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والعذاب[1]. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي وهو خبر لذلك. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطف على «ما» للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم، لا أن لا يعذبهم بذنوبهم فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعاً ولا عقلاً حتى ينتهض نفي الظلم سبباً للتعذيب. وظلاّم للتكثير لأجل العبيد.

(٥٢) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي دأب هؤلاء مثلَ دأب آل فرعون، وهو عملُهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون. ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

(٥٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما حل بهم. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بسبب أن الله. ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنقمة. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ، كتغيير قريش حالهم في صلة الرحم والكفِّ عن تعرض الآيات والرسل بمعاداة الرسول عليه الصلاة والسلام ومَنْ تبعه منهم والسعيِ في إراقة دمائهم والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد المبعث، وليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ما هو المفهوم له وهو جري عادته تعالى على تغييره متى يغيروا حالهم. وأصل يك يكون فحذفت الحركة للجزم ثم الواو لالتقاء

(١) وما فيه من معنى البصر للإشعار بكونهما في الغاية القاصية من الهول والفظاعة (س٤/٢٧).

الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

(٥٤) ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وبيان ما أُخِذَ به آلُ فرعون. وقيل الأول لتشبيه الكفر والأخذ به والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم. ﴿وَكُلٌّ﴾ من الفرق المكذبة، أو من غرقى القبْط وقتلى قريش. ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

(٥٥) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يتوقع منهم إيمان، ولعله إخبار عن قوم مطبوعين على الكفر بأنهم لا يؤمنون، والفاء للعطف والتنبيهِ على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، وقوله:

(٥٦) ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ بدل من الذين كفروا بدلَ البعض للبيان والتخصيص، وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا: نسينا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم. ومِنْ لتضمين المعاهدة معنى الأخذ، والمراد بالمرة مرة المعاهدة أو المحاربة[1]. ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ سُبَّة الغدر ومغبته، أو لا يتقون الله فيه، أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

(٥٧) ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ فإما تصادفنهم وتظفرن بهم، ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾ ففرق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكاية فيهم ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ مَنْ وراءهم من الكفرة. والتشريد تفريق على اضطراب. وقرىء فشرذ بالذال المعجمة وكأنه مقلوب شذر، ومِنْ خلفِهم، والمعنى واحد فإنه إذا شرَّد مَنْ وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعل المشردين يتعظون.

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين. ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك. ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إِلَيْهِمْ عهدهم. ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ على عدل وطريق قصد في العداوة ولا تناجزهم الحرب فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في الخوف أو العلم بنقض العهد، وهو في موضع الحال من النابذ على

(١) قوله «ينقضون» بصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته في كل حال (س٤/ ٣٠).

الوجه الأول أي ثابتاً على طريق سوي أو منه أو من المنبوذ إليهم أو منهما على غيره، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ خطاب للنبي ﷺ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ مفعولاه وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص بالياء على أن الفاعل ضمير أحد أو مَنْ خلفهم، أو الذين كفروا والمفعول الأول أنفسهم فحذف للتكرار، أو على تقدير أن سبقوا وهو ضعيف لأن أنْ المصدرية كالموصول فلا تحذف أو على إيقاع الفعل على: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بالفتح على قراءة ابن عامر وأنّ لا صلةٌ وسبقوا حال بمعنى سابقين أي مُفْلتين، والأظهرُ أنه تعليل للنهي أي: لا تحسبنهم سبقوا فأفلتوا لأنهم لا يفوتون الله، أو لا يجدون طالبَهم عاجزاً عن إدراكهم، وكذا إن كسرتَ إنَّ إلا أنه تعليل على سبيل الاستئناف. ولعل الآية إزاحة لما يحذر به من نبذ العهد وإيقاظ العدو، وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضي العهد أو الكفار. ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب. وعن عقبة بن عامر[١] سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر: «ألا إن القوة الرميُ» قالها ثلاثاً[٢]. ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لأنه أقواه. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ اسمٌ للخيل التي تُربط في سبيل الله، فِعَال بمعنى مفعول، أو مصدر سمي به يقال ربط رِبْطاً ورِباطاً ورابَطَ مرابطة ورباطاً، أو جمع ربيط كفصيل وفِصَال. وقرىء رُبُطِ الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعَطْفِها على القوة كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة. ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ تخوفون به، وعن يعقوب تُرَهِّبون بالتشديد، والضمير لما استطعتم أو للإعداد. ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني كفار مكة. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة. قيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفُرس. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم. ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يعرفهم[٣]. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب[٤].

---

(١) عقبة بن عامر: هو عقبة بن عامر بن نابي. الأنصاري السلمي بدري شهد العقبة الأولى وقتل باليمامة.
ـ تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٨٤ رقم ٤١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٢٢ رقم ١٦٧/ ١٩١٧) عنه.

(٣) فسر البيضاوي علم الله تعالى بالمعرفة، وهذا غير صحيح لأن المعرفة مكتسبة. قال الراغب الأصفهاني. (ويقال الله يعلم كذا، ولا يقال يعرف كذا) المفردات مادة «عرف».

(٤) والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجِبَة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى (س٤/ ٣٢).

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤ ﴾

(٦١) ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ ﴾ مالوا ومنه الجُناح. وقد يعدّىٰ باللام وإلى. ﴿ لِلسَّلۡمِ ﴾ للصلح أو الاستسلام. وقرأ أبو بكر بالكسر. ﴿ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾ وعاهد معهم، وتأنيث الضمير لحمل السلم على نقيضها فيه. قال:

السِّلْمُ تَـأْخُـذُ مِنْهَـا مَـا رَضِيـتَ بِـهِ والحَـرْبُ يَكْفِيـكَ مِـنْ أَنْفَـاسِهَـا جَـرَعُ

وقرىء فاجنُح بالضم. ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ ولا تَخَفْ من إبطانهم خداعاً فيه، فإن الله يعصمك من مكرهم ويحيقه بهم. ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم. ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ بنياتهم. والآية مخصوصة بأهل الكتاب لاتصالها بقصتهم وقيل عامة نسختها آية السيف.

(٦٢) ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ ﴾ فإن مُحسِبك الله وكافيك قال جرير:

إنِّـي وَجَـدْتُ مِـنَ المَكَـارِمِ حَسْبَكُـم أَنْ تَلْبِسُـوا حـرَّ الثِّيَـابِ وَتَشْبَعُـوا

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ جميعاً.

(٦٣) ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ ﴾(1) مع ما فيهم من العصبية والضغينة في أدنى شيء والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته ﷺ، وبيانُه: ﴿ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ ﴾ أي تناهى عداوتهم إلى حد لو أنفق منفقٌ في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ بقدرته البالغة، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء. ﴿ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ ﴾ تام القدرة والغلبة لا يَعْصى عليه ما يريده. ﴿ حَكِيمٞ ﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده، وقيل الآية في الأوس والخزرج كان بينهم محن لا أمد لها ووقائعُ هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافوْا وصاروا أنصاراً.

(٦٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ كافيك. ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ إما في محل النصب على المفعول معه كقوله:

إِذَا كَـانَـتِ الهَيْجَـاءِ وَاشْتَجَـرَ القَنَـا فَحَسْبُـكَ وَالضَّحَّـاكُ سَيْـفٌ مُهَنَّـدِ

أو الجرِ عطفاً على المكني عند الكوفيين، أو الرفع عطفاً على اسم الله تعالى أي كفاك الله والمؤمنون. والآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر، وقيل أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست

(1) وذكر القلوب للإشعار بأن التأليف بينها لا يتسنى وإن أمكن التأليف ظاهراً (س٤/ ٣٣).

نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عنه فنزلت(١). ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت في إسلامه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

(٦٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ بالغ في حثهم عليه، وأصلُه الحَرَض وهو أن ينهكه المرض حتى يَشفى على الموت. وقرىء حَرِّصْ من الحرص. ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شرطٌ في معنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة والوعدِ بأنهم إنْ صبروا غَلَبوا بعون الله وتأييده. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر تَكُنْ بالتاء في الآيتين ووافقهم البصريان في وإنْ تكُن منكم مائة. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر لا يثبتون ثبات المؤمنين رجاءَ الثواب وعواليَ الدرجات قَتَلُوا أو قُتِلُوا ولا يستحقون من الله إلا الهوان والخذلان.

---

(١) ● أخرجه الواحدي في «الأسباب» (ص٢٣٨) والطبري في الكبير (١٢/٦٠ رقم ١٢٤٧٠) وأبو الشيخ وابن مردويه ـ كما في فتح القدير (٢/٣٢٤) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي. ثنا خلف بن خليفة عن أبي هاشم الرماني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، وأسلم عمر تمام الأربعين فأنزل الله عز وجل «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين».

وأورده الهيثمي في «المجتمع» (٧/٢٨) وقال: فيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذّاب.

● وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه كما في فتح القدير (٢/٣٢٤). عن سعيد بن جبير نحوه، وذكر أنهم ثلاث وثلاثون. وهو مرسل. صححه السيوطي في «لباب النقول» ص١٣٣.

وقال الشيخ عصام بن عبدالمحسن الحميدان في تخريج أسباب النزول للواحدي ص٢٣٨ عقب الحديث: ولا أراه يصح، لأسباب: ـ

١ ـ قول الحافظ ابن كثير «في هذا نظر لأن الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة، إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة» تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٤).

٢ ـ أن الثابت في السيرة أن عدد المؤمنين المهاجرين إلى أرض الحبشة ثلاث وثمانون رجلاً سوى النساء والأبناء ومن بقي بمكة (السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٦، ٢٩٤)) (السيرة النبوية لمحمود شاكر: ١٠١، ١٠٢) وإسلام عمر كان بعد ذلك فكيف يكون تمام الأربعين؟

٣ ـ أن معنى الآية يضعف هذا السبب، فالآية تأمر النبي ﷺ والذين آمنوا معه أن يكون الله وحده حسبهم، في حين أن معنى السبب يوحي بأن معنى الآية: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين مثل عمر. وهذا التفسير مستبعد جداً، لأن القرآن دائماً يقرر أن الاعتماد على الله وحده هو صلب التوحيد كما قال تعالى: «وإن يُريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله» [الأنفال: ٦٢] وغير ذلك، وقد صح عن الشعبي أنه فسرها بمثل ما قررنا (٦/ج١٠/٣٧) وغيره، فتح القدير (٢/ ٣٢٥) والله أعلم» هـ.

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

(٦٦) ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ لمّا أوجب على الواحد مقاومة العشرة والثباتَ لهم وثَقُل ذلك عليهم خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل كان فيهم قلة فأُمروا بذلك ثم لما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد والضعف ضعف البدن. وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فيها، وفيه لغتان الفتح وهو قراءة عاصم وحمزة والضم وهو قراءة الباقين[١]. ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون[٢].

(٦٧) ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ ﴾ وقرىء للنبي على العهد. ﴿ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ وقرأ البصريان بالتاء. ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يُكثِر القتل ويبالغ فيه حتى يُذِلّ الكفر ويُقِل حِزْبه ويعزّ الإسلامُ ويستولي أهلُه، مِنْ أثخنه المرض إذا أثقله وأصله الثخانة، وقرىء يُثَخِّن بالتشديد للمبالغة. ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ حطامَها بأخذكم الفداء. ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه. وقرىء بجرّ الآخرة على إضمار المضاف كقوله:

أكُلَّ امْـرِىءٍ تَحْسَبِيـنَ امْـرَأً وَنَـارٌ تُـوقَـدُ بِـاللَّيْـلِ نَـاراً

﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ يُغَلِّب أولياءه على أعدائه. ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها، كما أَمَرَ بالإثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخَيَّر بينه وبين المنّ لمّا تحولت الحالُ وصارت الغلبة للمؤمنين. روي أنه عليه الصلاة والسلام أُتيَ يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب، فاستشار فيهم، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: قومُك وأهلك استَبْقِهم لعل الله يتوب عليهم وخذْ منهم فدية تقوّي بها أصحابَك وقال عمر رضي الله تعالى عنه: اضرب أعناقَهم فإنهم أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء مكّني من فلان ـ لنَسيبٍ له ـ ومكنْ علياً وحمزة مِن أخويهما فنضرب أعناقهم، فلم يهوَ ذلك رسول الله ﷺ وقال: «إن الله لَيُلَيِّن قلوبَ رجال حتى تكون أَلْيَنَ من اللين، وإن الله ليشدِّد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مَثَلَكَ يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣] ومَثَلُك يا عمر مَثَلُ نوح قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى

---

(١) أي بفتح الضاد وضمها (الضَّعف، والضُّعف).

(٢) لم يتعرض هنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين ـ مع أن مدار الغلبة في الصورتين هو مجموع الأمرين ـ أي نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ـ وذلك اكتفاء بما ذكر في كل مقام عما ترك في المقام الآخر.

وما تشعر به كلمة «مع» من متبوعية مدخولها لأصالتهم من حيث إنهم المباشرون للصبر (س٤/ ٣٥).

(٣) إبراهيم: «٣٦».

﴿ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1] فخيّر أصحابَه فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله أخبرني فإن أجدُ بكاء بكيْت وإلا تباكيت فقال: «أبكِ على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة»[2]. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون، وأنه قد يكون خطأ ولكن لا يُقَرون عليه.

لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباتُه في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده أو أن لا يعذب أهلُ بدر أو قوماً بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحِل لهم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم. ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ»[3]. وذلك لأنه أيضاً أشار بالإثخان.

(٦٩) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم. وقيل أَمسَكوا عن الغنائم فنزلت. والفاء للتسبب، والسببُ محذوف تقديره: أبحت لكم الغنائم فكلوا. وبنحوه تشبث من زعم أن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة. ﴿حَلَٰلًا﴾ حال من المغنوم، أو صفة للمصدر أي أكلاً حلالاً. وفائدتُه إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على الأولين ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ أباح لكم ما أخذتم.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ وقرأ أبو عمرو من الأَسارىٰ. ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ

---

(١) نوح: «٢٦».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٣، ٣٨٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ٤٣) والترمذي (٤/ ٢١٣ رقم ١٧١٤) مختصراً مع الإشارة إلى القصة الطويلة، وأخرجه الترمذي أيضاً (٥/ ٢٧١ رقم ٣٠٨٤) والحاكم (٣/ ٢١ ـ ٢٢) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٣٨) من حديث عبدالله بن مسعود.
قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.
فالحديث ضعيف، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.
● وأخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٥ رقم ٥٨/ ١٧٦٣) في سياق أطول من ذلك لكنه من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ٤٨) لكن ليس فيه ذكر عمر بن الخطاب وفيه زيادة: لقوله: (أي سعد بن معاذ) يا نبي اللّه كان الإثخان أحب إليّ من استبقاء الرجال.
وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٧١ رقم ٨١). . «ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع بمعناه. وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه «لو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب».

﴿خَيْرًا﴾ إيماناً وإخلاصاً. ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء. روي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه كلفه رسول الله ﷺ أن يَفْدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بَقِيت؟! فقال: «أين الذهب الذي دفعتَه إلى أم الفضل وقتَ خروجك وقلتَ لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدثٌ فهو لكِ ولعبدالله وعبيدالله والفضل وقثم» فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي تعالى»، قال: فأشهد أنك صادق وأنْ لا إله إلا الله وأنك رسوله والله لم يَطَّلِع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل[1]، قال العباس فأبدلني الله خيراً من ذلك لي الآن عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعني الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ يعني الأسرى. ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض ما عاهدوك. ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعقل. ﴿مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فأمكنك منهم كما فعل يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فسيمكّنُكَ منهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(٧٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ هم المهاجرون هَجَروا أوطانهم حباً لله ولرسوله. ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فصرفوها في الكُراع[2] والسلاح وأنفقوها على المحاويج. ﴿وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمباشرة القتال[3]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار آووْا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نُسخ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[4] أو بالنصرة والمظاهرة. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي من توليهم في الميراث. وقرأ حمزة وِلاَيتهم ـ بالكسر ـ تشبيهاً لها بالعمل والصناعة كالكِتابة والإمارة كأنه بتوليه صاحبه يزاول عملاً. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٢٤) من حديث عائشة.
وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهني.
(٢) الكراع أي الخيل.
(٣) ولعل تقديم الأموال على الأنفس لما أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً وأتم دفعاً للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال (س٤/ ٣٧).
(٤) الأنفال: «٧٥».

فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين. ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ عهد، فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ في الميراث أو المؤازرة، وهو بمفهومه يدل على منع التوارث أو المؤازرة بينهم وبين المسلمين. ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولّي بعضكم لبعض حتى في التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار. ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحصل فتنة فيها عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر. ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ في الدين. وقرىء كَثِير.

(٧٤) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ لمّا قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بيّن أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه في الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لا تَبِعة له ولا منّة فيه، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتّسم بسمتهم فقال:

(٧٥) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ في التوارث من الأجانب. ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ في حكمه، أو في اللوح أو في القرآن. واستدل به على توريث ذوي الأرحام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ من الموارث والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولاً واعتبار القرابة ثانياً. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطي حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرشُ وحَمَلَتُه يستغفرون له أيام حياته»(١).

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره كما في الفتح السماوي ص٦٦٢ وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٠). فهو حديث موضوع.

سورة التوبة
ترتيبها ٩
آياتها ١٢٩

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ
ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ
غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

سورة التوبة مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة
وقيل إلا آيتين من قوله ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾[1]

وهي آخر ما نزل. ولها أسماء أخر: التوبة والمقشقِشَة والبَحُوث والمبعثِرة والمنقِّرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكِّلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقشة من النفاق وهي التبري منه، والبحث عن حال المنافقين وإثارتها، والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم.

. وآيها مائة وثلاثون وقيل تسع وعشرون. وإنما تُركت التسمية فيها لأنها نزلت لرفع الأمان وبسم الله أمان، وقيل كان النبي ﷺ إذا نزلت عليه سورة أو آية بيَّن موضعَها وتوفِّي ولم يبين موضعها، وكانت قصتُها تُشابه قصة الأنفال وتناسبها لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذُها فضمت إليها[2]، وقيل لما اختلفت الصحابة في أنهما سورة واحدة هي سابعة السبع الطوال أو سورتان تُركت بينهما فرجة ولم تكتب بسم الله.

(١) ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي هذه براءة، ومِنْ ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره واصلةٌ من الله ورسوله، ويجوز أن تكون براءة مبتدأ لتخصصها بصفتها والخبرُ: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وقرىء بنصبها على اسمعوا براءةً، والمعنى: أن الله ورسوله برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

---

(١) التوبة: ١٢٨.
(٢) أخرجه أبو داود (٧٦٨) والترمذي (٣٠٨٦) وأحمد (١/ ٥٧٥) والحاكم (٢/ ٢٢١، ٢٣٠) وقال صحيح ووافقه الذهبي.

وإنما عُلِّقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم وإن كانت صادرة بإذن الله تعالى واتفاقِ الرسول فإنهما برئا منها، وذلك أنهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا إلا أناساً منهم بنو ضَمُرة وبنو كنانة فأمرهم بنبذ العهد إلى الناكثين وأمهل المشركين أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا فقال:

(٢) ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم لأنها نزلت في شوال. وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر، لما روي أنها لما نزلت أرسل رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه راكب العضباء[(١)] ليقرأها على أهل الموسم، وكان قد بعث أبا بكر رضي الله تعالى عنه أميراً على الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل مني» فلما دنا علي رضي الله تعالى عنه سمع أبو بكر الرُّغاء[(٢)] فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال مأمور، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله تعالى عنه وحدثهم عن مناسكهم، وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أُمرتُ بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده[(٣)]. ولعل قوله ﷺ لا يؤدي عني إلا رجل مني ليس على العموم، فإنه ﷺ بعث لأن يؤدي عنه كثير لم يكونوا من عِتْرته، بل هو مخصوص بالعهود فإن عادة العرب أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها، ويدل عليه أنه في بعض الروايات «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي»[(٤)]. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإنْ أمهلَكُم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

(٣) ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إعلام، فعَال بمعنى الإفعال كالأمان والعطاء، ورفعُه كرفع براءة على الوجهين. ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم العيد لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجَمَرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[(٥)] وقيل يوم عرفة لقوله ﷺ: «الحج عرفة»[(٦)]. ووصْفُ الحج بالأكبر لأن العمرة تسمّى

---

(١) أصل العضب القطع، والعضباء هي ناقة رسول الله ﷺ، وسميت بذلك لنجابتها لا لشق أذنها (المصباح المنير مادة عضب).

(٢) الرُّغَاء: صوت البعير.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٤٧٦ رقم ٣٦٧) و(٣/ ٤٨٣ رقم ١٦٢٢) و(٦/ ٢٧٩ رقم ٣١٧٧) و(٨/ ٨٢ رقم ٤٣٦٣) و(٨/ ٣١٧ رقم ٤٦٥٥ ورقم ٤٦٥٦) و(٨/ ٣٢٠ رقم ٤٦٥٧). ومسلم (٢/ ٩٨٢ رقم ٤٣٥/ ١٣٤٧) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٩٠) وهو حديث حسن أو صحيح. انظر الفتح السماوي ص٦٦٦.

(٥) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٨٣ رقم ١٩٤٥) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣١) وابن ماجة (٢/ ١٠١٦ رقم ٣٠٥٨). من حديث ابن عمر. وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجَه.

(٦) أخرج أحمد في المسند (٤/ ٣٠٩، ٣٣٥) وأبو داود (٢/ ٤٨٥ رقم ١٩٤٩) والترمذي (٣/ ٢٣٧ رقم ٨٨٩) والنسائي (٥/ ٢٥٦) وابن ماجة (٢/ ١٠٠٣ رقم ٣٠١٥) وابن حبان (ص٢٤٩ رقم ١٠٠٩) والحاكم في المستدرك =

الحج الأصغر، أو لأن المراد بالحج ما يقع في ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبر من باقي الأعمال، أو لأن ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون ووافق عيدُه أعياد أهل الكتاب، أو لأنه ظهر فيه عزُّ المسلمين وذلُّ المشركين. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي بأن الله. ﴿بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي من عهودهم. ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ عطف على المستكنّ في بريء، أو على محل إن واسمها في قراءة مَنْ كسرها إجراءً للأذان مجرىٰ القول، وقرىء بالنصب عطفاً على اسم إنّ أو لأن الواو بمعنى مع ولا تكرير فيه، فإن قوله براءة من الله إخبار بثبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بذلك ولذلك علَّقه بالناس ولم يخصّه بالمعاهدين. ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر. ﴿فَهُوَ﴾ فالتوب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة أو ثبتم على التولي عن الإسلام والوفاء. ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً في الدنيا. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

(٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من المشركين، أو استدراك فكأنه قيل لهم بعد أن أُمروا بنبذ العهد إلى الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم. ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط العهد ولم ينكثوه أو لم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط[1]. ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى تمام مدتهم ولا تُجروهم مجرىٰ الناكثين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

(٥) ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ انقضىٰ، وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لابَسه مِنْ سَلْخِ الشاة. ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها، وقيل هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وهذا مخل بالنظم مخالف للإجماع فإنه يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم إذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها. ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين. ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من حل أو حَرَم. ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم، والأخيذُ الأسيرُ. ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ واحبسوهم أو حِيلُوا بينهم وبين المسجد الحرام. ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾

= (٤٦٤/١) والدارقطني في السنن (٢٤٠/٢ رقم ١٩) وابن الجارود في المنتقى (ص١٨٩ رقم ٤٦٨) والدارمي (٥٩/٢) والطيالسي في منحة المعبود (٢٢٠/١ رقم ١٠٥٦) والبيهقي (١١٦/٥) والبغوي في شرح السنة (٢٩٠/٧ رقم ٢٠٠١). من حديث عبدالرحمن بن يعمر. وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في الإرواء (رقم ١٠٦٤).

(١) كلمة «ثم» للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة (س٤٢/٤).

كل ممر لئلا يتبسطوا في البلاد، وانتصابُه على الظرف. ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الشرك بالإيمان. ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم. ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ فدعُوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يُخلىٰ سبيله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للأمر أي فخلوهم لأن الله غفور رحيم غفر لهم ما قد سلف ووَعَد لهم الثواب بالتوبة.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ
عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم. ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك. ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمِّنه. ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر(١). ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ﴾ موضع أمنه إن لم يسلم، وأحدٌ رُفع بفعل يفسره ما بعده لا بالابتداء لأن إنْ من عوامل الفعل. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمن أو الأمر. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وَغرة صدورهم، أو لأن يفي الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه. وخبرُ يكون كيف وقُدِّم للاستفهام، أو للمشركين، أو عند الله، وهو على الأولين صفة للعهد أو ظرف له أو ليكون، وكيف على الأخيرين حال من العهد، وللمشركين إن لم يكن خبراً فتبيين(٢). ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ﴾ هم المستثنون قبل. ومحله النصب على الاستثناء، أو الجرُّ على البدل، أو الرفع على أن الاستثناء منقطع أي: ولكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام(٣). ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ﴾ أي فتربصوا أمرهم فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء وهو كقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْۚ﴾(٤) غير أنه مطلق وهذا مقيد، وما تحتمل الشرطية والمصدرية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ سبق بيانه.

(٨) ﴿كَيْفَ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاءِ حكمه مع التنبيه على العلة. وحذف الفعل للعلم به كما في قوله:

وخَبَّـرتُمـانِـي أنَّمَـا المَـوْتُ بِـالقُـرَى فكَيْـفَ وَهَـاتَـا هَضْبَـةٌ وَقَلِيـبُ

(١) والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل الفصاحة (س٤/ ٤٤).
(٢) وتكرير كلمة «عند» للإيذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة (س٤/ ٤٥).
(٣) والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والإشعار بسبب توكيدها (س٤/ ٤٥).
(٤) التوبة: «٤».

أي فكيف مات[١]. ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي وحالهم أنهم إن يظفروا بكم. ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ لا يراعوا فيكم. ﴿إِلًّا﴾ حلفاً وقيل قرابة قال حسان:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ … كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ

وقيل ربوبية، ولعله اشتق للحِلف من الإلّ وهو الجؤار لأنهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، ثم استعير للقرابة لأنها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثم للربوبية والتربية. وقيل اشتقاقه من ألَلَ الشيءَ إذا حدده أو من ألّ البرقُ إذا لمع. وقيل إنه عبري بمعنى الإله لأنه قرىء ايلا كجبرئل وجبرئيل. ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله. ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ استئناف لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر. ولا يجوز جعله حالاً من فاعل لا يرقُبوا، فإنهم بعد ظهورهم لا يرضوْن، ولأن المراد إثباتُ إرضائهم المؤمنين بوعد الإيمان والطاعةِ والوفاء بالعهد في الحال واستبطانِ الكفر والمعاداة بحيث إن ظفروا لم يبقوا عليهم والحالية تنافيه[٢]. ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ما تتفوه به أفواههم. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون لا عقيدة تَزَعُهم ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التفادي عن الغدر والتعفف عما يجرّ إلى أحدوثة السوء.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

(٩) ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً وهو اتباع الأهواء والشهوات. ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ دينه الموصل إليه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار. والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أداهم إلى الصد. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عملهم هذا أو ما دل عليه قوله:

(١٠) ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لا تكرير. وقيل الأول عام في الناقضين، وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ في الشرارة.

(١١) ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الكفر. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهم إخوانكم في

---

(١) قال أبو السعود: (وحذف الفعل المستنكَر للإيذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود ما يوجب استنكاره، لا لمجرد كونه معلوماً) س٤/٤٦.

(٢) ونسبة الإرضاء إلى الأفواه للإيذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم (س٤/٤٦). =

الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين.

وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وإن نكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان أو الوفاء بالعهود. ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام. ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاء بالقتل. وقيل المراد بالأئمة رؤساء المشركين، فالتخصيص إما لأن قتلهم أهمّ وهم أحق به أو للمنع من مراقبتهم. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وروح عن يعقوب أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل، والتصريح بالياء لحن[١]. ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا أيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام فقد نكث عهده، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر ليست يميناً، وهو ضعيف لأن المراد نفي الوثوق عليها لا أنها ليست بأيمان لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾. وقرأ ابنُ عامر لا إيمان لهم بمعنى لا أمان أو لا إسلام، وتشبث به من لم يقبل توبة المرتد وهو ضعيف لجواز أن يكون بمعنى لا يؤمنون على الإخبار عن قوم معينين أو ليس لهم إيمان فيراقَبوا لأجله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بقاتِلوا، أي ليكن غرضكم في المقاتلة أن ينتهوا عما هم عليه لا إيصالُ الأذية بهم كما هو طريقة المؤذِين.

(١٣) ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا﴾ تحريض على القتال، لأن الهمزة دخلت على النفي للإنكار فأفادت المبالغة في الفعل. ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ التي حلفوها مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاوَنوا بني بكر على خزاعة[٢]. ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ حين تشاوروا في

(١) القراءات في «أئمة» عند القراء السبعة هي أن بعضهم قرأ بهمزتين محققتين كما هو أصل قراءتها في العربية المشهورة. وقرأ قوم بتسهيل الهمزة الثانية بَيْنَ بيْن أي بين مخرج الهمزة والياء والألف، ولعلها الأصل عند البيضاوي. وقرأ قوم بإبدال الهمزة الثانية ياء صريحة، وقد أنكر الزمخشري هذه القراءة الأخيرة فقال: (وأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحِنٌ محرف) الكشاف (٢/ ١٤٢) والبيضاوي تبع الزمخشري في ذلك حيث قال: (والتصريح بالياء لحن)... إلا أن هذه القراءة صحيحة وقد قرأ بها رأس القراء والنحاة، لذلك رد أبو حيان على الزمخشري فقال: (وذلك دأبه في تلحين المقرئين، وكيف يكون ذلك لحناً وقد قرأ به رأس البصريين والنحاة أبو عمرو بن العلاء وقارىء مكة ابنُ كثير وقارىء مدينة الرسول ﷺ نافع) البحر المحيط (٥/ ١٥).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» بدون سند (٤/ ١٨). وانظر القصة وتخريجها قريباً.

أمره بدار الندوة على ما مر ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[(١)]. وقيل[(٢)] هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا بإخراجه من المدينة. ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالمعاداة والمقاتلة لأنه عليه الصلاة والسلام بدأهم بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به. فعدَلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلةِ، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم. ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فقاتلوا أعداءكم ولا تتركوا أمره. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن قضية الإيمان أن لا يُخشىٰ إلا منه..

(١٤) ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ أمر بالقتال بعد بيان موجِبه والتوبيخ على تركه والتوعيد عليه. ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وعد لهم ـ إن قاتلوهم ـ بالنصر عليهم والتمكن من قتلهم وإذلالهم. ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني بني خزاعة. وقيل بطوناً من اليمن وسبأ قدِموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذًى شديداً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم وقد أوفى الله بما وعدهم. والآيةُ من المعجزات. ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ابتداء إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره وقد كان ذلك أيضاً. وقرىء ويتوبَ بالنصب على إضمار أنْ على أنه من جملة ما أجيب به الأمر، فإن القتال كما تسبب لتعذيب قوم تسبب لتوبة قوم آخرين. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان وما سيكون. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة.

(١٦) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، وقيل للمنافقين. وأمْ منقطعة، ومعنىٰ الهمزة فيها التوبيخ على الحسبان. ﴿أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ ولم يتبين الخلّص منكم وهم الذين جاهدوا من غيرهم، نفىٰ العلم وأراد نفي المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث إنّ تعلق العلم به مستلزِم لوقوعه. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ﴾ عطف على جاهدوا داخلٌ في الصلة. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانة يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. وما في «لمّا» من معنى التوقع منبّه على أن تبين ذلك متوقع. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم غرضكم منه وهو كالمزيح لما يُتوهم من ظاهر قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾[(٣)].

---

(١) الأنفال: «٣٠».

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/٦١) من قول الجبائي.

(٣) وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقاً للعلم =

(١٧) ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ما صح لهم. ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام. وقيل هو المراد، وإنما جُمِع لأنه قبلة المساجد وإمامُها فعامرُه كعامر الجميع، ويدل عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بالتوحيد[١]. ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، وهو حال من الواو والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارةِ بيت الله وعبادةِ غيره. روي أنه لما أُسر العباس عيّره المسلمون بالشرك وقطيعةِ الرحم وأغلظَ له عليٌّ رضي الله تعالى عنه في القول فقال: ما بالُكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا إنا لنعمُر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني. فنزلت[٢]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك. ﴿ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لأجله.

(١٨) ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي إنما تستقيم عَمَارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، ومن عمارتها تزيينُها بالفَرْش وتنويرها بالسُّرج وإدامةُ العبادة والذكر ودروس العلم فيها وصيانتُها مما لم تُبنَ له كحديث الدنيا[٣]، وعن النبي ﷺ:

= ومداراً للثواب.

وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين (س٤/٤٩).

(١) أي (مسجد الله).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦ج١٠/ ٩٥) وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر» (٤/ ١٤٥) ـ عن ابن عباس بسند ضعيف.

وأخرجه ابن جرير (٦/ج١٠/ ٩٦) وأبو الشيخ ـ كما في «الدر» (٤/ ١٤٦) ـ عن الضحاك.

● وأخرج مسلم (٣/ ١٤٩٩ رقم ١١١/ ١٨٧٩) وابن جرير (٦/ج١٠/ ٩٥) وأحمد (٤/ ٢٦٩) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦٦ رقم ٤٢٣).

عن النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ، فقالَ رجلٌ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعدَ الإسلام، إلاَّ أنْ أُسقِيَ الحاجَّ. وقال آخرُ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعد الإسلام. إلاَّ أنْ أعمُرَ المسجدَ الحرامَ. وقال آخرُ: الجهادُ في سبيل اللهِ أفضلُ مما قلتُم. فزجرهُم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتَكُم عند منبر رسولِ الله ﷺ. وهو يومُ الجمعةِ. ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيتُهُ فيما اختلفتم فيه. فأنزل اللهُ عز وجلَّ: أجعلتم سقايةَ الحاجَ وعمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ» الآية إلى آخرها.

● وأخرجه ابن جرير (٦/ج١٠/ ٩٥ ـ ٩٦) من وجه آخر عن النعمان به، وإسناده صحيح.

(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي (٤/ ٥٦١ رقم ٢٣٢٢) وقال حديث حسن غريب، وابن ماجة (٢/ ١٣٧٧ رقم ٤١١٢) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنَّ الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاهُ وعالمٌ أو متعلمٌ».

● وأخرجه البغوي في شرح السنة (١٤/ ٢٢٩ رقم ٤٠٢٨) عن عبدالله بن ضَمْرَة.

● وأخرجه أبو داود في «المراسيل» (رقم: ٥٠٢) وأحمد في الزهد (رقم: ١٥٤) عن محمد بن المنكدر، ورجاله ثقات رجال الشيخين.

● وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥٧) و(٧/ ٩٠) والبيهقي في الزهد (رقم: ٢٤٦) من حديث جابر بن عبدالله.

وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٣/ ٥٤٩ رقم ٤٢٨٠ ـ مع الفيض) وعزاه لأبي نعيم والضياء في المختارة، عن جابر. ورمز لصحته، وقال المناوي: رمز المصنف لحسنه. =

«قال الله تعالى إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبىٰ لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المَزُور أن يكرم زائره»[(١)]. وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لما عُلِم أن الإيمان بالله قرينُه وتمامُه الإيمانُ به، ولدلالة قوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة عليه. ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي في أبواب الدين فإن الخشية عن المحاذير جِبِلّية لا يكاد العاقل يتمالك عنها. ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم؟ ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها.

۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

(١٩) ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ السقاية والعمارة مصدر أسقىٰ وعَمَر فلا يُشبّهان بالجثث بل لا بد من إضمار تقديرُه أجعلتم أهل سقاية الحاج

= ● وأخرجه الطبراني ـ كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٥) ـ من حديث أبي الدرداء. وقال الهيثمي «فيه خداش بن المهاجر ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

● وأخرجه البزار في المسند (٤/ ١٠٨ رقم ٣٣١٠ ـ كشف) من حديث عبدالله بن مسعود وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦٤) وقال: رواه البزار، وفيه المغيرة بن مطرف ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا».

● وأخرجه ابن عبدالبر في «الجامع» (١/ ٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري.

والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٧٣ رقم ٩٦): لم أجده هكذا. وفي الطبراني ـ المعجم الكبير (٦/ ٢٥٣ رقم ٦١٣٩) و(٦/ ٢٥٥ رقم ٦١٤٥)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣١) وقال: أحد أسانيد رجاله رجال الصحيح، قلت: يعني رقم (٦١٤٥) ـ عن سلمان عن النبي ﷺ: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر لله، وحق على المزور أن يكرم زائره».

وروى عبدالرزاق [في المصنف (١١/ ٢٩٦ رقم ٢٠٥٨٤)] ـ ومن طريقه الطبري عن معمر عن ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون، قال «وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ـ وإن بيوت الله في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها».

ومن هذا الوجه أخرجه عبدالله بن المبارك في الزهد ـ (ص٢ رقم٦) ـ» هـ.

● وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢١٣) عن أبي سعيد الخدري بلفظ «يقول الله يوم القيامة أين جيراني؟ فتقول الملائكة، ومن ينبغي أن يكون جيرانك؟ فيقول: عمار مسجدي». وقال: غريب من حديث أبي الهيثم سليمان بن عمرو العتواري، لا أعلم رواه له راوياً إلاّ «دراجاً».

قلت: ـ وفيه مع ضعف دراج، بقية، وابن لهيعة.

وقال الحافظ العراقي في تخريج إحياء علوم الدين (١/ ١٥٢) سنده ضعيف. ثم قال بعد أن أورد الحديث «وهو في الشعب نحوه موقوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ بإسناد صحيح. وأسند ابن حبان في الضعفاء ـ (٢/ ٨٩ ـ ٩٠) ـ آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه» هـ.

كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن. ويؤيد الأول قراءة من قرأ سُقاة الحاج وعَمَرَة المسجد والمعنى إنكار أن يشبه المشركون وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وبيّن عدم تساويهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكَفَرَةُ ظَلَمَةٌ بالشرك ومعاداةِ الرسول عليه الصلاة والسلام منهمكون في الضلالة فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب؟! وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين[١].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالثواب ونيل الحسنىٰ عند الله دونكم.

(٢١) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم، وقرأ حمزة يَبْشُرهم بالتخفيف، وتنكيرُ المبشر به إشعارٌ بأنه وراء التعيين والتعريف.

(٢٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأبيد لأنه قد يستعمل للمكث الطويل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه ما استوجبوه لأجله، أو نعيم الدنيا.

(٢٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلت في المهاجرين فإنهم لما أُمروا بالهجرة قالوا: إنْ هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجاراتنا وبقينا ضائعين[٢]. وقيل نزلت نهياً عن موالاة التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة[٣]، والمعنى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ إن اختاروه وحرصوا عليه. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها[٤].

---

(١) وإسناد عدم الاستواء إلى الموصوفين لأن الأهم بيان تفاوتهم.
وتوجيهِ النفي ههنا والإنكار فيما سبق «أجعلتم سقاية..» إلى الاستواء والتشبيه ـ مع أن دعوىٰ المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين إنما هي الأفضلية دون التساوي والتشابه ـ للمبالغة في الرد عليهم، فإن نفي التساوي والتشابه نفي للأفضلية بالطريق الأولىٰ (س٤/ ٥٢).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٤ رقم ١٠١): أخرجه الثعلبي من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.
قلت: فيه ثلاث علل: التعليق، وضعف جويبر، والانقطاع بين الضحاك عن ابن عباس.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٤): ذكره الثعلبي أيضاً عن مقاتل، وسنده إليه في أول الكتاب.
قلت: مقاتل هالك.

(٤) قوله «ومن يتولهم» إفراد الضمير في الفعل لمراعاة لفظ الموصول، وللإيذان باستقلال كل واحد منهم في =

قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

(٢٤) ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقرباؤكم مأخوذ من العُشْرة. وقيل من العشرة فإن العشيرة جماعة ترجع إلى عِقْد كعِقد العشرة. وقرأ أبو بكر وعشيراتُكم وقرىء وعشائرُكم. ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها[1]. ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها. ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ الحب الاختياري دون الطبيعي، فإنه لا يدخل تحت التكليف في التحفظ عنه. ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ جواب ووعيد والأمر عقوبة عاجلة أو آجلة. وقيل فتح مكة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لا يرشدهم. وفي الآية تشديد عظيم وقَلّ من يتخلص منه.

(٢٥) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يعني مواطن الحرب وهي مواقفها. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وموطن يوم حنين، ويجوز أن يقدر في أيام مواطن، أو يفسر الموطن بالوقت كمَقْتل الحسين، ولا يمنع إبدال قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ منه أن يعطَفَ على موضع في مواطن فإنه لا يقتضي تشاركهما فيما أضيف إليه المعطوف حتى يقتضي كثرتهم وإعجابها إياهم في جمع المواطن. وحنينُ واد بين مكة والطائف، حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون ـ وكانوا اثني عشر ألفاً، العشرة الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا إليهم من الطُلقاء ـ هوازنَ وثقيفاً وكانوا أربعة آلاف، فلما التقوْا قال النبي ﷺ أو أبو بكر رضي الله تعالى عنه أو غيره من المسلمين: لن نُغلَب اليوم من قلّة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمين إعجابُهم واعتمادهم على كثرتهم فانهزموا حتى بلغ فَلُّهم مكة ويقي رسول الله ﷺ في مركزه ليس معه إلا عمه العباس آخذاً بلجامه وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته فقال للعباس ـ وكان صيتاً ـ صِحْ بالناس، فنادى: يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، فكرّوا عُنُقاً واحداً يقولون لبيك لبيك، ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال ﷺ هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفّاً من تراب فرماهم ثم قال: «انهزِموا ورب الكعبة» فانهزموا[2]. ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ أي الكثرة. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء أو من

= الاتصاف بالظلم، لا أن المراد تولي فرد واحد (س٤/ ٥٤).

(١) وصفت الأموال بذلك إيماء إلى عزتها عندهم لحصولها بكدّ اليمين (س٤/ ٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩ رقم ٧٦/ ١٧٧٥) وأحمد (١/ ٢٠٧) من حديث العباس ببعض يسير.
وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٢٣ ـ ١٢٤) عن الربيع.
قلت: فيه أبو جعفر الرازي ضعيف، وكذلك أحمد بن عبدالجبار العطاردي ضعيف.

أمر العدو. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها أي بسعتها لا تجدون فيها مفراً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ الكفار ظهوركم. ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ منهزمين والإدبار الذهاب إلى خلف خلاف الإقبال.

ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها وأمنوا. ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا[1]، وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حاليهما. وقيل[2] هم الذين ثبتوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفروا. ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم أي الملائكة وكانوا خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر على اختلاف الأقوال. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والسبي. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ منهم بالتوفيق للإسلام. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم. روي أن ناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّهم وقد سُبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالُنا ـ وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأُخِذ من الإبل والغنم ما لا يحصى ـ فقال ﷺ: «اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم» فقالوا ما كنا نَعْدِل بالأحْسَاب شيئاً، فقام رسول الله ﷺ وقال: «إن هؤلاء جاؤوا مسلمين، وإنّا خيّرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبْي وطابت نفسه أن يرده فشأنُه، ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه، فقالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضىٰ، فمُروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا» فرفعوا أنهم قد رضوا[3].

= ● وأخرج الحاكم في المستدرك (٣/٤٨) من حديث أنس قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة والمدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل، فلما اشتد القتال ولو مدبرين. . . الحديث.
قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح.
● وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه نحو حديث أنس ـ كما في الدر المنثور (٤/١٥٨).

(١) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن أبزى رضي الله عنه في قوله «وعذّب الذين كفروا» قال: بالهزيمة والقتل. وفي قوله «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء» قال: على الذين انهزموا عن النبي ﷺ يوم حنين ـ كما في «الدر» (٤/١٦٢) ـ.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/٧٥) عن الحسن.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٤ رقم ١٠٥): «ذكره الثعلبي بغير سند، وهذه القصة قد ذكرها ابن إسحاق في المغازي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله. وذكرها البخاري ـ في صحيحه =

(٢٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ لخبث باطنهم، أو لأنه يجب أن يجتنب عنهم كما يجتنب عن الأنجاس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يتجنبون عن النجاسات فهم ملابسون لها غالباً. وفيه دليل على أن ما الغالب نجاسته نجس. وعن ابن عباس[١] رضي الله تعالى عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب. وقرىء نِجْس بالسكون وكسر النون وهو ككِبْد في كَبِد، وأكثر ما جاء تابعاً لرجس. ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ لنجاستهم، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم. وقيل المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع. ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ يعني سَنَة براءة وهي التاسعة. وقيل سنة حجة الوداع. ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ فقراً بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان لكم من قدومهم من المكاسب والأرفاق. ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ من عطائه أو تفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً ووفق أهل تبالة وجرش فأسلموا وامتاروا لهم، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض. وقرىء عائِلةً، على أنها مصدر كالعافية أو حال. ﴿ إِن شَآءَ ﴾ قيده بالمشيئة لتنقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبه على أنه تعالى متفضل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم. ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يعطي ويمنع.

قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أي لا يؤمنون بهما على ما ينبغي، كما بيناه في أول البقرة[٢]، فإن إيمانهم كلا إيمان[٣]. ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة، وقيل رسولُه هو الذي يزعمون اتباعه، والمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً. ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها. ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ بيان للذين لا يؤمنون. ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ ما تقرر عليهم أن يعطوه، مشتق من جَزَىٰ

= (٨/ ٣٢ رقم ٤٣١٨ ـ ٤٣١٩) ـ من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان، ورواها الطبري وغيره من رواية زهير بن حرد، وفيه الشعر الذي أنشده زهير» هـ.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٨٦) عنه بدون سند.

(٢) البقرة: «٦».

(٣) والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك في سلك المشركين (س٤/ ٥٨). =

ديْنَه إذا قضاه. ﴿عَن يَدٍ﴾ حال من الضمير أي عن يد مؤاتية بمعنى منقادين، أو عن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه، أو عن غنًى ولذلك قيل: لا تؤخذ من الفقير، أو عن يد قاهرة عليهم بمعنى عاجزين أذلاء، أو من الجزية بمعنى نقداً مسلّمة عن يد إلى يد، أو عن إنعام عليهم فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أذلاء، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تؤخذ الجزية من الذمي وتوجأ عنقُه. ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية بأهل الكتاب، ويؤيده أن عمر رضي الله تعالى عنه لم يكن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ أخذها من مجوس هَجَر[(١)] وأنه قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»[(٢)] وذلك لأن لهم شبهة كتاب فأُلحقوا بالكتابيين، وأما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى تؤخذ منهم إلا مشركي العرب لما روىٰ الزهري[(٣)] أنه ﷺ صالح عَبَدة الأوثان إلا من كان من العرب[(٤)]، وعند مالك رحمه الله تعالى تؤخذ من كل كافر إلا المرتد. وأقلها في كل سنة دينار سواء فيه الغني والفقير، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى على الغني ثمانية وأربعون درهماً وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكَسُوب ربعها ولا شيء على الفقير غير الكَسوب.

(٣٠) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبقَ فيهم بعد وقعة بختنصر مَنْ يحفظ التوراة، وهو لمّا أحياه الله بعد مائة عام أملىٰ عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله. والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يُكذِّبوا مع تهالكهم على التكذيب. وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب عَزَيْرٌ بالتنوين، على أنه عربي مخبر عنه بابن غيرُ موصوف به، وحذفُه في القراءة الأخرى[(٥)] إما لمنع صرفه للعجمة والتعريف أو لالتقاء الساكنين تشبيهاً للنون بحروف اللين أو لأن الابن وصفٌ والخبرُ محذوف مثل معبودُنا أو صاحبنا وهو مزيف لأنه يؤدي إلى تسليم النسب وإنكار الخبر المقدر. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم. وإنما قالوه استحالةً لأن يكون وُلد بلا أب، أو لأن يَفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى مَنْ لم يكن إلهاً. ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجوز عنها، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيقٌ مماثِل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان. ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٥٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الزكاة باب جزية أهل الكتاب (٤٢) وإسناده صحيح.

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زُهرة بن كلاب بن مُرَّة، الإمام أبو بكر القُرشيّ الزهريّ المدني أحد الأعلام، من تابعي أهل المدينة من الطبقة الرابعة، كان حافظ زمانه، قال الليث بن سعد: قال ابن شِهاب: ما صبرَ أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري. ولد سنة خمسين، وطلب العلم في أواخر عصر الصحابة وله نيف وعشرون سنة. وقد توفي سنة (١٢٤هـ).
[تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٩٠ ـ ٩٢) ووفيات الأعيان (٤/ ١٧٧)].

(٤) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٣٥/ ١٠٣٨) عن معمر عن الزهري.

(٥) القراءة الأخرى «عزيرُ» بالضم من دون تنوين.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا، فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿مِن قَبْلُۚ﴾ أي من قبلهم والمراد قدماؤهم على معنى أن الكفر قديم فيهم، أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، أو اليهود على أن الضمير للنصارى. والمضاهاة المشابهةُ، والهمز لغة فيه، وقرأ به عاصم، ومنه قولهم امرأة ضهيء على فعيل للتي شابهت الرجال في أنها لا تحيض. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن مَنْ قاتله الله هلك، أو تعجب من شناعة قولهم. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله، أو بالسجود لهم[1]. ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله[2]. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي وما أمر المتخذون أو المتخذون أرباباً فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ﴾ ليطيعوا. ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾ وهو الله تعالىٰ وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة لله. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك.

(٣٢) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ﴾ يخمدوا. ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقدسه عن الولد، أو القرآن، أو نبوة محمد ﷺ. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بشركهم أو بتكذيبهم. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ أي لا يرضىٰ. ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام. وقيل إنه تمثيل لحالهم في طلبهم إبطال نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يطلب إطفاء نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده بنفخه، وإنما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجَب لأنه في معنى النفي[3]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ محذوف الجواب لدلالة

(١) الأحبار هم العلماء، والرهبان هم العُبّاد.
(٢) وتخصيص المسيح بالاتخاذ يشير إلى أن اليهود لم يفعلوا ذلك بعزير.. وتأخيره في الذكر ـ مع أن اتخاذهم له عليه السلام رباً معبوداً أقوىٰ من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم ـ لأنه مختص بالنصارىٰ. ونسبته عليه السلام إلى أمه ـ من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية ـ للإيذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بالجهل والحماقة (س٤/ ٦٠).
(٣) وفي إظهار النور في مقام الإضمار مضافاً إلى ضميره عز وجل زيادة اعتناءٍ بشأنه وتشريف له على تشريف =

ما قبله عليه.

(٣٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ كالبيان لقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ ولذلك كرر ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على أنهم ضَمّوا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله. والضميرُ في ليظهره للدين الحق، أو للرسول عليه الصلاة والسلام، واللام في الدين للجنس أي على سائر الأديان فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم.

(٣٤) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يأخذونها بالرُّشا في الأحكام. سمَّىٰ أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه. ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يراد به الكثير من الأحبار والرهبان فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص على المال والضنّ به، وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولا يؤدون حقه ويكون اقترانه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ، ويدل عليه أنه لما نزل كبُر على المسلمين فذكر عمرُ رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّب بها ما بقي من أموالكم»[١]، وقوله عليه الصلاة والسلام «ما أُدي زكاته فليس بكنز»[٢] أي بكنز أُوعد عليه، فإن الوعيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه، وأما قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كُوي بها»[٣] ونحوه فالمراد منها ما لم يُؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام

= وإشعار بعلة الحكم (س٤/ ٦١).

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أبو داود (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦ رقم ١٦٦٤). والحاكم في المستدرك (١/ ٤٠٩) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وأقره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٥) قال الألباني: غيلان بن جامع ليس من رجال البخاري، وإنما روى له مسلم وحده، ثم قال: وعلة هذا الحديث الانقطاع.
انظر كلامه المفيد حول الحديث في «الضعيفة» (٣/ ٤٨٤ ـ ٤٨٨ رقم ١٣١٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٣/ ٦٤) ـ وابن مردويه ـ كما في «الدر» (٤/ ١٧٧) ـ وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٦٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨٢ ـ ٨٣) كلهم بأسانيدهم عن سويد بن عبدالعزيز عن ابن عمر. وقال الهيثمي عنه: ضعيف. وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣٤٠): «لين الحديث».
● وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨٣) من طريق نافع وعبدالله بن دينار عنه موقوفاً. وقال: وهذا هو الصحيح.
والموقوف: أخرجه البخاري (٣/ ٢٧١، ٨/ ٣٢٤).
● وأخرج أبو داود (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣ رقم ١٥٦٤) عن أم سلمة قالت: كنتُ ألبس أوضاحاً من ذهب، فقلت يا رسول الله: أكنزٌ هو؟ فقال: «ما بلغ أن تؤدي زكاته فزُكيَ فليس بكنز».
قال المنذري في «المختصر» (٢/ ١٧٥): في إسناده عتَّاب بن بشر، أبو الحسن الحراني، وقد أخرج له البخاري، وتكلم في غير واحد.
وقال الألباني في «ضعيف أبي داود» (ص١٥٥ رقم ٣٣٩/ ١٥٦٤) حسن ـ المرفوع منه فقط.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٩) وأحمد في المسند (٥/ ١٦٨) عن أبي ذر وفيه: أبو مجيب مجهول. [تعجيل المنفعة: ص٥١٨]. =

فيما أورده الشيخان مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره»(١) ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو الكي بهما.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم توقد النار ذات حمىً شديد عليها. وأصله تحمى بالنار، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير، وإنما قال عليها والمذكور شيئان لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال علي رضي الله تعالى عنه: أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز(٢)، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾(٣). وقيل الضمير فيهما للكنوز أو للأموال، فإن الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول، أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم. ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ لأن جمعهم وإمساكهم إياه كان لطلب الوجاهة بالغنىٰ والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية، أو لأنهم ازوَرُّوا عن السائل وأعرضوا عنه وولوْه ظهورهم، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد، أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقاديم البدن ومآخيره وجنباه. ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ على إرادة القول. ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ لمنفعتها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها. ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي وبال كنزكم أو ما تكنزونه. وقرىء تَكْنُزُون بضم النون.

(٣٦) ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي مبلغ عددها. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ معمولُ عِدّة لأنها مصدر. ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ، أو في حكمه وهو صفة لاثني عشر، وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متعلق بما فيه من معنى الثبوت أو بالكتاب إن جعل مصدراً، والمعنى: أن هذا أمر ثابت

= وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١٦٨ رقم ٧٦٣٦) عن أبي أمامة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٢٥) وقال فيه: بقية وهو مدلس قلت: وقد عنعن.
فالخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٨٠ رقم ٢٤/ ٩٨٧) وأبو داود (٢/ ٣٠٢ رقم ١٦٥٨). وابن جرير (٦/ج١٠/ ١٢٠) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٤/ ١٠٩ رقم ٧١٥٠) والطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٨ ـ ١١٩) وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر» (٤/ ١٧٩) ـ. عن علي بإسناد صحيح.

(٣) التوبة: «٣٤».

في نفس الأمر مذ خلق الله الأجرام والأزمنة. ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ واحد فَرْد وهو رجب وثلاثة سَرْد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي تحريم الأشهر الأربعة هو الدين القويم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام والعربُ ورِثوه منهما. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرمها. والجمهور على أن حرمة المقاتلة فيها منسوخة، وأوّلوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهن فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحَرَم وحال الإحرام، وعن[1] عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم وفي الأشهر الحُرُم إلا أن يقاتَلوا ويؤيد الأول ما روي أنه عليه الصلاة والسلام حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين في شوال وذي القعدة[2]. ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ جميعاً، وهو مصدر كفّ عن الشيء، فإن الجميع مكفوف عن الزيادة، وقع موقع الحال. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ أي تأخير حُرْمة الشهر إلى شهر آخر، كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محارِبون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد، وعن نافع برواية وَرْش إنما النسيُّ بقلب الهمزة ياء وإدغام الياء فيها. وقرىء النَّسْيُ بحذفها والنَّسْءُ والنَّسَاءُ وثلاثتها مصادر نَسَأَه إذا أخّره. ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله فهو كفر آخر ضمّوه إلى كفرهم. ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضلالاً زائداً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص يُضَلُّ على البناء للمفعول، وعن يعقوب يَضِلُّ على أن الفعل لله تعالى. ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ يحلون المنسي من الأشهر الحرم سنة ويحرمون مكانه شهراً آخر. ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ فيتركونه على حُرمته. قيل: أول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني، كان يقوم على جمل في الموسم فينادِي: إن آلهتكم قد أَحَلَّت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادي في القبائل إن آلهتكم قد حرّمت عليكم المحرم فحرموه. والجملتان تفسير للضلال أو حال. ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأربعة المحرمة، واللام متعلقة بيحرمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بمواطأة العدة وحدها من غير مراعاة الوقت. ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ وقرىء على البناء للفاعل وهو الله تعالى، والمعنى خذلهم وأضلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء.

(٣٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم. وقرىء تَثَاقَلْتم

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/٤٥) بدون سند.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/٤٥) وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (١٠/٩٢) بدون سند.

على الأصل، وأثاقلتم؟ على الاستفهام للتوبيخ. ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به كأنه ضُمِّن معنى الإخلاد والميل فعُدِّي بإلىٰ، وكان ذلك في غزوة تبوك[1] أُمروا بها بعد رجوعهم من الطائف في وقت عَسْرة وقَيْظ مع بُعْد الشُّقة وكثرة العدوّ فشقّ عليهم. ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وغرورها. ﴿مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها. ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها. ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر[2].

إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(٣٩) ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ إن لا تنفروا إلى ما استُنْفِرتم إليه. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فظيع كقَحْط وظهور عدوّ. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل بكم آخرين مطيعين كأهل اليمن وأبناء فارس[3] ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ إذ لا يقدح تثاقُلُكم في نصر دينه شيئاً فإنه الغني عن كل شيء وفي كل أمر. وقيل الضمير للرسول ﷺ أي ولا تضروه فإن الله سبحانه وتعالىٰ وَعَدَ له بالعصمة والنصر ووَعْدُه حق. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد كما قال:

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله كما نصره. ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد، فحُذِف الجزاء وأقيم ما هو كالدليل عليه مقامه، أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره. وإسنادُ الإخراج إلى الكفرة لأن همَّهُم بإخراجه أو قتلِه تسبَّبَ لإذن الله له بالخروج. وقرىء ثانيْ اثنين بالسكون على لغة من يجري المنقوص مجرى المقصور في الإعراب، ونصبه على الحال. ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ بدل مِنْ إذ أخرجه بدلَ البعض، إذ المراد به زمان متسع. والغارُ نقب في أعلى ثَوْر، وهو جبل في يُمنىٰ مكة على مسيرة ساعة، مكَثَا فيه ثلاثاً. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان، أو ظرف لثاني.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٣٤) عن مجاهد.
وذكر الواحدي في «الأسباب» ص٢٤٦ ذلك بدون راوٍ ولا سند.

(٢) وفي ترشيح الحياة الدنيا مما يؤذن بنفاستها ويستدعي الرغبة فيها وتحرير الآخرة عن مثل ذلك مبالغةٌ في بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة (س٤/ ٦٥).

(٣) وإنما وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد في التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أي قوماً مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا. . (س٤/ ٦٥). =

﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه. ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بالعصمة والمعونة. روي أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ظنك باثنين اللهُ ثالثُهما؟»[1] فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروْه وقيل لمّا دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوتَ فنسجت عليه[2]. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أَمَنَتَهُ التي تسكن عندها القلوب. ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على صاحبه وهو الأظهر لأنه كان منزعجاً. ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ يعني الملائكة أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين، فتكون الجملة معطوفة على قوله «نَصَرَه الله». ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ يعني الشرك، أو دعوة الكفر. ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ يعني التوحيد، أو دعوة الإسلام، والمعنى وجعل ذلك بتخليص الرسول ﷺ عن أيدي الكفار إلى المدينة فإنه المبدأ له، أو بتأييده إياه بالملائكة في هذه المواطن، أو بحفظه ونصره له حيث حضر. وقرأ يعقوب وكلمةَ اللهِ بالنصب عطفاً على «كلمةَ الذين»، والرفعُ أبلغُ لما فيه من الإشعار بأن كلمة الله عالية في نفسها وإن فاق غيرها فلا ثبات لتفوقه ولا اعتبار، ولذلك وَسَّط الفصل. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره وتدبيره.

(٤١) ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾ لنشاطكم له. ﴿وَثِقَالٗا﴾ عنه لمشقته عليكم، أو لقلة عيالكم ولكثرتها، أو ركباناً ومشاة، أو خفافاً وثقالاً من السلاح، أو صحاحاً ومراضاً، ولذلك لما قال ابن أم مكتوم[3] لرسول الله ﷺ: أَعليّ أن أنفر؟ قال: «نعم». حتى نزل: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٧٦ رقم ١٢٠): لم أجده هكذا. وفي الصحيحين ـ [البخاري: (٨/ ٣٢٥ رقم ٤٦٦٣) ومسلم (٤/ ١٨٥٤ رقم ١/ ٢٣٨١)] ـ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال «نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار. فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال: يا أبا بكر ما ظنّك باثنينِ الله ثالثهما».

(٢) أخرجه البزار والطبراني عن أبي مصعب المكي قال أدركت زيد بن أرقم، والمغيرة ابن شعبة وأنس بن مالك يحدثون أن النبي ﷺ لما كان ليلة بات في الغار أمر الله تبارك وتعالى شجرة فنبتت في وجه الغار فسترت وجه النبي ﷺ وأمر الله تبارك وتعالى فنسجت على وجه الغار، وأمر الله تبارك وتعالى حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار وأتى المشركون من كل فج حتى كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم وتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين فرجع فقال لأصحابه ليس في الغار شيء... الحديث) ـ كما في «مجمع الزوائد» (٦/ ٥٢ ـ ٥٣) ـ وقال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم.

قلت: وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٤٣ رقم ١٠٨٢) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٢٢) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢/ ٤١٩ رقم ٢٢٩) وغيرهم.

وفيه أبو مصعب المكي مجهول. وعون بن عمرو القيس: منكر الحديث مجهول. انظر «الميزان» (٣/ ٣٠٦).

والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

فائدة: ـ قال الشيخ محمد درويش الحوت في «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب» ص٣٧٧: «فائدة: ما يذكر في السير من نبات شجرة عند فم الغار وقت هجرته ﷺ، وأنه فتح باب من ظهر الغار وظهر عنده نهر، وأن الحيّة لدغت أبا بكر في الغار باطل لا أصل له» هـ.

(٣) لم أقف عليه.

وأورده الحافظ في «الكافي الشافِ» ولم يخرجه رقم (١٢٣).

حَرَجٌ﴾[١]. ﴿وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تركه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير علمتم أنه خير، أو إن كنتم تعلمون أنه خير، إذ إخبار الله تعالى به صدق فبادروا إليه.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٢) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ أي لو كان ما دُعوا إليه نفعاً دنيوياً. ﴿قَرِيبًا﴾ سهل المأخذ. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطاً. ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك. ﴿وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تُقطَع بمشقة. وقرىء بكسر العين والشين[٢]. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين. ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ يقولون لو كان لنا استطاعة العِدّة أو البدن. وقرىء لوُ استطعنا بضم الواو تشبيهاً لها بواو الضمير في قوله: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾[٣]. ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ سادّ مسد جوابي القسم والشرط، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه. ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بإيقاعها في العذاب، وهو بدل من سيحلفون لأن الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك، أو حال من فاعله. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في ذاك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

(٤٣) ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن خطئه في الإذن، فإن العفو من روادفه. ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بيان لما كنّىٰ عنه بالعفو ومعاتبة عليه، والمعنى لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتلُّوا بأكاذيب وهلاّ توقفت؟ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في الاعتذار. ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فيه. قيل إنما فعل رسول الله ﷺ شيئين لم يؤمر بهما: أَخْذُه للفداء وإذنُه للمنافقين، فعاتبه الله عليهما.

(٤٤) ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا فإن الخلص منهم يبادرون إليه ولا يتوقفون على الإذن فيه فضلاً أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالتقوى وعِدَة لهم بثوابه[٤].

---

(١) النور: «٦١».

(٢) أي قرىء «بَعِدَت عليهم الشِّقَّة».

(٣) البقرة: «١٦».

(٤) تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول ـ الذي صلته فعل دال على الحدوث ـ وعن الفريق الثاني باسم الفاعل ـ المفيد للدوام ـ للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادثٌ في أمر خاص غير مصحح لنظمهم =

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في التخلف. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر في الموضعين للإشعار بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما. ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون[1].

۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

(٤٦) ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أُهبة. وقرىء عُدَّهُ بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

إنَّ الخَلِيطَ أَجَدُّوا البَيْنَ فَانجَرَدُوا وأَخلَفُوكَ عِدَا الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

وعِدَّةً بكسر العين بالإضافة وعِدَةً بغيرها. ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ استدراك عن مفهوم قوله: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ كأنه قال ما خرجوا ولكن تثبطوا لأنه تعالى كره انبعاثهم أي نهوضَهم للخروج. ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل. ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول عليه السلام لهم. والقاعدين يحتمل المعذورين وغيرهم، وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم.

(٤٧) ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً. ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشراً، ولا يستلزم ذلك أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء، ولأجل هذا التوهم جُعل الاستثناء منقطعاً، وليس كذلك لأنه لا يكون مفرغاً. ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة والتضريب، أو الهزيمة والتخذيل، مِنْ وَضَعَ البعير وضعاً إذا أسرع. ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم، والجملة حال من الضمير في أوضعوا. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ ضَعَفَة يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نمامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم[2].

= في سلك الصادقين وأن ما صدر من الآخرين وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشىء عن رسوخهم في الكذب.

والتعبير عما يتعلق بالكذب بالعلم لأن المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذبُ احتمال عقلي فظهور صدقه إنما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه. (س٤/ ٦٩).

(١) قوله «وارتابت قلوبهم» عبر عن ريبها بالماضي للدلالة على تحقق الريب وتقرره (س٤/ ٧٠).

(٢) ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والتشديد في الوعيد، والإشعار بترتبه على الظلم (س٤/ ٧١).

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ
كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ
قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٨) ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ﴾ تشتيت أمرك وتفريق أصحابك. ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني يوم أحد فإن ابن أبي وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ما خرجوا مع الرسول ﷺ إلىٰ ذي جدة أسفل من ثنيّة الوداع انصرفوا يوم أحد. ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ودبروا لك المكايد والحيل ودوروا الآراء في إبطال أمرك. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ بالنصر والتأييد الإلهي. ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وعلا دينه. ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي على رغم منهم. والآيتان لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكرِه انبعاثهم له وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة اعتذارهم تداركاً لما فوت الرسول ﷺ بالمبادرة إلى الإذن، ولذلك عوتب عليه.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ في القعود. ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ ولا توقعني في الفتنة أي في العصيان والمخالفة بأن لا تأذن لي، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف أُذِن له أم لم يأذن، أو في الفتنة بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدي. أو في الفتنة بِنساء الروم لما روي: أن جد بن قيس قال: قد عَلِمت الأنصارُ أني مولع بالنساء فلا تَفْتنّي ببنات الأصفر ولكني أعينك بمالي فاتركني[1]. ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ أي إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف أو ظهور النفاق لا ما احترزوا عنه[2]. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جامعة لهم يوم القيامة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها..

(٥٠) ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض غزواتك. ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة. ﴿تَسُؤْهُمْۖ﴾ لفرط حسدهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٤٨) من طريق ابن جريج عن ابن عباس لسند ضعيف ومنقطع.
● وأخرج الطبراني معناه في «المعجم الكبير» (١٢/١٢٢ رقم ١٢٦٥٤) من طريق الضحاك عن ابن عباس.
قلت: الضحاك لم يسمع من ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف». قلت: وفيه بشر بن عمارة ضعيف أيضاً.
● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ٦٣ رقم ١١٠٥٢) نحوه دون ذكر الاسم من طريق مجاهد عن ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠) وقال «رواه الطبراني وفيه أبو شيبة إبراهيم بن عثمان وهو ضعيف».
قلت: بل هو متروك [التقريب (١/ ٣٩ رقم ٢٤١)].

(٢) وتصدير الجملة بحرف التنبيه «ألا» مع تقديم الظرف إيذانٌ بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجىً من الفتنة زعماً منهم أن الفتنة إنما هي التخلف بغير إذن.
وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم في دركات الردىٰ أسفل سافلين (س٤/ ٧٢).

﴿وَإِن تُصِبۡكَ﴾ في بعضها. ﴿مُصِيبَةٞ﴾ كسر أو شدة كما أصاب يوم أحد. ﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ تبجحوا بانصرافهم واستحمدوا رأيهم في التخلف. ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم له، أو عن الرسول ﷺ. ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ مسرورون[١].

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ
مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن
يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ
كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ إلا ما اختصنا بإثباته وإيجابه من النصرة أو الشهادة، أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم. وقرىء هل يصيبُنا، وهل يُصَيِّنا وهو من فَيْعل لا من فعل لأنه من بنات الواو لقولهم صاب السهم يَصُوب، واشتقاقه من الصواب لأنه وقوع الشيء فيما قصد به، وقيل من الصوْب. ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكلوا على غيره[٢].

(٥٢) ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ تنتظرون بنا[٣]. ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ إلا إحدىٰ العاقبتين اللتين كل منهما حسنى العواقب: النصرة والشهادة. ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ﴾ أيضاً إحدى السوأيين ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ بقارعة من السماء. ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتل على الكفر. ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم.

(٥٣) ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ أمرٌ في معنى الخبر، أي لن يتقبل منكم نفقاتكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. وفائدته المبالغةُ في تساوي الإنفاقين في عدم القبول كأنهم أُمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم، وهو جواب قول جد بن قيس وأعينُك بمالي. ونفي التقبل يحتمل أمرين أن لا يؤخذ منهم وأن لا يثابوا عليه وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف وما بعده بيان وتقرير له.

(٥٤) ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرُهم. وقرأ حمزة والكسائي أن يُقْبَل بالياء لأن تأنيث النفقات غير حقيقي، وقرىء يَقْبَلَ على أن

---

(١) وإسناد المساءة إلى الحسنة والمسرة إلى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وإن تصبك مصيبة تسررهم للإيذان باختلاف حاليهم حالتي عروض المساءة والمسرة بأنهم في الأولىٰ مضطرون وفي الثانية مختارون (س٤/٧٣).

(٢) قوله «وعلى الله» أظهر الاسم الجليل في مقام الإضمار لإظهار التبرك والتلذذ به (س٤/٧٣).

(٣) والتربص هو التمكث مع انتظار مجيء شيء خيراً كان أو شراً.

الفعل لله. ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين. ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ
وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ
يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ
فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْۚ﴾ فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة فيكون ذلك استدراجاً لهم. وأصل الزهوق الخروج بصعوبة.

(٥٦) ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ إنهم لمن جملة المسلمين. ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم. ﴿وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيُظهرون الإسلام تَقِيَّة.

(٥٧) ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حصناً يلجؤون[1] إليه ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ غيراناً. ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ نفقاً ينجحرون فيه مفتعل من الدخول. وقرأ يعقوب مَدْخَلاً من دخل، وقرىء مُدْخَلاً أي مكاناً يُدخِلون فيه أنفسهم، ومُتَدَخَّلاً ومُنْدَخَلاً من تدخل واندخل ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه. ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح. وقرىء يَجْمَزُون ومنه الجُمَازة[2].

(٥٨) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يُعيبك. وقرأ يعقوب يُلْمِزُك بالضم، وابنُ كثير يُلامِزُك. ﴿فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ في قَسْمها. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ قيل إنها نزلت في أبي الجواظ المنافق فقال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يَقْسِم صدقاتِكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل[3]. وقيل في ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله ﷺ يَقْسم غنائمَ حنين فاستعْطَفَ قلوبَ أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم، فقال: أعدِل يا رسول الله فقال: «ويلك إن لم أعدلْ فمن يَعْدل»[4]. وإذا للمفاجأة، نائبُ مناب الفاء الجزائية.

(٥٩) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما أعطاهم الرسول من الغنيمة أو الصدقة، وذكرُ الله

(١) وإيثار صيغة الاستقبال في الشرط «يجدون» لإفادة استمرار عدم الوجدان (س٤/ ٧٥).
(٢) الجُمَازة هي الناقة الشديدة العَدْوِ.
(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٦ رقم ١٢٦): «لم أجده».
(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٦١٧ ـ ٦١٨ رقم ٣٦١٠) ومسلم (٢/ ٧٤٤ رقم ١٤٨/ ١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره. ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كفانا فضلُه ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى. ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ فيؤتينا أكثر مما آتانا. ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يغنينا من فضله. والآية بأسرها في حيز الشرط، والجواب محذوف تقديره لكان خيراً لهم. ثم بين مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ فقال:

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

(٦٠) ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي الزكوات لهؤلاء المعدودين دون غيرهم، وهو دليل على أن المراد باللمْز لمزُهم في قَسْم الزكوات دون الغنائم. والفقيرُ مَنْ لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته، من الفَقَار كأنه أصيب فَقَارُه. والمسكينُ من له مال أو كَسْب لا يكفيه، من السكون كأن العجز أسكنه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾[(١)] وأنه ﷺ كان يسأل المسكنة ويتعوذ من الفقر، وقيل بالعكس لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾. ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها. ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستألف قلوبَهم، أو أشرافٌ قد يترتب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نُظَرائهم؛ وقد أعطى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك، وقيل أشراف يُستألفون على أن يسلموا فإنه ﷺ كان يعطيهم، والأصح أنه كان يعطيهم من خُمْس الخُمُس الذي كان خاصَّ مالِهِ وقد عُدَّ منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار ومانعي الزكاة. وقيل كان سهم المؤلفة لتكثير سواد الإسلام فلما أعزه الله وأكثر أهله سقط. ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون المُكَاتِبَ بشيء منها على أداء النُّجوم. وقيل بأن تبتاع الرقاب فتعتَق وبه قال مالك وأحمد، أو بأن يُفدىٰ الأسارى. والعدول عن اللام إلى «في» للدلالة على أن الاستحقاق للجهة لا للرقاب، وقيل للإيذان بأنهم أحق بها. ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ والمَدْيونين لأنفسهم في غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء، أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء لقوله ﷺ «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني، أو لعامل عليها»[(٢)] ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة وابتياع الكِرَاع والسلاح. وقيل وفي بناء القناطر والمصانع. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لما دل عليه الآية الكريمة أيْ فَرَضَ لهم الله الصدقات فريضة، أو حال من الضمير المستكن في للفقراء. وقرىء بالرفع على تلك فريضةٌ. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في

---

(١) الكهف: «٧٩».

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٣٦) وابن ماجه (١٨٤١) والبيهقي (٧/ ١٥) ومالك في الموطأ (١/ ٢٦٨) والحاكم (١/ ٤٠٧) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر تصحيحه الفتح السماوي ص٦٨٥.

مواضعها. وظاهرُ الآية يقتضي تخصيص استحقاق الزكاة بالأصناف الثمانية ووجوب الصرف إلى كل صنف وُجد منهم ومراعاة التسوية بينهم قضية للاشتراك وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين جوازُ صرفها إلى صنف واحد وبه قال الأئمة الثلاثة واختاره بعض أصحابنا، وبه كان يفتي شيخي ووالدي رحمهما الله تعالى على أن الآية بيان أن الصدقة لا تخرج منهم لا إيجابُ قَسْمها عليهم.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

(٦١) ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ يسمع كل ما يُقال له ويصدقه. سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فَرْط استماعه صار جملتُه آلةَ السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، أو اشتق له فعل من أَذِن أَذْناً إذا استمع كأنِف وشلل. روي أنهم قالوا محمد أُذُن سامِعة نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول[1]. ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ تصديق لهم بأنه أَذِن ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يصدِّق به لما قام عنده من الأدلة. ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدقهم لما علم من خُلوصهم، واللام مزيدة للتفرقة بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم وإيمان الأمان. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهو رحمة[2]. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْۚ﴾ لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحماً عليكم. وقرأ حمزة ورحمةٍ بالجرّ عطفاً على خير، وقرىء بالنصب على أنها علة فعل دل عليه أُذُن خير أي يأذن لكم رحمة. وقرأ نافع أُذْنُ بالتخفيف فيهما. وقرىء أُذُنٌ خَيْرٌ على أن خير صفة له أو خبر ثان ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإيذائه[3].

(٦٢) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا أو تخلفوا. ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ لترضوا عنهم، والخطابُ للمؤمنين. ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق. وتوحيدُ الضمير لتلازم الرضاءين، أو لأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك. ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ صدقاً.

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول بدون سند ص٢٥٤ وأورد نحوه عن السدي وابن إسحاق.

(٢) وهو من إطلاق المصدر على الفاعل مبالغة (س٤/ ٧٧).

(٣) قوله «يؤذون» في صيغة الاستقبال ـ المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه ـ إشعار بقبول توبتهم (س٤/ ٧٧).

وقوله: «لهم عذاب أليم» في تكرير الإسناد بإثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبراً للموصول ما لا يخفىٰ من المبالغة.

وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة «رسول الله» مضافاً إلى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيهِ على أن أذيته راجعة إلى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب (س٤/ ٧٨).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ
مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ
نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

(٦٣) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾ أن الشأن. وقرىء بالتاء. ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يشاقق مفاعَلَة من الحدّ. ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾ على حذف الخبر أي فحقٌّ أنَّ له، أو على تكرير أنّ للتأكيد، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أنه ويكون الجوابُ محذوفاً تقديره من يحادد الله ورسوله يَهْلِك. وقرىء فإنّ بالكسر. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني الهلاك الدائم.

(٦٤) ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ وتهتك عليهم أستارهم، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين فإن النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث إنه مقروء ومحتج به عليهم، وذلك يدل على ترددهم أيضاً في كفرهم وأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول ﷺ بشيء. وقيل إنه خبر في معنى الأمر، وقيل كانوا يقولونه فيما بينهم استهزاء لقوله: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مُبْرِز أو مظهِر. ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم.

(٦٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ روي: أن ركب المنافقين مروا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونَه هيهات هيهات، فأخبر اللهُ تعالىٰ به نبيه، فدعاهم فقال: «قلتمْ كذا وكذا؟» فقالوا: لا والله ما كنا في شيء من أمرك وأمر أصحابك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر[1]. ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به وإلزاماً للحجة عليهم، ولا تعبأ باعتذارهم الكاذب.

(٦٦) ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم فإنها معلومةُ الكذب. ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه. ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾ بعد إظهاركم الإيمان. ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء. ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق أو مُقْدمين على الإيذاء والاستهزاء[2]. وقرأ عاصم بالنون فيهما، وقرىء بالياء وبناء الفاعل فيهما وهو الله، وإن تُعْفَ بالتاء والبناء على المفعول ذهاباً إلى المعنى كأنه قال: إن تُرْحَمْ طائفةٌ.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٧٣) بإسناد صحيح. انظر الفتح السماوي ص٦٨٦.
(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ: «إنْ يُعْفَ عن طائفة منكم تُعَذَّبْ طائفةٌ» وقد قرأ بها غير عاصم. انظر المبسوط لابن مهران ص١٩٥.

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٧) ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أي متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد. وقيل إنه تكذيب لهم في حَلِفِهم بالله إنهم لمنكم وتقريرٌ لقولهم وما هم منكم وما بعدَه كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وهو قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ عن المبارّ، وقبض اليد كناية عن الشحّ. ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ غفلوا عن ذكر الله وتركوا طاعته. ﴿فَنَسِيَهُمْۗ﴾ فتركهم من لطفه وفضله. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

(٦٨) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ مقدرين الخلود. ﴿هِىَ حَسْبُهُمْۚ﴾ عقاباً وجزاء، وفيه دليل على عظم عذابها. ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا ينقطع، والمراد به ما وُعِدُوه أو ما يقاسونه من تعب النفاق.

(٦٩) ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي أنتم مثلُ الذين، أو فعلتم مثلَ فعلِ الذين من قبلكم[١]. ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ بيان لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم. ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فإنه ما قُدِّر لصاحبه[٢]. ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المُخْدَجَة[٣] من الشهوات الفانية والْتهائهم بها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيداً لذم المخاطَبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم. ﴿وَخُضْتُمْ﴾ ودخلتم في الباطل. ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ﴾ كالذين خاضوا، أو كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة[٤].

---

(١) «قبلكم» والالتفات فيه من الغيبة إلى الخطاب للتشديد عليهم بالخطاب (س٤/ ٨١).

(٢) «فاستمتعوا» أورده بصيغة الاستفعال لبيان الاستزادة والاستدامة في التمتع (س٤/ ٨١).

(٣) المُخْدَجَة أي الناقصة الفانية، وهو من أخدجت الناقة إذا ألقت ولدها ناقص الخلق (المصباح المنير، مادة خدج).

(٤) وإيراد اسم الإشارة في الموضعين للإشعار بعلية الأوصاف المشار إليها للحبوط والخسران (س٤/ ٨٢).

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ
وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾
وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أُغرقوا بالطوفان. ﴿وَعَادٍ﴾ أُهلكوا بالريح. ﴿وَثَمُودَ﴾ أُهلكوا بالرجفة. ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أُهلك نمروذ ببعوض وأُهلَك أصحابه. ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين وهم قوم شعيب أُهلكوا بالنار يوم الظُّلة. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قريات قوم لوط ائتُفكت بهم أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأُمطروا حجارة من سجيل. وقيل قريات المكذبين المتمردين وائتفاكُهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر. ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ يعني الكل. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي لم يك من عادته ما يشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب[١].

(٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[٢] ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأمور. ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

(٧٢) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾[٣] تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش وفي الحديث: «إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر»[٤]. ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ إقامة وخلود. وعنه عليه الصلاة والسلام: «عَدْن دار الله التي لم ترها

---

(١) قوله «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» حيث جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار ظلمهم... وتقديم المفعول «أنفسهم» لمجرد الاهتمام به... (س٤/ ٨٢).

(٢) التوبة: «٦٧».
وقد عبر عن هؤلاء بالولاية فقال: «بعضهم أولياء بعض» بينما عبر عن أولئك بمن الاتصالية حيث قال «بعضهم من بعض» للإيذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك، ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة (س٤/ ٨٢).

(٣) وإظهار صفة الإيمان في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بعلية وصف الإيمان لحصول ما تعلق به الوعد. وعدم التعرض لذكر ما مر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للإيذان بأنه من لوازمه (س٤/ ٨٣).

(٤) أخرج البزار (٣/ ٥١ ـ ٥٢ رقم ٢٢١٧ ـ كشف الأستار).
من طريق جسر بن فرقد، عن يحيى بن سعيد ابن أخي الحسن، عن الحسن، قال: لقيتُ عمران بن حُصَين =

عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبىٰ لمن دخلكِ»[(١)]. ومرجع العطف فيها يحتمل أن يكون إلى تعدد الموعود لكل واحد، أو للجميع على سبيل التوزيع، أو إلى تغاير وصفه فكأنه وَصَفه أولاً بأنه من جنس ما هو أبهىٰ الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طباعهم أولَ ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرّىٰ عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكنُ الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار عليين لا يعتريهم فيها فَناء ولا تغير، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء، وعنه ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»[(٢)]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرضوان أو جميع ما تقدم. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي تستحقر دونه الدنيا وما فيها.

= وأبا هريرة فسألتهما عن تفسير هذه الآية «ومساكن طيبة في جناتِ عَدْن» قالا: على الخبير سَقطت، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: ـ قصر من دُرّة، في ذلك القصر سبعون ألف دار من زمرّدة خضراء في كل بيت، منها سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فِراشاً من كلّ لون، على كلّ فراشٍ امرأةٌ من الحور العين، في كل بيت مائدة على كل مائدة سبعون لوناً في كل بيت سبعون وصيفاً أو وصيفة يُعطى من القوة ما يأتي على ذلك كله في غداةٍ واحدةٍ.

قال البزار: لا نعلم أحداً رواه مرفوعاً إلا عمران، وأبا هريرة، ولا نعلم لهما طريقاً إلاّ هذا، وجَسر: لين الحديث، وقد حدَّث عنه أهل العلم. والحسن فلا يصحُّ سماعه، عن أبي هريرة من رواية الثقات.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠) وقال «رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه جسر بن فرقد: ـ وهو ضعيف، وقد وثقه سعيد بن عامر، وبقية رجال الطبراني ثقات».

والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) أخرجه البزار (٤/ ١٩٢ رقم ٣٥١٦ ـ كشف الأستار) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١٨٠) والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٣/ ١١٥١ ـ ١١٥٢) وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٣٨ رقم ٢١) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٩٣) كلهم من طريق زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء مرفوعاً.

قال ابن الجوزي «هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد، قال البخاري: هو منكر الحديث، وقال ابن حبان: هو منكر الحديث جداً، يروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك» هـ.

وقال البزار: «لا نعلم رواه بهذا اللفظ إلا أبو الدرداء، وزيادة لا نعلم روى عنه غير الليث، ولا نعلم أسند فضالة عن أبي الدرداء غير حدثين» وأورد الذهبي الحديث في «الميزان» (٢/ ٩٨) وقال «هذه ألفاظ منكرة لم يأتِ بها غير زيادة» هـ.

والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (١١/ ٤١٥ رقم ٦٥٤٩) و(١٣/ ٤٨٧ رقم ٧٥١٨) ومسلم (٤/ ٢١٧٦ رقم ٩/ ٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بإلزام الحجة وإقامة الحدود. ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في ذلك ولا تحابهم. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصيرهم.

(٧٤) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ روي أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويُعيب المتخلفين، فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً لنحن شر من الحمير، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضره فحلف بالله ما قاله فنزلت[١] فتاب الجلاس وحسنت توبته[٢]. ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام. ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ من فتك الرسول، وهو أن خمسةَ عشر منهم توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخُطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفةُ بوقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا[٣]، أو إخراجه وإخراج المؤمنين من المدينة، أو بأن يتوّجوا عبدالله بن أبيّ وإن لم يرضَ رسولُ الله ﷺ. ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ وما أنكروا أو ما وجدوا ما يورث نقمتهم. ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج في ضنك من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ أثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولًى، فأمر رسولُ الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى. والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو العلل. ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وهو الذي حمل الجلاس على التوبة، والضمير في يكُ للتوب. ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ بالإصرار على النفاق. ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالقتل والنار. ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فينجيهم من العذاب.

(٧٥) ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ نزلت في ثعلبة بن حاطب أتىٰ النبي ﷺ فقال: ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال عليه الصلاة والسلام: يا ثعلبة قليل تؤدي

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٨١ ـ ٢٨٢) وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف، في غير العبادلة. وليس الأثر عن العبادلة عنه.

(٢) وإيثار صيغة الاستقبال في «يحلفون» لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرار الحلف وصيغة الجمع في «قالوا» مع أن القائل هو الجلاس ـ للإيذان برضا الباقين فكأنهم قالوا (س٤/ ٨٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٥٣) من حديث أبي الطفيل بلفظ مقارب للفظ الكتاب وفي إسناده. الوليد بن عبدالله بن جميع، صدوق يهم. قاله الحافظ في التقريب (٢/ ٣٣٣). وهو حديث حسن. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٥٦) و(٥/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) عن عروة، وابن إسحاق. وفي إسناد عروة (ابن لهيعة) ضعيف. وفي إسناد ابن إسحاق: (أحمد بن عبدالجبار العطاري) ضعيف أيضاً.

شكره خير من كثير لا تطيقه، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسولُ الله ﷺ، فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد، فقال: «يا ويح ثعلبة» فبعث رسول الله ﷺ مصدِّقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه الكتاب الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية فارجِعا حتى أرى رأيي، فنزلت، فجاء ثعلبة بالصدقة فقال النبي ﷺ: «إن الله منعني أن أقبل منك» فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال: «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني» فقُبض رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فلم يقبلها، ثم جاء إلى عمر رضي الله تعالى عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله تعالى عنه[(١)].

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

(٧٦) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ منعوا حق الله منه. ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعة الله. ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراضُ عنها.

(٧٧) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي فجعل الله عاقبة فِعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للبخل والمعنى فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٨٩ ـ ١٩٠) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢) والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٦٠ رقم ٧٨٧٣).
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣١ ـ ٣٢) وقال: رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) وعزاه للحسن بن سفيان، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال والطبراني، وأبو منده، وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر. عن أبي أمامة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٧٧ رقم ١٣٣) «أخرجه الطبراني، والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم، والطبري، وابن مردويه. كلهم من طريق علي بن زيد، عن القاسم بن عبدالرحمٰن، عن أبي أمامة. وهذا إسناد ضعيف جداً. فقال السهيلي عن ابن إسحاق: ثعلبة بن حاطب قمر البدريين، وعن ابن إسحاق أيضاً في المنافقين وذكر هذه الآية التي نزلت فيه فلعلهما اثنان» هـ.
والخلاصة أن الحديث موضوع والله أعلم.
فائدة: لقد تكلم حفاظ الحديث ونقّاده في هذه القصة بكلام واضح بيِّن. جمعه وعلق عليه أخونا الشيخ «عداب محمود الحمش» في رسالة سمّاها «ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه». فانظرها لزاماً لتقف على بطلان هذه القصة، وفيها توضيحات مفيدة في الدفاع عن كتاب الله وسنة رسوله والذب عن صحابة رسول الله ﷺ.

يلقون الله بالموت أو يلقون عملهم أي جزاءه وهو يوم القيامة ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح. ﴿ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ وبكونهم كاذبين فيه فإن خُلف الوعد متضمن للكذب مستقبح من الوجهين أو المقال مطلقاً. وقرىء يُكَذِّبون بالتشديد.

(٧٨) ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ ﴾ أي المنافقون، أو من عاهد الله. وقرىء بالتاء على الالتفات. ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾ ما أسروه في أنفسهم من النفاق، أو العزم على الإخلاف. ﴿ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، أو تسميةُ الزكاة جزيةً. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فلا يخفى عليه ذلك[١].

(٧٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾ ذمّ مرفوع أو منصوب أو بدل من الضمير في سرِّهم. وقرىء يُلمِزون بالضم. ﴿ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ المتطوعين. ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ روي أنه ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف درهم فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك اللهُ له حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن علىٰ ثمانين ألف درهم. وتصدق عاصم بن عدي بمائة وِسْقٍ من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر فقال بتّ ليلتي أجُرّ بالجرير على صاعين فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثُره على الصدقات، فلَمَزَهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبدالرحمن وعاصم إلا رياء ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات. فنزلت[٢]. ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ إلا طاقتهم. وقرىء بالفتح[٣] وهو مصدر جَهِد في الأمر إذا بالغ فيه. ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ يستهزئون بهم. ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ جازاهم على سُخريتهم، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[٤] ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على كفرهم.

---

(١) وفي إيراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى (س/٤/٨٦).

(٢) أخرج قصة تصدق: عبدالرحمٰن. ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٩٤) وابن مردويه وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر» (٤/ ٢٥٠) ـ عن ابن عباس وفي سنده (كاتب الليث) وهو ضعيف.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٩٤) من حديث أبي سلمة ورجاله ثقات إلاّ المثنى بن إبراهيم الآملي شيخ الطبري، فلم أجد من ترجم له. وتابع المثنى أبو كامل الجحدري عند البزار (٣/ ٥١ رقم ٢٢١٦) وأبو كامل ثقة حافظ ـ كما في التقريب (٢/ ١١٢) ـ وعمر بن أبي سلمة صدوق يخطىء ـ كما في التقريب (٢/ ٥٦) ـ.
وهذا الحديث وصله (طالوت بن عباد) عند البزار. فقال بهذا الإسناد عن أبي سلمة عن أبي هريرة. وطالوت بن عباد هو الصيرفي الضبعي: صدوق كما في الجرح والتعديل (٤/ ٤٩٥). وانظر كلام الهيثمي في «المجتمع» (٧/ ٣٢) على هذا الحديث.
والخلاصة أن الحديث حسن إن شاء الله.
● وأخرج قصة عاصم بن عدي. ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٩٦) عن ابن إسحاق. بسند ضعيف.
● وقصة تصدق أبي عقيل مخرج في الصحيحين البخاري (٨/ ٣٣٠ رقم ٤٦٦٨) ومسلم (٢/ ٧٠٦ رقم ٧٢/١٠١٨) من حديث ابن مسعود وانظر «الكافي الشافِ» لابن حجر (رقم: ١٣٤).

(٣) أي بفتح الجيم «جَهْدَهم». والجُهْد ـ بضم الجيم ـ الطاقة، وبفتحها: المشقة (س/٤/٨٧).

(٤) البقرة: «١٥».

ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن
يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾

(٨٠) ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾. روي أن عبدالله بن عبدالله بن أبيّ وكان من المُخْلَصين سأل رسولَ الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام، فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين، فنزلت[1]: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾[2]. وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجوَّز أن يكون ذلك حداً يخالفُه حكم ما وراءه، فبين له أن المراد به التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنّه العدد بأسره. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ المتمردين في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[3].

(٨١) ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ بقعودهم عن الغزو خلْفَه يقال أقام خلافَ الحيّ أي بعدهم، ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال. ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيثاراً للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج. ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ أي قال بعضهم لبعض أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً. ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة. ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ أنّ مآبهم إليها، أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٧٨ رقم ١٣٥): «لم أجده بهذا السياق.
وأصله في المتفق عليه ـ البخاري (٨/ ٣٣٣ رقم ٤٦٧٠) ومسلم (٤/ ١٨٦٥ رقم ٢٥/ ٢٤٠٠) ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لما تُوفيَ عبدُالله بن أُبي جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيَهُ قميصَهُ يكفِّنُ فيه أباه، فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقامَ عمرُ فأخذ بثوب رسول الله، فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك ربُّك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيّرني الله فقال «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرَّة» وسأزيدُهُ على السبعين. قال: إنهُ منافق قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله «ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره».

(٢) المنافقون: «٦».

(٣) التوبة: «١١٣».

فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ
ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ
فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

(٨٢) ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة أخرجَه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتْم واجب، ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة العدم.

(٨٣) ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فإنْ ردك إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم فإن كلهم لم يكونوا منافقين، أو من بقي منهم وكان المتخلفون اثني عشر رجلاً. ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ إخبار في معنىٰ النهي للمبالغة. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تعليل له، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم، وأول مرة هي الخَرْجَةُ إلى غزوة تبوك. ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ أي المتخلفين لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان. وقرىء مع الخَلِفِين على قصر الخالفين.

(٨٤) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ روي أن عبدالله بن أبيّ دعا رسولَ الله ﷺ في مرضه، فلما دخل عليه سأله أن يستغفر له ويكفنه في شِعَاره الذي يلي جسده ويصلي عليه، فلما مات أرسل قميصَه ليكفَّن فيه وذهب ليصلي عليه، فنزلت[١]. وقيل صلى عليه ثم نزلت، وإنما لم يُنْهَ عن التكفين في قميصه ونُهِيَ عن الصلاة عليه لأن الضنّ بالقميص كان مخلاً بالكرم ولأنه كان مكافأة لإلباسه العباس

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٧٨ ـ ٧٩ رقم ١٣٦):
لم أجده هكذا. فأما أوله وهو «كان يقوم.. إلى آخره». وأما قصة عبدالله ففي الجنائز من المستدرك ـ (١/ ٣٤١) ـ من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال: «دخل رسول الله ﷺ على عبدالله بن أبي ليعودهُ في مرضه الذي مات فيه، فلما عرف فيه الموت قال له: أما والله إن كنت لأنهاك عن حبّ يهود. فقال: قد أبغضهم، أسعد بن زرارة فما نفعه، فلما مات أتاه ابنه فقال: قد مات فأعطني قميصك أكفنه فيه. فنزع عليه الصلاة والسلام قميصه فأعطاه إياه» وأما قوله «بعثت إليك لتستغفر لي لا لتوبخني فزاده الطبري (٦/ج١٠/٢٠٦) من طريق معمر عن قتادة قال: أرسل عبدالله بن أبي وهو مريض إلى النبي ﷺ فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: أهلكك حب يهود. قال: يا رسول الله أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبخني. وسأله قميصه أن يكفن فيه. فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قميصه، ونفث في جلده ودلاه في قبره، فأنزل الله تعالى «ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً».
وفي الدلائل للبيهقي (٥/ ٢٨٥) من طريق الواقدي بإسناده في هذه القصة قال: فقال «ليس هذا بحين عتاب، هو الموت، فإن مت فاحضر غسلي وأعطني قميصك أكفن فيه فأعطاه، ثم قال: وصلّ عليّ واستغفر لي» وفي رواية له فقال له ابنه وكان يقال له الحباب. فسماه رسول الله ﷺ عبدالله، يا رسول الله أعطه قميصك الذي يلي جلدك».

قميصَه حين أُسر ببدر[١]. والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكافر، ولذلك رتب النهي على قوله: ﴿مَّاتَ أَبَدًا﴾ يعني الموت على الكفر، فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يَحْيَ ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ تعليل للنهي أو لتأبيد الموت[٢].

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٥) ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ تكرير للتأكيد، والأمرُ حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوسُ مغتبِطة عليها ويجوز أن تكون هذه في طريق غير الأول[٣].

(٨٦) ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها. ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بأن آمنوا بالله، ويجوز أن تكون أن المفسرة. ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوو الفضل والسعة. ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ الذين قعدوا لِعذر.

(٨٧) ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مع النساء، جمع خالِفة، وقد يقال الخالفة للذي لا خير فيه. ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في التخلف عنه من الشقاوة.

(٨٨) ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ أي إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة. وقيل الحُور لقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[٤] وهي جمع خَيْرة تخفيف خَيِّرة. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢١٤ رقم ١٣٥٠) و(٦/ ١٤٤ رقم ٣٠٠٨) من حديث جابر.

(٢) وقوله «ولا تصل على أحد منهم مات» جاء بصيغة الماضي «مات» تنبيهاً على تحقق الوقوع (س٤/ ٨٩).

(٣) وتقديم الأموال على الأولاد مع كونهم أعزّ منها إما لعموم مساس الحاجة إليها بحسب الذات وبحسب الأفراد والأوقات، وإما لأن المال مناط لبقاء النفس والأولادَ لبقاء النوع، وإما لأنها أقدم في الوجود من الأولاد (س٤/ ٩٠).

(٤) الرحمٰن: «٧٠».

(٥) تكرير اسم الإشارة للتنويه بشأنهم (س٤/ ٩١).

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ
ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ
عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا
عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ
لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

(٨٩) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية.

(٩٠) ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ يعني أسداً وغَطَفان استأذنوا في التخلف معتذرين بالجَهد وكثرة العيال. وقيل[1] هم رهْط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت طيّىءُ على أهالينا ومواشينا. والمُعَذِّر إما من عَذَر في الأمر إذا قصر فيه موهماً أن له عُذراً ولا عذر له، أو مِنْ اعتذر إذا مهد العذر بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، ويجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع لكن لم يُقرأ بهما. وقرأ يعقوب المُعْذِرُون من أعذر إذا اجتهد في العذر. وقرىء المعَّذِّرُون بتشديد العين والذال على أنه من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن إذ التاء لا تدغم في العين، وقد اختلف في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة فيكون قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في غيرهم وهم منافقو الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان وإن كانوا هم الأولين فكَذِبهُم بالاعتذار. ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعذرين، فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والنار.

(٩١) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ كالهَرْمىٰ والزّمنىٰ. ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ لفقرهم كجُهيْنة ومُزينة وبني عذرة. ﴿حَرَجٌ﴾ إثمٌ في التأخر. ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية كما يفعل الموالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلاً أو قولاً يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح. ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل، وإنما وَضَعَ المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين غير معاتَبين لذلك. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهم أو للمسيء فكيف للمحسن؟.

(٩٢) ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على الضعفاء أو على المحسنين، وهم البكاؤون سبعة من الأنصار: مَعقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبدالله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبدالله بن مغفل وعلية بن زيد، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحمِلنا على الخِفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نَغْزُ معك، فقال عليه السلام: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوْا وهم

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٨٣) عن الضحاك.

يكون[١]. وقيل هم بنو مُقَرِّن مَعقل وسويد والنعمان[٢]. وقيل أبو موسى وأصحابه. ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار قد[٣]. ﴿تَوَلَّوا۟﴾ جواب إذا. ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل. ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي دمعاً، فإن مِنْ للبيان، وهي مع المجرور في محل النصب على التمييز، وهو أبلغ مِنْ يفيضُ دمعُها لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً. ﴿حَزَنًا﴾ نصب على العلة، أو الحال، أو المصدر لفعل دل عليه ما قبله. ﴿أَلَّا يَجِدُوا۟﴾ لئلا يجدوا، متعلق بحَزَناً أو بتفيض. ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في مغزاهم.

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

(٩٣) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ واجدون الأُهبة. ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر وهو رضاهم بالدناءة والانتظامُ في جملة الخوالف إيثاراً للدعة. ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة. ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مغبته.

(٩٤) ﴿۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف. ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذه السَّفرة. ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ بالمعاذير الكاذبة، لأنه ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم، لأنه ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أعلمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم، وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد[٤]. ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه فكأنه استتابة وإمهال للتوبة[٥]. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي إليه، فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه[٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/٢١٣) عن محمد بن كعب وغيره.

(٢) أورده الواحدي عن مجاهد ص٢٦٢.

(٣) وفي إيثار «لا أجد» على ليس عندي من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفىٰ، فكأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده (س٤/ ٩٢).

(٤) وقوله «نؤمن ونبّأنا» حيث جمع ضمير المتكلم في الموضعين للمبالغة في حسم أطماعهم من التصديق رأساً ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلاً وللإيذان بافتضاحهم بين المؤمنين كافة (س٤/ ٩٣).

(٥) وتقديم مفعول الرؤية على ما عُطف على فاعله من قوله تعالى «ورسولُه» للإيذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما، وللإشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عز وجل بأعمالهم (س٤/ ٩٣).

(٦) والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به، وإيثار التنبئة عليها لبيان أن المنبأ به هو الأخبار المتعلقة بأعمالهم، وللإيذان =

سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ
جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ
دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

(٩٥) ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ فلا تعاتبوهم ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ ولا توبخوهم. ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علةُ الإعراض وترك المعاتبة. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أن النار كفتهم عتاباً فلا تتكلفوا عتابهم. ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة.

(٩٦) ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ بحَلِفِهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم. ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله ورضاكم وحدَكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يُلْبِسوا عليكم لا يمكنهم أن يُلبِسوا على الله فلا يهتك سترَهم ولا ينزل الهوان بهم، والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم(١).

(٩٧) ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو. ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لتوحشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة. ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ﴾ وأحق بأن لا يعلموا. ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الشرائع فرائضها وسننها. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمَدَر(٢). ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

(٩٨) ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ يَعُدُّ. ﴿مَا يُنفِقُ﴾ يصرفه في سبيل الله ويتصدق به. ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً إذ لا يحتسبه قربة عند الله ولا يرجو عليه ثواباً وإنما ينفق رياء أو تقِيَّة. ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ دوائر الزمان ونَوْبَه لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الإنفاق. ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصون أو الإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم. والدائرة في الأصل مصدر أو اسم فاعل من دار يدور وسمي به عقبة الزمان، والسَّوْء بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك رجلُ

= بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم وأنهم يعلمونها يومئذ (س٤/ ٩٤).

(١) ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة الموجب لما حل بهم من السخط، وللإيذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك (س٤/ ٩٤).

(٢) أهل الوبر يراد بهم الأعراب حيث يستخدمونه في سكناهم والوبر للبعير كالصوف للغنم، وأهل المدر يراد بهم أهل القرى لأن معنىٰ المدر الطين حيث يستخدمونه في سكناهم (المصباح المنير مادة مَدَرَ ووَبَرَ).

صِدْق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السُّوء هنا. وفي الفتح[١] بضم السين. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند الإنفاق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرون.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

(٩٩) ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ سببَ قربات، وهي ثاني مفعولي يتخذ، وعند الله صفتُها أو ظرف ليتخذ[٢]. ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ وسبب صلواته لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم، ولذلك سنّ للمتصدَّق عليه أن يدعو للمتصدِّق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما قال ﷺ «اللهم صلِّ على آل أبي أوفىٰ»[٣]، لأنه منصبه فله أن يتفضل به على غيره. ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ شهادة من الله بصحة معتقدهم وتصديقٌ لرجائهم على الاستئناف مع حرف التنبيه وإنّ المحقِّقة للنسبة، والضميرُ لنفقتهم. وقرأ ورش قُرُبَةٌ بضم الراء. ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وَعْدٌ لهم بإحاطة الرحمة عليهم، والسين لتحقيقه، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لتقريره. وقيل الأُولىٰ في أسد وغطفان وبني تميم والثانيةُ في عبدالله ذي البجادين وقومِه.

(١٠٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدراً، أو الذين أسلموا قبل الهجرة. ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ أهلِ بيعة العقبة الأولى ـ وكانوا سبعة ـ وأهلِ بيعة العقبة الثانية ـ وكانوا سبعين ـ والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير. وقرىء بالرفع عطفاً على والسابقون. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ اللاحقون بالسابقين من القبيلتين، أو من اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقرأ ابن كثير مِنْ تحتِها الأنهارُ كما في سائر المواضع. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

---

(١) الفتح: «٦١».

(٢) والتعرض لوصفهم بالإيمان بالله واليوم الآخر لبيان الاعتناء بإيمانهم واتصافهم به وبيان الفرق بين الفريقين (س٤/٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣/٣٦١ رقم ١٤٩٧) ومسلم (٢/٧٥٦ ـ ٧٥٧ رقم ١٠٧٨/١٧٦) وأبو داود (٢/٢٤٦ رقم ١٥٩٠) والنسائي (٥/٣١ رقم ٢٤٥٩) وابن ماجة (١/٥٨٢ رقم ١٧٩٦) وأحمد في المسند (٤/٣٥٣). من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

(١٠١) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أي وممن حول بلدتكم يعني المدينة. ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ هم جُهَيْنة ومُزَيْنة وأَسْلَم وأَشْجَع وغِفَار كانوا نازلين حولها[١]. ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ عطف على ممن حولكم، أو خبر لمحذوف صفتُهُ: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ ونظيرُه في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامَه قوله:

أنَا ابنُ جَلا وَطلاَّعُ الثنَايَا

وعلى الأول صفة للمنافقين فُصِل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر، أو كلامٌ مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهُّرهم في النفاق. ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم، وهو تقرير لمهارتهم فيه وتَنَوُّقِهم في تحامي مواقع التهم إلى حدٍّ أُخفِيَ عليك حالهم مع كمال فطنتك وصدق فِراستك. ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونطلع على أسرارهم، إنْ قدروا أن يُلْبسوا عليك لم يقدروا أن يُلبسوا علينا. ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ إلى عذاب النار[٢].

(١٠٢) ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سَوَاري المسجد لمّا بلغهم ما نزل في المتخلفين، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد على عادته فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم، فذُكر له أنهم أقسموا أن لا يَحُلّوا أنفسهم حتى تُحِلَّهم، فقال: «وأنا أقسم أن لا أُحِلهم حتى أومر فيهم، فنزلت، فأطلقهم»[٣]. ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ خلطوا الفعل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب بآخر سيىء هو التخلف وموافقة أهل النفاق. والواوُ إما بمعنى الباء كما في قولهم: بعت الشاءَ شاة ودرهماً، أو للدلالة على أن كل واحد منهما مخلوط بالآخر. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقبل توبتهم وهي مدلول عليها بقوله: «اعترفوا بذنوبهم» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة ـ كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٧٣).

(٢) وإسناد عذابهم السابق «سنعذبهم» إلى نون العظمة حسب إسناد ما قبله من العلم وإسناد ردهم إلى العذاب اللاحق «ثم يُرَدّون» إلى أنفسهم للإيذان باختلافهما حالاً، وأن الأول خاص بهم وقوعاً وزماناً يتولاه سبحانه وتعالى والثاني شامل لعامة الكفرة وقوعاً وزماناً (س٤/ ٩٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ١٢ ـ ١٣).
ومراد السيوطي في «الدر» (٤/ ٢٧٥) نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» ـ (٥/ ٢٧٢) ـ عن ابن عباس بسند ضعيف.

(١٠٣) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ روي أنهم لما أُطلِقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا فتصدق بها وطهِّرْنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فنزلت[١]. ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله. وقرىء تُطْهِرُهم من أطهره بمعنى طهره، وتُطَهِّرْهُم بالجزم جواباً للأمر. ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعْطِف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، وجمعها لتعدد المدعوّ لهم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتوحيد[٢]. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بندامتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ الضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكّن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم، أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهما. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صحت، وتعديتُه بعن لتضمنه معنى التجاوز[٣]. ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

(١٠٥) ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾ ما شئتم. ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنه لا يخفىٰ عليه خيراً كان أو شراً. ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى لا يخفى عنهم كما رأيتم وتبين لكم[٤]. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالموت[٥]. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه.

(١٠٦) ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المتخلفين. ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مؤخرون أي موقوف أمرهم من أرجأته إذا أخرته[٦]. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص مُرْجَوْن بالواو وهما لغتان. ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في شأنهم. ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا على النفاق. ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا، والترديد للعباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادة الله تعالى. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم. وقرىء والله غفور

---

(١) أخرجه ابن جرير (١١/ ١٦) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٧٢) وفي إسناده كاتب الليث وهو ضعيف.
(٢) الأصل عند البيضاوي على قراءة من قرأ «صَلَوَاتِك» بالجمع، وقد قرأ بها الباقون.
(٣) وإظهار صفة العبودية لله «عباده» في موضع الإضمار للإشعار بعلية العبادة لقبولها (س٤/ ١٠٠).
(٤) قوله «ورسوله» عطف على لفظ الجلالة، وتأخيره عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت (س٤/ ١٠٠).
(٥) وتقديم الغيب على الشهادة في الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره، أو للإيذان بأن رتبة السرّ متقدمة على رتبة العلن (س٤/ ١٠١).
(٦) أثبت البيضاوي الأصل على قراءة من قرأ بالهمزة «مُرْجَئون».

رحيم. والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن لا يسلّموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم وفوضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله تعالى[١].

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

(١٠٧) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ عطف على وآخرون مرجئون، أو مبتدأ خبره محذوف أي وفيمن وصفنا الذين اتخذوا، أو منصوب على الاختصاص. وقرأ نافع وابن عامر بغير الواو. ﴿ضِرَارًا﴾ مضارة للمؤمنين. وروي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوانُهم بنو غنم بن عوف، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة والليلة المطيرة والشاتية فصلّ فيه حتى نتخذه مصلّىٰ، فأخذ ثوبه ليقوم معهم، فنزلت، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن والوحشي فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، ففعل واتخذ مكانه كناسة»[٢]. ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه. ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريُد الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء. ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقباً. ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ يعني الراهب فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتُك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، ومات بقنسرين وحيداً، وقيل كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج إلى الشام. ومن قبلِ متعلق بحارب أو باتخذوا أي اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف، لما روي أنه بُني قُبيل غزوة تبوك فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتيه فقال: «إنا على جناح سفر، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه» فلما قفل كرر عليه. فنزلت[٣] ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٤/ ٢١٢٠ ـ ٢١٢٨).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٨٠ ـ ٨١ رقم ١٥٢).
«لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد. وليس صدره بصحيح فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبناء مسجد الضرار كان في غزوة تبوك. فبينهما تسع سنين.
لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفي عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال منهم (يخرج) جد عبدالله بن حنيف، ووديعة بن حزام، ومجمع بن جارية فبنوا مسجد النفاق ـ الحديث».
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٨٥) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ٢٤) بسند ضعيف.

(٣) قال المناوي في الفتح السماوي ص٧٠٣: لم أقف عليه، إلا أن ابن حجر ذكر أنه روى ابن مردويه من طريق =

ما أردنا ببنائه إلا الخصلة الحسنى أو الإرادة الحسنى وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في حلفهم.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة. ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يعني مسجد قباء أَسسه رسولُ الله ﷺ وصلىٰ فيه أيام مُقامِه بقباء من الاثنين إلى الجمعة لأنه أوفق للقصة، أو مسجد رسول الله ﷺ لقول أبي سعيد رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عنه فقال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»[1] ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده، و«مَنْ» يعم الزمان والمكان كقوله:

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحَجْرِ ... أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرِ

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أولىٰ بأن تصلي فيه. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى، وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى إدناء المحب حبيبَه. قيل لما نزلت مشىٰ رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس! فقال عليه الصلاة والسلام: «أمؤمنون أنتم»؟ فسكتوا، فأعادها، فقال عمر: إنهم مؤمنون وأنا معهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أترضوْن بالقضاء»؟ قالوا: نعم، قال عليه الصلاة والسلام: «أتصبرون على البلاء»؟ قالوا: نعم، قال: «أتشكرون في الرخاء»؟ قالوا: نعم. فقال ﷺ: «أنتم مؤمنون وربِّ الكعبة»، فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط»؟ فقالوا: يا رسول الله نُتبعُ الغائطَ الأحجارَ الثلاثة ثم نُتبع الأحجار الماء، فتلا النبي: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾[2].

= ابن إسحاق عن الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي رهم أنه سمع أبا رهم الغفاري.. فذكر نحوه.. انظر الكافي الشافِ ص٨١ رقم (١٥٢).

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٥ رقم ٥١٤/ ١٣٩٨) عنه.
قال ابن كثير: (وقد صرح جماعة من السلف بأنه مسجد قباء..) ثم قال: (وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٨١ رقم ١٥٤) «لم أجده هكذا وكأنه ملفق من حديثين، فإن صدره أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إلى قوله: «ورب الكعبة». وروى بقيته ابن مردويه من طريق ابن عباس نحوه» هـ.
● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٨٠ رقم ٣١٠٠) وأبو داود (١/ ٣٨ رقم ٤٤) وابن ماجة (١/ ١٢٨ رقم ٣٥٧). =

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

(١٠٩) ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ﴾ بنيان دينه. ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ على قاعدة محكمة هو التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة. ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها[1]. ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فأدىٰ به ـ لخوْره وقلة استمساكه ـ إلى السقوط في النار، وإنما وضع شفا الجرف ـ وهو ما جرفه الوادي ـ الهائر في مقابلة التقوى تمثيلاً لما بنوا عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس، ثم رشحه بانهياره به في النار ووضعه في مقابلة الرضوان تنبيهاً على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى رضوان اللّٰه ومقتضياته التي الجنةُ أدناها، وتأسيس هذا على ما هم بسببه على صدد الوقوع في النار ساعة فساعة ثم إن مصيرهم إلى النار لا محالة. وقرأ نافع وابن عامر أُسِّسَ على البناء للمفعول، وقرىء أساسُ بنيانه، وأُسُّ بنيانه على الإضافة، وأُسُسُ، وآسَاسُ بالفتح والمدّ، وإِسَاسُ بالكسر وثلاثتها جمع أس، وتقوًى بالتنوين على أن الألف للإلحاق لا للتأنيث كتَتْرىٰ، وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر جُرْف بالتخفيف. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم.

(١١٠) ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ بناؤهم الذي بنوه، مصدر أريد به المفعول[2] وليس بجمع ولذلك قد تدخله التاء، وَوَصَفَ بالمفرد وأخبر عنه بقوله: ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكّاً ونفاقاً، والمعنى

= عن أبي هريرة، قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء «فيه رجال يحبون أن يتطهّروا» قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية.

وقد ضعفه الحافظ في «التلخيص» (١/ ١١٢) وقال: وروى أحمد وابن خزيمة والطبراني والحاكم عن عويم بن مساعده نحوه، وأخرجه الحاكم (١/ ١٥٥) من طريق مجاهد عن ابن عباس لما نزلت الآية بعث النبي ﷺ إلى عويم بن مساعدة، فقال: ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟ قال ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل دبره، فقال عليه السلام: هذا هو، وأخرج بنحوه ابن ماجة (١/ ١٢٧ رقم ٣٥٥) من حديث عتبة بن أبي حكيم، عن طلحة بن نافع، قال: حدثني أبو أيوب الأنصاري، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك. وقال الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٢١٩): «وسنده حسن وعتبة بن أبي حكيم فيه مقال.

قال ابن عدي (٥/ ١٩٩٥): «أرجو أنه لا بأس به».

وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٤) وصححه. ورواه أحمد (١/ ٢٤٨) وابن أبي شيبة من حديث محمد بن عبدالله بن سلام. وحكى أبو نعيم في معرفة الصحابة الخلاف فيه. على شهر بن حوشب ورواه الطبراني من حديث أبي أمامة.

والخلاصة أن الحديث قابل للتحسين.

(١) وترك الإضمار في قوله «أم من أسس» للإيذان باختلاف البنيانين ذاتاً مع اختلافهما وصفاً وإضافة (س٤/ ١٠٣).

(٢) ووصفه بالموصول ـ الذي صلته فعله ـ للإيذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهن أساس، وللإشعار بعلة الحكم (س٤/ ١٠٤).

أن بناءهم هذا لا يزال سببَ شكهم وتزايد نفاقهم فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وَسْمه عن قلوبهم. ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ﴾ قطعاً بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك والإضمار وهو في غاية المبالغة. والاستثناءُ من أعمّ الأزمنة. وقيل المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار، وقيل التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً. وقرأ يعقوب «إلى» بحرف الانتهاء. وتُقطع ـ بمعنى تتقطع ـ وهو قراءة ابن عامر وحمزة وحفص، وقرىء يُقَطِّع بالياء، وتُقْطَع بالتخفيف، وتُقَطِّعَ قلوبَهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب، ولو قطعت على البناء للفاعل والمفعول[1]. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

(١١١) ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ﴾ تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله. ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾ استئناف ببيان ما لأجله الشراء. وقيل يقاتلون في معنى الأمر[2]. وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول، وقد عرفت أن الواو لا توجب الترتيب وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل. ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الشراء فإنه في معنى الوعد. ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ﴾ مذكوراً فيهما كما أُثبت في القرآن. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً. ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ﴾ فافرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم عظائم المطالب[3] كما قال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١١٢) ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ رفعٌ على المدح أي هم التائبون، والمراد بهم المؤمنون المذكورون، ويجوز أن يكون مبتدأ خبرُه محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾[4] أو خبرُه ما بعده أي التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال.

---

(١) أي قرىء «ولو قُطِّعَتْ قلوبُهم» على البناء للمفعول، وقرىء «ولقد قَطَّعْتَ قلوبهم» على البناء للفاعل على أن الخطاب للنبي عليه السلام.

(٢) وتقديم حالة القاتلية «يَقْتُلون» على حالة المقتولية «يُقْتَلون» للإيذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس (س٤/ ١٠٥).

(٣) قوله «فاستبشروا» التفات إلى الخطاب تشريفاً لهم على تشريف وزيادة لسرورهم.
والاستبشار: إظهار السرور (س٤/ ١٠٦).

(٤) النساء: «٩٥».

وقرىء بالياء نصباً على المدح، أو جراً صفةً للمؤمنين. ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له الدين. ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ لنعمائه أو لمَا نابهم من السراء والضراء. ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون لقوله ﷺ «سياحة أمتي الصوم»[١] شبه بها لأنه يعوق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت، أو السائحون للجهاد[٢] أو لطلب العلم. ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ في الصلاة. ﴿ٱلْأَـٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة. ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي، والعاطفُ فيه للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي فيما بيّنه وعيّنه من الحقائق والشرائع للتنبيه على أن ما قبله مفصِّل الفضائل وهذا مُجْمِلها. وقيل إنه للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك سمي واو الثمانية. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل. ووضع المؤمنين موضعَ ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذفُ المبشَّر به للتعظيم كأنه قيل: وبشرهم بما يَجُلُّ عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

(١١٣) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ روي أنه ﷺ قال لأبي طالب لمّا حضرته الوفاة: «قل كلمة أحاجّ لك بها عند الله» فأبىٰ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أزال استغفر لك ما لم أُنْهَ عنه» فنزلت[٣]. وقيل لما افتتح مكة خرج إلى الأَبْواء[٤] فزار قبرَ أمه ثم قام مستعبراً فقال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأَنزل علي الآيتين»[٥]. ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بأنْ ماتوا على الكفر. وفيه

---

(١) ● أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/٣٩) عن عائشة موقوفاً عليها بلفظ «سياحة هذه الأمة الصوم» وفي إسناده إبراهيم بن يزيد متروك الحديث [التقريب (١/ ٤٦ رقم ٣٠٣)].

● وأخرج ابن جرير (٧/ج١١/ ٣٧) عن عبيد بن عمير، قال: «سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال: هم الصائمونَ» بإسناد حسن ولكنه مرسل.

● وأخرج ابن جرير (٧/ج١١/ ٣٧) عن أبي هريرة، قال: قال لي رسول الله ﷺ «السائحون هم الصائمون» وفي إسناده حكيم بن حزام وهو متروك [الميزان (١/ ٥٨٥ رقم ٢٢١٨)].

● وأخرج الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٢٥٦ رقم ٩٠٩٥) عن عبدالله بن مسعود قال: «السائحون: الصائمون» وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٤) وقال فيه عاصم بن بدلة وقد وثقه جماعة وضعفه آخرون وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) ● أخرج البغوي في شرح السنة (٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١ رقم ٤٨٤) من حديث عثمان بن مظعون أن النبي ﷺ قال «إنّ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» بإسناد ضعيف لضعف رشدين بن سعد، وابن أنعم الأفريقي.

● وأخرج أبو داود (٣/ ١٢ رقم ٢٤٨٦) عن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة، قال النبي ﷺ: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى» وهو حديث حسن قاله الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ١٩٣ رقم ٣٨٨٤) ومسلم (١/ ٥٤ رقم ٣٩/ ٢٤).

من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه. وغفل الحاكم فاستدركه ـ كما في «الكافي الشافِ» ص٨٢ ـ.

(٤) مكان قريب من مكة.

(٥) ● أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ٤٢) عن بريده مثله لكن ليس فيه ذكر نزول الآيتين. وإسناده =

دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلَبُ توفيقهم للإيمان، وبه دفع النقيض باستغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر فقال:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

(١١٤) ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وعدها إبراهيمُ أباه بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[١] أي لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان فإنه يَجُبُّ ما قبله، ويدل عليه قراءة من قرأ أباه، أو وعدها إبراهيمَ أبوه وهي الوعد بالإيمان ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بأن مات على الكفر، أو أوحي إليه بأنه لن يؤمن[٢] ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قطع استغفاره. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ لَكَثير التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه. ﴿حَلِيمٌ﴾ صبور على الأذى. والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار له مع شكاسته عليه.

(١١٥) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ أي ليُسمِّيهم ضُلالاً ويؤاخذهم مؤاخذتَهم ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام. ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، وكأنه بيان عذر الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله لعمه أو لمن استغفر لأسْلافه المشركين قَبْل المنع. وقيل إنه في قوم مضوْا على الأمر الأول في القِبْلة والخمر ونحو ذلك. وفي الجملة دليل على أن الغافل غير مكلف. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أمرهم في الحالين.

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لمّا منعهم عنْ الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأساً بيّن لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا بشرِّ أَشَرَّهم إليه ويتبرؤوا مما عداه حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه.

(١١٧) ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ مِنْ إذن المنافقين في التخلف أو برأهم

= حسن.

● وأخرج ابن جرير (٧/ج١١/٤٢) عن ابن عباس بلفظ أن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك، فقال: وإن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه فأنزل الله «وما كان استغفار إبراهيم» إلى «لأوّاه حليم» بسند ضعيف.

(١) الممتحنة: «٤».

(٢) أو تبيّن له أنه مُصرّ على الكفر، وهو الأنسب.

عن علقة الذنوب كقوله تعالىٰ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[(١)] وقيل: هو بَعْثٌ على التوبة والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[(٢)] إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقِص دونَه ما هو فيه والترقي إليه توبة من تلك النقيصة وإظهارٌ لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده. ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ في وقتها، وهي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عُسْرة الظَّهْرِ ـ يَعْتَقِب العشرةُ على بعير واحد ـ والزادِ حتى قيل إن الرجلين كانا يقتسمان تمرةً والماءِ حتى شربوا القَيْظ[(٣)]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان أو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم، والعائد إليه الضمير في منهم. وقرأ حمزة وحفص يزيغ بالياء لأن تأنيث القلوب غير حقيقي، وقرىء من بعد ما زاغت قلوبُ فريق منهم يعني المتخلفين. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة، أو المراد أنه تاب عليهم لِكَيْدُودتهم. ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وتاب على الثلاثة: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع. ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ تخلفوا عن الغزو، أو خلف أمرهم فإنهم المرجَؤون. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، وهو مَثَلٌ لشدة الحيرة. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أُنس ولا سرور. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وعلموا. ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من سخطه. ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ إلا إلى استغفاره. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة. ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليُعدّوا من جملة التائبين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المتفضل عليهم بالنعم.

(١١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نية وقولاً وعملاً. وقرىء مِنَ الصادقين أي في توبتهم وإنابتهم فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة وأضرابهم.

---

(١) الفتح: «٢».

(٢) النور: «٣١».

(٣) والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه.

ووصف المهاجرين والأنصار باتباعهم له عليه السلام في تلك الساعة للمبالغة في بيان الحاجة إلى التوبة، وذلك أنهم لم يغنهم ذلك عنها فلا يستغني عنها غيرهم بالأولى والأحرى (س٤/١٠٩).

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

(١٢٠) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ نهي عبر به بصيغة النفي للمبالغة. ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ولا يصونوا أنفسهم عما لم يصن نفسه عنه ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال. روي أن أبا خيثمة بلغ بستانه، وكانت له زوجة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل ورُطَبٌ يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الضحّ والريح ما هذا بخير، فقام فرحّل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح، فمد رسول الله ﷺ طَرْفَه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة» فكَانَهُ، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له[1]. وفي لا يرغبوا يجوز النصب والجزم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ما كان من النهي عن التخلف أو وجوب المشايعة. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ شيء من العطش. ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب. ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ﴾ ولا يدوسون. ﴿مَوْطِئًا﴾ مكاناً. ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يغضبهم وطؤه. ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالقتل والأسر والنهب. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ إلا استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب المشايعة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وهو تعليل لكُتِب وتنبيهٌ على أن الجهاد إحسان أما في حق الكفار فلأنه سَعْي في تكميلهم بأقصى ما يمكن كضرب المُدَاوي للمجنون، وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم.

(١٢١) ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو علاقة. ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة. ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم، وهو كل مُنعرج ينفُذ فيه السيل، اسم فاعل من وَدِي إذا سال فشاع بمعنى الأرض. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أثبت لهم ذلك. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك.

---

(١) ● أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) من طريق ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم نحوه. وفي إسناده: أحمد بن عبدالجبار العطاردي: وهو ضعيف.
● وأخرجه البيهقي أيضاً (٥/ ٢٢٥) عن موسى بن عقبة.
● وأخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٣١ رقم ٥٤١٩) من طريق يعقوب بن محمد الزهري، ثنا إبراهيم بن عبدالله بن سعد بن خيثمة ثنا أبي عن أبيه به.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٩٢ ـ ١٩٣) وقال: فيه يعقوب بن محمد الزهري وهو ضعيف. قال: الحافظ في الإصابة (٣/ ٥٦): «والحق أنه غيره لإطباق أهل السير على أن صاحب هذه الترجمة استشهد ببدر» نقله مخرج المعجم الكبير قلت: ـ ويشهد لبعض الحديث ما أخرجه مسلم في أثناء قصة كعب (٤/ ٢١٢٢) وانظر «الكافي الشافِ» (ص٨٢ رقم ١٦١).

﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أعمالهم.

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾

(١٢٢) ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعاً فإنه يخل بأمر المعاش. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعةٌ قليلة. ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفَقَاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها. ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم، وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إرادة أن يحذروا عما ينذرون منه، واستُدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفةٌ إلى التفقه لتنذر فرقتها كي يتذكروا ويحذرُوا، فلو لم يعتبر الأخبار ما لم يتواتر لم يَفِد ذلك، وقد أشبعتُ القول فيه تقريراً واعتراضاً في كتابي (المرصاد). وقد قيل للآية معنى آخر وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفير وانقطعوا عن التفقه، فأُمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابُهم يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير في ليتفقهوا ولينذروا لبواقي الفِرَق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي رجعوا للطوائف أي ولينذروا لبواقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم.

(١٢٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أُمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل هم يهود حوالي المدينة كقريظة والنضير وخيبر. وقيل الروم فإنهم كانوا يسكنون الشأم وهو قريب من المدينة. ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وصبراً على القتال. وقرىء بفتح الغين وضمها وهما لغتان فيها. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالحراسة والإعانة.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم﴾ فمن المنافقين. ﴿مَّن يَقُولُ﴾ إنكاراً واستهزاء. ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ﴾ السورة. ﴿إِيمَـٰنًا﴾ وقرىء أيّكم بالنصب على إضمار فعل يفسره زادته. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر. ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه.

(١٢٦) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين. وقرىء بالتاء. ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بأصناف البليات، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات. ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم. ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ولا يعتبرون.

(١٢٧) ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية، أو غيظا لما فيها من عيوبهم. ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي يقولون هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يرهم أحد قاموا وإن يرهم أحد أقاموا. ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة. ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان، وهو يحتمل الإخبار والدعاء. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبرهم.

(١٢٨) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم عربي مثلكم. وقرىء مِنْ أَنْفَسِكُمْ أي من أشرفكم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد شاق. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على إيمانكم وصلاح شأنكم. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قَدّم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة محافظةً على الفواصل.

(١٢٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك. ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإنه يكفيك مَعَرَّتُهم ويعينك عليهم. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ المُلْك العظيم، أو الجسم العظيم المحيط الذي تنزل منه الأحكام والمقادير. وقرىء العظيمُ بالرفع. وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: أن آخر ما نزل هاتان الآيتان، وعن النبي ﷺ: «ما نزل القرآن علي إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة»(1) والله أعلم.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٨٣ رقم ١٦٧): ـ أخرجه ـ الثعلبي من حديث عائشة بإسناد واه.

سُورَةُ يُونُسَ

ترتيبها ١٠ — آياتها ١٠٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ
ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا
مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(١) ﴿الٓر﴾ فخمها[1] ابن كثير ونافع برواية قالون وحفص، وقرأ ورش بين اللفظين، وأمالها الباقون إجراء لألف الراء مجرى المنقلبة من الياء. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي والمراد من الكتاب أحدُهما، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحِكَم أو لأنه كلام حكيم، أو محكمٌ آياته لم ينسخ شيء منها.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب، وعَجَباً خبرُ كان واسمه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾. وقرىء بالرفع على أن الأمر بالعكس أو على أنّ كانَ تامة، وأن أوحينا بدل من عجباً، واللام للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم. ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ من أَفْناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم. قيل كانوا يقولون العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الأمور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة هذا وإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلا في المال وخفة الحال أعْوَن شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك. وقيل تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً كما سبق ذكره في سورة الأنعام[2]. ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أنْ هي المفسِّرة أو المخففة من الثقيلة، فتكون في موقع مفعول أوحينا. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عمم الإنذار إذ قلما من أحد

(١) أي الراء.
(٢) الأنعام: «٩١».

ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يُبَشَّروا به حقيقة. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم. ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة، سميت قدماً لأن السبْق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وإضافتُها إلى الصدق لتحققها والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيون لساحِرٌ على أن الإشارة إلى الرسول ﷺ، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة معجزة إياهم عن المعارضة. وقرىء «ما هذا إلا سحر مبين».

(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الممكنات[(١)]. ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يُقدِّر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته ويهيىء بتحريكه أسبابها وينزلها منه، والتدبير النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العاقبة[(٢)]. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ تقرير لعظمته وعزِّ جلاله وردٌّ على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وفيه إثباتُ الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية. ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غير إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك. ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحِّدوه بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

(٤) ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالموت أو النشور لا إلى غيره، فاستعدوا للقائه. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قولَه «إليه مَرجِعُكم» وعدٌ من الله. ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره، وهو ما دل عليه وعد الله ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد بدئه وإهلاكه. ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بعَدْله، أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم لأنه العدل القويم كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ فإن معناه ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم، لكنه غيَّرَ النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيهِ على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابةُ؛ والعقابُ واقعٌ بالعَرَض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه؛ ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم. والآية كالتعليل لقوله تعالى: «إليه مرجعكم

(١) وجمع السموات دون الأرض لما هو مشهور من أنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والأحكام (س٤/١١٨).
(٢) وإيثار صيغة المضارع في قوله «يدبر» للدلالة على تجدد التدبير واستمراره (س٤/١١٨).

جميعاً﴾ فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاةُ الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ أَنَّهُ يَبْدَأُ ـ بالفتح ـ أي لأنه، ويجوز أن يكون منصوباً أو مرفوعاً بما نَصَبَ وعد الله أو بما نَصَب حقاً.

(٥) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ أي ذاتَ ضياء، وهو مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط، والياءُ فيه منقلبة عن الواو. وقرأ ابن كثير برواية قنبل هنا وفي الأنبياء وفي القصص[1] ضِئَاءً بهمزتين على القلب بتقديم اللام على العين. ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ أي ذا نور، أو سمي نوراً للمبالغة وهو أعم من الضوء كما عرفت. وقيل ما بالذات ضوءٌ وما بالعَرَض نور، وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيراً بعَرَض مقابلةِ الشمس والاكتساب منها. ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ الضمير لكل واحد أي قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل، أو للقمر، وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازله وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علله بقوله: ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم[2]. ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلا ملتبساً بالحق مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة. ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنهم المنتفعون بالتأمل فيها. وقرأ ابن كثير والبصريان وحفص يُفَصِّل بالياء.

إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾

(٦) ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من أنواع الكائنات. ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته. ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ العواقب، فإنه يحملهم على التفكر والتدبر.

(٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها. ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها. ﴿ وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ وسكنوا إليها مُقْصرين هممهم على لذائذها وزخارفها، أو سكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها[3]. ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴾ لا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادها،، والعطف إما لتغاير الوصفين والتنبيهِ على أن الوعيد على

---

(١) الأنبياء: «٤٨» والقصص «٧١».

(٢) وتقديم العدد على الحساب ـ مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجوداً وعلماً على العكس ـ لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلاً وإن لم تتحد الجهة، أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر نازل من الحساب منزلة البسيط من المركب (س٤/ ١٢١).

(٣) وإيثار الباء على كلمة «إلى» المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للإيذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة.
واختيار صيغة الماضي في «رضوا» و«اطمأنوا» للدلالة على التحقق والتقرر.
وصيغة المستقبل في «يرجون» للإيذان باستمرار عدم الرجاء (س٤/ ١٢٢).

الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماكِ في الشهوات بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً وإما لتغاير الفريقين، والمراد بالأولين من أنكر البعث ولم يرَ إلاّ الحياة الدنيا وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له[(١)].

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي.

(٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة، أو لإدراك الحقائق كما قال عليه الصلاة والسلام «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[(٢)]، أو لما يريدونه في الجنة. ومفهوم الترتيب وإن دل على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله: ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ على استقلال الإيمان بالسببية وأن العمل الصالح كالتتمة والرديف له. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استئناف أو خبر ثان أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير، وقوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر أو حال أخرى منه أو من الأنهار، أو متعلق بتجري أو بيهدي.

(١٠) ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ أي دعاؤهم. ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ اللهم إنا نسبحك تسبيحاً. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ ما يحيي به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم. ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ وآخر دعائهم. ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أن يقولوا ذلك، ولعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال، ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف

---

(١) وتكرير الموصول للتوسل به إلى جعل صلته جملة اسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها (س٤/١٢٣).

(٢) وهو حديث باطل.
أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٤ ـ ١٥) من حديث أنس.
وقال أبو نعيم: «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه. وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل» هـ.
وأورده الفتني في «تذكرة الموضوعات» ص٢٠. وقال: «لأبي نعيم ضعيف» هـ.
وأورده العجلي في «كشف الخفا» (٢/ ٣٤٧ رقم ٢٥٤٢) وقال: «رواه أبو نعيم عن أنس» هـ.
وأورده الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٣٠٦ رقم ٤٤) وقال: «رواه أبو نعيم، وهو ضعيف» هـ.
وقال ابن السبكي: (٦/ ٢٩٠) لم أجد له إسناداً.
وانظر «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» استخرج أبي عبدالله الحداد (١/ ٢٠٧ رقم ١٩٠).

الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام «وأنْ هي المخففة من الثقيلة، وقد قرىء بها وبنصب الحمد.

۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

(١١) ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ ولو يسرعه إليهم. ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم أو بأن المرادَ شر استعجلوه كقولهم «فأمطر علينا حجارة من السماء» وتقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالاً كاستعجالهم بالخير فحُذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه. ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا. وقرأ ابن عامر ويعقوب لقضىٰ على البناء للفاعل وهو الله تعالى، وقرىء لقضينا[1]. ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية كأنه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضي فنذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً[2].

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه. ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ ملقى لجنبه، أي مضطجعاً. ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ يعني مضىٰ على طريقته واستمر على كفره، أو مر عن موقف الدعاء لا يرجع إليه. ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما قال:

ونَحْـــرٌ مُشْـــرِقُ اللَّـــوْنِ كَـــأَن ثَـــدْيَـــاهُ حُقَّـــان

﴿إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ إلى كشف ضر. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك التزيين. ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة[3]. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ حين ظلموا بالتكذيب واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم، وهو حال من الواو بإضمار قد أو عطف على ظلموا. ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ وما استقام لهم أن يؤمنوا

(١) وإيثار صيغة المبني للمفعول «القضي» للجري على سنن الكبرياء (س٤/ ١٢٥).

(٢) وفي وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما في حيز الصلة وإشعار بعليته للترك والاستدراج (س٤/ ١٢٦).

(٣) قوله «قبلكم» التفات من الغيبة إلى الحضور للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القَسَمي (س٤/ ١٢٧).

لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم وعلمه بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكُهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارُهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ نجزي كل مجرم أو نجزيكم، فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على كمال جُرمهم وأنهم أعلام فيه.

ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ
نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

(١٤) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أتعملون خيراً أو شراً فنعاملكم على مقتضى أعمالكم، و«كيف» معمول تعملون فإن معنى الاستفهام يَحْجُب أن يعملَ فيه ما قبلَه، وفائدتُه الدلالةُ على أن المعتبر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها لا هي من حيث ذاتها ولذلك يحسُن الفعل تارة ويَقْبُحُ أخرى.

(١٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني المشركين[1]. ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت، أو ما نكرهه من معايب آلهتنا. ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى، ولعلهم سألوا ذلك كي يسعفهم إليه فيَلْزَمُوه. ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ ما يصح لي. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ من قِبَل نفسي، وهو مصدر استعمل ظرفاً، وإنما اكتفي بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناعَ الإتيان بقرآن آخر. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ تعليل لما يكون، فإن المتبع لغيره في أمر لا يستبد بالتصرف فيه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض وردٌّ لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامُه واختراعُه ولذلك قيَّد التبديل في الجواب وسماه عصياناً فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ أي بالتبديل[2]. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح[3].

(١٦) ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ غير ذلك[4]. ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أَعْلَمَكم به على

---

(١) قوله «آياتنا» أضافها إليه تعالى لتشريفها والترغيب في الإيمان بها والترهيب من تكذيبها وإيراد فعل التلاوة مبنياً للمفعول مسنداً إلى الآيات للإشعار بعدم الحاجة لتعين التالي، وللإيذان بأن كلامهم في نفس المتلوّ دون التالي. (س٤/ ١٢٨).

(٢) قوله «ربي» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه السلام ـ لتهويل أمر العصيان وإظهار كمال نزاهته ـ عليه السلام ـ عنه. (س٤/ ١٢٩).

(٣) وإيراد اليوم بالتنوين التفخيمي ووَصْفِه بالعِظَم لتهويل ما فيه من العذاب (س٤/ ١٢٩).

(٤) وصُدِّر بالأمر المستقل «قل» مع كونه دخلاً تحت الأمر السابق إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه وإيذاناً باستقلاله =

لساني، وعن ابن كثير ولأَدْرَاكم ـ بلام التأكيد ـ أي لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأَعْلَمَكم به على لسان غيري، والمعنى أنه الحق الذي لا محيص عنه لو لم أُرْسَلْ به لأرسل به غيري. وقرىء ولا أَدْرَأْكُم، ولا أَدْرَأْتُكم بالهمز فيهما على لغة من يَقلِب الألف المبدلة من الياء همزة، أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أي ولا جعلتكم بتلاوته خُصَماء تدرؤونني بالجدال، والمعنى أن الأمر بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتي حتى أَجْعَلَهُ على نحو ما تشتهونه، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مقدار عمر أربعين سنة. ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً ولم يشاهد عالماً ولم ينشىء قريضاً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بزّت فصاحتُه فصاحة كل مِنْطيق وعَلاَ عن كل منثور ومنظوم واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه عُلِمَ أنه معلم به من الله تعالى. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا أنه ليس إلا من الله.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تَفَادٍ مما أضافوه إليه كناية، أو تظليمٌ للمشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم إنه لذو شريك وذو ولد[1]. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فكفَرَ بها. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فإنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضر، والمعبود ينبغي أن يكون مُثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر[2]. ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأوثان. ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكّين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة الموجِد الضارّ النافع إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده. ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ أتخبرونه. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً، أو هؤلاء شفعاءٌ عنده، وما لا يعلمه العالم بجميع المعلومات لا يكون له تحقق ما، وفيه تقريع وتهكم بهم ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من العائد المحذوف مؤكِّدة للنفي منبهة على أن ما يعبدون من دون الله إما سماوي وإما أرضي، ولا شيء من الموجودات

= مفهوماً وأسلوباً (س٤/ ١٢٩).

(١) وفي زيادة «كذباً» ـ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك ـ للإيذان بأن ما أضافوه إليه ضمناً وحمّلوه ـ عليه السلام ـ عليه صريحاً مع كونه افتراء على الله كذب في نفسه فَرُبّ افتراء يكون كذبه في الإسناد فقط (س٤/ ١٣١).

(٢) وتقديم نفي الضرر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذي هو أول المنافع (س٤/ ١٣١).

فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرَك به. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الموضعين في أول النحل والروم[١] بالتاء.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

(١٩) ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ موحدين على الفطرة أو متفقين على الحق، وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قَتَل قابيلُ هابيل[٢] أو بعد الطوفان، أو على الضلال في فترة من الرسل. ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام فتبعتهم طائفة وأصرت أخرى. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الحكم بينهم، أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق[٣].

(٢٠) ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي من الآيات التي اقترحوها. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة من مفاسدَ تصرفُ عن إنزالها. ﴿فَانتَظِرُوا﴾ لنزول ما اقترحتموه. ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم ما نزل علي من الآيات العظام واقتراحكم غيره.

(٢١) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ صحة وسعة. ﴿مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كقحط ومرض. ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ بالطعن فيها والاحتيال في دفعها. قيل قَحِطَ أهلُ مكة سبعَ سنين حتى كادوا يَهْلِكون ثم رحمهم الله بالحيا فطفقوا يقدحون في آيات الله ويكيدون رسوله. ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ منكم قد دَبّر عقابكم قبل أن تدبروا كيدهم، وإنما دل على سرعتهم المفضل عليها كلمة المفاجأة الواقعة جواباً لإذا الشرطية. والمكرُ إخفاء الكيد، وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحَفَظَة فضلاً أن يخفى على الله تعالى، وعن يعقوب يمكرون بالياء ليوافق ما قبله.

---

(١) النحل: ١، ٣ والروم: (٤٠).

(٢) وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/٩٨) عن مجاهد.
وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٤/٣٤٩) إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) وصيغة الاستقبال في «يختلفون» لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار. وكذا قوله «ويقولون» بعده (س٤/١٣٢ ـ ١٣٣).

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ
عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ
هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا
بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ
ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا
كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ يحملكم على السير ويمكنكم منه. وقرأ ابن عامر يَنْشُرُكم بالنون والشين، من النشر. ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ في السفن، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ بمن فيها، عَدَلَ عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب. ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ بتلك الريح. ﴿جَآءَتْهَا﴾ جواب إذا، والضمير للفلك أو للريح الطيبة، بمعنى تلقتها. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف شديدة الهبوب. ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يجيء الموج منه. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أُهلِكوا وسُدّت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدو. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير إشراك لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، وهو بدل مِنْ ظنّوا بدلَ اشتمال لأن دعاءهم من لوازم ظنهم. ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على إرادة القول، أو مفعول دَعَوُا لأنه من جملة القول[1].

(٢٣) ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ إجابة لدعائهم[2]. ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فاجَؤُوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مبطلين فيه، وهو احتراز عن تخريب المسلمين ديار الكفرة واحتراق زروعهم وقلع أشجارهم فإنها إفساد بحق. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ فإن وباله عليكم، أو أنه على أمثالكم أبناء جنسكم. ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منفعة الحياة الدنيا لا تبقى ويبقىٰ عقابها، ورفعُه على أنه خبر بَغْيكم وعلى أنفسكم صلتُه، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبرُ بغيكم، ونَصَبَهُ حفصٌ على أنه مصدر مؤكد أي تتمتعون متاعَ الحياة الدنيا أو مفعول البغي لأنه بمعنى الطلب فيكون الجارّ من صلته والخبر محذوف تقديره بغيكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ضلال، أو مفعولُ فعل دل عليه البغي وعلى أنفسكم خبرُه. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في القيامة. ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه.

(٢٤) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حالُها العجيبة في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار

---

(١) وفي قوله «من الشاكرين» من المبالغة ـ أي ثابتين في الشكر مثابرين عليه ـ ما ليس في أن يقال لنشكرنّ (س٤/ ١٣٥).

(٢) والفاء للدلالة على سرعة الإجابة (س٤/ ١٣٥).

الناس بها. ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضُه بعضاً. ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من الزروع والبقول والحشيش. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حُسْنها وبهجتها. ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروس أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها. وازينت أصله تَزَيَّنت فأدغم، وقد قرىء على الأصل، وأَزيَنَت على أَفْعلت من غير إعلال كأغيلت والمعنى صارت ذاتَ زينة، وازيانَّت كابياضت. ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها. ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ ضَرَب زرعَها ما يجتاحُه. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾ فجعلنا زرعها. ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما حصد من أصله. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث، والمضاف محذوف في الموضعين للمبالغة. وقرىء بالياء على الأصل. ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ فيما قبيله. وهو مَثَلٌ في الوقت القريب، والممثَّل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات فجأةً وذهابُه حطاماً بعدما كان غضاً والتفّ وزيّن الأرض، حتى طَمِع فيه أهلُه وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماء، وإنْ وَلِيَه حرفُ التشبيه لأنه من التشبيه المركب. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار السلام من التقضّي والآفة، أو دار الله وتخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبيه على ذلك، أو دارٍ يُسَلِّم اللهُ والملائكة فيها على مَنْ يدخلها والمراد الجنة. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو طريقها وذلك الإسلام والتدرع بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غيرُ الإرادة وأن المُصِرَّ على الضلالة لم يُرِد الله رشدَه.

(٢٦) ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وما يزيد على المثوبة تفضلاً، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وقيل[١] الحسنى مِثْلُ حسناتهم والزيادة عَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، وقيل[٢] الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وقيل الحسنى الجنة والزيادة هي اللقاء[٣]. ﴿وَلَا يَرْهَقُ

---

(١) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٠٧ ـ ١٠٨) عن قتادة قال: كان الحسن يقول في هذه الآية «للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة» قال، الزيادة، بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٠٨) عن مجاهد.

(٣) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٠٨) عن ابن زيد. في قوله «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال الحسنى: الجنة، وزيادة: ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة، وقرأ «وآتيناه أجره في الدنيا» قال: ما آتاه مما يجب في الدنيا عجّل له أجره فيها.

● وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة =

﴿وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها. ﴿قَتَرٌ﴾ غَبَرة فيها سواد[١]. ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوان، والمعنى لا يرهقهم ما يُرهق أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على قوله «للذين أحسنوا الحسنى» على مذهب من يجوِّز: في الدار زيد والحجرةِ عمرو، أو الذين مبتدأ والخبر جزاء سيئة بمثلها على تقدير: وجزاءُ الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أي أن تجازىٰ سيئة بسيئة مثلها لا يزاد عليها، وفيه تنبيه على أن الزيادة هي الفضل أو التضعيف، أو كأنما أغشيت وجوههم، أو أولئك أصحاب النار وما بينَهما اعتراض فجزاء سيئة مبتدأ وخبرُه محذوف أي فجزاء سيئة بمثلها واقع، أو بمثلها على زيادة الباء أو تقدير مقدر بمثلها[٢]. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وقرىء بالياء[٣]. ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله، أو من جهة الله ومَنْ عنده كما يكون للمؤمنين. ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ غطيت. ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لفرط سوادها وظلمتها، ومُظْلِماً حال من الليل والعاملُ فيه أغشيت لأنه العامل في قِطَعاً وهو موصوف بالجار والمجرور، والعاملُ في الموصوف عامل في الصفة أو معنى الفعل في من الليل. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب قِطْعَاً بالسكون فعلى هذا يصح أن يكون مُظْلِماً صفة له أو حالاً منه. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مما يحتج به الوعيدية. والجواب أن الآية في الكفار لاشتمال السيئات على الكفر والشرك ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة فلا يتناولهم قسيمة.

= عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غرفاً من لآليء، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته وعمّ ربنا جل ثناؤه بقوله: (وزيادةٌ): الزيادات على الحسنى، فلم يخصص منها شيئاً دون شيء، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يعمّ كما عمه عزّ ذكره» اهـ.

وأخرج مسلم (١/١٦٣ رقم ٢٩٧/١٨١) عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، قال يقول اللهُ تبارك وتعالى: تريدونَ شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجابَ فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وانظر تفسير ابن كثير (٢/٤٢٩ ـ ٤٣٠) وكتابنا «الأدلة المعتبرة في إثبات النظر إلى الله في الآخرة».

(١) قدم المفعول «وجوهَهم» على الفاعل «قترٌ» للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم، وللتشويق إلى المؤخر (س٤/١٣٨).

(٢) وإيراد الكسب للإيذان بأن ذلك إنما هو لسوء صنيعهم وبسبب جناياتهم على أنفسهم (س٤/١٣٨).

(٣) وفي إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذانٌ بأنها محيطة بهم غاشية لهم جميعاً (س٤/١٣٩).

(٢٨) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يعني الفريقين جميعاً. ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ ﴾ الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يُفعل بكم[١]. ﴿ أَنتُمْ ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إليه من عامله. ﴿ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ عطف عليه. وقرىء بالنصب على المفعول معه. ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا الوُصَل التي كانت بينهم. ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ مجاز عن براءة ما عبدوه من عبادتهم فإنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم لأنها الآمرةُ بالإشراك لا ما أشركوا به. وقيل يُنْطِق الله الأصنام فتشافههُم بذلك مكان الشفاعة التي يتوقعون منها. وقيل المراد بالشركاء الملائكة والمسيح وقيل الشياطين.

فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه العالم بكُنْه الحال. ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة[٢].

(٣٠) ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المقام. ﴿ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ تختبر ما قدمت من عمل فتعاين نفعَه وضره. وقرأ حمزة والكسائي تتلو من التلاوة أي تقرأ ذكر ما قدمت، أو من التَّلْوِ أي تَتْبَعُ عملَه فيقودها إلى الجنة أو إلى النار. وقرىء نبلو بالنون ونصب كل وإبدال ما منه، والمعنى نختبرها أي نفعل بها فعل المختبر لحالها المتعرف لسعادتها وشقاوتها بتعرف ما أسلفت من أعمالها، ويجوز أن يراد به نصيب بالبلاء أي بالعذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فتكون ما منصوبة بنزع الخافض. ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى جزائه إياهم بما أَسْلَفوا. ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة لا ما اتخذوه مولًى، وقرىء الحقَّ بالنصب على المدح أو المصدر المؤكد. ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وضاع عنهم. ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

(٣١) ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي منهما جميعاً فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحد منهما توسعة عليكم. وقيل مِنْ لبيان مَنْ على حذف المضاف، أي مِنْ أهل السماء والأرض. ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أم من يستطيع خلقَهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء. ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ومن يحيي ويميت، أو من ينشىء الحيوان من النطفة والنطفة منه. ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم، وهو تعميم بعد تخصيص. ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك

---

(١) قوله «للذين أشركوا» حيث خصص وصف إشراكهم بالذكر في حيز الصلة من بين ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه من الإيذان بكونه معظم جناياتهم (س٤/ ١٣٩).

(٢) وقوله «عن عبادتكم» أي عبادتكم لنا، ولم يصرح به لظهوره وللإيذان بكمال الغفلة عنها (س٤/ ١٤٠).

لفرط وضوحه. ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنفسكم عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي المتولي لهذه الأمور المستحق للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ استفهامُ إنكارٍ، أي ليس بعد الحق إلا الضلال فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال[١]. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال[٢]. .

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كما حقت الربوبية لله أو أن الحق بعده الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة الله وحكمه. وقرأ نافع وابن عامر كلمات هنا وفي آخر السورة وفي غافر[٣] ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة أو تعليل لحقيقتها، والمراد بها العِدَة بالعذاب.

(٣٤) ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها وإن لم يساعدوا عليها، ولذلك أُمِر الرسول ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لأن لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن قصد السبيل.

(٣٥) ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بنصب الحجج وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيقِ للنظر والتدبر، وهَدَىٰ كما يُعدّىٰ بإلى لتضمنه معنى الانتهاء يُعدّى باللام للدلالة على أن المنتهى غايةُ الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما أُسند إلى الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أم الذي لا يهتدي إلا أن يُهْدَىٰ من قولهم: أهدى بنفسه إذا اهتدى، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وهذا حال أشراف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير[٤]. وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر يَهَدِّي بفتح الهاء وتشديد

---

(١) إظهار لفظة «الحق» إما لأن المراد به غير الأول أو لزيادة التقرير ومراعاة المقابلة بينه وبين الضلال (س٤/ ١٤٢).

(٢) وقوله «تُصرفون» حيث آثر صيغة المبني للمفعول للإيذان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال مما لا يصدر عن العاقل بإرادته، وإنما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجي (س٤/ ١٤٢).

(٣) آخر السورة الآية «٩٦» وغافر الآية «٦».

(٤) وإنما نفىٰ عنه الاهتداء ـ مع أن المفهوم نفي الهداية ـ لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالباً، فإن من اهتدىٰ إلى الحق لا يخلو عن هداية (س٤/ ١٤٤).

الدال، ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد، والأصل يهتدي فأُدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين، وروى أبو بكر يهدي بإتباع الياء الهاء، وقرأ أبو عمرو بالإدغام المجرد ولم يبالِ بالْتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك، وعن نافع برواية قالون مثله، وقرىء إلا أن يُهَدّى للمبالغة ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريحُ العقل بطلانَه.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

(٣٦) ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يعتقدونه. ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأَقْيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة، والمراد بالأكثر الجميع أو مَنْ ينتمي منهم إلى تمييزٍ ونظر ولا يرضى بالتقليد الصِّرْف[1]. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ من العلم والاعتقاد الحق. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، ويجوز أن يكون مفعولاً به ومن الحق حالاً منه، وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان.

(٣٧) ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ افتراء من الخلق. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها، ولا يكون كذباً، كيف وهو لكونه معجزاً دونها عيار عليها شاهد على صحتها؟! ونصبه بأنه خبر لِكَان مقدراً أو علة لفعل محذوف تقديره: ولكن أنزله الله تصديق الذي. وقرىء بالرفع على تقدير ولكنْ هو تصديقُ. ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ منتفياً عنه الريب. وهو خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب فإنه مفعول في المعنى، وأن يكون استئنافاً. ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبرٌ آخر تقديره كائناً من رب العالمين، أو متعلق بتصديق أو تفصيل ولا ريب فيه اعتراض، أو بالفعل المعلل بهما، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب أو من الضمير في فيه. ومساق الآية بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه.

(٣٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون. ﴿افْتَرَاهُ﴾ محمد ﷺ، ومعنى الهمزة فيه للإنكار. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ في البلاغة وحسْن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً في النظم والعبارة. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمَنْ أمكنكم أن تستعينوا به. ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله تعالى فإنه وحده قادر على ذلك[2]. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه.

---

(١) أو أن تخصيص الأكثر بذلك للإشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد وبطلان الشرك (س٤/١٤٥).

(٢) وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم في عُدْوة المضادة والمشاقة، لا لبيان=

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ
فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ
أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ بل سارعوا إلى التكذيب. ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً من ذكر البعث والجزاء وسائر ما يخالف دينهم[١]. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، والمعنى أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ثم إنهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه، ومعنى التوقع في «لمّا» أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا قواهم في معارضته فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبقاً لأخباره مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً. ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

(٤٠) ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المكذبين. ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ من يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من سيؤمن به ويتوب عن الكفر. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو المصرين.

(٤١) ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وإن أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة. ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ فتبرأ منهم فقد أعذرت، والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً. ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم. ولما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم قيل إنه منسوخ بآية السيف.

(٤٢) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن وعلّمت الشرائع ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً[٢]. ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ تقدر على إسماعهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم. وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك

= استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه (س٤/١٤٦).

(١) والتعبير عنه «بما لم يحيطوا بعلمه» دون أن يقال: بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للإيذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به، لما أن إدارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية ما في حيّز الصلة له (س٤/١٤٦).

(٢) وجمع الضمير في «يستمعون» رعاية لجانب المعنى، كما أفرد فيما يأتي «مَنْ ينظر..» محافظة على ظاهر اللفظ. ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظُّلمة (س٤/١٤٨).

لا توصف به البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولُهم لما كانت مؤوفة[١] بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليدِ تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(٤٣) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك. ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ تقدر على هدايتهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك يحدس الأعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبري والإعراض عنهم.

(٤٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم. ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم، وفيه دليل على أن للعبد كسباً وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت المجبرة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بمعنى أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله لا يظلمهم به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. وقرأ أبو عمرو والكسائي بالتخفيف ورفع الناس[٢].

(٤٥) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور لهول ما يرون. والجملة التشبيهية في موضع الحال أي يحشرهم مشبَّهين بمن لم يلبث إلا ساعة، أو صفة ليوم والعائد محذوف تقديره: كأن لم يلبثوا قبله أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله[٣]. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وهذا أول ما نشروا ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم. وهي حال أخرى مقدرة، أو بيان لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾، أو متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم يحشرهم. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ استئناف للشهادة على خسرانهم والتعجب منه، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في يتعارفون على إرادة القول[٤]. ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق استعمال ما منحوا من المَعَاوِن في تحصيل المعارف فاستكسبوا بها جهالات أدت بهم إلى الردىٰ والعذاب الدائم.

---

(١) (مؤوفة) أي مصابة بالآفة.

(٢) أي «ولكنْ الناسُ».

(٣) وتخصيص الساعة بالنهار لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل (س٤/ ١٥٠).

(٤) والتعبير عنهم بالموصول ـ مع كون المقام مقام إضمار ـ لذمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعليته لما أصابهم (س٤/ ١٥٠).

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ
فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٦) ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ نبصرنك. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك كما أراه يوم بدر. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك. ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنريكه في الآخرة، وهو جواب نتوفينك، وجوابُ نرينّك محذوف مثل فذاك. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مجاز عليه ذكرُ الشهادة، وأراد نتيجتَها ومقتضاها، ولذلك رتبها على الرجوع بثم. أو مؤدٍّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة.

(٤٧) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية. ﴿رَّسُولٌ﴾ يُبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق. ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه. ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين الرسول ومكذبيه. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل فأنجي الرسول وأُهلك المكذبون. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقيل معناه لكل أمة يوم القيامة رسول تُنسب إليه فإذا جاء رسولهم الموقفَ ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضي بينهم بإنجاء المؤمنين وعقاب الكفار لقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استبعاداً له واستهزاء به. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

(٤٩) ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب إليكم[2]. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملكه، أو ولكن ما شاء الله من ذلك كائن. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروب لهلاكهم. ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون فلا تستعجلون فسَيَحين وقتكم وينجز وعدكم[3].

(٥٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به. ﴿بَيَٰتًا﴾ وقت بيات واشتغال بالنوم. ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حين كنتم مشتغلين بطلب معاشكم. ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أيّ شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وهو متعلق بأرأيتم لأنه بمعنى أخبروني، والمجرمون

---

(١) الزمر: «٦٩».
(٢) وتقديم الضر لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه، وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز. وما وقع في سورة الأعراف «١٨٨» من تقديم النفع للإشعار بأهميته والمقام مقامه (س٤/١٥١).
(٣) وإظهار «أجلهم» في موقع الإضمار لزيادة التقرير، وإضافة الأجل إليهم لإفادة التعيين.
وقوله «يستأخرون» بصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم.
وتقديم يستأخرون على يستقدمون لأن المقصود الأهم هو بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة. أما قوله تعالى: «ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» ـ الحجر «٥» ـ فلأن المراد هناك بيان سرّ تأخير عذابهم مع استحقاقهم له (س٤/١٥٢).

وُضِع موضع الضمير للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء العذاب لا أن يستعجلوه، وجوابُ الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه، ويجوز أن يكون الجواب ماذا كقولك إن أتيتك ماذا تعطيني وتكون الجملة متعلقة بأرأيتم أو بقوله:

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ بمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، وماذا يستعجل اعتراضٌ، ودخول حرف الاستفهام على ثم لإنكار التأخير. ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به؟! وعن نافع آلان بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

(٥٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطف على قيل المقدر. ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المؤلم على الدوام. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

(٥٣) ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ ويستخبرونك. ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أحق ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة تقوله بجد أم باطل تهزل به قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة، والأظهرُ أن الاستفهام فيه على أصله لقوله: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾. وقيل إنه للإنكار، ويؤيده أنه قرىء آلحق هو فإن فيه تعريضاً بأنه باطل، وأحقّ مبتدأ والضمير مرتفِع به ساد مسد الخبر أو خبر مقدم والجملة في موضع النصب بيستنبئونك. ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ إن العذاب لكائن أو ما ادعيتُه لثابت، وقيل كلا الضميرين للقرآن. وإي بمعنى نعم، وهو من لوازم القسم، ولذلك يوصل بواوه في التصديق فيقال إي والله ولا يقال إي وحده. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب.

(٥٤) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو التعدي على الغير ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من خزائنها وأموالها. ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنهم بُهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهوله فلم يقدروا أن ينطقوا. وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن إخفاءها إخلاصها، أو لأنه يقال سرُّ الشيء لخالصته من حيث إنها تَخفىٰ ويضن بها. وقيل أظهروها من قولهم أسر الشيء وأسره إذا أظهره[١]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ليس تكريراً لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم والثاني مجازاة المشركين على الشرك أو

---

(١) قوله «وأسرّوا» حيث عدل إلى صيغة الجمع ـ مع تحقق العموم في صورة الإفراد ـ لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار بطريق المعية والاجتماع.. (س٤/ ١٥٤).

الحكومة بين الظالمين والمظلومين، والضمير إنما يتناولهم لدلالة الظلم عليهم.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

(٥٥) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب. ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب كائن لا خُلف فيه[١]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون، لقصور عقولهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

(٥٦) ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في العقبىٰ لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت أو النشور.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم فنجوْا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتنكير فيها للتعظيم.

(٥٨) ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ بإنزال القرآن، والباء متعلقة بفعل يفسره قولُه: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ فإن اسم الإشارة بمنزلة الضمير تقديرُه بفضل الله وبرحمته فليعتنوا أو فليفرحوا فبذلك فليفرحوا، وفائدةُ ذلك التكريرِ التأكيدُ والبيان بعد الإجمال وإيجابُ اختصاص الفضل والرحمة بالفرح أو بفعل دل عليه قد جاءتكم، وذلك إشارة إلى مصدره أي فبمجيئها فليفرحوا[٢]. والفاء بمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فيهما فليفرحوا، أو للربط بما قبلها والدلالةِ على أن مجيء الكتاب الجامع بين هذه الصفات موجب للفرح، وتكريرُها للتأكيد كقوله:

وإِذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاجْزَعِي

وعن يعقوب فلتفرحوا بالتاء على الأصل المرفوض، وقد روي مرفوعاً ويؤيده أنه قرىء فافرحوا. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا فإنها إلى الزوال قريب، وهو ضمير ذلك. وقرأ ابن عامر تجمعون بالتاء، على معنى فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما تجمعونه أيها المخاطبون.

---

(١) إظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعلة الحكم.
وتصدير الجملتين بحرفي التنبيه والتحقيق «ألا إنّ» لبيان تحقق مضمونهما ووجوب المحافظة عليهما (س٤/ ١٥٥).

(٢) وتكرير الباء في «رحمته» للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح (س٤/ ١٥٦).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

(٥٩) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ جَعَل الرزق مُنَزَّلاً لأنه مقدر في السماء محصّل بأسباب منها، و«ما» في موضع النصب بأنزل أو بأرأيتم فإنه بمعنى أخبروني، و«لكم» دل على أن المراد منه ما حل ولذلك وبخ على التبعيض فقال: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[١] مثل: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾[٢] ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾[٣] ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التحريم والتحليل فتقولون ذلك بحكمه. ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ في نسبة ذلك إليه، ويجوز أن تكون المنفصلة متصلة بأرأيتم وقُلْ مكرر للتأكيد وأن يكون الاستفهام للإنكار، وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها تقرير لافترائهم على الله[٤].

(٦٠) ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي شيء ظنهم؟[٥] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبون أن لا يجازوا عليه؟ وهو منصوب بالظن، ويدل عليه أنه قرىء بلفظ الماضي لأنه كائن، وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة.

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ ولا تكون في أمر، وأصله الهمز من شَأَنْتُ شأنَه إذا قصدت قصده، والضمير في ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ له لأن تلاوة القرآن معظم شأن الرسول، أو لأن القراءة تكون لشأن فيكون التقدير من أجله، ومفعول تتلو ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ على أنّ مِنْ تبعيضية أو مزيدة لتأكيد النفي أو للقرآن، وإضمارُه قبل الذكر ثم بيانُه تفخيم له أو لله. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر حيث خص ما فيه فخامة وذكر حيث عم ما يتناول الجليل والحقير. ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رُقَباء مطلعين عليه. ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون فيه وتندفعون. ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ ولا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه. وقرأ الكسائي بكسر الزاي هنا وفي

---

(١) وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (س٤/١٥٦).
(٢) الأنعام: «١٣٨».
(٣) الأنعام: «١٣٩».
(٤) وأظهر الاسم الجليل وقدمه على الفعل «تفترون» دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيداً للتبكيت عليهم (س٤/١٥٦).
(٥) وزيادة لفظ «الكذب» مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً ـ لإظهار كمال قبح ما افتعلوا، وكونه كذباً في اعتقادهم أيضاً (س٤/١٥٧).

سبأ[١]. ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ موازن نملة صغيرة، أو هباء. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في الوجود والإمكان فإن العامة لا تعرف ممكناً غيرهما ليس فيهما ولا متعلقاً بهما. وتقديمُ الأرض لأن الكلام في حال أهلها، والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها. ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرِّر لما قبله، و«لا» نافية وأصغر اسمها وفي كتاب خبرها. وقرأ حمزة ويعقوب بالرفع على الابتداء والخبر، ومَنْ عَطَفَ على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بَدَلَ الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعاً، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفوات مأمول. والآية كمُجْمَل فسره قولُه:

(٦٣) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وقيل الذين آمنوا وكانوا يتقون بيانٌ لتولّيهم إياه.

(٦٤) ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما بَشَّرَ به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، وما يريهم من الرؤيا الصالحة، وما يسنح لهم من المكاشفات وبشرى الملائكة عند النزع. ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلِّمين مبشرين بالفوز والكرامة، بيانٌ لتوليه لهم، ومحل الذين آمنوا النصب أو الرفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء وخبرُه لهم البشرى. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلافَ لمواعيده. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشَّرين في الدارين. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشَّر به وتعظيم شأنه، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله.

(٦٥) ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم. وقرأ نافع يُحْزِنْكَ من أَحْزَنَه، وكلاهما بمعنى[٢]. ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئناف بمعنى التعليل، ويدل عليه القراءة بالفتح، كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جميعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم. ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعزماتهم فيكافئهم عليها.

---

(١) سبأ: «٣».

(٢) وتخصيص النهي عن الحزن بالإيراد ـ مع شمول النفي السابق للحزن أيضاً ـ لما أنه لم يكن فيه ﷺ شائبة خوف حتى ينهى عنه، وربما كان يعتريه في بعض الأوقات نوع حزن فسلّي عن ذلك (س٤/ ١٦١).

(٦٦) ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ ﴾ من الملائكة والثقلين(١)، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً لا يصلح أحد منهم للربوبية فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له نداً أو شريكاً فهو كالدليل على قوله: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ ﴾ أي شركاء على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء، ويجوز أن يكون شركاء مفعول يَدْعون ومفعولُ يتبع محذوفٌ دل عليه: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ أي ما يتبعون يقيناً وإنما يتبعون ظنَّهم أنها شركاء، ويجوز أن تكون ما استفهامية منصوبة بيتبع أو موصولة معطوفة على مَنْ. وقرىء تَدْعُون بالتاء الخطابية. والمعنى: أي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين؟ أي أنهم لا يتبعون إلا الله ولا يعبدون غيره فما لكم لا تتبعونهم فيه كقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾(٢) فيكون إلزاماً بعد برهان، وما بعده مصروف عن خطابهم لبيان سندهم ومنشأ رأيهم. ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يكذبون فيما ينسبون إلى الله، أو يحزرون ويقدِّرون أنها شركاء تقديراً باطلاً.

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٧) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ ﴾ تنبيه على كمال قدرته وعظم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة، وإنما قال مبصراً ولم يقل لتبصروا فيه تفرقةً بين الظرف المجرد والظرف الذي هو سبب. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واعتبار.

(٦٨) ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ ﴾ أي تبنّاه. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥۖ ﴾ تنزيه له عن التبني فإنه لا يصح إلا ممن يُتصور له الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء. ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ ﴾ علة لتنزيهه، فإن اتخاذ الولد مسبَّب عن الحاجة. ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ تقرير لغناه. ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ ﴾ نفي لمعارض ما أقامه من البرهان مبالغة في تجهيلهم وتحقيقاً لبطلان قولهم، و«بهذا» متعلقٌ بسلطان أو نعت له أو بعندكم كأنه قيل: إنْ عندكم في هذا من سلطان(٣). ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم. وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ.

---

(١) وتخصيصهم بالذكر للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم، فإنهم مع شرفهم وعلوّ طبقتهم إذا كانوا عبيداً له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك (س٤/ ١٦١).

(٢) الإسراء: «٥٧».

(٣) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإفحام (س٤/ ١٦٣).

قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ
كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه. ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

(٧٠) ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي افتراؤُهم متاعٌ في الدنيا يقيمون به رئاستهم في الكفر أو حياتُهم أو تقلبهم مبتدأ خبره محذوف أي لهم تمتع في الدنيا. ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد. ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ خبرُه مع قومه. ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ عَظُمَ عليكم وشقّ. ﴿ مَّقَامِي ﴾ نفسي كقولك فعلت كذا لمكان فلان، أو كوني وإقامتي بينكم مدة مديدة، أو قيامي على الدعوة. ﴿ وَتَذْكِيرِي ﴾ إياكم. ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وثقت به. ﴿ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ ﴾ فاعزموا عليه. ﴿ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي مع شركائكم، ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير أن يؤكَّد للفصل. وقيل إنه معطوف على أمركم بحذف المضاف أي وأَمْرِ شركائِكم. وقيل إنه منصوب بفعل محذوف تقديره وادعوا شركاءكم وقد قرىء به، وعن نافع فَاجْمَعُوا من الجمع، والمعنى أَمَرَهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم. ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ ﴾ في قصدي. ﴿ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ مستوراً واجعلوه ظاهراً مكشوفاً، مِنْ غَمَّه إذا ستره. أو ثم لا يكن حالكم عليكم غماً إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ ﴾ أدوا. ﴿ إِلَيَّ ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي. وقرىء ثم أَفْضُوا إلى بالفاء أي انتهوا إليَّ بِشَرِّكم أو ابرزوا إليّ، من أفضى إذا خرج إلى الفضاء. ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ولا تمهلوني.

(٧٢) ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أعرضتم عن تذكيري. ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ يوجب تولّيكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني لتوليكم. ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ ما ثوابي على الدعوة والتذكير. ﴿ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لا تعلق له بكم يثيبني به آمنتم أو توليتم. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره.

(٧٣) ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فأصروا على تكذيبه بعد ما ألزمهم الحجة وبيّن أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم، لا جَرَمَ حقت عليهم كلمة العذاب. ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ من الغرق. ﴿ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ وكانوا ثمانين. ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ من الهالكين به. ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾

بالطوفان[١]. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ، وتسلية له.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا. ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح. ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كل رسول إلى قومه. ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر وخذلان الله إياهم. ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف. وفي أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد، وقد مر تحقيق ذلك.

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ من بعد هؤلاء الرسل. ﴿مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التسع[٢]. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباعهما. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ معتادين الإجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترؤوا على ردها.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وعرفوه بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك. ﴿قَالُوا﴾ من فرط تمردهم. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أنه سحر، أو فائق في فنه واضح فيما بين إخوانه.

(٧٧) ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ إنه لسحر فحُذِف المحكي المقول لدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يكون: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ لأنهم بتّوا القول بل هو استئناف بإنكار ما قالوه، اللهم إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكي مفهوم قولهم، ويجوز أن يكون معنى أتقولون للحق أتعيبونه من قولهم فلان يخاف القالة كقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾[٣] فيستغني عن المفعول[٤].

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ من تمام كلام موسى للدلالة على أنه ليس بسحر فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يُبْطل سحْرَ السحرة. ولأن العالِمَ بأنه لا يفلحُ الساحرُ لا يُسْحَر، أو من تمام قولهم إن جعل ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ محكياً كأنهم قالوا أجئتنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون.

---

(١) قدم ذكر الإنجاء والاستخلاف على الإغراق لإظهار كمال العناية بشأن المقدم، ولتعجيل المسرة للسامعين، وللإيذان بسبق الرحمة على الغضب (س٤/١٦٥).

(٢) وتخصيص الملأ بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والملمات (س٤/١٦٧).

(٣) الأنبياء: «٦٠».

(٤) وتقديم الخبر «سحر» للإيذان بأنه مدار الإنكار (س٤/١٦٨).

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ
فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ
قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ
أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا ﴾ لتصرفنا، واللفت والفتل أخوان. ﴿ عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا ﴾ من عبادة الأصنام. ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ الملك فيها سمي بها لاتصاف الملوك بالكبر، أو التكبر على الناس باستتباعهم. ﴿ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ بمصدقين فيما جئتما به[١].

(٧٩) ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بكل سَحّار. ﴿ عَلِيمٖ ﴾ حاذق فيه.

(٨٠) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾[٢].

(٨١) ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحراً. وقرأ أبو عمرو آلسحر على أنّ ما استفهامية مرفوعة بالابتداء وجئتم به خبرُها والسحر بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف تقديره أهو السحر، أو مبتدأ خبره محذوف أي آلسحر هو، ويجوز أن ينتصب ما بفعل يفسره ما بعده وتقديره أي شيء أتيتم. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ لا يثبته ولا يقويه[٣]. وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له[٤].

(٨٢) ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ ﴾ ويثبته. ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ بأوامره وقضاياه. وقرىء بكلمتِه. ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ ذلك.

(٨٣) ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ ﴾ أي في مبدأ أمره[٥]. ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل الضمير لفرعون والذرية

---

(١) وتثنية الضمير في هذين الموضعين «لكما» بعد إفراده فيما تقدم باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر، وأما اللفت والمجيء له فحيث كان من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة (س٤/١٦٩).

(٢) قوله «فلما...» عطف على مقدر وحذف للإيذان بسرعة امتثالهم لأمر فرعون (س٤/١٦٩).

(٣) وإظهار لفظ المفسدين للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلة الحكم (س٤/١٧٠).

(٤) ما ذكره البيضاوي من أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له ليس على إطلاقه، فمن السحر ما هو راجع إلى خفة اليد وهذا يسمىٰ سحراً مجازاً. ومن السحر ما هو تمويه وتخييل للعيون، وهو لا تأثير له على الواقع إنما يوهم العين فقط، لذلك قال عن سَحَرة فرعون «سحروا أعين الناس..» ـ الأعراف: «١١٦». ومن السحر ماله أثر على الإنسان وقد سحر لبيدُ بن الأعصم اليهودي رسولَ الله ﷺ.

(٥) وهو معطوف على مقدر، ولم يذكر تعويلاً على ما ذكر في موطن آخر، وإيثاراً للإيجاز، وإيذاناً بأن في قوله تعالى «إن الله سيبطله» مما لا يحتمل الخلف أصلاً (س٤/١٧٠).

طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وزوجته وماشطته ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي مع خوف منهم، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو للذرية، أو للقوم. ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أن يعذبهم فرعون، وهو بدل منه أو مفعول خوف، وإفراده بالضمير للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لغالب فيها. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا
لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ
أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين به. ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ فثقوا به واعتمدوا عليه. ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلصين له، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين، فإن المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه المقتضي له، والمشروط بالإسلام حصوله فإنه لا يوجد مع التخليط ونظيره إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت.

(٨٥) ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ولذلك أجيبت دعوتهم. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ موضع فتنة. ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

(٨٦) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجاب دعوته.

(٨٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ أي اتخذا مباءة. ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تسكنون فيها، أو ترجعون إليها للعبادة. ﴿وَٱجْعَلُواْ﴾ أنتما وقومكما. ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك البيوت. ﴿قِبْلَةً﴾ مصلى، وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعني الكعبة، وكان موسى عليه السلام يصلي إليها. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها، أمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصرة في الدنيا والجنة في العقبى. وإنما ثنّى الضمير أولاً لأن التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور، ثم جَمَع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد، ثم وحّد لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشريعة[1].

(٨٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ ما يتزين به من الملابس والمراكب

(١) ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالإيمان، وللإشعار بأنه المدار في التبشير (س٤/ ١٧١).

ونحوهما. ﴿ وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وأنواعاً من المال. ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر بما عُلم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك: لعن الله إبليس. وقيل اللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيتَ ويحتمل أن تكون للعلة لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنهم لما جعلوها سبباً للضلال فكأنهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريراً للأول تأكيداً وتنبيهاً على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أي أهلكها، والطمس المَحق. وقرىء اطْمُس بالضم. ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي وأَقسِها واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان. ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ جواب للدعاء، أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على ليضلوا، وما بينهما دعاء معترض.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

(٨٩) ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ يعني موسى وهارون لأنه كان يؤمن. ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ فاثبُتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة، ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته. روي: أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة. ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى. وعن ابن عامر برواية ابن ذكوان ولا تَتَّبِعانِ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين، ولا تبعانِ من تَبِع ولا تبعانٌ أيضاً.

(٩٠) ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ أي جوّزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم، وقرىء جَوَّزْنا وهو من فعل المرادف لفاعل كضعَّف وضاعَف. ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ فأدركهم يقال: تَبِعْته حتى أَتبعتُه. ﴿ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ باغين وعادين، أو للبغي والعدو. وقرىء وعُدُوّاً. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ لحقه. ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ ﴾ أي بأنه. ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي إنه بالكسر على إضمار القول، أو الاستئناف بدلاً وتفسيراً لآمنت فنكب عن الإيمان، أو أن القبول وبالغ فيه حين لا يُقبل[1].

(٩١) ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ولم يبقَ لك اختيار[2]. ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ قبل ذلك مدة عمرك. ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان.

---

(١) وعبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته إيمان بني إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعاً في القبول والانتظام معهم في سلك النجاة (س٤/ ١٧٣).

(٢) وفي حذف الفعل المذكور وإبراز الخبر المحكي في صورة الإنشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى (س٤/ ١٧٣).

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

(٩٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً[١]، أو نلقيك على نَجْوَة من الأرض ليراك بنو إسرائيل. وقرأ يعقوب نُنْجِيك من أنجى، وقرأ نُنَحِّيك بالحاء أي نلقيك بناحية من الساحل. ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في موضع الحال أي ببدنك عارياً عن الروح، أو كاملاً سوياً، أو عرياناً من غير لباس، أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها. وقرىء بأبدانك أي بأجزاء البدن كلها كقولهم هوى بإجرامه، أو بدروعك كأنه كان مُظاهِراً بينها. ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائيل إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى كذبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مُطَّرحاً على ممرهم من الساحل، أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالاً عن الطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وقرىء لمن خَلَقَك أي لخالقك آية أي كسائر الآيات، فإن إفراده إياك بالإلقاء إلى الساحل دليل على أنه تعمدٌ منه لكشف تزويرك وإماطة الشبهة في أمرك، وذلك دليل على كمال قدرته وعلمه وإرادته، وهذا الوجه أيضاً محتمل على المشهور. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا. ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً، وهو الشام ومصر. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها، أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

(٩٤) ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القصص على سبيل الفرض والتقدير. ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنه مُحَقَّق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه، أو تهييج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته لا إمكانُ وقوع الشك له ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا أَشُك ولا أَسْأَل»[٢]. وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أو لكل من يسمع، أي إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك، وفيه تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم. ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ واضحاً أنه لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين.

---

(١) وفي التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده من الإيمان هو النجاة، وتهكم به (س٤/ ١٧٤).
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ١٦٨) عن قتادة من طريقين صحيحين.

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ
ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

(٩٥) ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أيضاً من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثبتت عليهم. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يُكذب كلامُه ولا يُنتقض قضاؤه.

(٩٧) ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ فإن السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وحينئذ لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون.

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إليها كما أُخر فرعون. ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأنْ يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها. ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لكن قوم يونس عليه السلام. ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله. ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه، فيكون الاستثناء متصلاً لأن المراد من القرى أهاليها كأنه قال: ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس، ويؤيده قراءة الرفع على البدل. ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى آجالهم. روي[٢] أن يونس عليه السلام بُعث إلى أهل نَيْنوى من الموصل، فكذبوه وأصروا عليه، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث وقيل إلى ثلاثين وقيل إلى أربعين، فلما دنا الموعد أغامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غَشِيَ مدينتَهم، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه، فلبسوا المُسُوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والدة وولدها فحنّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأخلصوا التوبة وأظهروا الإيمان وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة.

(٩٩) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يشذ منهم أحد. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه. وهو دليل على القَدَرِيّة في أنه تعالى لم يشأ إيمانَهم أجمعين، وأن من شاء إيمانه يؤمن لا محالة، والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ بما لم يشأ الله منهم. ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وترتيبُ الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار وتقديمُ الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه

(١) القصص: ٨٦.
(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ج١١/ ١٧١) عن قتادة بسند صحيح.

فضلاً عن الحث والتحريض عليه، إذ روي أنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الاهتمام به، فنزلت. ولذلك قرره بقوله:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

(١٠٠) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ﴾ بالله. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ إلا بإرادته وألطافه وتوفيقه، فلا تُجهد نفسك في هُداها فإنه إلى الله. ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب أو الخذلان فإنه سببه. وقرىء بالزاي، وقرأ أبو بكر ونَجْعَلُ بالنون. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع، ويؤيد الأول قوله:

(١٠١) ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ أي تفكروا. ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ من عجائب صنعه لتدلكم على وحدته وكمال قدرته، وماذا إن جُعِلَت استفهامية عَلَّقَتْ انظُروا عن العمل. ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله وحكمه. وما نافية أو استفهامية في موضع النصب.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره، مِنْ قولهم أيامُ العرب لِوَقائعها. ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك أو فانتظروا هلاكي إني معكم من المنتظرين هلاكَكُم.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ عطف على محذوف دل عليه إلا مثلَ أيام الذين خلوْا، كأنه قيل: نُهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ومن آمن بهم[1]، على حكاية الحال الماضية. ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك الإنجاءُ، أو إنجاءً كذلك ننجي محمداً وصحبه حين نُهلك المشركين، وحقاً علينا اعتراض ونصبه بفعله المقدر. وقيل بدل من كذلك. وقرأ حفص والكسائي نُنْجِي مخففاً.

(١٠٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لأهلِ مكة[2]. ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ وصحته. ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً فاعْرِضوها على العقل الصرف وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا صحتها، وهو أني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم . . . .

---

(١) وما بينه وبين المعطوف عليه اعتراض جيء به مسارعة إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد (س٤/١٧٨).

(٢) وأوثر الخطاب باسم الجنس مصدّراً بحرف التنبيه «يا» تعميماً للتبليغ وإظهاراً للعناية بشأن ما بُلِّغ إليهم (س٤/١٧٩).

ويتوفاكم[1]. وإنما خص التوفّي بالذكر للتهديد. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دل عليه العقل ونطق به الوحي، وحذف الجارّ مِنْ أَنْ يجوزُ أن يكون من المطرد مع أَنَّ وأَنْ يكون من غيره كقوله:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبِ

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ
فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا
رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

(١٠٥) ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطف على أن أكون غير أنَّ صلة أَنْ محكية بصيغة الأمر، ولا فرق بينهم في الغرض لأن المقصود وَصْلُها بما يتضمن معنى المصدر لتدل معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب، والمعنى وأمرت بالاستقامة في الدين والاستبداد فيه بأداء الفرائض، والانتهاء عن القبائح، أو في الصلاة باستقبال القبلة. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو الوجه[2]. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بنفسه إن دعوته أو خذلته[3]. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإنْ دعوته. ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء.

(١٠٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وإن يصبك به. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ يرفعه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله. ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ﴾ فلا دافع. ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾ الذي أرادك به، ولعله ذكر الإرادةَ مع الخير والمسَّ مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن ردّه. ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالخير. ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

(١٠٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ رسوله أو القرآن ولم يبق لكم عذر. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان والمتابعة. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن نفعه لها. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر بهما. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال الضلال عليها. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم، وإنما أنا

---

(١) وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية، وللإيذان بالمخالفة من أول الأمر (س٤/١٧٩).

(٢) ومعنى حنيفاً أي مائلاً عن الأديان الباطلة.

(٣) وقوله «ولا تدع» تأكيد للنهي المذكور وتفصيل لما أجمل فيه وذلك إظهاراً لكمال العناية بالإلأمر وكشفاً عن وجه بطلان ما عليه المشركون (س٤/ ١٨٠).

بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

(١٠٩) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ بالامتثال والتبليغ. ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على دعوتهم وتحمل أذيتهم. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالنصرة أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطّلاعه على السرائر اطلاعَه على الظواهر. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشرُ حسنات بعدد من صدّق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون»[1].

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع، أورده ابن الجوزي في الموضوعات، أبواب ما يتعلق بالقرآن (١/ ٢٤٠).

سُورَةُ هُودٍ

آياتها ١٢٣ — ترتيبها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

(١) ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ وخبر، أو كتابٌ خبرُ مبتدإٍ محذوف. ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نُظمت نظماً محكماً لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى، أو مُنعت من الفساد والنسخ فإن المراد آيات السورة وليس فيها منسوخ، أو أُحكمت بالحجج والدلائل، أو جُعلت حكيمة منقول من حَكُمَ ـ بالضم ـ إذا صار حكيماً لأنها مشتملة على أمهات الحِكَم النظرية والعملية[١]. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، أو بجعلها سوراً، أو بالإنزال نَجماً نَجماً[٢]، أو فصِّل فيها ولخص ما يحتاج إليه. وقرىء ثم فَصَلت أي فرقت بين الحق والباطل، وأحكمتُ آياتِه ثم فَصّلتُ على البناء للمتكلم. وثم للتفاوت في الحكم أو للتراخي في الأخبار. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة أخرى لكتاب، أو خبر بعد خبر، أو صلة لأحكمت أو فصلت، وهو تقرير لأحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر أمره وما خفي.

(٢) ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ لأنْ لا تعبدوا. وقيل أنْ مفسِّرة لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً للإغراء على التوحيد أو الأمرِ بالتبري من عبادة الغير كأنه قيل: ترك عبادة غير الله بمعنى الزموه أو اتركوها تركاً. ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ من الله. ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد.

(٣) ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عطف على ألا ....

---

(١) وفي إسناد الإحكام إلى الآيات من الدلالة على كونه في أقصى غاية منه، فإنه مسند لكل آية منه (س٤/ ١٨٢).

(٢) أي جزءاً جزءاً.

تعبدوا[١]. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ثم توسلوا إلى مطلوبكم بالتوبة فإن المُعْرِض عن طريق الحق لا بد له من الرجوع. وقيل استغفروا من الشرك ثم توبوا إلى الله بالطاعة، ويجوز أن يكون ثم لتفاوت ما بين الأمرين. ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يُعَيِّشكم في أمن ودَعَة. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو آخر أعماركم المقدرة، أو لا يهلكُكم بعذاب الاستصال والأرزاق والآجال، وإن كانت متعلقة بالأعمار لكنها مسماة بالإضافة إلى كل أحد فلا تتغير. ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ ويعط كل ذي فضل في دينه جزاءَ فضله في الدنيا والآخرة، وهو وعد للموحِّد التائب بخير الدارين. ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وإن تتولوا. ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجِيَف. وقرىء وإن تُوَلُّوا من وَلَّىٰ.

(٤) ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم، وهو شاذ عن القياس. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبكم أشد عذاب، وكأنه تقدير لكبر اليوم.

أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾

(٥) ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يثنونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ، أو يولّون ظهورهم. وقرىء يثنوني بالياء والتاء من اثنَوْنىٰ وهو بناء مبالغة، وتَثْنَونّ وأصله تَثْنَوْنَنَ من الثِّنّ وهو الكلأ الضعيف أراد به ضعف قلوبهم أو مطاوعة صدورهم للثني، وتَثْنَئِنّ من اثنأن كابيأض بالهمزة، وتَثْنَوِي. ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ من الله بسرِّهم فلا يُطْلِع رسولَه والمؤمنين عليه. قيل إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا: إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم؟. وقيل نزلت في المنافقين، وفيه نظر إذ الآية مكية والنفاق حدث بالمدينة[٢]. ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ الا حين يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم. ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم. ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ بأفواههم يستوي في علمه سرهم وعَلَنُهم فكيف يخفىٰ عليه ما عسى يُظهرونه؟![٣] ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالأسرار ذات الصدور، أو بالقلوب وأحوالها[٤].

(٦) ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفُّله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى

---

(١) والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وإرشاد لهم إلى طريق الابتهال في السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وإيتاء الفضل. . . (س٤/ ١٨٤).

(٢) الثابت في البخاري (٤٦٨١) أنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يستحيون أن يتخلوا أو يجامعوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء.

(٣) وقدم السر على العلن نعياً عليهم من أول الأمر وهو بخلاف قوله ما صنعوا، وإيذاناً بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه، وتحقيقاً للمساواة بين العِلْمين على أبلغ وجه (س٤/ ١٨٦).

(٤) كأنه قيل: إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية في صدورهم، يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون (س٤/ ١٨٦).

بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصوله وحملاً على التوكل فيه. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أماكنها في الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام، أو مساكنها من الأرض حين وُجدت بالفعل ومَوْدَعَها من المواد والمقارّ حين كانت بعد بالقوة. ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد من الدواب وأحوالها. ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ. وكأنه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها، وبما بعدها بيانُ كونه قادراً على الممكنات بأسرها، تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد.

وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

(٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما وما فيها كما مرّ بيانه في الأعراف، أو ما في جهتي العلو والسفل. وجَمْعُ السموات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قبل خلقهما لم يكن حائل بينهما لأنه كان موضوعاً على متن الماء، واستُدل به على إمكان الخلاء وأن الماء أول حادث بعد العرش من أَجرام هذا العالم. وقيل كان الماء على متن الريح، والله أعلم بذلك. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ متعلق بخَلَق أي خلق ذلك كخَلْق مَنْ خلق ليعاملكم معاملةَ المبتلي لأحوالكم كيف تعملون، فإن جملة ذلك أسبابٌ ومواد لوجودكم ومعاشكم وما تحتاج إليه أعمالكم ودلائلٌ وأماراتٌ تستدلون بها وتستنبطون منها، وإنما جاز تعليق فعل البلوىٰ لما فيه من معنى العلم من حيث إنه طريق إليه كالنظر والاستماع، وإنما ذَكَرَ صيغة التفضيل ـ والاختبارُ شامل لفِرَق المكلفين ـ باعتبار الحسن والقبح للتحريض على أحاسن المحاسن والتحضيضِ على الترقي دائماً في مراتب العلم والعمل فإن المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح ولذلك قال النبي ﷺ: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»[١]. والمعنى أيكم أكمل علماً وعملاً. ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة والكسائي إلاّ سَاحِر على أن الإشارة إلى القائل، وقرىء أَنكم ـ بالفتح ـ على تضمن قلْتَ معنى ذَكَرتَ؛ أو أن يكون أَنَّ بمعنى علّ أي ولئن قلت علكم مبعوثون، بمعنى توقعوا بعثكم ولا تبتوا بإنكاره لعدوه من قبيل ما لا حقيقة له مبالغةً في إنكاره.

(٨) ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ الموعود. ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى جماعة من الأوقات قليلة.

---

(١) رواه الطبري (١٢/٥) وابن مردويه كما في الدر المنثور (٤/٤٠٤) رواه الطبري بإسناد ساقط لأن فيه داود بن المحبر، ورواه ابن مردويه بإسناد أسقط لأن فيه سليمان بن عيسى ومحمد بن أشرس وانظر الفتح السماوي ص٧١٩.

﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ استهزاءً. ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ ما يمنعه من الوقوع. ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ كيوم بدر. ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ ليس العذاب مدفوعاً عنهم، ويوم منصوب بخبر ليس مقدم عليه وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها. ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ وأحاط بهم، وَضَعَ الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد. ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون، فوضع تستهزئون موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء[1].

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ
ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ
أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن
يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها. ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه. ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ ﴾ قطوع رجاءه من فضل الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به. ﴿ كَفُورٌ ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

(١٠) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ كصحة بعد سقم وغنًى بعد عدم، وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى. ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾ أي المصائب التي ساءتني. ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ ﴾ بَطِر بالنعم مغترّ بها. ﴿ فَخُورٌ ﴾ على الناس مشغول عن الشكر والقيام بحقها. وفي لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء لأن الذوق إدراك الطعم والمسَّ مبتدأ الوصول.

(١١) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على الضراء إيماناً بالله تعالى واستسلاماً لقضائه. ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ شكراً لآلائه سابقِها ولاحقها. ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم. ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أقله الجنة. والاستثناء منَ الإنسان، لأن المراد به الجنس فإذا كان محلى باللام أفاد الاستغراق، ومَنْ حمله على الكافر لسبق ذكرهم جَعَل الاستثناءَ منقطعاً.

(١٢) ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك وهو ما يخالف رأي المشركين مخافة ردهم واستهزائهم به، ولا يلزم من توقع الشيء ـ لوجود ما يدعو إليه ـ وقوعُه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسل عن الخيانة في الوحي والثقة في التبليغ ههنا. ﴿ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ وعارض لك أحياناً ضيق صدرك بأن تتلوه عليهم مخافة ﴿ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ ينفقه في

---

(١) وفي التعبير عن العذاب بالموصول «ما» تهويل لمكانه وإشعار بعلية ما ورد في حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله وإحاطته.
والتعبير بالماضي «حاق» للدلالة على تحقق الوقوع لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفيه من الدلالة على علو شأن المخبِر وتقرير وقوع المخبَر به.

الاستتباع كالملوك. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه، وقيل الضمير في به مبهَم يفسره أن يقولوا. ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك، ولا عليك ردّوا أو اقترحوا، فما بالك يضيق به صدرك. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فتوكل عليه، فإنه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

(١٣) (١٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أم منقطعة، والهاء لما يوحىٰ. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ في البيان وحسن النظم، تحداهم أولاً بعشر سور ثم لما عَجَزوا عنها سهّل الأمر عليهم وتحداهم بسورة، وتوحيد المَثَلِ باعتبار كل واحدة. ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ مختلَقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته من عند نفسي فإنكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على مثل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر لتعلمكم القصص والأشعار وتعوّدكم القريض والنظم. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه مفترى ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ بإتيان ما دعوتم إليه[1]، وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول ﷺ، أو لأن المؤمنين كانوا أيضاً يتحدوْنهم وكان أمر الرسول ﷺ متناولاً لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل، وللتنبيه على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم فلا يغفلون عنه، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه سواه. ﴿وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ واعلموا أن لا إله إلا الله لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره، ولظهور عجز آلهتهم ولتنصيص هذا الكلام الثابت صدقه بإعجازه عليه، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذا تحقق عندكم إعجازُه مطلقاً، ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم أي فإن لم يستجيبوا لكم إلى المظاهرة لعجزهم وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعاوضة فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة؟ وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيهِ على قيام الموجب وزوال العذر.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ بإحسانه وبره. ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد. وقرىء يُوَفِّ بالياء أي يوف الله، وتُوَفَّ على البناء للمفعول، ونُوفِ بالتخفيف والرفع لأن الشرط ماض كقوله:

---

(١) وعبر عنه بالاستجابة إيماء إلى أنه عليه السلام على كمال أمنٍ من أمره، كأن أمره لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه (س٤/ ١٩٢).

وإنْ أتَـاهُ كَـرِيـمٌ يَـوْمَ مَسْغَبَـةٍ		يقُـولُ لاَ غَـائِـبٌ مَـالِـي وَلاَ حَـرَمُ

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم. والآية في أهل الرياء، وقيل في المنافقين، وقيل في الكفرة وغرضهم وبرّهم[(١)].

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾

(١٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ لأنه لم يبقَ لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا به وجه الله والعمدةُ في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص، ويجوز تعليق الظرف بصنعوا على أن الضمير للدنيا. ﴿وَبَٰطِلٞ﴾ في نفسه. ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لأنه لم يعمل على ما ينبغي، وكأن كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها. وقرىء باطلاً على أنه مفعول يعملون وما إبهامية أو في معنى المصدر كقوله:

ولاَ خَـارِجـاً مِـنْ فِـيَّ زُور كَـلاَمِ		...	...	...	...	...

وبَطَلَ على الفعل[(٢)]

(١٧) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ برهان من الله يدله على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره، والهمزة لإنكار أن يعقب مَنْ هذا شأنُه هؤلاء المقصِرين هممَهم وأفكارهم على الدنيا وأن يقارب بينهم في المنزلة، وهو الذي أغنى عن ذكر الخبر وتقديرُه أفمن كان على بينة كمن كان يريد الحياة الدنيا، وهو حكم يعم كل مؤمن مخلص. وقيل المراد به النبي ﷺ، وقيل مؤمنو أهل الكتاب. ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل. ﴿شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن. ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ ومن قبل القرآن. ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ يعني التوراة فإنها أيضاً تتلوه في التصديق، أو البينة هو القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل، أو لسان الرسول ﷺ على أن الضمير له أو من التلو والشاهد مَلَك يحفظه. والضمير في يتلوه إما لمَنْ أو للبينة باعتبار المعنى ومِنْ قبله كتاب موسى جملة مبتدأة. وقرىء كتابَ بالنصب عطفاً على الضمير في يتلوه أي يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة دالة على أنه حق كقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[(٣)] ويقرأ من قبل القرآن

---

(١) وعبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق ـ مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه ـ كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق ـ مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك ـ بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم (س٤/١٩٣).

(٢) عطف على (وقرىء باطلاً. . .) أي وقرىء بطل على الفعل.

(٣) الأحقاف: «١٠».

التوراة[١]. ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين. ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزّل عليهم لأنه الوصلة إلى الفوز بخير الدارين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من كان على بينة. ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ من أهل مكة ومَنْ تحزّب معهم على رسول الله ﷺ. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يَردها لا محالة. ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ من الموعد، أو القرآن. وقرىء مُرْيَة بالضم. وهما الشك. ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم واختلال فكرهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

(١٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كأن أسندَ إليه ما لم ينزله، أو نفى عنه ما أنزله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الكاذبون. ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الموقف بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم[٢]. ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم، وهو جمع شاهد كأصحاب أو شهيد كأشراف جمع شريف. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ لظلمهم بالكذب على الله.

(١٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والحال أنهم كافرون بالآخرة، وتكريرهم لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما كانوا معجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يمنعونهم من العقاب ولكنه أخر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشد وأدوم[٣]. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ استئناف. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يُضَعَّف بالتشديد. ﴿مَا لتصامهم عن الحق وبغضهم له. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات الله، وكأنه العلة لمضاعفة العذاب. وقيل هو بيان ما نفاه مِنْ ولاية الآلهة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فإن ما لا يسمع ولا يبصر لا يصلح للولاية وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ اعتراض.

(٢١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى. . ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

---

(١) وقدم في الذكر المؤخر في النزول ـ أي قدم القرآن ـ لكونه وصفاً لازماً له غير مفارق عنه، ولعراقته في وصف التلو (س٤/ ١٩٥).

(٢) عبر عن عرض أعمالهم بوجه أبلغ، فإن عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته (س٤/ ١٩٦).

(٣) وجمع الأولياء باعتبار أفراد الكفرة أو باعتبار ما كانوا يدعون من دون الله تعالى (س٤/ ١٩٧).

﴿يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة وشفاعتها، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة.

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ
اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٢) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم.

(٢٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا له، مِنَ الخبْت وهو الأرض المطمئنة. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون.

(٢٤) ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الكافر والمؤمن. ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتصامه عن إسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين، أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة كقوله:

فَالآيِبِ الصَّابِحِ فَالغَانِمِ

وهذا من باب اللفّ والطباق. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هل يستوي الفريقان. ﴿مَثَلًا﴾ أي تمثيلاً أو صفة أو حالاً. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بضرب الأمثال والتأمل فيها.

(٢٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ﴾ بأني لكم. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة بالكسر على إرادة القول. ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص.

(٢٦) ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بدل من أني لكم، أو مفعول مبين، ويجوز أن تكون أنْ مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم، وهو في الحقيقة صفة المعذب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جَدّ جِدُّه ونهارُه صائم للمبالغة.

(٢٧) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة. ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أخسّاؤنا جمع أرذل فإنه بالغلبة صار مثل الاسم كالأكبر، أو أرذل جمع رذل. ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ظاهر الرأي من غير تعمق من البدو، أو أول الرأي من البدء، والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها. وقرأ أبو عمرو بالهمزة. وانتصابُه بالظرف على حذف المضاف أي: وقتَ حدوث بادي الرأي، والعامل فيه اتبعك. وإنما استرذلوهم لذلك أو لفقرهم

فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأحظ بها أشرف عندهم والمحروم منها أرذل. ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ لك ولمتبعيك. ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ إياك في دعوى النبوة وإياهم في دعوى العلم بصدقك فغلّب المخاطب على الغائبين.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ حجة شاهدة بصحة دعواي. ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاء البينة أو النبوة. ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم فلم تَهْدِكم. وتوحيد الضمير لأن البينة في نفسها هي الرحمة، أو لأن خفاءها يوجب خفاء النبوة، أو على تقدير فعميت بعد البينة وحذفها للاختصار، أو لأنه لكل واحدة منهما. وقرأ حمزة والكسائي وحفص فعُمِّيت أي أخفيت[1]، وقرىء فَعَمَّاها على أن الفعل لله. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنكرهكم على الاهتداء بها. ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها، وحيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعاً وقدم الأعرف منهما جاز في الثاني الفصل والوصل.

(٢٩) ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ، وهو وإن لم يذكر فمعلوم مما ذُكر. ﴿مَالًا﴾ جعْلاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه المأمول منه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم. ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ فيخاصمون طاردهم عنده، أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردُهم؟[2] ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بلقاء ربكم، أو بأقدارهم، أو في التماس طردهم، أو تتسفهون عليهم بأن تَدْعُوهم أراذل.

(٣٠) ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ بدفع انتقامه. ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لتعرفوا أن التماس طردهم وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.

(٣١) ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ رزقُه وأمواله حتى جحدتم فضلي. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ عطف على عندي خزائن الله، أي: ولا أقول لكم أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني استبعاداً أو حتى أعلم أن هؤلاء اتبعوني بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب، وعلى الثاني يجوز عطفه على أقول. ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا. ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ ولا أقول في شأن من

---

(١) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ «فَعَمِيَتْ».

(٢) والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم (س٤/٢٠٢).

استرذلتموهم لفقرهم. ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ فإن ما أعده الله لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء به افتعال من زرى عليه إذا عابه، قلبت تاؤه دالاً لتجانس الراء في الجهر، وإسناده إلى الأعين للمبالغة والتنبيهِ على أنهم استرذلوهم بادي الرؤية من غير رويّة بما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة منالهم دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم.

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم
بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ خاصمتنا. ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ فأطلته أو أتيت بأنواعه. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك لا تؤثر فينا.

(٣٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

(٣٤) ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ شرط ودليل جواب، والجملة دليل جواب قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ وتقديرُ الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردتُ أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي[١]، ولذلك تقول لو قال الرجل أنتِ طالق إن دخلتِ الدار إن كلمت زيداً فدخلت ثم كلمت لم تطلق، وهو جواب لما أوهموا من جداله كلام بلا طائل. وهو دليل على أن إرادة الله تعالى يصح تعلقها بالإغواء وأن خلاف مراده محال. وقيل أن يغويكم أن يهلككم، مِنْ غَوِيَ الفصيلُ غوًى إذا بَشِمَ[٢] فهلك. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ هو خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

(٣٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ وبالُه. وقرىء أَجْرَامي على الجمع. ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ.

---

(١) وتقييد عدم نفع النصح بإرادته ـ مع أنه محقق لا محالة ـ للإيذان بأن ذلك النصح منه مقارن للإرادة، وللاهتمام به، ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائهم. وإنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه ـ حيث لم يقل إن كان الله يغويكم ـ مبالغة في بيان غلبة جنابه عز وعلا، حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد إرادة الله سبحانه لإغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك؟.
وزيادة «كان» للإشعار بتقدم إرادته تعالى زماناً كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها (س٤/ ٢٠٥).

(٢) بَشِمَ إذا أُتخِم من كثرة الأكل (المصباح المنير مادة بشم).

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ
ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ
مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ
زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن ولا تتأسف. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أقنطه الله تعالى من إيمانهم ونهاه أن يغتمّ بما فعلوه من التكذيب والإيذاء.

(٣٧) ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً بأعيننا، عبّر بكثرة آلة الحس الذي يُحفَظ به الشيء ويراعى عن الاختلال والزيغ عن المبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل. ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيف تصنعها. ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعُني باستدفاع العذاب عنهم. ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه.

(٣٨) ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية[١]. ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في بريّة بعيدة من الماء أوان عِزَّته، وكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً. ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرَق في الآخرة. وقيل المراد بالسخرية الاستجهال[٢].

(٣٩) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني به إياهم وبالعذابِ الغرقَ. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ وينزل عليه، أو يحل عليه حلول الديْن الذي لا انفكاك عنه. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار[٣].

(٤٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ غاية لقوله «ويصنع الفلك» وما بينهما حال من الضمير فيه، أو حتى هي التي يُبتدأ بعدها الكلام. ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نبع الماء منه وارتفع كالقِدْر تفور. والتنورُ تَنُّورُ الخبز ابتدأ منه النبوع على خرق العادة، وكان في الكوفة في موضع مسجدها أو في الهند أو بعين وردة من أرض الجزيرة، وقيل التنور وجه الأرض أو أشرف موضع فيها. ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة. ﴿مِن كُلٍّ﴾ من كل نوع من الحيوانات المنتفع بها. ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى. هذا على قراءة حفص، والباقون أضافوا[٤] على معنى احمل اثنين من كل صنفٍ ذكرٍ وصنف أنثى[٥]. ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على زوجين

(١) لاستحضار صورتها العجَيبة.
(٢) أو أطلق السخرية عليه للمشاكلة (س٤/٢٠٧).
(٣) ووصف العذاب بالإخزاء لما في الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزي والعار عادة. والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد. وتخصيصُه بالمؤجل وإيراد الأول بالإتيان في غاية الجزالة (س٤/٢٠٧).
(٤) أي قراءة حفص «كلٍّ» بالتنوين، وقراءة الباقين بالإضافة «من كلِّ زوجين».
(٥) قدم حمل كل زوجين على حمل الأهل وسائر المؤمنين لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعضه من بعض وتعيين الأزواج.. أما البشر فإنما يدخلون الفلك باختيارهم فيخف فيه معنى الحمل، أو لأنها =

أو اثنين، والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، يريد ابنَه كنعان وأمه وَاعِلة فإنهما كانا كافرين. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ والمؤمنين من غيرهم[١]. ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل كانوا تسعة وسبعين زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام اتخذ السفينة في سنتين من الساج وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين وسُمْكها ثلاثين، وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في أسفلها الدواب والوحش وفي أوسطها الإنس وفي أعلاها الطير[٢].

﴿۞وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

(٤١) ﴿۞وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ أي صيروا فيها، وجَعَلَ ذلك ركوباً لأنها في الماء كالمركوب في الأرض. ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ متصل باركبوا حالٌ من الواو أي اركبوا فيها مسمّين الله أو قائلين باسم الله وقت إجرائها وإرسائها، أو مكانهما على أن المَجْرى والمَرْسى للوقت أو المكان أو المصدر، والمضاف محذوف كقولهم: آتيك خفوق النجم، وانتصابُهما بما قدرناه حالاً، ويجوز رفعهما ببسم الله على أن المراد بهما المصدر أو جملة من مبتدأ وخبر، أي إجراؤها بسم الله على أن بسم الله خبر أو صلة والخبر محذوف وهي إما جملة مقتضية لا تعلق لها بما قبلها أو حال مقدرة من الواو أو الهاء. وروي أنه كان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست. ويجوز أن يكون الاسمُ مُقْحماً كقوله: ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم برواية حفص مجراها بالفتح من جرى[٣]، وقرىء مَرْسَاها أيضاً من رسا وكلاهما يحتمل الثلاثة، ومُجْرِيها ومُرْسِيها بلفظ الفاعل صفتين لله. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لولا مغفرته لفَرَطاتكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

(٤٢) ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه اركبوا أي فركِبوا مسمّين وهي تجري وهم فيها. ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ في موج من الطوفان، وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه كلُّ موْجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها، وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه ليس بثابت، والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسةَ عشرَ ذراعاً وإن صح فلعل ذلك قبل التطبيق. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان. وقرىء ابنها وابْنَهَ بحذف الألف على أن الضمير لامرأته، وكان

= تحمل بواسطة البشر (س٤/٢٠٨).

(١) وإيثار صيغة الإفراد في «مَنْ آمن» محافظة على لفظ مَنْ للإيذان بقلتهم (س٤/٢٠٨).

(٢) وتعيين نوع السفينة وشكلها من الإسرائيليات التي أعرض القرآن الكريم عن ذكرها لعدم الفائدة في ذلك.

(٣) وقراءتهم المذكورة بفتح الميم وكسر الراء على الإمالة. أما الباقون فقراءتهم مثلها إلا أنها بضم الميم (انظر المبسوط لابن مهران ص٢٠٤).
وقد أثبت البيضاوي الأصل بالألف «مجراها» وينبغي كتابتها بما يدل على الإمالة «مَجرِيَها».

ربيبَهُ. وقيل كان لغير رشده[١] لقوله تعالى: ﴿فخانتاهما﴾ وهو خطأ إذ الأنبياء عصمت من ذلك، والمراد بالخيانة الخيانةُ في الدين، وقرىء ابناه على النَّدْبة ولكونها حكايةً سُوِّغَ حذفُ الحرف.

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه، مَفْعِل للمكان مِنْ عزله عنه إذا أبعده.

﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة، والجمهور كسروا الياء ليدل على ياء الإضافة المحذوفة في جميع القرآن، غير ابن كثير فإنه وقف عليها في لقمان[٢] في الموضع الأول باتفاق الرواة وفي الثالث في رواية قنبل، وعاصم فإنه فتح ههنا اقتصاراً على الفتح من الألف المبدلة من ياء الإضافة، واختلفت الرواية عنه في سائر المواضع، وقد أدغم الباء في الميم أبو عمرو والكسائي وحفص[٣] لتقاربهما.

﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الدين والانعزال.

قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

(٤٣) ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أن يغرقني ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ إلاالراحمُ وهو الله تعالى، أو الإمكان مِنْ رحمهم الله وهم المؤمنون، رد بذلك أن يكون اليوم مُعْتَصَم من جبل ونحوه يعصم اللائذ به إلا معتصَم المؤمنين وهو السفينة. وقيل لا عاصم بمعنى لا ذا عصمة كقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٤] وقيل الاستثناء منقطع أي لكن من رحمه الله يعصمه. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ فصار من المهلكين بالماء[٥].

(٤٤) ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ نوديا بما ينادىٰ به أولو العلم وأُمرا بما يؤمرون به تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمرُ المنقادَ لحكمه المبادر إلى امتثال أمره مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه، والبلعُ النشف، والإقلاع الإمساك. ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأُنجز ما وُعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين. ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾

---

(١) أي ولداً من سفاح. وقوله «لغير رِشدة» تكنية موفقة واختيار لأدب اللفظ مع مقام النبوة، فلم يصرح بما قيل من الزنى وإن كان باطلاً، بل وإن كان في حق كافرة لمكان زوجها منها ﷺ.

(٢) لقمان الموضع الأول الآية «١٣» والموضع الثالث الآية «١٧».

(٣) هو حفص بن سليمان بن المغيرة بن أبي داود الأسدي الكوفي، ولد سنة تسعين من الهجرة، وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءة عاصم، تردد بين بغداد ومكة وهو يقرىء الناس القرآن الكريم.
قال عنه الذهبي: هو في القراءة ثقة ثبت ضابط.
توفي سنة ثمانين ومائة هجرية على الصحيح.
[غاية النهاية (١/ ٢٥٤) والأعلام للزركلي (٢/ ٢٦٤)].

(٤) الحاقة: «٢١».

(٥) وفي إيراد «كان» دون صار مبالغة في كونه منهم (س٤/ ٢١١).

واستقرت السفينة. ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل، وقيل بالشام، وقيل بآمل. روي[1] أنه ركب السفينة عاشر رجب، ونزل عنها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم، فصار ذلك سنّة. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هلاكاً لهم، يقال بَعُد بُعْداً وبَعَداً إذا أَبْعَدَ بُعْداً بَعيداً بحيث لا يُرجى عوْده، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء. والآيةُ في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كُنْه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

(٤٥) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ وأراد نداءه بدليل عطف قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فإنه النداء. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وإن كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه الخُلْف، وقد وعدتَ أن تنجيَ أهلي فما حالُه أو فما له لم ينج، ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه. ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم على أن الحاكم من الحكْمة كالدارع من الدِّرْع.

(٤٦) ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لقطع الولاية بين المؤمن والكافر، وأشار إليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فإنه تعليل لنفي كونه من أهله، وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء[2] تصف ناقة:

ترتع ما رتعت حَتى إذا ادَّكَرتْ ... فإنَّمَا هي إقبالٌ وإدْبَارٌ

ثم بدّل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفيهما وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله عنه. وقرأ الكسائي ويعقوب إنه عَمِلَ غيرَ صالح، أي عَمِلَ عملاً غير صالح. ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما لا تعلم أصواب هو أم ليس كذلك. وإنما سمّىٰ نداءه سؤالاً لتضمن ذكْر الوعد بنجاة أهله استنجازَه في شأن ولده، أو استفسارَ المانع للإنجاز في حقه، وإنما سماه جهلاً وزجر عنه بقوله:

(١) إن صيام يوم عاشوراء سنة للحديث الذي أخرجه البخاري (٤/٢٤٤ رقم ٢٠٠٤) ومسلم (٢/٧٩٥ ـ ٧٩٦ رقم ١١٣٠) وأبو داود (٢/٨١٨ رقم ٢٤٤٤) وابن ماجة (١/٥٥٢ رقم ١٧٣٤) عن عبدالله بن عباس. قال: قَدِمَ النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراءَ فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يوم نجَّى اللهُ بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامَهُ وأمَرَ بصيامه».

(٢) هي الخنساء بنت عمرو بن الشريد بن رباح بن ثعلبة بن عصية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم السلمية الشاعرة المشهورة. اسمها تماضر. قال أبو عمر قدمت على النبي ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم.
وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها.
[الإصابة (٤/٢٨٧ ـ ٢٨٩ رقم ٣٥٥)].

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ لأن استثناءَ من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حب الولد عنه حتى اشتَبَه عليه الأمر. وقرأ ابن كثير بفتح اللام والنون الشديدة[١]، وكذلك نافع وابن عامر غير أنهما كسرا النون على أن أصله تسألُنَنِي فحُذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكُسرت الشديدة للياء ثم حذفت اكتفاء بالكسرة[٢]، وعن نافع برواية رويس إثباتها في الوصل[٣].

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ فيما يستقبل[٤]. ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ ما لا علم لي بصحته. ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ وإن لم تغفر لي ما فرط مني في السؤال. ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بالتوبة والتفضل عليّ. ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أعمالاً.

(٤٨) ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ انزل من السفينة مسلَّماً من المكاره من جهتنا، أو مسلَّماً عليك. ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ ومباركاً عليك أو زيادات في نسلك حتى تصير آدماً ثانياً. وقرىء اهْبُط ـ بالضم ـ وبرَكَة على التوحيد، وهو الخير النامي. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ وعلى أمم هم الذين معك، سُمُّوا أمماً لتحزبهم أو لتشعب الأمم منهم، أو وعلى أمم ناشئة ممن معك، والمراد بهم المؤمنون لقوله: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أي وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا. ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرة، والمراد بهم الكفار من ذرية مَنْ معه. وقيل هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب، والعذابُ ما نزل بهم.

(٤٩) ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح ومحلها الرفع بالابتداء وخبرها: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي بعضها. ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ خبر ثان. والضمير لها أي موحاة إليك، أو حال من الأنباء، أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به، أو حال من الهاء في نوحيها[٥]. ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ خبر آخر أي

---

(١) أي قرأ «فلا تسئلَنَّ».
(٢) أي «فلا تَسْئَلَنِّ».
(٣) أي «فلا تَسْئَلَنِّي».
(٤) وإنما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها وتبركاً بذكر ما لقنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كونه ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره إلا بذلك (س٤/ ٢١٣).
(٥) والتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة (س٤/ ٢١٥).

مجهولة عندك وعند قومك من قَبْل إيحائنا إليك، أو حال من الهاء في نوحيها أو الكاف في إليك أي: جاهلاً أنت وقومك بها. وفي ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لمّا لم يسمعوها فكيف بواحد منهم؟. ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وأذية القوم كما صبر نوح. ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظفر وفي الآخرة بالفوز. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾
يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ عطف على قوله: «نوحاً إلى قومه» وهوداً عطفُ بيان. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وقرىء بالجرّ حملاً على المجرور وحده. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء.

(٥١) ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خاطب كلُّ رسول به قومَه إزاحةً للتهمة وتمحيضاً للنصيحة، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع[1]. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ.

(٥٢) ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ اطلُبوا مغفرة الله بالإيمان ثم توسلوا إليها بالتوبة، وأيضاً التبري من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثير الدرّ. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ويضاعف قوتكم، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه. ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم.

(٥٣) ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم. ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك، حال من الضمير في تاركي. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناط له من الإجابة والتصديق.

---

(١) وإيراد الموصول للتفخيم، وجعل صلته فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضاً عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجر (س٤/٢١٦).

إن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

(٥٤) ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ ما نقول إلا قولنا اعتراك أي أصابك، مِنْ عراه يعروه إذا أصابه. ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ بجنون لسبِّك إياها وصدك عنها ومن ذلك تَهْذي وتتكلم بالخرافات، والجملة مقول القول، وإلاّ لغوٌ لأن الاستثناء مفرغ. ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

(٥٥) ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أجاب به عن مقالتهم الحمقاء بأن أشهد اللهَ تعالىٰ على براءته من آلهتهم وفراغه عن إضرارهم تأكيداً لذلك وتثبيتاً له، وأمرهم بأن يَشْهدوا عليه استهانةً بهم، وأن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنْظار حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عَجَزوا عن آخرهم ـ وهم الأقوياء الأشداء ـ أن يضروه لم يبقَ لهم شبهةٌ أنّ آلهتهم ـ التي هي جماد لا يضر ولا ينفع ـ لا تتمكن من إضراره انتقاماً منه، وهذا من جملة معجزاته فإن مواجهة الواحد الجمَّ الغفيرَ من الجبابرة الفُتّاكِ العِطَاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لثقته بالله، وتثبُّطهم عن إضراره ليس إلا بعصمته إياه، ولذلك عقبه بقوله:

(٥٦) ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ تقريراً له، والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني فإني متوكل على الله واثق بكلاءَته وهو مالكي ومالكُكُم لا يحيق بي ما لم يُرِده ولا يقدرون على ما لم يُقدِّره[1]، ثم برهن عليه بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي إلا وهو مالك لها قادر عليها يصرفها على ما يريد بها، والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إنه على الحق والعدل لا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم.

(٥٧) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فإن تتولوا. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ فقد أديت ما عليّ من الإبلاغ وإلزام الحجة فلا تفريط مني ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم، أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده القراءة بالجزم على الموضع كأنه قيل: وإن تتولوا يعذرني ربي ويستخلِفْ. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ لتولّيكم. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر. ومَنْ جَزَمَ يستخلفْ أسقط النون منه. ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب فلا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم، أو حافظ مستوْلٍ عليه فلا يمكن أن يضره شيء.

(٥٨) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾[2] عذابُنا أو أمرنا العذاب. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وكانوا

---

(١) وجيء بلفظ الماضي «توكلت» لكونه أدل على الإنشاء المناسب للمقام (س٤/٢١٨).

(٢) والتعبير عن العذاب بلفظ الأمر مع إضافة إلى ضميره تعالى وعن نزوله بالمجيء من التفخيم والتهويل ما لا يخفى (س٤/٢١٩).

أربعة آلاف. ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ تكرير لبيان ما نجاهم منه وهو السَّمُوم، كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرُج من أدبارهم فتقطع أعضاءهم. أو المراد به تنجيتَهم من عذاب الآخرة أيضاً، والتعريض بأن المُهلَكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

(٥٩) ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ أنّثَ اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم. ﴿ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها. ﴿ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ ﴾ لأنهم عصوا رسولهم ومَنْ عصى رسولاً فكأنما عصى الكل، لأنهم أمروا بطاعة كل رسول. ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ يعني كبراءهم الطاغين. وعنيد من عَنَدَ عَنَداً وعنداً وعُنُوداً إذا طغَىٰ، والمعنى عصوا مَنْ دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يُرْديهم.

(٦٠) ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكُبُّهم في العذاب[1]. ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ﴾ جحدوه، أو كفروا نعمه، أو كفروا به فحذف الجار. ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم، وإنما كرر «ألاَ» وأعاد ذكرهم تفظيعاً لأمرهم وحثاً على الاعتبار بحالهم. ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ عطفُ بيان لعاد. وفائدتُه تمييزُهم عن عاد الثانية عادِ إرم، والإيماءُ إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود.

(٦١) ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ هو كونكم منها لا غيره فإنه خلق آدم ومواد النطف التي خلق نسلَه منها من التراب. ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ عمَّركم فيها واستبقاكم من العُمُر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها، وقيل هو من العُمْرى بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمِّرين ديارَكم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم. ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ ﴾ قريب الرحمة. ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ لداعيه.

(٦٢) ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ لما نرى فيك من مخايل الرشَد والسداد أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور، أو أن توافقنا في الدين فلمّا سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك.

---

(١) قوله «ويوم القيامة» أي وأتبعوا يوم القيامة لعنة، وهي عذاب النار، وحذفت لدلالة الأولى عليها وللإيذان باستقلالها عنها واختلافهما (س٤/ ٢٢٠).

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ على حكاية الحال الماضية. ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والتبري عن الأوثان. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِع في الريبة مِنْ أرابه، أو ذي ريبة على الإسناد المجازي من أَرَابَ في الأمر.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾

(٦٣) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ بيانٍ وبصيرة، وحرف الشك باعتبار المخاطبين. ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوّة. ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ فمن يمنعني من عذابه[١] ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ إذَنْ باستتباعكم إياي. ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير أن تُخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعرض لعذابه، أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أَنْسِبكم إلى الخُسران.

(٦٤) ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ انتصب آية على الحال وعاملُها معنى الإشارة، ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها[٢]. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾[٣] تَرْعَ نباتها وتشرب ماءها. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل لا يتراخىٰ عن مسكم لها بالسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام[٤].

(٦٥) ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾ عيشوا في منازلكم أو في داركم الدنيا. ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة ثم تهلكون. ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه فاتسع فيه بإجرائه مجرى المفعول به كقوله:

ويَوْمَ شَهِدْنَاهُ سُلِيماً وَعَامِراً

أو غير مكذوب على المجاز وكأن الواعد قال له أَفِي بكَ فإنْ وَفَىٰ به صدقه وإلا كذبه، أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول.

(٦٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكُهم بالصيحة أو ذُلهم وفضيحتهم يوم القيامة. وعن نافع يومَئِذٍ ـ بالفتح ـ على

(١) والعدول إلى إظهار لفظ الجلالة للتهويل (س٤/ ٢٢١).
(٢) وإضافة الناقة إليه تعالى للتشريف وللتنبيه على مفارقتها لما يجانسها من حيث الخلقة (س٤/ ٢٢٢).
(٣) وإضافة الأرض إليه تعالى لتربية استحقاقها ذلك وتعليل الأمر بتركها وشأنها (س٤/ ٢٢٢).
(٤) وتنكير السوء لتعميمه أي لا تمسوها بأي أمر يسوؤها.

اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه هنا وفي المعارج في قوله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[(١)] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شيء والغالب عليه.

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

(٦٧) ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ قد سبق تفسير ذلك في سورة الأعراف[(٢)].

(٦٨) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ نوّنه أبو بكر ههنا وفي النجم[(٣)]، والكسائي في جميع القرآن، وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو في قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ذهاباً إلى الحي أو الأب الأكبر.

(٦٩) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الملائكة، قيل: كانوا تسعة وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل. ﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ ببشارة الولد، وقيل بهلاك قوم لوط. ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ سلمنا عليك سلاماً، ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذَكَروا سلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي أمْرُكم أو جوابي سلامٌ أو وعليكم سلام، رَفَعَه إجابةً بأحسن من تحيتهم[(٤)]. وقرأ حمزة والكسائي سِلْم وكذلك في الذاريات[(٥)] وهما لغتان كحِرْم وحَرَام. وقيل المراد به الصلح. ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فما أبطأ مجيئه به، أو فما أبطأ في المجيء به، أو فما تأخر عنه، والجارّ في أَنْ مقدَّر أو محذوف. والحنيذ المشوي بالرَّضَف. وقيل الذي يقطر وَدَكُه من حنذت الفرس إذا عرّقْتُه بالجُلاَل لقوله: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[(٦)].

(٧٠) ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لا يمدون إليه أيديهم. ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أنكر ذلك منهم وخاف أن يريدوا به مكروهاً، ونكِرَ وأَنْكر واستَنْكر بمعنى. والإيجاسُ الإدراك، وقيل الإضمار ﴿قَالُوا﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف. ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ إنا ملائكة مرسَلَة إليهم بالعذاب، وإنما لم نَمُدَّ إليه أيدينا لأنا لا نأكل.

---

(١) المعارج: «١١».

(٢) الأعراف: «٧٨» عند قوله «فأخذتهم الرجفة» ولعل الرجفة بعد الصيحة. وإظهار لفظ «ظلموا» للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة نزول العذاب بهم (س٤/ ٢٢٣).

(٣) النجم: «٥١».

(٤) أي كان رده بأحسن من تحيتهم لرده بسلام مقدر بجملة اسمية أما سلامهم مقدر بجملة فعلية والاسمية أبلغ لأنها تفيد الدوام والاستمرار بينما الفعلية تفيد الحدوث.

(٥) الذاريات: «٢٥».

(٦) الذاريات: «٢٦».

وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

(٧١) ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة. ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمُم إليك لوطاً فإني أعلم أن العذاب ينزل بهؤلاء القوم. وقيل فضحكت فحاضت قال الشاعر:

وَعَهْدِي بِسَلْمَى ضَاحِكاً فِي لُبَابَةٍ ... وَلَمْ يَعْدُ حُقّاً ثَدْيُهَا أَنْ تَحَلَّمَا

ومنه ضحكت السمرة إذا سال صَمْغُها. وقرىء بفتح الحاء. ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ نصبَه ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسره ما دل عليه الكلام وتقديره: ووهبناها من وراء إسحاق يعقوبَ. وقيل إنه معطوف على موضع بإسحاق أو على لفظ إسحاق وفَتْحَتُه للجرّ فإنه غير مصروف، ورُدّ للفصل بينه وبين ما عُطف عليه بالظرف. وقرأ الباقون بالرفع على أنه مبتدأ.

وخبرُه الظرفُ، أي ويعقوب مولود من بعده. وقيل الوراء ولد الولد رلعله سُمي به لأنه بعد الولد، وعلى هذا تكون إضافته إلى إسحاق ليس من حيث أن يعقوب عليه الصلاة والسلام وراءه بل من حيث إنه وراء إبراهيم من جهته، وفيه نظر. والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كيحيىٰ، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن وُلدا فسُمِّيا به وتوجيهُ البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد.

(٧٢) ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ يا عجباً، وأصله في الشر فأُطلق على كل أمر فظيع. وقرىء بالياء على الأصل. ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين. ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى﴾ زوجي، وأصلُه القائم بالأمر. ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة أو مائة وعشرين، ونصبه على الحال والعامل فيها معنى اسم الإشارة. وقرىء بالرفع على أنه خبرُ محذوفٍ أي هو شيخ، أو خبرٌ بعد خبر، أو هو الخبر وبَعْلي بدل. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ يعني الولد من هَرِمَيْن، وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك:

(٧٣) ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ مُنْكِرين عليها فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصُهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يَستغربَه عاقل فضلاً عمن نشأت وشابَت في ملاحظة الآيات، وأهلُ البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة[1]. ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ فاعلٌ ما يستوجب به الحمد. ﴿مَّجِيدٌ﴾ كثير الخير والإحسان.

---

(١) وإظهار لفظ الجلالة في «رحمة الله» لزيادة تشريفها.
وقوله «عليكم. . .» حيث عدل إلى خطاب جمع المذكر لتعميم حكمه لإبراهيم عليه السلام (س٤/٢٢٦).

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ
أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾

(٧٤) ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي ما أوجس من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم. ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بدلَ الروع. ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ يجادل رسلنا في شأنهم ومجادلتُه إياهم قولُه: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾[1]. وهو إما جواب لما جيء به مضارعاً على حكاية الحال، أو لأنه في سياق الجواب بمعنى الماضي كجواب لو، أو دليل جوابه المحذوف مثل اجترأ على خطابنا أو شَرَعَ في جدالنا، أو متعلق به أقيم مقامَه مثل أخَذَ أو أقبل يجادلنا.

(٧٥) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه. ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس. ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى الله. والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه وفرط ترحمه.

(٧٦) ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ على إرادة القول، أي قالت الملائكة يا إبراهيم. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قَدَرُه بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم، وهو أعلم بحالهم. ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

(٧٧) ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئُهم لأنهم جاؤوه في صورة غلمان، فظن أنهم أناس فخاف عليهم أن يقصدهم قومُه فيعجز عن مدافعتهم. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بمكانهم صدرُه، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه. ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، مِنْ عَصَبَه إذا شدّه.

(٧٨) ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون إليه كأنهم يُدْفَعُون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه. ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي ومن قبل ذلك الوقت. ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الفواحش فتمرنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤوا يُهرعون لها مجاهرين. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فدى بهن أضيافَه كرماً وحَمِيّة، والمعنى هؤلاء بناتي فتزوجوهن، وكانوا يطلبونهن قبل فلا يُجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارىء، أو مبالغةً في تناهي خبث ما يرومونه حتى إن ذلك أهون منه، أو إظهاراً لشدة امتعاضه من ذلك كي يرُقّوا له. وقيل المراد بالبنات نساؤهم فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقةُ والتربية، وفي حرف ابن مسعود ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ وهو أب لهم ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أنظف فعلاً وأقل فحشاً كقوله: الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه. وقرىء أَطْهَرَ بالنصب على الحال، على أن هنّ خبر بناتي كقولك: هذا أخي هو الأفضل فإنه لا يقع بين الحال وصاحبها. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك الفواحش أو

---

(١) العنكبوت: «٣٢».

بإيثارهن عليهم. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من الخزاية بمعنى الحياء. ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾ في شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه. ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح.

قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وهو إتيان الذُّكران.

(٨٠) ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لو قويتُ بنفسي على دفعكم. ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إلى قوي أتمنع به عنكم، شَبَّهه بركن الجبل في شدته. وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد»[1]. وقرىء أو آوِيَ بالنصب بإضمار أَنْ كأنه قال: لو أن لي بكم قوة أو أَوْياً، وجواب لو محذوف تقديره لدفعتكم. روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوّروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب[2].

(٨١) ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا فهوّن عليك ودعنا وإياهم، فخلاّهم أن يدخلوا، فضرب جبريلُ عليه السلام بجناحه وجوهَهم فطمس أعينهم وأعماهم، فخرجوا يقولون النجاءَ النجاء فإن في بيت لوط سحرة. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بالقِطْع من الإسراء. وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن من السُّرَىٰ[3]. ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بطائفة منه. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلف أو لا ينظر إلى ورائه، والنهي في اللفظ لأحد وفي المعنى للوط. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ويدل عليه أنه قرىء فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك، وهذا إنما يصح على تأويل الالتفات بالتخلف فإنه إنْ فُسر بالنظر إلى الوراء في الذهاب ناقضَ ذلك قراءةَ ابن كثير وأبي عمرو بالرفع على البدل من أحد، ولا يجوز حمل القراءتين على الروايتين في أنه خلفها مع قومها أو أخرجها فلما سمعت صوت العذاب اُلتفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها، لأن القواطع لا يصح حملها على المعاني المتناقضة، والأَوْلى جعلُ الاستثناء في

---

(١) ● أخرجه البخاري (٦/ ٤١٥ رقم ٣٣٧٥) ومسلم (٤/ ١٨٤٠ رقم ١٥٣/ ٢٣٧٠) من طريق الأعرج عن أبي هريرة.
● وأخرجه البخاري (٦/ ٤١٨ رقم ٣٣٨٧) من طريق سعيد بن المسيب وأبي عبيدة عن أبي هريرة.
● وأخرجه البخاري (٦/ ٤١١ رقم ٣٣٧٢) ومسلم (١/ ١٣٣ رقم ٢٣٨).
من طريق سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٢/ ١٠٨) بدون راوٍ ولا سند.
وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٠) عن ابن عباس.

(٣) أي بهمزة الوصل «فأَسْرِ» والسُّرى: السير ليلاً.

القراءتين من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ مثلَه في قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[١] ولا يبعُد أن يكون أكثرُ القرّاء على غير الأفصح، ولا يلزم من ذلك أمْرُها بالالتفات بل عدم نهيها عنه استصلاحاً ولذلك علل طريقة الاستئناف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ كأنه علة الأمر بالإسراء. ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب.

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

(٨٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا به، ويؤيده الأصل، وجعلُ التعذيب مسبَّباً عنه بقوله: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فإنه جوابُ لِمَا، وكان حقُّه جعلوا عاليها سافلها أي الملائكة المأمورون به فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيماً للأمر، فإنه روي[٢] أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على المدن أو على شذاذها[٣]. ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجّر لقوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[٤] وأصله سَنْك كلْ فَعُرِّب. وقيل إنه من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته، والمعنى من مثل الشيء المرسل أو من مثل العطية في الإدرار أو من السجل أي مما كتب الله أن يعذبهم به، وقيل أصله من سجين أي من جهنم فأُبدلت نونه لاماً. ﴿مَّنضُودٍ﴾ نَضَد مُعَدّاً لعذابهم، أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً كقطار الأمطار، أو نضد بعضه على بعض وألصق به.

(٨٣) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعَلَّمة للعذاب. وقيل معلمة ببياض وحمرةً. أو بسِيَما تتميز به عن حجارة الأرض، أو باسم من يُرمىٰ بها. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطَر عليهم، وفيه وعيد لكل ظالم. وعنه عليه الصلاة والسلام «أنه سأل جبريل عليه السلام فقال: يعني ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة»[٥]. وقيل الضمير للقُرى أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في أسفارهم إلى الشام، وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

---

(١) النساء: «٦٦».

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ج١٢/ ٨٠ ـ ٨١) عن سعيد.

(٣) وإسناد الجعل والإمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبّب لتفخيم الأمر وتهويل الخطب (س٤/ ٢٣٠).

(٤) الذاريات: «٣٣».

(٥) ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص٨٧ رقم ١٩٣).

(٨٤) ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ ﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو أهل مدين وهو بلد بناه فسُمِّي باسمه. ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً ـ فإنه ملاك الأمر ـ ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخلّ بحكمة التعاوض. ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة حقُّها أن تتفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تُنقصوا حقوقَهم، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه. وهو في الجملة علّة للنهي. ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ لا يشذ منه أحد منكم، وقيل عذاب مهلك من قوله: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾[١]، والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال. ووصف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه.

وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

(٨٥) ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ صرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمدهم التطفيف بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها. ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقصان، فإن الازدياد إيفاء، وهو مندوب غير مأمور به، وقد يكون محظوراً. ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره[٢]، وكذا قوله: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فإن العثوّ يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل المراد بالبَخْس المَكْسُ كأخذ العشور في المعاملات، والعثو السرقة وقطع الطريق والغارة. وفائدةُ الحال إخراجُ ما يُقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام[٣]. وقيل معناه ولا تعثوا في الأرض مفسدين في أمر دينكم ومصالح آخرتكم.

(٨٦) ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ ﴾ ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم. ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تجمعون بالتطفيف. ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباعِ الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان، أو إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم. وقيل البقية الطاعة كقوله: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾[٤]. وقرىء تَقِيَّة الله بالتاء وهي تقواه التي تكف عن المعاصي.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ احفظُكم عن القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيَكم عليها وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أُعْذِرت حين أَنْذَرت، أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

---

(١) الكهف: «٤٢».

(٢) أو صرح بالنهي عن البخس بعد علمها مما تقدم اهتماماً بشأنه وترغيباً في إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها (س٤/ ٢٣١).

(٣) من خرق السفينة وقتل الغلام..

(٤) الكهف: «٤٦».

قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

(٨٧) ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأصنام، أجابوا به آمِرَهم بالتوحيد على الاستهزاء به والتهكم بصلواته والإشعارِ بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تُواظب عليه. وكان شعيب كثير الصلاة فلذلك جَمَعُوا وخصوا الصلاة بالذكر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص على الإفراد، والمعنى: أصلاتُك تأمرك بتكليف أن نتركَ، فحُذِف المضاف لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ عطفٌ على ما، أي وأن نترك فعلنا ما نشاءُ في أموالنا. وقرىء بالتاء فيهما على أن العطف على أن نترك وهو جواب النهي عن التطفيفِ والأمرِ بالإيفاء. وقيل كان ينهاهم عن تقطيع الدراهم والدنانير فأرادوا به ذلك. ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك، أو عللوا إنكار ما سمعوا منه واستبعادَه بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعيْن عن المبادرة إلى أمثال ذلك.

(٨٨) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة. ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فهلْ يسع لي مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه؟. وهو اعتذار عما أَنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء، والضميرُ في منه لله أي من عنده وبإعانته بلا كدّ مني في تحصيله. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي وما أريد أن آتيَ ما أنهاكم عنه لأستبدّ به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته ولم أُعرض عنه فضلاً عن أن أنهىٰ عنه، يقال خالفتُ زيداً إلى كذا إذا قصدتُه وهو مولٍّ عنه وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ما أريد إلا أن أُصلحَكم بأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ما دمتُ أستطيع الإصلاح، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه. ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعيَ في كل ما يأتيه ويذره أحدَ حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها: حق الله تعالى، وثانيها حق النفس، وثالثها حق الناس، وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه. وما مصدرية واقعة موقع الظرف، وقيل خبرية بدل من الإصلاح أي المقدار الذي استطعته، أو إصلاح ما استطعته فحُذِف المضاف. ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء وما عداه عاجز في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصىٰ مراتب العلم بالمبدأ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر بتقديم الصلة على الفعل. وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذره من الله

تعالى، والاستعانةِ به في مجامع أمره، والإقبالِ عليه بشراشِره[١]، وحسمِ أطماع الكفار وإظهارِ الفراغ عنهم وعدمِ المبالاة بمعاداتهم وتهديدِهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾

(٨٩) ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم. ﴿شِقَاقِىٓ﴾ معاداتي. ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق. ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح. ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الرجفة. وأنْ بِصلتها ثاني مفعولي جرم، فإنه يُعدى إلى واحد وإلى اثنين ككَسَبَ. وعن ابن كثير يُجْرِمنكم ـ بالضم ـ وهو منقول من المتعدي إلى مفعول واحد، والأول أفصح فإن أَجْرَم أقل دَوَراناً على ألسنة الفصحاء. وقرىء مِثْلَ بالفتح لإضافته إلى المبنيّ كقوله:

لـمْ يُمْنَـع الشُّـرْبَ مِنهَـا غَيْـرَ أَنْ نَطَقَـتْ ... حمَـــامَـــةٌ فـــي غُصُـــون ذات أوْقَـــالِ

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ زماناً أو مكاناً فإنْ لم تعتبروا بمَنْ قبلهم فاعتبروا بهم[٢]، أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمَسَاوِي فلا يَبْعد عنكم ما أصابهم، وإفرادُ البعيد لأن المراد وما إهلاكُهم أو وما هم بشيء بعيد، ولا يبعد أن يُسَوّىٰ في أمثاله بين المذكر والمؤنث لأنها على زِنة المصادر كالصهيل والشهيق.

(٩٠) ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ عما أنتم عليه. ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ عظيم الرحمة للتائبين. ﴿وَدُودٌ﴾ فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغُ المودةَ بمَنْ يَوَدّه، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

(٩١) ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهم. ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد وحُرْمة البخس وما ذكرتَ دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم. وقيل قالوا ذلك استهانةً بكلامه، أو لأنهم لم يُلقوا إليه أذهانهم لشدة نُفرتهم عنه. ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك فتمتنع منّا إن أردنا بك سوءاً، أو مَهيناً لاعزّ لك. وقيل أعمى بلغة حِمْيَر، وهو مع عدم مناسبته يرده التقييد بالظرف، ومنع بعض المعتزلة استنباء الأعمى قياساً على القضاء والشهادة والفرقُ بَيّن. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ قومُك، وعزّتُهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة. ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجه. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فتمنعنا عزتُك عن الرجم، وهذا ديْدن السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد، وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم عن إيذائه عزة قومه، ولذلك:

---

(١) بشراشره أي بكُلّيّته.

(٢) ولم يصرح بذكر ما أصابهم للإيذان بأن ذلك مغنٍ عن ذكْره لشهرته (س٤/ ٢٣٥).

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٞ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدٗا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

(٩٢) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ ﴾ وجعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والإهانة برسوله فلا تُبقون علي لله وتُبقون عليّ لرهطي، وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب. وظِهرياً منسوب إلى الظَّهر، والكسرُ من تغييرات النَّسَب. ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ فلا يخفىٰ عليه شيء منها فيجازي عليها.

(٩٣) ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٞ يُخْزِيهِ ﴾ سبق مثلُه في سورة الأنعام[1]. والفاء في فسوف تعلمون ثَمَّةَ للتصريح بأن الإصرار والتمكن فيما هم عليه سببٌ لذلك، وحذفُها ههنا لأنه جواب سائل قال: فماذا يكون بعد ذلك؟ فهو أبلغ في التهويل. ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٞۖ ﴾ عطف على من يأتيه لا لأنه قسيم له كقولك: ستعلم الكاذب والصادق، بل لأنهم لما أوعدوه وكذبوه قال: سوف تعلمون من المعذب والكاذب مني ومنكم. وقيل كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الأول إليهم والثاني إليه لكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ومن هو كاذب على زعمهم. ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ ﴾ وانتظروا ما أقول لكم. ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٞ ﴾ منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم، أو المراقب كالعشير، أو المرتقب كالرفيع.

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا ﴾ إنما ذَكَرَه بالواو كما في قصة عاد إذ لم يسبقه ذِكْرُ وعدٍ يجري مجرىٰ السبب له، بخلاف قصتي صالح ولوط فإنه ذُكِرَ بعد الوعد وذلك قوله: ﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٖ ﴾[2] وقوله ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ ﴾[3] فلذلك جاء بفاء السببية. ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا. ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ميتين، وأصل الجثوم اللزوم في المكان[4].

(٩٥) ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ ﴾ كأن لم يقيموا فيها. ﴿ أَلَا بُعْدٗا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ شبَّههم بهم لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم . وقرىء

---

(١) الأنعام: «١٣٥».

(٢) هود: «٦٥».

(٣) هود: «٨١».

(٤) وقدم تنجيته عليه السلام على إهلاكهم اهتماماً بشأنها وإيذاناً بسبق رحمته تعالى على غضبه (س٤/ ٢٣٧).

(٥) والعدول عن الإضمار إلى الإظهار ـ أي أظهر لفظ مدين ـ ليكون أدل على طغيانهم الذي أداهم إلى هذه المرتبة، وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم (س٤/ ٢٣٨).

بَعُدَتْ بالضم على الأصل، فإن الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون بسبب الهلاك، والبُعْد مصدر لهما والبَعَدُ مصدر المكسور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾

(٩٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بالتوراة أو المعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهو المعجزات القاهرة، أو العصا؛ وإفرادُها بالذكر لأنها أبْهَرُها، ويجوز أن يراد بهما واحد أي: ولقد أرسلنا بالجامع بين كونِهِ آياتنا وسلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضحاً إياها، فإنّ أَبَانَ جاء لازماً ومتعدياً، والفرقُ بينهما أن الآية تعم الأمَارة، والدليل القاطع والسلطان يُخَصُّ بالقاطع، والمبين يخص بما فيه جلاء.

(٩٧) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فاتّبعوا أمره بالكفر بموسى، أو فما تبعوا موسى الهادي إلى الحق المؤيَّد بالمعجزات القاهرة الباهرة واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان الداعي إلى ما لا يَخفى فساده على من له أدنى مُسْكَة من العقل لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم[1]. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ مرشد أو ذي رَشَد، وإنما هو غي محض وضلال صريح.

(٩٨) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال، يقال قَدِم بمعنى تقدم. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه، ونَزَّل النار لهم منزلة الماء فسمى إتيانها مورداً، ثم قال: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي بئس المورد الذي وردوه فإنه يُراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش والنارُ بالضدّ. والآية كالدليل على قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فإن من كان هذه عاقبته لم يكن في أمره رشد، أو تفسيرٌ له على أن المراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها.

(٩٩) ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا. ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يُلعَنون في الدنيا والآخرة[2]. ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ بئس العون المعان أو العطاء المُعْطىٰ، وأصل الرِّفْد ما يضاف إلى غيره ليعمده. والمخصوص بالذم محذوف أي رِفْدُهم وهو اللعنةُ في الدارين.

(١٠٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النبأ. ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ﴾ المهلَكة. ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ مقصوص عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ من تلك القرىٰ باقٍ كالزرع القائم. ﴿وَحَصِيدٌ﴾ ومنها عافي الأثَر كالزرع المحصود.

---

(١) وتخصيص الملأ بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لكافة قومه وذلك لأصالتهم في الرأي وتدبير الأمور واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور (س٤/٢٣٨).

(٢) واكتُفي ببيان حالهم الفظيع عن بيان حال فرعون، كأنه قيل: إذا كان هذا حالهم فكيف بمن كان سبباً في إغوائهم وإضلالهم؟ (س٤/٢٣٩).

والجملة مستأنفة، وقيل حال من الهاء في نقصه، وليس بصحيح إذ لا واوَ ولا ضمير.

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

(١٠١) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم. ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن عرّضوها له بارتكاب ما يوجبه. ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ فما نفعتهم ولا قدِرت أن تدفع عنهم بل ضرّتهم. ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حين جاءهم عذابه ونقمته. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ هلاك أو تخسير.

(١٠٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الأخذ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾. وقرىء أَخَذَ رَبُّك بالفعل، وعلى هذا يكون محل الكاف النصبُ على المصدر. ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهلها[1]. وقرىء إذْ، لأن المعنىٰ على المضي. ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حال من القرى، وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامه أجريت عليها، وفائدتُها الإشعارُ بأنهم أُخِذُوا بظلمهم وإنذارُ كل ظالم ظلم نفسه أو غيره من وَخَامة العاقبة. ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع غير مرجوّ الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما نزل بالأمم الهالكة، أو فيما قصه الله تعالى من قصصهم. ﴿لَءَايَةً﴾ لعبرة. ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَعتبر به عظمتَه لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة، أو يَنزجر به عن موجباته لعلمه بأنها من إله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، فإن مَنْ أنكر الآخرة وأَحال فناء هذا العالم لم يقل بالفاعل المختار وجَعَل تلك الوقائع لأسباب فَلَكية اتفقت في تلك الأيام لا لذنوب المهْلَكين بها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة وعذاب الآخرة، دل عليه: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يُجمع له الناس. والتغييرُ للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالةَ، وأن الناس لا ينفكون عنه، فهو أبلغ من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾[2]. ومعنى الجمع له الجمعُ لما فيه من المحاسبة والمجازاة. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به كقوله: في مَحفَلٍ مِنْ نَواصِي النَّاس مَشْهُود، أي كثير شاهدوه، ولو جُعِل اليومُ مشهوداً في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزِه فإن سائر الأيام كذلك.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية، على حذف المضاف وإرادة مدة التأجيل كلها بالأجل لا منتهاها فإنه غير معدود.

---

(١) وأسند الإهلاك إلى القرى للإشعار بسريان أثره إليها (س٤/ ٢٤٠).
(٢) التغابن: ٩.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي الجزاء أو اليوم كقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾[(١)] على أنَّ يومَ بمعنى حين، أو اللهُ عز وجل كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ﴾[(٢)] ونحوه. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة يأت بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسر. ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة، وهو الناصب للظرف، ويحتمل نصبه بإضمار اذكر أو بالانتهاء المحذوف. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ إلا بإذن الله كقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[(٣)] وهذا في موقف، وقولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[(٤)] في موقف آخر، أو المأذون فيه هي الجوابات الحقة والممنوع عنه هي الأعذار الباطلة. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد. ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد. والضميرُ لأهل الموقف وإن لم يُذْكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، أو للناس[(٥)].

(١٠٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفيرُ إخراج النفس والشهيقُ ردّه، واستعمالهما في أول النهيق وآخره، والمراد بهما الدلالةُ على شدة كربهم وغمهم وتشبيهُ حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه، أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير. وقرىء شُقُوا بالضم.

(١٠٧) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامهما ـ فإن النصوص دالة على تأبيد دوامهم وانقطاع دوامهما ـ بل التعبير عن التأبيد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل، ولو كان للارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السموات والأرض زوال عذابهم ولا من دوامه دوامهما إلا من قبيل المفهوم؛ لأن دوامهما كالملزوم لدوامه، وقد عرفت أن المفهوم لا يقاومُ المنطوقَ. وقيل المراد سموات الآخرة وأرضُها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[(٦)] وإن أهل الآخرة لا بد لهم من مَظَلٍّ ومَقَلّ، وفيه نظر لأنه تشبيه بما لا يَعرف أكثرُ الخلق وجوده ودوامه ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدي له التشبيه. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فُسّاقُ الموحدين يخرجون منها، وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض، وهم المراد بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأبيد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تقسيماً صحيحاً لأن من شرطه أن تكون صفة كل قسم

(١) يوسف: «١٠٧».
(٢) البقرة: «٢١٠».
(٣) النبأ: «٣٨».
(٤) المرسلات: «٣٥، ٣٦».
(٥) قدم الشقي على السعيد لأن المقام مقام تحذير وإنذار (س٤/٢٤١).
(٦) إبراهيم: «٤٨».

منتفية عن قسيمه، لأن ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع وههنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القِسْمين، وأن حالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين، أو لأن أهل النار يُنقَلون منها إلى الزمهرير وغيره من العذاب أحياناً، وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة كالاتصال بجناب القدس والفوز برضوان الله ولقائه، أو من أصل الحكم والمستثنى زمانُ توقفهم في الموقف للحساب لأن ظاهره يقتضي أن يكونوا في النار حين يأتي اليوم، أو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ إن كان الحكم مطلقاً غير مقيد باليوم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت. وقيل هو من قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وقيل: «إلا» ههنا بمعنى سوّى كقولك على ألف إلا الألفان القديمان والمعنى سوّى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السموات والأرض. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من غير اعتراض.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

(١٠٨) ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبيهٌ على أن المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع، ولأجله فُرِّق بين الثواب والعقاب بالتأبيد. وقرأ حمزة والكسائي وحفص سُعِدُوا على البناء للمفعول من سَعِدَه اللهُ بمعنى أسعده. وعطاءً نصب على المصدر المؤكد أي أعطوا عطاء، أو الحال من الجنة[1].

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ شك بعد ما أُنزل عليك من مآل أمر الناس. ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤدٍّ إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم، أو من حال ما يعبدونه في أنه يضر ولا ينفع. ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ استئناف معناه تعليل النهي عن المِرْية أي هم وآباؤهم سواءٌ في الشرك، أي ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مِثْل ما عبدوه من الأوثان، وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك فسيلحقهم مثلُه، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسبَّبات. ومعنى كما يعبد كما كان يعبد، فحُذف للدلالة مِنْ قبْلُ عليه[2]. ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه. ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال من النصيب لتقييد التوفية، فإنك تقول: وفيته حقه وتريد به وفاءَ بعضه ولو مجازاً.

---

(١) لم يذكر هنا أن لهم فيها بهجة وسروراً كما ذكر في أهل النار من أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً وذلك لأن المقام مقام تحذير وإنذار (س٤/ ٢٤٢).

(٢) والتعبير بصيغة المضارع في «يعبدون» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها (س٤/ ٢٤٣).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ
مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن
تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

(١١٠) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني كلمةَ الإنظار إلى يوم القيامة. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطل ليتميز به عن المحق. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن كفار قومك. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِع في الريبة.

(١١١) ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ وإنَّ كلَّ المختلفين المؤمنين منهم والكافرين، والتنوين بدل من المضاف إليه. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال اعتباراً للأصل[١]. ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ اللام الأولىٰ موطئة للقسم والثانية للتأكيد، أو بالعكس، وما مزيدة بينهما للفصل. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لمّا بالتشديد[٢]، على أن أصله لِمَنْ ما فقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاثُ ميمات فحُذفت أولاهن، والمعنى لِمَنَ الذين يوفينهم ربك جزاء أعمالهم. وقرىء لمّاً بالتنوين أي جميعاً كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾[٣]، ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾[٤] على أنّ إنْ نافية ولمّا بمعنى إلا، وقد قرىء به. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

(١١٢) ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لمّا بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة وأطنب في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله ﷺ بالاستقامةِ مثلَ ما أمر بها وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالتوسّط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، والأعْمالِ من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أُنْزِل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها وهي في غاية العسر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «شيبتني هود»[٥]. ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي تاب من الشرك والكفر وآمن

---

(١) أي بتخفيف «إنّ» فقرئت «إنْ» مع إعمالها بالنصب لاسمها «كلاً».

(٢) وكأن الأصل عنده قراءة من قرأ بتخفيف «لمّا».

(٣) الفجر: «١٩».

(٤) يٓس: «٣٢».

(٥) وهو حديث صحيح.

أخرجه (٤/ ٣٥٠) وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٣٥) من طريق شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبتَ، قال: شيبتني هود، والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه».

قلت: قد تابعه أبو الأحوص عن أبي إسحاق الهمداني به.

أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٦) وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٣٦).

قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٦٧٦) =

معك، وهو عطف على المستكنّ في استقم وإنْ لم يؤكّد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ولا تخرجوا عما حدّ لكم. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو مجازيكم عليه، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي. وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان(١).

وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

(١١٣) ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولا تميلوا إليهم أدنىٰ مَيْل، فإن الركون هو الميل اليسير كالتزيّي بزيّهم وتعظيم ذِكْرهم واستدامته. ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وُجد منه ما يُسمى ظلماً كذلك فما ظنكَ بالركون إلى الظالمين؟ أي الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كلّ الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يُتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطابُ الرسول ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفريط فإنه ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه. وقرىء تِرْكَنوا فتِمَسّكم ـ بكسر التاء ـ على لغة تميم، وتُرْكَنُوا على البناء للمفعول من أركنه. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم، والواو للحال. ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ثم لا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يُبْقِي عليكم. وثم لاستبعاد نصره إياهم وقد أوعدهم بالعذاب عليه وأوجبه لهم، ويجوز أن يكون مُنَزّلاً منزلة الفاء لمعنى الاستبعاد فإنه لما بين أن الله معذبهم وأن غيره لا يقدر على نصرهم أنتج ذلك أنهم لا يُنصرون أصلاً.

(١١٤) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غدوة وعشية، وانتصابُه على الظرف لأنه مضاف إليه. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، فإنه من أزلفه إذا قرّبه وهو جمع زُلْفَة. وصلاة الغداة صلاة

= والحديث له شواهد:
(منها) ما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٣٦) عن قتادة مرفوعاً مختصراً بلفظ «شيبتني هود وأخواتها».
وإسناده صحيح لولا أنه مرسل. لكن أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٦ رقم ٧٩٠) عن عقبة بن عامر مرفوعاً به.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٧): «ورجاله رجال الصحيح».
(ومنها): ما أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٤٥) من طريق محمد بن سرين عن عمران بن الحصين مرفوعاً بلفظ: «شيبتني هود وأخواتها».
وقال الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٦٧٩): «وإسناده حسن».
والخلاصة أن الحديث صحيح. انظر «الصحيحة» رقم (٩٥٥).

(١) يريد من عبارته الانحراف عن مضمون النص ومحتواه باستعمال القياس والاستحسان ونحوه وليس المراد استعمال القياس والاستحسان بأصلهما، فإن استعمالهما هو إعمال للنصوص نفسها.

الصبح لأنها أقرب الصلاة من أول النهار وصلاةُ العشية صلاة العصر، وقيل الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي وصلاة الزُّلَف المغرب والعشاء. وقرىء زُلُفاً بضمتين، وضمة وسكون كبُسُر وبُسْر في بُسْرَة، وزُلْفَىٰ بمعنى زلفة كقُربىٰ وقربة. ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يكفرنها. وفي الحديث «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر»[١] وفي سبب النزول أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني قد أصبت من امرأة غير أني لم آتها، فنزلت[٢]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله فاستقم وما بعده وقيل إلى القرآن. ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ عظة للمتعظين.

---

(١) ● أخرج مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٩ رقم ١٥/ ٢٣٣) وأحمد في المسند (٢/ ٣٥٩) من طريق هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفاراتٌ لما بينهنَّ».

● وأخرج (٢/ ٤٨٤) من طريق العلاء بن عبدالرحمٰن بن يعقوب عن أبيه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمسُ والجمعة إلى الجمعة كفارةٌ لما بينهنَّ ما لم تُغش الكبائر».

● وأخرج مسلم (١/ ٢٠٩ رقم ١٦/ ٢٣٣) والبغوي في شرح السنة (٢/ ١٧٧ رقم ٣٤٥) وأحمد (٢/ ٤٠٠).

من طريق ابن وهب، عن أبي صخر، أن عمرَ بن إسحاق مولى زائدة حدَّثهُ عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول «الصلوات الخمسَ، والجمعة إلى الجمعة. ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر».

(٢) ● أخرج الترمذي (٥/ ٢٩٢ رقم ٣١١٥) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٨/ ٣٠٧ رقم ١١١٢٥) ـ.

من طريق موسى بن طلحة عن أبي اليَسَر بن عمرو، قال: أتَتْهُ امرأة، وزوجها قد بعثَهُ النبي ﷺ في بعثٍ، فقالت له: بعني بدرهم تمراً. فقال: فقلت لها ـ وأعجبتني ـ إن في البيت تمراً أطيب من هذا، فانطلق بها فغمزها وقبَّلَها، ففزعَ ثم خرجَ فلقي أبا بكر فقال له: هلكتُ. قال: ما شأنكَ، فقصَّ عليه أمرَهُ، وقال له: هل لي من توبة؟ قال: نعم، تُب ولا تعُد ولا تخبرنَّ أحداً، ثم انطلق حتى أتى النبي ﷺ فقص عليه فقال: «خلَّفتَ رجلاً من المسلمين غازياً في سبيل الله بهذا» وظننتُ أني من أهل النار، وأنّ الله لا يغفِرُ لي أبداً، وأطرق عني نبي الله ﷺ حتى نزلت عليه (أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» فأرسل إليّ نبي الله ﷺ فقرأهُنَّ عليَّ.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٧/ ج١٢/ ١٣٧) والطبراني في الكبير (١٩/ ١٦٥ رقم ٣٧١) كلاهما من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن عبدالله بن مرهب ـ به وقيس بن الربيع: «صدوق تغير لما كبر وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به».

قاله ابن حجر في «التقريب» [٢/ ١٢٨ رقم (١٣٩)].

والخلاصة أن الحديث حسن.

وأصل القصة في الصحيحين: أخرج البخاري (٨/ ٣٥٥ رقم ٤٦٨٧).

ومسلم (٤/ ٢١١٥ رقم ٣٩) من حديث ابن مسعود.

وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟
مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٥) ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عدول[١] عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلاً على أن الصلاة والصبر إحسان وإيماءٌ بأنه لا يعتد بهما دون الإخلاص.

(١١٦) ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ فهلا كان. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ من الرأي والعقل، أو أولو فضل وإنما سمي بقية لأن الرجل يستبقي أفضل ما يُخرجه؛ ومنه يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم، ويجوز أن يكون مصدراً كالتقية أي ذَوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب، ويؤيده أنه قرىء بَقْيَةٍ وهي المرة من مصدر بَقَاهُ يَبْقِيه إذا راقبه. ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لكنْ قليلاً منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك، ولا يصح اتصاله إلا إذا جُعِل استثناءً من النفي اللازم للتحضيض. ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ ما أُنعِموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأَعرضوا عما وراء ذلك. ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ كافرين. كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشوّ الظلم فيهم واتِّباعهم للهوى وترك النهي عن المنكرات مع الكفر. وقولُه واتّبع معطوف على مضمر دل عليه الكلام إذ المعنى: فلم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا، وكانوا مجرمين عَطْفٌ على اتّبع أو اعتراض. وقرىء وأُتْبِع أي وأتبعوا جزاء ما أُترفوا، فتكون الواو للحال، ويجوز أن تفسر به المشهورة، ويعضده تقدُّم الإنجاء.

(١١٧) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ بشرك. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم لا يضمّون إلى شركهم فساداً وتباغياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه، ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوقَ العباد. وقيل المُلْكُ يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

(١١٨) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُسْلِمين كلهم، وهو دليل ظاهر على أن الأمر غيرُ الإرادة وأنه تعالى لم يُرِدِ الإيمانَ من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعُه. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بعضُهم على الحق وبعضهم على الباطل لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقاً.

(١١٩) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً هداهم الله من فضله فاتفقوا على ما هو أصول دين الحق

---

(١) وعبر عن ذلك بنفي الإضاعة ـ مع أن عدم إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقة ـ وذلك لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح، وكذا لإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه (س٤/٢٤٦).

والعمدة فيه. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إنْ كان الضمير للناس فالإشارةُ إلى الاختلاف؛ واللامُ للعاقبة أو إليه وإلى الرحمة، وإن كان لمَنْ فإلى الرحمة. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وعيدٌ، أو قولُه للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي من عصاتهما. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أو منهما أجمعين لا من أحدهما.

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

(١٢٠) ﴿وَكُلًّا﴾ وكل نبأ. ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ نخبرك به. ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بيان لكُلاً أو بدل منه، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص وهو زيادةُ يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار، أو مفعول وكُلاً منصوب على المصدر بمعنى كلَّ نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك من أنباء الرسل. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ السورة[1]، أو الأنباء المقتصة عليك. ﴿الْحَقُّ﴾ ما هو حق. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة.

(١٢١) ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على حالنا.

(١٢٢) ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر. ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نَزَل على أمثالكم.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خاصة لا يَخفىٰ عليه خافية مما فيهما. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فيَرْجِع ـ لا محالة ـ أمرُهم وأمرك إليه. وقرأ نافع وحفص يُرْجَعُ على البناء للمفعول. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك. وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهم فيجازي كلاً ما يستحقه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء هنا وفي آخر النمل[2]. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ومن كذّب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى»[3].

☆ ☆ ☆

(١) وتقديم الظرف أي «في هذه» على الفاعل «الحق» لأن المقصود بيان منافع السورة (س٤/٢٤٨).
(٢) النمل: «٩٣».
(٣) هو حديث موضوع كما ذكر ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٢).

سُورَةُ يُوسُفَ

ترتيبها ١٢ — آياتها ١١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

(١) ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تلك إشارة إلى آيات السورة وهي المرادُ بالكتاب، أي تلك الآيات آيات السورة الظاهرة أمرُها في الإعجاز أو الواضحةُ معانيها، أو المبيِّنة لمن تدبرها أنها من عند الله، أو لليهود ما سألوا إذ روي أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً لِمَ انتقل آلُ يعقوب من الشأم إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام فنزلت.

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب. ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ سُمِّي البعض قرآناً لأنه في الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعضِ وصارَ عَلَماً للكل بالغلبة، ونصبُه على الحال وهو في نفسه إما توطئة للحال التي هي عربياً أو حال لأنه مصدر بمعنى مفعول، وعربياً صفة له أو حال من الضمير فيه أو حال بعد حال، وفي كل ذلك خلاف. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ علةٌ لإنزاله بهذه الصفة، أي أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص مُعْجِز لا يُتصور إلا بالإيحاء.

(٣) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[1] أحسن الاقتصاص لأنه اقْتُصَّ على أبدع الأساليب، أو

---

(١) أخرج الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٦٩) وابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٥٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥) وأبو يعلى في المسند (٢/ ٨٧ رقم ٥٢/ ٧٤٠) وابن حبان (رقم: ١٧٤٦) موارد.
عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: «نحن نقص عليك أحسن القصص» قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت، فأنزل الله تعالى «آلر تلك =

أحسن ما يقص لاشتماله على العجَائب والحِكَم والآيات والعبر، فَعَلٌ بمعنى مفعول كالنَّقْض والسَّلْب، واشتقاقُه من قَصَّ أثره إذا اتبعه ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي بإيحائنا. ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يعني السورة، ويجوز أن يُجعل هذا مفعول نقصّ على أنّ أحسنَ نصب على المصدر. ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قطّ، وهو تعليل لكونه موحىً، وإنْ هي المخففة من الثقيلة، واللامُ هي الفارقة.

(٤) ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ﴾ بدل من أحسن القصص إن جُعل مفعولاً بدل الاشتمال، أو منصوب بإضمار اذْكُر. ويوسف عبري ولو كان عربياً لصُرِف. وقرىء بفتح السين وكسرها، على التلعب به لا على أنه مضارع بني للمفعول أو الفاعل مِنْ آسَفَ، لأن المشهورة شهدت بعُجْمته. ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وعنه عليه الصلاة والسلام «الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[(١)] ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصله يا أبي فعوض عن الياء تاءَ التأنيث لتناسبهما في الزيادة، ولذلك قلَبها هاء في الوقف ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وكَسَرها لأنها عِوَضُ حرف يناسبها، وفَتَحها ابنُ عامر في كل القرآن لأنها حركةُ أصلِها أو لأنه كان يا أبتا فحَذَفَ الألف وبقي الفتحة، وإنما جاز يا أبتا ولم يجز يا أبتي لأنه جمْعٌ بين العِوَض والمعوّض. وقرىء بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض، وإنما لم تُسكّن كأصلها لأنها حرف صحيح مُنَزَّل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب. ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾[(٢)] ولقوله: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾[(٣)] ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾. روي عن جابر رضي الله تعالى عنه أن يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال: «إذا أخبرتُك هل تسلم»؟ قال: نعم، قال: «جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف، والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له» فقال اليهودي: إي والله إ

= آيات الكتاب المبين» إلى قوله «نحن نقص عليك أحسن القصص» الآية. فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً» [الزمر: ٢٣] قال: كل ذلك تؤمرون بالقرآن بإسناد حسن كما قاله ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٠).

وذكره الحافظ في «المطالب العالية» برقم (٣٦٥٢) وقال حديث حسن، ونسبه لابن راهويه، وأبي يعلى، والبزار.

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٦١ رقم ٤٦٨٨) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ١٢٦ رقم ٣٥٤٧) من حديث ابن عمر.

● وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٦٠٥) والترمذي (٥/ ٢٩٣ رقم ٣١١٦) والحاكم (٢/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ و٥٧٠ ـ ٥٧١) وأحمد (٢/ ٣٣٢ و٣٨٤) من حديث أبي هريرة بسياق أطول.

قال الترمذي: حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وأورده الألباني في «الصحيحة» (رقم: ١٦١٧).

(٢) يوسف: «٥».

(٣) يوسف: «١٠٠».

لأسماؤها[١] ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرير، وإنما أُجريت مجرىٰ العقلاء لوصفها بصفاتهم.

(٥) ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ تصغير ابن، صغَّره للشفقة أو لصِغَر السن لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة. وقرأ حفص هنا وفي الصافات بفتح الياء[٢]. ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة، فَهِمَ يعقوب عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته ويفوِّقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم وبغيهم. والرؤيا كالرؤية غير أنها مختصة بما يكون في النوم، فُرِّقَ بينهما بحرفَيْ التأنيث كالقربة والقربىٰ، وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقةُ منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتَصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك، ثم إن المتخيِّلة تحاكيه بصورةٍ تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهَدَةً، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه. وإنما عَدَّىٰ كاد باللام وهو متعد بنفسه لتضمنه معنى فعْل يتعدى به تأكيداً ولذلك أكد بالمصدر وعلله بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم عليه السلام وحواء فلا يألو جَهْداً في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعزٍّ وكمال نفس. ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ للنبوة والملك، أو لأمور عظام. والاجتباءُ من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾

---

(١) أخرجه البزار (٣/٥٣ رقم ٢٢٢) وابن جرير (٧/ج١٢/١٥١) والحاكم (٤/٣٩٦) والبيهقي في «الدلائل» (٦/٢٧٧) والعقيلي في «الضعفاء» (١/٢٥٩) وابن حبان في «المجروحين» (١/٢٥٠) وابن الجوزي في الموضوعات (١/١٤٥ ـ ١٤٦).
وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٤/٤٩٨) السعيد بن منصور، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي نعيم. عنه.
قال البزار «لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، والحكم فليس بالقوي، وقد روى عنه جماعة».
وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/٣٩) رواه البزار وفيه الحكم بن ظهير وهو متروك.
وقال البيهقي: تفرد به الحكم بن ظهير.
وقال العقيلي: لا يصح في هذا المتن عن النبي ﷺ شيء من وجه يثبت.
وقال ابن حبان: هذا الحديث لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ.
وقال ابن الجوزي: وكأن واضعه قصد شين الإسلام بمثل هذا. وفيه جماعة ليسوا بشيء والخلاصة أن الحديث من الموضوعات.
(٢) الصافات: «١٠٢» وقرأ الباقون «يا بُنَيِّ» بكسر الياء، وهو الأصل عند البيضاوي.

كلام مبتدأ خارج عن التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا؛ لأنها أحاديث المَلَك إن كانت صادقة وأحاديث النفس أو الشيطان إن كانت كاذبة، أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلمات الحكماء. وهو اسم جمع للحديث، كأباطيل اسم جمع للباطل. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة أو بأن يَصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة. ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يريد به سائر بنيه؛ ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب، أو نَسْلِهِ. ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ بالرسالة. وقيل على إبراهيم بالخُلّة والإنجاءِ من النار، وعلى إسحاق بإنقاذه من الذبح[1] وفدائه بذبح عظيم. ﴿مِن قَبْلُ﴾

(١) هذا على القول بأن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، والصحيح الثابت خلافة، لذلك أضع هنا كلمة ضافية لابن القيم، فيها أبطال القول بأن الذبيح هو إسحاق.

قال ابن قيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد» (١/ ٧١ ـ ٧٥): «وأمّا القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيده، ولا يشكُّ أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازونه لأنفسهم دون العرب، ويأبى اللهُ إلاّ أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يُقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى «لا تخفْ إنا أُرسلنا إلى قوم لوطٍ. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» [هود: ٧٠/ ٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناوُلُ البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقه.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان «يعقوب» مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة «ومن وراء إسحاق يعقوب» أي: ويعقوب من وراء إسحاق وقيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوبُ مبشراً به، لأن البشارة قول مخصوص، وهي أول خبر سار صادق. وقوله تعالى «ومن وراء إسحاق يعقوب» جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: «من وراء إسحاق يعقوب»، والقائل إذا قال: بشرت فلاناً بقدوم أخيه وثقَلِهِ في أثره، لم يعقل منه إلاّ بشارته بالأمرين جميعاً. هذا مما لا يستريبُ ذو فهمٍ فيه البتة، ثم يُضعف الجرَّ أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمرو ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجرّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف والمجرور. ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال «فلما أسلما وتلّهُ للجبين وناديناه أنْ يا إبراهيم. قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هذا لهو البلاء المبين» وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين [الصافات: (١٠٣ ـ ١١١)] ثم قال تعالى «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» [الصافات: ١١٢] فهذهِ بشارة من الله تعالى له شكراً على صبره على ما أُمِرَ به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشَّر به غيرُ الأول، بل هو كالنص فيه. فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي لما صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدر، أي مقدراً نبوته فلا يمكن إخراجُ البشارة أن تقع على الأصلِ. ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلَة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى. =

أي من قبلك أو من قبل هذا الوقت. ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لأبويك[1]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاجتباء. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغي.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

(٧) ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي في قصتهم. ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلائلُ قدرةِ الله تعالى وحكمته، أو

= وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جُعلت القرابينُ يوم النَّحر بها، كما جُعِل السعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمّه، وإقامةً لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النَّحرُ بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنَّحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سماه عليماً، فقال تعالى «هل أتاكَ حديث ضيفِ إبراهيمَ المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً. قال سلامٌ قوم منكرون» [الذاريات: ٢٤، ٢٥] إلى أن قال «قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم» [الذاريات: ٢٨] وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته وهي المبشرة به، وأما إسماعيل، فمن السُّرِيَّة. وأيضاً فإنهما بُشِّرا به على الكبر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أنّ بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممن بعده وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلاً، والخُلة منصِبٌ يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها. فلما أخذ الولدُ شعبة من قلب الوالد. جاءت غَيْرةُ الخُلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبةُ الله أعظمَ عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحةُ إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حَصَل المقصود، فنُسِخَ الأمر، وفُدي الذبيح، وصدّق الخليلُ الرؤيا وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأةَ الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبَّه أبوه، اشتدت غيرة «سارة» فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها «هاجر» وابنها، ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن «سارة» حرارة الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السُّرِيَّة، فحينئذٍ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوةُ الغيرة رحمة، ويظهر لها بركةُ هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليُرِيَ عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر «هاجر» وابنها على البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جُعْل آثارهما ومواطِىء أقدامها مناسكَ لعبادة المؤمنين، ومتعبداتٍ لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يُريد رفعه من خلقه أن يمنَّ عليه بعد استضعافه وذله وانكساره. قال تعالى «ونريدُ أن نمنَّ على الذينَ استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» [القصص: ٥] وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) والتعبير عنهما بالأب ـ مع كونهما أبا جده ـ للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام (س٤/ ٢٥٤).

علامات نبوتك[1]. وقرأ ابن كثير آية. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لمن سأل عن قصتهم، والمراد بإخوته بنو عَلاته العشرة وهم: يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وزبالون ويشخر ودينة من بنت خالته ليا تزوجها يعقوب أولاً فلما توفيت تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف، وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرماً حينئذ وأربعة آخرون: دان ونفتالي وجاد وأشر من سريتين زلفة وبلهة.

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين وتخصيصُه بالإضافة لاختصاصه بالأُخوّة من الطرفين. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وَحَّدَه لأن أَفعَلُ مِنْ لا يُفَرَّقُ فيه بين الواحد وما فوقه والمذكر وما يقابله، بخلاف أخويه فإن الفرق واجب في المحلّىٰ جائز في المضاف. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والحال أنا جماعة أقوياء أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيها، والعُصبة والعِصابة العشرة فصاعداً سموا بذلك لأن الأمور تَعْصَب بهم. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لتفضيله المفضول أو لترك التعديل في المحبة. روي أنه كان أحب إليه لما يَرىٰ فيه من المخايل وكان إخوته يَحْسُدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه، فتبالَغَ حَسَدُهم حتى حملهم على التعرض له.

(٩) ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ من جملة المحكي بعد قوله «إذ قالوا» كأنهم اتفقوا على ذلك الأمر إلا من قال لا تقتلوا يوسف. وقيل إنما قاله شمعون أو دان ورضي به الآخرون.

﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ مَنْكورة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإبهامها، ولذلك نصبت كالظروف المبهمة. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ جواب الأمر. والمعنى يَصْفُ لكم وجه أبيكم فيُقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا ينازعكم في محبته أحد[2]. ﴿وَتَكُونُواْ﴾ جزم بالعطف على يَخل، أو نصب بإضمار أَنْ. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد يوسف أو الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه. ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتم، أو صالحين مع أبيكم بصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه، أو صالحين في أمر دنياكم فإنه يَنْتَظِم لكم بعده بخلوّ وجه أبيكم.

(١٠) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً، وقيل روبيل. ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإن القتل عظيم[3]. ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ في قعره، سُمّي بها لغيبوبته عن أعين الناظرين. وقرأ نافع في

---

(١) وجمع الآيات للإشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية في الدلالة على نبوته عليه السلام (س٤/ ٢٥٥).

(٢) وإيثار الخطاب في «لكم» وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (س٤/ ٢٥٦).

(٣) وإظهار اسم يوسف في مقام الإضمار لاستجلاب شفقتهم عليه، أو لاستعظام قتله (س٤/ ٢٥٦).

غيابات في الموضعين على الجمع كأنه لتلك الجب غيابات، وقرىء غَيْبَة، وغَيَّابات بالتشديد. ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه. ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعض الذين يسيرون في الأرض. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ بمشورتي، أو إن كنتم على أن تفعلوا ما يفرق بينه وبين أبيه.

قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لِمَ تخافُنا عليه. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ونحن نشفق عليه ونريد له الخير، أرادوا به استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم. والمشهور تأمنّا بالإدغام بإشمام، وعن نافع بترك الإشمام، ومن الشواذ ترك الإدغام لأنهما من كلمتين وتيمّناً بكسر التاء.

(١٢) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء. ﴿يَرْتَعْ﴾ نتسع في أكل الفواكه ونحوها، مِنَ الرَّتْعَة وهي الخصب. ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والانتضال. وقرأ ابن كثير نَرْتَعِ بكسر العين على أنه مِنْ ارتعىٰ يرتعي، ونافعُ بالكسر والياء فيه وفي يلعب[1]، وقرأ الكوفيون ويعقوب بالياء والسكون على إسناد الفعل إلى يوسف[2]، وقرىء يرتع من أرتع ماشيته، ويرتعِ بكسر العين ويلعبُ بالرفع على الابتداء. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

(١٣) ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ لشدة مفارقته عليّ وقلة صبري عنه. ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأن الأرض كانت مذأَبة. وقيل رأى في المنام أن الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره عليه. وقد هَمَزَها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية اليزيدي وأبو عمرو وقفاً، وعاصم وابن عامر وحمزة دَرْجاً. واشتقاقه من تذاءبت الريح إذا هبت من كل جهة. ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

(١٤) ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم وجوابُه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ضعفاء مغبونون، أو مستحقون لأن يدعىٰ عليهم بالخسار، والواو في «ونحن عصبة» للحال[3].

(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وعزموا على إلقائه فيها، والبئر بئر بيت المقدس أو بئر بأرض الأردن أو بين مصر ومدين أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب، وجواب لمّا محذوف

---

(١) أي «يَرْتَعِ ويَلْعبْ».
(٢) أي «يَرْتَعْ ويَلْعَبْ».
(٣) وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لأنه السبب القوي في المنع ولم يوردوا جواباً على الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (س٤/٢٥٨).

مِثْل فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد روي أنهم لما برزوا به إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث، فقال يهوذا: أما عاهدتموني أن لا تقتلوه، فأتوا به إلى البئر فدلّوه فيها، فتعلق بشفيرها، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتوارىٰ به، فقالوا: ادعُ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يُلْبسوك ويؤنسوك، فلما بلغ نصفها ألقوه وكان فيها ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي فجاءه جبريل بالوحي كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وكان ابن سبعَ عشْرةَ سنة. وقيل كان مراهقاً أوحي إليه في صغره كما أوحي إلى يحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. وفي القصص: أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جُرِّد عن ثيابه، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب فجعله في تميمة علقها بيوسف فأخرجه جبريل عليه السلام وألبسه إياه. ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا﴾ لتحدثنهم بما فعلوا بك. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف لعلوّ شأنك وبُعده عن أوهامهم وطول العهد المغيِّر للحُلىٰ والهيئات، وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر حين دخلوا عليه ممتارين فعَرَفَهم وهم له منكرون. بشره بما يؤول إليه أمره إيناساً له وتطييباً لقلبه. وقيل وهم لا يشعرون متصل بأوحينا أي آنسناه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي آخر النهار. وقرىء عُشَياً وهو تصغير عشى، وعُشَىٰ بالضم والقصر جمع أعشىٰ، أي عُشُوا من البكاء. ﴿يَبْكُونَ﴾ متباكين. روي أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال ما لكم يا بنيّ وأين يوسف؟.

(١٧) ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نتسابق في العَدْو أو في الرمي، وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف.

(١٨) ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي ذي كذب بمعنى مكذوب فيه، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة. وقرىء بالنصب على الحال من الواو أي جاؤوا كاذبين، وكدب بالدال غير المعجمة أي كَدِرٍ أو طريّ. وقيل: أصله البياض الخارج على أظفار الأحداث فشبه به الدم اللاصق على القميص، وعلى قميصه في موضع النصب على الظرف أي فوق قميصه أو على الحال من الدم إن جوّز تقديمها على المجرور. روي: أنه لما سمع بخبر يوسف صاح وسأل عن قميصه فأخذه وألقاه على وجهه وبكىٰ حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه . . . .

قميصه[١]، ولذلك ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي سهّلت لكم أنفسكم وهونت في أعينكم أمراً عظيماً، من السوْل وهو الاسترخاء. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل، وفي الحديث: «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخَلْق»[٢]. ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على احتمال ما تصفونه من إهلاك يوسف وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم إن صحّ.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(١٩) ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رِفقة يسيرون من مدين إلى مصر فنزلوا قريباً من الجب، وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي يَرِد الماء ويستقي لهم، وكان مالك بن ذعر الخزاعي. ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ فأرسلها في الجب ليملأها، فتدلىٰ بها يوسف، فلما رآه ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ نادىٰ البشرىٰ بشارة لنفسه أو لقومه كأنه قال تعالى فهذا أوانك، وقيل هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على إخراجه. وقرأ غير الكوفيين يا بُشْرايَ بالإضافة، وأمالَ فتحةَ الراء حمزةُ والكسائي، وقرأ ورش[٣] بين اللفظين، وقرىء يا بشريَّ بالإدغام وهو لغة[٤]، وبُشْرايْ بالسكون على قصد الوقف. ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي الواردُ وأصحابُه من سائر الرفقة. وقيل أخفوْا أمره وقالوا لهم دفعه إلينا أهلُ الماء لنبيعه لهم بمصر. وقيل الضمير لإخوة يوسف، وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوتَه، فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامُنا أَبَقَ منّا فاشتروْه، فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه[٥]. ﴿بِضَاعَةً﴾ نصب على الحال أي أخفوه متاعاً للتجارة، واشتقاقُه من البَضْع[٦] فإنه ما بُضِع من المال للتجارة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخف عليه أسرارهم أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم.

(٢٠) ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه؛ وفي مرجع الضمير الوجهان، أو اشتروه من إخوته[٧]. ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٦٣) عن السدي.

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٦٦) عن حِبّان بن أبي جبلة مرسلاً وفيه سنيد الحسين بن داود ضعيف.

(٣) هو عثمان بن سعيد بن عبدالله المصري، ويُكنى أبا سعيد، و(ورش) لقب له لُقِّب به لشدة بياضه.
كان جيد القراءة، حسن الصوت، انتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه لا ينازعه فيها منازع.
توفي سنة سبع وتسعين ومائة عن سبع وثمانين سنة.
[غاية النهاية (١/ ٥٠٢)].

(٤) على لغة من يقلب الألف ياء ويدغمها في ياء المتكلم. تقول هَوِيّ في هواي.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٦٩) عن ابن العباس.

(٦) والبضع هو القطع.

(٧) وعدل عن صيغة الافتعال ـ فلم يقل اشتروه ـ لأن أخذهم إنما كان بطريقة البضاعة لا بطريق الاجتباء والاقتناء (س٤/ ٢٦٠).

مبخوس لزيفه أو نقصانه. ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من الثمن. ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ قليلة فإنهم كانوا يَزِنون ما بلغ الأوقية ويَعُدّون ما دونها. قيل[١] كان عشرين درهماً وقيل[٢] كان اثنين وعشرين درهماً. ﴿وَكَانُواْ فِيهِ﴾ في يوسف. ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ الراغبين عنه، والضمير في وكانوا إن كان للإخوة فظاهر وإن كان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه لأنهم الْتقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق. وفيه متعلق بالزاهدين إن جُعل اللام للتعريف، وإن جعل بمعنى الذي فهو متعلق بمحذوف يبينه الزاهدين لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول.

وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر واسمه قطفير أو إطفير، وكان الملِك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي وقد آمن بيوسف عليه السلام ومات في حياته. وقيل كان فرعون موسىٰ عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[٣]. والمشهور أنه من أولاد فرعون يوسف. والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء. روي: أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهوُ ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به من جعل شراءه به غير الأول فقيل[٤]. عشرون ديناراً وزوجا نعلٍ وثوبان أبيضان. وقيل ملؤه فضة وقيل ذهباً. ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل أو زليخا. ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً أي حسناً، والمعنى أحسني تعهده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضِياعنا وأموالنا ونستَظْهِرَ به في مصالحنا. ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ نتبناه وكان عقيماً لما تفرس فيه من الرشد، ولذلك قيل[٥]: أَفْرسُ الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت «يا أبت

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٧٣) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٧٣) عن ابن عباس، بلفظ «كانت عشرين درهماً».

(٣) غافر: «٣٤».

(٤) هذا وغيره مما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ وهو من الأمور الغيبية، ولا يتوقف فهم الآية على شيء من هذه الروايات المأخوذة بجملتها من الإسرائيليات. حتى ولو كان لبعضها إسناد إلى بعض المفسرين من التابعين رحمهم الله.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥) من رواية أبي الأحوص عن ابن مسعود.
وكذلك أخرجه (٣/ ٩٠) من رواية أبي عبيدة عنه.
وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي في كلا الطريقين. مع أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٨٥ رقم ٨٨٢٩ و٨٨٣٠) من طريق سفيان وسعيد بن منصور عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٦٨) وقال «رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح إن =

استأجره»[1]، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله تعالى عنهما. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وكما مكنّا محبته في قلب العزيز أو كما مكناه في منزله أو كما أنجيناه وعطّفنا عليه العزيز مكنا له فيها. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ عطف على مضمَر تقديره ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه، أي كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس ويعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها أو تعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنيّه. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يرده شيء ولا ينازعه فيما يشاء أو على أمر يوسف، أراد به إخوتُه شيئاً وأراد الله غيره فلم يكن إلا ما أراده. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيده، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سنّ الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين، وقيل سن الشباب ومبدؤه بلوغ الحلم. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكْمة وهو العلم المؤيّد بالعمل، أو حُكْماً بين الناس. ﴿وَعِلْمًا﴾ يعني علم تأويل الأحاديث. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيهٌ على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاءً على إحسانه في عمله وإتقانه في عنفوان أمره.

(٢٣) ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ طلبت منه وتمحلت أن يواقعها، مِنْ رَادَ يُرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد[2]. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ قيل كانت سبعة، والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أَقْبِلَ وبادر، أو تهيأت، والكلمةُ على الوجهين اسم فعل بُني على الفتح كأَيْنَ، واللام للتبيين كالتي في سُقيا لك. وقرأ ابن كثير بالضم وفتح الهاء تشبيهاً له بحَيْثُ، ونافعُ وابن عامر بالفتح وكسر الهاء كعِيَط، وقرأ هشامُ كذلك إلا أنه يهمز وقد روي عنه ضم التاء وهو لغة فيه، وقرىء هِيتَ كَجِيرَ، وهِئْتَ كجِئْتَ من هاء يهيىء إذا تهيأ، وقرىء هِيئتَ وعلى هذا فاللام من صلته. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ الشأن. ﴿رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ سيدي قطفير أَحْسَنَ تعهدي إذ قال لكِ في: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ فما جزاؤه أنْ أخونه في أهله. وقيل الضمير لله تعالى أي إنه خالقي أحسن منزلتي بأن عطّف عليّ قلبَه فلا أعصيه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المجازون الحسن

= محمد بن كثير هو العبدي، وإن كان هو الثقفي فقد وثق على ضعف كثير فيه» اهـ.
قلت: ـ والطريق الأخرى للطبراني رجالها أيضاً ثقات إلا شيخ الطبراني محمد علي الصائغ المكي، فقد ذكره ابن حبان في الثقات (٩/ ١٥٢).
والخلاصة أن الأثر صحيح والله أعلم.

(١) القصص: «٢٦».

(٢) والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السرّ أو للاستهجان بذكره. وإيراد الموصول «التي» لتقرير المراودة، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام (س٤/ ٢٦٦).

بالسيء. وقيل الزناة فإن الزنا ظلم على الزاني والمزني بأهله.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ قصدت مخالطته وقصد مخالطتها، والهمّ بالشيء قَصْده والعزم عليه ومنه الهُمَام وهو الذي إذا هم بشيء أمضاه، والمراد بهمِّه عليه الصلاة والسلام مَيْل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، أو مشارفة الهم كقولك قتلته لو لم أخف الله. ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ في قبح الزنا وسوء مغبته لخالَطَها لشَبَقِ الغُلْمَة وكثرة المغالبة، ولا يجوز أن يجعل وهمّ بها جوابُ لولا فإنها في حكم أدوات الشرط فلا يتقدم عليها جوابُها، بل الجواب محذوف يدل عليه. وقيل رأى جبريل عليه الصلاة والسلام، وقيل تمثل له يعقوب عاضاً على أنامله، وقيل قطفير، وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مِثْلُ ذلك التثبيت ثبتناه، أو الأمر مثل ذلك. ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ خيانة السيد. ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنا. ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كل القرآن إذا كان في أوله الألف واللام، أي الذين أخلصوا دينهم لله.

(٢٥) ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي تسابقا إلى الباب، فحُذِف الجار أو ضُمّن الفعل معنى الابتدار. وذلك أن يوسف فرَّ منها ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته من ورائه فانقد قميصه، والقدُّ الشق طولاً والقطُّ الشق عرضاً[1]. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وصادفا زوجها. ﴿لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إيهاماً بأنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها وتغييرَه على يوسف وإغراءَه به انتقاماً منه، وما نافية أو استفهامية بمعنى أي شيء جزاءه إلا السجن؟[2].

(٢٦) ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ طالبتني بالمؤاتاة، وإنما قال ذلك دفعاً لما عرضته له من السجن أو العذاب الأليم ولو لم تكذب عليه لما قاله. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قيل ابن عم لها. وقيل

---

(١) وإسناد القدّ إليها خاصة ـ مع أن لقوة يوسف دخلاً فيه ـ إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة، وإما للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج (س٤/ ٢٦٧).

(٢) وعدم تعيين الجزاء لتهويله.

وقولها «بأهلِك» حيث ذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز لإعظام الخطب وإغرائه على تحقيق ما تتوخاه (س٤/ ٢٦٨).

ابن خال لها صبياً في المهد. وعن النبي ﷺ: «تكلم أربعةٌ صغاراً ابنُ ماشطة فرعون، وشاهدُ يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام»[١] وإنما ألقىٰ الله الشهادة على لسان أهلها لتكون ألزم عليها. ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قُدامه بالدفع عن نفسها، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقد جيبه.

وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته. والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول، وتسميتُها شهادة لأنها أدت مؤداها، والجمع بين إنْ وكان على تأويل أَنْ يعلمَ أنه كان ونحوه ونظيره قولك: إن أحسنتَ إلي اليوم فقد أحسنتُ إليك من قبل، فإن معناه إن تمنن علي بإحسانك أَمْنُن عليك بإحساني لك السابق. وقرىء مِنْ قُبُلُ ومِنْ دُبُرُ بالضم لأنهما قُطِعا عن الإضافة كقَبْلُ وبعدُ، وبالفتح كأنهما جُعِلا علمين للجهتين فمُنعا الصرف، وبسكون العين.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾ إن قولَك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً، أو إن السوء، أو إن هذا الأمر. ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها، أو لسائر النساء[٢]. ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإن كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس ولأنهن يواجهن به الرجال والشيطان يوسوس به مسارقةً.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٧٦ رقم ٣٤٣٦) ومسلم (٤/ ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ رقم ٨) عن أبي هريرة.

● وأخرج أحمد (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠) وابن حبان في الموارد (ص٣٩ رقم ٣٦) وأبو يعلى في المسند (٤/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥ رقم ١٩٠/ ٢٥١٧) وابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٩٣) والطبراني في الكبير (١٠/ ٤٥٠ ـ ٤٥١ رقم ١٢٢٧٩) والبزار في كشف الأستار (١/ ٣٧ رقم ٥٤).

كلهم من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً عليه عقب حديث ماشطة ابنة فرعون المرفوع.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٨) فيه عطاء بن السائب قد اختلط.

وتعقبه الشيخ أحمد شاكر بقوله: وفات الحافظ الهيثمي أن حماد بن سلمة سمع من عطاء قبل اختلاطه ـ كما في المسند رقم (٢٨٢٢) ـ. وقال العراقي في التقييد والإيضاح ص٤٤٣: «قال يحيى بن سعيد القطان سمع حماد بن زيد من عطاء بن السائب قبل أن يتغير.

وقال النسائي رواية حماد بن زيد، وشعبة، وسفيان عنه جيدة» هـ.

● وأخرج مسلم (٤/ ٢٢٩٩ ـ ٢٣٠١ رقم ٧٣/ ٣٠٠٥) من حديث صهيب الطويل وفيه «.... حتى جاءتِ امرأة ومعها صبيٌ لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبري. فإنك على الحق».

ولمزيد من الإيضاح انظر «فتح الباري» (٦/ ٤٨٠).

(٢) وتعميم الخطاب للإشارة إلى أنه خُلُق في النساء عريق (س٤/ ٢٦٩).

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وتفطّنه للحديث. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ اكتمه ولا تذكره. ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ يا راعيل. ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ من القوم المذنبين من، خَطِىء إذا أذنب متعمداً. والتذكير للتغليب.

(٣٠) ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ هي اسم لجمع امرأة وتأنيثه بهذا الاعتبار غير حقيقي ولذلك جُرد فعلُه، وضم النون لغة فيها. ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظرف لقال أي أشْعْن الحكاية في مصر، أو صفة نسوة وكن خمساً: زوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب. ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ تطلب مواقعة غلامها إياها. والعزيز بلسان العرب المَلِكُ. وأصل فتى فَتَيَ لقولهم فِتْيان، والفتوَّة شاذة. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها حباً، ونصْبُه على التميز لصرف الفعل عنه. وقرىء شَعَفَها مِنْ شعف البعير إذا هنأه بالقطران فأحرقه. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في ضلال عن الرشد وبعد عن الصواب[١].

(٣١) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهن. وإنما سماه مكراً لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره، أو قلن ذلك لتريهن يوسف، أو لأنها استكتمتهن سرها فأفشينه عليها. ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن، قيل دعت أربعين امرأة فيهن الخمس المذكورات. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد. ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ حتى يتكئن والسكاكين بأيديهن فإذا خرج عليهن يُبْهتن ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها فيُبَكَّتن بالحجة، أو يهابُ يوسفُ مكرها إذا خرج وحده على أربعين امرأة في أيديهن الخناجر. وقيل متكأ طعاماً أو مجلس طعام، فإنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب ترفاً ولذلك نُهِيَ عنه. قال جميل[٢]:

فظَلِلنا بِنِعْمَةٍ وَاتّكأْنا وشَرِبْنا الحَلالَ مِنْ قُلِلِهْ

وقيل المتكأ طعام يُحَزُّ حزاً كأن القاطع يتكىء عليه بالسكين. وقرىء مُتَّكا بحذف الهمزة، ومتكاء بإشباع الفتحة كمنتزاح ومُتْكاً وهو الأترج أو ما يُقطَع من متك الشيء إذا بتكه، ومَتْكاً من تكىء يتكأ إذا اتكأ. ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ عظمنه وهِبْنَ حُسْنه

---

(١) وإنما لم يقلن إنها لفي ضلال مبين إشعاراً بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن.
مجازفة، بل عن علم ورأي، مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه (س٤/ ٢٧١).

(٢) هو جميل بن عبدالله بن معمر العذري، القضاعي (أبو عمرو) شاعر افتتن ببثينة من فتيات قومه. فتناقل الناس أخبارها. من آثاره: ديوان شعر. مات عام ٨٢هـ.
[معجم المؤلفين (٣/ ١٦٠ ـ ١٦١) والأعلام (٢/ ١٣٨)].

الفائق[١]. وعن النبي ﷺ: «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر»[٢] وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران. وقيل أكبرن بمعنى حِضْن من أكبرت المرأة إذا حاضت لأنها تدخل الكبر بالحيض، والهاء ضمير للمصدر أو ليوسف عليه الصلاة والسلام على حذف اللام أي حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي[٣]:

خـفِ اللهَ وَاسْتُـرْ ذَا الجَمَـالَ بِبـرقـعٍ فـإنَ لحتَ حَـاضَـتْ فِي الخُـدُورِ العَـواتِـقُ

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة. ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز وتعجباً من قدرته على خلق مثله. وأصله حاشا كما قرأ أبو عمرو في الدرج فحُذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً، وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، فوُضع موضع التنزيه، واللام للبيان كما في قولك سقيا لك. وقرىء حاشَ اللهِ بغير لام بمعنى براءةَ اللهِ، وحاشاً لله بالتنوين على تنزيله منزلة المصدر. وقيل حاشا فاعلِ من الحَشَا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف، أي صار في ناحية الله مما يتوهم فيه. ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر، وهو على لغة الحجاز في إعمال ما عمل ليس لمشاركتها في نفي الحال. وقرىء بَشَرٌ بالرفع على لغة تميم، وبِشِرَىٰ أي بعد مُشْتَرىٰ لئيم. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا المَلَك.

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

(٣٢) ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني في الافتتان به قبل أن تتصورنه حق تصوره، ولو تصورْتنّه بما عاينتن لعذرتنني. أو فهذا هو الذي لمتنني فيه، فَوَضَعَ ذلك موضع هذا رفعاً لمنزلة المشار إليه. ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ فامتنع طلباً للعصمة، أقرتْ لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كي يعاونها على إلانة عريكته. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي ما آمر به؛ فحذف الجار، أو أمري إياه بمعنى موجب أمري فيكون الضمير ليوسف. ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ من الأذلاّء وهو مِنْ صَغِرَ ـ بالكسر ـ يَصْغُر صِغَراً وصَغَاراً، والصغير من صَغُرَ بالضم صِغَراً. وقرىء ليكوننّ، وهو يخالف خط المصحف لأن النون كتبت فيه بالألف كنسفعاً على حكم الوقف وذلك في الخفيفة لشبهها بالتنوين.

---

(١) وقوله «فلما رأينه» عطف على مقدر يستدعيه المقام، وقد حذف تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهن (س٤/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد. وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً. كما في الكافي الشافِ رقم ٢٠٦ ـ قلت: أبو هارون العبدي ضعيف ـ.

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكوفي المعروف بالمتنبي (أبو الطيب) شاعر حكيم ولد في الكوفة، ونشأ في الشام. واتصل بسيف الدولة فانقطع إليه، ثم مضى إلى مصر، فمدح بها كافور الأخشيدي، . . . من آثاره: ديوان شعر.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾
فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ
لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ
إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر(١). ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي آثَرُ عندي من مؤاتاتها زناً نظراً إلى العاقبة وإن كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه. وإسنادُ الدعوة إليهن جميعاً لأنهن خوّفنه من مخالفتها وزيّنّ له مطاوعتها، أو دعونه إلى أنفسهن. وقيل إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا، وإنما كان الأَوْلىٰ به أن يسأل الله العافية، ولذلك رد رسول الله ﷺ على من كان يسأل الصبر(٢). ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ وإن لم تصرف عني. ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِل إلى جانبهن أو إلى أنفسهن بطبعي ومقتضى شهوتي، والصبْوة الميل إلى الهوىٰ ومنه الصَّبَا لأن النفوس تستطيبها وتميل إليها. وقرىء أصب من الصبابة وهي الشوق. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه فإن الحكيم لا يفعل القبيح، أو من الذين لا يعلمون بما يعلمون فإنهم والجهال سواء(٣).

(٣٤) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فأجاب الله دعاءه الذي تضمنه قوله: «وإلا تصرف» ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فثبته بالعصمة حتى وطّن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء الملتجئين إليه. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

(٣٥) ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ثم ظهر للعزيز وأهلِه من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبي وقدّ القميص وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن، وفاعل بَدَا مضمَر يفسره: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وذلك لأنها خَدَعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تُبصرَ ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم فلبث في السجن سبع سنين. وقرىء بالتاء على أن بعضهم خاطب به العزيزَ على التعظيم أو العزيزَ ومَنْ يليه، وعتّىٰ(٤) بلغة هذيل.

(٣٦) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي أُدخِل يوسف السجن واتُّفق أنه أُدخل حينئذ آخران من عَبيد الملك «شَرَابِيُّهُ وخبّازه» للاتهام بأنهما يريدان أن يسُمّاه. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ يعني الشَّرَابيُّ. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾

---

(١) أي بفتح السين «السَّجَن».

(٢) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام مرّ برجل وهو يقول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال عليه السلام: «قد سألت البلاء، فسل الله العافية» رواه أحمد (٢٠٩/١) وإسناده حسن كما في تخريج كتاب الشكر لابن أبي الدنيا رقم (١٥٠) تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط.

(٣) قوله «السجن أحبّ..» حيث عبر عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفاً من الحبس. والاقتصار على ذكر السجن من حيث إن الصغار من فروعه ومستتبعاته (س٤/ ٢٧٤).

(٤) عطف على قوله وقرىء بالتاء، أي قرىء «عتىٰ حين» بالعين بدل الحاء وهي بلغة هذيل.

أي في المنام، وهي حكاية حال ماضية. ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنباً وسماه خمراً باعتبار ما يؤول إليه. ﴿وَقَالَ ٱلْآخَرُ﴾ أي الخباز. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ تنهش منه. ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يُحسِنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين، وإنما قالا ذلك لأنهما رأياه في السجن يُذكِّر الناس ويَعْبُرُ رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسِن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي بتأويل ما قصصتما علي، أو بتأويل الطعام يعني بيان ماهيته وكيفيته فإنه يشبه تفسير المشكل، كأنه أراد ان يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الطريق القويم قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه، كما هو طريقة الأنبياء والنازلين منازلَهم من العلماء في الهداية والإرشاد، فقدَّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير. ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا﴾ أي ذلك التأويل. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بالإلهام والوحي وليس من قبيل التكهن أو التنجيم. ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي علمني ذلك لأني تركت ملة أولئك.

(٣٨) ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أو كلامٌ مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتُهما في الاستماع إليه والوثوق عليه، ولذلك جُوِّزَ للخامل أن يصف نفسه حتى يُعْرَفَ فَيُقْتَبَسُ منه، وتكريرُ الضمير للدلالة على اختصاصهم وتأكيد كفرهم بالآخرة[1]. ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء. ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي شيء كان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التوحيد. ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي. ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وعلى سائر الناس يبعثنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم. ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا الفضل فيُعْرِضون عنه ولا يتنبهون، أو من فضلِ الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ولا يستدلون بها فيُلْغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

(٣٩) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله:

يا سَارِقَ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ شتى متعددة متساوية الأقدام. ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره.

---

(١) وقدم ذكر تركه لملتهم على اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية (س٤/ ٢٧٧).

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

(٤٠) ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ خطاب لهما ولمَنْ على دينهما من أهل مصر. ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي إلا أشياء باعتبار أَسَامٍ أطلقتم عليها من غير حجة دل على تحقق مسمياتها فيها فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماءَ المجردة. والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهيةَ عقلٌ ولا نقلٌ آلهة، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ ما الحكم في أمر العبادة. ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث إنه الواجب لذاته الموجِدُ للكل والمالك لأمره. ﴿أَمَرَ﴾ على لسان أنبيائه. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوج عن القويم. وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة: بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلهية فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنها، ثم نصَّ على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيرَه ولا يرتضي العلم دونَه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيخبطون في جهالاتهم.

(٤١) ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يعني الشَّرابيّ [١]. ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ كما كان يسقيه قبلُ ويعود إلى ما كان عليه. ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ يريد به الخبّاز. ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فقالا: كَذَبْنَا، فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قُطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وهو ما يؤول إليه أمركما ولذلك وَحَّدَه، فإنهما وإن استفتيا في أمرين لكنهما أرادا استبانة عاقبة ما نزل بهما [٢].

(٤٢) ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظانُّ يوسف إن ذَكَرَ ذلك عن اجتهاد، وإنْ ذَكَرَه عن وحي فهو الناجي. إلا أن يؤوّل الظنُّ باليقين. ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ اذكر حالي عند المَلِك كي يخلِّصني. ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ فأنسىٰ الشرابيَّ أن يذكره لربه، فأضاف إليه المصدر لملابسته له أو على تقدير ذكر إخبار ربه، أو أُنسيَ يوسفُ ذكرَ الله حتى استعان بغيره، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعاً بعد

---

(١) وإنما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلاً بذلك إلى إبهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوؤه (س٤/ ٢٧٩).

(٢) وقد عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلاً لأمره وتفخيماً لشأنه، لأن الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلةِ الحكم المبهمة الجواب.

وإيثار صيغة الاستقبال في قوله «تستفتيان» مع سبق استفتائهما فيه لأنهما بصدده حتى يقضي عليه السلام من الجواب وَطَرَه (س٤/ ٢٧٩).

الخمس»[١]. والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محمودة في الجملة لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء. ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البِضع ما بين الثلاث إلى التسع، مِنَ البَضْع وهو القطع.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ لما دنا فَرَجُه رأى المِلِكُ سبعَ بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبعَ بقرات مهازيل فابتلعت المهازيلُ السمان. ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبها. ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وسبعاً أخر يابسات قد أدرَكت فالتوت اليابساتُ على الخُضر حتى غلبت عليها، وإنما استَغنىٰ عن بيان حالها بما قص من حال البقرات، وأجرىٰ السِمَان على المميز دون المميز لأن التمييز بها، ووَصَفَ السبع الثاني بالعجاف لتعذر التمييز بها مجرداً عن الموصوف؛ فإنه لبيان الجنس؛ وقياسُه عُجُف لأنه جمع عَجْفاء لكن حُمِل على سِمَان لأنه نقيضه. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ عَبِّرُوها[٢]. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالها من العبور وهي المجاوزة، وعبرت الرؤيا عِبَارة أثبت من عَبَّرتها تعبيراً، واللامُ للبيان، أو لتقوية العامل فإن الفعل لما أُخر عن مفعوله ضعُف فقوّي باللام كاسم الفاعل، أو لتضمن تعبرون معنى فعلٍ يُعدّىٰ باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا.

(٤٤) ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي هذه أضغاث أحلام وهي تخاليطُها، جمعُ ضِغْث، وأصلُه ما جُمع من أخلاط النبات وحُزِم، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنما جَمَعُوا للمبالغة في وصف الحُلُم بالبطلان كقولهم: فلان يركب الخيل، أو لتضمنه أشياء مختلفة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة أي ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للمنامات الصادقة، فهو كأنه مقدمة ثانية للعذر في جهلهم بتأويله.

(٤٥) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن وهو الشرابي. ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي مدة طويلة. وقرىء ـ إِمّة بكسر الهمزة ـ وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة، وأَمَهٍ أي نسيانٍ يقال أَمِهَ يَأْمَهُ أَمْهاً إذ نسي، والجملة اعتراض ومقول القول: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي إلى من عنده علمه أو إلى السجن.

---

(١) أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه. وهذا إسناد ساقط ـ كما في الكافي الشافِ (ص٩٠ رقم ٢١٣).

(٢) وعبر عنه بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه (س٤/ ٢٨٠).

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ
يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ
يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي فأُرسِل إلى يوسفَ فجاءَه فقال يا يوسف، وإنما وَصَفَه بالصديق وهو المبالغ في الصدق لأنه جَرّب أحوالَه وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه. ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك[١]. ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أعود إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك، وإنما لم يبتّ الكلام فيهما لأنه لم يكن جازماً بالرجوع فربما اخترم دونه ولا يعلمهم.

(٤٧) ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي على عادتكم المستمرة. وانتصابُه على الحال بمعنى دائبين، أو المصدرِ بإضمار فعله أي تدأبون دأباً، وتكون الجملة حالاً. وقرأ حفص دَأَباً بفتح الهمزة وكلاهما مصدر دأب في العمل[٢]. وقيل تزرعون أَمْرٌ أَخرَجَه في صورة الخبر مبالغة لقوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لئلا يأكله السوس، وهو على الأول نصيحة خارجة عن العبارة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين.

(٤٨) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي يأكل أهْلُهن ما ادّخرتم لأجلهن فأُسْنِد إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبَّر والمعبَّر به. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تُحرزون لبذور الزراعة.

(٤٩) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يُمْطَرون من الغيث، أو يغاثون مِنَ القحط مِنَ الغوث. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ما يُعْصَر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار[٣]، وقيل يحلبون الضروع. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على تغليب المستفتي، وقرىء على بناء المفعول من عصره إذا أنجاه، ويحتمل أن يكون المبني للفاعل منه أي يُغيثهم الله ويغيث بعضُهم بعضاً، أو من أَعْصَرَتِ السحابةُ عليهم فعدِّي بنزع الخافض أو بتضمينه معنى المطر. وهذه بشارة بشرهم بها بعد ان أَوّل البقراتِ السمان والسنبلات

---

(١) قال له هنا «أفتنا» بينما قال في السابق هو وصاحبه «نَبِّئنا» وذلك بعدما عاين من علوّ رتبته عليه السلام وفضله. وفي قوله «أفتنا» بالجمع ـ مع أنه المستفتي وحده ـ للإشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره (س٤/ ٢٨٢).

(٢) الأصل عنده قراءة من قرأ بسكون الهمزة «دَأْباً» ولم يقرأ غير حفص بفتحها.

(٣) والتعرض لذكر العَصْر ـ مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة، كما اكتفي به عن ذكر تصرفهم بالحبوب ـ إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب لأن المذكورات يتوقف صلاحها على أمورٍ أخرى غير المطر، وإما لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصة به بشارةً له.
وتكرير «فيه» إما للإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زماناً وعنواناً، وإما لأن المقام مقام تعداد منافع ذلك العام. ولأجله قُدِّم في الموضعين على الفعلين (س٤/ ٢٨٣).

الخضر بسنين مخصِبة والعجاف واليابسات بسنين مجدِبة وابتلاع العجاف السمانَ بأكل ما جُمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة، ولعله عَلِمَ ذلك بالوحي أو بأن انتهاء الجدب بالخصب أو بأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده بعد ما ضيق عليهم.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

(٥٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ بعد ما جاءه الرسول بالتعبير ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليخرجه. ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنما تأنّىٰ في الخروج وقدّم سؤال النسوة وفَحْصَ حالهن لتظهر براءةُ ساحته ويُعْلَمَ أنه سجن ظلماً فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغي أن يُجْتَهَدَ في نفي التّهم ويُتّقىٰ مواقعُها. وعن النبي ﷺ: «لو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة»[1]. وإنما قال فاسْأله ما بالُ النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن تهييجاً له على البحث وتحقيق الحال، وإنما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كرماً ومراعاة للأدب. وقرىء النُّسْوَة بضم النون. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حين قُلْن لي أَطِع مولاتك، وفيه تعظيمُ كيدهن والاستشهادُ بعلم الله عليه وعلى أنه بريء مما قذف به والوعيد لهن على كيدهن.

(٥١) ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ قال الملك لهن ما شأنكن. والخَطْبُ أمر يَحِقُّ أن يخاطب فيه صاحبه. ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له وتعجب من قدرته على خُلُقٍ عفيف مثله. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ من ذنب. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ثبت واستقرّ، مِنْ حصحص البعير إذا ألقىٰ مَبارِكَه ليناخ قال:

فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصفَا ثَفِنَاتِهِ ... ونَاءَ بِسَلْمَى نَوأَةً ثُمَّ صَمَّمَا

أو ظهر مِنْ حَصَّ شَعْرَه إذا ستأصله بحيث ظهرت بَشَرَةُ رأسه. وقرىء على البناء للمفعول. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[2].

(٥٢) ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ قاله يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن، أي ذلك التثبتُ ليعلم العزيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب، وهو حال من الفاعل أو المفعول أي لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عني، أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾

(١) رواه أحمد بلفظ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر» وفي الصحيحين بلفظ «. . . ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

(٢) يوسف: «٢٦».

لا يُنفذه ولا يسدِّده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم فأوقع الفعل على الكيد مبالغةً. وفيه تعريض براعيل في خيانتها زوجَها وتوكيد لأمانته ولذلك عقّبه بقوله:

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾﴾

(٥٣) ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ﴾ أي لا أنزهها تنبيهاً على أنه لم يُرِد بذلك تزكيةَ نفسه والعجبَ بحاله، بل إظهارَ ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق. وعن ابن عباس أنه لما قال: «ليعلم أني لم أخنه بالغيب» قال له جبريل ولا حين هممت فقال: ذلك. ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها وتستعمِلُ القوىٰ والجوارح في أثرها كل الأوقات. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ إلا وقت رحمة ربي، أو إلا ما رحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك. وقيل الاستثناء منقطع أي ولكنْ رحمةُ ربي هي التي تصرف الإساءة. وقيل الآية حكاية قول راعيل والمستثنى نفس يوسف وأضرابه. وعن ابن كثير ونافع بالسُّوِّ على قلب الهمزة واواً ثم الإدغام. ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر هَمَّ النفس ويرحم من يشاء بالعصمة، أو يغفر للمستغفر لذنبه المعترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

(٥٤) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ﴾ أجعلْه خالصاً لنفسي. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي فلما أتوا به فكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء. ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة. ﴿أَمِينٞ﴾ مؤتمن على كل شيء. روي[1] أنه لما خرج من السجن اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جدداً، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرية، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه فقال: أحب أن أسمع رؤياي منك، فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها.فأجلسه على السرير وفوض إليه امره. وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه وزوج منه راعيل فوجدها عذراء وولد له منها أفرائيم وميشا.

(٥٥) ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ﴾ وَلِّني أمرها، والأرض أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لها ممن لا يستحقها. ﴿عَلِيمٞ﴾ بوجوه التصرف فيه، ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة آثر ما تعم فوائده وتجل عوائده. وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها، والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد أن المَلِك أسلم على يده[2].

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٢٥٠) عن وهب بن منبه.
قلت: ولا يمكن الوقوف على الحكم عليه لأنه من الإسرائيليات.

(٢) إنما لم يذكر إجابة الملك لغناه عن التصريح وللتنبيه على أن كل ذلك من الله تعالى والمَلِكُ وسيلة لتنفيذ قدر الله=

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر[١]. ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ يَنْزِل من بلادها حيث يَهوى. وقرأ ابن كثير نشاء بالنون. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً.

(٥٧) ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش لعظمه ودوامه.

(٥٨) ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ روي: أنه لما استوزره الملك أقام العدل واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشأم ونواحيهما، وتوجه إليه الناس فباعها أولاً بالدراهم والدنانير حتى لم يبقَ معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ثم عرض الأمر على الملك فقال: الرأي رأيك، فأَعْتَقَهم ورَدّ عليهم أموالهم، وكان قد أصاب كنعانَ ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوبُ بنيه ـ غير بنيامين ـ إليه للميرة. ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[٢] أي عرفهم يوسفُ ولم يعرفوه لطول العهد ومفارقتهم إياه في سن الحداثة ونسيانهم إياه وتوهمهم أنه هلك وبُعْد حاله التي رأوه عليها من حاله حين فارقوه وقلة تأملهم في حُلاه من التهيب والاستعظام.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أصلحهم بعدتهم وأَوْقَر ركائبهم بما جاؤوا لأجله، والجَهَاز ما يعد من الأمتعة للنُّقْلة كعُدَد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى وما تزفّ به المرأة إلى زوجها. وقرىء بِجِهَازِهم بالكسر. ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ روي: أنهم لما دخلوا عليه قال: من أنتم وما أمركم لعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله إنما نحن بنو أب واحد وهو شيخ كبير صدِّيق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال كم أنتم؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أحدنا إلى البرية فهلك، قال: فكم أنتم ههنا قالوا عشرة، قال فأين الحادي عشر؟ قالوا عند أبينا يتسلى به عن الهالك، قال فمن يشهد لكم؟ قالوا لا يعرفنا أحدٌ ههنا فيشهد لنا، قال فَدَعُوا بعضَكم عندي رهينةً وائتوني بأخيكم من أبيكم حتى أصدِّقكم، فاقترعوا فأصابت شمعون. وقيل كان يوسف يعطي لكل نفر حِمْلاً فسألوه حملاً زائداً لأخ لهم من أبيهم فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أُتِمُّه. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ للضيف والمضيفين لهم وكان أَحْسَنَ إنزالَهم وضيافتَهم.

= (س٤/٢٨٧).

(١) وفي التعبير عن الجَعْل بالتمكين في الأرض مسنداً إلى ضميره سبحانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لا أنه حصل بعد السؤال ما لا يخفىٰ (س٤/٢٨٧).

(٢) ولما كان إنكارهم لمعرفته مستمرة في المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية المفيدة للاستمرار (س٤/٢٨٨).

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ
ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ
ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا
فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ
أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي ولا تقربوني ولا تدخلوا دياري، وهو إما نهي أو نفي معطوف على الجزاء.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا نَتَوانىٰ فيه.

(٦٢) ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيّالين جمع فتى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص لِفِتْيانه على أنه جمع الكثرة ليوافق قولَه: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ فإنه وَكَّل بكل رَحْل واحداً يعني فيه بضاعتهم التي شروْا بها الطعام وكانت نِعالاً وأدماً، وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضلاً عليهم وترفعاً من أن يأخذ ثمنَ الطعام منهم وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لعلهم يعرفون حق ردها، أو لكي يعرفوها. ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ انصرفوا ورجعوا. ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفتحوا أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع.

(٦٣) ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ حُكِمَ بمَنْعِه بعد هذا إنْ لم نذهبْ ببنيامين. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ نرفعُ المانع من الكيل ونكتلُ ما نحتاج إليه. وقرأ حمزة والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ، أي يكتل لنفسه فينضم اكتياله إلى اكتيالنا. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

(٦٤) ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم في يوسف «وإنا له لحافظون» ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ فأتوكل عليه وأفوض أمري إليه، وانتصاب حفظاً على التمييز، وحافظاً على قراءة حمزة والكسائي وحفص يحتمله والحال كقوله: لله دره فارساً، وقرىء خيرُ حافِظٍ، وخيرُ الحافظين. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين.

(٦٥) ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ وقرىء رِدَّت بنقل كسرة الدال المدغمة إلى الراء نَقْلَها في بيع وقيل. ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ ماذا نطلب هل من مزيد على ذلك أكرمَنَا وأحسنَ مثوانا وباعَ منّا ورد علينا متاعنا، أو لا نطلب وراء ذلك إحساناً أو لا نبغي في القول ولا نزيد فيما حكينا لك من إحسانه. وقرىء ما تَبْغي على الخطاب أي: أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الدليل على صدقنا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ استئناف موضِّح لقوله ما نبغي[1]. ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾

---

(١) وإيثار صيغة البناء للمفعول في «ردت» للإيذان بكمال الإحسان الناشىء عن كمال الإخفاء المفهوم من كمال =

معطوف على محذوف أي ردت إلينا فنستظهر بها ونميرَ أهلنا بالرجوع إلى الملك. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا. ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وِسْقَ بعير باستصحاب أخينا، هذا إذا كانت ما استفهامية فأما إذا كانت نافية احتمل ذلك واحتمل أن تكون الجُمَلُ معطوفةً على ما نبغي، أي لا نبغي فيما نقول ونمير أهلنا ونحفظ أخانا. ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيل قليل لا يكفينا، استقلوا ما كِيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ويزدادوا إليه ما يُكال لأخيهم، ويجوز أن تكون الإشارة إلى كيل بعير أي ذلك شيء قليل لا يضايقنا في الملك ولا يتعاظمه، وقيل إنه من كلام يعقوب ومعناه إن حِمْل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

(٦٦) ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إذْ رأيتُ منكم ما رأيت. ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أي عهداً مؤكداً بذكر الله. ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ جواب القسم، إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به. ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تُغلَبُوا فلا تطيقوا ذلك، أو إلا أن تَهْلِكُوا جميعاً، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال والتقدير: لتأتنني به على كل حال إلا حالَ الإحاطة بكم، أو من أعم العلل على أن قوله لتأتنني به في تأويل النفي أي لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم كقولهم: أقسمتُ بالله إلا فعلتَ أي ما أطلب إلا فعلك. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهدهم. ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه[1]. ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع.

(٦٧) ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جَمَال وأُبَّهة مشتهرين في مصر بالقُربة والكرامة عند الملك، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيُعَانوا[2]. ولعله لم يوصهم بذلك في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ، أو كان الداعي إليها خوفه على بنيامين. وللنفس آثار منها العين، والذي يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في عوذته «اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة»[3]. ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾

= غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله (س٤/ ٢٩٠).

(١) وإيثار صيغة الاستقبال «نقول» لاستحضار صورته المؤدي إلى تثبتهم ومحافظتهم على تذكرة ومراقبته (س٤/ ٢٩٢).

(٢) أي يصابوا بالعين.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١) وأبو داود (رقم ٣٨٩٣) والترمذي (٣٥١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ورجاله ثقات بلفظ «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ومن شر عباده، ومن شر همزات الشيطان، وأن يحضرون».

وله شاهد عند أحمد (٤/ ٧٤)، (٦/ ٦) من حديث الوليد بن الوليد، ورجاله ثقات لكن فيه انقطاع. ولفظه قال=

مما قضى عليكم بما أشرت به إليكم فإن الحذر لا يمنع القدر. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يصيبكم لا محالةَ إن قضىٰ عليكم سوءاً ولا ينفعكم ذلك. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جَمَعَ بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأنّ الواو للعطف والفاء لإفادة التسبب، فإن فِعْل الأنبياء سبب لأن يُقتدى بهم.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد. ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم﴾ رَأْيُ يعقوب واتباعهم له. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ مما قضاه عليهم كما قال يعقوب عليه السلام، فسُرِقُوا وأُخِذ بنيامين بوُجدان الصواع في رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب. ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ استثناء منقطع، أي ولكن حاجة في نفسه، يعني شفقته عليهم وحرازته من أن يعانوا. ﴿قَضَىٰهَا﴾ أظهرها ووصّىٰ بها. ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بالوحي ونصب الحجج، ولذلك قال وما أغني عنكم من الله من شيء ولم يغترّ بتدبيره[١]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سر القدر وأنه لا يغني عنه الحذر.

(٦٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامينَ على الطعام أو في المنزل، روي[٢] أنه أضافهم فأجلسهم مثنىٰ مثنىٰ فبقي بنيامين وحيداً فبكىٰ وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته ثم قال: لِينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي فبات عنده وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؛ قال: مَنْ يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن، افتعالٌ من البؤس. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في حقنا فيما مضىٰ.

(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ المَشْربة. ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيل كانت مشربة جعلت صاعاً يكال به. وقيل كانت تُسقىٰ الدواب بها ويكال بها وكانت من فضة، وقيل من ذهب. وقرىء وَجَعَل على حذف جواب فلما تقديره أَمْهلهم حتى انطلقوا. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادىٰ منادٍ. ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ

= يا رسول الله إني أجد وحشة، قال «إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ..».
والخلاصة فهو حديث حسن.

(١) وفي تأكيد الجملة بإن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه وتعالى من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبته وبيان علمه (س٤/٢٩٣) ولذلك قالوا بعد «نفقد صراع الملك».

(٢) هذه التفصيلات في لقاء يوسف لأخيه أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٣/١٥ ـ ١٦) وفي «تاريخه» (١/١٧٩) عن السدي، ووهب بن منبه. وهي من الإسرائيليات.

﴿لَسَٰرِقُونَ﴾ لعله لم يقله بأمر يوسف عليه الصلاة والسلام، أو كان تعبية السقاية والنداء عليها برضا بنيامين، وقيل معناه إنكم لسارقون يوسفَ من أبيه، أو أئنكم لسارقون. والعِيرُ القافلةُ، وهو اسم الإبل التي عليها الأحمال لأنها تَعِير أي تتردّد، فقيل لأصحابها كقوله عليه الصلاة والسلام: «يا خيلَ الله اركبي»(١). وقيل جمع عير، وأصله فِعْل كسَقْفٍ فُعِلَ به ما فُعل ببِيْضٍ، تُجُوِّز به لقافلة الحمير ثم استُعير لكل قافلة.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

(٧١) ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أيُّ شيء ضاع منكم. والفَقْدُ غيبة الشيء عن الحسّ بحيث لا يُعْرَف مكانُه(٢). وقرىء تُفْقِدُون من أَفْقدتُه غذا وجدتُه فقيداً.

---

(١) قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٥١٣ ـ ٥١٤ رقم ٣١٧٠).
«رواه أبو الشيخ في «الناسخ والمنسوخ» عن عبدالكريم قال: حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين، ، قال كان ناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام، فذكر القصة، وفيها فأمر النبي ﷺ فنودِيَ في الناس يا خيل الله اركبي، فركبوا، لا ينتظر فارسٌ فارساً.
ـ وللعسكري عن أنس في حديث ذكره، فنادى منادي رسول الله ﷺ يا خيلَ الله اركبي.
ـ وفي رواية له عن أنس أيضاً أن النبي ﷺ قال لحارثة بن النعمان: كيف أصبحت؟ ـ الحديث ـ وفيه أنه قال يا نبي الله ادع لي بالشهادة، فدعا له، قال: فنودِيَ يوماً بالخيل: يا خيل الله اركبي فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد.
ـ ولابن عائذ في «المغازي» عن قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ يومئذٍ ـ يعني يوم قريظة يوم الأحزاب ـ منادياً ينادي يا خيل الله اركبي.
ـ وعزى السهيلي في «روضه» في غزوة حنين هذه اللفظةَ لمسلم فلتنظره.
نعم عند ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» ـ (٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧) ـ أنه لما قدم رسول الله ﷺ من بني لحيان، فذكر حديث إغارة بني فزارة على لقاح النبي ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ صرخ في المدينة فقال «يا خيل الله اركبوا» وجاءت عن علي، وخالد بن الوليد، ففي المستدرك للحاكم ـ (٢/ ٣٦٥ ـ ٥٦٦) ـ في قصة أويس عن أسيد بن جابر، فذكر قصة، وقال في آخرها فنادى علي «يا خيل الله اركبي» وفي الردة للواقدي عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم القيامة «يا خيل الله اركبي» فركبوا وساروا إلى بني حنيفة.
ـ وقال أبو داود في السنن (٣/ ٥٤) باب النداء عند النفير يا خيل الله اركبي، وساق في الباب حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ سمى خيلنا بخيل الله.
ـ وللعسكري من حديث ابن نفيع الحارثي عن شِيخة من قومه أن النبي ﷺ قال: الأناة في كل شيء خير إلا في ثلاث: إذا صِيح في خيل الله فكونوا أول من شخص. وذكر حديثاً.
ـ قال العسكري قوله: يا خيل الله اركبي على المجاز والتوسع، أراد يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصر لعلم المخاطب بما أراد، والله أعلم» هـ.
(٢) وصيغة المضارع في «تفقدون» لاستحضار الصورة.

=

(٧٢) ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ وقرىء صَاعَ، وصَوْعَ بالفتح والضم والعين والغين، وصواغ من الصياغة. ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ من الطعام جُعْلاً له. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجِعَالة، وضمان الجُعْل قبل تمام العمل[١].

قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ
كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ
قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ
ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾

(٧٣) ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه معنى التعجب، والتاء بدل من الباء مختصة باسم الله تعالى ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ استشهَدُوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم في كرّتيْ مجيئهم ومداخلتهم للمَلِك مما يدل على فَرْط أمانتهم كردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم وكَعَمِّ الدواب[٢] لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد[٣].

(٧٤) ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ فما جزاء السارق أو السرق أو الصواع على حذف المضاف. ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ في ادعاء البراءة.

(٧٥) ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ أي جزاء سرقته أَخْذُ من وُجد في رحله واسترقاقُه، هكذا كان شرع يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقولُه فهو جزاؤه تقرير للحكم وإلزام له، أو خبرُ مَنْ، والفاءُ لتضمنها معنى الشرط أو جواب لها على أنها شرطية. والجملة كما هي خبر جزاؤه على إقامةِ الظاهرِ فيها مقامَ الضمير كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو. ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة.

(٧٦) ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ فبدأ المؤذِّن. وقيل يوسف لأنهم رُدّوا إلى مصر. ﴿قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين نفياً للتهمة. ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يُذَكّر ويؤنث. ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ وقرىء بضم الواو، وبقلبها همزة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الكيد. ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ بأن علمناه إياه وأوحينا به إليه. ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ مَلِكِ مصر، لأن دينَه الضربُ وتغريمُ ضِعف ما أُخذ دون الاسترقاق، وهو بيان للكيد. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك، فالاستثناء

= وأجابوا بقولهم «ماذا تفقدون» ولم يقولوا ماذا سُرق منكم لبيان كمال نزاهتهم، فلعله أن يكون فُقِد منهم (س٤/ ٢٩٥).

(١) الجُعْل والجعالة هو الأجر.

(٢) عمُّ الدواب أي كَمُّ أفواهها.

(٣) لم يكتفوا بنفي الإفساد السرقة بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزاماً للحجة عليهم وتحقيقاً للتعجب من اتهامهم بذلك (س٤/ ٢٩٥).

من أعم الأحوال ويجوز أن يكون منقطعاً أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم كما رفعنا درجته[١]. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أرفع درجة منه، واحتجّ به من زعم أنه تعالى عالم بذاته إذ لو كان ذا علم لكان فوقُه من هو أعلم منه، والجوابُ أن المراد كل ذي علم من الخَلْق لأن الكلام فيهم ولأن العليم هو الله سبحانه وتعالى، ومعناه الذي له العلم البالغ لغة ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا فوق كل العلماء عليم وهو مخصوص.

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

(٧٧) ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ﴾ بنيامين. ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قيل ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام وكانت تحضن يوسف وتحبه، فلما شبّ أراد يعقوبُ انتزاعه منها، فشدت المنطقة على وسطه ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها، فوُجدت محزومة عليه، فصارت أحق به في حكمهم. وقيل[٢] كان لأبي أمه صنم فسرقه وكسره وألقاه في الجِيَف. وقيل كان في البيت عناق[٣] أو دجاجة فأعطاها السائل. وقيل دخل كنيسة وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب. ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أكنّها ولم يُظهرها لهم، والضمير للإجابة أو المقالة أو نسبة السرقة إليه، وقيل إنها كناية بشريطة التفسير يفسرها قوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فإنه بدل من أَسَرّها. والمعنى قال في نفسه أنتم شر مكاناً أي منزلة في السرقة لسرقتكم أخاكم، أو في سوء الصنيع مما كنتم عليه، وتأنيثُها باعتبار الكلمة أو الجملة، وفيه نظر إذ المفسَّر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

(٧٨) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي في السنّ أو القَدْر، ذكروا له حالَه استعطافاً له عليه. ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بدَلَه فإن أباه ثُكلانٌ على أخيه الهالك مستأنِسٌ به. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فأتمم إحسانك، أو من المتعوِّدين بالإحسان فلا تغير عاداتك.

(٧٩) ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ فإنّ أَخْذَ غيره ظلم علىٰ فتواكم فلو أخذنا أحدكم مكانَه[٤] ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم هذا، وإن مرادَه أن الله أذن في أخذ من وجدنا الصاع في رحله لمصلحته ورضاه عليه فلو أخذتُ غيره كنت ظالماً.

---

(١) وإيثار صيغة الاستقبال في «نرفع» للإشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة (س٤/٢٩٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨/ج١٣/٢٨) عن سعيد بن جبير. وكذلك أخرجه (٨/ج١٣/٢٨) عن قتادة.
قلت: لم يرد نص صحيح في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها. والله أعلم.

(٣) العناق هي الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول (المصباح المنير مادة عنق).

(٤) وإيثار «من وجدنا متاعنا عنده» دون سَرَقَ متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام، مع تمام المرام فإنهم لا يحملون وجدان الصواع في الرحل على محملٍ غير السرقة (س٤/٢٩٩).

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾
ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ
لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ ﴾ يئسوا من يوسف وإجابته إياهم، وزيادةُ السين والتاء للمبالغة. ﴿ خَلَصُواْ ﴾ انفردوا واعتزلوا. ﴿ نَجِيًّاۖ ﴾ متناجين، وإنما وَحّده لأنه مصدر أو بِزِنَتِهِ كما قيل هو صديق، وجمعُه أَنْجِيَة كنَدِيّ وأندية. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ في السن وهو روبيل، أو في الرأي وهو شمعون، وقيل يهوذا. ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ عهداً وثيقاً، وإنما جُعِل حَلِفُهم بالله مَوْثقاً منه لأنه بإذنٍ منه وتأكيد من جهته. ﴿ وَمِن قَبْلُ﴾ ومن قبل هذا. ﴿ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ ﴾ قصّرتم في شأنه. وما مزيدةٌ ويجوز أن تكون مصدريةً في موضعَ النصب بالعطف على مفعول تعلموا ـ ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف ـ أو على اسم أَنّ وخبرُه «في يوسف» أو «من قبل»، أو الرفعِ بالابتداء والخبرُ من قبلُ وفيه نظر؛ لأن «قبلُ» إذا كان خبراً أو صِلة لا يُقطَع عن الإضافة حتى لا يَنْقُص، وأن تكونَ موصولة أي: ما فرطتموه بمعنى ما قدمتموه في حقه من الجناية، ومحلُّه ما تقدم. ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ فلن أفارق أرض مصر. ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾ في الرجوع. ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ أو يقضي لي بالخروج منها، أو بخلاص أخي منهم، أو بالمقاتلة معهم لتخليصه. روي أنهم كلموا العزيز في إطلاقه، فقال روبيل: أيها الملِك والله لَتَترُكنا أو لأصيحن صيْحة تضع منها الحوامل، ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه فقال يوسف عليه السلام لابنه: قم إلى جنبه فَمُسَّه، وكان بنو يعقوب عليه السلام إذا غضب أحدهم فمسه الآخرُ ذهب غضبه، فقال روبيل مَنْ هذا إن في هذا البلد لبِزراً من بِزْر يعقوب. ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

(٨١) ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر. وقرىء سُرِّق أي نُسب إلى السرقة. ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه. ﴿ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ بأن رَأينا أَنّ الصواع استُخْرِج من وعائه. ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لباطن الحال. ﴿ حَٰفِظِينَ ﴾ فلا ندري أنه سَرَقَ أو سُرِق الصواع في رحله، أو وما كنا للعواقب عالمين فلم ندرِ حين أعطيناك الموثق أنه سيَسْرق، أو أنك تصاب به كما أُصبت بيوسف.

(٨٢) ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر أو قريةً بقربها لَحِقَهم المنادي فيها، والمعنى أَرْسِلْ إلى أهلها واسألهم عن القصة. ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ﴾ وأصحابَ العير التي توجهنا فيهم وكنا معهم. ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تأكيدٌ في محل القَسَم.

(٨٣) ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي فلما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم قال: بل سولت أي زينت وسهلت. ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ ﴾ أردتموه فقدرتموه، وإلا فما أدرى المَلِكَ أن السارق يؤخذ

بسرقته؟ ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ أي فامري صبر جميل، أو فصبرٌ جميلٍ أجمل. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ بيوسف وبنيامين وأخيهما الذي توقّف بمصر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تدبيرهما.

وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ وأعرض عنهم كراهةً لما صادف منهم. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي يا أَسَفَا تعاليْ فهذا أوانُك، والأَسَفُ أشد الحزن والحسرة، والألف بدل من ياء المتكلم، وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ـ والحادثُ رِزْؤُهما ـ لأن رِزْأَه كان قاعدةَ المصيبات وكان غضاً آخذاً بمجامع قلبه. . ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته، وفي الحديث: «لم تُعْطَ أمة من الأمم» «إنا لله وإنا إليه راجعون» عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، ألا ترى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا[1]. ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ لكثرة بكائه من الحزن كأن العَبْرة مَحَقَتْ سوادهما، وقيل ضَعُفَ بصره، وقيل عمي. وقرىء من الحَزَن. وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف فإنه قَلَّ من يَمْلِك نفسه عند الشدائد، ولقد بكىٰ رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلبُ يجزع والعين تدمع، ولا نقول ما يُسْخِط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون»[2]. ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يُظهِره، فعيل بمعنى مفعول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾[3] مِنْ كَظَمَ السِّقَاءَ إذا شده على مِلْئِه، أو بمعنى فاعل كقوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾[4] مِنْ كَظَمَ الغيظَ إذا اجترعه، وأصلُه كَظَمَ البعيرُ جَرَّتَهُ إذا ردها في جوفه.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢١٥): «أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادي، عن إسحاق بن الربيع بن سفيان بن زياد المعصفري، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا مرفوعاً.
ـ وأخرجه الطبراني في «الدعاء» ـ (٣/١٣٧٧ رقم ١٢٢٨) من وجه آخر عن سفيان بن زياد.
ـ ورواه عبدالرزاق ـ في التفسير (٦٣/١٢٩٨) ـ من طريق الطبري عن القوزي عن سفيان عن زياد المعصفري عن سعيد بن جبير أقول.
ـ وكذا رواه البيهقي في الشعب ـ (٧/١١٧ رقم ٩٦٩١) ـ من رواية أبي عامر عن الثوري قال: ورفعه بعض الضعفاء وليس بشيء» هـ.
قلت: وأخرجه الطبراني أيضاً في الكبير (١٢/ ٤٠ رقم ١٢٤١١) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣٠) وقال: فيه محمد بن خالد الطحان وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣ رقم ١٣٠٣) ومسلم (٤/ ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ رقم ٦٢). من حديث أنس في سياق أطول من هذا.

(٣) القلم: «٤٨».

(٤) آل عمران: «١٣٤».

(٨٥) ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكره تفجعاً عليه، فَحَذَفَ لا كما في قوله:

فقُلْتُ يَمين الله أَبْرَح قَاعِداً

لأنه لا يَلتبس بالإثبات، فإن القَسَمَ إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مُشْفياً على الهلاك. وقيل الحَرَضُ الذي أذابه همٌّ أو مرض، وهو في الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يُجْمَع، والنعتُ بالكسر كدَنِفٌ ودَنَفٌ. وقد قرىء به، وبضمتين كجُنُب. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ من الميتين.

قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن
يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ
عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ
يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٦) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ همي الذي لا أقدر الصبر عليه، مِنَ البَثّ بمعنى النشر. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم، فَخَلُّوني وشكايتي. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من صنعه ورحمته فإنه لا يُخَيِّبُ داعيَه ولا يَدَعُ الملتجىء إليه، أو مِنَ الله بنوع من الإلهام. ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف. قيل رأى مَلَكَ الموت في المنام فسأله عنه فقال: هو حي، وقيل علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يَخِرَ له إخوتُه سُجَّداً.

(٨٧) ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرفوا منهما وتفحصوا عن حالهما. والتحسس تطلّب الإحساس. ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من فرجه وتنفيسه. وقرىء مِنْ رُوح الله أي من رحمته التي يحيا بها العبادُ. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالله وصفاته، فإن العارف المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال.

(٨٨) ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ بعد ما رجعوا إلى مصر رجعة ثانية. ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ شدة الجوع. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ رديئة أو قليلة تُرَدّ وتدفَع رغبة عنها، مِنْ أَزجيتُه إذا دفعته، ومنه تزجيةُ الزمان. قيل كانت دراهم زيوفاً، وقيل صوفاً وسمناً، وقيل الصنوبر والحبة الخضراء، وقيل الأقط وسَوِيق المُقِل[1]. ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فأتمم لنا الكيل. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ برد أخينا أو بالمسامحة وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها[2]. واختُلف في أن حرمة الصدقة تعم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو تختص بنبينا ﷺ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء. والتصدق التفضل

---

(١) وإنما قدموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة عليهم (س٤/٣٠٣).
(٢) وسموه تصدقاً للتواضع، أو أرادوا التصدق فوق ما يعطيهم بالثمن (س٤/٣٠٣).

مطلقاً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في القصر: «هذه صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[١]. لكنه اختص عرفاً بما يبتغىٰ به ثواب من الله تعالى.

(٨٩) ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي هل علمتم قبحه فتبتم عنه، وفِعْلُهم بأخيه: إفرادُه عن يوسف وإذلالُه حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة. ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قبحه فلذلك أقدمتم عليه أو عاقِبَتَه، وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبةً وتثريباً، وقيل أعطوه كتاب يعقوب في تخليص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك. وإنما جَهَّلهم لأن فعلهم كان فعل الجهال، أو لأنهم كانوا حينئذ صبياناً طياشين.

قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

(٩٠) ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ استفهام تقرير، ولذلك حُقِّق بإنّ ودخولِ اللام عليه. وقرأ ابن كثير على الإيجاب[٢]. قيل عرفوه برُوائه وشمائله حين كلمهم به، وقيل تبسم فعرفوه بثناياه، وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقَرْنه تشبه الشامة البيضاء وكانت لسارةَ ويعقوب مثلها. ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى﴾ من أبي وأمي، ذَكَرَه تعريفاً لنفسه به وتفخيماً لشأنه وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي بالسلامة والكرامة. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أي يتق الله. ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وَضَعَ المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جَمَعَ بين التقوى والصبر.

(٩١) ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة. ﴿وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ﴾ والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك.

(٩٢) ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا تأنيبَ عليكم، تَفْعيلٌ من الثَّرْب وهو الشحم الذي يغشى الكِرْشَ للإزالة كالتجليد، فاستُعير للتقريع الذي يمزق العِرْض ويُذْهِبُ ماء الوجه. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ متعلق بالتثريب أو بالمقدَّر للجارِّ الواقع خبراً للتثريب، والمعنى لا أثربكم اليوم الذي هو مظنته فما ظنكم بسائر الأيام؟ أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنه صفح عن جريمتهم حينئذ واعترفوا بها. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب، ومِنْ كَرَم يوسف عليه الصلاة والسلام أنهم لما عَرَفوه أرسلوا إليه وقالوا: إنك تدعونا بالبُكرة والعشي إلى الطعام ونحن نستحي منك لما فَرَط منّا فيك، فقال: إن أهل مصر كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بَلَّغَ عبداً بيع بعشرين درهماً

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٤٧٨ رقم ٦٨٦).
(٢) أي قرأ «إنك».

ما بلّغ، ولقد شَرُفْتُ بكم وعظمت في عيونهم حيث علموا أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا
فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى
ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ
أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ
لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

(٩٣) ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ القميص الذي كان عليه. وقيل القميص المتوارث الذي كان في التعويذ. ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يرجع بصيراً أي ذا بصر. ﴿وَأْتُونِى﴾ أنتم وأبي. ﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بنسائكم وذراريكم ومواليكم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ من مصر وخرجت من عُمْرانها. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره. ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله ريح ما عَبِق بقميصه من ريحه حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً. ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفَنَد وهو نقصان عقلٍ يَحدُث من هرم، ولذلك لا يقال عجوز مُفْنِدة لأن نقصان عقلها ذاتي[1]. وجواب لولا محذوف تقديره لصدقتموني أو لقلت إنه قريب.

(٩٥) ﴿قَالُوا۟﴾ أي الحاضرون. ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قُدُماً بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقع للقائه.

(٩٦) ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ يهوذا، روي أنه قال: كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه فأُفرِحُه بحمل هذا إليه. ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ طرح البشيرُ القميصَ على وجه يعقوب عليه الصلاة والسلام أو يعقوبُ نفسُه. ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القوة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام وإنزال الفرح. وقيل إني أعلم كلامٌ مبتدأ والمقول لا تيأسوا من روح الله، أو إني لأجد ريح يوسف.

(٩٧) ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ ومن حق المعترِف بذنبه أن يصفح عنه ويسأله المغفرة.

(٩٨) ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَخَّره إلى السَّحَر أو إلى صلاة الليل أو إلى ليلة الجمعة تحرياً لوقت الإجابة، أو إلى أن يَستحِلَّ لهم من يوسف، أو يعلمَ أنه عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة. ويؤيده ما روي أنه استقبل القبلة قائماً يدعو وقام يوسفُ خَلْفَه يُؤَمِّن وقاموا خلفَهما أذلة خاشعين، حتى نزل جبريل عليه السلام وقال: إن الله أجاب دعوتك في ولدك

---

(١) يقال شيخ مُفْنِدٌ ولا يقال عجوز مفندة إلا أن تكون في شبابها ذات رأي فتفند في كبرها.

وعَقَد مواثيقهم بعدك على النبوة، وهو إن صح[(١)] فدليل على نبوتهم وأن ما صدر عنهم كان قبل استنبائهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

(٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ روي[(٢)] أنه وَجَّه إليه رواحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، واستقبله يوسفُ والملِكُ بأهل مصر، وكان أولادُه الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهَرْمىٰ. ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضم إليه أباه وخالته واعتنقهما، نزَّلها منزلة الأم تنزيلَ العم منزلة الأب في قوله تعالى: ﴿وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾[(٣)]، أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه والرابّة تدعى أماً ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من القحط وأصناف المكاره، والمشيئةُ متعلقة بالدخول المكيَّف بالأمن، والدخولُ الأول كان في موضع خارج البلد حين استقبلهم.

(١٠٠) ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا﴾ تحية وتكرمة له فإن السجود كان عندهم يجري مجراها، وقيل معناه خروا لأجله سجداً لله شكراً، وقيل الضميرُ لله تعالى والواو لأبويه وإخوته. والرفعُ مؤخر عن الخُرور، وإن قُدِّم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما. ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ﴾ التي رأيتُها أيام الصبا. ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ صدقاً. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يَذْكُر الجُبّ لئلا يكون تثريباً عليهم. ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أفسد بيننا وحرّش، مِنْ نزغ الرائضُ الدابة إذا نَخَسها وحملها على الجري. ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة. روي[(٢)] أن يوسف طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه، فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني ما أعقك! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل، قال: أمرني جبريل عليه السلام، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أَبْسَطُ مني إليه فاسأله، فقال جبريلُ: الله أمرني بذلك لقولك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾[(٤)]، قال: فهلا خِفْتَني؟.

---

(١) قال الألوسي: (والحق عدم الصحة) روح المعاني (١٣/٥٦).

(٢) غالب هذه الأخبار مأخوذة عن أهل الكتاب، والله أعلم.

(٣) البقرة: «١٣٣».

(٤) يوسف: «١٣».

۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠١) ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ بعض المُلْك وهو مُلْك مصر. ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ الكُتُب أو الرؤيا، ومِنْ أيضاً للتبعيض لأنه لم يؤت كل التأويل. ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبْدِعُهما. وانتصابُه على أنه صفة المنادى، أو منادى برأسه. ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ ناصري ومتولي أمري. ﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما. ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ اقبضني. ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة. روي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم توفي، وأوصىٰ أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه، فذهب به ودفنه ثمةَ، ثم عاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثم تاقت نفسُه إلى المُلْك المخلد فتمنىٰ الموتَ فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهلُ مصر في مدفنه حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعاً فيه، ثم نقلَه موسىٰ عليه الصلاة والسلام إلى مدفن آبائه وكان عمره مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من راعيل أفرائيم وميشا ـ وهو جد يوشع بن نون ـ ورحمة امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام.

(١٠٢) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه الصلاة والسلام، والخطاب فيه للرسول ﷺ، وهو مبتدأ. ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران له. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ كالدليل عليهما، والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تَحْضُر إخوة يوسف حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غَيَابة الجب وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفىٰ على مكذبيك أنك ما لَقِيتَ أحداً سمع ذلك فتعلمتَه منه، وإنما حذف هذا الشِّقُّ استغناءً بذكره في غير هذه القصة كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾(١).

(١٠٣) ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على إيمانهم وبالغتَ في إظهار الآيات عليهم. ﴿ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر.

(١٠٤) ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الإنباء أو القرآن. ﴿ مِنْ أَجْرٍ﴾ من جُعْل(٢) كما يفعله حَمَلَةُ الأخبار. ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى. ﴿ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عامة.

(١٠٥) ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ وكم من آية، والمعنىٰ وكأيٍّ عدد شئت من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده. ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات ويشاهدونها.

---

(١) هود: ٤٩.

(٢) الجُعْل ـ بالضم ـ ومصدره الجَعْل ـ بالفتح ـ وهو الأجرة على الشيء فعلاً أو قولاً. [النهاية: ١/ ٢٧٦].

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقرىء والأرضُ ـ بالرفع ـ على أنه مبتدأ خَبَرُه يمرّون فيكون لها الضمير في عليها، وبالنصب على ويطؤون الأرضَ[1]، وقرىء والأرضُ يمشون عليها، أي يترددون فيها فيرون آثار الأمم الهالكة.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته. ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره أو باتخاذ الأحبار أرباباً ونسبةِ التبني إليه تعالىٰ، أو القول بالنور والظلمة، أو النظر إلى الأسباب ونحو ذلك. وقيل الآية في مشركي مكة، وقيل في المنافقين، وقيل في أهل الكتاب.

(١٠٧) ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة من غير سابقة علامة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها.

(١٠٨) ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني الدعوةَ إلىٰ التوحيد والإعدادَ للمعاد، ولذلك فَسَّر السبيل بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ وقيل هو حال من الياء. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء. ﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر في أدعو، أو على بصيرة لأنه حال منه، أو مبتدأ خبرُه على بصيرة. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وأنزهه تنزيهاً من الشركاء.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ رد لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾[2] وقيل معناه نفي استنباء النساء ﴿نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ كما يوحىٰ إليك ويميزون بذلك عن غيرهم. وقرأ حفص نُوحِي في كل القرآن، ووافقه حمزة والكسائي في سورة الأنبياء[3]. ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ لأن أهلها أعلم وأحلم من أهل البدو. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك، أَوْ من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها فيقلعوا عن حبها. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ ولدار الحال أو الساعة أو الحياة الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء حملاً على قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل لهم أفلا تعقلون.

---

(١) أي وقرىء بنصب الأرض، على أنه مفعول بفعل محذوف يفسره «يمرون» وهو يطؤون.
(٢) فصلت: «١٤».
(٣) الآية: «٧» و«٢٥».

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(١١٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غايةُ محذوفٍ دلّ عليه الكلام، أي لا يغررهم تمادي أيامهم فإن مَنْ قبلهم أُمْهِلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفهين متمادين فيه من غير وازع. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ أي كذَبَتهم أنفُسُهم حين حدثتهم بأنهم يُنْصَرون، أو كذبهم القومُ بوعد الإيمان. وقيل الضمير للمرسَل إليهم، أي وظن المرسَل إليهم أن الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد. وقيل الأول للمرسل إليهم والثاني للرسل، أي وظنوا أن الرسل قد كُذِّبوا وأُخْلِفوا فيما وُعِد لهم من النصر وخَلْط الأمر عليهم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن الرسل ظنوا أنهم أُخْلِفُوا ما وَعَدَهم الله من النصر، إن صح[1] فقد أراد بالظن ما يَهْجُس في القلب على طريق الوسوسة. هذا وإن المراد به المبالغة في التراخي والإمهال على سبيل التمثيل. وقرأ غير الكوفيين بالتشديد، أي وظن الرسل أن القوم قد كذبوهم فيما أوْعدوهم. وقرىء كَذَبُوا بالتخفيف وبناء الفاعل أي وظنوا أنهم قد كَذَبوا فيما حَدَّثوا به عند قومهم لمّا تراخىٰ عنهم ولم يروا له أثراً. ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ النبي والمؤمنين، وإنما لم يعينهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم لا يشاركهم فيه غيرهم. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب على لفظ الماضي المبني للمفعول[2]، وقرىء فنجا. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إذا نزل بهم، وفيه بيان للمَشِيئين.

(١١١) ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ في قصص الأنبياء وأممهم، أو في قصة يوسف وإخوته. ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لذوي العقول المبرأةِ من شوائب الإلف والركون إلى الحسّ. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً يفترى. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يُحتاج إليه في الدين، إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال. ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدِّقونه. وعن النبي ﷺ: «علموا أرقّاءكم سورةَ يوسف، فإنه أيُّما مسلم تلاها وعلمها أهلَه وما ملكت يمينُه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يَحْسُد مسلماً»[3].

☆ ☆ ☆

(١) رواه البخاري (٢٥٢٤).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة «فننجي» بنونين والبناء للفاعل، وقراءة عاصم ويعقوب وابن عامر «فَنُجِّيَ».

(٣) وهو حديث موضوع أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي بن كعب (١/٢٣٩ ـ ٢٤٠).

سُورَةُ الرَّعۡدِ

ترتيبها ١٣ — آياتها ٤٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ
يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

سورة الرعد مدنية

وقيل مكية إلا قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . الآية﴾(١) وهي ثلاث وأربعون آية.

---

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥٩٩):
«أخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سورة الرعد نزلت بمكة».
وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة الرعد مكية.
وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت سورة الرعد بالمدينة.
وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت الرعد بالمدينة.
وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة الرعد مدنية، إلا آية مكية.
«ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» [الرعد: ٣١]» هـ.
ـ وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/٢٩٩):
«اختلفوا في نزولها على قولين:
(أحدهما): أنها مكية. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة. وروى صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين منها. قوله «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» إلى آخر الآية [الرعد: ٣١] وقوله «ويقول الذين كفروا لست مرسلاً» [الرعد: ٤٣].
(والثاني): أنها مدنية، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وبه قال جابر بن زيد، وروي عن ابن عباس أنها مدنية، إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله «ولو أن قرآناً سُيّرت به الجبال» إلى آخرها [الرعد: ٣١]. وقال بعضهم: المدني منها قوله «هو الذي يريكم البرق ـ إلى قوله ـ له دعوة الحق» [الرعد: ١٤]» هـ.
وقال السيوطي في «الإتقان» (١/٣٦) بعد أن ذكر الاختلاف في سبب نزولها. =

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓرۚ﴾ قيل معناه أنا الله أعلم وأرى. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ يعني بالكتاب السورة، وتلك إشارةٌ إلى آياتها، أي تلك الآياتُ آياتُ السورة الكاملة أو القرآن. ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو القرآن كله. ومحله الجر بالعطف على الكتاب عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى، أو الرفع بالابتداء وخبرُه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ والجملةُ كالحجة على الجملة الأولى، وتعريف الخبر وإن دل على اختصاص المنزَّل بكونه حقاً فهو أعمّ من المنزَّل صريحاً أو ضمناً، كالمثبت بالقياس وغيره مما نطق المنزَّلُ بحسن اتباعه[١]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ وخبر، ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبرُ يدبر الأمرَ. ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أساطين ـ جمعُ عِمَاد ـ كإهاب وأَهَبٌ، أو عمود كأديم وأَدَمٌ[٢]. وقرىء عُمُدٍ كرُسُل. ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لعَمَد أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السمواتِ كذلك، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، فإن ارتفاعَها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجُرْمية واختصاصَها بما يقتضي ذلك لا بد وأن يكون بمخصِّص ليس بجسم ولا جسماني يرجِّحُ بعضَ الممكنات على بعض بإرادته، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ بالحفظ والتدبير. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ﴾ ذللهما لِمَا أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع في حدوث الكائنات وبقائها. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، أو لغاية مضروبة ينقطع دونَها سيرُه، وهي: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾[٣]. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وغير ذلك. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يُنَزِّلها ويبيِّنها مفصلة، أو يُحدِث الدلائل واحداً بعد واحد. ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكي تتفكروا فيها وتتحققوا كمالَ قدرته، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قَدِر على الإعادة والجزاء.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بَسَطَها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدامُ ويتقلبَ عليها الحيوان.

«والذي يجمع به بين الاختلاف: أنها مكية إلاّ آيات منها» هـ.

ـ وقال سيد قطب في الظلال (٤/٢٠٣٩): ـ

السورة مكية بخلاف ما ورد في المصحف الأميري وبعض المصاحف ـ اعتماداً على بعض الروايات ـ أنها مدنية... ومكية السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة أدائها أو في جوها العام، الذي لا يخطىء تنسمه من يعيش فترة في ظلال القرآن! هـ.

(١) وفي التعبير عنه بالموصول وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبني للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل إليه والإيماء إلى وجه بناء الخبر ما لا يخفىٰ (س٥/٢).

(٢) جمع إهاب على أَهَب ـ بفتحتين ـ (كذلك أديم فهو على غير القياس والقياسُ بضمتين «أُهُب وأُدُم» قال بعضهم: وليس في كلام العرب فِعَالٌ يُجْمَع على فَعَلٍ ـ بفتحتين إلا إهاب وأَهَب وعِمَاد وعَمَد... (المصباح المنير مادة أهب).

(٣) التكوير: «١ـ٢».

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت، مِنْ رسا الشيء إذا ثبت، جمعُ راسية والتاءُ للتأنيث على أنها صفة أَجْبُل أو للمبالغة(١). ﴿ وَأَنْهَٰرًا ﴾ ضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها. ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين، كالحلو والحامض والأسود والأبيض والصغير والكبير. ﴿ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ يُلْبِسُه مكانه فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يُغَشِّي بالتشديد. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيها فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم دبر أمرها وهيأ أسبابها.

وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

(٤) ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ بعضها طيبة وبعضها سَبْخة، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها تصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس. ولولا تخصيصُ قادرٍ موقِعٍ لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية وما يلزمها ويَعْرِض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها متضامة متشاركة في النِّسَب والأوضاع. ﴿ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ وبساتين فيها أنواع الأشجار والزروع، وتوحيدُ الزرع لأنه مصدر في أصله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص وزرعٌ ونخيلٌ بالرفع عطفاً على وجنّات(٢). ﴿ صِنْوَانٌ ﴾ نخلات أصلها واحد. ﴿ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ متفرقات مختلفات الأصول(٣). وقرأ حفص بالضم، وهو لغة بني تميم، كقِنْوانٍ في جمع قِنْوٍ. ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ في الثمر شكلاً وقدراً ورائحة وطعماً، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادرٍ مختار. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب يُسقى بالتَّذكير على تأويل ما ذُكِر، وحمزةُ والكسائيَّ يُفَضِّلُ بالياء ليطابق قوله: «يُدَبِّرُ الأمرَ» ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم بالتفكر(٤).

---

(١) ولم يذكر الموصوف ـ الذي هو الجبال ـ لإغناء غلبة الوصف بها.
والتعبير عن الجبال بهذا العنوان ـ أي الرواسي ـ لبيان تفرع قرار الأرض على ثباتها (س٥/ ٤).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ «وزرعٍ ونخيلٍ» بالجر، وقد قرأ بها غير مَنْ ذكر وهي عطفٌ على أعناب.

(٣) قال الراغب الأصفهاني في المفردات مادّة (صنو): الصِّنْوُ: الغصن الخارج عن أصل الشجرة، يُقال هما صِنْوا نخلة وفلان صِنْو أبيه، والتثنية صِنْوانِ [بكسر النون] والجمع صِنْوانٌ [بتنوين النون].

(٤) وفي الآية لفتات بيانية أشار إليها أبو السعود وهي أنه أفرد الزرع لمراعاة أصله، وقدم ذكر الجنات عليه ـ مع كونه عمود المعاش ـ لظهور حالها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها.
ولعل تأخير ذكر النخيل لئلا يقع بينها وبين صفتها ـ وهي «صنوان وغير صنوان» ـ فاصل (س٥/ ٥).

۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

(٥) ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمدُ من إنكارهم البعث. ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ حقيق بأن يُتعجب منه، فإن من قَدِر على إنشاء ما قُص عليك كانت الإعادة أيسرُ شيء عليه، والآياتُ المعدودةُ كما هي دالة على وجود المبدأ فهي دالة على إمكان الإعادة من حيث إنها تدل على كمال علمه وقدرته وقبول المواد لأنواع تصرفاته. ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدل من قولهم أو مفعول له، والعاملُ في «إذا» محذوف دل عليه «أئنا لفي خلق جديد» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم كفروا بقدرته على البعث. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيدون بالضلال لا يُرجىٰ خلاصُهم أو يُغَلُّون يوم القيامة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار.

(٦) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بالعقوبة قبلِ العافية، وذلك لأنهم استَعْجَلُوا ما هُدِّدوا به من عذاب الدنيا استهزاءً. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ عقوباتُ أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها ولم يُجَوِّزوا حلول مثلها عليهم؟. والمَثُلَةُ ـ بفتح الثاء وضمها كالصَّدَقَة والصدُقَة ـ العقوبةُ، لأنها مِثْلُ المعاقَبِ عليه، ومنه المِثَال للقصاص وأَمْثَلْتُ الرجلَ من صاحبه إذا اقتصصتُه منه. وقرىء المَثْلات بالتخفيف، والمُثُلَات بإتباع الفاءِ العينَ، والمُثْلات بالتخفيف بعد الإتباع، والمُثَلات بفتح الثاء على أنها جمع مُثْلَة كرُكْبة ورُكَبات. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ مع ظلمهم أنفسَهم. ومحله النصبُ على الحال، والعاملُ فيه المغفرةُ. والتقييدُ به دليلٍ على جواز العفو قبل التوبة. فإن التائب ليس على ظلمه، ومَنْ منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفَّرَةِ لمجتنب الكبائر أو أول المغفرة بالستر والإمهال. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[^1] للكفار أو لمن شاء، وعن النبي ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزُه لما هَنَأَ أحدٌ العيشَ، ولولا وعيدُه وعقابُه لاتَّكل كلُّ أحد»[^2].

---

(١) قال ابن الجوزي في «ناسخ القرآن ومنسوخه» ص٤٤٤ ـ ٤٤٥:
«قد توهم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة، لأنه قال: المراد بالظلم ها هنا، الشرك. ثم نسخت بقوله «إنَّ الله لا يغفرُ أن يشرك به» [النساء: ٤٨] وهذا التوهم فاسد لأن الظلم عام. وتخصيصه بالشرك ها هنا يحتاج إلى دليل. ثم إن كان المراد به الشرك، فلا يخلو الكلام من أمرين:
ـ إما أن يراد به التجاوز عن تعجيل عقابهم في الدنيا.
ـ أو الغفران لهم إذا رجعوا عنه، وليس في الآية ما يدل على أنه يغفر للمشركين إذا ماتوا على الشرك» هـ.
وقال ابن الجوزي أيضاً في «زاد المسير» (٤/٣٠٦): «والمحققون على أنها محكمة» هـ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب «لما نزلت: «وإن ربك لذو مغفرة، الآية» قال رسول الله ﷺ فذكره ـ كما في «الكافي الشافِ» لابن حجر (ص٩١ رقم ٢٢٢).
قلت: ـ مراسيل ابن المسيب مقبولة. ولكن في الأثر علي بن زيد بن جدعان ضعيف.

(٧) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزَّلة عليه واقتراحاً لنحو ما أوتي موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام. ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ مُرْسَل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيانُ بما تصح به نبوتُك من جنس المعجزات لا بما يُقْتَرَحُ عليك. ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ نبي مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب، أو قادر على هدايتهم وهو اللهُ تعالى لكن لا يهدي إلا من يشاءُ هدايتَه بما يُنَزِّل عليك من الآيات. ثم أردف ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدَره، تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه وإنما لم يَنْزِل لعلمه بأن اقتراحَهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم وإنما لم يهدهم لسَبْق قضائه عليهم بالكفر فقال:

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾

(٨) ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ أي حَمْلَها أو ما تحمله على أي حال هو من الأحوال الحاضرة والمترقَّبة. ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ وما تُنْقِصه وما تزداده في الجِثَّة والمدة والعَدَد. وأقصى مدة الحمل أربع سنين عندنا، وخمس عند مالك، وسنتان عند أبي حنيفة. روي[(١)] أن الضحاك ولد لسنتين وهرمَ بن حيان لأربع سنين[(٢)]. وأعلى عَدَده لا حد له، وقيل نهاية ما عرف به أربعة وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله: أخبرني شيخ باليمن أن امرأته وَلَدت بطوناً في كل بطن خمسة. وقيل المراد نقصان دم الحيض وازدياده. وغاض جاء متعدياً ولازماً وكذا ازداد، قال تعالى: ﴿ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾[(٣)] فإن جعلتهما لازمين تعين ما أن تكون مصدرية، وإسنادُهما إلى الأرحام على المجاز فإنهما لله تعالى أو لما فيها. ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقَدَر لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[(٤)] فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين وهيأ له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك. وقرأ ابن كثير ﴿ هَادٍ ﴾[(٥)]

---

(١) هذا خبر مكذوب. قاله ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/ ١٣٣).
(٢) هذا خبر مكذوب. قاله ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/ ١٣٣).
قال ابن حزم في المحلى «١٠/ ١٣١ ـ ١٣٣» ـ «ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر، لقول الله تعالى «وحمله وفصاله ثلاثون شهراً» [الأحقاف: ١٥] وقال تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» [البقرة: ٣٣]. فمن ادعى أن حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً، فقد قال الباطل والمحال ورد كلام الله عز وجل جهاراً» هـ.
ثم ذكر ابن حزم جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من تسعة أشهر، ولكنه عقب عليها بقوله «وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يصدق ولا يُعرف مَن هو؟ ولا يجوز الحكم في دين الله بمثل هذا» اهـ.
قلت: هذا الذي انتصر له ابن حزم هو الذي عليه الأطباء، فلا يزيد الحمل عندهم عن شهر بعد موعده. وإلا لمات الجنين في بطن أمه.
(٣) الكهف: «٢٥».
(٤) القمر: «٤٩».
(٥) الرعد: «٧».

﴿وَالٍ﴾[١] و﴿وَاقٍ﴾[٢] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾[٣] بالتنوين في الوصل فإذا وقف وقف بالياء في هذه الأحرف الأربعة حيث وقعت لا غير، والباقون يَصِلُون بالتنوين ويقفون بغير ياء.

عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ
مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١

(٩) ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الغائب عن الحس. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الحاضر له. ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء. ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

(١٠) ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾ في نفسه. ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لغيره. ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ طالب للخفاء في مُختَبأ بالليل. ﴿وَسَارِبُۢ﴾ بارز. ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ يراه كل أحد[٤]، مِنْ سرب سُرُوباً إذا برز، وهو عطف على مَنْ أو مستخف على أنَّ من في معنى الاثنين كقوله:

تكن مِثْلَ مَنْ يا ذئب يصطحبان

كأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار، والآية متصلة بما قبلها مقرِّرة لكمال علمه وشموله.

(١١) ﴿لَهُۥ﴾ لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب. ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه، جمع مُعَقِّبة مِنْ عقَّبَهُ مبالغة عَقَبَه إذا جاء على عقِبه كأن بعضهم يَعْقِب بعضاً، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها، أو اعتقب فأدغمت التاءُ في القاف والتاءُ للمبالغة، أو لأن المراد بالمعقبات جماعات. وقرىء مَعَاقيب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من حذف إحدى القافين. ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ من جوانبه، أو من الأعمال ما قدم وأخر. ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، أو يحفظونه من المضار، أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى. وقد قرىء به. وقيل مِنْ بمعنى الباء، وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات، وقيل المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من العافية والنعمة. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة. ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ فلا راد له، فالعامل في إذا ما دل عليه الجواب. ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم فيدفع

---

(١) الرعد: «١١».
(٢) الرعد: «٣٤».
(٣) النحل: «٩٦».
(٤) وتقديم الإسراء على الجهر والاستخفاء على السروب لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنه في التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر، وإلا فنسبته إلى الكل سواء (س٥/٨).

عنهم السوء، وفيه دليل على أن خلاف مراد الله تعالى محال.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من أذاه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. وانتصابُهما على العلة بتقدير المضاف أي إرادةَ خوفٍ وطمع أو التأويلِ بالإخافة والإطماع، أو الحالِ من البرق أو المخاطبين على إضمار ذو، أو إطلاقِ المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء. ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ وهو جمع ثقيلة وإنما وصف به السحاب لأنه اسم جنس في معنى الجمع.

(١٣) ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ ويسبح سامعوه. ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ ملتبسين به فيضجون بسبحان الله والحمد لله، أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله وكمال قدرته ملتبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته[(١)]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، سئل النبي ﷺ عن الرعد فقال: «مَلَك موكل بالسحاب معه مخاريق[(٢)] من نـار يسـوق بهـا . . . .

---

(١) التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص. وهو نوعان: تسبيح دلالة وتسبيح مقالة، أما تسبيح الدلالة فكل المخلوقات تدل على أن الله هو خالقها وأنه تعالى عالم قدير سميع بصير حي مريد.. وأما تسبيح المقالة فيكون من باب القول كما يتكلم الإنسانُ بلسانه.. ولما كان من منهج المعتزلة إخضاع جميع المخلوقات إلى حكم العقل قالوا بتعذر نطق المخلوقات وحملوها على غير الحقيقة... والبيضاوي تأثر بالزمخشري في بعض اعتزالياته وحمل السجود على غير الحقيقة.
لكنّ النطق والقول غير مختص بالإنسان والله تعالى هو الذي أنطق الإنسان وعلمه البيان وهو قادر على إنطاق جميع المخلوقات. والنصوص كثيرة في ذلك وحملها على المجاز تكلف، فسليمان عليه السلام علمه اللهُ منطق الطير وقد ذكر القرآن الكريم قصة محادثته مع الهدهد، وفي آخر الزمن تخرج دابة من الأرض تكلم الناس، والله تعالى يُنطق الألسنة والأيدي والأرجل فتشهد على صاحبها يوم القيامة وكذلك الجلود.. وقد تكلم في المهد عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره... وفي الصحيح أنّ نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام كان إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه، صاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكّت حتى استقرت، فقال عليه السلام: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر» ـ رواه البخاري ـ.
فإذا كان الأمر كذلك من نطق الجمادات فلماذا يُستبعَد نطق الرعد بالتسبيح لله تعالى ويُحمَل على غير حقيقته؟!
وقد أثبت القرآن الكريم عدم فهم الإنسان لتسبيح الجمادات كما قال تعالى: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً» ـ الإسراء «٤٤» ـ.

(٢) ثوب يلف، ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، وأراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه. [النهاية: ٢/٢٦].

السحاب»[١]. ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ من خوف الله تعالى وإجلاله، وقيل الضمير للرعد. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه. ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حيث يكذبون رسولَ الله ﷺ فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم. والجدالُ التشدد في الخصومة من الجَدْل وهو الفتل. والواو إما لعطف الجملة على الجملة أو للحال فإنه روي أن عامرَ بن الطفيل وأَرْبَدَ بن ربيعة ـ أخا لبيد ـ وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف، فتنبه له رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اكفنيهما بما شئت» فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، ورمىٰ عامراً بغدة فمات في بيتِ سلوليّة، وكان يقول غدةٌ كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فنزلت[٢]. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ المماحلةُ: المكايدةُ لأعدائه، من مَحَل فلانٌ بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك، ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة، ولعل أصله المَحْل بمعنى القحط. وقيل فِعال من المَحْل بمعنى القوة. وقيل مِفْعل من الحول أو الحيلة أُعِلّ على غير قياس، ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مَفْعَل من حال يحول إذا احتال، ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلاً في القوة والقدرة كقولهم: فساعِدُ الله أشدُّ وموساه أحدُّ.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾

(١٤) ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يعبد ويُدعىٰ إلى عبادته دون غيره، أو له الدعوة المجابة فإن من دعاه أجابه، ويؤيده ما بعده. والحقُّ على الوجهين ما يناقض الباطل، وإضافةُ الدعوة إليه لما بينهما من الملابسة، أو على تأويل دعوة المدعو الحق. وقيل الحق هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق. والمراد بالجملتين إن كانت الآية في أربد وعامر أن إهلاكهما من حيث لم يَشْعرا به مِحَالٌ من الله إجابةً لدعوة رسوله ﷺ أو دلالة على أنه على الحق، وإن كانت عامة فالمراد

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٤ رقم ٣١١٧) عنه في سياق طويل.
وقال: حديث حسن غريب.
قلت: في إسناده بكير بن شهاب الكوفي قال الحافظ في التقريب (١/ ١٠٧): مقبول.
والحديث أخرجه أيضاً من هذا الوجه أحمد (٢/ ٢٧٤) في سياق أطول من سياق الترمذي وكذا النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٣٩٤).
والخلاصة أن الحديث حسن انظر «الصحيحة» للألباني (رقم: ١٨٧٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٢٦) عن ابن جريج مختصراً.
وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٢) عن ابن جرير وابن زيد مطولاً.
وكذلك أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٣٧٩ رقم ١٠٦٠) وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٢٦٦). من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤١) وقال: وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.
قلت: ـ بل هو متروك انظر «التقريب (١/ ٥١١)».

وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول مِحَالِهِ بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول ﷺ عليهم، أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون فَحَذَفَ الراجعَ، أو والمشركون الذين يدعون الأصنام فحذف المفعول لدلالة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عليه. ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ من الطلبات. ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ إلا استجابة كاستجابة مَنْ بسط كفيه ﴿إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ يطلب منه أن يبلغه. ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ لأنه جماد لا يَشْعُر بدعائه ولا يقدر على إجابته والإتيانِ بغير ما جبل عليه، وكذلك آلهتُهم. وقيل شبهوا في قلة جدوىٰ دعائهم لها بمَنْ أراد أن يغترف الماءَ ليشربه فبسط كفيه ليشربه. وقرىء تَدْعُون ـ بالتاء ـ وباسطٍ بالتنوين. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ في ضياع وخسار وباطل.

وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

(١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ يُحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فإنه يسجد له الملائكةُ والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتي الشدة والرخاء والكفرةُ كرهاً حال الشدة والضرورة ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ بالعَرَض، وأن يرادَ به انقيادهم لإحداث ما أراده منهم شاؤوا أو كرهوا، وانقيادُ ظِلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص. وانتصاب طوعاً وكرهاً بالحال أو العلة، وقولُه ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾ ظرفٌ ليسجد، والمراد بهما الدوام، أو حال من الظلال، وتخصيص الوقتين لأن الظلال إنما تُعظُم وتكثر فيهما. والغدو جمع غداة كقُنِيٍّ جمع قناة، والآصالُ جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل الغدو مصدر، ويؤيده أنه قد قرىء والإيصال وهو الدخول في الأصيل.

(١٦) ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خالقُهما ومتولي أمرَهما. ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه ولأنه البين الذي لا يمكن المراء فيه، أو لقِّنْهم الجواب به ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ ثم أَلْزِمْهم بذلك لأن اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل. ﴿أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ لا يقدرون على أن يجلبوا إليها نفعاً أو يدفعوا عنها ضراً فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه، وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاءَ أن يشفعوا لهم. ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها، والموحِّد العالم بذلك. وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على أحوالكم. ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ الشرك والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء. ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ بل أجعلوا، والهمزةُ للإنكار، وقوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار. ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ خَلْقُ الله وخَلْقُهم، والمعنى أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خَلَقوا كما خلق اللهُ فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق. ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ

كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لا خالقَ غيره فيشاركه في العبادة. جعل الخلق موجِبَ العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عمن سواه ليدل على قوله ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على كل شيء.

أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب، أو من جانب السماء، أو من السماء نفسِها فإن المبادىء منها. ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ أنهار، جمعُ وادٍ وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتّسع فيه واستَعْمَلَ للماء الجاري فيه، وتنكيرُها لأن المطر يأتي على تناوبٍ بين البقاع. ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالىٰ أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكِبَر. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾ رَفَعَه، والزَّبَدُ وَضَرُ الغَلَيان. ﴿رَّابِيًا﴾ عالياً. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ يعمّ الفِلِزّات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها إظهاراً لكبريائه. ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب حُلًى. ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصودُ من ذلك بيان منافعها. ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي ومما يوقدون عليه زَبَد مثْلُ زبد الماء وهو خَبَثُه، ومِنْ للابتداء أو للتبعيض. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس[1]، وإضمارُه للعلم به. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ مَثَل الحق والباطل، فإنه مِثْلَ الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأوديةُ على قدر الحاجة والمصلحة فيُنْتَفَعُ به أنواعُ المنافع، ويمكث في الأرض بأن يَثْبُتَ بعضُه في منافعه ويسلك بعضُه في عروق الأرض إلى العيون والقُنِيِّ والآبار، وبالفلز الذي يُنتفع به في صوغ الحُلىٰ واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما، وبيّن ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يُجْفَأُ به أي يَرمي به السيلُ والفلزُّ المذاب. وانتصابه على الحال ـ وقرىء جُفَالاً ـ والمعنى واحد. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ كالماء وخلاصة الفلزّ. ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ينتفع به أهلُها. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ لإيضاح المشتَبِهات.

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ للمؤمنين الذين استجابوا. ﴿لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ الاستجابة الحسنىٰ. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وهم الكفرة، واللام متعلقة بيضرب على أنه جَعَلَ ضَرْبَ المَثَل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما. وقيل للذين استجابوا خبرُ الحسنىٰ ـ وهي المثوبة أو الجنة ـ والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبرُهُ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وهو على الأول كلام مبتدأ لبيان مآل غير المستجيبين. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وهو المناقشةُ فيه، بأن يحاسب الرجل بذنبه لا يُغْفَرُ منه شيء. ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ مرجعهم. ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المستقرّ، والمخصوصُ بالذم محذوف.

---

(١) أي «ومما يوقدون».

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾

(١٩) ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فيستجيب. ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عمى القلب لا يَستبصر فيستجيب، والهمزةُ لإنكار أن تقع شبهةٌ في تشابههما بعد ما ضُرِب من المثل. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول المبرأة عن مشايعة الإلف ومعارضة الوهم.

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلىٰ، أو ما عَهِد الله تعالى عليهم في كُتُبه. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما وَثَّقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد، وهو تعميم بعد تخصيص.

(٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويندرج في ذلك مراعاةُ جميع حقوق الناس. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيدَه عموماً. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ خصوصاً فيحاسِبُون أنفسهم قبل أن يُحاسَبوا[1].

(٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى[2]. ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه لا لجزاء وسمعة ونحوهما. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بعضَه الذي وجب عليهم إنفاقه. ﴿سِرًّا﴾ لمن لم يُعْرَفْ بالمال. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن عُرِف به. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعونها بها فيجازُون الإساءة بالإحسان، أو يُتْبِعُون السيئة الحسنة فتمحوَها[3]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أهلها وهي الجنة. والجملةُ خبر الموصولات إن رُفِعَتْ بالابتداء، وإن جُعِلت صفات لأولي الألباب فاستئنافٌ بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

(٢٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من عقبىٰ الدار، أو مبتدأٌ خَبَرُهُ: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ والعَدْنُ: الإقامةُ، أي جناتٌ يقيمون فيها، وقيل هو بطنان . . . .

---

(١) خص البيضاوي الخشية بخشية وعيده تعالى، لكنّ الظاهر أن المراد به مطلق الخشية.
وقوله تعالىٰ في الأول «يخشون» وفي الثاني «يخافون» هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به (روح المعاني ١٣/١٤٠) وقد فرق الراغب بين الخشية والخوف فقال: (الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشىٰ منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: «إنما يخشىٰ اللهَ من عباده العلماء» ـ فاطر «٢٨» ـ) المفردات مادة (خشي).

(٢) أورد الصبر بصيغة الماضي للدلالة على الاعتناء بشأنه ووجوب تحققه، فإنه ملاك الأمر في كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة (س٥/١٧).

(٣) وتقديم المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة (س٥/١٧).

الجنة[١]. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ﴾ عطف على المرفوع في يدخلون وإنما ساغ للفصل بالضمير الآخر، أو مفعول معه والمعنىٰ أنه يَلحقُ بهم مَنْ صلح مِنْ أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة أو أن الموصوفين بتلك الصفات يُقْرَن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أُنسهم، وفي التقييد بالصَّلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين:

سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ
بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ
وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ
قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا
بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(٢٤) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بِشارة بدوام السلامة. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْۚ﴾ متعلق بعليكم، أو بمحذوف أي هذا بما صبرتم، لا بسلام.. فإن الخبر فاصل. والباءُ للسببية أو للبدلية. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وقرىء فَنَعْم بفتح النون، والأصلُ نَعِمَ فسُكِّن العينُ بنقل كسرتها إلى الفاء وبغيره.

(٢٥) ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ يعني مقابلي الأولين. ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۙ﴾ بالظلم وتهييج الفتن. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ عذاب جهنم، أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ يوسعه ويضيقه. ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي أهلُ مكة. ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم كعُجَالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أَشِرُوا بما نالوا من الدنيا ولم يَصْرِفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو في جنبه نَزْرٌ قليل النفع سريع الزوال.

(٢٧) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات[٢]. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، وهو جواب يجري مجرىٰ التعجب من قولهم: كأنه قال قل لهم ما أَعْظَمَ عنادَكم! إن الله يُضِل من يشاء ممن كان على صفتكم فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أُنزِلَت كلُّ آية، ويهدي إليه من أناب بما جئتُ به بل بأدنى منه من الآيات.

(٢٨) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل مِنْ مَنْ، أو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ﴾ أُنساً به

---

(١) أي وسطها.
(٢) وإظهار الموصول «الذين كفروا» لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكي عنهم من أقوال (س٥/ ١٩).

واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو يذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ تسكن إليه[1].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

(٢٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبتدأ خبرُه: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ وهو فُعْلىٰ من الطِّيب قُلبت ياؤه واواً لضمة ما قبلَها، مصدر لطاب كبُشْرىٰ وزُلْفىٰ، ويجوز فيه الرفع والنصب ولذلك قرىء: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالنصب.

(٣٠) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلُ ذلك، يعني إرسال الرسل قبلك. ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ﴾ تقدمَتْها. ﴿أُمَمٌ﴾ أُرسلوا إليهم، فليس ببدْعٍ إرسالُك إليهم. ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك. ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وحالُهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا نِعَمَه وخصوصاً ما أُنعِم عليهم بإرسالك إليهم. وإنزالِ القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والدنياوية عليهم[2]. وقيل نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم: اسجدوا للرحمن، فقالوا: وما الرحمن؟![3] ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ أي الرحمنُ خالقي ومتولي أمري. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم. ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي ومرجعكم.

(٣١) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابُه، والمرادُ منه تعظيم شأن القرآن أو المبالغةُ في عناد الكفرة وتصميمِهم أي: ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارّها. ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته أو شققت فجُعلت أنهاراً وعيوناً. ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتسمع فتقرؤه، أو فتسمع وتجيب عند قراءته لكان هذا القرآن لأنه الغايةُ في الإعجاز والنهايةُ في التذكير والإنذار، أو

---

(١) والعدول إلى صيغة المضارع في قوله «وتطمئن» لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها (س٥/ ٢٠).

(٢) والعدول إلى المُظْهَر المتعرض لوصف الرحمة «الرحمن» من حيث إن الإرسال ناشىء منها (س٥/ ٢١).

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس من رواية الضحاك (ص٢٧٩) ومعلوم أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

لما آمنوا به كقوله: ﴿۞وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾[١] الآية. وقيل إن قريشاً قالوا يا محمد إن سرّك أن نتبعك فسيِّر بقرآنك الجبالَ عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها بساتين وقطائعَ، أو سخِّرْ لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصي بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك، فنزلت[٢]. وعلى هذا فتقطيع الأرض قَطْعُها بالسير. وقيل الجواب مقدم وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ وما بينهما اعتراض. وتذكيرُ كُلِّم خاصة لاشتمال الموتىٰ على المذكر الحقيقي. ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كل شيء، وهو إضرابٌ عما تضمنته لو من معنى النفي أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم، ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وذهب أكثرُهم إلى أن معناه أفلم يعلم لما روي أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قرؤوا أفلم يتبين، وهو تفسيره. وإنما استعمَلَ اليأسَ بمعنى العلم لأنه مسبَّب عن العلم، فإن الميؤوس عنه لا يكون إلا معلوماً ولذلك علقه بقوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإن معناه نفي هدي بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو على الأول متعلق بمحذوف تقديره أفلم ييأس الذين آمنوا عن إيمانهم علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، أو بآمنوا. ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من الكفر وسوء الأعمال. ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تَقْرعهم وتُقلقهم. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ليفزعون منها ويتطاير إليهم شررها. وقيل الآية في كفار مكة فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يزال يبعث السرايا عليهم فتَغِير حواليهم وتختطف مواشيَهم، وعلى هذا يجوز أن يكون تَحُل خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام فإنه حلّ بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لامتناع الكذب في كلامه.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه. والإملاءُ أن يترك ملاوة من الزمان في دَعَة وأمن. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي إياهم.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ﴾ رقيب عليها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم، والخبرُ محذوف تقديره كمن ليس كذلك، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ

---

(١) الأنعام: «١١١».

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٢/ ٤٠ ـ ٤١) وفي سنده عبد الجبار بن عمر الأيلي وهو ضعيف كما في التقريب (١/ ٤٦٦) وفيه عبدالله بن عطاء وهو مدلس وقد عنعن (التقريب ١/ ٤٣٤).
والحديث ضعفه الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٥).

﴿شُرَكَآءَ﴾ استئناف أو عطف على كسبت إن جعلت ما مصدرية. أو لم يوحّدوه، وجعلوا عطفٌ عليه، ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة. وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها، والمعنى صِفُوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة. ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ بل أتنبئونه. وقرىء تُنْبِئُونه بالتخفيف. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء. ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنىً كتسمية الزنجي كافوراً، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ تمويههم فتخيلوا أباطيلَ ثم خالُوها حقاً، أو كيدهم للإسلام بشركهم[1]. ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الحق. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وصَدُّوا بالفتح، أي وصَدّوا الناس عن الإيمان، وقرىء بالكسر وصِدٌّ بالتنوين. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخذله. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدىٰ.

لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشدته ودوامه. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه أو من رحمته. ﴿مِن وَاقٍ﴾ حافظ.

(٣٥) ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ صفتُها التي هي مَثَلٌ في الغرابة، وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنة. وقيل خبرُه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ على طريقة قولك صفة زيد أسمر، أو على حَذْفِ موصوفٍ أي مَثَل الجنة جنةٌ تجري من تحتها الأنهار، أو على زيادة المثل، وهو على قول سيبويه حال من العائد أو المحذوفِ أو من الصلةِ. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ثمرها. ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي وظلها كذلك لا يُنْسَخُ كما ينسخ في الدنيا بالشمس. ﴿تِلْكَ﴾ أي الجنة الموصوفة. ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ مآلهم ومنتهىٰ أمرهم. ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير. وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقناط للكافرين.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب كابن سلام وأصحابه ومَنْ آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة، أو عامتهم فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم. ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني كَفَرَتُهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن . . . .

(١) فقوله «للذين كفروا» وضع الموصول موضع المضمر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالكفر (س٥/ ٢٤).

الأشرف[١] وأصحابه والسيد[٢] والعاقب[٣] وأشياعهما. ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم، أو ما يوافق ما حرفوه منها. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ جواب المنكرين أي قل لهم إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحّده، وهو العمدةُ في الدين ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس ببِدْع مخالفةُ الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. وقرىء ولا أشركُ بالرفع على الاستئناف. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ لا إلى غيره. ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وإليه مرجعي للجزاء لا إلى غيره، وهذا هو القَدَر المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم فلا معنىً لإنكاركم المخالفة فيه.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ ذلك الإنزالِ المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ يَحْكُمُ في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة[٤]. ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجَماً بلسان العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه. وانتصابه على الحال. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها. ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بنسخ ذلك. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك، وهو حسم لأطماعهم وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء وأولاداً كما هي لك. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما يصح له ولم يكن في وسعه. ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ تُقترَحُ عليه وحُكْم يُلْتَمَسُ منه. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنه المليء بذلك. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل وقت وأمد حكم يُكْتَب على العباد على ما يقتضيه استصلاحهم.

(٣٩) ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ينسخ ما يَسْتَصْوِب نسخَه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما تقتضيه حكمته، وقيل يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها، وقيل يمحو من كتاب الحفظة ما لا يتعلق به جزاءٌ ويترك غيره مثبَتاً أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه، وقيل يمحو قرناً ويثبت آخرين، وقيل يمحو الفاسدات

---

(١) انظر خبر كعب بن الأشرف مفصلاً في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٧٤ ـ ٨٤).

(٢) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/ ٦٢٩) «والسيد: ثِمالُهم، وصاحِبُ رحلهم، ومجتمعهم، واسمه الأيهم» هـ.

(٣) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/ ٦٢٩) «العاقِبُ أميرُ القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يَصْدُرون إلاّ عن رأيه وأمره، واسمه عبدالمسيح» هـ.

(٤) والتعرض لوصفه حكماً ـ مع أن بعضه ليس بحكم ـ لتربية وجوب مراعاة وتحتم المحافظة عليه (س٥/ ٢٦).

الكائنات[١]. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويُثَبِّتُ بالتشديد. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحالُ أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله[٢]. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غير. ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ للمجازاة لا عليك فلا تحتفلْ بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم، فإنا فاعلون له وهذا طلائعه.

(٤١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أرضَ الكفرة. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا راد له، وحقيقته الذي يُعقِّب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقِّب لأنه يَقْفُو غريمه بالاقتضاء، والمعنى أنه حَكَمَ للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره. ومحل لا مع المنفي النصبُ على الحال، أي يحكم نافذاً حُكْمُه[٣]. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين به منهم. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يؤبه بمكر دون مكره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فَيُعِدُّ جزاءها. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعَدُّ لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم. واللام تدل على أن المراد بالعقبىٰ العاقبة المحمودة، مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو الكافرُ على إرادة الجنس، وقرىء الكافرون، والذين كفروا، والكُفْرُ أي أهله، وسَيُعْلَمُ مِنْ أَعْلَمَه إذا أخبره.

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل المراد بهم رؤساء اليهود[٤]. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه أَظْهَرَ من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ

---

(١) والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات.

(٢) صيغة المضارع في «نعدهم» لحكاية الحال الماضية أو لتجدده. وإيراد البعض رمز لإرادة بعض الموعود (س٥/٢٧).

(٣) وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة بقوله «والله يحكم...» وبناء الحكم على الاسم الجليل «الله» من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفىٰ (س٥/٢٨).

(٤) وصيغة الاستقبال بقوله «ويقول» لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيباً منها أو للدلالة على التجدد والاستمرار (س٥/٢٩).

عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ علم القرآن وما أُلِف عليه من النظم المعجز، أو عِلْمُ التوراة وهو ابن سلام وأضرابه، أو عِلْمُ اللوح المحفوظ وهو الله تعالى، أي كفىٰ بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يَعْلَمُ ما في اللوح المحفوظِ إلاَّ هوَ شهيداً بينَنا فيُخزِي الكاذبَ مِنَّا، ويؤيِّدُه قراءةُ مَنْ قرأ ومِنْ عِنْدِه بالكسر وعِلْمُ الكتاب. وعلىٰ الأول مرتفعٌ بالظرف فإنه معتمدٌ على الموصول، ويجوز أن يكون مبتدأً والظرف خبرُه وهو متعيِّنٌ على الثاني. وقُرِىءَ ومِنْ عِنْدِه عُلِمَ الكتابُ على الحرفِ والبناءِ للمفعول. عن رسول الله ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الرعد أُعْطِيَ من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بوزن كلِّ سحابٍ مضَىٰ وكلِّ سحاب يكون إلى يومِ القيامة من الموفينَ بعهدِ الله»[1].

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع، رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبيّ (الفتح السماوي ص٧٤٢) وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٠).

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

ترتيبها ١٤ — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

سورة إبراهيم عليه السلام مكية[1] وهي اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي هو كتابٌ. ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائِك إيَّاهم إلى ما تضمَّنه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من أنواع الضلال. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الهدى. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقِه وتسهيلِه، مُسْتَعَارٌ من الإِذْنِ الذي هو تسهيلُ الحجاب، وهو صلة لِتُخرِجَ أو حالٌ من فاعلِه أو مفعولِه. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكريرِ العاملِ، أو استئنافٌ على أنه جوابٌ لِمَنْ يسألُ عنه. وإضافةُ الصراطِ إلى اللهِ تعالى إما لأنه مقصدُه أو المظْهِرُ له. وتخصيصُ الوصفين للتنبيه على أنه لا يَذِلُّ سالِكُه ولا يَخِيبُ سابِلُهُ.

(٢) ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على قراءةِ نافعٍ وابنِ عامرٍ[2] مبتدأٌ وخبرٌ، أو اللهُ

---

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣).
«أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
وأخرج النحاس في تاريخه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة إبراهيم عليه السلام نزلت في مكة، سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما: «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً...» إلا آيتين نزلتا في قتلي بدر من المشركين وانظر «زاد المسير» (٤/٣٤٣).

(٢) قراءة نافع وابن عامر برفع لفظ الجلالة.

خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ والذي صِفتُه. وعلى قراءة الباقينَ عطفُ بيانٍ للعزيزِ لأنه كالعَلَم لاختصاصِه بالمعبودِ على الحقِّ. ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ وعيد لمن كفرَ بالكتاب ولم يَخْرُجْ بهِ من الظلماتِ إلى النور. والويلُ نقيض الوَأْلِ وهو النجاة، وأصله النَّصْبُ لأنه مصدرٌ ـ إلا أنه لم يُشْتَقَّ منه فعلٌ ـ لكنه رُفِعَ لإفادةِ الثبات.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يختارونَها عليها فإن المختارَ للشيءِ يطلبُ من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليها من غيرِه. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بتعويقِ الناس عن الإيمان. وقُرِىءَ ويُصِدونَ مِنْ أَصَدَهُ وهو منقول من صدَّ صُدوداً إذا تنكَّبَ، وليس فصيحاً لأن في صدِّه مندوحةً عن تكلُّفِ التعديةِ بالهمزة. ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ ويبغون لها زيغاً ونُكُوباً عنِ الحقِّ ليقدحُوا فيه، فحذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ إلى الضميرِ. والموصولُ بِصِلَتِهِ يَحْتَمِلُ الجرَّ صفةً للكافرين والنَّصبَ على الذمِّ والرفعَ عليه، أو على أنهُ مبتدأٌ خبرُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ أي ضلُّوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحلَ. والبعدُ في الحقيقة للضالِّ فوُصِفَ بهِ فِعْلُه للمبالغةِ، أو للأمرِ الذي به الضلالُ فوُصِفَ به لملابستِه.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾

(٤) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ إلا بلُغَةِ قومه الذي هو مِنْهم وبُعِثَ فيهم. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ ما أُمِرُوا به فيفقهوهُ عنه بِيُسْرٍ وسُرْعةٍ، ثم ينقلوهُ ويترجموه إلى غيرِهم فإنَّهم أَوْلَى الناسِ إليه بأنْ يدعوهم وأحقُّ بأنْ يُنْذِرَهم، ولذلك أَمِرَ النبيُّ ﷺ بإنذارِ عشيرتِه أولاً. ولو نَزَلَ على مَنْ بُعِثَ إلى أُمَمٍ مختلفةٍ كُتُبَ على ألسنتِهم استقلَّ ذلكَ بنوعٍ منَ الإعجاز، لكنْ أدَّى إلى اختلافِ الكلمةِ وإضاعةِ فضلِ الاجتهادِ في تعلمِ الألفاظِ ومعانيها والعلومِ المتشعبةِ منها وما في إتعابِ القرائحِ وكدِّ النفوس من القُرَبِ المقتضيةِ لجزيلِ الثواب. وقُرِىءَ بِلِسْنِ وهوَ لغةٌ فيه كريشٍ ورياشٍ، ولُسُنٌ بضمتين، وضمةٍ وسكونٍ على الجمع كَعُمُدٍ وعُمْدٍ. وقيلَ: الضميرُ في قومِه لمحمدٍ ﷺ وأن الله تعالى أنزلَ الكُتُبَ كلَّها بالعربية، ثم تَرْجَمَهَا جبريلُ عليهِ السلامُ أوْ كلُّ نبيٍّ بِلُغَةِ المنزَّلِ عليهم، وذلكَ ليسَ بصحيحٍ، يردُّه قولُه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ فإنه ضميرُ القوم، والتوراةُ والإنجيلُ ونحوُهما لم تُنْزَلْ لتُبيِّنَ للعربِ. ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ فيخذله عن الإيمان. ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ بالتوفيقِ له[1]. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا يُغْلَبُ على مشيئته. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يُضِلُّ ولا يهدي إلا لحكمةٍ.

(٥) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني اليدَ والعصَا وسائرَ معجزاتِه. ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ

(١) تقديم الإضلال على الهداية للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل، وأن مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء. أو أن تقديم الإضلال لإبقاء ما كان على ما كان، والهداية إنشاء ما لم يكن (س٥/ ٣٢).

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بمعنى أي أَخرِجْ لأن في الإرسالِ معنى القولِ، أو بِأَنَ أَخرِجْ فإنَّ صِيَغَ الأفعالِ سواءٌ في الدلالةِ على المصدرِ فيصِحُّ أنْ تُوصَلَ بها أنْ الناصبةُ. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ بوقائِعه التي وقعتْ على الأُممِ الدارجةِ، وأيامُ العربِ حُرُوبُها. وقيلَ بنعمَائِه وبلائِه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يَصْبِر على بلائِه ويَشكر على نَعْمَائِه فإنه إذا سَمِعَ بما أُنزِلَ على مَنْ قبلُ مِنَ البلاء وأُفِيضَ عليهم من النعماءِ اعتبرَ وتنبَّهَ لما يجبُ عليه من الصبرِ والشكرِ. وقيلَ: المرادُ لكل مؤمن وإنما عبَّر عنه بذلك تنبيهاً على أن الصَّبرَ والشكرَ عُنْوَانُ المؤمن.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمتَه عليكم وقتَ إِنجَائِه إيَّاكم، ويجوزُ أنْ ينتصبَ بعليكم إنْ جُعِلَتْ مستقرةً غيرَ صِلَةٍ للنعمةِ وذلك إذا أُريدَ به العطيةُ دونَ الإنعامِ، ويجوز أن يكونَ بدلاً من نعمةِ الله بدلَ الاشتمالِ. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أحوالٌ من آل فرعونَ، أو من ضميرِ المخاطبينَ والمرادُ بالعذابِ ههنا غيرُ المرادِ به في سورة البقرة والأعرافِ[١] لأنه مفسَّرٌ بالتذبيح والقتْلِ ثَمَّةَ ومعطوفٌ عليه التذبيحُ ههنا، وهو إما جِنْسُ العذاب أو استعبادُهم أو استعمالُهم بالأعمالِ الشاقةِ[٢] ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ مِنْ حيثُ إنه بإقدار الله إياهم وإمهالِهم فيه. ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاءٌ منه. ويجوز أن تكونَ الإشارةُ إلى الإنجاءِ والمرادُ بالبلاءِ النعمةُ.

(٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أيضاً من كلام موسى عليه السلام، وتأذَّن بمعنى آذنَ كتوعَّد وأوْعَدَ غيرَ أنه أبلغُ لما في التفعُّلِ من معنَى التكلُّفِ والمبالغةِ[٣]. ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيلَ ما أنعمتُ عليكم مِنَ الإنجاءِ وغيرِه بالإيمانِ والعملِ الصالحِ. ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمةٍ. ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمتُ عليكم. ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فلعلِّي أعذِّبُكم على الكُفْرَانِ عذاباً شديداً، ومن عادةِ أكرمِ الأكرمينَ أنْ يصرِّحَ بالوعْدِ ويُعرِّضَ بالوعيد، والجملة مقُولُ قَوْلٍ مقدَّرٍ أو مفعولُ تأذَّنَ على أنه جارٍ مَجْرَى قالَ لأنه ضَرْبٌ مِنه.

(٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِنَ الثقلينِ. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكرِكُم.

---

(١) سورة البقرة الآية «٤٩» والأعراف الآية «١٤١».

(٢) معنى يسومونكم أي يبغونكم، مِنْ سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء، ومعنى يستحيون نساءكم أي يبقونهن في الحياة مع الذل والصغار.

(٣) والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث (س٥/ ٣٥).

﴿حَمِيدٌ﴾ مُستَحِقٌ للحمْدِ في ذاتِه، محمودٌ تحمَدُه الملائكةُ وتنطِقُ بنعمته ذرَّاتُ المخلوقاتِ، فما ضَرَرتُم بالكفر إلا أنفسَكم حيثُ حرَمتُمُوها مزيدَ الإنعامِ وعرَّضتُمُوها للعذاب الشديد.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

(٩) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى عليه الصلاة والسلام، أو كلامٌ مبتدأٌ منَ الله. ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ وقَعَتِ اعتراضاً، أو الذينَ مِنْ بعدِهم عطفٌ على ما قبلَه ولا يعلمُهم اعتراضٌ، والمعنى أنهم لكثرتِهم لا يعلَمُ عددَهم إلا اللهُ، ولذلكَ قال ابنُ مسعود[1] رضي الله تعالى عنه: كَذَبَ النَّسَّابونَ. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فعضُّوها غيظاً مما جاءتْ به الرسلُ عليهم الصلاةُ والسلام كقوله تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[2]، أو وضعُوها عليها تعجُّباً منه أو استهزاءً عليهِ كَمَنْ غَلَبَهُ الضَّحِكُ، أو إسكاتاً للأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام وأمراً لهم بإطباقِ الأفواهِ، أوْ أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقتْ به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ تنبيهاً على أنْ لا جوابَ لهم سواه، أوْ رَدُّوها في أفواهِ الأنبياء يمنعونَهم من التكلُّم، وعلى هذا يُحتَمَلُ أن يكونَ تمثيلاً. وقيلَ الأيدي بمعنَى الأيادي، أيْ ردُّوا أيادي الأنبياءِ التي هي مواعظُهم وما أُوحِيَ إليهم من الحكم والشرائع في أفواهِهم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلُوها فكأنَّهم ردُّوها إلى حيثُ جاءت منه. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زعْمِكم ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان. وقُرِىءَ تَدَّعُونا بالإدغام. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِعٍ في الريبة أو ذي ريبةٍ وهي قلقُ النفس وأن لا تطمئنَّ إلى الشيء.

(١٠) ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أُدخِلَتْ همزةُ الإنكارِ على الظرفِ لأنَّ الكلامَ في المشكوكِ فيه لا في الشكِّ، أيْ إنما ندعوكم إلى اللهِ وهو لا يحتملُ الشكَّ لكثرةِ الأدلة وظهورِ دلالتها عليه، وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو صفةٌ أو بَدَلٌ، وشكٌّ مرتَفِعٌ بالظرفِ[3]. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان بِبَعْثِه إيَّانا. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ أو يدعُوكم إلى المغفرةِ كقولك: دعوتُه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٣/١٨٧) عنه.
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٩/٥) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) آل عمران: «١١٩».

(٣) لم يُجِب الرسل على قول الكافرين «إنا بما أرسلتم به كافرون» لأن مقصدهم الأقصى هو الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ـ وإظهارُ البينات وسيلة إلى ذلك ـ فاقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى (س٥/٣٧).

لِيَنْصُرَنِي، على إقامةِ المفعولِ له مقامَ المفعولِ به. ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعضَ ذنوبِكم وهو ما بينكم وبينَه تعالى، فإن الإسلامَ يجبُّه دونَ المظالمِ. وقيلَ جِيْءَ بِمِنْ في خطابِ الكَفَرةِ دونَ المؤمنينَ في جميعِ القرآنِ تَفرِقَةً بينَ الخطابَيْنِ. ولعلَّ المعنَى فيهِ أن المغفرةَ حيثُ جاءتْ في خطابِ الكفارِ مُرَتَّبَةٌ على الإيمانِ وحيثُ جاءتْ في خطابِ المؤمنينَ مشفوعةٌ بالطاعة والتجنُّبِ عن المعاصي ونحوِ ذلكَ فتتناولُ الخروجَ عنِ المظالمِ. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقتٍ سمَّاه الله تعالى وجعلَه آخِرَ أعمارِكُم. ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فَضْلَ لكم علينا فَلِمْ تُخَصُّونَ بالنبوّةِ دونَنَا؟! ولو شاءَ الله أن يبعثَ إلى البشرِ رُسُلاً لبعثَ مِنْ جِنْسٍ أفضلَ. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ بهذهِ الدعوى. ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يدلُّ على فضلِكم واستحقاقِكم لهذه المزيةِ، أو على صِحَّةِ ادِّعَائِكم النُّبُوَّةَ، كأنَّهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البيناتِ والحججِ واقترحُوا عليهم آيةً أخرى تَعَنُّتاً ولَجَاجاً.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾

(١١) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ سلَّموا مشاركتَهم في الجِنْسِ وجعلوا الموجِبَ لاختصاصِهم بالنبوةِ فضلَ اللهِ ومَنَّهُ عليهم. وفيه دليلٌ على أنَّ النبوةَ عطائيةٌ وأنَّ ترجيحَ بعضِ الجائزاتِ على بعضٍ بمشيئةِ اللهِ تعالَى. ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ليسَ إلينا الإتيانُ بالآياتِ ولا تَسْتَبِدُّ به استطاعتُنا حتى نأتيَ بما اقترحتموهُ، وإنما هو أمرٌ يتعلقُ بمشيئةِ الله تعالى فيَخُصُّ كلَّ نبيٍّ بنوعٍ منَ الآيات. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فلنتوكلْ عليه في الصَّبْرِ على معاندتِكم ومعاداتِكم. عمَّمُوا الأمرَ للإشعارِ بما يوجِبُ التوكُّلَ وقصدُوا به أنفسَهم قَصْداً أَوَّلِيّاً، ألاَ تَرَى قولَه تعالَى:

(١٢) ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أيُّ عُذْرٍ لنا في أَنْ لا نتوكلَ عليه؟! ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ التي بها نعرفُه ونعلَمُ أنَّ الأمورَ كلَّها بيده. وقرأ أبو عمروٍ بالتخفيفِ هَهُنا وفي العنكبوتِ[1]. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ أكَّدوا به تَوَكُّلَهم وعدَمَ مبالاتِهم بما يجري من الكفارِ عليهم. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فَلْيَثْبُتِ المتوكلونَ على ما استحدَثُوه مِنْ تَوَكُّلِهم المسببِ عن إيمانِهم.

(١٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ حَلَفُوا على أنْ يكونَ أحدُ الأمرَيْنِ: إمَّا إخراجُهم للرسلِ أو عَوْدُهم إلى ملتهم، وهو[2] بمعنى الصيرورةِ لأنَّهم لم يكونُوا

---

(١) قراءة أبي عمرو بالتخفيف، أي بتخفيف الباء، أي بسكونها فقرأ «سُبْلَنَا» وقرأ بها هنا أي الآية «١٢» من سورة إبراهيم وفي العنكبوت «٦٩».

(٢) وهو أي العَوْد.

على مِلَّتهم قطُّ. ويجوز أن يكونَ الخطابُ لكلِّ رسولٍ ومَنْ آمنَ معه، فغَلَّبوا الجماعةَ على الواحد. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي إلى رُسُلِهم. ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على إضمارِ القولِ، أو إجراءِ الإيحاءِ مَجْرَاهُ لأنهُ نوعٌ منه.

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾

(١٤) ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرضَهم وديارهم كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾(١). وقرِئ لَيُهْلِكَنَّ وَلَيُسْكِنَنَّكم بالياءِ اعتباراً لأوْحَىٰ كقولكَ: أقسمَ زيدٌ لَيَخرُجَنَّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموحَى بهِ، وهو إهلاكُ الظالمينَ وإسكانُ المؤمنين. ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ موقفي وهو الموقفُ الذي يقيم فيه العبادَ للحكومةِ يومَ القيامة، أو قيامي عليه وحِفْظي لأعمالِه، وقيل المقامُ مُقْحَمٌ. ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعودَ للكفار.

(١٥) ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ سألوا مِنَ اللهِ الفتحَ على أعدائهم، أوِ القضاءَ بينَهم وبينَ أعدائهم، مِنَ الفتاحَةِ كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾(٢)، وهو معطوفٌ على فأَوْحَىٰ. والضميرُ للأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلام، وقيلَ للكفرةِ، وقيلَ للفريقَيْنِ، فإنَّ كلَّهم سألوه أن يَنصُرَ المحقَّ ويُهلكَ المبطِلَ. وقُرِئَ بلفظِ الأمرِ عَطْفاً على لَيُهْلِكنَّ(٣). ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي ففتحَ لهم فأفلحَ المؤمنونَ وخابَ كلُّ جبارٍ عاتٍ متكبِّرٍ على الله معانِدٍ للحق فلم يُفْلِحْ، ومعنى الخيبةِ إذا كان الاستفتاحُ مِنَ الكفرةِ أو مِنَ القِبْيلَيْنِ كانَ أوقعَ.

(١٦) ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي من بينِ يديه(٤) فإنه مُرْصَدٌ بها واقفٌ على شفيرها في الدنيا مبعوثٌ إليها في الآخرة. وقيل من وراءِ حياتِه، وحقيقتُه ما توارى عنك. ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ عطفٌ على محذوفٍ تقديرُه من ورائهِ جهنمُ يلقَىٰ فيها ما يُلْقَى ويُسْقَى منْ ماءٍ. ﴿صَدِيدٍ﴾(٥) عطفُ بيانٍ لماءٍ، وهو

---

(١) الأعراف: «١٣٧».

(٢) الأعراف: «٨٩».

(٣) أي قرىء بكسر التاء في «واستفتِحوا».

(٤) انظر «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥) لابن جرير الطبري.

(٥) أخرج الترمذي (٤/ ٧٠٥ رقم ٢٥٨٣) والنسائي كما في تحفة الأشراف (٤/ ١٧٤ رقم ٤٨٩٤) وأحمد (٥/ ٢٦٥) وابن المبارك في الزهد ـ زوائد نعيم على رواية المروزي ـ (رقم ٣١٤) والطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٩٥ ـ ١٩٦) والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٦ رقم ٧٤٦٠) والحاكم (٢/ ٣٥١، ٣٦٨ ـ ٣٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٢) والبيهقي في «البعث والنشور» (رقم: ٥٤٩) والبغوي في «شرح السنة» (١٥/ ٢٤٣ رقم ٤٤٠٥) كلهم من طريق صفوان بن عمرو عن عبيدالله بن بسر، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: «ويُسقى من ماء صديد يتجرعه» قال «يُقرَّبُ إليه فيتكرهُهُ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربهُ قطع أمعائه حتى يخرج من دبره.

=

ما يسيلُ من جلودِ أهلِ النار[1].

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يتكلَّفُ جَرْعَهُ. وهو صفةٌ لماءِ، أو حالٌ من الضميرِ في يُسْقَىٰ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقاربُ أنْ يسيغَه فكيفَ يُسِيغُهُ بل يَغَصُّ به فيطولُ عذابُه. والسَّوْغُ جوازُ الشرابِ على الحَلْقِ بسهولةٍ وقَبُولِ نَفْسٍ. ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي أسبابُه منَ الشدائدِ فتحيطُ به مِنْ جميعِ الجهاتِ. وقيل مِنْ كلِّ مكانٍ مِنْ جسدهِ حتَّى مِنْ أصولِ شَعْرِهِ وإبهامِ رِجْلِه. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ فيستريحُ. ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ أي يَسْتَقْبِلُ في كلِّ وَقْتٍ عذاباً أشدَّ مما هو عليه، وقيلَ هو الخلودُ في النار، وقيلَ حَبْسُ الأنفاسِ. وقيل الآيةُ منقطعةٌ عن قصةِ الرسلِ نازِلةٌ في أهلِ مكةَ طلبوا الفتحَ الذي هو المطرُ في سِنِيِّهِم التي أرسلَ الله تعالى عليهم بدعوة رسولهِ، فخيَّبَ رجاءَهم فلم يَسْقِهِم ووعدَ لهم أن يَسْقِيَهُم في جهنَّمَ بدلَ سُقْياهم صديدَ أهلِ النار.

(١٨) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أيْ فيما يُتْلَىٰ عليكم صفتُهم التي هيَ مَثَلٌ في الغَرابةِ، أو قوله ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ وهو على الأولِ جملةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لبيانِ مَثَلِهم. وقيلَ أعمالُهم بَدَلٌ من المثلِ والخبرُ كرمادٍ. ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ حملتْه وأسرعتِ الذهابَ بهِ. وقرأَ نافعٌ الرياحُ. ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ العَصْفُ اشتدادُ الريحِ، وصفَ بهِ زمانَه للمبالغةِ كقولهم: نهارُه صائمٌ وليلُه قائمٌ. شبَّه صنائعَهم من الصدقةِ وصلةِ الرَّحِمِ وإغاثةِ الملهوفِ وعَتْقِ الرِّقابِ ونحوِ ذلكَ مِنْ مكارمِهم في حُبُوطِها وذهابِها هباءً منثوراً، لبنائِها على غيرِ أساسٍ مِنْ معرفةِ الله تعالى والتوجُّهِ بها إليه، أو أعمالُهم للأصنامِ برمادٍ طيَّرَتْهُ الريحُ العاصفُ. ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ يومَ القيامة. ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من أعمالهم. ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ لخبوطِه فلا يرونَ له أثراً من . . . .

= يقول الله تعالى: «وسُقوا ماءً حميماً فقطع أمعائهم» [محمد: ١٥] ويقول الله تعالى: «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب» [الكهف: ٢٩].
قال الترمذي: «هذا حديث غريب. هكذا قال محمد بن اسماعيل عن عبيدالله بن بسرٍ ولا نعرف عبيدالله بن بسر إلا في هذا الحديث» هـ.
وقال الذهبي عن عبيدالله هذا «مجهول لا يُعرف» كما في الميزان (٣/ ٤).
وقال الألباني في «ضعيف الترمذي» (ص٣٠٤ رقم ٤٧٧/ ٢٧٢٢): حديث ضعيف.
تنبيه: وقع عند ابن المبارك «عبدالله بن بشر» وهو خطأ.
ووقع عند الطبراني والحاكم وأبي نعيم والبيهقي «عبدالله بن بسر».

(١) الصديد: هو ما حال بين الجلد واللحم من القيح (المفردات مادة صدد) وتخصيصه بالذكر من بين أنواع العذاب يدل على أنه من أشد أنواعه (س٥/ ٣٩).

الثَّواب[١]. وهوَ فَذْلَكَةُ التمثيلِ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ضلالهم مع حُسْبَانِهم أنَّهم محسنون. ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ فإنه الغايةُ في البُعْدِ عن طريقِ الحقِّ.

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ
عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن
مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا
كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ به أمتُه. وقيلَ لكلِّ واحدٍ من الكفرةِ على التلوينِ. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ والحكمةُ والوجه الذي يحقُّ أن تخلقَ عليه. وقرأ حمزة والكسائي خالقُ السمواتِ. ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ يُعْدِمْكم ويخلُقْ خلقاً آخرَ مكانكُم، رتَّبَ ذلكَ على كونه خالقاً للسمواتِ والأرض استدلالاً به عليه، فإن مَنْ خلقَ أصولَهم وما يتوقفُ عليه تخليقُهم ثم كوَّنَهم بتبديلِ الصورِ وتغييرِ الطبائعِ قَدَرَ أن يبدلهَم بخلْقٍ آخرَ ولم يمتنعْ عليه ذلكَ كما قال:

(٢٠) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ بِمُتَعَذِّرٍ أو متعسِّر فإنه قادرٌ لذاته لا اختصاصَ له بمقدورٍ دونَ مقدور. ومَنْ كان هذا شأنُه كان حقيقاً بأن يُؤْمنَ به ويُعْبَدَ رجاءً لثوابِهِ وخَوْفاً من عقابه يومَ الجزاء.

(٢١) ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ أي يبرزونَ من قبورِهم يومَ القيامةِ لأمْرِ الله تعالى ومحاسبتِه، أو لله على ظنِّهم فإنهم كانوا يُخْفُونَ ارتكابَ الفواحِشِ ويظنونَ أنها تَخْفَى على الله تعالى فإذا كان يومُ القيامة انكشفُوا لله تعالى عندَ أنفسِهم. وإنما ذُكِرَ بلفظ الماضي لِتَحقُّقِ وقوعِهِ. ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ الأتباعُ جَمْعُ ضعيفٍ يريدُ به ضعافَ الرأي. وإنما كُتِبَتْ بالواو على لفظِ مَنْ يفخِّم الألفَ قبلَ الهمزة فَيَمِيْلُهَا إلى الواو. ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ لرؤسائِهم الذينَ استَتْبَعُوهم واستغْوَوهُم. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ في تكذيبِ الرسلِ والإعراضِ عن نصائِحِهم. وهو جمعُ تابعٍ كغائبٍ وغَيَبٍ، أو مصدرٌ نُعِتَ به للمبالغة، أو على إضمارِ مضافٍ. ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ دافعونَ عنَّا. ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ مِنْ الأولَى للبيانِ واقعةٌ موقعَ الحالِ، والثانيةُ للتبعيضِ واقعةٌ موقعَ المفعولِ أيْ بعضَ الشيء الذي هو عذابُ الله، ويجوزُ أن تكونا للتبعيض أي بعضَ شيءٍ هوَ بعضُ عذابِ الله، والإعرابُ ما سبقَ، ويُحْتَمَلُ أن تكونَ الأُولَى

(١) والاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام ـ مع أن لها عقوبات هائلة ـ للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى (س٥/ ٤٠).

مفعولاً والثانيةُ مصدراً أي فهل أنتم مُغْنُونَ بعضَ العذابِ بعضَ الإغناءِ. ﴿قَالُواْ﴾ أي الذين استكبروا جواباً عن معاتبة الأتْبَاعِ واعتذاراً عما فعلوا بهم. ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان ووفَّقنا له. ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن ضَلَلْنَا فأَضْلَلْنَاكم أي اخْتَرْنا لكم ما اخترناهُ لأنفسِنا، أَوْ لو هدانا اللهُ طريقَ النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم كما عرَّضْناكم له، لكنْ سدَّ دونَنا طريقُ الخلاص. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستويانِ علينا الجزَعُ والصبرُ. ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ مَنْجَى ومهربٍ من العذاب، منَ الحَيْصِ وهو العدْلُ على جهةِ الفرارِ، وهو يحتملُ أن يكونَ مكاناً كالمبيتِ ومصدراً كالمغيبِ. ويجوز أن يكون قولُه سواءٌ علينا من كلام الفريقين ويؤيِّدُه ما رُوِيَ أنهم يقولون: تعالَوْا نجزعْ فيجزعون خمسمائةِ عامٍ فلا ينفعُهم، فيقولون تعالَوْا نصبرْ فيصبرون كذلك ثم يقولون سواءٌ علينا[1].

(٢٢) ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أُحْكِمَ وفُرِغَ منه ودخلَ أهلُ الجنةِ الجنّةَ وأهلُ النارِ النارَ خطيباً في الأشقياءِ منَ الثقلَيْنِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وعداً من حقه أن ينجز عداً أنجزَه وهو الوعْدُ بالبعثِ والجزاءِ. ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وَعْدَ الباطلِ وهوَ ألاَّ بعثَ ولا حسابَ، وإن كانا فالأصنامُ تشفعُ لكم. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ جعلَ تَبيُّنَ خَلْفِ وعدِه كالإخلافِ منه. ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تَسلُّطٍ فأُلجِئُكم إلى الكفرِ والمعاصي. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا دعائي إيَّاكم إليها بتسويلي، وهو ليسَ من جنس السلطانِ ولكنَّه على طريقة قولهم: تحيةُ بينِهم ضَرْبٌ وجيعٌ[2]. ويجوز أن يكون الاستثناءُ منقطعاً. ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أسرعتُم إجابتي. ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ بوسوستي فإنَّ مَنْ صرَّح العداوةَ لا يلام بأمثالِ ذلك. ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيثُ أطعتموني إذ دعوتُكم ولم تطيعوا ربَّكم لمَّا دعاكم. واحتجتِ المعتزلةُ بأمثالِ ذلكَ على استقلالِ العبدِ بأفعالِه وليسَ فيها ما يدل عليه، إذ يكفي لِصِحَّتِها أنْ يكونَ لقدرةِ العبدِ مدخلٌ ما في فعله وهو الكسْبُ الذي يقولُه أصحابُنا. ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثِكم من العذاب. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ بمغيثيَّ[3]. وقرأ حمزةُ بكسرِ الياءِ على الأصل في التقاء الساكنينِ، وهوَ أصلٌ مرفوضٌ في مثله لما فيه من اجتماع ياءينِ وثلاثِ كسراتٍ مع أنَّ حركةَ ياءِ الإضافةِ الفتحُ، فإذا لم تُكسَرْ وقبلَها ألِفٌ فبالحريّ أنْ لا تُكسَرَ وقبلَها ياءٌ، أو على لغةِ مَنْ يزيدُ ياءً على ياءِ الإضافةِ إجراءً لها مَجْرَى الهاءِ والكافِ في: ضربتُه وأعطيتُكَهُ وحذفَ الياءَ اكتفاءً بالكسرةِ[4]. ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ

---

(١) أخرجه الطبراني عن كعب بن مالك مرفوعاً. وأخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه وفيه أنس بن القاسم. قال أبي حاتم هو مجهول.
[مجمع الزوائد (٧/٤٣) والدر المنثور (٥/١٧) والجرح والتعديل (٢/٢٨٨)].

(٢) أي من باب تأكيد الشيء بضده مبالغة.

(٣) وتعرضُ الشيطان لعدم إصراخه لهم وإصراخهم له ـ مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال ـ للمبالغة في عدم إصراخه إياهم، وإيذاناً بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلى الإصراخ فكيف من إصراخ الغير؟ (س٥/٤٣).

(٤) ما ذكره البيضاوي من التعليق على قراءة حمزة ـ وهي من المتواتر ـ غير مُسَلَّم به. وقد أنكر هذه القراءة جمع من أئمة اللغة كالفراء وأبي عبيد والأخفش والزجاج والزمخشري، واقتفىٰ أثرهم بعض الخلف. وقد ناقش أبو حبان ما ذهبوا إليه وبين صحة هذه القراءة من حيث اللغة، إلا أن المشهور عند اللغويين ما قرأ به الجمهور من نصب الياء «بمُصْرِخِيَّ». قال أبو حبان: (وما ذهب إليه مَنْ ذكرنا من النحاة لا ينبغي أن يلتفت إليه. . . فلا يجوز أن يقال فيها إنها خطأ أو قبيحة أو رديئة، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكنه قَلَّ استعمالها، ونص قطرب

أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ ما إما مصدرية ومِنْ متعلقةٌ بأشركتموني، أي كفرتُ اليومَ بإشراكِكُم إيايَ مِنْ قبلِ هذا اليومِ أي في الدنيا بمعنى تبرأتُ منه واستنكرتُه كقولِه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(١). أو موصولةٌ بمعنى مَنْ، نحوُ ما في قولهم: سبحانَ ما سخَّركُنَّ لنا، ومِنْ متعلقةٌ بكفرتُ أي كفرتُ بالذي أشركتمونيهِ وهو اللهُ تعالى بطاعتِكم إيايَ فيما دعوتُكم إليه من عبادةِ الأصنامِ وغيرِها منْ قبلِ إشراكِكُم حين رددتُ أَمْرَهُ بالسجود لآدمَ عليه الصلاةُ والسلامُ. وأشركَ منقولٌ من شَرَكْتُ زيداً للتعْديةِ إلى مفعولٍ ثانٍ. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تتمةُ كلامِه، أو ابتداءُ كلامٍ منَ الله تعالى. وفي حكايةِ أمثالِ ذلكَ لُطفٌ للسامعينَ وإيقاظٌ لهم حتى يحاسِبُوا أنفسَهم ويتدبَّرُوا عواقِبَهُم.

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذنِ الله تعالى وأَمْرِهِ والمدخِلون هم الملائكةُ. وقرىءَ وأُدْخِلُ على التكلُّمِ فيكون قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي تُحَيِّيهِمُ الملائكةُ فيها بالسلام بإذنِ ربِّهم.

(٢٤) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ كيف اعتمدُه ووضعَه. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي جعلَ كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ، وهو تفسيرٌ لقوله ضرب اللهُ مثلاً، ويجوز أن تكونَ كلمةٌ بدلاً من مثلاً وكشجرةٍ صفتُها أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي هيَ كشجرةٍ، وأن تكونَ أولَ مفعولَيْ ضربَ إجراءً له مَجْرَى جعلَ. وقد قُرِئَتْ بالرَّفع على الابتداءِ. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ضاربٌ بِعُروقِه فيها. ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وأعلاها. ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ ويجوز أن يريدَ وفروعُها أي أفنانُها على الاكتفاءِ بلفظ الجنسِ لاكتسابِه الاستغراقَ من الإضافة. وقرىء ثابتٌ أصلُها، والأولُ على أصلِه ولذلك قيل إنه أقوى ولعلَّ الثاني أبلغُ.

(٢٥) ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرَها. ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وقَّتَهُ اللهُ تعالى لإثمارِها. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادةِ خالقِها وتكوينه. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضَرْبِها زيادةَ إفهامٍ وتذكير، فإنه تصويرٌ للمعاني وإدناءٌ لها من الحسِّ.

(٢٦) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كمثلِ شجرةٍ خبيثةٍ ﴿اجْتُثَّتْ﴾ استُؤْصِلَتْ وأُخِذَتْ جُثَّتُها بالكُلِّية. ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ لأن عروقَها قريبةٌ منه. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ استقرار. واختُلِفَ في الكلمةِ

= على أنها لغة في بني يربوع...) تفسير البحر المحيط (٥/ ٤٢٠).

(١) فاطر: «١٤».

والشجرةِ، فَفُسِّرَتِ الكلمةُ الطيبةُ بكلمةِ التوحيدِ ودعوةِ الإسلامِ والقرآن، والكلمةُ الخبيثةُ بالشركِ باللهِ تعالى والدعاءِ إلى الكفرِ وتكذيبِ الحقّ، ولعلّ المرادَ بهما ما يعمُّ ذلك فالكلمةُ الطيبة ما أعْرَبَ عنْ حقٍّ أو دعا إلى صلاحٍ، والكلمةُ الخبيثةُ ما كان على خلافِ ذلك. وفُسِّرَتِ الشجرةُ الطيبةُ بالنخلة ورُويَ ذلكَ مرفوعاً[١]، وبشجرةٍ في الجنة، والخبيثةُ بالحنظلةِ والكُشوثِ[٢]، ولعلَّ المرادَ بهما أيضاً ما يعمُّ ذلك.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾

(٢٧) ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبتَ بالحُجّةِ عندَهم وتَمَكَّنَ في قلوبهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يزالون إذا فُتِنُوا في دينهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وجرجيسَ وشمعونَ والذين فَتَنَهُمْ أصحابُ الأُخدود. ﴿وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فلا يتلعثَمُون إذا سُئِلُوا عن مُعْتَقَدِهم في الموقف، ولا تدهشُهم أهوالُ يومِ القيامة. ورُوِيَ أنَّهُ ﷺ ذَكَرَ قبضَ روحِ المؤمنِ فقال: ثم تُعادُ رُوحُه في جسدِهِ فيأتيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ في قَبْرِهِ ويقولانِ له: مَنْ ربُّك وما دينُك ومَنْ نبيُّكَ؟ فيقولُ: ربِّيَ اللهُ ودينيَ الإسلامُ ونبيِّ محمدٌ ﷺ، فينادي منادٍ من السماء أنْ صدقَ عبدي فذلك قولُه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[٣]. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذينَ ظلموا أنفسَهم بالاقتصارِ على التقليد فلا يهتدون إلى الحقّ ولا يَثْبُتُونَ في مواقفِ الفتن. ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من تثبيتِ بعض وإضلالِ آخَرِينَ من غيرِ اعتراضٍ عليه.

(٢٨) ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي شُكْرَ نعمتِهِ كفراً بأن وضعُوه مكانَه، أو بدَّلُوا نفسَ النعمة كفراً، فإنهم لما كَفَرُوها سُلِبَتْ مِنْهُم فصاروا تاركينَ لها محصِّلِينَ للكفر بَدَلَها كأهلِ[٤] مكةَ، خلقَهمُ الله تعالى وأسكنَهُم حَرَمَهُ وجعلَهم قُوّامَ بَيْتِهِ ووسَّع عليهم أبوابَ رزقِهِ وشرَّفهم بمحمدٍ ﷺ،

(١) أخرج البخاري (١/ ١٤٥ رقم ٦١) ومسلم (٤/ ٢١٦٤ ـ ٢١٦٥ رقم ٦٣/ ٢٨١١) والبغوي في شرح السنة (١/ ٣٠٧ رقم ١٤٣) والنسائي في تفسيره (١/ ٦١٥ رقم ٢٨١) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقُطُ ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناسُ في شجر البوادي. قال عبدالله، ووقع في نفسي إنها النخلة، فاستحييت. ثم قالوا: حدثنا ما هيَ يا رسول الله قال: هي النخلة».

(٢) الكشوث: هي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض.

(٣) أخرجه أبو داود (٥/ ١١٤ ـ ١١٥ رقم ٤٧٥٣) والحاكم (١/ ٣٧ ـ ٣٩) صححه على شرطهما. وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٣٨٠) من رواية المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء.
وأصله في الصحيحين من رواية سعد بن عبيدة عن البراء مرفوعاً.
البخاري (٣/ ٢٣١ رقم ١٣٦٩) ومسلم (٤/ ٢٢٠١ رقم ٧٣/ ٢٨٧١).

(٤) أخرج البخاري (٨/ ٣٧٨ رقم ٤٧٠٠) عن ابن عباس «ألم ترَ إلى الذين بدلوا نعمةَ الله كفراً» قال: هم كفار أهل مكة.

فكفروا ذلكَ فَقُحِطُوا سبعَ سنينَ وأُسِرُوا وقُتِلُوا يومَ بدرٍ وصارُوا أذلَّاءَ، فبقُوا مسلُوبِيْ النعمةِ وموصوفينَ بالكفْرِ، وعن عمرَ[1] وعليٍّ[2] رضيَ الله تعالى عنهما: همُ الأفْجَرانِ من قريشٍ بنو المغيرةِ وبنو أميَّةَ، فأما بنو المغيرةِ فكُفِيتُموهم يومَ بدر، وأما بنو أمية فَمُتِّعوا إلى حين. ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ الذينَ شايعوهُم في الكُفرِ. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دارَ الهلاكِ بِحَمْلِهِم على الكفر.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

(٢٩) ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيانٍ لها. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ مِنها أو منَ القوم، أي داخلينَ فيها مُقَاسِيْنَ لحرِّها، أو مُفسِّرٌ لفعلٍ مُقَدَّرٍ ناصبٍ لجهنَّمَ. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي وبئسَ المقرُّ جهنَّمُ.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو ورويسٌ عن يعقوبَ بفتحِ الياء، وليسَ الضلالُ ولا الإضلال غرضُهم في اتخاذِ الأندادِ لكنْ لما كانَ نتيجتَه جُعِلَ كالغرضِ[3]. ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ بشهواتِكم أو بعبادةِ الأوثانِ فإنَّها من قبيلِ الشهوات التي يُتَمَتَّعُ بها. وفي التهديد بصيغة الأمر إيذانٌ بأنَّ المهدَّدَ عليه كالمطلوبِ لإفضائِه إلى المهدَّدِ به، وأن الأمرَيْنِ كائنانِ لا محالةَ ولذلكَ علَّلَهُ بقولِه: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وأنَّ المخاطَبَ لانهماكِه فيهِ كالمأمور به من آمِرٍ مُطَاع.

(٣١) ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصَّهم بالإضافةِ تنويهاً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمونَ لحقوقِ العبودية، ومفعولُ قلْ محذوفٌ يدلُّ عليه جوابُه: أيْ قلْ لعبادي الذينَ آمنوا أقيمُوا الصلاةَ وأنفقوا. ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فيكونُ إيذاناً بأنَّهم لِفَرْطِ مطاوعتِهم للرسولِ ﷺ بحيثُ لا ينفكُّ فعلُهم عن أمرِه، وأنه كالسَّبَبِ الموجِبِ لهُ، ويجوزُ أن يُقَدَّرَا بلامِ الأمرِ لِيَصِحَّ تعلُّقُ القولِ بهما وإنما حَسُنَ ذلكَ ههنا ولم يَحْسُنْ في قولِه:

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٢١) عنه.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٢٢) عنه.
(٣) ظاهر النظم يقتضي الترتيب بأن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى، ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد، ثم إضلالهم لقوم المؤدي إلى إحلالهم دار البوار. لكنه غير الترتيب إلى ما هو عليه النظم الكريم لتثنية التعجيب وتكريره وللإيذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر وإحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للإضلال أمر يقضي منه العجب بذاته (س٥/ ٤٥).

محمَّــدُ تَفْــدِ نَفْسَــكَ كُــلُّ نَفْــسٍ إذَا مَــا خِفْــتَ مِــنْ أَمْــرٍ تَبَــالاً

لدلالةِ قُلْ عليه. وقيلَ هما جَوَابا أَقِيمُوا وأَنْفِقُوا مُقَامَيْنِ مُقَامَهُمَا، وهو ضعيفٌ لأنه لا بدَّ من مخالفةِ ما بينَ الشَّرطِ وجوابِهِ ولأن أمرَ المواجهةِ لا يُجَابُ بلفظِ الغيبةِ إذا كانَ الفاعلُ واحداً. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مُنْتَصِبَانِ على المصدر أي إنفاقُ سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الحال أي ذوي سِرٍّ وعلانية، أو على الظرفِ أي وَقْتَيْ سرٍّ وعلانيةٍ، والأحبُّ إعلانُ الواجبِ وإخفاءُ المتطوَّعِ به. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيبتاعُ المقصِّرُ ما يتداركُ به تقصيرَه أو يفدي به نفسَه[1]. ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ولا مُخَالَّةٌ فيشفعُ لكَ خليلٌ، أو مِنْ قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه بمبايعةٍ ولا مُخَالَّةٍ وإنَّما ينتفعُ فيه بالإنفاق لِوَجْهِ اللهِ تعالى. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ بالفتحِ فيهما على النفي العام.

(٣٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشونَ به وهو يشملُ المطعومَ والملبوسَ، مفعولٌ لأَخْرَجَ ومِنَ الثمراتِ بيانٌ لهُ وحالٌ منه، ويُحْتَمَلُ عكسُ ذلكَ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بهِ المصدرُ فينتصِبُ بالعلَّةِ، أوِ المصدرُ لأَنَّ أَخْرَجَ في معنَى رَزَقَ[2]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته إلى حيثُ تَوَجَّهْتُم[3]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ فجعلَها مُعَدَّةً لانتفاعِكم وتصرُّفِكم. وقيلَ تسخيرُ هذهِ الأشياءِ تعليمُ كيفيةِ اتخاذِها.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ يدأبانِ في سَيْرِهِمَا وإنارتِهما وإصلاحِ ما يُصْلِحَانِه منَ المكونات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبانِ لِسُبَاتِكُم ومعاشِكم.

(٣٤) ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي بعضَ جميعِ ما سألتموهُ يعني مِنْ كلِّ شيءٍ سألتموهُ شيئاً، فإنَّ الموجودَ من كل صِنْفٍ بعضُ ما في قدرةِ اللهِ تعالى، ولعلَّ المرادَ بما سألتموهُ ما كان حقيقاً بأنْ يُسْأَلَ لاحتياجِ الناسِ إليه سُئِلَ أولم يُسْأَلْ، وما يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ موصولةً وموصوفةً ومصدريةً ويكونَ المصدرُ بمعنَى المفعول. وقُرِىءَ مِنْ كلٍّ بالتنوين، أي وآتاكم مِنْ كلِّ شيءٍ ما احتجتُم إليه وسألتموه بلسانِ الحال، ويجوزُ أنْ تكونَ ما نافيةً في موقعِ الحال أي وآتاكم مِنْ كلِّ شيءٍ غيرَ سائِلِيهِ. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تَحْصُرُوهَا ولا تُطِيقُوا عدَّ أنواعِها فضلاً عن أفرادِها، فإنها غيرُ متناهية. وفيهِ دليلٌ على أنَّ المفردَ يفيدُ الاستغراقَ بالإضافة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يظلمُ النعمةَ بإغفالِ شُكْرِها، أو يظلمُ نفسه بأنْ يعرِّضَها للحِرمانِ. ﴿كَفَّارٌ﴾ شديدُ الكفرانِ. وقيلَ ظلومٌ في الشدة يشكو ويَجْزعُ كَفَّارٌ في النِّعمةِ يجمعُ ويمنَعُ.

---

(١) وتخصيص البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد، والتذكير بإتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه. وتخصيص التأكيد بانعدام البيع لميل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبه والضِّنَّة به (س٥/٤٧).

(٢) وتقديم المجرور «من السماء» على المنصوب «ماءً» إما باعتبار كونه مبدأً لنزوله، أو لتشريفه كقولك: أعطاه السلطان من خزانته مالاً، أو للتشويق إلى المؤخَّر (س٥/٤٧).

(٣) وتخصيص الفُلْكِ بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءىٰ من ظاهر الحال (س٥/٤٨).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا
مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي
زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾

(٣٥) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ بلدةَ مكةَ. ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أَمْنٍ لمن فيها، والفرقُ بينه وبين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[1] أن المسؤول في الأول إزالةُ الخوف عنه وتصييرُه آمناً، وفي الثاني جَعْلُه من البلاد الآمنة. ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ بَعِّدْني وإيَّاهم، ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ واجعلْنا منها في مجانبَ. وقُرِئَ وأَجْنِبْني وهما على لغة نَجْدٍ، وأما أهلُ الحجاز فيقولون جَنِّبْني شرَّه. وفيه دليلٌ على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله وحِفْظِه إياهم، وهو بظاهره لا يتناولُ أحفادَه وجميعَ ذرِّيته. وزعم ابنُ عيينه[2] أن أولادَ إسماعيلَ عليه الصلاة والسلام لم يَعبدُوا الصنَم محتجاً به، وإنما كانت لهم حجارةٌ يدورون بها ويسمُّونها الدوَّارَ ويقولون البيتُ حجرٌ فحيثُما نَصَبْنَا حَجَراً فهو بمنزلته.

(٣٦) ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلذلك سألتُ منك العصمةَ واستعذتُ بك من إضلالهِنَّ. وإسنادُ الإضلالِ إليهنَّ باعتبارِ السببيةِ كقوله تعالى ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[3]. ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على ديني. ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي بَعْضِي لا ينفكُّ في أمر الدين. ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَقْدِرُ أنْ تغفرَ له وترحمَه ابتداءً، أو بعدَ التوفيق للتوبة. وفيه دليلٌ على أن كلَّ ذَنْبٍ فلله أن يَغْفِرَهُ حتَّى الشركَ، إلاَّ أنَّ الوعيدَ فرَّقَ بينَه وبينَ غيرِه[4].

(٣٧) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعضَ ذريتي أو ذريةً من ذريتي، فحذفَ المفعولَ وهم إسماعيلُ ومَنْ وُلِدَ منهُ فإن إسْكَانَه متضمِّنٌ لإسْكَانِهم. ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يعني وادي مكةَ فإنها حَجَرِيَّةٌ لا تُنْبِتُ. ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرَّمتَ التعرضَ له والتهاونَ به، أولم يزلْ معظَّماً مُمنعاً يهابُه

---

(١) البقرة: «١٢٦».
(٢) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران الكوفي. ولد في الكوفة ليلة النصف من شعبان من سنة (١٠٧هـ) وأدرك الأئمة الأربعة واجتمع بهم وتتلمذ الشافعي وأحمد عليه، وقد رد على المعتزلة والمرجئة والقدرية، وحذَّر من البدع ونفَّر من الغلو، وكان عالماً ورعاً متواضعاً جريئاً. مات ابن عيينة في مكة المكرمة (سنة: ١٩٨هـ).
[الحلية لأبي نعيم (٧/ ٢٧٠ ـ ٣١٨) والتاريخ للخطيب (٩/ ١٧٤ ـ ١٨٤).
والعقد الثمين للفارسي (٤/ ٥٩١ ـ ٥٩٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)].
(٣) الأنعام: «٧٠».
(٤) صدر الدعاء بالنداء «رب» إظهاراً لاعتنائه به ورغبة في استجابته.
وقوله «ومن عصاني» عبر عنه بالعصيان للإيذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة، وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة (س٥/ ٥١).

الجبابرةُ، أو منعَ منه الطوفان فلم يستولِ عليه ولذلكَ سُمِّيَ عتيقاً أي أُعْتِقَ منه. ولو دَعا بهذا الدعاءِ أولَ ما قدمَ فلعلَّه قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه. رُوِيَ أنَّ هاجرَ كانتْ لِسارة رضيَ اللهُ عنها فوهبتْها لإبراهيمَ عليه السلام فَوَلَدَتْ منه إسماعيلَ عليه السلام، فغارتْ عليهما فناشدتْه أنْ يخرجَهما من عندها، فأخرجَهما إلى أرضِ مكةَ، فأظهرَ الله عينَ زمزم، ثمَّ إنَّ جُرْهُمَ رأوا ثَمَّ طيوراً فقالوا لا طيرَ إلا على الماء، فقصدَوه فرَأَوْهُما وعندَهُما عينٌ فقالوا: أشركِينا في مائِكِ نُشْرِكْكِ في ألبانِنَا ففعلتْ. ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللامُ لامُ كيْ وهيَ متعلقةٌ بأسكنتُ، أي ما أسكنتُهم بهذا الوادي البلقعِ من كلِّ مرتفَقٍ ومرتزَقٍ إلا لإقامةِ الصلاةِ عندَ بيتِك المحرَّم[1]. وتكريرُ النداءِ وتوسيطُه للإشعارِ بأنها المقصودةُ بالذاتِ مِنْ إسكانِهم ثمةَ. والمقصودُ من الدعاء توفيقُهم لها. وقيل لامُ الأمرِ والمراد هو الدعاءُ لهم بإقامةِ الصلاة كأنه طلبَ منهمُ الإقامةَ وسألَ من الله تعالى أن يوفِّقَهم لها. ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أفئدةً من أفئدةِ الناس. ومِنْ للتبعيضِ ولذلكَ قيلَ لو قالَ أفئدةَ الناسِ لازدحمتْ عليهم فارسُ والرومُ ولحجَّتِ اليهودُ والنَّصارى، أو للابتداءِ كقولك: القلبُ مني سقيمٌ أي أفئدةُ ناسٍ. وقرأ هشامٌ أفْئِيدَةً بخلفٍ عنهُ بياءٍ بعدَ الهمزة. وقُرِىءَ آفِدَةً، وهوَ يُحتملُ أنْ يكونَ مقلوبَ أفئدةٍ كآدرٍ في أدْؤُرٍ، وأنْ يكونَ اسمَ فاعلٍ منْ أَفَدَتِ الرحلةُ إذا عجَّلت أي جماعةً يعجِّلُونَ نحوَهم، وأَفِدَةً بطرحِ الهمزةِ للتخفيف، وإن كان الوجهُ فيه إخراجُها بينَ بينَ ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ أفِدَ. ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تسرعُ إليهم شوقاً وَوِدَاداً. وقُرِىءَ تُهْوَىٰ على البناءِ للمفعولِ منْ أَهْوَى إليه غيرُه، وتَهْوَىٰ من هَوَىٰ يهوي إذا أحبَّ، وتعديتُه بإلى لِتَضمُّنِهِ معنى النزوع. ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ معَ سُكْنَاهُم وادياً لا نباتَ فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلكَ النعمةِ. فأجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ دعوتَه فجعلَه حَرَماً آمناً يُجْبَى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيءٍ حتَّى تُوْجَدَ فيهِ الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفيةُ في يومٍ واحدٍ.

(٣٨) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ تعلمُ سرَّنا كما تعلم عَلَنَنَا. والمعنَى إنك أعلمُ بأحوالنا ومصالِحنا وأرحمُ بنا منا بأنفسِنا، فلا حاجةَ لنا إلى الطلبِ لكنَّا ندعُوك إظهاراً لعبوديتكَ وافتقاراً إلى رحمتك واستعجالاً لنيل ما عندَكَ. وقيلَ ما نخفي مِنْ وَجْدِ الفُرْقَةِ وما نعلنُ منَ التضرُّع إليك والتوكلِ عليك، وتكريرُ النداءِ للمبالغة في التضرُّع واللجأ إلى اللهِ تعالى[2]. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنهُ العالم بِعِلْمٍ ذاتيٍ يستوي نسبتُه إلى كلِّ معلومٍ، ومِنْ للاستغراق[3].

(٣٩) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي وهبَ لي وأنا كبيرٌ آيِسٌ منَ الولدِ، قَيَّدَ الهبةَ بحالِ الكِبَرِ استعظَاماً للنعمةِ وإظهاراً لما فيها مِنْ آلائِهِ. ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾. رُوِيَ[4] أنهُ وُلِدَ لهُ إسماعيلُ لتسعٍ وتسعينَ سنةً، وإسحاقُ لمائةٍ واثنتي عَشْرَةَ سنةٍ. ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي لمجيبُه مِنْ قولِك سمعَ

---

(١) وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر الشعائر لفضلها (س٥/ ٥٢).

(٢) وتقديم «ما نخفي» على «ما نعلن» لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم بهما على أبلغ وجه أو لأن مرتبة السرّ والخفاء متقدمة على مرتبة العلن (س٥/ ٥٣).

(٣) والالتفات إلى الاسم الجليل «وما يخفىٰ...» لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم، وللإيذان بعمومه (س٥/ ٥٣).

(٤) ذكر ذلك ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٩٤) بدون سند.

الملكُ كلامي إذاً اعتدَّ به، وهو من أبنيةِ المبالغةِ العاملةِ عَمَلَ الفعلِ أُضِيفَ إلى مفعولهِ أو فاعلهِ على إسنادِ السَّماعِ إلى دعاءِ الله تعالى على المجازِ. وفيهِ إشعارٌ بأنه دعا ربَّه وسأل منه الولدَ فأجابه ووهبَ له سُؤْلَه حينَ ما وقعَ اليأسُ منه ليكونَ من أجلِّ النِّعَمِ وأَجْلاَهَا.

رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مُعْدِلاً لها مواظباً عليها. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ عطفٌ على المنصوب في اجعلني[١]. والتبعيضُ لِعِلْمِهِ بإعلامِ الله أو استقراءِ عادَتِه في الأُمَمِ الماضية أنهُ يكون في ذرِّيتهِ كفارٌ. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ واستجب دعائي أو وتقبلْ عبادتي.

(٤١) ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وقُرِىءَ ولأبويَّ، وقدْ تقدَّم عُذْرُ استغفارِه لهما. وقيلَ أرادَ بهما آدمَ وحواءَ. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ يثبتُ مستعارٌ منَ القيامِ على الرجلِ كقولهم: قامتِ الحرب على ساقٍ، أو يقومُ إليه أهلُه فحذفَ المضافَ أو أسندَ إليه قيامَهم مَجَازاً.

(٤٢) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، والمرادُ به تثبيتُه على ما هوَ عليه من أنه تعالى مطَّلِع على أحوالهم وأفعالِهم لا يخفَى عليه خافيةٌ، والوعيدُ بأنهُ معاقِبُهم على قليله وكثيره لا محالةَ، أو لكلِّ مَنْ توهَّمَ غَفْلَتَهُ جهلاً بصفاته واغتراراً بإمهالِه. وقيلَ إنه تسليةٌ للمظلومِ وتهديدٌ للظالم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخِّرُ عذابَهم[٢] وعن أبي عمروٍ بالنونِ[٣]. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي تشخَصُ فيه أبصارُهم فلا تقرُّ في أماكِنها من هولِ ما تَرَى.

(٤٣) ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعينَ إلى الداعي، أو مقبلينَ بأبصارهم لا يَطْرِفُون هيبةً وخوفاً، وأصلُ الكلمة هو الإقبالُ على الشيء. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بل تثبُتُ عيونُهم شاخصةً لا تَطْرُفُ، أو لا يرجع إليهم نظرُهم فينظروا إلى أنفسِهم. ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خَلاءٌ أي خاليةٌ عن الفَهْمِ لِفَرْطِ الحيرةِ والدهشةِ، ومنه يقال للأحمق وللجبان قلبُه هواءٌ أي لا رأيَ فيه ولا قوةَ، قال زهيرٌ:

---

(١) وتوحيد ضمير المتكلم بقوله «رب. . .» مع شمول دعوته لذريته ـ للإشعار بأنه المقتدىٰ به في ذلك وذريتُه أتباع له وأن ذكرهم بطريق الاستطراد ـ لا كما في قوله «ربنا إني أسكنت من ذريتي» فإن إسكانه لمن أسكنه إنما هو مذكور بطريق التمهيد للادعاء الذي هو مخصوص بذريته (س٥/ ٥٤).

(٢) وإيقاع التأخير عليهم ـ مع أن المؤخر إنما هو عذابهم ـ لتهويل الخطب، وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مُرْصَدون لأمرٍ ما لا أنهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة، وللإيذان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه. ولو قيل إنما يؤخر عذابهم لما فُهم ذلك (س٥/ ٥٥).

(٣) أي «نؤخرهم».

هواءٌ من الظلمانِ جُؤْجُؤُهُ

وقيلَ خاليةٌ عن الخير خاويةٌ عن الحقّ.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يا محمد. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني يومَ القيامة، أو يومَ الموتِ فإنه أولُ أيامِ عذابِهم، وهو مفعولٌ ثانٍ لأنْذِر. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالشركِ والتكذيبِ. ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أخِّرِ العذابَ عنَّا أو رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلْنا إلى حدٍّ منَ الزمانِ قريبٍ، أوْ أخِّرْ آجالَنا وأبْقِنا مقدارَ ما نؤمنُ بكَ ونجيبُ دعوتَك. ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ جوابٌ للأمرِ[1] ونظيرُه: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ على إرادةِ القولِ، وما لكم جوابُ القَسَمِ جاءَ بلفظِ الخطابِ على المطابقةِ دونَ الحكايةِ، والمعنى أقسمْتُم أنكم باقونَ في الدنيا لا تزالونَ بالموت. ولعلَّهم أقسمُوا بَطَراً وغُرُوراً أو دلَّ عليهِ حالُهم حيثُ بَنَوْا شديداً وأمَّلُوا بعيداً. وقيلَ أقسمُوا أنَّهم لا ينتقلون إلى دارٍ أُخرى وأنَّهم إذا ماتوا لا يزالون على تلك الحالةِ إلى حالةٍ أخرى كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[3].

(٤٥) ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفرِ والمعاصي كعادٍ وثمودَ، وأصلُ سَكَنَ أنْ يُعَدَّىٰ بفي كقرَّ وغنيَ وأقامَ، وقد يُستَعْمَلُ بمعنَى التبوُّءِ فيُجرِي مجراهُ كقولكَ سكنتُ الدارَ[4].
﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ بما تشاهدونَه في منازلهم من آثارِ ما نزلَ بهم وما تواتَرَ عندَكم من أخبارِهم. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ من أحوالِهم أي بيَّنَا لكم أنكم مِثْلُهم في الكفرِ واستحقاقِ العذاب، أو صفاتِ ما فعلُوا وفُعِلَ بهم التي هيَ في الغرابةِ كالأمثالِ المضروبة.

(٤٦) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ المستفرغَ فيه جُهدُهم لإبطالِ الحقِّ وتقريرِ الباطلِ. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ ومكتوبٌ عندَه فعلُهم فهو مُجازِيهم عليه، أو عندَه ما يُمكِرُهُم به جزاءً لمكرِهِم وإبطالاً له[5]. ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العِظَمِ والشِّدةِ. ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ مُسَوًّىٰ لإزالة الجبال. وقيل

(١) وصيغة الجمع «للرسل» لبيان اتفاق جميعهم على التوحيد وأن معصية أحدهم معصية للجميع، أو أن المحكي هو كلام ظالمي الأمم جميعاً (س٥/٥٦).
(٢) المنافقون: «١٠».
(٣) النحل: «٣٨».
(٤) وفي إيقاع الظلم على أنفسهم ـ بعد إطلاقه فيما سلف ـ إيذان بأن غائلة الظلم آيلة إلى صاحبه (س٥/٥٧).
(٥) وتسميته مكراً لكونه بمقابلة مكرهم أو لكونه في صورة المكر في الإتيان من حيث لا يشعرون (س٥/٥٨).

إنْ نافيةٌ واللامُ مؤكِّدةٌ لها، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾[١] على أن الجبالَ مَثَلٌ لأَمْرِ النبيِّ ﷺ ونحوِه. وقيلَ مخففةٌ من الثقيلةِ، والمعنى أنَّهم مكرُوا ليزيلُوا ما هو كالجبالِ الراسية ثباتاً وتمكُّناً من آياتِ اللهِ تعالى وشرائعِه. وقرأ الكسائيُّ لَتَزُولُ بالفتح والرفعِ على أنَّها المخففةُ واللامُ هي الفاصلةُ، ومعناه تعظيمُ مَكْرِهِم. وقرىء بالفتحِ والنصبِ على لغةِ مَنْ يفتَحُ لامَ كيْ[٢]. وقرىءَ وإنْ كادَ مكرُهُم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

(٤٧) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ مِثْلُ قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[٣] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[٤]. وأصلُه مُخْلِفٌ رسلَه وعدَه، فقدَّم المفعولَ الثاني إيذاناً بأنهُ لا يخلفُ الوعدَ أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[٥] وإذا لم يخلفْ وعدَه أحَداً فكيف يُخْلِفُ رُسُلَهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ لا يُمَاكَرُ قادرٌ لا يُدَافَعُ. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائهِ مِنْ أعدائِه.

(٤٨) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ مِنْ يومَ يأتيهم، أو ظرفٌ للانتقام، أو مقدَّرٌ باذكُرْ أو لا يخلفُ وعْدَه. ولا يجوزُ أن ينتصبَ بمخلِفَ لأنَّ ما قبلَ أنْ لا يعملُ فيما بعدَه[٦]. ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطفٌ على الأرض وتقديرُه والسمواتُ غيرُ السمواتِ. والتبديلُ يكونُ في الذاتِ كقولكَ: بدَّلْتُ الدراهِمَ دنانيرَ وعليهِ قولُه ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[٧]، وفي الصفةِ كقولكَ بدَّلْتُ الحلقةَ خاتماً إذا أذَبْتَها وغيَّرتَ شَكْلَها، وعليه قولُه ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[٨] والآية تحتملُهما، فعنْ عليٍّ[٩] رضيَ الله تعالى عنه: تُبَدَّلُ أرضاً مِنْ فِضَّةٍ وسمواتٍ منْ ذهبٍ. وعن ابنِ مسعودٍ[١٠] وأنسٍ رضيَ اللهُ تعالَى عنهما: يُحْشَرُ الناسُ على أرضٍ بيضاءَ لم يُخْطِىءْ عليها أحدٌ خطيئةً. وعنِ ابنِ عباسٍ[١١] رضيَ الله تعالى عنهما: هيَ تلكَ الأرضُ وإنما تُغَيَّرُ صِفَاتُها. ويدلُّ عليه ما روىٰ أبو هريرة[١٢] رضيَ اللهُ تعالَى

---

(١) الأنفال: «٣٣».

(٢) أي «لَتَزُولَ».

(٣) غافر: «٥١».

(٤) المجادلة: «٢١».

(٥) آل عمران: «٩».

(٦) وتقديم تبديل الأرض على السموات لقربها منا، ولكون تبديلها أعظم أثر بالنسبة إلينا (س٥/ ٦٠).

(٧) النساء: «٥٦».

(٨) الفرقان: «٧٠».

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٥١) عنه وزاد السيوطي نسبته في الدر (٥/ ٥٧) إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة».

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠) عنه، وانظر الدر المنثور (٥/ ٥٦ ـ ٥٧) وقال البيهقي: والموقوف أصح.

(١١) لم أقف عليه.

(١٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٥٢) عنه.

عنه أنهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ: «تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ فَتُبسَطُ وتُمَدُّ مدَّ الأديم العُكَاظِيِّ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[(١)] اعلمْ أنه لا يلزمُ على الوجْهِ الأولِ أنْ يكونَ الحاصلُ بالتبديلِ أرْضاً وسماءً على الحقيقة، ولا يبعدُ على الثاني أن يَجْعَلَ اللهُ الأرضَ جهنَّم والسمواتِ الجنةَ على ما أشعرَ بهِ قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾[(٢)] وقوله ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾[(٣)]. ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ من أجداثِهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لمحاسَبتِه ومجازاتِه. وتوصيفُه بالوصْفَيْنِ للدلالةِ على أنَّ الأمرَ في غاية الصعوبة كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[(٤)] فإنَّ الأمرَ إذا كانَ لواحدٍ غلابٌ لا يُغَالَبُ فلا مُسْتَغَاثَ لأحدٍ إلى غيرِه ولا مُسْتَجَارَ.

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾

(٤٩) ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرِنَ بعضُهم معَ بعضٍ بحسبِ مشاركتِهم في العقائدِ والأعمالِ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[(٥)]، أو قُرِنُوا مع الشياطين، أو معَ ما اكْتَسَبُوا من العقائدِ الزائغة والملَكَاتِ الباطلة، أو قَرِنتْ أيديْهم وأرجلُهم إلى رِقَابِهم بالأغلال، وهو يحتملُ أنْ يكونَ تمثيلاً لمؤاخذتِهم على ما اقترفَتْه أيديْهم وأرجلُهم[(٦)]. ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ متعلِّق بمقرنِيْنَ أو حالٌ من ضميره. والصَّفَدُ القيدُ، وقيلَ الغلُّ، قالَ سلامةُ بنُ جندلٍ.

وزَيْـدُ الخَيْـلِ قَـدْ لاَقَـى صِفَـاداً　　يعـضُّ بِسَـاعِـدٍ وَبِعَظْـمِ سَـاق

وأصله الشدُّ.

(٥٠) ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قُمْصَانُهم. ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وجاءَ قطرانُ لُغَتَيْنِ فيه[(٧)]، وهو ما يُتَحَلَّبُ من الأَبْهَلِ[(٨)] فيطبخُ فتهناً بهِ الإبلُ الْجَرْبَى فَيَحْرِقُ الْجَرَبَ بِحِدَّتِه، وهو أسودُ مُنْتِنٌ تشتعلُ فيه النارُ بسرعةٍ، تُطْلَىٰ به جلودُ أهل النار حتى يكونَ طِلاؤُه لهم كالقُمُص ليجتمعَ عليهم لَذْعُ القطرانِ ووحشةُ لونِه ونَتَنُ ريحهِ معَ إسراعِ النارِ في جلودِهم، على أن التفاوتَ بينَ القَطِرانين كالتفاوتِ بينَ النارَيْنِ، ويحتملُ أنْ يكونَ تمثيلاً لِما يحيطُ بجوهرِ النفس من الْمَلَكَاتِ الرديئةِ والهيئاتِ الوحشيةِ فيجلبُ إليها أنواعاً من الغمومِ والآلامِ. وعنْ يعقوبَ قَطِرآنٍ. والقِطْرُ النُّحَاسُ أوِ الصُّفْرُ المذابُ، والآنيّ المتناهي حرَّهُ، والجملَةُ حالٌ ثانيةٌ أو حالٌ منَ الضميرِ في مقرنِيْنَ. ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وتتغشَّاها لأنَّهم لم يتوجَّهُوا بها إلى الحقِّ ولم يستعمِلُوا في تَدَبُّرِهِ مشاعِرَهم وحواسَّهم التي خُلِقَتْ فيها

(١) طه: «١٠٧».
(٢) المطففين: «١٨».
(٣) المطففين: «٨».
(٤) غافر: «١٦».
(٥) التكوير: «٧».
(٦) قوله «وترىٰ» عدل إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار (س٥/ ٦٠).
(٧) الأولى بفتح القاف وكسر الطاء «قَطِرَان» والثانية بكسر القاف وسكون الطاء «قِطْرَان» (المصباح المنير مادة قطر).
(٨) الأبهل نوع من الشجر.

لأجْلِه[١]، كما تَطَّلِعُ على أفئدتِهم لأنَّها فارغةٌ عن المعرفةِ مملوءةٌ بالجهالاتِ، ونظيرُه قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾[٣].

لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي يفعلُ بهم ذلكَ ليجزيَ كلَّ نفسٍ مُجْرِمَةٍ. ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أَوْ كلَّ نَفْسٍ مِنْ مُجْرِمَةٍ أو مطيعةٍ، لأنه إذا بَيَّنَ أن المجرمِينَ يعاقَبُونَ لإجرامِهم عُلِمَ أن المطيعينَ يثابُونَ لطاعتِهم، ويتعيَّنُ ذلكَ إنْ عُلِّقَ اللامُ بِبَرَزُوا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لأنه لا يَشْغَلُه حسابٌ عنْ حساب.

(٥٢) ﴿هَٰذَآ﴾ إشارةٌ إلى القرآن أو السورةِ أو ما فيه العِظَةُ والتذكيرُ أو ما وَصَفَهُ من قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾[٤]. ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفايةٌ لهم في الموعظَةِ. ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ عطفٌ على محذوفٍ أي لِيُنْصَحُوا ولينذَرُوا بهذا البلاغِ، فتكونُ اللامُ متعلِّقةً بالبلاغ، ويجوزُ أن تتعلَّقَ بمحذوفٍ تقديرُه: ولينذَرُوا به أُنْزِلَ أو تُلِيَ. وقرىء بفتح الياءِ مَنْ نُذِرَ بهِ إذا علمَه واستعدَّلَهُ.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بالنظرِ والتأملِ فيما فيه منَ الآياتِ الدالةِ عليه أو المنبهة على ما يَدُلُّ عليه[٥]. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيرتدعُوا عما يُرْدِيهِم ويتدرَّعُوا بما يُحْظِيهم. واعلمْ أنه سبحانَه وتعالى ذكرَ لهذا البلاغِ ثلاثَ فوائدَ هي الغايةُ والحكمةُ في إنزالِ الكُتُب، تكميلُ الرسلِ للناس، واستكمالُ القوةِ النظريةِ التي مُنْتَهَى كَمَالِهَا التوحيدُ، واستصلاحُ القوةِ العمليةِ الذي هوَ التدرعُ بلباسِ التقوى، جَعَلَنا اللهُ تعالى منَ الفائزينَ بهما. وعن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ إبراهيمَ أُعْطِيَ من الأجْرِ عَشْرُ حسناتٍ بِعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الأصنام وعددِ مَنْ لم يَعْبُدْهَا»[٦].

☆ ☆ ☆

---

(١) وتخصيص الوجوه بذلك لكونها أعز الأعضاء الظاهرة ومجمع المشاعر والحواس (س٥/ ٦١).
(٢) الزمر: «٢٤».
(٣) القمر: «٤٨».
(٤) إبراهيم: «٤٢».
(٥) وتقديم الإنذار على العلم لأنه الداعي إلى التأمل المؤدي إلى ما هو غاية له من العلم المذكور والتذكر في قوله «وليذكر أولوا الألباب» (س٥/ ٦٢).
(٦) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضات (١/ ٢٤٠) وقد رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٧٤٦).

سُورَةُ الحِجرِ

ترتيبها ١٥ — آياتها ٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ
يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾
مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

سورة الحجر مكية[1] وهي تسع وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آيات السورةِ، والكتابُ هو السورةُ، وكذا القرآنُ. وتنكيرُه للتفخيم أي آياتُ الجامعِ لكونهِ كتاباً كاملاً وقرآناً يُبَيِّنُ الرُّشْدَ من الغيِّ بياناً غريباً.

(٢) ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حينَ عاينوا حالَ المسلمين عندَ نزولِ النصر، أو حلولَ الموت، أو يومَ القيامة. وقرأ نافعٌ وعاصمٌ رُبَمَا بالتخفيف[2]، وقرىء رَبَمَا بالفتح والتخفيف. وفيه ثمانِ لغاتٍ: ضمُّ الراء وفتحُها مع التشديد والتخفيف وبتاءِ التأنيث ودونَها[3]، وما كافَّةٌ تكفُّه عن الجرِّ فيجوز دخولُه على الفعل، وحقُّه أن يدخلَ الماضي لكنْ لما كان المترقَّبُ في أخبار الله تعالى كالماضي في تحقُّقِه أُجْرِيَ مَجْرَاهُ، وقيل: ما نكرةٌ موصوفةٌ كقوله:

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْرِ ... لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ

ومعنى التقليلِ فيه بالإيذانِ بأنهم لو كانوا يودُّون الإسلامَ مرةً فبالحريِّ أن يسارِعوا إليه، فكيف وهم يودُّونه كلَّ ساعة. وقيل تدهشُهم أهوالُ القيامة فإن حانتْ منهم إفاقَةٌ في بعض الأوقات تمنَّوْا ذلكَ. والغَيْبَةُ في حكاية وَدَادَتِهم كالغيبةِ في قولك: حلفَ بالله ليفعلنَّ.

(١) مكية بالإتفاق، وهو مروي عن ابن عباس وابن الزبير انظر الدر المنثور (٥/ ٦١).

(٢) وقرأ الباقون من السبعة بتشديد الباء.

(٣) وذكر ابن هشام في مغني اللبيب (١/ ١٣٨) أن فيها ست عشرة لغة. وقوله (وبتاء التأنيث) أي بدل ما (ربت).

(٣) ﴿ذَرْهُمْ﴾ دعهم. ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم[١]. ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ ويشغلُهم توقُّعهم لطولِ الأعمار واستقامةِ الأحوال عن الاستعدادِ للمعاد. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوءَ صنيعهم إذا عاينوا جزاءَه. والغرضُ إقناطُ الرسولِ ﷺ مِن ارعوائِهم وإيذانُه بأنهم من أهل الخذلان، وإنْ نَصَحَهم بعد اشتغالٍ بما لا طائلَ تحتَه، وفيه إلزامٌ لِلْحُجَّةِ وتحذيرٌ عن إيثار التنعُّم وما يؤدي إليه طولُ الأمل.

(٤) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ أجلٌ مقدَّرٌ كُتِبَ في اللوح المحفوظ. والمستثنى جملةٌ واقعةٌ صفةً لقريةٍ، والأصل أن لا تدخلَها الواوُ كقوله: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾[٢] ولكن لما شابهتْ صورتُها صورةَ الحال أُدْخِلتْ تأكيداً لِلُصُوقِها بالموصوف.

(٥) ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي وما يستأخرون عنه[٣]، وتذكيرُ ضميرِ أُمَّةٍ فيه لِلْحَمْلِ على المعنَى.

(٦) ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ نادَوْا به النبيَّ ﷺ على التهكُّم، ألا ترى إلى ما نادَوْه له وهو قولُهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ونظيرُ ذلك قولُ فرعونَ: إن رسولَكم الذي أُرْسِلَ إليكم لمجنون، والمعنى إنك لتقول قولَ المجانينِ حينَ تدَّعي أن الله تعالى نزَّل عليك الذكرَ، أي القرآن[٤].

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨

(٧) ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ ركِّبَ لو معَ ما كما رُكِّبَتْ مع لا لمعنيينِ: امتناع الشيءِ لوجودِ غيرِه، والتحضيض. ﴿بِالْمَلَائِكَةِ﴾ ليصدقوك ويعضُدوك على الدعوة، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾. أو للعقاب على تكذيبنا لك كما أتتِ الأممُ المكذِّبة قبلُ. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواكَ.

(٨) ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بالياء ونَصْبِ الملائكةِ على أن الضميرَ لله تعالى. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ

---

(١) وفي تقديم الأكل على التمتع إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب (س٥/ ٦٥).

(٢) الشعراء: «٢٠٨».

(٣) وصيغة الاستفعال «وما يستأخرون» للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له. وإيثار صيغة المضارع في الفعلين ـ بعدما ذكر نفي الإهلاك بصيغة الماضي ـ لأن المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الأمم الماضية والباقية. وإسنادهما إلى الأمة ـ بعد إسناد الإهلاك إلى القرية ـ لما أن السبق والاستئخار حال الأمة دون القرية. . وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم ـ مع كون المقام مقامَ المبالغة في بيان تحقق عذابهم ـ إما باعتبار تقدم السبق في الوجود، وإما باعتبار أن المراد بيان سرّ تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك (س٥/ ٦٦).

(٤) وتقديم الجار والمجرور «عليه» على القائم مقام الفعل «الذكر» لأن إنكارهم متوجه إلى كون النازل ذكراً من الله تعالى، لا إلى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما في قوله تعالى «لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم».
فإن الإنكار هناك متوجه إلى كون المنزل عليه رسول الله تعالى.
وإيراد الفعل على صيغة المجهول لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى استناده إلى الفاعل (س٥/ ٦٧).

وحفصٌ بالنون، وأبو بكرٍ بالتاءِ والبناءِ للمفعولِ ورفعِ الملائكةِ. وقرىء تَنَزَّلُ بمعنى تَتَنَزَّلُ. ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق أي بالوجهِ الذي قدَّره واقتضَته حِكْمتُه، ولا حكمةَ في أن تأتِيَكُم بِصُوَرٍ تشاهدونَها فإنه لا يزيدُكم إلا لَبْساً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة فإنَّ منكم ومِنْ ذراريكم مَنْ سبقتْ كَلِمَتُنا له بالإيمان. وقيلَ الحقُّ الوحيُ أو العذابُ. ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ إذاً جوابٌ لهم وجزاءٌ لشرطٍ مقدَّرٍ، أي ولو نَزَّلنا الملائكةَ ما كانوا مُنْظَرِينَ.

إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ
إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ
قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾

(٩) ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ ردٌّ لإنكارِهم واستهزائِهم، ولذلك أكَّده من وجوهٍ وقرَّرَهُ بقولهِ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي منَ التحريفِ والزيادةِ والنقصِ بأن جعلْنا معْجزاً مبايناً لكلام البشر، بحيثُ لا يَخفَىٰ تغييرُ نَظْمِهِ على أهلِ اللسان، أو نفيُ تَطَرُّقِ الخلل إليه في الدَّوام بضمانِ الحفظِ له كما نَفَى أن يُطْعَنَ فيه بأنه المنزِّلُ له. وقيلَ الضميرُ في لهُ للنبي ﷺ.

(١٠) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ في فِرَقِهِم، جمعُ شيعةٍ وهي الفِرقةُ المتَّفِقَةُ على طريقٍ ومذهبٍ مِنْ شَاعَه إذا تَبِعَه، وأصلُه الشِّياعُ وهو الحطبُ الصغارُ تُوقَدُ به الكبارُ، والمعنى نَبَّأْنَا رجالاً فيهم وجعلْناهم رُسُلاً فيما بينَهم.

(١١) ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ كما يفعلُ هؤلاءِ، وهو تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام. وما للحال لا يَدْخُل إلا مضارعاً بمعنى الحال، أو ماضياً قريباً منه، وهذا على حكاية الحال الماضية.

(١٢) ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ نُدْخِلُه. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ والسَّلْكُ إدخال الشيء في الشيء، كالخيط في المخيطِ والرمحِ في المطعونِ، والضميرُ للاستهزاء. وفيهِ دليل على أن الله تعالى يوجِدُ الباطلَ في قلوبِهم. وقيلَ لِلذِّكر فإن الضميرَ الآخرَ في قوله:

(١٣) ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ له وهو خالٍ من هذا الضمير، والمعنى مثلُ ذلك السلكِ نسلكُ الذِّكْرَ في قلوبِ المجرمينَ مكذَّباً غيرَ مؤمِنٍ به، أو بيانٌ للجملة المتضمنة له، وهذا الاحتجاج ضعيفٌ إذ لا يلزمُ مِنْ تعاقبِ الضمائر توافقُها في المرجوع إليه ولا يتعيَّنُ أن تكونَ الجملةُ حالاً من المجرمين، ولا ينافي كونُها مفسِّرةً للمعنى الأولِ بل يقوِّيه. ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي سنةُ الله فيهم بأنْ خَذَلهم وسلكَ الكفرَ في قلوبهم، أو بإهلاكِ مَنْ كذَّبَ الرسلَ منهم فيكون وعيداً لأهل مكةَ.

(١٤) ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم﴾ أي على هؤلاء المقترحينَ. ﴿بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ يصعدونَ إليها ويَرَوْنَ عجائبَها طولَ نهارِهم مستوضِحِينَ لما يَرَوْنَ، أو تصعدُ الملائكةُ وهم يشاهدونَهم.

(١٥) ﴿لَقَالُوٓاْ﴾ من غُلُوِّهِم في العنادِ وتشكيكِهِم في الحقّ. ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ سُدَّتْ عن الأبصار بالسِّحرِ من السَّكَر، ويدل عليه قراءةُ ابن كثير بالتخفيف[١]، أو حُيِّرَتْ منَ السُّكْرِ ويدلُّ عليه قراءةُ مَنْ قرأ سَكِرَتْ. ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سَحَرَنَا محمدٌ بذلكَ كما قالوه عندَ ظهورِ غيرِهِ من الآيات. وفي كلمتي الحصرِ والإضرابِ دلالةٌ على البتّ بأنَّ ما يَرَوْنَهُ لا حقيقةَ له بل هو باطلٌ خُيِّلَ إليهم بنوعٍ من السِّحْر.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشرَ مختلفةَ الهيئاتِ والخواصِّ على ما دلَّ عليه الرَّصْدُ والتجربةُ معَ بساطةِ السماء. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالأشكال والهيئات البهيةِ. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ المعتبرينَ المستدِلِّينَ بها على قدرةِ مُبْدِعِها وتوحيدِ صانعِها.

وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

(١٧) ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ فلا يَقْدِرُ أن يصعَدَ إليها ويوسوسَ إلى أهلها ويتصرَّفَ في أمرها ويطَّلِعَ على أحوالها.

(١٨) ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ بدلٌ مِنْ كلِّ شيطان. واستراقُ السمع اختلاسُه سِرّاً، شبَّه به خَطْفَتَهُم اليسيرةَ من قُطَّانِ[٢] السمواتِ لما بينَهم من المناسبةِ في الجوهرِ أو بالاستدلالِ من أوضاعِ الكواكبِ وحركاتِها. وعن ابن عباس[٣] رضي الله تعالى عنهما: أنهم كانوا لا يُحْجَبُونَ عن السموات، فلما وُلِدَ عيسى عليه الصلاة والسلام مُنِعُوا منْ ثلاثِ سمواتٍ، فلما وُلِدَ محمدٌ ﷺ مُنِعُوا مِنْ كلِّها بالشُّهُبِ. ولا يَقْدَحُ فيه تكوُّنُها قبلَ المولدِ لجواز أن يكونَ لها أسبابٌ أُخَرُ. وقيلَ الاستثناءُ مُنْقَطِعٌ أي ولكنْ مَنِ استرقَ السمعَ. ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ فتبِعَه ولَحِقَهُ. ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ للمُبْصِرين. والشِّهابُ شعلةُ نار ساطعةٌ، وقد يُطْلَقُ للكوكبِ والسِّنانِ لما فيهما من البريق.

(١٩) ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطْناها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابتَ. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو فيها وفي الجبال. ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مقدَّرٌ بمقدار مُعَيَّنٍ تقتضيه حِكْمَتُه، أو مستحسنٌ مناسبٌ من قولهم كلامٌ موزونٌ، أو ما يُوْزَنُ ويُقَدَّرُ، أو له وَزْنٌ في أبوابِ النعمةِ والمنفعةِ.

(٢٠) ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعِمِ والملابس. وقرىء معائِشَ بالهمزةِ على التشبيهِ بشمائلَ. ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ على معايشَ أو على محلِّ لكم. ويريدُ به العِيالَ والخدمَ

(١) قراءة ابن كثير بتخفيف الكاف والبناء للمفعول «سُكِرَتْ».
(٢) قطّان جمعٌ مفردها قاطن وهو المقيم.
(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٢) وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٨٩) عنه.

والمماليكَ وسائرَ ما يظنون أنهم يَرزقونَهم ظناً كاذباً، فإنَّ اللهَ يرزقُهم وإياهم. وفَذْلَكَةُ الآية: الاستدلالُ بِجَعْلِ الأرضِ ممدودةً بمقدارٍ وشكلٍ مُعَيَّنَيْنِ مختلفةَ الأجزاءِ في الوضعِ مُحْدِثَةً فيها أنواعَ النباتِ والحيوانِ المختلفةِ خِلْقَةً وطبيعةً مع جوازِ أن لا تكونَ كذلكَ على كمال قدرتهِ وتناهي حكمتهِ والتفردِ في الألوهية والامتنانِ على العبادِ بما أنعم عليهم في ذلك لِيُوحِّدُوه ويعبدوه، ثم بَالغَ في ذلكَ وقالَ:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤﴾

(٢١) ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرونَ على إيجادِه وتكوينِه أضعافَ ما وُجِدَ منه. فضربَ الخزائنَ مثلاً لاقتدارِه، أو شَبَّه مقدوراتِه بالأشياء المخزونة التي لا يُحوِجُ إخراجُها إلى كُلْفَةٍ واجتهاد. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ من بقاعِ القُدرةِ. ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ حدُّه الحكمةُ وتعلّقتْ به المشيئةُ، فإنَّ تخصيصَ بعضِها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتمِلاً على بعضِ الصفات والحالات لا بدَّ له من مُخَصِّصٍ حكيم.

(٢٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ حواملَ، شبَّه الريحَ التي جاءت بخير من إنشاءِ سَحَاب ماطر بالحاملِ كما شبَّه ما لا يكون كذلك بالعقيمِ، أو ملقِّحاتٍ للشجر ونظيرُه الطوائحُ بمعنى المطيحاتِ في قوله:

ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَوَائِحُ

وقُرِىءَ وأَرْسلْنا الريحَ على تأويل الجِنْس. ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سُقْياً. ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ قادرينَ متمكّنينَ من إخراجه، نَفَى عنهم ما أَثبَتَهُ لنفسِهِ، أو حافظينَ في الغُدْرانِ والعيونِ والآبار. وذلك أيضاً يدل على المدبِّر الحكيم كما تدل حركةُ الهواء في بعض الأوقات من بعض الجهات على وجهٍ ينتفع به الناسُ، فإن طبيعةَ الماء تقتضي الغورَ فوُقُوفُهُ دونَ حدٍّ لا بدَّ له من سببٍ مخصِّصٍ.

(٢٣) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ﴾ بإيجاد الحياةِ في بعض الأجسام القابلةِ لها. ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها، وقد أَوَّلَ الحياةَ بما يعمُّ الحيوانَ والنباتَ. وتكريرُ الضمير للدلالة على الحصْرِ. ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون إذا ماتَ الخلائقُ كلُّها.

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ مَنِ استقْدَمَ ولادةً وموتاً ومن استأْخَرَ، أو مَنْ خرج من أصلابِ الرجال ومن لم يخرجْ بعدُ، أو مَنْ تقدَّم في الإسلام والجهاد وسبقَ إلى الطاعة أو تأخَّر، لا يَخفَى علينا شيءٌ من أحوالِكُم، وهو بيانٌ لكمال عِلْمِه بعدَ الاحتجاج على كمالِ قدرته فإن ما يدلُّ على قدرته دليلٌ على عِلْمهِ. وقيلَ رَغَّبَ رسولُ الله ﷺ في الصفِّ الأولِ فازدحَمُوا عليهِ

فنزلتْ[١]. وقيلَ إن امرأةً حسناءَ كانتْ تصلِّي خلفَ رسولِ الله ﷺ فتقدَّم بعضُ القوم لئلاً ينظرَ إليها وتأخَّر بعضٌ لِيُبْصِرَها فنزلتْ[٢].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾

(٢٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالةَ للجزاء. وتوسيطُ الضميرِ للدلالة على أنهُ القادرُ والمتولي لحشرِهم لا غيرُ. وتصديرُ الجملةِ بإنّ لتحقيقِ الوعْدِ والتنبيهِ على أنَّ ما سبقَ من الدلالة على كمال قُدرته وعِلْمِهِ بتفاصيلِ الأشياء يدلُّ على صِحَّةِ الحكْمِ كما صرَّحَ به بقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ باهرُ الحكمةِ مُتْقِنٌ في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ وَسِعَ عِلْمُهُ كلَّ شيء[٣].

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ من طين يابس يُصَلْصِلُ أي يُصَوِّتُ إذا نُقِرَ. وقيلَ هو من صَلْصَلَ إذا أَنْتَنَ تضعيفُ صلَّ. ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ طين تغيَّر واسودَّ من طول مجاورةِ الماء، وهو صفةُ صلصالٍ

---

(١) لم أقف عليه.
وقد أخرج مسلم (١/٣٢٦ رقم ١٣٢/ ٤٤٠) عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ «خيرُ صفوف الرِجَالِ أولُهَا، وشرُّهَا آخِرَهَا، وخيرُ صفوف النساء آخرها، وشرها أولُهَا».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٢٩٦ رقم ٣١٢٢) والنسائي (٢/١١٨ رقم ٨٧٠) وابن ماجه (١/ ٣٣٢ رقم ١٠٤٦) وابن حبان (ص٤٣٣ رقم ١٧٤٩ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/٣٥٣) وأحمد في المسند (١/٣٠٥) والطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٤/٢٦) وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٧٣) والطيالسي في المسند (ص٣٥٤ رقم ٢٧١٢) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٧١ رقم ١٢٧٩١).
كلهم بأسانيد عن نوح بن قيس الحُدائي، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ـ به قال الترمذي «ورَوَى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء نحوه. ولم يذكر فيه عن ابن عباس. وهذا أشبه أن يكونَ أصحَّ من حديثِ نوح» هـ.
وقال المباركفوري في «التحفة» (٨/ ٥٥١) «لو صح حديث ابن عباس هذا لكان هو أولى الأقوال لكن الأشبه أنه قول أبي الجوزاء كما صرح به الترمذي» هـ.
وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٦٩) «وهذا الحديث فيه نكارة شديدة. . .».
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.
قلت: ذكر ابن جرير الطبري تأويلين آخرين في الآية (٨/ج١٤/٢٦).
(الأول): المستقدمين من الأمم والمستأخرين من أمة محمد ﷺ.
(الثاني): ـ المستقدمين في الخير والمستأخرين عنه.
وأسند كلا التأويلين عن جماعة من السلف، ثم قال رحمه الله تعالى:
«وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك، ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حيّ، ومن حادث منكم ممن لم يحدث بعدُ، لدلالة ما قبله من الكلام على ما بعده. . . .
وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصف لشأن النساء، والمستأخرين فيه لذلك ثم يكون الله عز وجل عم بالمعنى المراد منه جميع الخلق. . .» هـ.

(٣) وتقديم صفة الحكمة على العلم للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء (س٥/ ٧٣).

أي كائنٍ من حمإٍ. ﴿مَّسْنُونٍ﴾ مصوَّرٍ من سَنَةِ الوجه[١]. أو مصبوبٍ لِيَيْبَسَ ويُتَصَوَّرَ كالجواهرِ المذابة تُصَبُّ في القوالب، من السَّنِّ وهو الصبُّ كأنه أفرغَ الحمأَ فصَوَّرَ منها تمثالَ إنسانٍ أجوفَ، فَيَبِسَ حتى إذا نُقِرَ صَلْصَلَ، ثمَّ غيَّر ذلكَ طوراً بعد طَوْرٍ حتى سوَّاهُ ونفخَ فيه منْ روحه. أو منتنٍ من سننتُ الحجرَ على الحجرِ إذا حَكَكْتُه به، فإنَّ ما يسيل بينَهما يكونُ منتناً ويُسَمَّى السَّنِينَ.

وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٧) ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجنِّ، وقيلَ إبليسُ، ويجوزُ أن يُرَادَ به الجِنْسُ كما هو الظاهرُ من الإنسان، لأن تَشَعُّبَ الجِنسِ لما كانَ من شخص واحد خُلِقَ من مادةٍ واحدة كانَ الجنسُ بأسْرِهِ مخلوقاً منها. وانتصابُه بفعلٍ يفسِّره: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الإنسان. ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ من نار الحرِّ الشديد النافذِ في المسامِّ، ولا يمتنعُ خَلْقُ الحياةِ في الأجرام البسيطة كما لا يمتنعُ خَلْقُهَا في الجواهر المجرَّدَةِ فَضْلاً عن الأجساد المؤلَّفة التي الغالبُ فيها الجزءُ النارِيُّ، فإنها أَقْبَلُ لها من التي الغالبُ فيها الجزءُ الأرضيُّ. وقولُه: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبارِ الغالبِ كقوله: ﴿خلقكم من ترابٍ﴾. ومساقُ الآية كما هو للدلالة على كمال قدرةِ الله تعالى وبيانِ بَدْءِ خَلْقِ الثَّقَلَيْنِ، فهو للتنبيهِ على المقدمةِ الثانية التي يتوقفُ عليها إمكانُ الحشر، وهو قَبُولُ المواد للجَمْعِ والإحْيَاءِ.

(٢٨) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكرْ وقتَ قوله[٢] ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

(٢٩) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدلْتُ خِلْقَتَه وهيَّأْتُه لنفخِ الروح فيه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ حتى جَرَى آثارُه في تجاويفِ أعضائِهِ فَحَيِيَ. وأصلُ النفخ إجراءُ الرِّيح في تجويفِ جسمٍ آخرَ، ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخارِ اللطيف المنْبَعِثِ من القلب وتفيض عليه الحيوانيةُ فيسري حاملاً لها في تجاويفِ الشرايينِ إلى أعماق البدن جعل تعلُّقَه بالبدن نفخاً. وإضافةُ الروحِ إلى نفسِه لما مرَّ في النساء[٣]. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فاسْقُطُوا له. ﴿سَٰجِدِينَ﴾ أَمْرٌ مِنْ وَقَعَ يَقَعُ.

(٣٠) ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أُكِّدَ بتأكيدينِ للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص. وقيلَ أُكِّدَ بالكُلِّ للإحاطة وبأجمعينَ للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعينَ دُفْعَةً، وفيه نظَرٌ إذْ لو كان الأمرُ كذلك كان الثاني حالاً لا تأكيداً.

---

(١) من سنة الوجه أي صورته.

(٢) وتذكير الوقت لأنه أدخل في تذكير ما وقع فيه من الحوادث.. والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشيء إلى كماله اللائق به شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام (س٥/ ٧٤).

(٣) عند قوله تعالى: «ألقاها إلى مريم وروح منه» [النساء: «١٧١»].

إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾

(٣١) ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ إنْ جُعِلَ مُنْقَطِعاً اتَّصلَ بهِ قوله: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي ولكنَّ إبليسَ أَبَىٰ، وإنْ جُعِلَ متَّصِلاً كان استئنافاً على أنهُ جوابُ سائلٍ قال هلاَّ سجدَ.

(٣٢) ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ أيُّ غرَضٍ لك في أنْ لا تكونَ. ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدمَ.

(٣٣) ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصحُّ مِنِّي وينافي حالي أن أسجدَ. ﴿لِبَشَرٍ﴾ جسمانيٍّ كثيفٍ وأنا مَلَكٌ روحانيٌّ. ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وهو أخسُّ العناصرِ، وخلقْتَني من نار وهي أشرفُها، استنقص آدم عليه السلام باعتبار النوع والأصلِ وقد سبق الجوابُ عنه في سورة الأعراف[1].

(٣٤) ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنةِ أو زُمَرِ الملائكة. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرودٌ من الخير والكرامة، فإنَّ مَنْ يُطْرَدُ يُرْجَمُ بالحجر أو شيطانٌ يُرْجَمُ بالشُّهُبِ، وهو وعيد يتضمَّن الجوابَ عن شُبْهَتِهِ.

(٣٥) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ هذا الطردَ والإبعادَ. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنه مُنْتَهى أمدِ اللعن، فإنه يناسب أيامَ التكليف، ومنه زمانُ الجزاء. وما في قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] بمعنى آخرَ يَنسىٰ عندَه هذه. وقيل إنما حدَّ اللعنَ به لأنه أبعدُ غايةٍ يضربُها الناسُ، أو لأنه يعذبُ فيه بما ينسىٰ اللعنَ معه فيصيرُ كالزائل.

(٣٦) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ فأخِّرني، والفاء متعلقةٌ بمحذوف دلَّ عليه: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[3] ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد أن يجدَ فُسْحَةً في الإغواءِ أو نجاةً من الموت، إذ لا موتَ بعدَ وقتِ البعث فأجابه إلى الأولِ دونَ الثاني.

(٣٧) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

(٣٨) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ المسمَّى فيه أجلُكَ عند الله، أو انقراضُ الناسِ كلُّهم وهو النفخةُ الأُولى عند الجمهور، ويجوز أن يكون المرادُ بالأيام الثلاثة يومَ القيامة. واختلافُ العبارات لاختلافِ الاعتباراتِ، فعبَّر عنه أولاً بيوم الجزاء لما عرَفْتَهُ، وثانياً بيوم البعث إذ به يحصلُ العلم بانقطاعِ التكليف واليأسِ عن التضليل، وثالثاً بالمعلوم لوقوعِه في الكلامَيْنِ. ولا يلزم مِنْ ذلكَ أن لا يموتَ

---

(١) الأعراف: «١٢».

(٢) الأعراف: «٤٤».

(٣) الحجر: «٣٤».

فلعلَّه يموت أولَ اليوم ويُبْعَثُ مع الخلائق في تضاعيفه، وهذه المخاطبةُ وإن لم تكنْ بواسطة لم تدلَّ على منصِبِ إبليسَ لأن خطابَ الله له على سبيل الإهانة والإذلال.

(٣٩) ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ الباء للقسَم، وما مصدريةٌ، وجوابُه: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ والمعنىٰ: أقسمُ بإغوائِك إيَّايَ لأُزَيِّنَنَّ لهم المعاصيَ في الدنيا التي هيَ دارُ الغرور كقوله: ﴿ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾. وفي انعقادِ القَسَم بأفعالِ الله تعالى خلافٌ. وقيلَ للسببيةِ. والمعتزلةُ أَوَّلُوا الإغواءَ بالنسبة إلى الغيِّ. أو التَّسَبُّبِ له بأمره إياه بالسجود لآدمَ عليه السلام، أو بالإضلال عن طريق الجنة، واعتذروا عن إمهالِ الله له ـ وهو سببٌ لزيادة غِيِّهِ وتسليطٌ له على إغواءِ بني آدمَ ـ بأنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ منه ومِمَّنْ تَبِعُه أنَّهم يموتون على الكفر ويصيرونَ إلى النار أُمْهِلَ أو لم يُمْهَلْ وأنَّ في إمهاله تعريضاً لِمَنْ خالفَه لاستحقاق مزيدِ الثواب. وضَعْفُ ذلكَ لا يَخفَى على ذوي الألباب. ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ولأَحْمِلَنَّهم أجمعين على الغوايةِ.

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

(٤٠) ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصْتَهم لطاعتك وطهَّرتَهُم مِنَ الشوائب فلا يعملُ فيهم كَيْدي. وقرأ ابن كثير وابنُ عامر وأبو عمرو بالكسر[١] في كلِّ القرآن أي الذين أخلصوا نفوسَهم لله تعالى.

(٤١) ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ ﴾ حقٌّ عليَّ أن أراعِيَهُ. ﴿ مُسْتَقِيمٌ ﴾ لا انحرافَ عنه. والإشارةُ إلى ما تضمَّنه الاستثناءُ وهو تخليصُ المخلَصين من إغوائه، أوِ الإخلاصُ على معنى أنه طريقٌ عليَّ يؤدي إلى الوصول إليَّ مِنْ غيرِ اعوجاجٍ وضلال. وقرىء عَلِيٌّ مِنْ عُلُوِّ الشرف.

(٤٢) ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ تصديقٌ لإبليسَ فيما استثْناه. وتغييرُ الوضعِ[٢] لتعظيم المخلِصينَ، ولأن المقصود بيانُ عِصْمَتِهم وانقطاعُ مخالبِ الشيطان عنهم، أو تكذيبٌ له فيما أُوهِمَ أنَّ له سلطاناً على مَنْ ليسَ بمخلِصٍ من عباده فإنَّ مُنْتَهَى تزيينهِ التحريضُ والتدليسُ كما قال ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾[٣] وعلى هذا يكون الاستثناءُ منقطعاً، وعلى الأولِ يدفعُ قولَ مَنْ شَرَط أن يكون المستثْنَى أقلَّ من الباقي لإفضائهِ إلى تناقضِ الاستثناءَيْنِ.

(٤٣) ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ لموعدُ الغاوينَ أو المتَّبِعينَ. ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيدٌ للضمير. أو حالٌ،

---

(١) أي بكسر اللام في «المخلِصين».

(٢) قوله (وتغيير الوضع) أي تغيير وضع النظم، فإنه فيما سبق كان المستثنىٰ منه الناس والمستثنى المخلَصين، وههنا المستثنى منه العباد والمستثنى الغاوون. (حاشية الكازروني علىالبيضاوي ص١٧٠).

(٣) إبراهيم: «٢٢».

والعاملُ فيها الموعدُ إنْ جعلْتَهُ مصدراً على تقديرِ مضافٍ، ومعنَى الإضافةِ إن جَعَلْتَهُ اسمَ مكانٍ فإنهُ لا يعملُ.

(٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ يدخلونَ منها لكثرتهم، أو طبقاتٌ ينزلونَها بِحَسَبِ مراتِبِهِم في المتابعة وهي: جهنمُ ثمَّ لَظَى ثم الْحُطَمَةُ ثم السعيرُ ثم سقرٌ ثمَّ الجحيمُ ثمَّ الهاويةُ. ولعل تخصيصَ العَدَدِ لانحصار مجامِعِ المهلِكاتِ في الركونِ إلى المحسوساتِ ومتابعةِ القوة الشَّهويةِ والغَضَبِيَّة، أو لأن أهلَها سبعُ فِرَقٍ. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من الأتْباع. ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أفرز له، فأعلاها للموحِّدِينَ العصاة. والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركينَ والسابع للمنافقينَ. وقرأ أبو بكر جُزُؤٌ بالتثقيل. وقرىء جُزٌّ على حذفِ الهمزة وإلقاءِ حركَتِها على الزاي ثم الوقفِ عليه بالتشديد ثم إجراءِ الوصل مَجْرَى الوقفِ. ومنهم حالٌ منه، أو من المسْتكِنِّ في الظَّرْفِ لا في مقسومٍ لأنَّ الصفةَ لا تعملُ فيما تقدَّم موصُوفَها.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

(٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِنْ اتّباعه في الكفر والفواحش، فإن غيرها مُكَفَّرة. ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكل واحد جنة وعيْن، أو لكلٍّ عدّة منهما كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[(١)] ثم قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[(٢)] وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[(٣)] الآية. وقرأ نافعٌ وحفص وأبو عمرو وهشامٌ «وعُيُون والعُيونُ» بضمِّ العين حيث وقعَ، والباقونَ بكسر العين.

(٤٦) ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على إرادة القولِ. وقرىء بقطعِ الهمزةِ وكسرِ الخاء على أنه ماضٍ فلا يُكْسَرُ التنوينُ. ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ سالمينَ أو مُسَلَّماً عليكم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الآفة والزوالَ.

(٤٧) ﴿وَنَزَعْنَا﴾ في الدنيا بما أَلَّفَ بينَ قلوبهم، أو في الجنة بتطييبِ نفوسِهم. ﴿مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ من حقدٍ كان في الدنيا، وعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه: أرجُو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم[(٤)]. أو من التحاسدِ على درجاتِ الجنة ومراتبِ القُرْبِ. ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حالٌ من الضمير في جناتٍ أو فاعلِ ادْخُلُوها أو الضميرِ في آمنينَ أو الضميرِ المضافِ إليه، والعاملُ فيها معنىٰ الإضافة، وكذا قولُه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾. ويجوز أن يكونا صفتينِ لإخواناً، أو حالٌ من ضميره لأنه بمعنى مُتَصَافِينَ، وأن يكون متقابلينَ حالاً من المستقرِّ في على سُرُرٍ.

---

(١) الرحمن: «٤٦».
(٢) الرحمن: «٦٢».
(٣) محمد: «١٥».
(٤) أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه وابن أبي شيبة والطبراني (فتح القدير ٣/١٣٦).

(٤٨) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ استئنافٌ، أو حالٌ بعد حال، أو حالٌ من الضمير في متقابلين. ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإنَّ تمامَ النعمة بالخلود.

(٤٩) ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

(٥٠) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ فَذْلَكَةُ ما سبق مِنَ الوعْدِ والوعيد وتقريرٌ له. وفي ذِكْرِ المغفرةِ دليل على أنه لم يُرِدْ بالمتقينَ مَنْ يتقي الذنوبَ بأسْرِها كبيرِها وصغيرِها، وفي توصيفِ ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيبِ ترجيحُ الوعدِ وتأكيدُه، وفي عطف.

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ
بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ
الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾

(٥١) ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عَلَى نبيء عبادي تحقيقٌ لهما بما يُعتبَرون به[١].

(٥٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا سلاماً. ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفونَ، وذلك لأنهم دخلوا بغير إذنٍ وبغير وقتٍ. ولأنَّهم امتنعُوا من الأكْلِ. والوَجَلُ اضْطرابُ النَّفْسِ لِتوَقُّعِ ما تكرهُ.

(٥٣) ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ وقُرِىءَ لا تَأجلْ مَن أوْجَلَه، ولا تُوَاجِلْ من وَاجَلَه بمعنى أوجَلَه. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوَجَلِ، فإن المبشَّر لا يُخَافُ منه. وقرأ حمزة نَبْشُرك بفتح النون والتخفيفِ مِنَ البِشْر. ﴿بِغُلَامٍ﴾ هو إسحاقُ عليه السلام لقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾[٢]. ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغَ.

(٥٤) ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ تعجُبٌ مِنْ أنْ يُولَدَ له مع مسِّ الكِبَرِ إيَّاهُ، أو إنكارٌ لأنْ يُبَشَّرَ به في مِثْلِ هذه الحالةِ، وكذا قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي فبأي أعجوبةٍ تبشرون، أو فبأي شيءٍ تبشرون فإن البشارةَ بما لا يُتَصَوَّرُ وقوعُه عادةً بشارةٌ بغير شيء. وقرأ ابن كثير بكسرِ النون مشددةً في كلِّ القرآنِ على إدغام نونِ الجمعِ في نونِ الوقاية وكَسْرِها[٣]، وقرأ نافعٌ بكسرها مخففةً على حذفِ نون الجمع استثقالاً لاجتماعِ الْمِثْلَيْنِ ودلالةً بإبقاءِ نونِ الوقاية وكسرِها على الياء[٤].

(٥٥) ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بما يكونُ لا محالةَ، أو باليقينِ الذي لا لَبْسَ فيه، أو بطريقةٍ هي حقٌّ

---

(١) لم يتعرض لعنوان رسالة الملائكة لأنهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيم عليه السلام، بل أُرسِلوا إلى قوم لوطٍ عليه السلام (س/٥ ٨١).

(٢) الصافات: «١١٢».

(٣) أي «تُبَشِّرُونِّ».

(٤) أي «تُبَشِّرونِ».

وهو قول الله تعالى وأمْرُهُ. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ من الآيسينَ من ذلك فإنَّه تعالى قادرٌ على أن يخلُقَ بشراً من غيرِ أَبَوَيْنِ فكيف من شيخٍ فَانٍ وعجوزٍ عاقرٍ. وكان استعجابُ إبراهيمَ عليه السلام باعتبارِ العادةِ دونَ القدرةِ، ولذلك:

(٥٦) ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ المخطئونَ طريقَ المعرفةِ فلا يعرفونَ سَعَةَ رحمة الله تعالى وكمالَ عِلْمِه وَقُدْرتِه كما قال تعالى: ﴿لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[١]. وقرأ أبو عمرو والكسائي يَقْنِطُ بالكسر، وقرىء بالضمِّ، وماضيهما قَنَطَ بالفتح.

(٥٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي فما شأنكم الذي أُرْسِلْتُم لأجْلِه سوى البشارةِ، ولعلَّه علمَ أنَّ كمالَ المقصودِ ليسَ البشارةَ لأنَّهم كانوا عَدَداً والبشارةُ لا تحتاجُ إلى العَدَدِ، ولذلكَ اكتفى بالواحدِ في بشارة زكريا ومريمَ عليهما السلام، أو لأنهم بشَّروهُ في تضاعيفِ الحال لإزالة الوَجَلِ ولو كانتْ تمامَ المقصودِ لابتدؤوا بها[٢].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

(٥٨) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعني قومَ لوط[٣].

(٥٩) ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إن كان استثناءً مِنْ قوم كان منقطِعاً إذِ القومُ مقيَّدٌ بالإجرامِ، وإنْ كان استثناءً منَ الضمير في مجرمينَ كان مُتَّصِلاً، والقومُ والإرسالُ شامِلَيْنِ للمجرمينَ وآلِ لوطٍ المؤمنينَ به وكأن المعنَى: إنا أرسلنا إلى قوم أجرمَ كلُّهم إلا آلَ لوطٍ منهم لنُهلِكَ المجرمين ونُنَجِّي آلَ لوط منهم، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي مما يُعَذَّبُ به القومُ. وهو استئنافٌ إذا اتصلَ الاستثناءُ ومتصلٌ بآلِ لوطٍ جارٍ مَجْرَى خبرٍ لكنْ إذا انقطعَ، وعلى هذا جازَ أن يكونَ قولُه:

(٦٠) ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناءٌ من آل لوط، أو من ضميرِهم، وعلى الأول لا يكونُ إلا مِنْ ضميرِهم لاختلافِ الحُكمَيْنِ اللهمَّ إلا أنْ يَجْعَلَ إنا لمنجوهم اعتراضاً. وقرأ حمزة والكسائي لَمُنْجُوهُم مخففاً. ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقينَ مع الكَفَرةِ لِتَهْلِكَ معهم. وقرأ أبو بكر عن عاصم قَدَرْنا هنا وفي النمل بالتخفيف[٤]. وإنما عُلِّقَ[٥] ـ والتعليقُ من خواصِّ أفعالِ القلوبِ ـ لِتَضَمُّنِه معنى العِلْم. ويجوزُ

---

(١) يوسف: «٨٧».
(٢) وتوسيط «قال» بين قوله السابق وقوله «فما خطبكم...» للإيذان بعدم اتصال الثاني بالأول وعدم ابتنائه عليه. ثم إن خطابه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة ـ بعدما كان خطابه السابق مجرداً عن ذلك ـ لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة، بل لهم شأن آخر (س٥/ ٨٢).
(٣) ووصفهم بالإجرام وبطريق التنكير لذمهم والاستهانة بهم (س٥/ ٨٢).
(٤) النمل: «٥٧» «قَدَرْنَاها».
(٥) قوله (وإنما عُلِّق) أي فعل التقدير «قدَّرنا».
والتعليق هو: ترك العمل لفظاً دون معنًى لمانع... وارجع لبيان معنى التعليق في شرح ابن عقيل (١/ ٤٣٣) باب=

أن يكونَ قَدَّرْنَا أُجْرِيَ مَجْرى قُلنا لأن التقديرَ بمعنى القضاءِ قولٌ، وأصلُه جَعْلُ الشيءِ على مقدارِ غيرِه. وإسنادُهم إياه إلى أنفسِهم ـ وهو فعل الله سبحانه وتعالى ـ لِمَا لهم من القُرْبِ والاختصاصِ به.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟
فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ
مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾

(٦١) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[١].

(٦٢) ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ تنكِرُكُم نفسي وتَنْفُرُ عنكم مخافةَ أن تطرقوني بشرٍّ.

(٦٣) ﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي ما جئناكَ بما تنكرُنا لأجلِهِ بل جئناكَ بما يَسُرُّكَ ويشفي لك من عدوِّك، وهو العذاب الذي توعَّدتَهم به فيمترونَ فيه[٢].

(٦٤) ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ باليقين من عذابِهم. ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ فيما أخبرْناكَ به.

(٦٥) ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ فاذهبْ بهم في الليل. وقرأ الحجازيانِ[٣] بوصْلِ الهمزة من السُّرى وهما بمعنى، وقرىء فَسِرْ مِنَ السَّيْرِ. ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ في طائفة من الليل وقيل في آخره قال:

افتحِي البَابَ وَانْظُري فِي النُّجُومِ ... كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ

﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ وكن على أثَرِهم تذودُهم وتسرعُ بهم وتَطَّلِعُ على حالهم[٤]. ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ لينظرَ ما وراءه فيرى من الهولِ ما لا يطيقُه، أو فيصيبُه ما أصابَهم، أو ولا ينصرفْ أحدُكم ولا يتخلفِ امرؤٌ لغرض فيصيبه العذاب. وقيل نُهُوا عن الالتفاتِ ليوطِّنُوا نفوسَهم على المهاجرة. ﴿ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ إلى حيثُ أمَرَكُمُ اللهُ بالمضي إليه وهو الشامُ أو مِصْرُ، فَعُدِّيَ وامضُوا إلى حيثُ وتؤمرون إلى ضميرِهِ المحذوفِ على الاتِّساع[٥].

= ظن وأخواتها.

(١) قوله «المرسلون» حيث وضع المظهر موضع الضمير للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الإهلاك والتنجية (س٥/ ٨٣).

(٢) ولعل تقديم هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام بإهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهما (س٥/ ٨٤).

(٣) الحجازيان هما: نافع وابن كثير.

(٤) ولعل إيثار الاتّباع على السَّوْق ـ مع أنه المقصود بالأمر ـ للمبالغة في ذلك، إذ السوْق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر (س٥/ ٨٤).

(٥) وإيثار المضيّ إلى ما ذُكر على الوصول إليه واللحوق به للإيذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين (س٥/ ٨٤).

(٦٦) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي وأوحَينا إليه مَقضِيّاً، ولذلك عُدِّيَ بإلى. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مبهم يُفسره: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ ومحلُّه النَّصْبُ على البدلِ منه، وفي ذلك تفخيمٌ للآمرِ وتعظيمٌ له. وقرىء بالكسر على الاستئنافِ، والمعنى: أنهم يُستأصَلُونَ عن آخرهم حتى لا يبقَى منهم أحد[١]. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلينَ في الصُّبحِ، وهو حالٌ من هؤلاء أو منَ الضمير في مقطوع، وجمْعُهُ للحملِ على المعنَى فإنَّ دابِرَ هؤلاء في معنًى مدبري هؤلاءِ.

(٦٧) ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ سَدوم. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضيافِ لوطٍ طمعاً فيهم.

(٦٨) ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحةِ ضيفي فإنَّ مَنْ أُسِيءَ إلى ضيفه فقدْ أُسِيءَ إليه.

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ركوبِ الفاحشة. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تُذِلُّوني بِسَبَبِهِم من الخِزْيِ وهو الهوانُ، أو لا تُخجِلُوني فيهم من الخَزَايةِ وهو الحياءُ.

(٧٠) ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على أن تجيرَ منهم أحداً أو تمنعَ بيننا وبينَهم فإنَّهم كانوا يتعرضونَ لكلِّ أحد وكان لوطٌ يمنعهم عنه بِقَدَرِ وُسْعِهِ، أو عن ضيافةِ الناس وإنزالِهم.

(٧١) ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ يعني نساءَ القومِ فإن نبيَّ كلِّ أمة بمنزلةِ أبيهم، وفيه وجوهٌ ذُكِرَتْ في سورة هود[٢]. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ قضاءَ الوَطَرِ، أو ما أقولُ لكم.

(٧٢) ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قَسَمٌ بحياة المخاطَبِ، والمخاطَبُ في هذا القسم هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام وقيلَ لوطٌ عليه السلام قالتِ الملائكةُ له ذلك، والتقديرُ لعمركَ قسمي، وهو لغةٌ في العُمْرِ يختصُّ به القسَمُ لإيثار الأخفِّ فيه لأنه كثيرُ الدَّوْرِ على ألسنَتِهم. ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ لفي غِوايتِهم أو شدةِ غِلْمَتِهم التي أزالتْ عقولَهم وتمييزَهم بين خطئِهم والصوابِ الذي يُشَارُ بِهِ إليهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرونَ فكيفَ يسمعون نُصْحَكَ. وقيلَ الضميرُ لقريشٍ، والجملة اعتراضٌ.

(٧٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني صيحةً هائلةً مهلكةً. وقيل صيحةُ جبريلَ عليه السلام. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقتَ شروقِ الشمس.

---

(١) وإيثار اسم الإشارة «هؤلاء» على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي مدار ثبوت الحكم.
وإيراد صيغة المفعول «مقطوع» بدل صيغة المضارع لكونها أدخل في الدلالة على الوقوع.
وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بذلك، وتأخيره عن الجار والمجرور، وإبهامه أولاً ثم تفسيره ثانياً من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفىٰ (س٥/ ٨٥).

(٢) هود: «٧٨».

فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ
مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ
مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

(٧٤) ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾ عاليَ المدينةِ أو عالي قُراهُم. ﴿سَافِلَهَا﴾ وصارت مُنقلِبَةً بهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجِّر أو طين عليه كتابٌ من السَّجل. وقد تقدَّم مزيدُ بيانٍ لهذه القصةِ في سورة هود.

(٧٥) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفكرينَ المتفرِّسينَ الذينَ يَتشبَّتُونَ في نظرهم حتى يعرفُوا حقيقةَ الشيء بِسِمَتِهِ.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإن المدينةَ أوِ القُرى. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابتٍ يسلُكه الناسُ ويرونَ آثارَها.

(٧٧) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورُسُلِه.

(٧٨) ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ همْ قومُ شعيبٍ كانوا يسكنونَ الغَيْضَةَ فبعثه الله إليهم فكذَّبوه فأُهلِكوا بالظُّلَّةِ. والأيكةُ الشجرةُ المتكاثفةُ.

(٧٩) ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالإهلاكِ. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سدومَ والأيكةَ. وقيل الأيكةُ ومَدْينُ فإنه كان مبعوثاً إليهما فكان ذِكْرُ إحداهُما منبِّهاً على الأُخرى. ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لَبِطَرِيقٍ واضحٍ. والإمام اسمُ ما يُؤْتَمُّ به فسُمِّيَ به الطريقُ ومَطْمَرُ البناءِ واللوحُ لأنَّها مما يُؤْتَمُّ به.

(٨٠) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يعني ثمودَ كذَّبوا صالحاً، ومَنْ كذَّب واحداً من الرُّسُلِ فكأنما كذَّبَ الجميعَ. ويجوز أن يكونَ المراد بالمرسلينَ صالحاً ومَنْ معهُ من المؤمنينَ، والحِجْرُ وادٍ بينَ المدينةِ والشأمِ يسكنونَه.

(٨١) ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني آياتِ الكتاب المُنْزَلِ على نبيِّهم، أو معجزاتِه كالناقةِ وسَقْيِهَا وشُرْبِها ودَرِّها، أو ما نُصِبَ لهم من الأدلة.

(٨٢) ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ من الانهدامِ ونَقْبِ اللصوصِ وتخريبِ الأعداءِ لوثاقَتِها، أو مِنَ العذابِ لِفَرْطِ غَفْلَتِهم أو حُسْبَانِهم أنَّ الجبالَ تحميهم منه.

(٨٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

(٨٤) ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناءِ البيوتِ الوثيقةِ واستكثارِ الأموالِ والعُدَدِ.

(٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ﴾ إلا خَلْقاً مُلْتبِساً بالحقِّ لا يلائِمُ استمرارَ الفسادِ ودوامَ الشرورِ، فلذلك اقتضتِ الحكمةُ إهلاكَ أمثالِ هؤلاءِ وإزاحةَ فسادهم منَ الأرض. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ﴾ فينتقمُ اللهُ لك فيها ممن كذَّبكَ. ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ولا تعجلْ بانتقامٍ منهم وعامِلْهُم معاملةَ الصَّفُوحِ الحليم. وقيل هو منسوخٌ بآية السيفِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾

(٨٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقك وخلقَهم وبيدِهِ أَمْرُكَ وأَمْرُهُم. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالكِ وحالِهم فهو حَقيقٌ بأن تَكِلَ ذلكَ إليه ليحكمَ بينكم، أو هوَ الذي خلقكم وعَلِمَ الأصْلَحَ لكم، وقد علم أن الصفحَ اليومَ أصلحُ، وفي مصحفِ عثمانَ وأُبَيٍّ رضي الله عنهما هو الخالقُ، وهو يَصْلُحُ للقليل والكثير والخلاَّقُ يختص بالكثير.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ سبعَ آياتٍ وهي الفاتحة. وقيل سبعَ سُوَرٍ وهي الطِّوالُ وسابعتُها الأنفالُ والتوبةُ فإنهما في حُكْمِ سورةٍ ولذلك لم يُفْصَلْ بينَهما بالتسمية. وقيلَ التوبةُ وقيل يونسُ أو الحواميم السَّبْع. وقيلَ سَبْعُ صحائفَ وهيَ الأسباعُ[1]. ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ بيانٌ للسَّبْع، والمثاني من التثنيةِ أو الثَّنَاءِ فإنَّ كلَّ ذلكَ مثْنَى تُكَرَّرُ قراءَتَه، أو ألفاظُه، أو قَصَصُهُ ومواعظُه، أو مُثْنيٌّ عليه بالبلاغة والإعجاز، أو مُثْنٍ على الله بما هو أهلُه من صفاته العُظْمى وأسمائِه الْحُسْنَى. ويجوزُ أنْ يُرادُ بالمثاني القرآنُ أو كتبُ الله كلُّها فتكونُ مِنْ لِلتَّبعِيضِ. ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ إنْ أُرِيْدَ بالسَّبْعِ الآياتِ أو السُّورِ فَمِنْ عطفِ الكُلِّ على البعضِ أو العامِّ على الخاصِّ. وإن أُرِيدَ بهِ الأسباعُ فَمِنْ عَطْفِ أحدِ الوصْفَيْنِ على الآخر.

(٨٨) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تَطْمَحْ بِبَصَرِكَ طُمُوحَ راغبٍ. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار، فإنهُ مُسْتَحْقَرٌ بالإضافةِ إلى ما أُوتِيْتَهُ فإنه كمالٌ مطلوبٌ بالذات مُفْضٍ إلى دوام اللذاتِ. وفي حديثِ أبي بكر رضيَ الله تعالى عنه «مَنْ أُوتِيَ القرآنَ فرأى أنَّ أحداً أُوتِيَ مِنَ الدنيا أفضلَ مما أُوتِيَ فقدْ صَغَّرَ عظيماً وعظَّمَ صغيراً»[2]. وروي أنهُ عليه الصلاة والسلام وَافَى بِأَذْرِعَاتٍ سَبْعَ قوافلَ ليهودِ بني قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ فيها أنواعُ الْبَزِّ والطِّيبِ والجواهر وسائر الأمتعةِ، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموالُ لنا لَتَقَوَّيْنَا بها وأنفقناها في سبيل الله فقال لهم: «لقد أُعْطِيتُم سَبْعَ آياتٍ هيَ خَيْرٌ مِنْ هذه القوافلِ السَّبْعِ»[3]. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم لم يؤمنوا. وقيل إنهم المتمتعون به. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ

---

(١) أي سبعة أسباع القرآن. وانظر «زاد المسير» (٤/ ٤١٢ ـ ٤١٦) والطبري «جامع البيان» للطبري (٨/ج١٤/ ٥٤ ـ ٥٥) والدر المنثور (٥/ ٩٥ ـ ٩٦) ففيها تفصيل هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٩٣ ـ ٩٤ رقم ٢٤٣): «لم أجده عن أبي بكر. وأخرجه ابن عدي ـ في الكامل (٢/ ٧٨٧) ـ في ترجمة حمزة النصيبي، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود رفعه «من تعلم القرآن فظنَّ أنَّ أحداً أغنى منه، فقد حقر عظيماً وعظم صغيراً» وحمزة اتهموه بالوضع.
وأخرجه إسحاق والطبري من حديث عبدالله بن عمر بلفظ «من أعطى القرآن، فرأى أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظم الله ـ الحديث» ا هـ.
● قال ابن عدي عن حمزة هذا «وكل ما يرويه أو عامته مناكير موضوعة والبلاء منه ليس ممن يروي عنه، ولا ممن يروي هو عنهم» هـ.
والخلاصة أن الحديث موضوع والله أعلم.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٧) عن الحسين بن الفضل، قال: إن سبع قوافل وافت من بصري =

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضعْ لهم وارفُقْ بهم.

(٨٩) ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أُنْذِرُكم ببيانٍ وبرهانٍ أنَّ عذابَ اللهِ نازلٌ بكم إن لم تؤمنوا.

كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾

(٩٠) ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ مثلَ العذابِ الذي أنزلناه عليهم، فهو وصف لمفعولِ النذيرِ أُقِيمَ مُقَامَه، والمقتسِمُونَ همُ الاثنا عشرَ الذينَ اقتسموا مداخلَ مكةَ أيامَ الموسِمِ لِيُنَفِّرُوا الناسَ عن الإيمان بالرسولِ ﷺ. فأهلكهم الله تعالى يومَ بَدْرٍ، أو الرهْطُ الذينَ اقتسموا أي تقاسَمُوا على أن يُبَيِّتُوا صالحاً عليه الصلاة والسلام. وقيل هو صفةُ مَصْدَرٍ محذوفٍ يدلُّ عليه: «ولقد آتيناكَ» فإنهُ بمعنَى أنزلْنا إليك، والمقتسمون هم الذين جعلوا القرآنَ عِضِينَ حيثُ قالوا عِناداً: بعضُه حقٌّ موافِقٌ للتوراةِ والإنجيلِ وبعضُه باطلٌ مخالِفٌ لهما، أو قَسَّمُوهُ إلى شِعْرٍ وسِحْرٍ وكَهَانَةٍ وأساطيرِ الأولين، أو أهلُ الكتابِ آمنوا ببعضِ كُتُبِهم وكفَروا ببعضٍ على أنَّ القرآنَ ما يقرأ مِنْ كتبهم، فيكون ذلك تسليةً لرسولِ الله ﷺ، وقولُه: «لا تَمُدَّنَّ عينيك» إلخ اعتراضاً مُمِدًّا لها.

(٩١) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أجزاءَ جَمْعُ عِضَةٍ وأصلها عِضْوَةٍ من عَضَى الشاةَ إذا جعلَها أعضاءَ، وقيلَ فَعْلَةٌ مِنْ عَضَهْتَهُ إذا بَهَتَّهُ وفي الحديثِ: «لعنَ رسولُ الله ﷺ العاضِهةَ والمستعْضِهَةِ»[1]. وقيلَ أسْحَاراً، وعن عِكرمةَ العِضَةُ السِّحْرُ. وإنما جُمِعَ جَمْعَ السَّلامةِ جَبْراً لما حُذِفَ منه. والموصولُ بِصِلَتِهِ صِفةٌ للمقْتَسِمِينَ، أو مبتدأٌ خبرُه:

(٩٢) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(٩٣) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ منَ التقسيمِ أو النَّسَبِ إلى السِّحرِ فنجازيْهِم عليه. وقيل هو عامٌّ في كلِّ ما فعلُوا من الكفر والمعاصي.

(٩٤) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجْهَرْ به مِنْ صَدَعَ بالْحُجَّةِ إذا تكلَّم بها جَهَاراً، أو فافْرُقْ به بينَ الحقِّ والباطلِ، وأصلُه الإبانةُ والتمييزُ. وما مصدريةٌ أو موصولةٌ، والراجِعُ محذوفٌ أي بما تُؤْمَرُ بِهِ مِنَ الشرائع. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تلتفتْ إلى ما يقولون.

= وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد... فذكره.
وقال الواحدي: ويدل على صحة هذا قوله على أثرها «لا تمدنَّ عينيك» الآية.
● أذرعات: بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة وكسر الراء المهملة: موضع بالشام (الصحاح. مادة: ذرع).
● البز: الثياب والأمتعة.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل في ترجمة سلمة بن وهرام وأخرجه أبو يعلى. وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، قال ابن حجر وهما ضعيفان، وله شاهد عند عبد الرزاق من روايته عن ابن جريج عن عطاء (الكافي الشاف ص٩٤ رقم ٢٤٤)
والعاضهة والمستعضهة هما: الساحرة والمستسحرة.

إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

(٩٥) ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ بِقَمْعِهم وإهلاكِهم. قيلَ كانوا خمسةً من أشراف قريش: الوليدُ بنُ المغيرة، والعاصُ بن وائلٍ، وعديُّ بنُ قيس، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، والأسودُ بنُ المطَّلِبِ، يبالغونَ في إيذاءِ النبيِّ ﷺ والاستهزاءِ به فقال جبريلُ عليه السلام لرسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أَكْفِيَكَهُمْ. فَأَوْمَأَ إلى ساقِ الوليدِ فمرَّ بِنِبَالٍ فَتَعَلَّق بثوبِه سَهْمٌ فلم ينعطِفْ تَعَظُّماً لأخذِهِ فأصاب عِرْقاً في عَقِبِهِ فقطعَهُ فماتَ، وأومأ إلى أخمصِ العاصِ فدخلتْ فيه شوكةٌ فانتفختْ رِجْلُه حتَّى صارتْ كالرَّحَى وماتَ، وأشارَ إلى أنْفِ عديِّ بنِ قيس فامتخطَ قيحاً فماتَ، وإلى الأسودِ بنِ عبدِ يغوثَ وهو قاعدٌ في أصلِ شجرةٍ فجعلَ ينطحُ برأسِه الشجرةَ ويضربُ وجْهَهُ بالشوكِ حتى مات، وإلى عَيْنَيِ الأسودِ بنِ المطَّلبِ فَعَمِيَ[(١)].

(٩٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ أمْرِهم في الدَّارَيْنِ.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الشِّركِ والطعنِ في القرآنِ والاستهزاءِ بك.

(٩٨) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافزَعْ إلى اللهِ تعالَى فيما نَابَكَ بالتسبيحِ والتحميدِ يَكْفِكَ ويكشفِ الغمَّ عنك، أو فنَزِّهْهُ عمَّا يقولون حامِداً له على أنْ هداكَ للحقِّ. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ من المصلِّينَ، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا حَزَبَه أَمْرٌ فَزِعَ إلى الصلاة[(٢)].

(٩٩) ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي الموتُ فإنهُ متيَقَّنٌ لَحاقُهُ كلَّ حيٍّ مخلوقٍ، والمعنى فاعْبُدْه ما دُمْتَ حيّاً ولا تُخِلَّ بالعبادةِ لحظةً[(٣)]. عنْ رسولِ الله ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الحِجْرِ كان له من الأجر عَشْرُ حسنات بِعَدَدِ المهاجرينَ والأنصارِ والمستهزئينَ بمحمدٍ ﷺ»[(٤)] واللهُ أعلم.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/٣١٦ ـ ٣١٨) من حديث ابن عباس بإسناد حسن.
وأخرجه الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٧/٤٦ ـ ٤٧) وقال الهيثمي: «فيه محمد بن عبدالحكيم النيسابوري، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».
انظر «الكافي الشافِ» (ص٩٤ رقم ٢٤٥).

(٢) أخرجه ابن جرير بهذا اللفظ (١/٢٦٠) وأخرجه أحمد (٥/٣٨٨) وأبو داود (١٣١٩) بلفظ: كان إذا حزبه أمر صلى، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٥٣).
والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع (٥/٤١٥) ثم أحاله إلى تخريج المشكاة رقم (١٣٢٥) وقال هناك: إسناده ضعيف.
لكن الحديث فيه محمد بن عبدالله الدؤلي، وهو مقبول ولكن لا متابع له، فالحديث ضعيف كما في تخريج الفتح السماوي (ص١٧٠).

(٣) وإسناد الإتيان إلى الموت للإيذان بأنه متوجه إلى الحيّ طالب للوصول إليه (س٥/٩٣).

(٤) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٣٩ ـ ٢٤٠).

سُورَةُ النَّحلِ

ترتيبها ١٦ — آياتها ١٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا
دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

سورةُ النحلِ مكيةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ في آخرِها وهيَ مائةٌ وثمانٍ وعشرونَ آية[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كانوا يستعجلونَ ما أوْعَدَهُمُ الرسولُ ﷺ من قيامِ الساعة، أو إهلاكِ اللهِ تعالى إيَّاهم كما فعلَ يومَ بدرٍ استهزاءً وتكذيباً، ويقولون إن صحَّ ما تقولُه فالأصنامُ تشفع لنا وتخلِّصُنا منه فنزلتْ. والمعنى أن الأمرَ الموعودَ به بمنزلة الآتي المتحقِّقِ مِنْ حيثُ إنه واجبُ الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعَه فإنه لا خيرَ لكم فيه ولا خلاصَ لكم منه[٢]. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرَّأَ وجَلَّ عن أن يكونَ له شريكٌ فيدفعَ ما أرادَ بهم[٣]. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالتاء على وِفْقِ قوله: ﴿فلا تستعجلُوه﴾ والباقونَ بالياء على تلوينِ الخطابِ. أو على أن الخطابَ للمؤمنين أو لهم ولغيرهم، لما رُوِيَ أنه لما نزلتْ «أتى أمرُ الله» فوثبَ النبيُّ ﷺ ورفعَ الناسُ رؤوسَهم فنزلت «فلا تستعجلُوه»[٤].

---

(١) انظر «زاد المسير» فصل في نزولها ـ أي سورة النحل (٤/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦). و«الدر المنثور» (٥/ ١٠٧).

(٢) عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققه في نفسه وإتيانَه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب (س٥/ ٩٤).

(٣) وصيغة الاستقبال «يشركون» للدلالة على تجدد شركهم واستمراره.
والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم (س٥/ ٩٥).

(٤) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٢٨٤) عن ابن عباس وبدون إسناد. وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس

(٢) ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحي أو القرآنِ فإنه يُحْيِي به القلوبَ الْمَيْتَةَ بالجهلِ، أو يقومُ في الدين مقامَ الروحِ في الجسد، وذِكْرُهُ عقيبَ ذلكَ إشارةٌ إلى الطريق الذي به عَلِمَ الرسولُ ﷺ ما تحقَّقَ موعدُهم بهِ ودُنُوَّهُ وإزاحةٌ لاستبعادِهم اختصاصَه بالعلمِ به. وقرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرو يُنْزِلُ من أَنْزَلَ، وعن يعقوبَ مثلَه، وعنه تَنَزَّلُ بمعنَى تَتَنَزَّلُ. وقرأ أبـو بكر تُنَزَّلُ على المضارع المبني للمفعولِ من التنزيل. ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بأمره أو مِنْ أجْلِهِ. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أن يتَّخِذَه رسولاً. ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ بأنْ أنذِرُوا أي أعلِموا مَنْ نَذَرْتُ بكذا إذا عَلَّمْتُه. ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أنَّ الشأنَ لا إله إلا أنا فاتقونِ[١]، أو خَوِّفُوا أهلَ الكفرِ والمعاصي بأنه لا إله إلا أنا، وقولُه فاتقونِ رجوعٌ إلى مخاطَبَتِهم بما هو المقصودُ. وأنْ مفسِّرةٌ لأنَّ الرُّوحَ بمعنَى الوحْيِ الدالِّ على القول، أو مصدريةٌ في موضِعِ الجرِّ بدلاً مِنَ الرُّوحِ أو النَّصْبِ بنزعِ الخافضِ، أو مخففةٌ من الثقيلة. والآيةُ تدل على أنَّ نزولَ الوحي بواسطةِ الملائكةِ، وأن حاصِلَه التنبيهُ على التوحيدِ الذي هو مُنْتَهَى كمالِ القوةِ العلميةِ والأمرِ بالتقوى الذي هو أقْصَى كمالِ القوة العمليةِ، وأنَّ النبوةَ عطائيةٌ، والآياتُ التي بعدَها دليلٌ على وحدانيتهِ مِنْ حيثُ إنها تدلُّ على أنه تعالى هو الموجِدُ لأُصُولِ العالَمِ وفروعهِ على وِفْقِ الحكمةِ والمصلحةِ، ولو كان له شريكٌ لَقَدَرَ على ذلكَ فيلزمُ التمانُعُ.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أوجدَهما على مقدارٍ وشكلٍ وأوضاعٍ وصفاتٍ مختلفةٍ قدَّرها وخصَّصَها بحكمته. ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ منهما أو مما يفتقرُ في وجودِه أو بقائِه إليهما ومما لا يقدرُ على خَلْقِهما. وفيه دليلٌ على أنه تعالى ليسَ من قبيلِ الأَجْرَامِ.

(٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ جمادٍ لا حِسَّ بها ولا حِراكَ سيَّالةً لا تحفظُ الوضْعَ والشَّكْلَ. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ مِنْطِيقٌ مجادِلٌ. ﴿مُّبِينٌ﴾ للحجَّة أو خصيمٌ مكافحٌ لخالِقِهِ قائلٌ: مَنْ يُحيي العظامَ وهي رميمٌ؟. روي أن أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ أَتَى النبيَّ ﷺ بِعَظْمٍ رميمٍ وقال: يا محمدُ أَتَرَى اللهُ يُحْيِيْ هذا بعدَ ما قد رَمَّ؟. فنزلتْ[٢].

(٥) ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ الإبلَ والبقرَ والغنمَ. وانتصابُها بِمُضْمَرٍ يفسِّره: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أو بالعطفِ على الإنسانِ، وخلقَها لكم بَيَانُ ما خُلِقَتْ لأَجْلِهِ وما بعدَه تفصيلٌ له. ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ ما يُدْفَأُ به فَيَقِي البَرْدَ. ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ نسلُها ودرُّها وظُهورُها. وإنما عبَّر عنها بالمنافعِ ليتناولَ عِوَضَها[٣]. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي تأكلون ما يُؤكَلُ منها من اللحوم والشحوم والألبان. وتقديمُ الظرفِ للمحافظةِ على رؤوسِ الآي، أو لأنَّ الأكْلَ منها هو المعتادُ المعتمَدُ عليه في المعاشِ وأما الأكلُ مِنْ سائرِ الحيواناتِ المأكولةِ فَعَلَى سبيلِ التداوي أو التفكُّهِ.

= (فتح القدير ٣/ ١٥٠).

(١) وتصدير الجملة بـ«أنه» للإيذان بداية بفخامة مضمونها، مع ما فيه من زيادة تقرير له في الذهن (س٥/ ٩٦).

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٨ ـ ٢٧٩). و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٦٨) و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٨).

(٣) وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقي إلى الأعلى (س٥/ ٩٧).

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينةٌ. ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تَرُدُّونها مِن مراعيها إلى مَرَاحِها بالعشيِّ. ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تُخرِجُونَها بالغَدَاةِ إلى المراعي فإنَّ الأَفْنِيَةَ تتزينُ بها في الوقتَيْنِ ويُجَلُّ أهلُها في أَعْيُنِ الناظرينَ إليها. وتقديمُ الإراحةِ لأنَّ الجَمَالَ فيها أَظْهَرُ فإنها تُقْبِلُ ملأى البطونِ حافلةَ الضروعِ، ثم تأوي إلى الحظائرِ حاضرةً لأَهْلِها. وقُرِىءَ حيناً على أنَّ تُريحون وتَسْرحون وصْفَانِ له بمعنَى تريحون فيه وتسرحُون فيه.

(٧) ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أَحْمالكم. ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ أي إن لم تكنِ الأنعامُ ولم تُخْلَقْ فَضلاً أنْ تحملُوها على ظهوركم إليه. ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ إلا بِكُلْفَةٍ ومشقَّةٍ. وقرىء بالفتح وهو لغةٌ فيه، وقيل المفتوحُ مصدرُ شُقَّ الأمرُ عليه وأصلُه الصَّدْعُ والمكسورُ بمعنى النِّصْفِ، كأنه ذهبَ نِصْفُ قُوَّتِهِ بالتعب. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ رَحِمَكُم بِخَلْقِهَا لانتفاعِكُم وتيسيرِ الأمرِ عليكم[١].

(٨) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ عطفٌ على الأنعامِ. ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي لِتَرْكَبُوها وتَتَزَيَّنُوا بها زينةً، وقيلَ هيَ معطوفةٌ على محلِّ لتركبوها. وتغييرُ النظمِ لأنَّ الزينةَ بفعلِ الخالقِ والركوبَ ليس بفعلِه، ولأنَّ المقصودَ من خَلْقِها الركوبُ وأما التزيُّنُ بها فحاصلٌ بالعرضِ. وقُرِىءَ بغيرِ واوٍ، وعلى هذا يُحْتَمَلُ أن يكونَ عِلَّةً لتركَبُوها أو مصدراً في موضعِ الحالِ من أَحَدِ الضميرَيْنِ أي: متزينينَ أو مُتَزَيَّناً بها. واسْتُدِلَّ بهِ على حُرْمَةِ لحومِها، ولا دليلَ فيه، إذ لا يلزمُ من تعليل الفعل بما يُقْصَدُ منه غالباً أن لا يُقْصَدَ منه غيرُه أصلاً، ويدلُّ عليه أنَّ الآيَةَ مكيةٌ وعامةُ المفسِّرينَ والمحدِّثينَ على أن الحُمُرَ الأهليةَ حُرِّمَتْ عامَ خيبرَ. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما فصَّل الحيواناتِ التي يُحْتَاجُ إليها غالباً احتياجاً ضرورياً أو غيرَ ضروريٍّ أَجْمَلَ غيرَها، ويجوزُ أن يكونَ إخباراً بأن له منَ الخلائقِ ما لا عِلْمَ لنا به، وأنْ يُرادَ به ما خلقَ في الجنةِ والنارِ مما لم يخطرْ على قلبِ بَشَرٍ[٢].

(٩) ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ بيانُ مستقيمِ الطريقِ الموصل إلى الحق، أو إقامةُ السبيلِ وتعديلها رحمةً وفضلاً، أو عليهِ قَصْدُ السبيل يصلُ إليه مَنْ يَسْلُكُه لا محالةَ يقالُ سبيلٌ قَصْدٌ وقاصِدٌ أي مستقيمٌ، كأنهُ يقصدُ الوجهَ الذي يقصدُهُ السالكُ لا يميلُ عنه. والمرادُ من السبيل الجِنْسُ ولذلك أضاف إليه القَصْدَ وقال: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ حائدٌ عن القصد أو عن الله. وتغييرُ الأسلوبِ لأنه ليس بحقٍّ

---

(١) وتغيير النظم إلى الجملة الفعلية «تحمل...» الدالة على مجرد الحدوث للإشعار بأن هذه النعمة ليست في العموم ـ بحسب المنشأ وبحسب المتعلق ـ وفي الشمول للأوقات والاطراد في الأحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فإنها بحسب المنشأ ـ وخاصة بالإبل ـ وبحسب المتعلق بالضاربين في الأرض.. وأما سائر النعم المعدودة فموجودة في جميع أصناف الأنعام وعامة لكافة المخاطبين دائماً أو في عامة الأوقات (س٥/٩٨).

(٢) والعدول إلى صيغة الاستقبال في «ويخلق» للدلالة على الاستمرار أو لاستحضار الصورة (س٥/٩٨).

على الله تعالى أن يبيِّنَ طُرُقَ الضلالة، أو لأن المقصودَ بيانُ سبيلِهِ وتقسيمُ السبيلِ إلى القصد والجائرِ إنما جاء بالعَرَضِ. وقُرِيءَ ومنكم جائرٌ أي عن القَصْدِ. ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ اللهُ. ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولو شاء هدايتكُم أجمعينَ لهداكُم إلى قَصْدِ السبيل هدايةً مستلزمةً للاهتداء[1].

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحابِ، أو مِنْ جانبِ السماء. ﴿مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ ما تشربونَهُ، ولكم صِلَةَ أَنْزَلَ أو خَبَرُ شراب ومِنْ تبعيضية متعلقة به، وتقديمُها يوهِمُ حَصْرَ المشروب فيهِ ولا بأسَ به لأنَّ مياهَ العيونِ والآبارِ منه لقوله: ﴿فسلكه ينابيعَ﴾[2] وقوله ﴿فأسكنّاه في الأرض﴾[3] ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ومنه يكونُ شجرٌ يعني الشجرَ الذي ترعاه المواشي. وقيل كلَّ ما نَبَتَ على الأرض شَجَرٌ قال:

يعْلِفُهَـــا اللَّحْـــمَ إِذَا عَـــزَّ الشَّجَـــر والخَيْـــلُ فـــي إِطْعَـــامِهَـــا اللَّحْـــم ضَـــرَر

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ تَرْعون، مِنْ سَامتِ الماشيةُ وأسامَها صاحِبُها، وأصلُه السَّوْمَةُ وهيَ العلامةُ لأنَّها تُؤثر بالرعي علاماتٍ.

(١١) ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ﴾ وقرأ أبو بكر بالنونِ على التفخيم. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وبعضُ كلِّها إذْ لم يَنبتْ في الأرضِ كلُّ ما يمكنُ من الثِّمار. ولعل تقديمَ ما يُسَامُ فيهِ على ما يُؤْكَلُ منه لأنه سيصيرُ غِذاءَ حيوانياً هوَ أشرفُ الأغذيةِ، ومن هذا تقديمُ الزرعِ، والتصريحُ بالأجناسِ الثلاثةِ وترتيبُها[4]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على وجودِ الصانعِ وحِكْمَتِهِ، فإنَّ مَنْ تأمَّلَ أنَّ الحبةَ تقعُ في الأرضِ وتصلُ إليها نداوةٌ تَنْفُذُ فيها، فَيَنْشَقُّ أعلاها ويخرجُ منه ساقُ

---

(١) قوله «على الله» حيث آثر حرف الاستعلاء «على» على أداة الانتهاء «إلى» لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلي من غير أن يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه (س٥/ ١٠٠).

(٢) الزمر: «٢١».

(٣) المؤمنون: «١٨».

(٤) تقديم الزرع على ما عداه لأنه أصل الأغذية وعمود المعاش.
وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث إنه أدامٌ من وجه وفاكهة من وجه.
وتقديم النخيل على الأعناب لظهور أصالتها وبقائها.
وجمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة.
وتخصيص الأنواع المعدودة بالذكر ـ مع اندراجها تحت قوله تعالى «ومن كل الثمرات» للإشعار بفضلها. وتقديم الشجر عليها ـ مع كونه غذاء للأنعام ـ لحصوله بغير صنع بشر، أو للإرشاد إلى مكارم الأخلاق، فإن مقتضاها أن يكون اهتمام الإنسان بأمر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أو لأن أكثر المخاطبين من أصحاب المواشي ليس لهم زرع ولا ثمر (س٥/ ١٠١).

الشجرة، وينشقُّ أسفلُها فيخرجُ منه عروقُها. ثم ينمو ويخرجُ منه الأوراقُ والأزهارُ والأكمامُ والثمارُ، ويشتمل كل منها على أجسامٍ مختلفةِ الأشكالِ والطباع مع اتحادِ الموادِّ ونسبةِ الطبائع السُّفْلِيَّةِ والتأثيراتِ الفلكيةِ إلى الكلِّ، عَلِمَ أنَّ ذلكَ ليسَ إلا بفعلِ فاعلٍ مختارٍ مقدَّسٍ عنْ منازعةِ الأضدادِ والأندادِ، ولعلَّ فَصْلَ الآيةِ بهِ لذلكَ.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ﴾ بأنْ هيَّأَهَا لمنافِعِكُم[١]. ﴿مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حالٌ من الجميعِ أي نَفَعَكُم بها حالَ كونِها مسخراتٍ لله تعالى خلقَهَا ودبَّرَهَا كيفَ شاء، أو لِمَا خُلِقْنَ له بإيجادِهِ وتقديرِهِ، أو لحكمِهِ. وفيه إيذانٌ بالجوابِ عما عسَى أنْ يُقَالَ إنَّ المؤثِّرَ في تكوينِ النباتِ حركاتُ الكواكبِ وأوضاعُها، فإنَّ ذلكَ إنْ سَلِمَ فلا ريبَ في أنها أيضاً ممكنةُ الذاتِ والصفاتِ واقعةٌ على بعضِ الوجودِ المحتملةِ، فلا بدَّ لها مِنْ مُوجِدٍ مخصِّصٍ مختارٍ واجبِ الوجودِ دَفْعاً للدَّوْرِ والتَّسَلْسُلِ. أو مصدرٌ ميميٌّ جُمِعَ لاختلافِ الأنواعِ. وقرأ حفصٌ والنجومُ مسخراتٌ على الابتداء والخبر فيكونُ تعميماً لِلْحُكْمِ بعدَ تخصيصِه، ورفعَ ابنُ عامرٍ الشمسَ والقمرَ أيضاً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جَمَعَ الآيةَ وذكَرَ العقلَ لأنها تدلُّ أنواعاً مِنَ الدلالةِ ظاهرةً لذوي العقولِ السليمةِ غيرَ مَحُوجَةٍ إلى استيفاءِ فِكْرٍ كأحوالِ النباتِ.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على الليل، أي وسخَّرَ لكم ما خلقَ لكم فيها مِنْ حيوانٍ ونباتٍ. ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أصنافه فإنها تتخالفُ باللون غالباً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أنَّ اختلافَها في الطِّباع والهيئاتِ والمناظرِ ليس إلا بصنعِ صانعٍ حكيمٍ.

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ جعلَه بحيثُ تتمكَّنُونَ مِنَ الانتفاعِ به بالركوبِ والاصطيادِ والغَوْصِ. ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمكُ، ووصفَه بالطراوةِ لأنه أرطبُ اللحومِ يُسْرِعُ إليه الفسادُ فَيُسَارَعُ إلى أَكْلِهِ، ولإظهارِ قُدْرَتِهِ في خَلْقِهِ عَذْباً طرياً في ماءٍ زُعَاقٍ. وتمسَّكَ بهِ مالكٌ والثوريُّ على أنَّ مَنْ حَلَفَ أنْ لا يأكلَ لحماً حنثَ بأكلِ السَّمَكِ، وأُجِيبَ عنه بأنَّ مَبْنَى الأيمانِ على العُرْفِ وهوَ لا يُفْهَمُ منه عندَ الإطلاقِ، ألا ترى أنَّ الله تعالى سمَّى الكافرَ دابةً ولا يحنثُ الحالفُ على أن لا يركبَ دابةً بركوبهِ. ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤِ والمَرْجَانِ أي تَلْبَسُها نساؤُكم، فَأُسْنِدَ إليهم لأنهنَّ مِنْ جُمْلَتِهِم ولأنهنَّ يتزيَّنَّ بها لأجْلِهِم. ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُنَ. ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواريَ فيه تشقُّه

---

(١) وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماء إلى ما في المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين. وإيثار صيغة الماضي «سخر» للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وإن تجددت آثاره. (س٥/ ١٠١).

بحيزومها، من المخر وهو شق الماء، وقيل صوت جري الفلك. ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارةِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تعرفونَ نعمَ الله تعالى فتقومونَ بحقِّها، ولعلَّ تخصيصَه بتعقيبِ الشكرِ لأنهُ أقوى في باب الإنعام مِنْ حيثُ إنه جعلَ المهالكَ سَبَباً للانتفاعِ وتحصيلِ المعاشِ.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

(١٥) ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً رواسيَ. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهةَ أنْ تميلَ بكم وتضطربَ، وذلك لأنَّ الأرضَ قبلَ أنْ تُخلقَ فيها الجبالُ كانتْ كُرَةً خفيفةً بسيطةَ الطَّبْعِ، وكان مِنْ حقِّها أنْ تتحرَّكَ بالاستدارةِ كالأفلاكِ، أو أنْ تتحركَ بأدنى سببٍ للتحريكِ فلمَّا خُلِقَتِ الجبالُ على وجْهِهَا تفاوتَتْ جوانِبُهَا وتوجَّهتِ الجبالُ بِثِقْلِهَا نحوَ المركزِ فصارتْ كالأوتادِ التي تمنعُها عنِ الحركةِ. وقيلَ لما خلقَ اللهُ الأرضَ جَعَلَتْ تمورُ فقالتِ الملائكةُ: ما هيَ بمقرٍّ أحدٍ على ظَهْرِهَا فأصبحتْ وقدْ أُرْسِيَتْ بالجبالِ. ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وجعلَ فيها أنهاراً، لأنَّ ألْقَى فيه معناه[1]. ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لمقاصِدِكم، أو إلى معرفةِ الله سبحانه وتعالى.

(١٦) ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ معالمَ يَسْتَدَلُّ بها السابلةُ من جبلٍ وسَهْلٍ وريحٍ ونحوِ ذلكَ. ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري والبحارِ، والمرادُ بالنجمِ الجِنْسُ ويدل عليه قراءةُ وبالنُّجُم بضمتينِ وضمَّةٍ وسكونٍ على الجمْعِ. وقيل الثُّرَيَّا والفرقدانِ وبناتُ نَعْشٍ والْجَدْيُ. ولعلَّ الضميرَ لقريشٍ لأنَّهم كانوا كثيري الأسفارِ للتجارة مشهورينَ بالاهتداء في مَسَايِرِهِمْ بالنجومِ. وإخراجُ الكلامِ عن سُنَنِ الخطابِ وتقديمُ النجمِ وإقحامُ الضميرِ للتخصيصِ كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاءِ خصوصاً يهتدونَ، فالاعتبارُ بذلكَ والشكرُ عليه ألزمُ لهمْ وأَوْجَبُ عليهم.

(١٧) ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ إنكارٌ بعد إقامةِ الدلائل المتكاثرةِ على كمالِ قدرته وتناهي حكمتهِ والتفرُّدِ بخلْقِ ما عدَّدَ مِنْ مُبْدَعَاتِه لأنْ يساويَهُ ويستحقِ مشاركته ما لا يقدِرُ على خَلْقِ شيءٍ منْ ذلكَ بلْ على إيجادِ شيءٍ ما، وكان حقُّ الكلامِ أفمنْ لا يخلُق كَمَنْ يخلُقُ، لكنه عَكَسَ تنبيهاً على أنهم بالإشراكِ بالله سبحانه وتعالى جعلُوهُ من جِنْسِ المخلوقاتِ العجَزةِ شبيهاً بها. والمرادُ بِمَنْ لا يخلُق كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ سبحانَه وتعالَى مغلّباً فيهِ أولو العلمِ منهم، أو الأصنامِ وأَجْرَوْهَا مَجْرَى أولي العلمِ لأنَّهم سمُّوهَا آلهةً ومِنْ حقِّ الإلهِ أنْ يَعْلَمَ، أو للمشاكلةِ بينَه وبينَ مَنْ يخلُقُ، أو للمبالغةِ وكأنه قيلَ: إنَّ مَنْ يخلُق ليسَ كَمَنْ لا يخلقُ مِنْ أولي العلمِ فكيفَ بما لا عِلْمَ عندَه؟[2] ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعْرِفوا فسادَ ذلكَ فإنَّهُ لجلائِه كالحاصلِ للعقلِ الذي يحضرُ عندَه بأدْنَى تذكُّرٍ والتفاتٍ.

---

(١) أي أن ألقى فيه معنى الجعل.
(٢) والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظمها وأظهرها (س٥/ ١٠٤).

وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾
وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ
يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾

(١٨) ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ لا تَضبِطُوا عددَها فضلاً أنْ يطيقوا القيامَ بشكرِها، أَتْبَعَ ذلكَ تعدادَ النِّعمِ وإلزامَ الحُجَّةِ على تَفَرُّدِهِ باستحقاقِ العبادةِ تنبيهاً على أنَّ وَرَاءَ ما عدَّدَ نعماً لا تنحصرُ، وأنَّ حقَّ عبادتِه تعالى غيرُ مقدور. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ﴾ حيثُ يتجاوزُ عن تقصيرٍ في أداءِ شكرِها. ﴿رَّحِيمٞ﴾ لا يقطعُها لتفريطِكُم فيه ولا يعاجلكم بالعقوبةِ على كُفْرَانِهَا[١].

(١٩) ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ مِنْ عقائدِكم وأعمالِكم، وهو وعيدٌ وتزييفٌ للشِّركِ باعتبارِ العلمِ بعدَ تزييفِه باعتبارِ القدرة[٢].

(٢٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي والآلهةُ الذين تعبدونَهم مِنْ دونِه. وقرأ أبو بكر يَدْعُونَ بالياء، وقرأ حفصٌ ثلاثتَها بالياء[٣]. ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ لما نَفَى المشاركةَ بينَ مَنْ يخلقُ ومَنْ لا يخلقُ بيَّنَ أنَّهم لا يخلُقُونَ شيئاً لِيَنْتُجَ أنَّهم لا يشاركونَه، ثمَّ أكَّدَ ذلكَ بأنْ أثبتَ لهم صفاتٍ تنافي الألوهيةَ فقال: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ لأنهم ذواتٌ ممكنةٌ مفتقرةُ الوجودِ إلى التخليق، والإلهُ ينبغي أنْ يكونَ واجبَ الوجود[٤].

(٢١) ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ همْ أمواتٌ لا تعتريهِمُ الحياةُ، أو أمواتٌ حالاً أو مآلاً. ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ بالذاتِ ليتناولَ كلَّ معبود، والإلهُ ينبغي أنْ يكونَ حياً بالذاتِ لا يَعْتَرِيهِ المماتُ. ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ ولا يَعْلَمُونَ وقتَ بَعْثِهِم، أو بَعْثِ عَبَدَتِهِمْ فكيفَ يكونُ لهم وقتُ جزاءٍ على عبادتِهم، والإلهُ ينبغي أنْ يكونَ عالماً بالغيوبِ مقدِّراً للثوابِ والعقابِ، وفيه تَنْبِيهٌ على أنَّ البعثَ مِنْ توابعِ التكليفِ.

(٢٢) ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ تكريرٌ للمدَّعى بعدَ إقامةِ الحُجَج. ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾. بيانٌ لما اقتضى إصرارَهم بعدَ وضوحِ الحقِّ وذلكَ عدمُ إيمانِهم بالآخرةِ، فإنَّ المؤمنَ بها يكونُ طالباً للدلائلِ متأمِّلاً فيما يسمعُ فينتفعُ به، والكافرُ بها يكونُ حالُه بالعكسِ، وإنكارُ قلوبِهم ما لا يُعْرَفُ إلاَّ بالبرهانِ اتِّباعاً للأسْلافِ وَرُكُوناً إلى المألوفِ، فإنهُ ينافي النظرَ والاستكبارَ عن اتباعِ الرسولِ وتصديقِهِ والالتفاتِ إلى قوله، والأولُ هوَ العُمْدَةُ في الباب ولذلك رتَّبَ عليه ثبوتَ الآخرَيْنَ.

(٢٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ فيجازيهِم، وهوَ في موضعِ الرفعِ

---

(١) تقديم وصف المغفرة على الرحمة لتقدم التخلية على التحلية (س٥/ ١٠٥).

(٢) وتقديم السر على العلن لبيان تحقيق المساواة بين العِلمين كأن علمه تعالى بالسر أقدم فيه بالعلن، أو لأن كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى أقدم منه بحالته الثانية (س٥/ ١٠٥).

(٣) ثلاثتها أي (تسرون وتعلنون وتدعون).

(٤) وبناء الفعل للمفعول «يُخلَقون» للإيذان بعدم الافتقار إلى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله (س٥/ ١٠٦).

بِجَرَمَ لأنهُ مصدرٌ أو فِعْلٌ. ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ فضلاً عن الذين اسْتكْبَرُوا عَنْ توحيدِه أو اتباعِ الرسول.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٤) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ القائلُ بعضُهم على التَّهَكُّمِ أو الوافدونَ عليهم أو المسلمونَ. ﴿ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما تَدَّعُونَ نُزُولَه، أوِ المنزَّلُ أساطيرُ الأولينَ، وإنما سَمَّوْهُ منزلاً على التهكمِ أو على الفَرَضِ أي على تقديرِ أنه مُنَزَّلٌ فهوَ أساطيرُ الأولينَ لا تحقيقَ فيهِ، والقائلونَ قيلَ همُ المقْتَسِمُون.

(٢٥) ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أيْ قالوا ذلكَ إضلالاً للناسِ فحملُوا أوزارَ ضَلالِهِم كاملةً فإنَّ إضلالَهُم نتيجةُ رُسُوخِهم في الضِّلال. ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ وبعضَ أوزارِ ضلالِ مَنْ يُضِلُّونَهم وهو حِصَّةُ التَّسَبُّبِ. ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حالٌ من المفعولِ أي يضِلُّونَ مَنْ لا يعلمُ أنَّهم ضُلاَّلٌ. وفائدتُها الدلالةُ على أنَّ جَهْلَهُم لا يُعْذِرُهُم، إذْ كانَ عليهم أنْ يبحثُوا وَيُمَيِّزُوا بينَ المحقِّ والمبْطِلِ. ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ بِئْسَ شيئاً يَزِرُونَهُ فِعْلُهم.

(٢٦) ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أيْ سَوَّوْا منصوباتٍ ليمكُروا بها رسلَ اللهِ عليهم الصلاة والسلام. ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ فأتاها أَمْرُهُ مِنْ جهةِ الْعَمَدِ التي بَنَوْا عليها بأنْ ضُعْضِعَتْ. ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ وصارَ سببَ هلاكِهم. ﴿ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ لا يحتسبونَ ولا يتوقَّعونَ، وهو على سبيلِ التمثيل. وقيلَ المرادُ بهِ نُمْرُوذُ بْنُ كنعانَ بَنَى الصَّرحَ ببابلَ سُمْكُهُ خمسةُ آلافِ ذراعٍ ليترصَّدَ أَمْرَ السماءِ، فَأَهَبَّ اللهُ الريحَ فَخَرَّ عليه وعلى قومِه فَهَلَكُوا.

(٢٧) ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ يُذِلُّهم أو يُعَذِّبُهم بالنارِ[١] كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾. ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ﴾ أضافَ إلى نفسه استهزاءً، أو حكايةً لإضافَتِهم زيادةً في توبيخهم. ﴿ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾ تُعادُونَ المؤمنينَ في شأْنِهم. وقرأَ نافعٌ بكسرِ النونِ بمعنى تُشاقُّونَنِي فإنَّ مُشاقَّةَ المؤمنينَ كمشاقةِ اللهِ عزَّ وجلَّ. ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي الأنبياءُ أو العلماءُ الذينَ كانوا يَدْعُونَهم إلى التوحيد فَيُشاقُّونَهم ويتكبَّرونَ عليهم، أو الملائكةُ. ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ ﴾ الذِلَّةَ والعذابَ. ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وفائدةُ قولِهم إظهارُ الشَّماتَةِ بهم وزيادةُ الإهانة، وحكايتُه لأنْ يكونَ لُطْفاً وَوَعْظاً لِمَنْ سَمِعَه.

---

(١) وتقديم الظرف «يوم» للإخبار بأن جزاءهم في الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخروياً فتبقىٰ النفس مترقبة إلى روده سائلة عنه. . (س٥/١٠٨).

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقرأ حمزة بالياء، وقُرِىءَ بإدغام في التاءِ[١]. وموضعُ الموصولِ يحتملُ الأَوْجهَ الثلاثةَ[٢]. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بأنْ عرَّضوها للعذاب المُخلِدِ. ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ فسالَمُوا وأَخبَتُوا حينَ عايَنُوا الموتَ. ﴿مَا كُنَّا﴾ قائلينَ ما كُنَّا. ﴿نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ كفرٍ وعُدْوانٍ، ويجوز أن يكونَ تفسيراً للسَّلَم على أنَّ المرادَ به القولُ الدالُّ على الاستسلام. ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي فتجيبُهُمُ الملائكة بلى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه. وقيل قوله ﴿فألقوا السلم﴾ إلى آخرِ الآيةِ استئنافٌ ورجوعٌ إلى شرحِ حالِهم يومَ القيامة، وعلى هذا أَوَّلَ مَنْ لم يُجوِّزِ الكذبَ يَوْمَئِذٍ ما كُنَّا نعملُ مِنْ سوءٍ بأنا لم نكنْ في زَعْمِنا واعتقادِنا عاملينَ سُوءاً، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الرادُّ عليهم هوَ الله تعالَى أوْ أُولُو العلم.

(٢٩) ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كلُّ صِنفٍ بابَها المُعَدَّ له. وقيلَ أبوابُ جهنَّمَ أصنافُ عذابِها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنَّمُ[٣].

(٣٠) ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يعني المؤمنينَ. ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ أيْ أَنْزَلَ خيراً، وفي نَصْبِه دليلٌ على أنهم لم يتلعثَمُوا في الجواب، وأطبقُوهُ على السؤالِ معترفينَ بالإنزالِ على خلافِ الكفرةِ. رُوِيَ أنَّ أحياءَ العربِ كانُوا يَبْعَثُونَ أيامَ الموسِمِ مَنْ يأتِيهم بِخَبَرِ النبيِّ ﷺ، فإذا جاءَ الوافِدُ المقتَسِمِيْنَ قالوا له ما قالُوا وإذا جاءَ المؤمنينَ قالوا له ذلكَ[٤]. ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مكافأةٌ في الدنيا. ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي وَلَثوابُهم في الآخرةِ خيرٌ منها، وهو عِدَةٌ للذين اتقوا على قولهم، ويجوز أن يكون بما بعده حكايةً لقولهم بدلاً وتفسيراً لخيراً على أنه منتصبٌ بقالوا. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة فَحُذِفَتْ لتقدُّمِ ذكرِها، وقولُه:

(٣١) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح. ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من أنواع المشتهيات، وفي تقديم الظرف تنبيهٌ على أن الإنسان لا يجد جميعَ ما يريده إلا في الجنة. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مثْلَ هذا الجزاءِ يجزيهم، وهو يؤيد الوجْهَ الأوَّل.

---

(١) أي إدغام التاء في التاء بقوله «تتوفاهم».

(٢) أي الجر على النعت للكافرين أو بدلاً منهم، أو النصب أو الرفع على الذم.
وفائدة الموصول تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفره لحين الموت دون من آمن (س٥/١٠٩).

(٣) وذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعلّيته (س٥/١٠٩).

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٥/١٧) بدون راوٍ ولا سند.

ﭐلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ
أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ
كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم. وقيل فَرِحِينَ ببشارة الملائكة إيَّاهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم لِتَوَجُّهِ نفوسِهم بالكلية إلى حضرة القدس. ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يحيقكم بَعْدُ مكروه. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين تُبْعَثُونَ فإنها مُعَدَّةٌ لكم على أعمالكم. وقيل هذا التوفي وفاةُ الحشر لأن الأمر بالدخول حينئذ.

(٣٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر الكفارَ المارَّ ذِكْرُهم. ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل[1]. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب. ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرهم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه.

(٣٤) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه. والحَيْقُ لا يُسْتَعْمَلُ إلا في الشرّ.

(٣٥) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ إنما قالوا ذلك استهزاءً أو منعاً للبعْثَة والتكليف متمسكينَ بأنَّ ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع فما الفائدةُ فيها، أو إنكاراً لقبح ما أنكر عليهم من الشرك وتحريم البحائر ونحوها محتجِّينَ بأنها لو كانت مستقبحةً لما شاء الله صُدُورَها عنهم ولشاء خِلافَه ملجئاً إليه، لا اعتذاراً إذ لم يعتقدوا قُبْحَ أعمالهم، وفيما بعده تنبيهٌ على الجواب عن الشبهتين. ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله وحرَّموا حِلَّهُ وردُّوا رُسُلَه. ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إلا الإبلاغ الموضِّحُ للحق وهو لا يؤثر في هدي مَنْ شاء الله هُدَاهُ لكنه يؤدي إليه على سبيل التوسط، وما شاء الله وقوعَه إنما يجب وقوعُه لا مطلقاً بل بأسباب قدرها له[2]. ثم بين أن البِعْثة أَمْرٌ جَرَتْ به السُّنَّةُ الإلهية في الأُمم كلِّها سبباً لهدي من أراد اهتداءَه وزيادةً لضلال من أراد ضلاله، كالغِذَاء الصالح فإنه ينفع المزاجَ السويَّ ويقويه ويضرُّ المنحرف ويفنيه بقوله تعالى:

---

(١) وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بأن إتيانَه لطف به عليه الصلاة والسلام (س٥/١١١).

(٢) وإيراد كلمة «على» بقوله «على الرسل» للإيذان بأنهم في ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حق للناس عليهم إيفاؤه (س٥/١١٢).

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ
هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ
مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يأمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ وفقهم للإيمان بإرشادهم. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ إذ لم يوفقهم ولم يُرِدْ هداهم، وفيه تنبيه على فساد الشبهة الثانية لما فيه من الدلالة على أن تَحَقُّقَ الضلال وثباتَه بفعل الله تعالى وإرادته من حيثُ إنه قسيم مِنْ هدي الله، وقد صرح به في الآية الأخرى. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يا معشر قريش. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ من عاد وثمود وغيرهم لعلكم تعتبرون[١].

(٣٧) ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا محمد. ﴿عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ من يريد ضلاله وهو المعنيُّ بِمَنْ حقَّتْ عليه الضلالة. وقرأ غيرُ الكوفيينَ لا يُهْدَىٰ على البناء للمفعول، وهو أبلغ. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

(٣٨) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ عطف على: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيدَ أنكروا البعث مقسِمينَ عليه زيادةً في البيت على فساده، ولقد رد الله عليهم أبلغَ ردٍّ فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثهم. ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه بلى فإنْ يبعث موعدٌ من الله. ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه لامتناع الخُلْفِ في وعده، أو لأن البعث مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ. ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يبعثون، إما لعدم علمهم بأنه من مواجِبِ الحكمة التي جرتْ غادته بمراعـاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعَه، ثم إنه تعالى بَيَّنَ الأمرَيْنِ فقال:

(٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي يبعثهم ليبين لهم ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو الحق[٢] ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فيما يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له مِنْ حيثُ الحكمةُ، وهو المميِّزُ بَيْنَ الحق والباطل والمحقِّ والمبطلُ بالثواب والعقاب[٣]، ثم قال:

---

(١) وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير إخبار بحلول العذاب للإيذان بأنه غني عن البيان وأن ليس الخبر كالعيان.
وترتيب النظر على السير لما أنه بعده، وأن ملاك الأمر في تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بأنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء (س٥/ ١١٣).

(٢) والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته، وللإشعار بعلّية ما ذكر في حيز الصلة للتبيين (س٥/ ١١٤).

(٣) وخص الكافرين بإسناد العلم إليهم لأن علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضاً (س٥/ ١١٤).

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهو بيان إمكانه. وتقريرُه أنَّ تكوينَ الله بمحض قدرته ومشيئته لا تَوَقُّفَ له على سَبْقِ الموادِّ والمدَدِ، وإلاَّ لَزِمَ التسلسلُ، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداءً بلا سَبْقِ مادةٍ ومثالٍ أمكن له تكوينها إعادةً بعده. ونَصَبَ ابنُ عامرٍ والكسائي ههنا وفي يّس[١]، فيكون عطفاً على نقولَ أو جواباً للأمر.

(٤١) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هم رسول الله ﷺ وأصحابُه المهاجرون ظَلَمَهُم قريش فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة، أو المحبوسون المعذبون بمكةَ بعدَ هجرة رسول الله ﷺ وهم بلالٌ وصهيبٌ وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم، وقوله ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي في حقه ولوجهه. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ مَبَاءَةً حسنةً وهي المدينة أو تَبوئَةً حسنةً. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا. وعن عمرَ رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال له: خُذْ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضلُ[٢]. ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ الضميرُ للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خيرَ الداريْنِ لوافقوهم، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

(٤٢) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الشدائد كأذى الكفار ومفارقة الوطن، ومحلُّه النصب أوِ الرفعُ على المدح. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ منقطعين إلى الله مفوِّضِينَ إليه الأمرَ كلَّهُ[٣].

(٤٣) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ردٌّ لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسولُه بشراً، أي جرتِ السُّنَّةُ الإلهية بأن لا يُبْعَثَ للدعوة العامة إلا بشراً يُوحَى إليه على ألسنة الملائكة، والحكمة في ذلك قد ذكرت في سورة الأنعام[٤]، فإنْ شَكَكْتُم فيه ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أهلَ الكتاب أو علماءَ الأخبارِ لِيُعْلِمُوكُم. ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي الآية دليلٌ على أنه تعالى لم يرسلِ امرأةً ولا مَلَكاً للدعوة العامة، وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[٥] معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل لم يُبْعَثُوا إلى الأنبياء إلا مُتَمَثِّلِينَ بصورةِ الرجال، وَرُدَّ بما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريلَ صلوات الله عليه على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.

---

(١) أي بنصب «يكون» وفي سورة يّس «٨٢» بينما قرأ الباقون «فيكونُ» بالرفع.

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن جرير.

(٣) تقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام توكلهم (س٥/١١٦).

(٤) وهو قوله تعالى: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون» الأنعام «٩».

(٥) فاطر: «١».

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ
مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى
تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ
مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٤) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ أي أرسلناهم بالبينات والزبر أي المعجزات والكتب، كأنه جواب قائل قال: بِمَ أُرْسِلُوا؟ ويجوز أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً في الاستثناء مع رجالاً أي، وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربتُ إلا زيداً بالسوط، أو صفة لهم أي رجالاً ملتبسين بالبينات، أو بيوحي على المفعولية، أو الحال من القائم مُقَامَ فاعله على أن قوله فاسألوا اعتراضٌ، أو بلا تعلمون على أن الشرط للتبكيتِ والإلزام. ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن وإنما سُمِّيَ ذِكْراً لأنه موعظة وتنبيه. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذِّكْرِ بِتَوَسُّط إنزاله إليك مما أُمِرُوا به ونُهُوا عنه، أو مما تشابه عليهم، والتبيينُ أعمُّ من أن ينصَّ بالمقصود أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وإرادة أن يتأملوا فيه فيتنبهوا للحقائق.

(٤٥) ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي المكَرَاتِ السيئات وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء، أو الذين مكروا برسول الله ﷺ وراموا صَدَّ أصحابه عن الإيمان. ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خُسِفَ بقارونَ. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بغتةً من جانب السماء كما فُعِلَ بقوم لوطٍ.

(٤٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي متقلِّبينَ في مَسَايرِهِم ومَتَاجِرِهِم. ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[1].

(٤٧) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ على مخافة بأنْ يُهْلِكَ قوماً قبلَهم فيتخوَّفوا فيأتيهم العذابُ وهم متخوفون، أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا مِنْ تخوَّفْتُه إذا تَنَقَّصْتُه. رُوِيَ أن عمرَ رضي الله تعالى عنه قال على المِنْبَرِ: ما تقولون فيها فسكتوا فقام شيخ من هُذَيْلٍ فقالَ: هذه لغتنا التخوُّفُ التنقُّصُ، فقال هل تعرف العربُ ذلك في أشعارها قال نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخَـوَّفَ الـرَحْـلُ مِنهَـا تَـامكـاً قَـرداً ... كمَـا تَخَـوَّفَ عُـود النَبعَـةِ السَّفَـنُ

فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنَّ فيه تفسيرَ كتابِكم ومعاني كلامِكم. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ لا يعاجلكم بالعقوبة.

(٤٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ استفهامُ إنكارٍ أي قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالُهم لم يتفكروا فيها لِيَظْهَرَ لهم كمالُ قدرته وقهره فيخافوا منه، وما موصولةٌ مُبْهَمَةٌ بيانُها: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي أَوَلم ينظروا إلى المخلوقات التي لها ظلال مُتَفَيِّئَةٌ. وقرأ حمزة والكسائي تَرَوْا بالتاء، وأبو عمرو تتفيَّؤُ بالتاء. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ عن أيمانها وعن شمائلها أي عن جانبي كلِّ واحد منها، استعارةٌ من يمين

(١) إيراد الجملة الإسمية للدلالة على دوام النفي لا نفي الدوام (س٥/ ١١٧).

الإنسان وشِمَالِهِ، ولعلّ توحيدَ اليمين وجَمْعَ الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير في ظلاله وجَمْعِهِ في قوله: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وهما حالان من الضمير في ظلاله. والمرادُ من السجود الاستسلامُ سواءً كان بالطبع أو الاختيار، يُقَالُ سَجَدَتِ النخلةُ إذا مالت لكثرة الْحَمْلِ وسجدَ البعيرُ إذا طَأْطَأَ رأسَه لِيُرْكَبَ، وسُجَّداً حال من الظلال، وهم داخرون حال من الضمير. والمعنى يرجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب منقادةً لما قُدِّرَ لها من التفيؤ، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد. والأَجْرامُ في أنفسها أيضاً داخرة أي صاغرة منقادة لأفعال الله تعالى فيها، وجَمْعُ داخرون بالواو لأنَّ مِنْ جُمْلَتِهَا مَنْ يعقل أو لأن الدخورَ من أوصاف العقلاء. وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفُلْكِ وهو جانبُه الشرقي لأن الكواكب تظهر منه آخذةً في الارتفاع والسطوع وشِماله هو الجانب الغربي المقابل له من الأرض، فإن الظلال في أول النهار تبتدىء من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض، وعند الزوال تبتدىء من المغرب واقعةً على الرُّبْعِ الشرقي من الأرض.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ينقاد انقياداً يعمُّ الانقيادَ لإرادته وتأثيره طبعاً والانقيادَ لتكليفه وأَمْرِهِ طوعاً ليصح إسناده إلى عامَّةِ أهل السموات والأرض، وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيان لهما، لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية سواء كانت في أرض أو سماء[1]. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عَطْفُ على الْمُبَيِّنِ به عَطْفَ جبريلَ على الملائكةِ للتعظيم، أو عَطْفَ المجرَّداتِ على الجسمانياتِ، وبه احتج مَنْ قال إن الملائكة أرواح مجردة، أو بيانٌ لما في الأرض والملائكةُ تكرير لما في السموات وتعيين له إجلالاً وتعظيماً، أو المراد بها ملائكتها من الْحَفَظَةِ وغيرِهم. وما لَمَّا اسْتُعْمِلَ للعقلاء ـ كما استعمل لغيرهم ـ كان استعمالُه حيثُ اجتمع القبيلانِ أَوْلَى من إطلاق مَنْ تغليباً للعقلاء. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[2]. والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون، أو بيان له وتقرير لأن مَنْ خاف الله تعالى لم يستكبرْ عن عبادته. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾[3] من الطاعة والتدبير،

---

(١) وتقديمه على الملائكة لقِلّته، ولئلا يقع فصل بين المبيَّن والمبيِّن.
وإفراد لفظ الدابة ـ مع أن المراد الجمع ـ لإفادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب (س٥/١١٨).

(٢) الأنعام: «٦١».

(٣) وإيراد «يُؤْمَرون» مبنياً للمفعول جرياً عن سنن الجلالة، وإيذاناً بعدم الحاجة للتصريح به لاستحالة استناده لغيره

وفيه دليل على أَنَّ الملائكة مكلَّفون مُدارُونَ بين الخوف والرجاء.

(٥١) ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر العدد مع أنَّ المعدود يدل عليه دلالةً على أن مَسَاقَ النهي إليه، أو إيماءً بأن الاثنينيةَ تنافي الألوهيةَ كما ذَكَرَ الواحدَ في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية، أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية[1]. ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ نَقَلَ من الغَيْبَةِ إلى التكلُّمِ مبالغةً في الترهيب وتصريحاً بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإلهُ الواحد فإيايَ فارهبونِ لا غيرَ.

(٥٢) ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي الطاعة. ﴿وَاصِبًا﴾ لازماً، لما تقرر من أنه الإله وحدَه والحقيق بأن يُرْهَبَ منه. وقيل واصباً من الوَصَبِ أي وله الدين ذا كُلْفَةٍ. وقيل الدين الجزاء أي وله الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر. ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ولا ضارَّ سواهُ كما لا نافعَ غيرُه، كما قال تعالى:

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

(٥٣) ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي وأيُّ شيء اتصل بكم من نعمة فهو مِنَ الله، وما شرطيةٌ أو موصولةٌ متضمنة معنَى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإنَّ استقرارَ النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله لا لحصولها منه. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجُؤَارُ رفعُ الصوت في الدعاء والاستغاثة[2].

(٥٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ وهم كفاركم. ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره[3]، هذا إذا كان الخطاب عاماً، فإنْ كان خاصاً بالمشركين كان مِنْ للبيان كأنه قال: إذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن تكون مِنْ للتبعيض على أنْ يعتبرَ بعضُهم كقوله تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾[4].

= سبحانه (س/٥/١١٩).

(١) وإظهار الفاعل «الله» وتخصيصه بالذكر للإيذان بأنه متعين الألوهية، وإنما المنهي عنه هو الإشراك به لا أن المنهي عنه مطلق اتخاذ إلهين. . (س/٥/١١٩).

(٢) وإيراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر، وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنىٰ ما ينطلق عليه اسم الجنس، مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام، والتعبيرُ عن ملابستها للمخاطبين بباء الصاحبة، وإيراد ما المُعْرِبة عن العموم ما لا يخفىٰ من الجزالة والفخامة. ولعل إيراد «إذا» دون إن للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب (س/٥/ ١٢٠).

(٣) والتعرض لوصف الربوبية للإيذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الإشراك والكفران (س/٥/ ١٢٠).

(٤) لقمان: «٣٢».

(٥٥) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم قصدوا بِشِرْكِهِم كفرانَ النعمة أو إنكارَ كونها مِنَ الله تعالى. ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أَمْرُ تهديد[1]. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَغْلَظَ وعيدَه[2]. وقرىء ﴿فَتُمُتِّعُوا﴾ مبنياً للمفعول عطفاً على ليكفروا، وعلى هذا جاز أن تكون اللام لامَ الأمرِ الواردِ للتهديد والفاءُ للجواب.

(٥٦) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم التي لا عِلْمَ لها لأنها جماد فيكون الضمير لما، أو التي لا يعلمونها فيعتقدون فيها جهالاتٍ مثلَ أنَّها تنفعهم وتشفع لهم على أن العائدَ إلى ما محذوف، أو لجهلهم على أن ما مصدرية والمجعولَ له محذوفٌ للعلم به. ﴿نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الزروع والأنعام. ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنها آلهة حقيقة بالتقرُّبِ إليها، وهو وعيد لهم عليه[3].

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

(٥٧) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ كانت خُزاعةُ وكِنانةُ يقولون: الملائكة بناتُ الله. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ له من قولهم، أو تَعَجُّبٌ منه. ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، ويجوز فيما يشتهون الرفعُ بالابتداءِ والنصبُ بالعطفِ على البنات على أن الْجَعْلَ بمعنى الاختيار، وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد لكنه لا يبعدُ تجويزُه في المعطوف.

(٥٨) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ﴾ أُخبِرَ بولادتها. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ صار أو دامَ النهارَ كلَّه. ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس. واسودادُ الوجهِ كنايةٌ عن الاغتمام والتشوير[4]. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوءٌ غيظاً مِنَ المرأة.

(٥٩) ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ يستخفي منهم. ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾. من سوء المبَشَّرِ به عُرْفاً[5]. ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ مُحَدِّثاً نَفْسَه متفكِّراً في أن يتركَهُ. ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ ذلٍّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يخفيه فيه ويَئِدُهُ، وتذكير الضمير للفظ ما. وقرىء بالتأنيث فيهما. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محلُّه عندهم.

(٦٠) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفةُ السوء، وهي الحاجة إلى الولد المنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم وكراهة الإناث وَوَأْدِهِنَّ خشيةَ

---

(١) والالتفات إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط (س٥/ ١٢٠).

(٢) ولم يذكر مفعول «تعلمون» للإشعار بأنه لا يوصف من شدته (س٥/ ١٢٠).

(٣) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب «لتسألنّ...» ينبىء عن كمال الغضب وشدة الوعيد (س٥/ ١٢١).

(٤) التشوير هو الإشارة والتلويح، يقال: أشار إشارة وشوّر تشويراً أي لوّح.. (المصباح المنير «شور»).

(٥) والتعبير عنها بـ «ما» لإسقاطها عن درجة العقلاء (س٥/ ١٢١).

الإملاق[1]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والجود الفائق والنزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

(٦١) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم ومعاصيهم. ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض، وإنما أَضْمَرَها من غير ذِكْرٍ لدلالة الناس والدابة عليها. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ قطُّ بِشُؤْم ظُلْمِهِم. وعن ابن مسعود[2] رضي الله تعالى عنه: كادَ الْجُعَلُ يَهْلِكُ في جُحْرِهِ بِذَنْبِ ابن آدمَ، أو مِنْ دابَّةٍ ظالمة. وقيل لو أَهْلَكَ الآباءَ بكفرهم لم يكن الأبناءُ. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سمَّاه لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بل هلكوا أو عُذِّبوا حينئذٍ لا محالةَ، ولا يلزم من عموم الناس وإضافةِ الظلم إليهم أن يكونوا كلُّهم ظالمينَ حتى الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، لجواز أنْ يُضَافَ إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم[3].

(٦٢) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، والاستخفاف بالرسل وَأَرَاذِلِ الأموال. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مع ذلك، وهو: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي عند الله، كقوله: ﴿ولئن رُجعت إلى ربي إن لي عنده لَلْحُسْنَى﴾[4]. وقرىء الكُذُبُ جمع كَذُوبٍ صفة للألسنة. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ رَدٌّ لكلامهم وإثباتٌ لِضِدِّهِ. ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مقدَّمونَ إلى النارِ مِنْ أَفْرَطْتُهُ في طلب الماء إذا قَدَّمْتُهُ. وقرأ نافع بكسر الراء على أنه مِنَ الإفراط في المعاصي، وقرىء بالتشديد مفتوحاً من فَرَّطْتُه في طلب الماء، ومكسوراً من التفريط في الطاعات.

(٦٣) ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فأصروا على قبائحها وكفروا بالمرسلين. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا وعبَّر باليوم عن زمانها، أو فهو وَلِيُّهُم حين كان يُزَيِّنُ لهم، أو يومَ القيامة على أنه حكايةُ حالٍ ماضية أو آتية. ويجوز أن يكون الضمير لقريش أي زين

---

(١) ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (س٥/ ١٢٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٤/ ١٢٦) والبيهقي في الشعب (٧/ ٥٤ رقم ٧٤٧٨) وزاد السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٤٠) نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه.

(٣) صيغة الاستفعال بقوله «لا يستأخرون» للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له.
وقولهُ «لا يستقدمون» تعرض لذكره ـ مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجي الأجل ـ مبالغة في بيان عدم الاستئخار بنظمه في سِلْك ما يمتنع (س٥/ ١٢٢).

(٤) فصلت: «٥٠».

الشيطانُ لِلْكَفَرَةِ المتقدمينَ أعمالَهم وهو وَلِيُّ هؤلاءِ اليومَ يغريهم ويُغْوِيهم، وأَنْ يُقَدَّرَ مضافٌ أيْ فهو وليُّ أمثالِهم، والولي القرين أوِ الناصرُ فيكون نفياً للناصر لهم على أبلغِ الوجوه. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في القيامة.

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

(٦٤) ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ للناس. ﴿ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ مِنَ التوحيد والقَدَرِ وأحوال المعَادِ وأحْكَام الأفعال. ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ معطوفان على محل لتبين فإنهما فِعْلاَ الْمُنَزِّلِ بخلاف التبيين[1].

(٦٥) ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أنبت فيها أنواعَ النبات بعد يُبْسِهَا. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماعَ تَدَبُّرٍ وإنصاف.

(٦٦) ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ دلالةٌ يُعْبَرُ بها مِنَ الجهل إلى العلم. ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ استئناف لبيان الْعِبْرَةِ، وإنما ذَكَرَ الضمير ووحَّدَه ههنا لِلَّفْظِ وأَنَّثَهُ في سورة المؤمنين[2] للمعنى، فإنَّ الأنعامَ اسمُ جَمْعٍ ولذلك عدَّه سيبويهُ في المفردات الْمَبْنِيَّةِ على أفعال كأخلاقٍ وأكْياسٍ. ومَنْ قال إنه جَمْعُ نَعَمٍ جعلَ الضميرَ للبعض فإنَّ اللَّبَنَ لبعضها دون جميعها أو لواحده أو له على المعنى، فإن المراد به الجنسُ. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب نَسْقِيكُم بالفتح هنا وفي المؤمنين. ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا ﴾ فإنه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولِّدِ من الأجزاء اللطيفة التي في الفَرْثِ، وهو الأشياء المأكولة المنهضمة بعضَ الانهضامِ في الكَرِشِ. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[3]: أن البهيمة إذا اعْتَلَفَتْ وانطبخَ العلفُ في كَرِشِهَا كان أسفلُه فرثاً وأوسطُه لبناً وأعلاه دماً، ولعله إن صح فالمراد أنَّ أَوْسَطَهُ يكون مادة اللَّبَنِ وأعلاه مادةُ الدمِ الذي يغذي البدنَ، لأنهما لا يتكونان في الكَرِشِ بلِ الكبدُ يجذِبُ صُفَارَةَ الطعام المنهضِم في الكرش، ويبقي ثَفَلُهُ وهو الفَرْثُ ثُمَّ يمسكُها ريثما يهضمها هضماً ثانياً فيحدث أخلاطاً أربعةً معها مائية، فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الكِلْيَةِ والمرارةِ والطِّحالِ، ثُمَّ يُوَزِّعُ الباقي على الأعضاء بِحَسَبِهَا فَيُجْرِي إلى كلٍّ حَقَّهُ على ما يليق به بتقدير الحكيم العليم، ثم إنْ كانَ الحيوان أُنْثَى زاد أخلاطُها على قَدَرِ غذائِها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أولاً إلى الرَّحِم لأجل الجنينِ فإذا انفصل انصبَّ

(١) تقديم التبيين على الهدىٰ والرحمة لعله لتقدمه في الوجود.
وتخصيص الهدىٰ والرحمة بالمؤمنين لأنهم المغتنمون لآثاره (س٥/ ١٢٣).

(٢) المؤمنون: «٢١».

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٤ ـ ١٢٥) وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٦٤).

ذلك الزائد أو بعضُه إلى الضُّروعِ، فَيَبْيَضُّ بمجاورة لحومها الغُدَدِيَّةِ البِيضِ فيصير لبناً، ومَنْ تَدَبَّرَ صُنْعَ الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مَقَارِّها ومجاريها والأسبابِ المولِّدة لها والقِوَى المتصرِّفةِ فيها كلَّ وقت على ما يليق به، اضْطُرَّ إلى الإقرار بكمال حِكْمَتِهِ وتناهي رحمته. ومِنَ الأُولَى تبعيضيةٌ لأنَّ اللَّبَنَ بعضُ ما في بطونها والثانيةُ ابتدائيةٌ كقولك: سقيتُ مِنَ الحوض، لأن بينَ الفرث والدم المحلُّ الذي يبتدأُ منه الإسقاءُ وهي متعلِّقة بنسقيكم أو حالٌ من ﴿لَبَنًا﴾ قُدِّمَ عليه لتنكيره وللتنبيه على أنه موضعُ العِبْرَةِ. ﴿خَالِصًا﴾ صافياً لا يَسْتَصْحِبُ لونَ الدم ولا رائحةَ الفَرْثِ، أو مُصَفًّى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجِهِ. ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ سهلَ المرورِ في حَلْقِهِم، وقرىء سَيِّغاً بالتشديد والتخفيف.

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٧) ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أيْ ونسقيكم مِنْ ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما، وقولُه: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ استئنافٌ لبيان الإسقاءِ أو بتتخذون، ومنه تكرير للظرف تأكيداً أو خبرٌ لمحذوفٍ صِفَتُهُ تتخذون، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه. وتذكيرُ الضمير على الوجهين الأَوَّلَيْنِ لأنه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأن الثمرات بمعنى الثَّمَرِ، والسَّكَرُ مصدرٌ سُمِّيَ به الخمرُ. ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب والدِّبسِ والخلِّ، والآية إن كانت سابقةً على تحريم الخمرِ فَدَالَّةٌ على كراهتها وإلاَّ فجامعةٌ بينَ العتاب والمِنَّةِ. وقيل السَّكَرُ النبيذ وقيل الطَّعْمُ قال:

جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الكِرَامِ سُكْراً

أي تنقلتُ بأعراضِهِم. وقيل ما يسدُّ الجوعَ مِنَ السَّكَرِ فيكون الرزق ما يحصل من أثمانه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

(٦٨) ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أَلْهَمَهَا وقذف في قلوبها. وقرىء إلى النَّحَلِ بفتحين. ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ بأنِ اتخذي، ويجوز أن تكون أنْ مُفَسِّرَةً لأنَّ في الإيحاء معنى القول، وتأنيث الضمير على المعنى فإن النحل مُذَكَّرٌ. ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ذُكِرَ بحرف التبعيض لأنها لا تَبْنِي في كل جبلٍ وكلِّ شجر وكل ما يُعْرَشُ مِنْ كَرْمٍ أو سقف ولا في كل مكان منها. وإنما سُمِّيَ ما تَبْنِيهِ لتتعسَّلَ فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها أحذقُ المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة، ولعلَّ ذِكْرَهُ للتنبيه على ذلك. وقرىء بِيُوتاً بكسر الباء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يَعرُشُون بضم الراء.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

(٦٩) ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل ثمرة تشتهينها مُرِّها وحُلوِها. ﴿فَٱسْلُكِي﴾ ما أكَلْتِ. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ في مسالكه التي يحيلُ فيها بقدرته النورَ المرَّ عسلاً من أجوافِك، أو فاسلكي الطُّرُقَ التي ألهمكِ في عمل العسل، أو فاسلكي راجعة إلى بيوتك سُبُلَ ربِّكِ لا تتوعرُ عليكِ ولا تَلْتَبِسُ. ﴿ذُلُلًاۚ﴾ جَمْعُ ذَلولٍ وهي حال من السّبل، أي مُذَلّلَةً ذَلَّلَهَا اللهُ تعالى وسَهَّلَهَا لكِ، أو من الضمير في اسلكي أي وأنتِ ذُلُلٌ منقادةٌ لما أُمِرْتِ به. ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ كأنه عَدَلَ به عن خطابِ النحل إلى خطاب الناس لأنه محلُّ الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم. ﴿شَرَابٌ﴾ يعني العسلَ لأنه مما يُشْرَبُ. واحْتَجَّ به مَنْ زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطِرةَ فتستحيل في بطنها عسلاً ثم تقيءُ ادخاراً للشتاء، ومَنْ زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاءً طليّة[1] حلوة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادخاراً فإذا اجتمع في بيوتها شيء كثير منها كان العسل. فَسَّرَ البطونَ بالأفواه. ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أبيض وأصفر وأحمر وأسودُ بِحَسَبِ اختلاف سِنِّ النحل والفصلِ. ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلما يكون معجونٌ إلا والعسلُ جُزْءٌ منه. مع أن التنكير فيه مُشْعِرٌ بالتبعيض، ويجوز أن يكون للتعظيم. وعن قتادةَ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه فقال: «اسقه العسلَ»، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: «اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك». فسقاه فشفاه الله تعالى فَبَرَأَ فكأنما أُنْشِطَ من عِقَال[2]. وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله من أحوال النحل. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ مَنْ تَدَبَّرَ اختصاصَ النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حقَّ التدبُّر عَلِمَ قطعاً أنه لا بدَّ له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه.

(٧٠) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ﴾ بآجال مختلفة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ يعاد. ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أَخَسِّهِ يعني الْهَرَمَ الذي يشابه الطفوليةَ في نقصان القوة والعقل. وقيل هو خمس وتسعون سنة، وقيل خمس وسبعون[3]. ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾ ليصيرَ إلى حالةٍ شبيهة بحالة الطفولية في النِّسْيَانِ وسوءِ الفهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقاديرِ أعمارِكم. ﴿قَدِيرٌ﴾ يميت الشابَّ النشيط ويبقي الْهَرِمَ الفاني. وفيه تنبيه على أن تَفَاوُتَ آجال الناس ليس إلا بتقديرِ قادرٍ حكيم، رَكَّبَ أبنيتهم وعدَّل أمزجتهم على قَدَرٍ معلوم، ولو

---

(١) قوله (طلية) أي ذات بهجة.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/١٣٩ رقم ٥٦٨٤) ومسلم (٤/١٧٣٦ ـ ١٧٣٧ رقم ٩١/٢٢١٧) والبغوي في شرح السنة (١٢/١٤٧ رقم ٣٢٣٢).
من طريق قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري.

(٣) وإيثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للإيذان بأن بلوغه والوصول إليه رجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة (س٥/١٢٦).

كان ذلك مقتضى الطبائع لم يبلغِ التفاوتُ هذا المبلغَ.

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم مَوَالٍ يتولَّوْنَ رزقهم ورزق غيرهم ومنكم مماليكُ حالُهم على خلاف ذلك. ﴿ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ ﴾ بمعطي رزقِهم. ﴿ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ على مماليكهم فإنما يَرُدّون عليهم رزقهم الذي جعله الله في أيديهم. ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ فالموالي والمماليك سواء في أن الله رزقهم، فالجملة لازمة للجملة المنفية أو مُقَرِّرَةٌ لها، ويجوز أن تكون واقعةً موقعَ الجواب كأنه قيل: فما الذين فُضِّلُوا برادِّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فَيَسْتَوُوا في الرزق، على أنه ردٌّ وإنكار على المشركين فإنهم يشركون بالله بعضَ مخلوقاته في الألوهية ولا يرضَوْن أن يشاركهم عبيدُهم فيما أنعم الله عليهم فيساووهم فيه. ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ حيث يتخذون له شركاءَ، فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحهم، والباء لتضمن الجحود معنى الكفر. وقرأ أبو بكر تجحدون بالتاء لقوله: «خلقكم» و«فَضَّلَ بعضكم».

(٧٢) ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي من جنسكم لتأنسوا بها ولتكون أولادكم مثلَكم. وقيلَ هوَ خَلْقُ حَوَّاءَ مِنْ آدمَ[١]. ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ وأولادُ أولادٍ أو بنات فإن الحافِدَ هو المسرعُ في الخدمة. والبناتُ يَخْدُمْنَ في البيوت أتمَّ خِدْمة، وقيل هم الأُخْتَانِ على البنات، وقيل الربائبُ، ويجوز أن يُرَادَ بها البنونَ أنفسُهم والعطفُ لِتغايُرِ الوصْفَيْنِ[٢]. ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ من اللذائذ أو الحلالاتِ، ومِنْ للتبعيض فإنَّ المرزوقَ في الدنيا أُنْمُوْذَجٌ منها. ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم، أو أن من الطيباتِ ما يحرمُ كالبحائرِ[٣] والسوائبِ[٤]. ﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ حيث أضافوا نِعَمَهُ إلى الأصنام، أو حَرَّمُوا ما أحل الله لهم. وتقديمُ الصلة على الفعل إما للاهتمام، أو لإيهام التخصيص مبالغةً، أو للمحافظة على الفواصل[٥].

---

(١) ووضع الظاهر «لكم» موضع المضمر للإيذان بأن المراد أنه جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره. وتقديم المجرور «لكم» للتشويق للمؤخر والاهتمام بالمقدم. (س٥/١٢٨).

(٢) وتقديم المجرور باللام «لكم» على المجرور بمن «من أنفسكم» للإيذان من أول الأمر بعوْد منفعة الجعل إليهم إمداداً للتشويق وتقوية له (س٥/١٢٨).

(٣) البحائر جمع بحيرة وهي الناقة التي تشق أذنها إذا ولدت عشرة أبطن فلا تُركَب ولا يحمل عليها (المفردات مادة بحر).

(٤) السوائب جمع سائبة وهي التي تُسَيَّب في المرعىٰ فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن (المفردات مادة سيب).

(٥) والالتفات إلى الغيبة في «يؤمنون ويكفرون..» للإيذان باستيجاب حالهم للإعراض عنهم وصرف الخطاب إلى =

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ
ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ
مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ من مطر ونبات، ورزقاً إن جعلتَه مصدراً فشيئاً منصوب به وإلا فبدل منه. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يتملَّكوه أو لا استطاعةَ لهم أصلاً، وجَمْعُ الضمير فيه وتوحيدُه في «لا يملك» لأن ما مفردٌ في معنَى الآلهة، ويجوز أن يعودَ إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئاً من ذلك فكيف بالجماد.

(٧٤) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به، أو تَقِيسُونَهُ عليه فإنَّ ضَرْبَ المثلِ تشبيهُ حالٍ بحال[١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فسادَ ما تعولُون عليه من القياس ـ على أن عبادة عبيدِ الملِكِ أَدْخَلُ في التعظيم من عبادتِهِ ـ وعِظَمَ جُرْمِكُم فيما تفعلون. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولو علمتموه لما جَرَأْتُم عليه فهو عليم للنهي، أو أنه يعلم كُنْهَ الأشياء وأنتم لا تعلمونه فَدَعُوا رَأْيَكُم دون نَصِّه، ويجوز أن يُرَادَ فلا تضربوا لله الأمثالَ فإنه يعلم كيف تُضْرَبُ الأمثالُ وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف يُضْرَبُ فضرب مثلاً لنفسه وَلِمَنْ عُبِدَ دونَه فقال:

(٧٥) ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾[٢] مثّل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً، ومَثَّلَ نفسه بالحرِّ المالكِ الذي رَزَقَهُ الله مالاً كثيراً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء، واحتجَّ بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بَيْنَ الأصنام التي هي أعجزُ المخلوقات وبَيْنَ الله الغنيِّ القادرِ على الإطلاق. وقيل هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق. وتقييدُ العبدِ بالمملوكية للتمييز عن الحرِّ فإنه أيضاً عَبْدُ الله وبِسَلْبِ القُدْرَةِ للتمييز عن الْمُكَاتِبِ والمأذونِ، وجعْلُه قسيماً للمالكِ المتصرِّفِ يدلُّ على أن المملوكَ لا يَمْلك، والأظْهَرُ أنَّ مَنْ نكرةٌ موصوفة ليطابقَ عبداً، وجَمَعَ الضميرَ في يستوون لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوي الأحرارُ والعبيد؟. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمدِ له، لا يستحقه غيرُه فَضْلاً عن العبادة لأنه مولي النِّعَم كلِّها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيضيفون نِعَمَهُ إلى غيرِهِ ويعبدونه لأجلها.

= غيرهم من السامعين، تعجيباً لهم مما فعلوه (س٥/١٢٨).

(١) والالتفات فيه إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي (س٥/١٢٨).

(٢) قوله تعالى «ومَنْ رزقناه» فيه التفات إلى التكلم للإشعار باختلاف حالي ضرب المثل والرزق.
وقوله «فهو ينفق» عبر بالجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الإنفاق واستمراره التجددي.
وقوله «سراً وجهراً» حيث قدم السر على الجهر للإيذان بفضله عليه.
ووصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون للإشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك لكنهم لا يعلمون بموجبه عناداً (س٥/ ١٣٠).

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(٧٦) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وُلِدَ أخرسَ لا يَفهم ولا يُفهِم. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ عَيَالٌ وثِقْلٌ على مَنْ يلي أمْرَهُ. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ حيثما يرسله مولاه في أمر. وقرىء يُوَجَّهْ على البناء للمفعول ويوجه بمعنى يتوجَّه كقوله أينما أُوَجِّهْ أَلْقَ سَعْداً، وتَوَجَّهَ بلفظ الماضي. ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بِنَجْحٍ وكفايةِ مُهِمٍّ. ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ ومَنْ هو فَهِمٌ مِنطِيقٌ ذو كفاية وَرُشْدٍ ينفع الناسَ بِحَثِّهِم على العدل الشامل لمجامعِ الفضائل. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو في نفسه على طريق مستقيم لا يتوجَّه إلى مطلب إلا ويبلُغه بأقربِ سَعْيٍ. وإنما قابل تلكَ الصفاتِ بهذين الوصفين لأنهما كمالُ ما يقابلهما[1]، وهذا تمثيل ثانٍ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام لإبطال المشاركة بينَه وبينَها أو للمؤمن والكافر.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يختص به علمه لا يَعْلَمه غيرُه، وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوساً ولم يدلَّ عليه محسوسٌ. وقيل يوم القيامة فإنَّ عِلْمَهُ غائبٌ عن أهل السموات والأرض. ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته. ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ إلا كرجع الطَّرْفِ من أعلى الحَدَقَةِ إلى أسفلها. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أو أَمْرُهَا أقربُ منه بأن يكونَ في زمانٍ نصفِ تلكَ الحركةِ بل في الآن الذي تبتدىءُ فيه، فإنه تعالى يُحْيِيْ الخلائقَ دُفْعَةً وما يُوْجَدُ دُفْعَةً كان في آنٍ، وأو للتخيير أو بمعنى بل. وقيل معناه أن قيام الساعة وإن تَرَاخَى، فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقربُ مبالغةً في استقرابه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَيَقْدِرُ أن يُحْيِيَ الخلائقَ دفعةً كما قَدَرَ أنْ أحياهم متدرِّجاً. ثم دل على قدرته فقال:

(٧٨) ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وقرأ الكسائي بكسر الهمزة[2] على أنه لغةٌ أو إتباع لما قبلها، وحمزة بكسرها وكسر الميم. والهاء مزيدة مثلها في إهراقٍ. ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ جُهَّالاً مُسْتَصْحِبِيْنَ جهلَ الجماديةِ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أداةً تتعلمون بها فَتُحِسُّونَ بمشاعركم جزئياتِ الأشياء فتدركونها ثم تتنبهون بقلوبكم لمشاركاتٍ ومبايناتٍ بينها بتكرر الإحساس حتى تتحصلَ لكم العلومُ البديهية، وتتمكّنوا من تحصيل المعالمِ الكَسْبِيَّةِ بالنظر فيها[3]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أَنْعَمَ عليكم طَوْراً بعد طَوْرٍ فتشكروه.

---

(١) تغيير الأسلوب في قوله «ومن يأمر بالعدل. . .» عن سابقه وذلك لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين القرينتين (س٥/ ١٣٠).

(٢) أي بكسر همزة «أمهاتكم».

(٣) وتقديم السمع على البصر لأنه طريق تلقي الوحي، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر. وإفراده باعتبار كونه مصدراً في الأصل (س٥/ ١٣٢).

أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم
مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ
وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء على أنه خطاب للعامة. ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مُذَلَّلاتٍ للطيران بما خَلَقَ لها من الأجنحة والأسباب المؤاتيةِ له. ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فيه. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ فإن ثِقَلَ جَسَدِها يقتضي سقوطَها ولا علاقةَ فوقَها ولا دَعامةَ تحتَها تُمسِكُها. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ تسخيرِ الطيرِ للطيران بأنْ خَلَقَهَا خِلْقَةً يمكن معها الطيرانُ، وخَلَقَ الجوَّ بحيثُ يمكن الطيران فيه. وإمساكُها في الهواء على خلاف طَبْعِها. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها.

(٨٠) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضِعاً تسكُنون فيه وقتَ إقامتِكم كالبيوت الْمُتَّخذَةِ مِنَ الحجرِ والمدَرِ، فَعَلَ بمعنى مفعول. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ هي القِبَابُ الْمُتَّخَذَةُ مِنَ الأُدُم. ويجوز أن يتناول المتخذةَ من الوبر والصُّوف والشَّعْرِ فإنها مِنْ حيثُ إنها نابتة على جلودها يصدقُ عليها أنها مِنْ جلودها. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفةً يَخِفُّ عليكم حملُها ونقلُها. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقتَ تَرْحَالِكُم. ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ﴾ ووضعُها أو ضربُها وقتَ الحَضَرِ أو النزول. وقرأ الحجازيانِ والبصريانِ[1] يومَ ظَعَنِكُم بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ الصوف للضائنةِ والوبرُ للإبلِ والشَّعْرُ لِلْمَعْزِ. وإضافتُها إلى ضمير الأنعام لأنها من جُمْلَتِهَا. ﴿أَثَٰثًا﴾ ما يُلْبَسُ وَيُفْرَشُ. ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ما يُتَّجَرُ به. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى مدةٍ من الزمان فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدةً، أو إلى حين مماتِكم، أو إلى أن تقضُوا منه أوطارَكم.

(٨١) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرِها. ﴿ظِلَٰلًا﴾ تتقون بها حرَّ الشمس. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ مواضِعَ تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها، جَمْعُ كُنٍّ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ ثياباً من الصوف والكَتَّانِ والقطن وغيرها. ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ خَصَّهُ بالذِّكْرِ اكتفاءً بأحد الضِّدَّيْنِ، أو لأنَّ وِقايةَ الحرِّ كانت أهمَّ عندَهم. ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ﴾ يعني الدروعَ والجواشِنَ. والسِّربالُ يعمُّ كلَّ ما يُلْبَسُ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كإتمام هذه النِّعمِ التي تقدمتْ. ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي تنظرون في نعمه فتؤمنون به وتنقادون لِحُكْمِهِ[2]. وقرئ تَسْلَمُونَ من السَّلامة أي تشكرون فتسلمونَ من العذاب، أو تنظرون فيها فتَسْلمون من الشركِ. وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

---

(١) الحجازيان: نافع وابن كثير، والبصريان: أبو عمرو ويعقوب.

(٢) وإفراد النعمة: إما لأن المراد بها المصدر، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل (س٥/ ١٣٣).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٢ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٨٦﴾

(٨٢) ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضُوا ولم يقبلوا منك[١]. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فلا يضرُّكَ فإنما عليك البلاغُ وقد بلَّغتَ. وهذا من إقامة السبب مُقَامَ المسبَّبِ.

(٨٣) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي يعرفُ المشركونَ نعمةَ الله التي عدَّدَها عليهم وغيرَها حيثُ يعترفون بها وبأنها مِنَ اللهِ تعالى. ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بعبادتهم غيرَ الْمُنْعِمِ بها وقولهم إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا، أو بإعراضهم عن أداء حقوقها. وقيل: نعمةُ اللهِ نُبُوَّةُ محمد ﷺ[٢] عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عِناداً، ومعنى «ثم» استبعاد الإنكار بعد المعرفة. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الجاحدون عناداً. وذَكَرَ الأكْثَرَ إما لأن بعضَهم لم يعرفِ الحقَّ لنقصان العقل أو التفريطِ في النظر أو لم تقمْ عليه الْحُجَّةُ لأنه لم يبلغْ حدَّ التكليف، وإما لأنه يقام مقامَ الكلِّ كما في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

(٨٤) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر. ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الاعتذار إذ لا عُذْرَ لهم، وقيل في الرجوع إلى الدنيا. وثُمَّ لزيادة ما يحيقُ بهم من شدة المنعِ عن الاعتذار لما فيه من الإقناط الكُلِّيِّ على ما يَمُتُّونَ به من شهادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يُسْتَرْضَوْنَ، مِنَ العُتْبى وهي الرضا. وانتصاب «يومَ» بمحذوف، تقديره: اذْكُرْ أو خَوِّفْهم أو يحيقُ بهم ما يحيق، وكذا قوله:

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ عذاب جهنم. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمْهَلون.

(٨٦) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أوثانهم التي ادَّعوها شركاءَ، أو الشياطينَ الذين شاركوهم في الكفر بالحَمْلِ عليه. ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو الْتماسٌ لأنْ يَشْطُرَ عذابَهم[٤]. ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقةً وإنما عبدوا أهواءَهم كقوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾[٥]. ولا يمتنع إنطاقُ الله الأصنامَ به حينئذ، أو

---

(١) التفات إلى رسول الله ﷺ تسلية له وإعراضاً عنهم.
(٢) وهو الذي رجحه الطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٤/١٥٨).
(٣) النحل: «٧٥».
(٤) يَشْطُر عذابهم أي يوزع العذاب بينهم.
(٥) مريم: «٨٢».

في أنهم حملوهم على الكفر وألزموهم إياهُ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[1].

وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ
أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

(٨٧) ﴿وَأَلْقَوْا۟﴾ وألقى الذين ظلموا. ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلامَ لِحُكْمِهِ بعد الاستكبار في الدنيا. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وضاع عنهم وبطل. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

(٨٨) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام والحملِ على الكفر. ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ لِصَدِّهم. ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ المُستحَقِّ بكفرهم. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدينَ بِصَدِّهم.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني نبيَّهم، فإن نبيَّ كلِّ أمةٍ بُعِث منهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمدُ[2] ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أُمَّتِكَ. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ استئناف، أو حال بإضمار قد. ﴿تِبْيَٰنًا﴾ بياناً بليغاً. ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال بالإحالةِ إلى السُّنَّةِ أو القياس. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للجميع. وإنما حِرمانُ المحروم من تفريطه. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصةً.

(٩٠) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالتوسُّط في الأمور، اعتقاداً كالتوحيد المتوسِّط بين التعطيل والتشريك والقولِ بالكسب المتوسِّطِ بين مَحْضِ الجبر والقَدَرِ، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسطِ بينَ البِطالَةِ والترهُّب، وخُلُقاً كالجُودِ المتوسِّطِ بينَ البخل والتبذير. ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إحسانِ الطاعات. وهو إما بحسبِ الكميةِ كالتطوع بالنوافل، أو بحسَب الكيفية كما قال عليه الصلاة والسلام: «الإحسانُ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3]. ﴿وَإِيتَآئِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاءِ الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيصٌ بعدَ تعميمٍ للمبالغة. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ عن الإفراط في متابعة

---

(١) إبراهيم: «٢٢».

(٢) وإيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع (س/٥/١٣٥).

(٣) وهو جزء من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان. أخرجه البخاري (١/ ١١٤ رقم ٥٠) ومسلم (١/ ٣٦ ـ ٣٧ رقم ٨) والبغوي في شرح السنة (١/ ٨ ـ ٩ رقم ٢).

القوة الشَّهَوِيَّةِ كالزنا فإنه أقبحُ أحوال الإنسان وأشنعُها. ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما ينكر على متعاطِيهِ في إثارة القوة الغَضَبِيَّةِ. ﴿وَٱلْبَغْيِۚ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبُّرِ عليهم، فإنها الشَّيْطَنَةُ التي هي مُقْتَضَىٰ القوةِ الوهميةِ، ولا يوجد من الإنسان شرٌّ إلا وهو مُنْدَرِجٌ في هذه الأقسام صادرٌ بِتَوَسُّطِ إحدى هذه القِوَى الثلاثِ. ولذلكَ قال ابن مسعود رضي الله عنه: هيَ أَجْمَعُ آية في القرآن للخير والشر[١]. وصارت سببَ إسلام عثمانَ بنِ مظعونٍ رضي الله تعالى عنه[٢]. ولو لم يكن في القرآن غيرُ هذه الآيةِ لصدقَ عليه أنه تِبْيَانٌ لكل شيء وهدىً ورحمةٌ للعالمين. ولعلَّ إيرادَها عَقِبَ قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ للتنبيه عليه. ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي والْمَيْزِ بَيْنَ الخير والشر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تَتَّعِظُون.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

(٩١) ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يعني البيعةَ لرسول الله ﷺ على الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[٣]. وقيل كل أمر يجب الوفاء به، ولا يلائمه قولُه: ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ وقيل النذورُ. وقيلَ الإيمانُ بالله ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي أيمانَ البيعةِ أو مطلقَ الأيْمَانِ. ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها بِذِكْرِ الله تعالى، ومنه أُكِّدَ بقلب الواوِ همزةً ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ﴾ شاهِداً بتلك البيعةِ فإن الكفيلَ مُراعٍ لحال المكفولِ به رقيبٌ عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأيْمَانِ والعهود.

(٩٢) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ ما غزلَتْهُ، مصدر بمعنى المفعول. ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِنَقَضَتْ أي نقضت غزلها من بعد إبرامٍ وإحكامٍ. ﴿أَنكَٰثًا﴾ طاقاتٍ نُكِثَ فَتْلُهَا جَمْعُ نِكْثٍ، وانتصابُه على الحال مِنْ غَزْلِهَا أو المفعولِ الثاني لِنَقَضَتْ فإنه بمعنى صيَّرتْ. والمراد به تشبيهُ الناقضِ بِمَنْ هذا شأنُهُ، وقيل هي رِيطَةُ بِنْتُ سعدِ بن تَيْمٍ القرشيةِ[٤] فإنها كانتْ خَرْقَاءَ تفعلُ ذلك. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ

(١) وهو جزء من أثر أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم: ٤٨٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٥٨ رقم ٢٣٩٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٤/ ١٦٣) وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٠) نسبته إلى سعيد بن منصور، ومحمد بن نصر في الصلاة، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والطبراني ـ كما في «المجمع» (٧/ ٤٩) وفيه: عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح ـ والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، والطبراني، وأحمد عن ابن عباس (روح المعاني ١٤/ ٢١٩).

(٣) الفتح: «١٠».

(٤) ذكر البغوي في «معالم التنزيل» (٥/ ٣٩ ـ ٤٠) أن اسمها «رَيْطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم».
وانظر «زاد المسير» (٤/ ٤٨٥).

دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حالٌ من الضمير في ولا تكونوا أو في الجارِّ الواقع مَوْقِعَ الخبرِ، أي لا تكونوا مُتَشَبِّهِينَ بامرأةٍ هذا شأنُها متخذي أيمانِكم مَفْسَدَةً وَدَخَلاً بينكم، وأصلُ الدَّخَلِ ما يَدْخُلُ الشيءَ ولم يكن منه. ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ لأنْ تكونَ جماعةٌ أَزْيَدُ عَدَداً وأوفرُ مالاً من جماعة، والمعنى: لا تَغْدُرُوا بقومٍ لِكَثْرَتِكُم وقِلَّتِهِمْ أو لكثرة منابذتِهم وقُوَّتِهِم كقريش، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائِهم نقضوا عهدَهم وحالفوا أعداءَهم. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ﴾ الضمير لأن تكون أمةٌ لأن بمعنى المصدر أي يختبركم بكونهم أَرْبَىٰ لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعةِ رسوله أم تَغْتَرُّونَ بكثرة قريشٍ وشوكتِهم وقِلَّةِ المؤمنين وضَعْفِهِمْ. وقيلَ الضميرُ للرياء، وقيل للأمرِ بالوفاء. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

(٩٣) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مُتَّفِقَةً على الإسلام. ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ بالخذلانِ. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيق. ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤالَ تَبْكِيتٍ ومجازاةٍ.

(٩٤) ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تصريحٌ بالنهي عنه بعد التضمين تأكيداً ومبالغة في قُبْحِ الْمَنْهِيِّ. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ أي عن محجَّةِ الإسلام. ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها. والمراد أقدامُهم، وإنما وحَّد ونكَّر للدلالة على أن زَلَلَ قَدَمٍ واحدة عظيم فكيف بأقدامٍ كثيرة؟! ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ العذاب في الدنيا. ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بِصَدِّكم عن الوفاء أو صَدِّكُم غيرَكم عنه، فإنَّ مَنْ نَقَضَ البيعةَ وارتدَّ جعلَ ذلك سُنَّةً لغيره. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

(٩٥) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ولا تستبدِلُوا عَهْدَ الله وبَيْعَةَ رسوله ﷺ. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عَرَضاً يسيراً، وهو ما كانت قريشٌ يَعِدُونَ لضعفاءِ المسلمين ويشترطونَ لهم على الارتدادِ. ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من النصر والتغنيم في الدنيا والثواب في الآخرة. ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يَعِدونكم. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

(٩٦) ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من أَعْراض الدنيا. ﴿يَنفَدُ﴾ ينقضي ويفنى. ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمة. ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفدُ، وهو تعليلٌ للحكم السابق ودليلٌ على أن نعيمَ أهلِ الجنة باقٍ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم﴾ على الفاقة وأذى الكفار، أو على مشاقِّ التكاليف. وقرأ ابن كثير وعاصمٌ بالنون. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما يرجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات، أو بجزاءِ أحسنَ من أعمالهم.

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾

(٩٧) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بَيَّنَهُ بالنوعين دَفعاً للتخصيص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا اعتدادَ بأعمال الكَفَرَةِ في استحقاقِ الثواب، وإنما المتوقَّعُ عليها تخفيفُ العذاب[1]. ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش عَيْشاً طيباً فإنه إنْ كانَ موسِراً فظاهرٌ وإن كان معسِراً يطيبُ عيشُه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقُّعِ الأَجْرِ العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر فإنه إن كانَ معسِراً فظاهرٌ وإن كان موسِراً لم يَدَعْهُ الحِرْصُ وخَوْفُ الفواتِ أن يتهنأ بعيشه. وقيل في الآخرة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة[2].

(٩٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إذا أردت قراءته كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾[3]. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ فاسأل اللهَ أنْ يعيذَكَ من وَسَاوِسَه لئلا يوسوسك في القراءة. والجمهورُ على أنه للاستحباب[4]. وفيه دليل على أن المصلي يستعيذ في كل ركعة لأن الحكمَ المترتِّبَ على شرطٍ يتكرر بتكرُّرِهِ قياساً. وتعقيبُه لِذِكْرِ العمل الصالح والوعدِ عليه إيذانٌ بأنَّ الاستعاذةَ عند القراءة من هذا القبيل. وعن ابن مسعود: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال: «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أَقْرَأَنِيهِ جبريلُ عن القلمِ عنِ اللوحِ المحفوظ»[5].

(٩٩) ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ تَسَلُّطٌ وَوِلاَيَةٌ. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه، فإنهم لا يطيعون أوامرَهُ ولا يَقْبَلُونَ وَسَاوِسَهُ إلا فيما يحتقرون على نُدُورٍ وغَفْلَةٍ، ولذلك أُمِرُوا بالاستعاذة، فَذِكْرُ السلطنةَ بعدَ الأمر بالاستعاذةِ لئلا يُتَوَهَّمُ منهُ أنَّ له سلطاناً[6].

---

(١) وإيثار إيراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه في سلك الصلة لإفادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح (س٥/ ١٣٩).

(٢) والجمع في الضمائر العائدة إلى الموصول «مَنْ» لمراعاة جانب المعنى، كما أن الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ. وإيثار ذلك على العكس لأن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية، ووقوع ما في حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للإفراد.

(٣) المائدة: «٦».

(٤) قال ابن حجر في «جامع البيان» (٨/ ١٤/ ١٧٣) «وليس قوله (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب، وذلك أنه لا خلاف بين الجمع أنَّ من قرأ القرآن، ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم، قبل قراءته أو بعدها، أنه لم يضيع فرضاً واجباً».
وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٩٠) «والاستعاذة عند القراءة سنة في الصلاة وغيرها».

(٥) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٦ رقم ٢٦١) «رواه الثعلبي مسلسلاً عن شيخه أبي الفضل محمد بن جعفر الخزاعي إلى ابن مسعود. ورواه الواحدي في الوسيط عن الثعلبي» هـ.

(٦) وفي التعرض لصفة الربوبية عِدَة كريمة بإعاذة المتوكلين (س٥/ ١٤٠).

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن
رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ
إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يحبونه ويطيعونه. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ بالله أو بسبب الشيطان[١]. ﴿مُشْرِكُونَ﴾.

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بالنسخ فجعلنا الآية الناسخةَ مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من المصالح فَلَعَلَّ ما يكون مصلحةً في وقتٍ يصيرُ مفسدةً بعدَه فينسخُه، وما لا يكون مصلحةً حينئذ يكون مصلحةً الآنَ فَيُثْبِتُهُ مكانَه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يُنْزِلُ بالتخفيف. ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الكفَرةُ. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ مُتَقَوِّلٌ على الله تأمر بشيء ثم يبدو لكَ فتنهى عنه وهو جوابُ إذا. والله أعلم بما ينزلُ اعتراضٌ لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيهِ على فساد سَنَدِهِم، ويجوز أن يكون حالاً[٢]. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمةَ الأحكامِ ولا يميزونَ الخطأَ من الصواب[٣].

(١٠٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام، وإضافة الروح إلى القدُس وهو الطُّهْرُ كقولهم: حَاتَمُ الجودِ[٤]. وقرأ ابنُ كثير روحُ القُدْسِ بالتخفيف. وفي يُنَزِّلُ ونَزَّلَهُ تنبيهٌ على أنَّ إنزالَه مدرَّجاً على حَسَبِ المصالح بما يقتضي التبديلَ. ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُلْتَبِساً بالحكمة[٥]. ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لِيُثَبِّتَ اللهُ الذينَ آمنوا على الإيمان بأنه كلامُه، وأنهم إذا سمعوا الناسخَ وتدبَّروا ما فيه من رعايةِ الصلاحِ والحكمة رسختْ عقائدُهم واطمأنتْ قلوبُهم. ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، وهما معطوفانِ على محل لِيُثَبِّتَ أي تثبيتاً وهدايةً وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضدادِ ذلك لغيرهم. وقرىء لِيُثْبِتَ بالتخفيف.

(١٠٣) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يَعْنُونَ جَبْراً الروميَّ غلامَ عامرِ بنِ الحضرمي. وقيل جبراً ويساراً كانا يصنعانِ السيوفَ بمكةَ ويقرآنِ التوراةَ والإنجيلَ، وكانَ الرسول ﷺ يمر عليهما ويَسْمَعُ ما يقرآنهِ. وقيل عائشاً غلامَ حُوَيْطِبِ بن عبدِالْعُزَّى قد أسلم وكان صاحبَ كُتُبٍ. وقيل سلمانُ

---

(١) وتكرير الموصول «الذين» للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه (س٥/ ١٤٠).
(٢) وحكاية هذا القول عنهم ههنا للإيذان بأن ذلك كفرة ناشئة عن نزغات الشيطان وأنه وليهم (س٥/ ١٤١).
(٣) وإسناد هذا الحكم لأكثرهم لأن منهم من يعلم ذلك وإنما ينكره عناداً (س٥/ ١٤١).
(٤) أي للمبالغة في ذلك الوصف كأنه طبع منه.
(٥) وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية عليه - ﷺ - ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض (س٥/ ١٤١).

الفارسيُّ[١]. ﴿لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ لغة الرجل الذي يميلون قولَهم عن الاستقامة إليه، مأخوذٌ من لَحْدِ القبر. وقرأ حمزة والكسائي يَلْحَدُونَ بفتح الياء والحاء، لسان أعجمي غيرُ بيِّن. ﴿وَهَٰذَا﴾ وهذا القرآن. ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والجملتان مُسْتَأْنفَتانِ لإبطال طَعْنِهم، وتقريره يَحْتَمِلُ وجهين أحدهما: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأملٍ، فكيف يكون ما تلقفه منه؟! وثانيهما: هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يَتَلَقَّفْ منه اللفظَ، لأن ذلك أعجمي وهذا عربي والقرآن كما هو معجزٌ باعتبار المعنَى فهو معجز مِنْ حيثُ اللفظُ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تَعَلُّمُهَا إلا بملازمة مُعَلِّمٍ فائقٍ في تلك العلوم مدةً متطاولَةً، فكيف تَعَلَّمَ جميعَ ذلكَ من غلامٍ سوقيٍّ سمعَ منه في بعض أوقاتِ مرورِه عليه كلماتٍ أعجميةً لعلهما لم يعرفا معناها؟! وطَعْنُهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكةِ دليلٌ على غاية عَجْزِهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا يصدِّقون أنها من عند الله. ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاة. وقيل إلى الجنة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، هدَّدَهم على كفرهم بالقرآن بعد ما أماطَ شُبْهَتهم وردَّ طَعْنَهُمْ فيه، ثم قَلَبَ الأمرَ عليهم فقال:

(١٠٥) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم لا يخافونَ عِقاباً يردعُهم عنه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الذين كفروا، أو إلى قريش. ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب لأن تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافاتِ أعظمُ الكذِبِ، أوِ الذينَ عادتُهم الكذبُ لا يصرفهم عنه دِينٌ ولا مروءةٌ، أو الكاذبون في قولهم: إنما أنتَ مفترٍ إنما يعلّمه بَشَرٌ.

(١٠٦) ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ بدل من الذين لا يؤمنون وما بينهما اعتراض، أو مِنْ أولئك، أو مِنْ الكاذبونَ. أو مبتدأً خبرُه محذوف دلَّ عليه قولُه: ﴿فعليهم غضب﴾. ويجوز أن ينتصبَ بالذمِّ، وأن تكون مَنْ شرطيةً محذوفةَ الجوابِ دلَّ عليه قولُه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الافتراءِ أو كلمةِ الكفر، استثناءٌ متصلٌ لأن الكفرَ لغةً يعمُّ القولَ والعقدَ كالإيمان. ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ لم تتغيرْ عقيدتُه. وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب. ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقده

---

(١) تحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد.
وإنما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه ـ مع كونه أدخل في ظهور كذبهم ـ للإيذان بأن مدار خطابهم ليس نسبته عليه السلام إلى التعلم من شخص معين بل من البشر كائناً من كان (س٥/ ١٤١).

وطابَ بهِ نَفْساً. ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا أَعْظَمَ مِنْ جُرْمِهِ. رُوِيَ أنَّ قريشاً أَكْرَهُوا عمَّاراً وأَبَوَيْهِ ياسِراً وسُمَيَّةَ على الارتدادِ، فَرَبَطُوا سُمَيَّةَ بينَ بَعِيرَيْنِ وَجِيْءَ بِحَرْبَةٍ في قُبُلِهَا وقالوا: إنكِ أسلمتِ مِن أجلِ الرجالِ فَقُتِلَتْ، وقتلوا ياسراً وهما أولُ قَتِيلَيْنِ في الإسلام، وأعطاهم عَمَّارٌ بلسانه ما أرادوا مُكْرَهاً فقيل: يا رسول الله إنَّ عماراً كَفَرَ فقال: «كلاً إن عماراً مَلِيءٌ إيماناً مِنْ قَرْنِهِ إلى قَدَمِهِ، واختلطَ الإيمانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ» فأتى عمارٌ: رسولَ الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «مَا لَكَ؟ إنْ عادوا لكَ فَعُدْ لهم بما قُلْتَ»[1]. وهو دليل على جواز التكلُّم بالكفر عند الإكراه، وإنْ كان الأفضل أن يتجنَّبَ عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه، لما رُوِيَ أنَّ مسيلمةَ أخذَ رَجُلَيْنِ فقال لأَحَدِهِمَا: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ قال: فما تقول فيَّ؟ فقال: أنتَ أيضاً، فخلاَّه، وقال للآخر: ما تقول فِي محمد؟ قال: رسول الله ﷺ، قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنا أَصَمُّ، فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتلَه، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له»[2].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا
جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٧) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بسبب أنهم آثَرُوهَا عليها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي الكافرين في علمه إلى ما يوجب ثباتَ الإيمان ولا يعصمهم من الزَّيْغِ.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٦ رقم ٢٦٢): هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند» اهـ.
وأخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٤/١٨١ ـ ١٨٢) عن أبي مالك وقتادة مرسلاً بسند صحيح. أن الآية نزلت في عمار بن ياسر. وهذا مذهب جمهور المفسرين.
وانظر «الدر المنثور» (٥/ ١٧٢) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ١٨١) والمستدرك للحاكم (٢/ ٣٥٧).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٦ رقم ٢٦٣) «وأخرج ابن أبي شيبة قال: حدثنا إسماعيل بن علية عن يونس عن الحسن ـ مرسلاً ـ أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما فقال: لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه، وقال: إني أصم فأعاد عليه فقال مثله فأمر بقتله. وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم. فأرسله. فأتى النبي ﷺ فقال: هلكت. فقال: ـ وما شأنك؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه، فقال: «أما صاحبك فمضى على إيمانه. وأما أنت فأخذت بالرخصة».
وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» عن معمر ـ مفصلاً ـ قال: سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين فذكره بنحوه.
وذكر الواحدي في «المغازي» أن اسم المقتول: حبيب بن زيد عم عباد بن تميم واسم الآخر: عبدالله بن وهب الأسلمي. قال: وكانا في السافة. وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار» هـ.

(١٠٨) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ فأبَتْ عن إدراك الحق والتأمل فيه. ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الكاملون في الغفلة إذ أَغْفَلَتْهُم الحالةُ الراهنة عن تَدَبُّرِ العواقب.

(١٠٩) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ إذ ضيَّعوا أعمارهم وصرفُوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلِد.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

(١١٠) ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ أي عُذِّبُوا كعمارٍ رضي الله تعالى عنه بالولاية والنصر، وثم لِتَبَاعُدِ حالِ هؤلاء عن حال أولئك. وقرأ ابن عامر فَتَنُوا بالفتح، أي من بعد ما عذَّبُوا المؤمنينَ كالحضرميِّ أَكْرَهَ مولاهُ جَبْراً حتى ارتدَّ ثمَّ أسلم وهاجر. ﴿ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ ﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاقِّ. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر[(١)]. ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لما فعلوا قبل. ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ منعم عليهم مجازاةً على ما صنعوا بَعْدُ.

(١١١) ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ ﴾ منصوب برحيمٍ أو باذكُرْ. ﴿ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ تجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها لا يهمها شأنُ غيرِها فتقولُ نفسي نفسي. ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ جزاءَ ما عَمِلَتْ[(٢)]. ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ لا يُنْقَصُونَ أُجُورَهم.

(١١٢) ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فَأَبْطَرَتْهُمُ النعمةُ فكفروا فأنزل الله بهم نقمته، أو لِمَكَّةَ. ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ لا يُزْعِجُ أهلَها خوفٌ. ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾ أقواتُها[(٣)]. ﴿ رَغَدًا ﴾ واسعاً. ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من نواحيها. ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ بنعمه، جَمْعُ نِعْمَةٍ

---

(١) وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة إظهار لكمال اللطف به عليه السلام وإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعاً له (س٥/ ١٤٤).

(٢) وإيثار إظهار النفس «كل نفس» على الإضمار لزيادة التقرير، وللإيذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفية وإن كانتا في يوم واحد (س٥/ ١٤٤).

(٣) وتغيير النظم عن صفتها الأولى «كانت آمنة..» لأن إتيان الرزق متجدد، وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر (س٥/ ١٤٥).

على تركِ الاعتدادِ بالتاء كَدِرْعٍ وأَدْرُعٍ، أو جَمْعُ نِعَمٍ كَبُؤْسٍ وأَبْؤُسٍ[١]. ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ استعار الذوق لإدراكِ أثر الضرر، واللباسَ لما غَشِيَهُم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقةَ عليه بالنظر إلى المستعَارِ له كقول كُثَيِّرٍ:

عمــرُ الــرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّــمَ ضَــاحِكَــاً غلقَــتْ لِضَحْكَتِــهِ رِقَــابُ المــالِ

فإنه استعار الرِّداءَ للمعروف لأنه يصون عِرْضَ صاحبه صَوْنَ الرداء لما يلقى عليه، وأضاف إليه الغَمْرَ الذي هو وَصْفُ المعروفِ والنَّوالِ لا وَصْفَ الرداء نظراً إلى المستعَارِ له، وقد يُنْظَر إلى المستعَارِ كقوله:

يُنَــازِعُنــي رِدَائِــي عَبْــدُ عَمْــرو رُوَيْــدَكَ يَــا أَخَــا عَمْــرو بــن بَكْــرِ

لِــي الشَّطْــرُ الَّــذِي مَلَكَــت يَمينــي ودُونَــكَ فَــاعْتَجِــزْ مِنْــهُ بِشَطْــرِ

استعار الرداء لسيفه ثم قال فاعتجِرْ نَظَراً إلى المستعار. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ بصنيعهم[٢].

(١١٣) ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ، والضمير لأهل مكةَ عادَ إلى ذِكْرِهِم بعد ما ذَكَرَ مِثْلَهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي حالَ التباسِهم بالظلم والعذاب ما أصابهم مِنَ الْجَدَبِ الشديد، أو وقعة بدر.

(١١٤) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أَمَرَهُم بِأَكْلِ ما أحلَّ الله لهم وشُكْرِ ما أنعم عليهم بعدما زجرهم عن الكفر وهدَّدَهم عليه بما ذَكَرَ من التمثيل والعذاب الذي حلَّ بهم، صَدّاً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تطيعون، أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

(١١٥) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لَمَّا أَمَرَهُم بتناولِ ما أحلَّ لهم عدَّدَ عليهم محرماتِه ليعلم أنَ ما عداها حلٌّ لهم، ثمَّ أكد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائِهم فقال:

---

(١) وأنْعُم جمع قلة، وأوثر جمع القلة للتهويل، أي إذا كان كفران نعمة قليلة هذا جزاؤه، فكيف بكفران نعم كثيرة؟.

(٢) وتقديم الجوع على الخوف لكونه أنسب بالإذاقة، أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرزق وإيقاع الإذاقة للقرية للمبالغة.. وفي صيغة الصنعة إيذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم (س٥/ ١٤٥).

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ
وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

(١١٦) ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ كما قالوا: ﴿ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾[1] الآية، ومقتضى سياقِ الكلام وتصدير الجملة بإنما حَصْرَ المحرماتِ في الأجناس الأربعة إلا ما ضَمَّ إليه دليل: كالسباع والحُمُرِ الأهلية. وانتصاب الكذب بلا تقولوا، وهذا حلال وهذا حرام بدل منه، أو متعلِّقٌ بِتَصِفُ على إرادة القول أي: ولا تقولوا الكذب لما تَصِفُه ألسنتكم فتقولوا هذا حلال وهذا حرام، أو مفعولُ لا تقولوا، والكذب مُنْتَصِبٌ بتصف وما مصدرية أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لِوَصْفِ ألسنتكم الكذبَ أي: لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل، وَوَصْفُ ألسنتِهم الكذبَ مبالغةً في وصف كلامهم بالكذب كأنَّ حقيقةَ الكذب كانتْ مجهولةً وألسنتُهم تصفُها وتعرفها بكلامهم هذا، ولذلك عُدَّ مِنْ تصحيح الكلام كقولهم: وجهها يصف الجمالَ وعينُها تصف السحر. وقُرِىءَ الكذبِ بالجر بدلاً من ما، والكذُبُ جَمْعُ كَذُوب أو كَذَّابٌ بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الذمِّ أو بمعنى الكَلِم الكواذبِ. ﴿ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ ﴾ تعليل لا يتضمن الغرضَ. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لمّا كان المفتري يفتري لتحصيل مطلوب نَفَىٰ عنهم الفلاحَ وبَيَّنَه بقوله:

(١١٧) ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ أي ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة.

(١١٨) ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾[2] ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرَّمنا. ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بالتحريم. ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة.

(١١٩) ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ بسببها أو ملتبسين بها ليعمَّ الجهلُ بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة. والسوءُ يعمُّ الافتراءَ على الله وغيرَه. ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ من بعد . . . .

---

(١) الأنعام: «١٣٩».
(٢) الأنعام: «١٤٦».

التوبة[١]. ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء. ﴿رَّحِيمٌ﴾ يثيب على الإنابة.

(١٢٠) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا مفرقةً في أشخاص كثيرة، كقوله:

لَيْسَ مِنَ اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ

وهو رئيسُ الموحِّدينَ وقدوةُ المحقِّقِينَ الذي جادل فِرَقَ المشركين وأبطل مذاهبهم الزائغةَ بالحججِ الدامغة، ولذلك عقب ذِكْرَهُ بتزييف مذاهبِ المشركين مِنَ الشرك والطعن في النبوةِ وتحريم ما أحلَّه، أو لأنه كان وحدَه مؤمناً وكان سائرُ الناس كفاراً. وقيل هي فِعْلَةٌ بمعنى مفعول كالرحلة والنُّخْبةِ، مِنْ أَمَّهُ إذا قصَدَهُ أو اقتدى به فإن الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيرته كقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٢] ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ مطيعاً له قائماً بأوامره. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كما زعموا فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم.

(١٢١) ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ ذُكِرَ بلفظ القلَّةِ للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة؟ ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ للنبوة. ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة إلى الله.

(١٢٢) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بأن حَبَّبَهُ إلى الناس حتى أن أرباب المِلَلِ يَتَوَلَّوْنَهُ ويُثْنُونَ عليه، ورَزَقَه أولاداً طيبةً وعُمْراً طويلاً في السَّعةِ والطاعة[٣]. ﴿وَإِنَّهُ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لِمَنْ أهل الجنة كما سأله بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٤].

(١٢٣) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد. وثم إما لتعظيمه والتنبيه على أن أَجَلَّ ما أُوتِيَ إبراهيمُ اتباعَ الرسول عليه الصلاة والسلام مِلَّتَهُ، أو لتراخي أيامه[٥]. ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيرادِ الدلائل مرةً بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حَسَبِ فَهْمِهِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قدوةَ الموحِّدِيْنَ.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ تعظيمُ السَّبْتِ، أو التخلي فيه للعبادة. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي على نبيهم، وهم اليهود أَمَرَهُمْ موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يومَ الجمعة فَأَبَوْا وقالوا: نريد

---

(١) تكرير قوله تعالى «إن ربك» لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه (س٥/ ١٤٨).
(٢) البقرة: «١٢٤».
(٣) والالتفات إلى التكلم «وآتيناه» لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، وتفخيم مكانه عليه السلام (س٥/ ١٤٩).
(٤) الشعراء: «٨٣».
(٥) وإيراد «ثم» التي هي للتراخي في الرتبة للإيذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام (س٥/ ١٥٠).

يوم السبت لأنه تعالى فرغَ فيه مِنْ خَلْقِ السموات والأرض، فألزمهم الله السبت وشدَّد الأمر عليهم. وقيل معناه إنما جُعِلَ وَبَالُ السَّبتِ وهو المسخُ على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصَّيْدَ فيه تارةً وحرموه أخرى واحتالوا له الحيلَ، وذكْرُهُم هنا لتهديد المشركين كَذِكْرِ القريةِ التي كفرتْ بِأَنْعُمِ الله[1]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق بما يستحقُّه.

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(١٢٥) ﴿ٱدْعُ﴾ مَنْ بُعِثْتَ إليهم[2]. ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام. ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالمقالة المُحْكَمَةِ، وهو الدليل الموضِّحُ للحق المزيحُ للشبهة. ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة، فالأولى لدعوة خواصِّ الأمة الطالبينَ للحقائق والثانية لدعوة عَوَامِّهِم. ﴿وَجَـٰدِلْهُم﴾ وجَادِلْ مُعَانِدِيهِم. ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسنُ طرقِ المجادلة من الرفق واللين وإيثار الوجه الأيسر والمقدمات التي هي أشهر، فإنَّ ذلك أنفعُ في تسكين لَهَبِهِم وتبيينِ شَغَبِهِم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك بلِ اللهُ أعلم بالضالِّينَ والمهتدين وهو المجازي لهم[3].

(١٢٦) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ لمّا أمره بالدعوة وبَيَّنَ له طُرُقَهَا أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة ومراعاة العدل مع مَنْ يناصِبُهم، فإن الدعوة لا تنفكُّ عنه منْ حيثُ إنها تتضمنُ رَفْضَ العادات وتركَ الشهوات والقَدْحَ في دين الأسلافِ والحكمَ عليهم بالكفر والضلال. وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة وقد مُثِّلَ به فقال: «والله لئن أظفرني الله بهم لأُمَثِّلَنَّ بسبعين

---

(١) بناء الفعل «جُعل» للمفعول للجري على سنن الكبرياء وللإيذان بعدم الحاجة للتصريح بالفاعل.
وعبر عن ذلك بالجعل موصولاً بكلمة «على» وعبر عنهم بالاسم الموصول باختلافهم، فقيل: «إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه» للإيذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدي إلى العذاب، وبكونه معللاً باختلافهم في شأنه قبل الوقوع إيثاراً له على ما أمر الله تعالى به واختياراً للعكس (س٥/ ١٥٠).

(٢) وحذف المفعول للتعميم.

(٣) تقديم الضالين لأن سياق الكلام فيهم.
وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لأنه تغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها وإعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض، بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جيء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات.
وتكرير «هو أعلم» للتأكيد والإشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب (س٥/ ١٥١).

مكانَك»[١]، فنزلت، فكفَّرَ عن يمينه. وفيه دليلٌ على أن للمقتصِّ أنْ يماثلَ الجاني وليس له أنْ يجاوزَه. وحثَّ على العفو تعريضاً بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وتصريحاً على الوجهِ الآكَدِ بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ﴾ أي الصبر. ﴿خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ من الانتقام للمنتقمين، ثم صرح بالأمر به لرسوله لأنه أولى الناس به لزيادة علمه بالله ووثوقه عليه فقال:

(١٢٧) ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إلا بتوفيقه وتثبيته. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين أو على المؤمنين وما فُعِلَ بهم. ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ في ضَيْقِ صدرٍ مِنْ مَكْرِهِم. وقرأ ابن كثير في ضِيْقٍ بالكسر هنا وفي النمل[٢] وهما لغتان كالقولِ والقيلِ، ويجوز أن يكون الضيق تخفيفَ ضَيِّقَ.

(١٢٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ المعاصي. ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل، أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النحل لم يُحَاسِبْه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإنْ ماتَ في يومٍ تلاها أو ليلةٍ كان له من الأجر كالذي ماتَ وأحسنَ الوصيةَ»[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه البزار في كشف الأستار (٢/٣٢٦ رقم ١٧٩٥) في سياق أطول عن أبي هريرة وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/١١٩) وقال «رواه البزار والطبراني، وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف» هـ.
● وأخرج الترمذي (٥/٢٩٩ رقم ٣١٢٩) عن أُبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم. قال: فلما كان يوم فتح مكة، فأنزل الله تعالى «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثلِ ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» [النحل: ١٢٦].
فقال رجل: لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ «كُفُّوا عن القوم إلاّ أربعة». وهو حديث حسن.
(٢) النمل: «٧٠».
(٣) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٣٩).

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

ترتيبها ١٧ — آياتها ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

سورةُ بني إسرائيلَ مكيةٌ،

وقيلَ إلا قولَه تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾[1] إلى آخر ثمانِ آياتٍ، وهي مائة وإحدى عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سبحانَ اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه يُسْتَعْمَلُ عَلَماً له فيُقْطَعُ عن الإضافة ويُمْنَعُ عنِ الصَّرْفِ قال:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ ... سبحانَ مِنْ علقمةَ الفاخرِ

وانتصابُه بفعلٍ متروكٍ إظهاره، وتصديرُ الكلام به للتنزيه عن العجز عما ذُكِرَ بعدُ. وأَسْرَى وَسَرَى بمعنى. وليلاً نُصِبَ على الظرفِ، وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مُدَّةِ الإسراء. ولذلك قرىء من الليل، أي بعضُه كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾[2]. ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بِعَيْنِهِ لما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «بَيْنَا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عندَ البيت بينَ النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبُراقِ»[3]. أو من الحرمِ، وسمَّاه المسجدَ الحرامَ لأنه كلُّه مسجدٌ أو لأنه محيط به أو ليطابِقَ

---

(١) الآية: «٧٣».

(٢) الإسراء: «٧٩».

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٣٠٢ رقم ٣٢٠٧) و(٧/ ٢٠١ رقم ٣٨٨٧) ومسلم (١/ ١٥٠ رقم ٢٦٤). من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

المبدأُ الْمُنْتَهَى، لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيتِ أمِّ هانىءٍ بعد صلاة العشاء فَأُسْرِيَ به ورجَع من ليلته، وقصَّ القصةَ عليها وقال: «مُثِّلَ لي الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام فصليتُ بهم» ثمَّ خرجَ إلى المسجدِ الحرام وأخبر به قريشاً، فتعجَّبوا منه استحالةً، وارتدَّ ناسٌ ممن آمن به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: إن كان قال لقد صدقَ، فقالوا: أَتُصَدِّقُهُ على ذلك، قال: إني لأُصَدِّقُهُ على أَبْعَدَ من ذلك فَسُمِّيَ الصِّدِّيقُ. واسْتَنْعَتَهُ طائفةٌ سافروا إلى بيت المقدس فَجُلِّيَ له فَطَفِقَ ينظر إليه وينعتُه لهم، فقالوا: أما النعتُ فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عِيْرِنا، فأَخْبَرَهم بعددِ جمالها وأحوالها وقال: «تَقْدُمُ يومَ كذا مع طلوعِ الشمس يقدمُها جَمَلٌ أَوْرَقُ» فخرجوا يشتدون إلى الثنيةِ فصادفوا العِيْرَ كما أَخْبَرَ، ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا إلا سحرٌ مبين[1]. وكان ذلك قَبْلَ الهجرة

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٧ رقم ٢٧١) «ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند. وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه.
ثم رأيته من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. أخرجه الحاكم في الإكليل والبيهقي عنه. لكن لم يسق لفظه.
وقد رواه النسائي (في التفسير رقم: ٣٠٥) ـ باختصار عن هذا من رواية عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس».
ـ قلت: رجاله رجال الشيخين، غير محمد بن عبدالأعلى وهو ثقة أخرج له مسلم كما في «رجال صحيح مسلم» (رقم: ١٤٧٧). وعوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي.
وقد أخرجه أحمد (١/ ٣٧٤) مطولاً، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ١٠ رقم ٣٩٣/ ٢٧٢٠) وابن جرير في «تهذيب الآثار» مسند عبدالله بن عباس (١/٤٠٨ رقم ١٧) كلهم من حديث ثابت عن هلال بن خباب ـ به.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٦ ـ ٦٧) وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن هلال بن خباب، قال يحيى القطان: إنه تغير قبل موته، وقال: يحيى بن معين: لم يتغير ولم يختلط، ثقة مأمون، ورواه أبو يعلى...» هـ.
وذكره ابن كثير في التفسير (٣/ ١٦ ـ ١٧) عن المسند وقال «وهو إسناد صحيح» ـ وأورده ابن سعد ـ في الطبقات (١/ ٢١٣ ـ ٢١٥) من طريق أبي مرة مولى عقيل، عنهما نحوه ـ وأبو يعلى ـ كما في «المجمع» (٩/ ٤١ ـ ٤٢) مختصراً على تسمية أبي بكر الصديق ـ والطبراني (في الكبير (٢٤/ ٤٣٢ ـ ٤٣٤ رقم ١٠٥٩) من طريق عكرمة عنها نحوه. وأخرجه مختصراً على تسمية أبي بكر وهو متروك كما في «المجمع» (٩/ ٤٢) ـ من حديث أم هانىء مطولاً» هـ.
ـ قلت: وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ٢) من حديث أم هانىء لكنه من طريق أبي صالح مولاها عنها مختصراً.
وورد ذكر تسمية (الصديق) من حديث عائشة عن الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢ ـ ٦٣) وعنه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦١) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٠) بسند صحيح عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن مرسلاً.
ـ قلت: ومن الملاحظ أن ابن حجر رحمه الله اقتصر في تخريج هذا الحديث على المصادر المذكورة، مع أن ما فيه مخرج في «الصحيحين» وغيرها.
فأخرج البخاري (٧/ ١٩٦ رقم ٣٨٨٦) و(٨/ ٣٩١ رقم ٤٧١٠) ومسلم (١/ ١٥٦ رقم ٢٧٦/ ١٧٠) من حديث جابر بن عبدالله أن رسولَ الله ﷺ قال «لما كذبتني قريشٌ، قمتُ في الحِجْر فجلا الله لي بيت المقدس. فطفقتُ أخبِرُهم عن آياتِهِ وأنا انظر إليه». =

بِسَنَةٍ[1]. واخْتُلِفَ في أنه كان في المنام أو في اليقظَةِ بروحه أو بجسدِه، والأكثرُ على أنه أُسْرِيَ بجسدِه إلى بيت المقدس، ثم عُرِجَ به إلى السموات حتى انتهى إلى سِدْرَةِ المنتَهَى، ولذلك تعجَّبَ قريشٌ واستحالوه، والاستحالةُ مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قُرْصِ الشمس ضِعْفُ ما بينَ طرفي كُرَةِ الأرض مائةٌ ونيفاً وستينَ مرةً، ثم إن طرفَها الأسفلَ يصل موضِعَ طرفِها الأعلى في أقلَّ من ثانية، وقد بُرْهِنَ في الكلام أن الأجسام متساوية في قَبول الأعْراض وأن الله قادر على كل الممكنات فيقدر أن يخلق مثلَ هذه الحركةِ السريعة في بدن النبي ﷺ، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات. ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد. ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدين والدنيا، لأنه مَهْبِطُ الوحي وَمُتَعَبَّدُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من لَدُنْ موسى عليه الصلاة والسلام. ومحفوف بالأنهار والأشجار. ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ كَذَهَابِهِ في بُرْهَةٍ من الليل مسيرةَ شهرٍ ومشاهدته بيتَ المقدس وَتَمَثُّلِ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام له ووقوفِهِ على مقاماتِهم. وصَرْفُ الكلامَ من الغيبةِ إلى التكلُّم لتعظيم تلك البركاتِ والآياتِ. وقُرِىءَ لِيُرِيَهُ بالياء. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال محمد ﷺ. ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه على حسب ذلك[2].

(٢) ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ على أن لا تتخذوا كقولك: كتبت إليك أنِ افعلْ كذا. وقرأ أبو عمرو بالياء على لأنْ لا يتخذوا. ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ربّاً تَكِلُونَ إليهِ أمورَكم غيري.

(٣) ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نُصِبَ على الاختصاصِ أو النداء إن قُرِىءَ أن لا تتخذوا بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً، أو على أنه أحدُ مفعولَيْ لا تتخذوا ومِنْ دوني حالٌ من وكيلاً فيكون كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾[3]. وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدلٌ من وَاوِ تتخذوا، وذِرِّيَّةَ بكسرِ الذال. وفيه تذكيرٌ بإنْعَام الله تعالى عليهم في إنجاءِ آبائهم من الغرقِ بِحَمْلِهِم مع نوح عليه السلام في السفينة. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن نوحاً عليه السلام. ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يحمد الله تعالى على مجامع حالاته، وفيه إيماءٌ بأن إنجاءَه ومَنْ معه كان ببركة شُكْرِه، وحثٌّ للذريةِ على الاقتداءِ به. وقيلَ الضميرُ لموسى عليه الصلاة والسلام.

= وأخرج مسلم (١/١٥٦ رقم ٢٧٨/١٧٢) من حديث أبي هريرة بنحو ما تقدم عندها وانظر تفسير ابن كثير (٣/٣ ـ ٢٦) تحت عنوان: ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء.

(١) قاله ابن سعد وغيره وبه جزم النووي، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه، وهو مردود فإن في ذلك اختلافاً كثيراً يزيد على عشرة أقوال. . .» الفتح (٧/٢٠٣).

(٢) لم يذكر ههنا العروج بالنبي ﷺ إلى السماء ـ كما ذكر في سورة النجم ـ وذلك تقريباً للإسراء إلى قلوب السامعين (س/٥/١٥٥).

(٣) آل عمران: «٨٠».

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾
فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا
مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ
وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

(٤) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مَقْضِيّاً مَبْتُوتاً. ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في التوراة. ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جوابُ قسَمٍ محذوف. أو قضينا، على إجراء القضاءِ المبتوتِ مجرى القَسَم. ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ إفسادتين أولاهما مخالفةُ أحكام التوراة وقتلُ شعياءَ وقيل أرمياءَ، وثانيهما قتل زكريا ويحيى وقَصْدُ قتلِ عيسى عليهم السلام. ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولتستكبِرنَّ عن طاعة الله تعالى، أو لَتَظْلِمُنَّ الناسَ.

(٥) ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ وعْدُ عقاب أولاهما. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ بُخْتُنَصَّر عاملٌ لهراسفَ على بابلَ وجنوده. وقيل جالوتُ الجزريُّ. وقيل سنْحاريبُ من أهل نينوى. ﴿أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي قوة وبطش في الحرب شديد. ﴿فَجَاسُوا۟﴾ فترددوا لطلبكم. وقرىء بالحاء المهملة، وهما أخوان. ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وسطها للقتل والغارة فقتلوا كبارهم وَسَبَوْا صِغارَهم وحرَّقوا التوراةَ وخربوا المسجدَ. والمعتزلةُ لما مَنَعُوا تسليطَ اللهِ الكافرَ على ذلك أَوَّلُوا البعثَ بالتخلية وعدمِ المنع. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ وكان وعد عقابهم لابدَّ أنْ يُفْعَلَ.

(٦) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي الدولةَ والغلبةَ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الذين بُعِثُوا عليكم، وذلك بأن ألقى الله في قلوب بِهْمِنَ بنِ اسفنديارٍ لما وَرِثَ الملِكُ من جدِّهِ كثناسفِ بنِ لَهْراسفِ شفقةً عليهم، فردَّ أَسْرَاهُم إلى الشام ومَلَّكَ دانيالَ عليهم فاستولوا على مَنْ كان فيها من أتباع بُخْتُنَصَّرٍ، أو بأن سلَّط الله داودَ عليه الصلاة والسلام على جالوتَ فقتله. ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ مما كنتم. والنفير مَنْ يَنْفُرُ معَ الرجلِ من قومه، وقيل جَمْعُ نَفَرٍ وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

(٧) ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأنَّ ثوابَه لها. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فإنَّ وبالَه عليها، وإنما ذَكَرَها باللام ازدواجاً. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وعد عقوبة المرة الآخرة. ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليسوؤوا وجوهَكم أي يجعلوها بادية آثارِ المساءةِ فيها، فحُذِف لدلالة ذِكْرِهِ أولاً عليه. وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر لِيَسُوءَ على التوحيد، والضميرُ فيه للوعد أو لِلْبَعْثِ أو لله، ويُعَضِّدُه قراءةُ الكسائي بالنون[1]. وقرىء لنَسُوأَن بالنون والياء والنون المخففة والمثقلة، ولَنَسُوأَن بفتح اللام على الأوجه الأربعة على أنه جواب إذا، واللام في قوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بمحذوف هو بعثناهم. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ لِيُهْلِكوا. ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ ما غلبوه واستولوا عليه أو مُدَّةَ عُلُوِّهِم. ﴿تَتْبِيرًا﴾ ذلك بأن سلط الله عليهم الفُرْسَ مرةً أخرى فغزاهم مِلِكُ بابلَ من ملوك الطوائف اسمه

(١) قراءة الكسائي «لِنَسُوءَ».

جودرز، وقيل حردوسُ، قيل دخلَ صاحبُ الجيش مذبحَ قرابينِهم فوجدَ فيه دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا: دمُ قربانٍ لم يُقبَلْ مِنَّا فقال: ما صَدَقُوني فقَتَل عليه ألوفاً منهم فلم يهدإ الدمُ، ثم قال إن لم تَصدُقوني ما تركتُ منكم أحداً، فقالوا: إنه دمُ يَحْيَى فقال لمثل هذا ينتقم ربُّكم منكم، ثم قال يا يحيى قد علم ربي وربُّك ما أصاب قومَك من أجلك، فاهدأ بإذنِ الله تعالى قبل أن لا أبقيَ أحداً منهم فهدأ.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

(٨) ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الآخرة. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ نوبةً أخرى. ﴿عُدْنَا﴾ مرة ثالثة إلى عقوبتكم. وقد عادوا بتكذيب محمد ﷺ وقصدِ قَتْلِه، فعادَ الله تعالى بتسليطه عليهم فقتل قُرَيْظَةَ وأجلى بني النضير وضرب الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ مَحْبَساً لا يقدرون على الخروج منها أبد الآباد. وقيل بساطاً كما يُبسَطُ الحصيرُ[١].

(٩) ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة أو الطريقة التي هي أقوم الحالات أو الطرق. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويَبْشُرُ بالتخفيف.

(١٠) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطفٌ على أن لهم أجراً كبيراً، والمعنى أنه يبشر المؤمنينَ ببشارتين ثوابِهم وعقابِ أعدائِهم، أو على يبشِّر بإضمار يُخْبِرُ[٢].

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ ويدعو اللهَ تعالى عند غضبه بالشرِّ على نفسه وأهله وماله، أو يدعوه بما يَحْسَبُهُ خيراً وهو شر. ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ مثل دعائه بالخير. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته. وقيل المراد آدمُ عليه الصلاة والسلام فإنه لما انتهى الروح إلى سُرَّتِهِ ذهب لينهضَ فسقطَ[٣]. روي: أنه عليه السلام دفع أسيراً إلى سودةَ بنتِ زمعةَ، فرحمته لأنينِهِ فَأَرْخَتْ كتافَهُ فهربَ، فدعا عليها بقطعِ اليدِ ثم ندمَ، فقال عليه السلام: «اللهم إنما أنا بَشَرٌ فمن دعوتُ عليه فاجعل دعائي رحمةً له» فنزلتْ[٤]. ويجوز أن يريدَ بالإنسان الكافرَ وبالدعاء استعجالَه بالعذاب استهزاءً

---

(١) وإنما عُدِل عن أن يقال: وجعلنا جهنم لكم، تسجيلاً عليْ بالعوْد وذماً لهم بذلك وإشعاراً بعلة الحكم (س٥/١٥٨).

(٢) وتخصيص الآخرة بالذكر «لا يؤمنون بالآخرة» من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالإيمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذي أنبأ عنه قوله عز وجل «أعتدنا لهم عذاباً أليماً» (س٥/١٥٨).

(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (١٥/٤٨) وفي سنده بشر بن عمارة وهو ضعيف كما في التقريب (١/١٠٠).

(٤) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٩٧ رقم ٢٧٣) «لم أجده من هذه الجهة وقرأ أخرجه الواقدي في المغازي ـ (٢/٥٥٤ ـ ٥٥٥) ـ من رواية ذكوان عن عائشة «أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير، وقال لها: احتفظي به. قالت:

كقوول النضرِ بنِ الحارث: اللهم انصر خيرَ الحِزْبَيْنِ، اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك الآية. فَأُجِيبَ له فضربَ عنقُه صَبْراً يومَ بدر.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ تدلأنِ على القادر الحكيم بتعاقبِهما على نَسَقٍ واحد بإمكان غيره. ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي الآية التي هي الليلُ بالإشراق، والإضافةُ فيهما للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود. ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة أو مُبَصِّرَةً للناس من أبصره فَبَصُرَ، أو مُبْصِراً أهلَه كقولهم: أَجْبَنَ الرجلُ إذا كان أهله جبناءَ. وقيل الآيتان القمرُ والشمسُ، وتقدير الكلام وجعلنا نَيِّرَيْ الليلِ والنهار آيتينِ، أو جعلنا الليل والنهار ذَوَيْ آيتين. ومَحْوُ آيةِ الليل التي هي القمرُ جَعْلُها مظلمةً في نفسها مطموسةَ النور، أو نَقَصَ نورُها شيئاً فشيئاً إلى الْمَحَاقِ، وجَعْلُ آيةِ النهارِ التي هي الشمس مبصرةً جَعْلُها ذاتَ شعاع تُبْصَرُ الأشياءَ بضوئها[1]. ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا في بياض النهار أسبابَ معاشِكم وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم[2]. ﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ باختلافهما أو بحركاتهما. ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ وجنس الحساب. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تفتقرون إليه في أمر الدين والدنيا. ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ بيناه بياناً غيرَ مُلْتَبِسٍ.

(١٣) ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عملَه وما قُدِّرَ له كأنه طُيِّرَ إليه مِنْ عُشِّ الغيب وَوَكْرِ القَدَرِ، لمَّا كانوا يتيمّنون ويتشاءمون بِسُنُوحِ الطائر وبروحه اسْتُعِيرَ لما هو سببُ الخير والشر مِنْ قدرِ الله تعالى وعملِ العبد. ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ لزومَ الطَّوقِ في عُنُقِهِ. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ هي صحيفة عمله أو نَفْسِهِ المنتقشةِ بآثار أعماله، فإنَّ الأعمال الاختياريةَ تُحْدِثُ في النفس أحوالاً ولذلك يفيدُ تكريرُها لها مَلَكَاتٍ، ونَصْبُهُ بأنه مفعول، أو حال من مفعول محذوف وهو ضمير الطائر، ويعضُدُه قراءةُ يعقوبَ ويَخْرُجُ مِنَ خرجَ ويخرج، وقرىء ويُخْرِجُ أي الله عز وجل. ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ لكشف الغطاء. وهما صفتان للكتاب، أو يلقاه صفةٌ ومنشوراً حال من مفعوله. وقرأ ابن عامر يُلَقَّاهُ على البناء للمفعول من لَقَّيْتُه كذا.

= فلهوتُ مع امرأة فخرج ولم أشعر. فدخل يسأل عنه. فقلت والله ما أدري. فقال: قطع الله يدك، فذكر نحو ما تقدم. ورويناه في الجزء التاسع من حديث المخلص تخريج البقال. قال: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا أحمد بن صالح. حدثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا» اهـ.

(١) وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي، إذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور، ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة (س٥/ ١٥٩).

(٢) وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلاً بحكم الربوبية (س٥/ ١٦٠).

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

(١٤) ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ على إرادة القول. ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي كفى نفسُك، والباء مزيدةٌ، وحسيباً تمييز، وعلى صِلَتُه. لأنه إما بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارمِ وضريبِ القداحِ بمعنى ضاربُها مِنْ حَسَبَ عليه كذا، أو بمعنى الكافي فَوُضِعَ موضعَ الشهيد، لأنه يكفي المدعي ما أهمَّه. وتذكيرُه على أن الحساب والشهادة مما يتولاه الرجال، أو على تأويل النفس بالشخص.

(١٥) ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لا يُنجي اهتداؤُه غيرَه ولا يُرْدي ضلالُه سواهُ. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس حاملةٌ وزراً وِزْرَ نفسٍ أخرى، بل إنما تحملُ وِزْرَها. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يُبَيِّنُ الحُجَجَ ويُمَهِّدُ الشرائع فيلزمُهم الحجَّةَ، وفيه دليل على أن لا وجوبَ قبلَ الشرع.

(١٦) ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ وإذا تعلقت إرادتُنا بإهلاك قوم لإنفاذ قضائِنا السابق، أو دَنَا وقتُه المقدَّرُ كقولهم: إذا أراد المريض أن يموت ازداد مرضُه شدةً. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ متنعّميها بالطاعة على لسان رسولٍ بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبلَه وما بعدَه، فإن الفِسْقَ هو الخروجُ عن الطاعة والتمرد في العصيان، فيدل على الطاعة من طريق المقابلة. وقيل أَمَرْنَاهُم بالفسق لقوله: ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ كقولك أَمَرْتُهُ فقراً فإنه لا يُفْهَمُ منه إلا الأمرُ بالقراءة، على أن الأمرَ مجازٌ مِنَ الحَمْلِ عليه أو التسببِ له، بأنْ صَبَّ عليهم من النِّعَمِ ما أَبْطَرَهُم وأفضَى بهم إلى الفسوق. ويحتمل أن لا يكون له مفعول مَنْوِيٌّ كقولهم: أمرته فعصاني. وقيل معناه كَثَّرنا، يقال: أمرتُ الشيءَ وآمرتُه فَأَمِرَ إذا كثَّرتُه، وفي الحديث «خيرُ المال سُكَّةٌ مأبورةٌ، ومُهْرَةٌ مأمورة»[1]، أي كثيرةُ النِّتَاجِ، وهو أيضاً مجازٌ من معنى الطلبِ، ويؤيده قراءة يعقوبَ آمَرْنَا وروايةُ أَمَّرْنا عن أبي عمرو، ويحتمل أن يكون منقولاً من أَمُرَ ـ بالضم ـ أمارةً أي جعلناهم أُمَرَاءَ. وتخصيصُ المترفين لأن غيرَهم يتبعُهم، ولأنهم أسرعُ إلى الحماقة وأقدرُ

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٦٨) والطبراني في الكبير (٧/٩١ رقم ٦٤٧٠ و٦٤٧١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ رقم ١٢٥٠ و١٢٥١) من حديث سويد بن هبيرة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٥٨): وقال «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات».
وانظر كلام ابن حجر عليه في الإصابة (٢/ ١٠١) وابن عبدالبر في الاستيعاب (٢/ ١١٥) وابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥)، فقد أعلوه بالإرسال. والله أعلم.
● السُكة: الطريقة المصطفة من النخل.
● المأبورة: ما أبر من النخل. [النهاية: (١/ ١٤)].
● مأمورة: كثيرة النتاج [النهاية: (١/ ٦٥)].
ومعنى الحديث: خير المال نتاج أو زرع.

على الفجور. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ يعني كلمة العذاب السابقة بِحُلُولِهِ، أو بظهور معاصيهم، أو بانهماكهم في المعاصي. ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا
لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا
سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ
عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

(١٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً أهلكنا. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيانٌ لِكَم وتمييز له. ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ كَعَادٍ وثمودَ. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يدرك بواطِنَها وظواهِرَها فيعاقب عليها. وتقديم الخبير لتقدم مُتعلَّقِه[(١)].

(١٨) ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ مقصوراً عليها همه. ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ قَيَّد المعجَّل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كلُّ مُتَمَنٍّ ما يتمناه ولا كلُّ واجِدٍ جميعَ ما يهواه، ولِيُعْلَمَ أن الأمرَ بالمشيئة والهمَّ فضلٌ. ولمن نريد بدلٌ من له بدلَ البعضِ. وقرىء ما يَشَاءُ، والضمير فيه لله تعالى حتى يطابق المشهورة، وقيل لِمَنْ فيكونُ مخصوصاً بمن أراد الله تعالى به ذلك. وقيل الآية في المنافقين كانوا يُراءون المسلمينَ ويغزونَ معهم ولم يكن غَرَضُهم إلا مساهمتَهم في الغنائم ونحوها. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى.

(١٩) ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ حقَّها من السَّعْي، وهو الإتيان بما أُمِرَ به والانتهاءُ عما نُهِيَ عنه لا التقرُّبُ بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لا شِرْكَ معه ولا تكذيبَ فإنه العمدةُ[(٢)]. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة. ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ من الله تعالى، أي مقبولاً عنده مُثَاباً عليه، فإنَّ شكرَ اللهِ الثوابُ على الطاعة.

(٢٠) ﴿كُلًّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين بدلٌ من المضاف إليه. ﴿نُّمِدُّ﴾ بالعطاء مرةً بعد أخرى ونجعل آنِفَهُ مدداً لسالفه. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من كلاً. ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ من مُعْطَاهُ، متعلِّق بِنُمِدُّ. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر تَفَضُّلاً[(٣)].

(٢١) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وانتصابُ كيف بِفَضَّلْنا على الحال. ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي التفاوت في الآخرة أكبر، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودَرَكَاتِها.

---

(١) أو لعمومه فإنه يتعلق بغير المبصرات.
(٢) وإيراد الإيمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذُكِر في حيز الصلة (س٥/ ١٦٤).
(٣) وإظهار «عطاء ربك» إظهاراً لمزيد الاعتناء بشأنه، وإشعاراً بعليته للحكم (س٥/ ١٦٥).

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

(٢٢) ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمتَه، أو لكل أحد. ﴿فَتَقْعُدَ﴾ فتصيرَ من قولهم شحذ الشفرةَ حتى قَعَدَتْ كأنها حربةٌ، أو فتَعْجِز من قولهم قَعَدَ عن الشيء إذا عَجَز عنه. ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ جامعاً على نفسك الذمَّ من الملائكة والمؤمنين والخذلانَ من الله تعالى، ومفهومه أن الموحِّدَ يكون ممدوحاً منصوراً.

(٢٣) ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأَمَرَ أَمْراً مقطوعاً به. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ بأن لا تعبدوا. ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظَمَة ونهاية الإنعام، وهو كالتفصيل لسعي الآخرة. ويجوز أن تكون أنْ مفسرة ولا ناهيةٌ. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وبأن تحسنوا، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً لأنهما السببُ الظاهر للوجود والتعيُّش، ولا يجوز أن تتعلق الباء بالإحسان لأن صلته لا تتقدَّم عليه. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ «إما» هي إنْ الشرطية زِيْدَتْ عليها ما تأكيداً، ولذلك صحَّ لحوقُ النون المؤكِّدةِ للفعل. وأحدُهما فاعلَ يبلغنَّ، ويبدلُ على قراءة حمزة والكسائي مِنْ أَلِفِ يَبْلُغَانِّ الراجعِ إلى الوالدين، وكلاهما عطف على أحدهما فاعلاً أو بدلاً ولذلك لم يَجُزْ أن يكون تأكيداً للألف. ومعنى عندك أن يكونا في كَنَفِكَ وكفالتك[١]. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فلا تتضجرْ مما يُسْتَقْذَرُ منهما وتَسْتَثْقِلُ مِنْ مَؤُنَتِهما. وهو صوت يدل على تَضَجُّرٍ، وقيل هو اسم الفعل الذي هو أتضجَّر، وهو مبنيٌّ على الكسر لالتقاء الساكنين، وتنوينُه في قراءة نافع وحفص للتنكير. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالفتح على التخفيف[٢]، وقرىء به منوناً، وبالضم للاتباع كَمُنْذُ منوناً وغيرَ مُنَوَّنٍ. والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً بطريق الأولى، وقيل عرفاً كقولك: فلان لا يملك النقيرَ والقِطْميرَ، ولذلك منع رسول الله ﷺ حذيفةَ من قتل أبيه وهو في صفِّ المشركين[٣]. نهى عما يؤذيهما بعدَ الأمر بالإحسان بهما. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجُرْهما عمَّا لا يعجبك بإغلاظ، وقيل النَّهْيُ والنَّهْرُ والنَّهمُ أخواتٌ. ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفيف والنَّهْرِ. ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلاً لا شراسةَ فيه.

(٢٤) ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ تذلَّلْ لهما وتواضَعْ فيهما، جَعَلَ لِلذُّلِ جناحاً كما جعلَ لبيدُ في

---

(١) تقديم الظرف «عندك» على المفعول للتشويق إلى وروده فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان. وتأخير الفاعل «أحدُهما» عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه.
وتوحيد ضمير الخطاب في «عندك» وفيما بعده ـ مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد، فإن المقصود نهي كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما. . (س٥/١٦٦).

(٢) أي «أُفَّ».

(٣) قال ابن حجر: لم أجده، ولا يصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين، فإنه استُشهد بأُحُدٍ مع المسلمين بأيدي المسلمين خطأ. لكن نحو القصة المذكورة وردت لأبي عبيدة بن الجراح (الكافي الشافِ ص٩٩ رقم ٢٨٥).

قوله:

وَغــدَاةَ رِيــحٍ قَــدْ كشفــت وَقــرّةً إذْ أَصْبَحَــتْ بِيَــدِ الشَّمَــالِ زِمَــامُهَــا

لِلشَّمَالِ يداً أو لِلْقَرّةِ زماماً، وأَمَرَهُ بخفضِه مبالغةً أو أراد جناحَه كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيفَ حَاتَمٌ إلى الجود، والمعنى واخفض لهما جناحَك الذليل. وقرىء الذِّلُّ بالكسر وهو الانقياد، والنَّعْتُ منه ذَلولٌ. ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ مِنْ فَرْطِ رحمتك عليهما لافتقارهما إلى مَنْ كان أفقرَ خَلْقِ الله تعالى إليهما بالأمسِ. ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ وادع الله تعالى أن يرحَمَهُما برحمته الباقية، ولا تَكْتَفِ برحمتك الفانية وإن كانا كافريْنِ لأن مِنَ الرحمة أن يهديَهما: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ رحمةً مثلَ رحمتهما عليَّ وتربيتَهما وإرشادَهما لي في صغري وفاءً بِوَعْدِكَ للراحمين. روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أبويَّ بلغا من الكِبَرِ أني أَلِي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتُهما حقَّهما، قال: «لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحبَّان بقاءَك وأنتَ تفعل ذلك وتريد موتَهما»[2].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

(٢٥) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ من قصد البرِّ إليهما واعتقادِ ما يجب لهما من التوقير، وكأنه تهديدٌ على أن يُضْمِرَ لهما كراهةً واستثقالاً. ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين للصلاح. ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ للتوابين. ﴿غَفُورًا﴾ ما فَرَطَ منهم عندَ حَرَجِ الصدر من أذيةٍ أو تقصير، وفيه تشديدٌ عظيم، ويجوز أن يكونَ عاماً لكلِّ تائب، ويندرج فيه الجاني على أبويه التائب من جنايته لِوُرُودِه على أثرِه.

(٢٦) ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبرِّ عليهم. وقال أبو حنيفة: حقُّهم إذا كانوا محارِمَ فقراءَ أن ينفقَ عليهم. وقيل المراد بذي القربى أقاربُ الرسول ﷺ. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ بِصَرْفِ المال فيما لا ينبغي، وإنفاقُه على وَجْهِ الإسراف. وأصل التبذير التفريقُ. وعن النبي ﷺ أنه قال لسعدٍ وهو يتوضأ: «ما هذا السَّرَفُ؟» قال: أَوَ في الوضوء سَرَفٌ قال: «نعم وإن كنتَ على نَهرٍ جارٍ»[3].

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أمثالَهم في الشَّرارة فإنَّ التضييعَ والإتلاف شرٌّ، أو

---

(١) الحجر: «٨٨».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٨ رقم ٢٨٠): «لم أجده».

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١) وابن ماجة (٤٢٥). قال ابن حجر: وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف (الكافي الشافِ ص٩٩ رقم ٢٨٧).

أصدقاءَهم وأتباعهم لأنهم يطيعونهم في الإسرافِ والصَّرْفِ في المعاصي. روي أنهم كانوا ينحرون الإبلَ ويتياسَرُون عليها ويُبَذِّرُون أموالَهم في السُّمْعَةِ، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالإنفاق في القُرُبَاتِ. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ مبالِغاً في الكفر به فينبغي أن لا يُطَاعَ[1].

﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ۝٢٨ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ۝٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ۝٣٠﴾

(٢٨) ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾ وإن أعرضتَ عن ذي القربى والمسكينِ وابن السبيل حياءً من الردِّ، ويجوز أنْ يرادَ بالإعراض عنهم أن لا ينفعَهم على سبيل الكناية. ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ لانتظار رزقٍ من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه، أو منتظرينَ له. وقيل معناه لِفَقْدِ رزقٍ من ربِّك ترجوه أن يَفْتَحَ لك، فَوَضَعَ الابتغاءَ موضعَه لأنه مُسَبَّبٌ عنه، ويجوز أن يتعلق بالجواب الذي هو قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ أي فقل لهم قولاً ليناً ابتغاءَ رحمة الله برحمتك عليهم بإجمال القول لهم، والميسور مِنْ يَسِرَ الأمرُ مثل سَعِدَ الرَّجُلُ ونَحِسَ، وقيل القول الميسور الدعاءُ لهم بالميسور وهو اليسرُ مثل أغناكم الله تعالى ورزقنا الله وإياكم.

(٢٩) ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذِّر، نهى عنهما آمراً بالاقتصاد بينهما الذي هو الكَرَمُ. ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس بالإسراف وسوءِ التدبير. ﴿مَّحۡسُورًا﴾ نادِماً أو منقطِعاً بك لا شيءَ عندك مِنْ حَسَرَهُ السَّفَرُ إذا بلغ منه. وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالسٌ أتاه صبيٌّ فقال: إن أمي تَسْتَكْسِيكَ دِرعاً، فقال ﷺ: «من ساعةٍ إلى ساعةٍ فعُد إلينا» فذهب إلى أمه فقالت: قل له إن أمي تستكسيك الدرعَ الذي عليك، فدخل ﷺ داره ونزع قميصَه وأعطاه وقعد عُرْياناً، وأذَّنَ بلال وانتظروه للصلاة فلم يخرج، فأنزل الله ذلك[2]. ثم سَلاَّه بقوله:

(٣٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ يُوَسِّعُه ويضيِّقُه بمشيئته التابعة للحكمة البالغةِ فليس ما يرهقُك من الإضافة إلا لمصلحتك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ يعلم سِرَّهم وعَلَنَهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، ويجوز أن يُرَادَ أن البَسْطَ والقبضَ من أمر الله تعالى العالم بالسرائر

---

(١) تخصيص التبذير بالذكر للإيذان بأنه من الكفران المقابل للشكر.
والتعرض لوصف الربوبية «لربه» للإشعار بكمال عتوه، فإن كفران نعمة الرب ـ مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها ـ غايةُ الكفران ونهاية الضلال والطغيان (س٥/ ١٦٨).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده (الكافي الشافِ ص٩٩ رقم ٢٨٩) لكن أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٩٤ بنحوه، وهو ضعيف أيضاً لأن في سنده سليمان بن سفيان الجهني وهو ضعيف (التقريب ١/ ٣٢٥) وأورد الواحدي أيضاً عن جابر بن عبدالله ص٢٩٥ وبدون إسناد.

والظواهر، فأما العباد فعليهم أن يقتصدوا، أو أنه تعالى يبسط تارةً ويقبضُ أخرى فاستنوا بِسُنَّتِهِ ولا تقبضوا كلَّ القبضِ ولا تبسطوا كلَّ البسط، وأن يكون تمهيداً لقوله تعالى:

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ مخافةَ الفاقة. وقَتْلُهم أولادَهم هو وَأْدُهم بناتِهم مخافةَ الفقرِ فنهاهم عنه وضَمِنَ لهم أرزاقَهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ ذنباً كبيراً لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النَّوعِ. والخطأُ الإثمُ يقال خطيءَ خطأً كأَثِمَ إثماً. وقرأ ابن عامر خَطَأً وهو اسمٌ مِنْ أخطأَ يُضَادُّ الصوابَ، وقيل: لغةٌ فيه كَمِثْلٍ ومَثَلٍ وحِذْرٍ وحَذَرٍ، وقرأ ابن كثير خِطَاءً بالمد والكسر وهو إما لغةٌ فيه أو مصدرُ خَاطَأَ، وهو وإن لم يُسْمَعْ لكنه جاءَ تَخَاطَأَ في قوله:

تَخَاطَأَهُ القَنَّاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ ... وخُرْطُومُهُ فِي مَنْقَعِ المَاءِ رَاسِبُ

وهو مبني عليه، وقرىء خَطاءً بالفتح والمد، وخِطًا بحذف الهمزة مفتوحاً ومكسوراً[1].

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات فضلاً عن أن تباشروه. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فِعْلَةً ظاهرةَ القُبْح زائدتَه. ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقاً طريقُه، وهو الغصبُ على الأبْضَاعِ المؤدي إلى قطع الأنساب وهَيْجِ الفتن[2].

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتلُ مؤمنٍ معصومٍ عَمْداً. ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غيرَ مستوجبٍ للقتل. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ للذي يلي أَمْرَه بعدَ وفاته وهو الوارِثُ. ﴿سُلْطَٰنًا﴾ تَسَلُّطاً بالمؤاخذةِ بمقتضى القتل على مَنْ عليه، أو بالقصاص على القاتل فإن قوله تعالى «مظلوماً» يدل على أن القتل عمدٌ عدوانٌ فإن الخطأَ لا يُسَمَّى ظلماً. ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي القاتل. ﴿فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ بأنْ يَقْتُلَ مَنْ لا يستحقُّ قَتْلَهُ، فإن العاقل لا يفعل ما يعود عليه بالهلاك أو الوليِ بِالْمُثْلَةِ. أو قتلِ غيرَ القاتل، ويؤيد الأولَ قراءةُ أُبَيٍّ فلا تسرفوا. وقرأ حمزة والكسائي

---

(١) قوله «نرزقهم وإياكم» حيث قدم ضمير الأولاد على المخاطبين ـ بخلاف قوله تعالى في سورة الأنعام الآية «١٥١»: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» حيث أخر ضمير الأولاد ـ وذلك للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق، أو لأن الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز، ولذلك قيل «من إملاق» وههنا الإملاق المتوقع، ولذلك قيل «خشية إملاق» فكأنه قيل: نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شيء وإياكم أيضاً رزقاً إلى رزقكم (س٥/ ١٦٩).

(٢) والنهي عن قربانه للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن قربانه داع إلى مباشرته.
وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة باعتبار أنه قتل للأولاد لأنه تضييع للأنساب (س٥/ ١٧٠).

فلا تسرفْ على خطابِ أحدِهما. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ عِلَّةُ النهي على الاستئناف، والضميرُ إما للمقتول فإنه منصورٌ في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالثواب، وإما لوليِّه فإن الله تعالى نَصَرَهُ حيثُ أوجب القِصَاصَ له وأمر الوُلاَةَ بمعونته، وإما للذي يقتله الوليُّ إسرافاً بإيجاب القصاص أو التعزيرِ والوِزْرِ على المسرفِ.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ فضلاً أن تتصرفوا فيه. ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالطريقة التي هي أحسن. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجواز التصرُّفِ الذي دلَّ عليه الاستثناء. ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ بما عاهدكم الله من تكاليفه، أو ما عاهدتموه وغيره. ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ مطلوباً يطلب من المُعَاهِد أن لا يُضَيِّعَه ويفى به، أو مسؤولاً عنه يُسألُ الناكِثَ ويعاتبُ عليه لِمَ نكثْتَ، أو يُسأل العهدَ تبكيتاً للناكثِ كما يقالُ للموءودةِ بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتِ، فيكون تخييلاً. ويجوز أن يرادَ أن صاحبَ العهد كان مسؤولاً[1].

(٣٥) ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ولا تبخسوا فيه ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السويِّ، وهو رومي عُرِّبَ ولا يَقْدَحُ ذلكَ في عربيَّةِ القرآن، لأن العجميَّ إذا استَعْمَلَتْه العربُ وأَجْرَتْه مجرى كلامِهم في الإعراب والتعريف والتنكير ونحوها صارَ عربياً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسرِ القاف هنا وفي الشعراءِ[2]. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وأحسن عاقبةً، تفعيل مِنْ آلَ إذا رجَعَ.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع. وقرىء ولا تَقُفْ مِنْ قَافَ أثَرَهُ إذا قَفَاه، ومنه القافةُ. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما لم يتعلَّقْ به عِلْمُك تقليداً أو رَجْماً بالغيب، واحتجَّ بهِ مَنْ منعَ اتباعَ الظن، وجوابُه أن المرادَ بالعِلْم هو الاعتقاد الراجح المستفادُ مِنْ سَنَدٍ، سواءٌ كان قطعاً أو ظناً واستعماله بهذا المعنى سائغٌ وشائع، وقيل إنه مخصوص بالعقائد، وقيل بالرمي وشهادة الزور ويؤيده قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَفَا مؤمناً بما ليس فيه حَبَسَهُ الله في رَدْغةِ الخبال حتى يأتيَ بالمخرَجِ»[3]. وقول

---

(١) قوله «إن العهد» حيث أظهر العهد في مقام الإضمار إظهاراً لكمال العناية بشأنه، أو لأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود (س٥/ ١٧١).

(٢) الشعراء: «١٨٢».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٩٩ رقم ٢٩١): لم أره بهذا اللفظ مرفوعاً، وإنما ذكره أبو عبيد في الغريب ـ (٤/ ٤٠٧) ـ من قول حسان بن عطية ـ ثقة فقيه (التقريب: ١/ ١٦٢) ـ فقال: حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عنه بهذا. وروى أحمد ـ في المسند (٣/ ٤٤١) والطبراني من رواية معاذ بن أنس رفعه «من قفا مؤمناً بما ليس فيه يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» وفي مسند الشاميين للطبراني من طريق مطر الوراق عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر «من قذف مؤمناً أو مؤمنة حبس في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج».

=

الكميت[١]:

وَلاَ أَرْمِي البَرِيءِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ولاَ أَقْفُو الحَواصِنَ إنْ قفينا

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي كلُّ هذه الأعضاءِ، فأجْراها مَجْرَى العُقَلاءِ لما كانتْ مسؤولةً عن أحوالها شاهدةً على صاحبِها، هذا وإن أولاءِ وإن غلبَ في العقلاءِ لكنه مِنْ حيثُ إنه اسمُ جَمْعٍ لِذَا وهو يعمُّ القبيلينِ جاء لغيرهم كقوله:

وَالعَيْشُ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَامِ

﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ في ثَلاثَتِها ضميرُ كلُّ أيْ كان كلُّ واحد منها مسؤولاً عن نفسه، يعني عما فَعَلَ به صاحبُه، ويجوز أن يكون الضمير في عنه لمصدرِ لا تَقْفُ أو لصاحب السمع والبصر. وقيل مسؤولاً مُسْنَدٌ إلى عَنْهُ كقوله تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[٢] والمعنى يسأل صاحبَه عنه، وهو خطأ لأن الفاعلَ وما يقوم مقامَه لا يتقدم. وفيه دليل على أن العبد مُؤَاخَذٌ بِعَزْمِهِ على المعصية. وقرىء والفَوَادَ بقلب الهمزة واواً بعد الضمة ثم إبدالِهَا بالفتح.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ٣٧﴾

(٣٧) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ أي ذا مَرَحٍ وهو الاختيال. وقُرِىءَ مَرِحَاً وهو باعتبار الحكم أبلغُ

= وهو عند أبي داود ـ (٤/ ٢٣ رقم ٣٥٩٧) ـ من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ «من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج وهو يخرج مما قال».

وأخرجه الحاكم ـ في المستدرك (٢/ ٢٧) ـ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رفعه «من قال في مؤمن ما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج» هـ.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

● الردغة: ـ بفتح الراء وسكون الدال: طين ووحل كثير.

● والخبال: ـ بالموحدة الفساد: ويكون في الأفعال والأبدان والعقول.

قال ابن كثير ردغة الخبال: جاء تفسيره في الحديث.

أنها عصارة أهل النار. [النهاية مادة: خبل وردغ (٢/ ٨، ٢١٥)].

(١) هو الكميت بن زيد ـ وهو كوفي شاعر مقدم عالم بلغات العرب، خبير بأيامها ومن شعراء مضر وألسنتها المتعصبين على القحطانية المقارعين العالمين بالمثالب.

يقال: ـ ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت، فمن صحَّح الكميت نسبه صحَّ، ومن طعنَ فيه وهَن.

وهو أول من ناظر في التشيع مجاهراً بذلك، وله في أهل البيت القصائد المشهورة ولد الكميت سنة (٦٠هـ) ومات سنة (١٢٦هـ) في خلافة مروان بن محمد.

[«خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» لعبدالقادر بن عمر البغدادي. (١/ ١٤٤ ـ ١٤٧)].

(٢) الفاتحة: «٧».

وإن كان المصدر آكدُ مِنْ صريح النَّعْتِ. ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تَجْعَلَ فيها خَرْقاً بشدةِ وطأتِك. ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك، وهو تهكُّمٌ بالمختال وتعليل للنهي بأن الاختيالَ حماقة مجرَّدةٌ لا تعود بِجَدْوَى ليس في التذلُّلِ.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[1] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنها المكتوبةُ في ألواح موسى عليه السلام. ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ يعني المنهي عنه، فإنَّ المذكوراتِ مأموراتٌ ومَنَاهٍ. وقرأ الحجازيانِ والبصريان[2] سَيِّئَةً، على أنها خبرُ كان، والاسمُ ضميرُ كلّ، وذلك إشارة إلى ما نهي عنه خاصة، وعلى هذا قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدلٌ من سَيِّئُهُ أو صفةٌ لها محمولة على المعنى، فإنه بمعنى سَيِّئاً، وقد قرىء به، ويجوز أن ينتصب مكروهاً على الحال من المستكِنِّ في كان أو في الظرف على أنه صفة سَيِّئُهُ. والمراد به المبغوض المقابل للمَرْضي، لا ما يقابل المرادَ لقيام القاطع، على أن الحوادثَ كلَّها واقعةٌ بإرادته تعالى[3].

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الأحكام المتقدمة. ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيدَ مبدأُ الأمر ومنتهاه، فإنَّ مَنْ لا قَصْدَ له بَطَلَ عمله ومن قصد بفعله أو تركِه غيرَه ضاعَ سَعْيُه، وأنه رأسُ الحكمة وملاكُها، ورتَّبَ عليه أولاً ما هو عائدُه الشرك في الدنيا وثانياً ما هو نتيجته في العُقْبَىٰ فقال تعالى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك[4]. ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبْعَداً من رحمة الله تعالى.

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ خطاب لمن قالوا الملائكةُ بناتُ الله، والهمزة للإنكار، والمعنى: أَفَخَصَّكَم ربُّكم بأفضلِ الأولادِ وهم البنونَ. ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ بناتٍ لنفسه، وهذا خلاف ما عليه عقولُكم وعادتُكم. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها، ثم بتفضيل أنفسِكم عليه حيثُ تجعلون له ما تَكْرَهُون، ثم بِجَعْلِ الملائكةِ الذين هم مِنْ أشرفِ خَلْقِ اللهِ أدونَهم.

---

(١) الإسراء: «٢٢».

(٢) الحجازيان: نافع وابن كثير، والبصريان أبو عمرو ويعقوب.

(٣) ووصف ذلك بمطلق الكراهة ـ مع أن البعض من الكبائر ـ للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عنه. (س٥/ ١٧٢).

(٤) وإيراد الإلقاء مبنياً للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك (س٥/ ١٧٣).

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟
إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن
فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كَرَّرْنَا هذا المعنى بوجوهٍ من التقرير. ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في مواضعَ منه، ويجوز أن يُرَادَ بهذا القرآن إبطالُ إضافةِ البنات إليه على تقدير: ولقد صرفنا هذا القولَ في هذا المعنى أو أوقعنا التصريفَ فيه. وقرىء صَرَفْنَا بالتخفيف. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ليتذكروا. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الفرقان[1] لِيَذْكُرُوا من الذِّكْرِ الذي هو بمعنى التذكُّرِ[2]. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وقِلَّةِ طُمَأْنينةٍ إليه.

(٤٢) ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أيها المشركون، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالياء فيه وفيما بعدَه على أن الكلام مع الرسول ﷺ، ووافقهما نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب في الثانية على أن الأُوْلَى مما أمر الرسول ﷺ أن يخاطب به المشركين والثانيةَ مما نَزَّهَ به نفسَه عن مَقَالَتِهِم. ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ جوابٌ عن قولهم وجزاءٌ لِلَوْ، والمعنى: لَطَلَبوا إلى مَنْ هو مالِكُ المُلْكِ سبيلاً بالمعازَةِ كما يفعل الملوكُ بعضُهم مع بعض، أو بالتقرب إليه والطاعة لِعِلْمهم بقدرته وعجزِهم كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[3].

(٤٣) ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ ينزه تنزيهاً. ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا﴾ تعالياً. ﴿كَبِيرًا﴾ متباعِداً غايةَ البعدِ عما يقولون، فإنه في أعلى مراتبِ الوجود وهو كونُه واجبَ الوجود والبقاء لذاته، واتخاذُ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه.

(٤٤) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث بلسان الحال، حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجبِ لذاته. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أيها المشركون لإخلالِكم بالنظر الصحيح الذي به يُفهم تَسْبِيْحُهم، ويجوز أنْ يُحْمَلَ التسبيحُ على المشترك بينَ اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ وإلى ما لا يُتَصَوَّرُ منه وعليهما عندَ مَنْ جَوَّزَ إطلاقَ اللفظ على معنييه. وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر يُسَبِّحُ بالياء. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث لم يعاجلْكم بالعقوبة على غفلتكم وشِرْكِكُم. ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب منكم.

---

(١) الفرقان: «٥٠».
(٢) والالتفات في «ليذكروا» إلى الغيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكىٰ للسامعين هنَاتهم. (س٥/ ١٧٤).
(٣) الإسراء: «٥٧».

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ
بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ
ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا ﴾ يحجبهم عن فَهمِ ما تقرؤه عليهم. ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ ذا سِتْرٍ كقوله تعالى: ﴿ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾(١) وقولهم سَيْلٌ مُفْعَمٌ، أو مستوراً عن الحسِّ، أو بحجاب آخرَ لا يَفهَمُونَ ولا يَفهَمُون أنهم لا يَفهَمُونَ(٢). نَفَىٰ عنهم أنْ يَفهَمُوا ما أَنْزَلَ عليهم من الآيات بعدَ ما نَفى عنهم التفقُّهَ للدلالاتِ المنصوبة في الأنفس والآفاق تقريراً له وبياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة، كما صرَّح به بقوله:

(٤٦) ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ تُكِنُّها وتَحُولُ دونَها عن إدراك الحق وقَبوله. ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهةَ أن يفقهوه، ويجوز أن يكون مفعولاً لما دل عليه قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي مَنَعْناهُم أن يفقهوه. ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ يمنعهم عن استماعه. ولمّا كان القرآن معجزاً من حيثُ اللفظُ والمعنى أثبتَ لِمُنكِريْهِ ما يمنَع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ واحداً غيرَ مشفوع به آلهتهم، مصدرٌ وقَعَ موقعَ الحال، وأصله تُحَدُّ وحدَه بمعنى واحداً وحدَه. ﴿ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ هَرَباً من استماع التوحيد ونُفْرَةً أو تولية، ويجوز أن يكون جَمْعُ نافرٍ كقاعد وقعودٍ.

(٤٧) ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ بسببه ولأَجْلِهِ مِنَ الْهُزْءِ بك وبالقرآن. ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ظرفٌ لأَعْلَمُ، وكذا: ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ أي نحن أعلم بِغَرَضِهِم من الاستماع حين هم مستمعونَ إليك مضمِرونَ له وحين هم ذَوُو نَجْوى يتناجَوْنَ به، ونَجْوَى مصدر ويحتمل أن يكون جمع نَجِيٍّ. ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ مقدرٌ بِاذْكُرْ. أو بدلٌ مِنْ إذْ هُمْ نَجْوَى، على وضع الظالمون موضعَ الضمير للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا من باب الظلم. والمسحورُ هو الذي سُحِرَ فزالَ عقلُه، وقيل الذي له سِحْرٌ وهو الرِّئَةُ أي إلا رجلاً يتنفس ويأكل ويشرب مِثْلُكم.

(٤٨) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ مَثَّلُوكَ بالشاعر والساحرِ والكاهنِ والمجنون. ﴿ فَضَلُّوا۟ ﴾ عن الحق في جميع ذلك. ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إلى طعن مُوَجَّهٍ فيتهافتون ويخبُطون كالمتحيِّرِ في أَمْرِهِ لا يدري ما يَصْنَعُ، أو إلى الرشاد.

(٤٩) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا ﴾ حُطاماً. ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ على الإنكار والاستبعاد لما بين غضاضةِ الحي ويبوسةِ الرميم من المباعدة والمنافاة. والعاملُ في «إذا» ما دل عليه مبعوثون، لا نفسُه لأن ما بعدَ أن لا يَعملُ فيما قبلَها. وخَلْقاً مصدر أو حال.

---

(١) مريم: «٦١».

(٢) قوله «الذين لا يؤمنون بالآخرة» حيث خص بالذكر كفرَهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها من أعظم ما أمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك (س٥/ ١٧٥).

۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ
فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ
يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

(٥٠) ﴿ ۞ قُلْ﴾ جواباً لهم. ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

(٥١) ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي مما يكبرُ عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعدَ شيء منها، فإنَّ قُدْرَتَهُ تعالى لا تقصرُ عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعْراض، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوتَةً وقد كانت غضَّةً موصوفة بالحياة قبلُ؟ والشيءُ أَقْبَلُ لما عُهِدَ فيه مما لم يُعْهَدْ. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم تراباً وما هو أبعدُ منه مِنَ الحياة. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ فسيحركونها نَحْوَكَ تعجُّباً واستهزاءً. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فإن كل ما هو آتٍ قريبٌ، وانتصابُه على الخبر أو الظرف أي يكون في زمان قريب، وأن يكون اسم عسى أو خبره والاسم مضمَر.

(٥٢) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي يومَ يبعثكم فتنبعثُون، استعارَ لهما الدعاءَ والاستجابةَ للتنبيه على سرعتهما وتَيَسُّرِ أَمْرِهما وأن المقصودَ منهما الإحضارُ للمحاسبةِ والجزاء. ﴿بِحَمْدِهِ﴾ حال منهم، أي حامدين اللهَ تعالى على كمالِ قدرته كما قيل إنهم ينفضُون الترابَ عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أو منقادين لِبَعْثِهِ انقيادَ الحامدين عليه. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتستقصرون مدةَ لَبْثِكُم في القبور كالذي مرَّ على قرية، أو مُدَّةَ حياتِكم لما تَرَوْنَ من الهول.

(٥٣) ﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾ يعني المؤمنين. ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الكلمة التي هيَ أحسن ولا يخاشِنُوا المشركين. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يُهَيِّجُ بينَهم المراءَ والشرَّ، فلعلَّ المخاشَنَةَ بهم تُفْضِي إلى العِناد وازدياد الفساد. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهرَ العداوة.

(٥٤) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراضٌ أي قولوا لهم هذه الكلمةَ ونحوَها ولا تصرِّحُوا بأنهم مِنْ أهلِ النار، فإنهُ يُهَيِّجُهم على الشرِّ معَ أن ختامَ أَمْرِهم غيبٌ لا يعلمه إلا الله. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أَمْرُهُم تَقْسِرُهم على الإيمان، وإنما أرسلناك مُبَشِّراً ونذيراً فَدارِهم وَمُرْ أصحابَكَ بالاحتمال منهم. ورُوِيَ أن المشركين أفرطوا في إيذائِهم فَشَكَوْا إلى رسول الله ﷺ فنزلت[١]، وقيل شَتَمَ عمرَ رضي الله تعالى عنه رَجُلٌ منهم فَهَمَّ به فأمرهُ اللهُ بالعفو[٢].

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٨ من قول الكلبي وبدون إسناد.

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٨ ولم ينسبه لأحد.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ
زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ
رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ
إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا
مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ
بِٱلْأٓيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ وبأحوالهم فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء، وهو ردٌّ لاستبعاد قريش أن يكون يتيمُ أبي طالبٍ نبياً وأن يكون العراةُ الْجُوَّعُ أصحابَه. ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية، لا بكثرةِ الأموال والأتباعِ حتى داودَ عليه الصلاة والسلام فإن شَرَفَهُ بما أُوحِيَ إليه من الكتاب لا بما أُوتِيَهِ مِنَ الْمُلْكِ. قيل هو إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقولُه: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء وأُمَّتُهُ خيرُ الأمم المدلول عليه بما كُتِبَ في الزبور من أن الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصالحون. وتنكيرُه ههنا وتعريفُه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾[١] لأنه في الأصل فَعُولٌ للمفعول كالْحَلُوبِ، أو المصدر كالقَبُولِ، ويؤيده قراءةُ حمزة بالضمِّ، وهو كالعبَّاس أوِ الفضلِ، أو لأن المرادَ وآتينا داودَ بعضَ الزُّبُرِ، أو بعضاً من الزَّبُورِ فيه ذِكْرُ الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٥٦) ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهة. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ كالملائكة والمسيح وعُزَيْرٌ. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون. ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرض والفقر والقَحْطِ. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا تحويلَ ذلكَ منكم إلى غيرِكم.

(٥٧) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الآلهةُ يبتغون إلى الله القرابةَ بالطاعة. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدل مِنْ وَاوِ يبتغون، أي يبتغي مَنْ هو أقربُ منهم إلى الله الوسيلةَ، فكيفَ بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ كسائر العباد فكيف تزعمون أنهم الهة. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقاً بأنْ يحذَرَهُ كلُّ أحدٍ حتَّى الرسلُ والملائكةُ[٢].

(٥٨) ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالموت والاستئصال. ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ﴾ بالقتل وأنواع البلية. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ. ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً.

(٥٩) ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأٓيَٰتِ﴾ ما صَرَفَنَا عن إرسال الآيات التي اقترحَها قريشٌ. ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾ إلا تكذيبَ الأولين الذين هم أمثالُهم في الطبع كَعَادٍ وثمودَ، وأنها لو أرسلت لَكَذَّبوا بها

---

(١) الأنبياء: «١٠٥».

(٢) وهو تعليل لقوله «ويخافون عذابه». وتخصيصه بالتعليل لأن المقام مقام التحذير من العذاب، وأن بينهم وبين العذاب بوناً بعيداً (س٥/١٧٩).

تكذيبَ أولئك، واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سُنَّتُنا وقد قضينا أن لا نستأصلهم، لأن منهم مَنْ يؤمن أو يَلِدُ مَنْ يؤمنُ. ثم ذَكَرَ بعضَ الأمم المهلَكةِ بتكذيب الآيات المقترحة فقال:

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بسؤالهم. ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة ذات إبصار أو بصائر، أو جاعلتهم ذوي بصائر. وقرىء بالفتح. ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ فكفروا بها، أو فظلموا أنفسهم بسبب عقرِها[1]. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَـٰتِ﴾ أي بالآيات المقترحة. ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب المستأصِلِ فإن لم يخافوا نزلَ، أو بغير المقترَحَة كالمعجزات وآيات القرآن إلاّ تخويفاً بعذاب الآخرة، فإنَّ أَمْرَ مَنْ بُعِثَتَ إليهم مؤخَّرٌ إلى يوم القيامة. والباء مزيدةٌ أو في موقعِ الحال، والمفعول محذوف.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾

(٦٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ فَهُمْ في قبضة قدرته، أو أحاط بقريش بمعنى أهلكهم مِنْ أَحَاطَ بهم العدوُّ، فهي بشارة بِوَقْعَةِ بدر. والتعبير بلفظ الماضي لِتَحقُّقِ وقوعه. ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ﴾ ليلةَ المعراج، وتعلَّق به مَنْ قال إنه كان في المنام، ومَنْ قال إنه كان في اليقظة فسَّر الرؤيا بالرؤية. أو عامَ الحديبيةِ حين رأى أنه دخل مكةَ، وفيه أن الآية مكية إلا أنْ يُقَالَ رآها بمكةَ وحكاها حينئذ، ولعله رؤيا رآها في وقعة بدر لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾[2] ولما روي أنه لما ورد ماءه قال: «لكأني أنظر إلى مصارع القوم، هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان» فتسامعت به قريش واستسخروا منه[3]. وقيل رأى قوماً من بني أميةَ يَرْقَوْنَ مِنْبَرَهُ وَيَنْزُونَ عليه نَزْوَ القِرَدَةِ فقال: «هذا حظُّهم من الدنيا يُعْطَوْنَهُ بإسلامهم»[4]، وعلى هذا كان المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ما حدث في أيامهم. ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ عطف على الرؤيا وهي

---

(١) ولعل تخصيص ثمود بالذكر لأن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم، أو لأنها من جهة أنها حيوان أُخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى: «قل كونوا حجارة أو حديداً» الآية: «٥٠» (س/٥/ ١٨١).

(٢) الأنفال: «٤٣».

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٣ رقم ٧٦/ ٢٨٧٣) من حديث أنس بن مالك.

(٤) القول بأن المراد بالشجرة الملعونة هم بنو أمية فهو ضعيف جداً وجمهور المفسرين على خلافه، انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨).

وما ورد من أحاديث في ذلك إنما هو ضعيف جداً، حيث أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد (١٥/ ١١٢) بنحو ما أورده البيضاوي، قال ابن كثير فيه: وهذا السند ضعيف جداً، فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية (ابن كثير ٣/ ٤٨).. وأخرج الحاكم (٤/ ٤٨٠) بنحوه أيضاً وفيه مسلم بن خالد الزنجي وهو ضعيف، وقد أعلّه ابن الجوزي في العلل (٢/ ٢١٣) وقال الجورقاني حديث باطل (الأباطيل ١/ ٢٥٣).

شجرة الزقوم، لمّا سمع المشركون ذِكْرَها قالوا إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرقُ الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجرُ، ولم يعلموا أن مَنْ قدر أن يحميَ وَبَرَ السَمَنْدَل من أن تأكلَه النار وأحشاءَ النعامةِ من أذى الجمر وقِطَع الحديد المحمَّاةِ الْحُمُرَ التي تبتلعها قَدَرَ أن يخلق في النار شجرةً لا تحرقُها. ولَعْنُها في القرآن لَعْنُ طَاعميها وُصِفت به على المجاز للمبالغة، أو وصفها بأنها في أصل الجحيم فإنه أبعدُ مكانٍ من الرحمة، أو بأنها مكروهة مؤذية من قولهم طعامٌ ملعون لما كان ضاراً، وقد أُوِّلَتْ بالشيطان وأبي جهل والْحَكَمِ بنِ أبي العاصي. وقُرِئَتْ بالرفع على الابتداء، والخبرُ محذوف أي والشجرةُ الملعونة في القرآن كذلك. ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ إلا عُتُوّاً متجاوزَ الحدِّ.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ لمن خلقتَه من طين فَنُصِبَ بِنَزْعِ الخافض، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع إلى الموصول أي خلقتَه وهو طين، أو منه أي أأسجدُ له وأصلُه طينٌ. وفيه على الوجوه الثلاثة إيماءٌ بعلةِ الإنكار.

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

(٦٢) ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محلَّ له من الإعراب، وهذا مفعول أول والذي صِفَتُه والمفعول الثاني محذوف لدلالة صلته عليه، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كَرَّمْتَهُ عليَّ بأمري بالسجود له لِمَ كَرَّمْتَهُ عليَّ[1]؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كلام مبتدأ، واللام مُوَطِّئَةٌ للقَسَم، وجوابهُ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأستأصلنَّهم بالإغواءِ إلا قليلاً لا أقدرُ أنْ أقاومَ شكيمتَهم، مِنْ احتنكَ الجرادُ الأرضَ إذا جرَّد ما عليها أكلاً، مأخوذ من الْحَنَكِ. وإنما عَلم أن ذلك يَتَسَهَّلُ له إما استنباطاً من قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[2] مع التقرير، أو تَفَرُّساً مِنْ خَلْقِه ذا وَهْمٍ وشهوةٍ وغضب.

(٦٣) ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ امضِ لما قصدتَه، وهو طردٌ وتخلية بينَه وبين ما سَوَّلَتْ له نفسُه. ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ جزاؤك وجزاؤهم فغلَّبَ المخاطبَ على الغائبِ، ويجوز أن يكون الخطاب للتابعين على الالتفات. ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ مكملاً من قولهم: فِرْ لصاحِبِك عِرْضَه، وانتصابُ جزاءً على المصدر بإضمار فعلِه أو بما في جزاؤكم من معنى تُجازون، أو حال موطئة لقوله «موفوراً».

---

(١) توسيط «قال» بين كلامي إبليس اللعين للإيذان بعدم اتصال الثاني بالأول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره (س٥/ ١٨٣).

(٢) البقرة: «٣٠».

(٦٤) ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ واستخفف. ﴿ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ أن تستفزَّه، والفزُّ الخفيف. ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ بدعائك إلى الفساد. ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ وصِحْ عليهم، مِنَ الْجَلَبَةِ وهي الصِّياحُ. ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بأعوانك من راكب وراجلٍ، والخيل: الخيّالةُ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «يا خيلَ الله اركبي»[(١)] والرَّجْلُ اسمُ جَمْعٍ للراجل كالصَّحْبِ والرَّكْبِ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لِتَسَلُّطِهِ على مَنْ يغويه بمغوارِ صوتٍ على قوم فاستفزَّهم من أماكنهم وأَجْلَبَ عليهم بجنده حتى استأصَلَهم. وقرأ حفص وَرَجِلِكَ بالكسر، وغيرُه بالضمِّ وهما لغتان كَنَدِسٍ ونَدُسٍ[(٢)] ومعناه وجَمْعُكَ الرَّجْلَ، وقرىء ورِجَالِك ورُجّالِك[(٣)]. ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ بحملِهم على كسبها وجَمْعِها من الحرام والتصرفِ فيها على ما لا ينبغي. ﴿ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ بالحثِّ على التوصل إلى الولد بالسَّبَبِ المحرَّم، والإشراك فيه بتسميته عبدِالعُزَّى، والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحِرَفِ الذميمة والأفعال القبيحة. ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكالِ على كرامة الآباء وتأخير التوبة لطول الأمل. ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ اعتراض لبيان مواعيده الباطلة. والغرورُ تزيينُ الخطأ بما يوهم أنه صواب[(٤)].

إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

(٦٥) ﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ يعني المخلَصِين، وتعظيمُ الإضافة والتقييدُ في قوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[(٥)] يخصِّصُهم. ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أي على إغوائهم قدرةٌ. ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ يتوكلون عليه في الاستعاذة منك على الحقيقة.

(٦٦) ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى ﴾ هو الذي يُجْرِي. ﴿ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ الربح وأنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ حيثُ هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسَهَّلَ عليكم ما تعسَّر مِنْ أسبابه.

(٦٧) ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ خوفَ الغرق. ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ ﴾ ذهب عن خواطركم كلُّ مَنْ تَدْعُونَهُ في حوادثكم. ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ وحدَه فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواهُ فلا تدعون لكشفِه إلا إياه، أو ضلَّ كلُّ مَنْ تعبدونه عن إغاثتِكم إلا اللهُ. ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ ﴾ من الغرق. ﴿ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن التوحيد. وقيل

---

(١) تقدم تخريجه عند الآية (٧٠) من سورة يوسف.
(٢) الندس: الفهِمُ وقد ندس كفرح.
(٣) اللفظ مكرر، ولعله ورَجّالَتك.
(٤) والالتفات إلى الغيبة بقوله «وما يعدهم...» لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الإشعار بعلّية سيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب (س٥/ ١٨٤).
(٥) الحجر: «٤٠».

اتسعتم في كفران النعمة كقول ذي الرُّمَّةِ:

عَطَــاء فَتَــى تَمَكَّــنَ فِــي المَعَــالــي ... فــأعْــرَضَ فِــي المَكَــارِمِ وَاسْتَطَــالاَ

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ كالتعليل للإعراض.

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتُم فَأَمِنْتُم فحملَكُم ذلكَ على الإعراض، فإن مَنْ قَدرَ أنْ يهلِكَكُم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البرِّ بالخسف وغيره. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أنْ يَقْلِبَهُ الله وأنتم عليه، أو يقلبه بِسَبَبِكُم فَبِكُم حالٌ أو صلةٌ لِيَخْسِفَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فيه وفي الأربعة التي بعدَه. وفي ذِكْرِ الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحلَ كفروا وأعرضوا، وأن الجوانب والجهاتِ في قدرته سواءٌ لا مَعقِلَ يُؤمَنُ فيه من أسباب الهلاك. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تَحْصُبُ أي ترمي بالحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم من ذلك فإنه لا رادَّ لفضله.

(٦٩) ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر[1]. ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بخلق دواعٍ تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوهُ. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ لا تمرُّ بشيءٍ إلا قصفَتْهُ أي كَسرَتْهُ. ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ وعن يعقوبَ بالتاء، على إسناده إلى ضمير الريح. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراكِكُم أو كُفرانِكُم نعمةَ الإنجاء. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ مطالباً يَتْبَعُنَا بانتصارٍ أو صَرْفٍ.

(٧٠) ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بحسنِ الصورة والمزاج الأعدلِ واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخطِّ والتهدِّي، أو أسبابِ المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكُّنِ من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسُّفْلِيةِ إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غيرِ ذلك مما يقفُ الْحَصْرُ دونَ إحصائه. ومن ذلك ما ذَكَرَهُ ابن عباس: وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده[2]. ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على الدوابِ والسُّفُن، مَنْ حَمَلْتُهُ حملاً إذا جعلت له ما يركبه، أو حملناهم فيهما حتى لم تُخْسَفْ بهم الأرضُ ولم يُغْرِقْهُم الماءُ. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المستلذاتِ مما يحصل بفعلهم وبغيرِ فعلهم. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بِالْغَلَبَةِ والاستيلاءِ أو بالشرفِ والكرامة، والمستثنى جِنْسُ الملائكة عليهم الصلاة

(١) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه (س٥/ ١٨٥).
(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طرق (فتح القدير ٣/ ٢٤٥).

والسلام أو الخواصُّ منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدمُ تفضيل بعضِ أفراده، والمسألةُ موضعُ نَظَرٍ، وقد أَوَّلَ الكثيرُ بالكلِّ وفيه تَعَسُّفٌ.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

(٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟﴾ نُصِبَ بإضمارِ اذْكُرْ، أو ظرف لما دلَّ عليه ولا يظلمون. وقرىء يَدْعُو ويُدْعى ويُدْعَو على قَلْبِ الألفِ واواً في لغة مَنْ يقول أَفْعَو في أَفْعَى، أو على أن الواو علامةُ الجمع كما في قوله ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾[(١)] أو ضميره وكلٌّ بدل منه والنون محذوفة لِقِلَّةِ المبالاة بها فإنها ليست إلا علامةُ الرفع، وهو قد يُقَدَّرُ كما في يُدْعىٰ. ﴿كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ بمن ائْتَمُّوا به من نبي أو مُقَدَّمٍ في الدين أو كتابٍ أو دين. وقيل بكتاب أعمالهم التي قدَّموها فيقال يا صاحبَ كتابِ كذا، أي تنقطعُ عُلَقَةُ الأنساب وتبقى نِسْبَةُ الأعمال. وقيل بالقِوَى الحاملةِ لهم على عقائدهم وأفعالهم. وقيل بأمهاتهم جَمْعُ أمٍّ كَخُفٍّ وخِفَافٍ[(٢)]، والحكمة في ذلك إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرفِ الْحَسَنِ والحسينِ رضي الله عنهما وأن لا يُفْتَضَحَ أولادُ الزنا. ﴿فَمَنْ أُوتِىَ﴾ من المدعوينَ. ﴿كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي كتابُ عملِه. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ﴾ ابتهاجاً وتبجُّحاً بما يَرَوْنَ فيه. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا يُنْقَصُونَ من أجورهم أدنى شيء[(٣)]، وجَمَعَ اسمَ الإشارة والضميرَ لأن مَنْ أُوتِيَ في معنى الجمعِ، وتعليقُ القراءة بإيتاء الكتابِ باليمين يدل على أن مَنْ أُوتِيَ كتابَه بشماله إذا اطَّلع ما فيه غَشِيَهم من الخجل والْحَيْرَةِ ما يَحْبِسُ أَلسنتَهُم عن القراءة، ولذلك لم يَذْكُرْهُم مع أن قوله:

(٧٢) ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أيضاً مُشْعِرٌ بذلك فإن الأعمى لا يقرأُ الكتاب، والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلبِ لا يبصر رُشْدَهُ كان في الآخرة أعمى لا يرى طريقَ النجاة. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدانِ الآلة والمهلةِ. وقيل لأن الاهتداءَ بعدُ لا ينفعُه. والأعمى مُسْتَعَارٌ مِنْ فاقدِ الحاسَّةِ. وقيل الثاني للتفضيل مِنْ عَمِيَ بقلبه كالأجهلِ والأَبْلَهِ ولذلك لم يُمِلْهُ أبو عمرو ويعقوب، فإن أَفْعَلَ التفضيل تمامُه بِمَنْ فكانت أَلِفُه في حكم المتوسِّطةِ كما في أعمالكم بخلاف النعت، فإن أَلِفَهُ واقعةٌ في الطَّرَفِ لفظاً وحُكْماً فكانت مُعَرَّضَة للإمالة من حيثُ إنها تصيرُ ياء في التثنية، وقد أمالهما حمزةُ والكسائي وأبو بكر، وقرأ وَرْشٌ بَيْنَ بَيْنَ فيهما.

---

(١) الأنبياء: «٣».

(٢) أورد هذا القول الزمخشري في الكشاف وقال إنه من بدع التفاسير (الكشاف ٢/٣٦٩) ويقصد بإظهار شرف الحسن والحسين أن نسبتهما إلى أمهما أفضل لأنها بنت رسول الله ﷺ.

(٣) الفتيل هو القشرة التي في شقّ النواة، وهو مَثَل في القلة والحقارة.

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في ثقيفٍ، قالوا لا نَدْخُلُ في أَمْرِكَ حتى تُعْطِيَنَا خِصَالاً نفتخر بها على العرب: لا نُعَشَّرُ ولا نُحْشَرُ ولا نَجْبي في صلاتنا[1]، وكلُّ ربًا لنا فهو لنا وكل رباً علينا فهو موضوع عنَّا، وأن تُمتِّعَنا باللاتِ سنةً وأن تُحَرِّمَ وادِيَنا كما حرَّمْتَ مكةَ، فإن قالتِ العرب لم فعلتَ ذلكَ فقلْ إن الله أمرني[2]. وقيل في قريش قالوا لا نُمَكِّنُكَ من استلامِ الحَجَرِ حتى تُلِمَّ بآلهتنا وتَمَسَّهَا بيدك[3]. وإنْ هيَ المخففةُ واللام هي الفارِقةُ، والمعنى: أنَّ الشأنَ قاربُوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستنزالِ. ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الأحكام ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ غيرَ ما أوحينا إليك. ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ ولو اتبعتَ مُرَادَهُم لاتَّخَذُوكَ بافتتانِكَ ولياً لهم بريئاً مِنْ ولايتي.

(٧٤) ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ ولولا تَثْبِيتُنَا إِيَّاكَ. ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ لقاربْتَ أن تميلَ إلى اتِّبَاعِ مُرَادِهِم، والمعنى أنك كنتَ على صَدَدِ الركونِ إليهم لقوةِ خِدَعِهِم وشِدَّةِ احتيالِهم لكِنْ أَدْرَكَتْكَ عِصْمَتُنَا فَمُنِعْتَ أن تَقْرَبَ من الركون فضلاً أن تَرْكَنَ إليهم، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما همّ بإجابتهم مع قوة الدواعي. إليها، ودليل على أن العصمةَ بتوفيق الله وحِفْظِهِ.

(٧٥) ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ أي لو قاربتَ لأذقْنَاكَ. ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة ضِعْفُ ما نعذِّب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرَك لأنَّ خطأَ الخطيرِ أخطرُ. وكان أصلُ الكلام عذاباً ضِعْفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في المماتِ بمعنى مُضَاعَفاً، ثم حذفَ الموصوفَ وأُقِيمَتِ الصِّفَةُ مقامَهُ، ثمَّ أضيفتْ كما يضاف موصوفُها. وقيلَ: الضِّعْفُ مِنْ أسماء العذاب. وقيل المراد بِضِعْفِ الحياة عذابُ الآخرة وضِعْفُ المماتِ عذابُ القبر: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذابَ عنك.

---

(١) معنى قولهم: لا نُعشَّر ولا نُحشَر ولا نجبي في صلاتنا. أي لا ندفع العُشْر، ولا نحشر مع غيرنا ـ يريدون أن يكون لهم مجلساً خاصاً ـ ولا نجبي أي لا نقوم قيام الراكع ـ والله أعلم ـ.

(٢) نقل المناوي عن الولي العراقي قوله: لم أقف عليه، وذكر أن الثعلبي قد أخرجه عن ابن عباس (الفتح السماوي ص٧٧٨) لكن أورد الواحدي في أسباب النزول (ص٢٩٧) من قول عطاء عن ابن عباس ولم يذكر له سنداً، وأخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣٠) بمعناه من طريق العوفي عن ابن عباس وهو ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣٠) عن سعيد بن المسيب بسند ضعيف. لكنْ أورد السيوطي في لباب النقول (الإسراء: ٧٣) أنه أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: خرج أمية وأبو جهل ورجال من قريش فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، تعال تمسح بآلهتنا وندخل معك في دينك. وكان يحب إسلام قومه فرقّ لهم. فأنزل الله «وإن كادوا. . .» قال السيوطي: هذا أصح ما ورد في سبب نزولها وهو إسناد جيد، وله شاهد.

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

(٧٦) ﴿وَإِن كَادُوا۟﴾ وإن كاد أهلُ مكةَ. ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجونَكَ بِمُعَادَاتِهِم. ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مكةَ. ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ﴾ ولو خرجتَ لا يَبْقُونَ بعدَ خُرُوجِكَ. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً، وقد كانَ كذلك فإنهم أُهْلِكُوا بِبَدْرٍ بعدَ هجرتهِ بِسَنَةٍ. وقيل الآية: نزلتْ في اليهود حسدُوا مقامَ النبيِّ بالمدينة فقالوا: الشام مقامُ الأنبياء فإن كنت نبياً فالحقْ بها حتى نؤمنَ بك، فوقعَ ذلك في قلبه فخرج مرحلةً فنزلتْ، فرجع. ثم قُتِلَ منْهم بنو قريظةَ وأُجْلِيَ بنو النضير بقليل[1]. وقرىء لا يَلْبَثُوا منصوباً بإذا على أنه معطوف على جملة قوله: ﴿وإن كادوا ليستفزونك﴾ لا على خبر كادَ فإن إذا لا تعملُ إذا كان مُعْتَمَدُ ما بعدَها على ما قَبْلَهَا. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وحفص خلافَك وهو لغةٌ فيه قال الشاعر:

عفت الدِّيَار خَلافَهُمْ فَكَأَنَّمَا ... بسط الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيراً

(٧٧) ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ﴾ نصب على المصدر أي سَنَّ الله ذلك سُنَّةً، وهو أن يهلكَ كلَّ أُمَّةٍ لله أَخرَجُوا رسولَهم من بينِ أَظْهُرِهِم، فالسُّنَّةُ لله وإضافتُها إلى الرسل لأنها مِنْ أَجْلِهِم، ويدل عليه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي تغييراً.

(٧٨) ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لزوالها ويدلُّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «أتاني جبريل لِدُلُوكِ الشمس حين زالت فصلى بي الظهرَ»[2]. وقيل لغروبها، وأصلُ التركيب للانتقال، ومنه الدَّلْكُ فإنَّ الدَّالِكَ لا تستقرُّ يدُه، وكذا كلُّ ما تركَّبَ من الدال واللام: كدَلَجَ ودَلَح ودَلَع ودَلَف ودَلَةَ. وقيل الدلوك مِنَ الدَّلْكِ لأنَّ الناظِرَ إليها يَدْلُكُ عينيه ليدفعَ شُعَاعَهَا، واللام للتأنيث مِثلُها في: لثلاثٍ خَلَوْنَ. ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى ظُلْمَتِه وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة. ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ وصلاة الصبح، سميت

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢٥٤) من حديث عبدالرحمٰن بن غَنْمٍ وفي سنده أحمد بن عبدالجبار العطاردي مجمع على ضعفه. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٢٠). وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن عساكر.

(٢) أخرجه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٢/ ١٩٤ رقم ٢٣٤٤) والطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٣٧) وابن مردويه كما في «الكافي الشاف» (ص١٠١ رقم ٢٩٩) كلهم من حديث أبي مسعود الأنصاري.
ـ قلت: رجاله ثقات إلا أنه منقطع بين أبي بكر بن حزم وأبي مسعود كما عند ابن مردويه. وأصل حديث أبي مسعود في الصحيحين وغيرهما بدون تفسير الوقت. انظر البخاري (٢/ ٣ رقم ٥٢١) ومسلم (١/ ٤٢٥ رقم ١٦٦/ ١٦٧/ ٦١٠) وورد تفسير الأوقات عند أبي داود (١/ ٢٧٨ رقم ٣٩٤) وقال أبو داود «روى هذا الحديث عن الزهري معمر ومالك وابن عيينة وشعيب وغيرهم ولم يذكروا الوقت الذي صلى فيه ولم يفسروه...» اهـ.
وأصله في الصحيحين من حديث أنس. وفي صحيح مسلم من حديث بريدة، انظر البخاري (٢/ ٢١ رقم ٥٤٠) ومسلم (٤/ ١٨٣٢ رقم ١٣٦/ ٢٣٥٩).
وحديث بريدة: مسلم (١/ ٤٢٨ رقم ١٧٦/ ٦١٣).

قرآناً لأنه ركنها كما سميت ركوعاً وسجوداً. واستُدل به على وجوب القراءة فيها، ولا دليلَ فيه لجواز أن يكون التجوُّزُ لكونها مندوبةً فيها، نَعَمْ لو فُسِّرَ بالقراءة في صلاة الفجر دلَّ الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصاً وفي غيرها قياساً. ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكةُ الليل وملائكة النهار، أو شواهِدُ القُدرةِ مِنْ تَبَدُّلِ الظُّلْمَةِ بالضياء والنوم الذي هو أخو الموتِ بالانتباهِ، أو كثيرٌ من المصلِّينَ، أو مَنْ حقُّه أن يشهدَه الجمُّ الغفير. والآية جامعة للصلوات الخمس إن فُسِّرَ الدُّلوكُ بالزوال، ولصلواتِ الليل وحدَها إنْ فُسِّرَ بالغروب. وقيل المراد بالع[illegible]ة صلاةُ المغرب وقولُه «لدلوك الشمس إلى غسق الليل» بيان لمبدأ الوقتِ ومُنْتَهَاهُ، واستُدِلَّ به ع[illegible] أن الوقتَ يمتد إلى غروب الشفق[1].

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

(٧٩) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ وبعض الليل فاترك الهجودَ للصلاة[2]، والضميرُ للقرآن. ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضةً زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ مقاماً يحمده القائم فيه وكل مَنْ عَرَفَهُ، وهو مُطْلَقٌ في كل مكان يتضمَّن كرامةً، والمشهور أنه مقامُ الشفاعة لما رَوَى أبو هريرةَ رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «هوَ المقامُ الذي أَشْفَعُ فيه لأُمَّتِي»[3] ولإشعاره بأن الناسَ يَحْمَدُونَهُ لقيامه فيه وما ذاك إلا مقامُ الشفاعة. وانتصابُه على الظرفِ بإضمار فعله أي فيقيمُك مقاماً أو بتضمين يبعثُك معناه، أو الحال بمعنى أن يبعثَك ذا مقام.

(٨٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ أي في القبر. ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ادخالاً مُرْضِياً. ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ أي منه عندَ البعث. ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إخراجاً مُلْقَىً بالكرامة، وقيل المرادُ إدخال المدينةِ والإخراجُ مِنْ مكةَ، وقيل إدخاله مكةَ ظاهراً عليها وإخراجُه منها آمِناً من المشركين، وقيل إدخالُه الغارَ وإخراجُه منه سالماً،

---

(١) والإظهار في مقام الإضمار بقوله «إن قرآن الفجر...» لبيان مزيد الاهتمام به (س٥/١٨٩).

(٢) التهجد هو الاستيقاظ من النوم للصلاة (روح المعاني ١٥/١٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٣٠٣ رقم ٣١٣٧) وأحمد في المسند (٢/٤٤١، ٥٢٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/٤٨٤ رقم ١١٧٩٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/١٤٥ ـ ١٤٦) والبيهقي في «الدلائل» (٥/٤٨٤) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
ـ قلت في سنده: داود بن يزيد الأودي الكوفي: ضعيف. انظر الجرح والتعديل (٣/٤٢٧) والتقريب (١/٢٣٥).
ولكن للحديث شواهد انظر في «الدر المنثور» (٥/٣٢٤ ـ ٣٢٥) فبها حسن إن شاء الله.
● وفي الباب عن أنس عند البخاري (١٣/٤٢٢ رقم ٧٤٤٠).
● وعن ابن عمر عند البخاري (٣/٣٣٨ رقم ١٤٧٥).

وقيل إدخاله فيما حملَه مِنْ أعباء الرسالة وإخراجه منه مؤدياً حقَّه، وقيل إدخاله في كل ما يلابِسُه من مكان أو أَمْرٍ وإخراجُه منه. وقرىء مَدْخَلَ ومَخْرَجَ بالفتح على معنى أدخلني فأدخلَ دخولاً وأخرجني فأخرجَ خروجاً. ﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ حُجَّةً تنصرني على مَنْ خالفني أو مَلِكاً ينصرُ الإسلامَ على الكفر، فاستجابَ له بقوله: ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[١] ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[٢] ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٣].

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

(٨١) ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ الإسلام ﴿ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وذهب وهلك الشِّركُ، مِنْ زَهَقَ روحُه إذا خرجَ. ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ مُضْمَحِلاً غيرَ ثابتٍ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يومَ الفتح وفيها ثلثُمائةٍ وستونَ صنماً، فجعلَ ينكتُ بِمِخْصَرَتِهِ في عينِ كلِّ واحدٍ منها فيقولُ جاء الحق وزَهَقَ الباطلُ فَيَنْكَبُّ لوجهِه، حتى أَلْقَى جميعَها وبقي صنمُ خُزاعةَ فوقَ الكعبة وكان مِنْ صُفْرٍ فقال: «يا عليُّ ارمِ به» فصعدَ فَرَمَى به فكسرَهُ[٤].

(٨٢) ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسِهم كالدواء الشافي للمرضى، ومِنْ للبيان فإنَّ كلَّه كذلك. وقيل إنه للتبعيض والمعنى أن منه ما يَشْفِي من المرض كالفاتحة وآياتِ الشفاء. وقرأ البصريان نُنْزِلُ بالتخفيف. ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم وكفرهم به[٥].

(٨٣) ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحة والسَّعَةِ ﴿ أَعْرَضَ﴾ عن ذِكْرِ الله. ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ لَوَى عِطْفَه وبَعُدَ بِنَفْسِهِ عنه كأنه مُسْتَغْنٍ مُسْتَبِد بِأَمْرِهِ، ويجوز أن يكونَ كنايةً عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبِرِيْن. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذَكْوَانَ هنا وفي فُصِّلَتْ[٦] وناءَ، على القلبِ أو على أنه بمعنى نَهَضَ. ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من مرض أو فقرٍ[٧]. ﴿ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ شديدَ اليأس مِنْ رَوْحِ الله.

---

(١) المائدة: «٥٦».
(٢) الصف: «٩».
(٣) النور: «٥٥».
(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٤٠٠ رقم ٤٧٢٠) ومسلم (٣/١٤٠٨ رقم ٨٧/ ١٧٨١) والترمذي (٥/ ٣٠٣ رقم ٣١٣٨) والنسائي في التفسير (١/ ٦٦٥ رقم ٣١٧) والطبراني في الصغير (١/ ٧٧ ـ ٧٨) عنه.
● وأخرج البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٧١ ـ ٧٢) عن ابن عباس، قال «دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم قال: فأخذ قضيبه فجعل يهوي به على صنمٍ صنمٍ وهو يهوي حتى مَرَّ عليها كلها» وإسناده ضعيف.
(٥) وإسناد الزيادة للقرآن ـ مع كونهم هم المزدادون بسوء صنيعهم ـ باعتبار كون القرآن سبباً في ذلك (س٥/ ١٩١).
(٦) فصلت: «٥١».
(٧) وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قل كلٌّ أحد يعملُ على طريقته التي تشاكِلُ حالَه في الْهُدَى والضلالة، أو جَوْهَرَ رُوحِهِ وأحوالَه التابعةَ لمزاج بَدَنِهِ. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أسدُّ طريقاً وأَبْيَنُ مِنْهَجاً، وقد فُسِّرَتِ الشَّاكِلَةُ بالطبيعة والعادةِ والدِّينِ.

(٨٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الذي يحيا به بدنُ الإنسان ويدبِّره. ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ من الإبداعياتِ الكائنة بِكُنْ من غيرِ مادةٍ وتُولُّدٍ مِنْ أَصْلٍ كأعضاءِ جسدِهِ، أو وُجِدَ بِأَمْرِهِ وحَدَثَ بتكوينه على أن السؤالَ عن قِدَمه وحدوثه. وقيل مما استأثر اللهُ بِعِلْمِهِ، لما رُوِيَ أنَّ اليهود قالوا لقريش سَلُوهُ عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الرُّوحِ، فإنْ أجابَ عنها أو سكتَ فليسَ بنبيٍّ، وإنْ أجابَ عن بعضٍ وسكتَ عن بعضٍ فهو نبيٌّ، فَبَيَّنَ لهمُ الْقِصَّتَيْنِ وأَبْهَمَ أَمْرَ الرُّوحِ وهو مُبْهَمٌ في التوراة[(١)]. وقيل الروحُ جبريلُ، وقيل خَلْقٌ أعظمُ مِنَ الْمَلَكِ، وقيل القرآنُ، ومِنْ أَمْرِ رَبِّي معناه مِنْ وحْيِهِ. ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تستفيدونه بتوسُّطِ حواسِّكِم، فإنَّ اكتسابَ العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل مَنْ فَقَدَ حِسّاً فَقَدْ فَقَدَ عِلْماً. ولعلَّ أَكْثَرَ الأشياءِ لا يدركه الحِسُّ ولا شيئاً من أحواله المعروفة لذاته، وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن معرفةُ ذاته إلا بِعَوَارِضَ تُمَيِّزُهُ عمَّا يَلْتَبِسُ به، فلذلك اقتصرَ على هذا الجوابِ كما اقتصرَ موسى في جواب «وما ربُّ العالمين؟» بِذِكْرِ بعضِ صفاته. رُوِيَ: أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك قالوا: أنحن مختصُّون بهذا الخطاب؟ فقال: «بل نحن وأنتم»، فقالوا: ما أعجبَ شَأْنَكَ! ساعةً تقولُ «ومَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً»[(٢)]، وساعةً تقول هذا، فنزلتْ[(٣)]: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن

= كذلك (س٥/ ١٩١).

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٠٢ رقم ٣٠٦): «لم أجده هكذا. وذكره ابن هشام في السيرة - (١/ ٣٧١ - ٣٧٩) - عن زياد عن أبي إسحاق. وكذا أخرجه البيهقي في «الدلائل» - (٢/ ٢٦٩ - ٢٧٠) - من طريقه: «أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فقالوا لهم سلوه عن ثلاث: فإذا عرفها فهو نبي: سلوه عن أقوام ذهبوا في الأرض فلم يدر ما صنعوا القصة بطولها» اهـ.

●وأخرج البخاري (١/ ٢٢٣ رقم ١٢٥) ومسلم (٤/ ٢١٥٢ رقم ٣٢/ ٢٧٩٤) عن ابن مسعود قال بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خِرَبِ المدينة - وهو يتوكأ على عسيب معه - فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضُهم لبعضٍ: سلوه عن الروح. وقال بعضُهم لا تسألوهُ لا يجيءُ فيه بشيءٍ تكرهونَه. فقال بعضُهم لنسألَنَّهُ، فقام رجلٌ منهم فقال يا أبا القاسم، ما الروحُ؟ فسكتَ. فقلت: إنَّهُ يُوحىٰ إليه، فقمتُ فلما انجلى عنه فقال: «يسألونكَ عن الروح. قُل الروحُ من أمرِ رَبِّي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» [الإسراء: ٨٥].

قال الأعمشُ: هكذا في قراءتِنا.

(٢) البقرة: «٢٦٩».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٠٢ رقم ٣٠٧): (ذكره الثعلبي في تفسير لقمان بغير سند ولا راوٍ.

وروى ابن مردويه من طريق علي بن عاصم عن داود بن أبي هند عن عكرمة. لا أعلمه إلا عن ابن عباس. قال: =

شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾[١]. وما قالوه لِسُوءِ فَهمِهم، لأنَّ الحكمةُ الإنسانيةَ أنْ يعلمَ مِنَ الخيرِ والحقِّ ما تَسَعُهُ القوةُ البشرية بل ما ينتظم به معاشُه ومعادُه، وهو بالإضافة إلى معلومات الله التي لا نهايةَ لها قليلٌ يُنَالُ به خيرُ الدارين وهو بالإضافة إليه كثيرٌ.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ اللام الأولى موطئة للقسم ولنذهبن جوابُه النائبُ مناب جزاء الشرط، والمعنىٰ إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور[٢] ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ مَنْ يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً.

(٨٧) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فإنها إن نَالَتْكَ فلعلها تستردُّه عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غيرَ مذهوبٍ به، فيكون امتناناً بإبقائه بعدَ الْمِنَّةِ في تنزيله. ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ كإرساله وإنزال الكتاب عليه وإبقائه في حِفْظِهِ.

(٨٨) ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في البلاغة وحُسْنِ النَّظْمِ وكمال المعنى[٣]. ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ وفيهم العربُ العَرْبَاءُ وأربابُ البيان وأهل التحقيق[٤]، وهو جوابُ قَسَمٍ محذوف دلَّ عليه اللامُ الموطِّئَةُ، ولولا هيَ لكانَ جوابُ الشرط بلا جَزْمٍ لكونِ الشرط ماضياً كقول زهير:

وَإِنْ أَتَـاهُ خَلِيـلٌ يَـوْمَ مَسْـأَلَـةٍ يقُـولُ لاَ غَـائِـبٌ مَـالـي وَلاَ حَـرَمُ

= لما نزلت هذه الآية «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة ومن يؤت التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً. فأنزل الله تعالى: «لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر» هـ.

قلت: وأخرج أحمد في المسند (١/ ٢٥٥) والطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٥٥) من طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس نحوه.

كما أخرج الطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٥٧) عن عطاء بن يسار بإسناد ضعيف. لأن شيخ ابن إسحاق لم يسم.

(١) لقمان: «٢٧».

(٢) عبر عنه بالموصول «بالذي...» تفخيماً لشأنه ووصفاً له بما في حيز الصلة ابتداء وإعلاماً بحاله من أول الأمر وأنه ليس من قبيل كلام المخلوق (س٥/ ١٩٣).

(٣) وتخصيص الثقلين من الإنس والجن بالذكر لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارضة (س٥/ ١٩٣).

(٤) وإيثار الإظهار «بمثله» على إيراد الضمير الراجع إلى المثل المذكورِ احترازاً عن أن يتوهم أنّ له مثلاً معيناً، وإيذاناً بأن المراد نفي الإتيان بمثْلٍ ما. (س٥/ ١٩٣).

﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ولو تظاهروا على الإتيان به، ولعله لم يذكر الملائكةَ لأن إتيانَهم بمثلِهِ لا يخرجُه عن كونه معجزاً، ولأنهم كانوا وسائطَ في إتيانه، ويجوز أن تكون الآيةُ تقريراً لقوله: ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ
حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ
بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

(٨٩) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كرَّرنا بوجوهٍ مُخْتَلِفَةٍ زيادةً في التقرير ﴿ لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى كالمَثَلِ في غرابته ووقوعه مَوْقِعَها في الأنْفُسِ. ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ إلا جحوداً، وإنما جاز ذلك ولم يَجُزْ: ضَرَبْتُ إلاّ زيداً لأنه مُتأَوَّلٌ بالنفي.

(٩٠) ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ تعنُّتاً واقتراحاً بعدَ ما لزمتْهمُ الحجَّةُ ببيانِ إعجازِ القرآن وانضمامِ غيرِه منَ المعجزات إليه. وقرأَ الكوفيونَ ويعقوبُ تَفْجُرَ بالتخفيف. والأرضُ أرضُ مكةَ، والينبوعُ عَيْنٌ لا يَنْضُبُ ماؤُها، يَفْعُول مِنْ نَبَعَ الماءُ كَيَعْبُوبٍ مِنَ عبَّ الماءُ إذا زَخَرَ.

(٩١) ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أو يكونَ لك بستانٌ يشتمل على ذلك.

(٩٢) ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ يَعْنُونَ قولَه تعالى: ﴿ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾[(١)] وهو كَقِطَعٍ لفظاً ومعنى. وقد سكَّنه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب في جميع القرآن إلا في الرُّوم[(٢)]، وابن عامر إلا في هذه السورةِ، وأبو بكر ونافع في غيرِهما وحفصٌ فيما عدا الطُّور[(٣)]، وهو إما مُخَفَّفٌ من المفتوح كَسِدْرَةٍ وسِدَرٍ، أو فِعْل بمعنى مفعول كالطِّحْن. ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ كفيلاً بما تدَّعيه أي شاهداً على صحته ضامِناً لدركه، أو مقابلاً كالعشير بمعنى المعاشِر. وهو حال من الله، وحال الملائكة محذوفةٌ لدلالتها عليها كما حذف الخبر في قوله:

فإني وقَيَّار بها لغريبُ

أو جماعة فيكون حالاً من الملائكة.

(٩٣) ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ من ذهب، وقد قرىء به، وأصله الزينة. ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ ﴾ في

---

(١) سبأ: «٩».

(٢) الروم: «٤٨».

(٣) الطور: «٤٤».

معارجها. ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ وحده. ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ وكان فيه تصديقُك. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجُّباً من اقتراحاتهم أو تنزيهاً لله من أن يأتيَ أو يتحكَّمَ عليه أو يشارِكَه أحدٌ في القدرة. وقرأ ابن كثير وابن عامر: قال سبحان ربي، أي قال الرسول. ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر الناس. ﴿رَّسُولًا﴾ كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومَهم إلا بما يظهره الله عليهم على ما يلائم حالَ قومهم، ولم يكن أمرُ الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكَّموا على الله حتى يتخيَّروها، على هذا هو الجواب المجْمَلُ وأما التفصيلُ فقد ذُكِرَ في آيات أُخَرَ كقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾[(١)] ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾[(٢)].

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

(٩٤) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي وما منعهم الإيمانُ بعد نزول الوحي وظهور الحق. ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ إلا قولَهم هذا[(٣)]، والمعنى أنه لم يبقَ لهم شُبْهَةٌ تمنعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآنِ إلا أنكارَهم أن يُرْسِلَ الله بشراً.

(٩٥) ﴿قُل﴾ جواباً لشبهتهم. ﴿لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشي بنو آدم. ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين فيها. ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ لِتُمكِّنَهم من الاجتماع به والتلقي منه، وأما الإنس فعامَّتُهم عُمَاةٌ عن إدراكِ الْمَلَكِ والتلقفِ منه، فإنَّ ذلك مشروطٌ بنوعٍ من التناسب والتجانس. ومَلَكاً يحتمل أن يكون حالاً من رسولاً وأن يكون موصوفاً به، وكذلك بشراً، والأول أوْفَقُ.

(٩٦) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني رسول الله إليكم بإظهاره المعجزة على وُفْقِ دعواي، أو على أني بلَّغتُ ما أُرْسِلْتُ به إليكم وأنكم عاندتُم[(٤)]. وشهيداً نُصِبَ على الحال، أو التمييز. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلم أحوالهم الباطنةَ منها والظاهرة فيجازيهم عليها، وفيه تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديدٌ للكفار.

(٩٧) ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يهدونه[(٥)]. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) الأنعام: «٧».

(٢) الحجر: «١٤».

(٣) وإنما عبر عنه بالقول إيذاناً بأنه مجردُ قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق. وحصر المانع من الإيمان فيما ذكر ـ مع أن لهم موانع شتىٰ ـ لأنه معظمها، أو لأنه هو المانع بحسب الحال (س٥/ ١٩٥).

(٤) قوله «بيني وبينكم» ولم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة وإبانة للمباينة (س٥/ ١٩٦).

(٥) قوله «فلن تجد لهم» حيث أوثر ضمير الجماعة اعتباراً لمعنى من غِبَّ ما أوثر في مقابله الإفراد نظراً إلى لفظها =

عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُسْحَبُونَ عليها أو يمشون بها. روي أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أَمْشَاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمْشِيهم على وجوههم»(١) ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لا يبصرون ما يُقِرُّ أعينَهم ولا يسمعون ما يلذُّ مسامعَهم ولا ينطقون بما يُقْبَلُ منهم، لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعِبَر وتصامُّوا عن استماع الحقِّ وأَبَوْا أن ينطقوا بالصِّدْقِ، ويجوز أن يحشروا بعدَ الحساب مِنَ الموقفِ إلى النار مَؤُوفي(٢) القِوَى والحواسّ. ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سَكَنَ لهبُها بأن أكَلَتْ جلودَهم ولحومَهم. ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ توقُّداً بأنْ نُبَدِّلَ جلودَهم ولحومَهم فتعود ملتهبةً مستعِرةً، كأنهم لما كذَّبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء، وإليه أشار بقوله:

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لأن الإشارة إلى ما تقدَّم من عذابهم.

(٩٩) ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أولم يعلموا. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فإنهم ليسوا أشدَّ خَلْقاً منهن ولا الإعادةُ أصعبُ عليه من الإبداء. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الموت أو القيامة. ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مع وضوح الحق. ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً.

(١٠٠) ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ خزائنَ رزقه وسائرَ نعمه. وأنتم مرفوع بفعل يفسِّره ما بعدَه، كقول حاتم: لو ذاتُ سِوَارٍ لطمتْني، وفائدةُ هذا الحذف والتفسيرِ: المبالغةُ مع الإيجاز، والدلالةُ على الاختصاص. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ لَبَخِلْتُم مخافةَ النَّفَادِ بالإنفاق، إذ لا أحدَ إلا ويختار النفعَ لنفسه، ولو آثرَ غيرَه بشيء فإنما يؤثره لِعِوَضٍ يفوقُه، فهو إذن بخيلٌ بالإضافة إلى جُودِ الله تعالى وكَرَمِه هذا وإنَّ البخلاءَ أغلبُ فيهم. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ بخيلاً لأنَّ بناءَ أَمْرِهِ على الحاجة والضِّنَّةِ بما يحتاج إليه وملاحظة العِوَضِ فيما يبذُله.

= تلويحاً بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضُّلَّال (س٥/ ١٩٦).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٥٤، ٣٦٣) والترمذي (٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٢) وإسحاق والبزار ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٠٢ رقم ٣٠٨) ـ من حديث أبي هريرة. وفيه علي بن مرثد وهو ضعيف. قال البزار: لا نعلمه من حديث أبي هريرة إلاَّ بهذا الإسناد. ورواه ابن مردويه من رواية أبي داود نفيع عن أنس مثله.
وأصله في الصحيحين ـ البخاري (١١/ ٣٧٧ رقم ٦٥٢٣) ومسلم (٤/ ٢١٦١ رقم ٥٤/ ٢٨٠٦) ـ عن أنس أن رجلاً قال: «يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

(٢) قوله مؤوفى: أي أصابتهم آفة القوىٰ والحواس ففقدوها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

(١٠١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ هي العصَا واليد والجراد والقُمَّل والضفادع والدم وانفجارُ الماء مِنَ الحَجَرِ وانفلاقُ البحر ونَتْقُ الطُّور على بني إسرائيل، وقيل: الطوفانُ والسِّنُونَ ونقصُ الثمرات مكانَ الثلاثةِ الأخيرة. وعن صفوانَ[١] أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تقتلُوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، ولا تسحَروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريءٍ إلى ذي سلطان ليقتلَه، ولا تقذِفُوا مُحْصَنَةً، ولا تَفِرُّوا منَ الزَّحْفِ، وعليكم خاصَّةَ اليهود أنْ لا تَعْدُوا في السبت» فَقَبَّلَ اليهوديُّ يدَه ورِجْلَه[٢]. فعلى هذا المراد بالآيات الأحكامُ العامةُ لِلْمِلَلِ الثابتة في كلِّ الشرائع، سُمِّيَتْ بذلك لأنها تدل على حال مَنْ يتعاطى مُتَعَلَّقَهَا في الآخرة من السعادة أو الشقاوة. وقوله وعليكم خاصَّةَ اليهود أن لا تَعْدُوا، حُكْمٌ مُسْتَأْنَفٌ زائد على الجواب، ولذلك غيَّرَ فيه سياقَ الكلام. ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فقلنا له سَلْهم مِنْ فرعونَ ليُرسلَهم معك، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءةُ رسولِ الله ﷺ فَسَأَلَ على لفظ المضي بغير همزٍ وهو لغةُ قريش وإذ متعلِّق بقلنا أو سأل على هذه القراءةِ، أو فاسألْ يا محمد بني إسرائيلَ عما جَرَى بين موسى وفرعونَ إذ جاءَهم، أو عن الآيات لِيَظْهَرَ للمشركين صدقُك أو لتتسلّى نفسُك أو لِتَعْلَمَ أنه تعالى لو أتى بما اقترحوا لأَصَرُّوا على العناد والمكابرة كَمَنْ قبلَهم، أو ليزداد يقينُك لأنَّ تظاهرَ الأدلة يوجِبُ قوةَ اليقين وطمأنينةَ القلب وعلى هذا كان إذْ نَصْباً بآتينا أو بإضمارٍ يخبروك على أنه جواب الأمرِ أو بإضمار اذْكُرْ على الاستئناف. ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سُحِرْتَ فتخبَّطَ عقلُك.

(١٠٢) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعونُ. وقرأ الكسائي بالضمِّ على إخباره عن نفسه. ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآيات. ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ بينات تبصرك صدقي ولكنك تعاند، وانتصابه على الحال[٣]. ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشرِّ من قولهم: ما ثَبَرَكَ عن هذا؟ أي ما صَرَفَكَ، أو هالكاً. قَارَعَ ظَنَّه بِظَنِّهِ وشتَّانَ ما بينَ الظَّنَّيْن، فإنَّ ظنَّ فرعونَ كَذِبٌ بَحْتٌ وظنَّ

---

(١) صفوان بن عسال: هو صفوان بن عسال المرادي، نزل الكوفة وروي عنه ابن مسعود مع جلالته. (١/ ٢٦٦ رقم ٢٨٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٧ رقم ٢٧٣٣) و(٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٤) والنسائي (٤/ ١٩٢ ـ تحفة الأشراف) وابن ماجة (٢/ ١٢٢١ رقم ٣٧٠٥) والحاكم (١/ ٩).
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح لا يعرف له علة. وقال الذهبي: صحيح لا نعرف له علة ومع ذلك فقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف النسائي والترمذي وابن ماجة.

(٣) والتعرض لربوبيته تعالى للسموات والأرض للإيذان بأنه لا يقدر على إيتاء مثل هاتيك الآيات العظام إلا خالقهما ومدبرهما (س٥/ ١٩٨). =

موسى يحومُ حولَ اليقين مِنْ تظاهُرِ أماراتِهِ. وقرىء وإن أَخَالُكَ يا فرعونُ لمثبوراً على إنْ المخففة واللام هي الفارِقة.

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعونُ. ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أن يستخف موسى وقومَه وينفيهم[(١)]. ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مِصْرَ أو الأرض مطلقاً بالقتل والاستئصال. ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فعكسنا عليه مَكْرَهُ فاستفززْناه وقومَه بالإغراق.

(١٠٤) ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد فرعونَ أو إغراقه. ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزَّكم منها. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الكَرَّةُ أو الحياةُ أو الساعةُ أو الدار الآخرة، يعني قيام القيامة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ مُخْتَلِطِينَ إياكم وإياهم ثم نَحْكُم بينكُم ونُمَيِّزُ سُعَدَاءَكُم من أشقيائكم، واللفيفُ الجماعاتُ من قبائلَ شتَّى.

(١٠٥) ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا مُلْتَبِساً بالحق المقتضِي لإنزاله، وما نَزَل على الرسول إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه. وقيل وما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرَّصَدِ من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. ولعله أراد به نفيَ اعتراءِ البُطْلانِ له أَوَّلَ الأَمْرِ وآخرَه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثواب. ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصي بالعقاب، فلا عليك إلا التبشيرُ والإنذارُ.

(١٠٦) ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ نَزَّلْنَاهُ مُفَرَّقاً مُنَجَّماً. وقيلَ فرَّقْنا فيه الحقَّ من الباطل فحذف الجارَّ كما في قوله: ويوماً شهدناه. وقرىء بالتشديد لكثرة نُجومِهِ فإنه نزلَ في تضاعيفِ عشرينَ سنة. ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على مَهْلٍ وتُؤَدَةٍ، فإنه أَيْسَرُ للحفظ وأعونُ في الفهْم. وقرىء بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ على حسب الحوادث.

(١٠٧) ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فإن إيمانكم بالقرآن لا يزيدُه كمالاً وامتناعَكم عنه لا يورِثه نَقْصاً، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ تعليلٌ له أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به مَنْ هو خيرٌ منكم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقةَ وعرفوا حقيقةَ الوحي وأماراتِ النبوة وتمكنوا من الْمَيْزِ بينَ المحقِّ والْمُبْطِلِ، أو رأوا نعتَك وصِفَةَ ما أُنْزِلَ إليكَ في تلك الكتبِ، ويجوز أن يكونَ تعليلاً لِقُلْ على سبيل التسلية كأنه قيل: تَسَلَّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترثْ بإيمانهم وإعراضِهم. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ

(١) أصل الاستفزاز الإزعاج، وقد كنىٰ به عن إخراجهم (روح المعاني ١٥/١٨٦).

عَلَيْهِمْ﴾ القرآن. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله أو شكراً لإنجازِ وَعْدِهِ في تلك الكتبِ ببعثة محمد ﷺ على فترة من الرسل وإنزالِ القرآن عليه.

وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

(١٠٨) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عن خَلْفِ الموعِد. ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ إنه كان وعدُه كائناً لا محالة.

(١٠٩) ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ كَرَّرَهُ لاختلاف الحال والسبب، فإن الأوَّلَ للشكر عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حالَ كونهم باكينَ من خشية الله، وذَكَرَ الذَّقْنَ لأنه أوَّلَ ما يَلْقَى الأرضَ من وجه الساجد[١]، واللام فيه لاختصاص الخُرُوْرِ به. ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سماعُ القرآن ﴿خُشُوعًا۩﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله.

(١١٠) ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ نزلتْ حين سمعَ المشركونَ رسولَ الله يقول: ياالله يا رحمانُ، فقالوا إنه ينهانا أن نعبدَ إلَهَيْنِ وهو يدعو إلهاً آخرَ[٢]، أو قالت اليهود: إنك لَتُقِلُّ ذِكْرَ الرَّحمنِ وقد أكثره اللهُ في التوراة[٣]. والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظينِ بأنهما يُطلقَان على ذاتٍ واحدة وإن اختلف اعتبارُ إطلاقهما، والتوحيدُ إنما هو للذات الذي هو المعبودُ المطلَقُ وعلى الثاني أنهما سِيَّانِ في حُسنِ الإطلاق والإفضاءِ إلى المقصود وهو أَجْوَدُ لقوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والدعاء في الآية بمعنى التسمية، وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أوّلُهما استغناء عنه، وأو للتخيير، والتنوين في أياً عوض عن المضاف إليه، وما صلةٌ لتأكيد ما في أياً من الإبهام، والضميرُ في فله للمسمىٰ لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام أياً ما تدعو فهو حسن، فَوُضِعَ موضعَه فله الأسماءُ الحسنى للمبالغة والدَّلالةِ على ما هو الدليل عليه وكونُها حُسْنَى لدلالتها على صفات الجلال والإكرام. ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءة صلاتك حتى تُسْمِعَ المشركين، فإنَّ ذلك يحملُهم على السبِّ واللَّغْوِ فيها. ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لا تُسْمِعَ مَنْ خَلْفَكَ من المؤمنين. ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والمخافَتَةِ. ﴿سَبِيلًا﴾ وَسَطاً فإن الاقتصادَ في جميع الأمور محبوب. رُوِيَ أن أبا بكر رضي الله عنه كان يُخْفِتُ ويقول: أُناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمرُ رضي الله عنه كان يَجْهَرُ ويقول أَطردُ الشيطان وأوقظُ الوَسْنانَ، فلما نزلت أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمرَ أن يخفِضَ

(١) أو للدلالة على إكمال التذلل.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/١٨٢) عن ابن عباس بسند ضعيف.
وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٨) نسبته لابن مردويه.
(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٣٠٣) عن الضحاك بدون إسناد.

قليلاً[١]. وقيل معناه لا تجهر بصلاتِك كلِّها ولا تخافِتْ بها بأَسْرِها وابتغِ بينَ ذلك سبيلاً بالإخفات نهاراً والجهرِ ليلاً[٢].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ١١١﴾

(١١١) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ في الألُوهيَّةِ. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ وَلِيٌّ يواليه مِنْ أجلِ مَذَلَّةٍ به ليدفعَها بموالاته. نفىٰ عنه أنْ يكونَ له ما يشاركه من جِنْسه ومن غيرِ جنسه اختياراً واضطراراً وما يعاونه ويقوِّيه، ورتَّبَ الحمدَ عليه للدلالة على أنه الذي يستحقُّ جِنْسَ الحمدِ لأنهُ الكاملُ الذاتِ المنفردُ بالإيجاد المنعِمُ على الإطلاق وما عداه ناقصٌ مملوكٌ نِعْمةً أو مُنْعَمٌ عليه، ولذلك عَطَفَ عليه قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ وفيه تنبيه على أن العبدَ وإن بَالَغَ في التنزيه والتمجيد واجتهدَ في العبادة والتحميد ينبغي أن يعترفَ بالقصور عن حقِّه في ذلك.

رُوِيَ أنه ﷺ كان إذا أفصحَ الغلامُ من بني عبدِالمطلب علَّمه هذه الآية[٣]، وعنه عليه السلام «من قرأ سورةَ بني إسرائيلَ فَرَقَّ قلبُه عند ذكرِ الوالدين، كان له قِنْطَارٌ في الجنة»[٤] والقنطار ألفُ أُوقِيَّةٍ ومائتا أوقية. والله أعلم بالصواب وإليه المرجعُ والمآبُ.

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/١٨٦) عن محمد بن سيرين بسند صحيح.
وأصله عند أبي داود (٢/ ٨١ ـ ٨٢ رقم ١٣٢٩) والترمذي (٢/ ٣٠٩ ـ ٣١٠ رقم ٤٤٧) والحاكم (١/ ٣١٠) عن أبي قتادة.
قال الترمذي: هذا حديث غريب.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.
وصححه الألباني والله أعلم.

(٢) قوله «وابتغ بين ذلك سبيلاً» أي وسطاً، وعبر عنه بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم إلى المطلوب (س٥/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٤٢٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٥٥٦ رقم ١٠٣٢٨) عن عمرو بن شعيب.
وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٤/ ٣٣٤ رقم ٧٩٧٦) عن عبدالكريم أبي أمية.
قلت: في الطرق الثلاثة (عبدالكريم أبي أمية) وهو ضعيف.

(٤) حديث موضوع، رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٧٩١).

سُورَةُ الكَهْفِ

ترتيبها ١٨ — آياتها ١١٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

سورة الكهفِ مكيةٌ[١]

وقيلَ إلا قولَه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآيةَ[٢]، وهي مائةٌ وإحدى عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ، رتب استحقاقَ الحمد على إنزاله تنبيهاً على

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ١٠٢): «روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة الكهف مكية وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وقتادة. وهذا إجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه. إلاّ أنه قد رويَ عن ابن عباس، وقتادة أن منها آية مدنية، وهي قوله «واصبر نفسك» [الكهف: ٢٨]».
ـ وقال مقاتل: من أولها إلى قوله تعالى: «صعيداً جرزاً» [الكهف: ٨]، مدني. وقوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] الآيتان مدنية وباقيها مكي» هـ.
ـ وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٤): «أخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة الكهف بمكة.
ـ وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير رضي الله عنه قال: نزلت سورة الكهف بمكة» هـ.
ـ وقال ابن حبيب الماوردي في «النُكت والعيون» (٣/ ٢٨٣) «سورة الكهف مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلاّ آية منها وهي قوله تعالى «واصبر نفسك» [الكهف: ٢٨]» هـ.
وصحح ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٦١) بأن سورة الكهف مكية.

(٢) الكهف: «٢٨».

أنه أعظمُ نعْمائِه، وذلك لأنه الهاديِ إلى ما فيه كمالُ العباد والداعي إلى ما به ينتظم صلاحُ المعاش والمعادُ[١] . ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ شيئاً من العِوَج باختلالٍ في اللفظ وتنافٍ في المعنى، أو انحرافٍ من الدعوة إلى جنَاب الحق. وهو في المعاني كالعَوَج في الأعيان.

(٢) ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيماً معتدلاً لا إفراطَ فيه ولا تفريطَ، أو قيِّما بمصالح العباد فيكونُ وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها. وانتصابُه بمضمَرٍ تقديره جعلَه قيماً، أو على الحال من الضميرِ في له، أو من الكتاب على أن الواوَ في «ولم يجعل» للحال دون العطفِ، إذ لو كان للعطف لكان المعطوفُ فاصلاً بين أبعاض المعطوف عليه ولذلك قيل فيه تقديمٌ وتأخيرٌ. وقرىء قِيَماً ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾ أي لينذر الذينَ كفروا عذاباً شديداً، فحُذف المفعولُ الأول اكتفاءً بدلالة القرينة واقتصاراً على الغرض المَسوقِ إليه. ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ صادراً من عنده. وقرأ أبو بكر بإسكان الدال ـ كإسكان الباء من سبْع مع الإشمام ليدل على أصله ـ وكسر النونِ لالتقاء الساكنين وكسرِ الهاء للإتْباع[٢] . ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾ هو الجنة[٣] .

(٣) ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ في الأجر. ﴿أَبَدٗا﴾ بلا انقطاع.

(٤) ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ خصهم بالذكر وكرر الإنذارَ متعلِّقاً بهم استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المنذَرَ به استغناءً بتقدُّم ذكره[٤] .

(٥) ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾ أي بالولد أو باتخاذه أو بالقول، والمعنى أنهم يقولونه عن جهل مُفْرِط وتوهم كاذب أو تقليدٍ لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنهم كانوا يطلقون الأبَ والابن بمعنى المؤثِر والأثر. أو بالله، إذ لو علموه لما جوَّزوا نسبةَ الاتخاذ إليه. ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ الذين تقوَّلُوه بمعنى التبني. ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ﴾ عظمَت مقالتهم هذه في الكفر لما فيها من التشبيه والتشريكِ وإيهامِ احتياجه تعالى إلى ولد يُعينه ويخلُفه إلى غير ذلك من الزيغ، وكلمةً نصبٌ على التمييز. وقرىء بالرفع على الفاعلية، والأولُ أبلغُ وأدلُّ على المقصود. ﴿تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ صفةٌ لها، تفيد استعظامَ اجترائهم على إخراجها من أفواهم، والخارج بالذات هو الهواء الحاملُ لها. وقيل صفةُ محذوفٍ هو المخصوصُ بالذم لأن كِبَرَها هنا بمعنى بئس. وقرىء كبْرت بالسكون مع الإشمام. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ .

---

(١) قوله «الحمد لله الذي. .» في وصفه تعالى بالموصول إشعار بعلية ما في حيز الصلة لاستحقاق الحمد وإيذان بعظم شأن التنزيل.
وقوله «عبده» في التعبير عنه بالعبد مضافاً إلىٰ ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه إلى أعلى معارج العبادة، وتشريف له، وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمُرْسِل لا كما زعمت النصارىٰ في حق عيسىٰ عليه السلام.
وتأخير المفعول الصريح «الكتابَ» عن الجار والمجرور ـ مع أن حقه التقديم ـ وذلك ليتصل به قوله تعالى «ولم يجعل له عوجاً» (س٥/ ٢٠٢).

(٢) قراءة أبي بكر «لَدْنِهِ».

(٣) وإجراء الموصول «الذين» على موصوفه المذكور «يعملون الصالحات» لما أن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.
وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه، مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية (س٥/ ٢٠٣).

(٤) وإيثار صيغة الماضي في «قالوا» للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم (س٥/ ٢٠٣).

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً
لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ
ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

(٦) ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتلُها. ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ إذا ولّوا عن الإيمان، شبَّههُ لما يداخله من الوجْد على توليهم بمن فارقَتْهُ أعِزَّتُه فهو يتحسرُ على آثارهم ويبخعُ نفسَه وجْداً عليهم. وقُرِىءَ باخعُ نفسِك، على الإضافة. ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ بهذا القرآنِ. ﴿أَسَفًا﴾ للتأسف عليهم أو متأسِفاً عليهم، والأسَفُ فَرْطُ الحزنِ والغضب. وقرىء أنْ بالفتحِ على لأن، فلا يجوز إعمال باخعٌ إلا إذا جُعِلَ حكايةَ حالٍ ماضية.

(٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن. ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في تعاطيه، وهو مَنْ زهِد فيه ولم يغترَّ به وقنِعَ منه بما يزجي به أيامَه وصَرَفَهُ على ما ينبغي. وفيه تسكينٌ لرسول الله ﷺ[١].

(٨) ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ تزهيدٌ فيه، والجرُز الأرضُ التي قطع نباتُها. مأخوذ من الجَرْزِ وهو القطع، والمعنى إنا لنعيد ما عليها من الزينة تراباً مستوياً بالأرض ونجعله كصعيدٍ أملسَ لا نباتَ فيه.

(٩) ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ بل أحسبت. ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ في إبقاء حياتهم مدةً مديدة. ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ وقصتَهم ـ بالإضافةِ إلى خلقِ ما على الأرض من الأجناس والأنواع الفائتة للحصر على طبائعَ متباعدةٍ وهيئاتٍ متخالفةٍ تُعجِبُ الناظرين من مادة واحدة ثم ردُّها إليها ـ ليس بعجيب، مع أنه من آيات الله كالنزْرِ الحقير. والكهفُ: الغار الواسع في الجبل. والرقيمُ: اسم الجبلِ أو الوادي الذي فيه كهفُهم، أو اسمُ قريتهم أو كلبهم. قال أمية بن أبي الصَّلْتِ[٢].

وَلَيْـسَ بِهَـا إلاّ الـرَّقِيـمُ مُجَـاوِراً ... وَصَيْـدُهُمُـو وَالقَـوْمُ فِـي الكَهْـفِ هُجَّـدُ[٣]

---

(١) وإيراد صيغة التفضيل «أحسن» ـ مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن ـ للإشعار بأن الغاية الأصلية للجعل المذكور إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين (س٥/ ٢٠٥).

(٢) واسمه: عبدالله بن أبي ربيعة بن عون الثقفي، وقد صدقه النبي ﷺ في بعض شعره.
وقال ابن قتيبة في طبقات الشعراء ـ ٣٢٩ ـ وكان أمية يُخبر أن نبياً يخرُج قد أظلّ زمانه وكان يؤمّل أن يكون ذلك النبيّ، فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً.
لم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً، في التاسعة، وقيل: إنه مات سنة تسع من الهجرة في الطائف كافراً قبل أن يُسلم الثقفيون.
[«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٣)].

(٣) من الطويل.

أو لوحٌ رصاصيٌ أو حجري رُقِمتْ فيه أسماؤُهم وجعل على باب الكهف. وقيل أصحاب الرقيم قومٌ آخرونَ كانوا ثلاثةً خرجوا يرتادون لأهلهم، فأخذتْهم السماء فأَوَوْا إلى الكهف فانحطت صخرة وسدت بابَهُ. فقال أحدهم اذكروا أيُّكم عمل حسنةً لعلَ الله يرحمنا ببركته. فقال أحدهم: استعملتُ أُجَرَاءَ ذات يوم فجاء رجل وسطَ النهار وعمل في بقيته مثلَ عملهم فأعطيتُه مثلَ أجرِهم، فغضب أحدهم وترك أجرَهُ فوضعْتُه في جانبِ البيت، ثم مرّ بي بقر فاشتريت به فصيلةً فبلغتْ ما شاء الله، فرجع إليَّ بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه وقال: إنه لي عندك حقاً وذكره لي حتى عرفته فدفعتُها إليه جميعاً، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك لوجهك فافرُجْ عنا، فانصدعَ الجبلُ حتى رأوا الضوءَ. وقال آخر: كان فيَّ فضل وأصابت الناسَ شدَّةٌ، فجاءتْني امرأةٌ فطلبت مني معروفاً فقلت: والله ما هو دون نفسِك، فأبتْ وعادت ثم رجعت ثلاثاً، ثم ذكرتْ لزوجها فقال أجيبي له وأغيثي عيالَكِ، فأتتْ وسلَّمتْ إليَّ نفسَها، فلما تكشفتُها وهممتُ بها ارْتَعَدَتْ، فقلت: مالكِ؟! قالت أخاف الله، فقلت لها: خِفْتِهِ في الشدة ولم أخفْهُ في الرخاء فتركتها وأعطيتها مُلْتَمَسَها، اللهم إن كنتُ فعلتُه لوجهك فافرج عنا، فانصدع حتى تعارفوا. وقال الثالث كان لي أبوانِ هرمان وكانت لي غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمي، فحبسني ذاتَ يوم غيثٌ فلم أبْرَحْ حتى أمسيت، فأتيت أهلي وأخذت مَحْلَبي فحلبتُ فيه ومضيت إليهما، فوجدتُهما نائمينِ فشقَّ علي أن أوقظَهُما، فتوقعت جالساً ومحلبي على يدي حتى أيقظَهُما الصبحُ فسقيتهما. اللهم إن كنت فعلتُه لوجهك فافرُج عنا. ففرَّج الله عنهم فخرجوا. وقد رفع ذلك نعمانُ بنُ بشير[1].

(١٠) ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ يعني فتيةً من أشراف الروم أرادهم دَقيانوسُ على الشرك فأبَوا وهربوا إلى الكهف، ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ توجِبُ لنا المغفرة والرزقَ والأمن من العدو. ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار. ﴿رَشَدٗا﴾ نصيرُ بسببه راشدينَ مهتدينَ، أوِ اجْعَلْ أمرَنا كلَّه رَشَداً كقولك: رأيت منك أَسَداً. وأصلُ التهيئة إحداثُ هيئةِ الشيء[2].

فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴿١٢﴾ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾

(١١) ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ أي ضربنا عليهم حجاباً يمنع السماعَ، بمعنى أَنَمْنَاهُم إنامةً لا تُنَبِّهُهُم فيها الأصواتُ، فحذف المفعول كما حذف في قولهم: بَنَىٰ على امرأته[3]. ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) والقصة في الصحيحين من حديث ابن عمر: البخاري (٤/ ٤٠٨ رقم ٢٢١٥) ومسلم (٤/ ٢٠٩٩ ـ ٢١٠١ رقم ٢٧٤٣).

(٢) وتقديم المجرورين «لنا، من أمرنا» على المفعول الصريح «رشداً» لإظهار الاعتناء بهما، وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله . . .
وتقديم «لنا» على «من أمرنا» للإيذان من أول الأمر بكون المسؤول مرغوباً فيه لديهم (س٥/ ٢٠٦).

(٣) وتخصيص الآذان بالذكر ـ مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النوم ـ لما أنها المحتاج إلى

ظرفانِ لضربنا. ﴿عَدَدًا﴾ أي ذواتِ عَدَدٍ، ووصْفُ السنينَ به يحتمل التكثيرَ والتقليلَ، فإن مدة لُبْثِهِم كبعض يوم عنده.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ﴾ أيقظناهم. ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ليتعلق علمُنا تعلُّقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً. ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لُبثهم. ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ ضَبَطَ أمدَ الزمانِ لُبْثهم. وما في أيٍّ من معنى الاستفهام عَلَّقَ عنه لنعلم، فهو مبتدأ وأحصى خبرُه. وهو فعل ماض وأمداً مفعول له ولما لبثوا حال منه أو مفعول له، وقيل إنه المفعول واللام مزيدةٌ وما موصولة وأمداً تمييز، وقيل أحصى اسم تفضيلٍ من الإحصاء بحذف الزوائدِ كقولهم: هو أحصَىٰ للمال وأفلسُ من ابنِ المُذَلَّقِ، وأمداً نصب بفعل دل عليه أحصى كقوله:

وَأَضْرَبُ مِنَّا بِالسُّيُوفِ القَوَانِسَا

(١٣) ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالصدق. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شبَّان، جمع فَتيّ كصبيٍّ وصِبْيَةٍ. ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ بالتثبيت[1].

(١٤) ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وقويناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال، والجراءةِ على إظهار الحقِ والرد على دَقيانوسَ الجبارِ. ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بين يديه. ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ والله لقد قلنا قولاً ذا شطط أي ذا بُعْدٍ عن الحق مُفْرِطٍ في الظلم[2].

هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ. ﴿قَوْمُنَا﴾ عطفُ بيان. ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ خبره، وهو إخبار في معنَى إنكار. ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾ هلا يأتون. ﴿عَلَيْهِم﴾ على عبادتهم. ﴿بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ ببرهان ظاهر فإن الدينَ لا يُؤْخَذُ إلا به، وفيه دليل على أن ما لا دليلَ عليه من الديانات مردودٌ وأن التقليد فيه غيرُ

= الحجب عادة، إذ هي الطريقة للتيقظ غالباً لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق (س٥/ ٢٠٦).

(١) والالتفات إلى الغيبة «إنهم فتية...» للإشعار بعلية وصف الربوبية لإيمانهم، ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكىٰ عنهم (س٥/ ٢١٠).

(٢) قالوا «لن ندعو من دونه إلهاً» ولم يقولوا ربّاً، وذلك للتنصيص على رد المخالفين حيثُ كانوا يسمون أصنامهم آلهة، وللإشعار بأن مدار العبادة وصف الألوهية، وللإيذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الألوهية لا بطريق المالكية المجازية (س٥/ ٢١٠).

جائز. ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريكِ إليه.

(١٦) ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ خطابُ بعضِهم لبعض. ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ عطفٌ على الضمير المنصوب، أي وإذا اعتزلتم القومَ ومعبوديهم إلا اللهَ، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنامَ كسائر المشركينَ. ويجوز أن تكون ما مصدريةً على تقدير وإذ اعتزلتموهم وعبادتَهم إلا عبادةَ الله، وأن تكونَ نافيةً على أنه إخبار من الله تعالى عن الفِتْيةِ بالتوحيد معترِضٌ بين إذ وجوابِه لتحقيق اعتزالهم. ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ يبسُطِ الرزق لكم ويوسِّعْ عليكم. ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ في الدارينِ. ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفقون به أي تنتفعون، وجزْمُهم بذلك لنُصوعِ يقينِهم وقوةِ وثوقهم بفضل الله تعالى. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ مَرْفِقاً بفتح الميم وكسر الفاء، وهو مصدرٌ جاء شاذا كالمرجِع والمحيض فإن قياسه الفتحُ[١].

(١٧) ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ ﴾ لو رأيتهم، والخطابُ لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. ﴿ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ تميل عنه ولا يقع شعاعُها عليهم فيؤذيهم، لأن الكهفَ كان جنوبياً، أو لأن الله تعالى زَوَرَها عنهم. وأصله تتزاورُ فأُدغِمَتِ التاءُ في الزاي، وقرأ الكوفيونَ بحذفها[٢]، وابن عامر ويعقوبُ تَزْوَرُّ كتَحْمَرُّ، وقرىء تَزْوارُّ كتحمارُّ وكلها من الزَّوَرِ بمعنى الميلِ. ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ جهة اليمين وحقيقتُها: الجهةُ ذاتُ اسم اليمين. ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ تقطعهم وتصرِمُ عنهم. ﴿ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يعني يمينَ الكهف وشمالَه لقوله: ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي وهم في مُتَّسَعٍ من الكهف، يعني في وسطِهِ بحيث ينالهم رَوْحُ الهواء ولا يؤذيهم كربُ الغار ولا حرُّ الشمس، وذلك لأن باب الكهف في مقابلةِ بناتِ نعشٍ، وأقربُ المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرقُ رأسِ السرطان ومغربُه، والشمسُ إذا كان مدارها مدارَهُ تطلُع مائلةً عنه مقابِلةً لجانبه الأبيضِ وهو الذي يلي المغربَ، وتغرب محاذيةً لجانبه الأيسرِ فيقع شعاعها على جانبيه، ويحلِّلُ عفونتَهُ ويعدِّلُ هواءَهُ ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويُبْلِي ثيابَهُم. ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي شأنُهم وإيواؤهم إلى كهفٍ شأنُه كذلك، أو إخبارُك قصتَهم، أو ازورارُ الشمس عنهم وقرضُها طالعةً وغاربةً من آيات الله. ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بالتوفيق. ﴿ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح، والمراد به إما الثناءُ عليهم أو التنبيهُ على أن أمثالَ هذه الآياتِ كثيرةٌ ولكن المنتفعَ بها مَنْ وفقه الله للتأمل فيها والاستبصارِ بها. ﴿ وَمَن يُضْلِلْ﴾ ومن يخذله. ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ من يليه ويرشِدُه.

(١٨) ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لانفتاح عيونهم أو لكثرة تقلُّبهم. ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام. ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رقدتهم. ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ كيلَا تأكلَ الأرضُ ما يليها من أبدانهم على طول الزمان. وقرىء ويُقَلِّبهم بالياء والضميرُ لله تعالى، وتَقَلُّبَهُم على المصدر منصوباً بفعل يدل عليه تحسبُهم أي وترى تقلُّبهم. ﴿ وَكَلْبُهُم ﴾ هو كلبٌ مرُّوا به فتبعَهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال: أنا أُحب أحباءَ الله فناموا وأنـا . . . .

(١) لأن المصادر من فَعَل يَفْعِل تكون بفتح العين، فمصدر رجع مرجَع لكنه شذ عن القياس.
(٢) قراءة الكوفيين «تَزَاوَرُ» خفيفة الزاي.

أحرسُكم[١]. أو كلبُ راعٍ مرُّوا به فتبعهم وتبعه الكلب[٢]، ويؤيده قراءةُ مَنْ قرأ: وكالبُهم أي وصاحبُ كلبِهم. ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيۡهِ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية ولذلك أعمل اسمَ الفاعل. ﴿بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ بفِنَاء الكهف، وقيل الوصيد الباب، وقيل العتبَةُ. ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فنظرت إليهم، وقرىء لوُ اطلعت بضم الواو. ﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ لهربْتَ منهم، وفراراً يحتمل المصدرَ لأنه نوعٌ من التولية والعِلَّةِ والحال. ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ خوفاً يملأ صدرَك بما ألبسهم الله من الهيبةِ، أو لعِظَم أجرامِهم وانفتاح عيونهم، وقيل لوحشةِ مكانهم[٣]. وعن معاويةَ رضيَ الله عنه أنه غزا الرومَ فمرَّ بالكهف فقال: لو كَشفتَ لنا عن هؤلاءِ فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى منه مَنْ هو خير منك فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ فلم يسمع وبعث ناساً فلما دخلوا جاءت ريحٌ فأحرقتهم[٤]. وقرأ الحجازيانِ لَمُلِّئْتَ بالتشديد للمبالغة، وابن عامر والكسائيُّ ويعقوب رُعُباً بالتثقيل.

وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾

(١٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ وكما أنمناهم آيةً بعثناهم آيةً على كمال قدرتنا. ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ ليسأل بعضُهم بعضاً فيتعرّفُوا حالهم وما صنع الله بهم فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به أمرَ البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم[٥]. ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ بناءً على غالب ظنِّهم لأن النائم لا يحصي مدةَ نومه، ولذلك أحالوا العلمَ إلى الله تعالى. ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ ويجوز أن يكون ذلك قولَ بعضِهم وهذا إنكار الآخَرينَ عليهم. وقيل إنهم دخلوا الكهفَ غدوةً وانتبهوا ظهيرةً وظنوا أنهم في يومِهم أو اليوم الذي بعدَه قالوا ذلكَ، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا هذا، ثُمَّ لما علموا أن الأمر مُلْتَبِسٌ لا طريق لهم إلى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ والورِقُ الفضةُ مضروبةً كانت أو غيرَ مضروبة. وقرأ أبو بكر وأبو عمرٍو وحمزةُ وروحٌ عن يعقوبَ

---

(١) وهذا قول كعب الأحبار (روح المعاني ١٥/ ٢٢٥).

(٢) روي ذلك عن ابن عباس (روح المعاني ١٥/ ٢٢٥).

(٣) لعل تأخير ذكر الرعب عن ذكر التولية للإيذان باستقلال كل منهما في الترتب على الاطلاع إذ لو روعي ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه، وللإشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد (س٥/ ٢١٣).

(٤) قال ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم وعبيد بن محمد وأبو بكر بن أبي شيبة من رواية يعلىٰ بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وإسناده صحيح (الكافي الشاف ص١٠٣ رقم ٣١٣).

(٥) وجَعْل التساؤل غاية للبعث المعلَّل ـ فيما سبق ـ بالاختبار لأنه من أحكامه المترتبة عليه. والاقتصارُ على ذكر التساؤل لاستتباعه لسائر آثاره (س٥/ ٢١٣).

بالتخفيف[١]، وقرىء بالتثقيلِ وإدغام القاف في الكاف[٢]، وبالتخفيف مكسورَ الواو مدغماً وغيرَ مدغَم، ورُدَّ المدغم لالتقاء الساكنين على غير حدِّه[٣]. وحملُهم له دليلٌ على أن التزوُّدَ رأيُ المتوكلينَ، والمدينةُ طَرَسوسُ. ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾ أيُّ أهلِها. ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أحلُّ وأطيبُ أو أكثر وأرخصُ. ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلفِ اللُّطفَ في المعاملة حتى لا يُغْبَنَ، أو في التخفي حتى لا يُعْرَفَ. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلنَّ ما يؤدي إلى الشعور.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

(٢٠) ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أي يطَّلِعوا عليكم أو يظفروا بكم، والضميرُ للأهل المقدَّر في أيُّها. ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ أو يصيِّروكم إليها كَرْهاً من العوْدِ بمعنى الصيرورةِ. وقيل كانوا أولاً على دينهم فآمنوا[٤]. ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ إن دخلتم في مِلَّتِهم.

(٢١) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنَمْناهُم وبعثناهم لتزداد بصيرتُهم أَطْلَعْنا عليهم. ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ ليعلمَ الذينَ أطلعناهم على حالهم. ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث أو الموعود الذي هو البعثُ. ﴿حَقٌّ﴾ لأن نومهم وانتباهَهُمْ كحال مَنْ يموتُ ثم يُبْعَثُ. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ وأن القيامة لا ريبَ في إمكانها، فإنَّ مَنْ توفَّى نفوسَهم وأمسكها ثلاثمائةِ سنينَ حافظاً أبدانَها عن التحللِ والتفتتِ ثم أرسلَها إليها قَدِر أن يتوفَّى نفوسَ جميع الناس ممسكاً إياها إلى أن يَحشُرَ أبدانهم فيردَّها عليها. ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرفٌ لأعثرْنا، أي أعثرنا عليهم حينَ يتنازعون[٥]. ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أمرَ دينهم، وكان بعضهم يقول تبعث الأرواحُ مجردةً وبعضهم يقول يبعثانِ معاً ليرتفعَ الخلافُ ويتبينَ أنهما يبعثانِ معاً، أو أمرَ الفتيةِ حين أماتهم الله ثانياً بالموت فقال بعضهم ماتوا وقال آخرونَ ناموا نومَهم أولَ مرة، أو قالتْ طائفة نبني عليهم بنياناً يسكنه الناسُ ويتخذونه قُربةً، وقال آخرون لنتخذنَّ عليهم مسجداً يُصَلَّى فيه كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وقوله «ربهم أعلم بهم» اعتراضٌ إما من الله رداً على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين، أو من المتنازعين في زمانهم، أو من المتنازِعين فيهم على عهد الرسول ﷺ، أو من المتنازِعين للردِّ إلى الله بعد

(١) أي بإسكان الراء «بوَرْقِكُم».
(٢) أي «بوَرِقكُّم».
(٣) أجيب على الرد بأنه واقع في كلام العرب، لكن على شذوذ (روح المعاني ١٥/ ٢٣٠).
(٤) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار الذي هو أشد شيء عندهم كراهة.
وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة لأن الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدي إلى الرجم (س٥/ ٢١٤).
(٥) وقدم عليه الغاية «ليعلموا..» إظهار لكمال العناية بذكرها (س٥/ ٢١٥).

ما تذكروا أمرَهم وتناقلُوا الكلامَ في أنسابِهم وأحوالهم فلم يتحققْ لهم ذلك. حُكِيَ أن المبعوثَ لما دخل السوقَ وأخرجَ الدراهمَ وكان عليها اسمُ دَقيانوسَ اتهموه بأنه وجدَ كنزاً فذهبوا به إلى الملِكِ ـ وكان نصرانياً موحِّداً ـ فقصَّ عليه القصصَ، فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فرُّوا بدينهم من دقيانوس فلعلَّهم هؤلاءِ، فانطلق الملك وأهلُ المدينة من مؤمنٍ وكافر وأبصروهم وكلَّموهم، ثم قالتِ الفتيةُ للملِك نستودعك اللهَ ونعيذك به من شرِّ الجن والإنس، ثم رَجَعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فدفنهم الملك في الكهف وبنى عليهم مسجداً. وقيل لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخلَ أولاً لئلا يفزَعوا، فدخل فعَمِي عليهم المدخلُ فبنَوا ثَمَّ مسجداً.

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين. ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم ثلاثة رجال يَرْبَعُهم كلبهم بانضمامه إليهم. قيل هو قول اليهود، وقيل هو قول السيِّد من نصارى نجرانَ وكان يعقوبياً. ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قاله النصارى أو العاقبُ منهم وكان نسطورياً. ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يرمون رمياً بالخبر الخفيِّ الذي لا مُطَّلَعَ لهم عليه وإتياناً به، أو ظناً بالغيب من قولهم رَجَمَ بالظنِّ إذا ظنَّ، وإنما لم يُذْكَر بالسين اكتفاءً بعطفه على ما هو فيه. ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إنما قاله المسلمون بإخبار الرسول لهم عن جبريلَ عليهما الصلاة والسلام، وإيماءِ الله تعالى إليه: بأنْ أتبعه قولَه ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وأَتْبَع الأوّلَيْن قولَه رجماً بالغيب، وبأَنْ أَثْبَتَ العلمَ بهم لطائفةٍ بعد ما حصرَ أقوال الطوائف في الثلاثة المذكورة، فإن عدم إيراد رابعٍ في نحو هذا المحلِّ دليلُ العدم مع أن الأصل يَنفيه، ثم ردّ الأولَيْن بأن أتبعهما قولَه «رجماً بالغيب» ليتعينَ الثالثُ، وبأنْ أدخل فيه الواو على الجملة الواقعة صفةً للنكرة تشبيهاً لها بالواقعة حالاً من المعرفة لتأكيد لُصُوقِ الصفة بالموصوف والدَّلالةِ على أن اتصافَه بها أمرٌ ثابت. وعن علي رضي الله عنه هم سبعةٌ وثامنهم كلبُهم[1]، وأسماؤهم: يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا هؤلاء أصحابُ يمينِ الملك، ومرنوش ودبرنوش وشاذنوشُ أصحابُ يساره وكان يستشيرُهم، والسابعُ الراعي الذي وافقهم، واسمُ كلبهم قطميرُ واسم مدينتهم أفسوسُ[2]. وقيل الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٨٣): «... وفي تسميتهم بهذه الأسماء، واسم كلبهم نظر في صحته والله أعلم، فإن غالب ذلك ملتقى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى «فلا تمارِ فيهم إلاّ مراءً ظاهراً» أي سهلاً هيناً فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة» هـ.
ـ وقال ابن حجر في «الفتح» (٦/٥٠٥): «... وفي النطق بها ـ أي بأسمائهم ـ اختلاف كثير، ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء» هـ.

(٢) قال ابن حجر في هذه الأسماء: في النطق بها اختلاف كثير، ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء (فتح الباري ٦/٥٠٥).

والقليلُ منهم. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ فلا تجادلْ في شأن الفتية إلاّ جدالاً ظاهراً غيرَ متعمَّق فيه، وهو أن تقصَّ عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم والردِّ عليهم. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسألْ أحداً منهم عن قِصَّتِهم سؤالَ مسترشِدٍ فإنَّ فيما أوحي إليك لمندوحةً من غيره مع أنه لا علم لهم بها، ولا سؤالَ متعنِّتٍ تريد تفضيحَ المسؤول وتزييفَ ما عنده فإنه مُخِلٌّ بمكارم الأخلاق.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾.

(٢٤) ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نهيُ تأديبٍ من الله تعالى لنبيه حين قالتِ اليهود لقريش: سَلُوه عن الروحِ وأصحابِ الكهف وذي القرنين، فسألوه فقال: «ائتوني غداً أخبرْكم» ولم يستثنِ[١] فأبطأ عليه الوحيُ بضعةَ عشرَ يوماً حتى شَقَّ عليه وكذبه قريش[٢]. والاستثناءُ من النهي أي ولا تقولنَّ لأجلِ شيءٍ تعزم عليه إني فاعلُه فيما يُستقبلُ إلا بأن يشاء الله، أي إلا ملتبِساً بمشيئتِه قائلاً إن شاء الله أو إلا وقتَ أن يشاءَ الله أن تقولَه بمعنى أن يأذنَ لك فيه، ولا يجوز تعليقُه بفاعل لأن استثناءَ اقترانِ المشيئة بالفعل غيرُ سديد واستثناءَ اعتراضِها دونَه لا يناسب النهيَ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ مشيئةَ ربِّك وقل إن شاء الله. كما روي أنه لما نزل قال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله[٣]. ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرَط منك نِسْيَانٌ لذلك ثم تذكرتَهُ. وعن ابن عباس: ولو بعدَ سَنَةٍ ما لم يَحْنَثْ[٤]، ولذلكَ جوَّز تأخيرَ الاستثناء عنه. وعامة

---

(١) أي لم يقل: إن شاء الله.

(٢) أخرجه ابن المنذر عن مجاهد كما في الدر المنثور (٥/ ٣٧٦) وأخرج ابن جرير (١٥/ ١٩١) نحوه عن ابن عباس، وفي سنده رجل من آهل مصر، أي لم يُسمَّ، وأورده الواحدي بقوله: قال المفسرون (أسباب النزول ص٣٠٠).
وقد سبق بيان سبب نزول الآية «٨٥» الإسراء. «ويسألونك عن الروح» وفيها أن قريشاً طلبت من اليهود إعطاءهم شيئاً يسألون محمداً ـ عليه السلام ـ عنه فقالوا: سلوه عن الروح وهو صحيح، لكن سؤاله جملةً عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين لعله لم يثبت والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن مردويه بنحوه عن ابن عباس كما في الدر المنثور (٥/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٢٩) والطبراني في الكبير (١١/ ٦٨ ح١١٠٦٩) والحاكم (٤/ ٣٠٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٧/ ٥٣).
ومعنى قول ابن عباس: أن للحالف أن يستثني ولو بعد سنة، أي إذا نسي أن يقول في حلفه وفي كلامه إن شاء الله وذكر ذلك ـ ولو بعد سنة ـ فالسنّةُ له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسُنة الاستثناء حتىٰ ولو كان بعد الحنث (تفسير ابن كثير ٣/ ٧٨) وقال القرطبي: هذا في تدارك التبرك والتخلص عن الإثم، وأما الاستثناء المغيِّر للحكم فلا يكون إلا متصلاً.

الفقهاء على خلافه[1] لأنه لو صحَّ ذلك لم يتقرر إقرارٌ ولا طلاق ولا عَتاقٌ ولم يُعلَم صدقٌ ولا كذبٌ، وليس في الآية والخبرِ أن الاستثناءَ المتدارَكَ به من القول السابق بل هو من مقدَّر مدلولٍ به عليه، ويجوز أن يكونَ المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناءَ مبالغةً في الحثِّ عليه، أو اذكر ربك وعقابَه إذا تركتَ بعض ما أَمَرَكَ به ليبعثك على التداركِ، أو اذكُرهُ إذا اعتراكَ النِّسيانُ ليذكِّرك المَنسيَّ. ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ يدلني. ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ لأقرب رَشَداً وأظهرَ دلالةً على أني نبيٌّ من نبأ أصحاب الكهف. وقد هداه لأعظمَ من ذلك كقصصِ الأنبياء المتباعدةِ عنه أيامُهم، والإخبارِ بالغيوب والحوادث النازلة في الأعصار المستقبَلةِ إلى قيام الساعة، أو لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسيِّ.

(٢٥) ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ يعني لُبثَهم فيه أحياءً مضروباً على آذانهم، وهو بيانٌ لما أُجملَ قبلُ. وقيلَ إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا في مدة لُبثِهم كما اختلفوا في عِدَّتهم، فقال بعضهم ثلاثمائة، وقال بعضهم ثلثمائة وتسعُ سنينَ. وقرأ حمزةُ والكسائي ثلاثمائةِ سنينَ بالإضافة على وضع الجمع موضِعَ الواحد، ويحسّنه ههنا أن علامة الجمع فيه جَبْرٌ لما حذف من الواحد وأن الأصل في العدد إضافته إلى الجمع، ومن لم يُضِفْ أبدلَ السنين من ثلثمائة.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له ما غاب فيهما وخفيَ من أحوال أهلهما، فلا خَلْقَ يخفى عليه علماً. ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ ذُكِر بصيغةِ التعجب للدلالةِ على أن أمره في الإدراكِ خارجٌ عما عليه إدراكُ السامعين والمبصِرينَ، إذ لا يحجُبه شيءٌ ولا يتفاوت دونه لطيفٌ وكثيف وصغير وكبير وخفيٌّ وجليٌّ، والهاء تعود إلى الله. ومحله الرفعُ على الفاعليةِ والباءُ مزيدة عند سيبويه، وكان أصله أبصرَ أي صار ذا بصر ثم نُقِلَ إلى صيغة الأمر بمعنَى الإنشاء فبرز الضمير لعدم لَياقِ الصيغة له أو لزيادة الباء كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾[2]. والنصبُ على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعدِية ومتعديةٌ إن كانت للصيرورةِ. ﴿مَا لَهُم﴾ الضمير لأهل السموات والأرض. ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ مَنْ يتولى أمورَهم. ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه. ﴿أَحَدًا﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلاً. وقرأ ابن عامر وقالون عن يعقوب بالتاء والجزمِ على نهي كل أحد عن الإشراك. ثم لما دل اشتمالُ القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيثُ إنها من المغيَّباتِ بالإضافة إلى رسول الله على أنه وحي معجِزٌ أَمَرَه أن يداومَ درسَه ويلازم أصحابَه فقال:

(٢٧) ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ من القرآن، ولا تَسمعْ لقولهم «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله» ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيرُه. ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مُلتَجأً تعدل عليه إن هممتَ به.

---

(١) وهو الراجح والصواب انظر «الروضة الندية» بتحقيق محمد صبحي حسن حلاق (٢/٣٥٨ ـ ٣٥٩).
(٢) الفرقان: «٥٨».

وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ
عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾
وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ
سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾

(٢٨) ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ واحبِسها وثبِّتْهَا. ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ في مجامعِ أوقاتِهم، أو في طرفي النهارِ. وقرأ ابن عامر بالغُدْوَةِ، وفيه أن غدوةَ عَلَمٌ في الأكثر فتكون اللام فيه على تأويل التنكير. ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ رضا الله وطاعته. ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ ولا يجاوزهم نظرُكَ إلى غيرِهم، وتعديتُه بعن لتضمينه معنى نَبَا. وقرىء ولا تُعْدِ عَيْنَيْكَ ولا تُعَدِّ من أعْداهُ وعَدّاهُ. والمرادُ نهيُ الرسول ﷺ أن يزدريَ بفقراء المؤمنين وتعلو عينه عن رثاثةِ زيِّهم طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ حال من الكاف في المشهورةِ ومن المستكِنِّ في الفعل في غيرها. ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ من جعلنا قَلْبَهُ غافلاً. ﴿عَن ذِكۡرِنَا﴾ كأمية بنِ خلف في دعائك إلى طردِ الفقراء عن مجلسِك لصناديدِ قريش. وفيه تنبيهٌ على أن الداعيَ له إلى هذا الاستدعاءِ غفلةُ قلبِه عن المعقولات وانهماكُه في المحسوسات، حتى خفيَ عليه أن الشرفَ بحلية النفس لا بزينة الجسد، وأنه لو أطاعه كان مثْلَه في الغباوة. والمعتزلةُ لما غاظَهم إسنادُ الإغفال إلى الله تعالى قالوا: إنه مِثْل أَجْبنتَهُ إذا وجدتَه كذلك أو نسبتَهُ إليه، أو مِنْ أغفل إبلَه إذا تركَها بغيرِ سِمَةٍ أي لم نَسِمْه بذكرنا كقلوبِ الذين كتبنا في قلوبهم الإيمانَ، واحتجُّوا على أن المرادَ ليس ظاهرَ ما ذُكِرَ أولاً بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وجوابُه ما مر غيرَ مرةٍ. وقرىء أغفلَنا بإسناد الفعل إلى القلبِ على معنى حَسِبنَا قلبُه غافلينَ عن ذكرنا إياه بالمؤاخذة. ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أي تقدماً على الحق ونبذاً له وراء ظهره يقال: فرسٌ فُرُط أي متقدِّمٌ للخيل، ومنه الفَرَطُ.

(٢٩) ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ الحقُ ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى، ويجوز أن يكون الحق خبرَ مبتدأ محذوفٍ ومن ربكم حالاً. ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ لا أبالي بإيمان مَنْ آمن ولا كُفرِ مَنْ كَفَرَ، وهو لا يقتضي استقلالَ العبد بفعله فإنه وإن كان بمشيئتهِ فمشيئتُهُ ليست بمشيئته. ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ هيأنا. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ فسُطاطُها شبَّهَ به ما يحيط بهم من النار، وقيل السُّرادقُ الحجرةُ التي تكون حول الفسُطاط، وقيل سرادقها دخانُها، وقيل حائطٌ من نار[1] ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ من العطش. ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ كالجسد المذاب. وقيل كَدُرْدِيِّ الزيت وهو على طريقة قوله: فأُعتِبُوا بالصيلم. ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ إذا قُدِّمَ لِيُشْرَبَ من فَرْطِ حرارته، وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهْل أو الضميرِ في الكاف. ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ المهلُ. ﴿وَسَآءَتۡ﴾ النارُ. ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ متكأً، وأصل الارتفاقِ نَصْب المِرْفَقِ تحت الخدِّ، وهو لمقابلة قوله ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾[2] وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

---

(١) والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه (س٥/ ٢٢٠).

(٢) الكهف: «٣١».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔاۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾

(٣٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبرُ إنّ الأولى هي الثانية بما في حيِّزها، والراجع محذوف تقديره مَنْ أحسنَ عملاً منهم أو مُستَغْنًى عنه بعموم من أحسن عملاً كما هو مستغنًى عنه في قولك: نعم الرجل زيدٌ، أو واقع موقعَه الظاهرَ فإن من أحسن عملاً لا يحسُن إطلاقُه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات[١].

(٣١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وما بينهما اعتراضٌ، وعلى الأول استئنافٌ لبيان الأجر أو خبر ثانٍ. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ مِنْ الأولى للابتداء والثانية للبيان صفةٌ لأساور، وتنكيرُه لتعظيم حُسْنِها من الإحاطة به، وهو جمع أَسْوِرَةٍ أو إسوار في جمع سِوارٍ. ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأن الخضرة أحسنُ الألوان وأكثرُها طراوةً. ﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ نمارق من الديباج وما غلُظ منه جَمَعَ بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفسُ وتلذ الأعينُ. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ﴾ على السُّرُر كما هو هيئة المتنعمين. ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الجنة ونعيمها. ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ متكأ.

(٣٢) ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ للكافر والمؤمن. ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ حالَ رجلين مقدَّرين. أو موجودين هما أخوان من بني إسرائيلَ كافرٍ اسمُه قطروسُ ومؤمنٍ اسمُه يهوذا، وَرِثَا من أبيهما ثمانيةَ آلافِ دينار فتشاطرا، فاشترى الكافر بها ضِياعاً وعَقاراً وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآلَ أمرُهما إلى ما حكاه الله تعالى. وقيل الْمُمَثَّلُ بهما أخوانِ من بني مخزوم كافرٌ وهو الأسودُ بنُ عبدالأشد ومؤمن وهو أبو سلمةَ عبدُالله زوجُ أمِّ سلمةَ قبل رسول الله ﷺ. ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين. ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ من كرومٍ، والجمْلَةُ بتمامِها بيانٌ للتمثيل أو صفةٌ للرجلين. ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخلَ محيطةً بهما مؤزَّراً بها كرومُهُما، يقال حفَّه القوم إذا أطافوا به وحَفَفْتُه بهم إذا جعلتُهم حافِّينَ حوله، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقولك: غشّيتُه به. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطَهما. ﴿زَرْعًا﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصلَ العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق.

(٣٣) ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها، وإفرادُ الضمير لإفراد كلتا. وقرىءَ كلُّ الجنتين آتىٰ أُكُلَه. ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ ولم تنقُص من أُكُلها. ﴿شَيْـًٔاۚ﴾ يُعهَد في سائر البساتين فإن الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالباً. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ليدوم شربهما فإنه الأصل ويزيد بهاؤُهما. وعن يعقوبَ وفَجَرْنَا بالتخفيف[٢].

---

(١) ولعل تغيير سبكه للإيذان بكمال تنافي مآلَيْ الفريقين (س٥/ ٢٢٠).

(٢) لعل تأخير ذِكْر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأُكُل ـ مع أن الترتيب الخارجي على العكس ـ للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأُكُل وتفجير النهرَ في تكميل محاسن الجنتين، ولو عكس لفُهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها =

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ
لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا
مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ
رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾

(٣٤) ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين، من ثَمّرَ مالَه إذا كثَّره. وقرأ عاصم بفتح الثاء والميم، وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم، والباقون بضمهما، وكذلك في قوله ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾[1] ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يراجعه في الكلام، مِنْ حار إذا رجعَ. ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ حَشماً وأعواناً. وقيل أولاداً ذكوراً لأنهم الذين ينفِرون معه.

(٣٥) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها. وإفرادُ الجنة لأن المراد هو جنته وما مُتِّع به من الدنيا تنبيهاً على أن لا جنةَ له غيرَها ولا حظّ له في الجنة التي وُعِدَ المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخول يكون في واحدة واحدة. ﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ ضارٌّ لها بِعُجْبِه وكُفْرِه ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أن تفنَى. ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنةُ. ﴿أَبَدٗا﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته.

(٣٦) ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ كائنةً. ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعث كما زعمتَ. ﴿لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا﴾ من جنته. وقرأ الحجازيان والشاميُّ[2]: منهما أي من الجنتين. ﴿مُنقَلَبٗا﴾ مرجعاً وعاقبةً لأنها فانية وتلك باقية. وإنما أَقْسَم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه لاستئهاله واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما تلقاه.

(٣٧) ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ لأنه أصلُ مادتك أو مادةُ أصلِك. ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ فإنها مادتك القريبة. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ ثم عَدَلَك وكمَّلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغَ الرجال. جعل كُفْرَهُ بالبعث كفراً بالله تعالى لأن منشأه الشكُّ في كمال قدرة الله تعالى، ولذلك رتب الإنكارَ على خَلْقِه إياه من التراب فإن من قدر على بَدْءِ خلقه منه قدرَ أن يعيده منه.

(٣٨) ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ أصله لكنْ أنا فحذفت الهمزة بنقل الحركة إلى النون فتلاقتِ النونانِ فكان الإدغامُ. وقرأ ابن عامر ويعقوب في رواية بالألف في الوصل لتعويضها من الهمزة، أو لإجراءِ الوصل مُجرى الوقف، وقد قرىء لكنْ أنا على الأصل. وهو ضمير الشأن، وهو بالجملة الواقعة خبراً له خبرُ أنا أو ضمير الله، واللهُ بدلُه، وربي خبرُه، والجملة خبرُ أنا، والاستدراك

= مترتب على بعض، فإن إيتاء الأكل متفرع على السقي عادة. وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لا يتوقف على السقي (س ٥/ ٢٢١).

(١) الكهف: «٤٢».

(٢) الشامي هو ابن عامر.

من أَكَفَرْتَ كأنه قال: أنت كافر بالله لكني مؤمن به. وقد قرىء لكنَّ هو الله ربي، ولكنْ أنا لا إِلٰهَ إلا هو ربي.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ وهلاَّ قلتَ عند دخولها[١]. ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الأمر ما شاء أو ما شاء كائن، على أن ما موصولةٌ. أو أيَّ شيء شاء الله كان، على أنها شرطيةٌ، والجواب محذوف إقراراً بأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أبادَها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقلتَ لا قوةَ إلا بالله اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله، وأن ما تيسر لك من عِمارتها وتدبير أمرها بمعونته وإقداره. وعن النبي ﷺ: «مَن رأى شيئاً فأعجبه، فقال: ما شاءَ الله لا قوةَ إلا بالله، لم يضُرَّه»[٢]. ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يحتمل أن يكون أنا فصلاً وأن يكون تأكيداً للمفعول الأولى. وقرىء أقلُّ بالرفع على أنه خبرُ أنا، والجملةُ مفعولٌ ثانٍ لِترَني، وفي قوله ﴿وَوَلَدًا﴾ دليلٌ لمن فسَّر النفرَ بالأولاد.

(٤٠) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة لإيماني، وهو جواب الشرط. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على جنَّتِكَ لكفرك. ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مراميَ جمع حُسْبَانةٍ وهي الصواعقُ، وقيل هو مصدر بمعنى الحساب، والمراد به التقديرُ بتخريبها أو عذابُ حساب الأعمال السيئة. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً ملساءَ يُزْلَقُ عليها باستئصال نباتها وأشجارها.

(٤١) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، مصدرٌ وُصِف به كالزَّلَقِ. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ للماء الغائر تردداً في ردِّه.

(٤٢) ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وأُهلك أموالُه حسبما توقعه صاحبُه وأنذرَه منه، وهو مأخوذٌ من أحاطَ به العدوُّ فإنه إذا أحاط به غَلَبَهُ وإذا غلبه أهلكه، ونظيرُه أتىٰ عليه إذا أهلكه من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلياً عليهم. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهراً لِبَطْنٍ تلهفاً وتحسراً. ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ في عمارتها. وهو متعلِّق بيقلِّبُ لأن تقليبَ الكفين كنايةٌ عن الندم فكأنه قيل: فأصبح يندم، أو حال أي متحسراً

(١) وتقديم الظرف «إذ» على المخصَّص عليه «دخَلْتَ...» للإيذان بتحتم القول في وقت الدخول من غير تريّث (س٥/٢٢٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤/٩٠ رقم ٤٣٧٠) تعليقاً عن أبي بكر الهذلي، عن ثمامة بن أنس عن أنس.
ـ وأخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٢٠٧) متصلاً.
وأبو بكر الهذلي متروك، وحجاج بن نصير ضعيف.
وقد ضعف الألباني الحديث في «ضعيف الجامع» (٥/١٩٨) وتخريج «العلم» (رقم: ٢٤٤).

على ما أنفق فيها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأن سقطت عروشُها على الأرض وسقطت الكرومُ فوقَها عليها. ﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على يقلِّبُ أو حالٌ من ضميره. ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ كأنه تذكر موعظةَ أخيه وعلم أنه أُتِيَ من قِبَلِ شِرْكِهِ فتمنَّى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك الله بستانه، ويحتملَ أن يكون توبةً من الشرك وندماً على ما سبق منه.

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء لتقدمه. ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يَقْدِرُونَ على نصره بدفع الإهلاك أو رَدِّ الْمُهْلَكِ أو الإتيانِ بمثلِه. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحدَه. ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله منه.

(٤٤) ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وتلكَ الحالِ. ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ النصرةُ له وحدَه لا يقدر عليها غيرُه تقديراً لقوله ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ أو يَنْصُر فيها أولياءَه المؤمنين على الكَفَرَةِ كما نصر ـ فيما فعل بالكافر ـ أخاه المؤمن، ويعضُدُه قولُه: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي لأوليائه. وقرأ حمزةُ والكسائي بالكسر[1] ومعناه السلطانُ والملْكُ أي هنالك السلطانُ له لا يُغْلَبُ ولا يُمْنَعُ منه، أو لا يُعْبَدُ غيرُه كقوله تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2] فيكون تنبيهاً على أن قوله ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ﴾ كان عن اضطرارٍ وجَزَعٍ مما دهاهُ. وقيل هنالك إشارةٌ إلى الآخرة. وقرأ أبو عمرو والكسائي الحقُّ بالرفع صفة للولاية، وقرىء بالنصب على المصدر المؤكِّد، وقرأ عاصم وحمزةُ عُقْباً بالسكون، وقرىء عُقْبىٰ وكلها بمعنى العاقبة.

(٤٥) ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ واذكر لهم ما يشبه الحياةَ الدنيا في زهرتها وسرعةِ زوالها أو صفتها الغريبة. ﴿كَمَآءٍ﴾ هي كماء، ويجوز أن يكونَ مفعولاً ثانياً لاضربْ على أنه بمعنَى صيّرْ. ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتف بسببه وخالط بعضُه بعضاً من كثرته وتكاثُفِه، أو نجعَ في النبات حتى روِيَ ورفَّ. وعلى هذا كان حقُّه فاختلط بنباتِ الأرض، لكنه لما كان كل من المختلطَيْنِ موصوفاً بصفةِ صاحبِه عُكِسَ للمبالغة في كثرتِه. ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ مهشوماً مكسوراً. ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرِّقه. وقرىءَ تُذْرِيه مِنْ أَذْرَى. والمشبَّه به ليس الماءُ ولا حالُه بلِ الكيفيةُ المنتزَعَةُ من الجملة، وهي حال النباتِ المنبَتِ بالماء يكون أخضرَ وارفاً ثم هشيماً تطيِّره الرياحُ فيصيرُ كأنْ لم يكنْ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإنشاءِ والإفناءِ. ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادراً.

---

(١) أي بكسر الواو من الولاية.

(٢) العنكبوت: ٦٥.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ
وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ
هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ يتزين بها الإنسانُ في دنياه وتفنَى عنه عما قريبٍ(١). ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ وأعمالُ الخيرات التي تبقى له ثمرتُها أبدَ الآبادِ. ويندرجُ فيها ما فُسرت به من الصلوات الخمس وأعمالُ الحج وصيام رمضان، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والكلامُ الطيب. ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ﴾ من المال والبنين. ﴿ ثَوَابًا ﴾ عائدة. ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ لأن صاحبها ينال بها في الآخرة ما كان يؤمِّل بها في الدنيا(٢).

(٤٧) ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ واذكر يومَ نقلعها ونسيِّرُها في الجو، أو نذهبُ بها فنجعلُها هباءً منبثاً. ويجوز عطفه على عند ربك، أي الباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند الله ويوم القيامة. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمروٍ وابن عامر تُسَيَّر بالتاء والبناء للمفعول، وقرىء تَسِيرُ من سارتْ. ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ باديةً برزت من تحتِ الجبال ليس عليها ما يستُرها. وقرىءَ وتُرَىٰ على بناء المفعول. ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ وجمعناهم إلى الموقف، ومجيئُه ماضياً بعد نسيِّر وترى لِتحقُّقِ الحشر أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا ما وُعِدَ لهم، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار قد. ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ فلم نترك. ﴿ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ يقال غادره وأغْدَرَه إذا تركه، ومنه الغدرُ لتركِ الوفاء، والغديرُ لما غادرَه السيل. وقرىء بالياء.

(٤٨) ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ شبَّه حالَهم بحالِ الجندِ المعروضينَ على السلطانِ لا ليعرفَهم بل ليأمرَ فيهم. ﴿ صَفًّا ﴾ مُصْطَفِّينَ لا يحجبُ أحدٌ أحداً. ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ على إضمار القول على وجهٍ يكون حالاً أو عاملاً في يوم نسيِّر. ﴿ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ عُراةً لا شيءَ معكم من المال والولدِ كقوله: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ ﴾(٣) أو أحياءً كخِلْقَتِكُم الأولى لقوله: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ وقتاً لإنجازِ الوعد بالبعثِ والنشور وأن الأنبياءَ كذّبوكم به، وبل للخروجِ من قصةٍ إلى أخرى.

(٤٩) ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ صحائفُ الأعمالِ في الأَيمانِ والشمائلِ أو في الميزان، وقيل هو كنايةٌ عن

---

(١) تقديم المال على البنين ـ مع كونهم أعزَّ منه ـ لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد وغير ذلك، وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات فإنه زينة وممدّ لكل أحد من الآباء والبنين في كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وإمدادهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغ الأبوة، ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع، ولأن الحاجة إليه أمسّ من الحاجة إليهم، ولأنه أقدم منهم في الوجود، ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بلا مال فهو في ضيق حال ونكال.

وإفراد الزينة ـ مع أنها مسندة إلى الاثنين ـ لأنها مصدر في الأصل أطلق على المفعول مبالغة كأنهما نفس الزينة (س٥/ ٢٢٥).

(٢) وتكرير كلمة «خير» للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة فيها (س٥/ ٢٢٦).

(٣) الأنعام: «٩٤».

وضع الحساب[1]. ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفينَ. ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب. ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ ينادون هَلَكَتهم التي هلكُوها من بين الهَلَكَاتِ. ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ تعجباً من شأنه. ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ هَنَةً صغيرة. ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ إلا عدَّدَها وأحاط بها. ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ مكتوباً في الصُّحُفِ. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيَكتُبُ عليه ما لم يفعلْ أو يزيدُ في عقابِهِ الملائمِ لعمله.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

(٥٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ كرره في مواضعَ لكونه مقدمةً للأمور المقصود بيانُها في تلك المحالِّ، وههنا لما شنَّع على المفتخرين واستقبحَ صنيعَهم قرر ذلك بأنه من سنن إبليسَ، أو لمّا بيَّن حالَ المغرور بالدنيا والمعرِضِ عنها ـ وكان سببُ الاغترار بها حبَّ الشهوات وتسويلَ الشيطان ـ زهَّدَهُم أولاً في زخارفِ الدنيا بأنها عُرْضَةُ الزوال والأعمالُ الصالحةُ خيرٌ وأبقى من أَنْفَسِها وأعلاها، ثم نفَّرهم عن الشيطانِ بتذكير ما بينَهم من العداوة القديمة. وهكذا مذهبُ كلِّ تكرير في القرآن. ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حالٌ بإضمار قد، أو استئنافٌ للتعليل كأنه قيل: ما له لم يسجدْ؟! فقيل كان من الجنِّ. ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فخرج عن أمره بتركِ السجود، والفاءُ للسببِ، وفيه دليل على أن الملَكَ لا يعصي البتةَ وإنما عَصَى إبليسُ لأنه كان جنياً في أصله، والكلام المستقصَى فيه في سورة البقرة[2]. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ أَعقيبَ ما وُجِدَ منه تتخذونه، والهمزة للإنكارِ والتعجبِ. ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أولادَه أو أتباعه، وسمَّاهم ذريةً مجازاً. ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونَهم بدلَ طاعتي. ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ من الله تعالى، إبليسُ وذريته.

(٥١) ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ نفىٰ إحضارَ إبليسَ وذريته خلقَ السموات والأرض وإحضارَ بعضهم خلقَ بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك، كما صرّح به بقوله ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي أعواناً رداً لاتخاذهم أولياءَ من دون الله شركاءَ له في العبادة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقيةِ والاشتراكَ فيه يستلزم الاشتراكَ فيها، فوضَعَ المضلِّينَ موضِعَ الضمير ذماً لهم واستبعاداً للاعتضادِ بهم. وقيل الضميرُ للمشركينَ، والمعنَى: ما أشهدتُهم خلقَ ذلك وما خَصَصْتُهم بعلومٍ لا يعرفُها غيرُهم حتى لو آمنوا اتبَعَهم الناس كما يزعمونَ، فلا تلتفتْ إلى قولهم طَمَعاً في نُصْرَتِهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضدَ بالمضلِّينَ لديني، ويعضُده قراءةُ مَنْ قرأ وما كنتَ على خطابِ الرسول ﷺ. وقرىء متخذاً المضلينَ على الأصل، وعَضْداً بالتخفيفِ، وعُضُداً بالإتباعِ، وعَضَداً كَخَدَمٍ جَمْعُ عاضدٍ من عضَّدَه إذا قوَّاه.

---

(١) وإيثار الإفراد في «الكتاب» للاكتفاء بالجنس (س٥/ ٢٢٧).

(٢) البقرة: «٣٤».

والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله (س٥/ ٢٢٧).

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ
مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ
وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

(٥٢) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله تعالى للكافرين. وقرأ حمزةُ بالنون. ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنَّهم شركائي وشفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي، وإضافةُ الشركاء على زعمهم للتوبيخ، والمرادُ ما عُبِدَ من دونه، وقيل إبليسُ وذريَّتُه. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فنادَوْهُم للإغاثة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فلم يُغيثُوهم[(١)]. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الكفار وآلهتهم. ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركونَ فيه وهو النار، أو عداوةً هي في شدَّتِها هلاكٌ كقولِ عمرَ رضي الله عنه: لا يكنْ حبُّك كَلَفاً ولا بغضُك تَلَفاً[(٢)]، اسمُ مكانٍ أو مصدرٌ من وَبِقَ يَوْبَقُ وبَقاً إذا هلكَ. وقيل البَيْنُ الوصلُ أي وجعلنا تواصُلَهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة.

(٥٣) ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟﴾ فأيقنوا. ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مخالطُوها واقعونَ فيها. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ انصرافاً أو مكاناً ينصرِفون إليه.

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ من كل جنس يحتاجون إليه. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ﴾ يتأتىٰ منه الجدلُ. ﴿جَدَلًا﴾ خصومةً بالباطل. وانتصابُه على التميز.

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ من الإيمان. ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو الرسول الداعي والقرآن المبين. ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ ومن الاستغفار من الذنوب. ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلا طلبُ أو انتظارُ أو تقديرُ أن تأتيهم سنةُ الأولينَ، وهيَ الاستئصالُ فَحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مَقامَهُ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عذابُ الآخرة. ﴿قُبُلًا﴾ عياناً. وقرأ الكوفيونَ قُبُلاً بضمتين وهو لغةٌ فيه أو جمعُ قبيلٍ بمعنى أنواع، وقرىء بفتحتين وهو أيضاً لغةٌ يقال لقيتُه مقابَلةً وقُبُلاً وقِبَلاً وقَبَلاً وقبليّاً، وانتصابُه على الحال من الضمير أو العذاب.

(٥٦) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ﴾ للمؤمنين والكافرين. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات. والسؤالِ عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتاً. ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ ليزيلوا بالجدال. ﴿ٱلْحَقَّ﴾ عن مقره ويُبطلوه، من إدحاضِ القَدَمِ وهو إزلاقُها وذلك قولهم للرسل: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[(٣)] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[(٤)] ونحو ذلك. ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ يعني

---

(١) وفي إيراد عدم استجابة الشركاء مع علمهم بأنهم لم يستجيبوا لهم تهكم بهم، وإيذان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح (س٥/ ٢٢٩).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٣٩٤) بدون عزوه إلى عمر ولم أجد له مخرجاً فيما أعلم.
وذكره الميداني في «الأمثال» (٣/ ١٦٣ رقم ٣٥٢٨) ولم يعزه إلى عمر.

(٣) يس: «١٥».

(٤) المؤمنون: «٢٤».

القرآن. ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ وإنذارهم أو والذي أُنْذِرُوا به من العقاب. ﴿هُزُوٗا﴾ استهزاءً. وقرىء هُزْأً بالسكون وهو ما يُسْتَهْزَأُ به على التقديرَيْنِ[1].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدٗا ﴿٥٩﴾

(٥٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بالقرآن. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرْها ولم يتذكرْ بها. ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ﴾ من الكفر والمعاصي ولم يتفكرْ في عاقبتهما. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تعليلٌ لإعراضهم ونسيانِهم بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهةَ أن يفقهوه، وتذكيرُ الضمير وإفرادُه للمعنى. ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗا﴾ يمنعُهم أن يستمعوهُ حقَّ استماعِه. ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ تحقيقاً ولا تقليداً لأنهم لا يفقهونَ ولا يسمعونَ وإذاً ـ كما عرفتَ جزاءٌ وجوابٌ للرسول ﷺ على تقدير قولِه مالي لا أدعُوهم، فإنَّ حرصَه ﷺ على إسلامهم يدل عليه.

(٥٨) ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة. ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ﴾ الموصوفُ بالرحمة[2]. ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ استشهاد على ذلك بإمهال قريشٍ مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ. ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ﴾ وهو يومُ بَدْرٍ أو يومُ القيامة. ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلٗا﴾ منجىً ولا ملْجأً، يقال وَأَلَ إذا نجا وَوَأَلَ إليه إذا لجأ إليه.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني قرى عادٍ وثمودَ وأضرابِهم، وتلك مبتدأٌ خبرُه: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أو مفعولٌ مضمَرٌ مفسَّرٌ به، والقرى صفته، ولا بد من تقدير مضاف في أحدهما ليكون مرجعَ الضمائر. ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ كقريشٍ بالتكذيب والمِراءِ وأنواعِ المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدٗا﴾ لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يستأخرونَ عنه ساعةً ولا يستقدمونَ، فلْيعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم. وقرأ أبو بكر لَمَهْلَكِهم بفتح الميم واللام أي لهلاكهم، وحفص بكسر اللام حملاً على ما شذ من مصادرِ يَفْعِلُ كالمرجِعِ والمحيضِ.

---

(١) قراءة (هزْأ) بالسكون والهمز هي قراءة حمزة وهو من القراء السبعة، فالإشارة إليها بلفظ قرىء المنبىء بالضعف غير سليم، ومن عادة البيضاوي الإشارة للقراءات الشاذة بلفظ قرىء.

(٢) وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأن المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهىٰ من العذاب، وأما الرحمة فهي فعل وإيجاد ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهىٰ. وتقديم الوصف الأول لأن التخلية قبل التحلية، أو لأنه أهم بحسب الحال إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها (س٥/ ٢٣١).

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ
بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن
سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ
أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا
مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ مقدَّرٌ باذكرْ. ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يوشعَ بنِ نونِ بنِ أفرائيمَ بنِ يوسفَ عليهم الصلاة والسلام فإنه كان يخدمُه ويتبعُه ولذلك سماه فتاهُ، وقيلَ لعبدِه. ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسيرُ فحذفَ الخبرَ لدلالةِ حاله ـ وهو السفرُ ـ وقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ من حيثُ إنَّها تستدعي ذا غايةٍ عليه. ويجوز أن يكونَ أصلُه لا يبرحُ مسيري حتى أبلغَ، على أنَّ حتى أبلغَ هوَ الخبرُ، فحذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ[١] إليه مُقَامَهُ، فانقلبَ الضميرُ والفعل، وأن يكون لا أبرحُ هو بمعنى لا أزولُ عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه فلا يستدعي الخبرَ. ومجمعُ البحريْنِ مُلْتَقى بحريْ فارسَ والرومِ مما يلي المشرقَ وُعِدَ لقاءَ الخَضِرِ فيه، وقيل البحرانِ موسى وخضِرٌ عليهما الصلاة والسلام فإنَّ موسى كان بحرَ علمِ الظاهرِ والخضِرُ كان بحرَ علم الباطن. وقرىء مَجْمِعَ بكسر الميم على الشذوذ من يفعَلُ كالمشرقِ والمطلِعِ[٢]. ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أو أسيرُ زماناً طويلاً. والمعنى حتى يقعَ إما بلوغُ المجْمَعِ أو مضيُّ الحُقُبِ، أو حتى أبلغَ إلا أن أمضِيَ زماناً أتيقنُ معه فواتَ المجمع. والحُقُبُ الدهرُ وقيل ثمانونَ سنةً وقيل سبعون. روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام خطبَ الناسَ بعد هلاكِ القِبْطِ ودخولِه مِصْرَ خُطْبَةً بليغة فأُعجِبَ بها فقيل له: هل تعلم أحداً أعلمَ منك؟ فقال: لا، فأوحى الله إليه بل أعلمُ منك عبدُنا الخضرُ وهو بمجمعِ البحرين[٣]، وكان الخضرُ في أيام أفريدونَ وكان على مقدمةِ ذي القرنين الأكبرِ وبقي إلى أيام موسى. وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أيُّ عبادِك أحبُّ إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأيُّ عبادك أقضَى؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبعُ الهوى، قال فأيُّ عبادك أعلمُ؟ قال الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه عسى أن يصيبَ كلمة تدلُّه على هدى أو تردُّه عن ردى، فقال إن كان في عبادك أعلمُ مني فادلُلْني عليه، قال أعلمُ منكَ الخضِرُ، قال: أين أطلبه؟ قال على الساحل عندَ الصخرةِ، قال كيفَ لي به؟ قال تأخذُ حوتاً في مِكْتَلٍ فحيث فقَدْتَه فهو هناك، فقال لفتاهُ إذا فقدتَ الحوتَ فأخبرْني، فذهبا يمشيانِ[٤].

(١) فالمسير مضاف والياء مضاف إليه، وهي ياء المتكلم التي قام قوله «لا أبرح» مقامها لأنه بصيغة المتكلم، فقد حذف المضاف إذاً (مسير) وبقي ما قام المضاف إليه.
(٢) والمغرِب، والقياس الفتح مفعَل.
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٥، ٧٤٧٨) وليس فيه بعد هلاك القبط ودخول مصر خطبة بليغة...
(٤) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٧٧) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤١٩). وفي إسناده محمد بن حميد وهو ضعيف.

(٦١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي مجمعَ البحرينِ، وبينَهما ظرفٌ أُضِيفَ إليه على الاتساعِ أو بمعنى الوصْلِ. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى عليه الصلاة والسلام أن يطلبه ويتعرفَ حالَه، ويوشعُ أن يذكرَ له ما رأى من حياته ووقوعِه في البحر. روي: أن موسى عليه السلام رقد فاضطربَ الحوتُ المشويُّ ووثبَ في البحر، معجزةً لموسى أو الخضِرِ، وقيل توضأ يوشعُ من عينِ الحياة فانتضحَ الماء عليه فعاشَ ووثبَ في الماء، وقيل نسياً تَفقُّدَ أمرِهِ وما يكون منه أمارةً على الظَّفرِ بالمطلوب ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فاتخذ الحوتُ طريقه في البحر مسْلَكاً، من قوله: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[1]، وقيل أمسك الله جريةَ الماء على الحوتِ فصار كالطاقِ عليه. ونصبُه على المفعولِ الثاني، وفي البحر حالٌ منه أو من السبيلِ، ويجوز تعلُّقه باتّخذَ.

(٦٢) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمعَ البحريْنِ. ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ ما نتغذَّى به. ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قيل لم ينصَبْ حتى جاوزَ الموعدَ، فلما جاوزَه وسارَ الليلةَ والغدَ إلى الظهرِ أُلقِيَ عليهِ الجوعُ والنَّصَبُ. وقيل لم يَعْيَ موسى في سفر غيرِه، ويؤيده التقييدُ باسم الإشارة.

(٦٣) ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ﴾ أرأيتَ ما دهاني إذ أوينا. ﴿إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ يعني الصخرةَ التي رقد عندَها موسى، وقيل هي الصخرةُ التي دونَ نهرِ الزيت[2]. ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ فقدتُه أو نسيت ذِكرَه بما رأيتُ منه. ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي وما أنساني ذكرَه إلا الشيطانُ، فإنَّ أنْ أذكُرَه بدلٌ من الضمير. وقرىء أن أذكُرَكَه، وهو اعتذار عن نِسيانه بِشُغْلِ الشيطان له بوساوسِه، والحالُ وإن كانت عجيبةً لا يُنْسَى مثلُها لكنه لما ضرِيَ بمشاهدة أمثالِهَا عند موسى وأَلِفَها قلَّ اهتمامُه بها، ولعله نسيَ ذلك لاستغراقِهِ في الاستبصار وانجذابِ شراشِره إلى جنابِ القُدُسِ بما عراهُ من مشاهدةِ الآياتِ الباهرة، وإنما نسبَه إلى الشيطان هضْماً لنفسه أو لأن عدمَ احتمال القوة للجانبينِ واشتغالَها بأحدِهما عن الآخر يُعَدُّ من نقصان[3]. ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ سبيلاً عجباً وهو كونه كالسَّرَبِ أو اتخاذاً عجباً، والمفعول الثاني هو الظرفُ، وقيل هو مصدرُ فِعْلِه المضمر أي قال في آخر كلامه، أو موسى في جوابه عجباً تعجُّباً من تلك الحالِ. وقيل الفعلُ لموسى أي اتخذَ موسى سبيلَ الحوت في البحر عجباً.

(٦٤) ﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ أي أمرُ الحوت. ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ نطلبُ لأنه أمارةُ المطلوب. ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه. ﴿قَصَصًا﴾ يقصَّانِ قَصَصاً أي يتبعان آثارَهما اتباعاً، أو مقتصَّينْ حتى أتيا الصخرةَ.

(٦٥) ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ الجمهور على أنه الخضرُ عليه السلام واسمُه بليا بنُ مِلْكان[4]، وقيل اليسعُ، وقيل إلياسُ[5]. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي الوحي والنبوةُ. ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ مما يختص بنا ولا يُعْلَمُ إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب.

---

(١) الرعد: «١٠».

(٢) وذكر الإواء إليها ـ مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين ـ لزيادة تعيين محل الحادثة (س٥/ ٢٣٣).

(٣) وإيثار «أن أذكره» على المصدر للمبالغة، فإن مدلوله نفس الحدث عند وقوعه (س٥/ ٢٣٣).

(٤) انظر المعارف لابن قتيبة [ص٤٢ وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧)].

(٥) التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف (س٥/ ٢٣٤).

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ
تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى
فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

(٦٦) ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ على شرط أن تعلّمني، وهو في موضع الحال من الكاف. ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ علماً ذا رَشَدٍ وهو إصابةُ الخير. وقرأ البصريانِ بفتحتينِ وهما لغتان كالبُخْلِ والبَخَلِ، وهو مفعول تعلّمني ومفعول عُلِّمْتَ العائدُ المحذوفُ، وكلاهما منقولان من علمَ الذي له مفعولٌ واحد، ويجوز أن يكون رشداً علةً لأَتَّبِعُكَ أو مصدراً بإضمار فعلِه. ولا ينافي نُبُوَّتَه وكونَه صاحبَ شريعةٍ أن يتعلّم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإنَّ الرسولَ ينبغي أن يكون أعلمَ ممن أُرْسِلَ إليه فيما بُعِثَ به من أصول الدين وفروعِه لا مطلقاً، وقد راعى في ذلك غايةَ التواضع والأدب، فاستجهلَ نفسه واستأذن أن يكون تابِعاً له، وسأل منه أن يرشدَه وينعِمَ عليه بتعليم بعض ما أنعمَ الله عليه.

(٦٧) ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ نفى عنه استطاعةَ الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، وعلّلَ ذلك واعتذرَ عنه بقوله:

(٦٨) ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ أي وكيف تصبر وأنت نبيٌّ على ما أتولى من أمورٍ ظواهرُها مناكيرُ وبواطنُها لم يُحِطْ بها خبرُك، وخبراً تمييز أو مصدر لأن لم تحط به بمعنى لم تُخْبَرْهُ.

(٦٩) ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ معكَ غيرَ منكِرٍ عليه. ﴿ وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ عطفٌ على صابراً أي ستجدني صابراً وغيرَ عاصٍ، أو على ستجدني. وتعليق الوعد بالمشيئة إما للتيمُّن، وخُلْفُه ناسياً لا يقدح في عصمته، أو لعلمه بصعوبة الأمر، فإن مشاهدة الفساد والصبر على خلاف المعتاد شديد فلا خُلْفَ، وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعةٌ بمشيئة الله تعالى.

(٧٠) ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ ﴾ فلا تخالفْني بالسؤالِ عن شيء أنكرتَه منّي ولم تعلمْ وجْهَ صِحَّته. ﴿ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ حتى أبتدئَك ببيانِه، وقرأ نافعٌ وابن عامر فلا تَسْأَلَنّي بالنون الثقيلة.

(٧١) ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ على الساحل يطلبان السفينةَ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ أخذ الخضرُ فأساً فخرقَ السفينةَ بأن قلعَ لوحين من ألواحِها. ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ فإن خَرْقَها سببٌ لدخولِ الماء فيها المفضِي إلى غَرَقِ أهلها. وقرىء لتغرِّقَ بالتشديد للتكثير، وقرأ حمزةُ والكسائي ليغرَقَ أهلُها على إسناده إلى الأهلِ. ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ أتيت أمراً عظيماً، مِنْ أَمِرَ الأمْرُ إذا عظُم.

(٧٢) ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ تذكير لما ذكره قبل.

(٧٣) ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ بالذي نسيته أو بشيء نسيتُه، يعني وصيتَه بأن لا يعترضَ عليه أو

بنسياني إياها، وهو اعتذارٌ بالنسيان أخرجه في معرِضِ النهي عن المؤاخذةِ مع قيامِ المانع لها. وقيل أراد بالنسيان التركَ أي لا تؤاخذني بما تركتُ من وصيتك أولَ مرةٍ. وقيل إنه من معاريضِ الكلام والمرادُ شيءٌ آخرُ نَسِيَهُ. ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ ولا تُغْشِني عُسْراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذة على المنسي، فإن ذلك يُعَسِرُ علي متابعتَك، وعسراً مفعول ثان لترهقْ فإنه يقال: رَهِقَه إذا غشِيه وأرهقه إياه. وقرىء عُسُراً بضمتين.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝٧٤ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦﴾

(٧٤) ﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي بعد ما خرجا من السفينة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل فَتَلَ عُنُقَهُ، وقيل ضربَ برأسه الحائطَ، وقيل أضجعه فذبحَه. والفاء للدلالة على أنه كما لقيه قتلَه من غير تروٍّ واستكشافِ حال، ولذلك: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي طاهرةً من الذنوب. وقرأ ابن كثير ونافعٍ وأبو عمرو ورويسٌ عن يعقوبَ زاكيةً، والأول أبلغُ، وقال أبو عمرو الزاكيةُ التي لم تذنبْ قطُّ والزكِيَّةُ التي أذنبتْ ثم غفرتْ، ولعلَّه اختار الأولَ، لذلك فإنها كانت صغيرةً ولم تبلغ الحُلُمَ أو أنه لم يَرَهَا قد أذنبتْ ذنباً يقتضي قتلَها أو قتلت نفساً فَتُقَادَ بها، نبَّه به على أن القتلَ إنما يباحُ حداً أو قصاصاً وكلا الأمرين منتفٍ. ولعل تغييرَ النظْم ـ بأن جعلَ خَرْقَهَا جزاءً واعتراضَ موسى عليه الصلاة والسلام مُسْتَأْنَفاً في الأولى، وفي الثانية قَتْلَهُ من جملة الشرطِ واعتراضَه جزاءً ـ لأن القتل أقبحُ والاعتراضَ عليه أدخلُ فكانَ جديراً بأنْ يُجْعَلَ عمدةَ الكلام، ولذلك فصَّلَه بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي منكراً. وقرأ نافعٌ في رواية قالونَ وَوَرْشٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وأبو بكر نُكُراً بضمتين.

(٧٥) ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زاد فيه «لك» مكافحةً بالعتاب على رفضِ الوصية، ووسْماً بقلَّةِ الثبات والصبر لما تكرر منه الاشمئزازُ والاستنكارُ، ولم يرْعَوِ بالتذكيرِ أولَ مرة حتى زاد في الاستنكار ثانيَ مرةٍ.

(٧٦) ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وإن سألتُ صُحْبَتَكَ. وعن يعقوبَ فلا تَصْحَبْني، أي فلا تجعلْني صاحِبَك. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ قد وجدتَ عذراً من قبلي لما خالفْتُك ثلاثَ مراتٍ[(١)]. وعن رسول الله ﷺ «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك، لو لبثَ مع صاحبه لأبصرَ أعجبَ الأعاجيبِ»[(٢)]. وقرأ نافع من لَدُنِي بتحريك النون والاكتفاءِ بها عن نون الدِّعامةِ كقوله: قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ

---

(١) الظاهر أن المخالفة بعد قتل الغلام تعدّ مرتين، أما الثالثة فبعد إقامة الجدار، وكأنه سهو من قلم القاضي رحمه الله.

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٨٦ رقم ٣٩٨٤) والترمذي (٥/ ٤٦٣ رقم ٣٣٨٥) كلاهما من طريق عبدالله بن عباس، عن أبي بن كعب. قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. قلت: إسناد صحيح.
وقد أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ ج١٥/ ٢٨٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) والحاكم (٢/ ٥٧٤) كلهم من حديث حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وأصله في صحيح مسلم (٤/ ١٨٥١ رقم ١٧٢) في سياق حديث طويل.

الخُبيبَيْنِ قُدى. وأبو بكر لدْني بتحريك النون وإسكانِ الدال إسكانَ الضاد من عضد.

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

(٧٧) ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ أنطاكية، وقيل أبلةَ البصرةِ، وقيل باجروانَ أرمينيةَ. ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقرىء يُضِيفوهُما من أضافه يقال ضافَه إذا نزلَ به ضيفاً وأضافَه وضيَّفه أنزلَه، وأصلُ التركيبِ للميل يقال ضاف السهمَ عن الغرض إذا مال[١]. ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يداني أن يسقطَ، فاستُعِيْرَتِ الإرادةُ للمشارفة كما استعيرَ لها الهمُّ والعزمُ قال:

يُـرِيـدُ الـرُّمْـحُ صَـدْرَ أَبِـي بَـرَاءِ ... ويَعْـدِلُ عَـنْ دِمَـاءِ بَنِـي عَقِيـلِ

وقال:

إنَّ دَهْـراً يَلُـمُّ شَمْلـي بِجَمْـلٍ ... لَـزمـانٌ يَهُـمُّ بِـالإحْسَـانِ

وانقضّ انفعلَ من قضضتُه إذا كسرته، ومنه انقضاضُ الطير والكواكبِ لِهُوِيِّه، أو افْعَلَّ من النقضِ. وقرىء أن يُنْقَضَ، وأن يَنْقاص بالصاد المهملة من انقاصَتِ السنُّ إذا انشقت طولاً. ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ بعِمارته أو بعَمود عَمَدَه به، وقيل مسحه بيده فقام، وقيل نقضه وبناه. ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضاً على أخذ الجُعْلِ لينتعشا به، أو تعريضاً بأنه فُضول لِما في لو من النفي، كأنه لَما رأى الحرمانَ ومِساسَ الحاجة واشتغالَه بما لا يعنيه لم يتمالكْ نفسَه. واتّخذ افتعل من تَخِذَ كاتّبع من تَبع وليس من الأخذ عند البصريين. وقرأ ابن كثير والبصريان لَتَخِذْتَ أي لأخذت، وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الذال وأدغمه الباقون.

(٧٨) ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ الإشارةُ إلى الفراق الموعود بقوله ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ أو إلى الاعتراضِ الثالث أو الوقت، أي هذا الاعتراض سببُ فراقنا أو هذا الوقت وقته، وإضافةُ الفراق إلى البين إضافةُ المصدر إلى الظرف على الاتّساع. وقد قرىء على الأصل[٢]. ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكراً من حيث الظاهر.

(٧٩) ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لمحاويجَ، وهو دليل على أن المسكين يُطلَق على من يملك شيئاً إذا لم يكْفِه. وقيل سموا مساكين لعجزهم عن دفع الملِك، أو لِزَمانتهم فإنها كانت لعشرة إخوة خمسةٌ زَمنىٰ وخمسة يعملون في البحر. ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أن أجعلها ذات عيب. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ قُدَّامهم أو خلفهم وكان رجوعهم عليه، واسمه جَلَنْدىٰ بنُ كَرْكَر وقيل مِنوارُ بنُ

---

(١) ولعل العدول إلى النظم الكريم عن أن يقول فاستطعماهم لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فإن الإباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع (س٥/ ٢٣٧).

(٢) أي قرىء بالتنوين من غير إضافة «هذا فراقٌ بيني...».

جلندى الأزدي. ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ من أصحابها. وكان حقُّ النظم أن يتأخر قولَه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ عن قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ لأن إرادة التعيّب مسبَّبة عن خوف الغصب، وإنما قُدِّم للعناية أو لأن السبب لَما كان مجموعَ الأمرين: خوفِ الغصب ومسكنةِ المُلاَّك رتَّبه على أقوى الجزأين وأدعاهما وعقّبه بالآخر على سبيل التقييد والتتميم. وقرىء كلَّ سفينة صالحة، والمعنى عليها.

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

(٨٠) ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أن يُغشِيَهما. ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوقه فيُلحقَهما شراً، أو يَقرِنَ بإيمانهما طغيانَه وكفره فيجتمعَ في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يُعْدِيَهما بعلّته فيرتدا بإضلاله أو بممالأته على طغيانه وكفره. وإنما خشِي ذلك لأن الله تعالى أعلمه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن نَجْدة الحَروريَّ كتب إليه كيف قتله وقد نهىٰ النبي ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه إن كنتَ علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل[١]. وقرىء فخاف ربُّك، أي فكره كراهة مِنْ خاف سوءَ عاقبته، ويجوز أن يكون قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ حكاية قول الله عز وجل.

(٨١) ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أن يرزقهما بَدَلَه ولداً خيراً منه. ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة. ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمة وعطفاً على والديه. قيل وُلِدَت لهما جارية، فتزوجها نبي فوَلَدَت له نبياً هدى الله به أمة من الأمم. وقرأ نافع وأبو عمرو يُبَدِّلَهما بالتشديد، وابنُ عامر ويعقوب وعاصم رُحُماً بالتخفيف[٢]. وانتصابه على التمييز والعاملُ اسم التفضيل، وكذلك زكاةً.

(٨٢) ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل اسمُهما أصرمُ وصريم، واسم المقتول جيسور. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ من ذهب وفضة، روي ذلك مرفوعاً[٣]، والذمُّ على كنزهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾[٤] لمن لا يؤدي زكاتهما وما تعلقَ بهما من الحقوق. وقيل من كُتب . . . .

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٤/ ٤٢٣، ٥/ ٤٢) وأصله عند مسلم (٣/ ١٤٤٥ ج١٣٨).

(٢) القراءة في «رحماً» فقد قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء، وقرأ الباقون بإسكان الحاء. انظر الكشف عن وجوه القراءات (٢/ ٧٢) والمبسوط لابن مهران ص٢٣٨. . .

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣١٣ رقم ٣١٥٢) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٩) من حديث أبي الدرداء وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله «بل يزيد بن يوسف متروك وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز» هـ.
والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

(٤) التوبة: «٣٤».

العلم[١]. وقيل كان لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفُل، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يَعرِف الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله[٢].

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ تنبيه على أن سعيَه ذلك كان لصلاحه. قيل كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعةُ آباء وكان سيّاحاً واسمه كاشح. ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي الحُلُم وكمالَ الرأي[٣].

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مرحومَين من ربك، ويجوز أن يكون علّةً أو مصدراً لأراد فإن إرادةَ الخير رحمة، وقيل متعلق بمحذوف تقديرُه فعلتُ ما فعلتُ رحمةً من ربك. ولعل إسنادَ الإرادة أولاً إلى نفسه لأنه المباشِرُ للتعييب، وثانياً إلى الله وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بَدَلَه، وثالثاً إلى الله وحده لأنه لا مَدْخَلَ له في بلوغ الغلامين، أو لأن الأول في نفسه شرّ والثالثَ خير والثانيَ ممتزج، أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ وما فعلتُ ما رأيته. ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ عن رأيي وإنما فعلتُه بأمر الله عز وجل، ومبنىٰ ذلك على أنه إذا تعارض ضرران يجب تحمّلُ أهونِهما لدفع أعظمهما، وهو أصل مُمَهَّد غير أن الشرائعَ في تفاصيله مختلفة. ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ما لم تستطع، فَحَذَفَ التاء تخفيفاً.

ومن فوائد هذه القصة أن لا يُعْجَب المرء بعلمه ولا يبادرَ إلى إنكار ما لم يستحسنه فلعل فيه سراً لا يعرفُه، وأن يداوم عـلى التعلم ويتذلل للمعلِّم ويراعيَ الأدب في المقابل، وأن ينبه المجرمَ على جرمه ويعفوَ عنه حتى يتحقق إصرارُه ثم يهاجرَ عنه.

(٨٣) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ يعني إسكندرَ الروميَّ مَلِك فارس والروم. وقيل المشرق والمغرب ولذلك سمي ذا القرنين، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقِها وغربها، وقيل لأنه انقرض في أيامه قرنان من الناس، وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان، وقيل كان لتاجه قرنان. ويحتمل أنَه لُقب بذلك لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع كأنه ينطح أقرانَه. واختُلف في نبوته مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه. والسائلون هم اليهودُ سألوه امتحاناً، أو مشركو مكة. ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ خطاب للسائلين. والهاء لذي القرنين، وقيل لله.

(٨٤) ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مكنا له أَمْرَه من التصرف فيها كيف شاء، فحُذِفَ المفعول. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده وتوجه إليه. ﴿سَبَبًا﴾ وُصْلَةً توصله إليه من العلم والقدرة والآلة.

(٨٥) ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي فأراد بلوغَ المغرب فأتبع سبباً يوصله إليه. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر بقطع الألـفِ مُخَفَّفَةَ ....

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/٣٦٩) عن ابن عباس وصححه، وقال الذهبي: صحيح.

(٢) أخرجه البزار عن أبي ذر مرفوعاً (كشف الأستار ٣/٥٧) وذكر الهيثمي أن فيه من لا يعرفه (المجمع ٧/٥٣). وأخرجه ابن عدي في ترجمة أبين بن سفيان (١/٣٨٤) من طريقه عن أبي حازم عن ابن عباس موقوفاً. وقال: وما يرويه عمن رواه منكر كله.

(٣) في إضافة الرب إلى ضمير موسىٰ عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة. (س٥/٢٣٩).

التاء[١].

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأ، مِنْ حَمِئَتِ البئر إذا صارت ذاتَ حمأة[٢]. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر حامِيَةٍ أي حارة، ولا تنافيَ بينهما لجواز أن تكون العينُ جامعةً للوصفين، أو حميَة على أن ياءَها مقلوبةٌ عن الهمزة لكسر ما قبلها. ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مَطمح بصره غيرُ الماء، ولذلك قال: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ ولم يقل كانت تغرُب. وقيل إن ابن عباس سمع معاويةَ يقرأ «حاميةٍ»، فقال: حمِئَة، فبعث معاويةُ إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة[٣] ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين. ﴿قَوْمًا﴾ قيل كان لباسُهم جلودَ الوحش وطعامُهم ما لَفَظَهُ البحر، وكانوا كفاراً فخيره الله بين أن يعذبهم أو يدعوَهم إلى الإيمان كما حكى بقوله: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ أي بالقتل على كفرهم. ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع. وقيل خيره الله بين القتل والأسر وسماه إحساناً في مقابلة القتل، ويؤيده الأول قوله:

(٨٧) ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي فاختار الدعوةَ وقال: أما من دعوتُه فظلم نفسَه بالإصرار على كفره أو استمر على ظلمه الذي هو الشرك فنعذبه أنَا ومن معي في الدنيا بالقتل، ثم يعذبه الله في الآخرة عذاباً منكراً لم يُعهد مثلُه.

(٨٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ وهو ما يقتضيه الإيمانُ. ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين. ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فَعْلتِه الحسنى. وقرأ حمزةُ والكسائيُ ويعقوبُ وحفصٌ جزاءً منوناً، منصوباً على الحال، أي فله المثوبة الحسنى مجزياً بها أو على المصدر لفعله المقدر حالاً أي يُجزىٰ بها جزاء، أو التمييز، وقرىء منصوباً غيرَ مُنوَّن على أن تنوينَه حُذِف لالتقاء الساكنين، ومنوناً مرفوعاً على أنه المبتدأ والحسنى بدلُه. ويجوز أن يكون أمّا وإمّا للتقسيم دون التخيير أي ليكن شأنُك معهم إما التعذيبَ وإما الإحسانَ، فالأولُ لمن أصر على الكفر والثاني لمن تاب عنه. ونداءُ الله إياه إن كان نبياً فبوَحْي وإن كان غيرَه

---

(١) وقرأ الباقون «فاتّبَع» بهمزة الوصل وتشديد التاء، هنا والآية «٩٢»: «ثم اتّبع سبباً».

(٢) وهي الطين الأسود.

(٣) أخرجه ابن جرير (٩/ج١٦/١١) وفي إسناده: سعيد بن مسلمة الأموي، وهو ضعيف.

● وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس أن القصة كانت مع عمرو بن العاص وفي إسناده سند وهو ضعيف.

● كما أخرج عن ابن عباس أيضاً أنه كان يقرأ (حامية) مثل معاوية، وفي إسناده: عبدالله أبو صالح كاتب الليث، وهو ضعيف.

● قلت: وانظر «الدر المنثور» (٥/ ٤٥٠ ـ ٤٥٢).

فبإلهام أو على لسان نبي. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ بما نأمر به. ﴿يُسْرًا﴾ سهلاً ميسراً غيرَ شاق، وتقديره ذا يُسر. وقرىء بضمتين.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾

(٨٩) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ثم أتبع طريقاً يوصِلُه إلى المشرق.

(٩٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الموضعَ الذي تَطلُع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض. وقرىء بفتح اللام على إضمار مضافٍ، أي مكانَ مطلَع الشمس فإنه مصدر. ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ من اللباس أو البناء، فإن أرضهم لا تُمسك الأبنية أو أنهم اتخذوا الأسرابَ بدل الأبنية.

(٩١) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أمرُ ذي القرنين كما وصفناه في رِفْعَة المكان وبَسْطَة الملك، أو أَمْرُهُ فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار. ويجوز أن يكون صفةَ مصدرٍ محذوف لوجد أو نجعل، أو صفةَ قوم أي على قوم مثل ذلك القَبيل الذي تغرُب عليهم الشمس في الكفر والحكم. ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات والعُدَد والأسباب. ﴿خُبْرًا﴾ علماً تعلق بظواهره وخفاياه، والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علمُ اللطيف الخبير.

(٩٢) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني طريقاً ثالثاً معترِضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

(٩٣) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدُّه، وهما جبلا أرمينيةَ وأَذْرَبيجانَ، وقيل جبلان مُنيفانِ في أواخر الشمال في منقطع أرض التُرك من ورائهما يأجوجُ ومأجوجُ. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر ويعقوبُ بين السُّدَّيْن بالضم، وهما لغتان، وقيل المضموم لِمَا خلقه الله تعالى والمفتوح لما عمله الناسُ لأنه في الأصل مصدر سُمِّي به حَدَثٌ يُحْدِثُه الناس، وقيل بالعكس. وبين ـ هنا ـ مفعول به، وهو من الظروف المتصرفة. ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلةِ فِطْنتهم. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ لا يُفْقِهُون أي لا يُفهِمُون السامع كلامَهم ولا يبينونه لتلعثُمهم فيه.

(٩٤) ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قال مترجمُهُم، وفي مصحف ابن مسعود قال الذين من دونهم. ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبيلتان من ولد يافثَ بنِ نوحٍ، وقيل يأجوجُ من الترك ومأجوج من الجبل. وهما اسمان أعجميان بدليل منعِ الصرف، وقيل عربيان مِنْ أجَّ الظليمُ إذا أسرع، وأصلُهما الهمز كما قرأ عاصم، ومنعُ صرفهما للتعريف والتأنيث. ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع. قيل كانوا يَخرُجون أيام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه، وقيل كانوا يأكلون

الناس. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ نُخرِجه من أموالنا. وقرأ حمزةُ والكسائي خَرَاجاً، وكلاهما واحد كالنّوْل والنّوال. وقيل الخراج على الأرض والذمّةِ، والخرْج المصدر. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يَحجُز دون خروجهم علينا. وقد ضمّه من ضم السُّدّين غيرَ حمزةَ والكسائيِّ.

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

(٩٥) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ما جعلني فيه مَكيناً من المال والمُلْك خيرٌ مما تَبْذُلون لي من الخراج ولا حاجة بي إليه. وقرأ ابن كثير مكّنني على الأصل. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بقوة فَعَلَةٍ، أو بما أتقوى به من الآلات. ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً، وهو أكبر من السد مِنْ قولهم ثوب مُرَدَّم إذا كان رِقاعاً فوق رقاع[1].

(٩٦) ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ قِطَعَه، والزُّبْرَة القطعة الكبيرة، وهو لا ينافي ردّ الخَراج والاقتصارَ على المعونة لأن الإيتاء بمعنى المناولة، ويدل عليه قراءةُ أبي بكر ردماً ائتوني بكسر التنوين موصولةَ الهمزة على معنى جيئوني بزُبُر الحديد. والباءُ محذوفةٌ حذْفَها في أمرتُك الخيرَ، ولأن إعطاء الآلة من الإعانة بالقوة دون الخراج على العمل[2]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ بين جانبي الجبلين بتنضيدها. وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريان بضمتين، وأبو بكر بضم الصاد وسكون الدال، وقرىء بفتح الصاد وضم الدال، وكلها لغات من الصَّدْف وهو الميلُ لأن كلاً منهما منعزل عن الآخر، ومنه التصادف للتقابل. ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ أي قال للعَمَلَة انفخوا في الأكوار والحديد. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ جعل المنفوخ فيه[3]. ﴿نَارًا﴾ كالنار بالإحماء. ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي آتوني قِطراً أي نحاساً مذاباً أُفرغ عليه قطراً، فحَذَفَ الأول لدلالة الثاني عليه. وبه تمسك البصريون على أن إعمال الثاني من العاملَيْن المتوجهَين نحوَ معمول واحد أولى، إذ لو كان قِطراً مفعول آتوني لأُضْمِر مفعول أفرِغْ حذراً من الإلباس. وقرأ حمزة وأبو بكر قال أْتوني موصولة الألف.

(٩٧) ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ بحذف التاء حذراً من تلاقي متقاربين. وقرأ حمزة بالإدغام جامعاً بين الساكنين على غير حدّه. وقرىء بقلب السين صاداً ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أن يَعْلُوه بالصعود لارتفاعه وانملاسه. ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لثِخَنه وصلابته. وقيل حَفَرَ للأساس حتى بلغ الماء، وجعله من الصخر والنحاس المذابِ والبنيانَ من زبر الحديد بينهما الحطبُ والفحم حتى ساوى أعلى الجبلين، ثم وضع المنافيخ حتى صارت كالنار، فصب النحاس المذاب عليه فاختلط والتصق بعضُه ببعض وصار

---

(١) وتقديم «بينكم» على «بينهم» لإظهار كمال العناية بمصالحهم (س٥/ ٢٤٥).

(٢) ولعل تخصيص الأمر بالإيتاء لزبر الحديد دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لأن الحاجة إليها أمسّ إذ هي الركن في بناء السد، ووجودها أعز. (س٥/ ٢٤٥).

(٣) وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين لأنه العمدة في ذلك (س٥/ ٢٤٦).

جبلاً صلداً. وقيل بناه من الصخور مرتبطاً بعضُها ببعض بكلاليبَ من حديد ونُحاس مذابٍ في تجاويفها.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن
ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا
جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾

(٩٨) ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ هذا السدُّ أو الإقدارُ على تسويته. ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ على عباده. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقت وعده بخروج يأجوجَ ومأجوجَ، أو بقيام الساعة بأن شارف يومَ القيامة. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ مدكوكاً مبسوطاً مسوّى بالأرض، مصدر بمعنى مفعول ومنه جَمَلٌ أَدَكُّ لمنبَسِطِ السَّنام. وقرأ الكوفيون دَكّاءَ بالمدّ، اي أرضاً مستوية. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ كائناً لا محالة. وهذا آخرُ حكاية قول ذي القرنين.

(٩٩) ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وجعلنا بعض يأجوجَ ومأجوج حين يَخرجُون مما وراء السد يَمُوجون في بعضٍ مزدحمين في البلاد، أو يموج بعضُ الخلق في بعض فيضطربون ويختلطون، إنسُهم وجِنّهم حيارىٰ، ويؤيده قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة. ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ للحساب والجزاء[1].

(١٠٠) ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ وأبرزناها وأظهرناها لهم[2].

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ عن آياتي التي يُنْظَر إليها فأُذْكَرُ بالتوحيد والتعظيم. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ استماعاً لذكري وكلامي لإفراط صممهم عن الحق، فإن الأصمَّ قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء كأنهم أُصمّت مسامِعُهم بالكلية.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أفظنوا، والاستفهامُ للإنكار. ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ اتخاذَهم الملائكةَ والمسيح ﴿مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ معبودين نافعَهم أو لا أعذبهم به. فحُذف المفعول الثاني كما يُحذف الخبرُ للقرينة، أوسدّ «أن يتخذوا» مسدّ مفعوليه. وقرىء ﴿أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أفكافيهم في النجاة؟ وأنْ بما في حيزها مرتفعٌ بأنه فاعلُ حَسْبُ، فإن النعت إذا اعتَمَدَ على الهمزة ساوى الفعلَ في العمل، أو خبرٌ له. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ما يقام للنزيل، وفيه تهكم وتنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما تُستَحقر دونه.

(١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ نصب على التميز. وجُمِعَ لأنه من أسماء الفاعلين، أو لتنوع أعمالهم.

---

(١) لم يتعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار، ولئلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الأولى والآخرة (س٥/٢٤٧).

(٢) وتخصيص العرض بهم ـ مع أنها بمرأىٰ من أهل الجمع قاطبة ـ لأن ذلك لأجلهم خاصة (س٥/٢٤٧).

ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ
فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ
كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

(١٠٤) ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ضاع وبَطَل لكفرهم وعُجْبهم كالرهابنة فإنهم خسروا دنياهم وأخراهم. ومحله الرفعُ على الخبر المحذوف فإنه جواب السؤال، أو الجرُّ على البدل، أو النصبُ على الذم. ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ بعُجْبِهم واعتقادِهم أنهم على الحق.

(١٠٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بالقرآن، أو بدلائله المنصوبةِ على التوحيد والنبوة[١]. ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث على ما هو عليه أو لقاءِ عذابه. ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بكفرهم فلا يُثابون عليها. ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ فنزدري بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، أو لا نضع لهم ميزاناً يوزن به أعمالُهم لانحباطها.

(١٠٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمْرُ ذلك، وقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مبيِّنة له، ويجوز أن يكونَ ذلك مبتدأً والجملةُ خبره والعائدُ محذوف أي جزاؤهم به، أو جزاؤهم بَدَلُه وجهنمُ خبره، أو جزاؤهم خبرُه، وجهنم عطفُ بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي بسبب ذلك.

(١٠٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ فيما سبق من حكم الله ووعدِه. والفردوسُ أعلى درجات الجنة، وأصلُه البستانُ الذي يَجْمَع الكرم والنخل.

(١٠٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مقدرة. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تحولاً إذ لا يجدون أطيبَ منها حتى تنازِعَهم إليه أنفسُهم، ويجوز أن يراد به تأكيدُ الخلود.

(١٠٩) ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ ما يُكْتَب به، وهو اسمُ ما يُمدّ به الشيءُ كالحِبْر للدواة والسّليط للسِّراج. ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ لكلمات علمه وحكمته. ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ لنفد جنسُ البحر بأمره، لأن كل جسم متناهٍ. ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ فإنها غيرُ متناهية لا تنفَدُ كعلمه. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالياء. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ بمثل البحر الموجود. ﴿مَدَدًا﴾ زيادةً ومعونة، لأن مجموعَ المتناهين متناهٍ بل مجموعُ ما يَدخُل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً للدلائل القاطعة على تناهي الأبعاد، والمتناهي ينفد قبل أن ينفد غيرُ المتناهي لا محالة. وقرىء ينفد بالياء، ومِدَاداً بكسر الميم جمع مُدّة وهي ما يَستمدُّه الكاتب، ومِدَاداً. وسبب نزولها[٢] أن اليهود قالوا في كتابكم ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٣] وتقرؤون ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

---

(١) والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور (س٥/٢٤٩).

(٢) أخرجه الواحدي بنحوه عن ابن عباس ولم يذكر سنده (أسباب النزول ص٣٠٧).

(٣) البقرة: «٢٦٩».

(٤) الإسراء: «٨٥».

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدّعي الإحاطة على كلماته. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإنما تميزتُ عنكم بذلك. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يؤمل حسنَ لقائه أو يخاف سوءَ لقائه. ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ يرتضيه الله. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ بأن يُرائِيَه أو يطلب منه أجراً. روي أن جُندُبَ بنَ زهير قال لرسول الله ﷺ: إني لأعمل العمل لله فإذا اطُّلِعُ عليه سرّني، فقال: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه». فنزلت تصديقاً له[١] وعنه عليه الصلاة والسلام «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»[٢]. والآية جامعة لخُلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة. وعن النبي ﷺ: «من قرأها عند مضجعه كان له نوراً في مضجعه يتلألأ إلى مكة، حشوُ ذلك النور ملائكةٌ يُصَلّون عليه حتى يقوم، فإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشوُ ذلك النور ملائكةٌ يصلون عليه حتى يستيقظ»[٣]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ سورةَ الكهف من آخرها كانت له نوراً من قَرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلَّها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»[٤].

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٢٩٩) عن ابن عباس بغير سند.
وأخرجه ابن منده وأبو نعيم في «الصحابة» وابن عساكر ـ كما في «فتح القدير» (٣/٣١٨) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لقالة الناس، فلا يريد به الله، فنزلت الآية. وهذا إسناد مظلم كله كذابون، فالحديث باطل.

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة بهذا، ومن هذا الوجه. أخرجه الثعلبي، وأبو قاسم الطلحي ـ وهو الأصبهاني: التذكرة (٤/١٢٧٧) ـ في الترغيب. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٠٥ رقم ٣٣٣).
ثم قال: وفي الباب عن محمود بن لبيد. ورفعه «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال الرياء» أخرجه أحمد ـ في المسند (٥/٤٢٨) والدارقطني في غرائب مالك، والبيهقي في «الشعب» ـ (٥/٣٣٣ رقم ٦٨٣١) ـ من رواية عمرو بن أبي عمرو بن قتادة عنه. وعن شداد بن أوس قال «كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر» أخرجه الطبراني ـ في الكبير (٧/٢٨٩ رقم ٧١٦٠) وابن مردويه. وفي إسناده ابن لهيعة ـ كما في «الكافي الشافِ» رقم (٣٣٣).
وقد تعاقبه يحيى بن أيوب المقابري عند الحاكم (٤/٣٢٩) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: يحيى صدوق فيه مقال. لكن الحديث يرتقي إلى الحسن والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٠٥).
قلت: هو الإسناد الذي تقدم في رقم (٣٣٤) والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٣٩) بلفظ «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها....».
وابن السني في «اليوم والليلة» رقم (٦٧٧) من حديث معاذ بن أنس الجهني، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٠٥ رقم ٣٣٤) وفي إسناده ابن لهيعة ـ ضعيف من قبل حفظه ـ وأخرجه الطبراني ـ في «الكبير» (٢٠/١٩٧ رقم ٤٤٣) ـ من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن زبان بن قائدوهم ضعفاء. والخلاصة أن الحديث ضعيف. =

سُورَةُ مَرْيَم

ترتيبها ١٩ — آياتها ٩٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى
وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن
وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ
رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

سورة مريم مكيةٌ، إلا آيةَ السجدة[1]، وهي ثمانٍ أو تسعٌ وتسعون آية[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أمال أبو عمرٍو الهاءَ لأن أَلِفَاتِ أسماء التهجّي ياءات، وابنُ عامر وحمزةُ الياءَ، والكسائي وأبو بكر كليهما، ونافعُ بَيْن بَيْن، ونافع وابنُ كثير وعاصمٌ يُظهرون دالَ الهجاء عند الذال، والباقون يدغمونها.

(٢) ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبرُ ما قبلَه إن أُوِّلَ بالسورة أو بالقرآن فإنه مشتمل عليه، أو خبرُ محذوفٍ أي هذا المتْلوُّ ذكرُ رحمة ربك، أو مبتدأٌ حُذِف خبرُه أي فيما يتلىٰ عليك ذكْرُها. وقرىء ذَكَرَ رحمةَ على الماضي، وذَكِّرْ على الأمر. ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعولُ الرحمة أو الذكر، على أن الرحمة فاعلُه على

---

(١) الآية: «٥٨».

(٢) سورة مريم مكية بالإجماع.
فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت سورة مريم بمكة.
[انظر «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٦) و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٧٢ ـ ٧٣)].

الاتّساع كقولك: ذَكَرني جودُ زيد. ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدلٌ منه، أو عطف بيانٍ له.

(٣) ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ لأن الإخفاء والجهر عند الله سيّان والإخفاءُ أشد إخباتاً وأكثر إخلاصاً، أو لئلا يُلام على طلب الولد في إبّان الكِبَر، أو لئلا يَطّلعَ عليه مواليه الذين خافهم، أو لأن ضَعْف الهرم أخفىٰ صوتَه. واختُلف في سِنّه حينئذ، فقيل ستون، وقيل سبعون، وقيل خمس وسبعون، وقيل خمس وثمانون، وقيل تسع وتسعون.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ تفسيرٌ للنداء، والوَهَن الضعف. وتخصيصُ العَظْم لأنه دِعامة البدن وأصلُ بنائه ولأنه أصلبُ ما فيه، فإذا وهَن كان ما وراءه أوهنَ، وتوحيده لأن المراد به الجنسُ. وقرىء وَهُنَ ووَهِنَ بالضم والكسر، ونظيره كَمُل بالحركات الثلاث. ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبّه الشيبَ في بياضه وإنارته بشُواظ النار وانتشارِه، وفشُوَّه في الشعر باشتعالها، ثم أخرجه مُخرجَ الاستعارة، وأسند الاشتعالَ إلى الرأس الذي هو مكانُ الشيب مبالغة، وجَعَلَه مميَّزاً إيضاحاً للمقصود، واكتفىٰ باللام على الإضافة للدِلالة على أن علمَ المخاطَب بتعين المراد يُغني عن التقييد. ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ بل كلما دعوتُك استجبتَ لي، وهو توسلٌ بما سلف معه من الاستجابة، وتنبيهٌ على أن المدعوَّ له وإن لم يكن معتاداً فإجابتُه معتادة، وأنه تعالى عوَّدَه بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يُخيِّب من أطمعه[1].

(٥) ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ يعني بني عمّه وكانوا أشرارَ بني إسرائيلَ، فخاف أن لا يُحسِنوا خلافته على أُمته ويُبَدِّلوا عليهم دينهم. ﴿مِن وَرَآءِى﴾ بعد موتي. وعن ابن كثير بالمد والقصر بفتح الياء. وهو يتعلق بمحذوف، أو بمعنى الموالي أي خفت فِعْل الموالي من ورائي، أو الذين يلُون الأمر من ورائي. وقرىء خَفَّتْ الموالي من ورائي، أي قَلّوا وعجَزُوا عن إقامة الدين بعدي، أو خَفُّوا ودرجوا قُدّامي، فعلى هذا كان الظرف متعلقاً بخفتُ. ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لا تلد. ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ فإن مثله لا يُرجىٰ إلا من فضلك وكمال قدرتك، فإني وامرأتي لا نَصلح للولادة. ﴿وَلِيًّا﴾ من صُلبي[2].

(٦) ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ صفتان له، وجَزَمَهُما أبو عمرو والكسائي على أنهما جواب الدعاء، والمرادُ وراثةُ الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورِّثون المال. وقيل يرثني الحُبُورَةَ فإنه كان حَبْراً، ويرثُ من آل يعقوب المُلْك، وهو يعقوبُ بنُ إسحاقَ عليهما الصلاة والسلام. وقيل يعقوب كان أخا زكريا، أو عمرانُ بنُ ماثانَ من نسل سليمانَ عليه السلام. وقرىء يرثني وَارِثُ آلَ يعقوب على الحال من أحد الضميرين، وأوَ يْرِثُ بالتصغير لصغره، ووَارِثٌ مِنْ آل يعقوب على أنه فاعل يرثني وهذا

---

(١) والتعرض لوصف الربوبية مع إضافته لضميره عليه السلام لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع (س٥/ ٢٥٤).

(٢) قدم قوله «وكانت امرأتي عاقراً» على قوله «فهب لي..» لكون مدلوله أهم عنده.
وتأخير «ولياً» عن الجارّين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر (س٥/ ٢٥٤).

يسمى التجريد في علم البيان لأنه جُرِّد عن المذكور أولاً مع أنه المراد. ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ترضاه قولاً وعملاً[(١)].

يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

(٧) ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ جواب لندائه ووعدٌ بإجابة دعائه. وإنما تولى تسميته تشريفاً له. ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يُسمَّ أحدٌ بيحيى قبله، وهو شاهد بأن التسمية بالأسامي الغريبة تنويه للمسمىٰ. وقيل سَمِياً شبيهاً كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[(٢)] لأن المتماثلَين يتشاركان في الاسم، والأظهرُ أنه أعجميٌّ وإن كان عربياً فمنقول عن فِعْلٍ كيعيش ويعمل. وقيل سُمّي به لأنه حَيِيَ به رحِمُ أمه، أو لأن دينُ الله حَيِيَ بدعوته.

(٨) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ جَساوةً وقُحولاً في المفاصل[(٣)]، وأصله عُتُوٌّ كقعود فاستثقلوا تواليَ الضمتين والواوين فكسروا التاء فانقلبت الواوُ الأولى ياء، ثم قُلبت الثانية وأدغمت. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عِتِياً بالكسر، وإنما استَعْجَبَ الولدَ من شيخ فانٍ وعجوز عاقرٍ اعترافاً بأن المؤثرَ فيه كمالُ قدرته وأن الوسائطَ عند التحقيق ملغاة[(٤)]، ولذلك:

(٩) ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى أو المَلَك المبلِّغُ للبشارة تصديقاً له. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمرُ كذلك، ويجوز أن تكون الكاف منصوبة بقال في ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وذلك إشارةٌ إلى مبهم يفسره: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ ويؤيد الأول قراءة من قرأ «وهو على هيّن» أي الأمر كما قلتُ أو كما وَعَدتُ وهو على ذلك يهون عليّ، أو كما وعدت وهو عليّ هيِّنٌ لا أحتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب. ومفعولُ قال الثاني محذوفٌ. ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ بل كنتَ معدوماً صرْفاً، وفيه دليلٌ على أن المعدوم ليس بشيء، وقرأ حمزةُ والكسائي وقد خلقناك.

(١٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ علامةً أعلم بها وقوع ما بشّرتني به. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

---

(١) وتوسيط «رب» بين مفعولي اجعل للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه (س٥/ ٢٥٥).

(٢) مريم: «٦٥».

(٣) يقال: جسا الشيء يجسو إذا يبس وصلُب. وكذا قَحِل، يقال: قحِل الشيء قَحَلاً إذا يبس جلده على عظمه (المصباح المنير مادة جَسَوَ وقحل).

(٤) لعله عليه السلام ابتدأ ههنا بذكر حال امرأته، بينما في سورة آل عمران قدم ذكر نفسه «قال رب أنىٰ يكون لي غلام وقد بلغني الكبَر وامرأتي عاقر..» ـ الآية «٤٠» ـ لأنه هنا قد ذَكَر حاله في تضاعيف دعائه. أما هنالك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته، لما أن المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب (س٥/ ٢٥٦).

﴿ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ سَوِيَّ الخَلْقِ ما بك من خرس ولا بَكَم، وإنما ذكر الليالِيَ هنا والأيامَ في آل عمران[1] للدلالة على أنه استمر عليه المنعُ من كلام الناس والتجردُ للذكر والشكر ثلاثةَ أيام ولياليَهن.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾

(١١) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ من المصلىٰ أو من الغرفة. ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ فأومأ إليهم لقوله: ﴿إِلَّا رَمۡزٗا﴾[2]. وقيل كتب لهم على الأرض. ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾ صلّوا أونزهوا ربكم. ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ طرفي النهار، ولعله كان مأموراً بأن يسبّح ويأمرَ قومه بأن يوافقوه. وأنْ تَحتَمِل أن تكون مصدرية، وأن تكون مفسِّرة.

(١٢) ﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ على تقدير القول. ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة. ﴿بِقُوَّةٖ﴾ بجدّ واستظهار بالتوفيق. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ يعني الحكمةَ وفهمَ التوراة، وقيل النبوةَ أحكم الله عقله في صباه واستنبأه.

(١٣) ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ ورحمةً منّا عليه، أو رحمة وتعطفاً في قلبه على أبويه وغيرهما. عطْفٌ على الحكم. ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ وطهارة من الذنوب، أو صدقة أي تصدق الله به على أبويه. أو مكنه ووفقه للتصدق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ مطيعاً متجنباً عن المعاصي.

(١٤) ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ وباراً بهما. ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ عاقاً أو عاصي ربه.

(١٥) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ من الله. ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطانُ بما ينال به بني آدم. ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ من عذاب القبر. ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ من عذاب النار وهو القيامة.

(١٦) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في القرآن. ﴿مَرۡيَمَ﴾ يعني قصتها. ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ اعتزلتْ، بَدَلٌ من مريم بدلَ الاشتمال لأن الأحيان مشتمِلةٌ على ما فيها، أو بدلُ الكل لأن المراد بمريم قصتُها وبالظرف الأمرُ الواقعُ فيه وهما واحد، أو ظرفٌ لمضاف مقدر. وقيل إذ بمعنى أن المصدرية كقولك: أكرمتك إذ لم تكرمني فتكون بدلاً لا محالة. ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ شرقيَّ بيتِ المقدس، أو شرقي دارها، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قِبلة. ومكاناً ظرفٌ أو مفعول، لأن انتبذت متضمن معنى أتت.

(١٧) ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ ستراً. ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ قيل قعدت في مُشْرَفة للاغتسال من الحيض متحجبة بشيء يسترها ـ وكانت تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا

---

(١) آل عمران «٤١»: «قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً».
(٢) آل عمران: «٤١».

حاضت وتعود إليه إذا طهُرت ـ فبينما هي في مغتسَلها أتاها جبريل عليه السلام متمثلاً بصورة شاب أمردَ سويِّ الخلق لتستأنس بكلامه، ولعله لتهييج شهوتها به فتنحدر نطفتها إلى رحمها[١].

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

(١٨) ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ من غاية عفافها. ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تتقي الله وتحتفل بالاستعاذة. وجوابُ الشرط محذوف دل عليه ما قبله، أي فإني عائذة منك، أو فتتعظ بتعويذي، أو فلا تتعرض لي، ويجوز أن يكون للمبالغة أي إن كنت تقياً متورعاً فإني أتعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك؟

(١٩) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذتِ به[٢]. ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدِّرع[٣]، ويجوز أن يكون حكاية لقول الله تعالى، ويؤيده قراءة أبي عمرٍو والأكثرِ عن نافع ويعقوبَ بالياء[٤]. ﴿زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، أو نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح.

(٢٠) ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ولم يباشِرْني رجلٌ بالحلال، فإن هذه الكناياتِ إنما تُطلقُ فيه، أما الزنا فإنما يقال فيه خَبُثَ بها وفَجَرَ ونحو ذلك، ويعضُده عطْفُ قوله: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عليه، وهو فعول من البغي قُلِبت واوُه ياءً وأُدغمت ثم كُسرت الغين اتباعاً ولذلك لم تلحقه التاء، أو فعيل بمعنى فاعل ولم تلحقْه التاءُ لأنه للمبالغة، أو للنَّسَب كطالِق.

---

(١) وهذا القول الأخير لا يوافقه مقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة، وكذا ما بعده حينما استعاذت بالرحمٰن.. ولا يوجد ما يدل على أنه عليه السلام جاءها وهي تغتسل فاتخاذها للحجاب لا يعني للغسل فإنه كان من عادتها الخلوة للعبادة، يدل عليه قوله تعالى ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب..﴾.

(٢) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتها، والإشعارِ بعلة الحكم فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها (س٥/ ٢٦٠).

(٣) قال الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤/ ٢٤١): «أشار الله تعالى إلى كيفية حمل مريم: أنه نفخ فيها، فوصل النفخ إلى فرجها، فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ [التحريم: ١٢] وقال ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا﴾ [الأنبياء: ٩١]. والذي عليه الجمهور من العلماء: أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله تعالى ﴿إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ ولا ينافي ذلك إسنادُ الله جلّ وعلا النفخَ المذكور لنفسه في قوله ﴿فنفخنا﴾ لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ، فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلا منه بمشيئته جلّ وعلا ـ أسنده إلى نفسه ـ والله تعالى أعلم.
ـ وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط. بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل» هـ.

(٤) أي ﴿لِيَهَبَ﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

(٢١) ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ أي ونفعلُ ذلك لنجعلَه آيةً، أو لنبيّن به قدرتَنا ولنجعله، وقيل عَطْفٌ على ليهَبَ على طريقة الالتفات. ﴿ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا. ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ على العباد يهتدون بإرشاده. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي تعلق به قضاءُ الله في الأزل، أو قَدَّر وسطر في اللوح، أو كان أمراً حقيقاً بأن يُقضىٰ ويُفعل لكونه آية ورحمة.

(٢٢) ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ﴾ بأنْ نَفَخَ في دِرعها فدخلت النفخةُ في جوفها وكان مدةُ حملها سبعةَ أشهر، وقيل ستة، وقيل ثمانية ولم يعِش مولودٌ وضع لثمانية غيرُه، وقيل ساعةٌ كما حملته نبذتْه. وسِنُّها ثلاثَ عشرة سنة، وقيل عشر سنين[١]، وقد حاضت حيضتين. ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ فاعتزلت وهو في بطنها كقوله: تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ والتَّرِيبَا. والجارّ والمجرور في موضع الحال. ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل أقصى الدار.

(٢٣) ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ فألجأها المخاض، وهو في الأصل منقول من جاء، لكنه خُصّ به في الاستعمال كآتىٰ في أَعطىٰ. وقرىء المِخَاضُ بالكسر، وهما مصدر مَخَضَت المرأةُ إذا تحرك الولد في بطنها للخروج. ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمدَ عليه عند الولادة، وهو ما بين العِرْق والغُصن، وكانت نخلةً يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء. والتعريفُ إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثَمَّ غيرُها، وكانت كالمتعالَم عند الناس، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريَها من آياته ما يُسْكِن روعتها ويُطعمها الرطَب الذي هو خُرْسَةُ[٢] النَفَساء الموافقةُ لها. ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ استحياءً من الناس ومخافةَ لومهم. وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر مُتُّ من مات يموت. ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ ما من شأنه أن يُنسىٰ ولا يُطلب، ونظيرُه الذِّبْحُ لما يُذبح. وقرأ حمزةُ وحفصٌ بالفتح[٣]، وهو لغةٌ فيه أو مصدرٌ سمي به، وقرىء به وبالهمز[٤] وهو الحليب المخلوط بالماء يَنسؤُه أهلُه لقلته. ﴿مَّنسِيًّا﴾ مَنسِيَّ الذكر بحيث لا يَخطر ببالهم. وقرىء بكسر الميم على الإِتْباع.

---

(١) قال سيد قطب رحمهُ الله في «الظلال» (٤/٢٣٠٦ ـ ٢٣٠٧): «إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته. هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تُكسىٰ العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟ إن هذا جائز. فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية... كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصاراً، ويعقبها تكوّن الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة... ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين، فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها...» هـ.

(٢) خُرسة النفساء أي طعامُها (المصباح المنير مادة خرس).

(٣) أي بفتح النون «نَسْيًا» بينما قرأ الباقون بكسر النون.

(٤) القراءة بالهمز أي (نِسْئاً ونَسْأ) بفتح النون وكسرها.

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا
جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ
ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ عيسى، وقيل جبريل كان يَقْبَلُ الولد، وقيل تحتها أسفلَ من مكانها. وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائي وحفصٌ وروحٌ مِنْ تحتِها بالكسر والجر على أن في نادى ضميرَ أحدهما، وقيل الضمير في تحتها النخلة. ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي لا تحزني أو بأن لا تحزني. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جَدْولاً، هكذا روي مرفوعاً[1]. وقيل سرياً من السَّرْوِ[2] وهو عيسى عليه الصلاة والسلام.

(٢٥) ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وأميليه إليك والباءُ مزيدة للتأكيد، أو افعلي الهز والإمالة به، أو هُزي الثمرة بهزّه. والهزّ تحريك بجذب ودفع. ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ﴾ تتساقط فأدغمت التاءُ الثانية في السين، وحَذَفَها حمزةُ[3]، وقرأ يعقوب بالياء[4]، وحفص تُسَاقِطْ من ساقطت بمعنى أسقطت، وقرىء تَتَساقطْ وتُسْقِطْ ويُسْقِطْ فالتاء للنخلة والياء للجذع. ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ تمييز أو مفعول. روي أنها كانت نخلةً يابسة لا رأسَ لها ولا ثمرَ وكان الوقت شتاءً، فهزتها فجعل الله تعالى لها رأساً وخُوصاً ورُطباً. وتسليتُها بذلك لما فيه من المعجزات الدالةِ على براءة ساحتها، فإن مثلَها لا يُتصور أن يرتكب الفواحش، والمنبهةِ لمن رآها على أن من قدَر أن يُثمر النخلة اليابسةَ في الشتاء قدَر أن يُحْبِلها من غير فحل، وأنه ليس ببِدْعٍ من شأنها مع ما فيه من الشراب والطعام، ولذلك رتب عليه الأمرين فقال:

(٢٦) ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي من الرطب وماء السّرِيّ، أو من الرطب وعصيره. ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وطيّبي نفسك وارفُضي عنها ما أحزنك، وقرىء وقِرّي بالكسر وهو لغة نجد، واشتقاقُه من القَرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره، أو من القَرّ فإنّ دمعةَ السرور باردةٌ ودمعةَ الحزن حارةٌ ولذلك يقال قُرّةُ العين للمحبوب، وسُخنتُها للمكروه. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فإنْ تريْ آدمياً. وقرىء تَرَئِنّ على لغة من يقول لَبَأْتُ[5] بالحج لتآخ بين الهمزة وحرف اللّين. ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ صمتاً، وقد قرىء به، أو صياماً وكانوا لا يتكلمون في صيامهم. ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ بعد أن أخبرتُكم بنَذْري، وإنما أكلم الملائكةَ وأُناجي ربي. وقيل أخبرتْهم بنذرها بالإشارة، وأَمَرَها بذلك لكراهة المجادلة والاكتفاءِ بكلام عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه قاطعٌ في قَطْع الطاعن.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/٦٩) والحاكم (٢/٣٧٣) وعبدالرزاق وابن مردويه في تفسيرهما (الفتح السماوي ص٨١١) كلهم موقوفاً على البراء بن عازب. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
وأخرج نحوه مرفوعاً الطبراني في الكبير (١٢/٣٤٦ ح١٣٣٠٣) وأبو نعيم في الحلية (٣/٣٤٦) في ترجمة عكرمة. وفي سنده أيوب بن نهيك وهو ضعيف.

(٢) والسَّرْو سخاءٌ في مروءة (مختار الصحاح مادة سرا).

(٣) قراءة حمزة «تَسَاقَطْ» بالتاء خفيفة السين.

(٤) قراءة يعقوب «يَسَّاقَطْ» بالياء مشددة السين.

(٥) لَبَأْتُ بالحج أي لَبَّيْتُ مِنَ التلبية.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا
كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ
ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا
بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

(٢٧) ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ أي مع ولدها. ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعةً إليهم بعد ما طهُرت من النفاس. ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حاملةً إياه. ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي بديعاً منكَراً، من فَرَىٰ الجلدَ[1].

(٢٨) ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ يعنون هارون النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت من أعقاب مَنْ كان معه في طبقة الإخوة، وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألفُ سنة، وقيل هو رجل طالح أو صالح كان في زمانهم شبّهوها به تهكماً، أو لِما رأَوا قبلُ من صلاحها، أو شتموها به. ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقريرٌ لأن ما جاءت به فَرِيّ، وتنبيه على أن الفواحشَ من أولاد الصالحين أفحشُ.

(٢٩) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، أي كلِّموه ليجيبَكم. ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نعهد صبياً في المهد كلمه عاقلٌ. وكان زائدةٌ، والظرفُ صلةُ مَنْ، وصبياً حالٌ من المستكنّ فيه، أو تامةٌ أو دائمة كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2] أو بمعنى صار.

(٣٠) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقه الله تعالى به أولاً لأنه أولُ المقامات، وللرد على من يزعُم ربوبيتَه. ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الإنجيلَ. ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

(٣١) ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ نفّاعاً معلِّماً للخير، والتعبيرُ بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه، أو بجعل المحقَّق وقوعُه كالواقع. وقيل أكمل الله عقلَه واستنبأه طفلاً. ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ حيث كنت. ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾ وأمرني. ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاةِ المال إن ملكتُه، أو تطهيرِ النفس عن الرذائل. ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

(٣٢) ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ وبارّاً بها، عطفٌ على مباركاً. وقرىء بالكسر، على أنه مصدرٌ وُصِف به، أو منصوب بفعل دل عليه أوصاني، أي وكلفني بِراً، ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفاً على الصلاة. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عند الله من فَرْط تكبره.

(٣٣) ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو علىٰ يحيىٰ. والتعريفُ للعهد والأظهرُ أنه للجنس. والتعريضُ باللعن على أعدائه، فإنه لما جعل جنسَ السلام على نفسه عرّضَ بأنّ ضده عليهم كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[3] فإنه تعريضٌ بأن العذاب على من كذّب وتولىٰ.

---

(١) وعبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب (س٥/ ٢٦٣).

(٢) النساء: «١٧».

(٣) طه: «٤٧».

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ أي الذي تقدم نعتُه هو عيسى بنُ مريم لا ما يَصِفه النصارى، وهو تكذيبٌ لهم فيما يصِفونه على الوجه الأبلغ والطريقِ البرهانيِّ حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ثم عكس الحكم. ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ خبر محذوف أي هو قولُ الحق الذي لا ريب فيه، والإضافةُ للبيان، والضميرُ للكلام السابق أو لتمام القصة. وقيل صفةُ عيسى أو بدلٌ أو خبر ثانٍ ومعناه كلمة الله. وقرأ عاصمٌ وابن عامر ويعقوبُ قولَ بالنصب على أنه مصدر مؤكد، وقرىء قالَ الحقِّ وهو بمعنى القول. ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ في أمره يشكون أو يتنازعون، فقالت اليهودُ ساحر وقالت النصارى ابنُ الله. وقرىء بالتاء على الخطاب.

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ تكذيبٌ للنصارى وتنزيهٌ لله تعالى عما بَهَتُوه. ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيتٌ لهم، فإن مَنْ إذا أراد شيئاً أوجده بِكُنْ كان منزَّهاً عن شَبَه الخلق إلى الحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإناث. وقرأ ابن عامر فيكونَ بالنصب على الجواب.

(٣٦) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران[1]. وقرأ الحجازيانِ والبصْريان وأَنَّ بالفتح على: ولأَنَّ، وقيل إنه معطوف على الصلاة.

(٣٧) ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ اليهود والنصارى. أو فِرقُ النصارى، نسطورية قالوا إنه ابن الله، ويعقوبيةٌ قالوا هو اللهُ هبط إلى الأرض ثم صَعِد إلى السماء، ومَلْكانية قالوا هو عبدالله ونبيه. ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ من شهود يوم عظيم هَوْلُه وحسابُه وجزاؤه وهو يوم القيامة، أو من وقت الشهود، أو من مكانه فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أنْ تشهد عليهم الملائكةُ والأنبياء وألسنتُهم وآرابُهم[2] وأرجلُهم بالكفر والفسق، أو من وقت الشهادة أو من مكانها. وقيل هو ما شهدوا به في عيسى وأمِّه.

(٣٨) ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾ تعجبٌ معناه أنّ أسمَاعهم وأبصارهم ﴿يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ أي يوم القيامة جديرٌ بأن يُتعجَّب منهما بعدَما كانوا صماً عمياً في الدنيا، أو التهديدُ بما سيسمعون ويبصرون يومئذ، وقيل أَمْرٌ بأن يُسْمِعَهم ويُبصِرهم مواعيدَ ذلك اليوم وما يَحيق بهم فيه. والجارُّ والمجرور على الأول في موضع الرفع، وعلى الثاني في موضع النصب ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أَوْقَعَ الظالمون موقع الضمير إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم، وسجل على إغفالهم بأنه ضلال بيِّن.

---

(١) آل عمران: «٥١».
(٢) آرابهم أي أعضاؤهم، فإن الإربَ يستعمل في الحاجة وفي العضو (المصباح المنير مادة أرب).

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا
يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا
يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾
يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

(٣٩) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ يوم يتحسر الناس، المسيءُ على إساءته والمحسنُ على قلة إحسانه. ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فُرِغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار، وإذ بدلٌ من اليوم أو ظرفٌ للحسرة. ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حالٌ متعلقة بقوله «في ضلال مبين» وما بينهما اعتراضٌ. أو بأنذرهم أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين، فتكون حالاً متضمنة للتعليل.

(٤٠) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم مُلْكٌ ولا مَلِك، أو نتوفَّى الأرضَ ومَنْ عليها بالإفناء والإهلاك تَوَفِّيَ الوارثِ لإرثه. ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يُردون للجزاء.

(٤١) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صَدَّق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسلِه. ﴿نَّبِيًّا﴾ استنبأه الله.

(٤٢) ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من إبراهيم، وما بينهما اعتراضٌ، أو متعلق بكان أو بصديقاً نبياً. ﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ التاءُ معوَّضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتي ويقال يا أبتا، وإنما تُذْكَر للاستعطاف ولذلك كرّرها. ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فيَعْرِفَ حالَك ويسمعَ ذِكْرك ويرى خضوعك. ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ في جلب نفعٍ أو دفع ضُر. دعاه إلى الهدى وبيّن ضلاله واحتج عليه أبلغَ احتجاج وأرشقَه برفق وحُسن أدب، حيث لم يصرِّح بضلاله بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يَستخِف به العقلُ الصريح ويأبى الركونَ إليه، فضلاً عن عبادته التي هي غايةُ التعظيم، ولا تَحِقُّ إلا لمن له الاستغناءُ التامُّ والإنعامُ العام، وهو الخالق الرازقُ المحيي المميتُ المعاقبُ المُثيب، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يَفعلُ لغرض صحيح، والشيءُ لو كان حياً مميِّزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضر ـ ولكن كان مُمْكِناً ـ لاستنكف العقلُ القويم عن عبادته وإن كان أشرفَ الخلق كالملائكة والنبيين، لِما يراه مِثْلَه في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر؟! ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهدِيَه إلى الحق القويم والصراطِ المستقيم لمَا لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السوي، فقال:

(٤٣) ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ ولم يُسَمِّ أباه بالجهل المُفرِط ولا نفسَه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرفَ بالطريق، ثم ثبّطه عما كان عليه بأنه ـ مع خُلوّه عن النفع ـ مستلزمٌ للضر، فإنه في الحقيقة عبادةُ الشيطان من حيث إنه الآمرُ به، فقال:

(٤٤) ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ ولما استهجن ذلك بيّن وجهَ الضر فيه بأن الشيطان مستعصٍ على ربك المولي للنعم كلِّها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاصٍ، وكلُّ عاصٍ حقيقٌ بأن تُستردَّ منه النعم ويُنتقَمَ منه[1] ، ولذلك عقبه بتخويفه سوءَ عاقبته وما يجرّ إليه فقال:

---

(١) قوله «إن الشيطان» حيث أظهر «الشيطان» في موضع الإضمار لزيادة التقرير. =

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي
يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي
حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا
ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ قريناً في اللعن والعذاب تليه ويليك، أو ثابتاً في موالاته فإنه أكبرُ من العذاب كما أن رِضوان الله أكبرُ من الثواب. وذِكْرُ الخوف والمسّ وتنكيرُ العذاب إما للمجاملة، أو لخفاء العاقبة. ولعل اقتصاره على عصيان الشيطان من بينِ جناياته لارتقاء همته في الربانية، أو لأنه مَلاكُها، أو لأنه من حيث إنه نتيجةُ معاداته لآدمَ وذريته مُنَبِّهٌ عليها[1].

(٤٦) ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ قابَلَ استعطافه ولطفَه في الإرشاد بالفظاظة وغِلْظة العِناد فناداه باسمه ولم يقابل يا أبتي بيا بُنَيّ، وأخّره وقدّم الخبرَ على المبتدأ وصدّره بالهمزة لإنكار نفسِ الرغبة على ضربٍ من التعجب كأنها مما لا يَرْغَب عنها عاقل، ثم هدّده فقال: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبةِ عنها. ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ بلساني يعني الشتمَ والذم، أو بالحجارة حتى تموت أو تبعُد مني. ﴿وَٱهۡجُرۡنِي﴾ عطفٌ على ما دل عليه لأرجمنك أي فاحذرني واهجرني. ﴿مَلِيّٗا﴾ زماناً طويلاً مِنَ المَلاوة، أو ملياً بالذهاب عني.

(٤٧) ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ توديعٌ ومتاركةٌ ومقابَلةٌ للسيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بَعْدُ ما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ لعله يوفقك للتوبة والإيمان، فإن حقيقةَ الاستغفار للكافر استدعاءُ التوفيق لما يوجب مغفرته. وقد مر تقريره في سورة التوبة[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ بليغاً في البرّ والإلْطاف.

(٤٨) ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني. ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ وأعبده وحده. ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ خائباً ضائعَ السعي مثلكم في دعاء آلهتكم. وفي تصدير الكلام بعسى التواضعُ وهضمُ النفس، والتنبيهُ على أن الإجابة والإثابة تفضّلٌ غيرُ واجبتين، وأن مَلاك الأمرِ خاتمتُه وهو غيبٌ.

(٤٩) ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالهجرة إلى الشام. ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ بدلَ مَنْ فارقهم مِنَ الكفرة. قيل إنه لما قصد الشامَ أتى أولاً حَرّان وتزوج بسارةَ، وولدت له إسحاقَ ووُلد منه يعقوبُ. ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء، أو لأنه أراد أن يَذْكُر إسماعيل بفضله على الانفراد. ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ وكلاً منهما أو منهم.

= والتعرض لوصف الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه (س٥/ ٢٦٧).

(١) إظهار الرحمن للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب (س٥/ ٢٦٧).

(٢) التوبة: ﴿٨٠﴾.

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

(٥٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ النبوةَ والأموال والأولاد. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناسُ ويُثنون عليهم، استجابةً لدعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[١]. والمرادُ باللسان ما يوجَدُ به، ولسانُ العرب لغتُهم. وإضافتُه إلى الصدق وتوصيفُهُ بالعلو للدلالة على أنهم أحِقاءُ بما يُثنون عليهم، وأن محامدهم لا تَخفى على تباعد الأعصار وتحول الدول وتبدّل الملل.

(٥١) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ موحِّداً أخلص عبادته عن الشرك والرياء، أو أسلم وجهه لله وأخلص نفسه عما سواه. وقرأ الكوفيون بالفتح[٢] على أن الله أخلصه. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قُدِّم رسولاً مع أنه أخلصُ وأعلى.

(٥٢) ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ من ناحيته اليمنىٰ من اليمين وهي التي تلي يمين موسى، أو من جانبه الميمون من اليمين بأن تمثل له الكلامُ من تلك الجهة. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ تقريبَ تشريف، شبّهه بمن قرَّبه الملِكُ لمناجاته. ﴿نَجِيًّا﴾ مناجياً، حال من أحد الضميرين. وقيل مرتفعاً من النَّجْوة وهو الارتفاع، لِما روي أنه رُفِع فوق السموات حتى سمع صريرَ القلم.

(٥٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ من أجل رحمتنا، أو بعضِ رحمتنا. ﴿أَخَاهُ﴾ معاضَدةَ أخيه ومؤازرته إجابةً لدعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾[٣] فإنه كان أسنَّ من موسى، وهو مفعول أو بدلٌ على تقدير أن تكون مِنْ للتبعيض ﴿هَارُونَ﴾ عطفُ بيانٍ له. ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

(٥٤) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ ذَكَره بذلك لأنه المشهورُ به والموصوفُ بأشياءَ في هذا الباب لم تُعهد من غيره، وناهيك أنه وَعَدَ الصبر على الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٤] فوفّى[٥] ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيمَ كانوا على شريعته.

(٥٥) ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ اشتغالاً بالأهم وهو أن يُقْبِلَ الرجلُ على نفسه ومَنْ هو أقربُ الناس إليه بالتكميل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[٦]. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ

---

(١) الشعراء: «٨٤».
(٢) أي بفتح اللام «مُخْلَصاً».
(٣) طه: «٢٩».
(٤) الصافات: «١٠٢».
(٥) فَصَل ذِكرَه عن ذِكر أبيه وأخيه فأورده منفرداً لإبراز كمال الاعتناء بأمره (س٥/ ٢٧٠).
(٦) الشعراء: «٢١٤».

بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[(١)] . ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾[(٢)] . وقيل أَهْلُه أمتُه، فإن الأنبياء آباءُ الأمم. ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ لاستقامة أقواله وأفعالِه.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ وهو سِبطُ شيثٍ وجدّ أبي نوح عليهم الصلاة والسلام، واسمه أَخنوخُ، واشتقاقُ إدريسَ من الدرس يرده منعُ صرفه، نعم لا يبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلقب به لكثرة دَرْسه، إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أولُ من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ .

(٥٧) ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يعني شرفَ النبوة والزلفىٰ عند الله، وقيل الجنةُ، وقيل السماءُ السادسة أو الرابعة.

(٥٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس عليهم الصلاة والسلام. ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ بأنواع النعم الدينيةِ والدنيوية ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول. ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجار، ويجوز أن تكون مِنْ فيه للتبعيض لأن المنعَم عليهم أعمُّ من الأنبياء وأخص من الذرية. ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ أي ومن ذرية مَنْ حملنا خصوصاً، وهم من عدا إدريسَ فإن إبراهيم كان من ذرية سامِ بنِ نوح. ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الباقون. ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عطف على إبراهيم أي ومن ذرية إسرائيل، وكانَ منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا﴾ ومِن جملة مَنْ هديناهم إلى الحق. ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ للنبوة والكرامة. ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾ خبر لأولئك إن جعلتَ الموصولَ صفتَه، واستئنافٌ إن جعلته خبرَه لبيان خشيتهم من الله وإخباتِهم له مع ما لهم من علو الطبقة في شرف النسب وكمالِ النفس والزلفىٰ من الله تعالى. وعن النبي عليه الصلاة والسلام «أتلوا القرآن وابكُوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[(٣)] . والبُكِيُّ جمع باكٍ كالسجود في جمع ساجد. وقرىء يُتلىٰ بالياء لأن التأنيث غير حقيقي، وقرأ حمزة والكسائي بِكِيّاً بكسر الباء.

(٥٩) ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ فعقبهم وجاء بعدهم عَقِبُ سوْء، يقال خَلَفٌ صدقٌ ـ بالفتح ـ

---

(١) طه: «١٣٢».

(٢) التحريم: «٦».

(٣) أخرجه ابن ماجة (١/ ٤٢٤ رقم ١٣٣٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٣١) وأبو يعلى في المسند (٢/ ٤٩ ـ ٥٠ رقم ١/ ٦٨٩) من حديث سعد بن أبي وقاص.
قال البوصيري في (مصباح الزجاجة) (١/ ٢٤٠ رقم ٤٧٤): «هذا إسناد فيه أبو رافع واسمه إسماعيل بن رافع ضعيف متروك. . .» هـ.
فالحديث ضعيف، وكذلك ضعّفه الألباني في ضعيف ابن ماجة.

وخلْفٌ سوءٌ ـ بالسكون ـ. ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوها أو أخروها عن وقتها. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ كشرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك في المعاصي. وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: مَنْ بنىٰ الشديد، وركب المنظور، ولبس المشهور. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ شراً كقوله:

فَمَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً يَحْمَـدِ النَّـاسُ أَمْـرَهُ وَمَـنْ يَغْـوِ لاَ يعْـدَمْ عَلَـى الغَـيِّ لاَئِمـاً

أو جزاءَ غيٍّ كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾[1] أو غياً عن طريق الجنة، وقيل هو وادٍ في جهنم يستعيذ منه أوديتُها[2].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾

(٦٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يدل على أن الآي في الكفرة. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمروٍ وأبو بكر ويعقوبُ على البناء للمفعول من أُدْخِلَ. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ولا يُنقصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ويجوز أن ينتصب شيئاً على المصدر، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابقَ لا يضرهم ولا يُنقص أجورَهم.

(٦١) ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من الجنةَ بدلَ البعض لاشتمالها عليها، أو منصوب على المدح. وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوف. وعَدْن[3] عَلَمٌ لأنه المضاف إليه في العَلَم، أو عَلَمٌ للعَدْن بمعنى

---

(١) الفرقان: «٦٨».

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٤) والبيهقي في «البعث» رقم (٤٧٠ و٤٧١) وهنّاد في «الزهد» رقم (٢٧٦) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة رقم (٣٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج٦/ ١٠٠) والطبراني في الكبير (٩/ ٢٥٩ رقم ٩١٠٦ ـ ٩١١٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٦) كلهم عن أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه. وليس عند أيهم قوله «تستعيذ منه أوديتها». وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه. ومع ذلك قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

● وله شاهد من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ «غي وأثام نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار وهما اللذان ذكر الله في كتابه «فسوف يلقون غياً» «ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً».

ـ أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (رقم: ٣٦) وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٦/ ١٠٠) والدولابي في «الكنى» (١/ ١٣) والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٠٦ رقم ٧٧٣١) والبيهقي في «البعث» رقم (٤٧٤).

ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٨٩) وقال: «رواه الطبراني وفيه ضعفاء قد وثقهم ابن حبان، وقال: يخطئون» هـ.

والخلاصة أن حديث أبي أمامة ضعيف.

● ولأثر ابن مسعود شاهد من قول عائشة أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٢٦٢) والبراء بن عازب عند البيهقي في «البعث» وشفي بن ماتع عند المروزي في الصلاة (رقم: ٣٨).

والخلاصة أن تفسير الغي بواد في جهنم ثابت مرفوعاً وموقوفاً، نظراً إلى الشواهد.

(٣) ظاهر السياق أن عدن ـ على تلك القراءة ممنوعة من الصرف لنقلها من المصدر إلى العلمية، كسحَر لو قصد بها =

الإقامة كَبْرَةَ، ولذلك صح وصْفُ ما أضيف إليه بقوله: ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وعدها إياهم وهي غائبة عنهم، أو وهم غائبون عنها، أو وعدهم بإيمانهم بالغيب. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الله. ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ الذي هو الجنة. ﴿مَأْتِيًّا﴾ يأتيها أهلها الموعود لهم لا محالة، وقيل هو مِنْ أتىٰ إليه إحساناً أي مفعولاً مُنْجزاً.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

(٦٢) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فضولَ كلام. ﴿إِلَّا سَلَـٰمًا﴾ ولكن يسمعون قولاً يَسْلَمون فيه من العيب والنقيصة، أو تسليمَ الملائكة عليهم، أو تسليمَ بعضهم على بعض على الاستثناء المنقطع، أو على أن معنى التسليم إن كان لغواً فلا يسمعون لغواً سواه كقوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[١]

أو على أن معناه الدعاءُ بالسلامة وأهلُها أغنياءُ عنه، فهو من باب اللغو ظاهراً، وإنما فائدتُه الإكرامُ. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادة المتنعمين والتوسط بين الزهادة والرغابة، وقيل المراد دوامُ الرزق ودُروره.

(٦٣) ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ نُبقيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مالُ مورِّثه، والوراثةُ أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تُعْقَبُ بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل بردّ ولا إسقاط. وقيل يُورّثُ المتقون من الجنة المساكنَ التي كانت لأهل النار لو أطاعوا زيادةً في كرامتهم. وعن يعقوب نُوَرِّثُ بالتشديد.

(٦٤) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكايةُ قول جبريلَ عليه الصلاة والسلام حين استبطأه رسول الله ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدرِ ما يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعين يوماً حتى قال المشركون وَدّعه ربُّه وقَلاه، ثم نزل ببيان ذلك[٢]. والتنزُّل النزولُ على مَهَل لأنه مُطاوِع نزّل، وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل، والمعنى وما ننزل وقتاً غِبَّ وقتٍ إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته. وقرىء وما يَتَنَزَّلُ بالياء، والضميرُ للوحي. ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأحايينِ لا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ

= سحرٌ بعينه معروف مُنِع، ومنه القراءة «إلاّ آل لوط نجيناهم بسحَر». هذا ما بدا لي، والله به أعلم.

(١) البيت من الطويل.
وهو توجيه لطيف جداً للآية المجيدة، وهذا من قبيل ما يعرف ـ في البلاغة ـ بالمدح بما يشبه الذم، كبيت النابغة الشهير، فإن فلول السيوف ليس عيباً لأنه دليل الشجاعة وخوض المعارك.
ـ والمعنى نفسه في قوله ﷺ «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش... وقريش مشهورة بفصاحتها ورقة لغتها.

(٢) سبق تخريجه عند الآية «٢٤» من سورة الكهف و«٨٥» من سورة الإسراء، وهو غير صحيح، والله أعلم.

﴿نَسِيًّا﴾ تاركاً لك، أي ما كان عدمُ النزول إلا لعدم الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك كما زعمت الكَفَرةُ وإنما كان لحكمة رآها فيه. وقيل أولُ الآية حكايةُ قول المتقين حين يدخلون الجنة، والمعنى وما نَتَنزلُ الجنة إلا بأمر الله ولطفه، وهو مالكُ الأمور كلِّها السالفةِ والمترقَّبةِ والحاضرة فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله. وقولُه ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقرير من الله لقولهم، أي وما كان ربك نسياً لأعمال العاملين وما وعد لهم من الثواب عليها. وقولُه:

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ
لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ
وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ
عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيًّا ﴿٧١﴾

(٦٥) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ بيان لامتناع النسيان عليه، وهو خبر محذوف أو بدلٌ من ربك ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ خطاب للرسول ﷺ مرتب عليه، أي لمّا عرفت ربك لأنه لا ينبغي له أن ينساك، أو أعمال العمال فأَقْبِل على عبادته واصطبر عليها ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهُزء الكفر. وإنما عدي باللام لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما يورِد عليه من الشدائد والمشاق، كقولك للمحارب: اصطبر لقِرْنك. ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مَثَلاً يستحق أن يُسمىٰ إلهاً، أو أحداً سُمِّي الله فإن المشركين وإن سمَّوا الصنمَ إلهاً لم يسمُّوه اللهَ قطُّ، وذلك لظهور أَحَديَّته تعالى، وتعالى ذاتِه عن المماثلة بحيث لم يقبل اللَّبْس والمكابرة، وهو تقرير للأمر أي إذا صح أنْ لا أحدَ مِثْلُه ولا يستحق العبادة غيرُه لم يكن بد من التسليم لأمره والاشتغالِ بعبادته والاصطبار على مشاقها.

(٦٦) ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المرادُ به الجنسُ بأسره فإن المقولَ مقولٌ فيما بينهم وإن لم يقله كلُّهم، كقولك: بنو فلان قتلوا فلاناً والقاتلُ واحد منهم. أو بعضُهم المعهود وهم الكفرة أو أُبيُّ بنُ خلف[١] فإنه أخذ عظاماً بالية ففتَّها وقال: يزعمُ محمد أننا نُبعث بعدما نموت. ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾ من الأرض أو من حال الموت. وتقديمُ الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار لأن المنكَر كونُ ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابُه بفعل دل عليه أُخْرَج لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها، وهي ههنا مُخْلَصةٌ للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلَصت الهمزةُ واللام في يا ألله للتعويض فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وروي عن ابن ذَكْوانَ إذا ما مِتُّ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر.

(٦٧) ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ عطف على يقول. وتوسيطُ همزة الإنكار بينه وبين العاطف ـ مع أن الأصل أن يتقدمهما ـ للدلالة على أن المنكَر بالذات هو المعطوف، وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه، فإنه لو تذكر وتأمل ﴿أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ بل كان عَدَماً صِرفاً لم يقل ذلك، فإنّه أعجبُ من جمع

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٠١) عن الكلبي.
وانظر «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٣١).

المواد بعد التفريق وإيجادِ مِثْلِ ما كان فيها من الأعراض. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وعاصم وقالونُ عن يعقوب يَذْكُرُ من الذِّكر الذي يراد به التفكر، وقرىء يَتذكَّر على الأصل.

(٦٨) ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم باسمه تعالى مضافاً إلى نبيه تحقيقاً للأمر وتفخيماً لشأن رسول الله ﷺ. ﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ عطف أو مفعول معه، لما روي أن الكفرةَ يُحشرون مع قُرَنائهم من الشياطين الذين أغوَوْهم، كلٌّ مع شيطانه في سِلْسلة، وهذا وإن كان مخصوصاً بهم ساغ نسبته إلى الجنس بأسره، فإنهم إذا حشروا وفيهم الكفرةُ مقرونين بالشياطين فقد حشروا جميعاً معهم. ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ ليَرىٰ السعداء ما نجاهم الله منه فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادّخروا لِمَعادهم عِدَّةً ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم عليهم ﴿ جِثِيًّا ﴾ على ركبهم لما يدهَمهم من هول المَطْلع، أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، وأهلُ الموقف جاثون لقوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾(١) على المعتاد في مواقف التقاول. وإن كان المرادُ بالإنسان الكفرةَ فلعلهم يُساقون جُثاةً من الموقف إلى شاطىء جهنمَ إهانةً بهم، أو لعجزهم عن القيام لما عراهم من الشدة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص جِثِياً بكسر الجيم.

(٦٩) ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ من كل أمة شاعت ديناً. ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ مَن كان أعصى وأعتى منهم فنطرحُهم فيها، وفي ذكر الأشدِّ تنبيهٌ على أنه تعالى يعفو كثيراً من أهل العصيان ولو خص ذلك بالكفرة فالمراد أنه يميّز طوائفَهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب، أو يُدخِل كلاً طبقتَها التي تليق به. وأيُّهم مبني على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يُبنىٰ كسائر الموصولات، لكنه أُعْرِب حملاً على كلّ وبعض للزوم الإضافة، وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه منصوبَ المحل بننزعنّ، ولذلك قرىء منصوباً. ومرفوعٌ عند غيره إما بالابتداء على أنه استفهامي وخبرُه أشدّ والجملةُ محكية وتقديرُ الكلام: لننزعن من كلِ شيعة الذين يقال فيهم أيهم أشد؛ أو معلَّقٌ عنها لننزعن لتضمّنه معنى التمييز اللازم للعلم؛ أو مستأنَفَةٌ والفعل واقعٌ على «مِنْ كل شيعة» على زيادة مِنْ؛ أو على معنى لننزعن بعضَ كل شيعة، وإما بشيعة لأنها بمعنى تشيّع، وعلىٰ للبيان أو متعلق بأَفْعَل، وكذا الباء في قوله:

(٧٠) ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ أي لنحن أعلمُ بالذين هم أولى بالصَّلْي، أو صِليُّهم أولى بالنار وهم المنتزَعون، ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساءُ الشيَع فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالِهم. وقرأ حمزةُ والكسائيُ وحفصٌ صِلِيّاً بكسر الصاد.

(٧١) ﴿ وَإِن مِّنكُمْ ﴾ وما منكم، ألتفات إلى الإنسان، ويؤيده أنه قرىء وإنْ منهم. ﴿ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ إلا واصلُها وحاضرٌ دونها يمرّ بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ قال بعضهم لبعض: أليس قد وَعَدَنا ربُّنا أن نَرِد النار، فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة»(٢) وأما قوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ عَنْهَا

---

(١) الجاثية: «٢٨».

(٢) لم يثبت رفعه ولكنه مروي من قول خالد بن معدان وهو تابعي كبير، وقد رواه عنه عبدالله بن المبارك في الزهد

﴿مُبْعَدُونَ﴾[1] فالمراد عن عذابها. وقيل ورودُها الجوازُ على الصراط فإنه ممدود عليها. ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ كان ورودهم واجباً أوجبه الله على نفسه وقضى به، بأن وعَدَ به وعداً لا يمكن خُلْفه. وقيل أقسم عليه.

ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

(٧٢) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ فيساقون إلى الجنة. وقرأ الكسائي ويعقوب نُنْجي بالتخفيف، وقرىء ثَمَّ بفتح الثاء أي هناك. ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ منهاراً بهم كما كانوا، وهو دليل على أن المراد بالورود الجُثوُّ حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفَجَرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الفجرةُ فيها منهاراً بهم على هيئاتهم.

(٧٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ مرتَّلاتِ الألفاظ مبيناتِ المعاني بنفسها أو ببيان الرسول ﷺ وواضحاتِ الإعجاز. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ لأجلهم أو معهم. ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين. ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ موضعَ قيام أو مكاناً. وقرأ ابن كثير بالضم أي موضع إقامة ومنزِل. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً ومجتمعاً. والمعنى أنهم لما سمعوا الآياتِ الواضحات وعجَزوا عن معارضتها والدخل عليها أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلالِ بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله تعالى، لقصور نظرهم على الحال وعلمِهم بظاهر من الحياة الدنيا، فردّ عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله:

(٧٤) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ وكم مفعول أهلكنا، ومِنْ قرن بيانُه، وإنما سُمي أهلُ كل عصر قرناً ـ أي مقدّماً ـ مِنْ قَرْنِ الدابة وهو مقدمُها لأنه يتقدم مَنْ بعده، وهم أحسنُ صفةٌ لِكَمْ، وأثاثاً تمييز عن النسبة. وهو متاع البيت، وقيل هو لما جَدّ منه والخَرْثيُّ ما رَثَّ والرئيُ المَنْظَر فِعْلٌ مِنَ الرؤية لما يُرىٰ كالطِّحن والخِبْز. وقرأ نافع وابن عامر رِيّاً على قلب الهمزة وإدغامها أو على أنه من الرِّيِّ الذي هو النعمة، وقرأ أبو بكر ريئاً على القلب، وقرىء رِيَاً بحذف الهمزة، وزِيّاً من الزي وهو الجمع فإنه محاسن مجموعة. ثم بيّن أن تمتيعهم استدراج وليس بإكرام، وإنما العيار على الفضل والنقص ما يكون في الآخرة بقوله:

(٧٥) ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ فيَمُدّه ويُمهله بطول العمر والتمتع به، وإنما أَخرَجَه

= (ص١٢٢ رقم ٤٠٧) وأبو عبيدالقاسم بن سلام في الغريب (٣٤٧/٤ مادة أهل) وابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٥٦١) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢١٢) في ترجمة خالد بن معدان.
وهذا الأثر صحيح السند (تخريج الكافي الشافِ ص٨١٨) ص٥٩٨ (١).

(١) الأنبياء: «١٠١».

على لفظ الأمر إيذاناً بأن إمهاله مما ينبغي أن يفعله استدراجاً وقطعاً لمعاذيره[١] كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾[٢] وكقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[٣] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية المدّ. وقيل غاية قول الذين كفروا للذين آمنوا، أيْ قالوا أيُّ الفريقين حتى إذا رأوا ما يوعدون. ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود، فإنه إما العذابُ في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبُهم إياهم قتلاً وأسراً وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين بأن عاينوا الأمر على عكس ما قدّروه وعاد ما مُتِّعوا به خُذْلاناً ووبالاً عليهم، وهو جواب الشرط، والجملة محكية بعد حتى. ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي فئةً وأنصاراً، قابل به أحسن ندياً من حيث إن حُسْن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانِهم وظهورِ شوكتهم واستظهارِهم.

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

(٧٦) ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ عطفٌ على الشرطية المحكية بعد القول، كأنه لما بيّن أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة الدنيا ليس لفضله أراد أن يبين أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأن الله عز وجل أراد به ما هو خير له وعَوّضه منه. وقيل عطفٌ على فليمدد، لأنه في معنى الخبر كأنه قيل مَنْ كان في الضلالة يزيد الله في ضلاله ويزيد المقابِلَ له هداية. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الطاعات التي تبقىٰ عائدتُها أبد الآباد، ويدخل فيها ما قيل من الصلوات الخمس وقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عائدةً مما مُتِّع به الكفرة من النعم المخدَجَة[٤] الفانية التي يفتخرون بها، سِيَّما ومآلُها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرةُ والعذابُ الدائم كما أشار إليه بقوله: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ والخير ههنا إما لمجرد الزيادة، أو على طريقة قولهم الصيفُ أحرّ من الشتاء أي أبلغُ في حرّه منه في بَرده[٥].

(٧٧) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ نزلت في العاص بن وائل، كان لخبّابٍ عليه مالٌ فتقاضاه فقال له: لا حتى تكفر بمحمد، فقال: لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث، قال فإذا بعثت جئتني فيكون لي ثَمَّ مال وولد فأعطيك[٦]. ولما كانت الرؤيةُ أقوى سَنَدِ الإخبار

---

(١) وصفهم بالتمكّن «كان في...» لذمهم والإشعار بعلة الحكم (س٥/ ٢٧٧).
(٢) آل عمران: «١٧٨».
(٣) فاطر: «٣٧».
(٤) المخدَجة أي الناقصة.
(٥) وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيد لها (س٥/ ٢٧٨).
(٦) أخرجه البخاري (٤/ ٣١٧ رقم ٢٠٩١) و(٤/ ٤٥٢ رقم ٢٢٧٥).

استُعمل أرأيتَ بمعنى الإخبار، والفاءُ أصلُها في التعقيب والمعنى: أَخبِرْ بقصة هذا الكافر عقب حديث أولئك. وقرأ حمزة والكسائي وُلْداً وهو جمع وَلَد كأسد في أُسْد، أو لغةٌ فيه كالعَرَب والعُرْب.

(٧٨) ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أَقَدْ بلغ من عظمة شأنه إلى أن ارتقى إلى عِلْم الغيب الذي توحّدُ به الواحد القهار، حتى ادعىٰ أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً وتألّىٰ عليه. ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أو اتخذ من عالم الغيب عهداً بذلك، فإنه لا يُتَوصّلُ إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين. وقيل العهْد كلمة الشهادة والعمل الصالح، فإن وعد الله بالثواب عليهما كالعهد عليه(١).

(٧٩) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وتنبيه على أنه مخطىء فيما تصوره لنفسه. ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ سنُظهر له أنا كتبنا قوله، على طريقة قوله * إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ * أي تبيّن أني لم تلدني لئيمة. أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدو وحفظها عليه؛ فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢). ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ ونُطوِّل له من العذاب ما يستأهله، أو نزيد عذابه ونضاعفُه له لكفره وافترائه واستهزائه على الله جلت عظمته، ولذلك أكده بالمصدر دلالةً على فرط غضبه عليه.

(٨٠) ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته. ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني المال والولد. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة. ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا، فضلاً أن يؤتى ثَمَّ زائداً. وقيل فرداً رافضاً لهذا القول منفرداً عنه.

(٨١) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ليتعززوا بهم حيث يكونون لهم وُصلة إلى الله وشفعاءَ عنده.

(٨٢) ﴿كَلَّآ﴾ ردع وإنكار لتعززهم بها. ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا، لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾(٣). أو سينكر الكفرةُ لسوء العاقبة أنهم عبدوها، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٤) ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يؤيد الأول إذا فُسّر الضد بضد العزّ أي ويكونون عليهم ذلاً، أو بضدهم على معنى أنها تكون معونة في عذابهم بأن توقد بها نيرانهم، أو جعل الواو للكفرة أي يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونها. وتوحيدُه لوحْدة المعنى الذي به مضادتهم، فإنهم بذلك كالشيء الواحد، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «وهم يَدٌ على من سواهم»(٥). وقرىء كَلّاً بالتنوين على قلب الألف نوناً في الوقف قَلْبَ

= و(٥/ ٧٧ رقم ٢٤٢٥) و(٨/ ٤٢٩ رقم ٤٧٣٢) و(٨/ ٤٣٠ رقم ٤٧٣٣) و(٨/ ٤٣٠ رقم ٤٧٣٤) و(٨/ ٤٣١ رقم ٤٧٣٥).
ومسلم (٤/ ٢١٥٣ رقم ٣٥، ٣٦/ ٢٧٩٥) والنسائي في التفسير (رقم: ٣٤٢) والترمذي (٥/ ٣١٨ رقم ٣١٦٢) عن حديث خباب بن الأرت.

(١) والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمة لإيثار ما يدعيه (س٥/ ٢٧٩).
(٢) قٓ: «١٨».
(٣) البقرة: «١٦٦».
(٤) الأنعام: «٢٣».
(٥) وهو جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤/ ٦٧٠ رقم ٤٥٣١) وابن ماجة (٢/ ٨٩٥ رقم ٢٦٨٥) وأحمد (٢/ ١٨٠،

ألف الإطلاق في قوله:

أَقِلِي اللَّوْمَ عَاذِلُ وَالعِتَابَنْ

أو على معنى كلَّ هذا الرأيُ كلاً، وكُلاً على إضمار فعل يفسره ما بعده أي سيجحدون ﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ۝٨٣ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ۝٨٤ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ۝٨٦ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٨٧﴾

(٨٣) ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بأَنْ سلَّطْناهم عليهم أو قيضنا لهم قُرَناء. ﴿ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ تهزهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات، والمراد تعجيب رسول الله ﷺ من أقاويل الكفرة وتماديهم في الغي وتصميمِهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآيات المتقدمة.

(٨٤) ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ بأن يهلكوا حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم. ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ﴾ أيام آجالهم. ﴿عَدّٗا﴾ والمعنى لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبقَ لهم إلا أيامٌ محصورة وأنفاس معدودة.

(٨٥) ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ نجمعهم. ﴿ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إلى ربهم الذي غمرهم برحمته، ولاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأن ولعله لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها ﴿وَفۡدٗا﴾ وافدين عليه كما يَفِد الوُفّاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

(٨٦) ﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ كما تساق البهائم. ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ عِطاشاً فإن مَنْ يَرد الماء لا يرده إلا لعطش، أو كالدواب التي ترد الماء.

(٨٧) ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ الضميرُ فيها للعباد المدلولُ عليها بذكر القِسْمَين، وهو الناصب لليوم. ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ إلا من تحلىٰ بما يُسْتَعَدُّ به ويَستأهل أن يشفع للعصاة من الإيمان والعمل الصالح على ما وعد الله تعالى، أو إلا من اتخذ من الله إذناً فيها كقوله تعالى: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[1] من قولهم: عَهِد الأمير إلى فلان بكذا إذا أَمَرَهُ به. ومحله الرفعُ على البدل من الضمير، أو النصبُ على تقدير مضاف أي إلا شفاعةَ من اتخذ، أو على الاستثناء. وقيل الضمير

= ٢١١، ٢١٥) كلهم من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

● وأخرجه أبو داود (٤/٦٦٦ ـ ٦٦٩ رقم ٤٥٣٠) والنسائي (٨/١٩ ـ ٢٠ رقم ٤٧٣٤) وأحمد (١/١٢٢) وأبو يعلى (١/٢٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٩) كلهم من حديث علي رضي الله عنه.

● وحديث علي له طريق آخر أخرجه أحمد (١/١١٩) وابنه في زوائده (١/١٢٢) والنسائي (٨/٢٤ رقم ٤٧٤٥).

والخلاصة أن الحديث صحيح. وانظر الإرواء (٤/٢٥٠ ـ ٢٥١ رقم ١٠٥٨).

(١) طه: «١٠٩».

للمجرمين، والمعنى: لا يملكون الشفاعة فيهم إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً يستعد به أن يشفع له بالإسلام.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

(٨٨) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ الضميرُ يَحتمل الوجهين، لأن هذا لما كان مقولاً فيما بين الناس جاز أن يُنسب إليهم.

(٨٩) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ على الالتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى. والإدُّ ـ بالفتح والكسر ـ العظيمُ المنكرُ، والإدّةُ الشدّة، وأَدّني الأمرُ وآدَني أثقلني وعظمُ عليَّ.

(٩٠) ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب يَنْفَطِرْن، والأول أبلغ لأن التفعُّل مُطاوعُ فَعَّلَ والانفعَالُ مطاوعُ فَعَلَ ولأن أصل التفعّل التكلف. ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ تَهُدّ هداً أو مهدودة أو لأنها تَهِدُّ أي تَكسِر، وهو تقرير لكونه إدّاً، والمعنى أن هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لو تُصُوِّرت بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفتتت من شدتها، أو أن فظاعتها مُجْلِبة لغضب الله بحيث لولا حِلمه لخَرِب العالم وبدد قوائمه غضباً علىٰ مَنْ تفوه بها.

(٩١) ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ يَحتمل النصب على العلة لِتكادُ أو لهدّاً على حذف اللام وإفضاء الفعل إليه، والجرَّ بإضمار اللام أو بالإبدال من الهاء في منه، والرفعَ على أنه خبرُ محذوف تقديره الموجِبُ لذلك أن دعوْا، أو فاعلَ هدّاً أي هدها دعاء الولد للرحمن، وهو مِنْ دعا بمعنى سمّىٰ المتعدي إلى مفعولين، وإنما اقتصر على المفعول الثاني ليحيط بكل ما دَعَىٰ له ولداً، أو مِنْ دعا بمعنى نَسَبَ الذي مطاوِعُه ادّعىٰ إلىٰ فلان إذا انتسب إليه.

(٩٢) ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولا يليق به اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلاً له مستحيل، ولعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عداه نعمةٌ ومُنْعَم عليه فلا يجانِسُ مَنْ هو مَبْدَأُ النعم كلها ومُولي أصولها وفروعها، فكيف يمكن أن يتخذه ولداً؟! ثمّ صرح به في قوله:

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما منهم. ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد. وقرىء آتٍ الرحمنَ على الأصل.

(٩٤) ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوز علمه وقبضة قدرته. ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، فإن كل شيء عنده بمقدار.

(٩٥) ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ منفرداً عن الأتباع والأنصار فلا يجانسُه شيء من ذلك ليتخذه ولداً ولا يناسبه ليشرك به.

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ سيُحدِث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها، وعن النبي ﷺ «إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل أحببت فلاناً فأحبَّه فيحبُّه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبُّه أهل السماء، ثم توضع له المحبة في الأرض»[١]. والسين إما لأن السورة مكية وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم ذلك إذا دَجَا الإسلامُ، أو لأن الموعود في القيامة حين تُعْرَض حسناتهم على رؤوس الأشهاد فينتزع ما في صدورهم من الغل[٢].

(٩٧) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ بلغتك، والباء بمعنى على أو على أصله لتضمن يسَّرْناه معنى أنزلناه أي أنزلناه بلغتك. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى. ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أشداءَ الخصومة آخذين في كل لَدِيد، أي شقٍّ من المراء لِفَرط لَجَاجِهم فبشر به وأنذر.

(٩٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تخويفٌ للكفرة وتجسير للرسول ﷺ على إنذارهم. ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ هل تَشعر بأحد منهم وتراه. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وقرىء تُسْمَعُ من أسمعتَ. والركز الصوت الخفي، وأصل التركيب هو الخفاء، ومنه ركز الرمحَ إذا غيَّب طرفَه في الأرض، والركاز المال المدفون. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة مريم أُعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله»[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه البخاري (٦/٣٠٣ رقم ٣٢٠٩) و(١٣/٤٦١ رقم ٧٤٨٥) ومسلم (٤/٢٠٣٠ رقم ٢٦٣٧/١٥٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود من آثارها (س٥/٢٨٣).

(٣) رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي ـ كما في «الكافي الشافِ» (رقم: ٣٦٠) ـ وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/٢٣٩، ٢٤٠) وتقدم الكلام عليه في آخر آل عمران.

سورة طه

ترتيبها ٢٠ — آياتها ١٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ
ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن
تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ
مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

سورة طه مكية[١] ، وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طه﴾ فَخَّمها قالون[٢] وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل، وفخّم الطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه، وأمالهما الباقون. وهما من أسماء الحروف. وقيل معناه يا رجلُ على لغة عكٍّ[٣] ، فإن صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار، والاستشهادُ بقوله:

---

(١) مكية كلها في قول الجميع.
فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت طه بمكة، وأخرجه أيضاً ابن مردويه عن ابن الزبير. [انظر «الدر المنثور» (٥/٥٤٨) و«زاد المسير» (٥/٢٦٨) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١١/١٦٣)].

(٢) هو عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبد الصمد، و(قالون) لقب له. لقَّبه به (نافع) لجودة قراءته، كان قارىء المدينة المنورة. قال أبو محمد البغدادي: كان (قالون) أصم شديد الصمم، لا يسمع البوق، فإذا قرىء عليه القرآن سمعه. توفي بالمدينة المنورة سنة عشرين ومائتين في عهد الخليفة المأمون.

(٣) قال ابن جرير (٩/ج١٦/١٣٦ ـ ١٣٧): «والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه: قول من قال: معناه يا رجل. لأنها كلمة معرفة في عكٍّ فيما بلغني وأن معناها فيهم: يا رجل، أنشدت لمتمم بن نويرة:

هتفت بطَـةَ فـي القتـالِ فلـم يُجِـبْ   فخِفْـتُ عليـه أن يكـونَ مـوائِـلا

إنَّ السفــاهَــةَ طَــاهَــا فــي خَـلائِقِكُـمْ لاَ قَـدَّسَ الله أَخْـلاقَ المَـلاَعِيـن

ضعيفٌ لجواز أن يكون قَسَماً كقوله حم لا ينصرون. وقرىء طَهْ على أنه أمر للرسول ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه[1]، فإنه كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، وأن أصله طَأْ فقلبت همزته هاء أوقت في يطأ أَلِفاً كقوله * لا هُناك المرتع * ثم بنىٰ عليه الأمرَ وضم إليه هاء السكت، وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل طه طَأْها، والألفُ مبدلةٌ من الهمزة، والهاء كناية الأرض. لكن يَرُدُّ ذلك كتابتُهما على صورة الحرف، وكذا التفسير بِيَا رجلُ، أو اكتفىٰ بشطري الكلمتين وعَبّر عنهما باسمهما.

(٢) ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ خبر طه إن جعلته مبتدأ على أنه مؤوّل بالسورة أو القرآنِ، والقرآنُ فيه واقع موقع العائد وجوابِه إن جعلتَه مُقْسَماً به ومنادى له إن جعلتَه نداءً، واستئنافٌ إن كانت جملة فعلية أو اسمية بإضمار مبتدإ، أو طائفة من الحروف محكية والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرْط تأسفك على كفر قريش إذ ما عليك إلا أن تبلغ، أو بكثرة الرياضة وكثرة التهجد والقيام على ساق. والشقاء شائع بمعنى التعب ومنه أشقىٰ من رائضِ المهر، وسيد القوم أشقاهم. ولعله عدل إليه للإشعار بأنه أُنزِل عليه ليسعد. وقيل رد وتكذيب للكفرة، فإنهم لما رأوا كثرة عبادته قالوا إنك لتشقى بترك ديننا وإن القرآن أُنزل عليك لتشقى به[2].

(٣) ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ لكن تذكيراً، وانتصابُها على الاستثناء المنقطع. ولا يجوز أن يكون بدلاً من محل لتشقى لاختلاف الجنسين، ولا مفعولاً له لأنزلنا فإن الفعل الواحد لا يتعدى إلى علتين. وقيل هو مصدر في موقع الحال من الكاف أو القرآن، أو مفعول له على أن لتشقى متعلق بمحذوف هو صفة القرآن أي ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه إلا تذكرة. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لمن في قلبه خشية ورقة تتأثر بالإنذار، أو لمن علم الله منه أنه يخشى بالتخويف منه فإنه المنتفع به.

(٤) ﴿تَنزِيلًا﴾ نصْبٌ بإضمار فعله أو بيخشى، أو على المدح، أو البدل من تذكرة إن جعل حالاً. وإن جُعِل مفعولاً له لفظاً أو معنًى فلا، لأن الشيء لا يُعلل بنفسه ولا بنوعه. ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ مع ما بعده إلى قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[3] تفخيم لشأن المنزَّل بفرط تعظيم المنزِّل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، وقدّم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهرُ عنده من السموات العلى، وهو جمع العليا تأنيث الأعلى، ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام

---

(١) ورد ذلك عن علي وابن عباس، وأخرجه ابن مردويه والبيهقي في الشعب (فتح القدير ٣/ ٣٦٠) والبزار (كشف الأستار ٣/ ٥٨) والقاضي عياض في الشفاء (١/ ٤١).
وهو ضعيف بجميع طرقه كما في تخريج الفتح السماوي (ص٨٢٣).
وعليه فالأولى أن يكون «طه» مثل بقية الحروف المقطعة في أوائل السور.

(٢) ما ورد أن الكفرة قالوا بأن القرآن أُنزل عليك لتشقىٰ به.. أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٣١٢) بسنده عن الضحاك، وكذا أخرجه ابن جرير والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٣١٢ ج٩٨٩) وفي سنده موسىٰ بن عبيدة وهو ضعيف (التقريب ٢/ ٢٨٦) وضعفه الهيثمي أيضاً (المجمع ٤/ ١٢٦).

(٣) طه: «٨».

والتقادير وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال:

(٥) ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[١].

(٦) ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته، ولمّا كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم عقّب ذلك بإحاطة علمه تعالى بِجَلِيات الأمور وخفياتها على سواء فقال:

(٧) ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ أي وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلمْ أنه غني عن جهرك، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس. وفيه تنبيه على أن شَرْعَ الذِّكْر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله بل لتصوير النفس بالذكْر ورسوخه فيها ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع والجؤار، ثم إنه لما ظهر بذلك أنه المستجمع لصفات الألوهية بيّن أنه المتفرد بها والمتوحد بمقتضاها فقال:

(٨) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ومَنْ في مِمّن خلق الأرض صلةٌ لتنزيلاً أو صفة له. والانتقالُ من التكلم إلى الغيبه للتفنن في الكلام، وتفخيمُ المنزَّل من وجهين: إسنادُ إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبتُه إلى المختص بصفات الجلال والإكرام، والتنبيهِ على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث إنه كلام مَنْ هذا شأنه. ويجوز أن يكون أنزلناه حكايةَ كلام جبريل والملائكة النازلين معه. وقرىء الرحمنِ على الجر صفة لمَنْ خلق، فيكونُ «على العرش استوى» خبرُ محذوفٍ، وكذا إن رُفِعَ الرحمن على المدح دون الابتداء، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً. والثرىٰ الطبقةُ الترابية من الأرض وهي آخر طبقاتها[٢]. والحسنى تأنيث الأحسن، وفَضْلُ أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن لدلالتها على معان هي أشرف المعاني وأفضلها.

(٩) ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ قفّىٰ تمهيدَ نبوته ﷺ بقصة موسى ليَأْتمّ به في تحمل أعباء النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل.

(١٠) ﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ ظرفٌ للحديث لأنه حَدَثٌ، أو مفعول لاذكُر. قيل إنه استأذن شعيباً[٣] عليهما الصلاة والسلامْ في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله فلما وافىٰ وادي طوًى وفيه الطور وُلِد له ابن في

---

(١) وصفه تعالى بالرحمانية إثر وصفه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى (س٦/ ٥).

(٢) الثرى هو التراب، وذكره ـ مع دخوله تحت ما في الأرض ـ لزيادة التقرير (س٦/ ٥).

(٣) قال سيد قطب في الظلال (٥/ ٢٦٨٧ رقم التعليقة: ١) «سبق أن قلت مرة في الظلال: إنَّ هذا الرجل هو شعيب. وقلت مرة إنه قد يكون النبي شعيباً أو لا يكون.. وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدين، والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبقَ معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب ـ النبي ـ بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل.
يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره.. ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات» هـ.

ليلة شاتية مظلمة مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيتُه إذ رأى من جانب الطور ناراً. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أقيموا مكانكم. وقرأ حمزة «لأَهْلِهُ امْكُثوا» ههنا وفي القصص[1] بضم الهاء في الوصل، والباقون بكسرها. ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أبصرتُها إبصاراً لا شبهة فيه، وقيل الإيناس إبصارُ ما يؤنَس به. ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ بشُعلة من النار، وقيل جمرة. ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ هادياً يدلني على الطريق أو يهديني أبواب الدين، فإن أفكار الأبرار مائلة إليها في كل ما يعنّ لهم. ولما كان حصولهما مترقَّباً بنىٰ الأمر فيهما على الرجاء، بخلاف الإيناس فإنه كان مُحققاً ولذلك حققه لهم ليوطنوا أنفسهم عليه. ومعنى الاستعلاء في «على النار» أنّ أهلها مشرِفون عليها، أو مستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في: مررت بزيد إنه لَصُوق بمكان يقرب منه.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾

(١١) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي النار وجد ناراً بيضاء تتّقد في شجرة خضراء. ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

(١٢) ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فتَحه ابنُ كثير وأبو عمرو أيْ بأنّي، وكسره الباقون بإضمار القول أو إجراء النداء مجراه، وتكريرُ الضمير للتوكيد والتحقيق. قيل إنه لما نودي قال: مَنْ المتكلم؟ قال: إني أنا الله، فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء. وهو إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام تلقى من ربه كلامه تلقياً روحانياً، ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة. ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ أمَرَه بذلك لأن الحِفْوَة تواضع وأدب، ولذلك طاف السلف حافين، وقيل لنجاسة نعليه فإنهما كانتا من جلد حمار غير مدبوغ[2]، وقيل معناه فَرِّغْ قلبك من الأهل والمال. ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ تعليل للأمر باحترام البقعة، والمقدّس يحتمل المعنيين. ﴿طُوٗى﴾ عطفُ بيانٍ للوادي، ونَوّنه ابنُ عامر والكوفيون بتأويل المكان. وقيل هو كَثِنًى مِنَ الطيّ مصدرٌ لنودي أو المقدس، أي نودي نداءين أو قُدِّس مرتين.

(١٣) ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوة. وقرأ حمزة وأَنّا اخترناك. ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ للذي يوحى إليك، أو للوحي. واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين.

(١٤) ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ بدلٌ ممّا يوحىٰ، دالّ على أنه مقصور علىٰ تقرير التوحيد

---

(١) القصص: «٢٩».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤١٠ ـ مع التحفة) وقال «هذا حديث غريب. لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج، وحميد الأعرج هو ابن علي الأعرج، منكر الحديث».
ـ وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٧٩) وصححه على شرط البخاري فتعقبه الذهبي بقوله: «بل ليس على شرط البخاري، وإنما غرّه أن في الإسناد حميد بن قيس كذا وهو خطأ إنما هو حميد الأعرج الكوفي ابن علي، أو ابن عمار، أحد المتروكين، فظنه المكي الصادق» هـ.

الذي هو منتهى العلم والأمرِ بالعبادة التي هي كمال العمل. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ خصها بالذكر وأفردها بالأمر للعلة التي أناط بها إقامتَها، وهو تذكر المعبود وشَغْل القلب واللسانِ بذكره. وقيل لذكري لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأنْ أَذْكُرَك بالثناء، أو لذكري خاصة لا تُرائي بها ولا تشوبها بذكر غيري. وقيل لأوقاتِ ذِكْري وهي مواقيت الصلاة، أو لذكر صلاتي، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها إذا ذكرها، إن الله تعالى يقول «أقم الصلاة لذكري»[1].

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ كائنة لا محالة[2]. ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أُريد إخفاء وقتها، أو أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية ولولا ما في الإخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعذار لما أَخبرتُ به، أو أكاد أظهرها مِنْ أخفاه إذا سلب خفاءه، ويؤيده القراءة بالفتح مِنْ خفاه إذا أظهره. ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ متعلق بآتية أو بأخفيها على المعنى الأخير.

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا﴾ عن تصديق الساعة، أو عن الصلاة. ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ نهى الكافر أن يصد موسى عليه الصلاة والسلام عنها، والمراد نهيه أن ينصد عنها كقولهم: لا أرينك ههنا، تنبيهاً على أن فطرته السليمة لو خُليت بحالها لاختارها ولم يُعرض عنها، وأنه ينبغي أن يكون راسخاً في دينه فإن صد الكافر إنما يكون بسبب ضعفه فيه. ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ميلَ نفسه إلى اللذات المحسوسة المخدَجة فقصُر نظره عن غيرها. ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ فتهلك بالانصداد بصده.

(١٧) ﴿وَمَا تِلۡكَ﴾ استفهام يتضمن استيقاظاً لما يُريه فيها من العجائب. ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال من معنى الإشارة، وقيل صلةُ تلك. ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكرير لزيادة الاستئناس والتنبيه.

(١٨) ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ وقرىء عَصِيّ على لغة هذيل[3]. ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ اعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع. ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي. وقرىء أَهِشُّ وكلاهما مِنْ هشّ الخبزُ يَهِش إذا انكسر لهشاشته[4]، وقرىء بالسين من الهَسّ وهو زجر الغنم. أي

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٧٠ رقم ٥٩٧) ومسلم (١/ ٤٧٧ رقم ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٦٨٤).
والبغوي في «شرح السنة» (٢/ ٢٤١) من حديث أنس.
وكذلك أخرجه مسلم (١/ ٤٧١ رقم ٣٠٩/ ٦٨٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) عبر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين (س٦/ ٨).

(٣) نسب العصا إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه، وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه الصلاة والسلام (س٦/ ١٠).

(٤) وتعدية الفعل أهش بـ «على» لتضمين معنى الانحاء والإقبال (س٦/ ١٠).

أنحي عليها زاجراً لها. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ حاجات أخر، مثل أن كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته، وعَرَضَ الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستَظَلّ به، وإذا قصُر الرِّشاء[١] وَصَلَه بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها. وكأنه ﷺ فهم أن المقصود من السؤال أن يَذْكُر حقيقتها وما يرى من منافعها، حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة ـ مثل أن تشتعل شعبتاه بالليل كالشمع وتصيران دلواً عند الاستقاء وتطول بطول البئر وتحارب عنه إذا ظهر عدو وينبع الماء بركزها وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فرَكَزَها ـ علم أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله فيها لأجله وليست من خواصها، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلاً ومجملاً على معنى أنها من جنس العصي تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه.

قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾[٢].

(٢٠) ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حيةً صفراء بغلظ العصا، ثم تورمت وعظمت، فلذلك سماها جاناً تارة نظراً إلى المبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى وحية أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحالين. وقيل كانت في ضخامة الثعبان وجلادة الجانّ ولذلك قال «كأنها جان».

(٢١) ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فإنه لما رآها حية تسرع وتبتلع الحجر والشجر خاف وهرب منها[٣]. ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ هيئتها وحالتها المتقدمة، وهي فِعْلَة من السير تَجَوَّزَ بها للطريقة والهيئة. وانتصابها على نزع الخافض أو على أنّ أَعاد منقول من عادهُ بمعنى عاد إليه، أو على الظرف أي سنعيدها في طريقتها، أو على تقدير فِعْلها أي سنعيد العصا بعد ذهابها تسير سيرتها الأولى فتنتفع بها ما كنت تنتفع قبل. قيل لما قال له ربه ذلك اطمأنت نفسه حتى أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها.

(٢٢) ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك تحت العضُد، يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحيْ العسكر، استعارة من جناحي الطائر سُميا بذلك لأنه يجنحهما عند الطيران. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ كأنها مشعة. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير عاهة وقبح، كنّى به عن البرص كما كنّىٰ بالسوأة عن العورة لأن الطباع تعافه وتنفر عنه. ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ معجزة ثانية. وهي حال من ضمير تخرج كبيضاء، أو من ضميرها، أو مفعول بإضمار خذ أو دونك.

---

(١) الرشاء هو الحبل (مختار الصحاح مادة رشا).

(٢) تكرير النداء لتأكيد التنبيه (س٦/١٠).

(٣) وفي عطف النهي «لا تخف» على الأمر «خذها» إشعارٌ بأن عدم النهي عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط (س٦/١١).

لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾
وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾
وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى
ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ
أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ
مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

(٢٣) ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ متعلق بهذا المضمر أو بما دل عليه آية أو القصة التي دللنا بها أو فعلنا ذلك لنريك، والكبرى صفة آياتنا أو مفعول نريك، ومن آياتنا حال منها.

(٢٤) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بهاتين الآيتين وادعُه إلى العبادة. ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ عصىٰ وتكبر.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ لمّا أمره الله بخطب عظيم وأمر جسيم سأله أن يشرح صدره ويُفسح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه والتلقي لما ينزل عليه ويسهل الأمر له بإحداث الأسباب ورفع الموانع. وفائدة «لي» إبهامُ المشروح والميسر أولاً، ثم رفعُه بذكر الصدر والأمر تأكيداً ومبالغة.

(٢٧) ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾.

(٢٨) ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ فإنما يَحسُن التبليغ من البليغ، وكان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاهُ، وذلك أن فرعون حمله يوماً فأخذ بلحيته ونتفها، فغضب وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت، فأُحضرا بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فيه[١]، ولعل تبييض يده كان لذلك. وقيل احترقت يده فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ، ثم لما دعاه قال إلى أي رب تدعوني؟ قال إلى الذي أبرأ يدي وقد عجَزتَ عنه. واختلف في زوال العقدة بكمالها فمَنْ قال به تمسك بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[٢] ومن لم يقل احتج بقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى

---

(١) وهو جزء من حديث «الفتون» عن ابن عباس موقوفاً عليه.
أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٦/ ١٦٤ ـ ١٦٧) وأبو يعلى في المسند (٥/ ١٠ ـ ٢٩ رقم ٢٦١٨).
ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥٦ ـ ٦٦) وقال: رجاله رجال الصحيح غير أصبع بن زيد، والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان.
ـ وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٦١): «رواه النسائي في السنن الكبرىٰ ـ التفسير رقم ٣٤٦ ـ وأخرجه أبو جعفر ابن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيرهما كلهم من حديث يزيد بن هارون، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً» هـ.

(٢) طه: «٣٦».

لِسَانًا﴾[١] وقوله ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[٢]. وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه مطلقاً بل عقدة تمنع الإفهام، ولذلك نكّرها وجعل يفقهوا جواب الأمر. ومنْ لساني «يَحتمل أن يكون صفة عقدة، وأن يكون صلة احلل.

(٢٩) ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾.

(٣٠) ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ يعينني على ما كلفتني به. واشتقاق الوزير إما من الوِزْر لأنه يحمل الثقل عن أميره، أو من الوَزَر وهو الملجأ لأن الأمير يعتصم برأيه ويلتجيء إليه في أموره، ومنه الموازرة. وقيل أصله أَزِير من الأَزْر بمعنى القوة، فَعيل بمعنى مُفَاعِل كالعشير والجليس قلبت همزته واواً كقلبها في موازر. ومفعولا اجْعَل: وزيراً وهارون، قُدِّم ثانيهما للعناية به، و«لي» صلة أو حال، أولي وزيراً وهارون عطفُ بيانٍ للوزير، أو وزيراً من أهلى ولي تبيين كقوله ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾[٣]، وأخي على الوجوه بدلٌ من هارون أو مبتدأً خبرُه:

(٣١) ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾.

(٣٢) ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ على لفظ الأمر، وقرأهما ابنُ عامر بلفظ الخبر على أنهما جواب الأمر[٤].

(٣٣) ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا﴾.

(٣٤) ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فإن التعاون يهيّج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايده.

(٣٥) ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ عالماً بأحوالنا، وأن التعاون مما يصلحنا، وأن هارون نعم المعين لي فيما أمرتني به.

(٣٦) ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي مسؤلك، فِعْل بمعنى مفعول كالخُبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول.

(٣٧) ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ أي أنعمنا عليك في وقت آخر[٥].

(٣٨) ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ بإلهام أو في منام أو على لسان نبي في وقتها أو مَلَك ـ لا على وجه النبوة ـ كما أوحي إلى مريم. ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما لا يعلم إلا بالوحي، أو مما ينبغي أن يوحىٰ ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به.

(٣٩) ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ بأن اقذفيه، أو أي اقذفيه لأن الوحي بمعنى القول. ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ والقذف يقال للإلقاء وللوضع كقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾[٦]، وكذلك الرمي كقوله: * غُلَامٌ

---

(١) القصص: «٣٤».

(٢) الزخرف: «٥٢».

(٣) الإخلاص: «٤».

(٤) قراءة ابن عامر «أُشْرِكْهُ» بضم الألف وسكون الكاف، وبفتح الألف وقطعها من اشدد أي «أَشْدِدْ».

(٥) وتصديره بالقَسَم لكمال الاعتناء به.

(٦) الحشر: «٢».

رَمَاهُ الله بِالحُسْنِ يَافِعاً * ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لمّا كان إلقاءُ البحر إياه إلى الساحل أمراً واجب الحصول لتعلق الإرادة به وجَعْلُ البحر كأنه ذو تمييز مطيع أَمَرَهُ بذلك وأخرج الجواب مخرج الأمر. والأوْلى أن تُجعل الضمائر كلها لموسى مراعاة للنظم، فالمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل، وإن كان التابوت بالذات فموسى بالعَرَض. ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جوابُ فليلْقِه. وتكرير عدو للمبالغة، أو لأن الأول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقَّع. قيل إنها جَعلت في التابوت قطناً ووضعته فيه ثم قبرته وألقته في اليم، وكان يَشْرَعُ منه إلى بستان فرعون نهرٌ فدفعه الماء إليه فأداه إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً على رأسها مع امرأته آسية بنت مزاحم، فأمر به فأُخرِج فَفُتِح فإذا هو صبي أَصْبَحُ الناسِ وجهاً، فأحبه حباً شديداً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي محبة كائنة مني قد زرعتُها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، فلذلك أحبك فرعون. ويجوز أن يتعلق «منّي» بألقيتُ، أي أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب. وظاهر اللفظ أن اليم ألقاه بساحله وهو شاطئه، لأن الماء يسحلُه فالتُقط منه، لكن لا يبعد أن يُؤَوّل الساحل بجنب فوهة نهره. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ لتُربىٰ ويُحْسَنَ إليك، وأنا راعيك وراقبك. والعطفُ على علة مضمرة مثل ليُتعطَّفَ عليك، أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معلّل مثل فعلتُ ذلك. وقرىء ولْتُصْنعَ بكسر اللام وسكونها والجَزْمُ على أنه أَمْر، ولتَصْنَعَ بالنصب وفتح التاء أي وليكن عملك على عين مني لئلا تخالِفَ به عن أمري.

(٤٠) ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ ظرف لألقيتُ أو لتصنع، أو بدل من إذ أوحينا على أن المراد بها وقت متسع. ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وذلك لأنه كان لا يَقبل ثدي المراضع، فجاءت أخته مريمُ متفحصة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها فقالت «هل أدلكم»، فجاءت بأمه فقَبِل ثديها. ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وفاءً بقولنا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[1] ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ هي بفراقك، أو أنت على فراقها وفقد إشفاقها. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي. ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ غم قتله خوفاً من عقاب الله تعالى واقتصاص فرعون بالمغفرة والأمن منه بالهجرة إلى مدين. ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ وابتليناك ابتلاء، أو أنواعاً من الابتلاء على أنه جمع فِتَن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحُجُوز وبُدُور في حُجْزة وبِدْرة، فخلّصناك مرة بعد أخرى، وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألاّف والمشي راجلاً على حذر وفقد الزاد وأَجْرِ نفسه إلى غير ذلك أوّلَهُ ولما سبق ذِكره. ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لبث فيهم عشر سنين قضاء لأوفىٰ الأجلَيْن. ومدين على ثمان مراحل من مصر. ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قَدَّرْتُه لأَنْ أُكلمك وأَستنبئك غيرَ مستقدِم وقتُه المعين ولا مستأخِر، أو على مقدار من السنّ يوحىٰ فيه إلى الأنبياء. ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ كرره عقيب ما هو غايةُ الحكاية للتنبيه على ذلك.

(١) القصص: «٧».

وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾
فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ
إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

(٤١) ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ واصطفيتك لمحبتي. مَثَّله فيما خوّله من الكرامة بمَنْ قربه الملك واستخلصه لنفسه[١].

(٤٢) ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ بمعجزاتي. ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تفترا ولا تقصّرا. وقرىء تِنِيَا بكسر التاء. ﴿فِي ذِكۡرِي﴾ لا تنسياني حيثما تقلبتما. وقيل في تبليغ ذكري والدعاء إليَّ.

(٤٣) ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أمر به أولاً موسى عليه الصلاة والسلام وحده، وهنا إياه وأخاه فلا تكرير. قيل أوحى إلى هارون أن يتلقى موسى، وقيل سمع بمَقْبِله فاستقبله.

(٤٤) ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ مثل ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[٢] فإنه دعوة في صورة عَرْض ومشورة حذراً أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليكما؛ أو احتراماً لما له من حق التربية عليك. وقيل كَنِّيَاه، وكان له ثلاث كنًى: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة[٣]. وقيل عِدَاه شباباً لا يهرم بعده ومُلكاً لا يزول إلا بالموت. ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ متعلق باذهبا أو قولا أي: باشِرا الأمر على رجائكما وطمعِكُما أنه يثمر، ولا يخيب سعيكما فإن الراجي مجتهد والآيس متكلف. والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه بأنه لا يؤمن إلزامُ الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم، ولذلك قدم الأول أي إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقلّ من أن يتوهمه فيخشى.

(٤٥) ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾ أن يَعْجَل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة، مِنْ فَرَط إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فَرِط يسبق الخيل. وقرىء يَفْرَط من أفرطته إذا حملته على العجلة، أي نخاف أن يحمله حامل من استكبار أو خوف على الملك أو شيطان إنسي أو جني على المعاجلة بالعقاب، ويُفْرِطَ من الإفراط في الأذية. ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ أو أن يزداد طغياناً فيتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب[٤].

(٤٦) ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بالحفظ والنصر. ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول

---

(١) والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى «وفتنّاك» ونظيريه السابقين تمهيد لإفراد لفظ النفس اللائق بالمقام، فإنه أدخل في تحقيق معنىٰ الاصطناع (س٦/١٧).

(٢) النازعات: «١٨، ١٩».

(٣) لم أقف على ضبط هذه الكنية، غير أن المتبادر أن تكون بضم الميم وهي كنية إبليس ـ لعنه الله ـ وقد تكون بالكسر، بمعنى العقل أو الشدة والقوة والله سبحانه أعلم. وذو مرة بكسرها جبريل عليه السلام.

(٤) وإظهار كلمة «أن» مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الإعتناء بالأمر، والإشعار بتحقق الخوف من كلٍّ منهما (س٦/١٨).

وفعل، فأُحدِث في كل ما يصرف شره عنكما ويوجب نصرتي لكما. ويجوز أن لا يقدر شيء على معنى إنني حافظكما سامعاً ومبصراً، والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً تمّ الحفظُ.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

(٤٧) ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أطلقهم. ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بالتكاليف الصعبة وقتل الولدان، فإنهم كانوا في أيدي القبط يستخدمونهم ويتعبونهم في العمل ويقتلون ذكور أولادهم في عام دون عام. وتعقيبُ الإتيان بذلك[1] دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهمّ من دعوتهم إلى الإيمان، ويجوز أن يكون للتدريج في الدعوة. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ جملة مقررة لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، وإنما وَحّد الآية وكان معه آيتان لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددها، وكذلك قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾[2]، ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾[3]، ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾[4]. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين، أو السلامة في الدارين لهم.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أن عذاب المنزلين على المكذبين للرسل، ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لأن التهديد في أول الأمر أهم وأنجع وبالواقع أليق.

(٤٩) ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي بعد ما أتياه وقالا له ما أُمرا به، ولعله حُذف لدلالة الحال عليه فإن المطيع إذا أمر بشيء فعله لا محالة. وإنما خاطب الاثنين وخص موسى عليه الصلاة والسلام بالنداء لأنه الأصل وهارون وزيره وتابعه، أو لأنه عرف أن له رتة ولأخيه فصاحة فأراد أن يفحمه ويدلُّ عليه قولُه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[5].

(٥٠) ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأنواع ﴿خَلْقَهُۥ﴾ صورتَه وشَكْله الذي يطابق كماله الممكن له، أو أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، فقدم المفعول الثاني لأنه المقصود بيانه. وقيل أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة زوجاً. وقرىء خَلَقَهُ صفة للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ، فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل مخلوق ما يصلحه. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثم عرّفه كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختياراً أو طبعاً. وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره، وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودلالته على أن الغني القادر بالذات المنعم

---

(١) أي بالأمر بإرسال بني إسرائيل معهم.
(٢) الأعراف: «١٠٥».
(٣) الشعراء: «١٥٤».
(٤) الشعراء: «٣٠».
(٥) الزخرف: «٥٢».

على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عداه مفتقر إليه منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بُهت الذي كفر وأُفحم عن الدخل عليه فلم يرَ إلاَّ صَرْفَ الكلام عنه.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾

(٥١) ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة؟.

(٥٢) ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي هو غيب لا يعلمه إلا هو، وإنما أنا عبد مِثْلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به. ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ مثبت في اللوح المحفوظ. ويجوز أن يكون تمثيلاً لتمكنه في علمه بما استحفَظَه العالِمُ وقيّده بالكَتْبَة، ويؤيده: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ والضلال أن تخطىء الشيء في مكانه فلم تهتد إليه، والنسيان أن تذهب عنه بحيث لا يخطر ببالك، وهما محالان على العالم بالذات. ويجوز أن يكون سؤاله دخلاً على إحاطة قدرة الله تعالى بالأشياء كلها، وتخصيصُه أبعاضَها بالصور والخواص المختلفة بأن ذلك يستدعي علمه بتفاصيل الأشياء وجزئياتها والقرونِ الخاليةِ مع كثرتهم وتمادي مدتهم وتباعد أطرافهم كيف أحاط علمُه بهم وبأجزائهم وأحوالهم، فيكون معنى الجواب: أن علمه تعالى محيط بذلك كله وأنه مثبت عنده لا يضل ولا ينسى[1].

(٥٣) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مرفوع صفةٌ لربي، أو خبرٌ لمحذوف، أو منصوبٌ على المدح. وقرأ الكوفيون هنا وفي الزخرف[2] مَهْداً أي كالمهد تتمدونها وهو مصدر سمي به، والباقون مِهَاداً وهو اسمُ ما يُمَهّد كالفراش أو جمعُ مَهْدٍ، ولم يختلفوا في الذي في النبأ[3]. ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وجعل لكم فيها سبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته، وعلى هذا نظائره كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾[4] ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾[5] الآية. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض. ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيانٌ أو صفة لأزواجاً، وكذلك: ﴿شَتَّىٰ﴾ ويحتمل أن يكون صفة لنبات، فإنه من حيث إنه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد والجمع، وهو جَمْعُ شتيت كمريض ومرضى، أي متفرقات في الصور والأغراض والمنافع يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم، فلذلك قال:

---

(١) وإظهار «ربي» في موقع الإضمار للتلذذ بذكره، ولزيادة التقرير، والإشعار بعلة الحكم فإن الربوبية مما يقتضي عدم الضلال والنسيان (س٦/ ٢١).

(٢) الزخرف: «١٠».

(٣) حيث قرؤوا جميعاً «مهاداً» في قوله: «ألم نجعل الأرض مِهَاداً» ـ النبأ «٦» ـ.

(٤) فاطر: «٢٧».

(٥) النمل: «٦٠».

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

(٥٤) ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ وهو حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول، أي أخرجنا أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا، والمعنى مُعِدِّيها لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح، جمع نُهْيَة[١].

(٥٥) ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول مواد أبدانكم. ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بالموت وتفكيك الأجزاء[٢]. ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصور السابقة ورد الأرواح إليها.

(٥٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ بصرناه إياها أو عرفناه صحتها[٣]. ﴿ كُلَّهَا ﴾ تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد، على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع المختصة بموسى، أو أنه عليه السلام أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من المعجزات ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ موسى من فرط عناده. ﴿ وَأَبَىٰ ﴾ الإيمان والطاعة لعتوه..

(٥٧) ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أرض مصر. ﴿ بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ هذا تعلل وتحير ودليل على أنه علم كونَه محقاً حتى خاف منه على ملكه، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج مِلكاً مثله من أرضه.

(٥٨) ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ مثلَ سحرك. ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ وعداً لقوله: ﴿ لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ ﴾ فإن الإخلاف لا يلائم الزمان والمكان[٤]. وانتصابُ ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ بفعل دل عليه المصدر لا به لأنه موصوف، أو بأنه بدل من موعداً على تقدير مكان مضاف إليه، وعلى هذا يكون طباق الجواب في قوله:

(٥٩) ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم، أو بإضمارِ مثل مكانُ موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول، أو وعدكم وعد يوم الزينة. وقرىء يومَ بالنصب وهو ظاهر في أن المراد بهما المصدر. ومعنى سوى منتصِفاً يستوي مسافته إلينا وإليك، وهو في النعت كقولهم: قومٌ عَدِيٌّ في الشذوذ. وقرأ ابن عامر

---

(١) وتخصيص أولي النهىٰ لأنهم المنتفعون بها (س٦/ ٢٢).

(٢) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (س٦/ ٢٢).

(٣) وتصديرها بالقَسَم للعناية، وإسناد الإرادة إلى نون العظمة لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في المكابرة (س٦/ ٢٢).

(٤) قدم فرعون ضميره على ضمير موسىٰ ووسط كلمة النفي «لا» بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف (س٦/ ٢٤).

وعاصم وحمزة ويعقوب بالضم[١]. وقيل في يوم الزينة يوم عاشوراء[٢]، أو يوم النيروز[٣]، أو يوم عيد كان لهم في كل عام، وإنما عينه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك في الأقطار. ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ عطف على اليوم أو الزينة. وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون، والياءِ على أن فيه ضمير اليوم أو ضمير فرعون على أن الخطاب لقومه.

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ ما يُكَادُ به، يعني السحرة وآلاتهم. ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ الموعد.

(٦١) ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدّعوا آياته سِحراً. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ فيهلككم ويستأصلكم، وبه قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب بالضم من الاسحات وهو لغة نجد وتميم، والسحْت لغة الحجاز. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ كما خاب فرعون، فإنه افترى واحتال ليبقى الملكُ عليه فلم ينفعه.

(٦٢) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي تنازعت السحرة في أمر موسى حين سمعوا كلامه، فقال بعضهم: ليس هذا من كلام السحرة. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بأن موسى إنْ غَلَبَنا اتبعناه، أو تنازعوا واختلفوا فيما يعارِضون به موسى وتشاوروا في السر. وقيل الضمير لفرعون وقومه. وقولُه:

(٦٣) ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ تفسير لأسروا النجوى، كأنهم تشاوروا في تلفيقه حذراً أن يَغْلِبا فيتبعُهما الناس. وهذان اسم إنْ على لغة بلحرث بن كعب فإنهم جعلوا الألف للتثنية وأعربوا المثنى تقديراً، وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها، وقيل إنَّ بمعنى نعم وما بعدها مبتدأ وخبر وفيهما أن اللام لا تدخل خبر المبتدأ، وقيل أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكَّد باللام لا يليق به الحذف. وقرأ أبو عمرو إنّ هذين وهو ظاهر، وابن كثير وحفص إنْ هذان على أنها هي المخففة واللام هي الفارقة أو النافيةُ واللامُ بمعنى إلاّ. ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ بالاستيلاء عليها. ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾[٤]. وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٥]. وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث إنهم قدوة لغيرهم.

---

(١) أي بضم السين في «سوى» بينما قرأ الباقون بكسر السين.
(٢) انظر هذه الأقوال في «جامع البيان» (٩/ج١٦/١٧٧) و«الدر المنثور» (٥/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥).
(٣) أول يوم من السنة.
(٤) غافر: «٢٦».
(٥) الشعراء: «١٧».

فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ
مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ
مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا
يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

(٦٤) ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ فازمعوه واجعلوه مُجْمَعاً عليه لا يتخلف عنه واحد منكم. وقرأ أبو عمرو فَاجْمَعُوا ويعضده قوله ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾[1] والضمير في قالوا إن كان للسحرة فهو قول بعضهم لبعض. ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ مصطفين لأنه أَهْيَب في صدور الرائين. قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة. ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ فاز بالمطلوب مِنْ غَلَبَ وهو اعتراض.

(٦٥) ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ أي بعد ما أتوا مراعاة للأدب. وأن بما يعده منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية محذوف، أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا أو الأَمْرُ إلقاؤك أو إلقاؤنا.

(٦٦) ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ مقابلةُ أدب بأدب وعدمُ مبالاة بسحرهم، وإسعافاً إلى ما أَوْهَموا من الميل إلى البدء بذكر الأول في شقهم وتغيير النظم إلى وجه أبلغ، ولأن يُبرزوا ما معهم ويستنفذوا أقصى وسعهم ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغُه. ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ أي فألقوا فإذا حبالهم وعصيهم، وهي للمفاجأة، والتحقيقُ أنها أيضاً ظرفية تستدعي متعلَّقاً ينصبها وجملةً تضاف إليها، لكنها خُصت بأن يكون المتعلَّق فِعْلَ المفاجأة والجملةُ ابتدائيةً، والمعنى: فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم، وذلك بأنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت فخيل إليه أنها تتحرك. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان ورَوْحٌ تُخَيَّلُ بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال والعصيِّ وإبدالِ أنها تسعى منه بدل الاشتمال، وقرىء يُخَيِّلُ بالياء على إسناده إلى الله تعالى، وتَخَيَّلُ بمعنى تتخيل.

(٦٧) ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ فأضمر فيها خوفاً من مفاجأته على ما هو مقتضى الجِبِلة البشرية، أو مِنْ أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه.

(٦٨) ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾ ما توهمتَ. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكَّداً بالاستئناف، وحرفُ التحقيق وتكريرُ الضمير وتعريفُ الخبر ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل.

(٦٩) ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أَبْهَمَهُ ولم يقل عصاك تحقيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويدة التي في يدك، أو تعظيماً لها أي لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعِظَمِها فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثراً فألْقِه. ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ تبتلعه بقدرة الله تعالى، وأصله تتلقف فحذفت إحدى التاءين، وتاء المضارعة تحتمل التأنيثَ والخطابَ على إسناد الفعل إلى المسبِّب. وقرأ ابن عامر برواية

---

(١) طه: «٦٠».

ابن ذكوان بالرفع على الحال أو الاستئناف، وحفصٌ بالجزم والتخفيفِ على أنه مِنْ لَقَفْتُه بمعنى تلقّفته. ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ أن الذي زوروا وافتعلوا. ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ وقرىء بالنصب، على أن ما كافّة وهو مفعول صنعوا. وقرأ حمزة والكسائي سحر بمعنى ذي سحر، أو بتسمية الساحر سِحْراً على المبالغة، أو بإضافة الكيد إلى السحر للبيان كقولهم: عِلْمُ فقه. وإنما وحّد الساحر لأن المراد به الجنس المطلق، ولذلك قال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس. وتنكير الأول لتنكير المضاف كقول العجاج:

يَــوْمَ تَــرَى النُّفُــوسُ مَــا أَعَــدَّتْ   فــي سَعْــيِ دُنْيَــا طَــالَمــا قَــدْ مَــدَّتْ

كأنه قيل إنما صنعوا كيد سحري. ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ حيث كان وأين أقبل.

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ أي فألقىٰ فتلقفتْ فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته، فألقاهم ذلك على وجوههم سُجّداً لله توبة عما صنعوا وإعتاباً وتعظيماً لما رأوا. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قدّم هارون لكبر سنه، أو لِرُوِيّ الآية، أو لأن فرعون ربّىٰ موسى في صغره فلو اقتُصر على موسى أو قُدِّم ذِكْرُه لربما تُوُهِّم أن المراد فرعونُ وذِكْرُ هارون على الاستتباع. روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها.

(٧١) ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي لموسى واللامُ لتضمن الفعل معنى الاتّباع. وقرأ قنبل وحفص آمنتم له على الخبر، والباقون على الاستفهام. ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان له. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ لَعَظيمُكم في فنكم وأعلمكم به، أو لأستاذكم. ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وأنتم تواطأتم على ما فعلتم. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومِنْ ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضوِ العضوَ، وهي مع المجرور بها في حيز النصب على الحال أي لأقطعنها مختلفات. وقرىء لأُقطعنْ ولأُصلبنْ بالتخفيف. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ شبّه تمكن المصلوب بالجذع بتمكُّن المظروف بالظرف، وهو أول مَنْ صَلَبَ. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ يريد نفسَه وموسى، لقوله ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ واللامُ مع الإيمان في كتاب الله لغير الله، أراد به توضيع موسى والهزء به، فإنه لم يكن من التعذيب في شيء. وقيل رب موسى الذي آمنوا به. ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم عقاباً.

(٧٢) ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك. ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ موسى به، ويجوز أن يكون الضمير فيه لِمَا. ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات. ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عطف على ما جاءنا، أو قَسَم[1]. ﴿فَٱقْضِ مَآ

---

(١) إيراده تعالى بعنوان فاطريته لهم للإشعار بعلة الحكم، فإن خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم إيثارهم له عليه سبحانه وتعالى (س٦/ ٣٠).

﴿أَنتَ قَاضٍ﴾ ما أنت قاضيه أي صانعه أو حاكم به. ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ إنما تصنع ما تهواه، أو تحكم ما تراه في هذه الدنيا والآخرةُ خير وأبقى، فهو كالتعليل لما قبله والتمهيدِ لما بعده. وقرىء تُقْضَىٰ هذه الحياةُ الدنيا، كقولك: صِيم يومُ الجمعة.

إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ
لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾
جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ
بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

(٧٣) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ من معارضة المعجزة[١]. روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً، فوجدوه تحرسه العصا، فقالوا ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بَطَل سحره، فأبىٰ إلا أن يعارضوه. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ جزاءً، أو خير ثواباً وأبقىٰ عقاباً.

(٧٤) ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الأمر[٢]. ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأنْ يموت على كفره وعصيانه. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح. ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة مهنأة.

(٧٥) ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الدنيا. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ المنازل الرفيعة.

(٧٦) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من الدرجات. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ، والعاملُ فيها معنى الإشارة أو الاستقرارُ. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر من أدناس الكفار والمعاصي. والآياتُ الثلاث يُحْتَمَل أن تكون من كلام السحرة، وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى[٣].

(٧٧) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي من مصر[٤]. ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ فاجعل لهم، من قولهم ضرب له في ماله سهماً. أو فاتخذ، مِنْ ضَرَبَ اللبن إذا عمله. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ يابساً، مصدر وُصِف به، يقال يَبِسَ يَبْساً ويَبَساً كسَقِم سُقْماً وسَقَماً، ولذلك وصف به المؤنث فقيل شاة يَبَسٌ للتي جفّ لبنها. وقرىء يَبْساً، وهو إما مخفف منه أو وَصْفٌ على فعل كصعب أو جمعُ يابس كصَحْب وُصِفَ به الواحد مبالغة كقوله:

---

(١) تخصيص إكراههم على السحر بالذكر ـ مع اندراجه في خطاياهم ـ إظهاراً لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته. وذِكْرُ الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يُفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه (س٦/ ٣٠).

(٢) وتصديره بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونه (س٦/ ٣٠).

(٣) وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه رداً على ما ادعاه فرعون بقوله «أينا أشد عذاباً وأبقى» (س٦/ ٣١).

(٤) والتعبير عنهم بعنوان كونهم عباداً له تعالى لإظهار المرحمة، والاعتناء بأمرهم، والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل (س٦/ ٣١).

كَـأَنَّ قُتُـودَ رَحْلـي حِيـنَ ضمَّـتْ		حـوَالِـبَ غُـرّزاً وَمِعـي جِيَـاعـاً

أو لتعدده معنًى فإنه جعل لكل سبط منهم طريقاً. ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ حال من المأمور أي آمِناً من أن يدرككم العدو، أو صفة ثانية والعائد محذوف. وقرأ حمزة لا تَخَفْ على أنه جواب الأمر. ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ استئناف أي وأنت لا تخشى، أو عطف عليه والألف فيه للإطلاق كقوله ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[1] أو حال بالواو والمعنى ولا تخشى الغرق[2].

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾

(٧٨) ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل فأُخبر فرعون بذلك فقص أثرهم، والمعنى فأتبعهم فرعونُ نفسَه ومعه جنوده فحذف المفعول الثاني. وقيل فأتبعهم بمعنى فاتّبعهم ويؤيده القراءة به. والباء للتعدية، وقيل الباء مزيدة والمعنى: فاتبعهم جنوده وذادهم خلفهم. ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ الضمير لجنوده أوله ولهم، وفيه مبالغة ووجازة أي: غشيهم ما سمعتَ قصته ولا يعرف كنهه إلا الله. وقرىء فغَشّاهم ما غشاهم أي غطاهم ما غطاهم، والفاعل هو الله تعالى أو ما غشاهم أو فرعون لأنه الذي ورّطهم للهلاك.

(٧٩) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي أضلهم في الدين وما هداهم، وهو تهكم به في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[3] أو أضلهم في البحر وما نجا.

(٨٠) ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون على إضمار قلنا، أو للذين منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما فُعِل بآبائهم. ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومَه. ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ بمناجاة موسى وإنزال التوراة، وإنما عَدّ المواعدة إليهم وهي لموسى أوله وللسبعين المختارين للملابسة[4]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ يعني في التيه.

(٨١) ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لذائذه أو حلالاته. وقرأ حمزة والكسائي أنجيتكم وواعدتكم وما رزقتُكم على التاء، وقرىء وَوَعدتُكم وَوَعدناكم والأيمن بالجر على الجوار مثل: جُحرُ ضبٍّ خربٍ. ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي لما حد الله لكم فيه كالسَّرَف والبطر والمنع عن المستحق. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ فيلزمكم عذابي ويجب لكم، مِنْ حَلّ الدينُ إذا وجب أداؤه. ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ فقد تردى وهلك، وقيل وقع في الهاوية. وقرأ الكسائي يَحُلَّ ويَحْلُلْ بالضم، مِنْ حلَّ يَحُلّ إذا نزل.

---

(١) الأحزاب: «١٠».

(٢) وتقديم نفي الخوف المذكور للمسارعة إلىٰ إزاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا إنا لمدرَكون (س٦/ ٣٢).

(٣) غافر: «٢٩».

(٤) وسراية منفعتها إليهم وإيفاءً لمقام الامتنان حقه (س٦/ ٣٣).

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾
قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ
عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾

(٨٢) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ عن الشرك. ﴿وَءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ثم استقام على الهدى المذكور.

(٨٣) ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤالٌ عن سبب العَجَلة يتضمن إنكارها من حيث إنها نقيصة في نفسها انضم إليها إغفال القوم وإيهام التعظم عليهم، فلذلك أجاب موسى عن الأمرين وقدّم جواب الإنكار لأنه أهم.

(٨٤) ﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي ما تقدمتُهم إلا بخطاً يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرُّفقة بعضهم بعضاً. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك[1].

(٨٥) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ ابتليناهم بعبادة العجل بعد خروجك من بينهم، وهم الذين خَلَّفَهُم مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً. ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ باتخاذ العجل والدعاءِ إلى عبادته. وقرىء وَأَضَلُّهُمْ أي أشدُّهم ضلالاً لأنه كان ضالاً مُضِلاً. وإن صح أنهم أقاموا على الدين بعد ذهابه عشرين ليلة وحَسَبوها بأيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العِدة ثم كان أمر العجل وأن هذا الخطاب كان له عند مَقْدمه إذ ليس في الآية ما يدل عليه كان ذلك إخباراً من الله له عن المترقَّب بلفظ الواقع على عادته، فإن أصل وقوع الشيء أن يكون في علمه ومقتضى مشيئته. والسامري منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة، وقيل كان علْجاً[2] من كرمان، وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً.

(٨٦) ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿غَضْبَٰنَ﴾ عليهم. ﴿أَسِفًا﴾ حزيناً بما فعلوا. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي الزمان يعني زمان مفارقته لهم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ يجب عليكم. ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعبادة ما هو مَثَلٌ في الغباوة. ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ وعْدَكم إياي بالثبات على الإيمان بالله والقيام على ما أمرتكم به[3]. وقيل هو مِنْ أخلفتُ وعده إذا وجدتُ الخُلْف فيه، أي فوجدتم الخلف في وعدي لكم بالعود بعد الأربعين، وهو لا يناسب الترتيب على الترديد ولا على الشق الذي يليه ولا جوابهم له.

---

(١) وزيادة «ربّ» لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قبول العذر (س٦/ ٣٤).
(٢) عِلجاً أي شديداً (المصباح المنير مادة علج).
(٣) أضاف المصدر إلى المفعول «موعدي» وكذا إضافته لموسىٰ عليه السلام وذلك لتقبيح حالهم (س٦/ ٣٥).

قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾
فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ
قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

(٨٧) ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ بأن ملكنا أمْرَنا، إذ لو خلينا وأَمْرَنا ولم يسوّل لنا السامري لما أخلفناه. وقرأ نافع وعاصم بِمَلْكنا بالفتح، وحمزةُ والكسائي بالضم، وثلاثتها في الأصل لغات في مصدر ملكت الشيء. ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ حُمِّلنا أحمالاً من حُليّ القبط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس، وقيل استعاروا لعيد كان لهم ثم لم يردوا عند الخروج مخافة أن يعلموا به، وقيل هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوه. ولعلهم سموها أوزاراً لأنها آثام، فإن الغنائم لم تكن تَحِلّ بعدُ، أو لأنهم كانوا مستأمَنين وليس للمستأمَن أن يأخذ مال الحربي. ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي في النار. ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي ما كان معه منها. روي أنهم لما حَسِبوا أن العدة قد كملت قال لهم السامري: إنما أخلف موسى ميعادَكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونَسْجُر فيها ناراً ونقذف كل ما معنا فيها ففعلوا. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر ورَوْح حَمَلْنا بالفتح والتخفيف.

(٨٨) ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ من تلك الحلي المذابة. ﴿لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ صوت العجل. ﴿فَقَالُواْ﴾ يعني السامري ومن افتتن به أول ما رآه. ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري أنْ ترك ما كان عليه من إظهار الإيمان.

(٨٩) ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ أفلا يعلمون. ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً. وقرىء يَرْجِعَ بالنصب، وفيه ضعف لأن أنْ الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين[1]. ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ ولا يقدر على إنفاعهم وإضرارهم.

(٩٠) ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ﴾ من قبل رجوع موسى عليه الصلاة والسلام، أو قول السامري، كأنه أول ما وقع عليه بصره حين طلع من الحفرة توهم ذلك وبادر تحذيرهم. ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ بالعجل. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ لا غير[2]. ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ في الثبات على الدين.

(٩١) ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾ على العجل وعبادته. ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين. ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ وهذا الجواب يؤيد الوجه الأول.

---

(١) لكنهم حملوا الرؤية على أنها بمعنىٰ الإبصار لا العلم. . وأجاز الفراء وابن الأنباري وقوع أنْ الناصبة بعد أفعال اليقين (روح المعاني ١٦/ ٢٤٩).
وتعليق الإبصار بما ذكر ـ مع كونه أمراً عدمياً ـ للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم (س٦/ ٣٦).

(٢) والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق (س٦/ ٣٧).

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا
بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾
قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ
لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ
وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

(٩٢) ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ﴾ أي قال له موسى حين رجع. ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ بعبادة العجل.

(٩٣) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أن تتبعني في الغضب لله والمقاتلة مع من كفر به، أو أن تأتي عَقِبي وتلحقني. ولا مزيدة كما في قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[1]. ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ بالصلابة في الدين والمحاماة عليه.

(٩٤) ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خص الأم استعطافاً وترقيقاً، وقيل لأنه كان أخاه من الأم، والجمهور على أنهما كانا من أب وأم. ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ أي بشعر رأسي قبض عليهما يجره إليه من شدة غيظه وفرط غضبه لله، وكان عليه الصلاة والسلام حديداً خشناً متصلباً في كل شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل. ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لو قاتلتَ أو فارقت بعضهم ببعض. ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ حين قلتَ ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ فإن الإصلاح كان في حفظ الدهماء والمداراة لهم أن ترجع إليهم فتتدارك الأمر برأيك.

(٩٥) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ أي ثم أقبل عليه وقال له منكراً ما خطبك؟ أي ما طلبك له وما الذي حملك عليه؟ وهو مصدر خَطَب الشيءَ إذا طلبه.

(٩٦) ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ وقرأ حمزة. والكسائي بالتاء على الخطاب أي علمتُ بما لم تعلموه وفَطِنت لما لم تفطنوا له، وهو أن الرسول الذي جاءك روحانيّ محض لا يمس أثرُه شيئاً إلا أحياه. أو رأيتُ ما لم تروه، وهو أن جبريل عليه الصلاة والسلام جاءك على فرس الحياة. وقيل إنما عرفه لأن أمه ألقته حين ولدته خوفاً من فرعون، وكان جبريل يغذوه حتى استقل. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ من تربة مَوْطِئه. والقبضة المرة من القبض، فأُطلق على المقبوض كضرب الأمير. وقرىء بالصاد، والأولُ للأخذ بجميع الكفّ والثاني للأخذ بأطراف الأصابع ونحوهما الخَضْم والقَضْم. والرسول جبريل عليه الصلاة والسلام، ولعله لم يسمه لأنه لم يعرف أنه جبريل أو أراد أن ينبه على الوقت وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور. ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في الحلي المذاب أو في جوف العجل حتى حيي. ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ زينته وحسنته لي.

(٩٧) ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ عقوبةً على ما فعلت. ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خوفاً من أن يمسك أحد فتأخذك الحمى ومَنْ مَسّكَ، فتتحامى الناس ويتحاموك وتكونَ طريداً وحيداً كالوحشي

---

(١) الأعراف: «١٢».

النافر. وقرىء لا مَسَاسِ كفَجَارِ وهو علم للمسة. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة. ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ لن يخلفكه الله وينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك في الدنيا. وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر اللام أي لن تُخْلِفَ الواعدَ إياه وسيأتيك لا محالة، فحذف المفعول الأول لأن المقصود هو الموعِد، ويجوز أن يكون من أخلفت الموعد إذا وجدته خُلْفاً. وقرىء بالنون على حكاية قولِ الله. ﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ ظللت على عبادته مقيماً فحذف اللام الأولى تخفيفاً. وقرىء بكسر الظاء على نقل حركة اللام إليها. ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ أي بالنار ويؤيده قراءة لَنُحْرِقَنَّهُ، أو بالمِبْرَد على أنه مبالغة في حَرَقَ إذا بَرَدَ بالمبرد ويعضده قراءة لَنَحْرُقَنَّه[1]. ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ ثم لَنُذْرِيَنَّه رماداً أو مبروداً. وقرىء بضم السين. ﴿فِى الْيَمِّ نَسْفًا﴾ فلا يصادَفُ منه شيء. والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهارُ غباوة المفتتنين به لمن له أدنى نظر.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

(٩٨) ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ المستحق لعبادتكم. ﴿اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا أحد يماثله أو يدانيه في كمال العلم والقدرة. ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ وسع علمه كل ما يصح أن يُعْلَمَ، لا العجل الذي يَصَاغ ويُحْرَق وإنْ كان حياً في نفسه كان مَثَلاً في الغباوة. وقرىء وَسَّعَ، فيكونُ انتصاب عِلْماً على المفعولية لأنه وإن انتصب على التمييز في المشهورة لكنه فاعل في المعنى فلما عدي الفعل بالتضعيف إلى المفعولين صار مفعولاً.

(٩٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْل ذلك الاقتصاص يعني اقتصاص قصة موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من أخبار الأمور الماضية والأمم الدارجة تبصرة لك وزيادة في علمك وتكثيراً لمعجزاتك وتنبيهاً وتذكيراً للمستبصرين من أمتك. ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ كتاباً مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقاً بالتفكر والاعتبار، والتنكير فيه للتعظيم. وقيل ذكراً جميلاً وصِيتاً عظيماً بين الناس.

(١٠٠) ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاةِ. وقيل عن الله. ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وذنوبه، سماها وزراً تشبيهاً في ثِقَلها على المعاقَب وصعوبةِ احتمالها بالحمل الذي يَفْدَح الحامل وينقض ظهره. أو إثماً عظيماً.

(١٠١) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ في الوزر أو في حمله، والجمع فيه والتوحيد في أعرض للحمل على المعنى واللفظ. ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي بئس لهم، ففيه ضمير مبهم يفسره حِمْلاً، والمخصوص بالذم محذوف أي ساء حملاً وِزْرُهم، واللام في لهم للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[2]. ولو جعلتَ ساء بمعنى أحزن والضميرَ الذي فيه للوزر أشكل أَمْرُ اللام ونَصْبُ حِملاً، ولم يُفِدْ مزيد معنى[3].

---

(١) يقال حَرَق الحديد حَرَقاً إذا برده بالمِبْرد وحكَّ بعضَه ببعض ومضارعُه يَحْرُق (مختار الصحاح «حرق»).

(٢) يوسف: «٢٣».

(٣) وإعادة «يوم القيامة» لزيادة التقرير وتهويل الأمر (س٦/ ٤١).

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

(١٠٢) ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ وقرأ أبو عمرو بالنون على إسناد النفخ إلى الآمِر به تعظيماً له أو للنافخ، وقرىء بالياء المفتوحة على أن فيه ضميراً لله أو ضمير إسرافيل وإن لم يَجْرِ ذكره لأنه المشهور بذلك، وقرىء في الصُّوَر وهو جَمْعُ صورة وقد سبق بيان ذلك ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ وقرىء ويُحْشَرُ المجرمون ﴿زُرْقًا﴾ زرق العيون. وصُفِوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضُها إلى العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زُرْق العين، ولذلك قالوا: صفة العدو أسودُ الكبد أصهبُ السبال. أزرقُ العين. أو عمياً، فإن حدقة الأعمى تزْراق[١].

(١٠٣) ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَخفضون أصواتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، والخَفْتُ خفض الصوت وإخفاؤه. ﴿إِن﴾ ما ﴿لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي في الدنيا يَستقصرون مدة لبثهم فيها، لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لمّا عاينوا الشدائد وعلموا أنهم استحقوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتباع الشهوات. أو في القبر لقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾[٢] إلى آخر الآيات.

(١٠٤) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدة لبثهم. ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدَلُهم رأياً أو عملاً. ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ استرجاح لقول مَنْ يكون أشد تقالاً منهم.

(١٠٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ عن مآل أمرها، وقد سَأل عنها رجلٌ من ثقيف[٣]. ﴿فَقُلْ﴾ لهم. ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها.

(١٠٦) ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيذر مقارّها، أو الأرض وإضمارها من غير ذكر لدلالة الجبال عليها كقوله تعالى ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[٤]. ﴿قَاعًا﴾ خالياً ﴿صَفْصَفًا﴾ مستوياً كأن أجزاءها على صف واحد.

(١٠٧) ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ اعوجاجاً ولا نتوّاً إن تأملتَ فيها بالقياس الهندسي. وثلاثتها أحوال مترتبة، فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار المقياس، ولذلك ذُكِرَ العِوَج ـ بالكسر ـ وهو يُخصُّ بالمعاني والأمْتَ وهو النتوء اليسير. وقيل لا ترى استئناف مبين للحالين.

(١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ نسفت على إضافة اليوم إلى وقت النسف، ويجوز أن يكون بدلاً ثانياً

---

(١) أو يحشرون زرق الأبدان، وذلك في غاية التشويه فإنه لا تزرقّ الأبدان إلا من مكابدة الشدائد وجفاف رطوبتها (روح المعاني ١٦/ ٢٦٠).

(٢) غافر: ﴿٤٦﴾.

(٣) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن الذي سأل هم قريش سألوه عليه السلام استهزاء (روح المعاني ١٦/ ٢٦١).

(٤) النحل: ﴿٦١﴾.

من يوم القيامة. ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ داعي الله إلى المحشر، قيل هو إسرافيل يدعو الناس قائماً على صخرة بيت المقدس فيُقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه. ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خفضت لمهابته. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتاً خفياً، ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل، وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر.

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ
الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

(١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ الاستثناء من الشفاعة أي إلا شفاعة من أذن له، أو مِنْ أعمّ المفاعيل أي إلا من أذن في أن يُشفع له فإن الشفاعة تنفعه. فمن على الأول مرفوع على البدلية وعلى الثاني منصوب على المفعولية. وأذِن يحتمل أن يكون من الإذْن ومن الأذَن[1]. ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي ورضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه، أو قوله لأجله وفي شأنه.

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدمهم من الأحوال. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ولا يحيط علمُهم بمعلوماته، وقيل بذاته، وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعها فإنهم لم يعلموا جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه.

(١١١) ﴿۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ ذلت وخضعت له خضوع العناة وهم الأسارى في يد الملك القهار، وظاهرها يقتضي العموم. ويجوز أن يراد بها وجوه المجرمين فتكون اللام بدل الإضافة، ويؤيده: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وهو يحتمل الحال والاستئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم.

(١١٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعض الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الخيرات. ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ منع ثواب مستحق بالوعد ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسراً منه بنقصان، أو جزاءَ ظلمٍ وهضم لأنه لم يظلم غيره ولم يهضم حقه. وقرىء فلا يَخَفْ على النهي.

(١١٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على «كذلك نقصُّ» أي مثل ذلك الإنزال أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد. ﴿أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ كله على هذه الوتيرة[2]. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ مكررين آيات الوعيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي فتصير التقوى لهم مَلَكَة. ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة واعتباراً حين يسمعونها فتثبطهم عنها، ولهذه النكتة أسند التقوى إليه والإحداث إلى القرآن.

---

(١) الأذَن هو الاستماع.

(٢) قوله «أنزلناه» حيث أضمر ذكر القرآن من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول حاضراً في الأذهان (س٦/ ٤٤).

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ
عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ
إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾

(١١٤) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامُه كلامَهم كما لا تماثِلُ ذاتُه ذاتَهم. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ النافذ أمرُه ونهيه الحقيق بأن يرجىٰ وعدُه ويخشى وعيده. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته يستحقه لذاته، أو الثابت في ذاته وصفاته. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ نهي عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل عليه السلام ومساوقته في القراءة حتى يتم وحيه بعد ذكر الإنزال على سبيل الاستطراد. وقيل نهي عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي سَلْ الله زيادة العلم بدل الاستعجال، فإن ما أوحى إليك تناله لا محالة.

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ ولقد أمَرْناه، يقال تقدم الملك إليه وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه إذا أمره، واللامُ جواب قسم محذوف. وإنما عَطفَ قصة آدم على قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾[1] للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان وعرقهم راسخ في النسيان. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذا الزمان. ﴿فَنَسِىَ﴾ العهد ولم يَعْنَ به حتى غفل عنه، أو ترك ما وُصِّي به من الاحتراز عن الشجرة. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ تصميم رأي وثباتاً على الأمر، إذ لو كان ذا عزيمة وتصلّب لم يُزِلّه الشيطان ولم يستطع تغريره، ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يُجرّب الأمور ويذوق شريَّها وأريَّها[2]. وعن النبي ﷺ «لو وزنتْ أحلام بني آدم بحِلْم آدم لرجح حِلْمُه، وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزماً»[3]. وقيل عزماً على الذنب لأنه أخطأ ولم يتعمده. ونَجِد إن كان من الوجود الذي بمعنى العلم فله عزماً مفعولاه، وإن كان من الوجود المناقض للعدم فله حالٌ من عزماً أو متعلق بِنَجِدْ.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ مقدر باذكُر، أي اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات. ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد سبق القول فيه. ﴿أَبَىٰ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما منعه من السجود وهو الاستكبار، وعلى هذا لا يقدر له مفعول مثل السجود المدلول عليه بقوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ لأن المعنى أظهر الإباء عن المطاوعة.

(١١٧) ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ فلا يكونن سبباً لإخراجكما، والمراد نهيهما عن أن يكون بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما. ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ وأفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قَيِّمٌ عليها، ومحافظةً على الفواصل. أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش، وذلك وظيفة الرجال، ويؤيده قوله:

---

(١) طه: «١١٣».
(٢) قوله شَريَّها وأريَّها أي مُرَّها وحلوها، فإن معنىٰ «الأري» العسل (مختار الصحاح مادة أري).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٦/٢٢١ ـ ٢٢٢). وسعيد بن منصور، وابن المنذر وابن عساكر ـ كما في «الدر المنثور» (٥/٦٠٣) ـ عن أبي أمامة موقوفاً.
قلت: في إسناد ابن جرير: سنيد بن داود. وهو ضعيف.

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ
يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا
مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا
يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(١١٨) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾.

(١١٩) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ فإنه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبَعُ والرِّيّ والكسوة والكِنُّ[1] مستغنياً عن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائضها، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذر عنها. والعاطفُ وإنْ ناب عن أَنّ لكنه ناب من حيث إنه عامل لا من حيث إنه حرف تحقيق، فلا يمتنع دخولُه على أنّ امتناع دخول إنّ عليه. وقرأ نافع وأبو بكر وإنّك لا تظمأ بكسر الهمزة، والباقون بفتحها.

(١٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فانتهى إليه وسوستُه. ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ الشجرة التي مَنْ أكل منها خَلَد ولم يمت أصلاً، فأضافها إلى الخُلْد أي الخلود لأنها سببُه بزعمه. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يزول ولا يضعف.

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أخذا يلزقان الورق على سوآتهما للتستر، وهو ورق التين ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بأكل الشجرة. ﴿فَغَوَىٰ﴾ فضَلَّ عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة، أو عن الرُّشْد حيث اغتر بقول العدو. وقرىء فَغَوِيَ من غوى الفصيلُ إذا اتّخم من اللبن. وفي النعي عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلّته تعظيم للزلة وزجر بليغ لأولاده عنها.

(١٢٢) ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اصطفاه وقرَّبه بالحمل على التوبة والتوفيق لها، مِنْ أجبىٰ إلى كذا فاجتبيتُه مِثْل جَلَيْت على العروس فاجتليتُها، وأصل معنى الكلمة الجمع. ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فقبل توبته لمّا تاب. ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى الثبات على التوبة والتثبت بأسباب العصمة.

(١٢٣) ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ الخطاب لآدم وحواء، أو لَهُ ولإبليس. ولما كانا أصلَيْ الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، أو لاختلال حال كل من النوعين بواسطة الآخر ويؤيد الأول قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ كتاب ورسول. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا[2]. ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

---

(١) الكِنُّ هي السُّتْرة.

(٢) قوله «فمن اتبع هُداي» حيث وضع الظاهر موضع المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه (س٦/ ٤٧).

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ
أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ
يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى
مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾

(١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ عن الهدىٰ الذاكر لي والداعي إلى عبادتي. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقاً، مصدرٌ وصف به ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث، وقرىء ضَنْكَىٰ كسكرى. وذلك لأن مجامع همته ومطامح نظره تكون إلى أعراض الدنيا متهالكاً على ازديادها خائفاً على انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مع أنه تعالى قد يُضيّق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾(1) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾(2) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾(3) الآيات. وقيل هو الضريع(4) والزقوم في النار، وقيل عذاب القبر ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ قرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف، وبالجزم عطفاً على محل ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ لأنه جواب الشرط. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أعمى البصر أو القلب، ويؤيد الأول:

(١٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وقد أمالهما حمزة والكسائي لأن الألف منقلبة من الياء، وفرّق أبو عمرو بأن الأول رأسُ الآية ومحلُّ الوقف فهو جدير بالتغيير.

(١٢٦) ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك فعلتَ، ثم فسره فقال: ﴿أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ واضحة نيرة. ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ فعميت عنها وتركتها غير منظور إليها. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل تركك إياها. ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في العمىٰ والعذاب.

(١٢٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بل كذّب بها وخالفها. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهو الحشر على العمى، وقيل عذاب النار أي وللنار بعد ذلك. ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ من ضنك العيش أو منه ومن العمى، ولعله إذا دخل النار زال عَمَاهُ ليرىٰ محله وحاله أو مما فعله من ترك الآيات والكفر بها.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مُسْنَدٌ إلى الله تعالى، أو الرسول، أو ما دل عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي إهلاكُنا إياهم أو الجملة بمضمونها. والفعل على الأولين معلَّق يجري مجرى أعلم، ويدل عليه القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ﴾ ويشاهدون آثار هلاكهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي.

---

(١) البقرة: «٦١».
(٢) المائدة: «٦٦».
(٣) الأعراف: «٩٦».
(٤) نبت في الحجار يُقال له الشِبْرِق له شوك كبار، وقال الفيروز آبادي: لا تقربه دابة لخبثه، أعاذنا الله منه.

وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾

(١٢٩) ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة. ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لكان مثْل ما نزل بعاد وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة، وهو مَصْدرٌ وصف به أو اسم آلة سمي به اللازم لفَرْط لزومه كقولهم: لَزازُ خصم. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على كلمة، أي ولولا العِدَةُ بتأخير العذاب وأجلٌ مسمى لأعمارهم أو لعذابهم ـ وهو يوم القيامة أو يوم بدر ـ لكان العذاب لزاماً. والفَصْلُ للدلالة على استقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب[1]، ويجوز عطفُه على المستكنّ في كان أي لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين له.

(١٣٠) ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ وَصَلِّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، أو نزِّهه عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص حامداً له على ما ميّزك بالهدى معترفاً بأنه المولي للنعم كلها. ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ يعني الفجر. ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ يعني الظهر والعصر لأنهما في آخر النهار، أو العصر وحده. ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ ومن ساعاته، جمع إِنًا بالكسر والقصر[2]، أو أَناء بالفتح والمد. ﴿فَسَبِّحۡ﴾ يعني المغرب والعشاء. وإنما قدّم زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل، فإن القلب فيه أجمع والنفسَ أَمْيَل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيه أحمز[3]، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[4]. ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ تكريرٌ لصلاتي الصبح والمغرب إرادةَ الاختصاص، ومجيئُه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقوله:

ظَهْرَاهُمَا مِثْلِ ظُهُورِ التِرْسَيْنِ

أو أَمْرٌ بصلاة الظهر، فإنه نهاية النصف الأول من النهار وبدايةُ النصف الآخر، وجمعُه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس، أو بالتطوع في أجزاء النهار. ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ متعلق بسبِّح أي سبح في هذه الأوقات طمعاً أن تنال عند الله ما به تُرضي نفسَك. وقرأ الكسائي وأبو بكر بالبناء للمفعول أي يُرْضِيك ربُّك.

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ أي نظر عينيك. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون مثله. ﴿أَزۡوَٰجًا مِّنۡهُمۡ﴾ أصنافاً من الكفرة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في به والمفعول منهم أي الذي مَتَّعْنا به، وهو أصناف بعضهم أو ناساً منهم. ﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ منصوب بمحذوف دل عليه مَتَّعْنا، أو به على تضمينه معنى أعطينا، أو بالبدل من محل به أو من أزواجاً بتقدير مضاف ودونه، أو بالذمّ وهي الزينة والبهجة. وقرأ يعقوب ....

---

(١) وللمسارعة إلى بيان جواب لولا (س٦/٤٩).

(٢) تكتب بالقصر «إنَى» وقيل إِنْيٌ وإِنْوٌ (مختار الصحاح مادة أني).

(٣) أحمز أي أمتن وأشد (مختار الصحاح مادة حَمُزَ).

(٤) المزمل: «٦».

بالفتح[١] وهو لغة كالجَهَرَة في الجَهْرة، أو جمعُ زاهر وصفٌ لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعمهم وبهاءِ زَيِّهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبلوهم ونختبرهم فيه، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ وما ادّخر لك في الآخرة، أو ما رزقك من الهدى والنبوة. ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنه لا ينقطع.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾

(١٣٢) ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أَمَرَهُ بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمره بها ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وداوم عليها. ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي أن ترزق نفسك ولا أهلك. ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم ففرّغ بالك لأمر الآخرة. ﴿وَالْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ لذوي التقوى. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهلَه ضرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية[٢].

(١٣٣) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ بآية تدل على صدقه في إهداء النبوة، أو بآية مقترحة إنكاراً لما جاء به من الآيات، أو للاعتداد به تعنتاً وعناداً. فألزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أم المعجزات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من العلم أو العمل على وجه خارق للعادة، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدراً وأبقى أثراً فكذا ما كان من هذا القبيل، ونبّههم أيضاً على وجه أَبيَن من الوجوه المختصة بهذا الباب فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتمالها على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية ـ مع أن الآتيَ بها أُميٌّ لم يرها ولم يتعلم ممن علمها ـ إعجازٌ بيّن، وفيه إشعار بأنه ـ كما يدل على نبوته ـ برهانٌ لِما تقدمه من الكتب من حيث إنه معجز وتلك ليست كذلك، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد على صحتها. وقرىء الصُّحْفِ بالتخفيف، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم أو لم تأتهم بالتاء والباقون بالياء.

(١٣٤) ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل محمد عليه الصلاة والسلام أو البينة، والتذكير لأنها في معنى البرهان، أو المراد بها القرآن. ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالقتل والسبي في الدنيا. ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بدخول النار يوم القيامة، وقد قرىء بالبناء للمفعول فيهما.

---

(١) أي بفتح الهاء في «زَهْرة»، أي «زَهَرَة».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط ـ كما في «الدر المنثور» (٥/٦١٣) ـ وأبو نعيم في الحلية (٨/١٧٦) من حديث عبدالله بن سلام. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/٦٧): رجاله ثقات.
قلت: محمد بن حمزة هو ابن يوسف بن عبدالله بن سلام. ففي الإسناد انقطاع.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

(١٣٥) ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي كل واحد منا ومنكم. ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرُنا وأمركم. ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وقرىء فتمتعوا. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم. وقرىء السَّواء أي الوسط الجيد، والسُّوآى، والسَّوْءِ أي الشر، والسُّوَيّ هو تصغيره. ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ من الضلالة. ومَنْ في الموضعين للاستفهام ومحلُّها الرفعُ بالابتداء، ويجوز أن تكون الثانية موصولةً بخلاف الأولى لعدم العائد فتكونُ معطوفةً على محل الجملة الاستفهامية المعلَّق عنها الفعلُ على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط على أن المراد به النبيُّ ﷺ. وعنه ﷺ «من قرأ طه أُعطي يوم القيامة ثوابَ المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين»[1].

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع من حديث أبي بن كعب وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

ترتيبها ٢١ **سُورَةُ الأَنبِيَاءِ** آياتها ١١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ
إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾
بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

سورةُ الأنبياء مكية وآيُها مِائةٌ واثنتا عشرَةَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ بالإضافة إلى ما مضى، أو ما عند الله لقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[١] وقوله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٢] أو لأن كل ما هو آتٍ قريبٌ وإنما البعيدُ ما انقرض ومضىٰ. واللامُ صلة لاقترب، أو تأكيدٌ للإضافة، وأصله اقترب حسابُ الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم[٣]، وخُص الناسُ

---

(١) المعارج: «٧».

(٢) الحج: «٤٧».

(٣) وتقديم اللام في «للناس» على الفاعل «حسابُهم» للمسارعة إلى إدخال الروعة، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم.

=

بالكفار لتقييدهم بقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي في غفلة عن الحساب. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن التفكر فيه، وهما خبران للضمير، ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكنّ في معرضون.

(٢) ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ ينبههم عن سِنَة الغفلة والجَهالة. ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ صفةٌ لذِكْر، أو صلة ليأتيهم[١]. ﴿مُّحْدَثٍ﴾ تنزيلُه ليُكرَّر على أسماعهم التنبيهُ كي يتعظوا. وقرىء بالرفع حملاً على المحل. ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفَرْط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من الواو، وكذلك:

(٣) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهّي والذهول عن التفكر فيه، ويجوز أن يكون مِنْ واو يلعبون. وقرئت بالرفع على أنها خبر آخرُ للضمير. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفائها، أو جعلوها بحيث خَفِيَ تناجيهم بها. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدلٌ من واو «وأسروا» للإيماء بأنهم ظالمون فيما أَسَرّوا به، أو فاعل له والواو لعلامة الجمع، أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبرُه، وأصلُه وهؤلاء أسرّوا النجوى، فوُضِعَ الموصول موضعَه تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم، أو منصوب على الذم. ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ بأمره، في موضع النصب بدلاً من النجوى، أو مفعولاً لقول مقدر. كأنهم استدلوا بكونه بشراً على كذبه في ادعاء الرسالة لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا مَلَكاً، واستلزموا منه أن ما جاء به من الخوارق كالقرآن سِحْرٌ فأنكروا حضوره، وإنما أسرّوا به تشاوراً في استنباط ما يَهْدِم أَمْرَه ويُظْهِر فساده للناس عامة.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ جهراً كان أو سراً فضلاً عما أَسروا به، فهو آكَدُ من قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢] ولذلك اختير ههنا[٣]، وليطابق قوله ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ في المبالغة. وقرأ حمزة والكسائي وحفصٌ قالَ بالإخبارِ عن الرسول ﷺ. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفىٰ عليه ما يُسرون ولا ما يُضمرون.

(٥) ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إضرابٌ لهم عن قولهم هو سِحر إلى أنه تخاليطُ أحلام، ثم إلى أنه كلامٌ افتراه، ثم إلى أنه قول شاعر، والظاهر أنّ «بل» الأولى لتمام حِكايةٍ والابتداءِ بأخرى. أو للإضراب عن تحاورهم في شأن الرسول ﷺ وما ظهر عليه من الآيات إلى تقاوُلهم في أمر القرآن، والثانيةُ والثالثة لإضرابهم عن كونه أباطيلَ خُيِّلت إليه وخُلِّطت عليه إلى كونه مفترياتٍ اختلقها من تلقاء نفسه، ثم إلى أنه كلام شِعْريّ يُخَيِّلُ إلى السَامع معانيَ لا حقيقةَ لها ويرغبه فيها، ويجوز أن يكون الكل من الله تنزيلاً لأقوالهم في دَرَج الفساد لأن كونه شِعْراً أبعدُ من كونه مفترًى لأنه مشحونٌ بالحقائق والحِكَم وليس فيه ما يناسب قول الشعراء، وهو أبعدُ من كونه أحلاماً

= وفي إسناد الاقتراب ـ المنبىء عن التوجه نحوهم ـ إلى الحساب لتفخيم شأنه وتهويل أمره (س٦/ ٥٣).

(١) والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (س٦/ ٥٤).

(٢) الفرقان: «٦».

(٣) أي اختير لفظ القول بقوله «يعلم القول» على لفظ السر في الآية الأخرى لأن القول مشتمل على السرّ والجهر ولإثبات علمه تعالى بالسر والجهر على حد سواء ولا تفاوت بينهما (س٦/ ٥٥).

لأنه مشتمل على مغيّبات كثيرة طابقت الواقعَ، والمفترَىٰ لا يكون كذلك بخلاف الأحلام، ولأنهم جربوا رسول الله ﷺ نَيّفاً وأربعين سنة وما سمعوا منه كذباً قط، وهو أبعد من كونه سحراً لأنه يجانسه من حيث إنهما من الخوارق. ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي كما أرسل به الأولون، مِثْلُ اليد البيضاء والعصا وإبراءِ الأكْمَه وإحياء الموتى، وصحةُ التشبيه من حيثُ إن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية.

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية. ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ باقتراح الآيات لمّا جاءتهم. ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لو جئتهم بها وهم أَعْتَىٰ منهم. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم، إذ لو أتىٰ به ولم يؤمنوا استوجبوا عذاب الاستئصال كَمَنْ قبلهم.

(٧) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جوابٌ لقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[١] فأمَرَهم أن يسألوا أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة ليزول عنهم الشبهة. والإحالةُ عليهم إما للإلزام فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ويَثِقون بقولهم، أو لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفاراً. وقرأ حفص نوحي بالنون.

(٨) ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ نفيٌ لما اعتقدوا أنها من خواص المَلَك عن الرسل تحقيقاً لأنهم كانوا أبشاراً مثلهم، وقيل جواب لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[٢]. ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ تأكيدٌ وتقرير له، فإن التعيش بالطعام من توابع التحليل المؤدي إلى الفناء[٣]. وتوحيدُ الجسد لإرادة الجنسٰ، أو لأنه مصدر في الأصل، أو على حذف المضاف، أو تأويلِ الضمير بكل واحد، وهو جسم ذو لون فلذلك لا يطلق على الماء والهواء، ومنه الجِساد للزعفران، وقيل جسم ذو تركيب لأن أصله لجمع الشيء واشتدادِه.

(٩) ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي في الوعد. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ يعني المؤمنين بهم ومَنْ في إبقائه حكمة، كمَنْ سيؤمن هو أو أحدٌ من ذريته، ولذلك حُميت العربُ من عذاب الاستئصال. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفر والمعاصي.

(١٠) ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ يعني القرآن. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صِيتكم كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٤]، أو موعظتكم، أو ما تطلبون به حُسْنَ الذكر من مكارم الأخلاق. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنون.

---

(١) الأنبياء: «٣».
(٢) الفرقان: «٧».
(٣) وفي إيثار لفظ «ما كانوا» على أن يقال وما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضىٰ جِبلّتهم (س٦/٥٧).
(٤) الزخرف: «٤٤».

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا
يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾

(١١) ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ واردةٌ عن غضب عظيم، لأن القصم كَسْرٌ يُبين تلاؤمَ الأجزاء بخلاف الفصم. ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صفة لأهلها، وُصِفت بها لمّا أقيمت مُقامَه. ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاك أهلها. ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ مكانهم.

(١٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ فلما أدركوا شدة عذابنا إدراكَ المشاهَد المحسوس، والضميرُ للأهل المحذوف. ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابَّهم، أو مُشَبَّهين بهم من فَرْط إسراعهم.

(١٣) ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ على إرادة القول أي قيل لهم استهزاءً لا تركضوا إما بلسان الحال أو المقال، والقائل مَلَكٌ أو مَنْ ثَمَّ من المؤمنين. ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من التنعم والتلذذ، والإترافُ إبطارُ النعمة. ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كانت لكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ غداً عن أعمالكم، أو تعذبون، فإن السؤال من مقدمات العذاب، أو تُقْصَدون للسؤال والتشاور في المهام والنوازل.

(١٤) ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لمّا رأوا العذاب ولم يرَوا وجهَ النجاة لذلك لم ينفعهم. وقيل إن أهل حَضورَ من قرى اليمن بُعِث إليهم نبيّ فقتلوه، فسلط الله عليهم بُخْتَنَصَّرَ فوضع السيف فيهم، فنادى منادٍ من السماء يا لَثاراتِ الأنبياء، فندموا وقالوا ذلك.

(١٥) ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ فما زالوا يرددون ذلك، وإنما سماه دعوىٰ لأن المُوَلْوِلَ كأنه يدعو الويل ويقول: يا ويلُ تعالَ فهذا أوانُك، وكلٌّ من تلك ودعواهم يَحتمل الاسمية والخبرية. ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ مثلَ الحصيد وهو النبت المحصود، ولذلك لم يجمع. ﴿خَٰمِدِينَ﴾ ميتين، مِنْ خَمَدت النارُ. وهو مع حصيداً بمنزلة المفعول الثاني، كقولك: جعلتُه حلواً حامضاً، إذ المعنى: وجعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخُمود، أو صفة له، أو حال من ضميره.

(١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ وإنما خلقناها مشحونةً بضُروب البدائع تبصرةً للنظّار وتذكرة لِذوي الاعتبار وتسبباً لما ينتظِم به أمورُ العباد في المعاش والمعاد، فينبغي أن يتسلقوا بها إلى تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعةُ الزوال.

(١٧) ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ما يُتلهىٰ به ويُلعب. ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ من جهة قدرتنا، أو من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجرَّدات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتكم في رفع السقوف وتزويقِها وتسوية الفُرُش وتزيينها. وقيل اللهوُ الولدُ بلغة اليمن، وقيل الزوجة والمراد به الرد على النصارى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك، ويدلّ على جواب الجواب المتقدم. وقيل إنْ نافية والجملة كالنتيجة للشرطية.

بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾
أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهو وتنزيهٌ لذاته عن اللعب، أي بل من شأننا أن نُغلِّب الحق ـ الذي من جملته الجدُّ ـ على الباطل ـ الذي من عِداده اللهو[١] ـ. ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ فيمحَقُه، وإنما استعار لذلك القَذْفَ ـ وهو الرميُ البعيدُ المستلزِم لصلابة المرميّ ـ والدَّمْغَ ـ الذي هو كسرُ الدماغ بحيث يُشَقُّ غشاؤه المؤدي إلى زُهوق الروح ـ تصويراً لإبطاله به ومبالغةً فيه. وقرىء فيَدْمَغَه بالنصب كقوله:

سَأَتْرُكُ مَنْزِلي لِبَني تَميمٍ وأَلْحَقُ بالحِجازِ فأَسْتَريحا

ووَجْهُ ـ مع بُعْدِه ـ الحملُ على المعنىٰ والعَطْفُ على الحق. ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ هالِك، والزُّهوق ذهاب الرُّوح، وذِكْرُه لترشيح المجاز[٢]. ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ مما تصفونه به مما لا يجوز عليه، وهو في موضع الحال، وما مصدريةٌ أو موصولة أو موصوفة.

(١٩) ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خَلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكةَ المنزّلين منه لكرامتهم عليه منزلةَ المقربين عند الملوك. وهو معطوف على مَنْ في السموات؛ وإفرادُهُ للتعظيم أو لأنه أعمّ منه من وجه، أو المرادُ به نوع من الملائكة مُتَعالٍ عن التبوُّء في السماء والأرض، أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يتعظمون عنها. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يَعْيَوْن منها، وإنما جيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحُسُور تنبيهاً على أن عبادتهم بِثِقَلها ودوامِها حقيقةٌ بأن يُستَحْسَر منها ولا يَستَحْسِرون.

(٢٠) ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ينزهونه ويعظمونه دائماً. ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ حال من الواو في يسبحون؛ وهو استئناف، أو حال من ضميرِ قَبْلِه.

(٢١) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً ﴾ بل اتخذوا، والهمزة لإنكارِ اتّخاذهم. ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ صفةٌ لآلهة. أو متعلقة بالفعل على معنى الابتداء، وفائدتُها التحقير دون التخصيص. ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ الموتىٰ، وهم وإن لم يصرحوا به لكن لَزِم ادّعاؤهم لها الإلٰهية، فإنّ من لوازمها الاقتدارَ على جميع الممكنات، والمرادُ به تجهيلُهم والتهكم بهم، وللمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهِمُ لاختصاص الإنشار بهم.

(٢٢) ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ غيرُ الله، وُصِفَ بإلاَّ لتعذر الاستثناء لعدم شمول ما قبلَها لما بعدها ودَلالتِه على ملازمة الفساد لكون الآلهة فيهما دونه، والمرادُ ملازمتُه لكونها مطلقاً أو معه

(١) وتخصيص شأنِه هذا من بين سائر شئونه تعالى بالذِّكر للتخلص إلى ما سيأتي من الوعيد (س٦/ ٦٠).
(٢) وفي إذا الفجائية والجملةِ الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفىٰ (س٦/ ٦٠).

حملاً لها على غير، كما استثني بغير حَمْلاً عليها، ولا يجوز الرفع على البدل لأنه متفرّع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير مُوجَبٍ. ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لبطلتا، لِما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، فإنها إن توافقت في المراد تطاردتْ عليه القُدَرُ وإن تخالفَتْ فيه تعاوقت عنه. ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ المحيطِ بجميع الأجسام الذي هو محلُّ التدابير ومنشأ التقادير[١]. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد.

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفردِهِ بالألوهية والسّلْطنة الذاتية. ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ لأنهم مملوكون مستعبَدون، والضمير للآلهة أو للعباد.

(٢٤) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ كرره استعظاماً لكفرهم واستفظاعاً لأمرهم وتبكيتاً وإظهاراً لجهلهم، أو ضمّاً لإنكارِ ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلاً من العقل على معنى أوجَدوا آلهة يُنْشِرُون الموتى فاتخذوهم آلهة لِمَا وجدوا فيهم من خواصّ الألوهية؟ أو وجدوا في الكتب الإلهية الأمرَ بإشراكهم فاتخذوهم متابعةً للأمر، ويعضُد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساده عقلاً وعلى الثاني ما يدل على فساده نقلاً. ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على ذلك إما من العقل أو من النقل، فإنه لا يصح القولُ بما لا دليل عليه، كيف وقد تطابقت الحججُ على بطلانه عقلاً ونقلاً؟![٢] ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمرَ بالتوحيد والنهيَ عن الإشراك؟ والتوحيدُ لمّا لم يتوقف على صحته بعثةُ الرسل وإنزالُ الكتب صح الاستدلالُ فيه بالنقل. ومن معي: أمتُه، ومن قبلي الأممُ المتقدمة، وإضافة الذِّكْر إليهم لأنه عظتهم. وقرىء بالتنوين والإعمال[٣]، وبه وبِمِنْ الجارّة[٤] على أنَّ مَعَ اسمٌ هو ظرفٌ كقَبْلُ وبَعْدُ وشِبْهِهِما، وبِعَدمِها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ ولا يميزون بينه وبين الباطل. وقرىء الحقُّ بالرفع على أنه خبر محذوفٍ وُسِّطَ للتأكيد بين السبب والمسبّب. ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد واتّباع الرسول من أجل ذلك.

(٢٥) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإنّ ذِكْرُ مَنْ قبلي من حيث إنه خبرٌ لاسم الإشارة مخصوصٌ بالموجود بين أظهُرِهم وهو الكتب الثلاثة. وقرأ حفص وحمزةُ والكسائي نوحي إليه بالنون وكسرِ الحاء، والباقون بالياء وفتح الحاء.

---

(١) وإيراد لفظ الجلالة «الله» في موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم؛ فإن الألوهية مناط لجميع صفات كماله التي من جملتها تنزهه تعالىٰ عما لا يليق به، ولتربية المهابة وإدخال الروعة (س٦/ ٦٢).

(٢) وإضافة البرهان إليهم للتهكم بهم (س٦/ ٦٢).

(٣) أي «هذا ذكرٌ مَن معي وذِكرٌ مَنْ قبلي» كقوله تعالى «أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً».

(٤) أي هذا ذكرٌ مِنْ معي..

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ
يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ
مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ
شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ نزلت في خُزاعةَ حيث قالوا الملائكة بناتُ الله[1] ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك. ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون وليسوا بالأولاد. ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ وفيه تنبيه على مَدْحَضِ القوم. وقرىء بالتشديد.

(٢٧) ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقولَه كما هو دَيْدنُ العبيد المؤدَّبين، وأصله لا يَسبِق قولُهم قولَهُ فَنسَبَ السَّبْق إليه وإليهم، وجعل القول محلَّه وأداتَه تنبيهاً على استهجان السبق المعرَّض به للقائلين على الله ما لم يَقُله، وأنيبت اللام على الإضافة اختصاراً وتجافياً عن تكرير الضمير. وقرىء لا يَسْبُقُونَهُ ـ بالضمّ ـ من سابَقْتُهُ فسبَقْتُه أَسْبقُه. ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعملون قط ما لم يأمرهم به.

(٢٨) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا تخفى عليه خافية مما قدّموا وأخروا، وهو كالعلة لما قبله والتمهيدِ لما بعده فإنهم لإحاطتهم بذلك يَضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أن يُشفَع له مهابةً منه. ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ عظمته ومهابته. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون. وأصل الخشية خوفٌ مع تعظيم، ولذلك خُصَّ بها العلماء، والإشفاق خوف مع اعتناء، فإن عُدّي بِمِنْ فمعنى الخوف فيه أَظْهَرُ وإن عُدِّي بعلىٰ فبالعكس.

(٢٩) ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة أو من الخلائق. ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يريد به نفيَ البُنوة وإدعاءَ ذلك عن الملائكة وتهديدَ المشركين بتهديد مدعي الربوبية. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ مَنْ ظلم بالإشراك وادعاءِ الربوبية.

(٣٠) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو لم يعلموا. وقرأ ابن كثير بغير واو. ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ ذاتَ رتْق أو مرتوقتين، وهو الضمّ والالتحام أي كانتا شيئاً واحداً وحقيقةً متحدة. ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بالتنويع والتمييز، أو كانت السمواتُ واحدة ففُتّقت بالتحريكات المختلفة حتى صارت أفلاكاً، وكانت الأرضون واحدة فجُعلت باختلاف كيفياتها وأحوالِها طبقاتٍ أو أقاليمَ. وقيل كانتا بحيث لا فُرجة بينهما فَفُرِج. وقيل كانتا رتقاً لا تُمطر ولا تُنبت ففتقناهما بالمطر والنبات، فيكون المراد بالسموات سماءَ الدنيا وجمعُها باعتبار الآفاق أو السمواتُ بأسرها على أن لها مدخلاً ما في الأمطار. والكفرة وإن لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظراً فإن الفتقَ عارضٌ مفتقر إلى مؤثِّر واجبٍ ابتداء أو

(١) والتعرض لعنوان الرحمانية لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة (س٦/ ٦٣).

بوَسْط، أو استفساراً من العلماء ومطالعة للكتب. وإنما قال كانتا ولم يقل كُنّ لأن المراد جماعةُ السموات وجماعة الأرض. وقرىء رَتَقاً بالفتح على تقدير شيئاً رتقاً أي مرتوقاً كالرّفْضِ بمعنى المرفوض. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ وخلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[١] وذلك لأنه من أعظم موادِّه، أو لفرْط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه، أو صيّرنا كل شيء حيٍّ بسبب من الماء لا يحيا دونَه. وقرىء حياً على أنه صفةُ كلَّ، أو مفعول ثانٍ، والظرف لَغْوٌ والشيءُ مخصوص بالحيوان. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع ظهور الآيات.

وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ
سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ ثابتات، مِنْ رسا الشيءُ إذا ثبت. ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ كراهةَ أن تميل بهم وتضطرب، وقيل لأنْ لا تميد فحذَفَ لا لأمْن الإلباس. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو الرواسي. ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ مسالِكَ واسعةً. وإنما قدَّم فجاجاً وهو وصف له ليصير حالاً فيدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك، أو لِيُبْدِل منها سُبلاً فيدل ضمناً على أنه خلقها ووسّعها للسابلة[٢] مع ما يكون فيه من التوكيد. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم.

(٣٢) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ عن الوقوع بقدرته، أو الفسادِ والإخلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته، أو استراقِ السمع بالشُّهب. ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ عن أحوالها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمالِ قدرته وتناهي حكمتِه التي يُحَسُّ ببعضها ويُبْحَث عن بعضها في علميْ الطبيعة والهيئة. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكرين.

(٣٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بيان لبعض تلك الآيات. ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾ أي كل واحد منهما، والتنوينُ بدلٌ من المضاف إليه، والمراد بالفَلَك الجنسُ كقولهم: كساهم الأميرُ حُلّةً. ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يُسرعون على سطح الفلَك إسراعَ السابح على سطح الماء، وهو خبرُ كلٌ والجملةُ حال من الشمس والقمر، وجاز انفرادهما بها لعدم اللّبْس، والضمير لهما، وإنما جُمع باعتبار المطالع، وجُعِل الضميرُ واوَ العقلاء لأن السباحة فِعْلُهم.

(٣٤) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا نتربص به رَيْبَ المنون، وفي معناه قوله:

فَقُـلْ لِلشَّـامِتِيـنَ بِنَـا أَفِيقُـوا سَيَلْقَـى الشَّـامِتُـونَ كَمَـا لَقِينَـا

والفاءُ لتعلق الشرط بما قبله، والهمزة لإنكاره بعد ما تقرر ذلك.

---

(١) النور: «٤٥».
(٢) جماعة السائرين.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا
ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا
عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ذائقةٌ مرارةَ مفارقتها جسدَها، وهو برهان على ما أنكروه. ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ ونعاملكم معاملةَ المختبِر. ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنعم. ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاءً، مَصْدرٌ من غير لفظه. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر، وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاءُ والتعريضُ للثواب والعقاب تقريراً لما سبق.

(٣٦) ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك. ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ إلا مهزوءاً به ويقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أيْ بِسُوء، وإنما أطلقه لدلالة الحال فإنّ ذِكْر العدوّ لا يكون إلا بسوء. ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالتوحيد، أو بإرشاد الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمةً عليهم، أو بالقرآن. ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ منكِرون، فهم أحق أن يُهزأ بهم، وتكريرُ الضمير للتأكيد والتخصيصِ ولحيلولة الصلة بينه وبين الخبر.

(٣٧) ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كأنه خُلِق منه لِفَرط استعجاله وقلة ثباته، كقولك: خُلق زيد من الكَرَم. جَعَلَ ما طُبع عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغةً في لزومه له، ولذلك قيل: إنه على القلب. ومِنْ عَجَلَتِه مبادرتُه إلى الكفر واستعجالُ الوعيد. روي أنها نزلت في النضْر بن الحارث[1] حين استعجل العذاب. ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ نقِماتي في الدنيا كوقعة بدر وفي الآخرة عذاب النار. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها، والنهيُ عما جبلت عليه نفوسهم ليُقعدوها عن مرادها.

(٣٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وقتُ وَعْدِ العذاب أو القيامة. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم.

(٣٩) ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ محذوف الجواب، وحين مفعولُ يعلمُ، أي: لو يعلمون الوقتَ الذي يستعجلون منه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وهو حينَ تُحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يقدرون على دفعها ولا يجدون ناصراً يمنعها لما استعجلوا. ويجوز أن يُترك مفعول يعلم ويُضْمَرَ لحينَ فِعْلٌ، بمعنى: لو كان لهم علم لما استعجلوا يعلمون بُطلان ما هم عليه حين لا يكفون[2]. وإنما وُضِع الظاهر فيه موضعَ الضمير للدلالة على ما أوجب لهم ذلك[3].

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع» (١١/ ٢٨٩).

(٢) وإيثار صيغة المضارع في الشرط «لو يعلم» وإن كان المعنىٰ على المضي لإفادة استمرار عدم العلم (س٦/ ٦٧).

(٣) أي قال: «لو يعلم الذين كفروا» ولم يقل: لو يعلمون، فأظهر لفظ الذين كفروا وذلك ليدل على ما أوجب لهم =

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

(٤٠) ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ العِدَةُ أو النارُ أو الساعة. ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة، مصدرٌ أو حال. وقرىء بفتح الغين. ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ فتغلبهم أو تحيرهم. وقرىء الفعلان بالياء. والضميرُ للوعد أو الحين وكذا في قوله: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ لأن الوعد بمعنى النار أو العِدَة والحينَ بمعنى الساعة، ويجوز أن يكون للنار أو للبغتة. ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يُمْهَلون، وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا.

(٤١) ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ. ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وَعْدٌ له بأن ما يفعلونه به يَحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا، يعني جزاءه[١].

(٤٢) ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمستهزئين. ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ يحفظكم. ﴿ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ من بأسه إن أراد بكم، وفي لفظ الرحمن تنبيه على أنْ لا كالىء غيرُ رحمته العامة وأنّ اندفاعه بمُهْلته[٢] ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ لا يُخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسَه، حتى إذا كَلَؤوا منه عرفوا الكالىء وصلُحوا للسؤال عنه.

(٤٣) ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ بل ألَهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز مَنْعنا، أو مِنْ عذابٍ يكون من عندنا. والإضرابان عن الأمر بالسؤال على الترتيب، فإنه عن المُعْرِض الغافل عن الشيء بعيد وعن المُعْتَقِد لنقيضه أبعد. ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ استئنافٌ بإبطال ما اعتقدوه، فإنّ مَنْ لا يقدر على نَصر نفسه ولا يصحبه نصر من الله فكيف ينصر غيره؟!.

(٤٤) ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم، وهو الاستدراجُ والتمتع بما قُدِّر لهم من الأعمار. أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنه تعالى متّعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحَسِبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه، ولذلك عقبه بما يدل على أنه أملٌ كاذب فقال: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ ﴾

= ذلك وهو دخولهم النار.
وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر لكونهما أشهر الجوانب، ولأن الإحاطة بهما يستلزم الإحاطة بالكل (س٦/٦٨).

(١) وتقديم «بالذين سخروا..» على الفاعل الذي هو «ما كانوا به...» للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم (س٦/٦٨).
(٢) وتقديم الليل على النهار لأن الدواهي أكثرَ وقوعاً فيه وأشدّ وقعاً (س٦/٦٩).

أرض الكفرة. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير لما يُجريه الله تعالى على أيدي المسلمين. ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ رسولَ الله والمؤمنين[١].

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ بما أوحي إلي. ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ وقرأ ابن عامر ولا تُسْمِعُ الصمَّ على خطاب النبي ﷺ، وقرىء بالياء على أن فيه ضميرَه[٢]. وإنما سماهم الصم ووَضَعَه موضع ضميرهم للدلالة على تصامّهم وعدم انتفاعهم بما يسمعون. ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ منصوب بيسمع أو بالدعاء. والتقييدُ به لأن الكلام في الإنذار، أو للمبالغة في تصامّهم وتجاسُرهم.

(٤٦) ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أدنىٰ شيء. وفيه مبالغات، ذِكْرُ المسّ، وما في النفحة من معنى القِلّة فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء، والبناءُ الدالُّ على المَرَّة. ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ من الذي يُنْذَرون به. ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لدَعَوْا على أنفسهم بالويل واعترفوا عليها بالظلم.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ العَدْل توزن بها صحائفُ الأعمال. وقيل وضع الموازين تمثيلٌ لإرصاد الحساب السوي والجزاءِ على حسب الأعمال بالعدل. وإفرادُ القسط لأنه مصدر وُصِفَ به للمبالغة. ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه، كقولك: جئت لخَمْسٍ خَلَوْن من الشهر. ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ من حقها أو من الظلم. ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وإن كان العملُ أو الظلم مقدار حبة. ورفع نافعٌ «مثقال» على كان التامّة. ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها. وقرىء آتينا بمعنى جازينا بها من الإيتاء فإنه قريب من أعطينا أو من المؤاتاة فإنهم أتَوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء، وأَثَبْنا من الثواب، وجئْنا[٣]. والضميرُ للمثقال، وتأنيثه لإضافته إلى الحبة. ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ إذ لا مزيدَ على علمنا وعدلنا.

(٤٨) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي الكتابَ الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياءً يُستضاء به في ظلمات الحَيرة والجهالة، وذكراً يَتّعِظ به المتقون أو ذِكْرَ ما يحتاجون إليه من الشرائع. وقيل الفرقان النصر، وقيل فلق البحر. وقرىء ضياءً بغير واو على أنه حال من الفرقان[٤].

---

(١) وفي تعريف «الغالبون» تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلَبَة المعروفون بها (س٦/ ٧٠).

(٢) أي ضمير النبي عليه السلام، أي «ولا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدعاءَ».

(٣) أي قرىء «آتينا وأثبنا وجئنا».

(٤) وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به.

ﵟٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ٥٠ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ
ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ
فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ﵞ

(٤٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ صفة للمتقين، أو مدحٌ لهم منصوب أو مرفوع. ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حال من الفاعلِ أو المفعول. ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ خائفون. وفي تصديرِ الضمير وبناء الحكم عليه مبالغةٌ وتعريض[١].

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ﴾ يعني القرآن. ﴿مُّبَارَكٌ﴾ كثير خيرُه. ﴿أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهام توبيخ.

(٥١) ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ الاهتداءَ لوجوه الصلاح، وإضافتُه[٢] ليدل على أنه رُشْدُ مِثْلِه وأن له شأناً. وقرىء رَشَدَهُ وهو لغة. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبلِ موسىٰ وهارون أو محمد عليه الصلاة والسلام. وقيل من قبل استنبائه أو بلوغِه حيث قال: إني وجهت. ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ عَلِمْنا أنه أهلٌ لما آتيناه، أو جامعٌ لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال. وفيه إشارة إلى أن فِعْلَه سبحانه وتعالى باختيارٍ وحكمة، وأنه عالم بالجزئيات.

(٥٢) ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ متعلق بآتينا أو برُشْدَه أو بمحذوف، أي اذكُر من أوقات رشده وقتَ قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها، فإن التِمثال صورةٌ لا روح فيها لا يضر ولا ينفع. واللامُ للاختصاص لا للتعدية، فإن تعديةَ العُكوف بعلىٰ، والمعنى أنتم فاعلون العكوفَ لها، ويجوز أن يؤول بعلى أو يُضَمَّن العكوفُ معنى العبادة.

(٥٣) ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فقلّدناهم، وهو جواب عما لزم الاستفهامُ من السؤال عما اقتضى عبادتها وحَمَلَهم عليها.

(٥٤) ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ منخرطين في سلك ضَلال لا يخفى علىٰ عاقل، لعدم استناد الفريقين إلى دليل. والتقليد إنْ جاز فإنما يجوز لمَنْ علم في الجملة أنه على حق.

(٥٥) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ كأنهم لاستبعادهم تضليلَه إياهم ظنوا أن ما قاله إنما قاله على وجه الملاعبة، فقالوا أَبِجِدٍّ تقولُه أم تلعب به[٣].

---

(١) وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر ـ بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق ـ للإيذان بكونها معظم المخوّفات، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون.
وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه (س٦/ ٧١).

(٢) أي وإضافة الرشد إلى إبراهيم عليه السلام.

(٣) وفي إيراد الشقّ الأخير «أم أنت من اللاعبين» بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم =

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن
فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾

(٥٦) ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه. وهُنّ للسموات والأرض أو للتماثيل، وهو أدخَل في تضليلهم وإلزامِ الحجة عليهم. ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي المذكور من التوحيد. ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ من المتحققين له والمبرهنين عليه، فإن الشاهد مَنْ تحقق الشيء وحققه.

(٥٧) ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ وقرىء بالباء، وهي الأصل والتاءُ بدل من الواو المبدلةِ منها، وفيها تعجب. ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأجتهدن في كسرها، ولَفظُ الكيد وما في التاء من التعجب لِصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل. ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟﴾ عنها. ﴿مُدْبِرِينَ﴾ إلى عيدكم، ولعله قال ذلك سراً.

(٥٨) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ قُطاعاً فُعال بمعنى مفعول كالحُطام، من الجذّ وهو القطع. وقرأ الكسائي بالكسر وهو لغة أو جمعُ جَذِيذ كخِفَاف وخَفيف، وقرىء بالفتح. وجِذَذاً جمع جَذيذ وجُذذاً جمع جُذّة. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ للأصنام كسَّر غيرَه واستبقاه وجعل الفأس على عنقه. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لتفرده واشتهارِه بعداوة آلهتهم فيُحاجُّهم بقوله: بل فعله كبيرهم فيَحُجّهم، أو أنهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن كاسرها إذ من شأن المعبود أن يُرجَع إليه في حل العُقَد فيبكِّتهم بذلك، أو إلى الله أي يرجعون إلى توحيده عند تحققهم عجز آلهتهم.

(٥٩) ﴿قَالُوا۟﴾ حين رجَعوا. ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بِجُرأته على الآلهة الحقيقةِ بالإعظام، أو بإفراطه في حطمها، أو بتوريط نفسه للهلاك.

(٦٠) ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يَعيبهم، فلعله فعلَه. ويَذْكُرُ ثاني مفعولي سَمِع، أو صفة لفتًى مصححةٌ لأَنْ يتعلق به السمع، وهو أبلغ في نسبة الذِّكر إليه. ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ خبرُ محذوفٍ أي هو إبراهيم، ويجوز أن يُرْفَع بالفعل لأن المراد به الاسم.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ بمرأى منهم بحيث تتمكن صورته في أعينهم تَمَكُّنَ الراكب على المركوب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ بفعله أو قوله أو يحضرون عقوبتنا له.

(٦٢) ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ حين أحضروه[١].

= (س٦/ ٧٣).

(١) اقتُصِر على حكاية قولهم دون ذِكْر مجيئهم به للتنبيه على أن إتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غنيّ عن البيان (س٦/ ٧٤).

قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ
أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

(٦٣) ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ أَسْنَد الفعل إليه تجوّزاً لأن غيظه لِمَا رأى من زيادة تعظيمهم له تسبَّب لمباشرته إياه، أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوبٍ تعريضي كما لو قال لك من لا يُحسِنُ الخطَّ فيما كتبتَه بخط رشيق: أأنتَ كتبتَ لهذا فقلتَ بل كتبتَه أنت، أو حكايةً لما يلزم من مذهبهم جوازُه، وقيل إنه في المعنى متعلق بقوله ﴿ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ وما بينهما اعتراض. أو إلى ضمير فتى أو إبراهيم[١]. وقولُه كبيرُهم هذا مبتدأ وخبر ولذلك وُقِفَ على فعله. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لإبراهيمَ ثلاثُ كَذِبات»[٢] تسميةٌ للمعاريض كذباً لِمَا شابهت صورتُها صورتَه.

(٦٤) ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وراجعوا عقولهم. ﴿ فَقَالُوٓا۟ ﴾ فقال بعضهم لبعض. ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لا مَنْ ظلمتموه بقولكم إنه لمن الظالمين.

(٦٥) ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شَبَّه عوْدَهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه. وقرىء نُكِّسُوا بالتشديد، ونَكَسُوا أي نكسوا أنفسهم. ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها، وهو على إرادة القول.

(٦٦) ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ إنكار لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر، فإنه ينافي الألوهية.

. (٦٧) ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تضجرٌ منه على إصرارهم بالباطل البيّن. وأُفّ صوت المتضجر، ومعناه قبحاً ونتناً، واللام لبيان المتأفَّفِ له[٣]. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قُبْحَ صنيعكم.

(٦٨) ﴿ قَالُوا۟ ﴾ أخذاً في المضارة لما عجَزوا عن المحاجّة. ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ فإن النار أهول ما يُعاقب به. ﴿ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها. ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ إن كنتم ناصرين لها نصراً مؤزراً. والقائلُ فيهم رجل من أكراد فارس اسمه هيون خُسِفَ به الأرضُ، وقيل نمروذ.

(٦٩) ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ذاتَ بردٍ وسلام، أي ابرُدي برداً غير ضار. وفيه مبالغات: جَعْلُ النار المسخرة لقدرته مأمورةً مطيعة، وإقامةُ كوني ذاتَ بردٍ مَقَامَ ابرُدي، ثم حُذف

---

(١) قوله (أو إلى ضمير فتى أو إبراهيم) عطف على قوله أسند الفعل إليه تجوّزاً.

(٢) هو عند البخاري بلفظ «لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات. . .» برقم (٣٣٥٨، ٥٠٨٤).

(٣) وإظهار لفظ الجلالة «الله» لمزيد استصباح ما فعلوا (س٦/٧٦).

المضاف وأقيم المضافُ إليه مُقامَه. وقيل نُصِبَ سلاماً بفعله أي وسَلَّمْنا سلاماً عليه. روي أنهم بَنَوا حظيرة بكوثى[١] وجمعوا فيها ناراً عظيمة ثم وضعوه في المنجنيق مغلولاً[٢] فرموا به فيها، فقال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: فسَلْ ربك، فقال: حسبي من سؤالي عِلْمُه بحالي[٣]، فجعل الله تعالى ـ ببركة قوله ـ الحظيرةَ روضةً[٤] ولم يحترق منه إلا وَثَاقُه، فاطّلع عليه نمروذ من الصرح فقال إني مُقرِّبٌ إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام[٥]، وكان إذ ذاك ابنَ ستَّ عشرةَ سنة[٦]. وانقلابُ النار هواءً طيباً ليس ببِدْع غيرَ أنه هكذا على خلاف المعتاد، فهو إذن من معجزاته. وقيل كانت النار بحالها لكنه سبحانه وتعالى دفع عنه أذاها، كما ترى في السَّمَندل[٧] ويُشْعِرُ به قولُه: «على إبراهيم».

وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

(٧٠) ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ مكراً في إضراره. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أخسرَ من كل خاسر لمَا عاد سعيهم برهاناً قاطعاً على أنهم على الباطل وإبراهيمَ على الحق وموجِباً لمزيد درجته واستحقاقهم أشدَّ العذاب.

(٧١) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام، وبركاتُه العامةُ أن أكثر الأنبياء بُعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعُهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية، وقيل كثرة النعم والخصب الغالب. روي أنه عليه الصلاة والسلام نزل بفلسطين ولوطٌ عليه الصلاة والسلام بالمؤتَفِكة وبينهما مسيرة يوم وليلة[٨].

---

(١) بضم أوله، وبالثاء المثلثة، وهي بالعراق، ولد فيها إبراهيم عليه السلام.

(٢) انظر البحر المحيط (٦/ ٣٢٨).

(٣) ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٥٠) بلفظ «علمه بحالي غنى عن سؤالي» حكاية عن الخليل عليه السلام. وقال ابن تيمية: موضوع.

(٤) أخرج البخاري (٨/ ٢٢٩ رقم ٤٥٦٤) عن ابن عباس قال «كان آخرَ قولِ إبراهيم حين أُلقيَ في النار» (حسبي اللهُ ونِعمَ الوكيل).

(٥) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ج١٧/ ٤٥) عن شعيب الجبائي.

(٧) السَّمَنْدَلُ: ـ طائر إذا انقطع نَسْلُهُ وهَرِمَ ألقى نفسه في الجَمْر فيعود إلى شبابه. قاله أبو سعيد. وقال غيره: هو دابّة يدخل النار فلا تَحْرِقه [لسان العرب (٦/ ٣٧٦)].

(٨) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ج١٧/ ٤٧) عن ابن إسحاق.
وذكر ابن جرير أقوالاً أخر، ثم قال مرجحاً أن هجرة إبراهيم كانت من العراق إلى الشام، «وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مُقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يُقم بها، ولم يتخذها وطناً لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي =

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا
ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ
فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

(٧٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ عَطِيةً فهي حال منهما، أو وَلَدَ وَلَدٍ، أو زيادةً على ما سأل وهو إسحاق فتختص بيعقوب ولا بأس به للقرينة. ﴿وَكُلًّا﴾ يعني الأربعة. ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصلاح وحملناهم عليه فصاروا كاملين.

(٧٣) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدىٰ بهم. ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى الحق. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك، وإرسالُنا إياهم حتى صاروا مكمَّلين. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ليحثّوهم عليها فيتمَّ كمالُهم بانضمام العمل إلى العلم، وأصله أن تفعل الخيرات ثم فِعْلاً الخيرات ثم فِعْل الخيرات، وكذلك قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو من عطف الخاص على العام للتفضيل، وحذفت تاءُ الإقامة المعوَّضة من إحدى الألِفَين لقيام المضاف إليه مَقامها. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ موحّدين في العبادة، ولذلك قدّم الصلة.

(٧٤) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكْمةً أو نبوةً أو فصلاً بين الخصوم. ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قرية سَدوم. ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يعني اللواطة. وصفها بصفة أهلها أو أسندها إليها على حذف المضاف وإقامتها مُقامه، ويدل عليه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ فإنه كالتعليل له.

(٧٥) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ في أهل رحمتنا أو جنتنا. ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

(٧٦) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ إذ دعا الله سبحانه على قومه بالهلاك. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قَبْلِ المذكورين. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الطوفان أو أذى قومه. والكربُ الغم الشديد.

(٧٧) ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ مُطَاوعُ انتصر، أي جعلناه منتصراً[1]. ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لاجتماع الأمرين: تكذيبِ الحق والانهماك في الشر، ولعلهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

= بارك فيها للعالمين» هـ.

(١) قال أبو السعود: (وحمله على فانتصر يأباه ما ذُكِر من دعائه عليه السلام، فإن ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى مع ما فيه من تهويل الأمر (س٦/٧٨).

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨
فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا
فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾

(٧٨) ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ في الزرع، وقيل في كَرْم تدلّت عناقيده. ﴿إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ رعتْه ليلاً[١]. ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ لحكم الحاكمَين والمتحاكمَين إليهما عالمِين[٢].

(٧٩) ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ الضميرُ للحُكومة أو للفتوى. وقرىء فَأفهمناها. روي أن داودَ حكم بالغنم لصاحب الحرْث، فقال سليمان وهو ابن إحدى عشْرةَ سنةً: غَيْرُ هذا أَرْفَقُ بهما، فأمَر بدفع الغنم إلى أهل الحرْث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها والحَرْثِ[٣] إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادّان. ولعلهما قالا اجتهاداً. والأول نظيرُ قول أبي حنيفة في العبد الجاني، والثاني مثلُ قول الشافعي بِغُرْم الحيلولة في العبد المغصوب إذا أَبَقَ، وحكمه في شرعنا: عند الشافعي وجوبُ ضمان المُتْلَف بالليل إذْ المعتاد ضَبْطُ الدواب ليلاً وهكذا قضى النبي ﷺ لمّا دخلت ناقةُ البراء حائطاً وأفسدته فقال: «على أهل الأموال حِفْظُها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظُها بالليل»[٤]، وعند أبي حنيفة لا ضمانَ إلاّ أن يكون معها حافظ لقوله ﷺ: «جَرْحُ العَجْماء جُبارٌ»[٥]. ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ دليل على أن خطأ المجتهد لا يُقْدَح فيه. وقيل على أنّ كلَّ مجتهد مصيب، وهو مخالف لمفهوم قوله تعالى: «ففهمناها»، ولولا النقْلُ لاحتمل توافُقُهما، على أن قوله ففهّمناها لإظهار ما تُفُضِّل عليه في صغره. ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾ يُقدِّسن الله معه إما بلسان الحال، أو بصوت يتمثل له، أو بخَلْق الله تعالى فيها الكلام. وقيل يَسِرْن معه، مِنَ السباحة، وهو حال أو استئنافٌ لبيان وجه التسخير. ومع متعلقة بسخرنا أو يسبحن. ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ عطفٌ على الجبال أو مفعول معه. وقرىء بالرفع على الابتداء أو العطفِ على الضمير على ضَعْفٍ. ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لأمثاله، فليس بِبِدْع منّا وإن كان عجباً عندكم.

(٨٠) ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ﴾ عمَلَ الدرْع، وهو في الأصل اللباس قال:

البَسْ لكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا … إمَّا نعيمَهَا وَإمَّا بُوسَهَا

---

(١) النفش رعي الماشية في الليل وأصله الانتشار والتفرق (روح المعاني ١٧/ ٧٤).
(٢) وجملة «كنا لحكمهم...» جملة معترضة مقرّرة للحكم ومفيدة لمزيد الاعتناء بشأنه (س٦/٧٨).
(٣) أي وأمر برفع الحرْثِ...
(٤) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الأقضية (ج٢٧) وأبو داود (٣٥٦٩) وابن ماجة (٢٣٣٢).
وهو حديث صحيح. أما الحديث الآتي «جرح العجماء جبار» فهو عام، وهذا حكم خاص، والعام ينبني على الخاص ويُرد إليه، فالمصير في هذا إلى حديث البراء كما أفاده الخطابي في معالم السنن على هامش سنن أبي داود.
(٥) أخرجه البخاري (١٤٩٩، ٢٣٥٥، ٦٩١٢) ومسلم، كتاب الحدود، باب جرح العجماء (ج٤٥)، وجُبار: هدَر.

قيل كانت صفائحَ فحلّقها وسرَدها. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بعَلّم أو صفة لِلَبوس. ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ بدل منه بَدَلَ الاشتمال بإعادة الجارّ. والضميرُ لداود عليه الصلاة والسلام أو للبوس، وفي قراءة ابن عامر وحفص بالتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع، وفي قراءة أبي بكر ورُوَيْس بالنون لله عز وجل ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ذلك، أَمْرٌ أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾

(٨١) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾ وسخرنا له، ولعل اللامَ فيه دونَ الأولِ لأنّ الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع له، وفي الأول أَمْرٌ يَظْهر في الجبال والطيرِ مع داود وبالإضافة إليه. ﴿ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ شديدةَ الهبوب من حيث إنها تُبْعِدُ بكرسيه في مدة يسيرة كما قال تعالى ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[(١)] وكانت رُخاءً في نفسها طيِّبةً. وقيل كانت رُخاءً تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته. ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بمشيئته، حالٌ ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها. ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ إلى الشام رَواحاً بعدما سارت به منه بُكرة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنُجريه على ما تقتضيه الحكمة.

(٨٢) ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار ويُخرجون نفائسها. ومِنْ عطفٌ على الريح، أو مبتدأ خبرُه ما قبلَه، وهي نكرة موصوفة. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ويتجاوزون ذلك إلى أعمال أُخَرَ كبناء المدن والقصور. واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾[(٢)]. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أن يَزيغوا عن أمره، أو يُفسِدوا على ما هو مقتضى جِبِلّتهم.

(٨٣) ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ بأني مسني الضر. وقرىء بالكسر[(٣)] على إضمار القول أو تضمينِ النداء معناه. والضَّرُّ بالفتح[(٤)] شائع في كل ضرر، وبالضم خاصٌّ بما في النفس كمرضٍ وهُزال. ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وَصَفَ ربه بغاية الرحمة بعدما ذَكَرَ نفسَه بما يوجبها واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لُطفاً في السؤال. وكان رومياً من ولد عيصَ بنِ إسحاقَ استنبأه الله وكثَّر أهلَه وماله، فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهابِ أمواله والمرضِ في بدنه ثمانيَ عشرة سنةً أو ثلاثَ عشْرة سنة أو سبعاً وسبعةَ أشهر وسبعَ ساعات. روي أن امرأته ـ مَاخِيرَ بنتَ ميشا بنِ يوسفَ أو رحمةَ بنتَ إفرائيمَ بنِ يوسف ـ قالت له يوماً: لو دعوتَ الله؟ فقال: كم كانت مدةُ الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغت مدةُ بلائي مدةَ رخائي.

---

(١) سبأ: «١٢».
(٢) سبأ: «١٣».
(٣) أي بكسر الهمزة «إنّي».
(٤) أي بفتح الضاد.

فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ
لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم
مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ
إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

(٨٤) ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ بالشفاء من مرضه. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ بأنْ وُلِد له ضِعفُ ما كان، أو أُحْيِيَ ولدُه ووُلِدَ له منهم نوافلُ[1]. ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ رحمة على أيوب وتَذكِرةً لغيره من العابدين ليصبِروا كما صبر فيثابوا كما أُثيب، أو لرحمتنا للعابدين فإنا نَذْكُرهم بالإحسان ولا ننساهم.

(٨٥) ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ يعني إِلْياس، وقيل يوشع، وقيل زكريا سمي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى، أو تكفل أُمّته، أو له ضِعفُ عمل أنبياء زمانه وثوابِهم، والكِفْلُ يجيء بمعنى النصيب والكَفَالَةِ والضِّعفْ. ﴿كُلّٞ﴾ كل هؤلاء. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقّ التكاليف وشدائد النُوَب.

(٨٦) ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ يعني النبوة أو نعمةَ الآخرة. ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد.

(٨٧) ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ وصاحبَ الحوت يونُسَ بنَ متّىٰ ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ لقومه لمّا بَرِم بطول دعوتهم وشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم مهاجراً عنهم قبل أن يُؤْمَرَ، وقيل: وَعَدَهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يَعْرِفْ الحال فظَنَّ أنه كَذَبَهم وغضب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة، أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لِخَوفهم لُحوقَ العذاب عندها. وقرىء مُغْضَباً. ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ لن نُضيّق عليه، أو لن نقضيَ عليه بالعقوبة من القَدَر، ويعضده أنه قرىء مثقّلاً[2]، أو لن نُعْمِل فيه قدرتنا، وقيل هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومَه من غير انتظار لأمرنا، أو خطرةٌ شيطانية سبقت إلى وهمه فسمّيت ظناً للمبالغة. وقرىء بالياء[3]، وقرأ يعقوب على البناء للمفعول، وقرىء به مثقّلاً[4]. ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل. ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ بأنه لا إله إلا أنت. ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ من أن يُعجِزك شيء. ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة، وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»[5].

---

(١) يقال لولد الولد نافلة (المصباح المنير مادة نفل).
(٢) أي قرىء «نُقَدِّرَ» بضم النون وفتح القاف وكسر الدال مشددة.
(٣) أي «يَقْدِرَ» بفتح الياء وكسر الدال المخففة.
(٤) قراءة يعقوب «يُقْدَرَ» وقرىء «يُقَدَّرَ».
(٥) أخرجه الترمذي (٥/٥٢٩ رقم ٣٥٠٥) والحاكم (١/٥٠٥) و(٢/٣٨٢) و(٢/٥٨٣)، قال الحاكم صحيح الإسناد

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا
تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

(٨٨) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ بأنْ قذفه الحوتُ إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه، وقيل ثلاثة أيام. والغَمُّ غمُّ الالتقام، وقيل غمُّ الخطيئة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من غُمومٍ دعَوا الله فيها بالإخلاص. وفي الإمام نُجي ولذلك أخفى الجماعةُ النونَ الثانية فإنها تُخفىٰ مع حروف الفم، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بتشديد الجيم على أن أصله نُنَجّي فحُذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية في تَظَاهرون، وهي وإن كانت فاءً فحَذْفُها أَوْقَعُ من حذف حرف المضارعة التي لمعنًى، ولا يَقْدَحُ فيه اختلافُ حركتيْ النونين فإنّ الداعيَ إلى الحذف اجتماعُ المِثْلين مع تعذر الإدغام، وامتناعُ الحذف في تتجافىٰ لخوف اللَّبس[1]. وقيل هو ماض مجهولٌ أُسْنِد إلى ضمير المصدر وسُكِّن آخرُه تخفيفاً، ورُدّ بأنه لا يُسند إلى المصدر والمفعول مذكورٌ والماضي لا يُسَكَّنُ آخرُه.

(٨٩) ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ وحيداً بلا ولد يرثني. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ فإن لم ترزقني مَنْ يرثني فلا أبالي به.

(٩٠) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد عُقْرِها، أو لزكريا بتحسين خلقها وكانت حَرِدة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المتوالدين أو المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يبادرون إلى أبواب الخير[2]. ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ذوي رغَب ورهَب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة، أو في الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ مُخبتين أو دائبين الوجلَ. والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال.

= . ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في تخريج الكلم الطيب رقم (١٢٢).
ـ من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ «دعوة ذي النون إذ دعا هو في بطن الحوت أن «لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» ـ رفعه ـ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلاّ استجاب الله له.
ـ وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٥٦٠) وأحمد (١/ ١٧٠) وأبو يعلى (٢/ ١١٠) بهذا الإسناد وسياق أحمد وأبي يعلى طويل، فيه قصة.
ـ وأخرجه أبو يعلى (٢/ ٦٥) من طريق مطلب بن عبدالله بن حنطب عن مصعب بن سعد عن أبيه بلفظ «من دعا بدعاء يونس استجيب له».
وله شاهد: أخرجه الحاكم (١/ ٥٠٥) من طريق محمد بن المهاجر عن إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده. بلفظ «كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه، فقيل له بلى، فقال: دعاء ذي النون «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».
والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) لبس المضارع بالماضي لو حذفت إحدى التاءين.
(٢) وتعدية فعل المسارعة بـ «في» دون إلى للإيذان بكونهم داخلين في الخيرات غير خارجين عنها.

﴿وَالَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾

(٩١) ﴿وَالَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ من الحلال والحرام، يعني مريم[١]. ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا﴾ أي في عيسى عليه الصلاة والسلام فيها أي أحييناه في جوفها، وقيل فعلنا النفخ فيها. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من الروح الذي هو بأمرنا وحدَه، أو من جهة روحنا يعني جبريل عليه الصلاة والسلام. ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ﴾ أي قصتهما أو حالهما، ولذلك وَحَّد قولَه: ﴿ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإن مَنْ تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الصانع تعالى.

(٩٢) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ أي إن ملة التوحيد والإسلام مِلَّتكم التي يجب أن تكونوا عليها، فكونوا عليها ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتّباع. وقرىء أُمَّتَكم بالنصب على البدل، وأمةٌ بالرفع على الخبر، وقرئتا بالرفع عن أنهما خبران. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ لا إله لكم غيري. ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ لا غير.

(٩٣) ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ صَرَفَهُ إلى الغَيبة الْتِفاتاً لينعِيَ على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قِطَعاً موزّعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم. ﴿كُلٌّ﴾ من الفرق المتحزبة. ﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ فنجازيهم[٢].

(٩٤) ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ بالله ورسله. ﴿فَلَا كُفۡرَانَ﴾ فلا تضييع. ﴿لِسَعۡيِهِۦ﴾ استُعير لمَنْع الثواب كما استعير الشكر لإعطائه، ونَفْيُ الجنس للمبالغة[٣]. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ لسعيه. ﴿كَٰتِبُونَ﴾ مُثْبِتون في صحيفة عمله لا يضيع بوجهٍ ما.

(٩٥) ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ وممتنعٌ على أهلها غيرُ متصوَّر منهم. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي وحِرْمٌ بكسر الحاء وإسكان الراء، وقرىء حَرِمٌ[٤]. ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ حكمنا بإهلاكها، أو وجدناها هالكة. ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ رجوعَهم إلى التوبة أو الحياة، ولا صِلَةٌ. أو عدمُ رجوعهم للجزاء، وهو مبتدأ خبرُه حرام أو فاعلٌ له سادّ مسد خبره أو دليل عليه، وتقديرُه: توبتهم أو حياتُهم أو عدمُ بعثهم. أو لأنهم لا يرجعون ولا ينيبون، وحرام خبرُ محذوفٍ أي وحرام عليها ذاك وهو المذكور في الآية

---

(١) والتعبير عنها بالموصول «التي» لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه في حقها (س٦/ ٨٣).

(٢) وإيراد اسم الفاعل «راجعون» للدلالة على الثبات والتحقق (س٦/ ٨٤).

(٣) وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به (س٦/ ٨٤).

(٤) قوله وقرىء «حرم» أي بفتح الحاء وسكون الراء، وبفتح الحاء وكسر الراء والتنوين، وبكسر الراء وفتح الحاء والميم على المضيّ، وبضم الراء وفتح الحاء والميم على المضيّ أيضاً، وبفتح الحاء والراء والميم على المضيّ أيضاً، وبضم الحاء وكسر الراء المشددة وفتح الميم على البناء للمفعول.

المتقدمة، ويؤيده القراءة بالكسر[(١)]. وقيل حرام عَزْمٌ وموجَب عليهم أنهم لا يرجعون.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾

(٩٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ متعلق بحرام، أو بمحذوف دل الكلام عليه، أو بلا يرجعون أي يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدمُ الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها. وهو فتحُ سد يأجوجَ ومأجوج، وهي «حتى» التي يُحكىٰ الكلام بعدها، والمحكي هي الجملة الشرطية. وقرأ ابن عامرٍ ويعقوبُ فُتِّحت بالتشديد. ﴿وَهُم﴾ يعني يأجوج ومأجوج، أو الناسَ كلَّهم. ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ نَشَزٍ من الأرض، وقرىء جَدَثٍ وهو القبر. ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسرعون، مِنْ نَسَلان الذئب. وقرىء بضم السين.

(٩٧) ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القيامة. ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جواب الشرط، وإذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كقوله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[(٢)] فإذا جاءت الفاء معها تظاهرتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد، والضمير للقصة أو مبهم يفسره الأَبْصَار. ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ مقدر بالقول، واقع موقع الحال من الموصول. ﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ لم نعلم أنه حق. ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنُّذُر.

(٩٨) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَحتمل الأوثان وإبليسَ وأعوانَه، لأنهم بطاعتهم لهم في حكم عَبَدَتهم، لما روي[(٣)] أنه عليه الصلاة والسلام لما تلا الآيةَ على المشركين قال له ابن الزِّبَعْرىٰ: قد خَصَمْتُك وربِّ الكعبة، أليس اليهودُ عبدوا عُزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مُلَيح

---

(١) أي بكسر الهمزة «إنهم».
(٢) الروم: «٣٦».
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/١٥٣ رقم ١٢٧٣٩) من طريق عاصم بن بهدلة عن أبي رزين عن ابن عباس.
ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٦٩) وقال: فيه عاصم بن بهدلة وقد وثق وضعفه جماعة.
ـ وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٧/٩٧) من طريق سعيد بن جبير. والحاكم (٢/٣٨٥) من طريق عكرمة. كلاهما عنه مختصراً وفيه «فقال المشركون» وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
● وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» ص١١١ ـ ١١٢: «تنبيهان: (أحدهما): اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم، وفي كتبهم أن النبي ﷺ قال: في هذه القصة لابن الزبعرىٰ.
«ما أجهلك بلغة قومك. فإني قلت: وما تعبدون. وهي لما لا يعقل ولم أقل ومن تعبدون» هـ. وهو شيء لا أصل له. ولا يوجد لا مسنداً ولا غير مسند.
(الثاني): ـ قال السهيلي اعتراض ابن الزبعرىٰ غير لازم. لأنَّ الخطاب مخصوص بقريش وما تعبدون من الأصنام. ولذلك أتى بما الواقعة على ما لا يعقل» هـ.
وحديث ابن عباس الذي تقدم ينقض عليه هذا التأمل. فإنه صرح بأن المراد كل ما يعبد من دون الله.

عبدوا الملائكة؟ فقال ﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك» فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ﴾[1] الآية وعلى هذا يعمُّ الخطابُ ويكونُ مَا مؤولاً بمَنْ أو بما يعمُّه، ويدل عليه ما روي أن ابن الزِّبَعْرَىٰ قال: هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل مَنْ عُبِد من دون الله فقال ﷺ: «بل لكل من عُبِد من دون الله». ويكونُ قوله إن الذين بياناً للتجوّز أو للتخصيص، فأُخِّر عن الخطاب. ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما يُرمىٰ به إليها وتهيج به، مِنْ حَصَبَهُ يحْصُبه إذا رماه بالحصباء. وقرىء بسكون الصاد وَصْفاً بالمصدر. ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ استئنافٌ أو بدل من حصَبُ جهنم، واللامُ معوَّضَةٌ من علىٰ للاختصاص والدلالةِ على أن ورودهم لأجلها.

لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(٩٩) ﴿ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ ﴾ لأن المؤاخِذَ بالعذاب لا يكون إلهاً. ﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا خلاصَ لهم عنها.

(١٠٠) ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾ أنينٌ وتنفس شديد، وهو من إضافة فِعْلِ البعض إلى الكل للتغلّب إنْ أُريد بـ ما تعبدون الأصنام. ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ من الهول وشدة العذاب. وقيل لا يسمعون ما يَسُرُّهم.

(١٠١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ أي الخَصلةُ الحسنى، وهي السعادةُ أو التوفيق بالطاعة أو البشرىٰ بالجنة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ لأنهم يُرْفَعُون إلى أعلى عليين. روي[2] أن علياً كرم الله وجهه خطب وقرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وابن الجراح، ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول:

(١٠٢) ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ ﴾ وهو بدل من مبعدون أو حال من ضميره سيق للمبالغة في إبعادهم عنها. والحسيس صوتٌ يُحَسُّ به. ﴿ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ دائمون في غاية التنعم. وتقديمُ الظرف للاختصاص والاهتمامِ به.

(١٠٣) ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ النفخةُ الأخيرة لقوله تعالى ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي

---

(١) الأنبياء: «١٠١».

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٩٨٦) من رواية ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير وكان من سُمَّار علي.
وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف، وابن عم النعمان بن بشير مجهول، فالأثر ضعيف.
وأخرج ابن جرير (١٠/ج١٧/ ٩٦) من طريق محمد بن حاطب عن علي وليس فيه إلا «عثمان منهم» وإسناده صحيح.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١]، أو الانصرافُ إلى النار، أو حين يُطْبَقُ على النار، أو يُذْبح الموت. ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تستقبلهم مهنئين لهم. ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ يومُ ثوابكم، وهو مقدر بالقول. ﴿ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ مقدر باذْكُر، أو ظرفٌ لِلاَ يحزُنُهُمُ أو تتلقاهم، أو حالٌ مقدَّرة من العائد المحذوف مِنْ توعدون. والمرادُ بالطيّ ضدُّ النشر، أو المَحْوُ من قولك اطْوِ عنّي هذا الحديث، وذلك لأنها نُشِرَتْ مَظَلّةً لبني آدم فإذا انتقلوا قُوِّضت عنهم. وقرىء بالياء والبناء للمفعول[٢]. ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ طيّاً كطيّ الطومار لأجل الكتابة أو لِما يُكتب أو كُتب فيه، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص على الجمع[٣]، أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه. وقيل السّجِلّ مَلَكٌ يطوي كُتُب الأعمال إذا رفعت إليه، أو كاتبٌ كان لرسول الله ﷺ. وقرىء السِّجْلِ كالدَّلْو، والسُّجُلّ كالعُتُلّ، وهما لغتان فيه. ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي نعيد ما خلقناه مبتدأً إعادةً مِثْلَ بَدْئنا إياه في كونهما إيجاداً عن العدم، أو جمعاً بين الأجزاء المتبدِّدة. والمقصودُ بيانُ صحة الإعادة بالقياس على الإبداء، لشُمول الإمكان الذاتي المُصَحِّح للمقدورية، وتناولِ القدرة القديمة لهما على السواء. وما كافَّةٌ أو مصدريةٌ، وأولَ مفعولٌ لبدأنا أو لفعل يفسره: ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ أو موصولةٌ والكافُ متعلقة بمحذوف يفسره نعيده، أي نعيد مثل الذي بدأنا وأولَ خَلْقٍ ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف. ﴿وَعْدًا﴾ مقدر بفعله تأكيداً لنُعِيدُه، أو منتصِبٌ به لأنه عِدَةٌ بالإعادة. ﴿عَلَيْنَآ﴾ أي علينا إنجازُه. ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك لا محالةَ.

(١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ في كتاب داود عليه السلام. ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي التوراة، وقيل المرادُ بالزبور جنسُ الكتب المنزلة وبالذكر اللوحُ المحفوظ. ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرضَ الجنة، أو الأرض المقدسة. ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني عامة المؤمنين، أو الذين كانوا يُسْتَضْعفون مشارقَ الأرض ومغاربَها، أو أمة محمد ﷺ.

(١٠٦) ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي فيما ذكر من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿لَبَلَٰغًا﴾ لَكِفاية أو لَسَبَبَ بُلوغٍ إلى البُغية. ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ همُّهم العبادةُ دون العادة.

(١٠٧) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنَّ ما بُعثتَ به سببٌ لإسعادهم وموجِبٌ لصلاح معاشهم ومعادهم، وقيل كونُه رحمةً للكفار أَمْنُهُمْ به من الخسْف والمسخ وعذاب الاستئصال.

---

(١) النمل: «٨٧».
(٢) أي «يُطوَى».
(٣) أي جمع الكتاب «للكُتُب».

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ
ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا
ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(١٠٨) ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ما يوحى إلي إلا أنه لا إله لكم إلا إلهٌ واحد، وذلك لأن المقصود الأصليَّ من بعثته مقصورٌ على التوحيد، فالأُولى لقصر الحكم على الشيء والثانيةُ على العكس. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون العبادة لله تعالى على مقتضى الوحي المصدَّق بالحجة، وقد عرفتَ أن التوحيد مما يصح إثباته بالسمع.

(١٠٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي أعلمتُكم ما أُمِرْتُ به، أو حربي لكم. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ مُسْتَوِين في الإعلام به، أو مستوين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به، أو في المعاداة، أو إيذاناً على سواء. وقيل أعلمتكم أني على سواء أي عَدْلٍ واستقامةِ رأيٍ بالبرهان النير. ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ وما أدري. ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من غلبة المسلمين أو الحشر، لكنه كائن لا محالة.

(١١٠) ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما تُجاهرون به من الطعن في الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإحَن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه.

(١١١) ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وما أدري لعل تأخيرَ جزائكم استدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتتانكم أو امتحانٌ لينظرَ كيف تعملون. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتيع إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته.

(١١٢) ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ اقْضِ بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لاستعجال العذاب والتشديد عليهم. وقرأ حفص قال على حكاية قول رسول الله ﷺ، وقرىء ربُّ بالضم، وربِّي أَحْكَمُ على بناء التفضيل، وأَحْكِمْ مِنَ الإحْكَام. ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كثير الرحمة على خلقه. ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوبُ منه المعونة. ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال بأن الشوكةَ تكونُ لهم وأن راية الإسلام تَخفُق أياماً ثم تَسْكُن وأن المُوعَدَ به لو كان حقاً لنزل بهم، فأجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ فَخَيَّبَ أمانيَّهم ونصر رسوله ﷺ. وقرىء بالياء وعن النبي ﷺ «من قرأ اقترب حاسَبَه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كلُّ نبي ذُكِرَ اسمُهُ في القرآن»[1] والله تعالى أعلم.

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.
انظر (الكافي الشاف) (ص١١٢ رقم ١٤).

سُورَةُ الحَجّ

ترتيبها ٢٢ — آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

سورة الحج مكيةٌ

إلا ستَ آيات مِنْ «هذان خصمان» إلى «صراط الحميد»[1] وآيُها ثمانٍ وسبعون آية

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٤٠١ ـ ٤٠٢).

«روى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية كلها. غير آيتين نزلتا بالمدينة:

قوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف)، والتي تليها [الحج: ١٢، ١٣].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة، وهي قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول. . .) إلى آخر الأربع [الحج: ٥٣ ـ ٥٧] وقال عطاء بن يسار: نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة:

(هذان خصمان) واللتان بعدها [الحج: ٢٠ ـ ٢٢] وقال أبو سليمان الدمشقي: أولها مدني إلى قوله تعالى: (وبشر المحسنين) [الحج: ٣٨] وسائرها مكي. وقال الثعلبي: هي مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: (هذان خصمان) إلى قوله تعالى (الحميد) [الحج: ٢٠ ـ ٢٥] وقال هبة الله بن سلامة: هي من أعاجيب سور القرآن لأن فيها مكياً ومدنياً وحضرياً وسفرياً وحربياً وسلمياً وليلياً ونهارياً وناسخاً ومنسوخاً.

فأما المكي، فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها.

وأما المدني، فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين.

وأما الليلي، فمن أولها إلى آخر خمس آيات.

وأما النهاري، فمن رأس خمس [آيات] إلى رأس تسع.

وأما السفري، فمن رأس تسع إلى اثنتي عشرة.

وأما الحضري، قال رأس العشرين [منها] نسب إلى المدينة، لقرب مدته.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ ﴾ تحريكُها للأشياء على الإسناد المجازي، أو تحريكُ الأشياء فيها فأضيفت إليها إضافةً معنويةً بتقدير في، أو إضافةَ المصدر إلى الظرف على إجرائه مُجرى المفعول به. وقيل هي زلزلة تكون قُبيل طلوع الشمس من مغربها، وإضافتُها إلى الساعة لأنها من أشراطها. ﴿ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ هائل. علل أمْرَهم بالتقوى بفظاعة الساعة ليتصوروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يُؤَمِّنهم منها سوى التدرع بلباس التقوى فيُبقُوا على أنفسهم ويتّقوها بملازمة التقوى.

(٢) ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ تصويرٌ لِهَوْلها، والضميرُ للزلزلة، ويومَ منصوب بتذهل. وقرىء تُذْهَلُ وتُذْهِلُ مجهولاً ومعروفاً أي تُذْهِلُها الزلزلةُ. والذهول الذهابُ عن الأمر بدهشة. والمقصودُ الدلالة على أن هولها بحيث إذا دَهِشَت التي أَلْقمت الرضيعَ ثديَها نزعتْه من فيه وذهِلت عنه. وما موصولة أو مصدرية. ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ كأنهم سكارى. ﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ على الحقيقة. ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ فأرهقهم هولُه بحيث طيّر عقولَهم وأذهب تمييزهم. وقرىء تُرَىٰ من أَرَيْتُك قائماً أو رُؤيت قائماً بنصب الناس ورفعه على أنه نائبُ منابَ الفاعل. وتأنيثُه على تأويل الجماعة، وإفرادُه بعد جمعه لأن الزلزلة يراها الجميع، وأثرُ السَّكَر إنما يراه كل أحد على غيره. وقرأ حمزة والكسائي سَكْرىٰ كعطشى، إجراءً للسَّكَر مُجرىٰ العلل.

(٣) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث[١]، وكان جَدِلاً يقول: الملائكةُ بناتُ الله والقرآنُ أساطير الأولين ولا بعْثَ بعد الموت، وهي تعمّه وأضرابَه. ﴿ وَيَتَّبِعُ ﴾ في المجادلة أو في عامةِ أحواله. ﴿ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ متجرّدٍ للفساد، وأصله العُرْيُ.

(٤) ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ على الشيطان. ﴿ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ تبعه، والضمير للشأن. ﴿ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ ﴾ خبر لمَنْ أو جواب له، والمعنى كتب عليه إضلالُ مَنْ يتولاه لأنه جُبل عليه. وقرىء بالفتح[٢] على تقدير فشأنُه أنه يُضله لاعلى العطف فإنه يكون بعد تمام الكلام، وقرىء بالكسر في الموضعين على حكاية المكتوب أو إضمارِ القول أو تضمينِ الكَتْبِ معناه. ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ بالحمل على ما يؤدي إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

(٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ من إمكانه وكونِه مقدوراً. وقرىء من البَعَثِ بالتحريك كالجَلَب. ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم ﴾ أي فانظروا في بدء خلقكم فإنه يُزيح رَيبكم فإنا خلقناكم. ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ بخلق آدم منه، أو الأغذيةِ التي يتكون منها المنيّ. ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ مَنِيٍّ، مِنَ النّطف وهو الصبّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٨).

(٢) أي بفتح الهمزة في «أنه» في الموضعين.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة. ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم، وهي في الأصل قَدْرُ ما يُمضَغ. ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مُسَوّاةٍ لا نقصَ فيها ولا عيب وغيرِ مُسوّاة، أو تامةٍ وساقطة، أو مصوَّرةٍ وغيرِ مصورة. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدريج قُدْرَتَنا وحكمتنا، وأن ما قَبِلَ التغيرَ والفساد والتكوّن مرة قَبِلها أخرى، وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً قدَر على ذلك ثانياً. وحُذف المفعول إيماءً إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذِّكر. ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ أنْ نقره. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقتُ الوضع، وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه أربعُ سنين. وقرىء ونُقِرَّ بالنصب، وكذا قوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ عطفاً على نبيِّنَ، كأنَّ خَلْقَهم مُدَرَّجاً لغرضين: تبيينِ القدرة، وتَقْريرِهم في الأرحام حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف. وقرئا[1] بالياء رفعاً ونصباً، ويُقِرَّ بالياء، ونَقُرُّ من قررت الماء إذا صببتُه. وطفلاً حالٌ أجريت على تأويل كلٍّ واحد، أو للدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ كمالكم في القوة والعقل، جمع شِدة كالأنْعُم جمع نعمة، كأنها شدة في الأمور. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشُد أو قبله. وقرىء يَتَوَفّىٰ أي يتوفاه الله تعالى. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو الهرم والخرف. وقرىء بسكون الميم. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما عَمِله ويُنكِر ما عرفه. والآية استدلال ثانٍ على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره. ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة يابسة، مِنْ هَمَدت النار إذا صارت رماداً. ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات. ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت. وقرىء وربأت أي ارتفعت. ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كل صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حَسَنٍ رائق. وهذه دِلالةٌ ثالثة كررها الله تعالى في كتابه لظهورها وكونِها مشاهَدَة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويلِه على أحوال متضادة وإحياءِ الأرض بعد موتها، وهو مبتدأٌ خبرُه: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي بسبب أنه الثابت في نفسه الذي به تتحقق الأشياء. ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ وأنه يَقْدِر على إحيائها، وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة[2]. ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قُدرته لذاته الذي نِسْبَتُه إلى الكل على سواء. فلما دلت المشاهدةُ على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتدارُه على إحياء كلِّها.

(٧) ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه[3] ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي

---

(١) قوله: (وقرئا) عائدة على الفعلين نقرّ، ونخرجكم..

(٢) وتخصيص إحياء الموتى بالذكر ـ مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها ـ للتصريح بما فيه النزاع والدفعِ في نحور الكافرين، وتقديمه لإبراز الاعتناء به (س٦/ ٩٥).

(٣) وإيثار صيغة الفاعل في «آتية» للدلالة على تحقيق إتيانها وتقرره البتَّة لاقتضاء الحكمة إياه (س٦/ ٩٥).

﴿ٱلْقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخُلْف.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾

(٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة بقوله: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ على أنه لا سند له عن استدلالٍ أو وحي، أو الأول في المقلَّدين وهذا في المقلِّدين، والمراد بالعلم العلمُ الفطريُّ ليصح عطفُ الهدىٰ والكتاب عليه.

(٩) ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ متكبراً، وثَنْيُ العِطْف كنايةٌ عن التكبر كَلَيِّ الجِيد، أو مُعْرِضاً عن الحق استخفافاً به. وقرىء بفتح العين أي مانِعٌ تَعَطُّفَهُ. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ علّة للجدال، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء، على أنّ إعراضه عن الهدى المتمكن منه بالإقبال على الجدال الباطل خروجٌ من الهدىٰ إلى الضلال، وأنه من حيث مؤداه كالغرض له. ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر. ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ المحروق وهو النار.

(١٠) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ على الالتفات، أو إرادةِ القول أي يقال له يوم القيامة ذلك الخزيُ والتعذيبُ بسبب ما اقترفْتَه من الكفر والمعاصي[١]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وإنما هو مُجَازٍ لهم على أعمالهم. والمبالغةُ لكثرة العبيد.

(١١) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على طَرَفٍ من الدين لا ثَبَاتَ له فيه، كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس بظَفَرٍ قَرّ وإلا فَرّ. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ روي أنها نزلت في أعاريبَ قدموا المدينة، فكان أحدُهم إذا صح بَدَنُه ونُتِجت فرسه مُهراً سَرِيّاً وولدت امرأتُه غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال: ما أَصَبْتُ منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأنّ، وإن كان الأمر بخلافه قال ما أَصَبْتُ إلا شراً وانقلب[٢]. وعن أبي سعيد أن يهودياً أسلم فأصابته مصائبُ فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أَقِلْني فقال: «إن الإسلام لا يُقَالُ» فنزلت[٣]. ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا

---

(١) وإسناده إلى يده لأن الاكتساب عادة يكون بالأيدي (س٦/٩٧).

(٢) ذكره الواحدي في الأسباب «ص٣٠٧».
وأخرج معناه البخاري (٨/ ٤٤٢ رقم ٤٧٤٢) وابن أبي شيبة، والإسماعيلي وابن أبي حاتم ـ كما في فتح الباري (٨/ ٤٤٣) ـ وابن مردويه ـ كما في «فتح القدير» (٣/ ٤٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ.

(٣) ذكره الواحدي في الأسباب «ص٣٠٧».
وأخرجه ابن مردويه ـ كما في «فتح القدير» (٣/ ٤٤٢) و«فتح الباري» (٨/ ٤٤٣) عنه وإسناده ضعيف.
قلت: وأخرج البخاري (٨/ ٤٤٢ رقم ٤٧٤٢) في تفسير هذه الآية، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال: «ومن الناس من يعبد الله على حرف» قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، ونُتِجتَ =

﴿وَٱلْأَخِرَةَ﴾ بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد. وقرىء خاسراً بالنصب على الحال، والرفع على الفاعلية. ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيصاً على خسرانه أو على أنه خبرُ محذوفٍ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ إذ لا خُسرانَ مثلُه.

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ يَعْبُد جماداً لا يضر بنفسه ولا ينفع. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن المقصد، مستعارٌ مِنْ ضلال مَنْ أبعد في التيه ضالاً.

(١٣) ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ بكونه معبوداً لأنه يوجب القتل في الدنيا والعذابَ في الآخرة. ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ الذي يُتوقع بعبادته وهو الشفاعةُ والتوسل بها إلى الله تعالى. واللامُ معلَّقة ليدعو من حيث إنه بمعنى يزعم، والزعم قول مع اعتقاد، أو داخلة على الجملة الواقعة مقولاً إجراءً له مُجرى يقول. أي يقول الكافر ذلك بدعاء وصراخ حين يرى استضرارَه به، أو مستأنفةٌ على أَنّ يدعو تكريرٌ للأول ومَنْ مبتدأٌ خبرُه: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الناصر. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ الصاحب[1].

(١٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إثابة الموحّد الصالِح وعقاب المشرك الطالِح لا دافعَ له ولا مانع.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ كلام فيه اختصار، والمعنى: أن الله ناصرٌ رسولَه في الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعُه من غيظه. وقيل المراد بالنصر الرزق، والضمير لمَنْ. ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ فَلْيستقْصِ في إزالة غيظه أو جزعَه بأن يفعل كل ما يفعله الممتلىء غيظاً، أو المُبالغ جزعاً حتى يَمُدّ حبلاً إلى سماء بيته فيختنق، مِنْ قَطَع إذا اختنق فإن المختنق يقطع نَفَسَه بحبس مجاريه. وقيل فليمدد حبلاً إلى سماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عِنانها فيجتهدَ في دفع نصره أو تحصيل رزقه. وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر لِيَقْطَع بكسر اللام. ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ فليتصور في نفسه. ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ فعلُه ذلك، وسماه على الأول كيداً لأنه منتهى ما يقدر عليه. ﴿مَا يَغِيظُ﴾ غيظه أو الذي يغيظه من نَصْرِ الله. وقيل نزلت في قوم مسلمين استبطأوا نصر الله لاستعجالهم وشدةِ غيظهم على المشركين.

= خيله قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تَلِدِ امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

(١) وإيراد صيغة التفضيل في «أقرب» مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة في تقبيح حاله والإمعان في ذمه (س٦/٩٨).

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ
وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ
يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك الإنزال. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أنزلنا القرآن كلَّه. ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ ولأن الله يهدي به أو يُثبت على الهدى. ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايته أو إثباته، أنزله كذلك مبيناً.

(١٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالحكُومة بينهم وإظهارِ المُحِق منهم على المبطل، أو الجزاءِ فيجازي كلاً ما يليق به ويُدخله المحل المعدَّ له، وإنما أدخلت إنّ على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به مراقب لأحواله.

(١٨) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يتسخر لقدرته ولا يتأتى عن تدبيره، أو يَدُل بذِلّته على عظَمة مدبره. ومَنْ يجوز أن يعمّ أولي العقل وغيرَهم على التغليب، فيكونُ قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعادِ ذلك منها. وقرىء والدوابُ بالتخفيف كراهةَ التضعيف أو الجمع بين الساكنين[1]. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عَطْف عليها إن جُوّز إعمالُ اللفظ الواحد في كل واحد من مفهوميه، وإسنادُه باعتبار أحدهما إلى أمر وباعتبار الآخر إلى آخر، فإن تخصيصَ الكثير يدل على خصوص المعنى المسندِ إليهم. أو مبتدأٌ خبرُه محذوف، يدل عليه خبرُ قسيمه نحوُ حقَّ له الثوابُ. أو فاعِلُ فعلٍ مضمَر، أي ويسجد له كثير من الناس سجودَ طاعة. ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بكفره وإبائه عن الطاعة، ويجوز أن يُجْعَل وكثيرٌ تكريراً للأول مبالغةً في تكثير المحققوين بالعذاب وأنْ يُعْطَفَ به على الساجدين بالمعنى العام موصوفاً بما بعده. وقرىء حُقّ بالضم، وحَقاً بإضمار فعله. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بالشقاوة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة، وقرىء بالفتح[2] بمعنى الإكرام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ من الإكرام والإهانة.

(١٩) ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي فوجان مختصمان، ولذلك قال: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ حملاً على المعنى ولو عكس لجاز، والمراد بهما المؤمنون والكافرون. ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ في دينه أو في ذاته وصفاته. وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقال اليهود: نحن أحقُّ بالله وأقدمُ منكم كتاباً ونبيُّنا قبل نبيكم، وقال

---

(١) والمراد بالرؤية في «ألم تر» العلم، وقد عبر عنه بها إشعاراً بظهور المعلوم (س٦/ ١٠٠).

(٢) أي بفتح الراء أي مُكْرَم.

المؤمنون: نحن أحقُّ بالله آمنا بمحمد ونبيِّكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبيَّنا ثم كفرتم به حسداً، فنزلت[(١)]. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فَصْلٌ لخصومتهم وهو المعني بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾[(٢)]. ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ﴾ قُدِّرت لهم على مقادير جثثهم. وقرىء بالتخفيف. ﴿ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ نيران تحيط بهم إحاطةَ الثياب. ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ حال من الضمير في لهم، أو خبر ثان. والحميمُ الماء الحارّ.

يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ أي يؤثر من فَرْط حرارتِه في بطونهم تأثيرَه في ظاهرهم فتذاب به أحشاؤهم كما تذاب به جلودُهم. والجملة حال من الحميم، أو من ضميرهم. وقرىء بالتشديد للتكثير[(٣)].

(٢١) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ سياط منه يُجلَدون بها، جمع مِقْمعة، وحقيقتها ما يُقمع به أي يُكفّ بعنف.

(٢٢) ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ من النار. ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ من غمومها، بدلٌ من الهاء بإعادة الجار. ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي فخَرجوا أعيدوا لأن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج، وقيل يضربهم لهيبُ النار فيرفعهم إلى أعلاها فيُضرَبون بالمقامع فيهوُون فيها. ﴿وَذُوقُواْ﴾ أي وقيل لهم ذوقوا. ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي النارِ البالغة في الإحراق.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ غيّر الأسلوب فيه وأسند الإدخالَ إلى الله تعالى وأكده بإنّ إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم. ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ من حَلّيْتُ المرأةَ إذا ألبستُها الحُلَىٰ. وقرىء بالتخفيف، والمعنى واحد. ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ صفة مفعولٍ محذوف، وأساور جَمْعُ أَسورة وهو جمع سِوَار. ﴿مِن ذَهَبٖ﴾ بيانٌ له. ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ عطف عليها لا على ذهب لأنه لم يُعهد السوارُ منه إلا أن يراد المرصعةُ به. ونَصَبَه نافع وعاصم عطفاً على محلها أو إضمارِ الناصب مثلُ ويُؤتَون، وروَىٰ حفص بهمزتين، وترك أبو بكر والسوسيُّ عن أبي عمرو الهمزةَ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٣١٨) عن ابن عباس بدون إسناد وأخرجه ابن جرير (٩٩/١٧) عن ابن عباس من طريق عطية العوفي، وسنده ضعيف لضعف عطية.
ولكن أخرج البخاري (٣٩٦٥، ٤٧٤٤) أن الآية نزلت في مبارزة حمزة وعبيدة وعلي مع عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر.

(٢) الحج: «١٧».

(٣) وتأخير الجلود إما لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر مع أن ملابستها على العكس (س١٠١/٦).

الأولى، وقرىء لُؤْلُوّاً بقلب الثانية واواً، ولُوليّاً بقلبهما واوين ثم قلب الثانية ياء، ولِيلِيّاً بقلبهما ياءين، ولَوْلٍ كأدْلٍ[١]. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غيّر أسلوب الكلام فيه للدلالة على أن الحرير ثيابُهم المعتادة، أو للمحافظة على هيئة الفواصل.

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾

(٢٤) ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وهو قولهم ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾[٢] أو كلمة التوحيد. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ المحمودِ نفسُه، أو عاقبتُه وهو الجنة أو الحُور، أو المستحق لذاته الحمدَ وهو الله سبحانه وتعالى وصراطُه الإسلام.

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا يريد به حالاً واستقبالاً وإنما يريد به استمرارَ الصدّ منهم كقولهم: فلان يعطي ويمنع، ولذلك حَسُنَ عطفُه على الماضي. وقيل هو حال من فاعل كفروا، وخبرُ إن محذوف دل عليه آخر الآية أي معذبون. ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ عطف على اسم الله. وأَوَّلَهُ الحنفية بمكة، واستشهدوا بقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ - أي المقيم والطارىء - على عدم جواز بيع دُورها وإجارتها، وهو مع ضعفه مُعَارَض بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾[٣] وشراءِ عمرَ رضي الله تعالى عنه دارَ السجن فيها من غير نكير[٤]. وسواءٌ خبرٌ مقدَّم، والجملة مفعولٌ ثانٍ لجعلناه إن جُعل للناس حالاً من الهاء وإلا فحالٌ من المستكنّ فيه. ونصبه حفص على أنه المفعول أو الحالُ، والعاكِفُ مرتفِع به، وقرىء العاكفِ بالجر على أنه بدل من الناس. ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ﴾ مما تُرِك مفعولُه ليتناول كل مُتَناوَلٍ، وقرىء بالفتح[٥] من الورود. ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ عدول عن القصد ﴿بِظُلۡمٖ﴾ بغير حق، وهما حالان مترادفان، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلةٌ له أي مُلْحِداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام. ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ جوابٌ لمَنْ.

---

(١) أَدْلٍ جمع دَلْو.

(٢) الزمر: «٧٤».

(٣) الحشر: «٨».

(٤) نقل البيضاوي عن الحنفية غير محرر، فالفتوىٰ عند الحنفية خلاف ذلك، والمنقول عن أبي حنيفة بأنه لا بأس ببيع بناء مكة ويكره بيع أرضها، وفي رواية عنه بأنه لا بأس ببيع أرضها، وكره أبو حنيفة إجارة البيوت في مكة أيام الموسم.
انظر تحرير هذه المسألة في روح المعاني (١٧/١٣٨).

(٥) أي بفتح الياء «يَرِدْ».

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

(٢٦) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي واذكر إذ عيّناه وجعلناه له مبَاءةً، وقيل اللام زائدة، ومكانَ ظرفٌ أي وإذ أنزلناه فيه. قيل: رُفع البيت إلى السماء وانطمس أيام الطوفان فأعلمه الله مكانه بريح أرسلها فكنَست ما حوله فبناه على أسّه القديم. ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أَنْ مفسّرةٌ لبوأنا من حيث إنه تضمن معنى تعبّدْنا لأن التبوئة من أجل العبادة، أو مصدريةٌ موصولة بالنهي أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وطهر بيتي من الأوثان والأقذارِ لمن يطوف به ويصلي فيه. ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقلٌّ باقتضاء ذلك، كيف وقد اجتمعت؟. وقرىء يُشرِكْ بالياء، وقرأ نافع وحفص وهشام بَيْتِيَ بفتح الياء.

(٢٧) ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ نادِ فيهم. وقرىء وآذن. ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوة الحج والأمر به. روي أنه عليه الصلاة والسلام صعِد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حُجّوا بيت ربكم، فأسمعه الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب من سبق في علمه أن يحج[١]. وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ أُمِرَ بذلك في حجة الوداع. ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مُشاةً جمعُ راجل كقائم وقيام. وقرىء بضم الراء مخفف الجيم ومثقّله، ورَجالىٰ كعَجالى. ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول أتعبه بُعْدُ السفر فهزله. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفةٌ لضامر محمولة على معناه. وقرىء يأتون صفة للرجال والركبان، أو استئناف فيكون الضمير للناس. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق. ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد. وقرىء مَعِيق يقال بئر بعيدة العُمْق والمُعْق بمعنى.

(٢٨) ﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ ليَحضروا. ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ دينيةً ودنيوية، وتنكيرُها لأن المراد بها نوعٌ من المنافع مخصوصٌ بهذه العبادة. ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحِها. وقيل كنّى بالذكْر عن النحر لأن ذبحَ المسلمين لا ينفك عنه تنبيهاً على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي عشرُ ذي الحِجة، وقيل أيامُ النحر. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ علّق الفعلَ بالمروزق وبيّنه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر. ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ من لحومها، أَمَرَ بذلك إباحةً وإزاحة لما عليه أهلُ الجاهلية من التحرج فيه، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم، وهذا في المتطوَّع به دون الواجب. ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة. ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ المحتاج، والأمرُ فيه للوجوب وقد قيل به في الأول.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥) ـ.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝٢٩ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠﴾

(٢٩) ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال. ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرون من البرّ في حجهم، وقيل مواجب الحج. وقرأ أبو بكر بفتح الواو وتشديد الفاء. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طواف الرُّكن الذي به تمامُ التحلل فإنه قرينةُ قضاء التَّفَث، وقيل طواف الوداع. وقرأ ابن عامرٍ وحده بكسر اللام فيهما. ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم لأنه أولُ بيت وضع للناس، أو المُعْتَق من تسلط الجبابرة فكم من جبار رسا إليه ليهدِمه فمنعه الله تعالى؟ وأما الحجاجُ فإنما قصد إخراج ابن الزبير منه دون التسلط عليه.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرُ محذوفٍ أي الأمر ذلك، وهو وأمثاله تَطلُقٌ للفصل بين كلامين. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أحكامه وسائرَ ما لا يَحِلّ هتكه، أو الحَرَم وما يتعلق بالحج من التكاليف. وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرّم. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ فالتعظيم خير له. ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ ثواباً. ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلا المتلوَّ عليكم تحريمُه، وهو ما حَرُم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله، فلا تُخرجوا منها غير ما حرمه الله كالبَحيرة والسائبة. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تُجتنب الأنجاس، وهو غايةُ المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفيرِ عن عبادتها. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأسُ الزور، كأنه لمّا حث على تعظيم الحُرُمات أتبعه ذلك رداً لِمَا كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والافتراء على الله تعالى بأنه حَكَمَ بذلك. وقيل شهادة الزور لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «عَدَلت شهادةُ الزور الإشراك بالله تعالى» ثلاثاً، وتلا هذه الآية[١]. والزُّور من الزَّوَر وهو الانحراف كما أن الإفك من الأَفْك وهو الصرف، فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤ رقم ٣٥٩٩) والترمذي (٤/٥٤٧ رقم ٢٣٠٠) وابن ماجه (٢/ ٧٩٤ رقم ٢٣٧٢) وأحمد (٤/ ٣٢١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٧/ ١٥٤) والطبراني في الكبير (٤/٢٤٩ رقم ٤١٦٢) كلهم من طريق محمد بن عبيد عن سفيان بن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك.
وسكت عليه أبو داود، وقال الترمذي: هذا عندي أصحُّ، وخريم بن فاتك له صحبه. وقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف ابن ماجه.
● وأخرجه الترمذي (٤/٥٤٧ رقم ٢٢٩٩) وأحمد (٤/ ٢٣٣، ٣٢٢) وابن جرير (١٠/ ج١٧/ ١٥٤).
كلهم من طريق مروان الفزاري، عن سفيان بن زياد العصفري عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم وفاتك بن فضالة مجهول الحال كما في التقريب (٢/ ١٠٧ رقم١).
وقال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ.
والخلاصة أن الحديث مرسل ضعيف.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وهما حالان من الواو. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه سقط من أَوْج الإيمان إلى حضيض الكفر. ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ فإن الأهواء الرديئة توزع أفكاره. وقرأ نافع وحده فتَخَطَّفه بفتح الخاء وتشديد الطاء. ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوّح به في الضلالة. وأو للتخيير كما في قوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[(١)]، أو للتنويع فإن من المشركين مَنْ لا خلاص له أصلاً، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن على بُعد، ويجوز أن يكون من التشبيهات المركبة فيكون المعنى: ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكاً يشبه أحد الهلاكيْن.

(٣٢) ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ دين الله، أو فرائضَ الحج ومواضع نُسُكه، أو الهدايا لأنها من معالم الحج، وهو أوفق لظاهر ما بعده. وتعظيمُها أن تختارها حِساناً سِماناً غاليةَ الأثمان. روي أنه ﷺ أهدىٰ مائة بَدَنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرَة[(٢)] من ذهب[(٣)]، وأن عمر رضي الله تعالى عنه أهدىٰ نَجِيبة[(٤)] طلبت منه بثلثمائة دينار[(٥)]. ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ فإن تعظيمها منه من أفعال ذوي تقوىٰ القلوب، فحذفت هذه المضافات، والعائد إلى مَنْ، وذِكْرُ القلوب لأنها منشأ التقوى والفجور أو الآمرةُ بهما.

---

(١) البقرة: «١٩».
(٢) البُرة هي الحلقة التي تجعل في أنف الجمل.
(٣) ● أخرج البزار في الكشف (٢/١٩ رقم ١١٠٤) عن ابن عباس أن النبي ﷺ أهدى مائة بدنةٍ مقلَّدة مجلَّلَة» وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/٢٢٥) وقال «رواه البزار وفيه الحجاج بن أرطأة وهو ثقة لكنه مدلس» هـ.
● وأخرج أبو داود (٢/٣٦٠ ـ ٣٦١ رقم ١٧٤٩) والحاكم (١/٤٦٧) وأبو يعلى في المسند (٤/٣٣٨ ـ ٣٣٩) والطبراني في الكبير (١١/٩١ رقم ١١١٤٧) و(١١/٩٢ رقم ١١١٤٨) وأحمد في المسند (١/٢٦١) كلهم من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية في هدايا رسول الله ﷺ جملاً كان لأبي جهل في رأسه بُرَةَ فِضَّة. قال ابن منهال: بُرَة من ذهب. زاد النفيلي، يغيظ بذلك المشركين».
قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
وسكت أبو داود والمنذري على الحديث. وحسنه الألباني في صحيح أبو داود.
(٤) النجيبة مؤنث «فعيل» من نجب أي الفاضل من الإبل [النهاية (٥/١٧)].
(٥) أخرجه أبو داود (٢/٣٦٥ رقم ١٧٥٦) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/٢٣١) من حديث ابن عمر.
قال البخاري: لا نعرف لجهم سماعاً من سالم. وقال الذهبي فيه جهالة، وقال الحافظ: مقبول. [الميزان (١/٤٢٦) والتقريب (١/١٢٥)].
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلْنَا مَنسَكٗا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٞ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦﴾

(٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي لكم فيها منافعُ دَرِّها ونسْلها وصوفِها وظهرها إلى أن تنحر، ثم وقتُ نحرِها منتهيةً إلى البيت أي ما يليه من الحرم. وثمّ تَحتمل التراخيَ في الوقت والتراخي في الرتبة، أي لكم فيها منافعُ دنيوية إلى وقت النحر وبعده منافعُ دينية أعظمُ منها، وهو على الأولين إما متصل بحديث الأنعام والضميرُ فيه لها، أو المرادُ على الأول لكم فيها منافعُ دينية تنتفعون بها إلى أجل مسمى هو الموت ثم محِلها منتهيةً إلى البيت العتيق الذي ترفع إليه الأعمال، أو يكون فيها ثوابها وهو البيتُ المعمور أو الجنة، وعلى الثاني لكم فيها منافع التجارات في الأسواق إلى وقت المراجعة ثم وقتُ الخروج منها منتهيةً إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ﴾ ولكل أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنسَكٗا﴾ متعبَّداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر[١] أي موضع نُسُك. ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ دون غيره ويجعلوا نَسيكتَهم لوجهه، علل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود من المناسك تذكّر المعبود. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عند ذبحها، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نَعماً. ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أخلِصوا التقرب أو الذكر ولا تشوبوه بالإشراك. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات صفتُهم.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هيبةً منه، لإشراق أشعة جلاله عليها. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من الكُلَف والمصائب. ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها. وقرىء والمقيمين الصلاة على الأصل. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

(٣٦) ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ جمع بَدَنَة كخُشُبٍ وخَشَبَة، وأصله الضم وقد قرىء به[٢]، وإنما سميت بها الإبل لعظَم بَدَنها، مأخوذة مِنْ بَدُنَ بَدَانةً. ولا يلزم من مشاركة البقرة لها في إجزائها عن سبعة بقوله عليه الصلاة والسلام «البَدَنة عن سبعة والبقرة عن سبعة»[٣] تناوُلُ اسم البدنة لها شرعاً، بل الحديث

---

(١) أي بكسر السين في «مَنْسِكاً».

(٢) أي وأصله ضم الدال، وقد قرىء بضم الدال «والبُدُن».

(٣) أخرجه أبو داود (٣/٢٣٩ رقم ٢٨٠٩) عن جابر. وهو حديث صحيح.

● وأخرج مسلم (٢/٩٥٥ رقم ٣٥١/١٣١٨) ومالك في الموطأ (٢/٤٨٦ رقم ٩) والترمذي (٣/٢٤٨ رقم ٩٠٤) وأبو داود (٣/٢٣٩ رقم ٢٨٠٧) والنسائي (٧/٢٢٢ رقم ٤٣٩٣) والدارمي (٢/٧٨). =

يمنع ذلك، وانتصابُه بفعل يفسره. ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم﴾ ومَنْ رفعه جعله مبتدأ. ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ منافعُ دينية ودنيوية. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك. ﴿صَوَآفَّ﴾ قائماتٍ قد صَفَفْن أيديَهن وأرجلَهن. وقرىء صَوافِنَ من صَفَن الفرس إذا قام على ثلاثٍ وعلى طرفِ حافر الرابعة لأن البَدَنة تُعْقَل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرىء صوافنا بإبدال التنوين من حرف الإطلاق عند الوقف، وصَوَافِيَ أي خوالصَ لوجه الله، وصَوَافِيْ بسكون الياء على لغة من يسكّن الياء مطلقاً كقولهم: أعطِ القوس باريها. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت. ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده وبما يُعطىٰ مِن غير مسألة ويؤيده قراءة القَنِعَ، أو السائل من قَنَعتُ إليه قُنُوعاً إذا خضعت له في السؤال. ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ والمعترض بالسؤال. وقرىء والمعتري، يقال عَرَهُ وعراه واعتره واعتراه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ما وصفنا من نحرها قياماً. ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع عِظَمها وقوتها حتى تأخذوها منقادة فتعقِلوها وتحبسوها صافةً قوائمَها، ثم تطعنون في لَبَّاتِها[1]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص.

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ لن يُصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول. ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّق بها. ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المُهَراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء. ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيبه ما يصحبه من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمره تعالى والتقرب إليه والإخلاص له. وقيل كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا القَرَابينَ لطّخوا الكعبة بدمائها قُربةً إلى الله تعالى، فَهَمّ به المسلمون، فنزلت[2]. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي لتعرِفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيرُه فتُوحِّدوه بالكبرياء. وقيل هو التكبيرُ عند الإحلال أو الذبح. ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها. وما تحتمل المصدريةَ والخبرية، وعلى متعلقةٌ بتكبروا لتضمُّنه معنىٰ الشكر. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المخلصين فيما يأتونه ويذرونه.

(٣٨) ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ غائلةَ المشركين. وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون يُدَافِعُ أي يبالغ في الدفع مبالغة مَنْ يُغَالب فيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله. ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته، كمَنْ يتقرب إلى الأصنام بذبيحته فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم.

= عن جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُهِلّينَ بالحج، فأمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقرِ كلُ سبعةٍ منا في بَدَنةٍ.

(١) اللَّبَّةُ هي موضع النحر والجمع لَبَّاتٌ (مختار الصحاح مادة لبب).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس،وأخرج ابـن أبي حاتم عن ابن جريج نحوه (فتح القدير ٣/ ٤٥٦).

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

(٣٩) ﴿أُذِنَ﴾ رُخِّص. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي على البناء للفاعل وهو الله. ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ المشركين، والمأذون فيه محذوفٌ لدلالته عليه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء أي الذين يقاتِلهم المشركون. ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ﴾ بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج يَتظلّمون إليه فيقول لهم: «اصبِروا فإني لم أومر بالقتال» حتى هاجر فأنزلت[1]. وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نُهي عنه في نَيِّف[2] وسبعين آية. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وَعْدٌ لهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم[3].

(٤٠) ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني مكة. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير موجب استحقوه به. ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ على طريقة قول النابغة.

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[4]

وقيل منقطع. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين. ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل. وقرأ نافع دِفَاعُ، وقرأ نافع وابن كثير لَهُدِمَتْ بالتخفيف. ﴿صَوَٰمِعُ﴾ صوامع الرهبانية. ﴿وَبِيَعٌ﴾ بِيَعُ النصارى. ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يُصلى فيها، وقيل أصلها صَلُوتا بالعبرانية فعُرِّبت. ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ مساجد المسلمين. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ﴾ صفة للأربع أو لمساجد خصت بها تفضيلاً. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ﴾ من ينصر دينه، وقد أنجز وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على نصرهم. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١١٣ رقم ٢٩) «لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين قلت: هو منتزع من أحاديث. أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حبان قوله «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي ﷺ في قتالهم بمكة. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك فلما خرج النبي ﷺ إلى المدينة أنزل الله عليه «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا...» وذكر الطبري أن الصحابة رضي الله عنهم استأذنوا رسول الله ﷺ في قتال الكفار إذا رأوهم وسطوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وسراً. فأنزل الله «إن الله لا يحب كل خوان كفور» فلما هاجروهم أحلوهم مالهم وقتالهم فقال «أذن للذين يُقاتلون...» الآية هـ.

(٢) النيِّفُ معناه الزيادة، وهو من واحد إلى ثلاث، أما البضع فمن أربع إلى تسع، ولا يقال إلا بعد عِقْدٍ أي عشرة ونيف أو مائة ونيِّف أو ألف ونيف (المصباح المنير مادة نيف).

(٣) والإخبار بقدرته تعالىٰ على نصرهم وارد على سُنن الكبرياء، وتأكيده بإنّ وباللام لمزيد تحقيق مضمونه وزيادة توطين نفوس المؤمنين (س٦/١٠٨).

(٤) من الطويل.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ
عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

(٤١) ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يَستَجْمع ذلك غيرُهم من المهاجرين. وقيل بدل ممن ينصره. ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه، وفيه تأكيد لما وَعَدَه.

(٤٢) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ .

(٤٣) ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ .

(٤٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ﴾ تسلية له ﷺ بأن قومه إن كذبوه فهو ليس بأوحدي في التكذيب، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه. ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ﴾ غيِّر فيه النظمُ وبُني الفعل للمفعول لأن قومه بنو إسرائيل ولم يكذبوه وإنما كذبه القِبْط، ولأن تكذيبه كان أشنعَ وآياتِه كانت أعظم وأشيع. ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فأمهلتهم حتى انصرمت[١] آجالُهم المقدّرة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياةِ هلاكاً والعمارةِ خراباً.

(٤٥) ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بإهلاك أهلها، وقرأ البصريان بغير لفظ التعظيم[٢]. ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي أهلُها. ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ساقطة حيطانُها على سقوفها بأن تعطّل بنيانُها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، فيكون الجارّ متعلقاً بخاوية، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر أي هي خالية وهي على عروشها أي: مُطِلّة عليها بأن سقطت وبقِيَتْ الحيطان مائلة مشرفة عليها. والجملة معطوفة على «أهلكناها» لا على «وهي ظالمة» فإنها حالٌ والإهلاك ليس حالَ خُواتها، فلا محلَ لها إنْ نَصَبْتَ كأيٍّ بمقدر يفسره أهلكنا وإن رفعتَهُ بالابتداء فمحلها الرفع. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على قرية أي وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يُستقىٰ منها لهلاك أهلها. وقرىء بالتخفيف[٣]، مِنْ أعْطَله بمعنى عطّله. ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه، وذلك يقوي أن معنى خاويةٌ على عروشها خاليةٌ مع بقاء عروشها. وقيل المراد ببئر بئرٌ في سفح جبل بحضرموت، وبقصرٍ قصرٌ مشرفٌ على قُلّته كانا لقوم حنظلةَ بنِ صفوانَ من قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما[٤].

---

(١) انصرمت أي انقضت.

(٢) أي بالتاء «أَهْلَكْتُها» والبصريان هما أبو عمرو ويعقوب.

(٣) أي بتخفيف الطاء «مُعْطَلَة».

(٤) وهو قول الضحاك، ولكن ظاهر التنكير يفيد عدم إرادة معيّنٍ منهما (روح المعاني ١٧/ ١٦٦).

أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن
تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾

(٤٦) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حث لهم على أن يسافروا ليروا مصارع المُهْلَكين فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فلم يسافروا لذلك. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ما يجب أن يُعْقَل من التوحيد بما حَصَل لهم من الاستبصار والاستدلال. ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُسمع من الوحي والتذكير بحال مَنْ شاهدوا آثارهم. ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار، وفي تعمى راجع إليه والظاهرُ أقيم مقامه. ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ عن الاعتبار، أي ليس الخللُ في مشاعرهم وإنما أَيِفَت عقولُهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد. وذِكْرُ الصدور للتأكيد ونفي التجوّز وفضلِ التنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص البصر. قيل لما نزل ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾[1] قال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت[2] ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[3].

(٤٧) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ المتوعَّد به. ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لامتناع الخُلف في خبره فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين لكنه صبور لا يُعَجِّل بالعقوبة. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بيان لتناهي صبره وتأنّيه حتى استقصر المُدَدَ الطوال، أو لتمادي عذابه وطول أيامه حقيقة، أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء.

(٤٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكَمْ من أهل قرية، فَحُذِفَ المضافُ وأقيم المضافُ إليه مُقامَه في الإعراب، ورُجع للضمائر والأحكام مبالغةً في التعميم والتهويل. وإنما عَطَفَ الأولىٰ بالفاء وهذه بالواو لأن الأُولى بدلٌ من قوله «فكيف كان نكير» وهذه في حكم ما تقدمها من الجملتين لبيانِ أنّ المتوعَّد به يَحيق بهم لا محالة وأن تأخيره لعادته تعالى. ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمهلتكم. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلكم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب. ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وإلىٰ حكمي مرجعُ الجميع.

(٤٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أُوَضِّح لكم ما أُنذِركم به. والاقتصارُ على الإنذار ـ مع عموم الخطاب وذِكْرِ الفريقين ـ لأن صدر الكلام ومساقَه للمشركين، وإنما ذكرَ المؤمنين وثوابهم زيادةً في غيظهم.

(٥٠) ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما بَدَر منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة. والكريمُ من كل نوع ما يَجْمَع فضائلَه.

---

(١) الإسراء: «٧٢».
(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٧/١٦٨) والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٧٧).
(٣) الحج: «٤٦».

وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالرد والإبطال. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقين مشاقين للساعين فيها بالقبول والتحقيق، مِنْ عاجَزَه فأعجزه وعجَّزه إذا سابقه فسَبَقه، لأن كلاً من المتسابقيْن يطلب إعجاز الآخر عن اللُّحوق به. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو مُعْجِزِين على أنه حال مقدَّرة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ النار الموقدة، وقيل اسمُ دَرَكَةٍ.

(٥٢) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الرسولُ مَنْ بعثه الله بشريعة مجدِّدة يدعو الناس إليها، والنبي يعمه ومَنْ بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، ولذلك شبه النبيُّ ﷺ علماء أمته بهم[1]، فالنبي أعمُّ من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعةٌ وعشرون ألفاً» قيل فكم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثةَ عشرَ جماً غفيراً»[2]. وقيل الرسول من جَمَعَ إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه، والنبيُّ غيرُ الرسول مَنْ لا كتاب له. وقيل الرسول مَنْ يأتيه الملك بالوحي، والنبي يقال له ولمن يوحىٰ إليه في المنام. ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ زَوَّر في نفسه ما يهواه. ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ في تشهِّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام «وإنه لَيُغَانُ على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[3]. ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يُزيحه. ﴿ثُمَّ

---

(١) يشير المؤلف إلى ما اشتهر «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».
قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (رقم ٧٠٢) «قال شيخنا ومن قبله الدميري والزركشي: أنه لا أصل له. وزاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر...» هـ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٦٦) وإسحاق، من رواية معان بن رفاعة، عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ: كم الأنبياء؟ فقال مثله.
وفيه معان بن رفاعة ضعيف [التقريب (٢/٢٥٨)] وعلي بن يزيد ضعيف، وأخرجه ابن حبان في الموارد (ص٥٢ ـ ٥٤ رقم ٩٤) و(ص٥٠٨ رقم ٢٠٧٩). من طريق إبراهيم بن هشام الغساني عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر فذكره في حديث طويل جداً.
وأفرط ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام المذكور، ولم يصب في ذلك: فإنها طريقاً أخرجها في المستدرك (٢/٥٩٧) وغيره، من رواية يحيى بن سعيد السعيدي عن ابن جريح عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر بطوله، يحيى السعدي ضعيف [المجروحين (٣/١٢٩)]. ولكن لا يأتي الحكم بالوضع مع هذه المتابعة ـ انظر «الكافي الشافِ» (ص١١٣ ـ ١١٤ رقم ٣٠) ـ.

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢٠٧٥ رقم ٤١/٢٧٠٢) وأبو داود (٢/١٧٧ ـ ١٧٨ رقم ١٥١٥) من حديث الأعز المزني.
● ليغان: ـ قال أهل اللغة: الغين والغيم بمعنى واحد، والمراد هنا ما يتغشى القلب. قال القاضي: ـ قيل المراد العثرات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه. فإذا أفتر عنه أو غفل عُدَّ ذلك ذنباً، واستغفر منه (صحيح مسلم).

﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ثم يُثبت آياته الداعيةَ إلى الاستغراق في أمر الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم. قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت. وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يُقرِّبهم إليه، واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم فنزلت عليه سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾(١) فأخذ يقرؤها، فلما بلغ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾(٢) وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانُه سهواً إلى أن قال: تلك الغرانيقُ العُلىٰ وإن شفاعتهنّ لتُرتجى، ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لمَّا سجد في آخرها، بحيث لم يبقَ في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد، ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم لذلك فعزاه الله بهذه الآية. وهو مردود عند المحققين(٣)، وإن صح فابتلاءٌ يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه. وقيل تمنّىٰ قرأ كقوله:

تَمَنَّى كِتَابَ الله أَوَّلَ لَيْلَةٍ تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ

وأُمنيتُهُ قراءتُه. وإلقاءُ الشيطان فيها أن تكلمَ بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه مِنْ قراءة النبي ﷺ، وقد رُدَّ أيضاً بأنه يُخِلّ بالوثوق على القرآن ولا يندفع بقوله ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لأنه أيضاً يحتمله، والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

(٥٣) ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ علةٌ لتمكين الشيطان منه، وذلك يدل على أن المُلقىٰ أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل. ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق. ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني الفريقين، فوَضعَ الظاهرَ موضع ضميرهم قضاءً عليهم بالظلم. ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين.

(٥٤) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أن القرآن هو الحقُّ النازلُ من عند الله، أو تمكينُ الشيطان من الإلقاء هو الحق الصادر من الله لأنه مما جرت به عادتُه في الإنس من لدن آدم.

---

(١) النجم: «١».
(٢) النجم: «٢٠».
(٣) أخرج هذه القصة البزار (٣/ ٧٢) والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٣ رقم ١٢٤٥٠) عن ابن عباس.
قال البزار: «لا نعلمه يروي بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، وأمية بن خالد ثقة مشهور. وإنما يُعرف هذا من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس» هـ.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٥) ورجال البزار والطبراني رجال الصحيح. قلت: ـ القائل الشيخ حمدي السلفي ـ والضعف من التردد والشك بالإضافة إلى ما ذكره البزار.
وأفضل ما يرجع إليه في هذه القصة رسالة الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني بعنوان:
[نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق]. وانظر «روح المعاني» للألوسي (١٧/ ١٧٥ ـ ١٨٤) «وفتح القدير» الشوكاني (٣/ ٤٦١) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٢/ ٧٩) وما بعدها.

﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بالله. ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ﴾ بالانقياد والخشية. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيما أشكل. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو نظر صحيحٌ يوصلهم إلى ما هو الحقُّ فيه.

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾
ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾
لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن أو الرسول، أو مما ألقى الشيطان في أمنيته، يقولون ما بالُه ذكرها بخير ثم ارتد عنها؟ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة أو أشراطُها أو الموتُ. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يومِ حرب يُقتَلون فيه كيوم بدر، سمي به لأن أولاد النساء يُقتَلون فيه فيَصِرْن كالعُقْم، أو لأن المقاتلين أبناءُ الحرب فإذا قتلوا صارت عقيماً فوُصف اليومُ بوصفها اتّساعاً، أو لأنه لا خير لهم فيه، ومنه الريحُ العقيم لِمَا لم تُنشىء مطراً ولم تلقّحْ شجراً، أو لأنه لا مِثْلَ له لقتال الملائكة فيه. أو يوم القيامة على أن المراد بالساعة غيرُه، أو على وضعه موضع ضميرها للتهويل.

(٥٦) ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ التنوينُ فيه ينوب عن الجملة التي دلت عليها الغايةُ، أي: يوم تزول مِرْيتُهم. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْۚ﴾ بالمجازاة، والضميرُ يعم المؤمنين والكافرين لتفصيله بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

(٥٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وإدخالُ الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيهٌ على أن إثابة المؤمنين بالجنات تَفضُّلٌ من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبَّبٌ عن أعمالهم فلذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: هم في عذاب[1].

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ في الجهاد. ﴿أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ الجنةَ ونعيمَها، وإنما سوّى بين من قُتل في الجهاد ومن مات حتفَ أنفه في الوعد لاستوائهما في القصد وأصل العمل. روي أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قُتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا؟ فنزلت. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب.

(٥٩) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ﴾ هو الجنة فيها ما يحبونه. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال مَعادهم. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في العقوبة.

---

(١) قوله «فأولئك» استعمل اسم الإشارة للبعيد لبيان بعد منزلتهم في الشر والفساد (س٦/ ١١٤).

۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿۞ ذَٰلِكَ﴾ أيِ الأمرُ ذلك. ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ ولم يزد في الاقتصاص، وإنما سمي الابتداءُ بالعقاب ـ الذي هو الجزاءُ ـ للازدواج أو لأنه سببُه. ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة. ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ لا محالة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمنتصر حيث اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما نَدَب اللهُ إليه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1]، وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة، فإنه تعالى مع كمال قدرتِه وتعالي شأنِه لما كان يعفو ويغفر فغيرُه بذلك أولى، وتنبيهٌ على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادرُ على ضده.

(٦١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النصر، ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بسبب أن الله تعالى قادرٌ على تغليب الأمور بعضها على بعض، جارٍ عادتُه على المداولة بين الأشياء المتعاندة، ومن ذلك إيلاجُ أحد المَلَوْين في الآخر بأن يزيد فيه ما يَنقُص منه، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغييب الشمس وعكس ذلك بإطلاعها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يسمع قول المعاقِب والمعاقَب. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يُهملهما.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصفُ بكمال القدرة والعلم. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابتُ في نفسه الواجبُ لذاته وحده، فإن وجوبَ وجودِه ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأً لكل ما يوجد سواه عالِماً بذاته وبما عداه، أو الثابتُ الإلهيةِ، ولا يصلح لها إلا من كان قادراً عالماً. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو بكر بالتاء على مخاطبة المشركين، وقرىء بالبناء للمفعول فتكون الواو لِما فإنه في معنى الآلهة. ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدومُ في حد ذاته، أو باطلُ الألوهية. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ على الأشياء. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ على أن يكون له شريكٌ لا شيءَ أعلىٰ منه شأناً وأكبر منه سلطاناً.

(٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهامُ تقريرٍ، ولذلك رُفِعَ ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عطفٌ على أَنْزَلَ، إذ لو نُصِبَ جواباً لدل على نفي الاخضرار كما في قولِكَ: ألم تر أني جئتك فتكرمني، والمقصودُ إثباتُه[2]. وإنما عُدِل به عن صيغة الماضي للدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد

---

(١) الشورى: «٤٣».

(٢) أتىٰ الفعل المضارع «فتُصبحُ» مرفوعاً، ولم يأت منصوباً علىٰ أنه جواب للاستفهام، لأنه لو كان منصوباً لبطل الغرض، وذلك أن المراد إثبات الاخضرار، ولو كان منصوباً لأفاد نفي الاخضرار، كما تقول لصاحبك: ألم ترَ أني أنعمت عليك فتشكر، فإن نصبت الفعل «فتشكر» فتكون قد نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه وإن رفعته أثبت شكره.

زمان[1]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمُه أو لطفه إلى كل ما جَلّ ودقّ. ﴿خَبِيرٌ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة.

لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

(٦٤) ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلكاً. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ في ذاته عن كل شيء. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله.

(٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلها مذلّلة لكم مُعدَّةً لمنافعكم. ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ عطفٌ على ما أو على اسم أنّ، وقرىء بالرفع على الابتداء. ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حالٌ منها أو خبر. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن أن تقع أو كراهةَ، بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إلا بمشيئته، وذلك يومَ القيامة، وفيه ردّ لاستمساكها بذاتها فإنها مساويةٌ لسائر الأجسام في الجسمية فتكونُ قابلةً للميل الهابطِ قَبولَ غيرها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث هيأ لهم أسبابَ الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفعَ عنهم أنواع المضار.

(٦٦) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصرَ ونُطفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا جاء أجلُكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ لَجَحودٌ لنعم الله مع ظهورها.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ متعبَّداً أو شريعة تعبدوا بها، وقيل عيداً. ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ ينسُكونه. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ سائرُ أرباب الملل. ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمر الدين أو النسائكِ لأنهم بين جُهّال وأهلِ عِناد، أو لأن أمر دينك أظهرُ من أن يقبل النِزاع، وقيل المرادُ نهيُ الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قولهم وتمكينِهم من المناظرة المؤديةِ إلى نزاعهم، فإنها إنما تنفع طالبَ الحق وهؤلاء أهلُ مِراء، أو عن منازعتهم كقولك: لا يُضارَّ بك زيد وهذا إنما يجوز في أفعال المبالغة للتلازم، وقيل نزلت في كفار خُزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله. وقرىء فلا يَنْزِعُنّك على تهييج الرسول والمبالغة في تثبيته على دينه، على أنه من نازعتُه فنزعتُه إذا غلبته. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته. ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق إلى الحق سوي.

= وعليه فقد ورد الفعل المضارع في الآية مرفوعاً «فتصبحُ» وكانت الفاء عاطفة وليست سببية، وكان الاستفهام للتقرير، والفعل «فتصبحُ» معطوف على الفعل «أنزلَ».

(١) أي أن الفعل «فتصبح» ورد بصيغة المضارع دون الماضي، فقال «فتصبح» ولم يقل فأصبحت للدلالة على بقاء أثر المطر واستمراره.
أو لاستحضار الصورة البديعة (الألوسي ١٧/ ١٩١).

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ
تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾
وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ
بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

(٦٨) ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ وقد ظهر الحقُّ ولزمت الحُجة. ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها، وهو وعيدٌ فيه رِفق.

(٦٩) ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب. ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كما فصلَ في الدنيا بالحُجج والآيات. ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

(٧٠) ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فلا يخفى عليه شيء. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ هو اللوحُ كتبه فيه قبل حدوثه، فلا يُهمَّنك أمرُهم مع علمنا به وحفظِنا له. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إن الإحاطة به وإثباتَه في اللوح المحفوظ، أو الحكمَ بينكم. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لأن علمَه مقتضى ذاتِه المتعلقُ بكل المعلومات على سواء.

(٧١) ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ حجةً تدل على جواز عبادته. ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم. ﴿مِن نَّصِيرٖ﴾ يقرر مذهبهم أو يدفع العذاب عنهم.

(٧٢) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن[١]. ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحاتِ الدلالة على العقائد الحقية والأحكام الإلهية. ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ الإنكارَ، لفَرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيلَ أخذوها تقليداً، وهذا منتهى الجهالة، وللإشعار بذلك وضع الذين كفروا موضعَ الضمير. أو ما يقصدونه[٢] من الشر ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ يَثِبون ويبطِشون بهم. ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ من غيظكم على التالين وسطوتِكم عليهم، أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلَوْا عليكم. ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي هو النارُ كأنه جوابُ سائل قال: ما هو، ويجوز أن يكون مبتدأ خبرُه ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾. وقرىء بالنصب على الاختصاص، وبالجر بدلاً من شر، فتكونُ الجملةُ استئنافاً كما إذا رُفعت خبراً أو حالاً منها. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ النار.

---

(١) وصيغة المضارع في «تتلى» للدلالة على الاستمرار التجددي (س٦/ ١٢٠).

(٢) قوله: أو ما يقصدونه عطف على قوله الإنكارَ، أي تعرف في وجوه الذين كفروا الإنكارَ أو ما يقصدونه من الشر.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بُيِّن لكم حالٌ مستغرَبة أو قصةٌ رائعة ولذلك سماها مثلاً، أو جُعل لله مثَلٌ أي مثل في استحقاق العبادة. ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ للمثَل أو لشأنه استماعَ تدبر وتفكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنامَ. وقرأ يعقوبُ بالياء، وقرىء مبنياً للمفعول. والراجعُ إلى الموصول محذوفٌ على الأولَيْن. ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ لا يقدرون على خلقه مع صِغره، لأن لنْ بما فيها من تأكيد النفي دالةٌ على منافاة ما بين المنفيِّ والمنفي عنه. والذباب من الذبّ لأنه يُذَب، وجمعُه أَذِبّة وذِبّان. ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي للخلق، هو بجوابه المقدر في موضع حال جيء به للمبالغة، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين؟! ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ جهّلهم غايةَ التجهيل بأن أشركوا إلهاً قدَر على المقدورات كلِّها وتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثيلَ هي أعجزُ الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدِر على خلق أقلِّ الأحياء وأذلِّها ولو اجتمعوا له، بل لا تقوَى على مقاومة هذا الأقلِّ الأذل وتعجز عن ذبِّه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه من عندها. قيل كانوا يطْلونها بالطيب والعسل ويُغلقون عليها الأبوابَ فيدخل الذباب من الكُوىٰ فيأكله. ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ عابدُ الصنم ومعبودُه، أو الذبابُ يطلب ما يسلب عن الصنم من الطيب، والصنمُ يطلُب الذبابُ منه السلَبَ، أو الصنمُ والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققتَ وجدتَ الصنمَ أضعفَ بدرجات.

(٧٤) ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ما عرَفوه حقَّ معرفته حيث أشركوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعدُ الأشياء عنه مناسبةً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على خلق المُمكِنات بأسرها. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلِبه شيءٌ، وآلهتُهم التي يعبُدونها عاجزةٌ عن أقلها مقهورةٌ من أذلها.

(٧٥) ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدعون سائرَهم إلى الحق ويبلّغون إليهم ما نزل عليهم، كأنه لما قرر وحدانيتَه في الألوهية ونفىٰ أن يشاركه غيرُه في صفاتها بيّن أن له عباداً مُصطَفَيْنَ للرسالة يُتوسّل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن سِواه من الموجودات تقريراً للنبوة وتزييفاً لقولهم: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، والملائكةُ بناتُ الله تعالى، ونحوِ ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ مدرك للأشياء كلِّها.

(٧٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عالم بواقعها ومُترقَّبها. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وإليه ترجع الأمورُ كلُّها لأنه مالكُها بالذات لا يُسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيرِه وهم يسألون.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ
تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ
أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ
عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(٧٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ في صلاتكم، أمرهم بهما لأنهم ما كانوا يفعلونهما أولَ الإسلام، أو صلُّوا، وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظمُ أركانها، أو اخضَعوا لله وخِرُّوا له سُجداً. ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بسائر ما تعبدكم به. ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ وتحرَّوا ما هو خيرٌ وأصلحُ فيما تأتون وتذرون كنوافل الطاعات وصلةِ الأرحام ومكارمِ الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ أي افعلوا هذه كلَّها وأنتم راجون الفلاحَ غيرُ متيقنين له واثقينَ على أعمالكم، والآيةُ آيةُ سجدةٍ عندنا لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام «فُضّلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجُدْهما فلا يقرؤها»(١).

(٧٨) ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ أي لله ومن أجله أعداءَ دينه الظاهرةَ كأهل الزيغ والباطنةَ كالهوى والنفس. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال «رجَعنا من الجهاد الأصغر إلى

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ١٢١ رقم ١٤٠٢) والترمذي (٢/ ٤٧١ رقم ٥٧٨) وأحمد (٤/ ١٥١، ١٥٥) والدارقطني في السنن (١/ ٤٠٨) والطبراني في الكبير، (١٧/ ٣٠٧ رقم ٨٤٦، ٨٤٧) والحاكم (١/ ٢٢١) و(٢/ ٣٩٠) كلهم من رواية ابن لهيعة عن مشرح بن هاعان عن عقبة، قال: قلت: يا رسول الله في سورة الحج سجدتان، قال: نعم، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما.
قال الترمذي: إسناده ليس بالقوي.
قلت: لعل سبب ضعفه عنده (ابن لهيعة) ومشرح، لكن الراوي عن ابن لهيعة عند أبي داود أحد المبادلة أما مشرح فهو مقبول.
وقد صحح الشيخ أبو الأشبال الحديث فقال: هو حديث صحيح فإن ابن لهيعة ومشرح بن هاعان ثقتان.
وصححه الحاكم باعتضاده بالآثار الصحيحة المروية عن: عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن عمر وابن مسعود، وأبي موسى وأبي الدرداء، وعمار رضي الله عنهم. وقد أخرج آثارهم الحاكم.
وللحديث شاهد مرفوع من حديث عمرو بن العاص. أخرجه أبو داود (٢/ ١٢٠ رقم ١٤٠١) وابن ماجه (١/ ٣٣٥ رقم ١٠٥٧) كلاهما عن طريق الحارث بن سعيد العتقي عن عبدالله بن منين عنه أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان.
والحارث بن سعيد مقبول [التقريب (١/ ١٤٠) لكنه يتقوى بحديث ابن لهيعة وآثار الصحابة المذكورين].
وقال الألباني في تخريج المشكاة (رقم:١٠٢٩): «إسناده ضعيف، فيه عبد الله بن منين وفيه جهالة وقال في ضعيف الجامع (٤/ ٩٥): ضعيف. بينما مال الحافظ ابن كثير (٣/ ٢٢١) إلى تصحيحه حيث قال في حديث ابن لهيعة: فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع وأكثر ما نقموا عليه تدليسه.
ثم أورد آثار الصحابة وقال: فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً. كما صحح الحديث الشيخ عبد القادر الأرنؤوط في تخريج «جامع الأصول» (٥/ ٥٥٥ رقم ٣٧٨٨). والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

الجهاد الأكبر»[١]. ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعُكس، وأُضيف الحقُّ إلى الجهاد مبالغةً كقولك: هو حقُّ عالمٍ، وأضيف الجهادُ إلى الضمير اتساعاً، أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعولٌ لوجه الله تعالى ومن أجله. ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ اختاركم لدينه ولنُصرته، وفيه تنبيهٌ على المقتضي للجهاد والداعي إليه وفي قوله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أيْ ضِيق بتكليف ما يشتد القيامُ به عليكم إشارةٌ إلى أنه لا مانعَ لهم عنه ولا عذرَ لهم في تركه، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به من حيث شَقّ عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتُكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم»[٢]. وقيل: ذلك بأن جَعل لهم من كل ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتحَ عليهم باب التوبة، وشرع لهم الكفاراتِ في حقوقه، والأرُوشَ والدّياتِ في حقوق العباد ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ منتصبةٌ على المصدر بفعل دل عليه مضمونُ ما قبلها بحذف المضاف أي: وسّع دينكم توسعةَ ملةِ أبيكم، أو على الإغراء أو على الاختصاص. وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسولِ الله ﷺ وهو كالأب لأمته من حيث إنه سببٌ لحياتهم الأبديةِ ووجودِهم على الوجه المعتدِّ به في الآخرة، أو لأن أكثرَ العرب كانوا من ذريته فغُلّبوا على غيرهم. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ من قبل قرآن في الكتب المتقدمة. ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ وفي القرآن. والضمير لله تعالى ويدل عليه أنه قرىء اللهُ سمّاكم، أو لإبراهيم. وتسميتُهم بمسلمين في القرآن ـ وإن لم تكن منه ـ كانت بسبب تسميته من قبلُ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٣]. وقيل: وفي هذا تقديرُه: وفي هذا بيانُ تسميته إياكم مسلمين. ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يومَ القيامة، متعلقٌ بسمّاكم. ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأنه بلغكم، فيدُل على قَبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته، أو بطاعة من أطاع وعِصيان من عصى. ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فتقربوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات لِما خصكم بهذا الفضل والشرف. ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وثِقوا به في مجامع أموركم ولا تطلُبوا الإعانةَ والنُّصرة إلا منه ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصُركم ومتولي أمورِكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ هُو، إذ لا مثلَ له سبحانه في الولاية والنصرة، بل لا مولى ولا نصيرَ سواه في الحقيقة. عن النبي عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الحج أُعطيَ من الأجر كحَجة حجها وعُمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي»[٤].

☆ ☆ ☆

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١١٤ رقم ٣٣): «كذا ذكره الثعلبي بغير سند».
وأخرجه البيهقي في «الزهد» (ص١٩٨ رقم ٣٧٤) عن جابر قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاه فقال: قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل وما الجهاد الأكبر.
قال: مجاهدة العبد هواه.
قال البيهقي: هذا إسناد ضعيف. وانظر كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٥١١ رقم ١٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٢٥١ رقم ٧٢٨٨) ومسلم (٢/ ٩٧٥ رقم ٤١٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) البقرة: «١٢٨».

(٤) وهو حديث موضوع.
وقد تقدم الكلام على إسناده في آخر آل عمران.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

ترتيبها ٢٣ — آياتها ١١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾

سورة المؤمنون مكيةٌ وهي مائةٌ وتسعَ عشرةَ آيةً عند البصريين وثماني عشرةَ عند الكوفيين

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا بأمانيِّهم. وقد تُثبِت المتوقَّع ـ كما أنّ لمّا تَنفيه ـ وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، ولذلك تُقرِّبُه من الحال، ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله صُدِّرت بها بِشارتُهم. وقرأ ورشٌ عن نافعٍ قَد أفْلَحَ بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها، وقرِىء أَفْلَحُوا على لغة «أكلوني البراغيثُ» أو على الإبهام والتفسير، وأُفْلِحُ بالضم اجتزاءً بالضمة عن الواو، وأُفْلِحَ على البناء للمفعول.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ خائفون من الله سبحانه وتعالى متذلِّلون له مُلزِمون أبصارَهم مساجدَهم. روي[1] أنه ﷺ كان يصلي رافعاً بصرَه إلى السماء، فلما نزلت رمىٰ ببصره نحوَ مسجدِه

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٩٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٨٣).
من حديث أبي هريرة بلفظ «كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت: «الذين همُ في صلاتهم خاشعون» فطأطأ رأسه.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم لولا خلاف فيه على محمد ـ ابن سيرين ـ عنه مرسلاً.
وقال الذهبي: الصحيح مرسلاً وكذا قال البيهقي.
● والمرسل أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص٩٦ رقم ٤٥) وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ٢).

وأنه رأى رجلاً يعبث بلحيته فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعَت جوارحُه»[١].

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ عما لا يَعنيهم من قول أو فعل ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لما بِهُم من الجِدّ ما شغلهم عنه. وهو أبلغُ من الذين لا يلهُون من وجوه: جعلِ الجملة اسميةً، وبناءِ الحُكم على الضمير، والتعبيرِ عنه بالاسم، وتقديمِ الصلة عليه. وإقامةِ الإعراض مُقام التركِ لِيدُلَّ على بُعدهم عنه رأساً مباشرةً وتسبباً وميلاً وحضوراً؛ فإن أصله أن يكون في عُرْضٍ غيرِ عُرضه. وكذلك قوله:

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وَصَفهم بذلك بعد وصْفِهم بالخشوع في الصلاة ليدل على أنهم بلغوا الغايةَ في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنّب عن المحرمات وسائرِ ما توجب المروءةُ اجتنابَه، والزكاةُ تقع على المعنىٰ والعَيْن، والمراد الأوّل لأن الفاعلَ فاعلُ الحدَث لا المحلِّ الذي هو موقعُه، أو الثاني على تقدير مضاف[٢].

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ لا يبذُلونها.

(٦) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ زوجاتُهم أو سَرِيّاتُهم. و«على» صلةٌ لحافظون من قولك احْفَظْ على عِنان فرسي، أو حالٌ أي حافظوها في كافة الأحوال إلا في حال التزوج أو التسري؛ أو بِفعْل[٣] دلّ عليه غير ملومين. وإنما قال (ما) إجراءً للمماليك مُجرى غيرِ العقلاء إذْ المِلكُ أصلٌ شائعٌ فيه، وإفرادُ ذلك بعد تعميم قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ لأن المباشرةَ أشهى الملاهي إلى النفس وأعظمُها خطراً. ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ الضمير لحافظون، أو لمن دل عليه الاستثناءُ أي فإنْ بذلوها لأزواجهم أو إمائِهم فإنهم غيرُ ملومين على ذلك.

(٧) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان.

(٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لِما يؤتمنون عليه ويعاهَدون من جهة الحق أو الخلق. ﴿رَٰعُونَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها. وقرأ ابن كثير هنا وفي المعارج[٤] لأمانتهم على الإفراد، لأَمْنِ الإلْباس أو لأنها في الأصل مصدر.

= عن ابن سيرين، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام في الصلاة، نظر هكذا وهكذا، فلما نزلت «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون». نظر هكذا، وقال أبو شهاب: ببصره نحو الأرض.

قال الشيخ شعيب: رجاله ثقات، رجال الشيخين. أبو شهاب: اسمه عبدربه بن نافع الكناني الحناط. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٨٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٨٤ بسند ضعيف من حديث أبي هريرة.
وانظر «فيض القدير» (٥/ ٣١٩ رقم ٧٤٤٧) والإرواء (٢/ ٩٢ رقم ٣٧٣) وقال الألباني «فهو ـ أي الحديث ـ لا يصح لا مرفوعاً ولا موقوفاً، والمرفوع أشد ضعفاً، بل هو موضوع وكأنه لذلك لم يعرج عليه البيهقي فلم يورده في سننه الكبرى ـ على سعتها ـ وإنما أورده (٢/ ٢٨٩) موقوفاً معلقاً. والله سبحانه أعلم» هـ.

(٢) وتوسيط الحديث عن الإعراض عن اللغو بَيْن الحديث عن الصلاة والزكاة لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة (س٦/ ١٢٤).

(٣) قوله: أو بفعل عطف على قوله أو حال، أي أنّ «علىٰ» متعلقة بمحذوف وقع حالاً أي حافظوها أو متعلقة بفعل دلّ عليه «غير ملومين».

(٤) المعارج: «٣٢».

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا
النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا
آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾

(٩) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها. ولفظُ الفعل فيه لِما في الصلاة من التجدّد والتكرر، ولذلك جَمَعَه غيرُ حمزةَ والكسائي. وليس ذلك تكريراً لِمَا وصفهم به أولاً، فإن الخشوع في الصلاة غيرُ المحافظة عليها[1]. وفي تصدير الأوصاف وختمِها بأمر الصلاة تعظيمٌ لشأنها.

(١٠) ﴿ أُولَٰئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات. ﴿ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الأحِقاءُ بأن يُسمَّوا وُرَّاثاً دون غيرهم.

(١١) ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه وتقييدٌ للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً، وهي مستعارةٌ لاستحقاقهم الفردوسَ من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعدِه مبالغةً فيه. وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلَهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنّث الضمير لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا.

(١٢) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ ﴾ من خُلاصة سُلّت من بين الكَدَر. ﴿مِّن طِينٍ ﴾ متعلقٌ بمحذوف لأنه صفة لسلالة، أو مِن بيانية، أو بمعنى سلالة لأنها في معنى مسلولة فتكون ابتدائية كالأولى. والإنسانُ آدمُ عليه الصلاة والسلام خُلق من صفوة سُلّت من الطين، أو الجنسِ فإنهم خُلِقوا من سلالات جُعلت نُطَفاً بعد أدوار، وقيل المرادُ بالطين آدمُ لأنه خلق منه والسلالةُ نطفتُه.

(١٣) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ ثم جعلنا نسلَه، فحُذِف المضاف ﴿نُطْفَةً﴾ بأن خلقناه منها. أو ثم جعلنا السُّلالَةَ نطفةً، وتذكيرُ الضمير على تأويل الجوهرِ أو المسلولِ أو الماء. ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ مستقرٌ حصينٍ، يعني الرّحِم وهو في الأصل صفةٌ للمستقر وُصف به المحلُّ للمبالغة كما عبر عنه بالقرار.

(١٤) ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ بأن أحلْنا النطفةَ البيضاءَ علقةً حمراءَ. ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ فصيّرناها قطعةَ لحم ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ بأن صلّبناها ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ مما بقيَ من المضغة، أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها. واختلافُ العواطف لتفاوت الاستحالات، والجمعُ لاختلافها في الهيئة والصلابة. وقرأ ابن عامر وأبو بكر على التوحيد فيهما اكتفاءً باسم الجنس عن الجمع، وقرىء بإفراد أحدهما وجمعِ الآخر[2]. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وهو صورةُ البدن أو الروح أو

(١) والفصل بين الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها للإيذان بأن كلاً منهما فضيلة مستقلة بنفسها، ولو قُرِنَا في الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة (س٦/ ١٢٥).

(٢) قراءة ابن عامر وأبي بكر على التوحيد، أي توحيد العظام، أي «فخلقنا المضغة عَظْماً فكَسَوْنا العظم لحماً».
وقرىء بإفراد أحدهما وجمع الثاني، فقرىء «فخلقنا المضغة عَظْماً فكسونا العِظام» وقرىء «فخلقنا المضغة عِظاماً

القُوى بنفخه فيه، أو المجموع. وثم لما بين الخلقين من التفاوت، واحتج به أبو حنيفة على أن من غصَب بيضةً فأفرخَتْ عنده لزمه ضمانُ البيضة لا الفرخ لأنه خلقٌ آخرُ. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى شأنُهُ في قدرته وحكمته[1]. ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ المقدِّرين تقديراً، فحُذف المميَّز لدلالة الخالقين عليه.

ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ لَصائرون إلى الموت لا محالة، ولذلك ذُكر النعتُ الذي للثبوت دون اسم الفاعل، وقد قرىء به[2].

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ للمحاسبة والمجازاة.

(١٧) ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ سمواتٍ، لأنها طُورق بعضُها فوق بعض مطارقةَ النعل بالنعل وكل ما فوقه مثلُه فهو طريقُه؛ أو لأنها طرُق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرُها. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ﴾ عن ذلك المخلوقِ الذي هو السمواتُ، أو عن جميع المخلوقات، ﴿غَٰفِلِينَ﴾ مُهمِلين أمرَه بل نحفظها عن الزوال والاختلال، ونُدبّر أمرها حتى تبلُغ منتهى ما قُدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمةُ وتعلقت به المشيئةُ.

(١٨) ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ بتقدير يكثُر نفعُه ويقِل ضررُه، أو بمقدار ما علمنا من صلاحهم. ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ﴾ فجعلناه ثابتاً مستقراً، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ﴾ على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطُه. ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله. وفي تنكير (ذهاب) إيماءٌ إلى كثرة طُرقه ومبالغةٌ في الإيعاد به، ولذلك جُعل أبلغَ من قوله تعالى ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾[3].

(١٩) ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ﴾ بالماء. ﴿جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ تتفهكون بها ﴿وَمِنۡهَا﴾ ومن الجنات ثمارِها وزروعِها. ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ تغذياً، أو تُرزقون وتحصّلون معايشَكم من قولهم: فلان يأكل من حِرفته، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب، أي لكم في ثمراتها أنواعٌ من الفواكه الرُّطَب والعنبُ والتمر والزبيب والعصيرُ والدِّبس وغيرُ ذلك وطعامٌ تأكلونه.

= فكسونا العَظْم لحماً».

(١) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية؛ وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالاً وإعظاماً لشؤونه تعالى (س٦/ ١٢٦).

(٢) أي قرىء باسم الفاعل «لَمَايِتُون».

(٣) الملك: «٣٠».

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

(٢٠) ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جناتٍ. وقرئت بالرفع على الابتداء، أي ومما أنشأنا لكم به شجرةٌ ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ جبلِ موسى عليه الصلاة والسلام بين مصرَ وأَيلةَ وقيل بفلسطين، وقد يقال له طورُ سينين. ولا يخلو من أن يكون الطورُ للجبل وسِيناءُ اسمُ بقعة أضيف إليها، أو المركّبُ منهما علَمٌ له كامرىء القيس. ومنْعُ صرفِه للتعريف والعُجمةِ أو التأنيثِ على تأويل البقعة، لا للألف لأنه فِيعال كديماس من السناء ـ بالمدّ ـ وهو الرفعة أو بالقصر وهو النُّور، أو ملحق بفِعْلال كعِلباء من السِّين، إذْ لا فِعلاء بألف التأنيث. بخلاف سَيْناءَ على قراءة الكوفيين والشامي ويعقوب، فإنه فَيْعالٌ ككَيسانَ أو فَعلاءُ كصحراء، لا فَعْلالُ إذ ليس في كلامهم. وقرىء بالكسر والقصر[1]. ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي تنبت ملتبساً بالدهن ومستصحِباً له، ويجوز أن تكون الباءُ صلةً معدِّيةً لتنبُتُ كما في قولك: ذهبت بزيد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوبُ في رواية تُنبِتُ، وهو إما من أَنْبَتَ بمعنى نَبَتَ كقول زهير:

رَأَيْتُ ذوي الحَاجَاتِ عِنْدَ بُيُوتِهِمْ قطِيناً لَهُمْ حَتَّى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ[2]

أو على تقدير تُنبت زيتونَها ملتبساً بالدهن. وقرىء على البناء للمفعول[3] وهو كالأول، وتُثمر بالدهن[4]، وتَخرج بالدهن، وتُخرج الدّهنَ، وتَنبت بالدهان. ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ معطوفٌ على الدهن جارٍ على إعرابه عطفَ أحد وصفي الشيء على الآخر، أي تنبُت بالشيء الجامعِ بين كونه دُهنياً يُدهَن به ويُسْرَج منه وكونِه إداماً يُصبغ فيه الخبز ـ أي يُغمس فيه ـ للائتدام. وقرىء وصِباغ كدباغ في دِبْغ.

(٢١) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ تعتبرون بحالها وتستدلون بها. ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الألبان أو من العلف، فإن اللبن يتكون منه، فمن للتبعيض أو للابتداء. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو بكر ويعقوبُ نَسقيكم بفتح النون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ في ظهورها وأصوافها وشعورها. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها.

(٢٢) ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام فإن منها ما يُحمل عليه كالإبل والبقر. وقيل المراد الإبلُ، لأنها هي المحمولُ عليها عندهم والمناسبُ للفُلك فإنها سفائنُ البرّ قال ذو الرمة[5].

---

(١) أي قرىء بكسر السين وبدون همزة «سِينا».

(٢) من الطويل.

(٣) قوله على البناء للمفعول أي (تُنبَتُ) بضم التاء وفتح الباء.

(٤) قوله وتثمر... معطوف على قوله وقرىء...

وقال الألوسي: (وما رووْا من قراءة عبدالله «تخرج الدهنَ» وقراءة أبيّ «تثمر بالدهن» محمول على التفسير على ما في البحر [أي البحر المحيط] لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه، ولأن الرواية الثابتة عنهما كقراءة الجمهور) (روح المعاني ١٨/ ٢٢).

(٥) ذو الرّمّة واسمه غَيلان بن عقبة أحد بني عَدِيّ بن عبدمَناة بن أَدّ. =

سَفِينَةُ بَرٍ تَحْتَ خَدّي زِمَامُهَا[١]

فيكون الضمير فيه كالضمير في ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[٢]. ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ في البر والبحر[٣].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا
بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا
كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ
فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ
إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر القصص مَسوقٌ لبيان كُفران الناس ما عُدّد عليهم من النعم المتلاحقة وما حاق بهم من زوالها ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئنافٌ لتعليل الأمر بالعبادة. وقرأ الكسائي «غيرِه» بالجرّ على اللفظ. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون أن يُزيل عنكم نِعَمه فيُهلِكَكم ويعذبَكم برفضكم عبادتَه إلى عبادة غيره وكفرانِكم نعمَه التي لا تُحصونها.

(٢٤) ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ الأشراف. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ لعوامهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أن يطلب الفضلَ عليكم ويسودكم. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يرسل رسولاً ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ رسلاً ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنون نوحاً عليه الصلاة والسلام أي ما سمعنا به أنه نبي، أو ما كلمهم به من الحث على عبادة الله سبحانه وتعالى ونفْيِ إلٰهٍ غيرِه، أو من دعوى النبوة وذلك إما لفَرط عِنادهم أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة.

(٢٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي جنون ولأجله يقول ذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ فاحتمِلوه وانتظروا. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعله يُفيق من جنونه.

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ بعدما أَيِس من إيمانهم ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكهم أو بإنجاز ما وعدتُهم من العذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بدل تكذيبهم إياي أو بسببه.

(٢٧) ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا نحفظه أن تُخطىء فيه أو يفسده عليك مفسد ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وأمرنا وتعليمِنا كيف تصنع ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالركوب أو نزول العذاب ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

= [خزانة الأدب (١/١٠٦ ـ ١١٠)].

(١) من الطويل.

(٢) البقرة: «٢٢٨».

(٣) وفي الجمع بينها وبين الفُلك في إيقاع الحمل عليها مبالغةٌ في تحملها للحمل. وهو الداعي إلى تأخير ذِكر هذه المنفعة ـ مع كونها من المنافع الحاصلة منها ـ عن ذكر منفعة الأكل المتعلقة بعينها (س٦/١٢٩).

روي[١] أنه قيل لنوح إذا فار الماءُ من التنور اركب أنت ومن معك، فلما نبع الماءُ منه أخبرته امرأتُه فركب. ومحلُّه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي بابَ كِندةَ، وقيل عينُ وردةَ من الشام وفيه وجوه أُخَرُ ذكرتُها في هود[٢] ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ فادخل فيها، يقال سلك فيه وسلك غيرَه، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾[٣]. ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ من كل أمتي الذكرَ والأنثى واحدَين مزدوجين. وقرأ حفص من كلٍّ بالتنوين، أي من كل نوع زوجين، واثنين تأكيدٌ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ وأهلَ بيتك، أو من آمن معك. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي القولُ من الله تعالى بإهلاكه لكفره. وإنما جيء بعلى لأن السابق ضارٌّ، كما جيء باللام حيث كان نافعاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[٤]. ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالدعاء لهم بالإنجاء ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومَن هذا شأنُه لا يُشفع له ولا يُشفَّع فيه، كيف وقد أمره بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۝٣٠ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢﴾

(٢٨) ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥].

(٢٩) ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السفينة أو في الأرض. ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ يتسبب لمزيد الخير في الدارين على قراءة أبي بكر، وقرىء مَنزلاً بمعنى إنزالاً أو موضعَ إنزال. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ثناءٌ مطابق لدعائه، أَمَرَهُ بأن يَشفَعَه به مبالغةً فيه وتوسلاً به إلى الإجابة، وإنما أفرده بالأمر ـ والمعلَّقُ به أن يستويَ هو ومن معه ـ إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه مندوحةً عن دعائهم فإنه يحيط بهم.

(٣٠) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما فُعل بنوح وقومه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ يَستدل بها ويعتبر أُولو الاستبصار والاعتبار ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمصيبين قومَ نوح ببلاء عظيم، أو ممتحنين عبادَنا بهذه الآياتِ. وإنْ هي المخففة، واللامُ هي الفارقة.

(٣١) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم عاد أو ثمود.

(٣٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هود أو صالح. وإنما جُعل القول موضعَ الإرسال ليدل على أنه

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٨/٢٦) بدون راوٍ ولا سند.
(٢) هود: «٤٠».
(٣) المدثر: «٤٢».
(٤) الأنبياء: «١٠١».
(٥) الأنعام: «٤٥».

لم يأتهم من مكان غيرِ مكانهم، وإنما أوحيَ إليه وهو بين أظهُرهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ تفسيرٌ لأرسلنا، أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لعله ذُكر بالواو لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول ﷺ، بخلاف قول قوم نوح وحيث استؤنف به فعلى تقدير سؤال ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب، أو بمَعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ ونعّمناهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد. ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصِفة والحالة. ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة، وما خبريةٌ، والعائد إلى الثاني منصوبٌ محذوف أو مجرورٌ حُذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه.

(٣٤) ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ حيث أذللتم أنفسكم، وإذاً جزاءٌ للشرط وجواب للذين قَاوَلُوهُمْ من قومه.

(٣٥) ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ مجردةً عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من الأجداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود، وأنكم تكريرٌ للأول أُكّد به لمّا طال الفصل بينه وبين خبره. أو أنكم لمخرجون مبتدأٌ خبرُه الظرفُ المقدم، أو فاعلٌ للفعل المقدر جواباً للشرط والجملةُ خبرُ الأول؛ أي: أنكم إخراجُكم إذا متم؛ أو أنكم إذا مِتّم وقع؛ لأن اسمَه جُثّة.

(٣٦) ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ بعد التصديق أو الصحة. ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أو بَعُدما توعدون، واللام للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1] كأنهم لما صوّتوا بكلمة الاستبعاد قيل فما له هذا الاستبعادُ؟ قالوا لما توعدون. وقيل هيهات بمعنى البُعد، وهو مبتدأ خبرُه لما توعدون. وقرىء بالفتح منوناً للتنكير، وبالضم منوناً على أنه جمعُ هَيْهة وغيرَ منون تشبيهاً بِقَبْلُ، وبالكسر على الوجهين، وبالسكون على لفظ الوقف وبإبدال التاء هاءً[2].

(٣٧) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصلُه إنِ الحياةُ إلا حياتُنا الدنيا فأُقيم الضميرُ مُقامَ الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً عن التكرير وإشعاراً بأن تعيُّنها مغنٍ عن التصريح بها، كقوله:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ

ومعناه لا حياةَ إلا هذه الحياةُ لأن إنْ نافيةٌ دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالةِ على الجنس

(١) يوسف: «٢٣».

(٢) قراءات (هيهاتَ) هي: هَيْهاتاً، هيهاتٌ، هَيْهاتٌ، هَيْهاتٍ، هَيْهاتِ، هَيْهاهْ.

فكانت مثلَ لا التي تنفي ما بعدها نفيَ الجنس. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت بعضُنا ويولد بعض. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا
قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ
أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ
أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

(٣٨) ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه من إرساله له وفيما يعِدُنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم. ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم إياي.

(٤٠) ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن زمان قليلٍ، وما صلةٌ لتوكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة. ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على التكذيب إذا عاينوا العَذاب.

(٤١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ جبريلُ صاح عليهم صيحةً هائلة تصدّعت منها قلوبهم فماتوا، واستُدل به على أن القومَ قومُ صالح. ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالوجه الثابتِ الذي لا دافعَ له، أو بالعدل من الله كقولك فلانٌ يقضي بالحق، أو بالوعد الصِّدقِ. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ شبههم في دمارهم بغُثاء السيل وهو حَميلُه كقول العرب «سال به الوادي» لمَنْ هلك. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَحتمل الإخبار والدعاء. وبُعداً مصدرُ بُعد إذا هلك، وهو من المصادر التي تُنصب بأفعال لا يستعمل إظهارُها. واللامُ لبيان من دُعِيَ عليه بالبعد. ووضعُ الظاهر موضعَ ضميرهم للتعليل.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ هي قومُ صالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وغيرهم.

(٤٣) ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ الوقتَ الذي حُدّ لهلاكها، ومن مزيدةٌ للاستغراق. ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الأجلَ.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ متواترين واحداً بعد واحد، من الوِتر وهو الفرد، والياءُ بدلٌ من الواو كتولج وتيقور، والألفُ للتأنيث لأن الرسلَ جماعة. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتنوين على أنه مصدرٌ بمعنى المُواتَرة وقع حالاً، وأماله حمزةُ وابن عامر والكسائي[١]. ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ إضافةُ الرسول مع الإرسال إلى المرسِل ومع المجيء إلى المرسَل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأُ الأمر منه والمجيءَ الذي هو منتهاه إليهم[٢] ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم نُبقِ منهم

(١) كتبت كلمة (تترا) بالألف المقصورة، والرسم القرآني هو بالألف الممدودة، أما الرسم القرآني بالألف المقصورة فهي على قراءة من قرأ بها منونة، والله أعلم.

(٢) يريد من هذه العبارة أن إضافة الرسول إلى الأمة، ثم إضافة الإرسال إلى المُرْسِل وهو الله تعالى «أرسلنا» وإضافة المجيء إلى المرسَل إليهم وهم الأمة «كلما جاء أمةً رسولُها». =

إلا حكاياتٍ يُسمَر بها، وهو اسمُ جمعٍ للحديث، أو جمعُ أُحدوثة وهي ما يُتحدّث به تلهّياً ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالآيات التّسع[١] ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجةٍ واضحة ملزِمةٍ للخصم. ويجوز أن يراد به العصا، وإفرادُها لأنها أولُ المعجزات وأمُّها؛ تعلقتْ بها معجزات شتّى؛ كانقلابها حيةً وتلقُّفِها ما أفكتْه السحرة وانفلاقِ البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها وحراستها ومصيرها شمعةً وشجرةً خضراءَ مثمرةً ورِشاءً ودلواً، وأن يراد به المعجزاتُ وبالآيات الحججُ، وأن يراد بهما المعجزاتُ فإنها آياتٌ للنبوة وحجةٌ بينةٌ على ما يدعيه النبي ﷺ.

(٤٦) ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ على الإيمان والمتابعة ﴿ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين.

(٤٧) ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثنى البشرَ لأنه يطلق للواحد كقوله: ﴿ بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٢] كما يطلق للجمع كقوله: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾[٣] ولم يُثَنِّ المِثْلَ لأنه في حكم المصدر، وهذه القِصصُ كما ترى تشهد بأن قُصارى شُبَه المنكرين للنبوة قياسُ حالِ الأنبياء على أحوالهم لِما بينهم من المماثلة في الحقيقة، وفسادُه يظهر للمستبصر بأدنى تأمل، فإن النفوسَ البشرية وإن تشاركت في أصل القُوى والإدراك لكنها متباينةُ الأقدام فيهما، وكما ترى في جانب النقصان أغبياءَ لا يعود عليهم الفِكر برادةٍ، يمكن أن يكون في طرف الزيادة أغنياءُ عن التفكر والتعلم في أكثر الأشياء وأغلبِ الأحوال فيدركون ما لا يدرك غيرُهم ويعلمون ما لا ينتهي إليه علمُهم، وإليه أشار بقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[٤] . ﴿ وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿ لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ خادمون منقادون كالعباد.

(٤٨) ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في بحر قلزَم.

(٤٩) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل، ولا يجوز عَودُ الضمير إلى فرعون وقومِه لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم. ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى المعارف والأحكام.

= لأن الإرسال منه تعالىٰ بداية فأضيف إليه، والمجيءَ منتهىٰ الإرسال فأضيف إليهم.

(١) الآيات التسع هي: العصا، اليد، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، نقص الثمرات، الطاعون، فلق البحر.
قال الشوكاني: (ولا يصح عدّ فلق البحر منها هنا، لأن المراد الآياتُ التي كذبوا بها واستكبروا عنها) (فتح القدير ٣/ ٤٨٥).

(٢) مريم: «١٧».

(٣) مريم: «٢٦».

(٤) الكهف: «١١٠».

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بولادتها إياه من غير مَسيس، فالآيةُ أمرٌ واحد مضافٌ إليهما. أو جعلنا ابنَ مريمَ آية بأن تكلم في المهد وظهرت منه معجزاتٌ أُخَرُ، وأمَّه آيةً بأن وَلدت من غير مسيس، فحُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها[1]. ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أرض بيتِ المقدس فإنها مرتفعة، أو دمشقَ أو رَمْلةَ فلسطين، أو مصر[2] فإن قُراها على الرُّبا. وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء، وقرىء رُباوة بالضم والكسر. ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقَرٍّ من الأرض منبسطة. وقيل ذاتِ ثمار وزروع فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماءٍ معينٍ ظاهر جارٍ، فعيل من مَعَن الماءُ إذا جرى وأصله الإبعادُ في الشيء، أو من الماعون وهو المنفعة لأنه نفّاع، أو مفعول مِنْ عانه إذا أدركه بعينه لأنه لظهوره مُدرَك بالعيون. وُصِف ماؤها بذلك لأنه الجامعُ لأسباب التنزّه وطِيب المكان.

(٥١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ نداءٌ وخطابٌ لجميع الأنبياء، لا على أنهم خُوطبوا بذلك دفعةً لأنهم أُرسلوا في أزمنة مختلفة بل على معنى أن كلاًّ منهم خوطب به في زمانه، فيدخل تحته عيسى دخولاً أولياً ويكون ابتداءَ كلام تنبيهاً على أن تهيئةَ أسباب التنعم لم تكن له خاصة وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرعٌ قديم، واحتجاجاً على الرهبانية في رفض الطيبات، أو حكايةٌ لما ذكر لعيسى وأمِّه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناول ما رُزقا. وقيل النداءُ له ولفظُ الجمع للتعظيم، والطيبات ما يستلذ به من المباحات. وقيل الحلالُ الصافي القِوامُ، فالحلالُ ما لا يُعصى اللهُ فيه، والصافي ما لا يُنسىٰ الله فيه، والقِوامُ ما يُمسك النفسَ ويحفظ العقل ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فإنه المقصودُ منكم والنافعُ عند ربكم ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه.

(٥٢) ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي ولأن هذه والمعلَّلُ به فاتقون، أو واعلموا أن هذه، وقيل أنه معطوف على ما تعملون. وقرأ ابن عامر بالتخفيف، والكوفيون بالكسر على الاستئناف ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مِلّتكم ملةً واحدة أي متحدةً في الاعتقاد وأصولِ الشرائع، أو جماعتُكم جماعةً واحدة متفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة، ونصبُ أمةً على الحال ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ في شق العصا ومخالفةِ الكلمة.

(٥٣) ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ فتقطعوا أمرَ دينهم جعلوه أدياناً مختلفة، أو فتفرقوا وتحزبوا، وأمرَهم منصوبٌ بنَزْع الخافض أو التمييز، والضميرُ لما دل عليه الأمةُ من أربابها أوْلها. ﴿زُبُرًا﴾ قِطعاً جمع

---

(١) ذِكره مقدماً عليه السلام على أمه لأصالته فيما ذكر من كونه آية، كما أن تقديم أمه في قوله تعالىٰ: «وجعلناها وابنها آية للعالمين» ـ الأنبياء: «٩١» ـ لأصالتها فيما نسبه إليها من الإحصان والنفخ (س٦/١٣٧).

(٢) ذكر هذه الأقوال الطبري في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ٢٥ ـ ٢٧) ثم قال مرجحاً: «وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك: أنها مكان مرتفع ذو استواء، وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرَّملة، لأن الرملة لا ماء بها معين. والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ذات، قرار ومعين» هـ.

زَبور الذي بمعنى الفِرقة ويؤيده القراءة بفتح الباء فإنه جمع زُبْرة، وهو حال من أمرهم أو من الواو، أو مفعول ثان لتقطعوا فإنه متضمّنٌ معنى جعل. وقيل كتباً من زَبَرتُ الكتاب، فيكون مفعولاً ثانياً، أو حالاً من أمْرَهم على تقدير مثلِ كُتب. وقرىء بتخفيف الباء كرُسْل في رسُل ﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ من المتحزبين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ مُعجَبون معتقِدون أنهم على الحق.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

(٥٤) ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ في جهالتهم، شبّهها بالماء الذي يغمُر القامةَ لأنهم مغمورون فيها أو لاعبون بها. وقرىء في غمراتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يُقتلوا أو يموتوا.

(٥٥) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أن ما نعطيهم ونجعله لهم مدداً، ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لما وليس خبراً له، فإنه غيرُ معاتَب عليه، وإنما المعاتَبُ عليه اعتقادُهم أن ذلك خيرٌ لهم، خَبَرُهُ.

(٥٦) ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ والراجعُ محذوفٌ والمعنى: أيحسبون أن الذي نُمدُّهم به نسارع به لهم فيما فيه خيرُهم وإكرامُهم. ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بل هم كالبهائم لا فِطنةَ لهم ولا شعورَ ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمدادَ استدراجٌ لا مسارعةٌ في الخير. وقرىء يَمُدهم على الغَيبة وكذلك يُسارِع ويُسرِع، ويحتمل أن يكون فيهما ضميرُ المُمَدِّ به، ويسارَع مبنياً للمفعول.

(٥٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ من خوف عذابه. ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ حذِرون.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبةِ والمُنزّلة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بتصديق مدلولِها.

(٥٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شِرْكاً جلياً ولا خفياً[١].

(٦٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ يُعطون ما أعطَوه من الصدقات. وقرىء يأتون ما أَتَوْا، أي يفعلون ما فعلوا من الطاعاتِ[٢] ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفةٌ أنْ لا يُقبل منهم وأن لا يقعَ على الوجه اللائقِ فيؤاخَذَ به. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ لأن مرجِعَهم إليه، أو مِن أن مرجِعَهم إليه، وهو يعلم ما يخفى عليهم.

(٦١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودةِ على صالح الأعمال بالمبادرة إليها كقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾[٣]

---

(١) التعرض لعنوان الربوبية في المواقع الثلاثة للإشعار بعليتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك (س٦/ ١٤٠).

(٢) تكرير الموصول «الذين» للإيذان باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها (س٦/ ١٤٠).

(٣) آل عمران: «١٤٨».

فيكون إثباتاً لهم ما نُفِيَ عن أضدادهم[١] ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ لأجلها فاعلون السبْقَ أو سابقون الناسَ إلى الطاعة أو الثواب أو الجنة، أو سابقونها أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا كقوله تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾[٢].

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

(٦٢) ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قدْرَ طاقتها، يريد به التحريضَ على ما وَصَف به الصالحين وتسهيلَه على النفوس ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ يريد به اللوحَ، أو صحيفة الأعمال. ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب أو نُقصانِ ثواب.

(٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب الكفرة ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ في غفلة غامرةٍ لها ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ مِن الذي وُصف به هؤلاء، أو من كتاب الحفظة ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ خبيثة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ متجاوزةٌ لما وُصفوا به أو متخطيةٌ عما هم عليه من الشرك. ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ معتادون فعلها.

(٦٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعِّميهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتلَ يومَ بدر، أو الجوعَ حين دعا عليهم الرسول ﷺ فقال: «اللهم اشدُدْ وطأتك على مُضَرَ واجعلها عليهم سِنينَ كسني يوسُف»[٣]. فقُحطوا حتى أكلوا الجيَفَ والكلابَ والعظامَ المُحرَقَة. ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ فاجَؤوا الصُّراخِ بالاستغاثة، وهو جوابُ الشرط، والجملةُ مبتدأٌ بعد حتى، ويجوز أن يكون الجوابُ:

(٦٥) ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ فإنه مقدر بالقول أي قيل لهم لا تجأروا اليوم[٤]. ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي، أي لا تجأروا فإنه لا ينفعكم إذ لا تُمنعون منّا، أو لا يلحقكم نصر ومعونةٌ من جهتنا.

---

(١) أسند سبحانه المسارعة إليهم ولم يقل نسارع لهم كسابقه، حيث غيّر الأسلوب وذلك للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم.
وإيثار كلمة (في) على كلمة «على» فقال «في الخيرات» وذلك للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها بطريق المسارعة كالآية «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» (س٦/ ١٤٠).

(٢) المؤمنون: «٦٣».

(٣) الحديث مركب من حدثين.
الشطر الأول إلى قوله: (كسني يوسف) أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٠ رقم ٨٠٤) و(٢/ ٤٩٢ رقم ١٠٠٦) ومسلم (١/ ٤٦٧ رقم ٢٩٤) من حديث أبي هريرة.
وبنحو الشطر الثاني أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٣ رقم ١٠٠٧) و(٨/ ٣٦٣ رقم ٤٦٩٣).
و(٨/ ٥١١ رقم ٤٧٧٤) و(٨/ ٥٤٧ رقم ٤٨٠٩) و(٨/ ٥٧٣ رقم ٤٨٢١ و٤٨٢٢ و٤٨٢٣ و٤٨٢٤) ومسلم (٤/ ٢١٥٦ رقم ٣٩). من حديث ابن مسعود.
وانظر «الكافي الشاف» (ص١١٥ رقم ٤١).

(٤) تخصيص اليوم بالذكر لتهويله، والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار (س٦/ ١٤٢).

قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ
يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ
بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

(٦٦) ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ تعرضون مدبرين عن سماعها وتصديقِها والعملِ بها، والنكوصُ الرجوعُ قهقرىٰ.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ الضمير للبيت، وشهوةُ استكبارهم وافتخارِهم بأنهم قِوامُه أغنت عن سبق ذكره، أو لآياتي فإنها بمعنى كتابي، والباء متعلقة بمستكبرين لأنه بمعنى مكذبين، أو لأن استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعه أو بقوله ﴿سَٰمِرًا﴾ أي تسمُرون بذكر القرآن والطعن فيه، وهو في الأصل مصدرٌ جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة، وقرىء سمَراً جمع سامر ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهَجْر ـ بالفتح ـ إما بمعنى القطيعة أو الهذيان، أي تُعرِضون عن القرآن أو تَهذون في شأنه، أو الهُجْر ـ بالضم ـ أي الفحش، ويؤيد الثاني قراءةُ نافع تُهْجِرون من أهجرَ وقرىء تُهجِّرون على المبالغة.

(٦٨) ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي القرآنَ ليعلموا أنه الحقُّ من ربهم بإعجاز لفظه ووضوحِ مدلوله ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الرسول والكتاب، أو من الأمن من عذاب الله تعالى فلَم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كإسماعيلَ وأعقابه فآمنوا به وبكتابه ورسلِه وأطاعوه.

(٦٩) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصدقِ وحسنِ الخلق وكمالِ العلم مع عدم التعلم إلى غير ذلك مما هو صفةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دعواه لأحدِ هذه الوجوه إذ لا وجهَ له غيرُها، فإن إنكارَ الشيء قطعاً أو ظناً إنما يتجه إذا ظهر امتناعُه بحسب النوعِ أو الشخص، أو بحث عما يدل عليه أقصى ما يمكن فلم يوجد.

(٧٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ فلا يبالون بقوله وكانوا يعلمون أنه ﷺ أرجحَهم عقلاً وأدقَّهم نظراً ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لأنه يخالف شهواتِهم وأهواءَهم فلذلك أنكروه. وإنما قُيِّد الحكمُ بالأكثر لأنه كان منهم مَن تَرَكَ الإيمانَ استنكافاً من توبيخ قومِه، أو لقلة فطنتِه وعدم فِكرتِه، لا كراهةً للحق.

(٧١) ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بأن كان في الواقع آلهةٌ شتّى. ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ كما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]. وقيل لو اتبع الحقُّ أهواءَهم وانقلب باطلاً لذهب ما قام به العالَم فلم يبقَ، أو لو اتبع الحقُّ الذي جاء به محمد ﷺ أهواءَهم وانقلب شركاً لجاء الله بالقيامة وأهلك العالم من فرْط غضبه، أو لو اتبع الله أهواءَهم بأن أنزل ما يشتهونه من الشرك والمعاصي لخرج عن الألوهية ولم يقدِرْ أن يُمسك السمواتِ والأرضَ،

(١) الأنبياء: «٢٢».

وهو على أصل المعتزلة. ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذِكرُهم، أي وعظُهم أو صيتُهم، أو الذكرِ الذي تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[(١)] وقرىء بذكراهم[(٢)]. ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٢) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ قيل إنه قسيمُ قوله «أم به جنة» ﴿خَرْجًا﴾ أجراً على أداء الرسالة. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ رزقُه في الدنيا، أو ثوابُه في العُقبىٰ. ﴿خَيْرٌ﴾ لسَعته ودوامِه ففيه مندوحةٌ لك عن عطائهم. والخَرْج بإزاء الدخْل، يقال لكل ما تُخرِجه إلى غيرك، والخَراجُ غالبٌ في الضريبة على الأرض، ففيه إشعارٌ بالكثرة واللزوم فيكون أبلغَ، ولذلك عبر به عن عطاء الله إياه. وقرأ ابن عامر خرْجاً فخَرْجُ، وحمزة والكسائي خَراجاً فخراجُ للمزاوجة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تقرير لخيرية خراجِه تعالى.

(٧٣) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقولُ السليمةُ على استقامته لا عِوَجَ فيه يوجب اتهامَهم له. واعلم أنه سبحانه ألزمهم الحُجةَ وأزاح العِلّة في هذه الآياتِ، بأن حصَر أقسامَ ما يؤدي إلى الإنكار والاتهام وبيّن انتفاءَها ما عدا كراهةَ الحق وقلةَ الفِطنة.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ عن الصراط السوي. ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لعادلون عنه، فإن خوفَ الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوكِ طريقه.

(٧٥) ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ يعني القَحط. ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ لثبتوا، واللَّجاج التمادي في الشيء. ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق وعداوةِ الرسول والمؤمنين. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الهدى. روي أنهم قُحطوا حتى أكلوا العِلْهِزَ[(٣)]، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أنشُدك اللهَ والرحِمَ ألستَ تزعُم أنك بُعثت رحمةً للعالمين؟ قال: «بلى» فقال: قتلتَ الآباءَ بالسيف والأبناءَ بالجوع، فنزلت[(٤)].

---

(١) الصافات: «١٦٨».

(٢) وفي إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة «أتيناهم» بعد إسناده إلى ضميره ـ ﷺ ـ تنويه لشأن النبي ـ عليه السلام ـ وتنبيه على كونه بمثابة عظيمة منه عز وجل (س٦/ ١٤٥).

(٣) العلهز هو شيء يتخذونه في سنيّ المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. وقيل: شيء ينبت ببلاد بني سُليم له أصل كأصل البردى (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٩٣).

(٤) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٨١) من طريق علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس في سياق حديث إسلام ثمامة بن أثال، فيه «فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال بلى، قال فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فأنزل الله «ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون» [المؤمنون: «٧٦»].

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ يعني القتلَ يومَ بدر ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ بل أقاموا على عُتُوِّهم واستكبارِهم. واستكان استفعل من الكون لأن المفتقرَ انتقل من كون إلى كون، أو افتعل من السكون أُشبعت فتحتُه. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وليس من عادتهم التضرعُ، وهو استشهادٌ على ما قبله.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني الجوعَ فإنه أشدُّ من القتل والأسر، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيِّرون آيسون من كل خير حتى جاءك أعتاهم يستعطفك.

(٧٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ لتُحِسّوا بها ما نُصب من الآيات ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتتفكروا فيها وتستدلوا بها إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرونها شكراً قليلاً لأن العُمدة في شكرها استعمالُها فيما خلقت لأجله، والإذعانُ لمانِحِها من غير إشراك، وما صلةٌ للتأكيد.

(٧٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ خلقكم وبثكم فيها بالتناسل. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تُجمَعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

(٨٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ويختص به تعاقبُهما لا يقدِر عليه غيرُه، فيكون رداً لنسبته إلى الشمس حقيقةً، أو لأمره وقضائِه تعاقبُهما، أو انتقاصُ أحدهما وازديادُ الآخر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالنظر والتأملِ، أن الكل منا وأن قدرتَنا تعمّ المُمْكِنات كلَّها وأن البعثَ من جملتها. وقرىء بالياء على أن الخِطابَ السابقَ لتغليب المؤمنين.

(٨١) ﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي كفارُ مكةَ. ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ آباؤهم ومَنْ دان بدينهم.

(٨٢) ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ استبعاداً، ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخُلقوا.

(٨٣) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا أكاذيبُهم التي كتبوها، جمعُ أُسطورة لأنه يستعمل فيما يتلى به كالأعاجيب والأضاحيك. وقيل جمعُ أسطارٍ جمعُ سطر.

(٨٤) ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك، فيكون استهانةً بهم وتقريراً لفرط جهالتِهم حتى جهِلوا مثلَ هذا الجليِّ الواضحِ إلزاماً بما لا يمكن لمن له مُسْكةٌ من العلم إنكارُه، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال:

(٨٥) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن العقل الصريحَ قد اضطرَّهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقُها. ﴿قُلْ﴾

أي بعد ما قالوه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من فطر الأرضَ ومَن فيها ابتداءً قادرٌ على إيجادها ثانياً، فإن بدءَ الخلق ليس أهونَ من إعادته. وقرئ تتذكرون على الأصل.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾

(٨٦) ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فإنها أعظمُ من ذلك.

(٨٧) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ بغير لام فيه وفيما بعده على ما يقتضيه لفظُ السؤال ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقابَه فلا تُشركوا به بعضَ مخلوقاته ولا تُنكروا قدرتَه على بعض مقدوراته.

(٨٨) ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مُلكُه غايةَ ما يمكن، وقيل خزائنُه. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يُغيث من يشاء ويحرُسه. ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ ولا يُغاث أحدٌ ولا يُمنع منه، وتعديتُه بعلى لتضمين معنى النُّصْرة. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فمِن أين تُخدعون فتُصْرَفون عن الرشد مع ظهور الأمر وتظاهُرِ الأدلة!.

(٩٠) ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ من التوحيد والوعدِ بالنشور. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أنكروا ذلك.

(٩١) ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتقدُّسه عن مماثلة أحد. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يساهمه في الألوهية. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جوابُ مُحاجَتِهم وجزاء شرطٍ حُذف لدلالة ما قبله عليه، أي لو كان معه آلهةٌ كما تقولون لذهب كلٌّ منهم بما خلقه واستبدّ به وامتاز مُلكُه عن ملك الآخرين، وظهر بينهم التحاربُ والتغالبُ كما هو حالُ ملوكِ الدنيا، فلم يكن بيده وحده ملكوتُ كل شيء، واللازمُ باطل بالإجماع والاستقراء وقيام البرهان على استناد جميع الممْكِنات إلى واجب واحد. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده.

(٩٢) ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقد جرّه ابنُ كثير وابنُ عامر وأبو عمرٍو ويعقوبُ وحفصٌ على الصفة، وهو دليلٌ آخرُ على نفْي الشريكِ بناءً على توافقهم في أنه المنفردُ بذلك، ولهذا رتب عليه ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفاء.

(٩٣) ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ إن كان لابد من أن تُرِيَني، لأن ما والنون للتأكيد. ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة.

(٩٤) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قريناً لهم في العذاب، وهو إما لهضم النفس أو لأن شُؤم الظَّلَمة قد يَحيق بمَنْ وراءهم كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ

خَآصَّةً﴾[1]. عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيَّه ـ عليه السلام ـ أن له في أمته نِقْمةً ولم يُطْلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاءِ. وتكريرُ النداء وتصديرُ كل واحد من الشرط والجزاءِ به فضلُ تضرّعٍ وجُؤار.

وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

(٩٥) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ لكنا نؤخره علماً بأن بعضَهم أو بعضَ أعقابهم يؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم، ولعله ردٌّ لإنكارهم الموعودَ واستعجالِهم له استهزاءً به. وقيل قد أراه، وهو قتلُ بدر أو فتحُ مكةَ.

(٩٦) ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهو الصفحُ عنها والإحسانُ في مقابلتها، لكن بحيث لم يؤدِّ إلى وهَن في الدين. وقيل هي كلمةُ التوحيد والسيئةُ الشرك. وقيل هو الأمرُ بالمعروف والسيئةُ المنكر، وهو أبلغُ من ادفع بالحسنة السيئةَ لِما فيه من التنصيص على التفضيل. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالِك، وأقدرُ على جزائهم فوكِّلْ إلينا أمرَهم.

(٩٧) ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ وساوسِهم، وأصلُ الهمْز النّخْسُ ومنه مِهمازُ الرائض[2]، شَبّه حثهم الناسَ على المعاصي بهمز الراضَةِ للدواب على المشي، والجمعُ للمرّات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضافِ إليه.

(٩٨) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ يحوموا حولي في شيء من الأحوال، وتخصيصُ حال الصلاة وقراءةِ القرآن وحلولِ الأجل لأنها أحرى الأحوال بأن يُخافَ عليه[3].

(٩٩) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ متعلقٌ بيصفون، وما بينهما اعتراضٌ لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله من الشيطان أن يُزِلّه عن الحِلْم ويُغريَه على الانتقام، أو بقوله إنهم لكاذبون. ﴿قَالَ﴾ تحسّراً على ما فرّط فيه من الإيمان والطاعةِ لَمّا اطلع على الأمر. ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ رُدّوني إلى الدنيا. والواو لتعظيم المخاطَب، وقيل لتكرير قوله ارجعني كما قيل في قِفا وأطرِقا.

(١٠٠) ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الإيمان الذي تركتُه، أي لعلي آتي الإيمانَ وأعمل فيه، وقيل في المال أو في الدنيا. وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا عاين المؤمنُ الملائكة قالوا أنُرجعك إلى الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله تعالى، وأما الكافر فيقول رب

---

(١) الأنفال: «٢٥».

(٢) مهماز الرائض: حديدة تربط على مؤخر رجله ينخس به الدابة لتسرع أو لتثب.

(٣) وإعادة الفعل «أعوذ» مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهال في الاستدعاء (س٦/ ١٥٠).

ارجعون»[١]. ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ مَن طلب الرجعة واستبعادٌ لها. ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ يعني قوله: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلخ، والكلمةُ الطائفةُ من الكلام المنتظمُ بعضُها مع بعض. ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا محالة لتسلُّط الحسرة عليه. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أمامهم، والضميرُ للجماعة. ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقناطُ كلٍّ عن الرجوع إلى الدنيا لِمَا عُلم أنه لا رجعةَ يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجوعُ فيه إلى حياة تكون في الآخرة.

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠١) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، والقراءةُ بفتح الواو وبه وبكسر الصاد يؤيد أن الصُّور أيضاً جمع الصورة[٢]. ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم من فرط الحَيْرة واستيلاء الدهشة بحيث يفِر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، أو يفتخرون بها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما يفعلون اليوم. ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضاً لاشتغاله بنفسه، وهو لا يناقض قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٣] لأنه عند النفخة وذلك بعد المحاسبة أو دخولِ أهل الجنة الجنةَ والنارِ النارَ.

(١٠٢) ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ موزوناتُ عقائِده وأعماله، أي فمن كانت له عقائدُ وأعمالٌ صالحةٌ يكون لها وزنٌ عند الله تعالى وقدْرٌ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات.

(١٠٣) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ومن لم يكن له ما يكون له وزنٌ، وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[٤]. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوها حيث ضيعوا زمانَ استكمالِها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من الصلة، أو خبرٌ ثانٍ لأولئك.

(١٠٤) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تحرقها، واللفحُ كالنفح إلا أنه أشدُّ تأثيراً[٥]. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق، والكُلوحُ تقلصُ الشفتين عن الأسنان. وقرىء كَلِحُون.

(١٠٥) ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول أي يقال لهم ألم تكن. ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تأنيبٌ وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذابَ لأجله.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ج١٨/٥٢) عن ابن جريج مرسلاً. وفيه «سنيد» ضعيف.

(٢) أي أن المعنىٰ يكون: فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، وهو معنىٰ قراءة من قرأ «في الصُّوَر» و«في الصِّوَر»، فإن المذكور في هاتين القراءتين جمع صورة لا بمعنىٰ القَرْن قطعاً، والأصل توافق معاني القراءات.
ولا تنافي بين النفخ في الصُّور بمعنىٰ القرن ـ الذي جاء في الأخبار ودلت عليه آيات أخر ـ وبين النفخ في الصُّوَر جمع صورة، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك. انظر روح المعاني (١٨/ ٦٤).

(٣) الطور: «٢٥».

(٤) الكهف: «١٠٥».

(٥) وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السرّ في تقديمها على الفاعل (س٦/ ١٥١).

قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾
قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ
بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾

(١٠٦) ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ مَلَكَتْنا بحيث صارت أحوالُنا مؤديةً إلى سوء العاقبة. وقرأ حمزة والكسائي شَقَاوَتُنا ـ بالفتح ـ كالسَّعادة، وقرىء بالكسر كالكِتابة. ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحق.

(١٠٧) ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من النار. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب. ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا.

(١٠٨) ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ اسكُتوا سكوتَ هوانٍ في النار فإنها ليست مقامَ سؤال، مِنْ خسأْتُ الكلبَ إذا زجرته فَخَسِيءَ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب أو لا تكلمون رأساً. قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة: ربنا أَبْصَرنا وسمعنا، فيُجابون: حق القولُ مني، فيقولون ألفاً: ربنا أمتّنا اثنتين، فيُجابون: ذلكم بأنه دُعيَ اللهُ وحده كفرتم، فيقولون ألفاً: «يا مالكُ ليقضِ علينا ربك»[1] فيجابون: إنكم ماكثون، فيقولون ألفاً: ربنا أخرنا إلى أجل قريب، فيجابون: أو لم تكونوا أقسمتم من قبل، فيقولون ألفاً: ربنا أخرجنا نعملْ صالحاً، فيجابون: أو لم نعمِّرْكم، فيقولون ألفاً: رب ارجعون، فيجابون: اخسؤوا فيها، ثم لا يكون لهم فيها إلا زفيرٌ وشهيقٌ وعُواء[2].

(١٠٩) ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الشأنَ، وقرىء بالفتح أي لأنه. ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ يعني المؤمنين، وقيل الصحابةُ، وقيل أهلُ الصُّفّة. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

(١١٠) ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ هُزُؤاً. وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائي هنا وفي صٓ بالضم[3]، وهما مصدرُ سَخِر زيدت فيهما ياءُ النَّسَب للمبالغة، وعند الكوفيين المكسورُ بمعنى الهُزْء، والمضمومُ من السُّخرة بمعنى الانقياد والعبودية. ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ من فرط تشاغُلِكم بالاستهزاء بهم، فلَمْ تخافوني في أوليائي. ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم.

(١١١) ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ على أذاكم. ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فوزُهم بمجامع مُراداتِهم مخصوصين به، وهو ثاني مفعولي جزيتُهم. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر استئنافاً[4].

(١١٢) ﴿قَٰلَ﴾ أي اللهُ، أو الملَك المأمورُ بسؤالهم. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي على الأمر[5]

---

(١) الزخرف: «٧٧».
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٥) وصححه الذهبي بنحوه.
(٣) سورة صٓ «٦٣» أي بضم السين «سُخرياً».
(٤) أي بكسر الهمزة في «أنهم».
(٥) أي «قُلْ كم لبثتم».

للملَك أو لبعض رؤساء أهل النار. ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أحياء أو أمواتاً في القبور. ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييزٌ لِكَم.

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا
يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

(١١٣) ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لُبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم في النار، أو لأنها كانت أيامَ سرورهم وأيامُ السرور قِصارٌ، أو لأنها مُنقضيةٌ والمنقضي في حكم المعدوم. ﴿فَسْـَٔلِ الْعَادِّينَ﴾ الذين يتمكنون من عدّ أيامها إن أردتَ تحقيقها فإنا لِما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها، أو الملائكةَ الذين يعُدّون أعمارَ الناس ويُحصون أعمالَهم. وقرىء العادِين ـ بالتخفيف ـ أي الظَلَمة فإنهم يقولون ما نقول، والعاديين أن القدماءَ المعمرين فإنهم أيضاً يَستقْصِرون.

(١١٤) ﴿قَالَ﴾ وفي قراءة حمزة والكسائي قُلْ. ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تصديق لهم في مقالهم.

(١١٥) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ توبيخ على تغافلهم. وعبثاً حالٌ بمعنى عابثين، أو مفعول له أي: لم نخلقكم تلهياً بكم وإنما خلقناكم لنتعبّدكم ونُجازيَكم على أعمالكم، وهو كالدليل على البعث. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على أنما خلقناكم أو عبثاً. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوبُ بفتح التاء وكسر الجيم.

(١١٦) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الذي يَحِق له المُلكُ مطلقاً، فإن مَن عداه مملوكٌ بالذات مالِكٌ بالعَرَض من وجه دون وجه وفي حال دون حال. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن ما عداه عبيد له. ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ الذي يُحيط بالأجرام ويَنزِل منه مُحكماتُ الأقضية والأحكام، ولذلك وصفه بالكرم أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرىء بالرفع على أنه صفةُ الرب.

(١١٧) ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ يعبده إفراداً أو إشراكاً. ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفةٌ أخرى لإلهاً لازمةٌ له فإن الباطل لا برهانَ به، جيء بها للتأكيد وبناءِ الحُكم عليه تنبيهاً على أن التدينَ بما لا دليلَ عليه ممنوعٌ فضلاً عما دل الدليلُ على خلافه، أو اعتراضٌ بين الشرط والجزاءِ لذلك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ فهو مُجازٍ له مقدارَ ما يستحقه. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ إن الشأنَ، وقرىء بالفتح على التعليل أو الخبر أي حسابُه عدمُ الفلاح. بدأ السورةَ بتقرير فلاح المؤمنين وخَتَمَها بنفي الفلاح عن الكافرين، ثم أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحِمَه فقال:

(١١٨) ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المؤمنين بشّرتْه الملائكة بالروْح والريحان وما تقرُّ به عينُه عند نزول ملك.........

الموت»[١]. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «لقد أنزلت عليّ عشرُ آيات، مَن أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر»[٢]. ورُوي «أن أولها وآخرَها من كنوز الجنة، من عمل بثلاث آياتٍ من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح»[٣].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
تقدم الكلام على إسناده في آخر سورة آل عمران.

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه الترمذي (٥/ ٣٢٦ رقم ٧١٧٣) والنسائي (٨/ ٨٣ ـ تحفة الأشراف) من حديث عمر.
وقال النسائي: «هذا حديث منكر. لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه... والله أعلم» هـ.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٢) وقال: صحيح الإسناد.
وتعقبه الذهبي بقوله: سئل عبدالرزاق عن شيخه ذا فقال: أظنه لا شيء.
قال الحافظ في التقريب (٢/ ٣٨٥): يونس بن سليم: مجهول.
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١١٦ رقم ٤٥): «لم أجده».

سُورَةُ النُّورِ

ترتيبها ٢٤ — آياتها ٦٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ
وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

سورة النور مدنية[١] وهي أربع وستون آية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورةٌ، أو فيما أوحينا إليك سورةٌ ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ صفتُها، ومَنْ نصبها جعله مفسِّراً لناصبها فلا يكون له محلٌّ إلا إذا قُدِّر اتلُ أو دونك أو نحوُه. ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ وفرضنا ما فيها من الأحكام، وشدده ابن كثير وأبو عمرو لكثرة فرائضها، أو المفروضِ عليهم، أو للمبالغة في إيجابها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة[٢] ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتتقون المحارم. وقرىء بتخفيف الذال[٣].

(٢) ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ أي فيما فرضنا أو أنزلنا حكمُهما وهو الجلْد، ويجوز أن يُرفعا بالابتداء والخبرُ ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ والفاءُ لتضمُّنها معنى الشرط إذ اللام بمعنى الذي. وقرىء بالنصب على

---

(١) مدنية كلها بإجماع العلماء.
أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النور بالمدينة، وأخرج عن ابن الزبير مثله.
انظر «الدر المنثور» (٦/ ١٢٤) و«زاد المسير» (٦/ ٣).

(٢) وتكرير أنزلنا لإبراز كمال العناية بشأنها (س٦/ ١٥٥).

(٣) من عادة البيضاوي الإشارة للقراءات غير المتواترة بلفظ قرىء، إلا أنه هنا أشار بلفظ قرىء لمن قرأ بتخفيف الذال وهي قراءة متواترة قرأ بها حمزة وعلي وخلف وحفص. انظر تفسير النسفي (٣/ ١٣٠).

إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسنُ من نصب سورة لأجل الأمر، والزانِ بلا ياء[١]، وإنما قَدّم الزانية لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرّضها للرجل وعَرْضِ نفسها عليه، ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها. والجَلْدُ ضرب الجِلْد، وهو حكمٌ يُخصّ بمن ليس بمحصَن لِما دل على أن حدّ المحصَن هو الرجم، وزاد الشافعي عليه تغريبَ الحرِّ سنةً لقوله عليه الصلاة والسلام «البِكرُ بالبكر جلدُ مائةٍ وتغريبُ عام»[٢]، وليس في الآية ما يدفعه لينسخ أحدُهما الآخرَ نسخاً مقبولاً أو مردوداً. وله في العبد ثلاثةُ أقوال. والإحصان: بالحرية والبلوغ والعقل والإصابةِ في نكاح صحيح، واعتبرت الحنفية الإسلامَ أيضاً وهو مردودٌ برجمه عليه الصلاة والسلام يهوديين[٣]، ولا يعارضه: «من أشرك بالله فليس بمُحصَن»[٤] إذ المرادُ بالمحصَن الذي يُقتصّ له من المسلم. ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رحمة. ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته وإقامةِ حدِّه فتُعطّلوه تُسامحوا فيه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لو سرقت فاطمةُ بنتُ محمد لقطعت يدها»[٥]. وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة[٦]، وقرئت بالمد على فَعالة. ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ فإن الإيمان يقتضي الجدَّ في طاعة الله تعالى والاجتهادَ في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التهييج. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادةً في التنكيل فإن التفضيحَ قد ينكِّل أكثرَ مما ينكّل التعذيب. والطائفةُ فِرقةٌ يمكن أن تكون حافّةً حول شيء، من الطوف، وأقلُّها ثلاثة وقيل واحداً واثنان، والمراد جمع يحصُل به التشهير.

(٣) ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إذ الغالبُ أن المائلَ إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح والمسافِحةَ لا يرغب فيها الصُلَحاء، فإن المشاكلة علةٌ للألفة والتضامّ والمخالفةَ سببٌ للنفرة والافتراق. وكان حقُّ المقابلة أن يقال والزانية لا تنكِح إلا من هو زانٍ أو مشرك، لكنّ المرادَ بيانُ أحوال الرجال في الرغبة فيهن، لأن الآية نزلت في ضَعَفة المهاجرين لمَا همّوا أن يتزوجوا بغايا يَكْرين أنفسَهن لِيُنفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية[٧] ولذلك قدم الزاني. ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه تشبّهٌ بالفساق وتعرّضٌ للتهمة وتسبُّبٌ لسوء القالة والطعْنِ في النسب وغيرِ ذلك من المفاسد، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً. وقيل النفيُ بمعنى النهي، وقد قرىء به. والحُرمةُ على ظاهرها، والحكمُ مخصوصٌ بالسبب الذي ورد فيه أو منسوخٌ بقوله تعالى ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[٨] فإنه يتناول المسافحاتِ، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أولُه

---

(١) قوله: والزانِ بلا ياء معطوف على قوله وقرىء بالنصب، أي وقرىء والزانِ بلا ياء.

(٢) لم أجده.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٦٣١ رقم ٣٦٣٥) ومسلم (٣/ ١٣٢٦ رقم ٢٦/ ١٦٩٩) من حديث ابن عمر.

(٤) لم أجده.

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٥١٣ رقم ٣٤٧٥) و(٧/ ٨٧ رقم ٣٧٣٣) و(١٢/ ٨٧ رقم ٦٧٨٨) ومسلم (٣/ ١٣١٥ رقم ٨ ـ ١١) وأبو داود (٤/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨ رقم ٤٣٧٣) والترمذي (٤/ ٣٧ ـ ٣٨) والنسائي (٨/ ٧٢ ـ ٧٥ رقم ٤٨٩٤ ـ ٤٩٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أي بفتح همزة رأفة أي رَأَفَةٌ، وقرئت رَآفة.

(٧) أخرجه ابن جرير (١٠/ج١٨/ ٧١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بإسناد صحيح.

(٨) النور: «٣٢».

سِفاحٌ وآخِرُه نكاحٌ والحرامُ لا يحرم الحلال»[١]، وقيل المرادُ بالنكاح الوطءُ فيؤول إلى نهي الزاني عن الزنا إلا بزانية، والزانيةِ أن يزنيَ بها إلا زانٍ وهو فاسد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ يقذفونهن بالزنا، لوَصْفِ المقذوفات بالإحصان وذِكْرهن عَقيبَ الزواني واعتبارِ أربعة شهداءَ بقوله ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ والقذفُ بغيره مثلُ يا فاسق ويا شاربَ الخمر يوجب التعزيرَ كقذف غيرِ المحصَن، والإحصانُ ههنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة عن الزنا، ولا فرق فيه بين الذكر والأنثى. وتخصيصُ المحصَنات لخصوص الواقعة، أو لأن قذفَ النساء أغلبُ وأشنع. ولا يشترط اجتماعُ الشهود عند الأداء ولا تعتبر شهادةُ زوج المقذوفة خلافاً لأبي حنيفة، وليكن ضربُه أخفَّ من ضرب الزنا لضعف سببه واحتمالِه، ولذلك نَقص عددُه. ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً﴾ أيَّ شهادة كانت لأنه مُفترٍ. وقيل شهادتَهم في القذف، ولا يتوقف ذلك على استيفاء الجَلد خلافاً لأبي حنيفة، فإن الأمر بالجلد والنهيَ عن القَبول سيان في وقوعهما جواباً للشرط لا ترتيبَ بينهما فيترتبان عليه دفعة، كيف وحالُه قبل الجلد أسوأُ مما بعده ﴿أَبَدٗاۚ﴾ ما لم يتُب، وعند أبي حنيفة إلى آخر عمره. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ المحكومُ بفسقهم.

(٥) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن القذف. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ أعمالَهم بالتدارُك، ومنه الاستسلامُ للحد أو الاستحلالُ من المقذوف. والاستثناءُ راجعٌ إلى أصل الحكم وهو اقتضاءُ الشرط لهذه الأمور؛ ولا يلزَمه سقوطُ الحد به كما قيل لأن من تمام التوبة الاستسلامَ له أو الاستحلال؛ ومحلُّ المستثنى النصبُ على الاستثناء، وقيل إلى النهي ومحلُّه الجرُّ على البدل مِنْ هم في لهم، وقيل إلى

---

(١) إن الحديث يتألف من حدثين:
(الأول): (أوله سفاح وأخره نكاح) موقوف على ابن عباس.
(والثاني): (الحرام لا يحرم الحلال) مرفوع من حديث عائشة.
● أما حديث ابن عباس الموقوف: فقد أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٢٠٢). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٢٤٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٥٥). والدارقطني في «السنن» (٣/ ٢٦٨ رقم ٩١).
● أما حديث عائشة المرفوع: فقد أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٢٦٨ رقم ٩٠) وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٩٨ ـ ٩٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٦٩) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩) وعزاه للطبراني في الأوسط. وقال: فيه عثمان بن عبدالرحمن الزهري وهو متروك.
● ولحديث عائشة شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه ابن ماجة (١/ ٦٤٩ رقم ٢٠١٥) والدارقطني في «السنن» (٢/ ٢٦٨ رقم ٨٩).
قال البوصري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٥٠ رقم ٧٢٢) «هذا إسناد ضعيف، لضعف عبدالله بن عمر العمري. . .» هـ.
والخلاصة أن حديث عائشة ضعيف والله أعلم.

الأخيرة[١] ومحلُه النصبُ لأنه من موجَب، وقيل منقطِعٌ متصل بما بعده. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ علة للاستثناء.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ نزلت في هلال بنِ أُمية رأى رجلاً على فراشه[٢]. وأنفسُهم بدل من شهداءُ أو صفةٌ لهم على أنّ إلا بمعنى غير. ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ فالواجبُ شهادةُ أحدهم أو فعليهم شهادةُ أحدهم وأربعَ نُصب على المصدر، وقد رفعه حمزةُ والكسائي وحفصٌ على أنه خبرُ شهادة. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بشهاداتٍ لأنها أقرب، وقيل بشهادة لتقدمها. ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فيما رماها به من الزنا، وأصله على أنه فحُذف الجارُّ وكُسرت إنّ وعُلّق العامل عنه باللام تأكيداً.

(٧) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ والشهادةُ الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في الرمي. هذا لِعانُ الرجل، وحُكمُه: سقوطُ حدِّ القذف عنه، وحصولُ الفُرقة بينهما بنفسه فرقةَ فسخٍ عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً»[٣]. وتفريقُ الحاكم فُرقةُ طلاقٍ عندَ أبي حنيفةَ، ونفيُ الولد إن تعرض له فيه، وثبوتُ حد الزنا على المرأة لقوله:

(٨) ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي الحد. ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماني به.

(٩) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في ذلك، ورفْعُ الخامسة بالابتداء وما بعدها الخبرُ، أو بالعطف على أن تشهد، ونصَبها حفصٌ عطفاً على أربعَ. وقرأ نافع ويعقوبُ أنْ لَعْنةُ اللهِ وأنْ غَضِبَ اللهُ بتخفيف النون فيهما وكسرِ الضاد وفتح الباء من غضب ورفعِ الهاء من اسم الله[٤]، والباقون بتشديد النون فيهما ونصبِ التاء وفتح الضاد وجر الهاء[٥].

---

(١) قوله: وقيل إلى النهي... وقيل إلى الأخيرة. معطوف على قوله، والاستثناء راجع إلى الحكم...

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٤٩ رقم ٤٧٤٧) والبغوي في شرح السنة (٩/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٣) أخرجه الدارقطني (٣/ ٢٧٦) وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٢٥١) إسناده جيد. وله شواهد من حديث سهل بن سعد الساعدي أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٧٥) وفي سنده عياض الفهري لين الحديث كما في التقريب (٢/ ٩٦). ومن حديث علي وابن مسعود أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٧٧).

(٤) ذكر البيضاوي أن قراءة نافع ويعقوب واحدة، لكن ذكر ابن مهران في كتابه المبسوط في القراءات العشر ص٢٦٦ أن يعقوب قد قرأ «أنْ لَعْنَةُ اللهِ» و«أنْ غَضَبُ اللهِ» فهي بنصب الضاد والله أعلم.

(٥) وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء كثيراً ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقْعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى (س٦/ ١٥٩).

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا
لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

(١٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ متروكُ الجواب للتعظيم، أي لَفَضحكم وعاجلكم بالعقوبة.

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ بأبلغ ما يكون من الكذب، من الأَفْك وهو الصَّرْف لأنه قول مأفوك عن وجهه. والمرادُ ما أُفك به على عائشةَ رضي الله تعالى عنها، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام استصحبها في بعض الغزوات فأذِن ليلةً في القُفول بالرحيل، فمشتْ لقضاء حاجة ثم عادت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عِقدٌ مِن جَزْع ظُفار قد انقطع فرجعت لتلتمسه، فظَن الذي كان يُرحِّلُها أنها دخلت الهودج فرحّله على مطيتها وسار، فلما عادت إلى منزلها لم تجد ثمةَ أحداً فجلست كي يرجعَ إليها مُنشد، وكان صفوانُ بنُ المعطَّل السُّلَميُّ رضي الله تعالى عنه قد عرّس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلها فعرفها فأناخ راحلته فركِبَتْها فقادها حتى أتيا الجيشَ، فاتُّهمت به. ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جماعةٌ منكم، وهي من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة، يريد عبدَالله بنَ أُبيّ وزيدَ بنَ رفاعة وحسانَ بنَ ثابت ومِسْطَحَ بنَ أُثاثةَ وحَمْنَةَ بنتَ جحش ومن ساعدهم، وهي خبر إنّ، وقولُه ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ مستأنفٌ، والخطاب للرسول ﷺ وأبي بكر وعائشةَ وصفوانَ رضي الله تعالى عنهم، والهاء للإفك. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثوابَ العظيمَ، وظهورِ كرامتكم على الله بإنزال ثماني عشرة آيةً في براءتكم، وتعظيمِ شأنكم، وتهويلِ الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناءِ على من ظن بكم خيراً ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ لكلٍ جزاءُ ما اكتسب بقدر ما خاض فيه مختصاً به ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ مُعظمَه. وقرأ يعقوبُ بالضم[1]، وهو لغة فيه ﴿مِنْهُمْ﴾ من الخائضين، وهو ابنُ أُبيّ فإنه بدأ به وأذاعه عداوةً لرسول الله ﷺ، أو هو وحسانُ ومِسْطح فإنهما شايعاه بالتصريح به. والذي بمعنى الذين ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة. أو في الدنيا بأن جُلدوا، وصار ابنُ أُبي مطروداً مشهوراً بالنفاق، وحسانُ أعمى أشلَّ اليدين، ومِسْطحُ مكفوفَ البصر.

(١٢) ﴿لَّوْلَآ﴾ هلاّ، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[2]. وإنما عُدل فيه من الخطاب إلى الغَيبة مبالغةً في التوبيخ، وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظنَّ الخير بالمؤمنين والكفَّ عن الطعن فيهم وذبَّ الطاعنين عنهم كما يذبّونهم عن أنفسهم. وإنما جاز الفصلُ بين لولا وفِعْلِه بالظرف لأنه منزّلٌ منزلتَه من حيث إنه لا ينفك عنه، وذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وذلك لأن ذكرَ الظرف أهمُّ فإن التحضيضَ على أن لا يُخِلّوا بأوّله. ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كما يقول المستيقنُ المطّلع على الحال.

---

(١) أي بضم الكاف (كُبْرَهُ).

(٢) الحجرات: «١١».

لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ
أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

(١٣) ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ من جملة المقول تقريراً لكونه كذباً، فإن ما لا حجةَ عليه كذبٌ عند الله أي في حكمه، ولذلك رتب الحد عليه.

(١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره، والمعنى لولا فضلُ الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهالُ للتوبة ورحمتُه في الآخرة بالعفو والمغفرة المقدران لكم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ خضتم. ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقر دونه اللومُ والجَلْد.

(١٥) ﴿إِذْ﴾ ظرف لمسّكم أو أفضتم. ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، يقال تلقّىٰ القولَ كتلقّفه وتلقنه. وقرىء تَتَلَقّوْنَه على الأصل، وتَلْقَونه من لقِيَه إذا لقِفه، وتِلْقَوْنه بكسر حرف المضارعة، وتُلْقُونَه من إلقائه بعضهم على بعض، وتَلِقُونَهُ وتَأْلِقُونَهُ من الأَلْق والإِلْقِ وهو الكذب، وتَثْقَفونه من ثِقفْتُه إذا طلبتُه فوجدته، وتَقْفُونه أي تتبعونه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ أي وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب. ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[1] ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تبعةَ له. ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوِزْر واستجرارِ العذاب. فهذه ثلاثةُ آثام مترتبة عُلّق بها مسُّ العذاب العظيم: تلقّي الإفك بألسنتهم، والتحدثُ به من غير تحقق، واستصغارُهم لذلك وهو عند الله عظيم.

(١٦) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما ينبغي وما يصح لنا. ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يجوز أن تكون الإشارةُ إلى القول المخصوصِ وأن تكون إلى نوعه، فإنّ قذفَ آحادِ الناس محرمٌ شرعاً فضلاً عن تعرض الصدّيقة ابنةِ الصديق حُرمةِ رسول الله ﷺ. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجب من ذلك الإفكِ أو ممن يقول ذلك، وأصله أن يُذكر عند كل متعجَّب تنزيهاً لله تعالى من أن يصعُب عليه مثلُه، ثم كثُر فاستعمل لكل متعجّب. أو تنزيهٌ لله تعالى من أن تكون حُرمةُ نبيه فاجرةً، فإن فجورها يُنفر عنه ويُخِلّ بمقصود الزواج بخلاف كفرها، فيكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ لعظمة المبهوت عليه، فإن حقارةَ الذنوب وعِظَمَها باعتبار متعلَّقاتها.

(١٧) ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ كراهةَ أن تعودوا، أو في أن تعودوا. ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياءً مكلفين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يمنع عنه، وفيه تهييجٌ وتقريع.

---

(١) آل عمران: «١٦٧».

وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۚ﴾ الدالةَ على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوال كلها[١]. ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدابيره ولا يجوز الكَشْحنة[٢] على نبيه ولا يقرِّره عليها.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يريدون ﴿أَن تَشِيعَ﴾ أن تنتشر. ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ﴾ بالحد والسعير إلى غير ذلك. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في الضمائر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظاهرُ، والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة.

(٢٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكريرٌ للمِنّة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عِظَم الجريمة، ولذا عُطف قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على حصول فضله ورحمتِه عليهم، وحُذف الجواب وهو مستغنًى عنه بذكره مرة[٣].

(٢١) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ بإشاعة الفاحشة. وقرىء بفتح الطاء، وقرأ نافع والبزي وأبو عمرٍو وأبو بكر وحمزةُ بسكونها ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾ بيان لعلة النهي عن اتباعه، والفحشاءُ ما أفرط قبحُه، والمنكر ما أنكره الشرع[٤]. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرعِ الحدود المكفرةِ لها ﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طهُر من دنسها. ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ آخرَ الدهر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ﴾ بحمله على التوبة وقبولِها. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

(٢٢) ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلِفْ، افتعالٌ من الألْيَة، أو ولا يُقصّر من الأَلْوَ. ويؤيد الأول أنه قرىء ولا يَتألَّ، وأنه نزل في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد حلف أن لا يُنفق على مِسْطح بعْدُ وكان ابنَ خالته وكان من فقراء المهاجرين ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال، وفيه

---

(١) إظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي، والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة (س٦/ ١٦٣).

(٢) الكشحنة هي إضمار العداوة.

(٣) إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة (س٦/ ١٦٤).

(٤) قال: «ومَنْ يتبع خطوات الشيطان» ولم يقل ومن يتبعها فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير (س٦/ ١٦٤).

دليلٌ على فضل أبي بكر وشرفِه رضي الله تعالى عنه ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ على أن لا يؤتوا، أو في أن يؤتوا. وقرىء بالتاء على الالتفات. ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، أي ناساً جامعين لها لأن الكلام فيمن كان كذلك، أو لموصوفات أقيمت مُقامَها فيكون أبلغَ في تعليل المقصود ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عما فرَط منهم. ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغماض عنه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على عفوكم وصفحِكم وإحسانِكم إلى مَنْ أساء إليكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كمال قدرته فتخلّقوا بأخلاقه. روي أنه عليه الصلاة والسلام قرأها على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقال: بلى أُحب، ورَجَع إلى مِسطح نفقتَه[1].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائفَ. ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عما قُذفن به ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله وبرسوله، استباحةً لعِرضهن وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كابن أُبَيّ ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ لِما طعنوا فيهن. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعِظَم ذنوبهم، وقيل هو حكمُ كلِّ قاذفٍ ما لم يتُب، وقيل مخصوصٌ بمن قذف أزواجَ النبي ﷺ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا توبة له، ولو فتشت وعيداتِ القرآن لم تجد أغلظَ مما نزل في إفك عائشةَ رضي الله تعالى عنها.

(٢٤) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾[2] ظرفٌ لِما في لهم من معنى الاستقرار، لا للعذاب لأنه موصوف. وقرأ حمزة والكسائي بالياء للتقدم والفصل. ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها، وفي ذلك مزيدُ تهويل للعذاب.

(٢٥) ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ جزاءَهم المستحَقّ ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ لمعاينتهم الأمرَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ الثابتُ بذاته الظاهرُ ألوهيتُه لا يشاركه في ذلك غيرُه، ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه، أو ذو الحق البيِّنِ أي العادلُ الظاهرُ عدلُه، ومن كان هذا شأنَه ينتقم من الظالم للمظلوم لا محالة.

(٢٦) ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الخبائثُ يتزوجن الخِباثَ وبالعكس، وكذلك أهلُ الطيِّب فيكون كالدليل على قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني أهلَ بيت النبي ﷺ، أو الرسولَ وعائشةَ وصفوانَ رضي الله تعالى عنهم ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إذ لو صدق لم تكن زوجته

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٧٢ رقم ٢٦٦١) و(٧/ ٤٣٤ رقم ٤١٤١) و(٨/ ٤٤٥ رقم ٤٧٥٠) و(١١/ ٥٦٤ رقم ٦٦٧٩) ومسلم (٤/ ٢١٣٦ رقم ٥٦). كلاهما في سياق حديث الإفك الطويل. من حديث عائشة.

(٢) وتقديم (عليهم) على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارة لهم، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر (س٦/ ١٦٦).

عليه الصلاة والسلام ولم يُقرَّرْ عليها، وقيل الخبيثاتُ والطيبات من الأقوال، والإشارة إلى الطيبين، والضمير في يقولون للآفكين، أي مبرؤون مما يقولون فيهم، أو للخبيثين والخبيثات أي مبرؤون من أن يقولوا مثلَ قولهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، ولقد برّأ الله أربعةً بأربعة: برأ يوسفَ عليه الصلاة والسلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجَر الذي ذهب بثوبه، ومريمَ بإنطاق ولدها، وعائشةَ رضي الله تعالى عنها بهذه الآياتِ الكريمة مع هذه المبالغة، وما ذلك إلا لإظهار منصِب الرسول ﷺ وإعلاءِ منزلته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

(٢٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي لا تسكُنونها، فإن الآجِرَ والمُعير أيضاً لا يدخُلان إلا بإذن. ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ تستأذنوا، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من آنس الشيءَ إذا أبصره، فإن المستأذن مستعلِمٌ للحال مستكشفٌ أنه هل يُراد دخولُه أو يؤذن له، أو من الاستئناس الذي هو خلافُ الاستيحاش فإن المستأذن مستوحِشٌ خائفٌ أن لا يُؤذَن له، فإذا له أذن استأنس، أو تتعرفوا هل ثَمّ إنسانٌ من الإنس ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا السلام عليكم أأدخُل؟ وعنه عليه الصلاة والسلام: «التسليمُ أن يقول السلامُ عليكم أأدخل ثلاث مرات، فإن أُذن له دخل وإلا رجع»[(١)]. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي الاستئذانُ أو التسليمُ خيرٌ لكم من أن تدخُلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية، كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غيرَ بيته قال: حُيّيتم صباحاً أو حُييتم مساءً ودخل، فربما أصاب الرجلَ مع امرأته في لِحاف. وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي، قال: «نعم»، قال: إنها ليس لها خادمٌ غيري أأستأذن عليها كلما دخلتُ، قال: «أتحب أن تراها عُرْيانة»، قال: لا، قال: «فاستأذِنْ»[(٢)]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف، أي أُنزِل عليكم أو قيل لكم هذا إرادةَ أن تذكُروا وتعمَلوا بما هو أصلُح لكم.

(٢٨) ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ يأذن لكم ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حتى يأتيَ مَنْ يأذن لكم، فإن

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ. نعم أخرج البخاري (١١/ ٢٧ رقم ٦٢٤٥) ومسلم (٣/ ١٦٩٤ ـ ١٦٩٧ رقم ٣٣ ـ ٣٧). في سياق قصة أبي موسى مع عمر رضي الله عنهم. من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٦٣ رقم١) وأبو داود في المراسيل (ص٣٣٦) وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ١١١ ـ ١١٢) من حديث عطاء بن يسار مرسلاً.
قال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١٦/ ٢٢٩): «. . . وهذا الحديث لا أعلم يستند من وجه صحيح بهذا اللفظ. وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه. . .» هـ. وقال الشيخ شعيب في تخريج «المراسيل» رجاله ثقات رجال الشيخين» هـ.

المانعَ من الدخول ليس الاطلاعَ على العورات فقط، بل وعلى ما يُخفيه الناسُ عادة مع أن التصرفَ في مِلك الغير بغير إذنه محظور، واستُثنى ما إذا عرَض فيه حَرْقٌ أو غرَقٌ أو كان فيه منكرٌ ونحوُها ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ ولا تُلِحّوا. ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ الرجوعُ أطهرُ لكم عما لا يخلو الإلحاحُ والوقوفُ على الباب عنه من الكراهة وتركِ المروءة، أو أنفعُ لدينكم ودنياكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما خوطبتم به فيجازيكم عليه.

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾
قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾
وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ
بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ
أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ
ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالرُّبُط[١] والحوانيت والخانات والخانقات[٢] ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ﴾ استمتاع. ﴿لَّكُمْ﴾ كالاستكنان من الحر والبرد وإيواءِ الأمتعة والجلوس للمعاملة، وذلك استثناءٌ من الحكم السابق لشموله المسكونةَ وغيرَها. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيدٌ لمن دخل مدخلاً لفساد أو تطلُّعٍ على عورات.

(٣٠) ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي ما يكون نحوَ محرّم. ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم، ولمّا كان المستثنى منه كالشاذ النادر بخلاف الغضِّ أطلقه، وقيّد الغضَّ بخرف التبعيض. وقيل حفظُ الفروج ههنا خاصّة سَترها. ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أنفعُ لهم أو أطهرُ لما فيه من البعد عن الريبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه إجالةُ أبصارهم واستعمالُ سائرِ حواسّهم وتحريكُ جوارحهم وما يقصِدون بها، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون.

(٣١) ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظُرن إلى ما لا يحلّ لهن النظرُ إليه من الرجال ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر أو التحفظ عن الزنا، وتقديمُ الغضّ لأن النظر بريدُ الزنا. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحُلِيّ والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها لمن لا يحل أن تُبدى له. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سَترها حرجاً، وقيل المرادُ بالزينة مواضعُها على حذف المضاف، أو ما يعُمّ المحاسنَ الخَلْقية والتزيينية، والمستثنى هو الوجهُ والكفانِ لأنها ليست بعورة،

(١) الرُّبُط هي ما يبنىٰ للفقراء.
(٢) لعل المراد بها الأماكن الخيرية أو الحمامات.

والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرّة عورةٌ لا يحل لغير الزوج، والمحرّمُ النظرُ إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتَحَمُّلِ الشهادة. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ سَتراً لأعناقهن. وقرأ نافعٌ وعاصمٌ وأبو عمرٍو وهشامٌ بضم الجيم. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرّره لبيان من يحل له الإبداءُ ومن لا يحل له. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهنّ حتى الفرج بكُرْهٍ. ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وقلةِ توقّع الفتنة من قِبَلهم لِما في الطباع من النفرة عن مماسّة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المِهنة والخِدمة، وإنما لم يُذكر الأعمامُ والأخوالُ لأنهم في معنى الإخوان، أو لأن الأحوط أن يتستّرن عنهم حذراً أن يصِفوهن لأبنائهم ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني المؤمناتِ فإن الكافراتِ لا يتحرّجن عن وصفهن للرجال أو النساءِ كلّهن، وللعلماء في ذلك خلاف. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يعُم الإماءَ والعبيد، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمةَ بعبد وهبَه لها وعليها ثوبٌ إذا قنّعت به رأسَها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلُغ رأسها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوكِ وغلامُكِ»[1]. وقيل المراد بها الإماءُ، وعبدُ المرأة كالأجنبي منها. ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي أولي الحاجة إلى النساء وهم الشيوخُ الهُم[2] والممسوحون[3]، وفي المجبوب[4] والخَصيّ خلافٌ، وقيل البُلْه الذين يتبعون الناسَ لفضل طعامهم ولا يعرِفون شيئاً من أمور النساء. وقرأ ابن عامر وأبو بكر «غيرَ» بالنصب على الحال ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع، أو لعدم بلوغهم حدَّ الشهوةِ، من الظهور بمعنى الغلَبة. والطفلُ جنسٌ وُضع موضعَ الجمع اكتفاءً بدلالة الوصف. ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ليتقعقع خَلْخالُها فيُعلمَ أنها ذاتُ خلخال فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال، وهو أبلغُ من النهي عن إظهار الزينة وأدلُّ على المنع من رفع الصوت. ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكاد يخلو أحد منكم من تفريط سيما في الكف عن الشهوات، وقيل توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه وإن جُبّ بالإسلام لكنه يجب الندمُ عليه والعزمُ على الكف عنه كلما يُتذكّر. وقرأ ابن عامر «أيهُ المؤمنون» وفي الزخرف «يا أيهُ الساحر»[5] وفي الرحمن «أيهُ الثقلان»[6] بضم الهاء في الوصل في الثلاثة، والباقون بفتحها، ووقف أبو عمرو والكسائي عليهن بالألف، ووقف الباقون بغير الألف. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بسعادة الدارين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٣٥٩ رقم ٤١٠٦) وفي إسناده: سالم بن دينار وثقه ابن معين.
وقال أحمد: أرجو أنه لا بأس به، وقال أبو زرعة: لين الحديث، وقال الحافظ: مقبول.
[انظر «الجرح والتعديل» (٤/ ١٨٠ ـ ١٨١) و«التقريب» (١/ ٢٧٩ رقم ٦)].
والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(٢) الشيخ الهِمّ: الفاني وهي هِمّة.

(٣) الممسوح: من لا آلة له.

(٤) المجبوب: مقطوع الذكر.

(٥) الزخرف: «٤٩».

(٦) الرحمٰن: «٣١».

وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾

(٣٢) ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ لمّا نهىٰ عما عسىٰ يُفضي إلى السفاح المُخِلّ بالنسب المقتضي للألُفة وحسنِ التربية ومزيدِ الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغةً فيه عقّبه بأمر النكاح الحافظِ له. والخطابُ للأولياء والسادة. وفيه دليلٌ على وجوب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبهما، وإشعارٌ بأن المرأة والعبد لا يَستبدّان به إذ لو استبدا لما وجب على الولي والمولىٰ. وأيامَى مقلوبُ أيايم كيتامى، جمع أَيِّم وهو العزَب ذكراً كان أو أنثى بِكراً كان أو ثيباً قال:

فَـإِنْ تَنْكِحِـي أَنْكِـحْ وَإِنْ تَتَـأَيَّمِـي ـ وَإِنْ كُنْـت أَفْتَـى مِنْكُـمُ ـ أَتَـأَيَّـمِ[(١)]

وتخصيصُ الصالحين لأن إحصانَ دينهم والاهتمامَ بشأنهم أهمّ، وقيل المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه. ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ ردٌّ لِما عسى يمنع من النكاح، والمعنى لا يَمنعَنّ فقرُ الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله غُنيةً عن المال فإنه غادٍ ورائحٌ. أو وعدٌ من الله بالإغناء لقوله ﷺ: «اطلُبوا الغنى في هذه الآية»[(٢)]، لكنْ مشروطٌ بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾[(٣)]. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ ذو سَعة لا تنفد نعمتُه إذ لا تنتهي قدرتُه ﴿عَلِيمٞ﴾ يبسُط الرزقَ ويقدِر على ما تقتضيه حكمتُه.

(٣٣) ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ وليجتهدْ في العِفة وقمع الشهوة. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أسبابه، ويجوز أن يراد بالنكاح ما يُنكَح به، أو بالوُجدان التمكنُ منه. ﴿حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به. ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المكاتبةَ، وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتُك على كذا من الكتاب لأن السيد

---

(١) من الطويل.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ. وفي معناه حديث «التمسوا الرزق بالنكاح» أخرجه الثعلبي من رواية مسلم بن خالد ـ وهو ضعيف ـ وابن مردويه من رواية أبي السائب سلام بن جنادة عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعاً «تزوجوا النساء فإنّهنّ يأتين بالمال». قال الحاكم ـ (٢/ ١٦١) ـ تفرد به سلم وهو ثقة. وقال البزار ـ (٢/ ١٤٩ ـ كشف) ـ والدارقطني في العلل ـ وغير سلم يرويه مرسلاً. انتهى. وهو كما قال.
ـ وقد أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة ـ (في المصنف: ٤/ ١٢٧) ـ عن أبي أسامة، فلم يذكر عائشة.
ـ وكذلك أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص١٨٠ رقم ٢٠٣) عن أبي توبة ـ واسمه الربيع ـ عن أبي أسامة ـ ورجاله ثقات رجال الشيخين ـ.
ـ وأخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف في تاريخ جرجان ـ ص٢٤٢ ـ بلفظ «عليكم بالتزويج فإنه... الرزق» ـ من رواية الحسين بن علوان عن هشام موصولاً. والحسين متهم بالكذب ـ المجروحين. ـ (١ ـ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) ـ. انظر «الكافي الشاف» (ص١١٩ رقم ٧٧).

(٣) التوبة: «٢٨».

كتب على نفسه عِتقَه إذا أدّى المال، أن لأنه مما يُكتب لتأجيله، أو من الكَتْب بمعنى الجمع لأن العِوَض فيه يكون مُنَجّماً بنُجوم بضمّ بعضِها إلى بعض ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عبداً كان أو أمةً، والموصولُ بصلته مبتدأٌ خبرُه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أو مفعولٌ لمضمرٍ هذا تفسيره، والفاءُ لتضمّن معنى الشرط. والأمرُ فيه للندب عند أكثر العلماء، لأن الكتابة معاوَضَةٌ تتضمن الارفاق فلا تجب كغيرها، واحتجاجُ الحنفية بإطلاقه على جواز الكتابة الحالية ضعيفٌ لأن المُطْلق لا يعمّ، مع أن العجز عن الأداء في الحال يمنع صحتها كما في السَّلَم فيما لا يوجد عند المحلّ. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أمانةً وقدرةً على أداء المال بالاحتراف، وقد رُوي مثله مرفوعاً[(١)]. وقيل صلاحاً في الدين. وقيل مالاً، وضَعْفُه ظاهرٌ لفظاً ومعنًى، وهو شرطُ الأمر فلا يلزم من عدمه عدمُ الجواز. ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمرٌ للموالي كما قبله بأن يبذُلوا لهم شيئاً من أموالهم، وفي معناه حطُّ شيء من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر، ويكفي أقلُّ ما يُتموّل. وعن علي رضي الله تعالى عنه يَحُطّ الربع[(٢)]، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الثلث[(٣)]. وقيل ندبٌ لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يُؤتوا ويَعتِقوا، وقيل أمرٌ لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمَهم من الزكاة، ويحِلُّ للمولى وإن كان غنياً، لأنه لا يأخذه صدقةً كالدائن والمشتري، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بَريرة: «هو لها صدقةٌ ولنا هدية»[(٤)]. ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ إماءَكم. ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ على الزنا، كانت لعبدالله بن أُبيّ ستُّ جَوارٍ يُكرهُهن على الزنا، وضَرب عليهن الضرائبَ فشكا بعضُهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت[(٥)]. ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً، شرط للإكراه فإنه لا يوجد دونه، وإن جُعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جوازُ الإكراه لجواز أن يكون ارتفاعُ النهي بامتناعِ المنهيِّ عنه. وإيثارُ «إنْ» على إذا لأن إرادة التحصّن من الإماء كالشاذّ النادر. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لهن، أو له إن تاب، والأولُ أوفقُ للظاهر ولما في مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «من بعد إكراههن لهن غفور رحيم»، ولا يرد عليه أن المُكرَهةَ غيرُ آثمة فلا حاجة إلى المغفرة لأن الإكراهَ لا ينافي المؤاخذةَ بالذات، ولذلك حَرُم على المُكْره القتلُ وأُوجِب عليه القِصاص.

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل كما في تحفة الأشراف (١٣/ ٤١٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ١٢٩) عنه.

(٣) انظر «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ١٣١) والمصنف لعبدالرزاق (٨/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٣٥٥ رقم ١٤٩٣) و(٥/ ٢٠٣ رقم ٢٥٧٨) و(٩/ ١٣٨ رقم ٥٠٩٧) و(٩/ ٤٠٤ رقم ٥٢٧٩) و(٥/ ٤١٠ رقم ٥٢٨٤) و(١٢/ ٣٩ رقم ٦٧٥١) ومسلم (٢/ ٧٥٥ رقم ١٧١ ـ ١٧٢) و(٢/ ١١٤٣ ـ ١١٤٥ رقم ١٠، ١١، ١٢، ١٤) من حديث عائشة في حديث قصة بريرة وعتقها.

(٥) أخرجه الثعلبي من طريق مقاتل بهذا وسنده إلى مقاتل في أول الكتاب ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١١٩ رقم ٨٢).

وهو عند مسلم (٤/ ٢٣٢٠ رقم ٢٦/ ٢٧) من حديث جابر.

ـ وأخرجه البزار (٣/ ٦٠ ـ كشف) والطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٤ رقم ١١٧٤٧) من حديث ابن عباس.

ـ وأخرجه البزار من حديث أنس نحوه وفي إسناد حديث أنس كذاب ـ كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٣).

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن
شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ
لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يعني الآياتِ التي بُينت في هذه السورةِ وأوضحت فيها الأحكامُ والحدود. وقرأ ابن عامر وحفصٌ وحمزة والكسائي بالكسر في هذا وفي الطلاق[1] لأنها واضحات تصدِّقها الكتبُ المتقدمة والعقولُ المستقيمة منْ بَيَّن بمعنى تبين، أو لأنها بينت الأحكامَ والحدود. ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أو ومثلاً من أمثال مَن قبلكم أي وقصةً عجيبة مثلَ قِصصهم، وهي قصةُ عائشةَ رضي الله تعالى عنها فإنها كقصة يوسفَ ومريمَ. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني ما وَعظ به في تلك الآيات، وتخصيصُ المتقين لأنهم المنتفعون بها، وقيل المرادُ بالآيات القرآنُ والصفاتِ المذكورةِ صفاتُه.

(٣٥) ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النور في الأصل كيفيةٌ تُدركها الباصرة أولاً وبواسطتها سائرَ المبصَرات كالكيفية الفائضة من النيِّرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف كقولك: زيد كرَمٌ بمعنى ذو كرم، أو على تجوز إما بمعنى منوِّر السموات والأرض، وقد قرىء به فإنه تعالى نوّرهما بالكواكب وما يَفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة والأنبياء، أو مدبّرِهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير نورُ القوم لأنهم يهتدون به في الأمور، أو موجِدُهما فإن النورَ ظاهرٌ بذاته مظهر لغيره وأصلُ الظهور هو الوجود كما أن أصلَ الخفاء هو العدم. والله سبحانه وتعالى موجود بذاته مُوجِدٌ لما عداه، أو الذي به تُدرَك، أو يُدرِك أهلُها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه، ثم على البصيرة لأنها أقوى إدراكاً فإنها تدرِك نفسَها وغيرَها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكاتِ ليست لذاتها وإلا لما فارقتْها فهي إذن من سبب يُفيضها عليها وهو الله سبحانه وتعالى ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سُمّوا أنواراً، ويقرب منه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه هادي مَن فيهما فهم بنوره يهتدون، وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه أو لاشتمالها على الأنوار الحسية والعقلية وقصورِ الإدراكات عليهما وعلى المتعلِّق بهما والمدلول لهما ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ صفةُ نوره العجيبةُ الشأن، وإضافتُه إلى ضميره سبحانه وتعالى دليلٌ على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي الكُوّة الغيرُ النافذة. وقرأ الكسائي برواية . . . .

---

(١) الطلاق: «١١».

الدوري[١] بالإمالة. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراجٌ ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأنبوبةُ في وسط القنديل والمصباحُ الفتيلة المشتعلة ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من الزجاج ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ مضيء متلألىء كالزُّهرة في صفائه وزُهرته، منسوبٌ إلى الدَّرأ، وفُعيّل كمُريّق من الدرء فإنه يدفع الظلامَ بضوئه، أو بعضُ ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قُلبت همزتُه ياءً، ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي دِرِيءٌ كشِريب وقد قرىء به مقلوباً[٢]. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي ابتداءُ ثقوب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعُه بأن روِيَت ذُبالتهُ بزَيتها، وفي إبهام الشجرة ووصفِها بالبركة ثم إبدالِ الزيتونة عنها تفخيمٌ لشأنها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أَوْقد، وحمزةُ والكسائي وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى الزجاجة بحذف المضاف، وقرىء تَوَقّدُ من تتوقد، ويَوَقّدُ بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين، بل بحيث تقع عليها طولَ النهار كالتي تكون على قُلّة أو صحراءَ واسعةٍ، فإن ثمرتها تكون أنضجَ وزيتُها أصفى، أو لا نابتةٍ في شرق المعمورة وغربِها بل في وسطها وهو الشامُ فإن زيتونه أجودُ الزيتون، أو لا في مضحى تشرق الشمسُ عليها دائماً فتحرِقها أو في مَقْنأة تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً وفي الحديث: «لا خير في شجرة ولا نبات في مقْنأة[٣] ولا خير فيهما في مضحى»[٤] ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلألُئِه وفرْط وَبيصِه. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نور متضاعف فإن نورَ المصباح زاد في إنارته صفاءُ الزيت وزُهرةُ القِنديل وضبطُ المِشكاة لأشعته. وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه، الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دل عليه الآياتُ المبينات في جلاء مدلولها وظهورِ ما تضمنتْه من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيهٌ للهدى من حيث إنه محفوفٌ بظلمات أوهام الناس وخيالاتِهم بالمصباح، وإنما وليَ الكافُ المشكاةَ لاشتمالها عليه وتشبيههُ به أوفقُ من تشبيهه بالشمس، أو تمثيلٌ لما نوّر الله به قلبَ المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبثّ فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبيّ: مثلُ نورِ المؤمن، أو تمثيلٌ لِما مَنح الله به عبادَه من القُوى الدراكة الخمسِ المترتبة التي منوطٌ بها المعاشُ والمَعاد وهي: الحسّاسةُ التي تُدرك بها المحسوساتُ بالحواس الخمس، والخَيالِيّةُ التي تحفظ صورَ تلك المحسوساتِ لتعرِضَها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائقَ الكلية والمفكّرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها عِلمَ ما لم تعلم، والقوةُ القدسية التي تتجلى فيها لوائحُ الغيب وأسرارُ الملكوت المختصةُ بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ

---

(١) الدوري: هو حفص بن عمر بن عبدالعزيز بن صهبان بن عدي بن أبو عمر الدوري صهبان ويقال صهيب أبو عمر الدوري الأزدي البغدادي النحوي الدوري الضرير نزيل سامراء إمام القراءة وشيخ الناس في زمانه ثقة ثبت كبير ضابط أول من جمع القراءات ونسبته إلى الدور موضع ببغداد ومحلة بالجانب الشرقي.
قال الأهوازي رحل الدوري في طلب القراءات وقرأ سائر الحروف السبعة وبالشواذ. [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٢٥٥].

(٢) قوله قرىء به مقلوباً أي (دِئْري).

(٣) المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١١٩ رقم ٨٥): لم أجده.

عِبَادِنَاۚ﴾[1] بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي: المشكاة، والزجاجة، والمصباح، والشجرة، والزيت، فإن الحساسةَ كالمشكاة لأن محلها كالكُوَى ووجهُها إلى الظاهر لا تُدرك ما وراءها، وإضاءتُها بالمعقولات لا بالذات، والخياليةَ كالزجاجة في قبول صور المُدرَكات من الجوانب وضبطِها للأنوار العقلية وإنارتها بما تشمل عليه من المعقولات، والعاقلةَ كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارفِ الإلهية، والمفكّرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهايةَ لها الزيتونةَ المثمرةَ بالزيت الذي هو مادةُ المصابيحِ التي لا تكون شرقيةً ولا غربية لتجرُّدها عن اللواحق الجسمية، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفةً في القبيلين منتفعةً من الجانبين، والقوةَ القدسية كالزيت فإنها لصفائها وشدةِ ذَكائِها تكاد تضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعلم، أو تمثيلٌ للقوة العقلية في مراتبها بذلك فإنها في بدء أمرها خاليةٌ عن العلوم مستعدةٌ لقَبولها كالمشكاة؛ ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئياتِ بحيث تتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متلألئةً في نفسها قابلةً للأنوار، وذلك التمكنُ إن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتونة وإن كان بالحدْس فكالزيت وإن كان بقوة قدسية فكالتي يكاد زيتها يضيء لأنها تكاد تعلم ولو لم تتصل بملك الوحْي والإلهامِ الذي مثلُه النارُ من حيث إن العقولَ تشتعل عنه، ثم إذا حصلت لها العلومُ بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت كانت كالمصباح، فإذا استحضرتها كانت نوراً على نور. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ لهذا النورِ الثاقب ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ فإن الأسبابَ دون مشيئته لاغيةٌ إذ بها تمامُها ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ إدناءً للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفياً، وفيه وعدٌ ووعيدٌ لمن تدبرها وإن لم يكترثْ بها.

(٣٦) ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ متعلّقٌ بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت، أو توقد في بيوت فيكون تقييداً للممثَّل به بما يكون تحبيراً ومبالغةً فيه فإن قناديلَ المساجد تكون أعظمَ، أو تمثيلاً لصلاة المؤمنين أو أبدانِهم بالمساجد، ولا ينافي جمعُ البيوت وحدةَ المشكاة إذ المرادُ بها مالَه هذا الوصفُ بلا اعتبار وَحْدةٍ ولا كثرة. أو بما بعده[2] وهو يسبح، وفيها تكرير مؤكد، لا بيُذكرَ لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله. أو بمحذوف مثل سبحوا في بيوت، والمرادُ بها المساجدُ لأن الصفة تلائمها. وقيل المساجدُ الثلاثة والتنكيرُ للتعظيم ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ بالبناء أو التعظيم. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ عامٌّ فيما يتضمن ذكرَه حتى المذاكرةَ في أفعاله والمباحثةَ في أحكامه. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ ينزهونه أي يُصلّون له فيها بالغدوات والعشيات، والغُدوّ مصدرٌ أطلق للوقت، ولذلك حسُن اقترانُه بالآصال وهو جمع أصيل. وقرىء والإيصال وهو الدخول في الأصيل، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يُسبَّحُ بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه، وقرىء تسبِّح بالتاء مكسوراً لتأنيث الجمع، ومفتوحاً على إسناده إلى أوقات الغدو.

---

(١) الشورىٰ: «٥٢».

(٢) قوله: أو بما بعده.. و.. أو بمحذوف هو معطوف على قوله: متعلق بما قبله.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ
وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ
حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ لا تشغلهم معاملةٌ رابحة ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مبالغةٌ بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مُطلقُ المعاوضة، أو بأفراد ما هو الأهمُّ من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويُتوقع بالشراء. وقيل المرادُ بالتجارة الشراءُ فإنه أصلُها ومبدؤها. وقيل الجَلَب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجَر في كذا إذا جلبه، وفيه إيماءٌ بأنهم تجار[1]. ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عُوِّض فيه الإضافةُ من التاء المعوَّضة عن العين[2] الساقطةِ بالإعلال كقوله:

وَأَخلَفُوكَ عِدَ الأمرِ الَّذِي وَعَدُوا[3]

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ما يجب إخراجُه من المال للمستحقين ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ تضطرب وتتغير من الهول، أو تتقلب أحوالُها فتفقَه القلوبُ ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصارُ ما لم تكن تبصره، أو تتقلب القلوبُ مع توقّع النجاةِ وخوف الهلاك، والأبصارُ من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى بكتبهم.

(٣٨) ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلقٌ بيسبح أو لا تلهيهم أو يخافون ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أحسنَ جزاءِ ما عملوا الموعودَ لهم من الجنة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أشياءَ لم يعِدْهم بها على أعمالهم ولم تخطُر ببالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقريرٌ للزيادة وتنبيهٌ على كمال القدرة ونفاذِ المشيئة وسَعة الإحسان.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ والذين كفروا حالُهم على ضد ذلك، فإن أعمالَهم التي يحسبونها صالحةً نافعةً عند الله يجدونها لاغيةً مخيِّبةً في العاقبة كالسراب، وهو ما يُرى في الفلاة من لمَعان الشمسِ عليها وقتَ الظهيرة فيُظنّ أنه ماءٌ يسرُب أي يجري، والقِيعة بمعنى القاع وهو الأرضُ الخالية عن النبات وغيرُ المستوية، وقيل جمعُه كجار وجِيرة. وقرىء بقِيعات كديمات في ديمة ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ أي العطشانُ، وتخصيصُه لتشبيه الكافر به في شدة الخَيبة عند مسيس الحاجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ جاء ما توهّمه ماءً، أو موضعَه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ مما ظنه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عقابه أو زبانيتَه أو وجده محاسباً إياه ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ استعراضاً أو مجازاةً ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله

---

(١) وتخصيص التجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها.
وإفراد البيع بالذكر ـ مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها لأن ربحه متيقن وربح ما عداه متوقع ـ (س٦/ ١٧٩).

(٢) وهي الواو في الأصل (أقوام الصلاة) حذفت الواو وعوض عنها التاء (إقامة) وقوله عن الأمر أي عدة الأمر بمعنى وحده.

(٣) من البسيط.

حسابٌ عن حساب. روي أنها نزلت في عُتبةَ بنِ ربيعةَ بن أميةَ، تعبّد في الجاهلية والتمس الدِّين، فلما جاء الإسلامُ كفر[(١)].

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾

(٤٠) ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطف على كسراب. وأو للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغيةً لا منفعةَ لها كالسراب ولكونها خاليةً عن نور الحق كالظلمات المتراكمةِ من لُجّ البحر والأمواج والسحاب، أو للتنويع فإن أعمالَهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحةً فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ ذي لُجّ أي عميق منسوب إلى اللُّج وهو معظمُ الماء ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يغشى البحرَ ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي أمواجٌ مترادفةٌ متراكمة ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ من فوق الموج الثاني ﴿سَحَابٌ﴾ غطى النجومَ وحجب أنوارها، والجملةُ صفة أخرى للبحر ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ أي هذه ظلماتٌ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ وقرأ ابن كثير ظلماتٍ بالجر على إبدالها من الأولى أو بإضافة السحاب إليها في رواية البزّي[(٢)] ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ وهي أقربُ ما يُرى إليه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لم يقرَبْ أن يراها فضلاً أن يراها كقول ذي الرمة[(٣)]:

إِذَا غَيَّـرَ النَّـأْيُ المُحِبِّيـنَ لَـمْ يَكَـدْ رَسِيسُ الهَـوَى مِـنْ حُـبِّ مَيَّـةَ يَبْـرَحُ

والضمائرُ للواقع في البحر وإن لم يجرِ ذكرُه لدلالة المعنى عليه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ ومن لم يقدِّر له الهداية لم يوفقه لأسبابها. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ خلافَ الموفَّق الذي له نور على نور.

(٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلمْ علماً يشبه المشاهدةَ في اليقين والوثاقةِ بالوحي أو الاستدلال ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينزِّه ذاتَه عن كل نقص وآفةٍ أهلُ السموات والأرض، ومَن لتغليب العقلاء، أو الملائكةُ والثقلانِ بما يدل عليه من مقال أو دلالةِ حال ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ على الأول تخصيصٌ لما فيها من الصنع الظاهر والدليلِ الباهر ولذلك قيدها بقوله ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ فإن إعطاءَ الأجرام الثقيلةِ ما به تقوَى على الوقوف في الجو باسطةً أجنحتَها بما فيها من القبض والبسط حجةٌ قاطعة على كمال قدرةِ الصانع تعالى ولُطفِ تدبيره ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد مما ذكر أو من الطير ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي قد علم

---

(١) قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٨٢) قال مقاتل: نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبدشمس.

(٢) البزي: أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة.
وقال الأهوازي أبو بزة الذي ينسب إليه البزي اسمه بشار فارس من أهل همذان أسلم على يد السائب بن أبي السائب المخزومي والبزة الشدة ومعنى أبو بزة أبو شدة ويقال إن نافعاً هو أبو بزة الإمام أبو الحسن البزي المكي مقرىء مكة ومؤذن الحرام ولد سنة سبعين ومائة استذا محقق ضابط ومتقن [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص١١٩].

(٣) ذي الرمة: سبق ترجمته في سورة المؤمنون.

الله دعاءَه وتنزيهَه اختياراً أو طبعاً لقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أو علِم كلٌّ على تشبيه حالِه في الدِلالة على الحق والميل إلى النفع على وجه يخُصه بحال مَن علم ذلك مع أنه لا يبعُد أن يُلهم الله تعالى الطيرَ دعاءً وتسبيحاً كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيُّشِها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء.

وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾

(٤٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فإنه الخالقُ لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال من حيث إنها ممكنةٌ واجبةُ الانتهاء إلى الواجب. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ مرجعُ الجميع.

(٤٣) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ يسوقه، ومنه البضاعةُ المُزجاة فإنه يُزجيها كلُّ أحد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ بأن يكون قَزَعاً فيَضُم بعضَه إلى بعض، وبهذا الاعتبار صح (بينه) إذ المعنى بين أجزائه. وقرأ نافع برواية ورش يولِّف غيرَ مهموز. ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ متراكماً بعضُه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾ المطرَ ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ من فُتوقه، جمع خَلل كجبال في جبل. وقرىء من خِلله. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الغمام، وكلُّ ما علاك فهو سماء ﴿مِن جِبَالٖ فِيهَا﴾ من قِطع عظامٍ تشبه الجبال في عِظَمها أو جمودها ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ بيان للجبال، والمفعول محذوف أي ينزل مبتدأً من السماء من جبال فيها مِن بَرَد بَرَداً، ويجوز أن تكون مِنْ الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعةً موقع المفعول، وقيل المراد بالسماء المِظلة، وفيها جبالٌ من برد كما في الأرض جبالٌ من حجر، وليس في العقل قاطعٌ يمنعه، والمشهورُ أن الأبخرةَ إذا تصاعدت ولم تحلّلها حرارةٌ فبلغت الطبقةَ الباردة من الهواء وقوِيَ البرْدُ هناك اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتدَّ البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل بَرَداً، وقد يبرد الهواء برداً مفرِطاً فينقبض وينعقد سحاباً ينزل منه المطر أو الثلج، وكل ذلك لا بد أن. يستند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالّها وأوقاتِها، وإليها أشار بقوله ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ والضمير للبرَد ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ ضوء برقه. وقرىء بالمد بمعنى العلو، وبإدغام الدال في السين، وبُرَقِه بضم الباء وفتح الراء وهو جمع بُرقة وهي المقدار من البرْق كالغرفة، وبضمها للإتباع. ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة[١]. وذلك أقوى دليل على كمال قدرته من حيث إنه توليد للضد من الضد. وقرىء يُذهِبُ على زيادة الباء.

(٤٤) ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادةِ الآخر، أو بتغيير أحوالِهما بالحر والبرد والظُّلمة والنور أو بما يعم ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما تقدم ذكرُه ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ لدِلالةَ

---

١) وفي إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره، وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض (س٦/ ١٨٥).

على وجود الصانع القديم، وكمالِ قدرته وإحاطةِ علمه ونفاذِ مشيئته وتنزّهِه على الحاجة وما يُفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة.

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ حيوانٍ يدِبّ على الأرض. وقرأ حمزة والكسائي خالقُ كلِّ دابة بالإضافة ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزءُ مادته، أو ماءٍ مخصوص هو النطفةُ فيكون تنزيلاً للغالب منزلةَ الكل إذ من الحيوانات ما يتولد عن النطفة، وقيل من ماء متعلقٌ بدابة وليس بصلة لخلق ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية وإنما سُمّي الزحفُ مشياً على الاستعارة أو المشاكلة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالنَّعَم والوحش، ويندرج فيه ماله أكثرُ من أربعٍ كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع، وتذكيرُ الضمير لتغليب العقلاء، والتعبيرُ عن الأصناف ليوافق التفصيلُ الجملة، والترتيبُ لتقديم ما هو أعرفُ في القدرة ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئاتِ والحركات والطبائعِ والقوى والأفعالِ مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته[(١)]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

(٤٦) ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبرِ لمعانيها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دينُ الإسلام الموصلُ إلى درَك الحق والفوزِ بالجنة.

(٤٧) ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ نزلت في بشْر المنافق، خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعوه إلى النبي ﷺ[(٢)]. وقيل في مغيرةَ بنِ وائل خاصم علياً رضي الله عنه في أرض فأبى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ[(٣)]. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعناهما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ بالامتناع عن قبول حكمه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد قولهم هذا ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى القائلين بأسرهم فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعَهم وإن آمنوا بلسانهم لم تؤمن قلوبُهم، أو إلى الفريق منهم، وسلْبُ الإيمان عنهم لتوليهم. والتعريفُ فيه للدِلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرَفْتَهم وهم المخلصون في الإيمان والثابتون عليه.

(٤٨) ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليحكم النبي ﷺ فإنه الحاكم ظاهراً والمدعوُّ إليه،

---

(١) إظهار اسم الجلالة «الله» في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور، والإيذان بأنه من أحكام الألوهية (س٦/ ١٨٦).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٢٧.

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٩٣).

وذِكْرُ الله لتعظيمه والدَلالة على أن حكمه ﷺ في الحقيقة حكمُ الله تعالى ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فاجأ فريقٌ منهم الإعراضَ إذا كان الحقُّ عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم، وهو شرحٌ للتولي ومبالغة فيه.

وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

(٤٩) ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الحكمُ لا عليهم ﴿ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم، وإليه صلةٌ ليأتوا أو لمذعنين، وتقديمُه للاختصاص.

(٥٠) ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ كفر أو ميلٌ إلى الظلم ﴿ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ ﴾ بأن رأوا منك تُهمةً فزال يقينهم وثقتهم بك. ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ في الحكومة ﴿ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إضرابٌ عن القِسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأولُ، ووجهُ التقسيم أن امتناعَهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقعاً وكلاهما باطل، لأن منصِبَ نبوته وفرْطَ أمانته ﷺ يمنعه فتعين الأول، وظلمُهم يعم خَللَ عقيدتهم وميلَ نفوسهم إلى الحيف، والفصلُ لنفي ذلك عن غيرهم سيما المدعوُّ إلى حكمه.

(٥١) ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ على عادته تعالى في اتباع ذكر المُحق المبطل، والتنبيهِ على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي، وقرىء قولُ بالرفع، وليُحكَمَ على البناء للمفعول، وإسنادُه إلى ضمير مصدرِه على معنى ليفعل الحكم.

(٥٢) ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيما يأمُرانه، أو في الفرائض والسنن ﴿ وَيَخْشَ ٱللَّهَ ﴾ على ما صدر عنه من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقِيَ من عمره، وقرأ يعقوبُ وقالونُ عن نافع بلا ياء[(١)]، وأبو بكر وأبو عمرو بسكون الهاء[(٢)]، وحفص بسكون القاف فشبه تَقْه بكتْف وخَفّف، والهاء ساكنة في الوقف بالاتفاق. ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم.

(٥٣) ﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ إنكارٌ للامتناع عن حكمه ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ الخروجَ عن دِيارهم وأموالهم ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ جواب لأقسموا على الحكاية. ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ﴾ على الكذب. ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي المطلوبُ منكم طاعةٌ معروفة لا اليمينُ على الطاعة النفاقية المنكَرة، أو طاعة معروفة أمثلُ منها، أو لتكن طاعةٌ. وقرئت بالنصب على: أطيعوا طاعة[(٣)]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فلا يخفى عليه سرائرُكم.

---

(١) قوله بلا ياء أي بلا إشباع للهاء بالياء، مع كسر القاف.
(٢) مع كسر القاف أيضاً.
(٣) التعبير عن الطاعة بأنها معروفة للإيذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد (س٦/ ١٨٩).

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

(٥٤) ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغةً في تبكيتهم[١] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﷺ. ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الامتثال[٢]. ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ في حكمه. ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ إلى الحق ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ التبليغُ الموضحُ لما كُلِّفتم به، وقد أدىٰ، وإنما بقي ما حمّلتم فإن أدّيتم فلكم وإن توليتم فعليكم.

(٥٥) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خطاب للرسول ﷺ وللأمة، أوْ له ولمن معه، ومِن للبيان[٣] ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليجعلنّهم خلفاءَ متصرفين في الأرض تصرفَ الملوك في مماليكهم. وهو جوابُ قسم مضمر تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم، أو الوعدُ في تحققه منزّلٌ منزلةَ القسم. ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيلَ استخلفهم في مصرَ والشام بعد الجبابرة. وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام، وإذا ابتدأ ضمّ الألفَ والباقون بفتحهما وإذا ابتدؤوا كسروا الألف. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت[٤]. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من الأعداء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف. ﴿أَمْنًا﴾ منهم. وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه مكثوا بمكةَ عشرَ سنين خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يُصبحون في السلاح ويُمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلِّهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وفيه دليلٌ على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافةِ الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعودُ والموعود عليه لغيرهم بالإجماع. وقيل الخوفُ من العذاب والأمنُ منه في الآخرة. ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ حال من الذين لتقييد الوعدِ بالثبات على التوحيد، أو استئنافٌ ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن. ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ حال من الواو أي يعبدونني غيرَ مشركين. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ومن ارتد أو كفر هذه النعمة. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد الوعد أو حصولِ الخلافة. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمةَ العظيمة.

---

(١) كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به، والإشعار باختلافهما من حيث إن المقول في الأول نهي بطريق الرد والتقريع وفي الثاني أمر بطريق التكليف والتشريع (س٦/ ١٨٩).

(٢) ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونه مؤنة باقية في عهدتهم بعد (س٦/ ١٨٩).

(٣) توسيط الظرف (منكم) بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، وللإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم (س٦/ ١٩٠).

(٤) وتقديم (لهم) على المفعول الصريح (دينَهم) للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقاً إليه وترغيباً لهم في قبوله عند وروده (س٦/ ١٩١).

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ
يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ
ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في سائر ما أمركم به، ولا يبعُد عطفُ ذلك على أطيعوا الله فإن الفاصل وعدٌ على المأمور به، فيكون تكريرُ الأمر بطاعة الرسول ﷺ للتأكيد وتعليقِ الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كما علق به الهدى.

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا تحسبن يا محمد الكفارَ معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم، و(في الأرض) صلةُ معجزين. وقرأ ابن عامر وحمزةُ بالياء على أن الضمير فيه لمحمد ﷺ، والمعنى كما هو في القراءة بالتاء، أو الذين كفروا فاعل، والمعنى ولا يحسبن الكفارُ في الأرض أحداً معجزاً لله، فيكون معجزين في الأرض مفعوليه، أو لا يحسبونهم معجزين، فحُذف المفعولُ الأول لأن الفاعلَ والمفعولين لشيء واحد فاكتُفيَ بذكر اثنين عن الثالث. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين ومأواهم النار، لأن المقصود من النهي عن الحسبان تحقيقُ نفي الإعجاز. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المأوى الذي يصيرون إليه.

(٥٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ رجوع إلى تتمة الأحكام السالفةِ بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرِها والوعدِ عليها والوعيدِ على الإعراض عنها. والمرادُ به خطابُ الرجال والنساء، غُلِّب فيه الرجال، لما روي أن غلام أسماءَ بنتِ أبي مرثد دخل عليها في وقت كرِهته فنزلت[1]. وقيل أرسل رسول الله ﷺ مدلَج بنَ عمرٍو الأنصاريَّ[2] وكان غلاماً وقت الظهيرة ليدعوَ عمر، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لودِدت أن الله عز وجل نهىٰ آباءَنا وأبناءَنا وخدَمَنا أن لا يدخُلوا هذه الساعاتِ علينا إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت هذه الآية[3]. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ والصبيانُ الذين لم

---

١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٢٩ عن مقاتل.
٢) هو مدلج الأنصاري بعثه النبي ﷺ في شغل إلى عمر إن صح ذلك. (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي (٢/ ٦٦ رقم ٧٢٤).
٣) أخرجه ابن منده من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ كما في «الإصابة» =

يبلُغوا من الأحرار، فعبر عن البلوغ بالاحتلام لأنه أقوى دلائله. ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ في اليوم والليلة. مرة ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ لأنه وقتُ القيام من المضاجع وطرحِ ثياب النوم ولبسِ ثياب اليقظة. ومحلُّه النصبُ بدلاً من ثلاث مرات، أو الرفعُ خبراً لمحذوف أي هي من قبل صلاة الفجر. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ أي ثيابكم لليقظة للقيلولة. ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين[1]. ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف. ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ أي هي ثلاثُ أوقات يختل فيها تستُّركم، ويجوز أن يكون مبتدأً وخبرُه ما بعده، وأصلُ العورة الخلل ومنها أعورُ المكان ورجل أعور. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي ثلاثَ بالنصب بدلاً من ثلاث مرات ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ بعد هذه الأوقاتِ في ترك الاستئذان. وليس فيه ما ينافي آيةَ الاستئذان فينسخها لأنه في الصبيان ومماليكِ المدخول عليه، وتلك في الأحرار البالغين. ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ أي هم طوافون، استئنافٌ ببيان العذر المرخّصِ في ترك الاستئذانِ وهو المخالطةُ وكثرةُ المداخلة. وفيه دليلٌ على تعليل الأحكام، وكذا في الفرق بين الأوقاتِ الثلاثة وغيرِها بأنها عورات. ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ بعضُكم طائفٌ على بعض أو يطوف بعضكم على بعض. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ أي الأحكام. ﴿وَٱللَّهُ﴾ بأحوالكم. ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما شرع لكم.

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ الذين بلغوا من قبلهم في الأوقات كلِّها، واستدل به من أوجب استئذانَ العبد البالغ على سيدته، وجوابُه أن المرادَ بهم المعهودون الذين جُعلوا قسيماً للمماليك فلا يندرجون فيهم. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

(٦٠) ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ العجائزُ اللاتي قعَدن عن الحيض والحمل. ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ لا يطمعن فيه لكِبَرهن. ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي الثيابَ الظاهرة كالجِلباب، والفاء فيه لأن اللام في القواعد بمعنى اللاتي أو لوصفها بها. ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ غيرَ مظهرات زينةً مما أُمرن بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[2]. وأصلُ التبرج التكلّفُ في إظهار ما يخفى من قولهم: سفينةٌ بارجة لا غطاءَ عليها، والبَرَج سعةُ العين بحيث يُرى بياضُها محيطاً بسوادها كلِّه لا يغيب منه شيء، إلا أنه خُصّ بتكشف المرأة زينتَها ومحاسنَها للرجال. ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ من الوضع لأنه أبعدُ من التهمة. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن للرجال. ﴿عَلِيمٞ﴾ بمقصودهن.

= (٣/ ٣٩٥) ـ. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٢٩ عن ابن عباس.
وهو حديث باطل إسناده مظلم.

(١) والتصريح بوضع الثياب في هذا الوقت دون الأول (قبل الفجر). والآخر (بعد العشاء) لقلة زمان القيلولة ولكثرة الورود والصدور، فهو مظنة لظهور الأحوال. أما الوقتين الآخرين فالتجرد فيه أمر معروف ولا يحتاج للتصريح به (س٦/ ١٩٣).

(٢) النور: «٣١».

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

(٦١) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نفيٌ لما كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصِحّاء حذراً من استقذارهم، أو أكلِهم من بيت من يدفع إليهم المفتاحَ ويُبيح لهم التبسُّطَ فيه إذا خرج إلى الغزو وخلفهم على المنازل مخافةَ أن لا يكون ذلك من طِيب قلب، أو مِن إجابةِ من دعَوهم إلى بيوت آبائهم وأولادِهم وأقاربهم فيُطعمونهم كراهةَ أن يكونوا كَلّاً عليهم، وهذا إنما يكون إذا علِم رضا صاحبِ البيت بإذن أو قرينة، أو كان في أول الإسلام ثم نسخ بنحو قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾[1]. وقيل نفيٌ للحرج عنهم في القعود عن الجهاد، وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده. ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ من البيوت التي فيها أزواجُكم وعيالُكم، فيدخل فيها بيوتُ الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»[2]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن أطيب ما يأكل المؤمنُ من كسبه، وإن ولده مِن كسبه»[3]. ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

---

(١) الأحزاب: «٥٣».

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩١) من حديث جابر.
ـ قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٢٥ رقم ٨١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط البخاري وله شاهد من حديث عائشة، رواه أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه. ورواه أبو داود ـ (٣/ ٨٠١ رقم ٣٥٣٠) ـ وابن ماجة ـ (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩٢) ـ من حديث عبدالله بن عمرو» هـ.
ووافقه الألباني على تصحيحه في الإرواء رقم (٨٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٨٠٠، ٨٠١ رقم ٣٥٢٨، ٣٥٢٩) والترمذي (٣/ ٦٣٩ رقم ١٣٥٨) والنسائي (٧/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ رقم ٤٤٤٩ و٤٤٥٠) وابن ماجة (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩٠) وابن حبان (ص٢٦٨ رقم ١٠٩١ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٤٦) وعبدالرزاق في «المصنف» (٩/ ١٣٣) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٥٨) وأحمد في المسند (٦/ ٣١، ٤١، ١٢٧، ١٦٢، ١٧٣، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٠) والدارمي (٢/ ٢٤٧) والطيالسي في مسنده (ص٢٢١).
كلهم من طريق عمارة بن عمير عن عمته عن عائشة. إلاّ أن في إحدى روايتي أبي داود (رقم ٣٥٢٩) وأحمد (٦/ ٢٠٢) عن أمه بدل عمته. وفي إحدى روايتي ابن أبي شيبة. والحاكم (أبيه) وكان في أصل المصنف (أبيه) فجعله المحقق (أمه) من السنن الكبرى. قال الألباني في الإرواء (٣/ ٣٣٠): =

﴿أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضَيعة أو ماشيةٍ وكالةً أو حفظاً، وقيل بيوت المماليك. والمفاتح جمع مَفتَح وهو ما يفتح به، وقرىء مِفْتاحَه. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أو بيوت صديقِكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسرُّ به، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحبِ البيت بإذن أو قرينة، ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسّطُ بينهم، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ فلا احتجاج للحنفية به على أن لا قطعَ بسرقة مال المحرَم. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ مجتمعين أو متفرقين. نزلت في بني ليث بن عمرو من كِنانةَ كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده[١]، أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه[٢]، أو في قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في القذارة والنَّهمة[٣]. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة. ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثابتةً بأمره مشروعة من لَدُنه، ويجوز أن تكون من صلةً للتحية فإنه طلبُ الحياة وهي من عنده تعالى، وانتصابُها بالمصدر لأنها بمعنى التسليم. ﴿مُبَـٰرَكَةً﴾ لأنها يرجى بها زيادةُ الخير والثواب. ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيب بها نفسُ المستمع. وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي: «متى لقِيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطُلْ عمرُك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثُر خيرُ بيتك، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاةُ الأبرار الأوابين»[٤]. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ كرره ثلاثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به، وفصل الأولين بما هوالمقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي الحقَّ والخيرَ في الأمور.

(٦٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من صميم قلوبهم. ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجمعة والأعياد والحروبِ والمشاورة في الأمور، ووصفُ الأمر بالجمع للمبالغة. وقرىء أمرٍ جميع ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذنَ لهم، واعتبارُه في كمال الإيمان لأنه كالمِصداق لصحته والمميزُ للمخلِص فيه عن المنافق فإن ديدَنَه التسللُ والفرار، ولتعظُم الجُرم في الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، ولذلك أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإنه يفيد أن المستأذنَ مؤمنٌ لا محالة وأن

= ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عمة عمارة فلم أعرفها.

● وله سند آخر أخرجه النسائي (٧/ ٢٤١ رقم ٤٤٥١ و٤٥٥٢) وابن ماجة (٢/ ٧٢٣ رقم ٢١٣٧) وأحمد (٦/ ٤٢، ٢٢٠) كلهم من طريق الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة.

قال الألباني في الإرواء (٣/ ٣٣٠) إسناده صحيح.

والخلاصة أن الحديث صحيح. والله أعلم.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣٠.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣١.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣١.

(٤) أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص٤٥٢ ـ ٤٥٣ رقم ٨٨٣) بسند ضعيف.
وانظر «الكافي الشاف» (ص١٢٠ رقم ٩١).

الذهابَ بغير إذن ليس كذلك. ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ ما يعرِض لهم من المهامّ، وفيه أيضاً مبالغةُ وتضييقُ الأمر ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويضٌ للأمر إلى رأي الرسول ﷺ، واستُدل به على أن بعضَ الأحكام مفوّضةٌ إلى رأيه، ومن منع ذلك قيّد المشيئة بأن تكون تابعةً لعلمه بصدقه فكأن المعنى: فائذن لمن علمت أن له عذراً. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذانَ ولو لعذر قصورٌ لأنه تقديمٌ لأمر الدنيا على أمر الدين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفَرَطات العباد. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم.

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

(٦٣) ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ لا تَقيسوا دعاءَه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلةِ في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبةٌ والمراجعةُ بغير إذنه محرّمة. وقيل لا تجعلوا نداءَه وتسميتَه كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوتِ به والنداءِ من وراء الحجرات ولكن بلقَبه المعظم مثلُ يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه فإن دعاءه موجِبٌ، أو لا تجعلوا دعاءه ربَّه كدعاء صغيركم كبيرَكم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب. ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ ينسلّون قليلاً قليلاً من الجماعة، ونظيرُ تسلّل تدرّج وتدخّل ﴿لِوَاذًا﴾ يستتر بعضُكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذَن له فينطلق معه كأنه تابعُه. وانتصابه على الحال. وقرىء بالفتح[1]. ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سَمْتاً خلافَ سَمته، وعن لتضمُّنه معنى الإعراض. أو يصُدّون عن أمره دون المؤمنين مَن خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه، وحذفُ المفعول لأن المقصود بيانُ المخالِف والمخالَف عنه، والضمير لله تعالى، فإن الأمر له في الحقيقة، أو للرسول فإنه المقصود بالذكر. ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. واستُدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمرِ مقتضٍ لأحد العذابين، فإن الأمر بالحذر عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب[2].

(٦٤) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص، وأنما أكد علمه بقد لتأكيد الوعيد ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم يرجِعُ المنافقون إليه

---

(١) أي بفتح اللام.
(٢) وإعادة الفعل صريحاً «يصيبهم» للاعتناء بالتهديد والتحذير (س٦/ ١٩٩).

للجزاء، ويجوز أن يكون الخطابُ أيضاً مخصوصاً بهم على طريق الالتفات. وقرأ يعقوبُ بفتح الياء وكسر الجيم. ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النور أعطيَ من الأجر عشرَ حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.
[«الكافي الشافِ» (ص١٢١ رقم ٩٢)].

سُورَةُ الفُرْقَان
ترتيبها ٢٥ آياتها ٧٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا
يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا
نُشُورًا ﴿٣﴾

سورةُ الفرقان مكية[١] وآيُها سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ تكاثر خيرُه، من البركة وهي كثرةُ الخير، أو تزايدَ على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، فإن البركة تتضمن معنى الزيادة، وترتيبُه عن إنزاله الفرقانَ لما فيه من كثرة الخير أو لدَلالته على تعاليه. وقيل دام، من بروك الطير على الماء ومنه البِرْكة لدوام الماء فيها، وهو لا يُتصرف فيه ولا يُستعمل إلا لله تعالى. والفرقانُ مصدرُ فرَق بين الشيئين إذا فصل بينهما سُمّي به القرآنُ لفصله بين الحق والباطل بتقريره، أو المُحقُّ والمبطل بإعجازه، أو لكونه مفصولاً بعضُه عن بعض في الإنزال. وقرىء على عباده وهم رسولُ الله ﷺ وأمتُه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ﴾[٢] أو الأنبياءُ على أن الفرقان اسمُ جنس للكتب السماوية. ﴿لِيَكُونَ﴾ العبدُ أو الفرقان

---

(١) مكية السورة واضحة من موضوعها وأسلوبها، وهذا يتفق مع قول الجمهور.
انظر «زاد المسير» (٦/ ٧١) و«الدر المنثور» (٦/ ٢٣٤) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١) و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨٠).

(٢) النور: «٣٤».

﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ للجن والإنس ﴿نَذِيرًا﴾ منذراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار، هذه الجملةُ وإن لم تكن معلومةً لكنها لقوة دليلها أُجريت مُجرى المعلوم وجُعلت صلة[١].

(٢) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بدل من الأول أو مدح مرفوعٌ أو منصوب ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كزعم النصارى[٢]. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كقول الثنوية. أثبت له الملكَ مطلقاً ونفى ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أحدثه إحداثاً مُراعًى فيه التقديرُ حسب إرادته كخَلْقه الإنسانَ من موادَّ مخصوصةٍ وصورٍ وأشكال معينة ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فقدره وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهمِ والنظرِ والتدبير، واستنباطِ الصنائع المتنوعة ومزاولةِ الأعمال المختلفة إلى غير ذلك، أو فقدّره للبقاء إلى أجل مسمى. وقد يُطلَق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدّره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً.

(٣) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ لمّا تضمن الكلامُ إثباتَ التوحيد والنبوةِ أخذ في الرد على المخالفين فيهما. ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن عَبَدتَهم ينحتونهم ويصورونهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ دفعَ ضر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ ولا جلبَ نفع[٣] ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ ولا يملكون إماتةَ أحدٍ وإحياءَه أولاً وبعثَه ثانياً، ومَنْ كان كذلك فبمعزل عن الألوهية لعرائه عن لوازمها واتصافِه بما ينافيها، وفيه تنبيهٌ على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾

(٤) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذبٌ مصروف عن وجهه ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي اليهودُ فإنهم يُلْقون إليه أخبارَ الأمم وهو يعبر عنها بعبارته، وقيل جَبرٌ ويَسارٌ وعدّاسٌ وقد سبق في قوله ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[٤] ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ بجعل الكلام المعجزِ إفكاً مختلَقاً متلقَّفاً من اليهود ﴿وَزُورًا﴾ بنسبة ما هو بريء منه إليه. وأتى وجاء يُطلقان بمعنى فعل فيُعدَّيانِ تعْديتَه.

(٥) ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره المتقدمون ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه أو استكتبها. وقرىء على البناء للمفعول لأنه أُميٌّ، وأصلُه اكتتبها كاتب له، فحُذف اللام وأفضى الفعلُ إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب، ثم حُذف الفاعل وبُنيَ الفعل للضمير فاستَتر فيه ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ليحفظَها، فإنه أميٌّ لا يقدِر أن يكرر من الكتاب، أو لِتُكتب.

---

(١) وعدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة (س٦/ ٢٠٠).

(٢) ونَظْمُهُ في سِلْك الصلة للإيذان بأن مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل، لا سيما بعد تقرير ما قبله (س٢/ ٢٠١).

(٣) وتقديم ذكر الضر لأن دفعه ـ مع كونه أهم في نفسه ـ أولُ مراتب النفع وأقدمها (س٦/ ٢٠٢).

(٤) النحل: «١٠٣».

قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ
يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ
كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ
خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾

(٦) ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **لأنه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمُّنه أخباراً عن مغيبات مستقبلةٍ وأشياءَ مكنونةٍ لا يعلمها إلا عالمُ الأسرار فكيف تجعلونه أساطير الأولين.** ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **فلذلك لا يعجل في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقِكم أن يصُبَّ عليكم العذاب صباً.**

(٧) ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ **ما لهذا الذي يزعُم الرسالةَ، وفيه استهانةٌ وتهكم** ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ **كما نأكل** ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ **لطلب المعاش كما نمشي، والمعنى إن صح دعواه فما بالُه لم يخالف حالُه حالَنا، وذلك لِعَمَهِهم وقصورِ نظرهم على المحسوسات، فإنّ تميّز الرسلِ عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأحوال نفسانية كما أشار إليه تعالى بقوله** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[(١)] . ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ **لنعلم صدقَه بتصديق الملَك.**

(٨) ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ **فيستظهر به ويستغني عن تحصيل المعاش** ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ **هذا على سبيل التنزّل أي إن لم يُلقَ إليه كنز فلا أقلَّ من أن يكون له بستان كما للدَّهاقينِ والمياسيرِ**[(٢)] **فيتعيَّشَ بريْعه.** وقرأ حمزة والكسائي بالنون، والضميرُ للكفار ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **وضع الظالمون موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه.** ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ **ما تتبعون** ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ **سُحِر فغُلِب على عقله. وقيل ذا سُحْر وهو الرئة، أي بشراً لا ملَكاً.**

(٩) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ **أي قالوا فيك الأقوال الشاذةَ واخترعوا لك الأحوالَ النادرة.** ﴿فَضَلُّوا۟﴾ **عن الطريق الموصلِ إلى معرفة خواصِّ النبي والمميِّزِ بينه وبين المتنبي فخبَطوا خبْطَ عشْواءَ** ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ **إلى القدح في نبوتك أو إلى الرشد والهدى.**

(١٠) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ **في الدنيا** ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ **مما قالوا، لكن أخّره إلى الآخرة** لأنه خير وأبقى[(٣)] ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ **بدل من خيراً** ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ **عطفٌ على محل** الجزاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالرفع، لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جزائه الجزمُ

(١) الكهف: «١١٠».
(٢) الدهاقين: كلمة معربة وتطلق على رئيس القرية وعلى التاجر وعلى من له مال وعقار (المصباح المنير «دُهقان»).
والمياسير: هم أصحاب السعة والمال وضده المعاسير.
(٣) وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأن عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحِكَم والمصالح (س٦/ ٢٠٥).

والرفع كقوله:

وَإِنْ أَتَــاهُ خَلِيــلٌ يَــوْمَ مَسْغَبَــةٍ يقُــولُ لاَ غَــائِــبٌ مَــالِــي وَلاَ حَــرِمُ[1]

ويجوز أن يكون استئنافاً بوعد ما يكون له في الآخرة. وقرىء بالنصب على أنه جواب بالواو.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

(١١) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ فقصُرت أنظارُهم على الحُطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فطعنوا فيك لفقرك، أو فلذلك كذبوك لا لِما تمحّلوا من المطاعن الفاسدة، أو فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة، أو فلا تعجب من تكذيبهم إياك فإنه أعجبُ منه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدةَ الاستعار، وقيل هو اسمٌ لجهنمَ فيكون صرفُه باعتبار المكان.

(١٢) ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ إذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه السلام: «لا تتراءى ناراهما»[2] أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى على المجاز، والتأنيثُ لأنه بمعنى النار أو جهنم[3] ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يُرى منه ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ صوتَ تغيظٍ، شبّه صوتَ غليانها بصوت المغتاظ وزفيرِه وهو صوتٌ يُسمع من جوفه، هذا وإن الحياة لمّا لم تكن مشروطةً عندنا بالبُنية أمكن أن يخلق الله فيها حياةً فترى وتتغيظُ وتزفُر وقيل إن ذلك لزبانيتها فنُسب إليها على حذف المضاف.

---

(١) من البسيط.

(٢) أخرج الترمذي (٤/ ١٥٥ رقم ١٦٠٤) وأبو داود (٣/ ١٠٤ رقم ٢٦٤٥) والنسائي (٨/ ٣٦ رقم ٤٧٨٠) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم، فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأمر لهم بنصف العَقْلِ، وقال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله، لِمَ؟ قال: «لا تراءى نارَاهما».
ورجال إسناده ثقات، ولكن البخاري، وأبو حاتم، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم. قال الترمذي: وهذا أصح، يعني المرسل، وقال: سمعت محمداً ـ أي البخاري ـ يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل.
والخلاصة أن الحديث صحيح دون جملة العقل. انظر الإرواء رقم (١٢٠٧).
● لا تراءى ناراهما: أن لا يكون كل واحد منهما بحيث يرى نارَ صاحبه، فجعل الرؤية للنار ولا رؤية لها، يعني: أن تدْنوَ هذه من هذه، يقال: داري تنظر إلى دار فلان، أي: تقابلها. وقيل: معناه: أنه أراد نار الحرب، يقول: ناراهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان، فكيف تتفقان؟ وكيف يُساكنهم في بلادهم وهذه حال هؤلاء.
وهذه حال هؤلاء؟ [جامع الأصول (٤/ ٤٤٦)].

(٣) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم (س٦/ ٢٠٦).

وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا
كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ
فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾

(١٣) ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا﴾ في مكان، ومنها بيانٌ تقدّم فصار حالاً ﴿ضَيِّقٗا﴾ لزيادة العذاب فإن الكربَ مع الضيق والرَّوحَ مع السَّعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عَرضها كعَرض السموات والأرض ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان ﴿ثُبُورٗا﴾ هلاكاً، أي يتمنّون الهلاكَ وينادونه فيقولون تعال يا ثبُوراهُ فهذا حينُك.

(١٤) ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾ أي يقال لهم ذلك[1] ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ لأن عذابكم أنواعٌ كثيرة، كلُّ نوع منها ثُبورٌ لشدته، أو لأنه يتجدد لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾[2] أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثُبورٌ.

(١٥) ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ الإشارة إلى العذاب، والاستفهامُ والتفضيلُ والترديدُ للتقريع مع التهكم، أو إلى الكنز والجنة، والراجعُ إلى الموصول محذوفٌ، وإضافةُ الجنة إلى الخلد للمدح أو للدِلالة على خلودها، أو التمييزِ عن جنات الدنيا ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ في علم الله أو اللوح، أو لأن ما وعده الله تعالى في تحققه كالواقع ﴿جَزَآءٗ﴾ على أعمالهم بالوعد ﴿وَمَصِيرٗا﴾ ينقلبون إليه، ولا يمنع كونُها جزاءً لهم أن يتفضل بها على غيرهم برضاهم مع جواز أن يراد بالمتقين مَن يتقي الكفرَ والتكذيبَ لأنهم في مقابلتهم.

(١٦) ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ ما يشاؤونه من النعيم، ولعله تقصُر هِممُ كلِّ طائفةٍ على ما يليق برتبته، إذ الظاهرُ أن الناقِصَ لا يدرك شأوَ الكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن كل المراداتِ لا تحصُل إلا في الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من أحد ضمائرِهم ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ الضمير في كان لما يشاؤون، والوعدُ الموعود أي كان ذلك موعوداً حقيقاً بأن يُسأل ويُطلب، أو مسؤولاً سأله الناسُ في دعائهم ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[3] أو الملائكةُ بقولهم ربنا وأدخِلْهم جناتِ عدن التي وعدتهم، وما في (على) من معنى الوجوب لامتناع الخُلف في وعده تعالى، ولا يلزم منه الإلجاءُ إلى الإنجاز، فإن تعلُّقَ الإرادة بالوعود مقدم على الوعد الموجِبِ للإنجاز.

(١٧) ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ للجزاء. وقرىء بكسر الشين، وقرأ ابن كثير ويعقوبُ وحفص بالياء ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعم كلَّ معبود سواه تعالى، واستعمالُ (ما) إما لأن وضعه أعمُّ ولذلك يُطلق

(١) وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام المعهودة (س٦/ ٢٠٧).
(٢) النساء: «٥٦».
(٣) آل عمران: «١٩٤».

لكل شبح يُرى ولا يُعرف، أو لأنه أريد به الوصفُ كأنه قيل ومعبودُهم، أو لتغليب الأصنام تحقيراً، أو اعتبارِ الغلَبة عُبّادَها، أو يخص الملائكةَ وعُزيراً والمسيحَ بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنامَ يُنطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل ﴿ فَيَقُولُ﴾ أي للمعبودين وهو على تلوين الخطاب. وقرأ ابن عامر بالنون ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضِهم عن المرشد النصيح، وهو استفهامُ تقريعٍ وتبكيتٍ للعَبَدة، وأصله أأضللتم أو ضلوا فغيّر النظم لِيَلِيَ حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب، وحذف صلة الضل مبالغة.

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجباً مما قيل لهم لأنهم إما ملائكةٌ أو أنبياءُ معصومون، أو جماداتٌ لا تقدر على شيء. أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه وتوحيدِه فكيف يليق بهم إضلالُ عبيده. أو تنزيهاً لله تعالى عن الأنداد ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ ما يصح لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ للعصمة، أو لعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعوَ غيرنا أن يتولى أحداً دونك. وقرىء نُتّخَذَ على البناء للمفعول، مِن اتخذ الذي له مفعولان كقوله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[(١)] ومفعولُه الثاني من أولياء. ومن للتبعيض، وعلى الأول مزيدةٌ لتأكيد النفي ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك، وهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم، وإسنادٌ له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه، وهو عينُ ما ذهبنا إليه فلا ينتهض حجةً علينا للمعتزلة ﴿ وَكَانُوا۟﴾ في قضائك ﴿ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هالكين، مصدرٌ وُصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمع بائر كعائذٍ وعُوذٍ.

(١٩) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ التفات إلى العَبَدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول، والمعنى فقد كذبكم المعبودون ﴿ بِمَا تَقُولُونَ﴾ في قولكم إنهم آلهةٌ أو هؤلاء أَضلوناو والباء بمعنى في، أو مع المجرور بدل من الضمير. وعن ابن كثير بالياء أي كذبوكم بقولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي المعبودون، وقرأ حفص بالتاء على خطاب العابدين ﴿ صَرْفًا﴾ دفعاً للعذاب عنكم، وقيل حيلةً من قولهم إنه لَيتصرف أي يحتال ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ يُعينكم عليه ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هي النار. والشرطُ وإن عم كلَّ من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيدٌ بعدم المزاحِم وفاقاً، وهو التوبةُ والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا.

---

(١) النساء: «١٢٥».

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

(٢٠) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي إلا رسلاً إنهم فحُذف الموصوف لدِلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفةُ مُقامَه كقوله تعالى ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[(١)]، ويجوز أن تكون حالاً اكتُفيَ فيها بالضمير وهو جواب لقولهم ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[(٢)]. وقرىء يُمَشَّوْن أي تُمشيهم حوائجُهم أو الناسُ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ابتلاءً، ومن ذلك ابتلاءُ الفقراء بالأغنياء، والمرسَلين بالمرسَل إليهم ومناصبتهم لهم العداوةَ وإيذائهم لهم، وهو تسلية لرسول الله ﷺ على ما قالوه بعد نقضه، وفيه دليل على القضاء والقدر ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علةٌ للجعل، والمعنى وجعلنا بعضكم لبعض فتنةً لنعلم أيُّكم يصبر، ونظيرُه قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[(٣)] أو حثٌّ على الصبر على ما افتُتِنوا به ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن يصبِر، أو بالصواب فيما يبتلي به وغيرِه.

(٢١) ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يأمُلون ﴿لِقَآءَنَا﴾ بالخير لكفرهم بالبعث، أو لا يخافون لقاءنا بالشر على لغة تِهامةَ، وأصلُ اللقاء الوصولُ إلى الشيء، ومنه الرؤيةُ فإنه وصولٌ إلى المرئي، والمرادُ به الوصولُ إلى جزائه، ويمكن أن يراد به الرؤيةُ على الأول ﴿لَوْلَآ﴾ هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فتُخبرَنا بصدق محمد ﷺ، وقيل فيكونوا رسلاً إلينا ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمُرَنا بتصديقه واتباعه ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في شأنها حتى أرادوا لها ما يتفق لأفراد من الأنبياء الذين هم أكملُ خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظمُ من ذلك ﴿وَعَتَوْ﴾ وتجاوزوا الحدَّ في الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبِه حيث عاينوا المعجزاتِ القاهرةَ فأعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسهم الخبيثةِ ما سَدّت دونه مطامعَ النفوس القدسية، واللامُ جواب قسم محذوف، وفي الاستئناف بالجملة حُسنٌ وإشعارٌ بالتعجب من استكبارهم وعُتوّهم كقوله:

وَجَارَةُ جَسَّاسٍ أَبَأْنَا بِنَابِهَا كلَيْباً غَلَتْ نَابُ كُلَيْبٍ بَوَاؤُهَا

(٢٢) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ملائكةَ الموت أو العذاب، ويومَ نُصب باذكُرْ أو بما دل عليه[(٤)] ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه بمعنى يُمنعون البشرى أو . . . .

---

(١) الصافات: «١٦٤».

(٢) الفرقان: «٧».

(٣) الملك: «٢».

(٤) وإنما قيل «يوم يرَوْن» دون أن يقال يوم ينزل الملائكة إيذاناً من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه، بل على وجه آخر غير معهود (س٦/ ٢١١).

يَعدَمونها[١]، ويومئذ تكريرٌ أو خبر، وللمجرمين تبيينٌ أو خبرٌ ثان أو ظرف لِما يتعلق به اللام، أو لبشرى إنْ قُدِّرت منونةً غيرَ مبنية مع لا فإنها لا تعمل. وللمجرمين إما عامٌّ يتناول حكمُه حكمَهم من طريق البرهان ولا يلزم عن نفي البشرى لعامة المجرمين حينئذ نفيُ البشرى بالعفو والشفاعة في وقت آخرَ، وإما خاصٌّ وضع موضعَ ضميرهم تسجيلاً على جُرمهم وإشعاراً بما هو المانعُ للبشرى والموجِبُ لِما يقابلها ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عطف على المدلول أي ويقول الكفرة حينئذ هذه الكلمةَ استعاذةً وطلباً من الله تعالى أن يمنع لقاءَهم وهي مما كانوا يقولون عند لقاءِ عدوٍّ أو هجوم مكروه، أو تقولها الملائكة بمعنى حَراماً مُحرماً عليكم الجنةُ أو البشرى. وقرىء حُجراً بالضم وأصله الفتح، غير أنه لمّا اختَصّ بموضع مخصوص غُيِّر كقَعْدَك وعَمْرَك، ولذلك لا يُتصرف فيه ولا يظهر ناصبُه، ووصفه بمحجور للتأكيد كقولهم موتٌ مائت.

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي وعمَدنا. إلى ما عمِلوا في كفرهم من المكارم كقِرىٰ الضيف وصلةِ الرحم وإغاثةِ الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرطُ اعتباره، وهو تشبيهُ حالِهم وأعمالهم بحال قوم استعصَوا على سلطانهم فقدِم إلى أشيائهم فمزقها وأبطلها ولم يُبق لها أثراً. والهباءُ غبارٌ يُرى في شعاع يطلُع من الكُوّة، من الهبوة وهي الغبار، ومنثوراً صفتُه، شبّه عملَهم المُحبَطَ بالهَباء في حقارته وعدمِ نفعه، ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمُه أو تَفرّقُه نحوَ أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوَها، أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر كقوله تعالى ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[٢].

(٢٤) ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ مكاناً يُستقر فيه في أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يُؤوىٰ إليه للاسترواح بالأزواج والتمتعِ بهن، تجوزاً له من مكان القيلولة على التشبيه، أو لأنه لا يخلو من ذلك غالباً إذ لا نوم في الجنة. وفي «أحسنُ» رمزٌ إلى ما يَتميز به مَقيلُهم من حُسن الصور وغيرِه من التحاسين، ويُحتمل أن يراد بأحدهما المصدرُ أو الزمانُ إشارةً إلى أن مكانهم وزمانَهم أطيبُ ما يُتخيل من الأمكنة والأزمنة، والتفضيلُ إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمترفين في الدنيا. روي أنه يُفرَغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيَقيل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار.

(٢٥) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أصله تتشقق فحُذفت التاء، وأدغمها ابنُ كثير ونافع وابن عامر ويعقوب. ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ

(١) والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرىٰ (س٦/ ٢١١).
(٢) البقرة: «٦٥».

﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[١] ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ في ذلك الغمام بصحائفِ أعمال العباد. وقرأ ابن كثير ونُنْزِلُ، وقرىء ونُزِّلَت وأُنْزِل ونَزَل ونَزَّل الملائكةَ بحذف نون الكلمة.

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

(٢٦) ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الثابتُ له لأن كل مِلْك يَبطُل يومئذ ولا يبقى إلا مُلكُه فهو الخير، وللرحمن صلتُه، أو تبيينٌ، ويومئذ معمولُ المُلكُ لا الحقُّ لأنه متأخر، أو صفتُه والخبرُ يومئذ أو للرحمن[٢] ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديداً.

(٢٧) ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من فَرْط الحسرة. وعضُّ اليدين وأكلُ البَنان وحَرْقُ الأسنان ونحوُها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما، والمرادُ بالظالم الجنسُ. وقيل عُقبةُ بنُ أبي مُعَيط كان يُكثِر مجالسةَ النبي ﷺ، فدعاه إلى ضيافته فأبىٰ أن يأكل من طعامه حتى ينطِق بالشهادتين ففعل، وكان أُبيُّ بنُ خلف صديقَه فعاتبه وقال صبأتَ فقال: لا، ولكن آلىٰ أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحيَت منه فشهِدتُ له، فقال لا أرضىٰ منك إلا أن تأتيَه فتطأَ قَفاه وتبزُقَ في وجهه، فوجده ساجداً في دارِ الندوة ففعل ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا ألقاك خارجاً من مكةَ إلا علوتُ رأسك بالسيف» فأُسر يوم بدر فأمر علياً فقتله وطعن أُبياً بِأُحُد في المبارزة فرجع إلى مكة ومات[٣]. ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى النجاة، أو طريقاً واحداً وهو طريقُ الحق ولم تتشعبْ بي طرقُ الضلالة.

(٢٨) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ وقرىء بالياء على الأصل ﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني مَنْ أضله، وفلانٌ كنايةٌ عن الأعلام كما أن هنا كنايةٌ عن الأجناس.

(٢٩) ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله أو كتابه، أو موعظة الرسول، أو كلمة الشهادة ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ وتمكنت منه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني الخليلَ المُضِلَّ أو إبليسَ لأنه حمله على مخالته ومخالفة الرسول، أو كلُّ من تشيطن من جن وإنس ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يواليه حتى يؤدّيَه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه. فَعولٌ من الخِذلان.

---

(١) البقرة: «٢١٠».

(٢) وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأن اتصافه تعالىٰ بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة (س٦/٢١٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢/٦٠٦) عن ابن عباس بنفس السياق.
وانظر «الكافي الشافِ» لابن حجر (ص١٢١ رقم ٩٤).

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

(٣٠) ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ ﴾ محمد يومئذ، أو في الدنيا بثاً إلى الله تعالى ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ﴾ قريشاً ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ بأن تركوه وصدوا عنه، وعنه عليه الصلاة والسلام «من تعلم القرآن وعلق مُصحفَه ولم يتعاهدْه ولم ينظُر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب عبدُك هذا اتخذني مهجوراً اقضِ بيني وبينه»[1] أو هجَروا ولغَوْا فيه إذا سمِعوه، أو زعموا أنه هُجْرٌ وأساطيرُ الأولين، فيكون أصله مهجوراً فيه فحُذف الجارُّ، ويجوز أن يكون بمعنى الهَجْر كالمجلود والمعقول، وفيه تخويفٌ لقومه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكَوْا إلى الله تعالى قومَهم عجّل لهم العذاب.

(٣١) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ كما جعلناه لك فاصبِر كما صبَروا، وفيه دليلٌ على أنه خالقُ الشر. والعدوُّ يحتمل الواحدَ والجمع ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾ إلى طريق قهرهم ﴿ وَنَصِيرًا ﴾ لك عليهم.

(٣٢) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ أي أُنزل عليه كخَبَر بمعنى أخبر لئلا يناقضَ قولَه ﴿ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ دفعةً واحدة كالكتب الثلاثة، وهو اعتراضٌ لا طائلَ تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملةً أو مفرقاً مع أن للتفريق فوائدَ، منها ما أشار إليه بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لنقوّي بتفريقه فؤادَك على حفظه وفهمه، لأن حاله يخالف حالَ موسى وداودَ وعيسى حيث كان عليه الصلاة والسلام أمّياً وكانوا يكتُبون، فلو أُلقيَ عليه جملةً لَعِيل بحفظه، ولعله لم يستتبَّ له فإن التلقفَ لا يتأتّى إلا شيئاً فشيئاً، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيدَ بصيرة وغوصٍ في المعنى، ولأنه إذا نزل منجّماً وهو يتحدّى بكل نجْمٍ فيعجِزون عن معارضته زاد ذلك قوةَ قلبه، ولأنه إذا نزل به جبريلُ حالاً بعد حال يثبُت به فؤادُه، ومنها معرفةُ الناسخ والمنسوخ ومنها انضمامُ القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية، فإنه يعين على البلاغة. و(كذلك) صفةُ مصدرٍ محذوفٍ والإشارةُ إلى إنزاله مفرقاً، فإنه مدلولٌ عليه بقوله ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفرة ولذلك وُقف عليه فيكون حالاً، والإشارةُ إلى الكتب السابقة، واللامُ على الوجهين متعلق بمحذوف. ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تُؤَدة وتمهُّل في عشرين سنةً أو ثلاثٍ وعشرين، وأصلُ الترتيل في الأسنان وهو تفليجُها.

(٣٣) ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ سؤال عجيب كأنه مَثَل في البطلان يريدون به القدحَ في نبوتك ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الدامغ له في جوابه ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ وبما هو أحسنُ بياناً أو معنًى من سؤالهم، أو لا يأتونك بحال عجيبةٍ يقولون هلّا كانت هذه حالَه إلا أعطيناك من الأحوال ما يحِقّ لك في حكمتنا وما هو أحسنُ كشفاً لما بُعِثت له.

---

(١) أخرجه الثعلبي من طريق هدبة عن أنس، وأبو هدبة كذاب.
ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢١ رقم ٩٥).

ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾

(٣٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي مقلوبين أو مسحوبين عليها، أو متعلّقةً قلوبُهم بالسُّفليات متوجهةً وجوهُهم إليها وعنه عليه الصلاة والسلام «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنفٌ على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه»[1] وهو ذم منصوب أو مرفوع أو مبتدأً خبرُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ والمفضَّل عليه هو الرسولُ ﷺ على طريقة قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾[2] كأنه قيل إن حاملَهم على هذه الأسئلة تحقيرُ مكانه وتضليلُ سبيله، ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شرٌّ مكاناً وأضل سبيلاً، وقيل إنه متصل بقوله ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾[3] ووصفُ السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة.

(٣٥) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾ يوازره في الدعوة وإعلاءِ الكلمة، ولا ينافي ذلك مشاركتَه في النبوة، لأن المتشارِكين في الأمر متوازرون عليه.

---

(١) أخرجه البيهقي ـ في البعث (رقم: ٢٦٢) من تحقيق الصاعدي ـ من طريق سدد عن بشر بن المفضل عن علي بن زيد عن أوس بن أبي أوس، عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا.
وأصله في الترمذي ـ (٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٢) وقال: هذا حديث حسن ـ والبزار وأحمد ـ في المسند (٢/ ٣٦٣) ـ وإسحاق وابن أبي شيبة من هذا الوجه لكن قال عن أوس بن خالد ـ وأوس مجهول كما قال الحافظ في التقريب (١/ ٨٥) ـ.
وعند الحاكم ـ (٤/ ٥٦٤) وقال: واحتج به النسائي ـ من رواية أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن أبي ذر حدثني الصادق المصدوق «أنّ الناس يحشرون ثلاثة أفواج. فوجاً طاعمين لابسين راكبين. وفوجاً يمشون ويسعون. وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى النار».
وفي الترمذي ـ (٤/ ٦١٦ رقم ٢٤٢٤) و(٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٣) ـ والنسائي ـ في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٨/ ٤٣٣) ـ من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم رفعه إنكم محشورون إلى الله ركباناً ورجالاً وتمرون على وجوهكم» ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٢١ رقم ٩٧) ـ.
قلت: وقع في «الكافي الشاف» (من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم) وهو خطأ والصواب (من رواية بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة).
وقلت: لم يخرجه النسائي من طريق بهز بن حكيم به، وإنما أخرجه من طريق سويد بن حجير أبي قزعة عن حكيم به.
وأخرجه الحاكم من كلا الطريقين، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الحاكم بهز أيضاً مأمون ولا يحتاج في روايته إلى متابع.
والخلاصه أن الحديث حسن والله أعلم.

(٢) المائدة: «٦٠».

(٣) الفرقان: «٢٤».

فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ
أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ
وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ
أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ ﴾ يعني فرعونَ وقومَه ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم، فاقتُصر على حاشيتي القصة اكتفاءً بما هو المقصودُ منها وهو إلزامُ الحجة ببعثة الرسل، واستحقاقُ التدمير بتكذيبهم، والتعقيبُ باعتبار الحكمِ لا الوقوعِ. وقرىء: فَدَمَّرْتُهم، فَدَمِّراهُم، فدَمِّرانِّهم على التأكيد بالنون الثقيلة.

(٣٧) ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ ﴾ كذبوا نوحاً ومَن قبله، أو نوحاً وحده ولكنّ تكذيبَ واحد من الرسل كتكذيب الكل، أو بعثةَ الرسل مطلقاً كالبراهمة ﴿ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ بالطوفان. ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ عبرة ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يحتمل التعميمَ والتخصيص فيكون وضعاً للظاهر موضعَ المُضمَر تظليماً لهم.

(٣٨) ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ ﴾ عطفٌ على هم في جعلناهم، أو على الظالمين لأن المعنى ووعدنا الظالمين، وقرأ حمزةُ وحفصٌ وثمودَ على تأويل القبيلة ﴿ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ قوم كانوا يعبُدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعيباً فكذبوه، فبينما هم حولَ الرسِّ وهي البئرُ الغيرُ المطوية فانهارت فخُسف بهم وبديارهم. وقيل الرسُّ قريةٌ بفلْج[1] اليمامة كان فيها بقايا ثمودَ فبُعث إليهم نبيٌّ فقتلوه فهلكوا. وقيل الأخدود، وقيل بئرٌ بأنطاكيةَ قَتلوا فيها حبيباً النجّارَ، وقيل هم أصحابُ حنظلةَ بنِ صفوانَ النبيِّ ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون، وسمَّوها عنقاءَ لطول عنُقها وكانت تسكُن جبلهم الذي يقال له فتخ أو دمخ وتنقضّ على صبيانهم فتخطَفُهم إذا أعوزها الصيدُ، ولذلك سُمّيت مُغْرِباً فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوه فأُهلكوا. وقيل هم قوم كذبوا نبيهم ورسُّوه أي دسّوه في بئر[2] ﴿ وَقُرُونًۢا ﴾ وأهلَ أعصار، قيل القرنُ أربعون سنةً وقيل سبعون وقيل مائة وعشرون ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر ﴿ كَثِيرًا ﴾ لا يعلمها إلا الله.

(٣٩) ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ بيّنا له القِصصَ العجيبةَ من قصص الأولين إنذاراً وإعذاراً فلما أصروا أُهلكوا كما قال ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ فتّتناه تفتيتاً، ومنه التِّبرُ لِفُتات الذهب والفضة، وكلاًّ الأولُ منصوبٌ بما دل عليه ضربنا كأنذرْنا، والثاني بتبّرنا لأنه فارغ.

(٤٠) ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ ﴾ يعني قريشاً مروا مراراً في متاجرهم إلى الشام ﴿ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾

---

(١) فَلْج اليمامة هي قرية في اليمامة يقال لها الرس، وأصل الفلْج الظفر والفوز (مختار الصحاح مادة فلج).

(٢) لم يقم على هذه الأقوال في المعنى بأصحاب الرس دليل ثابت. ورجح الطبري في «جامع البيان» (١١/ج١٩/ ١٤) أنهم أصحاب الأخدود. وبعض الأقوال الأخرى مردودة بنصوص أخرى. وانظر «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

يعني سَدوم عُظمىٰ قرى قوم لوط أُمطرت عليها الحجارة ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ ﴾ في مِرار مرورَهم فيتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ بل كانوا كفرة لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا فمرُّوا بها كما مرت رِكابُهم، أو لا يأمُلون نشوراً كما يأمله المؤمنون طمعاً في الثواب، أو لا يخافونه على اللغة التهامية.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ ما يتخذونك إلا موضعَ هُزْء أو مَهزُوّاً به ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ مَحكيٌ بعد قول مضمر، والإشارةُ للاستحقار، وإخراجُ بعَث اللهُ رسولاً في معرض التسليم بجعله صلةً وهم على غاية الإنكار تهكمٌ واستهزاء، ولولاه لقالوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولاً.

(٤٢) ﴿ إِن ﴾ إنه ﴿ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ ليَصرِفنا عن عبادتها بفَرْط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرةِ ما يوردها مما يسبِق إلى الذهن بأنها حُججٌ ومعجزات ﴿ لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ثبتْنا عليها واستمسكنا بعبادتها، ولولا في مثله تقيد الحكمَ المطلقَ من حيث المعنى دون اللفظ ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ كالجواب لقولهم ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ فإنه يفيد نفيَ ما يلزَمه ويكون الموجِبَ له، وفيه وعيدٌ ودِلالةٌ على أنه لا يُهمِلهم وإن أمهلهم.

(٤٣) ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجةً ولا يبصر دليلاً، وإنما قُدّم المفعولُ الثاني للعناية به ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي وحالُه هذا، فالاستفهامُ الأول للتقرير والتعجيب والثاني للإنكار.

(٤٤) ﴿ أَمْ تَحْسَبُ ﴾ بل أتحسب ﴿ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ ﴾ فتُجدِيَ لهم الآياتُ أو الحجج فتهتمَّ بشأنهم وتطمعَ في إيمانهم، وهو أشدُّ مذمةً مما قبله حتى حُقّ بالإضراب عنه إليه، وتخصيصُ الأكثر لأنه كان منهم مَن آمن ومنهم من عَقَل الحقَّ وكابر استكباراً وخوفاً على الرئاسة ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ في عدم انتفاعِهم بقرع الآياتِ آذانَهم وعدمِ تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتُميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرِفون إحسانه مِن إساءة الشيطان ولا يطلُبون الثواب الذي هو أعظمُ المنافع ولا يتقون العقابَ الذي هو أشدُّ المضارّ، ولأنها إن لم تعتقِد حقاً ولم تكتسب خيراً لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً، بخلاف هؤلاء، ولأن جَهالتها لا تضر بأحد وجهالةُ هؤلاء تؤدي إلى هَيْج الفتن وصدِّ الناس عن الحق، ولأنها غيرُ متمكنة من طلب الكمال فلا تقصيرَ منها ولا ذم، وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظمَ العقاب على تقصيرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

(٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظرْ إلى صنعه[١] ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ كيف بسطه، أو ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربُّك، فغيَّر النظمُ إشعاراً بأنه المعقولُ من هذا الكلام لوضوح برهانه، وهو دِلالةُ حدوثه وتصرُّفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فِعلُ الصانعِ الحكيم كالمشاهَد المَرْئيّ فكيف بالمحسوس منه، أو ألم ينتهِ علمُك إلى أن ربك كيف مد الظل وهو فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيبُ الأحوال، فإن الظلمةَ الخالصة تُنفِّر الطبعَ وتسُد النظرَ، وشعاعُ الشمس يُسخِّن الجوَّ ويَبهَر البصر، ولذلك وَصف به الجنة فقال: «وظلٍّ ممدود» ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ ثابتاً، من السُّكنى أو غيرَ متقلص، من السكون بأن يجعل الشمس مُقيمةً على وضع واحد ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلُع فيقعَ ضوءها على بعض الأجرام، أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها[٢].

(٤٦) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ أي أزلناه بإيقاع الشمس موقعَه، لمَا عبّر عن إحداثه بالمد بمعنى التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس لينتظم بذلك مصالحُ الكون ويتحصّلَ به ما لا يُحصى من منافع الخلق، وثم في الموضعين لتفاضُل الأمور أو لتفاضل مبادىء أوقاتِ ظهورها. وقيل مدَّ الظل لمَا بنى السماء بلا نيِّر، ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلها ولو شاء لجعله ثابتاً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس عليه دليلاً، أي مسلَّطاً عليه مستتْبِعاً إياه كما يستتبع الدليلَ المدلولُ، أو دليلَ الطريق مَن يهديه فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهيَ غايةُ نقصانه، أو قبضاً سهلاً عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المُظِلة والمُظَل عليها.

(٤٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبّه ظلامه باللباس في سَتره ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً للأبدان بقطع المشاغل، وأصلُ السبت القطعُ، أو موتاً كقوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[٣] لأنه قطع الحياة ومنه المسبوتُ للميت ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ ذا نشور أي انتشارٍ ينتشر فيه الناس للمعاش، أو بعثٍ من النوم بعْثَ الأموات فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أُنموذجٌ للموت والنشور. وعن لُقمانَ عليه السلام يا بُني كما تنام فتُوقَظ كذلك تموت فتُنشَر.

---

(١) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه عليه السلام، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى (س٦/ ٢٢٢).

(٢) والالتفات إلى نون العظمة في (جعلنا) لما في الجعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبىء عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة، وهو السر في إيراد كلمة التراخي «ثم». (س٦/ ٢٢٢).

(٣) الأنعام: «٦٠».

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾

(٤٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابن كثير على التوحيد إرادةً للجنس ﴿بُشۡرَۢا﴾ ناشراتٍ للسحاب جمع نَشور، وقرأ ابن عامر بالسكون على التخفيف، وحمزةُ والكسائي به وبفتح النون على أنه مصدر وصف به، وعاصم بُشراً تخفيف بُشُر جمع بَشور بمعنى مبشِّر ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ يعني قُدّامَ المطر ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ مطهِّراً لقوله ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[1] وهو اسم لما يُتطهر به كالوَضوء والوَقود لما يُتوضأ به ويُوقد به. قال عليه الصلاة والسلام: «التراب طَهور المؤمن»[2] «طَهورُ إناءِ أحدكم إذا ولَغ الكلبُ فيه أن يُغسل سبعاً إحداهن بالتراب»[3]. وقيل بليغاً في الطهارة. وفَعول وإن غلب في المعنيين لكنه قد جاء للمفعول كالضَّبوث وللمصدر كالقَبول وللاسم كالذَنوب، وتوصيفُ الماء به إشعاراً بالنعمة فيه وتتميمٌ للمنة فيما بعده فإن الماء الطَّهورَ أهنأُ وأنفعُ مما خالطه ما يزيل طَهوريته، وتنبيهٌ على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنُهم بذلك أولى.

(٤٩) ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ بالنبات، وتذكيرُ ميتاً لأن البلدة في معنى البلد، ولأنه غيرُ جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأُجريَ مُجرى الجامد ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ يعني أهلَ البوادي الذين يعيشون بالحَيا ولذلك نكّر الأنعام والأناسيّ، وتخصيصُهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار، والمنافعُ فيهم وبما حولهم من الأنعام غنيةٌ عن سُقيا السماء، وسائرُ الحيوانات تبعُد في طلب الماء فلا يُعوزها الشربُ غالباً مع أن مَساقَ هذه الآياتِ كما هو للدَلالة على عِظَم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة. والأنعامُ قُنيةُ الإنسان وعامةُ منافعهم وعَلِيّةُ معايشهم منوطةٌ بها، ولذلك قَدم سقيَها على سقيهم كما قدم عليها إحياءَ الأرض فإنه سببٌ لحياتها وتعيُّشها. وقرىء نَسقيَه بالفتح، وسقى وأسقى لغتان، وقيل أسقاه جعل له سُقياً، وأناسيَّ بحذف ياء وهو جمع إنسي أو إنسان كظَرابيّ في ظِرْبان على أن أصله أناسين فقلبت النون ياء.

(٥٠) ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾ صرفنا هذا القولَ بين الناس في القرآن وسائر الكتب، أو المطرَ بينهم في البلدان المختلفة والأوقاتِ المتغايرة، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطَلٍّ وغيرِهما، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما عامٌ أمطرُ من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء. وتلا هذه الآية[4] أو في الأنهار والمنافع. ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ليتفكروا ويعرِفوا كمال القدرة وحقَّ النعمة في ذلك

---

(١) الأنفال: «١١».

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٢٣٥ رقم ٣٣٢) و(١/ ٢٣٧ رقم ٣٣٣) والترمذي (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم ١٢٤) والنسائي (١/ ١٧١ رقم ٣٢٢). وهو حديث حسن.
انظر «نصب الراية» (١/ ١٤٨ ـ ١٤٩) والتلخيص لابن حجر (١/ ١٥٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣١٤).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٣) من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. =

ويقوموا بشكره، أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ إلا كفرانَ النعمة وقلةَ الاكتراث لها، أو جحودَها بأن يقولوا مُطِرنا بنَوء كذا. ومَن لا يرى الإمطارَ إلا من الأنواء كان كافراً بخلاف من يرى أنها من خلق الله، والأنواءُ وسائطُ وأَماراتٌ بجعله تعالى.

وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ نبياً يُنذر أهلها فيخِفُّ عليك أعباءُ النبوة، لكن قصَرنا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل، فقابِلْ ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهارِ الحق.

(٥٢) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه، وهو تهييجٌ له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه (فلا تطع) والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحةِ باطلهم ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ لأن مجاهدةَ السفهاء بالحُجج أكبرُ من مجاهدة الأعداء بالسيف، أو لأن مخالفتهم ومعاداتَهم فيما بين أظْهرِهم مع عُتُوهم وظهورهم، أو لأنه جهادٌ مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى.

(٥٣) ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ خلاّهما متجاورَين متلاصقَين بحيث لا يتمازجان، من مَرج دابته إذا خلاها ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ قامع للعطش من فَرْط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ بليغُ الملوحة. وقرىء مَلِحٌ على فَعِلٌ، ولعل أصله مالِح فخُفف كبَرِد في بارد ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾ حاجزاً من قدرته ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ وتنافراً بليغاً كأن كلاً منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوِّذ للمتعوَّذ عنه. وقيل حدّاً محدوداً وذلك كدِجْلةَ تدخل البحر فتشُقه فتجري في خلاله فراسخَ لا يتغير طعمُها، وقيل المراد بالبحر العذبِ النهرُ العظيم مثلُ النيل، وبالبحر المِلْحِ البحرُ الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة في الفصل واختلافِ الصفة، مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كلِّ عنصر أن تضامّت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية.

(٥٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ يعني الذي خمَّر به طينةَ آدم، أو جعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع لتُبْشَرَ وتسلَسَ وتقبلَ الأشكال والهيئاتِ بسهولة، أو النطفة ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ أي قسمه قسمين: ذوي نسَب أي ذكوراً يُنسب إليهم، وذواتِ صهر أي إناثاً يصاهَر بهن كقوله تعالى ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾[١]. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاءٍ مختلفة وطباعٍ متباعدة وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى.

= قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.

(١) القيامة: «٣٩».

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا
مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى
ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني الأصنامَ أو كلَّ ما عُبد من دون الله إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يظاهر الشيطانَ بالعداوة والشرك، والمرادُ بالكافر الجنسُ أو أبو جهل. وقيل هيّناً مَهيناً لا وقعَ له عنده، من قولهم ظَهرتَ به إذا نبذتَه خلف ظهرك فيكون كقوله ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾[1].

(٥٦) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ للمؤمنين والكافرين.

(٥٧) ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة الذي يدل عليه إلا مبشراً ونذيراً ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ﴾ إلا فِعلَ من شاء ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أن يتقرب إليه ويطلُب الزُّلفى عنده بالإيمان والطاعة، فصوّر ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصودٌ فعلُه واستثناه منه قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة، حيث اعتد بإنفاعك نفسك بالتعرض للثواب والتخلص عن العقاب أجراً وافياً مَرضيّاً به مقصوراً عليه، وإشعاراً بأن طاعتهم تعود عليه بالثواب من حيث إنها بدَلالته. وقيل الاستثناءُ منقطعٌ، معناه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل.

(٥٨) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في استكفاء شرورهم والإغناءِ عن أجورهم، فإنه الحقيقُ بأن يُتوكّل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع مَن توكل عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونزّهه عن صفات النقصان مُثْنياً عليه بأوصاف الكمال طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابغه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿خَبِيرًا﴾ مطّلعاً فلا عليك إن آمنوا أو كفروا.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قد سبق الكلام فيه[2]، ولعل ذكره زيادةُ تقرير لكونه حقيقاً بأن يُتوكّل عليه من حيث إنه الخالقُ للكل والمتصرِّف فيه، وتحريضٌ على الثبات والتأني في الأمر فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعةِ نفاذ أمره في كل مراد خَلَق الأشياء على تُؤَدة وتدرُّج. والرحمنُ خبرُ الذي إن جعلتَه مبتدأً ولمحذوفٍ إن جعلته صفة للحي، أو بدل من المستكنّ في استوى، وقرىء بالجر صفةٌ للحي. ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ فاسأل عما ذكر من الخلق والاستواء عالماً يُخبرْك بحقيقته وهو الله تعالى، أو جبريلَ، أو مَن وجده في الكتب المتقدمة لِيَصْدُقَك فيه، وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه مَن يُخبرُك من أهل الكتاب ليعرِفوا مجيءَ ما يرادفه في كتبهم، وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمنُ مبتدأً والخبر

---

(١) آل عمران: «٧٧».

(٢) سبق الكلام فيه في الأعراف «٥٤».

ما بعده، والسؤال كما يُعدّى بعن لتضمُّنه معنى التفتيشِ يُعدَّى بالباء لتضمنه معنى الاعتناء. وقيل إنه صلة خبيراً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لأنهم ما كانوا يُطلِقونه على الله، أو لأنهم ظنوا أنه أراد به غيرَه ولذلك قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي للذي تأمرناه يعني تأمرنا بسجوده، أو لأمرك لنا من غير عِرفان. وقيل لأنه كان معرَّباً لم يسمعوه. وقرأ حمزةُ والكسائي يأمرنا بالياء على أنه قولُ بعضهم لبعض ﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي الأمرُ بالسجود للرحمن ﴿نُفُورًا ۩﴾ عن الإيمان.

(٦١) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ يعني البروجَ الاثني عشَرَ سُمّيت به وهي القصورُ العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسُكانها واشتقاقُه من التبرّج لظهوره ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني الشمسَ لقوله ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[١]. وقرأ حمزة والكسائي سُرُجاً وهي الشمس والكواكب الكبار ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل. وقرىء وقُمْراً أي ذا قُمْر وهو جمع قمراء، ويحتمل أن يكون بمعنى القَمْر كالرُّشْد والرَّشَد والعُرْب والعَرب.

(٦٢) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذَوِيْ خِلفة يخلُف كلٌّ منهما الآخرَ بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه، أو بأن يعتقبا لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٢] وهي للحالة من خَلَف كالرِّكْبة والجِلْسة ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بأن يتذكر آلاءَ الله ويتفكر في صنعه فيعلمَ أن لا بد له من صانع حكيم واجبِ الذات رحيمٍ على العباد ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أن يشكر الله تعالى على ما فيه من النعم، أو ليكونا وقتين للمتذكّرين والشاكرين؛ مَنْ فاته وِرْده في أحدهما تداركه في الآخرة. وقرأ حمزة أن يذْكُر من ذكَر بمعنى تذكّر، وكذلك ليَذْكُروا ووافقه الكسائي فيه[٣].

(٦٣) ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأٌ وخبرُه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾[٤] أو ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وإضافتُهم إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل، أو لأنهم الراسخون في عبادته، على أن (عبادُ) جمعُ عابد كتاجر وتِجَار ﴿هَوْنًا﴾ هيّنين أو مشياً هيناً، مصدرٌ وُصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة

---

(١) نوح: «١٦».

(٢) البقرة: «١٦٤».

(٣) أي وقرأ حمزة «ولقد صرفناه بينهم لِيَذْكُروا» بتخفيف الذال كما مرَّ في الآية (٥٠) من سورة الفرقان، ووافقه الكسائي في التخفيف في قوله «لِيَذْكروا».
انظر المبسوط لابن مهران ص٢٧١.

(٤) الفرقان: «٧٥».

وتواضع ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ تسلّماً منكم ومُتاركةً لكم لا خير بيننا ولا شر، أو سَداداً من القول يسْلَمون فيه من الإيذاء والإثم، ولا ينافيه آيةُ القتال لتنسَخه فإن المراد به الإغضاءُ عن السفهاء وتركُ مقابلتهم في الكلام.

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾

(٦٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ في الصلاة، وتخصيصُ البيتوتة لأن العبادة بالليل أحمَزُ[١] وأبعدُ عن الرياء وتأخيرُ القيام للرّويّ، وهو جمعُ قائم، أو مصدرٌ أُجريَ مجراه.

(٦٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ لازماً ومنه الغريمُ لملازمته، وهو إيذان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادِهم في عبادة الحق وَجِلون من العذاب مبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقِهم على استمرار أحوالهم.

(٦٦) ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بِئْست مستقراً، وفيها ضميرٌ مبهم يفسره المميِّز، والمخصوصُ بالذم ضمير محذوف به ترتبط الجملةُ باسم إن، أو أَحْزنَتْ. وفيها ضميرٌ اسمُ إنّ، ومستقراً حالٌ أو تمييز، والجملةُ تعليلٌ للعلة الأولى أو تعليلٌ ثانٍ، وكلاهما يحتملان الحكاية والابتداء من الله.

(٦٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ لم يجاوزوا حدَّ الكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾ ولم يضيِّقوا تضييق الشحيح، وقيل الإسرافُ هو الإنفاقُ في المحارم والتقتيرُ منعُ الواجب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء، ونافعٌ وابنُ عامرٍ والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أقتر، وقرىء بالتشديد والكل واحد ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ وسَطاً عدلاً سمي به لاستقامة الطرفين كما سُمّي سواءً لاستوائهما. وقرىء بالكسر وهو ما يُقام به الحاجةُ لا يفضُل عنها ولا يَنقُص. وهو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مؤكدة، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغواً، وقيل إنه اسمُ كان لكنه مبنيٌّ لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القَوام فيكون كالإخبار بالشيء عن نفسه.

(٦٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي حرمها بمعنى حرم قتلها[٢] ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ متعلق بالقتل المحذوف، أو بلا يقتلون ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ نفَى عنهم أمهاتِ المعاصي بعدما أثبت لهم أصولَ الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجرَ المذكورَ موعودٌ

---

(١) أحمز أي أقوى وأمتن. انظر مختار الصحاح مادة (حمز).

(٢) والتصريح بوصفهم بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والإخلاص، وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلكه، وللتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم (س٦/ ٢٢٩).

للجامع بين ذلك، وتعريضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاءَ إثمٍ أو إثماً بإضمار الجزاء، وقرىء أيّاماً أي شدائدَ يقال يوم ذو أيام أي صعب.

يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بدل من يلْقَ لأنه في معناه كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا تُلمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا تجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا[1]

وقرأ أبو بكر بالرفع على الاستئناف أو الحال وكذلك ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ وابنُ كثير ويعقوبُ يُضَعّفْ بالجزم، وابن عامر بالرفع فيهما مع التشديد وحذف الألف في يضعّفُ، وقرىء ويُخْلَد على بناء المفعول مخففاً، وقرىء مثقّلاً. وتضعيفُ العذابِ مضاعفتُه لانضمام المعصية إلى الكفر ويدلّ عليه قوله:

(٧٠) ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ بأن يمحوَ سوابقَ معاصيهم بالتوبة ويُثبِتَ مكانها لواحقَ طاعتهم، أو يبدّلَ ملَكةَ المعصية في النفس بملكة الطاعة. وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو بأن يُثْبت له بدلَ كل عقاب ثواباً ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات.

(٧١) ﴿ وَمَن تَابَ﴾ عن المعاصي بتركها والندمِ عليها ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يتلافَى به ما فرّط، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يرجِع إلى الله بذلك ﴿ مَتَابًا﴾ مرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، أو يتوب متاباً إلى الله الذي يحب التائبين ويصطنع بهم؛ أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجِعاً حسناً وهو تعميمٌ بعد تخصيص.

(٧٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يُقيمون الشهادة الباطلة، أو لا يحضُرون محاضِر الكذب، فإن مشاهدة الباطل شِركةٌ فيه ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ﴾ ما يجب أن يُلقىٰ ويُطرح ﴿ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ معرِضين عنه مكرّمين أنفسَهم عن الوقوف عليه والخوضِ فيه، ومن ذلك الإغضاءُ عن الفواحش والصفحُ عن الذنوب والكنايةُ عما يُستهجَن التصريحُ به.

(٧٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بالوعظ أو القراءة ﴿ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ لم يُقيموا عليها غيرَ واعين لها ولا متبصّرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصِر، بل أكبّوا عليها سامعين بآذان واعيةٍ مبْصرين بعيون راعية، فالمرادُ من النفي نفيُ الحال دون الفعل كقولك: لا يلقاني زيد مسلّماً. وقيل الهاء للمعاصي المدلولِ عليها باللغو.

---

(١) من الطويل.

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازةِ الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهلُه في طاعة الله سُرّ بهم قلبُه وقَرّت بهم عينُه لما يَرى من مساعدتهم له في الدين وتوقُّع لُحوقهم به في الجنة، ومِن ابتدائيةٌ أو بيانية كقولك: رأيت منك أسداً. وقرأ حمزة وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر وذريتِنا، وقرأ ابن عامر والحَرَميان وحفصٌ ويعقوبُ وذرياتنا بالألف. وتنكيرُ الأعين لإرادة تنكيرِ القُرة تعظيماً، وتقليلها لأن المراد أعينُ المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل وتوحيدُه إما للدِلالة على الجنس وعدم اللَّبس كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[١] أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاقِ كلمتهم. وقيل جمعُ آمٍّ كصائم وصيام ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم[٢].

(٧٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أعلى مواضعِ الجنة وهي اسمُ جنس أريد به الجمعُ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[٣] وللقراءة بها، وقيل هي من أسماء الجنة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفضِ الشهوات وتحمُّل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ دعاءً بالتعمير والسلامة أي يحيِّيهم الملائكةُ ويسلّمون عليهم، أو يحيي بعضُهم بعضاً ويسلم عليه، أو تبقيةً دائمةً وسلامةً من كل آفة. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يَلْقَون من لقِيَ.

(٧٦) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لا يموتون فيها ولا يَخرجون ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مقابلُ ساءت مستقراً معنًى ومثلُه إعراباً.

(٧٧) ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾ ما يصنع بكم، من عبأْتُ الجيش إذا هيأته، أو لا يَعتدّ بكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ لولا عبادتُكم فإن شرف الإنسان وكرامتَه بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائرُ الحيوانات سواءٌ. وقيل معناه ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهةً. وما إن جُعلت استفهاميةً فمحلُّها النصبُ على المصدر كأنه قيل: أيَّ عِبءٍ يعبأ بكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بما أخبرتكم به حيث خالفتموه. وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم: كذَّب القتالَ إذا لم يبالغ فيه. وقرىء فقد كذب الكافرون أي الكافرون

(١) غافر: «٦٧».
(٢) إعادة الموصول في المواقع السبعة ـ مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول ـ للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات المذكورة وصفٌ جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل.
وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي (س٦/ ٢٣١).
(٣) سبأ: «٣٧».

منكم لأن توجُّه الخطاب إلى الناس عامة بما وُجد في جنسهم من العبادة والتكذيب. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاءُ التكذيب لازماً يَحيق بكم لا محالة، أو أثرُه لازماً بكم حتى يَكُبَّكم في النار، وإنما أُضمر من غير ذكر للتهويل والتنبيهِ على أنه لا يكتَنهه الوصفُ، وقيل المراد قتلُ يومِ بدر وأنه لوزم بين القتلى لِزاماً. وقرىء لَزاماً بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت. عن النبي ﷺ «مَن قرأ سورة الفرقان لقيَ الله وهو مؤمن بأن الساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها وأُدخل الجنة بغير نصَب»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٢ رقم ١٠٥). وانظر آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

ترتيبها ٢٦ — آياتها ٢٢٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟
فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾

سورة الشعراء مكية

إلا قولَه تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون إلى آخرها وهي مائتان وستٌّ أو سبع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالإمالة، ونافع بين بينَ، كراهةَ للعود إلى الياء المهروب منها، وأظهر نونَه حمزةُ لأنه في الأصل منفصل عما بعده.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهرِ إعجازُه وصحتُه، والإشارةُ إلى السورة أو القرآنِ على ما قُرّر في أول البقرة.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتلٌ نفسَك، وأصلُ البخع أن يبلُغ بالذبح النُّخاع وهو عرقٌ مستبطِنٌ الفَقارَ وذلك أقصى حد الذبح، وقرىء باخعُ نفسِك بالإضافة، ولعل للإشفاق أي أشفق على نفسك أن تقتُلها حسرة ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا أو خِيفةَ أن لا يؤمنوا.

(٤) ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ دِلالةً مُلجئةً إلى الإيمان أو بليّة قاسرةً عليه ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ منقادين، وأصلُه فظلوا لها خاضعين فأُقحِمت الأعناقُ لبيان موضع الخضوع وتُرك الخبرُ على أصله. وقيل لمّا وُصفت الأعناقُ بصفات العقلاء أُجريَت مُجراهم. وقيل المراد بها الرؤساء أو

الجماعات من قولهم: جاءنا عُنُقٌ من الناس لِفَوج منهم. وقرىء خاضعةً وظلت، عطفٌ على ننزل عطْفَ (وأكنْ) على (فأصدَّق) لأنه لو قيل أنزلنا بدله لصح.

(٥) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ موعظةٌ أو طائفة من القرآن ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يوحيه إلى نبيه ﴿مُحْدَثٍ﴾ مجدَّدٍ إنزالُه لتكرير التذكير وتنويع التقرير ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ إلا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على ما كانوا عليه.

(٦) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ أي بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المُخبَرِ به عنهم ضمناً في قوله ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي إذا مسهم عذابُ الله يومَ بدر أو يوم القيامة ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من أنه كان حقاً أم باطلاً، وكان حقيقاً بأن يُصدَّق ويُعظَّمَ قدرُه. أو يكذبَ فيُستخَفَّ أمرُه.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

(٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ محمودٍ كثيرِ المنفعة، وهو صفةٌ لكل ما يُحمد ويُرضىٰ، وههنا يحتمل أن تكون مقيدةً لما يتضمن الدَّلالةَ على القدرة، وأن تكون مبينةً منبّهةً على أنه ما من نبت إلا وله فائدةٌ إما وحده أو مع غيره، وكلّ لإحاطة الأزواج، وكم لكثرتها.

(٨) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف، أو في كل واحد ﴿لَءَايَةً﴾ على أن مُنبِتَها تامُّ القدرة والحكمة، سابغُ النعمة والرحمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لا ينفعهم أمثالُ هذه الآياتِ العظام.

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في انتقامه ممن كفر، الرحيم لمن تاب وآمن.

(١٠) ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ مقدرٌ باذكر أو ظرف لما بعده ﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ أي ائت أو بأن ائت ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبحِ أولادهم.

(١١) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من الأول أو عطفُ بيانٍ له، ولعل الاقتصارَ على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك. ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئنافٌ أتبعه إرسالَه إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائِهم عليه. وقرىء بالتاء على الالتفات إليهم زجراً لهم وغضباً عليهم، وهم وإن كانوا غُيَّباً حينئذ أُجروا مُجرى الحاضرين في كلام المرسَل إليهم من حيث إنه مبلِّغُه إليهم وإسماعُه مبدأُ إسماعِهم، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مورِدَه، وقرىء بكسر النون اكتفاءً بها عن ياء الإضافة، ويحتمل أن يكون بمعنى ألا يا ناسُ اتقونِ كقوله ﴿ألا يسجدوا﴾.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾

(١٢) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ .

(١٣) ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ رتب استدعاءَ ضمِّ أخيه إليه وإشراكِه له في الأمر على الأمور الثلاثة: خوفِ التكذيب، وضيقِ القلب انفعالاً عنه، وازديادِ الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق، لأنها إذا اجتمعت مست الحاجة إلى مُعين يقوّي قلبه وينوب منابه متى تعتريه حبْسةٌ حتى لا تختلَّ دعوتُه ولا تنبترَ حُجتُه، وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر، بل طلباً لِما يكونُ معونةً على امتثاله وتمهيد عُذرِه فيه. وقرأ يعقوبُ ويضيقَ ولا ينطلقَ بالنصب عطفاً على يكذبون، فيكونان من جملة ما خاف منه.

(١٤) ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ ﴾ أي تبعةُ ذنب فحُذف المضاف أو سُمّي باسمه، والمراد قتلُ القِبْطيّ وإنما سماه ذنباً على زعمهم، وهذا اختصارُ قصته المبسوطةِ في مواضعَ ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ به قبل أداء الرسالة، وهو أيضاً ليس تعللاً وإنما هو استدفاعٌ للبلية المتوقَّعة، كما أن ذاك استعدادٌ واستظهار في أمر الدعوة وقوله:

(١٥) ﴿ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ إجابةٌ له إلى الطِّلْبتين بوعده بدفع بلائهم اللازمِ ردعُه عن الخوف، وضمِّ أخيه إليه في الإرسال، والخطابُ في فاذهبا على تغليب الحاضر لأنه معطوف على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت والذي طلبتَه ﴿ إِنَّا مَعَكُم ﴾ يعني موسى وهٰرون وفرعون ﴿ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ سامعون لما يجري بينكما وبينه فأُظهِرُ كما عليه، مثّل نفسَه تعالى بمن حضر مجادلةَ قومٍ استماعاً لما يجري بينهم وترقباً لإمداد أوليائه منهم، مبالغةً في الوعد بالإعانة، ولذلك تُجوّز بالاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو مطلقُ إدراك الحروف والأصوات، وهو خبرٌ ثانٍ أو الخبرُ وحده ومعكم لغو.

(١٦) ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أفرد الرسولَ لأنه مصدرٌ وُصف به فإنه مشترِكٌ بين المرسَل والرسالة، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُمْ   بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

ولذلك ثنى تارةً وأفرد أخرى، أو لاتحادهما للأخوّة أو لوَحدة المرسَل والمرسَل به، أو لأنه اراد أن كل واحد منا.

(١٧) ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمنِ معنى القول، والمراد خلِّهم ليذهبوا معنا إلى الشام.

(١٨) ﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون لموسى بعد ما أتياه فقالا له ذلك ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ في منازلنا ﴿ وَلِيدًا ﴾

طفلاً سُمّي به لقربه من الولادة. ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدينَ عشرَ سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين، ثم بقي بعد الغرق خمسين.

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني قتلَ القِبْطي، وبّخه به معظماً إياه بعدما عدد عليه نعمته. وقرىء فِعلتك بالكسر لأنها كانت قِتْلةً بالوكز ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بنعمتي حتى عمَدتَ إلى قتل خواصّي، أو ممن تكفّرهم الآن فإنه عليه الصلاة والسلام كان يعايشهم بالتقية فهو حال من إحدى التاءين، ويجوز أن يكون حكماً مبتَدأً عليه بأنه من الكافرين بإلٓهيته أو بنعمته لمَا عاد عليه بالمخالفة، أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم.

(٢٠) ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ من الجاهلين وقد قرىء به[١]، والمعنى من الفاعلين فعلَ أولي الجهل والسّفَه، أو من الخاطئين لأنه لم يتعمد قتله، أو من الذاهلين عما يؤول إليه الوكزُ لأنه أراد به التأديبَ، أو الناسين من قوله تعالى ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾[٢].

(٢١) ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ حِكمة ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ رد أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته ثم كر على ما عدّ عليه من النعمة ولم يصرح بردّه لأنه كان صدقاً غيرَ قادح في دعواه، بل نبه على أنه كان في الحقيقة نقمةً لكونه مسبَّباً عنها فقال:

(٢٢) ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي وتلك التربيةُ نعمةٌ تمنها علي ظاهراً، وهي في الحقيقة تعبيدُك بني إسرائيلَ وقصدُهم بذبح أبنائهم، فإنه السبب في وقوعي إليك وحصولي في تربيتك. وقيل إنه مقدر بهمزة الإنكارِ أي تلك نعمةٌ تمنها علي وهي أن عبدت، ومحل أن عبدت الرفعُ على أنه خبرُ محذوفٍ، أو بدل في نعمةٌ، أو الجرُ بإضمار الباء أو النصبُ بحذفها. وقيل تلك إشارةٌ إلى خَصلة شنعاءَ مبهمةٍ وأن عبّدت عطفُ بيانها والمعنى: تعبيدُك بني إسرائيل نعمةٌ تمنها علي، وإنما وجد الخطابُ في تمنها وجُمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده، والخوفُ والفرارُ منه ومن مَلَئه.

(٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لمّا سمع جوابَ ما طعن به فيه ورأى أنه لم يرعَوِ بذلك شرَع في الاعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل.

(٢٤) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ عرّفه بأظهرِ خواصّه وآثاره لمّا امتنع تعريفُ الأفراد إلا

(١) قال أبو حيان في تفسير البحر المحيط (١١/٧): وفي قراءة عبدالله وابن عباس «وأنا من الجاهلين» ويظهر أنه تفسير للضالين لا قراءة مروية عن الرسول ﷺ.

(٢) البقرة: «٢٨٢».

بذكر الخواص والأفعال وإليه أشار بقوله:

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم موقنين الأشياءَ محققين لها علمتم أن هذه الأجرام المحسوسةَ ممكنةٌ لتركُّبها وتعدّدها وتغيّرِ أحوالها، فلها مُبدىءٌ واجبٌ لذاته، وذلك المُبدىء لا بد وأن يكون مبدأً لسائر الممكنات: ما يمكن أن يُحَسّ بها وما لا يمكن وإلا لزم تعددُ الواجب، أو استغناءُ بعض الممكنات عنه وكلاهما مُحالٌ، ثم ذلك الواجبُ لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

(٢٥) ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ جوابَه، سألتُه عن حقيقته وهو يذكر أفعاله، أو يزعُم أنه ربُّ السموات وهي واجبةٌ متحركة لذاتها كما هو مذهبُ الدهرية، أو غيرُ معلوم افتقارُها إلى مؤثر.

(٢٦) ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ عُدولاً إلى ما لا يمكن أن يُتوهَّم فيه مثلُه ويُشَكَّ في افتقاره إلى مصور حكيم ويكون أقربَ إلى الناظر وأوضحَ عند التأمل.

(٢٧) ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أسأله عن شيء ويجيبني عن آخرَ. وسماه رسولاً على السخرية.

(٢٨) ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ تشاهدون كلَّ يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غيرِ مدار اليوم الذي قبله حتى يبلّغها إلى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمورُ الكائنات ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كان لكم عقلٌ علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك. لايَنَهم أولاً، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم.

(٢٩) ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ عُدولاً إلى التهديد عن المُحاجّة بعد الانقطاع وهكذا ديدنُ المعاند المحجوج، واستدل به على ادعائه الألوهيةَ وإنكارِه الصانعَ وأنّ تعجُّبه بقوله ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾[1] من نسبة الربوبية إلى غيره، ولعله كان دهرياً اعتقد أن مَن ملك قُطراً أو تولى أمره بقوة طالِعِه استحق العبادة من أهله، واللام في المسجونين للعهد أي ممن عرَفتَ حالهم في سجوني فإنه كان يطرحهم في هُوّة عميقة حتى يموتوا ولذلك جُعل أبلغَ من لأسجُنَنّك.

(٣٠) ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي أتفعل ذلك ولو جئتك بشيء يبين صِدْقَ دعواي، يعني المعجزةَ فإنها الجامعةُ بين الدَلالة على وجود الصانع وحكمتِه والدِلالة على صدق مدّعي نبوته، فالواو للحال وَلِيَها الهمزةُ بعد حذف الفعل.

---

(١) الشعراء: «٢٥».

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ
بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾
فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾

(٣١) ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أن لك بينةً أو في دعواك، فإن مدّعيَ النبوة لا بد له من حجة.

(٣٢) ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ ثُعبانِيَّتُه، واشتقاقُ الثعبان من ثعَبتُ الماء فانثعب إذا فجرتُه فانفجر.

(٣٣) ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ روي أن فرعون لمّا رأى الآيةَ الأولى قال فهل غيرُها، فأخرج يده قال فما فيها فأدخلها في إبْطه ثم نزعها ولها شعاعٌ يكاد يُغشي الأبصارَ ويسدّ الأفق.

(٣٤) ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقعَ الحال ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائقٌ في علم السحر.

(٣٥) ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بهَره سلطانُ المعجزة حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى مؤامرة القوم وائتمارِهم وتنفيرِهم عن موسى وإظهارِ الاستشعار عن ظهوره واستيلائه على ملكه.

(٣٦) ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخِّرْ أمرهما. وقيل احبِسْهما ﴿ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ شُرَطاً يحشُرون السحرة.

(٣٧) ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ يفضُلون عليه في هذا الفنّ. وأمالها ابنُ عامر وأبو عمرو والكسائي، وقرىء بكل ساحر.

(٣٨) ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لِما وُقّت به من ساعات يوم معيّن وهو وقتُ الضحى من يوم الزينة.

(٣٩) ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ فيه استبطاءٌ لهم في الاجتماع حثا على مبادرتهم إليه كقول تأبط شراً:

هَـلْ أَنْـتَ بَـاعِـثُ دِينَـارٍ لِحَـاجَتِنَـا أَوْ عَبْـدَ رَبٍّ أَخَـا عَـوْنِ بـنِ مِخْـرَاقِ

أي ابعث أحدهما إلينا سريعاً.

(٤٠) ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلَبوا، والترجّي باعتبار الغلبة المقتضيةِ للاتّباع، ومقصودُهم الأصلُ أن لا يتبعوا موسى لا أن يتبعوا السحرة، فساقوا الكلام مَساقَ الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

(٤١) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾ .

(٤٢) ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ التزم لهم الأجرَ والقُربة عنده زيادة عليه إن غلَبوا، فإذاً على ما يقتضيه من الجواب والجزاء، وقرىء نَعِمْ بالكسر وهما لغتان.

(٤٣) ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾ أي بعدما قالوا له إما أن تلقيَ وإما أن نكون نحن الملقين، ولم يُرِد به أمرَهم بالسحر والتمويه بل الإذنَ في تقديم ما هم فاعلوه لا محالةَ توسلاً به إلى إظهار الحق.

(٤٤) ﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ أقسموا بعزته على أن الغلبةَ لهم لِفَرْط اعتقادهم في أنفسهم، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتىٰ به من السحر.

(٤٥) ﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ ﴾ تبتلع، وقرأ حفص تلْقف بالتخفيف ﴿ مَا يَأۡفِكُونَ ﴾ ما يقلِبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرِهم فيُخيِّلون حبالَهم وعِصِيَّهم أنها حياتٌ تسعى، أو إفكَهم، تسميةً للمأفوك به مبالغة.

(٤٦) ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ لعلمهم بأن مثلَه لا يتأتى بالسحر، وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويهٌ وتزويق يخيِّل شيئا لا حقيقة له، وأن التبحر في كل فن نافعٌ. وإنما بُدّل الخُرورُ بالإلقاء ليشاكل ما قبله ويدل على أنهم لمّا رأَوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم كأنهم أُخذوا فطرحوا على وجوههم، وأنه تعالى ألقاهم بما خوّلهم من التوفيق.

(٤٧) ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ بدلٌ مِن أُلقي بدلَ الاشتمال، أو حالٌ بإضمار قد.

(٤٨) ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ إبدالٌ للتوضيح ودفعِ التوهم، والإشعارِ على أن الموجبَ لإيمانهم ما أجراه على أيديهما.

(٤٩) ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ ﴾ فعلمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم، أو فواعدكم على ذلك وتواطأتم عليه، وأراد به التلبيسَ على قومه كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح أأمنتم بهمزتين ﴿ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ ﴾ وبالَ ما فعلتم وقوله ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ بيان له.

(٥٠) ﴿ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ ﴾ لا ضرر علينا في ذلك ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ بما تُوعِدُنا به فإن الصبر عليه محاءٌ للذنوب موجبٌ للثواب والقُرب من الله تعالى، أو بسبب من أسباب الموت والقتلُ أنفعُها وأرجاها.

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾

(٥١) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ لأَنْ كنا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من أتباع فرعون، أو من أهل المشهد، والجملة في المعنى تعليلٌ ثانٍ لنفي الضمير، أو تعليلٍ للعلة المتقدمة. وقرىء إن كنا على الشرط لهضم النفس وعدمِ الثقة بالخاتمة، أو على طريقة المُدِلِّ بأمره نحو إن أحسنتُ إليك فلا تنسَ حقي.

(٥٢) ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ وذلك بعد سنينَ أقامها بين أظهُرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآياتِ فلم يزيدوا إلا عتُواً وفساداً، وقرأ ابن كثير ونافع أنِ أسْرِ بعبادي بكسر النون ووصل الألف من سَرى، وقرىء أنْ سِرْ من السير ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعونُ وجنوده، وهو علةُ الأمر بالإسراء أي أَسْرِ بهم حتى إذا اتبعوكم مُصْبحين كان لكم تقدّمٌ عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولِكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تَلِجون البحر فيدخُلون مَدخلَكم فأُطبِقُه عليهم فأُغرِقهم.

(٥٣) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أُخبِر بِسُراهم. ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ العساكرَ ليتبعوهم.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ على إرادة القول وأنما استقلهم وكانوا سِتَّمِائةِ ألفٍ وسبعين ألفاً بالإضافة إلى جنوده، إذ روي أنه خرج وكانت مقدمتُه سبعَمِائةِ ألفٍ. والشرذمةُ الطائفة القليلة، ومنها ثوبٌ شَراذمُ لِما بَلِيَ وتقطع، وقليلون باعتبار أنهم أسباط، كلُّ سِبط منهم قليل.

(٥٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ لفاعلون ما يَغيظنا.

(٥٦) ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ وإنا لجميعٌ مِن عادتنا الحذرُ واستعمالُ الحزم في الأمور، أشار أولاً إلى عدم ما يمنع اتّباعَهم من شوكتهم ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فَرْط عداوتهم ووجوبِ التيقظ في شأنهم حثاً عليه، أو اعتذر بذلك إلى أهل المدائن كي لا يُظَنَّ به ما يَكسِرُ سلطانَه، وقرأ ابن عامر برواية ابنِ ذَكوانَ [1] والكوفيون حاذرون، والأولُ للثبات والثاني للتجدّد، وقيل الحاذر المؤدي في السلاح وهو أيضاً من الحذر لأن ذلك إنما يُفعل حذراً، وقرىء حادرون بالدال المهملة أي أقوياء قال:

أُحِبُّ الصَّبِيَ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ　　وأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرُ

أو تامّو السلاح فإن ذلك يوجب حدارةً في أجسامهم.

(٥٧) ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ بأن خلقنا داعيةَ الخروج بهذا السبب فحمَلتُهم عليه ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

---

(١) هو محمد بن سليمان بن أحمد بن ذكوان، أبو طاهر البعلبكي المؤذن، مقرىء معمر عالي السند صالح نزيل صيدا. ولد سنة (٢٦٤هـ) ومات سنة (٣٥٤هـ). [غاية النهاية (١٤٨/٢)].

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ
أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ
فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

(٥٨) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني المنازلَ الحسنةَ والمجالس البهية..

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الإخراجِ أخرجنا فهو مصدر، أو مثلَ ذلك المقامِ الذي كان لهم على أنه صفةُ مقام، أو الأمرُ كذلك فيكون خبراً لمحذوف. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٦٠) ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ وقرىء فاتّبعوهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

(٦١) ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ تقاربا بحيث رأى كلُ واحد منهما الآخرَ، وقرىء تراءتِ الفئتان ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ لمُلحَقون، وقرىء لَمُدّرِكون من ادّرك الشيءُ إذا تتابع ففنِيَ، أي: لمتتابِعون في الهلاك على أيديهم[١].

(٦٢) ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ لن يُدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بالحفظ والنُّصرة ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريقَ النجاة منهم، روي أن مؤمنَ آلِ فرعون كان بين يدي موسى فقال: أين أُمِرتَ فهذا البحرُ أمامك وقد غشِيَكَ آلُ فرعون، فقال: أُمرتُ بالبحر ولعلي أومر بما أصنع.

(٦٣) ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ بحرَ القَلْزم أو النيلَ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي فضُرب فانفلق وصار اثني عشر فَرقاً بينها مسالك ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبل المُنيفِ الثابت في مقره فدخلوا في شعابها، كلُّ سِبْط في شعب.

(٦٤) ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ وقربنا ﴿ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ فرعونَ وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخِلَهم.

(٦٥) ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئةِ إلى أن عبَروا.

(٦٦) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ بإطباقه عليهم.

(٦٧) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ وأيةَ آية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وما تنبه عليها أكثرُهم إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقيَ في مصرَ من القِبط، وبنو إسرائيلَ بعد ما نجَوا سألوا بقرةً يعبُدونها واتخذوا العجلَ وقالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[٢].

(٦٨) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقمُ من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

---

(١) وفي قوله «إنا لمدركون» حيث جاؤوا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفي التأكيد للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق (س٦/ ٢٤٥).

(٢) البقرة: «٥٥».

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١
قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ
أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي
خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾

(٦٩) ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ على مشركي العرب ﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

(٧٠) ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ سألهم لِيُريَهم أن ما يعبُدونه لا يستحق العبادة.

(٧١) ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ فأطالوا جوابَهم بشرح حالهم معه تبجّحاً به وافتخاراً، ونظل ههنا بمعنى ندوم. وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

(٧٢) ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾ أيسمعون دعاءكم أو يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة. ﴿إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ عليه. وقرىء يُسمعونكم أي يُسمعونكم الجواب عن دعائكم، ومجيئُه مضارعاً مع إذ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها.

(٧٣) ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ﴾ على عبادتكم لها ﴿أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ مَنْ أعرض عنها.

(٧٤) ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أضربوا عن أن يكون لهم سمعٌ أو يُتوقَّع منهم ضُرٌّ أو نفع، والتجأوا إلى التقليد.

(٧٥) ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾.

(٧٦) ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ فإن التقدم لا يدل على الصِّحة ولا ينقلب به الباطلُ حقاً.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾ يريد أنهم أعداءٌ لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوِّه، أو إن المُغرِيَ بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أنفعُ في النصح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحةٌ بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القَبول. وإفرادُ العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسَب ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أو متصل على أن الضمير لكل معبود عبده، وكان من آبائهم مَنْ عبدالله.

(٧٨) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ لأنه يهدي كل مخلوق لِما خُلق[1] له من أمور المعاش والمَعاد كما قال ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2] هدايةً مدرَّجةً من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضارّ، مبدؤُها بالنسبة إلى الإنسان هدايةُ الجنين إلى امتصاص دم الطمْث من الرحِم، ومنتهاها الهدايَةُ إلى طريق الجنة والتنعمُ بلذائذها. والفاء للسببية إن جُعل الموصول مبتدأ، وللعطف إن جُعل صفةَ ربِّ العالمين فيكون اختلافُ النظم لتقدم الخلق واستمرارِ الهداية. وقوله:

---

(١) وصف الله تعالى بأنه خلقه مع أنه خالق للجميع من باب التصريح بالنعم الخاصة ولكون ذلك أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى (س٦/٢٤٨).

(٢) الأعلى: «٣».

وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن
يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِى يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾

(٧٩) ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾ على الأول مبتدأٌ محذوفُ الخبر لدِلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده، وتكريرُ الموصول على الوجهين للدّلالة على أن كل واحدة من الصِلات مستقلةٌ باقتضاء الحكم.

(٨٠) ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ عطفٌ على يطعمني ويسقين لأنه من روادفهما من حيث إن الصحةَ والمرضَ في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب، وإنما لم ينسُب المرضَ إليه تعالى لأن المقصود تعديدُ النعم، ولا ينتقض بإسناد الإماتة إليه فإن الموت من حيث إنه لا يُحسَن به لا ضررَ فيه وإنما الضررُ في مقدماته وهي المرض، ثم إنه لأهل الكمال وصلةٌ إلى نيل المحابِّ التي تُستحقر دونها الحياةُ الدنيوية، وخلاصٌ من أنواع المِحَن والبليات، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدُث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافُر، والصحةُ إنما تحصُل باستحفاظ اجتماعها والاعتدالِ المخصوص عليها قهراً وذلك بقدرة الله العزيز العليم.

(٨١) ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ في الآخرة.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصيَ ويكونوا على حذر، وطلباً لأن يغفر لهم ما يفرَط منهم واستغفاراً لما عسى يندُر منه من الصغائر، وحملُ الخطيئة على كلماته الثلاث: إني سقيم، بل فعله كبيرهم هذا، وقولِه هي أختي، ضعيفٌ لأنها معاريضُ وليست خطايا.

(٨٣) ﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا﴾ كما في العلم والعمل أستعدُّ به لخلافة الحق ورياسة الخلق. ﴿وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ووفقني للكمال في العمل لأنتظِمَ به في عِداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحَهم كبيرُ ذنب ولا صغيرُه.

(٨٤) ﴿وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ جاهاً وحسنَ صِيت في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك ما مِن أمة إلا وهم مُحبّون له مُثنون عليه. أو صادقاً من ذريتي يجدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه وهو محمد ﷺ.

(٨٥) ﴿وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في الآخرة وقد مر معنى الوراثة فيها.

(٨٦) ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِىٓ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ طريقَ الحق وإن كان هذا الدعاءُ بعد موته فلعله كان لظنه أنه كان يخفي الإيمانَ تقيةً من نمرود ولذلك وعده به، أو لأنه لم يُمنَع بعد من الاستغفار للكفار.

(٨٧) ﴿وَلَا تُخۡزِنِى﴾ بمعاتبتي على ما فرّطتُ، أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الورّاث، أو بتعذيبي لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً، أو بتعذيب والدي، أو يبعثه في عداد الضالين وهو من الخزي بمعنى الهوان، أو من الخزاية بمعنى الحياء ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ الضمير للعباد لأنهم معلومون أو للضالين.

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ
لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ
وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ
نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾

(٨٨) ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ أي لا ينفعان أحداً إلا مخلصاً سليمَ القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائرِ آفاته، أو لا ينفعان إلا مالُ مَن هذا شأنُه وبنوه حيث أنفق ماله في سبيل البر، وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباد الله مطيعين شفعاءَ له يوم القيامة. وقيل الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أي لا ينفع غنًى إلاَّ غناه. وقيل منقطِعٌ، والمعنى لكنْ سلامةُ من أتى الله بقلب سليم تنفعه.

(٩٠) ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتبجّحون بأنهم المحشورون إليها[١].

(٩١) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ فيرَونها مكشوفةً ويتحسرون على أنهم المَسوقون إليها، وفي اختلاف الفعلين ترجيحٌ لجانب الوعد.

(٩٢) ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾.

(٩٣) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أين آلهتُكم الذين تزعمُون أنهم شفعاؤكم ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم لأنهم وآلهتَهم يدخُلون النار كما قال.

(٩٤) ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ أي الآلهةُ وعبَدتُهم، والكَبْكبة تكريرُ الكبِّ لتكرير معناه كأن مَن ألقيَ في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ﴾ متّبِعوه من عُصاة الثقلين. أو شياطينُه ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ تأكيد للجنود إن جُعل مبتدأً خبرُه ما بعده أو للضمير وما عطف عليه وكذا الضميرُ المنفصل وما يعود إليه في قوله:

(٩٦) ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾.

(٩٧) ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ على أن الله يُنطق الأصنام فتخاصم العَبَدةَ ويؤيده الخطاب في قوله:

(٩٨) ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي في استحقاق للعبادة، ويجوز أن تكون الضمائرُ للعبدة كما في قالوا والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة، والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة متحسرون عليها[٢].

---

(١) وصيغة الماضي فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه في سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره (س٦/ ٢٥١).

(٢) وصيغة المضارع في «نسوّيكم» لاستحضار الصورة الماضية (س٦/ ٢٥٢).

وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

(٩٩) ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء.

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إذِ الأخِلاَّءُ يومئذ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلاَّ المتقين، أو فما لنا من شافعين ولا صديق ممن نعُدّهم شفعاءَ وأصدقاءَ، أو وقعنا في مهلكة لا يخلّصُنا منها شافعٌ ولا صديق، وجمَع الشافعَ ووحّد الصديقَ لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، أو لأن الصديقَ الواحد يسعى أكثرَ مما يسعى الشفعاء، أو لإطلاق الصديق على الجمع كالعدوّ لأنه في الأصل مصدرٌ كالحنينِ والصهيل.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ تَمنٍّ للرجعة أُقيم فيه (لو) مُقامَ ليت لتلاقيهما في معنى التقدير. أو شرطٌ حُذف جوابه. ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جوابُ التمني أو عطفٌ على كرةً، أي: لو أن لنا أن نكُرَّ فنكونَ من المؤمنين.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم ﴿لَآيَةً﴾ لحجةً وعِظةً لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر، فإنها جاءت على أنظَمِ ترتيب وأحسنِ تقرير، يتفطن المتأملُ فيها لغزارة علمه لِما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيهِ على دلائلها وحسنِ دعوته للقوم وحسنِ مخالفته معهم وكمالِ إشفاقه عليهم وتصوُّر الأمر في نفسه، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً لهم ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر قومه. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ به.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحدٌ من ذريتهم.

(١٠٥) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ القومُ مؤنثة ولذلك تُصغر على قُوَيمة وقد مر الكلام في تكذيبهم المرسلين.

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ لأنه كان منهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتترُكوا عبادةَ غيره.

(١٠٧) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيكم.

(١٠٨) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه.

(١٠٩) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والنُّصح ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١١٠) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرره للتأكيد والتنبيهِ على دِلالة كل واحد من أمانته وحَسْمِ طمعه على وجوب طاعته فيما يدعوهم إليه فكيف إذا اجتمعا، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفصٌ بفتح الياء في أجريَ في الكلمات الخمس.

﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ
تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾
فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

(١١١) ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ الأقلّون جاهاً ومالاً، جمعُ الأرذل على الصحة، وقرأ يعقوب وأتباعُك وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو تَبَع كبطل وأبطال، وهذا من سخافة عقلهم وقصورِ رأيهم على الحُطام الدنيوية، حتى جعلوا اتّباع المُقِلّين فيها مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه ودليلاً على بطلانه، وأشاروا بذلك إلى أن اتباعَهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك:

(١١٢) ﴿ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أنهم عمِلوه إخلاصاً أو طمعاً في طُعمة وما عليَّ إلا اعتبارُ الظاهر.

(١١٣) ﴿ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ ﴾ ما حسابُهم على بواطنهم إلا على الله فإنه المطّلع عليها. ﴿ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴾ لعلمتم ذلك ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون.

(١١٤) ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ جوابٌ لِما أوهم قولهم من استدعاء طردهم وتوقيفِ إيمانهم عليه حيث جعلوا اتباعَهم المانعَ عنه. وقوله:

(١١٥) ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رجلٌ مبعوثٌ لإنذار المكلَّفين عن الكفر والمعاصي سواءٌ كانوا أعزّاءَ أو أذلّاءَ فكيف يليق بي في طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء، أو ما عليَّ إلا إنذارُكم إنذاراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليَّ أن أطرُدَهم لاسترضائكم.

(١١٦) ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ ﴾ عما تقول ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴾ من المشتومين أو المضروبين بالحجارة.

(١١٧) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴾ إظهاراً لِما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيبُ الحق لا تخويفُهم له واستخفافُهم عليه.

(١١٨) ﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا ﴾ فاحكم بيني وبينهم من الفَتاحة ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ مِن قَصْدهم أو شؤم عملهم.

(١١٩) ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾ المملوء.

(١٢٠) ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ﴾ بعد إنجائه ﴿ ٱلۡبَاقِينَ ﴾ من قومه.

(١٢١) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ ﴾ شاعت وتواترت ﴿ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾.

(١٢٢) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنثه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسمُ أبيهم.

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(١٢٥) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

(١٢٦) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٢٧) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تصديرُ القَصص بها دَلالةٌ على أن البِعثة مقصورةٌ على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرّب المدعُوَّ إلى ثوابه ويُبعده عن عقابه، وكان الأنبياءُ متفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع، مُبرَّئين عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية.

(١٢٨) ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ بكل مكان مرتفع، ومنه ريعُ الأرض لارتفاعها ﴿ءَايَةً﴾ علَماً للمارة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ ببنائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها. أو بروجَ الحمام، أو بنياناً يجتمعون إليه للعبث بمن يمُر عليهم، أو قصوراً يفتخرون بها.

(١٢٩) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مآخذَ الماء وقيل قصوراً مشيدة وحصوناً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فتُحكِمون بنيانها.

(١٣٠) ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بسيف أو سوط ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصدِ تأديبٍ ونظر في العاقبة.

(١٣١) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفعُ لكم.

(١٣٢) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ كرره مرتباً على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرِفونه من أنواع النعم تعليلاً وتنبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد، والوعيدِ على تركه بالانقطاع، ثم فصل بعضَ تلك النعم كما فصل بعض مساويهم المدلولِ عليها إجمالاً بالإنكار في ألا تتقون مبالغةً في الإيقاظ والحث على التقوى فقال:

(١٣٣) ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾.

(١٣٤) ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ثم أوعدهم فقال:

(١٣٥) ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قدَر على الإنعام قدَر على الانتقام.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾
كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا
آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾

(١٣٦) ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ **فإنا لا نرعوي عما نحن عليه، وتغييرُ شقّ النفي عما تقتضيه المقابلةُ للمبالغة في قلة اعتدادِهم بوعظه.**

(١٣٧) ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذي جئتنا به إلا كذِبُ الأولين، أو ما خُلُقُنا هذا إلا خلقُهم نحيا ونموت مثلَهم ولا بعثَ ولا حساب، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة خُلُق الأولين بضمتين أي ما هذا الذي جئت به إلا عادةُ الأولين كانوا يُلفّقون مثله، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خُلقُ الأولين وعادتُهم ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادةٌ قديمة لم تزل الناسُ عليها.

(١٣٨) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن عليه.

(١٣٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسبب التكذيب بريح صَرْصَر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

(١٤٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

(١٤١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

(١٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ .

(١٤٣) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .

(١٤٤) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

(١٤٥) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(١٤٦) ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ إنكار لأن يُترَكوا كذلك، أو تذكيرٌ للنعمة في تخلية الله إياهم وأسبابِ تنعُّمهم آمنين ثم فسره بقوله:

(١٤٧) ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ .

(١٤٨) ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ لطيفٌ لين لِلُطف الثمر، أو لأن النخلَ أنثى، وطلع أناث النخل ألطفُ وهو ما يطلُع منها كنصل السيف في جوفه شماريخُ القِنو، أو مُتدلٍّ منكسرٌ من كثرة الحمل، وإفرادُ النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرُها من الأشجار.

(١٤٩) ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ بطرين، أو حاذقين من الفَراهة وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فرِهين وهو أبلغُ من فارهين.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا
أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾

(١٥٠) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

(١٥١) ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ استُعير الطاعةُ التي هي انقيادُ الأمر لامتثال الأمر، أو نُسب حكمُ الآمر إلى أمره مجازاً.

(١٥٢) ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وصْف موضِّحُ لإسرافهم ولذلك عُطف ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ على يفسدون دِلالةً على خُلوص فسادهم.

(١٥٣) ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين سُحِروا كثيراً حتى غلب على عقلهم، أو من ذوي السَّحَر وهي الرئة أي من الأناسيّ، فيكونُ:

(١٥٤) ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ تأكيداً له ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواك.

(١٥٥) ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ ﴾ أي بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ نصيب من الماء كالسِّقْي والقِيت للحظ من السَّقْي والقوت. وقرىء بالضم ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فاقتصروا على شِرْبكم ولا تزاحموها في شِرْبها.

(١٥٦) ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضرب وعَقْر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عِظَمُ اليوم لِعظم ما يحِلّ فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب.

(١٥٧) ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أسند العقرَ إلى كلهم لأن عاقرَها إنما عقرَها برضاهم ولذلك أُخذوا جميعاً ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب لا توبةً، أو عند معاينة العذاب ولذلك لم ينفعهم.

(١٥٨) ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي العذابُ الموعود ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرِض إيماءٌ بأنه لو آمن أكثرُهم أو شطرُهم لما أُخذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عُصموا عن مثله ببركة مَن آمن منهم.

(١٥٩) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

(١٦٠) ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

(١٦١) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

(١٦٢) ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ
الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾

(١٦٣) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٦٤) ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١٦٥) ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أتأتون مِن بينِ مَن عَداكم من العالمين الذُّكران لا يشارككم فيه غيرُكم، أو أتأتون الذكران من أولاد آدمَ مع كثرتهم وغلبةِ الإناث فيهم كأنهن قد أعوزنكم، فالمرادُ بالعالمين على الأول كلُّ من يَنكِح وعلى الثاني الناسُ.

(١٦٦) ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ للبيان إن أريد به جنسُ الأناث، أو للتبعيض إن أريد به العضوُ المباحُ منهن فيكون تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون مثلَ ذلك بنسائهم أيضاً ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات، أو مُفْرِطون في المعاصي وهذا من جملة ذاك، أو أحقّاءُ بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمةَ.

(١٦٧) ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ عما تدّعيه أو عن نهْينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من المنفيّين مِن بينِ أظهُرنا، ولعلهم كانوا يُخرجون من أخرجوه على عُنُفٍ وسوء حال.

(١٦٨) ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ من المبغضين غايةَ البغض لا أقِف عن الإنكار عليه بالإبعاد، وهو أبلغ من أن يقول إني لعملكم قالٍ، لدَلالته على أنه معدودٌ في زمرتهم مشهورٌ بأنه من جملتهم.

(١٦٩) ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من شؤمه وعذابه.

(١٧٠) ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أهلَ بيته والمتبعين له على دينه بإخراجهم من بينهم وقت حلول العذاب بهم.

(١٧١) ﴿ إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأة لوط ﴿ فِي الْغَابِرِينَ﴾ مقدّرةً في الباقين في العذاب إذ أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضيةً بفعلهم. وقيل كائنةً فيمن بقيَ في القرية فإنها لم تخرج مع لوط.

(١٧٢) ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أهلكناهم.

(١٧٣) ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ وقيل أمطر الله على شُذّاذ القوم حجارةً فأهلكهم ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ اللام فيه للجنس حتى يصِحَّ وقوعُ المضاف إليه فاعلَ ساء، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ وهو مطرُهم.

(١٧٤) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ
ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

(١٧٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ .

(١٧٦) ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ الأيكةُ غِيضةٌ تُنبت ناعمَ الشجر، يريد غِيضةً بقرب مدينَ تسكنُها طائفةٌ فبعث الله إليهم شعيباً كما بعثه إلى مدينَ وكان أجنبياً منهم فلذلك قال:

(١٧٧) ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب. وقيل الأيكة شجرٌ ملتفٌّ وكان شجرَهم الدومُ وهو المقلُ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر لَيْكةِ بحذف الهمزة وإبقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحةً على أنها لَيكةُ وهي اسم بلدتهم، وإنما كتبت ها هنا وفي ص بغير ألف اتباعاً للفظ.

(١٧٨) ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ .

(١٧٩) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

(١٨٠) ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

(١٨١) ﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أتموه. ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ الناقصين حقوقَ الناس بالتطفيف.

(١٨٢) ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي، وهو إن كان عربياً فإن كان من القسط ففِعْلاسٌ بتكرير العين وإلا ففعلال. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ ولا تنقُصوا شيئاً من حقوقهم ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ بالقتل والغارة وقطعِ الطريق.

(١٨٤) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وذوي الجِبِلّة الأولين يعني مَنْ تقدمهم من الخلائق.

(١٨٥) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ .

(١٨٦) ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامعٌ بين وصفين متنافيين للرسالة مبالغةً في تكذيبه. ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في دعواك.

(١٨٧) ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قطعةً منها، ولعله جوابٌ لِما أَشعر به الأمرُ بالتقوى من التهديد. وقرأ حفص بفتح السين ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك.

(١٨٨) ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وبعذابه منزّل عليكم ما أوجبه لكم عليه في وقته المقدر له لا محالة.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ على نحو ما اقترحوا بأن سلط الله عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى غلت أنهارُهم وأظلتهم سحابةٌ فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليها ناراً فاحترقوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٩١) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذا آخِرُ القِصص السبعِ المذكورة على سبيل الاختصار تسليةً لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به، واطّرادُ نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به، واقتراحُهم له استهزاءً وعدمَ مبالاة به يَدفع أن يقال إنه كان بسبب اتصالات فلكية أو كان ابتلاءً لهم لا مؤاخذةً على تكذيبهم.

(١٩٢) ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

(١٩٣) ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾.

(١٩٤) ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ تقريرٌ لحقّيه تلك القِصص وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ، فإن الإخبار عنها ممن لم يتعلمْها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل، والقلبُ إن أراد به الروحَ فذاك وإن أراد به العضوَ فتخصيصُه لأن المعانيَ الروحانية إنما تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق، ثم تتصعد منه إلى الدماغ فينتقش بها لوحُ المتخيِّلة، والروحُ الأمين جبريل عليه الصلاة والسلام فإنه أمينُ الله على وحيه. وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد الزاي ونصْبِ الروح الأمين ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك.

(١٩٥) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ واضحِ المعنى لئلا يقولوا ما نصنع بما لا نفهمه فهو متعلق بنزَل، ويجوز أن يتعلق بالمنذِرين أي لتكون ممن أنذَروا بلغة العرب وهم هود وصالح وإسمٰعيل وشعيبٌ ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

(١٩٦) ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وإن ذِكرَه أو معناه لفي الكتب المتقدمة.

(١٩٧) ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ على صحة القرآن أو نبوة محمد ﷺ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أن يعرِفوه بنعته المذكور في كتبهم وهو تقريرٌ لكونه دليلاً. وقرأ ابن عامر تكن بالتاء وآيةٌ بالرفع على أنها الاسم،

---

(١) ووصفه تعالى بربوبية العالمين للإيذان بأن تنزيله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل، كقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (س٦/ ٢٦٣).

والخبرُ لهم، وأن يعلمه بدلٌ، أو الفاعلُ وأن يعلمه بدلٌ ولهم حال، أو أن الاسم ضميرُ القصة وآيةٌ خبرُ (أن يعلمه) والجملة خبرُ تكن.

وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

(١٩٨) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ كما هو زيادةً في إعجازه أو بلغة العجم.

(١٩٩) ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لِفَرْط عِنادهم واستكبارهم، أو لعدم فهمهم واستنكافِهم من اتباع العجم، والأعجمين جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جُمع جَمع السلامة.

(٢٠٠) ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أدخلناه ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والضمير للكفر المدلولِ عليه بقوله ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾[1] فتدل الآية على أنه بخلق الله، وقيل للقرآن أي أدخلناه فيها فعرَفوا معانيَه وإعجازَه ثم لم يؤمنوا به عناداً.

(٢٠١) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ المُلجِيءَ إلى الإيمان.

(٢٠٢) ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

(٢٠٣) ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ تحسراً وتأسفاً.

(٢٠٤) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فيقولون أمطِر علينا حجارةً من السماء، فائتِنا بما تعدِنا، وحالُهم عند نزول العذاب طلبُ النظِرة[2].

(٢٠٥) ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾.

(٢٠٦) ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

(٢٠٧) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ لم يغن عنهم تمتُّعهم المتطاولُ في دفع العذاب وتخفيفِه.

(٢٠٨) ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أنذروا أهلها إلزاماً للحجة.

(٢٠٩) ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكرةً ومحلُّها النصبُ على العلة أو المصدرِ لأنها في معنى الإنذار، أو الرفعُ على أنها صفةُ منذرون بإضمار ذووا، أو بجعلهم ذكرى لإمعانهم في التذكرة، أو خبرُ محذوفٍ والجملة اعتراضية ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنُهلِكَ غيرَ الظالمين، أو قبل الإنذار.

---

(١) الشعراء: «١٩٩».

(٢) قدم الجار والمجرور «أفبعذابنا» للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى، مع ما فيه من رعاية للفواصل (س٦/ ٢٦٦).

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾

(٢١٠) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كما زعم المشركون أنه من قَبيل ما يُلقي الشياطينُ على الكهنة.

(٢١١) ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ وما يصِح لهم أن يتنزلوا به ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما يقدِرون.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لأنه مشروطٌ بمشاركةٍ في صفاء الذات وقَبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية، ونفوسُهم خبيثةٌ ظُلمانية شِرّيرة بالذات لا تقبل ذلك، والقرآنُ مشتملٌ على حقائقَ ومغيَّبات لا يمكن تلقّيها إلا من الملائكة.

(٢١٣) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ تهييج لازدياد الإخلاص ولطفٌ لسائر المكلفين.

(٢١٤) ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأقربَ منهم فالأقربَ فإن الاهتمام بشأنهم أهمّ. روي أنه لما نزلت صعِد الصفا وناداهم فخِذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال: لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقيَّ، قالوا نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1].

(٢١٥) ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليِّن جانبك لهم، مستعارٌ من خفْض الطائرِ جناحَه إذا أراد أن ينحط، ومِن للتبيين لأن من اتَّبعَ أعمُّ ممن اتَّبع لدين أو غيره، أو للتبعيض على أن المراد من المؤمنين المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان.

(٢١٦) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ ولم يتبعوك ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بما تعملونه أو من أعمالكم.

(٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يقدِر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكْفِكَ شرَّ مَن يعصيك منهم ومِن غيرهم. وقرأ نافع وابن عامر فتوكل على الإبدال من جواب الشرط.

(٢١٨) ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد.

(٢١٩) ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وتردّدَك في تصفح أحوال المجتهدين كما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما نُسخ قيامُ فرض الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلةَ ببيوت أصحابه لينظُر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لِما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن[2]. أو تصرّفَك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أَمَمتَهم، وإنما

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥٥١ رقم ٣٥٢٥) و(٨/ ٥٠١ رقم ٤٧٧٠) و(٨/ ٥٣٩ رقم ٤٨٠١) و(٨/ ٧٣٧ رقم ٤٩٧١) و(٨/ ٧٣٧ رقم ٤٩٧٢).
ومسلم (١/ ١٩٣ رقم ٢٠٨/٣٥٥) من حديث ابن عباس.

(٢) لم أقف عليه؟

وصفه الله تعالى بعلمه بحاله التي بها يستأهل ولايتَه بعد وصفه بأن مِن شأنه قهرَ أعدائه ونصرَ أوليائه تحقيقاً للتوكل وتطميناً لقلبه عليه.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه.

(٢٢١) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

(٢٢٢) ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لمَا بيّن أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطينُ أكد ذلك بأنْ بين أن محمداً ﷺ لا يصح أن يتنزلوا عليه من وجهين: أحدهما أنه إنما يكون على شرّير كذاب كثيرِ الإثم، فإن اتصال الإنسان بالغائبات لِما بينهما من التناسُب والتوادّ، وحالُ محمد ﷺ على خلاف ذلك. وثانيهما قوله:

(٢٢٣) ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أي الأفاكون يُلقون السمع إلى الشياطين فيتلقَّون منهم ظنوناً وأماراتٍ لنقصان علمهم، فيضُمّون إليها على حسب تخيلاتهم أشياءَ لا يطابِق أكثرُها كما جاء في الحديث[١] «الكلمةُ يخطَفها الجِني فيُقرّها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مِائة كِذْبة» ولا كذلك محمد ﷺ فإنه أخبر عَن مغيبات كثيرة لا تُحصىٰ وقد طابق كلُّها، وقد فُسّر الأكثر بالكل لقوله تعالى ﴿كلِ أفاك أثيم﴾[٢]. والأظهرُ أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلَّ مَن يصدُق منهم فيما يحكي عن الجني. وقيل الضمائر للشياطين أي يلقون السمع إلى الملأ الأعلى قبل أن يُرجَموا فيختطفون منهم بعضَ المغيبات ويوحون به إلى أوليائهم، أو يلقون مسموعَهم منهم إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ يُسمعونهم لا على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم.

(٢٢٤) ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ وأتباعُ محمد ﷺ ليسوا كذلك، وهو استئناف أبطل كونَه عليه الصلاة والسلام شاعراً وقرره بقوله:

(٢٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ لأن أكثر مقدماتهم خيالاتٌ لا حقيقةَ لها، وأغلبُ كلماتهم في النسيب بالحُرَم والغزل والابتهار[٣] وتمزيقِ الأعراض والقدح في الأنساب والوعدِ الكاذب والافتخار الباطل ومدحِ مَن لا يستحقه والإطراءِ فيه، وإليه أشار بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٢١٦ رقم ٥٧٦٢) و(١٠/ ٥٩٥ رقم ٦٢٣١) و(١٣/ ٥٣٥ رقم ٧٥٦١) ومسلم (٤/ ١٧٥٠ رقم ١٢٢، ١٢٣) من حديث عائشة في أطول من ذلك.

(٢) الشعراء: «٢٢٢».

(٣) الابتهار: ادّعاء فعل الفجور ولم يفعله. انظر «بهر» في القاموس.

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

(٢٢٦) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وكأنه لَما كان إعجازُ القرآن من جهة اللفظ والمعنى، وقد قدحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء تكلّم في القسمين وبيّن منافاةَ القرآن لهما ومضادةَ حال الرسول ﷺ لحال أربابهما. وقرأ نافع يتْبعهم على التخفيف، وقرىء بالتشديد وتسكين العين تشبيهاً لبعضه بعضاً.

(٢٢٧) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكثرون ذكر الله ويكون أكثرُ أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته، ولو قالوا هجواً أرادوا به الانتصارَ ممن هجاهم ومكافحةَ هُجاةِ المسلمين كعبدالله بنِ رواحةَ[(١)] وحسانَ بنِ ثابت[(٢)] والكعبين[(٣)]، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لحسان: «قل وروح القدس معك»[(٤)]. وعن كعب بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام قال له: «أُهجُهم فوالذي نفسي

---

(١) عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن ثعلبة، الأمير السعيد الشهيد أبو عمرو الأنصاري الخزرجي البدري النقيب الشاعر.
شهد بدراً والعقبة. يكنى أبا محمد، وأبا رواحة، وليس له عقب. وكان من كُتَّاب الأنصار...
[الجرح والتعديل (٥/ ٥٠) وشذرات الذهب (١/ ١٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٥)].

(٢) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد: الصحابي، شاعر النبي ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، وكان من سكان المدينة.
واشتهرت مدائحُه في الغسانيين، وملوك الحيرة، قبل الإسلام، وعمي قبيل وفاته لم يشهد مع النبي ﷺ مشهداً، لعلة أصابته.
قال أبو عبيدة: فضَلَ حسانُ الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في الإسلام. وشاعر اليمانيين في الإسلام. وكان شديد الهجاء، فحل الشعر. توفي سنة (٥٤هـ).
[الأعلام للزركلي (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦)].

(٣) المقصود بهما كعب بن مالك بن أبي كعب عمرو بن العَين الخزرجي السلمي عقبى، فاتته بدر، توفي في دمشق.
[انظر تجريد أسماء الصحابة ج٢ ص٢٣].
وكعب بن زهير بن أبي سلمى: صحابي وشاعر مُجَوِّد كثير الشعر.
[انظر «خزانة الأدب» (٩/ ١٥٣ ـ ١٥٥)].

(٤) أخرج البخاري (٦/ ٣٠٤ رقم ٣٢١٣) و(٧/ ٤١٦ رقم ٤١٢٣ و٤١٢٤) و(١٠/ ٥٤٦ رقم ٦١٥٣). ومسلم (٤/ ١٩٣٣ رقم ١٥٣/ ٢٤٨٦).
عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت «اهجُهُمْ أو هاجِهِمْ وجبريل معك».
● وأخرج البخاري (١/ ٥٤٨ رقم ٤٥٣) و(٦/ ٣٠٤ رقم ٣٢١٢) و(١٠/ ٥٤٦ رقم ٦١٥٢) ومسلم (٤/ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ رقم ١٥١/ ٢٤٨٥).
عن أبي هريرة أنَّ عمر مرَّ بحسانٍ وهو يُنشِدُ الشعر في المسجد. فَلَحَظَ إليه.
فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة. فقال: أَنْشُدُكَ الله! أسمعتَ

بيده لهو أشدُّ عليهم من النبل»[(١)] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد لِما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم، وفي أيِّ منقلب ينقلبون أي بعد الموت من الإيهام والتهويل، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما حين عهِد إليه، وقرىء أي مُنفَلَت ينفلتون من الانفلات وهو النجاة والمعنى: أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا عن عذاب الله وسيعلمون أنْ ليس لهم وجهٌ من وجوه الانفلات. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وإبراهيمَ وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام»[(٢)].

☆ ☆ ☆

= رسول الله ﷺ يقول «أجِبْ عني اللهم أيده بروح القدس» قال: اللهم نعم.

(١) أخرج مسلم (٤/ ١٩٣٥ رقم ١٥٧/ ٢٤٩٠).
عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجُوا قريشاً. فإنه أشدُّ عليها من رَشْقٍ بالنبل» وفي آخره قصة.
● وأخرج الترمذي (٥/ ١٣٩ رقم ٢٨٤٧) والنسائي (٥/ ٢٠٢ رقم ٢٨٧٣) و(٥/ ٢١١ ـ ٢١٢ رقم ٢٨٩٣)، عن أنس ـ في أثناء حديث ـ فقال النبي ﷺ: «خَلِّ عنه يا عُمَرُ، فلهي أسرع من نضحِ النبل».
وهو حديث صحيح. وانظر ما قاله المحدث الألباني في «مختصر الشمائل» (رقم ٢١٠).

(٢) وهو حديث موضوع.
رواه الثعلبي وابن مردويه عن حديث أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٢ رقم ١٠٥) وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّمْلِ

ترتيبها ٢٧ — آياتها ٩٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾

سورةُ النمل، مكيةٌ وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طسٓۚ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آي السورة[1]، والكتابُ المبين إما اللوحُ المحفوظُ ـ وإبانتُه أنه خُط فيه ما هو كائنٌ فهو يبينه للناظرين فيه، وتأخيرُه باعتبار تعلّقِ علمنا به وتقديمُه في (الحِجْر) باعتبار الوجود ـ أو القرآن، وإبانتُه لِما أودع فيه من الحِكَم والأحكام، أو لصحته بإعجازه. وعطفُه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، وتنكيرُه للتعظيم. وقرىء وكتابٌ بالرفع على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه.

(٢) ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعاملُ فيهما معنى الإشارة، أو بدلان منها أو خبران آخَران أو خبران لمحذوف.

---

(١) وما في اسم الإشارة من معنى البعد ـ مع قرب العهد بالمشار إليه ـ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف (س٦/ ٢٧١).

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الذين يعملون الصالحاتِ من الصلاة والزكاة ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من تتمة الصلة والواو للحال أو للعطف، وتغييرُ النظم للدِلالة على قوة يقينهم وثباتِه وأنهم الأوحدون فيه، أو جملةٌ اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فإن تحمّلَ المشاقِّ إنما يكون لخوف العاقبة والوثوقِ على المحاسبة، وتكريرُ الضمير للاختصاص[١].

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ زين لهم أعمالَهم القبيحةَ بأن جعلها مشتهاةً للطبع محبوبةً للنفس، أو الأعمالَ الحسنة التي وجب عليهم أن يعملوها بترتيب المَثُوبات عليها ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ عنها لا يُدركون ما يتبعها من ضر أو نفع.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ كالقتل والأسر يوم بدر ﴿وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أشدُّ الناس خسراناً لفوات المَثوبة واستحقاقِ العقوبة.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم
بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [٢]. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أيِّ حكيم وأيِّ عليم، والجمعُ بينهما مع أن العلم داخلٌ في الحكمة لعموم العلم ودَلالةِ الحكمة على إتقان الفعل والإشعار بأن علومَ القرآن منها ما هو حكمةٌ كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم بقوله:

(٧) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي اذكر قصتَه إذ قال ويجوز أن يتعلق بعليم ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي عن حال الطريق لأنه قد ضله، وجمعُ الضمير ـ إن صح أنه لم يكن معه غيرُ امرأته ـ لِما كُنِّيَ عنها بالأهل، والسينُ للدلالة على بعد المسافة والوعدِ بالإتيان وإن أبطأ ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ شُعلةِ نارٍ مقبوسة، وإضافةُ الشهاب إليه لأنه قد يكون قبَساً وغيرَ قبس، ونوّنه الكوفيون ويعقوبُ على أن القبس بدلٌ منه أو وصفٌ له لأنه بمعنى المقبوس، والعِدَتانِ على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجي في طه، والترديدُ للدلالة على أنه إن لم يظفَر بهما لم يعدَمْ أحدَهما بناءً على ظاهر الأمر، أو ثقةً بعبادة الله تعالى أنه لا يكاد يجمع حِرمانين على عبده ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاءَ أن تستدفئوا بها والصِّلاءُ النارُ العظيمة.

(٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ﴾ أي بورك فإن النداءَ فيه معنى القول، أو بأن بورك على أنها مصدريةٌ أو مخففةٌ من الثقيلة، والتخفيفُ وإن اقتضى التعويضَ بلا أو قد أو السين أو سوف لكنه دعاءٌ وهو يخالف غيرَه في أحكام كثيرة. ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مَن في مكان النار وهو البقعةُ المباركةُ المذكورة

---

(١) وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لأنهما قرينتا الإيمان (س٦/ ٢٧٢).
(٢) تصديره بحرفي التوكيد «إنّ واللام» لإبراز كمال العناية بمضمونه (س٦/ ٢٧٣).

في قوله تعالى ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾[١] ومَن حول مكانها، والظاهرُ أنه عامّ في كل من في تلك الأرض، وفي ذلك الوادِ وحواليها من أرض الشام الموسومةِ بالبركات لكونها مبعثَ الأنبياء وكِفاتَهم أحياءً وأمواتاً وخصوصاً تلك البقعةَ التي كلم الله فيها موسى. وقيل المراد موسى والملائكةُ الحاضرون، وتصديرُ الخطاب بذلك بشارةٌ بأنه قد قُضيَ له أمرٌ عظيم تنتشر بركتُه في أقطار الشام ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من تمام ما نوديَ به لئلا يُتوهّم من سماع كلامه تشبيهاً وللتعجيب من عظمة ذلك الأمرِ. أو تعجبٌ من موسى لما دهاه من عظمته.

يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ الهاء للشأن وأنا الله جملةٌ مفسرة له، أو للمتكلم وأنا خبرُه واللهُ بيانٌ له. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صفتان لله ممهدتان لما أراد أن يظهره، يريد أنا القويُّ القادر على ما يُبعد من الأوهام كقلب العصا حيةً، الفاعلُ كلَّ ما أفعله بحكمة وتدبير.

(١٠) ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على بورك أي نودي أن بورك مَن في النار وأن ألق عصاك، ويدل عليه قولُه وأن ألق عصاك بعد قوله أن يا موسى إني أنا الله بتكرير أن ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك باضطراب[٢] ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ حيةٌ خفيفةٌ سريعة، وقرىء جأنٌ على لغة من جدّ في الهرب من التقاء الساكنين ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجِعْ، مِن عقّب المقاتلُ إذا كرّ بعد الفرار، وإنما رُعب لظنه أن ذلك الأمرَ أريد به ويدل عليه قوله ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي من غيري ثقةً بي أو مطلقاً لقوله ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي حين يوحىٰ إليهم من فَرْط الاستغراقِ فإنهم أخوفُ الناس أي من الله تعالى، أو لا يكون لهم عندي سوءُ عاقبةٍ فيخافون منه.

(١١) ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استثناءٌ منقطعٌ استدرك به ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم، وفيهم من فرَطتْ منه صغيرةٌ فإنهم وإن فعلوها أتبعوا فِعلَها ما يُبطلها ويستحقون به من الله مغفرةً ورحمة فإنه لا يخاف أيضاً، وقصد تعريضَ موسى بوكزه القِبطيَّ. وقيل متصلٌ وثم بدلٌ مستأنفٌ معطوف على محذوف أي من ظلم ثم بدل ذنبه بالتوبة.

(١٢) ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ لأنه كان بُمدرّعة صوف لا كُمَّ لها. وقيل الجيبُ القميصُ لأنه يُجاب[٣] أي يقطع ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ آفةٍ كبرص ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ في جملتها أو معها على أن التسعَ هي الفلقُ، والطوفانُ، والجراد، والقمّل، والضفادعُ، والدم، والطمْسةُ، والجدبُ في بواديهم،

(١) القصص: «٣٠».
(٢) والفاء للدلالة على سرعة وقوع مضمونها (س٦/ ٢٧٤).
(٣) تقول: جبت القميص أجيبه وأجوبه.

والنقصانُ في مزارعهم، ولمن عدّ العصا واليدَ من التسع أن يعُدّ الأخيرين واحداً ولا يعُد الفلقَ لأنه لم يُبعث به إلى فرعون. أو اذهب في تسع آيات على أنه استئنافٌ بالإرسال فيتعلق به ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وعلى الأولَين يتعلق بنحو مبعوثاً أو مرسلاً ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال.

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ بأن جاءهم موسى بها ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينةً، اسمُ فاعل أُطلق للمفعول، وإشعاراً بأنها لِفَرْط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تُبصر نفسَها لو كانت مما يبصِر، أو ذاتَ تبصّر من حيث إنها تهدي، والعُميُ لا تهتدي فضلاً عن أن تهديَ، أو مبصرة كلَّ من نظر إليها وتأمل فيها. وقرىء مَبصَرة أي مكاناً يكثُر فيه التبصرُ ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضحٌ سِحريتُه.

(١٤) ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ وكذبوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ وقد استيقنتها لأن الواو للحال ﴿ظُلْمًا﴾ لأنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترفعاً عن الإيمان. وانتصابُهما على العلة من جحدوا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراقُ في الدنيا والإحراقُ في الآخرة.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ طائفةً من العلم وهو علمُ الحُكْم والشرائع، أو علماً أيَّ علم[1]. ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعضُ ما أتيا به في مقابلة هذه النعمةِ كأنه قال: ففعلا شكراً له ما فعلا وقالا الحمد لله ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من لم يُؤت علماً أو مثلَ علمهما، وفيه دليلٌ على فضل العلم وشرفِ أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساسَ الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من المُلك الذي لم يؤتَ غيرُهما، وتحريضٌ للعالم على أن يحمَد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضعَ ويعتقد أنه وإن فُضّل على كثير فقد فُضّل عليه كثير.

(١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ النبوةَ أو العلمَ أو الملكَ بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعةَ عشرَ ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ تشهيراً لنعمة الله وتنويهاً بها. ودعاءُ الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علمُ منطِق الطير وغيرُ ذلك من عظائمِ ما أوتيه، والنطقُ والمنطقُ في المتعارَف كلُّ لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً وقد يطلق لكل ما يصوِّت به على التشبيه، أو التبعُ كقولهم نطقت الحمامةُ ومنه الناطقُ والصامت للحيوان والجماد، فإن الأصواتَ الحيوانيةَ من حيث إنها تابعةٌ للتخيلات مُنَزَّلةٌ منزِلةَ العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما من جنسه، ولعل سليمان عليه الصلاة والسلام مهما سمع صوتَ حيوان علِم بقوته القُدسية التخيلَ الذي صوّته والغرضَ الذي توخاه به. ومن ذلك ما

(١) تصديره بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه (س٦/ ٢٧٦).

حُكي[١] أنه مر ببلبل يصوت ويترقص فقال: يقول إذا أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العفاءُ، وصاحت فاخِتةٌ فقال: إنها تقول ليت الخلقَ لم يُخلقوا، فلعله كان صوتُ البلبل عن شِبعٍ وفراغٍ بال، وصياحُ الفاختة عن مقاساة شدةٍ وتألم قلبٍ، والضمير في عُلِّمنا وأوتينا له ولأبيه عليهما الصلاة والسلام، أوله وحده على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة، والمراد من كل شيء كثرةُ ما أوتي كقولك: فلانٌ يقصِده كلُّ أحد ويعلم كلَّ شيء ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا يخفى على أحد.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن
قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ
وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

(١٧) ﴿وَحُشِرَ﴾ وجُمع ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبَسون بحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا[٢].

(١٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ وادٍ بالشام كثيرُ النمل، وتعديةُ الفعل إليه بعلى إما لأن إتيانَهم كان من عال أو لأن المرادَ قطْعُه، من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا أُخرَياتِ الوادي ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت عنهم مخافة حَطْمهم فتبعها غيرُها فصاحت صيحة نبهت بها ما بحضرتها من النمال فتبعتْها، فشُبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتِهم ولذلك أُجروا مُجراهم مع أنه لا يمتنع أن خلق الله سبحانه وتعالى فيها العقلَ والنطق ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهيٌ لهم عن الحطْم، والمرادُ نهيُها عن التوقف بحيث يحطِمونها كقولهم: لا أُرَيَنَّك ها هنا، فهو استئنافٌ أو بدل من الأمر لا جوابٌ له فإن النون لا تدخله في السعة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنهم يحطِمونكم إذ لو شعَروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمةَ الأنبياء من الظلم والإيذاء. وقيل استئناف أي فهمْ (سليمانُ والقوم) لا يشعرون.

(١٩) ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجباً من حذرها وتحذيرِها واهتدائها إلى مصالحها، وسروراً بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم غرضِها ولذلك سأل توفيق شكره ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي اجعلني أزَعُ شكر نعمتك عندي، أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه، وقرأ البزي وورش بفتح ياء أوزعني ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أدرج فيه ذكرَ والديه تكثيراً للنعمة أو تعميماً لها، فإن النعمةَ عليهما نعمة عليه والنعمةُ عليه يرجع نفعُها إليهما سيما الدينيةُ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ إتماماً للشكر واستدامةً للنعمة ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في عدادهم الجنةَ.

---

(١) هذه الحكاية عن كلام الطيور متلقاة من أهل الكتاب، وليس فيها نص صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ والبحث في هذا مما لا طائل تحته. والله أعلم.

(٢) وتقديم الجن على الإنس في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الأمر، لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير (س٦/ ٢٧٧).

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ
لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ
بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ وتعرّف الطير فلم يجد فيها الهدهد ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أم منقطعةٌ كأنه لما لم يرَه ظن أنه حاضرٌ ولا يراه لساتر أو غيره فقال: مالي لا أراه، ثم احتاط فلاح له أنه غائبٌ فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائبٌ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له.

(٢١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنتف ريشه وإلقائه في الشمس، أو حيث النملُ يأكله، أو جعلِه مع ضده في قفص. ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ لِيعتبرَ به أبناءُ جنسه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة تبيّن عذرَه، والحلِف في الحقيقة على أحد الأولَين بتقدير عدم الثالث، لكن لما اقتضى ذلك وقوعَ أحد الأمور الثلاثةِ ثلّث المحلوفَ عليه بعطفه عليهما، وقرأ ابن كثير أو ليأتينني بنونين الأولى مفتوحةٌ مشددة.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ زماناً غيرَ مديد يريد به الدِلالةَ على سرعة رجوعه خوفاً منه، وقرأ عاصم بفتح الكاف. ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يعني حال سبأ، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيهٌ له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به لتتحاقرَ إليه نفسه ويتصاغرَ لديه علمُه، وقرىء بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق. ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ﴾ وقرأ ابن كثير برواية البزي وأبو عمرو غيرَ مصروف على تأويل لقبيلة والبلدة، والقواس بهمزة ساكنة. ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ بخبر متحقَّق. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام بها ما شاء، ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكةَ صباحاً فوافى صنعاء ظَهيرةً فأعجبته نزاهةُ أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء ـ وكان الهدهدُ رائدَه لأنه يُحسن طلب الماء ـ فتفقده لذلك فلم يجده إذ حلق حين نزل سليمان فرأى هدهداً واقعاً فانحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له، ثم رجع بعد العصر وحكَى ما حكى، ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياءَ أعظمَ من ذلك يستكبرها من يعرِفها ويستنكرها من ينكرها.

(٢٣) ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بِلْقيسَ بنتَ شَراحيلَ بنِ مالك بن الريان، والضميرُ لسبأ أو لأهلها. ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ عِظَمُه بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها. وقيل كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عَرضاً وسَمْكاً، أو ثمانين من ذهب وفضة مكللاً بالجواهر.

(٢٤) ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كأنهم كانوا يعبدونها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عبادةَ الشمس وغيرَها من مقابح أعمالهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا
فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن
سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾

(٢٥) ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ فصدهم لئلا يسجدوا أو زين لهم أن لا يسجدوا على أنه بدل من أعمالَهم، أو لا يهتدون إلى أن يسجدوا بزيادة لا. وقرأ الكسائي ويعقوبُ ألا بالتخفيف على أنها للتنبيه ويا للنداء، ومناداه محذوف أي: ألا يا قومُ اسجُدوا كقوله:

وقَـالَـتْ أَلاَ يَـا اسْمَـعْ أَعِظْـكَ بِخُطَّـةٍ   فقُلْـتُ سَمِيعـاً فَـانْطِقِـي وَأَصِيبِـي

وعلى هذا صح أن يكون استئنافاً من الله أو من سليمانَ والوقفُ على لا يهتدون، فيكون أمراً بالسجود وعلى الأول ذماً على تركه وعلى الوجهين يقتضي وجوبَ السجود في الجملة لا عند قراءتها، وقرىء هَلاّ وهَلاَ بقلب الهمزة هاءً وألا تسجُدون وهلا تسجُدون على الخطاب ﴿ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وصفٌ له تعالى بما يوجب اختصاصَه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلمِ حثاً على سجوده ورداً على من يسجُد لغيره، والخَبءُ ما خفِيَ في غيره، وإخراجُه إظهارُه، وهو يعُم إشراقَ الكواكب وإنزالَ الأمطار وإنباتَ النبات بل الإنشاءَ فإنه إخراجُ ما في الشيء بالقوة إلى الفعل، والإبداعَ، فإنه إخراجُ ما في الإمكان والعدمِ إلى الوجوب والوجود، ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته. وقرأ حفصٌ والكسائي ما تخفون وما تعلنون بالتاء.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ الذي هو أولُ الأجرام وأعظمُها والمحيطُ بجملتها، فبين العظيمين بونٌ.

(٢٧) ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ﴾ سنعرِف، من النظر بمعنى التأمل ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي أم كذبت، والتغيير للمبالغة ومحافظة الفواصل.

(٢٨) ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ثم تنحّ عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما يرجع بعضُهم إلى بعض من القول.

(٢٩) ﴿قَالَتْ﴾ أي بعد ما أُلقيَ إليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ لكرم مضمونه أو مُرسِله، أو لأنه كان مختوماً أو لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقةً الأبوابَ فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به[1].

(٣٠) ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ استئنافٌ كأنه قيل لها ممن هو وما هو؟ فقالت إنه، أي إن الكتابَ أو العنوان من سليمان ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي وإن المكتوبَ أو المضمون وقرىء بالفتح على الإبدال من كتابٌ أو التعليلِ لكرمه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) لم يذكر فعلُ الهدهد وما أُمر به إيذاناً بكمال مسارعته إلى إقامة ما أمر به من الخدمة، وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره (س٦/ ٢٨٣).

أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ
نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

(٣١) ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ﴾ أنْ مفسرةٌ أو مصدريةٌ فتكون بصلتها خبرَ محذوفٍ أي هو، أو المقصودُ أن لا تعلوا، أو بدلٌ من كتابٌ ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو منقادين، وهذا كلامٌ في غاية الوجازة مع كمال الدِلالة على المقصود، لاشتماله على البسملة الدالةِ على ذات الصانع تعالى وصفاتِه صريحاً أو التزاماً، والنهْيِ عن الترفع الذي هو أمُّ الرذائل، والأمرُ بالإسلام الجامعِ لأمهات الفضائل، وليس الأمرُ فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاءً للتقليد فإن إلقاءَ الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة.

(٣٢) ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أجيبوني في أمري الفتي واذكُروا ما تستصوبون فيه[1] ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ ما أبتّ أمراً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ إلا بمَحضَركم. استعطفتْهم بذلك ليُمالئوها على الإجابة.

(٣٣) ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾ بالأجساد والعَدد ﴿وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ نجدةٍ وشجاعة ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ موكولٌ ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ من المقاتلة أو الصلح نُطِعْك ونتبَع رأيك.

(٣٤) ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً﴾ عُنوةً وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ تزييفٌ لِما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القُوى الذاتيةَ والعرضيةَ، وإشعارٌ بأنها ترى الصلحَ مخافةَ أن يتخطى سليمانُ خططَهم فيُسرعَ إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعِماراتهم، ثم إن الحربَ سِجالٌ لا تدري عاقبتها ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم إلى غير ذلك من الإهانة والأسر ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدٌ لِما وَصفت من حالهم وتقريرٌ بأن ذلك من عاداتهم الثابتةِ المستمرة، أو تصديقٌ لها من الله عز وجل.

(٣٥) ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ بيانٌ لِما ترى تقديمَه في المصالحة، والمعنى إني مرسلةٌ رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من حاله حتى أعمل بحسب ذلك. روي[2] أنها بعثت منذرَ بنَ عمرٍو في وفد وأرسلت معهم غلماناً على زِي الجواري وجواريَ على زي الغلمان، وحُقا فيه دُرةٌ عذراءُ وجزعة مُعْوجةَ الثُقب وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرةَ ثقباً مستوياً وسلك في الخَرْزة خيطاً، فلما وصلوا إلى معسكره ورأوا عظمةَ شأنه تقاصرت إليهم نفوسُهم، فلما وقفوا بين يديه وقد سبقهم جبريلُ بالحال فطلب الحق وأخبر عما فيه، فأمر الأَرَضَةَ فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأمر دودةً بيضاءَ فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة، ودعا بالماء فكانت الجاريةُ تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، والغلامُ كما يأخذه يضرِب به وجهه ثم رد الهدية.

---

(١) وكررت حكاية قولها (قالت) للإيذان بغاية اعتنائها بما في حيزه من قولها (س٦/ ٢٨٤).

(٢) هذه الرواية من الإسرائيليات. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٥).

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي الرسولُ أو ما أهدت إليه وقرىء فلما جاؤوا ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ خطابٌ للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسِل على تغليب المخاطب. وقرأ حمزةُ ويعقوبُ بالإدغام، وقرىء بنون واحدة وبنونين وحذفِ الياء. ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوة والمُلك الذي لا مزيدَ عليه، وقرأ نافعٌ وأبو عمْرٍو وحفصٌ بفتح الياء والباقون بإسكانها، وبإمالتها الكسائيُّ وحده ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ فلا حاجةَ لي إلى هديتكم ولا وقعَ لها عندي ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما يُهدى إليكم حباً لزيادة أموالكم، أو بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم، والإضرابُ عن إنكار الإمدادِ بالمال عليه وتقليلِه إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو قياسُ حاله على حالهم في قصور الهِمة بالدنيا والزيادة فيها.

(٣٧) ﴿ٱرْجِعْ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بِلْقيسَ وقومها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقةَ لهم بمقاومتها ولا قدرةَ لهم على مقابلتها وقرىء بهم. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ من سبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أُسَراءُ مهانون.

(٣٨) ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ أراد بذلك أن يُريَها بعضَ ما خصه الله تعالى به من العجائب الدالةِ على عِظَم القدرة وصدقِه في دعوى النبوة، ويختبرَ عقلَها بأن ينكّر عرشَها فينظُرَ أتعرِفه أم تُنكره. ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فإنها إذا أتت مسلمةً لم يحِل أخذُه إلا برضاها.

(٣٩) ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ خبيثٌ مارد ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ بيانٌ له لأنه يقال للرجل الخبيثِ المنكَرِ المعفِّرِ أقرانَه، وكان اسمُه ذكوانَ أو صخراً ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف النهار، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ لا أَختزل منه شيئاً ولا أبدله.

(٤٠) ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ آصفُ بنُ برخيا وزيرُه، أو الخِضْرُ أو جبريلُ عليهما السلام أو ملَكٌ أيده الله به[1]، أو سليمانُ عليه السلام نفسُه فيكون التعبيرُ عنه بذلك للدِلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامةَ كانت بسببه، والخطاب في: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعِفريت كأنه استبطأه فقال له ذلك، أو أراد إظهارَ معجزة في نقله فتحداهم أولاً ثم أراهم أنه يتأتى له مالا يتأتى لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم، والمرادُ بالكتاب جنسُ الكتب المنزلةِ أو اللوحُ، وآتيك في الموضعين صالحٌ

(١) انظر هذه الأقوال في «جامع البيان» (١١/ج١٩/١٦٢ ـ ١٦٣) و«زاد المسير» (٦/ ١٧٥) و«الدر المنثور» (٦/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).

للفعلية والاسمية، والطرفُ تحريكُ الأجفان للنظر فوُضع موضِعَه، ولما كان الناظرُ يوصف بإرسال الطرف كما في قوله:

وكُنْـتَ إِذَا أَرْسَلْـت طَـرْفَـكَ رَائِـداً لِقَلْبِـكَ يَـوْمـاً أَتْعَبَتْـكَ المَنَـاظِـرُ

وُصف برد الطرف والطرفُ بالارتداد، والمعنى أنك تُرسل طرْفَك نحو شيء فقبل أن ترُدّه أُحضِر عرشَها بين يديك، وهذا غايةٌ في الإسراع ومثلٌ فيه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي العرشَ ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ حاصلاً بين يديه ﴿قَالَ﴾ تلقياً للنعمة بالشكر على شاكلة المخلِصين من عباد الله تعالى ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ تفضّل به عليَّ من غير استحقاق، والإشارةُ إلى التمكن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرفِ من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره، والكلامُ في إمكان مِثْله قد مر في آية الإسراء ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه فضلاً من الله تعالى بلا حولٍ مني ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجدَ نفسي في البين، أو أقصرَ في أداء مواجبه ومحلُّها النصبُ على البدل من الياء ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنه به يَستجلِب لها دوامَ النعمة ومزيدَها ويحط عنها عِبءَ الواجب ويحفظها عن وصمة الكفران ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بالأنعام عليه ثانياً.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

(٤١) ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ بتغيير هيئته وشكلِه ﴿نَنظُرْ﴾ جوابُ الأمر، وقرىء بالرفع على الاستئناف ﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته أو الجوابِ الصوابِ، وقيل إلى الإيمان بالله ورسولِه إذا رأت تقدُّم عرشِها وقد خلّفتْه مغلِقةً عليه الأبوابَ موكَّلةً عليها الحراسَ.

(٤٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ تشبيهاً عليها زيادةً في امتحان عقلها إذْ ذُكرت عنده بسخافة العقل ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ ولم تقل هو هو لاحتمال أن يكون مثلَه وذلك من كمال عقلها ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبارَ عقلها وإظهارَ معجزة لها فقالت: وأوتينا العلمَ بكمال قدرة الله وصِحةِ نبوتك قبل هذه الحالة، أو المعجزة مما تقدم من الآيات. وقيل إنه من كلام سليمانَ عليه السلام وقومه، وعطفوه على جوابها لِما فيه من الدِلالة على إيمانها بالله ورسولِه حيث جوّزت أن يكون ذلك عرشَها تجويزاً غالباً، وإحضارُه ثَمّةَ من المعجزات التي لا يقدِر عليها غيرُ الله تعالى ولا تظهر إلا على يد الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، أي وأوتينا العلمَ بالله وقدرتِه وصحةِ ما جاء به عنده قبلَها وكنا منقادين لحكمه ولم نَزَل على دينه، ويكون غرضُهم فيه التحدثَ بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكراً لله تعالى.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وصدها عبادتُها الشمسَ عن التقدم إلى الإسلام، أو وصدّها الله عن عبادتها بالتوفيق للإيمان. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ وقرىء بالفتح على الإبدال من فاعل صدها على الأول، أي صدها نُشوُّها بين أظهُر الكفار، أو التعليلِ له.

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ
صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ
لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٤) ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ القصرَ وقيل عَرصةُ الدار ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ روي أنه أَمر قبل قدومها ببناء قصر صحنُه من زجاج أبيضَ وأجرىٰ من تحته الماءَ وألقى فيه حيواناتِ البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقيها. وقرأ ابنُ كثير برواية قنبلَ سأْقيها بالهمز حملاً على جمعه سُؤوق وأسْؤُق. ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ إن ما تظنينه ماءً ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي الشمسَ، وقيل بظني بسليمانَ فإنها حسِبت أنه يُغرقها في اللُّجّة. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيما أمر به عبادَه، وقد اختُلف في أنه تزوجها أو زوجها من ذي تُبّع ملِكِ همْدانَ.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ بأن اعبدوا الله، وقرىء بضم النون على إتباعها الباءَ ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ففاجؤوا التفرقَ والاختصامَ فآمن فريقٌ وكفر فريق، والواوُ لمجموع الفريقين.

(٤٦) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة فتقولون ائتنا بما تعدنا ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة فتؤخرونها إلى نزول العقاب فإنهم كانوا يقولون إنْ صدق إيعادُه تُبْنا حينئذ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ قبل نزوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبولها فإنها لا تقبل حينئذ.

(٤٧) ﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا﴾ تشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ إذ تتابعت علينا الشدائدُ، أو وقع بيننا الافتراقُ منذ اخترعتم دينَكم ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ سببُكم الذي جاء منه شرُّكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قدَرُه أو عملُكم المكتوبُ عنده ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء، والإضرابُ من بيان طائرهم الذي هو مبدأُ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

(٤٨) ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعةُ أنفسٍ، وإنما وقع تمييزاً للتسعة باعتبار المعنى، والفرقُ بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة. ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنُهم الإفسادُ الخالصُ عن شوب الصلاح.

---

(١) هذه الرواية من الإسرائيليات وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر بعض المرويات في ذلك (٣/٣٧٨ ـ ٣٧٩) «والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة، عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم... من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة» هـ.

قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا
دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ
ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

(٤٩) ﴿قَالُواْ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أمرٌ مَقول أو خبرٌ وقع بدلاً أو حالاً بإضمار قد ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ لَنُباغِتن صالحاً وأهلَه ليلاً. وقرأ حمزةُ والكسائيُ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض، وقرىء بالياء على أن تقاسموا خبر ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ فيه القراءاتُ الثلاثُ ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ لولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ فضلاً أن تَولّينا إهلاكَهم، وهو يحتمل المصدرَ والزمانَ والمكانَ وكذا مهلِكَ في قراءة حفصٍ فإن مفعِلاً قد جاء مصدراً كمرجع. وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ ونحلِف إنا لصادقون، أو والحالُ إنا لصادقون فيما ذكرنا لأن الشاهدَ للشيء غيرُ المباشِر له عُرفاً، أو لأنا ما شهِدْنا مهلِكَهم وحده بل مهلِكَه ومهلِكَهم كقولك ما رأيت ثَمةَ رجلاً بل رجلين.

(٥٠) ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ بهذه المواضعة ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، روي أنه كان لصالح في الحِجْر مسجدٌ في شِعْب يصلي فيه فقالوا: زعم أنه يفرُغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشِعْب ليقتلوه، فوقع عليهم صخرةٌ حيالهم فطبّقتْ عليهم فمَ الشِعْب فهلكوا ثَمةَ وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أشار إليه قوله:

(٥١) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكان إن جُعلت ناقصةً فخبرُها كيف وإنا دَمَّرْنَاهُمْ استئنافٌ أو خبرٌ محذوفٌ لا خبرُ كان لعدم العائد، وإن جعلتها تامةً فكيف حال. وقرأ الكوفيون ويعقوبُ أنا دمرناهم بالفتح على أنه خبرُ محذوفٍ أو بدلٌ من اسم كان أو خبرٌ له وكيف حال.

(٥٢) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ خاليةً من خَوى البطنُ إذا خلا، أو ساقطةً منهدمةً من خوى النجمُ إذا سقط، وهي حالٌ عمِل فيها معنى الإشارة. وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوف ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ بسبب ظلمهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتعظون.

(٥٣) ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صالحاً ومن معه ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الكفرَ والمعاصيَ فلذلك خُصّوا بالنجاة.

(٥٤) ﴿وَلُوطًا﴾ واذكر لوطاً، أو وأرسلنا لوطاً لدِلالة ولقد أرسلنا عليه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ بدلٌ على الأول وظرفٌ على الثاني ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون فُحشَها، مِنْ بصَرِ القلب، واقترافُ القبائح من العالِم بقُبحها أقبحُ، أو يبصرها بعضُكم من بعض لأنهم كانوا يُعلنون بها فتكون أفحشَ.

(٥٥) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بيانٌ لإتيانهم الفاحشةَ، وتعليلُه بالشهوة للدِلالة على قُبحه، والتنبيهُ على أن الحكمةَ في المواقعة طلبُ النسل لاقضاءُ الوطر. ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللاتي خُلقْن لذلك

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فِعلَ من يجهل قبحَها، أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبيح، أو تجهلون العاقبةَ، والتاءُ فيه لكون الموصوف به في معنى المخاطب.

۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

(٥٦) ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا، أو عن الأقذار ويعُدّون فِعلَنا قذراً.

(٥٧) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ قدّرنا كونَها من الباقين في العذاب.

(٥٨) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مر مثلُه.

(٥٩) ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ أمر رسولَه ﷺ ـ بعدما قص عليه القِصصَ الدالةَ على كمال قدرته وعِظَم شأنه وما خَص به رسلَه من الآيات الكبرى والانتصار من العِدا ـ بتحميده والسلامِ على المصطَفَينَ من عباده شكراً على ما أنعم عليهم، أو عِلْمِه ما جَهِل من أحوالهم وعرفاناً لفضلهم وحقِ تقدمهم واجتهادِهم في الدين، أو لوطاً بأن يحمَدَه على هلاك كفَرة قومه ويسلّمَ على من اصطفاه بالعِصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلزامٌ لهم وتهكّمٌ بهم وتسفيه لرأيهم، إذ من المعلوم أنْ لا خيرَ فيما أشركوه رأساً حتى يُوازَن بينه وبين من هو مبدأُ كل خير. وقرأ أبو عمْرو وعاصمٌ ويعقوبُ بالتاء.

(٦٠) ﴿أَمَّنْ﴾ بل أَمَنْ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي أصولُ الكائنات ومبادىءُ المنافع. وقرىء أمَن بالتخفيف على أنه بدلٌ من الله ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ لأجلكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ عدلَ به من الغَيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاصِ الفعل بذاته، والتنبيهِ على أن إنباتَ الحدائق البهيةِ المختلفةِ الأنواع المتباعدةِ الطباع من المواد المتشابهةِ لا يقدِر عليه غيرُه كما أشار إليه بقوله ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ شجرَ الحدائق وهي البساتينُ من الإحداق وهو الإحاطة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أغيرُه يُقرن به ويُجعل له شريكاً، وهو المنفردُ بالخلق والتكوين. وقرىء أإلهاً بإضمار فعلٍ مثلُ أتدعون أو أتشركون وبتوسيط مدةٍ بين الهمزتين وإخراجِ الثانية بينَ بينَ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ عن الحق الذي هو التوحيد.

(٦١) ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدل من أمَن خلق السمواتِ وجعلها قراراً بإبداء بعضها من الماء وتسويتِها بحيث يتأتى استقرارُ الإنسان والدوابُّ عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ وسَطها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ جاريةً

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً تتكون فيها المعادنُ وتنبع من حضيضها المنابعُ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح، أو خليجَيْ فارسَ والروم ﴿حَاجِزًا﴾ برزخاً وقد مر بيانه في سورة الفرقان ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيشركون به.

أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا
اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطرُ الذي أحوجه شدةُ ما به إلى اللجوء إلى الله تعالى من الاضطرار، وهو افتعالٌ من الضرورة، واللامُ فيه للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابةُ كل مضطر. ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوؤه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ خلفاءَ فيها بأن ورّثكم سُكناها والتصرفَ فيها ممن قبلكم ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ الذي خصكم بهذه النعمِ العامةِ والخاصة ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكرون آلاءَه تذكراً قليلاً، وما مزيدةٌ والمرادُ بالقلة العدمُ أو الحقارةُ المُزيحةُ للفائدة. وقرأ أبو عمْرٍو وهشامٌ وروح بالياء، وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بالتاء وتخفيف الذال(1).

(٦٣) ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم وعلاماتِ الأرض، والظلماتُ ظلماتُ الليالي، وإضافتُها إلى البر والبحر للملابسة، أو مشْتبِهاتُ الطرق، يقال طريقةٌ ظلماءُ وعمياءُ للتي لا منارَ بها ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني المطر، ولو صح أن السببَ الأكثرَ في تكوّن الرياح مُعاودةُ الأدخنةِ الصاعدة من الطبقة الباردةِ لانكسار حرّها وتمويجِها الهواءَ فلا شك أن الأسبابَ الفاعليةَ والقابليةَ لذلك من خلْق الله تعالى، والفاعلُ للسبب فعلَ المُسبَّب. ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يقدر على مثل ذلك. ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعالى الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق.

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ والكفرةُ وإن أنكروا الإعادةَ فهم محجوجون بالحُجج الدالةِ عليها ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بأسباب سماويةٍ وأرضية ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على أن غيرَه يقدِر على شيء من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إشراككم فإن كمالَ القدرة من لوازم الألوهية.

(٦٥) ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لمّا بين اختصاصَه تعالى بالقُدرة التامة الفائقةِ العامةِ أتبعه ما هو كاللازم له، وهو التفردُ بعلم الغيب، والاستثناءُ منقطعٌ، ورفعُ المستثنى على اللغة التميميةِ للدِلالة على أنه تعالى إن كان ممن في السموات والأرض ففيها مَن يعلم الغيبَ مبالغةً في نفيه

(١) وفي تذييل الكلام بنفي التذكر عنهم إيذان بأن مضمونه مركوز في ذهن كل ذكي وغبي وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره (س٦/ ٢٩٥).

عنهم، أو متصلٌ على أن المرادَ ممن في السموات والأرض مَن تعلق علمُه بها واطلع عليها اطلاعَ الحاضر فيها، فإنه يعُم الله تعالى وأولي العلم من خلقه وهو موصولٌ أو موصوف ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متى يُنشرون، مركبةٌ من أيّ وآن، وقُرئت بكسر الهمزة والضميرُ لمن وقيل للكفرة.

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ لما نفىٰ عنهم علمَ الغيب وأكد ذلك بنفي شعورهم بما هو مآلُهم لا محالة بالغة فيه، بأن أضرب عنه وبين أن ما انتهى وتكامل فيه أسبابُ علمهم من الحُجج والآيات وهو أن القيامةَ كائنةٌ لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ كمن تحير في الأمر لا يجد عليه دليلاً ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ لا يدركون دلائلَها لاختلال بصيرتهم، وهذا وإن اختَص بالمشركين ممن في السموات والأرض نسُب إلى جميعهم كما يُسند فِعلُ البعض إلى الكل، والإضراباتُ الثلاثُ تنزيلٌ لأحوالهم، وقيل الأولُ إضرابٌ عن نفي الشعور بوقت القيامة عنهم إلى وصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً بهم، وقيل ادارك بمعنى انتهى واضمحلّ من قولهم أدركت الثمرةُ لأن تلك غايتُها التي عندها تعدَم. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بل ادّارك بمعنى تتابع حتى استحكم، أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك، وأبو بكر ادّرك وأصلهما تفاعل وافتعل. وقرىء أأدّرَك بهمزتين وآادّرك بألفٍ بينهما، وبل أدّرك، وبل تدارك وبلى أأدّرك وبلى أأدرك وأم ادّراك أو تدارك، وما فيه استفهامٌ صريح أو مُضمّن من ذلك فإنكارٌ، وما فيه بلى فإثباتٌ لشعورهم وتفسيرٌ له بالادِّراك على التهكم، وما بعده إضرابٌ عن التفسير مبالغةً في نفيه ودَلالةً على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عَمونَ، أوْ ردٌّ وإنكارٌ لشعورهم.

(٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ كالبيان لِعَمَههم، والعاملُ في إذا ما دل عليه أئنا لمخرجون، وهو نُخرج لا مُخرجون لأن كلاً من الهمزة وإنّ واللامِ مانعةٌ من عمله فيما قبلها، وتكريرُ الهمزة للمبالغة في الإنكار، والمراد بالإخراج الإخراجُ من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة، وقرأ نافع إذا كنا بهمزة واحدة مكسورة، وقرأ ابن عامر والكسائي إننا لمخرجون بنونين على الخبر.

(٦٨) ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ من قبل وعْد محمد ﷺ، وتقديمُ هذا على نحن لأن المقصودَ بالذكر هو البعثُ وحيث أُخر فالمقصودُ به المبعوث ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ التي هي كالأسمار.

(٦٩) ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تهديدٌ لهم على التكذيب وتخويفٌ بأن ينزل بهم مثلُ ما نزل بالمكذبين قبلهم، والتعبيرُ عنهم بالمجرمين ليكون لطفاً بالمؤمنين في ترك الجرائم.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

(٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذيبهم وإعراضهم ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ في حرَج صدرٍ، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد وهما لغتان، وقرىء ضيّق أي أمرٍ ضيق ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم فإن الله يعصِمك من الناس.

(٧١) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ العذابُ الموعود ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ تبِعكم ولحِقكم، واللامُ مزيدةٌ للتأكيد، أو الفعلُ مضمّنٌ معنى فعّل يتعدىٰ باللام مثل دنا. وقرىء بالفتح وهو لغة فيه[1] ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حلولَه وهو عذابُ يوم بدر، وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يُطلقونها إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمزَ منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرىٰ وعدُ الله تعالى ووعيدُه.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لتأخير عقوبتهم على المعاصي، والفضلُ والفاضلةُ الأفضال وجميعُها فضولٌ وفواضلُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرِفون حقَّ النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعَه.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تُخفيه وقرىء بفتح التاء من كَنَنْتُ أي سترت ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عداوتك فيجازيهم عليه.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خافيةٍ فيهما، وهما من الصفات الغالبة والتاءُ فيهما للمبالغة كما في الراوية، أو اسمانِ لِما يغيب ويخفىٰ كالتاء في عافية وعاقبة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بيّن، أو مُبيِّنٍ ما فيه لمن يطالعه، والمراد اللوحُ أو القضاءُ على الاستعارة.

(٧٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتشبيه والتنزيهِ وأحوالِ الجنة والنار وعُزيرٍ والمسيح.

(٧٧) ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ بين بني إسرائيلَ ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ بما يحكم به وهو الحقُّ، أو بحكمته ويدل عليه أنه قرىء بحُكمه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضي فيه وحُكمِه.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تُبالِ بمعاداتهم ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وصاحبُ الحق حقيقٌ بالوثوق بحفظ الله ونصره.

---

١) وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسىٰ أن يردفكم... لكونه أدل على تحقق الوقوع (س٦/٢٩٨).

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ
إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تعليلٌ آخرُ للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طمعَه عن مشايعتهم ومعاضَدتهم رأساً، وإنما شُبِّهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم، كما شُبّهوا بالصُمّ في قوله ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ فإن إسماعَهم في هذه الحالة أبعدُ. وقرأ ابن كثير ولا يَسمع الصُمّ.

(٨١) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ حيث الهدايةُ لا تحصُل إلا بالبصر. وقرأ حمزةُ وحده: وما أنت تَهدي العُمي ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما يُجدي إسماعُك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من هو في علم الله كذلك ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون، مِن أسلم وجهه لله[1].

(٨٢) ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دنا وقوعُ معناه وهو ما وُعدوا به من البعث والعذاب[2] ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الجَسّاسة، روي[3] أن طولها ستون ذراعاً ولها أربعُ قوائمَ وزَغَبٌ وريشٌ وجناحان، لا يفوتها هارب ولا يُدركها طالب. وروي[4] أنه عليه الصلاة والسلام سُئل من أين مخرجُها فقال: «من أعظم المساجد حرمةً على الله» يعني المسجدَ الحرام ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلام، وقيل من الكَلْم إذ قرىء تَكْلِمُهم. وروي[5] أنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتمُ سليمانَ عليهما الصلاة والسلام، فتنكُت بالعصا في مسجد المؤمن نُكتةً بيضاءَ فيبيض وجهُه، وبالخاتم في أنف الكافر نكتةً سوداءَ فيسودّ وجهه ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ خروجِها وسائرِ أحوالها فإنها من آيات الله تعالى. وقيل القرآنُ، وقرأ الكوفيون أن الناس بالفتح ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يتيقنون، وهو حكايةُ معنى قولِها أو حكايتها لقول الله عز وجل أو علة خروجها، أو تَكلُّمِها على حذف الجار.

(٨٣) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ يعني يوم القيامة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيانٌ للفوج أي فوجاً مكذّبين، ومِن الأولى للتبعيض لأن أمةَ كلِّ نبي وأهلَ كل قرن شاملٌ للمصدقين والمكذبين ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو عبارةٌ عن كثرة عددِهم وتباعُد أطرافهم.

---

(١) وإيراد الإسماع في النفي والإثبات دون الهداية لأن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية (س٦/ ٣٠٠).

(٢) عبر عن الساعة بالقول لأنه مصداق للقول الناطق بمجيئها، وعبر عنه بالوقوع للإيذان بشدة وقعها وتأثيرها (س٦/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/ ١٥) عن حذيفة مرفوعاً وقال عنه ابن كثير (٣/ ٣٨٧): «إسناده لا يصح».

(٤) أخرجه ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد أراه رفعه ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/ ١٥) عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً وإسناده لا يصح كما قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٨٧).

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟
فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾
وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى المحشر ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال أي أكذبتم بها باديءَ الرأي غيرَ ناظرين فيها نظراً يُحيط علمُكم بكنهها وأنها حقيقةٌ بالتصديق أو التكذيب، أو للعطف أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدمِ إلقاءِ الأذهان لتحققها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أم أيُّ شيء كنتم تعملونه بعد ذلك، وهو للتبكيت إذ لم يفعلوا غيرَ التكذيب من الجهل فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا غير ذلك.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ حل بهم العذابُ الموعودُ وهو كبُّهم في النار بعد ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بسبب ظلمهم وهو التكذيبُ بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ باعتذارٍ لشُغلهم بالعذاب.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ليتحقق لهم التوحيدُ ويرشدَهم إلى تجويز الحشر وبعثةِ الرسل، لأن تعاقبَ النور والظُّلمةِ على وجه مخصوص غيرِ متعيِّنٍ بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهر، وأن من قدَر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قدَر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان، وأن من جعل النهار لِيُبصروا فيه سبباً من أسباب معاشهم لعله لا يُخِلّ بما هو مناطُ جميع مصالحهم في معاشهم ومَعادِهم ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بالنوم والقرار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإن أصله ليُبصِروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المجعولِ عليها بحيث لا ينفك عنها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لدِلالتها على الأمور الثلاثة.

(٨٧) ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ في الصور أو القَرن، وقيل إنه تمثيلٌ لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نُفخ في البوق. ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الهول. وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يفزَعَ بأن يُثبِّت قلبه. قيل هم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وعزرائيلُ، وقيل الحورُ والخَزَنةُ وحملةُ العرش، وقيل الشهداء، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام لأنه صُعق مرة، ولعل المرادَ ما يعم ذلك. ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ حاضرون الموقفَ بعد النفخة الثانية، أو راجعون إلى أمره، وقرأ حمزةُ وحفصٌ أتوه على الفعل، وقرىء أتاه على التوحيد للفظ الكل ﴿دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين وقرىء دَخِرين.

(٨٨) ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ ثابتةً في مكانها ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ في السرعة، وذلك لأن الأجرامَ الكبارَ إذا تحركت في سمْتٍ واحد لا تكاد تَبين حركتُها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لنفسه وهو لمضمون الجملة المتقدمةِ كقوله ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾[1] ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أحكم خلقَه وسوّاه على ما ينبغي ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ عالمٌ بظواهر الأفعال وبواطنِها فيجازيكم عليها كما قال:

---

(١) الروم: ٦.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ
أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(٨٩) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ إذ ثبت له الشريفُ بالخسيس والباقي بالفاني وسبعُمائة بواحدة، وقيل خيرٌ منها أي خيرٌ حاصل من جهتها وهو الجنة، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمْرٍو وهشام خبير بما يفعلون بالياء والباقون بالتاء ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ يعني به خوفَ عذاب يوم القيامة، وبالأول ما يلحق الإنسانَ من التهيب لِما يرى من الأهوال والعظائم لذلك يعمُّ الكافرَ والمؤمنَ، وقرأ الكوفيون بالتنوين لأنَّ المرادَ فزَعٌ واحدٌ من أفزاع ذلك اليوم، وآمنَ يتعدَّى بالجارِّ وبنفسه كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾[1]. وقرأ الكوفيون ونافعٌ يومَئذ بفتحِ الميم والباقون بكسْرِها.

(٩٠) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيلَ بالشركِ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فكُبّوا فيها على وجوهِهم، ويجوزُ أنْ يُرادَ بالوجوهِ أنفسُهم كما أُرِيدَتْ بالأيدي في قوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[2] ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الالتفاتِ أو بإضمارِ القولِ أي قيلَ لهم ذلك.

(٩١) ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أُمِرَ الرسولُ ﷺ بأنْ يقولَ لهم ذلك بعدَما بيَّن المبدأَ والمعادَ وشرحَ أحوالَ القيامةِ، إشعاراً بأنه قد أتمَّ الدعوةَ وقد كمُلَتْ وما عليه بعدُ إلا الاشتغالُ بشأنه والاستغراقُ في عبادة ربِّه، وتخصيصُ مكّةَ بهذه الإضافةِ تشريفٌ لها وتعظيمٌ لشأنها. وقُرِىءَ التي حرَّمها. ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ خلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين أو الثابتين على ملة الإسلام.

(٩٢) ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وأنْ أواظِبَ على تلاوتهِ لتنكشِفَ لي حقائقُه في تلاوته شيئاً فشيئاً، أو اتباعِه وقرىء واتلُ عليهم وأنِ اتلُ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتباعِهِ إيايَ في ذلك ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فإنَّ منافعَه عائدةٌ إليه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بمخالفتي ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فلا عليَّ مِن وَبالِ ضلالِه شيءٌ إذْ ما على الرسولِ إلا البلاغُ وقد بلّغتُ.

(٩٣) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمةِ النبوّةِ أو على ما علّمني ووفّقني للعملِ به. ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرةَ في الدنيا كوقعةِ بدرٍ وخروجِ دابّةِ الأرض، أو في الآخرة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أنها آياتُ اللهِ ولكنْ حينَ لا تنفعُكمُ المعرفةُ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تحسَبوا أنَّ تأخيرَ عذابِكم لغفلتِهِ عن أعمالِكم. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمْرو وحمزةُ والكسائيُّ بالياءِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورة طَس كان له من الأجر عشرُ

(١) الأعراف: «٩٩».
(٢) البقرة: «١٩٥».

حسناتٍ بعددِ مَنْ صدَّقَ سليمانَ وكذَّبَ به وهوداً وصالحاً وإبراهيمَ وشعيباً، ويَخْرُجُ من قبرهِ وهو ينادي لا إله إلا اللهُ»[١].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي، وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٦ رقم ١٣٠) وتقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

فهرس السور

اسم السورة	رقم الصفحة
تفسير سورة الأنفال	٥
تفسير سورة التوبة	٣٥
تفسير سورة يونس	٨٨
تفسير سورة هود	١٢٠
تفسير سورة يوسف	١٥٧
تفسير سورة الرعد	١٩٥
تفسير سورة إبراهيم	٢١٣
تفسير سورة الحجر	٢٣٣
تفسير سورة النحل	٢٥١
تفسير سورة الإسراء	٢٨٩
تفسير سورة الكهف	٣٢٦
تفسير سورة مريم	٣٥٩
تفسير سورة طه	٣٨٢
تفسير سورة الأنبياء	٤١٢
تفسير سورة الحج	٤٣٧
تفسير سورة المؤمنون	٤٦٢
تفسير سورة النور	٤٨٤
تفسير سورة الفرقان	٥١٢
تفسير سورة الشعراء	٥٣٤
تفسير سورة النمل	٥٥٩ ـ ٥٧٨

☆ ☆ ☆

فهرس الأجزاء

سورة الأنفال بقية جـ/ ٩/ ٥
سورة الأنفال جـ/ ١٠/ ٢١
سورة التوبة جـ/ ١١/ ٧٣
سورة هود جـ/ ١٢/ ١٢١
سورة يوسف جـ/ ١٣/ ١٧٨
سورة الحجر جـ/ ١٤/ ٢٣٣
سورة الإسراء جـ/ ١٥/ ٢٨٩
سورة الكهف جـ/ ١٦/ ٣٤٩
سورة الأنبياء جـ/ ١٧/ ٤١٢
سورة المؤمنون جـ/ ١٨/ ٤٦٢
سورة الفرقان جـ/ ١٩/ ٥١٨
سورة النمل جـ/ ٢٠/ .... ٥٧١ ـ ٥٧٨

☆ ☆ ☆

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمى

تفسير البيضاوي

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش

المجلد الثالث

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمى

تفسير البيضاوي

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش

المجلد الثالث

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حققه وعلق عليه وخرّج أحاديثه وضبط نصّه

محمد صبحي بن حسن حلاق و الدكتور محمود أحمد الأطرش

المجلّد الثالث

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ القَصَص
تربيتها ٢٨ آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ
وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

سورةُ القصص مكيةٌ[١]

وقيل إلا قولَه تعالى الذين آتيناهم الكتابَ إلى قوله لا نبتغي الجاهلين وهي ثمانٍ وثمانون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طسٓمٓ﴾.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

(٣) ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ نقرؤه بقراءة جبريلَ، ويجوز أنْ يكونَ بمعنى ننزِّلُه مجازاً ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ بعضِ نبئِهما، مفعولُ نتلو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُحقِّينَ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفِعون به.

(٤) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ مبينٌ لذلك البعضِ، والأرضُ أرضُ مِصرَ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٩) و«زاد المسير» (٦/ ٢٠٠).

﴿شِيَعًا﴾ فِرَقاً يُشيعونه فيما يريدُ، أو يشيعُ بعضُهم بعضاً في طاعته، أو أصنافاً في استخدامِه استُعْمِل كلُّ صِنفٍ في عملٍ، أو أحزاباً بأنْ أغرى بينَهم العداوةَ كي لا يتَّفِقُوا عليه ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيلَ، والجملةُ حالٌ من فاعلِ جَعَلَ، أو صفةٌ لشيعاً أو استئنافٌ، وقولُه ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بدلٌ منها، كان ذلك لأنَّ كاهناً قال له يولدُ مولودٌ في بني إسرائيلَ يَذهبُ مُلكُك على يده، وذلك كان من غايةِ حَمَقِهِ فإنه لو صَدَقَ لم يندفعْ بالقتلِ وإن كذَب فما وجهُه؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فلذلك اجترأ على قتلِ خلقٍ كثيرٍ من أولادِ الأنبياءِ لِتخيُّلٍ فاسدٍ.

(٥) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنْ نتفضَّلَ عليهم بإنقاذِهم من بأسِه، ونريدُ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ معطوفةٍ على (إن فرعونَ علا في الأرض) من حيثُ إنَّهما واقعانِ تفسيراً للنبأ، أو حالٌ مِنْ يستضعفُ ولا يلزمُ من مقارنةِ الإرادة للاستضعافِ مقارنةُ المرادِ له، لجوازِ أنْ يكونَ تعلُّقُ الإرادةِ به حينئذٍ تعلُّقاً استقبالياً مع أنَّ مِنَّةَ الله بخلاصِهم لمّا كانتْ قريبةَ الوقوعِ منه جازَ أنْ تجريَ مَجْرىٰ المقارَنِ ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ مقدَّمين في أمرِ الدين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لِما كان في مُلك فرعونَ وقومِه.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ والشام، وأصلُ التمكينِ أنْ تجعلَ للشيء مكاناً يتمكَّنُ فيه ثم استُعيرَ للتسليط وإطلاقِ الأمن ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ من بني إسرائيلَ ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من ذهابِ مُلكهم وهلاكِهم على يدِ مولودٍ منهم. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويرىٰ بالياءِ وفرعونُ وهامانُ وجنودُهما بالرفعِ.

(٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهامٍ أو رؤيا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمْكَنكِ إخفاؤُه. ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يُحَسَّ به. ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحرِ يريد النيلَ. ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه ضَيعةً ولا شِدَّةً ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لفراقِه. ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريبٍ بحيثُ تأمنينَ عليه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ رُويَ أنَّها لما ضرَّ بها الطلقُ دعتْ قابلةً من الموكَّلاتِ بحَبَالى بني إسرائيلَ فعالجتْها، فلما وقعَ موسى على الأرض هالها نورٌ بين عينيه وارتعشتْ مفاصِلُها ودخلَ حبُّه في قلْبها بحيثُ منعها من السِّعاية، فأرضعتْه ثلاثةَ أشهرٍ ثم ألحَّ فرعونُ في طلبِ المواليدِ واجتهدَ العيونُ في تفحُّصِها فأخذتْ له تابوتاً فقذفتْه في النيلِ.

(٨) ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ تعليلٌ لالتقاطِهم إياهُ بما هو عاقبتُه ومؤدَّاه تشبيهاً له بالغرضِ الحامل عليه. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحُزْنا. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟

﴿خَـٰطِـِٔينَ﴾ في كلِّ شيء فليسَ بِبِدْعٍ منهم أنْ قتلُوا ألوفاً لأجلِه ثمَّ أخذوه يربُّونه ليكبَرَ ويفعلَ بهم ما كانوا يحذَرون، أو مذنبينَ فعاقبهم اللهُ تعالى بأنْ ربَّى عدوَّهم على أيديهم، فالجملةُ اعتراضٌ لتأكيدِ خَطَئِهم أو لبيانِ الموجبِ لما ابتُلوا به، وقُرِىءَ خاطِيْنَ تخفيفُ خاطِئينَ أو خاطين الصوابَ إلى الخطأ.

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا
لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ أي لفرعونَ حين أخرجتْه من التابوتِ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ هو قرَّةُ عينٍ لنا لأنهما لما رأياه أُخرِجَ من التابوتِ أحبَّاه، أو لأنه كانتْ له ابنةٌ برصَاءُ وعالجها الأطباءُ بريقِ حيوانٍ بحريٍّ يشبه الإنسانَ فلطَّختْ برصَها بريقه فبرئَتْ، وفي الحديث أنه قال: لكِ لا لي[1]. ولو قال هو لي كما هو لك لهداهُ الله كما هداهَا. ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خطابٌ بلفظ الجَمع للتعظيم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنَّ فيه مخايلَ اليُمْنِ ودلائلَ النفعِ، وذلك لِما رأتْ من نورٍ بينَ عينيهِ وارتضاعِه إبهامَه لبناً وبُرءِ البرصاءِ بريقهِ ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أو نتبنّاه فإنه أهلٌ له ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حالٌ من الملتقطين أو من القائلةِ والمقولِ له أي وهم لا يشعُرون أنهم على الخطأ في التقاطِه أو في طمعِ النفعِ منه والتبنّي له، أو من أحدِ ضميرَيْ نتَّخِذَهُ على أنَّ الضميرَ للناسِ أي وهم لا يشعرونَ أنه لغيرِنا وقد تبنَّيناه.

(١٠) ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا﴾ صِفراً من العقلِ لما دَهمَهَا من الخوفِ والحَيْرةِ حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ كقوله تعالى ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[2] أي خَلاءٌ لا عقولَ فيها، ويؤيدُه أنه قرىءَ فرغاً مِنْ قولهم دماؤُهم بينَهم فرغٌ أي هدرٌ، أو مِنَ الهمِّ لفرْطِ وثوقِها بوعدِ اللهِ تعالى أو سماعِها أنَّ فرعونَ عطَفَ عليه وتبنَّاه ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أنها كادت لَتُظهر بموسى أي بأمره وقِصَّته من فرْط الضجَرِ أوِ الفرحِ لتبنّيه. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدِّقين بوعْدِ الله، أو مِنَ الواثقَين بحفظِه لا بتبنِّي فرعونَ وعطفِه. وقرىء موسى إجراءً للضمة في جوارِ الواوِ مَجرى ضمَّتها في استدعاء همزِها همزَ واوِ وجوهٍ وهو عِلَّةُ الرَّبطِ، وجوابُ لولا محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(١١) ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريمَ. ﴿قُصِّيهِ﴾ اتَّبعي أثرَهُ وتَتبَّعي خبَرَهُ. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ عن بُعْدٍ، وقُرِىءَ عن جانبٍ وعن جَنْبٍ وهو بمعناهُ. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تقصُّ أو أنَّها أختُه.

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير كما في «تحفة الأشراف» (٤/٤٣٨).
(٢) إبراهيم: «٤٣».

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ
الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن
شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ ومنعْناه أنْ يرتضعَ من المرضعات، جمعُ مرضِعٍ أو مرضَع وهو الرَّضاعُ، أو موضِعُه يعني الثديَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ قصِّها أثرَهُ. ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ لأجلِكم. ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ لا يقصِّرون في إرضاعِه وتربيتِه، رويَ[1] أنَّ هامانَ لما سمعهُ قال: إنها لتعرفُه وأهلَه فخذوها حتى تُخبرَ بحاله، فقالتْ: إنما أردتُ وَهُمْ لِلْمَلِكِ ناصحون، فأمرَها فرعونُ أنْ تأتيَ بِمَنْ يكفُله فأتتْ بأمِّها وموسى على يدِ فرعونَ يبكي وهو يعلِّله، فلما وجدَ ريحها استأنسَ والتقم ثَدْيَهَا فقال لها: مَنْ أنتِ منه فقد أبى كلَّ ثديٍ إلا ثديَك؟ فقالتْ: إني امرأةٌ طيبةُ الريحِ طيبةُ اللبنِ لا أُوتَى بصبيٍّ إلا قَبِلَني فدفعَه إليها وأجرى عليها، فرجعتْ به إلى بيتها من يومِها، وهو قولُه تعالى:

(١٣) ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بولدِها. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقِه. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ عِلْمَ مشاهدةٍ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ وعْدَه حقٌّ فيرتابون فيه، أو أنَّ الغرضَ الأصليَّ من الردِّ عِلْمُها بذلك وما سواه تَبَعٌ، وفيه تعريضٌ بما فَرَطَ منها حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ.

(١٤) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ مبلغَه الذي لا يزيدُ عليه نشؤُه وذلك من ثلاثينَ إلى أربعينَ سنةً فإنَّ العقلَ يكمُلُ حينئذٍ. ورُوِيَ أنه لم يُبعَثْ نبيٌّ إلا على رأسِ الأربعينَ سنةً[2]. ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ قدُّه أو عقلُه. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي نبوَّةً. ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدين، أو عِلْمَ الحكماءِ والعلماءِ وسِمَتَهُم قبلَ استنبائِه، فلا يقولُ ولا يفعلُ ما يُسْتَجْهَلُ فيه، وهو أوفقُ لنظمِ القصةِ لأنَّ الاستنباءَ بعدَ الهجرةِ في المراجعةِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ ذلك الذي فعلْنا بموسى وأمِّه. ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانِهم.

(١٥) ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ ودخلَ مصرَ آتياً من قصرِ فرعونَ وقيل منفٌ أو حائينُ، أو عينُ شمسٍ من نواحيها. ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في وقْتٍ لا يُعْتَادُ دخولُها ولا يتوقَّعونه فيه، قيل كان وقْتَ القيلولةِ

(١) وهي من الإسرائيليات. ولكنه ليس ببعيد عن الطغات.
(٢) لم أجده. قاله ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٦ رقم ١٣١).

وقيل بينَ العشاءين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أحدُهما ممن شايعَه على دينه وهم بنو إسرائيلَ، والآخرُ مِنْ مخالفيه وهمُ القِبْطُ، والإشارةُ على الحكايةِ. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى هو ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فسأله أنْ يغيثَهُ بالإعانةِ ولذلك عُدِّيَ بعلى وقُرِىءَ بعلى وقُرِىءَ استعانَه. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ فضربَ القبطيَّ بِجُمْعِ كفِّه، وقرىءَ فلكزَهُ أي فضربَ به صدْرَهُ. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتلَه وأصْلُه فأَنْهَى حياتَه من قوله ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾[1]. ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه لم يُؤمَرْ بقتلِ الكفارِ أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكنْ له اغتيالُهم، ولا يقدحُ ذلك في عصمتِه لكونه خطأً، وإنما عدَّه من عملِ الشيطانِ وسمَّاه ظلماً واستغفرَ منه على عادتِهم في استعظامِ محقَّراتٍ فَرَطَتْ منهم. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ العداوةِ.

قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ
قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى
كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتلِه. ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ ذنبي. ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ لاستغفاره. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوبِ عبادِه. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

(١٧) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ قسمٌ محذوفُ الجوابِ أي أُقْسِمُ بإنعامِك عليَّ بالمغفرة وغيرها لأَتُوبَنَّ. ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أوِ استعطافٌ أي بحقِّ إنعامِك عليَّ اعصمْني فلنْ أكونَ مُعِيناً لمن أدَّتْ معاونتُه إلى جُرْمٍ. وعن ابنِ عباسٍ رضي الله تعالى عنهما: أنه لم يستثنِ فأبتُلِيَ به مرةً أخرى[2]، وقيل معناه بما أنعمتَ عليَّ من القوةِ أُعِينُ أولياءَك فلنْ أستعمِلَها في مظاهرةِ أعدائِك.

(١٨) ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يترقَّبُ الاستفادةَ. ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثُه مشتقٌّ من الصُّراخِ. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّنُ الغوايةِ لأنك تَسَبَّبْتَ لقتلِ رجلٍ وتقاتِلُ آخرَ.

(١٩) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والإسرائيليِّ لأنه لم يكنْ على دينهما ولأنَّ القُبْطَ كانوا أعداءً لبني إسرائيلَ. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ قاله الإسرائيليُّ لأنه لما سمَّاه غوياً ظنَّ أنه يبطشُ عليه، أو القبطيُّ وكأنه توهَّم مِنْ قوله أنه الذي قتلَ القبطيَّ بالأمسِ لهذا الإسرائيليِّ. ﴿إِن تُرِيدُ﴾ ما تريدُ. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تطاوِلُ على الناس ولا تنظُر في العواقبِ. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بَيْنَ الناسِ فتدفعُ التخاصُمَ بالتي هي أحسنُ، ولما قال هذا انتشرَ الحديثُ وارتقى إلى فرعونَ ومَلَئِهِ وهمُّوا بقتلِه فخرجَ مؤمنُ آلِ فرعونَ وهو ابنُ عمِّه لِيُخْبِرَهُ كما قال تعالى:

---

(١) الحجر: «٦٦».

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/١٩٨).

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ
عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ
كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يسرعُ صفةُ رجلٍ، أو حالٌ منه إذا جُعِلَ من أقصى المدينةِ صفةً له لا صلةً لجاءَ لأنَّ تخصيصه بها يُلْحِقُه بالمعارفِ. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يتشاورون بِسَبَبِكَ، وإنما سُمِّيَ التشاورُ ائتماراً لأنَّ كلاً من المتشاوِرَيْنِ يأمرُ الآخرَ ويأتمِرُ. ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ اللامُ للبيانِ وليس صلةً للناصحين لأنَّ معمولَ الصلةِ لا يتقدَّمُ الموصولَ.

(٢١) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة. ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوقَ طالِبٍ. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خلِّصْني منهم واحفظْني من لحوقِهم.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قُبالَةَ مدْيَنَ قريةَ شعيبٍ، سُمِّيَتْ باسمِ مدينَ بن إبراهيمَ عليهم الصلاةُ والسلام ولم تكنْ في سلطانِ فرعونَ وكان بينَها وبينَ مِصرَ مسيرةُ ثمانٍ. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توكلاً على اللهِ وحسنَ ظنٍّ به، وكان لا يعرفُ الطريقَ فعنَّ له ثلاثُ طرقٍ فأخذَ في أوسطِها وجاء الطُّلابُ عقيبَهُ فأخذوا في الآخرينَ.

(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وصلَ إليه وهو بئرٌ كانوا يسقُون منها. ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ وجد فوقَ شفيرِها. ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جماعةً كثيرة مختلِفينَ. ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشِيَهُم. ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكانٍ أسفلَ من مكانِهم. ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعانِ أغنامَهُما عن الماءِ لئلا تختلِطَ بأغنامِهم. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنُكما تذودانِ. ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ تصرفَ الرعاةُ مواشِيَهُم عن الماءِ حذراً عن مزاحمةِ الرجالِ، وحُذِفَ المفعولُ لأنَّ الغرضَ هو بيانُ ما يدلُّ على عِفَّتِهما ويدعوه إلى السقيِ لهما ثمَّ دونَه. وقرأ أبو عمرو وابنُ عامر يَصدُرَ أي ينصرِفَ. وقُرِىءَ الرُّعاءُ بالضمِّ وهو اسمُ جمعٍ كالرُّخالِ. ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ كبيرُ السِّنِّ لا يستطيعُ أنْ يخرجَ للسقيِ فيرسِلنا اضطراراً.

(٢٤) ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مواشِيَهُما رحمةً عليهما. قيل[1] كانتِ الرعاةُ يضعون على رأسِ البئرِ حجراً لا يُقِلُّه إلا سبعةُ رجالٍ أو أكثرُ فأقلَّه وحدَه مع ما كان به من الوصَبِ والجوعِ وجراحةِ القدمِ، وقيل كانتْ بئراً أخرى عليها صخرةٌ فرفعَها واستقى منها. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ لأيِّ

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥).

شيءٍ أَنْزَلْتَ إليَّ. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلٍ أو كثيرٍ وحمله الأكثرونَ على الطعام. ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاجٌ سائلٌ ولذلك عُدِّيَ باللامِ، وقيل معناه إني لما أنزلْتَ إليَّ من خيرِ الدينِ صرتُ فقيراً في الدنيا، لأنه كان في سَعَةٍ عند فرعونَ، والغرضُ منه إظهارُ التبجُّحِ والشكرِ على ذلك.

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي مستحيةً متخفِّرةً. قيل كانتِ الصُّغرى منهما وقيل الكُبرى، واسمُها صفوراءُ أو صفراءُ وهي التي تزوَّجها موسى عليه السلام. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ ليكافِئَك. ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ جزاءَ سقْيِكَ لنا، ولعلَّ موسى عليه الصلاة والسلام إنما أجابَها ليتبرَّكَ برؤيةِ الشيخِ ويستظهرَ بمعرفتهِ لا طمعاً في الأجْرِ، بل رُوِيَ[1] أنه لما جاءه قدَّم إليه طعاماً فامتنعَ عنه وقال: إنا أهلُ بيتٍ لا نبيعُ ديننا بالدنيا حتى قال له شعيبٌ عليه الصلاة والسلام: هذه عادتُنا مع كلِّ مَنْ ينزلُ بنا. هذا وأنَّ كلَّ مَنْ فعل معروفاً فأُهْدِيَ بشيء لم يحرمْ أخذُه. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريدُ فرعونَ وقومَه.

(٢٦) ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ يعني التي استدعته. ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لرعي الغنَم. ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليلٌ شائعٌ يجري مجرى الدليلِ على أنه حقيقٌ بالاستئجارِ وللمبالغةِ فيه، جعلَ خيرَ اسماً وذكرَ الفعلَ بلفظِ الماضي للدلالة على أنه امرؤٌ مجرَّبٌ معروفٌ. رُوِيَ[2] أنَّ شعيباً قال لها وما أَعْلَمَكِ بقوَّتهِ فذكرتْ إقلالَ الحجرِ وأنه صوَّبَ رأسَه حتى بلغتْه رسالتُه وأَمَرَهَا بالمشيِ خلْفَهُ.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٠٧) لابن عساكر عن أبي حازم. وما انفرد به ابن عساكر من الرواية فهو ضعيف. انظر مقدمة زوائد الجامع الصغير للسيوطي.

(٢) قال سيد قطب في «الظلال» (٥/٢٦٨٧):

«ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى، كرفع الحجر الذي يغطي البئر وكان لا يرفعه ـ فيما قالوا ـ إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل. فالبئر لم يكن مغطى، إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين، أو سقى لهما مع الرعاء» هـ.

وقال سيد قطب في «الظلال» (٥/٢٦٨٨) أيضاً:

«ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشِ خلفي ودلني على الطريق خوف أن يراها أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها فهذا كله تكلف لا داعي له. ودفع لريبة لا وجود لها.

وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عفيف النظر، نظيف الحسن، وهي كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة، فالعفة تنفح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع» هـ.

● أما ما يذكره القاضي من أن الشيخ الكبير هو «شعيب» فقد تقدم الرد عليه في سورة طه.

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي تأْجُرَ نفسك منِّي أو تكونَ لي أجيراً، أو تثيبَني من أجرِك اللهَ. ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ ظرفٌ على الأوَّلينِ ومفعولٌ به على الثالثِ بإضمارِ مضافٍ أي رعيةَ ثماني حِجَجٍ. ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ عملْتَ عشرَ حِجَجٍ. ﴿فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ فإتمامُه من عندِك تفضُّلاً لا مِنْ عندي إلزاماً عليك. وهذا استدعاءُ العقدِ لا نفسُه، فلعلَّه جَرَى على أُجْرَةٍ معيَّنَةٍ وبمهرٍ آخرَ أو برعيةِ الأجلِ الأوَّلِ وَوَعَدَ له أنْ يوفِّيَ الأخيرُ إنْ تيسَّر له قبلَ العقدِ، وكانتِ الأغنامُ للمزوَّجةِ مع أنه يمكنُ اختلافُ الشرائعِ في ذلك. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ بإلزامِ إتمامِ العشرِ أو المناقشةِ في مراعاةِ الأوقاتِ واستيفاءِ الأعمالِ، واشتقاقِ المشقَّةِ من الشقِّ فإنَّ ما يصعبُ عليك يشقُّ عليك اعتقادُك في إطاقتهِ ورأيك في مزاولتِه. ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسْنِ المعاملةِ ولينِ الجانبِ والوفاءِ بالمعاهدةِ.

(٢٨) ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ أي ذلك الذي عاهدْتَني فيه قائمٌ بينَنا لا نخرجُ عنه. ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ أطولُهما أو أقصرُهما. ﴿قَضَيۡتُ﴾ وفَّيتك إياهُ. ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ لا تعتدي عليَّ بطلبِ الزيادةِ فكما لا أطالِبُ بالزيادةِ على العشرِ لا أطالبُ بالزيادةِ على الثَّمانِ، أو فلا أكونُ متعدياً بِتَرْكِ الزيادةِ عليه كقولِكَ لا إثْمَ عليَّ، وهو أبلغُ في إثباتِ الخيرةِ وتساوي الأجَلَيْنِ في القضاءِ مِنْ أنْ يُقالَ إنْ قضيْتَ الأقصرَ فلا عدوانَ عليَّ. وقُرِىءَ أيْما كقولِه:

تنَظَّرْت نَصْراً وَالسماكيْنِ أيْمَا ... عليَّ مِنَ الغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُه[1]

وأيُّ الأجلينِ ما قضيتَ فتكونُ ما مزيدةً لتأكيدِ الفعلِ أي: أيُّ الأجلينِ جرَّدتَ عزمي لقضائِه، وعِدوانَ بالكسرِ. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من المشارطةِ. ﴿وَكِيلٞ﴾ شاهدٌ حفيظٌ.

(٢٩) ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ بامرأتِه. رُوِيَ أنه قضَى أقصَى الأجلينِ ومكثَ بعدَ ذلك عندَه عشراً أخرى ثم عزمَ على الرجوعِ[2]. ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾ أبصرَ من الجهةِ التي تلي

(١) من الطويل.

(٢) أخرج البخاري (٥/٢٨٩ ـ ٢٩٠ رقم ٢٦٨٤) عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حَبر العرب فأسأله. فقدمت فسألتُ ابن عباس فقال: قضى=

الطورَ. ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ بخبرِ الطريقِ. ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ عودٍ غليظٍ سواءٌ كان في رأسِه نارٌ أو لم يكنْ.

قال:

بَـاتَـتْ حَـوَاطِـبُ لَيْلَـى يَلْتَمِسْـنَ لَهَـا جـزلَ الجـذى غَيْـرَ خـوارٍ وَلاَ دَعِـرِ[1]

وقال آخر:

وأَلْقَـى عَلـى قَبـس مِـنَ النَّـارِ جَـذْوَة شَـدِيـداً عَلَيْـهِ حَـرُّهَـا وَالتِهَـابُهَـا[2]

ولذلك بيَّنه بقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وقرأ عاصمٌ بالفتحِ، وحمزةُ بالضمِّ وكلُّها لغاتٌ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدْفِئُون بها.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا
ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ
وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

(٣٠) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أتاه النداءُ من الشاطئِ الأيمنِ لموسى. ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ متصل بالشاطىء أو صلةٌ لِنُودِيَ. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدلٌ من شاطىءٍ بدلَ الاشتمالِ لأنَّها كانتْ ثابتةً على الشاطىءِ. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي يا موسى. ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا وإنْ خالفَ ما في طه والنملِ لفظاً فهو طِبْقُهُ في المقصودِ.

(٣١) ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أي فألقاها فصارتْ ثعباناً واهتزَّتْ فلما رآها تهتزُّ. ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في الهيئةِ والجثةِ أو في السرعةِ. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ منهزماً من الخوفِ. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجعْ. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نودي يا موسى. ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ من المخاوفِ، فإنه لا يخافُ لديَّ المرسلون.

(٣٢) ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أدخِلْها. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ عيبٍ. ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يديْكَ المبسوطتينِ تتقي بهما الحيةَ كالخائفِ الفزِعِ بإدخالِ اليمنى تحتَ عضُدِ اليسرى وبالعكسِ، أو

= أكثرهما وأطيبهما، إنّ رسول الله ﷺ إذا قال فعل».
● المقصود بقوله: رسول الله ﷺ: من اتصف بذلك ولم يرد شخصاً بعينه.

(١) من البسيط.
(٢) من الطويل.

بإدخالهما في الجيبِ فيكونُ تكريراً لغرضٍ آخرَ وهو أنْ يكونَ ذلك في وجهِ العدوِّ إظهارَ جراءةٍ ومبدأً لظهورِ معجزةٍ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالضمِّ التجلُّدُ والثباتُ عندَ انقلابِ العصَا حيةً استعارةً من حالِ الطائرِ فإنه إذا خافَ نشرَ جناحيهِ وإذا أَمِنَ واطمأنَّ ضمَّهما إليه. ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ من أجلِ الرَّهْبِ أي إذا عراكَ الخوفُ فافعلْ ذلك تجلُّداً وضبْطاً لنفسِك. وقرأ ابن عامر وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر بضمِّ الراءِ وسكونِ الهاءِ، وقُرِىءَ بضمِّهما، وقرأ حفصٌ بالفتحِ والسكونِ والكلُّ لغاتٌ. ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارةً إلى العصا واليدِ، وشدَّده ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورويسٌ. ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ حجَّتانِ وبُرْهانُ فُعْلانُ لقولهم أَبْرَهَ الرجلُ إذا جاءَ بالبرهانِ من قولِهم بَرِهَ الرجلُ إذا ابيضَّ، ويُقَالُ برهاءُ وَبَرَهْرَهَةٌ للمرأةِ البيضاءِ وقيل فُعْلالُ لقولِهم بَرْهَنَ. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُرْسَلاً بهما. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ فكانوا أحِقَّاء بأنْ يُرْسَلَ إليهم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بها.

(٣٤) ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ معيناً وهو في الأصل اسمُ ما يُعَانُ به كالدفءِ، وقرأ نافعٌ رِداً بالتخفيف. ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ بتخليصِ الحقِّ وتقريرِ الحجَّةِ وتزييفِ الشبهةِ. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوِعُني عند المحاجَّةِ، وقيل المرادُ تصديقُ القوم لتقريرِهِ وتوضيحِه لكنَّه أُسْنِدَ إليه إسنادَ الفعلِ إلى السببِ. وقرأ عاصمٌ وحمزةُ يصدقُني بالرفع على أنه صفةٌ والجوابُ محذوفٌ.

(٣٥) ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقوِّيك به فإنَّ قوَّةَ الشخص بشدةِ اليدِ على مزاولةِ الأمورِ، ولذلك يُعَبَّرُ عنه باليد وشدَّتِها بشدةِ العضُدِ. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ غلبةً أو حَجَّةً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاءٍ أو حِجَاجٍ. ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أي اذهبا بآياتِنا، أو بنجعلَ أيْ نسلِّطُكما بها، أو بمعنى لا يصِلُون أي تَمْتَنِعُون منهم، أو قسمٌ جوابُه لا يَصِلُون، أو بيانٌ للغالبونَ في قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنه صلةٌ لما بينَه أو صلةٌ له على أنَّ اللامَ فيه للتعريفِ لا بمعنى الذي.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ سحرٌ تختلِقُه لم يُفْعَلْ قبلُ مثلُه، أو سحرٌ تعملُه ثم تفتريه على اللهِ؛ أو سحرٌ موصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السحرِ. ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ يعنُونَ السحرَ أو ادِّعاءَ النبوةِ. ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كائناً في أيامِهم.

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى
ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ
وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ فيعلمُ أني محقٌّ وأنتم مبطلونَ. وقرأ ابنُ كثير قال بغيرِ واوٍ. لأنه قال ما قاله جواباً لمقالِهم، ووجهُ العطفِ أنَّ المرادَ حكايةُ القولَيْنِ ليوازِنَ الناظِرُ بينَهما فيميِّز صحيحَهما من الفاسدِ. ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ﴾ العاقبةُ المحمودةُ فإنَّ المرادَ بالدارِ الدنيا وعاقبتُها الأصليةُ هي الجنةُ لأنها خُلِقَتْ مجازاً إلى الآخرةِ، والمقصودُ منها بالذاتِ هو الثوابُ والعقابُ إنما قُصِدَ بالعرضِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُ يكون بالياءِ. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسنِ العاقبةِ في العُقْبَى.

(٣٨) ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ نَفَى عِلْمَه بإلهٍ غيرِه دونَ وجودِه إذ لم يكنْ عندَه ما يقتضي الجزمَ بعدمِه، ولذلك أَمَرَ ببناءِ الصرحِ ليصعدَ إليه ويتطلَّعَ على الحالِ بقوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنه توهَّم أنه لو كان لكان جِسْماً في السماءِ يمكنُ الترقِّي إليه ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أو أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً يترصَّدُ منه أوضاعَ الكواكبِ فيرى هل فيها ما يدلُّ على بعْثَةِ رسولٍ وتبدُّلِ دولةٍ، وقيل المرادُ بنفي العلمِ نفيُ المعلومِ كقوله تعالى ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1] فإنَّ معناه بما ليس فيهنَّ، ، وهذا من خواصِّ العلومِ الفعليةِ فإنها لازمةٌ لتحقُّقِ معلوماتِها فيلزمُ مِن انتفائِها لك انتفاؤُها، ولا كذلك العلومُ الانفعاليةُ، قيل أولُ مِن اتخذَ الآجُرَّ فرعونُ ولذلك أمرَ باتخاذه على وجْهٍ يتضمَّن تعليمَ الصنعةِ مع ما فيه من تعظُّمٍ؛ ولذلك نادى هامانَ باسمِه بيا في وسطِ الكلامِ.

(٣٩) ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ بغير استحقاقٍ. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ بالنشور. وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ.

(٤٠) ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ كما مر بيانُه، وفيه فخامةٌ وتعظيمٌ لشأنِ الآخذِ واستحقارٌ للمأخوذينَ كأنه أخذَهم مع كثْرتِهم في كفٍّ وطرحَهم في اليمِّ، ونظيرهُ قولُه تعالى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾[2] ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[3] ﴿فَٱنظُرۡ﴾

(١) يونس: «١٨».
(٢) الأنعام: «٩١».
(٣) الزمر: «٦٧».

يا محمدُ. ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحذِّرْ قومَك عن مثلِها.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

(٤١) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قدوةً للضلالِ بالحمْلِ على الإضلالِ، وقيل بالتسميةِ كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[1]، أو بمنعِ الألطافِ الصارفةِ عنه. ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى موجباتِها من الكفرِ والمعاصي. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفعِ العذابِ عنهم.

(٤٢) ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طرداً عن الرحمةِ، أو لعنَ اللاعنينَ يلعنُهم الملائكةُ والمؤمنون. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ من المطرودين، أو ممن قَبُحَ وجوهُهم.

(٤٣) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ. ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أقوامَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ. ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنواراً لقلوبهم تتبصَّر بها الحقائقَ وتميزُ بينَ الحقِّ والباطل. ﴿ وَهُدًى﴾ إلى الشرائعِ التي هي سُبُلُ اللهِ تعالى. ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنهم لو عمِلوا بها نالوا رحمةَ الله سبحانه وتعالى. ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حالٍ يُرْجَى منهم التذكُّرُ، وقد فسَّر بالإرادةِ وفيه ما عرفْتَ.

(٤٤) ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ يريدُ الواديَ، أوِ الطورَ فإنه كان في شقِّ الغربِ من مقامِ موسى، أو الجانبِ الغربيِّ منه والخطابُ لرسولِ الله ﷺ أي ما كنتَ حاضِراً. ﴿ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ إذ أوحينا إليه الأمرَ الذي أردْنَا تعريفَه. ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للوحْيِ إليه أو على الوحْيِ إليه، وهم السبعونَ المختارونَ للميقاتَ، والمراد الدلالةُ على أنَّ إخبارَه عن ذلك من قبيلِ الإخبارِ عن المغيَّباتِ التي لا تُعْرَفُ إلا بالوحْيِ ولذلك استدرك عنه بقوله:

(٤٥) ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي ولكنَّا أوحينا إليك لأنا أنشأْنا قروناً مختلفةً بعد موسى فتطاولتْ عليهم المددُ، فحُرِّفَتِ الأخبارُ وتغيَّرتِ الشرائعُ واندرستِ العلومُ، فحذفَ المستدرَكَ وأقامَ سببَهُ مُقَامَهُ. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً. ﴿ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيبٍ والمؤمنين به. ﴿ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ تقرأُ عليهم تعلُّماً منهم. ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ التي فيها قِصَّتُهم. ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك ومخبرينَ لك بها.

---

(١) الزخرف: «١٩».

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا
بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ لعلَّ المرادَ به وقتُ ما أعطاهُ التوراةَ وبالأولِ حينَ ما استنبأَه لأنهما المذكورانِ في القصْدِ. ﴿وَلَـٰكِن﴾ علَّمناك. ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وقُرِئَتْ بالرفعِ على هذه رحمةٌ من ربِّك. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بالفعلِ المحذوفِ. ﴿مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لوقوعِهم في فترةٍ بينَك وبينَ عيسى، وهي خمسُمِائةٍ وخمسونَ سنةً، أو بينَك وبينَ إسماعيلَ، على أنَّ دعوةَ موسى وعيسى عليهما الصلاةُ والسلام كانتْ مختصَّةً ببني إسرائيلَ وما حَوالَيْهِم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتَّعِظُون.

(٤٧) ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لولا الأُولى امتناعيةٌ والثانية تحضيضيةٌ واقعةٌ في سياقِها، لأنها إنما أُجِيبَتْ بالفاءِ تشبيهاً لها بالأمرِ مفعولُ يقولوا المعطوفُ على تصيبُهم بالفاءِ المعطِيَةِ معنَى السببيَّةِ المنبهةِ على أنَّ القولَ هو المقصودُ بأنْ يكونَ سبباً لانتفاءِ ما يُجابُ به، وأنه لا يصدُر عنهم حتى تلجِئَهم العقوبةُ والجوابُ محذوفٌ والمعنى: لولا قولُهم إذا أصابتْهم عقوبةٌ بسبب كفرهم ومعاصِيهم ربَّنا هلاَّ أرسلْت إلينا رسولاً يبلِّغنا آياتِك فنتَّبِعَها ونكونَ من المصدِّقينَ، ما أرسلناك أي إنما أرسلناك قَطْعاً لِعُذْرِهم وإلزاماً للحجَّةِ عليهم. ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾ يعني الرسولَ المصدَّقَ بنوعٍ من المعجزات. ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٤٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتابِ جملةً واليدِ والعصا وغيرِها اقتراحاً وتعنُّتاً. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ يعني أبناءَ جِنْسِهم في الرأيِ والمذهبِ وهم كفرةُ زمانِ موسى، أو كان فرعونُ عربياً من أولادِ عادٍ. ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ يعني موسى وهارونَ، أو موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام. ﴿تَظَـٰهَرَا﴾ تعاونا بإظهارِ تلك الخوارقِ أو بتوافُقِ الكتابين. وقرأ الكوفيونَ سِحْرانِ بتقديرِ مضافٍ أو جعلَهما سِحْرَيْنِ مبالغةً، أو إسنادُ تظاهُرِهما إلى فعلِهما دلالةً على سببِ الإعجازِ. وقُرِىءَ اظَّاهرا على الإدغامِ. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ﴾ أي بكلٍّ منهما أو بكلِّ الأنبياءِ.

(٤٩) ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ مما أُنْزِلَ على موسى وعلى محمدٍ، وإضمارُهما لدلالةِ المعنى، وهو يؤيدُ أنَّ المرادَ بالساحرينِ موسى ومحمدٌ عليهما الصلاة والسلام. ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ إنا ساحرانِ مختلفانِ، وهذا من الشروط التي يُرادُ بها الإلزامُ والتبكيتُ، ولعلَّ مجيءَ حرفِ الشكِ للتهكُّم بهم.

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾

(٥٠) ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ دعاءَك إلى الإتيانِ بالكتابِ الأَهْدَى فحذَفَ المفعولَ للعلمِ به، ولأنَّ فعلَ الاستجابةِ يُعَدَّى بنفسه إلى الدعاءِ وباللامِ إلى الداعي، فإذا عُدِّيَ إليه حُذِفَ الدعاءُ غالباً كقوله:

وداعٍ دعـا يـا مَـنْ يُجيـبُ إلَـى النِّـدَا فلَـمْ يَسْتَجِبْـهُ عِنْـدَ ذَاكَ مُجِيـبُ

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إذ لو اتَّبعوا حجَّةً لأَتَوْا بها. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهامٌ بمعنى النفي. ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ في موضعِ الحالِ للتأكيدِ أو التقييدِ، فإنَّ هوى النَّفسِ قد يوافِقُ الحقَّ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسَهم بالانهماكِ في اتباعِ الهوى.

(٥١) ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أتبعْنا بعضَه بعضاً في الإنزالِ ليتصلَ التذكيرُ، أو في النظمِ لتتقررَ الدعوةُ بالحجَّةِ والمواعظِ بالمواعيد والنصائح بِالعِبَرِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون ويطيعون.

(٥٢) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ نزلتْ في مؤمني أهلِ الكتابِ[١]، وقيل في أربعينَ مِنْ أهلِ الإنجيلِ اثنانِ وثلاثونَ جاءوا مع جعفرٍ من الحبشةِ وثمانيةٌ من الشام[٢]، والضميرُ في مِنْ قبلِه للقرآنِ كالمستكِنِّ في:

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي بأنه كلامُ الله تعالى. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ استئنافٌ لبيانِ ما أوجبَ إيمانَهم به. ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ استئنافٌ آخرُ للدلالةِ على أنَّ إيمانَهم به ليس مما أحدثوه حينئذٍ، وإنما هو أمرٌ تقادَم عهدُه لما رأوا ذِكْرَهُ في الكتُبِ المتقدِّمةِ وكونُهم على دين الإسلام قبلَ نزولِ القرآنِ، أو تلاوتِه عليهم باعتقادِهم صِحَّته في الجملةِ.

(٥٤) ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرةً على إيمانهم بكتابِهم ومرةً على إيمانهم بالقرآنِ. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبْرِهم وثباتِهم على الإيمانَيْنِ، أو على الإيمان بالقرآنِ قبلَ النزولِ وبعدَه، أو على أذى المشركينَ

---

(١) انظر «زاد المسير» (٦/ ٢٠٢٩) و«الدر المنثور» (٦/ ٤٢٦).
(٢) انظر «زاد المسير» (٦/ ٢٢٩).
وقال سيد قطب في «الظلال» (٥/ ٢٧٠٠ ـ ٢٧٠١):
وأياً من كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه كي يقفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن، وتطمئن إليه، وترى فيه الحق وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب. ولا يصدها عنه صاد من هوى، ولا من كبر، وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء» هـ.

ومَنْ هاجَرَهُم من أهل دينهم. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالطاعةِ المعصيةَ لقوله ﷺ: «أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها»[1]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ تكرُّماً. ﴿وَقَالُوا۟﴾ للاّغينَ. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ متاركةً لهم وتوديعاً، أو دعاءً لهم بالسلامةِ عمَّا هم فيه. ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نطلبُ صُحْبَتَهم ولا نريدُها.

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدِرُ على أنْ تُدْخِلَهم في الإسلامِ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فيدخلُه في الإسلام. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعِدِّين لذلك. والجمهورُ على أنها نزلتْ في أبي طالبٍ فإنه لما احتضرَ جاءه رسولُ الله ﷺ وقال: «يا عمِّ قلْ لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عندَ الله» قال: يا ابنَ أخي قد علمتُ إنك لصادقٌ ولكنْ أكرهُ أنْ يُقالَ خُدِعَ عندَ الموتِ[2].

(٥٧) ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ نُخْرَجْ منها. نزلتْ في الحرثِ بنِ عثمانَ بنِ نوفلِ بنِ عبدِ منافٍ، أتى النبيَّ ﷺ فقال: نحن نعلمُ أنك على الحقِّ ولكنَّا نخافُ إنِ اتبعناك وخالفْنا العربَ ـ وإنما نحن أَكَلَةُ رأسٍ ـ أنْ يتخطَّفونا من أرضنا[3] فردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أَوَلَمْ نجعلْ مكانَهم حَرَماً ذا أَمْنٍ بحُرمةِ البيتِ الذي فيه يتناحرُ العربُ حولَه وهم آمِنُون فيه. ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ يُحْمَلُ إليه ويُجْمَعُ فيه، وقرأ نافع ويعقوبُ في روايةٍ بالتاءِ. ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من كلِّ أَوْبٍ. ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كانَ هذا حالُهم وهم عَبَدَةُ الأصنامِ فكيف نعرِّضُهم للتخوُّفِ والتخطُّفِ إذا ضمُّوا إلى حرمةِ البيتِ حُرْمَةَ التوحيد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جَهَلَةٌ لا يتفطَّنون له ولا يتفكَّرون

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧) والترمذي (٤/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦ رقم ١٩٨٧).
وقال حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم (١/ ٥٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وأخرجه الدارمي (٢/ ٣٢٣) من حديث أبي ذر.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٥ رقم ٤١ و٤٢/ ٢٥) من حديث أبي هريرة.
وأخرجه البخاري مطولاً بلفظ آخر (٨/ ٥٠٦ رقم ٤٧٧٢) من حديث المسيَّب.

(٣) أخرجه النسائي في «التفسير» (رقم: ٤٠٥) عن ابن عباس بسند منقطع.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/ ٩٤) بسند ضعيف.
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

ليعلموه، وقيل إنه متعلّقٌ بقوله من لدنّا أي قليلٌ منهم يتدبَّرون فيعلمونَ أنَّ ذلك رزقٌ من عند الله، وأكثرُهم لا يعلمون إذ لو علِمُوا لما خافوا غَيْرَهُ، وانتصابُ رزقاً على المصدرِ من معنى يُجْبَى، أو حالٌ من الثمراتِ لتخصُّصِها بالإضافةِ، ثم بيَّنَ أنَّ الأمرَ بالعكسِ فإنهم أحِقَّاءُ بأنْ يخافوا من بأسِ الله على ما هم عليه بقوله:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي وكم من أهلِ قريةٍ كانت حالُهم كحالهم في الأمْنِ وخفْضِ العيشِ حتى أَشِرُوا فدمَّر اللهُ عليهم وخرَّبَ ديارَهم. ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةٌ. ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السُّكْنى إذ لا يسكُنها إلا المارَّةُ يوماً أو بعضَ يوم، أو لا يبقَى مَنْ يسكُنها من شؤْمِ معاصِيهم. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلُفْهم أحدٌ يتصرَّفُ تصرُّفَهم في ديارهم وسائرِ متصرَّفاتِهم، وانتصابُ معيشتها بنزعِ الخافضِ أو بجعْلِها ظرفاً بنفسِها كقولك: زيد ظنِّي مقيمٌ، أو بإضمارِ زمانٍ مضافٍ إليها أو مفعولاً على تضمينِ بَطِرتْ معنى كَفَرَتْ.

(٥٩) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما كانت عادتُه. ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ في أصلِها التي هي أعمالُها، لأنَّ أهلَها تكون أفطنَ وأنبلَ. ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ لإلزامِ الحجَّةِ وقطْعِ المعذرةِ. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيبِ الرسلِ والعتوِّ في الكفرِ.

(٦٠) ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ من أسباب الدنيا. ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تتمتَّعون وتتزيَّنون به مُدَّةَ حياتِكم المنقضيةِ. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابُه. ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسِه من ذلك لأنه لذَّةٌ خاصَّةٌ وبهجةٌ كاملةٌ. ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبديٌّ. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستبدلونَ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، وقرأ أبو عمرو بالياءِ وهو أبلغُ في الموعظةِ.

(٦١) ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعْداً بالجنة فإنَّ حُسْنَ الوعدِ بحسنِ الموعودِ. ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ مدركُه لا محالةَ، لامتناعِ الخلْفِ في وعدِه، ولذلك عطفَه بالفاءِ المعطيةِ معنَى السببيةِ. ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوبٌ بالآلامِ مكدَّرٌ بالمتاعبِ مستعْقَبٌ بالتحسُّرِ على الانقطاعِ. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذابِ، وثُم للتراخي في الزمانِ أوِ الرتبةِ. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر في روايةٍ والكسائيُّ ثمَّ هْو بسكونِ الهاءِ تشبيهاً للمنفصِلِ بالمتصلِ، وهذه الآيةُ كالنتيجةِ للتي قبلَها ولذلك رُتِّبَتْ عليها بالفاءِ.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطفٌ على يومِ القيامة أو منصوبٌ باذكرْ. ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحُذِفَ المفعولانِ لدلالةِ الكلامِ عليهما.

(٦٣) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بثبوتِ مقتضاهُ وحصولِ مؤدَّاهُ **وهو قوله تعالى:** ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] وغيرُه من آيات الوعيد. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي هؤلاءِ الذين أغوينَاهم فحُذِفَ الراجعُ إلى الموصولِ. ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أغويناهم فغَوَوْا غيّاً مثلَ ما غوينَا، وهو استئنافٌ للدلالةِ على أنهم غَوَوْا باختيارِهم وأنهم لم يفعلُوا بهم إلا وسوسةً وتسويلاً، ويجوزُ أنْ يكونَ الذين صفةً وأغويناهم الخبرَ لأجلِ ما اتصلَ به فإفادةُ زيادةٍ على الصفةِ، وهو إنْ كانَ فضْلَةً لكنَّه صارَ من اللوازمِ. ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاره من الكفرِ هَوَى منهم، وهو تقريرٌ للجملةِ المتقدمةِ ولذلك خلتْ عن العاطِفِ وكذا. ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدونَنا، وإنما كانوا يعبدُون أهواءَهم. وقيل ما مصدريةٌ متصلةٌ بتبرَّأنا أي تبرأنا من عبادتِهم إيَّانا.

(٦٤) ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ من فَرْطِ الحيرةِ. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لعجزِهم عن الإجابة والنُّصْرةِ. ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ لازماً بهم. ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ لوجْهٍ من الحيلِ يدفعونَ به العذابَ، أو إلى الحقِّ لما رَأوا العذابَ لو للتَّمنِّي أي تمنَّوا أنهم كانوا مهتدينَ.

(٦٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطفٌ على الأولِ فإنه تعالى يسألُ أولاً عن إشراكِهم به ثم عن تكذيبهم الأنبياءَ.

(٦٦) ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ فصارتِ الأنباءُ كالعمي عليهم لا تهتدي إليهم، وأصلُه فعمُوا عن الأنباءِ لكنه عكسَ مبالغةً ودلالةً على أنَّ ما يحضرُ الذهنَ إنما يُقْبَضُ ويَرِدُ عليه من خارجٍ فإذا أخطأه لم يكنْ له حيلةٌ إلى استحضارِهِ، والمرادُ بالأنباءِ ما أجابوا به الرسلَ أو ما يعمُّها وغيرَها، فإذا كانتِ الرسل يتتعتَعُونَ في الجوابِ عن مثلِ ذلك من الهولِ ويفوِّضُون إلى علمِ اللهِ تعالى فما ظنُّك بالضُّلَّالِ من أُممِهم، وتعديةُ الفعلِ بِعَلَى لتضمُّنه معنى الخفاءِ. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن الجوابِ لفرطِ الدهشةِ والعلمِ بأنه مثلُه في العجزِ.

---

(١) هود: «١١٩».

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ
مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا
يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا
تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾

(٦٧) ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشركِ. ﴿ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وجمع بينَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ. ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ عندَ الله وعسى تحقيقٌ على عادةِ الكرامِ، أو ترجٍّ من التائبِ بمعنى فلْيتوقعْ أنْ يفلحَ.

(٦٨) ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ لا موجِبَ عليه ولا مانِعَ له. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي التخيُّر كالطِّيَرَةِ بمعنَى التطيُّرِ، وظاهرهُ نفيُ الاختيارِ عنهم رأساً والأمرُ كذلك عندَ التحقيقِ، فإنَّ اختيارَ العبادِ مخلوقٌ باختيارِ اللهِ منوطٌ بدواعٍ لا اختيارَ لهم فيها، وقيل المرادُ أنه ليس لأحدٍ من خلْقه أنْ يختارَ عليه ولذلك خلا عن العاطفِ، ويؤيده ما رُوِيَ أنه نزلَ في قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[(١)] . وقيل ما موصولةٌ مفعولٌ ليختارَ والراجعُ إليه محذوفٌ والمعنَى: ويختارُ الذي كان لهم فيه الخِيَرَةُ أي الخيرُ والصلاحُ. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهٌ له أنْ ينازِعَه أحدٌ أو يزاحِمَ اختيارَه اختيارٌ. ﴿ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو مشاركةِ ما يشركونَه.

(٦٩) ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوةِ الرسولِ وحِقْدِهِ. ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعنِ فيه.

(٧٠) ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستحقُّ للعبادةِ. ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحدَ يستحِقُّها إلا هو. ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنه المولي للنِّعَمِ كلِّها عاجلِها وآجلِها يحمدُه المؤمنونَ في الآخرةِ كما حمدُوه في الدنيا بقولِهم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[(٢)] ـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[(٣)] ابتهاجاً بفضلِه والتذاذاً بحمْدِه. ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاءُ النافِذُ في كلِّ شيءٍ. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالنشورِ.

(٧١) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً من السَّرْدِ وهو المتابعةُ والميمُ مزيدةٌ كميمِ دلامِصٍ. ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإسكانِ الشمسِ تحتَ الأرضِ أو تحريكِها حولَ الأُفُقِ الغائرِ. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ كان حقُّه هل إلهٌ فذُكِرَ بِمَنْ على زعْمِهم أنَّ غيرَهُ آلهةٌ. وعن ابنِ كثيرٍ بضئاءٍ بهمزتينِ. ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تدبُّرٍ واستبصارٍ.

---

(١) الزخرف: «٣١» وانظر أسباب النزول للسيوطي ص١٥٣.

(٢) فاطر: «٣٤».

(٣) الزمر: «٧٤».

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ
تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

(٧٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإسْكانِها في وَسَطِ السماءِ أو تحريكِها على مدارٍ فوقَ الأفقِ. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةٌ عن متاعبِ الأشغالِ، ولعلَّه لم يصفِ الضياءَ بما يقابلُه لأنَّ الضوءَ نعمةٌ في ذاتِه مقصودٌ بنفسِه ولا كذلك الليلُ، ولأنَّ منافعَ الضوءِ أكثرُ مما يقابلُه ولذلك قَرَنَ أفلا تسمعونَ وبالليلِ. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنَّ استفادةَ العقلِ من السمعِ أكثرُ مِن استفادتِه من البصرِ.

(٧٣) ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ في الليلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار بأنواعِ المكاسبِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تعرفُوا نعمةَ اللهِ في ذلك فتشكروه عليها.

(٧٤) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريعٌ بعدَ تقريعٍ للإشعارِ بأنه لا شيءَ أجلبُ لغضبِ اللهِ منَ الإشراكِ به، أوِ الأولُ لتقريرِ فسادِ رأيِهم والثاني لبيانِ أنه لم يكنْ عن سندٍ وإنما كان محضَ تَشَهٍّ وهَوَىً.

(٧٥)﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجْنا. ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيُّهم يشهدُ عليهم بما كانوا عليه. ﴿فَقُلْنَا﴾ للأُمم. ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحةِ ما كنتم تَدِيْنُونَ به. ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذ. ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشارِكُه فيها أحدٌ. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغابَ عنهم غيبةَ الضائعِ. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الباطلِ.

(٧٦) ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابنَ عمِّه يصهرُ بنُ قاهثِ بنِ لاوى وكان ممن آمنَ به. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فطلبَ الفضلَ عليهم وأن يكونوا تحتَ أمرِه، أو تكبَّر عليهم أو ظَلَمَهُم. قيل وذلك حين ملَّكَهُ فرعونُ على بني إسرائيلَ، أو حسدَهم لما رُوِيَ أنه قال لموسى عليه السلام: لك الرسالةُ ولهارونَ الحبورةُ وأنا في غيرِ شيءٍ إلى متى أصبرُ؟ قال موسى هذا صنعُ اللهِ. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ من الأموالِ المدَّخرةِ. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ مفاتيحَ صناديقِه جمعُ مِفْتَحٍ بالكسر وهو ما يُفْتَحُ به، وقيل خزائنُه وقياسُ واحدِها المفتحُ. ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ خبرُ إنَّ، والجملةُ صلةٌ وهو ثاني مفعولي آتى، وناء به الحِملُ إذا أثقلَه حتى أمالَه، والعُصْبَةُ والعِصَابةُ الجماعةُ الكثيرةُ واعْصَوْصَبُوا اجتمعُوا. وقرىء

لَيَنوءُ بالياءِ على إعطاء المضافِ حكْمَ المضافِ إليه. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ منصوبٌ بتنوءُ. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطرْ والفرحُ بالدنيا مذمومٌ مطلقاً لأنه نتيجةُ حبِّها والرِّضَا بها والذهولُ عن ذهابِها، فإنَّ العلمَ بأنَّ ما فيها مِنَ اللذَّةِ مفارَقَةٌ لا محالةَ يوجبُ التَّرحَ كما قيلَ:

أشـدّ الغَـمِّ عِنْـدي فِـي سُـرُورٍ تيَقّـن عَنْـهُ صَـاحِبَـهُ انْتِقَـالاً

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(١)، وعلَّل النهيَ ها هنا بكونه مانِعاً من محبةِ اللهِ تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي بزخارفِ الدنيا.

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

(٧٧) ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الغِنَى. ﴿ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ بصرفِه فيما يوجِبُها لك فإنَّ المقصودَ منه أنْ يكونَ وصْلةً إليها. ﴿وَلَا تَنسَ﴾ ولا تتركْ تركَ المنسيِّ. ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو أنْ تحصلَ بها آخرتَك وتأخذَ منها ما يكفيك. ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عبادِ الله. ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعمَ الله عليك. وقيل أحسنْ بالشكرِ والطاعةِ كما أحسنَ إليك بالإنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأمرٍ يكون عِلَّةً للظُّلمِ والبغي، نهيٌ له عما كان عليه من الظلمِ والبغي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوءِ أفعالهم.

(٧٨) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فُضِّلْتُ به على الناس واستوجبتُ به التفوُّقَ عليهم بالجاهِ والمالِ، وعلى علمٍ في موضعِ الحالِ وهو علمُ التوراةِ وكان أعْلَمَهُم بها، وقيل هو الكيمياءُ، وقيل علمُ التجارةِ والدهْقَنَةِ وسائرُ المكاسب، وقيل العلمُ بكنوز يوسفَ، وعندي صفةٌ له أو متعلِّقٌ بأوتيتُه كقولك: جاز هذا عندي أي في ظنِّي واعتقادي. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ تعجُّبٌ وتوبيخٌ على اغترارِه بِقوَّته وكثرةِ مالِه، مع علمِه بذلك لأنه قرأهُ في التوراةِ وسمعَه من حفَّاظِ التواريخِ، أو ردٌّ لادِّعائِه للعلمِ وتعظُّمِه به بنفي هذا العلمِ عنه أي أعِنْدَهُ مِثْلُ ذلك العلمِ الذي ادَّعى. ولم يعلمْ هذا حتَّى يقيَ به نفسَه مصارعَ الهَالِكينَ. ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالُ استعلامٍ فإنه تعالى مطَّلِعٌ عليها، أو معاتبةٍ فإنهم يُعَذَّبونَ بها بغتةً، كأنه لما هُدِّدَ قارونُ بذكرِ إهلاكِ مَنْ قبلَه ممَّنْ كانوا أقوى منه وأغنى أكَّدَ ذلك بأنْ بيَّنَ أنه لم يكنْ مطَّلِعاً على ما يخصُّهم بلِ اللهُ مطَّلِعٌ على ذنوبِ المجرمينَ كلِّهم معاقِبُهم عليها لا محالةَ.

---

(١) الحديد: «٢٣».

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو
حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا
يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ كما قيل إنه خرجَ على بغلةٍ شهباءَ عليه الأرجوانُ وعليها سَرْجٌ من ذهبٍ ومعه أربعةُ آلافٍ على زِيِّه. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على ما هو عادةُ الناسِ من الرغبةِ. ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ تمنوا مثلَه لا عينَه حذَراً عن الحسدِ. ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الدنيا.

(٨٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بأحوالِ الآخرة للمتمنِّيْنَ. ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ بالهلاكِ اسْتُعْمِلَ للزَّجْرِ عما لا يُرْتَضَى. ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مما أوتي قارونُ بل من الدنيا وما فيها. ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ الضميرُ فيه للكلمةِ التي تكلَّم بها العلماءُ أو للثواب، فإنه بمعنَى المثوبةِ أو الجنةِ أو للإيمانِ والعملِ الصالحِ فإنهما في معنى السيرةِ والطريقةِ. ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعاتِ وعن المعاصي.

(٨١) ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ رُوِيَ[1] أنه كان يؤذي موسَى عليه السلام كلَّ وقتٍ وهو يداريه لقرابتِه حتى نزلتِ الزكاةُ، فصالحه عن كلِّ ألفٍ على واحدٍ فَحَسَبَهُ فاستكثرهُ، فعمدَ إلى أنْ يفضحَ موسى بينَ بني إسرائيلَ ليرفُضُوهُ، فَبَرْطَلَ بَغِيَّةً لترميه بنفسِها فلما كان يومُ العيد قام موسى خطيباً فقال: مَنْ سرقَ قطعْناه، ومن زَنَى غيرَ محصَنٍ جلدْناه، ومن زنى محصَناً رجمناه، فقال قارون ولو كنتَ قال: ولو كنتُ، قال إنَّ بني إسرائيلَ يزعمونَ أنك فَجَرْتَ بفلانةَ فأُحْضِرَتْ، فناشدَها موسى عليه السلام باللهِ أنْ تصدقَ فقالتْ: جعلَ لي قارونُ جُعَلاً على أنْ أرمِيَكَ بنفسي، فخرَّ موسى شاكياً منه إلى ربِّه فأوحَى إليه أنْ مُرِ الأرضَ بما شِئْتَ فقال: يا أرضُ خذيه فأخذتْه إلى ركبتيه، ثم قال خذيهِ إلى وسطِه، ثم قال خذيه فأخذتْه إلى عُنُقِه، ثم قال خذيه فخُسِفَتْ به وكان قارونُ يتضرَّع إليه في هذه الأحوالِ فلم يرحمْه، فأوحَى الله إليه ما أفظَّك استرحمكَ مراراً فلم ترحَمْهُ، وعزَّتي وجلالي لو دعاني مرةً لأجبتُه، ثم قال بنو إسرائيلَ: إنما فعلَه ليرثَه، فدعا اللهَ تعالى حتى خَسَفَ بدارِهِ وأموالِه. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أعوانٍ مشتقةً من فَأَوْتُ رأسَه إذا ميَّلْتَه. ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيدفعونَ عنه عذابَه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ الممتنِعين منه مِنْ قولهم نصرةُ من عدوِّه فانتصرَ إذا منعَه منه فامتنعَ.

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٢٤) عن ابن عباس.

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ
لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل
رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾

(٨٢) ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ منزلتَهُ. ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ منذُ زمانٍ قريبٍ. ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يبسطُ ويقدرُ بِمقتضَى مشيئتِه لا لكرامةٍ تقتضي البسْطَ ولا لهوانٍ يوجِبُ القبضَ، وويكأنَّ عندَ البصريينَ مركبٌ من ويْ للتعجبِ وكأنّ للتشبهِ والمعنى: ما أشبهَ الأمرَ أنَّ اللهَ يبسطُ الرزقَ. وقيل مِنْ ويْكَ بمعنى ويْلَكَ وأنَّ تقديره ويْكَ اعلمْ أنَّ اللهَ. ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعْطِنا ما تمنَّيْنَا. ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ لتوليدِه فينا ما ولَّدَهُ فيه، فخسفَ بنا لأجلِه. وقرأ حفصٌ بفتحِ الخاءِ والسينِ. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ الله أو المكذِّبونَ بِرُسُلِه وبما وعدوا لهم من ثوابِ الآخرة.

(٨٣) ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ إشارةُ تعظيمٍ كأنه قال: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها، والدار صفة والخبر: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ غلبة وقهراً. ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما لا يرضاه الله.

(٨٤) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتاً وقدراً ووصفاً. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وضعَ فيه الظاهرَ موضعَ الضمير تهجيناً لحالِهم بتكريرِ إسنادِ السيئةِ إليهم. ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا مثلَ ما كانوا يعملون فحُذِفَ المِثْلُ وأُقِيمَ ما كانوا يعملون مقامَهُ مبالغةً في المماثَلَةِ.

(٨٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجبَ عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ بما فيه. ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيِّ معادٍ، وهو المقامُ المحمودُ الذي وعدَكَ أنْ يبعثَك فيه، أو مكةُ[1] التي اعْتَدْتَ بها على أنه من العادةِ ردُّه إليها يومَ الفتحِ، كأنه لما حكمَ بأنَّ العاقبةَ للمتقين وأكَّدَ ذلك بوعدِ المحسنينَ ووعيدِ المسيئينَ وَعَدَهُ بالعاقبةِ الحسنى في الدارين. روي أنه لما بلغَ جحفةَ في مهاجَرِهِ اشتاقَ إلى مولدِهِ ومولدِ آبائه فنزلتْ[2]. ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقُّه من الثوابِ والنصرِ ومَنْ منتصِبٌ بفعلٍ يفسِّره أعلمُ. ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما استحقَّه من العذابِ والإذلالِ يعني به نفسَه والمشركين، وهو تقريرٌ للوعد السابقِ وكذا قولُه:

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٠٩ ـ ٥١٠ رقم ٤٧٧٣) عن ابن عباس.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤١٤): «وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكياً، والله أعلم» هـ.

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي سيردُّك إلى معادِك كما ألقى إليك الكتابَ وما كنتَ ترجوه. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ﴾ ولكنْ ألقاه رحمةً منه، ويجوزُ أنْ يكونَ استثناءً محمولاً على المعنى كأنه قال: وما ألقي إليك الكتابَ إلا رحمةً. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمداراتِهم والتحمُّلِ عنهم والإجابةِ إلى طِلْبَتِهم.

(٨٧) ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عن قراءتها والعملِ بها. ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ﴾ وقرىء يُصِدنَّك من أَصَدَ. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾ إلى عبادته وتوحيدِه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتِهم.

(٨٨) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ﴾ هذا وما قبلَه للتهييجِ وقطعِ أطماعِ المشركينَ عن مساعدته لهم. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ إلا ذاتَه فإنَّ ما عداهُ ممكِنٌ هالِكٌ في حدِّ ذاته معدومٌ. ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاءُ النافذُ في الخلْقِ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاءِ بالحقِّ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ طسمَ القصصَ كان له من الأجر بعددِ مَنْ صدَّقَ موسى وكذَّبَ ولم يبقَ مَلَكٌ في السموات والأرضِ إلا شهدَ له يومَ القيامة أنه كان صادِقاً»[1].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٢٧ رقم ١٤٣) وهو حديث موضوع تقدم الكلام في آخر آل عمران.

سُورَةُ العَنْكَبُوتِ

ترتيبها ٢٩ آياتها ٦٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾

سورة العنكبوت مكية وآيها تسع وستون آية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾ سبق القولُ فيه، ووقوعُ الاستفهامِ بعدَه دليلُ استقلالِه بنفسِه أو بما يُضْمَرُ معهُ.

(٢) ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحسبانُ مما يتعلَّق بمضامينِ الجملِ للدلالةِ على جهةِ ثبوتها ولذلك اقتضَى مفعولينِ متلازمينِ أو ما يسدُّ مسدَّهما كقوله: ﴿أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ فإنَّ معناه أحسبوا تركَهم غيرَ مفتونِينَ لقولهم آمنَّا، فالتركُ أولُ مفعولَيْه وغيرَ مفتونينَ من تمامِه ولقولهم آمنا هو الثاني كقولك: حسبتُ ضربَه للتأديبِ، أو أنفسَهم متروكينَ غيرَ مفتونينَ لقولهم آمنا بل يمتحنُهم الله بمشاقِّ التكاليفِ، كالمهَاجَرةِ والمجاهَدَةِ ورفضِ الشهواتِ ووظائفِ الطاعاتِ وأنواعِ المصائبِ في الأنفس

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/٤٤٩) و«زاد المسير» (٦/٢٥٣) والبحر المحيط (٧/١٣٩) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/٣٢٣) وفي ظلال القرآن (٥/٢٧١٨).

والأموالِ ليتميَّزَ المخلِصُ من المنافقِ والثابتُ في الدين من المضْطَرِب فيه، ولينالوا بالصبر عليها عواليَ الدرجاتِ، فإنَّ مجرَّدَ الإيمانِ وإنْ كان عن خلوصٍ لا يقتضي غيرَ الخلاصِ من الخلودِ في العذابِ. رُوِيَ أنها نزلتْ في ناسٍ من الصحابة جزِعُوا من أذى المشركين[١]، وقيل في عمَّارٍ وقد عُذِّبَ في الله تعالى[٢]، وقيل في مهجعٍ مولى عمرَ بنِ الخطاب رماه عامر بنُ الحضرمي بسهمٍ يومَ بدرٍ فقتلَه فجزعَ عليه أبواهُ وامرأتُه[٣].

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ متصلٌ بِأَحَسِبَ أو بلا يفتنونَ، والمعنى أنَّ ذلك سنةٌ قديمة جاريةٌ في الأمم كلِّها فلا ينبغي أنْ يُتَوَقَّعَ خلافُه. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فليتعلَّقنَّ علمُه بالامتحان تعلُّقاً حالياً يتميَّزُ به الذين صدقوا في الإيمان والذين كذَّبوا فيه، وينوطُ به ثوابَهم وعقابَهم ولذلك قيل المعنى وليُمَيِّزَنَّ أو ليجازينَّ، وقرىء وليُعْلِمَنَّ من الإعلامِ أي وليعرفنَّهم اللهُ الناسَ أو لَيسِمَنَّهُمْ بِسِمَةٍ يُعْرَفُونَ بها يومَ القيامة كبياضِ الوجوهِ وسوادِها.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفرَ والمعاصيَ فإنَّ العملَ يعمُّ أفعالَ القلوب والجوارح. ﴿أَن يَسْبِقُونَا۟﴾ أنْ يفوتُونا فلا نقدِرُ أنْ نجازِيَهُم على مساويهم وهو سادٌّ مسدَّ مفعولي حسِبَ لاشتمالَه على مسندٍ ومسندٍ إليه، ويجوزُ أنْ يضمَّنَ حسبَ معنى قَدَرَ أو أمْ منقطعةٌ والإضرابُ فيها لأنَّ هذا الحسبانَ أبطلُ من الأولِ ولهذا عقَّبه بقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئسَ الذي يحكمونَه، أو حكماً يحكمونَه حكمَهم هذا فحذفَ المخصوصَ بالذمِّ.

(٥) ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ في الجنة، وقيل المرادُ بلقاء الله الوصولُ إلى ثوابه، أو إلى العاقبةِ من الموت والبعثِ والحساب والجزاءِ، على تمثيلِ حاله بحالِ عبدٍ قَدِمَ على سيِّده بعد زمانٍ مديدٍ وقد اطَّلعَ السيدُ على أحواله، فإما أنْ يلقاهُ ببِشْرٍ لما رضيَ من أفعاله أو بسخطٍ لما سخِطَ منها. ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ الوقْتَ المضروبَ لِلِقَائِه. ﴿لَـَٔاتٍ﴾ لجاءٍ وإذا كان وقتُ اللقاء آتياً كان اللقاءُ كائناً لا محالةَ، فلْيبادرْ ما يحققُ أملَه ويصدِّقُ رجاءَه أو ما يستوجِبُ به القربةَ والرضا. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالِ العباد. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعقائدِهم وأفعالِهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/١٢٩) عن الشعبي، وذكره الواحدي في الأسباب (ص٣٤٠).

(٢) أخرجه ابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن عبدالله بن عبيد بن عمير ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٠) ـ.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٢٧ رقم ١٤٤) «ذكره الثعلبي عن مقاتل. . .».
ثم قال: «وسنده إلى مقاتل في أول كتابه، وفي «الدلائل» لابن أبي شيبة من طريق القاسم بن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن مسعود قال: «أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر» هـ.
وذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٤٠).
● قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/١٩٩ ـ ٢٠٠): «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب وفي هذه الجماعة فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها، بقية الدهر وذلك أن الفتنة من الله تعالى، والاختبار باق في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ولكن التي تشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر» هـ.

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على مضضِ الطاعة والكفِّ عن الشهوات. ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ لأنَّ منفعتَهُ لها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فلا حاجةَ به إلى طاعتِهم، وإنما كلَّف عبادَه رحمةً عليهم ومراعاةً لصلاحهم.

(٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ الكفرَ بالإيمانِ والمعاصي بما يتبعُها من الطاعاتِ. ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي أحسنَ جزاءِ أعمالِهم.

(٨) ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ بإيتائهما فعلاً ذا حُسْنٍ، أو كأنه في ذاتِه حَسَنٌ لفرْطِ حُسْنِه ووصَّى يجري مجرى أَمَرَ معنًى وتصرُّفاً. وقيل هو بمعنى قالَ أي وقلنا له أحسنْ بوالديك حسناً. وقيل حسناً منتصبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ على تقدير قولٍ مفسِّر للتوصيةِ أي قلنا، أَوْلهما، أوِ افعلْ بهما حسناً، وهو أوفقُ لما بعدَه وعليه يحسنُ الوقفُ على بوالديه. وقرىء حَسَناً وإحساناً. ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ بإلهيته، عبَّر عن نفيها بنفي العلم بها إشعاراً بأنَّ ما لا يُعْلَمُ صحتُه لا يجوزُ اتباعُه وإن لم يعلمْ بطلانَه فضلاً عما علم بطلانَه. ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ في ذلك فإنه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق، ولا بدَّ من إضمار القولِ إنْ لم يُضمَرْ قبلُ. ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مرجعُ مَنْ آمنَ منكم ومَنْ أشرك ومن برَّ بوالديه ومن عقَّ. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بالجزاءِ عليه، والآية نزلتْ[١] في سعد بنِ أبي وقاص وأمِّه حمنةَ، فإنها لما سمعتْ بإسلامه حلفتْ أنها لا تنتقلُ من الضَّحِّ ولا تطعمُ ولا تشربُ حتى يرتدَّ ولبثتْ ثلاثةَ أيام كذلك، وكذا التي في لقمانَ[٢] والأحقافِ[٣].

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم، والكمالُ في الصلاح منتهى درجاتِ المؤمنينَ ومتمنَّى أنبياءِ الله المرسلينَ، أو في مُدْخَلِهم وهو الجنةُ.

(١٠) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ بأنْ عذَّبهم الكفرةُ على الإيمان. ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ ما يصيبه من أذيَّتهم في الصرفِ عن الإيمان. ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الصرفِ عن الكفرِ. ﴿وَلَئِن

(١) ذكره الواحدي في الأسباب (ص٣٤٠ ـ ٣٤١) والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند، والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص (٤/١٨٧٧ رقم ١٧٤٨) بغير هذا السياق ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٧ رقم ١٤٦) ـ.

(٢) الآية: «١٥».

(٣) الآية: «١٥».

جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ فتحٌ وغنيمةٌ. ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ في الدِّينِ فأشرِكُونا فيه، والمراد المنافقونَ أو قومٌ ضَعُفَ إيمانُهم فارتدوا من أذى المشركين ويؤيدُ الأولَ. ﴿أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من الإخلاصِ والنفاقِ.

وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم. ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيجازي الفريقينِ.

(١٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ الَّذِي نسلُكه في ديننا. ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ إنْ كان ذلك خطيئةً أو إن كان بعثٌ ومؤاخذةٌ، وإنما أَمَرُوا أنفسَهم بالحمْلِ عاطفينَ على أمرِهم بالاتباعِ مبالغةً في تعليقِ الحمْلِ بالاتباعِ والوعْدِ بتخفيفِ الأوزارِ عنهم إنْ كانتْ تشجيعاً لهم عليه، وبهذا الاعتبار ردَّ عليهم وكذَّبهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ مِنْ الأُولَى للتبيينِ والثانيةُ مزيدةٌ والتقدير: وما هم بحاملينَ شيئاً من خطاياهُم.

(١٣) ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ أثقالَ ما اقترفتْه أنفسُهم. ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ وأثقالاً أُخَرَ معَها لما تسبَّبوا له بالإضلالِ والحمْلِ على المعاصي من غير أنْ ينقصَ من أثقالِ مَنْ تبعَهم شيءٌ[1]. ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سؤالُ تقريعٍ وتبكيتٍ. ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من الأباطيلِ التي أضلُّوا بها.

(١٤) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ بعدَ المبعثِ، إذ رُوِيَ أنه بُعِثَ على رأسِ الأربعينَ ودعا قومه تسعَمائةٍ وخمسينَ وعاشَ بعد الطوفانِ ستينَ، ولعل اختيارَ هذه العبارةِ للدلالة على كمالِ العددِ فإن تسعَمائةٍ وخمسينَ قد يطلق على ما يقربُ منه ولما في ذِكْرِ الألفِ من تخييلِ طولِ المدةِ إلى السامعِ، فإنَّ المقصودَ من القصةِ تسليةُ رسولِ الله ﷺ وتثبيتُه على ما يكابدُه من الكفَرَةِ، واختلاف المميِّزَيْنِ لَما في التكريرِ من البشاعةِ. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ طوفانُ الماءِ وهو لِمَا طافَ بكثرةٍ من سيلٍ أو ظلامٍ أو نحوِهما. ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفر.

(١٥) ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ أي نوحاً عليه الصلاة والسلام. ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ ومَنْ أَرْكَبَ معه من أولادِه وأتباعِه وكانوا ثمانينَ، وقيل ثمانيةً وسبعينَ، وقيل عشرةً نصفُهم ذكورٌ ونصفُهم إناثٌ. ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾ أي السفينةَ أو الحادثةَ. ﴿ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يتَّعِظون ويستدلُّون بها.

---

(١) التعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة (س٧/ ٣٣).

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى
ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ عطفٌ على نوحاً أو نُصِبَ بإضمار اذْكُرْ، وقرىء بالرفع على تقدير ومِنَ المرسلين إبراهيمُ. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ظرفٌ لأرسلْنا أي أرسلْناه حينَ كَمُلَ عقلُه وتمَّ نظرهُ بحيثُ عرفَ الحقَّ وأمرَ الناسَ به، أو بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ إنْ قدِّر باذْكُرْ. ﴿وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخيرَ والشرَّ وتميِّزونَ ما هو خيرٌ مما هو شرٌّ، أو كنتم تنظرونَ في الأمورِ بنظرِ العلمِ دون نظرِ الجهلِ.

(١٧) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وتكذِبون كذباً في تسميتِها آلهةً وادِّعاءِ شفاعتِها عندَ الله تعالى، أو تعملونَها وتنحِتُونها للإفكِ، وهو استدلالٌ على شرارةِ ما هم عليه من حيثُ إنه زورٌ وباطلٌ. وقرىء تُخَلِّقون من خَلَّقَ للتكثير وتَخَلَّقون من تَخَلق للتكلُّفِ. وإفكاً على أنه مصدرٌ كالكذبِ أو نعتٌ بمعنى خلقاً ذا إفكٍ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليلٌ ثانٍ على شرارةِ ذلك من حيثُ إنه لا يجدي بطائلٍ، ورزقاً يحتملُ المصدرَ بمعنى لا يستطيعون أنْ يرزقُوكم وأن يُرَادَ المرزوقُ وتنكيره للتعميم. ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كلَّه فإنه المالِكُ له. ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ متوسِّلينَ إلى مطالِبِكُم بعبادته مقيِّدينَ لما حفَّكم من النِّعم بشكرِهِ، أو مستعدِّين للقائِه بهما، فإنه: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقرىء بفتحِ التاءِ.

(١٨) ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ وإنْ تكذِّبوني. ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ من قبلِي مِنَ الرسلِ فلم يضرَّهم تكذيبُهُم وإنما ضرَّ أنفسَهم حيثُ تسبَّبَ لما حلَّ بهم من العذابِ فكذا تكذيبكُم. ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي يُزَالُ معه الشكُّ وما عليه أنْ يُصَدِّقَ ولا يكذِّبَ، فالآية وما بعدَها من جملة قصةِ إبراهيمَ إلى قوله ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾[1] ويحتملُ أنْ تكونَ اعتراضاً بذكرِ شأنِ النبيِّ ﷺ وقريشٍ وهدْمِ مذهبِهم والوعيد على سوءِ صنيعهم، توسَّطَ بينَ طَرَفَيْ قصَّته من حيثُ إنَّ مساقَها لتسليةِ رسولِ الله ﷺ والتنفيسِ عنه، بأنَّ أباه خليلَ الله صلواتُ الله عليهما كان ممنوَّاً بنحو ما مُنِيَ به من شركِ القومِ وتكذيبهم وتشبيهِ حالِه فيهم بحالِ إبراهيمَ في قومِه.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ من مادةٍ ومن غيرها. وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو بكر بالتاء على تقدير القولِ، وقرىء يبدأ. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ إخبارٌ بالإعادة بعدَ الموت معطوفٌ على أو لم يروا لا على يبدىءُ، فإنَّ الرؤيةَ غيرُ واقعةٍ عليه، ويجوز أنْ تؤوَّلَ الإعادةُ بأنْ ينشىءَ في كلِّ سنةٍ مثلُ

---

(١) العنكبوت: «٢٤».

ما كان في السنةِ السابقةِ من النباتِ والثمار ونحوهما وتُعْطَفُ على يبدىءُ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإشارةُ إلى الإعادةِ أو إلى ما ذُكِرَ من الأمرينِ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقرُ في فعلِه إلى شيءٍ.

قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ
حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حكايةُ كلام الله لإبراهيمَ أو محمدٍ عليهما الصلاة والسلام. ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على اختلافِ الأجناسِ والأحوالِ. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بعدَ النشأةِ الأولى التي هي الإبداءُ، فإنه والإعادةَ نشأتانِ من حيثُ أنَّ كلاً اختراعٌ وإخراجٌ من العدمِ، والإفصاحُ باسم اللهِ مع إيقاعِه مبتدأً بعدَ إضمارِه في بَدَأَ والقياسُ الاقتصارُ عليه للدلالةِ على أنَّ المقصودَ بيانُ الإعادةِ، وأنَّ مَنْ عُرِفَ بالقدرةِ على الإبداءِ ينبغي أنْ يُحْكَمَ له بالقدرة على الإعادةِ لأنها أهونُ والكلامُ في العطفِ ما مرَّ، وقرىء النشاءةَ كالرآفةِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ قدرتَه لذاتِه ونسبةُ ذاتِه إلى كلِّ الممكِناتِ على سواءٍ فيقدرُ على النشأةِ الأخرى كما قَدَرَ على النشأةِ الأولى.

(٢١) ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبَهُ. ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمتَهُ. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تُرَدُّونَ.

(٢٢) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربَّكم عن إدراكِكُم. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إنْ فَرَرْتُم من قضائِه بالتواري في الأرضِ أو الهبوطِ في مهاويها، والتحصُّنِ في السماء أو القِلاعِ الذاهبةِ فيها وقيل ولا مَنْ في السماء كقولِ حسانَ:

أَمَـــنْ يَهْجُـــو رَسُـــولَ الله مِنْكُـــمْ		ويَمْـــدَحُـــهُ وَيَنْصُـــرُهُ سَـــوَاء

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرُسكم عن بلاءٍ يظهرُ من الأرضِ أو ينزلُ من السماء ويدفعُه عنكم.

(٢٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلائلِ وحدانيتِه أو بكُتبِه. ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بالبعثِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي ييأسُونَ منها يومَ القيامة، فعبَّر عنه بالماضي للتحقُّقِ والمبالغةِ، أو أَيِسُوا في الدنيا لإنكارِ البعثِ والجزاءِ. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرِهم.

(٢٤) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ قوم إبراهيمَ له، وقرىء بالرفعِ على أنه الاسمُ والخبرُ ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وكان ذلك قولَ بعضِهم لكنْ لما قيل فيهم ورضيَ به الباقونَ أُسْنِدَ إلى كلِّهم. ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فقذفوه في النار فأنجاهُ الله منها بأنْ جعلَها عليه برداً وسلاماً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في إنجائه منها. ﴿لَـَٔايَٰتٍ﴾ هي حفظُه من أذى النارِ، وإخمادُها مع عِظَمِها في زمانٍ يسرٍ وإنشاءِ روضٍ مكانَها. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعونَ بالتفحُّصِ عنها والتأملِ فيها.

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

(٢٥) ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لتتوادُّوا بينكم وتتواصلُوا لاجتماعِكم على عبادتها، وثاني مفعولي اتخذتُم محذوفٌ، ويجوز أنْ تكونَ مودةُ المفعولَ الثاني بتقدير مضافٍ أي اتخذتم أوثانَ سببِ المودةِ بينِكم أو بتأويلها بالمودودةِ. وقرأها نافعٌ وابن عامر وأبو بكر منونةً ناصبةً بينَكم والوجهُ ما سبقَ، وابنُ كثير وأبو عمرو والكسائي ورويسٌ مرفوعةً مضافةً على أنها خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي هي مودودةٌ أو سببُ مودَّةٍ بينَكم. والجملةُ صفةُ أوثاناً أو خبرُ إنَّ على أنَّ ما مصدريةٌ أو موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ وهو المفعولُ الأولُ. وقُرِئَتْ مرفوعةً منونةً ومضافةً بفتحِ بينَكم كما قرىء ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[1] وقرىءَ إنما مودةُ بينِكم. ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يقومُ التناكرُ والتلاعُنُ بينكم، أو بينَكُم وبينَ الأوثانِ على تغليبِ المخاطَبينَ كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[2]. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونكُم منها.

(٢٦) ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ هو ابنُ أخيهِ وأولُ مَنْ آمن به، وقيل إنه آمنَ به حينَ رأى النارَ لم تحرقْه. ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾ من قومي. ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ إلى حيثُ أمرني. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي. رُوِيَ[3] أنه هاجرَ من كُوثَى من سوادِ الكوفةِ مع لوطٍ وامرأتِه سارةُ ابنةُ عمِّه إلى حرَّانَ، ثم منها إلى الشامِ فنزلَ فلسطينَ، ونزلَ لوطٌ سدومَ.

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً ونافلةً حين أَيِسَ من الولادةِ من عجوزٍ عاقرٍ، ولذلك لم يذكرْ إسماعيلَ. ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ فكثُر منهم الأنبياءُ. ﴿وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ يريدُ به الجنسَ ليتناولَ الكتبَ الأربعةَ. ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على هجرتِه إلينا. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإعطاءِ الولدِ في غير أوانه، والذريةِ الطيبةِ واستمرارِ النبوةِ فيهم وإنماءِ أهلِ المللِ إليه والثناءِ والصلاةِ عليه إلى آخرِ الدهرِ. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ لفي عِدَادِ الكامِلينَ في الصلاحِ.

(٢٨) ﴿وَلُوطًا﴾ عطفٌ على إبراهيمَ أو على ما عُطِفَ عليه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ الفِعْلَةَ البالغةَ في القُبْحِ. وقرأ الحرميانِ وابن عامر وحفص بهمزةٍ مكسورةٍ على

(١) الأنعام: «٩٤».
(٢) مريم: «٨٢».
(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/٢٣٨).

الخبر[1] والباقونَ على الاستفهامِ وأجمعوا على الاستفهامِ في الثاني. ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لفاحِشَتِها من حيثُ إنها مما اشمأزَّتْ منه الطباعُ وتحاشَتْ عنه النفوسُ حتى أقدموا عليها لخبثِ طينتِهم.

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾

(٢٩) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وتتعرَّضون للسابلةِ بالقتلِ وأخذِ المالِ أو بالفاحشةِ حتى انقطعتِ الطرقُ، أو تقطعونَ سبيلَ النسلِ بالإعراضِ عن الحرثِ وإتيانِ ما ليسَ بحرثٍ. ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ في مجالسِكم الغاصَّةِ بأهلِها ولا يُقَالُ للنادي إلا لما فيه أهلُه. ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجماعِ والضراطِ وحلِّ الإزارِ وغيرِها من القبائحِ عدمَ مبالاةٍ بها. وقيل الخَذفُ ورميُ البنادقِ. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في استقباحِ ذلك أو في دعوى النبوةِ المفهومةِ من التوبيخِ.

(٣٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزالِ العذابِ. ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ باتباعِ الفاحشةِ وسنِّها فيمنْ بعدَهم، وصفَهم بذلك مبالغةً في استنزالِ العذابِ وإشعاراً بأنهم أحِقَّاءُ بأنْ يُعَجَّلَ لهم العذابُ.

(٣١) ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بالولدِ والنافلةِ. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قريةِ سدوم، والإضافةُ لفظيةٌ لأن المعنى على الاستقبالِ. ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ لإهلاكِهم لهم بإصرارِهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر وأنواعُ المعاصي.

(٣٢) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ اعتراضٌ عليهم بأنَّ فيها مَنْ لم يَظلِمْ، أو معارضةٌ للموجِبِ بالمانعِ وهو كونُ النبيِّ بين أظهُرهم. ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ تسلمٌ لقوله مع ادِّعاءِ مزيد العلمِ به وأنهم ما كانوا غافلينَ عنه وجوابٌ عنه بتخصيصِ الأهل بِمَنْ عداهُ وأهله، أو تأقيتُ الإهلاكِ بإخراجِهم منها، وفيه تأخيرٌ للبيانِ عن الخطابِ. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقينَ في العذابِ أو القريةِ.

(٣٣) ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ جاءته المساءةُ والغمُّ بِسَبَبِهِم مخافةَ أنْ يقصِدَهم قومُه بسوءٍ، وأنْ صلةٌ لتأكيد الفعلينِ واتصالِهما. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاقَ بشأنِهم وتدبيرِ أمرِهم ذرْعُه أي

---

(١) أي قرؤوا «إذ قال لقومه إنكم» بهمزة واحدة، بينما قرأ الباقون «أئنكم»، وأجمعوا على الاستفهام في الثاني أي في قوله «أئنكم لتأتون الرجال. . .».

طاقتُه كقولهم ضاقتْ يدُه وبإزائه رَحُبَ ذرْعُه بكذا إذا كان مطيقاً له، وذلك لأنَّ طويلَ الذراعِ ينالُ ما لا ينالُه قصيرُ الذراع. ﴿وَقَالُوا﴾ لما رأوا فيه أثرَ الضجرةِ. ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ على تمكُّنِهم منَّا. ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعقوبُ لَنُنجينَّه ومُنجُوك بالتخفيف، ووافقهم أبو بكر وابنُ كثير في الثاني. وموضعُ الكافِ الجرُّ على المختارِ، ونَصْب أهْلَكَ بإضمارِ فعلٍ، أو بالعطفِ على محلِّها باعتبارِ الأصلِ.

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ
ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ
ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذاباً منها، سُمِّيَ بذلك لأنه يُقْلِقُ المعذَّبَ مِنْ قولهم ارتجزَ إذا ارتجسَ أي اضطربَ. وقرأ ابن عامر مُنَزِّلُونَ بالتشديدِ. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسببِ فِسْقِهم.

(٣٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي حكايتُها الشائعةُ أو آثارُ الديارِ الخرِبةِ، وقيل الحجارةُ الممطَرةُ فإنها كانتْ باقيةَ بعدُ، وقيل بقيةُ أنهارِها المسودَّةِ. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملونَ عقولَهم في الاستبصارِ والاعتبارِ، وهو متعلِّق بتركنا أو آية.

(٣٦) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجُون به ثوابه فأُقِيمَ المسبَّبُ مقامَ السببِ، وقيل إنه من الرجاءِ بمعنى الخوفِ. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

(٣٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلةُ الشديدةُ وقيل صيحةُ جبريلَ عليه السلام لأنَّ القلوبَ ترجُفُ لها. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ في بلدِهم أو دورِهم، ولم يُجْمَعْ لأمْنِ اللَّبْسِ. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ باركينَ على الرُّكبِ ميِّتينَ.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ منصوبانِ بإضمارِ اذكرْ أو فعلٍ دلَّ عليه ما قبلَه مثلُ أهلكْنا. وقرأ حمزةُ وحفص ويعقوبُ وثمودَ غيرَ منصرفٍ على تأويلِ القبيلةِ. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي تبيَّن لهم بعضُ مساكِنهم، أو إهلاكِهم من جهةِ مساكِنهم إذا نظرتُم إليها عندَ مرورِكم بها. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السويِّ الذي بيَّنه الرسلُ لهم. ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ متمكِّنينَ من النظرِ والاستبصارِ ولكنَّهم لم يفعلوا، أو متبينينَ أنَّ العذابَ لاحِقٌ بهم بإخبارِ الرسلِ لهم ولكنَّهم لجُوا حتى هلكُوا.

(٣٩) ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوف على عاداً، وتقديمُ قارونَ لشرفِ نسبِه. ﴿وَلَقَدْ

جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ فائتين بل أدركهم أمرُ الله مِنْ سبق طالبه إذا فاته.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين. ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ عاقبناه بذنبه. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباءُ، أو مَلَكاً رماهُم بها كقوم لوطٍ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كمدينَ وثمودَ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارونَ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقومِ نوحٍ وفرعونَ وقومه. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليعامِلَهم معاملةَ الظالمِ فيعاقِبَهُم بغير جُرْمٍ إذ ليس ذلك من عادته عزَّ وجلَّ. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعرُّضِ للعذابِ.

(٤١) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ فيما اتخذوه مُعْتَمَداً ومتَّكلاً. ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجتْه في الوهْنِ والخورِ بل ذاك أوهنُ فإن لهذا حقيقةً وانتفاعاً ما، أو مثلُهم بالإضافة إلى الموحد كمثلِها بالإضافة إلى رجلٍ بنَى بيتاً من حجرٍ وجصٍّ، والعنكبوتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ والمذكرِ والمؤنثِ، والتاءُ فيه كتاء طاغوتٍ ويجمعُ على عناكيبَ وعناكبَ وعكابٍ وعكبةٍ وأعكُبٍ. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيتَ أوهنُ وأقلُّ وقايةً للحرِّ والبردِ منه. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يرجعونَ إلى علمٍ لعلِموا أنَّ هذا مثلُهم وأنَّ دينَهم أوهنُ من ذلك، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ ببيتِ العنكبوتِ دينُهم سمَّاه به تحقيقاً للتمثيلِ فيكون المعنَى: وإنَّ أوهنَ ما يعتمدُ به في الدينِ دينُهم.

(٤٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ على إضمارِ القولِ أي قلْ للكفرة إنَّ الله يعلم، وقرأ البصريانِ بالياءِ حملاً على ما قبلَه وما استفهاميةٌ منصوبةٌ بتدْعُونَ ويعلمُ معلَّقَةٌ عنها ومِنْ للتبيينِ أو نافيةٌ ومِنْ مزيدةٌ وشيءٌ مفعولُ تدعون أو مصدريةٌ وشيءٌ مصدرٌ أو موصولةٌ مفعولٌ ليعلمَ ومفعولُ تدعون عائدُهَا المحذوفُ، والكلامُ على الأوَّلينِ تجهيلٌ لهم وتوكيدٌ للمَثَلِ وعلى الأخيرينِ وعيدٌ لهم. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليلٌ على المعنيينِ فإنَّ مِنْ فَرْطِ الغباوةِ إشراكُ ما لا يُعَدُّ شيئاً بِمَنْ هذا شأنُه، وأنَّ الجمادَ بالإضافةِ إلى القادرِ القاهرِ على كلِّ شيءِ البالغِ في العلمِ وإتقانِ الفعلِ الغايةَ كالمعدومِ، وأنَّ مَنْ هذا وصْفُه قادرٌ على مجازاتِهم.

(٤٣) ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ يعني هذا المثلَ ونظائرَه. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لما بَعُدَ مِنْ أفهامِهم. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ ولا يعقلُ حُسْنَها وفائدتَها. ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ الذين يتدبَّرون الأشياءَ على ما ينبغي. وعنه ﷺ أنه تلا هذهِ الآيةَ فقال: «العالِمُ مَنْ عقلَ عن اللهِ فعمِلَ بطاعتِه واجتنبَ سُخْطَه»[1].

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٧ رقم ١٤٩): «ـ أخرجه ـ داود بن المحبر في كتاب «العقل» =

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

(٤٤) ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُحِقّاً غيرَ قاصِدٍ به باطلاً، فإنَّ المقصودَ بالذاتِ مَنْ خلقِها إفادةُ الخيرِ والدلالةُ على ذاتِه وصفاتِه كما أشارَ إليه بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المنتفِعونَ به.

(٤٥) ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته وتحفُّظاً لألفاظِه واستكشافاً لمعانيه، فإنَّ القارئَ المتأمِّلَ قد ينكشفُ له بالتكرارِ ما لم ينكشفْ له أولَ ما قرَعَ سمعَه. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بأنْ تكونَ سبباً للانتهاءِ عن المعاصي حالَ الاشتغالِ بها وغيرِها منْ حيثُ إنها تذكِّرُ اللهَ وتورِّثُ النفسَ خشيةً منه. رُوِيَ أنَّ فتًى من الأنصارِ كان يصلِّي مع رسولِ الله ﷺ الصلواتِ ولا يدعُ شيئاً من الفواحشِ إلا ارتكبَه، فوُصِفَ له عليه السلام فقال: «إنَّ صلاته ستنهاهُ» فلم يلبثْ أنْ تابَ[1]. ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وللصلاة أكبرُ مِنْ سائر الطاعاتِ، وإنما عبَّر عنها به للتعليل بأنَّ اشتمالها على ذكرِه هو العمدةُ في كونِها مفضَّلةً على الحسناتِ ناهيةً عن السيئاتِ، أو لَذِكْرُ اللهِ إيَّاكم برحمته أكبرُ مِنْ ذكرِكم إياه بطاعتِه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومن سائرِ الطاعاتِ فيجازيكم به أحسنَ المجازاةِ.

والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» ـ (بقية الباحث رقم ١٠٣٠) ـ عنه من حديث جابر. وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدي، والبغوي ـ في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٤٣) ـ وذكره ابن الجوزي في الموضوعات» هـ.

وذكر ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦) أحاديث من كتاب «العقل» لداود بن المحبر. ثم قال: «وهذه الأحاديث من كتاب العقل لداود بن المحبر، وكلها موضوعة ذكرها الحارث في مسنده عنه».

قلت: وأورد ابن عراق الحديث في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢١٤).

وقال الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٦٠) في ترجمة (داود بن المحبر).

«حدثنا الصُّوريُّ قال: سمعتُ الحافظ عبدالغني بن سعيد يقول: قال الدارقطني: إن كتاب «العقل» وضَعَه أربعة: أولهم مَيْسَرَة بن عبدرَبِّه، ثم سَرَقه منه داود بن المحبر، فركَّبَه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبدالعزيز بن أبي رجاءٍ، فركَّبه بأسانيد أُخَر، ثم سَرَقه سليمان بن عيسى السِّجْزي فأتى بأسانيد آخر» هـ.

والخلاصة أنه لا يصح في العقل حديث. انظر «المنار المنيف» لابن قيم الجوزية ص٦٦ ـ ٦٧.

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٨ رقم ١٥٢): «ولم أجده».

وقد قال الشيخ عبدالفتاح أبو غدة في مقدمة كتاب «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» للقاري (ص٢٥): «قولهم في الحديث: لا أعرفه، أو: لم أعرفه، أو: لم أقف عليه، أو: لا أعرف له أصلاً، أو: لم أجد له أصلاً، أو: لم أقف له على أصل، أو: لا أعرفه بهذا اللفظ، أو: لم أره بهذا اللفظ. أو: لم أجده، أو: لم أجده هكذا، أو: لم يَرِد فيه شيء، أو: لا يُعلَمَ من أخرجه ولا إسنادُهُ، ونحوَ هذه العبارات إذا صَدَر من أحَدِ الحفاظ المعروفين، ولم يتعقَّبه أحد كفى للحكم على ذلك الحديث بالوضع» هـ.

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٦) ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ إلا بالخصلةِ التي هي أحسنُ كمعارضةِ الخشونةِ باللينِ والغضبِ بالكظمِ والمشاغبةِ بالنُّصح، وقيل هو منسوخٌ بآيةِ السيفِ إذْ لا مجادلةَ أشدُّ منه وجوابُه أنه آخِرُ الدواءِ، وقيل المرادُ به ذو العهدِ منهم. ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ بالإفراطِ في الاعتداءِ والعنادِ أو بإثباتِ الولدِ وقولهم ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ ﴾[١] أو بنبذِ العهدِ ومنعِ الجزيةِ. ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾ هو من المجادلةِ بالتي هي أحسنُ. وعن النبيِّ ﷺ «لا تصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذِّبوهم وقولُوا آمنا بالله وبكتبِه ورسلِه فإنْ قالوا باطلاً لم تصدِّقوهم وإنْ قالوا حقاً لم تكذِّبوهم»[٢] . ﴿ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ مطيعونَ له خاصَّةً وفيه تعريضٌ باتخاذِهم أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله.

(٤٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ ومثلُ ذلك الإنزالِ. ﴿ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ ﴾ وحياً مصدِّقاً لسائرِ الكتبِ الإلهيةِ وهو تحقيقٌ لقوله ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ ﴾ هم عبدُالله بنُ سلام وأضرابُه، أو مَنْ تقدَّم عهدَ الرسول ﷺ من أهل الكتاب. ﴿ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ومن العرب أو أهلِ مكةَ أو مِمَّنْ في عهدِ الرسول من أهل الكتابَيْنِ. ﴿ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ ﴾ بالقرآنِ. ﴿ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ مع ظهورِها وقيامِ الحجةِ عليها. ﴿ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ إلا المتوغِّلونَ في الكفرِ فإنَّ جزمَهُم به يمنعُهم عن التأمُّلِ فيما يَقيدُ لهم صدقَها لكونها معجزةً بالإضافةِ إلى الرسولِ ﷺ كما أشارَ إليه بقوله:

(٤٨) ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ ﴾ فإنَّ ظهورَ هذا الكتابِ الجامعِ لأنواعِ العلومِ الشريفةِ أميٍّ لم يُعْرَفْ بالقراءةِ والتعلُّمِ خارقٌ للعادةِ، وذِكْرُ اليمينِ زيادةُ تصويرٍ للمنفي، ونُفِيَ للتجوُّزِ في الإسنادِ. ﴿ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أي لو كنتَ ممنْ يخطُّ ويقرأُ لقالوا لعلَّه تعلَّمه أوِ التقطه من كتبِ الأولينَ الأقدمينَ، وإنما سمَّاهم مبطلينَ لكفرِهم أو لارتيابِهم بانتفاءِ وجْهٍ واحدٍ من وجوهِ الإعجاز المكاثرةِ، وقيلَ لارتابَ أهلُ الكتابِ لوجدانِهم نعتَك على خلافِ ما في كتُبهم فيكونُ إبطالُهم باعتبارِ الواقعِ دونَ المقدَّرِ.

---

(١) المائدة: «٦٤».

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٥٩ رقم ٣٦٤٤) وابن حبان (ص٥٨ رقم ١١٠ ـ موارد) وأحمد في المسند (٤/١٣٦) والطبراني في الكبير (٢٢/٣٤٩ ـ ٣٥١ رقم ٨٧٤ ـ ٨٧٩) وعبدالرزاق في المصنف (١١/١١٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/١٠) كلهم من طريق الزهري عن ابن أبي نملة الأنصاري عن أبيه في سياق أطول من ذلك.
وقال الحافظ في «التقريب» (٢/٣٠٧ رقم ١٤٨): «نملة بن أبي نملة» مقبول.
فالحديث بهذا الإسناد فيه ضعف يسير يجبره حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٨/١٧٠ رقم ٤٤٨٥) و(١٣/٣٣٣ رقم ٧٣٦٢) و(١٣/٥١٦ رقم ٧٥٤٢).

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾

(٤٩) ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ بل القرآنُ. ﴿ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ يحفظونَه لا يقدِرُ أحدٌ على تحريفِه. ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ المتوغِّلونَ في الظُّلْمِ بالمكابرةِ بعدَ وضوحِ دلائلِ إعجازِها حتى لم يعتدُّوا بها.

(٥٠) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ مثلُ ناقةِ صالح وعصا موسى ومائدةِ عيسى، وقرأ نافع وابنُ عامر والبصريانِ وحفصٌ آياتٌ. ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ينزِّلُها كما يشاءُ لستُ أملِكُها فآتيكم بما تقترِحونه. ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليس من شأني إلاَّ الإنذارُ وإبانتُه بما أُعْطِيْتُ من الآياتِ.

(٥١) ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ آيةٌ مغنيةٌ عما اقترحوه. ﴿ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ تدومُ تلاوتُه عليهم متحدِّين به فلا يزالُ معهم آيةٌ ثابتةٌ لا تضمحلُّ بخلافِ سائرِ الآياتِ، أو يُتْلَى عليهم يعني اليهودَ بتحقيقِ ما في أيديهم من نعتِكَ ونعتِ دينك. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الكتابِ الذي هو آيةٌ مستمرةٌ وحجةٌ مبيِّنةٌ. ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ لنعمةً عظيمةً. ﴿ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وتذكرةٌ لمن همُّه الإيمانُ دونَ التعنُّتِ. وقيل إنَّ أُناساً من المسلمينَ أَتَوْا رسولَ اللهِ ﷺ بكتبٍ كُتِبَ فيها بعضُ ما يقول اليهودُ، فقال: «كفى بها ضلالةَ قومٍ أنْ يرغَبوا عما جاءهم به نبيُّهم إلى ما جاء به غيرُ نبيهم» فنزلتْ[١].

(٥٢) ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ بصدقي وقدْ صدَّقني بالمعجزاتِ، أو بتبليغي ما أُرسِلْتُ به إليكم ونُصْحي ومقابلتُكم إيايَ بالتكذيب والتعنُّتِ. ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فلا يَخفَى عليه حالي وحالُكم. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وهو ما يُعْبَدُ من دونِ الله. ﴿ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ منكم. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ في صفقتِهم حيثُ اشتروا الكفرَ بالإيمان.

(٥٣) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ بقولهم: أمطِرْ علينا حجارةً من السماء. ﴿ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ لكلِّ عذابٍ أو قومٍ. ﴿ لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ عاجلاً. ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ فجأةً في الدنيا كوقعةِ بدرٍ أو الآخرةِ عندَ نزولِ الموتِ بهم. ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه.

(٥٤) ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ستحيطُ بهم يومَ يأتيهم العذابُ، أو هي كالمحيطةِ بهم الآنَ لإحاطةِ الكفرِ والمعاصي التي توجبُها بهم. واللامُ للعهدِ على وضْعِ الظاهرِ موضعَ

---

(١) أخرجه الدارمي (١/١٢٤) وأبو داود في «المراسيل» (ص٣٢٠ رقم ٤٥٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/٧) من حديث ابن جعدة مرسلاً ـ وإسناد الدرامي صحيح وهو مرسل ـ.

المضمَرِ للدلالةِ على موجبِ الإحاطةِ، أو للجنسِ فيكونُ استدلالاً بحكمِ الجنسِ على حُكْمِهم.

يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ
أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

(٥٥) ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرفٌ لمحيطةٌ أو مقدرةٌ مثلَ كانَ كيتَ وكيتَ. ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ من جميع جوانبهم. ﴿وَيَقُولُ﴾ اللهُ أو بعضُ ملائكتِه بأمرِه لقراءةِ ابنِ كثير وابنِ عامر والبصريينَ بالنونِ. ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءَه.

(٥٦) ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهَّلْ لكم العبادةُ في بلدةٍ ولم يتيسَّرْ لكم إظهارُ دينِكم فهاجِروا إلى حيثُ يتمشَّى لكم ذلك، وعنه عليه الصلاة والسلام: «من فرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو كان شبراً استوجبَ الجنةَ وكانَ رفيقَ إبراهيمَ ومحمدٍ عليهما السلام»[١]. والفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ إذِ المعنى إنَّ أرضِي واسعةٌ إن لم تخلِصُوا العبادة لي في إرضٍ فأخلِصُوها في غيرِها.

(٥٧) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تنالُه لا محالةَ. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاءِ ومَنْ هذا عاقبتُه ينبغي أنْ يجتهدَ في الاستعدادِ له. وقرأ أبو بكر بالياءِ.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ لننزلنَّهم. ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ علاليَ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ لنثوينَّهم أي لنقيمَنَّهم من الثَّواءِ فيكون انتصابُ غرفاً لإجرائِه مجرى لننزلنَّهم، أو بنزعِ الخافضِ، أو بتشبيهِ الظرفِ المؤقَّتِ بالمبهَمِ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وقرىء فَنِعْمَ والمخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أذيَّةِ المشركينَ والهجرةِ للدين إلى غيرِ ذلك من المِحَنِ والمشاقِّ. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولا يتوكلون إلا على اللهِ.

(٦٠) ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيقُ حملَه لضعفِها أو لا تدَّخره، وإنما تصبحُ ولا معيشةَ عندَها. ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثم إنها مع ضعفِها وتوكُّلِها وإياكم مع قوَّتِكم واجتهادِكم سواءٌ في أنه لا يرزقُها وإيَّاكم إلا اللهُ، لأنَّ رزقَ الكلِّ بأسبابٍ هو المسبِّبُ لها وحدَه فلا تخافوا على معاشِكم بالهجرةِ، فإنَّهم لما أُمِروا بالهجرةِ قال بعضُهم كيفَ نقدمُ بلدةً ليس لنا فيها معيشةٌ فنزلتْ[٢]. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولِكم هذا. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضميرِكم.

---

(١) التصريح بذكرهم، وإنما عدل عنه إلى الغائب فذكر صفتهم.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٦/ ٢٨٢) والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٣٦٠) والبغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٥٢).

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ
دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

(٦١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ المسؤولُ عنهم أهلُ مكَّةَ. ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لما تقرَّر في العقولِ من وجوبِ انتهاءِ الممكِناتِ إلى واحدٍ واجبِ الوجودِ. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عن توحيدِهِ بعد إقرارِهم بذلك.

(٦٢) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ الموسَعُ له والمضيَّقُ عليه واحداً على أنَّ البسطَ والقبضَ على التعاقُبِ وألا يكونَ على وضعِ الضميرِ موضِعَ مَنْ يشاءُ وإبهامُه لأنَّ مَنْ يشاء مُبْهَمٌ. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلمُ مصالِحَهُم ومفاسِدَهم.

(٦٣) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ معترفِين بأنه الموجِدُ للممكناتِ بأسْرِها أصولِها وفروعِها، ثم إنَّهم يشركونَ به بعضَ مخلوقاتِه الذي لا يقدرُ على شيءٍ من ذلك. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عَصَمَكَ من مِثْلِ هذه الضلالةِ، أو على تصديقِك وإظهارِ حجَّتك. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيتناقضونَ حيثُ يقرُّون بأنه المبدئُ لكلِّ ما عداه ثم إنهم يشركونَ به الصَّنَمَ، وقيل لا يعقلونَ ما تريدُ بتحميدِك عندَ مقالِهم.

(٦٤) ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ إشارة تحقيرٍ وكيفَ لا وهي لا تزنُ عند الله جناحَ بعوضةٍ. ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ إلا كما يلْهى ويلعبُ به الصبيانُ يجتمعونَ عليه ويبتهجُون به ساعةً ثم يتفرَّقون متعبينَ. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ لهي دارُ الحياة الحقيقيةِ لامتناعِ طريانِ الموتِ عليها، أو هي في ذاتها حياةٌ للمبالغةِ، والحيوانُ مصدرُ حيَّ سُمِّيَ به ذو الحياةِ وأصلُه حَيَيَانٌ فقلبتِ الياءُ الثانيةُ واواً وهو أبلغُ من الحياةِ لما في بناء فعلانَ من الحركةِ والاضطرابِ اللازمِ للحياةِ، ولذلك اخْتِيْرَ عليها ههنا. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لم يؤثِروا عليها الدنيا التي أصلُها عدمُ الحياةِ، والحياةُ فيها عارضةٌ سريعةُ الزوالِ.

(٦٥) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ متصلٌ بما دلَّ عليه شرحُ حالِهم أي هم على ما وُصِفُوا به من الشركِ فإذا ركبوا البحرَ. ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كائنينَ في سورةِ مَنْ أخلصَ دينَه من المؤمنينَ حيثُ لا يذكرون إلا اللهَ ولا يدْعُونَ سواهُ لِعِلْمِهم بأنه لا يكشفُ الشدائدَ إلا هو. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجؤُوا المعاودةَ إلى الشركِ.

(٦٦) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللامُ فيه لامُ كي أي يشركون ليكونوا كافرينَ بشركِهم نعمةَ النجاةِ. ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجتماعِهم على عبادةِ الأصنامِ وتوادِّهم عليها، أو لامُ الأمرِ على التهديدِ ويؤيدُه قراءةُ ابنِ كثيرٍ وحمزةَ والكسائيِّ وقالونَ عن نافعٍ ولْيتمتعوا بالسكونِ. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ ذلك حين يُعَاقَبُوْنَ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ٦٧
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ٦٨
وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٦٩﴾

(٦٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني أهلَ مكَّةَ. ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي جعلْنا بلدَهم مصوناً عن النَّهْبِ والتعدِّي آمناً أهلُه عن القتلِ والسبي. ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ يُختَلَسُونَ قتلاً وسبياً إذ كانتِ العربُ حولَه في تغاورٍ وتناهُبٍ. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أبعدَ هذه النعمةِ المكشوفةِ وغيرِها مما لا يقدرُ عليه إلا اللهُ يؤمنون بالصنمِ أو الشيطانِ. ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيثُ أشركوا به غيرَهُ وتقديمُ الصِّلتينِ للاهتمامِ أوِ الاختصاصِ على طريقِ المبالغةِ.

(٦٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأنْ زعمَ أنَّ له شريكاً. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ﴾ يعني الرسولَ أو الكتابَ، وفي لمَّا تسفيهٌ لهم بأنْ لم يتواقفُوا ولم يتأملوا قطُّ حينَ جاءَهم بل سارعُوا إلى التكذيبِ أولَ ما سمعُوه. ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تقريرٌ لثوائِهم كقوله: أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا أي ألا يستوجبونَ الثواءَ فيها وقدِ افتروا مثلَ هذا الكذِبِ على اللهِ وكذَّبوا بالحقِّ مثلَ هذا التكذيبِ، أو لاجترائِهم أي ألم يعلَموا أنَّ في جهنَّمَ مثوًى للكافرين حتى اجترؤوا مثلَ هذه الجراءةِ.

(٦٩) ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ في حقِّنا، وإطلاقُ المجاهدةِ ليعمَّ جهادَ الأعادي الظاهرةِ والباطنةِ بأنواعِه. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ سبلَ السيرِ إلينا والوصولِ إلى جَنابِنَا، أو لنزيدنَّهم هدايةً إلى سبيلِ الخيرِ وتوفيقاً لسلوكِها كقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾[١] وفي الحديثِ: «من عملَ بما علِمَ ورَّثهُ اللهُ عِلْمَ ما لم يعلمْ»[٢]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصرِ والإعانةِ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قرأَ سورةَ العنكبوتِ كان له من الأجر عشرُ حسناتٍ بعدد كلِّ المؤمنينَ والمنافقينَ»[٣].

☆ ☆ ☆

(١) محمد: «١٧».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٤ ـ ١٥) من حديث أنس بن مالك.
وقال أبو نعيم رحمه الله «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل» هـ.
وأورده الألباني في «الضعيفة» رقم (٤٢٢) وحكم عليه بالوضع، وقال: وفي الطريق إليه جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه منهم.

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٢٨ رقم ١٥٨) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الرُّومِ

ترتيبها ٣٠ — آياتها ٦٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

سورة الروم مكية
إلا قولَه «فسبحانَ اللهِ» الآيةَ
وآيُها ستونَ أو تسعٌ وخمسونَ آية[١]
بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾ .

(٢) ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ .

(٣) ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضِ العرب منهم لأنها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، أو في أدنى أرضِهم منَ العربِ، واللامُ بدلٌ من الإضافةِ. ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ من إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ. وقُرِىءَ غَلْبِهم وهو لغةٌ كالجَلَب والجَلْبِ. ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ .

(١) مكية بالإجماع دون خلاف. انظر «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٨) و«زاد المسير» (٦/ ٢٨٦) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١) و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٤١).

(٤) ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ رُوِيَ[(١)] أنَّ فارسَ غزوا الرومَ فوافُوهم بأذرعاتٍ وبُصْرى، وقيل بالجزيرةِ وهي أدنى أرضِ الرومِ من الفرسِ فغَلَبوا عليهم وبلَغَ الخبرُ مكّةَ ففرحَ المشركونَ وشمِتُوا بالمسلمينَ وقالوا: أنتم والنصارى أهلُ كتابٍ ونحنُ وفارسُ أميونَ وقد ظهرَ إخوانُنا على إخوانِكم ولَنَظْهَرَنَّ عليكم فنزلتْ، فقال لهم أبو بكر: لا يقرَّنَّ اللهُ أعينَكم فوالله لتظهرنَّ الرومُ على فارسَ بعدَ بضعِ سنينَ، فقال له أُبيُّ بنُ خلفٍ: كذبْتَ اجعلْ بينَنَا أجلاً أُناحِبُك عليه، فناحَبَه[(٢)] على عشرِ قلائصَ[(٣)] من كلِّ واحدٍ منهما وجعلا الأجلَ ثلاثَ سنينَ، فأَخْبَرَ أبو بكر رضيَ الله عنه رسولَ اللهِ ﷺ فقال البِضْعُ ما بينَ الثلاثِ إلى التسعِ فزايدَه في الخطرِ ومادَّه في الأجلِ، فجعلاهُ مائةَ قلوصٍ إلى تسعِ سنينَ وماتَ أُبيٌّ من جرحِ رسولِ الله ﷺ بعدَ قفولِه من أُحُدٍ وظهرتِ الرومُ على فارسَ يومَ الحديبيةِ فأخذَ أبو بكر الخطرَ من ورثةِ أُبيٍّ، وجاءَ به إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: «تصدَّقْ به»[(٤)] واستدلَّتْ به الحنفيةُ على جوازِ العقودِ الفاسدةِ في دارِ الحربِ، وأُجِيبَ بأنه كان قبلَ تحريمِ القمارِ، والآيةُ من دلائلِ النبوةِ لأنها إخبارٌ عن الغيبِ. وقرىء غَلَبَتْ بالفتحِ وسيُغْلَبونَ بالضمِّ ومعناهُ أنَّ الرومَ غَلَبوا على ريفِ الشامِ والمسلمونَ سيغلبونَهم، وفي السنةِ التاسعةِ من نزولِه غزاهم المسلمونَ وفتحُوا بعضَ بلادِهم وعلى هذا تكونُ إضافةُ الغَلْبِ إلى الفاعلِ. ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ منْ قبلِ كونِهم غالبينَ وهو وقتُ كونِهم مغلوبينَ، ومن بعدِ كونِهم مغلوبينَ وهو وقتُ كونِهم غالبينَ أي له الأمرُ حين غَلَبوا وحين يُغْلَبُونَ ليس شيءٌ منهما إلا بقضائِه، وقُرِىءَ من قبلٍ ومن بعدٍ من غير تقديرِ مضافٍ إليه كأنه قيلَ قبلاً وبعداً أي أولاً وآخراً. ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويومَ تَغْلِبُ الرومُ. ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

(٥) ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ مَنْ له كتابٌ على من لا كتابَ له لما فيه من انقلابِ التفاؤلِ وظهورِ صدقِهم فيما أخبرا به المشركينَ وغلبتِهم في رهانِهم وازديادِ يقينِهم وثباتِهم في دينهم، وقيلَ بنصرِ اللهِ المؤمنينَ بإظهارِ صدقِهم أو بأنْ وليَ بعضُ أعدائهم بعضاً حتى تفانَوا. ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ فينصرُ هؤلاءِ تارةً وهؤلاءِ أخرى. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ينتقمُ من عباده بالنصرِ عليهم تارةً ويتفضَّلُ عليهم بنصرِهم أخرى[(٥)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٤٤ رقم ٣١٩٤) من حديث نيار بن مُكَرَّم الأسلمي.
قال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن غريب.
وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٧٦، ٣٠٤) والترمذي (٥/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤ رقم ٣١٩٣) وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/ ١٦) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٩ رقم ١٢٣٧٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٠).
وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي وصححه أيضاً أحمد شاكر في المسند (رقم: ٢٤٩٥).
(٢) المناحبة: المخاطرة والمراهنة.
(٣) القلُوص من الإبل بمنزلة الجارية من النساء وهي الشابة (المصباح المنير ـ مادة قلص).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٣) إليه. من حديث البراء.
(٥) وتقديم «العزيز» على «الرحيم» لتقدمه في الاعتبار (س٧/ ٥٠).

وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ
إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ مصدرٌ مؤكِّد لنفسِه لأنَّ ما قبلَه في معنى الوعدِ. ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ لامتناعِ الكذبِ عليه تعالى. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وعْدَه ولا صِحَّةَ وعْدِه لجهلِهم وعدمِ تفكُّرِهم.

(٧) ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ما يشاهدونه منها والتمتُّع بزخارفها. ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ التي هي غايتُها والمقصودُ منها. ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطرُ ببالهم، وهم الثانيةُ تكريرٌ للأُولى أو مبتدأٌ وغافلونَ خبرُه، والجملةُ خبرُ الأولى، وهو على الوجهينِ منادٍ على تمكُّنِ غفلتِهم عن الآخرةِ المحقَّقةِ لمقتضى الجملةِ المتقدِّمة المبدلَةِ من قوله: لا يعلمون تقريراً لجهالَتِهم وتشبيهاً لهم بالحيواناتِ المقصورِ إدراكُها من الدنيا ببعضِ ظاهرِها، فإنَّ مِنَ العلم بظاهرِها معرفةَ حقائقِها وصفاتِها وخصائِصِها وأفعالِها وأسبابِها وكيفيةِ صدورِها منها وكيفيةِ التصرُّفِ فيها ولذلك نُكِّرَ ظاهراً، وأما باطنُها فإنَّها مجازٌ إلى الآخرة ووصلةٌ إلى نيلِها وأنموذجٌ لأحوالِها، وإشعاراً بأنه لا فرقَ بينَ عدمِ العلمِ والعلمِ الذي يختصُّ بظاهرِ الدنيا.

(٨) ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ أولم يحدثُوا التفكُّرَ فيها، أو أَوَلَمْ يَتَفكروا في أمر أنفسِهم فإنها أقربُ إليهم من غيرِها، ومرآةٌ يُجتلَى فيها للمستبصِر ما يُجتلَى له في الممكناتِ بأسْرِها ليتحقَّقَ لهم قدرةُ مبدِعها على إعادتِها مثلَ قدرته على إبدائِها. ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بقولٍ أو علمٍ محذوفٍ يدلُّ عليه الكلامُ. ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾ تنتهي عندَه ولا تبقى بعدَه. ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ﴾ بلقاءِ جزائِه عند انقضاءِ الأجلِ المسمَّى أو قيامِ الساعةِ. ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ جاحدونَ يحسبونَ أنَّ الدنيا أَبَدِيةٌ وأنَّ الآخرةَ لا تكون.

(٩) ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ تقريرٌ لِسَيْرِهم في أقطارِ الأرضِ ونظرِهم في آثارِ المدمَّرين قبلَهم. ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ كعادٍ وثمودَ. ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وقلَبوا وجْهَها لاستنباطِ المياهِ واستخراجِ المعادنِ وزرع البذورِ وغيرِها. ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ وعَمَرُوا الأرضَ. ﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ من عمارةِ أهلِ مكَّةَ إياها فإنَّهم أهلُ وادٍ غيرِ ذي زرعٍ لا تُبْسَطُ لهم في غيرِها، وفيه تهكُّمٌ بهم من حيثُ إنهم مغترُّون بالدنيا مفتخِرون بها، وهم أضعفُ حالاً فيها، إذْ مدارُ أمرِها على التبسُّطِ في البلاد والتسلُّطِ على العبادِ والتصرُّفِ في أقطارِ الأرض بأنواعِ العمارةِ وهم ضعفاءُ ملْجَئُونَ إلى دارٍ لا نفعَ لها. ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ بالمعجزاتِ أو الآياتِ الواضحاتِ. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ ليفعلَ بهم ما تفعلُ الظَّلَمةُ فيدمِّرُهم من غيرِ جرمٍ ولا تذكيرٍ. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حيثُ عملوا ما أدى إلى تدميرِهم.

ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ
شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ
ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾

(١٠) ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ أي ثم كان عاقبتُهم العاقبةَ السَّوءى أو الخصلةَ السَّوءى، فوضعَ الظاهِرَ موضعَ الضميرِ للدلالةِ على ما اقتضَى أنْ تكون تلك عاقبتَهم وأنَّهم جاؤوا بمثلِ أفعالِهم، والسوءى تأنيثُ الأسوأ كالحسنَى أو مصدرٌ كالبشرى نَعَتَ به. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ علةٌ أو بدلٌ أو عطفُ بيانٍ للسَّوءى، أو خبرُ كان والسوءى مصدرُ أساؤوا أو مفعولُه بمعنى، ثم كانَ عاقبةَ الذين اقترفوا الخطيئةَ أنْ طبعَ اللهُ على قلوبهم حتى كذَّبوا بآياتِ الله واستهزؤوا بها، ويجوزُ أنْ تكونَ السوءى صلةَ الفعلِ وأنْ كذَّبوا تابِعَها والخبرُ محذوفٌ للإبهام والتهويلِ، وأنْ تكونَ أنْ مفسِّرةً لأنَّ الإساءةَ إذا كانتْ مفسَّرةً بالتكذيبِ والاستهزاءِ كانت متضمِّنَةً معنى القولِ، وقرأ ابنُ عامرٍ والكوفيونَ عاقبةَ بالنصبِ على أنَّ الاسمَ السوءى وأنْ كذَّبوا على الوجوهِ المذكورةِ[1].

(١١) ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ﴾ ينشئُهم. ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ يبعثُهم. ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاءِ، والعدول إلى الخطابِ للمبالغةِ في المقصودِ، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروْحٌ بالياءِ على الأصلِ.

(١٢) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ يسكتُون متحيِّرين آيسينَ يقالُ ناظرتُه فأبلسَ إذا سكتَ وآيَسَ من أنْ يحتجَّ ومنه الناقةُ المبلاسُ التي لا ترغُو، وقرىء بفتحِ اللامِ من أبلَسَه إذا أسكَتَهُ.

(١٣) ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ ﴾ ممن أشركوهم باللهِ. ﴿ شُفَعَـٰٓؤُاْ ﴾ يجيرونَهم من عذابِ الله، ومجيئُه بلفظِ الماضي لتحقُّقه. ﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ يكفرونَ بآلهتِهم حينَ يَئِسوا منهم، وقيل كانوا في الدنيا كافرينَ بسَبَبِهم، وكُتِبَ في المصحفِ شفعؤا وعلمؤا بني إسرائيلَ بالواوِ وكذا السّوْأى بالألفِ إثباتاً للهمزةِ على صورةِ الحرفِ الذي منه حركتُها.

(١٤) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أي المؤمنونَ والكافرونَ لقوله تعالى:

(١٥) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾ أرضٍ ذاتِ أزهارٍ وأنهارٍ. ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يُسَرُّونَ سروراً تهللُ له وجوهُهم.

(١٦) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ مُدْخَلُون لا يغيبونَ عنه.

(١٧) ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ،

(١) وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع «يستهزئون» للدلالة على استمراره وتجدده (س٧/ ٥٣).

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إخبارٌ في معنى الأمرِ بتنزيه اللهِ تعالى والثناءِ عليه في هذه الأوقاتِ التي تظهرُ فيها قدرتُه وتتجدَّدُ فيها نعمتُه، أو دلالةٌ على أنَّ ما يحدثُ فيها من الشواهدِ الناطقةِ بتنزُّهِه واستحقاقِه الحمدَ ممن له تمييزٌ من أهلِ السمواتِ والأرضِ. وتخصيصُ التسبيحِ بالمساءِ والصباحِ لأنَّ آثار القدرةِ والعظمةِ فيهما أظهرُ، وتخصيصُ الحمدِ بالعشيِّ ـ الذي هو آخِرُ النهار من عَشَى العينُ إذا نقصَ نورُها ـ والظهيرةِ التي هي وسطُه لأنَّ تجدُّدَ النِّعمِ فيهما أكثرُ. ويجوزُ أنْ يكونَ عشياً معطوفاً على حينَ تمسون وقولُه ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضاً. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّ الآيةَ جامعةٌ للصلواتِ الخمس تمسونَ صلاتا المغرب والعشاءِ وتصبحون صلاةُ الفجرِ. وعشياً صلاةُ العصرِ وتظهرون صلاةَ الظهرِ[١]، ولذلك زعم الحسن[٢] أنها مدنيةٌ لأنه كان يقولُ كان الواجبُ بمكَّةَ ركعتينِ في أيِّ وقتٍ اتفقتا وإنما فرضُه الخمسَ بالمدينة، والأكثرُ على أنها فُرِضَتْ بمكَّةَ. وعنه عليه الصلاةُ والسلام: «من سرَّه أن يُكَالَ له بالقفيزِ الأوفَى فلْيقلْ فسبحانَ اللهِ حين تمسونَ الآيةَ»[٣]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قال حينَ يصبح فسبحانَ الله حين تمسونَ إلى قوله وكذلك تُخرَجونَ أدركَ ما فاته في ليلته، ومن قاله حين يمسي أدركَ ما فاته في يومه»[٤]. وقرىء حيناً تمسونَ وحيناً تصبحون، أي تمسونَ فيه وتصبحونَ فيه.

(١٩) ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسانِ من النطفةِ والطائرِ من البيضةِ. ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالنطفةِ والبيضةِ، أو يعقبُ الحياةُ الموتَ وبالعكس. ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنباتِ. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِها. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ ذلك الإخراجُ. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم فإنه أيضاً تعقيبُ الحياةِ الموتَ، وقرأ حمزة والكسائيُّ بفتحِ التاء.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/٢٩) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٠٤ رقم ١٠٥٩٦) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١) عنه.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢١/ ١٦) ثم قال وهو خلاف مذهب الجمهور.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٢٩ رقم ١٦٣) «أخرجه الثعلبي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط» هـ.
قلت: انظر ترجمة بشر هذا في «الجرح والتعديل» (٢/ ٣٥٥) والميزان (١/ ٣١٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٥/ ٣١٦ رقم ٥٠٧٦) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣٩ رقم ١٢٩٩١) وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٢٦) والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٠٠) من حديث ابن عباس.
قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٢٩ رقم ١٦٤) «وإسناده ضعيف» وقال البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٤٦٠): لا يصح. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥/ ٢٢٧).

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي في أصلِ الإنشاءِ لأنه خلقَ أصلَهم منه. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ثم فاجأتم وقتَ كونِكم بشراً منتشرين في الأرض.

(٢١) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ لأنَّ حوَّاءَ خُلِقَتْ من ضِلْعِ آدمَ وسائرُ النساءِ خلقنَ من نطفِ الرجالِ، أو لأنهنَّ من جِنْسِهم لا من جنسٍ آخرَ. ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ لتميلُوا إليها وتألفوا بها فإن الجنسيةَ علةٌ للضمِّ، والاختلافُ سببٌ للتنافرِ. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بينَ الرجال والنساءِ، أو بينَ أفراد الجنس. ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بواسطةِ الزواجِ حالَ الشبقِ وغيرِها بخلافِ سائرِ الحيواناتِ نظماً لأمرِ المعاشِ، أو بأنَّ تعيُّشَ الإنسانِ متوقِّفٌ على التعارُفِ والتعاونِ المحْوجِ إلى التوادِّ والتراحُم، وقيل المودة كناية عن الجماع والرحمةُ عن الولد كقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾[1]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون ما في ذلك من الحِكَم.

(٢٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتِكم بأنْ علَّم كلَّ صِنْفٍ لغتَه أو ألهمَه وضْعَها وأقدره عليها، أو أجناس نطقكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية. ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ بياض الجلْدِ وسوادَه، أو تخطيطاتِ الأعضاءِ وهيئاتِها وألوانَها، وحلاَّها بحيثُ وقعَ التمايُزُ والتعارُفُ حتى أنَّ التوأمين مع توافُقِ موادِّهما وأسبابِهما والأمورِ الملاقيةِ لهما في التخليقِ يختلفانِ في شيءٍ من ذلك لا محالةَ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ لا تكادُ تَخفَى على عاقلٍ من مَلَكٍ أو إنسٍ أو جنٍّ. وقرأ حفصٌ بكسرِ اللامِ ويؤيده قولُه ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[2].

(٢٣) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ منامُكم في الزمانينِ لاستراحةِ القِوَى النفسانيةِ وتقوِّي القوى الطبيعيةِ وطلبِ معاشِكم فيهما، أو منامُكم بالليلِ وابتغاؤُكم بالنهار فلفَّ وضمَّ بين الزمانينِ والفعلينِ بعاطفينِ إشعاراً بأنَّ كلاً من الزمانين وإنِ اختصَّ بأحدِهما فهو صالحٌ للآخرِ عندَ الحاجةِ، ويؤيده سائرُ الآياتِ الواردةِ فيه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تفهُّمٍ واستبصارٍ فإنَّ الحكمةَ فيه ظاهرةٌ.

(٢٤) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مقدَّرٌ بأنْ المصدريةِ كقولِه:

---

(١) ص: «٤٣».

(٢) العنكبوت: «٤٣».

أَلاَ أَيُّهَـذَا الـزَّاجِـرِي أَحْضُـرَ الـوَغَـى وَأن أَشْهَـد اللَّـذَّاتِ، هَـلْ أَنْـتَ مُخلـدِي

أَوِ الفعلُ فيه منزلةَ المصدرِ كقولِهم: تسمعُ بالمعيديِّ خيرٌ من أنْ تراهُ، أو صفةٌ لمحذوفٍ تقديره آيةٌ يريكم بها البرقَ كقوله:

فَمَـا الـدَّهْـرُ إلاَّ تَـارَتَـانِ فَمِنْهُمَـا أَمُـوتُ وَأُخْـرَى أَبْتَغِـي العَيْـشَ أَكْـدَحُ

﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقةِ للمسافرِ. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيثِ للمقيمِ، ونَصْبُهُما على العلةِ لفعلٍ يلزمُ المذكورَ فإنَّ إراءَتَهُم تستلزمُ رؤيتَهم أوله على تقدير مضافٍ نحو إرادةِ خوفٍ وطمع، أو تأويلُ الخوفِ والطمع بالإخافةِ والإطماعِ، كقولك فعلْته رغماً للشيطان، أو على الحال مثل كَلَّمْتُهُ شِفاهاً. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وقرىء بالتشديد. ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يُبْسِها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في استنباطِ أسبابها وكيفيةِ تكوُّنها ليظهرَ لهم كمالُ قدرةِ الصانعِ وحِكْمتُه.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قيامُهما بإقامَتِه لهما وإرادتِه لقيامِهما في حيِّزَيْها المعينينِ من غير مقيمٍ محسوسٍ، والتعبيرُ بالأمرِ للمبالغةِ في كمالِ القدرةِ والغِنَى عن الآلة. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطفٌ على أنْ تقومَ على تأويلِ مفرد كأنه قيل: ومن آياتِه قيامُ السمواتِ والأرض بأمرِهِ ثم خروجُكم من القبورِ إذا دعاكم دعوةً واحدةً فيقولُ أيُّها الموتَى اخرجُوا، والمرادُ تشبيهُ سرعةِ ترتُّبِ حصولِ ذلك على تعلُّقِ إرادتِه بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّمِ عملٍ بسرعة ترتُّبِ إجابةِ الداعي المطاعِ على دعائِه، وثُمَّ إما لتراخي زمانِه أو لعظمِ ما فيه ومن الأرضِ متعلِّقٌ بدعا كقولك: دعوتُه من أسفلِ الوادي فطلعَ إلي لا بتخرجونَ لأنَّ ما بعدَ إذا لا يعملُ فيما قبلَها، وإذا الثانيةُ للمفاجأةِ ولذلك نابتْ منابَ الفاءِ في جوابِ الأولى.

(٢٦) ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون لفعلِه فيهم لا يمتنعونَ عنه.

(٢٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعدَ هلاكِهم. ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والإعادةُ أسهلُ عليه من الأصلِ بالإضافةِ إلى قدرِكم والقياسِ على أصولِكم وإلا فهما عليه سواءُ ولذلك قيل الهاءُ للخلقِ، وقيل أهونُ بمعنَى هيِّنٍ وتذكيرُ هو لأهونُ أو لأنَّ الإعادةَ بمعنى أنْ يعيدَ. ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾ الوصْفُ العجيبُ الشأنِ كالقدرةِ العامةِ والحكمةِ التامةِ ومَنْ فسَّره بقول لا إله إلا الله أرادَ به الوصْفَ بالوحدانية. ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الذي ليس لغيرِه ما يساويه أو يدانيه. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يصفُه به ما فيها دلالةً ونطقاً. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ الذي لا يعجزُ عن إبداءِ ممكنٍ وإعادتِه. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعالَ على مقتضَى حِكْمَتِه.

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ
فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ
ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾ منتزعاً من أحوالِها التي هي أقربُ الأمور إليكم. ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ من مماليكِكُم. ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموالِ وغيرِها.. ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ فتكونون أنتمْ وهم فيه شرعاً يتصرَّفون فيه كتصرُّفِكم مع أنَّهم بشرٌ مثلُكم وأنها معارةٌ لكم، ومِنَ الأولى للابتداءِ والثانيةُ للتبعيضِ والثالثةُ مزيدةٌ لتأكيدِ الاستفهام الجاري مجرى النفيِ. ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أنْ يستبدُّوا بتصرُّفٍ فيه. ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ كما يخافُ الأحرارُ بعضُهم من بعضٍ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك التفصيلِ. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾[(١)] نبيِّنُها فإنَّ التفصيلَ مما يكشفُ المعاني ويوضِّحُها. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولَهم في تدبُّرِ الأمثالِ.

(٢٩) ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالإشراكِ. ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ جاهلينَ لا يكفُّهم شيءٌ فإنَّ العالِمَ إذا اتَّبعَ هواهُ ربَّما ردعه علمُه. ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ فمَنْ يقدرُ على هدايتِه. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونَهم من الضلالةِ ويحفظونَهم عن آفاتِها.

(٣٠) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾ فقوِّمه له غيرَ ملتفتٍ أو ملْتَفَتٍ عنه، وهو تمثيلٌ للإقبالِ والاستقامةِ عليه والاهتمامِ به. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خِلقتَه نُصِبَ على الإغراءِ أو المصدرِ لما دلَّ عليه ما بعدَها. ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ خلقَهم عليها وهي قبولُهم للحقِّ وتمكُّنهم من إدراكه، أو ملَّةَ الإسلامِ فإنَّهم لو خُلُوا وما خُلِقُوا عليه أدَّى بهم إليها، وقيل العهدُ المأخوذُ من آدمَ وذرِّيتِه. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ لا يقدرُ أحدٌ يغيِّرهُ أو ما ينبغي أنْ يُغيَّرَ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الدين المأمورِ بإقامةِ الوجهِ له، أو الفطرةِ إنْ فُسِّرتْ بالملَّةِ. ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيمُ الذي لا عِوَجَ فيه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامتَه لعدمِ تدبُّرِهم.

(٣١) ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعينَ إليه مِنْ أنابَ إذا رجعَ مرةً بعدَ أخرى، وقيل منقطعينَ إليه من النابِ وهو حالٌ منَ الضميرِ في الناصبِ المقدَّرِ لفطرةِ اللهِ أو في أَقِمْ لأنَّ الآيةَ خطابٌ للرسول ﷺ والأُمَّةِ لقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ غيرَ أنَّها صُدِّرَتْ بخطابِ الرسولِ ﷺ تعظيماً له.

(٣٢) ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بدلٌ من المشركينَ وتفريقِهم اختلافَهم فيما يعبدونَه على اختلافِ أهوائهم، وقرأ حمزةُ والكسائيُ فارقُوا بمعنى تركُوا دينَهم الذي أُمِرُوا به. ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ﴾ فِرَقاً تشايعُ

---

(١) وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها (س٧/ ٥٩).

كلٌّ إمامَها الذي أضلَّ دينَها. ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ مسرورونَ ظناً بأنه الحقُّ، ويجوزُ أنْ يُجْعَلَ فرحونَ صفةَ كلٌّ على أنَّ الخبرَ من الذين فرّقوا.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ
وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ
أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٣) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾ شِدَّةٌ. ﴿ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعينَ من دعاءِ غيرِه. ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصاً من تلك الشدةِ. ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فاجأَ فريقٌ منهم بالإشراكِ بربِّهم الذي عافاهم.

(٣٤) ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ اللامُ فيه للعاقبةِ وقيل للأمرِ بمعنى التهديدِ لقوله: ﴿ فَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ غير أنه التفتَ فيه مبالغةً، وقرىء وليتمتَّعوا. ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ تمتُّعِكم، وقرىء بالياءِ التحتيةِ على أنَّ تمتَّعوا ماضٍ.

(٣٥) ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ حجّةً وقيل ذا سلطانٍ أي مَلَكاً معه برهانٌ. ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ تكلُّمَ دلالةٍ كقوله ﴿ كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾[1] أو نطقَ. ﴿ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ بإشراكِهم وصحّتَه، أو بالأمرِ الذي بسببه يشركونَ به في ألوهيته.

(٣٦) ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً ﴾ نعمةً من صِحّةٍ وَسَعةٍ. ﴿ فَرِحُوا۟ بِهَا ﴾ بَطِرُوا بسببها. ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدّةٌ. ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤمِ معاصِيهم. ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤُوا القنوطَ من رحمته. وقرأ الكسائيُّ وأبو عمرو بكسرِ النون.

(٣٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فما لهم لم يشكُروا ولم يحتسِبوا في السَّرَّاءِ والضرَّاءِ كالمؤمنين. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيستدلون بها على كمالِ القدرةِ والحكمة.

(٣٨) ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ كصلةِ الرحمِ، واحتجَّ به الحنفيةُ على وجوبِ النفقةِ للمحارمِ وهو غيرُ مشعِرٍ به. ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ما وظِّفَ لهما من الزكاة، والخطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ أو لمن بُسِطَ له ولذلك رُتِّب على ما قبلَه بالفاءِ. ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ ذاتَه أو جهتَه أي يقصدُون بمعروفهم إياهُ خالصاً، أو جهةَ التقرُّبِ إليه لا جهةً أخرى. ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ حيثُ حصلوا بما بُسِطَ لهم النعيمُ المقيمُ.

(٣٩) ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا ﴾ زيادةً محرمةً في المعاملة أو عطيةً يتوقع بها مزيدَ مكافأةٍ، وقرأ ابن كثير بالقصرِ بمعنى ما جئتُم به من إعطاءِ ربا. ﴿ لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾ ليزيدَ ويزكُوَ في أموالِهم. ﴿ فَلَا يَرْبُوا۟

(١) سورة الجاثية: ٢٩.

عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يزكُو عندَه ولا يباركُ فيه، وقرأ نافع ويعقوبُ لتربُوا أي لتزيدوا أو لتصيروا ذوي ربا. ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تبتغون به وجْهَهُ خالِصاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الأضعافِ من الثواب ونظيرُ المضعِفِ المقويِّ والموسِرِ لذي القوةِ واليسارِ، أو الذين ضعَّفُوا ثوابَهم وأموالهم ببركةِ الزكاةِ. وقرىء بفتحِ العينِ. وتغييرُهُ عن سَنَنِ المقابلة عبارةً ونظماً للمبالغةِ، والالتفاتُ فيه للتعظيمِ كأنه خاطبَ به الملائكةَ وخواصَّ الخلْقِ تعريفاً لحالِهم، أو للتعميم كأنه قال: فمن فعلَ ذلك فأولئك هم المضعِفُون، والراجعُ منه محذوفٌ إنْ جُعِلَتْ ما موصولةً تقديره المضعفونَ به، أو فمُؤْتُوه أولئكَ هم المضعِفونَ.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أثبتَ له لوازمَ الألوهيةِ ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاءَ له من الأصنامِ وغيرِها مؤكِّداً بالإنكار على ما دلَّ عليه البرهانُ والعيانُ ووقعَ عليه الوفاقُ، ثم استنتجَ من ذلك تقدُّسَه عن أنْ يكونَ له شركاءُ فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجوزُ أنْ تكونَ الكلمةُ الموصولةُ صفةً والخبرُ هل مِنْ شركائكم والرابطُ من ذلكم لأنه بمعنَى من أفعالِه، ومِنْ الأولى والثانيةُ تفيدُ أنَّ شيوعَ الحكمِ في جنسِ الشركاءِ والأفعالِ والثالثةُ مزيدةٌ لتعميمِ المنفي وكلٌّ منها مستقلةٌ بتأكيدٍ لتعجيزِ الشركاءِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ بالتاء.

(٤١) ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجدْبِ والموتانِ وكثرةِ الحرقِ والغرقِ وإخفاقِ الغاصةِ ومحقِ البركاتِ وكثرةِ المضارِّ، أو الضلالةِ والظلمِ. وقيل المرادُ بالبحرِ قُرَى السواحلِ. وقرىء والبحورِ. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بشؤْمِ معاصيهم أو بكسْبِهم إياه، وقيل ظهرَ الفسادُ في البرِّ بقتلِ قابيلَ أخاهُ وفي البحر بأنَّ جلندا ملِكَ عمانَ كان يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً. ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ بعضَ جزائِهِ فإنَّ تمامه في الآخرةِ. واللامُ للعلَّةِ أو للعاقبةِ. وعن ابنِ كثيرٍ ويعقوبَ لِنذيقَهم بالنونِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه.

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ لتشاهدوا مصداقَ ذلك وتحقَّقُوا صدقَه. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئنافٌ للدلالةِ على أنَّ سوءَ عاقِبَتِهم كان لِفُشُوِّ الشركِ وغلبتِهِ فيهم، أو كانَ الشركُ في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليلٍ منهم.

(٤٣) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ البليغِ الاستقامةِ. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ لا يقدرُ أنْ يردَّه أحدٌ، وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بيأتي، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بمردَّ لأنه مصدرٌ على معنى لا يردُّه اللهُ لتعلُّقِ إرادتهِ القديمةِ بمجيئهِ. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدعون أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير كما قال:

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(٤٤) ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي وبالُه وهو النارُ المؤبَّدةُ. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يُسَوُّونَ منزلاً في الجنة، وتقديمُ الظرفِ في الموضعينِ للدلالة على الاختصاصِ.

(٤٥) ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ عِلَّةٌ ليمهدون أو ليصدعونَ، والاقتصارُ على جزاءِ المؤمنين للإشعارِ بأنه المقصودُ بالذاتِ والاكتفاءِ على فحْوى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنَّ فيه إثباتَ البُغْضِ لهم والمحبةِ للمؤمنين، وتأكيدُ اختصاصِ الصلاحِ المفهوم من تركِ ضميرِهم إلى التصريحِ بهم تعليلٌ له ومن فضلِه دالٌّ على أنَّ الإثابةَ تفضُّلٌ محضٌ، وتأويلُه بالعطاءِ أو الزيادةِ على الثوابِ عدولٌ عن الظاهرِ.

(٤٦) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ الشمالَ والصَّبا والجنوبَ فإنَّها رياحُ الرحمة وأما الدَّبُوْرُ فريحُ العذابِ، ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ اجعلْها رياحاً ولا تجعلْها ريحاً»[1] وقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائي الريحَ على إرادة الجنسِ. ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطرِ. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني المنافعَ التابعةَ لها، وقيل الخِصْبُ التابعُ لنزولِ المطرِ المسبَّبِ عنها أو الروحُ الذي هو معَ هبوبها والعطفُ على عِلَّةٍ محذوفة دلَّ عليها مبشراتٍ أو عليها باعتبارِ المعنى، أو على يرسل بإضمارِ فعلٍ معلَّلٍ دلَّ عليه. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني تجارةَ البحرِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمةَ اللهِ تعالى فيها.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ بالتدمير. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشعارٌ بأنَّ الانتقامَ لهم وإظهارٌ لكرامتهم حيثُ جعلَهم مستحقِّينَ على اللهِ أنْ ينصرَهم،

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٢٩ رقم ١٦٨): «ـ أخرجه الشافعي في ترتيب المسند (١/ ١٧٥ رقم ٥٠٢) ـ أخبرني من لا أتهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. ومن طريقه أخرجه ـ البيهقي ـ في المعرفة وفي الدعوات. وهذا المبهم. هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف.
وله طرق أخرى عن أبي يعلى ـ في المسند (٤/ ٣٤١ رقم ١٢٩/ ٢٤٥٦) ـ والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٣ ـ ٢١٤ رقم ١١٥٣٢) ـ وابن عدي ـ في الكامل (٢/ ٧٦٣) من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به. وحسين ضعيف أيضاً» هـ.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦) وقال «رواه الطبراني وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.
قلت: وقال الحافظ في التقريب (١/ ١٧٨ رقم ٣٨٣) «متروك» وقال الهيثمي فيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك. وقد وثقه الحصين بن نمير وبقية رجاله رجال الصحيح [المجمع ١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما من امرىء مسلم يردُّ عن عرضِ أخيه إلا كان حقاً على اللهِ أنْ يردَّ عنه نارَ جهنَّم» ثمَّ تلا ذلك[1]. وقد يُوْقَفُ على حقاً على أنه متعلِّقٌ بالانتقام.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متصلاً تارةً. ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في سَمْتِها. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ سائراً أو واقفاً مطبقاً وغيرَ مطبق من جانبٍ دون جانب إلى غيرِ ذلك. ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قطعاً تارةً أخرى، وقرأ ابنُ عامر بالسكونِ على أنه مخففٌ أو جمعُ كسفةٍ أو مصدرٌ وُصِفَ به. ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطرَ. ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ في التارتين. ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني بلادَهم وأراضيَهم. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لمجيءِ الخِصْبِ.

(٤٩) ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطرُ. ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكريرٌ للتأكيدِ والدلالةِ على تطاولِ عهدِهم بالمطرِ واستحكامِ يأسِهم، وقيل الضميرُ للمطرِ أو السحابِ أو الإرسالِ. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ لآيسينَ.

(٥٠) ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أثرِ الغيثِ من النباتِ والأشجارِ وأنواعِ الثمار ولذلك جمعَهُ ابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وحفصٌ. ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ وقرىء بالتاءِ على إسنادِه إلى ضمير الرحمةِ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني إنَّ الذي قدرَ على إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها. ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لقادرٌ على إحيائِهم فإنه إحداثٌ لِمثْلِ ما كان في موادِّ أبدانِهم من القِوى الحيوانيةِ، كما أنَّ إحياءَ الأرضِ إحداثُ لمثلِ ما كان فيها من القِوى النباتيةِ، هذا ومن المحتملِ أنْ يكونَ من الكائناتِ الراهنةِ ما يكون من موادِّ ما تفتتتْ وتبدَّدتْ من جنسِها في بعض الأعوامِ السالفةِ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبةَ قدرته إلى جميعِ الممكناتِ على سواءٍ.

(٥١) ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ فرأوا الأثرَ أو الزرعَ فإنه مدلولٌ عليه بما تقدَّم، وقيل السحابُ لأنه إذا كانَ مصفرّاً لم يمطرْ، واللامُ موطِّئةٌ للقسم دخلتْ على حرفِ الشرطِ، وقوله: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ جوابٌ سدَّ مسدَّ الجزاءِ ولذلك فُسِّرَ بالاستقبالِ. وهذه الآيةُ ناعيةٌ على الكفار بقلةِ تثبُّتهم وعدمِ تدبُّرهم وسرعةِ تزلزُلِهم لعدمِ تفكُّرِهم وسوءِ رأيهم، فإنَّ النظرَ السويَّ يقتضي أنْ يتوكَّلوا على اللهِ ويلتجئُوا إليه بالاستغفارِ إذا احتبسَ القطرُ عنهم، ولا ييأسُوا من رحمته، وأنْ يبادروا إلى الشكرِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٢٧ رقم ١٩٣١) وأحمد (٦/ ٤٥٠) عن أبي الدرداء.
وقال الترمذي هذا حديث حسن.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٧٥ ـ ١٧٦ رقم ٤٤٢) وابن عدي في الكامل (٤/ ١٦٣٥) وأحمد (٦/ ٤٦١) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٧) عن أسماء بنت يزيد مرفوعاً نحوه والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

والاستدامةِ بالطاعةِ إذا أصابهم برحمتِه ولم يفرِّطوا في الاستبشارِ، وأنْ يصبروا على بلائه إذا ضربَ زرْعَهم بالاصفرارِ ولا يكفروا نِعَمَهُ.

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٢) ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهم مثلُهم لما سدُّوا عن الحقِّ مشاعِرَهم. ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ قيدَ الحكمَ به ليكون أشدَّ استحالةً، فإنَّ الأصمَّ المقبِلَ وإنْ لم يسمعِ الكلامَ يفطنُ منه بواسطةِ الحركاتِ شيئاً، وقرأ ابنُ كثير بالياء مفتوحةً ورفعِ الصمِّ.

(٥٣) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ سمَّاهم عمياً لفقْدِهم المقصودَ الحقيقيَّ من الأبصار أو لِعَمَى قلوبِهم، وقرأ حمزةُ وحدَه تهدي العميَ. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنَّ إيمانَهم يدعوهم إلى تلقِّي اللفظِ وتدبُّرِ المعنى، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالمؤمنِ المشارِفُ للإيمان. ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لما تأمرهُم به.

(٥٤) ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي ابتدأكم ضعفاءَ وجعلَ الضَّعْفَ أساسَ أمرِكم كقوله ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(١) أو خلقكم من أصلٍ ضعيفٍ وهو النطفةُ. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك إذا بلغتُمُ الحلُمَ أو تعلَّقَ بأبدانِكم الروحُ. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذَ منكم السنُّ، وفتح عاصمٌ وحمزةُ الضادَ في جميعِها والضمُّ أقوى لقولِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: قرأتُها على رسولِ الله ﷺ من ضَعْفٍ فأقرأني من ضُعفٍ(٢). وهما لغتانِ كالفَقْر والفُقر. والتنكيرُ مع التكريرِ لأنَّ المتأخِّرَ ليس عينَ المتقدِّم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من ضعفٍ وقوةٍ وشبيبةٍ وشيبةٍ. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ فإنَّ الترديدَ في الأحوالِ المختلفةِ مع إمكانِ غيرِه دليلُ العلمِ والقدرةِ.

(٥٥) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامةُ سُمِّيَتْ بها لأنَّها تقومُ في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الدنيا، أو لأنها تقعُ بغتةً وصارتْ عَلماً لها بالغلبةِ كالكوكبِ للزهرةِ. ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟﴾ في الدنيا أو في القبورِ أو فيما بين فناءِ الدنيا والبعثِ وانقطاعِ عذابِهم، وفي الحديث: «ما بين فناءِ الدنيا والبعثِ أربعونَ»(٣)

---

(١) النساء: «٢٨».

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٨٣ رقم ٣٩٧٨) والترمذي (٥/ ١٨٩ رقم ٢٩٣٦) وأحمد في المسند (٢/ ٥٨ ـ ٥٩) عنه.
وفيه عطية بن سعد العوفي: ضعيف.
وحسن الألباني الحديث في صحيح أبي داود.

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٩ رقم ١٧٢) «لم أجده هكذا. وفي الصحيحين ـ البخاري (٨/ ٥٥١ رقم ٤٨١٤) و(٨/ ٦٨٩ رقم ٥٩٣٥) ومسلم (٤/ ٢٢٧١ رقم ١٤١) ـ عن أبي هريرة ، رفوعاً «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون يوماً، قال: أبيت».

وهو محتملٌ الساعاتِ والأيامَ والأعوامَ. ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ استقلوا مدَّةَ لُبْثِهم إضافةً إلى مدةِ عذابهم في الآخرة أو نسياناً. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الصَّرْفِ عن الصدقِ والتحقيقِ. ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُون في الدنيا.

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ
كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ
لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من الملائكة والإنس. ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في علمه أو قضائِه، أو ما كتبه لكم أي أوجبه أو اللوحُ أو القرآنُ وهو قوله ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾[1]. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ ردُّوا بذلك ما قالوه وحلفُوا عليه. ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتُموه. ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حقٌّ لتفريطِكم في النظرِ، والفاءُ لجوابِ شرطٍ محذوفٍ تقديره: إنْ كنتم منكرينَ البعثَ فهذا يومُه، أي فقد تبيَّنَ بُطْلَانُ إنكارِكم.

(٥٧) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وقرأ الكوفيونَ بالياءِ لأنَّ المعذرةَ بمعنى العذْرِ، أو لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقي وقد فصل بينهما. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُدعَون إلى ما يقتضي إعتابَهم، أي إزالةَ عَتَبهم من التوبة والطاعة كما دُعوا إليه في الدنيا، من قولهم استعتبني فلانٌ فأعتبته أي استرضاني فأرضيته.

(٥٨) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد وصفناهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة كالأمثال، مثْلُ صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب، أو بيّنا لهم من كل مثَل ينبههم على التوحيد والبعثِ وصدقِ الرسول. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن. ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من فَرْطِ عِنادهم وقساوة قلوبهم. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين. ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ مزوّرون.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الطبعِ. ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يطلبُون العلم ويُصِرون على خُرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركبَ يمنع إدراكَ الحق ويوجب تكذيب المُحق.

(٦٠) ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذاهم. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنُصرتك وإظهار دينك على الدين كلِّه. ﴿حَقٌّ﴾ لا بد من إنجازه. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ ولا يحملَنَّك على الخِفّة والقلق. ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم، فإنهم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك. وعن يعقوبَ بتخفيف النون، وقرىء

(١) المؤمنون: ١٠٠.

ولا يَستَحِقنّك أي لا يُزيغَنك فيكونوا أحقَّ بك مع المؤمنين. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد كل مَلَك سبح الله بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيَّع في يومه وليلته»[١].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٢٩ رقم ١٧٣) وهو حديث موضوع.

سُورَةُ لُقْمَان

ترتيبها ٣١ — آياتها ٣٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة لقمان مكية

إلا آية وهي ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(١) فإن وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيفٌ لأنه لا ينافي شرعيتهما بمكة. وقيل إلا ثلاثاً من قوله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾(٢). وهي أربع وثلاثون آية، وقيل ثلاث وثلاثون.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ سبق بيانه في يونس.

(٣) ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعاملُ فيهما معنى الإشارة. وَرَفَعَهما حمزةُ على الخبر بعد الخبر، أو الخبرِ لمحذوف.

(٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيانٌ لإحسانهم، أو تخصيص لهذه الثلاثةِ

---

(١) لقمان: «٤».

(٢) لقمان: «٢٧».

من شُعَبِه لفضل اعتدادٍ بها. وتكرير الضمير للتوكيد ولِمَا حيل بينه وبين خبره.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ لاستجماعهم العقيدةَ الحقّةَ والعملَ الصالح.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ما يُلهي عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطيرِ التي لا اعتبارَ بها والمَضاحكِ وفضولِ الكلام. والإضافة بمعنى مِنْ، وهي تبيينية إن أراد بالحديث المنكرَ، وتبعيضيةٌ إن أراد به الأعمَّ منه. وقيل نزلت في النضْر بنِ الحارث اشترى كتب الأعاجم، وكان يحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عادٍ وثمودَ فأنا أحدثكم بحديث رُسْتم وإسفَنْديار والأكاسرة[1]. وقيل كان يشتري القِيَان ويحمِلُهن على معاشرة من أراد الإسلام ومنْعِه عنه[2]. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينِه أو قراءة كتابه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، بمعنى ليَثْبُتَ على ضلاله ويزيدَ فيه. ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ ويتخذُ السبيلَ سُخرية. وقد نصبه[3] حمزة والكسائي ويعقوبُ وحفصٌ عطفاً على ليُضِلَّ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ لإهانتهم الحقَّ باستئثار الباطلِ عليه.

(٧) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ متكبراً لا يَعبأ بها. ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ مُشَابِهاً حالُه حال من لم يسمعها. ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ مشابهاً مَنْ في أذنيه ثِقَلٌ لا يقدر أن يسمع، والأُولى حال من المستكنّ في ولّىٰ أو في مستكبراً، والثانية بدل منها أو حال من المستكن في لم يسمعها، ويجوز أن يكونا استئنافين. وقرأ نافع في أُذْنَيْه. ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَعْلِمْهُ بأن العذاب يحيق به لا محالة. وذِكْر البشارة على التهكم.

(٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي لهم نعيمُ الجنات، فعكس للمبالغة.

(٩) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم، والعامل ما تعلق به اللام. ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ مصدران مؤكدان، الأول لنفسه والثاني لغيره، لأن قوله لهم جنات وعد وليس كلُ وعد حقاً. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾. الذي لا يغلِبه شيء فيمنَعه عن إنجاز وعدِه ووعيدِه. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تستدعيه حكمتُه.

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٣٥٦) من قول الكلبي ومقاتل، وأخرج البيهقي في الشعب نحوه عن ابن عباس (فتح القدير ٤/٢٣٦).

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٣٥٦) عن مجاهد. قال: نزلت في شراء القينات والمغنيات.

(٣) أي نصب «يتخذها».

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢﴾

(١٠) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ قد سبق في الرعد[(١)]. ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً شوامخَ. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ كراهةَ أن تميد بكم، فإنّ تشابُهَ أجزائها يقتضي تبدلَ أحيازها وأوضاعِها لامتناع اختصاص كلٍّ منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيّز ووضع معينين. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ من كل صنف كثير المنفعة[(٢)]. وكأنه استدل بذلك على عزته التي هي كمالُ القدرة، وحكمتِه التي هي كمالُ العلم، ومهّد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله:

(١١) ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ هذا الذي ذُكِرَ مخلوقُه فماذا خلق آلهتُكم حتى استحقوا مشاركته؟. وماذا نُصِبَ بخَلَقَ، أو ما مرتفعٌ بالابتداء وخبره ذا بصلَته فأروني معلَّقٌ عنه. ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ إضرابٌ عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفىٰ على ناظر، ووضعُ الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

(١٢) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ يعني لقمانَ بنَ باعوراءَ من أولاد آزرَ ابنِ أخت أيوب[(٣)] أو خالتِه، وعاش حتى أدرك داودَ عليه الصلاة والسلام وأخذ منه العلم وكان يُفتي قبل مبعثه، والجمهورُ على أنه كان حكيماً[(٤)] ولم يكن نبياً. والحكمةُ في عرف العلماء: استكمالُ النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتسابُ الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحِب داود شهوراً وكان يَسْرُد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال: نِعْمَ لَبُوسُ الحرب أنتِ، فقال: الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُه[(٥)]، وأن داود عليه السلام قال له يوماً كيف أصبحتَ؟ فقال أصبحتُ في

---

(١) الرعد: «٢».

(٢) والالتفات إلى نون العظمة في أنزلنا وأنبتنا لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها (س٧/ ٧٠).

(٣) انظر البحر المحيط (٧/ ١٨٦).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٦٤ رقم ٥٠٢٦) وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٧٠) كلهم من طريق ثابت عن أنس به.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
● قلت: وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٦٨ رقم ٢٤٠) عن أنس مرفوعاً.
وفي إسناده (زكريا بن يحيى المنقري ـ أو المقري ـ) ضعفه ابن يونس كما في الميزان (٢/ ٧٩) واللسان (٢/ ٤٨٨).
وفيه أيضاً (علي بن مسعدة) وهو صدوق له أوهام [التقريب (٢/ ٤٤)]. وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٠٨ رقم التعليقة ٢) «أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس ـ (٢/ ٤١٧ رقم ٣٨٥١) ـ من حديث =

يدَي غيري، فتفكر داودُ فيه فصعِق صعقة، وأنه أمره بأن يذبح شاة ويأتيَ بأطيبِ مُضْغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال: هما أطيبُ شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبُثا. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لأنِ اشكُر، أو أي أشكر فإن إيتاء الحكمة في معنى القول. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن نفعه عائدٌ إليها وهو دوامُ النعمة واستحقاقُ مزيدها. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ لا يحتاج إلى الشكر. ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيقٌ بالحمد وإن لم يُحْمَد، أو محمود ينطِق بحمده جميعُ مخلوقاته بلسان الحال.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ أَنْعَمَ أو أَشْكَمَ أو ما ثانَ. ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾ تصغيرُ إشفاقٍ، وقرأ ابن كثير هنا وفي يا بني أقم الصلاة بإسكان الياء، وحفصٌ فيهما وفي يا بني إنها إن تَكُ بفتح الياء، ومثله البَزِّيُّ في الأخير، وقرأ الباقون في الثلاثة بكسر الياء. ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قيل كان كافراً فلم يزل به حتى أسلم، ومَنْ وَقَفَ على لا تشرك جعل بالله قَسَماً. ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنه تسويةٌ بين من لا نعمةَ إلا منه ومن لا نعمة منه.

(١٤) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ ذاتَ وهْنٍ، أو تَهِنُ وَهْناً ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي تضعُف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضَعْفُها. والجملة في موضع الحال. وقرىء بالتحريك[1]، يقال: وَهَنَ يَهِنُ وَهْناً ووَهُن يَوْهُنُ وَهَناً. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ وفِطامه في انقضاء عامين وكانت تُرضعه في تلك المدة. وقرىء وفِصْلُه في عامين. وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حَولان. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسير لوصينا، أو علة له، أو بدلٌ من والديه بَدَلَ الاشتمال. وذكر الحمل والفصال في البين اعتراض مؤكد للتوصية في حقها خصوصاً، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام لمن قال مَنْ أَبَرُّ؟ أُمَّك ثم أمك ثم أمك، ثم قال بعد ذلك ثم أباك[2]. ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحاسبك على شكرك وكفرك.

= ابن عمر بسند ضعيف، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٦٤ رقم ٥٠٢٧) من حديث أنس بلفظ (حكم) بدل (حكمة) وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال: والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة العقلاء ـ ص٧٠ ـ بسند صحيح إلى أنس» هـ.

(١) أي بتحريك الهاء في وهناً ووهن.

(٢) وهو حديث حسن.
أخرجه أبو داود (٥/ ٣٥١ رقم ٥١٣٩) والترمذي (٤/ ٣٠٩ رقم ١٨٩٧) وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٣٢) وأحمد في «المسند» (٥/ ٢، ٣، ٤، ٥) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥٠) والطبراني في الكبير (١٩/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦) وهناد (رقم ٩٦٥) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن وهو كما قال.
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في الإرواء (رقم ٨٣٠٧).

وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ
مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما، وقيل أراد بنفي العلم به نفيَه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صَحَاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم. ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ في الدين ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجعُكَ ومرجعُهما. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازيَك على إيمانك وأجازيَهما على كفرهما. والآيتان معترِضتان في تضاعيف وصية لقمانَ تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذِكْر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع أنهما تِلْوَ البارى في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه في الإشراك فما ظنك بغيرهما؟! روي نزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمِّه، مكثت لإسلامه ثلاثاً لم تَطْعَم فيها شيئاً[(١)]، ولذلك قيل من أناب إليه أبو بكر رضي الله عنه فإنه أسلم بدعوته.

(١٦) ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي أن الخَصلة من الإحسان أو الإساءة إن تكُ مَثَلاً في الصِغَر كحبة الخردل. ورفع نافعٌ «مثقال» على أن الهاء ضمير القصة، وكان تامةٌ، وتأنيثُها لإضافة المثقال إلى الحبة كقول الشاعر:

كما شرِقَتْ صدرُ القناة من الدم

أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة. ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أخفىٰ مكان وأحرزه كجوف صخرة، أو أعلاه كمَحْدَب السموات[(٢)]، أو أسفله كمَقْعَر الأرض. وقرىء بكسر الكاف، مِنْ وَكَنَ الطائرُ إذا استقر في وُكْنَتِه. ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يُحضرها فيحاسب عليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يَصِل علمه إلى كل خفي. ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

(١٧) ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلاً لنفسك. ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك. ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد، سِيَما في ذلك. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر، أو إلى كل ما أُمِر به. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قَطْعَ إيجاب، مصدر أطلق للمفعول، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله «فإذا عزم الأمْرُ» أي جَدّ.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِلْه عنهم ولا تولِّهم صفحةَ وجهك كما يفعله المتكبرون، مِنَ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول بدون سند ص٣٤٦.
(٢) مَحْدَب السموات أي ما ارتفع منها، والحَدَبُ هو ما ارتفع من الأرض (مختار الصحاح مادة حدب).

الصَّعَر وهو ـ أو الصَّيَد[١] ـ داءٌ يعتري البعيرَ فيلوي عنقه. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي ولا تُصَاعِرْ، وقرىء ولا تُصْعِرْ، والكل واحد مثل عَلاَّه وأعلاه وعالاه. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فرَحاً، مصدر وقع موقع الحال أي تمرح مرحاً. أو لأجل المرح وهو البطر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ علة للنهي. وتأخيرُ الفخور وهو مقابل للمصَعِّر خدَّه والمختال للماشي مرحاً لتوافق رؤوس الآي.

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ توسطْ فيه بين الدبيب والإسراع. وعنه عليه الصلاة والسلام، «سرعةُ المشي تُذهِب بهاء المؤمن»[٢] وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع[٣] فالمراد ما فوق دبيب المتماوت. وقرىء بقطع الهمزة من أَقْصَد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية. ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وانقُص منه وأقصر. ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أوحشها. ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ والحمار مَثَلٌ في الذمّ سيما نهاقُه، ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين. وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراجُه مخرج الاستعارة مبالغةٌ شديدة، وتوحيدُ الصوت لأن المراد تفضيل الجنس في النكير دون الآحاد أو لأنه مصدر في الأصل.

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بأن جعله أسباباً محصِّلة لمنافعكم. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأنْ مكنكم من الانتفاع به بوَسْط أو غير وسط ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه، وقد مر شرح النعمة وتفصيلها في الفاتحة. وقرىء وأصبغ بالإبدال، وهو جارٍ في كل

---

(١) أي هو من الصعَر بمعنى الصيد وهو داء يعتري البعير... (روح المعاني ٢١/ ٩٠).

(٢) وهو حديث منكر جداً.

● أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٢٧) من حديث أبي هريرة، وفيه عمار بن مطر العنبري، أحاديثه بواطيل. قاله ابن عدي.

● وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه الوليد بن سلمة عامة أحاديثه غير محفوظ. قاله ابن عدي.

● وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٦٧٣) من حديث عبدالله بن عمر، وفيه عمر بن محمد بن صهبان الأسلمي وعامة أحاديثه ما لا يتابعه الثقات عليه والغلبة على حديثه المناكير. قاله ابن عدي.

● وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٩٠) من طريق أبي معشر عن سعيد عن أبي هريرة، وإسناده ضعيف جداً. قاله الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٠ رقم ١٨١).

وقال الألباني في «الضعيفة» (١/ ٧٤) «ويكفي في رد هذا الحديث أنه مخالف لهدي النبي ﷺ في مشيه».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٠ رقم ١٨٢): «ذكره ابن الأثير في «النهاية» (٤/ ٣٧٠).

قلت: لعله أخذه من الفائق. وفي الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٩٠) من رواية سليمان بن أبي حثمة.

قال: قالت الشفاء بنت عبدالله، وهي أم سليمان: كان عمر إذا مشى. فذكره» هـ.

سين اجتمع مع الغين أو الخاء أو القاف كصَلَخ وصقر. وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص نِعَمَهُ بالجمع والإضافة. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته. ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ مستفاد من دليل. ﴿وَلَا هُدٗى﴾ راجع إلى رسول. ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أنزله الله، بل بالتقليد كما قال:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾

(٢١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ وهو منعٌ صريح من التقليد في الأصول. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ﴾ يحتمل أن يكون الضمير لهم ولآبائهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إلى ما يؤول إليه من التقليد أو الإشراك وجواب لو محذوف مثلُ لاتبعوه، والاستفهام للإنكار والتعجب.

(٢٢) ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأنْ فوض أمره إليه وأقبل بشَرَاشِره عليه، مِنْ أسلمت المتاع إلى الزبون، ويؤيده القراءة بالتشديد، وحيث عدِّي باللام فلتضمُّن معنى الإخلاص. ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في عمله. ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ تعلق بأوثق ما يُتعلق به، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثقِ عُرَى الحبل المتدلي منه. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ إذ الكلُّ صائر إليه.

(٢٣) ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة. وقرىء فلا يُحْزِنْكَ مِنْ أَحْزَن وليس بمستفيض. ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ في الدارين. ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ بالإهلاك والتعذيب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فمُجازٍ عليه فضلاً عما في الظاهر.

(٢٤) ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ تمتيعاً أو زماناً قليلاً، فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ يَثْقُل عليهم ثِقلَ الأَجْرام الغِلاظ، أو يَضُمّ إلى الإحراق الضغطَ.

(٢٥) ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ لوضوح الدليل المانعِ من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطُروا إلى إذاعته. ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم. ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم.

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لا يستحق العبادةَ فيهما غيرُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين. ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يُحْمَد.

(٢٧) ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ ولو ثبت كونُ الأشجار أقلاماً. وتوحيدُ شجرة لأن المراد

تفصيل الآحاد. ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحرُ المحيط بسَعَته مِدَاداً ممدوداً بسبعة أبحر، فأغنى عن ذكر المِداد بمدّه لأنه مِنْ مَدَّ الدواةَ وأمدها[١]. ورفْعُهُ للعطف على محل أنّ ومعمولَيها ويمده حال، أو للابتداء على أنه مستأنف أو الواو للحال. ونَصَبَه البصريان بالعطف على اسم أَنّ أو إضمارِ فعل يفسره يمدُّه. وقرىء تَمُدُّه ويُمِدُّه بالياء والتاء. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بكَتْبها بتلك الأقلام بذلك المداد. وإيثارُ جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر. والآية جواب لليهود سألوا رسول الله ﷺ أو أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢] وقد أَنْزَلَ التوراة وفيها علمُ كل شيء.

مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغَله شأن عن شأن لأنه يكفي لوجود الكل تعلقُ إرادته الواجبةِ مع قدرته الذاتية كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يسمع كلَّ مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مُبصَر لا يشغله إدراكُ بعضها عن بعض فكذلك الحق.

(٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾ كلٌّ من النَّيِّرَيْنِ يجري في فَلَكه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى منتهًى معلوم، الشمسُ إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر، وقيل إلى يوم القيامة. والفرق بينه وبين قوله: ﴿لأجل مسمى﴾ أن الأجل ههنا منتهى الجري وثمةَ غرضُه حقيقةً أو مجازاً، وكلا المعنيين حاصل في الغايات. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الذي ذكر من سعة العلم وشمولِ القدرة وعجائبِ الصنع واختصاص الباري بها. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بسبب أنه الثابتُ في ذاته الواجب من جميع جهاته، أو الثابتُ إلٰهيّتُه. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله، أو الباطلُ إلٰهيتُه[٤]، وقرأ البصريان والكوفيون غيرَ أبي بكر بالياء. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ مترفع على كل شيء ومتسلط عليه.

---

(١) إسناد المد إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط ـ مع كونه أعظم منها ـ لأنها هي المجاورة للجبال ومنابع المياهِ الجارية، وإليها تنصب الأنهار العظام أولاً ومنها ينصبّ إلى البحر المحيط ثانياً (س٧/ ٧٥).

(٢) الإسراء: «٨٥».

(٣) النحل: «٤٠».

(٤) والتصريح ببطلان ما يدعون من دونه ـ مع أنه يشير إليه قوله «هو الحق» ـ وذلك لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد، وللإيذان بأن الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال أيضاً (س٧/ ٧٦).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه، وهو استشهاد آخرُ على باهر قدرته وكمالِ حُكمه وشمول إنعامه. والباء للصلة أو الحال. وقرىء الفُلُك بالتثقيل، وبنعْمات الله بسكون العين، وقد جوز في مثله الكسر والفتح والسكون. ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ دلائله. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المشاق فيتعب نفسه بالتفكر في الآفاق والأنفس. ﴿شَكُورٍ﴾ يعرِف النعم ويتعرّف مانحَها، أو للمؤمنين فإن الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ ونصف شكر.

(٣٢) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ علاهم وغطاهم. ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ كما يُظِلّ من جبل أو سحاب أو غيرهما. وقرىء كالظِلال، جمع ظُلّة كقُلّة وقلال. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لزوال ما ينازع الفطرةَ من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ مقيم على الطريق القصْد الذي هو التوحيدُ، أو متوسط في الكفر لانزجاره بعضَ الانزجار. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدّار فإنه نقضٌ للعهد الفطري، أو لِما كان في البحر. والخَتْرُ أشدُّ الغدر. ﴿كَفُورٍ﴾ للنعم.

(٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لاَ يقضي عنه. وقرىء لا يُجزىء مِنْ أجزأ إذا أغنى، والراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزي فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ عطف على والدٌ، أو مبتدأ خبرُه: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وتغييرُ النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يَجزيَ، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافرَ في الآخرة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب. ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن خُلْفه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان بأن يُرَجِّيَكم التوبةَ والمغفرة فيُجْسِرَكم على المعاصي.

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ علمُ وقت قيامها. لما روي أن الحرثَ بنَ عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال: متى قيامُ الساعة؟ وإني قد ألقيتُ حبّاتي في الأرض فمتى السماءُ تمطر؟ وحَملُ امرأتي أذكر أم أنثى؟ وما أعمل غداً وأين أموت؟ فنزلت[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «مفاتح الغيب خمسٌ» وتلا

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣١ رقم ١٨٥): «هكذا ذكره الواحدي ـ في الأسباب (ص٣٤٧) ـ والثعلبي بغير سند، وأخرجه الطبري ـ في «جامع البيان» (١١/ج٢١/٨٧ ـ ٨٨) ـ وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠) ـ من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد إن امرأتي حبلى فأخبرني متى تلد؟ فذكره» هـ.

هذه الآية[١]. ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في إبّانه المقدَّر له والمحلِّ المعين له في علمه. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت. روي أن ملك الموت مر على سليمانَ فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل مَنْ هذا؟ قال: ملك الموت، فقال كأنه يريدني فمُرِ الريحَ أن تحملني وتُلقِيَني بالهند، ففعل، فقال الملَك: كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أُمرتُ أن أقبضَ روحه بالهند وهو عندك[٢]. وإنما جعل العلمَ لله تعالى والدرايةَ للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العِلْمين، ويدل على أنه إن أعمل حيلة وأنفذ فيها وُسعه لم يعرف ما هو الحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم يُنصَب له دليلٌ عليه. وقرىء بأية أرض، وشبّه سيبويهِ تأنيثها بتأنيث كل في كلهنَّ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها. ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة لقمانَ كان له لقمانُ رفيقاً يوم القيامة، وأعطِيَ من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمِل بالمعروف ونهى عن المنكر»[٣].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥١٣ ـ ٥١٤ رقم ٤٧٧٨) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٧١ رقم ٢٢٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٠٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١١٨) عن شهر بن حوشب. وشهر هذا صدوق كثير الأوهام والإرسال ـ كما في التقريب (١/ ٣٥٥) ـ.

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب، وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

ترتيبها ٣٢ — آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

سورة السجدة مكية، وآيُها ثلاثون آيةً، وقيل تسعٌ وعشرون آية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾ إن جُعل اسماً للسورة أو القرآن فمبتدأٌ خبرُه:

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على أن التنزيل بمعنى المُنزَل، وإن جُعل تعديداً للحروف كان تنزيلُ خبرَ مبتدإٍ محذوف أو مبتدأً خبرُه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فيكونُ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حالاً من الضمير في فيه، لأن المصدرَ لا يعمل فيما بعد الخبر، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً، ولا ريب فيه حالٌ من الكتاب، أو اعتراض والضميرُ فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله:

(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإنه إنكار لكونه من رب العالمين، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه تقريرٌ له. ونظمُ الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أن تنزيلَه من رب العالمين؛ وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجيباً منه؛ فإنّ أمْ منقطعةٌ، ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزّل من الله وبيّن المقصودَ من تنزيله فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إذا كانوا أهل الفترة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم.

(٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ مر بيانه في

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٤) و«زاد المسير» (٦/ ٣٣٢).

الأعراف[1]. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ ما لكم إذا جاوزتم رضا الله أحدٌ ينصركم ويشفع لكم. أو ما لكم سواه وليٌّ ولا شفيع، بل هو الذي يتولى مصالحكم وينصركم في مواطنِ نصركم، على أن الشفيع متجوَّز به للناصر، فإذا خذلكم لم يبقَ لكم وليٌّ ولا ناصر. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله تعالى.

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

(٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يدبر أمرَ الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلةٍ آثارُها إلى الأرض. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثم يصعَد إليه ويثبت في علمه موجوداً. ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في برهة من الزمان متطاولةٍ يعني بذلك استطالةَ ما بين التدبير والوقوع، وقيل يدبر الأمر بإظهاره في اللوح فينزل به الملكُ ثم يعرُج إليه في زمان هو كألف سنة لأن مسافة نزوله وعروجه مسيرةُ ألف سنة فإن ما بين السماء والأرض مسيرةُ خمسِمائة سنة، وقيل يقضي قضاءَ ألف سنةٍ فينزل به الملك ثم يعرُج بعد الألف لألف آخرَ، وقيل يدبر الأمر إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمرُ كلُّه يوم القيامة، وقيل يدبر المأمورَ به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي. ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلِصين والأعمال الخُلّص. وقرىء يُعْرَج ويَعُدُّون.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيدبر أمرهما على وَفق الحكمة. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على العباد في تدبيره، وفيه إيماءٌ بأنه سبحانه يراعي المصالحَ تفضلاً وإحساناً.

(٧) ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ خلقه موفَّراً عليه ما يستعد له ويليق به على وَفق الحكمة والمصلحة، وخلقه بدلٌ من كلَّ بدلَ الاشتمال، وقل علِمَ كيف يخلقه من قولهم قيمةُ المرء ما يحسنه أي يحسن معرفته، وخلْقه مفعول ثان. وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على الوصف، فالشيء على الأول مخصوص بمنفصل وعلى الثاني بمتصل. ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني آدم. ﴿مِن طِينٍ﴾.

(٨) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ ذريته، سميت بذلك لأنها تنسُل منه أي تنفصل. ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ممتَهن.

(٩) ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفاً له وإشعاراً بأنه خلق عجيب وأن له شأناً له مناسبة مَا إلى الحضرة الربوبية، ولأجله قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصوصاً لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا[2]. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون شكراً قليلاً.

---

(١) الأعراف: «٥٤».

(٢) وتقديم «لكم» على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق للمؤخر (س٧/ ٨٠).

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ
ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ
هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ
لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا نتميز منه، أو غبنا فيها. وقرىء ضَلِلْنا بالكسر من ضلِ يضل، وصَلَلْنا من صلّ اللحم إذا أنتن، وقرأ ابن عامر إذا على الخبر؛ والعاملُ فيه ما دل عليه: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢ﴾ وهو: نُبعثُ أو يُجدّد خلقُنا. وقرأ نافع والكسائي ويعقوب أنّا على الخبر. والقائل أبيّ بن خلف، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به. ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ بالبعث أو بتلقي ملك الموت وما بعده. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون.

(١١) ﴿۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً ولا يُبقي منكم أحداً. والتفعّل والاستفعال يلتقيان كثيراً كتقصيتُه واستقصيتُه وتعجلته واستعجلتُه. ﴿مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ بقبْض أرواحكم وإحصاء آجالكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

(١٢) ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ من الحياء والخِزي. ﴿رَبَّنَآ﴾ قائلين ربنا. ﴿أَبۡصَرۡنَا﴾ ما وعدتَنا. ﴿وَسَمِعۡنَا﴾ منك تصديق رسلك. ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ إلى الدنيا. ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذْ لم يبقَ لنا شك بما شاهدنا، وجواب لو محذوفٌ تقديره لرأيتَ أمراً فظيعاً. ويجوز أن تكون للتمني، والمضيُّ فيها وفي إذ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع. ولا يُقَدَّر لترى مفعول، لأن المعنى لو يكون منك رؤيةٌ في هذا الوقت، أو يُقدّر ما دل عليه صلةُ إذ. والخطابُ للرسول ﷺ، أو لكل أحد[1].

(١٣) ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعملِ الصالح بالتوفيق له. ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ وذلك تصريحٌ بعدم إيمانهم ـ لعدم المشيئة ـ المسبَّب عن سبق الحكم بأنهم من أهل النار، ولا يدفعه جعْلُ ذوْق العذاب مسبَّباً عن نسيانهم العاقبةَ وعدمِ تفكرهم فيها بقوله:

(١٤) ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ فإنه من الوسائط والأسباب المقتضية له. ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾ تركناكم من الرحمة، أو في العذاب تَرْكِ المنسيّ. وفي استئنافِه وبناءِ الفعل على إنّ واسمِها تشديدٌ في الانتقام منهم. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ كرّر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله، وتعليلُه بأفعالهم السيئة من التكذيب والمعاصي ـ كما علله بتركهم تدبُّرَ أمرِ العاقبة والتفكيرَ فيها ـ دلالةٌ على أن كلاً منهما يقتضي ذلك.

---

(١) عدلوا للجملة الاسمية «إنّا موقنون» وذلك لإظهار ثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه (س٧/ ٨٢).

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

(١٥) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ وُعظوا بها. ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ خوفاً من عذاب الله. ﴿وَسَبَّحُوا۟﴾ نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث. ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حامدين له شُكْراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى[١]. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ عن الإيمان والطاعة كما يفعل مَنْ يُصِرّ مستكبراً.

(١٦) ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتتنحّىٰ. ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الفُرُش ومواضع النوم. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ داعين إياه. ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته. وعن النبي ﷺ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل»[٢]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد جاء منادٍ ينادي بصوت يُسمعُ الخلائقَ كلهم: سيعلم أهل الجمع اليومَ مَنْ أَوْلىٰ بالكرم، ثم يرجع فينادي: لِيَقُم الذين كانت تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يَرجع فينادي: لِيقُم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسب سائرَ الناس»[٣] وقيل كان أناس من الصحابة يُصلّون من المغرب إلى العشاء فنزلت فيهم[٤]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

(١٧) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ لا ملَك مقرب ولا نبيّ مرسل. ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تَقَرُّ به عيونُهم. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بلْه ما أطلعتهم عليه، أقرؤوا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أُخفِيَ لهم»[٥]. وقرأ حمزة ويعقوب أُخفِي لهم على أنه مضارعُ أَخفيْتُ، وقرىء نُخفي وأُخفِي

---

(١) والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة التسبيح والتحميد، وبأنهم يفعلونها بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (س/٧/ ٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٤٨) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣) من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً به. والترمذي (٥/ ١١ ـ ١٢ رقم ٢٦١٦) وابن ماجة (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣) وعبد بن حميد رقم (١١٢) وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٣٠ رقم ٢٦٦) عن معاذ في أثناء حديث مرفوع نحوه. وهو حديث صحيح. انظر إرواء الغليل (رقم: ٤١٣).

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣١ رقم ١٩١) «ـ أخرجه ـ إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولاً وهو عند الحاكم ـ (٢/٣٩٨ ـ ٣٩٩) ـ» هـ.
قلت: صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٩/ ١٣٢١، ١٣٢٣) من حديث أنس. ويشهد له ما أخرجه الترمذي (٥/ ٣٤٦ رقم ٣١٩٦) أيضاً من حديث أنس وقوى إسناده الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط في تخريج جامع الأصول (٢/ ٣٠٣).

(٥) أخرجه البخاري (٨/ ٥١٥، ٥١٦ رقم ٤٧٧٩ و٤٧٨٠) ومسلم (٤/ ٢١٧٤ ـ ٢١٧٥ رقم ٢،٣،٤/ ٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة.

والفاعل للكل هو الله، وَقُرّاتِ أعْيُن لاختلاف أنواعها. والعلمُ بمعنىٰ المعرفة، وما موصولةٌ أو استفهامية معلق عنها الفعل. ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي جُزُوا جزاء، أو أُخْفِيَ للجزاء فإن إخفاءه لعلوّ شأنه. وقيل هذا لقومٍ أخفَوْا أعمالهم فأخفى الله ثوابَهم.

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ خارجاً عن الإيمان ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ في الشرف والمثوبةِ، تأكيدٌ وتصريحٌ، والجمْعُ للحمل على المعنىٰ.

(١٩) ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ فإنها المأوىٰ الحقيقي والدنيا منزل مرتحلٌ عنها لا محالةَ. وقيل المأوى جنةٌ من الجِنان. ﴿نُزُلًۢا﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران[1]. ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم أو على أعمالهم.

(٢٠) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ مكانَ جنة المأوى للمؤمنين. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ عبارةٌ عن خلودهم فيها. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانة لهم وزيادة في غيظهم.

(٢١) ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ عذابَ الدنيا، يريد ما مُحِنوا به من السَّنَةِ سبعَ سنين والقتلِ والأسر. ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ عذابِ الآخرة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل مَنْ بقي منهم. ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر. روي أن الوليد بن عقبة فاخَرَ علياً رضي الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات[2].

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ﴾ فلم يتفكرْ فيها. وثُمَّ لاستبعاد الإعراض عنها ـ مع فرض وضوحها ـ وإرشادِها إلى أسباب السعادة بعد التذكير بها عقلاً كما في بيت الحماسة.

وَلاَ يَكْشِــفُ الغُمَّــاءَ إلاَّ ابْــنُ حــرَّةٍ   يــرَى غَمَــرَاتِ المَــوْتِ ثُــمَّ يَــزُورها[3]

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممن كان أظلمَ من كل ظالم؟!.

---

(١) آل عمران: «١٩٨».

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣١ رقم ١٩٤): «ـ أخرجه ـ ابن مردويه، والواحدي ص٣٤٩ ـ ٣٥٠ من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي: أنا أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ منك لكتيبة. فقال علي: اسكت يا فاسق، فإنما أنت فاسق. فنزلت».
وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.
«تنبيه»: «قوله إن ذلك شجر بينهما يوم بدر غلط فاحش. فما كان الوليد حينئذٍ رجلاً».

(٣) من الطويل.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ
أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما آتيناك. ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ من لقائك الكتاب كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] فإنّا آتيناك من الكتاب مثلَ ما آتيناه منه فليس ذلك ببدْع لم يكن قطّ حتى ترتاب فيه، أو من لقاء موسىٰ للكتاب، أو من لقائك موسىٰ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «رأيت ليلةَ أُسْريَ بي موسى عليه السلام رجلاً آدم طوالاً جَعْداً كأنه من رجال شنوأة»[2]. ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي المنزّلَ على موسى. ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحِكَم والأحكام. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم به أو بتوفيقنا له. ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ وقرأ حمزة والكسائي ورويس لِمَا صبروا أي لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقضي فيميز الحق من الباطل بتمييز المُحِقّ من المبطل. ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

(٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الواو للعطف على مَنْويٍّ من جنس المعطوف. والفاعلُ ضميرُ ما دلّ عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي كَثْرةُ مَنْ أهلكناهم من القرون الماضية، أو ضميرُ الله بدليل القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يعني أهلَ مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم. وقرىء يَمَشُّون بالتشديد. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تدبرٍ واتعاظ.

(٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي جُرِزَ نباتُها أي قُطع وأزيل، لا التي لا تُنبت لقوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ وقيل اسمُ موضعٍ باليمن. ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع. ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتين والورق. ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحب والثمر. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فيستدلون به على كمال قدرته وفضله.

(٢٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ النصرَ أو الفصل بالحكومة من قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾[3] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الوعد به.

---

(١) النحل: «٦».
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣١٤ رقم ٣٢٣٩) و(٦/٤٢٨ رقم ٣٣٩٤) ومسلم (١/ ١٥١ رقم ٢٢٦) من حديث ابن عباس.
(٣) الأعراف: «٨٩».

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(٢٩) ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وهو يومُ القيامة فإنه يومُ نَصْرِ المؤمنين على الكفرة والفَصْلِ بينهم، وقيل يوم بدر أو يوم فتح مكة. والمرادُ بالذين كفروا المقتولون منهم فيه فإنهم لا ينفعهم إيمانُهم حالَ القتل ولا يُمْهَلون، وانطباقُه جواباً على سؤالهم من حيث المعنى باعتبار ما عُرِف من غرضهم؛ فإنهم لما أرادوا به الاستعجال تكذيباً واستهزاء أُجيبوا بما يَمْنَع الاستعجال.

(٣٠) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبالِ بتكذيبهم، وقيل هو منسوخ بآية السيف. ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصرةَ عليهم. ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبةَ عليك. وقرىء بالفتح، على معنى أنهم أحقاءُ بأن يُنْتَظَرَ هلاكُهم، أو أن الملائكة ينتظرونه. عن النبي ﷺ: «من قرأ ألم تنزيلُ وتبارك الذي بيده الملك أُعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر»[1] وعنه: «من قرأ ألم تنزيلُ في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبي عصمة عن زيد العمي عن أبي بصرة عن ابن عباس عن أبي، وعند ابن مردويه من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر. وفي إسناده داود بن معاذ وهو ساقط. كما في «الكافي الشاف» (ص١٣١ رقم ١٩٥).

(٢) قال ابن حجر في «المرجع السابق» (ص١٣١ ـ ١٣٢ رقم ١٩٦): لم أجده.

سُورَةُ الأَحْزَابِ

ترتيبها ٣٣ — آياتها ٧٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

سورة الأحزاب مدنية وآيها ثلاثٌ وسبعون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ناداهُ بالنبيِّ وأَمَرَهُ بالتقوى تعظيماً له وتفخيماً لشأن التقوى، والمرادُ به الأمرُ بالثبات عليه ليكونَ مانعاً له عما نُهِيَ عنه بقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يعودُ بوهْن في الدين[1]. رويَ أنَّ أبا سفيانَ وعِكْرِمةَ بنَ أبي جهل وأبا الأعور السلميَّ قدِموا عليه في الموادَعةِ التي كانت بينَه وبينهم وقام معهم ابنُ أبيّ ومعتبُ بنُ قشير والجدُّ بنُ قيس فقالوا له: ارفضْ ذِكْرَ آلهتنا وقلْ إن لها شفاعةً وندعُك وربَّك فنزلت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكُم إلا بما تقتضيه الحِكْمةُ.

(٢) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ كالنهي عن طاعَتِهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فمُوحٍ إليك ما تصلُح به أعمالُكَ ويغني عن الاستماع إلى الكفرةِ، وقرأ أبو عمرو بالياءِ على أنَّ الواوَ ضميرُ الكفرةِ والمنافقين أي أنَّ اللهَ خبيرٌ بمكايدهم فيدفعُها عنك.

(٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكِلْ أَمْرَك إلى تدبيره. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكُولاً إليه الأمورُ كلُّها.

---

(١) ذكره الثعلبي والواحدي في الأسباب ص٣٥١ بغير إسناد كما في «الكافي الشافِ» (ص١٣٢ رقم ٢٠٠).

(٤) ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ أي ما جمعَ قلبين في جوفٍ لأنَّ القلبَ معدِنُ الروح الحيواني المتعلِّقُ بالنفس الإنساني أولاً ومنعُ القوى بأسْرِها وذلك يمنعُ التعددَ. ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ وما جمع الزوجيةَ والأُمومةَ في امرأةٍ ولا الدعوةَ والبنوةَ في رجلٍ، والمرادُ بذلك ردُّ ما كانتِ العربُ تزعم مِنْ أنَّ اللبيبَ الأريبَ له قلبانِ ولذلك قيل لأبي معمر أو جميلِ بنِ أسد الفِهري ذو القلبينِ، والزوجةُ المظاهَرُ عنها كالأمِّ ودعيُّ الرجلِ ابنُه ولذلك كانوا يقولون لزيد بنِ حارثةَ الكلبي عتيقِ رسولِ الله ﷺ ابنَ محمد، أو المرادُ نفيُ الأمومةِ والبنوّةِ عن المظاهَرِ عنها والمتبنَّى ونفيُ القلبينِ لتمهيدِ أصلٍ يُحْمَلانِ عليه. والمعنى كما لم يجعلِ اللهُ قلبينِ في جوفٍ لأدائِه إلى التناقُضِ، وهو أنْ يكونَ كلٌّ منهما أصلاً لكلِّ القوى، وغيرَ أصلٍ لم يجعلِ الزوجةَ والدعيَّ اللذينِ لا وِلادةَ بينَهما وبينه أمَّه وابنَه اللذين بينَهما وبينه ولادةٌ، وقرأ أبو عمرٍو اللاي بالياءِ وحْدَه على أنَّ أصله اللاءُ بهمزةٍ فَخُفِّفَتْ، وعن الحجازيينَ مِثْلُه، وعنهما وعن يعقوبَ بالهمزِ وحْدَه، وأصلُ تظاهِرون تتظاهرونَ فأُدغِمَتِ التاءُ الثانية في الظاء. وقرأ ابنُ عامر تظَّاهرون بالإدغام وحمزةُ والكسائي بالحذفِ وعاصمٌ تُظَاهِرون مِنْ ظاهَرَ، وقُرِىءَ تَظْهَرُوْنَ مِنْ ظهرَ بمعنى ظاهَرَ كعقدَ بمعنى عاقَدَ وتَظْهَرُوْنَ من الظُّهور. ومعنى الظِّهارِ: أنْ يقولَ للزوجةِ أنتِ عليَّ كظهْرِ أمي، مأخوذٌ من الظَّهْرِ باعتبارِ اللفظِ كالتلبيةِ من لبَّيْكَ وتعديتُه بِمِنْ لتضمُّنِه معنى التجنُّبِ لأنه كان طَلَاقاً في الجاهلية وهو في الإسلام يقتضي الطلاقَ أوِ الحرمةَ إلى أداءِ الكفَّارة كما عدَّى آلى بها، وهو بمعنى حلفَ وذَكَرَ الظَّهْرَ للكنايةِ عن البطنِ الذي هو عمودُه فإنَّ ذِكْرَهُ يقارب ذِكْرَ الفرْجِ، أو للتغليظ في التحريم، فإنَّهم كانوا يحرِّمون إتيانَ المرأةِ وَظَهْرُها إلى السماء، وأدعياءُ جمعُ دعيٍّ على الشذوذِ وكأنه شُبِّهَ بفعيل بمعنى فاعِلٍ فَجُمِعَ جمعَه.
﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ أو إلى الأخير. ﴿ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ لا حقيقةَ له في الأعيانِ كقول الهاذي.
﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ ماله حقيقةٌ عينيةٌ مطابِقةٌ له. ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ سبيلَ الحقِّ.

ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

(٥) ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ أُنسُبوهم إليهم، وهو إفرادٌ للمقصودِ من أقواله الحقَّةِ وقوله: ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ تعليلٌ له، والضمير لمصدرِ ادعُوهم وأقسطُ أفعلُ تفضيلٍ قَصَدَ به الزيادةَ مطلقاً من القِسْطِ بمعنى العدْلِ، ومعناه البالغُ في الصدقِ. ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ ﴾ فتنسِبُوهم إليهم. ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ أي فَهُمْ إخوانُكم في الدين. ﴿ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ وأولياؤُكم فيه فقولوا هذا أخي ومولاي بهذا التأويلِ.
﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ ولا إثمٌ عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطِئينَ قبلَ النهي أو بعدَه على النسيانِ أو سَبْقِ اللسان. ﴿ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ولكنَّ الجُناحَ فيما تعمَّدتْ قلوبُكم أو ولكنْ ما تعمَّدتْ قلوبكم فيه الجناحَ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لِعَفْوِهِ عن المخطىءِ. واعلم أنَّ التبنيَ لا عبرةَ به عندنا وعندَ أبي حنيفة يوجِبُ عِتْقَ مملوكِه ويثبتُ النَّسب لمجهولِه الذي يمكن إلحاقُه به.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾

(٦) ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ في الأمور كلِّها فإنه لا يأمرُهم ولا يرضَى منهم إلا بما فيه صلاحُهم ونجاحُهم بخلافِ النفسِ، فلذلك أُطلِقَ، فيجب عليهم أنْ يكونَ أحبَّ إليهم من أنفسِهم وأمرُه أنفذَ عليهم من أمرِها وشفقتُهم عليه أتمَّ من شفقتهم عليها. رُوِيَ: أنه عليه الصلاةُ والسلام أراد غزوةَ تبوكَ فأمر الناسَ بالخروج فقال ناسٌ نستأذِنُ آباءَنا وأمهاتِنا فنزلت[١]. وقُرِىءَ وهو أبٌ لهم أي في الدين فإنَّ كلَّ نبيٍّ أبٌ لأُمَّتِه من حيثُ أنه أصلٌ فيما به الحياةُ الأبديةُ ولذلك صارَ المؤمنون أُخوةً. ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ منزَّلاتٌ منزلتَهُنَّ في التحريم واستحقاقِ التعظيم وفيما عدا ذلك فكما الأجنبياتِ، ولذلك قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: لسنا أمهاتِ النساءِ[٢]. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ وذوو القراباتِ. ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ في التوارُثِ وهو نسخٌ لما كان في صدرِ الإسلام من التوارُثِ بالهجرةِ والموالاةِ في الدين. ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللوح أو فيما أُنزِلَ، وهو هذه الآيةُ أو آيةُ المواريثِ أو فيمَ فرضَ الله. ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ بيانٌ لأولي الأرحامِ، أو صِلةٌ لأولي أي أولو الأرحام بحقِّ القرابة أَوْلَى بالميراثِ من المؤمنينَ بحقِّ الدين ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة. ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ استثناءٌ من أعمِّ ما يقدر الأولوية فيه من النفع! والمراد بفعل المعروفِ التوصيةُ، ومنقطعٌ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ كان ما ذَكَرَ في الآيتين ثابتاً في اللوح أو القرآن. وقيل في التوراة.

(٧) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ مقدَّرٌ باذْكُرْ وميثاقُهم عهودُهم بتبليغ الرسالة والدعاءِ إلى الدين القيِّم. ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ خصَّهم بالذِّكرِ لأنهم مشاهيرُ أربابِ الشرائعِ وقدَّمَ نبيَّنا عليه الصلاةُ والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنِه. ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ عظيمَ الشأن أو مؤكداً باليمين، والتكريرُ لبيانِ هذا الوصف تعظيماً له.

(٨) ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ أي فعلنا ذلك ليسألَ اللهُ يومَ القيامة الأنبياءَ الذين صدقوا عهدَهم عما قالوه لقومهم، أو تصديقِهم إيَّاهم تبكيتاً لهم أو المصدِّقين لهم عن تصديقهم فإنَّ مصدِّقَ الصادقِ صادقٌ، أو المؤمنينَ الذين صدقوا عهدَهم حينَ أشْهَدَهُم على أنفسِهم عن صدْقِهم عهدَهم. ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ عطفٌ على أخذْنا من جهة أنَّ بعثةَ الرسلِ وأَخْذَ الميثاق منهم لإثابةِ المؤمنينَ، أو على ما دلَّ عليه لِيَسْأَلَ كأنه قال فأثابَ المؤمنينَ وأعدَّ للكافرين.

---

(١) ذكره الماوردي في تفسيره (٤/ ٣٧٣) عن النقاش.

(٢) أخرج الدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٩٣٦) من طريق مطر الأعنق عن خرقاء، قالت: قلتُ لعائشة: يا أُمَّه، قالت «لستُ أمَّ نسائِكم، إنما أنا أمُّ الرجال». وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٦٤) من طريق مسروق أنَّ امرأة قالت لعائشة: يا أُمَّه. فقالت: لست بأمّك، أنا أمّ رجالكم».

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ
ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ
لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

(٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزابَ وهم قريشٌ وغطفانُ ويهودُ قريظةَ والنضيرِ وكانوا زهاءَ اثني عَشَرَ ألفاً. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ريحَ الصَّبا. ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكةَ. روي أنه عليه الصلاةُ والسلام لما سمعَ بإقبالهم ضربَ الخندقَ على المدينة ثم خرجَ إليهم في ثلاثةِ آلافٍ والخندقُ بينَه وبينَهم، ومضَى على الفريقين قريبٌ من شهر لا حربَ بينهم إلا الترامي بالنبلِ والحجارةِ حتى بعثَ الله عليهم ريحاً باردة في ليلة شاتيةٍ، فأخصرتْهم وسفَّتِ الترابَ في وجوههم وأطفأتْ نيرانَهم وقلعتْ خيامَهم وماجتِ الخيلُ بعضُها في بعض وكبَّرتِ الملائكةُ في جوانب العسكر، فقال طليحة بنُ خويلد الأسدي أما محمدٌ فقد بدأكم بالسِّحرِ فالنجاءَ النجاءَ فانهزموا من غير قتالٍ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفرِ الخندق، وقرأ البصريانِ بالياء أي بما يعملُ المشركون من التحزُّبِ والمحاربةِ. ﴿بَصِيرًا﴾ رائياً.

(١٠) ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدلٌ من إذا جاءتكم. ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من قِبَلِ المشرق بنو غطفانَ. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفلِ الوادي من قِبَلِ المغربِ قريشٌ. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ مالتْ عن مستوى نظرِها حيرةً وشخوصاً. ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ رُعْباً فإنَّ الرئةَ تنتفخُ من شدَّةِ الرَّوْعِ فيرتفعُ القلبُ بارتفاعها إلى رأس الحنجُرةِ، وهي منتهَى الحلقوم مَدْخَلُ الطعام والشراب. ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ الأنواعَ من الظنِّ فظنَّ المخلصونَ الثُّبُتُ القلوبِ أنَّ الله منجزٌ وعْدِهِ في إعلاء دينه، أو ممتحِنُهم فخافوا الزَّلَلَ وضَعْفَ الاحتمالِ والضِّعافُ القلوبِ والمنافقون ما حُكِيَ عنهم[1]، والألفُ مزيدةٌ في أمثاله تشبيهاً للفواصِلِ بالقوافي وقد أَجْرَى نافعٌ وابن عامرٍ وأبو بكر فيها الوصْلَ مجرى الوقْفِ، ولم يزدْها أبو عمرو وحمزةُ ويعقوب مطلقاً وهو القياسُ.

(١١) ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اختُبِروا فظهر المخلِصُ من المنافقِ والثابتُ من المتزلْزِل. ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ من شدَّةِ الفزعِ وقرىء زلزالاً بالفتح.

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفُ اعتقادٍ. ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من الظَّفَرِ وإعلاء الدين. ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وعْداً باطلاً. قيل قائلُه معتِبُ بنُ قشير قال يعِدُنا محمدٌ بفتحِ فارسَ والرومِ وأحدُنا لا يقدرُ أنْ يتبرَّزَ فَرَقاً ما هذا إلا وعْدُ غرور.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني أوسُ بنُ قيظي وأتباعُه. ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أهلَ المدينةِ، وقيل هو

(١) وصيغة المضارع في «تظنون» لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار (س٧/ ٩٤).

اسمُ أرضٍ وقعتِ المدينة في ناحية منها ﴿لَا مُقَامَ﴾ لا موضِعَ قيام. ﴿لَكُمْ﴾ ها هُنا، وقرأ حفصٌ بالضمِّ على أنه مكانٌ أو مصدرٌ من أقامَ. ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم هاربينَ، وقيل المعنى لا مقامَ لكم على دين محمد فارجِعُوا إلى الشركِ وأسْلِمُوه لتسلموا، أو لا مقامَ لكم بيثربَ فارجعوا كفاراً ليمكِنَكُمُ المقامُ بها. ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ للرجوع[1]. ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غيرُ حصينة وأصلُها الخللُ، ويجوزُ أنْ يكونَ تخفيفُ العورة من عَوِرَتِ الدارُ إذا اختَلَتْ وقد قرىء بها. ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينةٌ. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي وما يريدون بذلك إلا الفرارَ من القتال.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ دُخِلَتِ المدينةُ أو بيوتُهم. ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها وحَذَفَ الفاعلَ للإيماءِ بأنَّ دخولَ هؤلاءِ المتحزبين عليهم ودخولَ غيرهم من العساكر سِيَّانِ في اقتضاءِ الحكْم المرتَّبِ عليه. ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ الرِّدَّةَ ومقاتلةَ المسلمينَ. ﴿لَآتَوْهَا﴾ لأَعْطَوْهَا، وقرأ الحجازيانِ بالقصْرِ بمعنى لجاءُوها وفعلُوها. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ بالفتنة أو بإعطائها. ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ رَيثَما يكونُ السؤالُ والجوابُ، وقيل ما لبثوا بالمدينة بعدَ تمام الارتداد إلا يسيراً.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ يعني بني حارثةَ عاهدوا رسولَ الله ﷺ يومَ أُحُدٍ حين فَشِلُوا ثمَّ تابوا أنْ لا يعودوا لمثلِه. ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ عن الوفاءِ به مجازى عليه.

(١٦) ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فإنه لا بدَّ لكلِّ شخصٍ من حَتْفِ أنفٍ، أو قَتْلٍ في وقتٍ معين سبقَ به القضاءُ وجرى عليه القلمُ. ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإنْ نفعكمُ الفرارُ مثلاً فمنعتُم بالتأخير لم يكنْ ذلك التمتيعُ إلا تمتيعاً، أو زماناً قليلاً.

(١٧) ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي أو يصيبُكم بسوء إنْ أرادَ بكم رحمةً فاختَصَرَ الكلامَ كما في قوله:

متقلِّداً سيفاً ورُمحاً

أو حملَ الثاني على الأول لما في العصمةِ من معنى المنْعِ. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضُّرَّ عنهم.

(١٨) ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ المثبِّطين عن رسولِ الله ﷺ وهم المنافقون. ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾

---

(١) صيغة المضارع في «يستأذن» لاستحضار الصورة (س٧/ ٩٤٠).

من ساكني المدينةِ. ﴿هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ﴾ قرِّبوا أنفسَكم إلينا وقد ذَكَرَ أصْلَه في الإنعام. ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً أو زماناً أو بأساً قليلاً، فإنهم يعتذرونَ ويتثبَّطون ما أمكن لهم، أو يخرُجُون مع المؤمنين ولكنْ لا يقاتلونَ إلا قليلاً كقوله ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وقيل إنه من تتمةِ كلامهم ومعناه لا يأتي أصحابُ محمدٍ حربَ الأحزابِ ولا يقاومونَهم إلا قليلاً.

أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾

(١٩) ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾ بخلاءَ عليكم بالمعاونةِ أو النفقة في سبيل الله أو الظَّفرِ أو الغنيمة، جمعُ شحيح ونَصْبُها على الحال من فاعل يأتونَ أو المعوِّقينَ أو على الذمِّ. ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ في أحداقهم. ﴿كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ﴾ كنظر المغشيِّ عليه أو كَدَوَرَانِ عينيةٍ، أو مشبَّهينَ به أو مشبَّهةً بعينه. ﴿مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ من معالجة سكراتِ الموت خوفاً ولِوَاذاً بك. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ﴾ وحِيزَتِ الغنائم. ﴿سَلَقُوكُم﴾ ضربوكم. ﴿بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذَرِبَةٍ يطلبون الغنيمةَ، والسَّلْقُ البسْطُ بقهرٍ باليدِ أو اللسان. ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ نُصِبَ على الحال أو الذمِّ، ويؤيده قراءةُ الرفع وليس بتكرير لأنَّ كلاً منهما مقيَّدٌ من وجهٍ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ إخلاصاً. ﴿فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ فأظهر بُطلانَها إذ لم تَثْبُتْ لهم أعمالٌ فتبطُلُ أو أبطلَ تصنُّعَهم ونفاقَهم. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباطُ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ هيناً لتعلُّقِ الإرادة به وعدمِ ما يمنعه عنه.

(٢٠) ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ أي هؤلاءِ لجُبْنِهم يظنون أنَّ الأحزاب لم ينهزِمُوا، وقدِ انهزموا ففرُّوا إلى داخل المدينة. ﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ كرَّةً ثانيةً. ﴿يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ تمنَّوا أنهم خارِجون إلى البذوِ حاصلون بينَ الأعراب. ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾ كلَّ قادم من جانبِ المدينة. ﴿عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾ عما جَرَى عليكم. ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم﴾ هذهِ الكرَّةَ ولم يرجِعوا إلى المدينة وكان قتالٌ. ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ رياءً وخوفاً من التعيير.

(٢١) ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ خَصْلَةٌ حسنةٌ من حقِّها أنْ يُؤْتَسَى بها كالثباتِ في الحربِ ومقاساةِ الشدائدِ، أو هو في نفسِه قدوةٌ يحسنُ التأسي به كقولك في البيضةِ عشرونَ منًّا حديداً أي هي في نفسِها هذا القدْرُ من الحديد، وقرأ عاصمٌ بضمِّ الهمزة وهو لغةٌ فيه. ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي ثوابَ اللهِ أو لقاءَه ونعيمَ الآخرةِ، أو أيامَ الله واليومَ الآخر خصوصاً. وقيل هو كقولك أرجو زيداً وفَضْلَه، فإنَّ اليومَ الآخِرَ داخلٌ فيها بِحَسَبِ الحكْمِ والرجاءُ يحتملُ الأملَ والخوفَ

(١) الأحزاب: «٢٠».

ولمن كان صلةً لحسنةٍ أو صفةً لها. وقيل بدلٌ من لكم والأكثرُ على أنَّ ضميرَ المخاطبِ لا يُبْدَلُ منه. ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وقَرَنَ بالرجاءِ كثرةَ الذِّكْرِ المؤديةَ إلى ملازمةِ الطاعة، فإنَّ المؤتسي بالرسولِ مَنْ كان كذلك.

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بقوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾[١] الآيةَ، وقوله عليه الصلاةُ والسلام «سيشتدُّ الأمرُ باجتماعِ الأحزاب عليكم والعاقبةُ لكم عليهم»[٢]. وقوله عليه الصلاةُ والسلام: «إنهم سائرون إليكم بعد تِسْعٍ أو عشرٍ»[٣] وقرأ حمزة وأبو بكر بكسرِ الراء وفتح الهمزة[٤]. ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ظهرَ صِدْقُ خبرِ الله ورسولِه، أو صدقاً في النُّصْرةِ والثواب كما صَدَقَا في البلاءِ، وإظهارُ الاسمِ للتعظيم. ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ فيه ضميرٌ لما رأوا، أو الخطبُ أو البلاءُ. ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ومواعيده. ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديره.

(٢٣) ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثباتِ مع الرسول ﷺ والمقاتلةِ لإعلاء الدينِ من صَدَقَني إذا قال لك الصِّدقَ، فإنَّ المعاهِدَ إذا وفَّى بعهده فقد صدقَ فيه. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ نَذْرَهُ بأنْ قاتل حتى استُشْهِدَ كحمزةَ ومصعبِ بنِ عمير وأنسِ بنِ النضرِ، والنَّحْبُ النذرُ واستُعِيرَ للموتِ لأنه كنذرٍ لازمٍ في رقبةِ كلِّ حيوانٍ. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة كعثمانَ وطلحةَ رضي الله عنهما. ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ العهدَ ولا غيَّروهُ. ﴿تَبْدِيلًا﴾ شيئاً من التبديل. رُوِيَ أنَّ طلحةَ ثَبَتَ مع رسولِ الله ﷺ يومَ أُحُدٍ حتى أُصِيبَتْ يدُه فقال عليه الصلاة والسلام: «أَوْجَبَ طلحةُ»[٥] وفيه تعريضٌ لأهل النفاق ومرضِ القلبِ بالتبديلِ، وقوله:

---

(١) البقرة: «٢١٤».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٣٣ رقم ٢٠٨): «لم أجده».
وذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢١/١٦٩) عن ابن عباس نقلاً عن البحر المحيط.

(٤) من (رأى) أي بكسر الراء وفتح همزة (رأى).

(٥) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣٣ رقم ٢١٠) «ـ أخرجه ـ الثعلبي من رواية جرير بن حازم عن عروة في قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا﴾ ـ الآية ـ منهم طلحة بن عبيدالله فذكره.
وقد روى مفرقاً من غير هذا الوجه، فقضيته أن يده أصيبت، أخرجها البخاري (٧/ ٨٢ رقم ٣٧٢٤) و(٧/٣٥٩ رقم ٤٠٦٣) من رواية قيس بن أبي حازم «رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها رسول الله ﷺ يوم أحد» والنسائي من طريق عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال «لما كان يوم أحد كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثنى عشر رجلاً من الأنصار. فذكر القصة مطولة».
قوله «أوجب طلحة» أخرجها الترمذي (٤/ ٢٠١ رقم ١٦٩٢) و(٥/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤ رقم ٣٧٣٨) وابن حبان (ص٥٤٦ رقم ٢٢١٢ ـ موارد) والحاكم (٣/ ٢٥) وابن أبي شيبة وإسحاق وأبو يعلى والبزار من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبيدالله بن الزبير عن أبيه به» هـ.

لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعليلٌ للمنطوقِ والمعرَّضِ به، فكأنَّ المنافقين قصدُوا بالتبديل عاقبةَ السوءِ كما قصدَ المخلصون بالثباتِ والوفاءِ العاقبةَ الحسنى، والتوبةُ عليهم مشروطةٌ بتوبتهم أو المرادُ بها التوفيقُ للتوبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني الأحزابَ. ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ متغيِّظِينَ. ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ غيرَ ظافرِيْنَ وهما حالانِ بتداخلٍ أو تعاقُبٍ. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريحِ والملائكةِ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداثِ ما يريدُه. ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على كلِّ شيءٍ.

(٢٦) ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ ظاهروا الأحزابَ. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني قريظةَ. ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم جمعُ صَيْصِيَةٍ وهي ما يُتَحَصَّنُ به ولذلك يُقَالُ لِقَرْنِ الثورِ والظبي وشوكةِ الديك. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوفَ وقُرِىءَ بالضمِّ. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وقرىء بضمِّ السين روي: أنَّ جبريلَ أتى رسولَ اللهِ ﷺ صبيحةَ الليلةِ التي انهزمَ فيها الأحزابُ، فقال: أتنزعُ لأمَتَكَ والملائكةُ لم يضعوا السلاحَ؟ إنَّ اللهَ يأمركَ بالسيرِ إلى بني قريظةَ وأنا عامِدٌ إليهم فأذَّنَ في الناس أنْ لا يصلُّوا العصرَ إلا في بني قريظةَ، فحاصَرَهم إحدى وعشرين أو خمساً وعشرينَ حتى جَهِدَهم الحصارُ فقال لهم: تنزلون على حُكْمي فأبَوْا فقال: على حكمِ سعد بنِ معاذ فرضُوا به، فحكمَ سعدٌ بقتلِ مقاتليهم وسَبْي ذراريْهم ونسائِهم، فكبَّر النبيُّ عليه الصلاة والسلام فقال: «لقد حكمْتَ بحكمِ الله من فوقِ سبعةِ أرقعةٍ» فَقَتَلَ منهم سِتَّمائةٍ أو أكثرَ وأسرَ منهم سبعَمِائة[1].

---

(١) هذه الرواية تشمل أحاديث عدة:
أ) حديث (أوقد وضعت السلاح): أخرجه البخاري (٧/ ٤٠٧ رقم ٤١١٧) وأحمد (٢١/ ٨٢ ـ الفتح الرباني) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٥) عن عائشة رضي الله عنها.
ب) حديث (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة): ـ أخرجه البخاري (٧/ ٤٠٧ رقم ٤١١٩) ـ ومسلم (٣/ ١٣٩١ رقم ٦٩/ ١٧٧٠) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٦ ـ ٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.
جـ) حديث (حكم سعد بن معاذ في بني قريظة): ـ أخرجه البخاري (٦/ ١٦٥ رقم ٣٠٤٣) و(٧/ ١٢٣ رقم ٣٨٠٤) و(٧/ ٤١١ رقم ٤١٢١) و(١١/ ٤٩ رقم ٦٢٦٢) ومسلم (٣/ ١٣٨٨ ـ ١٣٨٩ رقم ٦٤/ ١٧٦٨) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل
لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن
كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ
ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

(٢٧) ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ مزارِعَهم. ﴿وَدِيَـٰرَهُمْ ﴾ حصونَهم. ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ نقودَهم ومواشِيْهم وأثاثَهم. روي أنه عليه الصلاةُ والسلام جعلَ عَقَارَهُم للمهاجرينَ فتكلَّم فيه الأنصارُ فقال: «إنكم في منازلكم» وقال عمرُ رضي الله عنه: أمَا تُخمِّسُ كما خَمَّسْتَ يومَ بدْرٍ فقال: «لا إنما جُعِلَتْ هذه لي طُعْمَةً»[١]. ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ كفارسَ والرومِ، وقيل خيبرُ وقيل كلُّ أرض تُفْتَحُ إلى يوم القيامة. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدِرُ على ذلك.

(٢٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ السَّعةَ والتنعُّمَ فيها. ﴿وَزِينَتَهَا﴾ زخارِفَها. ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطِكُنَّ المتعةَ. ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ طلاقاً من غير ضِرارٍ وبِدْعَةٍ. روي أنهم سألْنَهُ ثيابَ الزينة وزيادةَ النفقةِ فنزلتْ[٢]. فبدأ بعائشةَ رضي الله عنها فخيَّرها فاختارتِ اللهَ ورسولَه، ثم اختارتِ الباقياتِ اختيارَها فشكرَ اللهُ لهنَّ ذلك فأنزلَ ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾[٣] وتعليقُ التسريحِ بإرادتهنَّ الدنيا وجَعْلِها قسيماً لإرادتهنَّ الرسولَ يدلُّ على أنَّ المخيَّرةَ إذا اختارتْ زَوْجَها لم تُطَلَّقْ خلافاً لزيدٍ والحسن ومالكٍ وإحدى الروايتين عن عليٍّ، ويؤيِّده قولُ عائشةَ رضيَ الله عنها «خيَّرنا رسولُ الله ﷺ فاخترْناه»[٤]. ولم يعدَّه طلاقاً، وتقديمٌ للتمتُّع على التسريحِ المسبَّبِ عنه من الكرمِ وحُسْنِ الخلقِ. قيلَ لأنَّ الفرقةَ كانتْ بإرادتهنَّ كاختيارِ المخيَّرةِ نفسَها فإنه طَلْقَةٌ رجعيةٌ عندنا وبائنةٌ عند الحنفيةِ، واخْتُلِفَ في وجوبه للمدخولِ بها وليس فيه ما يدلُّ عليه. وقُرِىءَ أُمَتِّعُكُنَّ وأسرِّحُكُنَّ بالرفعِ على الاستئنافِ.

(٢٩) ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يُسْتَحْقَرُ دونه الدنيا وزينتُها ومِنْ للتبيينِ لأنهنَّ كلَّهنَّ كنَّ محسناتٍ.

(٣٠) ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ ﴾ بكبيرةٍ. ﴿ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ ظاهرٍ قُبْحُها على قراءةِ ابن كثير وأبي بكر والباقونَ بكسْرِ الياء. ﴿يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ﴾ ضعفيْ عذابِ غيرِهِنَّ أي مِثْلَيْه، لأنَّ الذَّنْبَ منهنَّ أقبحُ فإنَّ زيادةَ قُبْحِهِ تتبعُ زيادةَ فَضْلِ المذْنبِ، والنعمةَ عليه ولذلك جعلَ حدَّ الحرِّ ضعفي

---

(١) أخرجه الواقدي باب غزوة بني النضير (١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) عن أم العلاء وأخرجه الواقدي أيضاً (١/ ٣٧٧) من طريق المسور بن رفاعة.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/ ١٥٧) من حديث الحسن مرسلاً بنحوه، بإسناد صحيح إلى الحسن.

(٣) الأحزاب: «٥٢».

(٤) أخرجه البخاري (٩/ ٣٦٧ رقم ٥٢٦٢) ومسلم (٢/ ١١٠٣ رقم ١٤٧٧).

حدِّ العبدِ، وعُوتِبَ الأنبياءُ بما لا يعاتَبُ به غيرُهم وقرأ البصريانِ يُضَعَّفْ على البناءِ للمفعول ورَفْعِ العذابِ، وابنُ كثير وابنُ عامر نُضَعِّفْ بالنونِ وبناءِ الفاعلِ ونَصْبِ العذابِ. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعهُ عن التضعيفِ كونُهُنَّ نساءَ النبيِّ وكيفَ وهو سببُهُ.

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

(٣١) ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ ومَنْ يدمْ على الطاعةِ. ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولعلَّ ذِكْرَ الله للتعظيمِ أو لقوله: ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرةً على الطاعةِ ومرةً على طلبِهنَّ رضا النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام بالقناعةِ وحُسْنِ المعاشرةِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعملْ بالياءِ حملاً على لفظِ مَنْ ويؤتِها على أنَّ فيه ضميرَ اسمِ اللهِ. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة زيادةً على أَجْرِها.

(٣٢) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أَصْلُ أحدٍ وَحَدٍ بمعنى الواحدِ، ثم وُضِعَ في النفي العامِّ مستوياً فيه المذكَّرُ والمؤنَّث والواحدُ والكثيرُ، والمعنى لَسْتُنَّ كجماعةٍ واحدة من جماعاتِ النساء في الفضلِ. ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفةَ حُكْمِ الله ورضا رسولِه. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ فلا تَجِئْنَ بقولِكُنَّ خاضعاً ليِّناً مِثْلَ قولِ المريباتِ. ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ فُجُورٌ. وقرىءَ بالجزم[1] عطفاً على محلِّ فِعْلِ النهي على أنه نَهْيُ مريضِ القلبِ عن الطمعِ عقيبَ نهيهِنَّ عن الخضوعِ بالقول. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ حسناً بعيداً عن الريبةِ.

(٣٣) ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ مِنْ وَقَرَ يقِرُ وقاراً أو من قرَّ يقرُّ حُذِفَتِ الأولى من راءِي اقْرُرْنَ ونُقِلَتْ كسرتُها إلى القافِ، فاستُغْنِيَ عن همزةِ الوصْلِ ويؤيدُه قراءةُ نافعٍ وعاصمٍ بالفتح من قَرَرْتُ أقرُّ وهو لغةٌ فيه، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ من قارَ يقارُ إذا اجتمعَ. ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تتبخْتَرْنَ في مَشْيِكُنَّ. ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ تبرُّجاً مِثْلَ تبرُّجِ النساءِ في أيامِ الجاهلية القديمةِ، وقيل هي ما بينَ آدمَ ونوحٍ، وقيل الزمانُ الذي وُلِدَ فيه إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام كانتِ المرأةُ تلبسُ درعاً من اللُّؤْلؤِ فتمشي وَسَطَ الطريقِ تعرضُ نفسَها على الرجالِ والجاهليةُ الأخرى ما بَيْنَ عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام، وقيل الجاهلية الأولى جاهليةُ الكفرِ قبلَ الإسلام، والجاهليةُ الأخرى جاهليةُ الفسوق في الإسلام، ويعضِّدُه قولُه عليه الصلاة والسلام لأبي الدرداءِ رضي الله عنه: «إنَّ فيك جاهليةً، قال جاهليةُ كُفْرٍ أو إسلام قَال بل جاهليةُ كفرٍ»[2]. ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائر ما أَمَرَكُنَّ

---

(١) قوله وقرىء بالجزم أي بجزم الفعل (فيطمعْ).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٣٤ رقم ٢١٧): «لم أجده عن أبي الدرداء. وإنما هو في الصحيحين ـ البخاري (١/ ٨٤ رقم ٣٠) و(٥/ ١٧٣ ـ ١٧٤ رقم ٢٥٤٥) و(١٠/ ٤٦٥ رقم ٦٠٥٠) ـ ومسلم (٣/ ١٢٨٢ ـ =

به ونهاكنَّ عنه. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الذَّنبَ المدنِّسَ لِعِرْضِكم وهو تعليلٌ لأمرهنَّ ونَهْيِهِنَّ على الاستئنافِ ولذلك عمَّمَ الحكْمَ. ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نُصِبَ على النداءِ أوِ المدحِ. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ عن المعاصي. ﴿تَطْهِيرًا﴾ واستعارةُ الرِّجْسِ للمعصية والترشيح بالتطهير للتنفير عنها. وتخصيصُ الشيعةِ أهلِ البيتِ بفاطمةَ وعلي وابنيهما رضي الله عنهم لما روي أنه عليه الصلاةُ والسلام خرجَ ذاتَ غُدْوَةٍ وعليه مِرْطٌ مرجَّلٌ من شعرٍ أسودَ فجلسَ فأتتْ فاطمةُ رضي الله عنها فأدخلَها فيه، ثم جاءَ عليٌّ فأدخله فيه ثم جاء الحسنُ والحسينُ رضي الله عنهما فأدخلَهما فيه ثم قال: إنما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت»[1]، والاحتجاجُ بذلك على عِصْمَتِهم وكونِ إجماعِهم حُجَّةً ضعيفٌ لأنَّ التخصيصَ بهم لا يناسِبُ ما قبلَ الآية وما بعدَها، والحديثُ يقتضي أنهم من أهلِ البيت لا أنه ليسَ غيرُهم.

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

(٣٤) ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ من الكتاب الجامع بينَ الأمرينِ وهو تذكيرٌ بما أنعمَ اللهُ عليهم من حيثُ جَعْلُهنَّ أهلَ بيتِ النبوَّةِ ومهبطَ الوحْي وما شاهدْنَ من بَرْحَاءِ الوحي مما يوجِبُ قوةَ الإيمان والحرصَ على الطاعة حثاً على الانتهاءِ والائتمارِ فيما كُلِّفْنَ به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلم ويدبِّر ما يصلُح في الدين ولذلك خيَّرَكُنَّ ووعَظَكُنَّ، أو يعلمُ مَنْ يصلحُ لنبوَّته ومَنْ يصلُحُ أنْ يكونَ أهلَ بيتِه.

(٣٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الداخلين في السِّلمِ المنقادِيْنَ لحكْمِ الله. ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المصدِّقين بما يجبُ أنْ يُصَدَّقَ به. ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المداوِمينَ على الطاعةِ. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعاتِ وعن المعاصي. ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضِعينَ لله بقلوبهم وجوارِحهم. ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وَجَبَ في مالِهم. ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصومَ المفروضَ. ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام. ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنَتِهم. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لما اقْتَرَفُوا من الصغائرِ لأنهم مكفراتٌ. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعتِهم، والآيةُ وعْدٌ لهنَّ ولأمثالِهم على الطاعةِ

= ١٢٨٣ رقم ٣٨ ـ ٤٠) من حديث أبي ذر أنه ﷺ قال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٨٣ رقم ٦١/ ٢٤٢٤) من حديث عائشة.

● المرط: هو كساء، جمعه مروط.

● المرجَّل: هو الموش المنقوش عليه صور رحال الإبل.

والتدرُّع بهذه الخصالِ. روي أنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ قلْنَ: يا رسولَ الله ذَكَرَ الله الرجالَ في القرآنِ بخير فما فينا خيرٌ نُذْكَرُ به فنزلتْ[١]. وقيل: لما نزل فيهنَّ ما نزل قال نساءُ المسلمينَ فما نَزَلَ فينا شيءٌ فنزلت[٢] وعَطْفُ الإناثِ على الذكور لاختلاف الجِنْسَيْنِ وهو ضروريٌّ، وعطْفُ الزوجينِ على الزوجين لتغايُرِ الوصْفينِ فليس بضروريٍّ ولذلك تُرِكَ في قوله ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾[٣] وفائدتُه الدلالةُ على أنَّ إعدادَ المعدِّ لهم للجمْعِ بين هذه الصفاتِ.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ ما صحَّ له. ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي قضى رسولُ الله، وذُكِرَ اللهُ لتعظيم أمره والإشعارِ بأنَّ قضاءَه قضاءُ الله، لأنه نزلَ في زينبَ بنتِ جحشٍ بنتِ عمَّته أميمةَ بنتِ عبدالمطلب خطبها رسولُ الله ﷺ لزيدِ بنِ حارثةَ فأبتْ هي وأخوها عبدُالله[٤]. وقيل في أمِّ كلثومٍ بنتِ عقبةَ وهَبَتْ نفسَها للنبيِّ ﷺ فزوَّجها من زيدٍ[٥]. ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أنْ يختاروا من أمرهم شيئاً بل يجبُ عليهم أنْ يجعلُوا اختيارَهم تِبْعاً لاختيارِ اللهِ ورسوله، والخِيَرَةُ ما يُتَخَيَّرُ وجُمِعَ الضميرُ الأولُ لعموم مؤمنٍ ومؤمنة من حيثُ إنهما في سياقِ النفي، وجُمعَ الثاني للتعظيم. وقرأ الكوفيون وهشامٌ «يكون» بالياءِ. ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ بَيِّنَ الانحرافَ عن الصوابِ.

(٣٧) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقِك لِعِتْقِهِ واختصاصه. ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بما وفَّقك اللهُ فيه وهو زيد بنُ حارثةَ. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينبَ. وذلك: أنه عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/ ١٠) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٠٨ رقم ١٢٦١٤).
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩١): «رواه الطبراني وفيه قابوس وهو ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله ثقات» هـ.
(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥٤ رقم ٣٢١١) والطبراني في الكبير (٢٥/ ٣١ ـ ٣٢ رقم ٥١، ٥٢، ٥٣).
مرسلاً وموصولاً من حديث عكرمة عن أم عمارة الأنصارية.
وخلاصة القول أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.
(٣) التحريم: «٥».
(٤) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٣٠١ رقم ٢٠٦) من حديث زينب بنت جحش.
في سياق أطول من هذا، وإسناده ضعيف. انظر «الكافي الشاف» (ص١٣٤ رقم ٢٢٢).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/ ١٢) من حديث ابن زيد. فالحديث معضل لأن عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم من أتباع التابعين.

أبصَرها بعدَ ما أنكحَها إياهُ فوقعتْ في نفسِه فقال سبحانَ اللهِ مقلِّبِ القلوبِ، وسمعتْ زينبُ بالتسبيحةِ فذكرتْ لزيدٍ ففطِنَ لذلك، ووقعَ في نفسِه كراهةُ صُحْبَتِها، فأتى النبيَّ عليه الصلاة والسلام وقال: أريدُ أنْ أفارِقَ صاحِبَتِي، فقال: «مالَكَ؟ أرابَكَ منها شيءٌ؟» فقال: لا واللهِ ما رأيتُ منها إلا خيراً ولكنَّها لشرفها تتعظَّمُ عليَّ، فقال له: «أمسِكْ عليك زوجَك»[١] ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ في أَمْرِها فلا تطلِّقْهَا ضِراراً وتعلُّلاً بتكبُّرِها. ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وهو نكاحُها إنْ طلَّقها أو إرادةَ طلاقِها. ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ تعييرَهم إيَّاك. به. ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ إنْ كان فيه ما يَخْشَى، والواو للحالِ، وليستِ المعاتبةُ على الإخفاءِ وحْدَه فإنه حَسَنٌ بل على الإخفاءِ مخافةَ قَالَةِ الناس وإظهارِ ما ينافي إضمارَه، فإن الأَوْلَى في أمثال ذلك أنْ يصمُتَ أو يفوِّضَ الأمرَ إلى ربِّه. ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ حاجةً بحيثُ ملَّها ولم يبقَ له فيها حاجةٌ وطلَّقها وانقضتْ عدَّتُها. ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وقيل قضاءُ الوطرِ كنايةٌ عن الطلاقِ مثْلَ لا حاجةَ لي فيك. وقرىء زَوَّجْتَكَها، والمعنى أنه أُمِرَ بتزويجها منه أو جعلَها زوجَتَهُ بلا واسطةِ عقدٍ. ويؤيدُه أنها كانت تقولُ لسائر نساءِ النبيِّ ﷺ: إنَّ اللهَ تعالى تولَّى إنكاحي وأنتنَّ زوَّجكُنَّ أولياؤُكن[٢]. وقيل كان زيدٌ السفيرَ في خُطْبَتِها وذلك ابتلاءٌ عظيم وشاهِدٌ بيِّنٌ على قوةِ إيمانه. ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ علَّةٌ للتزويج، وهو دليلٌ على أنَّ حكمه وحكْمَ الأمَةِ واحدةٌ إلا ما خصَّه الدليلُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أمرهُ الذي يريدُه ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوناً لا محالةَ كما كانَ تزويجُ زينبَ.

(٣٨) ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ قَسَمَ له وقدَّر من قولهم فرضَ له في الديوان، ومنه فروضُ العسكرِ لأرزاقِهم. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ سنَّ ذلك سُنَّةً. ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياء، وهو نفيُ الحرجِ عنهم فيما أباحَ لهم. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ قضاء مقضياً وحكماً مبتوتاً.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٤ رقم ٢٢٤) «ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرج الطبري ـ في «جامع البيان» (١٠،٢/ ج٢٢/ ١٣) ـ معناه من رواية عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم» هـ.
وهو حديث معضل لأن ابن زيد من أتباع التابعين. بالإضافة أن ابن زيد ضعيف.
● وأخرج ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٠١ ـ ١٠٢) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣ ـ ٢٤) من رواية الواقدي عن عبدالله بن عامر الأسلمي، عن محمد بن يحيى بن حبان نحوه.
وهو حديث مرسل لأن محمد بن يحيى من صغار التابعين، بالإضافة إلى ضعف الواقدي.
والخلاصة أن الحديث باطل سنداً ومتناً.
فكيف يجوز أن يستند إلى مثل هذين الإسنادين الهالكين في إثبات خبر فيه نيل من عصمة المعصوم ﷺ.
● وقال الأستاذ سيد قطب بعدما فسر الآية على تأويلها الصحيح: «وفي هذا ما يهدينا إلى كل الروايات التي رويت عن هذا الحادث، والتي تشبث بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات» هـ. «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٨٦٩).
وانظر كلام الأستاذ محمد الغزالي في فقه السيرة ص٤٣٩ ـ ٤٤١، فقد أجاد وأفاد ولولا ملال الطول لنقلته لك.
وانظر كلام ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٢٤) عن الآثار التي لا ينبغي التشاغل بها.
(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤ رقم ٧٤٢٠) من حديث أنس.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟
ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

(٣٩) ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ للذين خَلَوْا أو مدحٌ لهم منصوبٌ أو مرفوعٌ، وقرىء رسالة الله. ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ تعريضٌ بعد تصريح. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوفِ أو محاسباً فينبغي أن لا يُخْشَى إلا منه.

(٤٠) ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ على الحقيقة فيثبتُ بينَه وبينَه ما بَيْنَ الوالدِ وولدِه من حُرْمَةِ المصاهرةِ وغيرِها، ولا ينتقضُ عمومُه بكونه أباً للطاهرِ والقاسمِ وإبراهيمَ لأنهم لم يبلُغوا مَبْلَغَ الرجالِ ولو بلغوا كانوا رجالَه لا رجالَهم. ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكلُّ رسولٍ أبو أُمَّته لا مطلقاً بل منْ حيثُ إنه شفيقٌ ناصحٌ لهم، واجبُ التوقير والطاعة عليهم وزيدٌ منهم ليس بينه وبينه ولادةٌ. وقرىء رسولُ اللهِ بالرفع على أنه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، ولكنَّ بالتشديد على حذفِ الخبر أي ولكنَّ رسولَ الله مَنْ عرفتُم أنه لم يعِشْ له ولدٌ ذكرٌ. ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ وآخِرَهم الذي ختمَهُم أو خُتِمُوا به على قراءةِ عاصم بالفتح، ولو كان له ابنٌ بالغ لاقَ بمنصِبه أنْ يكونَ نبياً كما قال عليه الصلاة والسلام في إبراهيمَ حين تُوُفِّيَ: «لو عاشَ لكان نبياً»[1] ولا يقدحُ فيه نزولُ عيسى بعدَه لأنه إذا نزل كان على دينه، مع أنَّ المرادَ منه أنه آخِرُ مَنْ نُبِّىءَ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلمُ مَنْ يليق بأنْ يَخْتِمَ به النبوَّةَ وكيفَ ينبغي شأنُه.

(٤١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يغلبُ الأوقاتَ ويعمُّ الأنواعَ بما هو أهلُه من التقديسِ والتحميدِ والتهليل والتمجيد.

(٤٢) ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أولَ النهارِ وآخِرَهُ خصوصاً، وتخصيصُهما بالذِّكْرِ للدلالة على فَضْلِهما على سائر الأوقاتِ لكونهما مشهودَيْنِ كإفرادِ التسبيح من جملة الأذكار لأنه العمدةُ فيها. وقيل الفعلانِ موجَّهانِ إليهما. وقيل المراد بالتسبيح الصلاةُ.

(٤٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ بالرحمة. ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ بالاستغفارِ لكم والاهتمام بما يُصْلِحُكم، والمراد بالصلاة المشتركُ وهو العناية بصلاحِ أمرِكم وظهورِ شرفِكم مستعارٌ من الصَّلْوِ. وقيل الترحُّم والانعطافُ المعنوي مأخوذٌ من الصلاةِ المشتَمِلَةِ على الانعطافِ الصُّوري الذي هو الركوعُ والسجود،

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١/ ٤٨٤ رقم ١٥١١) من حديث ابن عباس.
وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٢٦٩ رقم ٥٤٥) «هذا إسناد ضعيف لضعف إبراهيم بن عثمان أبي شيبة» هـ.
● وأخرج البخاري (١٠/ ٥٧٧ رقم ٦١٩٤) وابن ماجة (١/ ٤٨٤ رقم ١٥١٠) من حديث ابن أبي أوفى.
ولو قضَى أن يكونَ بعدَ محمد ﷺ نبيٌّ عاشَ ابنهُ ولكن لا نبيَّ بعدَه».

واستغفارُ الملائكة ودعاؤُهم للمؤمنين ترحُّمٌ عليهم سيَّما وهو السببُ للرحمة من حيثُ إنهم مجابو الدعوةِ. ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلماتِ الكفر والمعصيةِ إلى نورِ الإيمان والطاعةِ. ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيثُ اعتنى بصلاحِ أمرِهم وإنافةِ قَدْرِهم واستعملَ في ذلك ملائكتَهُ المقرَّبينَ.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

(٤٤) ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدرِ إلى المفعول أو يحيُّونَ. ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يومَ لقائِه عند الموت أو الخروج من القبور، أو دخولِ الجنة. ﴿سَلَٰمٌ﴾ إخبارٌ بالسلامة عن كلِّ مكروه وآفةٍ. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هي الجنة، ولعلَّ اختلافَ النَّظْمِ لمحافظة الفواصلِ والمبالغة فيما هو أهمُّ.

(٤٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَنْ بُعِثْتَ إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتِهم وضلالهم، وهو حال مقدَّرةٌ. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

(٤٦) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى الإقرار به وبتوحيدِه وما يجبُ الإيمانُ به من صفاته. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتيسيرِه وأُطْلِقَ له من حيثُ أنه من أسبابه وقيِّد به الدعوةَ إيذاناً بأنه أمرٌ صعبٌ لا يتأتَّى إلا بمعونةٍ من جَنابِ قُدْسِه. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يُسْتَضاءُ به عن ظلماتِ الجهالاتِ ويُقْتَبَسُ من نوره أنوارُ البصائرِ.

(٤٧) ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على سائر الأُمَمِ أو على جزاءِ أعمالهم، ولعله معطوفٌ على محذوفٍ مثلُ فراقِبْ أحوالَ أُمَّتِكَ.

(٤٨) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تهييجٌ له على ما هو عليه من مخالفتِهم. ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ إيذاءَهم إياكَ ولا تحتفلْ به، أو إيذاءَكَ إيَّاهم مجازاةً أو مؤاخذةً على كُفْرِهم، ولذلك قيل إنه منسوخٌ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه يكفيكَهُمْ. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمرُ في الأحوالِ كلِّها، ولعلَّه سبحانه وتعالى لما وَصَفَهُ بخمسِ صفاتٍ قابلَ كلاً منها بخطابٍ يناسِبُهُ، فحذفَ مقابلَ الشاهدِ وهو الأمرُ بالمراقبةِ لأن ما بعدَه كالتفصيلِ له، وقابلَ المبشِّرَ بالأمر ببشارةِ المؤمنينَ والنذيرِ بالنهي عن مراقبةِ الكفار، والمبالاةِ بأذاهم، والداعي إلى الله بتيسيره بالأمرِ بالتوكُّلِ عليه، والسراجِ المنيرِ بالاكتفاء به فإنَّ مَنْ أناره اللهُ برهاناً على جميع خلقِه كان حقيقاً بأنْ يُكتَفَى به عن غيرِه.

(٤٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامِعُوهنَّ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بألفٍ وضمِّ التاءِ. ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ أيام يتربَّصْنَ فيها بأنفسِهنَّ. ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ تَسْتَوْفُونَ عَدَدَها من عَدَدْتُ الدراهمَ فاعتدَّها كقولك: كِلْتُهُ فاكْتالَهُ، أو تعدُّونَها. والإسنادُ إلى الرجالِ للدلالة

على أنَّ العدَّة حقُّ الأزواجِ كما أشعرَ به فما لكم، وعن ابن كثير تعتدُّونها مجففاً على إبدالِ إحدى الدالين بالياءِ أو على أنه مِنَ الاعتداءِ بمعنى تعتدُّون فيها، وظاهره يقتضي عدمَ وجوبِ العدَّةِ بمجرَّدِ الخلْوةِ وتخصيصِ المؤمناتِ. والحكْمُ عامٌّ للتنبيه على أنَّ من شأنِ المؤمن أنْ لا ينكِحَ إلا مؤمنةً تخييراً لنطفتِه، وفائدةُ ثمَّ إزاحةُ ما عَسَى أنْ يُتَوَهَّمَ تراخي الطلاقِ ريثَما تمكنُ الإصابةُ كما يؤثر في النسبِ يؤثر في العدَّةِ. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي إنْ لم يكن مفروضاً لها فإن الواجبَ للمفروضِ لها نصفُ المفروضِ دون المتعةِ ويجوز أنْ يُؤَوَّلَ التمتيعُ بما يعمُّهما، أو الأمرُ بالمشتركِ بين الوجوب والندبِ فإنَّ المتعةَ سُنَّةٌ للمفروض لها. ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أخرجوهنَّ من منازِلكم إذ ليس لكم عليهنَّ عدَّةٌ. ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضِرَارٍ ولا منعِ حقٍّ، ولا يجوزُ تفسيرُه بالطلاقِ السُّني لأنه مرتَّبٌ على الطلاقِ، والضمير لغيرِ المدخول بهنَّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾

(٥٠) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورَهنَّ لأنَّ المهرَ أَجْرٌ على البِضعِ، وتقييدُ الإحلال له بإعطائها معجَّلةً لا لتوقُّفِ الحِلِّ عليه بل لإيثارِ الأفضلِ له كتقييدِ إحلال المملوكةِ بكونها مسبيةً بقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فإنَّ المشتراةَ لا يتحققُ بَدْءُ أمرِها وما جَرَى عليها، وتقييدُ القرائبِ بكونها مهاجراتٍ معه في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ ويُحتَمَلُ تقييدُ الحِلِّ بذلك في حقِّه خاصَّة ويعضِّدُه قولُ أمِّ هانىءٍ بنتِ أبي طالب: خَطَبني رسولُ الله ﷺ فاعتذرْتُ إليه فعذَرَني، ثم أنزلَ الله هذه الآيةَ فلم أَحُلَّ له لأني لم أهاجرْ معه، كنتُ من الطُّلَقَاءِ[1]. ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ نُصِبَ بفعلٍ يفسِّره ما قبلَه أو عطفٌ على ما سبقَ، ولا يدفعُه التقييدُ بأنَّ التي للاستقبالِ فإنَّ المعنى بالإحلالِ والإعلام بالحِلِّ أي: أعلمْنَاك حِلَّ امرأةٍ مؤمنةٍ تهبُ لك نفسَها ولا تطلُبُ مهراً إنِ اتفقَ ولذلك نكَّرها. واخْتُلِفَ في اتفاق

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥٥ رقم ٣٢١٤) والحاكم (٢/ ٤٢٠ و٤/ ٥٣) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٠٥ ـ ٤١٦ رقم ٩٨٥) و(٢٤/ ٤١٣ رقم ١٠٠٧) وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ج٢٢/ ٢٠ ـ ٢١). كلهم من رواية السدي عن أبي صالح عن أم هانىء. قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٤٣ رقم ١٠٠٥) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هانىء.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٦ رقم ١٠٦٧) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن أم هانىء. وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٧١): «رجاله ثقات».

ذلك، والقائلُ به ذَكَرَ أربعاً: ميمونةَ بنتَ الحارث، وزينبَ بنتَ خزيمةَ الأنصارية، وأمَّ شريك بنتَ جابر، وخولةَ بنتَ حكيم. وقُرِىءَ أنْ بالفتح أي لأَنْ وهبتْ أو مدَّةَ أن وهبت كقولك: اجلسْ ما دامَ زيدٌ جالساً. ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ شرطٌ للشرطِ الأول في استيجابِ الحِلِّ فإن هِبَتَهَا نفسَها منه لا توجبُ له حِلَّها إلا بإرادتِهِ نِكاحَها، فإنها جاريةٌ مجرى القبولِ. والعدولُ عن الخطابِ إلى الغيبةِ بلفظ النبيِّ ﷺ مكرَّراً، ثم الرجوعُ إليه في قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إيذانٌ بأنه مما خُصَّ به لشرفِ نبوَّته وتقريرٌ لاستحقاقِ الكرامة لأَجْلِهِ. واحتجَّ به أصحابُنا على أنَّ النكاحَ لا ينعقدُ بلفظِ الهِبَةِ لأنَّ اللفظَ تابعٌ للمعنى وقد خُصَّ عليه الصلاةُ والسلام بالمعنى فيختصُّ باللفظِ، والاستنكاحُ طلبُ النكاحِ والرغبةُ فيه، وخالِصةً مصدرٌ مؤكِّدٌ أي خَلُصَ إحلالُها أو إحلالُ ما أحْلَلْنا لك على القيود المذكورةِ خُلُوصاً لك، أو حالٌ من الضمير في وَهَبَتْ أو صفةٌ لمصدر محذوفٍ أي هبةً خالصةً. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ من شرائطِ العقدِ ووجوبِ القَسَم والمهرِ بالوطءِ حيثُ لم يُسَمَّ. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من توسيع الأمر فيها أنه كيف ينبغي أنْ يفرضَ عليهم، والجملةُ اعتراضٌ بين قوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ومتعلِّقَةٌ وهو خالصةٌ للدلالة على أنَّ الفرقَ بينه وبين المؤمنينَ في نحو ذلك لا لمجرَّدِ قَصْدِ التوسيع عليه، بل لمعانٍ تقتضي التوسيعَ عليه والتضييقَ عليهم تارةً وبالعكسِ أُخرَى. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسُرُ التحرزُ عنه. ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتوسعَةِ في مظانِّ الحَرَجِ.

۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ تؤخِّرها وتتركُ مضاجَعتَهَا. ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ وتضمُّ إليك مَنْ تشاءُ وتضاجِعُها، أو تطلِّقُ مَنْ تشاء وتمسِكُ مَنْ تشاء. وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي وحفصٌ ترجي بالياءِ والمعنى واحدٌ. ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ طلبْتَ. ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ طلَّقْتَ بالرَّجْعَةِ. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيءٍ مِنْ ذلك. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ذلك التفويضُ إلى مشيئتكَ أقربُ إلى قرَّةِ عيونهنَّ وقِلَّةِ حُزْنِهِنَّ ورضاهنَّ جميعاً، لأنَّ حكْمَ كلِّهنَّ فيه سواءٌ، ثمَّ إنْ سوَّيْتَ بينهنَّ وجدْنَ ذلك تفضُّلاً منك وإنْ رجَّحْتَ بعضَهنَّ عَلِمْنَ أنه بحكم الله تعالى فتطمئنُّ به نفوسُهم. وقرىء تُقِرَّ بضمِّ التاء وأعينَهُنَّ بالنصب، وتُقَرَّ بالبناء للمفعول، وكلُّهنَّ تأكيدُ نونِ يرضَيْنَ، وقرىء بالنصب تأكيداً لهنَّ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فاجتهدوا في إحسانه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذاتِ الصدور. ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجِلُ بالعقوبة فهو حقيقٌ بأنْ يُتَّقَى.

(٥٢) ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ بالياء لأنَّ تأنيثَ الجمع غيرُ حقيقيٍّ، وقرأ البصريانِ بالتاء. ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعدِ التسعِ وهو في حقِّه كالأربعِ في حقِّنا، أو من بعدِ اليوم حتى لو ماتتْ واحدةٌ لم يحلَّ له نكاحُ أُخرى. ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ فتطلِّقُ واحدةً وتنكِحُ مكانَها أُخرى ومِنْ مزيدةٌ لتأكيدِ الاستغراقِ. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ حسنُ الأزواجِ المستبدلَةِ، وهو حالٌ من فاعلِ تَبَدَّلَ دونَ مفعوله وهو من

أزواجٍ لتوغُّلِه في التنكير، وتقديرُه مفروضاً إعجابَك بهنَّ. واخْتُلِفَ في أنَّ الآيةَ محكَمةٌ أو منسوخةٌ بقوله ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾(١) على المعنى الثاني فإنه وإنْ تقدَّمها قراءةً فهو مسبوقٌ بها نزولاً. وقيل المعنى لا يحلُّ لك النساءُ من بعدِ الأجناسِ الأربعةِ اللاتي نصَّ على إحلالهنَّ لك ولا أنْ تَبَدَّلَ بهنَّ أزواجاً من أجناس أُخرَ. ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ استثناءٌ من النساءِ لأنه يتناولُ الأزواجَ والإماءَ، وقيل منقطِعٌ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ فتحفَّظوا أمْرَكم ولا تتخطَّوْا ما حدَّ لكم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

(٥٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ إلا وقْتَ أنْ يُؤْذَنَ لكم، أو إلاَّ مأذوناً لكم. ﴿ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾ متعلِّقٌ بيؤْذَنَ لأنه متضمِّنٌ معنى يُدْعَى للإشعار بأنه لا يحسنُ الدخولُ على الطعام من غير دعوةٍ وإنْ أَذِنَ كما أشْعَرَ به قولُه: ﴿ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ غيرَ منتظرين وقْتَهُ، أو إدراكَه حالٌ من فاعل لا تدخلُوا أو المجرورِ في لكم. وقُرِىءَ بالجرِّ صفةٌ لطعام فيكون جارياً على غيرِ مَنْ هولَهُ بلا إبراز الضمير، وهو غيرُ جائزٍ عند البصريينَ وقد أمالَ حمزةُ والكسائيُّ إناهُ لأنه مصدرُ أَنَىٰ الطعامُ إذا أَدْرَكَ. ﴿ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ ﴾ تفرَّقوا ولا تمكثُوا، ولأنه خطابٌ لقوم كانوا يتحيَّنونَ طعامَ رسولِ الله ﷺ فيدخلُونَ ويقعدُونَ منتظرِينَ لإدراكِه، مخصوصةٌ بهم وبأمثالِهم وإلا لما جازَ لأَحدٍ أنْ يدخل بيوتَه بالإذْنِ لغيرِ الطعامِ ولا اللُّبْثِ بعدَ الطعامِ لهم. ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ لحديثِ بعضِكم بعضاً، أو لحديثِ أهلِ البيتِ بالتسمُّع له، عطفٌ على ناظرِيْنَ أو مقدَّرٌ بفعلٍ أي: ولا تدخلوا أو ولا تمكثُوا مستأنِسينَ. ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ اللُّبْثَ. ﴿ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ ﴾ لتضييقِ المنزلِ عليه وعلى أهلِه وإشغالِه بما لا يَعْنيه. ﴿ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ من إخراجِكم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ يعني أنَّ إخراجَكم حقٌّ فينبغي أنْ لا يُتْرَكَ حياءً كما لم يتركْه اللهُ تركَ الحييِّ فأَمَرَكُم بالخروج، وقرىء لا يستحِي بحذفِ الياءِ الأُولَى وإلقاءِ حركَتِها على الحاءِ. ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا ﴾ شيئاً يُنْتفَعُ به. ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ ﴾ المتاعَ. ﴿ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ سِتْرٍ. روي أن عمرَ رضيَ الله عنه قال: «يا رسولَ الله يدخلُ عليك البَرُّ والفاجرُ فلو أمرتَ أمهاتِ المؤمنينَ بالحجاب؟ فنزلتْ»(٢). وقيل نه عليه الصلاة والسلام كان يُطْعَمُ ومعه بعضُ أصحابه، فأصابتْ يدُ رجلٍ يدَ عائشةَ رضيَ الله عنها فكرِهَ النبيُّ ﷺ ذلك

(١) الأحزاب: «٥١».

(٢) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٤٣٨) من رواية أنس عن عمر رضي الله عنه: وقد أخرجه البخاري في سياق (وافقت ربي في ثلاث) انظر (١/ ٥٠٤ رقم ٤٠٢) و(٨/ ١٦٨ رقم ٤٤٨٣) و(٨/ ٥٢٧ رقم ٤٧٩٠).

فنزلتْ[١]. ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر النفسانيةِ الشيطانيةِ. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ وما صحَّ لكم. ﴿أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أنْ تفعلُوا ما يكرَهُهُ. ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ من بعدِ وفاته أو فراقِه، وخصَّ التي لم يدخلْ بها، لما روي أنَّ أشعثَ بنَ قيسٍ تزوجَ المستعيذةَ في أيام عمرَ رضيَ الله عنه فهمَّ برجْمِها، فأُخْبِرَ بأنه عليه الصلاة والسلام فارَقَها قبلَ أنْ يمسَّها فتركَها من غير نكيرٍ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ يعني إيذاءَه ونكاحَ نسائِه. ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ذنباً عظيماً، وفيه تعظيمٌ من اللهِ لرسوله وإيجابٌ لحرمتِهِ حيّاً وميّتاً ولذلك بالغَ في الوعيدِ عليه فقال:

إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

(٥٤) ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا﴾ كنكاحِهِنَّ على ألسِنَتِكُم. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلمُ ذلك فيجازيْكُم به، وفي هذا التعميمِ مع البرهانِ على المقصود مزيدُ تهويل ومبالغةٌ في الوعيد.

(٥٥) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ استثناءٌ لمن لا يجبُ الاحتجابُ عنهم. روي أنه لما نزلتْ آيةُ الحجابِ قال الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ: يا رسولَ الله أَوَ نكلِّمُهنَّ أيضاً مِنْ وراء حجاب؟ فنزلتْ[٢]. وإنما لم يُذْكَرِ العمُّ والخال لأنهما بمنزلةِ الوالدين ولذلك سُمِّيَ العمُّ أباً في قوله ﴿وإله ابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾[٣] أو لأنه كرهَ تركَ الاحتجابِ عنهما مخافةَ أنْ يصِفَا لأبنائهما. ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني نساءَ المؤمناتِ. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من العبيد والإماءِ، وقيل من الإماءِ خاصَّةً، وقد مرَّ في سورة النور. ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أُمِرْتُنَّ به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفَى عليه خافيةٌ.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ يعتنونَ بإظهارِ شرفه وتعظيمِ شأنه. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ اعْتَنُوا أنتم أيضاً فإنكم أَوْلَى بذلك وقولُوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ. ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم: ١٠٥٣) والنسائي في تفسيره (رقم: ٤٣٩) والطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٨٣ ـ ٨٤) عن عائشة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٣) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة».
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ج٢٢/ ٣٩) من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد مرسلاً وليث ضعيف.

(٢) انظر «جامع البيان» للطبري (١٢/ ج٢٢/ ٤١ ـ ٤٢).

(٣) الأحزاب: «٥١».

وقولوا السلامُ عليك أيُّها النبيُّ وقيل وانقادوا لأوامرِه، والآيةُ تدلُّ على وجوبِ الصلاةِ والسلام عليه في الجملةِ، وقيل تجبُ الصلاةُ كلَّما جَرَى ذِكرُهُ لقوله عليه الصلاةُ والسلام: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ»[1] وقوله «مَنْ ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ فدخلَ النارَ فأبعده اللهُ»[2]، وتجوزُ الصلاةُ على غيرِه تبعاً، وتُكرَهُ استقلالاً لأنه في العُرْفِ صارَ شِعاراً لِذِكْرِ الرسول ﷺ، ولذلك كُرِهَ أنْ يُقالَ محمدٌ عزَّ وجلَّ وإنْ كان عزيزاً وجليلاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

(٥٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يرتكبونَ ما يكرهانِه من الكُفرِ والمعاصي، أو يؤذونَ رسولَ اللهِ بكسرِ رُبَاعِيَّتِه. وقولُهم شاعرٌ مجنونٌ ونحوُ ذلك، وذِكْرُ اللهِ للتعظيم له. ومَنْ جوَّزَ إطلاقَ اللفظِ على معنيينِ فسَّره بالمعنيينِ باعتبار المعمولَيْنِ. ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبعدَهم من رحمته. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهينُهم مع الإيلام.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بغير جناية استحقُّوا بها الإيذاءَ. ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ظاهراً. قيل إنها نزلتْ في منافقين كانوا يؤذونَ علياً رضيَ الله عنه[3]، وقيل في أهلِ الإفك[4]، وقيل في زُناةٍ كانوا يتَّبِعونَ النساءَ وهُنَّ كارهاتٌ[5].

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ يغطِّينَ وجوهَهُنَّ وأبدانَهُنَّ بملاحِفهِنَّ إذا برزْنَ لحاجةٍ، ومِنْ للتبعيضِ فإنَّ المرأةَ ترخي بعضَ جِلْبَابِها وتتلفَّعُ ببعضٍ و﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ يُمَيَّزْنَ من الإماءِ والقَيْنَاتِ. ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ فلا يؤذِيْهِنَّ أهلُ الريبةِ بالتعرُّضِ لهنَّ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلفَ. ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيثُ يراعي مصالِحَهُم حتى الجزئياتِ منها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/٥٥٠ رقم ٣٥٤٥) وأحمد في المسند (٢/٢٥٤) وابن حبان في «الموارد» (ص٤٩٧ رقم ٢٠٢٨) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث حسن وهو كما قال. وله شاهد من حديث مالك بن الحويرث. أخرجه ابن حبان في «الموارد» (ص٥٩٣ رقم ٢٣٨٦).

(٢) وهو جزء من حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن حبان في «الموارد» (ص٤٩٧ رقم ٢٠٢٨).
وكذلك من حديث مالك بن حويرث الذي أخرجه ابن حبان كما في «الموارد» (ص٥٩٣ رقم ٢٣٨٦).

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٢) عن مقاتل بدون سند.

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/٣٧٦).

(٥) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٢) عنهما بدون سند.

۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا
يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ
وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا
يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾

(٦٠) ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم. ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفُ إيمانٍ وقِلَّةُ ثباتٍ عليه، أو فجورٍ عن تَزَلْزُلِهم في الدين أو فجورِهم. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يرجفونَ أخبارَ السوءِ عن سرايا المسلمينَ ونحوِها من إرجافِهم، وأصلُه التحريكُ من الرجفةِ وهي الزلزلةُ سُمِّيَ به الإخبارُ الكاذبُ لكونه متزلزلاً غيرَ ثابتٍ. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنَّك بقتالهم وإجلائِهم، أو ما يَضْطَرُّهم إلى طلبِ الجلاءِ. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطفٌ على لنغرينَّك، وثمَّ للدلالةِ على أنَّ الجلاءَ ومفارقةَ جوارِ الرسولِ أعظمُ ما يصيبُهم. ﴿فِيهَآ﴾ في المدينة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً أو جواراً قليلاً.

(٦١) ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ نُصِبَ على الشَّتْم أو الحالِ، والاستثناءُ شاملٌ له أيضاً أي: لا يجاوِرُونك إلا ملعونينَ، ولا يجوزُ أنْ يُنْصَبَ عن قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ لأنَّ ما بعدَ كلمةِ الشرطِ لا يعملُ فيما قبلَها.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ﴾ مصدرٌ مؤكِّد أي سنَّ الله ذلك في الأممِ الماضيةِ، وهو أنْ يَقْتُلَ الذين نافقوا الأنبياءَ وسَعَوْا في وَهْنِهم بالإرجافِ ونحوه أينما ثُقِفُوا. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأنه لا يبدِّلها ولا يقدرُ أحدٌ أنْ يبدِّلَها.

(٦٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ﴾ عن وقْتِ قيامِها استهزاءً وتعنُّتاً أو امتحاناً. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ لم يُطْلِعْ عليه مَلَكاً ولا نبياً. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ شيئاً قريباً أو تكونُ الساعةُ عن قريبٍ، وانتصابُه على الظرفِ، ويجوزُ أنْ يكونَ التذكيرُ لأنَّ الساعةَ في معنى اليوم، وفيه تهديدٌ للمستعجِلينَ وإسكاتٌ للمتعنِّتينَ.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدةَ الاتِّقادِ.

(٦٥) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظُهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفعُ العذابَ عنهم.

(٦٦) ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ تُصْرَفُ من جهة إلى جهةٍ كاللحم يُشْوَى بالنار، أو من حالٍ إلى حال، وقرِىءَ تَقَلَّبُ بمعنى تتقلَّب، وتُقَلِّبُ. ومتعلقُ الظرفِ[1]. ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فلن نُبْتَلى بهذا العذابِ.

---

(١) وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أعظم الأعضاء، ففيه مزيد تفظيع للأمر وتهويل للخطب (س٧/ ١١٦).

وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا
كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا
وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾

(٦٧) ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ يعنون قادتَهم الذين لقَّنوهم الكُفْرَ، وقرأ ابنُ عامر ويعقوبُ ساداتِنا على جمعِ الجمعِ للدلالة على الكَثْرةِ. ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بما زيَّنوا لنا.

(٦٨) ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ مِثْلَيْ ما آتيتنا منه لأنَّهم ضلُّوا وأضلُّوا. ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ كثيرَ العددِ، وقرأ عاصمٌ بالباء أي لعناً هو أشدُّ اللَّعنِ وأعظمُهُ.

(٦٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ فأظهر براءَتَهُ من مقُولهم يعني مؤدَّاهُ ومضمونَه، وذلك أنَّ قارونَ حرَّضَ امرأةً على قذْفِهِ بنفسِها فعصمَه الله كما مرَّ في القصصِ، أو اتَّهمه ناسٌ بِقَتْلِ هُرونَ لما خرجَ معه إلى الطور فماتَ هناك، فحملتْه الملائكةُ ومرُّوا به حتَّى رأَوْهُ غيرَ مقتولٍ. وقيل أحياه اللهُ فأخبَرَهُم ببراءتِه، أو قذفوه بعيبٍ في بدنِه من بَرَصٍ أو أَدَرَةٍ لفرْطِ تستُّره حياءً فأطْلَعَهُم الله على أنه بريءٌ منه. ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ ذا قُربةٍ وَوَجاهةٍ، وقُرِيءَ وكان عبدُ الله وجيهاً.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهُه فضلاً عما يؤذي رسولَه. ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ قاصداً إلى الحقِّ من سدَّ يسدُّ سَداداً، والمرادُ النهيُ عن ضِدِّه كحديث زينبَ من غير قصْدٍ.

(٧١) ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يوفِّقكُم للأعمال الصالحة، أو يصلِحُها بالقبولِ والإثابةِ عليها. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ ويجعلُها مكفَّرةً باستقامتكم في القولِ والعملِ. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامرِ والنواهي. ﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ يعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً.

(٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ تقريرٌ للوعدِ السابق بتعظيمِ الطاعةِ، وسمَّاها أمانةً من حيثُ إنها واجبةُ الأداءِ، والمعنى أنها لعظمةِ شأنِها بحيثُ لو عُرِضَتْ على هذه الأجرام العِظامِ وكانتْ ذاتَ شعورٍ وإدراكٍ لأَبَيْنَ أنْ يحملْنَها، وأشفقْنَ منها وحملها الإنسانُ مع ضعْفِ بُنْيَتِهِ ورخاوةِ قوتِه، لا جَرمَ فإنَّ الراعيَ لها والقائمَ بحقوقها بخيرِ الدارين. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا﴾ حيثُ لم يفِ بها ولم يراعِ حقَّها. ﴿جَهُولٗا﴾ بِكُنْهِ عاقِبتها، وهذا وصفٌ للجنسِ باعتبار الأغلبِ. وقيل المرادُ بالأمانةِ الطاعةُ التي تعمُّ الطبيعيةَ والاختياريةَ، وبعرضِها استدعاؤُها الذي يعمُّ طلبَ الفعلِ من المختارِ وإرادةَ صدوره من غيره، وبِحَمْلِها الخيانةَ فيها والامتناعَ عن أدائِها، ومنه قولُهم حاملُ الأمانة ومحتمِلُها لمن لا يؤدِّيها فتبرأ ذمَّتُهُ، فيكونُ الإباءُ عنه إتياناً بما يمكنُ أنْ يتأتَّى منه، والظلمُ والجهالةُ الخيانةُ والتقصير. وقيل إنه تعالى لما خلقَ هذه الأجرامَ خلقَ فيها فهماً وقال

لها: إني فرضتُ فريضةً وخلقتُ جنةً لمن أطاعني فيها، وناراً لمن عصاني، فقلْنَ نحنُ مسخَّراتٌ على ما خلقْتَنا لا نحتملُ فريضةً ولا نبتغي ثواباً ولا عقاباً، ولما خلقَ آدمَ عرضَ عليه مثلَ ذلك فحملَه، وكان ظلوماً لنفسِه بتحمُّله ما يشقُّ عليها جهولاً بوخامةِ عاقبتِه، ولعلَّ المرادَ بالأمانةِ العقلُ أوِ التكليفُ، وبعرضِها عليهنَّ اعتبارُها بالإضافة إلى استعدادهنَّ، وبإبائهنَّ الإباءَ الطبيعيَّ الذي هو عدمُ اللياقةِ والاستعدادِ، وبحمْلِ الإنسانِ قابليَّته واستعداده لها وكونَه ظلوماً جهولاً لما غُلِبَ عليه من القوةِ الغضبية والشَّهويَّةِ، وعلى هذا يحسنُ أنْ يكونَ علةً للحمْلِ عليه فإنَّ من فوائدِ العقلِ أنْ يكونَ مهيمناً على القوتينِ حافظاً لهما عن التعدِّي ومجاوزةِ الحدِّ، ومعظمُ مقصودِ التكليفِ تعديلُهما وكسْرُ سَوْرَتِهما.

(٧٣) ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ تعليلٌ للحمْلِ من حيثُ إنه نتيجتُه كالتأديبِ للضربِ في ضربته تأديباً، وذِكْرُ التوبةِ في الوعْدِ إشعارٌ بأنهم كونُهم ظلوماً جهولاً في جِبِلَّتِهم لا يخلِّيهم عن فرطاتٍ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ حيثُ تابَ عن فرطاتِهم وأثابَ بالفوز على طاعاتِهم. قال عليه الصلاةُ والسلام «مَنْ قرأ سورةَ الأحزابِ وعلَّمها أهله أو ما ملكتْ يمينُه أُعطِيَ الأمانَ من عذابِ القبرِ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.
وانظر آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ سَبَإٍ

ترتيبها ٣٤ — آياتها ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

سورةُ سبأ مكيةٌ

وقيلَ إلا قولَه: «ويرى الذين أوتو العلم» الآيةَ، وآيُها أربعُ وخمسونَ آيةً[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **خلقاً ونعمةً، فله الحمدُ في الدنيا لكمالِ قدرته وغلى تمام نعمتِه.** ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ **لأنَّ ما في الآخرة أيضاً كذلك، وليس هذا من عطفِ المقيَّدِ على المطلقِ فإنَّ الوصْفَ بما يدلُّ على أنه المنعِمُ بالنِّعمِ الدنيوية قيَّد الحمدَ بها، وتقديمُ الصلةِ للاختصاصِ فإنَّ النِّعمَ الدنيويةَ قد تكون بواسطةِ مَنْ يستحقُّ الحمدَ لأجلِها ولا كذلك نعمُ الآخرةِ.** ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ **الذي أحْكَم أمورَ الداريْنِ.** ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ **ببواطنِ الأشياءِ.**

(٢) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **كالغيثِ ينفذُ في موضِعٍ وينبعُ في آخرَ، وكالكُنوزِ والدفائنِ والأمواتِ.**

---

(١) قال الضحاك وابن السائب، ومقاتل: فيها آية مدنية. وهي قوله «ويرى الذين أوتوا العلم» [سبأ: ٦] ـ كما في «زاد المسير» (٦/ ٤٣١) ـ.
وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٣): «أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة سبأ بمكة.
وأخرج ابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال: سورة سبأ مكية.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات والفِلِزَّاتِ وماءِ العيون. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقاديرِ والأرزاقِ والأنداءِ والصواعقِ. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمالِ العباد والأَبْخِرَةِ والأدخنةِ. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرِّطينَ في شكر نعمتِه مع كَثْرتِها، أو في الآخرة مع مالَهُ من سوابقِ هذه النِّعمِ الفائتة للحصْر.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ إنكارٌ لمجيئها أو استبطاءٌ استهزاءً بالوعد به. ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لما نَفَوْهُ. ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ تكريرٌ لإيجابه مؤكَّداً بالقسَم مقرِّراً لوصْفِ المقسَم به بصفاتٍ تقرِّرُ إمكانَه وتنفي استبعادَه على ما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ علَّام الغيبِ للمبالغةِ، ونافعٌ وابن عمر ورويسٌ عالمُ الغيبِ بالرفع على أنه خبرٌ محذوفٌ أو مبتدأٌ خبرهُ. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقرأ الكسائيُّ لا يعزِبُ بالكسْرِ. ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ لنفي العزوبِ، ورفعُهما بالابتداءِ، ويؤيدُه القراءةُ بالفتح على نفي الجنس، ولا يجوز عطفُ المرفوع على مثقال والمفتوحِ على ذَرةٍ بأنه فتحَ في موضعِ الجرِّ لامتناع الصرفِ لأنَّ الاستثناءَ بمنعه، اللَّهمَّ إلا إذا جُعِلَ الضميرُ في عنهُ للغيبِ وجُعِلَ المثْبَتُ في اللوحِ خارجاً عنه لظهورِه على المطالِعينَ له فيكونُ المعنَى لا ينفصلُ عن الغيبِ شيءٌ إلا مسطوراً في اللوحِ.

لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

(٤) ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عِلَّةٌ لقوله لتأتينَّكم وبيانٌ لما يقتضي إتيانَها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعبٌ فيه ولا منٌّ عليه.

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بإبطال وتزهيدِ الناس فيها. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقينَ كي يفوتُونا. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو معجزينَ أي مثبِّطينَ عن الإيمان مَنْ أرادَهُ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من سَيِّءِ العذابِ. ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ، ورفعَهُ ابن كثير ويعقوبُ وحفصٌ.

(٦) ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ ويعلمُ أولو العلم من الصحابةِ ومَنْ شايَعَهُم من الأُمَّةِ، أو من مسلمي أهلِ الكتاب. ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآنُ. ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ ومَنْ رَفَعَ الحقَّ جعلَ هو مبتدأً والحقُّ خبرَهُ، والجملةُ ثاني مفعولي يَرَى، وهو مرفوع مستأنَفٌ للاستشهادِ بأولي العلم على الجهَلَةِ الساعينَ في الآياتِ. وقيل منصوبٌ معطوفٌ على ليجزيَ أي وليعْلَمَ أولو العلم عند مجيءِ الساعة أنه الحقُّ عياناً كما علموه الآنَ برهاناً ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيدُ والتدرُّع بلباسِ التقوى.

(٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال بعضُهم لبعض. ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنُونَ محمداً عليه الصلاةُ والسلام. ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يحدِّثُكُم بأعجبِ الأعاجيبِ. ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إنكم

تَنْشَؤُوْنَ خلقاً جديداً بعدَ أنْ تُمَزَّقَ أجسادُكم كلَّ تمزيقٍ وتفريقٍ بحيث تصيرُ تراباً[(١)]. وتقديمُ الظرف للدلالة على البعدِ والمبالغة فيه، وعاملُه محذوفٌ دلَّ عليه ما بعدَه فإنَّ ما قبلَه لم يقارِنْهُ وما بعدَه مضافٌ إليه، أو محجوبٌ بينه وبينَه بإنَّ، وممزَّقٌ يُحتَمَلُ أنْ يكونَ مكاناً بمعنى إذا مُزِّقْتُم وذهبتْ بكم السيولُ كلَّ مذهبٍ وطُرِحْتُم كلَّ مطرحٍ، وجديدٌ بمعنى فاعلٍ من جدَّ كحديدٍ من حدَّ؛ وقيل بمعنى مفعولٍ من جدَّ النساجُ الثوبَ إذا قطعهُ.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جنونٌ يوهمه ذلك ويلقيه على لسانِه، واسْتُدِلَّ بِجَعْلِهِم إياه قسيمَ الافتراءِ غيرَ معتقدِينَ صِدْقَهُ على أنَّ بينَ الصدقِ والكذبِ واسطةً، وهو كلُّ خبرٍ لا يكون عن بصيرةٍ بالمخْبَرِ عنه، وضعفُه بيِّنٌ لأنَّ الافتراءَ أخصُّ من الكذبِ. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ ردٌّ من الله تعالى عليهم ترديدَهم، وإثباتٌ لهم ما هو أفظعُ من القِسْمَيْنِ، وهو الضلالُ البعيدُ عن الصوابِ بحيث لا يُرْجَى الخلاصُ منه وما هو مؤدَّاه من العذابِ، وجَعَلَه رسيلاً له في الوقوعِ ومقدَّماً عليه في اللفظِ للمبالغةِ في استحقاقِهم له، والبعدُ في الأصل صفةُ الضالِّ، ووصفَ الضَّلَالَ به على الإسناد المجازي.

(٩) ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تذكيرٌ بما يعاينُونه مما يدلُّ على كمالِ قدرة الله، وما يُحْتَمَلُ فيه إزاحةٌ لاستحالَتِهم الإحياءَ حتى جعلوهُ افتراءً وهُزُؤاً، وتهديداً عليها. والمعنى أعمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاطَ بجوانبهم من السماءِ والأرضِ ولم يتفكَّروا أهمْ أشدُّ خلقاً أم السماءُ، وإنا إنْ نشأْ نخسفْ بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً، لتكذيبِهم بالآياتِ بعدَ ظهور البيناتِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ يشأْ ويخسفْ ويسقطْ بالياءِ لقوله أَفْتَرى على اللهِ، والكسائيُّ وحْدَه بإدغام الفاءِ في الباءِ، وحفصٌ كِسَفاً بالتحريكِ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النظرِ والتفكُّرِ فيهما وما يدلانِ عليه. ﴿لَءَايَةً﴾ لدلالةٍ. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجعٍ إلى ربه فإنه يكون كثيرَ التأمُّل في أمرِه.

(١٠) ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي على سائرِ الأنبياءِ وهو ما ذُكِرَ بعدُ، أو على سائرِ الناسِ فيندرجُ فيه النبوَّةُ والكتابُ والملك والصوتُ الحسنُ[(٢)]. ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ رجِّعي معه التسبيحَ أو

(١) أتىٰ بالجملة الاسمية حيثُ عدل عن الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو تخلقون خلقاً جديداً وذلك للإشباع في الاستبعاد والتعجب (س٧/ ١٢٣).

(٢) تنكير كلمة «فضلاً» للتفخيم.

وقوله «منّا» لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية، وتقديمه على المفعول الصريح وهو «فضلاً» وذلك للاهتمام =

النوحةَ على الذَّنْبِ، وذلك إما بخلقِ صوتٍ مِثْلَ صوتِه فيها أو بحملِها إياه على التسبيحِ إذا تأمَّلَ ما فيها أو سيري معه حيثُ سارَ. وقرىء أُوْبي من الأَوْبِ أي ارجِعي في التسبيح كلما رجعَ فيه، وهو بدلٌ من فضلاً أو من آتينا بإضمارِ قولنا أو قلْنا. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على محلِّ الجبال ويؤيدُه القراءةُ بالرفعِ عطفاً على لفظِها تشبيهاً للحركةِ البنائيةِ العارضةِ بالحركةِ الإعرابيةِ أو على فضلاً، أو مفعولٌ معه لأَوِّبِي، وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ الرفعُ بالعطفِ على ضميره وكان الأصلُ ولقد آتينا داودَ منا فضلاً تأويبَ الجبال والطير، فبدِّل بهذا النظمِ لما فيه من الفخامةِ والدلالة على عِظَمِ شأنه وكبرياءِ سلطانه، حيث جعلَ الجبالَ والطيورَ كالعقلاءِ المناقدينَ لأمرِه في نفاذِ مشيئته فيها. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ جعلْناه في يده كالشمعِ يُصَرِّفه كيف يشاءُ من غيرِ إحماءٍ وطَرْقٍ بإلانَتِه أو بقوتِه.

أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

(١١) ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أمرناه أنِ اعملْ فأنْ مفسِّرةٌ أو مصدريةٌ. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ دروعاً واسعاتٍ، وقرىء صابغاتٍ. وهو أولُ منِ اتَّخذها. ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ وقدِّرْ في نسجِها بحيثُ يتناسبُ حِلَقُها، أو قدِّرْ مساميرَهَا فلا تجعلْها دقاقاً فتقلقُ ولا غلاظاً فتنخرقُ. وَرُدَّ بأنَّ دروعَهُ لم تكن مسمَّرةً ويؤيدُه قولُه ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾. ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ الضميرُ فيه لداودَ وأهلِه. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

(١٢) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي وسخَّرنا له الريحَ. وقرىء الريحُ بالرفعِ أي ولسليمانَ الريحُ مسخَّرةٌ، وقرىء الرياحُ. ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ جريُها بالغداةِ مسيرةَ شهرٍ وبالعشي كذلك، وقرىء غُدْوَتُها ورَوْحَتُها. ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ النحاسَ المذابَ أساله له من معدنِه فنبعَ منه نبوعَ الماء من الينبوعِ، ولذلك سمَّاه عيناً، وكان ذلك باليمن. ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عطفٌ على الريح ومنَ الجنِّ حالٌ مقدَّمةٌ، أو جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومَنْ يعدلْ منهم. ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ عما أمرناه من طاعة سليمانَ. وقرىء يُزَغْ من أزاغه. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذابِ الآخرة.

(١٣) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصورٌ حصينةٌ ومساكنُ شريفةٌ، سمِّيَتْ بها لأنها يُذَبُّ عنها ويُحارَبُ عليها. ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وصوراً هي تماثيلُ للملائكةِ والأنبياءِ على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناسُ فيعبدوا نحوَ عبادتِهم. وحرمةُ التصاوير شرعٌ مجدَّدٌ. روي[1] أنهم عملُوا له أسدينِ في أسفلِ كرسيِّه ونَسْرَيْنِ فوقَه، فإذا أراد أن يصعدَ بسطَ الأسدانِ له ذراعيهما وإذا قعدَ أظلَّه النَّسْرانِ بأجنحَتِهما.

= بالمقدم والتشويق إلى المؤخر.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ١١٩) ثم قال معقباً: «فأمر غير مستبعد فإن ذلك يكون بآلات تتحرك عند الصعود وعند القعود فتحرك الذراعين والأجنحة وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك في الغرابة» هـ.

﴿وَجِفَانٍ﴾ وصحافٍ. ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحياضِ الكبارِ جمعُ جابيةٍ من الجبايةِ وهي من الصفاتِ الغالبة كالدابَّةِ. ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي لا تنزلُ عنها لِعِظَمِها. ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكايةٌ عما قيل لهم، وشكراً نُصِبَ على العِلَّةِ أي اعملوا له واعبدُوه شكراً، أو المصدرِ لأنَّ العملَ له شكر، أو الوصفِ له أو الحالِ أو المفعولِ به. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ المتوفرُ على أداءِ الشكر بقلبِه ولسانه وجوارحِه أكثرَ أوقاتِه ومع ذلك لا يوفِّي حقَّه، لأنَّ توفيقَه الشكرَ نعمةٌ تستدعي شكراً آخرَ لا إلى نهايته، ولذلك قيلَ الشَّكُور مَنْ يرى عَجْزَهُ عن الشكرِ.

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

(١٤) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي على سليمانَ. ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ ما دل الجنَّ وقيل آلَهُ. ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي الأَرَضَةُ أضيفتْ إلى فِعْلها، وقرىء بفتح الراء وهو تأثُّر الخشبة من فِعْلِها يُقَالُ: أَرَضَتِ الأَرَضَةُ الخشبةَ أَرْضاً فأُرِضَتْ[1] أَرَضاً مثلَ أكلتِ القوادحُ الأسنانَ أكلاً فأُكِلَتْ أكلاً. ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ عصاهُ من نسأْتُ البعيرَ إذا طردْتَهُ لأنها يُطْرَدُ بها. وقُرِىءَ بفتح الميم وتخفيفِ الهمزةِ قلباً وحذفاً على غير قياسٍ إذِ القياسُ إخراجُها بَيْنَ بَيْنَ، ومَنْساءَتَه على مفعالةٍ كميضاءةٍ في مَيْضأةٍ، ومن سأْته أي طرفُ عصاهُ مستعارٌ من سَأَةِ القوس وفيه لغتانِ كما في قُحَّةٍ وقَحَّةٍ، وقرأ نافع وأبو عمرو مِنْسَاتَه بألِفٍ بدلاً من الهمزةِ، وابنُ ذكوانَ بهمزةٍ ساكنة، وحمزةُ إذا وقفَ جعلَها بينَ بينَ. ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ علمتِ الجنُّ بعد التباسِ الأمرِ عليهم. ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيبَ كما يزعمون لعلموا موتَه حينَما وقع فلم يلْبَثُوا حولاً في تسخيرِهِ إلى أنْ خرَّ، أو ظهرتِ الجنُّ، وأنَّ بما في حيِّزه بدلٌ منه أي ظهرَ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمونَ الغيبَ ما لبثوا في العذاب. وذلك[2] أنَّ داودَ أَسَّسَ بيتَ المقدس في موضعِ فسطاطِ موسى عليهما الصلاة والسلام فماتَ قبل تمامه، فوصَّى به إلى سليمانَ عليه السلام فاستعملَ الجنَّ فيه فلم يتمَّ بعدُ إذ دنا أجَلُه وأُعْلِمَ به، فأراد أنْ يعمِّيَ عليهم موتَه ليتِمُّوه فدعاهم فَبَنَوْا عليه صرحاً من قواريرَ ليس له بابٌ، فقام يصلِّي متكئاً على عصاهُ فَقُبِضَ روحُه وهو متكِىءٌ عليها، فبقيَ كذلك حتى أَكَلَتْهَا الأَرَضَةُ فخرَّ ثم فتحُوا عنه وأرادوا أنْ يعرفوا وقْتَ موتِه، فوضعوا الأَرَضَةَ على العصَا فأكلتْ يوماً وليلةً مقداراً فَحَسَبُوا على ذلك فوجدُوه قد ماتَ منذ سنةٍ، وكان عمرُه ثلاثاً وخمسينَ سنةً، ومُلِّكَ وهو ابنُ ثلاثةَ عَشْرَةَ سنةً، وابتدأ عمارةَ بيتِ المقدس لأربعٍ مَضَيْنَ من مُلْكِهِ.

(١٥) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لأولادِ سبأ بنِ يشجبَ بنِ يعربَ بنِ قحطانَ، ومنعَ الصرفَ عنه ابنُ كثير

---

(١) أرضت أرضاً، على ما لم يسمّ فاعله.

(٢) انظر «روح المعاني» للألوسي (٢٢/١٢٣ ـ ١٢٤).

وأبو عمرو لأنه صارَ اسمَ القبيلة، وعن ابنِ كثير قلبُ همزتِه ألفاً ولعله أخرجَه بينَ بينَ فلم يؤدِّه الراوي كما وجبَ. ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ في مواضعِ سُكْناهم، وهي باليمنِ يقال لها مأربُ بينها وبينَ صنعاءَ مسيرةُ ثلاثةِ أيام. وقرأ حمزة وحفصٌ بالإفرادِ والفتحِ، والكسائي بالكسرِ حملاً على ما شذَّ من القياس كالمسجِد والمطْلِع. ﴿ءَايَةٌ﴾ علامةً دالةً على وجودِ الصانعِ المختارِ، وأنه قادرٌ على ما يشاءُ من الأمور العجيبةِ مُجازٍ للمحسنِ والمسيءِ معاضدةً للبرهانِ السابقِ كما في قصَّتَيْ داودَ وسليمانَ عليهما الصلاة والسلام. ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدلٌ من آيةٍ أو خبرٌ محذوف تقديره الآيةُ جنتانِ. وقرىء بالنصبِ على المدحِ، والمرادُ جماعتانِ من البساتينِ. ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعةٌ عن يمينِ بلدِهم وجماعةٌ عن شمالِه، كلُّ واحدةٍ منهما في تقاربها وتضامُنها كأنَّها جنةٌ واحدةٌ، أو بستاناً كُلِّ رجلٍ منهم عن يمينِ مسكنه وعن شمالِه. ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ حكايةٌ لما قال لهم نبيُّهم، أو لسانُ الحالِ أو دلالةٌ بأنهم كانوا أحِقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك. ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئنافٌ للدلالة على موجبِ الشكرِ، أي هذه البلدةُ التي فيها رِزْقُكمْ بلدةٌ طيبة وربُّكم الذي رزقكم وطلبَ شكرَكُم ربٌّ غفور فرطات مَنْ يشكرهُ. وقرىء الكلُّ بالنصبِ على المدحِ[1]. قيل كانت أخصبَ البلادِ وأَطْيَبَهَا لم يكن فيها عاهةٌ ولا هامَةٌ.

فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

(١٦) ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ عن الشكرِ. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ سيلَ الأمرِ العرِمِ أي الصعبِ من عرِمَ الرجلُ فهو عارمٌ وعرِمٌ إذا شرسَ خلُقه وصَعُبَ، أوِ المطرِ الشديدِ، أو الجرُذِ أضافَ إليه السيلَ لأنه نقبَ عليهم سكراً ضربتْه لهم بلقيسُ فحقنتْ به ماءَ الشحرِ وتركتْ فيه ثقباً على مقدارِ ما يحتاجون إليه، أو المسناةِ التي عقدتْ سكراً على أنه جمعُ عرِمةٍ وهي الحجارةُ المركومةُ. وقيل اسمُ وادٍ جاء السيلُ من قِبَلِه وكان ذلك بينَ عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ ثمرٍ بشعٍ فإنَّ الخمطَ كلُّ نَبْتٍ أَخَذَ طعماً من مرارةٍ، وقيل الأراكُ أو كلُّ شجر لا شوكَ له، والتقدير أُكُلٍ أُكُلِ خمطٍ فحُذِفَ المضافُ وأُقِيمَ المضافُ إليه مقامهُ في كونه بدلاً أو عطفَ بيانٍ. ﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفانِ على أكلٍ لا على خمطٍ، فإنَّ الأَثْلَ هو الطرفاءُ ولا ثمرَ له، وقرئا بالنصبِ عطفاً على جنتينِ، ووصَفَ السدرَ بالقلَّةِ فإنَّ جَناهُ وهو النَّبِقُ مما يطيبُ أَكْلُه ولذلك يغرسُ في البساتينِ، وتسميةُ البدلِ جنتينِ للمشاكلةِ والتهكُّم. وقرأ أبو عمرو وذواتيْ أُكُلِ بغير تنوينِ الكلام، وقرأ الحرميانِ بتخفيفِ أكلٍ.

(١٧) ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ بكفرانِهم النعمةَ أو بكفرهم بالرسلِ، إذ رُوِيَ أنه بعثَ إليهم ثلاثةَ

---

(١) أي قرىء بلدةً طيبةً ورباً غفوراً، وذلك على تقدير اسكنوا بلدة طيبة واعبدوا رباً غفوراً. انظر روح المعاني (١٢٦/٢٢).

عشرَ نبياً فكذَّبوهم، وتقديمُ المفعولِ للتعظيمِ لا للتخصيصِ. ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ وهل يجازَى بمثلِ ما فعلْنا بهم إلا البليغُ في الكفرانِ أو الكفرِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب وحفصٌ نُجَازِي بالنونِ والكفورَ بالنصبِ.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعةِ على أهلها وهي قُرَى الشامِ. ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ متواصلةً يظهرُ بعضُها لبعض، أو راكبةً مَتْنَ الطريق ظاهرةً لأبناءِ السبيل. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ بحيثُ يقيلُ الغادي في قريةٍ، ويبيتُ الرائحُ في قرية إلى أنْ يبلغَ الشامَ. ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ على إرادةِ القولِ بلسانِ الحالِ أو الميالِ. ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ متى شِئْتُم من ليلٍ أو نهار. ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا يختلفُ الأمنُ فيها باختلافِ الأوقاتِ، أو سيروا آمنينَ وإنْ طالتْ مدةُ سفرِكم فيها، أو سيروا فيها لياليَ أعمارِكم وأيامَها لا تَلْقَوْنَ فيها إلا الأمنَ.

(١٩) ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أشِروا النعمةَ وملُّوا العافيةَ كبني إسرائيلَ فسألوا اللهَ أنْ يجعلَ بينَهم وبينَ الشامِ مفاوِزَ ليتطاولُوا فيها على الفقراءِ بركوبِ الرواحلِ وتزوُّدِ الأزوادِ، فأجابهم الله بتخريبِ القُرى المتوسِّطَةِ. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وهشام بَعِّدْ، ويعقوبُ رَبُّنا باعَدَ بلفظِ الخبرِ على أنه شكْوى منهم لِبُعْدِ سفرِهم إفراطاً في الترفُّه وعدمِ الاعتدادِ بما أنعمَ الله عليهم فيه، ومثلُه قراءةُ مَنْ قرأ ربَّنا بَعَّدَ، أو بَعُدَ على النداءِ وإسنادِ الفعل إلى بينَ. ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيثُ بطِروا النعمةَ ولم يعتدُّوا بها. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدَّثُ الناسُ بهم تعجُّباً، وضَرْبَ مَثَلٍ فيقولون: تفرَّقوا أيدي سبأ. ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ففرَّقْناهم غايةَ التفريقِ حتى لحقَ غسَّانُ منهم بالشأمِ، وأنمارُ بيثربَ، وجذامُ بتهامةَ، والأزدُ بعُمَانَ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكِرَ. ﴿لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي. ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم.

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي صدقَ في ظنِّه أو صدقَ بظنِّ ظنِّه مِثْلُ فعلْته جُهْدَك، ويجوزُ أنْ يُعدَّى الفعلُ إليه بنفسه كما في ﴿صدق وعده﴾. لأنه نوعٌ من القولِ، وشدَّدهُ الكوفيونَ بمعنى حقَّقَ ظنَّه أو وجدَه صادقاً. وقرىء بنصبِ إبليسَ ورفْعِ الظنِّ مع التشديدِ بمعنى وجدَ ظنَّه صادقاً، والتخفيفُ بمعنى قال له ظنُّه الصدقَ حين خيَّله إغواءَهم، وبرفْعِهما والتخفيفِ على الأبدانِ وذلك إما ظنُّه بسبأٍ حين رأى انهمَاكَهُم في الشهوات أو ببني آدمَ حين رأى أباهم النبيَّ ضعيفَ العزْمِ، أو ما ركَّبَ فيهم من الشهوةِ والغضبِ، أو سمعَ من الملائكة قولَهم ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾[١] فقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾[٢] و﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾[٣]. ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلا فريقاً هم المؤمنونَ لم

---

(١) البقرة: «٣٠».
(٢) النساء: «١١٩».
(٣) الحجر: «٣٩».

يتَّبعوه، وتقليلُهم بالإضافة إلى الكفارِ، أو إلا فريقاً من فِرَقِ المؤمنين لم يتبعوهُ في العِصيان وهم المخلصونَ.

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تسلطٌ واستيلاءٌ بالوسوسة والاستغواءِ. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ إلا ليتعلق عِلْمُنا بذلك تعلقاً يترتبُ عليه الجزاءُ، أو ليتميَّزَ المؤمنُ من الشاكِّ، أو ليؤمنَ مَنْ قدَّرَ إيمانَه ويشكَّ من قدِّر ضلالُه، والمرادُ من حصول العلم حصولُ متعلَّقة مبالغةً وفي نظمِ الصِّلتَيْنِ نكتةٌ لا تَخفَى. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظٌ والزِّنتان متآخيتانِ.

(٢٢) ﴿قُلِ﴾ للمشركين. ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي زعمتُموهم آلهةً، وهما مفعولا زعمَ حُذِفَ الأولُ لطولِ الموصولِ بصلتِه والثاني لقيامِ صفته مُقامَهُ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ هو مفعولَه الثاني لأنه لا يلتئِمُ مع الضمير كلاماً ولا لا يملكونَ لأنَّهم لا يزعُمونه. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى ادعوهم فيما يهمُّكم من جَلْبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ لعلَّهم يستجيبونَ لكم إنْ صحَّ دعواكُم، ثم أجابَ عنهم إشعاراً بتعيُّنِ الجوابِ وأنه لا يقبلُ المكابرةَ فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أمرٍ ما، وذِكْرُهُما للعموم العُرْفيِّ، أو لأنَّ آلِهتَهم بعضُها سماويةٌ كالملائكة والكواكب وبعضُها أرضيةٌ كالأصنام، أو لأنَّ الأسبابَ القريبةَ للشرِّ والخير سماويةٌ وأرضيةٌ والجملة استئنافٌ لبيانِ حالهم. ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ من شركةٍ لا خلْقاً ولا مُلْكاً. ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه على تدبيرِ أمرِهما.

(٢٣) ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ فلا ينفعُهم شفاعةٌ أيضاً كما يزعمون إذ لا تنفعُ الشفاعةُ عندَ الله. ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أَذِنَ له أنْ يشفَعَ، أو أذنَ أنْ يشفعَ له لعلوِّ شأنه ولم يثبتْ ذلك، واللامُ على الأولِ كاللامِ في قولك: الكرمُ لزيدٍ وعلى الثاني كاللام في قولك: جئتكَ لزيدٍ. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ بضمِّ الهمزة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ غايةٌ لمفهوم الكلام مِنْ أنَّ ثَمَّ توقفاً وانتظاراً للإذْنِ أي يتربَّصون فَزِعينَ حتى إذا كُشِفَ الفزعُ عن قلوب الشافعينَ والمشفوعِ لهم بالإذْنِ، وقيل الضميرُ للملائكةِ وقد تقدَّم ذِكْرُهم ضِمْناً. وقرأ ابنُ عامر ويعقوبُ فَزَّعَ على البناءِ للفاعل. وقرىء فُرِّغَ أي نُفِيَ الوجَلُ من فَرَغَ الزادُ إذا فنيَ. ﴿قَالُوا۟﴾ قال بعضُهم لبعض. ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة. ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ قالوا قال القولَ الحقَّ وهو الإذنُ بالشفاعةِ لمنِ ارْتَضَى وهم المؤمنون، وقرىء بالرفع أي مقولُه الحقُّ. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلوِّ والكبرياءِ ليس لِمَلِكٍ ولا نبيٍّ من الأنبياء أنْ يتكلَّمَ ذلك اليومَ إلا بإذنه.

(٢٤) ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد به تقريرَ قوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواهُ، وفيه إشعارٌ بأنهم إنْ سكتُوا أو تلعثَموا في الجواب مخافةَ الإلزام فهم مُقِرُّوْنَ به

بقلوبهم. ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي وإنَّ أحدَ الفريقينِ من الموحِّدينَ المتوحِّدُ بالرزقِ والقدرةِ الذاتيةِ بالعبادة، والمشركينَ به الجمادَ النازلَ في أدنى المراتبِ الإمكانيةِ لَعَلى أحدِ الأمرَيْنِ من الهدى والضلالِ المبيَّنَيْنِ، وهو بعدَ ما تقدَّم من التقرير البليغِ الدال على مَنْ هو على الهدى ومَنْ هو في الضلال أبلغُ من التصريحِ لأنه في صورةِ الإنصاف المُسْكِتِ للخصْم المشاغبِ، ونظيره قولُ حسانَ:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ فشَرُّكُمَا لِخَيْرِكمَا الفِدَاءُ

وقيل إنه على اللَّفِّ والنَّشْرِ وفيه نظرٌ واختلافُ الحرفينِ لأنَّ الهاديَ كَمَنْ صعِدَ مناراً ينظر الأشياءَ ويتطلَّعُ عليها أو ركبَ جواداً يركضُه حيثُ يشاء، والضالُّ كأنه منغمِسٌ في ظلامٍ مرتبِك لا يرى شيئاً أو محبوسٌ في مطمورةٍ لا يستطيعُ أنْ يتفصَّى منها.

قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٥) ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ هذا أَدْخَلُ في الإنصافِ وأبلغُ في الإخباثِ حيث أَسْنَدَ الإجرامَ إلى أنفسِهم والعملَ إلى المخاطَبِيْنَ.

(٢٦) ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ يومَ القيامة. ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ يحكُم ويفصِلُ بأنْ يُدْخِلَ المحقِّيْنَ الجنةَ والمبطلينَ النارَ. ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفاصِلُ في القضايا المتغلقةِ. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أنْ يُقْضَى به.

(٢٧) ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ لأرى بأيِّ صفةٍ ألحقتموهم بِالله في استحقاقِ العبادةِ، وهو استفسارٌ عن شُبْهَتِهم بعدَ إلزام الحجَّةِ عليهم زيادةً في تبكيتِهم. ﴿كَلَّاۚ﴾ ردعٌ لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايَسةِ. ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الموصوفُ بالغلَبةِ وكمالِ القدرةِ والحكمةِ، وهؤلاءِ الملْحَقُونَ به متَّسِمُونَ بالذلَّةِ متأبيةٌ عن قبولِ العلم والقدرة رأساً، والضميرُ لله أو للشأنِ.

(٢٨) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالةً عامةً لهم من الكفِّ فإنَّها إذا عمَّتهم قد كَفَتْهُم أنْ يخرجَ منها أحدٌ منهم، أو إلا جامعاً لهم في الإبلاغ فهي حال منَ الكافِ والتاءُ للمبالغةِ، ولا يجوزُ جَعْلُها حالاً من الناس على المختارِ. ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيحملُهم جهلُهم على مخالفتِكَ.

(٢٩) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فَرْطِ جهْلِهم. ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ يعنونَ المبشَّر به والمنذَرَ عنه أو الموعودَ بقوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾[١] ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطِبُونَ به رسولَ الله ﷺ والمؤمنينَ.

---

(١) سبأ: «٢٦».

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾

(٣٠) ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ وعدُ يومٍ أو زمانُ وعدٍ، وإضافته إلى اليوم للتبيينِ ويؤيدُه أنه قرىء يومَ على البدلِ، وقرىء يومَ بإضمار أعني. ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ إذا فاجَأكم وهو جوابُ تهديدٍ جاء مطابقاً لما قصدُوه بسؤالِهم منَ التعنُّتِ والإنكارِ.

(٣١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولا بما تقدَّمه من الكتُبِ الدالَّةِ على النعتِ. قيل إنَّ كفَّارَ مكَّةَ سألوا أهلَ الكتابِ عن الرسولِ ﷺ فأخبروهم أنَّهم يجدُون نَعْتَهُ في كُتُبِهم فغضِبُوا وقالوا ذلك، وقيل الذي بينَ يديه يومَ القيامة. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في موضعِ المحاسَبَةِ. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ يتحاورونَ ويتراجعونَ القولَ. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ يقولُ الأتباعُ. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ للرؤساءِ. ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ لولا إضلالُكم وصدُّكم إيَّانا عن الإيمان. ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتباعِ الرسولِ ﷺ.

(٣٢) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أنكروا أنهم كانوا صادِّينَ لهم عن الإيمانِ وأثبتُوا أنهم هم الذينَ صدُّوا أنفسَهم حيثُ أعرضُوا عن الهدى وآثروا التقليدَ عليه، ولذلك بنوا الإنكارَ على الاسمِ.

(٣٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضرابٌ عن إضرابِهم أي: لم يكنْ إجرامُنا الصادَّ بل مكرُكم لنا دائباً ليلاً ونهاراً حتى أغورْتُم علينا رأيَنا. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ والعاطفُ يعطفُه على كلامِهم الأولِ، وإضافةُ المكرِ إلى الظرفِ على الاتساعِ. وقرىء مكرَ الليلِ بالنصبِ على المصدر، ومكرٌ الليلَ بالتنوينِ ونَصْبِ الظرفِ، ومَكَرُّ الليلِ من الكُرورِ. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ وأضمرَ الفريقانِ الندامةَ على الضلالِ والإضلال وأخفاها كلٌّ عن صاحبه مخافة التعييرِ، أو أظهَرُوها فإنه من الأضدادِ إذِ الهمزةُ تصلحُ للإثبات والسلبِ كما في أشكَيْتُهُ. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي في أعناقِهم فجاءَ بالظاهرِ تنويهاً بذمِّهم وإشعاراً بموجِبِ أغلالِهم. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يفعلُ بهم ما يفعلُ إلا جزاءً على أعمالِهم، وتعديةُ يجزى إما لتضمينِ معنى يقضي أو بنزعِ الخافضِ.

(٣٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ مما مُنِيَ به من قومه،

وتخصيصُ المتنعِّمِينَ بالتكذيبِ لأنَّ الداعيَ المعظَّمَ إليه التكبرُ والمفاخرةُ بزخارفِ الدنيا والانهماكُ في الشهواتِ والاستهانةُ بِمَنْ لم يحظَ منها، ولذلك ضمُّوا التهكُّمَ والمفاخرةَ إلى التكذيب فقالوا: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ.

وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

(٣٥) ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ فنحنُ أَوْلَى بما تدعونه إنْ أمكنَ. ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إما لأنَّ العذابَ لا يكون، أو لأنه أكرمَنا بذلك فلا يهينُنا بالعذاب.

(٣٦) ﴿ قُلْ﴾ رداً لِحُسْبانهم. ﴿ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولذلك يختلفُ فيه الأشخاصُ المتماثلةُ في الخصائصِ والصفاتِ، ولو كان ذلك لكرامةٍ وهوانٍ يوجبانِه لم يكنْ بمشيئتِه. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنُّونَ أنَّ كثْرَةَ الأموالِ والأولادِ للشرفِ والكرامةِ وكثيراً ما يكونُ للاستدراجِ كما قال:

(٣٧) ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ قربةً والتي إما لأنَّ المرادَ وما جماعةُ أموالكم وأولادِكم، أو لأنَّها صفةُ محذوفٍ كالتقوى والخصْلَةِ. وقرىء بالذي أي بالشيء الذي يقرِّبكم. ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناءٌ من مفعولِ تقرِّبُكم، أي الأموالُ والأولادُ لا تقرِّبُ أحداً إلا المؤمنَ الصالحَ الذي ينفقُ مالَهُ في سبيلِ الله ويعلِّمُ ولدَه الخيرَ ويربِّيه على الصَّلاحِ، أو مِنْ أموالِكم وأولادِكم على حذْفِ المضافِ. ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أنْ يُجَازَوْا الضِّعْفَ إلى عشرٍ فما فوقَه، والإضافةُ إضافةُ المصدرِ إلى المفعولِ. وقُرِىءَ بالإعمالِ على الأصْلِ، وعن يعقوبَ رفعُهما على إبدالِ الضعفِ ونَصْبِ الجزاءِ على التمييزِ أو المصدرِ لفعلِهِ الذي دلَّ عليه لهم. ﴿ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ من المكارهِ. وقرىء بفتحِ الراءِ وسكونِها، وقرأ حمزةُ في الغرفةِ على إرادة الجنسِ.

(٣٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالرد والطعنِ فيها. ﴿ مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقينَ لأنبيائِنا أو ظانِّينَ أنهم يفوتُونَنَا. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

(٣٩) ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ يوسِّع عليه تارةً ويضيِّقُ عليه أُخرَى، فهذا في شخص واحدٍ باعتبار وقتينِ وما سبقَ في شخصينِ فلا تكريرَ. ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عِوضاً إما عاجِلاً أو آجِلاً. ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنَّ غيرَهُ وَسَطٌ في إيصالِ رِزْقه لا حقيقةَ لرازقيَّته.

(٤٠) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ المستكبرينَ والمستَضْعَفِينَ. ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ تقريعاً للمشركينَ وتبكيتاً لهم وإقناطاً لهم عما يتوقَّعون من شفاعَتِهم، وتخصيصُ الملائكة لأنهم أشرفُ شركائِهم والصالحونَ للخطابِ منهم، ولأنَّ عبادَتَهُم مبدأُ الشركِ وأصْلُه. وقرأ حفصٌ ويعقوبُ بالياءِ فيهما.

قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

(٤١) ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أنتَ الذي نواليه من دونهم لا موالاةَ بينَنا وبينَهم، كأنهم بيَّنوا بذلك براءتَهم مِن الرِّضَا بعبادتِهم ثم أضرَبُوا عن ذلك ونَفَوْا أنهم عَبَدُوْهُم على الحقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي الشياطينَ حيثُ أطاعوهم في عبادةِ غير الله. وقيل كانوا يتمثَّلُونَ لهم ويخيِّلُون إليهم أنهم الملائكةُ فيعبدُونهم. ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ الضميرُ الأول للإنسِ أو للمشركينَ، والأكثرُ بمعنى الكلِّ والثاني للجنِّ.

(٤٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إذِ الأمرُ فيه كلُّه له لأنَّ الدارَ دارُ جزاءٍ وهو المجازي وحْدَه. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطفٌ على لا يملكُ مبيِّنٌ للمقصودِ من تمهيدِه.

(٤٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنُونَ محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيستَتْبِعُكم بما يستبدعُه. ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنونَ القرآنَ. ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ لعدمِ مطابقةِ ما فيه الواقعَ. ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإضافتِه إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لأمرِ النبوة أو للإسلام أو للقرآنِ، والأول باعتبارِ معناهُ وهذا باعتبارِ لفظِه وإعجازِه. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ سحريَّتُهُ، وفي تكرير الفعلِ والتصريح بذكْرِ الكفرةِ وما في اللاَّمَيْنِ من الإشارةِ إلى القائلين والمقولِ فيه، وما في لما مِنَ المبادَهَةِ إلى البتِّ بهذا القولِ إنكارٌ عظيم له وتعجيبٌ بليغٌ منه.

(٤٤) ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليلٌ على صِحَّة الإشراكِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه وينذرُهم على ترْكِه، وقد بانَ من قبلُ أنْ لا وجْهَ له فَمِنْ أينَ وقعَ لهم هذه الشبهةُ، وهذا في غاية التجهيلِ لهم والتسفيهِ لرأيهم ثمَّ هدَّدَهُم فقال:

(٤٥) ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذَّبوا. ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وما بلغَ هؤلاء عُشْرَ ما آتينا أولئكَ من القوةِ وطولِ العمُرِ وكثرةِ المال، أو ما بلغَ أولئك عُشْرَ ما آتينا هؤلاءِ من البيِّناتِ والهدى. ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحينَ كذَّبوا رُسُلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيفَ كان نكيري لهم فلْيحذرْ هؤلاءِ من مِثْلِه، ولا تكريرَ في كذَّبَ لأن الأولَ للتكثير والثاني للتكذيبِ، أوِ الأولُ مطلقٌ والثاني مقيَّدٌ ولذلك عُطِفَ عليه بالفاءِ.

(٤٦) ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أرشِدُكم وأنصحُ لكم بخصلةٍ واحدةٍ هي ما دلَّ عليه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ وهو القيامُ من مجلسِ رسولِ الله ﷺ، أو الانتصابُ في الأمر خالصاً لوجْهِ الله معرِضاً عن

المراء والتقليدِ. ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ متفرِّقينَ اثنينِ اثنينِ وواحداً واحداً، فإنَّ الازدحامَ يشوشُ الخاطِرَ ويخلُطُ القولَ. ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ في أمرِ محمدٍ ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقتَهُ، ومحلُّه الجرُّ على البدلِ أو البيانِ أو الرفعُ أو النصبُ بإضمارِ هو أعني. ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ فتعلَمُوا ما به من جنونٍ يحمِلُه على ذلك، أو استئنافٌ مُنَبِّهٌ لهم على أنَّ ما عرفوا من رجاحةِ عقلِه كافٍ في ترجيح صدقِه، فإنه لا يدعُه أنْ يتصدَّى لادعاءِ أمرٍ خطيرٍ وخطْبٍ عظيم من غيرِ تحقُّقٍ ووثوقٍ ببرهانٍ، فيفتضحُ على رؤوسِ الأشهادِ ويلقي نفسَه إلى الهلاكِ، فكيفَ وقد انضمَّ إليه معجزاتٌ كثيرة. وقيل: ما استفهاميةٌ والمعنى: ثم تتفكروا أيُّ شيء به من آثارِ الجنون: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قُدَّامَهُ لأنه مبعوثٌ في نسيم الساعة.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أيُّ شيءٍ سألتكم من أجرٍ على الرسالةِ. ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ والمراد نفيُ السؤال عنه، كأنْ جعلَ التنبيَ مستلزماً لأحدِ الأمرينِ إما الجنونُ وإما توقُّعُ نفعٍ دنيوي عليه، لأنه إما أنْ يكونَ لغرضٍ أو لغيرهِ وأياً ما كان يلزم أحدَهما ثمَّ نَفَى كلاً منهما. وقيلَ ما موصولةٌ مرادٌ بها ما سألهم بقوله ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾[١] وقوله ﴿ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾[٢] واتخاذُ السبيلِ ينفعُهم وقُرْبَاهُ قُرْبَاهُم. ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطَّلِعٌ يعلمُ صدقي وخلوصَ نيتي، وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر وحمزةُ والكسائيُّ بإسكان الياء.

(٤٨) ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ يلْقيه وينزلُه على مَنْ يجتبيه من عبادِه، أو يرمي به الباطلَ فيدمغُه أو يرمي به إلى أقطارِ الآفاقِ، فيكونُ وعْداً بإظهار الإسلام وإفشائِه. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بفتح الياءِ. ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ صفةٌ محمولةٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، أو بدَلٌ من المستكِنِّ في يقذفُ أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ محذوفٌ. وقرىء بالنصبِ صفةً لربي أو مقدراً بأعني. وقرأ حمزةُ وأبو بكر الغِيوبِ بالكسرِ كالبِيوتِ، وبالضمِّ كالعُشورِ[٣]، وقرىء بالفتحِ كالصَّبورِ على أنه مبالغةٌ غائبٌ.

(٤٩) ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ أي الإسلامُ. ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ وزهقَ الباطلُ أي الشركُ بحيثُ لم يبقَ له أثرٌ مأخوذ من هلاكِ الحيِّ، فإنه إذا هَلَكَ لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادةٌ قال:

أَقْفَـــر مِـــنْ أَهْلِـــهِ عبيـــد فَـــالْيَـــوْمَ لاَ يُبْـــدِي وَلاَ يُعِيـــد[٤]

وقيل الباطلُ إبليسُ أو الصنمُ، والمعنى لا ينشىءُ خلْقاً ولا يعيدُه، أو لا يبدىءُ خيراً لأهله

---

(١) الفرقان: «٥٧».
(٢) الشورى: «٢٣».
(٣) قرأ ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي (الغِيوب) بكسر الغين، وقرأ الباقون بالضم (الغُيوب).
(٤) من مخلع البسيط.

ولا يعيدُه. وقيل ما استفهاميةٌ منتصِبَةٌ بما بعدَها.

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحقِّ. ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإنَّ وبالَ ضلالي عليها، لأنه بسببها إذ هي الجاهِلةُ بالذاتِ والأمّارةُ بالسوء، وبهذا الاعتبارِ قابلَ الشرطيةَ بقوله: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فإنَّ الاهتداءَ بهدايته وتوفيقه. ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدركُ قولَ كلِّ ضالٍّ ومهتدٍ وفعلَه وإنْ أخفاهُ.

(٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند الموت أو البعثِ أو يومَ بدْرٍ، وجوابُ لو محذوفٌ تقديره لرأيتَ أمراً فظيعاً. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون اللهَ بهربٍ أو تحصُّنٍ. ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهْرِ الأرض إلى باطِنها، أو مِنَ الموقِفِ إلى النارِ أو من صحراء بدْرٍ إلى القليبِ، والعطفُ على فزعوا، أو لا فوتَ، ويؤيدُه أنه قرىء وأُخِذَ عطفاً على محلِّه أي: فلا فوتَ هناك وهناك أُخِذَ.

(٥٢) ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مرَّ ذِكْرُه في قوله ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾[1]. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ ومن أينَ لهم أنْ يتناولوا الإيمانَ تناولاً سهلاً. ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فإنه في حيِّزِ التكليف وقد بَعُدَ عنهم، وهو تمثيلٌ لحالهم في الاستخلاصِ بالإيمانِ بعدَما فاتَ عنهم أوانُه وبَعُدَ عنهم بحالِ مَنْ يريد أنْ يتناولَ الشيءَ من غلْوةٍ تناولَه من ذراعٍ في الاستحالة. وقرأ أبو عمرو والكوفيونَ غيرَ حفصٍ بالهمزِ على قلبِ الواوِ لضمَّتِها.

أو أنه من نأشْتُ الشيءَ إذا طلبتُه قال رؤبةُ:

أَقْحَمَنِـي جَـارُ أَبِـي الجَـامُـوش ... إلَيْـكَ نَـأْشَ القَـدَرِ التَّـؤوشَ

أو من نأشْتُ إذا تأخرتُ ومنه قولُه:

تَمَنَّـى نَئِيْشـاً أَنْ يَكُـونَ أَطَـاعَنِـي ... وقَـدْ حَـدَثَـتْ بَعْـدَ الأُمُـورِ أُمُـورُ[2]

فيكون بمعنى التناوُلِ من بُعْدٍ.

(٥٣) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام أو بالعذاب. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ ذلك أوانَ التكليف. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويرجمونَ بالظنِّ ويتكلَّمون بما لم يُظْهِرْ لهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام من المطاعِنِ؛ أو في العذاب من البتِّ على نفيه. ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ من جانبٍ بعيد من أمرِه، وهو الشُّبه التي تمحَّلُوها في أمر الرسولِ ﷺ، أو حالَ الآخرة كما حكاهُ من قبلُ. ولعلَّه تمثيلٌ لحالهم في ذلك بحالِ مَنْ يرمي شيئاً لا يراهُ مِنْ مكانٍ بعيد لا مجالَ للظنِّ في لحوقِهِ. وقُرِىءَ ويُقْذَفُونَ على

(١) سبأ: «٤٦».
(٢) من الطويل.

أنَّ الشيطانَ يلقي إليهم ويلقِّنهم ذلك، والعطفُ على وقد كفروا على حكايةِ الحال الماضيةِ أو على قالوا فيكونُ تمثيلاً لحالهم بحالِ القاذفِ في تحصيلِ ما ضيَّعوه من الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

(٥٤) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفعِ الإيمان والنجاةِ به من النار. وقرأ ابنُ عمرَ والكسائيُّ بإشمام الضمِّ للحاءِ. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ بأشباهِهم من كَفَرَةِ الأمم الدارِجةِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ موقعٍ في الريبةِ، أو ذي ريبةٍ منقولٍ منَ المشكِّكِ، أوِ الشكُّ نُعِتُ به الشكُّ للمبالغةِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ سبأ لم يبقَ رسولٌ ولا نبي إلا كان له يومَ القيامة رفيقاً ومصافحاً»[1].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٣٨ رقم ٢٥٤) ـ وهو حديث موضوع.
وانظر الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ فَاطِرٍ

ترتيبها ٣٥ — آياتها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

سورة الملائكة مكية[١]، وآيها خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعُهما من الفَطْر بمعنى الشقِّ كأنه شقَّ العدمَ بإخراجهما منه، والإضافةُ محضةٌ لأنه بمعنى الماضي. ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائطَ بينَ الله وبينَ أنبيائه والصالحينَ من عباده، يبلِّغونَ إليهم رسالاتِه بالوحي والإلهامِ والرؤيا الصادقةِ، أو بَيْنَهُ وبينَ خلْقه يوصِلُون إليهم آثارَ صُنْعِهِ. ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ذوي أجنحةٍ متعددةٍ متفاوتةٍ بتفاوتِ ما لهم مِن المراتبِ ينزلونَ بها ويعرجونَ، أو يسرعونَ بها نحوَ ما وكَّلَهم اللهُ عليه فيتصرَّفُون فيه على أمرِهم به، ولعلَّه لم يُرِدْ به خصوصيةَ الإعدادِ ونفيَ ما زال عليها، لما روي أنه عليه الصلاةُ والسلام رأى جبريلَ ليلةَ المعراج وله سِتُّمائةِ جَناحٍ[٢] ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ للدلالة على أنَّ تفاوتَهم في ذلك

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦/٣١٣ رقم ٣٢٣٢) و(٨/٦١٠ رقم ٤٨٥٧) ومسلم (١/١٥٨ رقم ٢٨٠ ـ ٢٨٢) من حديث ابن مسعود، لكنه ليس فيه «ليلة المعراج».
ولفظ ابن حبان في صحيحه (٨/١١٤ ـ الإحسان): «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينشر في ريشه الدر والياقوت».

بمقتضى مشيئتِه ومؤدَّى حكمتِه لا أمرٌ تستدعيه ذواتُهم، لأنَّ اختلافَ الأصنافِ، والأنواعِ بالخواصِ والفصولِ إنْ كان لذواتهم المشتركةِ لزمَ تنافي لوازمِ الأمورِ المتفقةِ وهو محالٌ، والآيةُ متناوِلةٌ زياداتِ الصورِ والمعاني كملاحةِ الوجْهِ وحُسْنِ الصوت وحصافةِ العقلِ وسماحةِ النفس. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ وتخصيصُ بعضِ الأشياء بالتحصيلِ دون بعضٍ، إنما هو من جهةِ الإرادة.

(٢) ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ما يُطْلِقُ لهم ويرسلُ وهو من تجوُّزِ السببِ للمسبَّب. ﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾ كنعمةٍ وأَمْنٍ وصحّةٍ وعلم ونبوّةٍ[1]. ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ يحبسُها. ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ يُطْلِقُهُ، واختلاف الضميريْنِ لأنَّ الموصولَ الأولَ مفسّر بالرحمةِ والثاني مطلَقٌ بتناولها والغضب، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رحمتَه سبقتْ غَضَبَهُ. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ من بعدِ إمساكِه. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالبُ على ما يشاء ليس لأحدٍ أنْ ينازِعَه فيه. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ لا يفعلُ إلا بعلمٍ وإتقانٍ. ثم لما بيَّنَ أنه الموجِدُ للملْكِ والملكوتِ والمتصرِّفُ فيهما على الإطلاق أمرَ الناسَ بشكرِ إنعامه فقال:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾

(٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ احفظُوها بمعرفةِ حقِّها والاعترافِ بها وطاعةِ مُوْلِيْهَا، ثم أنكرَ أنْ يكونَ لغيره في ذلك مدخلٌ فيستحقُّ أنْ يشركَ به بقوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ فمن أي وجْهٍ تُصْرَفون عن التوحيدِ إلى إشراك غيرِه به، ورَفَعَ «غيرَ» للحمْل على محلٍّ من خالقٍ بأنه وصفٌ أو بدلٌ، فإنَّ الاستفهام بمعنى النفي، أو لأنه فاعلُ خالقٍ، وجرَّه حمزةُ والكسائيُّ حملاً على لفظِه، وقد نُصِبَ على الاستثناء، ويرزقكم صفةٌ لخالقٍ أو استئنافٌ مفسِّرٌ له أو كلامٌ مبتدأٌ، وعلى الأخير يكون إطلاقُ هل من خالقٍ مانعاً من إطلاقِه على غيرِ الله.

(٤) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ أي فتأسَّ بهم في الصبر على تكذيبهم، فَوَضَعَ فقد كُذِّبَتْ موضِعَه استغناءً بالسببِ عن المسبَّبِ، وتنكيرُ رسلٍ للتعظيمِ المقتضي زيادةَ التسليةِ والحثُّ على المصابرةِ. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فيجازيك وإيَّاهم على الصبر والتكذيب.

(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالحشرِ والجزاء. ﴿حَقّٞۖ﴾ لا خُلْفَ فيه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فيذهِلُكُم التمتعُ بها عن طلب الآخرةِ والسعي لها. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ الشيطانُ بأنْ يمنِّيَكُم المغفرةَ مع الإصرارِ على المعصية، فإنها وإنْ أمكنتْ لكنَّ الذَّنْبَ بهذا التوقُّعِ كتناولِ السُّمِّ اعتماداً على دفعِ الطبيعة. وقرئ بالضمِّ وهو مصدرٌ أو جمعٌ كقُعودٍ[2].

(١) عبر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالاً.
وتنكير (رحمة) للإشاعة والإبهام (س٧/ ١٤٢).

(٢) وتكرير فعل النهي «لا تغرنكم، لا يغرنكم» للمبالغة فيه، ولاختلاف الغرورين في الكيفية (س٧/ ١٤٣).

إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ
ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ
ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

(٦) ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ عداوةً عامة قديمةً. ﴿ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ في عقائدكم وأفعالِكم وكونوا على حَذَرٍ منه في مجامعِ أحوالكم. ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ تقريرٌ لِعَداوتِهِ وبيانٌ لِغَرَضِه في دعوةِ شيعتِهِ إلى اتباعِ الهوى والركونِ إلى الدنيا.

(٧) ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وعيدٌ لمن أجاب دعاءَه ووعْدٌ لمن خالفَه وقطعٌ للأماني الفارغةِ، وبناءٌ للأمرِ كلِّه على الإيمان والعملِ الصالحِ وقولُه.

(٨) ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ تقريرٌ له أي أفمنْ زُيِّنَ له سوءُ عمله بأنْ غلَبَ وهْمُهُ وهواهُ على عقلِه حتى انتكسَ رأيُه فرأى الباطلَ حقاً والقبيحَ حَسَناً، كَمَنْ لم يُزَيَّنْ له بل وُفِّقَ حتى عرفَ الحقَّ واستحسنَ الأعمالَ واستقبحَها على ما هي عليه، فحذفَ الجوابَ لدلالةِ: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ وقيل تقديرُه أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله ذهبتْ نفسُك عليهم حسرةً، فحذفَ الجوابَ لدلالة: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ عليه ومعناهُ فلا تُهلِكْ نفسَك عليهم للحسراتِ على غِيِّهم وإصرارِهم على التكذيبِ، والفاآتُ الثلاثُ للسببيةِ غيرَ أنَّ الأُولَيَيْنِ دَخَلَتَا على السببِ والثالثةَ دخلتْ على المسبَّبِ، وجَمَعَ الحسراتِ للدلالة على تضاعُفِ اغتمامِهِ على أحوالهم أو كثرةِ مساوي أفعالهم المقتضية للتأسُّفِ، وعليهم ليسَ صلةً لها لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمُه بل صِلةُ تذهبُ أو بيانٌ للمتحسَّرِ عليه. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فيجازيهم عليه.

(٩) ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ ﴾ وقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائي الريحَ. ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ عل حكاية الحالِ الماضية استحضاراً لتلك الصورةِ البديعةِ الدالَّةِ على كمال الحِكْمَةِ، ولأن المرادَ بيانُ أحداثِها بهذه الخاصِّيَّةِ ولذلك أسندَه إليها، ويجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الأفعال للدلالةِ على استمرارِ الأمر. ﴿ فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ وقرأ نافع وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بالتشديدِ. ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ بالمطرِ النازلِ منه وذِكْرُ السحابِ كذِكْرِهِ، أو بالسحابِ فإنه سببُ السَّببِ أو الصائِرُ مطراً. ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بعدَ يُبْسِها، والعدولُ فيهما من الغيبة إلى ما هو أدخلُ في الاختصاصِ لما فيهما من مزيدِ الصُّنْعِ. ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ أي مثلُ إحياءِ المواتِ نشورُ الأمواتِ في صحَّة المقدوريةِ، إذ ليس بينهما إلا احتمالُ اختلافِ المادة في المقيسِ عليه وذلك لا مدخلَ له فيها. وقيل في كيفية الإحياءِ فإنه تعالى يرسلُ ماءً من تحتِ العرشِ تنبُتُ منه أجسادُ الخلْقِ.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ الشرفَ والْمَنَعَةَ. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فليطْلُبْها من عنده فإنَّ له كلَّها، فاستغْنَى بالدليل عن المدلولِ. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيانٌ لما يُطْلَبُ به العزةُ وهو التوحيدُ والعملُ الصالح، وصعودُهما إليه مجازٌ عن قبوله إيَّاهُما، أو صعودُ الْكَتَبَةِ بصحيفتِهما. والمستَكِنُّ في يرفعُهُ للكَلِمِ فإنَّ العملَ لا يُقْبَلُ إلا بالتوحيدِ ويؤيدُه أنه نصبَ العملَ، أو للعملِ فإنه يحققُ الإيمانَ ويقوِّيه، أو لله وتخصيصُ العملِ بهذا الشرفِ لما فيه من الكُلَفَةِ. وقرىء يُصْعَدُ على البناءِنِ والمُصْعِدُ هو الله تعالى أو المتكلِّم به أو المَلَكُ. وقيل الكلِمُ الطيبُ يتناولُ الذِّكْرَ والدعاءَ وقراءةَ القرآن. وعنه عليه الصلاة والسلام «هو سبحانَ اللهِ والحمدُ لله ولا إلهَ إلا اللهُ والله أكبر، فإذا قالها العبدُ عَرَجَ بها الملكُ إلى السماءِ فحيَّا بها وجهَ الرحمن، فإذا لم يكنْ عملٌ صالح لم تُقبَلْ»[1].
﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المكَرَاتُ السيئاتُ يعني مكراتِ قريشٍ للنبي عليه الصلاة والسلام في دارِ الندوةِ وتداورُهم الرأيَ في إحدى ثلاثِ حَبْسِه وقتلِه وإجلائِه. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُؤْبَهُ دونه بما يمكرونَ به. ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يفسدُ ولا ينفذُ لأنَّ الأمورَ مقدَّرةٌ لا تتغيَّرُ به كما دلَّ عليه بقوله:

(١١) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بخلْقِ آدمَ عليه السلام منه. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ بخلْق ذرِّيته منها. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذُكْراناً وإناثاً. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إلاَّ معلومةً له. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ وما يُمَدُّ في عُمُرِ مَنْ مصيره إلى الكِبَرِ. ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ من عُمُرِ المعمَّرِ لغيرِهِ بأنْ يُعْطَى له عُمُرٌ ناقصٌ من عُمُرِه، أو لا يَنْقُصُ من عُمُرِ المنقوصِ عُمُرُهُ بجعْلِه ناقصاً، والضميرُ له وإنْ لم يُذَكَّرْ لدلالةِ مقابِله عليه أو للعُمُرِ على التسامحِ فيه ثقةً بفهْمِ السامعِ كقولهم: لا يثيبُ اللهُ عبداً ولا يعاقِبُهُ إلا بحقٍّ. وقيلَ الزيادةُ والنقصانُ في عُمُرٍ واحد باعتبارِ أسبابٍ مختلِفةٍ أُثْبِتَتْ في اللوح مثْلُ: أنْ يكون فيه إنْ حجَّ عمرٌو فعُمْرُهُ ستونَ سنةً وإلا فأربعونَ. وقيل المراد بالنقصانِ ما يمرُّ من عُمُرِهِ وينقضي فإنه يُكْتَبُ في صحيفةِ عُمُرِهِ يوماً فيوماً، وعن يعقوبَ ولا يَنْقُصُ على البناءِ للفاعلِ. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ هو عِلْمُ الله تعالى أوِ اللوحُ المحفوظ أوِ الصحيفةُ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى الحفظِ أو الزيادةِ أو النقصِ.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٨ رقم ٢٦٠): «أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية علي بن عاصم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً.
ورواه الحاكم - (٢/ ٤٢٥) - والبيهقي في الأسماء، والطبري - في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/ ١٢٠) - مرفوعاً عن ابن مسعود رضي الله عنه» هـ.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا
يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضُرِبَ مثلٌ للمؤمنِ والكافرِ، والفراتُ الذي يكسِرُ العطشَ والسائغُ الذي يسهُلُ انحدارُه، والأجاجُ الذي يحرقُ بملوحَتِهِ. وقرىء سَيِّغٌ بالتشديدِ، وسَيْغٌ بالتخفيف، ومَلِحٌ على فَعِلٌ. ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استطرادٌ في صفةِ البحرينِ وما فيهما من النِّعمِ، أو تمامُ التمثيلِ والمعنى: كما أنَّهما وإنِ اشتركا في بعضِ الفوائد لا يتساويانِ من حيثُ إنهما لا يتساويانِ فيما هو المقصودُ بالذاتِ من الماءِ، فإنه خالطَ أحدُهما ما أفسدَه وغيّره عن كمالِ فطرته، لا يتساوى المؤمنُ والكافرُ وإنِ اتفقَ اشتراكُهما في بعض الصفاتِ كالشجاعةِ والسخاوةِ لاختلافِهما فيما هو الخاصيةُ العظْمَى وهي بقاءُ أحدِهما على الفطرةِ الأصليةِ دونَ الآخرِ، أو تفضيلٌ للأُجاج على الكافرِ بما يشاركُ فيه العذْبَ من المنافع. والمرادُ بالحليةِ اللآلىءُ واليواقيتُ. ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ في كلٍّ. ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشقُّ الماءَ بِجَرْيِهَا. ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من فضلِ اللهِ بالنقلةِ فيها، واللامُ متعلِّقةٌ بمواخِرَ، ويجوزُ أنْ تتعلّقَ بما دلَّ عليه الأفعالُ المذكورةُ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك، وحرفُ الترجي باعتبارِ ما يقتضيه ظاهرُ الحالِ.

(١٣) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي مدةُ دورِهِ أو منتهاهُ أو يومَ القيامة. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الإشارةُ إلى الفاعلِ لهذه الأشياءِ. وفيها إشعارٌ بأنَّ فاعليّتَهُ لها موجِبةٌ لثبوتِ الأخبارِ المترادفةِ، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ له الملكُ كلاماً مبتدأً في قرآنٍ. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ للدلالةِ على تفرُّده بالألوهيةِ والربوبيةِ، والقِطْميرُ لفافةُ النَواةِ.

(١٤) ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنهم جمادٌ ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على سبيل الفرض. ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لعدمِ قُدْرَتِهم على الإنفاع، أو لتبرُّئِهم منكم مما تدعون لهم. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشراككم لهم يقرّونَ بِبُطْلانه أو يقولون ما كنتم إيانا تعبدون. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا يخبرُك بالأمر مخبرٌ مثلُ خبيرٍ به أَخبَرَك وهو اللهُ سبحانه وتعالى، فإنه الخبيرُ به على الحقيقةِ دون سائرِ المخبرينَ. والمراد تحقيقُ ما أَخبَرَ به من حالِ آلهتهم ونفي ما يدَّعونَ لهم.

(١٥) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسِكم وما يعنُّ لكم، وتعريفُ الفقراءِ للمبالغةِ في فقْرِهم كأنهم لشدَّةِ افتقارِهم وكثرةِ احتياجهم هم الفقراءُ، وأنَّ افتقارَ سائرِ الخلائقِ بالإضافة إلى فقْرِهم

غيرُ معتدٍّ به ولذلك قال ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[1]. ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ المستغني على الإطلاقِ المنعِم على سائرِ الموجوداتِ حتى استحقَّ عليهم الحمدَ.

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بقومٍ آخرينَ أطوعَ منكم، أو بعالَمٍ آخرَ غيرَ ما تعرفونه.

(١٧) ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذِّرٍ أو متعسِّر.

(١٨) ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثْمَ نفسٍ أخرى، وأما قوله ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾[2] ففي الضالِّين المضلِّينَ فإنَّهم يحملونَ أثقالَ إضلالِهم مع أثقالِ ضلالِهم، وكلُّ ذلك أوزارُهم ليس فيها شيءٌ من أوزارِ غيرِهم. ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ نفسٌ أثقلَها الأوزارُ. ﴿ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ تحملُ بعضَ أوزارِها. ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ لم تُجبْ لحملِ شيءٍ منه نَفَى أنْ يُحْمَلَ عنها ذنبُهَا كما نَفَى أنْ يُحمَلَ عليها ذنبُ غيرِها. ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ ولو كان المدعُو ذا قرابتِها، فأضمرَ المدعوَّ لدلالة إنْ تدعُ عليه. وقرىء ذو قربى على حذفِ الخبرِ وهو أوْلَى من جعْلِ كانَ التامةِ فإنها لا تلائِمُ نَظْمَ الكلام. ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ غائبينَ عن عذابِه، أو عن الناس في خَلَواتِهم، أو غائباً عنهم عذابُه. ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فإنهم المنتفِعُونَ بالإنذارِ لا غيرَ، واختلافُ الفعلينِ لما مرَّ من الاستمرارِ. ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ ﴾ ومن تطهَّر من دَنَسِ المعاصي. ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ إذ نفعُه لها، وقُرِىءَ ومن ازَّكَىٰ فإنما يَزَّكىٰ وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لخشيتِهم وإقامتِهم الصلاةَ لأنَّهما من جملةِ التزكي. ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فيجازيْهم على تزكِّيهم.

(١٩) ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ الكافرُ والمؤمنُ، وقيل هما مَثَلَانِ للصنمِ وللهِ عزَّ وجلَّ.

(٢٠) ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ ولا الباطلُ ولا الحقُّ.

(٢١) ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ ولا الثوابُ ولا العقابُ، ولا لتأكيدِ نفي الاستواءِ، وتكريرُها على الشقينِ لمزيدِ التأكيدِ. والحرورُ فعولٌ من الحرِّ غَلَبَ على السَّموم. وقيل السمومُ ما يَهُبُّ نهاراً والحرورُ ما تهبُّ ليلاً.

(٢٢) ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تمثيلٌ آخرُ للمؤمنينَ والكافرينَ أبلغُ من الأولِ ولذلك كرَّر

(١) النساء: «٢٨».
(٢) العنكبوت: «١٣».

الفعلَ. وقيل للعلماءِ والجهلاءِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ هدايتَه فيوفِّقُه لِفَهْمِ آياتِه والاتعاظِ بِعِظَاتِه. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ ترشيحٌ لتمثيلِ المصرِّيْنَ على الكفرِ بالأمواتِ ومبالغةٌ في إقناطِه عنهم.

إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فما عليك إلا الإنذارُ وأما الإسماعُ فلا إليك ولا حيلةَ لك إليه في المطبوعِ على قلوبهم.

(٢٤) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ محقِّينَ أو محقّاً، أو إرسالاً مصحوباً بالحقِّ، ويجوزُ أنْ يكونَ صلةً لقوله: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾ أي بشيراً بالوعْدِ الحقِّ ونذيراً بالوعيدِ الحقِّ. ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ﴾ أهلُ عصرٍ. ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضَى. ﴿فِيهَا نَذِيرٞ﴾ من نبيٍّ أو عالمٍ يُنْذِرُ عنه، والاكتفاءُ بذكرِه للعلمِ بأنَّ النذارةَ قرينةُ البشارةِ سِيَّما وقد قُرِنَ به من قبلُ، أو لأنَّ الإنذارَ هو الأهمُّ المقصودُ من البِعْثَةِ.

(٢٥) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ الشاهدةِ على نبوَّتِهم. ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصُحُفِ إبراهيمَ عليه السلام. ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ كالتوراةِ والإنجيلِ على إرادةِ التفصيلِ دونَ الجمْعِ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بهما واحدٌ، والعطفُ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكارٌ بالعقوبةِ.

(٢٧) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ أجناسُها وأصنافُها على أنَّ كلاًّ منها ذو أصنافٍ مختلفةٍ، أو هيئاتُها من الصُّفرةِ والخضْرةِ ونحوهما. ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ أي ذو جددٍ أي خُططٍ وطرائقَ يُقالُ جِدَةُ الحمارِ للخطَّةِ السوداءِ على ظهْرِه. وقرىء جُدُدٌ بالضمِّ جمعُ جديدةٍ بمعنَى الجدَّةِ، وجَدَدٌ بفتحتينِ وهو الطريقُ الواضحُ. ﴿بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ بالشدَّةِ والضعفِ. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ عطفٌ على بيضٍ أو على جُدَدٍ كأنه قيل: ومن الجبالِ ذو جددٍ مختلفةِ اللونِ ومنها غرابيبُ متَّحدةُ اللونِ، وهو تأكيدٌ مضمرٌ يفسِّره ما بعدَه فإنَّ الغربيبَ تأكيدٌ للأسودِ ومن حقِّ التأكيدِ أنْ يَتْبَعَ المؤكَّد، ونظيرُ ذلك في الصفةِ قولُ النابغةِ:

وَالمُؤْمِنُ العَائِذَاتُ الطَّيْرَ يَمْسَحُهَا[1]

وفي مثلِه مزيدُ تأكيدٍ لما فيه من التكريرِ باعتبارِ الإضمارِ والإظهارِ.

---

(١) البسيط.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ
بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ
سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ كاختلافِ الثمارِ والجبالِ. ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ إذ شَرْطُ الخشيةِ معرفةُ المخشِيِّ والعلمُ بصفاته وأفعاله، فَمَنْ كان أعلمَ به كان أخْشَى منه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إني أخشاكُم لله وأتقاكُم له»[1] ولذلك أَتْبَعَهُ بذكرِ أفعاله الدالَّةِ على كمالِ قدرته، وتقديمُ المفعولِ لأنَّ المقصودَ حصرُ الفاعليةِ ولو أُخِّرَ انعكسَ الأمرُ. وقرىء برفعِ اسمِ اللهِ ونَصْبِ العلماءِ على أنَّ الخشيةَ مُسْتَعَارَةٌ للتعظيم، فإنَّ المعظَّمَ يكون مَهِيْباً. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ لدلالتهِ على أنه معاقِبٌ للمصرِّ على طُغيانِهِ غفورٌ للتائبِ عن عِصْيَانِهِ.

(٢٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ يداوِمونَ على قراءتِه أو متابعةِ ما فيه حتى صارتْ سِمَةً لهم وعنواناً، والمرادُ بكتاب الله القرآنُ أو جنسُ كُتُبِ الله فيكون ثناءً على المصدِّقين من الأُمم بعدَ اقتصاصِ حالِ المكذِّبينَ. ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ كيف اتفقَ من غير قَصْدٍ إليهما. وقيلَ السرُّ في المسنونةِ والعلانيةُ في المفروضةِ. ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً ﴾ تحصيلَ ثوابِ الطاعةِ وهو خبرُ إنَّ. ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ لن تَكْسُدَ ولن تَهْلِكَ بالخسرانِ صفةٌ للتجارة وقولُه:

(٣٠) ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ عِلَّةٌ لمدلوله أي ينتفي عنها الكسادُ وتنفُقُ عندَ الله ليوفِّيهم بنفاقِها أجورَ أعمالِهم، أو لمدلولِ ما عدَّ مِن امتثالِهم نحوُ فعلوا ذلك ليوفِّيهم أو عاقبةٌ ليرجُونَ. ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ على ما يقابلُ أعمالَهم. ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾ لِفَرَطَاتِهم. ﴿ شَكُورٌ ﴾ لطاعاتِهم أي مجازيهم عليها، وهو عِلَّةٌ للتوفيةِ والزيادةِ أو خبرُ إنَّ ويرجون حالٌ مِنْ واو وأنفقوا.

(٣١) ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني القرآنَ ومِنْ للتبيينِ أو الجِنْسِ ومِنْ للتبعيضِ. ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَحِقه مصدِّقاً لما تقدَّمه من الكتُبِ السماوية حالٌ مؤكَّدة لأنَّ حقِّيَّتَهُ تستلزم موافقَتَهُ إيَّاه في العقائدِ وأصولِ الأحكام. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ عالمٌ بالبواطنِ والظواهرِ فلو كان في أحوالِك ما ينافي النبوةَ لم يوح إليكَ مثلُ هذا الكتابِ المعجز الذي هو عيَّارٌ على سائرِ الكتبِ، وتقديمُ الخبيرِ للدلالةِ على أنَّ العُمْدَةَ في ذلك الأمورُ الروحانيةُ.

(٣٢) ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ حَكَمْنَا بتوريثِه منك أو نورِّثه فعبَّر عنه بالماضي لتحقُّقِه، أو أورثناه من

---

(١) وهو جزء من حديث أخرجه البخاري (٩/ ١٠٤ رقم ٥٠٦٣) ومسلم (٤/ ١٢٩ ـ الآفاق الجديدة). من حديث أنس.

الأممِ السالفة، والعطفُ على إنَّ الذين يتلُون والذي أوحَيْنا إليك اعتراضٌ لبيانِ كيفيةِ التوريثِ. ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني علماءَ الأمةِ من الصحابةِ ومَنْ بعدَهم، أو الأمةَ بأسْرِهم فإنَّ الله اصْطَفَاهم على سائرِ الأمم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالتقصير في العمل به. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يعملُ به في غالبِ الأوقاتِ. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بضمِّ التعليم، والإرشادِ إلى العمل، وقيل الظالِمُ الجاهلُ والمقتصِدُ المتعلِّمُ والسابقُ العالِمُ. وقيل الظالِمُ المجرِمُ والمقتَصِدُ للذي خلطَ الصالحَ بالسيءِ، والسابقُ الذي ترجَّحتْ حسناتُه بحيثُ صارتْ سيئاتُه مكفَّرةً، وهو معنى قوله عليه الصلاةُ والسلامُ: «أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنةَ يرزقون فيها بغير حسابٍ، وأما الذين اقتصدُوا فأولئك يحاسَبُونَ حساباً يسيراً، وأما الذين ظلمُوا أنفسَهم فأولئك يُحْبَسُونَ في طولِ المحشرِ ثم يتلقاهم الله برحمته»[١] وقيلَ الظالمُ الكافرُ على أنَّ الضميرَ للعبادِ، وتقديمُهُ لكثرةِ الظالمينَ ولأنَّ الظُّلمَ بمعنى الجهلِ والركونِ إلى الهوى مقتضى الجِبِلَّةِ. والاقتصادُ والسبقُ عارضانِ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارةٌ إلى التوريثِ أوِ الاصطفاءِ أو السبقِ.

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

(٣٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ مبتدأٌ وخبرٌ والضميرُ للثلاثةِ أو للذين أو للمقتصِد والسابقِ، فإنَّ المرادَ بهما الجنسُ، وقرىء جنةُ عدْنٍ، وجناتِ عدنٍ منصوبٌ بفعل يفسِّره الظاهرُ، وقرأ أبو عمرو يُدْخَلونَها على البناءِ للمفعولِ. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مقدَّرةٌ، وقرىء يَحْلَونَ من حَلِيَتِ المرأةُ فهيَ حاليةٌ. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ مِنْ الأولى للتبعيضِ، والثانيةُ للتبيينِ. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ على ذهبٍ أي من ذهبٍ مرصَّعٍ باللؤلؤ، أو من ذهبٍ في صفاءِ اللؤلؤِ ونَصَبَهُ نافع وعاصمٌ رحمهما الله تعالى عطفاً على محلِّ مِنْ أساوِرَ. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

(٣٤)﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ هُمهم من خوفِ العاقبة، أو همُّهم من أجلِ المعاشِ وآفاتِه، أو من وسوسةِ إبليسَ وغيرِها، وقرىء الحُزْنَ. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبينَ. ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعينَ.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ دارَ الإقامةِ. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من إنعامِه وتفضُّلِه أذ لا واجبَ عليه. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعبٌ. ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلا إذ لا تكليفَ فيها ولا كدَّ، أتْبَعَ نفيَ النَّصبِ نفيَ ما يتبعُه مبالغةً.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٩٤، ١٩٨) و(٦/ ٤٤٤) من حديث أبي الدرداء، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٥) وقال: «رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح وهي هذه إن كان علي بن عبدالله الأزدي سمع من أبي الدرداء فإنه تابعي» هـ.
وله شاهد من حديث عوف بن مالك، أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٧٩ ـ ٨٠) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٦) وقال: وفيه سلامة بن روح وثقة ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات».

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ
كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا
يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ
كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُحكَمُ عليهم بموتٍ ثانٍ. ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا، ونَصْبُهُ بإضمار أنْ، وقرىء فيموتُون عطفاً على يُقْضَى كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[1]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلما خبتْ زِيدَ إسعارُها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلُ ذلك الجزاءِ. ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالِغ في الكفر أو الكفرانِ. وقرأ أبو عمرو يُجْزَىٰ على بناء المفعول وإسنادُه إلى كلٍّ، وقرىء يجازى.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون يفتعِلُون من الصُّراخ وهو الصياحُ استُعْمِل في الاستغاثةِ لجهرِ المستغيثِ صوتُه. ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القولِ. وتقييدُ العملِ الصالح بالوصْفِ المذكور للتحسُّر على ما عملوه من غير الصالحِ والاعترافِ به، والإشعارِ بأنَّ استخراجَهم لتلافيه، وأنهم كانوا يحسبون أنه صالحٌ والآن تحقَّقَ لهم خلافُه. ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ جوابٌ من الله وتوبيخٌ لهم وما يتذكَّرُ فيه متناولٌ كلَّ عُمُرٍ يمكَّنُ المكلَّفُ فيه من التفكُّر والتذكُّرِ، وقيل ما بين العشرينَ إلى الستينَ. وعنه عليه الصلاة والسلام «العمرُ الذي أعذرَ الله فيه إلى ابنِ آدمَ ستونَ سنةً»[2]. والعطفُ على معنى أولم نعمِّرْكُم فإنه للتقرير كأنه قال: عمَّرناكم وجاءكم النذيرُ وهو النبيُّ ﷺ أوِ الكتابُ، وقيل العقلُ أوِ الشيبُ أو موتُ الأقاربِ. ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفعُ العذابَ عنهم.

(٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه خافيةٌ فلا يَخفَى عليه أحوالُهم. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليلٌ له لأنه إذا عَلِمَ مضمراتِ الصدورِ وهي أخفَى ما يكونُ كان أعْلَمَ بغيرها.

(٣٩) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ مُلقي إليكم مقاليدَ التصرُّف فيها، وقيل خلفاً بعدَ خَلَفٍ جمعُ خليفةٍ والخلفاءُ جمعُ خليفٍ. ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ جزاءُ كفرهِ. ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيانٌ له، والتكريرُ للدلالة على عن اقتضاءِ الكفر لكلٍّ واحد من الأمرينِ مستقلٌّ باقتضاءِ قُبحِهِ ووجوبِ التجنُّبِ عنه، والمرادُ بالمقْتِ وهو أشدُّ البغضِ مقتُ الله وبالخسارِ خسارُ الآخرة.

---

(١) المرسلات: «٣٦».

(٢) أخرجه البخاري (١١/٢٣٨ رقم ٦٤١٩) من حديث أبي هريرة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني آلهتَهُم والإضافةُ إليهم لأنَّهم جعلُوهم شركاءَ الله أو لأنفسِهم فيما يملكُونه. ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من أرأيتُم بدلُ الاشتمالِ لأنه بمعنى أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاءِ الشركاءِ أروني أيَّ جُزْءٍ منَ الأرضِ استبدُّوا بخلْقِه. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أم لهم شركةٌ مع اللهِ في خلْقِ السمواتِ فاستحقُّوا بذلك شركةً في الألوهيةِ ذاتيةً. ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطقُ على أنا اتَّخذْناهم شركاءَ. ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ على حجَّةٍ من ذلك الكتابِ بأنَّ لهم شركةً جعليةً، ويجوزُ أنْ يكونَ هم للمشركينَ كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾[1] وقرأ نافعٌ وابن عامر ويعقوبُ وأبو بكر والكسائيُّ «على بيِّناتٍ» فيكون إيماءً إلى أنَّ الشركَ خطيرٌ لابدَّ فيه من تعاضُدِ الدلائلِ. ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لما نَفَى أنواعَ الحججِ في ذلك أضربَ عنه بِذِكْرِ ما حَمَلَهُم عليه وهو تغريرُ الأسلافِ الأخلافَ، أو الرؤساءُ الأتباعَ بأنهم شفعاءُ عند الله يشفعون لهم بالتقرُّبِ إليه.

(٤١) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ كراهةَ أنْ تزولا فإنَّ الممكنَ حالَ بقائِه لابدَّ له من حافظٍ، أو يمنعُهما أنْ تزولا لأنَّ الإمساكَ منعٌ. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ﴾ ما أمسكَهُما. ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ من بعدِ الله أو من بعدِ الزوال، والجملةُ سادَّةٌ مسدَّ الجوابَيْنِ ومِنْ الأولى زائدةٌ والثانيةُ للابتداءِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيثُ أمسكَهُما وكانتا جديرتَيْنِ بأنْ تُهدّا هَدّاً كما قال تعالى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾[2].

(٤٢) ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ وذلك أنَّ قريشاً لما بلغَهُم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبوا رُسُلَهُم قالوا: لعنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى لو أتانا رسولٌ لنكوننَّ أَهْدَى من إحدى الأُمَمِ، أي من واحدةٍ منَ الأُممِ اليهودُ والنصارى وغيرُهم، أو مِنَ الأمةِ التي يُقَالُ فيها هي إحدى الأُمَمِ تفضيلاً لها على غَيرِها في الهدى والاستقامةِ. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي النذيرُ أو مجيئُه على التسُّببِ. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعُداً عن الحقِّ.

(٤٣) ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من نفوراً أو مفعولٌ له. ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أصلُه وإنْ مكروا المكرَ

(١) الروم: «٣٥».
(٢) مريم: «٩٠».

السيءَ فحذفَ الموصوفَ استغناءً بوصْفِهِ ثم بدلَ أنْ مع الفعل بالمصدر ثم أُضِيفَ. وقرأ حمزةُ وحدَه بسكونِ الهمزةِ في الوصل[1]. ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ ولا يحيطُ. ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكِرُ وقد حاقَ بهم يومَ بدْرٍ. وقرئ ولا يُحيقُ المكرَ أي ولا يحيقُ اللهُ. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سنةَ اللهِ فيهم بتعذيبِ مكذِّبيهم. ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ إذ لا يبدِّلُها بجعْلِهِ غيرَ التعذيبِ تعذيباً ولا يَحوِّلُها بأنْ ينقلَه من المكذبينَ إلى غيرِهم، وقوله:

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

(٤٤) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهادَ عِلْمٍ بما يشاهدونه في مسايرهم إلى الشام واليمنِ والعراقِ من آثار الماضِينَ. ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ ليسْبِقَه ويفوتَهُ. ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياءِ كلِّها. ﴿قَدِيرًا﴾ عليها.

(٤٥) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي. ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ ظهْرِ الأرضِ. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من نَسَمَةٍ تدبُّ عليها بشؤْمِ معاصيهم، وقيل المرادُ بالدابَّةِ الإنسُ وحْدَه لقوله: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القيامة. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم على أعمالِهِم. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الملائكةِ دعتْه ثمانيةُ أبوابِ الجنةِ أنِ ادخُلْ مِنْ أيِّ بابٍ شِئْتَ»[2].

☆ ☆ ☆

(١) أي قرأ حمزة بسكون همزة «السيء».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص٣٩ رقم ٢٧٤) ـ.

سُورَةُ يسٓ

ترتيبها ٣٦ — آياتها ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ
أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

سورة يس مكيةٌ(١)

وعنه عليه الصلاةُ والسلام: «يس تُدْعَى المعِمَّةَ تعمُّ صاحِبَها خيرَ الدارَيْنِ والدافعةَ والقاضيةَ تدفعُ عنه كلَّ سوءٍ وتقضي له كلَّ حاجةٍ»(٢) وآيُها ثلاثٌ وثمانونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يسٓ﴾ كألٓم في المعنى والإعرابِ. وقيل معناه يا إنسانُ بلغةِ طيءٍ على أنَّ أصْلَه يا أُنَيْسِينُ فاقْتُصِر على شطرِهِ لكثرةِ النداء به كما قيل مُنِ الله في أيمنَ. وقرىء بالكسرِ كجيرِ، وبالفتحِ على البناءِ

---

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة يسٓ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة يسٓ بمكة. [الدر المنثور (٧/ ٣٧)].

(٢) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص١٠٠ رقم ٢١٦) من حديث أبي بكر، وكذلك أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٨٠ رقم ٢٤٦٥) وقال البيهقي: «تفرد به محمد بن عبدالرحمٰن هذا عن سليمان وهو منكر. وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٤٧) وقال: قال النسائي: محمد بن الرحمٰن الجدعاني متروك الحديث.
وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٨٩): «الجدعاني لم يتهم بكذب بل وثق فقال فيه أحمد وأبو زرعة لا بأس به فغاية حديثه أن يكون ضعيفاً».
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

كَأَيْنَ. أو الإعرابُ على اتلُ يس أو بإضمارِ حرفِ القسم، والفتحةُ لمنعِ الصرفِ، وبالضمِّ[1] بناءً كحيثُ أو إعراباً على هذه يس. وأمالَ الياءَ حمزةُ والكسائيُّ وروحٌ وأبو بكر، وأَدْغَمَ النونَ في واوِ.

(٢) ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ابنُ عامر والكسائي وأبو بكر وورشٌ ويعقوبُ، وهي واوُ القسَمِ أو العطفِ إنْ جُعِلَ يس مُقْسَماً به.

(٣) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لَمِنَ الذين أُرْسِلُوا.

(٤) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيدُ والاستقامةُ في الأمور، ويجوزُ أنْ يكونَ على صراطٍ خبراً ثانياً أو حالاً من المستكِنِّ في الجارِّ والمجرور، وفائدتُه وصفُ الشرعِ صريحاً بالاستقامةِ وإنْ دلَّ عليه لمن المرسلينَ التزاماً.

(٥) ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ خبرٌ محذوفٌ والمصدرُ بمعنى المفعولِ. وقرأ ابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وحفصٌ بالنصبِ بإضمارِ أعني أو فِعْلُه على أنه على أصْلِه، وقرىء بالجرِّ على البدلِ منَ القرآنِ[2].

(٦) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بتنزيلَ أو بمعنى لمن المرسلين. ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قوماً غيرَ مُنْذَرٍ آباؤُهم يعني آباءَهم الأقربينَ لتطاوُلِ مدَّةِ الفترةِ، فيكونُ صفةً مبيِّنةً لشدَّةِ حاجتهم إلى إرساله، أو الذي أُنْذِرَ به أو شيئاً أُنْذِرَ به آباؤُهم الأبعدونَ، فيكونُ مفعولاً ثانياً لِتُنْذرَ، أو إنذارُ آبائِهم على المصدر. ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ متعلِّقٌ بالنفي على الأولِ أي لم يُنْذَرُوا فَبَقُوْا غافلينَ، أو بقوله إنك لمن المرسلين على الوجوهِ الأُخرى أي أرسلناك إليهم لتنذِرَهم فإنَّهم غافلون.

(٧) ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني قولَه تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[3]. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهم ممَّنْ علِمَ الله أنَّهم لا يؤمنون.

(٨) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ تقريرٌ لِتَصْميمِهم على الكفرِ، والطبعُ على قلوبهم بحيثُ لا تغني عنهم الآياتُ والنُّذُر، بتمثيلهم بالذين غُلَّتْ أعناقُهم. ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ فالأغلالُ واصلةٌ إلى أذقانِهم فلا تخلِّيهم يُطَأْطِئُونَ رؤوسَهم له. ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ رافعونَ رؤوسَهم غاضُّون أبصارَهم في أنَّهم لا يلتفِتونَ لَفْتَ الحقِّ ولا يعطِفُون أعناقَهم نَحْوَهُ ولا يُطَأْطِئُونَ رؤوسَهم له.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وبمن أحاطَ بهم سدَّانِ فغطَّى أبصارَهم بحيثُ لا يبصِرونَ قدَّامهم ووراءَهم في أنهم محبوسُونَ في مطمورةِ الجهالةِ ممنوعُون عن النظرِ في الآياتِ والدلائلِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ سَداً بالفتح وهو لغةٌ فيه، وقيل ما كانَ بفعلِ الناس فبالفتح وما كان بخلْقِ اللهِ فبالضمِّ. وقُرِىءَ فأعْشَيْنَاهم من العَشَاءِ. وقيل الآيتانِ في بني مخزوم، حَلَفَ أبو جهل أنْ يرضخَ رأسَ النبيِّ ﷺ فأتاه وهو يصلِّي ومعه حجرٌ ليدمغَه، فلما رفعَ يده انثنتْ إلى عُنُقِه ولزِقَ الحجرُ بيدِهِ حتى فكُّوه عنها بِجُهْدٍ، فرجَع إلى قومه فأخْبَرَهُم، فقال مخزوميٌّ آخرُ: أنا أقتلُه

---

(١) أي وقرىء بالضم.

(٢) وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حثٌّ على الإيمان به ترهيباً وترغيباً، وإشعارٌ بأن تنزيله ناشىء عن غاية الرحمة (س/٧ ١٥٩).

(٣) هود: «١١٩».

بهذا الحجرِ فذهبَ فأعْمَى اللهُ بَصَرَهُ[1].

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾

(١٠) ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ سبقَ في سورة البقرةِ تفسيرُه.

(١١) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتَّبُ عليه البغيةُ المرومةُ. ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي القرآنَ بالتأمُّلِ فيه والعملِ به. ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ وخافَ عقابَه قبلَ حلوله ومعاينةِ أهوالِه، أو في سريرتِه ولا يغترُّ برحمتِه فإنه كما هو رحمٰنٌ منتقمٌ قهارٌ. ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾.

(١٢) ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ الأمواتَ بالبعثِ أو الْجُهَّالَ بالهدايةِ. ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ ما أسْلَفُوا من الأعمالِ الصالحة والطالحةِ. ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ الحسنةَ كَعِلْمٍ علموهُ وحبيسٍ وقفُوه، والسيئةُ كإشاعةِ باطلٍ وتأسيسِ ظلْمٍ. ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ يعني اللوحَ المحفوظَ.

(١٣) ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ ومثل لهم من قولهم هذه الأشياءَ على ضربٍ واحد أي مثالٍ واحدٍ، وهو يتعدَّى إلى مفعولَيْنِ لتضمُّنه معنى الجعْلِ وهما: ﴿مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ على حذفِ مضافٍ أي اجعلْ لهم مِثْلَ أصحاب القرية مَثَلاً، ويجوزُ أنْ يُقْتَصرَ على واحد ويُجْعَلَ المقدَّرُ بدلاً من الملفوظِ أو بياناً له، والقريةُ أنطاكيةُ. ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ بدلٌ من أصحاب القرية، والمرسلونَ رسلُ عيسى عليه الصلاةُ والسلام إلى أهلِها وإضافتُه إلى نفسِه في قوله:

(١٤) ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ لأنه فعلُ رسوله وخليفتِه وهما يحيى ويونسُ، وقيل غيرهُما. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا﴾ فقوَّيْنَا، وقرأ أبو بكر مخففاً من عزَّه إذا غَلَبَهُ. وحَذْفُ المفعولِ لدلالةِ ما قبلَه عليه، ولأنَّ المقصودَ ذِكْرُ المعزَّزِ به. ﴿بِثَالِثٖ﴾ وهو شمعونُ. ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ وذلِكَ أنهم كانوا عَبَدَةَ أصنامٍ فأرسلَ إليهم عيسى عليه السلام اثنينِ، فلما قَرُبَا من المدينة رأيا حَبِيْبَاً النجارَ يرعَى غَنَماً فسألَهما فأَخْبَرَاهُ فقال: أَمَعَكُما آيةٌ فقالا: نشفي المريضَ ونبرىءُ الأكْمَهَ والأبرصَ، وكان له ولدٌ مريضٌ فمسحَاه فبرأَ فآمنَ حبيبٌ وفشا الخبرُ، فَشُفِيَ على أيدِيهما خلقٌ كثير وبلغَ حديثُهما إلى الملِكِ وقال لهما: ألنا إلهٌ سوى آلِهَتِنا؟ قالا: نعمْ مَنْ أوجدَكَ وآلِهَتَكَ، قال: حتَّى أنظرَ في أَمْرِكُما

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/١٥٢) عن عكرمة.
وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣٩ ـ ١٤٠ رقم ٢٧٥) «أخرجه ابن إسحاق في السيرة في كلام طويل، ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن محمد بن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس ﷺأن أبا جهل، قال: إني أعاهد الله لأجلس غداً لمحمد بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه. فذكر نحوه إلى قوله قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر بين يديه. وأصله في البخاري ـ (٨/ ٧٢٤ رقم ٤٩٥٨) ـ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه».

فَحَبَسَهُما، ثم بعثَ عيسى شمعونَ فدخلَ متنكِّراً وعاشرَ أصحابَ الملِكِ حتى استأْنَسُوا به وأوصلُوه إلى الملِكِ فأَنِسَ به، فقال له يوماً: سمعتُ أنك حَبَسْتَ رجلين فهل سمعْتَ ما يقولانِه، قال فَدَعَاهُما فقال شمعونُ مَنْ أرسَلَكُما قالا: اللهُ الذي خَلَقَ كلَّ شيء وليسَ له شريكٌ، فقال صِفَاهُ وأوجِزا، قالا: يفعلُ ما يشاء ويحكُم ما يريدُ، قال وما آيتُكما، قالا: ما يتمنَّى الملِكُ، فدعا بغلامِ مطموسِ العينينِ فَدَعُوا اللهَ حتى انشقَّ له بَصَرُهُ، وأخذا بُنْدُقَتَيْنِ فوضَعَاهُما في حَدَقَتَيْه فصارتَا مُقْلَتَيْنِ ينظرُ بهما، فقال شمعونُ أرأيتَ لو سألْتَ آلهتكَ حتى تصنعَ مِثْلَ هذا حتَّى يكونَ لك ولها الشرفُ، قال ليس لي عنك سرٌّ آلهتُنا لا تسمعُ ولا تبصرُ ولا تضرُّ ولا تنفعُ، ثمَّ قال إنْ قَدَرَ إلٰهكُما على إحياءِ مَيِّتٍ آمنَّا به، فَأَتَوْا بغلامٍ ماتَ منذ سبعةِ أيامٍ فدعوا اللهَ فقام وقال: إني أُدخِلْتُ في سبعةِ أوديةٍ منَ النارِ وأنا أحذِّرُكم ما أنتمُ فيه فآمِنُوا، وقال فُتِحَتْ أبوابُ السماءِ فرأيتُ شاباً حَسَناً يشفعُ لهؤلاءِ الثلاثةِ فقال الملِكُ مَنْ هم قال شمعونُ وهذانِ فلما رأى شمعونُ أنَّ قولَه قد أثَّرَ فيه نصحَه فآمنَ في جَمْعٍ، ومَنْ لم يؤمنْ صاحَ عليهم جبريلُ عليه الصلاة والسلام فهلكُوا.

قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مزيةَ لكم علينا تقتضي اختصاصَكُم بما تدَّعُونَ، ورَفْعُ بَشَرٍ لانتقاضِ النفي المقتضي إعمالَ ما بإلاَّ. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ وحيٍ ورسالةٍ. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دَعوى الرسالة.

(١٦) ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلمِ اللهِ وهو يجري مَجْرَى القَسَمِ، وزادوا اللامَ المؤكِّدةَ لأنه جوابٌ عن إنكارِهم.

(١٧) ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهرُ البيِّنُ بالآيات الشاهدةِ لصحَّته، وهو المحسنُ للاستشهادِ فإنه لا يحسنُ إلا ببيِّنةٍ.

(١٨) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءَمْنَا بكم، وذلك لاستغرابهم ما ادَّعَوْهُ واستقباحِهم له وتنفُّرِهم عنه. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟﴾ عن مقالتكم هذهِ. ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٩) ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ سببُ شؤْمِكم معكُم وهو سوءُ عقيدتِكم وأعمالِكم، وقُرِىءَ طيرُكم معكُم. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ وُعِظْتُم، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ مثلُ تطيَّرتُم أو توعدتُم بالرَّجْمِ والتعذيب. وقد قرىء بألفٍ بينَ الهمزتينِ، وبفتح أنْ بمعنى أتطيرتُم لأنْ ذُكِّرتُم، وأنْ بغيرِ الاستفهامِ وأينَ ذُكِرتُم بمعنَى طائرُكم معكم حيثُ جَرَى ذِكْرُكُم وهو أبلغُ. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قومٌ عادتُكم الإسرافُ في العصيانِ فَمِنْ ثَمَّ جاءكم الشؤْمُ، أو في الضلالِ ولذلك توعَّدْتُم وتشاءَمْتُم بمن يجبُ أنْ يُكْرَمَ ويُتَبَرَّكَ به.

وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٠) ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ هو حبيبُ النجارُ وكان ينحتُ أصنامَهُم وهو ممَّنْ آمنَ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام وبينَهما سِتُّمائة سنةٍ، وقيل كان في غارٍ يعبدُ اللهَ فلمَّا بلغهُ خبرُ الرسلِ أتاهُم وأظهَرَ دينَهُ. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

(٢١) ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ على النُّصح وتبليغِ الرسالة. ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ إلى خير الدارَيْنِ.

(٢٢) ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ على قراءة غيرِ حمزةَ فإنه يسكِّنُ الياءَ في الوصْلِ، تلطُّفٌ في الإرشاد بإيراده في معرِضِ المناصحةِ لنفسه وإمحاضِ النصحِ، حيثُ أرادَ لهم ما أرادَ لها والمرادُ تقريعُهم على تركِهم عبادةَ خالقِهم إلى عبادة غيرِه ولذلك قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد، ثمَّ عاد إلى المساقِ الأولِ فقال:

(٢٣) ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ لا تنفعني شفاعتُهم. ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ بالنُّصرةِ والمظاهرةِ.

(٢٤) ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فإنَّ إيثارَ ما لا ينفعُ ولا يدفعُ ضُرّاً بوجْهٍ ما على الخالقِ المقتدِرِ على النَّفعِ والضُّرِّ، وإشراكُه به ضلالٌ بيِّنٌ لا يَخفَى على عاقلٍ، وقرأ نافع ويعقوبُ وأبو عمرو بفتحِ الياءِ.

(٢٥) ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي خلقكُم، وقرأ نافع وابنُ كثير وأبو عمرو بفتحِ الياء. ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ فاسمعوا إيماني، وقيل الخطابُ للرُّسلِ فإنه لما نصحَ قومَه أخذوا يرجمونَه فأسرعَ نحوَهم قبلَ أنْ يقتلُوه.

(٢٦) ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ قيل له ذلك لما قتلُوه بُشْرَى له بأنه من أهلِ الجنة، أو إكراماً وإذْناً في دخولها كسائرِ الشهداءِ، أو لما همُّوا بقتله رَفَعَهُ اللهُ إلى الجنةِ على ما قاله الحسنُ، وإنما لم يُقَلْ له لأنَّ الغرضَ بيانُ المقولِ دونَ المقولِ له؛ فإنه معلومٌ، والكلامُ استئنافٌ في حيِّزِ الجوابِ عن السؤالِ عن حالِه عندَ لقاءِ ربِّه بعدَ تصلُّبه في نَصْرِ دينه وكذلك: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾.

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فإنه جوابٌ عن السؤالِ عن قوله عندَ ذلك القولِ، وإنما تمنَّى عِلْمَ قومِه بحالِه ليحمِلَهم على اكتسابِ مِثْلِها بالتوبة عن الكفْرِ والدخولِ في الإيمان والطاعةِ على دَأْبِ الأولياءِ في كظْمِ الغيظِ والترحُّمِ على الأعداءِ، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطإٍ عظيم في أمرِهِ وأنه كانَ على حقٍّ. وقرئ المكرَّمينَ. وما خبريةٌ أو مصدرية والباءُ صلةُ يعلمونَ، أو استفهاميةٌ جاءت على الأصْلِ والباءُ صلةُ غَفَرَ أيْ بأي شيءٍ غَفَرَ لي، يريدُ به المهاجرةَ عن دينهم والمصابرةَ على أذيَّتِهم.

۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾

(٢٨) ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد هلاكِه أو رفعِه. ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكِهم كما أرسلْنا يومَ بدْرٍ والخندقِ بل كُفِيْنَا أمْرَهُم بصيحةِ مَلَكٍ، وفيه استحقارٌ لإهلاكهم وإيماءٌ بتعظيم الرسولِ عليه السلام. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما صحَّ في حِكْمَتِنَا أنْ ننزلَ جُنداً لإهلاكِ قومِه إذ قدَّرْنا لكلِّ شيءٍ سبباً وجعلْنا ذلك سبباً لانتصارِك من قومِك، وقيل ما موصولةٌ معطوفةٌ على جندٍ أي ومما كنَّا منزلينَ على مَنْ قبلَهم من حجارةٍ وريحٍ وأمطارٍ شديدة.

(٢٩) ﴿إِن كَانَتْ﴾ ما كانتِ الأخْذَةُ أوِ العقوبةُ. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاحَ بها جبريلُ عليه السلام، وقُرِئَتْ بالرفعِ على كان التامةِ. ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ ميِّتونَ، شُبِّهُوا بالنارِ رمزاً إلى أنَّ الحيَّ كالنارِ الساطعةِ والميِّتَ كرمادِها، كما قال لبيدٌ:

وَمَـا الـمَـرْءُ إلاَّ كَـالشِّهَـابِ وَضَـوْئِـه يحُـورُ رَمَـاداً بَعْـدَ إِذْ هُـوَ سَـاطِـعُ[1]

(٣٠) ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ تعالي فهذهِ من الأحوال التي من حقِّها أنْ تحضري فيها، وهي ما دلَّ عليها: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإنَّ المستهزئِيْنَ بالناصحينَ المخلصين المنوطَ بِنُصْحِهِم خيرُ الدارين أحقَّاءُ بأنْ يتحسَّروا ويُتَحَسَّرَ عليهم، وقد تلهَّفَ على حالهم الملائكةُ والمؤمنون من الثَّقلَيْنِ، ويجوزُ أنْ يكونَ تحسُّراً من الله عليهم على سبيلِ الاستعارةِ لتعظيم ما جَنَوْهُ على أنفسِهم ويؤيدُه قراءةُ يا حسرتا، ونَصْبُهَا لطولها بالجارِّ المتعلِّقِ بها، وقيل بإضمارِ فِعْلِها والمنادى محذوفٌ، وقرىء يا حسرةَ العبادِ بالإضافةِ إلى الفاعلِ أو المفعولِ، ويا حَسْرَهْ بالهاءِ على العبادِ بإجراءِ الوصلِ مَجْرَى الوقْفِ.

(٣١) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ألم يعلموا وهو معلَّقٌ عن قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ لأنَّ «كمْ» لا يعملُ فيها ما قبلَها وإنْ كانتْ خبريةً لأنَّ أصْلَها الاستفهامُ. ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدلٌ من كمْ على المعنَى أي ألم يروا كثرةَ إهلاكِنا مَنْ قبلَهم كونَهم غيرَ راجِعينَ إليهم. وقرىء بالكسْرِ على الاستئنافِ.

(٣٢) ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يومَ القيامة للجزاءِ، وإنْ مخفَّفةٌ من الثقيلة، واللامُ هي الفارقةُ وما مزيدةٌ للتأكيد. وقرأ ابنُ عامر وعاصم وحمزةُ لمَّا بالتشديدِ بمعنَى إلاَّ فتكونُ إنْ نافيةً، وجميعٌ فعيلٌ بمعنَى مفعولٍ، ولدينا ظرفٌ له، أو لمحضرونَ.

(٣٣) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ وقرأ نافعٌ بالتشديدِ. ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ خبرٌ للأرضِ، والجملةُ خبرُ آيةٍ،

---

(١) من الطويل.

أو صفةٌ لها إذ لم يرِدْ بها معيَّنةً وهي الخبرُ أو المبتدأُ والآيةُ خبرُهَا، أو استئنافٌ لبيانِ كونها آيةً. ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنسَ الحبِّ. ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدَّم الصلةَ للدلالة على أنَّ الحبَّ معظمُ ما يُؤْكَلُ ويُعَاشُ به.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

(٣٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ من أنواع النخلِ والعنبِ، ولذلك جمعَهُما دونَ الحبِّ فإنَّ الدالَّ على الجنسِ مشعِرٌ بالاختلافِ ولا كذلك الدالُّ على الأنواع، وذِكْرُ النخيلِ دونَ التمورِ ليطابقَ الحبَّ والأعنابَ لاختصاصِ شجرِها بمزيد النفع وآثارِ الصُّنع. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقرىء بالتخفيفِ، والفَجْرُ والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيونِ، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقِيمَتِ الصفةُ مقامَهُ، أو العيونَ ومِنْ مزيدةٌ عند الأخفشِ.

(٣٥) ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ ثمرِ ما ذُكِرَ وهو الجناتُ. وقيل الضميرُ لله تعالى على طريقةِ الالتفاتِ، والإضافةُ إليه لأنَّ الثمرَ بخلْقِه. وقرأ حمزة والكسائيُّ بضمتين وهو لغةٌ فيه أو جمعُ ثمارٍ، وقرىء بضمةٍ وسكونٍ. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ عطفٌ على الثمر والمرادُ ما يُتَّخَذُ منه كالعصير والدِّبْسِ ونحوهما، وقيل ما نافيةٌ والمراد أنَّ الثمرَ بخلْقِ اللهِ لا بِفِعْلِهم، ويؤيدُ الأولَ قراءةُ الكوفيينَ غيرَ حفصٍ بلا هاءٍ فإنَّ حذْفَهُ من الصلةِ أحسنُ من غيرِها. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أَمَرَ بالشكرِ من حيثُ إنه إنكارٌ لِتَرْكِه.

(٣٦) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الأنواعَ والأصنافَ. ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من النبات والشجرِ. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الذَّكَرَ والأُنْثى. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأزواجاً مما لم يُطْلِعْهم اللهُ تعالى عليه ولم يجعلْ لهم طريقاً إلى معرفته.

(٣٧) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نزيلُه ونكشِفُهُ عن مكانه مستعارٌ من سَلْخِ الجلدِ، والكلامُ في إعرابه ما سبقَ. ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلونَ في الظلامِ.

(٣٨) ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدٍّ معيَّنٍ ينتهي إليه دورُها فَشُبِّهَ بِمُسْتَقَرِّ المسافر إذا قطعَ مسيرَهُ، أو لكبِدِ السماءِ فإنَّ حَرَكَتَهَا فيه يوجدُ فيها بطءٌ بحيثُ يُظَنُّ أنَّ لها هناك وِقْفَةً قال:

وَالشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا بِالجَوِّ تَدْوِيمُ[1]

أو لاستقرار لها على نهجٍ مخصوص، أو لمنتهى مقدَّرٍ لكلِّ يوم من المشارق والمغاربِ فإنَّ لها في دورها ثَلَثمِائَةٍ وستينَ مشرقاً ومغرباً تطلُع كلَّ يوم من مطلِعٍ وتغربُ من مغربٍ ثم لا تعودُ إليهما

---

(١) من البسيط.

إلى العام القابلِ، أو لمنقطعِ جزيها عند خرابِ العالم. وقرىء لا مستقرَّ لها أي لا سكونَ فإنَّها متحركةٌ دائماً، ولا مستقرٌ على أنَّ لا بمعنى ليسَ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجريُ على هذا التقديرِ المتضمِّن لِلْحِكَم التي تُكِلُّ الفطِنَ عن إحصائها. ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالبِ بقدرته على كلِّ مقدورٍ. ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ المحيطِ علمُه بكلِّ معلومٍ.

وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ﴾ قدَّرنا مسيرَهُ. ﴿مَنَازِلَ﴾ أو سَيْرَهُ في منازلَ وهي ثمانيةٌ وعشرونَ: الشرطانُ، البطينُ، الثريّا، الدبرانُ، الهقعةُ، الهنعةُ، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهةُ، الزبرة، الصرفة، العواء، السماكُ، الغفر، الزبانا، الإكليلُ، القلب، الشولة، النعائم، البلدةُ، سعدُ الذابح، سعدُ بلعٍ، سعدُ السعود، سعد الأخبيةِ، فرغ الدلو المقدَّم، فرغ الدلو المؤخَّر، الرشا، وهو بطْنُ الحوت ينزل كلَّ ليلة في واحدٍ منها لا يتخطَّاه ولا يتقاصَرُ عنه، فإذا كان في آخرِ منازله وهو الذي يكونُ فيه قُبَيْلَ الاجتماع دقَّ واستقوسَ. وقرأ الكوفيونَ وابنُ عامرٍ والقمرَ بنصبِ الراء. ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ كالشمراخِ المعوجِ، فُعْلُونُ من الانعراجِ وهو الاعوجاجُ. وقرىء كالعِرْجَوْنِ وهما لغتانِ كالبِزْيَوْنِ والبُزْيُونِ[1]. ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾ العتيقِ وقيل ما مرَّ عليه حولٌ فصاعِداً.

(٤٠) ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ يصحُّ لها ويتسهلُ. ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ في سرعةِ سيرِه فإنَّ ذلك يخلُّ بتكوُّنِ النباتِ، وتعيُّشِ الحيوان، أو في آثارِه ومنافعِه أو مكانه بالنزولِ إلى محلِّه، أو سلطانه فتطمِسُ نورَه، وإيلاءُ حرفِ النفي الشمسَ للدلالةِ على أنها مسخرةٌ لا يتيسَّرُ لها إلا ما أُرِيدَ بها. ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ يسبقُه فيفوتُه ولكنْ يعاقِبُه، وقيل المرادُ بهما آيتاهُما وهما النيرانُ وبالسبق سبقُ القمرِ إلى سلطانِ الشمسِ فيكون عكساً للأول. وتبديلُ الإدراكِ بالسبقِ لأنه الملائِمُ لسرعةِ سيرِه. ﴿وَكُلّٞ﴾ وكلُّهم، والتنوينُ عوضٌ عن المضافِ إليه، والضميرُ للشموسِ والأقمارِ فإنَّ اختلافَ الأحوالِ يوجبُ تعدُّداً ما في الذاتِ، أو للكواكبِ فإنَّ ذِكْرَهُما مشعِرٌ بهما. ﴿فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ يسيرون فيه بانبساطٍ.

(٤١) ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أولادَهم الذين يبعثُونَهم إلى تجاراتِهم، أو صبيانَهم ونساءَهم الذين يستصْحِبونَهم، فإنَّ الذريةَ تقعُ عليهنَّ لأنهنَّ مزارِعُها. وتخصيصُهم لأنَّ استقرارَهم في السُّفنِ أشقُّ وتماسُكُهم فيها أعجبُ. وقرأ نافعٌ وابن عامر ذرياتِهم. ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ المملوءِ، وقيل المرادُ فُلْكُ نوحٍ عليه الصلاةُ والسلام، وحَمْلُ اللهُ ذرياتِهم فيها أنه حملَ فيها آباءَهم الأقدمينَ وفي أصلابِهم هم وذرياتُهم، وتخصيصُ الذريةِ لأنه أبلغُ في الامتنانِ وأدْخَلُ في التعجُّبِ مع الإيجازِ.

(٤٢) ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ من مثلِ الفُلْكِ. ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾ من الإبلِ فإنها سفائنُ البرِّ، أو من السفنِ والزوارقِ.

---

(١) هو السندس، غير أن الفيروز في المحيط أورده بضم الباء وبكسرها مع فتح الياء.

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا
بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٣) ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ فلا مغيثَ لهم يحرسُهم عن الغرقِ، أو فلا إغاثةَ كقولهم أتاهم الصريخُ. ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ينجُون من الموتِ به.

(٤٤) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا﴾ إلا لرحمةٍ ولتمتيعٍ بالحياة. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ زمانٍ قُدِّرَ لآجالِهم.

(٤٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الوقائعُ التي خلتْ، أو العذابُ المعدُّ في الآخرة، أو نوازلُ السماء ونوائبُ الأرض كقوله ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[١] أو عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة أو عكسُه، أو ما تقدَّم من الذنوبِ وما تأخَّر. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا راجينَ رحمةَ اللهِ، وجوابُ إذا محذوفٌ دلَّ عليه قولُه:

(٤٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا العذابَ أعرضُوا لأنَّهم اعتادُوه وتمرَّنوا عليه[٢].

(٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ على محاويجكُم. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانعِ يعني معطِّلةَ كانوا بمكَّةَ. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تهكُّماً بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمورَ بمشيئتِه. ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ على زعْمِكم، وقيل قاله مشركو قريشٍ حين استطعَمَهُم فقراءُ المؤمنينَ إيهاماً بأنَّ اللهَ تعالى لما كان قادراً أنْ يطعِمَهم ولم يطعِمْهم فنحنُ أحقُّ بذلك، وهذا من فَرْطِ جهالَتِهم فإنَّ اللهَ يطعمُ بأسبابٍ منها حثُّ الأغنياءِ على إطعامِ الفقراءِ وتوفيقُهم له. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ أمرتُمونا ما يخالِفُ مشيئةَ اللهِ، ويجوزُ أنْ يكونَ جواباً منَ اللهِ لهم، أو حكايةً لجواب المؤمنينَ لهم.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنُونَ وعْدَ البعثِ.

(٤٩) ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظرونَ. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأُولَى. ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يتخاصمونَ في متاجرِهم ومعاملاتِهم لا يخطُر ببالِهم أمرُها كقوله ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٣] وأصلُه يختصمونَ فسُكِّنَتِ التاء وأُدْغِمَتْ ثم كُسِرَتِ الخاءُ لالتقاءِ الساكنينِ. وقرأ أبو بكر بكسْرِ الياءِ للاتباعِ، وقرأ ابنُ كثير وورشٌ وهشام بفتح الخاء على إلقاءِ حركةِ التاء إليه، وأبو عمرو وقالونُ به مع الاختلاسِ، وعن نافع الفتحُ فيه والإسكانُ والتشديدُ وكأنه جوَّزَ الجمعَ بينَ

---

(١) سبأ: «٩».

(٢) وصيغة المضارع في تأتيهم للدلالة على الاستمرار التجددي (س/٧ ١٧٠).

(٣) يوسف: «١٠٧».

الساكنينِ إذا كان الثاني مذغَماً، وقرأ حمزةُ يَخْصِمُونَ من خَصَمَه إذا جادلَه.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٠) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيءٍ من أمورِهم. ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فَيَرَوْا حالَهم بل يموتون حيثُ تَبغَتُهُم.

(٥١) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي مرةً ثانية وقد سبق تفسيرهُ في سورة المؤمنينَ[1]. ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القبورِ، جمعُ جَدَثٍ وقرىء بالفاءِ. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يُسْرِعُون وقرىء بالضمِّ.

(٥٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ وقرىء يا ويلتنا. ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ وقرىءَ من أَهَبَّنا من هَبَّ من نومه إذا انْتَبَهَ ومن هَبَنَا بمعنى أَهَبَنَا، وفيه ترشيحٌ ورمزٌ وإشعارٌ بأنهم لاختلاطِ عقولهم يظنُّون أنهم كانوا نياماً، ومَنْ بَعَثَنَا ومن هَبَنَا على الجارّة والمصدرِ، وسكتَ حفصٌ وحدَه عليها سكتةً لطيفةً، والوقفُ عليها في سائرِ القراءاتِ حسنٌ. ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ وما مصدريةٌ، أو موصولةٌ محذوفةُ الراجعِ، أو هذا صفةٌ لمرقدنا وما وعد خبرٌ محذوفٌ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أي هذا ما وعدَ الرحمنُ وصدَقَ المرسلونَ، أو ما وعد الرحمنُ وصدق المرسلونَ حقٌّ، وهو من كلامِهم، وقيل جوابٌ للملائكة أو المؤمنينَ عن سؤالهم، معدولٌ عن سُنَنِه تذكيراً لكفرِهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً بأن الذي يهمُّهم هو السؤالُ عن البعْثِ دونَ الباعِثِ كأنهم قالوا: بعثكُم الرحمنُ الذي وعدَكُم البعثَ وأرسلَ إليكم الرسلَ فصدَّقوكم وليسَ الأمرُ كما تظنُّون، فإنه ليس يُبْعَثُ النائِمُ فيهمُّكم السؤالُ عن الباعثِ وإنما هو البعثُ الأكبرُ ذو الأهوالِ.

(٥٣) ﴿إِن كَانَتْ﴾ ما كانتِ الفعلةُ. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأخيرةُ، وقرئتْ بالرفعِ على كانَ التامةِ. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمجرَّد تلك الصيحةِ وفي كلِّ ذلك تهوينُ أمرِ البعثِ والحشرِ واستغناؤُهما عن الأسبابِ التي ينوطانِ بها فيما يشاهدونَه.

(٥٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حكايةٌ لما يُقَالُ لهم حينئذ تصويراً للموعودِ وتمكيناً له في النفوس وكذا قولُه:

(٥٥) ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ متلذِّذُونَ في النِّعمةِ منَ الفكاهةِ، وفي تنكيرِ شُغُلٍ وإبهامِه تعظيمٌ لما هم فيه من البهجةِ والتلذذِ، وتنبيهٌ على أنه أعلى ما يحيطُ به الأفهامُ ويعربُ عن كُنْهِه ....

---

(١) والتعبير بصيغة الماضي «نُفِخَ» للدلالة على تحقق الوقوع (س٧/ ١٧١).

الكلامُ[١]. وقرأ ابن كثير ونافعٌ وأبو عمرو في شغْلٍ بالسكونِ، ويعقوبُ في روايةٍ فكِهُونَ للمبالغةِ، وهما خبرانِ لإنَّ، ويجوزُ أنْ يكونَ في شُغُلٍ صلةً لفاكهونَ. وقرىء فكُهونَ بالضمِّ وهو لغة كنُطُسٍ ونَطُسٍ، وفاكهين وفكِهينَ على الحالِ من المستكِنِّ في الظرفِ، وشَغَلٍ بفتحتين وفتحة وسكونٍ والكلُّ لغاتٌ.

هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾ جمعُ ظلٍّ كشعابٍ أو ظُلَّةٍ كقبابٍ ويؤيدُه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ في ظُلَلٍ. ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ على السررِ المزيَّنةِ. ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ وهم مبتدأٌ خبرهُ في ظلالٍ، وعلى الأرائكِ جملةٌ مستأنَفَةٌ أو خبرٌ ثانٍ أو متكئونَ والجارّانِ صِلَتَانِ له، أو تأكيدٌ للضميرِ في شُغُلٍ أو في فاكهون، وعلى الأرائك متكئونَ خبرٌ آخرُ لإنَّ، وأزواجُهم عطفٌ على هم للمشاركةِ في الأحكامِ الثلاثةِ، وفي ظلالٍ حالٌ من المعطوفِ والمعطوفِ عليه.

(٥٧) ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ما يدَّعون به لأنفسِهم يفتعلونَ من الدعاءِ كاشتوى واجْتَمَل إذا شَوَى وجَمَلَ لنفسِه، أو ما يتداعَوْنه كقولك ارْتَمَوْهُ بمعنى ترامَوْهُ، أو يَتَمَنَّوْنَ من قولهم ادعُ عليَّ ما شئتَ بمعنى تمنَّهْ عليَّ، أو ما يدَّعونه في الدنيا من الجنةِ ودرجاتِها، وما موصولةٌ أو موصوفةٌ مرتفعةٌ بالابتداءِ، ولهم خبرُها وقولُه:

(٥٨) ﴿سَلَٰمٞ﴾ بدلٌ منها أو صفةٌ أخرى، ويجوزُ أنْ يكونَ خبرَها أو خبرَ محذوفٍ أو مبتدأً محذوفَ الخبرِ أي ولهم سلامٌ، وقرىء بالنصبِ على المصدرِ أو الحالِ أي لهم مرادُهم خالِصاً. ﴿قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ أي يقولُ اللهُ أو يُقَالُ لهم قولاً كائناً من جهتِـه، والمعنى أنَّ اللهَ يسلِّمُ عليهم بواسطةِ الملائكةِ أو بغير واسطةٍ تعظيماً لهم وذلك مطلوبُهم ومُتَمَنَّاهم، ويُحْتَمَلُ نصبُه على الاختصاصِ.

(٥٩) ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ وانفردُوا عن المؤمنينَ وذلك حينَ يُسَارُ بهم إلى الجنةِ كقوله ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾[٢]. وقيل اعتزِلوا منْ كلِّ خير أو تفرَّقوا في النارِ فإنَّ لكلِّ كافرٍ بيتاً ينفردُ به لا يَرَى ولا يُرَى.

(٦٠) ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ من جملةِ ما يُقَالُ لهم تقريعاً وإلزاماً للحجَّةِ، وعهدُه إليهم ما نَصَبَ لهم من الحُجَج العقليةِ والسمعيةِ الآمِرةِ بعبادته الزاجرةِ عن عبادةِ غيرِه، وجعلَها عبادةَ الشيطانِ، لأنه الآمِرُ بها والمزيِّنُ لها. وقرىء إعْهَدُ بكسْرِ حرفِ المضارَعَةِ، وأَحْهَدُ وأَحَدْ على لغةِ بني تميمٍ. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ تعليلٌ للمنعِ عن عبادته بالطاعةِ فيها يحملُهم عليه.

(١) والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المترقَّب المتوقَّع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها، ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك (س٧/ ١٧٣).

(٢) الروم: «١٤».

وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ
جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ
وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا
يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

(٦١) ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾ عطفٌ على أنْ لا تعبُدوا[1]. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى ما عَهِدَ إليهم أو إلى عبادتِه، فالجملةُ استئنافٌ لبيانِ المقتضي للعهدِ بِشِقَّيْهِ أو بالشقِّ الآخَرِ، والتنكيرُ للمبالغةِ والتعظيم، أو للتبعيضِ فإنَّ التوحيدَ سلوكُ بعضِ الطريقِ المستقيم.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ رجوعٌ إلى بيانِ معاداةِ الشيطانِ مع ظهورِ عداوتِه ووضوحِ إضلالِه لمن له أدنى عقلٍ ورأيٍ، والجِبِلُّ الخلْقُ. وقرأ يعقوبُ بضمتينِ، وابنُ كثير وحمزةُ والكسائي بهما مع تخفيفِ اللام، وابنُ عامر وأبو عمرو بضمةٍ وسكونٍ مع التخفيفِ، والكلُّ لغاتٌ، وقرىء جِبِلاً جمعُ جِبْلةٍ كخِلْقةٍ وخُلُقٍ، وجيلاً واحدُ الأجيال.

(٦٣) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

(٦٤) ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ذوقوا حرَّها اليومَ بكفْرِكم في الدنيا.

(٦٥) ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ نمنعُها عن الكلام. ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بظهورِ آثارِ المعاصي عليها ودلالتها على أفعالِها، أو إنطاقُ الله إيَّاها وفي الحديثِ «إنهم يجحدُون ويخاصِمون فَيُخْتَمُ على أفواهِهم وتتكلَّم أيديهم وأرجلُهم»[2].

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لمسخنا أعينَهم حتى تصيرَ ممسوحةً. ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ فاستبقوا إلى الطريقِ الذي اعتادوا سلوكَه. وانتصابُه بنزعِ الخافضِ، أو بتضمينِ الاستباقِ معنى الابتدارِ، أو جعْلِ المسبوقِ إليه مسبوقاً على الاتساعِ، أو بالظرفِ. ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الطريقَ وجهةَ السلوكِ فضلاً عن غيرِه.

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ بتغيير صُوَرِهم وإبطالِ قُواهُم. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ مكانَهم بحيثُ يجمدُون فيه، وقرأ أبو بكر مكاناتِهم. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ ذهاباً. ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا رجوعاً، فوُضِعَ الفعلُ موضِعَه للفواصلِ، وقيل لا يرجعون عن تكذيبهم، وقرىء مِضِياً بإتباعِ الميمِ الضادَ المكسورةَ لقلبِ الواوِ ياءً كالعُتِيِّ والعِتِيِّ، ومَضِيّاً كصبيٍّ. والمعنى أنَّهم بكفرهم ونقضِهم ما عُهِدَ إليهم أحقاءَ بأنْ يُفْعَلَ بهم ذلك، لكنَّا لم نفعلْ لشمولِ الرحمةِ لهم واقتضاءِ الحكمةِ إمهالَهم.

---

(١) وتقديم النهي عن عبادة الشيطان على الأمر بعبادة الله لأن التخلية مقدمة على التحلية، كما في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) (س/٧ ١٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٠ رقم ١٧/ ٢٩٦٩) من رواية الشعبي عن أنس.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١﴾

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ ومن نُطِلْ عُمُرَهُ. ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ نقلِّبْهُ فيه فلا يزالُ يتزايدُ ضعفُه وانتقاصُ بُنْيَتِهِ وقُوَاهُ عكسَ ما كان عليه بَدْءُ أمرِه، وابنُ كثير على هذه يشبعُ ضمةَ الهاءِ على أصْلِه، وقرأ عاصم وحمزةُ نُنَكِّسْهُ من التنكيسِ وهو أبلغُ والنُّكْسُ أشهرُ. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ مَنْ قَدَرَ على ذلك قَدَرَ على الطمسِ والمسخِ فإنه مشتملٌ عليهما وزيادة، غير أنه على تدرُّجٍ. وقرأ نافع بروايةِ ابنِ عامر وابنِ ذكوانَ ويعقوبَ بالتاءِ لجري الخطابِ قبلَه.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ردٌّ لقولهم إنَّ محمداً شاعرٌ أي ما علَّمناه الشعرَ بتعليم القرآنِ، فإنه لا يماثِلُه لفظاً ولا معنًى، لأنه غيرُ مقفًّى ولا موزونٍ، وليس معناه ما يتوخَّاه الشعراءُ من التخيلاتِ المرغِّبةِ والمنفِّرةِ ونحوِها. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصحُّ له الشعرُ ولا يتأتَّى له إنْ أرادَ قَرْضَهُ على ما خبرتُم طَبْعَهُ نحواً من أربعينَ سنةً، وقوله عليه الصلاةُ والسلام:

«أنا النبي لا كذبْ أنا ابن عبدالمطلبْ»[١].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «هل أنت إلا إصبعٌ دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ»[٢].

اتفاقيٌّ من غير تكلُّفٍ وقصدٍ منه إلى ذلك، وقد يقعُ مثلُه كثيراً في تضاعيفِ المنثوراتِ، على أنَّ الخليلَ ما عدَّ المشطورَ من الرجزِ شعراً، هذا وقد روي أنه حرَّكَ الباءينِ وكسرَ التاءَ الأولى بلا إشباعٍ وسكَّنَ الثانيةَ، وقيل الضميرُ للقرآنِ أي وما يصحُّ للقرآنِ أنْ يكون شعراً. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظةٌ وإرشادٌ من الله تعالى. ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ وكتابٌ سماويٌّ يتلى في المعابدِ، ظاهرٌ أنه ليس من كلام البشرِ لما فيه من الإعجازِ.

(٧٠) ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآنُ، أو الرسولُ ﷺ. ويؤيدُه قراءةُ نافع وابنِ عامر ويعقوبَ بالتاء. ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً فهماً فإنَّ الغافل كالميتِ، أو مؤمناً في علم الله تعالى فإنَّ الحياةَ الأبديةَ بالإيمان، وتخصيصُ الإنذارِ به لأنه المنْتَفِعُ به. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتجبُ كلمةُ العذابِ. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرِّيْنَ على الكفر، وجَعْلُهم في مقابلةِ مَنْ كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرِهم وسقوطِ حجَّتهم وعدمِ تأمُّلِهم أمواتٌ في الحقيقةِ.

(٧١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مما تولَّينا إحداثَه ولم يقدرْ على إحداثِه غيرُنا، وذِكْرُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٦٩ رقم ٢٨٦٤) و(٦/ ٧٥ رقم ٢٨٧٤) و(٦/ ١٠٥ رقم ٢٩٤٠) و(٦/ ١٦٤ رقم ٣٠٤٢) و(٨/ ٢٧ ـ ٢٨ رقم ٤٣١٥، ٤٣١٦، ٤٣١٧).
ومسلم (٣/ ١٤٠٠ ـ ١٤٠١ رقم ٧٨، ٧٩، ٨٠/ ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٩ رقم ٢٨٠٢) و(١٠/ ٥٣٧ رقم ٦١٤٦) ومسلم (٣/ ١٤٢١ رقم ١١٢/ ١٧٩٦) من حديث جندب بن سفيان.

الأيدي وإسنادُ العملِ إليها استعارةٌ تفيد مبالغةً في الاختصاصِ والتفردِ بالإحداثِ. ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ خصَّها بالذِّكرِ لما فيها من بدائعِ الفطرةِ وكثرةِ المنافعِ. ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ متملِّكونَ لها بتمليكِنا إيَّاها، أو متمكِّنون من ضَبْطِها والتصرُّفِ فيها بتسخيرنا إياها لهم قال:

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ ... أَمْلِكُ رَأْسَ البَعِيرِ إنْ نَفَرَا[1]

وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

(٧٢) ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ وصيَّرناها منقادةً لهم. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبُهم. وقرىء ركوبتُهم، وهي بمعناهُ كالحلوبِ والحلوبةِ، وقيل جمعُه وركوبُهم أي ذو ركوبِهم أو فَمِنْ منافِعها ركوبُهم. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمَهُ.

(٧٣) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من الجلود والأصوافِ والأوبار. ﴿وَمَشَـٰرِبُ﴾ من اللَّبنِ جمعُ مشربٍ بمعنى الموضعِ، أو المصدرِ، وأمالَ الشينَ ابنُ عامر وحدَه بروايةِ هشام. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَ الله في ذلك إذ لولا خلقُه لها وتذليلُه إيَّاها كيف أمكنَ التوسُّلُ إلى تحصيلِ هذه المنافعِ المهمَّةِ.

(٧٤) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أشركُوها به في العبادة بعدَ ما رأوا منه تلك القدرةِ الباهرةَ والنِّعمَ المتظاهرةَ، وعلموا أنه المتفردُ بها. ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاءَ أن ينصُروهم فيما حَزَبَهُم من الأمورِ، والأمرُ بالعكسِ لأنهم.

(٧٥) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ﴾ لآلهتِهم. ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ مُعَدُّونَ لحفظِهم والذبِّ عنهم، أو محضَرونَ أَثَرَهُمْ في النار.

(٧٦) ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ فلا يهمَّنَّكَ، وقرىء بضمِّ الياء من أَحْزَنَ. ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحادِ والشركِ، أو فيك بالتكذيب والتهجينِ. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فنجازيهم عليه وكفَى ذلك أنْ تتسلَّى به، وهو تعليل للنهي على الاستئنافِ ولذلك لو قرىءَ أنَّا بالفتحِ على حذفِ لامِ التعليل جازَ.

(٧٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ تسليةٌ ثانيةٌ بتهوين ما يقولونَه بالنسبةِ إلى إنكارِهم الحشرَ، وفيه تقبيحٌ بليغٌ لإنكاره حيثُ عجَّبَ منه وجعلَه إفراطاً في الخصومةِ بيِّناً، ومنافاةٌ لجحودِ القدرةِ على ما هو أهونُ مما عملَه في بَدْءِ خلْقه، ومقابلةُ النعمةِ التي لا مزيدَ عليها ـ وهي خلقُه من أخسِّ شيءٍ وأمهنه شريفاً مكرماً ـ بالعقوقِ والتكذيب. روي أنَّ أبيَّ بنَ خلفٍ أتى النبيَّ ﷺ بعظْمٍ بالٍ يفتِّتُهُ بيدِهِ وقال: أترى اللهَ يحيي هذا بعدَ ما رُمَّ، فقال عليه الصلاة والسلام: «نعمْ ويبعثُك

(١) من المنسرح.

ويدخلُك النارَ» فنزلتْ[1] . وقيل معنى فإذا هو خصيمٌ مبين فإذا هو بعدَ ما كان ماءً مهيناً مميِّزٌ مِنْطِيْقٌ قادر على الخصامِ معرِبٌ عما في نفسِه.

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً وهو نفيُ القدرة على إحياءِ الموتى، أو تشبيهُه بخلْقه بوصْفِه بالعجزِ عما عجزُوا عنه. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ خلْقَنا إياه. ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ منكراً إياه مستبعِداً له، والرميمُ ما بليَ من العظام، ولعلَّه فعيلٌ بمعنى فاعلٍ من رمَّ الشيءُ صار اسماً بالغلَبةِ ولذلك لم يؤنَّث، أو بمعنى مفعولٍ من رَمَمْتُهُ. وفيه دليلٌ على أنَّ العظْمَ ذو حياةٍ فيؤثِّرُ فيه الموتُ كسائرِ الأعضاءِ.

(٧٩) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنَّ قدرتَه كما كانتْ لامتناع التغيُّرِ فيه، والمادةُ على حالها في القابليةِ اللازمةِ لذاتها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلمُ تفاصيلَ المخلوقاتِ بعلمه وكيفيةَ خلْقِها، فيعلمُ أجزاءَ الأشخاص المتفتتةَ المتبددةَ أصولَها وفصولَها ومواقعَها وطريقَ تمييزها وضمَّ بعضَها إلى بعضٍ على النمطِ السابق وإعادةَ الأعراضِ والقُوى التي كانتْ فيها أو إحداثَ مِثْلِها.

(٨٠) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ كالمرخ والعَفارِ[2] . ﴿نَارًا﴾ بأنْ يُسْحَقَ المرخُ على العفارِ وهما خضراوانِ يقطرُ منهما الماءُ فتنقدحُ النارُ. ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ لا تشكُّونَ فإنها نارٌ تخرج منه، ومَنْ قدرَ على إحداثِ النارِ من الشجر الأخضرِ مع ما فيه من المائيةِ المضادَّةِ لها بكيفيَّتها كان أقدرَ على إعادةِ الغضاضةِ فيما كان غضّاً فيبِسَ وبَلِيَ، وقرىء من الشجر الخضراءِ على المعنى كقوله ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾[3] .

(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ معَ كبرِ جُرْمِهما وعِظَمِ شأنِهما. ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصغرِ والحقارةِ بالإضافة إليهما، أو مِثْلَهم في أصولِ الذاتِ وصفاتِها وهو المعادُ، وعن يعقوبَ يقدرُ. ﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ من الله تعالى لتقريرِ ما بعدَ النفي مشعِرٌ بأنه لا جوابَ سواهُ. ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كثيرُ المخلوقاتِ والمعلوماتِ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/ ٣٠) عن مجاهد، وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٢٩) من حديث ابن عباس. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وأخرجه ابن جرير (١٢/ ج٢٣/ ٣٠) عن سعيد بن جبير.

(٢) المَرْخ والعَفَار نوعان من الشجر تُقدح منه النار (مختار الصحاح مادة عفر).

(٣) **الواقعة: «٥٢».**

(٨٢) ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ إنَّما شأنُه. ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أي تكونُ. ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكونُ أي يحدثُ، وهو تمثيلٌ لتأثير قدرتِهِ في مرادِه بأمرِ المطاع للمطيعِ في حصولِ المأمورِ من غيرِ امتناعٍ وتوقُّفٍ وافتقارٍ إلى مزاولةِ عملٍ واستعمالِ آلةٍ قطعاً لمادةِ الشُّبْهةِ، وهو قياسُ قدرةِ الله تعالى على قدرةِ الخلْقِ، ونَصَبَهُ ابنُ عامر والكسائيُّ عطفاً على يقولُ.

(٨٣) ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تنزيهٌ له عما ضربوا له، وتعجيبٌ عما قالوا فيه معلَّلاً بكونِهِ مالِكاً للأمرِ كلِّه قادراً على كلِّ شيءٍ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وعْدٌ ووعيدٌ للمقرِّينَ والمنكرينَ، وقرأ يعقوبُ بفتحِ التاءِ. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كنتُ لا أعلمُ ما رويَ في فضْلِ يسٓ كيفَ خصَّتْ به فإذا أنه بهذه الآيةِ[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قلباً وقلبُ القرآنِ يسٓ، وأيُّما مسلمٍ قرأها يريدُ بها وجْهَ الله غَفَرَ الله له وأُعْطِيَ من الأجْرِ كأنَّما قرأ القرآنَ اثنتين وعشرنَ مرَّةً، وأيُّما مسلمٍ قُرِىءَ عنده إذا نزلَ به ملكُ الموتِ سورةَ يسٓ نزلَ بكلِّ حرفٍ منها عشرةُ أملاك يقومونَ بينَ يديه صفوفاً يصلُّون عليه ويستغفرونَ له، ويشهدونَ غُسْلَهُ ويشيِّعونَ جنازتَه ويصلُّون عليه، ويشهدون دَفْنَهُ، وأيُّما مسلمٍ قرأ يسٓ وهو في سكراتِ الموتِ لم يقبضْ ملكُ الموتِ روحَه حتى يجيئَه رضوانُ بِشُرْبَةٍ منَ الجنةِ فيشربَها وهو على فراشِه فيقبضُ روحَه وهو ريَّانُ، ويمكثُ في قبرِهِ وهو ريَّانُ، ولا يحتاجُ إلى حوضٍ من حياضِ الأنبياءِ حتى يدخلَ الجنةَ وهو ريَّانُ»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٤٠ رقم ٢٨٥): «لم أجده».

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٤٠ رقم ٢٨٦): «أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبي بن كعب. وأوله في الترمذي ـ (٥/ ١٦٢ رقم ٢٨٨٧) ـ من رواية هارون أبي محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس. وقال: غريب وهارون مجهول. وفي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة.
فأما حديث أبي هريرة فأخرجه البزار وفيه حميد المكي مولى آل علقمة وهو ضعيف، وحديث أبي بكر أخرجه الحكيم الترمذي» هـ.
وقال الترمذي في السنن (٥/ ١٦٣) «وفي الباب عن أبي بكر الصديق، ولا يصح من قبل إسناده إسنادُهُ ضعيف» هـ.
وحكم الألباني في «الضعيفة» على حديث أنس بالوضع (رقم: ١٦٩).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

ترتيبها ٣٧ — آياتها ١٨٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾

سورةُ الصافاتِ مكيةٌ[1] وآيُها مائةٌ واثنتانِ وثمانونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾.

(٢) ﴿فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾.

(٣) ﴿فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أقسم بالملائكةِ الصافِّين في مقامِ العبوديةِ، على مراتبَ باعتبارها تفيضُ عليهم الأنوارُ الإلهيةُ، منتظرينَ لأمرِ الله الزاجرينَ الأجرامَ العلويةَ والسفليةَ بالتدبير المأمورِ به فيها، أوِ الناسَ عن المعاصي بإلهامِ الخير، أو الشياطينَ عن التعرُّضِ لهم التالينَ آياتِ الله وجلايا قُدْسِه على أنبيائِه وأوليائِه، أو بطوائفِ الأجرام المرتَّبةِ كالصفوفِ المرصوصةِ والأرواحِ المدبِّرة لها والجواهرِ القدسيةِ المستغرقةِ في بحارِ القدس ﴿يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[2] أو بنفوسِ العلماءِ الصافِّينَ في العباداتِ الزاجرينَ عن الكفرِ والفسوقِ بالحجَجِ والنصائحِ التالينَ آياتِ اللهِ وشرائعَه، أو بنفوسِ الغزاةِ الصافِّين

---

(١) قال ابن الجوزي في «روح المعاني» (٢٣/ ٦٤): «مكية كلها بإجماعهم» وقال الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٦٤): «مكية ولم يحكوا في ذلك خلافاً وهي مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين، ومائة واثنتان وثمانون عند غيرهم...» هـ.

(٢) الأنبياء: «٢٠».

في الجهادِ الزاجرينَ الخيلَ أو العدوَّ التالينَ ذِكْرَ الله لا يشغلُهم عنه مباراةُ العدوِّ. والعطفُ لاختلاف الذواتِ أو الصفاتِ، والفاءُ لترتيبِ الوجودِ كقوله:

يـــا لهــفَ زيـــابـــةَ للحـــارثِ الصـــ ـــابـــحِ فـــالغـــانـــمِ فـــالآيـــبِ

فإنَّ الصفَّ كمالٌ والزَّجْرَ تكميلٌ بالمنعِ عن الشرِّ، أو الإشاقة إلى قبولِ الخير والتلاوة إفاضته، أو الرتبةَ كقوله عليه الصلاة والسلام «رحمَ الله المحلِّقين فالمقصرينَ»(١) غيرَ أنه لفضلِ المتقدِّم على المتأخِّرِ وهذا للعكسِ. وأَدْغَمَ أبو عمرو وحمزةُ التاءاتِ فيما يليها لتقارُبِها فإنَّها من طرفِ اللسانِ وأصولِ الثنايا.

(٤) ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابٌ للقسم، والفائدةُ فيه تعظيمُ المقْسَمِ به وتأكيدُ المقسَمِ عليه على ما هو المألوفُ في كلامهم، وأما تحقيقُه فبقوله تعالى.

(٥) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ فإنَّ وجودَها وانتظامَها على الوجْهِ الأكملِ مع إمكانِ غيرهِ دليلٌ على وجودِ الصانعِ الحكيم، ووحْدَتِه على ما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، وربُّ بدلٌ من واحدٍ أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ محذوفٌ وما بينَهما يتناولُ أفعالَ العبادِ فيدلَّ على أنَّها من خَلْقِه، والمشارِقُ مشارقُ الكواكبِ أو مشارقُ الشمسِ في السَّنَةِ وهي ثلاثُمائةٍ وستونَ مشرِقاً، تشرقُ كلَّ يومٍ في واحد وبِحَسَبِها تختلفُ المغارِبُ، ولذلك اكْتَفَى بذكْرِها مع أنَّ الشروقَ أدلُّ على القدرةِ وأبلغُ في النعمةِ، وما قيل إنها مائةٌ وثمانون إنما يصحُّ لو لم تختلفْ أوقاتُ الانتقالِ.

(٦) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ القُرْبَى منكم. ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بزينةٍ هي الكواكبُ والإضافةُ للبيان، ويعضِّدُهُ قراءةُ حمزةَ ويعقوبَ وحفصٍ بتنوين زينةٍ وجرِّ الكواكبِ على إبدالها منه، أو بزينةٍ هي لها كأضوائِها وأوضاعِها، أو بأنْ زيَّنا الكواكبَ فيها على إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ فإنها كما جاءتِ اسماً كاللّيقةِ جاءتْ مصدراً كالنسبةِ ويؤيدُه قراءةُ أبي بكر بالتنوينِ، والنصبُ على الأصلِ أو بأنَّ زِينَتَهَا الكواكبُ على إضافتِه إلى الفاعلِ، وركوزُ الثوابتِ في الكرةِ الثامنةِ وما عدا القمرَ من السياراتِ في الستِّ المتوسطةِ بينَها وبينَ السماء الدنيا أنْ تحقَّق لم يقدحْ في ذلك، فإنَّ أهلَ الأرض يرونَها بأسْرِها كجواهرَ مشرقةٍ متلألئةٍ على سطْحِها الأزرقِ بأشكالٍ مختلفة.

(٧) ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوبٌ بإضمارِ فعله، أوِ العطفُ على زينةٍ باعتبار المعنى، كأنه قال إنا خلقنا الكواكبَ زينةً للسماء الدنيا وحفظاً. ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ خارجٍ من الطاعة برمي الشُّهبِ.

(٨) ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كلامٌ مبتدأٌ لبيان حالهم بعدَ ما حفظَ السماءَ عنهم، ولا يجوزُ جعلُه صفةً لكلِّ شيطان، فإنه يقتضي أنْ يكونَ الحفظُ من شياطينَ لا يسمعونَ، ولا علَّة للحفظِ على حذْفِ اللامِ كما في جئتُك أنْ تكرِمَني، ثم حذفَ أنْ وأهدَرَها كقوله:

ألا أيُّهذا الزاجري أحضرَ الوغى(٢)

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ. ولكن أخرج البخاري (٣/٥٦١ رقم ١٧٢٧) ومسلم (٢/٩٤٥ رقم ١٣٠١) بنحوه من حديث عبدالله بن عمر.

(٢) شطر من الطويل.

فإنَّ اجتماعَ ذلك منكرٌ والضمير لكلٍّ باعتبار المعنى، وتعديةُ السماع بإلى لتضمُّنِه معنى الإصغاءِ مبالغةً لنفيِه، وتهويلاً لما يمنُعهم عنه، ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ بالتشديدِ من التسمُّعِ، وهو طلبُ السماعِ، والملأُ الأَعْلَى الملائكةُ وأشرافُهم. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ ويُرْمَوْنَ. ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانبِ السماءِ إذا قصدوا صعودَهُ.

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾

(٩) ﴿دُحُورًا﴾ علةٌ أي للدحورِ وهو الطردُ!، أو مصدرٌ لأنه والقذفَ متقاربانِ، أو حالٌ بمعنى مدحورينَ أو منزوعٌ عنه الباءُ جمعُ دُحْرٍ، وهو ما يُطْرَدُ به ويقوِّيه القراءةُ بالفتحِ، وهو يحتمِلُ أيضاً أنْ يكونَ مصدراً كالقبولِ أو صفةً له أي قذْفاً دحوراً. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي عذابٌ آخَرُ. ﴿وَاصِبٌ﴾ دائمٌ أو شديدٌ وهو عذابُ الآخرة.

(١٠) ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناءٌ من واوِ يسمعونَ ومَنْ بدلٌ منه، والخطْفُ الاختلاسُ، والمرادُ اختلاسُ كلام الملائكةِ مسارقةً ولذلك عرفَ الخطْفةَ. وقرىء خَطَّف بالتشديدِ مفتوحَ الخاءِ ومكسورَها، وأصلُها اخْتَطَفَ. ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ أتبعَ بمعنى تَبِعَ، والشهابُ ما يُرَى كأنَّ كوكباً انقضَّ، وما قيلَ إنه بخارٌ يصعدُ إلى الأثيرِ فيشتعلُ فتخمينٌ إنْ صحَّ لم ينافِ ذلك، إذ ليس فيه ما يدلُّ على أنه ينقضُّ من الفُلْكِ ولا في قوله ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾[(١)] فإنَّ كلَّ نيِّرٍ يحصلُ في الجوِّ العالي فهو مصباحٌ لأهلِ الأرضِ، وزينةٌ للسماء من حيثُ إنه يُرَى كأنه على سطْحِه، ولا يبعدُ أنْ يصيرَ الحادثُ كما ذُكِرَ في بعضِ الأوقاتِ رجْماً لشياطينَ تتصعَّدُ إلى قُرْبِ الفلكِ للتسمُّعِ، وما رُوِيَ أنَّ ذلك حَدَثَ بميلادِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام إنْ صحَّ فلعلَّ المرادَ كثرةُ وقوعِهِ أو مصيرُه دحوراً. واخْتُلِفَ في أنَّ المرجومَ يتأذَّى به فيرجعُ أو يحترقُ به، لكنْ قد يصيبُ الصاعدَ مرَّةً وقد لا يصيبُ كالموجِ لراكبِ السفينةِ ولذلك لا يرتدِعون عنه رأساً، ولا يُقَالُ إنَّ الشيطانَ من النارِ فلا يحترقُ، لأنه ليس من النارِ الصِّرْفِ كما أنَّ الإنسانَ ليس مِنَ الترابِ الخالصِ مع أنَّ النارَ القويةَ إذا استولتْ على الضعيفةِ استهلكتْها. ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيءٌ كأنه يثقبُ الجوَّ بضوئِه.

(١١) ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبِرهم، والضميرُ لمشركي مكَّةَ أو لبني آدمَ. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ يعني ما ذُكِرَ من الملائكةِ والسماءِ والأرضِ وما بينهما، والمشارقُ والكواكبُ والشُّهبُ الثواقبُ، ومَنْ لتغليبِ العقلاءِ ويدلُّ عليه إطلاقُه ومجيئُه بعدَ ذلك، وقراءةُ مَنْ قرأَ أمْ مَنْ عَدَدْنا، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ فإنه الفارقُ بينَهم وبينَها لا بينَهم وبينَ مَنْ قبلَهم وكعادٍ وثمودَ، وإنَّ المرادَ إثباتُ المعادِ وردُّ استحالتِه، والأمرُ فيه بالإضافةِ إليهم وإلى مَنْ قبلَهم سواءٌ، وتقريرُهُ أنَّ استحالةَ ذلك إما لعدمِ قابليةِ المادةِ، ومادَّتُهم الأصليةُ هي الطينُ اللازبُ الحاصلُ مِنْ ضمِّ الجزءِ المائي إلى الجزءِ الأرضي،

---

(١) الملك: «٢».

وهما باقيانِ قابلانِ للانضمامِ بعدُ، وقد علموا أنَّ الإنسانَ الأولَ إنما تولَّد منه إما لاعترافِهم بحدوثِ العالَمِ أو بقصةِ آدمَ، وشاهدوا تولُّدَ كثيرٍ منَ الحيواناتِ منه بلا توسُّطِ مواقعةٍ، فلزِمَهم أنْ يجوِّزوا إعادتَهم كذلك، وإما لعدمِ قدرةِ الفاعلِ، ومَنْ قَدَرَ على خلْقِ هذه الأشياءِ قدرَ على ما لا يُعْتَدُّ به بالإضافةِ إليها سِيَّما ومِنْ ذلكَ بَدْؤُهم أولاً، وقدرته ذاتيةٌ لا تتغيرُ.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

(١٢) ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرةِ الله تعالى وإنكارِهم للبعْثِ. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجُّبِكَ وتقريرِكَ للبعثِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بضمِّ التاءِ أي بلغَ كمالَ قدرتي وكثرةَ خلائقي أنْ تعجَّبْتُ منها، وهؤلاءِ لجهْلِهم يسخرونَ منها. أو عجِبْتُ من أنْ ينكِرَ البعثَ ممن هذه أفعالُه وهم يسخرونَ ممن يجوزُه. والعجبُ منَ اللهِ تعالى إما على الفرضِ والتخييلِ أو على معنَى الاستعظامِ اللازمِ له فإنه روعةٌ تعتري الإنسانَ عند استعظامِه الشيءَ، وقيل إنه مقدَّرٌ بالقولِ أي: قال يا محمدُ بل عجبتَ.

(١٣) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ وإذا وُعِظُوا بشيءٍ لا يتَّعِظُون به، أو إذا ذُكِرَ لهم ما يدلُّ على صِحَّةِ الحشْرِ لا ينتفعون به لبلادَتِهم وقلَّةِ فِكْرِهم.

(١٤) ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزةً تدلُّ على صِدْقِ القائلِ به. ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخريةِ ويقولون إنه سحرٌ، أو يستدعي بعضُهم من بعضٍ أنْ يسخرَ منها.

(١٥) ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا﴾ يعنُونَ ما يَرَوْنَهُ. ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ سِحْرِيَّتُهُ.

(١٦) ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أصلُه انبعثَ إذا مِتْنَا فبدَّلوا الفعليةَ بالاسميةِ وقدَّموا الظرفَ وكرَّرُوا الهمزةَ مبالغةً في الإنكارِ، وإشعاراً بأنَّ البعثَ مستنكَرٌ في نفسِه وفي هذه الحالةِ أشدُّ استنكاراً، فهوَ أبلغُ من قراءةِ ابنِ عامرٍ بطرحِ الهمزةِ الأُولى، وقراءةُ نافعٍ والكسائيِّ ويعقوبَ بطرحِ الثانية.

(١٧) ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ عطفٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، أو على الضمير في مبعوثونَ فإنه مفصولٌ منه بهمزةِ الاستفهامِ لزيادةِ الاستبعادِ لبعدِ زمانهم، وسكَّنَ نافعٌ بروايةِ قالونَ بنِ عامرٍ والواوُ على معنَى الترديدِ.

(١٨) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون، وإنما اكْتُفِيَ به في الجوابِ لِسَبْقِ ما يدلُّ على جوازِه وقيامِ المعجزِ على صِدْقِ المخبرِ عن وقوعِه، وقُرِىءَ قال أي اللهُ أو الرسولُ، وقرأ الكسائيُّ وحدَه نَعِمْ بالكسرِ وهو لغةٌ فيه.

(١٩) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ جوابُ شرطٍ مقدَّرٍ أي إذا كان ذلك فإنما البعثةُ زجرةٌ أي صيحةٌ واحدةٌ، وهي النفخةُ الثانية من زَجَرَ الراعي غَنَمَهُ إذا صاحَ عليها وأَمَرَها في الإعادةِ كأَمْرِ كُنْ في الإبداءِ، ولذلك رُتِّبَ عليها. ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ فإذا هم قيامٌ من مراقِدهم أحياءً يبصرون، أو ينتظرون ما يُفْعَلُ بهم.

وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ
وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا
تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ
ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ اليومُ الذي نُجَازَى بأعمالِنا وقد تمَّ به كلامُهم وقوله:

(٢١) ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ جوابُ الملائكةِ، وقيل هو أيضاً من كلامِ بعضِهم لبعضٍ، والفصلُ القضاءُ، أوِ الفرقُ بينَ المحسِنِ والمسيءِ.

(٢٢) ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أَمْرُ اللهِ للملائكةِ، أو أَمْرُ بعضِهم لبعضٍ بحشْرِ الظَّلَمةِ من مقامِهم إلى الموقفِ. وقيل منه إلى الجحيم. ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ وأشباهَهم عابدَ الصنمِ مع عبدةِ الصَّنم وعابدَ الكوكبِ مع عبدَتِه كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾[1] أو نساءَهم اللاتي على دينهم أو قُرناءَهم من الشياطين. ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾.

(٢٣) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرِها زيادةً في تحسيرهم وتخجيلِهم، وهو عامٌّ مخصوصٌ بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾[2] الآيةَ، وفيه دليلٌ على أنَّ الذينَ ظلموا هم المشركونَ. ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فعرِّفوهم طريقاً ليسلُكُوها.

(٢٤) ﴿وَقِفُوهُمۡۖ﴾ اِحْبِسُوهم في الموقفِ. ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ عن عقائدِهم وأعمالِهم، والواوُ لا توجِبُ الترتيبَ مع جوازِ أنْ يكونَ موقفُهم متعدِّداً.

(٢٥) ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لا ينصُرُ بعضُكم بعضاً بالتخليصِ، وهو توبيخٌ وتقريعٌ.

(٢٦) ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ منقادُونَ لعجْزِهم وانسدادِ الحِيَلِ عليهم، وأصلُ الاستسلامِ طلبُ السلامةِ أو متسالمون كأنه يسلِّمُ بعضُهم بعضاً ويخذُله.

(٢٧) ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ يعني الرؤساءَ والأتباعَ أو الكفرةَ والقُرَنَاءَ. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسألُ بعضُهم بعضاً للتوبيخ ولذلك فُسِّرَ بيتخاصمون.

(٢٨) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوهِ وأيمنِها، أو عن الدينِ، أو عن الخيرِ كأنكم تنفعونَـنَا نفعَ السانح فتبعْناكم وهلكْنا، مستعارٌ من يمينِ الإنسانِ الذي هو أقوى الجانبينِ وأشرفُهما وأنفعُهما، ولذلك سُمِّيَ يميناً وتَيَمَّنَ بالسانح، أو عن القوةِ والقهرِ فتقسُروننا على الضلالِ، أو عن الحلِفِ فإنهم كانوا يحلِفونَ لهم إنهم على الحقِّ.

(٢٩) ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) الواقعة: «٧».
(٢) الأنبياء: «١٠١».

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٠) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أجابهم الرؤساءُ أولاً بمنعِ إضلالِهم بأنَّهم ضالِّينَ في أنفسِهم، وثانياً بأنَّهم ما أجبروهم على الكفرِ إذ لم يكنْ لهم عليهم تسلُّطٌ وإنما جنحُوا إليه لأنَّهم كانوا قوماً مختارينَ الطغيانَ.

(٣١) ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾.

(٣٢) ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ثم بيَّنوا أنَّ ضلالَ الفريقينِ ووقوعَهم في العذاب كان أمراً مقضيّاً لا محيصَ لهم عنه، وإنَّ غايةَ ما فعلوا بهم أنَّهم دَعَوْهُم إلى الغيِّ لأنهم كانوا على الغيِّ فأحبُّوا أنْ يكونوا مِثْلَهم، وفيه إيماءٌ بأنَّ غوايتَهم في الحقيقة ليستْ من قِبَلِهم إذ لو كان كلُّ غوايةٍ لإغواءِ غاوٍ فَمَنْ أغواهُم.

(٣٣) ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فإنَّ الأتباعَ والمتبوعينَ. ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركينَ في الغوايةِ.

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الفعلِ. ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالمشركينَ لقوله تعالى:

(٣٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن كلمةِ التوحيد، أو على مَنْ يدعوهم إليه.

(٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ يعنُونَ محمداً عليه الصلاة والسلام.

(٣٧) ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ردٌّ عليهم بأنَّ ما جاءَ به من التوحيد حقٌّ قام به البرهانُ وتَطَابَقَ عليه المرسلون.

(٣٨) ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ بالإشراكِ وتكذيبِ الرسلِ[1]، وقرىء بنصبِ العذابِ، على تقدير النونِ كقوله:

وَلاَ ذَاكِرُ الله إلاَّ قَلِيلاَ

وهو ضعيفٌ في غير المحلَّى باللامِ وعلى الأصلِ.

(٣٩) ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ إلا أنْ يكونَ الضميرُ في تُجْزَوْنَ لجميعِ المكلَّفينَ فيكونُ استثناؤُهم عنه باعتبارِ المماثلةِ، فإنَّ ثوابَهم مضاعَفٌ، والمنقطعُ أيضاً بهذا الاعتبارِ.

---

(١) الالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم (س٧/ ١٩٠).

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

(٤١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ خصائصُه من الدوام، أو تمحُّضُ اللَّذَّةَ ولذلك فسَّره بقوله:

(٤٢) ﴿فَوَٰكِهُ﴾ فإنَّ الفاكهةَ ما يقصدُ للتلذُّذِ دون التغذي والقوتُ بالعكس، وأهلُ الجنةِ لما أُعِيْدُوا على خِلْقَةٍ مُحْكَمَةٍ محفوظةٍ عن التحلُّلِ كانتْ أرزاقُهم فواكهَ خالصةً. ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ في نيلهِ يصلُ إليهم من غير تعبٍ وسؤالٍ كما عليه رزقُ الدنيا.

(٤٣) ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في جناتٍ ليس فيها إلا النعيمُ، وهو ظرفٌ أو حالٌ من المستكِنِّ في مكرمونَ، أو خبرٌ ثانٍ لأولئك وكذلك:

(٤٤) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يَحْتَمِلُ الحالَ أوِ الخبرَ فيكونُ: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالاً من المسْتَكِنِّ فيه أو في مكرمونَ، وأنْ يتعلَّقَ بمتقابلين فيكونُ حالاً من ضمير مكرمون.

(٤٥) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ بإناءٍ فيه خمرٌ أو خمرٌ كقوله: وَكَأْسٌ شُرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من شراب مَعِيْنٍ، أو نهرٍ معينٍ أي ظاهرٍ للعيونِ، أو خارجٍ من العيون، وهو صفةٌ للماءِ من عانَ الماءُ إذا نَبَعَ. وَصَفَ به خمرَ الجنةِ لأنها تجري كالماءِ، أو للإشعارِ بأنَّ ما يكون لهم بمنزلةِ الشرابِ جامعٌ لما يُطْلَبُ من أنواعِ الأشربةِ لكمالِ اللذةِ، وكذلك قولُه:

(٤٦) ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وهما أيضاً صفتانِ لكأسٍ، ووصْفُها بلذَّةٍ إما للمبالغةِ أو لأنَّها تأنيثُ لذٍّ بمعنى لذيذٍ كَطِبٍّ ووزنه فَعْلٌ قال:

وَلَــذٍّ كَطَعْــمِ الصَــرخَــديّ تَــرَكْتُــهُ بِــأَرْضِ العِــدَا مِــنْ خَشْيَــةِ الحَــدَثَــانِ[1]

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ غائلةٌ كما في خمرِ الدنيا كالخمارِ من غالَه يغولُه إذا أفسدَه ومنه الغولُ. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يسكَرون من نَزَفَ الشاربُ فهو نزيفٌ ومنزوفٌ إذا ذهبَ عقلُه، أفرده بالنفي وعطَفَهُ على ما يعمُّه لأنه من عِظَمِ فسادهِ كأنه جنسٌ برأسِه. وقرأ حمزة والكسائيُّ بكسرِ الزاي وتابعَهُما عاصمٌ في الواقعةِ من أنزفَ الشاربُ إذا نَفَدَ عقلُه أو شرابُه، وأصله للنفادِ يُقَالُ نزفَ المطعونُ إذا خرجَ دمُه كلُّه ونزحتِ الركيَّةُ حتى نزفتها.

(٤٨) ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصَرْنَ أبصارَهنَّ على أزواجهنَّ. ﴿عِينٌ﴾ نُجَلُ العيونِ[2] جمعُ عيناءَ.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شبَّههُنَّ بِبَيْضِ النَّعامِ المصونِ عن الغبارِ ونحوِه في الصفاءِ والبياضِ المخلوطِ بأدنى صُفْرةٍ؛ فإنه أحسنُ ألوانِ الأبدانِ.

---

(١) من الطويل.

(٢) نُجَلُ العيون أي واسعات العيون (المصباح المنير مادة نجل).

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾
أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ
تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾

(٥٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ معطوفٌ على يُطَافُ عليهم أي يشربون فيتحادثُون على الشرابِ قال:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إِلاَّ أَحَادِيثُ الكِرَامِ عَلَى المُدَامِ[1]

والتعبيرُ عنه بالماضي للتأكيدِ فيه فإنه ألَذُّ تلك اللذاتِ إلى العقلِ، وتساؤُلهم عن المعارفِ والفضائلِ وما جَرى لهم وعليهم في الدنيا.

(٥١) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في مكالَمَتِهم. ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ جليسٌ في الدنيا.

(٥٢) ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ يوبِّخني على التصديقِ بالبعثِ، وقرىء بتشديد الصادِ من التصدُّقِ.

(٥٣) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ لمجزيُّون من الدينِ بمعنى الجزاءِ.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائلُ. ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى أهلِ النار لأُرِيَكُم ذلك القرينَ، وقيل القائلُ هو اللهُ أو بعضُ الملائكةِ يقول لهم: هل تحبونَ أنْ تطَّلِعوا على أهلِ النار لأريكم ذلك القرينَ فتعلَموا أينَ منزلتُكم من منزلَتِهم؟ وعن أبي عمرو مطْلِعونِ فأُطْلِعَ بالتخفيفِ وكسْرِ النون وضمِّ الألفِ على أنه جعلَ اطلاعَهم سببَ اطلاعِه من حيثُ أنَّ أدبَ المجالسةِ يمنعُ الاستبدادَ به، أو خاطبَ الملائكةَ على وضعِ المتصلِ موضِعَ المنفصِلِ كقوله:

هُم الآمِرُونَ الخَيْرَ وَالفَاعِلُونَهُ

أو شبَّه اسمَ الفاعلِ بالمضارعِ.

(٥٥) ﴿فَاطَّلَعَ﴾ عليهم. ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي قرينَهُ. ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسَطَهُ.

(٥٦) ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ لتهلِكَني بالإغواءِ، وقرىء لَتُغْوِيْنِ وإنْ هي المخففةُ واللامُ هي الفارقةُ.

(٥٧) ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهدايةِ والعصمةِ. ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك فيها.

(٥٨) ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ أي أنحنُ مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميِّتينَ، أي بِمَنْ شأنُه الموتُ، وقرىءَ بمائِتِينَ.

(٥٩) ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ التي كانتْ في الدنيا وهي متناوِلةٌ لما في القبرِ بعدَ الإحياءِ للسؤالِ، ونَصبُهَا على المصدرِ من اسمِ الفاعل. وقيل على الاستثناءِ المنقطعِ. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكفارِ، وذلك تمامُ كلامِه لقرينِه تقريعاً له أو معاودةٌ إلى مكالمةِ جلسائِه تحدُّثاً بنعمةِ الله، أو تبجُّحاً بها وتعجُّباً

(١) من الوافر.

منها وتعريضاً للقرينِ بالتوبيخِ.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا
فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ
مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

(٦٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ من كلامِهم، وأنْ يكونَ كلامُ اللهِ لتقرير قولهِ والإشارة إلى ما هم عليه من النعمةِ والخلودِ والأمْنِ من العذاب.

(٦١) ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي لنيلِ مثلِ هذا يجبُ أنْ يعملَ العاملونَ لا للحظوظِ الدنيويةِ المشوبةِ بالآلامِ السريعة الانصرامِ، وهو أيضاً يَحْتَمِلُ الأمريْنِ.

(٦٢) ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ شجرةٌ ثمرُها نُزُلُ أهلِ النار، وانتصابُ نزلاً على التمييزِ أو الحالِ، وفي ذكرهِ دلالةٌ على أنَّ ما ذَكَرَ منَ النعيمِ لأهلِ الجنةِ بمنزلةِ ما يُقَامُ للنازِلِ، ولهم وراءَ ذلك ما تقصُر عنه الأفهامُ، وكذلك الزقومُ لأهلِ النار، وهو اسمُ شجرةٍ صغيرةِ الورقِ ذفرِ مرَّةٍ تكون بتهامةَ سُمِّيَتْ به الشجرةُ الموصوفةُ.

(٦٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، أو ابتلاءُ في الدنيا فإنَّهم لما سمعُوا أنَّها في النارِ قالوا كيفَ ذلك والنارُ تحرقُ الشجرَ، ولم يعلمُوا أنَّ مَنْ قدرَ على خلْقِ حيوانٍ يعيشُ في النارِ ويلتذُّ بها فهو أقدرُ على خلْقِ الشجرِ في النار وحفظهِ من الإحراقِ.

(٦٤) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ منبتُها في قعْرِ جهنَّمَ وأغصانُها ترتفعُ إلى دَرَكَاتِها.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا﴾ حملُها مستعارٌ من طلْعِ التمرِ لمشاركتهِ إياه في الشكلِ، أو الطلوعِ من الشجرِ. ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ في تناهي القُبْحِ والهولِ، وهو تشبيهٌ بالمتخيَّلِ كتشبيهِ الفائقِ الحُسْنِ بالْمَلَكِ. وقيل الشياطينُ حياتٌ هائلةٌ قبيحةُ المنظرِ لها أعرافٌ، ولعلها سُمِّيَتْ بها لذلك.

(٦٦) ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرةِ أو من طَلْعِها. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لغلبةِ الجوعِ أو الجبرِ على أكْلِها.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعدَ ما شبعوا منها وغَلَبَهُمُ العطشُ وطالَ استسقاؤُهم، ويجوزُ أنْ يكونَ ثمَّ لما في شرابِهم من مزيدِ الكراهةِ والبشاعةِ. ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لشراباً من غسَّاقٍ، أو صديداً مشوباً بماءٍ حميمٍ يقطِّعُ أمعاءَهم، وقرىء بالضمِّ وهو اسمُ ما يُشَابُ به، والأولُ مصدرٌ سُمِّيَ به.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرَهُم. ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتِها أو إلى نفسِها، فإنَّ الزَّقومَ والحميمَ نُزُلٌ يُقَدَّمُ إليهم قبلَ دخولِهم، وقيل الحميمُ خارجٌ عنها لقوله تعالى ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[1] يوردون إليه كما تُورَدُ الإبلُ إلى الماءِ ثم يُرَدُّونَ إلى الجحيم، ويؤيدُه أنه

---

(١) الرحمن: «٤٤».

قُرِىءَ ثمَّ إنَّ منقلَبَهُم.

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾
وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ
ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾

(٦٩) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم تلك الشدائدِ بتقليدِ الآباءِ في الضلالِ، والإهراعُ: الإسراعُ الشديدُ كأنهم يُزعَجُونَ على الإسراعِ على آثارِهم، وفيه إشعارٌ بأنهم بادروا إلى ذلك من غيرِ توقُّفٍ على نظرٍ وبحثٍ.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبلَ قومِك. ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنبياءَ أنذورهم من العواقبِ[١].

(٧٣) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ من الشدةِ والفظاعةِ.

(٧٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ إلا الذين تنبَّهوا بإنذارِهم فاخلَصُوا دينَهم لله، وقرىء بالفتح[٢] أي الذين أخلَصَهُم اللهُ لدينه، والخطابُ مع الرسولِ ﷺ، والمقصودُ خطابُ قومِه فإنَّهم أيضاً سمِعُوا أخبارَهم ورأوا آثارَهم.

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ شروعٌ في تفصيلِ القصصِ بعدَ إجمالها، أي ولقدْ دعانا حينَ أَيِسَ من قومِه. ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي فأجبناه أحسنَ الإجابةِ فواللهِ لنعمَ المجيبونَ نحنُ، فَحُذِفَ منها ما حُذِفَ لقيامِ ما يدلُّ عليه.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الغرقِ أو أذى قومه.

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ إذْ هلك مَنْ عَدَاهُم وبقوا متناسِلينَ إلى يومِ القيامة، إذ روي أنه ماتَ كلُّ مَنْ كانَ معه في السفينةِ غيرُ بنيهِ وأزواجِهم.

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأُمَمِ.

(٧٩) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ هذا الكلامُ جيءَ به على الحكايةِ والمعنَى يسلِّمون عليه تسليماً. وقيل هو سلامٌ من اللهِ عليه ومفعولُ تركْنا محذوفٌ مثلُ الثناءِ. ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلِّقٌ بالجارِّ والمجرورِ ومعناهُ الدعاءُ بثبوتِ هذه التحيةِ في الملائكةِ والثَّقلينِ جميعاً.

---

(١) تكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين (س٧/ ١٩٥).

(٢) قوله: وقرىء بالفتح، أي بفتح اللام من قوله «المخلَصين».

(٨٠) ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لما فَعَلَ بنوح من التكْرِمة بأنه مجازاةٌ له على إحسانه.

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

(٨١) ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليلٌ لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالةِ قدره وأصالةِ أمرِه.

(٨٢) ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ يعني كفارَ قومِه.

(٨٣) ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممن شايَعَهُ في الإيمانِ وأصولِ الشريعة. ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ولا يبعدُ اتفاقُ شرعِهما في الفروعِ أو غالباً، وكان بينَهما ألفانِ وسِتُّمائةٍ وأربعونَ سنةً، وكان بينَهما نبيَّانِ هودٌ وصالحٌ.

(٨٤) ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ متعلِّقٌ بما في الشيعةِ من معنى المشايعةِ أو بمحذوفٍ هو اذكر. ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من آفاتِ القلوب أو منَ العلائقِ خالصٍ لله أو مخلِصٍ له، وقيل حزينٍ من السليمِ بمعنى اللديغِ. ومعنى المجيءِ به ربَّه: إخلاصُه له كأنه جاء به متحِفاً إيَّاهُ.

(٨٥) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدلٌ من الأولى أو ظرفٌ لجاءَ أو سليمٍ.

(٨٦) ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي تريدون آلهةً دونَ اللهِ إفكاً مقدَّمَ المفعولِ للعنايةِ ثم المفعولِ له لأنَّ الأهمَّ أنْ يقرِّر أنَّهم على الباطلِ ومبنَى أمرِهم على الإفكِ، ويجوزُ أنْ يكونَ إفكاً مفعولاً به، وآلهةً بدلٌ منه على أنها إفكٌ في نفسِها للمبالغة، أوِ المرادُ بها عبادتُها بحذفِ المضافِ أو حالاً بمعنى إفكِيْنِ.

(٨٧) ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بمن هو حقيقٌ بالعبادةِ لكونه ربّاً للعالمينَ حتى تركتُم عبادَتَه، أو أشركتُم به غَيْرَهُ أو أمِنْتُم من عذابِه، والمعنى إنكارُ ما يوجِبُ ظناً فضلاً عن قطعٍ يصدُّ عن عبادتِه، أو يجوزُ الإشراكُ به أو يقتضي الأَمْنَ من عقابِه على طريقةِ الإلزامِ وهو كالحجَّةِ على ما قبلَه.

(٨٨) ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ فرأى مواقِعَها واتِّصالاتِها، أو في عِلْمِها أو في كتابِها، ولا مَنْعَ منه مع أنَّ قَصْدَهُ إيهامُهم وذلك حين سألوه أنْ يعبدَ معهم.

(٨٩) ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أراهُم أنه استدلَّ بها لأنَّهم كانوا منجِّمينَ على أنه مشارِفٌ للسَّقمِ لئلا يُخرِجُوه إلى مَعْبَدِهم، فإنه كان أغلبَ أسقامِهم الطاعونُ وكانوا يخافون العدْوَى، أو أرادَ إني سقيمُ القلبِ لكفرِكم، أو خارجُ المزاجِ عن الاعتدالِ خروجاً قلَّ مَنْ يخلُو منه أو بصددِ الموتِ ومنه المثلُ: كفى بالسلامةِ داءً، وقول لبيدٍ:

فَـدَعَـوْتُ رَبِّـي بـالسَّـلامَـةِ جَـاهِـداً ... لِيُصحَّنِـي فَـإِذَا السَّـلامَـةُ دَاءُ

(٩٠) ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ هاربينَ مخافةَ العدْوَى.

فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ
يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾
فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فذهبَ إليها في خُفْيَةٍ من روغةِ الثعلبِ وأصلُه الميلُ بحيلةٍ. ﴿فَقَالَ﴾ أي للأصنامِ استهزاءً. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الطعامَ الذي كان عندَهم.

(٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ بجوابي.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمالَ عليهم مستخفياً، والتعديةُ بعلَى للاستعلاءِ وإنَّ الميلَ لمكروهٌ. ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ مصدرٌ لراغَ عليهم لأنه في معنى ضَرَبَهُم، أو لمضمرٍ تقديرهُ فراغَ عليهم يضربُهم وتقييدُه باليمينِ للدلالة على قوتِه فإنَّ قوةَ الآلةِ تستدعي قوةَ الفعلِ، وقيلَ باليمين بسببِ الحلِفِ وهو قوله ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[1].

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام بعدما رجعُوا فرأَوْا أصنامَهم مكسَّرةً وبحثُوا عن كاسرِها فظنُّوا أنه هو كما شرحَه في قوله ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾[2] الآيةَ. ﴿يَزِفُّونَ﴾ يسرِعُون، من زفيفِ النعامِ. وقرأ حمزة على بناءِ المفعولِ من أَزِفَهُ أي يحملونَ على الزفيفِ. وقرىء يَزُفُّونَ أي يزفُّ بعضُهم بعضاً، ويَزِفُون من وزفَ يزِف إذا أسرعَ، ويَزْفُونَ من زفاهُ إذا حدَاه كأن بعضَهم يزفُو بعضاً لتسارُعِهم إليه.

(٩٥) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ما تنحتونه من الأصنام.

(٩٦) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وما تعملونه فإنَّ جوهَرها بخلْقه وشكْلَها وإن كان بفعلِهم، ولذلك جُعِلَ من أعمالهم، فبإقدارِه إياهم عليه وخلْقه ما يتوقفُ عليه فِعْلُهم من الدواعي والعدد، أو عملَكم بمعنى معمولِكم ليطابِقَ ما تنحتونَ، أو إنه بمعنى الحدثِ فإنَّ فعلَهم إذا كان بخلقِ الله تعالى فيهم كان مفعولُهم المتوقِّفُ على فعلِهم أَوْلَى بذلك، وبهذا المعنى تمسَّك أصحابُنا على خلْقِ الأعمال، ولهم أنْ يرجِّحوه على الأَوَّلَيْنِ لما فيهما من حذفٍ أو مجازٍ.

(٩٧) ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدةِ من الجحمةِ وهي شدةُ التأجُّجِ، واللامُ بدلُ الإضافةِ، أي جحيمِ ذلك البنيانِ.

(٩٨) ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فإنه لما قَهَرَهُم بالحجَّةِ قصدُوا تعذيبَهُ بذلك لِئَلاَّ يظهرَ للعامَّةِ عجزُهم. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلِّينَ بإبطالِ كيدِهم وجعْلِه برهاناً نيِّراً على علوِّ شأنه، حيثُ جعلَ النارَ عليه برداً وسلاماً.

(٩٩) ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ إلى حيثُ أمرني ربي وهو الشامُ، أو حيثُ أتجردُ فيه لعبادته. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى ما فيه صلاحُ ديني أو إلى مقصدي، وإنما بتَّ القولَ لسبْقِ وعدِه أو نفرطِ توكُّله، أو

---

(١) الأنبياء: «٥٧».
(٢) الأنبياء: «٥٩».

البناءِ على عادتِه معه ولم يكنْ كذلك حالُ موسى عليه الصلاة والسلام حينَ ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(١) فلذلك ذُكِرَ بصيغة التوقُّع.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾

(١٠٠) ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بعضَ الصالحين يعينني على الدعوةِ والطاعة ويؤنِسُني في الغربة، يعني الولدَ لأن لفظَ الهبة غالبٌ فيه ولقوله:

(١٠١) ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ بشَّره بالولدِ وبأنه ذَكَرٌ يبلغُ أوانَ الحُلُم، فإنَّ الصبيَّ لا يوصَفُ بالحلمِ ويكونُ حليماً وأي حلمٍ مثلُ حلمِه حين عَرَضَ عليه أبوه الذبحَ وهو مراهِقٌ فقال ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢). وقيل ما نَعَتَ الله نبياً بالحلمِ لعزةِ وجودِه غيرَ إبراهيمَ وابنه عليهما الصلاة والسلام، وحالُهما المذكورةُ بعد تشهُّدٍ عليه.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ أي فلما جدَّ وبلغَ أنْ يسعَى معه في أعماله، ومعه متعلِّقٌ بمحذوفٍ دل عليه السعيُ لا به لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمه ولا يبلغُ فإنَّ بلوغَهما لم يكنْ معاً كأنه قال: فلما بلغَ السَّعْيَ فقيل مع مَنْ فقيلَ معه. وتخصيصُه لأنَّ الأبَ أكملُ في الرفقِ والاستصلاح له فلا يستسعيه قبلَ أوانه، أو لأنه استوهَبَهُ لذلك وكان له يومئذٍ ثلاثَ عشرةَ سنةً. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ وقرأَ حفصٌ بفتح الياء. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ يُحتَمَلُ أنه رأى ذلك وأنه رأَى ما هو تعبيرهُ وقيل إنه رأى ليلةَ الترويةِ أن قائلاً يقولُ له: إنَّ الله يأمرك بذبحِ ابنِك، فلما أصبحَ روى(٣) أنه منَ الله أو من الشيطانِ، فلما أمْسَى رأى مثلَ ذلكَ فعرِفَ أنه من اللهِ، ثم رأى مثلَه في الليلةِ الثالثةِ فهمَّ بنحرِهِ وقال له ذلك، ولهذا سُمِّيَتِ الأيامُ الثلاثةُ بالترويةِ وعرفةَ والنحرِ، والأظهرُ أنَّ المخاطَبَ إسمٰعيلُ عليه السلام لأنه الذي وهبَ له أَثَرُهُ الهجرةَ ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ بعدُ معطوفةٌ على البشارةِ بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام «أنا ابنُ الذبيحين»(٤). فأحدُهما جدُّه إسمٰعيلُ والآخرُ أبوه عبدُالله، فإنَّ جدَّه عبدَالمطلبِ نذرَ أنْ يذبحَ

---

(١) القصص: «٢٢».

(٢) الصافات: «١٠٢».

(٣) روىٰ أي تفكّر في الأمر ونظر فيه من الرَّوِيّة وهو التفكر.

(٤) قال الألباني في «الضعيفة» (رقم: ٣٣١) «لا أصل له بهذا اللفظ» هـ.

قلت: أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/٨٥) والحاكم في المستدرك (٢/٥٥٤) من رواية الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم، فقال بعضهم: الذبيح إسماعيل وقال بعضهم: إسحاق الذبيح، فقال معاوية: سقطتم على الخبير، كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه الأعرابي فقال: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابساً، هلك المال، وضاع العيال، فعد علي بما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، فقلنا: يا أمير المؤمنين وما الذبيحان؟ قال إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم نذر، فذكره. . .» هـ. =

ولداً إنْ سهَّل الله له حفرَ زمزمَ أو بلغَ بنوهُ عشرةً، فلما سهَّلَ أقرعَ فخرجَ السهمُ على عبدِالله ففداه بمائةٍ من الإبلِ، ولذلك سُنَّتِ الديةُ مائةً، ولأنَّ ذلك كان بمكَّةَ وكان قَرْنا الكبشِ معلَّقينِ بالكعبةِ حتى احترقا معَها في أيام ابنِ الزبير، ولم يكن إسحاقُ ثمَّةَ، ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ كانت مقرونةً بولادةِ يعقوبَ منه فلا يناسِبُها الأمرُ بذبحِه مراهِقاً، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ أيُّ النسبِ أشرفُ فقال: «يوسفُ صِدِّيقُ الله بنُ يعقوبَ إسرائيلُ اللهِ بنُ إسحٰقَ ذبيحُ اللهِ بنَ إبراهيمَ خليلُ اللهِ»[(١)] فالصحيحُ أنه قال: يوسف بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ والزوائدُ من الراوي. وما روي أنَّ يعقوبَ كتبَ إلى يوسفَ مثلَ ذلك لم يثبتْ. و قرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرو بفتح اليَاءِ فيهما. ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ من الرأي، وإنما شاورَهُ فيه وهو حتْم ليعلَم ما عندَه فيما نزلَ من بَلاءِ اللهِ فَيُثَبِّتَ قدمَه إن جَزِعَ، ويأمنَ عليه إنْ سلَّمَ وليوطِّنَ نفسَه عليه فيهونُ ويكتسبُ المثوبةَ بالانقيادِ له قبلَ نزولِه. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ماذا تُرِي بضمِّ التاءِ وكسْرِ الراءِ خالصةً، والباقونَ بفتحِها، وأبو عمرو يميلُ فتحةَ الراءِ، وورشٌ بينَ بينَ، والباقونَ بإخلاصِ فتحِها. ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ﴾ وقرأ ابن عامر بفتحِ التاءِ. ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي ما تؤمَرْ به فحُذِفا دفعةً، أو على الترتيبِ كما عرفْتَ أو أَمَرَكَ على إرادةِ المأمورِ به والإضافةِ إلى المأمور، أو لعلَّه فهمَ من كلامه أنه رأى أنه يذبحُه مأموراً به، أو علِمَ أنَّ رؤيا الأنبياءِ حقٌّ وأنَّ مِثْلَ ذلك لا يقدِمُون عليه إلا بأمرٍ، ولعلَّ الأمرَ في المنامِ دونَ اليقظةِ لتكونَ مبادرتُهما إلى الامتثالِ أدلَّ على كمالِ الانقيادِ والإخلاصِ، وإنما ذُكِرَ بلفظ المضارعِ لتكرُّرِ الرؤيا. ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على الذبحِ أو على قضاءِ الله، وقرأ نافع بفتحِ الياءِ.

(١٠٣) ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ استَسْلما لأمرِ الله أو سلَّما الذبيحُ نفسَه وإبراهيمُ ابنَه، وقد قرىء بهما وأصلُها سلَّم هذا لفلانٍ إذا خلصَ له فإنه سلِم من أنْ ينازَع فيه. ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ صرعَه على شِقِّه فوقع جبينه

= وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي: إسناده واهٍ.

(١) أخرج الطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٤) رقم ١٠٢٧٨) من حديث ابن مسعود، أن النبي ﷺ سئل من أكرم الناس؟ قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله»، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٢). وقال «رواه الطبراني، وبقية مدلس، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه» هـ.
قال الألباني في «الضعيفة» (رقم: ٣٣٤): «ولكن بقية قد توبع عليه، فقد رواه ابن المظفر في «غرائب شعبة» (١/١٣٨) عن معاوية بن حفص وبقية معاً عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود به.
ورواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود موقوفاً عليه، وهو الصواب أخرجه الطبراني في الكبير (٩/٢٠٨ رقم ٨٩١٦). قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساقه في تفسيره (١٩/٤): «وهذا صحيح عن ابن مسعود».
قال الألباني: والحديث صحيح مرفوعاً دون قوله «إن إسحاق ذبيح الله» فإن هذه الزيادة منكرة. فقد أخرج البخاري (٦/٤١٤٣ رقم ٣٣٧٤) و(٦/٤١٧ رقم ٣٣٨٣) و(٨/٣٦٢ رقم ٤٦٨٩) و(٦/٣٨٩ رقم ٣٣٥٣).
ومسلم (٤/١٨٤٦ رقم ٢٣٧٨/١٦٨) من حديث أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادنِ العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهُوا». فالحديث ليس فيه «ذبيح الله» فدل على نكارتها.
وقد جاءت أحاديث في أن إسحاق هو الذبيح ولكنها كلها ضعيفة. . .» هـ.

على الأرضِ وهو أحدُ جانبي الجبهةِ. وقيل كبَّه على وجْهه بإشارته لئلا يرى فيه تغيُّراً يرقُّ له فلا يذبحُه، وكان ذلك عند الصخرةِ بِمنًى، أو في الموضعِ المشرِف على مسجدِهِ، أو المنحَرِ الذي يُنْحَرُ فيه اليومَ.

وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾

(١٠٤) ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

(١٠٥) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ بالعزْمِ والإتيانِ بالمقدماتِ. وقد روي أنه أمرَّ السكينَ بقوَّتِه على حلْقِه مراراً فلم تقْطَعْ، وجوابُ لما محذوفٌ تقديره كان ما كان مما ينطلِقُ به الحالُ ولا يحيط به المقالُ، من استبشارِهما وشكرِهما لله تعالى على ما أنعمَ عليهما من دفْعِ البلاء بعد حلوله والتوفيقِ بما لم يوفَّقْ غيرُهما لمثلِه، وإظهارُ فضْلِهما به على العالمين مع إحرازِ الثوابِ العظيم إلى غيرِ ذلك. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لإفراجِ تلك الشدةِ عنهما بإحسانهما، واحتجَّ به من جوَّزَ النسخَ قبل وقوعه فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالذبحِ لقوله ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾[1] ولم يحصلْ.

(١٠٦) ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الابتلاءُ البيِّنُ الذي يتميَّزُ فيه المخلِصُ من غيرِهِ، أو المحْنَةُ البيِّنةُ الصعوبةِ فإنه لا أصعبَ منها.

(١٠٧) ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بما يُذْبَحُ بدلَه فيتمُّ به الفعلُ. ﴿عَظِيمٍ﴾ عظيمِ الجثةِ سمينٍ، أو عظيمِ القدْرِ لأنه يفدي به الله نبياً ابنَ نبي، وأيُّ نبيٍّ من نسْلِه سيدُ المرسلين. قيل كان كبشاً من الجنةِ. وقيل وعْلاً أَهْبِطَ عليه من ثبيرٍ. وروي أنه هرب منه عند الجمرةِ فرماه بسبْعِ حصيَّاتٍ حتى أخذَه فصارتْ سُنَّةً، والفادي على الحقيقة إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام وإنما قال وفديناه لأنَّ الله المعطي له والآمِرُ به على التجوُّزِ في الفداءِ أو الإسنادِ، واستدلَّ به الحنفيةُ على أنَّ من نَذَرَ ذَبْحَ ولده لزمَهُ ذبحُ شاةٍ وليس فيه ما يدلُّ عليه.

(١٠٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾.

(١٠٩) ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ سبق بيانه في قصةِ نوحٍ عليه السلام.

(١١٠) ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لعلَّه طرح عنه إنَّا اكتفاءً بذكره مرةً في هذه القصةِ.

(١١١) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١١٢) ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ مقضياً نبوتُه مقدراً كونُه من الصالحينَ وبهذا الاعتبارِ وقعا حالينِ ولا حاجةَ إلى وجودِ المبشَّرِ به وقت البشارة، فإنَّ وجودَ ذي الحال غيرُ شرطٍ بل الشرطُ مقارنةُ

---

(١) الصافات: «١٠٢».

تعلُّقِ الفعل به لاعتبارِ المعنى بالحال، فلا حاجةَ إلى تقديرِ مضافٍ يُجْعَلُ عاملاً فيهما مثلاً وبشَّرناه بوجودِ إسحٰقَ أي بأنْ يوجدَ إسحٰقُ نبياً من الصالحين، ومع ذلك لا يصيرُ نظيرُ قوله ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1] فإن الداخلينَ مقدِّرونَ خلودَهم وقْتَ الدخول، وإسحٰقُ لم يكن مقدِّراً نبوةَ نفسِه وصلاحَها حينما يوجدُ، ومَنْ فسَّر الذبيحَ بإسحٰق جعلَ المقصودَ من البشارة نبوَّتَه، وفي ذكر الصلاحِ بعدَ النبوة تعظيمٌ لشأنه وإيماءٌ بأنه الغايةُ لها لتضمنها معنى الكمالِ والتكميلِ بالفعل على الإطلاق.

وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾

(١١٣) ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيمَ في أولاده. ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بأن أخرجْنا من صُلْبه أنبياءَ بني إسرائيلَ وغيرَهُم كأيوبَ وشعيبٍ، أو أفضْنا عليهما بركاتِ الدينِ والدنيا، وقرىء وبركْنا. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله أو إلى نفسِه بالإيمان والطاعة. ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفرِ والمعاصي. ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ ظلمُه، وفي ذلك تنبيهٌ على أن النسبَ لا أثرَ له في الهدى والضلال وأنَّ الظلمَ في أعقابِها لا يعودُ عليهما بنقيصَةٍ وعيبٍ.

(١١٤) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوةِ وغيرِها من المنافع الدينية والدنيويةِ.

(١١٥) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من تغلُّب فرعونَ أو الغرقِ.

(١١٦) ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ ثم الضميرُ لهما مع القوم. ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ على فرعونَ وقومِه.

(١١٧) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ البليغَ في بيانِه وهو التوراةُ.

(١١٨) ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريقَ الموصِلَ إلى الحقِّ والصواب.

(١١٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

(١٢٠) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

(١٢١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق مثلُ ذلك.

(١٢٣) ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياسُ بنُ ياسينَ سِبْطُ هٰرونَ أخي موسى بُعِثَ بعدَه. وقيل إدريسُ لأنه قرىء إدريسُ وإدراسُ مكانه، وفي حرف أبيّ رضي الله عنه وإنَّ إيليسَ. وقرأ ابنُ ذكوانَ مع خلافٍ عنه بحذفِ همزةِ الياسَ.

---

(١) الزمر: «٧٢».

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَ الله.

(١٢٥) ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدونه أو أتطلُبون الخيرَ منه، وهو اسمُ صنمٍ كان لأهل بَكَّ من الشامِ وهو البلدُ الذي يُقالُ له الآنَ بعلبكّ. وقيل البعلُ الربُّ بلغةِ اليمنِ، والمعنى أتدعون بعضَ البعولِ. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وتتركون عبادتَه، وقد أشار فيه إلى المقتضي للإنكار المعني بالهمزة ثم صرَّح به بقوله:

(١٢٦) ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب وحفص بالنصبِ على البدلِ[١].

(١٢٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي في العذابِ، وإنما أطلقه اكتفاءً منه بالقرينة، أو لأن الإحضارَ المطلقَ مخصوصٌ بالشرِّ عُرْفاً.

(١٢٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ مستثنى من الواوِ لا من المحضَرين لفسادِ المعنى.

(١٢٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

(١٣٠) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ لغة في الياسَ كسيناءَ وسينينَ، وقيل جمعٌ له مرادٌ به هو وأتباعه كالمهلبينَ، لكن فيه أن العَلَمَ إذا جُمِعَ يجبُ تعريفه باللام أو للمنسوبِ إليه بحذفِ ياء النسبِ كالأعجبينَ وهو قليل ملبسٌ، وقرأ نافع وابنُ عامر ويعقوبُ على إضافةِ آلِ إلى ياسينَ لأنهما في المصحفِ مفصولانِ فيكون ياسينُ أبا إلياسَ، وقيل محمدٌ عليه الصلاة والسلام أو القرآنُ أو غيره من كتبِ الله، والكلُّ لا يناسِبُ نظْمَ سائرِ القصصِ ولا قوله:

(١٣١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٣٢) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذِ الظاهرُ أنَّ الضمير لالياسَ.

(١٣٣) ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(١٣٤) ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾.

(١٣٥) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

---

(١) والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكار تركهم عبادته تعالى، والإشعار ببطلان آراء آبائهم أيضاً (س٧/ ٢٠٤).

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

(١٣٦) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ سبق بيانه.

(١٣٧) ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكّة. ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازِلهم في متاجِركم إلى الشامِ، فإنَّ سدومَ في طريقهِ. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلينَ في الصباح.

(١٣٨) ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ أي ومساءً أو نهاراً وليلاً، ولعلَّها وقعتْ قريبَ منزلٍ يمرُّ بها المرتحلُ عنه صباحاً والقاصِدُ لها مساءً. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس فيكم عقلٌ تعتبرون به.

(١٣٩) ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقرىء بكسْرِ النون.

(١٤٠) ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هربَ، وأصله الهربُ من السيِّد لكنْ لما كان هربُه من قومِه بغيرِ إذْنِ ربِّه حسُنَ إطلاقُه عليه. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوءِ.

(١٤١) ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارَعَ أهلَه. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبينَ بالقُرْعَةِ، وأصله المزلقُ عن مقامِ الظَّفرِ. روي[1] أنه لما وعدَ قومَه بالعذاب خرجَ من بينِهم قبل أنْ يأمُرَهُ الله، فركب السفينةَ فوقفتْ فقالوا: ها هنا عبدٌ آبِقٌ فاقترعُوا فخرجتِ القرعةُ عليه، فقال أنا الآبقُ ورَمَى بنفسِه في الماءِ.

(١٤٢) ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ فابتلعه من اللقمةِ. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخلٌ في الملامةِ، أو آتٍ بما يُلامُ عليه أو مليمٌ نفسَه، وقرىء بالفتحِ مبنياً من لِيْمَ كمشيبٍ في مشوبٍ.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين اللهَ كثيراً بالتسبيح مدَّةَ عمرِهِ، أو في بطنِ الحوتِ وهو قولُه ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2] وقيل من المصلِّينَ.

(١٤٤) ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حياً وقيلَ ميتاً، وفيه حثٌّ على إكثارِ الذكرِ وتعظيمِ لشأنه، ومَنْ أقبلَ عليه في السراء أخذَ بيده عندَ الضراءِ.

(١٤٥) ﴿۞ فَنَبَذْنَـٰهُ﴾ بأنْ حملْنا الحوتَ على لفظِه. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالمكانِ الخالي عما يغطيه من شجرٍ أو نبتٍ. روي[3] أنَّ الحوتَ سار مع السفينةِ رافعاً رأسَه يتنفسُ فيه يونسُ ويسبِّحُ حتى انتهوا إلى البرِّ فلفظَه، واختُلِفَ في مدةِ لُبْثِه فقيل بعضَ يومٍ وقيل ثلاثةَ أيامٍ وقيل سبعةً، وقيل عشرونَ وقيل أربعونَ. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مما نالَه، قيل صارَ بدنُه كبدنِ الطفلِ حين يولَدُ.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٤٣) بصيغة التمريض.

(٢) الأنبياء: «٨٧».

(٣) ذكر ذلك الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٤٥) بصيغة التمريض.

وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ
حِينٖ ﴿١٤٨﴾ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ
شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾

(١٤٦) ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي فوقَه مظلَّة عليه. ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ من شجرٍ ينبسطُ على وجْهِ الأرض ولا يقومُ على ساقِه، يفعيلٌ من قَطَنَ بالمكان إذا أقامَ به، والأكثرُ على أنها كانتِ الدُّباءُ غطَّتْهُ بأوراقِها عن الذبابِ فإنه لا يقعُ عليه، ويدلُّ عليه أنه قيلَ لرسولِ الله ﷺ: «إنك لتحبُّ القرعَ، قال: «أجلْ هي شجرةُ أخي يونسَ»[(١)]. وقيل التينُ وقيل الموزُ تغطَّى بورقة واستظلَّ بأغصانِه وأفطرَ على ثمارِه.

(١٤٧) ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ هم قومُه الذين هربَ عنهم وهم أهلُ نينوى، والمرادُ به ما سبقَ من إرساله أو إرسالٍ ثانٍ إليهم أو إلى غيرِهم. ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظرِ أي إذا نظرَ إليهم، قال هم مائةُ ألفٍ أو يزيدونَ والمرادُ الوصفُ بالكثرةِ وقرىء بالواوِ.

(١٤٨) ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ فصدَّقوه أو فجدَّدُوا الإيمانَ به بمحضَرِه. ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ إلى أجلِهم المسمَّى، ولعلَّه إنما لم يختِمْ قِصَّته وقصَّةَ لوطٍ بما ختمَ به سائِرَ القصصِ تفرقةً بينَهما وبينَ أربابِ الشرائعِ الكبر وأولي العزمِ من الرسلِ، أو اكتفاءً بالتسليم الشاملِ لكلِّ الرسلِ المذكورينَ في آخرِ السورةِ.

(١٤٩) ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ معطوفٌ على مثلِه، في أول السورةِ أمرَ رسولَه أولاً باستفتاءِ قريشٍ عن وجه إنكارِهم البعثَ، وساقَ الكلامَ في تقريرِه جارّاً لما يلائمه من القصصِ، موصولاً بعضُها ببعضٍ، ثم أمرَ باستفتائِهم عن وجْهِ القسْمةِ حيثُ جعلوا للهِ البناتِ ولأنفسِهم البنينَ في قولِهم: الملائكةُ بناتُ الله، وهؤلاءِ زادوا على الشركِ ضلالاتٍ أُخَرَ، التجسيمُ وتجويز الفناءِ على اللهِ تعالى، فإنَّ الولادةَ مخصوصةٌ بالأجسامِ الكائنةِ الفاسدةِ، وتفضيلُ أنفسِهم عليه حيثُ جعلوا أوضَعَ الجنسينِ له وأرفعَهما لهم، واستهانتُهم بالملائكةِ حيثُ أنَّثوهم ولذلك كرَّرَ الله تعالى إنكارَ ذلك وإبطالَه في كتابه مراراً، وجعلَه مما تكادُ السمواتُ يتفطَّرْنَ منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هدّاً، والإنكارُ ها هنا مقصورٌ على الأخيرَيْنِ لاختصاصِ هذه الطائفةِ بهما، أو لأنَّ فسادَهما مما تدركُه العامةُ بمقتضى طباعِهم حيثُ جعلَ المعادِلَ للاستفهام عن التقسيم.

(١٥٠) ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ وإنما خصَّ عِلْمَ المشاهدة لأنَّ أمثالَ ذلك لا تُعْلَمُ إلا بها، فإنَّ الأنوثةَ ليستْ من لوازمِ ذاتِهم لتمكُّنِ معرفَتِه بالعقلِ الصِّرفِ مع ما فيه من الاستهزاءِ، والإشعارُ بأنهم لِفَرْطِ جهلِهم يبتُّون به كأنهم قد شاهدوا خلْقَهُم.

(١٥١) ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾.

(١٥٢) ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ لعدمِ ما يقتضيه وقيامِ ما ينفيه. ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يتديَّنون به، وقرىء وَلَدُ اللهِ أي الملائكةُ ولدُه، فَعَلَ بمعنى مفعولٍ يستوي فيه الواحدُ والجمعُ والمذكَّرُ والمؤنَّثُ.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٤١ رقم ٢٩٨): لم أجده.

أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ
بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾

(١٥٣) ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعاد، والاصطفاءُ أخذُ صفوةِ الشيءِ. وعن نافع كسرُ الهمزةِ على حذفِ حرفِ الاستفهام لدلالة أمْ بعدَها عليها، أو على الإثباتِ بإضمارِ القولِ أي لكاذبونَ في قولهم اصْطَفَى، أو إبدالُه من وَلَدَ اللهُ.

(١٥٤) ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ بما لا يرتضيه عقلٌ.

(١٥٥) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه منزَّهٌ عن ذلك.

(١٥٦) ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حجةٌ واضحةٌ نزلتْ عليكم من السماءِ بأنَّ الملائكةَ بناتُه.

(١٥٧) ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ﴾ الذي أُنزِلَ عليكم. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعْواكُم.

(١٥٨) ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ يعني الملائكةَ ذَكَرَهُم باسمِ جِنْسِهم وضْعاً منهم أنْ يبلُغوا هذه المرتبةَ، وقيلَ قالوا إنَّ الله تعالى صاهرَ الجنَّ فخرجتِ الملائكةُ، وقيل قالوا اللهُ والشياطينُ إخوانٌ[1]. ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ﴾ إنَّ الكفرة أو الإنسَ والجنَّ إنْ فسِّرتْ بغير الملائكةِ ﴿لَمُحۡضَرُونَ﴾ في العذابِ.

(١٥٩) ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولدِ والنسبِ.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استثناءٌ من المحضَرين منقطعٌ، أو متصلٌ إنْ فسِّر الضميرُ بما يعمُّهم وما بينَهما اعتراضٌ، أو مِنْ يصفون.

(١٦١) ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ عودٌ إلى خطابِهم.

(١٦٢) ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على الله. ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ مفسدينَ الناسَ بالإغواءِ.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إلاَّ من سبقَ في علمِهِ أنه من أهلِ النار، ويصلاها لا محالةَ، وأنتم ضميرٌ لهم، ولآلهتهم غلبَ فيه المخاطبُ على الغائبِ، ويجوزُ أنْ يكونَ وما تعبدون لما فيه من معنى المقارنةِ ساداً مسدَّ الخبر أي إنكم وآلهتَكم قرناءُ لا تزالون تعبدونَها، ما أنتم على ما تعبدُونه بفاتنين باعثينَ على طريق الفتنةِ إلا ضالاً مستوجِباً للنارِ مثلَكم، وقرىء صالُ بالضمِّ على أنه جمعٌ محمولٌ على معنى مَنْ ساقطٌ وواوه لالتقاءِ الساكنين، أو تخفيفُ صائلٌ على القلبِ كشاكٍ في شائكٍ، أو المحذوفُ منه كالمنسي كما في قولهم: ما باليتُ به بالةً، فإن أصلَها باليةٌ كعافيةٍ.

(١٦٤) ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ حكايةُ اعترافِ الملائكة بالعبودية للردِّ على عبَدَتِهم والمعنى:

---

(١) وفي جملة «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً» التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكىٰ جنايتهم لآخرين (س٧/٢٠٨).

وما مِنَّا أحدٌ إلا له مقامٌ معلومٌ في المعرفة والعبادة والانتهاءِ إلى أمر الله في تدبير العالَم، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ هذا وما قبلَه من قوله سبحان الله مِنْ كلامِهم ليتصلَ بقوله ﴿ولقد علمت الجنة﴾[1] كأنه قال ولقد علمتِ الملائكةُ أنَّ المشركينَ معذَّبون بذلك وقالوا سبحان الله تنزيهاً له عنه، ثم استثْنوا المخلصينَ تبرئةً لهم منه، ثم خاطبوا المشركينَ بأنَّ الافتتانَ بذلك للشقاوة المقدَّرةِ، ثم اعترفوا بالعبوديةِ وتفاوتِ مراتبِهم فيه لا يتجاوزُونها فحذفَ الموصوفَ وأُقِيْمَتِ الصفةُ مقامَهُ.

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في أداء الطاعة ومنازلِ الخدمةِ.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزِّهونَ اللهَ عما لا يليقُ به، ولعلَّ الأولَ إشارةٌ إلى درجاتهم في الطاعةِ، وهذا في المعارفِ، وما في إنَّ واللامَ وتوسيطَ الفصلِ من التأكيد والاختصاصِ لأنهم المواظبونَ على ذلك دائماً من غير فترةٍ دونَ غيرِهم. وقيل هو مِنْ كلام النبيِّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنينَ والمعنى: وما مِنَّا إلا له مقامٌ معلوم في الجنة أو بينَ يدي اللهِ يومَ القيامة، وإنا لنحنُ الصافُّون له في الصلاة والمنزِّهون له عن السوءِ.

(١٦٧) ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ أي مشركو قريشٍ.

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كتاباً من الكتب التي نزلتْ عليهم.

(١٦٩) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصْنا العبادةَ له ولم تخالفْ مثلَهم.

(١٧٠) ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي لما جاءهم الذِّكرُ الذي هو أشرفُ الأذكارِ والمهيمنُ عليها. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ كفرِهم.

(١٧١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدُنا لهم النَّصرَ والغلبةَ وهو قوله:

(١٧٢) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾.

(١٧٣) ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وهو باعتبارِ الغالبِ والمقضى بالذاتِ، وإنما سمَّاه كلمةً وهي كلماتٌ لانتظامهم في معنى واحدٍ.

(١٧٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِضْ عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو الموعدُ لنصرِك عليهم وهو يومُ بدْرٍ، وقيل يومُ الفتح.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما ينالُهم حينئذ، والمرادُ بالأمر الدلالةُ على أن ذلك كائنٌ قريبٌ كأنه

(١) الصافات: «١٠٨».

قدامَهُ. ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما قضينا لك من التأييد والنُّصرةِ والثوابِ في الآخرة، وسوفَ للوعيدِ لا للتبعيدِ.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

(١٧٦) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ روي[١] أنه لما نزلَ فسوفَ يبصرونَ قالوا متى هذا فنزلتْ.

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ فإذا نزلَ العذابُ بفنائِهم، شبَّههُ بجيشٍ هَجَمَهُم فأناخَ بفنائِهم بغتةً، وقيل الرسولُ. وقرىء نزل على إسنادِه إلى الجارِّ والمجرور ونزلَ أي العذابُ. ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فبئسَ صباحُ المنذَرِينَ صباحُهم، واللامُ للجنسِ والصباحُ مستعارٌ من صباح الجيشِ المبيَّتِ لوقتِ نزولِ العذابِ، ولما كثُرَ فيهم الهجومُ والغارةُ في الصباحِ سمُّوا الغارةَ صباحاً وإنْ وقعتْ في وقتٍ آخرَ.

(١٧٨) ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

(١٧٩) ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ إلى تأكيدٍ، وإطلاقٌ بعدَ تقييدٍ للإشعار بأنه يبصرُ وأنَّهم يبصرونَ ما لا يحيطُ به الذِّكْرُ من أصنافِ المسرةِ وأنواعِ المساءةِ، أو الأولُ لعذابِ الدنيا والثاني لعذابِ الآخرة.

(١٨٠) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما قاله المشركونَ فيه على ما حُكِيَ في السورة، وإضافةُ الربِّ إلى العزَّةِ لاختصاصِها به إذ لا عزَّةَ إلا له أو لمن أعزَّه، وقد أدرجَ فيه جملةَ صفاتِه السلبيةِ والثبوتيةِ مع الإشعارِ بالتوحيد.

(١٨١) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تعميمٌ للرسل بالتسليم بعد تخصيصِ بعضِهم.

(١٨٢) ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما أفاضَ عليهم وعلى منِ اتَّبعَهم من النعم وحسنِ العاقبةِ ولذلك أخَّره عن التسليم، والمرادُ تعليمُ المؤمنينَ كيفَ يحمدُونه ويسلِّمون على رسلِه. وعن عليٍّ[٢] رضي الله عنه: مَنْ أحبَّ أنْ يكتالَ بالمكيالِ الأَوْفَى من الأجْرِ يومَ القيامة فليكنْ آخرَ كلامِه من مجلسِه: سبحان ربِّكَ إلى آخرِ السورةِ. وعن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ والصافاتِ أُعْطِيَ من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ جنيٍّ وشيطانٍ، وتباعدتْ عنه مَرَدَةُ الجنِّ والشياطينُ، وبُرِّىءَ من الشركِ وشهدَ له حافِظاهُ يومَ القيامةِ أنه كان مؤمناً بالمرسلينَ»[٣].

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٥٦).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٤١ رقم ٣٠٠): «ـ أخرجه ـ عبدالرزاق ـ في المصنف (٢/ ٢٣٦ رقم ٣١٩٦) ـ والثعلبي من رواية الأصبغ بن نباته ـ الحنظلي التميمي لين الحديث، ليس بشيء (الجرح والتعديل: (٢/ ٣١٩ ـ ٣٢٠)) ـ عن علي موقوفاً. ورواه ابن أبي حاتم من رواية الشعبي عن النبي ﷺ مرسلاً» هـ.

(٣) أخرجه الثعلبي، وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران. وانظر «الكافي الشافِ» (ص١٤١ رقم ٣٠١).

سُورَةُ صٓ

ترتيبها ٣٨ — آياتها ٨٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ
مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

سورة صٓ مكيةٌ[1]، وآيها ستٌّ أو ثمانٍ وثمانونَ آيةً

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿صٓ﴾ وقرئ بالكسرِ لالتقاء الساكنين، وقيل إنه أَمْرٌ من المصاداةِ بمعنى المعارضةِ، ومنه الصَّدى فإنه يعارِضُ الصوتَ الأولَ، أي عارِضِ القرآنَ بعملِكَ، وبالفتحِ[2] لذلك أو لحذفِ حرفِ القسمِ وإيصالِ فعله إليه أو إضمارِه، والفتحُ في موضعِ الجرِّ فإنَّها غيرُ مصروفةٍ لأنها عَلَمُ السورةِ، وبالجرِّ[2] والتنوينِ على تأويل الكتابِ. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ الواو للقسمِ إنْ جُعِلَ ص اسماً للحرفِ، أو مذكورٌ للتحدِّي، أو للرمزِ بكلامٍ مثل صدَقَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام، أو للسورةِ خبرُ المحذوفِ أو لفظُ الأمرِ. وللعطفِ[3] إنْ جُعِلَ مُقْسَماً به كقولهم: اللهِ لأفعلنَّ ـ بالجرِّ ـ والجوابُ محذوفٌ دلَّ عليه ما في ص من الدلالةِ على التحدي أو الأمرِ بالمعادلةِ ـ أي إنه لمعجزٌ أو لواجبُ العملِ به ـ أو إنَّ محمداً لصادقٌ أو قوله:

(٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ما كفرَ به مَنْ كفرَ لخللٍ وجدَه فيه بل الذين كفروا به. ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ أي استكبارٍ عن الحقِّ. ﴿وَشِقَاقٍ﴾ خلافٍ لله ولرسوله ولذلك كفروا به، وعلى الأَوَّلَيْنِ الإضرابُ أيضاً من

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ١٤٢).

(٢) قوله (وبالفتح) أي وقرئ بالفتح، وكذا قوله (وبالجر).

(٣) قوله وللعطف معطوف على قوله (للقسم) أي والواو للعطف.

الجوابِ المقدَّر، ولكنْ مِنْ حيثُ إشعارُه بذلك، والمرادُ بالذِّكْرِ العِظَةُ أوِ الشرفُ والشهرةُ، أو ذِكْرُ ما يحتاج إليه في الدينِ من العقائدِ والشرائعِ والمواعيدِ، والتنكيرُ في عزَّةٍ وشقاق للدلالة على شدَّتِهما. وقُرِىءَ في غِرَّةٍ أي غفلةٍ عما يجبُ عليهم النظرُ فيه.

(٣) ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ وعيدٌ لهم على كفرِهم به استكباراً وشقاقاً. ﴿فَنَادَواْ﴾ استغاثةً أو توبةً أو استغفاراً. ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ أي ليسَ الحينُ حينَ مناصٍ. ولا هي المشبَّهةُ بليسَ زِيْدَتْ عليها تاءُ التأنيثِ للتأكيدِ كما زيدتْ على رُبَّ وثَمَّ خُصَّتْ بلزوم الأحيانِ وحَذْفِ أحدِ المعمولينِ، وقيل هي النافيةُ للجنسِ أي ولا حينَ مناصٍ لهم وقيل للفعلِ، والنصبُ بإضمارِهِ أي ولا أرى حينَ مناصٍ، وقرىء بالرفعِ على أنه اسمُ لا أو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ أي ليسَ حين مناصٍ حاصلاً لهم أو لا حينَ مناصٍ كائنٌ لهم، وبالكسْرِ كقوله:

طَلَبُــــوا صُلْحَنَــــا وَلاَتَ أَوَانٍ	فــأَجَبْنَـــا أَنْ لاَتَ حِيــنَ بَقَـــاءِ[١]

إما لأنَّ لاتَ تجرُّ الأحيانَ كما أنَّ لولا تجرُّ الضمائِرَ في قوله: لَوْلاَكَ هذا العَامُ لَمْ أَحْجُجِ، أو لأنَّ أوانَ شُبِّهَ بإذْ لأنه مقطوعٌ عن الإضافة إذ أصلُه أوانُ صُلْحٍ، ثم حُمِلَ عليه مناصُ تنزيلاً لما أُضِيْفَ إليه الظرفُ منزلته لما بينَهما من الاتحادِ إذ أصلُه يَحِنْ مناصُهم، ثم بنى الحينَ لإضافته إلى غيرِ متمكِّنٍ. ولاتِ بالكسرِ كجَيْرِ، وتقفُ الكوفيةُ عليها بالهاءِ كالأسماءِ، والبصريةُ بالتاء كالأفعالِ. وقيل إنَّ التاءَ مزيدةٌ على حينَ لاتصالِها به في الإمام[٢] ولا يُرَدُّ عليه أنَّ خطَّ المصحفِ خارجٌ عن القياسِ إذ مثلُه لم يُعْهَدْ فيه، والأصلُ اعتبارُه إلا فيما خصَّه الدليلُ ولقوله:

العَــاطِفُــونَ تَحِيــنَ لاَ مِــنْ عَــاطِــفٍ	والمُطْعِمُــونَ زَمَــان مَــا مِــنْ مُطْعِــمِ

والمناصُ المنجا من ناصَهُ ينوصُه إذا فاتَهُ.

(٤) ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ بشرٌ مثلُهم أو أميٌّ من عِدادِهم. ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وضعَ فيه الظاهرَ موضِعَ الضميرِ غضَباً عليهم وذمّاً لهم، وإشعاراً بأنَّ كُفرَهم جسَّرهم على هذا القولِ. ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ﴾ فيمَا يظهره معجزةً. ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقوله على الله تعالى.

(٥) ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ بأنْ جعلَ الألوهيةَ التي كانتْ لهم لواحدٍ. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ بليغٌ في العُجْب فإنه خلافُ ما أطبقَ عليه آباؤُنا، وما نشاهدُه من أنَّ الواحدَ لا يفي عِلْمُهُ وقدرتُه بالأشياءِ الكثيرةِ. وقُرِىءَ مشدَّداً وهو أبلغُ ككرَّام وكرامٍ. وروي أنه لما أَسْلَمَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه شقَّ ذلك على قريشٍ، فأتوا أبا طالبٍ وقالوا أنت شيخُنا وكبيرُنا، وقد علمْتَ ما فعلَ هؤلاءِ السفهاءُ وإنا جئناك لتقضيَ بيننا وبينَ ابنِ أخيك، فاستحضرَ رسولَ الله ﷺ وقال: هؤلاءِ قومُك يسألونَك السواءَ فلا تملْ كلَّ الميلِ عليهم، فقال عليه الصلاةُ والسلام: «ماذا يسألونَني»، فقالوا: ارفُضْنا وارفضْ ذِكْرَ آلهتِنا وندعُكَ وإلٰهَكَ، فقال: «أرأيتُم إن أعطيتُكم ما سألتم، أمعطيَّ أنتم كلمةً واحدةً تملكون بها العربَ

---

(١) من الخفيف.

(٢) قوله في الإمام أي في المصحف الإمام وهو المصحف العثماني.

وتدينُ لكم بها العجمُ؟» فقالوا: نعَمْ وعَشْراً، فقال: «قولوا لا إلهَ إلا اللهُ»، فقاموا وقالوا ذلك[١].

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾

(٦) ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وانطلقَ أشرافُ قريش من مجلسِ أبي طالبٍ بعدَما بَكَتَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ. ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ قائلينَ بعضُهم لبعضٍ امشُوا. ﴿وَٱصْبِرُوا۟﴾ واثْبُتُوا. ﴿عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ على عبادتِها فلا ينفعُكم مكالمتُه، وأنْ هي المفسِّرة لأنَّ الانطلاقَ عن مجلسِ التقاولِ يشْعِرُ بالقولِ. وقيل المرادُ بالانطلاقِ الاندفاعُ في القولِ، وامشوا من مشتِ المرأةُ إذا كثرتْ أولادُها، ومنه الماشيةُ أي اجتمعوا. وقرىء بغيرِ أنْ، وقرىء يمشونَ أنِ اصْبِروا. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ إن هذا الأمرَ لشيءٌ من ريبِ الزمان يُرادُ بنا فلا مردَّ له، أو إن هذا الذي يدَّعيه من التوحيد أو يقصدُه من الرئاسة والترفُّعِ على العرب والعجمِ لشيء يُتَمَنَّى أو يريدُه كلُّ أحدٍ، أو إنَّ دينكم لشيء يُطْلَبُ ليؤْخَذَ منكم.

(٧) ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ بالذي يقوله. ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في الملة التي أدركْنا عليها آباءَنا، أو في ملَّة عيسى عليه الصلاةُ والسلام التي هي آخر المِلَلِ فإنَّ النصارى يثلِّثون. ويجوز أنْ يكون حالاً من هذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٦٥ رقم ٣٢٣٢) والنسائي في التفسير (رقم: ٤٥٦) وقال الترمذي: حديث حسن ورجاله ـ سوى يحيى بن عمارة ـ ثقات، شيخ المصنف هو التيمي، يحيى هو ابن سعيد القطان، ويحيى بن عمارة هذا لا يدري ما حاله، وقد ذكره ابن حبان في الثقات (٧/ ٦٠٥) وقد تفرد عنه الأعمش، وسماه أبو أسامة: عباد ـ غير منسوب ـ، ووقع في رواية أحمد (٢/ ٣٦٢): عباد بن جعفر، وقال عنه الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣٥٤ رقم ١٣٩) «مقبول». وقيل في اسمه (يحيى بن عباد) كذا وقع في بعض الروايات.
وقد أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/ ١٢٥) وأبو يعلى (٤/ ٤٥٥ رقم ٢٥٦/ ٢٥٨٣) وابن حبان في الموارد (ص٤٣٥ رقم ١٧٥٧). والحاكم (٢/ ٤٣٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٨٨) والواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٦) كلهم من حديث الأعمش عن يحيى بن عمارة عن سعيد ـ به ـ.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وكذا قال أبو الأشبال في تعليقه على المسند (٣/ ٣١٤ رقم ٢٠٠٨). قلت: في إسناده يحيى بن عمارة هذا.
وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٤٢) نسبته لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس ـ به ـ. وأخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢) والطبري في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/ ١٢٥) والنسائي في التفسير (رقم: ٤٥٧) كلهم من حديث الأعمش بن عباد، عن سعيد ـ به ـ.
وسماه في رواية أحمد: عباد بن جعفر، وفيها التصريح بسماع الأعمش، وقد ذكر ابن حبان، عباد بن جعفر في الثقات، ولكنه غير هذا، فالذي ذكره يروى عن أشعب بن عبدالملك.
وروى عنه عثمان بن أبي شيبة فهو متأخر عن هذا.
وأخرجه ابن إسحاق ـ كما في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٧ ـ ٦٨) ـ قال: حدثني العباس بن عبدالله بن معبد بن عباس، عن بعض أهله، عن ابن عباس ـ فذكره بنحوه ـ، وليس فيه ذكر الآيات.
ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٢) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال: العباس ثقة. قلت: وإسناده حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من العباس. والخلاصة أن الحديث حسن.

أي ما سمعنا من أهلِ الكتاب ولا الكهانِ بالتوحيد كائناً في الملة المترقَّبةِ. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ كذبٌ اختلقَهُ.

أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾

(٨) ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ إنكارٌ لاختصاصِه بالوحي وهو مثلُهم أو أدْوَنُ منهم في الشرفِ والرئاسة كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[١] وأمثالُ ذلك دليلٌ على أنَّ مَبْدَأَ تكذيبهم لم يكنْ إلا الحسد وقصورُ النظرِ على الحطامِ الدنيويِّ. ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ﴾ من القرآن أو الوحي لميلهم إلى التقليد وإعراضِهم عن الدليل، وليس في عقيدتهم ما يبتُّون به من قولهم هذا ساحرٌ كذابٌ إن هذا إلا اختلاقٌ. ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ بل لم يذوقُوا عذابي بعدُ فإذا ذاقوه زالَ شكُّهم، والمعنى أنهم لا يصدِّقون به حتى يمسَّهم العذابُ فيلْجِئَهم إلى تصديقِه.

(٩) ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ بل أعِندَهم خزائنُ رحمته، وفي تصرُّفهم حتى يصيبوا بها من شاؤوا ويصرِفوها عمَّن شاؤوا، فيتخيَّرُ للنبوة بعضَ صناديدِهم، والمعنى أن النبوَّةَ عطيَّةٌ من الله يتفضَّل بها على مَنْ يشاءُ من عباده لا مانعَ له فإنه العزيزُ أي الغالِبُ الذي لا يُغْلَبُ، الوهابُ الذي له أنْ يَهَبَ كلَّ ما يشاء لِمَنْ يشاء، ثم رشَّحَ ذلك فقال:

(١٠) ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ﴾ كأنه لما أنكر عليهم التصرُّفَ في نبوَّته بأنْ ليس عندَهم خزائنُ رحمته التي لا نهايةَ لها، أردفَ ذلك بأنه ليس لهم مدخلٌ في أمرِ هذا العالَمِ الجسمانيِّ الذي هو جزءٌ يسيرٌ من خزائنه فَمِنْ أين لهم أنْ يتصرَّفوا فيها. ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ جوابُ شرطٍ محذوف أي إنْ كان لهم ذلك فلْيصعدوا في المعارجِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى العرش حتى يَسْتَوُوا عليه ويدبِّروا أمرَ العالَمِ، فَيُنْزِلُوا الوحيَ إلى مَنْ يستصوبونَ. وهو غايةُ التهكُّمِ بهم، والسببُ في الأصلِ هو الوصلةُ، وقيل المرادُ بالأسبابِ السمواتُ لأنها أسباب الحوادثِ السُّفليةِ.

(١١) ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي هم جندٌ ما من الكفار المتحزِّبينَ على الرسل، مهزومٌ مكسور عما قريب فَمِنْ أين لهم التدابيرُ الإلهية والتصرُّفِ في الأمور الربانية، أو فلا تكترثْ بما يقولون، وما مزيدةٌ للتقليل كقولك: أكلتُ شيئاً ما، وقيل للتعظيم على الهزءِ وهو لا يلائمُ ما بعدَه، وهنالك إشارةٌ إلى حيثُ وضعوا فيه أنفسَهم من الانتدابِ لمثلِ هذا القولِ.

(١٢) ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ ذو الملْكِ الثابت بالأوتاد كقوله:

وَلَقَـدْ غَنـوا فِيْهَـا بِـأَنْعَـمِ عِيْشَـةٍ فـي ظِـلِّ ملـكٍ ثَـابِـتِ الأَوْتَـادِ[٢]

---

(١) الزخرف: «٣١».
(٢) من الكامل.

مأخوذٌ من ثبات البيتِ المطنبِ بأوتادِه، أو ذو الجموعِ الكثيرة سُمُّوا بذلك لأن بعضَهم يشدُّ بعضاً كالوتد يشدُّ البناءَ. وقيل نَصَبَ أربعَ سوارٍ وكان يمد يدي المعذَّبِ ورجليهِ إليها ويضربُ عليها أوتاداً ويتركُه حتى يموتَ.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾

(١٣) ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ﴾ وأصحابُ الغيضةِ وهم قومُ شعيبٍ، وقرأ ابنُ كثير ونافع وابنُ عامر لَيْكةِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ يعني المتحزبينَ على الرسل الذين جعلَ الجندَ المهزومَ منهم.

(١٤) ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ بيانٌ لما أُسْنِدَ إليهم من التكذيب على الإبهام مشتمِلٌ على أنواعِ من التأكيد ليكونَ تسجيلاً على استحقاقهم للعذاب، ولذلك رتَّبَ عليه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وهو إما مقابلةُ الجمعِ بالجمعِ، أو جَعْلُ تكذيبِ الواحدِ منهم تكذيبُ جميعِهم.

(١٥) ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وما ينتظرُ قومُك أو الأحزابُ فإنهم كالحضور لاستحضَارهم بالذِّكْرِ، أو حضورُهم في علمِ الله تعالى ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأولى. ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ من توقُّفِ مقدارِ فُوَاقَ، وهو ما بين الحلَبَتَيْنِ، أو رجوعٌ وترداد فإنه فيه يرجعُ اللبنُ إلى الضِّرعِ، وقرأ حمزة والكسائيُّ بالضمِّ وهما لغتانِ.

(١٦) ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قِسْطَنا من العذاب الذي توعِدُنا به، أو الجنةَ التي تعدُّها للمؤمنين وهو من قطَّه إذا قطعهُ، وقيل صحيفةِ الجائزةِ قِطٌّ لأنها قطعةٌ من القرطاسِ، وقد فُسِّر بها أي: عجِّلْ لنا صحيفةَ أعمالِنا للنظرِ فيها. ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ استعجَلُوا ذلك استهزاءً.

(١٧) ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ واذكر لهم قِصَّتَه تعظيماً للمعصية في أعينهم، فإنه مع علوِّ شأنه واختصاصِه بعظائمِ النعمِ والمكرُماتِ لما أتى صغيرةً نزلَ عن منزلته ووبَّخه الملائكةُ بالتمثيلِ والتعريضِ حتى تفطَّنَ فاستغفرَ ربه وأنابَ فما الظَّنُّ بالكفرةِ وأهلِ الطغيان، أو تذكَّرْ قِصَّتَهُ وصُنْ نفسَك أنْ تزلَّ فيلقاكَ ما لقيهُ من المعاتبة علي إهمال عنانِ نفسِه أدنى إهمالٍ. ﴿ذَا ٱلْأَيْدِۖ﴾ ذا القوةِ يُقَالُ فلان أيدٍ وذو أيدٍ وآدٍ وأيادٍ بمعنى. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاعٌ إلى مرضاةِ الله تعالى، وهو تعليلٌ للأيدِ ودليلٌ على أنَّ المرادَ به القوةُ في الدين، وكان يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً ويقومُ نصفَ الليل.

(١٨) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ قد مرَّ تفسيرهُ، ويسبِّحْنَ حالٌ وُضِعَ موضِعَ مسبحات لاستحضار الحال الماضيةِ والدلالةِ على تجدُّدِ التسبيحِ حالاً بعد حال[1]. ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ ووقتِ الإشراقِ وهو

---

(١) قوله «سخرنا الجبال معه...» ولم يقل له لأن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلي فيها إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كتسخير الريح وغيرها لسليمان ـ عليه السلام ـ بل بطريق التبعية له ـ عليه =

حينَ تشرقُ الشمسُ أي تضيءُ ويصفو شعاعُها وهو وقتُ الضحى، وأما شروقُها فطلوعُها يقال شرقتِ الشمسُ ولما تشرقْ. وعن أمِّ هانىء رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاةَ الضحى وقال «هذه صلاةُ الإشراقِ»[1]. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفْتُ صلاةَ الضحى إلا بهذه الآيةِ[2].

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾

(١٩) ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ إليه من كل جانب، وإنما لم يراعِ المطابقةَ بين الحالين لأنَّ الحشرَ جملةً أدلُّ على القدرةِ منه مدرجاً، وقرىء والطيرُ محشورةٌ بالمبتدأِ والخبرِ. ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ كلٌّ واحد من الجبالِ والطيرِ لأجلِ تسبيحه رجَّاعٌ إلى التسبيح، والفرقُ بينه وبينَ ما قبلَه أنه يدلُّ على الموافقةِ في التسبيحِ وهذا على المداومةِ عليها، أو كلٌّ منهما ومِنْ داودَ عليه الصلاة والسلام مرجِّعٌ لله التسبيحَ.

(٢٠) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ وقوَّيناه بالهيبة والنصرةِ وكثرةِ الجنودِ، وقرىء بالتشديد للمبالغةِ. قيل: إنَّ رجلاً ادعى بقرةً على آخرَ وعجزَ عن البيانِ، فأوحى إليه أنِ اقتلِ المدَّعىٰ عليه فأعْلَمَهُ فقال: صدقْتَ إني قتلتُ أباه وأخذتُ البقرةَ فعظمتْ بذلك هيبتُه. ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوةَ أو كمالَ العلم وإتقانَ العمل. ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ وفصلَ الخصامِ بتمييز الحقِّ عن الباطل، أو الكلامَ المخلصَ الذي ينبه المخاطبُ على المقصودِ من غير التباسٍ يراعي فيه مظانَّ الفصلِ والوصلِ والعطفِ والاستئنافِ والإضمارِ والإظهارِ والحذفِ والتكرارِ ونحوِها، وإنما سُمِّيَ به أما بعدُ لأنه يفصلُ المقصودَ عما سبقَ مقدمةً له من الحمدِ والصلاةِ، وقيل هو الخطابُ القصْدُ الذي ليس فيه اختصارٌ مخلٌّ ولا إشباعٌ مملٌّ كما جاء في وصفِ كلام الرسولِ عليه الصلاة والسلام فصلٌ لا نزْرٌ ولا هذرٌ.

(٢١) ﴿۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ استفهامٌ معناه التعجيبُ والتشويقُ إلى استماعه، والخصْمُ في الأصلِ مصدرٌ ولذلك أُطْلِقَ على الجمعِ. ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إذ تصعدوا سورَ الغرفةِ، تفعَّلٌ من السورِ كتسنُّمٍ من السَّنامِ، وإذ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أي نبأ تحاكِم الخصْمِ إذ تسوَّروا، أو بالنبأ على أنَّ المرادَ به

= الصلاة والسلام ـ والاقتداء به في عبادة الله تعالى (س٧/ ٢١٩).

(١، ٢) أخرج الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٧/ ٩٩).
عن ابن عباس قال: كنت أمر بهذه الآية ـ يُسبحنَ بالعشي والإشراق ـ فما أدري ما هي العشي والإشراق حتى حدثتني أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء بحفنة كأني أنظر إلى أثر العجين فيها فتوضأ ثم قام فصلى الضحى فقال: يا أم هانىء هي صلاة الإشراق. وقال الهيثمي: فيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف وأخرج الحاكم (٤/ ٥٣) من وجه آخر عن عبدالله بن الحارث عن ابن عباس «كان يصلي الضحى حتى أدخلناه على أم هانىء فقلت لها: أخبري ابن عباس. قالت: دخل رسول الله ﷺ في بيتي فصلى صلاة الضحى ثمان ركعات. قال فخرج ابن عباس وهو يقول: هذه صلاة الإشراق» وسكت عليه الحاكم والذهبي. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٤٢ رقم ٣٠٤) «هذا موقوف وهو أصح».

الواقعُ في عهدِ داودَ عليه الصلاة والسلام، وأن إسنادَ أتى إليه على حذفِ مضافٍ أي قصةَ نبأ الخصمِ لما فيه من معنَى الفعلِ لا بأَتَى لأنَّ إتيانَه الرسولَ عليه الصلاة والسلام لم يكنْ حينئذ وإذْ الثانيةُ في:

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدلٌ من الأولى أو ظرفٌ لتسوروا. ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ نزلُوا عليه من فوق في يومِ الاحتجابِ والحرسُ على الباب لا يتركونَ مَنْ يدخلُ عليه، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جزَّأَ زمانَه: يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للوعْظِ ويوماً للاشتغالِ بخاصَّته، فتسوَّر عليه ملائكةٌ على صورة الإنسان في يوم الخلوةِ. ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ نحن فوجانِ متخاصِمان على تسميةِ مصاحبِ الخصمِ خصْماً. ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهو على الفرضِ وقصْدِ التعريضِ إن كانوا ملائكةً وهو المشهورُ. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تُجز في الحكومة، وقرىء ولا تَشْطُطْ أي ولا تبعدْ عن الحقِّ ولا تشططْ ولا تُشاطَّ، والكلُّ من معنى الشططِ وهو من مجاوزةِ الحدِّ. ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي إلى وسَطِه وهو العدلُ.

(٢٣) ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ بالدينِ أو بالصُّحبةِ. ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي الأُنْثى من الضأنِ، وقد يكنَّى بها عن المرأةِ، والكنايةُ والتمثيلُ فيما يُسَاقُ للتعريض أبلغُ في المقصودِ، وقرىء تَسعٌ وتَسْعُونَ بفتح التاء ونِعْجةً بكسرِ النونِ، وقرأ حفص بفتح ياءِ ليَ نعجةٌ. ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ ملِّكْنيْهَا وحقيقتُه اجعلْني أكفلُها كما أكفلُ ما تحتَ يدي، وقيل اجعلْها كِفْلي أي نصيبي. ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ وغَلَبَني في مخاطبتِه إيايَ محاجَّةً بأنْ جاء بحجاج لم أقدز على ردِّه، أو في مغالبتِه إيايَ في الخطبةِ يُقَالُ: خطبتُ المرأةَ وخَطَبَها هو فخاطبني خطاباً حيثُ زوَّجها دوني. وقرىء وعازَّني أي غالبني، وعَزَني على تخفيفِ غريب.

(٢٤) ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ جوابُ قسمٍ محذوف قصدَ به المبالغةَ في إنكار فعلِ خليطِه وتهجينِ طمعِه ولعلَّه قال ذلك بعدَ اعترافِه، أو على تقدير صدقِ المدَّعي، والسؤالُ مصدرٌ مضاف إلى مفعوله، وتعديتُه إلى مفعولٍ آخرَ بإلى لتضمُّنه معنى الإضافةِ. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاءِ الذين خلطُوا أموالَهم جمعُ خليطٍ ﴿لَيَبْغِى﴾ ليتعدي. ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقرىء بفتح الياءِ على تقدير النونِ الخفيفةِ وحذفِها كقوله: اضْرِبْ عَنْكَ الهُمُوم طَارِقَهَا، وبحذفِ الياء اكتفاءً بالكسرةِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهمْ قليلٌ، وما مزيدةٌ للإبهام والتعجُّبِ من قلَّتهم. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ابتليناه بالذَّنْبِ أو امتحناه بتلكَ الحكومةِ هل يتنبَّهُ بها. ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه. ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجداً على تسميةِ السجودِ ركوعاً لأنه مبدؤُه، أو خرَّ للسجود راكعاً أي مصلياً كأنه أحرمَ بركعتي

الاستغفارِ. ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجعَ إلى الله بالتوبة، وأقصَى ما في هذه القضيةِ الإشعارُ بأنه عليه الصلاةُ والسلام ودَّ أن يكونَ له ما لغيره، وكان له أمثالُه فنبَّههُ الله بهذهِ القصةِ فاستغفرَ وأناب عنه. وما روي أنَّ بصرَهُ وقعَ على امرأةٍ فعشِقَها وسعَى حتى تزوَّجها وَلَدَتْ منه سليمانَ، إنْ صحَّ فلعلَّه خطبَ مخطوبَتَهُ أو استنزلَه عن زوجَتِه، وكان ذلك معتاداً فيما بينَهم، وقد واسى الأنصارُ المهاجرينَ بهذا المعنى. وما قيل إنه أرسلَ أوريا إلى الجهاد مراراً وأمر أنْ يقدَّمَ حتى قُتِلَ فتزوَّجها هزءٌ وافتراءٌ، ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: من حدَّثَ بحديث داودَ عليه السلام على ما يرويه القُصّاصُ جلدتُه مائةً وستينَ[1]. وقيل إنَّ قوماً قصدُوا أنْ يقتلوه فتسوَّروا المحرابَ ودخلوا عليه فوجدُوا عنده أقواماً فتصنَّعوا بهذا التحاكُم فعلِمَ غرضَهم وأراد أنْ ينتقِمَ منهم، فظنَّ أن ذلك ابتلاءٌ منَ الله له فاستغفرَ ربَّه مما همَّ به وأنابَ.

فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ أي ما استغفرَ عنه. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقربةً بعدَ المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجعٌ في الجنة.

(٢٦) ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استخلفْناك على الملْكِ فيها، أو جعلْناك خليفةً ممن قبلَك من الأنبياءِ القائمين بالحقِّ. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ بحكمِ الله. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ما تهوى النفسُ، وهو يؤيدُ ما قيل إنَّ ذَنْبَهُ المبادرةُ إلى تصديقِ المدَّعي وتظليمِ الآخرِ قبل مسألَتِه. ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ دلائلِه التي نَصَبَهَا على الحقِّ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ بسببِ نسيانِهم وهو ضلالُهم عن السبيلِ، فإنَّ تذكُّرهُ يقتضي ملازمةَ الحقِّ ومخالفةَ الهوى[2].

(٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًاۚ﴾ لا حكمةَ فيه، أو ذوي باطلٍ بمعنى مبطلينَ عابثينَ كقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾[3] أو للباطلِ الذي هو متابعةُ الهوى، بل للحقِّ الذي هو مقتضَى الدليلِ من التوحيدِ والتدرُّع بالشرع كقوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[4] على وضْعِه موضِعَ المصدرِ مثل هَنيئاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ الإشارةُ إلى خلْقها باطلاً، والظنُّ بمعنى المظنونِ. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بسبب هذا الظنِّ[5].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٤٢ رقم ٣٠٦):«لم أجده».أهـ.

(٢) وإظهار «سبيل الله» في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بكمال شناعة الضلال عنه (س٧/ ٢٢٣).

(٣) الأنبياء: «١٦».

(٤) الذاريات: «٥٦».

(٥) وَضَع الموصول «للذين كفروا» موضع ضميرهم للإشعار بما في حيّز الصلة بعِليّة كفرهم له (س٧/ ٢٢٤).

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أم منقطعةٌ والاستفهامُ فيها لإنكارِ التسويةِ بينَ الحزبينِ التي هي من لوازمِ خلقِها باطلاً ليدلَّ على نفْيِهِ وكذا التي في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ كأنه أنكرَ التسويةَ أولاً بينَ المؤمنينَ والكافرينَ ثمَّ بيَّنَ المتقينَ من المؤمنينَ والمجرمينَ منهم، ويجوزُ أنْ يكونَ تكريراً للإنكارِ الأولِ باعتبار وصْفَيْنِ آخرَيْنِ يمنعانِ التسوية من الحكيمِ الرحيمِ، والآية تدلُّ على صِحَّةِ القولِ بالحشْرِ، فإنَّ التفاضُلَ بينَهما إما أنْ يكون في الدنيا والغالبُ فيها عكسُ ما يقتضي الحكمةَ فيه، أو في غيرها وذلك يستدعي أنْ يكون لهم حالةٌ أخرى يُجَازَوْنَ بها.

(٢٩) ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ نفَّاعٌ، وقرىء بالنصبِ على الحالِ. ﴿لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ﴾ ليتفكَّروا فيها فيعرفُوا ما يدبِّر ظاهرَها من التأويلاتِ الصحيحةِ والمعاني المستَنْبَطَةِ. وقرىء ليتدبروا على الأصلِ ولِتَدَّبَّروا أي أنتَ وعلماءُ أمَّتِكَ. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وليتعظَ به ذوو العقولِ السليمة، أو ليستحْضِروا ما هو كالمركوزِ في عقولِهم من فَرْطِ تمكُّنِهم من معرفته بما نصبَ عليه من الدلائلِ، فإنَّ الكتبَ الإلهيةَ بيانٌ لما لا يُعْرَفُ إلا من الشرعِ، وإرشادٌ إلى ما يستقلُّ به العقلُ، ولعل التدبُّرَ للمعلومِ الأولِ والتذكُّرَ للثاني.

(٣٠) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي نعمَ العبدُ سليمانُ إذ ما بعدَه تعليلٌ للمدحِ وهو في حاله. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجَّاعٌ إلى اللهِ بالتوبة، أو إلى التسبيحِ مرجعٌ له.

(٣١) ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ظرفٌ لأوَّابٍ أو لِنِعْمَ، والضميرُ لسليمانَ عندَ الجمهور ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ بعدَ الظهرِ ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ الصافنُ من الخيلِ الذي يقومُ على طرفِ سُنْبُكِ يدٍ أو رِجْلٍ، وهو من الصفاتِ المحمودةِ في الخيلِ الذي لا يكادُ يكون إلا في العرابِ الخلَّصِ. ﴿الْجِيَادُ﴾ جمع جواد أو جودٍ، وهو الذي يسرعُ في جَرْيِهِ وقيل الذي يجود في الركضِ، وقيل جمعُ جيدٍ. روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا دمشقَ ونصيبينَ وأصاب ألفَ فرسٍ، وقيل أصابها أبوه من العمالقةِ فورثَها منه فاستعرضَها فلم تزلْ تُعْرَضُ عليه حتى غربتِ الشمسُ وغفلَ عن العصْرِ، أو عن وِرْدٍ كان له فاغتمَّ لما فاته فاستردَّها فعقَرَها تقرُّباً لله.

(٣٢) ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أصلُ أحببتُ أنْ يُعَدَّى بعلى لأنه بمعنى آثرتُ لكنْ لما أُنِيبَ منابَ أنبتُ عُدِّيَ تعديتَه، وقيل هو بمعنى تَقاعدْتُ من قوله:

مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذَا أَحَبَّا

أي بركَ، وحبُّ الخير مفعولٌ له، والخيرُ المالُ الكثيرُ، والمرادُ به الخيلُ التي شغلتْه ويُحْتَمَلُ أنه سمَّاها خيراً لتعلُّقِ الخير بها. قال عليه الصلاة والسلام: «الخيل معقودٌ بنواصيها الخيرُ إلى يومِ

القيامة»[(١)]. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربتِ الشمسُ، شبَّه غروبَها بتواري المخبَّأةِ بحجابِها، وإضمارُها من غير ذِكْرٍ لدلالة العشيِّ عليها.

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

(٣٣) ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ الضمير للصافناتِ. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فأخذَ بمسحِ السيفِ مسْحاً[(٢)]. ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي بِسُوقِها وأعناقِها يقطعُها من قولِهم مسحَ علاوتَه[(٣)] إذا ضربَ عُنُقَهُ، وقيل جعلَ يمسحُ بيده أعناقَها وسُوقَها حبّاً لها. وعن ابن كثير بالسؤْقِ على همزِ الواوِ لضمةِ ما قبلها كمؤْقِنٍ، وعن أبي عمرو بالسؤوقِ، وقرىء بالساقِ اكتفاءً بالواحد عن الجمعِ لأمْنِ الإلباسِ.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ وأظهرُ ما قيلَ فيه ما روى مرفوعاً أنه قال: لأطوفنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأةً تأتي كلُّ واحدة بفارسٍ يجاهد في سبيل الله ولم يقلْ إنْ شاء الله، فطافَ عليهن فلم تحملْ إلا امرأةٌ جاءت بشقِّ رجلٍ، فوالذي نفس محمدٍ بيده لو قال إنْ شاءَ الله لجاهدوا فرساناً»[(٤)]. وقيل وُلِدَ له ابنٌ فاجتمعتِ الشياطينُ على قتله فعلِمَ ذلك، فكان يغذُوه في السحاب فما شعرَ به إلا أنْ أُلقيَ على كرسِّيه ميتاً فتنبَّه على خطئِه بأنْ لم يتوكلْ على الله. وقيل إنه غزا صيدونَ من الجزائرِ فقتلَ مِلِكَها وأصابَ ابنتَه جرادةَ، فأحبَّها وكان لا يرقأ دمعُها جزعاً على أبيها، فأمرَ الشياطينَ فمثَّلُوا لها صورتَه فكانتْ تغدو إليها وتروحُ مع ولائِدها يسجدْنَ لها كعادتهنَّ في مُلْكِه، فأخبره آصِفُ فكسرَ الصورةَ وضربَ المرأةَ وخرجَ إلى الفلاةِ باكياً متضرِّعاً، وكانتْ له أمُّ ولدٍ اسمُها أمينةُ إذا دخل للطهارةِ أعطاها خاتَمَهُ وكان ملْكُه فيه، فأعطاها يوماً فتمثَّل لها بصورتِه شيطانٌ اسمه صخْرٌ وأخذَ الخاتَمَ وتختَّم به وجلسَ على كرسيِّه، فاجتمعَ عليه الخلْقُ ونفذَ حكمُه في كلِّ شيءٍ إلا في نسائِه وغيَّرَ سليمانَ عن هيئتِه، فأتاها لطلبِ الخاتَمِ فطردْته فعرفَ أنَّ الخطيئةَ قد أدركتْه، فكان يدور على البيوتِ يتكففُ حتى مضَى أربعونَ يوماً عددَ ما عُبِدَتِ الصورةُ في بيته، فطارَ الشيطانُ وقذفَ الخاتمَ في البحرِ فابتلعتْه سمكةٌ فوقعتْ في يدِهِ فبقرَ بطنَها فوجدَ الخاتَمَ فتختَّمَ به وخرَّ ساجداً، وعاد إليه المُلْكُ، فعلى هذا الجسدِ صخرٌ سمِّي به وهو جسمٌ لا روحَ فيه لأنه كان متمثلاً بما لم يكنْ كذلك، والخطيئةُ تغافُلُه عن حالِ أهلِه لأنَّ اتخاذَ التماثيل كان جائزاً حينئذٍ، وسجودُ الصورةِ بغير علمِه لا يضرُّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٦٣٣ رقم ٣٦٤٤) ومسلم (٣/ ١٤٩٢ رقم ٩٦) من حديث ابن عمر. وفي الباب من حديث عروة البارقي، وجرير، وأبي هريرة.

(٢) والفاء فصيحة أفصحت عن جملة حذفت ثقة بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر (س٧/ ٢٢٦).

(٣) العلاوة بالكسر أعلى الرأس أو العنق.

(٤) أخرجه البخاري (١١/ ٥٢٤ رقم ٦٦٣٩) ومسلم (٣/ ١٢٧٦ رقم ١٦٥٤) والبغوي في شرح السنة (١/ ١٤٧ رقم ٧٩) من حديث أبي هريرة.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ
أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾

(٣٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ لا يتسهلُ له ولا يكونُ ليكونَ معجزةً لي مناسبةً لحالي، أو لا ينبغي لأحدٍ أنْ يسلُبَهُ منِّي بعد هذه السلبةِ، أو لا يصحُّ لأحدٍ من بعدي لعظمتِه كقولك: لفلانٍ ما ليس لأحدٍ من الفضْلِ والمالِ، على إرادةِ وصْفِ الملكِ بالعظمةِ لا أنْ لا يُعْطَى أحدٌ مثلَه فيكونُ منافسةً، وتقديمُ الاستغفارِ على الاستيهابِ لمزيدِ اهتمامه بأمرِ الدين ووجوبِ تقديمِ ما يُجْعَلُ للدعاء بصددِ الإجابةِ. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتحِ الياءِ. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاءُ لمن تشاءُ.

(٣٦) ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ فذلَّلْناها لطاعتِه إجابةً لدعوتِه، وقرىء الرياحَ. ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ لينةً من الرخاوةِ لا تزعزعُ، أو لا تخالِفُ إرادتَه كالمأمورِ المنقادِ. ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أرادَ من قولهم أصابَ الصوابَ فاخطأَ الجوابَ.

(٣٧) ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ على الريحِ. ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدلٌ منه.

(٣٨) ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ عطفٌ على كل كأنه فصلَ الشياطينَ إلى عَمَلَةٍ استعملَهم في الأعمال الشاقَّةِ كالبناء والغوْصِ، ومَرَدَةٌ قرنَ بعضَهم مع بعضٍ في السلاسلِ ليكفُّوا عن الشرِّ، ولعلَّ أجسامَهم شفافةٌ صلْبةٌ فلا تُرَى ويمكنُ تقييدُها، هذا والأقربُ أنَّ المرادَ تميلُ كفُّهم عن الشرورِ بالإقرانِ في الصَّفْدِ وهو القيدُ، وسمِّيَ به العطاءُ لأنه يرتبط به المنعَمُ عليه. وفرَّقوا بينَ فعليهما فقالوا صَفَدَه قيَّدَه وأصفدَه أعطاهُ عكسَ وَعَدَ وأَوْعَدَ وفي ذلك نكتةٌ.

(٣٩) ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملْكِ والبسْطَة والتسلُّطِ على ما لم يُسَلَّطْ به غيرُك عطاؤُنا. ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ فأعْطِ مَنْ شئْتَ وامنعْ مَنْ شئت. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حالٌ من المستكِنِّ في الأمرِ، أي غيرَ محاسبٍ على منِّه وإمساكِه لتفويض التصرف فيه إليك أو من العطاء وصَلة له وما بينهما اعتراض. والمعنى أنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره، وقيل الإشارةُ إلى تسخيرِ الشياطينِ، والمراد بالمنِّ والإمساكِ إطلاقُهم وإبقاؤُهم في القيدِ.

(٤٠) ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ في الآخرة مع ماله من الملْكِ العظيم في الدنيا. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ هو الجنةُ.

(٤١) ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هو ابنُ عيصَ بن إسحاقَ وامرأتُه ليَّا بنتُ يعقوبَ صلواتُ الله عليه. ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدلٌ من عبدِنا، وأيوبُ عطفُ بيانٍ له. ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ بأنْ مسَّني، وقرأ حمزةُ بإسكانِ الياءِ وإسقاطها في الوصْل. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ بتعبٍ. ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألمٍ وهيَ حكايةٌ لكلامِه الذي ناداه به ولولا هي لقالَ إنه مسَّه، والإسنادُ إلى الشيطانِ إما لأنَّ اللهَ مسَّه بذلك لما فَعَلَ بوسوستِه كما قيل إنه أُعْجِبَ بكثرةِ ماله أو استغاثةِ مظلومٍ فلم يُغِثْهُ، أو كانتْ مواشيه في ناحيةِ مَلِك كافرٍ فداهَنَهُ ولم يغزُهُ، أو لسؤالِه امتحاناً لصبرِه فيكونُ اعترافاً بالذَّنبِ أو مراعاةً للأدب، أو لأنه وسوسَ إلى أتباعه حتى رفضُوه

وأخرجوه من ديارهم، أو لأنَّ المرادَ بالنَّصَبِ والعذابِ ما كان يُوَسْوِسُ إليه في مرضِه من عِظَم البلاء والقنوطِ من الرحمة، ويغريه على الجزعِ. وقرأ يعقوبُ بفتحِ النون على المصدرِ، وقرىء بفتحتينِ وهو لغةٌ كالرُّشْدِ والرَّشَدِ، وبضمتينِ للتثقيلِ.

ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

(٤٢) ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ حكايةٌ لما أُجيبَ به أي اضربْ برجلِك الأرضَ. ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي فضربَها فنبعتْ عينٌ فقيل هذا مُغْتَسَلٌ أي ماء تغتسلُ به وتشربُ منه فيبرأ باطنُك وظاهِرُك، وقيل نبعتْ عينانِ حارَّةٌ وباردةٌ فاغتسلَ من الحارةِ وشرب من الأخرى.

(٤٣) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ بأنْ جمعْناهم عليه بعدَ تفرُّقهم أو أحييناهم بعدَ موتِهم، وقيل وهبنا له مثلَهم. ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ حتى كان له ضعفُ ما كان. ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ لرحمتنا عليه ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وتذكيراً لهم لينتظروا الفرجَ بالصبر واللجأ إلى الله فيما يحيقُ بهم.

(٤٤) ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ عطفٌ على اركضْ والضِّغثُ الحزمةُ الصغيرةُ من الحشيش ونحوه. ﴿ فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ روي أن زوجتَه ليًا بنتَ يعقوبَ وقيل رحمةُ بنتُ إفرائيمَ بنِ يوسفَ ذهبتْ لحاجة فابطأَتْ فحلفَ إنْ برىءَ ضربَها مائةَ ضربةٍ، فحلَّلَ الله يمينَه بذلك، وهي رخصةٌ باقيةٌ في الحدود. ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ فيما أصابه في النفسِ والأهلِ والمالِ، ولا يخلُّ به شكواهُ إلى الله من الشيطان فإنه لا يسمَّى جزعاً كتمنِّي العافية وطلبِ الشفاءِ مع أنه قال ذلك خيفةَ أنْ يفتِنَه أو قومَه في الدين. ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ أيوبُ. ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ مقبلٌ بشراشرِه على الله تعالى.

(٤٥) ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وقرأ ابنُ كثير عبدَنا وضَعَ الجنسَ موضعَ الجمع، أو على أنَّ إبراهيمَ وحدَه لمزيدِ شرفِه عطفُ بيانٍ له، وإسحاقُ ويعقوب عطفٌ عليه. ﴿ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أولي القوة في الطاعةِ والبصيرة في الدين، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفةِ، فعبَّر بالأيدي عن الأعمال لأنَّ أكثرَها بمباشرتِها، وبالأبصار عن المعارفِ لأنها أقوى مبادئِها، وفيه تعريضٌ بالبطَلَةِ الجهَّالِ أنهم كالزُّمْنَى والعُمَاةِ.

(٤٦) ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ﴾ جعلناهم خالصينَ لنا بخصْلةٍ خالصةٍ لا شَوْبَ فيها هي: ﴿ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ تذكُّرهم الدارَ الآخرةَ دائماً فإنَّ خلوصَهم في الطاعة بسببِها، وذلك لأن مطمحَ نظرِهم فيما يأتون ويذرونَ جوارَ الله والفوزَ بلقائه، وذلك في الآخرة، وإطلاقُ الدار للإشعارِ بأنها الدارُ الحقيقة والدنيا مَعْبَرٌ، وأضافَ نافع وهشامٌ بخالصةٍ إلى ذكرى للبيانِ أو لأنه مصدرٌ بمعنى الخلوصِ فأضيفَ إلى فاعِله.

(٤٧) ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ لَمِنَ المختارين من أمثالِهم المصْطَفِيْنَ عليهم في الخير جمعُ خيرٍ كشرٍّ وأشرارٍ. وقيل جمعُ خيرٍ أو خيرٍ على تخفيفِه كأمواتٍ في جمع ميتٍ أو ميِّتٍ.

وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٌۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾

(٤٨) ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ ﴾ هو ابنُ أخطوبَ استخلفَه إلياسُ على بني إسرائيلَ ثم استُنْبِىءَ، واللامُ فيه كما في قوله: رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بنَ الْيَزِيدَ مُبَارَكاً. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ واللَّيْسَع تشبيهاً بالمنقولِ من لَيْسعَ من اللسْع. ﴿ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ ﴾ ابنَ عمِّ يسعَ أو بشرَ بنَ أيوبَ. واختُلِفَ في نبوته ولَقَبِه فقيل فرَّ إليه مائةِ نبيٍّ من بني إسرائيلَ من القتْلِ فآواهم وكَفِلَهم، وقيل كَفِلَ بعمل رجلٍ صالح كان يصلي كلَّ يوم مائةَ صلاةٍ ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي وكلُّهم. ﴿ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾.

(٤٩) ﴿ هَٰذَا ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من أمورهم. ﴿ ذِكۡرٌۚ ﴾ شرفٌ لهم، أو نوعٌ من الذكرِ وهو القرآنُ. ثم شرعَ في بيانِ ما أعدَّ لهم ولأمثالِهم فقال: ﴿ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴾ مرجعٌ.

(٥٠) ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾ عطف بيانٍ لحسنِ مآب وهو من الأعلام الغالبةِ لقوله ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾[1] وانتصبَ عنها. ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ على الحالِ والعاملُ فيها ما في المتقينَ من معنى الفعلِ، وقُرِئَتَا مرفوعتينِ على الابتداءِ والخبرِ، أو أنَّهما خبرانِ لمحذوفٍ.

(٥١) ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴾ حالانِ متعاقبانِ أو متداخلانِ من الضمير في لهم لا من المتقينَ للفصلِ، والأظهرُ أنَّ يدعونَ استئنافٌ لبيانِ حالهم فيها، ومتكئينَ حالٌ من ضميرِه، والاقتصارُ على الفاكهةِ للإشعار بأنَّ مطاعِمَهم لمحضِ التلذُّذِ، فإنَّ التغذي للتحللِ ولا تحلُّلَ ثَمَّةَ.

(٥٢) ﴿ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ لا ينظرون إلى غيرِ أزواجِهنَّ. ﴿ أَتۡرَابٌ ﴾ لدَّاتٌ لهم فإنَّ التحابَّ بين الأقرانِ أثبتُ، أو بعضُهن لبعضٍ لا عجوزَ فيهنَّ ولا صبيةَ، واشتقاقه من الترابِ فإنه يمسُّهن في وقتٍ واحدٍ.

(٥٣) ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ لآجالِه فإنَّ الحسابَ علةُ الوصولِ إلى الجزاء، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو بالياءِ ليوافقَ ما قبلَه.

(٥٤) ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ انقطاعٌ.

(٥٥) ﴿ هَٰذَاۚ ﴾ أي الأمرُ هذا أو هذا كما ذُكِرَ أوخُذْ هذا. ﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴾.

(٥٦) ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ إعرابُه ما سبقَ. ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا ﴾ حالٌ من جهنَّم. ﴿ فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ الممهدُ والمفترَشُ، مستعارٌ من فراشِ النائم، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ وهو جهنَّمُ لقوله ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ ﴾[2].

---

(١) مريم: «٦١».
(٢) الأعراف: «٤١».

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ
صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ
عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ
ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾

(٥٧) ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي ليذوقُوا هذا فليذُوقوه، أوِ العذابُ هذا فليذوقوه، ويجوزُ أنْ يكونَ مبتدأً وخبرُه: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ وهو على الأوَّلَيْنِ خبرٌ محذوفٌ أي هو حميمٌ، والغَسَاقُ ما يغسقُ من صديدِ أهلِ النار من غَسَقَتِ العينُ إذا سالَ دمعُها، وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ غسَّاق بتشديدِ السينِ.

(٥٨) ﴿وَءَاخَرُ﴾ أي مذوقٌ أو عذابٌ آخرُ، وقرأ البصريانِ وأخرى أي ومذوقاتٌ أو أنواعُ عذابٍ أُخَرُ. ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من مِثْلِ هذا المذوقِ أو العذابِ في الشدةِ. وتوحيدُ الضمير على أنه لما ذُكِرَ، أو للشراب الشاملِ للحميم والغسَّاقِ، أو للغساقِ. وقرىء بالكسْرِ وهو لغةٌ. ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أجناسٌ خبرٌ لآخرَ أو صفةٌ له أو للثلاثةِ. أو مرتفِعٌ بالجارِّ والخبرُ محذوفٌ مثلُ لهم.

(٥٩) ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ حكايةُ ما يُقَالُ للرؤساءِ الطاغينَ إذا دخلوا النارَ واقتحمَهَا معهم فوجٌ تبِعهم في الضلالِ، والاقتحامُ ركوبُ الشدةِ والدخولُ فيها. ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ دعاءٌ من المتبوعينَ على أتباعِهم أو صفة لفوجٍ، أو حالٌ أي مقولاً فيهم لا مرحباً أي ما أتوا بهم رحْباً وسَعَةً. ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ داخلونَ النارَ بأعمالِهم مثلُنا.

(٦٠) ﴿قَالُوا۟﴾ أي الأتباعُ للرؤساء. ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ بل أنتم أحقُّ بما قلتُم، أو قيل لنا لضلالِكم وإضلالِكم كما قالوا: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ قدَّمْتُم العذابَ أو الصِّلْيَ لنا بإغوائِنا وإغرائِنا على ما قدَّمتموه من العقائدِ الزائغةِ والأعمالِ القبيحةِ. ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ فبئسَ المقرُّ جهنَّمُ.

(٦١) ﴿قَالُوا۟﴾ أي الأتباعُ أيضاً. ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ مضاعَفاً أي ذا ضعفٍ وذلك أنْ يزيدَ على عذابِه مِثْلَه فيصيرَ ضعفينِ كقوله ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[1].

(٦٢) ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الطاغوتُ. ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يعنُون فقراءَ المسلمينَ الذين يَستَرْذِلُون ويسخرونَ بهم.

(٦٣) ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ صفةٌ أخرى لرجالاً، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر وعاصمٌ بهمزة الاستفهام على أنه إنكارٌ على أنفسهم وتأنيبٌ لها في الاستسخار منهم، وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي سُخرياً بالضمِّ، وقد سبقَ مثلُه في المؤمنين. ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالتْ. ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلا نراهم أم معادِلَةٌ لما لنا لا نَرَى على أنَّ المرادَ نفيُ رؤيَتِهم لغيبتِهم كأنهم قالوا: أليسُوا ها هنا أم زاغتْ عنهم أبصارُنا، أو لاتخذْناهم على القراءةِ الثانيةِ بمعنى أيُّ الأمرينِ فعلْنا بهم الاستسخارُ منهم أم تحقيرُهم، فإنَّ زيغَ

---

(١) الأحزاب: «٦٨».

الأبصارِ كنايةٌ عنه على معنى إنكارِهما على أنفسِهم، أو منقطعةٌ والمرادُ الدلالةُ على أنَّ استرذَالَهم والاستسخارَ منهم كان لزيغِ أبصارِهم وقصورِ أنظارِهم على رثاثةِ حالِهم.

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾

(٦٤) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكيناه عنهم. ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بدَّ أنْ يتكلَّموا به ثمَّ بيَّنَ ما هو فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ وهو بدلٌ من لحقٌّ أو خبرٌ محذوفٌ، وقرىء بالنصبِ على البدلِ من ذلك.

(٦٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ للمشركين. ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أنذِرُكم عذابَ الله. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبلُ الشركةَ والكثرةَ في ذاتِه. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلِّ شيءٍ يريدُ قهرَهُ.

(٦٦) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منه خلقَها وإليه أمرُها. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبُ إذا عاقبَ. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ الذي يغفرُ ما يشاءُ من الذنوب لمن يشاءُ، وفي هذه الأوصافِ تقريرٌ للتوحيد ووعْدٌ ووعيدٌ للموحِّدينَ والمشركينَ، وتثنية ما يشعرُ بالوعيد، وتقديمُه لأن المدعوَّ به هو الإنذارُ.

(٦٧) ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي ما أنبأتُكم به من أني نذيرٌ من عقوبةِ مَنْ هذه صفتُه وأنه واحدٌ في ألوهيته، وقيل ما بعدَه من نبأِ آدمَ. ﴿نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾.

(٦٨) ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لتمادي غَفْلَتِكُم، فإنَّ العاقلَ لا يعرضُ عن مثلِه كيفَ وقد قامتْ عليه الحججُ الواضحةُ، أما على التوحيد فما مرَّ وأما على النبوةِ فقوله:

(٦٩) ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإنَّ إخباره عن تقاولِ الملائكة وما جرى بينَهم على ما وردَ في الكتبِ المتقدِّمةِ من غير سماعٍ، ومطالعةِ كتابٍ لا يُتَصوَّر إلا بالوحي، وإذ متعلِّقٌ بعِلْمٍ أو بمحذوفٍ إذِ التقديرُ مَنْ عَلِمَ بكلامِ الملأ الأعلى.

(٧٠) ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي لأنَّما كأنه لما جوَّز أنَّ الوحْيَ يأتيه بيَّنَ بذلك ما هو المقصودُ به تحقيقاً لقوله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾[1] ويجوزُ أنْ يرتفعَ بإسنادِ يُوحَى إليه، وقرىء إنما بالكسْر على الحكايةِ.

(٧١) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ بدلٌ من إذ يختصمونَ مبيِّنٌ له فإن القصَّة التي دخلتْ إذ عليها مشتملةٌ على تقاولِ الملائكةِ وإبليسَ في خلْقِ آدمَ عليه السلام، واستحقاقُه للخلافةِ والسجودِ على ما مرَّ في البقرة، غيرَ أنها اختُصِرَتِ اكتفاءً بذلك واقتصاراً على ما هو المقصودُ منها، وهو إنذارُ المشركينَ على استكبارِهم على النبيِّ عليه الصلاة والسلام بمثلِ ما حاقَ بإبليسَ على استكبارِه على آدمَ عليه السلام، هذا ومن الجائزِ أنْ يكونَ مقاولةُ الله تعالى إياهم بواسطةِ مَلَكٍ، وأنْ يفسِّرَ الملأُ الأعلى

---

(١) ص: «٦٥».

بما يعمُّ اللهَ تعالى والملائكةَ.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾

(٧٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدَّلْتُ خِلقَتَهُ. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وأحييتُه بنفخِ الروحِ فيه، وإضافته إلى نفسِه لشرفِهِ وطهارتِهِ. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فخرُّوا له. ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تكرمةً وتبجيلاً له وقد مرَّ من الكلام فيه في البقرةِ.

(٧٣) ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

(٧٤) ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ تعظَّم. ﴿وَكَانَ﴾ وصارَ. ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باستنكارِهِ أمرَ الله تعالى واستكبارِهِ عن المطاوعة، أو كان منهم في علم الله تعالى.

(٧٥) ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ خلقتُه بنفسي من غير توسُّطِ كأبٍ وأمٍّ، والتثنيةُ لما في خلْقِهِ من مزيدِ القدرةِ واختلاف الفعل، وقرىء على التوحيد، وترتيبُ الإنكار عليه للإشعارِ بأنه المستدعي للتعظيم، أو بأنه الذي تشبَّثَ به في تركِهِ وهو لا يصلُح مانعاً إذ للسيدِ أن يستخدمَ بعضَ عبيدِهِ لبعضٍ سِيَّما وله مزيدُ اختصاصٍ. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ تكبَّرتَ من غير استحقاقٍ أو كنتَ ممن علا واستحقَّ التفوقَ، وقيل استكبرتَ الآنَ أم لم تزلْ منذ كنتَ من المستكبرين، وقرىء استكبرت بحذفِ الهمزةِ لدلالةِ أمْ عليها أو بمعنَى الإخبار.

(٧٦) ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ إبداءٌ للمانعِ وقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ دليلٌ عليه وقد سبقَ الكلامُ فيه.

(٧٧) ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماءِ، أو من الصورةِ الملَكيةِ. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرودٌ من الرحمةِ ومحلِّ الكرامة.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

(٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

(٨٠) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾

(٨١) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ مرَّ بيانه في الحِجْرِ.

(٨٢) ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ فبِسُلطانك وقهرِك. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾
قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلَصَهُم الله لطاعته وعصَمَهم من الضلالة، أو أخلصوا قلوبَهم لله على اختلافِ القراءتينِ.

(٨٤) ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي فأحقُّ الحقَّ وأقولُه، وقيل الحقُّ الأول اسمُ الله نَصَبَه بحذفِ حرفِ القسم كقوله: إنَّ عَلَيْكَ اللهَ أَنْ تُبَايِعَا.

(٨٥) وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ وهو على الأول جوابٌ محذوفٌ والجملة تفسيرٌ للحق المقولِ، وقرأ عاصمٌ وحمزة برفعِ الأول على الابتداءِ أي الحقُّ يميني أو قسمي، أو الخبرُ أي أنا الحقُّ، وقُرِئَا مرفوعين على حذفِ الضميرِ من أقولُ كقوله: كلُّه لم أصنعْ. ومجرورَيْنِ على إضمارِ حرفِ القسم في الأول، وحكايةُ لفظِ المقسَمِ به في الثاني للتأكيدِ، وهو سائغٌ فيه إذا شارك الأولَ وبرفْعِ الأول وجرِّه ونصبِ الثاني وتخريجِه على ما ذكرناه، والضميرُ في منهم للناسِ إذِ الكلامُ فيهم، والمرادُ بمنك من جنسِك ليتناولَ الشياطينَ وقيل للثَّقلينِ، وأجمعينَ تأكيدٌ له أو للضميرين.

(٨٦) ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على القرآنِ أو تبليغِ الوحي. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتَّصِفِيْنَ بما ليسُوا من أهله على ما عرفتُم من حالي فأنتحلُ النبوَّةَ، وأتقوَّلُ القرآنَ.

(٨٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظةٌ. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ للثَّقلَيْنِ.

(٨٨) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ وهو ما فيه من الوعْدِ والوعيدِ، أو صدَّقهُ بإتيانِ ذلك. ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ بعدَ الموتِ أو يومَ القيامة أو عندَ ظهورِ الإسلام وفيه تهديدٌ. عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورة (ص) كان له بوزْنِ كلِّ جبلٍ سخَّره الله لداودَ عشرُ حسناتٍ، وعصمهُ الله أنْ يُصِرَّ على ذَنْبٍ صغيرٍ أو كبيرٍ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي رضي الله عنه.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٤٢ رقم ٣١٥).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الزمر
ترتيبها ٣٩ آياتها ٧٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

سورة الزُّمَرِ مكيةٌ(١)

إلا قولَه: «قل يا عبادي» الآيةَ، وآيُها خمسٌ وسبعونَ أو اثنتانِ وسبعونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرٌ محذوفٌ مثلُ هذا أو مبتدأٌ خبرُهُ. ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وهو على الأولِ صلةٌ لتنزيل، أو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ عَمِلَ فيها معنى الإشارة أو التنزيلِ، والظاهرُ أنَّ الكتابَ على الأولِ السورةُ وعلى الثاني القرآنُ، وقرىء تنزيلَ بالنصبِ على إضمارِ فعلٍ نحو اقرأ أوِ الزم(٢).

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحقِّ أو بسببِ إثباتِ الحقِّ وإظهارِهِ وتفصيله. ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ممحِّصاً له الدينَ من الشركِ والرياءِ. وقرىء برفعِ الدين عن الاستئنافِ لتعليلِ الأمرِ. وتقديمُ الخبرِ لتأكيدِ الاختصاصِ المستَفَادِ من اللامِ كما صرَّح به مؤكداً، وإجراؤُه مَجْرَى المعلومِ المقرَّرِ لكثرةِ حُجَجِه وظهورِ براهينِه فقال:

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٣٢) و«روح المعاني» (٢٣/ ٢٣٢) و«زاد المسير» (٧/ ١٦٠).

(٢) والتعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع، وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة (س٧/ ٢٤٠).

(٣) ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي ألا هو الذي وجَبَ اختصاصُه بأنْ يُخْلَصَ له الطاعةُ، فإنه المتفرِّد بصفاتِ الألوهيةِ والاطلاعِ على الأسرارِ والضمائرِ. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يحتمل المتَّخِذِيْنَ من الكفرةِ والمتخذينَ من الملائكةِ وعيسى والأصنامِ على حذفِ الراجعِ وإضمارِ المشركينَ من غيرِ ذكر لدلالةِ المساقِ عليهم، وهو مبتدأٌ خبرهُ على الأولِ. ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ بإضمارِ القول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وهو متعيِّنٌ على الثاني، وعلى هذا يكونُ القولُ المضْمَرُ بما في حيِّزِه حالاً أو بدلاً من الصلةِ، وزلفى مصدرٌ أو حالٌ، وقرىء قالوا ما نعبدُهم وما نعبدُكم إلا لتقرِّبونا إلى الله حكايةً لما خاطبوا به آلهتَهم ونُعبدُهم بضمِّ النونِ اتباعاً. ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين بإدخالِ المحقِّ الجنةَ والمبطِلِ النارَ، والضميرُ للكفرةِ ومقابليهم، وقيلَ لهم ولمعبوديهم فإنهم يرجُون شفاعتَهم وهم يلعنونَهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفِّقُ للاهتداءِ إلى الحقِّ. ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فإنهما فاقِدا البصيرةِ.

لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

(٤) ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعمُوا. ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إذ لا موجودَ سواهُ إلا هو مخلوقُه لقيامِ الدلالةِ على امتناعِ وجودِ واجبينِ ووجوبِ استنادِ ما عدا الواجبِ إليه، ومن البيِّنِ أنَّ المخلوقَ لا يماثِلُ الخالِقَ فيقومُ مقامَ الوالدِ له ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فإنَّ الألوهيةَ الحقيقيةَ تتبعُ الوجوبَ المستلزِمَ للواحدةِ الذاتية، وهي تنافي المماثَلَةَ فضلاً عن التوالُدِ، لأنَّ كلَّ واحدٍ من المِثْلَيْنِ مركَّبٌ من الحقيقةِ المشتركةِ، والتعيُّنِ المخصوصِ، والقهاريةُ المطلقةُ تنافي قبولَ الزوالِ المحوجِ إلى الولدِ، ثم استدلَّ على ذلك بقوله:

(٥) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يغشى كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ، كأنه يلفُّه عليه لفَّ اللباسِ باللابسِ، أو يغيِّبه به كما يغيَّبُ الملفوفُ باللُّفافةِ، أو يجعلُه كاراً عليه كروراً متتابعاً تتابعَ أكوارِ العمامةِ. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو مُنْتَهَى دورِه أو منقطعُ حركتِه. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادِرُ على كلِّ ممكنٍ الغالبُ على كلِّ شيءٍ. ﴿ٱلْغَفَّـٰرُ﴾ حيثُ لم يعاجِلْ بالعقوبةِ وسلْبِ ما في هذه الصنائعِ من الرحمة وعمومِ المنفعةِ.

(٦) ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ استدلالٌ آخرُ بما أوجدَه في العالَمِ السُّفْليِّ مبدوءٌ به من خلْقِ الإنسانِ لأنه أقربُ وأكثرُ دلالةً وأعجبُ، وفيه على ما ذكرهُ ثلاثُ دلالاتٍ: خلْقُ آدمَ أولاً من غيرِ أبٍ وأم، ثم خلْقُ حوَّاءَ من قصيراهُ، ثم تشعيبُ الخلْقِ الفائتِ للحصْرِ منهما. وثُمَّ للعطف على

محذوفٍ هو صفةُ نفسٍ مثلُ خلقِها أو على معنى واحدةٍ أي من نفسٍ وُحِّدَتْ ثم جُعِلَ منها زوجُها فشفعَها بها، أو على خلقِكم لتفاوتِ ما بين الآيتينِ، فإنَّ الأولى عادةٌ مستمرّةٌ دونَ الثانية. وقيل أخرجَ من ظهْرِه ذرِّيتَهُ كالذرِّ ثمَّ خلقَ منها حواءَ. ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقضى أو قسَمَ لكم، فإنَّ قضاياهُ وقسمَهُ توصفُ بالنزول من السماءِ حيثُ كُتِبَتْ في اللوح المحفوظ، أو أَحْدَثَ لكم بأسبابٍ نازلة كأشعةِ الكواكب والأمطارِ. ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ ذكرٍ وأنثى من الإبلِ والبقرِ والضأنِ والمعزِ. ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ بيانٌ لكيفية خلقِ ما ذَكَرَ من الأناسيِّ والأنعام إظهاراً لما فيها من عجائبِ القدرةِ، غيرَ أنه غلَّبَ أولي العقلِ أو خصَّهم بالخطابِ لأنهم المقصودونَ[1] ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ حيواناً سوياً من بعد عظامٍ مكسُوَّةٍ لحماً من بعد عظامٍ عاريةٍ من بعدِ مضغٍ من بعدِ علقٍ من بعد نطفٍ. ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ ظلمةِ البطنِ والرَّحمِ والمشيمةِ، أو الصلبِ والرحمِ والبطنِ. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه أفعالُه. ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ هو المستحِقُّ لعبادتكم والمالِكُ. ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ إذ لا يشارِكُه في الخلْقِ غيرُهُ. ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ يُعْدَلَ بكم عن عبادتِه إلى الإشراكِ.

إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

(٧) ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ عن إيمانكم. ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ لاستضرارِهم به رحمةً عليهم. ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ لأنه سببٌ فلا حُكْمَ، وقرأ ابن كثير ونافعٌ في رواية وأبو عمرو والكسائيُّ بإشباعِ ضمَّةِ الهاءِ لأنها صارتْ بحذفِ الألف موصولةً بمتحرِّكٍ، وعن أبي عمرو ويعقوبَ إسكانُها وهو لغةٌ فيها. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافيةٌ من أعمالِكم.

(٨) ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ لزوالِ ما ينازعُ العقلَ في الدلالة على أنَّ مبدأَ الكلِّ منه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه من الخولِ وهو التعهُّدُ، أو الخولُ وهو الافتخارُ. ﴿نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾ من الله. ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي الضرَّ الذي كان يدعو اللهَ إلى كشْفِه، أو ربَّه الذي كان يتضرَّع إليه وما مثلُ الذي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾[2]. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبلِ النعمة. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرٍو ورويسٌ بفتح الياءِ، والضلالُ والإضلالُ لما كانا نتيجةَ جعْلِه صحَّ تعليلُه بهما وإنْ لم يكونا غرضَيْنِ. ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ﴾ أمرُ تهديدٍ فيه إشعارٌ بأنَّ الكفرَ نوعُ تَشَهٍّ لا سندَ له، وإقناطٌ للكافرين من التمتُّعِ في الآخرةِ ولذلك علَّلَهُ بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ على سبيل الاستئنافِ للمبالغة.

---

(١) وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد (س٧/ ٢٤٣).

(٢) الليل: «٣».

أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ قائمٌ بوظائفِ الطاعات. ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاتِه، وأمْ متصلةٌ بمحذوفٍ تقديره: الكافرُ خيرٌ أم مَنْ هو قانتٌ، أو منقطعةٌ والمعنَى بل أَمَّنْ هو قانتٌ كَمَنْ هو بضدِّه، وقرأ الحجازيانِ وحمزةُ بتخفيفِ الميم بمعنى أَمَنْ هو قانتٌ لله كَمَنْ جعلَ له أنداداً. ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ حالانِ من ضميرِ قانتٍ، وقُرِئا بالرفعِ على الخبرِ بعدَ الخبرِ، والواوُ للجمعِ بينَ الصفتينِ[1] ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ في موضعِ الحالِ أو الاستئنافِ للتعليلِ. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفيٌ لاستواءِ الفريقين باعتبارِ القوةِ العلمية بعدَ نفيه باعتبارِ القوةِالعملية على وجهٍ أبلغَ لمزيدِ فضْلِ العلم. وقيل تقريرٌ للأولِ على سبيلِ التشبيهِ أي كما لا يستوي العالِمُونَ والجاهلون لا يستوي القانتونَ والعاصُون. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ بأمثالِ هذه البياناتِ، وقرىء يذَّكرُ بالإدغام.

(١٠) ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بلزومِ طاعتِه. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعاتِ في الدنيا مثوبةٌ حسنةٌ في الآخرة. وقيل معناه للذين أحسنوا حسنةٌ في الدنيا هي الصِّحةُ والعافيةُ، وفي هذه بيانٌ لمكانِ حسنةٍ. ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمن تعسَّر عليه التوفُّر على الإحسانِ في وطنِه فلْيهاجرْ إلى حيثُ يتمكَّنُ منه. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ على مشاقِّ الطاعاتِ من احتمالِ البلاءِ ومهاجرةِ الأوطان لها. ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أجراً لا يهتدي إليه حسابُ الحسَّابِ، وفي الحديث إنه «يُنْصَبُ الموازينُ يومَ القيامة لأهلِ الصلاةِ والصدقةِ والحجِّ فيوفَّون بها أجورَهم، ولا يُنْصَبُ لأهلِ البلاءِ بل يُصَبُّ عليهم الأجرُ صبّاً حتى يتمنَّى أهلُ العافيةِ في الدنيا أنَّ أجسادَهم تقرضُ بالمقاريضِ مما يذهبُ به أهلُ البلاءِ من الفضلِ»[2].

(١١) ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ موحِّداً له.

(١٢) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأُمِرْتُ بذلك لأجلِ أنْ أكونَ مقدَّمهم في الدنيا والآخرة، لأن

---

(١) وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة (س٧/ ٢٤٥).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٤٣ رقم ٣١٩): «أخرجه الثعلبي وابن مردويه، من حديث أنس رضي الله عنه. وإسناده ضعيف جداً.
وأورده أبو نعيم في «الحلية» ـ (٣/ ٩١) ـ في ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني، وهو في معجمه الكبير (١٢/ ١٨٤ رقم ١٢٨٢٩) ـ بإسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً» هـ.
قلت: جابر بن زيد ثقة فقيه كما في «التقريب» (١/ ١٢٢). وفي سند الطبراني (مجاعة بن الزبير) وهو ممن يحتمل ويكتب حديثه كما في «الكامل» لابن عدي (٤/ ٢٤٢٠).
والخلاصة أن الحديث قابل للتحسين لتعاضد الطريقين.

قَصَبَ السبقِ في الدين بالإخلاصِ أو لأنه أولُ مَنْ أسلمَ وجْهَهُ لله من قريشٍ ومَنْ دانَ بدينهم. والعطفُ لمغايرةِ الثاني الأولَ بتقييده بالعلةِ، والإشعارِ بأنَّ العبادةَ المقرونةَ بالإخلاصِ وإنِ اقتضتْ لذاتِها أنْ يؤمَرَ بها فهي أيضاً تقتضيه لما يلزمُها من السبق في الدين، ويجوزُ أنْ تُجْعَلَ اللامُ مزيدةً كما في أردتُ لأنْ أفعلَ فيكونُ أمرٌ بالتقدُّمِ في الإخلاصِ والبدءُ بنفسه في الدعاء إليه بعدَ الأمرِ به.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

(١٣) ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بتركِ الإخلاصِ والميلِ إلى ما أنتُم عليه من الشركِ والرياءِ. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظمةِ ما فيه.

(١٤) ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ أمرٌ بالإخبار عن إخلاصِه وأنْ يكونَ مخلصاً له دينَه بعدَ الأمرِ بالإخبارِ عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاصِ خائفاً عن المخالفةِ من العقابِ قطْعاً لأطماعِهم، ولذلك رتَّب عليه قولَه:

(١٥) ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ تهديداً وخذلاناً لهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الكاملين في الخسْرانِ. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالضلال. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالإضلال. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يدخلون النارَ بدلَ الجنةِ لأنهم جمعوا وجوهَ الخسرانِ. وقيل وخسِروا أهليهم لأنهم إنْ كانوا من أهلِ النار فقد خسِرُوهم كما خسِرُوا أنفسَهم، وإنْ كانوا من أهل الجنةِ فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوعَ بعدَه. ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ مبالغةٌ في خسرانِهم لما فيه من الاستئنافِ والتصديرِ بألا وتوسيطِ الفصلِ وتعريفِ الخسرانِ ووصفِه بالمبينِ.

(١٦) ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ شرحٌ لخسرانِهم. ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباقٌ من النار هي ظللٌ للآخرينَ. ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ذلك العذابُ هو الذي يخوِّفُهم به ليجتنبُوا ما يوقِعُهم فيه. ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرَّضُوا لما يوجِبُ سَخَطي.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ البالغَ غايةَ الطغيانِ فَعَلُوتٌ منه بتقديمِ اللامِ على العين بُنِيَ للمبالغةِ في المصدر كالرحموتِ، ثم وُصِفَ به للمبالغةِ في النعتِ ولذلك اختصَّ بالشيطانِ. ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدلُ اشتمالٍ منه. ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه بشراشِرِهم عما سواهُ. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثوابِ على ألسنةِ الرسلِ، أو الملائكةِ عند حضور الموت. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

(١٨) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وضَعَ فيه الظاهِرَ موضعَ ضميرِ الذين اجتنبوا للدلالة على مبدأ اجتنابِهم وأنهم نقادٌ في الدين يميزونَ بينَ الحقِّ والباطل ويؤثِرون الأفضلَ فالأفضلَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لدينه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقولِ السليمةِ عن منازعةِ الوهْمِ والعادةِ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ الهدايةَ تحصلُ بفعلِ اللهِ وقبولِ النفسِ لها.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ
مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ
يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ
قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ شرطيةٌ معطوفةٌ على محذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ؛ تقديرهُ أأنتَ مالكُ أمرِهم فَمَنْ حقَّ عليه العذابُ فأنتَ تنقذُه، فكُرِّرَتِ الهمزةُ في الجزاءِ لتأكيدِ الإنكارِ والاستبعادِ، ووضَعَ مَنْ في النارِ موضِعَ الضميرِ لذلك وللدلالةِ على أنَّ مَنْ حُكِمَ عليه بالعذابِ كالواقعِ فيه لامتناعِ الخلفِ فيه، وأن اجتهادَ الرسلِ في دعائِهم إلى الإيمان سعيٌ في إنقاذِهم من النار، ويجوزُ أنْ يكونَ أفأنتَ تنقذُ جملةً مستأنفةً للدلالةِ على ذلك، والإشعارِ بالجزاءِ المحذوفِ.

(٢٠) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ علالي بعضُها فوق بعض. ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بُنِيَتْ بناءَ النازلِ على الأرضِ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت تلك الغرف. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله لهم غرف في معنى الوعد. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ولأنَّ الخلْفَ نقصٌ وهو على اللهِ محالٌ.

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطرُ. ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخلَه. ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هي عيونٌ ومجاري كائنةٌ فيها، أو مياهٌ نابعاتٌ فيها إذِ الينبوعُ جاء للمنبعِ وللنابعِ فنصبَها على الظرفِ أو الحالِ. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أصنافُه من بُرٍّ وشعيرٍ وغيرِهما، أو كيفياتُه من خضرةٍ وحمرةٍ وغيرِهما. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتمُّ جفافُه لأنه إذا تمَّ جفافُه حانَ له أنْ يثورَ عن منبتِه. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ من يُبْسِه. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً بأنه لا بدَّ من صانعٍ حكيمٍ دبَّره وسوَّاه، أو بأنه مثلُ الحياةِ الدنيا فلا تغترَّ بها. ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إذْ لا يَتَذَكَّرُ به غيرُهم.

(٢٢) ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ حتى تمكَّن فيه بِيُسْرٍ، عبَّر به عمَّنْ خلقَ نفسَه شديدةَ الاستعدادِ لقبوله غيرَ متأبيةٍ عنه من حيثُ أنَّ الصَّدْرَ محلُّ القلبِ المنبعِ للروحِ المتعلقِ للنفسِ القابلةِ للإسلام. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني المعرفةَ والاهتداءَ إلى الحقِّ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرحَ وانفسحَ» فقيل: فما علامةُ ذلك؟ قال: «الإنابةُ إلى دارِ الخلود والتجافي عن دارِ الغرور والتأهبُ للموتِ قبل نزولِه»[1] وخبرَ مَنْ محذوفٌ دلَّ عليه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من أجلِ ذكرِه وهو أبلغُ من أنْ يكونَ عن مكانِ مَنْ، لأنَّ القاسي من أجلِ الشيءِ أشدُّ تأبياً عن قبوله من القاسي

(١) وهو حديث ضعيف تقدم تخريجه في سورة الأنعام الآية (١٢٥).

عنه لسببٍ آخرَ، وللمبالغة في وصْفِ أولئك بالقَبُولِ وهؤلاءِ بامتناع ذكرِ شرحِ الصدرِ، وأسندَه إلى الله وقابلَه بقساوةِ القلبِ وأسنده إليه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يظهرُ للناظرِ بأدنى نظرٍ، والآيةُ نزلتْ في حمزةَ وعليٍّ وأبي لهبٍ وولدِه[1].

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ، روي أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ ملُّوا ملَّة فقالوا له حدِّثْنا فنزلتْ[2]. وفي الابتداءِ باسم الله وبناءِ نزلَ عليه تأكيدٌ للإسناد إليه وتفخيمٌ للمنزل واستشهادٌ على حسنِه. ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ بدلٌ من أحسنَ أو حالٌ منه، وتشابُهُهُ تشابُه أبعاضِه في الإعجازِ وتجاوبُ النظمِ وصِحَّةُ المعنى، والدلالةُ على المنافعِ العامةِ. ﴿مَّثَانِىَ﴾ جمعُ مَثْنًى أو مَثْنًى أو مثنٍ على ما مرَّ في الحِجْر، وصفَ به كتاباً باعتبارِ تفاصيلِه كقولكَ: القرآنُ سورٌ وآياتٌ، والإنسانُ: عظامٌ وعروقٌ وأعصابٌ، أو جُعِلَ تمييزاً من متشابِهاً كقولك: رأيتُ رجلاً حسناً شمائِلُه. ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تشمئزُّ خوفاً مما فيه من الوعيدِ، وهو مَثَلٌ في شدَّةِ الخوفِ واقشعرارُ الجلدِ تقبُّضه وتركيبُه من حروفِ القشعِ وهو الأديمُ اليابسُ بزيادةِ الراء ليصيرَ رباعياً كتركيبِ اقْمَطَرَّ من القمطِ وهو الشدُّ. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالرحمةِ وعمومِ المغفرة، والإطلاقُ للإشعار بأنَّ أصْلَ أمرِهِ الرحمةُ وأنَّ رحمتَه سبقتْ غضبَه، والتعديةُ بإلى لتضمينِ معنى السكونِ والاطمئنانِ، وذِكْرُ القلوبِ لتقدُّمِ الخشيةِ التي هي من عوارضِها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الكتابُ أو الكائنُ من الخشية والرجاء. ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن يخذلْه. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخرجُهم من الضلال.

(٢٤) ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ يجعلُه درقةً يقي به نفسَه لأنه يكون يداهُ مغلولةً إلى عنقِه فلا يقدرُ أنْ يتقيَ إلا بوجهِه. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كمن هو آمنٌ منه، فحذفَ الخبرَ كما حُذِفَ في نظائرِه.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم فوضَعَ الظاهرَ موضِعَه تسجيلاً عليهم بالظلمِ وإشعاراً بالموجبِ لما يُقالُ لهم وهو: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وبالَه، والواو للحالِ وقد مقدَّرةٌ.

(٢٥) ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يخطرُ ببالهم أن الشرَّ يأتيهم منها.

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٩) بدون سند.
وانظر «زاد المسير» (٧/ ١٧٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٤/ ٢١١) بسند منقطع.

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

(٢٦) ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ﴾ الذلَّ. ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمسخِ والخسفِ والقتلِ والسبيِ والإجلاءِ. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم. ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدتِه ودوامِه. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا من أهلِ العلمِ والنظرِ لعلموا ذلك واعتبروا به.

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجُ إليه الناظرُ في أمر دينه. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتَّعِظون به.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من هذا والاعتمادُ فيها على الصفةِ كقولك: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً، أو مدحٌ له. ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ لا اختلالَ فيه بوجهٍ ما هو أبلغُ من المستقيمِ وأخصُّ بالمعاني. وقيل بالشكِّ استشهاداً بقوله:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ ... مِنَ الإلَـهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ

وهو تخصيصٌ له ببعضِ مدلوله. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عِلَّةٌ أخرى مرتبةٌ على الأُوْلَى.

(٢٩) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشركِ والموحِّد. ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ مثلُ المشركِ على ما يقتضيه مذهبُه من أنْ يدعيَ كلُّ واحد من معبوديه عبوديَّتَه، ويتنازعُوا فيه بعبدٍ يتشارك فيه، جمعَ يتجاذبونه ويتعاورونه في مهمَّاتِهم المختلفةِ في تحيُّرِه وتوزُّعِ قلبه، والموحِّدِ بمنْ خلصَ لواحدٍ ليس لغيرِه عليه سبيلٌ، ورجلاً بدلٌ من مَثَلٍ وفيه صلةُ شركاءَ، والتشاكسُ والتشاخصُ الاختلافُ. وقرأ نافع وابنُ عامر والكوفيونَ سَلَماً بفتحتينِ، وقرىء بفتحِ السينِ وكسْرِها مع سكونِ اللامِ وثلاثتُها مصادرُ سَلِمَ نُعِتَ بها، أو حُذِفَ منها ذا ورجلٌ سالمٌ أي وهناك رجلٌ سالم، وتخصيصُ الرجلِ لأنه أفطنُ للضرِّ والنفعِ. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفةً وحالاً ونَصبُهُ على التميزِ ولذلك وحَّدَه، وقرىء مثلينِ للإشعارِ باختلافِ النوعِ، أو لأنَّ المرادَ على يستويانِ في الوصْفَيْنِ على أنَّ الضميرَ للمثلينِ فإنَّ التقديرَ مِثْلُ رجلٍ ومثلُ رجلٍ. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلَّ الحمدِ له لا يشاركُه فيه على الحقيقةِ سواهُ، لأنه المنعِمُ بالذاتِ والمالكُ على الإطلاقِ. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركونَ به غَيْرَهُ من فَرْطِ جهْلِهم.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فإنَّ الكلَّ بصددِ الموتِ وفي عدادِ الموتى، وقرىء مائِتٌ ومائتونَ لأنه مما سيحدُثُ.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليبِ المخاطَبِ على الغيبِ. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتجُّ عليهم بأنك كنتَ على الحقِّ في التوحيدِ وكانوا على الباطلِ في التشريك، واجتهدت في الإرشادِ والتبليغِ ولجُّوا في التكذيبِ والعنادِ، ويعتذرونَ بالأباطيلِ مِثْلُ أطعنا سادتَنا ووجدْنَا آباءَنا. وقيل المراد به الاختصام العام يخاصم الناس بعضهم بعضاً فيما دار بينهم في الدنيا.

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ
هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

(٣٢) ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بإضافة الولدِ والشريك إليه. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهو ما جاءَ به محمدٌ ﷺ. ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ من غير توقُّفٍ وتفكُّرٍ في أمرِه. ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ وذلك يكفيهم مجازاةً لأعمالِهم، واللامُ تحتملُ العهدَ والجِنْسَ، واسْتُدِلَّ به على تكفيرِ المبتدِعَةِ فإنهم يكذِّبون بما عُلِمَ صدقُه وهو ضعيفٌ لأنه مخصوصٌ بِمَنْ فاجأَ ما علمَ مجيءَ الرسولِ به بالتكذيبِ.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ اللامُ للجنسِ ليتناولَ الرسلَ والمؤمنينَ لقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وقيل هو النبيُّ ﷺ، والمرادُ هو ومَنْ تبعَه كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1]. وقيل الجائي هو الرسولُ والمصدِّقُ أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وذلك يقتضي إضمارَ الذي وهو غيرُ جائزٍ. وقرىء وصَدَقَ به بالتخفيفِ أي صدَقَ به الناسَ فأدَّاه إليهم كما نزلَ من غيرِ تحريفٍ أو صارَ صادقاً بسببِه لأنه معجزٌ يدلُّ على صدقِه، وصُدِقَ به على البناء للمفعول.

(٣٤) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ خصَّ الأسوأَ للمبالغة فإنه إذا كفَّر كان غيرُه أَوْلَى بذلك، أو للإشعارِ بأنهم لاستعظامِهم الذنوبَ يحسبون أنهم مقصِّرون مذنِبُونَ وأنَّ ما يفرطُ منهم من الصغائرِ أسوأُ ذنوبهم، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى السيءِ كقولهم: الناقصُ والأشجُّ أعدلا بني مروانَ، وقرىء أسواءَ جمع سوءٍ. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ ويعطيهم ثوابهم. ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فتعدُّ لهم محاسنُ أعمالهم بأحسنِها في زيادة الأجرِ وعِظَمِه لفرْطِ إخلاصِهم فيها.

(٣٦) ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ استفهامُ إنكارٍ للنفي مبالغةً في الإثبات، والعبدُ رسولُ الله ﷺ ويُحتَمَلُ الجنسُ، ويؤيدُه قراءةُ حمزةَ والكسائي عبادَه، وفُسِّرَ بالأنبياء صلواتُ الله عليهم. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني قريشاً فإنهم قالوا له إنا نخافُ أنْ تخبلَكَ آلهتُنا بِعَيْبِك إيَّاها. وقيل إنه بعثَ خالداً ليكسِرَ العزَّى فقال له سادِنُها أُحَذِّرُكَهَا فإن لها شدةً، فعمدَ إليها خالدٌ فهشَمَ أنفَها فنزلَ تخويفُ خالدٍ منزلةَ تخويفِه لأنه الآمرُ له بما خوفَ عليه. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتى غفلَ عن كفايةِ الله له وخوَّفه بما لا ينفعُ ولا يضرُّ. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الرشادَ.

(٣٧) ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ لا رادَّ لفعله كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالبٍ منيعٍ. ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقمُ من أعدائه.

---

(١) المؤمنون: ٤٩.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ
ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ
يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ
حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ لوضوح البرهان على تفرُّده بالخلقية. ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي أرأيتم بعد ما تحقَّقْتُم أنَّ خالقَ العالم هو اللهُ تعالى، وأنَّ آلهتكم إنْ أرادَ اللهُ أنْ يصيبَني بِضُرٍّ هل يكشفنَّه. ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ بنفع. ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ فيمسكْنها عنِّي، وقرأ أبو عمرو كاشفاتٌ ضرَّه ممسكاتٌ رحمته بالتنوينِ فيهما ونصبِ ضُرِّهِ ورحمتِه. ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ﴾ كافياً في إصابة الخيرِ ودفعِ الضرِّ إذ تقرَّر بهذا التقريرِ أنه القادرُ الذي لا مانعَ لما يريدُه من خيرٍ أو شرٍّ. رُوِيَ أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام سألهم فسكتُوا فنزلَ ذلك. وإنما قال كاشفاتٌ وممسكاتٌ على ما يصفونَها به من الأنوثةِ تنبيهاً على كمال ضعْفِها. ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعلمِهم بأنَّ الكلَّ منه تعالى.

(٣٩) ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالِكم، اسمٌ للمكانِ اسْتُعِيْرَ للحال كما استعيرَ هنا وحيثُ منَ المكانِ للزمانِ، وقرىء مكاناتِكم. ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ﴾ أي على مكانتي فحُذِفَ للاختصار والمبالغةِ في الوعيدِ، والإشعارِ بأنَّ حالَه لا يقفُ فإنه تعالى يزيدُه على مرِّ الأيام قوةً ونصرةً ولذلك توعَّدَهم بكونِه منصوراً عليهم في الداريْنِ فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

(٤٠) ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإنَّ خِزيَ أعدائِه دليلُ غَلَبَتِهِ، وقد أخزاهم اللهُ يومَ بدْرٍ. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائمٌ وهو عذابُ النار.

(٤١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأَجْلِهم فإنه مناطُ مصالحِهم في معاشِهم ومعادِهم. ﴿بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ متلبِّساً به. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ إذ نفعَ به نفسَه. ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ فإنَّ وبالَه لا يتخطَّاها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وما وُكِّلْتَ عليهم لتجبُرهم على الهدى وإنما أُمِرْتَ بالبلاغِ وقد بلَّغْتَ.

(٤٢) ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ﴾ أي يقبضُها عن الأبدانِ بأنْ يقطعَ تعلُّقَها عنها وتصرُّفَها فيها، إما ظاهراً وباطناً وذلك عندَ الموت، أو ظاهراً لا باطناً وهو في النوم. ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردُّها إلى البدنِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ قُضِيَ بضم القافِ وكسْرِ الضادِ والموتُ بالرفع. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي النائمةَ إلى بدنها عند اليقظةِ. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ هو الوقتُ المضروبُ لموته وهو غاية جنسِ الإرسالِ. وما روي عن ابن عباسٍ رضي الله تعالى عنهما: أنَّ

في ابن آدم نفساً وروحاً بينَهما مثلُ شعاعِ الشمسِ، فالنفسُ التي بها العقلُ والتمييزُ، والروحُ التي بها النفسُ والحياةُ، فيتوفَّيانِ عند الموتِ وتتوفَّى النفسُ وحدَها عند النوم[1]. قريبٌ مما ذكرناه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ من التوفِّي والإمساكِ والإرسالِ. ﴿لَآيَـٰتٍ﴾ دالةً على كمالِ قدرتِه وحكمتِه وشمولِ رحمته. ﴿لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلُّقِها بالأبدانِ وتوفِّيها عنها بالكلِّية حين الموتِ، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفنائِها، وما يعتريها من السعادة والشقاوةِ والحكمةِ في توفِّيها عن ظواهِرِها وإرسالِها حيناً بعد حينٍ إلى توفِّي آجالِها.

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَـٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

(٤٣) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بلِ اتخذتْ قريشٌ. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ تشفعُ لهم عندَ الله. ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ ولو كانوا على هذه الصفةِ كما تشاهدونَهم جماداتٍ لا تقدِّرُ ولا تعلمُ.

(٤٤) ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ لعلَّه ردٌّ لما عسَى يجيبونَ به وهو أنَّ الشفعاءَ أشخاصٌ مقرَّبون هي تماثيلُهم، والمعنى أنه مالكُ الشفاعةِ كلِّها لا يستطيعُ أحدٌ شفاعةً إلا بإذنه ورضاهُ، ولا يستقلُّ بها، ثمَّ قرَّرَ ذلك فقال: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فإنه مالِكُ الملكِ كلِّه لا يملكُ أحدٌ أنْ يتكلَّمَ في أمرِهِ دونَ إذْنِه ورضاهُ. ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يومَ القيامة فيكون الملكُ له أيضاً حينئذٍ.

(٤٥) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ دونَ آلهتِهم. ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ انقبضتْ ونَفَرتْ. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأوثانَ. ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ لفرطِ افتتانِهم بها ونسيانِهم حقَّ اللهِ، ولقد بالغَ في الأمرينِ حتى بلغَ الغايةَ فيهما، فإنَّ الاستبشارَ أنْ يمتلئَ قلبُه سروراً حتى تنبسطَ له بشرةُ وجْهِه، والاشمئزازُ أنْ يمتلئَ غماً حتى ينبقضَ أديمُ وجْهِه، والعاملُ في ﴿إِذَا ذُكِرَ﴾ العاملُ في إذا المفاجأةُ.

(٤٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَـٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ التجِئْ إلى الله بالدعاء لما تحيَّرتَ في أمرهم وضجِرتَ من عِنادِهم وشدةِ شكيمتِهم، فإنه القادرُ على الأشياءِ والعالِمُ بالأحوالِ كلِّها. ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فأنتَ وحْدَك تقدِرُ أنْ تحكمَ بيني وبينهم.

(٤٧) ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۚ﴾ وعيدٌ

---

(١) ذكره الماوردي في تفسيره (٥/ ١٢٨).

شديد وإقناطٌ كليٌّ لهم من الخلاص. ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ زيادةُ مبالغةٍ فيه وهو نظيرُ قوله تعالى ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾[1] في الوعْدِ.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٨) ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ سيئاتُ أعمالهم أو كسْبُهم حين تُعْرَضُ صحائفُهم. ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاطَ بهم جزاؤُه.

(٤٩) ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبارٌ عن الجنسِ بما يغلبُ فيه، والعطفُ على قوله ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾[2] بالفاءِ لبيان مناقضتِهم وتعكيسِهم في التسبُّبِ بمعنى أنَّهم يشمئزُّون عن ذكْرِ الله وحدَه ويستبشرون بذكْرِ الآلهةِ، فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره دون من استبشروا بذكره، وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم. ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إياه تفضُّلاً فإنَّ التخويلَ مختصٌّ به. ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ﴾ منِّي بوجوهِ كسْبه، أو بأني سأُعطَاهُ لما لي من استحقاقِه، أو من الله بي واستحقاقي، والهاءُ فيه لما إنْ جُعِلَتْ موصولةً وإلا فللنعمة، والتذكير[3] لأنَّ المرادَ شيءٌ منها. ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ امتحانٌ له أيشكرُ أمْ يكفرُ، وهو ردٌّ لما قاله وتأنيثُ الضميرِ باعتبارِ الخيرِ أو لفظِ النعمةِ، وقرىء بالتذكيرِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلكَ، وهو دليلٌ على أنَّ الإنسانَ للجنسِ.

(٥٠) ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الهاء لقوله ﴿إنما أوتيته على علم﴾[4] لأنها كلمةٌ أو جملةٌ، وقرىء بالتذكيرِ. ﴿والذين مَنْ قَبْلَهُمْ﴾ قارونُ وقومُه فإنه قال ورضيَ به قومُه. ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من متاعِ الدنيا. .

(٥١) ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ﴾ جزاءُ سيئاتِ أعمالهم أو جزاءُ أعمالِهم، وسمَّاه سيئةً لأنه في مقابلةِ أعمالهم السيئةِ رمزاً إلى أنَّ جميعَ أعمالِهم كذلك. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالعتوِّ. ﴿ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ المشركينَ ومِنْ للبيانِ أو للتبعيضِ. ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ كما أصابَ أولئك، وقد أصابَهم فإنَّهم قُحطُوا سبعَ سنينَ وقُتِلَ ببدرٍ صناديدُهم. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتينَ.

(٥٢) ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ حيث حَبَسَ عنهم الرزقَ سبعاً ثم بسطَ لهم

---

(١) السجدة: «١٧».

(٢) الزمر: «٤٥».

(٣) تذكير الضمير مع أنه يعود على مؤنث.

(٤) الزمر: «٤٩».

سبعاً. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادثَ كلَّها من الله بوسطٍ أو غيرِه.

۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أفرطُوا في الجنايةِ عليها بالإسرافِ في المعاصي، وإضافةُ العبادِ تخصِّصُه بالمؤمنين على ما هو عُرْفُ القرآن. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسُوا من مغفرتِه أولاً وتفضُّله ثانياً. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفواً ولو بَعْدَ بُعْدٍ، وتقييدُه بالتوبة خلافُ الظاهرِ ويدلُّ على إطلاقِه فيما عدا الشركَ قولُه تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآيةَ، والتعليلُ بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على المبالغة. وإفادةُ الحصْرِ والوعْدِ بالرحمةِ بعدَ المغفرة، وتقديمُ ما يستدعي عمومَ المغفرةِ مما في عبادي من الدلالةِ على الذلَّةِ والاختصاصِ المقتضيينِ للترحُّم، وتخصيصُ ضررِ الإسرافِ بأنفسِهم والنهيُ عن القنوطِ مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقِها، وتعليلُه بأنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً، ووضْعُ اسمِ الله موضعَ الضمير لدلالتِه على أنه المستغني والمنعِمُ على الإطلاقِ، والتأكيدُ بالجميع. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما أحبُّ أنْ تكونَ لي الدنيا وما فيها بها» فقال رجلٌ: يا رسولَ الله ومَنْ أشركَ؟ فسكتَ ساعةً ثم قال: «ألا ومَنْ أشرك ثلاثَ مراتٍ»[1]. وما روي أنَّ أهلَ مكَّةَ قالوا: يزعمُ محمدٌ أنَّ مَنْ عبدَ الوثَنَ وقتلَ النفسَ بغير حقٍّ لم يُغْفَرْ له فكيفَ ولم نهاجِرْ وقد عبدْنا الأوثانَ وقتلْنا النفسَ فنزلتْ[2]. وقيل في عياشٍ والوليدِ بنِ الوليدِ في جماعةٍ افتتنوا[3]، أو في الوحْشيِّ لا ينفي عمومَها[4] وكذا قولُه:

(٥٤) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ فإنَّها لا تدلُّ على حصولِ المغفرةِ لكلِّ أحدٍ من غيرِ توبة وسَبْقِ تعذيبٍ لتُغْني عن التوبةِ والإخلاصِ في العمل وتنافي الوعيدِ بالعذاب.

(٥٥) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ القرآنَ أوِ المأمورَ به دونَ المنهي عنه، والعزائمَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٢/ج٢٤/١٥) وأحمد (٥/ ٢٧٥) والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٧/ ١٠٠) من حديث ثوبان.
قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٦٩.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٢/ج٢٤/١٥) عن ابن عمر، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث في هذه الرواية.

(٤) أخرج البخاري (٨/ ٥٤٩ رقم ٤٨١٠) ومسلم (١/ ١١٣ رقم ١٩٣/ ١٢٢) وأبو داود (٤/ ٤٦٥ رقم ٤٢٧٣) والحاكم (٢/ ٤٠٣).
عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسنٌ. ولو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفارةً، فنزل «والذين لا يدعونَ مع الله إلهاً آخر...» [الفرقان: ٦٨] ونزل: «يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم.. الآيةَ».

دونَ الرُّخَصِ أو الناسخَ دونَ المنسوخِ، ولعلَّه ما هو أنْجى وأسْلَمُ كالإنابةِ والمواظبةِ على الطاعة. ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بمجيئه فتتداركوا.

أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ كراهةَ أنْ تقولَ، وتنكيرُ نفسٍ لأنَّ القائلَ بعضُ الأنفسِ أو للتكثيرِ كقولِ الأعْشَى:

وَرُبَّ بَقِيــعٍ لَــوْ هَتَفْــتُ بِجَــوِّهِ أَتَــانِي كَـرِيـمٌ يَنْفُضُ الـرَّأْسَ مُغْضبـا

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ وقرىء بالياءِ على الأصْلِ. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ بما قصَّرتُ. ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في جانبه أي في حقِّه وهو طاعتُه. قال سابقٌ البربري:

أَمَــا تَتَّقِيــنَ الله فــي جَنْــبِ وَامِــقٍ لَــهُ كبــدٌ حَــريّ عَلَيْــكَ تَقَطَّــعُ

وهو كنايةٌ فيها مبالغةٌ كقوله:

إِنَّ السَّمَــاحَــةَ وَالمُــرُوءَةَ وَالنَّــدَى فــي قُبَّــةٍ ضُـرِبَـتْ عَلَـى ابْـنِ الحَشْـرَجِ

وقيل ذاتُه على تقديرِ مضافٍ كالطاعة، وقيل في قربه من قوله «والصاحب بالجَنْبِ»، وقرىء في ذكرِ الله. ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئين بأهله، ومحلُّ ﴿إن كنت﴾ نصبٌ على الحالِ كأنه قال فرَّطْتُ وأنا ساخِرٌ.

(٥٧) ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ بالإرشادِ إلى الحقِّ. ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الشركَ والمعاصي.

(٥٨) ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في العقيدةِ والعملِ، وأو للدلالةِ على أنَّها لا تخلو من هذه الأقوالِ تحيُّراً وتعلُّلاً بما لا طائلَ تحتَه.

(٥٩) ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ردٌّ من الله عليه لما تضمَّنه قولُه ﴿لو أن الله هداني﴾ من معنى النفي وفصلُه عنه لأنَّ تقديمَهُ يفرقُ القرائنَ، وتأخيرُ الموودِ يخلُّ بالنظمِ المطابِقِ للوجودِ لأنه يتحسَّرُ بالتفريطِ ثم يتعلَّلُ بفقْدِ الهداية ثم يتمنَّى الرجعةَ، وهو لا يمنعُ تأثيرَ قدرةِ الله في فعلِ العبدِ ولا ما فيه من إسنادِ الفعلِ إليه كما عرفْتَ، وتذكيرُ الخطابِ على المعنى، وقرىء بالتأنيثِ للنفسِ.

(٦٠) ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأنْ وصفوه بما لا يجوزُ كاتخاذِ الولد. ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ بما ينالهم من الشدةِ أو بما يتخيلُ عليها من ظلمةِ الجهلِ، والجملةُ حالٌ إذِ الظاهرُ أنْ ترى من رؤيةِ البصرِ واكْتُفِيَ فيها بالضميرِ عن الواو. ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى﴾ مقامٌ. ﴿لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة وهو تقريرٌ لأنهم يَرَوْنَ كذلك.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾

(٦١) ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقرىء ويُنْجِي. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحِهم مفعلةٌ من الفوز، وتفسيرها بالنجاةِ تخصيصُها بأهمِّ أقسامِه وبالسعادةِ والعملِ الصالحِ إطلاقٌ لها على السبب، وقرأ الكوفيونَ غيرَ حفصٍ بالجمعِ تطبيقاً لهم، والباء فيها للسببيةِ صلةٌ لينجيَ أو لقولِه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهو حالٌ أو استئنافٌ لبيانِ المفازة.

(٦٢) ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خيرٍ وشرٍّ وإيمان وكفرٍ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولَّى التصرُّف.

(٦٣) ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يملكُ أمْرَهَا ولا يتمكنُ من التصرفِ فيها غيرهُ، وهو كنايةٌ عن قدرتهِ وحفظِه لها وفيها مزيدُ دلالةٍ على الاختصاصِ، لأنَّ الخزائنَ لا يدخلُها ولا يتصرفُ فيها إلا مَنْ بيدهِ مفاتيحُها، وهو جمعُ مِقْلِيدٍ أو مقلادٍ من قلَّدتُه إذا ألزمتُهُ، وقيل جمعُ إقليدٍ معرَّبُ إكليدٍ على الشذوذِ كمذاكيرَ. وعن عثمانَ رضيَ الله عنه أنه سأل النبيَّ ﷺ عن المقاليدِ فقال: «تفسيرُها لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحانَ الله وبحمدِه وأستغفرُ اللهَ ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، هو الأولُ والآخِرُ والظاهر والباطنُ، بيده الخيرُ يحيي ويميتُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير»[١]. والمعنى على هذا إنَّ لله هذه الكلماتِ يوحَّدُ بها ويمجَّدُ، وهي مفاتيحُ خيرِ السمواتِ والأرض مَنْ تكلَّم بها أصابَهُ. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ متصلٌ بقوله ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[٢] وما بينهما اعتراضٌ للدلالةِ على أنه

---

(١) وهو حديث موضوع.
- أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ١١٧ ـ ١١٨) و(٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٧٣) والذهبي في الميزان (٤/ ٨٤ ـ ٨٥).

وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص١٣ من حديث ابن عمر.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١١٥) وقال: «رواه الطبراني في «الكبير» وفيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف» هـ.

وقال ابن الجوزي: «وهذا حديث لا يصح قال: أما الأغلب فقال يحيى: ليس بشيء وأما مخلد فقال ابن حبان منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقاة، وأما عبدالرحيم فكذا في رواية يوسف القاضي، وفي رواية العقيلي عبدالرحمن المدني وهو ضعيف. وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله ﷺ لأنه منزه عن الكلام الركيك والمعنى البعيد» هـ.

وقال الذهبي: «هذا موضوع فيما أرى» هـ.

وانظر «تنزيه الشريعة» (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٢) الزمر: «٦١».

مهيمنٌ على العبادِ مطلعٌ على أفعالِهم مجازٍ عليها، وتغييرُ النظمِ للإشعارِ بأنَّ العمدةَ في فلاحِ المؤمنينَ فضلُ الله وفي هلاكِ الكافرين أنْ خسِروا أنفسَهم، وللتصريحِ بالوعْدِ والتعريضِ بالوعيدِ قضيةً للكرمِ أو بما يليهِ، والمرادُ بآياتِ الله دلائلُ قدرتهِ واستبدادُه بأمْرِ السمواتِ والأرضِ، أو كلماتُ توحيده وتمجيدِه، وتخصيصُ الخسارِ بهم لأنَّ غيرَهُم ذو حظٍّ من الرحمةِ والثواب.

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

(٦٤) ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ أي أفغيرَ اللهِ أعبدُ بعدَ هذه الدلائلِ والمواعيدِ، وتأمروني اعتراضٌ للدلالة على أنَّهم أمروه به عقيبَ ذلك وقالوا استلِمْ بعضَ آلهتنا ونؤمنُ بإلهك لفرْطِ غباوتهم، ويجوزُ أنْ ينتصبَ غيرُ بما دلَّ عليه تأمروني أنْ أعبدَ لأنه بمعنَى تعبدونَني على أنَّ أصلَه تأمرونني أنْ أعبدَ فحذفَ أنْ ورفَعَ كقوله:

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِري أَحْضِر الوَغَى

ويؤيدُه قراءةُ أعبدَ بالنصبِ، وقرأ ابنُ عامرٍ تأمرونني بإظهارِ النونينِ على الأصْلِ، ونافعٌ بحذفِ الثانية فإنها تُحْذَفُ كثيراً.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي من المرسل. ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ كلامٌ على سبيلِ الفرَض، والمرادُ به تهييجُ الرسل وإقناطُ الكفرةِ والإشعارُ على حكمِ الأمَّةِ، وإفرادُ الخطابِ باعتبارِ كلٍّ واحد، واللامُ الأُولى موطِّئةٌ للقسمِ والأخرياِن للجوابِ، وإطلاقُ الإحباطِ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ من خصائِصهم لأنَّ شِرْكَهم أقبحُ، وأنْ يكونَ على التقييدِ بالموتِ كما صرَّح به في قوله ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾[1] وعطفُ الخسرانِ عليه من عطفِ المسبَّبِ على السببِ.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردٌّ لما أَمَرُوْهُ به ولولا دلالةُ التقديم على الاختصاص لم يكنْ كذلك. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ إنعامَه عليك، وفيه إشارةٌ إلى موجِبِ الاختصاصِ.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قدروا عظَمَتَهُ في أنفسِهم حقَّ تعظيمِه حيثُ جعلُوا له شركاءَ ووصفُوه بما لا يليقُ به، وقرىء بالتشديدِ. ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ تنبيهٌ على عظمتِه وحقارةِ الأفعالِ العِظامِ التي تتحيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافةِ إلى قدرتِه، ودلالةٌ على أنَّ تخريبَ العالم أهونُ شيءٍ عليه على طريقةِ التمثيلِ والتخييلِ من غير اعتبارِ القبضةِ واليمينِ حقيقةً ولا مجازاً كقولهم: شابتْ لُمَّةُ الليلِ، والقبضةُ المرَّةُ من القبْضِ أُطْلِقَتْ بمعنى القبضةِ

(١) البقرة: «٢١٧».

وهي المقدارُ المقبوضُ بالكفِّ تسميةً بالمصدرِ، أو بتقديرِ ذاتِ قبضةٍ. وقرىء بالنصبِ على الظرفِ تشبيهاً للمؤقَّت بالمبهَم، وتأكيدُ الأرضِ بالجميعِ لأنَّ المرادَ بها الأرَضُونَ السبعُ أو جميع أبعاضِها الباديةُ والغائرةُ. وقرىء مطوياتٍ على أنها حالٌ، والسمواتُ معطوفةٌ على الأرضِ منظومةٌ في حكمِها. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ما أبعدَ وأعلى من هذه قدرتَه وعظمَتَه عن إشراكِهم، أو ما يضافُ إليه من الشركاءِ.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ يعني المرةَ الأُولى. ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ خرَّ ميتاً أو مَغْشِيّاً عليه. ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ قيل جبريلُ ومكائيلُ وإسرافيلُ فإنهم يموتونَ بعدُ. وقيل حَمَلَةُ العرش. ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ نفخةٌ أخرى وهي تدلُّ على أنَّ المرادَ بالأولى، ونفخَ في الصورِ نفخةٌ واحدةٌ كما صرَّح به في مواضِعَ، وأخرى تحتملُ النصبَ والرفعَ. ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ قائمونَ من قبورِهم أو متوقِّفونَ، وقرىء بالنصبِ على أنَّ الخبرَ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ وهو حالٌ من ضميرِهِ والمعنى: يقلِّبونَ أبصارَهم في الجوانبِ كالمبهوتينَ أو ينتظرونَ ما يُفْعَلُ بهم.

(٦٩) ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بما أقامَ فيها من العدْلِ، سمَّاه نوراً لأنه يزيِّنُ البقاعَ ويظهرُ الحقـوقَ كما سُمِّيَ الظلمُ ظلْمةً. وفي الحديثِ «الظلم ظلماتٌ يوم القيامة»[1]. ولذلك أضافَ اسْمَه إلى الأرضِ، أو بنـورٍ خُـلِـقَ فيها بـلا واسطةِ أجسامٍ مضيئةٍ ولذلك أضافَه إلى نفسِه. ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ للحسابِ والجزاءِ من وضَعَ المحاسِبُ كتابَ المحاسبةِ بينَ يديه، أو صحائفَ الأعمالِ في أيدي العمالِ، واكْتَفَى باسمِ الجنسِ عن الجمْعِ. وقيل اللوحُ المحفوظُ يُقَابِلُ به الصحائفَ. ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الذين يشهدونَ للأممِ وعليهم من الملائكةِ والمؤمنينَ، وقيل المستشهدونَ. ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ بينَ العبادِ. ﴿ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقصِ ثوابٍ أو زيادةِ عقابٍ على ما جَرَى بِهِ الوعد.

(٧٠) ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ جزاءه. ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فلا يفوتُه شيءٌ من أفعالهم، ثم فصَّل التوفيةَ فقال:

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٠٠ رقم ٢٤٤٧) ومسلم (٤/ ١٩٩٦ رقم ٥٧/ ٢٥٧٩) وأحمد (٢/ ١٣٧، ١٥٦) والترمذي (٤/ ٣٧٧ رقم ٢٠٣٠) من حديث ابن عمر. وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٦ رقم ٥٦/ ٢٥٧٨) وأحمد (٣/ ٣٢٣) من حديث جابر.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾

(٧١) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ أفواجاً متفرِّقةً بعضُها في أَثَرِ بعضٍ على تفاوتِ أقدامِهم في الضلالة والشرارةِ، جمعُ زمرةٍ، واشتقاقُها من الزُّمرِ وهو الصوتُ. إذ الجماعةُ لا تخلو عنه، أو مِن قولهم: شاةٌ زَمِرَةٌ قليلةُ الشعرِ، ورجلٌ زَمِرٌ قليلُ المروءةِ، وهي الجمعُ القليلُ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليدخلُوها، وحتى هي التي تُحكَى بعدَها الجملةُ، وقرأ الكوفيونَ فُتِحَتْ بتخفيفِ التاءِ. ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتوبيخاً. ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ من جنسِكم. ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ وقتِكم هذا، وهو وقتُ دخولهم النارَ، وفيه دليلٌ على أنه لا تكليفَ قبل الشرعِ من حيثُ إنهم علَّلُوا توبيخَهم بإتيانِ الرسل وتبليغ الكتبِ. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كلمةُ الله بالعذابِ علينا وهو الحكمُ عليهم بالشقاوةِ، وأنَّهم من أهلِ النارِ، وَوَضعَ الظاهرَ فيه موضِعَ الضميرِ للدلالة على اختصاصِ ذلك بالكفرةِ، وقيل هو قوله ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾[1].

(٧٢) ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أبهَمَ القائلَ لتهويلِ ما يُقالُ لهم. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى﴾ مكانُ. ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللامُ فيه للجنسِ، والمخصوصُ بالذمِّ سبقَ ذِكرُهُ، ولا ينافي إشعارَه بأنَّ مثواهُم في النار لتكبُّرِهم عن الحقِّ أنْ يكون دخولُهم فيها لأنَّ كلمةَ العذابِ حقَّتْ عليهم، فإنَّ تكبُّرَهُم وسائرَ مقابِحِهم مسبَّبَةٌ عنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ تعالى إذا خلقَ العبدَ للجنةِ استعملَه بعملِ أهلِ الجنة، حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ الجنةِ فيدخلُ الجنةَ. وإذا خَلَقَ العبدَ للنارِ استعملَه بعملِ أهلِ النار حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ النار، فيدخلُ به النارَ»[2].

(٧٣) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ إسراعاً بهم إلى دارِ الكرامة، وقيل سيقَ مراكِبُهم إذ لا يُذْهَبُ بهم إلاَّ راكبينَ. ﴿زُمَرًاۖ﴾ على تفاوتِ مراتِبِهم في الشرفِ وعلوِّ الطبقة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ حُذِفَ جوابُ إذا للدلالة على أنَّ لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيطُ به

---

(١) هود: «١١٩».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٨٩٨ ـ ٨٩٩ رقم ٢) وأبو داود (٥/٨٠ رقم ٤٧٠٣) والترمذي (٥/٢٦٦ رقم ٣٠٧٥) وأحمد (١/٤٤ ـ ٤٥) من حديث عمر.
قال الترمذي: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً.
إلا أن المحدث الألباني قال في ضعيف أبي داود (صحيح ـ إلا مسح الظهر ـ).

الوصفُ، وأنَّ أبوابَ الجنة تُفتَحُ لهم قبلَ مجيئهم غيرَ منتظرين، وقرأ الكوفيونَ فُتِحَتْ بالتخفيفِ. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يعتريكُم بعدُ مكروهٌ. ﴿طِبْتُمْ﴾ طَهُرْتُم من دَنَسِ المعاصي. ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ مقدِّرِينَ الخلودَ فيها، والفاءُ للدلالة على أنَّ طِيبَهُم سببٌ لدخولهم وخلودِهم، وهو لا يمنعُ دخولَ العاصي بعفوهِ لأنه مطَهِّرُهُ.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعثِ والثوابِ. ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يريدون المكانَ الذي استقرُّوا فيه على الاستعارة، وإيراثُها تمليكُها مخلَّفةً عليهم من أعمالهم أو تمكينُهم من التصرُّفِ فيها تمكينَ الوارثِ فيما يرثُه. ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي يتبوأ كلٌّ منا في أي مقام أراده من جنَّته الواسعةِ، مع أن في الجنة مقاماتٍ معنويةً لا يتمانع واردُوها. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنةُ.

(٧٥) ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ محدِقين. ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي حولَه، ومِنْ مزيدةٌ أو لابتداءِ الحفوفِ. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ملتبسين بحمده. والجملة حالٌ ثانية أو مقيِّدةٌ للأولى، والمعنى ذاكرين له بوصْفَيْ جلاله وإكرامه تلذُّذاً به، وفيه إشعارٌ بأنَّ منتهى درجاتِ العلِّيِّينَ وأعلى لذائذِهم هو الاستغراق في صفاتِ الحقِّ. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بين الخلْق بإدخال بعضِهم النارَ وبعضِهم الجنةَ، أو بين الملائكةِ بإقامتهم في منازِلهم على حَسَبِ تفاضُلِهم. ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على ما قُضِيَ بيننا بالحقِّ. والقائلون هم المؤمنون من المقضي بينَهم أو الملائكةُ وعلى ذِكْرِهم لِتَعَيُّنِهِمْ وتعظيمهم. عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورةَ الزمر لم يقطعْ رجاءَه يومَ القيامة وأعطاه الله ثوابَ الخائفينَ»[1]. عن عائشةَ رضي الله عنها «أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأُ كلَّ ليلةٍ بني إسرائيلَ والزمرَ»[2] والله أعلمُ.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٧٥ رقم ٣٤٠٥) وأحمد (٦/ ٦٨، ١٢٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (ص٤٣٤ رقم ٧١٢) والحاكم (٢/ ٤٣٤) من حديث عائشة في أثناء حديث.
قال الترمذي: حسن غريب، وسكت عليه الحاكم والذهبي.
وحسن الحديث الدكتور فاروق حمادة في تحقيق عمل اليوم والليلة للنسائي.

سُورَةُ غَافِرٍ

ترتيبها ٤٠ — آياتها ٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾

سورة المؤمن مكية[١] وآيها خمس وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾ أمالَه ابنُ عامر وحمزةُ والكسائي وأبو بكر صريحاً، ونافعٌ برواية ورشٍ وأبو عمرو بَيْنَ بَيْنَ، وقُرِىءَ بفتح الميم على التحريكِ لالتقاء الساكنين، أو النصبِ بإضمارِ اقرأ. ومنْعُ صَرْفِهِ للتعريفِ والتأنيثِ، أو لأنها على زِنَةِ أعجميٍّ كقابيلَ وهابيلَ.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ لعلَّ تخصيصَ الوصْفينِ لما في القرآن منَ الإعجازِ والحِكَمِ الدالِّ على القدرة الكاملة والحكمة البالغةِ.

(٣) ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ صفاتٌ أخرى لتحقيق ما فيه من الترغيب والترهيب والحثِّ على ما هو المقصودُ منه، والإضافةُ فيها حقيقةٌ على أنه لم يُرَدْ بها زمانٌ مخصوصٌ.

---

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أنزلت الحواميم السبع بمكة.
وأخرج ابن جرير عن الشعبي ـ رضي الله عنه ـ قال: أخبرني مسروق رضي الله عنه أنها أنزلت بمكة.
وأخرج ابن مردويه والديلمي عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت الحواميم جميعاً بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت حم (المؤمن) بمكة، انظر الدر المنثور: (٧/ ٢٦٨).

وأُرِيدَ بشديد العقاب مشدِّده أو الشديدِ عقابُه، فَحُذِفَ اللامُ للازدواجِ وأَمْنِ الالتباسِ أو إبدالٌ، وجَعْلُه وحْدَه بدلاً مشوِّشٌ للنَّظْم. وتوسيطُ الواوِ بينَ الأَوَّلَيْنِ لإفادة الجمع بين محوِ الذنوب وقبولِ التوبة، أو تغايرُ الوصْفَيْنِ إذ ربَّما يُتَوَهَّمُ الاتحادُ، أو تغايرُ موقعِ الفعلين لأنَّ الغفرَ هو السترُ فيكون لذنبٍ باقٍ وذلك لمن لم يتبْ (فإنَّ التائبَ من الذنبِ كَمَنْ لا ذنْبَ له)[١]. والتوبُ مصدرٌ كالتوبةِ، وقيل جمعاً. والطَّوْلُ الفضلُ بتركِ العقابِ المستحِقِّ. وفي توحيد صفةِ العذاب مغمورةً بصفاتِ الرحمة دليلُ رُجْحَانِها. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجبُ الإقبالُ الكليُّ على عبادته. ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازي المطيعَ والعاصي.

(٤) ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لما حقَّق أمرَ التنزيل سجَّلَ بالكفرِ على المجادِلِيْنَ فيه بالطعنِ وإدحاضِ الحقِّ لقوله ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[٢] وأما الجدالُ فيه لِحَلِّ عُقَدِهِ واستنباطِ حقائقِه وقطعِ تشبُّثِ أهلِ الزيغ به وقطْعِ مطاعِنهم فيه فَمِنْ أعظمِ الطاعاتِ، ولذلك قال عليه الصلاةُ والسلام: «إنَّ جِدالاً في القرآن كفرٌ»[٣] بالتنكير مع أنه ليس جدالاً فيه على الحقيقة. ﴿فَلَا

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٢/ ١٤٢٠ رقم ٤٢٥٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٥ رقم ١٠٢٨١) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢١٠) والقضاعي في مسند الشهاب رقم (١٠٨) والسهمي في تاريخ جرجان ص٣٩٩ والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥٤) من حديث ابن مسعود.
قلت: في سنده انقطاع لأن أبا عبيدة بن عبدالله بن مسعود لم يسمع من أبيه. لكن للحديث متابع وشواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن.
أما المتابع فقد أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥٤) من طريق عبدالكريم الجزري عن زياد بن أبي مريم عن عبدالله بن معقل عن ابن مسعود وإسناده حسن.
أما الشواهد: (فالأول) أخرجه البيهقي (١٠/ ١٥٤) وفي الشعب (٥/ ٤٣٦ رقم ٧١٧٨) من حديث ابن عباس.
وفي سنده سلم بن سالم، وسعيد بن عبدالجبار كلاهما ضعيف.
(والثاني): أخرجه البيهقي (١٠/ ١٥٤) من حديث أبي عتبة الخولاني.
(والثالث): أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٩٨) من حديث أبي سعد الأنصاري وفي سنده: يحيى بن أبي خالد، وابن أبي سعد كلاهما مجهول.
والحديث حسنه الحافظ ابن حجر كما نقل عنه السخاوي وقال: يعني لشواهده.
وكذا الألباني. المقاصد الحسنة (رقم: ٣١٣) والضعيفة (رقم ٦١٥ و٦١٦).
(٢) غافر: «٥».
(٣) أخرجه الطيالسي في مسنده (ص٣٠٢ رقم ٢٢٨٦) من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «لا تجادلوا في القرآن فإن جدالاً فيه كفر».
وفي إسناده: فليح بن سليمان وهو صدوق كثير الخطأ. لكن الحديث له شواهد ينجبر بها هذا الضعف وقد صححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢١٠ رقم ٧٢٢٣).
وأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٠٤، ٢٠٥) من حديث عمرو بن العاص في سياق طويل بلفظ «لا تماروا فيه فإن المراء فيه كفر».
وقال الألباني: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم ـ كما في «الصحيحة» (رقم: ١٥٢٢) ـ.
وأخرج الإمام أحمد أيضاً (٤/ ١٦٩ ـ ١٧٠) وابن جرير في «جامع البيان» (١/ج١/ ١٩) من حديث أبي جهيم بن الحارث كحديث عمرو بن العاص. =

﴿يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ فلا يغرنْك إمهالُهم وإقبالُهم في دنياهم وتقلُّبهم في بلاد الشام واليمنِ بالتجاراتِ المربحة فإنهم مأخوذون عما قريبٍ بكفرِهم أَخْذَ مَنْ قبلَهم كما قال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧)﴾

(٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ والذين تحزَّبوا على الرسُل وناصَبُوهم بعدَ قوم نوح كعادٍ وثمودَ. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هؤلاءِ. ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرىء برسولِها. ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكَّنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيبٍ وقتلٍ من الأَخْذِ بمعنى الأَسْرِ. ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقةَ له. ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليزيلُوه به. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك جزاءً لهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرون على ديارهم وترونَ أثره، وهو تقريرٌ فيه تعجيبٌ.

(٦) ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وعيدُه أو قضاؤُه بالعذاب. ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكفرِهم. ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بدلٌ من كلمة ربِّك بدلُ الكلِّ أو الاشتمالِ على إرادةِ اللفظ أو المعنى.

(٧) ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الكروبيُّون أعلى طبقاتِ الملائكةِ وأوَّلُهم وجوداً، وحملُهم إياه وحفيفُهم حولَه مجازٌ عن حفظِهم وتدبيرهم له، أو كنايةٌ عن قُرْبِهم من ذي العرش ومكانتِهم عندَه وتوسُّطِهم في نَفَاذِ أمرِه. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يذكرون اللهَ بمجامعِ الثناء من صفاتِ الجلال والإكرام، وجعلَ التسبيحَ أصلاً والحمدَ حالاً لأنَّ الحمدَ مقتضى حالهم دون التسبيح أصلاً. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَخْبَرَ عنهم بالإيمان إظهاراً لفضلِه وتعظيماً لأهلِه، ومساقُ الآيةِ لذلك كما صرَّح به بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وإشعاراً بأنَّ حَمَلَةَ العرش وسُكَّانَ الفرْشِ في معرفته سواءٌ رداً على المجسِّمة[(١)]، واستغفارُهم شفاعتُهم وحملُهم على التوبة وإلهامُهم ما يوجِبُ المغفرةَ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ المشاركةَ في الإيمانِ توجِبُ النُّصْحَ والشفقةَ وإنْ تخالفتِ الأجناسُ لأنها أقوى المناسباتِ كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[(٢)]. ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون ربَّنا وهو بيانٌ ليستغفرون أو حالٌ. ﴿وَسِعْتَ

= وأخرج أبو داود (٥/٩ رقم ٤٦٠٣) وأحمد (٢/٢٨٦، ٣٠٠، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨) وابن جرير في «جامع البيان» (١/ج١/١١) والحاكم (٢/٢٢٣) وابن حبان (ص٤٤٠ رقم ١٧٨٠) من حديث أبي هريرة، بلفظ «المراء في القرآن كفر». وصححهُ الألباني في الصحيحة (رقم: ١٥٢٢).

(١) انظر «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية. تحقيق: د. محمد رشاد سالم (١/ ١٠٤ ـ ١١١).

(٢) الحجرات: «١٠».

﴿كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسعت رحمتُك وعِلْمُك فأُزِيلَ عن أصلِه للإغراقِ في وصْفِه بالرحمةِ والعلْم. والمبالغةُ في عمومِها، وتقديمُ الرحمة لأنها المقصودةُ بالذاتِ ها هنا. ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ للذين علِمْتَ منهم التوبةَ واتباعَ سبيلِ الحقِّ. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ واحفظْهم عنه وهو تصريحٌ بعدَ إشعارٍ للتأكيدِ والدلالةِ على شدَّةِ العذاب.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

(٨) ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ وعدْتَهم إياها. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ﴾ عطفٌ على هم الأولِ أي أدخلْهم ومعَهُم هؤلاءِ ليتمَّ سرورُهم، أو الثاني لبيانِ عمومِ الوعْدِ، وقرِىء جنةَ عدنٍ وصلُح بالضمِّ وذريَّتهم بالتوحيد. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنعُ عليه مقدورٌ. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيه حِكْمتُه ومن ذلك الوفاءُ بالوعد.

(٩) ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ العقوباتِ أو جزاءَ السيئاتِ، وهو تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ، أو تخصيصٌ بِمَنْ صَلَحَ أو المعاصي في الدنيا لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ﴾ أي ومَنْ تَقِهَا في الدنيا فقد رَحِمْتَهُ في الآخرة كأنهم طلبوا السببَ بعدَ ما سألوا المسبَّبَ. ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني الرحمةَ أوِ الوقايةَ أو مجموعَهُما.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ يومَ القيامةِ فيُقَالُ لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لمقتُ اللهِ إياكم أكبرُ من مقْتِكم أنفسَكم الأمارةَ بالسوءِ. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه المقتُ الأولُ لا له لأنه أخْبرَ عنه، ولا للثاني لأنَّ مقْتَهُم أنفسَهم يومَ القيامة حينَ عاينوا جزاءَ أعمالِهم الخبيثةِ إلا أنْ يُؤَوَّلَ بنحوِ بالصَّيْفِ ضيَّعْتِ اللَّبَن، أو تعليلٌ للحكم. وزمانُ المقْتَيْنِ واحدٌ.

(١١) ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إماتتَيْنِ بأنْ خلقْتَنا أمواتاً أولاً ثم صيَّرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالِنا، فإنَّ الإماتةَ جعْلُ الشيءِ عادِمَ الحياة ابتداءً، أو بتصييرٍ كالتصغيرِ والتكبيرِ، ولذلك قيل سبحانَ مَنْ صغَّر البعوضَ وكبَّر الفيل[1]، وإنْ خصَّ بالتصيير فاختيار الفاعلِ المختارِ أحدَ مفعوليه تصييرٌ وصرفٌ له عن الآخَر. ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الإحياءةُ الأولى وإحياءةُ البعث. وقيل الإماتةُ الأولى عندَ انخرامِ الأجلِ

---

(١) أي خلقه كبيراً. لا أنه خلقه صغيراً ثم كبّره، وهم كانوا في حكم الموتى قبل الخلق لا أنهم كانوا أحياء ثم أماتهم الله كما يقتضيه ظاهر لفظ الإماتة.

والثانية في القبر بعدَ الإحياءِ للسؤالِ والإحياءانِ ما في القبر والبعْثِ، إذِ المقصودُ اعترافُهم بعدَ المعاينة بما غَفَلُوا عنه ولم يكترثُوا به ولذلك تسبَّبَ بقوله: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فإنَّ اقترافَهم لها من اغترارِهم بالدنيا وإنكارِهم البعثَ. ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ نوع خروج من النار. ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريقٍ فنسلُكُه وذلك إنما يقولونه من فَرْطِ قنوطِهم تعلُّلاً وتحيُّراً ولذلك أُجيبُوا بقوله:

ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي أنتم فيه. ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ بسببِ أنه. ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ متحداً أو توحَّد وحْدَه فحُذِفَ الفعلُ وأُقيمَ مقامَه في الحاليةِ. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتوحيد. ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ بالإشراك. ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ المستحقّ للعبادة حيث حكمَ عليكم بالعذاب السَّرمدِ الدائم. ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ عن أنْ يُشْرَكَ به ويسوَّى بغيرِه. ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ حيثُ حكمَ على مَنْ أشركَ وسوَّى به بعضَ مخلوقاته في استحقاقِ العبادة بالعذاب السَّرمدِ.

(١٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّةَ على التوحيدِ وسائر ما يجب أنْ يُعْلَمَ تكميلاً لنفوسِكم. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أسبابَ رزقٍ كالمطرِ[1] مراعاةً لمعاشِكم. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآياتِ التي هي كالمركوزة في العقولِ لظهورِها المغفولِ عنها للانهماك في التقليدِ واتباع الهوى. ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجِعُ عن الإنكارِ بالإقبالِ عليها والتفكُّرِ فيها، فإنَّ الجازمَ بشيءٍ لا ينظرُ فيما ينافيه.

(١٤) ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشركِ. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصَكم وشَقَّ عليهم.

(١٥) ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خبرانِ آخرانِ للدلالة على علوِّ صمديَّتِهِ من حيثُ المعقولُ والمحسوسُ الدالُّ على تفرُّدِه في الألوهيةِ، فإنَّ منِ ارتفعتْ درجاتُ كمالِه بحيثُ لا يظهرُ دونَها كمالٌ وكان العرشُ الذي هو أصلُ العالَمِ الجسمانيِّ في قبضةِ قدرته لا يصحُّ أنْ يُشْرَكَ به، وقيلَ الدرجاتُ مراتبُ المخلوقاتِ أو مصاعِدُ الملائكة إلى العرش أو السمواتُ أو درجاتُ الثواب. وقُرِئَ رفيعَ بالنصبِ على المدح. ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ خبرٌ رابعٌ للدلالةِ على أنَّ الرَّوْحَانيَّاتِ أيضاً مسخَّراتٌ لأمره بإظهار آثارِها وهو الوحيُ، وتمهيدٌ للنبوة بعدَ تقريرِ التوحيدِ، والروحُ الوحيُ ومِنْ أمرِه بيانُه لأنه أمرٌ بالخير أو مبدؤُه والآمرُ هو المَلَكُ المبلِّغُ. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يختارُه للنبوةِ، وفيه دليلٌ على أنها

---

(١) وإفراد المطر بالذكر ـ مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر ـ.
وصيغة المضارع في الفعلين «يريكم» و«ينزل» للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما (س٧/ ٢٧٠).

عطائيةٌ. ﴿لِيُنذِرَ﴾ غايةَ الإلقاءِ، والمستكِنُّ فيه لله. أو لِمَنْ أو للروحِ، واللامُ مع القربِ تؤيدُ الثاني. ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يومَ القيامة، فإنَّ فيه تتلاقى الأرواحُ والأجسادُ وأهلُ السماءِ والأرضِ، أوِ المعبودونَ والعبادُ أوِ الأعمالُ والعمَّالُ.

يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ خارِجونَ مِنْ قبورِهم أو ظاهرون لا يستُرهم شيءٌ أو ظاهرةٌ نفوسُهم لا تحجُبهم غواشي الأبدانِ، أو أعمالُهم وسرائِرُهم. ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالِهم وأحوالِهم، وهو تقريرٌ لقوله هم بارزون وإزاحةٌ لنحوِ ما يُتَوَهَّمُ في الدنيا. ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكايةٌ لما يُسْأَلُ عنه في ذلك اليومِ، ولما يُجَابُ به، أو لما دلَّ عليه ظاهرُ الحالِ فيه من زوالِ الأسبابِ وارتفاعِ الوسائطِ، وأما حقيقةُ الحالِ فناطِقةٌ بذلك دائماً.

(١٧) ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كأنه نتيجةٌ لما سبقَ، وتحقيقُه أنَّ النفوسَ تكتسِبُ بالعقائدِ والأعمالِ هيئاتٍ توجبُ لذَّتَها وأَلَمَهَا لكنَّها لا تشعرُ بها في الدنيا لعوائقَ تشغلُها، فإذا قامتْ قيامتُها زالتِ العوائقُ وأدركتْ لذَّاتِها وأَلَمَهَا. ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بنقصِ الثوابِ وزيادةِ العقابِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ فيصِلُ إليهم ما يستحقُّونه سريعاً.

(١٨) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي القيامةَ سُمِّيَتْ بها لأُزُوفِها أي قُرْبِها، أوِ الخِطَّةَ الآزفةَ وهي مُشَارَفَتُهم النارَ وقيل الموتَ. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ فإنها ترتفعُ عن أماكِنها فتلصقُ بحُلُوقِهم فلا تعودُ فيتروَّحوا ولا تخرجُ فيستريحوا. ﴿كَاظِمِينَ﴾ على الغمِّ حالٌ من أصحابِ القلوبِ على المعنى لأنه على الإضافةِ، أو منها أو من ضميرِها في لَدَى وجمعُه كذلك لأنَّ الكظْمَ من أفعالِ العقلاءِ كقوله ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[1]. أو مِنْ مفعولِ أنذِرْهم على أنه حالٌ مقدَّرةٌ. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريبٌ مشفقٌ. ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ولا شفيعٍ مشفَّعٍ، والضمائرُ إنْ كانتْ للكفارِ وهو الظاهِرُ كان وضْعُ الظالمين موضِعَ ضميرِهم للدلالةِ على اختصاصِ ذلك بهم وأنه لِظُلْمِهم.

(١٩) ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ النظرةَ الخائنةَ كالنظرةِ الثانيةِ إلى غيرِ المحرَّمِ واستراقَ النظرِ إليه، أو خيانةَ الأَعْيُنِ. ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ من الضمائر، والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء.

(٢٠) ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأنه المالِكُ الحاكِمُ على الإطلاقِ فلا يقضي بشيءٍ إلا وهو حقُّه. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ تهكُّمٌ بهم لأنَّ الجمادَ لا يُقالُ فيه إنه يقضي أو لا يقضِي. وقرأ

---

(١) الشعراء: ٤.

نافعٌ وهشامٌ بالتاءِ على الالتفاتِ أو إضمارِ قُلْ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقريرٌ لِعِلْمِهِ بخائنةِ الأعينِ وقضائِه بالحقِّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحالِ ما يدعون من دونِه.

۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن
يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾

(٢١) ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مآلُ حالِ الذين كذَّبوا الرسلَ قبلَهم كعادٍ وثمودَ. ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً وتمكُّناً، وإنما جِيْءَ بالفصْلِ ـ وحقُّه أنْ يقعَ بينَ معرفتينِ ـ لمضارَعَةِ أفعلَ مِنْ للمعرفةِ في امتناعِ دخولِ اللامِ عليه[1]. وقرأ ابن عامر أشدَّ منكم بالكافِ. ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مثلَ القِلاعِ والمدائنِ الحصينةِ. وقيل المعنى وأكثرَ آثاراً كقوله: متقلِّداً سيفاً ورُمحاً ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يمنعُ العذابَ عنهم.

(٢٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذُ. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزاتِ أوِ الأحكامِ الواضحةِ. ﴿فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ متمكِّنٌ مما يريدُه غايةَ التمكُّنِ. ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُؤْبَهُ بعقابٍ دونَ عقابِه.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يعني المعجزاتِ. ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجَّةٍ قاهرةٍ ظاهرة، والعطفُ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ أو لإفرادِ بعضِ المعجزاتِ كالعصا تفخيماً لشأنِه.

(٢٤) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعنونَ موسى عليه الصلاة والسلام، وفيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ وبيانٌ لعاقبةِ مَنْ هو أشدُّ الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربُهم زماناً.

(٢٥) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً كي يصدُّوا عن مظاهرةِ موسى عليه السلام. ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ في ضَياعٍ، ووضَعَ الظاهرَ فيه موضِعَ الضميرِ لتعميمِ الحكمِ والدلالةِ على العِلَّةِ.

(٢٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كانوا يكفُّونه عن قَتْلِه ويقولون إنه ليس الذي تخافُه بل هو

---

(١) قوله: وإنما جيء بالفصل... أي ضمير الفصل وهو قوله «هم» حيث وقع بين اسم كان وخبرها...
وذكر البيضاوي أن من حق ضمير الفصل أن يقع بين معرفتين، وجاز هنا وقوعه قبل نكرة لأن صيغة «أفعَل مِنْ» مثل المعرفة حيث يمتنع دخول اللام عليه...
ولكن الألوسي قال: (ولا يتعين وقوعه بين معرفتين... نعم الأصل الأكثر فيه ذلك) روح المعاني (٢٤/ ٦٠).

ساحرٌ، ولو قتلْتَهُ ظُنَّ أنك عجزْتَ عن معارَضَتِهِ بالحجَّةِ، وتعلُّلُه بذلك مع كونه سفاكاً في أهونِ شيءٍ دليلٌ على أنه تيقَّن أنه نبيٌّ فخاف من قتله، أو ظنَّ أنه لو حاولَه لم يتيسرْ له ويؤيدُه قولُه. ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فإنه تجلُّدٌ وعدمُ مبالاةٍ بدعائه. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتلْه. ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أنْ يغيِّرَ ما أنتم عليه من عبادتِه وعبادةِ الأصنام لقوله تعالى ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[1]. ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ما يفسِدُ دنياكم من التحارُبِ والتهارُجِ إنْ لم يقدرْ أنْ يبطلَ دينَكُم بالكلِّيةِ. وقرأ ابنُ كثير ونافعٌ وأبو عمرو وابنُ عامر بالواوِ على معنى الجمعِ، وابنُ كثير وابن عامر والكوفيونَ غيرَ حفصٍ بفتحِ الياءِ والهاءِ ورفْعِ الفسادِ.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي لقومه لما سمعَ بكلامه. ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّرَ الكلامَ بأنَّ تأكيداً وإشعاراً على أنَّ السببَ المؤكَّدَ في دفعِ الشرِّ هو العياذُ باللهِ، وخصَّ اسْمَ الربِّ لأنَّ المطلوبَ هو الحفظُ والتربيةُ، وإضافتُه إليه وإليهم حثّاً لهم على موافقتِه لما في تظاهُرِ الأرواحِ مِنِ استجلابِ الإجابة، ولم يسمِّ فرعونَ وذكر وصْفاً يعمُّه وغيرَهُ لتعميمِ الاستعاذةِ ورعايةِ الحقِّ والدلالةِ على الحاملِ له على القولِ. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ عُذْتُ فيه وفي سورة الدخانِ بالإدغامِ وعن نافعٍ مثلُه[2].

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مِنْ أقاربه. وقيل مِنْ متعلِّقٌ بقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ والرجلُ إسرائيليٌّ أو غريب موحد كان ينافقهم. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدون قتله. ﴿أَن يَقُولَ﴾ لأن يقول، أو وقت أن يقول من غير رويةٌ وتأمُّلَ في أمرِهِ. ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ وحدَه وهو في الدلالة على الحصرِ مثلُ صديقي زيدُ. ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المتكثرةِ الدالةِ على صدقه مِنَ المعجزاتِ والاستدلالاتِ. ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَه إليهم بعد ذِكْرِ البيناتِ احتجاجاً عليهم واستدراجاً لهم إلى الاعترافِ به، ثم أخذَهم بالاحتجاجِ مِنْ بابِ الاحتياطِ فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطَّاه وبالُ كَذِبِه فيحتاجُ في دفعِه إلى قَتْلِه. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقلَّ مِنْ أنْ يصيبَكُم بعضُه، وفيه مبالغةٌ في التحذير وإظهارٌ للإنصافِ وعدمِ التعصُّبِ، ولذلك قدَّم كونَه كاذِباً أو

---

(١) الأعراف: «١٢٧».

(٢) قول البيضاوي: قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «عذت» فيه أي في هذا الموطن من سورة غافر، وفي سورة الدخان آية (٢٠) بالإدغام أي بإدغام الذال في التاء، وعن نافع مثله أي وورد عن نافع مثله حيث ورد عن نافع ذلك برواية إسماعيل. (انظر المبسوط لابن مهران ص٣٢٧).

يصبْكُم ما يعدُكم مِنْ عذابِ الدنيا وهو بعضُ مواعيده، كأنه خوَّفَهم بما هو أظهرُ احتمالاً عندَهم، وتفسيرُ البعضِ بالكلِّ كقولِ لبيدٍ:

تَــرَّاكُ أَمْكِنَــةٍ إِذَا لَــمْ أَرْضَهَــا أَوْ يَـرْتَبِـطْ بَعْـضَ النُّفُـوسِ حِمَـامُهَـا[1]

مردودٌ لأنه أرادَ بالبعضِ نفسَه. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ احتجاجٌ ثالثٌ ذو وجْهَيْنِ:

أحدُهما أنه لو كان مسْرِفاً كذَّاباً لما هداه الله إلى البيِّناتِ ولما عضَّده بتلك المعجزاتِ.

وثانيهما: أنَّ مَنْ خَذَلَه الله أهلكه فلا حاجةَ لكم إلى قَتْلِه. ولعلَّه أرادَ به المعنى الأولَ وخيَّلَ إليهم الثانيَ لِتَلِيْنَ شكيمتُهم، وعرَّضَ به لفرعونَ بأنه مسرفٌ كذَّابٌ لا يهديه اللهُ سبيلَ الصَّوابِ وطريقَ النجاة.

يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾

(٢٩) ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ ﴾ غالبينَ عالينَ. ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرضِ مِصْرَ. ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ أي فلا تفسِدوا أي فلا تفسِدوا أَمْرَكُم ولا تتعرَّضوا لبأسِ اللهِ بقتْلِه فإنه إنْ جاءَنا لم يمنعْنا منه أحدٌ، وإنما أدرجَ نفسَه في الضميريْنِ لأنه كانَ منهم في القرابةِ وليريَهُم أنه معَهُم ومساهِمُهم فيما ينصحُ لهم. ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ ﴾ ما أشيرُ عليكم. ﴿ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ وأَسْتَصْوِبُه مِنْ قتْلِه وما أُعْلِمُكم إلا ما علمتُ من الصوابِ وقلبي ولساني متواطئانِ عليه. ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ طريقَ الصوابِ، وقُرِىءَ بالتشديدِ على أنه فعَّالٌ للمبالغة من رَشَّدَ كعلَّام، أو مِنَ رَشَدَ كعبَّادٍ لا مِنْ أرشد كجبَّارٍ منْ أَجْبَرَ لأنه مقصورٌ على السماعِ أو بالنسبةِ إلى الرَّشَدِ كعوَّاجٍ وبتَّاتٍ.

(٣٠) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم ﴾ في تكذيبه والتعرُّضِ له. ﴿ مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ مثلَ أيامِ الأُممِ الماضيةِ يعني وقائِعَهم، وجَمْعُ الأحزابِ مع التفسير أَغْنَى عن جَمْعِ اليوم.

(٣١) ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ مثلُ جزاءِ ما كانوا عليه دائباً من الكفر وإيذاءِ الرُّسلِ. ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ كقوم لوطٍ. ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ فلا يعاقِبُهم بغير ذنْبٍ ولا يخلي الظالِمَ منهم بغير انتقامٍ، وهو أبلغُ مِنْ قوله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[2] من حيثُ إنَّ المنفيَّ فيه حدوثُ تعلُّقِ إرادتِه بالظلمِ.

(٣٢) ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ يومَ القيامة ينادي فيه بعضُهم بعضاً للاستغاثةِ، أو يتصايحون بالويلِ والثُّبورِ، أو يتنادى أصحابُ الجنةِ وأصحابُ النارِ كما حُكِيَ في الأعرافِ. وقُرِىءَ بالتشديد وهو أنْ يندَّ بعضُهم مِنْ بعضٍ كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾[3].

---

(١) من معلقته من الكامل.

(٢) فصلت: «٤٦».

(٣) عبس: «٣٤».

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ
كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ عن الموقفِ. ﴿مُدْبِرِينَ﴾ منصرفينَ عنه إلى النار. وقيل فارِّينَ عنها. ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ﴾ يعصمُكم من عذابه. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ يوسف بنُ يعقوبَ على أنَّ فرعونَه فرعونُ موسى، أو على نسبةِ أحوالِ الآباءِ إلى الأولادِ، أو سبطُه يوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يوسفَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِنْ قبلِ موسى. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ من الدين. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ مات. ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ ضمَّاً إلى تكذيب رسالته تكذيبَ رسالةِ مَنْ بعدَه، أو جزماً بأنْ لا يُبْعَثَ من بعده رسولٌ مع الشك في رسالته، وقُرِىءَ أَلَنْ يبعثَ اللهُ على أنَّ بعضَهم يقرِّر بعضاً بنفي البعثِ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلَ ذلكَ الضلالِ. ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ في العصيانِ. ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ فيما تشهدُ به البيناتُ لِغَلَبَةِ الوهْمِ والانهماكِ في التقليد.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الموصول الأولِ لأنه بمعنى الجمع. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ﴾ بغيرِ حجَّةٍ بل إما بتقليدٍ أو بشبهةٍ داحضةٍ. ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ فيه ضميرُ مَنْ وإفرادُه للَّفظِ، ويجوزُ أنْ يكونَ الذين آمنوا مبتدأً وخبرُه كَبُرَ على حذْفِ مضافٍ أي: وجدالُ الذين يجادلون كَبُرَ مقتاً أو بغيرِ سلطانٍ وفاعلُ كَبُرَ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كَبُرَ مقتاً مِثْلُ ذلك الجدالِ فيكون قولُه: ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ استئنافاً للدلالة على الموجِبِ لجدالِهم. وقرأ أبو عمرو وابنُ ذكوانَ قلبٍ بالتنوينِ على وصْفِهِ بالتكبُّرِ والتجبُّرِ لأنه منبعُهما كقولهم: رأتْ عيني وسمعتْ أُذُني، أو على حذفِ مضافٍ أي على كلِّ ذي قلبٍ متكبِّرٍ.

(٣٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ بناءً مكشوفاً عالياً من صَرَحَ الشيءَ إذا ظَهَرَ. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ الطرقَ.

(٣٧) ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيانٌ لها. وفي إبهامِها ثمَّ إيضاحُها تفخيمٌ لشأنِها وتشويقٌ للسامعِ إلى معرفتها. ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ عطفٌ على أبلغُ. وقرأ حفصٌ بالنصبِ على جوابِ الترجِّي ولعلَّه أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً في موضعٍ عالٍ يرصُدُ منه أحوالَ الكواكبِ التي هي أسبابٌ سماويةٌ تدلُّ على الحوادثِ الأرضيةِ، فيَرَى هل فيها ما يدلُّ على إرسالِ اللهِ إياهُ، أو أنْ يرى فسادَ قولِ موسى بأنَّ أخبارَه من إله السماءِ يتوقَّفُ على إطلاعِهِ ووصولِه إليه، وذلك لا يتأتَّى إلا بالصعودِ إلى السماءِ وهو مما لا يقوى عليه الإنسانُ، وذلك لجهلِه باللهِ وكيفيةِ استنبائِه. ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ في دعوى

الرسالةِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومِثْلُ التزيين، ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيلِ الرشاد، والفاعلُ على الحقيقةِ هو اللهُ تعالى ويدلُّ عليه أنه قُرِئَ زَيَّنَ بالفتح وبالتوسُّطِ الشيطانُ. وقرأ الحجازيانِ والشاميُّ[1] وأبو عمرو وصَدَّ على أنَّ فرعونَ صدَّ الناسَ عن الهدى بأمثالِ هذه التمويهاتِ والشُّبهاتِ ويؤيدُه: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي خسارٍ.

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ يعني مؤمِنَ آلِ فرعونَ. وقيل موسى عليه الصلاةُ والسلام. ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ بالدلالةِ. ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيلاً يصلُ سالِكُه إلى المقصودِ، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما عليه فرعونُ وقومُه سبيلُ الغيِّ.

(٣٩) ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ تمتُّعٌ يسيرٌ لسرعةِ زوالِها. ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لخلودِها.

(٤٠) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله، وفيه دليلٌ على أنَّ الجناياتِ تغرَّمُ بمثلِها. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغيرِ تقديرٍ وموازنةٍ بالعملِ بل أضعافاً مضاعفةً فضلاً منه ورحمةً. ولعلَّ تقسيمَ العمالِ وجَعْلَ الجزاءِ جملةً اسميةً مصدَّرةً باسمِ الإشارةِ. وتفضيلَ الثوابِ لتغليبِ الرحمةِ، وجَعَلَ العملَ عُمْدَةً والإيمانَ حالاً للدلالةِ على أنه شرطٌ في اعتبارِ العملِ وأنَّ ثوابَه أعلى مِنْ ذلك.

(٤١) ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كرَّر نداءَهم إيقاظاً لهم عن سَنَةِ الغفلةِ واهتماماً بالمنادَى له. ومبالغةً في توبيخِهم على ما يقابِلُون به نُصْحَهُ، وعطفُه على النداءِ الثاني الداخلِ على ما هو بيانٌ لما قبلَه، ولذلك لم يَعْطِفْ على الأولِ، فإنَّ ما بعدَه أيضاً تفسيرٌ لما أُجْمِلَ فيه تصريحاً أو تعريضاً أو على الأولِ.

(٤٢) ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدلٌ أو بيانٌ فيه تعليلٌ والدعاءُ كالهدايةِ في التعديةِ بإلى واللام. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ﴾ بربوبيَّته. ﴿عِلْمٌ﴾ والمرادُ نفيُ المعلوم والإشعارُ بأنَّ الألوهيةَ لا بدَّ لها من برهانٍ فاعتقادُها لا يصحُّ إلا عن إيقانٍ. ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ المستجمع لصفاتِ الألوهيةِ من كمالِ القدرةِ والغلبةِ وما يتوقَّفُ عليه مِنَ العلمِ والإرادةِ، والتمكُّنِ من المجازاةِ والقُدْرَةِ على التعذيبِ والغفرانِ.

---

(١) الحجازيان: نافع وابن كثير، والشامي: ابن عامر.

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ
هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ
بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ
عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا ردَّ لما دَعَوْهُ إليه، وجَرَمَ فعلٌ بمعنى حَقَّ وفاعلُه: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي حقَّ عدمُ دعوةِ آلهتِكم إلى عبادتِها أصلاً لأنها جماداتٌ ليس لها ما يقتضي ألوهيَّتَها أو عدمَ دعوةٍ مُسْتَجَابةٍ، أو عدمَ استجابةِ دعوةٍ لها. وقيل جَرَمَ بمعنى كسبَ وفاعلُه مستكِنٌّ فيه أي كَسَبَ ذلك الدعاءَ إليه أنْ لا دعوةَ له بمعنى ما حصلَ من ذلك إلا ظهورُ بُطْلانِ دعوتِه، وقيل فِعْلٌ من الجزمِ بمعنى القطْعِ كما إنَّ بُدّاً مِنْ لا بدَّ فِعْلٌ من التبديدِ وهو التفريقُ، والمعنى لا قطعَ لِبُطْلانِ دعوةِ ألوهيةِ الأصنامِ أي لا ينقطعُ في وقتٍ ما فتنقلبُ حقاً، ويؤيدُه قولُهم لا جرمَ إنه لغةٌ فيه كالرَّشَدِ والرُّشْدِ. ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالموت. ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلالة والطغيانِ كالإشراك وسفكِ الدماء. ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازِمُوها.

(٤٤) ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقُرِىءَ فستذكِّرون أي فسيذكِّر بعضُكم بعضاً عندَ معاينةِ العذاب. ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِنَ النصيحة. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليعصِمَني من كلِّ سوءٍ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرسُهم وكأنه جوابُ توعَّدهم المفهومَ مِنْ قوله:

(٤٥) ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائدَ مكْرِهم. وقيل الضميرُ لموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ بفرعونَ وقومِه فاستغْنى بذكْرِهم عن ذِكْرِه للعلْمِ بأنه أَوْلَى بذلك. وقيل بطلبةِ المؤمنِ منْ قومِه فإنه فرَّ إلى جبلٍ فاتَّبعه طائفةٌ فوجدُوه يصلي والوحوشُ حولَه صفوفاً فرجعوا رُعْباً فقتلَهم. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرقُ أوِ القتلُ أو النارُ.

(٤٦) ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملةٌ مُستأنفة أوِ النارُ خبرٌ محذوفٌ ويُعْرَضُونَ استئنافٌ للبيانِ، أو بدلٌ ويُعْرَضُونَ حالٌ منها، أو مِنَ الآلِ وقُرِئَتْ منصوبةً على الاختصاصِ أو بإضمارِ فعلٍ يفسِّرُهُ يُعْرَضُونَ مِثْلَ يَصْلَوْنَ، فإنَّ عَرْضَهُم على النارِ إحراقُهم بها من قولهم: عرضَ الأَسَارى على السيفِ إذا قُتِلُوا به، وذلك لأرواحِهم كما رَوَى ابنُ مسعودٍ[١] أنَّ أرواحَهم في أجوافِ طيورٍ سودٍ تُعْرَضُ على النارِ بُكْرَةً وعشياً إلى يوم القيامةِ، وذِكْرُ الوقتينِ تحتملُ التخصيصَ والتأبيدَ، وفيه دليلٌ على بقاء النفسِ وعذابِ القبرِ. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي هذا ما دامتِ الدنيا فإذا قامتِ الساعةُ قيل لهم: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ يا آلَ فرعونَ. ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ عذابَ جهنَّم فإنه أشدُّ مما كانوا فيه، أو أشدَّ عذابِ جهنَّمَ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ونافعٌ ويعقوبُ وحفصٌ أَدْخِلُوا على أمرِ الملائكةِ بإدخالهم النارَ.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨) بدون سند.
وانظر «البحر المحيط» (٧/ ٤٦٨) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣١٨).

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم
مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ
الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا
أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾

(٤٧) ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ واذكُرْ وقتَ تخاصُمِهم فيها، ويُحتَمَلُ العطفُ على غُدُوّاً. ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ تفصيلٌ له. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تباعاً كخدم في جَمْعِ خادمٍ أو ذوي تَبَع بمعنى أتباعٍ على الإضمارِ أو التجوُّزِ. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ بالدَّفعِ أو الحمْلِ، ونصيباً مفعولٌ به لما دلَّ عليه مُغْنُوْنَ أولهُ بالتضمينِ أو مصدرٌ كشيئاً في قوله تعالى ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾(١). فيكونُ مِنْ صلة لِمُغْنُوْنَ.

(٤٨) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ نحنُ وأنتم فكيفَ نغني عنكم ولو قَدَرْنا لأَغْنَيْنَا عن أنفسِنا، وقُرِىءَ كلاً على التأكيدِ لأنه بمعنى كلُّنا وتنوينُه عِوَضٌ عن المضافِ إليه، ولا يجوز جعلُه حالاً من المستكِنِّ في الظرفِ فإنه لا يعملُ في الحالِ المتقدِّمةِ كما يعملُ في الظرفِ المتقدِّم كقولك: كلُّ يومٍ لك ثوبٌ. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بأنْ أدخلَ أهلَ الجنةِ الجنةَ وأهلَ النارِ النارَ، ولا معقِّبَ لحكْمِه.

(٤٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لخزنَتِها، ووضْعُ جهنَّمَ موضِعَ الضمير للتهويل، أو لبيانِ محلِّهم فيها، إذ يُحتَمَلُ أنْ تكونَ جهنَّمُ أبعدَ دَرَكَاتِها مِنْ قولهم: بئرٌ جَهَنَّامٌ بعيدةُ القعْرِ. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قَدْرَ يوم. ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾ شيئاً من العذاب، ويجوزُ أنْ يكونَ المفعولُ يوماً بحذفِ المضافِ ومِنَ العذابِ بيانُه.

(٥٠) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أرادوا به إلزامَهم للحجَّةِ وتوبيخَهم على إضاعَتِهم أوقاتَ الدعاءِ، وتعطيلَهم أسبابَ الإجابة. ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ فإنا لا نجترىءُ فيه إذ لم يُؤْذَنْ لنا في الدعاءِ لأمثالِكم، وفيه إقناطٌ لهم عن الإجابة ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ضياعٍ لا يُجَابُ، وفيه إقناطٌ لهم عن الإجابةِ.

(٥١) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالحجَّةِ والظَّفَرِ والانتقامِ لهم من الكَفَرةِ. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي في الدَّارينِ، ولا ينتقضُ ذلك بما كان لأعدائِهم عليهم من الغَلَبَةِ أحياناً إذِ العِبْرةُ بالعواقبِ وغالبِ الأمرِ، والأشهادُ جمعُ شاهدٍ كصاحبٍ وأصحابٍ، والمرادُ بهم مَنْ يقومُ يومَ القيامة الشهادةَ على الناسِ منَ الملائكةِ والأنبياءِ والمؤمنينَ.

---

(١) آل عمران: ١٠.

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

(٥٢) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدلٌ منَ الأوَّلِ، وعدمُ نفعِ المعذرةِ لأنها باطلةٌ، أو لأنه لم يُؤذَنْ لهم فيعتذِروا. وقرأ غيرُ الكوفيينَ ونافعٌ بالتاء. ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ البعدُ عن الرحمةِ. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ جهنَّمُ.

(٥٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يهتدي به في الدينِ منَ المعجزاتِ والصُّحفِ والشرائعِ. ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وتركْنا عليهم بَعْدَهُ من ذلك التوراةَ.

(٥٤) ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هدايةً وتذكرةً أو هادياً ومذكِّراً. ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لذوي العقولِ السليمةِ.

(٥٥) ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذى المشركينَ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالنَّصْرِ لا يخلِفُه، واستشهدْ بحالِ موسى وفرعونَ. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وأقبِلْ على أمرِ دينِكَ وتدارُكِ فَرَطَاتِكَ بِتَرْكِ الأَوْلَى، والاهتمامِ بأمرِ العِدا بالاستغفارِ، فإنه تعالى كافيك في النصرِ وإظهارِ الأمرِ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ ودُمْ على التسبيحِ والتحميدِ لربك. وقيل صلِّ لهذين الوقتينِ، إذ كان الواجبُ بمكةَ ركعتينِ بُكْرَةً وركعتينِ عشيّاً.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ عامٌّ في كلِّ مجادِلٍ مُبْطِلٍ وإن نزلَ في مشركي مكَّةَ واليهودِ حين قالوا: لَسْتَ صاحِبَنا بل هو المسيحُ بنُ داودَ يبلُغُ سلطانُه البرَّ والبحرَ وتسير معه الأنهارُ. ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إلا تكبُّرٌ عن الحقِّ وتعظُّمٌ عن التفكُّرِ والتعلُّمِ، أو إرادةُ الرياسةِ أو أنَّ النبوةَ والمُلْكَ لا يكونانِ إلا لهم. ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ ببالغي دفعِ الآياتِ أوِ المرادِ. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالْتَجِئ إليه. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأقوالِكم وأفعالِكم.

(٥٧) ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ فَمَنْ قَدَرَ على خلقِها مع عِظَمِها أولاً من غيرِ أصلٍ قَدَرَ على خلْقِ الإنسانِ ثانياً من أصلٍ، وهو بيانٌ لا شكلٌ ما يجادلون فيه مِنْ أمرِ التوحيد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأمَّلُون لِفَرْطِ غَفْلَتِهم واتِّباعِهم أهواءَهم.

(٥٨) ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الغافلُ والمستبصرُ. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ والمحسنُ والمسيءُ فينبغي أنْ يكونَ لهم حالٌ يظهر فيها التفاوتُ، وهي فيما بعدَ البعثِ، وزيادةُ «لا» في المسيءِ لأنَّ المقصودَ نفيُ مساواتِه للمحسِنِ فيما له من الفضلِ والكرامةِ. والعاطِفُ

الثاني عطفُ الموصولِ بما عُطِفَ عليه على الأعمى والبصيرِ لتغايُرِ الوصْفينِ في المقصود، أو الدلالةِ بالصراحةِ والتمثيل. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكُّراً ما قليلاً يتذكَّرون، والضميرُ للناسِ أو الكفارِ. وقرأ الكوفيونَ بالتاءِ على تغليبِ المخاطَبِ، أو الالتفاتِ أو أمْرِ الرسولِ بالمخاطبةِ.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾

(٥٩) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مجيئها لوضوحِ الدلالة على جوازِها. وإجماعِ الرُّسلِ على الوعْدِ بوقوعِها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدِّقون بها لقصور نظَرِهم على ظاهرِ ما يَحسُّون به.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ اعبدُوني. ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أُثِبْكُم لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغِرِينَ، وإنْ فُسِّر الدعاءُ بالسؤالِ كان الاستكبارُ الصارفُ عنه مُنَزَّلاً منزلَتَهُ للمبالغةِ. أوِ المرادُ بالعبادةِ الدعاءُ فإنه من أبوابها. وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر سيُدْخَلُونَ بضمِّ الياء وفتح الخاءِ.

(٦١) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه بأنْ خلقَه بارِداً مظلِماً ليؤدي إلى ضعفِ الحركاتِ وهدوءِ الحواسِّ. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبْصَرُ فيه أو به، وإسنادُ الإبصارِ إليه مجازٌ فيه مبالغةٌ ولذلك عَدَلَ به عن التعليل إلى الحالِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لا يوازيه فضلٌ، وللإشعارِ به لم يقلْ لَمُفَضِّلٌ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لِجَهْلِهِم بالمنْعِم وإغفالِهم مواقعَ النِّعم، وتكريرُ الناسِ لتخصيص الكُفْرانِ بهم.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوصُ بالأفعالِ المقتضيةِ للألوهيةِ والربوبيةِ. ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبارٌ مترادِفةٌ تخصِّصُ اللاحقةُ السابقة وتقرِّرُها. وقرىء خالقَ بالنصبِ على الاختصاصِ، فيكون لا إله إلا هو استئنافاً بما هو كالنتيجةِ للأوصافِ المذكورة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيفَ ومِنْ أيِّ وجْهٍ تُصْرَفُونَ عن عبادته إلى عبادةِ غيرِه.

(٦٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي كما أُفِكُوا أُفِكَ عن الحقِّ كلُّ مَنْ جحدَ بآياتِ اللهِ ولم يتأمَّلْها.

(٦٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ استدلالٌ ثانٍ بأفعالٍ أُخَرَ مخصوصةٍ. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأنْ خلَقَكُم منتصِبَ القامةِ باديَ الْبَشَرَةِ متناسِبَ الأعضاءِ والتخطيطاتِ متهيأً لمزاولةِ الصنائعِ واكتسابِ الكمالاتِ. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ اللذائذِ. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنَّ كلَّ ما سواهُ مربوبٌ مفتقِرٌ بالذاتِ معرَّضٌ للزوال.

هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟
شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ
فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ
يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾

(٦٥) ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ المتفرِّدُ بالحياةِ الذاتيةِ. ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجِدَ سواهُ ولا موجودَ يساويهِ أو يدانيه في ذاته وصفاتِه. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدُوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعةَ من الشركِ والرياءِ. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قائلينَ له.

(٦٦) ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى﴾ من الحُجَجِ والآياتِ أو منَ الآياتِ، فإنها مقوِّيةٌ لأدلةِ العقلِ منبِّهةٌ عليها. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ بأنْ أَنقادَ له أو أُخلِصَ له ديني.

(٦٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أطفالاً، والتوحيدُ لإرادةِ الجِنسِ أو على تأويل كلِّ واحدٍ منكم. ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ اللامُ فيه متعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرهُ: ثم يبقيكُم لتبلُغوا وكذا في قوله: ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ ويجوزُ عطفُه على لتبلغوا. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو وحفصٌ وهشام شُيوخاً بضمِّ الشينِ. وقُرِىءَ شيخاً كقوله طفلاً. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ الشيخوخةِ أو بلوغِ الأشُدِّ. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ ويفعلُ ذلك لتبلُغوا: ﴿ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو وقتُ الموتِ أو يومُ القيامةِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من الحججِ والعِبَرِ.

(٦٨) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ فإذا أرادَهُ. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاجُ في تكوينه إلى عدَّةٍ وتجشُّمِ كُلْفةٍ، والفاءُ الأولى للدلالةِ على أنَّ ذلك نتيجةُ ما سبقَ مِنْ حيثُ إنه يقتضي قدرةً ذاتيةً غيرَ متوقِّفةٍ على العُددِ والموادِّ.

(٦٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ عَن التصديقِ به، وتكريرُ ذمِّ المجادَلَةِ لتعدُّدِ المجادِلِ أو المجادَلِ فيه أو للتأكيدِ.

(٧٠) ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ بالقرآنِ أو بجِنسِ الكُتبِ السماويةِ. ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من سائرِ الكتبِ أو الوحْي والشرائعِ. ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاءَ تكذيبِهم.

(٧١) ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ﴾ ظرفٌ ليعلمون إذِ المعنَى على الاستقبالِ، والتعبيرُ بلفظِ المضيِّ لِتيقُّنِه. ﴿ وَٱلسَّلَـٰسِلُ﴾ عطفٌ على الأغلالِ أو مبتدأٌ خبرهُ. ﴿ يُسْحَبُونَ﴾.

فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ
عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى
ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا
يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾

(٧٢) ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾ والعائدُ محذوفٌ أي يُسْحَبُونَ بها، وهو على الأوَّلِ حالٌ. وقُرِىءَ والسلاسلَ يَسْحَبُونَ بالنصبِ وفتحِ الياءِ على تقديمِ المفعولِ وعطْفِ الفعليةِ على الاسميةِ، والسلاسلِ بالجرِّ حملاً على المعنَى إذِ الإغلالُ في أعناقِهم بمعنى أعناقُهم في الأغلالِ؛ أو إضماراً للباءِ ويدلُّ عليه القراءةُ به. ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ يُحرَقُونَ من سَجَرَ التنورَ إذا ملأهُ بالوَقُودِ، ومنه السجيرُ للصديقِ كأنه سُجِرَ بالحبِّ أي مُلِىءَ. والمراد أنهم يُعَذَّبونَ بأنواعٍ من العذابِ ويُنَقَّلُونَ من بعضِها إلى بعضٍ.

(٧٣) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾.

(٧٤) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عنَّا وذلك قبلَ أنْ تُقرَنَ بهم آلهتُهم، أو ضاعوا عنَّا فلم نجدْ ما كنَّا نتوقَّعُ منهم[1]. ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي بلْ تبيَّنَ لنا لم نكنْ نعبدُ شيئاً بعبادتِهم فإنَّهم ليسُوا شيئاً يُعتَدُّ به كقولك: حسبتُه شيئاً فلم يكنْ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الضلالِ. ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حتى لا يهتدُوا إلى شيءٍ ينفعُهم في الآخرةِ، أو يضلُّهم عن آلهتِهم حتى لو تطالبُوا لم يتصادفُوا.

(٧٥) ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلالُ[2]. ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تَبطَرُونَ وتتكبَّرونَ. ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو الشركُ والطغيانُ. ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ تتوسَّعون في الفرحِ، والعدولُ إلى الخطابِ للمبالغةِ في التوبيخِ.

(٧٦) ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأبوابَ السبعةَ المقسومةَ لكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ مقدَّرين الخلودَ. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحقِّ جهنَّمُ، وكان مُقتَضَى النَّظْمِ فَبِئْسَ مدخلُ المتكبرينَ ولكنْ لما كان الدخولُ المقيَّدُ بالخلودِ بسببِ الثواءِ عَبَّرَ بالمثْوى.

(٧٧) ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بهلاكِ الكافرينَ. ﴿حَقّٞۚ﴾ كائنٌ لا محالةَ. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فإنْ نُرِكَ، وما مزيدةٌ لتأكيد الشرطيةِ ولذلك لحقتِ النونُ الفعلَ ولا تلحقُ مع أنْ وحدَها. ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ وهو القتلُ والأسرُ. ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ أنْ تراهُ. ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ يومَ القيامة فنجازيهم بأعمالِهم، وهو جوابُ نتوفينَّكَ، وجوابُ نرينَّك محذوفٌ مثلُ فَذَاكَ، ويجوزُ أنْ يكونَ جواباً لهما بمعنى إنْ نعذِّبْهم في حياتك أو لم نعذِّبْهم فإنا نعذِّبُهم في الآخرة أشدَّ العذابِ، ويدلُّ على شِدَّتِهِ الاقتصارُ بِذِكْرِ الرجوعِ في هذا المعرِضِ.

---

(١) وصيغة الماضي في «ضلوا» للدلالة على تحقق وقوع الفعل (س٧/ ٢٨٥).

(٢) والالتفات «ذلكم» إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ (س٧/ ٢٨٥).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ
أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي
صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إذ قيل عددُ الأنبياء مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً[١]، والمذكورُ قِصَصُهم أشخاصٌ معدودةٌ. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنَّ المعجزاتِ عطايا قَسَمَهَا بينَهم على ما اقتضتْه حِكْمَتُهُ كسائرِ القِسَمِ، ليس لهم اختيارٌ في إيثارِ بعضِها والاستبدادِ بإتيانِ المقترحِ بها. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالعذابِ في الدنيا أو الآخرة. ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ بإنجاءِ المحقِّ وتعذيبِ المبطِلِ. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون باقتراحِ الآياتِ بعد ظهور ما يغنيهم عنها.

(٧٩) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنَّ مِنْ جِنْسِها ما يُؤْكَلُ كالغنمِ ومنها ما يؤكلُ ويُرْكَبُ كالإبلِ والبقرِ.

(٨٠) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كالألبان والجلود والأوبار. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرَةِ عليها. ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البرِّ. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر. ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما قال وعلى الفلكِ ولم يقلْ في الفلكِ للمزاوجةِ، وتغييرُ النَّظْمِ في الأكْلِ لأنه في حيِّز الضرورة. وقيل لأنه يُقصَدُ به التعيُّشُ ـ وهو من الضرورياتِ ـ والتلذُّذُ، والركوبُ والمسافرةُ عليها قد تكون لأغراضٍ دينية واجبةٍ أو مندوبةٍ، أو للفرقِ بينَ العينِ والمنفعةِ.

(٨١) ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلائلَه الدالةَ على كمالِ قدرته وفرْطِ رحمتِه. ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي فأيَّ آيةٍ من تلكَ الآياتِ[٢]. ﴿تُنكِرُونَ﴾ فإنها لظهورِها لا تقبلُ الإنكارَ، وهو ناصبُ أيَّ إذ لو قدَّرتَهُ متعلِّقاً بضميرِه كان الأَوْلى رفعُه، والتفرقةُ بالتاءِ في أيِّ أغربُ منها في الأسماءِ غيرِ الصفاتِ لإبهامِه.

(٨٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ما بقيَ منهم من القصور والمصانعِ ونحوِهما. وقيل آثارُ أقدامِهم في الأرضِ لِعِظَمِ أجرامِهم. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ما الأولى نافيةٌ أوِ استفهاميةٌ منصوبةٌ بأغْنَى، والثانيةُ موصولةٌ أو مصدريةٌ مرفوعةٌ به.

---

(١) انظر «جامع البيان» (١٢/ج٢٤/ ٨٦ ـ ٨٧).
«وروح المعاني» (٢٤/ ٨٨).

(٢) وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل إنكارها (س٧/ ٢٨٦).

فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

(٨٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات أو الآياتِ الواضحات. ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ واستحقروا عِلْمَ الرُّسلِ. والمرادُ بالعلمِ عقائِدُهم الزائغةُ وشُبَهُهُمُ الداحضةُ كقوله ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[1] وهو قولُهم: لا نُبْعَثُ ولا نعذَّبُ؛ وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ونحوُها؛ وسمَّاها علماً على زعْمِهم تهكُّماً بهم، أو عِلْمَ الطبائع والتنجيمِ والصنائعِ ونحوِ ذلك، أو علمَ الأنبياءِ؛ وفرحُهم به ضَحِكُهم منه واستهزاؤُهم به؛ ويؤيدُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ وقيل الفرحُ أيضاً للرسلِ فإنهم لما رأوا تمادي جهلِ الكفارِ وسوءَ عاقِبَتِهم فرِحوا بما أُوْتُوا من العلمِ وشكروا اللهَ عليه وحاقَ بالكافرين جزاءُ جهلِهم واستهزائِهم.

(٨٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ شِدَّةَ عذابِنا. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ يعنُونَ الأصنامَ.

(٨٥) ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ لامتناعِ قبولِه حينئذ ولذلك قال ﴿لم يك﴾ بمعنَى لم يصحَّ ولم يستقمْ، والفاءُ الأولى لأنَّ قولَه ﴿فما أغنَى﴾ كالنتيجة لقوله ﴿كانوا أكثر منهم﴾، والثانيةُ لأنَّ قولَه ﴿فلما جاءتهم رسلهم﴾ كالتفسير لقوله ﴿فما أغنى﴾ والباقيتانِ لأنَّ رؤيةَ البأسِ مسبَّبَةٌ عن مجيءِ الرسلِ، وامتناعُ نفي الإيمانِ مسبَّبٌ عن الرؤية. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ أي سنَّ اللهُ ذلك سنةً ماضيةً في العبادِ وهي من المصادرِ المؤكِّدةِ. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي وقتَ رؤْيَتِهم البأسَ، اسمُ مكانٍ اسْتُعِيْرَ للزمان. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأَ سورةَ المؤمنِ لم يبقَ روحُ نبيٍّ ولا صِدِّيقٍ ولا شهيدٍ ولا مؤمنٍ إلا صلَّى عليه واستغفرَ له»[2].

☆ ☆ ☆

(١) النمل: «٦٦».

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٥ رقم ٣٤٥) وهو حديث موضوع، تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ فُصِّلَتْ

ترتيبها ٤١ — آياتها ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

سورة فصِّلتْ مكِّيةٌ[1] وآيُها ثلاثٌ أو أربعٌ وخمسون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾ إنْ جعلْتَهُ مبتدأً فخبرهُ.

(٢) ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإنْ جعلْتَه تعديداً للحروفِ فتنزيلٌ خبرٌ محذوفٌ أو مبتدأٌ لتخصُّصِه بالصِّفَةِ وخبرهُ:

(٣) ﴿كِتَٰبٌ﴾ وهو على الأوَّلين بدلٌ منه أو خبرٌ آخرُ أو خبرٌ محذوفٌ، ولعلَّ افتتاحَ هذه السُّورِ السَّبْعِ بحم وتسميتَها به لكونها مصدَّرةً ببيانِ الكتابِ متشاكِلَةً في النَّظْمِ والمعنَى، وإضافةُ التنزيلِ إلى الرحمنِ الرحيم للدلالةِ على أنه مَناطُ المصالحِ الدينية والدنيويةِ. ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُيِّزَتْ باعتبارِ اللفظِ والمعنى. وقُرِىءَ فُصِلَتْ أي فُصِل بعضُها من بعض باختلاف الفواصلِ والمعاني، أو فَصَلَتْ بينَ الحقِّ والباطل. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نُصِبَ على المدحِ أو الحالِ من فُصِّلَتْ، وفيه امتنانٌ بسهولةِ قراءتِه وفهْمِه.

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت (حم) السجدة بمكة، وأخرج ابن مردويه عن الزبير ـ رضي الله عنه ـ مثله. انظر: الدر المنثور (٧/٣٠٨).

﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لقوم يعلمونَ العربيةَ أو لأهلِ العلمِ والنظرِ، وهو صفةٌ أخرى لقرآناً أو صلةٌ لتنزيل، أو لفصِّلتْ، والأوَّلُ أولى لوقوعِه بينَ الصِّفاتِ.

(٤) ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ للعاملين به والمخالِفين له، وقُرِئَا بالرفعِ على الصفةِ للكتابِ أو الخبرِ لمحذوفٍ. ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ عن تدبُّره وقبُوْلِه. ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ سماعَ تأمُّلٍ وطاعةٍ.

(٥) ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أغطيةٍ جمعُ كِنانٍ. ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ صَمَمٌ، وأصلُه الثِّقَلُ، وقرىء بالكسْرِ[1]. ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ يمنعُنا عن التواصُلِ، ومن للدلالة على أنَّ الحجابَ مبتدأٌ منهم ومنه بحيثُ استوعَبَ المسافةَ المتوسطةَ ولم يبقَ فراغٌ. وهذه تمثيلاتٌ لِنُبُوِّ قلوبِهم عن إدراكِ ما يدعوهم إليه واعتقادِهم ومجِّ أسماعِهم له، وامتناعِ مواصلتِهم وموافقتِهم للرسولِ ﷺ. ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ على دينِك أو في إبطالِ أمرِنا. ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على دينِنا أو في إبطالِ أمرِكَ.

قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لستُ ملكاً ولا جِنِّياً لا يمكنكُم التلقِّيْ منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبُو عنه العقولُ والأسماعُ، وإنما أدعوكم إلى التوحيدِ والاستقامة في العملِ، وقد يدلُّ عليهما دلائلُ العقلِ وشواهدُ النقلِ. ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فاستقيموا في أفعالِكم متوجِّهين إليه، أو فاستَوُوْا إليه بالتوحيد والإخلاص في العملِ. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ مما أنتم عليه من سوءِ العقيدةِ والعملِ، ثم هدَّدهم على ذلك فقال. ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ من فَرْطِ جهالَتِهم واستخفافِهم باللهِ.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لِبُخلِهم وعدمِ إشفاقِهم على الخلْقِ، وذلك مِنْ أعظمِ الرذائلِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الكفارَ مخاطَبونَ بالفروعِ. وقيل معناه لا يفعلون ما يزكِّي أنفسَهم وهو الإيمانُ والطاعةُ. ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ حالٌ مشعرةٌ بأنَّ امتناعَهم عن الزكاةِ لاستغراقِهم في طلب الدنيا وإنكارِهم للآخرةِ.

(٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ﴾ عظيمٌ. ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ لا يَمُنُّ به عليهم من المنِّ وأصلُه الثِّقَلُ، أو لا يُقطعُ من مَنَنْتُ الحبلَ إذا قطعتُه. وقيل نزلتْ في المرضى والهرْمَى إذا عجَزُوا عن الطاعةِ كُتِبَ لهم الأجرُ كأصلحِ ما كانوا يعملونَ.

(٩) ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ في مقدارِ يومينِ، أو نوبتينِ وخَلَقَ في كلِّ نوبةٍ ما خلقَ في أسرعِ ما يكونُ. ولعلَّ المرادَ من الأرض ما في جهةِ السُّفْلِ من الأجرامِ البسيطةِ ومَنْ خلقَها في يومين أنه خلَقَ لها أصلاً مشتركاً ثم خلَقَ لها صُوَراً بها صارتْ أنواعاً، وكفرُهم به إلحادُهم في ذاتِه

(١) أي بكسر الواو في «وقر».

وصفاتِه[(١)]. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ ولا يصحُ أنْ يكونَ له نِدٌّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلقَ الأرضَ في يومينِ. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالقُ جميعِ ما وُجِدَ من الممكِنَاتِ ومربِّيها.

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ استئنافٌ غيرُ معطوفٍ على خلَقَ للفصلِ بما هو خارجٌ عن الصِّلةِ. ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ مرتفعةً عليها ليظهرَ للنُّظَّارِ ما فيها من وجوهِ الاستبصارِ وتكونُ منافِعُها معرَّضَةً للطُّلابِ. ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ وأكْثَرَ خَيْرَهَا بأنْ خلقَ فيها أنواعَ النباتِ والحيوانِ. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أقواتَ أهلِها بأنْ عيَّنَ لكلِّ نوعٍ ما يصلِحُه ويعيشُ به، أو أقواتاً تنشأُ منها بأنْ خصَّ حدوثَ كلِّ قوتٍ بقطرٍ من أقطارِها، وقُرِىءَ وقسَّمَ فيها أقواتَها. ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تتمةِ أربعةِ أيام كقولك: سرتُ من البصرةِ إلى بغدادَ في عشرةِ أيام، وإلى الكوفةِ في خمسةَ عشرَ يوماً. ولعلَّه قال ذلك ولم يقلْ في يومينِ للإشعارِ باتصالهما باليومينِ الأوَّلين والتصريح على الفذلَكةِ. ﴿سَوَآءً﴾ أي استوتْ سواءً بمعنى استواءٍ، والجملةُ صفةُ أيامٍ ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ بالجرِّ. وقيلَ حالٌ من الضمير في أقواتِها أو في فيها، وقرىء بالرفع على هي سواءٌ. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرهُ هذا الحصْرُ للسائلينَ عن مدَّةِ خلْقِ الأرضِ وما فيها، أو بقدر أي قدَّرَ فيها الأقواتَ للطالبينَ لها[(٢)].

(١١) ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قصدَ نحوَها من قولِهم استوى إلى مكانِ كذا إذا توجَّه إليه توجُّهاً لا يلوي على غيرِه، والظاهرُ أنَّ ثُمَّ لتفاوُتِ ما بينَ الخَلْقَتينِ لا للتراخي في المدَّةِ لقوله ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[(٣)] ودحْوُها متقدِّمٌ على خلْقِ الجبالِ من فوقِها. ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أمرٌ ظلمانيٌّ، ولعلَّه أرادَ به مادَّتَها أوِ الأجزاءَ المتصغِّرةَ التي رُكِّبَتْ منها. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ بما خلقْتُ فيكما من التأثيرِ والتأثُّرِ وأَبْرِزَا ما أودعتُكُما من الأوضاعِ المختلفةِ والكائناتِ المتنوعةِ، أوِ ائْتِيَا في الوجودِ على أنَّ الخلْقَ السابقَ بمعنى التقديرِ أو الترتيبِ للرتبةِ أو الإخبارِ، أو إتيانُ السماءِ حدوثُها وإتيانُ الأرضِ أنْ تصيرَ مدحوَّةً وقد عرفتَ ما فيه، أو لِتَأْتِ كلٌّ منكما الأخرى في حدوثِ ما أُرِيدَ توليدُه منكما ويؤيدُه قراءةُ وآتِيا من المؤاتاةِ أي لِتوافِقَ كلُّ واحدةٍ أختَها فيما أردْتُ منكما. ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ شئتُما ذلك أو أبيتُما، والمرادُ إظهارُ كمالِ قدرته ووجوبُ وقوعِ مُرادِه لا إثباتُ الطوعِ والكُرهِ لهما، وهما مصدرانِ وقعا موقعَ الحالِ. ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ منقادينَ بالذاتِ، والأظهرُ أنَّ المرادَ تصويرُ تأثيرِ قدرته فيهما وتأثُّرِهُما بالذاتِ عنها، وتمثيلُهما بأمرِ المطاعِ وإجابةِ المطيعِ الطائعِ كقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[(٤)] وما قيل من أنه تعالى

---

(١) في قوله: «أئنكم لتكفرون» أتىٰ بإن واللام إما لتأكيد الإنكار، أو للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد (س٨/ ٤).

(٢) ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها لبيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادي عيشهم قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان (س٨/ ٥).

(٣) النازعات: «٣٠».

(٤) البقرة: «١١٧».

خاطَبَهُما وأَقْدَرَهُما على الجواب إنما يُتصوَّرُ على الوجْهِ الأولِ والأخيرِ، وإنما قال طائعينَ على المعنى باعتبارِ كونهما مخاطَبَيْنِ كقوله ﴿ سَٰجِدِينَ ﴾[1] .

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ فخلقهنَّ خلْقاً إبداعياً وأتقنَ أمرهنَّ، والضميرُ للسماءِ على المعنَى أو مبهمٌ، وسبعَ سمواتٍ حالٌ على الأول وتمييزٌ على الثاني. ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ قيلَ خلْقِ السمواتِ يومَ الخميس والشمسَ والقمرَ والنجومَ يومَ الجمعةِ. ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ شأنَها وما يتأتَّى منها بأنْ حَمَلَها عليه اختياراً أو طبعاً. وقيل أوحى إلى أهلِها بأوامرِه ونواهيه. ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ فإنَّ الكواكبَ كلَّها تُرَى كأنَّها تتلألأُ عليها. ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أي وحفظْنَاها من الآفات، أو من المسترِقةِ حفظاً. وقيل مفعولٌ له على المعنى كأنه قال: وخصَصْنا السماءَ الدنيا بمصابيحَ زينةً وحفظاً. ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ البالغُ في القُدْرَةِ والعِلْمِ.

(١٣) ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ ﴾ عن الإيمان بعدَ هذا البيانِ. ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ﴾ فحذِّرهم أنْ يصيبَهُم عذابٌ شديدُ الوقْعِ كأنه صاعقةٌ. ﴿ مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وقُرِىءَ صعقةً مثلَ صعقةِ عادٍ وثمودَ وهي المرَّةُ من الصَّعْقِ أو الصَّعِقِ يُقَالُ صعَقَتْهُ الصاعقةُ صعقاً فَصَعِقَ صعْقاً.

(١٤) ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ ﴾ حالٌ من صاعقةِ عادٍ، ولا يجوزُ جعْلُه صفةً لصاعقةٍ أو ظرفاً لأَنْذَرْتُكُم لفسادِ المعنى. ﴿ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أتَوْهُم من جميعِ جوانبِهِم واجتهدوا بهم من كلِّ جهةٍ، أو من جهةِ الزَّمَنِ الماضي بالإنذارِ عما جَرَى فيه على الكفَّارِ، ومن جهةِ المستقبلِ بالتحذير عما أعدَّ لهم في الآخرة، وكلٌّ من اللفظين يحتملُهما، أو مِنْ قبلهم ومن بعدِهم إذْ قد بلَّغتهم خبرَ المتقدِّمين، وأخبرهُم هودٌ وصالحٌ عن المتأخرينَ داعينَ إلى الإيمان بهم أجمعينَ، ويُحْتَملُ أنْ يكونَ عبارةً عن الكثرةِ كقوله تعالى ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾[2] . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ بأنْ لا تعبدُوا أو أي لا تعبدُوا. ﴿ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا ﴾ إرسالَ الرُّسلِ. ﴿ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ برسالتِه. ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ على زعْمِكُم. ﴿ كَٰفِرُونَ ﴾ إذ أنتم بشرٌ مثلُنا لا فضلَ لَكُمْ علينا.

(١٥) ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ فتعظَّموا فيها على أهلها من غير استحقاقٍ. ﴿ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتراراً بقوَّتِهم وشوْكَتِهم. قيل كان مِنْ قوَّتهم أنَّ الرجلَ منهم ينزعُ الصخرةَ فيقتلِعُها

(١) يوسف: «٤».

(٢) النحل: «١١٢».

بيده. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً فإنه قادرٌ بالذاتِ مقتدِرٌ على ما لا يتناهَى، قويٌّ على ما لا يقدِرُ عليه أحدٌ غيرهُ. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعرفُون أنَّها حقٌّ وينكرونَها وهو عطفٌ على فاستكبروا.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ
أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بادرةً تُهلِكُ بشدةِ بَرْدِها من الصرِّ وهو البردُ الذي يُصَرُّ أي يُجْمَعُ، أو شديدةَ الصوتِ في هبوبها من الصرير. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ جمعُ نحسةٍ من نَحِسَ نحساً نقيضُ سَعِدَ سَعْداً، وقرأ الحجازيانِ والبصريانِ بالسكونِ على التخفيفِ أو النعتِ على فعلٍ[1]، أو الوصفِ بالمصدرِ، قيل كُنَّ آخِرَ شوالَ من الأربعاءِ إلى الأربعاءِ، وما عذِّبَ قومٌ إلا في يوم الأربعاء. ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أضافَ العذابَ إلى الخزي وهو الذلُّ على قصْدِ وصْفِه به لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الأصلِ صفةُ المعذَّبِ وإنما وُصِفَ به العذابُ على الإسنادِ المجازي للمبالغةِ. ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفْعِ العذابِ عنهم.

(١٧) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فدلَلْناهم على الحقِّ بِنَصْبِ الحججِ وإرسالِ الرُّسلِ. وقرىء ثمودَ بالنصبِ بفعلٍ مضمَرٍ يفسِّره ما بعدَه، ومنوَّناً في الحالين، وبضمِّ الثاءِ. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الضلالةَ على الهدى. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ صاعقةٌ من السماءِ فأهلكتْهم، وإضافتُها إلى العذابِ ووصفُه بالهونِ للمبالغة. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالةِ.

(١٨) ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ من تلك الصاعقةِ.

(١٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وقُرِىءَ يَحْشُرُ على البناء للفاعلِ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ. وقرأ نافعٌ نَحْشُرُ بالنونِ مفتوحةً وضمِّ الشينِ ونصبِ أعداءَ[2]. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحْبَسُ أوَّلُهم على آخرِهم لئلاَّ يتفرَّقوا وهو عبارةٌ عن كثرةِ أهلِ النارِ.

(٢٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ إذا حضَرُوها، وما مزيدةٌ لتأكيدِ اتصالِ الشهادةِ بالحضورِ. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بأنْ يُنْطِقَها اللهُ تعالى، أو يُظْهِرَ عليها آثاراً تدلُّ على ما اقْتُرِفَ بها فتنطقُ بلسانِ الحالِ.

---

(١) فائدة وجه السكون في نخسات كونها وصفاً، فإن الاسم إذا كان وصفاً يسكن جمعه المؤنث، ويحرّك إذا لم يكن يكن كذلك، لذلك تقول في جمع ضربة ضرَبات وغرفة غرُفات، وتقول في ضخمة ضخْمات وخذله خدلات بالسكون لأنها وصف، والخدلة هي الممتلئة لحماً، توصف بها المرأة.

(٢) والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب.
والتعبير عن الحشر بأنه إلى النار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم أو لأن حسابهم يكون على شفيرها (س٨/ ٩).

وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ
لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾
فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ
لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ
كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ سؤالُ توبيخٍ أو تعجُّبٍ، ولعلَّ المرادَ به نفسُ التعجُّبِ. ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي ما نطقْنا باختيارِنا بلْ أنطقنا اللهُ الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ، أو ليس نطقنا بعجبٍ من قدرةِ اللهِ الذي أنطقَ كلَّ حيٍّ، ولو أُوِّلَ الجوابُ والنطقُ بدلالةِ الحالِ بقيَ الشيءُ عاماً في الموجوداتِ الممكنةِ. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ تمامَ كلامِ الجلودِ وأن يكونَ استئنافاً.

(٢٢) ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي كنتُم تستترونَ عن الناس عندَ ارتكابِ الفواحشِ مخافةَ الفضاحةِ، وما ظننتُم أنَّ أعضاءَكم تشهدُ عليكم بها فما استترتُم عنها. وفيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمنَ ينبغي أنْ يتحقَّقَ أنه لا يمرُّ عليه حالٌ إلا وهو عليه رقيبٌ. ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك أجترأتُم على ما فعلتُم.

(٢٣) ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ظنِّهم هذا، وهو مبتدأٌ وقولُه: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبرانِ له ويجوزُ أنْ يكونَ ظنُّكم بدلاً وأرْدَاكُم خبراً. ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إذْ صارَ ما مُنِحُوا للاستعدادِ به في الدَّارينِ سبباً لشقاءِ المنزلَيْن.

(٢٤) ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ لا خلاصَ لهم عنها[١]. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يَسْأَلُوا العُتْبَى وهي الرجوعُ إلى ما يُحبُّونَ. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المجابِيْنَ إليها ونظيرُه قولُه تعالى حكايةً ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[٢] وقُرِىءَ وأنْ يُسْتَعْتَبُوا فما هم من المعتبينَ، أي إنْ يُسْأَلُوا أنْ يُرْضُوا ربَّهم فما هم فاعلونَ لفواتِ المُكْنَةِ.

(٢٥) ﴿۞ وَقَيَّضْنَا﴾ وقدَّرنا. ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة. ﴿قُرَنَآءَ﴾ أخداناً من الشياطين يستولُون عليهم استيلاءَ القيضِ على البيضِ وهو القشرُ. وقيل أصلُ القيضِ البدلُ ومنه المقايضةُ للمعاوضةِ. ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمرِ الدنيا واتباعِ الشهواتِ. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ أمرِ الآخرةِ وإنكارِه. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي كلمةُ العذابِ. ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ في جملةِ أممٍ كقوله:

---

(١) والالتفات إلى الغيبة «يصبروا...» للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويُحكىٰ سوء حالهم لغيرهم، أو للإشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب وإلقائهم في غاية دركات النار (س٨/ ١١).

(٢) إبراهيم: «٢١».

إنْ تَـكُ عَـنْ أَحْسَـنِ الصَّنِيعَـةِ مَـأْ ... فـوكـاً فَفِـي آخَـرِيـنَ قَـدْ أُفِكُـوا

وهو حالٌ من الضمير المجرورِ. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وقد عمِلُوا مثلَ أعمالِهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم العذابَ، والضميرُ لهم وللأُمم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ وعارِضُوه بالخرافاتِ أوِ ارفعُوا أصواتَكُم بها لتشوِّشوهُ على القارىءِ، وقُرِىءَ بضمِّ الغينِ والمعنَى واحدٌ يُقَالُ لَغَى يلغي ولَغَا يلغُو إذا هَذَى. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونَه على قراءته.

(٢٧) ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ المرادُ بهم هؤلاء القائلونَ، أو عامةُ الكفار. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ سيئاتِ أعمالِهم وقد سبقَ مثلُه.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الأسوأ. ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ خبرُه. ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطفُ بيانٍ للجزاءِ أو خبرٌ محذوفٌ. ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في النار. ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ فإنَّها دارُ إقامتِهم، وهو كقولِكَ: في هذه الدارِ دارُ سرورٍ، وتعني بالدارِ عينَها على أنَّ المقصودَ هو الصفةُ. ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ينكِرونَ الحقَّ أو يلْغُونَ، وذَكَرَ الجحودَ الذي هو سببُ اللغوِ.

(٢٩) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني شيطاني النوعينِ الحامِلَيْنِ على الضلالةِ والعصيانِ. وقيل هما إبليسُ وقابيلُ فإنهما سنَّا الكفرَ والقتْلَ، وقرأ ابنُ كثير وابنُ عامر ويعقوبُ وأبو بكر والسوسيّ أرْنا بالتخفيفِ كفَخْذٍ في فَخِذَ، وقرأ الدوري باختلاسِ كسرة الراءِ. ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسُهُما انتقاماً منهما، وقيل نجعلُهما في الدركِ الأسفلِ. ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ مكاناً أو ذُلاً.

(٣٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيّته وإقراراً بوحدانيّته. ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ في العمل وثمَّ لتراخيه عن الإقرارِ في الرتبةِ من حيثُ إنه مبدأُ الاستقامةِ، أو لأنها عسرٌ قلّما تتبعُ الإقرارَ، وما رُويَ عن الخلفاءِ الراشدين[1] في معنى الاستقامةِ من الثباتِ على الإيمانِ وإخلاصِ العمل وأداءِ الفرائضِ فجزئياتُها. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيما يعنُّ لهم بما يشرحُ صدورَهم ويدفعُ عنهم الخوفَ والحزْنَ، أو عندَ الموت أو الخروجِ من القبرِ. ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تقدِمُون عليه. ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلّفتم، وأنْ مصدريةٌ أو مخفّفةٌ مقدَّرةٌ بالباء أو مفسِّرة. ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسلِ.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» للبغوي (٧/ ١٧٢).

نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا
تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي
مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ
عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا
يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

(٣١) ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ نلهمكُمُ الحقَّ ونَحمِلُكُم على الخير بدلَ ما كانتِ الشياطينُ تفعلُ بالكفرةِ. ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ بالشفاعةِ والكرامةِ حيثُما يتعادى الكفرةُ وقُرَنَاؤُهم. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا﴾ في الآخرة. ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ من اللذائذِ. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[١] ما تتمنَّونَ من الدعاءِ بمعنى الطلبِ وهو أعمُّ من الأولِ.

(٣٢) ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ حالٌ من ما تدعونَ للإشعارِ بأنَّ ما يتمنَّونَ بالنسبة إلى ما يُعْطَوْنَ مما لا يخطرُ ببالِهم كالنُّزُلِ للضيفِ.

(٣٣) ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى عبادته. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فيما بينَه وبينَ ربِّه. ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ تفاخراً به واتخاذاً للإسلامِ ديناً ومذهباً من قولهم: هذا قولُ فلانٍ لمذهبِه. والآيةُ عامةٌ لمنِ استجمعَ تلك الصفاتِ. وقيل نزلتْ في النبيِّ ﷺ[٢]، وقيل في المؤذِّنينَ[٣].

(٣٤) ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ في الجزاءِ وحُسْنِ العاقبةِ ولا الثانيةُ مزيدةٌ لتأكيدِ النَّفْيِ. ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ادفعِ السيئةَ حيثُ اعترضتْكَ بالتي هي أحسنُ منها وهي الحسنةُ على أنَّ المرادَ بالأحسنِ الزائدُ مطلقاً، أو بأحسنِ ما يمكن دفعُها به من الحسناتِ، وإنما أخرجَه مخرجَ الاستئنافِ على أنه جوابُ مَنْ قال: كيفَ أصنعُ؟ للمبالغةِ ولذلك وضعَ أحسنَ موضعَ الحسنةِ. ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ أي إذا فعلْتَ ذلك صارَ عدوُّك المشاقُّ مثل الوليِّ الشفيقِ.

(٣٥) ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ وما يُلَقَّى هذه السجيةَ وهي مقابلتُه الإساءةَ بالإحسانِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ فإنها تحبسُ النفسَ عن الانتقام. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ من الخير وكمالِ النفس وقيل الحظُّ الجنةُ.

(٣٦) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ نخسٌ، شبّه به وسْوَسَتَهُ لأنها تبعثُ الإنسانَ على ما لا ينبغي كالدفعِ بما هو أسوأُ، وجَعَلَ النزغَ نازغاً على طريقةِ جديدةٍ؛ أو أُرِيدَ به نازغٌ وصفاً للشيطان بالمصدرِ. ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ من شرِّه ولا تطِعْه. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتِك. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بنيّتِكَ أو بصلاحِك.

---

(١) وعدم الاكتفاء بعطف «ما تدعون» على «ما تشتهي» للإشباع في البشارة والإيذان باستقلال كلٍّ منهما (س٨/ ١٣).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٧/ ٣٢٥ لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٧/ ٣٢٥ لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه من وجه عن عائشة رضي الله عنها.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى
خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ
ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ
فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ
لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾
مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

(٣٧) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنَّهما مخلوقانِ مأمورانِ مثلُكم. ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضميرُ للأربعةِ المذكورةِ، والمقصودُ تعليقُ الفعلِ بهما إشعاراً بأنَّهما من عِدادِ ما لا يَعْلَمُ ولا يَخْتارُ. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإنَّ السجودَ أخصُّ العباداتِ وهو موضِعُ السجود عندَنا لاقترانِ الأمرِ به، وعند أبي حنيفةَ آخِرَ الآيةِ الأخرى لأنه تمامُ المعنَى.

(٣٨) ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الامتثال. ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكةِ. ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي دائماً لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ أي لا يملُّون.

(٣٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسةً متطامِنةً مستعارٌ من الخشوعِ بمعنى التذلُّلِ. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تزخرفتْ وانتفختْ بالنباتِ، وقُرِىءَ ربأَتْ أي زادتْ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بعد موتِها. ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياءِ والإماتةِ.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلونَ إلى الاستقامةِ. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالطعنِ والتحريفِ والتأويلِ الباطلِ والإلغاءِ فيها. ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فنجازيهم على إلحادِهم. ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قابَلَ الإلقاءَ في النارِ بالإتيانِ آمِناً مبالغةً في إحمادِ حالِ المؤمنين. ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ تهديدٌ شديدٌ. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ بالمجازاةِ.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بدلٌ من قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾[1] أو مستأنفٌ، وخبرُ إنَّ محذوفٌ مثلُ معاندونَ أو هالكونَ أو أولئك ينادَوْن، والذِّكرُ القرآنُ. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ كثيرُ النفعِ عديمُ النظيرِ أو منيعٌ لا يتأتَّى إبطالُه وتحريفُه.

(٤٢) ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يتطرَّقُ إليه الباطلُ من جهةٍ من الجهاتِ أو مما فيه من الأخبارِ الماضيةِ والأمورِ الآتيةِ. ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ أي حكيم. ﴿حَمِيدٍ﴾ يحمدُه كلُّ مخلوقٍ بما ظهرَ عليه من نِعَمِه.

(٤٣) ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي ما يقولُ لك كفارُ قومِك. ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ إلا مثلَ ما قالَ لهم

---

(١) فصلت: «٤٠».

كفارُ قومِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى ما يقولُ اللهُ لك إلا مثلَ ما قال لهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائِه. ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائِهم، وهو على الثاني يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المقولُ بمعنى أنَّ حاصلَ ما أُوحِيَ إليك وإليهم وَعْدُ المؤمنين بالمغفرة والكافرينَ بالعقوبة.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ
مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ
ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ
شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ جوابُ لقولهم: هلاَّ أُنْزِلَ القرآنُ بلغةِ العجمِ، والضميرُ للذِّكْرِ. ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بُيِّنَتْ بلسانٍ نفقهُهُ. ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أكلامٌ أعجميٌّ ومخاطبٌ عربيٌّ، إنكارٌ مقرِّرٌ للتخصيصِ. والأعجميُّ يُقَالُ للذي لا يُفْهَمُ كلامُه. وهذا قراءةُ أبي بكر وحمزةَ والكسائيِّ، وقرأ قالون وأبو عمرٍو بالمدِّ والتسهيلِ وورشٌ بالمدِّ وإبدالِ الثانية ألفاً، وابنُ كثير وابنُ ذكوان وحفصٌ بغير المدِّ بتسهيلِ الثانية، وقُرِئَ أعجميٌّ وهو منسوبٌ إلى العجمِ، وقرأ هشام أعجميٌّ على الإخبارِ. وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ هلاَّ فصِّلَتْ آياتُه فجُعِلَ بعضُها أعجمياً لإفهامِ العجمِ وبعضُها عربياً لإفهام العربِ، والمقصودُ إبطالُ مُقْتَرَحِهم باستلزامِه المحذورَ، أو للدلالةِ على أنهم لا ينفكُّونَ عن التعنُّتِ في الآياتِ كيف جاءت. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ إلى الحقِّ. ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في الصدور من الشكِّ والشُّبَهِ. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأٌ خبرُه. ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ على تقديرِ هو في آذانِهم وقْرٌ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وذلك لتصامِّهم عن سماعِه وتعاميهم عما يريهم من الآياتِ، ومَنْ جوَّزَ العطفَ على عامِلَيْنِ مختلفينِ عطفَ ذلك على للذين آمنوا هدًى. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي صمٌّ، وهو تمثيلٌ لهم في عدمِ قبولِهم الحقَّ واستماعِهم له بِمَنْ يُصَاحُ به من مسافةٍ بعيدة.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كما اخْتُلِفَ في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بالقيامة وفصْلُ الخصومةِ حينئذ، أو تقديرُ الآجال. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالِ المكذِّبين. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإنَّ اليهودَ أوِ الذين لا يؤمنون. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من التوراةِ أوِ القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ موجبٌ للاضطراب.

(٤٦) ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفعُه. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرُّه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيفعلُ بهم ما ليس له أنْ يفعلَه.

(٤٧) ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي إذا سُئِلَ عنها إذ لا يعلمُها إلا هوَ. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ من أوعيتِها جمعُ كُمٍّ بالكسرِ. وقرأ نافع وابنُ عامر وحفصٌ من ثمراتٍ بالجمعِ لاختلافِ

الأنواع، وقُرِىءَ بجمعِ الضميرِ أيضاً. وما نافيةٌ، ومنْ الأوْلَى مزيدةٌ للاستغراقِ، ويُحْتَمَلُ أنْ تكونَ موصولَةً معطوفةً على الساعةِ ومِنْ مبينةٌ بخلاف قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ بمكانٍ. ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إلا مقروناً بعلمِه واقعاً حَسَبَ تعلُّقه به. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ بزعْمِكم. ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمْناكَ. ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ من أحدٍ يشهدُ لهم بالشركةِ إذ تبرَّأنا عنهم لما عاينَّا الحالَ فيكونُ السؤالُ عنهم للتوبيخِ، أو من أحدٍ يشاهدُهم لأنَّهم ضلُّوا عنَّا. وقيل هو قولُ الشركاءِ أي ما منَّا مَنْ يشهدُ لهم بأنَّهم كانوا محقِّين.

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

(٤٨) ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ يعبدُونَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ لا ينفعهُم أو لا يَرَوْنَهُ. ﴿وَظَنُّواْ﴾ وأيقَنُوا. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهربٍ، والظنُّ معلَّقٌ عنه بحرفِ النفي.

(٤٩) ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لا يملُّ. ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ من طلبِ السَّعةِ في النِّعمةِ، وقُرِىءَ من دعاءِ بالخير. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضِّيقةُ. ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ من فضلِ الله ورحمتِه وهذا صفةُ الكافرِ لقوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١) وقد بولِغَ في يأسِه من جهةِ البنيةِ والتكريرِ وما في القنوطِ من ظهورِ أثرِ اليأسِ.

(٥٠) ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بتفريجها عنه. ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ حقِّي أستحقُّه لِمَا لِيَ من الفضلِ والعملِ، أولي دائماً لا يزولُ. ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ تقومُ. ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي ولئنْ قامتْ على التوهُّم كان لي عندَ الله الحالةُ الحسْنَى من الكرامةِ، وذلك لاعتقادِه أنَّ ما أصابه من نِعَمِ الدنيا فلاستحقاقٍ لا ينفكُّ عنه. ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فلنخبرنَّهم ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ بحقيقةِ أعمالِهم ولَنُبَصِّرَنَّهم عكسَ ما اعتقدُوا فيها. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنُهم التقصِّي عنه.

(٥١) ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر. ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وانحرفَ عنه أو ذهبَ بنفسه وتباعدَ عنه بِكُلِّيَّتِهِ تكبُّراً، والجانبُ مجازٌ عن النفسِ كالجنْبِ في قوله ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾(٢). ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثيرٌ، مستعارٌ ممَّا لَهُ عرضٌ متَّسعٌ للإشعارِ بكثرتِه واستمرارِه، وهو أبلغُ من الطويلِ إذ الطولُ أطولُ الامتدادينِ. فإذا كان عرضُه كذلك فما ظنُّك بطولِه.

(٥٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِن كَانَ﴾ أي القرآنُ. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ من غير

---

(١) يوسف: «٨٧».
(٢) الزمر: «٥٦».

نظرٍ واتباعِ دليلٍ. ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي من أضلُّ منكم، فوضَعَ الموصولَ موضِعَ الضميرِ شرْحاً لحالِهم وتعليلاً لمزيدِ ضلالِهم.

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

(٥٣) ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ﴾ يعني ما أخبرهُم النبيُّ عليه الصلاة والسلام به من الحوادثِ الآتية وآثارَ النوازلِ الماضية، وما يسَّر اللهُ له ولخلفائِه من الفتوح والظهورِ على ممالِكِ الشرقِ والغرب على وجْهٍ خارقٍ للعادة. ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما ظهرَ فيما بينَ أهلِ مكَّةَ وما حلَّ بهم، أو ما في بدنِ الإنسان من عجائبِ الصُّنعِ الدالةِ على كمالِ القدرةِ. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ الضميرُ للقرآنِ أو الرسولِ أو التوحيدِ أو اللهِ. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي أو لم يَكفِ ربُّك، والفاءُ مزيدةٌ للتأكيد كأنه قيل: أو لم تحصلِ الكفايةُ به، ولا تكادُ تُزادُ في الفاعلِ إلا مع كفَىٰ. ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدلٌ منه، والمعنى أولم يكْفِك أنه تعالى على كلِّ شيء شهيدٌ محقِّقٌ له فيحقِّقُ أَمْرَكَ بإظهارِ الآياتِ الموعودةِ كما حقَّقَ سائرَ الأشياءِ الموعودةِ، أو مطَّلِعٌ فيعلمُ حالَكَ وحالَهم، أو لم يكفِ الإنسانَ رادعاً عن المعاصي أنه تعالى مطلعٌ على كلِّ شيءٍ لا يَخفَى عليه خافيةٌ.

(٥٤) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شكٌّ، وقرىء بالضمِّ وهو لغةٌ كخُفيةٍ وخِفيَةٍ. ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ﴾ بالبعثِ والجزاءِ. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ عالمٌ بِجُمَلِ الأشياء وتفاصيلِها، مقتدِرٌ عليها لا يفوتُه شيءٌ منها.
عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ السجدةِ أعطاه الله بكلِّ حرفٍ عشْرَ حسناتٍ»[١].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه وتقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

ترتيبها ٤٢ — آياتها ٥٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

سورةُ حمٓ عسقٓ مكّيةٌ[١]، وهي ثلاثٌ وخمسونَ آيةً، وتُسَمَّى سورةَ الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿عٓسٓقٓ﴾ لعلَّه اسمانِ للسورة ولذلك فُصِلَ بينهما وعُدَّا آيتينِ، وإنْ كانا اسماً واحداً فالفصلُ ليطابقَ سائرَ الحواميم، وقرىء حمٓ سقٓ.

(٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي مثلَ ما في هذه السورةِ من المعاني، أو إيحاءً مثلَ إيحائِها أَوْحَى الله إليك وإلى الرُّسلِ من قبلِكَ، وإنما ذُكِرَ بلفظ المضارع على حكايةِ الحالِ الماضية للدلالة على استمرارِ الوحي وأنَّ إيحاءَ مثلِه عادتُه، وقرأ ابنُ كثير يُوْحَىٰ بالفتح على أنَّ كذلك مبتدأٌ ويُوْحَى خبرُه المسندُ إلى ضميرِهِ، أو مصدرٌ ويوحى مسندٌ إلى إليك، واللهُ مرتفعٌ بما دلَّ عليه يوحي، والعزيزُ الحكيمُ صفتانِ له مقرِّرَتَانِ لعلوِّ شأنِ الموحَى به كما مرَّ في السورةِ السابقة، أو بالابتداءِ كما في قراء نوحي بالنونِ، والعزيزُ وما بعدَه أخبارٌ أو العزيزُ الحكيم صفتانِ. وقولُه:

(٤) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ خبرانِ له وعلى الوجوهِ الأُخَرِ استئنافٌ مقرِّرٌ لِعِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ.

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٣٣٥).

(٥) ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقرأ نافعٌ والكسائيُّ بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقَّقْنَ من عظمةِ الله، وقيل من ادِّعاءِ الولدِ له. وقرأ البصريانِ وأبو بكر ينفطِرْنَ بالنونِ والأولُ أبلغُ لأنه مطاوعُ فَطَّرَ وهذا مطاوع فَطِر، وقرىء تتفطَّرنَ بالتاءِ لتأكيد التأنيثِ وهو نادرٌ. ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي يبتدىءُ الانفطارُ من جهتهنَّ الفوقانيةِ، وتخصيصُها على الأولِ لأنَّ أعظمَ الآياتِ وأدلَّها على علوِّ شأنه من تلك الجهةِ، وعلى الثاني ليدلَّ على الانفطارِ من تحتهنَّ بالطريقِ الأَوْلَى. وقيل: الضميرُ للأرضِ فإنَّ المرادَ بها الجنسُ. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتَهم من الشفاعةِ والإلهامِ وإعدادِ الأسبابِ المقرِّبة إلى الطاعةِ، وذلك في الجملةِ يعمُّ المؤمنَ والكافِرَ، بل لو فُسِّرَ الاستغفارُ بالسَّعْي فيما يدفعُ الخلَلَ المتوقَّعَ عمَّ الحيوانَ بلِ الجمادَ. وحيثُ خُصَّ بالمؤمنين فالمرادُ به الشفاعةُ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما مِنْ مخلوقٍ إلا وهو ذو حظ من رحمته. والآيةُ على الأول زيادةُ تقرير لعظمته، وعلى الثاني دلالةٌ على تقدُّسه عما نُسِبَ إليه، وإنَّ عدمَ معاجلَتهم بالعقاب على تلك الكلمةِ الشنعاء باستغفار الملائكة وفَرْطِ غفران الله ورحمته.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

(٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شركاءَ وأنداداً. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمدُ. ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكَّل بهم أو بموكول إليك أمرَهم.

(٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارةُ إلى مصدر يوحي أو إلى معنى الآية المتقدمة، فإنه مكررٌ في القرآن في مواضعَ جمَّةٍ فتكون الكافُ مفعولاً به وقرآناً عربياً حالٌ منه. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهلَ أمِّ القرى وهي مكةُ شرَّفها اللهُ تعالى. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة يُجْمَعُ فيه الخلائقُ أو الأرواح والأشباح، أوِ العمالُ والأعمال، وحذفَ ثاني مفعولي الأولِ وأولَ مفعولي الثاني للتهويل وإبهام التعميم، وقُرِىءَ لينذرَ بالياء والفعلُ للقرآن. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراضٌ لا محلَّ له من الإعراب. ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي بعدَ جمعِهم في الموقفِ يُجْمَعُوْنَ أولاً ثم يفرَّقون، والتقدير منهم فريقٌ، والضمير للمجموعين لدلالةِ الجمْعِ عليه، وقرئا منصوبينِ على الحالِ منهم أي وتنذرَ يومَ جَمْعِهم متفرِّقين بمعنى مشارفين للتفرُّقِ، أو متفرِّقين في دَارَيِ الثوابِ والعقاب.

(٨) ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مهتدين أو ضالِّين. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ بالهداية والحمْل على الطاعة. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي يدعُهم بغير وليٍّ ولا نصيرٍ في عذابه، ولعل تغييرَ المقابلة للمبالغة في الوعيد إذِ الكلامُ في الإنذار[١].

---

(١) أو للإيذان بأن الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالىٰ كما في =

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ
فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ
أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ
مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا
وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ
كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

(٩) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بلِ اتَّخذوا. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ كالأصنام. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوف مثلُ إنْ أرادوا أولياءَ بحقٍّ فالله هو الولي بالحق. ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية.

(١٠) ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾ أنتم والكفارُ. ﴿فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين. ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ مفوَّضٌ إليه يميزُ المحِقَّ من المبطِلِ بالنصر أو بالإثابة والمعاقَبةِ. وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكَم من كتاب الله. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في مجامعِ الأمور. ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ إليه أرجع في المعضلاتِ.

(١١) ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خبرٌ آخرُ لذلكم أو مبتدأٌ خبره: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ وقرىء بالجرِّ على البدلِ من الضمير أو الوصفِ لإلى الله. ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ من جنسِكم. ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ نساء. ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً، أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً. ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ يكثِّركُم من الذَّرْءِ وهو البثُّ وفي معناه الذَرُّ والذَّرْوُ، والضمير على الأول للناس والأنعامِ على تغليب المخاطَبين العقلاءِ. ﴿فِيهِۚ﴾ في هذا التدبيرِ، وهو جعْلُ الناسِ والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالُدٌ فإنه كالمنبعَ للبثِّ والتكثير. ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ أي ليس مثلَه شيءٌ يزاوِجه ويناسبه، والمراد من مثله ذاتُه كما في قولهم: مثلُك لا يفعل كذا، على قصدِ المبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفي عمَّن يناسبه ويسدُّ مسدَّه كان نفيه عنه أولى، ونظيرهُ قول رقيقةَ بنتِ صيفي في سُقيا عبدِالمطلب: ألاَ وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِذَاتِهِ. ومَنْ قال الكافُ فيه زائدةٌ لعله عنى أنه يعطَى معنى ليس مثلَه غيرَ أنه آكدُ لما ذكرناه. وقيل مثلُه صفتُه أي ليس كصفته صفةٌ. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ لكل ما يسمع ويبصرُ.

(١٢) ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ خزائنُها. ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ يوسِّعُ ويضيق على وِفقِ مشيئته. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فيفعله على ما ينبغي.

(١٣) ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ أي شرع لكم من الدين دينَ نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومَنْ بينهما من أرباب الشرائع، وهو الأصل المشتركُ فيما . . . .

= الإدخال في الرحمة (س٨/ ٢٣).

بينهم[1]، المفسَّرُ بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقُه والطاعة في أحكام الله. ومحلُّه النصبُ على البدل من مفعول شرع، أوِ الرفعُ على الاستئنافِ كأنه جوابُ وما ذلك المشروعُ، أوِ الجرُّ على البدلِ من هاءِ به. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصلِ أما فروعُ الشرائع فمختلِفةٌ كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2] ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عظمُ عليهم. ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ يجتلبُ إليه، والضميرُ لما تدعوهم أو للدين. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والتوفيق. ﴿مَن يُنِيبُ﴾ يقبلُ إليه.

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ
أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ
لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(١٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ يعني الأممَ السالفة. وقيل أهلُ الكتاب لقوله ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾[3] ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ العلم بأنَّ التفرُّقَ ضلالٌ متوعَّدٌ عليه، أوِ العلمُ بمبعَثِ الرسلِ عليهم الصلاة والسلام، أو أسبابُ العلم من الرسل والكتبِ وغيرهما فلم يلتفتوا إليها. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً أو طلباً للدنيا. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإمهال. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القيامة أو آخرُ أعمارهم المقدَّرةِ. ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المبطلِينَ حين اقترفوا لعظمِ ما اقترفوا. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني أهلَ الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، أوِ المشركينَ الذين أُورثُوا القرآنَ من بعد أهل الكتاب. وقُرِىءَ ورِثُوا وَوُرِّثُوا. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من كتابِهم لا يعلمونه كما هو أو لا يؤمنون به حقَّ الإيمانِ، أو من القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلِقٍ أو مدخِلٍ في الريبة.

(١٥) ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فَلأَجْلِ ذلك التفرُّقِ أو الكتابِ، أو العلمِ الذي أُوتِيتَهُ. ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتفاقِ على الملَّةِ الحنيفيةِ أو الاتِّباعِ لما أُوتيتَ، وعلى هذا يجوزُ أن تكونَ اللام في موضعِ إلى لإفادة الصلةِ

---

(١) خص الأنبياء المذكورين للتنبيه على علو شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه.
وإيثار الإيحاء «وأوحينا» على ما قبله «شرع...» وما بعده «وصينا» لما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة.
والالتفات إلى نون العظمة «أوحينا...» لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه، وهو السرّ في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً.
وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً.
وتوجيه الخطاب إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام (س٨/ ٢٥).

(٢) المائدة: «٤٨».

(٣) البينة: «٤».

والتعليل. ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ واستقمْ على الدعوةِ كما أمرك الله تعالى. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلةَ. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ يعني جميعَ الكتبِ المنزَّلةِ لا كالكفار الذين آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومات، والأولُ إشارةٌ إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارةٌ إلى كمال القوة العملية. ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالقُ الكلِّ ومتولي أمرِه. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ وكلٌّ مجازَى بعمله. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا حِجاجَ بمعنى لا خصومةَ إذِ الحقُّ قد ظهرَ ولم يبقَ للمحاجَّةِ مجالٌ ولا للخلاف مبدأٌ سوى العناد. ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يومَ القيامة. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجِعُ الكلِّ لفصلِ القضاءِ. وليس في الآية ما يدلُّ على متاركةِ الكفار رأساً حتى تكونَ منسوخةً بآية القتال.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى
ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ في دينه. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعد ما استجابَ له الناسُ ودخلوا فيه، أو من بعد ما استجاب اللهُ لرسوله فأظهر دينَه بنصرِه يومَ بدْرٍ، أو من بعد ما استجابَ له أهلُ الكتاب بأنْ أقرُّوا بنبوَّته واستفتحُوا به. ﴿حُجَّتُهُمْ﴾(١) ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زائلةٌ باطلة. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لمعاندتهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

(١٧) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جنسَ الكتاب. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً بعيداً من الباطلِ، أو بما يحقُّ إنزالُه من العقائد والأحكام. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والشرعَ الذي تُوْزَنُ به الحقوقُ ويسوِّي بين الناس، أوِ العدلَ بأنْ أنزلَ الأمرَ به، أو آلةَ الوزنِ بأن أوحى بإعدادها. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إتيانُها فاتَّبِع الكتابَ واعمَلْ بالشرع وواظبْ على العدل قبل أنْ يفاجِئَك اليومُ الذي تُوْزَنُ فيه أعمالُك وتوفَّى جزاءَك. وقيل تذكير القريبِ لأنه بمعنى ذاتِ قُرْبٍ، أو لأنَّ الساعةَ بمعنى البعثِ.

(١٨) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاءً. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون منها مع اغتيابها لتوقُّع الثواب. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي الكائنُ لا محالةَ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها من المِرْيَةِ، أو من مريتُ الناقةَ إذا مسحتُ ضِرْعَها بشدةٍ للحلبِ لأنَّ كلاًّ من المتجادلَيْنَ يستخرجُ ما عندَ صاحبه بكلام فيه شِدَّةٌ. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ فإنَّ البعثَ أشبهُ الغائباتِ إلى المحسوسات، فمن لم يهتدِ لتجويزه فهو أبعدُ عن الاهتداءِ إلى ما وراءَه.

(١٩) ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ برٌّ بهم بصنوفٍ من البرِّ لا تبلُغُها الأفهامُ. ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يرزقه

---

(١) عبّر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل (س٨/٢٨).

كما يشاء فيخصُّ كلاً من عباده بنوعٍ من البرِّ على ما اقتضتْه حكمتُه. ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ الباهرُ القدرةِ. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيعُ الذي لا يُغلَبُ.

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى
ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ
ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا
كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا
يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ ثوابَها شبَّهه بالزرع من حيثُ إنهُ فائدةٌ تحصل بعملٍ ولذلك قيل: الدنيا مزرعةُ الآخرةِ، والحرثُ في الأصل إلقاء البذْر في الأرض ويُقَالُ للزرع الحاصلِ منه. ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ فنعطِه بالواحدِ عشراً إلى سبعمائة فما فوقَها. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ شيئاً منها على ما قسمْنا له. ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذِ الأعمالُ بالنيات ولكل امرىءٍ ما نوى.

(٢١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ بل أَلَهُمْ شركاءُ، والهمزة للتقرير والتقريعِ، وشركاؤهم شياطينُهم. ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم﴾ بالتزيين. ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعْثِ والعمل للدنيا. وقيل شركاؤهم أوثانُهم وإضافتُها إليهم لأنهم متَّخِذُوها شركاءَ، وإسناد الشرعِ إليها لأنها سببُ ضلالتِهم وافتتانهم بما تديَّنوا به، أو صورُ مَنْ سنَّه لهم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاءِ السابق بتأجيل الجزاءِ، أو العِدَةُ بأنَّ الفصلَ يكون يومَ القيامة. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو المشركين وشركائِهم. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقرىء أنَّ بالفتح عطفاً على كلمة الفصلِ أي ولولا كلمةُ الفصلِ وتقديرُ عذاب الظالمين في الآخرة لقُضِيَ بينهم في الدنيا، فإنَّ العذابَ الأليمَ غالبٌ في عذاب الآخرة.

(٢٢) ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في القيامة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين. ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من السيئات. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي وبالُه لاحقٌ بهم أشفقوا أو لم يُشْفِقُوا. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ في أطيب بِقاعِها وأنزهِهَا. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ما يشتهونه ثابتٌ لهم عند ربِّهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي يصغُر دونه ما لغيرهم في الدنيا.

(٢٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ذلك الثوابُ الذي يبشِّرهم الله به فحذفَ الجارَّ ثم العائدَ، أو ذلك التبشيرُ الذي يبشره اللهُ عبادَه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي يُبْشِر مِنْ بَشَرهُ وقُرِىءَ يُبْشِر من أبشرهُ. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أتعاطاه من التبليغ والبِشارة. ﴿أَجْرًا﴾ نفعاً منكم. ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي تودُّوني لقرابتي منكم. أو تودُّوا قرابتي، وقيل الاستثناء منقطعٌ والمعنى: لا أسألكم أجراً قطُّ، ولكني أسألكم المودةَ، وفي القربى حالٌ منها أي إلا المودةَ ثابتةً في ذوي القربى متمكِّنة في أهلها، أو في حقِّ القرابة ومن أجلها كما جاء في الحديث «الحبُّ في الله

والبغضُ في الله»[١]. رُوِيَ: أنَّها لما نزلت قيل يا رسولَ الله مَنْ قرابتُك هؤلاءِ الذين وجبتْ مودَّتُهم علينا؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وإبناهما»[٢]. وقيل القربى التقرُّبُ إلى الله أي إلا أنْ تَودُّوا الله ورسولَه في تقرُّبكم إليه بالطاعة والعملِ الصالح، وقرىء إلا مودةً في القربى. ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ ومن يكتسبْ طاعةً سيَّما حبُّ آلِ رسولِ الله ﷺ، وقيل نزلتْ في أبي بكر الصدِّيقِ رضي الله تعالى عنه ومودَّته لهم[٣]. ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ في الحسنة بمضاعفة الثواب، وقرىء يُزِدْ أي يزدِ اللهُ وحسنى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنبَ. ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بتوفية الثوابِ والتفضُّلِ عليه بالزيادة.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

(٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون. ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ افترى محمدٌ بدعوى النبوةِ أو القرآن. ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ استبعادٌ للافتراءِ عن مثله بالإشعارِ على أنه إنما يجترىءُ عليه من كان مختوماً على

---

(١) ذكره الديلمي في «الفردوس» رقم (٢٧٨٧) من حديث أنس. وعزاه إليه صاحب كنز العمال رقم (٢٤٦٨٨) بلفظ: «الحب في الله فريضة، والبغض في الله فريضة».
● وأخرج أبو داود (٥/ ٦٠ رقم ٤٦٨١) من حديث أبي أمامة. بلفظ: «من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان» وهو حديث صحيح.
● وأخرج الترمذي (٤/ ٦٧٠ رقم ٢٥٢١) وأحمد (٣/ ٤٣٨، ٤٤٠) من حديث معاذ بن أنس بلفظ: «من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل الإيمان» قال الترمذي حديث حسن وهو كما قال.
● وأخرج أحمد (٥/ ١٤٦) من حديث أبي ذر، بلفظ: «إن أحب الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله». وفيه رجل لم يسم.
● وأخرج أحمد (٤/ ٢٨٦) من حديث البراء، بلفظ: «أوسط عرى الإسلام الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٤٤ رقم ١٢٢٥٩).
وزاد السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٤٨) نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وقال: بسند ضعيف.
وقال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٤٥ رقم ٣٥٠): «أخرجه: الطبراني، وابن أبي حاتم، والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وحسين ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه.
ففي البخاري ـ (٦/ ٥٢٦ رقم ٣٤٩٧) و(٨/ ٥٦٤ رقم ٤٨١٨) ـ من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية. فقال سعيد بن جبير قربى آل محمد ﷺ؟ فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ـ الحديث) هـ.
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ٣٣).

قلبه جاهلاً بربِّه، فأما من كان ذا بصيرةٍ ومعرفةٍ فلا وكأنه قال: إنْ يشأِ اللهُ خُذْلانَك يختمْ على قلبك لتجترىءَ بالافتراءِ عليه. وقيل يختِمْ على قلبك يمسكِ القرآنَ أو الوحْيَ عنه، أو يربطْ عليه بالصبر فلا يشقُّ عليك أذاهُم. ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ استئنافٌ لنفي الافتراءِ عما يقوله بأنه لو كان مُفْتَرى لمحَقَه إذ من عادتِه تعالى محوُ الباطلِ وإثباتُ الحقِّ بوحْيه أو بقضائِه، أو بوعْدِه بمحوِ باطِلِهم وإثباتِ حقِّه بالقرآنِ، أو بقضائه الذي لا مردَّ له، وسقوطُ الواوِ من يمحُ في بعضِ المصاحفِ لاتباعِ اللفظ كما في قوله تعالى ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾(١).

(٢٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالتجاوُزِ عما تابوا عنه، والقَبولُ يُعَدَّى إلى مفعول ثانٍ بِمِنْ وعنْ لتضمُّنه معنى الأخْذِ والإبانةِ، وقد عرفتَ حقيقةَ التوبة. وعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه هي اسمٌ يقع على ستة معانٍ: على الماضي من الذنوب الندامةُ، ولتضييع الفرائض الإعادةُ، وردُّ المظالم وإذابةُ النفس في الطاعة كما ربَّيتها في المعصية وإذاقتُها مرارةَ الطاعة كما أذقْتَها حلاوةَ المعصية، والبكاءُ بدل كلِّ ضحكٍ ضحكْته. ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرِها وكبيرها لمن يشاء. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازي ويتجاوز عن إتقان وحكمةٍ. وقرأ الكوفيون غيرُ أبي بكر ما تفعلون بالتاء.

(٢٦) ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يستجيبُ اللهُ لهم فحذَف اللامَ كما حذف في ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾(٢) والمرادُ إجابةُ الدعاء، أو الإثابةُ على الطاعة، فإنها كدعاء وطلبٍ لما يترتبُ عليها. ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام «أفضلُ الدعاء الحمدُ لله»(٣)، أو يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على ما سألُوا واستحقُّوا واستوجَبُوا له بالاستجابة. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدلَ ما للمؤمنين من الثوابِ والتفضُّل.

(٢٧) ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكبَّروا وأفسدوا فيها بطراً، أو لبغى بعضُهم على بعض، استيلاءً واستعلاء وهذا على الغالب، وأصلُ البغي طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يتحرَّى كميَّةً أو كيفية. ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير. ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ كما اقتضتْه مشيئتُه. ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلمُ خفايا أمرِهم وجلايا حالِهم فيقدِّرُ لهم ما يناسب شأنَهم. رُوِيَ أنَّ أهلَ الصُّفَّةِ تمنَّوا الغنى فنزلتْ(٤). وقيل

---

(١) الإسراء: «١١».

(٢) المطففين: «٣».

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦٢ رقم ٣٣٨٣) وابن ماجة (٢/ ١٢٤٩ رقم ٣٨٠٠) وابن حبان (ص٥٧٨ رقم ٢٣٢٦ ـ موارد) والحاكم (١/ ٤٩٨) من حديث جابر.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وقال الألباني: حديث حسن ـ صحيح الجامع (رقم: ١١٠٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ج٢٥/ ٣٠) عن أبي هانىء قال: سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون. . . فذكره.
وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٣٥٢) نسبته لابن المنذر وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٤) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

في العرب كانوا إذا أخصبُوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعُوا[١].

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن
مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ
ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

(٢٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ المطرَ الذي يغيثُهم من الجدْبِ ولذلك خُصَّ بالنافعِ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصمٌ ينزِّلُ بالتشديد. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أَيِسُوا منه، وقرىء بكسر النون. ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ في كل شيء من السهلِ والجبل والنبات والحيوانِ. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولّى عباده بإحسانه ونشْرِ رحمته. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحقُّ للحمدِ على ذلك.

(٢٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنها بذاتها وصفاتها تدلُّ على وجود صانع قادرٍ حكيم. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطفٌ على السموات أوِ الخلْقِ. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من حيٍّ على إطلاق اسم المسبِّب على السبب، أو مما يدبُّ على الأرض وما يكون في أحد الشيئين يصدُق أنَّه فيهما في الجملة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ﴾ أي في أي وقت يشاءُ. ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكِّنٌ منه وإذا كما تدخلُ على الماضي تدخلُ على المضارع.

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فبسببِ معاصيكم. والفاءُ لأنَّ ما شرطيةٌ أو متضمِّنةٌ معناهُ، ولم يذكرْها نافع وابنُ عامر استغناءً بما في الباء من معنى السببيةِ. ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب فلا يعاقِبُ عليها. والآيةُ مخصوصةٌ بالمجرمين، فإنَّ ما أصاب غيرَهُم فلأسبابٍ أُخَرَ منها تعريضُه للأجر العظيم بالصبر عليه.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحرِصُكم عنها. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعُها عنكم.

(٣٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفنُ الجارية. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال. قالتِ الخنساءُ:

وَإِنَّ صَخْـراً لَتَـأْتَـمُّ الهُـدَاةُ بِـهِ كَـأَنَّـهُ عَلَـمٌ فـي رَأْسِـهِ نَـارُ

(٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ وقرىء الرياحَ. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيبقَيْنَ ثوابتَ على ظهْرِ البحر. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكلِّ مَنْ وكَّل همَّتَهُ وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكُّرِ في آلائِه، أو لكلِّ مؤمن كاملِ الإيمان، فإنَّ الإيمانَ نصفانِ نصفٌ صبرٌ ونصف شكر.

---

(١) خرجوا في طلب الكلأ فشغلهم الجدب عن القتال.

أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٍ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ﴾ أو يهلكْهُنَّ بإرسال الريح العاصفة المغرِقةِ، والمراد إهلاكُ أهلِها لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ وأصلُه أو يرسلها فيوبقْهنَّ لأنه قَسيمٌ يسكِّن فاقتصر فيه على المقصودِ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٍ﴾ إذ المعنى أو يرسلْها فيوبقْ ناساً بذنوبهم وينجِ ناساً على العفو منهم، وقرىء ويعفو على الاستئنافِ.

(٣٥) ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ عطفٌ على علَّةٍ مقدَّرة مثل لينتقمَ منهم ويعلمَ، أو على الجزاء، ونُصِبَ نَصْبَ الواقعِ جواباً للأشياء الستةِ لأنه أيضاً غيرُ واجب، وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئنافِ، وقرىء بالجزمِ عطفاً على يعفُ فيكون المعنى ويجمعُ بينَ إهلاك قوم وإنجاءِ قوم وتحذيرِ آخرين. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ محيدٍ من العذاب، والجملةُ معلَّقٌ عنها الفعلُ.

(٣٦) ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٍ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ تمتَّعون به مدَّة حياتِكم. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة. ﴿خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لخلُوصِ نفعه ودوامِه. وما الأُولَى موصولةٌ تضمَّنت معنى الشرط من حيثُ إنَّ إيتاءَ ما أُوتوا سببٌ للتَّمتُّع بها في الحياة الدنيا فجاءتِ الفاء في جوابها بخلاف الثانية. وعن علي رضي الله تعالى عنه: تصدَّق أبو بكر رضي الله تعالى عنه بماله كلِّه فلامَه جَمْعٌ فنزلتْ[1].

(٣٧) ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ والذين بما بعدَه عطفٌ على للذين آمنوا، أو مدحٌ منصوبٌ أو مرفوع، وبناءُ يغفرون على ضميرِهم خبراً للدلالة على أنهم الأخِصَّاء بالمغفرة حالَ الغضبِ، وقرأ حمزة والكسائيُّ كبيرَ الإثم.

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ نزلتْ في الأنصار دعاهم رسولُ اللهِ ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له[2]. ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ ذو شورى بينَهم لا ينفردون برأيٍ حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه. وذلك من فَرْطِ تدبُّرهم وتيقُّظهم في الأمور، وهي مصدرٌ كالفُتْيَا بمعنى التَّشاوُر. ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله الخير.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ على ما جعلَه الله لهم كراهةَ التذلُّل، وهو وصفُهم بالشجاعة بعد وصْفِهم بسائر أمهاتِ الفضائلِ، وهو لا يخالِفُ وصْفَهم بالغُفرانِ، فإنه ينبىءُ عن عجزِ المغفورِ والانتصار عن مقاومةِ الخصْم، والحلمُ عن العاجز محمودٌ وعن المتغلِّبِ مذمومٌ لأنه إجراءٌ وإغراء على البغي، ثم عقَّب وصْفَهم بالانتصار للمنْع عن التعدي.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ٤٥) بدون سند.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ٤٦) بدون سند.

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ
بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا
خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا
لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾

(٤٠) ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ وسمّي الثانية سيئةً للازدواج، أو لأنها تسوءُ مَنْ تنزلُ به. ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين عدوه. ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَةٌ مبهمةٌ تدل على عِظَمِ الموعود. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المبتدئين بالسيئةِ والمتجاوزين في الانتقام.

(٤١) ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ بعد ما ظُلِمَ، وقد قُرِىءَ به. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة.

(٤٢) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالإضرارِ ويطلبون ما لا يستحقُّونه تجبُّراً عليهم. ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ على ظلمهم وبغيهم.

(٤٣) ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى. ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصرْ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي إنَّ ذلك منه فحذفَ كما حذف في قولهم: السمنُ مَنَوانِ بدرهمٍ، للعلم به.

(٤٤) ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ من ناصرٍ يتولاه من بعدِ خُذْلانِ الله إياهُ. ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ حين يرونه فذُكِرَ بلفظ الماضي تحقيقاً. ﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ هل إلى رجعة إلىٰ الدنيا.

(٤٥) ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ على النار، ويدل عليه العذابُ. ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذلّلين متقاصرينَ مما يلحقُهم من الذلّ. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ أي يبتدىء نظرُهم إلى النار من تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ كالمصبور[1] ينظرُ إلى السيف. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بالتعريض للعذاب المخلَّدِ. ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ ظرفٌ لخسروا والقولُ في الدنيا، أو لِقَالَ أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحالِ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ تمامُ كلامهم أو تصديقٌ من الله لهم.

(٤٦) ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى أو النجاة.

(٤٧) ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ لا يردُّه الله بعد ما حكَم به ومِنَ صلةٌ

---

(١) الموقوف ليضرب عنقه.

لِمَرَدَّ. وقيل صلةُ يأتي أي من قبل أنْ يأتيَ يومٌ من الله لا يمكنُ ردُّه. ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ ﴾ مفرٌ. ﴿ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ إنكارٌ لما اقترفتموه لأنه مدوَّنٌ في صحائفِ أعمالكم تشهدُ عليه ألسنتكم وجوارِحُكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا
وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ
عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا
فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ رقيباً أو محاسِباً. ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقد بلَّغتَ. ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ أراد بالإنسان الجنسَ لقوله: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ بليغُ الكفرانِ ينسىٰ النعمةَ رأساً ويذكرُ البليةَ ويعظِّمها ولا يتأملُ سَبَبَهَا، وهذا وإنِ اختصَّ بالمجرمين جازَ إسنادُه إلى الجنسِ لِغَلَبَتِهم واندراجِهم فيه. وتصديرُ الشرطية الأُولى بإذا والثانيةِ بإن لأنَّ إذاقةَ النعمةِ محقَّقة من حيثُ إنها عادةٌ مقتضاةٌ بالذات بخلافِ إصابة البليةِ، وإقامةُ علَّةِ الجزاءِ مقامَه ووضعُ الظاهر موضِعَ المضمَرِ في الثانية للدلالةِ على أن هذا الجنسَ موسومٌ بكُفْران النعمة.

(٤٩) ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فله أنْ يقسِّم النعمةَ والبليةَ كيف يشاء. ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من غير لزومٍ ومجالِ اعتراض. ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾.

(٥٠) ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ بدلٌ مِنْ يخلقُ بدلُ البعضِ، والمعنى يجعلُ أحوالَ العباد في الأولاد مختلفةً على مقتضى المشيئةِ فيهَبُ لبعضٍ إما صنفاً واحداً من ذكرٍ أو أنثى أو الصنفينِ جميعاً ويعقمُ آخرينَ. ولعلَّ تقديمَ الإناثِ لأنها أكثرُ لتكثير النَّسل، أو لأنَّ مساقَ الآية للدلالة على أنَّ الواقعَ ما يتعلَّق به مشيئةُ الله لا مشيئةُ الإنسان والإناثُ كذلك، أو لأنَّ الكلامَ في البلاءِ والعربُ تعدُّهن بلاءً، أو لتطييب قلوب آبائهنَّ، أو للمحافظة على الفواصلِ ولذلك عرَّف الذكورَ، أو لِجَبْرِ التأخير. وتغييرُ العاطفِ في الثلثِ لأنه قسيمُ المشترك بين القسمينِ، ولم يَحتجْ إليه الرابعُ لإفصاحه بأنه قسيمُ المشترك بين الأقسام المتقدمة. ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ فيفعلُ ما يفعل بحكمةٍ واختيار.

(٥١) ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ وما صحَّ له. ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ كلاماً خفياً يُدْرَكُ لأنه بسرعةِ تمثيلٍ ليس في ذاته مركَّباً من حروفٍ مقطعة تتوقَّفُ على تموُّجات متعاقِبةٍ. وهو ما يعمُّ المشافهَ به كما رُوِيَ في حديث المعراجِ، وما وعد به في حديث الرؤية، والمهتفَ به كما اتفقَ لموسى في طُوًى والطورِ، ولكنَّ عطفَ قولِه: ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ عليه يخصُّه بالأولِ فالآية دليلٌ على جواز الرؤية لا على امتناعِها. وقيل المرادُ به الإلهامُ والإلقاء في الروعِ، أو الوحيُ المنزَّلِ به الملكُ إلى الرسلِ فيكون

المرادُ بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أو يرسلَ إليه نبياًفيبلِّغُ وحْيَهُ كما أمره، وعلى الأولِ المرادُ بالرسول الملكُ الموحي إلى الرسلِ، ووحياً بما عُطِفَ عليه منتصِبٌ بالمصدرِ لأنَّ مِنْ وراء حجاب صفةُ كلام محذوفٍ، والإرسالُ نوعٌ من الكلام، ويجوزُ أن يكونَ وحياً ويرسلَ مصْدَرينِ ومن وراء حجاب ظرفاً وقعتْ أحوالاً. وقرأ نافعٌ أو يرسلُ برفع اللام. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمتُه فيكلِّم تارةً بِوُسُطٍ، وتارةً بغير وسطٍ إما عياناً وإما من وراء حجاب.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

(٥٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ يعني ما أوحى إليه، وسمَّاه روحاً لأن القلوبَ تحيا به، وقيل جبريلُ والمعنى أرسلْناه إليك بالوحي. ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي قبلَ الوحي، وهو دليلٌ على أنه لم يكنْ متعبِّداً قبل النبوة بشرع. وقيل المرادُ هو الإيمان بما لا طريقَ إليه إلا السمعُ. ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي الروحَ أوِ الكتابَ أو الإيمانَ. ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ بالتوفيقِ للقبول والنظرِ فيه. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلام، وقُرِىءَ لَتُهْدَى أي ليهديك اللهُ.

(٥٣) ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الأول. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ خلقاً ومُلْكاً. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ بارتفاع الوسائطِ والتعلُّقاتِ، وفيه وعدٌ ووعيدٌ للمطيعين والمجرمينَ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ حم عسق كان ممَّنْ تصلِّي عليه الملائكةُ ويستغفرون له ويسترحمونَ له»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه بإسنادهما إلى أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٤٦ رقم ٣٦٥) ـ. وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

ترتيبها ٤٣ — آياتها ٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ
لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ
أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا
وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾

سورة الزخرف مكيةٌ[1]

وقيل إلا قولَه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[2] وآيُها تسعٌ وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

(٢) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أقسمَ بالقرآن على أنه جعلَه قرآناً عربياً، وهو من البدائع لتناسُبِ القسَمِ والمقسَمِ عليه، كقول أبي تمام: وَثَنَايَاكَ أَنَّهَا أَغْرِيضُ. ولعلَّ إقسامَ الله بالأشياء استشهادٌ بما فيها من الدلالة على المقسَم عليه، وبالقرآنِ من حيثُ إنه معجزٌ مبينٌ لطرقِ الهدى وما يُحْتَاجُ إليه في الديانة، أو بيَّنَ للعرب ما يدل على أنه تعالى صيَّره كذلك ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه.

(٤) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عطفٌ على إنا، وقرأ حمزة والكسائيُّ بالكسرِ على الاستئنافِ. ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٣٠١): «وهي مكية بإجماعهم. وقال مقاتل: هي مكية إلاَّ آيةً وهي قوله: «واسأل من أرسلنا» [الزخرف: ٤٥].

(٢) الزخرف: «٤٥».

اللوح المحفوظِ فإنه أصلُ الكتبِ السماوية، وقرىء إِمِّ الكتاب بالكسر. ﴿لَدَيْنَا﴾ محفوظاً عندنا عن التغيير. ﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيعُ الشأنِ في الكتب لكونه معجزاً من بينها. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغةٍ، أو محكمٌ لا ينسخُه غيرهُ. وهما خبرانِ لإنَّ وفي «أم الكتاب» متعلِّق بعليٍّ واللامُ لا تمنعُه، أو حالٌ منه ولدينا بدلٌ منه أو حالٌ من أمِّ الكتاب.

(٥) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أفنذوده ونبعدُه عنكم مجازٌ من قولهم: ضربَ الغرائب عن الحوض، قال طرفةُ[1]:

اضْـرِبْ عَنْـكَ الهُمُـومَ طَـارِقَهَـا ... ضَـرْبَـكَ بِـالسَّيْـفِ قَـوْنَـسَ الفَـرَسِ

والفاءُ للعطف على محذوفٍ أي أنهملُكم فنضربُ عنكم الذِّكْرَ، وصفْحاً مصدرٌ من غير لفظِه فإنَّ تنحيةَ الذِّكْرِ عنهم إعراضٌ أو مفعولٌ له أو حالٌ بمعنى صافحين، وأصلُه أنْ تُولِيَ الشيءَ صفحةَ عُنُقِكَ. وقيل إنه بمعنى الجانبِ فيكون ظرفاً ويؤيدُه أنه قرىء صُفْحاً بالضمِّ، وحينئذ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ تخفيفُ صفْحٍ جمعَ صفوحٍ بمعنى صافحين، والمرادُ إنكارُ أنْ يكون الأمرُ على خلافِ ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه. ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأنْ كنتم، وهو في الحقيقة علةٌ مقتضية لتركِ الإعراضِ عنهم، وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي إنْ بالكسرِ على أنَّ الجملةَ شرطيةٌ مخرِجةٌ للمحقَّقِ مخرجَ المشكوكِ استجْهالاً لهم، وما قبلَها دليلُ الجزاءِ.

(٦) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٧) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومِه.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي من القوم المسرفين لأنه صرفَ الخطابَ عنهم إلى الرسول مخبِراً عنهم. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وسلفَ في القرآن قصتُهم العجيبةُ، وفيه وعدٌ للرسول ووعيدٌ لهم بمثل ما جرى على الأولينَ.

(٩) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لعلَّه لازمَ مقولَهم أو ما دلَّ عليه إجمالاً أُقِيمَ مقامَه تقريراً لإلزامِ الحجَّةِ عليهم، فكأنهم قالوا الله كما حُكِيَ عنهم في مواضعَ أُخرَ وهو الذي من صفته ما سردَ من الصفاتِ، ويجوز أن يكونَ مقولُهم وما بعدَه استئنافاً.

---

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو. شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين نحو (٨٦ ـ ٦٠ ق هـ = ٥٣٨ ـ ٥٦٤م) وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه.
ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر، شاباً، في (هَجَر) قيل: ابن عشرين عاماً، وقيل ابن ست وعشرين، أشهر شعره معلقته، ومطلعها:

(لخولة أطلال ببرقة ثهمد)

وقد شرحها كثيرون من العلماء. وجمع المحفوظ من شعره في «ديوان» مطبوع.
[الأعلام للزركلي (٣/ ٢٢٥)].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾

(١٠) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فتستقرُّون فيها وقرأ غيرُ الكوفيونَ مهاداً بالألفِ.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونَها. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدِكم، أو إلى حكمةِ الصانعِ بالنظرِ في ذلك.

(١١) ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بمقدارٍ ينفع ولا يضرُّ. ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ مالَ عنه النماءُ، وتذكيرهُ لأنَّ البلدةَ بمعنى البلدِ والمكانِ[1]. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الإنشارِ. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تُنشَرون من قبورِكم، وقرأ ابن عامرٍ وحمزة والكسائيُّ تَخرُجون بفتح التاءِ وضمِّ الراء.

(١٢) ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أصنافَ المخلوقاتِ. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ما تركبونه على تغليب المتعدِّي بنفسه على المتعدِّي بغيرهِ إذْ يُقالُ: ركبتُ الدابةَ وركبتُ في السفينة، أو المخلوقَ للركوبِ على المصنوع له أو الغالبَ على النادرِ ولذلك قال:

(١٣) ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي ظهورِ ما تركبونَ، وجمعَه للمعنى. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تذكُروها بقلوبكم معترفينَ بها حامدينَ عليها. ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقينَ مِنْ أقرَنَ الشيءَ إذا أطاقه، وأصلُه وجدَه قرينتَه إذِ الصعبُ لا يكون قرينةَ الضعيفِ. وقرىء بالتشديد والمعنى واحدٌ. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: «بسمِ اللهِ» فإذا استوى على الدابةِ قال: «الحمدُ لله على كلِّ حال سبحانَ الذي سخَّر لنا هذا»[2] إلى قوله:

(١٤) ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، واتصالُه بذلك لأن الركوبَ للتنقُّلِ، والنقلةُ العظمى هو

---

(١) والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره (س٨/ ٤١).

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (٣/ ٧٧ رقم ٢٦٠٢) والترمذي (٥/ ٥٨ رقم ٣٤٤٦) والنسائي كما في تحفة الأشراف (٧/ ٤٣٦ رقم ١٠٢٤٨) وابن حبان (ص٥٩١ رقم ٢٣٨٠ و٢٣٨١) والحاكم (٢/ ٩١ ـ ٩٢) وأحمد (١/ ٩٧، ١٢٨) والطيالسي في المسند (ص٢٠ رقم ١٣٢).
كلهم من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن علي بن ربيعة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبو الأحوص فقد أخرج الشيخان من طريقه عن أبي إسحاق. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الشيخ أحمد شاكر في المسند (رقم: ٧٥٣).
إسناده صحيح.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

الانقلابُ إلى الله تعالى، أو لأنه مخطرٌ فينبغي للراكبِ أنْ لا يغفلَ عنه ويستعدَّ لِلِقاءِ الله تعالى.

وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ﴾ متصلٌ بقوله ﴿ولئن سألتهم﴾ أي وقد جعلُوا له بعد ذلك الاعترافِ من عباده ولداً فقالوا الملائكةُ بناتُ الله، ولعله سمَّاه جزاً كما سُمِّي بعضاً لأنه بِضْعَةٌ من الوالدِ دلالةً على استحالتِه على الواحدِ الحقِّ في ذاته، وقرأ أبو بكر جُزُأً بضمتينِ. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ الكفرانِ ومن ذلك نسبةُ الولدِ إلى اللهِ لأنها من فَرْطِ الجهلِ به والتحقيرِ لشأنِه.

(١٦) ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ معنى الهمزةِ في أمْ للإنكارِ والتعجُّب من شأنهم حيثُ لم يقنعوا بأنْ جعلُوا له جزءاً حتى جعلُوا له من مخلوقاته أجزاءَ أخسَّ مما اختِيْرَ لهم وأبغضَ الأشياءِ إليهم، بحيثُ إذا بُشِّرَ أحدُهم بها اشتدَّ غمُّه به كما قال.

(١٧) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعلَه له مثلاً إذ الولدُ لا بدَّ وأنْ يماثِلَ الوالدَ[١]. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ صار وجهُه أسودَ في الغايةِ لما يعتريه من الكآبةِ. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوءٌ قلبُه من الكرب، وفي ذلك دلالاتٌ على فساد ما قالوه، وتعريفُ البنينَ بما مرَّ في الذكور[٢]، وقُرِىءَ مسودٌّ ومسوَادٌّ على أنَّ في ظلّ ضميرَ المبشَّرِ ووجهه مسودٌّ جملةٌ وقعتْ خبراً.

(١٨) ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي أو جعلوا له، أوِ اتخذَ مَنْ يتربَّى في الزينة يعني البناتِ. ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ﴾ في المجادلة. ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ مقرِّر لما يدَّعيه من نقصانِ العقل وضعفِ الرأي، ويجوزُ أنْ يكون مَنْ مبتدأ محذوفَ الخبرِ أي أو من هذا حالةُ ولده. وفي الخصام متعلِّق بمبينٍ، وإضافةُ غيرِ إليه لا يمنعُه لما عرفتَ. وقرأ حمزة والكسائي وحفصٌ يُنَشَّأُ أي يُرَبَّى. وقرىء يُنْشَأُ ويُناشَأُ بمعناه ونظيرُ ذلك أعلاهُ وعُلاه وعالاهُ بمعنًى.

(١٩) ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ كفرٌ آخرُ تضمَّنه مقالُهم شنَّع به عليهم، وهو جعلُهم أكملَ العبادِ وأكرمَهُم على الله تعالى أنقصَهم رأياً وأخسَّهم صِنفاً. وقرىء عبيدُ، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر ويعقوبُ عندَ على تمثيلِ زُلْفَاهم. وقرىء أُنُثَاو وهو جمعُ الجمعِ. ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ أَحَضَروا خلْقَ الله إياهم فشاهدوهم إناثاً، فإنَّ ذلك مما يُعْلَمُ بالمشاهدة وهو تجهيلٌ وتهكُّمٌ به. وقرأ نافع أَأُشْهِدوا بهمزةِ الاستفهام وهمزةٍ مضمومةٍ بينَ بينَ، وآأُشهدُوا بمدَّةٍ بينَهما. ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة. ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي عنها يومَ القيامة، وهو وعيدٌ شديد. وقرىء

(١) والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكىٰ لغيرهم تعجيباً منها (س٨/ ٤٢).
(٢) مر في سورة الشورى آية (٤٩ ـ ٥٠).

سيُكْتَب وسنَكتُب بالياءِ والنونِ، وشهاداتِهم وهي أنَّ لله جزءٌ أو أنَّ له بناتٍ وهنَّ الملائكةُ، ويُساءَلُون مِنَ المساءلةِ.

وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾ أي لو شاء عدمَ عبادة الملائكة ما عبدْناهم فاستدلُّوا بنفي مشيئتِه عدمَ العبادةِ على امتناع النهي عنها أو على حُسْنِها، وذلك باطلٌ لأن المشيئة ترجِّح بعضَ الممكناتِ على بعض مأموراً كان أو منهياً حسناً كان أو غيرَه، ولذلك جهَّلَهُم فقال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يتمحَّلون تمحُّلاً باطلاً، ويجوز أنْ تكونَ الإشارةُ إلى أصل الدعوى كأنه لما أبدَى وجوهَ فسادها وحكى شبهتَهم المزيَّفةَ نَفَى أن يكون لهم بها علمٌ من طريق العقل، ثم أضربَ عنه إلى إنكار أنْ يكون لهم سندٌ من جهة النقل فقال:

(٢١) ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبلِ القرآن أو ادِّعائهم ينطقُ على صحةِ ما قالوه. ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ بذلك الكتابِ متمسِّكون.

(٢٢) ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي لا حجَّةَ لهم على ذلك عقليةً ولا نقليةً، وإنما جنحُوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهالةَ، والأمةُ الطريقةُ التي تُؤَمُّ كالراحلة للمرحولِ إليه، وقُرِئَتْ بالكسرِ وهي الحالة التي يكون عليها الآمُّ أي القاصدُ ومنها الدِّينُ.

(٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالة على أنَّ التقليد في نحو ذلك ضلالٌ قديم، وأنَّ مقدَّميهم أيضاً لم يكن لهم سندٌ منظور إليه، وتخصيصُ المترفين إشعارٌ بأنَّ التنعُّمَ وحبَّ البطَالةِ صرفَهم عن النظر إلى التقليد.

(٢٤) ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ﴾ أي أتتبعون آباءَكم ولو جئتكم بدينٍ أهدَى من دين آبائِكم، وهي حكايةُ أمرٍ ماضٍ أوحي إلى النذير، أو خطابٌ لرسول الله ﷺ، ويؤيد الأولَ أنه قرأ ابنُ عامر وحفص قالَ، وقولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي وإن كان أهدَى إقناطاً للنذير من أنْ ينظروا أو يتفكَّروا فيه.

(٢٥) ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ﴾ بالاستئصالِ. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولا تكترثْ بتكذيبهم.

(٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكُرْ وقتَ قولِه هذا ليروا كيفَ تبرَّأَ عن التقليد وتمسَّكَ بالدليل، أو ليقلِّدوه إن لم يكنْ لهم بُدٌّ من التقليد فإنه أشرف آبائِهم. ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بريءٌ من

عبادتكم أو معبودِكم، مصدرٌ نُعِتَ به ولذلك استوى فيه الواحدُ والمتعدِّد والمذكَّر والمؤنَّث، وقرىء بريءٌ وبَرَاءٌ ككريم وكِرَام.

إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء منقطعٌ أو متصل على أنَّ ما يعمُّ أولي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون اللهَ والأصنامَ والأوثانَ، أو صفةٌ على أنَّ ما موصوفةٌ أي إنني بريءٌ من آلهةٍ تعبدونها غيرَ الذي فطرني. ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ سيثبِّتُني على الهداية، أو سيهديني إلى ما وراءَ ما هداني إليه.

(٢٨) ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام أو اللهُ كلمةَ التوحيد. ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحِّدُ اللهَ ويدعو إلى توحيده. وقرىء كلْمةً وفي عقْبه على التخفيف، وفي عاقِبه أي فيمنْ عَقَبَهُ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع من أشرك بدعاءِ مَنْ وحَّد.

(٢٩) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ هؤلاء المعاصرين للرسولِ ﷺ من قريش وآباءَهم بالمدِّ في العمرِ والنعمةِ، فاغتروا لذلك وانهمكوا في الشهواتِ. وقرىء متَّعْتَ بالفتح على أنه تعالى اعترضَ به على ذاتِه في قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ مبالغةً في تعييرهم. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ دعوةُ التوحيد أو القرآن. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ الرسالة بما له من المعجزات، أو مبينٌ للتوحيد بالحجَجِ والآياتِ.

(٣٠) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لينبِّهَهُم عن غفلَتِهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ زادوا شرارةً فضمُّوا إلى شِرْكِهم معاندةَ الحقِّ والاستخفافَ به، فسمُّوا القرآنَ سحراً وكفروا به واستحقروا الرسولَ.

(٣١) ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحدى القريتينِ مكَّةَ والطائفِ. ﴿عَظِيمٍ﴾ بالجاهِ والمال كالوليد بنِ المغيرة وعروةَ بنِ مسعود الثقفي، فإنَّ الرسالةَ منصِبٌ عظيم لا يليق إلا بعظيمٍ، ولم يعلموا أنها رتبةٌ روحانيةٌ تستدعي عِظَمَ النفس بالتحلي بالفضائل والكمالاتِ القدسيَّة، لا التزخرفِ بالزخارفِ الدنيوية.

(٣٢) ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكارٌ فيه تجهيلٌ وتعجيب من تحكُّمِهم، والمرادُ بالرحمة النبوةُ. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم عاجزون عن تدبيرها وهي خُوَيْصَةُ أمرهم في دنياهم، فَمِنْ أين لهم أنْ يدَّبَّروا أمرَ النبوةِ التي هي أعلى المراتب الأنسيةِ، وإطلاقُ المعيشة يقتضي أنْ يكون حلالُها وحرامُها من الله. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ وأوقعنا بينَهم التفاوُتَ في الرزق وغيرِه. ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليستعملَ بعضُهم بعضاً في حوائجِهم فيحصلَ بينَهم تآلفٌ وتضامٌّ ينتظم بذلك نظامُ العالم، لا لكمالٍ في الموسَعِ ولا لنقصٍ في المقتَرِ، ثم إنه لا اعتراضَ لهم علينا في ذلك ولا تصرُّفَ

فكيف يكون فيما هو أعلى منه. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني هذه النبوةَ وما يتبعُها. ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، والعظيمُ مَنْ رُزِقَ منها لا منْهُ.

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

(٣٣) ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لولا أنْ يرغبوا في الكفرِ إذا رأَوا الكفارَ في سَعَةٍ وتنعُّم لحبِّهم الدنيا فيجتمعوا عليه. ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ ومصاعِدُ جمعُ معراجٍ، وقرىء ومعاريجَ جمعُ معراجٍ. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلُونَ السطوحَ لحقارةِ الدنيا، ولبيوتهم بدلٌ مِنْ لِمَنْ بدلَ الاشتمالِ أو على كقولكَ: وهبتُ له ثوباً لقميصِه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسَقْفاً اكتفاءً بجمعِ البيوتِ، وقرىء سُقْفاً بالتخفيف، وسُقُوفاً وسَقَفاً وهي لغةٌ في سَقْف.

(٣٤) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي أبواباً وسرُراً من فضَّة.

(٣٥) ﴿وَزُخْرُفًا﴾ وزينةً عطفٌ على سقفاً أو ذهباً عطفٌ على محلٍّ من فضة ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إنْ هي المخففةُ واللامُ هي الفارقةُ. وقرأ عاصم وحمزة وهشامٌ بخلافٍ عنه لمّا بالتشديد بمعنًى إلاَّ وإنْ نافيةٌ، وقرىء به مع إنْ وما ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي، وفيه دلالةٌ على أنَّ العظيمَ هو العظيمُ في الآخرة لا في الدنيا، وإشعارٌ بما لأجله لم يجعلْ ذلك للمؤمنين حتى يجتمعَ الناسُ على الإيمان، وهو أنه تمتُّع قليلٌ بالإضافة إلى ما لهم في الآخرة مخلٌّ به في الأغلب لما فيه من الآفات قلَّ مَنْ يتخلص عنها كما أشار إليه بقوله:

(٣٦) ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يتعامَ ويعرضُ عنه لفرطِ اشتغاله بالمحسوسات وانهماكِه في الشهوات، وقُرِىءَ يعشَ بالفتحِ أي يَعْمَ يقالُ عشَىٰ إذا كان في بصره آفةٌ وعشيَ إذا تعشَّى بلا آفةٍ كعَرِجَ وعرُجَ، وقرىء يعشُو على أنَّ مَنْ موصولةٌ[1]. ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ يوسوسُه ويغويه دائماً، وقرأ يعقوب بالياء على إسناده إلى ضمير الرحمنِ، ومَنْ رفعَ يعشو ينبغي أنْ يرفعَ نقيضُ.

(٣٧) ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن الطريق الذي من حقِّه أنْ يُسْبَلَ، وجمعَ الضميرين للمعنى إذِ المرادُ جنسُ العاشي والشيطانِ المقيَّض له. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الضمائرُ الثلاثة الأُوَلُ له والباقيانِ للشيطان.

(٣٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي العاشي، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر وأبو بكر جاآنا أي العاشي

---

(١) إضافة الذكر إلى اسم الرحمن للإيذان بنزوله رحمة للعالمين (س٨/٤٧).

والشيطانُ. ﴿قَالَ﴾ أي العاشي للشيطان. ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ بُعْدَ المشرق من المغرب، فغلَّب المشرقَ وثنَّى وأُضِيفَ البعدُ إليهما. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ أنتَ.

وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ
وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا
عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ
وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾

(٣٩) ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي ما أنتم عليه من التمنِّي. ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ إذ صحَّ أنكم ظلمتُم أنفسَكم في الدنيا بدلٌ من اليوم. ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ لأنَّ حقَّكم أن تشتركوا أنتم وشياطينَكم في العذاب كما كنتم مشتركينَ في سببه، ويجوزُ أنْ يُسْنَدَ الفعلُ إليه بمعنى: ولن ينفعَكم اشتراكُكم في العذابِ كما ينفعُ الواقعينَ في أمرٍ صعبٍ معاونتُهم في تحمُّل أعبائِه وتقسُّمهم لمكابدةِ عنائِه، إذ لكلٍّ منكم ما لا تسعهُ طاقتُه. وقرىء إنكم بالكسرِ وهو يقوي الأولَ.

(٤٠) ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ إنكار وتعجُّبٌ من أنْ تحملَ هو الذي يقدرُ على هدايتهم بعدَ تمرُّنهم على الكفرِ واستغراقِهم في الضلال بحيثُ صارَ عَشَاهُم عَمًى مقروناً بالصَّمَمِ. كان رسولُ الله ﷺ يُتعِبُ نفسَه في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غيّاً، فنزلتْ. ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عطفٌ على العمى باعتبارِ تغايُرِ الوصفين، وفيه إشعارٌ بأنَّ الموجِبَ لذلك تمكُّنهم في ضلال لا يخْفَى.

(٤١) ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فإنْ قبضناك قبلَ أنْ نبصركَ عذابَهم، وما مزيدةٌ مؤكِّدة بمنزلةِ لامِ القسم في استجلابِ النونِ المؤكدة ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعذابٍ في الدنيا والآخرة.

(٤٢) ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ أو إنْ أردنا أنْ نريَكَ ما وعدْناهم من العذاب، وقرأ يعقوب برواية رويسٍ أو نُرِيَنْكَ بإسكان النون وكذا نذهبنْ. ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ لاَ يَفوتوننَا.

(٤٣) ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ من الآياتِ والشرائعِ، وقرىء أوحىٰ على البناءِ للفاعل وهو الله تعالى. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لا عوجَ له.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ﴾ لشرفٍ لك. ﴿وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ إي عَنْهُ يوم القيامة وعن قيامكم بحقِّه.

(٤٥) ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي واسأل أُمَمَهُم وعلماءَ دينهم، وقرأ ابن كثير والكسائي بتخفيفِ الهمزةِ. ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ هل حكمْنا بعبادةِ الأوثان وهل جاءت في ملةٍ من مِلَلِهم، والمرادُ به الاستشهادُ بإجماعِ الأنبياء على التوحيد، والدلالةُ على أنه ليس بِبِدْعٍ ابتدعه فيكذَّبُ ويعادي له، فإنه كان أقوى ما حملَهم على التكذيب والمخالفة.

(٤٦) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يـريـدُ

باقتصاصه[١] تسليةَ رسولِ الله ﷺ ومناقضةَ قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٢] والاستشهادُ بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد ليتأملُوا فيها.

فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾

(٤٧) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ فَاجؤوا وقْتَ ضحِكهم منها، أوِ استهزؤوا بها أولَ ما رأوهَا ولم يتأملوا فيها.

(٤٨) ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ إلا هي بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر مما يقاس إليها من الآيات، والمرادُ وصفُ الكلِّ بالكِبَرِ كقولك: رأيت رجالاً بعضُهم أفضلُ من بعض، وكقوله:

مَـنْ تَلْـقَ مِنْهُـمْ تَقُـلْ لاَقَيْـتُ سَيِّـدَهُـمْ   مِثْـلُ النُّجُـومِ الَّتـي يَسْـرِي بهَـا السَّـارِي

أو إلا وهي مختصةٌ بنوع من الإعجاز مفضلةٌ على غيرها بذلك الاعتبارِ. ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالسنينَ والطوفانِ والجرادِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على وجه يُرْجَى رجوعُهم.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادَوْه بذلك في تلك الحال لشدةِ شكيمتهم وفَرْطِ حماقتِهم، أو لأنهم كانوا يسمُّون العالمَ الماهر ساحراً. وقرأ ابن عامر بضمِّ الهاء ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فيكشفُ عنا العذابَ. ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك من النبوةِ، أو من أن يستجيبَ دعوتَك، أو أنْ يكشفَ العذابَ عمَّنِ اهتدى، أو بما عهد عندك فوفَّيْتَ به وهو الإيمانُ والطاعةُ. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾.

(٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجؤُوا نكْثَ عهدهم بالاهتداءِ.

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه أو بمناديه. ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾ في مجمعِهم أو فيما بينهم بعد كشفِ العذاب عنهم مخافةَ أنْ يؤمن بعضُهم. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهارُ النيل ومعظمُها أربعة أنهرٍ: نهر الملك، ونهرِ طولونَ، ونهر دمياطَ، ونهرِ تنيسَ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ تحتَ قصري أو أمري، أو بين يدي في جناني. والواوُ إما عاطفةٌ لهذه الأنهارِ على الملكِ وتجري حالٌ منها، أو واوُ حالٍ وهذه مبتدأٌ والأنهارُ صفتُها وتجري خبرُها. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكةِ والبسْطَةِ. ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيفٌ حقير لا يستعدُّ للرئاسة، من المهانة وهي القلَّة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلامَ لما به من الرتةِ فكيف يصلحُ للرسالة، وأم إما

---

(١) بقصِّ خبره.
(٢) الزخرف: «٣١».

منقطعةٌ والهمزةُ فيها للتقرير إذ قدَّم من أسباب فضْله، أو متصلةٌ على إقامة المسبَّبِ مقامَ السببِ. والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون فتعلمونَ أني خيرٌ منه.

فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

(٥٣) ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي فهلاَّ ألقي عليه مقاليدُ الملْكِ إنْ كان صادقاً، إذ كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه وطوَّقوه بسوارٍ وطوقٍ من ذهبٍ، وأساورةٌ جمعُ أسوارٍ بمعنى السوارِ على تعويضِ التاء من ياء أساويرَ، وقد قُرِئَ به. وقرأ يعقوب وحفصٌ أسورةٌ وهي جمعُ سوارٍ، وقرىء أساوِرُ جمعُ أسورة؛ وألقىٰ عليه أسورةً وأَساورَ على البناءِ للفاعلِ وهو اللهُ تعالى. ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين يعينُونه أو يصدقونه من قرَنته به فاقترنَ، أو متقارنين من اقترنَ بمعنى تقارَنَ.

(٥٤) ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فطلبَ منهم الخفَّة في مطاوعتِه أو فاستخفَّ أحلامَهم. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهُم به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسقَ.

(٥٥) ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أَغضبُونا بالإفراطِ في العِناد والعصيان منقولٌ من أسف إذا اشتدَّ غضبُه. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليمِّ.

(٥٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوةً لمن بعدَهم من الكفار يقتدون بهم في استحقاقِ مثلِ عقابِهم، مصدرٌ نَعَتَ به أو جمعُ سالفٍ كخَدَمٍ وخادمٍ. وقرأ حمزة والكسائيُّ بضم السين واللام جمعُ سليفٍ كرُغُفٍ ورغيفٍ أو سالفٍ كصُبُرٍ جمع صابرٍ أو سَلَفٍ كخشبٍ، وقرىء سُلَفاً بإبدال ضمةِ اللامِ فتحةً أو على أنه جمعُ سَلَفةٍ أي ثُلَّة قد سلِفت. ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ وعظةً لهم أو قصة عجيبةً تسير مسير الأمثال لهم فيقالَ: مثلُكم مثلُ قوم فرعونَ.

(٥٧) ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ضربه ابنُ الزبعرىٰ لما جادل رسولَ الله ﷺ في قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[(١)] أو غيرهُ بأنْ قال النَّصارى أهلُ كتابٍ وهم يعبدون عيسى عليه السلام ويزعمون أنه ابنُ الله والملائكةُ أَوْلَى بذلك، أو على قوله تعالى ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[(٢)] أو أن محمداً يريدُ أنْ نعبدَه كما عُبِدَ المسيحُ. ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ في قريش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثلِ. ﴿يَصِدُّونَ﴾ يضجُّون فرحاً لظنِّهم أنَّ الرسولَ ﷺ صارَ ملزماً به. وقرأ نافع وابنُ عامر والكسائيُّ بالضمِّ من الصدودِ أي يصدون عن الحقِّ ويعرِضُون عنه. وقيل هما لغتانِ نحو يعكِفُ ويعكُفُ.

---

(١) الأنبياء: «٩٨».
(٢) الزخرف: «٤٥».

وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ
وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ
فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ﴾ أي آلهتنا خيرٌ عندك أم عيسى عليه السلام فإن يكن في النار فتلكنْ آلهتُنا معه، أو آلهتنا الملائكةُ خيرٌ أم عيسى عليه السلام فإذا أجاز أنْ يُعْبَدَ ويكونَ ابنَ الله كانتْ آلهتنا أولى بذلك، أو آلهتنا خيرٌ أم محمدٌ ﷺ فنعبده وندعُ آلهتَنا. وقرأ الكوفيونَ أآلهتنا بتحقيقِ الهمزتين وألفٌ بعدَهما. ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ ما ضربوا هذا المثلَ إلا لأجلِ الجدلِ والخصومةِ لا لتمييز الحقِّ من الباطل. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شِدَادُ الخصومة حراصٌ على اللَّجاجِ.

(٥٩) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة. ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائرِ لبني إسرائيلَ، وهو كالجواب المزيح لتلك الشبهةِ.

(٦٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ لولَّدنا منكم يا رجالُ كما ولَّدنا عيسى من غير أبٍ، أو لجعلْنا بدلَكُم. ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ مَلائكةً يخلُفونكم في الأرض، والمعنى أنَّ حالَ عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبةً فإنه تعالى قادرٌ على ما هو أعجبُ من ذلك، وأنَّ الملائكة مِثْلُكم من حيثُ إنها ذواتٌ ممكنة يحتملُ خلقُها توليداً كما جاز خلقُها إبداعاً، فمن أين لهم استحقاقُ الألوهية والانتسابُ إلى الله سبحانه وتعالى.

(٦١) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ عيسى عليه السلام. ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ لأنَّ حدوثَه أو نزولَه من أشراطِ الساعة يُعْلَمُ به دنوُّها، أو لأن إحياءَ الموتى يدلُّ على قدرة الله تعالى عليه. وقرىء لَعَلَمٌ أي لعلامةٌ ولذِكرٌ على تسمية ما يذكُر به ذِكْراً، وفي الحديث «ينزلُ عيسى عليه السلام على ثنية بالأرض المقدسةِ يُقَالُ لها أفيقُ وبيده حربةٌ يقتلُ بها الدجالَ، فيأتي بيتَ المقدس والناسُ في صلاة الصبح فيتأخَّر الإمام فيقدِّمه عيسى عليه الصلاة والسلام ويصلي خلفَه على شريعةِ محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتلُ الخنازيرَ ويكسرُ الصليبَ، ويخربُ البِيَعَ والكنائسَ، ويقتل النصارى إلا من آمن به»[1]. وقيل الضميرُ للقرآن فإنَّ فيه الإعلامَ بالساعة والدلالةَ عليها. ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكُّنَّ فيها. ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ واتبعوا

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٤٧ رقم ٣٧٣): «ـ أخرجه ـ الثعلبي بغير سند. وهو موجود في أحاديث متفرقة.
فقوله: «ثنية أفيق» عند الحاكم ـ (٤/٤٧٨) ـ من حديث عثمان بن أبي العاص.
و
وقوله: «وعليه ممصرتان» عند أحمد ـ (٢/٤٠٦) ـ والحاكم من حديث أبي هريرة.
وقوله: «والناس في صلاة الصبح» عند ابن ماجهْ ـ (٢/١٣٥٩ رقم ٤٠٧٧) من حديث أبي أمامة.
وقوله: «فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب» في «الصحيح» ـ البخاري (٤/٤١٤ رقم ٢٢٢٢) ومسلم (١/١٣٥ ـ ١٣٧ رقم ١٥٥) ـ من حديث «أبي هريرة» هـ.

هدايَ أو شرعي أو رسولي. وقيل هو قولُ الرسولِ ﷺ أُمِرَ أنْ يقولَه. ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه. ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضلُّ سالِكُه.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٢) ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن المتابعة. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ثابتٌ عداوتَه بأنْ أخرجَكم عن الجنة وعرَّضَكُم للبلية.

(٦٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحاتِ. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل أو بالشريعة. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلَّقُ بأمر الدنيا، فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام لم يُبْعَثُوا لبيانه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «أنتم أعلمُ بأمرِ دنياكم»[1]. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلِّغه عنه.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ بيانٌ لما أمرهم بالطاعةِ فيه، وهو اعتقادُ التوحيدِ والتعبُّدُ بالشرائعِ. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الإشارةُ إلى مجموعِ الأمرين وهو تتمةُ كلامِ عيسى عليه الصلاة والسلام، أو استئنافٌ من الله تعالى يدلُّ على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك.

(٦٥) ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الفِرَقُ المتحزِّبةُ. ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى أو اليهودِ والنصارى من بين قومِه المبعوثِ إليهم. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من المتحزِّبين ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو القيامة.

(٦٦) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الضمير لقريش أو للذين ظلموا. ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدلٌ من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيانَ الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غافِلُون عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارِهم لها.

(٦٧) ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ الأحِبَّاءُ. ﴿يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يتعادَوْنَ يومئذ لانقطاع العُلَقِ لظهورِ ما كانوا يتخالُّون له سبباً للعذاب. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنَّ خِلَّتهم لما كانتْ في الله تبقى نافعةً أبدَ الآباد.

(٦٨) ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حكايةٌ لما يُنادى به المتقون المتحابُّون في الله يومئذ، وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائي وحفص بغير الياءِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٣٦ رقم ١٤١/ ٢٣٦٣) من طريق حماد بن سلمة عن هشام عن عروة عن عائشة وعن ثابت عن أنس؛ قالا: إن النبي ﷺ مرَّ بقوم يلقحون. فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شيصاً. فمرَّ بهم فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم
بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ
ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى
عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ
يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾

(٦٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صفةُ المنادي. ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ حالٌ من الواو أي الذين آمنوا مخلصين، غير أنَّ هذه العبارةَ آكدُ وأبلغُ.

(٧٠) ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ نساؤكم المؤمناتُ. ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسَرُّون سروراً يظهرُ حبارُه أي أثرهُ على وجوهكم، أو تزيَّنون من الحبرِ وهو حسنُ الهيئة أو تكرمون إكراماً يُبَالغُ فيه، والحبرةُ المبالغةُ فيما وصف بجميلٍ.

(٧١) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الصحافُ جمع صحفة، والأكواب جمع كوب وهو كوزٌ لا عروةَ له. ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ وقرأ نافع وابنُ عامر وحفص تشتهيه الأنفسُ على الأصل. ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته وذلك تعميمٌ بعد تخصيص ما يُعَدُّ من الزوائد في التنعُّم والتلذُّذِ. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فإنَّ كلَّ نعيمٍ زائلٌ موجب لكلفةِ الحفظ وخوف الزوال ومستعقِبٍ للتحسُّر في ثاني الحال.

(٧٢) ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ ورثتُموها، شبَّه جزاءَ العمل بالميراث لأنه يخلُفه عليه العاملُ، وتلك إشارةٌ إلى الجنة المذكورة وقعتْ مبتدأً والجنةُ خبرُهَا، والتي أُورِثْتُموها صفتُها أو الجنةُ صفةُ تلك والتي خبرُهَا أو صفة الجنة والخبرُ بما كنتم تعملون، وعليه يتعلَّق الباء بمحذوفٍ لا بأورثتموها.

(٧٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بعضُها تأكلون لكثرتها ودوامِ نوعها، ولعلَّ تفصيل التنعُّم بالمطاعمِ والملابس وتكريره في القرآن وهو حقيرٌ بالإضافة إلى سائر نعائِم الجنة لما كان بهم من الشدةِ والفاقةِ.

(٧٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكاملين في الإجرام وهم الكفارُ لأنه جعلَ قسيمَ المؤمنين بالآياتِ، وحكَى عنهم ما يخصُّ بالكفار. ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ خبرُ إنَّ أو خالدون خبرٌ والظرفُ متعلِّق به.

(٧٥) ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يُخفَّفُ عنهم من فترتْ عنه الحمَّىٰ إذا سكنتْ قليلاً والتركيبُ للضعفِ. ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاةِ.

(٧٦) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مر مثلُه غيرَ مرَّةٍ وهم فصلٌ.

(٧٧) ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ وقرىء يا مالُ على الترخيم مكسوراً ومضموماً، ولعلَّه إشعارٌ بأنهم لضعفهم لا يستطيعونَ تأديةَ اللفظ بالتمام ولذلك اختصَروا فقالوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ والمعنى سلْ ربَّنا أنْ يقضيَ

علينا من قضى عليه إذا أماته، وهو لا ينافي إبلاسَهم فإنه جُؤَارٌ وتمنٍّ للموت من فَرْطِ الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ لا خلاصَ لكم بموتٍ ولا بغيره.

لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالإرسال والإنزالِ، وهو تتمةُ الجواب إنْ كان في قال ضميرُ اللهِ وإلا فجوابٌ منه فكأنه تعالى تولَّى جوابَهم بعد جواب مالكٍ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لما في اتباعِه من إتعابِ النفس وآداب الجوارحِ.

(٧٩) ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ في تكذيب الحقِّ وردِّه ولم يقتصِروا على كراهته. ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أمراً في مجازاتهم. والعدولُ عن الخطاب للإشعار بأن ذلك أسوأُ من كراهتهم، أو أم أحكمَ المشركون أمراً من كيدهم بالرسول فإنا مبرمونَ كيدَنا بهم، ويؤيدُه قولُه:

(٨٠) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديثَ أنفسِهم بذلك. ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ وتناجيهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعُهما. ﴿وَرُسُلُنَا﴾ والحفظةُ مع ذلك. ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمةٌ لهم. ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

(٨١) ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ منكم فإنَّ النبيَّ ﷺ يكون أعلمَ بالله وبما يصح له وبما لا يصح له، وأولى بتعظيم ما يُوجِبُ تعظيمَه ومن تعظيم الوالدِ تعظيمُ ولده، ولا يلزم من ذلك صحةُ كينونةِ الولد وعبادته له إذِ المحالُ قد يستلزمُ المحالَ بلِ المرادُ نفيُهما على أبلغ الوجوهِ كقوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] غير أنَّ «لو» ثَمَّ مشعرةٌ بانتفاء الطرفين، وإنْ هَهنا لا تشعِرُ به ولا بنقيضِه فإنها لمجردِ الشريطةِ، بلِ الانتفاءُ معلوم لانتفاءِ اللازم الدالِّ على انتفاء ملزومه، والدلالةُ على أن إنكاره الولدَ ليس لعناد ومِرَاءٍ بل لو كان لكان أولى الناس بالاعترافِ به. وقيل معناه إنْ كان له ولدٌ في زعْمِكم فأنا أول العابدين لله الموحِّدين له أو الآنفينَ منه، أو من أنْ يكون له ولدٌ من عبِدٍ يعبدُ إذا اشتدَّ أنفُه، أو ما كان له ولدٌ فأنا أولُ الموحدين من أهل مكَّةَ. وقرأ حمزة والكسائيُّ وُلْدٌ بالضمِّ وسكون اللام.

(٨٢) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عن كونه ذا ولدٍ فإن هذه الأجسامَ لكونها أصولاً ذاتَ استمرار تبرَّأَتْ عما يتَّصف به سائرُ الأجسام من توليد المثْلِ، فما ظنُّك بمبدعها وخالقها.

(٨٣) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم. ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي يومَ القيامة، وهو دلالةٌ على أنَّ قولَهم هذا جهلٌ واتباعُ هوى، وإنهم مطبوعٌ على قلوبهم معذَّبون في الآخرة.

---

(١) الأنبياء: «٢٢».

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن
شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ مستحقٌّ لأنْ يُعْبَدَ فيهما، والظرفُ متعلِّقٌ به لأنه بمعنى المعبود أو متضمِّنٌ معناه كقولك: هو حاتمٌ في البلد، وكذا فيمن قرأ اللهُ والراجعُ مبتدأٌ محذوفٌ لطولِ الصلة بمتعلَّقِ الخبرِ والعطفِ عليه، ولا يجوزُ جعْلُه خبراً له لأنه لا يبقى له عائدٌ لكنْ لو جُعِلَ صلةً وقُدِّرَ الإلهُ مبتدأ محذوفٍ يكون به جملةً مبينةً للصلة دالةً على أن كونَه في السماء بمعنى الألوهية دون الاستقرارِ، وفيه نفيُ الآلهة السماوية والأرضيةِ واختصاصُه باستحقاق الألوهية. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كالدليل عليه.

(٨٥) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء. ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ العلمُ بالساعة التي تقوم القيامةُ فيها. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصمٌ ورَوْحٌ بالتاءِ على الالتفاتِ للتهديد.

(٨٦) ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤُهم عند الله. ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بالتوحيد، والاستثناءُ متصلٌ إنْ أُرِيدَ بالموصول كلُّ ما عُبِدَ من دون الله لاندراجِ الملائكةِ والمسيح فيه، ومنفصلٌ إنْ خُصَّ بالأصنام.

(٨٧) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ سألتَ العابدين أو المعبودين. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لتعذُّرِ المكابرة فيه من فَرْطِ ظهوره ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرفُون عن عبادته إلى عبادة غيرِه.

(٨٨) ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ وقولَ الرسولِ ونَصَبَه للعطف على سرِّهم، أو على محلِّ الساعة أو لإضمار فعلِه أي وقال قيلَه. وجرَّهُ عاصم وحمزة عطفاً على الساعةِ، وقرىء بالرفعِ على أنه مبتدأٌ خبره. ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أو معطوفٌ على علم الساعة بتقدير مضافٍ. وقيلَ هو قسمٌ منصوبٌ بحذف الجارِّ أو مجرورٌ بإضماره، أو مرفوعٌ بتقدير وقيله يا ربِّ قسمي، وإنَّ هؤلاءِ جوابُه.

(٨٩) ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرضْ عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ تسلُّمٌ منكم ومتارَكَةٌ. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تسليةٌ للرسولِ ﷺ وتهديدٌ لهم، وقرأ نافع وابن عامر بالتاءِ على أنه من المأمور بقوله.

عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورةَ الزخرف كان ممنْ يُقَالُ له يومَ القيامة يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزنون»(١).

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٧ رقم ٣٧٨).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الدُّخَانِ

ترتيبها ٤٤ آياتها ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾

سورة الدخان مكيةٌ[١]

إلا قولَه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾[٢] الآيةَ، وهي سبعٌ أو تسعٌ وخمسون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ القرآنُ والواو للعطف إنْ كان حمٓ مقسَماً به وإلا فللقسمِ والجوابُ قولُه:

(٣) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ ليلةِ القدرِ، أو البراءةِ[٣] ابتُدِىءَ فيها إنزالُه، أو أُنزِلَ فيها جملةً إلى سماءِ الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أنزل على الرسولِ ﷺ نجوماً وبركتُها لذلك، فإنَّ نزولَ القرآن سببٌ للمنافع الدينية والدنيوية، أو لما فيها من نزول الملائكة والرحمةِ وإجابةِ الدعوة وقَسْمِ النعمة وفصْلِ الأقضية. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئنافٌ يبين المقتضى للإنزال وكذلك قولُه:

---

(١) أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة (حم) الدخان وأخرج ابن مردويه، عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت بمكة سورة الدخان. «الدر المنثور» (٧/ ٣٩٧).

(٢) الدخان: «١٥».

(٣) ليلة البراءة هي ليلة النصف من شعبان (انظر روح المعاني ٢٥/ ١١٠).

(٤) ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ فإن كونها مفرَقُ الأمور المحكمة أو الملتبسةِ بالحكمة يستدعي أن ينزلَ فيها القرآنُ الذي هو من عظائمها، ويجوز أنْ يكونَ صفةَ ليلةٍ مباركة وما بينهما اعتراضٌ، وهو يدل على أنَّ الليلةَ ليلةُ القدر لأنه صفتُها لقوله ﴿تَنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ وقرىء يُفَرَّقُ بالتشديد، ويَفْرُقُ كلَّ أي يفرقه اللهُ، ونَفْرِق بالنونِ.

(٥) ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ أي أعني بهذا الأمرِ أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتِنا، وهو مزيدُ تفخيم للأمرِ، ويجوزُ أنْ يكون حالاً من كلّ أو أمرٍ، أو ضميره المستكِنّ في حكيم لأنه موصوف، وأنْ يكون المرادُ به مقابلَ النهي وقَعَ مصدراً ليفرق أو لفعلِه مضمراً من حيثُ إن الفرقَ به، أو حالاً من أحدِ ضميري أنزلناه بمعنى آمرين أو مأموراً. ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾.

(٦) ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بدلٌ من إنا كنَّا منذرين أي أنزلْنا القرآنَ لأنَّ من عادتنا إرسالَ الرسل بالكتب إلى العباد لأجلِ الرحمة عليهم، ووضعَ الربَّ موضعَ الضمير للإشعارِ بأنَّ الربوبيةَ اقتضتْ ذلك، فإنه أعظمُ أنواع التربية أو علَّةً ليفرِّقَ أو أمراً، ورحمةً مفعولٌ به أي يفصلُ فيها كلَّ أمر أو تصدرُ الأوامرُ من عندنا لأنَّ. مِنْ شأننا أنْ نرسلَ رحمتَنا، فإنَّ فصْلَ كلِّ أمر من قسمةِ الأرزاق وغيرها وصدورِ الأوامرِ الإلهية من باب الرحمةِ. وقرىء رحمةٌ على تلك رحمةٌ. ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يسمع أقوالَ العباد ويعلم أحوالَهم، وهو بما بعدَه تحقيقٌ لربوبيته فإنها لا تحقُّ إلا لمن هذه صفاتُه.

(٧) ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ خبرٌ آخرُ أو استئنافٌ. وقرأ الكوفيون بالجرِّ بدلاً من ربِّك. ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقانِ في العلومِ، أو كنتم موقنينَ في إقرارِكم إذا سُئِلْتُم مَنْ خلقَها؟ فقلتم اللهُ، علمتُم أنَّ الأمر كما قلْنا، أو إن كنتم مريدين اليقينَ فاعلموا ذلك.

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا خالقَ سواهُ. ﴿ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ كما تشاهدون. ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وقُرِئَا بالجرِّ بدلاً من ربك.

(٩) ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ ردٌّ لكونهم موقنين.

(١٠) ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ فانتظرْ لهم. ﴿ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يوم شدَّةٍ ومجاعة فإنَّ الجائعَ يرى بينَه وبينَ السماء كهيئة الدخانِ من ضعفِ بصرِه، أو لأنَّ الهواءَ يظلمُ عامَ القحط لقلةِ الأمطار وكثرةِ الغبار، أو لأن العرب تسمي الشرَّ الغالبَ دخاناً وقد قحطُوا حتى أكلوا جيفَ الكلاب وعظامَها، وإسنادُ الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفُّه عن الأمطار، أو يومَ ظهورِ الدخان المعدودِ في أشراطِ الساعة لما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام لما قال: «أولُ الآيات الدخانُ ونزول عيسى عليه السلام، ونارٌ تخرج من قعْرِ عدنِ أَبْيَنَ تسوقُ الناسَ إلى المحشرِ» قيل وما الدخانُ؟ فتلا رسولُ الله ﷺ الآيةَ وقال: «يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكثُ أربعينَ يوماً وليلةً، أما المؤمن فيصيبُه كهيئة الزُّكام، وأما الكافرُ فهو

كالسكرانِ يخرج من منخريهِ وأذنيه ودُبُرِهِ»(١) أو يومَ القيامة والدخانُ يَحْتَمِلُ المعنيين.

يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

(١١) ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ يحيطُ بهم صفةٌ للدخان وقوله ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

(١٢) ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ مقدَّر بقولٍ وقعَ حالاً وإنا مؤمنون وعدٌ بالإيمان إنْ كشفَ العذابَ عنهم.

(١٣) ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ من أين لهم وكيف يتذكَّرون بهذه الحالةِ. ﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ بيَّن لهم ما هو أعظمُ منها في إيجاب الإذكار من الآيات والمعجزات.

(١٤) ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي قال بعضُهم يعلمه غلامٌ أعجمي لبعض ثقيفَ. وقال آخرون إنه مجنون.

(١٥) ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ ﴾ بدعاء النبيِّ عليه الصلاة والسلام فإنه لما دعا رُفِعَ القحطُ ﴿ قَلِيلًا ﴾ كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم. ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ إلى الكفر غبَّ الكشفِ، ومَنْ فسَّر الدخانَ بما هو من الأشراطِ قال: إذا جاء الدخانُ غَوِثَ الكفار بالدعاء فيكشفُه الله عنهم بعدَ الأربعينَ، فريثما يكشفُه عنهم يرتدُّون، ومن فَسَّره بما في القيامة أوَّله بالشرطِ والتقدير.

(١٦) ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ يوم القيامة أو يومَ بدْرٍ ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه. ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ لا لمنتقمون فإنَّ إنْ تحجُزه عنه، أو بدلٌ من يوم تأتي. وقرىء نبطشُ أي نجعلُ البطشةَ الكبرى باطشةً بهم، أو نحملُ الملائكةَ على بطشِهم وهو التناولُ بصولةٍ.

(١٧) ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ امتحنَّاهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، أو أوقعْناهم في الفتنة بالإمهالِ وتوسيع الرزقِ عليهم. وقرىء بالتشديد للتأكيدِ أو لكثرةِ القوم. ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرفِ نسبه وفضْلِ حَسَبِهِ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٥/ ١١٤) والبغوي في «معالم التنزيل» (٧/ ٢٣٠) من حديث حذيفة بن اليمان.
وقال ابن جرير: «... وإنما لم أشهد له بالصحة ـ أي الحديث ـ لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل رواداً عن هذا الحديث، هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا، فقلت له: فقرأته عليه، فقال: لا، فقلت له: فقرىء عليه وأنت حاضر فأقرَّ به، قال: لا، فقلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني به قوم فعرضوه عليَّ وقالوا لي: اسمعه منا فقرؤوه عليَّ، ثم ذهبوا، فحدثوا به عني، أو كما قال؛ فلما ذكرت من ذلك لم أشهد له بالصحة...» هـ.

أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ
أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٞ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾
وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٞ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٖ كَانُواْ فِيهَا
فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

(١٨) ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ ﴾ بأنْ أدُّوهم إليَّ وأرسلوا معيَ، أو بأنْ أدوا إلي حقَّ الله من الإيمان وقبولِ الدعوة يا عبادَ الله، ويجوزُ أن تكون أنْ مخففةً ومفسِّرةً لأنَّ مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة. ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾ غيرُ متَّهم لدلالة المعجزاتِ على صدقه، أو لائتمان الله إياه على وحْيِه وهو علَّةُ الأمرِ.

(١٩) ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ ﴾ ولا تتكبَّروا عليه بالاستهانة بوحيه ورسوله، وأنْ كالأولى في وجْهَيْهَا. ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ علةٌ للنهي، ولذكرِ الأمين مع الأداء والسلطان مع العلاءِ شأنٌ لا يَخْفَى.

(٢٠) ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ التجأت إليه وتوكَّلْتُ عليه. ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ أن تؤذوني ضرباً أو شتْماً أو أنْ تقتلوني. وقرىء عُتُّ بالإدغام فيه.

(٢١) ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ فكونوا بمعزِلٍ مني لا عليَّ ولا لي، ولا تتعرضوا إليَّ بسوء فإنه ليس جزاءَ مَنْ دعاكم إلى ما فيه فلا حُكم.

(٢٢) ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ ﴾ بعدما كذَّبوه. ﴿ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بأنَّ هؤلاء ﴿ قَوْمٞ مُّجْرِمُونَ ﴾ وهو تعريضٌ بالدعاء عليهم بذكْرِ ما استوجبوه به ولذلك سمَّاه دعاءً، وقرىء بالكسر على إضمار القولِ.

(٢٣) ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ أي فقال أسرِ أو قال إن كان الأمرُ كذلك فأسْرِ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابنُ كثير بوصلِ الهمزة من سَرَى ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ يتَّبعكم فرعونُ وجنوده إذا علموا بخروجكم.

(٢٤) ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ ﴾ مفتوحاً ذا فجوة واسعةٍ أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزْته ولا تضْربه بعصاكَ ولا تغيِّرْ منه شيئاً ليدخلَه القُبُطُ ﴿ إِنَّهُمْ جُندٞ مُّغْرَقُونَ ﴾ وقرىء بالفتح بمعنى لأنَّهم.

(٢٥) ﴿ كَمْ تَرَكُواْ ﴾ كثيراً تركُوا. ﴿ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾.

(٢٦) ﴿ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴾ محافِلَ مزينةً ومنازلَ حسنةً.

(٢٧) ﴿ وَنَعْمَةٖ ﴾ وتنعُّمٍ. ﴿ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ متنعِّمين، وقرىء فكِهين.

(٢٨) ﴿ كَذَٰلِكَۖ ﴾ مثلُ ذلك الإخراج أخرجْناهم أوِ الأمرُ كذلك. ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا ﴾ عطفٌ على المقدَّر أو على تركوا ﴿ قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ ليسوا منهم في شيء وهم بنو إسرائيلَ، وقيل غيرُهم لأنهم لم يعودوا إلى مِصْرَ.

(٢٩) ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ مجازٌ عن عدم الاكتراثِ بهلاكهم والاعتدادِ بوجودهم كقولهم: بكتْ عليهم السماءُ والأرض وكُسِفَتْ لمهلِكهم الشمسُ في نقيض ذلك. ومنه ما رُوِيَ في

الأخبار: إن المؤمنَ ليبكي عليه مصلاَّهُ ومحلُّ عبادته ومصعدُ عمله ومهبطُ رزقِه[1]. وقيل تقديره فما بكتْ عليهم أهلُ السماءِ والأرض ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ ممهلينَ إلى وقتٍ آخرَ.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ
عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ
إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٠) ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ من استعبادِ فرعونَ وقتلِه أبناءَهم.

(٣١) ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ من العذاب على حذفِ المضافِ، أو جعله عذاباً لإفراطه في التعذيب، أو حالٌ من المهين بمعنى واقعاً من جهته، وقرىء مَنْ فرعونُ على الاستفهام تنكيرٌ له لِنُكْرِ ما كان عليه من الشيطَنةِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً. ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في العتوِّ والشرارة، وهو خبرٌ ثانٍ أي كان متكبِّراً مسرِفاً، أو حالٌ من الضمير في عالياً أي كان رفيعَ الطبقةِ من بينهم.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيلَ. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بأنهم أحقَّاءُ بذلك، أو مع علمٍ منَّا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالَمَيْ زمانِهم.

(٣٣) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفلْقِ البحر وتظليلِ الغمام وإنزالِ المنِّ والسلوى. ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ نعمةٌ جليَّةٌ أو اختبارٌ ظاهر.

(٣٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفَّارَ قريش، لأنَّ الكلامَ فيهم، وقصةُ فرعونَ وقومِه مسوقةٌ للدلالة على أنهم مثلُهم في الإصرار على الضلالة، والإنذار عن مثل ما حلَّ بهم. ﴿لَيَقُولُونَ﴾.

(٣٥) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما العاقبةُ ونهاية الأمر إلا الموتةُ الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، ولا قصدَ فيه إلى إثبات ثانية كما في قولك: حجَّ زيدٌ الحجة الأولى وماتَ. وقيل لما قيل إنكم تموتون موتةً يعقبها حياةٌ كما تقدم منكم موتةٌ كذلك قالوا إنْ هي إلا موتَتُنا الأولى، أي ما الموتةُ التي من شأنها كذلك إلا الموتةُ الأولى. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين.

(٣٦) ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطابٌ لمن وعدَهم بالنشور من الرسولِ والمؤمنين. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في وعدكم ليدلَّ عليه.

(٣٧) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمَنعَةِ. ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ تُبّع الحميريُّ الذي سارَ بالجيوش وحيَّر الحيرةَ وبنى سمرقندَ، وقيل هدمَها وكان مؤمناً وقومُه كافرين ولذلك ذمَّهم دونه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «مـا أدري أكـان تُبّع نبيـاً أم غيـرَ ....

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٥/ ١٢٤ ـ ١٢٥) من ثلاثة طرق من حديث ابن عباس نحوه اثنان منها ضعيفان وأحدهما صحيح.

نبيٌّ»[١]. وقيل لملوك اليمنِ التبابعةُ لأنهم يتَّبعون كما قيل لهم الأقيالَ لأنهم يتقيَّلون. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ كعاد وثمودَ. ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ استئنافٌ بمآل قوم تبعٍ، والذين من قبلهم هدَّد به كفارَ قريش، أو حالٌ بإضمار قدْ أو خبرُ مَنْ الموصولِ إنِ استُؤْنِفَ به. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ بيانٌ للجامع المقتضي للإهلاكِ.

وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ وَمَا بين الجنسين وقرىء وما بينهنَّ ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لاهينَ، وهو دليلٌ على صحة الحشرِ كما مرَّ في الأنبياء وغيرِها.

(٣٩) ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ إلا بسببِ الحقِّ الذي اقتضاه الدليلُ من الإيمان والطاعة، أو البعثِ والجزاءِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لقلة نظرِهم.

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ فصلُ الحقِّ عن الباطل، أوِ المحقِّ عن المبطلِ بالجزاء، أو فصلُ الرجلِ عن أقاربه وأحبائِه. ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾ وقتُ موعدِهم. ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ وقرىء ميقاتَهم بالنصبِ على أنه الاسمُ أي إنَّ ميعادَ جزائِهم في يوم الفصل.

(٤١) ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي﴾ بدلٌ من يوم الفصل أو صفةٌ لميقاتهم، أو ظرفٌ لما دلَّ عليه الفصلُ لاله للفصلِ. ﴿مَوۡلًى﴾ من قرابة أو غيرها. ﴿عَن مَّوۡلٗى﴾ أيِّ مولًى كان. ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الإغناء. ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ الضمير لمولى الأولِ باعتبار المعنى لأنه عامٌّ.

(٤٢) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ بالعفو عنه وقبولِ الشفاعة فيه، ومحلُّه الرفعُ على البدلِ من الواو والنصبُ على الاستثناءِ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ لا يُنصَرُ منه مَنْ أرادَ تعذيبَهُ. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن أرادَ أنْ يرحَمَهُ.

(٤٣) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ وقرىء بكسر الشين، ومعنى الزقومِ سَبَقَ في الصافات[٢].

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٤٨ رقم ٣٨٧): «ـ أخرجه ـ الثعلبي من طريق عبدالرزاق عن معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة بهذا.
والمعروف بهذا الإسناد «ما أدري أَلعينٌ هو أم لا، وما أدري أعزير نبي أم لا».
أخرجه أبو داود ـ (٥/ ٥٤ رقم ٤٦٧٤) ـ وكذا الحاكم ـ (١/ ٣٦) و(٢/ ١٤) و(٢/ ٤٥٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ـ لكن قال: ذو القرنين بدل «عزير».
قال الدارقطني تفرد به عبدالرزاق وغيره أرسله» هـ.
قلت: ووافق الحاكم والذهبي والألباني في «الصحيحة» (رقم: ٢٢١٧) والخلاصة أن الحديث صحيح. ولمزيد من البيان انظر «الصحيحة».

(٢) الزقوم عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه استعير زقم فلان وتزقم إذا ابتلع شيئاً كريهاً. (المفردات للراغب الأصفهاني ص٢١٣).

طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

(٤٤) ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ الكثيرُ الآثامِ، والمرادُ به الكافر لدلالة ما قبلَه وما بعدَه عليه.

(٤٥) ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو ما يمهلُ في النار حتى يذوبَ. وقيل درديُّ الزيت[1]. ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ وقرأ ابن كثير وحفصٌ ورويس بالياء على أن الضميرَ للطعامِ، أو الزقومِ لا للمهلِ إذِ الأظهرُ أنَّ الجملةَ حالٌ من أحدِهما.

(٤٦) ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ غليانا مثلَ غَلْيِه.

(٤٧) ﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القولِ، والمقولُ له الزبانيةُ. ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ فجرُّوه، والعتْلُ الأخذُ بمجامعِ الشيء وجرُّه بقهرٍ، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر ويعقوبُ بالضم وهما لغتانِ. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وسطِه.

(٤٨) ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كان أصلُه يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميمُ فقيل يُصَبُّ من فوق رؤوسِهم عذابٌ هو الحميمُ للمبالغة، ثم أضيفَ العذابُ إلى الحميمِ للتخفيفِ وزِيْدَ من الدلالة على أنَّ المصبوبَ بعضُ هذا النوع.

(٤٩) ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي وقولُوا له ذلك استهزاءً به وتقريعاً على ما كان يزعُمُهُ، وقرأ الكسائي أنك بالفتحِ أي ذقْ لأنك أوِ عذابَ أنَّك.

(٥٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إنَّ هذا العذابَ ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ تَشْكُّون وتمارونَ فيه.

(٥١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ في موضعِ إقامة، وقرأ نافع وابن عامر بضمِّ الميم ﴿أَمِينٍ﴾ يأمنُ صاحِبُه عن الآفة والانتقال.

(٥٢) ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدلٌ من مقامٍ جيء به للدلالة على نزاهته، واشتمالِه على ما يُسْتَلَذُّ به من المآكل والمشارِب.

(٥٣) ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ من الضمير في الجارِّ أو استئناف، والسندسُ ما رَقَّ من الحرير، والإستبرقُ ما غَلُظَ منه معرَّبُ استبرهِ، أو مشتقٌّ من البراقةِ. ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنسَ بعضُهم ببعض.

(٥٤) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمرُ كذلك أو آتيناهم مثلَ ذلك. ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ قرنَّاهم بهنَّ ولذلك عُدِّيَ بالباء، والحوراءُ البيضاءُ والعيناءُ عظيمةُ العينين، واخْتُلِفَ في أنهنَّ نساءُ الدنيا أو غيرُها.

---

(١) العكر الباقي منه.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(٥٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضارِ ما يشتهون من الفواكهِ لا يتخصَّصُ شيءٌ منها بمكان ولا بزمان. ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الضررِ.

(٥٦) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بل يَحْيَوْنَ فيها دائماً، والاستثناءُ منقطعٌ أو متصلٌ والضمير للآخرةِ، والموتُ أولُ أحوالِها، أوِ الجنةِ والمؤمنُ يشارِفُها بالموت ويشاهدُها عنده فكأنه فيها، أو الاستثناءُ للمبالغةِ في تعميم النفي وامتناع الموت فكأنه قال: لا يذوقون فيها الموتَ إلا إذا أمكنَ ذوقَ الموتةِ الأولى في المستقبل. ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وقرىء ووقَّاهم على المبالغةِ.

(٥٧) ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أُعطُوا كلَّ ذلك عطاءً وتفضُّلاً منه. وقرىء بالرفع أي ذلك فضلٌ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاصٌ عن المكاره وفوزٌ بالمطالب.

(٥٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ سهلناه حيث أنزلناه بلغتك وهو فذلكة السورة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يفهمونه فيتذكرون به ما لم يتذكروا.

(٥٩) ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلُّ بهم. ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظِرُون ما يحلُّ بك. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ حم الدخانَ ليلةَ جمعةٍ أصبحَ مغفوراً له»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث ضعيف جداً.
أخرجه الترمذي (٥/ ١٦٣ رقم ٢٨٨٩) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٦٧٩) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقداد يضعف. ولم يسمع الحسن من أبي هريرة، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بنُ زيد» هـ.
وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٥/ ٢٣٥ رقم ٥٧٧٩): «ضعيف جداً» هـ.

سُورَةُ الجَاثِيَة

ترتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ
مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

سورة الجاثية مكيةٌ(١) وآيُها سبعٌ أو ستٌّ وثلاثون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إنْ جعلتَ حمٓ مبتدأً خبرُه تنزيلُ الكتاب احتجْتَ إلى إضمارِ مثلُ ذلك تنزيلُ حمٓ، وإن جعلْتَها تعديداً للحروف كان تنزيلُ مبتدأً خبرهُ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وقيل حمٓ مقْسَمٌ به وتنزيلُ الكتاب صفتُه، وجوابُ القسم:

(٣) ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو يُحْتَمَلُ أنْ يكون على ظاهره وأنْ يكون المعنى إنَّ في خلقِ السموات لقوله:

(٤) ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ ولاَ يحسنُ عطفُ ما على الضمير المجرورِ بل عطفُه على المضافِ إليه بأحدِ الاحتمالينِ، فإنَّ بثَّه وتنوُّعه واستجماعَه لما به يتمُّ معاشُه إلى غير ذلك دلائلُ على وجود الصانع المختارِ. ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ محمولٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب بالنصبِ حملاً على الاسمِ.

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٤٢٢) وزاد المسير (٧/ ٣٥٤).

(٥) ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ من مطرٍ، وسمَّاه رزقاً لأنه سببُه. ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يُبْسِها. ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ باختلافِ جهاتها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائيُّ وتصريفِ الريح[١]. ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فيه القراءتانِ ويلزمُهما العطفُ على عاملين في والابتداءِ، أو إنَّ إلا أنْ يُضمرَ في أو ينصِبَ آياتٍ على الاختصاصِ أو يرفعَ بإضمار هي، ولعلَّ اختلافَ الفواصلِ الثلاثِ لاختلاف الآياتِ في الدقةِ والظهورِ.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ أي تلك الآياتُ دلائلُه ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ حالٌ عاملُها معنى الإشارةِ. ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ ملتبسينَ به أو ملتبسةً به. ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بعدَ آياتِ الله، وتقديمُ اسم الله للمبالغةِ والتعظيمِ كما في قولك أعجبني زيدٌ وكرمُه أو بعدَ حديثِ الله وهو القرآنُ كقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾[٢] وآياتُه دلائلُه المتلوَّةُ أو القرآنُ، والعطفُ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ. وقرأ الحجازيانِ وحفصٌ وأبو عمرو وروحٌ يؤمنون بالياء ليوافقَ ما قبلَه.

(٧) ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كذَّابٍ. ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثيرِ الآثام.

(٨) ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ يقيم على كفره. ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ عن الإيمان بالآياتِ. وثمَّ لاستبعادِ الإصرارِ بعدَ سماعِ الآياتِ كقوله: يَرَى غَمرَاتٍ ثُمَّ يَزُورها[٣]. ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كأنه فخُفِّفَتْ وحُذِفَ ضميرُ الشأنِ، والجملةُ في موضعِ الحالِ، أي يصرُّ مثلُ غيرِ السامعِ. ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على إصراره. والبشارةُ على الأصل أو التهكُّم.

(٩) ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ﴾ وإذا بلغه شيءٌ من آياتنا وعلمَ أنه منها. ﴿ ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ لذلك من غير أنْ يرى فيها ما يناسبُ الهزءَ، والضميرُ لآياتنا وفائدتُه الإشعارُ بأنه إذا سمع كلاماً وعلِمَ أنه من الآيات بادرَ إلى الاستهزاءِ بالآياتِ كلِّها ولم يقتصرْ على ما سمعَه، أو لشيءٍ لأنه بمعنى الآيةِ. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

(١٠) ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ من قدَّامهم لأنهم متوجِّهون إليها، أو من خلفِهم لأنها بعدَ آجالهم. ﴿ وَلَا

---

(١) تأخير الرياح عن إنزال المطر ـ مع تقدمه عليه في الوجود ـ إما للإيذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار (س٨/٦٨).

(٢) الزمر: «٢٣».

(٣) شطر من الطويل.

يُغْنِي عَنْهُم﴾ ولا يدفعُ عنهم. ﴿مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموالِ والأولاد. ﴿شَيْئًا﴾ من عذابِ الله. ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي الأصنام[١]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحمَّلونه.

هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ الإشارةُ إلى القرآن ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وقرأ ابنُ كثير ويعقوب وحفصٌ برفعِ أليمٍ، والرِجزُ أشدُّ العذاب.

(١٢) ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأنْ جعلَه أملسَ السطحِ يطفو عليه ما يتخلخلُ كالأخشابِ ولا يمنعُ الغوصَ فيه. ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيرِهِ وأنتم راكِبُوها. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ التجارةَ والغوصَ والصيدَ وغيرَها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمَ.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بأنْ خلقها نافعةً لكم. ﴿مِّنْهُ﴾ حالٌ من ما أي سخَّر هذه الأشياءَ كائنةً منه، أو خبرٌ لمحذوفٍ أي هي جميعاً منه، أو لما في السموات وسخَّر لكم تكريرٌ للتأكيد أو لما في الأرضِ. وقرىء مِنَّةً على المفعولِ له، ومَنُّه على أنه فاعلُ سخَّر على الإسنادِ المجازي أو خبرٌ محذوفٌ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنائعه.

(١٤) ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ حذفَ المقولَ لدلالةِ الجوابِ عليه، والمعنى قلْ لهم اغْفِروا يغفِروا أي يعفُوا ويصفحُوا. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يتوقَّعون وقائِعَه بأعدائه من قولهم: أيامُ العرب لوقائِعهم، أو لا يأمَلُون الأوقاتِ التي وقَّتها الله لنصرِ المؤمنين وثوابِهم ووعدَهم بها. والآيةُ نزلتْ في عمرَ رضيَ الله عنه شتمه غفاريٌّ فهمَّ أنْ يبطِشَ به[٢]. وقيل إنها منسوخةٌ بآية القتال. ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ علةٌ للأمر، والقومُ هم المؤمنون أو الكافرونَ أو كلاهُما فيكون التنكيرُ للتعظيم أو التحقيرِ أو الشيوعِ، والكسبُ المغفرةُ أو الإساءة أو ما يعمُّهما. وقرأ ابنُ عامر وحمزةُ والكسائي لنجزيَ بالنون؛ وقرىء ليُجْزي قومٌ، وليجزي قوماً أي ليجزيَ الخير أو الشرَّ أوِ الجزاءَ، أعني ما يُجْزَى به لا المصدرُ فإنَّ الإسنادَ إليه سيَّما مع المفعولِ به ضعيفٌ.

(١٥) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي لَهَا ثوابُ العملِ وعليها عقابُه. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

---

(١) توسيط حرف النفي «لا» بين المعطوفين ـ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلىٰ من عدم إغناء الأموال والأولاد ـ حيث إنه مبنيّ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم بهم (س٨/ ٦٩).

(٢) حكاه النحاس والمهدوي عن ابن عباس ـ كما في «روح المعاني» (٢٥/ ١٤٧).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

(١٦) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراةَ. ﴿ وَٱلْحُكْمَ ﴾ والحكمة النظرية والعملية، أو فصلَ الخصومات. ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ إذ كثُر فيهم الأنبياءُ ما لم يكثروا في غيرهم. ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ مما أحلَّ الله من اللذائذ. ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤتِ غيرَهُم.

(١٧) ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أدلةً في أمر الدين ويندرجُ فيها المعجزاتُ. وقيل آياتٌ من أمر النبيِّ عليه الصلاة والسلام مبينةٌ لصدقِه. ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ ﴾ في ذلك الأمرِ. ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ بحقيقة الحالِ. ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ عداوةً وحسداً. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بالمؤاخذة والمجازاةِ.

(١٨) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ ﴾ طريقةٍ ﴿ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ من أمر الدين. ﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ فاتَّبعْ شريعتَك الثابتةَ بالحججِ. ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ آراءَ الجهَّالِ التابعةَ للشهواتِ، وهم رؤساءُ قريش قالوا له ارجعْ إلى دين آبائِك.

(١٩) ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ مما أراد بك. ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ إذ الجنسيةُ علَّةُ الانضمام فلا توالِهم باتباع أهوائهم. ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فوالِهِ بالتُّقى واتباعِ الشريعةِ.

(٢٠) ﴿ هَٰذَا ﴾ أي القرآنُ أو اتباعُ الشريعة. ﴿ بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ بيناتٌ تبصِّرهم وجهَ الفلاحِ. ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة. ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ ونعمةٌ من الله. ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يطلبون اليقينَ.

(٢١) ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أم منقطعةٌ ومعنى الهمزةِ فيها إنكارُ الحسبانِ. والاجتراحُ الاكتسابُ ومنه الجارحةُ. ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ أنْ نصيِّرَهُم. ﴿ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ مثلَهم وهو ثاني مفعولي نجعلُ وقوله: ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ بدلٌ منه إنْ كان الضميرُ للموصول الأولِ لأنَّ المماثلةَ فيه، إذ المعنى إنكارُ أنْ يكون حياتُهم ومماتُهم سيينِ في البهجةِ والكرامة كما هو للمؤمنين، ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائي وحفصٍ سواءً بالنصبِ على البدل، أو الحالِ من الضمير في الكافِ، أو المفعوليةِ. والكافُ حالٌ وإنْ كان للثاني فحالٌ منه أو استئنافٌ يبين المقتضى للإنكار، وإنْ كان لهما فبدلٌ أو حالٌ من الثاني، وضميرُ الأولِ والمعنى إنكارُ أنْ يستووا بعدَ المماتِ في الكرامةِ أو تركِ المؤاخَذةِ كما استووا في الرزق والصحَّةِ في الحياة، أوِ استئنافٌ مقرِّرٌ لتساوي محيا كلِّ صنفٍ ومماتِه في الهدى والضلال، وقرىء مماتَهم بالنصبِ على أنَّ مَحْيَاهُم ومماتَهم ظرفانِ كمقْدَمِ الحاجِّ. ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ساءَ حكمُهم هذا أو بئس شيئاً حكمُوا به ذلك.

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه دليلٌ على الحكم السابقِ من حيثُ إنَّ خلْقَ ذلك بالحقِّ المقتضي للعدل يستدعي انتصارَ المظلومِ من الظالم، والتفاوتَ بين المسيء والمحسنِ، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد المماتِ. ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عَطفٌ على بالحقِّ لأنه في معنى العلَّةِ أو على عِلَّةٍ محذوفة مُثِّلَ ليدلَّ بها على قدرتهِ أو ليعدلَ ولتجزى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ وتضعيف عقاب، وتسميةُ ذلك ظلماً ولو فعلَه الله لم يكن منه ظلماً لأنه لو فعلَه غيرهُ لكان ظلماً كالابتلاءِ والاختبارِ.

(٢٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تركَ متابعةَ الهدى إلى متابعة الهوى فكأنه يعبدُه، وقرىء آلهةً هواهُ لأنه كان أحدُهم يستحسنُ حجراً فيعبدُه فإذا رأى أحسنَ منه رفضَه إليه. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ وخذلَه. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالماً بضلالِه وفساد جوهرِ روحِه. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يبالي بالمواعظِ ولا يتفكَّر في الآيات. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا ينظرُ بعين الاستبصار والاعتبار، وقرأ حمزة والكسائيُّ غشوةً. ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ من بعدِ إضلاله. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقرىء تتذكرون.

(٢٤) ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ﴾ ما الحياةُ أوِ الحالُ. ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحنُ فيها. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نكون أمواتاً نُطَفاً وما قبلَها ونحيا بعدَ ذلك، أو نموتُ بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادِنا، أو يموتُ بعضُنا ويحيا بعضُنا، أو يصيبنا الموتُ والحياةُ فيها وليس وراءَ ذلك حياةٌ، ويحتملُ أنَّهم أرادوا به التناسُخَ فإنه عقيدةُ أكثر عَبَدَةِ الأوثان. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلا مرورُ الزمان وهو في الأصل مدةُ بقاءِ العالم من دَهَرَهُ إذا غَلَبَهُ. ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني نسبةَ الحوادثِ إلى حركاتِ الأفلاك وما يتعلَّق بها على الاستقلال، أو إنكارَ البعث أو كليهما. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إذ لا دليلَ لهم عليه وإنما قالوه بناءً على التقليد والإنكارِ لما لم يُحِسُّوا به.

(٢٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالةِ على ما يخالفُ مُعتَقَدَهُم أو مبيناتٍ له. ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ ما كان لهم متشبَّثٌ يعارضونها به. ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وإنما سمَّاه حجَّةً على حُسْبَانِهم ومساقِهم، أو على أسلوبِ قولهم تحيةُ بَيْنِهمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ[1] فإنه لا يلزمُ من عدمِ حصولِ الشيء حالاً امتناعُه مطلقاً.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ على ما دلَّت عليه الحججُ. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فإنَّ مَنْ

---

(١) شطر من الوافر.

قدرَ على الابتداءِ قدرَ على الإعادة، والحكمةُ اقتضتِ الجمعَ للمجازاة على ما قُرِّرَ مراراً، والوعدُ المصدَّقُ بالآيات دلَّ على وقوعِها، وإذا كان كذلك أمكنَ الإتيانُ بآبائهم لكنَّ الحكمةَ اقتضتْ أن يُعادُوا يومَ الجمْع للجزاء. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلةِ تفكُّرهم وقصورِ نظرهم على ما يحسُّونه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ
كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم
مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

(٢٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعميمٌ للقدرة بعدَ تخصيصِها. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي ويخسر يومَ تقومُ ويومئذ بدلٌ منه.

(٢٨) ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ مجتمعةً من الجثْوةِ وهي الجماعةُ، أو باركةً مستوفزةً على الرُّكَبِ. وقرىء جاذيةً أي جالسةً على أطرافِ الأصابع لاستيفازِهم. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ صحيفةِ أعمالها. وقرأ يعقوبُ كلّ على أنه بدلٌ من الأول. وتدعى صفةٌ أو مفعولٌ ثانٍ. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ محمولٌ على القول.

(٢٩) ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أضافَ صحائفَ أعمالهم إلى نفسِه لأنه أمرَ الكَتَبَةَ أنْ يكتبوا فيها أعمالَهم[1] ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يَشهدُ عليكم بما عملتُم بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نستكتِبُ الملائكةَ. ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالَكُم.

(٣٠) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي من جملتها الجنةُ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهرُ لخلوصِه عن الشوائب.

(٣١) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي فيقالُ لهم ألم يأتِكم رُسُلي فلم تكنْ آياتي تُتْلَى عليكم، فحذفَ القولَ والمعطوفَ عليه اكتفاءً بالمقصود واستغناءً بالقرينة. ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادُتكم الإجرامُ.

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ يحتملُ الموعودَ به والمصدرَ. ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ هو أو متعلَّقُهُ لا محالةَ. ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ إفرادٌ للمقصود، وقرأ حمزة بالنصبِ عطفاً على اسم إنَّ. ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيُّ شيءٍ الساعةُ استغراباً لها. ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصلُه نظن ظناً فأدخلَ حرفا النفي والاستثناءِ لإثباتِ الظنِّ ونفيِ ما عداه كأنه قال: ما نحنُ إلا نظنُّ ظناً، أو لنفي ظنِّهم فيما سِوَى ذلك مبالغةً ثم أكَّده بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي لإمكانه، ولعلَّ ذلك قولُ بعضِهم تحيَّروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تُلِيَتْ

---

(١) أو لتفخيم شأنه وتهويل أمره (س٨/ ٧٤).

عليهم من الآياتِ في أمر الساعةِ.

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا
وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ
مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ ظهرَ لهم. ﴿ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ على ما كانتْ عليه بأنْ عرفوا قُبْحَها وعاينوا وخامةَ عاقِبَتِها، أو جزاءَها. ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهو الجزاءُ.

(٣٤) ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ ﴾ نترككُم في العذاب تركَ ما يُنسَى. ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾ كما تركتُم عِدَتَه ولم تبالُوا به، وإضافةُ لقاءِ إلى يومٍ إضافةُ المصدرِ إلى ظرفهِ. ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ يخلِّصونكم منها.

(٣٥) ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ استهزأتُم بها ولم تتفكَّروا فيها. ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ فحسبتُم أنْ لا حياةَ سواها. ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بفتحِ الياءِ وضمِّ الراءِ. ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لا يُطْلَبُ منهم أنْ يعتبوا ربَّهم أي يرضُوه لفواتِ أوانه.

(٣٦) ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ إذ الكلُّ نعمةٌ منه ودالٌّ على كمال قدرته.

(٣٧) ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إذْ ظهرَ فيها آثارُها. ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغْلَبُ. ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فيما قدَّر وقضَى فاحمدوه وكبِّروه وأطيعوا له. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ حمَ الجاثية سترَ الله عورتَه وسكَّنَ روعته يومَ الحسابِ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٩ رقم ٣٩٢) وانظر الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الأَحقَافِ

ترتيبها ٤٦ آياتها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

سورة الأحقاف مكيةٌ[1] وآيها أربعٌ أو خمسٌ وثلاثون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

(٣) ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا خلْقاً ملتبساً بالحقِّ وهو ما تقتضيه الحكمةُ والمعدلةُ، وفيه دلالةٌ على وجود الصانع الحكيم والبعثِ للمجازاة على ما قرَّرناه مراراً. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وبتقدير أجل مسمًّى ينتهي إليه الكلُّ وهو يومُ القيامة، أو كلُّ واحدٍ وهو آخر مدَّةِ بقائه المقدَّرة له. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ من هول ذلك الوقت، ويجوز أن تكون ما مصدرية. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيه ولا يستعدون لحلوله.

(٤) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي أخبروني عن حالِ آلهتكم بعد تأمُّلٍ فيها، هل يُعْقَلُ أنْ يكونَ لها في أنفسها مدخلٌ في خلْقِ شيء من أجزاء العالم

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة (حمٓ) الأحقاف وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٣٣).

فتستحقُّ به العبادةَ، وتخصيصُ الشرك بالسموات احترازٌ عما يُتَوَهَّمُ أنَّ للوسائط شركةً في إيجاد الحوادث السفليةِ. ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ من قبل هذا الكتابِ يعني القرآنَ فإنه ناطقٌ بالتوحيد. ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقيةٍ من علم بقيتْ عليكم من علوم الأوَّلينَ علَّ فيها ما يدلُّ على استحقاقهم للعبادة أو الأمرِ به. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكُم، وهو إلزامٌ بعدَمِ ما يدلُّ على ألوهيَّتِهم بوجْهٍ ما نقلاً بعدَ إلزامِهم بعدم ما يقتضيها عقلاً، وقرىء إثارةٍ بالكسرِ أي مناظرةٍ فإنَّ المناظرةَ تثير المعاني وأثرة أيْ شيءٍ أُوثِرْتُم به، وأَثَرَةٌ بالحركاتِ الثلاث في الهمزة وسكونِ الثاءِ فالمفتوحةِ للمرَّةِ من مصدرِ أَثَرَ الحديثَ إذا رواه والمكسورةُ بمعنى الأثرةِ والمضمومةُ اسمُ ما يُؤْثَرُ.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨

(٥) ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إنكارٌ أنْ يكونَ أحدٌ أضلَّ من المشركين حيثُ تركوا عبادةَ السميع البصير المجيب القادرِ الخبير إلى عبادة مَنْ لا يستجيبُ لهم لو سمعَ دعاءَهم، فضلاً أنْ يعلم سرائِرَهُم، ويراعي مصالِحَهُم. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ما دامتِ الدنيا. ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ لأنهم إما جماداتٌ وإما عبادٌ مسخَّرون مشتغِلون بأحوالهم[1].

(٦) ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ يضرُّونهم ولا ينفعونَهم. ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ مكذِّبين بلسانِ الحالِ أو المقالِ. وقيل الضميرُ للعابدين وهو كقوله تعالى ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2].

(٧) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ أو مبيناتٍ. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ لأجله وفي شأنه، والمرادُ به الآياتُ، ووضْعُه موضعَ ضميرها ووضْعُ الذين كفروا موضعَ ضمير المتلوِّ عليهم للتسجيل عليها بالحقِّ وعليهم بالكفرِ والانهماكِ في الضلالة. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ حينما جاءهم من غير نَظَرٍ وتأمُّل. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ بطلانُه.

(٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضرابٌ عن ذكرِ تسميتهم إياهُ سحراً إلى ذكْرِ ما هو أشنعُ منه وإنكارٌ له وتعجيبٌ. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على الفَرَضِ. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي إنْ عاجلني اللهُ بالعقوبة فلا تقدرونَ على دفع شيءٍ منها، فكيف أجترىءُ عليه وأعرِّضُ نفسي للعقابِ من غير توقُّع نفع ولا دفع ضُرٍّ من قِبَلِكُم. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تندفعون فيه من القدْحِ في آياته. ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾

---

(١) وضمائر العقلاء «وهم...» لإجرائهم إياها مجرى العقلاء.
ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة ـ مع ظهور حالها ـ للتهكم بها وبعبَدَتها، كقوله تعالى: «إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم» (س٨/٧٨).

(٢) الأنعام: «٢٣».

يشهدُ لي بالصدقِ والبلاغِ وعليكم بالكذبِ والإنكارِ، وهو وعيدٌ بجزاءِ إفاضَتِهم. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمَن تاب وآمن وإشعارٌ بحلم اللهِ عنهم مع عِظَم جُرْمِهم.

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بديعاً منهم أدعوكُم إلى ما لا يدعون إليه، أو أقدرُ على ما لم يقدروا عليه، وهو الإتيانُ بالمقترحات كلِّها. ونظيرهُ الخِفُّ بمعنى الخفيفِ. وقرىء بفتح الدالِ على أنه كقيِّم أو مقدَّر بمضافٍ أي ذا بدَعٍ. ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في الدارين على التفصيلِ إذ لا علمَ لي بالغيبِ، ولا لتأكيدِ النفي المشتملِ على ما يفعلُ بي، وما إما موصولة منصوبةٌ أوِ استفهاميةٌ مرفوعةٌ. وقرىء يَفعَلُ أي يفعلُ الله. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا أتجاوزُه، وهو جوابٌ عن اقتراحهم الإخبارَ عما لم يوحَ إليه من الغيوب، أوِ استعجالُ المسلمين أنْ يتخلَّصوا من أذى المشركين. ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من عقاب الله. ﴿مُّبِينٌ﴾ بيِّنُ الإنذارِ بالشواهدِ المبينة والمعجزاتِ المصدِّقة.

(١٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي القرآنُ. ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وقد كفرتُم به، ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ عاطفةً على الشرط وكذا الواوُ في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلا أنَّها تعطفه بما عُطِفَ عليه على جملةِ ما قبلَه. والشاهدُ هو عبدُالله بنُ سلام، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام، وشهادتُه ما في التوراة من نعتِ الرسول عليه الصلاة والسلامُ. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ مثلِ القرآنِ وهو ما في التوراة من المعاني المصدِّقة للقرآنِ المطابقة له، أو مثلِ ذلك وهو كونُه من عند الله. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي بالقرآنِ لما رآه من جنسِ الوَحي مطابقاً للحقِّ. ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافٌ مشعِرٌ بأنَّ كفرَهُم به لضلالهم المسبَّبِ عن ظلمِهم، ودليلٌ على الجواب المحذوف مثلُ ألستُم ظالمين.

(١١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأجلِهم. ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمانُ أو ما أتى به محمدٌ عليه الصلاة والسلام. ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ وهم سقَّاطٌ إذ عامَّتُهم فقراءُ وموالٍ ورعاةٌ، وإنما قاله قريشٌ وقيل بنو عامر وغطفانُ وأسدٌ وأشجعُ لما أسلَم جُهَيْنَةُ ومزينةُ وأسْلَمُ وغفارٌ، أو اليهودُ حين أسلمَ عبدالله بنُ سلام وأصحابه. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ ظرفٌ لمحذوفٍ مثلُ ظَهرِ عنادِهم وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبَّبٌ عنه وهو كقولهم: أساطيرُ الأولين.

(١٢) ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ ومَن قَبلِ القرآنِ وهو خبرٌ لقوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ ناصبٌ لقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على الحال. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه وقد قُرِىءَ به. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من ضمير كتابٍ في مصدِّق أو منه لتخصُّصِه الصِّفةِ. وعاملُها معنى الإشارة، وفائدتُها الإشعارُ بالدلالة

على أنَّ كونَه مصدِّقاً للتوراة كما دلَّ على أنه حقٌّ دلَّ على أنه وحيٌ وتوقيفٌ من الله سبحانه وتعالى. وقيل مفعولُ مصدِّقٍ أي يصدِّقُ ذا لسانٍ عربي بإعجازهِ. ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ علَّةُ مصدِّقٍ، وفيه ضميرُ الكتابِ أو اللهِ أو الرسولِ، ويؤيد الأخيرَ قراءةُ نافع وابن عامر والبزي بخلافٍ عنه ويعقوبَ بالتاء ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عطفٌ على محلِّه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ جمعوا بين التوحيد الذي هو خُلاصةُ العلم والاستقامةِ في الأمور التي هي منتهى العمل، وثُمَّ للدلالة على تأخُرِ رتبةِ العمل وتوقُّفِ اعتباره على التوحيد. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوقِ مكروهٍ. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فواتِ محبوبٍ، والفاءُ لتضمُّنِ الاسمِ معنى الشرط.

(١٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلميةِ والعمليةِ، وخالدين حالٌ من المستِكنِّ في أصحابُ، وجزاءً مصدرٌ لفعلٍ دلَّ عليه الكلامُ أي جُوزُوا جزاءً.

(١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ وقرأ الكوفيون إحساناً، وقرىء حُسُناً أي إيصاء حَسَناً. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ذاتُ كرهٍ أو حملاً ذا كرهٍ وهو المشقةُ. وقرأ الحجازيانِ وأبو عمرو وهشام بالفتحِ، وهما لغتانِ كالفَقرِ والفُقر، وقيل المضمومُ اسمٌ والمفتوحُ مصدرٌ. ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ ومدةُ حَمْلِهِ وفصالِه، والفصالُ الفطامُ ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ وفصلُه أو وقتُه والمرادُ به الرضاعُ التامُّ المنتهي به ولذلك عبَّر به كما يعبَّر بالأمدِ عن المدةِ، قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ العُمرِ ... ومَودٍ إذَا انتَهى أَمَدُه[1]

﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ كلُّ ذلك بيانٌ لما تكابده الأمُّ في تربية الولد مبالغةً في التوصية بها، وفيه دليلٌ على أنَّ أقلَّ مدَّةِ الحملِ ستةُ أشهرٍ لأنه إذا حطَّ منه الفصالُ حولانِ لقوله تعالى ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[2] بقي ذلك وبه قال الأطباءُ، ولعلَّ تخصيصَ أقلِّ الحمْلِ وأكثرِ الرَّضاعِ لانضباطِهما وتحقُّقِ ارتباط حكْمِ النَّسبِ والرضاعِ بهما. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ إذا اكتهلَ واستحكم قوَّته وعقله. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل لم يُبعَثْ نبيٌّ إلا بعدَ الأربعين. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ الهمني وأصلُه أولِعْني من أوزعْتهُ بكذا. ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ يعني نعمةَ الدينِ أو ما يعمُّها وغيرَها، وذلك يؤيدُ ما رُوِيَ

(١) البيت من الخفيف، ومودٍ: ميّت راحل، اسم فاعل من أودى.
(٢) البقرة: «٢٣٣».

أنها نزلتْ في أبي بكر رضيَ الله تعالى عنه[١] لأنه لم يكن أحدُ أسلمَ هو وأبواهُ من المهاجرينَ والأنصارِ سواهُ. ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ نكَّره للتعظيم أو لأنه أرادَ نوعاً من الجنسِ يستجلِبُ رضا الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ واجعلْ لي الصلاحَ سارياً في ذريتي راسخاً فيهم ونحوُه قولُه:

وَإنْ تَعْتَذِرْ بالمَحلِ عَنْ ذِي ضُرُوعِهَا إلَى الضَيْفِ يَجْرحْ في عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي

﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ عما لا ترضَاه أو يشغِلُ عنك. ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المخلصينَ لك.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ يعني طاعاتِهم فإنَّ المباحَ حسنٌ ولا يُثَابُ عليه. ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ لتوبتِهم، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفص بالنون فيهما. ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ كائنينَ في عِدادِهم أو مثابينَ أو معدودين فيهم. ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسه فإنَّ يتقبلُ ويتجاوزُ وعدٌ. ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي في الدنيا.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ مبتدأٌ خبره أولئك، والمرادُ به الجنسُ وإنْ صحَّ نزولُها في عبدالرحمن بن أبي بكر قبلَ إسلامه[٢]، فإنَّ خصوصَ السببِ لا يوجِبُ التخصيصَ. وفي أفٍّ قراءاتٌ ذُكِرَتْ في سورة بني إسرائيلَ[٣]. ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أُبعَثَ، وقرأ هشام أتعدانِّي بنونٍ واحدة مشدَّدةٍ. ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ فلم يرجعْ أحدٌ منهم. ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقولان: الغياثُ بالله منك، أو يسألانه أن يغيثَه بالتوفيق للإيمان. ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ أي يقولان له ويلك، وهو الدعاءُ بالثبورِ بالحثِّ على ما يخافُ على تركِه. ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أباطيلهم التي كتبُوها.

(١٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بأنهم أهلُ النار وهو يردُّ النزولَ في عبدالرحمن لأنه يدلُّ على أنه من أهلها لذلك وقد جُبَّ عنه إنْ كان لإسلامه. ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾ كقوله في أصحاب الجنة. ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ بيانٌ للأمم. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ تعليلٌ للحكم على الاستئنافِ.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٤/ ٢٥٨). وانظر «زاد المسير» (٧/ ٣٧٨).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧١): «ومن زعم أنها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه فقوله ضعيف لأن عبدالرحمٰن بن أبيَ بكر رضي الله عنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه». وانظر البحر المحيط (٨/ ٦١).

(٣) انظر سورة الإسراء: «٢٣».

والقراءات في «أفّ» هي: قرأ نافع وحفص «أفٍّ» منوناً بكسر الفاء، وقرأ ابن كثير وابن عامر «أفَّ» بفتح الفاء غير منوّن، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «أفِّ» بكسر الفاء غير منون (المبسوط لابن مهران ص٢٢٨).

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ
فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟
إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾

(١٩) ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين. ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ مراتبُ من جزاءِ ما عملوا من الخير والشر، أو من أجْلِ ما عملوا والدرجاتُ غالبةٌ في المثوبةِ وها هنا جاءتْ على التغليبِ. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جزاءَها، وقرأ نافع وابن عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وابن ذكوان بالنونِ. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ وزيادةِ عقابٍ.

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يعذَّبون بها. وقيل تُعْرضُ النارُ عليهم فَقُلِبَ مبالغةً كقولهم: عرضتُ الناقةَ على الحوض. ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي يُقَالُ لهم أذهبتُم، وهو ناصبُ اليومَ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر ويعقوبُ بالاستفهام، غيرَ أنَّ ابن كثير يقرؤُه بهمزة ممدودةٍ وهما يقرأان بها وبهمزتين محققتين. ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ لذَّاتِكم. ﴿فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ باستيفائها. ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيءٌ. ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الهوانِ وقد قرىء به. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بسببِ الاستكبارِ الباطل والفسوقِ عن طاعة الله، وقرىء تفسِقون بالكسرِ.

(٢١) ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هوداً. ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمعُ حقفٍ وهو رملٌ مستطيلٌ مرتفع فيه انحناءٌ من احقوقفَ الشيءُ إذا اعوجَّ، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشِّحرِ[١] من اليمن. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ الرسلُ. ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ قبلَ هودٍ وبعدَه، والجملةُ حالٌ أو اعتراضٌ. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لا تعبدوا، أو بأنْ لا تعبدوا فإنَّ النهيَ عن الشيءِ إنذارٌ من مضرَّته[٢]. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائلٍ بسبب شِرْكِكم.

(٢٢) ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفَنا. ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ عن عبادتِها. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب على الشركِ. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك.

(٢٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا علمَ لي بوقْتِ عذابكم ولا مدخلَ لي فيه فأستعجلُ به، وإنما علمُه عند الله فيأتيكم به في وقته المقدَّر له. ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم وما على الرسول إلا البلاغُ. ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لا تعلمون أنَّ الرسلَ بُعِثُوا مبلِّغين منذِرِينَ لا معذِّبين مقترِحين.

---

(١) بفتح الشين وتكسر، ساحل البحرين عدن وعمان.

(٢) وسّط قوله: «وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه» بين الإنذار وبين «ألا تعبدوا إلا الله» وذلك للمسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد، وللإيذان باشتراكهم في العبارة المحكية (س٨/ ٨٥).

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ سحاباً عرضَ في أُفُقِ السماء. ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ متوجِّه أوديتِهم، والإضافةُ فيه لفظيةٌ وكذا في قوله: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي يأتينا بالمطر. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي قال هودٌ عليه الصلاة والسلام بل هو: ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب، وقرىء قلْ بلْ: ﴿رِيحٌ﴾ هي ريحٌ، ويجوز أنْ يكونَ بدلَ ما. ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفتُها وكذا قوله:

(٢٥) ﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلِكُ. ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ من نفوسهم وأموالهم. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ إذ لا توجدُ نابضةُ حركةٍ ولا قابضةُ سكونٍ إلا بمشيئته، وفي ذِكْرِ الأمر والربِّ وإضافته إلى الريح فوائدُ سبقَ ذِكْرها مراراً، وقرىء يدمِّر كلَّ شيء من دمَّر دماراً إذا هَلَكَ فيكون العائد محذوفاً أو الهاء في ربِّها، ويُحتَمَلُ أن يكونَ استئنافاً للدلالة على أنَّ لكل ممكنٍ فَناءً مقضياً لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وتكونُ الهاءُ لكلِّ شيء فإنه بمعنى الأشياءِ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي فجاءتْهمُ الريحُ فدمَّرتْهم فأصبحوا بحيثُ لو حضرْتَ بلادَهم لا ترى إلا مساكنَهم، وقرأ عاصم وحمزةُ والكسائي لا يُرَى إلا مساكنُهم بالياءِ المضمومة ورفعِ المساكنِ. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. رُوِيَ أنَّ هوداً عليه السلام لما أحسَّ بالريح اعتزلَ بالمؤمنين في الحظيرة وجاءتِ الريح فأمالتِ الأحقافَ على الكفرةِ، وكانوا تحتَها سبعَ ليال وثمانيةَ أيام، ثم كُشِفَتْ عنهم واحتملتْهم فقذفتهم في البحر.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ إنْ نافيةٌ وهي أحسنُ من ما ههنا لأنها توجِبُ التكريرَ لفظاً ولذلك قُلِبَتْ ألفُها هاءً في مهما، أو شرطيةٌ محذوفةُ الجوابِ والتقديرُ، ولقد مكَّنَّاهم في الذي أو في شيءٍ إنْ مكَّناكم فيه كان بغْيُكم أكثرَ، أو صلةٌ كما في قوله:

يُرَجِّي المَرْءُ مَا إِنْ لاَ يَرَاهُ ... ويعرِض دُونَ أدناهُ الخُطُوبُ

والأولُ أظهرُ وأوفقُ لقوله ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾[١] ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾[٢]. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ليعرفُوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانِحِها تعالى ويواظبوا على شكرِها. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من الإغناءِ وهو القليلُ. ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صلةٌ لما أغنى وهو ظرفٌ جرى مجرى التعليلِ من حيث إنَّ الحكمَ مرتَّبٌ على ما أُضِيفَ إليه، وكذلك حيثُ. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب.

---

(١) مريم: «٧٤».

(٢) غافر: «٢١».

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ
يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا
سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ
أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهلَ مكَّةَ. ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحجرِ ثمودَ وقُرى قوم لوطٍ. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ بتكريرها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم.

(٢٨) ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ فهلاَّ مَنَعَتْهُم من الهلاك آلهتُهم الذين يتقرَّبون بهم إلى اللهِ تعالى حيثُ قالوا: هؤلاءِ شفعاؤُنا عند الله، وأولُ مفعولي اتخذوا الراجعُ إلى الموصول محذوفٌ، وثانيهما قرباناً وآلهةً بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، أو آلهةً وقرباناً حالٌ أو مفعولٌ له على أنه بمعنى التقرُّبِ. وقرىء قُرُباناً بضمِّ الراءِ. ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرهم وامتنع أن يستمدُّوا بهم امتناعَ الاستمدادِ بالضالِّ. ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ وذلك الاتخاذُ الذي هذا أثره صرفُهم عن الحقِّ. وقرىء أَفَّكَهم بالتشديد للمبالغةِ، وآفَكَهم أي جعلَهم آفكينَ، وآفِكُهُم أي قولُهم الآفِكُ أي ذو الإفك. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

(٢٩) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أملْناهم إليك، والنفرُ دون العشرةِ وجمعُه أنفارٌ. ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حَالٌ محمولةٌ على المعنى. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآنَ أوِ الرسولَ. ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ قالُوا بعضُهم لبعض اسكتُوا لنسمعَهُ. ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أتمَّ وفرغَ من قراءته، وقرىء على بناءِ الفاعلِ وهو ضميرُ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلام. ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي منذرين إيَّاهم بما سمعوا. رُوِيَ أنهم وافَوْا رسولَ الله ﷺ بوادي النخلةِ عند مُنصَرَفِهِ من الطائف يقرأ في تهجُّده[1].

(٣٠) ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من الشرائع.

(٣١) ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعضَ ذنوبكم، وهو ما يكون في

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٥٠ رقم ٤٠٣): «متفق عليه ـ البخاري (٨/٦٦٩ رقم ٤٩٢١) ومسلم (١/٣٣١ رقم ١٤٩/٤٤٩) ـ بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله. ودون قوله «وكانوا تسعة نفر أحدهم زوبعة» ودون قوله: «في جوف الليل يصلي» ودون قوله «نينوى» ودون قوله «عند منصرفه إلى آخره».
وأما زوبعة: فأخرجه الحاكم ـ في المستدرك (٢/٤٥٦) ـ من رواية ذر عن ابن مسعود قال: (هبطوا يعني الجن على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة. فلما سمعوه قالوا أنصتوا).
وكانوا تسعة أحدهم زوبعة. فأنزل الله «وإذ صرفنا إليك ـ الآية» وقوله «نينوى» أخرجه الطبراني ـ في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/٣١) ـ من رواية قتادة عن هذه الآية قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث» هـ.

خالص حقِّ الله، فإنَّ المظالمَ لا تُغفَرُ بالإيمان. ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو مُعَدٌّ للكفار، واحتجَّ أبو حنيفةَ رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارةِ على أنْ لا ثوابَ لهم، والأظهرُ أنهم في توابعِ التكليف كبني آدمَ.

وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ
لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إذ لا ينجي منه مهربٌ[١]. ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يمنعونه منه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ أعرضُوا عن إجابة من هذا شأنُه.

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ولم يتعبْ ولم يعجزْ، والمعنى أنَّ قدرتَهُ واجبةٌ لا تنقصُ ولا تنقطع بالإيجاد أبدَ الآباد. ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي قادرٌ، ويدل عليه قراءةُ يعقوبَ يقدرُ، والباءُ مزيدةٌ لتأكيد النفي فإنه مشتملٌ على أنْ وما في حيِّزها ولذلك أجابَ عنه بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريرٌ للقدرة على وجْهٍ عام يكون كالبرهان على المقصود، كأنه صدَّرَ السورةَ بتحقيق المبدأ أراد ختْمَها بإثباتِ المعادِ.

(٣٤) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ منصوبٌ بقول مضمَرٍ مقولُه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ والإشارةُ إلى العذاب. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفرِكم في الدنيا، ومعنى الأمرِ هو الإهانةُ بهم والتوبيخُ لهم.

(٣٥) ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أولو الثباتِ والجدِّ منهم فإنك من جملتهم، ومِنْ للتبيين، وقيل للتبعيضِ، وأولو العزمِ منهم أصحابُ الشرائع اجتهدوا في تأسيسها وتقريرِها وصبروا على تحمُّلِ مشاقِّها ومعاداةِ الطاعنين فيها، ومشاهيرُهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى عليه السلام. وقيل الصابرون على بلاءِ الله كنوحٍ صَبَرَ على أذى قومِه كانوا يضربونه حتى يُغْشَى عليه، وإبراهيمُ على النارِ وذَبْحِ ولده، والذبيحُ على الذبح، ويعقوبُ على فقْدِ الولد والبصرِ، ويوسفُ على الجبِّ والسجن، وأيوبُ على الضرِّ، وموسى قال له قومه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[٢]،

---

(١) وإظهار «داعي الله» من غير اكتفاء بأحد الضميرين للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير، وتربية المهابة، وإدخال الروعة.
وتقييدُ الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي فليس بمعجز له تعالى بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها (س٨/٨٩).

(٢) الشعراء: «٦١ ـ ٦٢».

وداودُ بكىٰ على خطيئته أربعينَ سنةً، وعيسى لم يضعْ لبنةً على لبنةٍ. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ لكفارِ قريشٍ بالعذاب فإنه نازلٌ بهم في وقتِه لا محالةَ. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ﴾ استقْصَروا من هوله مدةَ لُبْثِهم في الدنيا حتى يحسِبُونَهَا ساعَةً. ﴿بَلَٰغٌۚ﴾ هذا الذي وُعِظْتُم به أو هذه السورةُ بلاغ أي كفايةٌ، أو تبليغٌ من الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيدُه أنه قُرِىءَ بلغ، وقيل بلاغٌ مبتدأ خبرُه لهم وما بينَهما اعتراضٌ أي لهم وقتٌ يبلغُون إليه كأنهم إذا بلَغُوه ورأوا ما فيه استقْصَروا مدةَ عُمُرِهم، وقرىء بالنصبِ أي بلِّغوا بلاغاً. ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجونَ عن الاتعاظِ أو الطاعةِ. وقرىء يهلِكُ بفتحِ اللامِ وكسْرها من هلَك وهلِك، ونُهلِكُ بالنونِ ونصْبِ القومِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الأحقافِ كُتِبَ له عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ رمْلةٍ في الدنيا»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكافي الشافِ» (ص١٥١ رقم ٤٠٦).
وتقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

ترتيبها ٤٧ — آياتها ٣٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

سورةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم

وتسمى سورةَ القتال، وهي مدنيةٌ[١] وقيل مكيةٌ، وآيها سبعٌ أو ثمان وثلاثون أو أربعونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدخولِ في الإسلام وسلوكِ طريقه، أو مَنَعُوا الناسَ عنه كالمطعِمين يومَ بدرٍ، أو شياطينُ قريش، أو المصريينَ من أهل الكتاب، أو عامٌّ في جميع من كفر وصدَّ. ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جعلَ مكارِمَهم ـ كصلةِ الرحم وفكِّ الأَسَارى وحفظِ الجوارِ ـ ضالةً أي ضائعةً محيطةً بالكفر، أو مغلوبة مغمورةً فيه كما يضلُّ الماءُ في اللبن، أو ضلالٌ حيث لم يقصدوا به وجْهَ الله، أو أبطلَ ما عملوه من الكيدِ لرسوله والصدِّ عن سبيله بنصرِ رسوله وإظهارِ دينه على الدين كلِّه.

(٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعمُّ المهاجرينَ والأنصارَ والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرَهم.

---

(١) أخرج ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أنزلت سورة القتال بالمدينة. وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة.
وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة «الذين كفروا» كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٥٦).

﴿ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ تخصيصٌ للمنزَّلِ عليه مما يجبُ الإيمانُ به تعظيماً له وإشعاراً بأنَّ الإيمان لا يتمُّ دونه، وأنه الأصلُ فيه، ولذلك أكَّده بقوله: ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ اعتراضاً على طريقة الحصْر. وقيل حقيقته بكونه ناسخاً لا يُنسَخُ. وقرىء نَزَلَ على البناء للفاعل، وأنزلَ على البناءين[1]، ونَزَلَ بالتخفيفِ. ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ سَتَرَهَا بالإيمان وعملِهم الصالحِ. ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾

(٣) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاحِ وهو مبتدأٌ خبرهُ. ﴿ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بسبب اتباع هؤلاءِ الباطلَ واتباع هؤلاءِ الحقَّ، وهذا تصريحٌ بما أشعر به ما قبلَها ولذلك سُمِّي تفسيراً. ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثلُ ذلك الضربِ. ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ يبينُ لهم. ﴿ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أحوالَ الفريقين أو أحوالَ الناس، أو يضربُ أمثالَهم بأنْ جعلَ اتِّباعَ الباطلِ مثلاً لعمل الكفار والإضلالَ مثلاً لخيبتِهم واتباعَ الحقِّ مثلاً للمؤمنين، وتكفيرَ السيئات مثلاً لفوزِهم.

(٤) ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في المحاربة. ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ أصلُه فاضربوا الرقابَ ضرباً فحذفَ الفعلَ وقدَّم المصدرَ، وأُنيبَ منابَه مضافاً إلى المفعول ضماً إلى التأكيد والاختصارِ. والتعبيرُ به عن القتل إشعار بأنه ينبغي أن يكون بضربِ الرقابِ حيث أمكنَ، وتصويرٌ له بأشنعِ صورةٍ. ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أكثرتُم قتْلَهم وأغلظْتموه من الثخينِ وهو الغليظُ. ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ فأسِرُوهم واحفظُوهم، والوَثَاقُ بالفتحِ والكسْرِ ما يُوثَقُ به. ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ أي فإما تمنُّون منّاً أو تفدون فداءً، والمراد التخييرُ بعد الأَسْرِ بين المنِّ والإطلاقِ وبينَ أخذِ الفداءِ، وهو ثابتٌ عندنا فإنَّ الذَّكَرَ الحرَّ المكلَّفَ إذا أُسِرَ تخيَّر الإمامُ بينَ القتلِ والمنِّ والفداءِ، والاسترقاقُ منسوخٌ عند الحنفيةِ أو مخصوصٌ بحربِ بدرٍ فإنهم قالوا يتعيَّن القتلُ أوِ الاسترقاقُ. وقُرِىءَ فِداً كعصاً. ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ آلاتِها وأثقالها التي لا تقومُ إلا بها كالسلاحِ والكراعِ، أي تنقضي الحربُ ولم يبقَ إلا مسلمٌ أو مسالِمٌ. وقيل آثامَها والمعنى حتى يضعَ أهلُ الحربِ شِرْكَهم ومعاصيهم، وهو غايةٌ للضرب أو الشدِّ أو للمنِّ والفداءِ أو للمجموعِ بمعنى أنَّ هذه الأحكامَ جاريةٌ فيهم حتى لا يكونَ حربٌ مع المشركين بزوالِ شوكَتِهم. وقيل بنزولِ عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمرُ ذلك، أو افعلوا بهم ذلك. ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ لا نتقم منهم بالاستئصالِ. ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ ولكنْ أمرَكُم بالقتال ليبلُوَا المؤمنينَ بالكافرين بأنْ يجاهِدُوهم فيستوجِبُوا الثوابَ العظيمَ، والكافرين بالمؤمنينَ بأنْ يعاجِلَهم على أيديهم ببعضِ عذابِهم كي يرتدعَ بعضُهم عن الكفرِ. ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي جاهدوا، وقرأ البصريانِ وحفصٌ قُتِلُوا أي اسْتُشْهِدوا.

---

(١) أي على البناء للفاعل «أَنْزَلَ» وعلى البناء للمفعول «أُنْزِلَ».

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلن يضيِّعَها. وقرىء يَضِلَّ من ضلَّ، ويُضَلَّ على البناء للمفعولِ.

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾
۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

(٥) ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الثواب، أو سيثبِّتُ هدايتَهُم. ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

(٦) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ وقد عرَّفها لهم في الدنيا حتى اشتاقوا إليها فعملوا ما استحقُّوها به، أو بيَّنها لهم بحيثُ يعلم كلُّ واحد منزلَه ويهتدي إليه كأنه كان ساكِنَه منذُ خُلِقَ، أو طيَّبها لهم من العُرْفِ وهو طيبُ الرائحةِ، أو حدَّدها لهم بحيث يكون لكلّ جنة مفرزةٌ.

(٧) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ إنْ تنصروا دينَه ورسولَه. ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوِّكم. ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدةِ مع الكفار.

(٨) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ فعثُوراً لهم وانحطاطاً ونقضه لعا قال الأعشى: فالتَّعْسُ أولى بها من أنْ أقولَ لَعَا. وانتصابُه بفعله الواجبِ إضمارُه سماعاً، والجملةُ خبرُ الذين كفروا أو مفسِّرةٌ لناصِبه. ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ عطفٌ عليه.

(٩) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ القرآنَ لما فيه من التوحيد والتكاليفِ المخالفةِ لما أَلِفُوه واشتهتْه أنفسُهم، وهو تخصيصٌ وتصريحٌ بسببه الكفرُ بالقرآن للتعْسِ والإضلال. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ كرَّره إشعاراً بأنه يلزمُ الكفرُ بالقرآن ولا ينفكُّ عنه بحالٍ.

(١٠) ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استأصلَ عليهم ما اختصَّ بهم من أنفسِهم وأهليهم وأموالهم. ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ﴾ من وضْعِ الظاهرِ موضعَ المضمَرِ. ﴿أَمْثَـٰلُهَا﴾ أمثالُ تلك العاقبةِ أو العقوبةِ، أو الهلَكَةِ لأنَّ التدميرَ يدل عليها، أوِ السنَّةُ لقوله تعالى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ﴾[1].

(١١) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ناصرُهم على أعدائهم. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فيدفعُ العذابَ عنهم، وهو لا يخالُف قوله ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾[2] فإنَّ المولى فيه بمعنى المالِكِ.

(١٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الدنيا. ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ حريصينَ غافلينَ عن العاقبة. ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ منزلٌ ومقام.

---

(١) الفتح: «٢٣».
(٢) يونس: «٣٠».

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ
كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن
لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ على حذف المضافِ وإجراءِ أحكامِه على المضافِ إليه، والإخراجُ باعتبار التسبُّبِ[١]. ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بأنواعِ العذاب. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يَدفعُ عنهم العذابَ وهو كالحالِ المحكيَّةِ.

(١٤) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ حجَّةٍ من عنده وهو القرآنُ، أو ما يعمُّه، والحججُ العقلية كالنبيِّ ﷺ والمؤمنينَ. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ كالشركِ والمعاصي. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ في ذلك لا شبهةَ لهم عليه فضلاً عن حجَّةٍ.

(١٥) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي فيما قصصْنا عليك صفتَها العجيبةَ. وقيل مبتدأٌ خبرُه: كَمَن هو خالدٌ في النار، وتقديرُ الكلامِ أَمَثَلُ أهلِ الجنة كمثلِ مَنْ هو خالدٌ، أو أَمَثَلُ الجنةِ كمثلِ جزاءِ من هو خالدٌ فعرَّى عن حرفِ الإنكارِ وحذفَ ما حذف استغناءً يجري مثلُه تصويراً لمكابرةِ مَنْ يسوي بين المتمسِّك بالبيِّنةِ والتابعِ للهوى بمكابرةِ مَنْ يسوي بين الجنةِ والنارِ، وهو على الأولِ خبرٌ محذوفٌ تقديرهُ: أفَمَنْ هو خالدٌ في هذه الجنةِ كمن هو خالدٌ في النار، أو بدلٌ من قوله ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ لبيان ما يمتازُ به مَنْ على بينةٍ في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة[٢]. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ استئنافٌ لشرح المثلِ أو حالٌ من العائدِ المحذوف، أو خبر لمثلٍ. وآسِنٌ من أَسَنَ الماءُ بالفتح إذا تغيَّر طعمُه وريحُه، أو بالكسرِ على معنى الحدوثِ. وقرأ ابن كثير أَسِنَ. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لم يصِرْ قارصاً ولا حازراً. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذةٍ لا يكون فيها كراهةُ طعم وريحٌ ولا غائلةُ سُكْرٍ وخمارٍ تأنيثُ لذٍّ أو مصدرٌ نعت به بإضمار ذات، أو تجوُّزٍ، وقرئت بالرفع على صفة الأنهار والنصب على العلَّة. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخالِطه الشمعُ وفضلاتُ النحلِ وغيرُها، وفي ذلك تمثيلٌ لما يقومُ مقامَ الأشربة في الجنة بأنواع ما يُستَلَذُّ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصُها وينغِّصها، والتوصيفُ بما يوجب غزارتَها واستمرارَها. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ صنفٌ على هذا القياس. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ عطفٌ على الصنف المحذوفِ. أو مبتدأٌ خبره محذوفٌ أي لهم مغفرةٌ. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكانَ تلك الأشربةِ. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ من فَرْطِ الحرارةِ.

---

(١) وصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها، كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها في الإهلاك لقوة جنايتها. (س٨/ ٩٥).

(٢) وعبر عنهم بالمتقين إيذاناً بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوىٰ الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها (س٨/ ٩٥).

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ يعني المنافقينَ كانوا يحضرون مجلسَ الرسولِ ﷺ ويسمعون كلامَهُ فإذا خرجوا. ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي لعلماءِ الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ ما الذي قال الساعةَ، استهزاءً أو استعلاماً إذ لم يُلقُوا له آذانَهم تهاوُناً به، وآنفاً من قولهم: أنفُ الشيءِ لما تقدَّم منه مستعارٌ من الجارِحة، ومنه استأنفَ وائتنفَ وهو ظرفٌ بمعنى وقتاً مؤتنفاً، أو حالٌ من الضمير في قال، وقرأ ابنُ كثير أنفاً(١).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فلذلك استهزؤُوا وتهاونُوا بكلامِه.

(١٧) ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي زادهم اللهُ بالتوفيق والإلهامِ، أو قولِ الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ بيّن لهم ما يتَّقون أو أعانَهم على تقواهُم، أو أعطاهم جزاءَها.

(١٨) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ فهل ينتظرون غيرَها. ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدلُ اشتمال من الساعةِ، وقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ كالعِلّة له، وقرىء أنْ تأتِهم على أنه شرطٌ مُسْتأنَفٌ جزاؤُه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ والمعنى أنْ تأتِهم الساعةُ بغتة لأنه قد ظهر أماراتُها كمبعثِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وانشقاقِ القمر فكيف لهم ذكراهُم أي تذكُّرهم إذا جاءتْهم الساعةُ بغتةً، وحينئذ لا يفرغُ له ولا ينفعُ(٢).

(١٩) ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أي إذا علمتَ سعادةَ المؤمنين وشقاوةَ الكافرين فاثْبُتْ على ما أنتَ عليه من العلم بالوحدانية وتكميلِ النفسِ بإصلاح أحوالها وأفعالِها وهضْمِها بالاستغفارِ لذنبك. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ولذنوبهم بالدعاءِ لهم والتحريض على ما يستدعي غفرانَهم، وفي إعادة الجارِّ وحذفِ المضافِ إشعارٌ بفرْط احتياجِهم وكثرة ذنوبهم وأنها جنسٌ آخرُ، فإن الذَّنْبَ له مالَهُ تبعةٌ ما بتركِ الأَوْلَى. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا فإنها مراحلُ لا بدَّ من قطعِها. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في العقْبى فإنها دار إقامتِكم فاتقوا اللهَ واستغفروه وأعِدُّوا لمعادِكم.

(٢٠) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي هلاَّ نزلتْ سورةٌ في أمر الجهاد. ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾

---

(١) يقال: ذكره آنفاً وأنفاً وسالفاً.
ذكر الأولى والثالثة الرازي في مختاره، وذكر القراءتين الفيروز في قاموسه هـ.

(٢) وتقديم «إذا جاءتهم» على «ذكراهم» للإشعار بغاية سرعة مجيئها. (س٨/٩٧).

مُّحْكَمَةٌ﴾ مبيَّنةٌ لا تشابُهَ فيها. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي الأمرُ به. ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفٌ في الدين وقيلَ: نفاقٌ. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ جُبْناً ومخافةً. ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فويلٌ لهم، أفعلُ من الولْيِ وهو القربُ، أو فَعْلَى من آلَ ومعناه الدعاءُ عليهم بأن يليهم المكروهُ أو يؤول إليه أمرُهم.

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ استئنافٌ أي أمرُهم طاعةٌ أو طاعةٌ وقولٌ معروف خيرٌ لهم، أو حكايةُ قولِهم لقراءةِ أبيٍّ يقولون طاعةٌ. ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي جدَّ وهو لأصحاب الأمرِ، وإسناده إليه مجازٌ وعاملُ الظرفِ محذوف، وقيل ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي فيما زعموا من الحرصِ على الجهاد أو الإيمان. ﴿لَكَانَ﴾ الصدقُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

(٢٢) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فهل يُتوَقَّعُ منكم[1]. ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمورَ الناس وتأمَّرْتُم عليهم، أو أعرضتم وتوليتم عن الإسلام. ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحُراً على الولاية وتجاذباً لها، أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاوُرِ ومقاتلةِ الأقاربِ، والمعنى أنهم لضعفِهم في الدين وحرصِهم على الدنيا أحقَّاءُ بأنْ يُتَوَقَّعَ ذلك منهم مَنْ عرف حالَهم ويقول لهم: هل عسيتُم، وهذا على لغةِ الحجاز فإنَّ بني تميمٍ لا يُلْحِقُون الضميرَ به، وخبرُه أنْ تفسِدوا وإن توليتم اعتراضٌ، وعن يعقوبَ توليتُم أي إنْ تولأكم ظَلمةٌ خرجتُم معهم وساعدتُموهم في الإفساد وقطيعةِ الرحم وتقطَّعوا من القطْعِ، وقرىء تَقَطَّعوا من التقطُّعِ.

(٢٣) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين[2]. ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لإفسادِهم وقطعِهم الأرحامَ. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق. ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ فلا يهتدون سبيلَه.

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يتصفَّحونه وما فيه من المواعظ والزواجرِ حتى لا يجسُروا على المعاصي. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ لا يصلُ إليها ذِكْرٌ ولا ينكشفُ لها أمرٌ، وقيل أمْ منقطعةٌ ومعنى الهمزة فيها التقريرُ، وتنكيرُ القلوب لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ منهم أو للإشعار بأنها لإبهامِ أمرِها في القساوة، أو لفرْطِ جهالَتِها ونُكْرِها كأنها مبهمةٌ منكورةٌ. وإضافةُ الأقفال إليها للدلالة على أقفالٍ مناسبة لها مختصَّةٍ بها لا تجانسُ الأقفالَ المعهودةَ. وقرىء إقفالُها على المصدر.

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي ما كانوا عليه من الكفر. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾

(١) التفات إلى المخاطب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع (س٨/ ٩٨).
(٢) التفات إلى الغائب للإيذان بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم (س٨/ ٩٩).

بالدلائلِ الواضحة والمعجزات الظاهرةِ. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهَّلَ لهم اقترافَ الكبائر من السُّولِ وهو الاسترخاءُ. وقيل حملهم على الشهواتِ من السُّولِ وهو التمنِّي، وفيه أنَّ السُّولَ مهموزٌ قُلِبتْ همزتُه واواً لضمِّ ما قبلها ولا كذلك التسويلُ، ويمكنُ ردُّه بقولهم هما يتساولانِ، وقرىء سُوِّل على تقدير مضافٍ أي كيدُ الشيطان سولَ لهم. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الآمال والأماني، أو أمهلَهم اللهُ تعالى ولم يعاجِلْهم بالعقوبةِ لقراءةِ يعقوبَ وأُمْلِي لهم أي وأنا أملي لهم فتكونُ الواوُ للحال أوِ الاستئنافِ، وقرأ أبو عمرو وأُمْلِيَ لهم على البناء للمفعول وهو ضميرُ الشيطانِ أو لهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ
وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ
أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي قال اليهودُ الذين كفروا بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام بعدَ ما تبيَّن لهم نعتُه للمنافقين، أو المنافقون لهم أو أحدُ الفريقين للمشركين. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ في بعض أمورِكم أو في بعض ما تأمُرون به، كالقعودِ عن الجهاد والموافقةِ في الخروجِ معهم إنْ أُخرِجُوا والتظافرِ على الرسولِ ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ومنها قولُهم هذا الذي أفشاهُ الله عليهم، وقرأ حمزةُ والكسائي وحفصٌ إسرارَهم على المصدرِ.

(٢٧) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فكيف يعملون ويحتالُون حينئذ، وقرىء توفَّاهم وهو يحتملُ الماضي والمضارعَ المحذوفَ إحدى تاءيْه. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ تصويرٌ لتوفِّيهم بما يخافون منه ويجبُنُون عن القتال له.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى التوفِّي الموصوف. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر كَكِتْمانِ نعتِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام وعصيانِ الأمر. ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ما يرضاهُ من الإيمان والجهادِ وغيرِهما من الطاعات. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لذلك.

(٢٩) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ﴾ أنْ لن يبرزَ اللهُ لرسوله ﷺ والمؤمنين. ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أحقادَهم.

(٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرَّفناكَهم بدلائلَ تعرفُهم بأعيانهم[1]. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلاماتِهم التي نَسِمُهم بها، واللامُ لامُ الجواب كُرِّرَتْ في المعطوف. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، ولحنُ القول أسلوبُه، أو إمالتُه إلى جهة تعريضٍ وتوريةٍ، ومنه قيل للمخطىءِ لاحنٌ لأنه يعدِلُ بالكلام عن الصواب. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فيجازيكم على حساب قصْدِكم إذ الأعمالُ بالنيات.

---

(١) الالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بالإراءة (س٨/ ١٠١).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾

(٣١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمرِ بالجهاد وسائرِ التكاليف الشاقَّة. ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقه. ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبرُ به عن أعمالِكم فيظهرُ حسنُها وقُبحُها، أو أخبارَهم عن إيمانِهم وموالاتِهم المؤمنينَ في صدقِها وكذِبِها. وقرأ أبو بكر الأفعالَ الثلاثةَ بالياء لتوافِقَ ما قبلَها، وعن يعقوبَ ونبلُوْ بسكونِ الواو على تقدير ونحنُ نبلُو.

(٣٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ هم قريظةُ والنضيرُ أو المطعمونَ يومَ بدرٍ. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهم وصدِّهم، أو لن يضرُّوا رسولَ الله ﷺ بمشاقَّتِه، وحذفَ المضافَ لتعظيمه وتفظيعِ مشاقَّته. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ثوابَ حسناتِ أعمالهم بذلك، أو مكايدَهم التي نصبُوها في مشاقَّته فلا يصِلُون بها إلى مقاصِدِهم ولا تثمرُ لهم إلا القتلَ والجلاءَ عن أوطانِهم.

(٣٣) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بما أبطلَ به هؤلاءِ كالكفر والنفاقِ والعُجْبِ والرياء والمنِّ والأذى ونحوِها، وليس فيه دليلٌ على إحباط الطاعات بالكبائرِ.

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ عامٌّ في كل مَنْ مات على كفرِهِ وإنْ صحَّ نزولُه في أصحاب القليبِ، ويدل بمفهومه على أنه قد يُغفَرُ لمن لم يَمُتْ على كفرِهِ سائرُ ذنوبِه.

(٣٥) ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ فلا تضعُفوا. ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ ولا تدعوا إلى الصُّلح خَوَراً وتذلُّلاً، ويجوزُ نصبه بإضمارِ إنْ. وقرِئ ولا تدَّعوا من ادَّعى بمعنى دعَا، وقرأ أبو بكر وحمزةُ بكسرِ السين. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبونَ. ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ناصِرُكم. ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ ولن يضيعَ أعمالَكُم، مِنْ وَتَرْتُ الرجلَ إذا قتلْتُ متعلِّقاً به من قريبٍ أو حميمٍ فأفردتُه منه من الوِتْرِ، شبَّه به تعطيلَ ثواب العملِ وإفرادَه منه[1].

(٣٦) ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثباتَ لها. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ثوابَ إيمانكم وتقواكم. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ جميعَ أموالِكم بل يقتصرُ على جزءٍ يسير كربعِ العشْرِ والعشرِ.

(١) عبر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بالوَتْر الذي هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال إبرازاً لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها (س٨/ ١٠٢).

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ فيجهدْكم بطلب الكلِّ، والإحفاءُ والإلحافُ المبالغة وبلوغِ الغاية يُقَالُ: أحفى شاربَه إذ استأصله. ﴿تَبْخَلُواْ﴾ فلا تعطُوا. ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ ويضغنكم على رسولِ الله ﷺ والضميرُ في يخرجْ لله تعالى، ويؤيدُه القراءةُ بالنونِ أو البخلَ لأنه سببُ الإضغانِ، وقرىء وتَخْرُجُ بالتاء والياء ورفعِ أضغانُكم.

(٣٨) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أنتم يا مخاطَبون هؤلاءِ الموصوفونَ وقوله ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لذلك، أو صلةٌ لهؤلاء على أنه بمعنى الذين وهو يعمُّ نفقةَ الغزْو والزكاة وغيرهما. ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ ناسٌ يبخلون وهو كالدليل على الآية المتقدِّمة. ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فإنَّ نفعَ الإنفاق وضرَّ البخل عائدانِ إليه، والبخلُ يُعَدَّى بعنْ وعلى لتضمُّنه معنى الإمساكِ والتعدي فإنه إمساك عن مستحقٍّ. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ فما يأمركُم به فهو لاحتياجكم إليه فإن امتثلْتُم فلكُم وإن توليتم فعليكُم. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عطفٌ على أنْ تؤمنوا. ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يُقِمْ مقامَكم قوماً آخرين. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ في التولي والزهدِ في الإيمان، وهم الفرسُ لأنه سُئِلَ عليه الصلاة والسلام عنه وكان سلمانُ إلى جنبه فضربَ فخِذَه وقال: «هذا وقومُه»[(١)] أو الأنصارُ أو اليمنُ أو الملائكةُ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ محمدٍ كان حقاً على الله أن يسقيَهُ من أنهارِ الجنة»[(٢)].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الترمذي (٥/٣٨٣ ـ ٣٨٤ رقم ٣٢٦٠ و٣٢٦١) والحاكم في المستدرك (٢/٤٥٨) والطبري في جامع البيان (١٣/ج٢٦/٦٦ ـ ٦٧) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي في الإسناد الأول: في إسناده مقال. ولم يقل في الآخر شيئاً، لكنه من طريق عبدالله بن جعفر المديني وهو ضعيف. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وسكت عنه الذهبي. وهو عند الحاكم من طريق عبدالعزيز الدراوردي.
وأخرجه البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧) والترمذي (٥/٤١٣ رقم: ٣٣١٠) من طريق ثور بن زيد الديلي عن أبي الغيث عن أبي هريرة.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه وتقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الفتح

ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا
مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ
إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾

سورة الفتح مدنيةٌ[١]
نزلت في مرجعِ رسولِ الله ﷺ من الحديبية وآيُها تسعٌ وعشرون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ وعدٌ بفتح مكَّةَ، والتعبير عنه بالماضي لتحقُّقِهِ. أو بما اتفقَ له في تلك السَّنَةِ كفتحِ خيبرَ وَفَدَكَ. أو إخبارٌ عن صلح الحديبية، وإنما سمَّاه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلحَ وتسببَ لفتحِ مكةَ، وفرغ به رسولُ الله ﷺ لسائرِ العرب فغزاهم وفتحَ مواضعَ، وأدخل في الإسلام خلْقاً عظيماً، وظهر له في الحديبية آيةٌ عظيمة وهي أنه نزحَ ماؤُها بالكلية فتمضمضَ ثم مجَّه فيها فدرَّتْ بالماء حتى شربَ جميع مَنْ كان معه[٢]، أو فتحِ الرومِ فإنهم غلبوا الفرسَ في تلك السنةِ، وقد عرفْتَ كونه فتحاً للرسول عليه الصلاة والسلام في سورة الرومِ. وقيل الفتح بمعنى القضاءِ أي قضينا لك أن تدخلَ مكَّةَ من قابِلٍ.

(٢) ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ علَّةٌ للفتح من حيثُ إنه مسبَّبٌ عن جهاد الكفارِ والسَّعْي في إزاحة الشرك

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٥٠٧). و«المحرر الوجيز» (١٥/ ٨٤).
(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٦/ ٥٨١ رقم ٣٥٧٧) عن البراء بن عازب.

وإعلاءِ الدين وتكميلِ النفوس الناقصةِ قهراً ليصيرَ ذلك بالتدريج اختياراً، وتخليصِ الضَّعفةِ عن أيدي الظَّلَمةِ. ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جميعَ ما فَرَطَ منك مما يصحُّ أنْ تعاتَبَ عليه. ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بإعلاء الدين وضمِّ الملْكِ إلى النبوة. ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامةِ مراسِمِ الرئاسة.

(٣) ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ نصراً فيه عزٌّ ومَنَعةٌ، أو يُعَزُّ به المنصورُ فوُصِفَ بوصْفه مبالغةً[١].

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثباتَ والطمأنينةَ. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حتى ثبتُوا حيث تقلَقُ النفوسُ وتَدْحَضُ الأقدامُ. ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ يقيناً مع يقينهم برسوخِ العقيدة واطمئنانِ النفس عليها، أو نُزِّل فيها السكونَ إلى ما جاءَ به الرسولُ ﷺ ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانِهم بالله واليوم الآخر. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يدبِّر أمْرَها فيسلِّط بعضَها على بعض تارةً ويوقعُ فيما بينَهم السِّلْمَ أخرى كما تقتضيه حكمتُه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما يقدِّر ويدبِّر.

لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦

(٥) ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ علَّة بما بعدَه لما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[٢] من معنى التدبير، أي دبَّر ما دبَّر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمةَ الله فيه ويشكروها فيدخلُهم الجنةَ ويعذِّبُ الكفارَ والمنافقينَ لما غاظَهم من ذلك، أو فتحْنا أو أنزلَ أو جميعُ ما ذكر أو ليزدادوا، وقيل إنه بدلٌ منه بدلَ الاشتمالِ. ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ يغطِّيها ولا يظهرُها. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإدخالُ والتكفير. ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ لأنه منتهى ما يطلبُ من جلْبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ، وعند حالٌ من الفوز.

(٦) ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ عطفٌ على يدخلَ إلا إذا جعلْته بدلاً فيكون عطفاً على المبدَلِ منه[٣]. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ ظنَّ الأمرِ السوءِ وهو أنْ لا ينصرَ رسولَه والمؤمنين. ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ دائرةُ ما يظنُّونه ويتربَّصونه بالمؤمنينَ لا يتخطَّاهم، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو دائرةُ السوءِ بالضمِّ وهما لغتانِ، غيرَ أنَّ المفتوحَ غلبَ في أنْ يُضَافَ إليه ما يُرَادُ ذمُّه والمضمومُ جَرَى مجرى الشرِّ وكلاهما في الأصل مصدرٌ. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ عطفٌ لما استحقُّوه في الآخرة على ما استوجَبُوهُ في الدنيا. والواوُ في الأخيرين ـ والموضِعُ موضعُ الفاء. إذِ اللَّعنُ سببٌ للإعداد والغضبُ سببٌ له ـ لاستقلالِ الكلِّ في الوعيدِ بلا اعتبار السببيةِ. ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ جهنَّمُ.

---

(١) إظهار الاسم الجليل «الله» لإظهار كمال العناية بشأن النصر (س٨/ ١٠٤).

(٢) الفتح: «٧».

(٣) وفي تقديم المنافقين عن المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحف منهم بالعذاب (س٨/ ١٠٥).

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾
لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ
ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

(٧) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

(٨) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على أُمتِكَ. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ على الطاعة والمعصية.

(٩) ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والأمّةِ، أو لهم على أنَّ خطابَه منزَّلٌ منزلةَ خطابهم. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوُّوهُ بتقويةِ دينه ورسوله ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظِّموه. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزِّهوه أو تُصلُّوا له. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوةً وعشيّاً أو دائماً. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو الأفعالَ الأربعةَ بالياءِ، وقرىء تُعْزِروه بسكون العين، وتَعزِروه بفتحِ التاءِ وضمِّ الزاي وكسْرها، وتعزِّزُوه بالزاءَيْنِ، وتُوقِروه من أوقَرَهُ بمعنى وَقَرَهُ.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنه المقصودُ ببيعته. ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ حالٌ أو استئنافٌ مؤكِّدٌ له على سبيل التخييلِ. ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقضَ العهدَ. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ﴾ فلا يعود ضررُ نكثِه إلا عليه. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ في مبايعتِه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنةُ. وقُرِىءَ عهِدَ. وقرأ حفصٌ عليهُ بضمِّ الهاء، وابنُ كثير ونافع وابنُ عامر وروْحٌ فسنؤتيه بالنونِ. والآيةُ نزلتْ في بيعة الرضوانِ[1].

(١١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم أسْلَمُ وجُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ وغفَارُ استنفرهُم رسولُ الله ﷺ عامَ الحديبيةِ فتخلَّفوا واعتلُّوا بالشُّغل بأموالهم وأهاليهم، وإنما خلَّفهم الخذلانُ وضعْفُ العقيدةِ والخوفُ من مقاتلةِ قريش إنْ صدُّوهم. ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا مَنْ يقومُ بأشغالهم، وقرىء بالتشديدِ للتكثيرِ. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾ من الله على التخلُّفِ. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ تكذيبٌ لهم في الاعتذارِ والاستغفارِ. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمن يمنعُكم من مشيئته وقضائِه. ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضرُّكم كقتلٍ أو هزيمةٍ أو خللٍ في المالِ والأهلِ عقوبةً على التخلُّفِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالضمِّ. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ﴾ ما يُضادُّ ذلك، وهو تعريضٌ بالردِّ. ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيعلَمُ تخلُّفَكم وقَصْدَكُم فيه.

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة [شجرة سمرة] فبايعناه فنزلت الآية. [أسباب النزول، جلال السيوطي ص٢٦٥].

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا
كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لِظَنِّكُم أنَّ المشركينَ يستأصِلُونهم، وأهلونَ جمعُ أهلٍ، وقد يُجمَعُ على أهلاتٍ كأرضاتٍ على أنَّ أصله أَهَلَةٌ، وأما أهالٌ فاسمُ جمع كَلَيَالٍ ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فتمكَّن فيها، وقرىء على البناءِ للفاعلِ وهو اللهُ أوِ الشيطانُ. ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الظنَّ المذكورَ، والمرادُ التسجيلُ عليه بالسوءِ أو هو وسائر ما يظنون بالله ورسولِه من الأمور الزائغةِ. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هالكينَ عندَ الله لفسادِ عقيدتكم وسوءِ نيَّتِكُم.

(١٣) ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضَعَ الكافرين موضِعَ الضمير إيذاناً بأنَّ مَنْ لم يجمعْ بينَ الإيمان بالله ورسوله فهو كافرٌ وأنه مستوجِبٌ للسعير بكفرِه، وتنكيرُ سعيراً للتهويلِ أو لأنها نارٌ مخصوصةٌ.

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبره كيفَ يشاءُ. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذ لا وجوبَ عليه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإنَّ الغفرانَ والرحمةَ من ذاتِه، والتعذيبُ داخلٌ تحتَ قضائِه بالعرضِ، ولذلك جاءَ في الحديث الإلهي: «سبقتْ رحمتي غضبي»(١).

(١٥) ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني المذكورين. ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانِمَ خيبرَ فإنه عليه الصلاة والسلام رجعَ من الحديبية في ذي الحجَّة من سنةِ ستٍّ وأقامَ بالمدينة بقيَّتها وأوائلَ المحرَّم، ثم غزا خيبرَ بمن شهدَ الحديبيةَ ففتحَها وغنِمَ أموالاً كثيرةً فخصَّها بهم. ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أنْ يغيِّروه وهو وعْدُه لأهلِ الحديبيةِ أنْ يعوِّضَهم من مغانمِ مكَّة مغانِمَ خيبرَ، وقيل قوله تعالى ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾(٢) والظاهر أنه في تبوكَ. والكلامُ اسمٌ للتكليم غلبَ في الجملة المفيدةِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ كلِمُ اللهِ وهو جمعُ كلمةٍ. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ نفيٌ في معنى النهي. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾. من قبلِ تهيُّئِهم للخروج إلى خيبرَ. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن يشارِكَكُم في الغنائم، وقرىء بالكسرِ. ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً وهو فطنتُهم لأمورِ الدنيا، ومعنى الإضرابِ الأول ردٌّ منهم أنْ يكونَ حكمُ الله أنْ لا يتَّبِعُوهم وإثباتٌ

---

(١) أخرج البخاري رقم (٣١٩٤) وأطرافه (٧٤٠٤)، (٧٤٢٢) و(٧٤٥٣) و(٧٥٥٤) ومسلم رقم (٢٧٥١).
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابه، فهو عندَهُ فوق العرش: إن رحمتي غَلَبَتْ غضبي».

(٢) التوبة: «٨٣».

للحسدِ، والثاني ردٌّ من اللهِ لذلك وإثباتٌ لجهْلِهم بأمورِ الدين.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ
أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كرَّر ذِكْرَهُم بهذا الاسم مبالغةً في الذمِّ وإشعاراً بشناعة التخلُّفِ. ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفةَ أو غيرَهم ممَّنِ ارتدُّوا بعدَ رسولِ الله ﷺ، أو المشركين فإنه قال: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحدُ الأمرين إما المقاتلةُ أو الإسلامُ لا غيرَ كما دلَّ عليه قراءةُ أو يسلمون، ومَنْ عداهُم يقاتَلُ حتى يسلِمَ أو يعطي الجزيةَ. وهو يدلُّ على إمامةِ أبي بكر رضي الله عنه إذ لم تتفقْ هذه الدعوةُ لغيرِه إلا إذا صحَّ أنهم ثقيفُ وهوازنُ فإنَّ ذلك كان في عهد النبوةِ. وقيل فارسُ والرومُ ومعنى يسلِمونَ ينقادون ليتناولَ تقبُّلَهُمْ الجزيةَ. ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمةُ في الدنيا والجنةُ في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عن الحديبية. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم.

(١٧) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لما أوعدَ على التخلُّف نَفَىٰ الحرجَ عن هؤلاءِ المعذورينَ استثناءً لهم عن الوعيد(١). ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فصَّلَ الوعْدَ وأجملَ الوعيدَ مبالغةً في الوعد لسبقِ رحمتِه، ثم جَبَرَ ذلك بالتكرير على سبيلِ التعميم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ الترهيبُ ها هنا أنفعُ من الترغيبِ، وقرأ نافع وابنُ عامر ندخلْه ونعذِّبه بالنونِ.

(١٨) ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ رُوِيَ أنه ﷺ لما نزلَ الحديبيةَ بعثَ جوَّاسَ بنَ أميةَ الخزاعي إلى أهل مكَّةَ، فهمُّوا به فمنعه الأحابيشُ فرجعَ، فبعثَ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ الله عنه فحبسوهُ فأرجفَ بقتلِه، فدعا رسولُ الله ﷺ أصحابَه وكانوا ألفاً وثلثَمائةٍ أو وأربعمائة أو وخمسَمائة، وبايعهم على أنْ يقاتِلُوا قريشاً ولا يفِرُّوا عنهم وكان جالساً تحتَ سمرةٍ أو سدرةٍ(٢). ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاصِ. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطمأنينةَ، وسكونُ النفس بالتشجيعِ أو

---

(١) وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة (س١٠٩/٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٢٤/٤ ـ ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطولاً. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (١٣٣/٤، ١٣٤، ١٣٥) بسند ضعيف عن عروة بن الزبير، وعن ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم.
وأما حديث البيعة بدون ذكر السبب فهو في الصحيحين من طرق وألفاظ مختلفة، البخاري (٤٤٣/٧) ومسلم (١٤٨٣/٣).
والسَّمُرة: بضم الميم ـ من شجر الطلح ـ وهو شجر عظيم من شجر العضاة.

الصُّلحِ. ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ فتحَ خيبرَ غِبَّ انصرافِهم، وقيلَ مكّةَ أو هَجَرَ.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ يعني مغانِمَ خيبرَ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ غالباً مراعياً مقتضَى الحكمةِ.

(٢٠) ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾ وهي ما يفيءُ على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ يعني مقامَ خيبرَ. ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ أي أيديَ أهلِ خيبرَ وحلفائِهم من بني أسدَ وغطفانَ، أو أيدي قريش بالصلح. ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفةُ أو الغنيمةُ. ﴿ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أمارةً يعرفون بها أنهم من الله بمكانٍ، أو صِدْقَ الرسول في وعْدِهم فتحَ خيبرَ في حينِ رجوعه من الحديبية، أو وعْدَ المغانمِ أو عنواناً لفتح مكّةَ، والعطفُ على محذوفٍ هو علةٌ لكفٍّ، أو عجَّلَ مثلُ لتسلموا، أو لتأخذوا أوِ العلةُ لمحذوفٍ مثلُ فعلَ ذلك. ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ هو الثقةُ بفضلِ الله والتوكُّلِ عليه.

(٢١) ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ ومغانمُ أخرى معطوفةٌ على هذه، أو منصوبةٌ بفعلٍ يفسِّره قد أحاط الله بها مثلَ قضَى، ويُحتَمَلُ رفعُها بالابتداءِ لأنها موصوفةٌ وجرُّها بإضمارِ ربَّ. ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ بعد لما كان فيها من الجولةِ. ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ استولى فأظْفَرَكُم بها وهي مغانمُ هوازنَ أو فارسَ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ لأن قدرته ذاتيةٌ لا تختصُّ بشيء دونَ شيء.

(٢٢) ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكةَ ولم يصالحوا. ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ لانهزموا. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يحرسُهم. ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصرُهم.

(٢٣) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي سنَّ غلبةَ أنبيائه سُنَّةٌ قديمةٌ فيمن مضى من الأمم كما قال تعالى ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[١]. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ تغييراً.

(٢٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾ أي أيدي كفارِ مكّة. ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكّةَ. ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أظهركم عليهم، وذلك أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرجَ في خمسِمائةٍ إلى الحديبية، فبعث رسولُ الله ﷺ خالد بنَ الوليد على جنْد فهزمَهم حتى أدخلَهم حيطانَ مكّةَ ثم عاد[٢].

---

(١) المجادلة: «٢١».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/٩٥) عن ابن حميد الرازي وهو ضعيف. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٥٣ رقم ٤٢٤): «وفي صحته نظر لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية...» هـ.

وقيل كان ذلك يومَ الفتحِ واستُشْهِدَ به على أنَّ مكةَ فتحتْ عُنْوَةً وهو ضعيفٌ إذ السورةُ نزلتْ قبلَه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتِهم أولاً طاعةً لرسوله وكفِّهم ثانياً لتعظيم بيتِه، وقرأ أبو عمرو بالياء ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عليه.

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ يدلُّ على أنَّ ذلك كان عامَ الحديبية، والهدي ما يُهْدَى إلى مكَّةَ. وقرىء الهديُ وهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، ومحلُّه مكانُه الذي يحلُّ فيه نحرُه والمرادُ مكانُه المعهودُ وهو مِنًى لا مكانُه الذي لا يجوزُ أنْ يُنْحَرَ في غيرِه، وإلا لما نَحَرَهُ الرسولُ ﷺ حيث أُحْصِرَ فلا ينتهضُ حجَّةً للحنفيةِ على أنَّ مذْبَحَ هدْي المُحْصَرِ هو الحرمُ. ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطِهم بالمشركين. ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أنْ توقعوا بهم وتبيدُوهم قال:

وَوَطِئْتَنَـــا وَطْـــأً عَلَـــى حَنَـــقٍ ... وطْءَ المُقَيَّـــدِ ثَـــابِـــتِ الهَـــرَمِ

وقال عليه الصلاةُ والسلام «إنَّ آخرَ وطأةٍ وطِئَهَا الله بوجٍّ»[1] وهو وادٍ بالطائفِ كان آخِرَ وقعةٍ للنبي ﷺ بها، وأصلُه الدوسُ وهو بدلُ الاشتمالِ من رجالٍ ونساء أو من ضميرِهم في تعلموهم. ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ من جهتهم. ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ مكروهٌ كوجوبِ الديةِ والكفَّارةِ بقتْلِهم وللتأسُّفِ عليهم، وتعييرُ الكفارِ بذلك والإثمُ بالتقصيرِ في البحثِ عنهم مفعلةٌ من عرَّه إذا أَعْرَاهُ ما يكرهُه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلِّقٌ بأنْ تطؤوهم أي تطؤُوهم غيرَ عالمينَ بهم، وجوابُ لولا محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، والمعنى لولا كراهةُ أنْ تهلِكوا أناساً مؤمنينَ بينَ أظهُرِ الكافرين جاهلينَ بهم فيصيبُكم بإهلاكهم مكروهٌ لما كفَّ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢/٤) والبيهقي في الأسماء والصفات ص٤٦١، من حديث يعلى العامري. وفيه سعيد بن أبي راشد: مقبول، قاله الحافظ في التقريب. وقال عنه الذهبي في «الكاشف» صدوق.
والحديث له شاهد من حديث (خولة بنت حكيم) أخرجه أحمد (٤٠٩/٦) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٦١). وفي إسناده: محمد بن أبي سويد الطائفي: مجهول، قاله الحافظ في التقريب.
وخلاصة القول أن الحديث حسن والله أعلم.
قلت: أول البيهقي الحديث ومذهب السلف إمرار صفاته تعالى كما جاءت دون تأويل ولا تعطيل ولا تكييف.

أيديَكم عنهم. ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ علَّةٌ لما دلَّ عليه كفُّ الأيدي عن أهل مكَّةَ صوناً لمن فيها من المؤمنين، أي كان ذلك ليدخلَ اللهُ في رحمته أي في توفيقه لزيادةِ الخير أو للإسلام. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ مؤمنيهم أو مشركيهم. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ لو تفرَّقوا وتميَّز بعضُهم من بعض، وقرىء تزايلوا. ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتل والسبي.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مقدَّرٌ باذكُر أو ظرفٌ لعذبنا أو صدُّوكم. ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأنفةَ. ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ التي تمنعُ إذعانَ الحقِّ. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزل عليهم الثباتَ والوقارَ وذلك ما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام لما همَّ بقتالهم بعثُوا سهيلَ بنَ عمرو وحويطبَ بنَ عبدالعزَّى ومكرِزَ بنَ حفص ليسألوه أنْ يرجعَ من عامِه على أنْ يُخلِيَ له قريشٌ مكَّةَ من القابلِ ثلاثةَ أيامٍ، فأجابهم وكتبوا بينَهم كتاباً، فقال عليه الصلاة والسلام لعليٍّ رضي الله عنه «اكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا ما نعرفُ هذا اكتبْ باسمك اللهمَّ ثم قال: «اكتبْ هذا ما صالح عليه رسولُ الله أهلَ مكَّة» فقالوا: لو كنا نعلمُ أنك رسولُ الله ما صددْناك عن البيت وما قاتلْناك، اكتبْ هذا ما صالح عليه محمد بنُ عبد الله أهلَ مكَّةَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتب ما يريدون» فهمَّ المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشُوا عليهم فأنزلَ الله السكينةَ عليهم فتوقَّروا وتحمَّلوا[1]. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ كلمةَ الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمدُ رسول الله اختارَها لهم، أو الثباتَ والوفاءَ بالعهد، وإضافةُ الكلمةِ إلى التقوى لأنها سببُها أو كلمةُ أهلِها. ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم. ﴿وَأَهْلَهَا﴾ والمستأهِلِينَ لها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلَمُ أهلَ كلِّ شيء وييسرُه له.

(٢٧) ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رأى عليه الصلاة والسلام أنه وأصحابَه دخلُوا مكَّة آمنين وقد حلَّقوا وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسِبوا أن ذلك يكونُ في عامِهم، فلما تأخَّر قال بعضُهم والله ما حلقْنا ولا قصَّرنا ولا رأينا البيتَ فنزلتْ[2] والمعنى صدقُه في رؤياهُ. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبِساً به فإن ما رآه كائنٌ لا محالةَ في وقْتِهِ المقدَّر له وهو العامُ القابلُ، ويجوزُ أنْ يكونَ بالحقِّ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ أي صدقاً ملتبساً بالحقِّ وهو القصدُ إلى التمييز بينَ الثابتِ على الإيمان والمتزلزِلِ فيه، وأنْ يكون قسماً إما باسم الله تعالى أو بنقيضِ الباطل وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جوابُه وعلى الأوَّلينِ جوابُ قسَم محذوف. ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليقٌ للعدةِ بالمشيئة تعليماً للعبادِ، أو إشعاراً بأن بعضَهم لا يدخل لموتٍ أو غيبةٍ أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا، أو النبيُّ ﷺ لأصحابه. ﴿ءَامِنِينَ﴾ حالٌ من الواو، والشرطُ معترِضٌ. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي محلقاً بعضُكم ومقصِّراً آخرون. ﴿لَا

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٣/ ٤٢٧، ٤٤٠) وأحمد في المسند (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦) من طريق ابن إسحاق. وقد صرح بالسماع عند ابن هشام وسنده متصل ورجاله ثقات ولم يصرح ابن إسحاق بالسماع عند أحمد.
والخلاصة أن الحديث حسن.
وأخرجه البخاري (٥/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤ رقم ٢٦٩٨، ٢٦٩٩) ومسلم (٣/ ١٤٠٩ ـ ١٤١١ رقم ٩٠، ٩١، ٩٢/ ١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب ومسلم (٣/ ١٤١١ رقم ٩٣/ ١٧٨٤) من حديث أنس.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٦٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/ ١٠٧) بإسنادين أحدهما إسناد البيهقي، وهو إسناد صحيح إلى مجاهد.

﴿تَخَافُونَ﴾ حالٌ مؤكِّدة أو استئنافٌ أي لا تخافون بعدَ ذلك. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ من الحكمة في تأخير ذلك. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ من دون دخولكم المسجدَ أو فتح مكّة. ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتحُ خيبرَ ليستروحَ إليه قلوبَ المؤمنين إلى أنْ يتيسَّر الموعودُ.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

(٢٨) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ ملتبساً به أو بسببِه أو لأجلِه. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليغلبَه على جنسِ الدين كلِّه بنسْخِ ما كان حقاً، وإظهارِ فسادِ ما كان باطلاً، أو بتسليط المسلمين على أهلِه إذْ ما من أهل دينٍ إلا وقدْ قهرهُم المسلمونَ، وفيه تأكيدٌ لما وعدَه من الفتح. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعدَه كائنٌ أو على نبوَّته بإظهارِ المعجزات.

(٢٩) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ مبيِّنة للمشهود به، ويجوزُ أنْ يكونَ رسولُ الله صفةً ومحمدٌ خبرُ محذوف أو مبتدأ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ معطوفٌ عليه وخبرهما. ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وأشدَّاء جمعُ شديد ورحماءُ جمعِ رحيم، والمعنى أنهم يغلُظون على مَنْ خالف دينَهم ويتراحمون فيما بينَهم كقوله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١). ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثرِ أوقاتِهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الثوابَ والرضا. ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ يريد السمةَ التي تحدُثُ في جباههم من كثرة السجود، فعلى من سامَه إذا أعلَمه وقد قرئت ممدودةً ومن أثرِ السجود بيانُها أو حالٌ من المستكِنِّ في الجارِّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الوصف المذكورِ، أو إشارة مبهمةٌ يفسِّرها كزرع. ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ صفتُهم العجيبةُ الشأنِ المذكورةُ فيها. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ عليه أن ذلك مثلُهم في الكتابين وقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ تمثيلٌ مستأنَفٌ أو تفسيرٌ أو مبتدأ، وكزرع خبرهُ. ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فراخَه يُقَالُ أشطأ الزرع إذا فرَّخَ، وقرأ ابن كثير وابن عامر برواية ابنِ ذكوانَ شَطَأَه بفتحاتٍ وهو لغةٌ فيه، وقرِىء شَطَاهُ بتخفيفِ الهمزة، وشطاءَه بالمدِّ، وشَطَه بنقل حركةِ الهمزة وحذفِها، وشَطُوه بقلبها واواً. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوّاه من المؤازرةِ وهي المعاونةُ أو من الإيزارِ وهي الإعانة، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوانَ فأَزَرَه كأجَرَه في آجَرَهُ. ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقةِ إلى الغلظ. ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقامَ على قصبه جمع ساقٍ، وعن ابن كثير سؤقَه بالهمزةِ. ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وقوَّته وغِلْظِه وحُسْنِ منظره. وهو مَثَلٌ ضربَه الله تعالى للصحابة قلُّوا في بدء الإسلام ثم كثرُوا واستحكموا فترقَّى أمرهم بحيث أعجبَ الناسَ. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ علةٌ لتشبيههم بالزرع في زكاته واستحكامه أو لقوله:

---

(١) المائدة: «٥٤».

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فإنَّ الكفارَ لما سمعوه غاظَهم ذلك ومنهم للبيان. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الفتح فكأنما كان ممنْ شهدَ مع محمدٍ عليه الصلاة والسلام فتحَ مكّةَ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والواحدي بالإسناد إلى أبي بن كعب.
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

ترتيبها ٤٩ — آياتها ١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟
أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

سورة الحجرات مدنية[1] وآيها ثمانِ عشرَة آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ أي لا تقدموا أمراً، فحذفَ المفعولَ لِيُذْهِبَ الوهْم إلى كلِّ ما يمكن، أو تُرِكَ لأنَّ المقصود نفيُ التقديم رأساً، أو لا تتقدموا ومنه مقدمةُ الجيش لمتقدِّميهم، ويؤيده قراءة يعقوبَ لا تَقَدَّموا. وقرىء لا تَقْدُموا من القدوم[2]. ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مستعارٌ مما بين الجهتين المسامتتينِ ليدي الإنسان تهجيناً لما نُهوا عنه، والمعنى لا تقطعُوا أمراً قبلَ أنْ يحكُما به.

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحجرات بالمدينة.
وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.
وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ١٢٩): «وهي مدنية بإجماع من أهل التأويل رضي الله عنهم».

(٢) تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في خيره أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتقلّيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به (س٨/ ١١٥).

وقيل المراد بين يدي رسولِ الله ﷺ، وذِكْرُ اللهِ تعظيمٌ له وإشعار بأنه من الله بمكان يوجبُ إجلالَه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في التقديم أو مخالفةِ الحكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالِكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالِكم.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي إذا كلَّمتموه فلا تجاوزوا أصواتَكُم عن صوته. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا تبلغوا به الجهرَ الدائرَ بينكم بلِ اجعلوا أصواتكم أخفضَ من صوته محاماةً على الترحيبِ ومراعاة للأدب. وقيل معناه ولا تخاطبوه باسمِه وكنيتِه كما يخاطِبُ بعضُكم بعضاً وخاطبوه بالنبيِّ والرسول، وتكريرُ النداءِ لاستدعاءِ مزيدِ الاستبصارِ والمبالغةِ في الاتعاظ والدلالة على استقلالِ المنادى له وزيادةِ الاهتمام به. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ كراهةَ أن تحبطَ فيكون علَّةً للنهي، أو لأنْ تَحْبَطَ على أنَّ النهي عن الفعل المعلَّلِ باعتبار التأديةِ لأن في الجهر والرفعِ استخفافاً قد يؤدي إلى الكفرِ المحبِط، وذلك إذا انضمَّ إليه قصدُ الإهانة وعدمُ المبالاةِ. وقد روي أنَّ ثابتَ بنَ قيس[١] كان في أذنه وقرٌ وكان جهورياً، فلما نزلتْ تخلَّف عن رسول الله ﷺ فتفقَّده ودعاه، فقال: يا رسولَ الله لقد أنزلت إليك هذه الآيةُ وإني رجل جهِّيرُ الصوتِ فأخاف أنْ يكون عملي قد حبطَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لست هناك، إنك تعيشُ بخير وتموتُ بخير وإنك من أهل الجنة»[٢]. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنها محبطةٌ.

(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ يخفِضونَها. ﴿عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مراعاةً للأدب أو مخافةً عن مخالفة النهي. قيل كان أبو بكر وعمرُ بعدَ ذلك يُسِرَّانه حتى يستفهِمَهما. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ جرَّبها للتقوى ومرَّنها عليها، أو عرَّفها كائنةً للتقوى خالصةً لها، فإنَّ الامتحانَ سببُ المعرفة. واللامُ صلةُ محذوف أو للفعل باعتبار الأصل، أو ضربَ الله قلوبَهم بأنواعِ المحنِ والتكاليف الشاقةِ لأجل التقوى، فإنها لا تظهرُ إلا باصطبارٍ عليها، أو أخلصَها للتقوى من امتحنَ الذهب إذا أذابه وميَّز إبريزَه من خُبثِه. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لغضِّهم وسائرِ طاعاتهم، والتنكيرُ للتعظيم، والجملةُ خبر ثانٍ لإنَّ، أو استئنافٌ لبيان ما هو جزاء الغاضين إحماداً لحالهم كما أخبرَ عنهم بجملة مؤلفةٍ من معرفتين، والمبتدأ اسمُ الإشارة المتضمِّنُ لما جُعِلَ عنواناً لهم، والخبرُ الموصول بصلةٍ دلَّتْ على بلوغِهم أقصى الكمالِ مبالغةً في الاعتدادِ بغضِّهم والارتضاءِ له، وتعريضاً بشناعة الرفعِ والجهرِ وأنَّ حالَ المرتكِبِ لهما على خلاف ذلك.

(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ من خارجها خلفَها أو قُدَّامَها، ومن ابتدائيةٌ فإنَّ المناداةَ نشأت من جهة الوراءِ، وفائدتُها الدلالةُ على أنَّ المنادى داخلَ الحجرةِ إذ لا بدَّ وأنْ يختلفَ المبتدأُ والمنتَهى بالجهةِ، وقرىء الحُجَرَاتِ بفتح الجيم وسكونِها وثلاثتُها جمعُ حجرةٍ وهي القطعةُ من الأرضِ المحجورةُ بحائط، ولذلك يقال لحظيرةِ الإبلِ حجرةً. وهي فعلةٌ بمعنى مفعولٍ كالغرفةِ والقبضةِ، والمراد حجراتُ نساءِ النبي عليه الصلاة والسلام وفيها كنايةٌ عن خلوته بالنساءِ ومناداتِهم من ورائِها،

---

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك بن امرىء القيس بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج أبو محمد وقيل أبو عبدالرحمٰن خطيب الأنصار شهد أحداً وقتل باليمامة [تجريد أسماء الصحابة. الذهبي ج١ ص٦٤].

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٦٢٠ رقم ٣٦١٣) و(٨/ ٥٩٠ رقم ٤٨٤٦) ومسلم (١١/ ١١٠ رقم ١٨٧، ١٨٨) عنه.

إما بأنهم أتوها حجرةً حجرةً فنادَوْهُ من ورائها، أو بأنهم تفرَّقوا على الحجراتِ متطلبين له، فأسندَ فعلَ الأبعاضِ إلى الكلِّ. وقيل إن الذي ناداه عيينةُ بنُ حصن والأقرع بنُ حابس، وَفَدَا على رسولِ الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقتَ الظهيرة وهو راقدٌ فقالا يا محمد اخرجْ إلينا، وإنما أُسْنِدَ إلى جميعهم لأنهم رضُوا بذلك أو أَمَرُوا به، أو لأنه وجد فيما بينَهم. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقلُ يقتضي حسنَ الأدبِ ومراعاةَ الحشمةِ سيَّما لمن كان بهذا المنصبِ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾

(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولو ثبتَ صبرُهم وانتظارُهم حتى تخرجَ إليهم، فإنَّ أنَّ وإنْ دلَّتْ بما في حيِّزها على المصدرِ دلتْ بنفسها على الثبوتِ، ولذلك وجبَ إضمار الفعل وحتى تفيدَ أنَّ الصبرَ ينبغي أنْ يكونَ مغنياً بخروجه، فإنَّ حتى مختصَّةٌ بغاية الشيءِ في نفسه ولذلك تقول: أكلتُ السمكةَ حتى رأسَها، ولا تقول حتى نصفَها، بخلافِ إلى فإنها عامةٌ، وفي إليهم إشعارٌ بأنه لو خرجَ لا لأجلهم ينبغي أنْ يصبروا حتى يفاتِحَهُم بالكلام أو يتوجَّه إليهم. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكان الصبرُ خيراً لهم من الاستعجالِ لما فيه من حفظ الأدبِ وتعظيمِ الرسول الموجِبَيْنِ للثناءِ والثواب والإسعافِ بالمسؤولِ، إذ روي أنَّهم وفدوا شافعينَ في أَسَارَى بني العنبرِ فأطلق النصفَ وفادى النصفَ. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث اقتصرَ على النصحِ والتقريعِ لهؤلاء المسيئين الأدبَ التاركين تعظيمَ الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فتعرفوا وتصفَّحوا، روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بنَ عقبة[١] مصدقاً[٢] إلى بني المصطلقِ وكان بينه وبينهم إحنةٌ[٣]، فلما سمعوا به استقبلوه فحسِبَهم مقاتليه فرجعَ وقال لرسول الله ﷺ قد ارتدوا ومنعُوا الزكاةَ فهمَّ بقتالهم فنزلتْ[٤]. وقيل بعثَ

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط إبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية بن عبدشمس في دمشق، من مسلمة الفتح وأمه أروى أم عثمان بن عفان.
[تجريد أسماء الصحابة. الذهبي ج٢ ص١٢٩].

(٢) عاملاً في الصدقة.

(٣) الإحنة: العداوة.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/٤٠١ رقم ٩٦٠) وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/١٢٣) من حديث أم سلمة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/١١١) وقال: «رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».
● وبنحوه أخرجه أحمد في المسند (٤/٢٧٩) والطبراني في الكبير (٣/ ٣١٠ رقم ٣٣٩٥) من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/١٠٩): «رجال أحمد ثقات».
وانظر «الكافي الشاف» (ص١٥٦ رقم ١٨). وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٣). =

إليهم خالد بنَ الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدينَ فسلَّموا إليه الصدقاتِ فرجعَ[١]، وتنكيرُ الفاسقِ والنبأ للتعميم، وتعليقُ الأمر بالتبين على فسقِ المخبِرِ يقتضي جوازَ قبولِ خبرِ العدْلِ من حيثُ أن المعلَّقَ على شيءٍ بكلمةِ إنْ عدمَ عند عدمِه، وأنَّ خبرَ الواحدِ لو وجب تبيُّنه من حيث هو كذلك لما رتب على الفسقِ، إذ الترتيبُ يفيد التعليلَ وما بالذات لا يعلَّلُ بالغير. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ فتثبتوا أي فتوقَّفوا إلى أن يتبيَّن لكم الحالُ. ﴿أَن تُصِيبُوا﴾ كراهةَ إصابتِكم. ﴿قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ﴾ جاهلينَ بحالهم. ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ فتصيروا. ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ مغتمينَ غمّاً لازماً متمنينَ أنه لم يقعْ، وتركيبُ هذه الأحرفِ الثلاثة دائر مع الدوامِ.

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

(٧) ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ بما في حيِّزه سادٌّ مسدَّ مفعولي اعلموا باعتبار ما قيِّد به من الحال وهو قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ فإنه حالٌ من أحدِ ضميري فيكم، ولو جُعِلَ استئنافاً لم يظهر للأمر فائدةٌ. والمعنى أنَّ فيكم رسولَ الله على حالٍ يجب تغييرُها وهي أنكم تريدون أنْ يتَّبِعَ رأيكم في الحوادثِ، ولو فعل ذلك لعنِتُّم أي لوقعتم في الجهدِ من العنَتِ، وفيه إشعارٌ بأن بعضَهم أشارَ إليه بالإيقاع ببني المصطلق وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ استدراكٌ ببيان عذْرِهم، وهو أنه من فَرْطِ حبِّهم للإيمان وكراهتِهم للكفر حملهم على ذلك لمَّا سمعُوا قولَ الوليد، أو بصفةِ مَنْ لم يفعلْ ذلك منهم إحماداً لفعلهم وتعريضاً بذمِّ مَنْ فعل ويؤيدُه قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي أولئك المستثْنَوْنَ هم الذين أصابوا الطريقَ السويَّ، وكرِهَ يتعدَّى بنفسه إلى مفعولٍ واحد فإذا شُدِّدَ زادَ له آخرَ، لكنه لما تضمَّن معنى التبغيضِ نُزِّلَ كره منزلةَ بغضَ فَعُدِّيَ إلى آخرَ بإلى، أو نُزِّلَ إليكم منزلةَ مفعولٍ آخرَ. والكفر: تغطيةُ نِعَمِ الله بالجحودِ، والفسوقُ: الخروجُ عن القصد، والعصيان: الامتناعُ عن الانقياد.

(٨) ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ تعليلٌ لكرَّه أو حبَّبَ، وما بينَهما اعتراضٌ لا للراشدون فإنَّ الفضلَ فعلُ الله، والرشدُ وإن كان مسبَّباً عن فعلِه مسندٌ إلى ضميرِهم أو مصدرٌ لغير فعلِه فإنَّ التحبيبَ والرشدَ فضلٌ من الله وإنعامٌ. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالِ المؤمنين وما بينهم من التفاضُلِ ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث يفضلُ وينعِم بالتوفيق عليهم.

(٩) ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ تقاتلوا والجمعُ باعتبار المعنى فإنَّ كل طائفةٍ جمعٌ.

= وخلاصة الحديث أنه حسن والله أعلم.

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٥٦ رقم ١٩): لم أره.

﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴾ بالنُّصح والدعاءِ إلى حكم الله تعالى. ﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ تعدَّتْ عليها. ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ ترجعَ إلى حكمِه أو ما أمرَ به، وإنما أُطْلِقَ الفيءُ على الظلِّ لرجوعِه بعد نسخ الشمسِ، والغنيمةُ لرجوعِها من الكفار إلى المسلمين. ﴿ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ بفصلِ ما بينَهما على ما حكم الله، وتقييدُ الإصلاحِ بالعدل ها هنا لأنه مظنةُ الحيفِ من حيثُ إنه بعدَ المقاتلةِ. ﴿ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ ﴾ واعدلوا في كلِّ الأمور. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ يحمدُ فعلَهم بحسنِ الجزاء. والآيةُ نزلتْ في قتالٍ حَدَثَ بين الأوسِ والخزرجِ في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعفِ والنعال[1]، وهي تدل على أنَّ الباغي مؤمنٌ وأنه إذا قبضَ عن الحرب ترك كما جاء في الحديث لأنه فيء إلى أمرِ الله تعالى، وأنه يجبُ معاونةُ مَنْ بُغِيَ عليه بعد تقديم النصحِ والسعي في المصالحةِ.

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ من حيثُ إنهم منتسبونَ إلى أصلٍ واحدٍ وهو الإيمان الموجبُ للحياة الأبدية، وهو تعليلٌ وتقرير للأمرِ بالإصلاح ولذلك كرَّره مرتباً عليه بالفاءِ فقال: ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ ووضعَ الظاهرَ موضعَ الضميرِ مضافاً إلى المأمورِينَ للمبالغةِ في التقرير والتخصيصِ، وخصَّ الاثنين بالذِّكر لأنهما أقلُّ مَنْ يقعُ بينَهم الشقاقُ. وقيل المراد بالأخوين الأوسُ والخزرجُ. وقرىء بين إخوتِكم وإخوانِكم. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في مخالفة حكمه والإهمالِ فيه. ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ على تقواكُم.

(١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ أي لا يسخرْ بعضُ المؤمنين والمؤمناتِ من بعض إذ قد يكون المسخورُ منه خيراً عند الله من الساخرِ. والقومُ مختصٌّ بالرجال لأنه إما مصدرٌ نُعِتَ به فشاعَ في الجمع، أو جمعٌ لقائمٍ كزائرٍ وزَوْرٍ والقيامُ بالأمور وظيفةُ الرجال كما قال تعالى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾[2] وحيث فسِّر بالقبيلينِ كقومِ عادٍ وفرعونَ؛ فإما على التغليبِ أو الاكتفاء بذكرِ الرجالِ على ذكرهنَّ لأنهنَّ توابعُ. واختيار الجمعِ لأنَّ السخريةَ تغلِبُ في المجامعِ. وعسى باسمِها استئنافٌ بالعلة الموجِبَةِ للنهي، ولا خبرَ لها لإغناءِ الاسم عنه. وقرىء عسوا أنْ يكونوا، وعسينَ أنْ يكنَّ فهي على هذا ذاتُ خبرٍ. ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً فإنَّ المؤمنين كنفس واحدةٍ، أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحقُّ به اللمزَ فقد لمزَ نفسَه. واللمزُ الطعنُ باللسان. وقرأ يعقوب بالضمِّ. ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ ﴾ ولا يدْعُ بعضُكم بعضاً بلقب السوءِ، فإنَّ النبزَ مختصٌّ بلقبِ السوءِ عُرْفاً. ﴿ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ أي بئس الذِّكْرُ المرتفع للمؤمنين أنْ يُذْكَروا بالفسوق بعدَ دخولهم الإيمانَ واشتهارِهم به، والمراد به إما

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٩٧ رقم ٢٦٩١) ومسلم (٣/ ١٤٢٤ رقم ١٧٩٩) من حديث أنس.
(٢) النساء: «٣٤».

تهجينُ نسبةِ الكفر والفسقِ إلى المؤمنين خصوصاً إذ روي أنَّ الآيةَ نزلتْ في صفيةَ بنتِ حييٍّ رضي الله عنها، أتتْ رسولَ الله ﷺ فقالت: إن النساءَ يقلْنَ لي يا يهوديةُ بنتُ يهوديين، فقال لها «هلا قلتِ إن أبي هارونُ وعمي موسى وزوجي محمدٌ عليهم السلام»[(١)] أو الدلالةُ على أنَّ التنابُزَ فِسقٌ والجمعُ بينه وبين الإيمان مستقبَحٌ. ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ عما نُهِيَ عنه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضعِ العصيان موضعَ الطاعةِ وتعريضِ النفس للعذاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ كونوا منه على جانبٍ، وإبهامُ الكثير ليَحتاطَ في كل ظنٍّ ويتأملَ حتى يعلمَ أنه من أي القبيلِ، فإن من الظنِّ ما يجب اتباعُه كالظنِّ حيث لا قاطعَ فيه من العملياتِ وحسنِ الظنِّ بالله سبحانه وتعالى، وما يحرم كالظنِّ في الإلهيات والنبواتِ وحيث يخالفُه قاطِعٌ وظنَّ السوءِ بالمؤمنين، وما يباحُ كالظنِّ في الأمور المعاشية. ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ مستأنَفٌ للأمرِ، والإثمُ الذَّنْبُ الذي يستحقُّ العقوبة عليه. والهمزةُ فيه بدلٌ من الواو كأنه يَثِمُ الأعمالَ أي يكسِرها. ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، تفعَّل من الجسِّ باعتبار ما فيه من معنى الطلبِ كالتلمُّسِ، وقرىء بالحاء من الحسِّ الذي هو أثر الجسِّ وغايتُه، ولذلك قيل للحواسِّ الخمس الجواسُّ. وفي الحديث: «لا تتبعوا عوراتِ المسلمين، فإن من تتبعَ عوراتِهم تتبعَ الله عورته حتى يفضحَه ولو في جوف بيته»[(٢)]. ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ ولا يذكُرْ بعضُكم بعضاً بالسوء في غيبتِه. وسُئِلَ عليه الصلاة والسلام عن الغيبة فقال «أنْ تذكرَ أخاك بما يكرههُ، فإن كان فيه فقدِ اغْتَبْتَهُ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه»[(٣)]. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ تمثيلٌ لما يناله المغتابُ من عرضِ

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٩٣) عن عكرمة عن ابن عباس به بدون سند.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/٣٧٨ رقم ٢٠٣٢) وابن حبان (ص٣٥٩ رقم ١٤٩٤ ـ موارد).

وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد. وروى عن أبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ نحو هذا.

● والشاهد الذي أشار إليه الترمذي أخرجه أبو داود (٥/١٩٤ رقم ٤٨٨٠) وأحمد في المسند (٤/٤٢١) من حديث أبي برزة الأسلمي.

● وله شاهد من حديث البراء بن عازب أخرجه أبو يعلى في المسند (٣/٢٣٧ ـ ٢٣٨ رقم ٢٢/١٦٧٥).

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢٠٠١ رقم ٧٠/٢٥٨٩) وأبو داود (٥/١٩١ رقم ٤٨٧٤) والترمذي (٤/٣٢٩ رقم ١٩٣٤) من =

المغتابِ على أفحشِ وجهٍ مع مبالغاتِ الاستفهام المقرِّرِ، وإسنادِ الفعلِ إلى أحدٍ للتعميم، وتعليقُ المحبة بما هو في غاية الكراهةِ وتمثيلُ الاغتياب بأكْلِ لحم الإنسان وجعْلُ المأكولِ أخاً وميتاً وتعقيبُ ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك. والمعنى إن صحَّ ذلك أو عرضَ عليكم هذا فقد كرِهتموه ولا يمكنكُم إنكارُ كراهته وانتصابُ ميتاً على الحال من اللحمِ أو الأخِ. وشدَّده نافع. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ لمن اتقى ما نُهِيَ عنه وتابَ مما فرطَ منه، والمبالغةُ في التَّوابِ لأنه بليغٌ في قَبُولِ التوبة إذ يجعلُ صاحِبَها كمن لم يذنِبْ، أو لكثرةِ المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم، روي: أنَّ رجلينِ من الصحابة بعثا سلمانَ إلى رسول الله ﷺ يبغي لهما إداماً، وكان أسامةُ على طعامه فقال: ما عندي شيءٌ فأخبَرَهُما سلمان فقالا: لو بعثناه إلى بئرٍ سميحةٍ لغارَ ماؤُها، فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى خضرةَ اللحمِ في أفواهِكما»؟ فقالا: ما تناولْنا لحماً، فقال: «إنكما قد اغتبتما» فنزلتْ[1].

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدمَ وحواء عليهما السلام، أو خلقنا كلَّ واحد منكم من أب وأمٍّ فالكل سواءٌ في ذلك فلا وجه للتفاخُر بالنسبِ. ويجوز أنْ يكون تقريراً للأخوة المانعة عن الاغتياب. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعبُ الجمع العظيم المنتسبون إلى أصلٍ واحد وهو يجمع القبائلَ. والقبيلة تجمعُ العمائرَ. والعمارة تجمع البطونَ. والبطن تجمع الأفخاذَ. والفخذ يجمعُ الفصائلَ، فخزيمةُ شعبٌ، وكنانة قبيلةٌ، وقريش عمارةٌ، وقصيٌ بطنٌ، وهاشم فخذٌ، وعباسُ فصيلةٌ. وقيل الشعوبُ بطونُ العجم والقبائلُ بطونُ العرب. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضُكم بعضاً لا للتفاخرِ بالآباء والقبائل. وقرىء لتعارفوا بالإدغام ولتتعارفوا ولتعرفُوا. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فإنَّ التقوى بها تكملُ النفوسُ وتتفاضلُ بها الأشخاص، فمن أراد شرفاً فلْيَلْتَمِسْه منها كما قال عليه الصلاة والسلام: «من سره أن يكون أكرمَ الناس فليتقِ الله»[2] وقال عليه الصلاة والسلام «يا أيها الناس إنما الناسُ رجلان: مؤمن تقيٌّ كريم على الله، وفاجر شقيٌّ هينٌ على الله»[3]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطِنِكم.

(١٤) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ نزلت في نفر من بني أسدٍ، قدموا المدينةَ في سَنَةٍ جدْبةٍ وأظهروا الشهادتينِ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أتيناك بالأثقالِ والعيال ولم نقاتِلْك كما قاتلك بنو فلانٍ، يريدون الصدقةَ ويمنُّون[4]. ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ إذ الإيمانُ تصديق مع ثقة وطمأنينةِ قلبٍ، ولم يحصلْ لكم

= حديث أبي هريرة.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٥٨ رقم ٣٦): «هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راوٍ. وفي الترغيب لأبي القاسم الأصبهاني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلة نحوه» هـ.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٨) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٩ رقم ٣٢٧٠) من حديث ابن عمر في سياق أطول من ذلك وهذا جزء منه.
وقال الترمذي: وعبدالله بن جعفر يضعف، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه. وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٧٠٠).

(٤) أخرج الطبراني بسند حسن عن عبدالله بن أبي أوفى أن ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلك بنو فلان فأنزل الله «يمنون عليك أن أسلموا».
وأخرج البزار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله.
وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن الحسن وأن ذلك لما فتحت مكة. =

إلا لما مننتم على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإسلام وتركِ المقاتلة كما دل عليه آخرُ السورة. ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فإن الإسلام انقيادٌ ودخول في السِّلْمِ وإظهار الشهادتين وتركُ المحاربةِ يشعرُ به، وكان نظمُ الكلام أن يقول لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. أوْ لم تؤمنوا ولكن أسلمتُم فعدلَ منه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القولِ بالإيمان والجزْم بإسلامِهم، أوْ لم تؤمنوا ولكن أسلمتُم فعدلَ منه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القولِ بالإيمان والجزْم بإسلامِهم، وقد فقدَ شرطَ اعتباره شرعاً. ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ توقيتٌ لقولوا فإنه حالٌ من ضميره أي: ولكن قولوا أسلمنا ولم تواطىءْ قلوبُكم ألسنَتكُم بعدُ. ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص وتركِ النفاق. ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾ لا ينقِصْكم من أجورها. ﴿شَيۡـًٔا﴾ من لاتَ يليت ليتاً إذا نقصَ، وقرأ البصريانِ لا يألتكم من الألْتِ وهو لغة غطفانَ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لما فَرَطَ من المطيعين. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضُّل عليهم.

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ
لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ لم يشكُّوا منِ ارتاب مطاوعِ رابَه إذا أوقعه في الشكِّ مع التهمةِ، وفيه إشارة إلى ما أوجبَ نفيَ الإيمان عنهم، وثمَّ للإشعار بأنَ اشتراطَ عدم الارتياب في اعتبار الإيمانِ ليس حالَ الإيمان فقطْ بل فيه وفيما يستقبلُ فهي كما في قوله ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[1]. ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ في طاعته والمجاهدةِ بالأموال والأنفسِ تصلحُ للعبادات المالية والبدنية بأسْرها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الذين صدقوا في ادعاءِ الإيمان.

(١٦) ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ أتخبرونه به بقولِكم آمنَّا. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لا يخفى عليه خافيةٌ، وهو تجهيلٌ لهم وتوبيخٌ. روي أنه لما نزلت الآيةُ المتقدمةُ جاؤوا وحلفوا أنهم مؤمنون معتقدون، فنزلت هذه الآيةُ.

(١٧) ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ يعدُّون إسلامَهم عليك مِنَّةً وهي النعمةُ التي لا يستثيبُ موليها ممن

= وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة نفر من بني أسد على رسول الله ﷺ. سنة تسع وفيهم طلحة بن خويلد ورسول الله في المسجد مع أصحابه فسلموا وقال متكلمهم: يا رسول الله إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ونحن لمن وراءنا سلم فأنزل الله «يمنون عليك أن أسلموا».

وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير قال: أتى قوم من الأعراب من بني أسد النبي ﷺ فقالوا: جئناك ولم نقاتلك فأنزل الله «يمنون عليك أن أسلموا».

انظر [أسباب النزول، السيوطي ص٢٧٢، ص٢٧٣].

(١) الأحقاف: «١٣».

بذَلها إليه، من المنِّ بمعنى القطْع لأنَّ المقصودَ بها قطعُ حاجته. وقيل النعمة الثقيلة من المنِّ. ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي بإسلامِكم، فنُصِبَ بنزع الخافضِ أو تضمينِ الفعلِ معنى الاعتدالِ. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ على ما زعمتُم مع أنَّ الهدايةَ لا تستلزمُ الاهتداءَ وقرىء إنْ هداكم بالكسْرِ، وإذ هدَاكم. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمانِ، وجوابُه محذوف يدلُّ عليه ما قبلَه أي فللَّه المنةُ عليكم، وفي سياق الآية لطفٌ وهو أنهم لما سمُّوا ما صدَر عنهم إيماناً ومنُّوا به فنفَى أنه إيمانٌ وسمَّاه إسلاماً بأن قال يمنُّون عليكم بما هو في الحقيقة إسلامٌ وليس بجدير أنْ يُمَنَّ به عليك، بل لو صحَّ ادعاؤُهم للإيمان فللَّه المنةُ عليهم بالهداية له لا لهم.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غابَ فيهما. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سرِّكم وعلانِيَتِكُم فكيف يخفَى عليه ما في ضمائركم، وقرأ ابنُ كثير بالياء لما في الآية من الغيبة. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الحجراتِ أُعْطِيَ من الأجر بعددِ مَنْ أَطاع اللهَ وعصاهُ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبي بن كعب به.
وهو حديث موضوع.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٥٩ رقم ٤٠).
وتقدم الكلام في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ قٓ

ترتيبها ٥٠ — آياتها ٤٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

سورة قٓ مكية[1]، وهي خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ الكلامُ فيه كما مرَّ في صٓ والقرآنِ ذي الذكر. والمجيدُ: ذو المجد والشرفِ على سائر الكتبِ، أو لأنه كلامُ المجيدِ، أو لأن من عَلِمَ معانيه وامتثل أحكامَه مُجِّدَ.

(٢) ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ إنكار لتعجُّبهم مما ليس بعجبٍ، وهو أن ينذِرَهم أحدٌ من جنسهم أو من أبناء جِلْدَتِهم. ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ حكايةٌ لتعجُّبهم، وهذا إشارة إلى اختيار الله محمداً ﷺ للرسالةِ. وإضمارُ ذكرِهم ثم إظهارُه للإشعار بتعنُّتهم بهذا المقالِ، ثم التسجيلُ على كفرهم بذلك، أو عطفٌ لتعجُّبهم من البعثِ على تعجبهم من البِعْثَةِ، والمبالغةُ فيه بوضعِ الظاهرِ موضعَ ضميرِهم، وحكايةُ تعجبهم مبهماً إنْ كانت الإشارةُ إلى مبْهم يفسِّره ما بعدَه، أو محملاً إن كانت الإشارة إلى محذوف دل عليه «منذر» ثم تفسيره أو تفصيله لأنه أدخل في الإنكار إذ الأول استبعاد لأن يفضل عليهم مثلهم، والثاني استقصار لقدرة الله تعالى عما هو أهون مما يشاهدونه من صنعه.

(٣) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أنرجع إذا مِتْنا وصِرْنا تراباً، ويدل على المحذوفِ قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي بعيدٌ عن الوهم أو العادةِ أو الإمكانِ. وقيل الرجع بمعنى المرجوعِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/١٥٨) «وهي مكية بإجماع من المتأولين» هـ.

(٤) ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ ﴾ ما تأكلُ من أجساد موتَاهم، وهو ردٌّ لاستبعادهم بإزاحةِ ما هو الأصلُ فيه، وقيل إنه جوابُ القسمِ واللامُ محذوفٌ لطولِ الكلام. ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴾ حافظٌ لتفاصيلِ الأشياءِ كلِّها، أو محفوظٌ عن التغيير، والمراد إما تمثيلُ علمِه بتفاصيلِ الأشياءِ بعلمِ مَنْ عنده كتابٌ محفوظ يطالعُه، أو تأكيدٌ لعلمِه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عندَه.

(٥) ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ ﴾ يعني النبوةَ الثابتةَ بالمعجزات، أو النبيَّ ﷺ، أوِ القرآنَ. ﴿ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ ﴾ وقرىء لما بالكسْرِ. ﴿ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴾ مضطربٍ من مَرَجَ الخاتَمُ في أُصْبُعِهِ إذا خرج، وذلك قولُهم تارةً إنه شاعرٌ وتارة إنه ساحرٌ وتارة إنه كاهنٌ.

أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١

(٦) ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ ﴾ حين كفروا بالبعث. ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ ﴾ إلى آثار قدرةِ الله تعالى في خلْق العالَمِ. ﴿ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ﴾ رفعناها بلا عَمَدٍ. ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ بالكواكب. ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾ فتوقٍ بأنْ خلقَها ملساءَ متلاصقةَ الطباقِ.

(٧) ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾ بسطْناها. ﴿ وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ جبالاً ثوابتَ[1]. ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ ﴾ أي من كل صِنْفٍ. ﴿ بَهِيجٖ ﴾ حسنٍ.

(٨) ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ راجعٍ إلى ربه متفكرٍ في بدائع صنعِه، وهما علتانِ للأفعالِ المذكورة معنى وإنِ انتصبتا عن الفعلِ الأخير.

(٩) ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا ﴾ كثيرَ المنافع ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ ﴾ أشجاراً وأثماراً. ﴿ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴾ وحبَّ الزرع الذي من شأنه أن يُحْصَدَ كالبرِّ والشعيرِ[2].

(١٠) ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ ﴾ طوالاً أو حواملَ من أبسقتِ الشاةُ إذا حملت فيكون من أفعلَ فهو فاعلٌ، وإفرادها بالذِّكْرِ لفرْطِ ارتفاعِها وكثرةِ منافعها[3]. وقرىء باصقاتٍ لأجل القافِ. ﴿ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾ منضودٌ بعضُه فوق بعض، والمرادَ تراكمُ الطلعِ أو كثرةُ ما فيه من الثمرِ.

(١١) ﴿ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ ﴾ علّة لأنبتْنا أو مصدرٌ، فإنَّ الإنباتَ رزقٌ. ﴿ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ ﴾ بذلك الماءِ. ﴿ بَلۡدَةٗ

---

(١) والتعبير عنها بالرواسي للإيذان بأن إلقاءها بإرساء الأرض بها (س٨/ ١٢٦).

(٢) وتخصيص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود بالذات (س٨/ ١٢٧).

(٣) وتوسيط الحب بين النخل وبين الجنات لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية، مع ما فيها من مراعاة الفواصل (س٨/ ١٢٧).

مَّيْتًا﴾ أرضاً جذبةً لا نماءَ فيها. ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ كما حييتْ هذه البلدةُ يكون خروجُكم أحياءً بعد موتِكم[1].

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾

(١٢، ١٣) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أراد بفرعونَ إياه وقومَه ليلائم ما قبلَه وما بعدَه. ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ أخدانه لأنهم كانوا أصهارَه.

(١٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ سبق في الحِجْر والدخانِ. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي كلُّ واحد أو قوم منهم أو جميعِهم، وإفرادُ الضمير لإفرادِ لفظه. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فوجبَ وحلَّ عليه وعيدي، وفيه تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديدٌ لهم.

(١٥) ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي أفعجَزْنا عن الإبداءِ حتى نَعجزَ عن الإعادةِ، من عييَ بالأمرِ إذا لم يهتدِ لوجه عملِه، والهمزةُ فيه للإنكارِ. ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هم لا ينكرون قُدْرَتَنا على الخلْق الأولِ بل هم في خلْطٍ، وشبهةٍ في خلقٍ مستأنَفٍ لما فيه من مخالفةِ العادةِ، وتنكيرُ الخلقِ الجديدِ لتعظيمِ شأنه والإشعارِ بأنه على وجه غير متعارَفٍ ولا معتادٍ.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ ما تحدِّثه به نفسُه وهو ما يخطر بالبال، والوسوسةُ الصوتُ الخفيُّ ومنها وسواسُ الحلْي. والضميرُ لما إنْ جُعِلَتْ موصولةً والباء مثلُها في صوتٍ بكذا، أو للإنسان إنْ جُعِلَتْ مصدريةً والباءُ للتعدية. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي ونحنُ أعلمُ بحاله ممن كان أقربَ إليه من حبلِ الوريد، تجوُّزٌ بقرب الذاتِ لقرب العلمِ لأنه موجِبُه، وحبلُ الوريد مَثَلٌ في القربِ قال: والموتُ أدنى من الوريد. والحبلُ العِرْقُ وإضافته للبيانِ، والوريدانِ عرقَانِ مكتنفانِ بصفحتي العُنُقِ في مقدَّمِها متصلانِ بالوتين يَرِدَانِ من الرأسِ إليه، وقيل سُمِّي وريداً لأن الروحَ تردُه.

(١٧) ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مقدَّرٌ باذْكُر أو متعلِّقٌ بأقربُ، أي هو أعلمُ بحاله من كل قريب حين يتلقَّى أي يتلقنُ الحفيظانِ ما يتلفظُ به، وفيه إيذانٌ بأنه غنيٌّ عن استحفاظ الملكينِ فإنه أعلمُ منهما ومطَّلِعٌ

---

(١) قوله «كذلك الخروج».
قدم فيها الخبر للإشارة إلى القصر.
وما فيه من معنىٰ البعد للإشعار ببعد رتبتها، أي مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا شيء مخالف لها.
وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء وعن حياة الموتىٰ بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتىٰ لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس (س٨/ ١٢٧).

على ما يَخفَى عليهما، لكنه لحكمةٍ اقتضتْه وهي ما فيه من تشديد يثبِّطُ العبدَ عن المعصية، وتأكيدٌ في اعتبار الأعمال وضبطِها للجزاءِ وإلزامٌ للحجَّةِ يوم يقومُ الأشهاد. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي عن اليمين قعيدٌ وعن الشمال قعيدٌ، أي مقاعدُ كالجليسِ فحذفَ الأولَ لدلالة الثاني عليه كقوله: فإني وقيارٌ بها لغريبُ. وقد يُطْلَقُ الفعلُ للواحدِ والمتعدِّد كقوله تعالى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[1].

مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾

(١٨) ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يرمي به من فِيْه[2]. ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ مَلَكٌ يرقُب عملَه. ﴿عَتِيدٌ﴾ معدٌّ حاضرٌ، ولعلَّه يكتبُ عليه ما فيه ثوابٌ أو عقاب وفي الحديث: «كاتب الحسناتِ أمينٌ على كاتب السيئاتِ فإذا عمل حسنةً كتبها ملك اليمينِ عشراً، وإذا عملَ سيئة قال صاحبُ اليمين لصاحب الشمال دعْه سبعَ ساعاتٍ لعله يسبحُ أو يستغفرُ»[3].

(١٩) ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ لما ذكر استبعادَهم البعثَ للجزاءِ وأزاحَ ذلك بتحقيق قدرتِه وعلمه أعلمَهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريبٍ عند الموت وقيامِ الساعة، ونبه على اقترابه بأن عبَّر عنه بلفظ الماضي، وسكرةُ الموت شدَّتُهُ الذاهبةُ بالعقلِ والباءُ للتعديةِ كما في قولك: جاء زيدٌ بعمرو. والمعنى وأحضرت سكرةُ الموتِ حقيقةَ الأمرِ أو الموعودَ الحقَّ، أو الحقَّ الذي ينبغي أن يكونَ من الموت أو الجزاءِ، فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ له أو مِثْلُ الباءِ في ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[4]. وقرىء سكرةُ الحقِّ بالموتِ على أنها لشدتها اقتضتِ الزهوقَ أو لاستعقابها له كأنها جاءتْ به، أو على أنَّ الباء بمعنى مع. وقيلَ سكرةُ الحقِّ سكرة الله وإضافتُها إليه للتهويلِ. وقرىء سكراتُ الموتِ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الموتُ. ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تميل وتنفرُ عنه والخطابُ للإنسان.

(٢٠) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ يعني نفخةَ البعث. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي وقتُ ذلك يومَ تحقُّقِ الوعيد

---

(١) التحريم: «٤».

(٢) وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص (س٨/ ١٢٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٣٩١ رقم ٧٠٥١) والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٧ ـ ٢١٨ رقم ٧٧٦٥) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤) كلهم من طريق عروة بن رويم.
وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٣٩٠ رقم ٥٠٤٩) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ رقم ٧٩٧١) من طريق جعفر بن الزبير.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٥ رقم ٧٧٨٧) من طريق ثور بن يزيد. كلهم عن القاسم أبي عبدالرحمن عن أبي أمامة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٠٨) وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها وثقوا وقال في طريق جعفر بن الزبير: فيه جعفر بن الزبير وهو كذاب.
وحسن الألباني الحديث في «الصحيحة» (٣/ ٢١٠ رقم ١٢٠٩).

(٤) المؤمنون: «٢٠».

وإنجازِه، والإشارة إلى مصدر نُفِخَ[١].

(٢١) ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ ملكانِ أحدُهما يسوقُه والآخرُ يشهدُ بعمله، أو مَلَكٌ جامعٌ للوصفين. وقيل السائقُ كاتبُ السيئات، والشهيدُ كاتب الحسناتِ. وقيل السائق نفسُه أو قرينه والشهيدُ جوارحُه أو أعمالُه، ومحلُّ معها النصبُ على الحالِ من كلُّ لإضافتِه إلى ما هو في حكمِ المعرفة.

لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾

(٢٢) ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ على إضمارِ القولِ، والخطابُ لكلِّ نفسٍ إذ ما من أحدٍ إلا وله اشتغالٌ ما عن الآخرةِ أو للكافرِ. ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغطاءُ الحاجبُ لأمورِ المعادِ وهو الغفلةُ، والانهماكُ في المحسوساتِ والإلفُ بها وقصورُ النظر عليها. ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ نافذٌ لزوال المانع للأبصارِ. وقيل الخطابُ للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى: كنتَ في غفلة من أمرِ الديانة فكشفْنا عنك غطاءَ الغفلة بالوحْي وتعليم القرآن، فبصرُك اليومَ حديدٌ ترى ما لا يرون وتعلمُ ما لا يعلمونَ. ويؤيد الأولَ قراءةُ من كسرَ التاءَ والكافاتُ على خطابِ النفس.

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قال الملكُ الموكَّل عليه. ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا ما هو مكتوبٌ عندي حاضرٌ لديَّ، أو الشيطانُ الذي قُيِّضَ له هذا ما عندي وفي ملكتي عتيدٌ لجهنَّم هيأتُه لها بإغوائي وإضلالي، وما إنْ جُعِلَتْ موصوفةً فعتيد صفتُها وإنْ جعلتْ موصولةً فبدلُها أو خبرٌ بعد خبر أو خبرٌ محذوفٌ.

(٢٤) ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطابٌ من الله تعالى للسائقِ والشهيد، أو الملكين من خزنةِ النار، أو لواحدٍ وتثنيةُ الفاعلِ منزَّلٌ منزلةَ تثنيةِ الفعلِ وتكريرُه كقوله:

فإنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ وإنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمنعاً[٢]

أو الألفُ بدلٌ من نون التأكيدِ على إجراءِ الوصلِ مجرى الوقفِ، ويؤيده أنه قرىء أَلْقِيَنْ بالنونِ الخفيفةِ. ﴿عَنِيدٖ﴾ معاندٍ للحق.

(٢٥) ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ كثيرِ المنعِ للمالِ عن حقوقه المفروضةِ. وقيل المرادُ بالخيرِ الإسلامُ فإنَّ الآيةَ نزلت في الوليد بنِ المغيرة لما منعَ بني أخيه عنه. ﴿مُعۡتَدٖ﴾ متعدٍّ. ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٌّ في الله وفي دينِه.

(٢٦) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مبتدأٌ متضمِّنٌ معنى الشرط وخبرهُ. ﴿فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ أو بدلٌ من كلِّ كفار فيكون فألقياه تكريراً للتوكيد، أو مفعولٌ لمضمَرٍ يفسِّره فألقياهُ.

(٢٧) ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي الشيطانُ المقيَّضُ له، وإنما استُؤْنِفَتْ كما تُسْتَأْنَفُ الجملُ الواقعةُ في حكايةِ

(١) وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضاً لتهويله، ولذلك بدىء ببيان حال الكفرة (س٨/ ١٣٠).

(٢) من الطويل.

التقاولِ فإنه جوابٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه. ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُمْ﴾ كأنَّ الكافِرَ قال هو أطغاني فقال قرينُه ربَّنا ما أطغيتُه بخلافِ الأولى فإنها واجبة العطفِ على ما قبلَها للدلالةِ على الجمعِ بينَ مفهوميهما في الحصولِ، أعني مجيءَ كلِّ نفس مع الملكينِ وقولَ قرينِه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فاعنتُه عليه فإنَّ إغواءَ الشياطين إنما يؤثر فيمَنْ كان مختلَّ الرأي مائلاً إلى الفجورِ كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[1].

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ أي اللهُ تعالى. ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي في موقفِ الحساب فإنه لا فائدةَ فيه، وهو استئنافٌ مثلُ الأول. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الطغيانِ في كتبي وعلى ألسنةِ رسلي فلم يبقَ لكم حجةٌ. وهو حالُ تعليلٍ للنهي أي لا تختصمُوا عالمين بأني أوعدتُكُم، والباءُ مزيدةٌ أو معدِّيةٌ على أنَّ قدَّم بمعنى تقدَّم، ويجوزُ أنْ يكون بالوعيدِ حالاً والفعلُ واقعاً على قوله:

(٢٩) ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي بوقوعِ الخُلْفِ فيه فلا تطمعُوا أنْ أبدِّلَ وعيدي. وعفوُ بعض المذنبين لبعضِ الأسبابِ ليس من التبديل فإنَّ دلائلَ العفو تدلُّ على تخصيصِ الوعيد. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فأعذِّبُ مَنْ ليس لي تعذيبُه.

(٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ سؤالٌ وجواب جيءَ بهما للتخييل والتصوير، والمعنى أنها مع اتساعِها تطرحُ فيها الجِنَّةَ والناسَ فوجاً فوجاً حتى تمتلئَ لقوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[2]، أو أنها من السَّعةِ بحيث يدخلُها من يدخلُها وفيها بعدُ فراغٌ، أو أنها من شدة زفيرِها وحِدَّتِها وتشبُّثِها بالعصاةِ كالمستكثرةِ لهم والطالبةِ لزيادتهم. وقرأ نافع وأبو بكر يقولُ بالياء والمزيدُ إما مصدرٌ كالمحيد أو مفعولٌ كالمبيعِ، ويومَ مقدَّرٌ باذكر أو ظرفٌ لِنُفِخَ فيكونُ ذلك إشارةً إليه فلا يفتقرُ إلى تقديرِ مضافٍ.

(٣١) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قُرِّبَتْ لهم. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مكاناً غيرَ بعيدٍ، ويجوز أنْ يكون حالاً وتذكيرُه لأنه صفةُ محذوفٍ، أو شيئاً غيرَ بعيد أو على زنَةِ المصدرِ أو لأنَّ الجنةَ بمعنى البستانِ.

(٣٢) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على إضمار القولِ، والإشارةُ إلى الثواب أو مصدرُ أُزْلِفَتْ. وقرأ ابن كثير بالياءِ. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجّاعٍ إلى الله تعالى، بدلٌ من المتقين بإعادة الجارِّ. ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظٍ لحدودِه.

(٣٣) ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ بعدَ بدلٌ أو بدلٌ من موصوفِ أوَّابٍ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ في حكمِه لأن مَنْ لا يوصفُ به أو مبتدأٌ خبرُه.

---

(١) إبراهيم: «٢٢».
(٢) الأعراف: «١٨».

ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ
مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ
شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿ ٱدۡخُلُوهَا﴾ على تأويلِ يُقَالُ لهم ادخلوها، فإنَّ مَنْ بمعنى الجمعِ وبالغيبِ حالٌ من الفاعلِ أو المفعول، أو صفةٌ لمصدرٍ أي خشيةً ملتبسةً بالغيب حيث خشي عقابَه وهو غائبٌ، أو العقابَ بعدَ غيبٍ أو هو غائب عن الأعين لا يراهُ أحدٌ. وتخصيصُ الرحمن للإشعار بأنهم يرجُون رحمتَه ويخافون عذابَه، أو بأنهم يخشَوْنَ مع علمهم بِسَعَةِ رحمتِه، ووصفُ القلب بالإنابة إذ الاعتبارُ برجوعه إلى الله. ﴿ بِسَلَٰمٖۖ﴾ سالمين من العذاب وزوالِ النِّقمِ، أو مسلَّماً عليكم من الله وملائكتِه. ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ يومُ تقديرِ الخلودِ كقوله تعالى ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1].

(٣٥) ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ وهو ما لا يخطرُ ببالهم مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلبِ بشرٍ.

(٣٦) ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾ قبلَ قومِك. ﴿ مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ قوةً كعادٍ وثمودَ وفرعونَ. ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فخرقُوا في البلاد وتصرَّفوا فيها، أو جالوا في الأرض كلَّ مجالٍ حذرَ الموت، فالفاءُ على الأولِ للتسبُّبِ وعلى الثاني لمجرَّدِ التعقيبِ، وأصلُ التنقيبِ التنقيرُ عن الشيءِ والبحثُ عنه. ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي لهم من الله أو منَ الموتِ. وقيل الضميرُ في نقَّبوا لأهلِ مكةَ أي ساروا في أسفارِهم في بلاد القرونِ فهل رأَوا لهم محيصاً حتى يتوقَّعوا مثلَه لأنفسِهم، ويؤيدُه أنه قرىء فنقِّبوا على الأمرِ، وقرىء فَنَقِبُوا بالكسرِ من النَّقَبِ وهو أنْ ينتقبَ خفُّ البعير أي أكثَروا السيرَ حتى نقبتْ أقدامُهم أو أخفافُ مراكِبهم.

(٣٧) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكِرَ في هذه السورةِ. ﴿ لَذِكۡرَىٰ﴾ لتذكرةٌ. ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ أي قلبٌ واعٍ يتفكَّر في حقائقِه. ﴿ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ أي أصغَى لاستماعِه. ﴿ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ حاضرٌ بِذِهْنِه ليفهمَ معانيه، أو شاهدٌ بصدقهِ فيتعظُ بظواهره وينزجرُ بزواجرِه، وفي تنكير القلبِ وإبهامِه تفخيمٌ وإشعار بأنَّ كلَّ قلبٍ لا يتفكر ولا يتدبَّر كلا قلبَ.

(٣٨) ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ مرَّ تفسيره مراراً. ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ من تعبٍ وإعياءٍ، وهو ردٌّ لما زعمتِ اليهودُ من أنه تعالى بدأ خلقَ العالم يومَ الأحدِ وفرغَ منه يومَ الجمعةِ واستراحَ يومَ السبتِ واستلقى على العرشِ.

(٣٩) ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ما يقول المشركونَ من إنكارِهم البعثَ، فإنَّ من قَدَرَ على خلْقِ العالَم بلا عياءٍ قدرَ على بعْثِهم والانتقامِ منهم، أو ما يقول اليهودُ من الكفر والتشبيهِ. ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾

(١) الزمر: «٧٣».

ونزِّهْهُ عن العجزِ عما يمكنُ، والوصفُ بما يوجب التشبيهَ حامداً له على ما أنعمَ عليك من إصابةِ الحقِّ وغيرِها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ يعني الفجرَ والعصرَ وقد عرفْتَ فضيلةَ الوقتينِ.

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(٤٠) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي وسبِّحه بعضَ الليلِ. ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وأعقابَ الصلواتِ جمعُ دُبُرٍ من أَدْبَرَ، وقرأ الحجازيانِ وحمزةُ وخلفٌ بالكسرِ من أدبرتِ الصلاةُ إذا انقضتْ. وقيل المرادُ بالتسبيحِ الصلاةُ، فالصلاةُ قبلَ الطلوعِ الصبحِ وقبلَ الغروبِ: الظهرُ، والعصرُ. ومن الليل: العشاءانِ، والتهجدُ وأدبارُ السجود النوافلُ بعدَ المكتوبات. وقيل الوترُ بعدَ العشاءِ.

(٤١) ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ لِمَا أخبرك به من أحوال القيامةِ، وفيه تهويلٌ وتعظيم للمخبَرِ به. ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ إسرافيلُ أو جبريلُ عليهما الصلاة والسلام فيقول: أيتُها العظامُ البالية واللحومُ المتمزقةُ والشعورُ المتفرقة إنَّ الله يأمركنَّ أنْ تجتمعْنَ لفصلِ القضاء[1]. ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيثُ يصلُ نداؤُه إلى الكلِّ على سواءٍ، ولعلَّه في الإعادةِ نظيركُنَّ في الإبداءِ، ويومَ نُصِبَ بما دلَّ عليه يومُ الخروجِ.

(٤٢) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ بدلٌ منه والصيحةُ النفخةُ الثانية. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بالصيحةِ والمرادُ به البعثُ للجزاءِ. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور، وهو من أسماءِ يوم القيامة وقد يُقَالُ للعيدِ.

(٤٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا. ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرةِ.

(٤٤) ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ تتشقَّقُ، وقرىء تنشقُّ. وقرأ عاصم وحمزةُ والكسائي وخلف وأبو عمرو بتخفيفِ الشين. ﴿ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مسرعينَ. ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ بعثٌ وجمعٌ. ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هيِّنٌ، وتقديمُ الظرفِ للاختصاصِ فإن ذلك لا يتيسَّرُ إلا على العالِمِ القادِرِ لذاتِه الذي لا يشغلُه شأنٌ عن شأن، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2].

(٤٥) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ وتهديدٌ لهم. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمسلَّطٍ تقسُرهم على الإيمان، أو تفعلُ بهم ما تريد وإنما أنت داعٍ. ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فإنه لا ينتفعُ به غيرهُ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ قٓ هوَّن الله عليه تاراتِ الموتِ وسكراتِه»[3]. والله أعلمُ.

☆ ☆ ☆

---

(١) انظر [تفسير البغوي (٧/ ٣٦٦)] وانظر فتح القدير (٥/ ٨١).
(٢) لقمان: «٢٨».
(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. كما في «الكافي الشاف» (ص١٥٩ رقم ٤٦). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

ترتيبها ٥١ — آياتها ٦٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ
ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ
هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم
بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟
قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

سورة والذاريات مكية[1] وآيها ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ يعني الرياحَ تذرو الترابَ وغيره، أو النساءَ الولودَ فإنهن يذرينَ الأولادَ، أو الأسبابَ التي تذري الخلائقَ من الملائكة وغيرهم. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ بإدغام التاءِ في الذالِ.

(٢) ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ فالسحبِ الحاملةِ للأمطار، أو الرياحِ الحاملة للسحابِ، أو النساءِ الحواملِ، أو أسبابِ ذلك. وقرىء وَقراً على تسمية المحمولِ بالمصدرِ.

(٣) ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ فالسفنِ الجاريةِ في البحرِ سهلاً، أو الرياحِ الجاريةِ في مهابِّها، أو الكواكبِ التي تجري في منازِلها. ويسراً صفةُ مصدرٍ محذوفٍ أي جرياً ذا يسرٍ.

(٤) ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكةِ التي تقسّمُ الأمورَ من الأمطار والأرزاقِ وغيرها، أو ما يعمُّهم وغَيْرَهُم من أسباب القسمةِ، أو الريحِ يقسِّمْنَ الأمطارَ بتصريفِ السحابِ، فإنْ حُمِلَتْ على ذواتٍ مختلفةٍ فالفاءِ لترتيبِ الأقسامِ بها باعتبارِ ما بينها من التفاوُتِ في الدلالة على كمال القدرةِ، وإلا فالفاءُ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/١٩٧): «وهي مكية بإجماعٍ من المفسرين».

لترتيبِ الأفعال إذ الرياحُ مثلاً تذرُو الأبخرةَ إلى الجوِّ حتى تنعقدَ سحاباً، فتحملُه فتجري به باسطةً له إلى حيثُ أُمِرَتْ به فتقسِّمُ المطرَ.

(٥) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ .

(٦) ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ جوابُ القسمِ كأنه استدلَّ باقتداره على هذه الأشياءِ العجيبةِ المخالفةِ لمقتضى الطبيعةِ على اقتداره على البعثِ للجزاء الموعودِ، وما موصولةٌ أو مصدريةٌ والدينُ الجزاء والواقعُ الحاصلُ.

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ ذاتِ الطرائقِ، والمرادُ إما الطرائقُ المحسوسة التي هي مسيرُ الكواكب أو المعقولةِ التي يسلُكها النُّظارُ ويُتَوَصَّلُ بها إلى المعارفِ، أو النجومُ فإنَّ لها طرائقَ أو أنها تزيِّنها كما يزيِّنُ الموشيُّ طرائقَ الوشْي؛ جمعُ حبيكةٍ كطريقةٍ وطرقٍ أو حباكٍ كمثالٍ ومُثُلٍ. وقرىء الحُبْكِ بالسكونِ، والحِبكِ كالإبِلِ، والحِبْكِ كالسِّلْكِ، والحَبَكِ كالجبلِ، والحِبَكِ كالنِّعَمِ، والحَبْكِ كالبرقِ.

(٨) ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في الرسول ﷺ وهو قولُهم تارةً إنه شاعرٌ وتارة إنه ساحر وتارة إنه مجنونٌ، أو في القرآن أو القيامةِ أو أمرِ الديانة، ولعل النكتةَ في هذا القسمِ تشبيهُ أقوالهم في اختلافِها وتنافي أغراضِها بطرائقِ السموات في تباعُدِها واختلافِ غاياتها.

(٩) ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يُصْرَفُ عنه والضميرُ للرسول أو القرآنِ أو الإيمانِ، من صَرَفَ إذ لا صَرْفَ أشدُّ منه فكأنه لا صَرْفَ بالنسبة إليه، أو يُصْرَفُ مَنْ صُرِفَ في علم الله وقضائه ويجوز أن يكون الضميرُ للقول على معنى يصدرُ، أَفِكَ من أُفِكَ عن القولِ المختلفِ وبسببه كقوله: ينهون عن أكلٍ وعن شربٍ. أي يصدرُ تناهيهم عنهما وبسبَبِهما وقرىء أَفَكَ بالفتحِ أي من أَفَكَ الناسُ وهم قريشٌ كانوا يصدُّون الناسَ عن الإيمان.

(١٠) ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ الكذابونَ من أصحابِ القول المختلفِ، وأصله الدعاءُ بالقتل أجري مجرى اللعنِ.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ في جهل يغمُرهم. ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أُمِرُوا به.

(١٢) ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي فيقولون متى يومُ الجزاء أي وقوعُه، وقرىء إيانَ بالكسْرِ.

(١٣) ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يُحْرَقُونَ جوابٌ للسؤالِ أي يقعُ يومَ هم على النارِ يفتنونَ، أو هو يومَ هم على النارِ يفتنونَ، وفتحَ يومَ لإضافتِه إلى غير متمكِّنٍ ويدلُّ عليه أنه قرىء بالرفعِ.

(١٤) ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي مقولاً لهم هذا القولَ. ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا العذابُ هو الذي كنتم به تستعجلون، ويجوزُ أنْ يكونَ هذا بدلاً من فتنتِكم والذي صفتُه.

(١٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ .

(١٦) ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابلينَ لما أعطاهم راضينَ به، ومعناه أنَّ كلَّ ما آتاهم حسنٌ مرضيٌّ متلقًّى بالقبول. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالَهم وهو تعليلٌ لاستحقاقهم ذلك.

(١٧) ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ تفسير لإحسانِهم، وما مزيدةٌ أي يهجعون في طائفة من الليل أو يهجعونَ هجوعاً قليلاً، أو مصدريةٌ أو موصولةٌ أي في قليل من الليلِ هجوعُهم، أو ما يهجعون فيه،

ولا يجوزُ أن تكون نافيةً لأنَّ ما بعدَها لا يعملُ فيما قبلَها. وفيه مبالغاتٌ لتقليلِ نومِهم واستراحتِهم، ذكرَ القليلَ والليلَ الذي هو وقتُ السباتِ، والهجوعَ الذي هو الفرارُ من النوم وزيادةُ ما.

وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾

(١٨) ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي أنهم مع قلةِ هجوعِهم وكثرةِ تهجُّدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفارِ كأنهم أسلفُوا في ليلهم الجرائمَ، وفي بناءِ الفعلِ على الضمير إشعاراً بأنهم أحقَّاءُ بذلك لوفور علمِهم بالله وخشيتهم منه.

(١٩) ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيبٌ يستوجبونَه على أنفسِهم تقرُّباً إلى الله وإشفاقاً على الناس. ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ للمستجدي والمتعففِ الذي يُظَنُّ غنياً فيحرمُ الصدقةَ.

(٢٠) ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي فيها دلائلُ من أنواع المعادنِ والحيوانات، أو وجوهُ دلالات من الدُّحُوِّ والسكونِ وارتفاعِ بعضِها عن الماء واختلافِ أجزائها في الكيفياتِ والخواصِّ والمنافع تدلُّ على وجودِ الصانع وعلمِه وقدرتِه وإرادتِه ووحدتِه وفرْطِ رحمتِه.

(٢١) ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي وفي أنفسِكم آياتٌ إذ ما في العالم شيءٌ إلا وفي الإنسان له نظيرٌ يدل دلالتَه مع ما انفردَ به من الهيئات النافعةِ والمناظرِ البهيةِ والتركيبات العجيبةِ، والتمكنِ من الأفعالِ الغريبة واستنباطِ الصنائع المختلفةِ واستجماعِ الكمالات المتنوعةِ. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظرَ مَنْ يعتبرُ.

(٢٢) ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أسبابُ رزقِكم أو تقديرُه. وقيل المرادُ بالسماءِ السحابُ وبالرزقِ المطرُ فإنه سببُ الأقواتِ. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثوابِ لأنَّ الجنَّةَ فوقَ السماءِ السابعةِ، أو لأنَّ الأعمالَ وثوابَها مكتوبةٌ مقدَّرةٌ في السماءِ. وقيل إنه مستأنفٌ خبرهُ:

(٢٣) ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ وعلى هذا فالضميرُ لما وعلى الأولِ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ له ولما ذكر من أمرِ الآياتِ والرزقِ والوعدِ. ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي مثلَ نُطْقِكُم كما أنه لا شكَّ لكم في أنكم تنطقونَ ينبغي أنْ لا تشكُّوا في تحقُّقِ ذلك. ونَصَبَهُ على الحالِ من المستكِنِّ في لَحَقّ، أو الوصفِ لمصدرٍ محذوفٍ أي أنه لحقٌّ حقاً مِثلَ نطقِكم. وقيل إنه مبنيٌّ على الفتح لإضافتِه إلى غير متمكِّنٍ وهو ما إن كانت بمعنى شيءٍ وأنّ بما في حيِّزها إنْ جُعِلَتْ زائدةً، ومحلُّه الرفعُ على أنه صفةٌ لحقٌّ، ويؤيدُه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وأبي بكر بالرفعِ.

(٢٤) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه تفخيمٌ لشأنِ الحديثِ وتنبيهٌ على أنه أُوحِيَ إليه، والضيفُ في الأصلِ مصدرٌ ولذلك يُطْلَقُ على الواحدِ والمتعدِّدِ. قيل كانوا اثني عشرَ ملَكاً. وقيل ثلاثةٌ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، وسمَّاهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورةِ الضيفِ. ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي مكرمينَ عند الله أو عندَ إبراهيمَ إذ خدمهم بنفسِه وزوجتِه.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ
أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا
الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾

(٢٥) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ظرفٌ للحديث أو الضيفِ أو المكرمين. ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلِّم عليك سلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي عليكم سلامٌ، عَدَلَ به إلى الرفع بالابتداءِ لقصدِ الثباتِ حتى تكونَ تحيَّتُه أحسنَ من تحيَّتِهم. وقرئا مرفوعين، وقرأ حمزة والكسائيُّ قالَ سِلْمٌ، وقرىء منصوباً والمعنى واحدٌ. ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ أي أنتم قومٌ منكرونَ، وإنما أنكرهُم لأنه ظنَّ أنهم بنو آدمَ ولم يعرِّفْهم، أو لأنَّ السلامَ لم يكن تحيَّتَهم فإنه علَمُ الإسلامِ وهو كالتعرُّفِ عنهم.

(٢٦) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ فذهبَ إليهم في خفيةٍ من ضيفِه فإنَّ من أدبِ المضيفِ أنْ يبادِرَ بالقرى حذَراً من أنْ يكفَّه الضيفُ أو يصبرَ منتظراً. ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لأنه كان عامةَ مالِه البقرُ[1].

(٢٧) ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ بأنْ وضَعَه بين أيديهم. ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي منه، وهو مشعِرٌ بكونه حنيذاً، والهمزةُ فيه للعرضِ والحثِّ على الأكلِ على طريقةِ الأدبِ إنْ قاله أولَ ما وضَعَه، وللإنكارِ إنْ قاله حينما رأى إعراضَهم.

(٢٨) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأضمرَ منهم خوفاً لما رأى إعراضَهم عن طعامِه لظنِّه أنهم جاؤوه لشرٍّ. وقيل وقعَ في نفسه أنهم ملائكةٌ أُرسِلُوا للعذاب. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسلُ اللهِ. قيل مسحَ جبريلُ العجلَ بجناحه فقام يدرجُ حتى لحقَ بأمِهِ فعرفَهم وأَمِنَ منهم. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ﴾ هو إسحقُ عليه السلام. ﴿عَلِيمٍ﴾ يكمُلُ علمُه إذا بلغَ.

(٢٩) ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارةُ إلى بيتها وكانت في زاوية تنظرُ إليهم. ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ في صيحةٍ من الصرير، ومحلُّه النصبُ على الحال أو المفعولِ إنْ أُوِّلَ فأقبلتْ بأَخذتْ. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فلطمتْ بأطرافِ الأصابع جَبْهَتَهَا فِعْلَ المتعجِّبِ. وقيل وجدتْ حرارةَ دمِ الحيضِ فلطمتْ وجْهَهَا من الحياءِ. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أنا عجوز عاقرٌ فكيف أَلِدُ.

(٣٠) ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ﴾ مثلَ ذلك الذي بشَّرنا به. ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنما نخبركِ به عنه. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ فيكون قولُه حقاً وفعلُه محكماً.

(٣١) ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لما علم أنهم ملائكةٌ وأنهم لا ينزلونَ مجتمعينَ إلا لأمرٍ عظيم سألَ عنه.

---

(١) الفاء في قوله «فجاء بعجل سمين» فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بكمال سرعة المجيء بالطعام، كما في قوله تعالى: «أن اضرب بعصاك البحر فانفلق..» ـ الشعراء «٦٣» ـ.
والمعنى: فذبح عجلاً فحنذه فجاء به.. (س٨/ ١٤٠).

قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ
فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي
مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ
وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

(٣٢) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ يعنونَ قومَ لوط.

(٣٣) ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ يريدَ السجِّيلَ فإنه طينٌ متحجِّرٌ.

(٣٤) ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ مرسلة من أسمتُ الماشيةَ، أو معلَّمةً من السومةِ وهي العلامةُ. ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الفجورِ.

(٣٥) ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قومِ لوطٍ وإضمارها ولم يجرِ ذكْرها لكونها معلومةً. ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط.

(٣٦) ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ غير أهلِ بيت من المسلمين. واستُدِلَّ به على اتحادِ الإيمان والإسلامِ، وهو ضعيفٌ لأن ذلك لا يقتضي إلا مَنْ صدَقَ المؤمنَ والمسلمَ على مَنِ اتَّبعه، وذلك لا يقتضي اتحادَ مفهوميهما لجوازِ صدقِ المفهوماتِ المختلفة على ذاتٍ واحدة.

(٣٧) ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾ علامةٌ. ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ فإنهم المعتبِرونَ بها، وهي تلك الأحجارُ أو صخرٌ منضودٌ فيها أو ماءٌ أسودُ منتنٌ.

(٣٨) ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عطف على وفي الأرض، أو تركْنا فيها على معنى وجعلْنا في موسى كقوله: علفتُها تبناً وماءً بارداً[1]. ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ هو معجزاتُه كالعصا واليد.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ فأعرضَ عن الإيمان به كقوله ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾[2] أو فتولَّى بما كان يتقوَّى به من جنوده، وهو اسمٌ لما يُرْكَنُ إليه الشيءُ ويتقوَّى به. وقرىء بضمِّ الكافِ. ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي هو ساحرٌ. ﴿أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ كأنه جعلَ ما ظهرَ عليه من الخوارقِ منسوباً إلى الجنِّ، وتردَّدَ في أنه حصلَ ذلك باختيارِهِ وسعْيه أو بغيرِهما.

(٤٠) ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ فأغرقْناهم في البحرِ. ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ آتٍ بما يُلاَمُ عليه من الكفرِ والعنادِ، والجملة حالٌ من الضمير في فأخذْناه.

(٤١) ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ سمَّاها عقيماً لأنها أهلكتْهم وقطعتْ دابرَهم، أو لأنها لم تتضمنْ منفعةً، وهي الدَّبورُ أو الجنُوبُ أوِ النكباءُ.

(٤٢) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ﴾ مرَّتْ. ﴿عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ كالرمادِ من الرمِّ وهو البِلَى والتفتُّتُ.

---

(١) من الرجز، أي وسقيتها ماءً، فحذف اكتفاء بالأول، ونحوه: وزججْن الحواجب والعيونا، أي وكحّلن.
(٢) الإسراء الآية: «٨٣» وفصلت الآية: «٥١».

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا
اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا
بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
مُبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

(٤٣) ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيرهُ قولُه ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[1].

(٤٤) ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي العذابُ بعد الثلاث. وقرأ الكسائي الصعقةُ وهي المرة من الصَّعْقِ. ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها فإنها جاءتهم معاينةً بالنهار.

(٤٥) ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ كقوله ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[2]. وقيل من قولهم ما يقومُ به إذا عجزَ عن دفعه. ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ ممتنعينَ منه.

(٤٦) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكْنا قومَ نوح لأنَّ ما قبلَه يدلُّ عليه. أو اذكُر ويجوز أن يكونَ عطفاً على محل في عادٍ، ويؤيده قراءةُ أبي عمرو وحمزةَ والكسائي بالجرِّ. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبلِ هؤلاء المذكورينَ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان.

(٤٧) ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقوةٍ. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون من الوُسْعِ بمعنى الطاقةِ والموسعُ القادرُ على الإنفاق، أو لموسعون السماءَ أو ما بينَها وبين الأرض أو الرزقَ.

(٤٨) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهَّدْناها لتستقروا عليها. ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي نحنُ.

(٤٩) ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناس. ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعين ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أنَّ التعددَ من خواصِّ الممكناتِ وأن الواجبَ بالذاتِ لا يقبل التعدُّدَ والانقسامَ.

(٥٠) ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ من عقابه بالإيمان والتوحيد وملازمةِ الطاعة. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي من عذابه المعدِّ لمن أشركَ أو عصَى. ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بيِّنٌ كونَه منذراً من الله بالمعجزات، أو مبيِّنٌ ما يجب أن يُحْذَرَ عنه.

(٥١) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إفراد لأعظمَ ما يجب أن يُفَرَّ منه. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تكريرٌ للتأكيد، أو الأولُ مرتبٌ على ترك الإيمان والطاعة والثاني على الإشراكِ.

(٥٢) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمرُ مثلُ ذلك، والإشارة. إلى تكذيبهم الرسولَ وتسميتهم إياهُ ساحراً أو مجنوناً وقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كالتفسيرِ له، ولا يجوز نصبُه بأَتى أو ما يفسِّره لأنَّ ما بعدَ ما النافيةِ لا يعملُ فيما قبلَها.

---

(١) هود: «٦٥».
(٢) الأعراف: «٧٨».

أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾
وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ
ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن
يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٣) ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ أي كأن الأولين والآخرينَ منهم أوصَى بعضُهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ عن أن التواصيَ جامِعُهم لتباعُدِ أيامهم إلى أن الجامعَ لهم على هذا القولِ مشاركتُهم في الطغيان الحاملِ عليه.

(٥٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرضْ عن مجادلتهم بعدما كرَّرْتَ عليهم الدعوةَ فأَبَوْا إلا الإصرارَ والعنادَ. ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على الإعراض بعد ما بذلت جُهْدَكَ في البلاغ.

(٥٥) ﴿وَذَكِّرْ﴾ ولا تدعِ التذكيرَ والموعظةَ. ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قدَّر اللهُ إيمانه أو مَنْ آمن فإنه يزدادُ بها بصيرةً.

(٥٦) ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لمّا خلقهم على صورة متوجِّهة إلى العبادة مغلِّبة لها. جَعَلَ خلْقَهم مغيّاً بها مبالغةً في ذلك؛ ولو حُمِلَ على ظاهره، مع أنَّ الدليلَ يمنعه لنا في ظاهرِ قوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[1] وقيل معناه إلا لأمرهم بالعبادة أو ليكونوا عباداً لي[2].

(٥٧) ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي ما أريدُ أنْ أصْرِفكم في تحصيل رزقي فاشتغلوا بما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به، والمرادُ أنْ يبيِّنَ أنَّ شانه مع عباده ليس شأنَ السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونَهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشِهم، ويُحْتَمَلُ أنْ يُقَدَّرَ بقلْ فيكون بمعنى قوله ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[3].

(٥٨) .﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزقُ كلَّ ما يفتقر إلى الرزق، وفيه إيماءٌ باستغنائه عنه، وقرىء إني أنا الرزاقُ. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ شديدُ القوة، وقرىء المتينِ بالجرِّ صفةً للقوةِ.

(٥٩) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ أي للذين ظلموا رسولَ الله ﷺ بالتكذيب نصيباً من العذاب. ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مثلَ نصيبِ نُظَرائِهم من الأمم السالفةِ، وهو مأخوذٌ من مقاسمةِ السُّقاةِ الماءَ بالدِّلاءِ فإن الذَّنوبَ هو الدلو العظيم المملوءُ. ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ جوابٌ لقولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4].

(٦٠) ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة أو يوم بدرٍ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ

---

(١) الأعراف: «١٧٩».
(٢) ولعل تقديم خلق الجن في الذكر لتقدمه على خلق الإنس في الوجود (س٨/ ١٤٤).
(٣) الأنعام: «٩٠».
(٤) يسٓ: «٤٨».

سورةَ والذارياتِ أعطاه الله عشْرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ ريحٍ هبَّت وجَرَتْ في الدنيا»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٥٩ رقم ٥٠). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الطُّورِ

ترتيبها ٥٢ — آياتها ٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ
الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

سورة والطور مكية(١) وآيها تسع أو ثمان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالطُّورِ﴾ يريدُ طورَ سينينَ، وهو جبل بمدينَ سمعَ فيه موسى عليه السلام كلامَ الله تعالى، والطور الجبلُ بالسريانيةِ أو ما طارَ من أوجِ الإيجادِ إلى حضيضِ الموادِّ، أو من عالم الغيب إلى عالمِ الشهادة.

(٢) ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ مكتوبٍ، والسطر ترتيبُ الحروف المكتوبةِ. والمراد به القرآنُ أو ما كتبه اللهُ في اللوح المحفوظِ، أو ألواحِ موسى عليه السلام، أو في قلوب أوليائهِ من المعارفِ والحِكَمِ أو ما تكتبه الحفَظَةُ.

(٣) ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ الرَّقُّ الجلدُ الذي يُكتَبُ فيه استُعِيرَ لما كُتِبَ فيه الكتابُ، وتنكيرهُما للتعظيم والإشعارِ بأنهما ليسا من المتعارَفِ فيما بينَ الناس.

(٤) ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ يعني الكعبةَ وعمارتَها بالحجَّاج والمجاورين، أو الضراحَ وهو في السماء الرابعةِ. وعمرانُه كثرةُ غاشيتهِ من الملائكة، أو قلبَ المؤمن وعمارتَه بالمعرفةِ والإخلاص.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٢٢٩): «وهي مكية بإجماع من المفسرين والرواة».

(٥) ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ يعني السماءَ.

(٦) ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ أي المملوءِ وهو المحيطُ، أو الموقَدُ من قوله ﴿وإذا البحار سجرت﴾[1] روي أنه تعالى يجعلُ يومَ القيامة البحارَ ناراً يسجُر بها نارَ جهنَّمَ[2]، أو المختلطِ من السجير وهو الخليطُ.

(٧) ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ لنازلٌ.

(٨) ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ يدفعُه، ووجه دلالةِ هذه الأمورِ المقسَم بها على ذلك أنها أمور تدلُّ على كمال قدرةِ الله تعالى وحكمتِه وصدقِ أخباره وضبطِه أعمالَ العبادِ للمجازاةِ.

(٩) ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ تَضطَرِبُ، والمَوْرُ تردُّدٌ في المجيءِ والذَّهابِ، وقيل تحرُّك في تموُّجٍ. ويومَ ظرفٌ.

(١٠) ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تسير عن وجه الأرض فتصيرُ هباءً[3].

(١١) ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي إذا وقعَ ذلك فويلٌ لهم.

ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(١٢) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي في الخوض في الباطلِ.

(١٣) ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يُدْفَعُوْنَ إليها دفعاً بعنفٍ، وذلك بأن تُغَلَّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجْمَعَ نواصيهم إلى أقدامِهم فيُدْفَعُوْنَ إلى النارِ. وقرىء يُدْعَوْنَ من الدعاءِ فيكون دعًّا حالاً بمعنى مدعوِّين، ويومَ بدلٌ من يومَ تمورُ أو ظرفٌ لقول مقدَّر محكيه.

(١٤) ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي يُقَالُ لهم ذلك.

(١٥) ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ أي كنتم تقولون للوحي هذا سحرٌ أفهذا المصداقُ أيضاً سحرٌ، وتقديمُ الخبر لأنه المقصودُ بالإنكارِ والتوبيخ. ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا أيضاً كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ما يدلُّ عليه، وهو تقريعٌ وتهكُّمٌ، أو: أم سُدَّتْ أبصارُكم كما سُدَّتْ في الدنيا على زغمِكم حين قلتُم إنما سُكِّرتْ أبصارُنا.

(١٦) ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ ﴾ أي ادخلُوها على أي وجهٍ شئتُم من الصبرِ وعدمِه فإنه

---

(١) التكوير: ٦.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٧/ ٣٨٦) بدون راوٍ ولا سند.

(٣) وتأكيد الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي موراً عجيباً وسيراً بديعاً لا يدرك كنههما (س٨/ ١٤٧).

لا محيصَ لكم عنها. ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي الأمرانِ الصبرُ وعدمُه. ﴿ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ تعليلٌ للاستواءِ فإنه لما كان الجزاءُ واجبَ الوقوعِ كان الصبرُ وعدمُه سِيَّيْنِ في عدم النفعِ.

إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾

(١٧) ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴾ في أية جناتٍ وأي نعيمٍ، أو في جنات ونعيمٍ مخصوصةٍ بهم.

(١٨) ﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ ناعمين متلذِّذِينَ. ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾ وقرىء فَكِهِينَ وفاكهونَ على أنه الخبرُ والظرفُ لغوٌ. ﴿ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ عطفٌ على آتاهم إنْ جَعَلَ ما مصدريةً، أو في جناتٍ أو حالٌ بإضمارِ قدْ مِنَ المستكِنِّ في الظرفِ أو الحالِ، أو من فاعلِ آتي أو مفعولِه أو منهما(١).

(١٩) ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا ﴾ أي أكلاً وشراباً هنيئاً، أو طعاماً وشراباً هنيئاً وهو الذي لا تنغيصَ فيه. ﴿ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ بسببه أو بدلِه، وقيل الباءُ زائدةٌ وما فاعلُ هنيئاً، والمعنَى هَنَأَكم ما كنتُم تعملون أي جزاؤُه.

(٢٠) ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ ﴾ مصطفَّةٍ ﴿ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴾ الباءُ لما في التزويج من معنى الوصْلِ والإلصاقِ، أو للسببية إذ المعنى صيَّرناهم أزواجاً بسببهنَّ، أو لما في التزويج من معنى الإلصاق والقَرْنِ ولذلك عطفَ:

(٢١) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ على حورٍ أي قرنَّاهم بأزواجِ حورٍ ورفقاءِ مؤمنينَ. وقيل إنه مبتدأٌ خبرهُ ألحقنا بهم وقولُه: ﴿ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ اعتراضٌ للتعليلِ، وقرأ ابن عامر ويعقوبُ ذرياتُهم بالجمع وضمِّ التاءِ للمبالغة في كثرتِهم والتصريحِ، فإنَّ الذرِّيَّةَ تقعُ على الواحدِ والكثيرِ، وقرأ أبو عمرو وأتبعْناهم ذريَّاتِهم أي جعلْناهم تابعينَ لهم في الإيمان. وقيل بإيمانٍ حالٌ من الضمير أو الذريةِ أو منهما. وتنكيرهُ للتعظيم، أو الإشعارِ بأنه يكفي للإلحاقِ المتابعةُ في أصلِ الإيمان. ﴿ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ في دخول الجنةِ أو الدَّرجةِ. لما رُوِيَ أنه عليه الصلاةُ والسلام قال «إنَّ الله يرفعُ ذريةَ المؤمنِ في درجتِه وإن كانوا دونَه لِتقَرَّ بهم عينُه» ثم تلا هذه الآيةَ(٢). وقرأ نافع وابنُ عامر والبصريان ذريَّاتِهم.

---

(١) في قوله «ووقاهم ربهم» أظهر كلمة الرب في موقع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم وذلك للتشريف والتعليل (س٨/١٤٨).

(٢) أخرجه البزار (٣/ ٧٠ رقم ٢٢٦٠ ـ كشف) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٢) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٦٦) عن ابن عباس.
قال البزار: لا نعلم أسنده إلا الحسن عن قيس، وقد رواه الثوري عن عمرو بن مُرَّة موقوفاً.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٤) وقال: رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه ضعف. =

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ وما نقصْناهم. ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ بهذا الإلحاقِ فإنه كان يُحتَمَلُ أنْ يكونَ بنقصِ مرتبةِ الآباءِ أو بإعطاءِ الأبناءِ بعضَ مثوباتِهم، ويحتملُ أنْ يكونَ بالتفضُّلِ عليهم وهو اللائقُ بكمال لُطفِه. وقرأ ابنُ كثير بكسْرِ اللامِ من أَلِتَ يأْلِتُ، وعنه لِتْناهُم من لاتَ يليتُ، وآلتناهم من آلتَ يُؤلِتُ، ووالتّناهم من ولتَ يلِتُ، ومعنى الكلِّ واحدٌ. ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ بعملِه مرهونٌ عند الله تعالى فإنْ عملَ صالحاً فكَّه وإلا أهلكَه.

وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾

(٢٢) ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي وزدناهم وقتاً بعد وقتٍ ما يشتهونَ من أنواع التنعُّم.

(٢٣) ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ يتعاطَوْنَ هم وجلساؤُهم بتجاذبٍ. ﴿كَأۡسٗا﴾ خمراً سمَّاها باسم محلِّها ولذلك أنَّث الضميرَ في قوله: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ أي لا يتكلَّمون بلغوِ الحديثِ في أثناء شُرْبها، ولا يفعلونَ ما يُؤْثَمُ به فاعلُه كما هو عادةُ الشاربينَ في الدنيا، وذلك مثلُ قوله تعالى ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾[1] وقرأهما ابنُ كثير والبصريانِ بالفتح.

(٢٤) ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي بالكأسِ. ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي مماليكُ مخصوصونَ بهم. وقيل هم أولادُهم الذين سبقوهُم. ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مصونٌ في الصَّدَفِ من بياضِهم وصفائِهم. وعنه ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنَّ فضلَ المخدومِ على الخادمِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدر على سائرِ الكواكبِ»[2].

(٢٥) ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسأل بعضُهم بعضاً عن أحواله وأعماله.

= ● وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٦٨) والبيهقي في الاعتقاد (ص٩٠) من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفاً.

● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٧/ ٢٤ ـ ٢٥) من طريق شعبة وسماعة عن عمرو بن مرة به موقوفاً.

فرواية هؤلاء الثقات أرجح من رواية قيس بن الربيع، لأن فيها ضعفاً. فالصحيح هو الموقوف لكن مثل هذا لا يقال من قبيل الرأي.

● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ٤٤٠ ـ ٤٤١ رقم ١٢٢٤٨) والصغير (١/ ٢٢٩) من طريق سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول يا رب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به وقرأ ابن عباس «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان» إلى آخر الآية.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٤) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والكبير وفيه محمد بن عبدالرحمن بن غزوان وهو ضعيف» هـ.

(١) الصافات: «٤٧».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ج٢٧/ ٢٩) من طريق معمر، وسعيد عن قتادة بإسناد صحيح.

(٢٦) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ خائفين من عصيانِ الله معتنينَ بطاعته، أو وجِلينَ من العاقبة.

فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾
فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ
تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا
يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ
خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾

(٢٧) ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بالرحمةِ والتوفيق. ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ عذابَ النار النافذةِ في المسامِّ نفوذَ السمومِ، وقُرِىءَ ووقَّانا بالتشديد.

(٢٨) ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ من قبلِ ذلك في الدنيا. ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾ نعبدُه أو نسأله الوقاية. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ المحسنُ، وقرأ نافعٌ والكسائي أنه بالفتحِ. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثيرُ الرحمةِ.

(٢٩) ﴿فَذَكِّرۡ﴾ فاثبتْ على التذكير ولا تكترثْ بقولهم. ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمدِ الله وإنعامِه. ﴿بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ كما يقولون.

(٣٠) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ ما يقلق النفوسَ من حوادثِ الدهر، وقيل المنونُ الموتُ فعولٌ من منَّه إذا قطعَه.

(٣١) ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربَّص هلاككُم كما تتربصون هلاكي.

(٣٢) ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾ عقولُهم. ﴿بِهَٰذَآۚ﴾ بهذا التناقضِ في القول فإنَّ الكاهنَ يكون ذا فطنةٍ ودقَّةِ نظرٍ، والمجنونُ مغطًّى عقلُه والشاعرُ يكون ذا كلام موزونٍ متَّسقٍ مخيَّلٍ، ولا يتأتى ذلك من المجنونِ، وأمرُ الأحلام به مجازٌ عن أدائها إليه. ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ مجاوزونَ الحدَّ في العِنادِ. وقرىء بل هم.

(٣٣) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾ اختلقَه من تلقاءِ نفسِه. ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ فيرمونَه بهذه المطاعنِ لكفرهم وعنادِهم.

(٣٤) ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ مثلِ القرآن. ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعْمِهم إذ فيهم كثيرٌ ممَّن عُدُّوا فصحاءَ فهو ردٌّ للأقوالِ المذكورة بالتحدي، ويجوزُ أنْ يكونَ ردًّا للتقول فإنَّ سائر الأقسامِ ظاهرُ الفساد.

(٣٥) ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ أم أُحدِثُوا وقدِّروا من غير محدِثٍ ومقدِّرٍ فلذلك لا يعبدونه، أو من أجلِ لا شيءَ من عبادةٍ ومجازاةٍ. ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ يؤيدُ الأولَ فإنَّ معناه أم خَلَقُوا أنفسَهم ولذاك عقَّبه بقوله:

(٣٦) ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾ وأم في هذه الآيات منقطعةٌ ومعنى الهمزةِ فيها الإنكارُ. ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ إذا سُئِلُوا مَنْ خَلَقَكُم ومن خلقَ السموات والأرض قالوا الله إذ لو أيقنُوا ذلك لما أعرضُوا عن عبادته.

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ
يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾

(٣٧) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ خزائنُ رزقِه حتى يَرزُقُوا النبوةَ مَنْ شاؤوا، أو خزائنُ علمه حتى يختاروا لها منِ اختارتْه حكمتُه. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الغالبون على الأشياء يدبِّرونها كيفَ شاؤوا. وقرأ قنبل وحفصٌ بخلاف عنه وهشام بالسينِ وحمزةُ بخلاف عن خلادٍ بين الصادِ والزاي، والباقون بالصادِ خاصَّةً.

(٣٨) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرتقى إلى السماء. ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين فيه إلي كلام الملائكةِ وما يُوحَى إليهم من علمِ الغيبِ حتى يعلموا ما هو كائنٌ. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجَّةٍ واضحةٍ تصدِّق استماعَه.

(٣٩) ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ فيه تسفيةٌ لهم وإشعارٌ بأن مَنْ هذا رأيهُ لا يعدُّ من العقلاء فضلاً أَنْ يترقَّى بروحه إلى عالم الملكوتِ فيتطلعَ على الغيوب[1].

(٤٠) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ من التزام غُرْمٍ. ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ محمَّلُونَ الثِّقْلَ فلذلك زهدوا في اتباعِك.

(٤١) ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ اللوحُ المحفوظ المثْبَتُ فيه المغيَّباتُ. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه.

(٤٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ﴾ وهو كيدُهم في دارِ الندوة برسولِ الله ﷺ. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل العمومَ والخصوصَ فيكون وضْعُه موضعَ الضمير للتسجيلِ على كفرِهم، والدلالةِ على أنه الموجِبُ للحكمِ المذكورِ. ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيقُ بهم الكيدُ أو يعودُ عليهم وبالُ كيدِهم، وهو قتلُهم يومَ بدرٍ أو المغلوبون في الكيدِ من كايدتُه فكِدْتُه.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ﴾ يعينُهم ويحرسُهم من عذابِه. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكِهم أو شركةِ ما يشركونه به.

(٤٤) ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ قطعةً. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟﴾ من فَرْطِ طغيانهم وعنادِهم. ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ هذا سحابٌ تراكمَ بعضُه على بعض، وهو جوابُ قولِهم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

(٤٥) ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو عند النفخةِ الأولى، وقُرِىءَ يَلْقَوْا وقرأ ابن عامر وعاصمٌ يُصْعَقُونَ على المبني للمفعول من صعقهُ أو أصْعَقَهُ.

---

(١) والالتفات إلى الخطاب في «ولكم» لتشديد ما في أم المنقطعة من الإنكار والتوبيخ (س٨/ ١٥١).
(٢) الشعراء: «١٨٧».

يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي شيئاً من الإغناءِ في رد العذاب. ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله.

(٤٧) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يحتملُ العمومَ والخصوصَ. ﴿عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي دون عذابِ الآخرة وهو عذابُ القبرِ أو المؤاخذةُ في الدنيا كقتْلِهم ببذْرٍ والقحْطِ سبعَ سنينَ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلكَ.

(٤٨) ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالِهم وإبقائِك في عنائِهم. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ في حفْظِنا بحيثُ نراك ونكلؤُكَ، وجَمَعَ العينَ لجمعِ الضميرِ والمبالغةِ بكثرةِ أسبابِ الحفظِ. ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكانٍ قُمْتَ أو من منامِك أو إلى الصلاةِ.

(٤٩) ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ فإنَّ العبادةَ فيه أشقُّ على النفس وأبعدُ من الرياءِ، ولذلك أفرده بالذِّكْرِ وقدَّمه على الفعل. ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وإذا أدبرتِ النجومُ من آخر الليلِ، وقرىء بالفتحِ أي في أعقابِها إذا غربتْ أو خفيتْ. عن رسولِ الله ﷺ «من قرأ سورةَ والطورِ كان حقاً على اللهِ أنْ يؤمِّنه من عذابِه وأن ينعِّمه في جنَّتِهِ»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦٠ رقم ٥٦).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّجْمِ

آياتها ٦٢ — ترتيبها ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ
شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾

سورة والنجم مكية[١] وآيها إحدى أو اثنتان وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسم بجنسِ النجوم أو الثريا فإنه غلب فيها إذا غربَ أو انتثر يومَ القيامة أو انقضَّ أو طلعَ فإنه يُقَالُ: هوى هوياً بالفتح إذا سقط وغربَ، وهُوِياً بالضمِّ إذا علا وصعد، أو بالنجم من نجوم القرآنِ إذا نزل أو النباتِ إذا سقط على الأرض، أو إذا نما وارتفعَ على قوله[٢].

(٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ما عدلَ محمد ﷺ عن الطريق المستقيم، والخطابُ لقريش[٣]. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٢٥٣): «وهي مكية بإجماع من المتأولين».
وهي أول سورة أعلن بها رسول الله ﷺ وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال: يكفيني هذا. وسبب هذه السورة أن المشركين قالوا إن محمداً يتقول القرآن ويختلق أقواله فنزلت السورة في ذلك» هـ.

(٢) تقييد القسم بوقت الهويّ لأن النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب، وإنما يهتدي به عند هبوطه أو صعوده، مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكىٰ من تدلي جبريل من الأفق الأعلىٰ ودنوه منه عليهما السلام (س٨/ ١٥٤).

(٣) وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان صاحِبِيَّتِهِ لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وإحاطتهم خبراً ببراءته عليه الصلاة والسلام مما نفي عنه بالكلية، واتصافه عليه السلام بغاية الهدىٰ والرشاد فإن طول صحبتهم له=

وما اعتقد باطلاً والخطابُ لقريش، والمراد نفيُ ما ينسِبونَ إليه.

(٣) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ وما يصدر نطقُه بالقرآن عن الهوى.

(٤) ﴿إِنۡ هُوَ﴾ ما القرآنُ أو الذي ينطقُ به. ﴿إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ أي إلا وحيٌ يوحيه اللهُ إليه، واحتجَّ به من لم يرَ الاجتهادَ له. وأُجِيبَ عنه بأنه إذا أُوْحِيَ إليه بأنْ يجتهدَ كان اجتهادُه وما يستند إليه وحياً، وفيه نظرٌ لأن ذلك حينئذٍ يكون بالوحي لا الوحيِ.

(٥) ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ مَلَكٌ شديد قُواهُ وهو جبريلُ عليه السلام فإنه الواسطة في إبداء الخوارقِ، رُوِيَ أنه قلعَ قرى قوم لوط ورفعَها إلى السماء ثم قلَبها وصاحَ صيحة بثمودَ فأصبحوا جاثمينَ.

(٦) ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ حصافةٍ في عقلِه ورأيِه. ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورته الحقيقيةِ التي خلقَه اللهُ تعالى عليها. قيل[1] ما رآه أحدٌ من الأنبياء في صورته غيرُ محمد عليه الصلاة والسلام مرتين، مرةً في السماء ومرةً في الأرض، وقيل استوى بقوَّته على ما جُعِلَ له من الأمرِ.

(٧) ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ في أفق السماء والضميرُ لجبريلَ عليه السلام.

(٨) ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من النبيِّ عليه الصلاة والسلام. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فتعلَّق به وهو تمثيلٌ لعروجِه بالرسولِ ﷺ. وقيل ثم تدلَّى من الأفقِ الأعلى فدنا فيكون من الرسولِ إشعاراً بأنه عُرِجَ به غير منفِصلٍ عن محلِّه تقريراً لشدةِ قوته، فإنَّ التدلِّي استرسالٌ مع تعلُّقٍ كتدلي الثمرة، ويقال دلَّى رجليه من السرير وأدلى دلْوَهُ، والدوالي الثمرُ المعلَّقُ.

(٩) ﴿فَكَانَ﴾ جبريلُ عليه السلام كقولك: هو مني معقدَ إزارٍ، أو المسافةُ بينهما. ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾ مقدارُهما. ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ على تقديركم كقوله أو يزيدون، والمقصودُ تمثيل مَلَكَةِ الاتصالِ وتحقيقُ استماعِه لما أُوحِيَ إليه بنفي البعدِ الملبسِ.

(١٠) ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ جبريلُ عليه السلام. ﴿إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ عبدِالله، وإضماره قبلَ الذِّكْرِ لكونه معلوماً كقوله ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾[2] ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ جبريلُ عليه السلام وفيه تفخيمٌ للموحَىٰ به أو اللهُ إليه. وقيل الضمائرُ كلُّها لله تعالى، وهو المعني بشديدِ القُوى كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾[3]، ودُنُوُّهُ منه برفعِ مكانته وتدلِّيه جذبُه بشراشره إلى جنابِ القدسِ.

(١١) ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ما رأى ببصرِه من صورة جبريلَ عليه السلام أو اللهِ تعالى، أي ما كذَبَ بصرهُ بما حكاه له فإنَّ الأمورَ القدسيةَ تُدْرَكُ أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصرِ، أو ما قال فؤادُه لما رآه لم أعرفْك ولو قال ذلك كان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصرِه، أو ما رآه بقلبه

= عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً (س٨/ ١٥٤).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٦٠ رقم ٥٩): «لم أجده هكذا. وذكر المرتين تقدم في الذي قبله» هـ.

(٢) فاطر: «٤٥».

(٣) الذاريات: «٥٨».

والمعنى أنه لم يكن تخيلاً كاذباً. ويدلُّ عليه أنه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ: هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: «رأيته بفؤادي»(١). وقرأ هشام ما كذَّبَ، أي صدَّقه ولم يشكَّ فيه.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾

(١٢) ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أفتجادلونه عليه، من المِراءِ وهو المجادلةُ واشتقاقُه من مَرَى الناقةَ كأنَّ كلاً من المتجادلَيْنِ يمري ما عندَ صاحبه. وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلف ويعقوب أفتمرونَه، أي أفتغلبونَه في المراءِ من ماريتُه فمريتُه؛ أو أفتجحدونه من مراهُ حقَّه إذا جحدَه. وعلى لتضمينِ الفعلِ معنى الغلبةِ فإنَّ المماريَ والجاحدَ يقصدانِ بفعلِهما غلبةَ الخصْمِ.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مرَّةً أخرى، فَعْلَةً من النزولِ أقيمتْ مقامَ المرَّةِ ونصبت نَصْبَها إشعاراً بأنَّ الرؤيةَ في هذه المرةِ كانت أيضاً بنزولٍ ودنوٍّ، والكلامُ في المرئي والدنوُّ ما سبق. وقيل تقديره ولقد رآه نازلاً نزلةً أخرى، ونصبَها على المصدرِ، والمرادُ به نفيُ الريبةِ عن المرةِ الأخيرةِ.

(١٤) ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ التي ينتهي إليها أعمالُ الخلائق وعلمُهم، أو ما ينزلُ من فوقِها ويصعدُ من تحتِها، ولعلَّها شُبِّهَتْ بالسدرةِ وهي شجرةُ النَّبِقِ لأنهم يجتمعون في ظلِّها. وروي مرفوعاً أنها في السماء السابعةِ(٢).

(١٥) ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ الجنةُ التي يأوي إليها المتقون أو أرواحُ الشهداء(٣).

(١٦) ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ تعظيمٌ وتكثير لما يغشاها بحيثُ لا يكتنهها نعتٌ ولا يحصيها عدٌّ، وقيل يغشَاها الجمُّ الغفير من الملائكة يعبدونَ اللهَ عندَها(٤).

(١٧) ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ ما مالَ بصرُ رسولِ اللهِ ﷺ عما رآه. ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزَهُ بل أثبتَه إثباتاً صحيحاً مستيقناً، أو ما عدلَ عن رؤيةِ العجائب التي أُمِرَ برؤيتها وما جاوزَها.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي واللهِ لقد رأى الكبرى من آياتِه وعجائبِه الملكِيَّةِ والملكوتيةِ

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وقد أخرج مسلم في صحيحه (١/ ١٥٨ رقم ٢٨٤/ ١٧٦) عن ابن عباس موقوفاً. بلفظ «رآه بقلبه» و(١/ ١٥٨ رقم ٢٨٥/ . . .) بلفظ «رآهُ بفؤادِهِ مرتين».

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (١/ ١٤٥ ـ ١٤٧ رقم ٢٥٩/ ١٦٢) من حديث أنس بن مالك. ضمن حديث طويل: «. . . ثم ذهبَ إلى السدرةِ المنتهى، وإذا ورقُها كآذانِ الفيلةِ. وإذا ثمرها كالقلال. قال، فلمَّا غشيها من أمْرِ اللهِ ما غشى تغيَّرَتْ. فما أحدٌ من خلقِ اللهِ يستطيعُ أن ينعتها من حُسْنِها فأوحىٰ الله إليَّ ما أوحى. . .».

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٧/ ٤٠٦) بدون سند عن مقاتل والكلبي.
وانظر «جامع البيان» (١٣/ ج٢٧/ ٥٥).

(٤) وصيغة المضارع في «يغشىٰ» لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، وللإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد (س٨/ ١٥٧).

ليلةَ المعراج وقد قيلَ: إنها المعنيةُ بما رأى. ويجوز أنْ تكونَ الكبرى صفةً للآياتِ على أنَّ المفعولَ محذوفٌ أي شيئاً من آياتِ ربِّه أو مِنْ مزيدةٌ.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾

(١٩) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾.

(٢٠) ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ هي أصنامٌ كانت لهم، فاللاتُ كانت لثقيفَ بالطائفِ أو لقريش بنخلةَ وهي فَعْلَةٌ من لَوَى لأنهم كانوا يلْوُوْنَ عليها أي يطوفُون. وقرأ هِبَةُ الله عن البزِّي ورويسٌ عن يعقوبَ اللاَّتّ بالتشديد على أنه سُمِّيَ به لأنه صورةُ رجلٍ كان يلتُّ السَّويقَ بالسمنِ ويطعم الحاجَّ. والعزَّى بالتشديد سَمُرة[١] لغطفانَ كانوا يعبدونها فبعثَ إليها رسولُ الله ﷺ خالد بنَ الوليد فقطعَها[٢]. وأصلُها تأنيث الأعزِّ. ومناةُ صخرةٌ كانت لهذيلٍ وخزاعةَ أو لثقيفَ وهي فَعلةٌ من منَّاه إذا قطعَه فإنهم كانوا يذبحون عندَها القرابينَ ومنه مَنَى. وقرأ ابن كثير منَّاةَ وهي مَفْعَلَةٌ من النَّوْءِ فإنهم كانوا يستمطِرونَ الأنواءَ عندَها تبرُّكاً بها. وقوله الثالثةَ الأخرى صفتانِ للتأكيدِ كقوله تعالى ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[٣] أو الأخرى من التأخُّرِ في الرتبةِ.

(٢١) ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ إنكارٌ لقولهم: الملائكةُ بناتُ الله، وهذه الأصنامُ استوطَنها جنِّياتٌ هنَّ بناتُه، أو هياكلُ الملائكةِ وهو المفعول الثاني لقوله أفرأيتُم.

(٢٢) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ جائرةٌ حيث جعلتُم له ما تستنكفون منه وهي فَعْلَى من الضَّيْزِ وهو الجوْرُ، لكنه كُسِرَ فاؤُه لتسلمَ الياءُ كما فُعِلَ في بِيضٍ فإن فِعْلَى بالكسرِ لم تأتِ وصفاً. وقرأ ابن كثير بالهمزِ من ضأزه إذا ظلمَه على أنه مصدر نُعِتَ به.

(٢٣) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ الضمير للأصنام أي ما هيَ باعتبار الألوهيةِ إلا أسماءٌ تطلقونها عليها لأنهم يقولون إنها آلهةٌ وليس فيها شيءٌ من معنى الألوهيةِ، أو للصفة التي تصِفُونها بها من كونها آلهةً وبناتٍ وشفعاءَ، أو للأسماء المذكورةِ فإنهم كانوا يطلقونَ اللاَّتَ عليها باعتبار استحقاقِها للعكوفِ على

---

(١) السَّمُرة من شجر الطلح (مختار الصحاح مادة سمر).

(٢) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٥٦٧) بإسناد حسن وأبو يعلى في سنده (٢/١٩٦ رقم ٣/٩٠٢) بإسناد صحيح.

وأبو نعيم في الدلائل (٢/٦٨٧ رقم ٤٦٣) وذكره ابن سعد في الطبقات (٢/١٤٥) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/١٧٦) وقال: «رواه الطبراني وفيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف» هـ. قلت: وفاته أن ينسبه إلى أبي يعلى.

وزاد السيوطي في «الدر» (٧/٦٥٢) نسبته لابن مردويه.

(٣) الأنعام: «٣٨».

عبادتها، والعزّى لعزّتها ومناةُ لاعتقادِهم أنها تستحقُّ أنْ يتقرّبَ إليها بالقرابين. ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ سمّيتم بها.

﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بهواكُم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ برهان تتعلّقون به. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ وقرىء بالتاء. ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا توهُّمَ أنَّ ما هم عليه حق تقليداً وتوهُّماً باطلاً. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وما تشتهيه أنفسُهم. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الرسولُ أو الكتابُ فتركوه.

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

(٢٤) ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أم منقطعةٌ ومعنى الهمزةِ فيها الإنكار، والمعنى ليس له كل ما يتمنّاه والمراد نفيُ طمعِهم في شفاعةِ الآلهة وقولهم ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾(١) وقولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٢) ونحوهما.

(٢٥) ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يعطي منهما ما يشاء لمن يريدُ وليس لأحد أنْ يتحكّم عليه في شيء منهما.

(٢٦) ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ وكثيرٌ من الملائكة لا تغني شفاعتُهم شيئاً ولا تنفعُ(٣). ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشفاعة. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من الملائكة أنْ يشفعَ أو من الناس أنْ يشفعَ له. ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويراهُ أهلاً لذلك فكيف تشفعُ الأصنامُ لِعبدَتِهم.

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي كلُّ واحد منهم. ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ بأنْ يسمُّوه بنتاً.

(٢٨) ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بما يقولون، وقرىء بها أي بالملائكةِ أو بالتسميةِ. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فإن الحقَّ الذي هو حقيقةُ الشيء لا يُدْرَكُ إلا بالعلم، والظنُّ لا اعتبارَ له في المعارفِ الحقيقية، وإنما العبرةُ به في العملياتِ وما يكون وصلةً إليها.

(٢٩) ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فأعرضْ عن دعوتِه والاهتمامِ بشأنه فإنَّ مَنْ غَفَلَ عن اللهِ وأعرضَ عن ذكره وانهمكَ في الدنيا بحيثُ كانت منتهى همَّتِهِ ومبلغَ علمه لا تزيدُه الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي أمرُ الدنيا أو كونها شهيةً. ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ لا يتجاوزُه علمُهم، والجملةُ اعتراض مقرِّرٌ لقصور هِمَمِهم بالدنيا وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تعليلٌ

---

(١) فصلت: «٥٠».

(٢) الزخرف: «٣١».

(٣) وجمع الضمير في شفاعتهم ـ مع إفراد المَلَك ـ باعتبار المعنى (س٨/ ١٦٠).

للأمر بالإعراض، أي إنما يعلمُ الله مَنْ يجيبُ ممَّن لا يجيبُ فلا تتعِبْ نفسَك في دعوتهم إذ ما عليك إلا البلاغُ وقد بلَّغْتَ[١].

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ بعقابِ ما عملُوا من السوء أو بمثلِه أو بسببِ ما عملوا من السوءِ، وهو علَّةٌ دلَّ عليه ما قبلَه أي خلَقَ العالَمَ وسوَّاه للجزاءِ، أو ميَّز الضالَّ عن المهتدي وحفظَ أحوالَهم لذلك. ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ بالمثوبةِ الحسنى وهي الجنةُ، أو بأحسنَ من أعمالهم أو بسببِ الأعمال الحسنى[٢].

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ما يكبرُ عقابُه من الذنوب وهو ما رتَّبَ عليه الوعيدَ بخصوصِه، وقيل ما أوجبَ الحدَّ. وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلفٌ كبيرَ الإثمِ على إرادة الجنسِ أو الشركِ. ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما فَحشَ من الكبائرِ خصوصاً. ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ إلا ما قلَّ وصغُر فإنه مغفورٌ من مجتنبي الكبائر، والاستثناءُ منقطعٌ ومحلُّ الذين النصبُ على الصفةِ أو المدح أو الرفع على أنه خبرٌ محذوف. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيثُ يغفر الصغائرَ باجتناب الكبائرِ، أو له أنْ يغفرَ ما شاء من الذنوب صغيرِها وكبيرِها، ولعلَّه عقَّبَ به وعيدَ المسيئين وَوَعْدَ المحسنين لئلا ييأسَ صاحب الكبيرةِ من رحمته ولا يتوهَّمَ وجوبَ العقاب على الله تعالى. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أعلم بأحوالِكم منكم. ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ علم أحوالَكم ومصارِفَ أمورِكم حين ابتدأ خلْقَكم من التراب بخلْق آدمَ وحينما صوَّركم في الأرحام. ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تُثْنُوا عليها بزكاءِ العمل وزيادةِ الخير، أو بالطهارة عن المعاصي والرذائل. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فإنه يعلم التقيَّ وغيرَهُ منكم قبلَ أنْ يخرجَكُم من صُلْبِ آدمَ عليه السلام.

(٣٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ عن اتباع الحقِّ والثباتِ عليه.

(٣٤) ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ وقطعَ العطاءَ من قولهم أكدَى الحافِرُ إذا بلغَ الكديةَ وهي الصخرةُ الصلبة فترك الحفرَ. والأكثرُ على أنها نزلتْ في الوليد بن المغيرة، كان يتَّبع رسولَ الله ﷺ فعيَّره بعضُ المشركين وقال: تركتَ دين الأشياخ وضلَّلْتَهُم؛ فقال: أخشى عذابَ الله تعالى، فضمِنَ أنْ يتحمَّل عنه العقابَ إن أعطاه بعضَ ماله، فارتدَّ وأعطى بعضَ المشروط ثم بخلَ بالباقي[٣].

---

(١) وتكرير قوله: «هو أعلم» لزيادة التقرير والإيذانِ بكمال تباين المعلومين (س٨/ ١٦١).

(٢) وتكرير الفعل يجزي لإبراز كمال الاعتناء بأمر الجزاء، والتنبيه على تباين الجزاءين (س٨/ ١٦١).

(٣) ذكره الطبري في «جامع البيان» (١٣/ج٢٧/ ٧٠) والواحدي في «الأسباب» (ص٣٩٩) والقرطبي في «الجامع =

أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

(٣٥) ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ يعلم أنَّ صاحِبَه يتحملُ عنه.

(٣٦) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ .

(٣٧) ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ وفَّر وأتمَّ ما التزمه وأُمِرَ به، أو بالغَ في الوفاءِ بما عاهد اللهَ، وتخصيصُه بذلك لاحتماله ما لم يحتملْه غيرهُ كالصَّبْرِ على نارِ نمروذٍ حتى أتاه جبريلُ عليه السلام حين أُلقي في النار فقال ألك حاجةٌ فقال أما إليك فلا، وذبْحِ الولد، وأنه كان يمشي كلَّ يوم فرسخاً[1] يرتادُ ضيفاً فإنْ وافَقَه أكرمَه وإلا نوى الصومَ. وتقديمُ موسى عليه الصلاة والسلام لأنَّ صحفَه وهي التوراة كانتْ أشهرَ وأكبرَ عندهم.

(٣٨) ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنْ هي المخففةُ من الثقيلة وهي بما بعدَها في محلِّ الجرِّ بدلاً مما في صحفِ موسى، أو الرفعِ على هو أنْ لا تزرَ كأنه قيل ما في صُحُفِهما؟ فأجاب به، والمعنى أنه لا يُؤَاخَذُ أحدٌ بذنْبِ غيرِه ولا يخالفُ ذلك قولَه تعالى ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[2] وقولَه عليه الصلاة والسلام «من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرُها ووزرُ من عمل بها إلى يوم القيامة»[3] فإن ذلك للدلالة والتسبُّبِ الذي هو وِزْرُهُ.

(٣٩) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إلا سعيُه أي كما لا يُؤَاخَذُ أحدٌ بذنْبِ الغيرِ لا يُثَابُ بفعلِه، وما جاء في الأخبار من أنَّ الصدقةَ والحجَّ ينفعانِ الميِّتَ فَلِكَوْنِ الناوي له كالنائبِ عنه.

(٤٠) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ .

(٤١) ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي يُجزَى العبدُ سَعْيَهُ بالجزاءِ الأوفرِ فَنُصِبَ بنزعِ الخافضِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدراً وأنْ تكون الهاءُ للجزاءِ المدلولِ عليه بيجزى والجزاءُ بدلُه.

(٤٢) ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ انتهاءُ الخلائقِ ورجوعُهم، وقرىء بالكسرِ على أنه منقطعٌ عما في الصحفِ وكذلك ما بعدَه.

(٤٣) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ .

(٤٤) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لا يقدرُ على الإماتة والإحياءِ غيرُه فإنَّ القاتلَ ينقضُ البنيةَ والموتُ

= لأحكام القرآن» (١٧/ ١١١).

(١) الفرسخ = ٥٥٤٤ متراً. وانظر كتابنا: «الإيضاحات العصرية للمقاييس والمكاييل والأوزان الشرعية» فصل «الفرسخ».

(٢) المائدة: «٣٢».

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٧ رقم ٧٠٤) من حديث جرير.

يحصل عندَه بفعلِ الله تعالى على سبيل العادةِ.

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

(٤٥) ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾.

(٤٦) ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ تدفَّق في الرَّحم أو تخلَّقُ، أو يُقَدَّرُ منها الولدُ من مَنَى إذا قَدَرَ.

(٤٧) ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ الإحياءَ بعد الموت وفاءً بوعده، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءَةَ بالمدةِ وهو أيضاً مصدرُ نشأ.

(٤٨) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وأعطى القنيةَ وهو ما يتأثَّل من الأموال، وإفرادُها لأنها أشفُّ الأموال أو أرضى، وتحقيقُه جَعَلَ الرضا له قنيةً.

(٤٩) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ يعني العبورَ وهي أشدُّ ضياءً من الغُمَيْصَاءِ، عَبَدَهَا أبو كبشةَ أحدُ أجداد النبيِّ ﷺ وخالفَ قريشاً في عبادة الأوثانِ، ولذلك كانوا يسمُّون الرسولَ ﷺ ابنَ أبي كبشةَ. ولعلَّ تخصيصَها للإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وإنْ وافقَ أبا كبشة في مخالفاتِهم خالفه أيضاً في عبادتِها.

(٥٠) ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ القدماءَ لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوحٍ عليه الصلاة والسلام. وقيل عادٌ الأولى قومُ هود وعادٌ الأخرى إرمُ. وقرىء عاداً لُولى بحذفِ الهمزة ونقلِ ضمَّتها إلى لامِ التعريف، وقرأ نافع وأبو عمرو عاداً لولى بضمِّ اللام بحركةِ الهمزةِ وبإدغام التنوين، وقالونُ بعد ضمةِ اللام بهمزةٍ ساكنة في موضعِ الواو.

(٥١) ﴿وَثَمُودَا۟﴾ عطفٌ على عاداً لأن ما بعدَه لا يعملُ فيه. وقرأ عاصم وحمزةُ بغير تنوينٍ ويقفانِ بغير الألفِ، والباقون بالتنوين ويقفون بالألفِ. ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ الفريقين.

(٥٢) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أيضاً معطوفٌ عليه. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبلِ عادٍ وثمودَ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من الفريقين لأنهم كانوا يؤذونَه وينفِرونَ عنه ويضربونه حتى لا يكونَ به حِراكٌ.

(٥٣) ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقُرى التي ائتفكتْ بأهلِها أي انقلبتْ، وهي قرى قومِ لوط. ﴿أَهْوَىٰ﴾ بعد أنْ رفعَها فقلَبها.

(٥٤) ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ فيه تهويلٌ وتعميم لما أصابَهم.

(٥٥) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكَّكُ، والخطابُ للرسول ﷺ أو لكلِّ أحدٍ[1]. والمعدوداتُ وإنْ

---

(١) وإسناد فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه، وذلك أن صيغة التفاعل وإن كانت موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يكون كل من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً، لكنها قد تجرد عن المعنى الثاني فيراد بها المعنى الأول فقط كما في يتداعونهم أي يدعونهم، وقد تجرد عنهم أيضاً فيكتفى بتعدد =

كانت نعماً ونقماً سمَّاها آلاءً من قِبَلِ ما في نِقَمِه من العِبَرِ والمواعظِ للمعتبرين. والانتقامِ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين.

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

(٥٦) ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي هذا القرآنُ إنذارٌ من جنسِ الإنذاراتِ المتقدِّمة، أو هذا الرسولُ نذيرٌ من جنس المنذِرين الأولينَ.

(٥٧) ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ دنتِ الساعةُ الموصوفةُ بالدنوِّ في نحوِ قوله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[1].

(٥٨) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ليس لها نفس قادرةٌ على كشْفِها إذا وقعتْ إلا اللهُ لكنه لا يكشفُها، أو الآنَ بتأخيرِها إلا اللهُ، أو ليس لها كاشفةٌ لوقتها إلا اللهُ إذ لا يطَّلعُ عليه سواهُ، أوليس لها من غير الله كشفٌ على أنها مصدر كالعافيةِ.

(٥٩) ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً.

(٦٠) ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً. ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ تحزُّناً على ما فرَّطْتُم.

(٦١) ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ لاهون أو مستكبرونَ من سَمَدَ البعير في مسيره إذا رفع رأسه، أو مغنُّون لِتُشْغِلُوا الناس عن استماعه من السُّمود وهو الغناء.

(٦٢) ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ أي واعبدوه دون الآلهة ـ عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدَّق بمحمد وجحد به بمكة»[2].

☆ ☆ ☆

= الفعل بتعدد متعلقه كما في الآية «فبأي آلاء ربك تتمارىٰ» فإن المراء متعدد بتعدد الآلاء (س٨/ ١٦٥).

(١) القمر: «١».

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكافي الشاف» (ص١٦١/ رقم ٧٠). وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ القَمَرِ

ترتيبها ٥٤ آياتها ٥٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟
أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ
بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ
ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾

سورة القمر مكية[١] وآيها خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ رُوِيَ أنَّ الكفارَ سألوا رسولَ الله ﷺ آيةً فانشقَّ القمر[٢]. وقيل معناه سينشقُّ يومَ القيامة ويؤيد الأولَ أنه قرىء وقدِ انشقَّ القمر أي اقتربتِ الساعةُ وقد حصلَ من آيات اقترابِها انشقاقُ القمر، وقوله:

(٢) ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ عن تأمُّلها والإيمان بها. ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ مُطَّرِدٌ وهو يدلُّ على أنهم رأوا قبلَه آياتٍ أخرَ مترادفةً ومعجزاتٍ متتابعةً حتى قالوا ذلك، أو محكمٌ من المرَّةِ يقالُ أمررتُه فاستمرَّ إذا أحكمتُه فاستحْكَمَ، أو مستبشعٌ منِ استمرَّ الشيءُ إذا اشتدَّت مرارتُه، أو مارٌّ ذاهبٌ لا يبقَى.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٢٩١): «وهي مكية بإجماع إلاَّ آية واحدة اختلف فيها، فقال جمهور الناس هي مكية، وقال قوم هي مما نزل ببدر، وقيل بالمدينة وهي «سيهزم الجمع» الآية هـ.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٦٣١ رقم ٣٦٣٧) و(٧/ ١٨٢ رقم ٣٨٦٨) و(٨/ ٦١٧ رقم ٤٨٦٧) ومسلم (٤/ ٢١٥٩ رقم ٤٦/ ٢٨٠٢) من حديث أنس.

(٣) ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهو ما زيّن لهم الشيطانُ من رد الحقِّ بعد ظهوره، وذِكْرُهما بلفظ الماضي للإشعارِ بأنهما من عادتهم القديمة. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ منتهٍ إلى غاية من خذلانٍ أو نصرٍ في الدنيا وشقاوةٍ، أو سعادةٍ في الآخرة فإنَّ الشيءَ إذا انتهى إلى غايته ثَبَتَ واستقرَّ. وقرىء بالفتحِ أي ذو مستقرٍّ بمعنى استقرارٍ، وبالكسرِ والجرِّ على أنه صفةُ أمرٍ، وكلٌّ معطوفٌ على الساعةِ[١].

(٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ في القرآن ﴿مِنَ الْأَنبَاءِ﴾ أنباءِ القرون الخالية أو أنباءِ الآخرة. ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ازدجارٌ من تعذيبٍ أو وعيد، وتاءُ الافتعالِ تُقْلَبُ دالاً مع الذالِ والدالِ والزاي للتناسُبِ، وقرىء مزجرٌ بقلبها زاياً وإدغامِها.

(٥) ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ غايتُها لا خللَ فيها وهي بدلٌ من ما أو خبرٌ لمحذوف، وقرىء بالنصبِ حالاً من ما فإنها موصولةٌ أو مخصوصةٌ بالصفة فيجوز نصبُ الحال عنها. ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ نفيٌ أو استفهامُ إنكارٍ، أي فأيُّ غناءٍ تغني النُّذُرُ وهو جمع نذير بمعنى المنذِرِ، أو المنذَرِ منه أو مصدرٌ بمعنى الإنذار[٢].

(٦) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأنَّ الإنذارَ لا يغني فيهم. ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ إسرافيلُ، ويجوزُ أنْ يكونَ الدعاءُ فيه كالأمرِ في قوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[٣] وإسقاطُ الياءِ اكتفاءً بالكسرة للتخفيفِ، وانتصابُ يومِ بيخرجونَ أو بإضمار اذكُر. ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ فظيعٍ تنكره النفوسُ لأنها لم تعهدْ مثلَه وهو هولُ يوم القيامة، وقرأ ابن كثير نُكْر بالتخفيف، وقرىء نُكِر بمعنى أُنكِرَ.

(٧) ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من قبورِهم خاشعاً ذليلاً أبصارُهم من الهول، وإفرادُه وتذكيرُه لأنَّ فاعلَه ظاهر غيرُ حقيقيِّ التأنيثِ، وقرىء خاشعةً على الأصل، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصمٌ خشَّعاً، وإنما حَسُنَ ذلك ولم يحسنْ مررتُ برجالٍ قائمين غلمانُهم لأنه ليس على صيغةٍ تشبه الفعلَ، وقرىء خُشَّعٌ أبصارُهم على الابتداءِ والخبرِ فتكونُ الجملةُ حالاً. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموُّج والانتشار في الأمكنةِ.

(٨) ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين مادِّيْ أعناقِهم إليه، أو ناظرين إليه. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعبٌ.

(٩) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قبلَ قومِك. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام وهو تفصيلٌ بعد إجمال، وقيل معناه كذَّبوه تكذيباً على عقبِ تكذيب كلَّما خلا منهم قَرْنٌ مكذِّبٌ تبعه قرنٌ مكذِّب، أو كذبوه بعدما كذبوا الرسل[٤]. ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ هو مجنون. ﴿وَازْدُجِرَ﴾ وزُجِرَ عن التبليغِ بأنواع الأذية، وقيل إنه من جملة قيلِهم أي هو مجنونٌ وقد ازدجرتْه الجنُّ وتخبَّطَتْهُ.

---

(١) وإبهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة إلى التصريح به (س٨/ ١٦٧).

(٢) وصيغة المضارع في «تغني» للدلالة على تجدد عدم الإغناء واستمراره حسب تجدد مجيء الزواجر واستمراره (س٨/ ١٦٨).

(٣) البقرة: «١١٧».

(٤) وفي ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله، وزيادة تشنيع لمكذبيه (س٨/ ١٦٩).

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ
أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ
مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾

(١٠) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى﴾ بأني، وقُرِىءَ بالكسرِ على إرادةِ القول. ﴿مَغۡلُوبٞ﴾ غَلبني قومي. ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ فانتقمْ لي منهم وذلك بعد يأسِه منهم. فقد روي أنَّ الواحد منهم كان يلقاهُ فيخنقهُ حتى يخرَّ مغشياً عليه فيفيقُ ويقول: اللّهُم اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون(١).

(١١) ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ منصبٌّ، وهو مبالغة وتمثيلٌ لكثرة الأمطار وشدَّةِ انصبابها، وقرأ ابن عامر ويعقوبُ ففتّحنا بالتشديد لكثرة الأبواب.

(١٢) ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ وجعلْنا الأرض كلَّها كأنها عيون متفجِّرةٌ، وأصله وفجرنا عيونَ الأرضِ فَغُيِّرَ للمبالغة. ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ ماءُ السماء وماءُ الأرض. وقرىء الماءانِ لاختلافِ النوعين، والماوانِ بقلبِ الهمزة واواً. ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ على حال قدَّرها الله تعالى في الأزَلِ من غير تفاوُتٍ، أو على حال قُدِّرَتْ وسُوِّيَتْ وهو أن قدر ما أُنزلَ على قدرِ ما أُخرِجَ، أو على أمر قدَّره اللهُ تعالى وهو هلاكُ قوم نوحٍ بالطوفان.

(١٣) ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾ ذاتِ أخشاب عريضةٍ. ﴿وَدُسُرٖ﴾ ومساميرَ جمعُ دسارٍ من الدَّسرِ، وهو الدفُع الشديدُ وهي صفة للسفينةِ أُقيمَتْ مقامَها من حيثُ إنها كالشرحِ لها تؤدي مؤدَّاها.

(١٤) ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ بمرأى منَّا أي محفوظةً بحفظنا. ﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي فعلْنا ذلك جزاءً لنوح لأنه نعمةٌ كفروها، فإن كلَّ نبيٍّ نعمةٌ من الله تعالى ورحمةٌ على أمَّتِه، ويجوزُ أنْ يكون على حذفِ الجارِّ وإيصال الفعلِ إلى الضمير، وقرىء لمن كفرَ أي للكافرين.

(١٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ أي السفينةَ أو الفِعْلَةَ. ﴿ءَايَةٗ﴾ يُعْتَبَرُ بها إذ شاعَ خبرُها واشْتَهَرَ. ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ معتبِرٍ، وقرىء مذْتكِر على الأصلِ، ومذَّكِرٍ بقلبِ التاءِ ذالاً والإدغامِ فيها.

(١٦) ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ استفهام تعظيمٍ ووعيد، والنذر يحتملُ المصدرَ والجمعَ.

(١٧) ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ سهَّلناه أو هيَّأناه من يسَّر ناقتَه للسفرِ إذا رحَّلَها. ﴿لِلذِّكۡرِ﴾ للادِّكار والاتعاظِ بأن صرَّفنا فيه أنواعَ المواعظ والعِبَر، أو للحفظ بالاختصار وعذوبةِ اللفظ. ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ متَّعِظٍ.

(١٨) ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وإنذاري أتى لهم بالعذاب قبلَ نزولِه، أو لمن بعدَهم في تعذيبهم(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٨٦ رقم ٢٧٨) من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير. ورجاله ثقات، وإسناده صحيح مرسل. وانظر «فتح الباري» (١٢/ ٢٨٢). وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه البخاري (١٢/ ٢٨٢ رقم ٦٩٢٩) ومسلم (٣/ ١٤١٧ رقم ١٠٥/ ١٧٩٢) وأحمد (١/ ٣٨٠، ٤٢٧، ٤٣٢، ٤٤١، ٤٥٣، ٤٥٦ ـ ٤٥٧) كلهم من طريق شقيق عنه.

(٢) لم يتعرض لكيفية تكذيبهم له روماً للاختصار، ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب (س٨/ ١٧٠).

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

(١٩) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بارداً أو شديدَ الصوت. ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم. ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي استمر شؤمُهُ، أوِ استمرَّ عليهم حتى أهلكهم، أو على جميعهم كبيرِهم وصغيرِهم فلم يُبْقِ منهم أحداً، أو اشتدَّ مرارتُه وكان يومَ الأربعاء آخرَ الشهر.

(٢٠) ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تقلعُهم، روي أنهم دخلُوا في الشعابِ والحفرِ وتمسَّك بعضهم ببعض فنزعتْهم الريحُ منها وصرعتْهم موتَى. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أصولُ نخلٍ منقلِعٍ عن مغارسِه ساقطٍ على الأرض. وقيل شبهوا بالأعجازِ لأن الريح طيَّرت رؤوسَهم وطرحت أجسادَهم، وتذكير منقعِرٍ للحمْلِ على اللفظ، والتأنيثُ في قوله: أعجازُ نخل خاوية للمعنى.

(٢١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ كرَّره للتهويل. وقيل الأولُ لما حاقَ بهم في الدنيا، والثاني لما يحيقُ بهم في الآخرة كما قال أيضاً في قصَّتهم ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾[1].

(٢٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

(٢٣) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ بالإنذاراتِ والمواعظ، أو الرسلِ.

(٢٤) ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ من جنسِنا أو من حَمَلِنا لا فضلَ له علينا، وانتصابُه بفعلٍ يفسِّره ما بعدَه، وقرىء بالرفع على الابتداءِ، والأولُ أوْجَهُ للاستفهام. ﴿وَٰحِدًا﴾ منفرداً لاتبعَ له أوِ من آحادهم دون أشرافِهم. ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ جمعُ سعيرٍ كأنه عكسوا عليه فرتَّبوا على اتباعهم إياه ما رتَّبه على تركِ اتباعِهم له، وقيل السُّعُرُ الجنونُ ومنه ناقةٌ مسعورةٌ.

(٢٥) ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ﴾ الكتابُ أو الوحيُ. ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو أحقُّ منه بذلك. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ حمله بطرهُ على الترفُّعِ علينا بادعائِه إياهُ.

(٢٦) ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نزولِ العذاب بهم أو يومَ القيامة. ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ الذي حمله أَشَرُهُ على الاستكبارِ عن الحق وطلبِ الباطل، أصالحٌ عليه السلام أم مَنْ كذَّبه؟ وقرأ ابن عامر وحمزةُ ورويس ستعلمون على الالتفاتِ أو حكايةَ ما أجابهم به صالحٌ، وقرىء الأشرُّ كقولهم حذِرٌ في حَذِرَ والأشرُّ أي الأبلغُ في الشرارة وهو أصلٌ مرفوض كالأخير.

(٢٧) ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ مخرجُوها وباعثُوها. ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحاناً لهم. ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصَّرْ ما يصنعون. ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذاهم.

---

(١) فصلت: ١٦.

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾
إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن
شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾

(٢٨) ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ مقسومٌ لها يومٌ ولهم يوم، وبينهم لتغليبِ العقلاءِ. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضُره صاحبه في نوبتِه أو يحضره عنه غيرهُ.

(٢٩) ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ قدارَ بنَ سالفَ أحيمرَ ثمودَ ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ فاجترأَ على تعاطي قتلِها فقتلها، أو فتعاطى السيفَ فقتلَها، والتعاطي تناولُ الشيءِ بتكلُّفٍ.

(٣٠، ٣١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صيحةَ جبريلَ عليه السلام. ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ كالشجرِ اليابس المتكسِّرِ الذي يتخذه من يعملُ الحظيرةَ لأجلِها، أو كالحشيشِ اليابس الذي يجمعه صاحبُ الحظيرة لماشيته في الشتاءِ[1]. وقرىء بفتح الظاءِ أي كهشيمِ الحظيرةِ أو الشجر المتَّخَذِ لها.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ .

(٣٣) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ .

(٣٤) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبُهم بالحجارةِ أي ترميهم. ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ في سَحَرٍ وهو آخرُ الليل أو مسحِريْنَ.

(٣٥) ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إنعاماً منَّا، وهو علة لنجَّينا. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمتَنا بالإيمان والطاعة.

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوطٌ. ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذَتَنا بالعذاب. ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ فكذَّبوا بالنُّذرِ متشاكينَ.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ قصدوا الفجورَ بهم. ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ فمسخْناها وسوَّيناها بسائر الوجهِ. روي أنهم لما دخلُوا داره عُنْوَةً صفقَهم جبريلُ عليه السلام صفقةً فأعْمَاهم[2]. ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فقلْنا لهم ذوقوا على ألسنةِ الملائكة أو ظاهر الحالِ.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ وقرىء بكرةَ غيرَ مصروفةٍ على أنَّ المرادَ بها أولُ نهار معيَّنٍ. ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ يستقر بهم حتى يسلِمَهم إلى النار.

(٣٩) ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ .

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢) انظر تفسير البغوي (٧/ ٤٣٢) فقد ذكره بدون سند.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كرَّر ذلك في كل قصةٍ إشعاراً بأنَّ تكذيبَ كلِّ رسول مقتضٍ لنزول العذاب واستماع كلِّ قصة مستدعٍ للادكارِ والاتعاظِ، واستئنافاً للتنبيه والاتعاظ لئلا يغلِبَهم السهوُ والغفلةُ، وهكذا تكرير قوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]. و ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] ونحوهما.

(٤١) ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ اكتفى بذكرِهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك منهم[3].

(٤٢) ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني الآياتِ التسعَ. ﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يُغالَبُ. ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزُه شيءٌ.

(٤٣) ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا معشرَ العربِ. ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ﴾ الكفارِ المعدودين قوةً وعدَّة أو مكانة وديناً عندَ الله تعالى. ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أم نزل لكم في الكتبِ السماوية أن مَنْ كفرَ منكم فهو في أمانٍ من العذاب.

(٤٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جماعةٌ أَمْرُنَا. ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنعٌ لا نُرَامُ أو منتصر من الأعداء لا نُغْلَبُ، أو متناصِرٌ ينصر بعضُنا بعضاً والتوحيد على لفظِ الجميع.

(٤٥) ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي الأدبارَ وإفراده لإرادة الجنسِ، أو لأن كلَّ واحد يولِّي دُبُرَهُ وقد وقعَ ذلك يومَ بدْرٍ وهو من دلائلِ النبوة. وعن عمرَ رضي الله تعالى عنه أنه لما نزلتْ قال: لم أعلمْ ما هو، فلما كان يومُ بدْرٍ رأيتُ رسولَ الله ﷺ يلبس الدرعَ ويقول «سيهزم الجمعُ» فعلمتُه[4].

(٤٦) ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعدُ عذابهم الأصلي وما يحيقُ بهم في الدنيا فمن طلائعِه. ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أشدُّ، والداهيةُ أمر فظيع لا يُهْتَدَى لدوائِه. ﴿وَأَمَرُّ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا.

---

(١) الرحمن: «١٣».
(٢) المرسلات: «١٥».
(٣) وصدرت قصتهم بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ (س٨/ ١٧٣).
(٤) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٦٢ رقم ٧٥): «ـ أخرجه ـ عبدالرزاق عن معمر عن قتادة، وعن أيوب عن عكرمة «أن عمر ـ فذكره» وأتم منه. ورواه من هذا الوجه إسحاق ـ كما في المطالب العالية (٣/ ٣٨١ رقم ٣٧٥٩) وفيه انقطاع ـ والطبري ـ (١٣/ ج٢٧/ ١٠٨) ـ وابن أبي حاتم.
ورواه الطبري في الأوسط من رواية عبدالمجيد بن أبي داود عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولاً» هـ.
وانظر «فتح الباري» (٧/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠) و«الدر المنثور» (٧/ ٦٨١).

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

(٤٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ﴾ عن الحقِّ في الدنيا. ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيرانٍ في الآخرة.

(٤٨) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُجَرُّونَ عليها. ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يُقَالُ لهم ذوقوا حرَّ النار وألَمَهَا فإنَّ مسَّها سببُ التألم بها، وسقرُ علمٌ لجهنَّمَ ولذلك لم يُصْرَفْ من سقرتْه النارُ وصقرتْه إذا لوَّحتْه.

(٤٩) ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنا خلقنا كلَّ شيءٍ مقدَّراً مرتباً على مقتضى الحكمةِ، أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظِ قبل وقوعِه، وكلَّ شيء منصوبٌ بفعلٍ يفسره ما بعدَه، وقرىء بالرفعِ على الابتداء وعلى هذا فالأَوْلى أنْ يُجْعَلَ خلقْناه خبراً لا نعتاً ليطابقَ المشهورةَ في الدلالة على أنَّ كلَّ شيءٍ مخلوقٌ بِقَدَرٍ، ولعل اختيارَ النصبِ ها هنا مع الإضمارِ لما فيه من النصوصيةِ على المقصود.

(٥٠) ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ إلا فعلةٌ واحدة وهو الإيجادُ بلا معالجةٍ ومعاناةٍ، أو إلا كلمةٌ واحدة وهو قولُه كنْ. ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في اليُسْرِ والسرعة، وقيل معناه معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾[1].

(٥١) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهَكم في الكفرِ ممن قبلَكُم. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متَّعِظٍ.

(٥٢) ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ مكتوبٌ في كتب الحَفَظَةِ.

(٥٣) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمالِ. ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطورٌ في اللوح.

(٥٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهارٍ واكْتَفَى باسم الجنسِ، أو سعةٍ، أو ضياءٍ من النهار. وقرىء نُهُرٍ وبضم الهاء جمعُ نَهَرٍ كأُسْدٍ وأَسَدٍ.

(٥٥) ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكانٍ مرضيٍّ، وقرىء مقاعدَ صدقٍ. ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ مقربين عند من تعالى أَمْرُهُ في الملْكِ، والاقتدارِ بحيث أبهمَهُ ذوو الأفهامِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ القمر في كلِّ غبٍّ بعثَه الله يومَ القيامة وَوَجْهه كالقمرِ ليلةَ البدْرِ»[2].

---

(١) النحل: «٧٧».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكاف الشاف» (ص١٦٢ رقم ٧٦).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الرحمن

ترتيبها ٥٥ — آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾
وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟
ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾

سورة الرحمن مكية أو مدنية أو متبعضة[1]، وآيها ثمان وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

(٢) ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لما كانتِ السورةُ مقصورةً على تعدادِ النعم الدنيويةِ والأخروية صدَّرها بالرحمن[2]، وقدَّم ما هو أصلُ النعم الدينية وأجلُّها وهو إنعامُه بالقرآن وتنزيله وتعليمُه؛ فإنه أساسُ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٣١٩): «وهي مكية فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين.
وقال نافع بن أبي نعيم، وعطاء، وقتادة، وكريب، وعطاء الخراساني عن ابن عباس هي مدنية. نزلت عند إباية سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم.
والأول أصح.
وإنما نزلت حين قالت قريش بمكة: وما الرحمٰن؟ أنسجد لما تأمرنا؟
وفي السيرة أن ابن مسعود جهر بقراءتها في المسجد حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه، وذلك قبل الهجرة» هـ.
وانظر «الدر المنثور» (٧/ ٦٨٩). و«زاد المسير» (٨/ ١٠٥).

(٢) وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وقد اقتصر على ذكره تنبيهاً على =

الدين ومنشأُ الشرع وأعظمُ الوحْيِ وأعزُّ الكتب؛ إذ هو بإعجازه واشتماله على خُلاصَتِها مصدِّقٌ لنفسه ومصداقٌ لها، ثم أتبعه قولَه:

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

(٤) ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ إيماءً بأن خلْقَ البشر وما يميَّز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو التعبير عما في الضميرِ وأفهامِ الغيرِ لما أدركه لتلقي الوحيِ وتعرُّفِ الحقِّ وتعلُّمِ الشرعِ. وإخلاءُ الجملِ الثلاثِ التي هي أخبار مترادفةٌ للرحمن عن العاطفِ لمجيئها على نهج التعديدِ.

(٥) ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ يجريان بحسابٍ معلوم مقدَّرٍ في بروجهما ومنازلهما، وتتسقُ بذلك أمورُ الكائنات السُّفْلِيَّةِ وتختلف الفصولُ والأوقاتُ، ويُعْلَمُ السِّنونَ والحسابُ.

(٦) ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ والنباتُ الذي ينجمُ أي يطلُعُ من الأرض ولا ساقَ له. ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الذي له ساقٌ. ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادانِ لله تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقيادَ الساجدِ من المكلَّفين طوعاً. وكان حقُّ النظم في الجملتين أن يقالَ: وأجرىٰ الشمس والقمر وأسجدَ النجمَ والشجرَ، أو الشمسُ والقمرُ بحسبانٍ والنجمُ والشجرُ يسجدان له، ليطابقا ما قبلهما وما بعدَهما في اتصالهما بالرحمن، لكنهما جُرِّدَتَا عما يدلُّ على الاتصال إشعاراً بأن وضوحَه يغنيه عن البيان. وإدخالُ العاطفِ بينَهما لاشتراكهما في الدلالة على أن ما يُحَسُّ به من تغيُّراتِ أحوال الأجرامِ العلويةِ والسفليةِ بتقديره وتدبيره.

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ خلقَها مرفوعةً محلاً ومرتبةً، فإنها منشأُ أقضيتِه ومتنزَّلُ أحكامِه ومحلُّ ملائكته، وقرىء بالرفعِ على الابتداءِ. ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ العدلَ بأنْ وفَّر على كلِّ مستعدٍّ مستحقَّه، ووفَّى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه حتى انتظم أمرُ العالمِ واستقامَ كما قال عليه السلام: «بالعدلِ قامتِ السمواتُ والأرضُ»[1]. أو ما يعرفُ به مقاديرُ الأشياء من ميزان ومكيالٍ ونحوِهما، كأنه لما وصفَ السماءَ بالرِّفعةِ من حيث إنها مصدرُ القضايا والإقرارِ أرادَ وصفَ الأرض بما فيها مما يظهرُ به التفاوتُ ويعرفُ به المقدارَ ويُسوَّىٰ به الحقوقَ والمواجِبَ.

(٨) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ لئلا تطْغَوْا فيه أي لا تعتدوا ولا تجاوِزُوا الإنصافَ، وقرىء لا تطغوا على إرادةِ القول.

(٩) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تنقِصُوه فإنَّ من حقِّه أنْ يُسَوَّى لأنه المقصودُ من وضْعِه، وتكريرُه مبالغةً في التوصيةِ به وزيادةَ حثٌّ على استعمالِه، وقرىء ولا تَخْسُروا بفتح التاء وضمِّ السين وكسرِها، وتَخْسَروا بفتحِها على أنَّ الأصلَ ولا تخسروا في الميزان فحذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ.

(١٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضَها مدحوَّةً. ﴿لِلْأَنَامِ﴾ للخلْق، وقيل الأنام كل ذي روحٍ.

= أصالته وجلالة قدره (س٨/ ١٧٦).

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.
وقد أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٧/ ١١٨) عن قتادة، قوله: «ألاَّ تطغوا في الميزان، اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك، وأوف كما تحب أن يُوفى لك، فإن بالعدل صلاح الناس» وإسناده صحيح.

فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾
خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

(١١) ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ضروبٌ مما يُتَفَكَّهُ به. ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أوعيةُ التمرِ جمعُ كِمٍّ، أو كلُّ ما يُكَمُّ أي يغطَّىٰ من ليفٍ وسَعَفٍ وكفرى[١] فإنه يُنْتَفَعُ به كالمكموم كالجذعِ والجمارِ والتمرِ.

(١٢) ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ كالحنطةِ والشعير وسائرِ ما يُتَغَذَّى به، والعصفُ ورقُ النبات اليابسِ كالتين. ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ يعني المشمومَ، أو الرزقَ من قولهم: خرجتُ أطلب ريحانَ الله. وقرأ ابن عامر والحبَّ ذا العصف والريحانَ أي وخلقَ الحبَّ والريحانَ أو وأخصُّ، ويجوزُ أن يُرَادَ وذا الريحانِ فحذفَ المضافُ، وقرأ حمزة والكسائي والريحانِ بالخفضِ ما عدا ذلك بالرفعِ، وهو فيْعَلان[٢] من الروحِ فقُلِبَتِ الواوُ ياءً وأدغم ثم خفِّفَ، وقيل روحان فقلبتْ واوه ياءً للتخفيف.

(١٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطابُ للثقلين المدلولِ عليهما بقوله ﴿لِلْأَنَامِ﴾ وقوله ﴿أيها الثقلان﴾[٣].

(١٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ الصلصالُ الطينُ اليابس الذي له صلصلةٌ، والفخار الخزفُ وقد خلقَ اللهُ آدمَ من تراب جعلَه طيناً ثم حمأً مسنوناً، ثم صلصالاً فلا يخالفُ ذلك قوله خلقَه من ترابٍ ونحوِه.

(١٥) ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ الجنَّ أو أبا الجنِّ. ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ من صافٍ من الدخان. ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيانٌ لمارج فإنه في الأصلُ للمضطربِ من مرجَ إذا اضطربَ.

(١٦) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أفاضَ عليكما في أطوار خِلْقَتِكُما حتى صيَّركما أفضلَ

---

(١). الكُفُرَّى: بالضم وتشديد الراء المفتوحة والكافور من الطَّيب.

(٢) قوله فيعلان ظاهره أن أصل ريحان: رَيْوحان، ويؤيده قوله وأدغم، فصار: ريّحان على ما هو معلوم من اجتماع الواو والياء ومسبق إحداهما بالسكون. ثم خفف إلى ريحان، ولأن ريحان من خمسة أحرف وفيعلان من ستة. والله أعلم.

(٣) والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربيةِ مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ.
ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى: كفرُهم بها، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية، وإما بإنكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً أو اشتراكاً صريحاً أو دلالة؛ فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالىٰ فيما يوجبها.
والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك، فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة، أي فإذا كان الأمر كما فُصِّل فبأي فرد من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان، مع أن كلاّ منها ناطق بالحق شاهد بالصدق (س٨/ ١٧٨).

المركَّبات وخلاصة الكائناتِ.

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾

(١٧) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ مشرقي الشتاءِ والصيفِ ومغربيهما.

(١٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من الفوائد التي لا تُحْصَى، كاعتدالِ الهواء واختلافِ الفصولِ وحدوثِ ما يناسبُ كلَّ فصلٍ فيه إلى غير ذلك.

(١٩) ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلَهما من مرجتُ الدابةَ إذا أرسلْتَها، والمعنى أرسلَ البحرَ المِلْحَ والبحرَ العذْبَ. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ يتجاورانِ ويتماسُّ سطوحُهما، أو بحري فارسَ والرومِ يلتقيان في المحيطِ لأنها خليجانِ يتشعَّبان منه.

(٢٠) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجزٌ من قدرة الله تعالى أو من الأرضِ. ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يبغي أحدُهما على الآخرِ بالممازجة وإبطالِ الخاصِّيَّةِ، أو لا يتجاوزان حدَّيهما بإغراقِ ما بينَهما.

(٢١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٢) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ كبارُ الدرِّ وصغارُه، وقيل المرجانُ الخرزُ الأحمرُ وإنْ صحَّ أنَّ الدرَّ يخرج من الملحِ، فعلى الأولِ إنما قال منهما لأنه مُخْرَجُ من مجتمعِ الملحِ والعذْبِ، أو لأنهما لما اجتمعا صارا كالشيء الواحدِ فكأن المخرجَ من أحدِهما كالمخرجِ منهما. وقرأ نافع وأبو عمرو ويعقوبُ يَخْرُجُ، وقُرِىءَ نخرجُ، ويُخْرِجُ بنصبِ اللؤلؤِ والمرجانِ.

(٢٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٤) ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي السفنُ جمعُ جاريةٍ، وقرىءَ بحذفِ الياء ورفعِ الراءِ كقوله:

لَهَا ثَنَايَا أَرْبَعٌ حِسَانٌ وَأَرْبَعٌ فَكُلُّهَا ثَمَان.

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المرفوعاتُ الشُّرُعُ، أو المصنوعاتُ، وقرأ حمزةُ وأبو بكر بكسرِ الشين أي الرافعاتُ الشُّرَعِ، أو اللاتي ينشئنَ الأمواجَ أو السيرَ. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبالِ جمع عَلَمٍ وهو الجبل الطويلُ.

(٢٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق موادِّ السفنِ والإرشاد إلى أخذِها وكيفية تركيبها وإجرائِها في البحر بأسباب لا يقدرُ على خلقِها وجَمْعِهَا غيرهُ.

(٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ مَنْ على الأرض من الحيوانات أو المركَّباتِ ومَنْ للتغليبِ، أو من الثَّقلينِ. ﴿فَانٍ﴾.

(٢٧) ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاتُه، ولو استقريتَ جهاتِ الموجودات وتفحَّصْتَ وجوهَها وجدْتَها بأسْرِها فانيةً في حدِّ ذاتها إلا وجهَ الله أي الوجهَ الذي يلي جِهَتَهُ. ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذو الاستغناءِ المطلق والفضلِ العامِّ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾
سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾

(٢٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما ذكرنا قبلُ من بقاء الربِّ وإبقاء ما لا يُحْصَى مما هو على صددِ الفناء رحمةً وفضلاً، أو مما يترتب على فناءِ الكلِّ من الإعادة والحياة الدائمةِ والنعيم المقيم.

(٢٩) ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنهم مفتقرون إليه في ذواتِهم وصفاتِهم وسائر ما يهمُّهم ويعنُّ لهم، والمرادُ بالسؤالِ ما يدل على الحاجةِ إلى تحصيل الشيءِ في ذواتهم وصفاتِهم نطْقاً كان أو غيرَهُ. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ كل وقتٍ يُحْدِثُ أشخاصاً ويجدِّدُ أحوالاً على ما سبقَ به قضاؤُه. وفي الحديث: «من شأنِه أنْ يغفرَ ذنباً ويفرِّجَ كرباً ويرفعَ قوماً ويضعَ آخرين»[1]. وهو ردٌّ لقول اليهود إنَّ اللهَ لا يقضي يومَ السبت شيئاً.

(٣٠) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما يسعفُ به سؤالُكما وما يخرجُ لكما من مكمنِ العدمِ حيناً فحيناً.

(٣١) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي ستتجرَّدُ لحسابِكم وجزائِكم وذلك يومَ القيامة، فإنه تعالى لا يفعلُ فيه غيرهُ. وقيل تهديدٌ مستعارٌ من قولِك لمن تهدِّدُهُ سأفرغُ لك، فإنَّ المتجرِّدَ للشيءِ كان أقوى عليه وأجدَّ فيه، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالياء، وقرىء سنفرغُ إليكم أي سنقصدُ إليكم. والثقلان الإنسُ والجنُّ سُمِّيا بذلك لِثِقَلِهما على الأرض، أو لرزانةِ رأيهما وقدْرِهما، أو لأنهما مُثْقَلانِ بالتكليفِ.

(٣٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٣٣) ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إن قدرتُم أن تخرجُوا من جوانبِ السموات والأرض هاربينَ من الله فارِّين من قضائِه. ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ فاخرجُوا. ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذِ. ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ إلا بقوة وقهرٍ وأنَّى لكم ذلك، أو إنْ قدرتُم أن تنفذوا لتعلمُوا ما في السموات والأرض فانفذوا لتعلموا لكنْ لا تنفذُون ولا تعلمون إلا ببيِّنَةٍ نصبهَا الله تعالى فتعرجون عليها بأفكارِكم.

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١/ ٧٣ رقم ٢٠٢) من حديث أبي الدرداء.
قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٧٠ رقم ٧١): «هذا إسناد حسن لتقاصر الوزير عن درجة الحفظ والإتقان... روى البخاري ـ(٨/ ٦٢٠) ـ هذا الحديث تعليقاً موقوفاً في تفسير سورة الرحمن. ورواه ابن حبان في صحيحه ـ (ص٤٣٧ رقم ١٧٦٣ ـ موارد) ـ من طريق أم الدرداء به.
لكن لم ينفرد به الوزير بن صبيح فقد رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده... عن أبي الدرداء موقوفاً فذكره» هـ.
وانظر «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٧ ـ ١١٨) وكتاب السنة لابن أبي عاصم (١/ ١٣٠ رقم ٣٠١).
والخلاصة: أن الحديث حسن والله أعلم.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾
فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا
جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾

(٣٤) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي من التنبيه والتحذيرِ والمساهلةِ والعفوِ مع كمال القدرة، أو مما نصبُ من المصاعدِ العقلية والمعارجِ النقلية فتنفذون بها إلى ما فوقَ السموات العُلا.

(٣٥) ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ ﴾ لهب. ﴿ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ ودخان قال:

تُضِــــيءُ كَضَـــوْءِ السِـــرَاجِ السَّلِيـ ـــطِ لَــمْ يَجْعَــلِ الله فِيــهِ نُحَــاســاً

أو صفرٌ مذابٌ يُصَبُّ على رؤوسهم. وقرأ ابن كثير شِواظٌ بالكسر وهو لغة ونحاسٍ بالجرّ عطفاً على نارٍ، ووافقه فيه أبو عمرو ويعقوبُ في رواية، وقرىء ونُحُسٍ وهو جمع كلُحُفٍ. ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ فلا تمتنعان.

(٣٦) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإنَّ التهديدَ لطفٌ والتمييزَ بين المطيع والعاصي بالجزاءِ والانتقام من الكفار في عِدَادِ الآلاء.

(٣٧) ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي حمراءَ كوردةٍ، وقرئت بالرفعِ على كان التامةِ فيكون من باب التجريد كقوله:

وَلَئِــنْ بَقِيــتُ لأَرْحَلَــنَّ بِغَــزْوَةٍ تَحْــوِي الغَنَــائِــمَ أَوْ يَمُــوتَ كَــرِيــمُ[1]

﴿ كَالدِّهَانِ ﴾ وهو اسمٌ لما يُدْهَنُ به كالحزامِ، أو جمع دهْنٍ. وقيل هو الأديمُ الأحمر.

(٣٨) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي مما يكون بعدَ ذلك.

(٣٩) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي فيومَ تنشقُّ السماء. ﴿ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ لأنهم يُعْرَفُوْنَ بسيماهم وذلك حين ما يخرجون من قبورهم ويُحْشَرُوْنَ إلى الموقف ذَوْداً ذوداً[2] على اختلافِ مراتِبهم، وأما قولُه تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ ﴾[3] ونحوه فحين يُحَاسَبُونَ في المجمَعِ، والهاءُ للإنسِ باعتبار اللفظِ فإنه وإن تأخَّر لفظاً تقدَّم رتبةً.

(٤٠) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي مما أنعمَ الله على عبادِه المؤمنينَ في هذا اليوم.

(٤١) ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ وهو ما يعلُوهم من الكآبة والحزنِ. ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ ﴾ مجموعاً بينهما، وقيل يؤخذون بالنواصي تارةً وبالأقدام أخرى.

---

(١) من الكامل.

(٢) الذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها، والكثير أذواد. (مختار الصحاح مادة ذود).

(٣) الحجر: «٩٢».

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾

(٤٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٣) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ .

(٤٤) ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ بين النار يُحْرَقُونَ بها. ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماءٍ حارٍّ. ﴿ءَانٍ﴾ بلغَ النهايةَ في الحرارة يُصَبُّ عليهم، أو يُسْقَوْنَ منه. وقيل إذا استغاثوا من النار أُغِيثُوا بالحميم.

(٤٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٦) ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ موقفَه الذي يقفُ فيه العبادُ للحساب، أو قيامَه على أحواله مِنْ قامَ عليه إذا راقَبَهُ، أو مقامَ الخائفِ عند ربه للحساب بأحدِ المعنيين فأُضِيْفَ إلى الربِّ تفخيماً وتهويلاً، أو ربِّه ومقامَ مقحمٌ للمبالغة كقوله:

ذُعِــرتْ بـــه القطـــا ونَفَيْـــتُ عنـــه مقــام الــذئب كــالـرجُــل اللعيــن

﴿جَنَّتَانِ﴾ جنةٌ للخائف الإنسي والأخرى للخائفِ الجنِّي، فإنَّ الخطابَ للفريقين والمعنى لكل خائفين منكما أو لكلِّ واحد جنةٌ لعقيدته وأخرى لعملِه، أو جنةٌ لفعل الطاعاتِ وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يُثابُ بها وأخرى يُتَفَضَّلُ بها عليه، أو روحانيةٌ وجسمانية. وكذا ما جاء مثَنًى بعدُ.

(٤٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٨) ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أنواع من الأشجار والثمارِ جمعُ فَنٍّ، أو أغصانٌ جمعُ فَنَنٍ وهي الغصنةُ التي يتشعَّب من فرع الشجرة، وتخصيصُها بالذِّكْرِ لأنها التي تورِقُ وتثمرُ وتمد الظلَّ.

(٤٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٠) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاؤُوا في الأعالي والأسافل. قيل إحداهما التسنيمُ والأخرى السلسبيلُ.

(٥١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٢) ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفانِ غريبٌ ومعروفٌ، أو رطْبٌ ويابسٌ.

(٥٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٤) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ من ديباج ثخينٍ، وإذا كانتِ البطائنُ كذلك فما ظنُّك بالظهائر، ومتكئين مدحٌ للخائفين أو حالٌ منهم، لأن من خافَ في معنى الجمع. ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قريبٌ يناله القاعدُ والمضطجعُ. وجنى اسمٌ بمعنى مجنيٍّ. وقرىء بكسرِ الجيم.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا
ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾
مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٥٦) ﴿فِيهِنَّ﴾ في الجنانِ فإنَّ جنتانِ تدلُّ على جنانٍ هي للخائفين، أو فيما فيهما من الأماكن والقصور، أو في هذه الآلاءِ المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهةِ والفرشِ. ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ نساءٌ قصرنَ أبصارَهنَّ على أزواجهنَّ. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ لم يمسَّ الإنسياتِ إنسٌ ولا الجنياتِ جنٌّ، وفيه دليلٌ على أن الجنَّ يطمثونَ. وقرأ الكسائي بضمِّ الميم.

(٥٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٥٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي حمرةُ الوجْنةِ وبياضُ البشرةِ وصفائِهما.

(٥٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٠) ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العمل. ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ في الثواب وهو الجنةُ.

(٦١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٢) ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ومن دون تَيْنَكِ الجنتينِ الموعودتين للخائفين المقرَّبين جنتانِ لمن دونَهم من أصحاب اليمين.

(٦٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٤) ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ خضراوانِ تضربانِ إلى السوادِ من شدة الخضرةِ، وفيه إشعارٌ بأن الغالب على هاتين الجنتين النباتُ والرياحينُ المنبسطةُ على وجه الأرضِ، وعلى الأوليين الأشجارُ والفواكهُ دلالةٌ على ما بينَهما من التفاوُتِ.

(٦٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٦) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوَّارتانِ بالماء وهو أيضاً أقلُّ مما وصف به الأوليين وكذا ما بعدَه.

(٦٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٨) ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عطفُهما على الفاكهة بياناً لفضلِهما، فإن ثمرةَ النخل فاكهةٌ وغذاءٌ وثمرةُ الرمان فاكهةٌ ودواءٌ، واحتجَّ به أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه على أن مَنْ حلفَ لا يأكلُ فاكهةً فأكلَ رطباً أو رماناً لم يحنَثْ.

(٦٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ
وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

(٧٠) ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ﴾ أي خيراتٌ فخُفِّفَتْ لأنَّ خيرا الذي بمعنى أخيرَ لا يُجْمَعُ؛ وقد قُرِىءَ على الأصل. ﴿حِسَانٞ﴾ حسانُ الخَلْقِ والخُلُقِ.

(٧١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٧٢) ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ قُصِرْنَ في خدورهنَّ، يقالُ امرأة قصيرةٌ وقصورةٌ ومقصورةٌ أي مخدَّرةٌ، أو مقصوراتُ الطرفِ على أزواجهنَّ.

(٧٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٧٤) ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ كحورِ الأولينَ وهم أصحابُ الجنتين فإنهما يدلأنِ عليهم.

(٧٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٧٦) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ﴾ وسائدَ أو نمارقَ جمعُ رفرفةٍ. وقيل الرفرفُ ضربٌ من البُسُطِ أو ذيلُ الخيمةِ وقد يقالُ لكل ثوبٍ عريض. ﴿خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ العبقريُّ منسوبٌ إلى عبقرَ، تزعم العربُ أنه اسم بلدٍ للجنِّ فينسِبُونَ إليه كلَّ شيءٍ عجيبٍ، والمراد به الجنسُ ولذلك جُمِعَ حسانٍ حملاً على المعنى.

(٧٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٧٨) ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمُه من حيثُ إنه مطلقٌ على ذاته فما ظنُّك بذاته. وقيل الاسمُ بمعنى الصفةِ، أو مقحمٌ كما في قوله.

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا[١]. ﴿ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ وقرأ ابن عامر بالرفعِ صفةً للاسم. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الرحمنِ أدَّى شكْرَ ما أنعمَ اللهُ تعالى عليه»[٢].

☆ ☆ ☆

(١) من الطويل.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦٢ رقم ٨١).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

ترتيبها ٥٦ — آياتها ٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ
بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ
ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

سورة الواقعة مكية[١]، وآيها ست وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ إذا حدثتِ القيامة، سمَّاها واقعةً لتحقُّقِ وقوعِها، وانتصابُ إذا بمحذوفٍ مثلُ اذكُر أو كان كيتَ وكيتَ.

(٢) ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون حين تقعُ نفسٌ تكذِبُ على الله تعالى، أو تكذِّبُ في نفيها كما تكذِّب الآن، واللامُ مثلُها في قوله تعالى: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[٢] أو ليس لأحدٍ في وقعتها كاذبةٌ فإنَّ مَنْ أخبرَ عنها صدقَ، أو ليس لها حينئذ نفسٌ تحدِّثُ صاحِبَها بإطاقةِ شدَّتها واحتمالِها وتُغْرِيه عليها من قولهم: كذَّبتْ فلاناً نفسُه في الخطْبِ العظيم إذا شجَّعته عليه وسوَّلَتْ له أنه يطيقُه.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٣٥٤): «وهي مكية بإجماع ممن يعتد بقوله من المفسرين. وقيل إن فيها آيات مدنية، أو مما نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت» هـ.

(٢) الآية: «٢٤» من سورة الفجر.
واللام في قوله «قدمتُ لحياتي» للتعليل أو للتوقيت، أي قدمت لأجل حياتي أو لوقت حياتي.
واللام هنا كذلك. (انظر البيضاوي ٢/ ٧٨٥).

(٣) ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ تخفضُ قوماً وترفعُ آخرين، وهو تقرير لعظَمَتِها فإنَّ الوقائعَ العظامَ كذلك، أو بيانٌ لما يكون حينئذ من خفضِ أعداءِ الله ورفعِ أوليائه، أو إزالة الأجرامِ عن مقارِّها بنثرِ الكواكب وتسييرِ الجبال في الجوِّ، وقُرِئتَا بالنصبِ على الحال[١].

(٤) ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ حُرِّكَتْ تحريكاً شديداً بحيث ينهدمُ ما فوقَها من بناءٍ وجبلٍ، والظرف متعلِّقٌ بخافضةٍ أو بدلٌ من إذا وقعتْ.

(٥) ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي فُتِّتَتْ حتى صارتْ كالسَّويقِ الملتوتِ من بسِّ السويقَ إذا لتَّه، أو سيقتْ وسيِّرتْ من بسِّ الغنمَ إذا ساقَها.

(٦) ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً ﴾ غباراً. ﴿ مُّنۢبَثًّا ﴾ منتشِراً.

(٧) ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أصنافاً. ﴿ ثَلَٰثَةً ﴾ وكلُّ صِنف يكون أو يُذْكَرُ مع صنفٍ آخرَ زوجٌ.

(٨) ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ .

(٩) ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ فأصحاب المنزلةِ السَّنية وأصحاب المنزلةِ الدنيئةِ من تيمُّنهم بالميامن وتشاؤُمِهم بالشمائل، أو أصحابُ الميمنةِ وأصحاب المشأمةِ الذين يُؤْتَوْنَ صحائِفَهم بأَيْمَانهم والذين يأتونَها بشمائِلهم، أو أصحابُ اليُمْنِ والشؤْمِ فإنَّ السعداءَ ميامينُ على أنفسِهم بطاعتهم والأشقياءُ مشائيمُ عليها بمعصيتهم. والجملتانِ الاستفهاميتانِ خبرانِ لما قبلهما بإقامةِ الظاهرِ مقامَ الضمير، ومعناهما التعجبُ من حال الفريقين[٢].

(١٠) ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ والذين سبقُوا إلى الإيمان والطاعةِ بعدَ ظهور الحقِّ من غيرِ تلعثُم وتوانٍ، أو سبقوا في حيازة الفضائلِ والكمالات، أو الأنبياءُ فإنهم مقدَّمو أهلِ الأديان هم الذين عرفْتَ حالَهم وعرفتَ مآلهم كقول أبي النجم:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي[٣]

أو الذين سبقوا إلى الجنة[٤].

(١١) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

(١٢) ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ الذين قُرِّبَتْ درجاتُهم في الجنة وأُعْلِيَتْ مراتِبُهم.

(١٣) ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي هم كثيرٌ من الأوَّلينَ يعني الأممَ السالفةَ من لدنْ آدمَ إلى سيدنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل (س٨/ ١٨٨).

(٢) وقوله «ما أصحاب الميمنة» حيث وضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخل في التفخيم، حيث الأصل أن يقول ما هم؟ لكنه ذكرهم ثانية للتفخيم (س٨/ ١٨٩).

(٣) من الرجز.

(٤) ولعل تأخير ذكر السابقين ـ مع كونهم أسبق الأقسام وأقدمهم في الفضل ـ ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم. على أن إيرادهم بعنوان السبق مطلقاً معرب عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الوجوه (س٨/ ١٨٩).

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

(١٤) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يعني أمةَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ولا يخالفُ ذلك قولَه عليه الصلاة والسلام «إن أمتي يكثرون سائرَ الأمم»[١] لجوازِ أنْ يكونَ سابقُو سائرِ الأمم أكثرَ من سابقي هذه الأمةِ، وتابعو هذه أكثرَ من تابعيهم، ولا يردُّه قولُه في ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[٢]. لأنَّ كثرةَ الفريقين لا تنافي أكثريةَ أحدِهما، وروي مرفوعاً أنهما من هذه الأمَّةِ[٣]، واشتقاقُها من الثَّلِّ وهو القطعُ.

(١٥) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ خبرٌ آخرُ للضمير المحذوفِ، والموضونةُ المنسوجةُ بالذهبِ مشبكةً بالدرِّ والياقوت، أو المتواصلةُ من الوضْنِ وهو نسجُ الدرعِ.

(١٦) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ حالانِ من الضمير في على سُرُرٍ.

(١٧) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمةِ. ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ مُبقَوْنَ أبداً على هيئةِ الولدان وطراوتِهم.

(١٨) ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ حالُ الشربِ وغيرِه، والكوبُ إناءٌ بلا عروةٍ ولا خرطومَ له، والإبريقُ إناءٌ له ذلك. ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ من خمرٍ.

(١٩) ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ بخمار. ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ولا تنزفُ عقولُهم، أو لا ينفدُ شرابُهم. وقرأ الكوفيون بكسرِ الزاي لا يُصَدَّعون بمعنى لا يتصدَّعون أي لا يتفرَّقون.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.
● وقد أخرج الترمذي (٤/ ٦٨٣ رقم ٢٥٤٦) وابن ماجة (٢/ ١٤٣٣ رقم ٤٢٨٩) من رواية سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعاً بلفظ «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم».
قال الترمذي: هذا حديث حسن. قلت: في سند الترمذي «حسين بن يزيد الطحان» وهو لين الحديث كما قال ابن حجر في التقريب (١/ ١٨١).
ولكن الترمذي حسنه لمتابعته عند ابن ماجة.
● وأخرج البخاري (١١/ ٣٧٨ رقم ٦٥٢٨) و(١١/ ٥٢٣ رقم ٦٦٤٢) ومسلم (١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١ رقم ٢٢١) من حديث ابن مسعود، قال: كنا في قبة فقال: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا نعم. قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: «والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة. وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، وما أنتم من أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر».

(٢) الواقعة: «٣٨، ٣٩، ٤٠».

(٣) أخرجه الطيالسي في المسند (ص١٢٠ رقم ٨٨٦) موقوفاً. ومسدد كما في المطالب العالية: (٣/ ٣٨٣ رقم ٣٧٦٨) موقوفاً ومرفوعاً. ومدار إسناديهما على علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ـ وله شاهد عند أحمد (١٨/ ٢٩٣ رقم ٤٥٠) الفتح الرباني ـ من حديث أبي هريرة.
وأخرجه الطبراني بإسنادين، قال الهيثمي (٧/ ١١٩): «رجال أحدهما رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو ثقة سيء الحفظ» هـ.

وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ
مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾

(٢٠) ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ **أي يختارون.**

(٢١) ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ **يتمنَّون.**

(٢٢) ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ **عطفٌ على ولدانٍ، أو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ أي وفيها، أو ولهم حورٌ، وقرأ حمزة والكسائيُّ بالجرِّ عطفاً على جناتٍ بتقدير مضافٍ أي هم في جناتٍ ومصاحبةِ حورٍ، أو على أكوابٍ لأنَّ معنى يطوف عليهم ولدانٌ مخلَّدون بأكواب ينعُمون بأكواب، وقُرِئَتا بالنصبِ على ويُؤْتَوْنَ حوراً.**

(٢٣) ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ **المصونُ عما يضرُّ به في الصفاءِ والنقاءِ.**

(٢٤) ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **أي يفعلُ ذلك كلَّه بهم جزاءً بأعمالهم.**

(٢٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ **باطلاً.** ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ **ولا نسبةً إلى الإثم أي لا يُقَالُ لهم أثِمْتُم.**

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ **أي قولاً.** ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ **بدلٌ من قيلا كقوله تعالى** ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾[1] **أو صفتُه أو مفعوله بمعنى إلا أنْ يقولوا سلاماً، أو مصدرٌ. والتكريرُ للدلالة على فشوِّ السلام بينَهم. وقرىء سلامٌ على الحكايةِ.**

(٢٧) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ .

(٢٨) ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ **لا شوكَ فيه من خضدَ الشوكَ إذا قطعَه، أو مثنَّى أغصانِه من كثرة حملِه من خضَدَ الغصنَ إذا ثناه وهو رطْبٌ.**

(٢٩) ﴿وَطَلْحٍ﴾ **وشجرِ موزٍ، أو أمِّ غيلانَ وله أنوار كثيرة طيبةُ الرائحةِ، وقرىء بالعين.** ﴿مَّنضُودٍ﴾ **نُضِّدَ حملُه من أسفلِه إلى أعلاهُ.**

(٣٠) ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ **منبسطٍ لا يتقلَّص ولا يتفاوتُ.**

(٣١) ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ **يُسْكَبُ لهم أين شاؤوا وكيفَ شاؤوا بلا تعبٍ، أو مصبوبٍ سائلٍ كأنه لما شبَّه حالَ السابقين في التنعُّم بأعلى ما يُتَصَوَّرُ لأهلِ المدنِ شبَّه حالَ أصحاب اليمينِ بأكملِ ما يتمنَّاه أهل البوادي إشعاراً بالتفاوتِ بين الحالين.**

(٣٢) ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ **كثيرةِ الأجناس.**

(٣٣) ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ **لا تنقطعُ في وقتٍ.** ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ **لا تُمْنَعُ عن متناوِلها بوجْهٍ.**

---

(١) **مريم: ٦٢.**

وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا
بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾

(٣٤) ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعةِ القدرِ أو منضدَّةٍ مرتفعةٍ. وقيل الفُرُشُ النساءُ وارتفاعُها أنها على الأرائكِ، ويدل عليه قولُه:

(٣٥) ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي ابتدأناهنَّ ابتداءً جديداً من غير ولادةٍ إبداءً أو إعادةً. وفي الحديث «هنَّ اللواتي قُبِضْنَ في دار الدنيا عجائزَ شُمْطاً رمَصاً، جعلهنَّ الله بعد الكِبَرِ أتراباً على ميلادٍ واحدٍ، كلما أتاهنَّ أزواجُهنَّ وجدوهنَّ أبكاراً»[1].

(٣٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

(٣٧) ﴿عُرُبًا﴾ متحبِّباتٍ إلى أزواجهنَّ جمعُ عروبٍ، وسكَّنَ راءَه حمزةُ وأبو بكر، ورُوِيَ عن نافع وعاصمٍ مثلُه. ﴿أَتْرَابًا﴾ فإنَّ كلَّهن بناتُ ثلاثٍ وثلاثين وكذا أزواجُهنَّ.

(٣٨) ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ متعلّقٌ بأنشأنا أو جعلنا، أو صفةٌ لأبكاراً أو خبرٌ لمحذوفٍ مثلُ هنَّ أو لقوله:

(٣٩) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٤٠) ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهي على الوجوه الأُوَلِ خبرٌ محذوفٌ.

(٤١) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

(٤٢) ﴿فِى سَمُومٍ﴾ في حرِّ نارٍ ينفذُ في المسامِّ. ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماءٍ متناهٍ في الحرارة.

(٤٣) ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ من دخانٍ أسودَ يفعولٌ من الحممَةِ.

(٤٤) ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلِّ. ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ ولا نافعٍ، نفى بذلك ما أوهم الظلَّ من الاسترواح.

(٤٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ منهمكين في الشهوات.

(٤٦) ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذَّنْبُ العظيم يعني الشركَ، ومنه بلغَ الغلامُ الحِنْثَ أي الحُلْمَ ووقْتَ المؤاخذةِ بالذَّنْبِ، وحَنِثَ في يمينه خلافُ برَّ فيها وتحنَّث إذا تأثَّم.

(٤٧) ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كُرِّرَتِ الهمزةُ للدلالة على إنكارِ البعثِ مطلقاً وخصوصاً في هذا الوقتِ كما دخلتِ العاطفةُ في قوله:

---

(١) أخرج الترمذي (٥/ ٤٠٢ رقم ٣٢٩٦) عن أنس رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ (إنا أنشأناهُنَّ إنشاءً) قال: «إنَّ من المنشآت التي كُنَّ في الدنيا عجائزَ عُمْشاً رُمْصاً».
قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرِفُهُ مرفوعاً إلاَّ من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة ويزيدُ بن أبَان الرقاشيُّ يضعفانِ في الحديث.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٣/ ج٢٧/ ١٨٥) وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٢).

أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ
ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ
ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

(٤٨) ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ للدلالةِ على أنَّ ذلك أشدُّ إنكاراً في حقِّهم لتقادُمِ زمانهم وللفصلِ بها حَسُنَ العطفُ على المستكِنِّ في لمبعوثون، وقرأ نافع وابنُ عامر أوْ بالسكونِ وقد سبقَ مثلُه. والعاملُ في الظرفِ ما دلَّ عليه مبعوثونَ، لا هو للفصلِ بأنَّ والهمزة [1].

(٤٩) ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [2].

(٥٠) ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ وقرىء لمجمّعُون. ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ إلى ما وقِّتَ به الدنيا وحدثٍ من يومٍ معيَّنٍ عند الله معلومٍ له.

(٥١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ أي بالبعثِ، والخطابُ لأهلِ مكّةَ وأضرابِهم.

(٥٢) ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ مِنْ الأُولَى للابتداءِ والثانيةُ للبيانِ.

(٥٣) ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ من شدة الجوعِ.

(٥٤) ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ لغَلَبة العطشِ، وتأنيثُ الضمير في منها وتذكيرهُ في عليه على معنى الشجرِ ولفظِه، وقرىء من شجرة فيكون التذكيرُ للزقومِ فإنه تفسيرها.

(٥٥) ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ الإبلِ التي بها الهيامُ وهو داءٌ يشبه الاستسقاءَ، جمعُ أهيمَ وهيماءَ قال ذو الرمة:

فَـأَصْبَحْـتُ كَـالهَيْمَـاءِ لاَ المَـاءُ مُبْـرِدٌ		صـدَاهَـا وَلاَ يَقْضِـي عَلَيْهَـا هيَـامُهَـا

وقيل الرمالُ على أنه جمعُ هَيَامٍ بالفتحِ وهو الرملُ الذي لا يتماسك جُمِعَ على هُيُمٍ كسُحُبٍ، ثم خُفِّفَ وفُعِلَ به ما فُعِلَ بجمعِ أبيضَ، وكلٌّ من المعطوفِ والمعطوفِ عليه أخصُّ من الآخر من وجهٍ فلا اتحادَ. وقرأ نافع وحمزةُ وعاصم شُرب بضمِّ الشين.

(٥٦) ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ يومَ الجزاء فما ظنُّك بما يكون لهم بعدَ ما استقروا في الجحيم، وفيه تهكُّم كما في قوله ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [3] لأن النُّزلَ ما يُعَدُّ للنازل تكرمةً له، وقرىء نُزْلُهم بالتخفيف.

(٥٧) ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلقِ متيقنين محقِّقِينَ للتصديق بالأعمال الدالة عليه، أو بالبعثِ فإن مَنْ قدرَ على الإبداءِ قدرَ على الإعادة.

---

(١) وتقديم التراب على العظام لعراقته في الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية (س٨/ ١٩٥).

(٢) في تقديم «الأولين» على «الآخرين» مبالغة في الرد، حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعثهم، مع مراعاة الترتيب الوجودي (س٨/ ١٩٥).

(٣) التوبة: «٣٤».

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ
أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا
تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا
لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾

(٥٨) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي ما تقذفونه في الأرحامِ من النُّطفِ، وقرىء بفتح التاءِ من مَنَى النطفةَ بمعنى أمْنَاها.

(٥٩) ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تجعلُونه بشراً سوياً. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

(٦٠) ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ قسَّمناه عليكم وأقَّتنا موتَ كلٌّ بوقْتٍ معيَّنٍ، وقرأ ابن كثير بتخفيف الدالِ. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا يسبقُنا أحدٌ فيهربَ من الموتِ أو يغير وقْتِهِ، أو لا يغلِبُنا أحدٌ من سبقتُه على كذا إذا غلبتُه عليه.

(٦١) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ على الأولِ حالٌ أو علةٌ لقدَّرنا وعلى بمعنى اللام، وما نحنُ بمسبوقين اعتراضٌ وعلى الثاني صلةٌ، والمعنى على أن نبدلَ منكم أشباهَكم فنخلقُ بدلكم، أو نبدِّلَ صفاتِكم على أنَّ أمثالَكُم جمعُ مِثْلٍ بمعنى صفةٍ. ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في خلْقٍ أو صفاتٍ لا تعلمونها.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ مَنْ قدرَ عليها قدرَ على النشأة الأخرى فإنها أقلُّ صنعاً لحصول الموادِّ وتخصيصِ الأجزاءِ وسَبْقِ المثالِ، وفيه دليلٌ على صحةِ القياس.

(٦٣) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ تبذرون حبَّه.

(٦٤) ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تنبتونه. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبِتُونَ.

(٦٥) ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تعجبُون أو تندمون على اجتهادِكم فيه، أو على ما أصبتُم لأجله من المعاصي فتتحدَّثون فيه، والفكَهُ التنقلُ بصنوفِ الفاكهةِ وقد استُعِيرَ للتنقُّلِ بالحديث. وقرىء فظِلْتُم بالكسرِ، وفظلَلْتم على الأصلِ.

(٦٦) ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ لملزمون غرامةَ ما أنفقنا، أو مُهْلَكُونَ لهلاكِ رزقنا من الغرامِ، وقرأ أبو بكر أئِنا لمغرمون على الاستفهام.

(٦٧) ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قومٌ. ﴿مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمْنَا رزقَنا، أو محدودون لا مَجْدُودُونَ.

(٦٨) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ أي العذْبَ الصالحَ للشرب[١].

(٦٩) ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ من السحاب واحدُه مُزْنَةٌ، وقيل المزنُ السحاب الأبيضُ وماؤه أعذبُ. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ بقدرتنا. والرؤيةُ إن كانتْ بمعنى العلمِ فمتعلِّقة بالاستفهام.

---

(١) وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به (س٨/١٩٨).

لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ
ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ
أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾

(٧٠) ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً أو من الأجيج فإنه يحرقُ الفمَ، وحذفَ اللامَ الفاصلةَ بين جواب ما يتمحضُ للشرط وما يتضمنُ معناه لعلم السامع بمكانها، أو الاكتفاء بسبقِ ذكرِها أو يختصُ ما يُقصَدُ لذاته ويكون أهمَّ وفقدُه أصعبَ بمزيد التأكيد. ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أمثالَ هذه النِّعمِ الضروريةِ.

(٧١) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ تقدحون.

(٧٢) ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ يعني الشجرةَ التي منها الزِّنادُ[1].

(٧٣) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ جعلْنا نار الزِّناد. ﴿تَذْكِرَةً﴾ تبصرةً في أمرِ البعثِ كما مرَّ في سورةِ يٰس[2]، أو في الظلام أو تذكيراً وأنموذجاً لنارِ جهنَّم. ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعةً. ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ الذين ينزلون القَواءَ وهي القفرُ، أو للذين خلتْ بطونُهم أو مزاودُهم من الطعام، من أقوتِ الدارُ إذا خلتْ من ساكنيها.

(٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فأحدِثِ التسبيحَ بذكرِ اسمِه تعالى أو بذكرِه فإنَّ إطلاقَ اسمِ الشيءِ ذكْرُهُ. والعظيمُ صفةٌ للاسمِ أو الربِّ، وتعقيبُ الأمر بالتسبيح لما عدَّد من بدائعِ صُنْعِهِ وإنعامِه إما لتنزيهِه تعالى عما يقول الجاحدون لوحدانيتِه الكافرونَ لنعمتِه، أو للتعجُّبِ من أمرِهم في غمطِ نِعَمِه، أو للشكرِ على ما عدَّها من النعم.

(٧٥) ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ﴾ إذ الأمرُ أوضحُ من أنْ يحتاجَ إلى قسمٍ، أو فأقسمُ ولا مزيدةٌ للتأكيد كما في ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾[3] أو فَلأنَا أقسِمُ فحذفَ المبتدأَ وأشبعَ فتحةَ لامِ الابتداءِ، ويدلُّ عليه قراءةُ فلأقسمُ، أو فلا ردٌّ لكلامٍ يخالفُ المقسَمَ عليه. ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمساقِطِها، وتخصيصُ المغاربِ لما في غروبها من زوالِ أثرِها والدلالةِ على وجود مؤثِّرٍ لا يزول تأثيرُهُ، أو بمنازلها ومجاريها. وقيل النجومُ نجومُ القرآن ومواقعُها أوقاتُ نزولها، وقرأ حمزة والكسائيُ بموقع.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لما في المقسَم به من الدلالة على عِظَم القدرةِ وكمال الحكمة وفَرْطِ الرحمة، ومن مقتضياتِ رحمته أن لا يتركَ عبادَه سُدًى، وهو اعتراضٌ في اعتراض فإنه اعتراضٌ بين القسمِ والمقسَم عليه، ولو تعلمون اعتراضٌ بين الموصوفِ والصفةِ.

(٧٧) ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ كثيرُ النفعِ لاشتماله على أصولِ العلوم المهمةِ في إصلاح المعاش والمعاد، أو حسنٌ مرضيٌّ في جنسِه.

---

(١) والتعبير عن خلقها بالإنشاء ـ المنبىء عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة ـ لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر التي لا تخلو عن النار، حتى قيل: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ـ كما أن التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء في قوله تعالىٰ «ثم أنشأناه خلقاً آخر» لذلك (س٨/١٩٨).

(٢) سورة يٰسٓ آية: «٨٠».

(٣) الحديد: «٢٩».

فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم
مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ
أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾

(٧٨) ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ مصونٍ وهو اللوحُ المحفوظُ.

(٧٩) ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ لا يطَّلِعُ على اللوح إلا المطهرون من الكُدوراتِ الجسمانية وهم الملائكةُ، أو لا يمسُّ القرآنَ إلا المطهرونَ من الأحداثِ فيكون نفياً بمعنى النهي، أو لا يطلبه إلا المطهرونَ من الكفرِ. وقرىء المتطهرون والمطْهَرون والمطَّهِّرون من أَطْهَرَهُ بمعنى طهَّره، والمطَهِّرون أي أنفسَهم أو غيرهم بالاستغفارِ لهم والإلهام.

(٨٠) ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ صفةٌ ثالثة أو رابعة للقرآنِ، وهو مصدرٌ نُعِتَ به وقرىء بالنصبِ أي نُزِّلَ تنزيلاً.

(٨١) ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ. ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ متهاونون به كمن يُدْهِنُ في الأمر أي يُلينُ جانبَهُ ولا يتصلَّب فيه تهاوناً به.

(٨٢) ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ﴾ أي شكرَ رزقِكم. ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بمانحِه حيث تنسبونه إلى الأنواء، وقرىء شُكْرَكُم أي وتجعلون شكركم لنعمةِ القرآنِ أنكم تكذِّبون به وتكذبون أي بقولِكم في القرآن أنه سحر وشِعْرٌ، أو في المطر أنه من الأنواء.

(٨٣) ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ أي النفسُ.

(٨٤) ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ حالَكُم، والخطاب لمن حولَ المحتضِر، والواوُ للحالِ.

(٨٥) ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ﴾ أي ونحن أعلمُ. ﴿إِلَيۡهِ﴾ إلى المحتضِرِ. ﴿مِنكُمۡ﴾ عبَّر عن العلمِ بالقربِ الذي هو أقوى سببِ الاطلاع. ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ لا تدركون كُنْهَ ما يجري عليه.

(٨٦) ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ أي مجزيينَ يومَ القيامة أو مملوكينَ مقهورينَ من دانه إذا أذلَّه واستعبدَه، وأصل التركيب للذلِّ والانقياد.

(٨٧) ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ ترجعون النفسَ إلى مقرِّها وهو عاملُ الظرفِ والمحضَّضُ عليه بلولا الأُولى. والثانيةُ تكريرٌ للتوكيد وهي بما في حيِّزها دليلُ جوابِ الشرط، والمعنى إن كنتم غيرَ مملوكينَ مجزيِّينَ كما دلَّ عليه جحُدُكم أفعالَ اللهِ وتكذيبُكم بآياته. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أباطيلكم فلولا ترجعون الأرواحَ إلى الأبدانِ بعد بلوغها الحلقومَ.

(٨٨) ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ أي إن كان المتوفَّى من السابقين.

(٨٩) ﴿فَرَوۡحٞ﴾ فله استراحةٌ، وقرىء فَرُوحٌ بالضمِّ، وفُسِّرَ بالرحمةِ لأنها كالسببِ لحياة المرحوم وبالحياةِ الدائمة. ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ ورزقٌ طيِّبٌ. ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ ذاتُ تنعُّمٍ.

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

(٩٠) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

(٩١) ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ يا صاحبَ اليمين. ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي من إخوانك يسلِّمونَ عليك.

(٩٢) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني أصحابَ الشمال، وإنما وصفَهم بأفعالهم زجْراً عنها وإشعاراً بما أوجبَ لهم ما أوعدَهم به.

(٩٣) ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

(٩٤) ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وذلك ما يجدُ في القبر من سمومِ النار ودخانِها.

(٩٥) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الذي ذُكِرَ في السورة أو في شأن الفِرَقِ. ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي حقُّ الخبرِ اليقين.

(٩٦) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فنزِّهْهُ بذكرِ اسمه وتعالى عما لا يليقُ بعظَمَةِ شأنه. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الواقعةِ في كلِّ ليلة لم تصبْه فاقةٌ أبداً»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٨٠) والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٢) والحارث بن أبي أسامة في مسنده (١٧٨ من زوائده)، وابن لال في «حديثه» (١/١١٦) وابن بشران في «الأمالي» (ج٢٠/٣٨/ ١) ـ كما في الضعيفة (١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥ رقم ٢٨٩) ـ وغيرهم من طريق أبي شجاع عن أبي طيبة عن ابن مسعود مرفوعاً.
وفيه علل: النكارة في متنه، والانقطاع، وضعف رواته، واضطرابه. وانظر الضعيفة (رقم: ٢٨٩) و«الكافي الشافِ» (ص١٦٣ رقم: ٩٢) وفيض القدير (٦/ ٢٠١).

سُورَةُ الحَدِيدِ

ترتيبها ٥٧ — آياتها ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

سورة الحديد مدنية(١)

وقيل مكية، وآيها تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذُكِرَ ها هُنا وفي الحشر والصفِّ بلفظ الماضي، وفي الجمعة والتغابنِ بلفظ المضارعِ إشعاراً بأن مِنْ شأنِ ما أُسْنِد إليه أنْ يسبِّحه في جميع أوقاتِه، لأنه دلالةٌ جِبِلِيَّةٌ لا تختلفُ باختلاف الحالاتِ. ومجيءُ المصدرِ مطلقاً في بني إسرائيلَ أبلغُ من حيث إنه يشعِرُ بإطلاقه على استحقاقِ التسبيح من كلِّ شيء وفي كلِّ حال. وإنما عدِّيَ باللام وهو متعدٍّ بنفسِه ـ مثلُ نصحتُ له في نصحتُه ـ إشعاراً بأنَّ إيقاعَ الفعل لأجلِ الله وخالصاً لوجهه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حالٌ يشعرُ بما هو المبدأُ للتسبيح.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٣٩٦): «وهي مدنية فيما قال النقاش وغيره بإجماع من المفسرين. وقال غيره مكية».

وانظر «زاد المسير» (٨/ ١٦٠) و«الدر المنثور» (٨/ ٤٥).

(٢) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنه الموجِدُ لها والمتصرِّفُ فيها. ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ استئنافٌ أو خبرٌ لمحذوف ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإحياء والإماتةِ وغيرِها. ﴿قَدِيرٌ﴾ تامُّ القدْرةِ.

(٣) ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابقُ على سائر الموجوداتِ من حيث إنه موجِدُها ومُحْدِثُها. ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها ولو بالنظرِ إلى ذاتِها مع قطعِ النظرِ عن غيرها، أو هو الأولُ الذي تبتدأُ منه الأسبابُ وتنتهي إليه المسبَّباتُ، أو الأول خارجاً والآخر ذهناً. ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الظاهر وجودُه لكثرةِ دلائله والباطنُ حقيقةً ذاتُه فلا تكتنِهُها العقولُ، أو الغالبُ على كل شيء والعالمُ بباطنِه. والواوُ الأُولَى والأخيرةُ للجمعِ بين الوصْفَيْنِ، والمتوسطةُ للجمعِ بين المجموعين. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يستوي عندَه الظاهرُ والخفيُّ.

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالبذور. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزروع. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالأمطارِ. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالأبخرةِ. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ لا ينفكُّ علمُه وقدرتُه عنكم بحالٍ. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه. ولعلَّ تقديمَ الخلْقِ على العلم لأنه دليلٌ عليه.

لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

(٥) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذَكره مع الإعادةِ كما ذَكَرَهُ مع الإبداءِ لأنه كالمقدمةِ لهما. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

(٦) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بمكنُوناتِها.

(٧) ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ من الأموال التي جعلَكُم اللهُ خلفاءَ في التصرُّفِ فيها فهي في الحقيقة له لا لكم، أو التي استخلفكم عمَّن قبلَكُم في تملُّكِها والتصرُّفِ فيها، وفيه حثٌّ على الإنفاقِ وتهوينٌ له على النفس. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعدٌ فيه مبالغاتٌ؛ جَعْلُ الجملةِ اسميةً وإعادةُ ذِكْرِ الإيمان والإنفاقِ وبناءُ الحكم على الضميرِ وتنكيرُ الأجرِ ووصفُه بالكِبَرِ.

(٨) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي وما تصنعونَ غيرَ مؤمنين به كقولك: مالَكَ قائماً. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ حالٌ من ضمير تؤمنون، والمعنى أيُّ عذْرٍ لكم في تركِ الإيمان والرسولُ يدعوكم إليه بالحججِ والآياتِ. ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقَكم بالإيمان قبل ذلك بنصبِ الأدلة والتمكينِ من النظرِ، والواو للحالِ من مفعولِ يدعوكم. وقرأ أبو عمرو على البناءِ للمفعول ورفعِ ميثاقكُمْ. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجبٍ ما فإن هذا موجبٌ لا مزيدَ عليه.

هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم ﴾ أي اللهُ أو العبدُ. ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ من ظلماتِ الكفر إلى نور الإيمان. ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيثُ نبّهكم بالرسولِ والآياتِ ولم يقتصرْ على ما نصبَ لكم من الحجج العقليةِ.

(١٠) ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ ﴾ وأيُّ شيءٍ لكم في ألا تنفقوا. ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فيما يكون قُرْبَةً إليه[1]. ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ يرثُ كلَّ شيء فيهما فلا يبقى لأحدٍ مالٌ، وإذا كان كذلك فإنفاقُه بحيث يستخلفُ عوضاً يبقى وهو الثوابُ كان أولى[2]. ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ بيانٌ لتفاوُتِ المنفقينَ باختلافِ أحوالهم من السَّبْقِ وقوةِ اليقين وتحرِّي الحاجاتِ حثاً على تحرِّي الأفضلِ منها بعدَ الحثِّ على الإنفاقِ، وذِكْرُ القتالِ للاستطرادِ، وقسيمُ مَنْ أنفق محذوفٌ لوضوحه ودلالةِ ما بعدَه عليه، والفتحُ فتحُ مكَّةَ إذ عزَّ الإسلامُ به وكثُر أهلُه وقلَّتِ الحاجةُ إلى المقاتلة والإنفاقِ. ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي من بعدِ الفتح. ﴿ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ أي وعدَ اللهُ كلاً من المنفقينَ المثوبةَ الحسنى وهي الجنةُ. وقرأ ابن عامر وكلٌّ بالرفع على الابتداء أي وكلٌّ وعدَه الله ليطابقَ ما عُطِفَ عليه. ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالمٌ بظاهره وباطنِه فيجازيكم على حَسَبِه. والآيةُ نزلتْ في أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه، فإنه أولُ مَنْ آمن وأنفق في سبيل الله وخاصمَ الكفارَ حتى ضُرِبَ ضرباً أشرفَ به على الهلاك[3].

(١١) ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي مَنِ الذي ينفقُ مالَهُ في سبيله رجاءَ أنْ يعوِّضَه فإنه كَمَنْ يقرضُه، وحسْنُ الإنفاقِ بالإخلاص فيه وتحري أكرمِ المال وأفضلِ الجهات له. ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ أي يُعْطَى أَجْرَهُ أضعافاً. ﴿ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي وذلك الأجرُ المضموم إليه الأضعافُ كريمٌ في نفسه ينبغي أنْ يُتَوَخَّى وإن لم يُضَاعفْ، فكيف وقد يضاعف أضعافاً. وقرأ عاصمٌ فيضاعفَه بالنصبِ على جوابِ الاستفهام باعتبارِ المعنى فكأنه قال: أيقرضُ اللهَ أحدٌ فيضاعفَه له، وقرأ ابن كثير فيضعفُه مرفوعاً، وقرأ ابن عامر ويعقوبُ فيضعفَه منصوباً.

(١٢) ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ظرفٌ لقوله وله أو فيضاعفَه أو مقدَّر باذْكُر ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾ ما يوجِبُ نجاتَهم وهدايتَهم إلى الجنة. ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ لأنَّ السعداءَ يؤْتَوْنَ صحائفَ أعمالهم من هاتين الجهتين. ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ ﴾ أي يقول لهم مَنْ يتلقاهم من الملائكة بُشْرَاكم أي المبشَّرُ به

(١) وتعيين المنفق فيه لتشديد التوبيخ (س٨/ ٢٠٦).

(٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار «ولله» لزيادة التقرير وتربية المهابة (س٨/ ٢٠٦).

(٣) انظر «جامع البيان» للطبري (١٣/ ج٢٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) والبحر المحيط (٨/ ٢١٩).

جناتٌ، أو بشراكم دخولُ جناتٍ. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى ما تقدَّم من النور والبشرى بالجناتِ المخلَّدةِ.

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ بدلٌ من يومَ ترى. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ انتظرونا فإنَّهم يُسْرَعُ بهم إلى الجنة كالبرق الخاطفِ، أوِ انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورٍ بين أيديهم. وقرأ حمزةُ أَنظِرونا على أنَّ أتئادَهم ليلحقوا بهم إمهالٌ لهم. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نُصِبْ منه. ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ إلى الدنيا. ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ بتحصيل المعارفِ الإلهية والأخلاقِ الفاضلة، فإنه يتولَّد منها أو إلى الموقف فإنه من ثمَّةَ يُقْتَبَسُ، أو إلى حيثُ شئتُم فاطلبوا نوراً آخَرَ فإنه لا سبيلَ لكم إلى هذا، وهو تهكُّمٌ بهم وتخييبٌ من المؤمنين أو الملائكة ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين. ﴿بِسُورٍ﴾ بحائطٍ. ﴿لَّهُ بَابٌ﴾ يدخلُ منه المؤمنونَ. ﴿بَاطِنُهُ﴾ باطنُ السورِ أو الباب. ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ لأنه يلي الجنةَ. ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ من جهته لأنه يلي النارَ.

(١٤) ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يريدون موافقتَهم في الظاهر. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنفاق. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائرَ. ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتُم في الدِّينِ. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ كامتدادِ العمرِ. ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموتُ. ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الشيطانُ أو الدنيا.

(١٥) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ فداءٌ. وقرأ ابن عامر ويعقوبُ بالتاء. ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهراً وباطناً. ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ هي أَوْلَى بكم كقول لبيدٍ[1]:

فَغَـدَتْ كِـلاَ الفـرجَيْـنِ تَحْسِـبُ أَنَّـهُ ... مـوْلَـى المَخَـافَـةِ خَلْفَهَـا وأمـامهـا

وحقيقتُه مجراكُم أي مكانكُم الذي يُقَالُ فيه هو أولى بكم كقولك: هو مَئِنَّةُ الكرمِ أي مكان قولِ

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري: أحدَ الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل عالية نجد، أدركَ الإسلام، ووفد على النبي ﷺ. ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، قيل: هو

مـا عـاتـب المـرءَ الكـريـمَ كنفسـه ... والمـرء يصلحـه الجليـسُ الصـالـح

وترجم له رضي الله عنه محمد علي حمد الله في شرح الزوزني، ونسب إليه بيتاً واحداً هو:

الحمـد لله إذ لـم يـأتنـي أجلـي ... حتـى اكتسبـتُ مـن الإسـلام سـر بـالا

وهو من البسيط، والأول من الكامل، ومسكن لبيد الكوفة...

[الأعلام، للزركلي (٥/ ٢٤٠)].

القائل إنه لكريمٌ، أو مكانكُم عما قريبٍ من الولْيِ وهو القربُ، أو ناصرُكم على طريقة قوله: تحِيَّةُ بَيْنَهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ، أو متوليكم يتولاَّكُم كما توليتم موجباتِها في الدنيا. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النارُ.

۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ألم يأتِ وقتُه، يُقَالُ أَنَى الأمرُ يأني أَنْياً وأناً وإناً إذا جاءَ إناهُ، وقرىء ألم يئِنْ بكسرِ الهمزة وسكونِ النون من آنَ يئينُ بمعنى أتى، والمّا يأنِ. رُوِيَ أنَّ المؤمنينَ كانوا مجدِبِيْنَ بمكَّةَ، فلما هاجروا أصابوا الرزقَ والنعمةَ ففتُروا عما كانوا عليه، فنزلت[١]. ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآنُ وهو عطفٌ على الذِّكْرِ عطفُ أحدِ الوصفين على الآخرِ، ويجوزُ أنْ يرادَ بالذِّكر أن يُذْكَرَ اللهُ. وقرأ نافع وحفص ويعقوب نَزَلَ بالتخفيف، وقرىء أُنْزِلَ. ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ عطفٌ على تخشعَ. وقرأ رويسٌ بالتاء، والمراد النهيُ عن مماثلة أهلِ الكتاب فيما حُكِيَ عنهم بقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فطال عليهم الأجلُ لطول أعمارِهم وآمالهم، أو ما بينَهم وبين أنبيائهم فقستْ قلوبُهم. وقرىء الأمدّ وهو الوقتُ الأطول. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم رافضونَ لما في كتابهم من فَرْطِ القسوةِ.

(١٧) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيلٌ لإحياءِ القلوب القاسيةِ بالذكرِ والتلاوةِ بالإحياءِ والأمواتِ ترغيباً في الخشوع وزجْراً عن القساوة. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تكمُلَ عقولُكم.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ إنَّ المتصدقين والمتصدقاتِ، وقد قرىء بهما. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بتخفيفِ الصادِ أي الذين صدقُوا اللهَ ورسولَه. ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ عطفٌ على معنى الفعل في المحلَّى باللام لأن معناه: الذين أصْدَقُوا، أو صدقُوا وهو على الأول للدلالةِ على أنَّ المعتَبَرَ هو التصدُّقُ المقرونُ بالإخلاص. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ معناه والقراءةُ في يُضَاعَفُ كما مرَّ غيرَ أنه لم يُجْزَمْ لأنه خبرُ إنَّ، وهو مسندٌ إلى لهم أو إلى ضمير المصدرِ.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك عندَ الله بمنزلة الصِّديقينَ والشهداء، أو هم المبالغون في الصدقِ فإنهم آمنوا وصدَّقُوا جميعَ أخبارِ الله ورسلِه

---

(١) وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا: حدثنا عما في التوراة فإن فيها العجائب فنزلت هذه الآية وقال غيرهما. نزلت في المؤمنين.
[أسباب النزول، لأبي الحسن الواحدي النيسابوري ص٤٠٦].

والقائمونَ بالشهادة لله ولهم، أو على الأمم يومَ القيامة. وقيل والشهداءُ عند ربهم مبتدأٌ وخبرٌ، والمراد به الأنبياءُ من قوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾[1] أو الذين استُشهِدوا في سبيل الله. ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ مثلُ أجرِ الصِّدِّيقينَ والشهداءِ ومثلُ نورِهم. ولكنه من غير تضعيفٍ ليحلَّ التفاوتُ، أوِ الأجرُ والنور الموعودانِ لهم. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الخلودَ في النار مخصوصٌ بالكفار من حيثُ إنَّ التركيبَ يشعِرُ بالاختصاص. والصُّحبةُ تدلُّ على الملازمةِ عرفاً.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

(٢٠) ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ لما ذكر حالَ الفريقين في الآخرةِ حقَّر أمورَ الدنيا أعني ما لا يُتَوَصَّلُ به إلى الفوزِ الآجلِ، بأنْ بيَّن أنها أمورٌ خياليةٌ قليلةُ النفعِ سريعةُ الزوالِ لأنها لعب يتعِبُ الناسُ فيه أنفسَهم جداً إتعابَ الصبيانِ في الملاعب من غير فائدةٍ، ولهوٌ يُلْهُونَ به أنفسَهم عما يهمُّهم، وزينةٌ كالملابسِ الحسنة والمواكِب البهية والمنازلِ الرفيعة، وتفاخرٌ بالأنساب أو تكاثرٌ بالعدد والعُدَدِ، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ وهو تمثيلٌ لها في سرعة تقضِّيها وقلَّةِ جدواها بحال نباتٍ أنبته الغيثُ فاستوى وأُعْجِبَ به الحرَّاثُ، أو الكافرون بالله لأنهم أشدُّ إعجاباً بزينة الدنيا ولأنَّ المؤمنَ إذا رأى معجباً انتقلَ فكرهُ إلى قدرةِ صانِعه فأُعْجِبَ بها، والكافر لا يتخطَّى فكرهُ عما أحسَّ به فيستغرقُ فيه إعجاباً، ثم هاج أي يبِسَ بعاهةٍ فاصفرَّ ثم صار حطاماً، ثم عظَّم أمورَ الآخرة الأبديةِ بقوله: ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ تنفيراً عنِ الانهماكِ في الدنيا وحثاً على ما يوجِبُ كرامةَ العُقْبَى، ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أي لمن أقبلَ عليها ولم يطلبْ إلا الآخرةَ. ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أي لمن أقبلَ عليها ولم يطلبْ بها الآخرةَ.

(٢١) ﴿ سَابِقُوا ﴾ سارعوا مسارعةَ المسابقين في المِضْمَار. ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إلى موجِبَاتِها. ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي عرضُها كعرضِهما وإذا كان العرضُ كذلك فما ظنُّك بالطول، وقيل المراد به البسطةُ كقوله ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾[2] ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فيه دليلٌ على أن الجنةَ مخلوقةٌ وأن الإيمان وحدَه كافٍ في استحقاقها. ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ذلك للموعود يتفضَّل به على مَنْ يشاء من غير إيجابٍ. ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ منه التفضُّل بذلك وإن عظُم قدرُه.

---

(١) النساء: «٤١».

(٢) فُصِّلت: «٥١».

وتقديم المغفرة على الجنة لتقديم التخلية على التحلية (س٨/ ٢١١).

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

(٢٢) ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كجذبٍ وعاهةٍ. ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفةٍ. ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ إلا مكتوبةً في اللوح مثبتةً في علمِ الله تعالى. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ نخلقُها، والضميرُ للمصيبة أو الأرض أو للأنفسِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي إثباتِه في كتابٍ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائِه تعالى فيه عن العدةِ والمدَّةِ.

(٢٣) ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ﴾ أي أثبتَ وكتبَ كي لا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نِعَمِ الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بما أعطاكم اللهُ منها فإن مَنْ عَلِمَ أن الكلَّ مقدَّر هانَ عليه الأمرُ. وقرأ أبو عمرو بما أتاكم من الإتيانِ ليعادِلَ ما فاتكم، وعلى الأول فيه إشعارٌ بأنَّ فواتَها يلحقُها إذا خُلِّيَتْ وطباعَها، وأما حصولُها وإبقاؤُها فلا بدَّ لهما من سببٍ يوجدُها ويبقيها، والمراد نفيُ الأسى المانعِ عن التسليم لأمرِ الله والفرحِ الموجبِ للبطرِ والاختيالِ، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إذ قلَّ مَنْ يثبّتُ نفسَه في حالي الضراءِ والسراءِ(١).

(٢٤) ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بدلٌ من كلِّ مختال فإن المختالَ بالمال يضنُّ به غالباً، أو مبتدأ خبرُه محذوفٌ مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ لأنَّ معناه ومَنْ يعرضْ عن الإنفاقِ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنه وعن إنفاقه محمودٌ في ذاته لا يضرُّه الإعراضُ عن شكره ولا ينفعه التقربُ إليه بشكرِ مَنْ نعَّمه، وفيه تهديد وإشعارٌ بأن الأمرَ بالإنفاق لمصلحة المنفِق. وقرأ نافع وابن عامر فإنَّ الله الغنيُّ.

(٢٥) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الملائكةَ إلى الأنبياء أو الأنبياءَ إلى الأمم. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج والمعجزاتِ. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليبيِّنَ الحقَّ ويميِّزَ صوابَ العمل. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ لتسوَّى به الحقوقُ ويقامَ به العدلُ كما قال تعالى ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ وإنزاله إنزالُ أسبابه والأمر بإعداده، وقيل أنزلَ الميزانَ إلى نوح عليه السلام، ويجوز أن يُرادَ به العدلُ. ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ لِتُقامَ به السياسةُ وتدفعَ به الأعداءُ كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنَّ آلاتِ الحروب متَّخذَةٌ منه. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعةٍ إلا والحديدُ آلاتُها. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ باستعمال الأسلحةِ في مجاهدةِ الكفار، والعطف على محذوفٍ دلَّ عليه ما قبلَه فإنه حالٌ يتضمَّن تعليلاً، أوِ اللامُ صلةٌ لمحذوف أي أنزله ليعلمَ اللهُ. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ من المستكِنِّ في ينصرهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على إهلاك مَنْ أراد إهلاكَه. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يفتقر إلى نُصْرةٍ وإنما أمرهم بالجهادِ لينتفعوا به ويستوجِبوا ثوابَ الامتثالِ فيه.

---

(١) وفي تخصيص التذييل بالنهي عن الفرح المذكور إيذان بأنه أقبح من الأسىٰ (س٨/ ٢١١).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى
قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا
رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ
وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

(٢٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ بأنِ استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتبَ. وقيلِ المرادُ بالكتابِ الخطُّ. ﴿ فَمِنْهُم ﴾ فمن الذرية أو مِنَ المرسَلِ إليهم وقد دلَّ عليهم أرسلنا. ﴿ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ خارجونَ عن الطريق المستقيم، والعدولُ عن سننِ المقابلةِ للمبالغةِ في الذمِّ والدلالةِ على أنَّ الغلبةَ للضُّلَّالِ.

(٢٧) ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ أي أرسلْنا رسولاً بعد رسولٍ حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام، والضميرُ لنوح وإبراهيمَ ومَنْ أُرسلا إليهم، أو من عاصَرَهُما من الرسلِ لا للذريةِ، فإن الرسلَ الملْقَى بهم من الذريةِ. ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ وقرىء بفتح الهمزة، وأمرهُ أهونُ من أمر البرطيلِ لأنه أعجميٌّ(١). ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ﴾ وقرىء رآفةً على فعالةٍ. ﴿ وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أي وابتدعوا رهبانيةً ابتدعوها، أو رهبانية مُبْتَدَعَةً على أنها من المجعولاتِ وهي المبالغةُ في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس، منسوبةً إلى الرُّهبانِ وهو المبالغُ في الخوفِ من رَهِبَ كالخشيان من خَشِيَ، وقرئتْ بالضمِّ كأنها منسوبةٌ إلى الرهبانِ وهو جمعُ راهبٍ كراكِبٍ ورُكْبَانٍ. ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما فرضناها عليهم. ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي ولكنَّهم ابتدعوها ابتغاءَ رضوانِ الله. وقيل متصلٌ فإنَّ ما كتبْناها عليهم بمعنى ما تعبَّدناهم بها وهو كما ينفي الإيجابَ المقصودَ منه دفعُ العقابِ ينفي الندبَ المقصودَ منه مجردَ حصولِ مرضاة الله، وهو يخالف قولَه ابتدعوها إلا أنْ يُقَالَ ابتدعوها ثم نُدِبُوا إليها، أو ابتدعوها بمعنى استحدثُوها وأَتَوْا بها، أو لأنهم اخترعُوها من تِلْقاء أنفسِهم. ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ أي فما رَعَوْهَا جميعاً. ﴿ حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ بضم التثليثِ والقولِ بالاتحادِ وقصدِ السمعةِ والكفرِ بمحمد عليه الصلاة والسلام ونحوها إليها. ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ آتَوْا بالإيمانِ الصحيح ومن ذلك الإيمانُ بمحمدٍ ﷺ وحافظوا حقوقَها. ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من المتَّسِمِينَ باتباعِه. ﴿ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ خارجون عن حالِ الاتباعِ.

(٢٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالرسلِ المتقدمةِ. ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فيما نهاكم عنه. ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ ﴾ محمدٍ عليه الصلاة. . . . .

---

(١) أي لا يلزم منه مراعاة أبنية العرب.

والسلام[١]. ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نَصِيبَيْنِ. ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانِكم بمحمدٍ ﷺ إيمانِكم بمن قبلَه، ولا يبعدُ أنْ يُثَابُوا على دينهم السابقِ وإن كان منسوخاً ببركةِ الإسلام، وقيل الخطابُ للنَّصارى الذين كانوا في عصْره. ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يريدُ المذكورَ في قوله ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾[٢] أو الهدى الذي يُسْلَكُ به إلى جنابِ القدُسِ. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢٩) ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليعلموا ولا مزيدةٌ ويؤيدُه أنه قرىء ليعلَمَ ولكي يعلمَ ولأنَ يعلمَ بإدغامِ النون في الياء. ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أنْ هي المخففةُ والمعنى: أنه لا ينالون شيئاً مما ذُكِرَ من فضلِه ولا يتمكّنون من نيله لأنهم لم يؤمنوا برسوله وهو مشروطٌ بالإيمان به، أو لا يقدِرونَ على شيءٍ من فضله فضلاً عن أن يتصرَّفوا في أعظَمِه وهو النبوةُ فيخصُّوها بِمَنْ أرادوا ويؤيدُه قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقيل لا غيرُ مزيدةٍ، والمعنى لئلا يعتقدَ أهلُ الكتاب أنه لا يقدرُ النبيُّ والمؤمنون به على شيء من فضْلِ الله ولا ينالونه، فيكون وأنَّ الفضلَ عطفاً على لئلا يعلمَ، وقرىء لِيَلاَّ يعلمُ ووجهُهُ أنَّ الهمزةَ حُذِفَتْ وأدغمتِ النون في اللام ثمَّ أُبدِلَتْ ياءً. وقرىء لَيْلاَ على أنَّ الأصلَ في الحروفِ المفردةِ الفتحُ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأَ سورةَ الحديدِ كُتِبَ من الذين آمنوا بالله ورسلِهِ أجمعينَ»[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) وفي إطلاق كلمة الرسول إيذانٌ بأنه عليه الصلاة والسلام ـ فردٌ في الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره (س٨/ ٢١٤) ـ.

(٢) الحديد: «١٢».

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦٤ رقم ٩٨).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُجَادِلَةِ

ترتيبها ٥٨ آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ
الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن
قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ
أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

سورة المجادلة مدنية

وقيل العشر الأول مكي والباقي مدني[1]، وآيها اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ رُوِيَ أنَّ خولة بنتَ ثعلبةَ ظاهَرَ عنها زوجُها أوسُ بنُ الصامت، فاستفتتْ رسول الله ﷺ فقال: «حرمتِ عليه»، فقالت: ما طلَّقني، فقال: «حرمتِ عليه»، فاغتمَّت لصغرِ أولادِها وشكتْ إلى الله تعالى، فنزلت هذه الآياتُ الأربعُ[2]، وقد تُشعِرُ بأن

---

(١) وهي مدنية بالإجماع. إلا أن النقاش حكى أن قوله تعالى: «ما يكون من نجوى ثلاثة» الآية. مكي. قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٤٣٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج٢٨/ ٥) وابن ماجة (١/ ٦٦٦ رقم ٢٠٦٣) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧٨ رقم ٦٢٥) والواحدي في الأسباب (ص٤٠٨) كلهم من طريق تميم بن سلمة عن عروة به. وإسناده صحيح. ويشهد له: =

الرسول عليه الصلاة والسلام أو المجادلةَ يتوقع أنَّ اللهَ يسمعُ مجادَلَتَهَا وشكْواها ويفرجُ عنها كربَها. وأدْغَمَ حمزةُ والكسائي وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر دالها في السينِ. ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ[1] تَحَاوُرَكُمَآ﴾ تراجُعَكُما الكلامَ وهو على تغليبِ الخطاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ للأقوال والأحوال.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ الظِّهار أنْ يقولَ الرجلُ لامرأته أنتِ عليَّ كظهْرِ أمي مشتقٌّ من الظَّهرِ، وألحقَ به الفقهاءُ تشبيهَهَا بجزءِ أنثىٰ مَحْرَمٍ. وفي منكم تهجينٌ لعادتِهم فيه، فإنه كان من أيمانِ أهل الجاهليةِ. وأصل يظاهِرون يتظاهَرُون، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائيُّ يظَّاهرون من أظَّاهر وعاصم يُظاهِرون من ظَاهَرَ. ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أي على الحقيقةِ. ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا تشبَّهَ بهنَّ في الحرمةِ إلا مَنْ ألحقها الله بهنَّ كالمرضعاتِ وأزواجِ الرسول ﷺ، وعن عاصم أمهاتُهم بالرفع على لغةِ بني تميم، وقرىء بأمهاتِهم وهو أيضاً على لغة من ينصِبُ. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إذ الشرعُ أنكَرَهُ. ﴿وَزُورًا﴾ منحرِفاً عن الحقِّ فإن الزوجةَ لا تشبِه الأمَّ. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لما سلفَ منه مطلقاً، أو إذا تِيْبَ عنه.

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي إلى قولهم بالتداركِ ومنه المثَلُ: عاد الغيثُ على ما أفسدَ، وهو بنقضِ ما يقتضيه وذلك عند الشافعيِّ بإمساك المظاهِرِ عنها في النكاحِ زماناً يمكنُه مفارقتُها فيه إذ التشبيهُ يتناولُ حرمتَه لصحة استثنائِها عنه وهو أقلُّ ما ينتقضُ به، وعند أبي حنيفةَ باستباحةِ استمتاعِها ولو بنظرةِ شهوةٍ، وعند مالكٍ بالعزمِ على الجِماعِ، وعند الحسنِ بالجماعِ أو بالظِّهار في الإسلام على أنَّ قولَه يظاهرون بمعنى يعتادون الظِّهارَ إذ كانوا يظاهرون في الجاهليةِ وهو قول الثوري، أو بتكرارِه لفظاً وهو قول الظاهريةِ. أو معنًى بأنْ يحلفَ على ما قال وهو قولُ أبي مسلم، أو إلى المقول فيها بإمساكِها أو استباحةِ استمتاعِها أو وَطْئِها. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعليهم أو فالواجبُ اعتاقُ رقبةٍ والفاءُ للسببيةِ، ومن فوائدِها الدلالةُ على تكرُّرِ وجوبِ التحرير بتكرُّرِ الظِّهارِ. والرقبةُ مقيدةٌ بالإيمان عندنا قياساً على كفارة القتلِ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أنْ يستَمْتِعَ كلٌّ من المظاهِرِ والمظاهَرِ عنها بالآخر لعمومِ اللفظِ ومقتضى التشبيه، أو أنْ يجامِعَها وفيه دليلٌ على حرمةِ ذلك قبل التكفيرِ. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلكم الحكمُ بالكفارة. ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ لأنه يدلُّ على ارتكابِ الجناية الموجِبَة للغرامةِ ويردعُ عنه. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية.

(٤) ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي الرقبةَ والذي غابَ مالُه واجدٌ. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فإنْ أفطرَ بغيرِ عذرٍ لزمهُ الاستئنافُ وإنْ أفطرَ لعذرٍ ففيه خلافٌ، وإنْ جامعَ المظاهِرِ عنها ليلاً لم ينقطعِ التتابعُ عندنا خلافاً لأبي حنيفةَ ومالكٍ رضي الله تعالى عنهما. ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي الصومَ لهرمٍ أو مرضٍ مزمن أو شبقٍ مفرطٍ فإنه ﷺ رخَّصَ للأعرابي المفطرِ أنْ يعدلَ لأجلِه. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾

= ما أخرجه البخاري تعليقاً (١٣/ ٣٧٢) ووصله النسائي (٦/ ١٦٨ رقم ٣٤٦٠) وأحمد في المسند (٦/ ٤٦) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ج٢٨/ ٥) والواحدي في الأسباب (ص٤٠٨) عن تميم به. وإسناده صحيح.

(١) وإظهار الاسم الجليل «الله» في الموقعين لتربية المهابة وتعليل الحكم بوصف الألوهية وتأكيد استقلال الجملتين (س٨/ ٢١٦).

ستين مُدّاً بمدِّ رسولِ الله ﷺ، وهو رطلٌ وثلثٌ لأنه أقلُّ ما قيل في الكفاراتِ وجنسِه المخرج في الفِطْرةِ، وقال أبو حنيفةَ رضي الله تعالى عنه يعطي كلَّ مسكينٍ نصفَ صاع من بُرٍّ أو صاعاً من غيره. وإنما لم يذكرِ التماسَّ مع الطعام اكتفاءً بذكره مع الآخرين، أو لجوازه في خلالِ الإطعام كما قال أبو حنيفةَ رضيَ الله تعالى عنه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ البيانُ أو التعليمُ للأحكام. ومحلُّه النصبُ بفعل معلَّلٍ بقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي فرضَ ذلك لتصدِّقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفْضِ ما كنتم عليه في جاهليتِكم. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ لا يجوزُ تعدِّيها. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ أي الذين لا يقبلُونها. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو نظيرُ قوله تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1].

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعادونَهما، فإنَّ كلاً من المتعادِيَيْنِ في حدٍّ غير حدِّ الآخر، أو يضعون أو يختارون حدوداً غيرَ حدودهما. ﴿كُبِتُوا﴾ أُخزوا وأهلِكوا وأصل الكبْتِ الكبُّ. ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني كفارَ الأممِ الماضية. ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تدلُّ على صدقِ الرسولِ وما جاء به. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يُذهِبُ عزَّهم وتكبُّرَهم.

(٦) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ منصوبٌ بمهين أو بإضمار اذكُر. ﴿جَمِيعًا﴾ كلَّهم لا يدَعُ أحداً غيرَ مبعوثٍ أو مجتمعينَ. ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي على رؤوس الأشهادِ تشهيراً لحالهم وتقريراً لعذابهم. ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أحاط به عدداً لم يغبْ منه شيءٌ. ﴿وَنَسُوهُ﴾ لكثرته أو تعاونهم به. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيءٌ.

(٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلياً وجزئياً. ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ أي ما يقعُ من تناجي ثلاثةٍ، ويجوز أن يقدَّر مضافٌ أو يؤولَ نجوى بمتناجينَ وبجعْلِ ثلاثة صفةً لها، واشتقاقُها من النجوةِ وهي ما ارتفعَ من الأرض فإنَّ السرَّ أمرٌ مرفوعٌ إلى الذِّهنِ لا يتيسَّر لكلِّ أحدٍ أنْ يطَّلِعَ عليه. ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلا اللهُ يجعلُهم أربعةً من حيث إنه يشارِكُهم في الاطلاع عليها، والاستثناءُ من أعمِّ الأحوال. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ ولا نجوى خمسةٍ. ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وتخصيصُ العددين إما لخصوصِ الواقعة فإنَّ الآيةَ نزلت في تناجي المنافقين، أو لأنَّ الله تعالى وترٌ يحبُّ الوِترَ، والثلاثةُ أول الأوتارِ أو لأنَّ التشاورَ لا بد له من اثنينِ يكونانِ كالمتنازعَيْنِ وثالث يتوسَّط بينهما. وقرىء ثلاثةً وخمسةً بالنصبِ على الحالِ بإضمار يتناجون أو تأويلِ نجوى بمتناجِيْنَ. ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ ولا أقلُّ مما ذكِرَ كالواحد

---

(١) آل عمران: «٩٧».

والاثنين. ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ كالستةِ وما فوقَها. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ يعلم ما يجري بينَهم. وقرأ يعقوبُ ولا أكثرُ بالرفعِ عطفاً على محلِّ من نجوى أو محلِّ لا أدنى بأنْ جُعِلتْ لا لنفي الجنسِ. ﴿أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ فإنَّ علمَه بالأشياء ليس لقربِ مكانيٍّ حتى يتفاوتَ باختلافِ الأمكنة. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ تفضيحاً لهم وتقريراً لما يستحقُّونه من الجزاءِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاته المقتضيةِ للعلم إلى الكلِّ على السواءِ.

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾[١]، نزلت في اليهودِ والمنافقين كانوا يتناجَوْنَ فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنينَ فنهاهم رسولُ اللهِ ﷺ ثم عادوا لمثل فعلِهم[٢]. ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي بما هو إثمٌ وعدوانٌ للمؤمنين وتواصٍ بمعصية الرسول. وقرأ حمزةُ ويَنْتَجُون وهو يفتعلُون من النَّجوى، ورُوِيَ عن يعقوبَ مثلُه. ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيقولون السامُ عليك[٣]، أو أنعِمْ صباحاً والله تعالى يقولُ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾[٤]. ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فيما بينَهم. ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ هلا يعذِّبنا اللهُ بذلك لو كان محمدٌ نبياً. ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً. ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ يدخلونها. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جهنَّمُ.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كما يفعلُه المنافقون وعن يعقوبَ فلا تنتجُوا. ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ بما يتضمنُ خيرَ المؤمنين والاتقاءَ عن معصية الرسول. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فيما تأتون وتذرون فإنه مجازيكم عليه.

(١٠) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ أي النجوى بالإثم والعدوان. ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ فإنه المزيِّنُ لها والحاملُ عليها. ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتوهُّمِهم أنها في نكبةٍ أصابتْهم. ﴿وَلَيۡسَ﴾ أي الشيطانُ أو التناجي.

---

(١) صيغة المضارع «يعودون» للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة.

(٢) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٤١٠ ـ ٤١١) عن مجاهد وابن عباس بدون سند.

(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (١١/١٩٩ ـ ٢٠٠ رقم ٦٤٠١) عن عائشة رضي الله عنها: أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السامُ عليك. قال: وعليكم. فقالت عائشة السامُ عليكم ولعنكم اللهُ وغضِبَ عليكم. فقال: رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق، وإياك والعنف ـ أو الفُحش ـ قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال أولم تسمعي ما قلت؟ رددتُ عليهم، فيستجابُ لي فيهم ولا يُستجاب لهم فيَّ».
وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١ رقم ٣٣١٣) و«معالم التنزيل» (٨/٥٦).

(٤) النمل: «٥٩».

﴿بِضَآرِّهِمْ﴾ بضارِّ المؤمنين. ﴿شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بمشيئته. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يبالوا بنجواهُم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

(١١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ توسَّعوا فيه ولْيفسحْ بعضُكم عن بعض من قولهم: افسخ عني أي تنحَّ، وقرىء تفاسحُوا. والمرادُ بالمجلسِ الجنسُ ويدلُّ عليه قراءةُ عاصم بالجمعِ، أو مجلسُ رسولِ الله ﷺ فإنهم كانوا يتضامُّون به تنافساً على القربِ منه وحِرْصاً على استماع كلامِه. ﴿فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فيما تريدون التفسُّحَ فيه من المكان والرزقِ والصَّدرِ وغيرها. ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟﴾ انهضُوا للتوسعةِ أو لما أُمِرْتُم به كصلاةٍ أو جهاد، أو ارتفعوا عن المجلسِ. ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصمٌ بضمِّ الشين فيهما. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ بالنصرِ وحسنِ الذِّكْرِ في الدنيا وإيوائِهم غرفَ الجنانِ في الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ ويرفعُ العلماءَ منهم خاصَّةً درجاتٍ بما جمعوا من العلم والعملِ، فإنَّ العلمَ مع علوِّ درجته يقتضي العملَ المقرونَ به مزيدُ رفعةٍ، ولذلك يُقتَدَى بالعالِمِ في أفعاله ولا يُقتَدَى بغيرِه. وفي الحديث «فضلُ العالِمِ على العابد كفضلِ القمرِ ليلةَ البدر على سائرِ الكواكب»[1]. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديدٌ لمن لم يتمثَّلِ الأمرَ أو استكرهَهُ.

(١٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ فتصدقوا قدَّامها مستعارٌ ممن له يدانِ، وفي هذا الأمرِ تعظيمُ الرسولِ وإنفاعُ الفقراءِ والنهيُ عن الإفراطِ في السؤالِ والميزُ بين المخلِص والمنافق ومحبِّ الآخرة ومحبِّ الدنيا. واختُلِفَ في أنه للندب أو للوجوب لكنَّه منسوخٌ بقوله ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾[2] وهو إنِ اتصلَ به تلاوةً لم يتصلْ به نزولاً. وعن عليٍّ كرم الله وجهه إنّ في كتاب الله آيةً ما عمل بها أحدٌ غيري، كان لي دينار فصرفتُه فكنتُ إذا ناجيتُه تصدَّقت بدرهمٍ[3]، وهو على القولِ بالوجوب لا يقدحُ في غيره فلعلَّه لم يتفقْ للأغنياء مناجاةٌ في مدَّة بقائِه، إذ روي أنه لم يبقَ إلا عشراً وقيل إلا ساعةً. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك التصدقُ. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي لأنفسِكم من الريبة وحبِّ المالِ وهو يشعِرُ بالندبيةِ لكنَّ قولَه: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لمن لم يجدْه حيثُ رخَّص له في المناجاة بلا تصدُّقٍ أدلُّ على الوجوب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٨/٤ رقم ٣٦٤١) والترمذي (٤٩/٥ رقم ٢٦٨٢) وابن ماجة (٨١/١ رقم ٢٢٣) وأحمد (١٩٦/٥) وابن حبان (ص٤٨ رقم ٨٠ ـ موارد) وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (٣٣/١ ـ ٣٤) كلهم في سياق طويل هذا جزء منه من حديث أبي الدرداء. وهو حديث صحيح.
وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجة وأبي داود. . .

(٢) المجادلة: «١٣».

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٨١/٢ ـ ٤٨٢) من طريق عبدالرحمٰن بن أبي ليلى عن علي به وأتم منه. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ﴾ أخِفتُم الفقرَ من تقديم الصدقةِ أو أخِفتُم التقديمَ لما يعدِكم الشيطانُ عليه من الفقرِ، وجمعُ صدقاتٍ لجمع المخاطبينَ أو لكثرةِ التناجي. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأنْ رخَّص لكم أنْ لا تفعلوه، وفيه إشعارٌ بأنَّ إشفاقَهم ذنبٌ تجاوزَ الله عنه لما رأى منهم مما قامَ مقامَ تَوْبَتِهم. وإذ على بابِها، وقيل بمعنى إذا أو إنْ. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فلا تفرِّطوا في أدائِهما. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأوامرِ، فإنَّ القيامَ بها كالجابرِ للتفريط في ذلك. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً.

(١٤) ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ والَوْا. ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني اليهودَ. ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ وهو ادعاءُ الإسلام. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ المحلوفَ عليه كذبٌ كمنْ يحلفُ بالغموسِ، وفي هذا التقييدِ دليلٌ على أنَّ الكذبَ يعمُّ ما يعلمُ المخبرُ عدمَ مطابقتِه وما لا يعلَمُ. ورُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام كان في حجرةٍ من حجراتِه فقال: «يدخلُ عليكم الآنَ رجل قلبُه قلبُ جبارٍ وينظر بعينِ شيطانٍ، فدخل عبدالله بنُ نبتلٍ المنافقُ وكان أزرقَ، فقال عليه الصلاة والسلام له: علامَ تشتمُني أنتَ وأصحابك؛ فحلف بالله ما فعلَ ثم جاء بأصحابه فحلفوا، فنزلتْ[1].

(١٥) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾ نوعاً من العذاب متفاقِماً. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فتمرَّنوا على سوء العمل وأصرُّوا عليه.

(١٦) ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي التي حلفوا بها، وقرىء بالكسرِ أي إيمانَهم الذي أظهروه. ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً دون دمائِهم وأموالهم. ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فصدوا الناسَ في خلالِ أمْنِهم عن دين الله بالتحريشِ والتثبيطِ. ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيدٌ ثانٍ بوصفٍ آخرَ لعذابهم. وقيل الأولُ عذابُ القبر وهذا عذابُ الآخرة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٤٠) والبزار (٣/ ٧٤ ـ كشف) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج٢٨/ ٢٣) والطبراني في الكبير (١٢/ ٧ رقم ١٢٣٠٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٢).
كلهم من طريق سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
لكن ما عند أحمد والبزار وابن جرير، بعكس ما عند الطبراني والحاكم.
فعند أحمد والبزار وابن جرير، أن المنافق هو الذي قال للنبي ﷺ: يا محمد، علام تشتمني أنت وأصحابك وجعل يحلف. . .
وعند الطبراني والحاكم مثلما عند القاضي.
وكذلك عند الطبراني والحاكم اختلاف آخر مما عند غيرهما، وهو أن عندهما أن الله أنزل «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم» [المجادلة: ١٨].

لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ
جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(١٧) ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قد سبق مثلُه.

(١٨) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي لله تعالى على أنهم مسلمون. ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا ويقولون إنَّهم لمنكم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ في حَلِفِهم الكاذبِ لأنَّ تمكُّنَ النفاق في نفوسِهم بحيث يُخَيَّلُ إليهم في الآخرة أنَّ الأيمانَ الكاذبةَ تروِّجُ الكذبَ على الله كما تروِّجه عليكم في الدنيا. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ البالغون الغايةَ في الكذبِ حيثُ يكذبون مع عالم الغيبِ والشهادةِ ويحلِفُون عليه.

(١٩) ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استولى عليهم من حُذْتُ الإبلَ وأحذْتُها إذا استوليتَ عليها، وهو مما جاء على الأصل. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ لا يذكُرونه بقلوبهم ولا بألسنتِهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جنودُه وأتباعُه. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم فوَّتوا على أنفسِهم النعيمَ المؤبَّد وعرَّضوها للعذاب المخلَّدِ.

(٢٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ في جملة من هو أذلُّ خلْقِ الله[1].

(٢١) ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ **في اللوح.** ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ أي بالحجةِ، وقرأ نافع وابن عامرٍ رُسُلِيَ بفتحِ الياء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ **على نصرِ أنبيائه.** ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلِبُ عليه شيءٌ في مُرادِهِ.

(٢٢) ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي لا ينبغي أنْ تجدَهم وادِّينَ أعداءَ اللهِ، والمراد أنه لا ينبغي أنْ يوادُّوهم. ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ولو كان المحادُّون أقربَ الناسِ إليهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الذين لم يوادُّوهم. ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أثبتَهُ فيها، وهو دليلٌ على خروج العملِ من مفهوم الإيمان، فإنَّ جزءَ الثابتِ في القلبِ يكونُ ثابتاً فيه، وأعمالُ الجوارح لا تثبُتُ فيه. ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي من عندِ الله وهو نورُ القلب أو القرآنِ، أو بالنصرِ على العدوِّ. قيل الضميرُ للإيمان فإنه سببٌ لحياةِ القلبِ. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتِهم. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بقضائه أو بما وعدَهم

---

(١) عبر عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيز الصلة على أن موادة من حاد الله ورسوله محادة لهما، والإشعار بعلة الحكم (س٨/ ٢٢٣).

من الثواب. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ جندُه وأنصارُ دينه. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بخيرِ الدَّارَيْنِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ المجادلةِ كُتِبَ من حزبِ اللهِ يومَ القيامة»(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦٦ رقم ١١٩).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الحَشْرِ

آياتها ٢٤ — ترتيبها ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ
يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾

سورة الحشر مدنية(١) وآيها أربع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي(٢) أنه عليه الصلاة والسلام لما قدِمَ المدينةَ صالَحَ بني النضيرِ على أنْ لا يكونوا له ولا عليه، فلما ظهرَ يومُ بدرٍ قالوا: إنه النبيُّ المنعوت في التوراةِ بالنُّصرةِ، فلما هُزِمَ المسلمون يومَ أُحُدٍ ارتابوا ونكثُوا وخرجَ كعب بنُ الأشرف في أربعينَ راكباً إلى مكَّةَ وحالفوا أبا سفيان، فأمر رسولُ الله ﷺ أخا كعبٍ من الرضاعة فقتلَه غِيْلَةً، ثم صبَّحهم بالكتائبِ وحاصَرَهم حتى صالحوا على الجلاءِ فجلا أكثرُهم إلى الشامِ ولحقتْ طائفةٌ بخيبرَ والحيرةِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/٤٥٩): «هذه السورة مدنية باتفاق من أهل العلم» هـ. وانظر «الدر المنثور» (٨/٨٨).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٦٦ رقم ١٢٠): «لم أجد له إسناداً، بل ذكره الثعلبي هكذا بغير سند» هـ.
وذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٤١٦) بدون سند.
قلت: قصة غزوة بني النضير وجلائهم مروية في كتب المغازي والسير بغير هذا السياق. انظر «فتح الباري» (٧/٣٢٩) وطبقات ابن سعد (٢/٥٧ ـ ٥٨) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/١٧٦ ـ ١٨٦) وغيرها من الكتب.
● وأما قتل كعب بن الأشرف فمخرج في صحيح البخاري (٧/٣٣٦ ـ ٣٣٧ رقم ٣٠٣٧) ومسلم (٣/١٤٢٥ ـ ١٤٢٦ رقم ١١٩/١٨٠١) من حديث جابر رضي الله عنه.

فأنزلَ الله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي في أولِ حشرِهم من جزيرةِ العربِ إذ لم يصبْهم هذا الذلُّ قبلَ ذلك أو في أولِ حشرِهم للقتال أو الجلاءِ إلى الشام، وآخِرُ حشْرِهم إجلاءُ عمرَ رضي الله تعالى عنه إياهم من خيبرَ إليه، أو في أولِ حشرِ الناس إلى الشامِ وآخرُ حشرِهم أنَّهم يُحْشَرُوْنَ إليه عندَ قيامِ الساعةِ فيدركُهم هناك، أو أنَّ ناراً تخرجُ من المشرقِ فتحشُرهم إلى المغرب. والحشرُ إخراجُ جمعٍ من مكانٍ إلى آخرَ. ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ لشدةِ بأسِهم ومَنَعَتِهم. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي أنَّ حصونَهم تمنعُهم من بأسِ الله. وتغييرُ النَّظْمِ وتقديمُ الخبرِ وإسنادُ الجملةِ إلى ضميرِهم للدلالةِ على فَرْطِ وثُوقِهم بحصانتِها، واعتقادُهم في أنفسِهم أنهم في عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ بسببِها، ويجوزُ أنْ تكونَ حصونُهم فاعلاً لمانعتُهم. ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي عذابُه وهو الرعبُ والاضطرارُ إلى الجلاءِ، وقيل الضميرُ للمؤمنينَ أي فأتاهم نصرُ الله، وقرىء فآتاهم اللهُ أي العذابَ أوِ النصرَ. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ لقوةِ وثوقِهم. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وأثبتَ فيها الخوفَ الذي يرعِبُها أي يملؤُها. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضناً بها على المسلمين وإخراجاً لما استحسنوا من آلاتِها. ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنَّهم أيضاً كانوا يخربون ظواهِرَها نكايةً وتوسيعاً لمجالِ القتالِ. وعَطَفَها على أيديهم من حيثُ إن تخريبَ المؤمنين مسبَّبٌ عن نقضِهم فكأنهم استعملُوهم فيه، والجملة حالٌ أو تفسيرٌ للرعبِ. وقرأ أبو عمرو يخرِّبون بالتشديدِ وهو أبلغُ لما فيه من التكثير. وقيل الإخرابُ التعطيلُ أو تركُ الشيءِ خراباً والتخريبُ الهدمُ. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فاتَّعظوا بحالِهم فلا تغدُروا ولا تعتمدُوا على غيرِ اللهِ، واستُدِلَّ به على أنَّ القياسَ حجةٌ من حيث إنه أمْرٌ بالمجاوزة من حالٍ إلى حال وحملُها عليها في حكْمٍ لما بينَهما من المشاركةِ المقتضية له على ما قررناه في الكتبِ الأصوليةِ.

وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

(٣) ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الخروجَ من أوطانهم. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتلِ والسبي كما فعلَ ببني قريظةَ. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ استئنافٌ معناه أنهم إنْ نَجَوْا من عذابِ الدنيا لم ينجُوا من عذابِ الآخرة.

(٤) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الإشارةُ إلى ما ذكر مما حاقَ بهم وما كانوا بصددِه وما هو معدٌّ لهم أو إلى الأخيرِ.

(٥) ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أيَّ شيءٍ قطعتُم من نخلةٍ فَعْلَةٍ من اللَّوْنِ ويُجْمَعُ على ألْوانٍ، وقيل من اللِّين ومعناها النخلةُ الكريمةُ وجمعُها أليانٌ. ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضميرُ لما، وتأنيثُه لأنه مفسَّرٌ باللينةِ.

---

(١) الحشر: «٦».

﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ وقرىء أُصُلِهَا اكتفاءً بالضمةِ عن الواوِ أو على أنه كَرُهُنٍ. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فبأمرِه. ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ علةٌ لمحذوفٍ أي وفعلتُم، أو وأَذِنَ لكم في القطعِ ليجزيهم على فسْقِهم بما غاظَهم منه. رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام لما أمر بقطع نخيلهم قالوا: قد كنتَ يا محمد تنهى عن الفسادِ في الأرض فما بالُ قطعِ النخلِ وتحريقِها؟ فنزلتْ[1]. واسْتُدِلَّ به على جواز هدْمِ ديارِ الكفارِ وقطعِ أشجارِهم زيادةً لغيظِهم.

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

(٦) ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وما أعادَه عليه بمعنى صيَّره له أو ردَّه عليه، فإنه كان حقيقاً بأنْ يكونَ له لأنه تعالى خلق الناسَ لعبادته وخلقَ ما خلقَ لهم ليتوسَّلُوا به إلى طاعته فهو جديرٌ بأن يكونَ للمطيعين. ﴿مِنْهُمْ﴾ من بني النضير أو من الكفرةِ. ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فما أجريتُم على تحصيله من الوجيفِ وهو سرعةُ السيرِ. ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ما يُرْكَبُ من الإبلِ غلبَ فيه كما غلبَ الراكبُ على راكِبِه، وذلك إنْ كان المرادُ فيءِ بني النضير، فَلأَنَّ قراهم كانتْ على ميلينِ من المدينة فمشوا إليها رجالاً غيرَ رسولِ الله ﷺ فإنه ركبَ جملاً أو حماراً، ولم يجرِ مزيدُ قتال ولذلك لم يُعْطَ الأنصارُ منه شيئاً إلا ثلاثةً كانت بهم حاجةٌ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بقذْفِ الرعبِ في قلوبهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعلُ ما يريد تارةً بالوسائطِ الظاهرةِ وتارةً بغيرها.

(٧) ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيانٌ للأول ولذلك لم يعطفْ عليه[2]. ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ اختلف في قسْمِ الفيءِ، فقيل يُسَدَّسُ لظاهر الآية ويُصْرَفُ سهمُ الله في عمارةِ الكعبةِ وسائرِ المساجدِ، وقيل يخمَّسُ لأن ذِكْرَ اللهِ للتعظيم ويُصْرَفُ الآنَ سهمُ الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإمام على قولٍ وإلى العساكرِ والثغورِ على قولٍ وإلى مصالح المسلمين على قولٍ. وقيل يُخَمَّسُ خُمُسُهُ كالغنيمةِ فإنه عليه الصلاة والسلام كان يقسمُ الخمسَ كذلك ويصرفُ الأخماسَ الأربعةَ كما يشاءُ والآن على الخلافِ المذكورِ. ﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ أي الفيءُ الذي حقُّه أنْ يكون للفقراءِ. وقرأ هشام في روايةٍ بالتاءِ. ﴿دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ الدُّولةُ ما يتداولهُ الأغنياءُ ويدورُ بينَهم كما

---

(١) أخرج البخاري (٨/ ٦٢٩ رقم ٤٨٨٤) ومسلم (٣/ ١٣٦٥ رقم ٢٩/ ١٧٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حرَّق نخل بني النضير وقطع، وهي البُوَيرة فأنزل الله تعالى «ما قطعتم من لينه أو تركتموها قائمة على أصولها...».

(٢) وَضَع «أهل القرى» موضع قوله «منهم» - أي من بني النضير - للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ صلحاً ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب (فتح القدير ٥/ ١٩٧).

كان في الجاهلية، وقرىء دَوْلَةً بمعنى كيلا يكونَ الفيءُ ذا تداول بينَهم أو أخذُه غلبةً تكون بينَهم، وقرأ هشام دولةٌ بالرفع على كان التامةِ أي كيلا يقعَ دولةٌ جاهليةٌ. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ وما أعطاكم من الفيءِ أو من الأمرِ. ﴿فَخُذُوهُ﴾ لأنه حلالٌ لكم، أو فتمسَّكوا به لأنه واجبُ الطاعة. ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذِه منه، أو عن إتيانِه. ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ عنه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفةِ رسوله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالفه.

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(٨) ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ بدلٌ من لذي القربى وما عُطِفَ عليه فإنَّ الرسولَ لا يسمَّى فقيراً. ومَنْ أعطَى أغنياءَ ذوي القربى خصَّصَ الإبدالَ بما بعدَه والفيءَ بفيء بني النضير. ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فإنَّ كفارَ مكَّةَ أخرجُوهم وأخذوا أموالَهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ حالٌ مقيِّدة لإخراجِهم بما يوجبُ تفخيمَ شأنِهم. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بأنفسِهم وأموالهم. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم.

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ عطفٌ على المهاجرين، والمرادُ بهم الأنصارُ الذين ظهر صدقُهم فإنهم لزموا المدينةَ والإيمانَ وتمكَّنوا فيهما، وقيل المعنى تبوءوا دارَ الهجرةِ ودارَ الإيمانِ فحذفَ المضافَ من الثاني والمضافَ إليه من الأولِ وعوَّضَ عنه اللامَ، أو تبوءوا الدارَ وأخلصُوا الإيمانَ كقوله: عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً[١]. وقيل سمَّى المدينةَ بالإيمان لأنها مظهرهُ ومصيرهُ. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبلِ هجرةِ المهاجرين. وقيل تقديرُ الكلام والذين تبوءوا الدارَ من قبلِهم والإيمان. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ولا يثقلُ عليهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ في أنفسِهم. ﴿حَاجَةً﴾ ما تحملُ عليه الحاجةُ كالطلبِ والحزازةِ والحسدِ والغيظِ. مما أُعطِيَ المهاجرون من الفيءِ وغيرِهِ. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ويقدِّمون المهاجرينَ على أنفسِهم حتى إن كان عندَه امرأتانِ نزلَ عن واحدةٍ وزوَّجها من أحدِهم. ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ حاجةٌ من خصاصِ البناءِ وهي فُرَجُه[٢]. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حتى

---

(١) أي علفتها تبناً وسقيتها ماء.

(٢) ورد في سبب نزول هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال النبي ﷺ: «مَنْ يضيف هذا الليلة؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رَحْله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ.
وفي رواية قال لامرأته: هل عندك شيء؟ فقالت: لا، إلا قوت صبياني، قال: علّليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين، فلما أصبح غدا =

يخالِفَها فيما يغلبُ عليها من حبِّ المالِ وبغضِ الإنفاقِ. ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالثناءِ العاجلِ والثواب الآجلِ.

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى
قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ
وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ
ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ
تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ هم الذين هاجروا حين قوي الإسلامُ، أو التابعونَ بإحسانٍ وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ولذلك قيل: إنَّ الآيةَ قد استوعبتْ جميعَ المؤمنين. ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي لإخواننا في الدين. ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ حقداً لهم. ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فحقيقٌ بأنْ تجيبَ دعاءَنا.

(١١) ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يريدُ الذين بينَهم وبينَهم أخوَّةُ الكفرِ أو الصداقةُ والموالاةُ. ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم. ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ في قتالِكم أو خُذْلانِكم. ﴿ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ أي من رسولِ الله ﷺ والمؤمنين. ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ لنعاونَنَّكم. ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ لعلمِه بأنهم لا يفعلونَ ذلك كما قال:

(١٢) ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ وكان كذلك فإنَّ ابن أُبيٍّ وأصحابه راسلُوا بني النضير بذلك ثم أخلفوهم، وفيه دليلٌ على صحةِ النبوةِ وإعجازِ القرآن. ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ على الفَرَضِ والتقدير. ﴿ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ انهزاماً. ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ بعدُ بل يَخذُلُهم الله ولا ينفعُهم نصرةُ المنافقينَ، أو نفاقُهم إذ ضميرُ الفعلينِ يُحتمَلُ أنْ يكون لليهود وأنْ يكونَ للمنافقين.

(١٣) ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي أشدُّ مرهوبيةً مصدرٌ للفعلِ المبني للمفعولِ. ﴿ فِى صُدُورِهِم ﴾ فإنهم كانوا يضْمِرون مخافتَهُم من المؤمنين. ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ على ما يظهرونه نفاقاً فإنَّ استبطانَ رهْبَتِكم سببٌ لإظهارِ مرهبةِ الله. ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون عظمةَ الله حتى يخشوهُ حقَّ خشيتِهِ ويعلموا أنه الحقيقُ بأنْ يُخشَى.

(١٤) ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ اليهودُ والمنافقون. ﴿ جَمِيعًا ﴾ مجتمعينَ متَّفِقِينَ. ﴿ إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ بالدروب والخنادقِ. ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ لفرطِ رهْبَتِهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو جدارٍ، وأمالَ

على النبي ﷺ فقال: «لقد عجب الله من ضيفكما بضيفكما الليلة» أخرجه البخاري (٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤).

أبو عمرو فتحةَ الدالِ. ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي وليس ذلك لضعفهم وجُبْنِهم فإنه يشتدُّ بأسُهم إذا حارب بعضُهم بعضاً، بل لِقَذْفِ اللهِ الرعبَ في قلوبهم ولأنَّ الشجاعَ يجبنُ والعزيز يذلُّ إذا حارب اللهَ ورسولَه. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقينَ. ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقةٌ لافتراقِ عقائدِهم واختلافِ مقاصدِهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه صلاحُهم وإنْ تَشَتُّتَ القلوبِ يوهن قواهم.

كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ
فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ
فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾
لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

(١٥) ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثلُ اليهود كمثلِ أهل بدرٍ، أو بني قينقاع إنْ صحَّ أنهم أخرجوا قبلَ النضير، أو المهلَكِينَ من الأمم الماضية. ﴿قَرِيبًا﴾ في زمان قريب. وانتصابُه بِمَثَلٍ إذ التقديرُ كوجودِ مثلٍ. ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوءَ عاقبة كفرِهم في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

(١٦) ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي مثلُ المنافقينَ في إغراءِ اليهود على القتال كمثلِ الشيطان. ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أغراهُ على الكفر إغراءَ الآمرِ المأمور. ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تبرّأ منه مخافةَ أنْ يشاركَه في العذاب ولم ينفعْه ذلك كما قال:

(١٧) ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمرادُ من الإنسانِ الجنسُ. قيل أبو جهلٍ قال له إبليسُ يومَ بدْرٍ ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾[1] الآيةَ، وقيل راهبٌ حمله على الفجورِ والارتدادِ. وقرىء عاقبتُهما وخالدانِ على أنه خبرُ إنَّ وفي النارِ لغوٌ.

(١٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ليوم القيامة سمَّاه به لدنوِّه أو لأنَّ الدنيا كيومٍ والآخرةَ كغدِه، وتنكيرُه للتعظيم، وأما تنكيرُ النفسِ فلاستقلالِ الأنفسِ النواظرِ فيما قدَّمْنَ للآخرةِ كأنه قال: فلتنظرْ نفسٌ واحدةٌ في ذلك. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تكريرٌ للتأكيد، أو الأولُ في أداءِ الواجبات لأنه مقرونٌ بالعمل والثاني في تركِ المحارمِ لاقترانِه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كالوعيد على المعاصي.

(١٩) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ نَسُوا حقَّه. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فجعلَهم ناسِينَ لها حتى لم يسمعوا ما ينفعُها ولم يفعلوا ما يخلِّصُها، أو أراهم يومَ القيامةِ من الهولِ ما أنساهم أنفسَهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسوقِ.

(٢٠) ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين استكملوا نفوسَهم فاستأهلوا الجنةَ والذين استمْهَنُوها فاستحقُّوا النارَ، واحتجَّ به أصحابُنا على أنَّ المسلمَ لا يُقتَلُ بالكافر. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ

(١) الأنفال: ٤٨.

﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ تمثيلٌ وتخييلٌ كما مرَّ في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾[١] ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ الإشارةَ إليه وإلى أمثاله. والمرادُ توبيخُ الإنسان على عدمِ تخشُّعِه عندَ تلاوةِ القرآن لقساوةِ قلبه وقلةِ تدبُّره، والتصدُّعُ التشققُ. وقرىء مصَدِّعاً على الإدغام.

(٢٢) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما غابَ عن الحسِّ من الجواهرِ القدسية وأحوالِها، وما حضَر له من الأجرامِ وأعراضِها. وتقديمُ الغيب لتقدُّمه في الوجودِ وتعلُّق العلمِ القديم به، أو المعدومِ والموجودِ، أو السرِّ والعلانية. وقيل الدنيا والآخرة. ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(٢٣) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ البالغُ في النزاهةِ عما يوجبُ نقصاناً. وقرىء بالفتح[٢] وهو لغةٌ فيه. ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة من كلِّ نقص وآفةٍ، مصدرٌ وُصِفَ به للمبالغةِ. ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ واهبُ الأمنِ، وقرىء بالفتح[٣] بمعنى المؤمَن به على حذفِ الجارِّ. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيبُ الحافظُ لكلِّ شيءٍ مفيعلٌ من الأمْنِ قُلبَتْ همزته هاءً[٤]. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبَرَ خلقَه على ما أراده، أو جَبَرَ حالَهم بمعنى أصلَحه. ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبَّر عن كلِّ ما يوجبُ حاجةً أو نقصاناً. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إذ لا يشركُه في شيء من ذلك.

(٢٤) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدِّرُ للأشياء على مقتضَى حكمَتِه. ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجِدُ لها بريئاً من التفاوتِ. ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجِدُ لصورِها وكيفياتها كما أراد. ومن أرادَ الإطنابَ في شرح هذه الأسماءِ وأخواتِها فعليه بكتابي المسمَّى بمنتهى المنَى. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنها دالةٌ على محاسنِ المعاني. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لتنزُّهه عن النقائصِ كلِّها. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجامعُ للكمالاتِ

---

(١) الأحزاب: «٧٢».

(٢) أي بفتح القاف من كلمة القدّوس.

(٣) أي بفتح الميم، أي «المؤمَن».

(٤) قال الشوكاني: يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشيء.
قال الواحدي: وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن، فيكون بمعنىٰ المؤمن. والأول أولىٰ (فتح القدير ٥/٢٠٨).

بأسْرِها فإنها راجعةٌ إلى الكمال في القدرة والعلم. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الحشرِ غفرَ الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّرَ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي من رواية يزيد بن أبان عن أنس بهذا ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦٧ رقم ١٢٧) ويزيد بن أبان كذاب.
قلت: لم يخرجه الثعلبي في بداية السورة حسب عادته، وإنما أخرج عن ابن عباس مرفوعاً: «من قرأ سورة الحشر لم تبقَ جنة ولا نار ولا عرش ولا الكرسي ولا الحجاب ولا السمـوات السبع ولا الأرضون السبع والهوام والطير والشجر والدواب والجبال والشمس والقمر والملائكة إلاّ صلوا عليه، فإن مات من يومه أو ليلته مات شهيداً».
وهو من طريق محمد بن شجاع عن زيد العمي عن أبي نضرة عنه، وزيد العمي ضعيف.

سُورَةُ المُمْتَحِنَةِ

ترتيبها ٦٠ — آياتها ١٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾

سورة الممتحنة مدنية[(١)] وآيها ثلاث عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلتْ في حاطبِ بن أبي بلتعة، فإنه لما علمَ أنَّ رسولَ الله ﷺ يغزو أهلَ مكةَ كتبَ إليهم أنَّ رسولَ الله ﷺ يريدُكم فخذوا حِذْرَكم، وأرسلَ كتابَه مع سارةَ مولاةِ بني المطلبِ، فنزلَ جبريل عليه السلام فأعْلَمَ رسولَ الله، فبعثَ رسولُ الله ﷺ علياً وعماراً وطلحةَ والزبيرَ والمقدادَ وأبا مرثدٍ وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ فإنَّ بها ظعينةً معها كتابُ حاطبٍ إلى أهل مكةَ، فخذوه منها وخلُّوها فإنْ أبتْ فاضربوا عنقَها، فأدركُوها ثمَّةَ فجحدتْ فهمُّوا بالرجوع، فسلَّ عليٌّ رضي الله تعالى عنه السيفَ فأخرجتْه من عقاصِها، فاستحضَر رسولُ الله ﷺ حاطباً وقال: ما حملكَ عليه؟ فقال: يا رسولَ الله ما كفرتُ منذ أسلمتُ ولا غشَشْتك منذ نصحتُك ولكني كنتُ امرأً ملْصَقاً في قريش وليس لي فيهم مَنْ يحمي أهلي، فأردتُ أنْ آخذَ عندَهم يداً وقد علمتُ أنَّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدَّقه رسولُ الله ﷺ وعذَره[(٢)] ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تُفْضُونَ إليهم المودةَ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٤٨٢): «وهي مدنية بإجماع المفسرين. وانظر «الدر المنثور» (٨/ ١٢٤). «وزاد المسير» (٨/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤ رقم ٤٨٩٠) من حديث علي.

بالمكاتبة، والباءُ مزيدةٌ أو إخبارَ رسولِ الله ﷺ بسبب المودةِ، والجملةُ حالٌ من فاعلِ لا تتخذوا أو صفةٌ لأولياء جرتْ على غير مَنْ هي له، ولا حاجةَ فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروطٌ في الاسمِ دون الفعل. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ حالٌ من فاعلِ أحدِ الفعلين. ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي من مكّة وهو حالٌ من كفروا أو استئنافٌ لبيانه. ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ بأن تؤمنوا به، وفيه تغليبُ المخاطبِ، والالتفاتُ من التكلُّم إلى الغيبةِ للدلالة على ما يوجبُ الإيمان. ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم. ﴿جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ علةٌ للخروج وعمدةٌ للتعليقِ وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دلَّ عليه لا تتخذوا. ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ بدلٌ من تلقونَ أو استئنافٌ معناهُ: أيُّ طائلٍ لكم في إسرار المودةِ أو الإخبارِ بسبب المودة. ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي منكم. وقيل أعلمُ مضارعٌ والباءُ مزيدة وما موصولةٌ أو مصدرية. ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي من يفعلِ الاتخاذَ. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأَهُ.

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾

(٢) ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يظفروا بكم. ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ولا ينفعُكم إلقاءُ المودةِ إليهم. ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ ما يسوؤُكم كالقتل والشَّتْم. ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنَّوا ارتدادَكم. ومجيءُ وَدُّوا وحدَه بلفظ الماضي للإشعار بأنهم ودُّوا ذلك قبلَ كلِّ شيء، وأنَّ ودادَتَهم حاصلةٌ وإن لم يثقفُوكم.

(٣) ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قَراباتُكم. ﴿وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ﴾ الذين تُوالُونَ المشركين لأجْلِهم. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ يُفرِّقُ بينكم بما عَرَاكُم من الهولِ فيفرُّ بعضُكم من بعضٍ فما لكم ترفضُون اليومَ حقَّ الله لمن يفرُّ منكم غداً، وقرأ حمزة والكسائيُّ بكسر الصادِ والتشديدِ وفتح الفاء، وقرأ ابن عامر يُفَصَّلُ على البناءِ للمفعول وهو بينَكُم، وقرأ عاصمٌ يَفْصِلُ. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

(٤) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوةٌ. اسمٌ لما يُؤْتَسَى به. ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ صفةٌ ثانية أو خبرُ كانَ ولكم لغوٌ أو حالٌ من المستكِنِّ في حسنةٌ أو صلةٌ لها لا لأسوةٌ لأنها وُصِفَتْ. ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ ظرفٌ لخبرِ كانَ. ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ جمعُ بريء كظريفٍ وظُرُفَاءَ. ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي بدينكم أو بمعبودِكم، أو بكم وبه فلا نعتدُّ بشأنكم وآلهتِكم. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فتنقلبُ العداوةُ والبغضاء ألْفَةً ومحبَّةً. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناءٌ من قوله أسوةٌ حسنة فإنَّ استغفارَه لأبيه الكافرِ ليس مما ينبغي أنْ يأْتَسُوا به، فإن كان قبلَ النهيِ أو لموعدةٍ وعدَها إياهُ. ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ من تمامِ قوله المستثْنَى، ولا يلزمُ من استثناءِ المجموعِ استثناءُ جميعِ أجزائه. ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ متصلٌ بما قبلَ الاستثناءِ أو أمرٌ

من الله للمؤمنين بأنْ يقولوه تتميماً لما وصّاهم به من قطعِ العلائقِ بينَهم وبينَ الكفار[١].

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

(٥) ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنْ تسلِّطَهم علينا فيفتنونا بعذابٍ لا نتحمَّلُه. ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما فَرَطَ منَّا. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ومن كان كذلك كان حقيقاً بأنْ يجيرَ المتوكِّلَ ويجيبَ الداعيَ[٢].

(٦) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكريرٌ لمزيد الحثِّ على التأسِّي بإبراهيمَ ولذلك صُدِّرَ بالقسم وأُبدِلَ قولُه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ من لكم فإنه يدلُّ على أنه لا ينبغي لمؤمنٍ أن يتركَ التأسيَ بهم، وإن تركَه مُؤْذِنٌ بسوءِ العقيدة ولذلك عقَّبه بقوله. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فإنه جديرٌ بأن يُوْعَدَ به الكفرةُ.

(٧) ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ لما نزلَ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾[٣] عادى المؤمنونَ أقاربَهم المشركين وتبرَّؤوا عنهم، فوعدَهم الله بذلك وأنجزَ إذ أسلمَ أكثرُهم وصاروا لهم أولياءَ. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فَرَطَ منكم في موالاتِهم من قبلُ ولما بقيَ في قلوبكم من ميلِ الرحمِ.

(٨) ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء لأن قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل من الذين. ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ وتفضوا إليهم بالقسط أي العدل. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين. روي أن قتيلة بنت عبدالعزى قدمت مشركة على بنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول، فنزلت[٤].

(٩) ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ كمشركي مكة فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا المخرجين. ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل من الذين بدل

---

(١) قدم الجار والمجرور «عليك» لقصر التوكل والإنابة والمصير إلى الله عز وجل (س٨/ ٢٣٧).

(٢) وتكرير النداء «ربنا» للمبالغة في التضرع والجؤار (س٨/ ٢٣٨).

(٣) الممتحنة: «١».

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢/ ٢٤ ـ منحة المعبود) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٥) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ج٢٨/ ٦٦) والطبراني كما في «المجمع» (٧/ ١٢٣) كلهم من طريق مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جده عبدالله بن الزبير. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وقال الهيثمي: فيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة وبقية رجاله رجال الصحيح. وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٢٥١) عن مصعب هذا بأنه لين الحديث.

الاشتمال. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)

(١٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهنَّ بما يغلبُ على ظنِّكم موافقةُ قلوبهم لسانَهم في الإيمان. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ فإنه المطلعُ على ما في قلوبهم. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ العلمُ الذي يمكنكُم تحصيلُه وهو الظنُّ الغالبُ بالحلِفِ وظهورِ الأماراتِ، وإنما سمَّاه عِلماً إيذاناً بأنه كالعلمِ في وجوب العملِ به. ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي إلى أزواجهنَّ الكفرةِ لقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ والتكرير للمطابقةِ والمبالغةِ، أو الأُولَى لحصولِ الفُرْقَةِ والثانية للمنعِ عن الاستئنافِ. ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ ما دفعُوا إليهنَّ من المهورِ، وذلك لأنَّ صلحَ الحديبية جرى على أن مَنْ جاءنا منكم ردَدْناه فلما تعذَّر عليه ردُّهنَّ لورودِ النهي عنه لزمه رد مهورِهنَّ، إذ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان بعدَ الحديبية إذ جاءته سبيعةُ بنتُ الحارث الأسلميةُ مسلمةً فأقبل زوجُها مسافرٌ المخزوميُّ طالباً لها، فنزلتْ، فاستحلَفَها رسولُ الله ﷺ، فحلفتْ، فأُعْطِيَ زوجُها ما أنفقَ وتزوَّجها عمرُ رضي الله تعالى عنه[1]. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإنَّ الإسلامَ حالَ بينهنَّ وبين أزواجِهنَّ الكفارِ. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ شَرَطَ إيتاءَ المهرِ في نكاحهنَّ إيذاناً بأنَّ ما أُعطِيَ أزواجُهُنَّ لا يقومُ مقامَ المهر. ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ بما يعتصِمُ به الكافراتُ من عقدٍ وسببٍ جمعُ عصمةٍ، والمراد نهي المؤمنين عن المقامِ على نكاحِ المشركات. وقرأ البصريانِ ولا تمسّكوا بالتشديدِ. ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ﴾ من مهورِ نسائِكم اللاحقاتِ بالكفارِ. ﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾ من مهورِ أزواجِهم المهاجراتِ. ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ يعني جميعَ ما ذكر في الآية. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ أو حال من الحكمِ على حذفِ الضمير، أو جعلُ الحكمِ حاكماً على المبالغةِ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع ما تقتضيه حِكْمَتُهُ.

(١١) ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ وإنْ سبقَكُم وانفلتَ منكم. ﴿شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أحدٌ من أزواجكم، وقد قرىء به، وإيقاعُ شيء موقعَه للتحقيرِ والمبالغةِ في التعميم، أو شيءٌ من مهورهنَّ. ﴿إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ فجاءت عقبتُكم أي نوبتُكم من أداءِ المهرِ، شبَّه الحكمَ بأداء هؤلاءِ مهورَ نساءِ أولئك تارةً وأداءِ أولئك مهورَ نساءِ هؤلاءِ أخرى بأمرٍ يتعاقبون فيه كما يتعاقبُ في الركوبِ وغيرِهِ. ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ من مهرِ المهاجِرةِ ولا تؤتوه زوجَها الكافرَ. روي أنه لما نزلتِ الآيةُ المتقدمةُ أَبى المُشركون أنْ يؤدُّوا مهرَ الكوافرِ، . . . .

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٢٤.

فنزلتْ[١]. وقيل معناه إنْ فاتَكُم فأصبتُم من الكفار عُقْبَى وهي الغنيمةُ فآتوا بدلَ الفائتِ من الغنيمة. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإنَّ الإيمانَ به يقتضي التقوى منه.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ نزلت يومَ الفتح فإنه عليه الصلاة والسلام لما فرغَ من بيعةِ الرجالِ أخذ في بيعة النساءِ. ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يريدُ وأْدَ البنات. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ في حسنةٍ تأمرهنَّ بها، والتقييدُ بالمعروف ـ مع أنَّ الرسولَ ﷺ لا يأمرُ إلا به ـ تنبيهٌ على أنه لا يجوزُ طاعةُ مخلوق في معصيةِ الخالق[٢]. ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ إذا بايعْنَكَ بضمانِ الثوابِ على الوفاء بهذه الأشياءِ[٣]. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني عامةَ الكفارِ أو اليهودَ. إذ روي أنها نزلتْ في بعض فقراءِ المسلمين كانوا يواصلونَ اليهودَ ليصيبوا من ثمارِهم[٤] ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ لكفرِهم بها أو لعِلْمِهم بأنهم لا حظَّ لهم فيها لعنادِهم الرسولَ المنعوتَ في التوراةِ المؤيَّدَ بالآياتِ. ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أنْ يُبْعَثُوا أو يُثَابُوا أو ينالُهم خيرٌ منهم، وعلى الأولِ وضعَ الظاهرَ فيه موضعَ المضمرِ للدلالة على أنَّ الكفرَ آيَسَهُم. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورة الممتحنةِ كان له المؤمنونَ والمؤمناتُ شفعاءَ يومَ القيامةِ»[٥].

☆ ☆ ☆

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٩٩) بدون راوٍ ولا سند.
(٢) وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهنّ لكثرة وقوعها منهنّ (س٨/ ٢٤١).
(٣) وتقييد مبايعتهنّ بما ذكر من مجيئهنّ لحثهنّ على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهنّ إليها (س٨/ ٢٤١).
(٤) انظر «البحر المحيط» (٨/ ٢٥٩).
(٥) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص١٦٩ رقم ١٤٢).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الصف
ترتيبها ٦١ — آياتها ١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

سورة الصف مدنية، وقيل مكية[١] وآيها أربع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبق تفسيرُهُ.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ رُوِيَ أنَّ المسلمينَ قالوا: لو علِمْنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسَنا فأنزلَ الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾[٢] فولَّوْا يومَ أُحُدٍ، فنزلت[٣]. وَلِمَ مركَّبةٌ من لامِ الجرِّ وما الاستفهاميةِ، والأكثرُ على حذفِ ألفها مع حرفِ

(١) وهي مدنية في قول الجمهور. وقال مكي عن ابن عباس والمهدوي عن عطاء ومجاهد أنها مكية. والأول أصح لأن معاني السورة تعضده ويشبه أن يكون فيها المكي والمدني.
قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٥٠٢).

(٢) الصف: «٤».

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص٤٢٧. بدون سند.
وأخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ج٢٨/ ٨٣ ـ ٨٤) عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله، لا شك فيه، وجهاد أهل معصية الذين خالفوا الإيمان، ولم يقروا به فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره فقال الله «يا أيها الذين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون» وسنده صحيح. =

الجرِّ لكثرة استعمالِها معاً واعتناقِهما في الدلالة على المستفهَم عنه.

(٣) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المقتُ أشدُّ البغض. ونصبُه على التمييزِ للدلالةِ على أنَّ قولَهم هذا مقتٌ خالص كَبُرَ عند مَنْ يحقِّر دونَه كلُّ عظيم مبالغةً في المنع عنه.

(٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ مصطفِّينَ، مصدرٌ وُصِفَ به. ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ في تراصِّهم من غير فُرْجَةٍ، حالٌ من المستكِنِّ في الحال الأولى. والرصُّ اتصال بعض البناء بالبعضِ واستحكامه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ مقدراً باذكُر أو كان كذا. ﴿يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ بالعصيان والرمي بالأُدْرَة[1]. ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بما جئتُكم من المعجزاتِ، والجملة حال مقرِّرةٌ للإنكار، فإنَّ العلمَ بنبوَّته يوجبُ تعظيمَهُ ويمنع إيذاءَه، وقد لتحقيق العلم. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ عن الحقِّ. ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ صرفَها عن قبولِ الحق والميلِ إلى الصواب. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ هدايةً موصلةً إلى معرفة الحق أو إلى الجنة.

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولعلَّه لم يقلْ يا قوم كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا نسبَ له فيهم. ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا﴾ في حال تصديقي لما تقدَّمني من التوراةِ وتبشيري برسولٍ يأتي من بعدي. والعاملُ في الحالين ما في الرسول من معنى الإرسالِ لا الجارُّ لأنه لغوٌ إذ هو صلة للرسولِ فلا يعملُ. ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام، والمعنى أن ديني التصديقُ بكتبِ الله وأنبيائه، فذكر أولَ الكتبِ المشهورةِ الذي حكم به النبيونَ، والنبيُّ الذي هو خاتمُ المرسلين. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الإشارةُ إلى ما جاء به أو إليه، وتسميتُه سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ هذا ساحر على أنَّ الإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

= وأخرج ابن جرير نحوه عن أبي صالح ومجاهد (١٤/ج٢٨/ ٨٤) ونقل عن بعض المفسرين أنهم قالوا: إنها نزلت في توبيخ قوم من المسلمين، كان أحدهم يفتخر بالفعل من أفعال الخير التي لم يفعلها فيقول: فعلت كذا وكذا، فعذلهم الله على افتخارهم بما لم يفعلوا كذباً.

وهذا أخرجه ابن جرير عن قتادة والضحاك (١٤/ج٢٨/ ٨٤ ـ ٨٥) ثم قال: وقال آخرون: بل هذا توبيخ من الله لقوم من المنافقين كانوا يَعِدون المؤمنين النصر وهم كاذبون.

وهذا أخرجه ابن جرير عن ابن زيد (١٤/ج٢٨/٨٥) ورجح القول الأول بدليل خطابه تعالى «يا أيها الذين آمنوا».

وانظر «الدر المنثور» (٨/ ١٤٦ ـ ١٤٧). «وزاد المسير» (٨/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

و«الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ٧٧ ـ ٧٨). وأسباب النزول للواحدي (ص٤٢٦).

(١) الأُدْرة انتفاخ الخصية (المصباح المنير، مادة أدر).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

(٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي لا أحدَ أظلمُ ممن يُدْعَى إلى الإسلام الظاهر حقيَّتُهُ المقتضي له خيرُ الدارين فيضعُ موضعَ إجابته الافتراءَ على اللهِ بتكذيب رسوله وتسميةِ آيته سحراً فإنه يعمُّ إثباتَ المنفي ونفيِ الثابتِ. وقرىء يَدَّعِي يقالُ دعاه وادَّعاه كلمسَه والتَمَسه. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يرشدُهم إلى ما فيه فلاحُهم.

(٨) ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ أي يريدون أنْ يطفِئُوا، واللام مزيدةٌ لما فيها من معنى الإرادة تأكيداً لها كما زِيدَتْ لما فيها من معنى الإضافة تأكيداً لها في لا أبا لك، أو يريدون الافتراءَ ليطفئوا. ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ يعني دينَه أو كتابَه أو حجَّته. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بطعْنِهم فيه. ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ مُبْلِغُ غايتِه بنشرِه وإعلائه، وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بالإضافة. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إرغاماً لهم.

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالقرآن أو المعجزة. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ والملَّةِ الحنيفية. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليغلبه على جميع الأديان. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لما فيه من محضِ التوحيد وإبطال الشرك.

(١٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقرأ ابن عامر تنجِّيكم بالتشديد.

(١١) ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ استئنافٌ مبين للتجارة وهو الجمعُ بين الإيمان والجهادِ المؤدِّي إلى كمال عزِّهم، والمرادُ به الأمرُ وإنما جيء بلفظ الخبرِ إيذاناً بأنَّ ذلك مما لا يترك. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني ما ذُكِرَ من الإيمان والجهاد. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم إذ الجاهلُ لا يُعْتَدُّ بفعلِه.

(١٢) ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جوابٌ للأمرِ المدلولِ عليه بلفظ الخبر، أو لشرطٍ أو استفهام دلَّ عليه الكلامُ تقديره أنْ تؤمنوا وتجاهدوا، أو هل تقبلُون أنْ أدلَّكم يغفرْ لكم، ويبعدُ جعلُه جواباً لهلْ أدلُّكم لأنَّ مجردَ دلالته لا توجِبُ المغفرةَ. ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى ما ذُكِرَ مِنَ المغفرة وإدخالِ الجنة.

(١٣) ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمةِ المذكورة نعمةٌ أخرى عاجلة محبوبةٌ، وفي تحبُّونها تعريضٌ بأنهم يؤثرون العاجلَ على الآجلِ. وقيل أخرى منصوبةٌ بإضمارِ يعطيكم، أو تحبونَ أو مبتدأٌ خبرهُ: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو على الأول بدلٌ أو بيانٌ، وعلى قولِ النصبِ خبرٌ محذوفٌ، وقد قرىء بما عُطِفَ عليه بالنصبِ على البدلِ أو الاختصاصِ أو المصدرِ. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ عاجلٌ. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ مثل: قل يا أيها الذين آمنوا وبشِّرْ، أو على تؤمنون فإنه في معنى الأمرِ كأنه قال:

آمنوا وجاهِدوا أيُّها المؤمنون وبشِّرهم يا رسولَ الله بما وعدْتَهم عليهما آجلاً وعاجلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

(١٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ وقرأ الحجازيانِ وأبو عمرو بالتنوينِ واللامِ لأنَّ المعنى كونوا بعضَ أنصارِ الله. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي مَنْ جنديٌّ موجَّهاً إلى نصرةِ الله ليطابقَ قولَه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ والإضافةُ الأولى إضافةُ أحدِ المتشاركين إلى الآخرِ لما بينَهما من الاختصاصِ، والثانية إضافةُ الفاعلِ إلى المفعول، والتشبيهُ باعتبار المعنى إذ المرادُ قل لهم كما قال عيسى بنُ مريم، أو كونوا أنصاراً كما قال الحواريونَ حين قال لهم عيسى مَنْ أنصاري إلى الله. والحواريون أصفياؤُه، وهم أولُ مَنْ آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً، من الحَوَر وهو البياضُ. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ أي بعيسى. ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ بالحجَّةِ وبالحربِ وذلك بعدَ رفعِ عيسى. ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فصاروا غالبين. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الصفِّ كان عيسى مصلياً عليه مستغفِراً له ما دامَ في الدنيا وهو يومَ القيامة رفيقُهُ»[(١)].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٦٩ رقم ١٤٥).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

ترتيبها ٦٢ — آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾

سورة الجمعة مدنية[1] وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وقد قُرِىءَ الصفاتُ الأربعُ بالرفعِ على المدحِ.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي في العربِ لأنَّ أكثرَهم لا يكتبون ولا يقرؤون. ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من جملتهم أمياً مثلَهم. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من كونه أمياً مثلهم لم يُعْهَدْ منه قراءة ولا تعلُّم. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من خبائثِ العقائدِ والأعمالِ. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ القرآنَ والشريعةَ، أو معالمَ الدين من المنقول والمعقول، ولو لم يكن له سِواهُ معجزةً لكفاهُ. ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ من الشركِ وخَبَثِ الجاهلية، وهو بيانٌ لشدةِ احتياجهم إلى نبيٍّ يرشدُهم، وإزاحةٌ لما يُتَوَهَّم أنَّ الرسول تعلَّم ذلك من معلِّمٍ. وإنْ هي المخففةُ، واللامُ تدلُّ عليها.

(٣) ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطفٌ على الأميينَ، أو المنصوبِ في يعلِّمهُم وهم الذين جاؤوا بعدَ الصحابة

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٧/١٦): «وهي مدنية. وذكر النقاش قولاً إنها مكية، وذلك خطأ ممن قاله، لأن أمر اليهود لم يكن إلا بالمدنية، وكذلك أمر الجمعة لم يكن قط بمكة، أعني إقامتها وصلاتها، وأما أمر الانفضاض فلا مرية في كونه بالمدنية...» هـ.

إلى يوم الدين، فإنَّ دعوتَه وتعليمَه يعمُّ الجميعَ. ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ لم يلحقوا بهم بعدُ وسيلحقون. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في تمكينه من هذا الأمرِ الخارقِ للعادة. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في اختياره وتعليمِه.

ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا
يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ
مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا
نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

(٤) ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ ذلك الفضلُ الذي امتازَ به عن أقرانه فضلُه. ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ تفضلاً وعطيةً. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي يستحقر دونه نعيمُ الدنيا، أو نعيمُ الآخرة أو نعيمُهما.

(٥) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ عُلِّموها وكُلِّفوا العملَ بها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعملوا بها أو لم ينتفِعوا بما فيها. ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ كتباً من العلم يَتْعَبُ في حَمْلِها ولا ينتفعُ بها. ويَحْمِلُ حالٌ والعاملُ فيه معنى المَثَلِ، أو صفةٌ إذ ليس المرادُ من الحمارِ معيَّناً. ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي مَثَلُ الذين كذَّبوا وهم اليهودُ المكذِّبون بآيات الله الدالةِ على نبوةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، ويجوزُ أنْ يكونَ الذين صفةٌ للقوم والمخصوصُ بالذم محذوفاً. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

(٦) ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ تهوَّدوا. ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ إذ كانوا يقولون نحنُ أبناءُ الله وأحباؤُه. ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ فتمنوا من الله أنْ يميتَكم وينقلَكم من دارِ البليةِ إلى محلِّ الكرامة. ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في زعمِكم.

(٧) ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسببِ ما قدَّموا من الكفر والمعاصي. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فيجازيهم على أعمالهم.

(٨) ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وتخافون أنْ تتمنَّوه بلسانِكم مخافةَ أنْ يصيبَكم فتؤخذوا بأعمالِكم. ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ لاحقٌ بكم لا تفوتونه، والفاءُ لتضمُّنِ الاسمِ معنى الشرطِ باعتبارِ الوصفِ، وكأن فرارَهم يسرعُ لحوقَه بهم. وقد قرِىء بغير فاءٍ، ويجوز أنْ يكونَ الموصولُ خبراً والفاءُ عاطفة. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأنْ يجازيَكم عليه.

(٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أُذِّنَ لها. ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ بيانٌ لإذا. وإنما سمِّي جمعةُ الاجتماعِ الناس فيه للصلاةِ، وكان العربُ تسمِّيه العروبةَ. وقيل سمَّاه كعبُ بنُ لؤي لاجتماعِ الناسِ فيه إليه، وأول جمعةٍ جمعَها رسولُ الله ﷺ أنه لما قدِمَ المدينةَ نزل قباءَ فأقامَ بها إلى الجمعة، ثم دخلَ المدينةَ وصلى الجمعةَ في وادٍ لبني سالم بنِ

عوف[١]. ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فامضُوا إليه مسرعينَ قصْداً فإن السعيَ دونَ العَدْوِ. والذِّكْرُ الخطبةُ، وقيل الصلاةُ. والأمرُ بالسعيِ إليها يدلُّ على وجوبِها. ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ واتركوا المعاملةَ. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي السعيُ إلى ذكرِ الله. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من المعاملةِ فإنَّ نفعَ الآخرةِ خيرٌ وأبقى. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخيرَ والشرَّ الحقيقيين، أو إن كنتم من أهل العلمِ.

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أُدِّيَتْ وفُرِغَ منها. ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ إطلاقٌ لما حُظِرَ عليهم، واحتجَّ به مَنْ جعلَ الأمرَ بعدَ الحظْرِ للإباحة. وفي الحديث «ابتغوا من فضلِ الله ليس بطلبِ الدنيا وإنما هو عيادةُ مريض وحضورُ جنازة وزيارةُ أخ في الله»[٢]. ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ واذكروه في مجامعِ أحوالِكم ولا تخصُّوا ذِكْرَهُ بالصلاة. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بخير الدارين.

(١١) ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ رُوِيَ أنه عليه الصلاةُ والسلام كان يخطبُ للجمعة فمرَّتْ عليه عيرٌ تحملُ الطعامَ، فخرجَ الناسُ إليهم إلا اثني عشر رجلاً، فنزلتْ[٣]. وإفرادُ التجارة بردِّ الكناية لأنها المقصودةُ؛ فإنَّ المرادَ من اللهوِ الطَّبْلُ الذي كانوا يستقبلون به العيرَ والترديدُ للدلالة على أنَّ منهم منِ انفضَّ لمجرَّدِ سماعِ الطبلِ ورؤيتِه، أو للدلالةِ على أنَّ الانفضاضَ إلى التجارة مع الحاجةِ إليها والانتفاعِ بها إذا كان مذموماً كان الانفضاضُ إلى اللهو أولى بذلك، وقيل تقديرُهُ إذا رأوا تجارةً انفضوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه. ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ أي على المنبرِ. ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب. ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فإنَّ ذلك محقَّقٌ مخلَّدٌ بخلافِ ما تتوهَّمون من نفْعِهما ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فتوكَّلوا عليه واطلبوا الرزقَ منه. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الجمعةِ أُعطِيَ من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بعددِ مَنْ أتَى الجمعةَ ومَنْ لم يأتِها في أمصارِ المسلمينَ»[٤].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥١٢) من حديث عبدالرحمن بن عويم أخبرني بعض قومي. وقال البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٣٢٥) في هذا الإسناد مرسل.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ١٢٣) بدون سند.

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٤٢٩) بدون سند. وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ١٢٤) عن الحسن وأبي مالك بدون سند أيضاً.
وانظر «الكافي الشافِ» (ص١٧١ رقم ١٥٩).

(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٢ رقم ١٦٠).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

ترتيبها ٦٣ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

سورة المنافقين مدنية[1] وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ الشهادةُ إخبارٌ عن علم من الشهودِ وهو الحضورُ والاطلاعُ، ولذلك صدَّقَ المشهورَ به وكذَّبهم في الشهادةِ بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم لم يعتقدوا ذلك

(٢) ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ حَلِفَهم الكاذبَ أو شهادتَهم هذه، فإنها تجري مجرى الحلِفِ في التوكيد، وقرىء إيمانَهم. ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً من القتلِ والسَّبْيِ. ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صداً أو صدوداً. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقِهم وصدِّهم.

(٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكلام المتقدِّم أي ذلك القولُ الشاهدُ على سوءِ أعمالهم، أو إلى الحالِ المذكورة من النفاقِ والكذبِ والاستجْنانِ بالإيمان[3]. ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بسببِ أنهم آمنوا ظاهراً. ﴿ثُمَّ

---

(١) وهي مدنية بإجماع، قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٥).

(٢) إظهار «المنافقين» في موقع الإضمار لذمهم، والإشعار بعلة الحكم (س٨/ ٢٥١).

(٣) الاستجنان بالإيمان أي الاستتار به، يقال جنّه الليل أي ستره وغطاه، ومنه قوله تعالىٰ: «فلما جنّ عليه الليل» ـ الأنعام «٧٦» ـ.

﴿كَفَرُوا﴾ سِرّاً، أو آمنوا إذا رأوا آيةً ثم كفروا حيثما سمعُوا من شياطينهم شبهةً. ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى تمرَّنوا على الكفر فاستحكمُوا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقِّيةَ الإيمانِ ولا يعرفون صِحَّتَهُ.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

(٤) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخامتِها وصباحتِها. ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لذلاقتِهم وحلاوةِ كلامِهم، وكان ابنُ أبيٍّ جسيماً فصيحاً يحضرُ مجلسَ رسول الله ﷺ في جمعٍ مثلِه، فيُعْجَبُ بهيكلِهم ويصغي إلى كلامهم. ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ حالٌ من الضمير المجرورِ في ﴿قولهم﴾ أي تسمعُ لما يقولونه مشبَّهينَ بأخشابٍ منصوبة مسندَةٍ إلى الحائطِ في كونهم أشباحاً خاليةً عن العلم والنظرِ، وقيل الخشُبُ جمعُ خشباءَ وهي الخشبةُ التي نُخِرَ جَوْفُهَا شُبِّهوا بها في حسنِ المنظرِ وقبحِ المخبرِ. وقرأ أبو عمرو والكسائيُّ وقنبل عن ابن كثير بسكونِ الشينِ على التخفيفِ، أو على أنه كَبُدْنٍ في جمعِ بدنةٍ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي واقعةٌ عليهم لِجُبْنِهم واتِّهامِهم، فعليهم ثاني مفعولي يحسبونَ، ويجوزُ أن يكون صِلتَه والمفعولُ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ وعلى هذا يكون الضميرُ للكلِّ وجمعُه بالنظرِ إلى الخبر لكن ترتُّبَ قوله: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ عليه يدلُّ على أنَّ الضمير للمنافقين. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهم وهو طلبٌ من ذاته أنْ يلعنَهم، أو تعليمٌ للمؤمنين أنْ يدعوا عليهم بذلك. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصْرَفُونَ عن الحقِّ.

(٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ عطفُوها إعراضاً واستكْباراً عن ذلك. وقرأ نافع بتخفيفِ الواو. ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرِضُون عن الاستغفار. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار.

(٦) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لرسوخِهم في الكفر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن مظنَّةِ الاستصلاحِ لانهماكهم في الكفر والنفاقِ.

(٧) ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي للأنصار. ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ يعنُون فقراءَ المهاجرين. ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيده الأرزاقُ والقِسَمُ. ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلِهم باللهِ.

(٨) ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ رُوِيَ أنَّ أعرابياً نازعَ أنصارياً في بعضِ الغزواتِ على ماءٍ، فضربَ الأعرابي رأسَه بخشبةٍ، فشُكِيَ إلى ابنِ أبيٍّ فقال: لا تنفقوا على مَنْ عندَ رسولِ الله ﷺ حتى ينفضُّوا، وإذا رجعْنا إلى المدينة فليخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، عَنَى بالأعزِّ نفسَه

وبالأذلِّ رسولَ الله ﷺ(١). وقرىء لَيَخرجنَّ بفتحِ الياء، ولَيُخْرَجَنَّ على بناء المفعول، ولنخرجنَّ بالنون، ونَصْبُ الأعزِّ والأذلِّ على هذه القراءاتِ مصدرٌ أو حال على تقدير مضافٍ كخروج أو إخراجِ أو مثل(٢) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولله الغلبةُ والقوةُ ولمن أعزَّه من رسولِه والمؤمنينَ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فَرْطِ جَهْلِهم وغرورِهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ لايشغلْكم تدبيرُها والاهتمامُ بها عن ذكْرِه الصلواتِ وسائرِ العبادات المذكِّرةِ للمعبود، والمرادُ نهيُهم عن اللَّهو بها. وتوجيهُ النهي إليها للمبالغة ولذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اللَّهوُ بها وهو الشغلُ. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم باعوا العظيمَ الباقي بالحقير الفاني.

(١٠) ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ بعضَ أموالِكم إدخاراً للآخرة. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي يرى دلائلَه(٣) ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ هلَّا أمهلْتني. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أمدٍ غيرِ بعيدٍ. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدَّقَ. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالتدارُكِ، وجزمُ أكنْ للعطفِ على موضعِ الفاءِ وما بعدَه. وقرأ أبو عمرو وأكونَ منصوباً عطفاً على فأصدَّقَ، وقرىء بالرفعِ على وأنا أكونُ فيكونَ عِدَةً بالصلاحِ.

(١١) ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ ولن يمهلَها. ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ﴾ آخرُ عُمُرِها. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمُجازٍ عليه. وقرأ أبو بكر بالياء ليوافقَ ما قبلَه في الغيبةِ. عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورةَ المنافقينَ برىءَ من النفاقِ»(٤).

☆ ☆ ☆

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٧٢ رقم ١٦١): «هكذا ذكره الواقدي في المغازي بغير إسناد، وعزاه إلى الثعلبي والواحدي ولأصحاب السير. . .
وأصل القصة في «الصحيحين» البخاري (٨/ ٦٤٤ رقم ٤٩٠٠) ومسلم (٤/ ٢١٤٠ رقم ٢٧٧٢) من حديث زيد بن أرقم. .» هـ.

(٢) وإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به (س٨/ ٢٥٣).

(٣) وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (س٨/ ٢٥٤).

(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه، والثعلبي والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٢ ـ ١٧٣ رقم ١٦٥).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.
=

سُورَةُ التَّغَابُن

ترتيبها ٦٤ — آياتها ١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

سورة التغابن مختلف فيها[1] وآياتها ثماني عشر آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بدلالَتِها على كماله واستغنائِه. ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ قدَّم الظرفين للدلالةِ على اختصاصِ الأمرين به من حيثُ الحقيقةُ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاتِه المقتضيةِ للقدرةِ إلى الكلِّ على سواءٍ. ثمَّ شرع فيما ادَّعاه فقال:

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ مقدرٌ كفرَهُ موجهٌ إليه ما يحملُه عليه. ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مقدرٌ إيمانَه موفَّقٌ لما يدعُوه إليه[2]. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعامِلُكم بما يناسِبُ أعمالَكُم.

(٣) ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغةِ. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فصوَّركم من جملةِ ما خلقَ فيهما بأحسنِ صورة، حيث زيَّنكم بصفوةِ أوصافِ الكائنات، وخصَّكم بخلاصة خصائصِ المبدَعَاتِ، وجعلكم أنموذجَ جميعِ المخلوقات. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فأحسِنوا سرائِرَكُم حتى لا يَمْسَخَ بالعذابِ ظواهِرَكم.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٥): «قال بعض المفسرين هي مدنية، وقال آخرون هي مكية إلا قوله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم...» إلى آخر السورة فإنه مدني...».

(٢) وتقديم الكفر لأنه الأغلب فيما بينهم، والأنسب بمقام التوبيخ (س٨/ ٢٥٥).

يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ
يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

(٤) ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا يَخْفَى عليه ما يصحُّ أنْ يُعْلَمَ كلياً كانَ أو جزئياً، لأن نسبةَ المقتضي لعلمِه إلى الكلِّ واحدةٌ. وتقديمُ تقرير القدرةِ على العلمِ لأن دلالةَ المخلوقاتِ على قدرته أولاً وبالذاتِ وعلى علمه بما فيها من الإتقانِ والاختصاصِ ببعضِ الأنحاءِ.

(٥) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يأيُّها الكفارُ. ﴿نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ كقومِ نوح وهودٍ وصالحٍ عليهم السلام. ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ ضررَ كفرِهم في الدنيا، وأصلُه الثِّقَلُ ومنه الوبيل لطعامٍ يَثْقُلُ على المعدةِ، والوابلُ المطرُ الثقيلُ القطَّارُ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكورُ من الوبال والعذاب. ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسبب أنَّ الشأنَ. ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ إنكروا وتعجَّبوا من أنْ يكونَ الرسلُ بشراً. والبشرُ يُطْلَقُ للواحدِ والجمعِ. ﴿فَكَفَرُواْ﴾ بالرسلِ ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن التدبُّر في البيناتِ. ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ﴾ عن كلِّ شيءٍ فضلاً عن طاعتِهم. ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن عبادتهم وغيرها. ﴿حَمِيدٌ﴾ يدلُّ على حمدِه كلُّ مخلوقٍ.

(٧) ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ﴾ الزعمُ: ادِّعاءُ العلم، ولذلك يتعدَّى إلى مفعولين، وقد قامَ مقامَهما أنْ بما في حيِّزِه. ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أي بلى تُبْعَثُونَ. ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ قسمٌ أكَّدَ به الجوابَ. ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ﴾ بالمحاسبةِ والمجازاةِ. ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لقبولِ المادةِ وحصولِ القدرة التامةِ.

(٨) ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمدٍ عليه الصلاة والسلام. ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ يعني القرآنَ فإنه بإعجازه ظاهرٌ بنفسِه مظهِرٌ لغيره مما فيه شرحُه وبيانُه[1]. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فمجازٍ عليه[2].

(٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرفٌ لَتُنَبَّؤُنَّ أو مقدَّرٌ باذكُر، وقرأ يعقوب نجمعُكم. ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ﴾ لأجلِ ما فيه منَ الحسابِ والجزاء، والجمعُ جمعُ الملائكة والثَّقلينِ. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ يغبنُ فيه بعضُهم بعضاً لنزولِ السعداءِ منازلَ الأشقياءِ لو كانوا سعداءَ وبالعكسِ، مستعارٌ من تغابُنِ التجارُ، واللام فيه للدلالة على أنَّ التغابُنَ الحقيقيَّ وهو التغابُنُ في أمور الآخرةِ لعِظَمِها ودوامِها. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي

---

(١) والالتفات إلى نون العظمة «أنزلنا» لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال (س٨/ ٢٥٧).
(٢) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيد استقلال الجملة (س٨/ ٢٥٧).

عملاً صالحاً. ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ وقرأ نافع وابنُ عامر بالنون فيهما. ﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الإشارةُ إلى مجموعِ الأمرين، ولذلك جعلَه الفوزَ العظيمَ لأنه جامعٌ للمصالح من دفعِ المضارِّ وجلبِ المنافعِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا
أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ
فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ
فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

(١٠) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ كأنها والآيةُ المتقدمةُ بيانٌ للتغابُنِ وتفصيلٌ له.

(١١) ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ إلا بتقديره وإرادتِه. ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ للثباتِ والاسترجاعِ عندَ حلولها. وقرىء يَهْد قلبُه بالرفع على إقامتِه مقامَ الفاعلِ، وبالنصبِ على طريقة سفِه نفسَه، ويَهدَأ بالهمزةِ أي يسكُنُ. ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ حتى القلوبِ وأحوالِها.

(١٢) ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي فإنْ تولَّيتم فلا بأسَ عليه إذ وظيفتُه التبليغُ وقد بلَّغ[1].

(١٣) ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لأنَّ إيمانَهم بأنَّ الكلَّ منه يقتضي ذلك.

(١٤) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ يشغلُكم عن طاعة الله أو يخاصِمُكم في أمر الدين أو الدنيا. ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ ولا تأمنوا غوائلَهم. ﴿ وَإِن تَعْفُوا ﴾ عن ذنوبهم بتركِ المعاقبةِ. ﴿ وَتَصْفَحُوا ﴾ بالإعراضِ وتركِ التثريبِ عليها. ﴿ وَتَغْفِرُوا ﴾ بإخفائِها وتمهيدِ معذرتِهم فيها. ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعامِلُكم بمثلِ ما عملتُم ويتفضَّلُ عليكم.

(١٥) ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ اختبارٌ لكم. ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر محبةَ الله وطاعتَه على محبةِ الأموالِ والأولاد والسعيِ لهم.

---

(١) وكرر الأمر بالطاعة للتأكيد، والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية، وتوضيح مورد التولي في قوله تعالى: «فإن توليتم» أي عن طاعة الرسول وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإشعارِ بمدار الحكم الذي هو كون وظيفته عليه الصلاة والسلام محض البلاغ، ولزيادة تشنيع التولي عنه (س٨/٢٥٨).

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابذُلُوا في تقواهُ جُهْدَكم وطاقتَكُم. ﴿وَاسْمَعُوا﴾ مواعظَه. ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أوامِرَهُ. ﴿وَأَنفِقُوا﴾ في وجوه الخيرِ خالصاً لوجهِهِ. ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي افعلوا ما هو خيرٌ لها، وهو تأكيد للحثِّ على امتثالِ هذه الأوامرِ، ويجوز أنْ يكونَ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ تقديره: إنفاقاً خيراً أو خبراً لكان مقدَّراً جواباً للأوامرِ. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سبق تفسيرهُ.

(١٧) ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ﴾ تصرفُوا المالَ فيما أمرهُ. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقروناً بإخلاصٍ وطيب قلبٍ. ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ يجعلْ لكم بالواحدِ عشراً إلى سبعمائة وأكثرَ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوبُ يضعفه لكم. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركةِ الإنفاق. ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيلَ بالقليلِ. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجِلُ بالعقوبة.

(١٨) ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تامُّ القدرةِ والعلمِ، عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ التغابن دُفِعَ عنه موتُ الفجْأَةِ»[1] والله أعلمُ.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٣ رقم ١٧٠).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

ترتيبها ٦٥ — آياتها ١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

سورة الطلاق مدنية(١) وآيها اثنتا عشرة أو إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خصَّ النداءَ وعمَّ الخطابَ بالحكم لأنه أمامَ أمَّتِه فنداؤُه كندائِهم، أو لأنَّ الكلامَ معه والحكمَ يعمُّهم. والمعنَى إذا أردتُم تطليقهنَّ على تنزيل المشارفِ له منزلةَ الشارعِ فيه. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي في وقتِها وهو الطُّهرُ، فإنَّ اللامَ في الأزمان وما يشبهُها للتأقيتِ، ومَنْ عدَّ العدَّةَ بالحيضِ علَّق اللامَ بمحذوفٍ مثلَ مستقبلاتٍ، وظاهره يدلُّ على أنَّ العدَّةَ بالأطهارِ وأنَّ طلاقَ المعتدَّةِ بالأقراءِ ينبغي أنْ يكونَ في الطُّهرِ، وأنه يحرمُ في الحيضِ من حيث إنَّ الأمرَ بالشيءِ يستلزم النهيَ عن ضدِّه ولا يدل على عدمِ وقوعِه، إذ النهيُ لا يستلزم الفسادَ، كيف وقد صحَّ أن ابنَ عمرَ رضي الله تعالى عنهما لما طلَّقَ امرأتَه حائضاً أمرهُ النبيُّ ﷺ بالرجعة وهو سببُ نزولِه(٢). ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ واضبطُوها وأكملوها ثلاثةَ أقراءٍ. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدَّةِ والإضرارِ بهنَّ. ﴿لَا

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٤): «وهي مدنية بإجماع أهل التفسير».
(٢) أخرج حديث ابن عمر البخاري (٨/ ٦٥٣ رقم ٤٩٠٨).

﴿تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكِنِهنَّ وقتَ الفراقِ حتى تنقضيَ عدَّتهُنَّ. ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ باستبدادهنَّ أما لو اتفقا على الانتقالِ جازَ إذ الحقُّ لا يعدوهما، وفي الجمع بين النهيين دلالةٌ على استحقاقها السُّكْنَى ولزومَها ملازمةَ مسكنِ الفراقِ وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ مُسْتثنًى من الأولِ، والمعنى إلا أنْ تبذوَ على الزوجِ فإنه كالنشوز في إسقاطِ حقِّها، أو إلا أنْ تزنيَ فتُخرجُ لإقامة الحدِّ عليها، أو من الثاني للمبالغةِ في النهيِ والدلالةِ على أن خروجَها فاحشةٌ. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ إلى الأحكام المذكورةِ. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بأن عرَّضَها للعقاب. ﴿لَا تَدْرِى﴾ أي النفسُ أو أنتَ أيُّها النبيُّ أوِ المطلِّقُ. ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ وهو الرغبةُ في المطلَّقةِ برجعةٍ أو استئنافٍ.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

(٢) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ شارفْنَ آخِرَ عدَّتهنَّ. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهنَّ. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحسنِ عشرةٍ وإنفاقٍ مناسبٍ، ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاءِ الحقِّ واتقاءِ الضرارِ مثلَ أنْ يراجِعَها ثم يطلقَها تطويلاً لعدَّتِها. ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الرجعةِ أو الفرقةِ تبرِّياً عن الريبةِ وقطعاً للتنازُعِ، وهو ندبٌ كقوله تعالى ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾[(١)] وعن الشافعيِ وجوبُه في الرجعة[(٢)]. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أيها الشهودُ عند الحاجة. ﴿لِلَّهِ﴾ خالصاً لوجهه. ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ يريد الحثَّ على الإشهاد والإقامةِ، أو على جميع ما في الآية. ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فإنه المنتفعُ به والمقصودُ بذكْرِه. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

(٣) ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ مؤكدة لما سبقَ بالوعدِ على الاتقاء عما نَهى عنه صريحاً أو ضِمْناً من الطلاق في الحيض، والإضرارِ بالمعتدَّةِ وإخراجِها من المسكنِ، وتعدِّي حدودِ الله وكتمانِ الشهادة وتوقُّعِ جعْلٍ على إقامتِها بأن يجعلَ اللهُ له مخرجاً مما في شأن الأزواجِ من المضايقِ والغموم، ويرزقُه فرَجاً وخَلَفاً من وجْهٍ لم يخطرْ بباله. أو بالوعدِ لعامةِ المتقينَ بالخلاصِ عن مضارِّ الدارين والفوزِ بخيرهما من حيثُ لا يحتسبونَ. أو كلامٌ جِيْءَ به للاستطرادِ عند ذكر المؤمنين. وعنه ﷺ «إني لأعلمُ آيةً لو أخذَ الناسُ بها لكفتْهم، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فما زالَ يقرؤُها ويعيدُها»[(٣)].

---

(١) البقرة: «٢٨٢».

(٢) راجع مذاهب العلماء في ذلك «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ١٥٧ ـ ١٥٩).

(٣) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن ماجة (٢/ ١٤١١ رقم ٤٢٢٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٢) وأحمد في «الزهد» (رقم: ٧٨٩) كلهم من طريق أبي السليل عن أبي ذر.
قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٣٤٢ رقم ١٥٠٦): «هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع. أبو السليل =

وروي أن سالم بنَ عوف بنِ مالك الأشجعي[١] أسره العدوُّ، فشكا أبوه إلى رسولِ الله ﷺ فقال له «اتقِ اللهَ وأكثِرْ قولَ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله» ففعل، فبينَما هو في بيته إذ قرعَ ابنُه البابَ ومعه مائةٌ من الإبلِ غفلَ عنها العدوُّ فاستاقَها[٢]. وفي رواية «رجعَ ومعه غنيماتٌ ومتاعٌ». ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ يبلغُ ما يريده ولا يفوتُه مرادُ، وقرأ حفص بالإضافةِ، وقرىء بالغُ أمرُهُ أي نافذٌ، وبالغاً على أنه حالٌ والخبرُ: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ تقديراً أو مقداراً أو أَجَلاً لا يتأتى تغييرُه، وهو بيانٌ لوجوبِ التوكُّل وتقرير لما تقدَّم من تأقيتِ الطلاقِ بزمان العدَّةِ والأمرِ بإحصائِها، وتمهيدٌ لما سيأتي من مقاديرها.

وَالَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾

(٤) ﴿وَالَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ لِكِبَرِهِنَّ. ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ شكَكْتم في عدَّتهنَّ أي جهلتُم. ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ روي أنه لما نزلَ ﴿وَالْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[٣] قيل فما عدَّةُ اللاتي لم يحضن؟ فنزلتْ[٤]. ﴿وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي واللائي لم يحضنَ بعدُ كذلك. ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ منتهى عدَّتِهنَّ. ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهو حكمٌ يعمُّ المطلَّقاتِ والمتوفَّى عنهم أزواجُهنَّ، والمحافظةُ على عمومِه أولى من محافظةِ عمومِ قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾[٥] لأنَّ عمومَ أولاتِ الأحمالِ بالذات وعمومَ أزواجاً بالعَرَضِ، والحكمُ معلَّلٌ ها هنا بخلافه ثَمَّةَ، ولأنه صحَّ أنَّ سبيعةَ بنتَ الحرث وضعتْ بعدَ وفاة زوجِها بليالٍ فذكَرَتْ ذلك لرسولِ الله ﷺ فقال «قد حلَلْتِ فتزوَّجي»[٦]، ولأنه متأخِّرُ النزولِ فتقديمه في العملِ تخصيصٌ وتقديم الآخِر بناءَ للعامِّ على الخاصِّ

= لم يدرك أبا ذر قاله في «التهذيب» ـ (٤/٤٠١) ـ ورواه النسائي في «التفسير» ـ (رقم: ٦٢٣) ـ عن محمد بن عبدالأعلى عن المعتمر بن سليمان به.
ورواه أحمد بن منيع في مسنده بزيادة طويلة كما أفردته في زوائد المسانيد العشرة.
فقال: ثنا يزيد بن هارون ثنا كهمس بن الحسن فذكره» هـ.

(١) هو مالك بن عوف الأشجعي وقيل: أبو عوف وقيل سالم بن عوف وقع أسيراً فجاء والده شاكياً إلى الرسول فأمره أن يكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.. ففك أسره. ونزل قوله تعالى «ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً».

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/١٠٦ ـ ١٠٧) من طريق علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن ابن مسعود، وعن أبي عبيدة قوله. وفيه أبو عبيدة لم يدرك أباه.
وأخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٤ رقم ١٨٠)
قلت: والكلبي وأبو صالح ضعيفان، بل الكلبي متروك.

(٣) البقرة: «٢٢٨».

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٣٦ بدون سند.

(٥) البقرة: «٢٣٤».

(٦) أخرجه البخاري (٨/٦٥٣ رقم ٤٩٠٩) ومسلم (٢/١١٢٢ ـ ١١٢٣ رقم ٥٧/١٤٨٥) كلاهما من رواية أبي سلمة بن عبدالرحمن عن كريب مولى ابن عباس عن أم سلمة. =

والأولُ راجحٌ للوفاق عليه. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أحكامِه فيراعي حقوقَها. ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ يسهِّلْ عليه أَمْرَهُ ويوفِّقْه للخير.

ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم
مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ
فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن
قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن
مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨﴾ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ
أَمۡرِهَا خُسۡرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾

(٥) ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من الأحكام. ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أحكامِه فيراعي حقوقَها. ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإنَّ الحسناتِ يذهِبْنَ السيئاتِ. ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ بالمضاعفةِ.

(٦) ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ أي مكانٌ من مكانِ سُكْناكم. ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ من وُسْعِكم أي مما تطيقُونه، أو عطفُ بيانٍ لقوله من حيثُ سكنتُم. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في السُّكْنَى. ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ فَتلجئوهنَّ إلى الخروج. ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ فيخرجْنَ من العدَّةِ، وهذا يدلُّ على اختصاصِ استحقاق النفقة بالحاملِ من المعتداتِ والأحاديثُ تؤيدُه. ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾ بعد انقطاعِ عَلَقَةِ النكاح. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع. ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾ وليأمرْ بعضُكم بعضاً بجميلٍ في الإرضاع والأجرِ. ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ تضايقْتُم. ﴿فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ امرأةٌ أخرى، وفيه معاتبةٌ للأمِّ على المعاسرةِ.

(٧) ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي فلينفقْ كلٌّ من الموسِرِ والمعسرِ ما بلغَهُ وُسْعُهُ. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ فإنه تعالى لا يكلِّفُ نفساً إلا وُسْعَها، وفيه تطييبٌ لقلبِ المعسِرِ ولذلك وعدَ له باليُسْرِ فقال: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ أي عاجلاً وآجلاً.

(٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أهلِ قريةٍ. ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أعرضتْ عنه إعراضَ العاتي المعاندِ. ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ بالاستقصاء والمناقشة. ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ منكراً والمرادُ حسابُ الآخرة وعذابُها. والتعبير بلفظ الماضي للتحقيقِ.

(٩) ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ عقوبةَ كفرِها ومعاصِيها. ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ لا ربحَ فيه أصلاً.

(١٠) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ تكريرٌ للوعيد وبيانٌ لما يوجبُ التقوى المأمورَ بها في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ

كما أخرجه البخاري (٩/٤٦٩ رقم ٥٣١٨) من طريق أبي سلمة عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة.
وأخرجه أيضاً البخاري (٧/٣١٠ رقم ٣٩٩١) و(٩/٤٦٩ رقم ٥٣١٩) ومسلم (٢/١١٢٢ رقم ٥٦/١٤٨٤) من رواية عتبة بن عبدالله عن عمر بن عبدالله بن الأرقم الأزهري عن سبيعة نفسها.

ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالحساب استقصاءَ ذنوبهم وإثباتَها في صحفِ الحفظَةِ، وبالعذابِ ما أُصِيبُوا به عاجلاً. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾.

رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾

(١١) ﴿رَّسُولٗا﴾ يعني بالذِّكْرِ جبريلَ عليه السلام لكثرة ذكرِه، أو لنزولِه بالذكرِ وهو القرآنُ، أو لأنه مذكورٌ في السمواتِ أو ذا ذكرٍ أي شرفٍ. أو محمداً عليه الصلاة والسلام لمواظَبَتِه على تلاوة القرآن أو تبليغِه، وعبَّر عن إرساله بالإنزالِ ترشيحاً أو لأنه مسبَّبٌ عن إنزالِ الوحي إليه، وأبدلَ منه رسولاً للبيانِ أو أرادَ به القرآنَ. ورسولاً منصوبٌ بمقدَّر مثلَ أَرْسَلَ، أو ذِكْراً مصدرٌ ورسولاً مفعولُه أو بدلُه على أنه بمعنى الرسالة. ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾ حالٌ من اسم الله أو صفةُ رسولاً، والمرادُ بالذين آمنوا في قوله: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين آمنوا بعدَ إنزاله أي ليحصلَ لهم ما هم عليه الآنَ من الإيمان والعملِ الصالح أو ليخرجَ مَنْ علِمَ أو قدَّر أنه يؤمنُ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ من الضلالة إلى الهدى. ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ وقرأ نافع وابن عامر ندخلْه بالنون. ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ فيه تعجيبٌ وتعظيم لما رُزِقُوا من الثواب.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ. ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ أي وخلق مثلَهنَّ في العددِ من الأرضِ، وقرىء بالرفع على الابتداءِ والخبرِ: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ أي يجري أمرُ الله وقضاؤه بينهنَّ وينفذُ حكمُه فيهنَّ. ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ علةٌ لِخلَقَ أو ليتنزَّلُ، أو مضمرٌ يعمُّهما فإنَّ كلاً منهما يدلُّ على كمال قدرتِه وعلمِه. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الطلاقِ ماتَ على سُنَّةِ رسول الله ﷺ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٤ رقم ١٨٧).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التَّحْرِيم

ترتيبها ٦٦ — آياتها ١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ
بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ
صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

سورة التحريم مدنية[(١)] وآيها اثنتا عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام خلا بماريَّةَ في نوبةِ عائشةَ رضي الله تعالى عنها أو حفصةَ، فاطلعتْ على ذلك حفصةُ فعاتبَتْه فيه فحرَّم ماريَّةَ، فنزلتْ[(٢)]. وقيل شربَ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٤٦): «وهي مدنية بإجماع من أهل العلم بلا خلاف» هـ.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/١٨٥) عن ابن عباس وفيه أنه نام في يوم عائشة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٧٥): «لم أقف في شيء من الطرق على أن ذلك كان في بيت عائشة رضي الله عنها، إلا فيما رواه ابن سعد ـ كما تقدم ـ» قلت: فيه الواقدي وهو ضعيف. وشعبة مولى ابن عباس ضعيف أيضاً.
وقد أخرجه أيضاً ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج٢٨/١٥٧) عن ابن عباس بسند فيه ضعفاء من أسرة واحدة.
كما أخرجه ابن جرير (١٤/ج٢٨/١٥٦) عن الضحاك. والضحاك لم يلقَ أحداً من الصحابة.
وأما نزول الآية في أمر تحريم النبي ﷺ مارية القبطية، فقد أخرجه ابن جرير عن زيد بن أسلم، والشعبي، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم أيضاً. وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٩٣) من حديث أنس وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

عسلاً عند حفصةَ، فواطأتْ عائشةُ سودةَ وصفيةَ فقلْنَ له إنا نشمُّ منك ريحَ المغافير[١] فحرَّم العسلَ، فنزلتْ[٢]. ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسيرٌ لتحرِّمُ أو حالٌ من فاعلِه أوِ استئناف لبيانِ الداعي إليه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لك هذه الزلَّةَ فإنه لا يجوز تحريمُ ما أحلَّه الله. ﴿رَحِيمٌ﴾ رحِمَكَ حيث لم يؤاخذْك به وعاتَبَكَ محاماةً على عصمتِكَ.

(٢) ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد شرعَ لكم تحليلَها وهو حلُّ ما عقدْتَه بالكفارةِ، أو الاستثناءُ فيها بالمشيئةِ حتى لا تحنثَ من قولهم: حلَّلَ في يمينه إذا استثْنى فيها، واحتجَّ بها مَنْ رأَى التحريمَ مطلقاً أو تحريمَ المرأة يميناً، وهو ضعيفٌ إذ لا يلزمُ من وجوبِ كفارةِ اليمين فيه كونُه يميناً مع احتمالِ أنه عليه الصلاة والسلام أتى بلفظ اليمينِ كما قيل. ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ متولِّي أمرِكم. ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلِحُكم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ المتقِنُ في أفعاله وأحكامِه.

(٣) ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ يعني حفصةَ. ﴿حَدِيثًا﴾ تحريمَ ماريَّةَ أو العسلِ، أو أنَّ الخلافةَ بعدَه لأبي بكر وعمرَ رضي الله تعالى عنهما. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي فلما أخبرتْ حفصةُ عائشةَ رضي الله تعالى عنهما بالحديث. ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ واطَّلعَ النبي عليه الصلاة والسلام على الحديث أي على إفشائِه. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ عرَّف الرسولُ ﷺ حفصةَ بعضَ ما فعلتْ. ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ عن إعلام بعضٍ تكرماً أو جازاها على بعض بتطليقِه إياها وتجاوزَ عن بعضٍ، ويؤيده قراءةُ الكسائيِّ بالتخفيف فإنه لا يحتملُ ههنا غيرَهُ لكنَّ المشدَّدَ من بابِ إطلاقِ اسم المسبَّبِ على السببِ والمخففُ بالعكس، ويؤيد الأولَ قولُه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فإنه أوفقُ للإسلام.

(٤) ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ خطابٌ لحفصةَ وعائشةَ على الالتفاتِ للمبالغةِ في المعاتبة. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقد وجدَ منكُما ما يوجِبُ التوبةَ، وهو ميلُ قلوبِكما عن الواجبِ من مخالصةِ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام بحبِّ ما يحبُّه وكراهةِ ما يكرهُهُ. ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ وإنْ تتظاهرا عليه بما يسوؤه، وقرأ الكوفيونَ بالتخفيفِ. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلنْ يُعْدَمَ مَنْ يظاهِرُه من الله والملائكةِ وصلحاءِ المؤمنين، فإنَّ الله ناصرُه وجبريلُ رئيسُ الكروبيين قرينُه، ومَنْ صلحَ من المؤمنين أتباعُه وأعوانُه. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ متظاهرونَ، وتخصيصُ جبريلَ عليه السلام لتعظيمِه،

(١) المغافير: جمع مفرده مغفور، وهو شيء له رائحة كريهة وهو صمغ حلو الطعم.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٦٥٦ رقم ٤٩١٢) و(٩/ ٣٧٤ رقم ٥٢٦٧) و(١١/ ٥٧٤ رقم ٦٦٩١) ومسلم (٢/ ١١٠٠ ـ ١١٠١ رقم ٢٠/ ١٤٧٤). عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصةُ عن أيتنا دخلَ عليها فلتقل له أكلتَ مغافير؟ إني أجِدُ منكَ ريحَ مغافير، قال: لا، ولكني كنتُ أشربُ عند زينبَ بنت جحش فلن أعودَ له، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً».
وأخرج البخاري (٩/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥ رقم ٥٢٦٨) ومسلم (٢/ ١١٠١ رقم ٢١/ ١٤٧٤) من حديث عائشة أيضاً قالت: كان النبي ﷺ يحب الحلواء والعسل، فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، ثم ذكرت احتيالها على حفصة مع سودة وصفية، وليس في هذه الرواية ذكر نزول الآية.
وانظر فتح الباري للجمع والتوفيق بين السببين (٩/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).

والمراد بالصالح الجنسُ ولذلك عُمِّمَ بالإضافة وبقولِه بعدَ ذلك تعظيمٌ لمظاهرةِ الملائكة من جملةِ ما ينصرهُ الله تعالى به.

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ
وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ
شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ
وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التغليبِ، أو تعميمُ الخطابِ، وليس فيه ما يدلُّ على أنه لم يطلِّقْ حفصةَ وأنَّ في النساء خيراً منهنَّ لأنَّ تعليقَ طلاق الكلِّ لا ينافي تطليقَ واحدةٍ والمعلَّقُ بما لم يقعْ لا يجبُ وقوعُه. وقرأ نافع وأبو عمرو يُبْدِلُهُ بالتخفيفِ[1]. ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مقرَّاتٍ مخلصاتٍ أو منقادات مصدِّقاتٍ. ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مصلياتٍ أو مواظـباتٍ على الطاعاتِ. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عن الذنوبِ. ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبِّداتٍ أو متذلِّلاتٍ لأمرِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام. ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائماتٍ، سُمِّيَ الصائمُ سائحاً لأنه يَسيحُ بالنهارِ بلا زاد، أو مهاجراتٍ. ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وسَّطَ العاطفَ بينَهما لتنافيهما ولأنهما في حكمِ صفةٍ واحدةٍ إذ المعنى مشتملاتٌ على الثيباتِ والأبكارِ.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بتركِ المعاصي وفعلِ الطاعات. ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصحِ والتأديب. وقرىء وأهلُوكم عطفٌ على واوِ قُوْا، فيكون أنفسَكم أَنْفُسَ القبيلَيْنِ على تغليب المخاطَبِيْنَ. ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ ناراً تتقدُ بهما اتقادَ غيرها بالحطبِ. ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ تلي أمرَها وهم الزبانيةُ. ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ غلاظُ الأقوالِ شدادُ الأفعالِ، أو غلاظُ الخلْقِ شدادُ الخلْقِ أقوياءُ على الأفعال الشديدةِ. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ فيما مضَى. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيما يُسْتَقْبَلُ، أو لا يمتنعونَ عن قَبُولِ الأوامر والتزامِها ويؤدُّون ما يؤمرون به.

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يُقَالُ لهم ذلك عندَ دخولهم النارَ، والنهيُ عن الاعتذارِ لأنه لا عذْرَ لهم أو العذرُ لا ينفعُهم.

(٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ بالغةً في النصحِ وهو صفةُ التائبِ فإنه ينصحُ نفسَه بالتوبة، وُصِفَتْ به على الإسنادِ المجازي مبالغةً، أو في النصاحةِ وهي الخياطةُ كأنها تنصحُ ما خرقَ الذَّنْبُ. وقرأ أبو بكر بضمِّ النونِ وهو مصدرٌ بمعنى النصح كالشكرِ والشكورِ، أو النصاحةُ كالثباتِ والثبوتِ تقديرهُ ذاتَ نصوحٍ أو تنصح نصوحاً، أو توبوا نصوحاً لأنفسِكم. وسُئِلَ عليٌّ رضيَ الله تعالى

---

(١) قراءة نافع وأبو عمرو بتشديد الدال يُبَدِّلَه (المبسوط لابن مهران ص٢٣٨).

عنه عن التوبةِ فقال: يجمعُها ستةُ أشياءَ: على الماضي من الذنوب الندامةُ، وللفرائضِ الإعادةُ، وردُّ المظالم، واستحلالُ الخصوم، وأنْ تعزمَ على أنْ لا تعودَ، وأنْ تربِّي نفسَك في طاعة الله كما ربَّيْتَهَا في المعصية. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ ذُكِرَ بصيغة الإطماع جَرْياً على عادة الملوك، وإشعاراً بأنه تفضُّلٌ. والتوبة غيرُ موجبةٍ وأنَّ العبدَ ينبغي أن يكون بينَ خوفٍ ورجاءٍ. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ ظرفٌ ليدخلكُم ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ عطفٌ على النبيِّ عليه الصلاة والسلام إحماداً لهم وتعريضاً لمن ناوأهم، وقيل مبتدأٌ خبرهُ: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي على الصراطِ. ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا طُفِىءَ نورُ المنافقين. ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقيل تتفاوتُ أنوارُهم بِحَسَبِ أعمالِهم فيسألون إتمامَه تفضُّلاً.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيفِ ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالحجَّةِ. ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واستعملِ الخشونةَ فيما تجاهدهُم به إذا بلغَ الرفقُ مداهُ. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنَّمُ أو مأواهم.

(١٠) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ مثَّلَ اللهُ تعالى حالَهم في أنهم يُعَاقَبُوْنَ بكفرهم ولا يُحَابَوْنَ بما بينَهم وبينَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنين من النسبة بحالِهما. ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾ يريدُ به تعظيمَ نوح ولوطٍ عليهما السلام. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنفاقِ. ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلم يغنِ النبيّانِ عنهما بحقِّ الزواجِ شيئاً إغناءً ما. ﴿وَقِيلَ﴾ أي لهما عند موتهما أو يومَ القيامة. ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ مع سائرِ الداخلين من الكفرةِ الذين لا وصلةَ بينَهم وبينَ الأنبياء عليهم السلام.

(١١) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ شبَّه حالَهم في أنَّ وصلةَ الكافرين لا تضرُّهم بحالِ آسيةَ رضيَ الله عنها ومنزلتِها عند الله مع أنها كانتْ تحتَ أعدى أعداءِ الله. ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ ظرفٌ للمثلِ المحذوفِ. ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ قريباً من رحمتك أو في أعلى درجاتِ المقرَّبين. ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ من نفسِه الخبيثةِ وعملِه السيءِ. ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ من القِبْطِ التابعين له في الظلمِ.

(١٢) ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عطفٌ على امرأة فرعونَ تسليةً للأراملِ. ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ في فرْجِها، وقرىء فيها أي في مريمَ أو في الجملة. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من

روح خلقناه بلا توسُّطِ أصلٍ. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بِصُحُفِهِ المنزَّلةِ أو بما أُوحِي إلى أنبيائه. ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ وما كُتِبَ في اللَّوح المحفوظ، أو جنسُ الكتب المنزَّلةِ وتدلُّ عليه قراءةُ البصريين وحفصٌ بالجمع، وقرىء بكلمة الله وكتابه أي بعيسى عليه السلام والإنجيل. ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ من عِدَادِ المواظبين على الطاعةِ، والتذكيرُ للتغليبِ والإشعارِ بأنَّ طاعتَها لم تَقْصُرْ عن طاعة الرجالِ الكاملينَ حتى عُدَّتْ من جُمْلَتِهم، أو من نَسْلِهم فتكون من ابتدائيةً. عن النبيِّ ﷺ «كَمُلَ مِنَ الرجال كثيرٌ ولم يكمُلْ من النساء إلا أربعٌ: آسيةُ بنتُ مزاحم امرأةُ فرعونَ، ومريم بنتُ عمران، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ وفاطمة بنتُ محمدٍ. وفضلُ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائر الطعامِ»[1] وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورةَ التحريم آتاهُ الله توبةً نصوحاً»[2].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٦ رقم ٢٠٥) وأبو نعيم في الحلية (٥/٩٩) من حديث أبي موسى.
وأصله في الصحيحين البخاري (٦/ ٤٧١ ـ ٤٧٢ رقم ٣٤٣٣) ومسلم (٤/١٨٨٦ ـ ١٨٨٧ رقم ٧٠/ ٢٤٣١) عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنتُ عمران، وآسيةُ امرأة فرعون».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٦ رقم ٢٠٦).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُلْكِ

ترتيبها ٦٧ — آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾

سورة الملك مكية[١]، وتسمى الواقيةَ والمنجيةَ لأنها تقي قارِئَها وتنجيه من عذاب القبرِ، وآيُها ثلاثونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ بقبضةِ قُدْرَتِهِ التصرفُ في الأمور كلِّها. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ على كل ما يشاءُ قديرٌ.

(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قدَّرهما أو أوجدَ الحياةَ وأزالها حسْبَما قدَّره. وقدَّم الموتَ لقوله ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[٢] ولأنه أدْعَى إلى حسنِ العمل. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعامِلَكم معاملةَ المختبِرِ بالتكليفِ أيُّها المكلَّفون. ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أصوبُه وأخلصُه، وجاء مرفوعاً: «أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارمِ الله تعالى، وأسرعُ في طاعته»[٣]. جملةٌ واقعةٌ موقعَ المفعولِ ثانياً لفعلِ البلوى المتضمِّن معنى

---

(١) وهي مكية بإجماع ـ كما في «المحرر الوجيز» لابن عطية (١٦/٥٩) ـ.

(٢) البقرة: «٢٨».

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٨٦ رقم ١٨٩): «أخرجه ـ داود بن المجير في كتاب العقل ـ والحارث في مسنده عنه، والطبري وابن مردويه من طريقه عن عبدالواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر. وداود ساقط.
وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك، وإسناده أسقط من الأول» هـ.

العلم، وليس هذا من باب التعليق لأنه يَخِلُّ به وقوعُ الجملة خبراً، فلا يعلّقُ الفعلُ عنها بخلافِ ما إذا وقعتْ موقعَ المفعولينِ. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ الذي لا يعجِزهُ مَنْ أساءَ العملَ. ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تابَ منهم.

(٣) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ مطابقةً بعضُها فوقَ بعض، مصدرُ طابقتُ النعلَ إذا خلطتُها طَبَقاً على طبقٍ وُصِفَ به، أو طوبقتْ طباقاً أو ذات طباقٍ جمعُ طبَقٍ كجبلٍ وجبالٍ، أو طَبَقَةٍ كرحْبَةٍ ورحابٍ. ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائيُّ من تفوُّتٍ ومعناهما واحدٌ كالتعاهدِ والتعهُّدِ، وهو الاختلافُ وعدم التناسُبِ من الفوْتِ كأن كلا من المتفاوتين فاتَ عنه بعضُ ما في الآخر، والجملةُ صفةٌ ثانية لسبع وُضِعَ فيها خلْقُ الرحمن موضِعَ الضمير للتعظيم والإشعارِ بأنه تعالى يخلُق مثلَ ذلك بقدرته الباهرةِ رحمةً وتفضُّلاً وأنَّ في إبداعها نِعَماً جليلةً لا تُحْصَى، والخطابُ فيها للرسولِ أو لكلِّ مخاطَبٍ وقوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ متعلِّقٌ به على معنى التسبُّبِ، أي قد نظرت إليها مراراً فانظرْ إليها مرةً أخرى متأملاً فيها لتعاينَ ما أخبرتَ به من تناسُبِها واستقامَتِها واستجماعِها ما ينبغي لها. والفطورُ الشقوقُ، والمراد الخلَلُ من فَطَرَهُ إذا شقَّه.

ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾

(٤) ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعَتَيْنِ أُخرَيَيْنِ في ارتيادِ الخللِ، والمرادُ بالتثنيةِ التكريرُ والتكثيرُ كما في لبَّيك وسعْدَيْك، ولذلك أجابَ الأمرَ بقوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ بعيداً عن إصابة المطلوب كأنه طُرِدَ عنه طرداً بالصَّغارِ. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليلٌ من طولِ المعاودةِ وكثرةِ المراجعةِ.

(٥) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أقربَ السمواتِ إلى الأرض[١]. ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بالكواكبِ المضيئةِ بالليل إضاءةَ السُّرُج فيها، والتنكيرُ للتعظيم ولا يمنعُ ذلك كونَ بعضِ الكواكب مركوزةً في سمواتٍ فوقَها إذ التزيينُ بإظهارِها فيها ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدةً أخرى وهي رجْمُ أعدائِكم، والرجومُ جمعُ رَجْمٍ بالفتح وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يُرْجَمُ به بانقضاضِ الشهب المسبَّبَةِ عنها. وقيل معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطينِ الإنس وهم المنجِّمونَ. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعدَ الإحراقِ بالشُّهبِ في الدنيا.

(٦) ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ من الشياطين وغيرِهم. ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وقرىء بالنصبِ على أنَّ للذين عطفٌ على لهم وعذابٌ على عذابِ السعير.

(٧) ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتاً كصوتِ الحمير. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم غليانَ المِرْجَلِ بما فيه.

---

(١) تصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها (س٩/ ٤).

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا
نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾
فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾
وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

(٨) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تتفرّق غيظاً عليهم، وهو تمثيلٌ لشدةِ اشتعالها بهم، ويجوز أنْ يُرادَ غيظَ الزبانيةِ. ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعةٌ من الكفرةِ. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يخوِّفكم هذا العذابَ وهو توبيخٌ وتبكيت.

(٩) ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي فكذَّبنا الرسلَ وأفرطْنا في التكذيب حتى نفينا الإنزالَ والإرسالَ رأساً، وبلغنا في نِسْبَتِهم إلى الضلال، فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيلٌ أو مصدرٌ مقدَّرٌ بمضافٍ أي أهلُ إنذارٍ، أو منعوتٌ به للمبالغة أو الواحدُ، والخطابُ له ولأمثاله على التغليب، أو إقامةُ تكذيبِ الواحدِ مقامَ تكذيب الكلِّ، أو على أنَّ المعنى قالتِ الأفواجُ قد جاء إلى كلِّ فوجٍ منَّا رسولٌ من الله فكذَّبناهم وضلَّلْناهم، ويجوزُ أنْ يكون الخطابُ من كلام الزبانية للكفار على إرادةِ القول فيكون الضُّلَّالُ ما كانوا عليه في الدنيا، أو عقابهُ الذي يكونون فيه.

(١٠) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلامُ الرسلِ فنقبلُه جملةً من غير بحثٍ وتفتيشٍ اعتماداً على ما لاحَ من صدْقِهم بالمعجزات. ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ فنتفكرُ في حِكَمِهِ ومعانيه تفكُّرَ المستبصرِينَ. ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في عِدَادِهم ومن جملَتِهم.

(١١) ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ حين لا ينفعُهم، والاعترافُ إقرارٌ عن معرفةٍ، والذَّنْبُ لم يُجْمَعْ لأنه في الأصل مصدرٌ، أوِ المرادُ به الكفرُ. ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فأسحَقَهُم الله سُحْقاً أبعدَهم من رحمته، والتغليبُ للإيجاز والمبالغة والتعليلِ، وقرأ الكسائيُّ بالتثقيلِ[١].

(١٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يخافون عذابَه غائباً عنهم لم يعاينُوه بعدُ، أو غائبين عنه أو عنْ أعينِ الناس، أو بالمخفيِّ منهم وهو قلوبُهم. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ تصغُر دونَه لذائذُ الدنيا.

(١٣) ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالضمائرِ قبلَ أنْ يعبَّرَ عنها سراً أو جهراً[٢].

(١٤) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلمُ السرَّ والجهرَ مَنْ أوجَدَ الأشياءَ حَسْبَما قدَّرتْه حِكْمَتُه. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ المتوصِّلُ علمُه إلى ما ظهرَ من خلْقِه وما بطنَ، أو ألا يعلمُ الله مِنْ خلْقِه، وهو بهذه

---

(١) قوله: وقرأ الكسائي بالتثقيل أي بضم الحاء من قوله «فَسُحقاً».

(٢) وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاح أمرهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغةِ في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدر منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية... أو لأن مرتبة السرّ متقدمة على مرتبة الجهر (س٩/٦).

المثابةِ والتقييدِ بهذه الحالِ يستدعي أنْ يكونَ ليعلمَ مفعولَ ليفيد. رُوِيَ(١) أنَّ المشركينَ كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياءَ، فيخبر اللهُ بها رسولَه، فيقولون: أسروا قولَكم لئلا يسمعَ إلهُ محمدٍ فنبَّه الله على جَهْلِهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

(١٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ لينةً يسهلُ لكم السلوكُ فيها. ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ في جوانبها أو جبالها، وهو مَثَلٌ لفرْطِ التذليلِ فإنَّ منكبَ البعير ينبو عن أن يطأَه الراكبُ ولا يتذلَّلُ له، فإذا جعلَ الأرضَ في الذلِّ بحيث يُمْشَى في مناكِبِها لم يبقَ شيء لم يتذلَّلْ. ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ والْتَمِسُوا من نعمِ الله. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ المرجعُ فيسألكم عن شكرِ ما أنعمَ عليكم.

(١٦) ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني الملائكةَ الموكَّلين على تدبير هذا العالَم، أو اللهَ تعالى على تأويل مَنْ في السماء أمرُه أو قضاؤُه، أو على زعمِ العرب فإنهم زعمُوا أنه تعالى في السماء، وعن ابن كثير وأَمِنْتُم بقلب الهمزة الأولى واواً لانضمامِ ما قبلَها، وآمنتم بقلبِ الثانية ألفاً وهو قراءةُ نافع وأبي عمرو ورويسٍ. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فيغيِّبُكم فيها كما فعل بقارونَ وهو بدلٌ من بدلِ الاشتمالِ. ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ تضطربُ، والمورُ التردُّدُ في المجيءِ والذَّهابِ.

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي (٨/ ٣٢١).
ـ قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٨/ ٣٢٢): «وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «أأمنتم» بهمزتين (من في السماء) قال ابن عباس: أمنتم عذاب من في السماء وهو الله عز وجل؟!» هـ.
ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري (٨/ ٦٧ رقم ٤٣٥١) ومسلم (٢/ ٧٤٢ رقم ١٤٤/ ١٠٦٤) وأحمد في المسند (٣/ ٤) وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه من اليمن بذُهَيبةٍ في أديم مقروظ لم تحصَّل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل. فقال رجل من أصحابه: كنَّا نحنُ أحقَّ بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني وأنا أمينُ من في السماء. . .» الحديث.
● وأخرج مسلم (١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢ رقم ٣٣/ ٥٣٧) ضمن قصة طويلة:
عن معاوية بن الحكم السلميِّ؛ قال: «وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحُد والجوَّانية فأطلعتُ ذاتَ يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاةٍ من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صَكَّةً. فأتيتُ رسول الله ﷺ فعظَّمَ ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله أفلا أعتِقُها؟ قال: «ائتِني بها» فأتيتهُ بها فقال لها: «أينَ اللهُ؟» قالت في السماء. قال «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال «أعتِقْها فإنها مؤمنة».
وأخرجه أبو داود (١/ ٥٧٠ ـ ٥٧٣ رقم ٩٣٠) والنسائي (٣/ ١٤ ـ ١٨ رقم ١٢١٨) وأحمد في المسند (٥/ ٤٤٧، ٤٤٨ ـ ٤٤٩) والطيالسي في المسند (ص١٥٠ رقم ١١٠٥) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٣٩١ ـ ٣٩٢ رقم ٦٥٢) وابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (١/ ٢١٥ رقم ٤٨٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٢١ ـ ٤٢٢) وابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (ص١٢١ ـ ١٢٢) وغيرهم.
وانظر الأدلة الأخرى في «التحف في مذاهب السلف» للشوكاني بتحقيقي (ص٢١ ـ ٢٤).

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ
بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى
يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

(١٧) ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أنْ يمطِرَ عليكم حَصْبَاءَ. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ كيفَ إنذاري إذا شاهدتُم المنذرَ به ولكن لا ينفعكم العلمُ حينئذٍ.

(١٨) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم بإنزالِ العذاب، وهو تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديدٌ لقومه المشركين.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطاتٍ أجنحتَهُنَّ في الجوِّ عند طيرانِها، فإنهنَّ إذا بسطْنَها صَفَفْنَ قوادِمَها. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضمُمْنَها إذا ضربْنَ بها جنوبَهُنَّ وقتاً بعدَ وقتٍ للاستظهار به على التحريكِ، ولذلك عدلَ به إلى صيغةِ الفعلِ للتفرقة بين الأصلِ في الطيرانِ والطارىءِ عليه. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوِّ على خلافِ الطبعِ. ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الشاملُ رحمتُه كلَّ شيءٍ بأنْ خلقهنَّ على أشكالٍ وخصائصَ هيأتهنَّ للجري في الهواءِ. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعلمُ كيفَ يخلقُ الغرائبَ ويدبِّرُ العجائبَ.

(٢٠) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عديلٌ لقوله أو لم يروا على معنى أو لم تنظُروا في أمثالِ هذه الصنائعِ، فلم تعلمُوا قدرتَنا على تعذيبهم بنحوِ خسْفٍ وإرسالِ حاصبٍ، أم لكم جندٌ ينصرُكم من دون الله إنْ أرسلَ عليكم عذابَه فهو كقوله ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾[1] إلا أنه أخرجَ مخرجَ الاستفهام عن تعيينِ مَنْ ينصرُهم إشعاراً بأنهم اعتقدُوا هذا القسمَ، ومَنْ مبتدأٌ وهذا خبرُه والذي بصِلَتِه صفتُه وينصرُكم وصفٌ لجندٍ محمولٌ على لفظه[2]. ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ لا معتمدَ لهم[3].

(٢١) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ أم مَنْ يُشَارُ إليه ويقال هذا الذي يرزقُكم. ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ بإمساكِ المطرِ وسائرِ الأسبابِ المخلصَةِ والموصِلةِ له إليكم. ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ تمادَوْا. ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ عنادٍ. ﴿وَنُفُورٍ﴾ شِرَادٍ عن الحقِّ لتنفُرَ طباعُهم عنه.

(٢٢) ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ يُقَالُ كَبَبْتُهُ فأكبَّ وهو من الغرائب كقشعَ الله السحابَ فأقشعَ، والتحقيقُ أنهما من باب انفضّ بمعنى صارَ ذا كبٍّ وذا قشعٍ، وليس مطاوعي كبَّ وقشعَ بل المطاوعُ لهما انكبَّ وانقشعَ، ومعنى مكِباً أنه يعثُر كلَّ ساعة ويخرُّ على وجْهِهِ لوعورةِ طريقِه واختلافِ

---

(١) الأنبياء: «٤٣».

(٢) والالتفات إلى الخطاب في «ينصركم» لتشديد التبكيت (س٩/٨).

(٣) والالتفات إلى الغيبة في «إن الكافرون» للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم (س٩/٨).

أجزائِه، ولذلك قابلَه بقوله: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ قائماً سالماً من العِثَار. ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستوي الأجزاءِ والجهةِ، والمرادُ تمثيلُ المشرك والموحِّدِ بالسالكين والدينين بالمسلكينَ، ولعلَّ الاكتفاءَ بما في الكبِّ من الدلالة على حالِ المسلكِ للإشعار بأنَّ ما عليه المشركُ لا يستأهلُ أنْ يُسَمَّى طريقاً، كمشي المتعسِّفِ في مكان متعادٍ غيرِ مستوٍ. وقيل المراد بالمكبِّ الأعمى فإنه يتعسَّفُ فينكبُّ وبالسويِّ البصيرُ، وقيل مَنْ يمشي مكباً هو الذي يُحْشَرُ على وجهه إلى النار ومن يمشي سوياً الذي يُحْشَرُ على قدميه إلى الجنة.

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

(٢٣) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعُوا المواعظَ. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا صنائِعَهُ. ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا وتعتبروا. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستعمالها فيما خُلِقَتْ لأَجْلِها.

(٢٤) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاءِ.

(٢٥) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي الحشرُ أو ما وعدوا به من الخسْفِ والحاصبِ. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعنُونَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنينَ.

(٢٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي عِلْمُ وقتِه. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يطَّلِع عليه غيرُه. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والإنذارُ يكفي فيه العلمُ بلِ الظنُّ بوقوعِ المحذَّرِ منه.

(٢٧) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي الوعدَ فإنه بمعنى الموعود. ﴿زُلْفَةً﴾ ذا زلفةٍ أي قرب منهم. ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأنَ علتها الكآبةُ وساءَتْها رؤيةُ العذاب. ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ تطلبون وتستعجلون تفتعِلونَ من الدعاءِ، أو تدَّعون أنْ لا بعثَ فهو من الدَّعْوى.

(٢٨) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ أماتَنِي. ﴿وَمَن مَّعِىَ﴾ من المؤمنين. ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالِنا. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لا ينجيهم أحدٌ من العذاب مِتْنَا أو بقينا، وهو جوابٌ لقولهم نتربَّصُ به ريبَ المنون.

(٢٩) ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أدعوكم إليه مُوْلِيْ النعم كلِّها. ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ للعلم بذلك ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ للوثوقِ عليه والعلم بأنَّ غَيْرَهُ بالذاتِ لا يضرُّ ولا ينفعُ، وتقديمُ الصلةِ للتخصيصِ والإشعارِ به. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ منا ومنكم، وقرأ الكسائيُّ بالياء.

(٣٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض بحيثُ لا تنالُه الدِّلاءُ مصدرٌ وُصِفَ به. ﴿فَمَن

يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ جارٍ أو ظاهرٌ سهلُ المأخذِ. **عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الملكِ فكأنما أحيا ليلةَ القدر»[١].**

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٦ رقم ٢٠٨).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ القَلَمِ

ترتيبها ٦٨ — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾

سورة نٓ مكية[1] وآيها اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿نٓ﴾ من أسماءِ الحروفِ، وقيل اسمُ الحوتِ والمرادُ به الجنسُ، أو البَهْموت[2] وهو الذي عليه الأرضُ، أوِ الدواةُ فإنَّ بعضَ الحيتانِ يُسْتَخرَجُ منه شيءٌ أشدُّ سواداً من النِّقْس[3] يُكْتَبُ به، ويؤيد الأولَ سكونُه وكتْبُه بصورةِ الحرفِ. ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ وهو الذي خطَّ اللوحَ، أو الذي يُخَطُّ به أقسمَ به تعالى لكثرةِ فوائدِه. وأخفى ابنُ عامر والكسائي ويعقوبُ النونَ إجراءً للواوِ المنفصلِ مجرى المتَّصلِ؛ فإنَّ النونَ الساكنةَ تُخْفَى مع حروفِ الفمِ إذا اتصلتْ بها، وقد رُوِيَ ذلك عن نافع وعاصمٍ، وقرئت بالفتحِ والكسرِ كصَ. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يكتبونَ، والضميرُ للقلم بالمعنى الأولِ على التعظيم، أو بالمعنى

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٧٣): «وهي مكية ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل» هـ.

(٢) البهموت اسم لسمكة عليها الأرض، وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله «نٓ والقلم..» قال: قال رسول الله ﷺ: «النون السمكة التي عليها قرار الأرضين...» (الدر المنثور ٦/ ٣٨٩).

(٣) النقس: هو الشيء الذي يكتب به (مختار الصحاح مادة نقس).

الثاني على إرادةِ الجنسِ. وإسنادُ الفعل إلى الآلةِ وإجراؤُه مجرى أولي العلمِ لإقامتِه مقامَهُم، أو لأصحابه، أو للحفَظَةِ، وما مصدريةٌ أو موصولة.

(٢) ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ جوابُ القسم والمعنى ما أنتَ بمجنونٍ مُنعَماً عليك بالنبوة وحصافَةِ الرأي، والعاملُ في الحال معنى النفي. وقيلَ بمجنونٍ الباءُ لا تمنعُ عملَه فيما قبلَه لأنها مزيدةٌ، وفيه نظرٌ من حيثُ المعنى[١].

(٣) ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا﴾ على الاحتمالِ والإبلاغِ. ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ مقطوعٍ أو ممنونٍ به عليك من الناس فإنه تعالى يعطيك بلا توسُّطٍ.

(٤) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ إذ تتحمَّلُ من قومك ما لا يتحمَّلُ أمثالُك، وسُئِلَتْ عائشةُ رضي الله تعالى عنها عن خُلُقِهِ ﷺ فقالت: كان خلُقه القرآن[٢]، ألسْتَ تقرأُ القرآنَ ﴿قد أفلحَ المؤمنون﴾[٣].

(٥) ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾.

(٦) ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أيكُم الذي فُتِنَ بالجنون والباءُ مزيدةٌ، أو بأيِّكم الجنونُ على أنَّ المفتونَ مصدرٌ كالمعقول والمجلودِ، أو بأي الفريقين منكم المجنونُ أبفريقِ المؤمنينَ أو بفريق الكافرين، أي في أيِّهما يوجدُ مَنْ يستحقُّ هذا الاسمَ.

(٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهم المجانينُ على الحقيقة. ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ الفائزين بكمالِ العقلِ[٤].

(٨) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تهيُّجٌ للتصميم على معاصاتِهم.

(٩) ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ﴾ تلاينُهم بأنْ تدعَ نَهْيَهُم عن الشرك، أو توافِقَهم فيه أحياناً[٥]. ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ فيلاينُونَك بتركِ الطعنِ والموافقةِ، والفاءُ للعطفِ أي ودُّوا التداهُنَ وتمنَّوه لكنَّهم أخَّروا ادِّهانَهم حتى تدهِنَ، أو للسببيةِ أي ودُّوا لو تدهنُ فهم يدهنونَ حينئذٍ، أو ودُّوا ادِّهانك فهم الآنَ يدهنونَ طمَعاً فيه، وفي بعض المصاحفِ فيدهِنُوا على أنه جوابُ التمنِّي.

(١٠) ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ﴾ كثيرَ الحلفِ في الحقِّ والباطل. ﴿مَّهِينٍ﴾ حقيرِ الرأيِ من المهانةِ وهي الحقارةُ.

(١١) ﴿هَمَّازٖ﴾ عياب. ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ نقال للحديث على وجه السعاية.

---

(١) والتعرض لوصف الربوبية «ربك» مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه ـ عليه السلام ـ والإيذان بأنه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه من العلوّ إلى غاية لا غاية وراءها (س٩/ ١١).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥١٣ رقم ١٣٩/ ٧٤٦) في سياق طويل هذا جزء منه. وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٩) مختصراً بلفظ المصنف. وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وهذا وهم منه فإن مسلماً أخرجه كما رأيت.

(٣) المؤمنون: «١».

(٤) وزيادة «هو أعلم» لزيادة تقرير علمه تعالى (س٩/ ١٢).

(٥) عبر عن مداهنتهم بالطاعة التي نهى عنها قبل للمبالغة في الزجر والتنفير (س٩/ ١٣).

مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا
قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

(١٢) ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإيقان والعمل الصالح. ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز في الظلم. ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.

(١٣) ﴿عُتُلٍّ﴾ جافٍ غليظٌ من عتلَه إذا قادَه بعنفٍ وغِلْظَةٍ. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعدَما عدَّ من مثالبِه. ﴿زَنِيمٍ﴾ دعيٌّ مأخوذٌ من زنمتي الشاةِ وهما المتدليتانِ من أُذُنِها وحلْقِها، قيل هو الوليد بنُ المغيرة ادَّعاه أبوه بعدَ ثماني عشرةَ من مولدِه، وقيل الأخنس بنُ شريق أصلُه من ثقيفَ وعِدَاده في زهرةَ.

(١٤) ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

(١٥) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال ذلك حينئذٍ لأنه كان متمولاً مستظهِراً بالبنينِ من فَرْطِ غُرورِه، لكنَّ العاملَ مدلولُ قال لانفسُه، لأنَّ ما بعدَ الشرط لا يعملُ فيما قبلَه، ويجوزُ أنْ يكونَ علة لِلاَتُطِعْ أي لا تطعْ مَنْ هذه مثالُه لأنْ كان ذا مالٍ. وقرأ ابنُ عامر وحمزةُ ويعقوب وأبو بكر أنْ كانَ على الاستفهامِ، غيرَ أنَّ ابنَ عامرٍ جعلَ الهمزةَ الثانيةَ بينَ بينَ أي ألأن كان ذا مال كذَبَ، أو أتطيعُه لأنْ كان ذا مال. وقرىء إن كان بالكسرِ على أنَّ شرط الغِنَى في النهي عن الطاعةِ كالتعليل بالفقرِ في النهي عن قتلِ الأولاد، أو أنَّ شرطَه للمخاطبِ أي لا تطعْهُ شارِطاً يسارهُ لأنه إذا أطاعَ للغني فكأنه شرطَه في الطاعةِ.

(١٦) ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ بالكيِّ. ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ على الأنفِ وقد أصابَ أنفَ الوليد جراحةٌ يومَ بدْرٍ فبقي أثرهُ، وقيل هو عبارةٌ عن أنْ يذلَّه غايةَ الإذلالِ كقولهم: جدَعَ أنفَه، رغِمَ أنفُه، لأنَّ السِّمةَ على الوجْهِ سيما على الأنفِ شينٌ ظاهر، أو نسوِّدُ وجْهَهُ يومَ القيامة.

(١٧) ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ بلونا أهلَ مكَّةَ شرَّفها الله تعالى بالقحطِ. ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ يريدُ البستانَ الذي كان دونَ صنعاءَ بفرسخينِ، وكان لرجلٍ صالح، وكان ينادي الفقراءَ وقْتَ الصرام ويتركُ لهم ما أخطأه المنجلُ وألقتْه الريحُ. أو بَعُدَ من البساطِ الذي يُبْسَطُ تحتَ النخلة، فيجتمعُ لهم شيءٌ كثيرٌ، فلما ماتَ قال بنوه إنْ فعلْنا ما كان يفعلُه أبونا ضاقَ علينا الأمرُ، فحلفوا ليصرمنَّها وقْتَ الصباحِ خُفْيَةً عن المساكين كما قال: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعنَّها داخلين في الصباحِ.

(١٨) ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يقولون إنْ شاءَ الله، وإنما سمَّاه استثناءً لما فيه من الإخراجِ غيرَ أن المخرجَ به خلافُ المذكورِ والمخرجُ بالاستثناءِ عينُه، أو لأنَّ معنى لأخرجُ إنْ شاءَ الله ولا أخرجُ إلى أن يشاءَ الله واحدٌ، أو ولا يستثنون حصَّةَ المساكينِ كما كان يخرجُ أبوهم.

(١٩) ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ على الجنةِ. ﴿طَآئِفٌ﴾ بلاءٌ طائفٌ. ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مبتدأٌ منه. ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالبستانِ الذي صُرِمَ ثمارُه بحيثُ لم يبقَ فيه شيءٌ. فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، أو كالليل باحتراقها واسودادِها، أو كالنهار بابيضاضِها من فرطِ اليُبْسِ سُمِّيا بالصريم لأنَّ كلاًّ منهما ينصرمُ عن صاحبِه أو كالرملِ.

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾

(٢١) ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ .

(٢٢) ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ أنِ اخرجُوا أو بأنِ أخرجُوا إليه غدوةً، وتعديةُ الفعلِ بعلَى إما لتضمُّنه معنى الإقبالِ أو لتشبيهِ الغدوِّ للصرّامِ بغدوِّ العدوِّ المتضمِّنِ لمعنى الاستيلاءِ. ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ قاطعين له.

(٢٣) ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ يتشاورون فيما بينَهم وخَفَى وخَفَتَ وخَفَدَ بمعنى الكتْمِ، ومنه الخفدودُ للخفاشِ.

(٢٤) ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أنْ مفسِّرةٌ، وقرىء بطرحِها على إضمار القول، والمرادُ بنهيِ المسكين عن الدخولِ المبالغةُ في النهي عن تمكينِه من الدخول كقولهم: لا أرينَّك ها هُنا.

(٢٥) ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ وغدوا قادرينَ على نكَدٍ لا غيرَ، من حارَدَتِ السَّنَةُ إذا لم يكنْ فيها مطرٌ، وحاردتِ الإبلُ إذا منعتْ درَّها. والمعنى أنهم عزموا أنْ يتنكَّدوا على المساكين فتُنُكِّدَ عليهم بحيث لا يقدرون إلا على النكِدِ، أو غدوا حاصلينَ على النكدِ والحرمانِ مكانَ كونهم قادرينَ على الانتفاعِ. وقيل الحرْدُ بمعنى الْحَرَدِ وقد قرىء به أي لم يقدروا إلا على حنقِ بعضِهم لبعضٍ كقوله ﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾[1] وقيل الحردُ القصدُ والسرعةُ قال:

أَقْبَــلَ سَيْــلٌ جَــاءَ مِــنْ أَمْــرِ اللهِ يَحْــرُدُ حَــرْدَ الجَنَّــةِ المُغِلَّــة

أي غدَوْا قاصدين إلى جنَّتهم بسرعةٍ قادرينَ عندَ أنفسِهم على صِرَامِها. وقيل عَلَمٌ للجنَّةِ.

(٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أولَ ما رأوها. ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ طريقَ جنَّتِنا وما هي بها.

(٢٧) ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ أي بعدَ ما تأملوا وعرفُوا أنها هي قالوا بل نحن ﴿مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمْنَا خيرها لجنايتنا على أنفسِنا.

(٢٨) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ رأياً، أو سِنّاً. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تَذْكرونه وتتوبون إليه من خُبْثِ نيَّتِكم، وقد قاله حينما عزموا على ذلك ويدلُّ على هذا المعنى.

(٢٩) ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي لولا تستثنونَ فسُمِّيَ الاستثناءُ تسبيحاً لتشارُكِهما في التعظيمِ، أو لأنه تنزيهٌ عن أنْ يجريَ في ملكِهِ ما لا يريدُه.

(٣٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ يلوم بعضُهم بعضاً، فإنَّ منهم مَنْ أشار بذلك ومنهم مَنِ استَصْوَبَه ومنهم من سكتَ راضياً ومنهم من أنكرهُ.

---

(١) ن: «٣٠».

قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ
كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾
سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

(٣١) ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ متجاوزين حدودَ اللهِ تعالى.

(٣٢) ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ ببركةِ التوبةِ والاعترافِ بالخطيئةِ، وقد رُوِيَ[1] أنهم أُبْدِلُوا خيراً منها. وقرىء يبدِلُنا بالتخفيفِ. ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ راجونَ العفوَ طالبونَ الخيرَ. وإلى لانتهاءِ الرغبةِ، أو لتضمُّنِها معنى الرجوعِ.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ مثلُ ذلك العذابِ الذي بلونا به أهلَ مكّةَ وأصحابَ الجنةِ العذابَ في الدنيا. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظمُ منه. ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ لاحترزوا عما يؤدِّيهم إلى العذاب.

(٣٤) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرة، أو في جوار القدسِ. ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جناتٍ ليس فيها إلا التنعُّمُ الخالِصُ.

(٣٥) ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إنكارٌ لقول الكفرةِ، فإنَّهم كانوا يقولون: إنْ صحَّ أنَّا نُبْعَثُ كما يزعم محمدٌ ومن معه لم يفضُلونا بل نكون أحسنَ حالاً منهم كما نحن عليه في الدنيا.

(٣٦) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ التفاتٌ فيه تعجُّبٌ من حُكْمِهم واستبعادٌ له، وإشعارٌ بأنه صادرٌ منِ اختلالِ فِكْرٍ واعوجاجِ رأيٍ.

(٣٧) ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ من السماءِ. ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ تقرؤُون.

(٣٨) ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ إن لكم ما تختارونَه وتشتهونَه، وأصلُه أنَّ لكم بالفتحِ لأنه المدروسُ فلما جِيْءَ باللامِ كُسِرتْ، ويجوز أنْ يكونَ حكايةً للمدروسِ أوِ استئنافاً. وتخيَّرَ الشيءَ واختارَه أخذَ خيرَهُ.

(٣٩) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ عهودٌ مؤكَّدة بالإيمان. ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ متناهيةٌ في التوكيد، وقُرِئَتْ بالنصبِ على الحالِ والعاملُ فيها أحدُ الظرفينِ. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّقٌ بالمقدَّرِ في لكم أي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامةِ لا نخرجُ عن عهدَتِها حتى نحكِّمَكم في ذلك اليوم، أو ببالغةٍ أي أيمانٌ تبلغُ ذلك اليومَ. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القسمِ لأنَّ معنى أم لكم أيمانٌ علينا أم أقسمْنا لكم.

(٤٠) ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ بذلك الحكمِ قائمٌ يدَّعيه ويصحِّحُهُ.

(٤١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ يشاركونهم في هذا القولِ. ﴿فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم إذ لا أقلَّ من التقليد. وقد نبَّه سبحانه وتعالى في هذه الآياتِ على نفي جميعِ ما يمكن أنْ يتشبَّثوا به من عقلٍ أو نقلٍ يدلُّ عليه لاستحقاقٍ أو وعدٍ أو محضِ تقليدٍ على الترتيبِ تنبيهاً على مراتبِ النظرِ وتزييفاً

(١) ذكره الألوسي (٢٩/ ٣٢) عنه بدون سند.

لما لا سندَ له. وقيل المعنى أم لهم شركاءُ يعني الأصنامَ يجعلونَهم مثلَ المؤمنين في الآخرة، كأنه لما نَفَى أنْ تكونَ التسويةُ من الله تعالى نَفَى بهذا أنْ تكون مما يشاركونَ اللهَ به.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾

(٤٢) ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يومَ يشتدُّ الأمرُ ويصعبُ الخطبُ، وكَشْفُ الساقِ مَثَلٌ في ذلك، وأصلُه تشميرُ المخدَّراتِ عن سوقهنَّ في الهربِ. قال حاتمٌ:

أَخو الحَرْبِ إنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّهَا وإنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ شَمَّرَا[1]

أو يومَ يُكْشَفُ عن أصلِ الأمرِ وحقيقتِه بحيثُ يصيرُ عَيَاناً مستعارٌ من ساقِ الشجرِ وساقِ الإنسان، وتنكيرُهُ للتهويل أوِ للتعظيم. وقرىءَ تَكْشِفُ وتُكْشَفُ بالتاءِ على بناءِ الفاعلِ أوِ المفعولِ، والفعلُ للساعةِ أوِ الحالِ. ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ توبيخاً على تركِهم السجودَ إن كان اليومُ يومَ القيامةِ، أو يدعون إلى الصلواتِ لأوقاتِها إنْ كان وقتُ النزعِ. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لذهابِ وقْتِه أو زوالِ القدرةِ عليه.

(٤٣) ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ تلحقُهم ذلَّةٌ. ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا أو زمانَ الصحةِ. ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ متمكِّنون منه مزاحُو العللِ فيه.

(٤٤) ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ كِله إليَّ فإني أكفيكَهُ. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سندْنِيهم من العذاب درجةً درجةً بالإمهالِ وإدامةِ الصحةِ وازديادِ النِّعمةِ. ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراجٌ وهو الإنعامُ عليهم لأنَّهم حَسِبُوه تفضيلاً لهم على المؤمنينَ.

(٤٥) ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ وأمهِلُهم. ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ لا يُدْفَعُ بشيءٍ، وإنما سمَّى إنعامَه استدراجاً بالكيد لأنه في صورته.

(٤٦) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ على الإرشادِ. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ من غرامةٍ. ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ بحملِها فيعرِضُون عنك.

(٤٧) ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ اللوحُ أو المغيَّباتُ. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمونَ به ويستغنونَ به عن علمِكَ.

(٤٨) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم وتأخيرُ نُصْرَتِكَ عليهم. ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يونسُ عليه الصلاة والسلام. ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ في بطن الحوتِ. ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوءٌ غيظاً من الضجرةِ فتبتلي ببلائِه.

---

(١) من الطويل.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

(٤٩) ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني التوفيقَ للتوبةِ وقبولَها، وحَسُنَ تذكيرُ الفعلِ للفصْلِ، وقرىء تداركتْه وتدّاركَه أي تتداركُه على حكايةِ الحال الماضيةِ بمعنى لولا أن كان يُقَالُ في تتداركُه. ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالأرضِ الخاليةِ عن الأشجارِ. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ مليمٌ مطرودٌ عن الرحمة والكرامةِ، وهو حالٌ يعتمِدُ عليها الجوابُ لأنها المنفيةُ دونَ النَّبْذِ.

(٥٠) ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ بأنْ ردَّ الوحْيَ إليه، أو استنبأه إنْ صحَّ أنه لم يكن نبياً قبل هذه الواقعةِ. ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من الكاملين في الصلاح بأنْ عصَمَه من أنْ يفعلَ ما تركُه أَوْلَى، وفيه دليلٌ على خلْقِ الأفعال. والآيةُ نزلتْ حين همَّ رسول الله ﷺ أنْ يدعوَ على ثقيفٍ. وقيل بِأُحُدٍ حين حلَّ به ما حلَّ فأرادَ أنْ يدعوَ على المنهزمينَ.

(٥١) ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ إنْ هي المخففةُ واللامُ دليلُها والمعنى: أنهم لشدةِ عداوتِهم ينظرون إليك شَزَراً بحيثُ يكادون يُزِلُّون قدمَك، أو يهلِكُونك من قولهم نَظَرَ إليَّ نظراً يكاد يصرعُني أي لو أمكنَه بنظره الصرعَ لفعلَه، أو أنهم يكادون يصيبونك بالعينِ؛ إذ رُوِيَ أنه كان في بني أسدٍ عيَّانون، فأراد بعضُهم أنْ يعيِّنَ رسولَ الله ﷺ، فنزلتْ[١]. وفي الحديث: «إنَّ العينَ لَتُدْخِلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ»[٢] ولعلَّه يكون من خصائص بعضِ النفوس. وقرأ نافعٌ لَيَزْلِقونَك من زَلَقْتُه فزَلَقَ

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص٤٤٣ بدون سند.

(٢) أخرجه ابن عدي (٦/ ٢٤٠٣) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠) والخطيب في تاريخ بغداد» (٩/ ٢٤٤) من حديث جابر.

وأشار الذهبي في «الميزان» (٢/ ٢٧٥) إلى هذا الحديث وحكم عليه بالنكارة.

وقال أبو نعيم: «غريب من حديث الثوري تفرد به معاوية».

وقال الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٢٥١): «... وإسناده حسن عندي لأن شعيب بن أيوب وثقه الدارقطني وابن حبان، وجرحه أبو داود جرحاً مبهماً فقال: إني لأخاف الله تعالى في الرواية عنه» هـ.

● وله شاهد بالمعنى من حديث أبي ذر بلفظ «إن العين لتولع الرجل بإذن الله حتى يصعد حالقاً ثم يتردى منه».

أخرجه أحمد (٥/ ١٤٦) والبزار (٤/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ـ كشف) وابن عدي في الكامل (٣/ ٩٧١) عنه.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٦) وقال: «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد ثقات، وقال الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٥٨١): «وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات معروفون غير محجن هذا أورده في «تعجيل المنفعة» (ص٣٩٥) ـ من هذا الإسناد ـ وقال: «ذكره ابن حبان في الثقات ـ (٥/ ٤٤٨) ـ» هـ.

● وله شاهد آخر بالمعنى أيضاً من حديث ابن عباس بلفظ: «العين حق تستنزل الحالق».

أخرجه أحمد (١/ ٢٧٤، ٢٩٤) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٨٤ رقم ١٢٨٣٣) والحاكم (٤/ ٢١٥) عنه. وقال الحاكم: صحيح ووافقه الذهبي.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٧) وقال: «رواه أحمد والطبراني وفيه دويد البصري، وقال أبو حاتم لين، وبقية رجاله ثقات» هـ.

=

كحزنْته فحزِنَ، وقرىء ليُزهِقونك أي ليهلِكُونك. ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآنَ أي ينبعثُ عند سماعِه بغضُهم وحسدُهم. ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ حيرةً في أمره وتنفيراً عنه.

(٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لما جنَّنُوه لأجلِ القرآنِ بيَّن أنه ذِكْرٌ عامٌّ لا يدركُه ولا يتعاطَاه إلا مَنْ كان أكملَ الناسِ عقلاً وأميزَهم رأياً. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ القلمِ أعطاه الله ثوابَ الذين حسَّنَ الله أخلاقَهم»[١].

☆ ☆ ☆

= والخلاصة أن الحديث حسن بشواهده والله أعلم.

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٧ رقم ٢١٣).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

ترتيبها ٦٩ — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾

سورة الحاقة مكية [١]، وآيها اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ أي الساعةُ أو الحالةُ التي يحقُّ وقوعُها، أوِ التي تحقُّ فيها الأمورُ أي تُعْرَفُ حقيقتُها، أو تقعُ فيها حواقُّ الأمورِ من الحسابِ والجزاءِ على الإسنادِ المجازيِّ، وهي مبتدأٌ خبرُها:

(٢) ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وأصلُه ما هيَ أيْ: أيُّ شيءٍ هيَ على التعظيمِ لشأنِها والتهويلِ لها، فوضَعَ الظاهرَ موضِعَ الضمير لأنه أهولُ لها.

(٣) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ ما هيَ، أي أنك لا تعلمُ كُنهَهَا فإنَّها أعظمُ من أنْ تبلُغَها درايةُ أحدٍ، وما مبتدأٌ وأدراكَ خبرهُ.

(٤) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ بالحالةِ التي تقرعُ فيها الناسَ بالإفزاعِ والأجرامَ بالانفطارِ والانتشارِ، وإنما وُضِعَتْ موضعَ ضميرِ الحاقةِ زيادةً في وصْفِ شدَّتِها.

(٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعةِ المجاوزةِ للحدِّ في الشدَّةِ وهي الصيحةُ، أوِ الرجفةُ لتكذيبهم بالقارعةِ، أو بسببِ طغيانِهم بالتكذيبِ وغيرِهِ على أنها مصدرٌ كالعاقبةِ وهو لا يطابِقُ قولُه:

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز».
(١٦/ ٩٢): «وهي مكية بالإجماع».

(٦) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي شديدةِ الصوتِ أو البردِ من الصرِّ أوِ الصِّرِّ. ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدةِ العصفِ كأنها عتتْ على خزَّانِها فلم يستطيعوا ضَبْطَها، أو على عادٍ فلم يقدروا على ردِّها.

(٧) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ سلَّطها عليهم بقدرتِه، وهو استئنافٌ أو صفةٌ جيء به لنفي ما يُتَوَهَّمُ من أنها كانتْ من اتصالاتٍ فلكيةٍ، إذ لو كانتْ لكان هو المقدِّر لها والمسبِّبُ. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متتابعاتٍ جمعُ حاسمٍ من حسمتُ الدابةَ إذا تابعتَ بين كيِّها، أو نَحِساتٍ حسمتْ كلَّ خير واستأصلتْه، أو قاطعاتٍ قطعتْ دابِرَهم، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدراً منتصِباً على العلَّةِ بمعنى قطعاً، أوِ المصدرِ لفعله المقدَّرِ حالاً أي تحسمُهم حسوماً ويؤيده القراءةُ بالفتح، وهي كانتْ أيامُ العجوزِ من صبيحةِ أربعاءِ إلى غروبِ الأربعاءِ الآخَرِ، وإنما سُمِّيتْ عجوزاً لأنها عَجُزُ الشتاء، أو لأنَّ عجوزاً من عادٍ توارتْ في سربٍ فانتزعتْها الريحُ في الثامنِ فأهلكتْها. ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ﴾ إنْ كنتَ حاضِرَهم ﴿فِيهَا﴾ في مهابِّها أو في الليالي والأيام. ﴿صَرْعَىٰ﴾ موتى جمعُ صريعٍ. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أصولُ نخلٍ. ﴿خَاوِيَةٍ﴾ متآكلةِ الأجوافِ.

فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾

(٨) ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ من بقيةٍ أو نَفْسٍ باقية أو بقاءٍ.

(٩) ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ ومن تقدَّمه. وقرأ البصريانِ والكسائيُّ ومَنْ قِبَلَهُ أي ومَنْ عِندَه من أتباعِه، ويدل عليه أنه قرئ ومَنْ معهُ. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ قُرى قومِ لوطٍ والمرادُ أهلُها. ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ أو بالفعلةِ، أو الأفعالِ ذاتِ الخطأ.

(١٠) ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصتْ كلُّ أمةٍ رسولَها. ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ زائدةً في الشدةِ زيادةَ أعمالِهم في القُبحِ.

(١١) ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ جاوزَ حدَّه المعتادَ، أو طغى على خُزَّانه وذلك في الطوفانِ وهو يؤيد مَنْ قِبَلَهُ. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي آباءَكم وأنتم في أصلابهم. ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ في سفينةِ نوحٍ عليه الصلاة والسلام.

(١٢) ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ لنجعلَ الفعلةَ وهي إنجاءُ المؤمنين وإغراقُ الكافرين. ﴿تَذْكِرَةً﴾ عبرةً ودلالةً على قدرة الصانعِ وحكمته وكمالِ قهرِه ورحمته. ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ وتحفظَها، وعن ابن كثير تَعْيَهَا بسكونِ العين تشبيهاً بكَتْفٍ، والوعيُ أنْ تحفظَ الشيءَ في نفسِك والإيعاءُ أنْ تحفظَه في غيرِكَ. ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ من شأنِها أنْ تحفظَ ما يَجبُ حفظُه بتذكُّرِه وإشاعتِه والتفكُّرِ فيه والعملِ بموجبِه، والتنكيرُ للدلالة على قلَّتِها وأنَّ مَنْ هذا شأنُه مع قلَّته تسبَّبَ لإنجاءِ الجمِّ الغفير وإدامةِ نسْلِهم. وقرأ نافع أذْنٌ بالتخفيفِ.

(١٣) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ لما بالغَ في تهويلِ القيامةِ وذَكَرَ مآل المكذبينَ بها تفخيماً لشأنِها وتنبيهاً على مكانها عادَ إلى شرحها. وإنما حَسُنَ إسناد الفعلِ إلى المصدرِ لتقيده، وحسُن تذكيرُه

للفصْلِ، وقرىء نفخةً بالنصبِ على إسنادِ الفعل إلى الجارِّ والمجرور والمرادُ بها النفخةُ الأولى التي عندَها خرابُ العالَمِ.

وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾

(١٤) ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ رُفِعَتْ من أماكِنها بمجرَّدِ القدرةِ الكاملة، أو بتوسُّطِ زلزلةٍ أو ريحٍ عاصفة. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ فضربتِ الجملتانِ بعضُها ببعض ضربةً واحدةً فيصيرُ الكلُّ هباءً، أو فَبُسِطَتَا بسطةً واحدةً فصارتا أرضاً لا عِوجَ فيها ولا أَمْتاً لأنَّ الدكَّ سببٌ للتسويةِ، ولذلك قيل ناقةٌ دكَّاء للتي لا سنامَ لها، وأرضٌ دكَّاءُ للمتَّسِعة المستويةِ.

(١٥) ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذٍ. ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قامتِ القيامةُ.

(١٦) ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ لنزولِ الملائكة. ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفةٌ مسترخيةٌ.

(١٧) ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ والجنسُ المتعارفُ بالمَلَكِ. ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ جوانبها جمعُ رجا بالقصرِ، ولعلَّه تمثيلٌ لخراب السماءِ بخرابِ البنيانِ وانضواءِ أهلها إلى أطرافِها وحواليها، وإنْ كانَ على ظاهرِه فلعلَّ هلاكَ الملائكة أثرُ ذلك. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوقَ الملائكةِ الذين هم على الأرجاءِ، أو فوقَ الثمانيةِ لأنها في نية التقديم. ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ثمانيةُ أملاكٍ، لما رُوِيَ مرفوعاً «أنهم اليومَ أربعةٌ فإذا كان يومُ القيامة أمدَّهم الله بأربعةٍ آخرينَ»[(١)]. وقيل ثمانيةُ صفوفٍ من الملائكة لا يعلمُ عدَّتَهم إلا اللهُ، ولعله أيضاً تمثيلٌ لعظمتِه بما يشاهدُ من أحوالِ السلاطين يومَ خروجِهم على الناس للقضاءِ العامِّ وعلى هذا قال:

(١٨) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ تشبيهاً للمحاسبة بعرضِ السلطان العسكرَ لتُعْرَفَ أحوالُهم، وهذا وإن كان بعدَ النفخةِ الثانية لكنْ لما كان اليومُ اسماً لزمانٍ متَّسِع تقعُ فيه النفختانِ والصعقةُ والنشورُ والحساب وإدخالُ أهل الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النارَ صح جعلُه ظرفاً للكلِّ. ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرةٌ على الله تعالى حتى يكونَ العرضُ للاطلاع عليها، وإنما المرادُ منه إفشاءُ الحال والمبالغةُ في العدلِ، أو على الناس كما قال الله تعالى ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[(٢)] وقرأ حمزةُ والكسائي بالياء للفصْلِ.

(١٩) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تفصيلٌ للعرض. ﴿فَيَقُولُ﴾ تبجُّحاً. ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ هاء اسمٌ لخذْ، وفيه لغاتٌ أجودُها هاءُ يا رجلُ وهاءِ يا امرأةُ وهاؤما يا رجلانِ أو يا امرأتانِ وهاؤمُ يا رجالُ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج٢٩/٥٩) عن ابن إسحاق. وفيه محمد بن حميد الرازي ضعيف. كما أن الحديث معضل.

● وقال صاحب البحر المحيط (٨/ ٣٢٤): «وذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكالاً متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحاً» هـ.

(٢) الطارق: «٩».

وهاؤنَ يا نسوةُ، ومفعولُه محذوفٌ، وكتابيه مفعولُ اقرؤوا لأنه أقربُ العامِلَيْنِ، ولأنه لو كانَ مفعولَ هاؤم لقيلَ اقرؤوه إذ الأَوْلَى إضماره حيثُ أمكنَ والهاءُ فيه وفي حسابية ومالية وسلطانية للسَّكْتِ تثبُتُ في الوقفِ وتسقطُ في الوصلِ، واستُحِبَّ الوقفُ لثباتها في الإمامِ، ولذلك قرىء بإثباتها في الوصْلِ.

إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾

(٢٠) ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي علمتُ، ولعلَّه عبَّر عنه بالظنِّ إشعاراً بأنه لا يقدحُ في الاعتقادِ ما يهجسُ في النفس من الخطراتِ التي لا تنفكُّ عنها العلومُ النظريةُ غالباً.

(٢١) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ذاتِ رضا على النسبةِ بالصيغةِ، أو جعلِ الفعلِ لها مجازاً وذلك لكونها صافيةً عن الشوائبِ دائمةً مقرونةً بالتعظيمِ.

(٢٢) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعةِ المكانِ لأنها في السماءِ، أو الدرجاتِ أو الأبنية والأشجار.

(٢٣) ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمعُ قِطْفٍ وهو ما يُجتنَى بسرعةٍ والقَطفُ بالفتحِ المصدرُ. ﴿دَانِيَةٌ﴾ يتناولُها القاعدُ.

(٢٤) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ بإضمار القولِ، وجُمِعَ الضميرُ للمعنى. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً أو هنئتُم هنيئاً. ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ بما قدمتُم من الأعمال الصالحةِ. ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الماضيةِ من أيام الدنيا.

(٢٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من قُبْحِ العملِ وسوءِ العاقبة. ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾.

(٢٦) ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾.

(٢٧) ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ يا ليتَ الموتةَ التي مِتُّها. ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ القاطعةَ لأمري فلم أبعثْ بعدَها، أو يا ليت هذه الحالةَ كانت الموتةَ التي قضتْ عليَّ لأنه صادفَها أمرٌ من الموتِ فتتمنَّاه عندَها، أو يا ليت حياةُ الدنيا كانتِ الموتةَ ولم أُخلَقْ فيها حياً.

(٢٨) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ مالي من المالِ والتبعِ. وما نَفْيٌ والمفعولُ محذوفٌ، أو استفهامُ إنكارٍ مفعولٌ لأغْنَى.

(٢٩) ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ مُلْكِي وتسلُّطي على الناس، أو حجَّتي التي كنت أحتجُّ بها في الدنيا. وقرأ حمزةُ عنِّي مالي عنِّي سلطاني بحذفِ الهاءينِ في الوصلِ، والباقون بإثباتِها في الحالينِ.

(٣٠) ﴿خُذُوهُ﴾ يقوله اللهُ تعالى لخزنةِ النار. ﴿فَغُلُّوهُ﴾.

(٣١) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ ثم لا تُصْلُوه إلا الجحيمَ، وهي النارُ العُظْمى لأنه كان يتعظَّم على الناس.

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا
تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٢) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أي طويلةٍ. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ فأدْخِلوه فيها بأنْ تلفُّوها على جسده وهو فيما بينها مرهَقٌ لا يقدِرُ على حركةٍ، وتقديمُ السلسلةِ كتقديمِ الجحيمِ للدلالةِ على التخصيصِ والاهتمامِ بذكْرِ أنواعِ ما يُعَذَّبُ به، وثمَّ لتفاوُتِ ما بينَها في الشدة.

(٣٣) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تعليلٌ على طريقة الاستئنافِ للمبالغة، وذِكْرُ العظيمِ للإشعار بأنه هو المستحقُّ للعظمةِ فمن تعظَّم فيها استوجَبَ ذلك.

(٣٤) ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ولا يحثُّ على بذْلِ طعامه أو على إطعامِه فضلاً عن أنْ يبذُلَ من ماله، ويجوز أنْ يكون ذِكْرُ الحضِّ للإشعارِ بأنَّ تاركَ الحضِّ بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعلِ. وفيه دليلٌ على تكليف الكفار بالفروعِ، ولعلَّ تخصيصَ الأمرين بالذِّكْرِ لأنَّ أقبَحَ العقائدِ الكفرُ بالله تعالى وأشنعَ الرذائلِ البخلُ وقسوةُ القلبِ.

(٣٥) ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ قريبٌ يحميه.

(٣٦) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غُسَالةُ أهلِ النار وصديدُهم فِعْلِينٌ من الغَسْلِ.

(٣٧) ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أصحابُ الخطايا من خطِيءَ الرجل إذا تعمَّد الذَّنْبَ لا من الخطأ المضادِّ للصواب. وقرىء الخاطيونَ بقلبِ الهمزة ياءً، والخاطونَ بطرحِها.

(٣٨، ٣٩) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لظهور الأمر واستغنائِه عن التحقيق بالقسمِ، أو فأقسم ولا مزيدةٌ، أو فلا ردَّ لإنكارهم البعثَ وأقْسِمُ مستأنَفٌ. ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بالمشاهداتِ والمغيَّباتِ وذلك يتناول الخالقَ والمخلوقاتِ بأسْرِها.

(٤٠) ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنَّ القرآنَ. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلِّغهُ عن اللهِ تعالى فإنَّ الرسولَ لا يقولُ عن نفسِه. ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى وهو محمدٌ أو جبريلُ عليهما الصلاة والسلام.

(٤١) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمون تارةً. ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ تصدِّقون لما ظهرَ لكم صدْقُه تصديقاً قليلاً لفرْط عِنَادِكم.

(٤٢) ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تدَّعون أخرى. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تذكَّرون تذكُّراً قليلاً، فلذلك يلتبسُ الأمرُ عليكم وذِكْرُ الإيمانِ مع نفيِ الشاعريةِ للتذكُّرِ مع نفي الكاهنيةِ، لأنَّ عدمَ مشابهةِ القرآن للشِّعرِ أمرٌ بيِّنٌ لا ينكِره إلا معاندٌ بخلافِ مباينتِه للكهانةِ، فإنها تتوقفُ على تذكُّر أحوالِ الرسول ومعاني القرآن المنافيةِ لطريقةِ الكهنة ومعاني أقوالهم. وقرأ ابنُ كثير ويعقوبُ بالياء فيهما.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا
مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

(٤٣) ﴿تَنزِيلٌ﴾ هو تنزيلٌ. ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نزَّله على لسان جبريلَ عليه السلام.

(٤٤) ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ سُمِّيَ الافتراءُ تقوُّلاً لأنه قولٌ متكلَّفٌ، والأقوالُ المفتراةُ أقاويلُ تحقيراً لها كأنه جمعُ أُفعولةٍ من القولِ كالأضاحيكِ.

(٤٥) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ بيمينه.

(٤٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ أي نياطَ قلبِه بضربِ عُنُقِهِ، وهو تصويرٌ لإهلاكه بأفظعِ ما يفعلُه الملوك بمن يغضَبُون عليه، وهو أنْ يأخذَ المقتولَ بيمينه ويكفحَه بالسيفِ ويضربَ به جِيْدَه، وقيل اليمينُ بمعنى القوةِ.

(٤٧) ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ عن القتلِ أو المقتولِ. ﴿حَٰجِزِينَ﴾ دافعينَ وصفٌ لأحدٍ فإنه عامٌّ والخطابُ للناس.

(٤٨) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ القرآنَ. ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم المنتفعونَ به.

(٤٩) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ فنجازيهم على تكذيبهم.

(٥٠) ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إذا رأوا ثوابَ المؤمنين به.

(٥١) ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ لليقين الذي لا ريبَ فيه.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فسبِّح اللهَ بذكرِ اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقوُّلِ عليه وشكراً على ما أَوْحَىٰ إليك. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الحاقةِ حاسبهُ الله تعالى حساباً يسيراً»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والواحدي والثعلبي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٧ رقم ٢١٧).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المَعَارِج

ترتيبها ٧٠ — آياتها ٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾

سورة المعارج مكية[1]، وآيها أربع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ أي دعا داعٍ به بمعنى استدعاه ولذلك عدِّيَ الفعلُ بالباءِ، والسائلُ هو النضر بنُ الحارثِ فإنه قال: «إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء»[2] الآيةَ، أو أبو جهل فإنه قال «فأسقِطْ علينا كسَفاً من السماء»[3] سأله استهزاءً، أو الرسولُ عليه الصلاة والسلام استعجلَ بعذابهم. وقرأ نافع وابن عامر سالَ وهو إما من السؤالِ على لغةِ قريشٍ قال:

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/١٠٦): «وهي مكية لا خلاف بين الرواة في ذلك».

(٢) الأنفال الآية «٣٢».

وأخرج الحديث الحاكم في «المستدرك» (٢/٥٠٢) عن سعيد بن جبير. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: على شرط البخاري فقط.

وأورده السيوطي في «الدر» (٨/٢٧٧) وزاد نسبته للغريابي، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٩/٥٥) بدون سند ولا راوٍ.

سـالـتْ هـذيـلٌ رسـولَ الله فـاحشـةً ضلَّـت هـذيـلٌ بمـا سـالـتْ ولـم تُصِـبِ

أو من السيلانِ ويؤيده أنه قرىء سالَ سيلٌ على أنَّ السيلَ مصدرٌ بمعنى السائلِ كالغورِ والمعنى سالَ وادٍ بعذاب. ومُضِيُّ الفعلِ لتحقُّقِ وقوعه إما في الدنيا وهو قتل بدرٍ أو في الآخرة وهو عذابُ النار.

(٢) ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صفةٌ أخرى لعذاب أو صلةٌ لواقع وإنْ صحَّ أن السؤالَ كان عمَّن يقع به العذابُ كان جواباً، والباءُ على هذا لتضمُّنِ سأل معنى اهتمَّ ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ يردُّه.

(٣) ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من جهته لتعلُّقِ إرادتِه ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعدِ وهي الدرجاتُ التي يَصْعَدُ فيها الكلِمُ الطيبُ العملُ الصالحُ أو يترقَّى فيها المؤمنون في سلوكِهم أو في دار ثوابِهم أو مراتبِ الملائكة أو في السموات فإنَّ الملائكة يعرجُون فيها.

(٤) ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ استئنافٌ لبيان ارتفاع تلك المعارجِ وبُعْدِ مداها على التمثيلِ والتخييلِ، والمعنى أنها بحيث لو قدِّر قطعُها في زمان لكان في زمان يقدَّر بخمسين ألف سنة من سِنيِّ الدنيا. وقيل معناه تعرجُ الملائكة والروحُ إلى عرشه في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألفِ سنةٍ من حيثُ إنهم يقطعون فيه ما يقطع الإنسانُ فيها لو فرض لا أنَّ ما بين أسفلِ العالم وأعلى شُرُفاتِ العرش مسيرةُ خمسينِ ألف سنةٍ لأن ما بين مركز الأرض ومقعرِ السماء الدنيا على ما قيل مسيرةُ خمسمائة عام وثخنُ كلٍّ واحدة من السموات السبعِ والكرسي والعرشِ كذلك، وحيث قال في يوم كان مقدارُه ألفَ سنة يريد زمانَ عروجِهم من الأرض إلى محدبِ السماء الدنيا. وقيل في يوم متعلِّقٌ بواقعٍ أو سالَ إذا جُعِلَ من السيلانِ والمرادُ به يومُ القيامة واستطالتُه إما لشدَّته على الكفار أو لكثرةِ ما فيه من الحالات والمحاسباتِ أو لأنه على الحقيقة كذلك، والروحُ جبريلُ عليه السلام وإفراده لفضلِه أو خلْقٌ أعظمُ من الملائكة.

(٥) ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لا يشوبُه استعجالٌ واضطرابُ قلبٍ وهو متعلِّقٌ بِسَأَلَ لأن السؤالَ كان عن استهزاءٍ أو تعنُّتٍ وذلك مما يضجره أو عن تضجُّر واستبطاء للنصرِ أو بسالَ لأن المعنى قربَ وقوعُ العذاب فاصبر فقد شارفْتَ الانتقامَ.

(٦) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾ الضميرُ للعذاب أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ من الإمكان.

(٧) ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ منه أو من الوقوع.

(٨) ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ظرفٌ لقريباً أي يمكن يومَ تكون أو لمضمر دلَّ عليه واقعٌ أو بدل من في يوم إنْ علِّقَ به، والمهلُ المذابُ في مَهْلٍ كالفِلزَّاتِ أو دردي الزيتِ.

(٩) ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصوفِ المصبوغ ألواناً لأنَّ الجبالَ مختلفةُ الألوان فإذا بُسَّتْ وطُيِّرتْ في الجو أشبهتِ العِهْنَ المنفوشَ إذا طيرتْه الريحُ.

(١٠) ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ ولا يسألُ قريبٌ قريباً عن حاله. وعن ابن كثير ولا يُسْأَلُ على بناءِ المفعول أي لا يُطْلَبُ من حميم حميمٌ، أو لا يسألَ منه حالَه.

(١١) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ استئنافٌ أو حال تدل على أن المانعَ من هذا السؤال هو التشاغلُ دون الخفاءِ أو

ما يغني عنه من مشاهدة الحالِ كبياض الوجْه وسوادِه. وجمعُ الضميرين لعمومِ الحميم. ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ . ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ .

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾

(١٢) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ حالٌ من أحد الضميرين أو استئناف يدلُّ على أن اشتغالَ كل مجرمٍ بنفسِه بحيث يتمنَّى أنْ يفتديَ بأقربِ الناس إليه وأعلقِهم بقلبه فضلاً أنْ يهتمَّ بحاله ويسأل عنها. وقرأ نافع والكسائيُّ بفتح ميم يومئِذٍ، وقرىء بتنوين عذابٍ ونصبِ يومئذ به لأنه بمعنى تعذيبٍ.

(١٣) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرتِه الذين فُصِلَ عنهم ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ تضمُّه في النَّسَبِ أو عند الشدائد.

(١٤) ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلينِ أو الخلائق ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ عطفٌ على يفتدى أي ثم ينجيه الافتداءُ وثم للاستبعادِ.

(١٥) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ للمجرم عن الودادةِ ودلالةٌ على أنَّ الافتداءَ لا ينجيه ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير للنارِ أو مبهمٌ يفسِّره ﴿لَظَىٰ﴾ وهو خبرٌ أو بدل أو للقصةِ ولظى مبتدأٌ خبرهُ:

(١٦) ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ وهو اللهبُ الخالصُ وقيل علمٌ للنار منقولٌ من اللَّظْي بمعنى اللهب. وقرأ حفص عن عاصمٍ نزاعةً بالنصبِ على الاختصاصِ أو الحالِ المؤكدة أو المتنقلةِ على أنَّ لظى بمعنى متلظيةٍ والشَّوى الأطرافُ أو جمعُ شواةٍ وهي جلدة الرأسِ.

(١٧) ﴿تَدْعُوا۟﴾ تجذب وتُحْضِرُ كقول ذي الرِّمةِ، تدعو أنفَه الرِّبَبُ، مجازٌ عن جذبها وإحضارِها لمن فرَّ عنها، وقيل تدعو زبانيتُها، وقيل تدعو تهلِك مِنْ قولهم دعاه الله إذا أهلكه ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة.

(١٨) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ وجمع المالَ فجعلَه في وعاء وكنزهُ حرصاً وتأميلاً.

(١٩) ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ شديد الحرصِ قليلَ الصبر.

(٢٠) ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضر ﴿جَزُوعًا﴾ يكثِرُ الجزعَ.

(٢١) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ السعةُ ﴿مَنُوعًا﴾ يبالغ بالإمساكِ، والأوصافُ الثلاثة أحوالٌ مقدَّرةٌ أو محققةٌ لأنها طبائعُ جُبِلَ الإنسانُ عليها، وإذا الأُولى ظرفٌ لجزوعاً والأخرى لمنوعاً.

(٢٢) ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناءٌ للموصوفين بالصفاتِ المذكورة بعدُ من المطبوعين على الأحوال المذكورة قبلُ لمضادةِ تلك الصفاتِ لها من حيثُ إنها دالةٌ على الاستغراقِ في طاعة الحق والإشفاقِ على الخلقِ والإيمان بالجزاء والخوفِ من العقوبة وكسرِ الشهوة وإيثارِ الآجلِ على العاجل وتلك ناشئةٌ من الانهماكِ في حبِّ العاجل وقصورِ النظرِ عليها.

ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

(٢٣) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ لا يشغلُهم عنها شاغلٌ.

(٢٤) ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ كالزكواتِ والصدقاتِ الموظفة.

(٢٥) ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يَسْأَلُ فيحسب نفسه غنياً فيُحْرَمُ.

(٢٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تصديقاً بأعمالهم وهو أن يتعب نفسه ويصرف ماله طمعاً في المثوبة الأخروية ولذلك ذكر الدين.

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم.

(٢٨) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ اعتراضٌ يدل على أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يأمنَ عذابَ الله وإن بالغَ في طاعته.

(٢٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾.

(٣٠) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

(٣١) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة المؤمنين.

(٣٢) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ حافظون، وقرأ ابن كثير لأمانتِهم يعني لا يخونُون ولا ينكرون ولا يُخْفُونَ ما علمُوه من حقوق الله وحقوقِ العباد.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ وقرأ يعقوب وحفصٌ بشهاداتِهم لاختلافِ الأنواعِ[1].

(٣٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فيراعون شرائطَها ويكمِّلون فرائضَها وسُنَنَها. وتكريرُ ذكْرِ الصلاة ووصفُهم بها أولاً وآخراً باعتبارين للدلالةِ على فضلِها وإنافتِها على غيرِها، وفي نظمِ هذه الصلاة مبالغاتٌ لا تخفى[2].

(٣٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ بثوابِ الله تعالى.

---

(١) وتخصيص القيام بالشهادة مع اندراجها في الأمانات لإبانة فضلها (س٩/٣٣).

(٢) وتكرير الموصولات «الذين» لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات، كما في قول من قال:

إلى الملك القرم وابن الهمام — وليث الكتائب في المزدحم

(س٩/٣٤).

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ
نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا
مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا
كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

(٣٦) ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾ حولك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعينَ.

(٣٧) ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ فِرَقاً شتَّى، جمعُ عِزَةٍ وأصلُها عزوةٌ من العزْو، وكأن كلَّ فرقةٍ تعتزي إلى غير مَنْ تعتزي إليه الأخرى، وكان المشركون يحتفونَ حولَ رسولِ الله ﷺ حِلقاً حِلقاً ويستهزئون بكلامه.

(٣٨) ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان وهو إنكارٌ لقولهم لو صحَّ ما يقوله لِنكونَ فيها أفضلَ حظاً منهم كما في الدنيا.

(٣٩) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تعليلٌ له والمعنى أنهم مخلَّقون من نطفةٍ مذرةٍ لا تناسبُ عالم القدُسِ فمَنْ لم يستكملْ بالإيمان والطاعة ولم يتخلَّقْ بالأخلاق الملكيةِ لم يستعدَّ لدخولها، أو إنكم مخلوقون من أجلِ ما تعلمون وهو تكميلُ النفسِ بالعلم والعملِ فمن لم يستكمِلْها لم يتبوأ في منازل الكاملين، أو الاستدلالُ بالنشأة الأولى على إمكان النشأةِ الثانية التي بنوا الطمعَ على فرضِها فرضاً مستحيلاً عندهم بعد ردْعِهم عنه.

(٤٠) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾.

(٤١) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي نهلكَهم ونأتيَ بخلْقٍ أمثلَ منهم أو نعطي محمداً بدلكم مَنْ هو خيرٌ منكم وهم الأنصار. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بمغلوبين إن أردْنا ذلك.

(٤٢) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ مرَّ في آخر سورة الطور[١].

(٤٣) ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ مسرعين جمعُ سريعٍ ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ منصوبٍ للعبادةِ أو عَلَمٍ ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون. وقرأ ابن عامر وحفصٌ إلى نُصُبٍ بضمِّ النون والصاد، والباقون من السبعةِ نَصْبٍ بفتح النون وسكونِ الصاد، وقرئ بالضمِّ على أنه تخفيف نُصُب أو جمعٌ.

(٤٤) ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ مرَّ تفسيره ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ سأل سائل أعطاه الله ثوابَ الذين هم لأماناتِهم وعهدِهم راعونَ»[٢].

---

(١) الطور: «٤٥».

(٢) وهو حديث موضوع. أخرجه الواحدي وابن مردويه والثعلبي من حديث أبي بن كعب كما ذكره الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٧٧ رقم ٢٢١). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة نوح

ترتيبها ٧١ — آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

سورة نوح مكية[١] وآيها تسع أو ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ﴾ **أي بأنْ أنذِرْ أي بالإنذارِ، أو بأن قلْنا له أنذر، ويجوز أن تكونَ مفسِّرةً لتضمُّنِ الإرسالِ معنى القولِ، وقرىء بغير أنْ على إرادةِ القول.** ﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **عذابُ الآخرة أو الطوفانِ.**

(٢) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

(٣) ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ **مرَّ في الشُّعراء نظيرهُ وفي أنْ يُحْتَمَلُ الوجهانِ.**

(٤) ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ **يغفرْ لكم بعضَ ذنوبكم وهو ما سبق فإنَّ الإسلام يجبُّه فلا يؤاخذُكم به في الآخرة.** ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ **هو أقصى ما قُدِّرَ لكم بشرطِ الإيمان والطاعةِ.** ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ **إنَّ الأجلَ الذي قدَّره.** ﴿إِذَا جَآءَ﴾ **على الوجه المقدَّرِ به آجلاً. وقيل إذا جاء الأجلُ الأطولُ.** ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ **فبادروا في أوقاتِ الإمهال والتأخير.** ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **لو كنتم من أهلِ العلم والنظرِ لعلمتُم ذلك، وفيه أنهم لانهمَاكِهم في حبِّ الحياة كأنهم شاكُّون في الموت.**

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٢٠): «وهي مكية بإجماع المتأولين».

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا
أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي
أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾
وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾

(٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائماً.

(٦) ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ عن الإيمان والطاعة، وإسنادُ الزيادة إلى الدعاء على السببيةِ كقوله ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[١].

(٧) ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمانِ. ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببِه. ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ سدُّوا مسامِعَهم عن استماع الدعوة. ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ تغطَّوْا بها لئلا يروني كراهةَ النظرِ إليّ مَنْ فرَّط كراهةَ دعوتي، أو لئلا أعرفَهم فأدعُوهم، والتعبير بصيغةِ الطلبِ للمبالغة. ﴿وَأَصَرُّوا﴾ وأكبُّوا على الكفرِ والمعاصي مستعارٌ من أصرَّ الحمارُ على العانة[٢] إذا صرَّ أذنيه وأقبلَ عليها. ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباعي. ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ عظيماً.

(٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾.

(٩) ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي دعوتُهم مرةً بعد أخرى وكرةً بعد أُوْلَى على أي وجهٍ أمكنني. وثمَّ لتفاوُتِ الوجوه فإن الجهارَ أغلظُ من الإسرارِ والجمعُ بينَهما أغلظُ من الإفرادِ، أو لتراخي بعضِها عن بعض. وجهاراً نُصِبَ على المصدرِ لأنه أحدُ نوعي الدعاءِ؛ أو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ بمعنى دعاءً جهاراً أي مجاهَراً به، أو الحالِ فيكون بمعنى مجاهِراً.

(١٠) ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفرِ. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين وكأنهم لما أمرهم بالعبادةِ قالوا: إنْ كنَّا على حق فلا نتركُه وإنْ كنَّا على باطلٍ فكيف يقبلنا ويلطفُ بنا من عصيناهُ، فأمرهُم بما يجبُّ معاصيهم ويجلبُ إليهم المِنَحَ ولذلك وعدَهم عليه ما هو أوقعُ في قلوبهم. وقيل لما طالتْ دعوتُهم وتمادى إصرارُهم حبسَ الله عنهم القَطْرَ أربعينَ سنةً، وأعقمَ أرحامَ نسائِهم فوعدَهم بذلك على الاستغفارِ عما كانوا عليه بقوله:

(١١) ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

(١٢) ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ ولذلك شُرِعَ الاستغفارُ في الاستسقاءِ، والسماءُ تحتملُ المظلَّةَ والسحابَ، والمدرارُ كثيرُ الدرورِ ويستوي في هذا البناءِ المذكَّرُ والمؤنَّثُ، والمراد بالجناتِ البساتينُ.

---

(١) **التوبة: ١٢٤.**

(٢) **القطيع من حمير الوحش.**

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾

(١٣) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تأملُون له توقيراً أي تعظيماً لمن عبدَه وأطاعَه فتكونوا على حال تأملُون فيها تعظيمَها إياكم، ولله بيانٌ للموقِّرِ ولو تأخَّر لكان صلةً للوقارِ، أو لا تعتقدون له عظمةً فتخافوا عصيانَه. وإنما عبَّر عن الاعتقادِ بالرجاء التابعِ لأدنى الظنِّ مبالغةً.

(١٤) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ حالٌ مقرِّرةٌ للإنكار من حيثُ إنها موجبةٌ للرجاء فإنه خلقَهم أطواراً أي تاراتٍ، إذ خلقَهم أولاً عناصرَ. ثم مركباتٍ تغذَّى بها الإنسانُ ثم أخلاطاً ثم نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأهم خلقاً آخرَ، فإنه يدلُّ على أنه يمكنُ أنْ يعيدَهم تارةً أخرى فيعظِّمَهم بالثوابِ وعلى أنه تعالى عظيمُ القدرةِ تامُّ الحكمةِ، ثم أتبعَ ذلك ما يؤيده من آياتِ الآفاقِ فقال:

(١٥) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾.

(١٦) ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي في السمواتِ وهو في السماء الدنيا، وإنما نُسِبَ إليهن لما بينهنَّ من الملابسةِ. ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ مثّلَها به لأنها تزيلُ ظلمةَ الليل عن وجه الأرض كما يزيلُها السراجُ عما حولَه.

(١٧) ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أنشأكُم منها فاستُعِيْرَ الإنباتُ للإنشاءِ لأنه أدلُّ على الحدوثِ والتكوُّنِ من الأرض، وأصلُه أنبتكُم من الأرضِ إنباتاً فنبتم نباتاً فاخْتَصَرَهُ اكتفاءً بالدلالة الالتزامية.

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالحشرِ، وأكّده بالمصدرِ كما أكَّد به الأولَ دلالةً على أنَّ الإعادةَ محقَّقةٌ كالإبداء، وأنها تكون لا محالةَ.

(١٩) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلَّبون عليها.

(٢٠) ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ واسعةً جمعُ فَجٍّ، ومِنْ لتضمُّنِ الفعل معنى الاتخاذ.

(٢١) ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتُهم به. ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ واتبعوا رؤساءَهم البطِرِيْنَ بأموالهم المغترينَ بأولادهم بحيثُ صار ذلك سبباً لزيادة خسارِهم في الآخرة، وفيه أنهم إنما اتبعوهم لوجاهةٍ حصلتْ لهم بالأموالِ والأولاد وأدّت بهم إلى الخسارِ. وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائي والبصريانِ ووُلْدُه بالضمِّ والسكونِ، على أنه لغةٌ كالحزْنِ والحَزَنِ أو جمعٌ كالأُسْدِ.

(٢٢) ﴿وَمَكَرُوا﴾ عطفٌ على لم يزده والضميرُ لمن وجَمَعَهُ للمعنى. ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ كبيراً في الغاية فإنه أبلغُ من كبار وهو من كبير، وذلك احتيالُهم في الدين وتحريشُ الناس على أذى نوحٍ.

وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ
إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا
تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ
ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

(٢٣) ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي عبادتها. ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ولا تذرُنَّ هؤلاءِ خصوصاً. قيل هي أسماءُ رجالٍ صالحين كانوا بين آدمَ ونوحٍ فلما ماتوا صُوِّروا تبرُّكاً بهم، فلما طال الزمانُ عُبِدُوا، وقدِ انتقلتْ إلى العرب فكان وُدٌّ لكلبٍ، وسواعٌ لهمدانَ، ويغوثُ لمذحجٍ، ويعوقُ لِمُرَادٍ، ونسرٌ لحميرٍ. وقرأ نافع وُداً بالضمِّ، وقرىء يغوثاً ويعوقاً للتناسُبِ، ومنعُ صرفهما للعلَميةِ والعجمةِ.

(٢٤) ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ الضميرُ للرؤساءِ أو للأصنام كقوله ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾[١]. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ عطفٌ على ربِّ إنهم عصوني[٢]، ولعلَّ المطلوبَ هو الضلالُ في ترويج مكرِهم ومصالحِ دنياهم لا في أمرِ دينهم، أو الضياعُ والهلاكُ كقوله ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[٣].

(٢٥) ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ من أجْلِ خطيئاتِهم، وما مزيدةٌ للتأكيد والتفخيم، وقرأ أبو عمرو مما خطاياهُم. ﴿أُغْرِقُواْ﴾ بالطوفان. ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ المرادُ عذابُ القبر أو عذابُ الآخرة، والتعقيب لعدمِ الاعتدادِ بما بَيْنَ الإغراقِ والإدخالِ، أو لأن المسبب كالمتعقبِ للسببِ وإنْ تراخَى عنه لفقْدِ شرطٍ أو وجود مانعٍ، وتنكيرُ النارِ للتعظيم، أو لأنَّ المرادَ نوعٌ من النيرانِ. ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ تعريضٌ لهم بأتخاذِ آلهة من دون الله لا تقدِرُ على نَصْرِهم.

(٢٦) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي أحداً وهو مما يُسْتَعْمَلُ في النفي العامِّ فَيْعَالٌ مِنَ الدارِ أو الدورِ. وأصلُه ديوارٌ فَفُعِلَ به ما فُعِلَ بأصلِ سيِّد لافِعال وإلا لكانَ دَوَّاراً.

(٢٧) ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قال ذلك لما جرَّبهم واستقْرى أحوالَهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً فعرفَ شِيَمَهُم وطِبَاعَهُم.

(٢٨) ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ لِمَلِكِ بنِ متوشلخ وشمخا بنتِ أنوش وكانا مؤمنينِ. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ منزلي أو مسجدي أو سفينتي. ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يوم القيامة. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ هلاكاً. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ نوحٍ كان من المؤمنين الذين تدْرِكُهم دعوةُ نوحٍ»[٤].

---

(١) إبراهيم: «٣٦».

(٢) ووضع الظاهر «الظالمين» موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط وتعليل الدعاء عليهم به (س٩/٤١).

(٣) القمر: «٤٧».

(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٧٧ رقم ٢٢٧).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الجِنّ

ترتيبها ٧٢ — آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾

سورة الجن مكية[١] وآيها ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وقُرِىءَ أُحِيَ وأصلُه وُحِيَ من وَحَى إليه فقُلِبَتِ الواوُ همزةً لضمَّتها وَوَحَي على الأصلِ وفاعلُه: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ والنفرُ ما بين الثلاثةِ إلى العشرةِ. والجنُّ أجسام عاقلةٌ خفيةٌ يغلبُ عليهم الناريةُ أو الهوائيةُ، وقيل نوعٌ من الأرواحِ المجرَّدة، وقيل نفوسٌ بشريةٌ مفارَقةٌ عن أبدانِها. وفيه دلالةٌ على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفقَ حضورُهم في بعض أوقاتِ قراءتِه فسمعُوها فأخبر الله به رسولَه. ﴿فَقَالُوا﴾ لما رجعُوا إلى قومِهم. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا﴾ كتاباً. ﴿عَجَبًا﴾ بديعاً مبايناً لكلام الناسِ في حسنِ نظْمِه ودقَّةِ معناه. وهو مصدرُ وُصِفَ به للمبالغةِ.

(٢) ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ إلى الحقِّ والصوابِ. ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ على ما نطقتْ به الدلائلُ القاطعةُ على التوحيد.

(٣) ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأه ابن كثير والبصريانِ بالكسرِ على أنه من جملةِ المحكيِّ بعدَ القولِ، وكذا ما بعدَه إلا قولَه ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا﴾[٢]، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾[٣]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٣٠): «وهي مكية بإجماع المفسرين».
(٢) الجن: «١٦».
(٣) الجن: «١٨».

قَامَ﴾[1] فإنها من جملةِ الموحَى به ووافقَهم نافعٌ وأبو بكر إلا في قوله ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾[2] على أنه استئنافٌ أو مقولٌ، وفتحَ الباقون الكلَّ إلا ما صُدِّرَ بالفاء على أن ما كان من قولهم فمعطوفٌ على محلِّ الجارِّ والمجرورِ في به كأنه قيل: صدَّقنا أنه تعالى جدُّ ربِّنا أي عظمتُه من جدَّ فلانٌ في عيني إذا عظُمَ، أو سلطانُه أو غِناهُ مستعارٌ من الجدِّ الذي هو البختُ، والمعنى وصْفُه بالتعالي عن الصاحبةِ والولدِ لعظمته أو لسلطانِه أو لغِنَاهُ وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بيانٌ لذلك. وقرىء جداً على التمييز، وجد ربنا بالكسرِ أي صدق ربوبيتَهُ، كأنهم سمعوا من القرآنِ ما نبَّهَهُم على خطإِ ما اعتقدوه من الشركِ واتخاذِ الصاحبةِ والولدِ.

(٤) ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليسُ أو مردةُ الجنِّ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ قولاً ذا شططٍ وهو البعدُ ومجاوزةُ الحدِّ، أو هو شططٌ لفرْطِ ما أشطَّ فيه، وهو نسبةُ الصاحبةِ والولدِ إلى الله.

(٥) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتذارٌ عن اتِّباعِهم السفيهَ في ذلك بظنِّهم أنَّ أحداً لا يكذِبُ على الله، وكذباً نُصِبَ على المصدرِ لأنه نوعٌ من القولِ أوِ الوصفِ المحذوفِ، أي قولاً مكذوباً فيه، ومن قرأ أنْ لنْ تقوّلَ كيعقوبَ جعلَه مصدراً لأن التقوُّلَ لا يكونُ إلا كذِباً.

وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فإنَّ الرجلَ كان إذا أمسى بقفرٍ قال أعوذُ بسيِّدِ هذا الوادي من شرِّ سفهاءِ قومِه. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ فزادوا الجنَّ باستعاذتِهم بهم. ﴿رَهَقًا﴾ كِبْراً وعتواً، أو فزاد الجنُّ والإنسَ غياً بأنْ أضلُّوهم حتى استعاذوا بهم، والرَّهقُ في الأصل غشيانُ الشيءِ.

(٧) ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأنَّ الإنسَ. ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيُّها الجنُّ أو بالعكس، والآيتانِ من كلام الجنِّ بعضِهم لبعض أو استئنافُ كلامٍ من الله تعالى، ومَنْ فتحَ أنَّ فيهما جعلَهما من الموحَى به. ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ سادٌّ مسدَّ مفعولَي ظنُّوا.

(٨) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ طلبْنَا بلوغَ السماءِ أو خَبَرَهَا، واللمسُ مستعارٌ من المسِّ للطلبِ كالجسِّ يقَالُ لمسه والتمَسَهُ وتلمَّسه كطلبه واطَّلبه وتطلَّبه. ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ حُرَّاساً اسمُ جمعٍ كالخدمِ. ﴿شَدِيدًا﴾ قوياً وهم الملائكةُ الذين يمنعونَهم عنها. ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شِهابٍ وهو المضيءُ المتولِّد من النارِ.

(٩) ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ مقاعدَ خاليةً عن الحرس والشُّهبِ، أو صالحةً للترصُّد والاستماعِ، وللسمعِ صلةٌ لِنَقْعُدَ أو صفةٌ لمقاعدَ. ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي شهاباً راصِداً

(١) الجن: «١٩».
(٢) الجن: «١٩».

له ولأجله يمنعُه عن الاستماعِ بالرَّجْمِ، أو ذوي شهابٍ راصدينَ على أنه اسمُ جمعٍ للراصد، وقد مرَّ بيانُ ذلك في الصافات.

وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

(١٠) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسةِ السماء. ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيراً.

(١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المؤمنون الأبرارُ. ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي قومٌ دون ذلك فحذفَ الموصوفَ وهم المقتصدون. ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ﴾ ذوي طرائقَ أي مذاهبَ، أو مثلَ طرائقَ في اختلافِ الأحوالِ أو كانتْ طرائقُنا طرائقَ. ﴿قِدَدًا﴾ متفرقةً مختلفةً جمعُ قِدَّةٍ من قدَّ إذا قطَعَ.

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ علِمْنا. ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كائنين في الأرض أينما كنَّا فيها. ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ هاربينَ منها إلى السماءِ، أو لن نعجِزَه في الأرض إن أرادَ بنا أمراً ولن نعجزَه هرباً إلى طلبنا.

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي القرآنَ. ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخافُ، وقرىء فلا يَخَفْ والأولُ أدلُّ على تحقيقِ نجاةِ المؤمنينَ واختصاصِها بهم. ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ نقْصاً في الجزاءِ ولا أن يرهِقَه ذلَّةٌ، أو جزاءَ بخسٍ لأنه لم يبخسْ لأحدٍ حقاً ولم يرهِقْ ظلماً، لأن من حقِّ المؤمن بالقرآنِ أنْ يجتنبَ ذلك.

(١٤) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريقِ الحقِّ وهو الإيمان والطاعةُ. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ توخَّوْا رشداً عظيماً يبلِّغُهم إلى دار الثواب.

(١٥) ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ تُوقَدُ بهم كما توقدُ بكفَّارِ الإنسِ.

(١٦) ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي أنَّ الشأنَ لو استقامَ الجنُّ أو الإنسُ أو كلاهما. ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي على الطريقة المثْلَى. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ لوسَّعْنا عليهم الرزقَ، وتخصيصُ الماءِ الغَدَقِ وهو الكثيرُ بالذكرِ لأنه أصلُ المعاش والسعةِ ولعزَّة وجودِه بين العرب.

(١٧) ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبِرَهم كيف يشكُرونه، وقيل معناه أن لوِ استقامَ الجنُّ على طريقتهم القديمةِ ولم يسلموا باستماع القرآنِ لوسَّعنا عليهم الرزقَ مستدرجين لهم لنوقِعَهم في الفتنةِ ونعذِّبَهم في كُفرانِهم. ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ عن عبادتِهِ أو موعظته أو وحْيِه. ﴿يَسْلُكْهُ﴾ يدخِلْه، وقرأ غيرُ الكوفيينَ بالنونِ. ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذَّبَ ويغلبه مصدرٌ وُصِفَ به.

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ
أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ
أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

(١٨) ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ مختصةٌ به. ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فلا تعبدُوا فيها غيْرَهُ، ومن جعلَ أنَّ مقدَّرةً باللام علةً للنهي ألغَى فائدةَ الفاءِ، وقيل المرادُ بالمساجدِ الأرضُ كلُّها لأنها جعلِتْ للنبي عليه الصلاة والسلام مسجداً، وقيل المسجدُ الحرام لأنه قبلةُ المساجدِ ومواضعَ السجودِ على أنَّ المرادَ النهيُ عن السجود لغيرِ الله، وآرابُه السبعةُ أو السجدات على أنه جمعُ مسجدٍ.

(١٩) ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أي النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وإنما ذُكِرَ بلفظ العبدِ للتواضُع فإنه واقعٌ موقعَ كلامه عن نفسِه، والإشعار بما هو المقتضي لقيامه. ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبدُه ﴿كَادُواْ﴾ كاد الجنُّ. ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ متراكمينَ من ازدِحَامهم عليه تعجُّباً مما رأوا من عبادتِه وسمعُوا من قراءته، أو كاد الإنسُ والجنُّ يكونون عليه مجتمعينَ لإبطال أمرِه، وهو جمعُ لبدةٍ وهي ما تلبَّد بعضُه على بعض كلبدةِ الأسدِ. وعن ابن عامرٍ لُبداً بضمِّ اللامِ جمع لبدةٍ وهي لغةٌ، وقرىء لُبَداً كسجداً جمعُ لابدٍ، ولُبُداً كصبرٍ جمع لبودٍ.

(٢٠) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ فليس ذلك ببدعٍ ولا منكرٍ يوجب تعجُّبَكُم أو إطباقكم على مقْتي، وقرأ عاصمٌ وحمزة قلْ على الأمر للنبيِّ عليه الصلاة والسلام ليوافقَ ما بعدَه.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ولا نفعاً أو غياً، عبَّر عن أحدِهما باسمه وعن الآخر باسمِ سببه أو مسبَّبه إشعاراً بالمعنيينِ.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ إنْ أرادَ بي سوءاً. ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ منحَرَفاً أو ملْتَجَأً وأصلُه المدخلُ من اللَّحْدِ.

(٢٣) ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ من قوله لا أملِكُ فإنَّ التبليغَ إرشادٌ وإنفاعٌ وما بينَهما اعتراضٌ مؤكِّد لنفيِ الاستطاعةِ، أو مِنْ ملتحداً، أو معناه أنْ لا أبلِّغَ بلاغاً وما قبله دليلُ الجواب. ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطفٌ على بلاغاً ومن الله صفتُه فإنَّ صِلتَهُ عن كقوله ﷺ «بلِّغوا عنِّي ولو آيةً»[١]. ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالتوحيدِ إذ الكلامُ فيه. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقُرِىءَ فأنَّ على فجزاؤُه أنَّ. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ جمعَه للمعنَى.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا كوقْعَةِ بدْرٍ، أو في الآخرة، والغايةُ لقوله ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[٢] بالمعنى الثاني، أو لمحذوف دلَّ عليه الحالُ مِنِ استضعافِ الكفارِ وعِصْيَانِهم له.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/٤٩٦ رقم ٣٤٦١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.
(٢) الجن: «١٩».

﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ هو أمْ هم.

قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾
إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ
وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

(٢٥) ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ ﴾ ما أدري. ﴿ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾ غايةً تطولُ مدَّتُها كأنه لما سمعَ المشركون حتى إذا رأوا ما يوعدون قالوا متَى يكونُ إنكاراً، فقيل قلْ إنه كائنٌ لا محالةَ ولكن لا أدري ما وقْتُه.

(٢٦) ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ هو عالمُ الغيبِ. ﴿ فَلَا يُظْهِرُ ﴾ فلا يُطْلِعُ. ﴿ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أي على الغيب المخصوصِ به علمُه.

(٢٧) ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ لِعَلْمَ بعضَه حتى يكونَ له معجزةً. ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ بيانٌ لِمَنْ، واسْتُدِلَّ به على إبطالِ الكراماتِ، وجوابُه تخصيصُ الرسول بالملَكِ والإظهار بما يكون بغير وسطٍ، وكراماتُ الأولياء على المغيَّباتِ إنما تكونُ تلقياً عن الملائكة كاطلاعنا على أحوالِ الآخرة بتوسُّطِ الأنبياء. ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ من بين يدي المرتَضَى. ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ حَرَساً من الملائكة يحرسُونه من اختطافِ الشياطين وتخاليطِهم.

(٢٨) ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ ﴾ أي ليعلمَ النبيُّ الموحَى إليه أنْ قد أبلغَ جبريلُ والملائكةُ النازلونَ بالوحْي، أو ليعلم الله تعالى أنْ قد أبلغَ الأنبياءُ بمعنى ليتعلَّق علمُه به موجوداً. ﴿ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ كما هي محروسةٌ من التغيير. ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ بما عندَ الرسلِ. ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ حتى القطْرَ والرملَ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الجنِّ كان له بعددِ كلِّ جنِّي صدَّقَ محمداً أو كذَّبَ به عتقُ رقبةٍ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٧٨ رقم ٢٣٤).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

ترتيبها ٧٣ — آياتها ٢٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا
سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾

سورة المزمل مكية[١]، وآيها تسع عشرة أو عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أصلُه المتزمِّل من تزمَّل بثيابه إذا تلفَّفَ بها فأدغَم التاءَ في الزاي وقد قرىء به، وبالمزمل مفتوحةَ الميم ومكسورتَها أي الذي زمَّله غيرهُ، أو زمَّل نفسَه. سُمِّيَ به النبيُّ عليه الصلاة والسلام تهجيناً لما كان عليه فإنه كان نائماً أو مرتعداً مما دهشَه من بَدْءِ الوحي متزملاً في قطيفةٍ أو تحسيناً له، إذ رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي متلففاً بمرطٍ مفروشٍ على عائشةَ رضيَ الله تعالى عنها فنزلتْ[٢]، أو تشبيهاً له في تثاقلِه بالمتزمِّل لأنه لم يتمرّنْ بعدُ في قيام الليلِ، أو من تزمَّلَ الزِّملَ إذا تحمَّل الحملَ أي الذي تحمَّل أعباءَ النبوَّةِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٤٤): «وهي مكية كلها في قول المهدوي وجماعة.
وقال الجمهور: هي مكية إلاَّ قوله تعالى «إن ربك يعلم...» إلى آخر السورة فإن ذلك نزل بالمدينة» هـ.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٧٨ رقم ٢٣٥): لم أره هكذا.
قلت: وأصله في الصحيحين البخاري (١/ ١٨ رقم ٣) ومسلم (١/ ١٣٩ ـ ١٤٢ رقم ٢٥٢/ ١٦٠). من حديث عائشة.

(٢) ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ أي قمْ إلى الصلاة، أو داوِمْ عليها فيه، وقرىء بضمِّ الميم وفتحِها للاتباعِ أو التخفيفِ. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

(٣) ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ .

(٤) ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ الاستثناءُ من الليلِ، ونصفَه بدلٌ من قليلاً وقلَّته بالنسبةِ إلى الكلِّ، والتخييرُ بينَ قيامِ النصفِ والزائدِ عليه كالثلثينِ والناقصِ عنه كالثُّلثِ. أو نصفَه بدلٌ من الليلِ والاستثناءُ منه والضميرُ في منه وعليه للأقلِّ من النصفِ كالثلثِ فيكون التخييرُ بينه وبين الأقلِّ منه كالرُّبعِ والأكثر منه كالنصفِ، أو للنصفِ والتخييرُ بينَ أنْ يقومَ أقلَّ منه على البتِّ وأنْ يختارَ أحدَ الأمرين من الأقلِّ والأكثر، أو الاستثناءُ من إعدادِ الليل فإنه عامٌ والتخيير بين قيام النصفِ والناقص عنه والزائدِ عليه. ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ اقرأه على تُؤدَةٍ وتبيينِ حروفٍ بحيثُ يتمكَّن السامعُ من عدِّها، من قوله ثَغرٌ رَتَلٌ ورَتِلٌ إذا كان مفلَّجاً.

(٥) ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلًا ثَقِيلًا﴾ يعني القرآنَ فإنه لما فيه من التكاليفِ الشاقَّةِ ثقيلٌ على المكلَّفين سيَّما على الرسول ﷺ إذ كان عليه أنْ يتحمَّلها ويُحَمِّلَها أمَّتَهُ، والجملةُ اعتراضٌ يسهِّلُ التكليفَ عليه بالتهجُّدِ، ويدلُّ على أنه مشقٌّ مضادٌّ للطبعِ مخالِفٌ للنفسِ، أو رصينٌ لرزانةِ لفظِه ومتانةِ معناه، أو ثقيلٌ على المتأمِّلِ فيه لافتقارِهِ إلى مزيدِ تصفيةٍ للسرِّ وتجريدٍ للنظرِ، أو ثقيلٌ في الميزان أو على الكفار والفجَّارِ، أو ثقيلٌ تلقيه لقولِ عائشةَ رضي الله تعالى عنها: رأيته عليه الصلاة والسلام ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البردِ، فيَفْصَمُ عنه وإنَّ جبينَه ليرفَضُّ عرَقاً[١]. وعلى هذا يجوز أن يكونَ صفة للمصدر، والجملةُ على هذه الأوجُهِ للتعليلِ مستأنفٌ فإنَّ التهجُّدَ يُعَدُّ للنَّفسِ ما به تعالِجُ ثِقَلَه.

(٦) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ إنَّ النفسَ التي تنشأُ من مضجِعها إلى العبادة من نشأَ مِنْ مكانِه إذا نهض وقامَ، قال:

نَشَأْنَا إلَى خَوْصٍ بَرَانِيهَا السُّرَى وأَلْصَقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ القَمَاحِدِ

أو قيامَ الليلِ على أنَّ الناشئةَ له، أو العبادةَ التي تنشأ بالليل أي تحدُثُ، أو ساعاتِ الليلِ لأنها تحدثُ واحدةً بعد أخرى، أو ساعاتِها الأُوَلَ من نشأَتْ إذا ابتدأتْ. ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ أي كلفةً أو ثباتَ قدَمٍ، وقرأ أبو عمرو وابنُ عامر وِطاءً بكسر الواوِ وألفٍ ممدودةٍ أي مواطأةَ القلبِ اللسانَ لها أو فيها، أو موافقةً لما يُرَادُ منها من الخضوع والإخلاص. ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي وأسدُّ مقالاً أو أثبتُ قراءة لحضور القلبِ وهدوءِ الأصوات.

(٧) ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ تقلُّباً في مهمَّاتِك واشتغالاً بها فعليك بالتهجدِ، فإنَّ مناجاةَ الحقِّ تستدعي فراغاً. وقرىء سبخاً أي تفرُّقَ قلب بالشواغل مستعارٍ من سبْخِ الصوفِ وهو نفشُه ونشرُ أجزائِه.

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٨ رقم ٢) ومسلم (٤/١٨١٦ ـ ١٨١٧ رقم ٢٣٣٣) والبغوي في شرح السنة (١٣/٣٢١ ـ ٣٢٢).

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ
رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾

(٨) ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ودمْ على ذكره ليلاً ونهاراً، وذِكْرُ الله يتناولُ كلَّ ما يُذْكَرُ به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآنٍ ودراسة علم. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ وانقطِعْ إليه بالعبادة وجرِّد نفسَك عما سواه، ولهذه الرمزةِ ومراعاةِ الفواصل وضعَهُ موضِعَ تبتلاً.

(٩) ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ خبرٌ محذوف أو مبتدأٌ خبره: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ ابن عامر والكوفيون غيرَ حفصٍ ويعقوبُ بالجرِّ على البدلِ من ربِّك، وقيل بإضمار حرفِ القسم وجوابُه لا إله إلا هو. ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ مسبَّبٌ عن التهليلِ، فإنَّ توحُّدَه بالألوهية يقتضي أن تُوكَلَ إليه الأمورُ.

(١٠) ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الخرافاتِ. ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأنْ تجانبهم وتداريَهم ولا تكافِئَهم وتكلَ أمرَهُم إلى الله فالله يكفيكهم كما قال:

(١١) ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ دعني وإياهم وكِلْ إليَّ أَمْرَهُم فإنَّ بي غنيةً عنك في مجازاتِهم. ﴿أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أربابِ التنعُّمِ، يريد صناديدَ قريشٍ. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ زماناً أو إمهالاً.

(١٢) ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ تعليلٌ للأمرِ، والنكلُ القيدُ الثقيلُ. ﴿وَجَحِيمًا﴾.

(١٣) ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ طعاماً ينشُبُ في الحلق كالضريع والزقوم. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعاً آخرَ من العذاب مؤلماً لا يعرفُ كُنْهَهُ إلا اللهُ تعالى. ولما كانتِ العقوباتُ الأربعُ مما تشترك فيها الأشباحُ والأرواح ـ فإنَّ النفوسَ العاصيةَ المنهمكةَ في الشهواتِ تبقى مقيَّدةً بحبِّها والتعلُّقِ بها عن التخلصِ إلى عالم المجرَّداتِ متحرقةً بحرقةِ الفرقةِ متجرِّعةً غصَّةَ الهجْرَانِ معذبةٌ بالحرمانِ عن تجلي أنوار القدس ـ فسّرَ العذابَ بالحرمان عن لقاءِ الله تعالى.

(١٤) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ تضطربُ وتتزلزلُ، ظرفٌ لما في ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾[1] من معنى الفعلِ. ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ رملاً مجتمعاً كأنه فعيلٌ بمعنى مفعولٍ من كثبتُ الشيءَ إذا جمعتُه. ﴿مَّهِيلًا﴾ منثوراً من هِيْلَ هيلاً إذا نُثِرَ.

(١٥) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يا أهلَ مكَّة. ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهدُ عليكم يومَ القيامة بالإجابة والامتناعِ. ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام ولم يعيِّنه لأنَّ المقصودَ لم يتعلَّقْ به.

(١٦) ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ عرَّفه لسبق ذِكْرِه. ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ثقيلاً من قولهم طعامٌ وبيلٌ لا يُسْتَمْرَأُ لثقلِه، ومنه الوابلُ للمطرِ العظيمِ.

(١) المزمل: «١٢».

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ
تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ
مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ
مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ
أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

(١٧) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أنفسَكم. ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ بقيتُم على الكفر. ﴿يَوْمًا﴾ عذابَ يومٍ. ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ من شدة هولِه وهذا على الفرضِ أو التمثيلِ، وأصله أنَّ الهمومَ تُضْعِفُ القوى وتسرعُ الشيبَ، ويجوز أنْ يكونَ وصفاً لليوم بالطولِ.

(١٨) ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾ منشقٌّ، والتذكير على تأويلِ السقفِ أو إضمارِ شيءٍ[1]. ﴿بِهِۦ﴾ بشدةِ ذلك اليوم على عِظَمِها وأحكامِها فضلاً عن غيرها. والباءُ للآلةِ. ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ الضميرُ لله عز وجل، أو لليومِ على إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ.

(١٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي الآياتِ الموعِدَةِ. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظةٌ. ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أنْ يتَّعِظَ. ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي يتقربُ إليه بسلوك التقوى.

(٢٠) ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ استعارَ الأدنى للأقلِّ لأن الأقربَ إلى الشيءِ أقلُّ بعداً منه، وقرأ ابن كثير والكوفيونَ ونصفه وثلثه بالنصبِ عطفاً على أدنى. ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ ويقومُ ذلك جماعةٌ من أصحابك. ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ لا يعلم مقاديرَ ساعاتِهما كما هي إلا الله تعالى، فإنَّ تقديمَ اسمِه ـ مبتدأً مبنياً عليه يُقدِّر ـ يشعِرُ بالاختصاص ويؤيدُه قولُه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لن تُحْصُوا تقديرَ الأوقات ولن تستطيعوا ضبطَ الساعاتِ. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالترخُّصِ في تركِ القيام المقدَّرِ ورفعِ التبعةِ فيه كما رفعَ التبعةَ عن التائب. ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فصلُّوا ما تيسَّر عليكم من صلاةِ الليلِ، عبَّر عن الصلاةِ بالقرآن كما عبَّر عنها بسائر أركانِها، قيل كان التهجدُ واجباً على التخييرِ المذكور فعسُر عليهم القيامُ به فنُسِخَ به، ثم نُسِخَ هذا بالصلواتِ الخمس، أو فاقرؤوا القرآنَ بعينه كيفما تيسَّر عليكم. ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ استئنافٌ يبين حكمةً أخرى مقتضيةً الترخيصَ والتخفيفَ ولذلك كرَّر الحكمَ مرتَّباً عليه وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ والضربُ في الأرض ابتغاءً للفضلِ المسافرةُ للتجارةِ وتحصيلِ العلم ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبةَ. ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يريدُ به الأمرَ في سائرِ الإنفاقاتِ في سبل الخيراتِ، أو بأداءِ الزكاةِ على أحسن وجهٍ والترغيبِ فيه بوعد العِوَض كما صرَّح به في قوله: ﴿وَمَا

---

(١) وعبر عنها بذلك للتنبيه على أنه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبقَ منها إلا ما يعبر عنه بالشيء (س٩/ ٥٢).

﴿تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ مِنَ الذي تؤخِّرونه إلى الوصيةِ عند الموت أو منْ متاعِ الدنيا. وخيراً ثاني مفعولي تجدُوه، وهو تأكيدٌ أو فصلٌ؛ لأن أفْعَلَ مِنْ كالمعرفةِ ولذلك يُمتنعُ مِنْ حرفِ التعريف، وقرىء هو خيرٌ على الابتداءِ والخبر. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ في مجامعِ أحوالِكم فإنَّ الإنسانَ لا يخلو من تفريطٍ. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ المزملِ رفعَ الله عنه العُسْرَ في الدنيا والآخرة»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٩ رقم ٢٤٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

ترتيبها ٧٤ — آياتها ٥٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾
وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

سورة المدثر مكية[1]. وآيها خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أي المتدثِّر وهو لابسُ الدثارَ. رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كنتُ بحراءَ فَنُودِيْتُ فنظرتُ عن يميني وشمالي فلم أرَ شيئاً، فنظرتُ فوقي فإذا هو على عرش بين السماء والأرض ـ يعني الملكَ الذي ناداه ـ فرُعِبْتُ، فرجعتُ إلى خديجةَ فقلت: دثِّروني، فنزل جبريلُ وقال: يا أيها المدثر»[2] ولذلك قيل هي أول سورةٍ نزلتْ. وقيل تأذى من قريش فتغطى بثوبه مفكِّراً، أو كان نائماً مدثراً فنزلتْ. وقيل المراد بالمدثر المتدثرُ بالنبوةِ والكمالاتِ النفسانية، أو المختفي فإنه كان بحراءَ كالمختفي فيه على سبيلِ الاستعارةِ. وقرىء المُدثَّر أي الذي دُثِّر هذا الأمرَ وعُصِبَ به.

(٢) ﴿قُمْ﴾ من مضجعِك أو قمْ قيامَ عزمٍ وجدٍّ. ﴿فَأَنذِرْ﴾ مطلقٌ للتعميم أو مقدَّر بمفعولٍ دلَّ عليه قولُه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[3] أو قولُه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4].

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٥٤): «وهي مكية بإجماع من أهل التفسير».

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٦٧٦ ـ ٦٧٧ رقم ٤٩٢٢) و(٨/ ٧١٥ رقم ٤٩٥٤) ومسلم (١/ ١٤٣، ١٤٤ رقم ٢٥٦، ٢٥٧) من حديث جابر بن عبدالله.

(٣) الشعراء: «٢١٤».

(٤) سبأ: «٢٨».

(٣) ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وخصِّصْ ربَّك بالتكبير وهو وصفُه بالكبرياء عقداً وقولاً، رويَ أنه لما نزلَ كبَّر رسولُ الله ﷺ وأيقن أنه الوحي [1]، وذلك لأنَّ الشيطانَ لا يأمرُ بذلك. والفاءُ فيه وفيما بعدَه لإفادة معنى الشرطِ وكأنه قال: وما يكنْ فكبِّر ربَّك، أو الدلالةِ على أن المقصودَ الأولَ من الأمر بالقيام أن يكبِّر ربَّه عن الشرك والتشبيهِ؛ فإن أولَ ما يجب معرفةُ الصانعِ وأولُ ما يجب بعدَ العلم بوجوده تنزيهُهُ، والقوم كانوا مقرِّين به.

(٤) ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ من النجاساتِ فإن التطهير واجبٌ في الصلوات محبوبٌ في غيرها، وذلك بغسْلِها أو بحفْظِها عن النجاسةِ بتقصيرها مخافةَ جرِّ الذيول فيها، وهو أول ما أُمِرَ به من رفضِ العاداتِ المذمومة. أو طهِّر نفسَك من الأخلاق الذميمة والأفعالِ الدنيئة، فيكون أمراً باستكمالِ القوة العمليةِ بعد أمره باستكمال القوّة النظريةِ والدعاء إليه. أو فطهر دِثَار النبوةِ عما يدنِّسه من الحقدِ والضَّجَرِ وقلَّةِ الصَّبْرِ.

(٥) ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فاهجرِ العذابَ بالثباتِ على هجْرِ ما يؤدي إليه من الشرك وغيرِهِ من القبائحِ، وقرأ يعقوب وحفصٌ والرُّجزَ بالضمِّ وهو لغةٌ كالذكرِ.

(٦) ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعطِ مستكثراً، نهيٌ عن الاستغزار وهو أنْ يهبَ شيئاً طامعاً في عوضٍ أكثرَ، نَهْيَ تنزيهٍ أو نهياً خاصاً به لقوله عليه الصلاة والسلام «المستغزر [2] يُثَابُ من هبتِه [3]» والموجب له ما فيه من الحرصِ والضنَّةِ، أو لا تمننْ على الله تعالى بعبادتِك مستكثراً إياها أو على الناس بالتبليغِ مستكثِراً به الأجرَ منهم أو مستكثراً إياه. وقرىء تستكثرْ بالسكون للوقفِ أوِ الإبدالِ من تمننْ على أنه مِنْ منٍّ بكذا أو تستكثر بمعنى تجدْه كثيراً، وبالنصبِ على إضمارِ أنْ؛ وقد قرىء بها، وعلى هذا يجوزُ أنْ يكون الرفعُ بحذفِها وإبطالِ عملِها كما رُوِيَ احضرُ الوغى بالرفعِ.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ لوجهه أو أمرِه. ﴿فَاصْبِرْ﴾ فاستعملِ الصبرَ، أو فاصبرْ على مشاقِّ التكاليفِ وأذى المشركين.

(٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ نُفِخَ. ﴿فِي النَّاقُورِ﴾ في الصُّورِ فاعولٌ من النَّقْرِ بمعنى التصويتِ وأصلُه القرعُ الذي هو سببُ الصوتِ، والفاء للسببيةِ كأنه قال: اصبِرْ على زمانٍ صعبٍ تَلْقَى فيه عاقبةَ صبْرِك وأعداؤُك عاقبَةَ ضُرِّهم، وإذا ظرفٌ لما دلَّ عليه قولُه:

(٩) ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [4].

(١٠) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأن معناه عَسُرَ الأمرُ على الكافرين، وذلك إشارةٌ إلى وقتِ النَّقْرِ، وهو مبتدأ

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١٦/٢٩) بدون سند.

(٢) المستغزر: الذي يطلب أكثر مما يُعطي، وهي المغازرة: أي إذا أهدى لك الغريب يطلب أكثر منه فأعطه في مقابله هديته. قال: وفيه عن بعض التابعين «الجانب المستغزر يُثاب من هبته» [النهاية (٣/ ٣٦٥)].

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٧٩ رقم ٢٥٠): «تقدم في الروم من قول شريح».
قلت: أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (١٠٦/٩) عن شريح.

(٤) ذلك: إشارة إلى وقت النقر.
وما فيه من معنىٰ البعد ـ مع قرب العهد بالمشار إليه ـ للإيذان ببعد منزلته في الهول والفظاعة (س٩/ ٥٥).

خبرُه يومٌ عسيرٌ، ويومئذ بدلٌ أو ظرفٌ لخبرِهِ إذ التقديرُ: فذلك الوقتُ وقتُ وقوعِ يومٍ عسير. ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تأكيدٌ يمنعُ أنْ يكونَ عسيراً عليهم من وجْهٍ ويشعرُ بِيُسْرِه على المؤمنين.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾

(١١) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ نزلتْ في الوليد بنِ المغيرة[١]. ووحيداً حالٌ من الياء أي ذرني وخلِّني معه فإني أكفيكَهُ، أو من التاءِ أي ومَنْ خلقتُه وحدي لم يشرِكْني في خلقِه أحد، أو من العائدِ المحذوفِ أي من خلقتُه فريداً لا مالَ له ولا ولدَ، أو ذمٌّ فإنه كان ملقَّباً به فسمَّاه الله به تهكُّماً، أو إرادةُ أنه وحيدٌ ولكن في الشرارة أو عن أبيه فإنه كان زنيماً.

(١٢) ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً أو مُمَدّاً بالنماء، وكان له الزرعُ والضرعُ والتجارةُ.

(١٣) ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكَّةَ يتمتَّع بلقائِهم لا يحتاجون إلى سفرٍ لطلب المعاشِ استغناءً بنعمته، ولا يحتاج إلى أنْ يرسِلَهم في مصالِحِه لكثرةِ خدمِه، أو في المحافلِ والأنديةِ لوجاهَتِهم واعتبارِهم. قيل كان له عشرةُ بنينَ أو أكثرُ كلُّهم رجالٌ، فأسلمَ منهم ثلاثةٌ خالد وعمارةُ وهشامٌ.

(١٤) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ وبسطْتُ له الرياسةَ والجاهَ العريضَ حتى لُقِّبَ ريحانةَ قريش، والوحيدُ أي باستحقاقِهِ الرياسةَ والتقدُّمَ.

(١٥) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ على ما أُوتِيَه وهو استبعادٌ لطمعِه إما لأنه لا مزيدَ على ما أوتي، أو لأنه لا يناسِبُ ما هو عليه من كفرانِ النِّعمِ ومعاندةِ المنعِمِ ولذلك قال:

(١٦) ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ فإنه ردعٌ له عن الطمعِ وتعليلٌ للردعِ على سبيل الاستئنافِ بمعاندة آيات المنعِمِ المناسبة لإزالة النعمةِ المانعةِ عن الزيادة، قيل: ما زالَ بعدَ نزولِ هذه الآيةِ في نقصانِ ماله حتى هَلَكَ.

(١٧) ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ سأغشِّيه عَقَبَةً شاقَّةَ المصعدِ، وهو مَثَلٌ لما يَلْقَى من الشدائد. وعنه عليه الصلاةُ والسلام «الصَّعُودُ جبلٌ من نار يصعدُ فيه سبعينَ خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً»[٢].

(١٨) ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليلٌ للوعيدِ أو بيانٌ للعِنادِ، والمعنى فكَّر فيما يُخَيِّلُ طعناً في القرآن وقدَّر في نفسِه ما يقول فيه.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٦) والبيهقي في «الدلائل» كما في «فتح القدير» (٥/ ٣٢٨) من طريق عبدالرزاق به وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٧/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨ مع التحفة) وقال هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلاّ من حديث ابن لهيعة. وأخرجه أحمد (٣/ ٧٥) وابن جرير (١٤/ج٢٩/ ١٥٥) والحاكم (٢/ ٥٠٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وانظر «الكافي الشاف» (ص١٧٩ رقم ٢٥٢).

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

(١٩) ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجُّبٌ من تقديره استهزاءً به، أو لأنه أصابَ أقْصَى ما يمكنُ أنْ يُقَالَ عليه مِنْ قولهم: قتلَه اللهُ ما أشجَعَه، أي بلغَ في الشجاعةِ مبلغاً يحقُّ أنْ يُحْسَدَ ويدعو عليه حاسِدُه بذلك. رُوِيَ[1] أنه مرَّ بالنبي ﷺ وهو يقرأ حمّ السجدة، فأتى قومَه وقال لقد سمعتُ من محمدٍ آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس والجنّ. إنَّ له لحلاوةً وإن عليه لطلاوةً. وإنَّ أعلاهُ لمثمرٌ وإنَّ أسفلَه لمغدقٌ وإنه ليعلو ولا يُعْلَى، فقالتْ قريشٌ صبأ الوليدُ، فقال ابنُ أخيه أبو جهل: أنا أكفيكُموه، فقعدَ إليه حزيناً وكلَّمه بما أحماه فناداهم، فقال: تزعُمونَ أنَّ محمداً مجنونٌ فهل رأيتموه يخنقُ؟ وتقولون إنه كاهنٌ فهل رأيتموه يتكهَّنُ؟ وتزعمون أنه شاعرٌ فهل رأيتموه يتعاطَى شعراً؟ فقالوا لا، فقال: ما هو إلا ساحرٌ أما رأيتموه يفرِّق بينَ الرجلِ وأهلِه وولدِه ومواليه، ففرِحُوا بقوله وتفرَّقوا عنه متعجِّبينَ منه.

(٢٠) ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكرير للمبالغة، وثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى وفيما بعد على أصلها.

(٢١) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي في أمرِ القرآن مرةً بعدَ أخرى.

(٢٢) ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطَّب وجْهَهُ لما لم يجدْ فيه مطْعَناً ولم يدرِ ما يقول، أو نظرَ إلى رسول الله ﷺ وقطَّب في وجْهِه. ﴿وَبَسَرَ﴾ إتباعٌ لِعَبَسَ.

(٢٣) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ أو الرسولِ عليه الصلاة والسلام. ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعِه.

(٢٤) ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يُرْوَى ويُتَعَلَّمُ، والفاءُ للدلالة على أنه لما خَطَرتْ هذه الكلمةُ بباله تفوَّه بها من غير تلبُّثٍ وتفكُّرٍ.

(٢٥) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ كالتأكيدِ للجملة الأولى ولذلك لم يُعْطَفْ عليها.

(٢٦) ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ بدلٌ من سأرهِقُه صُعُوداً.

(٢٧) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تفخيمٌ لشأنها، وقوله:

(٢٨) ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ بيانٌ لذلك أو حالٌ من سقرَ، والعاملُ فيها معنى التعظيم، والمعنى لا تبقي على شيء يُلْقَى فيها ولا تدعُه حتى تهلِكَه.

(٢٩) ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي مسوِّدةٌ لأعالي الجلْدِ، أو لائحةٌ للناس. وقرئتْ بالنصبِ على الاختصاصِ.

(٣٠) ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ملَكاً أو صنفاً من الملائكة يلُونَ أمْرَها. والمخصِّصُ لهذا العددِ أنَّ اختلالَ النفوس البشريةِ في النظر والعمل بسبب القُوى الحيوانيةِ الاثنتي عشرة والطبيعيةِ السبعِ، أو أنَّ لجهنَّمَ

---

(١) انظر تفسير عبدالرزاق (٢/٣٢٨ ـ ٣٢٩) والواحدي في أسباب النزول ص٤٤٧.

سبعَ دركاتٍ ستٌّ منها لأصنافِ الكفار وكلُّ صنفٍ يُعَذَّبُ بتركِ الاعتقاد والإقرارِ أو العملِ أنواعاً منَ العذابِ تناسِبُها على كلِّ نوع مَلَكٍ أو صِنفٍ يتولاَّه وواحدةٌ لعُصَاةِ الأمةِ يعذُّبون فيها بتركِ العملِ نوعاً يناسِبُه ويتولاه مَلَكُ، أو صنفٌ، أو أن الساعاتِ أربعُ وعشرونَ خمسةٌ منها مصروفةٌ في الصلاة فيبقى تسعةَ عشرَ قد تصرَّف فيما يُؤَاخَذُ به بأنواعِ من العذابِ يتولاَّها الزبانيةُ. وقرىء تسعةَ عْشَرَ بسكونِ العين كراهةَ توالي حركاتٍ فيها هو كاسمٍ واحدٍ، وتسعةَ أعشُرَ جمعُ عشيرٍ كيمينٍ وأيمنٍ، أي تسعةَ كلِّ عشيرٍ جَمْعٌ يعني نقيبَهم أو جمعُ عشرٍ فتكون تسعينَ.

وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ليخالفوا جنسَ المعذَّبين فلا يرقُون لهم ولا يستروِحُون إليهم، ولأنهم أقوى الخلْقِ بأساً وأشدُّهم غضباً لله. رُوِيَ أنَّ أبا جهلٍ لما سمِعَ عليها تسعةَ عشرَ قال لقريش: أيعجزُ كلُّ عشرةٍ منكم أنْ يبطشُوا برجلٍ منهم؟ فنزلتْ [١]. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وما جعلنا عَدَدهم إلا العددَ الذي اقتضَى فتنتَهم وهو التسعةَ عشرَ، فعبَّر بالأثرِ عن المؤثِّر تنبيهاً على أنه لا ينفكُّ منه، وافتتانُهم به استقلالُهم واستهزاؤُهم به واستبعادُهم أنْ يتولَّى هذا العددُ القليلُ تعذيبَ أكثرِ الثَّقلَيْنِ، ولعلَّ المرادَ الجعلُ بالقولِ ليحسُنَ تعليلُه بقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ليكتسِبوا اليقينَ بنبوةِ محمدٍ ﷺ وصدقِ القرآن لما رأوا ذلك موافقاً لما في كتابهم. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ بالإيمان به وبتصديقِ أهل الكتاب له. ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في ذلك وهو تأكيدٌ للاستيقانِ وزيادةِ الإيمانِ ونفيٌ لما يعرضُ للمتيقِّن حيثُما عراهُ شبهةٌ [٢]. ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكٌّ أو نفاقٌ، فيكون إخباراً بمكَّةَ عما سيكونُ في المدينة بعدَ الهجرةِ. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الجازمون في التكذيبِ. ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أيَّ شيءٍ أراد بهذا العددِ المستغرَبِ استغرابَ المثَلِ، وقيل لما استبعدوه حسِبُوا أنه مثلٌ مضروبٌ. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مثلُ ذلك المذكور من الإضلالِ والهدى يضلُّ الكافرين ويهدي المؤمنين. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ جموعَ خلْقه على ما هم عليه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيلَ لأحدٍ إلى حصْرِ الممكِنات والاطلاع على حقائقها وصفاتِها وما يوجبُ اختصاصَ كلٍّ منها بما يخصُّه من كمٍّ وكيفٍ واعتبارٍ ونسبةٍ. ﴿وَمَا هِىَ﴾ وما سقرُ أو عدَّةُ الخزنةِ أو السورةُ. ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ إلا تذكرةٌ لهم.

(٣٢) ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ لمن أنكرَها، أو إنكارٌ لأنْ يتذكَّروا بها. ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ج٢٩/ ١٥٩).

(٢) والتعبير عنهم باسم الفاعل «المؤمنون» ـ بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث ـ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك (س٩/ ٦٠).

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى
سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾

(٣٣) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي أَدْبرَ كقَبَلَ بمعنى أَقْبَلَ، وقرأ نافع وحمزةُ ويعقوب وحفص إذا أدْبرَ على المضيِّ.

(٣٤) ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أضاءَ.

(٣٥) ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ أي لإحدى البلايا الكُبَرِ أي البلايا الكبرِ كثيرةٌ وسقرُ واحدةٌ منها، وإنما جَمَعَ كُبْرى على كُبَرٍ إلحاقاً لها بفعلِه تنزيلاً للألفِ منزلةَ التاء كما أُلحِقَتْ قاصعاءُ بقاصعةٍ فجُمِعَتْ على قواصعَ، والجملة جوابُ القسمِ أو تعليلٌ لكلاَّ، والقسمُ معترِضٌ للتأكيد.

(٣٦) ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ تمييزٌ أي لإحدى الكُبَرِ إنذاراً أو حالٌ عما دلَّت عليه الجملةُ أي كَبُرَتْ منذِرةً، وقرىء بالرفعِ خبراً ثانياً أو خبراً لمحذوفٍ.

(٣٧) ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدلٌ مِنْ للبشرِ أي نذيراً للمتمكنينَ من السَّبْقِ إلى الخير والتخلُّفِ عنه، أو لمن شاء خَبَرٌ لأنْ يتقدمَ فيكونُ في معنى قوله ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

(٣٨) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ مرهونةٌ عند الله مصدرٌ كالشكيمةِ أُطْلِقَتْ للمفعولِ كالرهنِ ولو كانت صفةً لقيلَ رهينٌ.

(٣٩) ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنَّهم فكُّوا رِقَابَهم بما أحسَنُوا من أعمالِهم، وقيل هم الملائكةُ أوِ الأطفالُ.

(٤٠) ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ لا يُكْتَنهُ وصفُها وهي حالٌ من أصحابِ اليمين، أو ضميرِهم في قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾.

(٤١) ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي يسألُ بعضُهم بعضاً، أو يسألون غيرَهُم عن حالهم كقولك: تداعَيْناه أي دَعَوْناه[1]، وقولُه:

(٤٢) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ بجوابِه حكايةٌ لما جرى بينَ المسؤولينَ والمجرمينَ أجابوا بها.

(٤٣) ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ الصلاةَ الواجبةَ.

(٤٤) ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي ما يجبُ إعطاؤُه، وفيه دليلٌ على أنَّ الكفارَ مخاطَبُوْنَ بالفروعِ.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ نشرعُ في الباطلِ. ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ مع الشارِعينَ فيه.

(٤٦) ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أخَره لتعظيمِه أي وكنَّا بعدَ ذلك كلِّه مكذِّبينَ بالقيامة.

---

(١) وحذف المسؤول لكونه عين المسؤول عنه (س٩/٦١).

حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

(٤٧) ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ الموتُ ومقدّماتُه.

(٤٨) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ لو شفعُوا لهم جميعاً.

(٤٩) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي معرضِينَ عن التذكيرِ يعني القرآنَ أو ما يعمُّه، ومعرضينَ حالٌ.

(٥٠) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ شبَّهُهُم في إعراضِهم ونِفَارِهم عن استماعِ الذِّكْرِ بِحُمُرٍ نافرةٍ.

(٥١) ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ أي أسدٍ فعولةٍ من القسْرِ وهو القهْرُ.

(٥٢) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ قراطيسَ تنشرُ وتُقرأُ وذلك أنهم قالوا للنبيِّ ﷺ: لن نتَّبِعَك حتى تأتِيَ كلامنا بكتاب من السماء فيه من الله إلى فلان اتبع محمداً.

(٥٣) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن اقتراحِهم الآياتِ. ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضُوا عن التذكرة لا لامتناعِ إيتاءِ الصُّحُفِ.

(٥٤) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إعراضِهم. ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ وأيُّ تذكرةٍ.

(٥٥) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فمنْ شاء أنْ يذكُرَهُ.

(٥٦) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ذِكْرُهم أو مشيئَتُهم كقوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[١] وهو تصريحٌ بأنَّ فِعْلَ العبدِ بمشيئة الله تعالى، وقرأ نافعٌ تَذْكُرونَ بالتاء وقرىء بهما مشدَّداً. ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ حقيقٌ بأنْ يُتَّقَى عقابُه. ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حقيقٌ بأنْ يغفِر لعبادِه سيَّما المتقينَ منهم. وعن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ المدثرِ أعطاه الله عشرَ حسناتٍ بعددِ مَنْ صدق بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام وكذَّب به بمكَّة شرَّفها الله تعالى»[٢].

☆ ☆ ☆

---

(١) التكوير: «٢٩».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٠ رقم ٢٥٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ القِيَمَة
ترتيبها ٧٥ — آياتها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

سورة القيامة مكية[1] وآيها أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إدخالُ لا النافيةِ على فعلِ القسمِ للتأكيد شائعٌ في كلامهم قال امرؤُ القيس:

لاَ وَأَبِيكِ ابْنَةَ العَامِرِيِّ لا يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّي أفِرَ

وقد مرَّ الكلامُ فيه في قوله ﴿أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[2] وقرأ قنبلٌ لأُقْسِمُ بغير ألف بعد اللامِ، وكذا روي عن البزِّي.

(٢) ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ بالنفسِ المتقيةِ التي تلومُ النفوسَ المقصِّرةَ في التقوى يومَ القيامة على تقصيرها أو التي تلوم نفسَها أبداً وإنِ اجتهدتْ في الطاعة، أو النفسِ المطمئنةِ اللائمةِ للنفس الأمارةِ، أو بالجنسِ لما رويَ أنه عليه الصلاة والسلام قال «ليس من نفسٍ برَّةٍ ولا فاجرةٍ إلا وتلوم نفسَها يومَ القيامة إنْ عملتْ خيراً قالتْ كيف لم أزددْ وإنْ عملتْ شراً قالت يا ليتني كنت قصَّرتُ»[3] أو نفسِ آدمَ

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٧٠): «وهي مكية بإجماع من المفسرين وأهل التأويل».
(٢) الواقعة: «٧٥».
(٣) ذكره الفراء في معاني القرآن (٣/ ٢٠٨) بدون راوٍ أو سند.

فإنها لم تزلْ تتلومُ على ما خرجتْ به من الجنةِ، وضمُّها إلى يوم القيامة لأنَّ المقصودَ من إقامتها مجازاتُها.

(٣) ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يعني الجنسَ؛ وإسنادُ الفعل إليه لأن فيهم مَنْ يحسبُ، أو الذي نزلَ فيه وهو عدي بنُ أبي ربيعة سأل رسولَ الله ﷺ عن أمر القيامة، فأخبره به فقال: لو عاينتُ ذلك اليومَ لم أصدُقْكَ، أوَ يجمعُ اللهُ هذه العِظامَ[١]. ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد تفرُّقها، وقرىء أن لن يُجْمَعَ على البناء للمفعول.

(٤) ﴿بَلَىٰ﴾ نجمعُها. ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ بجمع سُلاميَّاتِه وضمِّ بعضِها إلى بعض كما كانت مع صِغَرِها ولطافتِها فكيف بكبار العظام، أو على أن نسويَ بنانَه الذي هو أطرافُه فكيف بغيرها، وهو حالٌ من فاعل الفعلِ المقدر بعدَ بلَى، وقرىء بالرفع أي نحن قادرونَ.

(٥) ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ عطفٌ على أيحسبُ فيجوز أن يكون استفهاماً وأنْ يكون إيجاباً لجوازِ أن يكون الإضرابُ عن المستفهم وعن الاستفهام. ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ليدومَ على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

(٦) ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متى يكون يومُ القيامة استبعاداً له أوِ استهزاء.

(٧) ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ تحيَّر فَزَعاً من بَرِقَ فدهِشَ بصرهُ، وقرأ نافع بالفتحِ وهو لغةٌ، أو من البريقِ بمعنى لمعَ من شدةِ شخوصه، وقرىء بلقَ من بلقَ البابُ إذا انفتحَ.

(٨) ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ ذهب ضوءه، وقرىء على البناء للمفعولِ.

(٩) ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ في ذهاب الضوءِ أو الطلوع من المغرب، ولا ينافيه الخسوفُ فإنه مستعار للمُحاقِّ. ولمن حَمَلَ ذلك على أماراتِ الموت أنْ يفسِّر الخسوفَ بذهابِ ضوء البصر والجمعَ باستتباع الروح الحاسةَ في الذهابِ، أو بوصوله إلى من كان يقتبس منه نور العقلِ من سكان القدُسِ، وتذكيرُ الفعلِ لتقدمه وتغليبِ المعطوفِ.

(١٠) ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ أي الفرارُ يقوله قولَ الآيس من وُجْدَانِه المتمنِّي، وقرىء بالكسر وهو المكانِ.

(١١) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن طلب المفرِّ. ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ مستعارٌ من الحبلِ واشتقاقه من الوَزَرِ وهو الثِّقَلُ.

(١٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ إليه وحدَه استقرارُ العباد، أو إلى حكمِه استقرارُ أمرِهم، أو إلى مشيئته موضعُ قرارِهم يدخل مَنْ يشاء الجنةَ ومن يشاء النارَ.

(١٣) ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدَّم من عمل عمِلَه وبما أخَّر منه لم يعملْه، أو بما قدَّم من عمل عمِلَه وبما أخَّر من سنَّةٍ حسنةٍ أو سيئة عمل بها بعدَه، أو بما قدَّم من مال تصدَّق به وبما أخَّر فخلَّفه، أو بأول عمله وآخره.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٨٠ رقم ٢٥٦): «ذكره الثعلبي والبغوي والواحدي بدون إسناد».

بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

(١٤) ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ حجَّةٌ بيِّنةٌ على أعمالِها لأنه شاهدٌ بها، وصفَها بالبصارةِ على المجاز، أو عين بصيرةٌ بها فلا يحتاج إلى الإنباء.

(١٥) ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ولو جاء بكل ما يمكنُ أن يعتذرَ به جمعُ معذارٍ وهو العذْرُ، أو جمع معذرةٍ على غير قياس كالمناكير في المنكرِ فإنَّ قياسَه معاذِرُ وذلك أولى وفيه نظرٌ.

(١٦) ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا محمدُ. ﴿بِهِۦ﴾ بالقرآنِ. ﴿لِسَانَكَ﴾ قبل أن يتمَّ وحيُه. ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ لتأخذَه على عجلة مخافةَ أن ينفلِتَ منك.

(١٧) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك. ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ وإثباتَ قراءتِه في لسانِك، وهو تعليلٌ للنهي.

(١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ بلسانِ جبريلَ عليك[١] . ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قراءتَه وتكرر فيه حتى يرسخَ في ذهنك.

(١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ بيانَ ما أشكلَ عليك من معانيه، وهو دليلٌ على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، وهو اعتراضٌ بما يؤكد التوبيخَ على حبِّ العجلة لأن العجلةَ إذا كانت مذمومةً فيما هو أهمُّ الأمور وأصلُ الدين فكيف بها في غيره، أو بذكرِ ما اتفقَ في أثناء نزولِ هذه الآياتِ. وقيل الخطابُ مع الإنسانِ المذكورِ والمعنى أنه يُؤْتَى كتابَهُ فيتلجلجُ لسانه من سرعةِ قراءتِه خوفاً، فيقالُ له لا تحرِّكْ به لسانَك لتعجلَ به فإن علينا بمقتضَى الوعدِ جمعَ ما فيه من أعمالك وقراءتَه، فإذا قرأناه فاتبعْ قراءتَه بالإقرار أوِ التأملِ فيه، ثم إن علينا بيانَ أمرِهِ بالجزاءِ عليه.

(٢٠) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للرسول عن عادةِ العجلةِ أو للإنسان عن الاغترارِ بالعاجلِ. ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ .

(٢١) ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ تعميمٌ للخطابِ إشعاراً بأنَّ بني آدمَ مطبوعون على الاستعجالِ وإن كان الخطابُ للإنسان، والمرادُ به الجنسُ فجَمَعَ الضميرَ للمعنى ويؤيده قراءةُ ابنِ كثير وابن عامر والبصريينِ بالياءِ فيهما.

(٢٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ بهيةٌ متهلِّلَةٌ.

(٢٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تراه مستغرقةً في مطالعةِ جماله بحيثُ تغفلُ عما سواه ولذلك قدَّم المفعولَ، وليس هذا في كل الأحوالِ حتى ينافيه نظرُها إلى غيره[٢] . وقيل منتظرةٌ إنعامَه، ورُدَّ بأنَّ الانتظارَ

---

(١) وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة (س٩/٦٧).

(٢) عن جرير بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: «إنكم سترون ربكم عِياناً كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته» رواه البخاري (٢/ ٢٧) ومسلم (٦٣٣).

وعن صهيب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ فيكشِفُ الحجابَ، فما أعطوا شيئاً

لا يسندُ إلى الوجْهِ وتفسيره بالجملةِ خلافُ الظاهرِ، وأنَّ المستعملَ بمعناه لا يتعدَّى بإلى. وقولُ الشاعر:

وَإِذَا نَظَـرْتُ إِلَيْـكَ مِـن ملـكٍ والبَحْـرُ دُونَـكَ زِدْتنـي نِعَمـاً

بمعنى السؤال فإنَّ الانتظار لا يستعقبُ العطاءَ.

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾

(٢٤) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ شديدةُ العبوس والباسلُ أبلغُ من الباسرِ لكنه غلبَ في الشجاعِ إذا اشتدَّ كلوحُه.

(٢٥) ﴿تَظُنُّ﴾ تَتوقَّع أربابها. ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهيةٌ تكسرُ الفِقَارَ.

(٢٦) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إيثار الدنيا على الآخرة. ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ إذا بلغتِ النفسُ أعاليَ الصدرِ، وإضمارُها من غير ذكْرٍ لدلالةِ الكلامِ عليها.

(٢٧) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ وقال حاضرٌ وصاحبُها مَنْ يرقيه مما به من الرقْيَةِ، أو قال ملائكةُ الموتِ أيكم يرقَى بروحِه ملائكةُ الرحمةِ أو ملائكةُ العذاب، من الرقيِّ.

(٢٨) ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ وظن المحتضِرُ أن الذي نزلَ به فراقُ الدنيا ومحابها.

(٢٩) ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ والتَوَتْ ساقه بساقِه فلا يقدرُ على تحريكِهما، أو شدةُ فراقِ الدنيا بشدةِ خوف الآخرة.

(٣٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ سوقُه إلى الله تعالى وحُكْمِه.

(٣١) ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ما يجب تصديقُه، أو فلا صدقَ مالَه أي فلا زكاةَ. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ما فُرِضَ عليه والضمير فيهما للإنسان المذكور في أيحسبُ الإنسانُ.

(٣٢) ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة.

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبخترُ افتخاراً بذلك من المطِّ، فإن المتبختِرَ يمدُّ خطاه فيكون أصلُه يتمطَّطُ، أو من المطِّ وهو الظهرُ فإنه يلويه.

(٣٤) ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ويلٌ لك من الولي، وأصلُه أولاك اللهُ ما تكرهُه، واللامُ مزيدةٌ كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾[1] أو أولى لك الهلاكُ. وقيل أفعلُ من الويلِ بعد القلبِ أدنى من أدونَ، أو فعلى من آل يؤولُ بمعنى عقباك النارُ.

= أحب إليهم من النظر إلى ربهم» رواه مسلم (١٨١).

(١) النمل: «٧٢».

ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾
فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

(٣٥) ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ أي يتكرر ذلك عليه مرة بعد أُخرى.

(٣٦) ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ مهمَلاً لا يكلَّفُ ولا يجازى، وهو يتضمنُ تكريرَ إنكارِه للحشر، والدلالةُ عليه من حيثُ إن الحكمةَ تقتضي الأمرَ بالمحاسنِ والنهيَ عن القبائح، والتكليفُ لا يتحققُ إلا بالمجازاةِ وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة.

(٣٧) ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾.

(٣٨) ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فقدَّره فعدَّله.

(٣٩) ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ للصِّنفينِ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ وهو استدلالٌ آخرُ بالإبداءِ على الإعادةِ على ما مرَّ تقريره مراراً ولذلك رتَّب عليه قولَه:

(٤٠) ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ عن النبيِّ ﷺ أنه كان إذا قرأَها قال: «سبحانك، بلى»[١]. وعنه ﷺ «من قرأ سورةَ القيامة شهدتُ له أنا وجبريلُ يومَ القيامة أنه كان مؤمِناً به»[٢].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ٥٤٩ رقم ٨٨٤) من طريق موسى بن أبي عائشة عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ.
قلت: موسى هذا لم يدرك أحداً من الصحابة فهو معضل.
وأخرجه الحاكم (٢/ ٥١٠) من طريق إسماعيل بن أمية عن أبي اليسع من حديث أبي هريرة نحوه.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
قلت: بل فيه «يزيد بن عياض» كذبه مالك وغيره وأورده الذهبي في الميزان (٤/ ٤٣٦) وذكر فيه أقوال العلماء أنه ضعيف.
وكذلك أورد الذهبي الحديث في الميزان وقال: أبو اليسع لا يدري من هو والسند بذلك مضطرب.
والخلاصة أن الحديث ضعيف من كلا الطريقين.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٠ رقم ٢٥٩) ـ وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الإنسَانِ

ترتيبها ٧٦ — آياتها ٣١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾

سورة الإنسان مكية(١) وآيها إحدى وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ استفهامُ تقريرٍ وتقريبٍ ولذلك فُسِّر بقدْ وأصلُه أَهَلْ كقوله: أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ القَاعِ ذِي الأكمِ. ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ طائفةٌ محدودة من الزمان الممتدِّ الغيرِ المحدودِ. ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ بل كان شيئاً منسياً غيرَ مذكورٍ بالإنسانية كالعنصرِ والنطفةِ، والجملة حالٌ من الإنسان أو وصفٌ لحين بحذف الراجعِ والمراد بالإنسان الجنسُ لقوله:

(٢) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أو آدم بيَّنَ أولاً خلْقه ثم ذَكَر خلْقَه بنيه. ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاطٍ جمعُ مِشْجٍ أو مَشَجٍ أو مشيج من مشجتُ الشيءَ إذا خلطْتُه، وجَمَعَ النطفةَ به لأن المرادَ بها مجموعُ منيِّ الرجلِ والمرأةِ وكلٌّ منهما مختلف الأجزاءِ في الرقةِ والقوامِ والخواصِّ، ولذلك يصير كلُّ جزء منهما مادةَ عضوٍ. وقيل مفردٌ كأعشار وأكباشٍ. وقيل ألوان فإنَّ ماءَ الرجل أبيضُ وماءَ المرأةِ أصفرُ فإذا

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٨٢): قال بعض المفسرين هي مكية كلها، وحكى النقاش والثعلبي عن مجاهد وقتادة أنها مدنية، وقال الحسن وعكرمة: منها آية مكية وهي قوله تعالى: «ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً» والباقي مدني.

اختلطا اخضرّا، أو أطوارٌ فإنَّ النطفةَ تصير علقةً ثم مضغةً إلى تمام الخِلْقة. ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ في موضع الحال أي مبتلينَ له بمعنى مريدينَ اختبارَه أو ناقلينَ له من حالٍ إلى حال فاستُعير له الابتلاءُ. ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ ليتمكّن من مشاهدةِ الدلائلِ واستماعِ الآيات، فهو كالمسبَّبِ عن الابتلاءِ ولذلك عطف بالفاءِ على الفعل المقيَّدِ به ورتَّب عليه قولَه:

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بنصبِ الدلائلِ وإنزالِ الآيات. ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالانِ من الهاء، وإما للتفصيلِ أو التقسيمِ أي هديناه في حالَيْه جميعاً أو مقسوماً إليهما بعضُهم شاكراً بالاهتداءِ والأخذِ فيه، وبعضُهم كفورٌ بالإعراضِ عنه، أو من السبيلِ ووصْفُهُ بالشكر والكفر مجازٌ. وقرىء أما بالفتح على حذفِ الجواب. ولعلَّه لم يقلْ كافراً ليطابقَ قَسِيمَهُ محافظةً على الفواصلِ، وإشعاراً بأنَّ الإنسانَ لا يخلو عن كفرانٍ غالبَاً وإنما المؤاخَذُ به التوغلُ فيه.

(٤) ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ بها يُقَادُوْنَ. ﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾ بها يقيَّدون. ﴿وَسَعِيرًا﴾ بها يحرقونَ، وتقديمُ وعيدِهم وقد تأخَّر ذِكرُهم لأنَّ الإنذارَ أهمُّ وأنفع، وتصديرُ الكلام وخَتْمُهُ بذكرِ المؤمنين أحسنُ، وقرأ نافع والكسائيُّ وأبو بكر سلاسلاً للمناسبةِ.

إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾
يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾

(٥) ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ جمعُ بَرٍّ كأربابٍ، أو بارٍّ كأشهادٍ. ﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾ من خمر وهي في الأصلِ القدحُ تكون فيه. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما يُمزَجُ بها. ﴿كَافُورًا﴾ لِبَرْدِهِ وعذوبتِهِ وطيبِ عُرْفِهِ. وقيل اسمُ ماءٍ في الجنة يشبه الكافورَ في رائحتِهِ وبياضِه. وقيل يخلقُ فيها كيفياتِ الكافورِ فتكون كالممزوجةِ به.

(٦) ﴿عَيۡنٗا﴾ بدلٌ من كافوراً إنْ جُعِلَ اسمَ ماء، أو من محلِّ من كأسٍ على تقديرِ مضافٍ أي ماءَ عينٍ أو خمرَها. أو نُصِبَ على الاختصاصِ، أو بفعلٍ يفسره ما بعدَها. ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي ملتذاً بها أو ممزوجاً بها، وقيل الباء مزيدةٌ أو بمعنى مِنْ لأنَّ الشربَ مبتدأٌ منها كما هو. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ يُجرونَها حيثُ شاءوا إجراءً سهلاً.

(٧) ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ استئنافٌ ببيانِ ما رزقوه لأجلِه كأنه سُئِلَ عنه فأُجِيْبَ بذلك، وهو أبلغُ في وصْفِهم بالتوفُّر على أداءِ الواجباتِ لأن من وفَّى بما أوجبه على نفسِه لله تعالى كان أوفَى بما أوجبه الله تعالى عليه. ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ شدائده. ﴿مُسۡتَطِيرٗا﴾ فاشياً منتشِراً غايةَ الانتشارِ مِن استطارَ الحريقُ والفجْرُ، وهو أبلغُ من طارَ، وفيه إشعارٌ بحسن عقيدتِهم واجتنابهم عن المعاصي.

(٨) ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ حبِّ الله تعالى أوِ الطعامِ أوِ الإطعام. ﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ يعني أُسَرَاءَ الكفارِ فإنه ﷺ كان يُؤْتَى بالأسير فيدفعُه إلى بعضِ المسلمين فيقول أحسنْ إليه، أو الأسيرَ المؤمنَ ويدخلُ فيه المملوكُ والمسجونُ، وفي الحديث: «غريمك أسيرٌ فأحسنْ إلى أسيرك»[١].

---

(١) لم أقف عليه.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾

(٩) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ على إرادةِ القول بلسانِ الحالِ أو المقالِ إزاحةً لتوهُّمِ المنِّ وتوقُّعِ المكافأة المنقِصَةِ للأجرِ. وعن عائشةَ رضي الله تعالى عنها أنها كانت تبعثُ بالصدقة إلى أهل بيتٍ ثم تسأل المبعوثَ ما قالوا، فإن ذكر دعاءً دعتْ لهم بمثلِه ليبقى ثوابُ الصدقةِ لها خالصاً عند الله[1]. ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي شكراً.

(١٠) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ فلذلك نحسنُ إليكم أو لا نطلبُ المكافأةَ منكم. ﴿يَوْمًا﴾ عذابَ يوم. ﴿عَبُوسًا﴾ تعبُس فيه الوجوهُ أو يشبه الأسدَ العبوسَ في ضراوته. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديدَ العبوسِ كالذي يجمعُ ما بين عينيه من اقمطرَّتِ الناقةُ إذا رفعتْ ذَنَبَها وجمعتْ قُطْرَيْها، أو مشتقٌّ من القطرِ والميمُ مزيدةٌ.

(١١) ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ بسببِ خوفِهم وتحفُّظِهم عنه. ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ بدلَ عبوسِ الفجار وحزنِهم.

(١٢) ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بصبرِهم على أداءِ الواجبات واجتنابِ المحرَّماتِ وإيثارِ الأموال. ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً يأكلون منه. ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه. وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما مرِضَا فعادهما رسولُ الله ﷺ في ناسٍ فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرتَ على ولديكَ، فنذرَ عليٌّ وفاطمة رضي الله تعالى عنهما وفضةُ ـ جاريةٌ لهما ـ صومَ ثلاثٍ إنْ بَرِئا، فشُفِيا وما معهم شيءٌ، فاستقرضَ عليٌّ من شمعونَ الخيبريِّ ثلاثةَ أَصْوُعٍ من شعيرٍ فطحنتْ فاطمةُ صاعاً واختبزتْ خمسةَ أقراصٍ فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقفَ عليهم مسكينٌ فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماءَ وأصبحوا صياماً، فلما أَمْسَوْا ووضعوا الطعامَ وقفَ عليهم يتيمٌ فآثروه، ثم وقفَ عليهم في الثالثةِ أسيرٌ ففعلوا مثلَ ذلك، فنزلَ جبريلُ عليه السلام بهذه السورةِ وقال خذْها يا محمد هنَّاك الله في أهلِ بيتك[2].

(١٣) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ حالٌ من همْ في جزاهُم، أو صفةٌ لجنةٍ. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ يحتملُهما وأنْ يكون حالاً من المستكِنِّ في متكئينَ، والمعنى أنه يمرُّ عليهم فيها هواءٌ معتدلٌ لا حارٌّ

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم: ٢٧٨) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٣٠٣) بإسناد حسن.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩٢) من طريق أبي عبدالله السمرقندي عن محمد بن كثير الكوفي عن الأصبغ بن نباته مرسلاً.
وقال: «هذا حديث لا يشك في وضعه ولو لم يدل على ذلك إلا الأشعار الركيكة والأفعال التي يتنزه عنها أولئك السادة. قال يحيى بن معين: أصبغ بن نباته لا يساوي شيئاً، وقال أحمد بن حنبل: حرقنا حديث محمد بن كثير، وأما عبدالله السمرقندي فلا يوثق به» هـ.

محمٌ ولا باردٌ مؤذٍ، وقيل الزمهرير القمرُ في لغة طيءٍ قال راجزهم:

وَلَيْلَـــةٌ ظَـــلامُهَـــا قَـــدِ اعْتكَـــر قطَعْتُهَـــا وَالـــزَّمْهَـــرِيـــرُ مَـــا زَهَـــرْ

والمعنى أنَّ هواءها مضيءٌ بذاتِه لا يحتاج إلى شمسٍ وقمرٍ.

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

(١٤) ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ حالٌ أو صفةٌ أخرى معطوفةٌ على ما قبلَها، أو عطفٌ على جنةً أي وجنةً أخرى دانيةً على أنهم وُعِدُوا جنتينِ كقوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1] وقرئتْ بالرفعِ على أنها خبرُ ظلالُها. والجملةُ حالٌ أو صفةٌ. ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ معطوفٌ على ما قبلَه أو حالٌ منَ دانيةٍ، وتذليلُ القطوفِ أن تُجعَلَ سهلة التناوُلِ لا تمتنعُ على قُطَّافِها كيفَ شاءوا.

(١٥) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ وأباريقَ بلا عروةٍ. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾.

(١٦) ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ أي تكونتْ جامعةً بين صفاءِ الزجاجةِ وشفيفِها وبياضِ الفضةَ ولِيْنِها، وقد نوَّنَ قواريرَ من نوّن سلاسلاً، وابنُ كثير الأولى لأنها رأسُ الآيةِ، وقرىء قواريرَ من فضة على هي قواريرُ. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدَّروها في أنفسِهم فجاءت مقاديرُها وأشكالُها كما تمنَّوه، أو قدَّروها بأعمالهم الصالحةِ فجاءتْ على حَسَبِها، أو قدَّرَ الطائفونَ بها المدلولُ عليهم بقولِه يُطَافُ شرابُها على قدرِ اشتهائِهم. وقرىء قُدِروها أي جُعِلُوا قادرينَ لها كما شاءوا، من قَدَرَ منقولاً من قَدَرتُ الشيءَ.

(١٧) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ ما يشبهُ الزنجبيلَ في الطعمِ وكانتِ العربُ يستلذُّون الشرابَ الممزوجَ به.

(١٨) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسةِ انحدارِها في الحلْقِ وسهولةِ مساغِها، يقال شرابٌ سلسلٌ وسلسالٌ وسلسبيلٌ، ولذلك حُكِمَ بزيادةِ الباء، والمرادُ به أن ينفي عنها لذعَ الزنجبيلِ ويصفَها بنقيضِه، وقيل أصلُه سلْ سبيلاً فسُمِّيتْ به كتأبطَ شرّاً لأنه لا يشربُ منها إلا من سألَ إليها سبيلاً بالعملِ الصالح.

(١٩) ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ دائمون. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ من صفاءِ ألوانهم وانبثاثِهم في مجالسِهم وانعكاسِ شعاع بعضِهم إلى بعض.

(٢٠) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ليس له مفعولٌ ملفوظٌ ولا مقدَّرٌ لأنه عامٌّ معناه إنَّ بصرَك أينما وقعَ. ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً، وفي الحديث «أدنى أهلِ الجنة منزلةً ينظر في ملكِه مسيرةَ ألف عام يرى أقصاهُ كما يرى أدناه»[2] هذا وللعارفِ أكبرُ من ذلك وهو أن تنتقشَ نفسُه بجلايا الملكِ وخفايا الملكوتِ،

---

(١) الرحمن: ٤٦.

(٢) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/٥٠٨ رقم ٢٠):

فيستضيءَ بأنوار قُدُسِ الجبروت.

عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ
جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ
كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ يعلوهم ثيابُ الحرير الخضرُ ما رقَّ منها وما غلُظَ. ونصْبُه على الحالِ من هُمْ في عليهم أو حسبتَهم، أو ملكاً على تقدير مضافٍ أي وأهلَ ملكٍ كبيرٍ عالِيَهُم. وقرأ نافعٌ في عاليهم وحمزةُ بالرفعِ على أنه خبرُ ثيابٍ، وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر خضرٍ بالجرِّ حملاً على سندسٍ بالمعنى فإنه اسم جنسٍ، وإستبرقٌ بالرفعِ عطفاً على ثيابٌ، وقرأهما حفص وحمزةُ والكسائيُّ بالرفعِ، وقرىء واستبرقَ بوصْلِ الهمزةِ والفتحِ على أنه استفعلَ من البريقِ جُعِلَ علماً لهذا النوع من الثيابِ. ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ عطفٌ على ويطوفُ عليهم ولا يخالفُه قولُه أساورَ من ذهب لإمكان الجمعِ والمعاقبةِ والتبعيضِ، فإنَّ حُليَّ أهلِ الجنة تختلف باختلافِ أعمالهم، فلعلَّه تعالى يفيضُ عليهم جزاءً لما عملوه بأيديهم حلياً وأنواراً تتفاوتُ تفاوتَ الذهب والفضةِ، أو حالٌ من الضمير في عاليهم بإضمارِ قد، وعلى هذا يجوز أنْ يكون هذا للخدمِ وذلك للمخدومينَ. ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ يريدُ به نوعاً آخرَ يفوقُ على النوعين المتقدمينِ ولذلك أَسْنَدَ سقْيَه إلى اللهِ عزَّ وجل، ووصفَه بالطهوريةِ فإنه يطهرُ شاربَه عن الميلِ إلى اللذاتِ الحسيةِ والركون إلى ما سوى الحقِّ، فيتجرَّدُ لمطالعةِ جمالِه ملتذاً بلقائِه باقياً ببقائه، وهي منتهى درجاتِ الصِّديقينَ ولذلك ختمَ بها ثوابَ الأبرارِ.

(٢٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ على إضمارِ القولِ، والإشارةُ إلى ما عدَّ من ثوابِهم. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ مُجَازَى عليه غيرَ مضيَّعٍ.

(٢٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ مفرَّقاً منجَّماً لحكمة اقتضتْه، وتكريرُ الضمير مع أنَّ مزيدُ لاختصاصِ التنزيلِ به.

(٢٤) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصْرِكَ على كفارِ مكَّةَ وغيرِهم. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي كلَّ واحدٍ من مرتكبِ الإثم الداعي لك إليه ومن الغالي في الكفرِ الداعي لك إليه، وأو للدلالةِ على أنهما سِيَّانِ في استحقاقِ العصيانِ والاستقلال به، والقسمُ باعتبار ما يدعونه إليه، فإنَّ ترتُّبَ النهي على الوصفينِ مشعِرٌ أنه لهما وذلك يستدعي أن تكونَ المطاوعةُ في الإثم والكفرِ، فإنَّ مطاوعتَها فيما ليس بإثمٍ ولا كفرٍ غيرُ محظورٍ.

(٢٥) ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وداوِمْ على ذِكْرِهِ أو دُمْ على صلاة الفجر والظهرِ والعصر فإنَّ

= «وروى ابن أبي الدنيا عن الأعمش عن ثُوَيْرٍ قال: أراهُ عن ابن عمرَ قال: إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة لرجلٌ له ألفُ قصرٍ بين كُلِّ قصرين مسيرةُ سنةٍ يرى أقصاها كما يرى أدناها في كل قصر من الحور العين والرياحين والولدان ما يدعُو بشيء إلاَّ أُتِيَ به. رواه هكذا موقوفاً» هـ.

الأصيلَ يتناولُ وقتَيهما.

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

(٢٦) ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ وبعضُ الليل فصلِّ له تعالى، ولعلَّ المرادَ به صلاةُ المغربِ والعشاء، وتقديمُ الظرف لما في صلاة الليل من مزيدِ الكلفةِ والخلوصِ. ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ وتهجَّدْ له طائفةً طويلةً من الليل.

(٢٧) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ﴾ أمامَهم أو خَلْفَ ظهورِهم. ﴿يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً مستعارٌ من الثقلِ الباهظِ للحاملِ، وهو كالتعليلِ لما أَمَرَ به ونَهَى عنه.

(٢٨) ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ وأحكمْنا ربطَ مفاصِلهم بالأعصاب. ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ وإذا شئنا أهلكْناهم وبدَّلنا أمثالَهم تبديلاً في الخِلْقَةِ وشدةِ الأسرِ يعني النشأةَ الثانيةَ ولذلك جِيءَ بإذا، أو بدلنا غيرهم ممن يطيعُ وإذا لتحققِ القدرةِ وقوةِ الداعيةِ.

(٢٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ الإشارةُ إلى السورة أو الآياتِ القريبة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ تقرَّب إليه بالطاعة.

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وما تشاءون ذلك إلا وقتَ أنْ يشاءَ الله مشيئتَكُم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابنِ عامر يشاءون بالياء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يستأهلُ كلُّ أحد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاء إلا ما تقتضيه حكمتُه.

(٣١) ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ بالهداية والتوفيق للطاعةِ. ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ نصبَ الظالمينَ بفعلٍ يفسره أعدَّ لهم مثلَ أوعدَ وكافأَ ليطابقَ الجملةَ المعطوفَ عليها، وقرىء بالرفعِ على الابتداءِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأَ سورةَ هل أتى كان جزاؤُه على اللهِ جنةً وحريراً»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨١ رقم ٢٦٣).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُرسَلات

ترتيبها ٧٧ — آياتها ٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ
نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾

سورة المرسلات مكية(١) وآيها خمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾.

(٢) ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾.

(٣) ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾.

(٤) ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾.

(٥) ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ إقسامٌ بطوائفَ من الملائكةِ أرسلهنَّ الله تعالى بأوامره متتابعةً فعصفْنَ عصفَ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٩٦): «وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وحكى النقاش أنه قيل إن فيها من المدني قوله «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون» على قول من قال إنها حكاية عن حال المنافقين في القيامة. وإنها بمعنى قوله تعالى: «يدعون إلى السجود فلا يستطيعون».
وأخرج البخاري (٨/ ٦٨٥ رقم ٤٩٣٠) ومسلم (٤/ ١٧٥٥ رقم ٢٢٣٤) عن ابن مسعود قال: «كنا مع رسول الله ﷺ وأنزلت عليه «والمرسلات» وإنا لنتلقاها من فيه فخرجت حيّةٌ فابتدرناها، فسبقتنا فدخلت جُحرها فقال رسول الله ﷺ: «وقيت شركم كما وقيتم شرَّها».

الرياح في امتثالَ أمره ونشرْنَ الشرائعَ في الأرض، أو نشرنَ النفوسَ الموتى بالجهلِ بما أوحينَ من العلم. ففرقْنَ بينَ الحقِّ والباطل، فألقينَ إلى الأنبياءِ ذكراً عذراً للمحقِّين ونذراً للمبطلينَ[1]، أو بآياتِ القرآن المرسلةِ بكلِّ عرفٍ إلى محمد عليه الصلاة والسلام فعصفْن سائرَ الكتبِ والأديانِ بالنسخ ونشرْنَ آثارَ الهدى والحِكَمِ في الشرقِ والغربِ وفرقْنَ بين الحقِّ والباطل فألقينَ ذِكْرَ الحقِّ فيما بين العالمين، أو بالنفوسِ الكاملة المرسَلةِ إلى الأبدانِ لاستكمالِها فعصفْنَ ما سوى الحقِّ ونشرنَ أثرَ ذلك في جميع الأعضاءِ ففرقْنَ بينَ الحقِّ بذاته والباطلِ في نفسِه فيرونَ كلَّ شيءٍ هالكاً إلا وجْهَهُ فألقيْنَ ذكراً بحيث لا يكون في القلوب والألسنةِ إلا ذكرُ الله تعالى، أو برياحِ عذابٍ أُرْسِلْنَ فعصفْنَ ورياحِ رحمةٍ نشرْنَ السحابَ في الجوِّ ففرقْنَ فألقينَ ذكراً أي تسبَّبْنَ له فإن العاقلَ إذا شاهدَ هبوبَها وآثارها ذَكَرَ الله تعالى وتذكَّر كمالَ قدرتِه. وعرفاً إما نقيضُ النكرِ وانتصابُه على العلَّةِ أي أُرْسِلْنَ للإحسانِ والمعروف، أو بمعنى المتابعةِ من عرفِ الفرسِ وانتصابُه على الحالِ.

(٦) ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ مصدرانِ لعذرِ إذا محا الإساءةَ وأنذرَ إذا خوَّف، أو جمعانِ لعذيرٍ بمعنى المعذرةِ ونذير بمعنى الإنذارِ، أو بمعنى العاذرِ والمنذرِ، ونصبَهما على الأوَّلينِ بالعِلِّيَّةِ أي عذراً للمحقِّين أو نذراً للمبطِّلينَ، أوِ البدلِ من ذكراً على أنَّ المرادَ به الوحيُ أو ما يعمُّ التوحيدَ والشرك والإيمانَ والكفرَ وعلى الثالثِ بالحاليةِ، وقرأهما أبو عمرو وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بالتخفيفِ.

(٧) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ جوابُ القسمِ ومعناه أن الذي تُوْعَدُوْنَهُ من مجيءِ القيامة كائنٌ لا محالة.

(٨) ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ مُحِقَتْ أو أُذْهِبَ نورُها.

(٩) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ صُدِعَتْ.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ كالحبِّ يُنْسَفُ بالمِنْسَفِ.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ عُيِّنَ لها وقتُها الذي يحضرون فيه للشهادةِ على الأمم بحصولِه، فإنه لا يتعيَّن لهم قبلَه، أو بلغتْ ميقاتَها الذي كانتْ تنتظرهُ، وقرأ أبو عمرو وُقِّتتْ على الأصلِ.

(١٢) ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي يقال لأي يومٍ أُخِّرتْ، وضَرْبُ الأجلِ للجمعِ وهو تعظيمٌ لليوم وتعجيبٌ من هوله، ويجوز أن يكونَ ثاني مفعولي أُقِّتَتْ على أنه بمعنى أعلِمَتْ.

(١٣) ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ بيانٌ ليوم التأجيلِ.

(١٤) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ ومن أين تعلمُ كُنْهَهُ ولم ترَ مثْلَه[2].

---

(١) ولعل تقديم نشر الشرائع أو نشر النفوس والفرق على الإلقاء للإيذان بكونها غاية للإلقاء حقيقة بالاعتناء بها، أو للإشعار بأن كلاً من الأوصاف المذكورة مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها التفخيم والإجلال بالإقسام بهن، ولوجيء بها على ترتيب الوقوع لربما فهم أن مجموع الإلقاء والنشر والفرق هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق (س٩/ ٧٧).

(٢) وضع يوم الفصل موضع الضمير فقال: «وما أدراك ما يوم الفصل» ولم يقل: وما هو، وذلك لزيادة التفظيع والتهويل (س٩/ ٧٨).

وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ
يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ
ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ
وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

(١٥) ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي بذلك، وويل في الأصل مصدرٌ منصوب بإضمارِ فعلِه عَدَلَ به إلى الرفعِ للدلالة على ثباتِ الهلكِ للمدعوِّ عليه، ويومئذ ظرفُه أو صفتُه.

(١٦) ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كقومِ نوحٍ وعاد وثمودَ، وقرىء نَهۡلِك من هلكَه بمعنى أهْلَكَه.

(١٧) ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي ثم نحن نتبعُهم نُظَراءَه ككفار مكَّةَ، وقرىء بالجزمِ عطفاً على نهلكْ فيكونُ الآخرين المتأخرينَ من المهلَكِيْنَ كقوم لوطٍ وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام.

(١٨) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الفعلِ. ﴿نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بكلِّ مَنْ أجرمَ.

(١٩) ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بآياتِ الله وأنبيائه فليس تكريراً، وكذا إنْ أُطْلِقَ التكذيبُ أو علِّق في الموضعين بواحدٍ، لأنَّ الويلَ الأولَ لعذابِ الآخرةِ وهذا للإهلاكِ في الدنيا، مع أن التكرير للتوكيدِ حسنٌ شائع في كلام العرب.

(٢٠) ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ نطفةٍ مذِرةٍ ذليلةٍ.

(٢١) ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾ هو الرَّحِمُ.

(٢٢) ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ إلى مقدار معلومٍ من الوقْتِ قدَّره الله تعالى للولادةِ.

(٢٣) ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ على ذلك، أو فقدَّرناه ويدلُّ عليه قراءةُ نافعٍ والكسائيِّ بالتشديد. ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ نحن.

(٢٤) ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتِنا على ذلك أو على الإعادة.

(٢٥) ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾ كافتةً اسمٌ لما يُكْفَتُ أي يضمُّ ويجمعُ كالضمامِ والجماعِ اسمٌ لما يضمُّ ويجمعُ، أو مصدرٌ نُعِتَ به أو جمعُ كافتٍ كصائمٍ وصيامٍ، أو كِفْتٍ وهو الوعاءُ أجريَ على الأرض باعتبارِ أقطارِها.

(٢٦) ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ منتصبانِ على المفعولية، وتنكيرُهما للتفخيمِ، أو لأنَّ إحياءَ الإنس وأمواتِهم بعضُ الأحياءِ والأمواتِ، أو الحاليةِ من مفعولِه المحذوفِ للعلم به وهو الإنس، أو بنجعلْ على المفعوليةِ وكفاتاً حالٌ أو الحاليةِ فيكون المعنى بالأحياءِ ما ينبتُ وبالأمواتِ ما لا ينبتُ.

(٢٧) ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ جبالاً ثوابتَ طوالاً. والتنكير للتفخيم، أو الإشعار بأنَّ فيها ما لم يُعْرَفْ ولم يُرَ. ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ بخلقِ الأنهارِ والمنابعِ فيها.

(٢٨) ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثالِ هذه النِّعمِ.

انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا
تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ
لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾

(٢٩) ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي يُقَالُ لهم انطلقوا. ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذابِ.

(٣٠) ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ خصوصاً وعن يعقوبَ انطلقوا على الإخبارِ عن امتثالِهم للأمرِ اضطراراً. ﴿إِلَىٰ ظِلّٖ﴾ يعني ظلَّ دخانِ جهنَّم كقوله تعالى ﴿وظل من يحموم﴾. ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ يتشعَّب لِعظَمِه كما ترى الدخانَ العظيمَ يتفرق. تفرُّقَ الذوائبِ، وخصوصيةُ الثلاثِ إما لأن حجابَ النفس عن أنوار القدسِ الحسُّ والخيال والوهْمُ، أو لأن المؤديَ إلى هذا العذابِ هو القوةُ الواهمةُ الحالية في الدماغِ والغضبيةُ التي في يمين القلبِ والشهويةُ التي في يسارِه، ولذلك قيل شعبةٌ تقف فوقَ الكافرِ وشعبة عن يمينِه وشعبةٌ عن يساره.

(٣١) ﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾ تهكُّمٌ بهم وردٌّ لما أَوْهَمَ لفظُ الظلِّ. ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ وغيرُ مغنٍ عنهم من حرِّ اللهب شيئاً.

(٣٢) ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ أي كلُّ شرارة كالقصرِ في عِظَمِها، ويؤيده أنه قرىء بشرارٍ، وقيل هو جمعُ قصرةٍ وهي الشجرةُ الغليظة. وقرىء كالقُصُرِ بمعنى القصورِ كرِهْنٍ ورُهُنٍ، وكالقِصَرِ جمعُ قَصَرةٍ كحاجةٍ وحِوَجٍ، وكالقَصِر جمع قصرةٍ وهي أصلُ العنقِ والهاءُ للشُّعبِ.

(٣٣) ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ﴾ جمعُ جمالٍ أو جمالةٍ جمعُ جملٍ. ﴿صُفۡرٞ﴾ فإنَّ الشرارَ بما فيه من الناريةِ يكون أصفرَ، وقيل سودٌ لأن سوادَ الإبلِ يضربُ إلى الصفرةِ، والأول تشبيهٌ في العِظَمِ وهذا في اللونِ والكثرةِ والتتابُعِ والاختلاط وسرعةِ الحركةِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ وحفص جمالةٌ، وعن يعقوبَ جُمالاتٌ بالضمِّ جمع جمالة، وقد قرىء بها وهي الحبلُ الغليظ من حبالِ السفينة شبَّهه بها في امتدادِه والْتِفَافِه.

(٣٤) ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

(٣٥) ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي بما يستحقُّ فإنَّ النُّطْقَ بما لا ينفعُ كَلَا نُطْقٍ، أو بشيءٍ من فَرْطِ الدهشةِ والحيرةِ وهذا في بعض المواقفِ، وقرىء بنصبِ اليوم أي هذا الذي ذُكِرَ واقع يومَئِذٍ.

(٣٦) ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾.

(٣٧) ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عطَفَ فيعتذرونَ على يُؤْذَنُ ليدلَّ على نفي الإذْنِ والاعتذار عقيبَهُ مطلقاً، ولو جعلَه جواباً لدلَّ على أن عدمَ اعتذارِهم لعدم الإذن فأَوْهَم ذلك أنَّ لهم عذْراً لكن لا يؤذنُ لهم فيه.

(٣٨) ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾ بين المحقِّ والمبطِلِ. ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ تقرير وبيانٌ للفصلِ.

(٣٩) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ تقريعٌ لهم على كيدِهم للمؤمنين في الدنيا وإظهارٌ لعجزهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(٤٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ إذ لا حيلةَ لهم في التخلُّص من العذاب.

(٤١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك لأنهم في مقابلة المكذِّبين.

(٤٢) ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مستقرُّون في أنواع الترفُّه.

(٤٣) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مقولاً لهم ذلك.

(٤٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة.

(٤٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يمحضُ لهم العذابَ المخلَّد ولخصومهم الثوابَ المؤبَّدَ.

(٤٦) ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ حالٌ من المكذبين أي الويلُ ثابتٌ لهم في حال ما يُقَالُ لهم ذلك، تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا وبما جَنَوْا على أنفسِهم من إيثارِ المتاعِ القليل على النعيم المقيم.

(٤٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيثُ عرَّضوا أنفسَهم للعذاب الدائم بالتمتُّعِ القليل.

(٤٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ أطيعوا واخضَعُوا أو صلُّوا أو اركعوا في الصلاة، إذ روي أنه نزلَ حين أمرَ رسولُ الله ﷺ ثقيفاً بالصلاة فقالوا: لا نُجْبِي أي لا نركعُ فإنها مسبَّةٌ[١]. وقيل هو يومُ القيامة حين يُدْعَوْنَ إلى السجود فلا يستطيعون. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يمتثلون، واستُدِلَّ به على أن الأمرَ للوجوبِ وأن الكفارَ مخاطَبون بالفروعِ.

(٤٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٥٠) ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ بعدَ القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو معجزٌ في ذاته مشتملٌ على الحججِ الواضحةِ والمعاني الشريفةِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والمرسلاتِ كُتِبَ له أنه ليس من المشركينَ»[٢].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أبو داود (٣/ ٤٢٠ ـ ٤٢١ رقم ٣٠٢٦) وأحمد في المسند (٤/ ٢١٨) والطبراني في الكبير (٩/ ٤٥ رقم ٨٣٧٢) من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص. واختلف في سماع الحسن من عثمان كما قال المنذري.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨١ رقم ٢٦٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّبَإِ

ترتيبها ٧٨ — آياتها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾

سورة النبأ مكية[1]، وآيها إحدى وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصلُه عمَّا فحذفَ الألفَ لما مرَّ، ومعنى هذا الاستفهامِ تفخيمُ شأنِ ما يتساءلون عنه كأنه لفخامتِهِ خَفِيَ جنسُه فَيُسْأَلُ عنه، والضميرُ لأهلِ مكَّةَ كانوا يتساءلون عن البعثِ فيما بينهم، أو يسألون الرسولَ عليه الصلاة والسلام والمؤمنينَ عنه استهزاءً كقولهم: يتداعونَهم ويتراءونَهم أي يدعونَهم ويرونَهم، أو للناس.

(٢) ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ بيانٌ لشأنِ المفخَّمِ أو صلةُ يتساءلون، وعمَّ متعلِّقٌ بمضمَر مفسَّرٍ به، ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ: عمَّهْ.

(٣) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بجزمِ النفي والشكِّ فيه، أو بالإقرار والإنكار.

(٤) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردعٌ عن التساؤل ووعيدٌ عليه.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٠٦): «وهي مكية بإجماع، وليس فيها نسخ ولا حكم إلا ما قاله بعض الناس في قوله تعالى «لبثوا فيها أحقاباً» من أنه منسوخ وهو قول خلف لأن الأخبار لا تنسخ وإنما ذكرنا هذا القول تنبيهاً على فساده» هـ.

(٥) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكريرٌ للمبالغة. وثمَّ للإشعار بأنَّ الوعيدَ الثاني أشدُّ، وقيل الأولُ عند النَّزْعِ والثاني في القيامةِ، أو الأولُ للبعثِ والثاني للجزاءِ. وعن ابن عامرٍ ستعلمون بالتاءِ على تقدير قلْ لهم ستعلمون.

(٦) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾.

(٧) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تذكيرٌ ببعضِ ما عاينوا من عجائبِ صُنعِه الدالةِ على كمال قدرته ليستدِلُّوا بذلك على صحة البعثِ كما مرَّ تقريره مراراً، وقرىء مهداً أي أنها لهم كالمهدِ للصبيِّ مصدرٌ سُمِّي به ما يُمَهَّدُ لِيُنَوَّمَ عليه.

(٨) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكراً وأنثى.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قطْعاً عن الإحساسِ والحركة استراحةً للقِوى الحيوانيةِ وإزاحةً لِكَلالِها، أو موتاً لأنه أحدُ التوفيينِ ومنه المسبوتُ للميتِ، وأصله القطعُ أيضاً.

(١٠) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ غطاءً يستَتِرُ بظُلْمتِه مَنْ أراد الاختفاءَ.

(١١) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقتَ معاشٍ تتقلَّبون فيه لتحصيل ما تعيشون به، أو حياةً تنبعثون فيها عن نومِكم.

(١٢) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ سبعَ سمواتٍ أقوياءَ محكَمَاتٍ لا يؤثر فيها مرورُ الدهورِ.

(١٣) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ متلألئاً وقَّاداً من وهجتِ النارُ إذا أضاءتْ، أو بالغاً في الحرارة من الوهجِ وهو الحرُّ والمرادُ الشمسُ.

(١٤) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ السحائبُ إذا أُعْصِرَتْ أي شارفتْ أنْ تعصِرَها الرياحُ فتمرُّ كقولك: احصدِ الزرعَ إذا حان له أنْ يُحْصَدَ، ومنه أعْصَرتِ الجاريةُ إذا دنتْ أنْ تحيضَ، أو من الرياح التي حانَ لها أنْ تعصِرَ السحابَ، أو الرياحُ ذواتُ الأعاصير، وإنما جُعِلَتْ مبدأً للإنزال لأنها تنشىء السحابُ وتدرأ خلافَه، ويؤيدُه أنه قرىء بالمعصراتِ. ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ منصبَّاً بكثرةٍ يقال ثجَّه وثجَّ بنفسِه. وفي الحديث: «أفضلُ الحجِّ العجُّ[1] والثجُّ[2]» أي رفعُ الصوتِ بالتلبية وصبُّ دماءِ الهدْيِ، وقرىء ثجاجاً، ومثاجِجُ الماءِ مصابُّه.

(١٥) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ما يُقْتَاتُ به وما يُخْتَلَفُ من التبنِ والحشيشِ.

---

(١) العج: رفع الصوت بالتلبية [النهاية: (٣/ ١٨٤)].

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٢٥ رقم ٢٩٩٨) من حديث ابن عمر.
وضعفه الترمذي بإبراهيم بن يزيد الخوزي. قلت: هو متروك الحديث [التقريب (١/ ٤٦)].
وأخرجه ابن ماجة (٢/ ٩٧٥ رقم ٢٩٢٤) والترمذي (٣/ ١٨٩ رقم ٨٢٨) من حديث أبي بكر الصديق مرفوعاً بنحوه. وانظر الكلام عليه في «الصحيحة» (رقم: ١٥٠٠).
وخلاصة ذلك أنه حديث حسن والله أعلم.
● والثج هو سيلان دماء الهدي والأضاحي [النهاية (١/ ٢٠٧)].

وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ
فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ ملتفةً بعضُها ببعض جمعُ لفٍّ كجِذْعٍ. قال:

جَنَّـــةٌ لـــفٌّ وَعَيْـــشٌ مُغْـــدِق ونَـــدَامـــى كُلُّهُـــمْ بيـــضُ زهـــر

أو لَفيفٍ كشريفٍ أو لُفٌّ جمعُ لفَّاءَ كخضراءَ وخضْرٍ وأخضارٍ أو متلفةٍ بحذفِ الزوائدِ.

(١٧) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ﴾ في علمِ الله تعالى أو في حُكْمِهِ. ﴿مِيقَٰتًا﴾ حداً تؤقَّتُ به الدنيا وتنتهي عندَه، أو حداً للخلائق ينتهون إليه.

(١٨) ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدلٌ أو بيانٌ ليوم الفصلِ. ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ جماعاتٍ من القبور إلى المحشر، روي أنه ﷺ سُئِلَ عنه فقال: «يحشر عشرةُ أصناف من أمتي بعضُهم على صورة القردةِ، وبعضُهم على صورة الخنازيرِ، وبعضهم منكّسونَ يُسْحَبُونَ على وجوهِهم، وبعضُهم عميٌ وبعضُهم صمٌّ بكمٌ، وبعضُهم يمضغونَ ألسنتهم فهي مدلاةٌ على صدورهم فيسيل القيحُ من أفواهِهم يتقذَّرهم أهلُ الجمْعِ، وبعضُهم مقطَّعَةٌ أيديهم وأرجلُهم، وبعضُهم مصلوبونَ على جذوع من نارٍ، وبعضُهم أشدُّ نَتَناً من الجِيَفِ، وبعضهم مُلْبَسُونَ جباباً سابغةً من قَطِرانٍ لازقةً بجلودهم»[(١)]. ثم فسَّرهم بالقتّاتِ[(٢)]، وأهلِ السحتِ، وأَكَلَةِ الربا، والجائرينَ في الحكم، والمعْجَبِيْنَ بأعمالهم، والعلماءِ الذين خالفَ قولُهم عملَهم، والمؤذِيْنَ جيرانَهم، والساعينَ بالناس إلى السلطان، والتابعينَ للشهواتِ المانعين حقَّ الله تعالى، والمتكبرينَ الخيلاءَ.

(١٩) ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ وشُقِّقَتْ. وقرأ الكوفيون بالتخفيفِ. ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فصارتْ من كثرةِ الشقوقِ كأنَّ الكلَّ أبوابٌ أو فصارتْ ذاتَ أبوابٍ.

(٢٠) ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي في الهواء كالهباء. ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ مثلَ سرابٍ إذ تُرى على صورةِ الجبال ولم تبقَ على حقيقتِها لتفتُّتِ أجزائهَا وانبثاثِها.

(٢١) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ موضعَ رصدٍ يرصُدُ فيه خزنةُ النارِ الكفارَ، أو خزنةُ الجنة المؤمنينَ ليحرسُوهم من فيحِها في مجازِهم عليها، كالمضمارِ فإنه الموضعُ الذي تُضْمَرُ فيه الخيلُ، أو مُجِدَّةً في ترصُّدِ الكفرةِ لئلا يشذَّ منها واحدٌ كالمطعانِ، وقرىء أنَّ بالفتح على التعليلِ لقيام الساعةِ.

(٢٢) ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ مرجعاً ومأوى.

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب ـ كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٩٣) ـ وذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٩/ ١٧٥ ـ ١٧٦). والألوسي (٣٠/ ١٢) ثم قال: «وهذا كما قال ابن حجر حديث موضوع. وآثار الوضع لائحة عليه» هـ.

(٢) القتّات هو النمام، والقتّ هم نمُّ الحديث (مختار الصحاح مادة قتت).

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ
لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾﴾

(٢٣) ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ وقرأ حمزة وروحٌ لبثينَ وهو أبلغُ. ﴿أَحۡقَابٗا﴾ دهوراً متتابعةً، وليس فيها ما يدلُّ على خروجهم منها إذ لو صحَّ أن الحقبَ ثمانونَ سنةً أو سبعونَ ألفِ سنةٍ، فليس فيه ما يتقضَّى تناهي تلك الأحقاب لجواز أنْ يكون المرادُ أحقاباً مترادفةً كلَّما مضى حِقَبٌ تبعه آخرُ، وإنْ كان فمِنْ قبيلِ المفهوم فلا يعارِضُ المنطقَ الدالَّ على خلود الكفارِ، ولو جُعِلَ قولُه:

(٢٤) ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾.

(٢٥) ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾ حالاً من المستكِنِّ في لابثينَ أو نصبَ أحقاباً بلا يذوقون احتُمِل أنْ يلبثوا فيها أحقاباً غيرَ ذائقينَ إلا حميماً وغساقاً، ثم يُبَدَّلون جنساً آخرَ من العذاب، ويجوز أن يكونَ جمعَ حقبٍ من حَقِبَ الرجلُ إذا أخطأه الرزقُ وحقِبَ العامُ إذا قلَّ مطرهُ وخيرهُ فيكون حالاً بمعنى لابثينَ فيها حقبينَ، وقوله لا يذوقون تفسيرٌ له. والمرادُ بالبردِ ما يُرَوِّحُهم وينفِّسُ عنهم حرَّ النارِ أو النوم، وبالغساقِ ما يغسقُ أي يسيلُ من صديدِهم. وقيل الزمهريرُ وهو مستثنى من البردِ إلا أنه أُخِّرَ ليتوافقَ رؤوسُ الآي، وقرأ حمزة والكسائيُّ وحفص بالتشديدِ[١].

(٢٦) ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾ أي جُوزُوا بذلك جزاءً ذا وفاقٍ لأعمالهم، أو موافقاً لها أو وافقَها وفاقاً، وقرىء وِفّاقاً فِعَّالٌ من وَفِقَه كذَا.

(٢٧) ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ بيانٌ لما وافقَه هذا الجزاءُ.

(٢٨) ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ تكذيباً وفِعَّالٌ بمعنى تفعيلٍ مطَّرِدٌ شائعٌ في كلام الفُصَحاءِ. وقرىء بالتخفيف وهو بمعنى الكذِبِ كقوله:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا والمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ[٢]

وإنما أُقِيْمَ مقامَ التكذيب للدلالة على أنهم كَذَبُوا في تكذيبهم، أو المكاذبةِ فإنَّهم كانوا عند المسلمين كاذبينَ وكان المسلمون كاذبينَ عندَهم فكان بينَهم مكاذبةٌ، أو كانوا مبالِغينَ في الكذِب مبالغةَ المبالغينَ فيه، وعلى المعْنَيَيْنِ يجوزُ أنْ يكونَ حالاً بمعنى كاذبينَ أو مكاذبين، ويؤيدُه أنه قرىء كِذَاباً وهو جمعُ كاذبٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ للمبالغةِ فيكون صفةً للمصدرِ أي تكذيباً مفرِطاً كذِبُه.

(٢٩) ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ وقرىء بالرفع على الابتداءِ. ﴿كِتَٰبٗا﴾ مصدرٌ لأحصيناهُ فإنَّ الإحصاءَ والكتبةَ يتشاركان في معنى الضبطِ أو لفعلِه المقدَّرِ أو حال بمعنى مكتوباً في اللوحِ أو صحفِ الحفظة، والجملةُ اعتراضٌ وقوله:

---

(١) أي بتشديد السين من غسّاقاً، وقرأ آخرون بتخفيف السين غسَاقاً.
(٢) من مجزوء الكامل.

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

(٣٠) ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مسبَّبٌ عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآياتِ، ومجيئُه على طريقةِ الالتفاتِ للمبالغةِ. وفي الحديث: «هذه الآيةُ أشدُّ ما في القرآن على أهلِ النار»[1].

(٣١) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فوزاً أو موضعَ فوزٍ.

(٣٢) ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ بساتينَ فيها أنواعُ الأشجار المثمرةِ بدلٌ من مفازاً بدلَ الاشتمالِ والبعضِ.

(٣٣) ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ نساءَ فُلِكَتْ ثديهنَّ. ﴿أَتْرَابًا﴾ لِدَاتٍ[2].

(٣٤) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ملآناً، وأدهقَ الحوضَ ملأه.

(٣٥) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ وقرأ الكسائي بالتخفيفِ أي كذِباً أو مكاذبةٍ، إذ لا يكذِّبُ بعضُهم بعضاً.

(٣٦) ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ بمقتضى وعدِه. ﴿عَطَآءً﴾ تفضُّلاً منه إذ لا يجب عليه شيءٌ، وهو بدلٌ من جزاء، وقيل منتصبٌ به نصبَ المفعولِ به. ﴿حِسَابًا﴾ كافياً من أحْسَبَهُ الشيءَ إذا كفاهُ حتى قال حسبي، أو على حسبِ أعمالهم وقرىء حَسّاباً أي محسباً كالدرّاكِ بمعنى المدرَكِ.

(٣٧) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدلٌ من ربِّك، وقد رفعَه الحجازيانِ وأبو عمرو على الابتداءِ. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالجرِّ صفةٌ له وكذا في قراءة ابن عامر وعاصمٍ ويعقوبَ، وبالرفع في قراءة أبي عمرو، وفي قراءة حمزةَ والكسائي بجرِّ الأول ورفعِ الثاني على أنه خبرُ محذوف، أو مبتدأٌ خبرهُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ﴾ والواوُ لأهل السمواتِ والأرضِ أي لا يملكون خطابَه، والاعتراضُ عليه في ثوابٍ أو عقاب لأنهم مملوكونَ له على الإطلاق فلا يستحقُّون عليه اعتراضاً وذلك لا ينافي الشفاعةَ بإذنه.

(٣٨) ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ تقريرٌ وتوكيدٌ لقوله لا يملكون، فإنَّ هؤلاءِ الذين هم أفضلُ الخلائقِ وأقربُهم من الله إذا لم يقدروا أنْ يتكلَّموا بما يكون صواباً كالشفاعةِ لِمَنِ ارتضى إلا بإذنه، فكيف يملكُه غيرُهم؟! ويومَ ظرفٌ لِلَا يملِكُون، أو ليتكلمون. والروحُ مَلَكٌ موكَّل على الأرواحِ أو جنسِها، أو جبريلُ عليه السلام، أو خلْقٌ أعظمُ من الملائكة.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٨١ رقم ٢٦٨): «ـ أخرجه ـ ابن أبي حاتم، والثعلبي من رواية جسر بن فرقد السبخي عن الحسن سألت أبا برزة الأسلمي فذكره. وجسر ضعيف، ورواه الطبراني ـ (٧/١٣٣) وفيه شعيب بن بيان وهو ضعيف ـ والبيهقي في الشعب موقوفاً» هـ.

(٢) كواعب جمع كاعب وهي المرأة التي تكعّب ثدياها واستدار مع ارتفاع يسير، ويكون ذلك في سن البلوغ. وأترابا أي لدات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، أو لوقوعهن معاً على التراب.. (روح المعاني ٣٠/١٨).

ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ
يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ الكائنُ لا محالةَ. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ إلى ثوابه. ﴿مَـَٔابًا﴾ بالإيمان والطاعة.

(٤٠) ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذابَ الآخرةِ، وقربه لتحقُّقِه فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ ولأنَّ مبدأَه الموتُ. ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ يرى ما قدَّمه من خير أو شرٍّ. والمرءُ عامٌّ، وقيل هو الكافر لقوله ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾[1] فيكون الكافرُ ظاهراً وُضِعَ موضعَ الضمير لزيادة الذمِّ، وما موصولةٌ منصوبةٌ بينظرُ أو استفهاميةٌ منصوبةٌ بقدَّمت، أي ينظر أيَّ شيءٍ قدَّمتْ يداهُ. ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ في الدنيا فلم أُخلَقْ ولم أُكلَّفْ، أو في هذا اليومِ فلم أُبعَثْ، وقيل يحشرُ سائرُ الحيواناتِ للاقتصاصِ ثم تَرَدُّ تراباً فيودُّ الكافِرُ حالَها. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ عمَّ سقاه الله بَرْدَ الشرابِ يومَ القيامة»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) النبأ: «٤٠».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨١ رقم ٢٦٩).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

ترتيبها ٧٩ — آياتها ٤٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ
تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى
ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾

سورة النازعات مكية [(١)] وآيها خمس أو ست وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾.

(٢) ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾.

(٣) ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾.

(٤) ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾.

(٥) ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ هذه صفاتُ ملائكةِ الموتِ فإنهم ينزعونَ أرواحَ الكفار من أبدانهم غَرْقَاً أي إغراقاً في النزعِ. فإنهم ينزِعُونها من أقاصي الأبدانِ أو نفوساً غرقتْ في الأجسادِ، وينشطونَ أي يخرجونَ أرواحَ المؤمنينَ برفقٍ من نشطَ الدلْوَ من البئر إذا أخرجَها، ويسْبَحُون في إخراجها سبحَ الغوَّاصِ الذي يُخرِجُ الشيءَ من أعماق البحر، فيسبقونَ بأرواحِ الكفارِ إلى النار وبأرواحِ المؤمنين إلى الجنة، فيدبرون أمرَ عقابِها وثوابها بأنْ يهيِّئُوها لإدراك ما أعدَّ لَها من الآلام واللذاتِ، أَوَ الأولياءِ لهم

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز».
(١٦/٢١٨): «وهي مكية بإجماع من المتأولين».

والباقياتُ لطوائفَ من الملائكةِ يسبحون في مضيِّها أي يسرعون فيه فيسبِقُون إلى ما أُمِروا به فيدبرون أمْرَهُ. أو صفاتُ النجومِ فإنها تنزعُ من المشرقِ إلى المغرب غرقاً في النزعِ بأن تقطعَ الفلكَ حتى تنحطَّ في أقصى الغربِ، وتنشَطُ من برجٍ إلى برجٍ أي تخرجُ من نشطَ الثورُ إذا خرجَ من بلد إلى بلد، ويسبَحْنَ في الفلكِ فيسبقُ بعضُها في السير لكونه أسرعَ حركةً فيدبر أمراً نِيْطَ بها، كاختلافِ الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيتِ العبادات، ولما كانت حركاتُها من المشرقِ إلى المغرب قسريةً وحركاتُها من برجٍ إلى برجٍ ملائمة سمّى الأولى نزعاً والثانية نشطاً. أو صفاتُ النفوسِ الفاضلةِ حالَ المفارقة فإنها تُنْزَعُ عن الأبدانِ غرقاً أي نزعاً شديداً من إغراق النازع في القوسِ، وتنشطُ إلى عالَمِ الملكوتِ وتسْبَحُ فيها فتسبقُ إلى حظائرِ القدُسِ فتصيرُ لِشَرَفِها وقوّتها من المدبِّرات، أو حالَ سلوكِها فإنها تنزعُ عن الشهواتِ فتنشطُ إلى عالم القدس، فتسْبَحُ في مراتبِ الارتقاءِ فتسبقُ إلى الكمالاتِ حتى تصيْرَ من المكملاتِ. أو صفاتُ أنفسِ الغزاةِ، أو أيديهم تنزعُ القِسِيَّ بإغراقِ السهامِ وينشطون بالسهمِ للرمي ويسبحون في البرِّ والبحرِ فيسبقُون إلى حربِ العدوِّ فيدبرون أَمْرَهَا. أو صفاتُ خيلِهم فإنها تنزعُ في أعِنَّتها نزعاً تغرقُ فيه الأعنةُ لطولِ أعناقِها وتخرجُ من دار الإسلام إلى دار الكفرِ، وتسبح في حربها فتسبقُ إلى العدوِّ فتدبِّرُ أَمْرَ الظَّفَرِ.

أقسمَ اللهُ تعالى بها على قيامِ الساعة وإنما حُذِفَ لدلالة ما بعدَه عليه.

(٦) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وهو منصوبٌ به، والمرادُ بالراجفةِ الأجرامُ الساكنةُ التي تشتدُّ حركتُها حينئذ كالأرض والجبال لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾[1] أو الواقعةُ التي ترجفُ الأجرامُ عندَها وهي النفخةُ الأُولى.

(٧) ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ التابعةُ وهي السماء والكواكبُ تنشق وتنتشرُ، أو النفخةُ الثانية. والجملةُ في موقع الحال.

(٨) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ شديدةُ الاضطرابِ من الوجيفِ وهي صفة القلوب، والخبرُ.

(٩) ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ أي أبصارُ أصحابِها ذليلةٌ من الخوف ولذلك أضافَها إلى القلوب.

(١٠) ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ في الحالةِ الأولى يعنونَ الحياةَ بعدَ الموت من قولهم رجعَ فلانٌ في حافرته أي طريقِه التي جاء فيها، فحفَرها أي أثَّر فيها بمشْيِهِ على النسبة كقوله تعالى ﴿في عيشة راضية﴾ أو تشبيهُ القائلِ بالفاعل. وقرىء في الحَفِرةِ بمعنى المحفورةِ يُقَالُ حفرتْ أسنانُه فحفَرتْ حفْراً وهي حَفِرةٌ.

(١١) ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ وقرأ نافعٌ وابن عامر والكسائيُ إذا كنّا على الخبر. ﴿عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ باليةٌ وقرأ الحجازيانِ والشاميُ وحفص وروحٌ نَخِرةً وهي أبلغُ.

(١٢) ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ذاتُ خسرانٍ أو خاسرٌ أصحابُها، والمعنى أنها إنْ صحَّتْ فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها، وهو استهزاءٌ منهم.

---

(١) المزمل: «١٤».

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾
اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾
فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

(١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متعلِّقٌ بمحذوف أي لا يستصْعِبوها فما هي إلا صيحةٌ واحدةٌ يعني النفخةَ الثانيةَ.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياءٌ على وجهِ الأرض بعدَ ما كانوا أمواتاً في بطْنِها. والساهرةُ الأرضُ البيضاءُ المستويةُ، سُمِّيَتْ بذلك لأنَّ السرابَ يجري فيها من قولهم: عينٌ ساهرةٌ للتي يجري ماؤها وفي ضدِّها نائمةٌ، أو لأن سالِكَها يسهرُ خوفاً، وقيل اسمٌ لجهنَّمَ.

(١٥) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ أليسَ قد أتاك حديثُه فيسلِّيكَ على تكذيبِ قومِك وتهدُّدِهم عليه بأنْ يصيبَهم مثلُ ما أصابَ من هو أعظمُ منهم.

(١٦) ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قد مرَّ بيانُه في سورةِ طه.

(١٧) ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ على إرادةِ القولِ، وقرىء أنِ اذهبْ لما في النداءِ من معنى القولِ.

(١٨) ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ هل لك ميلٌ إلى أنْ تتطهرَ من الكفر والطغيان، وقرأ الحجازيانِ ويعقوب تزَّكَّىٰ بالتشديد.

(١٩) ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأرشِدُك إلى معرفتِه. ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ بأداءِ الواجباتِ وتركِ المحرَّماتِ، إذ الخشيةُ إنما تكون بعدَ المعرفةِ وهذا كالتفصيلِ لقوله ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾(١).

(٢٠) ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ أي فذهبَ وبلَّغ فأراه المعجزةَ الكبرى وهي قلبُ العصا حيةً فإنه كان المقدَّمُ والأصل، أو مجموعُ معجزاته فإنها باعتبار دلالتِها كالآية الواحدةِ.

(٢١) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ فكذَّب موسى وعصى اللهَ عزَّ وجلَّ بعد ظهور الآية وتحقُّقِ الأمر.

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الطاعةِ. ﴿يَسْعَىٰ﴾ ساعياً في إبطال أمرِه، أو أدبر بعدَ ما رأى الثعبانَ مرعوباً مسرعاً في مشيِه.

(٢٣) ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمعَ السحرةَ أو جنودَه. ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المجْمَعِ بنفسِه أو بمنادٍ.

(٢٤) ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ أعلى كلِّ مَنْ يلي أَمْرَكُم.

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أخذاً منكلاً لمن رآهُ، أو سمعه في الآخرة بالإحراقِ وفي الدنيا بالإغراقِ، أو على كلمتِه الآخرة وهي هذه وكلمتِه الأولى وهو قولُه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾(٢) أو للتنكيلِ فيهما، أو لهما، ويجوزُ أنْ يكون مصدراً مؤكداً مقدَّراً بفعلِه.

---

(١) طه: «٤٤».
(٢) القصص: «٣٨».

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾

(٢٦) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ لمن كان من شأنِه الخشيةُ.

(٢٧) ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعبُ خلقاً. ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ثم بين كيفَ خلقَها فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ثم بيَّن البناءَ فقال:

(٢٨) ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي جعلَ مقدارَ ارتفاعِها من الأرض أو ثُخْنَها لِذَاهبٍ في العلوِّ رفيعاً. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فعدَلَها أو فجعلَها مستويةً، أو فتمَّمَها بما يتمُّ به كمالُها من الكواكبِ والتداوير وغيرها من قولِهم: سوَّى فلان أمْرَهُ إذا أصلحه.

(٢٩) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظْلَمَهُ منقولٌ من غطشَ الليلُ إذا أظلمَ، وإنما أضافه إليها لأنه يحدثُ بحركتِها. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ وأبرزَ ضوءَ شمسِها. كقوله تعالى ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾[1] يريدُ النهارَ.

(٣٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ بسطَها ومهَّدَها للسُّكْنَى.

(٣١) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيونِ. ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ ورعْيَهَا وهو في الأصلِ لموضعِ الرعي، وتجريدُ الجملة عن العاطفِ لأنها حالٌ بإضمارِ قد أو بيانٌ للدُّحوِّ.

(٣٢) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أثبتَها وقرىء والأرضُ والجبالُ بالرفعِ على الابتداء، وهو مرجوحٌ لأن العطفَ على فعليةٍ.

(٣٣) ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ تمتيعاً لكم ولمواشيكم.

(٣٤) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾ الداهيةُ التي تطمُّ أي تعلو على سائر الدواهي. ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ التي هي أكبر الطَّامَّاتِ وهي القيامة، أو النفخةُ الثانية أو الساعةُ التي يُسَاقُ فيها أهلُ الجنةِ إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ بأنْ يراهُ مدوَّناً في صحيفتِه وكان قد نسيه من فَرْطِ الغفلةِ أو طولِ المدة، وهو بدلٌ من إذا جاءتْ وما موصولةٌ أو مصدرية.

(٣٦) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ وأُظهِرَتْ. ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ لكل راءٍ بحيث لا تخفَى على أحدٍ، وقرىء وبرَزَتْ ولمن رأى ولمن تَرَى على أن فيه ضميرَ الجحيمِ كقوله تعالى ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[2]. أو أنه خطابُ الرسولِ ﷺ أي لمن تراه من الكفارِ، وجوابُ فإذا جاءتْ محذوفٌ دلَّ عليه يوم يتذكَّر أو ما بعدَه من التفضيل.

---

(١) الشمس: «١».

(٢) الفرقان: «١٢».

فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ
ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ حتى كفرَ.

(٣٨) ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فانهمكَ فيها ولم يستعدَّ للآخرةِ بالعبادة وتهذيبِ النفس.

(٣٩) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ هي مأواهُ واللامُ فيه سادَّةٌ مسدَّ الإضافةِ للعلم بأنَّ صاحبَ المأوى هو الطاغي، وهي فصلٌ أو مبتدأ.

(٤٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد. ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ لعلمِه بأنه مردٍ.

(٤١) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ ليس لها سِواها مأوى.

(٤٢) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى إرساؤُها أي إقامتُها وإثباتُها، أو منتهاها ومستقرُّها من مَرْسَى السفينةِ وهو حيث تنتهي إليه وتستقرُّ فيه.

(٤٣) ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ في أي شيءٍ أنتَ من أنْ تذْكُرَ وقْتَها لهم أي ما أنت من ذِكْرِها لهم، وتبينِ وقْتِها في شيء فإنَّ ذكْرَها لا يزيدُهم إلا غياً، ووقتُها مما استأثر الله تعالى بعلمِه. وقيل فيمَ إنكارٌ لسؤالِهم وأنتَ من ذِكْراها مستأنَفٌ، ومعناه أنت ذكرُ مَنْ ذكَرَها أي علامةٌ من أشراطِها، فإنَّ إرسالَه خاتَماً للأنبياءِ أمارةٌ من أماراتها، وقيل إنه متصلٌ بسؤالهم والجوابُ.

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي منتهى علْمِها.

(٤٥) ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ إنما بُعِثْتُ لإنذار مَنْ يخاف هولَها، وهو لا يناسبُ تعيينَ الوقتِ وتخصيصَ مَنْ يخشى لأنه المنتفعُ به، وعن أبي عمرو منذرٌ بالتنوينِ والإعمالِ على الأصلِ لأنه بمعنى الحال.

(٤٦) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا أو في القبور. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي عشية يومٍ أو ضحاهُ كقوله ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾[١] ولذلك أضافَ الضُّحى إلى العشيةِ لأنهما من يوم واحدٍ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ النازعات كان ممَّنْ حبسَهُ الله في القيامة حتى يدخلَ الجنةَ قدْرَ صلاةِ المكتوبة»[٢].

☆ ☆ ☆

(١) الأحقاف: «٣٥».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨١ رقم ٢٧٣).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

•

سُورَةُ عَبَسَ

آياتها ٤٢ — ترتيبها ٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾

سورة عبس مكية[1] وآيها ثنتان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

(٢) ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ رُوِيَ[2]: أنَّ ابنَ أمِّ مكتوم أتى رسولَ الله ﷺ وعنده صناديدُ قريش يدعوهم إلى الإسلام، فقال: يا رسولَ الله علِّمني مما علَّمكَ اللهُ، وكرر ذلك ولم يعلمْ تشاغُلَه بالقومِ، فكره

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٢٨): «وهي مكية بإجماع المفسرين».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٣٢ رقم ٣٣٣١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/ ٥٠ ـ ٥١). وابن حبان في الموارد (رقم: ١٧٦٩) والحاكم (٢/ ٥١٤) من حديث عائشة.

قال الترمذي: غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه ولم يذكر فيه عن عائشة.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة، وقال الذهبي: وهو الصواب.

● وأخرج الحاكم نحوه (٣/ ٦٣٤ ـ ٦٣٥) من طريقين عن عائشة وسكت عليه، وذكر الذهبي متابعة طريق لآخر وسكت.

وقال الشيخ شعيب في «الإحسان» (٢/ ٢٩٤): رواه مرسلاً مالك في «الموطأ» (١/ ٢٠٧) وصوب الإمام الذهبي كونه مرسلاً» وانظر «الدر المنثور» (٨/ ٤١٦).

رسولُ الله ﷺ قطَعَه لكلامِه وعَبَسَ وأعرضَ عنه فنزلتْ، فكان رسولُ الله ﷺ يكرمُه ويقول إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربِّي، واستخلفَه على المدينة مرتين»[1]. وقرىء عبَّس بالتشديد للمبالغةِ وأنْ جاءه علةٌ لتولَّى أو عبس على اختلافِ المذهبينِ. وقرىء آأنْ بهمزتينِ وبألفٍ بينَهما بمعنى أَلَئِنْ جاءه الأعمى فعلَ ذلك. وذَكَرَ الأعمى للإشعارِ بعذرِهِ في الإقدامِ على قطعِ كلامِ رسولِ الله ﷺ بالقومِ والدلالةِ على أنه أحقُّ بالرأفة والرِّفقِ، أو لزيادةِ الإنكارِ كأنه قال: تولى لكونه أعمى كالالتفاتِ في قوله:

(٣) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: وأيُّ شيءٍ يجعلُك دارياً بحاله لعلَّه يتطهَّر من الآثام بما يتلقَّفُ منك. وفيه إيماءٌ بأنَّ إعراضَه كان لتزكيةِ غيرِه.

(٤) ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أو يتَّعِظُ فتنفعَه موعِظَتُك، وقيل الضميرُ في لعله للكافر أي أنك طمعتَ في تزكيه بالإسلامِ وتذكُّرِه بالموعظةِ ولذلك أعرضْتَ عن غيرِه، فما يدريك أنَّ ما طمعْتَ فيه كائنٌ، وقرأ عاصمٌ فتنفعَهُ بالنصبِ جواباً لِلَعَلَّ.

(٥) ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾.

(٦) ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تتعرَّض له بالإقبالِ عليه وأصلُه تتصدَّى. وقرأ ابن كثير ونافع تَصَّدَّى بالإدغام، وقرىء تُصَدَّىٰ أي تعرضُ وتُدْعَى إلى التصدِّي.

(٧) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأسٌ في أنْ لا يتزكَّى بالإسلام حتى يبعثَك الحرصُ على إسلامه إلى الإعراض عمَّن أسْلَمَ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[2].

(٨) ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يسرعُ طالباً للخير.

(٩) ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ اللهَ أو أذيةَ الكفار في إتيانِك، أو كبوةَ الطريقِ لأنه أعمى لا قائدَ له.

(١٠) ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغلُ، يقالُ لها عنه والْتهى وتلهَّى، ولعلَّ ذِكْرَ التصدُّقِ والتلهي للإشعارِ بأنَّ العتابَ على اهتمام قلبِه بالغنيِّ وتلهِّيهِ عن الفقيرِ، ومثلُه لا ينبغي له ذلك.

(١١) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن المعاتَبِ عليه أو عن معاودةِ مثلِه. ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

(١٢) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ حفظَه أوِ اتَّعظَ به والضميرانِ للقرآنِ، أو العتابُ المذكورُ وتأنيثُ الأول لتأنيثِ خبرِه.

(١٣) ﴿فِى صُحُفٍ﴾ مثبتةٍ فيها صفةٌ لتذكرةٍ، أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ لمحذوفٍ. ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله.

(١٤) ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدْرِ. ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ منزَّهةٍ عن أيدي الشياطين:

(١٥) ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ كتبةٍ من الملائكةِ أوِ الأنبياءِ ينتسخُون الكُتُبَ من اللوح أو الوحي، أو سفراءَ

---

(١) انظر «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/٢٧٦ رقم ٣٠٠٧).
واستخلافه على المدينة أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/ ٥١ ـ ٥٢) وهو معضل.

(٢) الشورى: «٤٨».

يسفرونَ بالوحي بينَ الله تعالى ورسلِه، أو الأمةِ جمعُ سافرٍ من السَّفَرِ أو السِّفارةِ والتركيبُ للكشفِ يقالُ سَفَرَتِ المرأةُ إذا كشفتْ وجْهَهَا.

كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾

(١٦) ﴿كِرَامٍ﴾ أعزَّاءَ على الله أو متعطفينَ على المؤمنين يكلِّمونهم ويستغفِرون لهم. ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياءَ.

(١٧) ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ دعاءٌ عليه بأشنعِ الدعواتِ وتعجُّبٌ من إفراطه في الكفرانِ، وهو مع قِصَرِهِ يدلُّ على سخطٍ عظيم وذمٍّ بليغ.

(١٨) ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ بيانٌ لما أنعمَ عليه خصوصاً من مبدأِ حدوثِه، والاستفهامُ للتحقيرِ ولذلك أجابَ عنه بقوله:

(١٩) ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ فهيَّأه لما يصلُح له من الأعضاءِ والأشكالِ، أو فقدَّره أطواراً إلى أن تمَّ خِلقَتَه.

(٢٠) ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ثم سهَّل مخرجَه من بطنِ أمه بأنْ فتحَ فوهةَ الرحمِ وألهمَه أنْ ينتكِسَ، أو ذلَّلَ له سبيلَ الخير والشرِّ، ونصبَ السبيلَ بفعلٍ يفسِّره الظاهرُ للمبالغة في التيسير، وتعريفُه باللامِ دون الإضافةِ للإشعارِ بأنه سبيلٌ عام، وفيه على المعنى الأخير إيماءٌ بأنَّ الدنيا طريقٌ والمقصدُ غيرها ولذلك عقَّبه بقوله:

(٢١) ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾.

(٢٢) ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ وعدّ الإماتةَ والإقبارَ في النِّعم لأنَّ الإماتةَ وُصْلَةٌ في الجملةِ إلى الحياة الأبديةِ واللذاتِ الخالصة، والأمرُ بالقبرِ تكرمةٌ وصيانةٌ عن السِّباعِ، وفي إذا شاءَ إشعارٌ بأنَّ وقْتَ النشورِ غيرُ متعيِّنٍ في نفسه، وإنما هو موكول إلى مشيئته تعالى.

(٢٣) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان بما هو عليه. ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ لم يقضِ بعدُ من لدنْ آدمَ إلى هذه الغايةِ ما أمره الله بأمرِهِ، إذ لا يخلو أحدٌ من تقصيرٍ ما.

(٢٤) ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إتباعٌ للنعمِ الذاتيةِ بالنعمِ الخارجيةِ.

(٢٥) ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية إحداثِ الطعام، وقرأ الكوفيونَ بالفتحِ على البدلِ منه بدلَ الاشتمال.

(٢٦) ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي بالنباتِ أو بالكرابِ، وأسندَ الشقَّ إلى نفسِه إسنادَ الفعلِ إلى السَّببِ.

(٢٧) ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطةِ والشعير.

وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ
ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

(٢٨) ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ يعني الرطبةَ سُمِّيَتْ بمصدرِ قضَبه إذا قطعَه لأنها تُقْضَبُ مرةً بعدَ أخرى.

(٢٩) ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾.

(٣٠) ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ عظاماً وصفَ به الحدائقَ لتكاثُفِها وكثرةِ أشجارها، أو لأنها ذاتُ أشجار غلاظٍ مستعارٌ من وصفِ الرقابِ.

(٣١) ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ ومرعَى من أبَّ إذا أمَّ لأنه يُؤَمُّ وينتجعُ، أو من أبَّ لكذا إذا تهيَّأ له لأنه متهيءٌ للرعي، أو فاكهةً يابسةً تؤوب للشتاءِ.

(٣٢) ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ فإنَّ الأنواعَ المذكورة بعضُها طعام وبعضُها عَلَفٌ.

(٣٣) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي النفخةُ وُصِفَتْ بها مجازاً لأنَّ الناسَ يصخُّون لها.

(٣٤) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾.

(٣٥) ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾.

(٣٦) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ لاشتغالِه بشأنه وعلمِه بأنهم لا ينفعونَه، أو للحذرِ من مطالبتهم بما قصَّر في حقِّهم، وتأخيرُ الأحبِّ فالأحبِّ للمبالغةِ كأنه قيل: يفرُّ من أخيه بل من أبويْه بل من صاحِبَته وبنيهِ.

(٣٧) ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به، وقرىء يعنيْهِ أي يهمُّه.

(٣٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ مضيئةٌ من إسفارِ الصبح.

(٣٩) ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ لما ترى من النعيم.

(٤٠) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبارٌ وكدورةٌ.

(٤١) ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يغشاها سوادٌ وظُلْمةٌ.

(٤٢) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ الذين جمعوا إلى الكفر الفجورَ، فلذلك يجمعُ إلى سواد وجوهِهم الغبرةَ، قال النبيُّ ﷺ: «منْ قرأ سورةَ عبس جاء يومَ القيامة ووجْهُهُ ضاحِكٌ مستَبْشِرٌ»[1].

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٢ رقم ٢٧٩).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التَّكوِير

ترتيبها ٨١ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾

سورة التكوير مكية(١) وآيها تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ لُفَّتْ من كوَّرت العمامةَ إذا لَفَفْتها بمعنى رُفِعَتْ لأنَّ الثوبَ إذا أُرِيدَ رفعُه لُفَّ، أو لُفَّ ضوءُها فذهبَ انبساطُه في الآفاقِ وزالَ أثرهُ، أو أُلقِيَتْ عن فَلَكِها من طَعَنَهُ فكوَّره إذا ألقاه مجتمِعاً. والتركيبُ للإدارة والجمعِ، وارتفاعُ الشمسِ بفعلٍ يفسره ما بعدَها أولىٰ لأنَّ إذا الشرطية تطلب الفعلَ.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ انقضتْ قال: أَبْصِرْ خِرْبَانَ فَضَاءَ فانكدَر. أو أظلمتْ من كدَّرت الماءَ فانكدر.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرضِ أو في الجوِّ.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ النوقُ اللواتي أتى على حملهنَّ عشرةُ أشهرٍ جمعُ عشراءَ. ﴿عُطِّلَتْ﴾ تُرِكَتْ مهملةً، أو السحائبُ عُطِّلَتْ عن المطرِ، وقرىء بالتخفيفِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٢٣٧): «وهي مكية بإجماع من المتأولين».

(٥) ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعتْ من كلِّ جانب أو بعثت للقصاصِ ثمَّ رُدَّتْ تراباً، أو أُمِيتَتْ من قولهم إذا أجحفتِ السنةُ بالناس حشرتْهم، وقرىء بالتشديدِ.

(٦) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أُحْمِيَتْ أو مُلِئَتْ بتفجيرِ بعضِها إلى بعض حتى تعودَ بحراً واحداً، من سَجَرَ التنورَ إذا ملأه بالحطبِ ليحمِيَهُ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وروحٌ بالتخفيف.

(٧) ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قُرِنَتْ بالأبدانِ أو كلٌّ منها بشكْلِها، أو بكتابِها وعملِها، أو نفوسُ المؤمنين بالحورِ ونفوسُ الكافرين بالشياطينِ.

(٨) ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ المدفونةُ حيةً، وكانتِ العربُ تَئِدُ البناتِ مخافةَ الإملاقِ، أو لحوقِ العار بهم من أجلِهم ﴿سُئِلَتْ﴾.

(٩) ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ تبكيتاً لوائِدِهَا كتبكيتِ النصارى بقوله تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] وقرىء سَأَلَتْ أي خاصمتْ عن نفسِها وسألتْ. وإنما قيل قُتِلَتْ على الإخبار عنها، وقرىء قُتِلْتُ على الحكايةِ.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني صحفَ الأعمالِ فإنها تُطْوَى عند الموتِ وتنشرُ وقتَ الحساب. وقيل نشرت فرِّقتْ بين أصحابها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزةُ والكسائي بالتشديد للمبالغةِ في النشرِ، أو لكثرةِ الصحف أو شدةِ التطايُرِ.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ قُلِعَتْ وأُزِيلَتْ كما يُكْشَطُ الإهابُ عن الذبيحةِ، وقرىء قُشِطَتْ، واعتقابُ القافِ والكافِ كثيرٌ.

وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾

(١٢) ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أُوقِدَتْ إيقاداً شديداً. وقرأ نافع وابن عامر وحفصٌ ورويس بالتشديدِ.

(١٣) ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قرِّبتْ من المؤمنين.

(١٤) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ جوابُ إذا. وإنما صحَّ والمذكورُ في سياقها اثنتا عشرةَ خصلةً ستٌّ منها في مبادىء قيامِ الساعة قبل فناءِ الدنيا وستٌّ بعدَه لأنَّ المرادَ زمانٌ متسعٌ شاملٌ لها ولمجازاة النفوسِ على أعمالِها، ونفسٌ في معنى العمومِ كقولهم تمرةٌ خير من جرادةٍ.

(١٥) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ بالكواكبِ الرواجعِ من خَنَسَ إذا تأخَّر، وهي ما سِوَى النيرينِ من الكواكبِ السياراتِ ولذلك وصفَها بقوله:

(١٦) ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ أي السياراتِ التي تختفي تحتَ ضوءِ الشمس من كَنَسَ الوحشُ إذا دخل كِنَاسَهُ، وهو بيتُه المتخذُ من أغصانِ الشجر.

---

(١) المائدة: «١١٦».

وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ
أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ
رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾

(١٧) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أقبل ظلامُه أو أدبرَ وهو من الأضدادِ يقال عسعس الليلُ وسعسعَ إذا أدبرَ.

(١٨) ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي أضاءَ غبرتَه عند إقبالِ روحٍ ونسيمٍ.

(١٩) ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآنُ. ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني جبريلَ فإنه قاله عن الله تعالى.

(٢٠) ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله شديدُ القوى. ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ عندَ الله ذي مكانة.

(٢١) ﴿مُّطَاعٖ﴾ في ملائكته. ﴿ثَمَّ أَمِينٖ﴾ على الوحي، وثَمَّ يحتملُ اتصالُه بما قبلَه وما بعدَه، وقرىء ثُمَّ تعظيماً للأمانة وتفضيلاً لها على سائر الصفاتِ.

(٢٢) ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ كما تبهتُه الكفرةُ[1]. واستُدِلَّ بذلك على فضل جبريلَ على محمدٍ عليه الصلاة والسلام حيث عد فضائلَ جبريلَ واقتصرَ على نفي الجنونِ عن النبيِّ ﷺ، وهو ضعيفٌ إذ المقصودُ منه نفيُ قولهم إنما يعلمُه بشرٌ أفترى على اللهِ كذباً أم به جِنَّةٌ لا تعدادُ فضلِهما والموازنةُ بينَهما.

(٢٣) ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ ولقد رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه الصلاة والسلام. ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ بمطلعِ الشمس.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما محمدٌ عليه الصلاة والسلام. ﴿عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ على ما يخبرهُ من الموحَى إليه وغيره من الغيوب. ﴿بِضَنِينٖ﴾ بمتَّهمٍ من الظنَّةِ، وهي التهمةُ، وقرأ نافع وعاصم وحمزةُ وابن عامر بضنينٍ بالضاد من الضنِّ وهو البخلُ أي لا يبخلُ بالتبليغِ والتعليمِ، والضادُ من أصل حافةِ اللسان وما يليها من الأضراسِ من يمينِ اللسان أو يساره، والظاءُ من طرفِ اللسانِ وأصولِ الثنايا العليا.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾ بقول بعضِ المسترِقةِ للسمع، وهو نفيٌ لقولهم إنه لكهانةٌ وسحرٌ.

(٢٦) ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ استضلالٌ لهم فيما يسلكونه في أمرِ الرسولِ ﷺ والقرآنِ، كقولك لتارِك الجادَّةِ أين تذهبُ؟

(٢٧) ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ تذكيرٌ لمن يعلمُ.

(٢٨) ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ بتحري الحقِّ وملازمة الصواب، وإبدالُه من العالمين لأنهم المنتفعونَ بالتذكير.

---

(١) والتعرض لعنوان المصاحبة للتلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله عليه الصلاة والسلام خبراً وعلمهم بنزاهته عليه السلام عما نسبوه إليه بالكلية (س٩/١١٨).

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٩) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامةَ يا مَنْ يشاؤُها. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا وقْتَ أنْ يشاء الله مشيئتَكُم فله الفضلُ والحقُّ عليكم باستقامتِكم. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مالكُ الخلقِ كلِّه. قال عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورةَ التكوير أعاذه الله أن يفضَحه حين تنتشرُ صحيفتُه»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٢ رقم ٢٨١).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الانفِطَار

ترتيبها ٨٢ — آياتها ١٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا
قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ
مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾

سورة الانفطار مكية[1] وآيها تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ انشقَّتْ.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ تساقطتْ متفرقةً.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فُتِحَ بعضُها إلى بعض فصار الكلُّ بحراً واحداً.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قُلِبَ ترابُها وأُخرِجَ موتاها. وقيل إنه مركب من بعثَ وراءَ الإثارةِ كبسمل ونظيرهُ بحثرَ لفظاً ومعنى.

(٥) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ من عملٍ أو صدقة. ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ من سيئة أو تركةٍ، ويجوز أنْ يُرَادَ بالتأخير التضييعُ وهو جواب إذا.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أيُّ شيء خدعك وجرَّأك على عصيانِه، وذَكَرَ الكريمَ للمبالغةِ في المنعِ عن الاغترارِ فإن محضَ الكرمِ لا يقتضي إهمالَ الظالمِ وتسويةَ الموالي والمعادي

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٤٥): «وهي مكية بإجماع».

والمطيعِ والعاصي، فكيف إذ انضمَّ إليه صفةُ القهر والانتقامِ؟ والإشعارِ بما به يغرُّه الشيطانُ؛ فإنه يقول له افعلْ ما شئتَ فربُّكَ كريمٌ لا يعذِّب أحداً ولا يعاجِلُ بالعقوبة، والدلالةِ على أنَّ كثرةَ كرمِهِ تستدعي الجدَّ في طاعتِهِ لا الانهماكَ في عصيانه اغتراراً بكرمِه.

(٧) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صفةٌ ثانية مقررةٌ للربوبية مبينةٌ للكرم منبهةٌ على أن من قَدَرَ على ذلك أولاً قَدَرَ عليه ثانياً، والتسويةُ جعْلُ الأعضاءِ سليمةً مسوَّاةً معدَّةً لمنافِعها، والتعديلُ جعْلُ البِنْيةِ معدلةً متناسبةَ الأعضاءِ، أو معدلةً بما تسعِدُها من القِوى. وقرأ الكوفيون فعَدَلك بالتخفيف أي عَدَلَ بعضَ أعضائِك ببعضٍ حتى اعتدلتْ، أو فصرفَك عن خلقةِ غيرك وميَّزك بخلقةٍ فارقتْ خلقةَ سائرِ الحيوانِ.

(٨) ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي ركَّبك في أي صورة شاءها، وما مزيدةٌ وقيل شرطيةٌ، وركَّبك جوابُها، والظرفُ صلةُ عَدَلَك، وإنما لم يعطفِ الجملةَ على ما قبلَها لأنها بيانٌ لِعَدَلَكَ.

(٩) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن الاغترارِ بكرم الله وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضرابٌ إلى بيان ما هو السببُ الأصلي في اغترارهم، والمرادُ بالدين الجزاءُ أو الإسلامُ.

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾

(١٠) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾.

(١١) ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾.

(١٢) ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تحقيقٌ لما يكذبون به وردٌّ لما يتوقعون من التسامحِ والإهمال، وتعظيمُ الكتبةِ بكونهم كراماً عند الله لتعظيم الجزاءِ.

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

(١٤) ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[1] بيانٌ لما يكتبون لأَجلِه.

(١٥) ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يقاسُون حرَّها. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

(١٦) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ لخلودِهم فيها. وقيل معناه وما يغيبونَ عنها قبلَ ذلك إذ كانوا يجدُون سَمُومَهَا في القبور.

(١٧) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

(١٨) ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعجيبٌ وتفخيمٌ لشأن اليوم، أي كُنْهُ أمرِهِ بحيث لا تدركُه درايةُ دارٍ.

---

(١) تنكير النعيم والجحيم للتفخيم والتهويل (س٩/ ١٢٢).

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾

(١٩) ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ تقريرٌ لشدة هوله وفخامةِ أمره إجمالاً. ورفعَ ابنُ كثير والبصريان يومُ على البدلِ من يومِ الدين، أو الخبرِ المحذوفِ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ إذا السماء انفطرت كتبَ الله له بعددِ كلِّ قطرةٍ من السماء حسنةً، وبعددِ كلِّ قبر حسنةً»[١]. والله أعلمُ.

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٢ رقم ٢٨٤).

سُورَةُ المُطَفِّفِين

ترتيبها ٨٣ — آياتها ٣٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾

سورة المطففين مختلف فيها[1]، وآيها ست وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ التطفيف البخس في الكيل والوزن لأن ما يبخس طفيف أي حقير. روي أن أهل المدينة كانوا أخبث الناس كيلاً فنزلت فأحسنوه[2]، وفي الحديث «خمس بخمس ما نقض العهد

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٤٩): «وهي مكية في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا لذكر الأساطير، وهذا على أن هذا تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسبما هو في كل أمة ولا سيما مع كفرهم.
وقال ابن عباس والسدي والنقاش وغيره: السورة مدنية. قال السدي: كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطى بالأنقص فنزلت السورة فيه.
يقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس أيضاً فيما روى عنه: نزل بعضها بمكة ونزل أم التطفيف بالمدينة، لأنهم كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى فأصلحهم الله تعالى بهذه السورة، وقال آخرون: نزلت السورة بين مكة والمدينة، وذلك ليصلح الله أمرهم قبل ورود رسوله عليهم» هـ.

(٢) أخرج النسائي في «تفسيره» (رقم: ٦٧٤) وابن ماجة (٢/ ٧٤٨ رقم ٢٢٢٣) عن ابن عباس، قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة فكانوا من أخبثِ الناس كيلاً فأنزل الله عز وجل «ويل للمطففين» فحسنوا الكيل بعد ذلك» وإسناده حسن.
وانظر «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» تخريج الشيخ شعيب (١١/ ٢٨٦).

قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأُخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»[١].

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ أي إذا اكتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية، وإنما أبدل على بمن للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس، أو اكتيال يتحامل فيه عليهم.

(٣) ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ أي إذا كالوا الناس أو وزنوا لهم. ﴿يُخۡسِرُونَ﴾ فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله: وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكمؤاً وَعَساقلا[٢].

بمعنى جنيت لك، أو كالوا مكيلهم فحذف المضاف وأقيم المضاف مقامه، ولا يحسن جعل المنفصل تأكيداً للمتصل فإنه يخرج الكلام عن مقابلة ما قبله إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والدفع لا في المباشرة وعدمها، ويستدعي إثبات الألف بعد الواو كما هو خط المصحف في نظائره.

(٤) ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ فإن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن تيقنه؟ وفيه إنكار وتعجيب من حالهم.

(٥) ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ عظّمه لعظم ما يكون فيه.

(٦) ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ نُصب بمبعوثين أو بدلَ من الجار والمجرور، ويؤيده القراءة بالجر ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لحكمه. وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وذكرِ الظن ووصفِ اليوم بالعِظم وقيامِ الناس فيه لله والتعبيرِ عنه بربِّ العالمين مبالغاتٌ في المنعِ عن التطفيف وتعظيمُ إثمِه.

(٧) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن التطفيف والغفلةِ عن البعثِ والحسابِ. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ ما يُكْتَبُ من أعمالهم أو كتابةُ أعمالهم. ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ كتابٌ جامعٌ لأعمال الفجرةِ من الثَّقلَيْنِ كما قال:

(٨) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾.

(٩) ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي مسطورٌ بين الكتابةِ أو معلَّمٌ يعلَمُ مَنْ رآه أنه لا خيرَ فيه، فعيلٌ من السجنِ لُقِّبَ به الكتابُ لأنه سببُ الحبسِ، أو لأنه مطروحٌ كما قيل: تحتَ الأرضينَ في مكانٍ وحشٍ، وقيل

---

(١) وهو حديث حسن بشواهده.

● أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٦) من حديث بريده. وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٣٢٠).

● وأخرجه الحاكم (٤/ ٥٤٠) وابن ماجة (٢/ ١٣٣٢ رقم ٤٠١٩) من حديث عبدالله بن عمر. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٥ رقم ١٠٩٩٢) من حديث ابن عباس.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٦٥) وقال: «فيه إسحاق بن عبدالله بن كيسان المروزي لينه الحاكم، وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام» هـ.

والخلاصة أن الحديث يرتقي إلى درجة الحسن والله أعلم.

(٢) من الكامل.

هو اسمُ مكان والتقديرُ ما كتابُ السجين، أو محلُّ كتابٍ مرقوم فحذفَ المضافَ.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾

(١٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحقِّ أو بذلك.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ صفةٌ مخصِّصة أو موضِّحةٌ أو ذامَّةٌ.

(١٢) ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ متجاوزٍ عن النظر غالٍ في التقليدِ حتى استقصرَ قدرةَ الله تعالى وعِلْمَه فاستحالَ منه الإعادةُ. ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمكٍ في الشهواتِ المخدجة[1] بحيث أشغلْته عما وراءَها وحملتْه على الإتقانِ لما عداهُ.

(١٣) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من فَرْطِ جهلِه وإعراضِه عن الحقِّ فلا تنفعه شواهدُ النقلِ كما لم تنفعْه دلائلُ العقلِ.

(١٤) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن هذا القولِ. ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ردٌّ لما قالوه وبيانٌ لما أدى بهم إلى هذا القولِ، بأنْ غلبَ عليهم حبُّ المعاصي بالانهماكِ فيها حتى صارَ ذلك صدأً على قلوبهم فعمَّى عليهم معرفةَ الحقِّ والباطلِ، فإنَّ كثرةَ الأفعال سببٌ لحصولِ الملكاتِ كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ العبدَ كلما أذنبَ ذنباً حصلَ في قلبه نكتةٌ سوداءُ حتى يسودَّ قلبُه»[2] والرَّيْنُ الصدأُ، وقرأ حفصٌ بلْ رانَ بإظهارِ اللامِ.

(١٥) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن الكسبِ الرائنِ. ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فلا يرونَه بخلافِ المؤمنينَ. ومن أنكرَ الرؤيةَ جعلَه تمثيلاً لإهانتِهم بإهانة من يُمْنَعُ عن الدخولِ على الملوك، أو قدَّر مضافاً مثلَ رحمةِ ربِّهم. أو قربِ ربِّهم.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ ليدخلونَ النارَ ويصْلَون بها.

---

(١) الشهوات المخدجة أي الناقصة ويراد بها شهوات الدنيا. والخداج النقص، وفي الحديث: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج» أي نقصان (مختار الصحاح مادة خدج).

(٢) وهو حديث حسن.
أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٩٧) والترمذي (٥/ ٤٣٤ رقم ٣٣٤٥) وابن ماجة (٢/ ١٤١٨ رقم ٤٢٤٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/ ٩٨) والحاكم (٢/ ٥١٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم: ٤١٨) وابن حبان في 'الإحسان (٣/ ٢١٠ رقم ٩٣٠) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ
مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾

(١٧) ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تقوله لهم الزبانيةُ.

(١٨) ﴿كَلَّآ﴾ تكرير ليعقبَ بوعدِ الأبرارِ كما عقَّب الأولَ بوعيدِ الفجارِ إشعاراً بأنَّ التطفيفَ فجورٌ والإيفاءَ برٌّ، أو ردعٌ عن التكذيب. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.

(١٩) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾.

(٢٠) ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ الكلامُ فيه ما مرَّ في نظيره[1].

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يحضرونه فيحفظُونه، أو يشهدون على ما فيه يومَ القيامة.

(٢٢) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

(٢٣) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على الأسرَةِ في الحِجَالِ. ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما يسرده من النعمِ والمتفرّجاتِ.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ بهجةَ التنعمِ وبريقَه، وقرأ يعقوب تُعْرَفُ على البناءِ للمفعولِ ونضرةُ بالرفعِ.

(٢٥) ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ شرابٍ خالصٍ. ﴿مَّخْتُومٍ﴾.

(٢٦) ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي مختومٌ أوانيه بالمسكِ مكانَ الطينِ، ولعلَّه تمثيلٌ لنفاستِه، أو الذي له ختامٌ أي مقطعٌ هو رائحةُ المسكِ، وقرأ الكسائيُّ خاتَمهُ بفتح التاءِ أي ما يُخْتَمُ به ويُقْطَعُ. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ يعني الرحيقَ أو النعيمَ. ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ فليرتَغِبِ المرتغبونَ.

(٢٧) ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ عَلَمٌ لعينٍ بعينها سُمِّيَتْ تسنيماً لارتفاعِ مكانِها أو رفعةِ شرابها.

(٢٨) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فإنَّهم يشربونها صِرْفاً لأنهم لم يشتغلوا بغير الله، وتُمْزَجُ لسائرِ أهلِ الجنة، وانتصابُ عيناً على المدحِ أو الحالِ من تسنيمٍ والكلامُ في الباءِ كما في ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾[2].

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ يعني رؤساءَ قريش. ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ كانوا يستهزئون بفقراءِ المؤمنين.

---

(١) الآية «٩» من سورة المطففين.

(٢) الآية «٦» من سورة الإنسان.
والباء فيها إما مزيدة أو بمعنى من.

وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٠) ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يغمزُ بعضُهم بعضاً ويشيرون بأعينِهم.

(٣١) ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ متلذذينَ بالسخريةِ منهم، وقرأ حفص فَكِهِيْنَ.

(٣٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ وإذا رأوا المؤمنينَ نسبوهم إلى الضلال.

(٣٣) ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿حَٰفِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أعمالَهم ويشهدون برشْدِهم وضلالهم.

(٣٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونَهم أذلاَّءَ مغلوبينَ في النار. وقيل يُفْتَحُ لهم بابٌ إلى الجنة فيقال لهم اخرُجوا إليها، فإذا وصلُوا أُغْلِقَ دونَهم فيضحكُ المؤمنون منهم.

(٣٥) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حالٌ من يضحكونَ.

(٣٦) ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي هل أُثِيْبُوا. ﴿مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ وقرأ حمزة والكسائيُّ بإدغام اللامِ في الثاء.

عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ المطففينَ سقاه الله من الرحيقِ المختومِ يومَ القيامة»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٣ رقم ٢٩٠).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

آياتها ٢٥ — ترتيبها ٨٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾

سورة الانشقاق مكية[١] وآيها خمس وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ بالغمام كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾[٢] وعن علي[٣] رضي الله تعالى عنه: تنشق من المجرة.

(٢) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ واستمعت له أي انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطواع الذي يأذن للآمر ويذعن[٤] له. ﴿وَحُقَّتْ﴾ وجعلت حقيقة بالاستماع والانقياد. يقال: حق بكذا فهو محقوق وحقيق.

(٣) ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت بأن تزال جبالها وآكامها.

(٤) ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ ما في جوفها من الكنوز والأموات ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وتكلّفت في الخلوّ أقصى جهدِها حتى لم يبقَ شيء في باطنها.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٦٠): «وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين».
(٢) الفرقان: «٢٥».
(٣) ذكره الماوردي في تفسيره (٦/ ٢٣٣) عنه بدون سند.
(٤) والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليها للإشعار بعلة الحكم (س٩/ ١٣١).

(٥) ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في الإلقاءِ والتخلي. ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ للإذنِ. وتكريرُ إذا لاستقلال كلٍّ من الجملتين بنوع من القدرةِ، وجوابه محذوفٌ للتهويل بالإبهام أو الاكتفاءِ بما مرَّ في سورتي التكوير والانفطار أو لدلالةِ قوله:

(٦) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ عليه وتقديرُه لاقَى الإنسانُ كدْحه أي جهداً يؤثرُ فيه من كَدَحَهُ إذا خَدَشَهُ، أو فملاقيه ويـأيـها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك اعتراضٌ، والكدحُ إليه السعيُ إلى لقاء جزائِه.

(٧) ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾.

(٨) ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ سهلاً لا يُنَاقَشُ فيه.

وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ
وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾

(٩) ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ إلى عشيرته المؤمنين، أو فريقِ المؤمنين، أو أهله في الجنةِ من الحورِ.

(١٠) ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ أي يُؤْتَى كتابَه بشمالِه من وراء ظهرِه. قيل تُغَلُّ يُمْنَاهُ إلى عُنُقِه وتُجْعَلُ يسراهُ وراءَ ظهرِه.

(١١) ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾ يتمنَّى الثُّبورَ ويقول يا ثبوراهُ وهو الهلاكُ.

(١٢) ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ وقرأ الحجازيانِ والشاميُّ ويُصَلَّىٰ لقوله تعالى ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾[1] وقرىء ويُصْلىٰ لقوله تعالى ﴿ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ﴾[2].

(١٣) ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ ﴾ أي في الدنيا. ﴿ مَسْرُورًا ﴾ بطِراً بالمالِ والجاهِ فارغاً عن الآخرة.

(١٤) ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ لن يرجعَ إلى الله تعالى.

(١٥) ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ إيجابٌ لما بعدَ لن. ﴿ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ عالماً بأعماله فلا يهملُه بل يرجِعُه ويجازيه.

(١٦) ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ الحمرةِ التي تُرَى في أُفُقِ المغربِ بعدَ الغروب. وعن أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى: أنه البياضُ الذي يليها، سُمِّي به لرقَّته من الشفقةِ.

(١٧) ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ وما جَمَعَهُ وسَتَرَهُ من الدوابِّ وغيرها يُقَالُ: وسقَه فاتَّسق واستوسقَ، قال:

---

(١) الواقعة: «٩٤».
(٢) النساء: «١١٥».

مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدْنَ سَائِقاً، أو طَرَدَه إلى أماكنِه من الوسيقةِ.

وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا
يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

(١٨) ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ اجتمعَ وتمَّ بدْراً.

(١٩) ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالاً بعدَ حالٍ مطابقةً لأختِها في الشدةِ، وهو لما طابقَ غيرَه فقيلَ للحال المطابقةُ، أو مراتبَ من الشدةِ بعدَ المراتب هي الموتُ ومواطنُ القيامة وأهوالُها، أو هي وما قبلَها من الدواهي على أنه جمع طبقةٍ. وقرأ ابنُ كثير وحمزة والكسائيُّ لتركَبَنَّ بالفتح على خطابِ الإنسان باعتبارِ اللفظ، أو الرسولِ عليه الصلاة والسلام على معنى لتركبنَّ حالاً شريفةً ومرتبةً عاليةً بعدَ حالٍ ومرتبةٍ، أو طَبَقاً من أطباقِ السماء بعدَ طبق ليلةَ المعراج وبالكسرِ على خطابِ النفس، وبالياءِ على الغيبة، وعن طبقٍ صفةٌ لطبقاً أو حالٌ من الضمير بمعنى مجاوزِ الطبقِ أو مجاوزينَ له.

(٢٠) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيومِ القيامة.

(٢١) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ لا يخضَعون أو لا يسجدون لتلاوته. لما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قرأ ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾[١] فسجدَ بمن معه من المؤمنينَ وقريشٌ تصفقُ فوقَ رؤوسهم، فنزلتْ[٢]. واحتجَّ به أبو حنيفة على وجوب السجودِ فإنه ذمٌّ لمن سمعَه ولم يسجدْ. وعن أبي هريرةَ رضيَ الله تعالى عنه أنه سجدَ فيها وقال: واللهِ ما سجدتُ فيها إلا بعدَ أنْ رأيتُ رسولَ الله ﷺ يسجدُ فيها[٣].

(٢٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ أي بالقرآنِ.

(٢٣) ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يضمِرون في صدورهم من الكفرِ والعداوةِ.

(٢٤) ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استهزاءً بهم.

(٢٥) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أو متصلٌ، والمرادُ مَنْ تاب وآمنَ منهم. ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوعٍ أو ممنونٍ به عليهم. وعن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الانشقاقِ أعاذه الله أنْ يعطيه كتابَه وراءَ ظهْرِه»[٤].

---

(١) العلق: «١٩».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٨٣ رقم ٢٩٣): لم أجده.

(٣) أخرجه البخاري (٢/٥٥٩ رقم ١٠٧٨) ومسلم (١/٤٠٧ رقم ٥٧٨) عنه بمعناه.

(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي، وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٣ رقم ٢٩٤).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة البروج

ترتيبها ٨٥ — آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

سورة البروج مكية[١] وآيها اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يعني البروجَ الاثني عشرَ شبِّهتْ بالقصور لأنها تنزلها السياراتُ وتكون فيها الثوابتُ، أو منازلَ القمرِ أو عظامَ الكواكبِ سمِّيتْ بروجاً لظهورِها، أو أبوابَ السماء فإنَّ النوازلَ تخرجُ منها، وأصلُ التركيب للظهورِ.

(٢) ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامةِ.

(٣) ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ومَنْ يشهدُ في ذلك اليوم من الخلائقِ وما أُحْضِرَ فيه من العجائب، وتنكيرُهما للإبهام في الوصفِ أي وشاهدٍ ومشهودٍ لا يُكْتَنَهُ وصفُهما، أو المبالغةِ في الكثرة كأنه قيل: ما أفرطت كثرتُه من شاهد ومشهود، أو النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأُمّتُه، أو أمّتُه وسائرَ الأمم، أو كلُّ نبيٍّ وأمّتُهُ، أو الخالِقُ والخلْقُ، أو عكسه فإنَّ الخالقَ مطّلِعٌ على خلْقِه وهو شاهدٌ على وجوده، أو المَلَكُ الحفيظُ والمكلّفُ، أو يومُ النحرِ، أو عرفةُ والحجيجُ، أو يومُ الجمعة والجمْعُ فإنه يشهدُ له أو كلُّ يومٍ وأهلَه.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٦٧): «وهي مكية بإجماع من المتأولين لا خلاف في ذلك».

(٤) ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قيل إنه جوابُ القسم على تقدير لقدْ قُتِلَ، والأظهرُ أنه دليلُ جوابِ محذوف كأنه قيل إنهم ملعونون يعني كفارَ مكَّة كما لَعَنَ أصحابَ الأخدودِ، فإنَّ السورةَ وردتْ لتثبيتِ المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على مَنْ قبلَهم، والأخدودُ الخدُّ وهو الشقُّ في الأرض ونحوُهما بناءً ومعنىً. الحقُّ والأُحقوقُ. روي مرفوعاً: أن ملِكاً كان له ساحر فلما كبرُ ضمَّ إليه غلاماً ليعلِّمه، وكان في طريقه راهبٌ فمال قلبُه إليه، فرأى في طريقه ذاتَ يوم حيةً قد حبستِ الناسَ فأخذ حجراً وقال: اللَّهمَّ إن كان الراهبُ أحبَّ إليه من الساحرِ فاقتلْها فقتلَها، وكان الغلام بَعْدُ يبرىءُ الأكمهَ والأبرصَ ويشفي من الأدواءِ، وعميَ جليسُ الملِك فأبرأَه، فسأله الملكَ عمَّن أبرأه فقال ربي فغضبَ فعذَّبه فدلَّ على الغلام فعذَّبه، فدلَّ على الراهبِ فقدَّه بالمنشارِ، وأرسل الغلامَ إلى جبلٍ ليُطْرَحَ من ذُرْوَتِهِ، فدَعا فرجفَ بالقوم فهلكوا ونَجَا، وأجلسَه في سفينة ليغرقَ فدعا فانكفأَتِ السفينةُ بمن معه فغرقوا ونَجَا، فقال للملِك لستَ بقاتلي حتى تجمعَ الناسَ وتصلُبَني وتأخذَ سهماً من كنانتي وتقول: بسم اللهِ ربِّ هذا الغلام، ثم ترميني به فرماه فوقعَ في صدغه فماتَ، فآمن الناسُ بربِّ الغلام، فأمر بأخاديدَ وأوقدتْ فيها النيرانُ، فمن لم يرجعْ منهم طرحَه فيها حتى جاءتِ امرأةٌ معها صبيٌّ فتقاعستْ فقال الصبيُّ: يا أماه اصبري فإنكِ على الحقِّ فاقتحمتْ[١]. وعن علي رضي الله تعالى عنه: كان بعضُ ملوك المجوسِ خطبَ الناسَ وقال: إن الله أحلَّ نكاح الأخواتِ فلم يقبلُوه، فأمر بأخاديدِ النارِ فطَرَحَ فيها مَنْ أبى[٢]. وقيل لما تنصَّر نجرانُ غزاهم ذو نواسٍ اليهوديُّ من حِمْيَرَ فأحرقَ في الأخاديدِ مَنْ لم يرتدَّ.

(٥) ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ من الأخدود بدلَ الاشتمالِ. ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ صفةٌ لها بالعظمة وكثرةِ ما يرتفعُ به لهبُها، واللامُ في الوقود للجنسِ.

(٦) ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ على حافةِ النار. ﴿قُعُودٌ﴾ قاعدون.

(٧) ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يشهدُ بعضُهم لبعضٍ عند الملك بأنهم لم يقصِّروا فيما أُمِرُوا به، أو يشهدون على ما يفعلون يومَ القيامة حين تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم.

(٨) ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ وما أنكروا. ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ استثناءٌ على طريقة قولِه:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ووصْفُه بكونه عزيزاً غالباً يُخْشَى عقابُه حميداً منعِماً يُرْجَى ثوابُه وقرَّر ذلك بقوله:

(٩) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ للإشعارِ بما يستحقُّ أنْ يُؤْمَنَ به ويُعْبَدَ.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بَلَوْهُم بالأذى. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بِكفرهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ العذابُ الزائدُ في الإحراق بفتنتهم. بلِ المرادُ بالذين فتنوا أصحابَ الأخدودِ وبعذابِ الحريق ما روي أنَّ النارَ انقلبتْ عليهم فأحرقَتْهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٩ رقم ٣٠٠٥) عن صهيب.
(٢) أخرجه ابن جرير (١٥/ج٣٠/ ١٣٢).

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

(١١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ إِذِ الدنيا وما فيها تصغُر دونه[(١)].

(١٢) ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ مضاعَفٌ عنفُه فإنَّ البطشَ أَخذٌ بعنفٍ.

(١٣) ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ يبدىءُ الخلقَ ويعيده، أو يبدىء البطشَ بالكفرةِ في الدنيا ويعيدُه في الآخرة.

(١٤) ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ لمن تابَ. ﴿ ٱلْوَدُودُ ﴾ المحبُّ لمن أطاعَ.

(١٥) ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ خالقُه، وقيل المراد بالعرشِ الملْكُ، وقرىء ذي العرش صفةً لربِّك. ﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾ العظيمُ في ذاته وصفاته، فإنه واجبُ الوجود تامُّ القدرةِ والحكمةِ، وجرَّه حمزةُ والكسائي صفةً لربِّك، أو للعرشِ، ومجدُه علوُّه وعظمتُه.

(١٦) ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ لا يمتنعُ عليه مرادٌ من أفعاله وأفعالِ غيرِه.

(١٧) ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴾.

(١٨) ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أبدلَهما من الجنودِ لأن المرادَ بفرعونَ هو وقومُه، والمعنى قد عرفت تكذيبهم للرسلِ وما حاقَ بهم فتسلَّ واصبرْ على تكذيب قومِك وحذِّرهم مثلَ ما أصابَهم.

(١٩) ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ لا يَرْعَوُونَ عنه، ومعنى الإضرابِ أنَّ حالَهم أعجبُ من حالِ هؤلاء فإنهم سمعوا قصَّتَهم ورأوا آثارَ هلاكِهم وكذَّبوا أشدَّ من تكذيبهم.

(٢٠) ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوتُ المحاطُ المحيطَ.

(٢١) ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ بل هذا الذي كذَّبوا به كتابٌ شريف وحيدٌ في النظم والمعنى، وقرىء قرآنُ مجيدٍ بالإضافةِ أي قرآنُ ربٍّ مجيدٍ.

---

(١) التذكير في «ذلك» للإشعار بأن مدار الحكم عنوانها الذي يتنافس فيها المتنافسون، فإن اسم الإشارة متعرض لذات المشار إليه من حيث اتصافه بأوصافه المذكورة، لا لذاته فقط كما هو شأن الضمير فإذا أشير إلى الجنات من حيث ذكرها فقد اعتبر معها عنوانها المذكور حتماً.
وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجته وبعد منزلته في الفضل والشرف (س٩/١٣٨).

(٢٢) ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ من التحريفِ، وقرأ نافع محفوظٌ بالرفع صفةٌ للقرآن، وقرىء في لوح وهو الهواءُ يعني ما فوقَ السماء السابعة الذي فيه اللوحُ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ البروج أعطاه الله بعددِ كل جمعةٍ وعَرَفَةٍ تكون في الدنيا عشرَ حسناتٍ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٣ رقم ٣٠٠).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الطَّارِقِ

ترتيبها ٨٦ — آياتها ١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

سورة الطارق مكية[1] وآيها سبع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ والكوكبِ البادي بالليلِ وهو في الأصل لسالكِ الطريق، واختصَّ عُرْفاً بالآتي ليلاً ثم استُعْمِل للبادي فيه.

(٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.

(٣) ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ المضيءُ كأنه يثقبُ الظلامَ بضوئه فينفذُ فيه أو الأفلاكَ، والمرادُ الجِنسُ أو معهودٌ بالثقبِ وهو زُحَلُ عبَّر عنه أولاً بوصفٍ عام ثم فسَّره بما يخصُّه تفخيماً لشأنه.

(٤) ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا﴾ أي إنَّ الشأنُ كلُّ نفس لَعَلَيْهَا. ﴿حَافِظٌ﴾ رقيبٌ فإنْ هي المخففةُ واللامُ الفاصلةُ وما مزيدةٌ. وقرأ ابنُ عامر وعاصمٌ وحمزةُ لما على أنها بمعنى الأوانِ نافيةٌ، والجملةُ على الوجهين جوابُ القسم.

(٥) ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لما ذَكَرَ أنَّ كلَّ نفس عليها حافظٌ أتبعه توصيةَ الإنسان بالنظرِ في

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٧٤): «وهي مكية لا خلاف بين المفسرين في ذلك» هـ.

مبدئه ليعلمَ صحةَ إعادته فلا يملي على حافظهِ إلا ما يسرُّه في عاقبتِه.

(٦) ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ جوابُ الاستفهام وماءٌ دافقٌ بمعنى ذي دفْقٍ، وهو صبٌّ فيه دفعٌ، والمرادُ الممتزِجُ من الماءين في الرحم لقوله:

(٧) ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ من بين صلبِ الرجلِ وترائبِ المرأةِ وهي عظامُ صدرها، ولو صحَّ أن النطفةَ تتولَّد من فضلِ الهضمِ الرابعِ وتنفصلُ عن جميعِ الأعضاءِ حتى تستعدَّ لأنْ يتولَّدَ منها مثلُ تلك الأعضاء، ومقرُّها عروقٌ ملتفٌّ بعضُها بالبعضِ عند البيضتينِ، فلا شكَّ أن الدماغ أعظمَ الأعضاء معونةً في توليدها، ولذلك تشبهُهُ، ويسرعُ الإفراطُ في الجماعِ بالضعفِ فيه وله خليفةٌ وهو النخاعُ! وهو في الصلبِ وشعبٌ كثيرة نازلةٌ إلى الترائب، وهما أقربُ إلى أوعية المنيِّ فلذلك خُصَّا بالذُّكْرِ. وقرىء الصَلَبُ بفتحينِ والصُلُبُ بضمتينِ وفيه لغةٌ رابعة وهي صالبٌ.

(٨) ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ والضميرُ للخالقِ ويدلُّ عليه خلقَ.

(٩) ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ تتعرفُ ويميزُ بينَ ما طابَ من الضمائر وما خفيَ من الأعمال وما خبُثَ منها، وهو ظرف لرجْعِه.

(١٠) ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ فما للإنسان. ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ من مَنَعَةٍ في نفسه يمتنعُ بها. ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يمنعه.

(١١) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ ترجعُ في كلِّ دورة إلى الموضعِ الذي تتحرَّك عنه، وقيل الرجعُ المطرُ سُمِّيَ به كما سُمِّيَ أوْباً لأنَّ الله يرجِعُه وقتاً فوقتاً، أو لما قيل من أنَّ السحابَ يحمِلُ الماءَ من البحارِ ثم يرجعهُ إلى الأرض، وعلى هذا يجوز أنْ يُرَادَ بالسماء السحابُ.

(١٢) ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ ما تتصدَّع عنه الأرضُ من النبات أو الشقِّ بالنباتِ والعيونِ.

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنَّ القرآنَ. ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فاصلٌ بين الحق والباطلِ.

(١٤) ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ فإنه جِدٌّ كلُّه.

(١٥) ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني أهلَ مكَّةَ. ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ في إبطالِه وإطفاءِ نورِه.

(١٦) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأقابلُهم بكيدٍ في استدراجي لهم وانتقامي منهم من حيثُ لا يحتسبونَ.

(١٧) ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تشتغلْ بالانتقام منهم، أو لا تستعجلْ بإهلاكِهم. ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ إمهالاً يسيراً. والتكريرُ وتغييرُ البنيةِ لزيادة التسكينِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الطارقِ أعطاه الله بكلِّ نجمٍ في السماء عشرَ حسناتٍ»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٣ رقم ٣٠٣).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الأَعْلَى

ترتيبها ٨٧ — آياتها ١٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً
أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾

سورة الأعلى مكية[١] وآيها تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ نزِّهِ اسْمَهُ عن إلحادٍ فيه بالتأويلاتِ الزائغةِ وإطلاقِهِ على غيره زاعماً أنهما فيه سواءٌ وذِكْرِه لاعلى وجهِ التعظيم، وقرىء سبحانَ ربِّيَ الأعلى. وفي الحديث لما نزلتْ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢] قال عليه الصلاة والسلام «اجعلُوها في ركوعِكم»، فلما نزلتْ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[٣] قال عليه الصلاة والسلام «اجعلوها في سجودِكم»[٤] وكانوا يقولون في الركوع

---

(١) قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/٢٠): «مكية في قول الجمهور. وقال الضحاك: مدنية» هـ.

(٢) الواقعة: «٧٤».

(٣) الأعلى: «١».

(٤) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أبو داود (٥٤٢/١ رقم ٨٦٩) وابن ماجة (٢٨٧/١ رقم ٨٨٧) وأحمد (١٥٥/٤) والحاكم (٢٢٥/١ و٤٧٧/٢) والبيهقي (٨٦/٢) وغيرهم من حديث عقبة بن عامر.
قال الحاكم: صحيح. وقد اتفقا على الاحتجاج برواته غير إياس بن عامر وهو مستقيم الإسناد ورده الذهبي بقوله: إياس ليس بالمعروف ووافقه الألباني في الإرواء (٤١/٢).

اللهم لك ركعتُ، وفي السجود اللهم لك سجدتُ.

(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ خلق كلَّ شيء فسوَّى خلْقه بأنْ جعلَ له ما به يتأتَّى كمالُه ويتمُّ معاشُه.

(٣) ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ أي قدَّر أجناسَ الأشياءِ وأنواعَها وأشخاصَها ومقاديرَها وصفاتِها وأفعالَها وآجالَها. ﴿فَهَدَىٰ﴾ فوجَّهَهُ إلى أفعاله طبعاً واختياراً بخلقِ الميولِ والإلهاماتِ ونصْبِ الدلائلِ وإنزالِ الآياتِ.

(٤) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أنبتَ ما ترعاه الدوابُّ.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خضرتِه. ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ يابساً أسودَ. وقيل أحوى حالٌ من المرعَى أي أخرجَه أحْوى أي أسودَ من شدةِ خُضْرتِه.

(٦) ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ على لسانِ جبريلَ عليه الصلاة والسلام، أو سنجعلُك قارئاً بإلهام القراءةِ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أصلاً من قوة الحفظِ مع أنك أميٌّ ليكون ذلك آيةً أخرى لك مع أنَّ الإخباريةَ عما يُسْتَقْبَلُ ووقوعُه كذلك أيضاً من الآياتِ، وقيل نهيٌ والألفُ للفاصلةِ كقوله السبيلا.

(٧) ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ نسيانَه بأنْ نسخَ تلاوتَه، وقيل أراد به القلةَ والنُّدْرَةَ. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أسقطَ آيةً في قراءته في الصلاة فحسبَ أُبَيٌّ أنها نُسِخَتْ فسأله فقال: «نسيتُها»[1]. أو نفيُ النسيانِ رأساً فإنَّ القلَّة تُسْتَعْمَلُ للنفي. ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ ما ظهرَ من أحوالكم وما بطنَ، أو جهرَك بالقراءةِ مع جبريلَ عليه الصلاة والسلام وما دعاك إليه من مخافةِ النسيانِ فيعلمُ ما فيه صلاحُكم من إبقاء وإنساء.

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ونعِدُّك للطريقة اليُسرى في حفظِ الوحي، أو التدينِ ونوفِّقُك لها. ولهذه النكتةِ قال نيسرك لا نيسِّرُ لك عطفٌ على سنقرئك، وإنه يعلمُ اعتراضٌ[2].

(٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ بعدَ ما استتبَّ لك الأمرُ. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لعلَّ هذه الشرطيةَ إنما جاءت بعد تكرير التذكيرِ وحصولِ اليأسِ من البعضِ لئلا يتعِبَ نفسَه ويتلهَّفَ عليهم كقوله: «وما أنت عليهم بجبارٍ» الآيةَ، أو لذمِّ المذكورين واستبعادِ تأثير الذكرى فيهم، أو للإشعار بأنَّ التذكير إنما يجبُ إذا ظُنَّ نفعُه ولذلك أُمِرَ بالإعراض عمَّن تولَّى.

(١٠) ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ سيتَّعظُ وينتفعُ بها مَنْ يخشى اللهَ تعالى بأنْ يتأمَّلَ فيها فيعلمَ حقيقتَها، وهو يتناولُ العارفَ والمتردِّدَ.

(١١) ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتجنَّبُ الذِّكرى. ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الكافرُ فإنه أشقَى من الفاسقِ، أو الأشقَى من الكفَرة لتوغُّلِه في الكفرِ.

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» ـ كما في «التحفة» (٧/١٨٨ رقم ٩٦٨٢) ـ عن عبدالرحمن بن أبزى.

(٢) وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام، مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل، كما في قوله تعالى «ويسر لي أمري» للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جُبل عليها (س٩/ ١٤٥).

ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

(١٢) ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ نارَ جهنَّم فإنه عليه الصلاة والسلام قال: «ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نارِ جهنَّم»[١]، أو ما في الدركِ الأسفلِ منها.

(١٣) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريحُ. ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ حياةً تنفعُه.

(١٤) ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهَّر من الكفر والمعصية، أو تكثَّر من التقوى من الزكاة، أو تطهَّر للصلاة أو أدى الزكاةَ.

(١٥) ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبِه ولسانِه ﴿فَصَلَّىٰ﴾ كقوله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِىٓ﴾[٢] ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالذِّكْرِ تكبيرةُ التحريم، وقيل تزكى تصدَّق للفطرِ وذكر اسمَ ربِّه كبَّره يومَ العيدِ فصلَّى صلاته.

(١٦) ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ فلا تفعلون ما يسعدُكم في الآخرة، والخطابُ للأشقينَ على الالتفاتِ أو على إضمار قلْ، أو للكلِّ فإنَّ السعيَ للدنيا أكثرُ في الجملةِ، وقرأ أبو عمرو بالياءِ.

(١٧) ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ فإنَّ نعيمَها ملذٌّ بالذاتِ خالصٌ عن الغوائل لا انقطاعَ له.

(١٨) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ الإشارةُ إلى ما سبقَ من قد أفلحَ فإنه جامعُ أمرِ الديانةِ وخلاصةُ الكتبِ المنزَّلةِ.

(١٩) ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدلٌ من الصحفِ الأُولى. قال ﷺ «مَنْ قرأَ سورةَ الأعلى أعطاهُ الله عشرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ حرفٍ أنزله الله على إبراهيمَ وموسى ومحمدٍ عليهم الصلاةُ والسلام»[٣].

☆ ☆ ☆

(١) تقدم تخريجه.

(٢) طه: «١٤».

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٤ رقم ٣١٠).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

ترتيبها ٨٨ — آياتها ٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا
رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾

سورة الغاشية مكية[١] وهي ست وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الداهيةُ التي تغشَى الناسَ بشدائدها يعني يومَ القيامة، أو النارُ من قوله تعالى ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[٢].

(٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ ذليلةٌ.

(٣) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تعملُ ما تتعبُ فيه كجرِّ السلاسل وخوضِها في النارِ خوضَ الإبل في الوحْلِ، والصعودُ والهبوطُ في تلالها ووهادِها ما عملت، ونَصِبَتْ في أعمالٍ لا تنفعُها يومئذ.

(٤) ﴿تَصْلَىٰ نَارًا﴾ تدخلُها. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر تُصلَى من أصلاهُ الله، وقرىء تُصلَّ بالتشديدِ للمبالغة. ﴿حَامِيَةً﴾ متناهيةٌ في الحرِّ.

(٥) ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ بلغتْ إناها في الحرِّ.

(٦) ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ يَبيسُ الشبرقِ وهو شوكٌ ترعاه الإبلُ ما دام رطْباً، وقيل شجرةٌ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٢٨٦): «وهي مكية لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل».

(٢) إبراهيم: «٥٠».

نارية تشبهُ الضريعَ، ولعله طعامُ هؤلاءِ والزقومُ والغسلينُ طعامُ غيرهم، أو المراد طعامُهم ما تتحاماهُ الإبلُ وتعافُه لضُرِّه وعدمِ نفعِه كما قال.

(٧) ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ والمقصودُ من الطعام أحدُ الأمرين[١].

(٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ذاتُ بهجة أو متنعمةٌ[٢].

(٩) ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضيتْ بعملها لما رأتْ ثوابَهُ.

(١٠) ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ عَلِيَّةِ المحلِّ أوِ القدْرِ.

(١١) ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطَبُ أوِ الوجوهُ، وقرأ على بناءِ المفعولِ بالياءِ ابنُ كثير وأبو عمرو ورويسٌ وبالتاء نافعٌ. ﴿فِيهَا لَٰغِيَةً﴾لغواً أو كلمةً ذاتَ لغوٍ أو نفساً تلغو، فإنَّ كلام أهلِ الجنة الذكرُ والحِكَمُ.

(١٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يجري ماؤُها ولا ينقطعُ، والتنكيرُ للتعظيم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ رفيعةُ السَّمكِ أو القدْرِ.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمعُ كوبٍ وهي آنيةٌ لا عُرْوَةَ لها. ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم.

(١٥) ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائدُ جمعُ نَمْرَقَةٍ بالفتح والضمِّ. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضُها إلى بعض.

(١٦) ﴿وَزَرَابِىُّ﴾ بُسُطٌ فاخرٌ جمعُ زربيةٍ. ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطةٌ.

(١٧) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ نظرَ اعتبار. ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلْقاً دالاً على كمال قدرته وحسنِ تدبيره حيثُ خلقَها لجرِّ الأثقال إلى البلاد النائيةِ، فجعلها عظيمةً باركةً للمحلِّ ناهضةً بالحِمْل منقادةً لمنِ اقتادَها طِوالَ الأعناقِ لينوءَ بالأوقارِ، ترعَى كلَّ نابتٍ وتحتملُ العطشَ إلى عشرٍ فصاعداً ليتأتَّى لها قطعُ البوادي والمفاوزِ، مع ما لَها من منافعَ أخرى ولذلك خُصَّتْ بالذِّكْرِ لبيان الآياتِ المنبثة في الحيوانات التي هي أشرفُ المركباتِ وأكثرُها صنعاً، ولأنها أعجبُ ما عند العرب من هذا النوعِ. وقيل المرادُ بها السحابُ على الاستعارة.

(١٨) ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عَمَدٍ.

(١٩) ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ فهي راسخةٌ لا تميل.

---

(١) تنكير الجوع للتحقير، أو لا يغني من جوع ما (س٩/ ١٤٩).

(٢) شروع في رواية حديث أهل الجنة.

وتقديمُ حكاية حال أهل النار لأنه أدخل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها، ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المحكي حسناً وبهجة (س٩/ ١٥٠).

وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

(٢٠) ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ بُسِطَتْ حتى صارتْ مهاداً، وقرىء الأفعالُ الأربعةُ على بناء الفاعلِ للمتكلِّم وحذفِ الراجعِ المنصوب، والمعنى أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقاتِ من البسائط والمركباتِ ليتحققوا كمالَ قدرة الخالقِ سبحانه وتعالى، فلا ينكروا اقتدارُه على البعثِ ولذلك عقَّب به أمرَ المعادِ ورتَّب عليه الأمرَ بالتذكير فقال:

(٢١) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ فلا عليكَ إن لم ينظروا ولم يذكروا إذ ما عليك إلا البلاغُ.

(٢٢) ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمتسلِّطٍ، وعن الكسائيِّ بالسين على الأصلِ وحمزةَ بالإشمامِ.

(٢٣) ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ لكنْ مَنْ تولى وكفر.

(٢٤) ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ يعني عذابَ الآخرة. وقيل متصلٌ فإنَّ جهادَ الكفار وقتْلَهم تسلُّطٌ، وكأنه أوعدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، وقيل هو استثناءٌ من قوله فذكِّر أي فذكِّر إلا مَنْ تولى وأصرَّ فاستحقَّ العذابَ الأكبر، وما بينَهما اعتراضٌ ويؤيدُ الأولَ أنه قرىء إلا على التنبيهِ.

(٢٥) ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ رجوعَهم، وقرىء بالتشديد على أنه فيعالٌ مصدرُ فيعلٍ من الإياب، أو فعَّالٌ من الأَوْبِ قُلِبَتْ واوُه الأولى قلْبَها في ديوانٍ ثم الثانيةُ للإدغام.

(٢٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ في المحشرِ، وتقديمُ الخبر للتخصيصِ والمبالغةِ في الوعيد، عن النبيِّ «من قرأ سورةَ الغاشيةِ حاسبه الله حساباً يسيراً»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٤ رقم ٣١١).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الفَجْرِ

ترتيبها ٨٩ — آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ
فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾
وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾

سورة الفجر مكية[(١)] وآيها ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أقسمَ بالصبحِ أو فَلَقِهِ كقوله ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[(٢)] أو بصلاتِهِ.

(٢) ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشرِ ذي الحجةِ ولذلك فُسِّرَ الفجرُ بفجرِ عرفةَ، أو النحرِ أو عشرِ رمضانَ الأخيرَ، وتنكيرُها للتعظيم، وقرىء وليالِ عشرٍ بالإضافةِ على أنَّ المرادَ بالعشرِ الأيامُ.

(٣) ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ والأشياءِ كلِّها شفعِها ووترِها، أوِ الخلقِ لقوله ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[(٣)] والخالقِ لأنه فردٌ، ومن فسَّرهما بالعناصرِ والأفلاكِ أوِ البروجِ والسياراتِ أو شفعِ الصلواتِ ووترِها، أو بيومي النحرِ وعرفةَ، وقد روي مرفوعاً[(٤)]، أو بغيرِها فلعلَّه أفردَ بالذكرِ من أنواعِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٩٢): «وهي مكية عند جمهور المفسرين، وحكى أبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماء أنه قال هي مدنية والأول أشهر وأصح» اهـ.

(٢) التكوير: «١٨».

(٣) الذاريات: «٤٩».

(٤) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٦٩١) وأحمد في المسند (٣/ ٣٢٧) والبزار (٣/ ٨٠ ـ ٨١ رقم ٢٢٨٦ ـ كشف) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٢٠) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. قلتُ: إن سلم من تدليس أبي الزبير، وأما ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي الزبير فقد كفانا عن تدليسه، وأما خارج صحيحه فينظر في حديثه. والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٤٠) بعد أن عزاه لابن جرير وابن أبي حاتم: «وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة والله أعلم» هـ.

المدلولِ ما رآه أظهرَ دلالةً على التوحيدِ، أو مدخلاً في الدين أو مناسبة لما قبلَهما أو أكثرَ منفعةً موجبة للشكرِ، وقرىء والوِتر بكسر الواوِ وهما لغتانِ كالحِبْر والْحَبْرِ.

(٤) ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ إذا يمضي كقوله ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴾[(١)] والتقييدُ بذلك لما في التعاقبِ من قوة الدلالةِ على كمال القدرة ووفورِ النعمةِ، أو يسري فيه من قولهم صلَّى المقامَ، وحذَفَ الياءَ للاكتفاءِ بالكسرة تخفيفاً، وقد خصَّه نافع وأبو عمرو بالوقفِ لمراعاةِ الفواصلِ ولم يحذفْها ابنُ كثير ويعقوبُ أصلاً، وقرىء يسْرٍ بالتنوينِ المبدلِ من حرفِ الإطلاق.

(٥) ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ ﴾ القسم أو المقسَم به[(٢)] ﴿ قَسَمٞ ﴾ حَلِفٌ أو محلوفٌ به. ﴿ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ يعتبره ويؤكدُ به ما يريدُ تحقيقَه، والحِجْرُ العقلُ سمِّي به لأنه يحجرُ عما لا ينبغي كما سُمِّي عملاً ونهيةً وحصاةً من الإحصاءِ، وهو الضبطُ والمقسمُ عليه محذوفٌ وهو ليعذِّبنَّ يدلُّ عليه قولُه:

(٦) ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ يعني أولادَ عادِ بنِ عوصنِ بنِ إرمَ بنِ سامِ بنِ نوحِ عليه السلام، قومَ هودٍ سُمُّوا باسم أبيهم كما سمِّي بنو هاشم باسمِه.

(٧) ﴿ إِرَمَ ﴾ عطفُ بيانٍ لعادٍ على تقدير مضافٍ أي سبطِ إرمَ، أو أهلِ إرمَ إنْ صحَّ أنه اسمُ بلدتِهم. وقيل سمِّي أوائلُهم وهم عادٌ الأولى باسمِ جدِّهم، ومُنِعَ صرفُه للعلمية والتأنيثِ. ﴿ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ ذاتِ البناءِ الرفيع أو القدودِ الطوالِ، أو الرفعةِ والثباتِ. وقيل كان لعادٍ ابنانِ شدّادٌ وشديدٌ فملكا وقَهَرَا، ثم ماتَ شديدٌ فخلَصَ الأمرُ لشدّادٍ وملكَ المعمورةَ ودانتْ له ملوكُها، فسمعَ بذكرِ الجنةِ فبنى على مثالِها في بعضِ صحارى عدنٍ جنةً وسمَّاها إرمَ، فلما تمتْ سارَ إليها بأهله، فلما كان منها على مسيرةِ يوم وليلةٍ بعث الله عليهم صيحةً من السماءِ فهلكوا. وعن عبدالله بن قلابةَ[(٣)] أنه خرجَ في طلب إبلِه فوقعَ عليها.

(٨) ﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ صفةٌ أخرى لإرمَ، والضميرُ لها سواءٌ جعلْتَ إرمَ القبيلةَ أوِ البلدةَ.

(٩) ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ ﴾ قطَعوه واتخذُوه منازلَ لقوله ﴿ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا ﴾[(٤)] ﴿ بِٱلۡوَادِ ﴾ وادي القُرى.

(١٠) ﴿ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴾ لكثرةِ جنوده ومضارِبهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتادِ.

(١١) ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ صفةٌ للمذكورين عادٍ وثمودَ وفرعونَ، أو ذمٌّ منصوبٌ أو مرفوعٌ.

(١٢) ﴿ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴾ بالكفر والظلمِ.

---

(١) المدثر: «٣٣».

(٢) والإشارة إليه بالبعيد «ذلك» للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته في الشرف والفضل (س٩/ ١٥٤).

(٣) أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي، عن عبدالله بن أبي صالح، عن ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن وهب بن منبه، عن عبدالله بن قلابة، أنه خرج في طلب إبل له شردت فذكره مطولاً ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٤ رقم ٣١٣) ـ وقال ابن حجر: «قلت: آثار الوضع عليه لائحة» هـ.

(٤) الشعراء: «١٤٩».

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾

(١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ما خلطَ لهم من أنواع العذابِ، وأصلُه الخلطُ وإنما سمِّي به الجلدُ المضفورُ الذي يُضرَبُ به لكونه مخلوطَ الطاقاتِ بعضُها ببعض، وقيل شَبَّه بالسوطِ ما أحلَّ بهم في الدنيا إشعاراً بأنه القياسُ إلى ما أعدَّ لهم في الآخرة من العذابِ كالسوطِ إذا قيسَ إلى السيفِ.

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ إلى المكان الذي يُتَرَقَّبُ فيه الرصدُ، مفعالٌ من رصدَه كالميقاتِ من وقَّته، وهو تمثيلٌ لإرصادِه العصاةَ بالعقاب.

(١٥) ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ﴾ متصلٌ بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1] كأنه قيلَ إنه لبالمرصادِ من الآخرة فلا يريدُ إلا السعيَ لها فأما الإنسانُ فلا يهمُّه إلا الدنيا ولذَّاتُها. ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ اختبره بالغنى واليُسرِ. ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ بالجاهِ والمالِ. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فضَّلني بما أعطاني، وهو خبرُ المبتدأِ الذي هو الإنسان، والفاءُ لما في أما من معنى الشرطِ، والظرفُ المتوسطُ في تقديرِ التأخيرِ كأنه قيل: فأما الإنسانُ فقائلٌ ربي أكرمني وقتَ ابتلائِه بالإنعامِ، وكذا قوله:

(١٦) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ إذ التقديرُ وأما الإنسانُ إذا ما ابتلاه أي بالفقرِ والتقتير ليوازنَ قَسِيمَهُ. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ لقصورِ نظره وسوءِ فقره، فإنَّ التقتيرَ قد يؤدي إلى كرامةِ الدارين، والتوسعةُ قد تفضي إلى قصدِ الأعداءِ والانهماكِ في حبِّ الدنيا ولذلك ذمَّه على قوليه وردعَه عنه بقوله:

(١٧) ﴿كَلَّا﴾ مع أنَّ قولَه الأولَ مطابقٌ لأكرمَهُ ولم يقلْ فأهانه وقدَرَ عليه كما قال ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ لأنَّ التوسعةَ تفضلٌ والإخلالُ به لا يكون إهانةً. وقرأ ابن عامر والكوفيونَ أكرمنِ وأهاننِ بغير ياءٍ في الوصلِ والوقفِ، وعن أبي عمرو مثلُه، ووافقَهم نافعٌ في الوقف، وقرأ ابن عامر فقدَّر بالتشديدِ. ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ .

(١٨) ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي بل فِعْلُهم أسوأُ من قولهم وأدلُّ على تهالُكِهم بالمال وهو أنهم لا يكرمونَ اليتيمَ بالنفقةِ والمبرَّةِ، ولا يحثُّون أهلَهم على طعامِ المسكينِ فضلاً عن غيرِهم، وقرأ الكوفيون ولا تحاضُّونَ.

(١٩) ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ الميراثَ وأصلُه وراثٌ. ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ ذا لمٍّ أي جمعَ بينَ الحلالِ والحرامِ فإنَّهم كانوا لا يورِّثون النساءَ والصبيانَ ويأكلون أنصِباءَهم، أو يأكلون ما جمعَه الموَرِّثُ من حلالٍ وحرام عالمينَ بذلك.

---

(١) الفجر: ١٤.

وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾
وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

(٢٠) ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً مع حرصٍ وشَرَهٍ، وقرأ أبو عمرو وسهلٌ ويعقوب لا يُكرمون إلى ويحبُّون بالياءِ والباقون بالتاءِ.

(٢١) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن ذلك وإنكارٌ لفعلهم وما بعدَه وعيدٌ عليه. ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي دكّاً بعد دكٍّ حتى صارتْ منخفضةَ الجبالِ والتلالِ، أو هباءً منبثاً.

(٢٢) ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي ظهرتْ آياتُ قدرتِه وآثارُ قهرِهِ مثلُ ذلك بما يظهرُ عند حضورِ السلطانِ من آثار هيبتِهِ وسياسته. ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ بحسبِ منازِلهم ومراتبِهم.

(٢٣) ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾[1] وفي الحديث: «يؤتى بجهنَّم يومئذ لها سبعون ألفِ زمام مع كلِّ زمام سبعون ألفِ مَلَكٍ يجرُّونها»[2]. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ من إذا دُكَّتِ الأرضُ والعاملُ فيهما. ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي يتذكر معاصيه أو يتعظ لأنه يعلمُ قُبحَها فيندمُ عليها. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي منفعةُ الذكرى لئلا يناقِضُ ما قبلَه، واسْتُدِلَّ به على عدمِ وجوبِ قبولِ التوبةِ، فإنَّ هذا التذكُّرَ توبةٌ غيرُ مقبولةٍ.

(٢٤) ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي لحياتي هذه، أو وقْتَ حياتي في الدنيا أعمالاً صالحةً، وليس في هذا التمنِّي دلالةٌ على استقلال العبدِ بفعله فإنَّ المحجورَ عن شيء قد يتمنَّى أنْ كان ممكَّناً منه.

(٢٥، ٢٦) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ الهاءُ لله أي لا يتولَّى عذابَ الله ووثاقَه يومَ القيامة سواهُ إذ الأمرُ كلُّه له، أو للإنسان أي لا يعذَّب أحدٌ من الزبانية مثلَ ما يعذِّبونه، وقرأهما الكسائي ويعقوبُ على بناء المفعولِ.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ على إرادةِ القول وهي التي اطمأنتْ بذكر الله، فإنَّ النفسَ ترقى في سلسلة الأسبابِ والمسبباتِ إلى الواجب لذاتِه فتستقرُّ دون معرفته وتستغني به عن غيرِهِ، أو إلى الحقِّ بحيث لا يريبها شكٌّ أوِ الآمنةُ التي لا يستفزُّها خوفٌ ولا حزنٌ، وقد قرىء بهما.

(٢٨) ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى أمرِهِ أو موعدِه بالموتِ، ويشعرُ ذلك بقولِ مَنْ قال: كانتِ النفوسُ قبلَ الأبدان موجودةً في عالم القدسِ أو البعثِ، ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيتِ. ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عندَ اللهِ تعالى.

---

(١) النازعات: «٣٦».

(٢) أخرج مسلم (٤/ ٢١٨٤ رقم ٢٩) من حديث ابن مسعود مثله.

(٢٩) ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ في جملةِ عبادي الصالحين.

(٣٠) ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ معَهم أو في زمرةِ المقرَّبينَ فتستضيءُ بنورهم، فإنَّ الجواهرَ القدسيةَ كالمرايا المتقابلةِ، أو ادخلي في أجسادِ عبادي التي فارقْتِ عنها وادخلي دارَ ثوابي التي أُعِدَّتْ لك. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورة الفجرِ في الليالي العشرِ غُفِرَ له، ومن قرأها في سائرِ الأيامِ كانت له نوراً يومَ القيامة»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الواحدي وابن مردويه والثعلبي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٤ رقم ٣١٥). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ البَلَدِ

ترتيبها ٩٠ — آياتها ٢٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن
لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا
وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

سورة البلد مكية[(١)] وآيها عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.

(٢) ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أقسمَ سبحانه بالبلد الحرام، وقيّده بحلولِ الرسول عليه الصلاةُ والسلام فيه إظهاراً لمزيدِ فضلِه وإشعاراً بأن شرفَ المكان بشرفِ أهله. وقيل حلٌّ مستحِلٌّ تعرُّضك فيه كما يُسْتَحَلُّ تعرُّضُ الصيدِ في غيره، أو حلالٌ لك أنْ تفعلَ فيه ما تريدُ ساعةً من النهارِ فهو وعدٌ بما أحلَّ له عامَ الفتح.

(٣) ﴿وَوَالِدٍ﴾ عطفٌ على هذا البلدِ، والوالدُ آدم أو إبراهيمُ عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذريتُه أو محمدٌ عليه الصلاة والسلام، والتنكيرُ للتعظيم، وإيثارُ «ما» على مَنْ لمعنى التعجبِ كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[(٢)].

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٠٣): «وهي مكية في قول جمهور المفسرين وقال قوم هي مدنية» هـ. وانظر «معالم التنزيل» (٨/٤٢٩) و«الدر المنثور» (٨/٥١٦).

(٢) آل عمران: «٣٦».

(٤) ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ تعبٍ ومشقةٍ، منْ كَبِدَ الرجلُ كبداً إذا وجعتْ كبدُه ومنه المكابدةُ، والإنسان لا يزال في شدائدَ مبدؤُها ظلمة الرحمِ ومضيقُه ومنتهاها الموتُ وما بعدَه، وهو تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام مما كان يكابده من قريش. والضميرُ في.

(٥) ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ لبعضِهم الذي كان يكابدُ منه أكثر، أو يغترَّ بقوته كأبي الأشدِّ بنِ كلدةَ فإنه كان يُبْسَطُ تحتَ قدميه أديم عكاظيّ ويجذبُه عشرةٌ فينقطعُ ولا تزالُ قدماهُ، أو لكلِّ أحد منهم، أو للإنسان. ﴿أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ فينتقمُ منه.

(٦) ﴿يَقُولُ﴾ أي في ذلك الوقتِ ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ كثيراً، من تلبَّد الشيءُ إذا اجتمعَ، والمراد ما أنفقه سمعةً ومفاخرةً، أو معاداةً للرسول عليه الصلاة والسلام.

(٧) ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حيْن كان ينفقُ أو بعدَ ذلك فيسألُه عنه، يعني أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يراهُ فيجازيه، أو يجده فيحاسِبُه عليه، ثم بيَّنَ ذلك بقوله:

(٨) ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ يبصرُ بهما.

(٩) ﴿وَلِسَانٗا﴾ يترجمُ به عن ضميرِه. ﴿وَشَفَتَيۡنِ﴾ يسترُ بهما فاهُ ويستعينُ بهما على النُّطقِ والأكلِ والشربِ وغيرها.

وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾

(١٠) ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ طريقي الخير والشرِّ، أو الثديينِ وأصله المكانُ المرتفع.

(١١) ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أي فلم يشكرْ تلك الأيادي باقتحامِ العقبةِ وهو الدخولُ في أمرٍ شديد، والعقبةُ الطريقُ في الجبل استعارَها بما فسَّرها به من الفكِّ والإطعامِ في قوله:

(١٢) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾.

(١٣) ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾.

(١٤) ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾.

(١٥) ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾.

(١٦) ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ لما فيهما من مجاهدةِ النفسِ. ولتعدُّدِ المرادِ بها حسنُ وقوع لا موقعَ لم، فإنها لا تكادُ تقعُ إلا مكرَّرةً، إذ المعنى فلا فكَّ رقبةً ولا أطعمَ يتيماً أو مسكيناً. والمسغبةُ والمقربةُ والمتربةُ مفعلاتٌ من سغِبَ إذا جاعَ وقربَ في النسبِ وتربَ إذا افتقرَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائيُّ فكَّ رقبةً أو أطعمَ على الإبدالِ منِ اقتحمَ وقوله ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾[1] اعتراضٌ معناه إنك لم تدْرِ كُنْهَ صعوبتِها وثوابِها.

(١) البلد: «١٢».

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

(١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطفَه على اقتحمَ أو فكَّ بثُمَّ لتباعُدِ الإيمان عن العتقِ والإطعامِ في الرتبة لاستقلاله واشتراطِ سائرِ الطاعات به. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ وأوصى بعضُهم بعضاً. ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله تعالى. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ بالرحمةِ على عباده، أو بموجباتِ رحمة الله تعالى.

(١٨) ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ اليمينِ أو اليُمْنِ.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بما نصبناه دليلاً على الحقِّ من كتاب وحجَّةٍ أو بالقرآن. ﴿هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ الشمالِ أو الشؤمِ، ولتكرير ذكرِ المؤمنينَ باسم الإشارةِ والكفارِ بالضمير شأنٌ لا يَخْفَى.

(٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ مطبقةٌ من أوصدتَ البابَ إذا أطبقتَه وأغلقتَه. وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفصٌ بالهمزة من آصدْتُه. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ لا أقسمُ بهذا البلدِ أعطاه الله سبحانه وتعالى الأمانَ من غضبِه يومَ القيامةِ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٥ رقم ٣٢١) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

ترتيبها ٩١ — سُورَةُ الشَّمْسِ — آياتها ١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾
وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾

سورة الشمس مكية[1]. وآيها خمس عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وضوئِها إذا أشرقتْ. وقيل الضحوةُ ارتفاعُ النهار، والضُّحى فوقَ ذلك، والضَّحاءُ بالفتحِ والمد إذا امتدَّ النهارُ وكادَ ينتصِفُ.

(٢) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ تلا طلوعُه طلوعَ الشمسِ أولَ الشهرِ أو غروبَها ليلةَ البدرِ، أو في الاستدارةِ وكمالِ النور.

(٣) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ جلَّى الشمسَ فإنها تتجلَّى إذا انبسطَ النهارُ أوِ الظلمةُ، أو الدنيا أو الأرضُ وإنْ لم يَجْرِ ذكرُها للعلمِ بها.

(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشَى الشمسَ فيغطِّي ضوءَها أوِ الآفاقَ، أوِ الأرضَ. ولما كانتْ واواتُ العطفِ نوائبَ للواوِ الأولى القَسَمِيَّةِ الجارَّةِ بنفسِها النائبةِ منابَ فعلِ القسمِ من حيثُ استلزمتْ طرحَه معَها رَبَطْنَ المجروراتِ والظروفَ بالمجرورِ والظرفِ المتقدِّمينِ ربطَ الواوِ لما بعدَها في قولك: ضربَ زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً على الفاعلِ والمفعولِ من غير عطفٍ على عاملين مختلفينِ.

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣١٠): «وهي مكية».

(٥) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ومَنْ بناها، وإنما أُوثِرَتْ على مَنْ لإرادة معنى الوصفيةِ كأنه قيل: والشيءِ القادرِ الذي بناها، ودلَّ على وجودِه وكمالِ قدرته بناؤُها، ولذلك أُفرِدَ ذِكْرُهُ، وكذا الكلامُ في قوله:

(٦) ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾.

(٧) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ وجعلَ الماءاتِ مصدريةً يجردُ الفعلَ عن الفاعلِ ويخلُّ بنظمِ قوله:

(٨) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ بقوله وما سوَّاها إلا أنْ يُضْمَرَ فيه اسمُ الله للعلم به. وتنكيرُ نفسٍ للتكثير كما في قوله تعالى ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾[1] أو للتعظيم. والمرادُ نفسُ آدمَ، وإلهامُ الفجور والتقوى إفهامُهما وتعريفُ حالهما أو التمكينُ من الإتيانِ بهما.

(٩) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أنماها بالعلم والعمل جوابُ القسمِ، وحذَفَ اللامَ للطولِ كأنه لما أرادَ به الحثَّ على تكميلِ النفس والمبالغةَ فيه أقسمَ عليه بما يدلُّهم على العلمِ بوجود الصانعِ ووجوبِ ذاته وكمالِ صفاته الذي هو أقصى درجاتِ القوة النظريةِ، ويذكِّرهم عظائِمَ آلائِه ليحمِلَهم على الاستغراقِ في شكرِ نعمائه الذي هو منتهى كمالاتِ القوةِ العملية. وقيل هو استطرادٌ بذكرِ بعضِ أحوالِ النفس، والجوابُ محذوفٌ تقديره ليُدَمْدِمَنَّ الله على كفارِ مكةَ لتكذيبهم رسولَه ﷺ كما دمدمَ على ثمودَ لتكذيبهم صالحاً عليه الصلاة والسلام.

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

(١٠) ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ نقَّصها وأخفاها بالجهالة والفسوقِ، وأصلُ دَسَّىٰ دسَّسَ كتقضَّى وتقضَّضَ[2].

(١١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ بسببِ طُغيانِها، أو بما أُوعِدَتْ به من عذابها ذي الطغوى كقوله تعالى ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[3] وأصله طغياها وإنما قَلِبَتْ ياؤه واواً تفرقةً بينَ الاسم والصفةِ، وقرىء بالضمِّ كالرُّجعى.

(١٢) ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ حين قامَ، ظرفٌ لكذَّبتْ أو طغوى. ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ أشقَى ثمودَ وهو قدارُ بنُ سالفٍ، أو هو ومن مالأَه على قتلِ الناقةِ فإنَّ أفعلَ التفضيلِ إذا أضفْتَه صلُحَ للواحدِ والجمعِ وفضَّل شقاوتَهم لتولِّيهم العقْرَ.

(١٣) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ذروا ناقةَ اللهِ واحذروا عقرَها[4]. ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ وسقْيَها

---

(١) التكوير: «١٤».

(٢) وتكرير «قد» لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه، والإيذانِ بتعلق القَسَم به أيضا أصالة (س٩/ ١٦٤).

(٣) الحاقة: «٥».

(٤) وعبر عن الرسول بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته، وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان، وهو السرّ في =

فلا تذودُوها عنها.

(١٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذَّرهم منه من حلولِ العذاب إنْ فعلوا. ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ فأطبقَ عليهم العذابَ وهو من تكريرِ قولهم ناقةٌ مدمومةٌ إذا أَلْبَسَهَا الشحْمَ. ﴿بِذَنبِهِمْ﴾ بسببه. ﴿فَسَوَّنهَا﴾ فسوَّى الدمدمةَ بينَهم أو عليهم فلم يفلُتْ منهم صغيرٌ ولا كبيرٌ، أو ثمودَ بالإهلاك.

(١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَهَا﴾ أي عاقبةَ الدمدمةِ أو عاقبةَ هلاكِ ثمودَ وتَبِعَتَها فيبقي بعضَ الإبقاءِ، والواوُ للحال، وقرأ نافعٌ وابن عامر فلا على العطفِ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ والشمسِ فكأنما تصدَّقَ بكلِّ شيءٍ طلعتْ عليه الشمسُ والقمرُ»[1].

☆ ☆ ☆

= إضافة الناقة إلى الله تعالى (س٩/ ١٦٤).

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (١٨٥ رقم ٣٢٢) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الليل

ترتيبها ٩٢ — آياتها ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾
وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا
يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

سورة والليل مكية[1]. وآيها إحدى وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي يغشى الشمسَ أو النهارَ أو كلَّ ما يواريه بظلامِه.

(٢) ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ظهرَ بزوالِ ظلمةِ الليل، أو تبيَّن بطلوعِ الشمسِ.

(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ والقادرُ الذي خلقَ صِنفَي الذَّكرِ والأُنثَى من كلِّ نوع له توالدٌ، أو آدمُ وحواءُ، وقيل ما مصدريةٌ.

(٤) ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إنَّ مساعِيَكُم لأشتاتٌ مختلفةٌ جمعُ شتيتٍ.

(٥) ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾.

(٦) ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تفصيلٌ مبيِّنٌ لتشتُّتِ المساعي، والمعنى من أعطَى الطاعةَ واتَّقى المعصيةَ وصدَّق بالكلمة الحسنى وهي ما دلتْ على حقٍّ ككلمة التوحيدِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣١٥): «وهي مكية في قول الجمهور، وقال المهدوي: وقيل هي مدنية، وقيل فيها مدني».

(٧) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ فسنهيئُه للخُلَّةِ التي تؤدي إلى يُسْرٍ وراحةٍ كدخولِ الجنةِ، مِنْ يَسَرَ الفرسَ إذا هيَّأه للركوب بالسرجِ واللجامِ.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما أُمِرَ به. ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بشهواتِ الدنيا عن نعيمِ العقبى.

(٩) ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ بإنكارِ مدلولها.

(١٠) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ للخلَّةِ المؤديةِ إلى العسرِ والشدةِ كدخول النار[1].

(١١) ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ نفيٌ أو استفهامُ إنكارٍ. ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ هَلَكَ تفعَّلَ من الرَّدى، أو تردَّى في حفرة القبر أو قَعْرِ جهنَّمَ.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

(١٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ للإرشاد إلى الحق بموجبِ قضائِنا أو بمقتضى حِكْمَتِنا، أو إنَّ علينا طريقةَ الهدى كقوله سبحانه وتعالى ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾[2].

(١٣) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فنعطي في الدارين ما نشاءُ لمن نشاءُ، أو ثوابَ الهداية للمهتدينَ، أو فلا يضرُّنا ترْكُكُم الاهتداءَ.

(١٤) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ تتلهَّبُ.

(١٥) ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ لا يلزمُها مقاسياً شدَّتَها. ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ إلا الكافرُ فإنَّ الفاسِقَ وإنْ دخلَها لا يلزمُها ولذلك سمَّاه أشقَى ووصفَه بقوله:

(١٦) ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي كذَّب الحقَّ وأعرضَ عن الطاعةِ.

(١٧) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾.

(١٨) ﴿ٱلَّذِى﴾ اتقى الشركَ والمعاصي فإنه لا يدخلُها فضلاً عن أن يدخلَها ويصْلاَها، ومفهومُ ذلك أنَّ مِنِ اتقى الشركَ دون المعصية لا يُجَنَّبُها ولا يلزمُ ذلك صلْيَها فلا يخالفُ الحصرَ السابقَ. ﴿يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ يصرِفُه في مضارفِ الخير لقوله: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ فإنه بدلٌ من يُؤْتَى أو حالٌ من فاعله.

(١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ فيقصدُ بإيتائه مجازاتَها.

---

(١) ولعل تصدير القِسْمين بالإعطاء والبخل ـ مع أن كلاًّ منهما أدنى رتبة مما بعدهما في استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسرى ـ للإيذان بأن كلاًّ منهما أصل فيما ذكر لا تتمة لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء (س٩/١٦٧).

(٢) النحل: «٩».

(٢٠) ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ استثناءٌ منقطع أو متصلٌ عن محذوفٍ مثلُ لا يُؤْتَى إلا ابتغاءَ وجْهِ ربه لا لمكافأةِ نعمةٍ.

(٢١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ وُعِدَ بالثوابِ الذي يرضيهِ. والآياتُ نزلتْ في أبي بكر رضي الله تعالى عنه حين اشترى بلالاً في جماعة تولاَّهم المشركونَ فأعتقَهم[١]، ولذلك قيل: المرادُ بالأشقَى أبو جهل أو أمية بنُ خلف. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والليلِ أعطاهُ الله سبحانه وتعالى حتى يرضَى وعافاهُ من العُسْرِ ويسَّر له اليسْرَ»[٢].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/٢٢٨) عن عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبيه.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٥ رقم ٣٢٤).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

ترتيبها ٩٣ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سورة الضحى مكية[(١)]. وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ووقتِ ارتفاعِ الشمس، وتخصيصُه لأنَّ النهارَ يقوى فيه، أو لأنَّ فيه كلَّم موسى عليه الصلاة والسلام ربَّه وأُلقِيَ السحرةُ سجداً، أو النهارِ ويؤيدُه قولُه تعالى ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾[(٢)] في مقابلةِ بياتاً.

(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ سكَنَ أهلُه أو ركدَ ظلامُه من سجا البحرُ سُجُوّاً إذا سكنتْ أمواجُه. وتقديمُ الليل في السورةِ المتقدمة باعتبار الأصلِ، وتقديمُ النهارِ ها هنا باعتبارِ الشرف.

(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ما قَطَعَكَ قطْعَ المودِّع، وقرىء بالتخفيفِ بمعنى ما تركَكَ وهو جوابُ القسم. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ وما أبغضَك، وحذفَ المفعولَ استغناءً بذكرِهِ من قبلُ ومراعاةً للفواصلِ. رُوِيَ أنَّ الوحْيَ تأخَّر عنه أياماً لتركِهِ الاستثناءَ كما مرَّ في سورةِ الكهف، أو لزجرِهِ سائلاً مِلحّاً، أو لأنَّ جَرْواً ميتاً كان تحتَ سريرِهِ أو لغيرِهِ فقال المشركون: إنَّ محمداً ودَّعه ربُّه وقلاه فنزلتْ رداً عليهم[(٣)].

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٢٠): «وهي مكية لا خلاف في ذلك بين الرواة».

(٢) الدخان: «٤».

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٢١ رقم ١١٤/ ١٧٩٧) من حديث جندب. =

(٤) ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فإنها باقيةٌ خالصةٌ عن الشوائبِ وهذه فانيةٌ مشوبةٌ بالمضارِّ، كأنه لما بيَّنَ أنه سبحانه وتعالى لا يزالُ يواصلهُ بالوحي والكرامةِ في الدنيا وَعَدَ له ما هو أعلى وأجلُّ من ذلك في الآخرة، أو لنهايةُ أمرِك خيرٌ من بدايته فإنه ﷺ لا يزالُ يتصاعدُ في الرفعةِ والكمال.

(٥) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وعدٌ شاملٌ لما أعطاهُ من كمالِ النفسِ وظهورِ الأمرِ وإعلاءِ الدين، ولما ادَّخر له مما لا يعرفُ كُنْهَهُ سواهُ. واللامُ للابتداءِ؛ دخل الخبرَ بعدَ حذفِ المبتدأ والتقدير: ولأنتَ سوفَ يعطيك، لا للقسم فإنها لا تدخلُ على المضارعِ إلا مع النونِ المؤكِّدةِ، وجمعُها مع سوفَ للدلالةِ على أنَّ الإعطاءَ كائنٌ لا محالةَ وإنْ تأخَّر لحكمةٍ.

(٦) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ تعديدٌ لما أنعم عليه تنبيهاً على أنه كما أحسنَ إليه فيما مضى يحسِنُ إليه فيما يستقبلُ وإنْ تأخَّر. ويجدْك من الوجود بمعنى العلمِ ويتيماً مفعولُه الثاني، أو المصادفةِ ويتيماً حالٌ.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عن علم الحكمِ والأحكامِ. ﴿فَهَدَىٰ﴾ فعلَّمك بالوحي والإلهامِ والتوفيقِ للنظر. وقيل وجدكَ ضالاً في الطريق حينَ خرجَ بك أبو طالب إلى الشامِ أو حين فطمتْكَ حليمةُ وجاءتْ بكَ لتردَّك إلى جدِّك، فأزالَ ضلالَكَ عن عمِّك أو جدِّك.

(٨) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيراً ذا عيالٍ. ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بما حصلَ لك من ربح التجارة.

(٩) ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلِبهُ على ماله لضعفِه، وقرىء فلا تكهرْ أي فلا تعبسْ في وجهِه.

(١٠) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجُرْهُ.

(١١) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فإنَّ التحدُّثَ بها شكرُها. وقيل المراد بالنعمةِ النبوةُ والتحدثُ بها تبليغُها، عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والضحى جعلَه الله سبحانه وتعالى فيمنْ يرضَى لمحمدٍ ﷺ أنْ يشفعَ له وعشرُ حسناتٍ، يكتبها الله سبحانه وتعالى له بعددِ كلِّ يتيمٍ وسائلٍ»[1].

= ● وأخرج البخاري (٨/٧١٠ رقم ٤٩٥٠) ومسلم (٣/١٤٢٢ رقم ١١٥/١٧٩٧) عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمدُ إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركَك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى».

● وأخرج البخاري (٨/٧١١ رقم ٤٩٥١) عن جندب البجلي قالت امرأة: يا رسول الله ما أرى صاحبك إلاّ أبطأك. فنزلت «ما ودعك ربك وما قلى» وقال الحافظ في «الفتح» عن هذه الرواية: هذا السياق يصلح أن يكون خطاباً لخديجة دون الخطاب الأول فإنه يصلح أن يكون خطاب حمالة الحطب، لتعبيرها بالشيطان والترك، ومخاطبتها بخلاف هذه فقالت: صاحبك، وقالت: يا رسول الله، وقال: أبطأ. وجوز الكرماني أن يكون من تصرف الرواة وهو موجه لأن مخرج الطريقين واحد.

وانظر الفتح أيضاً (٨/٣ ـ ٩) ففيه كلام مفصل حول هذا الاختلاف.

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٥ رقم ٣٣١).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة الشرح

ترتيبها ٩٤ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

سورة ألم نشرح مكية[1]. وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ألم نفسحه حتى وسِعَ مناجاةَ الحقِّ ودعوةَ الخلْقِ فكان غائباً حاضِراً، أو ألم نفسحه بما أودعْنا فيه من الحِكَمِ وأزلْنا عنه ضيقَ الجهلِ، أو بما يسَّرنا لك تلقي الوحي بعدَما كان يشقُّ عليك، وقيل إنه إشارةٌ إلى ما رُوِيَ أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى رسولَ الله ﷺ في صباهُ أو يومَ الميثاقِ، فاستخرجَ قلْبَه فغسله ثم ملأه إيماناً وعلماً[2]. ولعلَّه إشارةٌ إلى نحوِ ما سبق، ومعنى

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٢٥): «وهي مكية بإجماع من المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك» هـ.

(٢) قلت: إن القاضي رحمه الله لفق بين حديثين.
(الأول): يتعلق بشق صدره ﷺ في صباه، وليس فيه ذكر ملأه إيماناً وعلماً. وهذا الحديث أخرجه مسلم (١/ ١٤٧ رقم ٢٦١) عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الصبيان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، قال: فغسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، قال: وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إن محمداً قد قتل، فأقبلت ظئره تريده، فاستقبلها راجعاً وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنا نرى أثر المخيط في صدره.
● وغفل الحاكم فاستدركه (٢/ ٥٢٨) وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: على شرط مسلم.
(والثاني): يتعلق بشق صدره ﷺ عند المعراج، وفيه جاء ذكر ملأه إيماناً وعلماً.

الاستفهامِ إنكارُ نفيِ الانشراحِ مبالغةً في إثباته ولذلك عطف عليه.

(٢) ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴾ عِبأك الثقيلَ.

(٣) ﴿ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴾ الذي حملَه على النقيض وهو صوتُ الرحلِ عند الانتقاضِ من ثقلِ الحملِ. وهو ما ثَقُلَ عليه من فرطاتِه قبلَ البعثةِ، أو جهلِه بالحِكَمِ والأحكامِ، أو حيرتِه، أو تلقي الوحي، أو ما كان يرى من ضلال قومِه من العجزِ عن إرشادِهم، أو من إصرارِهم وتعدِّيهم في إيذائِه حين دعاهم إلى الإيمان.

(٤) ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ بالنبوةِ وغيرِها وأيِّ رفعٍ، مثلُ أنْ قَرَنَ اسْمَه باسمِه تعالى في كلمتي الشهادةِ وجعلَ طاعتَه طاعتَه وصلّى عليه في ملائكته وأمرَ المؤمنينَ بالصلاةِ عليه وخاطبه بالألقابِ، وإنما زادَ «لك» ليكون إبهاماً قبل إيضاحٍ فيفيد المبالغةَ.

(٥) ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ ﴾ كضيقِ الصدرِ والوزرِ المنقِضِ للظهرِ وضلالِ القوم وإيذائِهم. ﴿ يُسۡرًا ﴾ كالشرحِ والوضعِ والتوفيقِ للاهتداء والطاعةِ فلا تيأسْ من رَوْحِ الله إذا عراك ما يغمُّك، وتنكيرُه للتعظيم. والمعنى بما في «إنّ مع» مِنَ المصاحبةِ المبالغةِ في معاقبةِ اليُسْرِ للعسرِ، واتصالِه به اتصالَ المتقارِبَيْنِ.

(٦) ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾ تكريرٌ للتأكيد أو استئنافٌ وعَدَه بأنَّ العُسْرَ متبوعٌ بِيُسْرٍ آخرَ كثوابِ الآخرة كقولك: إن للصائمِ فرحةً إنَّ للصائم فرحةً أي فرحةً عندَ الإفطارِ وفرحةٌ عند لقاءِ الربِّ. وعليه قولُه عليه الصلاةُ والسلام «لن يغلِبَ عسرٌ يُسْرَيْنِ»(١) فإنَّ العسرَ معرَّفٌ فلا يتعدَّدُ سواءٌ كان للعهدِ أو

= وهذا الحديث أخرجه البخاري (٦/٣٠٢ رقم ٣٢٠٧) و(٧/٢٠١ رقم ٣٨٨٧) ومسلم (١/١٤٩ ـ ١٥٠ رقم ٢٦٤).

عن أنس بن مالك وفيه: «قال النبي ﷺ: بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان فأتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق البطن ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملىء حكمة وإيماناً».

(١) ● أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (٥/٣٥٩١) والحاكم في المستدرك (٢/٥٢٨) من حديث الحسن البصري مرسلاً.

وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي مرسل.

● وأخرجه ابن مردويه ـ كما في «الدر» (٨/٥٥٠) ـ بإسناد ضعيف من حديث جابر موصولاً في سياق طويل (الكافي الشافِ) (ص١٨٦ رقم ٣٣٤).

● وله شاهد موقوف على عمر، أخرجه مالك في الموطأ (٢/٤٤٦ رقم ٦) والحاكم (٢/٣٠٠ ـ ٣٠١) في سياق طويل.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال الحاكم في تفسير (ألم نشرح) (٢/٥٢٨) قد صحت الرواية عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب «لن يغلب عسر يسرين».

● وله شاهد مرفوع من حديث أنس بلفظ «كان النبي ﷺ جالساً فنظر إلى جُحر فقال لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجه، ثم تلا «فإن مع العسر يسراً».

أخرجه البزار (٣/٨١ ـ كشف) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/١٣٩) وقال: فيه عائذ بن شريح هو ضعيف. =

للجنسِ، واليسر مُنَكَّرٌ فيحتملُ أنْ يُرَادَ بالثاني فردٌ يغاير ما أُرِيْدَ بالأولِ.

(٧) ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من التبليغ. ﴿فَٱنصَبْ﴾ فاتْعَبْ في العبادة شكراً لما عَدَدْنا عليك من النعمِ السالفة ووعدْناك من النعمِ الآتية. وقيل إذا فرغْتَ من الغزوِ فانْصَبْ في العبادة، أو فإذا فرغْتَ من الصلاةِ فانصبْ بالدعاءِ.

(٨) ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ بالسؤالِ ولا تسألْ غَيْرَهُ فإنه القادرُ وحدَه على إسعافِك، وقرىء فَرَغِّبْ أي فرغِّبِ الناسَ إلى طلبِ ثوابه. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ ألم نشرح فكأنما جاءني وأنا مغتمٌ ففرَّجَ عنّي»[١].

☆ ☆ ☆

= ● وشاهد من حديث ابن مسعود مثل لفظ حديث أنس أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٨٥ رقم ٩٩٧٧). وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٣٩) وقال: فيه إبراهيم النخعي وهو ضعيف.
كذا قال: وقال الشيخ حمدي السلفي: لعله محرف من أبي مالك النخعي وهو متروك وأبو حمزة ضعيف.
وأخرجه عبدالرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الصبر. عن ابن مسعود موقوفاً ـ كما في «الدر» (٨/ ٥٥١) ـ.

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٦ رقم ٣٣٦). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التِّينِ

ترتيبها ٩٥ — آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ
أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ
ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

سورة والتين مختلف فيها(١). وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ خصَّهما من الثمارِ بالقَسَم لأنَّ التينَ فاكهةٌ طيبةٌ لا فضلَ له وغذاءٌ لطيف سريعُ الهضم، ودواء كثيرُ النفعِ فإنه يُلينُ الطَّبْعَ ويحللُ البلغمَ ويطهِّر الكليتينِ ويزيلُ رملَ المثانةِ ويفتحُ سَدَدَ الكبدِ والطحالِ ويسمِّن البدنَ، وفي الحديث أنه يقطعُ البواسيرَ(٢) وينفعُ من النقرسِ(٣). والزيتونُ فاكهةٌ وإدامٌ ودواءٌ وله دهنٌ لطيف كثير المنافعِ، مع أنه قد ينبتُ حيثُ لا دهنيةَ فيه كالجبالِ، وقيل المرادُ بهما جبلانِ من الأرضِ المقدسةِ أو مسجدا دمشقَ وبيتِ المقدس، أو البَلَدَانِ.

(٢) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني الجبلَ الذي ناجَى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ربَّه، وسينينُ وسيناءُ اسمانِ للموضعِ الذي هو فيه.

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ١١٠): «مكية في قول الأكثر، وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية» هـ.

أنواع من الأمراض.

● قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٨٦ رقم ٣٣٧): «ـ أخرجه ـ أبو نعيم في الطب، والثعلبي من حديث أبي ذر. وفي إسناده من لا يعرف».

(٣) ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أي الآمِنُ من أمِنَ الرجل أمانةً فهو أمينٌ، أو المأمونُ فيه يأمنُ فيه من دخلَه والمرادُ به مكةُ.

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يريدُ به الجنسَ. ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تعديلٍ بأنْ خُصَّ بانتصابِ القامةِ وحسنِ الصورة واستجماعِ خواصِّ الكائنات ونظائرِ سائرِ الممكناتِ.

(٥) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ بأنْ جعلناه من أهلِ النار أو إلى أسفل سافلينَ وهو النارُ. وقيل هو أرذلُ العمرِ فيكون قولُه:

(٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناءً منقطعاً. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا ينقطعُ أو لا يُمَنُّ به عليهم، وهو على الأول حكمٌ مرتَّبٌ على الاستثناءِ مقرِّرٌ له.

(٧) ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي فأيُّ شيءٍ يكذِّبك يا محمدُ دلالةً أو نطقاً. ﴿بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ بالجزاءِ بعدَ ظهورِ هذه الدلائلِ. وقيل ما بمعنى مَنْ. وقيل الخطابُ للإنسان على الالتفاتِ، والمعنى فما الذي يحملُك على هذا الكذبِ.

(٨) ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تحقيقٌ لما سبق. والمعنى أليس الذي فعلَ ذلك من الخلقِ والردِّ بأحكمِ الحاكمينَ صُنْعاً وتدبيراً ومَنْ كان كذلك كان قادراً على الإعادةِ والجزاءِ على ما مرَّ مراراً. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ والتينِ أعطاه الله العافيةَ واليقينَ ما دامَ حياً، فإذا ماتَ أعطاه اللهُ من الأجرِ بعددِ مَنْ قرأ هذه السورةَ»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٦ رقم ٣٤٠).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ العَلَق

ترتيبها ٩٦ — آياتها ١٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا
صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾

سورة العلق مكية[١]. وآيها تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي اقرأِ القرآنَ مُفتَتِحاً باسمه سبحانه وتعالى، أو مستعيناً به. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي الذي له الخلقُ أو الذي خلقَ كلَّ شيء[٢]، ثم أفردَ ما هو أشرفُ وأظهرُ صُنْعاً وتدبيراً وأدلُّ على وجوب العبادة المقصودةِ من القراءة فقال:

(٢) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أو الذي خلقَ الإنسانَ فأُبهِمَ أولاً ثم فُسِّر تفخيماً لخلقه ودلالةً على عجيب فطرتهِ. ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمعَه على الإنسان في معنى الجمعِ، ولما كان أولُ الواجباتِ معرفةَ الله سبحانه

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٣٣): «وهي مكية بإجماع. .».

(٢) التعرض لعنوان الربوبية ـ المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً ـ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحي المتواتر.
ووصْفُ الرب بقوله تعالى «الذي خلق» لتذكير أول النعماء الفائضة عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ منه تعالى، والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية. من مادة لم تشمَّ رائحة الحياة فضلاً عن سائر الكمالات قادرٌ على تعليم القراءة للحي العالم المتكلم (س٩/ ١٧٧).

وتعالى نزَّلَ أولاً ما يدلُّ على وجودِهِ وفَرْطِ قدرته وكمالِ حِكْمَتِهِ.

(٣) ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ تكريرٌ للمبالغةِ، أو الأولُ مطلقٌ والثاني للتبليغِ، أو في الصلاة. ولعلَّه لما قيل له: اقرأ باسم ربِّك فقال: ما أنا بقارىء، فقيل له اقرأ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ الزائدُ في الكرمِ على كلِّ كريم فإنه سبحانه وتعالى ينعمُ بلا عوضٍ ويحلمُ من غير تخوُّفٍ، بل هو الكريمُ وحْدَه على الحقيقةِ.

(٤) ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ أي الخطَّ بالقلمِ، وقد قرىء به لِتُقَيَّدَ به العلومُ ويُعْلَمَ به البعيدُ.

(٥) ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ بخلقِ القوى ونصْبِ الدلائلِ وإنزالِ الآياتِ فيعلِّمُك القراءةَ وإن لم تكن قارئاً. وقد عدَّد سبحانه وتعالى مبدأَ أمرِ الإنسانِ ومنتهاهُ إظهاراً لما أنعمَ عليه، من أنَّ نقْلَه من أخسِّ المراتِبِ إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميَّته، وأشارَ أولاً إلى ما يدلُّ على معرفتِهِ عقلاً ثم نبَّه على ما يدلُّ عليها سمعاً.

(٦) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لمن كفَرَ بنعمةِ الله بطغيانِه وإن لم يُذْكَرْ لدلالة الكلامِ عليه. ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾.

(٧) ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أنْ رأى نفسَه[١]، واستغْنَى مفعولُه الثاني لأنه بمعنَى علِمَ ولذلك جازَ أنْ يكونَ فاعلُه ومفعولُه ضميرينِ لواحدٍ.

(٨) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ الخطابُ للإنسان على الالتفاتِ تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيانِ، والرُّجْعَى مصدرٌ كالبُشْرى[٢].

(٩) ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾.

(١٠) ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ نزلتْ في أبي جهل قال لو رأيتُ محمداً ساجداً لوطِئْتُ عُنُقَهُ، فجاءه ثم نكصَ على عقبيه فقيل له: مالَكَ؟ فقال: إنَّ بيني وبينَه لخندقاً من نارٍ وهولاً وأجنحةً، فنزلتْ[٣]. ولفظُ العبدِ وتنكيرُه للمبالغةِ في تقبيحِ النهي والدلالةِ على كمال عبوديةِ المنهيِّ.

(١١) ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾.

(١٢) ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ أرأيتَ تكريرٌ للأول وكذا الذي في قوله:

---

(١) تعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء ـ كما ينبىء عنه قوله تعالى: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد (س٩/ ١٧٠).

(٢) وتقديم الجار والمجرور إلى ربك عليه لقصره عليه، أي إن إلى مالك أمرك رجوعَ الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالاً ولا اشتراكاً فسنرى حينئذ عاقبة طغيانك (س٩/ ١٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٥٤ رقم ٣٨/ ٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة.

وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٨/ ٥٦٥) للنسائي وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي وأبي نعيم.

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ
نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

(١٣) ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

(١٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ والشرطيةُ مفعولُه الثاني، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دل عليه جوابُ الشرط الثاني الواقعُ موقعَ القسيم له. والمعنى أخبرني عمَّن ينهى بعضَ عبادِ الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هُدى فيما ينهى عنه أو آمراً بالتقوى فيما يأمرُ به من عبادةِ الأوثان كما يعتقدُه، أو إن كان على التكذيبِ للحق والتولي عن الصواب كما تقولُ: ألم يعلمْ بأنَّ الله يرى ويطَّلِعُ على أحواله من هداهُ وضلاله. وقيل المعنى أرأيتَ الذي ينهى عبداً يصلِّي والمنهي على الهدى آمراً بالتقوى والناهي مكذِّبٌ متولٍّ فما أَعْجَبَ مَنْ ذا. وقيل الخطابُ في الثانية مع الكافر فإنه سبحانه وتعالى كالحاكم الذي حضَره الخصْمانِ يخاطِبُ هذا مرةً والآخرَ أخرى، وكأنه قال يا كافِرُ أَخبِرني إنْ كان صلاتُه هُدَىً ودعاؤُه إلى الله سبحانه وتعالى أمراً بالتقوى أتنهاهُ؟. ولعلَّه ذكرَ الأمرَ بالتقوى في التعجُّبِ والتوبيخِ ولم يتعرضْ له في النهي لأنَّ النهيَ كان عن الصلاة والأمر بالتقوى، فاقتصرَ على ذِكْرِ الصلاةِ لأنه دعوةٌ بالفعلِ أو لأنَّ نهيَ العبدِ إذا صلَّى يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ لها ولغيرها وعامةُ أحوالِها محصورةٌ في تكميلِ نفسِه بالعبادة وغيرِه بالدعوة.

(١٥) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للناهي. ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما هو فيه. ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذَنَّ بناصيتِه ولنسحبنَّه بها إلى النارِ، والسفعُ القبضُ على الشيءِ وجذْبه بشدَّةٍ. وقرىء لنسفعنَّ بنونٍ مشددة ولأسفعنَّ، وكتابتُه في المصحف بالألفِ على حكمِ الوقف، والاكتفاءُ باللام عن الإضافة للعلمِ بأنَّ المرادَ ناصيةُ المذكورِ.

(١٦) ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدلٌ من الناصيةِ وإنما جازَ لوصْفِها، وقرئت بالرفعِ على هي ناصيةٌ والنصبِ على الذمِّ. ووصْفُها بالكذب والخطأ ـ وهما لصاحِبها ـ على الإسناد المجازي للمبالغة.

(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي أهلَ ناديه ليعينُوه وهو المجلسُ الذي ينتدي فيه القومُ. رُوِيَ أنا أبا جهل لعنه الله مرَّ برسولِ الله ﷺ وهو يصلِّي فقال: ألم أنهكَ، فأغلظَ له رسولُ الله ﷺ فقال: أتهدِّدُني وأنا أكثر أهلِ الوادي نادياً؟ فنزلت[1].

(١٨) ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ ليجرُّوه إلى النار. وهو في الأصلِ الشُرَطُ واحدُها زبنيةٌ كعفريةٍ من الزَّبْنِ وهو الدفعُ، أو زبنيٌ على النسبِ وأصلُها زبانيٌّ والتاء معوَّضةٌ عن الياء.

(١٩) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ أيضاً للناهي. ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي اثْبُتْ أنتَ على طاعتِك. ﴿وَٱسْجُدْ﴾ داوِمْ على سجودك. ﴿وَٱقْتَرِب ۩﴾ وتقرَّب إلى ربِّك وفي الحديث «أقربُ ما يكون العبدُ إلى ربه إذا سجدَ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.
(٢) أخرج مسلم (١/ ٣٥٠ رقم ٢١٥/ ٤٨٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً. =

عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ العلقِ أُعْطِيَ من الأجرِ كأنما قرأ المفصَّلَ كلَّه»[1].

☆ ☆ ☆

= بلفظ «أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد». وأخرجه أيضاً البغوي في شرح السنة (٣/ ١٥١ رقم ٥٥٨) والنسائي (٢/ ٢٢٦) وأبو داود رقم (٨٧٥).

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٦ رقم ٣٤٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ القَدْرِ

ترتيبها ٩٧ — آياتها ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

سورة القدر مختلف فيها[(١)]. وآيها خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ الضميرُ للقرآن فخَّمه بإضمارِه من غير ذكرِ شهادةٍ له بالنباهةِ المغنيةِ عن التصريحِ كما عظَّمه بأنْ أسندَ نزْلَه إليه، وعظَّم الوقْتَ الذي أُنزِلَ فيه بقوله:

(٢) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

(٣) ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وإنزالُه فيها بأنِ ابتدأ بإنزالِه فيها، أو أنزلَه جملةً من اللوحِ إلى السماءِ الدنيا على السَّفرةِ، ثم كان جبريلُ عليه الصلاة والسلام ينزلُه على رسولِ الله ﷺ نجوماً في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً. وقيل المعنى أنزلناه في فضلِها وهي في أوتارِ العشرِ الأخيرِ من رمضانَ، ولعلَّها السابعةُ منها، والداعي إلى إخفائها أنْ يحييَ مَنْ يريدها لياليَ كثيرةً، وتسميتُها بذلك لشرفها أو لتقديرِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٣٨): «اختلف الناس في موضع نزول هذه السورة، فقال قتادة: هي مكية. وقال ابن عباس وغيره: هي مدنية» هـ.
وقال الماوردي في «النكت والعيون» (٦/٣١١): «مكية في قول الأكثرين، ومدنية في قول الضحاك، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة» هـ.
وقال البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٤٨٥): «مكية» هـ. وانظر «الدر المنثور» (٨/٥٦٧).

الأمورِ فيها لقوله سبحانه وتعالى ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[١]. وذِكْرُ الألْفِ إما للتكثير، أو لما روي أنه عليه الصلاة والسلام ذكَرَ إسرائيلياً يلبسُ السلاحَ في سبيل الله ألفَ شهرٍ، فعجبَ المؤمنون وتقاصرتْ إليهم أعمالُهم، فأُعْطُوا ليلةَ القدر هي خيرٌ من مدَّةِ ذلك الغازي[٢].

(٤) ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ بيانٌ لما له فُضِّلَتْ على ألفِ شهر وتنزُّلهم إلى الأرضِ، أو إلى السماء الدنيا أو تقرُّبهم إلى المؤمنين. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ من أجلِ كلِّ أمر قُدِّرَ في تلك السنةِ، وقرىء من كلِّ امرىءٍ أي من أجلِ كلِّ إنسان.

(٥) ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ﴾ ما هي إلا سلامةٌ أي لا يقدِّر اللهُ فيها إلا السلامةَ، ويقضي في غيرها السلامةَ والبلاءَ، أو ما هي إلا سلامٌ لكثرةِ ما يسلِّمونَ فيها على المؤمنين. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي وقتِ مطلعِه أي طلوعِه. وقرأ الكسائي بالكسرِ على أنه كالمرجعِ أو اسمُ زمانٍ على غير قياس كالمشرِقِ.

عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ القدرِ أُعْطِيَ من الأجرِ كَمَنْ صامَ رمضانَ وأحيا ليلةَ القدرِ»[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) الدخان: «٤».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/٢٥٩ ـ ٢٦٠)، والواحدي في «أسباب النزول» ص٤٦١ كلاهما عن مجاهد.
وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٠٦/٤) وقال: هذا مرسل.
وذكره ابن كثير في التفسير (٥٦٧/٤) من رواية ابن أبي حاتم عن مجاهد «أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل...» وهو منقطع، وفيه مسلم بن خالد الزنجي صدوق له أوهام.

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٦ رقم ٣٤٧).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة البينة

ترتيبها ٩٨ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

سورة لم يكن مختلف فيها[(١)]. وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهودُ والنصارى فإنَّهم كفروا بالإلحادِ في صفاتِ الله سبحانه وتعالى: ومِنْ للتبيينِ. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وعبدةِ الأصنام. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ عما كانوا عليه من دينهم، أو الوعدِ باتباع الحقِّ إذ جاءهم الرسولُ ﷺ. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الرسولُ عليه الصلاة والسلام، أو القرآنُ فإنه مبيِّنٌ للحقِّ، أو معجزةُ الرسولِ بأخلاقه والقرآنِ بإفحامِه مَنْ تحدَّى به.

(٢) ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ بدلٌ من البينةِ بنفسِه أو بتقدير مضافٍ أو مبتدأ ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ صفتُه أو خبره، والرسولُ عليه الصلاة والسلام وإن كان أمياً لكنه لما تلا مثلَ ما في الصحفِ كان كالتالي لها. وقيل المرادُ جبريلُ عليه الصلاة والسلام. وكونُ الصحفِ مطهَّرةً أنَّ الباطلَ لا يأتي ما فيها، أو أنها لا يمسُّها إلا المطهرونَ.

(٣) ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ مكتوباتٌ مستقيمةٌ ناطقةٌ بالحق.

(٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ عما كانوا عليه بأن آمنَ بعضُهم أو تردَّد في دينه، أو عن وعْدِهم بالإصرارِ على الكفرِ. ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ فيكون كقوله ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٤٣): «وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار أنها مدنية، والأول أشهر» هـ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾[١]. وإفرادُ أهلِ الكتابِ بعدَ الجمعِ بينَهم وبين المشركين للدلالةِ على شناعةِ حالهم، وأنهم لما تفرَّقوا مع علمِهم كان غيرهم بذلك أولى.

(٥) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي في كُتُبِهم بما فيها. ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يشركون به. ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلينَ عن العقائدِ الزائغةِ. ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ ولكنَّهم حرَّفوا وعَصَوْا. ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ دينُ الملَّةِ القيِّمةِ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾ أي يومَ القيامة، أو في الحالِ لملابستِهم ما يوجبُ ذلك، واشتراكُ الفريقين في جنسِ العذاب لا يوجبُ اشتراكَهما في نوعِه فلعلَّه يختلفُ لتفاوُتِ كفرِهما. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي الخليقةِ. وقرأ نافع البريئةِ بالهمزِ على الأصلِ.

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾.

(٨) ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ فيه مبالغاتٌ: تقديمُ المدحِ، وذكْرُ الجزاءِ المؤذنِ بأنَّ ما مُنِحُوا في مقابلة ما وُصِفُوا به والحكمُ عليه بأنَّه مِنْ عندِ ربِّهم، وجمعُ جناتٍ وتقييدُها إضافة ووصفاً بما تزدادُ لها نعيماً، وتأكيدُ الخلودِ بالتأبيد. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ استئنافٌ بما يكون لهم زيادةً على جزائِهم. ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ لأنه بلَّغهم أقصى أمانيهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكورُ من الجزاء والرضوانِ. ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ فإنَّ الخشيةَ ملاكُ الأمرِ والباعثُ على كلِ خير. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ لم يكنِ الذين كفروا كان يومَ القيامة مع خيرِ البريةِ مساءً ومقِيلاً»[٢].

☆ ☆ ☆

---

(١) البقرة: «٨٩».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٦ رقم ٣٤٩).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الزَّلزَلَةِ ترتيبها ٩٩ آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ
أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

سورة الزلزلة مختلف فيها(١). وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ اضطرابَها المقدَّرَ لها عند النفخةِ الأولى أو الثانيةِ، أو الممكِنَ لها أو اللائقَ بها في الحكمةِ، وقرىء بالفتح وهو اسمُ الحركة وليس في الأبنية فعلالٌ إلا في المضاعفِ.

(٢) ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ما في جوفها من الدفائن أو الأمواتِ جمعُ ثِقْلٍ وهو متاعُ البيت.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ لما يبهرُهم من الأمر الفظيع، وقيل المراد بالإنسان الكافرُ فإنَّ المؤمنَ يعلمُ ما لها.

(٤) ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ تحدِّثُ الخلْقَ بلسان الحالِ. ﴿أَخْبَارَهَا﴾ ما لأجلِه زلزالُها وإخراجُها. وقيل ينطقُها الله سبحانه وتعالى فتخبرُ بما عُمِلَ عليها. ويومئذ بدلٌ من إذا وناصبُهما تحدِّثُ، أو أصلٌ وإذا منتصِبٌ بمضمرٍ.

(٥) ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي تحدِّث بسببِ إيحاء ربِّك لها بأنْ أحدثَ فيها ما دلَّتْ على الإخبار، أو أنطقَها بها، ويجوزُ أنْ يكون بدلاً من إخبارِها إذ يُقَالُ: حدَّثتُه كذا وبكذا، واللامُ بمعنى إلى أو

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٤٧) «وهي مكية قاله ابن عباس وغيره وقال قتادة ومقاتل: هي مدنية لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة».

على أصلِها إذ لها في ذلك تشفٌّ من العصاةِ.

(٦) ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ من مخارجهم من القبور إلى الموقف. ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرِّقينَ بحسبِ مراتبِهم. ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جزاءَ أعمالهم، وقرىء بفتحِ الياء.

(٧) ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾.

(٨) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ تفصيلٌ ليَروا ولذلك قرىء يُرَهُ بالضمِّ، وقرأ هشامٌ بإسكان الهاء. ولعلَّ حسنةَ الكافرِ وسيئةَ المجتنبِ عن الكبائرِ تؤثرانِ في نقصِ الثواب والعقابِ. وقيل الآيةُ مشروطةٌ بعدم الإحباط والمغفرةِ، أو مَنْ الأولى مخصوصةٌ بالسعداء والثانيةُ بالأشقياءِ لقوله أشتاتاً. والذرَّة النملةُ الصغيرة أوِ الهباءُ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ إذا زلزلتِ الأرضُ أربعَ مراتٍ كان كمن قرأ القرآنَ كلَّه»[١].

☆ ☆ ☆

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٨٧ رقم ٣٥١): «أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت. لكنه من رواية أبي القاسم الطائي، وهو ساقط.
وشاهده عند ابن أبي شيبة، والبزار من رواية سلمة بن وردان عن أنس مرفوعاً: «إذا زلزلت تعدل ربع القرآن» وهو حديث ضعيف.
وأخرجه ابن مردويه والواحدي بإسناديهما إلى أبي بن كعب بلفظ «من قرأ إذا زلزلت أعطى من الأجر كمن قرأ القرآن» وهو حديث موضوع.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

ترتيبها ١٠٠ — آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

سورة والعاديات مختلف فيها(١)، وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أقسمَ سبحانه بخيلِ الغزاةِ تعدو فتضبَحُ ضبحاً، وهو صوتُ أنفاسِها عند العدْوِ. ونصبَه بفعله المحذوفِ، أو بالعاديات فإنها تدلُّ بالالتزامِ على الضابحاتِ، أو ضبْحاً حالٌ بمعنى ضابحةٍ.

(٢) ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ فالتي توري النارَ، والإيراءُ إخراجُ النارِ يُقَالُ قدحَ الزِّنْدَ فأورى.

(٣) ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ يغيرُ أهلُها على العدوِّ. ﴿صُبْحًا﴾ أي في وقتِه.

(٤) ﴿فَأَثَرْنَ﴾ فهيَّجْنَ. ﴿بِهِۦ﴾ بذلك الوقتِ. ﴿نَقْعًا﴾ غباراً أو صياحاً.

(٥) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ فتوسَّطْنَ بذلك الوقتِ أو بالعدوِّ أو بالنقعِ، أي ملتبساتٍ به. ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء، رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام بعثَ خيلاً فمضتْ أشهرٌ لم يأتِه منهم خبرٌ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٥٢): وهي مكية في قول جماعة من أهل العلم. وقال المهدوي عن أنس بن مالك: هي مدنية» هـ.
وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ١٥٣): «وهي مكية، في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء. ومدنية في قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة» هـ.

فنزلت[١]. ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ القسمُ بالنفوسِ العادِيَةِ إثر كمالِهنَّ، المورياتِ بأفكارهن أنوارَ المعارفِ، والمغيراتِ على الهوى والعاداتِ إذا ظهر لهنَّ مثلُ أنوارِ القدس، فأثرْنَ به شوقاً فوسطْن به جمعاً من مجموعِ العلِّيِّينَ.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ لكفورٌ مِنْ كَنَدَ النعمةَ كُنُوداً، أو لَعاصٍ بلغةِ كِنْدَةَ، أو لبخيلٍ بلغةِ بني مالكٍ، وهو جوابُ القسم.

(٧) ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ وإنَّ الإنسان على كنودِه ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهدُ على نفسه لظهور أثرِه عليه، أو أنَّ الله سبحانه وتعالى على كنوده لشهيدٌ فيكون وعيداً.

(٨) ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ المالِ من قوله سبحانه وتعالى ﴿إن ترك خيراً﴾[٢] أي مالاً. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيلٌ أو لقويٌّ مبالغٌ فيه.

(٩) ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ﴾ بُعِثَ. ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى، وقرىء بُحْثِرَ وبُحِثَ.

(١٠) ﴿وَحُصِّلَ﴾ جُمِعَ محصَّلاً في الصحفِ أو مُيِّزَ. ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ، وتخصيصُه لأنه الأصلُ.

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وهو يومُ القيامة. ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ عالم بما أعلَنوا وما أسرُّوا فيجازيهم عليه، وإنما قال «ما» ثُمَّ قال «بهم» لاختلافِ شأنهم في الحالين، وقرىء أنَّ وخبيرٌ بلا لام. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والعادياتِ أُعْطِيَ من الأجر عشرَ حسنات بعددِ مَنْ باتَ بالمزدلفةِ وشهدَ جُمَعَاً»[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص٤٦٣ عن مقاتل بدون سند.

(٢) البقرة: «١٨٠».

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الواحدي وابن مردويه والثعلبي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٧ رقم ٣٥٤).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة القارعة
ترتيبها ١٠١ آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

سورة القارعة مكية[١]، وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾.

(٢) ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

(٣) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ سبقَ بيانه في الحاقة.

(٤) ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ في كثرتِهم وذِلَّتِهم وانتشارِهم واضطرابهم. وانتصابُ يوم بمضمَر دلت عليه القارعةُ.

(٥) ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصوفِ ذي الألوان. ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ المندوفِ لتفرُّقِ أجزائِها وتطايرها في الجوِّ.

(٦) ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأنْ ترجَّحت مقاديرُ أنواعِ حسناته.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٥٦): «وهي مكية بلا خلاف».
وقال القرطبي في «الجامع» (٢٠/ ١٦٤): «وهي مكية بإجماع».

(٧) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ﴾ في عيشٍ. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ ذاتِ رضا أو مرضيةٍ.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأنْ لم يكنْ له حسنةٌ يُعْبَأُ بها، أو ترجَّحت سيئاتُه على حسناته.

(٩) ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ فمأواهُ النارُ المحرقةُ، والهاويةُ من أسمائِها ولذلك قال:

(١٠) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾.

(١١) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ ذاتُ حِمَى. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأَ سورةَ القارعة ثقَّلَ الله بها ميزانَه يومَ القيامةِ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٧ رقم ٣٥٧).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التَّكَاثُر

ترتيبها ١٠٢ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

سورة التكاثر مختلف فيها[(١)]، وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ شغلَكُم وأصلُه الصرفُ إلى اللهو منقولٌ من لها إذا غَفَلَ. ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التباهي بالكثرةِ.

(٢) ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ إذا استوعبتُم عددَ الأحياءِ صرتُم إلى المقابر فتكاثرتُم بالأمواتِ، عبَّر عن انتقالهم إلى ذكرِ الموتى بزيارة المقابر. روي[(٢)] أن بني عبدِ منافٍ وبني سهمٍ تفاخروا بالكثرة فكثَرَهُم بنو عبد مناف، فقال بنو سهمٍ إن البغي أهلكَنا في الجاهليةِ فعادُّونا بالأحياءِ والأمواتِ فكثَرَهُم بنو سهمٍ. وإنما حذفَ المنهيَّ عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدين للتعظيم والمبالغةِ. وقيل[(٣)] معناه ألهاكم التكاثرُ بالأموال والأولادِ إلى أن مِتُّم وقُبِرْتُم مضيِّعين أعماركم في طلبِ الدنيا عما هو أهمُّ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٥٨): «وهي مكية لا أعلم فيها خلافاً».
وقال القرطبي في «الجامع» (٢٠/١٦٨): «وهي مكية في قول جميع المفسرين، وروى البخاري أنها مدنية» هـ.

(٢) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٤٦٤) من قول مقاتل والكلبي بدون سند وكذلك ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/٥١٧).

(٣) قاله الحسن البصري كما في تفسير ابن كثير (٤/٥٨٢).

لكم، وهو السعيُ لأُخرَاكم فتكون زيارةُ القبور عبارةً عن الموتِ.

(٣) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وتنبيهٌ على أنَّ العاقلَ ينبغي له أن لا يكونَ جميعُ همِّه ومعظمَ سعيه للدنيا فإنَّ عاقبة ذلك وبالٌ وحسرةٌ. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ خطأَ رأيكم إذا عاينتُم ما وراءَكم، وهو إنذارٌ ليخافوا وينتبهوا من غفلَتِهم.

(٤) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكريرٌ للتأكيد. وفي ثمَّ دلالةٌ على أن الثاني أبلغُ من الأول، أو الأولُ عند الموت أو في القبرِ والثاني عندَ النشور.

(٥) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي لو تعلمون ما بينَ أيديكم عِلْمَ اليقين أي كعلمِكم ما تستيقنونَه لَشَغَلَكُم ذلك عن غيره، أو لفعلتم ما لا يوصفُ ولا يكْتَنَهُ فحذفَ الجوابَ للتفخيم، ولا يجوزُ أنْ يكون قولُه:

(٦) ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جواباً له لأنه محقَّقُ الوقوعِ بل هو جوابُ قسمٍ محذوف أكَّد به الوعيدَ وأوضحَ به ما أنذَرهم منه بعد إبهامه تفخيماً، وقرأ ابن عامرٍ والكسائيُّ بضمِّ التاءِ.

(٧) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكريرٌ للتأكيدِ، أو الأولى إذا رأيتَهم من مكان بعيد والثانية إذا وردُوها، أو المرادُ بالأولى المعرفةُ وبالثانية الإبصارُ. ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي الرؤيةَ التي هي نفسُ اليقين، فإنَّ علمَ المشاهدة أعلى مراتبِ اليقين.

(٨) ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي ألهاكُم. والخطابُ مخصوصٌ بكلِّ مَنْ ألهاهُ دنياهُ عن دينه والنعيمُ بما يشغلُه، للقرينةِ والنصوصِ الكثيرةِ كقوله ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾[١] ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[٢]، وقيل يعمَّانِ إذ كلٌّ يُسْأَلُ عن شكرِه، وقيل الآيةُ مخصوصةٌ بالكفارِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ ألهاكم لم يحاسبْه الله سبحانه وتعالى بالنعيم الذي أنعمَ به عليه في دارِ الدنيا، وأُعْطِيَ من الأجرِ كأنما قرأ ألفَ آيةٍ»[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) الأعراف: «٣٢».

(٢) المؤمنون: «٥١».

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٨ رقم ٣٥٩).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ العَصْرِ

ترتيبها ١٠٣ — آياتها ٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

سورة والعصر مكية[(١)]، وآيها ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أقسمَ سبحانه بصلاةِ العصرِ لفضلِها، أو بعصرِ النبوةِ أو بالدهرِ لاشتماله على الأعاجيبِ والتعريضِ بنفي ما يضافُ إليه من الخسرانِ.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إنَّ الناسَ لفي خسرانٍ في مساعيهم وصرفِ أعمارِهم في مطالبهم، والتعريفُ للجنسِ والتنكيرُ للتعظيم.

(٣) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنَّهم اشتروا الآخرةَ بالدنيا ففازوا بالحياة الأبدية والسعادةِ السرمديةِ. ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ الثابتِ الذي لا يصحُّ إنكارُه من اعتقادٍ أو عملٍ. ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي أو على الحقِّ، أو ما يبلُو اللهُ به عبادَه. وهذا من عطفِ الخاصِّ على العامِّ للمبالغةِ إلا أنْ يخصَّ العملَ بما يكون مقصوراً على كمالِه، ولعلَّه سبحانه وتعالى إنما ذَكَرَ سببَ الربحِ دون الخسرانِ اكتفاءً ببيانِ المقصودِ، وإشعاراً بأنَّ ما عدا ما عدَّ يؤدي إلى خسرٍ ونقصِ حظٍّ، أو تكرُّماً فإن الإبهامَ في جانبِ الخسرِ كرمٌ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والعصرِ غفر الله له وكانَ ممنْ تواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ»[(٢)].

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٦١): «وهي مكية».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٨ رقم ٣٦١).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الهمزة

آياتها ٩ — ترتيبها ١٠٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

سورة الهمزة مكية[1]، وآيها تسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمزُ: الكسرُ كالهزم، واللمزُ: الطعنُ كاللّهزِ فشاعَا في الكسرِ من أعراضِ الناسِ والطعنِ فيهم، وبناءُ فعلِه يدلُّ على الاعتيادِ فلا يقال ضُحَكَةٌ ولُعَنَةٌ إلا للمكثِرِ المتعوِّد، وقرىء همْزةٍ لمْزةٍ بالسكونِ على بناءِ المفعول وهو المسخرةُ الذي يأتي بالأضاحيكِ فَيُضْحَكُ منه ويُشْتَمُ. ونزولُها في الأخنسِ بنِ شريق[2] فإنه كان مِغْياباً، أو في الوليد بن المغيرة واغتيابِه رسولَ الله ﷺ.

(٢) ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ بدلٌ من كلٍّ أو ذمٌّ منصوبٌ أو مرفوعٌ، وقرأ ابن عامر وحمزةُ والكسائي بالتشديد للتكثير. ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ وجعلَه عدَّةً للنوازلِ أو عدَّة مرةً بعدَ أخرى، ويؤيدُه أنه قرىء وعَدَدَهُ على فكِّ الإدغام.

(٣) ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ تركه خالداً في الدنيا فأحبَّه كما يحبُّ الخلودَ، أو حبُّ المالِ أغفله عن الموتِ أو طَوَّلَ أملَه حتى حسِبَ أنه مخلَّدٌ فعملَ عملَ مَنْ لا يظنُّ الموتَ، وفيه تعريضٌ بأنَّ المخلِّد هو السعيُ للآخرةِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٦٣): «وهي مكية بلا خلاف».

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٥٣٠) عن الكلبي بدون سند.

(٤) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له عن حسبانه. ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ ليطرحنَّ. ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ في النارِ التي من شأنها أن تحطمَ كلَّ ما يطرحُ فيها.

(٥) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ ما النارُ التي لها هذه الخاصيةُ.

(٦) ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ تفسيرٌ لها. ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ التي أوقدها الله وما أوقدَه لا يقدرُ غيرهُ أنْ يطفِئَهُ.

(٧) ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ تعلُو أوساطَ القلوب وتشتملُ عليها، وتخصيصُها بالذكرِ لأنَّ الفؤادَ ألطفُ ما في البدنِ وأشدُّه ألماً، أو لأنه محلُّ العقائد الزائفةِ ومنشأُ الأعمال القبيحةِ.

(٨) ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾ مُطْبَقَةٌ من أوصدتُ البابَ إذا أطبقتُه. قال:

تَحِنُّ إلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمَنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُؤْصَدَة

وقرأ حفصٌ وأبو عمرو وحمزةُ بالهمزة.

(٩) ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي موثَّقين في أعمدةٍ ممدودةٍ مثلُ المقاطرِ التي تُقطَرُ فيها اللصوصُ. وقرأ الكوفيون غيرَ حفصٍ بضمتينِ، وقرىء عُمْد بسكون الميم مع ضمِّ العين. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الهمزةِ أعطاه الله عشرَ حسناتٍ بعددِ منِ استهزأَ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام وأصحابِه»[1] رضوانُ الله عليهم أجمعينَ.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٨ رقم ٣٦٢).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الفِيلِ

ترتيبها ١٠٥ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾
تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

سورة الفيل مكية[١]، وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الخطابُ للرسولِ ﷺ، وهو وإنْ لم يشهدْ تلك الوقعةَ لكن شاهدَ آثارَها وسمعَ بالتواترِ أخبارَها فكأنه رآها، وإنما قال كيفَ ولم يقلْ ما لأنَّ المرادَ تذكيرُ ما فيها من وجوهِ الدلالةِ على كمال علمِ الله تعالى وقدرتِهِ وعزةِ بيته وشرفِ رسوله عليه الصلاة والسلام فإنها من الإرهاصاتِ[٢]. إذ روي[٣] أنها وقعتْ في السنةِ التي وُلِدَ فيها رسولُ الله ﷺ. قصَّتُها أنَّ أبرهةَ بنَ الصباحِ الأشرمَ ـ ملِكَ اليمنِ من قبلِ أصحمةَ النجاشي ـ بنى كنيسةً بصنعاءَ وسمَّاها القُلَّيسَ وأرادَ أن يصرفَ الحاجَّ إليها، فخرجَ رجلٌ من كنانة فقعدَ فيها ليلاً فأغضبه ذلك، فحلفَ ليهدمنَّ الكعبةَ فخرج بجيشه ومعه فيلٌ قويٌّ اسمه محمودٌ وفيلةٌ أخرى، فلما تهيأَ للدخول وعبَّى جيشَه قدَّم الفيلَ، وكان كلَّما وجَّهوه إلى الحرمِ بركَ ولم يبرخ، وإذا وجّهوه إلى اليمن أو إلى جهةٍ أخرى هَرْوَلَ، فأرسل الله تعالى طيراً مع كلِّ واحد في منقارِهِ حجرٌ وفي رجليه حجرانِ، أكبرُ من العدسةِ وأصغر من الحمَّصةِ،

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٦٥): «وهي مكية بإجماع الرواة».
(٢) هي التي تصدر عن النبي قبل النبوة وتكون خارقة للعادة (التعريفات للجرجاني ص١٦).
(٣) انظر «معالم التنزيل» (٨/ ٥٣٥ ـ ٥٤٠).

فترميهم فيقع الحجرُ في رأسِ الرجل فيخرجُ من دبرهِ فهلكوا جميعاً. وقرىء ألم تَرْ جداً في إظهار أثرِ الجازم، وكيف نُصِبَ بفعلٍ لايِتَرَ لما فيه من معنى الاستفهام.

(٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ في تعطيل الكعبةِ وتخريبها. ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ في تضييعٍ وإبطالٍ بأنْ دمَّرهم وعظَّم شأنَها.

(٣) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جماعاتٍ، جمعُ إبالةٍ وهي الحزمةُ الكبيرةُ؛ شُبِّهَتْ بها الجماعةُ من الطير في تضامِّها. وقيل لا واحدَ لها كعبابيدَ وشماطيطَ.

(٤) ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ وقرىء بالياءِ على تذكير الطيرِ لأنه اسمُ جمعٍ، أو إسناده إلى ضمير ربِّك. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طينٍ متحجِّرٍ معرَّبُ، وقيل من السِّجْلِ وهو الدلو الكبيرُ، أو الإسجالِ وهو الإرسالُ، أو من السِّجْلِ ومعناه من جملة العذاب المكتوب المدون.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ كورقِ زرعٍ وقعَ فيه الأكالُ وهو أنْ يأكلَه الدودُ، أو أكلَ حبه فبقي صفراً منه، أو كتبنٍ أكلتْه الدوابُّ وراثته. عنِ النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الفيل أعفاهُ الله أيامَ حياته من الخسفِ والمسخِ»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والواحدي والثعلبي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٨ رقم ٣٦٣).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

آياتها ٤ — ترتيبها ١٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

سورة قريش مكية[(١)]، وآيها أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلِّق بقوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾[(٢)] والفاءُ لما في الكلام من معنى الشرطِ، إذ المعنى أنَّ نِعَمَ الله عليهم لا تُحصَى فإنْ لم يعبدوه لسائرِ نعمِه فليعبدُوه لأجلِ:

(٢) ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ أي الرحلةَ في الشتاءِ إلى اليمنِ وفي الصيف إلى الشام فيمْتَارون ويتَّجرون، أو بمحذوفٍ مثل أَعَجِبُوا، أو بما قبلَه كالتضمينِ في الشعر[(٣)] أي فجعلَهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريش؛ ويؤيدُه أنَّهما في مصحفِ أُبَيٍّ سورةٌ واحدةٌ. وقرىء ليألفَ قريشُ إلْفَهم رحلةَ الشتاءِ. وقريشٌ ولدُ النضرِ بنِ كنانةَ منقولٌ من تصغيرِ قرشٍ، وهو دابةٌ عظيمةٌ في البحر تعبثُ بالسفنِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٦٨): «وهي مكية بلا خلاف».
وقال القرطبي في «الجامع» (٢٠/٢٠٠): «مكية في قول الجمهور. ومدنية في قول الضحاك والكلبي» هـ.

(٢) قريش: «٣».

(٣) قوله كالتضمين في الشعر هو أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير.
قال الكازروني في حاشية: (ولا يخفىٰ أن هذا المعنى لا يتحقق في القرآن من وجهين فوجه الشبه بين تعليق هذه السورة بما قبلها، والتضمين أن في كل منهما وصل كلامٍ ظاهرِ الانفصال عما قبله به) حاشية الكازروني على البيضاوي (٥/١٩٦).

فلا تُطَاقُ إلا بالنارِ، فَشُبِّهوا بها لأنها تأكلُ ولا تُؤْكَلْ وتعلُو ولا تُعْلَى. وصغَّر الاسمَ للتعظيمِ، وإطلاقُ الإِيلافِ ثم إبدالُ المقيدِ عنه للتفخيمِ. وقرأ ابنُ عامر لِئِلافِ بغير ياءٍ بعدَ الهمزة.

(٣) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾.

(٤) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي بالرحلتينِ، والتنكيرُ للتعظيم، وقيل المرادُ به شدةٌ أكلوا فيها الجيفَ والعظامَ. ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أصحابِ الفيل أو التخطُّفِ في بلدهم ومسايِرِهم، أو الجذامِ فلا يصيبُهم ببلدِهم. عن رسولِ الله ﷺ «من قرأ سورةَ لإيلاف قريشٍ أعطاه الله عشرَ حسناتٍ بعدد من طافَ بالكعبةِ واعتكفَ بها»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أُبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٨ رقم ٣٦٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة الماعون

ترتيبها ١٠٧ — آياتها ٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سورة الماعون مختلف فيها[1]، وآيها سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَرَءَيْتَ﴾ استفهامٌ معناه التعجبُ. وقرىء أريتَ بلا همزٍ إلحاقاً بالمضارع، ولعلَّ تصديرها بحرفِ الاستفهامِ سهَّل أمْرَها، وأرأيتُك بزيادةِ الكافِ. ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ بالجزاءِ أو الإسلامِ، والذي يحتملُ الجنسَ والعهدَ ويؤيدُ الثاني قولُه:

(٢) ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ يدفعُه دفعاً عنيفاً. وهو أبو جهلٍ كان وصيّاً ليتيمٍ فجاءه عرياناً يسألُه من مال نفسِه فدفعه، أو أبو سفيانَ نحرَ جَزُوراً فسأله يتيمٌ لحماً فقرعَه بعصاهُ، أو الوليد بنُ المغيرة، أو منافقٌ بخيلٌ[2]. وقرىء يدعُ أي يتركُ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٧٠). «وهي مكية بلا خلاف علمته، وقال الثعلبي: هي مدنية» هـ. وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/ ٢٤٣): «وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله الجمهور. والثاني: مدنية، روى عن ابن عباس، وقتادة. وقال هبة الله المفسِّر: نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبدالله بن أبي المنافق» هـ.

(٢) انظر «أسباب النزول» للواحدي ص٤٦٥، و«معالم التنزيل» للبغوي (٨/ ٥٥١) و«النكت والعيون» للماوردي (٦/ ٣٥٠).

(٣) ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ أهلَه وغيرَهم. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لعدمِ اعتقادِه بالجزاءِ ولذلك رتَّب الجملةَ على يكذِّب بالفاء.

(٤) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ .

(٥) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أي غافلون غيرَ مبالينَ بها.

(٦) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ يُرُون الناسَ أعمالَهم ليروهم الثناءَ عليهم.

(٧) ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ الزكاةَ أو ما يُتَعَاوَرُ في العادةِ. والفاءُ جزائيةٌ؛ والمعنى إذا كان عدمُ المبالاة باليتيمِ من ضعفِ الدين والموجبِ للذمِّ والتوبيخ فالسهوُ عن الصلاة التي هي عمادُ الدين والرياءُ الذي هو شعبةٌ من الكفر ومنعُ الزكاة التي هي قنطرةُ الإسلام أحقُّ بذلك ولذلك رتَّب عليها الويلَ، أو للسببيةِ على معنى فويلٌ لهم، وإنما وضعَ المصلينَ موضعَ الضمير للدلالةِ على سوءِ معاملتهم مع الخالقِ والخلْقِ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ أرأيتَ غُفِرَ له إنْ كان للزكاةِ مؤدِّياً»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٨ رقم ٣٦٩).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الكوثر

ترتيبها ١٠٨ — آياتها ٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣

سورة الكوثر مكية[١]، وآيها ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ وقرىء أنطيناكَ. ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الخيرَ المفرِطَ الكثرةِ من العلمِ والعملِ وشرفِ الدارين. ورُوِيَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه نهرٌ في الجنةِ وَعَدَنِيه ربِّي فيه خيرٌ كثير[٢] أحلَى من العسلِ وأبيضُ من اللبنِ وأبردُ من الثلجِ وألينُ من الزُّبْدِ. حافتاهُ الزَّبَرْجَدُ وأوانيه من فضةٍ لا يظمأُ مَنْ شربَ منه[٣]، وقيل حوضٌ فيها، وقيل أولادُه وأتباعُه، أو علماءُ أمتِه والقرآنُ العظيم.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٧٢): «وهي مكية».
وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/ ٢٤٧): «وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: مدنية قاله الحسن، وعكرمة، وقتادة» هـ.

(٢) وهو جزء من حديث أخرجه مسلم (١/ ٣٠٠ رقم ٤٠٠) من حديث أنس.

(٣) وهو مؤلف من حديثين:
(الأول): أخرجه أحمد (٣/ ١٠٣، ١١٥) وهنا وفي «الزهد» (١/ ٢١١) والنسائي في «التفسير» (رقم: ٧٢٦) وابن جرير (١٥/ ج٣٠/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ١٤٧) والآجري في «الشريعة» (ص٣٩٦) والبغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٥٥٨) وفي «شرح السنة» (١٥/ ١٧٠) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: دخلتُ الجنة فإذا أنا بنهرٍ يجري بياضُه بياض اللبن، وأحلى من العسل، وحافتاه حيامَ اللؤلؤ، فضربت بيدي فإذا الثرى مسك أذْخَرُ فقلت لجبريل: ما هذا؟ قال: الكوثر الذي أعطاكه الله عز وجل» وهو حديث صحيح. وأخرجه البخاري (١١/ ٤٦٤ رقم ٦٥٨١) والترمذي (٥/ ٤٤٩ رقم ٣٣٥٩ و٣٣٦٠) من طريق =

(٢) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فدُمْ على الصلاةِ خالصاً لوجه الله تعالى خلافَ الساهي عنها المرائي فيها شكراً لإنعامه، فإنَّ الصلاةَ جامعةٌ لأقسامِ الشكرِ. ﴿وَٱنْحَرْ﴾ البُدْنَ التي هي خيارُ أموالِ العرب وتصدَّق على المحاويجِ خلافاً لمن يدَعُهم ويمنعُ عنهم الماعونَ، فالسورةُ كالمقابلةِ للسورةِ المتقدمةِ وقد فسِّرتِ الصلاةُ بصلاةِ العيدِ والنحرُ بالتضحيةِ.

(٣) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إنَّ مَنْ أبغضَك لبغضِه اللهَ. ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الذي لا عقِبَ له إذ لا يبقى له نسلٌ ولا حُسْنُ ذِكْرٍ، وأما أنت فتبقى ذرِّيَّتُكَ وحُسْنُ صيتِك وآثارُ فضلِك إلى يوم القيامةِ، ولك في الآخرة ما لا يدخلُ تحتَ الوصْفِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الكوثرِ سقاهُ الله من كلِّ نهرٍ له في الجنةِ، ويُكْتُبُ له عشرَ حسناتٍ بعدد كلِّ قُربانٍ قرَّبه العبادُ في يومِ النحرِ العظيم»[1].

☆ ☆ ☆

قتادة عن أنس بن مالك بنحوه.

(والثاني): أخرجه أحمد (٢/ ٦٧، ١١٢، ١٥٨) وهنا وفي «الزهد» (١/ ٢٠٨) والترمذي (٥/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠ رقم ٣٣٦١) وابن ماجة (٢/ ١٤٥٠ رقم ٤٣٣٤). والدارمي (٢/ ٣٣٨) والحاكم (٣/ ١٧١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ج٣٠/ ٣٢٤) والبغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٥٥٨) وفي «شرح السنة» (١٥/ ١٦٨ ـ ١٦٩) من طرق عن عطاء بن أبي السائب عن عازب بن دثار عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاهُ الذهبُ، مجراه على الدرِّ والياقوت، تربتهُ أطيبُ من المِسْك، وأشدُّ بياضاً من الثلج». وهو حديث صحيح.

لأن راويه عن عطاء عند أحمد حماد بن زيد وقد سمع منه قديماً.

وانظر «فتح الباري» (٨/ ٧٣٢) وجامع الأصول (٢/ ٤٣٩).

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٨ رقم ٣٧٥). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الكافرون

ترتيبها ١٠٩ — آياتها ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا
عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

سورة الكافرون مكية[1]، وآيها ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعني كفرةً مخصوصينَ قد علمَ اللهُ منهم أنَّهم لا يؤمنون. رُوِيَ أنَّ رهْطاً من قريش قالوا يا محمد تعبدُ آلهتَنا سنةً ونعبدُ إلهكَ سنةً، فنزلتْ[2].

(٢) ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي فيما يُسْتَقْبَلُ، فأنْ لا تدخلُ إلا على مضارعٍ بمعنى الاستقبالِ كما أنَّ ما لا تدخلُ إلا على مضارعٍ بمعنى الحالِ.

(٣) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي فيما يستقبلُ لأنه في قرانِ لا أعبدُ.

(٤) ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي في الحالِ أو فيما سلفَ.

(٥) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي وما عبدتُم في وقتٍ ما ما أنا عابدُه، ويجوزُ أنْ يكونا تأكيدينِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٧٤): «وهي مكية إجماعاً» هـ.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٥/ج٣٠/ ٣٣١) والطبراني في «الصغير» (١/ ٢٦٥) عن ابن عباس وقال الطبراني: لم يروه عن داود بن أبي هند إلا عبدالله بن عيسى.
وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٧٣٣): «وفي إسناده أبو خلف عبدالله بن عيسى، وهو ضعيف.

على طريقةٍ أبلغَ، وأما لم يقلْ ما عبدْتُ ليطابقَ ما عبدتُم لأنهم كانوا موسومينَ قبل المبعَثِ بعبادةِ الأصنامِ، وهو لم يكن حينئذٍ موسوماً بعبادة الله، وإنما قال «ما» دونَ مِنْ لأنَّ المرادَ الصفةُ كأنه قال: لا أعبدُ الباطلَ ولا تعبدون الحقَّ أو للمطابقةِ. وقيل إنها مصدريةٌ وقيل الأوليانِ بمعنى الذي والأُخريانِ مصدريتانِ.

(٦) ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركونه. ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ ديني الذي أنا عليه لا أرفضُه، فليس فيه إذْنٌ في الكفر ولا منْعٌ عن الجهادِ ليكون منسوخاً بآية القتالِ، اللهمَّ إلا إذا فُسِّرَ بالمتاركةِ وتقريرِ كلٍّ من الفريقين الآخرَ على دينه، وقد فُسِّرَ الدينُ بالحسابِ والجزاءِ والدعاءِ والعبادةِ.

عَن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الكافرونَ فكأنما قرأ رُبُعَ القرآن وتباعدتْ عنه مردةُ الشياطين وبَرِىءَ من الشركِ»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٩ رقم ٣٧٦).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّصرِ

ترتيبها ١١٠ — آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

سورة النصر مدنية[1]، وآيها ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ إظهارُه إياك على أعدائِك. ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ وفتحُ مكَّةَ، وقيل المرادُ جنسُ نصرِ الله المؤمنينَ وفتحُ مكةَ وسائرَ البلادِ عليهم، وإنما عبَّر عن الحصولِ بالمجيء تجوُّزاً للإشعارِ بأنَّ المقدَّراتِ متوجِّهةٌ من الأزلِ إلى أوقاتِها المعيَّنةِ لها فتقرُبُ منها شيئاً فشيئاً، وقد قَرُبَ النصرُ من وقته فكنْ مترقِّباً لورُودِه مستعِداً لشكرِه.

(٢) ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ جماعاتٍ كثيفةً كأهلِ مكَّةَ والطائفِ واليمنِ وهوازنَ وسائرِ قبائلِ العرب، ويدخلون حالٌ على أنَّ أرأيتَ بمعنى أبصرتَ أو مفعولٌ ثانٍ على أنه بمعنى علمْتَ.

(٣) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فتعجَّبْ لتيسير الله ما لم يخطُر ببالِ أحدٍ حامداً له، أو فصلِّ له حامِداً على نعَمِه. روي أنه ﷺ لما دخلَ مكةَ بدأ بالمسجدِ فدخلَ الكعبةَ وصلى ثمانِ..........

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٧٦): «وهي مدنية بإجماع» هـ.

ركعاتٍ[١]، أو فنزِّهْهُ تعالى عما كانت الظلمةُ يقولون فيه حامداً له على أنْ صدقَ وعدَه، أو فأثْنِ على الله تعالى بصفاتِ الجلال حامداً له على صفاتِ الإكرام. ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ هضماً لنفسِك واستقصاراً لعملِك واستدراكاً لما فَرَطَ منك من الالتفاتِ إلى غيره. وعنه عليه الصلاة والسلام «إني لأستغفرُ اللهَ في اليوم والليلة مائةَ مرةٍ»[٢]. وقيل استغفِره لأُمَّتِك. وتقديمُ التسبيح على الحمدِ ثم الحمدِ على الاستغفارِ على طريق النزولِ من الخالقِ إلى الخلقِ، كما قيل ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتَ الله قبلَه. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ لمنِ استغفرهُ مذ خلَقَ المكلَّفينَ، والأكثرُ على أنَّ السورةَ نزلتْ قبلَ فتح مكةَ، وأنه نُعِيَ لرسول الله ﷺ لأنه لما قرأها بكَى العباسُ رضي الله عنه، فقال عليه الصلاة والسلام «ما يبكيكَ»؟ فقال: نُعِيَتْ إليك نفسُك، فقال «إنها لَكَمَا تقولُ»[٣]، ولعلَّ ذلك لدلالَتِهَا على تمامِ الدعوةِ وكمالِ أمرِ الدينِ فهي كقوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٤] أو لأنَّ الأمر بالاستغفارِ تنبيهٌ على دنوِّ الأجلِ، ولهذا سمِّيتْ سورةَ التوديعِ. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورةَ إذا جاء أُعْطِيَ من الأجرِ كَمَنْ شهدَ مع محمدٍ عليه الصلاة والسلام يومَ فتحِ مكَّةَ شرَّفَها الله تعالى»[٥].

☆ ☆ ☆

(١) أخرج البخاري (١/ ٤٦٩ رقم ٣٥٧) ومسلم (١/ ٤٩٨ رقم ٣٣٦) ومالك في «الموطأ» (١/ ١٥٢) والبغوي في «شرح السنة» (١١/ ٨٩) وفي «معالم التنزيل» (٨/ ٥٧٥). عن أم هانىء قالت: ذهبتُ إلى رسولِ الله ﷺ عامَ الفتح فوجدتُه يغتسلُ وفاطمةُ ابنتُه تستره. قالت: فسلمت عليه فقالَ: من هذا؟ فقلت: أنا أمُّ هانىء بنتُ أبي طالب، فقال: مرحباً بأمِّ هانىءِ. فلما فرغَ من غُسلِه قام فصلَّى ثمانَ ركعاتٍ مُلتحفاً في ثوبٍ واحدٍ. فلما انصرفَ قلتُ: يا رسولَ الله زعمَ ابنُ أمِّي أنه قاتلٌ رجلاً قد أجرْتُه فلان بنَ هُبيرةَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانىء» قالت أم هانىءِ: وذاكَ ضُحىً.

قلت: أما قوله: «لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى» لم أقف عليه وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٨٩ رقم ٣٨١): «لم أجده هكذا...».

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٥ رقم ٤١) عن الأغر المزني.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٨٩ رقم ٣٨٤): «ذكره الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه دون الكتاب» هـ.
قلت: مقاتل: كذاب، وفي السند إعضال.

(٤) المائدة: «٣».

(٥) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٩٠ رقم ٣٨٩) وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المَسَد

ترتيبها ١١١ آياتها ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾
وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

سورة تبت مكية(١)، وآيها خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَّتْ﴾ هلكتْ أو خسرتْ، والتَّبابُ خسرانٌ يؤدي إلى الهلاك. ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ نفسه كقوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾(٢) وقيل إنما خُصَّتا لأنه عليه الصلاة والسلام لما نزلَ عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(٣) جمعَ أقاربه فأنذرَهم فقال أبو لهبٍ: تبّاً لك أَلِهَذَا دعوتَنا، وأخذَ حجَراً ليرميَهُ به، فنزلتْ(٤). وقيل المرادُ بهما دنياهُ وأخراهُ، وإنما كنَّاه والتكنيةُ تكرمةٌ لاشتهارِهِ بكنيتِهِ ولأنَّ اسمَه عبدُ العزَّى فاستكرهَ ذِكْرَهُ، ولأنه لما كان من أصحاب النارِ كانت الكنيةُ أوفقَ بحاله، أو ليجانِسَ قولَه

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/٢٥٨): «وهي مكية بإجماعهم».
(٢) البقرة: «١٩٥».
(٣) الشعراء: «٢١٤».
(٤) أخرجه البخاري (٣/٢٥٩ رقم ١٣٩٤) و(٨/٥٠١ رقم ٤٧٧٠) و(٨/٥٣٩ رقم ٤٨٠١) و(٨/٧٣٧ ـ ٧٣٨ رقم ٤٩٧١ و٤٩٧٢ و٤٩٧٣).

﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وقرىء أبو لهبٍ كما قيل عليُّ بنُ أبو طالبٍ. ﴿وَتَبَّ﴾ إخبارٌ بعدَ دعاءٍ، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّقِ وقوعِه كقوله:

جَـزَانِـي جَـزَاهُ الله شَـرَّ جَـزَائِـهِ جَـزَاءَ الكِـلَابِ العـاوِيـاتِ وقَـدْ فعـل[1]

ويدلُّ عليه أنه قرىء وقد تبَّ أوِ الأولُ إخبارٌ عما كسبتْ يداهُ والثاني عن عملِ نفسِه.

(٢) ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾ نفيٌ لإغناءِ المالِ عنه حين نزلَ به التبابُ أو استفهامُ إنكارٍ له ومحلُّها النصبُ. ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ وكسْبُه أو مكسوبُه بمالِه من النتائجِ والأرباحِ والوجاهةِ والأتباعِ، أو عملُه الذي ظنَّ أنه ينفعه، أو ولدُه عتبةُ وقدِ افترسَه أسدٌ في طريقِ الشام وقد أحدقَ به العيرُ وماتَ أبو لهب بالعدَسةِ بعدَ وقعةِ بدرٍ بأيامٍ معدودةٍ، وتُرِكَ ثلاثاً حتى أنتنَ ثم استأجَروا بعضَ السودانِ حتى دفنوه، فهو إخبارٌ عن الغيبِ طابقه وقوعُه.

(٣) ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ اشتعالٍ يريدُ نارَ جهنَّم، وليس فيه ما يدلُّ على أنه لا يؤمن لجوازِ أنْ يكون صَلِيّها للفسقِ، وقرىء سيصلى بالضمِّ مخففاً وسيُصَلَّى مشدَّداً.

(٤) ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ عطفٌ على المستترِ في سيصْلَى أو مبتدأٌ وهي أمُّ جميل أختُ أبي سفيانَ. ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ يعني حطبَ جهنَّم فإنها كانت تحملُ الأوزارَ بمعاداةِ الرسول ﷺ وتحملُ زوجَها على إيذائه، أو اليميمةُ فإنها كانت توقدُ نارَ الخصومةِ، أو حزمةُ الشوكِ أو الحسكُ، فإنها كانت تحملُها فتنثرُها بالليل في طريق رسولِ الله ﷺ، وقرأ عاصمٌ بالنصبِ على الشتمِ.

(٥) ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ أي مما مُسِدَ أي فُتِلَ، ومنه رجلٌ ممسودُ الخلقِ أي مجدولُه، وهو ترشيحٌ للمجازِ أو تصويرٌ لها بصورةِ الحطابةِ التي تحملُ الحزمةَ وتربطُها في جيدِها تحقيراً لشأنها أو بياناً لحالها في نارِ جهنَّم حيث يكون على ظهرها حزمةٌ من حطبِ جهنَّم كالزقوم والضريعِ وفي جيدِها سلسلةٌ من النارِ، والظرفُ في موضعِ الحال أو الخبرِ وحبلٌ مرتفعٌ به. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورة تبَّت رجوتُ أن لا يجمعَ اللهُ بينه وبينَ أبي لهبٍ في دارٍ واحدةٍ»[2].

☆ ☆ ☆

(١) من الطويل.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٩٠ رقم ٣٩١).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الإخلاص

ترتيبها ١١٢ — آياتها ٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

سورة الإخلاص مختلف فيها[١]، وآيها أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضميرُ للشأنِ كقولك: هو زيدٌ منطلقٌ وارتفاعُه بالابتداءِ وخبرهُ الجملةُ ولا حاجةَ إلى العائد لأنها هي هو، أو لما سُئِلَ عنه أي الذي سألتموني عنه هو اللهُ، إذ رُوِيَ أنَّ قريشاً قالوا: يا محمدُ صِفْ لنا ربَّك الذي تدعونا إليه فنزلتْ[٢]. وأحدٌ بدلٌ أو خبرٌ ثانٍ يدلُّ على مجامعِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٨٢): «هذه السورة مكية، قاله مجاهد بخلاف عنه وعطاء وقتادة، وقال ابن عباس والقرطبي وأبو العالية هي مدنية».
وانظر «زائد المسير» (٩/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٣) وابن جرير (١٥/ج٣٠/ ٣٤٢) والواحدي في «الأسباب» (ص٤٧١) والترمذي (٥/ ٤٥١ رقم ٣٣٦٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٠) وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٢٣١) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٩٧ رقم ٦٦٣) من طريق أبي سعيد الصنعاني عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب به.
وقال الألباني: إسناده ضعيف. لسوء حفظ أبي جعفر الرازي. وأبو سعيد الخراساني هو محمد بن ميسر الجعفي الصاغاني البلخي الضرير ضعفه غير واحد، ولكنه قد توبع. . .».

صفاتِ الجلالِ كما دلَّ اللهُ على جميع صفاتِ الكمال إذ الواحدُ الحقيقيُّ ما يكونُ منزَّهَ الذاتِ عن أنحاءِ التركيبِ والتعدُّدِ، وما يستلزمُ أحدَهما كالجسميةِ والتحيُّزِ والمشاركةِ في الحقيقة وخَوَاصِّها كوجوبِ الوجودِ والقدرةِ الذاتيةِ والحكمةِ التامةِ المقتضية للألوهية. وقرىء هو الله بلا قلْ مع الاتفاقِ على أنه لا بدَّ منه في قل يا أيها الكافرون، ولا يجوزُ في تبَّتْ، ولعلَّ ذاك لأن سورةَ الكافرون مشاقةُ الرسولِ أو موادعتُه لهم وتبَّت معاتبةُ عمِّه فلا يناسبُ أنْ تكون منه، وأما هذا فتوحيدٌ يقول به تارةً ويُؤْمَرُ بأنْ يدعوَ إليه أخرى.

(٢) ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ ﴾ السيدُ المصمودُ إليه في الحوائج من صَمَدَ إليه إذا قَصَدَ، وهو الموصوف به على الإطلاق فإنه يستغني عن غيرِه مطلقاً، وكلُّ ما عداه محتاجٌ إليه في جميع جهاته، وتعريفُه لعلمِهم بصمديَّتِه بخلاف أحديَّته، وتكريرُ لفظةِ اللهِ للإشعار بأنَّ مَنْ لم يتصفْ به لم يستحقَّ الألوهيةَ، وإخلاءُ الجملةِ عن العاطفِ لأنها كالنتيجةِ للأُولى أو الدليلِ عليها.

(٣) ﴿ لَمْ يَـلِدْ ﴾ لأنه لم يجانسْ ولم يفتقرْ إلى ما يعينُه أو يخلُفُ عنه لامتناع الحاجةِ والفناءِ عليه، ولعلَّ الاقتصارَ على لفظِ الماضي لورودِهِ رداً على مَنْ قال الملائكةُ بناتُ الله، أَو المسيحُ ابنُ الله أو ليطابقَ قولَه: ﴿وَلَـمْ يُولَـدْ﴾ وذلك لأنه لا يفتقرُ إلى شيء ولا يسبقُه عدمٌ.

(٤) ﴿وَلَـمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَـدٌۢ﴾ أي ولم يكنْ أحدٌ يكافئه أو يماثلُه من صاحبةٍ أو غيرها، وكان أصلُه أنْ يؤخَّرَ الظرفُ لأنه صلةُ كفواً لكنْ لما كان المقصودُ نفيَ المكافأةِ عن ذاته تعالى قُدِّم تقديماً للأهمِّ، ويجوزُ أنْ يكونَ حالاً من المستكِنِّ في كفواً أو خبراً، ويكونُ كفواً حالاً من أحدٍ، ولعلَّ ربطَ الجملِ الثلاثِ بالعطفِ لأنَّ المرادَ منها نفيُ أقسامِ المكافأة فهي كجملةٍ واحدة منبهةٍ عليها بالجملِ، وقرأ حمزةُ ويعقوبُ ونافع في رواية كفؤاً بالتخفيفِ، وحفصٌ كفُواً بالحركةِ وقلبِ الهمزةِ واواً، ولاشتمالِ هذه السورِ مع قِصَرِها على جميعِ المعارف الإلهية والردِّ على من ألحدَ فيها جاء في الحديث أنها تعدلُ ثلثَ القرآن[١]. فإنَّ مقاصِدَه محصورةٌ في بيانِ العقائد والأحكامِ والقصصِ ومَنْ عدَلَها بكلِّه اعتبرَ المقصودَ بالذاتِ من ذلك. وعنه ﷺ، أنه سمعَ رجلاً يقرؤها فقال «وجبتْ» قيل يا رسول الله وما وجبتْ؟ قال: «وجبتْ له الجنةُ»[٢].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه مالك (١/٢٠٨ رقم ١٧) وأحمد (٣/٣٥، ٤٣) والبخاري (٩/٥٨ ـ ٥٩ رقم ٥٠١٣) و(١١/٥٢٥ رقم ٦٦٤٣) و(١٣/٣٤٧ رقم ٧٣٧٤) وأبو داود (٢/١٥٢ رقم ١٤٦١) والنسائي (٢/١٧١ رقم ٩٩٥) عن أبي سعيد الخدري به.

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه مالك (١/٢٠٨ رقم ١٨) والترمذي (٥/١٦٧ رقم ٢٨٩٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٧٠٢) وفي السنن (٢/١٧١) وفي التفسير رقم (٧٣٥). وصححه الحاكم في المستدرك (١/٥٦٦) ووافقه الذهبي والبغوي في «التفسير» (٨/٥٨٩ ـ ٥٩٠) وفي «شرح السنة» (٤/٤٧٦ ـ ٤٧٧).
وللحديث شواهد انظر في «تفسير النسائي» (٢/٥٧١).

سُورَةُ الفَلَق

ترتيبها ١١٣ — آياتها ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سورة الفلق مختلف فيها[١]، وآيها خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ما يُفلَقُ عنه أي يفرقُ كالفرقِ فَعَلٌ بمعنى مفعولٍ، وهو يعمُّ جميعَ الممكِناتِ فإنه تعالى فلقَ ظلمةَ العدمِ بنور الإيجادِ عنها، سيَّما ما يخرجُ من أصلٍ كالعيون والأمطارِ والنباتِ والأولادِ، ويختصُّ عرفاً بالصبحِ ولذلك فُسِّرَ به. وتخصيصُه لما فيه من تغيُّر الحالِ وتبدُّلِ وحشةِ الليلِ بسرورِ النور ومحاكاةِ فاتحةِ يومِ القيامة والإشعارِ بأنَّ مَنْ قدرَ أنْ يزيلَ به ظلمةَ الليل عن هذا العالمِ قدرَ أنْ يزيلَ عن العائذِ به ما يخافُه، ولفظُ الربِّ هنا أوقعُ من سائرِ أسمائه تعالى لأنَّ الإعاذةَ من المضارِّ تربيةٌ.

(٢) ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ خصَّ عالمَ الخلْقِ بالاستعاذة عنه لانحصارِ الشرفية، فإنَّ عالم الأمرِ خيرٌ

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/ ٢٧٠): «وفيها قولان:
(أحدهما): مدنية، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة في آخرين.
(والثاني): مكية، رواه كريب عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعطاء وعكرمة، وجابر.
والأول أصح. ويدل عليه أن رسول الله ﷺ سحر وهو مع عائشة فنزلت عليه المعوذتان» هـ.

كلِّه، وشرُّه اختياري لازمٌ ومتعدٍّ كالكفرِ والظلمِ، وطبيعيٌّ كإحراقِ النارِ وإهلاكِ السمومِ.

(٣) ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ ليلٍ عظيمٍ ظلامُه من قوله ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾[(١)] وأصلُه الامتلاءُ يقال غسقتِ العينُ إذا امتلأتْ دمعاً. وقيل السيلانُ وغسقُ الليلِ انصبابُ ظلامِه وغسقُ العين سيلانُ دمعِه. ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ دخلَ ظلامُه في كلِّ شيء. وتخصيصُه لأنَّ المضارَّ فيه تكثُر ويعسُر الدفعُ، ولذلك قيل الليلُ أخفَى للويلِ. وقيل المرادُ به القمرُ فإنه يكسفُ فيغسقُ ووقوبُه دخولُه في الكسوفِ.

(٤) ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلۡعُقَدِ ﴾ ومن شرِّ النفوس أو النساءِ السواحرِ اللاتي يعقدْنَ عقداً في خيوط وينفُثْنَ عليها. والنفثُ النفخُ مع ريقٍ، وتخصيصُه لما رُوِيَ أنَّ يهودياً سحرَ النبيَّ ﷺ في إحدى عشرةَ عقدةً في وَتَرٍ دسَّه في بئرٍ، فمرضَ النبيُّ ﷺ ونزلتِ المعوِّذتانِ، وأخبره جبريلُ عليه الصلاة والسلام بموضعِ السحرِ فأرسل علياً رضي الله تعالى عنه فجاء به فقرأهما عليه، فكان كلّما قرأ آيةً انحلَّت عقدةٌ ووجدَ بعضَ الخفةِ[(٢)]، ولا يوجبُ ذلك صدقَ الكفرةِ في أنه مسحورٌ، لأنهم أرادوا به أنه مجنونٌ بواسطة السحرِ. وقيل المرادُ بالنفثِ في العقدِ إبطالُ عزائمِ الرجال بالحيلِ مستعارٌ من تليينِ العقدِ بنفثِ الريقِ ليسهلَ حلُّها وإفرادُها بالتعريف لأنَّ كلَّ نفاثةٍ شريرةٌ بِخِلافِ كلِّ غاسق وحاسدٍ.

(٥) ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ إذا أظهرَ حسدَه وعملَ بمقتضاهُ، فإنه لا يعودُ ضررٌ منه قبلَ ذلك إلى المحسود بل يُخَصُّ به لاغتمامِه بسرورِه، وتخصيصُه لأنه العُمْدَةُ في إضرار الإنسانِ بل الحيوانِ غيرَه. ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالغاسقِ ما يخلُو عن النور وما يضاهيه كالقوى، وبالنفاثاتِ النباتاتُ فإنَّ قُواها النباتيةَ من حيثُ إنها تزيدُ في طولها وعرضِها وعُمْقِها كانت تنفثُ في العقدِ الثلاثةِ، وبالحاسدِ الحيوانُ فإنه إنما يقصدُ غيْرَهُ غالباً طمعاً فيما عنده، ولعلَّ إفرادَها من عالم الخلْقِ لأنها الأسبابُ القريبةُ للمضرَّة.

عن النبيِّ ﷺ «لقد أُنزِلَتْ عليَّ سورتانِ ما أُنْزِلَ مثلُهما وإنك لن تقرأ سورتين أحبَّ ولا أرضى عند الله منهما» يعني المعوذتينِ[(٣)].

☆ ☆ ☆

---

(١) الإسراء: «٧٨».

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦١٤ ـ ٦١٥) عن الثعلبي ثم قال: «هكذا أورده به وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم والله أعلم» هـ.

(٣) وهو مؤلف من حدثين:
(الأول): أخرجه مسلم (١/ ٥٥٨ رقم ٢٦٥/ ٨١٤) عن عقبة بن عامر قال: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «أُنْزِلَ أو أُنزِلَتْ عليَّ آياتٌ لم يُرَ مثلهنَّ قطُّ المعوذتين».
(والثاني): ● أخرج ابن حبان في «صحيحه» (رقم: ٧٩٥) عن عقبة بن عامر. . .
فذكر نحوه، إلا أنه قال: «إنك لن تقرأ شيئاً أبلغَ عند الله من «قل أعوذُ برب الفلق» وهو حديث صحيح.
● وأخرج ابن حبان في «صحيحه» (رقم: ٧٩٦) عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ يا جَابرُ» فقلت: بأبي وأمي، ما أقرأ؟ قال: «اقرأ: «قل أعوذ برب الفلق»، و«قل أعوذ برب الناس»» فقرأتهما، فقال النبيُّ ﷺ: «اقرأ بهما، فلن تقرأ بمثلهما» وهو حديث حسن.

سُورَةُ النَّاسِ

ترتيبها ١١٤		آياتها ٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ
ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦

سورة الناس مختلف فيها[1]، وآيها ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وقرىء في السورتين بحذفِ الهمزة ونقلِ حركتها إلى اللام. ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ لما كانتِ الاستعاذةُ في السورة المتقدمةِ من المضارِّ البدنية وهي تعمُّ الإنسانَ وغيره والاستعاذةُ في هذه السورة من الأضرارِ التي تعرضُ للنفوسِ البشرية وتخصُّها، عمَّمَ الإضافةَ ثمَّ وخصَّصَها بالناس ها هنا فكأنه قيل: أعوذ من شرِّ الموسوِس إلى الناس بربِّهم الذي يملك أمورَهم ويستحقُّ عبادتَهم.

(٢) ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾.

(٣) ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ عطفا بيانٍ له فإنَّ الربَّ قد لا يكون ملكاً والملكُ قد لا يكون إلهاً، وفي هذا النظمِ دلالةٌ على أنه حقيقٌ بالإعاذة قادر عليها غيرُ ممنوعٍ عنها وإشعارٌ على مراتب الناظرِ في المعارف فإنه يعلمُ أولاً بما يرى عليه من النعم الظاهرةِ والباطنةِ أن له رباً، ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقَّقَ أنه

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٦/ ٣٨٨): قال ابن عباس وغيره: هي مدنية. وقال قتادة: هي مكية. وانظر «زاد المسير» (٩/ ٢٧٧).

غنيٌّ عن الكلِّ وذاتُ كلِّ شيءٍ له ومصارفُ أمرِهِ منه، فهو الملك الحقُّ، ثم يستدلُّ به على أنه المستحقُّ للعبادة لا غيرُ، وتندرج في وجوه الاستعاذةِ كما يُتدرجُ في الاستعاذة المعتادةِ تنزيلاً لاختلافِ الصفات منزلةَ اختلافِ الذاتِ إشعاراً بعظمِ الآفة المستعاذِ منها، وتكريرُ الناس لما في الإظهارِ من مزيد البيانِ والإشعارِ بشرفِ الإنسان.

(٤) ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أي الوسوسةِ كالزلزالِ بمعنى الزلزلةِ، وأما المصدرُ فبالكسر كالزلزالِ، والمرادُ به الموسوسُ وسمِّي بفعله مبالغةً. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادتُه أنْ يخنسَ أي يتأخَّر إذا ذَكَرَ الإنسانُ ربَّه.

(٥) ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ إذا غفلُوا عن ذكرِ ربِّهم، وذلك كالقوة الوهميةِ فإنها تساعدُ العقلَ في المقدماتِ، فإذا آلَ الأمرُ إلى النتيجةِ خنستْ وأخذتْ توسوسهُ وتشكِّكُهُ. ومحلُّ الذي الجرُّ على الصفةِ أو النصبُ أو الرفعُ على الذمِّ.

(٦) ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيانٌ للوسواسِ، أو الذي أو متعلِّقٌ بيوسوسُ أي يوسوسُ في صدورهم من جهة الجنةِ والناسِ. وقيل بيانٌ للناسِ على أنَّ المرادَ به ما يعمُّ الثقلينِ، وفيه تعسُّفٌ إلا أنْ يُرَادَ به الناسي كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾[1] فإنَّ نسيانَ حقِّ الله تعالى يعمُّ الثقلينِ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأَ المعوِّذتين فكأنما قرأَ الكتبَ التي أنزلها اللهُ تبارك وتعالى»[2].

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وقدِ اتفقَ إتمامُ تعليقِ سوادِ هذا الكتاب المنطوي على فرائد فوائد ذوي الألباب، المشتملِ على خلاصةِ أقوالِ أكابرِ الأئمةِ وصفوةِ آراءِ أعلامِ الأمةِ، في تفسير القرآن وتحقيقِ معانيه، والكشفِ عن عُوَيْصَاتِ ألفاظه ومعجزاتِ مبانيه، مع الإيجازِ الخالي عن الإخلالِ، والتلخيصِ العاري عن الإضلال، الموسومِ بأنوار التنزيل وأسرارِ التأويل، وأسأل اللهَ تعالى أن يتمِّمَ نفعَه للطلابِ، ولا يخلي سعيَ مَنْ يتعبُ فيه من الأجر والثواب، ويختم كلَّ خاتمةِ امرىءٍ يؤمُّه بتمحيصٍ عن الآثام ويبلغني أعلى منازلِ دارِ السلام، في جوار العلِّيِّينَ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسُنَ أولئك رفيقاً وهو سبحانه حقيقٌ بأن يحقِّقَ رجاءَ الراجينَ تحقيقاً، والحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلْقِه محمدٍ وآله وصحبه الطيبينَ الطاهرينَ وأتباعِهم أجمعينَ.

☆ ☆ ☆

---

(١) القمر: ٦.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب، وقد مضى غير مرة أنها واهنة، وأن الحديث المرفوع في ذلك موضوع والله تعالى أعلم كما في «الكافي الشاف» (ص١٩٠ رقم ٣٩٨).

فهرس السور

اسم السورة	رقم الصفحة
تفسير سورة القصص	٥
تفسير سورة العنكبوت	٢٨
تفسير سورة الروم	٤٤
تفسير سورة لقمان	٥٩
تفسير سورة السجدة	٦٩
تفسير سورة الأحزاب	٧٦
تفسيرة سورة سبأ	٩٩
تفسير سورة فاطر	١١٤
تفسير سورة يٓس	١٢٦
تفسير سورة الصافات	١٤٢
تفسير سورة ص	١٦٤
تفسير سورة الزمر	١٨١
تفسير سورة غافر	٢٠٠
تفسير سورة فصلت	٢١٩
تفسير سورة الشورى	٢٣١
تفسير سورة الزخرف	٢٤٤
تفسير سورة الدخان	٢٥٩
تفسير سورة الجاثية	٢٦٧
تفسير سورة الأحقاف	٢٧٤
تفسير سورة محمد	٢٨٤
تفسير سورة الفتح	٢٩٣
تفسير سورة الحجرات	٣٠٣
تفسير سورة قٓ	٣١٢
تفسير سورة الذاريات	٣٢٠

تفسير سورة الطور ٣٢٨
تفسير سورة النجم ٣٣٥
تفسير سورة القمر ٣٤٤
تفسير سورة الرحمن ٣٥١
تفسير سورة الواقعة ٣٦٠
تفسير سورة الحديد ٣٧٠
تفسير سورة المجادلة ٣٧٩
تفسير سورة الحشر ٣٨٧
تفسير سورة الممتحنة ٣٩٥
تفسير سورة الصف ٤٠٠
تفسير سورة الجمعة ٤٠٤
تفسير سورة المنافقون ٤٠٧
تفسير سورة التغابن ٤١٠
تفسير سورة الطلاق ٤١٤
تفسير سورة التحريم ٤١٩
تفسير سورة الملك ٤٢٤
تفسير سورة القلم ٤٣١
تفسير سورة الحاقة ٤٣٩
تفسير سورة المعارج ٤٤٥
تفسير سورة نوح ٤٥٠
تفسير سورة الجن ٤٥٤
تفسير سورة المزمل ٤٥٩
تفسير سورة المدثر ٤٦٤
تفسير سورة القيامة ٤٧١
تفسير سورة الإنسان ٤٧٦
تفسير سورة المرسلات ٤٨٢
تفسير سورة النبأ ٤٨٧
تفسير سورة النازعات ٤٩٣
تفسير سورة عبس ٤٩٨
تفسير سورة التكوير ٥٠٢
تفسير سورة الانفطار ٥٠٦
تفسير سورة المطففين ٥٠٩
تفسير سورة الانشقاق ٥١٤

تفسير سورة البروج ٥١٧
تفسير سورة الطارق ٥٢١
تفسير سورة الأعلى ٥٢٣
تفسير سورة الغاشية ٥٢٦
تفسير سورة الفجر ٥٢٩
تفسير سورة البلد ٥٣٤
تفسير سورة الشمس ٥٣٧
تفسير سورة الليل ٥٤٠
تفسير سورة الضحى ٥٤٣
تفسير سورة الشرح ٥٤٥
تفسير سورة التين ٥٤٨
تفسير سورة العلق ٥٥٠
تفسير سورة القدر ٥٥٤
تفسير سورة البينة ٥٥٦
تفسير سورة الزلزلة ٥٥٨
تفسير سورة العاديات ٥٦٠
تفسير سورة القارعة ٥٦٢
تفسير سورة التكاثر ٥٦٤
تفسير سورة العصر ٥٦٦
تفسير سورة الهُمَزَة ٥٦٧
تفسير سورة الفيل ٥٦٩
تفسير سورة قريش ٥٧١
تفسير سورة الماعون ٥٧٣
تفسير سورة الكوثر ٥٧٥
تفسير سورة الكافرون ٥٧٧
تفسير سورة النصر ٥٧٩
تفسير سورة المسد ٥٨١
تفسير سورة الإخلاص ٥٨٣
تفسير سورة الفلق ٥٨٥
تفسير سورة الناس ٥٨٧ ـ ٥٨٨

☆ ☆ ☆

فهرس الأجزاء

سورة القصص جـ/ ٢٠/	٥
سورة العنكبوت جـ/ ٢١/	٣٩
سورة الأحزاب جـ/ ٢٢/	٨٥
سورة يّس جـ/ ٢٣/	١٣١
سورة الزمر جـ/ ٢٤/	١٨٩
سورة فصلت جـ/ ٢٥/	٢٢٨
سورة الأحقاف جـ/ ٢٦/	٢٧٤
سورة الذاريات جـ/ ٢٧/	٣٢٣
سورة المجادلة جـ/ ٢٨/	٣٧٩
سورة الملك جـ/ ٢٩/	٤٢٤
سورة النبأ جـ/ ٣٠/	٤٨٧ ـ ٥٨٨

☆ ☆ ☆